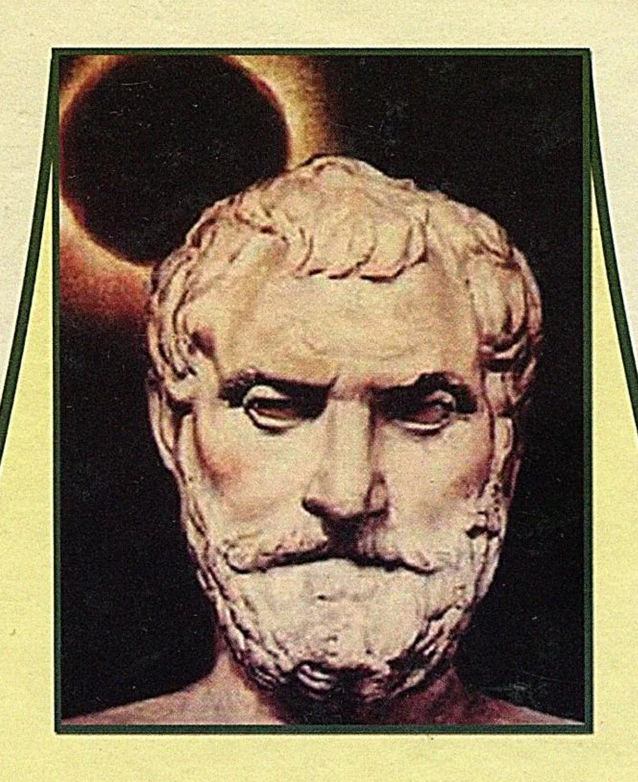
بلوتارك «فلوطرخوس»

تاريخ

أباطرة وفلاسفة الإغريق



المجلد الأول

علي مولا

الدار العربية للموسوعات


الدار العربية للموسوعات


الدار العربية للموسوعات

تاريخ
أباطرة وفلاسفة الإغريق

تاريخ
أباطرة وفلاسفة الإغريق

بلوتارك «فلوطرخوس»

ترجمة

جرجيس فتح الله

المجلد الأول

الدار العربية للموسوعات

الطبعة الأولى

٢٠١٠م - ١٤٣٠هـ



الدار العربية للموسوعات

الحازمية - مفرق جسر الباشا - سنتر عكاوي - ط1 - بيروت - لبنان

ص.ب: 511 الحازمية - هاتف: 952594 5 00961 - فاكس: 459982 5 00961

هاتف نقال: 388363 3 00961 - 525066 3 00961 - بيروت - لبنان

الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

---

مؤسسها ومديرها العام: خالد العاني

فهرس

محتويات المجلدات الثلاثة

المجلد الأول

المجلد الثاني

المجلد الثالث

توطئة

إن المجموعة الشهيرة جداً باسم «سير پلوتارخ»، ليست كما تركها لنا المؤلف لا من حيث الشكل ولا من حيث الترتيب. ففي المؤلف الأصلي دونت السير في سلسلةٍ من الكتب، وكل كتاب يتضمن سيرة يونانية واحدة تقابلها سير رومانية، وتلحق بهما دراسة مقارنة. وقد أُضيف الى هذا تراجم سير اشخاص مختلفة لم توضع موضع مقارنة. ولَعلَّ «اوتو Otho وگالبا Galba» ينتميان الى سلسلة من الأباطرة الرومان تبتديء «باغسطس Augustus» وتختتم «بڤيتيلليوس Vitellius. وأمّا سيرتا «ارتحششتا Artaxerxes» و«اراتوس Ara- tus» السياسيين، فكلتاهما سيرة منفصلة، كسير الآخرين الذين قيل لنا أنهم وجدوا وعاشوا، مثل [هرقل Hercules وارسطومينيس Aristomenes، وهسيود Hesiod، وپندار Pindar، ودايفانطس Daiphantus، وقراطس Crates، الهجاء، واراطواس Aratus الشاعر].

وفي السير المتعاصرة نفسها، ثغراتٌ، فثم كتاب يشمل سيرتي «إپامينداس Epaminon- das وسكيپيو Scipio» الأصغر فقط. اذ لايوجد مقارنات كثيرة، وهي إمّا مفقودة، او لم تكتب. وسيلحظ القاريء ان التنويهات التي يذكرها المؤلف هنا وهناك عن السير التي ستتلو أو تلت تدلّ بأن ترتيبها في الأساس يختلف عن الترتيب الحاضر. مثال ذلك انك تجد حين تفتح الصفحة الأولى من هذا الكتاب، ذكراً لحياة «ليكورغوس ونوما» في سيرة «ثيسيوس» على اساس كونهما مدونتين سابقاً.

وفي امكاننا ان نعرض وقائع حياة (پلوتارخ) البسيطة بفذلكة مختصرة جداً. ويرجح انه ولد في عهد «كلوديوس Claudius» في حدود العام ٤٥ أو ٥٠ ميلادية. ومسقط رأسه مدينة [خيرونيا Chaeronea] في بويوتيا Boeotia حيث استقرت اسرته قبل زمن طويل، ونالت مكانة طيبة وسمعة حميدة. درس في اثينا متتلمذا على الفيلسوف امونيوس Am- monius وزار مصر وقضى في روما ردحاً من الزمن مبعوثاً في «مهمة رسمية» لعلها كانت

بعثة دبلوماسية من خيرونيا في حدود العام ٩٠م. وبقي فيها مدة طويلة اتسعت لالقاء دروس اثارت اهتماماً عاماً. ولسنا ندري هل زار ايطاليا مرة واحدة فقط أم عدة مرات.

ووصل حبل الودّ بـ«سوسيوس سينشيو Sosins Senecio وهو كما تؤمي كل الدلائل «سوسيوس» الذي تقلد منصب القنصل اربع مرات. ولعل علاقتهما هذه نشأت في روما حينما كان [سوسيوس] أصغر سناً منه بكثير[١]. ولعله تعرف به اول الامر اثناء القائه دروسه أو لعلهما تعارفا في اليونان. وعاد الى خيرونيا واليونان، ويبدو انه قضى البقية الباقية في حياته في تلك المدينة الصغيرة التي كان يكره «تقليص حجمها بنزوح ولو ساكن واحدٍ من سكانها عنها». وساهم في شؤون المدينة وضواحيها ونُصب «ارخوناً»[٢] على المدينة وقام بأعباء الكهانة لابوللو في دلفي عدة سنين كما يبدو.

وكان متزوجاً وأباً لما لا يقل عن خمسة أولاد، منهم ابنان على أقل تقدير بلغا مبلغ الرجولة. وأعظم ما كتب هو مجموعة سيره هذه، يليها عدد من الكتب ألفها في الفترة الأخيرة من حياته على عهد (تراجان)، ومن المشكوك فيه انه ادرك (هادريان)، وان نحن اتخذنا العام ٤٥م تاريخاً محتملاً لميلاده، فإن العام ١٢٠م الموافق للسنة الرابعة من حكم هادريان يكون أقرب تاريخ محتملٍ لوفاته على سبيل الافتراض، وما هو أكيد عندنا انه عاش عمراً مديداً، وانه وصف نفسه في احدى محاوراته الخيالية بالشاب اليافع يناقش في الفلسفة مع [آمونيوس] ايام زيارة نيرون بلاد اليونان العام ٦٦-٦٧م. وانه كان حيّاً ناشط القلم والفكر على وجه التحقيق في الشتاء الذي عبر به تراجان الى (داقيا) بعد ان بنى جسراً على نهر الدانوب. وهو يقول في رسالته [عن مبدأ البرد] «لقد انبأنا اولئك الذين يشتّون الآن مع الامبراطور على الدانوب ان انجماد الماء سيؤدي الى تحطم السفن تحطيماً».

★★★

ويمكن إضافة بعض الأسماء والوقائع مستمدةً من كتاباته، زيادة على ما ذكرناه. وليس لنا في هذا المجال ألاّ الإعتماد الكليّ على تلك الوقائع المقتضبة نفسها. فلدينا حكايات واستطرادات في السير، وفي تأليفه ومقالاته ومحاوراته واحاديث مائدته وغيرها من تصانيفه، وهي تزودّ القريحة بمادة منوعة لمختلف الاستنتاجات الطريفة والغريبة.

---

(١) إلاّ اذا أخذت عبارة المؤلف «اولادي زملاؤك» مأخذ التندر والتفكهة.

(٢) Archon: واحد في الحكام التسعة الكبار في اثينا القديمة. وفي الأيام الأخيرة اصبح يطلق على رئيس بلدية اي مدينة يونانية. او حاكمها. او قاضيها.

ذكر (نيكارخوس Nicarchus) جَدّ ابيه عرضاً في سيرة «انطوني» اذ قال: «كان والد حَدّي يقص كيف سُخرّ اهل خيرونيا في حرب انطوني الأخيرة لنقل القمح الى ساحل خليج (كورنشا) وكان قد خصص لكل منهم حِملٌ معين الوزن، والجنود يحتاطونهم ويحتثونهم بالسياط...» وبعد أن كملت اول نقلة، واكتيلت النقلة الثانية لهم، وصلت ابناء هزيمة [اكتيوم Actium][٣]. وورد ذكر جدة [لامبرياس Lamprias] ايضاً في السيرة نفسها. بصدد سماعه قصة من [فيلوطاس Philotas] الطبيب، عن حياة البذخ والإسراف التي كان «انطوني» يعيشها في مصر. وتحدث عن والده أكثر من مرةٍ في آثاره الأخرى الصغرى دون ذكر اسمه. ويظهر اسم «امونيوس» استاذه ومثقفه الأثيني، عدة مرات في آثاره الصغرى. ونوه به مرة واحدة في هذه السير، تنويهاً خاصاً عندما ذكر ان سليلاً لتيمستوكلس تتلمذ معه على آمونيوس. ونجد ذكراً لتسنم هذا الفيلسوف منصب السِتراتيجوس Strategus[٤] في اثينا ثلاث دفعات[٥] وهو منصب هامٌ جداً في مجرى التاريخ العالمي، واشبه بمنصب «البيوطارخيين في بويوتيا» ظلّ يسند الى المواطنين المحلبين طوال عهد الامبراطورية، ويستنتج من الرسالة الصغيرة الموسومة «في مبادئ السياسة» ان احد المناصب العليا المرتبطة بالوالي الروماني. ويحدثنا بلوتارخ «مرةً، لحظ معلمنا امونيوس اثناء درس ما بعد الظهر أن بعض مستمعيه كانوا قد افرطوا كثيراً في تناول طعام الفطور فأمرَ بمحضر منا أن ينزل عقابٌ بابنه لأن الشاب كما قال، أبى أن يتناول فطوره الا مع خمرةٍ مَزّة. واخذ في الوقت نفسه ينظر شزراً الى أفراد الصف المدنيين».

والحكاية التالية كأنها تعود الى فترةٍ متأخرةً بعض الشيء عن فترة دراسته في آثينا قال: «اذكر عندما كنت انا نفسي شاباً، أني اوفدت مع شخص آخر في مهمةٍ عامة الى البروقنصل Proconsul[٦] واتفق ان وقع لزميلي ما اعاقه عن اكمال الرحلة فخلفته ورائي ومضيت

---

(٣) لايوجد على اية حال سبب اكيد يدفعنا للقول بان پلوتارخ. يتذكر مشاهدته والد جده وسماعه منه هذه الحكاية.

(٤) في اثينا القديمة يعتبر المنصب بمعادلة قائد الجيش، أو يكون صاحبه واحداً من أعضاء مجلس العشرة الأعلى المنتخب سنوياً فيها.

(٥) وهذا ما يثير بغض الشك حول الرواية اثبتها المؤرخ البيزنطي [يونابيوس] التي قد لا تتناقض معها تناقضاً تاماً. وهي «ان امونيوس معلم پلوتارخ الالهي، كان مصرياً...». ومن المؤكد أنّ پلوتارخ كان على معرفة تامة بالحكمة اليونانية المصرية، انظر رسالته الى السيدة المثقفة [كليا Clea] عن «ايزيس وازويرس»، ولعله مكث مدة طويلة في الاسكندرية ودرس هناك كثيراً.

(٦) في النظام الروماني هو حاكم ولاية رومانية. وفي عهد الامبراطورية هو حاكم اقليم سناتوري (أي تابع لمجلس الشيوخ).

لانجاز المهمة وحدي ثم عدتُ وفيما كنت أقدم حساباً عنها واسلّم مأموريتي الى المجلس، نهض ابي وأسرّ إليّ بأن أحاذر كلمة «ذهبتُ» و«قلتُ» واتكلم بصيغة المثنى، وأحافظ على سهم زميلي من المهمة في سائر تقريري».

ولا نعرف شيئاً عن زيارته ايطاليا واقامته فيها، أكثر من روايته في سيرة [ديموستينس]. وان مهام الوظيفة التي كان يتقلدها، والزوار الذين يقصدونه للجدال الفلسفي كان يستنفد كثيراً من وقته فلم يتسن له آنذاك ان يلّم الماماً كافياً باللغة اللاتينية. ولا نشك في انه رحل كثيراً فقد قال انه شاهد تمثال ماريوس او تمثاله النصفي في (راقنا)، اثناء ايراده سيرة (ماريوس). ويحدثنا في مقولته «عن الحبّ الأخوي» انه كلف اثناء وجوده في رومابمهمة التحكيم في نزاع نشأ بين أخوين يُعد احدهما من عشاق الفلسفه «إلاّ انه لم يكن يستأهل صفة الفيلسوف ولا صفة الأخ قلت له اني لأتوقع منه مسلك فيلسوف تجاه من هو قبل كل شيء عادي، لا يفخر بالعلم بالفلسفة، وهو بالدرجة الثانية أخ له، أجابني قائلاً: اما عن النقطة الأولى فلا اراك فيها إلاّ مصيباً. إلاّ اني لا أعلق أهمية كبيرة على ولادة شخصي نتيجة اتصال زوجٍ من الاجسام. ويستنكر پلوتارخ طبعاً هذا القول الكافر الشنيع ويؤنب صاحبه. وثم حكاية أطرف من هذه، اوردها في رسالته عن «حب الاستطلاع»... فمن الوصايا الأخرى لاجتناب الخطأ، أو البرء منه «علينا ان نعود انفسنا عندما يؤتى لنا بالرسائل ألاّ نبادر الى فتحها بعجلة، وألاّ نقطع خيوطها باسناننا، كما يفصل الكثيرون عندما يعجزون عن حلها بأيديهم وألاّ نخفّ الى السعادة مسرعين، اذا رأيناهم مقبلين، والاّ نقفز عندما يقول صديق أن لديه نبأ طريفاً، أو خصوصاً ان كان عنده نصيحة مفيدة يقدمها لنا. ومرة عندما كنتُ ألقي درساً في (رومه) كان من بين مستمعيّ [روسيتكوس Rusticus] الذي بطش به [دوميتيان Domition] فيما بعد غيرةً من شهرته وحسداً لسمعته. كنت مستمراً في الكلام عندما دخل جندي يحمل اليه رسالة من الامبراطور فسكن الجميع، وتوقفتُ لأدع له مجالاً لقراءة الرسالة فلم يفعل، وانما القاها بعيداً عنه حتى فرغت من درسي، وانصرف المستمعون. هذا مثل على السلوك الرزين الجدير باثارة منتهى الإعجاب».

كان [ل. يونيوس ارولينوس روسيتكوس L. Junius Aralenus Rusticus] صديق [پليني Pliny وتاكيتوس Tacitus] الخالد المجد بين شهداء الرواقيين الذين دونت اسماؤهم في معرض سيرة «اغريكولا Agricola»، كان في مطلع شبابه تلميذا شديد التشيع [لثراسيا پايتوس Thrasea Paetus]. وعندما فرض نيرون حكم الموت على [پايتوس] هذا، وكان مجلس الشيوخ يوشك على ابرام الحكم بالادانة، اندفع روستيكوس بغيض دفاق من عاطفته،

مستعملاً حق الاعتراض (الفيتو) وهو حق ما زال آنذاك مرتبطاً شكلاً بمنصب التريبيون -Trib une[٧] الذي كان يتقلده وقتذاك. ولم يفلح معلمه في منعه من التظاهر بما كان سيؤدي به قبل ان يحين أجله - الى اضافة اسمه الى القائمة الضحايا الاماجد. كتب هذا سيرة لحياة (ثراسيا) بعد ممارسته مهام منصب البريتور[٨] في أثناء الحروب الاهلية التي عقبت موت نيرون، مثلما كتب [سينشيو Senecio] سيرة [هلفيديوس Helviduis] ودوّن [تاكيتوس] تاريخاً لحياة [اغريكولا] على ارجح الروايات. وكانت لغة [روسيتكوس] صريحة جريئة بحيث سببت موته. ومن المعلمين الذين تلقى الشاب ماركوس اوريليوس Marcus Aurillius علومه عليهم نقرأ اسم «اورلينوس روسيتكوس» الذي قد يكون حفيداً لروسيتكوس السالف ذكره، ومعه نجد اسم [سكستوس Sixtus] الخيروني ابن أخ بلوتارخ الذي يقول الامبراطور الألمعي الفيلسوف عنه «لقد علمني بمثال نفسه، الاخلاق الحميدة والحكمة العادلة التي كان ما يفتأ يوصي بها» وظلّ الامبراطور يختلف الى منزله متتلمذاً عليه برغبةٍ لم تضعف قط.

ولايستنتج طبعاً من العبارة التي صيغت بها الرواية انها وقعت ايام «دوميتيان» وان بلوتارخ يشير الى رسالة دوميتيان فيها. على ان وجوده في روما ايام حكم هذا الامبراطور أو بعده يبدو مرجحاً بسبب اللهجة التي يتكلم بها عن العظمة السخيفة لقصور دوميتيان وغيرها من المباني الامبراطورية.

وكثيراً ما ينوه بلوتارخ باسم أخويه «تيمون Timon» ولامبرياس Lamprias» في مقولاته ومحاوراته، ويبدو انهما كانا تلميذين لامونيوس أيضاً وانك لتجد العبارة التالية في رسالته «الحبّ بين الأخوة»، يقول بلوتارخ «واما عن نفسي أنا، فمن النعم التي اشكر حظيّ الحسن عليها هي محبة تيمون أخي لي، في الماضي والحاضر، لنها لمحبة عظيمة بحيث يمكن ان تعدل وحدها سائر النعم الأخرى. ولابد ان يكون كل من خالطنا وعاشرنا مطلعاً عليها. وأصدقاؤنا خير العارفين بها طبعاً».

وزوجه هي [تيموكزينا Timoxena] بنت (الكسيونا). ووقائع حياته البيتية تجد خير تصوير وادقه في رسالته الموجهة الى زوجه حول ثكلهما بنتهما الوحيدة التي ولدت لهما وهما في سنٍ متقدمة بعد ولادة اخوتها بفترة طويلة على ما يبدو:

---

(٧) واحد من الضباط (في اول الاول اثنان، ثم عشرة) يختارهم الشعب بالاقتراع ووظيفة المحافظة على حقوقه ازاء مجلس الشيوخ والقناصل ومراقبة الحريات العامة من الاعتداء.

(٨) قنصل روماني يناط به قيادة جيش، وقد تطور هذا المنصب فيما بعد فغدا حاكماً ينتخب بالاقتراع العام ويقوم بوظيفة ما من وظائف القنصل.

«من بلوتارخ الى زوجه - تحيّةً

يبدو ان السعاة الذين ارسلتهم لينعوا لي طفلتنا، قد ضلوا السبيل الى اثينا، فأبلغت به عند وصولي (تناغرا) وأعتقد ان كل ما يتعلق بتشييع الجثمان قد تمَّ. وأومل أن تكون مراسيم الجنازة قد أشاعت في نفسك أعظم السلوان. وان تخلّف اي شيء رغبت فيه واحجمت عنه انتظاراً لموافقتي - وكان فيه عزاءٌ لك فنفّذيه، إلاّ ما يشوبه افراط او شعبذة وانك لأزهد الناس في هذا. حسبي يازوجي العزيزة الأمل في ان تبقي نفسك وتبقيني في حدود من الاحزان معقولة ولست بغافلٍ قطّ عن مبلغ خسارتنا وجسامة فجيعتنا. وما انا «بجذع من خشب او قطعةٍ من حجرٍ». وأنتِ تشهدين على ذلك ياشريكتي في الحدب على أطفالنا العديدين الذين تولينا تربيتهم بأنفسنا في منزلنا واحداً بعد واحدٍ. وهذه الطفلة، الإبنة ولدت لك استجابة لرغبة خاصة خالجت نفسك بعد اربعة ابناء، فأتاحت ولادتها الفرصة لي لإدامة اسمك. وهي كما اعرف جيداً موضع حبّ خاص عندك.

ومضى يذكر ان طبع الطفلة المحبب وطرقها الجميلة عملت في زيادة آلام الثكل زيادة عظيمة، وبعدها قال «ومع هذا فلا مبرر لنا اذ نسينا النصائح التي نتقدم بها الآخرين، ولا عُذر اذ انظرنا الى فاجعتنا الحاضرة وكأنها غمّت على سعادتنا السالفة وكدرت صفوها» ومن كان حاضراً ساعة الجناز تحدثوا بأعجاب عن هدوئها وبساطة سلوكها. والجنازة نفسها كانت عاطلة عن اي مظهر من مظاهر المبالغة في النواح والندب. ولم يكن هذا مصدر عجبٍ له فهو يدري كم كانت عيشتها البسيطة المتواصفة وثار دهشة اصدقائه الحكماء وزائريه.

وهو الذي خبر ايضاً مبلغ صبرها وجلدها عند فقدها بكر اولادها... يقول بعد هذا... «عندما تركتنا جميلتنا [شارون Sharon] اذكر ان بعض معارفي من الأجانب كانوا مقبلين عليَّ من البحر لما وصلني نعي الطفلة، فسبقوا الى البيت مع بعض الاصدقاء. إلاّ ان النظام التام والهدؤ المستتبّ الذي وجدوه هناك، جعلهم يعتقدون (ذُكر لي ذلك فيما بعد) ان الخبر عار عن الصحة. ويختتم «رسالة العزاء» [وهو عنوانها] بعبارات تنمّ عن ايمانه بخلود الروح البشرية. ذاكراً أن الأبوين تحصنهما وتقوي عزائمهما تقاليد اسلافها والوحي الربّاني الذي ينكشف لهما، ويبلغهما بممارسة الطرق الصوفية الديونيسية.

هنالك فقرة في الرسالة يستنتج منها ان پلوتارخ [تيموكزينا]، كانا جدّين وقت ان حلت بهما المصيبة. وان زواج ابنهما أوتوبولس كان مناسبةً لإحدى المآدب التي فُصلت وقائعها في رسالته «المسائل السيپموزية» (اي احاديث ما بعد طعام العشاء). في احدى هذه المحاورات

نجد تنويهاً بعيداً بابنٍ [لأوتوبولس Autobolus] لقد كتب پلوتارخ الرسالة الصغيرة في شرح [طيماوؤس Timmoeus] لابنيه اوتوبولس وپلوتارخ. ولابد انهما كانا وقتذاك مكتملي الرجولة ليطرقا موضوعاً صعباً كطيماؤوس. وفي بحثه «عن السبيل الذي يجب أن يسلكه الشباب لقراءة قصائد الشعراء» يقول مخاطباً «ماركوس سيداتوس Sedatus» ليس من السهل ان نمنع منعاً باتاً كلاً من عزيزي سوكلاروس Soclarus وعزيزك كليانذر Cleander عن قراءة الشعر. ولكن ليس هناك ما يشير هل ان سكولاروس ابن له، أو حفيد، أو قريب من أقرباء الأسرة، أو تلميذ وهو من المحتملات أيضاً. واما [يوريديس Eurydice] المتزوجة حديثاً بپوليانوس Pollianus. فتبدو انها من أهل داره حدساً وتخميناً من رسالة «في الوصايا الزوجية» كتبها لها ولزوجها على انه لايمكن القول انها بنت له وليس من المحتمل قط أن يكون موضع [تيموكزينا] الصغيرة المتوفاة قد مليء[٩] بأخرى.

قد تكون وظيفة الأرخون التي أشغلها پلوتارخ في مدينته وظيفة سنوية ومن المحتمل جداً انه أشغلها أكثر من مرة ويبدو انه كان يهتمّ بأصغر أمور المدينة وأقلها شأناً. بل كان يتعمد مباشرة أحقر الأشغال، فبعد ان روى قصة [ابامينداس] أنشأ يمدح ويرفع من شأن وظيفة رئيس الكناسين بقوله: « وأنا أيضاً للسبب نفسه أجدني هدفاً لتندر جيراني، كما يشاهدونني - ومن أكثر ذلك- في الاماكن العامة اتولى شؤوناً مشابهة لواجبات تلك الوظيفة. إلاّ أن القصة التي رويت عن [انتستينس Antisthenes] تأتي هنا لنجدتي.

فعندما أبدى أحدهم دهشته لرؤية هذا الرجل يحمل الى بيته سمكة بالتوابل اشتراها من السوق، أجابه قائلاً «إنها لنفسي وقياساً على هذا فإن عاب عليَّ أحدهم وقوفي في محل عام ومراقبة قياس ابعاد الجر، ونقل الجصّ والحجر، أجيب بقولي «انه ليس لنفسي بل لبلدتي».

وفي المقالة المختصرة الموسومة «هل ينبغي للرجل الهرم أن يستمر في معالجة الشؤون العامة؟» كتب يحث [يوفانس Euphanes] وهو عضو قديم بارز في كل من [آريوباغس Areopagus] اثينا، والمجلس الامفكتيوني Amphictyon[١٠] على البقاء في منصبه قائلاً «فلنبق على زمالتنا الطويلة ولانقطعها، وليمتنع كلانا عن اعتزال هذه الحياة التي اخترناها»

---

(٩) أمّا عن بلوغ ابنين له مبلغ الرجولة على أقل تقدير. فيبدو من عبارة قصد بهما ابنيه الصغيرين الآخرين بقوله انهما اطالا الجلوس في اللعب متأخراً عن العشاء.

(١٠) اريوباغوس هو بالاصل تلّ من تلال اثينا. جرت العادة ان تلتئم فيه المحكمة العليا، أو مجلس الحكم الأعلى. واما المجس الامفكتيوني فيتألف من مندوبين من جميع الدول اليونانية يجتمعون للنظر في الشؤون المتعلقة باتحادهم.

وفي موضعٍ آخر يقول مشيراً الى واجبات وظيفته الكهنوتية لاپولّلو دلفي «وتعلمُ اني خدمت هذا الربّ [البيثيّ] عدّة بيثيادات[11] خلونَ، ومع هذا بانك لن تستطيع ان تقول لي: انك اسهمت كثيراً في تقديم الاضاحي والرقص الدينيّ، والفرائض الأخرى، وقد آن الأوان يا بلوتارخ ان تنزع قلادتك الكهنوتية وتتقاعد عن العرافة مقراً بعجزك بعد ان بلغت من العمر عتياً»

***

حتى في هذه العبارات والروايات القليلة، والقريبة من الحقيقة والواقع، يوجد ما يكفي من المواد لتأليف صورة من الحياة البيتية السعيدة نصف الأكاديمية، نصف العملية تنصرم بين اقرباء محببين واصدقاء معروفين، وتميل كثيراً الى الدراسات العلمية والاخلاقية، وتتصل مع هذا، بواجبات المواطن العادي واعبائه. وبانتقالنا الى أبعد من هذا، يتعذر علينا طبعاً التسليم بحقيقة مشاهد المحاورات الخيالية واعتبارها وقائع تاريخية. ومع هذا ففيها الكثير مما يمكن أن يؤخذ مأخذ الصدق في التصوير إن جاز لنا هذا القول. وربما وجد الكثير مما يمكن أن يؤخذ مأخذ الحقيقة بالحرف، فما يدعى [سيمپوزياك أو مسائل ما بعد العشاء] المجموعة في تسعة كتب مهداة الى «سوسيوس سينشيو» قيل لنا أن كثيراً منها جرى بحثها بحضور [سوسيوس] ومشاركته في روما وفي بلاد اليونان كأن يكون هذا مدعواً الى حفلات زفاف [اوتوبولس]. ويظهر [لامپرياس] واخوه [تيمون] كثيري النشاط والحيوية في المناقشات، لكلّ منهما شخصيته واراؤه المستقلة. ترى المشهد الآن في دلفي، ثم تراه في اثينا وأحياناً يكون روما وهو نادر ويكون آناً بمناسبة إحياء الالعاب. وكان پلوتارخ بسبب وظيفته الكهنوتية بقيم الولائم على شرف الشاعر الفائز في الالعاب [الپيثية]. وهنالك وليمة عشاء بمناسبة الالعاب [الاستمية] في كورنث، وهنالك حفلة أولمپية أخرى في [ايليس Elis]... كان پلوتارخ مواطناً اثينياً بالموالاة للقبيلة الليونتية - ولذلك تراه موجوداً في مناسبة تكريم صديقه الشاعر الفيلسوف [سيراپيون Serapion] لفوزه. إن الاشخاص الذين شاركوا في احاديث مختلف المحاورات الصغيرة، يؤلفون زمرةً واحدة متراصة فهم أكثر من ثمانين بين فلاسفة ونحويين وبلغاء، واطباء، منهم [يوتيدموس Euthydmus] زميله في الكهنوت و[الكيسون] حَموه، وأربعة أو خمسة من اقربائه بحكم المصاهرة و«فاڤورينوس Favorinus» فيلسوف [آرليس Arles] في [پروڤنس Provence] الذي لقي حظوة عند [هادريان] في ما

---

(11) وهي فترات متعددة لأربع سنوات. كل مرة تنقضي بين احياء الالعاب البيثية كالالعاب الاولمپية.

بعد، والى هذا الامبراطور اهدى واحدةً من رسائله، فأجابه بمقالة اسماها «پلوتارخوس» وهي تدور حول الفلسفة الاكاديمية. تجد سيرابيون يستضيف هذه النخبة في بستانٍ على ضفاف نهر چيفيوسوس Cephisus ثم تراهم يتناولون عشاءهم مع طبيب صديق على مرتفعات [هياميوليس Hyampolis] ويتقابلون في حفلة بحمامات [ايديپسوس Aedepsus] وفي هذه المجالس كانت تبحث شتىً المسائل، تجدها أحياناً جديّة أخلاقية نحوية تاريخية.

وفي احيان كثيرة تجدها مرحة فكاهية: ماذا يقصد افلاطون في قوله ان الآلهة تستخدم الهندسة؟ لماذا يكون سمعنا أحدَّ في الليل منه في النهار؟ لماذا تكون الأحلام أقلّ انطباقاً على الواقع في موسم الخريف؟ ايهما وجد قبل الآخر: ألبيضة أم الدجاجة؟ أي يدٍ من يدي ڤينوس جرحها ديوميدس Diomedes؟ وهكذا. وينبري [لامپرياس] الجَدّ ليعتب على ابنه والد پلوتارخ دعوته عدداً كبيراً من الضِيفان للحفلات التي «اقمناها عند عودتنا الى الوطن من الاسكندرية». ويقيم [امونيوس] ستراتيجوس (جنرال) اثينا، مأدبة عشاء للفتيان الذين برزوا في مسابقة المهارة في النحو والمنطق والهندسة والشعر، وتروى حكايات في هذه المناسبة حول الأبيات الشعرية التي أسيء اقتباسها في المناسبات أو لم يُسأ.

ومن الآثار الثانوية الأخرى التي تركها المؤلف. ما يبدو بعضه وكأنه دروس أُلقيت في روما. ثم نشر بعدئذ بمقدمة صغيرة للأشخاص المعنيين، وعندنا مقولة في «الفوائد التي يمكن ان نجنيها من أعدائنا» موجهةً الى كورنيليوس پولكر Corniluis Polker ومقالة عن «القَدَر» مهداة الي [بيزو Piso] وعن «الحب الأخوي» مهداة الى [نيغرينوس Nigrinius] وكوينتوس Quintus، وكثير منها محاورات ومناقشات فيها قدر كبير من المشاهد المتماثلة المتنوعة والاحاديث الضاحكة التي تتخلل مناقشات المائدة.

في حديث مع امونيوس وأصدقاء آخرين «منذ عهد بعيد، عندما كان [نيرون] في بلاد اليونان»، جرى النقاش في معنى الكتابة الغريبة المنقوشة على معبد دلفي. نحت فيه حرفا E و I. وجرى بحث في طبيعة العرافة بمناسبة قيام بعض اصدقاء پلوتارخ بإراءة المباني المقدسة في دلفي لأحد الزائرين - أثناء الفترات التي تخللت الشروح المملّة نوعاًما التي كان الادلاء المحترفون يسردونها أثناء طوافهم بالمواقع المقدسة «حصل ذلك قبيل بدء الألعاب البيتيّة في عهد [كاليستراطوس Callistratus] فهنا في دلفي التقينا برحالتين قدما من أقصى ارجاء المعمورة وهما [ديمتريوس] النحوي، القادم في بريطانيا في طريقه الى موطنه [طرسوس] وكليومبروتوس Cleombrotus الليقدموني الذي عاد لتوه من رحلة ترفيهية ثقافية - الى مصر العليا، بلغ بها نهاية البحر الارتيري». وتبدو ملامح للموضوع، ثم يتبعها محاورة في

مسألة «انقطاع النبوءات» ويتضمن فقرة فيها القصة المشهورة عن الصوت الذي انبأ بموت (پان Pan) العظيم. وتجد [اوتوبولس] يكلّم [سكولاروس] زميل ابنه في مديح كانا قد سمعاه، لرياضة القنص. معلقين على ذلك بقولهما أن خير مزيةٍ تذكر لهذه الرياضة هي انها تنحرف بعيداً بالعاطفة التي تجد منطلقاً لها في مشاهدة قتال المصارعين، وتأخذها الى سبيل أقلّ بشاعة وهمجيّة. ثم يبرز في النقاش حالاً زمرة كبيرة من الفتيان المغرمين بصيد السمك وقنص وحوش البريّة، ويقوم متكلمان ليطرحا على بساط البحث موضوع: ايهما أوفر حكمة وعقلاً، أحيوانات البحر أم حيوانات البرّ. وتروى في الجلسة حكايات عن الفيلة. ويقص ارسطوطيموس Aristotimus المدافع عن تفوق حيوان البرّ مستشهداً «بكلب يُقلّد تأثير مسرى السمّ في الجسم» في مشهد تمثيلي رآه بأمّ عينه في روما. كان التمثيل متقناً بحيث هزّ مشاعر الحاضرين ومنهم الامبراطور الشيخ (فسپيسبان) في ملعب (مارچللس Marcellus) وإنك لتكاد تحسّ من لهجة العبارة كأن پلوتارخ لا ارسطوطيموس هو الذي شاهد المنظر[١٢].

ويظهر (اوتوبولس) مرة أخرى في محاورة عنوانها «عن الحُبّ». كتبت تحقيقاً لرجاء صديقه فلافيانوس Flavianus وهو حديث طويل تتخلله حكايات غريبة، شارك فيه والده وهو في جبل هيليكون Helicon «منذ زمن بعيد قبل ان نولد، وعندما جاء بأمّنا لتقدم قرباناً (للحبّ) في عيد اقيم [بنسپايي]، بعد نزاع نشأ بين أبويهما».

إن هذا الخصام لم يكن تخريفاً بل حقيقة واقعة. وعلى وجه العموم فإن هذه الإطارات الموضوعة التي تؤلف هيكل حركة المحاورات الخيالية منها وشبه الخيالية، فيها عناصر من الواقع قد ترقي الى الحَدّ الذي يمكن اعتبارها من قبيل الاحداث التاريخية المسلم بها حصلت للمؤلف كما أوردها الكتاب المتأخرون، وإن لم يكن يقصد بها في الواقع أن تؤخذ بشكلها الحرفي، وان يعتبر نصُّها حقيقةً. بأن «سويداس Suidas» الموسوعي إنما يسرح في خيالٍ بحت عندما يقص علينا كيف خلع «تراجان» عليه منصب القُنصل، وأصدر اوامره الى جميع حكام «ايلليريا»؛ بالاّ يقدموا على عملٍ قبل استشارته! وكان «سينكللوس Syncellus» المؤرخ البيزنطي يبالغ مثله بل أكثر منه في ذكره تحت فصل وقائع سنةٍ من سنوات حكم (هادريان)

---

(١٢) وينوه هنا بعض تنويه بطباع ڤسپسبان المتميزة بالقسوة والوحشية. في قصةٍ عنه أوردها في محاورته عن «الحب الأخوي» عن [سابينوس] الثائر [الغالي] وزوجه ايبونينا Eponina. وقد ذكرها تاكيتوس أيضاً في تاريخه. كان قد ولد لهما في مخبأهما تحت الأرض ولدان – فقد اختفيا وعاشا تحت اطباق الأرض عدة سنين حتى أفتضح امره وقتل)، يقول بلوتارخ: «احد هذين الولدين كان معنا هنا في دلفي قبل فترة قصيرة». ثم يزيد معلقاً: «ان انقراض نسل ڤسپسبان يعود الى غضب الارباب لعمله هذا المجرد من الشعور والرحمة».

الأولى، ان پلوتارخ الفيلسوف الخيروني، اقامه الامبراطور في اواخر عمره حاكماً على بلاد اليونان. ومع ان عهد [تراجان وانطونينوس Antonines] كان بمثابة العصر الذهبي للفلاسفة فقد بدا وكأن فترة اضطهادهم القصيرة وعهد (دوميتيان) أكسبتهم مدة من الزمن مكانة روحية سامية شبيهة بما نالوا بعد حكم [ديوقلتيان]. على ان هذه المنزلة انتزعت منهم بمجهود كهنة الدين الجديد.

هنالك رسالة وردت بين مؤلفات پلوتارخ المطبوعة تتضمن مجموعة من «اقوال الملوك والقادة» مهداة الى (تراجان) ومع وجود شك كبير حولها، فليس بمستبعدٍ ابداً ان تكون من تأليف بلوتارخ نفسه. وهي ليست مما يستوقف النظر، وأكثر ما يلاحظ فيها، اختلافها الشديد في الاسلوب عن رسالة أخرى لايشك في انها مُنحَلة - نشرها باللاتينية جون السالسبوري Johan Salisbury وهي موعظة حافلة بالوصايا الى «التلميذ تراجان بقلم معلمه السابق المزعوم پلوتارخ ولدينا قائمة بمؤلفات پلوتارخ، كثير من الاسماء التي تتضمنها لا وجود له الآن. يقول [سويداس] كاتبها، انه نقلها عن الامپرياس ابن پلوتارخ. كذلك يوجد رسالة قصيرة وضعت في مقدمة تلك القائمة. وجهها پلوتارخ الى صديق تعرف به في آسيا، وكان قد كتب اليه من موطنه يطلب معلومات معينة. قد تكون القائمة صحيحة إلاّ ان اسم «لامپرياس» لا يظهر قط في كل مؤلفات پلوتارخ بوصفه ابناً من ابنائه. ولايسعنا إلا ان نشك بأن اسم الأسرة هذا، قد انتحله بعضهم، وان هذه الرسالة الى الصديق المجهول الآسيوي الفها احد النحويين في عصور تالية، قاصداً رفع قائمةٍ عادية لأسماء آثار المؤلف العديدة.

اذا قرأ المرء بلوتارخ فعليه ان يتذكر النقاط التالية: إنه أخلاقي أكثر منه مؤرخاً واهتمامه بالطبائع والشخصيات والأعمال الفردية والدوافع الخاصة الى تلك الأعمال أكثر بكثير من اهتمامه بشؤون السياسة وبتغيير الامبراطوريات. فعنده ان الواجب يؤدى فيكافأ عليه مؤديه. والكبرياء تنال جزاءها، وسرعة الغضب سيئةٌ يجب تقويمها. والنزعة الانسانية والانصاف والسماحة تنتصر في الحياة الدنيا. او تعوض في الحياة الأخرى وانك لترى فكر پلوتارخ في سيره - يتجه دائماً الى الآراء الارسطية في الاخلاق، ونظريات افلاطون السامية التي كانت مذهب الطبقة المثقفة في عصره.

هذا العصر هو نقطة ثانية يجب ان يتذكرها القارىء، انه عصر [نيرون وتراجان وهادريان]، انه مفتتح خير العصور واسعدها من عمر الامبراطورية الرومانية العظمى، بنظامها الاجتماعي الذي ساد سواحل البحر الأبيض المتوسط كافة (وكانت ايطاليا واليونان مركزاه، والشرق وأقصى ما عُرف من بلاد في الغرب طرفاه) فقد وصل أعلى درجة من التقدم والكمال وسادت

قوانين روما وفلسفة اليونان رقعة من الأرض تمتد من نهر دجلة حتى الجزر البريطانية انه آخر العصور العظيمة للحضارة الرومانية - اليونانية، ولقد كان [ابيكتيتوس Epictetus] يعلم باليونانية الحكمة التي امتاز بها [ماركوس اوريليوس] عندما غدا امبراطوراً. وأعاد [ديو خريسوستم أريان Dio Chrysostom Arrian] للأذهان ذكر بلغاء [آتيكا] المشاهير الأعلام، ومؤرخيها العظام. وفيما تجد پلوتارخ يكتب من [خيرونيا]، كان [تاكسيتوس وپليتي الأصغر، ومارشيال، وجوڤينال] يكتبون في روما. قد يقال أيضاً - وربما لايخلو القول من صحة - أن كتاب اللاتين في العاصمة لم يكونوا في نقل الروحية والطابع العام اللذين يميزان ذلك العصر - بمستوى صدق قلم هذا البويوتي الريفي الساذج الذي كان يكتب بلغة أوسع انتشاراً، غير متقيد باي ذكريات قوية محلية لمجلس الشيوخ العتيق وللجمهورية. وربما وجدت تاكيتوس وجوڤينال «أكثر أصالة رومانية» من احد مواطني امبراطورية البحر المتوسط العظيمة لأن شرور حكومة الامبراطورية كما يشعرون بها في العاصمة، صورت في الشعر والنثر الرومانيين تصويراً ادق وأقوى مما يناسب الهيئة العامة للدولة، كما تراها عيون سكان عالم الامبراطورية حتى في عهد حكم (دوميتيان) نفسه.

وهذه الأخيرة، على أية حال الناحية الأكثر هيبةً؛ وان أفضل العهدين واحسنهما هو ذلك الذي تعكسه حياة پلوتارخ وكتاباته، فأسلوبه أسلوب ذلك الرجل السعيد بذاته الراضي بما قسم له واحاط به.

إن الذكريات القوية الغلابة لأحداث السنين الماضية التي مرت تحت ظل الإرهاب المباشر، الناجم عن شرور الحكم الامبراطوري لم تنتقص من طبيعة پلوتارخ المستبشرة الضاحكة ولم تجرده من بساطته المرحة ولم تشب سعادته بظل من الأسى. ومع أنه كان يتذكر (نيرون)، وكان رجلاً عندما اعتلى [دوميتيان] عرش الامبراطورية، فكلما يسعنا قوله انه كان يكشف عما يجوز لنا وصفه بالسعادة الهادئة، لمن خرج من شر عظيم ليعيش في ازمانٍ طيبة. وان قوة تلك السعادة التي يبديها، لدليل على ان جذورها كانت قد تأصلت في ظروف غير موآتية، ولا طيبة.

قيل الكثير عن عدم دقة پلوتارخ، ولا ينكر أنه كان قليل الاحتفال بالأرقام يناقض أقواله بنفسه أحياناً، وأعظم منقصة تؤخذ عليه هي تعلقه الشديد: بالحكايات، اذ لم يكن يعبر عن ايراد القصص التي كان هو اول المدركين زيفها. ومن شأنها ان تخلف انطباعاً غير منصفٍ عن راويها. وهو بهذا الطريق لم ينصف كلاً من [ديموستينس، وپريكليس] اذ ورث عن افلاطون تحامله على ثانيهما، وهو التحامل الذي طبع به جميع الفلاسفة المتأخرين ومنهم پلوتارخ.

صحيح ايضاً ان معالجته اللاتاريخية لمواضيع سيره تجعله يبدو أحياناً غير دقيق، بل موضع انتقاد في الصور التي يرسمها. ومما هو طبيعي أن الجانب الكبير من حياة رجال الدولة العامة يمكن ان يجد تفسير في وضعهم السياسي. إلاّ ان پلوتارخ قليلاً ما فكر في هذا، أو عرف. فبقدر ما نجحت ابحاث المؤرخين المعاصرين في اكتشاف امورٍ عن مثل هذه العلاقات، كانت هذه السير تحتاج الى تصحيح. ولكن يكون من المناسب، بل من المفيد العودة الى الصورة التي رسمت قبل ان تسود الافكار الجديدة والنظرات الحديثة عالمنا الحالي حول الغموض الذي يعتور ولا شك الدراسات الحديثة ان لم نرجع الى احكام قابلة للأخذ والردّ كهذه. وانما بمجرد القياس على المباديء الواسعة لقانون الأخلاق القديم في التفريق بين الخطأ والصواب.

وبغضّنا بعض الطّرْف عن الأمور التي اتينا الى ذكر طائفة منها. وبصبرنا قليلاً على قصة حب فيها شيء من المبالغة، وبتجاوزنا عن عداءٍ شبه ديني للقادة الديموقراطيين الذين سخط عليهم افلاطون واذا ما وضعنا في حسابنا أيضاً، ان الحكايات من امثال ما اورده عن [تيسيوس] يصعب جداً فصل الجانب الاسطوري منها عن الجانب الحقيقي كما أقرّ هو نفسه. امكننا القول أن القراء على مختلف أعمارهم سيجدون في تاريخ پلوتارخ سيراً أمينة، مثقفة لحياة عظماء الرومان واليونان. واذا كان من العبث حقاً ان نفكر بصدور سيرٍ أمينة في عصر پلوتارخ، فلدينا ها هنا على اية حال سجّل امين للوقائع التاريخية كما أرادها عصره. وهو ما أحبّ اليونان والرومان أن يعتقدوه عن محاربيهم وساستهم الغابرين. اما كصورةٍ فهي تعتبر خير نسخةٍ لوجهات النظر الخلقية الرومانية واليونانية، ولآرائهم في مباديء للاخلاق. أمّا وانها تمثل حصيلة الفكر الأدبي الروماني - اليوناني، كتبت لا تحت ضغط نكبة وإنما في جوّ اعتيادي مطمئن هو جوّ الحياة الهادئة البسيطة الواقعية لسكان الريف وهم يزاولون شؤون عيشتهم اليومية - هي بلا جدال ذات قيمة عظيمة. ويمكن القول أن الطبع الذي أظهره كاتبها ينطوي على سماحة وبشرٍ ووداد ذى سحرٍ طبيعي غير مجلوبٍ بتطريةٍ، ولايمكن ان يرقى اليه اي كاتب من الكتاب الكلاسيين الذين وصلتنا آثارهم.

وهذه الترجمة الانكليزية هي نسخة منقحة للترجمة المطبوعة في أواخر القرن السابع عشر من تاريخ حياة پلوتارخ بقلم [درايدن Dryden] الذي أريد ان يُضفي اسمه الداوي أهمية ويلقى نوراً ساطعاً على أولئك الكادحين الخاملي الذكر الذي انجزوا القسط الأوفى من نقل هذا الأثر حسناً كان نقلهم أم سيئاً. وبطبيعة الحال يوجد تفاوت كبير في مجهوداتهم غير ان الترجمة التي عملها [لانگهورن Langhorne] في أواسط القرن الماضي هي والحق يقال اضعف كثيراً من الترجمة الأولى وأقل منها حيوية بمقدار كبير. انها لترجمة مملّة ثقيلة الوقع

على النفس تعوزها الطلاوة، لذلك ولعدم وجود ترجمة جديدة اصيلة - فيؤمل ان يكون أحياء الترجمة الأولى الذي نحاوله الآن ذا فائدة. وما كانت الحاجة لتدعو الى ذلك لو أن مستر لونغ... لم يقصر تعليقاته النفيسة جداً التي علقها هناك، على السير الخاصة بالحروب الأهلية الرومانية في السلسلة التي طبعها بمنشورات مكتبة [نايت شيللنغ].

والحياة التي صنفها درايدن لپلوتارخ هي مثل كثير من كتابات هذا الأديب، سريعة التأليف، لكنها جيدة السبك. تفتقر الى الدقة لكنها شيقة طليّة. أما السيرة التي كتبها (داسيبه) وطبعها في آخر مجلد من الترجمة الفرنسية التي عملها للسير، فهي جيدة جداً من نواحٍ شتىّ. أمّا المواد التي أعتمدها الاثنان فقد استمداها من معين واحد، وهي المراجع التي توفر الى حجمها [روالدوس] عند كتابته سيرة بلوتارخ، التي تعب فيها كثيراً، ونشرها ملحقاً من نشرة باريس الوثائقية القديمة للعام ١٦٢٤. على أن كل ما هو ذو قيمة في التراجم المذكورة انّما استمدّ من المواضيع المتوفرة «في المكتبة اليونانية لفابريشيوس Bibliotheca Greca (Fabricius) وفي الموسوعة الألمانية لپاول، مع آخر الإضافات. وواضح أيضاً ان الكثير مما هو مفيد، موجود في الحوليّات الرومانية Fasti Romana بقلم كلنتون Clinton وقد اقتبسنا منها الجدول التالي.

ملاحظة: الكتاب الذين وضع في نهاية اسمائهم نجمة هم يونانيون.

***

التاريخ (ميلادي)	الواقعة التاريخية	اسماء كُتّاب الفترة
٤١	اعتلاء كلوديوس	سينيكا
٥٤	اعتلاء نيرون، نيرون يزور اليونان،	
٦٦	تنويه بذلك في محاورة پلوتارخ عن حرفي E وا في دلفي).	لوكان
٦٧	نيرون يحتفل بالالعاب الاستمية (تنويه بذلك في سيرة پلوتارخ عن ڤلاڤيوس)	پيرسيوس
٦٨	«گالبا» أمبراطوراً. الحروب الأهلية.	
٦٩	ڤيتيلليوس. اوتو. ڤسپسيان.	
٧٠	الاستيلاء على أورشليم	

التاريخ (ميلادي)	الواقعة التاريخية	اسماء كُتّاب الفترة
٧٤	الفلاسفة يُنفون من روما.	
٧٩	مقتل «سابينوس» الغالي. موت ڤسپسيان. واعتلاء تيطس. موت پليني الأكبر. ثورة بركان فيزوف. تنويه پلوتارخ بهذه الظاهرة الطبيعية باعتبارها حدثاً قريباً لعهده في محاوراته «عن السبب في ان الوحي لم يعد ينزل شِعراً»؟	كونتيليان*
٨١	اعتلاء «دوميتيان»	ستاتيوس
٩٠	الفلاسفة ينفون ثانيةً من روما بعد مقتل «روستيكوس»	سيليوس ايتاليكوس مارتيال
٩٦	اعتلاء «نرڤا»	ديوخريسوستم*
٩٨	اعتلاء تراجان	[ولد في حدود ٦٠م]
١٠٠	تقريظ پليني	پلوتارخ
١٠٣	اپيكتيتوس يعلم في نيقوبوليس. أريان احد الذين يحضرون دروسه.	اپيكتيترس اريان
١٠٤	پليني في «بثينيا»	پليني الأصغر [ولد في ٦١م]
١٠٦	تراجان يشتي في الدانوب (پلوتارخ يشير اليها في مقالته - مبدأ البرودة)	جوڤينال [ولد في ٥٩م] فاڤورينوس*
١١٣	إقامة عمود تراجان	سيوتونيوس
١١٤	انتصارات تراجان على الفرثيين (كان بلوتارخ قد كتب سيرته عن انطوني قبيل هذه الاحداث)	[ولد في حدود ٧٠م]
١١٧	اعتلاء هادريان العرش (في السنة الثالثة لحكم هادريان كان بلوتارخ حيّاً على ما زعمه يوسينوس)	

التاريخ (ميلادي)	الواقعة التاريخية	اسماء كُتّاب الفترة
١٣٨ ١٦١ ١٨١	اعتلاء «انطونينوس» اعتلاء ماركوس اوريليوس اعتلاء كومودوس	بطليموس. أپيان*. پاوسانياس*. چاليتون. لوشيان*. اثناؤوس*. ديون كاسيوس*

إن الخطأ الذي وقع فيه كل كتاب سيرة پلوتارخ ابتداءً من [روالدوس] فنازلاً، هو افتراضهم الواهم أن پلوتارخ قضى سنوات عديدة من حياته في روما قد تبلغ حوالي الأربعين. وبسبب هذا الوهم حورت حياته برمتها تحويراً جوهرياً. ولذلك ليس ثم جدوى في ايرادنا هنا سيرته التي كتبها [درايدن] وضمها الى هذه الترجمة التي نقحناها وأجرينا عليها، تعديلات قلّت ام كثرت هنا وهناك. ويكفي أن نورد هنا مقتبساً أو اثنين من تلك السيرة. أولهما قد يلقي بعض الضوء على موضوع غامض بعض الشيء للقاريء العصري: كان (درايدن) مخطئاً في تعليل أو تعليلين لا أهمية كبيرة لهما. الاّ أن وجهة نظره العامة في عقيدة الارواح الشريرة Daemonic التي تظهر في كتابات بلوتارخ، قد تفي الى حَدّ ما بالغرض. قال درايدن: «بامكاننا ان نتأثر خطى باقي ارائه، من فلسفته التي قلنا انها افلاطونية على العموم، وان لم يكن هناك مجال للانكار أيضاً وجود صبغة من العقيدة الايلكتية[١٢] فيها تلك العقيدة التي بدأت بداعيتها [پوتامون Potamon] في عهد امبراطورية أغسطس. والتي اختارت من كل العقائد الأخرى ما هو في رأيهم أكثر مناسبة وعقلاً غير مقيمين على عقيدة معينة واحدة. غير رافضين كل شيء ما عداها. واني سأتصدى هنا لعقيدة الارواح فقط. ففي رسالتي پلوتارخ: «عن اسباب انقطاع النبوءات» و«عن عدم نزول الوحي شعراً، كما كان ينزل في السابق» يبدو أنه من مؤيدي المذهب الفيثاغوري في انتقال الأرواح من حال الى حال. لقد بينا آنفاً انه يؤمن بوحدة رئيس الأرباب الذي يسمى بعدة اسماء حسب صفاته. فهو جوپيتر من سلطانه اللامتناهي وهو ابوللو من حكمته وهكذا دواليك. إلاّ ان بلوتارخ يضع في الدرجة التي تلي جوپيتر، تلك المخلوقات التي يطلق عليها اسم ديمون أو الجنّ. وهي كائنات ذات طبيعة متوسطة بين الإله والانسان، لأنه كان لايتصور وجود ثغرة بين الطرفين القصيين: المخلوقات الخالدة والمخلوقات المائتة. وانه لايمكن أن تبقي الطبيعة مثل هذه الثغرة

(١٢) ويقصد بها [الاكلكتية] وهو الأسم الذي تعرف به الآن Eclectic.

الواسعة مفتوحة دون ان تملأها بنوع وسط من الحياة يمت الى كل الطرفين القصيين. اذن فالاتصال بين النفس والجسد انما يتم فحسب عند الارواح الحيوانية كما نجد ذلك الاتصال بين العالم الالهي والعالم الانساني يتم بهذا النوع المتوسط بينهما الذي سميناه [ديمون]. فهؤلاء «الجنّ» كانوا في مبدأ أمرهم بشراً، اتبعوا طريق الخير والصلاح وتساموا في الفضائل حتى انسلخوا عن اجسامهم البشرية وتخلصوا من اوضاروجودهم الأرضي وارتقوا الى مرتبة «الجنّ» هذه. وهنا اعترضهم أحد أمرين، إمّا أن يستمروا في التسامي والارتقاء في سلم الحياة الأثيرية ببقائهم محافظين على طهرهم وصلاحهم، أو ان يسقطوا مرة أخرى ليعودوا الى الجسم البشري الميت ويتقمصوا اللحم والعظم بفقدهم تلك الطّهارة التي هي اساس كينونتهم الأثيرية. هذا النوع من الجن هو الذي انيط به أمر انزال الوحي والعرافة بحسب رأي پلوتارخ. إن الارواح التي تَخَلّف فيها الكثير من عناصرها الأرضية، تكون عرضة للتأثر العاطفي، وتلعب بها الاهواء البشرية. وهي في العادة تأثيرات خيرة طيبة. وقد تكون أحياناً شريرة ضارة بالناس. وتتفاوت بين هذين المقياسين على قدر ما تكون فضائل تلك الارواح سامية، أو بقدر ما تتزايد سقطاتها وهفواتها لتنحدر بالتدريج الى حالة البشر وتكون عرضةً للموت والفناء وهو يعزو انقطاع الوحي أو بالأحرى تناقصه (لأن بعض تلك الارواح كان موجوداً حتى ايام پلوتارخ) إمّا الى فناء هؤلاء الجن كما يبدو ذلك من رواية [ثاموس Thamos] المصري الذي أوحي اليه أن يُعلن موت الرب العظيم (پان). وإمّا الى مغادرتهم المواضع التي كانوا قد اختاروها للوحي حين طردتهم منها طائفة من الجنّ أكثر قوةً منهم ونفتهم على إثر تلك الثورات التي استمرت تحدث منذ عصور سحيقة. ومن امثال تلك الثورات الحرب التي نشبت بين الجبابرة والأرباب. وطرد (ساترن: زحل) بأمر جوپتر. ونفي ابوللو من السماء، وسقوط ڤولكان... وغير ذلك كثير. وكلها في رأي المؤلف معارك تجري بين هؤلاء الجن (الديمون). ولكن لنفترض (ونرجح ان پلوتارخ فعل مثلنا) ان هؤلاء الجنّ تولوا أمور البشر تحت رقابة الكائن الأعلى. فعاونوا الاخيار، واقتصوا من الاشرار. وأحياناً حلّوا في أسمى البشر نفوساً، كما كان جنّ سقراط يُنذره دائماً بمكامن الخطر ويعلمه كيفية اجتنابها. ولايسعني إلاّ أن أعجب من كل كاتب لحياة پلوتار، ابتداءً من روالدوس بصورة خاصة وهو أوسعهم اطلاعاً بها، كيف أكدوا عن ثقة أن الوحي إنّما يتأتى من الأرواح الشريرة، ان تفكيرنا كمسيحيين ينصرف الى هذا الاستنتاج طبعاً. أما ان يكون هذا رأي پلوتارخ، فهو خطأ فاضح لا وجه للاعتذار عنه. ويكفي لإقناع رجل سوي العقل أن نذكر بأن مؤلفنا في اواخر عمره كرس نفسه للقيام بالفرائض الدينية في دلفي وأنْ نعلمه أيضاً انه مات وهو كاهن لأپوللو. ولنا أن نحكم

مطمئنين انه لم يصب بشيء من الخرف في عمره المتقدمة جداً من محتوى الرسالة التي كتبها بعنوان «ان الرجال المتقدمين في السن يجب ألاّ يحجموا عن تولي الأعمال العامة». والآن يجب علينا أن ننبذ فكرة انه كان يرى في الرب الذي يخدمه: كأكوديمون أو شيطاناً كما نسميه نحن. فلا شيء أبعد عن رأي وممارسة هذا الفيلسوف الجليل من هذا الإثم والفسوق. وإن قصة «بشياس» أو كاهنة إبوللو وهي القصة التي اختتم بها رسالته عن انقطاع الوحي، تدعم تأكيدي هذا أكثر من ان تدحضه. فقد راحت الى المعبد... «دَخلتْ بتردد عظيم الى الموضع المقدس لتتلقى الوحي ثم خرجت مزبدة الفم جاحظة العينين في صدرها زحير وصوتها حاد النبرات لايفهم منه شيء. حتى لكأن زلزالاً يزلزل في جوفها. تجاهد لالتقاط انفاسها وتلهث. وبمختصر القول فقد كان الرب يثقل على نفسها ويزاحمها ولم تكن قادرة على احتماله حتى ماتت عذاباً وهي بليدة الحواس، بعد ايام قليلة». كان پلوتارخ قد ذكر مثل هذه الحادثة ان الكاهنة يجب أن لا تكون مضطربة الفكر نجسة العاطفة، ساعة نزول النبوءة عليها. فاذا كانت حالتها هذه، فإنها لاتصلح قط لتلقي الوحي. مثل آلة الطرب التي لم تحزق اوتارها حزقاً صحيحاً فانها لا تخرج النغمات الصحيحة المتناسقة. وقد ذكر في نهاية هذه القصة ما تركنا نشك في «ان هذه الكاهنة لم تعش عيشة طُهرٍ وعفة مدةً من الزمن قبل اوان الوحي. لذلك بدأ موتها عتاباً فرضه عليها سلطان أعلى لعيشة الفجور التي عاشتها، أكثر منه عملاً شريراً لروحٍ تستمتع بالشرِّ للشرّ فحسب». هنالك ملاحظة أخرى أقرب الى الفرض في الواقع. وسأنحرف عن موضوعي لأرويها لأنها تتعلق بعض الشيء ببلاد بريطانيا. يقول پلوتارخ: «هناك عدد كبير من الجزر الصغيرة منتشرة حول بريطانيا مثل انتشار جزر [سپورادس Sporades] حول بلادنا. كانت خالية من البشر وبعضها يسمى بجزر الجبابرة أو الجان. أرسل الامبراطور شخصاً يدعى (ديمتريوس) لاستكشافها (لابد أن يكون الامبراطور كاليگولا او كلوديوس[١٣] بحساب الزمن) فبلغ الرحالة احدى الجزر المجاورة لمجموعة الجزر المجهولة. وكانت مأهولة بقليل من البريطون (كان سائر بين قومهم يرهبونهم وينزلونهم منزلة القداسة) وما ان احتوته الجزيرة حتى اظلمّ الجوّ واضطرب وظهرت اشباح غريبة فيه. وأثارت الريح عاصفة هو جاء وظهرت سحبٌ بلونٍ ناريّ ودوامات ريح ترقص متجهة نحو اليابسة. وبعد ان زالت هذه المظاهر العجيبة اعلمه سكان الجزيرة بان أحد الكائنات الأثيرية التي هي اسمى من بني جلدتنا البشر، قد توقفت عن الحياة وتلاشت. فهؤلاء الجبابرة كالشمعة، في حياتها تعطي ضياءً جميلاً نافعاً اثناء اتقادها. ولكن يثور ثائرها وتضجّ وتنقلب شراً ووبالاً

---

(١٣) في زمن متأخر عن هذا بكثير دون شك.

عندما تدنو من النهاية ويخبو ضياؤها. في حياتهم يضيئون لنا وينعمون علينا بالخير والبركة. ولكن ما ان تدركهم ساعة الفناء حتى يقلبوا الدنيا عاليها سافلها ويثيروا العواصف ويفسدوا الجوّ بالأبخرة القتالة. ما من شكّ في أن المؤلف يقصد بهؤلاء المخلوقات ما عرف عندنا با(درويد Driud) الذين هم أقرب الى الفيثاغوريين من اي طائفة أخرى. وقد يكون فكرة الجن هذه، واحدة من عقائدهم على أنه ليس من الأكيد ان كلّ «الجن» اشرارٌ على هذا القياس. والاشرار منهم هم أولئك الذين قضي عليهم ان يتقمصوا الأجسام البشرية بسبب سوء تصرفاتهم وهم في حالتهم الاثيرية... ولكن حان الوقت لنخلف موضوعاً حافلاً بالخيال والخرافة خالياً من المعقول. واني لأهم بان اتصور الأبخرة الطبيعية والغازات المتصاعدة من الكهف حيث كان المعبد قد بنيَ. ربّما هي المؤثرة على نفوس كل من يدخله. كما اثرت على الراعي (كوريتاس Coretas) الذي كان اول من أكتشفها بمحض الصدفة وعزاها الى حماسة النبوءة، ورعشات وحيها. حتى انه لما تضاءلت قوة هذه الأبخرة وكانت عادة تتجمع في الكهوف: ككهف موبيوس، وتروفينيوس، ودلفوس) صار الوحي يتناقص بالقياس نفسه وصادف ان كانت أقوى من العادة عندما قتلت كاهنة بيثياس التي شعرت بحقيقة الأمر فامتنعت عن الدخول. أما وان الوحي لم يعد ينزل بصيغة شعرية فلأن الشعراء عافوا مهنة الكهانة. وان جنيُّ سقراط (وقد اقرّ سقراط أنه لم يره قط بل كان يسمعه من جوفه ولايحسّ به الآخرون) فهو ليس إلاّ مظهراً لقوة خياله، أو هو «ملاكه الحارس» اذا استخدمنا التعبير المسيحي الافلاطوني. إن الفقرة الأخيرة من سيرة حياة المؤلف قد تصلح خاتمة لهذه المقدمة قال درايدن: «والآن وبالكبرياء والتعاظم الذي تعوده كتاب المقدمات الهولندبون، يمكننا ان نقلّد مؤلفنا آيات المديح والثناء. ذلك لأن الكتاب القدماء منهم والمحدثين، ذكروه بالتجلة والتكريم. لكن ملء الصحائف بهذا النوع من البضاعة من شأنه أن يشيع عدم الثقة في نفس القاريء فيتوهم أن پلوتارخ هو بحاجة الى هذا، إن روالدوس على أية حال جمع الوافر من هذه الأقوال وممن جمع لهم سأذكر فحسب اسماء جيليوس ويوسيفوس وهيميريوس السوفسطائي ويوناپيوس وكيريللوس الاسكندراني وثيودوريت [جوهانس ساريبرنسس Sohannes Sarieberiensis] وپترارك الشهير وبطرس ڤكتوريوس وجوستوس لپسيوس.

إلا ان [ثيودوروس غازا]، وهو رحل واسع الاطلاع في اللاتينية ومن أعظم النقلة الأغريق الذين عاشوا قبل أكثر من قرنين، يستأهل منّا أن نثبت له هنا تقريظهُ الحرفي، فالآخرون اجزلوا الثناء على پلوتارخ دون الآخرين، في حين ان هذا الباحث رفعه على الجميع واليك ما كتب:

«قيل ان أحد أصدقائه طرح عليه هذا السؤال المغرق في الخيال والمبالغة: اذا تعرض التراث الفكري كله الى خطر الغرق، فأعطي له حق خيارٍ واحدٍ باستنقاذ آثار مؤلف واحدٍ، فمن سيقع عليه أختياره؟ فأجاب: اختار بلوتارخ. ولعله معذور في قوله هذا. اذا بانقاذ آثار هذا المؤلف يكون قد حفظ خير مجموعة منها...»

إن مديح [اغاثياس Agathias] هو الآخر يستحق تنويهاً، لقد نبغ هذا الكاتب في حدود المائة الخامسة للميلاد على عهد الامبراطور جُستينيان والابيات مذكورة في «الشذرات الأدبية Amthologia» وبترجمتنا لها هنا أختم على كاتبنا. ولا يفوتني التنبيه بأنها نظمت لتنقش على تمثال يقيمه له الرومان احياءً لذاكره.

يا بلوتارخ الخيروني، ان تمثال الشكر هذا، اقامته روما ذات المجد العسكري العظيم تكريماً لذكراك الخالدة. فهي وبلاد اليونان شاركتا في شهرتك معاً. (فلقد كتبت سير ابطالهما وقارنت فيما بينهما).

لكنك لم تستطع انت ان تكتب سيرتك، ان لسيرهم اقراناً اما سيرتك فما لها قرين.

ثبتٌ بالترجمات

النص الأصلي: الطبعة الأولى (طبعة فلورنسا. آب ١٥١٧) الطبعات التالية. [شيفر Shaefer] ١٨١٢-١٨١٨ و١٨٢٥-١٨٣٠، [سنتينس Sintenes] ١٨٣٩-١٩٤٦ و١٨٨٤-١٨٨٨.[دوينر Doehner] ١٨٤٦-١٨٥٥. [بكّر Bekker] ١٨٥٥-١٨٥٧.

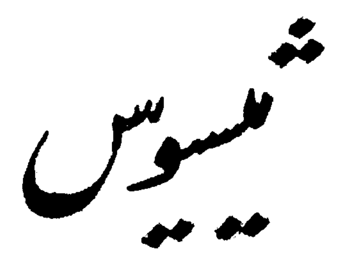
الترجمات: سر توماس نورث Sir Thomas North، من النص الفرنسي المترجم بقلم [جمس آميو James Amyot] في ١٥٧٥ و١٥٧٩ و١٥٩٥. (مع سير اضافية)؛ طبعات تالية، وطبعة ١٦٧٦ هي آخر ترجمة كاملة، نشرت بمقدمة لجورج وندهام G. Wind-ham. ثم ترجمة ثيودر في ١٨٩٥؛ بقلم و. هـ. د. روس W. H. D. Rouse «معبد بلوتارخ» عشرة مجلدات في ١٨٩٨ و١٨٩٩؛ منتخبات لشرح مسرحيات شكسپير مع تعليقات وفهرست ابجدي الخ... بقلم و. و. سكيت W. W. Skeat سنة ١٨٧٥ وترجمة لجماعة من الكتّاب مع مقدمة لدرايدن في سيرة حياة بلوتارخ (الترجمة تسمى عادة باسم درايدن) ١٦٨٣-١٦٨٦ وهنالك طبعات عديدة تالية اهمها تلك التي عملها ونقحها كثيراً [ارثر هيو كلو Arthur Hugh Clough] ١٨٦٤-١٨٧٦. وترجمة [و. لانكهورن W. Langhorne] ١٧٧٠. طبعات تالية: [ف. رانكهام F. W. Rang-

ham] ١٨٤٦، [بوهن Bohn] ١٨٥٣، دار كـاندوس كلاسـيك Chandos Classies ١٨٨٤، دار كاميلوت كلاسيك Camelot Classic (مـختـارات) ١٨٨٦، لوبوك من الكتب المائة. رقـم ٣٩. ترجـمـة بقلم [أ. سـتـيـوارت A. Steuart] و[غ. لونگ G. Long]، مع سيرة بلوتارخ. طبعة مكتبه ستاندارد - بوهن ١٨٨٠-١٨٨٢.

الترجمة الانكليزية التي نقلنا عنها ترجمتنا العربية هي طبعة جديدة، لـ[كلو] كما نشرت في ١٨٦٤، وتتضمن مقدمته الاصلية مع اضافات من عندي نتيجة مراجعات ترجمات أخرى. واسـتطرادات منقـولة عن مـقدمـات أخرى لتـراجم انگليـزية وفـرنسـيـة. أخصّ منهـا بالذكـر اصدارات دار نشـر پنگوين بأربعـة اجزاء فـهذه التي قـام ايان سكوت كلفرت Ian Scott Kil-vert تناولت جزءً عنوانه «قيام وسقوط آثينا» وتضمّ سير تيسيوس وصولون وتيموستوكلس وارستيدس وكيـمون وپركليس ونيفياس والكيپاديس وليساندر. وجزءٌ آخر أعطي عنوان (بناة رومـا) تناول فـيه سـيـر كلّ من كريولانوس وفابيوس مـاكسيـموس ومـارچللوس وكاتو الاكبر وطيبيريوس كراسوس، وگايوس گراسون وسرتوريوس، وبروتوس ومـارك انطوني. وكذلك ظهر لعين المترجم مجلّد آخر بعنوان (عصر الاسكندر) وضم سير اسخيـلاوس، وپيلوپيداس، وديون وديموستـينس وفوكيـون والكساندر (الأسكندر المقـدوني) وديمتريوس وپيروس. أمّا الجزء الرابع وعنوانه (سقوط الجمهورية الرومـانية) فـهو من ترجمة (ريكس وارنر Rex Warner) وتناول سير ماريوس وسوللا وكراسوس، وپومپي ويوليـوس قيصر وشيشـيرون. ويبلغ عدد السـير في هذا المجلدات الاربعة ٣٣ سيـرة من أصل ٥٠ سيرة التي تكمل بها سير المؤلف. وقد ترجمناها جميعاً مع التعليقات.



لوحة رومانية تعود الى ٢٠٠ ق.م



THESEUS



ثيزيوس يقتل المينوتور — إناء أتيكي

أي [سوشيوس! سينشيو Socius Senecio] [١]

تعلم اني في كتابي هذا قد فعلت كما يفعل الجغرافيون[٢] حين يجمعون في حوافّ خرائطهم اجزاء من العالم لايعرفون عنها شيئاً. فيضيفون حشوداً في الهامش مع هذا التفسير: ان وراء هذا الحدّ لايوجد إلاّ الصحارى الرملية التي تعجّ بالضواري، وليس غير المستنقعات التي يتعذر اقتحامها، وأراضي الصيثيين [الصقالبة Scythians] المنجمدة، والبحر الثلجي» والآن فبتدويني كتاب السير المقارنة، قد أخضت في دياجير تلك العهود التي قد يفلح العقل المستنير في بلوغها او اي التاريخ الصحيح موطيء قدم فيها. وبامكاني القول مطمئناً عن تلك الشخصيات البعيدة جداً غداً «وراء هذا لايوجد غير الأساطير والخرافات، وسكان تلك العهود لا يزيدون عن شعراء ومبدعي أساطير ووراء ذلك لايوجد شيء حقيقي ثابت». لكني فكرت بعد كتابتي سيرتيْ [ليكورغوس] المشترع، و[نوما] الملك، إن في وسعي الصعود حتى [رومولوس] بعد ان بلغت بتاريخي مرحلة قريبة جداً من عصره - وكان يحدوني الى هذا العمل اسباب وجيهة. ثم سألت نفسي كما تساءل [أسخيلوس]: «بهذا المقاتل البطل من يجرؤ على النزال؟ ومن أضع بمواجهته ومن يكون نداً له؟[٣]»

ولم أجد له صنواً غير ذلك الذي عمر مدينة آثينا الجميلة الطائرة الصيت وملأها بالناس، لأضعه مقابل أب مدينة روما الشهيرة المنيعة. ولنأمل أن تخضع الأسطورة في حديثنا الى

---

(١) احد الذين صادقهم پلوتارخ اثناء اقامته في روما، وأعظمهم نفوذاً. فقد تولى منصب القنصلية اربع مرات ما بين اعوام ٩٨-١٠٧. واعتاد پلوتارخ توجيه كثير من رسائله في الأخلاق اليه. وعلينا ان لانخلط بينه وبين سينيشو الذي قتله [دوميتيان] لأنه دوّن سيرة [هلڤيديوس پريسكوس]، والى الشخص عليه وجه پلوتارخ أيضاً سيرتي ديموستينس وديون.

(٢) الجغرافيون أو المؤرخون كما ورد في الأصل. دليلاً وليلاحظ ان الجغرافيين الأوائل لم يكونوا يقنعون باثبات المواقع والمسافات، بل يبحثون في الأحداث والعادات والأخلاق وانظمة الحكم ومن أمثال هؤلاء [سترابون] و[پاوسنياس] وحول تيسيوس وتاريخه فالمؤرخون على خلاف. فلوح أكسفورد مثلاً يعني اتحاد المقاطعات الاتيكية وتأسيس الالعاب الاستمية في ١٢٥٩ ق.م وبلير Blair يحدد تأريخ هذين الحدثين في ١٢٣٤ ق.م اي بعد حملته على كريت بسبع عشر سنة.

(٣) «سبعة ضد ثيبة» الص ٤٣٥، ٣٩٥.

عملية غربلة عقلية بحيث تأخذ شكل التاريخ الصحيح، وعلى أية حالٍ فحيثما يوجد من الأساطير ما يستعصي على المنطق السليم، ويأبى أن يتحول الى اي شيء قريب من الحوادث المحتملة، ليس لنا إلاّ أن نرجو العثور على قراء كرماء يتقبلون أساطير القدماء برحابة صدر وإغضاء. ويبدو [ثيسيوس] شبيهاً [بروموليوس] من نواح كثيرة. فكلاهما لم يكن ثمرة زواج شرعي، وكلاهما مطعون في نسبه، وكلاهما اشتهر بانحداره من عُترة الآلهة و...

«كلاهما محاربٌ ولا احد ينكر ذلك[٤]»

كلاهما امتاز بقوة في الجسم ومضاء في العقل متساوٍ. أحدهما بنى روما وثانيهما ملأ آثينا بالسكان، وروما وآثينا أشهر مدينتين في العالم طراً، واتهم كلاهما باختطاف النساء ولم يخلصا في وطنيهما من النوائب العائلية ولا من الكيد. وتعرضا معاً لسخط بني قومهما قبل ان ينتهي بهما العمر؛ هذا اذا اتخذنا من الحكايات الشعرية الخيالية دليلاً الى الحقيقة.

ترتفع شجرة نسل [ثيسيوس] من جهة الأب حتى تصل الى [إرخثيوس Erechtheus][٥] والى أقدم من سكن [اتيكا Sttica] أما من جهة امه فهو سليل [پيلوپس Pelops][٦] وكان هذا، أقوى كل ملوك الپلوپونيسوس Peloponnesus] لا بما يملك من مال، بل بكثرة ما لديه من اولاد. لأنه تزوج بنات عدد كبير من الزعماء، وولى عدداً كبيراً من أولاده حكم البلدان التي تجاور مملكته. ومن بين اولاده [پيتيوس Pittheus] جدّ [ثيسيوس]، كان مؤسس المدينة صغيرة يسكنها قوم [الطرويزينيين Troezenian][٧]. وعرف بإحاطته بكل الحكمة والمعرفة التي وصل اليها عصره. ويبدو أنها تتألف من مبادىء الأخلاق أساساً. ومنها نال [هسيود] الشاعر شهرته في كتابه «الأعمال والأيام» وبين ما يتضمنه في الواقع بيت يُعزى الى [پتيوس] وهو «ان المكافأة التي يوعد بها صديق عزيز يجب ان تكون أكيدة

---

(٤) الالياذة ٧:٢٨١. عن تيلامون وهكتور.

(٥) فهو الجيل السادس المنحدر من صلب ارخيتوس. وقيل انه ابن فولكان ومينرڤا أو كراناي Cranäe حفيدة كراناؤس ثاني ملك في أثينا. لذلك كان پلوتارخ محقاً في قوله انه من صلب [اوتو خوثونس]. أو ان سكان أتيكا الأوائل سموا بهذا لأنهم يدعون بولادتهم من تربة البلاد، [هيرودوتس وتوكيديدس].

(٦) ابن تانتالوس Tantalus من أصلٍ فريجي هاجر الى اتيكا حاملاً ثروة كبيرة جمعها من تنقيبه في مناجم بالقرب من سپيلوس. وبفضل ثروته هذه ضمن لابنائه حكم اضخم المدن وأكبرها وكانوا أحد عشر. كما انه زوج بنيته لأميرين فكانت (ليسيديسي) زوجاً (الكتريون) أو نسطور ابن پرسيوس ملك تيرنثس. وكانت (أستيداميا) زوجاً لـ(ستنيلوس) ملك (ميسين).

(٧) ترويْزينه: مدينة صغيرة ارغوليسية تقع على ساحل خليج سارون قبالة آثينا في الپلوپونيس و(پاوسنياس) يتفق تقريباً مع الرواية نفسها ويقول انه علّم الفصاحة في ترويزينه واضاف «لقد قرأت كتاباً من تآليفه، اعطانيه رجل في ابيداروس» [ج ٢ ص ٣٠ و٣١].

وكبيرة[٨] أو كما جاء في ارسطو[٩] وكذلك [يوريبيدس] عن رأي الناس فيه، عندما يصف [هيپّوليتوس Hippolytus] بأنه «تلميذ پتيوس الآلهي!»[١٠].

كان [ايجيوس] ملك آثينا يصبو الى عقب، فاستخار في ذلك الكاهنة الپيثية وجاءته النبوءة الشهيرة وكانت غامضة جداً، فلم يكن على ثقة بأنه ممنوعٌ من الجماع بصورة باتّة، فقصد [طراويزين] والقى على اسماع [بتيوس] صيغة النبوءة وهي كالآتي:

لاتحلّ عنق زقِ الخمر البارز يا زعيم الرجال العظيم حتى تعود الى آثينا مرة أخرى[١١]

الظاهر ان پيثيوس فهم معنى النبوءة. فإما أقنعه أو اغراه بمضاجعة [إيترا Aethra] بنته، وعلم [ايجيوس] فيما بعد أن من ضاجعها هي بنت [پيتيوس] ولشكه في انها علقت منه، ترك سيفاً وزوجٍ نعالٍ في محل خفاء تحت صخرة عظيمة فيها تجويف بمقدارها تماماً. ثم ودعها بعد ان أطلعها على السرّ وحدها. واوصاها في حالة وضعها طفلاً ذكراً، إن تخبره بحقيقة نسبه عندما يبلغ مبلغ الرجال ويكون قادراً على زحزخة الصخرة واستخراج ما أخفاه، وان تبعث به مع هذه التذكارات اليه وان تكتم الأمر عن كل احدٍ وتوصيه أن يخفي أمر رحلته هذه قدر الامكان لخوفه عليه من الپاللانتيين] الدائمي الثورة عليه. فهؤلاء كانوا يزورونه لأنه بدون عقبٍ، وكانوا هم أنفسهم خمسين أخاً كلهم من صلب پاللاس Pallas[١٢] أبيهم وأخيراً بعد توصيته هذه ترك ايثرا. ووضعت [ايثرا][١٣] ذكراً. وقال بعض الكتاب إنه سمي (ثيسيوس) في الحال تيمّناً بالتذكار[١٤] الذي تركه أبوه تحت الصخرة. وزعم آخرون ان هذا الاسم لحق به في اثينا بعد أن أقرّ ايجيوس ببنوته. ومهما يكن من أمرٍ فان الابن نشأ في

(٨) عاش [هسيود] في حدود خمسة قرون بعد [بثيوس] وهذا المقطع هو رقم ٢٧١.

(٩) المقطع رقم ٥٥٦.

(١٠) هيبوليتوس ١١.

(١١) المرجع السالف يوريپدس: ميديا ٦٧٤ و٦٧٦.

(١٢) باللاس هو أخ لايجيوس. ولما كان قد حكم على ايجيوس بالاّ ينسل فقد اعتبر الپالانتيدي مملكة اثينا ميراثهم الذي لانزاع فيه.

(١٣) يقول پاوسانياس انه ولد في موضع دعى آنذاك وبعده لزمن طويل بـ[جنثليُون] وهو قريب من ترويزينه. واليه ارسل بثيوس ابنته لتعزو الطفل الى [بنتون].

(١٤) اليونان كالآراميين والعبرانيين وغيرهم من الشعوب القديمة، يسمون الاشخاص والاشياء بصفات الاحداث والوقائع والظروف التي يتفق وقوعها مع الطهور او الولادة. والكلمة اليونانية [بتيوس] تعني (وضع) وحملة [بتباونوك] معناها [تبنى ولداً] وقد فعل ايجيوس الشيئين وكانت مراسيم التبني ضرورية لاعانة تيسيوس على وراثة العرش. فهو ابن غير شرعي.

رعاية جده [پتيّوس] حتى وعين له [كونيداس Connidas] مربياً وحارساً. والآثيـيـون حتى يومنا هذا يقدمون له كبشاً في اليوم[١٥] السابق للعيد المخصص لـ[ثيسيوس] ويكرمونه أكثر من [سيلانيون Silanion وپاراسيوس Parrhasius][١٦] اللذين عملاً لـ(ثيسيوس) تماثيل وصوراً منحوتة. وهم في ذلك محقّون.

كان العرف السائد في بلاد اليونان يومئذ أن يقصد الشاب [دلفي] عندما يبلغ الحلم، ويقرّب للرّب أول ثمار شعره النامي. وكذا فعل [ثيسيوس]. (هناك موضع ما زال يحمل اسمه يقال أنه سُمي كذلك خصيصاً).

وجَزّ ناصيته فحسب، مثلما عمل [الأبانتيون Abantes][١٧] على ما يقول [هوميروس][١٨]. وأطلق على هذه الطريقة في قصّ شعر الرأس اسمه أيضاً. على أن [الأبانتيين] كانوا قد اتخذوه زيا لهم لا تقليداًللعرب كما يتصور بعضهم، ولا للميسيين Mzsians منا زعم بعضهم وانما لكونهم قوماً محاربين تعودا القتال وجهاً لوجهٍ وامتازوا عن سائر الاقوام بانهم يشتبكون بالأيدي من أعدائهم كما شهد لهم أرخيلوخوس Archilo-chus[١٩] بأبياته التالية:

«لا مجال ثم لدوران المقالع في الهواء. ولا فسحة لشدّ القوس عندما يقدم آرس المخيف يخطر ليشارك في مثار النقع هناك في السهل فهذا قتال التلاحم بالايدي وهؤلاء الرجال هم منه اساتذته. سادة أوبويا الرماحة الذين طبق ذكرهم الآفاق»

وأسلوبهم هذا في القتال أوجب عليهم ان يجزوا نواصيهم حتى لايمكّنوا اعداءهم منها.

---

(١٥) ومن هنا كان المثل اليوناني «لايمكن الوفاء بدين المعلم الاّ بتقديم أعظم التكريم له».

(١٦) كان ثم صورة لتيسيوس في الكاپتول من عمل پاراسيوس تمثل معركته مع المونيتاور بقيت حتى زمن پليني: [تاريخ الطبيعة ٣٥: ١٠] هذا الرسام الشهير عاش في حدود القرن الرابع ق.م. وامّا [سيلانيون] فهوو مثال برونز معروف كان معاصراً للاسكندر المقدوني تقريباً.

(١٧) الأبانتيون: سكان أوبويا إلاّ ان أصلهم من أباي وهي مدينة في تركيا من هذه العبارة يبدو ان پلوتارخ انما يشير الى العادة التي تعود الى زمن ابعد بكثير من زمن تيسيوس. إلاّ ان [يوستاتيوس] يزعم ان تيسيوس هو الذي استحدث العادة ويقول ان التقدمة لم تكن في دلفي بل في ديلوس. وانها قاصرة على الترويزينيين وبعد عهد تيسيوس بدا واضحاً من لوشيان ان العادة فرضت تكريماً لهيپوليتس على الجنسين بوصفها اجراءً ضرورياً لإتمام الزواج. في طور الرجولة يجز الشعر الذي يبقى ذلك الحين مرسلاً في الهيكل ويوضع في وعاء فضيّ أو ذهبي يحفر عليه اسم صاحبه ويكون من اوقاف (اپوللو).

(١٨) الالياذة ٢: ٥٤٢، ٥٤١.

(١٩) شاعر أغريقي عاش في حدود متنصف القرن الثامن (ق.م.) وكان هوميروس قد تكلم بعين هذا عن الابانيتين قبله بثلاثمائة سنة. (واجع الحاشية السابقة) حيث يقول ان الابانيتين خرقوا دروع اعدائهم برماح طويلة اعني انهم التحموا معهم بالأيدي.

والمؤرخون يذكرون أيضاً ان هذا السبب هو الذي حدا بالاسكندر المقدوني أن يأمر رؤوساء جيشه بحلق لحى المقدونيين كافة، لأنها نقطة ضعف فيهم، قد يستفيد منها العدّو...

ظلّت [ايثرا] تكتم حقيقة نسب [ثيسيوس] طوال طفولته وأعلن جدّه [پتيوس] للناس ان الوليد هو لقح نطفة الرب بوسيدون [نبتون].

لنبتون عند الطراويزينيين مكانة خاصة لاتعدلها مكانة ربّ آخر فهو الآله المعلم المرشد لهم. واليه يقدمون اولى ثمارهم، وهم ينقشون على نقودهم صورة رمحٍ ذي ثلاث شعبٍ تكريماً له.

وأظهر ثيسيوس قوة جسم خارقة وبأساً ومراساً وخفة وعقلاً وفهماً مساوياً لتلك القوة. وأخذته أمه الى الصخرة وهناك افضت اليه باسم أبيه وأمرته ان يزحزح الصخرة ويستخرج من جوفها تذكاري ابيه [ايجيوس]. فأقبل على الصخرة دون تردد ولم يلق صعوبة تذكر في رفعها[٢٠]، لكنه رفض أن يقوم برحلته بحراً وإن كانت أسلم وسيلة للسفر - ورغم رجاء امّه وجده ففي ذلك الزمن كان الطريق البريّ الى اثينا محفوفاً بالأخطار والمكاره الجسام ليس فيه جزء خلا من قتلة وقطاع طرق. في ذلك العصر، نجم صنف من الرجال تميزوا بقوة الساعد وخفة القدم وشدة العضل تفوقوا في هذه المظاهر الجسمانية على البشر العادي فلم يعرفوا للتعب معنى وأبوا استخدام هذه الطاقات العظيمة من نعم الطبيعة في غايات سامية تمت الى الخير وتعمل لمنفعة البشر وانما اتخذوا الاعتداء والارهاب ديدنا، وجعلوهما مصدر استمتاعٍ وتبجّح. واعانتهم قواهم الخارقة على ممارسة أعمال القسوة واللانسانية وصرفوا تلك الطاقات في النهب والسلب والغصب وارتكاب كل المحرمات بحق كل من يقع في ايديهم. وفي رأيهم أن احترام الآخرين، والتمسك باهداب العدل، والمساواة والانسانية، وهو موضع اجلال الناس العاديين، انما يعود الى افتقار اولئك الى عنصر الاقدام والقدرة على الأذية، أو الى خوفهم من التعرض الأذى. وهي مما لا شأن به لأولئك الذين بلغت قوتهم حداً تشبع به مطامعهم وترضي غرائزهم. وكان (هرقل) قد قضى على طائفة من هؤلاء، فبطش بهم اثناء مروره في تلك البقاع، وأغفل بعضهم فهربوا وأخفوا أنفسهم عنه، فتغاضى عنهم أحتقاراً لخضوعهم الذليل. ثم ركبت هرقل المصائب فأنشغل بها. وبعد ان قتل [ايفيتوس Iphitus] عاد الى [ليديا] وظلّ فيها عبداً رقيقاً [لأومفاله Omphale][٢١] بمثابة عقوبة فرضها هو على نفسه

(٢٠) منذ ذلك الحين باتت تدعى بـ(صخرة تيسيوس) وكانت تعرف قبلاً باسم «مذبح چوپتر ستينيوس».

(٢١) القتلة يختارون النفي لأنفسهم عادةً ويفرضون على أنفسهم نوعاً من العقوبة يمارسونها حتى تحصل لديهم القناعة بأنهم استوفوا حظهم. لقد قذف (هرقل) [ايفيتيوس] ظلماً من فوق اسوار [تيرنثوس] لأن اباه [يوريتوس] نقض العهد معه اذ وعده بابنته [ايولي] زوجاً بشروط معينة نكث بعهده فاستجار (هرقل) بـ(نيلوس) أولاً فلم يجره. ثم نجح في مسعاه مع [ديوفوبوس]. لكنه بقي يعاني مرضاً عضالاً. فاستخار =

لارتكابه جريمة القتل تلك. وفي هذه الفترة التي قضاها هناك تمتعت بلاد ليديا بعهد من الأمن والطمأنينة لا مثيل لهما. على أن الحياة دب دبيبها في أولئك الأوغاد وانتشروا ثانية في بلاد اليونان والانحاء المجاورة، وانطلقوا يعيشون فيها فساداً ولم يكن هناك رادع يردعهم، ولا أحد ينزل بهم العقاب. ولذلك كانت الرحلة البرية بين اثينا وپيلوپونيسوس محفوفة بأعظم المخاطر. وحاول الجدّ [ثيسيوس] عن عزمه السفر برا بشرحه اعمال كلّ واحدٍ من الاشرار وقطاع الطرق وبيان قوتهم وافانين قسوتهم التي يمارسونها ضدّ المسافرين، علّه يقنع بالسفر بحراً. لكن يظهر ان ثيسيوس كان متأثراً منذ زمن بعيد بمآثر هرقل واعماله المجيدة وكان ينزله منزلة من الاكبار لا مزيد عليها. ولم يكن يسرّه شيءٌ أكثر من اصغائه الى كل من يروي طرفاً من وقائعه، وخصوصاً أولئك الذين رأوا بأم العين أو كانوا شاهدي عيان عمل قام به أو سامعي أي قول قاله، وتملك ثيسيوس الشعور الذي انتاب [تيموستوكلس][٢٢] وبعده باحقاب، عندما قال أن النوم يعزّ عليه إلاّ بعد أن يحوز شكة سلاح ملتيادس Miltiades ويلغ أعجابه بخصال هرقل مبلغاً عظيماً حتى ان احلام ليله كانت تدور كلها حول اعمال ذلك البطل. وفي اثناء النهار كانت رغبته المستقرة في تقليد تلك الأعمال، تدفعه دفعاً الى القيام بمثيلاتها.

زد على هذا فقد ذُكر ان هذين البطلين يمتان أحدهما الى الآخر بصلة رحم. لأن [ايثرا] هي بنت [پتيوس] و[الكمينا Alcmena] هي بنت [السيديسي Lycidice] وپتيوس أخ للأخيرة، وكلاهما ولدا [هيپوداميا وپيلوپس]. لذلك لم يحتمل [ثيسيوس] أن يصول هرقل ويجول في طول البلاد وعرضها يطهر البرّ والبحر من الأشرار بينما يتهرب هو من مثل هذه المغامرات التي جاءته منقادة من تلقاء نفسها، ولم ير هذا مما يشرفه وانما يلحق العار بسمعة ابيه الشهير، بفراره المخزي عن طريق البحر فلايستطيع ان يقدم بمآثره وجلائل برهاناً لأبيه الحقيقي، على عظمة ميلاده، بدلاً من برهان السيف والنعلين.

فانطلق تحدوه هذه الغاية وتملأ نفسه تلك الأفكار. عازماً على أن لايلحق بأحد سوءً، بل ان يقاتل كل من يعترض سبيله متحدياً، وان ينتصف لنفسه ممن ينوي به شراً. وكان اول من بطش به [پرفيتس Periphetes] في معركة فردية جرت بالقرب من اپيذاوروس Epidaur-us[٢٣] وكان خصمه يستخدم الهراوة سلاحاً. ومن يومها لصق بثيسيوس لقب [كورينتس

= (دلفي) فنبّه بأنّ عليه أن يبقى رهن العبودية ثلاث سنوات ليتحقق له الشفاء. ولذلك قام (عطارد) ببيعه لـ(أفعاله) ملكة ليديا.

(٢٢) انظر سيرة تموستكليس.

(٢٣) منطقة في البلوپونيسس.

Corynetes] أي حامل الهراوة وكان القتيل قد أعترض سبيله وحال بينه وبين السير. لقد راقت له تلك الهراوة فجعلها سلاحه واستخدمها كما استخدم هرقل جلد الأسد بالقائه على منكبيه ليظهر مبلغ ضخامة الوحش الذي بطش به. فحمل ثيسيوس الهراوة لهذا السبب واصبحت اقوى سلاح في يده، وانه كان قد قهرها وهي في يد صاحبها.

ومضى في رحلته حتى برزخ [پيلوپونيسوس] وهناك فتك بالمدعو [سنيس Sinnis] المعروف بلقب. «لَوّاء جذوع اشجار الصنوبر»[٢٤] (مأخوذا من طريقته في القضاء على ضحاياه الكثيرين) فقتله بالطريقة نفسها، دون أن يسبق له ممارسة ذلك من قبل. وفي هذا برهان على ان القوى الطبيعية هي فوق كل فن وخبرة. وكان [السينيس] هذا بنت ـــ الطول في غاية الجمال تدعى [پيريغونه Perigune] عندما سقط ابوها قتيلاً هربت لاتلوي فلحق بها [ثيسيوس] باحثاً عنها في كل مكان. وبلغ بها المطاف موضعاً تنمو فيه الشجيرات، والطرفاء والشوك، فراحت الهاربة تتضرع الى النبتات ببراءة الطفولة لكي تخفيها عن مطاردها - كأن للنبات عقلاً يدرك! - ونذرت إن نجت، الا تقطعها ولاتحرقها إلاّ ان ثيسيوس ناداها ووعدها أن يعاملها باحترام ولا يلحق بها اذية. فخرجت اليه من الدغل. وبعد اكتمال ايامها وضعت له ابناً عرف باسم [ميلانيپوس Melanippus] على انها تزوجت فيما بعد [ديونيوس Deioneus] ابن [يوريتوس Eurytus] الأوخالياني، وثيسيوس هو الذي زوجه اياها. إن [ايوركسوس Iorxus] ابن [ميلانيپوس] ولد ثيسيوس رافق اورنتوس Ornytus مع من رافقه من المستعمرين الى كاريا Caria وقد اعتادت أسرة الايوكسيدس Ioxids المنحدرة من صلبه ألاّ يحرق نساؤهم أو رجالهم شوكاً أو طرفاء اجلالاً وتكريماً لهذا النبات وايفاء بنذر أمهّم.

كانت الخنزيرة المسماة[٢٥] [فيا Phaea] وحشاً ضارياً هائل الجثة، وخصماً لايستهان بأمره قط وقد عاثت فساداً في كرميون لكن ثيسيوس انحرف عن سبيله قصداً ليلقاها ويقاتلها ويفتك بها[٢٦]. حتى يبرهن انه لايقوم بكلّ مغامراته بدافع الحاجة. ومن رأيه ان

---

(٢٤) لقب بذلك كان ثني رأسي شجرتي صنوبر وشد المسافرين اليهما فاذا أطلقا ليعودا الى وضعهما تمزق المربوط بها الى اشلاء. ان پاوسانياس فضلاً عن اوڤيد ٤٠:٧، يسميانه (سينس) ويقول ان واحدة من هاتين الشجرتين بقيت حتى عهد الامبراطور الروماني [هادريان].

(٢٥) باليونانية تعني: ذات اللون الغامق. ويقول سترابو ان هذه الخنزيرة ولدت الخنزير الكاليدوني الذي فتك به ملياجر. وكروميون تقع على الحدود التي تفصل كورنث عن ميغارا.

(٢٦) في هذه الحادثة يبدو أن بطلنا حاد عن مبدئه الذي انطلق من أجل تحقيقه وهو ان لايكون الجانب المعتدي في نزالٍ. كانت الخنزيرة الوحشية على اية حال اكثر احتراماً من إحناء شجرتي الصنوبر.

معاقبة الأشرار والمعتدين الذين يعترضون سبيله، انما هو جزءٌ من واجب الرجل المقدام، وان عليه فضلاً عن ذلك البحث عن الضواري والوحوش المفترسة الهائلة والبطش بها، ان بعض الكتاب يزعمون ان (فيا) كانت قاطعة طريق تعيش في [كريميون] شديدة القسوة كثيرة الطبع، ولقبت بالخزيرة لقذارة عيشتها وانحطاط خلقها وقد قتلها ثيسيوس فيما بعد.

كذلك قتل [سكيرون] على حدود [ميغارا] أو قذف به الى الهاوية من فوق الصخور، وكان هذا كما زعم معظم الكتاب لصّاً سيء الصيت يتعرض لكلّ المسافرين، وروى بعضهم انه كان يمدّ قدميه طالباً من عابري السبيل ان يغسلوهما، وفيما هم يفعلون ذلك يركلهم فيقذف بهم من الصخور الى البحر، شراً منه وشراسة، على ان كتاب (ميغارا) «يتحدّون كل الأخبار القديمة» في نقض هذه الرواية ويقولون ومنهم سيمونيدس Simonides ان (سكيرون) لم يكن قاطع طريق ولا رجل شرّ وعنف بل خصماً وعدواً لهؤلاء الاشرار وصديقاً للناس الأخيار ويقولون اثباتاً لذلك إنّ (أياكوس Aeacus) كان رجلاً عظيم القداسة، وهو موضع احترام جميع اليونانيين، كما أن (صخريوس Cychreus السلاميسي، يجله الآثينيون ويعبدونه عبادة الأرباب، وان فضائل (پيليوس Peleus وتيلامون Telamon] ليست بالمجهولة من أحدٍ، و[سكيرون] هذا، هو زوج بنت [سخيروس] وحمو [اياكوس] وجَدّ [پيليوس] [وتيلامون] وكلاهما ابنا [انديس Endeis] بنت سكيرون[٢٧] وخاريكلو Cha-riclo وليس من المحتمل اذن، أن يصاهر خير الرجال شرهم ويتحدوا بهم برابطة القرابة والنسب. يأخذون منه ويعطونه ما هو أغلى قيمة واعزّ شيء في الحياة. وبحسب ما روى اولئك الكتاب ان ثيسيوس لم يبطش [بسكيرون] في رحلته الأولى الى اثينا. وانما عندما استولى على [اليوسس] المدينة التي يقطنها الميغاريون بعد أن هزم حاكمها الأكبر [ديوكلس Diogles].

تلك هي المتناقضات التي تجدها في الحكاية، وفي تلك المدينة ايضاً قتل [كركسيون Cer-cyon] الاركادي في نزال فردي فأراده في الحال[٢٨] وسار حتى بلغ [ارينيوس Erineus] وفيها قتل داماستيس الملقّب بروكروستوس بإرغامه على جعل قبره بقدر جسمه كما اعتاد

(٢٧) ايللودورس يجعلها ابنة (خيرون) الا ان زعم پلوتارخ هو الأصدق والأصح اذ انه يدلي بحجة منطقية لهذه الرابطة ويتفق مع پاوسنياس في ذلك.

(٢٨) ظلت البقعة تسمى (سيكرون پالسترا) الى زمن پاوسنياس. كان سيكيرون أوّل من أستخدم الاصول الفنية في المصارعة لكن (مينرڤا) ساعدت (تيسيوس) على الغلبة بفضل تدريبها له.

ذاك ان يفعل بكلّ ضحاياه. وبهذا سار على نهج [هرقل] الذي كان دائماً يذيق المعتدين عليه ما كانوا يقصدون ان يذيقوه لو ظفروا به. وذبح [بوسيريس] وقدمه قرباناً، وقتل [آنيتوس] في مصارعة فردية. وفتك بـ(كيكنوس Cycnus[٢٩]] في معركة واحدة حاسمة. وقضى على [يترميروس] بتكسير جمجمته قطعاً ومنها جاء المثل السائر «بليّة تيرميروس»[٣٠]، فالظاهر ان يترميروس كان يقتل المسافرين بأن يفطحهم برأسه نطحاً.

هكذا مضى ثيسيوس قدماً في الاقتصاص من الأشرار. فأذاقهم ما كانوا قد أذاقوه للآخرين وجزاهم جزاءً وفاقاً عن كل المظالم التي اقترفوها.

وبوصوله نهر [كفيسوس] لقيته زمرة من قوم [فيتالدي][٣١] واقرأوه التحية ولبوا طلبه في التطهر كما قضت عادات تلك الأيام، وقاموا بالمراسيم المعتادة طبق المرام. وبعد ان قرب قربان الرضا للأرباب استضافوه وأدبوا له في بيتهم. فكان كرماً وعطفاً منهم لم يلق مثله منذ بدء رحلته حتى وصوله اليهم.

وبلغ آثينا في الثامن من شهر (كرونيوس Cronius) الذي يسمى الآن هيكاتومبيون Hecatombeon فوجد الأحوال العامة في غاية الاضطراب والمدينة منقسمة الى حزبين وشيعتين، ولم يخلص ايجيوس واسرته من هذه الفوضى والقلق. اذ كانت [ميديا Medea] تعايش [ايجيوس] بعد فرارها من [كورنث] وقد وعدته انها ستجعله قادراً على انجاب اولاد بقوة سحرها. وهذه المرأة هي اول من وقفت على سرّ [ثيسيوس] الذي بقي أمره مجهولاً من ايجيوس حتى ذلك الزمن، وبما انه بلغ من العمر عتياً وركبته الهواجس وتناهبه الشكّ والغيرة وملأ الخوف جوانب نفسه من كل صغيرة وكبيرة بسبب وجود الحزب المناوىء له في المدينة، فقد سهل على هذه المرأة إقناعه بقتل [ثيسيوس] بالسُمّ اثناء مأدبة كان سيحضرها بوصفه

---

(٢٩) في النص الأصلي [هرميونه] والارجح انه پلوتارخ مخطئ هنا اذ لا يعرف ثم موضع بهذا الاسم أو ما يقرب منه. والمؤرخون بعد [فيلوخورس] يطلقون عليه اسم (ترميونه). (في ترجمتي B. P. ودرايدن، أُثبتت كما اوردناها هنا في ترجمتنا العربية).

(٣٠) كتابٌ آخرون يعزون لهذا المثل أصولاً أخرى، فـ(كويداس) يشتقه من موقع مستحكم في (كاريا) بين (ميلوس) و(هلكارناسوس)، يدعى (ترميريوم) استخدمه الطغاة بمثابة مطبق للمسجونين. اما ابوستوليوس فيعزوه الى آخر أيام الحياة ويسمى ترميا.

(٣١) هؤلاء هم نسل فيتالوس الذي افضت اليه سيريس الربّة، بسرّ زراعة شجرة التين والاشراف على أسرارها مكافأة له على حسن ضيافته لها في منزله لم يجد (تيسيوس) نفسه مهيئاً لأقتبال تلك الأسرار قبل التطهر ذلك لأن يديه كانتا مغموستين بالدم وان كان دم اللصوص وقطاع الطرق. تطرّف الاقدمون في فكرة التطهر الى أقصى حَدّ. حتى ان ابوللو نفسه أرغم على القيام بمراسيم التطهر بعد قتله الأفعى (بيثون) التي الحقت الدمار باليونان. وقد جرى تطهير (تيسيوس) في مذبح چوپتر قرب نهر (كينسوس) (انظر باوسيناس ١: ٣٧).

من الغربـاء عن المدينة. وصل الى مـوضع المأدبة وهو يميل الى التريث في كشف أمـره، حتى يتيح لأبيه فرصة اكتشـافه اولاً. وجيء باللحم ووضع فوق المائدة فـانتضى ثيسيـوس السيـف كأنما يريد اقتطاع فلذة من اللحم. فتعرف ايجيوس على التذكار حالاً ورمى بقدح السمّ. وبعد أن القى بضعـة اسئلة على ابنه عـانقه، وجمع كل مـواطني المدينة واعـترف علناً بـابوته له. فرحبوا هم به أيضاً لأن شهرته سبقته اليـهم، وقيل انه لما سقط قدح السم اندلق مـا فيه فوق بقعة هي الآن موضع مسـور في [دلفينيوم][٣٢]. وهي الأرض التي كان يقوم علـيها منزل ايجيوس. اما تمثال [مـارس] الذي هو في الجهة الـشرقية من المعبد فيسمى [تمثال مارس في باب ايجيوس].

كان ابناء [پاللاس] قبل ظهـور [ثيسيوس] قد أخلدوا الى السكينة انتضاراً لموت ايجيوس لاستعادة الملك بدون عنفٍ لانه لم يخلّف نسلاً. فلّما تقرر ان يخلفه ثيسيـوس في الحكم ثار حنقـهم واجتـاحتـهم الثورة: فـهذا ايجيـوس اولاً لايعـدو أن يكون ابنا مـتبنّى لپانديون Pandi-on[٣٣] ولايمت بصلة قرابة لأسرة [ارختيوس]، يضبط الملك عنوةً واقتداراً، وذاك [ثيسيوس] الزائر الاجنبي الغـريب عن الديار قـدر له ان يخلفه في الملك!... لم يصـبروا وأعـلنوها حـرباً، وقسموا جموعـهم الى قـسمين: الأول زحف علناً على المدينة من [سفيتوس Sphettus] بقيادة ابيـهم والثـاني نصب كمـيناً في قـرية (غـارغـتّس Gargettus) قـاصـداً الايقـاع بالعـدو من الجانبين. وكان مع هؤلاء منادي مدينة آغنوص المدعو [ليوس Leos] فـأقبل على ثيسيـوس وكشف له خطة اليالانتيد فما عتم أن فأجأ اولئك الكامنين وأبادهم عن بكرة ابيهم. ولما وصل نبأهم پاللاس وزمرته هربوا وتفرقوا.

ومن هذا نشـأت عـادة عند أهالي مـدينة [پاللين Pallene] على شـائع القـول وهي أن لايرتبطوا باي تحالف أو مصـاهرة مع سكان قـرية (اغنوص) وأن لايدعـوا المناديـن يلفظون في اعـلاناتهم الكلمات الشائعة في كل انحاء البلاد وهي « اكويتي ليوي» اي «أيها الناس أسمعوا» كارهين سماع كلمة (ليو) بسبب خيانة هذا الرجل.

كان ثيسيوس مشوقاً الى العمل، راغباً في ذيوع صيته. فترك آثينا ليقاتل ثور [ماراثون] الذي اوقع اضراراً ليست بالقليلة بسكان مدن [تتراپوليس Tetrapolis][٣٤]. وبعد أن تغلّب

---

(٣٢) دلفينيوم: ان مـوقع هذا المحراب المخصص لاپوللو دلفي مـا يزال مـوضع تسـاؤل، وحدس. ويقـع على العموم شرق الاولمپيوم.

(٣٣) في الواقع ان (ايجيوس) ليس ابن (پانديون) بل ابن (سكيرياس).

(٣٤) من مناطق اتيكا، سميت بهذا الاسم لاحتوائها على أربع مدن وهي [زينومـيي، مـراثون، پروبالنثس، ترايكورنثوس] بناها (كسوثس) خَتَنُ أرخيثيوس.

عليه قاده حياً ودخل به دخول الظافرين الى المدينة ثم نحره قرباناً (لاپوللو دلفي)[٣٥] وتبدو حكاية (هيكاله Hecale) واكرامها ثيسيوس واستضافته في حملته هذه، وكأنها لاتخلو من الحقيقة. فقد جرت عادة أهالي المدن المجاورة ان يجتمعوا في يوم معين لتقديم قربان [لجوپيتر هيكاليوس] يطلقون عليه اسم «هيكاليسيا»، تكريماً لهيكاله ايضاً. (يطلقون عليها اسم التصغير هيكالين - والسبب في هذا يعود الى انها كانت تخاطب ثيسيوس وهو شاب عندما استضافته. بمثل كلمات التحبب هذه كما يفعل كبار السن لصغارهم، وكذلك لأنها نذرت لأجله قرباناً لجوپيتر اذا عاد سالماً من القتال، لكنها ماتت قبل اوبته، فجوزيت بهذا الاكرام رداً لجميلها، وذلك بأمرٍ من ثيسيوس على ما يحدثنا [ميلوخورس][٣٦]. ولم يمرّ زمن طويل حتى أقبل على المدينة محصلو الجزية من كريت لأخذ القسط الثالث. وكان الاثينيون يدفعونها للسبب التالي: قُتل اندروغيوس Androgeus[٣٧] قتلةً غادرة على حدود [اتيكا] فلم يكتف [مينوس] أبوه بجرّ المصائب الشداد على الآثينيين بحروبه المتتالية، بل انضم اليه الأرباب وأحدثوا الخراب في البلاد وجعلوها بلقعاً يباباً، فنزل بهم القحط وفتك بهم الوباء وجفت انهارهم، ونزلت عليهم نبوءة مفادها ان غضب الآلهة لن ينفثيء إلاّ اذا استرضوا [مينوس Minos] وصالحوه، واذ ذاك سيزول عنهم بؤسهم ويحسر عن كواهلهم الشتاء فأرسلوا اليه رسلاً وبعد كثيرٍ من الالتماس والرجاء صالحوه أخيراً على شروطٍ وهي أن يدفعوا لكريت كل تسع سنوات جزيةً تتألف من سبعة فتيان وسبع عذارى. وهذا ما أتفق على ايراده معظم الباحثين والحكاية الأخرى التي تحفل بالشعر والخيال تضيف الى ما تقدم أن غول [مينوتاور Minotaur][٣٨] التيه كان يفترسهم، او انهم يهيمون على أوجههم في التيه لا يجدون فيه منفذاً للخروج فتنتهي حياتهم هناك اشنع نهاية وان هذا الغول كان على ما يصفه يوريپيدس: شكلان ممتزجان، يتألفان من خلقتين مهولتين ذات طبيعتين متنافرتين: ثور ورجل مجتمعين![٣٩]

---

(٣٥) ديودورس (٥٩:٤) يعزو هذا القربان لـ(ايجيوس).

(٣٦) فيلوخورس مؤرخ آثيني (٢٠٠؟ ق.م) كتب مقولات ثمينة عديدة اورد (سويداس) قائمة بها لكن لم يصلنا شيء منها خلا بعض المقتطفات التي اقتبسها منه بعض الكتاب.

(٣٧) قال بعضهم ان (ايجيوس) أمر بقتله لأنه كان على اتفاق مع الپالانتيدي ويقول بعضهم ان الثور المراثوني هو قاتله.

(٣٨) اختلقها الشعراء فقالوا انه ابن (پاسيفاي) من نطفة ثور. وپاسناي هي زوج مينوس التي ابتلاها نبتون بهذا الميل الشنيع انتقاماً من مينوس لأنه رفض ان يقدّم له ثوراً جميلاً كان يتوقع ان يكون قرباناً له. ان حلّ هذه العقدة التي تكتنف القصّة من قبل [پاليغاتوس] ليس قوي الاحتمال.

(٣٩) مأساة الأغريق مقطع ٢. ص ٦٨٠.

لكن [فيلوخورس] يقول أن أهالي كريت ينفون هذه المزاعم نفياً قاطعاً ويقولون أن التيه المزعوم ما هو الاّ سجن عادي ليس فيه من صفات السوء إلاّ صفة واحدة وهي انه منيع يصعب على نزلائه الفرار منه. وان [مينوس] الذي أنشأ العاباً تكريماً لذكرى [اندروغيوس] كان يهب هؤلاء الشبان والعذارى جائزةً للفائزين. وكان هؤلاء الأسرى يودعون سجن التيه خلال تلك الفترة. وأول من فاز في تلك الألعاب كان رجلاً يتمتع بقوة عظيمة ومكانة رفيعة، يدعى [طوروس Taurus] وهو شخص قاسٍ لا تعرف الرقة والرحمة الى قلبه سبيلاً كان يعامل الاثينين الذين اعطوا له جائزةً شرّ معاملة وأغلظها. وكان رأي [ارسطو] الصريح الذي أدلى به في معرض بحث كتبه عن دستور شكل الحكم عند [البوتيّان Botiaeans][٤٠] ان مينوس لم يكن يقتل هؤلاء الفتيان، وانما كانوا يقضون بقية حياتهم عبيداً في كريت. وان الكريتيين ايفاءً بنذرٍ قديمٍ قطعوه على أنفسهم منذ زمن طويل قد اعتادوا ارسال قرابين الى [دلفي] من اول ثمار رجالهم وان بعض الذين انحدروا من سلالة هؤلاء الاثينيين العبيد كانوا يخلطون مع التقدمات ويرسلون، وبعجزهم عن العيش هناك رحلوا اولاً الى ايطاليا، وأستقروا حول [اياپيجيا lapygia] ثم انتقلوا منها الى [تراقيا] وأطلق عليهم اسم [البويريتيين] وهذا ما جعل فتياتهم في اثناء تقريب قرابين معينة ينشدن أغنية تبدأ بعبارة «الى اثينا فلنذهب»، هذا ما يكشف لنا الخطر الذي ينطوي عليه عداء مدينة هي سيدة البلاغة وأميرة الغناء. كان [مينوس] دائماً ينعت بأسوء النعوت، ويمثل دائماً بالرجل الشرير على المرسح الأثيني، ولم يفلح [هسيود][٤١] في انقاذ سمعته حين وصفه بـ«مينوس، الذي لايدانيه في ملوكيته أحد»، ولم يفده هوميروس[٤٢] الذي وصفه «صديق چوپيتر الخدين» وكلمته. وظلّ القول الفصل في هذا لكتاب التراجيديا الذي كانوا يمطرونه بوابل من الهجاء والنقد من ارض مسارح تمثيلياتهم ويمثلونه برجل العنف والقسوة[٤٣]. في حين كانت الأسانيد تدل انه ملك سوي، وواضع قوانين. وان المدعو [رادامانثوس Rhadamanthus] كان قاضياً مستقيماً يطبق قوانينه له.

لما حان أجل القسط الثالث من الجزية. ووجب على كل اب له ولدٌ شاب يصلح للإرسال أن

---

(٤٠) لا وجود له. انه مفقود كغيره من المباحث التي عزيت اليه من هذا القبيل.

(٤١) افلاطون: مينوس ص ٣٢٠. هسيود ٧٤.

(٤٢) الاوديّسه ١٩:١٧٩.

(٤٣) هذا الخطأ الذي وقع فيه پلوتارخ، وقع فيه عدد من الكتاب بينهم افلاطون فهناك اثنان باسم [مينوس] احدهما ابن (چوپتر: زفس) و(اوروپه) وهو أميرٌ عادل سامي الخلق. والثاني وهو حفيده ابن (ليكاستس) الذي يقصده پلوتارخ هنا بوضعه اباً لـ(اندرغوس) وكان من الطغاة.

يشارك في عملية الاقتراع العامة لاختيار العدد، ثارت الخواطر على [ايجيوس] وبدأت اتهامات جديدة تنصب من الناس الذين امتلأوا حزناً وسخطاً، فراحوا يقولون: انه وهو سبب كل ما أصابهم من شقاء، الشخص الوحيد السالم من هذه البلوى، وقالوا ايضاً أنه اورث مملكته ابن سفاح اجنبي ولم يعد يهتم بمصيرهم ولا بخسارتهم في ابنائهم الشرعيين لأبناء السفاح، وقعت هذه الاقوال وقعاً شديداً في نفس ثيسيوس، واحتلت كل تفكيره وملكت عليه مذاهبه ورأى أن الواجب يقضي عليه المشاركة في آلام مواطنيه فعرض نفسه ليكون واحداً من الشباب المرسلين الى كريت، دون حاجة الى اجراء قرعة بالنسبة له. فهزّ الناس نبله هزاً وامتلأوا أعجاباً وحبّاً بطبيعة عمله هذا. ووجد [ايجيوس] ابنه هذا مصراً على قراره ولم تفد معه توسلاته الكثيرة، فأستسلم وبوشر باختيار الباقين بالقرعة، على ان [هولانيكوس Hol-lanicus] يخبرنا ان الآثينيين لم يكونوا يستخدمون القرعة لاختيار الشباب والعذارى، وانما كان [مينوس] يأتي بنفسه ويختار من يشاء فكان ثيسيوس اول من اختاره. وتنصّ الشروط ايضاً على أن السفينة التي تقلّ الأسرى تكون من الآثينيين، وان الشبان المبحرين لا يحملون اسلحة حربٍ، وانه ثمّ القضاء على [المينوتاور] تلغى الجزية.

في القسطين الاول والثاني ارسل الآثينيون السفينة بقلوع سوداء اذ لم يكن لديهم اي امل في سلامة اولادهم أو عودتهم، وكانوا واثقين انهم ذاهبون الى قضاء محتوم لا يُدفع. أما الآن وبعد ان شجع ثيسيوس اباه وتكلم كلام الواثق من نفسه، بقتل [المينوتاور] فقد سلم [ايجيوس] ربان السفينة شراعاً آخر ابيض اللون وأمره ان يرفعه على صاري سفينة عند العودة اذا كان ثيسيوس حياً سالماً، واما اذا هلك فليرفع الشراع الأسود دليلاً على وقوع المصيبة. ويقول [سيمونيدس] ان الشراع الذي تسلمه ربان السفينة من [ايجيوس] لم يكن أبيض اللون بل... «قرمزياً منقوعاً في عصير زهرة شجرة بلوط زاهية جداً»(٤٤)

كذلك يكون علامة فرارهم ونجاتهم، ويذكر [سيمونيدس] أيضاً ان ربان السفينة هو [فيريكلوس Phereclus] ابن [امارسياس Amarsyas]، ويقول ان [سيروس] ارسله الى ثيسيوس من سلاميس وانّ [ناوسطثاؤس Nausitthoüs] كان ملاحّ الدفّة، و[فاياكس Phaeax] رقيب مقدمة السفينة. اذ كان الآثينيون في ذلك الزمان قليلي الخبرة بالملاحة(٤٥)

---

(٤٤) ليست زهرة بل هي ثمرة الشجرة المعروفة عند النباتيين باسم Quercus Ilex وهي شجرة بلوط قميئة دائمة الخضرة يغزوها دودة صغيرة يسميها العرب «قرمز» تخرج منها صبغة قرمزية وثيوفراستس يتكلم عن هذه الثمرة في كتاب نباته فضلاً عن پليني. وهي مصدر مادة الصبغة القرمزية منذ أقدم الزمن.

(٤٥) بحسب رواية هوميرس ارسل الآثينيون خمسين سفينة الى طروادة. على انها كانت سفن نقل لا سفن حرب ويؤكد (ثوكديدس) انهم لم يقوموا بأي نشاط بحري حتى بعد عشر سنوات أو اثنتي عشرة عقبت =

لم يمارسوا مهنة البحر. ولم يفعل [سيروس] هذا إلا لأن [مينيتس] أحد الشبان هو ابن بنته. ويثبت هذه الواقعة بناء [ثيسيوس] هيكلي [فاياكس[٤٦]] و[ناوسطثاؤس] بالقرب من معبد [سيروس]، زد على هذا أن العيد المعروف بـ(كيپرنيسيا Cybernesia] [٤٧] اقيم تكريماً لهما.

يحدثنا معظم المؤرخين القدامى ناهيك بالشعراء، أن [أرديان Ariadne] التي وقعت في غرامه، أعطته كرة من الخيوط حال وصوله كريت وعلمته كيف يستخدمها لتقوده خلال منعطفات التيه ومنعرجاته. وبهذه الوسيلة خرج منه سليماً وقتل الغول [المينوتاور] [٤٨] وابحر عائداً ومعه [آريادنه] والأسرى الآثينيون. ويضيف [فركيدس Pherecydes] [٤٩] انه احدث ثقوباً في قيعان سفن كريت، ليحول دون مطاردتها له. ويكتب [ديمون Demon] ما مفاده ان [طواروس] كبير قواد مينوس قتل بيد [ثيسيوس] في فم الميناء اثناء معركة بحرية جرت قبيل ابحاره الى اثينا. لكن [فيلوخوروس] يروي الواقعة كما يأتي: عندما أنشأ الملك مينوس الألعاب السنوية كان متوقعاً ان يفوز [طوروس] بجائزتها، كما فعل قبلاً. وكان موضع حسد عظيم لذلك. فأخلاقه ومعاملته للناس جعلت سلطانه مكروهاً، وهو ايضاً متهم بعلاقةٍ مع [پاسيفي Pasiphae] ولهذا وافق مينوس في الحال عندما طلب ثيسيوس نزاله. وجرت العادة في كريت ان يسمح للنساء بمشاهدة الالعاب فكانت [اريادنه] بين المتفرجين، فداخلها اعجاب شديد بجمال رجولة ثيسيوس واقدامه وقوته التي ابداها في النزال مما جعله يقهر كل من يتصدى له او يتحداه. ولم يكن مينوس بأقل سروراً، سيّما وانه تغلّب على

= معركة ماراثون. اي بعد حصار طروادة بسبعمائة عام تقريباً لذلك كان من قبيل المعجزات ان يحقق الآثينيون في المجال البحري هذا التقدم الخارق الذي بدأ بعهد تيسيوس بارسالهم الى طروادة هذا العدد من السفن في غضون فترة قصيرة. على كلٍّ فقد كان الفضل الأول بهذا التقدم يعود الى (تموستوكليس).

(٤٦) هو بهوٌ حكومي يجتمع في رحابه الحكام الشيوخ ويطلق عليهم اسم پرايتانس ويعيش فيه ايضاً على نفقة الدولة أولئك الذين اعتبروا بانهم يستحقون من بلادهم خير جزاء» كما يستقبل فيه السفراء الاجانب وتقام في الحفلات العامة والاستقبالات.

(٤٧) الى هذه القصة تعزى على الأغلب صورة مونتفوكون لڤينوس وهي فوق الأمواج مستلقية على عنزة ويدها ممسكة بشعر ذقنها وبرفقتها كيوبيدات راكبين ظهور حيتان الخ...

(٤٨) في واحدة من أجمل الصور التي تمّ العثور عليها في هركولانيوم (وهي المدينة التي غطتها حجم بركان فيزوُف العام ٧٩ فأزيحت وتم الكشف عنها). وقد ظهر فيها تيسيوس وهو يطأ المينوتاور (وهو حيوان خرافي برأس ثور (جسم انسان) في حين تجمع الصبيان عليه يقبلون يديه ويحتضنون ركبتيه.

(٤٩) من الأقدمين أشتهر شخصان بهذا الاسم، الأكبر منهما هو معلم فيثاغورس وطاليس ومن مدينة سكيروس ويلقبّ بالفقيه أو اللاهوتي، لأنه أول من علم حول خلود الروح في بلاد اليونان. إمّا الثاني وهو الذي يغلب الاحتمال بانه المقصود عند پلوتارخ فهو مؤرخ من جزيرة ليروس التي تقع في بحر ايجه وقد سبق عصر هيرودوتس بقليل.

[طوروس] واخزاه. فلم يتردد في ان يدفع له بالأسرى الأثينيين، وأعاد الجزية الى أهلها.

ويروى لنا [قليديموس Clidemus][٥٠] رواية يستغرب صدورها منه فيها حواش وشجون وذيول موغلة في القدم، يقول عقدت معاهدة بين جميع الأغريق تم الاتفاق فيها على أن لايسمح لأية سفينة تحمل أكثر من خمسة أشخاص بالابحار من اي مكان. واستثني من المنع [چاسون Jason] الذي نُصب قبطاناً للسفينة العظيمة [ارگو Argo] وسمح له الابحار وجوب المحيطات معقباً القراصنة، لكن عندما هرب [ديدالوس Daedalus]من كريت وركب البحر الى اثينا، شرع مينوس بمطاردته بسفنه الحربية مخالفاً الاتفاق، فأجبرته العاصفة على الرسو في (صقلبة) وهناك قضى نحبه[٥١]. وبعد وفاته استبدت الرغبة بابنه [ديوكاليون Deucalion] للتحرش بالاثينيين، فبعث يطلب منهم تسليم [ديدالوس] اليه مهدداً بقتل جميع الاثينيين الذين تسلمهم ابوه من المدينة كجزء من الجزية، ان هم رفضوا طلبه. فبعث ثيسيوس بردٍ مهذب الحاشية على هذه الرسالة الغاضبة، معتذراً عن تسليم [ديدالوس] الذي كاد يكون من اقربائه. فهو ابن خالة لان امّه [ميروپه Merope] هي بنت [ارختيوس]. إلاّ أنه أخذ يبني عمارة بحرية في السرّ. جعل قسماً منها في بلاده قرب قرية [ثيميوتادي Thy-moetadae] وهو موضع بعيد عن كل الطرق العامة. والقسم الثاني اودعه عند جدّه [بيثيوس] في طروزين، مستهدفاً تنفيذ خطته بأعظم السرية. وما كمل اعداد اسطوله هذا حتى أقلع به يرافقه [ديدالوس] وغيره ممن أرتهن في كريت ليكونوا ادلا. ولم يدر احد من الكريتيين بقدومه وحسبوه صديقاً وحسبوا اسطوله اسطولهم. وسرعان ما سيطر على الميناء وأسرع بالنزول وبلغ [غنوصوص Gnosos] قبل ان يلاحظ أحد زحفه وفي معركة جرت عند مزاعل التيه، أباد [ديكاليون] وكل حرسه بحد السيف فأنتقل الحكم الى (اريادنه] وعقد معها حلفاً واستعاد الأسرى منها، وأتفق على عهد صداقة دائمة بين الآثينيين والكريتيين. واقسم الطرفان على الاّ يبدأ حرباً.

هناك روايات تاريخية أخرى حول هذه المسألة، وهناك أمثالها حول [اردیانه] وكلها متناقض ومتنازع عليه. ترى بعضهم يقول انها شنقت نفسها بعد ان هجرها [ثيسيوس] وبعضهم يقول ان بحارته اخذوها الى جزيرة [نخسوس Naxos] فتزوجت [اوناروس Oenar-us] كاهن [باخوس][٥٢]. وان ثيسيوس هجرها لوقوعه في حُبّ أخرى.

---

(٥٠) (ڤيوسيوس) في تاريخه يذكر مؤرخاً بهذا الإسم، كتب بحثاً عن (أتيكا) وعن العودة غير المتوقعة لأولئك الذين غابوا زمناً طويلاً. ومن الممكن ان توضع الحكاية في أيّ من المبحثين.

(٥١) هيرودوتس ٧:١٧٠، ديدورس ٤:٧٩.

(٥٢) ومن هنا جاءت ولا شك الخرافة المتداولة بانها تزوجت باخوس نفسه.

«كـان حُبّـه (ايـگله Aegle) بنت پانـوپيـوس يـحرق صـدره[٥٣] وهو بيت شـعـر يقـول عنه [هرياس Hereas] انه كـان فـي السـابق مـوجـوداً ضـمن منظومـات [هسـيـود][٥٤] إلاّ أن [پسستراتوس Pisstratus][٥٤] شطبه، واضاف البيت التالي الى منظومة هومـيروس «جهنم الأمـوات» ارضـاءً للآثينيين: «ثيسـيوس، وپيرثاوس، ابنا الآلهة الجبـاران»[٥٥]. وتقـول فئة أخرى ان [اردیانه] انجـبت لثـيسـيـوس ولدين وهمـا [اوينوپيـون Oenopion وسطافـيلوس Staphylus] ومن القائلين بهذا [آيون Ion][٥٦] الشـاعر الخيوسي، حين يكتب عن مدينتـه: «التي بناها في ذات يوم - أونوپيون ابن ثيسيوس».

لكن أشـهـر الروايات الاسطورية التي جـرت على كل لســان هي الآتيـة: لدى [پـايون آلاماتوسي] قصة تختلف من الباقي اذ يكتب قائلاً ان النوء دفع بسفينة ثيسيوس الى جزيرة [قبرص] وفيـهـا [اردیانه] وهي حامل، وفي حالـة يرثى لهـا من المرض بسبب دوار البحر. فأنزلها الى الساحل وتركـها وحيدة وعاد لمعاونتمن السفينة. وفجأة دفعت بها ريح شديدة الى عرض البحر. وأبدى نسـاء الجزيرة عطفـاً على [اردیانه] وعناية كبيـرة بها وعـملن ما وسعهن للتسرية عنها وتخفيف وحشتـهـا. حتى انـهن زوّرْنَ رسـائل ودفعنهـا اليـهـا كـأنما وردت من ثيسيوس. ولما ادركها المخاض بالغن في بذل كل مـا تحتاجه من رعاية إلاّ انهـا توفيت قبل ان تضع وليدها ودفنت دفنة لائقة. ثم ما لبث ثيسيوس ان عاد وركبه هم شديد لفقدها وترك قبل مغادرته الجزيرة عند أهلها مبلغاً من المال ينفقونـه على شراء قرابين لهـا. وأمر بصنع تمثالين صغيرين أوقفهما عليها واحد من الفضة وآخر من النحاس. والمراسيم التالية يقوم بها أهل الجزيرة ضمن مـراسـيم تـقديم قرابينهم في اليوم الثـاني من شـهـر [گـورپيـوس Gorpiaeus] المخصص لاردیانه. ان يستلقي شـاب منهـم على ظهـره ليـقلّد بصـوته وحركـاته آلام المرأة اذ يدركها المخاض و[الآماتوسيون] يطلقون على البستان الذي ضم رفاتها، اسم «بستان ڤينوس اردیانه».

وذكر بعض كتـاب [نخسوس] رواية تختلف عن هذه، وزعـموا وجود رجلين باسم مـينوس، وامـرأتين باسم اردیانـه احـداهمــا تزوجت كـاهن باخـوس في جـزيرة نخـسـوس، وأنجـبت له [ستـافـيلوس] واخاه الآخر. إلاّ ان اردیانه الثانية التي عـاشت في زمـان متـأخر، وهي التي

---

(٥٣) أنظر (آثينايوس) ص ٥٥٧.
(٥٤) طاغية آثينا كان كما صورة پلوتارخ في سيرة صولون محبّاً للكتابة وممارساً للأدب.
(٥٥) الاوذيسي ١١:٦٣١.
(٥٦) كاتب مأساوي عاصر (پيركلس) فقدت مسرحياته كلها لكن (آثينايوس) حفظ لنا مقطوعات من مناجاته.

حملها ثيسيوس معه، وهجرها فيما بعد، نزحت الى [نخسوس] مع مرضعها [كوركينا Cor-cyna] التي ما زال قبرها قائماً. وان [اردیانه] هذه توفيت أيضاً هناك وعبدها أهل الجزيرة لكن بشكل يختلف عن عبادة الأولى. فأحياء عيد هذه يتم بالافراح العامة والقصف واللهو، في حين أن عيد الثانية ينقضي بالحداد والكآبة[٥٧].

توقف ثيسيوس في جزيرة [ديلوس Delos][٥٨] بطريق عودته من كريت. وقرّب لرب الجزيرة، وقدم للمعبد تمثالاً لفينوس كانت [اردیانه] قد أعطته له[٥٩]، ورقص مع الشبان الآثينيين رقصة ما زالت شائعة عندهم الى يومنا هذا احياءً لذكراه وهي تتألف من حركات تقدّم وتأخّر موزونة محدودة، تقليداً وتمثيلاً لمنعطفات التيه والتواءاته. ويقول [ديكوارخوس Dicoearchus][٦٠] ان الديلوسيين يسمون هذه الرقصة [كرانه Crane][٦١] وقام ثيسيوس برقصته هذه حول المذبح [الكيراتوني][٦٢] واسمه هذا جاء لانه بني من القرون التي تؤخذ من الاصداغ اليسرى لرأس كل ذبيحة. ويقال انه انشأ العاباً في [ديلوس]. وكان اول من بدأ تقليد اهداء سعف نخل للفائزين.

لما أقتربوا من ساحل اتيكا اطار الفرح صوابهم لتكلل رحلتهم بالنجاح حتى ان ثيسيوس والقبطان نسيا رفع البشارة ودليل السلامة لايجيوس، فما كان منه إلاّ قذف بنفسه يأساً من الصخرة الى البحر فهلك. وما ان نزل ثيسيوس في ميناء [فاليرم Phalerum] حتى قدم القرابين التي كان قد نذرها للأرباب عندما ركب البحر. ثم انه ارسل الى المدينة بشيراً يحمل

---

(٥٧) احياء أعياد (اريادنه) زوج (باخوس) يتّم احياؤها باللهو والقصف والافراح للاعراب عن صيرورتها (ربّة). في حين ان القرابين المقدمة لـ(اردیانه) الثانية تشير الى سقوطها واعتبارها انساناً عادياً.

(٥٨) من هذا جاءت عادة قيام اثينا سنوياً بارسال وفد الى (ديلوس) لتقديم قربان (ابوللو).

(٥٩) كان هذا تمثالاً خشبياً صغيراً نحته (ديدالوس) بقاعدة مربعة تقوم مقام القدمين وهو اول من ابتدع القاعدة للتماثيل وقد بدت في آثاره الأخيرة . ربما كانت (اريادنه) قد تسلمت التمثال من النحّات وحملته معها وان تيسيوس قدمه لابوللو على زعم أهل (ديلوس) اذ لم يشأ ابقاءه عنده لانه يذكره بحبيبته. (پاوسنياس ٩:٤٠).

(٦٠) هو أحد تلاميذ ارسطو الف كتباً عدة. أشهرها تاريخ سپارطا. كانت فصوله تتلى سنوياً على شبانها بامرٍ من الايفوري. وقد اثنى عليها شيشرون كثيراً.

(٦١) يحدثنا كاليماخوس بأنها رقصة حلقيّة. وسميت (كرينه) ربما نسبة الى طائر الكرين (الكروان) الذي يطير بشكل حلقي، يقول [يوستاثيوس] كان الناس قبل تيسيوس يرقصون على شكل مجموعتين منفصلتين واحدة للذكور وواحدة للاناث فجاء هذا ووحد بين الجنسين عند انقاذه رفاقه الشبان من التيه. ما زال هذا النوع من الرقص حيّاً في اليونان بعد مرور زهاء ثلاثة آلاف سنة ويدعى (كانديوت Candiot). [انظر م. چي تاريخ الأدب اليوناني ص ١٣].

(٦٢) الكلمة مشتقة مباشرة من (قرن) ويعزى صنعه الى ابوللو. والقرون هي من ذكور غزلان (كينثوس) قتلتها أخته الصيادة وقد بني كما تقول الاساطير من دون ملاط أو صمغ أو أية مادة غرائية أو لاصقة.

نبأ سلامة العودة. ولما دخل هذا، وجد معظم الأهالي في حزنٍ وكآبة لفقدهم ملكهم، بينما أستولى الفرح على آخرين لأنباء البشير السارة (وهو ما لا سبيل لنكرانه) وأظهروا شوقاً في الترحيب به وضفروا قلائد الزهر على رأسه. فتقبل ذلك بطبيعة الحال إلاّ انه رفعها عن رأسه وقلّدها العكّاز الذي يحمله المنادي عادةً، ورجع الى الشاطيء بهذا الشكل. فوصل قبل ان يفرغ ثيسيوس من تقدمة الخمر للأرباب. فوقف عن كثب ولم يأت بحركة لئلا ينقض صلاته ودعاءه وما أن انتهى ثيسيوس حتى تقدم منه وأعلن له موت الملك. فهرع الجميع الى المدينة في ضجة واضطراب وندب وعويل. إنّ عادة عدم تتويج المنادي بل تتويج عكّازه في عيد [تسخوفوريا Oschophoria][٦٣] نشأت عن حادث ذلك اليوم واستمرت حتى يومنا هذا. كذلك نشأت منه عادة هتاف الحاضرين وقت سكب قربان الخمر «ايليليو، آييوو آيوو Eleleu Ioü Loü»[٦٤] واولى هذه الكلمات تخرج عادة من افواه المستعجلين. أو تستخدم هتافاً للنصر، أما الكلمتان الاخريان فهما لازمة من لوازم اللسان يلفظها الناس عندما يكونون في حالة غمّ أو اضطراب بالٍ.

وبعد ان شيع ثيسيوس جنازة أبيه، قام بإيفاء نذوره لاپوللو في السابع من شهر [پايانيپسيون] ففي ذلك اليوم دخل الى مدينة كل الشبان الذين عادوا معه من كريت سالمين. وقيل ايضاً ان عادة سلق الحمّص في هذا العيد بدأت منذ ذلك اليوم، لأن كل الشبان الذين نجوا، جمعوا ما فضل من زادهم في قدر واحدٍ وسخنوه وأكلوا منه جميعاً، كذلك نشأت عادة حمل غصن الزيتون الذي يشد عليه شيء من الصوف في المواكب [بعد ذلك استعمل في الصلوات والأدعية] وأطلقوا عليه اسم [آيرسيون Eiresione] وكان يتوج مختلف الثمار اشارة الى زوال القحط والمحل، منشدين الاغنية التالية:

«ايرسيون يأتي بأفضل التين، ايرسيون يأتي بأرغفة خبز من أفضل دقيق القمح الابيض ويأتي بالعسل في الجرار. والزيت نضمخ به اجسامنا، وبدنان من الخمر القوية ليؤوب الكلّ الى فراشه نشواناً».

(٦٣) عيد للخمر يبدء بموكب من اثينا نحو فاليرم. ويختار عدد معين في شبان أشرف الأسر على أن يكون الابوان حيين. ويحملون اغصاناً مثقلة بالعنب ويعدون منطلقين من معبد(ياخوس) نحو هيكل (مينرڤا) القريب من الباب الغاليري والسبّاق للوصول يشرب كأساً من الخمر ممزوجة بالعسل ويأكل جبناً وخبزاً وزيتاً ويتبع الراكضين جوق بقيادة شابين يرتديان ثياب النساء وهم يغنون ويحيط بالشابين عدد من النسوة على رؤوسهن سلال ويتم اختيارهن من أغنى الأسر في المدينة ويقود الموكب كلّه منادٍ يحمل قضيباً تحيط بع اغصان.

(٦٤) الكلمة الأولى تدل على الشعور بالفرح والغبطة التي كان تيسيوس يحسّ بها وهو قاصدٌ (أثينا) والكلمة الثانية المرددة تنبيء عن حزنه على وفاة ابيه.

ومع أن بعضهم يرى أن انشاء هذا العيد كان لذكرى الهبراقليدي[٦٥] الذين رباهم الآثينيون وأستضافوهم بالشكل الذي فصلناه إلاّ ان رأي الغالبية هو ما ذكرناه أولاً.

كانت السفينة التي أقلت ثيسيوس وصحبه الشبان الاثينيين، ذات ثلاثين مُجذافاً وعادت سالمة فأبقى عليها الآثينيون حتى ايام [ديمتريوس ڤاليروم][٦٦] وعندها خلعوا عنها الالواح الخشبية النخرة، ووضعوا محلها الواحاً جديدة أقوى من سالفتها. وآضت السفينة بسبب هذا التغيير مثالاً يضرب بين الفلاسفة حول المسألة المنطقية عن الأشياء المتحولة[٦٧]، ففريق منهم يتمسك بقوله ان السفينة بقيت كما هي، والفريق الآخر يقول انها لم تعد السفينة عَيْنها.

إن العيد المسمّى (اسخوفوريا) أو عيد الأغصان كان ثيسيوس أول من أحتفل به وما زال الآثينيون يحفظونه حتى يومنا هذا. ويعود السبب في انشائه ان ثيسيوس لم يأخذ معه العدد الكامل لمطلوب من العذارى اللاتي وقعت عليهن القرعة بل أختار شابين يثق بهما من ذوي القوة والبأس والمظهر الأنثوي والقسمات المليحة، غير من مظهرهما بالاستحمام الكثير واجتناب الحرارة وأشعة الشمس المحرقة، ودوام استعمال انواع الأدهان والعطور والغسول ووسائل الزينة لتجميل الرأس، أو نعومة البشرة، وتحسين لونها، حتى حقق التغيير المطلوب فيهما، ثم علمهما كيف يقلدان اصوات النساء، ومشية العذارى وتخطرهن بحيث ما عاد يفرق احدٌ بينهما وبين النساء. ثم وضعهما بين الفتيات الآثينيات المرسلات الى كريت. فلما عاد سالماً، قام هو وهذان الشابان على رأس موكب دينيٍّ مهيب وهما في شكلهما النسوي، وبعين الزيّ الذي يتخذه الآن اولئك الذين يحملون اغصان العنب في الموكب. وهم يحملونها تكريماً لباخوس واريادنه، بسبب الحادثة التي اوردناها. أو ربما يعود ذلك الى أن اوبتهم الى الوطن وافقت موسم الخريف وهو أوان جني الأعناب. هذا وان النسوة اللاتي يطلق عليهن

---

(٦٥) بعد ان طرد يوريستيوش الطاغية نسل الهيراقليدي من البلوبونيسس وبقية بلاد الأغريق التجأوا الى اهل اثينا لحمايتهم فاجاروهم وجرياً على العادة المتبعة فقد دخلوا المدينة وبايديهم الاغصان، وقد عالج موضوع هؤلاء (يوربيدس) في مسرحيته (هيراقليدي).

(٦٦) اعني حوالي الف سنة. لأن (تيسيوس) عاد من كريت في حدود ١٢٣٥ ق.م. وكاالليماخوس الذي عاصر (ديمتريرس) وقد اخبرنا ان الاثينين ظلوا يبعثون هذه السفينة المقدّسة الخالدة الى ديلوس في زمانه (٢٨٠ ق.م) و(ديمتريوس) الفاليري هو الوصي المندوب عن (كسساندر المقدوني) في اثينا [٣٠٧-٣١٧ ق.م] قيل انه نصب لنفسه ثلاثمائة وستين تمثالاً خلال هذه المدة وقد حطمت كلّها في يوم واحد اذ دمرها دعاة ابادة التماثيل Iconclasts بعد سقوطه. وكانت وفاته في ٢٨٤ ق.م. [راجع افلاطون: فيادر].

(٦٧) في رسالته حول «بطء الانتقام الآلهي» يعزو پلوتارخ استنباط هذا النوع من المعرفة الى [ابيخارمس] من القرن الخامس قبل الميلاد وخلاصتها أن التغيّر الذي يطرء على اجزاء الجسم في الفترات المتعاقبة للنمو الجسدي ابتداء من الطفولة ثم الشباب فالرجولة والشيخوخة، من شأنه بالمقابل إحداث تبدلات كاملة في الهويّة الانسانية وتنتهي المناظرة في هذا الموضوع الى وجوب ابراء المدين من واجب الوفاء بدينه السابق.

[دايپنوفيري Deipnopherae] أو حاملات طعام العشاء، يندمجن في هذه المواكب ويساعدن في تقديم القرابين أحياءً وتقليداً لأمهات الفتيات والعذارى الأسرى. فقد كُن في هذا الموقف المؤلم يتراكضن هنا وهناك، يأتين بالخبز واللحم لاولادهن، ويروين لهم حكايات واقاصيص مسلية ليصرفن خواطرهم عن الخطر الذي ينتظرهم. ولهذا استمرت عادة رواية الخرافات والاساطير القديمة في هذا العيد. ونحن مدينون لتاريخ [ديمون] بهذه التفاصيل الدقيقة. اختيرت رقعة أرضٍ، واقيم عليها معبد لثيسيوس. وجُمع من الأُسر التي أخذ منها الشبان الرهائن ضريبة للمعبد يتفق منها على القرابين. وعُين آل [فيتالدي] مشرفين على تلك القرابين. وأضفى ثيسيوس عليهم هذا الشرف تعويضاً واعترافاً بفضلهم السابق عليه.

بعد وفاة [ايجيوس] أخذ [ثيسيوس] يُنمي في ذهنه فكرة عجيبة، وتصميماً عظيماً، ولما أختمر الأمر في ذهنه جمع كل مواطني اتيكا في مدينة واحدة، وجعلهم شعباً واحداً لمدينة واحدة. وكانوا قبلها يعيشون في فرقةٍ وتباعد، يصعب جمع كلمتهم في اي شأن من الشؤون المتعلقة بالمصلحة العامة المشتركة، بل كانت الخصومات والحروب كثيراً ما تنشأ فيما بينهم، تمكن من ازالة ذلك بوسائل الاقناع وتنقله من بلدة الى أخرى ومن عشيرة الى عشيرة. وسارع اولئك الذين ينتمون الى الطبقة الفقيرة، أو ذوو الدخول الصغيرة المحدودة الى اعتناق افكاره الرائعة تلك، في حين وعد اولئك الذين يملكون السلطان والمال، بجمهورية لا يرأسها ملك وبحكم ديمقراطي أو حكم شعبي لا يكون هو فيه ملكاً بل مجرد قائد عسكري، وحامٍ لقوانينهم، وفي الأمور الأخرى يكون الجميع على مستوى واحد دون تمييز أحد على الآخر. وبهذه الطريقة أفلح في اجتذاب قسم من هؤلاء الأخيرين الى صفّه اختياراً. اما الباقي فتظاهروا بالاقتناع لخوفهم من سلطانه الذي كان مرهوباً جداً، ولمعرفتهم بشدة عزمه وبأسه، وعندئذ بدء بحَلّ كل مجالس الحكم المحليّة، وبيوت الدولة العليا، وعزل الحكام، واقام مجلس عمومٍ واحدٍ وقاعة شورى في الموضع الذي يقوم اليوم القسم الأعلى من المدينة (الاكربوليس) وأطلق على المدينة اسم «اثينا»[٦٨] وقرر بالمناسبة عيداً عاماً يقرب منه قربان اجماعي سمّاه [پان اثينا: أو قربان كل الاتحاد الاثيني[٦٩]] (آتيكا) واستحدث ايضاً قرباناً آخر يدعى

---

(٦٨) كانت قبلاً تطلق على البلدة القديمة فحسب. وقد لاحظ المؤرخون والباحثون الثقاة انه كثيراً ما أطلقت على أثينا الصفة العامة أو اسم الجنس اي (المدينة) فحسب [مثلما كان الرومان يشيرون الى روما باسم (أربس Urbs أي المدينة) بسبب ذيوع صيتها. ان اول ملك لها وهو (مكيكروبس) بنى القلعة على مرتفع وأطلق عليها اسمه ومعناه [المدينة القلعة].

(٦٩) باناثيناء Panathaea. كان له وجود قبل تيسيوس ويقام تكريماً (لمينرڤا) ولم يكن يمت لآثينا بصلة. لكن تيسيوس عظم من شأنه وجعله عيداً عاماً لكلّ سكان اتيكا ولهذا سمى (باناثينا)، وهناك العيد الكبير والعيد الصغير ويقع هذا في العشرين من شهر ثارجيليون كل سنة. والأول يعيدونه كل خمس سنوات =

[ميتوشيا Metocia] او عيد الهجرة[٧٠]، ويقع في السادس عشر من شهر [هيكاتومبيون] وتنازل عن عرشه وسلطاته الملكية كما وعد، ومضى قدماً في تقنين دستور الجمهورية الشعبية بعد استشارة الأرباب والاستعانة بهم. اذ ارسل يستخير عرافة دلفي بخصوص مستقبل حكومته الجديدة ومدينته، ونزلت عليه النبوءة كالآتي:

أي ثيسيوس سليل خط الملكي بنت پيتّوس. لقد أعطى ابي مدينتك، مقادير وأمور دول عديدة. فلاتقلق ولاتخش شيئاً ولكن استشر فقط بثقةٍ وبعزمٍ الطحلب لن يكفَّ عن العَوْم فوق الامواج التي تخف به.

ويقال أن آخر أبيات هذه النبوءة، كررته الكاهنة سيليل Silyl للأثينيين بعد زمن طويل، بالصيغة التالية:

«قد يغطس الطحلب، لكنه لن يغرق وهذا ما تقرّر له[٧١].

بعد هذا انصرف الى توسيع رقعة مدينته، ودعا كل الأجانب للقدوم اليها، والتمتع بامتيازات مواطنة متساوية مع أهاليها، وقيل ان العبارة الشائعة «تعالي الينا أيتها الشعوب كافةً» هي العبارة التي نطق بها ثيسيوس عندما أقام صرح الجمهورية على شكل ائتلاف أممي على أنه لم يدع نظام حكمه الجديد ينقلب الى فوضى بتدفق جموع الأقوام الى المدينة فينبتّ حبل النظام وينفرط عقد الأمن والاستقرار، وكان اول من قسم سكان الجمهورية الى ثلاث طبقات متمايزة: النبلاء، المزارعين، الصناع. وأسند للطبقة الأولى رعاية الشؤون الدينية وحق اختيار القضاة، والتصرف في شؤون التعليم والاشراف على تنفيذ القوانين، وتفسير كُلّ الأمور المتعلقة بالعقائد المقدسة، وعلى هذا الأساس سادت مساواة دقيقة في المدينة، فالنبلاء يتقدمون الباقي في الشرف والمكانة والمزارعون يتقدمون الجميع في الفائدة والمال. والصناع يتفوقون على الجميع بقوة العدد. يقول [ارسطو] مُظهراً ميله الى الحكم الجمهوري ان ثيسيوس كان أول ملك تنازل عن حكمه المطلق طوعاً، ويبدو ان [هوميروس] شهد له بذلك

= في الثالث والعشرين من شهر هيكاتومبيون وفيه يسير موكب حاملاً حجاب (مينرڤا) أو ما يدعى (پيپلون) وقد نقش عليه صورة انتصار الآلهة على الجبابرة. الى جانب مناظر لأعظم مآثرة ابطالهم.

(٧٠) احياءً لذكرى تركهم الدساكر واجتماعهم في مدينة واحدة. ويسميه ثوكيديدس ٢:١٥ [سيوشيا] إلاّ ان السبب واحد. وبهذه المناسبة انشأ تيسيوس أو حافظ على الالعاب الاستمية إكراماً لـ(نبتون) وقد رمي من ذلك الى اجتذاب الغرباء وتشجيعهم على سكنى اثينا منحهم حقوق المواطنة كاملةً.

(٧١) عندما استولى [سيللا] على آثينا لم يبق نوع من أنواع القسوة الاّ ارتكبه وهناك قصد بعض الآثينيين معبد (دلفي) للاستخارة في هل ان ساعة مدينتهم الأخيرة قد حانت؟ فأجابت الكاهنة على حَدّ قول [پاوسيناوس ١:٢٠] «ما يتعلق بالطحالب له نهايته». منوهة كما يبدو بالنبوءة القديمة التي صدرت هناك.

أيضاً عندما اقتصر على ذكر كلمة «شعب اثينا» في قائمة السن(٧٢) التي ذكرها، دون ان يخصّ غيرهم بهذه.

وضرب ايضاً نقوداً ونقش عليها صورة ثور، إما احياءً لذكر ثور [ماراثون] أو تذكرة بانتصاره على [طوروس] قائد مينوس أو ربّما ليذكر شعبه بوجوب الانصراف الى الزراعة. ومن هذه السكّة جاء التعبير الشائع جداً عند الأغريق حين يؤتي الى تقويم شيء من الأشياء «انه يسوى عشرة ثيران، أو يسوى مائة». وبعد ذلك ضَمّ [ميغارا] الى آتيكا واقام على الخليج(٧٣) ذلك الأسطون الشهير الذي نقش عليه كتابة تتألف من سطرين يشيران الى حدود الدولتين لأنهما تلتقيان في تلك النقطة. فعلى الجانب الشرقي تقرأ هذه العبارة:

«پيلوپونيستوس ليست هنا بل آيونيا».

وعلى الجانب الغربي تقرأ: «پيلوپونيسوس هنا، لا آيونيا!»

وأنشأ كذلك ألعاباً مضاهياً بها ألعاب هرقل بدافع من طموحٍ فيه إذ كان الأغريق برغبة من هرقل يحتفلون بالالعاب الاولمپية(٧٤) تكريماً لجوپيتر، فلم لايحتفلون بالالعاب [الإستمية](٧٥) تكريماً لبنتون، وبرغبة منه؟ لقد كانت تلك الألعاب قبل ذلك مخصصة [لميليكريتا Melicerta] يتم احياؤها ليلاً باحتفال خاص، وهي في الواقع مراسيم دينية أكثر من كونها عيداً عاماً أو احتفالاً شعبياً. وهناك من يزعم ان الأصل في الالعاب [الاستمية] انها كانت لذكرى [سكيرون] اقامها ثيسيوس على أثر موته تخليداً لاسمه لأنه أدنى اقربائه اليه. فهو ابن [كانيتوس] و[هنيوخا Heniocha] بنت پتيوس. على ان بعضهم يقول أن ابن هذين الأبوين هو [سنيس] وليس (سكيرون)، وان (ثيسيوس) اقامها للأول منهما. وابرم

---

(٧٢) الالياذة ٢:٥٤٧. في تلك العبارة وصف الأخائيون بـ«شعب ارخيثوس العظيم» وهي ما تشير الى مفهوم لايتفق واستنتاج پلوتارخ لكن ربما أعتبر العبارة قاصرة على أولئك الذين كانوا قد أمّروا عليهم «ارخيتوس» يوماً ما؟

(٧٣) هذا الأسطون اقيم بموافقة الآيونيين والپلوپونسيين. لوضع حدّ نهائي للنزاع حول الحدود وقد بقي قائماً حتى عهد قدروس ثم نقض الهيراقليدي هذا الصرح عندما ملكوا (ميغارا) التي انتقلت بموجب ذلك من يد الآيونيين الى يد الدوريين [انظر سترابو] وقام [هادريان] فيما بعد بتقليد هذه الكتابة فقد نقش على النصب الذي أقامه بين آثينا الجديدة وآثينا القديمة كتابتين، فمن جانب تقرأ عبارة: «هذه آثينا مدينة تيسيوس العتيقة: ومن الجانب الآخر تقرأ هذه العبارة «هذه مدينة هادريان وليست مدينة تيسيوس».

(٧٤) لابد وان يكون نشوء هذه الالعاب قبل التاريخ الذي اثبت لزمان هرقل بوقت طويل. فقد اثبت (سترابو) بانها لم تكن معروفة ايامّ (هوميروس) وربما وجدت قبله ولكن عفى عنها وطواها النسيان حتى احياها (ايفيتوس) وهو التاريخ الذي اثبت لتأسيسها.

(٧٥) سميت كذلك نسبة الى برزخ (اسموث) پيلوپونيسس حيث تجرى ثمة.

(سيوس) في الوقت نفسه معاهدة مع أهالي كورنث، ليسمحوا للقادمين من آثينا برؤية الالعاب الاستمية، بموضع شرفٍ يتصدر النظارة. وقدرت مساحة هذا الموضع بقدر ما يغطي من الأرض شراعُ السفينة(٧٦) التي أقلت المتفرجين مبسوطاً بكامل ابعاده. وهذا ما اثبته كل من [هيللانيكوس، وأندرو Andro هاليكارناسوس].

واما عن رحلته الى البحر الأسود Euxine، فقد كتب فيلوخورس وآخرون انه قام بها مع هرقل عارضاً عليه خدماته في الحرب ضدّ الامازونات(٧٧) وكافأه بـ[انتيوبيا Antio-pea](٧٨) على شجاعته. إلاّ ان القسم الأكبر ومنهم [فيريكيدس Pherecydes] وهيللانيكوس وهيرودوروس، يقولون انه قام بالرحلة بعد هرقل بسنين عديدة وهو يقود عمارة بحرية خاصة به، وانه أخذ الامازونة [انتيوبه] أسيرة، وهي القصة الاقرب احتمالاً. على اننا لانجد اي شخص آخر غيره ممن رافقه في هذه الحملة، يقول انه أسر أي امازونة. ويضيف [بيون Bion] قوله، ان ثيسيوس لجأ الى الخديعة لأسرها وبعدها أقلع عن الساحل في الحال. فالامازونات على حدّ قوله شبقات جداً محبات للرجال بطبعهن، فلم يصبرن على وجود ثيسيوس عند ارسائه على سواحلهن. بل بادرن الى ارسال الهدايا السنيّة، فدعا [انتيوبه] التي حملت الهدايا الى صعود السفينة، وما أن فعلت ذلك حتى أطلق سفينته للريح. ويضيف كاتب من بثينيا هو [مينيقراطس Menecrates] صاحب تاريخ نيقية، أن ثيسيوس بعد اصعاده انتيوبه وإطلاق سفينته للريح، تجول مدة من الزمن بمحاذاة السواحل، وكان يوجد في السفينة اخوة ثلاثة من شبان اثينا رافقوه في رحلته وهم [يونيوس Euneos وثاوؤس Thaos وصوليؤس Soloüs]، والاخير منهم وقع في حبّ [انتيوبه] وبغفلة عن البقية كشف عن سرّه الى صديق عزيز وطلب منه ان يتوسط بمصارحة انتيوبه بما يعتمل في نفسه من عاطفة. ففعل إلاّ انها لم تشأ مبادلته العاطفة ورفضت حبه رفضاً باتاً، وعالجت الموضوع معالجة هادئة حكيمة ولم تنه الأمر الى ثيسيوس ولم تذكر له شيئاً. لكنّ اليأس الذي ركب [صوليؤس]

---

(٧٦) كانت ترسل هذه السفينة سنوياً الى ديلوس وفاءً لنذر تيسيوس وهي مزدانة باغصان الزيتون المقدس ومملؤة بالقرابين المخصصة لا پوللو. ومنذ فترة تزيينها حتى عودتها، تدخل المدينة في فترة تطهّر ويوقف تنفيذ احكام الموت الرسميّة. ولذا نذكر القاريء هنا بفترة الايام الثلاثين التي مرت ما بين الحكم على سقراط واستشهاده. والى فترة التحريم هذه ندين بالمناظرات الرائعة التي نقلها لنا تلاميذه والوقائع التي تخللت تلك الفترة بينه وبين مستمعيه.

(٧٧) ليس هناك خرافات ورجم بالغيب بقدر ما يتعلق بموضوع [الأمازونات] ويقول [سترابو] أن أكثر مؤرخي الاسكندر المقدوني أهلاً للثقة لم يتطرقوا حتى لذكرهن. ولو كنّ حقاً جزءً من الشعب الصيثي فكيف اتفق أن حملن اسماء يونانية؟

(٧٨) يقول [يوستين] ان هرقلاً أعطى تيسيوس (هيپوليتو) وأحتفظ لنفسه بـ(انتيوبه).

جعله يلقي بنفسه في نهر قريب من الساحل. ولما علم ثيسيوس بموته وحبّه العاثر الذي اورده المنية، ادركه حزن شديد، وفي تصاعد كآبته تلك تذكر نبوءة كانت قد نزلت له في دلفي. اذ أنهت اليه كاهنة [ابوللو بيتوس] بأن عليه ان يبني مدينة وقتما ينتابه اعظم الحزن. واينما كان موجوداً، وعليه ان يترك بعض اتباعه حكاماً لها. فبنى مدينة [بثيوبولس] مشتقاً اسمها من صفة [ابوللو] واحياءً لذكرى الفتى المنكود الخائب في حبه، أطلق اسمه [صوليؤس So-lois] على النهر الذي يجرى بمحاذاتها. وعهد لأخوى الغريق بادارة المدينة وتنفيذ قوانينها وضم اليهما [هرموس Hermus] احد أفضل نبلاء اثينا. ومن اسم هذا الأخير عرف اسم حيّ من احياء المدينة [بمنزل هرموس] وبخطأ في نطق الاسم[٧٩] اظن المقصود به [بيت هرميس] اي الاله مارس وهكذا انتقل الى الربّ ذلك التكريم الذي اريد به [هرميس - عطارد].

هذا هو سبب واساس الغزو الأمازوني لآتيكا. ذلك الغزو الذي لايمكن ان يبدو قطّ عملاً انثوياً صغير الشأن. ويكاد يكون من المتعذر أنهن عسكرن في المدينة نفسها ودخلن المعركة قرب (بنيكس Pnyx)[٨٠] عند التل المسمى [ميوزيوم Museum][٨١]. إلاّ اذا كن قد استولين على كلّ البلاد المجاورة للمدينة ووجدت الجراءة والسلامة الكافيتين للزحف عليها. ويصعب الوثوق بما زعمه [هيللانيكوس] عن قيامهن بهذه الرحلة الطويلة براً، ومرورهن بالبوسفور الكيمّري[٨٢] عندما كان منجمداً. أما أنهن عسكرن في مكان آخر غير المدينة فهذا مؤكد، ويمكن اثباته بما يكفي من الاسماء التي ما زالت تطلق على المواقع في تلك الانحاء، وبقيام القبور والاضرحة والأنصاب للاتي سقط منهن في سوح القتال.

لما غدا الجيشان على قيد النظر أحدهما من الآخر، سادت فترة هدوء وشك في ايهما سيبدأ الهجوم؟ وأخيراً قرب ثيسيوس قربانا لرب (الخوف)[٨٣] اطاعة لأمر نبوءة نزلت عليه، ثم بدأ القتال. وكان ذلك في شهر [بيويدرموبيون Boedromion] وفيه يحتفل الآثينيون الى يومنا هذا بعيد [بيودروميا]. ويريد [قليديموس] ان يكون أكثر تفصيلاً واسهاباً فيكتب قائلاً ان

---

(٧٩) حرفياً giving it the cicumflex accent.

(٨٠) كان موضعاً قرب القلعة اعتاد أهل اثينا الاجتماع لسماع الخطباء يبحثون في الأمور العامة. وسمي كذلك للمحلات المزدحمة في ذلك الحيّ، وقال آخرون انه من اجتماع Conflex الجمعيات العامة فيه.

(٨١) يقوم الـ(ميوزيوم) فوق اكمة صغيرة مقابل الحصن وفي أعلى جزء من الاكمة. وربما اسمه من وجود هيكل الميوزات هناك أو ربما من اسم الشاعر ميوزيوس الذي كان ينشد فيه اشعاره وقد دفن هناك ايضاً (انظر پاوسنياس ١:٢٥).

(٨٢) البرزخ الذي هو بين بحر پالوس موتس وبين البحر الأسود.

(٨٣) يدخل الوثنيون في عداد آلهتهم فضلاً عن العواطف، الاحساسات المزعجة، والظواهر الطبيعية المخيفة ويعبدونها اتقاء شرها.

ميسرة الامازونات حركت نحو موضع ما زال يعرف باسم [أمازونيوم] وتقدمت ميمنتهن نحو [پنيكس] قرب [خريسا] والتحم الآثينيون الذين خرجوا من خلف تل [ميوزيوم] بهذا الجناح. وان قبور تانك اللاتي صُرعن، تُرى شاخصة في الشارع المؤدي الى مدخل [پيرياكا Piriaca] قرب هيكل البطل [خلقدون Chalcaedon] وان الآثينيين حاقت بهم الهزيمة في هذا الموضع، وهربوا من وجه النساء حتى معبد [فيوريس Furies](٨٤) لكن امدادات جديدة وصلت ميسرتهم من [الپلاديوم ومن اللقييوم ومن ارديتوس Palladium, Ardetlus, Lycium](٨٥) فكروا علي جناحهن الأيمن ودحروهن حتى ألقوا بهنّ الى مخيماتهنّ. وسقط في هذه المعركة عدد كبيرٌ من الأمازونات وغدت الحرب سجالاً، ثم وبعد أربعة أشهر عقدت الهدنة بين الطرفين، وأبرم الصلح بوساطة من هيپوليتا (يطلق المؤرخون هذا الاسم على الامازونة التي تزوجها ثيسيوس، ولايسمونها انتيوبه)، على أن بعضهم كتبوا أن [مولپاديا Molpadia] قتلتها بطعنة رمح اثناء ما كانت تقاتل الى جانب ثيسيوس. وان النصب القائم جوار هيكل «الارض الاولمپية»(٨٦) إنّما اقيم فوق قبرها تخليداً وعلينا ان لانعجب اذا وجدنا التاريخ يخبط خبط عشواء في حوادث موغلة في القدم كهذه، فقد قيل لنا أن الأمازونات اللاتي جرحن في المعركة، أرسلتهن انتيوبه سِراً الى (خلقيس) فشفي كثير منهن بفضل سهرها وعنايتها. لكن بعضهن توفي وقبر في موضع يطلق عليه الى يومنا هذا [امازونيوم]. واما ان الحرب انتهت صلحاً فهذا واضح أكيد من اسم الموضع الملاصق لمعبد ثيسيوس فهو معروف بـ[هوركوموزيوم Horcomsium](٨٧) من العهد الموثق الذي ابرم هناك. وكذلك من الأضحية الغابرة جداً التي جرت العادة على تقديمها للامازونات في اليوم السابق لعيد ثيسيوس. كذلك يريك [الميغاريون] بقعةً في مدينتهم على الطريق الممتدة من السوق الى موضع يدعى [روس Rhus](٨٨) تضمّ رفات بعضهن، حيث يقوم «البناء المعيني Rhomboid» وشبيه بهذا ما

(٨٤) في الواقع لم يكن هذا المعبد موجوداً آنذاك، اذ انه بني على أثر محاكمة اورستس [پاوسنياس ٧:٢٥]. على ان الموضع الذي قصده پلوتارخ لك يكن بالامكان تحديده بغير ذلك.

(٨٥) كان الپالاديوم المكان المخصص لمحاكمة المتهمين بجرائم القتل. (ارديتوس) نسبة الى البطل الاثيني الذي فض نزاعاً قائماً بين مواطنيه المختصين فيما بينهم واقنعهم بربط انفسهم بقسم جماعي متبادل على الاتحاد والتعاون.

(٨٦) بهذا يقصد (القمر) وقد سمي بهذا لأنها كما يزعم پلوتارخ نفسه في رسالته عن «انقطاع النبوءات» - تشبه الجن أو الشياطين وليست لها كمال الآلهة ولا نقصان فيها كالبشر لكن، لما كان بعض الفلاسفة الفيثاغوريين قد توصلوا فيما بعد ان نتائج فلكية كافية للاستنتاج بان الشمس هي مركز المجموعة فيعترض انه تراءى للمفكرين الاوائل بانه «جسم ارضي». ولذلك سمى القمر أحياناً بالنجم الأرضي.

(٨٧) من الأقسام التي اديت توثيقاً للعهد المقطوع.

(٨٨) «مجرى» لأن المياه المنحدرة من الجبال المشرفة على المدينة كانت قد اتخذت مجراها مرّة (پاوسنياس =

قيل ان بعضهن قتل قرب [خيروينا] ودفن على ضفة نهير كان يعرف سابقاً باسم [ثرمودون Thermodon] والآن يدعى [هيمون Haemon] ذكرنا شيئاً عنه في سيرة [ديموستينس]. ويبدو أن مرور الامازونات عبر [تسالي] لم يخلُ من مقاومة. اذ يوجد ثم عددٌ من قبورهن قرب [سكوتوزا Scotussa وكينوسفاليا Cynoscephalae].

هذا غاية القصد في الامازونات. وهناك رواية عن اوردها ناظم ملحمة [ثسياد Theseid] هي محض خيال مختلف. يقول ان انتيوبه على سبيل الانتقام من ثيسيوس لأنه هجرها وتزوج [فيدرا Phaedra] انحدرت الى المدينة بجموع من امازوناتها، فقضى عليهن هرقل!

الحق يقال ان ثيسيوس تزوج [فيدرا] إلاّ انه فعل ذلك بعد موت انتيوبه التي انجبت له ولداً دعاه [هيپوليتوس] أو [ديموفون] على حَدّ زعم [پندار][٨٩]. أمّا النكبات التي حلت [بفيدرا] وابنه فلا سبيل لنا إلاّ الافتراض بأنه وقعت كما اتفق على روايتها جميعهم. لأنه لم يقم احد من المؤرخين بالاعتراض على الشعراء التراجيديين الذين كتبوا عنها.

هناك روايات أخرى أيضاً عن زيجات ثيسيوس لاتشرفه مناسباتها ولاتُسعده في وقائعها، لم تتطرق اليها التمثيليات الاغريقية. فلقد قيل انه خطف (اناكسو) الطروزينية، وقتل كلاً من [سينيس Sinnis، وسركيون] ليغتصب ابنتيهما. وتزوج [پيربويا] أم [آجاكس Ajax]، ثم [فيروبوا Pheriboea] ثم [آيوپه Iope] بنت [ايفكليس Iphicles] فضلاً عن اتهامه بهجر (اريادنه) مخالفاً مبادئ الشرف والاخلاق كما أوردنا - عندما وقع في حبّ [ايگله] بنت [پانوپيوس Panopeus] بدون وجه حق، أو اعتبار لكرامة. وأخيراً قيامه بخطف [هيلين]، وهو العمل الذي قلب اتيكا كلها الى ساحة حربٍ تمور بالدماء، وكان بالأخير سبباً لنفيه وموته وهذا ما سنروى وقائعه الآن.

يرى [هيرودوروس] انه وان كان يوجد ثم الكثير من الحملات العسكرية الشهيرة التي قام بها أشجع رجال عصر ثيسيوس، فانه هو نفسه لم يقد إلاّ واحدة، وهي معركة الابيثيين مع

= ١:٤١:٢). وربما كان الرومپويد تلاً ترابياً غير منتظم.

(٨٩) يخطيء [پندار] في قوله ان [ديموفون] هو أحد ولديه اللذين انجبهما من [فيدرا]. [الثاني هو أكاماس]. عند زواج تيسيوس من فيدرا أرسل هيپوليتوس لأمه إيثرا ملكة طروزين لتتولى لتربيته. وبعد زمن عاد لحضور الالعاب الآثينية فوقعت (فيدرا) في حبّه وراودته عن نفسها عبثاً. وفي نوبة من انفعالها ويأسها شكته لتيسيوس زاعمة انه حاول النيل من شرفها وتقول الأسطورة ان (تيسيوس) دعا [نبتون] ليذيقيه ميتة عنيفة عقاباً له فاستجيب دعاؤه. اذ فيما كان هيپوليت يقود عربته على ساحل البحر ارسل نبتون عجلي بحر ارعبا الخيل فانقلبت العربة به وتمزق جسده، ويذكر الشعراء ان الملكة شنقت نفسها حزناً وان [ديانا] التي هزّتها عفّة هيپوليت، وآلمتها نهايته المفجعة، أقنعت (ايكولاپيوس) باعادته الى الحياة وجعلته مرافقاً لها في سائر نَزهاتها.

(السنطورس) إلاّ ان بعضهم يقول انه رافق [جاسون] الى [خُلقيس][٩٠] و[ملياغر Meleag-er] لقتل الخنزير الوحشي الكليدوني. ومن هنا جاء المثل السائر «لا شيء بدون ثيسيوس»، وثابت ايضاً انه حقق بنفسه دون معونة من أحد مآثر مجيدة لا تحصى، من هذا جاء القول المأثور «هرقل آخر، او هرقل ثانٍ» ولقد شارك ايضاً [أدراستوس Adrastus] في استعادة جثث أولئك الذين صرعوا امام قادفيا قلعة (ثيبة) لكن ليس بالشكل الذي صوره [يوريبيدس] في مأساته[٩١]، اي ليس عنوة واقتداراً بل بالتفاهم والإقناع والاتفاق، وهو ما أستقر عليه معظم المؤرخين. ويضيف [فيلوخورس] ان هذا الاتفاق هو الأول من نوعه في التاريخ، (لكن يظهر في تاريخ هرقل، انه اول من سمح لاعدائه ينقل جثث قتلاهم) وان المقابر التي تضم رفات معظمهم مازالت ظاهرة في قرية [اليوثيري Wleutherae][٩٢] اما قبور القادة فتثوي في [اليوسيس] حيث خصص لهم ثيسيوس رقعة من الأرض اكراماً لخاطر [دراستوس]. ورواية [يوريبدس] التي اوردها في مسرحية «المتضرعين» يدحضها [اسخيلوس] في مأساته المسماة [الايلوسينون Eleusiniand][٩٣] حيث يقوم ثيسيوس برواية الوقائع كما اثبتناها هنا[٩٤].

والصداقة الشهيرة التي ربطت بين [ثيسيوس وپيرتاووس] قيل انها بدأت على النحو الآتي: ذاع صيت ثيسيوس، وعلم الناس بقوته وبأسه في أقصى بلاد اليونان، ورغب [پيرتاووس] ان يختبر الأمر بنفسه، فقام تحدوه هذه الغاية بضبط قطيع من الثيران يعود لثيسيوس، وبينما كان يستاقُه من ماراثون، أبلغ بأنّ ثيسيوس يقصّ أثره وهو بكامل سلاحه فلم يسرع في فراره، بل انقلب عائداً لملاقاته. ولما تفرّس احدهما في الآخر امتلأ هيبةً واحتراماً متبادلاً، ونسيا كل نية في القتال. وسبق [پيرثاووس] فمدّ يده لثيسيوس وطلب منه ان يكون حكماً في النزاع. ووعد ان يخضع لأيّ عقوبة يفرضها بملء الرغبة فلم يكتف ثيسيوس بالصفح عنه، بل عرض عليه صداقته واخوّته في السلاح. وأشهدا على صداقتهما وعززاها بالأيمان المغلظة. وبعد زمن، تزوج پيرتاووس [ديداميا Diedamia][٩٥] ودعا ثيسيوس الى

(٩٠) ربما بحثا عن جزّة الصوف الذهبية.

(٩١) وهذا أيضاً ما يزكيه ايزوقراطس في مقاله حول (هيلين) وان كان يرى في موضع آخر ان (تيسيوس) أرسل سفراء الى ايتوكليس. إلاّ ان هذا التناقض الواضح أزاله معاصره (ليسياس) بذكره ان (تيسيوس) بعد مفاوضة غير ناجحة حصل بالقوة على نتيجة أفضل. مأساة [المتضرعون: ص ٦٥٣ وما بعدها].

(٩٢) مدينة في اتيكا على حدود بويوسيا [پاوسنياس ١:٣٨].

(٩٣) الابيات ١٢١٣ وما بعدها.

(٩٤) مفقودة.

(٩٥) كل الكتاب الآخرين يسمونها (هيپوداميا) ما عدا [پربيوتيوس] الذي يسميها [ايسخوماخه] ٩:٢:٢ =

حفلة العرس، ولمشاهدة بلاده بهذه المناسبة والتعرف بقومه اللابيثيين[٩٦] كما دعا في الوقت نفسه قوم [السنطوروس]. وفي الحفلة لعبت الخمر برؤوس هؤلاء، وأظهروا شراسة وسوء أدب، وطفقوا يتحرشون بالنساء ويهينونهنّ. فأسرع اللابيثيون يثأرون منهم وبطشوا بعدد كبير منهم في اثناء الوليمة. ثم نشبت معركة فيما بينهم فهزموهم وطردوهم من أرضهم جميعاً وكان ثيسيوس يقاتل الى جانب الابيثين إلا ان لهيرودوروس قصّة أخرى عن هذه الأحداث. فهو يقول أن (ثيسيوس) لم يسرع الى معاونة اللابيثيين إلاّ بعد نشوب الحرب. وان اول مشاهدته لهرقل كان في طريق ذهابه اليهم. اذ كان قصده أن يجده في [تراخيسن][٩٧] التي أختارها هرقل موطناً بعد كل مغامراته واسفاره وان هذه المقابلة تمت بشكل مشرف لهما، وباحترام وودٍ لا مزيد عليهما. ولكن القول الاكثر احتمالاً واعتماداً هو ما زعمته طائفة أخرى من المؤرخين بان لقاءات أخرى كثيرة كانت قد جرت بينما ،انه بسعي من ثيسيوس مُنح هرقل في [ايليوسيس] حق المواطنة وقبل اجراء المراسيم اسرار كسيريس Ceres قام بالتطهر بسبب النجاسات التي حفلت بها حياته الماضية[٩٨].

يقول [هيللانيكوس]: اختطف ثيسيوس هيلين عندما كان في الخمسين من عمره. وهي وقتذاك طفلة ليست في سن زواجٍ. ويقول بعض الكتاب - يقصدون جبٍّ تهمة تتضمن واحدة من اكبر الجرائم - انه لم يسرق هيلين بشخصه، وان الفاعلين هما [ايداس Idas ولينكيوس Lynceus] خطفاها وجاءا بها اليه ووضعاها أمانة عنده. ولهذا رفض اعادتها الى اخويها [كاستور Cadtor] و[پوللوكس Pollox] عندما طلباها منه. أو يقولون ان أباها [تنداريوس Tandarus] كان قد بعث بها اليه ليحافظ عليها من [انياروفوروس Enarophorus] ابن [هيبكيون Hippocöon] وكان يحاول اختطافها وحملها بالقوة وهي طفلة. لكن أقرب

= وهي بنت [داراستوس].

(٩٦) يطلق هوميروس على «اللاپيثي» صفة الأبطال. واثر عن السناطير بانهم انصاف بشر وانصاف خيل ويُصورون عموماً راكبين خيلاً اما بسبب وحشيتهم أو لصفتهم الحيوانية ان لم يعز اليهم استعمال الخيل وسياستها.

(٩٧) موضع صغير يقع بالقرب من جبل اوتيا.

(٩٨) قبل التكريس للأسرار الكبرى في اليوسيس لابدّ من اجراء مراسيم التطهير في الأسرار الصغرى على المرشحّ (وتقام في آغرا بالقرب اليوسيس) وبعد ان يُعدّ المرشح نفسه بالصيام والتأمل يجب عليه ان يضطجع على جلد خنزيرة حامل سبق أن ضُحيت لـ(جوپتر). ثم عليه أن يغتسل بماء البحر الذي يمازجه الملح والغار والشعير وبعدها يمرّ عبر النار ثم يكلل بالزهر. ويقضي المقبول في الأسرار السنة التالية يدرس المراسيم للبعث الجديد وبعد هذا كله (باستثناء مراسيم وخاصة جداً قاصرة على رتبة الكهنوت) يتم تكريسه نهائياً بارتداء الثوب الذي كُرس فيه لاينزعه عنه حتى يهترىء ويغدو خرقاً فيوقفه على [سيريس] أو [پروسپرين] أو يحفظه لاولاده.

الروايات احتمالاً وأغناها بالشهود، هي الآتية: ذهب ثيسيوس وپيرتاووس الى سپارطا، وبعد ان خطفا الصغيرة اثناء ما كانت ترقص في معبد [ديانا اورثيا] (٩٩)، هربا بها فخرج رجالٌ مسلحون لتعقيبهم، إلاّ انهم لم يمضوا في مطاردتهم أبعد من [تيجيا Tegea] ولما أمن الخاطفان المطاردة وفي اثناء مرورهما ببلاد الپيلوپونيسوس وصلا الى اتفاق فيما بينهما، وهو ان يقترعا على هيلين، فمن خرجت له اتخذها زوجاً، والظافر بها يجب ان يساعد الخاسر في الحصول على أخرى. وسحبت القرعة وفاز ثيسيوس فأخذ هيلين الى مدينة [افيدني Aphid-nae] (١٠٠) ولم تكن تصلح للزواج - واودعها لدى واحد من حلفائه المدعو [افيدنوس]، ثم بعث بأمه [ايثرا] لتعني بها هناك وطلب من حليفه هذا ان يكتم سرهما لئلا يعرف احد موضعهما. بعد أن فرغ من هذا عاد الى صديقه للوفاء بالوعد ورافقه الى [ايپيروس Epirus] ليخطفا بنت ملك المولوسيين Molossians] المدعو [ايدونيوس Aidonius] أو [پلوتو] وكان هذا الملك قد جمع زوجه [پروسپرينا Prosprina] (١٠١) وابنته [كوراي Corae] وكلباً هائلاً عنده يدعى [سيربيروس] وطلبت من كل خاطب لابنته ان ينازل هذا الكلب فاذا تغلب عليه فاز بها ولكن لما ابلغ ان قصد پيرتاووس ورفيقه، هو اختطافها (١٠٢) لا خطبتها أمر بالقاء القبض عليهما وطرح پيرتاووس الى كلبه فمزقه تمزيقاً وألقى ثيسيوس في السجن وأبقاه.

في هذا الزمن نبغ [مينيستيوس Menestheus] ابن پيتيوس وحفيد [اوريندس]، وابن حفيد [ارختيوس] وهو اول خطيب جماهيري في التاريخ، ممن اشتهر بالمقدرة على خطب ودّ الجماهير واثارتهم وتزعم جموعهم. هذا الرجل اثار حفائظ وموجدات كبار القوم في المدينة، ومنهم عدد كبير ممن كان يضمر لثيسيوس حقداً دفيناً لأنه جردهم من اقطاعياتهم وسلطانهم وحشرهم جميعاً في مدينة واحدة، واستخدمهم كالرعية أو العبيد، ومن ناحية ثانية دفع هذا المشاغب أحطّ الناس واوزاعهم الى الهياج والفتنة، قائلاً لهم انهم خدعوا بمجرد حُلم بالحرية،

---

(٩٩) اعتاد السبارطيون جلد اولادهم فوق مذبح معبد ديانا أورثيا هذا - جلداً مبرحاً باشدّ واقسى ما يتصوره العقل لتعويدهم على الاحتمال. كانت هيلين التي عرفت بانها بنت (چوپتر) من (ليدا) زوج [نتداروس] في العاشرة من العمر عندما اختطفها تيسيوس وپيريثاووس.

(١٠٠) مدينة تقع بالقرب من أثينا.

(١٠١) پروسپونيا أو (كوراي) اسمان لشخص واحد هو ابنة [ايديونيوس] بعل [سيرس] وپلوتارخ يحدثنا في كتاب (الاخلاق) قائلاً ان المقصود بـ(پروسپرين) هو القمر الذي يقوم (پلوتو) اله الظلام بخطفه أحياناً. والواقع ان كوراي لاتعني الاّ «فتاة أو بنت» فيقال «بنت ايپروس» كما يقال بنت لبنان أو بنت الصين الخ...

(١٠٢) رغب افلاطون (الجمهورية ٣٠) أن يستر خِلّة ابناء الآلهة هؤلاء ويبرئهم من تلك التهم التي تفتقر الى اثبات فنفى الحكاية من اساسها.

في حين انهم في الحقيقة جردوا من تلك الحرية ومن بيوتهم الحسنة، وعقائدهم الدينية، وبدلاً من ملوكهم الطيبين الصالحين، استسلموا وخضعوا لاستبداد شخصٍ اجنبي طفيلي. وفيما هو ماض في إفساد عقول المواطنين زودته الحرب التي شنها [كاستور وپوللوكس] بفرصةٍ ثمينة ليزيد من حجته قوة وأثراً. وزعم بعضهم ان تحريضه واثارته كان السبب الأساس لهجومهما على أثينا. على أنهما لم يقترفا شيئاً في اول زحفهما ولم يبدُ منهما اعتداء، وانما طلبا [هيلين] أختهما بصورة ودية مسالمة فنفى الآثينيون وجودها في المدينة واكدوا جهلهم بموضع اخفائها، فتأهبا للهجوم. وهنا خف [اكاديموس] لنجدتها اذ عرف بوسيلة ما مخبأ المخطوفة، فدلهما عليها ولهذا السبب اغدق عليه [كاستور وپوللوكس] النعم والعطايا ما أغناه طول حياته وكان اللقيديمونيون اثناء اجتياحهم المتكرر لآتيكا والبلاد المجاورة وايقاعهم الخراب بها، لايمسونّ [الاكاديمي](١٠٣) بأذى لأجل ذكرى [اكاديموس] إلاّ ان [ديكيارخوس Di-caearchus] يقول بوجود شخصين أركاديين في جيش [كاستور وپوللوكس] أحدهما يدعى [اخيديموس Echedemus] والثاني يُدعى [ماراتوس Marathus] ومن اسم الأول أشتق ما يعرف الآن بالأكاديميا، التي سميت فيما بعد (اخيديميا) ومن اسم الثاني استمدت (ماراثون) القرية اسمها. فقد عرض هذا الرجل نفسه ضحيةً للآلهة قبل المعركة، تحقيقاً لنبوءة ما.

وبلغ [كاستور وپوللوكس] مدينة [آفيدنيا] وتغلبا عليها في معركة فاصلة واستوليا على المدينة. وفيها قتل (اليكوس) ابن [سيرون] وهو من جماعة الديوسكوري (اي كاستور وپوللوكس)، على ما قيل. ويوجد في (ميغارا) موضع دُفن فيه ما يزال يدعى [اليكوس] ويكتب [هيرياس] ان ثيسيوس هو الذي قتله، ويستشهد على ذلك بالبيتين الآتيين عن اليكوس:

«وقتل اليكوس في سهل افدنيا.

قتله ثيسيوس، في سبيل هيلين الشقراء»

على انه لايوجد ما يؤيد وجود ثيسيوس هناك عندما استولي على المدينة واسرت أمه.

ومهما يكن من أمرٍ، فقد بسط كاستور وپوللوكس سلطانهما على [افيدنيا]. واستبد القلق بمدينة آثينا. وافلح [مينيستوس] في اقناع الأهالي بفتح ابوابها واستقبالهما بكلّ مظاهر الصداقة قائلاً: إن عدوهما الوحيد هو ثيسيوس الذي كان البادىء بالشرّ. وانهما سينقذان الأهالي. وكان سلوك الفاتحين مصداقاً لهذا فبعد أن استتب لهما الأمر في المدينة لم يطلبا

(١٠٣) موضع تحفّ به الأشجار بالقرب من نهر كِفسوس يبعد بحوالي ميل واحدٍ شمال غرب اثينا، وهنا كان افلاطون وتلاميذه يجلسون للدرس (انظر سيرةَ كيمون).

أكثر من منحهما حتى القبول في الاسرار، لان صلة قرابتهما بها لا تقل عن صلة هرقل[١٠٤]. وكان قد نال التكريم نفسه من قبل. فحقق لهما مطلبهما وتبناهما [أفيدنوس Aphidnus] مثلما تبنّى [پيليوس Pylius][١٠٥] هرقل. واحتفى بهما كما يحتفي بالالهة. وسيما بالاسم الجديد [اناكسيس] وهو اما مأخوذ من الهدنة Anoche التي تلاها أو من تدابير الرعاية التي اتخذاها كيلاً يلحق بأحدٍ مكروه، بوجود جيش كبير داخل المدينة. ذلك لأن جملة «أناكوس وايخين êkhein, Anakös» تطلق على أولئك الشديدي الاهتمام بكل شيء، ولهذا تجد ملوكاً يلقبون «أناكتس». ويقول بعضهم أن تسميته هذه من اناكيس Anakes مظهر في الفلك. ففي اللهجة الاتيكية يقترب هذا الاسم اقتراباً شديداً من الكلمات التي تعني «فوق» او عالٍ فالاثينيون يستعملون كلمتي انيكاس Anekas وانيكاثن Anekathen بدلاً من آنو Anö وانوثين Anothen.

وقيل ان [ايثرا] والدة ثيسيوس أسرت هناك. وحملت الى لقيديميون، ومن هناك ذهبت الى طروادة مع هيلين. ويستندون في زعمهم هذا الى بيت للشاعر هوميروس حين يذكر من رافقها: «اثيرا وكليمينه الحوراء الجميلة الليّن وكِدتا ليپثيوس»[١٠٦]. لإثبات انها كانت ترعى شؤون [هيلين]. ويسقط آخرون هذا البيت ولايعدونه من شعر هوميروس[١٠٧]، كما ينبذون كأسطورة [مونيخوس] الذي كان كما تقول الحكاية - إبنا [الديموفون Demophon ولاوديكه Laodice] انجباه سِراً، وقامت [ايثرا] على تربيته في طروادة لكن [ايستر Ister] يتحفنا برواية أخرى عن [ايثرا] في الكتاب الثالث عشر من تاريخه عن آتيكا، وهي تختلف عن الباقيات. يقول ان [آخيل، وپاتروكليس] تغلبّا على [الكساندر: پاريس Paris] في تسّالي قرب نهر [سپيرخيوس Sperchius] لكن [هتكور] استولى على مدينة طروزين ونهبها وأسر (ايثرا) هناك... والظاهر أن هذه القصّة لا أساس لها من الصحة.

في اثناء مرور هرقل [بالمولوسيين]، حَلّ ضيفاً على [ايدونيوس] الملك فنوّه هذا عرضاً برحلة ثيسيوس [وپيرتاؤوس] الى بلاده، وقصّ عليه ما كان يريدانه وما حَلّ بهما نتيجة

---

(١٠٤) ذلك لأنهما ابنان لجوپتر ايضاً وهو الآله الذي يدعى الآثينيون بأنهم جاؤوا من صلبه. لذلك كان من الضروري أن يمنحا حقوق المواطنة قبل قبولهما في الأسرار. وعلى هذا الأساس تمّ منحهما الجنسية عن طريق التبنّي.

(١٠٥) ملك شسپي Thespiae في بويوسيا.

(١٠٦) الالياذة ٣:١٤٤.

(١٠٧) يبدو ذلك بعيد الاحتمال. فمن غير المنطق أن تكون حماة هيلين وصيفتها أو أن تكون وصيفة هيلين ملكة! ومع هذا فإن حكاية أسر (اثيرا) تطابق كثيراً الصورة التي كانت تشاهد في دلفي. اذ بدت (اثيرا) ورأسها يحلق كالعبيد وحفيدها يشاهد وهو يتوسط في الافراج عنها (پاوسنياس ١٠:٢٥).

ذلك. فاغتمّ هرقل غمّاً عظيماً للموت المخزي الذي لاقاه أولهما والوضع المرزي الذي آل اليه ثانيهما ولما كان من العبث أن يبحث في موضوع الأول لموته، فقد توسط في أمر الثاني فنال بغيته ولبى الملك طلبه. واسرع ثيسيوس الى اثينا بعد اطلاق سراحه، وكان في انصاره ومؤيديه بقية.

وهناك اوقف على هرقل كل الاماكن المقدسة التي كرستها له. وغير اسماءها من [يفسيا] الى [هرقليا][١٠٨] اعترافاً بفضله، إلاّ أنه استثنى اربعة فقط كما حدثنا [فيلوخورس]. وبدافع من رغبته في البقاء محتلاً المكان الأول في الجمهورية، وتصريف شؤون حكمها كالسابق، ما لبث ان وجد نفسه مشتبكاً مع الاحزاب في صراع، والمتاعب تحفّ به من كل جانب فأولئك الذين طالما ابغضوه، أضافوا الى بغضائهم احتقاراً، وبلغ فساد خواطر الشعب مبلغاً من التفسخ بحيث ما عادوا يطيعون الاوامر بصمت، وانما صاروا يُدفعون الى اداء واجباتهم بالملق والمداهنة. ومال به الفكر الى استعمال القوة لإخضاعهم، ولكن الاحزاب ومثيري الشغب من الديماغوغيين كانوا أقوى نفوذاً. وأخيراً ادركه اليأس من التوصل الى اي نجاحٍ مجدٍ في اثينا، فبعث باولاده سراً الى [يوبوا] ووضعهم في رعاية (اليفينور Elephen-or) ابن خلقدون، ثم لعن شعب آثينا في قرية [گارگيتسّ] حيث مازال يوجد فيها موضع يدعى [اراطيريون Araterion] أو موضع اللعان أو الدعاء، أبحر الى [سكيروس Scy-ros][١٠٩] وفيها أراض خلفها له أبوه، وصداقات توهم وجودها بين الأهالي، وكان [ليقوميدس Lycomedes) ملكاً على الجزيرة يومذاك، فقصده ثيسيوس وانهى اليه رغبته في تمكينه من اراضيه لأنه قرر السكن والاستقرار في الجزيرة. وهنا يختلف الكتاب فبعضهم يقول انه اتصل به طالباً منه العون على الاثينيين، وان [ليقوميدس] أما حسداً لمجدِ رجل عظيم، او أرضاءً [لمينيسيتوس][١١٠]، قاده الى أعلى جرفٍ في الجزيرة، بدعوى مشاهدته الأراضي من موقفه ذاك. وقذف به من حالق، فقتل، ويقول آخرون: لا بل سقط قضاءً وقدراً حينما زلت قدمه أثناء سيره هناك كعادته يومياً بعد العشاء. ولم يلحظ أحد موته، يومذاك ولم يهتم به أحدٌ، وتمكن [فيستيوس] من بسط سلطانه على مملكة اثينا بهدوءٍ، ونشأ اولاد

---

(١٠٨) أظهر يوربيدس تيسيوس في مسرحية [هرقل في تجواله] وهو يعد منقذه بالقيام بهذا العمل على السبيل الوفاء.

(١٠٩) تقع هذه الجزيرة مقابل يوبويا. اصبح الآثينيون الناكرو الجميل يشعرون بمرور الزمان بآثار هذه اللعنة. حتى انهم قرروا تهدئة لطيفة لزائر ان يقدموا له قرابين عامة وان يحيوا ذكراه بتكريم كتكريم الآلهة.

(١١٠) أو كما قال بعضهم: بعد ان تبين له ان يريد افساد رعيته عليه واغواء زوجه.

ثيسيوس نشأة خصاصةٍ وفقر، وصحبوا [اليفينور] في حروب طروادة لكنهم عادوا الى آثينا بعد موت [مينستيوس] في تلك الحملة، واستعادوا الملك. وفي العصور التالية نجحت عدة ظروف حملت الآثينيين على تكريم ثيسيوس وانزاله منزلة نصف إله. ومن تلك الظروف ما حصل في المعركة التي خاضها الآثينيون في [ماراثون] ضد الميديين. فلقد اعتقد كثيرٌ من الجنود انهم شاهدوا شبح [ثيسيوس] وهو بدروعه وسلاحه يتقدمهم في الهجوم على البرابرة[111].

وبعد الحرب الميدية عندما كان [فيدو Phaedo] آرخوناً لأثينا[112]، استخار الآثينيين عرافة دلفي، فأمروا بجمع عظام ثيسيوس ودفنها في موضع لائق بمقامه، وأعتبارها من ذخائر المدينة المقدسة. إلاّ ان جمع بقاياه، كان في غاية الصعوبة، واصعب منها التوصل الى موضعها فقد ضاع الموقع عن الأذهان بعد سكنى البرابرة المتوحشين الغلاظ في الجزيرة[113]. ومرت الأيام ثم أستولى [كيمون Cimon] على الجزيرة (كما اوردنا ذلك في سيرته) وكان شديد الرغبة والحماسة في العثور على الموقع الذي يضمّ جسد ثيسيوس وتشاء الصدفة، أن يلمح نسراً جاثماً على نشز من الأرض ينقر التراب بمنقاره وينبشه بمخالبه. وفجأة قدحت فكرة في رأسه بما يشبه الوحي الربّاني. بأن يحفر هناك ويبحث عن عظام ثيسيوس، ففعل ووجد في ذلك الموقع تابوت رجل جسمه اكبر من المعتاد، ووجد سنان رمح نحاسي، وسيفاً مسجى معه، فرفع الجميع وحمله الى سفينة وقدم الى آثينا، فاستبد الفرح بالآثينيين وخرجوا للقاء الذخائر الكريمة واستقبالها بما يليق من المواكب الفخمة والقرابين، حتى لكأنّ ثيسيوس يعود الى

---

(١١١) باوسنياس (١:١٥:٤).

(١١٢) هو الملك السابع عشر لآثينا معاصر الملك الاسرائيلي شاؤول. ضحى نفسه في سبيل بلاده اثناء القتال مع الدوريين والهيراقليديين العام ١٠٧٠ ق.م اذ علم ان النبوءة وعدت بالنصر لاىّ طرف يسقط قائده قتيلاً وبسبب ذلك عظمه مواطنوه تعظيماً يفوق الوصف حتى اعتبروا ان ليس بعده من يستحق ان ينصب ملكاً فألغوا المنصب ووضعوا السلطة بيد مجلس من الحكام باسم الأراخنة (ج: ارخون) يتمّ اختيار اعضائه بالاقتراع كما أختار لرئاسة المجلس (ميدون) أكبر ابناء الملك الصريع. وكان الارخون يحكم طول الحياة في مبدء الأمر وقد تعاقب ثلاثة عشر منهم في ظرف ٣١٦ سنة، وبعد موت (الكيمون) اخرهم جعلت الفترة محدودة بعشر سنين وبقيت منحصرة في اسرة الملك قدروس حتى موت (ارخياس أو ثيسياس) على قول بعضهم وهو السابع في الطبقة الثانية من الحكّام الأعلين. وبه ختم حكم اسرة (قدروس) وعندها استّن الآثينيون مبدأ حكم الأرخون السنوي وصاروا يختارون تسعة بدلاً من واحدٍ سنوياً (سنعود الى شرح ذلك بتفصيل اكثر في حياة صولون). حكم فيدون ما بين ٤٧٦ و٤٧٥ ق.م.

(١١٣) لا يمكن القبول بهذه الروايات عن (سكيروس) ولا سيما من أولئك الذين يتذكرون بأن (أخيل) كان قد ارسل قبل عصر (كيمون) بسبعة قرون الى بلاط (ليقوميدس) وان سكيروس لقربها من يوبويا يجب ان تكون ذات علاقات مع بلاد الأغريق.

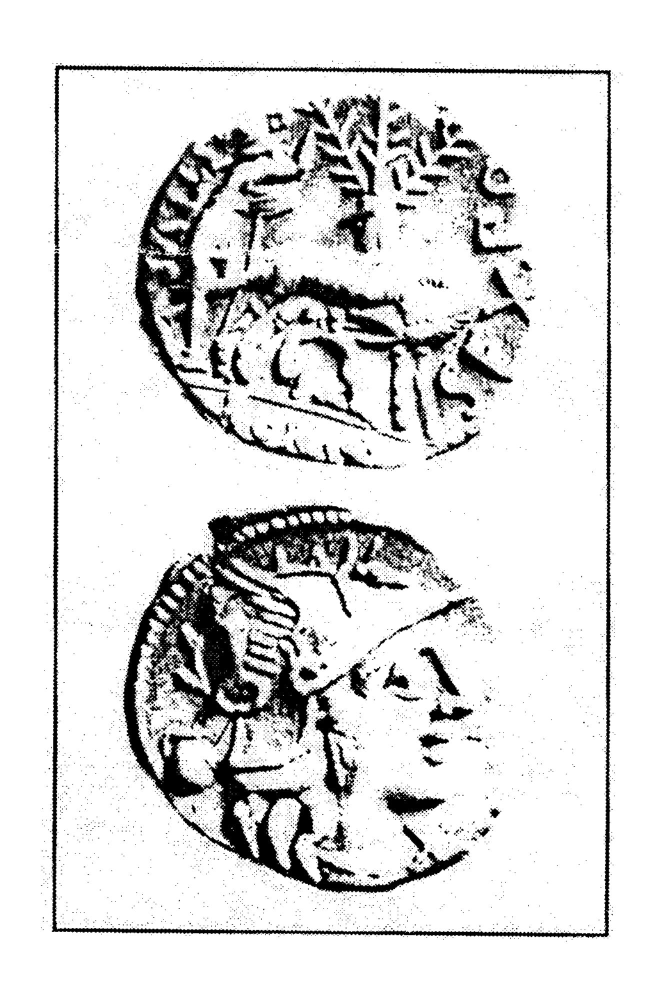
المدينة بلحمه ودمه، حياً. انه اليوم يرقد في وسط المدينة قرب (الجمنازيوم) الحالي[١١٤]. وقبره ملجأ وملاذ للعبيد والفقراء والملهوفين الهاربين من اضطهاد ذوي السلطان. جعل كذلك اعترافاً بسجايا ثيسيوس وغيرته في معاونة المظلومين، ووقايتهم من السوء، وعدم تقاعسه مرة واحدة عن اجارة مستجير او اغاثة مضطهدٍ يلوذ بحماه. ان أعظم واجل قربانٍ يقدمه له الآثينيون، هو في الثامن من شهر [پيانپسيون Pyanepsion] وهو اليوم الموافق لعودته من كريت مع الشبان الآثينيين. وهم ايضاً يضحون له في اليوم الثامن من كل شهرٍ على مدار السنة، إما لانه كان قد عاد من [طروزين] في الثامن من شهر [هيكاتومبيون] كما ذكر [ديودوروس Diodorus] الجغرافي، وإما لانهم يعتبرون عدد (٨) هو العدد الملائم له، اذ قيل انه ولد (لبنتون) وانهم ليقربون الى نبتون في اليوم الثامن من كل شهر. ورقم ثمانية الذي هو أول مربع لعدد زوجي، ومضاعف اول مربع[١١٥] يبدو وكأنه شعار قوة جبارة ثابتة لهذا الرب الذي لقب منذ ذلك الحين [اسفاليوس Asphalius وگيوخوس Gaeiochus] اي مؤسس الأرض ومثبتها.

(١١٤) يقصد جمنازيوم بطليموس [پاوسنياس ١:١٧:٢].
(١١٥) لمبدء الاعداد المستمد من المصريين القدماء عن طريق فيثاغوراس منزلةٌ عالية جداً عند پلوتارخ.

رومولوس

ROMULUS

رومـوس



رومـلوس

عمن اخذت (روما)[1] اسمها وفي اي ظروف عُرف هذا الاسم المؤثل الشهير على افواه البشر؟ ان الكتاب يختلفون في هذا فبعضهم يرى ان [الپلاسجي Pelasgi][2] في اثناء تجوالهم خلال كل العالم المعمور واخضاعهم شعوباً لا تحصى، آثروا الاستقرار هنا، وسميت مدينتهم (روما)[3] لبأسهم العظيم وقوتهم الحربية. ويزعم آخرون أن زمرة من أهالي (طروادة) تمكنوا من النجاة بعد الاستيلاء على مدينتهم ويسرت الاقدار لهم سفناً ابحروا بها، فدفعت بهم الريح حتى سواحل (توسكانيا] وأرسوا على مقربة من مصبّ نهر التيبر Tiber. وهناك عقدت نساؤهم المنهوكات المريضات بنوء البحر - عزمهنّ على احراق السفن[4] بناءً على اقتراح تقدمت به واحدة منهن اسمها (روما) وهي ذات نسب رفيع وفكر راجح. ففعلن ذلك وثار غضب الرجال اول الأمر، لكنهم اضطروا الى البقاء قرب [پالاتيوم Palatium] وانصلحت امورهم بعد زمن قصير بشكل فاق آمالهم. اذ وجدا الأرض خصبة جداً والمواطنين

---

(١) من أجل استنادنا الى أقرب تاريخ لظهور صاحب السيرة، علينا أن نفترض العام ٧٥٣ ق.م تاريخاً لتأسيس روما وان نفترض العام ٧١٦ ق.م تاريخاً لوفاة رومولس. وهما حدثان لا يبعدان زمنياً بكثير عن عام الميلاد فأنهما والحالة هذه يحيط بهما الغموض والجهالة، ويراهما بعض من قبيل الرجم بالغيب أو التقدير الفلكي. ويحدد آخرون غموض تاريخ روما بفترة حكم ملوكها السبعة الذين حكموا طوال ٢٢٤ عاماً. وتسلّم طبقة ثالثة من المحققين بالقليل المؤكد مما ورد عن اية وقعة خلال القرون الخمسة التي تلت تأسيس روما. وكتاب الاغريق وهم على الأغلب شعراء ومدّونو اساطير لم يهتموا بما كان يحصل في ايطاليا. كما ان [نوما] لم يترك لنا شيئاً غير ما يتعلق بالدين أو الفلسفة. ولم يبرز مؤرخو الرومان الى عالم الوجود الاّ بعد الحرب الفيونّية.

هذا هو الغموض الذي يحفّ بأصول روما في عهد الاباطرة وشأنها في ذلك شأن معظم المدن والشعوب القديمة الاّ ان الغموض هنا أكثر وأظهر لأنّ أول من سكنها لاجئون وخارجون على القانون ينتمون الى شعوب أخرى ولا ينتظر منهم ان يتركوا لنا تاريخاً، الاّ ان [ليڤي] وغيره من مؤرخي اللاتين يتفقون بان رومولوس هو باني روما وان المدينة وأهلها اتخذا لهما اسمه. في حين نرى كبرياء كتاب الاغريق وخيلاءهم تدفعانهم الى ان ينبسوا لأنفسهم كل شيء بما في ذلك روما نفسها.

(٢) هؤلاء - واصلهم من اركاديا - هم اول سكان بلاد الأغريق. ومن هناك طردوا فسكنوا (بساليا) وازيحوا الى (ابيروس) ثم الى مقدونيا وايطاليا وكريت وآسيا.

(٣) الكلمة تدل على القوّة.

(٤) انظر الاينياد [٥:٦٠٤:٦٩٩].

بالغي الطيبة، فزادوا في اكرام السيدة (روما) باطلاق اسمها على المدينة التي كانت هي سبباً في وجودها. ومن هنا جاءت -على ما قيل- العادة الشائعة في روما، وهي ان تحيّ النساء الرومانيات ذوي قرباهن وازواجهن بالعناق والقبل، لأنّ النسوة بعد احراقهن السفن استخدمن هذا الاسلوب من التدليل والتحبب لتهدئة خواطر ازواجهنّ.

ويقول بعض الكتاب ان [روما] التي أخذت المدينة اسمها منها هي بنت [ايطالوس Ital-us] و[ليوكاريا Leucaria] أو كما يزعم آخرون انها ابنة [تيلافوس Telaphus] ابن هرقل، وقد تزوجت [اينياس Aeneas] أو [اسكانيوس Ascanius] ابن اينياس على حد زعم آخرين. ويحدثنا بعضهم ان [رومانوس Romanus] ابن [أوليسوس Ulysses] و[چيرچه Circe]، هو الذي بناها. ويقول آخرون ان بانيها هو [روموس Romus] ابن [اماتيون Emathion] الذي ارسله [ديوميد] من طروادة. ويقول آخرون بل هو [روموس] ملك اللاتين، بناها بعد ان طرد [الترينيين Tyrihenians][(٥)] الذين قدموا الى ليديا من تسالي ثم انحدروا الى ايطاليا.

امّا الكتاب الذين يجعلون اسم [رومولوس] مصدر اسم المدينة، فهم يختلفون فيما بينهم حول ظروف ولادته. فبعضهم يقول انه ابن اينياس و[دكزيتيا Dexithea] بنت [فورباس Phorbas] وانه وأخوه ريموس حُملا الى ايطاليا في حداثتهما. وكانا على صفحة النهر عندما فاضت مياهه وطغت فأغرقت كل المراكب الطافية الاّ السفينة التي تقلّهما، فقد رست بهما برفق على الضفة وكتبت لهما نجاة غير متوقعة. ومن اسميهما جاء اسم الموضع (رومه) ويقول بعضهم ان [روما] هي بنت السيدة الطروادية صاحبة الاقتراح بحرق السفن، تزوجت [لاتينوس] ابن [تيلماخوس Telemachus] وانجبت [رومولوس] ويقول آخرون ان [اميليا Aemilia] بنت (اينياس) و[لاڤينيا Lavinia] زوجه، ولدته للرب [مارس]. ويتحفك آخرون بأساطير مماثلة عن اصل الرجل، فعند [طارخيتيوس Tarchetius] ان ملك [ألبا Alba] الذي كان شر الناس وأقساهم ظهر في بيته شبح غريب خرج من موقد النار على هيئة رجل، وبقي هناك عدة ايام وكان ثم عرافة لـ[تيثيس Tethys] في توسكانا[(٦)]، استخارها طارخيتيوس في شأنه فكانت النبوءة هي ان تهب عذراء من العذارى نفسها للشبح، وستنجب منه ولداً يكون شأنه عظيماً وبأسه شديداً، ويسمو به جدّه ويرتفع سعوده. فأسر طارخيتيوس

---

(٥) هو اسم آخر لشعب التوسكان. وهؤلاء هم غير الپلاسجي الذين ورد ذكرهم ولم يكونوا مستوطنين أقبلوا من [ليديا] كما يزعم [ديون] بسبب أختلاف لغتهم وعاداتهم ودينهم وقوانينهم.

(٦) ليس ثم نبوءة بخصوص [تيفس] على ان هناك نبوءة حول [ثميس]. وكان مع كارمنتا المنوه بها فيما بعد.

بالنبوءة لأحدى بناته واشار اليها أن تسلم نفسها للشبح فاستنكرت الأمر وابت وارسلت خادمتها بدلاً عنها، ولما سمع طارخيتيوس بما فعلت استنشاط غضباً وامر فألقي بالبنت والخادم في السجن وكان ينوي قتلهما، إلاّ ان الربة (نستا) منعته، اذ ظهرت له في الحلم، ففرض عليهما عقوبة: أنْ يحيكا نسيجاً وهما مكبلتان بالاغلال، فاذا اكملتاه أجبرتا على الزواج بمن يختاره لهما، ولكنه كان يأمر اتباعه ان ينقضوا في الليل ما نسجتاه في النهار.

وفي غضون ذلك وضعت الحامل وليدين، فسلمهما طارخيتيوس لشخص يدعى [تيراتيوس Teratius] وأمره باهلاكهما، فحملهما ووضعهما قريباً من ضفة النهر. وأقبلت ذئبة وراحت ترضعهما، في حين قدمت طيور مختلفة جاملة بمناقرها قطعاً صغيرة من الطعام لتضعها في فيهما. الى أن لمحهما راعي بقر، فانتابته الدهشة، لكنه تجرّأ على الاقتراب منهما ورفعهما الى حضنه، وهكذا كتبت لها النجاة، ولما بلغا اشدهما هاجماً طارخيتيوس وتغلباً عليه هذه الاسطورة يوردها [پروميثيون Promethion] في تاريخ ايطاليا.

إلاّ أن القصة الأقرب الى التصديق، وهي التي يقرّ بصحتها أكبر عددٍ من الثقات، كان ديوكليس [الپيپاريثوس Peparuthus] أول من اذاعها بين الأغريق بوقائعها الرئيسة، وجاراه في معظم تفاصيلها [فابيوس پكتور Fabius Pictor][7] ايضاً، لكن الروايتين لاتخلوان من اختلاف. إما الشكل العام لهما فهو كما يأتي:

«كان ملوك [إلبا][8] يتوارثون الحكم على طريقة التسلسل العمودي، اعتباراً من جدهم الاعلى [اينياس] الى أن رست الخلافة أخيراً على الأخوين [نوميتور Numitor] و[اميوليوس Amulius][9]، فاقترح ثانيهما تقسيم الميراث الى قسمين متعادلين[10]، وجعلت المملكة معادلة للذهب والكنوز التي جيء بها من طروادة. وأختار [نوميتور] المملكة.

---

(٧) پيپاريثوس هي مجموعة من الجزء في بحر ايجه. أشتهرت بخمرها. ولا يعرف عن [ديوكلس] شيء اما [فابيوس بكتور] الذي ينعته [ليڤي] «باقدم الكتاب الرومان» فهو أحد أعضاء الوفد الذي ارسل الى دلفي بعد معركة (كاناي) السيئة الصيت. للسؤال عن الوسائل التي يمكن بها استجلاب رضا الآلهة. وقد اتهمه [پوليبيوس] في حولياته بأنه اساء معاملة القرطاجين.

(٨) بين اينياس حتى نوميتور داميليوس ثلاثة عشر ملكاً من السلالة ذاتها إلاّ اننا نكاد لا نعرف شيئاً عنهم أكثر من اسمائهم وسنيّ حكمهم. وآخرهم (اميليوس) الذي فاق اخاه شجاعة وعقلاً طرده من العرش. وقتل ايجستوس ابن نوميتور الوحيد وكرس ابنته (ريا سلڤيا) لعبادة ڤستا ليؤمن بقاءه في السلطة.

(٩) ليڤي ١:٣.

(١٠) لم يذكر [ديون] ١:٧ عن هذه القسمة شيئاً. ولكنه يذكر فحسب انه اميليوس انتزع العرش بالقوة وطرد اخاه ظلماً وعدواناً وهو أحق بالعرش. وايد هذا فقرة اوردها ليڤي (١:٦) اذ قال «لما كان ريموس ورومولوس توأمين فليس ثم وسيلة لترجيح احقية احدهما في الحكم على الآخر بمقتضى قانون الأقدميّة.

وبحيازة اموليوس المال والذهب غدا قادراً على أن يفعل كل ما يقصر عنه [نوميتور] وآل به الامر الى انتزاع مملكة اخيه بسهولة. ولخوفه ان تنجب ابنته اولاداً جعلها (ڤستاله)(*) وبهذا رسم لها ان تعيش عذراء الى الأبد ولا تتزوج. وبعض الكتاب يسمى هذه المرأة [السيدة ايليا Ilia] وبعضهم يسميها [ريا Rhea] وآخرون [سلڤيا Silvia] وعلى كلّ حال، فانه لم يمرّ طويل زمنٍ حتى أكتشف انها حامل خلافاً لقوانين الڤستال الصارمة(١١). ووجب ان يحل بها افظع عقاب. إلاّ ان [آنتو Antho] بنت الملك تدخلت وتوسطت لها عند ابيها. فأودعت سجناً منفرداً ومنعت من اي رفقةٍ لئلا تضع وليدها دون علم من الملك. وفي الوقت المحدد لها وضعت وليدين يزيد حجمهما عن حجم الوليد الاعتيادي ويفوقانه جمالاً فزاد هذا في غضب الملك [أموليوس] وأمر خادماً ان يحملهما ويُغرقهما، هذا الرجل يسميه بعض الكتاب [فاوستولوس] وبعضهم يقول لا بل أن [فاوستولوس] هو الرجل الذي قام على تربيتهما. ووضع الخادم الولدين في صندوق صغير وقصد النهر عازماً على القائهما في مائه. لكنه خشي التقدم منه والقى بهما على الضفة وقفل راجعاً. وكان ماء النهر الفائض يتعالى، حتى بلغ الصندوق. وحملته الامواج وعوّمته برفق ولين، حتى انزلته في ارض سهلة متطامنة يطلقون عليها اليوم اسم [چرمانوس Cermanus]، وكان اسمها قبلاً «جرمانوس» ولعلها من كلمة [جرماني Germani] اي الأخوة.

والى جوار هذه الأرض كان يوجد شجرة تين بريّ اطلقوا عليها اسم [رومیناليس Ruminal-is] إمّا من [رومولوس] (وهو تعليل ضعيف) وإمّا من [روميناتينغ Ruminating لأن

(*) عندما اوجد رومولوس شعلة النار الخالدة اوقفت على العناية بها عذارى يسهرن على ابقائها مشتعلة في كل مجتمع روماني وتحول هؤلاء النسوة الى كاهنات لهن حقوق خاصة وعليهن واجبات صارمة وأطلق عليهن اسم عذارى [ڤستا] نسبة الى ربّة النار. وكن في العادة يخترن من بنات اعرق اسر روما وان تتراوح سن الواحدة بين السابعة والثامنة وان تضطلع بتأدية رسالتها ثلاثين عاماً تلتزم خلالها بالصفة، وبحكم سهرهن على النار التي تعتبر اهم رمز للبلاد كن يحيطين من الشعب وحكامه بمركز يقرب من التقديس ويخلع عليهن اعظم الامتيازات وتحجز لهن في الملاعب العامة مقاعد الشرف ويتقدم مواكبهن ضباط الحرس. واذا صادفن مجرماً يساق للموت فبامكانهن اطلاق سراحه حالاً. وبمقابل ذلك يخضعن الى قوانين صارمة فاذا اهملن النار وانطفأت جلدن بلا رحمة واذا فرطن في عفافهن يرجمن بالحجارة في عهد [نوما]، ثم وجد هذا العقاب غير كاف فصرن يجلدن اولاً ثم يدفن أحياءً بعد ان يترك في قبورهن مقدار من الطعام ويسجل التاريخ ان ثمانية عشر منهن لقين حتفهن على هذه الشاكلة. وبسبب ذلك لم يسمح الاباء لبناتهن بالانخراط في هذا السلك وبعد ان كان الاختيار قاصراً على أعرق الأسر سمح لبنات الطبقة المتوسطة والعبيد المعتوقين وأبطل هذا كله الامبراطور ثيوروسيوس المسيحي بعد تغلبه على خصمه اوجينيوس الوثني في العام ٢٩٤م وأصدر أمراً بالغاء كل المعابد وبضمنها معبد ڤستا. واطفاء النار فيه.

(١١) ليڤي ١:٤ و ١-٥.

الماشية تستظل بفيئها عادة وتقصدها تخلصاً من حرارة النهار لاجترار طعامها، والتعليل الأقرب من هذا انها جاءت من عملية ارضاع الطفلين هناك، لأن القدماء يطلقون كلمة [روما] على التقام الثدي، او الإرضاع، وهناك ربّة مختصة برعاية الاطفال وتربيتهم ما زالوا يسمونها [روميليا][١٢] وهم لايستخدمون خمراً في التقريب اليها[١٣]، وانما يستعيضون عنه بالحليب. والتاريخ يحدثنا ان ذئبة ارضعتهما[١٤] طوال وجودهما هناك، وان طير نقار الخشب كان يزودهما بالطعام بصورة مستمرة ويتولى حراستهما، ومنزلة الذئبة والطير مقدسة عند الرب [مارس]، واللاتين مازالوا يعبدون هذا الطائر ويكرمونه اكراماً خاصاً دون باقي الطيور. وهذه دلائل تقف في مقدمة الأسباب التي تدعم ما قالته والدة الطفلين، ان اباهما هو الربّ [مارس] نفسه وان قال بعضهم انه وهم اوقعها فيه [اميوليوس] الذي أتاها هو بنفسه ليلاً مرتدياً دروعه وسلاحه. ويظن آخرون ان اوّل ظهور لهذه الأسطورة جاء من اسم مُرضع الطفلين ويتضمن معنى مزدوجاً فاللاتين لا يقتصرون على تسمية الذئاب بـ(لوپي lupae) وانما يطلقون الكلمة نفسها على العاهرات. وكانت زوج فاوستلوس (أكا لارنتيا Acca La-rentia) التي ربتهما، امرأةً قليلة التمسك بالعفّة. ويقدم لها الرومان عدة قرابين. ويقوم كاهن الرب مارس بارساله القرابين هناك في شهر نيسان بمناسبة العيد اللارنتي.

كذلك يكرمون [لارنتيا][١٥] أخرى للسبب التالي: لم يدر حارس معبد هرقل كيف يقضي وقت فراغه الكثير، فأقترح علي ربِّ معبده لعبة نرد على رهان: إن غلب الحارس اخذ شيئاً ثميناً من الرب وإنه غلب الرب، يتعهد الحارس أن يبسط له مائدة حافلة بانفس الطعام ويؤمن له رفقة امرأة جميلة. ثم القى بالنرد نيابة عن الرب، ثم القاه لنفسه فكان الرب هو الرابح. ولاعتقاده انه مرتبط بعهد يجب الوفاء به، أدب للرب عشاءً فخماً ودفع مالاً [للارنتيا] وكانت في عِزّ جمالها وان لم تشتهر بعد[١٦]- وجاء بها الى المأدبة في المعبد وبسط فراشاً وبعد ختام العشاء خرج وأغلق الباب عليها، كان الرب سيطأها حقاً. وقيل انه جاءها فعلاً

---

(١٢) ليڤي: «الرومان لا يسمون تلك الربّة [روميليا] وانما [رومينيا]» على ان كتاباً آخرين يرفضون اشتقاقاً كهذا كما يرفضون اسطورة الذئبة ويرونها من قبيل التلفيق والتصنيع. ويرون أن احتمال الأغلب هو أن المدينة أخذت اسمها من (رومون) وهم أسم نهر التّيبرَ الأول.

(١٣) لأنها كانت ضارة في تلك الفترة من عمر الطفل.

(١٤) ليڤي ج ١: ٤ و ٦-٧.

(١٥) هذه المرأة حسب قول [م. ريكارد] يجب ان تدعى [إكّا] رونيتا نسبة الى معاشرها. والمفروض ان يكون شأنها شأن [فلور] التي اوقفت ثروتها التي جمعتها من حياة الفسق والفجور على الشعب الروماني. فكرّمت مقابل ذلك باحياء العاب سميت باسمها وهي العاب يشوبها التحلل والاباحية.

(١٦) في كتابه عن [الاخلاق] يقول پلوتارخ انها كانت تعرف (بالعاهرة الشعبية).

وامرها ان تنزل الى السوق صباح اليوم التالي وتسير الهوينا وتحي أول رجل تلقاه وتتخذه خليلاً. ففعلت ولقيت رجلاً يدعى [تارّوتيوس Tarrutius] وكان متقدماً في السن طائل الغنى أعزب بلا عقب، فضّم [لارنتيا] اليه وعلق بحبها وترك لها عند وفاته كل ثروته وجعلها وارثته الوحيدة في كل ممتلكاته الواسعة فكتبت وصيّة موثقة أوقفت بموجبها معظم الثروة على النفع العام. وذكر انها أختفت فجأة بالقرب من الموضع الذي يضمّ بقايا [لارنتيا] الأولى، ذلك لأنها اشتهرت وذاع صيتها لكونها محظية الربّ. والبقعة تسمى [ڤيلابروم Velabrum] الى يومنا هذا لأن النهر كثيراً ما يفيض ماؤه فيضطر الناس القادمون الى [الفورم Forum] من المحلات المجاورة، الى ركوب الزوارق والأطواف. والكلمة اللاتينية لفعل التنقل بالطوف هي [ڤيلاتورا Velatura][١٧]. ويشتق آخرون الاسم من [فيلوم Ve-lum] اي شراع، لان متعهدي حفلات الملاعب العامة اعتادوا ان يعلقوا شرعةً على طول الشارع المؤدي الى الملعب الاكبر [سركس ماكسيموس Circus Maximus] ابتداءً من الفورم حتى هذه البقعة. ولهذه الأسباب تكرّم [لانتيا] الثانية في روما.

قام [فاوستولوس] راعي خنازير امولیوس بتربية الاخوين سراً: ويقول آخرون[١٨] علم بتلك من الاول وكان يدخلنهم ويساعدهم دون ان يدري به احد. وقيل ايضاً انهما ارسلا الى [غابي Gabii][١٩] للدراسة وبرزاً في الاداب وغيرها من فنون الثقافية مما يليق بارومتهما. وانهما سميا [رومولوس وريموس] من [روما Roma أي الرضع] لأنهما وُجدا وهما يرضعان من أثداء الذئبة على ما تقدم بيانه. وكانت ضخامة جسديهما وجمالهما منذ الحداثة مناسبين لتفوقهما الطبيعي، ولما بلغا أشدهما اثبت مدى شجاعتهما ورجولتهما بمعاناتهما أخطر المغامرات والمهالك. وكان يبدو ان [رومولوس] كثير التروي لايقدم على شيء قبل التفكير فيه، وان له حكمة رجال السياسة والحكم، وكان يبدو وكأنه خلق ليلقي بالأوامر لا ليتلقاها في كل علاقاته مع المجاورين سواء مايتعلق منها برعي الحيوانات أو الصيد ولذلك تعلق

(١٧) ايد هذا الأصل اللغوي (ڤاروّ de L. L. Varro = 7-4) الذي يشتق كلمة Velabrum من Velo بوصفها مختصر Vehelabrum أو الاستنتاج الثاني يرى انه مشتق من Velum فهو خطأ لاشك فيه. فالعادة المشار اليها [نشر خيمة في الحفلات العامة] بدأت قبل تاريخ وجود اسم [ڤيلابروم] وقت قيام (كاتولوس) بتكريس الكابتول [پليني: التاريخ الطبيعي ١٩:١].

(١٨) ربما أحيا هذا أمل نوميتور في العودة الى الحكم. على ان معرفته بالموضع الذي كان الطفلان فيه يتلقيان علومهما، وامدادها باسباب العيش يتناقض تماماً والطريقة التي ادت الى اكتشافهما عندما بلغا اشدهما وهذا اهم جزءٍ من الرواية.

(١٩) احدى اقدم المستعمرات الألبانية تبعد باثني عشر ميلاً الى جنوب شرقي روما ويقول [ديون الهيالكارناسوسي] ١٩:١ انهما درسا هناك الاداب اليونانية وفن الخطابة والتدرب على استخدام السلاح.

بحبهما رفاقهما واتباعهما. وكانا يحتقران ويزدريان خدم الملك ووكلاءه وحجابه، ولايجدان اي ميزة يمتازون بها عليهما، ولايهتمان قلامة ظفر باوامرهم وتهديدهم. وكانا يقضيان أوقاتهما في المفيد من الأعمال والدرس الكثير، ولم يجدا في الكسل والتعطل فائدةً او فضيلة، وانصرفا الى مختلف الرياضات كالعدو والقنص ومطاردة قطاع الطرق، والقبض على اللصوص، وانقاذ المضطهدين والمظلومين من الأذى وبسبب مآثرهما هذه اشتهر أمرهما.

نشأ خصام بين رعاة ابقار [نوميتور واموليوس] ولم يحتمل الأخوان رعاة الأخير وضبط مواشيهم باعتداء رعاة الاول منهما فحملوا عليهم واجبروهم على الهزيمة واستعادوا القسم الاكبر من الغنيمة، فغضب [نوميتور] غضباً شديداً، فلم يبالوا به وكانت الخطوة الاولى التي أقدما عليها بهذه المناسبة ضمها الى زمرتهما عدداً من العبيد الآبقين والفقراء المدقعين - وهو عمل يعادل المرحلة الأولى للعصيان والثورة. واتفق أن [رومولوس] الشديد التمسك بفرائضه الدينية كان يقدم قرباناً، عندما التقى رعاة [نوميتور] بأخيه (ريموس) وهو مع قلةٍ من أصحابه يقومون برحلة، فهاجموه ودار قتال بينهم واخذوه أسيراً وجاؤا به الى [نوميتور] وكالوا له التهم جزافاً، لكن [نوميتور] لم يشأ معاقبته بنفسه خشية ان يثير غضب أخيه اموليوس المعروف بقسوته الشديدة، واتصل به وطلب منه ان يأخذ بيده أمر تطبيق العدالة بوصفه أخاً اهانه رعايا خدمه. على ان اهل [أليا] كانوا ناقمين على عمل خدم اموليوس، كما كانوا يعتقدون ان [نوميتور] قد عومل معاملة غير طيبة. وهكذا اضطر أميليوس الى إبقاء [ريموس] بيد نوميتور ليعمل به ما يحلو له، فجاء به هذا الى دياره وتزايد إعجابه بشخصية الفتى وجمال أعضائه وقوة جسمه التي لا مثيل لها بين الرجال. وتبين من وجهه آيات الشجاعة ومضاء العقل. وهي سجايا بقيت شامخةً غير متصاغرة رغم الظرف العصيب الذي يعانيه صاحبها. ثم بلغته انباء كل المغامرات والمآثر التي اقدم عليها، وكلها دلائل على ما توسمّه فيه. ولاسيما القوة الآلهية التي تقود اولى الخطى إلى اعظم المصائر. وتمكن [نوميتور] من وضع يده على الحقيقة باطاعته فكرة عابرة خطرت بباله عرضاً فدفعته الى سؤاله بلهجة رفيقة عمن يكون؟ ومن اين جاء؟ فتشجع [ريموس] واجاب قائلاً «لن أخفي عنك شيئاً، اذ يظهر لي ان طبعك اقرب الى طبع الملوك من اموليوس، لانك سمحت بالتحقيق في امري وفحص قضيتي قبل ان تفرض عقاباً علي[٢٠]، في حين ان اخاك يعاقب قبل أن

(٢٠) البيتان التاليان للشاعر الروماني ڤرجيل [١٩-٧٠ ق.م: الاينياد الكتاب السادس: ٥٦٦] وفيهما يصف محكمة قاضي جهنم فيقول: «يعاقب أولاً، ثم يسمع الدفاع. وبالأخير يرغم المتهم على الاعتراف. ويفسّر القانون ويحوره بالشكل الذي يحلو له». Gmosius hoe shadanthus habet durissima regna Castigatque, auditqne dolos, subigi it que fateri

يعرف كنه المسألة. كُنّا في السابق نعتقد نحن التوامين، بأننا ابنان [لفاوستولوس] و[لارنتيا] خادمي الملك، ولكن منذ ان الصقت بنا التهم واكتنفتنا النوائب وحاقت الأخطار بحياتنا هنا امامك - ونحن نسمع اشياء كثيرة عن انفسنا، ومما يشهد بهذه الحقيقة الخطر الحالي المحدق بنا الآن[٢١]. قيل ان مولدنا يكتنفه الغموض والسرّ، واغرب منه تربيتنا منذ الحداثة، فالطيور والوحوش التي القينا بينها هي التي اطعمتنا فاغتذينا بحليب الذئبة وبلقيمات طائر نقار الخشب، ونحن مُضجعون في صندوق صغير ملقى على ضفة النهر ان الصندوق مازال موجوداً كما خلفناه وهو مصفح برقائق من نحاس عليها كتابة كادت حروفها تمّحي. وهذه كلها تذكارات حقيقية لأبوينا بعد أن نموت ونغادر الدنيا». وبعد ان تأمل [نوميتور] بهذه الأقوال، وبحسابه التواريخ ومقارنتها بمظهر سِنّ الشاب، لم يضعف الأمل الذي راوده، بل أخذ يفكرّ كيف يتصل بابنته سِراً ويحادثها عن هذه الأمور، لأنها مازالت رهن السجن.

ولما سمع [فاوستولوس] بنبأ القبض على [ريموس] وتسليمه الى [نوميتور] استنجد برومولوس لانقاذه. وصارحه في تلك الساعة بتفاصيل سرّ ولادتهما وان كان قبل هذا قد ابدى له تلميحات عنها وكشف ما يكفي الذكي السريع الخاطر للاستنتاج الكثير، ودفعه الخوف والقلق من تأخره في العودة الى ان يحمل الصندوق ويسرع به الى [نوميتور] في الحال. إلاّ ان بعض حراس الملك شكوا في أمره ونظروا اليه بعين الريبة. واربكته اسئلتهم، فلم يسعه إلاّ ان يكشف عن الصندوق المخبأ تحت عباءته، واتفق ان كان بين الحراس شخص من الاشخاص الذين شاهدوا القاء الطفلين[٢٢]، فعرف الصندوق من شكله ونقشه الكتابي. وادرك الغرض حالاً فأسرع الى الملك وأخبره بالحقيقة فأدخل فاوستولوس لانتزاع الحقيقة منه، ولم يكن ليحتاج الى جَلْدٍ، ولم يكن بالرجل الذي يصمد أم التهديد كما لم يلق عنتاً أو اكراهاً فاعترف بان الطفلين هما في قيد الحياة يعيشان في مكان يبعد كثيراً عن البا، ويمتهنان الرعيّ. وانه قصد اخذ الصندوق الى [ايليا] التي طالما اشتاقت الى رؤيته ولمسه بيدها، ليتأيد لها ان

(٢١) لابد وانهما سمعاً حكاية غامضة عن كيفية بقائهما العجيب في قدر الحياة زمان الطفولة. ولهذا استنتج (ريموس) بطبيعة الحال ان الارباب الذين رعياهما هكذا، سينقذونه من الخطر الحالي في حالة ما كانت قصّة طفولتهما حقيقية.

(٢٢) يبدو هذا مناقضاً لما ذكره پلوتارخ في الاول اذ أفاد انه يكن ثم غير خادم واحدٍ هو (فاوستولوس) الذي استخدم في هذه المهمة الغريبة على ان [ديون الهاليكارناسوسي] يصرح بغير لَبس بان عدداً من الخدم قد شاركوا في العمل.

طفلها على قيد الحياة. وفي تلك الاثناء انتاب [امولیوس] ما ينتاب المضطربين عقلياً فيعلمون إمّا بدافع من خوف وإما بدافع من ثورة عاطفية، فأسرع يرسل الى [نوميتور] رسولاً تربطه به صداقة متينة وزوده بأوامر تقضي أن يعلم من أخيه عن وصول ما يؤيد وجود الطفلين على قيد الحياة[٢٣]. فجاء الرسول وشاهد بأم عينه كم كان [ريموس] قليل الرغبة في ان يحضنه [نوميتور] ويضمه الى كنفه. وهذا ما جعله أكثر ثقة في نجاح مهمته ومسعاه فنصحهما بمباشرة العمل وعرض عليهما معاونته. ولم يكن الوقت ليسمح لهما بالتردد لو شاءا اذ ان رومولوس كان قد اقترب كثيراً بقوة عظيمة، وراح المواطنون ينضوون تحت لوائه سراعاً بدافع الكره والخوف من [امولیوس] وقسم [رومولوس] قواته الى سرايا، الواحدة منها تعدّ مائة رجل. وكان كل آمر سرية يحمل قطباً خشبياً شدّ فوقه حزمة من العشب الصغير واللاتين يطلقون على هذه الحزم [مانيپولي Manipuli] ومن هذا جاءت تسميتهم [مانيبولارس Manipulares] لقادة جيوشهم واخذ [ريموس] يثير الناس ويحرضهم على الثورة من الداخل، وشرع يهاجم من الخارج ولم يدر الطاغية ماذا يصنع واي حيلة يحتال لسلامته حتى قبض عليه وهو في حيرته وقتل.

إن معظم تفاصيل هذه الرواية التي اوردها [فابيوس، وديوكليس الپيپاريثوسي] وهما على ما يبدو أول من ارّخا تأسيس روما، مشكوك فيها بسبب ما يحيط بها من خيال ومبالغة، لكن ينبغي الا ننبذها بكاملها. لو تذكر الناس الى اي حَدّ من الخيال يسمو اليه الشاعر احياناً واذا ما فكر بأن العظمة الرومانية ما كان يتسنّى لها أن تبلغ هذه الذروة دون ان يكون للمشيئة الالهية ارادة فيها. ولو لم تساعدها ظروف عجيبة فائقة للعادة.

بعد ان هلك [امولیوس] وعادت الأمور الى الاستقرار والهدو، لم يشأ الاخوان البقاء في (البا) دون ان يكونا حاكيمها، ولا أن يستوليا على الحكم وجدهما في قيد الحياة. فسلّما مقاليد الأمور اليه، واكرما والدتهما الإكرام اللائق، وقررا الذهاب والعيش وحدهما وبناء مدينة في الموضع الذي ُتركابه وعاشا وهما طفلان. وكان هذا أشرف سبب لرحيلهما، وهو يبدو ضرورة لا سبيل لها الى دفعها بسبب التفاف جموع غفيرة من العبيد واللاجئين حولهما فوجدا ان أمامها سبيلين لا ثالث لهما، إمّا أن يفرقا الجموع الملتفة ويعودا كما كانا قبلاً، وامّا أن يأخذوها للعيش معاً في بقاع أخرى، إن أهالي [البا] لم يرغبوا في ضم هؤلاء اليهم والاختلاط بهم، وبدت نيتهم هذه في قضية خطف النساء وهو عملٌ لم يأته هؤلاء بدافع

(٢٣) ما يعزو پلوتارخ الى (اميليوس) من موقف، لا يمكن ان يقبله العقل والمنطق لاسيما اذا قارنّاه بالحكاية التي اوردها [ديون: المرجع السالف] بهذا الشأن.

الشهوة، بل بحكم الضرورة والحاجة، اذ لم يكن في مقدورهم الحصول على زوجات طوعاً. وهذا ما أثبتته الوقائع، فقد أظهروا للنسوة اللاتي خطفوهن اشدّ الرعاية وأعمق الاحترام والتجلة.

لم يمرّ طويل زمنٍ على انشاء المدينة حتى اقاموا ملجأ يلوذ اليه اللاجئون واسموه معبد الرب [آسيلاؤوس Asylaeus][٢٤] وكانوا يبسطون حمايتهم على كل قادم ولا يردون مستجيراً قط، لا خادماً الى سيده ولا مديناً الى دائنه ولا قاتلاً الى قاضيه متعللين بقولهم ان هذه البقعة اصطفتها الالهة، ولذلك يمكنهم المحافظة على اللاجيء بقوة النبوءة. وغدت المدينة مكتظة بالسكان[٢٥]، ولم تكن تحوي في مبدأ امرها غير الف بيت على ما قيل... إلاّ ان هذا سيكون موضوع حديث تالٍ. وانصرفوا الى البناء انصرافاً كلياً، وما لبث أن ظهر شيء من الخلاف حول اختيار المواقع. تخيّر رومولوس ما يسمى الآن [روما كوادراتا] اي روما الربعة وأصر ان يكون موضع اقامة المدينة وحَدّد [ريموس] مساحة من الأرض على جبل [آفنتين Aventine] حصّنته الطبيعة خير تحصين وأطلق عليه [ريمونيوام Remoniuam] تيمناً باسمه إلاّ ان اسمه الحالي [ريجناريوم Rignarium][٢٦] واستقرّ الرأي أخيراً ان يحسما خلافهما باستخارة الطير وهي سانحة وبارحة[٢٧]، فوقفا في موضعين متباعدين. وقيل ان [ريموس] شاهد ستّة من النسور وان رومولوس شاهد ضعف هذا العدد، وقال آخرون ان ريموس كان صادقاً في عدده، لكن [رومولوس] كذب في عدد ما شاهد منها، إلاّ ان العدد اصبح اثني عشر عندما وصل ريموس اليه. ومن هنا جاءت عادة الرومان في مراقبتهم النسّور أكثر من سواها عند استخارة الطير.

وروى [هيرودورس پونتيكوس] ان هرقل كان يستبشر كثيراً عندما يسنح له الطائر وهو يهتم بعمل ما. لأن النسر هو أقل الحيوانات اذى لايقرب الزرع النابت، ولا ثمار الشجر ولا

---

(٢٤) لايعرف على وجه التحديد من يكون ربّ اللاجئين هذا. فبعض الشراح ومنهم [داسييه] يقول انه [ابوللو] امّا [ديون] فيخبرنا بأن الموضع الذي كان يقوم عليه الملجأ في زمانه، قد كرّس (لجوپتر). في مبدء الأمر لم يقبل روملوس) بدخول الملتجئين والخارجين على القانون. إلاّ انه اعطاهم مرتفع (ساتورينوس) الذي سميّ فيما بعد كاپيتولينوس ليتخذوه مسكناً. [ليڤي ج ١:٨ و ٥].

(٢٥) معظم الطروادين (ولم يكونوا يزيدون عن خمسين أسرة زمن أغسطس) اختاروا أن يربطوا مصائرهم بمصائر الأخوين كما حذا حذوهم سكان پلانتيوم وساتورينا وهما قصبتان جوار [ألبا].

(٢٦) لا نجد ذكراً للاسمين اللذين وردا هنا عند اي مؤرخ أو كاتب ويذكر (فستوس) ان قمة جبيل [أفنتين] كانت تدعى [ريموريا] منذ ان عزم [ريموس] على بناء المدينة هناك. إلاّ ان [ديون] يتكلم عن جبل [أفنتين] وعن [ريموريا] أنهما محلان مختلفان. ويزعم [ستنانُس] ان [ريموريا] هي بلدة قريبة من روما.

(٢٧) ليڤي: ج ١:٧، ١٢.

الماشية وهو يقتات ابداً على الجيف والرخم. ولايفترس ولايؤذي كائناً حياً، واما عن بني جنسه الطير، فهو لايمسّ احداً منها ولو كانت ميّتة، وكأنما هي من فصيلته[٢٨]، في حين ترى العُقبان والبومة والصقور تأكل وتقتل بعضها بعضاً او كما يقول اسخيلوس[٢٩]: «اي من الطير يكون طاهراً اذا ما افترس من بني جنسه؟».

زد على هذا ان سائر اجناس الطير الأخرى كثيرة الملازمة لنا لا تغيب عن انظارنا ولكن النّسور قليلاً ما تعرض نفسها للرؤية. ويندر ان تجد رجلاً رأى صغار هذا الطائر، وندرتها وقلة ظهورها ادّى ببعضهم الى القول أنها تأتي من عالم ثانٍ مجهول، مثلما يعزو الدجّالون اصلاً لكلّ الاشياء التي تكون الطبيعة ولا هم مصدرها.

عندما انكشف الغش لريموس استنشاط غيظاً[٣٠]. وبينما كان رومولوس يروم الخندق المقرر ان يكون فوقه اساس سور المدينة، تعمد احداث خلل في جانب من العمل وعوق آخرين، وأخيراً بينما كان ينطّ فوقه مستهتراً مستخفاً، قيل ان رومولوس فتك به[٣١]، وقيل لا بل سيلير Celer أحد اصحابه هو الفاتك، فخرّ صريعاً وحدث اشتباك قتل فيه [فاوستولوس] و[پلستينوس Plistinus] الذي عاون على تربية [رومولوس] وهو أخٌ لفاوستولوس كما ورد في الحكاية. وعلى أثر ذلك هرب [سيلير] الى توسكانيا، والرومان يطلقون اسمه [سيليرس] على أسرع العدائين. وقد لقب [كوينتوس ميتللوس Quintus Metellus] «سيلير» لأنه هيّأ بمناسبة تشييع جثمان ابيه عرضاً عاماً للمصارعين - في غضون ايام قليلة، فكانت سرعته مصدر عجب.

بعد ان دفن رومولوس اخاه مع ابويه بالتبنيّ في جبل [ريمونيا Remonia] باشر في بناء

---

(٢٨) لا نعتقد ان دارسي طبائع هذا الحيوان يوافقون پلوتارخ على رأيه هذا. فمع ان الجبن والخوف يدفعان النسور على تفضيل الجيف الاّ أنّ طباع الضواري فيها تدفعها أحياناً الى مطاردة الأحياء من الحيوان. هذا الى أن ندرة هذه الطيور الجارحة هو برهان آخر يعزّز افتقار هذه القصّة الى الصحة.

(٢٩) «المتضرعون» ٢٢٦.

(٣٠) ليفي ج ١، ٢:٧.

(٣١) أختلف الشقيقان حول موضع المدينة الجديدة. فأحالا الأمر الى جدّهما فنصح بأن يستخيرا. فكانت النتيجة لصالح [رومولوس] وقرر أن تكون هضبة (پالاتينا) موقعاً للبناء. وانقسم البناؤون الى فريقين مختلفي الرأي عندها قفز [ريموس] من فوق الى الخندق وهو يقول ساخراً: «هكذا سيقفز العدوّ من فوقه» وهنا اصابه (چيلير) بضربة قاتلة وهو يقول «وهكذا سيصد ابناء مدينتنا صولة العدّو». وتقول المصادر ان (رومولوس) حزن حزناً شديداً على شقيقه وكاد يبخع نفسه لو لم تحل [لارنسيا] دون ذلك. ويقول [ديون] ان الرومان قفزوا من فوق الجدار عندما تمّ بناؤه في حين ان ذلك يشير بالتأكيد الى الخطّ الدائري الذي احتفروا ليس الاّ نجد پلوتارخ هنا يخلط بين قصتي موت (ريموس) اللتين اوردهما (ليفي) بشكل منفصل وان ذكر ان قصّة موته بيد (رومولوس) اثناء نشوب القتال هي الارجح والاكثر شيوعاً.

المدينة وبعث يطلب من توسكانيا[٣٢] رجالاً يرشدونه على اسس من الطقوس المقدسة والشرائع المدونة، الى المراسم التي ينبغي مراعاتها، والأحكام الدينية التي يجب اتباعها. فقاموا أولاً بحفر خندق مستدير حول ما هو الآن [الكوميسيوم][٣٣] وساحة الاجتماع وفيها القوا باحتفال مهيب اول ثمار كل الاشياء التي هي إما جيدة بحكم العادة، او ضرورية بحكم الطبيعة وأخيراً تناول كل رجل قطعة صغيرة من تربة ارضه والقيت دفعة واحدة[٣٤] وأطلقوا على هذا الغور اثناء قيامهم بذلك اسم (موندس Mondus) اي السماء وبعد أن جعلوه مركزاً؛ خططوا حدود المدينة دائرةً حوله ثم ركب المؤسس شفرة نحاسية في رأس محراث وربط في نير واحدٍ ثوراً وبقرة[٣٥] وساقهما بنفسه وشقّ خطاً عميقاً حول تلك الحدود، وكان واجب الذين يتبعونه ملاحظة كل التراب الذي ينقلب الى الجانب الخارجي وردّه الى الداخل نحو المدينة وعدم ترك اي قطعة منه خارجها. وبهذا الخط رسموا مكان السور، وسموّه اختصاراً [پوموريوم[٣٦]: أعني پوستموروم Postmurum أي ما بعد السور، أو ما يليه. وفي المواضع التي تقرر احداث ابواب المدينة رفعوا الشفرة النحاسية من رأس المحراث وساقوا الفدّان بدونها تاركين فسحةً غير مشقوقة. اذ لو اعتبروها مقدسة أيضاً، لما تمكنوا من السماح بدخول وخروج ضروريات الحياة منها واليها بحرية، وبعض هذه الضروريات غير طاهرة بذاتها. والاّ سقطوا في الخطيئة.

واما عن اليوم الذي بوشر فيه ببناء المدينة فهناك إجماع بين الكتاب، وهو اليوم الحادي والعشرين من نيسان الذي يقدسه الرومان في كل سنة ويطلقون عليه اسم «يوم ميلاد

---

(٣٢) يخبرنا [فستوس] ان للتروسكانيين تقليداً حول ما يجب اتباعه في مراسم عند بناء المدن والهياكل والاسوار والابواب. وهم يطلبون ارشادهم الى نوع الطقوس التي يجب مباشرتها من نبوءة (تاكيس) الذي قيل ان (عطارد) كان معلمه.

(٣٣) هي ساحة مجاورة للفورم. فيها تعقد الاجتماعات العامة. والموندوس اي مركز العرافة في المدينة هو مما يلي پالاتينا – انظر ما بعده.

(٣٤) (اوڤيد) لا يقول انها حفنة تراب جاء بها كلّ من بلده، بل حفنة تراب جاء بها كلّ واحد من عند جاره. وهي اشارة الى ان روما لن تلبث أن تخضع لحكمها الشعوب المجاورة لها. الاّ ان [ايسيدورس ٢:٢٥] يرى ان القاءهم أولى الثمار مع حفنة تراب في الخندق إنما يقصد منها تذكير رؤوساء المستوطنات بان اول واجب هؤلاء هو توفير كل اطايب الحياة لابناء وطنهم والمحافظة على الاتحاد والسلام بين اقوام يتقاطرون من مختلف ارجاء العالم ليصيروا كتلة واحدة وعصبة لاتنفصم عراها.

(٣٥) اشارة الى الخصوبة. وامّا ردّ التراب الى الداخل المدينة فيعني ان المدينة ستبقى خالدةٍ ولن يحلّ بها الخراب.

(٣٦) أو پوميريوم أو موروم، وتعني استناداً الى ليڤي. فسحة غير مسكونة بين السور وبين أقرب البيوت في الداخل. عرضها مساوٍ لتلك الفسحة التي تترك خارج السور. ويحرم زراعتها بحكم القانون.

الوطن»، وقيل انهم لم يكونوا في مبدأ الأمر يضحون في هذا اليوم بالذبائح، اذ وجدوا هذا اليوم الذي ولد منه وطنهم جديراً بالبقاء طاهراً لا تشينه قطرة دمٍ واحدة، غير انه كان يوجد قبل انشاء المدينة عيد للرعاة وأصحاب المواشي يحتفل به في مثل هذا اليوم ويدعى (پاليليا Palilia)[٣٧] ان الاشهر اليونانية والرومانية تكاد لا تتفق فيما بينها قط. والمقول الشائع ان اليوم الذي شرع فيه رومولوس بالبناء هو الثالث عشر من الشهر بالتأكيد وقد صادف فيه كسوف شمسي[٣٨]. وذكروا ان [انتيماخوس Antimachus] الشاعر التيّاني Teian شاهده وكان ذلك في السنة الثالثة من الاولمپياد السادس[٣٩]. كان للفيلسوف [ڤارو Varro] المطلع اطلاعاً عميقاً على التاريخ الروماني صديق اسمه [طاروطيوس Tarrutius][٤٠] الذي كان الى جانب معرفته بالفلسفة والرياضيات قد درس طرق استخراج الطوالع والأزياج الفلكية لمجرد حبّ الاطلاع واشتهر بتبحرّه في هذه الصناعة مما جعل صديقه [ڤارو] يطلب منه استخراج طالع [رومولوس] الى حد أول يوم وأول ساعة، وان يعمل حسابه على ضوء وقائع حياته العديدة التي هو على بينة منها. وان يقوم بهذا مثلما يحلُّ مشكلاً هندسياً فعلى حَدّ قوله أن كلاً من الكشف عن مستقبل امرءٍ بمعرفة يوم ميلاده، ومن استخراج يوم ميلاده بما يعلم من وقائع حياته هما مما يمتان الى علمٍ واحدٍ، فقبل (تاريتوس) المهمّة وتأمل أولاً في أعمال الرجل والأخطار التي حلت به وزمن حياته وكيفية موته ثم قارن كلّ هذه المعلومات بعضها ببعض واعلن بكل ثقة واطمئنان ان رومولوس حبلت به امه في السنة الأولى من الاولمبياد الثاني[٤١] في الساعة الثالثة بعد مغرب شمس اليوم الثالث والعشرين في الشهر المصري المسمّى [خوياك Choeac] وفي ساعة الحبل به كان هناك كسوف كُلّي[٤٢] واما

(٣٧) الپاليليا أو عيد پاليس ربّة القطعان. ويسمى احياناً پاريليا من اللفظة اللاتينية [پاريري] اي التقدمة. لأن الصلوات كانت ان ذاك تتلى من أجل إخصاب الأغنام. ويقول (اوڤيد) ان الرعاة يحيون بهذه المناسبة مهرجاناً ليلياً عظيماً يختمونه برقصات حول النار التي يشعلونها في الحقول من أكوام القش.

(٣٨) هوكسوف ٧٥٣ ق.م الثابت فلكياً.

(٣٩) حصل في العام ٧٥٤ ق.م.

(٤٠) كان هذا المنجّم البارع وثيق الصلة بـ (شيشرون) لكن لما لم يحصل كسوف في اليوم الذي عينه فليس في امكاننا ان نقرّ له باية براعة. ان الأشهر المصرية التي لا تتفق بداياتها تماماً مع أشهرنا استخدمت فيما يلي اعتباراً لبلادها التي اتخذ نظامها الفلكي قاعدةً.

(٤١) اي في العام ٧٧٢ ق.م.

(٤٢) لم يكن ثم كسوف كليّ في السنة الأولى من الاولمپياد الثاني، بل حصل في السنة الثانية منه فان كان الحَبَل بـ(رومولوس) قد وقع في السنة التي ذكرناها فانه يتفق والراي المجمع عليه بأنه كان ابن ثماني عشرة سنة عندما باشر ببناء روما. وهذا هو رأي (كاتو) يسانده في ذلك كلّ من [ديون] و[سولينوس] و[يوسيپوس] وعدد كبير من المؤرخين المتأخرين والمعاصرين. في حين نجد كلاً من [ڤاروّ] و[شيشرون] يثبتون الحدث في السنة التي سبقت.

ميلاده فكان في الحادي والعشرين من [توث Toth] = ايلول في حوالي شروق الشمس، وكان أول صخرة وضعها في بنيان روما - اليوم التاسع من شهر [فارموثي Pharmuthi] = نيسان : بين الساعة الثانية والثالثة منه. هؤلاء المنجمون يرون ان لطالع المدن اوقاتها الثابتة المعينة كما كان الشأن في طوالع الناس، ويكون بالامكان جمعها والتنبوء بها من مواضع النجوم وارصادها ومعرفة ما يتعلق بها منذ زمن بنائها... لكن هذا البحث واشباهه قد لاتلذّ القاريء طرافتها وغرابتها قدر ما تضجره بخيالها ومبالغاتها.

بعد ان بنيت المدينة قام رومولوس باحصاء كل القادرين على حمل السّلاح وتنظيمهم في كتائب عسكرية كل كتيبة تضم ثلاثة آلاف راجل وثلاثمائة فارس(٤٣)، وأطلق على الكتيبة [ليجيون Legion] لأنها كانت تتألف من الصفوة المنتخبة من أشدّ المحاربين. وسمى باقي الشعب [بالعامة]. وانتخب مائة من ابرزهم ليكونوا مستشارين وسمّاهم [پاتريشيان: (آباء) Patricians](٤٤) وأطلق على مجلسهم [سنات (مجلس الشيوخ) Senate]. وقال بعضهم ان الپاتريشيان سموا هكذا لكونهم اباءً لابناء شرعيين. وقال آخرون لا بل لكونهم قدموا الدلائل القوية على ان آباءهم ليسوا من الخليط المجهول، والصعاليك الذين تدفقوا الى المدينة(٤٥) في اول أمرها، ولم يكن بامكانهم اثبات بنوّتهم وأنسابهم. وزعم آخرون ان الصفة جاءت من [الحماية] وهي اللفظة التي يطلقونها على «عمل حماية الضعيف»، ويردون أصلها الى [پاترون Patron] وهو اسم احد أولئك الذين جاؤوا مع [ايڤاندر Evander] اعظم محام ومدافع عن الضعفاء والمضطهدين. ولعل اقرب التعاليل احتمالاً هو الآتي: لما رأى رومولوس ان الواجب الأساسي لأغنى الناس هو الرعاية الأبوية والاهتمام بشؤون افقرهم، وان من واجب العامة ألاّ يكرهوا أو يترددوا في تكريم سادتهم بل لن يحبوهم ويحترموهم وان يعتبروهم اباء لهم وينادوهم بهذا اللقب، فقد إرتأى ان يطلق عليهم اسم [پاتريشيان]. بينما كانت الاقطار

---

(٤٣) وبمقابل هذا يعلمنا [ديون] بان المستوطنة كلها كانت تضم (٣٣٠٠) رجل وان [رومولوس] قسمهم الى ثلاثة اقسام متساوية وأطلق على كل قسم اسم (قبيلة) أو (ثلث) يقوم على رأس كل قائد Prefect أو تريبيون Tribume. وقسمت القبيلة الواحدة الى عشر أفخاذ (كيورائي Curiae) ان عدد البيوت أو الاكواخ الذي لم يكن يتعدى الألف الواحدة يقوم دليلاً على زعم (ديونسيوس) هذا. إلاّ ان الصعاليك الذين دخلوا لاجئين واستؤمنوا والذين قد يكونون كثيري العدد على ما يحتمل - لم يحسبوا مع المستوطنين الاصليين وان منحوا فيما بعد حق المواطنة.

(٤٤) الملك لا يختار هؤلاء الرجال المائة. بل تقوم كلّ قبيلة باختيار ثلاثة شيوخ، ويقوم كلّ كيوريي من الثلاثين باختيار عدد مماثل فيكون المجموع (٩٩) ولم يعين (رومولوس) الاّ الشيخ المائة وهو رئيس او أمير مجلس الشيوخ والحاكم الأعلى للمدينة عند غياب الملك في حملة عسكرية.

(٤٥) انظر رأيا مختلفاً لديون الهيكارناسوسي. (٢:٤) وأنظر ليڤي أيضاً.

الأخرى تلقب شيوخها بالقاب الأسياد العظام. وهكذا تجد الرومان قد اتخذوا لقباً أكثر شرفاً وأقل ابهة وهو «پاترس كونسكريتي Patres Conscripti](٤٦) وكان في مبدأ الأمر [پاتروس] فحسب ثم اضافوا اليه اللقب الثاني في زمن تالٍ، وبهذا اللقب الأكثر جلالاً تميزّ الشيوخ عن العامة، وانفصل النبلاء عن سواد الشعب بطريقة أخرى اي بتسمية الأولين [پاترون](٤٧) وتسمية الآخرين الاتباع او الموالي، وبهذه الوسيلة اوجد علاقة حبٍ وصداقة ما بين الفئتين أثمرت قدراً كبيراً من العدل في التعامل فيما بينهم، فالپاترون هو مستشار مواليه في القضايا القانونية ومحاميهم في سوح القضاء والمحاكم، ومجمل القول. شاورهم ومعاونهم في كل المسائل. والموالي بدورهم يخدمون الپاترون لا بتقديم الاحترام والتكريم، بل بمساعدتهم المادية في حالة افتقاره، كصهر بناتهم بالمهر أو دفع الديون عنهم(٤٨)، وليس من قانون أو قاض يجبر الپاترون على الشهادة ضدّ تابعه، ولا التابع ضد پاترونه، وبعد مرور حين من الزمن وُجد أن أخذ المال من الموالي مما لايشرف قط طبقة الپاترون فأبطلت العادة مع بقاء الواجبات الأخرى سارية... وفي هذا القدر الكافي...

في الشهر الرابع لبناء المدينة، وقعت حادثة خطف النساء واغتصابهن(٤٩) وهذا ما يزعمه [فابيوس]. واما آخرون فيقولون ان رومولوس نفسه وهو محارب عسكري ارادها ان تكون علّة لشنّ الحرب، ربما تحدوه في هذا نبوءة جعلته يؤمن ان رفعة شأن روما وعظمتها تتوقفان على الإفادة من الحرب ولهذا تحرش اولاً [بالسابين Sabine] ، ولم ينهب منهم غير ثلاثين عذراء وهو عدد قليل قد يصلح ذريعة للحرب، من كونه رغبة النساء فحسب. على ان هذا

---

(٤٦) أعني الآباء المسجلين. والمنحدرون من هاتين الطبقتين ميّزوا فيما تلا من الزمان باسمي الآباء الكبار Patre Majorum والسادة الأدنين Minorus Ganlium.

(٤٧) هذه الأبوة توازي بقوتها رابطة الدم والتحالف. وقد كان اثرها عجيباً في استمرار الوحدة والرابطة الوثقى بين الرومان طوال (٦٢٠) عاماً لم يقع خلالها نزاع أو خصام أو تنابز بين الآباء والأتباع حتى في الأيام الجمهورية حيث كثيراً ما كانت طبقة العامة تتمرد على اصحاب السلطة العليا في المدينة. بالأخير أخلّ بهذا الانسجام تلك الفتنة الكبري التي اثارها [كايوس كراخوس] (انظر السيرة). وكان التابع الذي لا يؤدي واجبه ازاء (پاترونه) يعدّ خائناً خارجاً على القانون ويستهدف الى أن ينفذ به اي شخص عقوبة الموت (ديون) ومما يجدر ذكره هنا هو أن اختيار الـ(پاترون) لم يكن قاصراً على أفراد العامة. بل تعداهم الى المدن والدول التي أخذت تضع نفسها تحت هذا النوع من الحماية بمرور الزمن.

(٤٨) ويضيف ديون قوله (٤:٢) انهم يدفعون عنهم مصاريف الدعاوى التي يخسرونها ويدفعون عنهم كذلك اجور محاميهم وغير ذلك.

(٤٩) ينقل (ديون) عن (كيلليوس) ان ذلك وقع في السنة الرابعة ويؤكد (فاستي كاپيتوليني) ذلك باثباته تاريخ الحروب مع الكيانيسيين التي وقعت بعد هذه الحادثة مباشرة. ويذكر (ليڤي) ايضاً (٩:١) ان الرومان صاروا يملكون من القوة ما أهلهم لمقارعة جيرانهم.

القول ليس الارجح. والذي يبدو، ان رومولوس وجد مدينته تكتظ بالوافدين من الأجانب والأخلاط وقليل منهم من كان ذا زوج وان هذا المجتمع الذي يتألف معظمه من فقراء، منقطعين، سيدّب فيه الانحلال حتماً ويسوده الإنقسام والتناحر ولن يبقى على تلاحمه طويلاً كما أمل ايضاً ان تهدأ خواطر النساء المخطوفات بعد حين، ليجعل من الاعتداء تعلّةً للتحالف والتبادل التجاري مع [السابين] وعلى هذا الاساس قام بالمغامرة هكذا:

أولاً أعلن انه اكتشف هيكل أحد الارباب مدفوناً تحت أطباق الأرض(٥٠) ويسمى [كونسوس Consus] وهو إمّا آله الشورى (لأنهم مازالوا يستعملون للشورى كلمة [كونسيليوم Consilium] ويسمون كبار حكامهم [كونسول Consule اي مستشار] وإمّا أن يكون [نبتون الفارس]، ذلك لأن الهيكل أبقي مستوراً في الملعب الأكبر(٥١) لايكشف للجمهور الاّ بمناسبة سباقات الخيل. ولا يزيد آخرون على القول ان هذا الرب شاء ان يجعل معبده مدفوناً تحت الأرض لأن من طبع المشورة ان تكون سرّية مكتومة. عند اكتشاف الهيكل أعلن رومولوس انه قرر أحياء يوم حافل لتقديم قرابين، مشفوعة بالعاب وتمثيليات للعموم، من قبيل الترفيه والتسرية، فتقاطرت جموع غفيرة الى المدينة وجلس رومولوس في صدر الملعب يحفّ به عظماء قومه ونبلاؤهم متشحاً بالأرجوان، وكانت اشارة الانطلاق هي نهوضه وجمع اطراف ردائه والقائه على كتفيه. ووقف رجاله على اهبة الاستعداد شاكي السلاح واعينهم شاخصة اليه وانظارهم مركزة به ولما أعطى الاشارة صاحوا صيحة هائلة وامتشقوا سيوفهم ووقعوا على بنات [السابين] يخطفوهن، وولّى السابين الأدبار بدون مقاومة. وقيل ان ما سبي لايزيد عن الثلاثين(٥٢)، وسميت اسماء [اركيوري Curiee] الثلاثين بهنّ إلاّ ان [ڤاليريوس آلتياس Valerius Antias] يرفع عدد المخطوفات الى خمسمائة وسبع وعشرين، ويزيد [يولا Jula](٥٣) العدد الى ستمائه وثلاثة وثمانين، وخير عذر يمكن ان يتمسك به رومولوس في عمله هذا هو ان المخطوفات كلهن كن عزباوات. اي ان اتباعه لم يتعرضوا للمتزوجات باستثناء واحدة وهي [هيرسيليا Hersilia] وهذه خطفت بمحض خطأ ولم يعرف حقيقة أمرها، هذا يدل على انهم سبوهم لا بدافع الشهوة، بل لايجاد تحالف ورابطة جوار

(٥٠) ابقي المذبح مدفوناً اشارةً الى عمل الطبيعة الخفي في انتاج القمح والخضار لان (كونسون) هو الرب الايطالي القديم للزراعة.

(٥١) أعني في القصر. حيث بنى (اتكوس مارجيوس) فيما بعد الملعب الكبير لسباق الخيل والعجلات.

(٥٢) رواية ليڤي: ١:٣، تورد هذا العدد أيضا. الاّ انه كان يأخذ برأي [ڤاليريوس انتياس] في أماكن أخرى.

(٥٣) هو ابن (جوبا) ملك الموريتانيين جيء به الى روما وهو صبي وقد وقع في الأسر، فدرس العلوم الاغريقية واليونانية واصبح مؤرخاً شهيراً. ويذكر ليڤي أن أغسطس اعاد اليه جزءً من أملاك ابيه وزوّجه (كليوپاترا) بنت مارك انطوني. ويتفق (ديون) مع ليڤي في هذا.

باضمن الوسائل وامتنها. وقال بعضهم ان [هوستيليوس Hostilius] تزوج هرسيليا هذه، وهو من ابرز رجال الرومان، وزعم غيره ان رومولوس هو الذي تزوجها وانجبت له بنتاً سميت [پريما Prima] أي الأولى لأنها بكره، وابنا سُمي [آڤيليّوس Avillius] بسبب تعلّق المواطنين الشديد به في ذلك الحين. ثم تغير اسمه بعد احقاب الى [بيلليوس] هذا ما يرويه [زينودوتوس Zenodotus] الطروزيني وكثيرون لا يتفقون معه في ما ذهب.

قيل انه كان يوجد كثير من الأراذل والدهماء بين الذين ساهموا في خطف العذارى، وشوهدت طائفة تحمل آنسة فاقت الأخريان جمالاً وجاذبية ورشاقة، فأعترضتهم زمرة من سراتهم وحاولت انتزاعها فاحتجوا قائلين انهم يحملونها الى [تالاسيوس Talasius] وهو والحق يقال شابٌ فتّي لكنه غير معروف بصفات الشجاعة واللباقة. ولما سمعوا منهم ذلك ايدّوهم واستحسنوا ما يفعلون بهتافات عالية، وانضم بعض الزمرة الى هؤلاء الدهماء طرباً ولعباً وراحوا يهتفون باسم [تالاسيوس]. من هذه الحادثة نشأت عادة عند الرومان ما زالت متبعة الى يومنا هذا فهم في حفلات اعراسهم، يتنادون بلفظة [تالاسيوس] بوصفها الكلمة التي تقوم مقام [العرس]. مثلما هي [هيمينايوس Hymenas] لدى الأغريق. لكنهم يقولون أن تالاسيوس هذا كان سعيداً للغاية في زواجه إلاّ أن [سكتوس سيلّلا Sextius Sylla] القرطاجني وهو رجل لا تعوزه سعة الاطلاع ولانفاذ البصيرة قال لي ان رومولوس نطق بهذه الكلمة كإشارة لبدء عملية الاختطاف، ولذلك هتف بها كل من ظفر بفتاه لنفسه ومن هنا جاءت العادة في الأعراس. لكن معظم الكتاب (ولاسيما يوبا) يرى ان الكلمة كانت تستخدم للمتزوجات حديثاً كوسيلة لحثهن على القيام باعمال البيت على خير الوجوه، وتطلق كلمة [تالاسيا Talasia] على الغزل كما نلفظها نحن باليونانية(٥٤)، لأن الالفاظ اليونانية كانت شائعة وقتذاك ودونها شيوعاً الالفاظ الايطالية، واذا كان الأمر كذلك، واذا كان الرومان في ذلك الزمن يستعملون كلمة [تالاسيا] بالمعنى الذي تدل عليه عندنا، فعلى المرء اذن ان يبحث عن سبب آخر لهذه العادة. اذ عندما صولح السابين بعد الحرب التي نشبت بينهم وبين الرومان، اتفق على شروط بخصوص معاملة نسائهم؛ وهي ان لايجبرن على اداء اعمال منزلية شاقة فيها صفة العبودية ما عدا الغزل. لذلك جرت العادة ان يردد كلمة تالاسيوس اولئك الذين يقدمون يد العروس أو يصحبونها أو يكونون حاضرين وقت الزفاف - للتذكير بان العروس لن تقوم من الآن فصاعداً بعمل إلاّ الغزل واستمر تطبيق العادة التالية الى هذا اليوم

(٥٤) من لفظه (تالروس) الاغريقية. والملاحظ ان كل سيدات روما يحكن ثياب ازواجهن وأولادهن حتى أغسطس نفسه كان يشهر مرتدياً الثياب التي تصنعها زوجه وآل بيته.

وهي ان العروس لاتتخطى عتبة باب زوجها، وانما تُرفع فوقها رفعاً دون ان تطأها، وهي تذكرة بأن عذارى السابين كن قد حملن الى بيت الزوجية قسراً ولم يدخلن بمحض اختيارهن. ويقول بعضهم ايضاً أن عادة فرق شعر رأس العروس من الوسط بسنان رُمح، تذكرة بأن مبدأ زواج الرومانيات كان بالحرب والقتال، وهو ما اشتهبتُ في شرحه في كتابي «المسائل»[٥٥].

وقعت عملية الاختطاف هذه في الثامن عشر من شهر [سكستيليس Sextilis] الذي يدعى الآن [اغسطس: آب] وفيه تقام احتفالات [الكونسواليا Consualia][*].

كان السابين قوماً محاربين اشداد كثيري العدد. عاشوا في قرى غير محصنة وهو على ما يظنون يناسب مستعمرة ليقديمونية[٥٦] جريئة لاتهاب أحداً ولما وجدوا انفسهم مكتوفي اليد بتلك الرهائن النسائية التي تضمن سكوتهم وحسن سلوكهم، ولشدة تعلقهم ببناتهم آثروا ارسال سفراء الى رومولوس يحملون طلبات عادلة منصفة وهي ان يعيد اليهم بناتهم وينهى اثر هذا الاعتداء ثم يسعى بالاقناع والوسائل الشرعية الى انشاء علاقة صداقة بين الشعبين. لكنه ابى النزول عن البنات وأقترح عليهم الدخول في حلف. وهنا أخذ بعضهم يتردد وانثنوا يتداولون فيما بينهم ولم يقطعوا برأي، إلا ان [اكرون] ملك [سيونسيا Coeninen-sia][٥٧] وهو رجل جرئ ومحارب مقدام، مدفوعاً بما يكفه من حسدٍ طويل الأمد لرومولوس لمآثره العظيمة، ولاسيّما لمّا وجد خصمه هذا قد علا شأنه وعظم خطره بمغامرة خطف النساء، وان الاقتصاص منه أمرٌ واجب، فأعلنها حرباً على رومولوس وزحف بجيش جرار فاستعد رومولوس له[**]، ولما تقابل الجيشان وقفاً وهما شاكيا السلاح لا يلتحمان وانما فضّلاً مبارزة فردية. فنذر رومولوس اذا تغلّب على خصمه، ان يحمل بنفسه سلاح المغلوب ويقربه الى [جوبيتر] زيادة في التعظيم. ونزل حومة الوغى وقهر عدوّه ثم تلت ذلك معركة هزم بها جيش الخصم المقهور واستولى على مدينته، لكنه لم يلحق اي اذىً بسكانها وانما امرهم بتقويض بيوتهم. وان يتبعوه الى روما فيمنحهم كل حقوق المواطنة[٥٨]. الحق يقال ان عظمة روما

(٥٥) في الفقرة المشار اليها حذف پلوتارخ واحدة من اهم الملل الطبيعية المعزوة الى (فستوس) وهو ان الرمح بوصفه شعار السلطان قد يفرض على المرأة واجب الخضوع لبعلها (الاخلاق: السؤال رقم ٨٧).

(*) عيد الحصاد (من كونسوس Consus).

(٥٦) ومن هؤلاء عددٌ كبير من اللقيديمين هربوا تخلصاً من قوانين ليكورغوس الجائرة فتركوا سپارطه واستقروا في ايطاليا وأخذ عنهم المواطنون الاصلاء عاداتهم. [هذا كما يبدو عند ديون ٢:١١].

(٥٧) سكّان لاتيوم Latium القديمة.

(**) ليڤي ١:١٠.

(٥٨) يختلف پلوتارخ مع المؤرخين اختلافات كثيرةً وبعضها جوهري، حول تفاصيل الحملة. وليس في الامكان ايراد هذه الاختلافات وتمحيصها ومضاهاتها في حاشية تعريف مقتضبة. فلتراجع عند ليڤي وديون.

وسؤددها لم يكن مديناً لشيء قدر ما هو مدين الى مزجها وتوحيدها كل ما تفتحه من البلدان. ولأجل ان يبرّ رومولوس بنذوره [لجوپيتر] بأحسن ما يمكن ولأجل أن يجعلها مصدر استمتاع لأهل المدينة عمد الى قطع بلوطة باسقة وجدها نامية في المعسكر فهندمها على شكل تمثال، ثم كساها دروع [اكرون Acron] كما يكتسبها المحارب ولمّ اطراف ثيابه على جسده وحمل التمثال وشعره يتماوج خلف اذنيه في النسيم بلطف آسرٍ واسنده على كتفه الايمن بصورة عمودية ثم ساربه وهو ينشد اناشيد النصر يتبعه كل جيشه فاستقبله الأهالي بهتاف الاعجاب والفرح. وكان موكب ذلك اليوم المثل المحتذى لكلّ مواكب النصر الرومانية التالية.

هذه الخشبة المنحوتة أوجدت نوعاً جديداً من القربان [لجوپتر فيرتيريوس] (جاءت من فيريري Ferire[٥٩] وتعني باللاتينية: الضرب) لأن رومولوس رجا الاله ان يضرب عدوه ويهزمه. وسميت الغنائم [اوپيما Opima][٦٠] أو الأسلاب الملكية، على زعم [ڤارو] لأنها كانت قيمّة جداً، كما تدل عليه كلمة [اوپيس Opes] وإن يذهب الظن بالمرء الى انها مشتقة من [اوپوس: Opus] أي «عمل»، ودرجت العادة أن لايخلع شرف اعطاء «الغنائم الملكية» إلاّ على قائد الجيش الذي يقتل بيده قائد جيش العدو[٦١]. ولم ينل مثل هذا الشرف غير ثلاثة من قادة الرومان اولهما رومولوس لقتله (اكرون) السينينيسي، وثانيهما [كرينليوس كوسوس Cornelius Cossus] لقتله [طولمنيوس Tolumnius] التوسكاني[٦٢]، وثالثهما [كلوديوس مارچلّس Claudius Marcellus] لبطشه بـ[ڤيريدومارنوس -Viridomar

---

(٥٩) هذه الكلمة لم تكن مستعملة في ذلك الحين والارجح انها مشتقة من لفظة Ferire وهو الحَمْل. لأنّ روملوس حَمَل بنفسه الدروع الى هيكل جوپتر. أو لعلها على أغلب الاحتمال مشتقة من الكلمة الاغريقية فيرترون التي يفسرها ليڤي (١٠:١) باللاتينية Ferculum ومعناها غنيمة حرب.

(٦٠) فستوس يشتق أوپيما من كلمة Ops وتعني «الأرض وثرواتها» و Opima spolia بحسب راي الكاتب تترجم بـ«الأسلاب الثمينة». ولم تكن كلمة opus كثيرة الاستعمال في ذلك الحين مثل كلمة Ferire على أغلب الاحتمالات.

(٦١) هذا ما اثبته ليڤي حول الموضوع كذلك. الاّ ان (ڤاروّ) الذي ينقل ڤستوس عنه، يخبرنا انه ربما كان للروماني الحق في «الأسلاب الثمينة» حتى ولو كان جندياً بسيطاً miles manipolaris شريطة ان يقتل قائد جيش العدو ويستولي على شكة سلاحه. ولهذا نجد (كورنيليوس كوسوس) يغتنمها عند قتله (تولينوس) ملك التوسكان ولم يكن أكثر من (تريبيون) تحت أمرة (اميليوس). وعلى أغلب الاحتمال لم يدخل (كوسوس) روما راكباً عربة النصر وانما تبع قائده وهو يحمل «الأسلاب» على عاتقه. ولا يقطع ليڤي برأي حول رتبة (كوسوس) وقت ان حقق نصره. رغم تأكيد (اغسطس) له بأنه وجده يسمى بالقنصل في السجلات. وانه ما فعل هذا إلا احتراماً لسيده الامبراطور. ولأن شهادة (ڤارو) يجب ان تدحض اسطورة مشكوكاً فيها وان وجدت حقّاً فمن المكن جداً ان اللقب قد استعير من واقع رفع كوسوس الى مرتبة القنصل.

(٦٢) كان هذا العام ٤٣٦ ق.م، حسبما اورده ليڤي ٤:٩، ١-٥.

nus] [٦٣] ملك الغاليين والثاني والثالث دخلا المدينة في موكب النصر وهما راكبان عجلة حاملان اسلابهما بنفسهما. وقد اخطأ [ديونيسيوس] [٦٤] في التأكيد بأن رومولوس استخدام عجلةً في هذه المناسبة [٦٥]. وينبئنا التاريخ ان [تارقينيوس Tarquinnius] ابن [داماراتوس Damaratus] كان اوّل من بلغ بمواكب النصر الى هذه الدرجة من الروعة والجلال. ويقول آخرون ان [پوبيليكولا Publicola] هو اول من استخدم العجلة في مواكب النصر هذا وان تماثيل رومولوس التي تمثله في موكب النصر، لايوجد منها ما تظهره راكباً في كلّ ما هو موجود منها في روما.

بعد ان تغلّب رومولوس على السينسينين، أخذ السابين الآخرون يتربصون الفرص ويستعدون الزمن، ثم وحّد اهل [فدينيا Fedena] و[كروستوميريوم Crustomerium] و[انتمنا An-temna] قواهم ضدّ الرومان [٦٦] لكنهم منوا بهزيمة نكراء، ونزلوا عن مدنهم لرومولوس فاستولى عليها وضبط اراضيهم وتخوفهم فوزعها واستاقهم جميعاً الى روما. إن الاراضي التي استولى عليها رومولوس، قسمها بين الرومانيين، الاّ انه استثنى اراضي اباء الفتيات المخطوفات وابقاها لهم. وثار غضب سائر السابين لهذا العمل وامّروا عليهم [طاطيوس Ta-tius] قائداً وزحفوا الى روما. وكانت المدينة منيعة يكاد يتعذر اقتحامها، فمن تحكيماتها ما يعرف اليوم بالكابيتول، وهو حصن وضع فيه كتيبة قوية من الحرس على رأسها [تارپيوس] لا [تارپيا Tarpia] العذراء على ما زعمه بعضهم ليظهروا رومولوس بمظهر الأحمق. لكن [تاربيا] التي هي بنت قائد الحصن كانت مغرمة بالأساور الذهبية والحلي التي يتحلّى بها العدو، ولذلك عرضت تسليم الحصن الى السابين إن كوفئت على خيانتها بكلّ الحلي التي تحلى اذرعتهم اليسرى. فوافق [طاطيوس] وفتحت لهم احد الابواب ليلاً وادخلتهم. لم يكن [انتيگونس Antigonus] وحيداً في قوله انه أحبّ الخونة، لكنه كره الذين كانون. ولا القيصر الذي قال محدثاً [ريميتاقليس] التراقي انه ليحبّ الخيانة ولكنه يكره الخائن، هذا هو الشعور العام لمن اتفق له وحظي بخدمات الخونة واشرار الناس، وهو نفس ما يرى الناس في

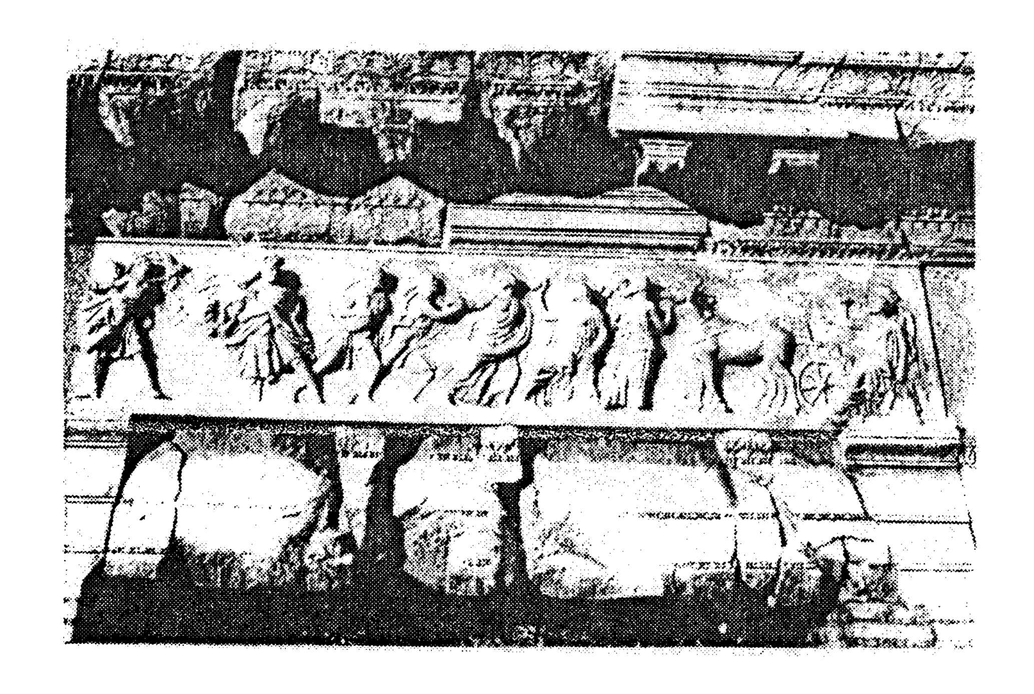
---

(٦٣) وفي نسخ أخرى يكتب «بريتومارتس Britomartus» وقد كان هذا في العام ٢٢٢ ق.م. (انظر سيرة مارجللوس في الكتاب).

(٦٤) روما القديمة ١١:٣٤.

(٦٥) المرجع نفسه: پوبليكولا ٩:٥.

(٦٦) [ليڤي] المرجع السالف ١١:١. أو بحسب اقوال غيره من المؤرخين فقد كان كلّ منهم يحارب على انفراد كلما اكمل استعداده. وبالشعار نفسه Dum singuli pugmant iniversi vincuntur (توكيديدس: جرمانيا) ولك يكن لأهل [فدينيا] علاقة بهذا التحالف فهم توسكان تابعون لـ(ڤيبى) ولانزاع ثم بينهم وبين الرومان طبعاً حتى وفاة (طاطيوس).



اغتصاب نساء السابين





سمّ الحيوانات، فهم راضون عنها ما دامت ذات نفع لهم، لكنهم يمقتون شرها وخبثها حين ينفضون ايديهم منها. وهذا هو المسلك الذي سلكة [طاطيوس] مع [تارپيا] بعد تسليمها الحصن. فقد أمر السابين بايفاء الشرط وبألاّ يضنوا عليها باي جزءٍ من حلي اذرعتهم اليُسرى، وكان هو أول من خلع اساوره والقاها عليها واتبعها بدرع صدره[٦٧] وحذا الباقون حذوه وارتفع المقذوف من الحلي فوقها حتى دفنت تحت أكداس الذهب والدروع ففاضت روحها تحت الثقل والضغط. وحاكم رومولوس، القائد تارپوس وادانه بالخيانة. على حَدّ قول (يوبا) الذي نقله لنا [سولپيشيوس گالبا Sulpicius Galba] واما من كتب بخلاف ذلك عن تاربيا زاعماً انها كانت بنت [طاطيوس] وان رومولوس احتجزها بالاكراه، وانها فعلت ما فعلت وجازاها ابوها على نحو ما قدمناه، هؤلا انما يخبطون خبط عشواء. ومنهم [انتيگونوس][٦٨]. امّا [سميلوس] الشاعر الذي يرى ان تارپيا لم تسلم الكاپيتول للسابين سبل للغال لوقوعها في حب ملكهم، فهو اكثر تخريفاً من أولئك، حين يقول:

كانت (تاربيا) التي تسكن قريباً من الكاپيتولي

هي التي فتحت ابواب روما للعدو.

هي التي سلمت الكاپيتول، حصن المدينة الأمنع

لأنها وقعت في حبّ المهاجم الغاليّ!

فغدرت بمنازل ابائها

وبعدها بقليل يتكلم عن موتها فيقول:

إن الجموع الغفيرة من الأعداء الغاليين والبوي Boü

لم يرضوا أن تبقى حية تعيش على ضفاف البو Po

فالقوا بتروسهم فوق الفتاة.

وبهداياهم الثمينة قتلوها ودفنوها في الحال.

دفنت (تارپيا) هناك. وأطلق اسمها على التل المعروف [بتارپيوس] وظلّ يعرف به حتى

---

(٦٧) يذكر (بيو) ومؤرخون آخرون أن طاطيوس عاملها بهذا الشكل لأنها قامت بدور مزدوج فعملت على خيانة السابين من أجل روملوس في حين جاهرت بخيانة الرومان من أجل السابين. (ديون ٢:١٠) وبرهاناً على هذا التكريم الذي نالته من الرومان بعد وفاتها وليڤي (١١:١) يسجل ذلك ولا يعارض فيه.

(٦٨) كتب (انتيغونس كاريستيوس) تاريخاً لايطاليا. وجمع جملة من «الحكايات العجيبة» في عهد [بطليموس فلادلفوس] وأمّا (سميلوس) فقد نظم تاريخاً شعرياً لايطاليا.

عهد الملك (تاركوين Tarquine) الذي أوقف الموضع على جوبتر فنقل رفاتها وضاع اسمها، إلاّ في ذلك الجزء من الكابيتول الذي مازالوا يسمونه «الصخرة التاربية»، وهي الصخرة التي اعتادوا القاء المجرمين منها الى الهاوية.

بعد ان سيطر السابين(٦٩) على المرتفع، ثارثائر رومولوس واشتبك معهم في معركة، وكان [طاطيوس] واثقاً من نفسه فلم يتحاش الاشتباك، مدركاً انه لن يخسر شيئاً في حالة هزيمته فخلفه مواقع حماية منيعة وكان السهل في الوسط وهو ميدان القتال، تحيط به آكام عديدة صغيرة يبدو وكأنها ستملي على الفريقين قتالاً مريراً عنيفاً بسبب وعورتها. وعدم وجود منافذ كثيرة فيها وصعوبة الكر والفرّ. وأتفق أيضاً ان النهر الفائض كان قد غمر ساحة المعركة قبل مدة ليست بعيدة. ولما انحسر عنها ترك خلفه (حيث يقوم الفورم اليوم) موحلة عميقة عمياء خادعة لا تعرف حدودها ولا يظهر مدى خطورتها للعين المجردة. ويصعب اجتنابها، وصادف السابين حسن حظ نادر، بينما هم يهمون بدخولها دون حذرٍ او ارتياب. اذ كان [كورتيوس Curtius] وهو رجل مقدام متشوق الى كسب الشرف في القتال، ذكي سريع الخاطر، يخبّ بجواده امام الآخرين(٧٠)، اذ باقدام حصانه تغوص في الطين، فحاول اخراجه بالسوط والمهماز والصياح، وبعد فترة ادركه العجز فتركه وانقذ نفسه. ومنذ ذلك اليوم وهذه البقعة تعرف ببحيرة [كورتيوس]. وبعد أن نجا السابين من هذا الخطر راحوا يقاتلون احسن قتال ويبلون خير بلاء، وظلت نتيجة معركة ذلك اليوم غامضة، في حين سقط كثير من القتلى، ذكر بينهم [هوستيليوس] زوج [هرسيليا]، وجَدّ [هوستيليوس] الذي حكم بعد [نوما]. ثم حصلت اشتباكات قصيرة عديدة إلاّ ان أعظمها وعلى الارجح، أوقعها في النفس وابعدها أثراً هو الاشتباك الأخير، فيه اصيب رأس رومولوس حَجَرة من حجرة شجتّه، فكاد يسقط صريعاً ويعجز عن متابعة الحرب... وتخاذل الرومان وبدت عليهم علائم الهزيمة وراحوا

---

(٦٩) ليفي: المرجع السالف ١:١٢.

(٧٠) ليفي [١:١٣] وديون [١١:١٠] يثبتان خلاف ذلك. اذ يذكرا ان (كورتيوس) صدّ هجمة الرومان أوّلاً إلاّ انه غُلب على أمره بكرّةٍ من رومولوس وبمحاولته الانسحاب المنظم فقد سقط سقطة لا نجاة منها في البحيرة التي سميت باسمه منذ ذلك الحين: Lacus Curtius حتى عندما جفّت وكادت تكون وسط الفورم. ويقول [بروچيليوس] ان الأرض قد تشققت. وصرح الارسپيچي بانه من الضروري أن تحشّد قوى المدينة لمنفعة المدينة فتقدم هذا الشاب المدعو كورتيوس (ليفي ٧:٦) الذي عرف بالبسالة والصبر على القتال وهو على صهوة حصانه وتحته اثمن السرج وقذف بنفسه في البركة بكامل دروعه فالتحمت شقوقها في الحال. وكانت هذه البركة قبل فتح قنوات المجاري اشبه بالبالوعة تصبّ فيها كل مياه روما القذرة. ويرى بعض الكتاب انها أخذت اسمها من القنصل [كورتيوس] زميل ماركوس جينوشيوس في الحكم لأنه أمر بتسويرها بناء على نصح الارسپيچي بعد ان ضربتها صاعقة.

يفرون باتجاه [البالاتيوم]، وفي تلك الاثناء استجمع رومولوس بعض قواه واستدار لتجديد سُعار المعركة وواجه قومه المنهزمين مشجعاً بصوت جمهوري حاثاً اياهم على الصمود والقتال هذا والعدو يتكاثر عليه عددياً وجنوده يحجمون عن الثبات ومواجهة الخصم. فبسط يديه نحو السماء متضرعاً الى [جوبتر] لايقاف فرار الجيش ورعاية حق روما والعناية بأمرها في أعظم خطر تجابهه. وما أن أنهى صلاته حتى صَدّ الخجل منه والاحترام له كثيراً من المنهزمين عن الفرار، وأنقلب خوفهم الى ثقةٍ. إن أول المواضع التي ثبتوا فيها كان المحل الذي يقوم عليه الآن معبد [جوبتر ستاتر] (قد يمكن ترجمته بجوبتر اللأبث) وفيه انتظمت صفوفهم ثانية، وكرّوا على السابين ودفعوا بهم الى موضع يعرف الآن بـ(ريجيا) (٧١) ثم الى معبد (فستا).

تأهب الفريقان لخوض معركة ثانية فحال بينهم وبين ذاك مشهد عجيب يقصر عنه الوصف. فقد أسرعت بنات السابين المخطوفات، مهرولات في اضطراب عظيم، بعضهن من هذه الجهة وبعضهن من تلك كأن بهنّ مساً من الجنّ. حتى صرن في وسط الجيش بين جثث القتلى. وبلغن مواقع ازواجهن وابائهن، بعضهن يحملن اطفالهن، وبعضهن محلولات الشعر والريح تعبث به، بنادين السابين مرةً، والرومان مرةً بأرق الكلمات وأكثرها حناناً. وهنا غلبت العاطفة نفوس الفريقين فانكفاؤا الى الوراء ليفسحوا لهن سبيلاً بين الجيشين.

أحدث منظر النسوة حزناً وألماً عميقاً في قلوب الجميع، لكن عباراتهم التي بدأتها باللوم والتفيف، وانهينها بالضراعة والعتاب، كان لها التأثير الأقوى. وهذا ما قلن لهم:

«اي أذىً نالكم منا لنستحق منكم هذا العنت والعذاب في الماضي والحاضر؟ لقد جرى خطفنا بظلم وعدوان، وبالقوة والاكراه، خطفنا أولئك الذين نرتبط بهم الآن برابطة الزوجية. وبعد ان ثمّ ذلك أهمل آباؤنا وأخوتنا وبنو قومنا أمرنا زمناً طويلاً، والآن ونحن مرتبطات بأوثق رباط مع أولئك الذين كُنّا نكرهم كراهة الموت في الماضي، لا نملك أنفسنا من الرجفة للخطر، والبكاء لموت أولئك الرجال الذين أعتدوا علينا، انكم لم تنتصفوا لشرفنا من المعتدين عندما كُنا عذارى. ولكنكم جئتم اليوم لتنتزعوا بالقوة الغاشمة، نساءً من أزواجهن، وأمهات من أطفالهن، وهي جريمة أعظم خطراً بنواياها الوضيعة من أهمالكم السابق لهنّ وغدركم بهن. فأيهما أشنع؟ أمضاجعة هؤلاء لنا، أم اشفاقكم علينا؟ إن كنتم اردتم حرباً لأب سبب آخر من الأسباب فالواجب يقضي عليكم لأجلنا أن ترفعوا ايديكم عن أولئك الذين جعلوكم اجداداً لاولادهم، وأحماءً لهم. وان كانت حربكم هذه لأجلنا، فها

(٧١) هو منزل الكاهن الأعظم في الازمنة التاريخية الأولى.

نحن اولاء، خذونا وخذوا معنا أختانكم وأحفادكم، اعيدونا الى ابائنا وبني قومنا ولا تحرمونا أزواجنا وأولادنا. نتوسل اليكم الاّ تجعلونا مسبيات مرتين».

تكلمت [هرسيليا] بكثير من هذا، وراحت الأخريات يتوسلن بكل حرارة. ولم يعد ثم سبيل إلا الى الهدنة، واجتمع الزعماء الكبار للمداولة. وجاءت النسوة بابنائهن وأزواجهن الى ابائهم واشقاهنّ، وجلبن اللحم والشراب لمن يحتاج، ونقلن الجرحى الى منازلهن لتمريضهم، وهنا أظهرن لذويهن مبلغ سيطرتهن على منازلهن. وكم يحترمهن أزواجهن، ويبدون لهن ضروب التجلة والاحترام ويحيطونهن بكل ما يتصور من العطف والودّ. وأتفق الجانبان على الشروط التالية: للنساء الراضيات بحالهن ان يبقين حيث هنَّ على أن يعفين -كما ذكرنا- من كل الأعمال الذليلة المتعبة، بأستثناء الغزل وان يسكن السابين والرومان المدينة معاً. وأن تسمّى المدينة روما من [رومولوس، وتسمّى [كوريتيس Quirites] [٧٢] من مواطن [طاطيوس]، وان يحكم هذان الزعيمان معاً ويمارسان القيادة بالتساوي، وكان مَحّل المعاهدة يدعى [كوميتيوم Comitium] [٧٣] من [كويري Coire] اي اللقاء أو الاجتماع.

وهكذا تضاعف عن عدد سكان المدينة. وأنتخب مائة من السابين[٧٤] (شيوخاً) وزيد ملاك الكتائب العسكرية الى ستة الآف راجل، وستمائه فارس[٧٥]، ثم قسُمَ الشعب الى ثلاث

---

(٧٢) لكلمة كويرس في لغة السابين معنيان. فهي «رمح»، وهي أيضاً «آله محارب يحمل رمحاً» وليس بالإمكان التحقق من ايهما أعطى اسمه للآخر. ومهما يكن فالربّ كويرس أو كورينوس هو إما (مارس) أو هو آله حرب آخر كان يعبد في روما حتى وفاة رومولوس الذي كُرمت ذكراه بخلع لقب كورتيوس عليه. ويقول [ديون] ان الشخص كان يدعى (رومانوس) والشعب كان يطلق عليه (كوريتيس). إلاّ ان القسم الأول من دعواه تلك ستخالف الصيغة القديمة لإعلان الدفن Ollus Quiris letho datus est.

(٧٣) يقع الكوليسيوم عند قدمة تل پالاتينا مقابل الكاپتول. غير بعيد عن الموضع الذي بنى فيه الملكان هيكل (ڤولكان). حيث كانا يجتمعان عادة مع مجلس الشيوخ لأخذ رأيه في المسائل العامة. هذا الاسم فرض نفسه بعد عهد رومولوس وبقي زمناً طويلاً.

(٧٤) يناقض پلوتارخ نفسه هنا عندما يذكر في سيرة (نوما) بأن عدد اعضاء مجلس الشيوخ كان مائة وخمسين. أو لعّل رومولوس بسبب استبداده في آخر ايامه لم يهتم بملء المقاعد الشاغرة في ذلك المجلس!

(٧٥) أكتشف المؤرخ روالد Ruald في تعليقاته على پلوتارخ، خطئين كبيرين هنا. أولهما قوله ان رومولوس ضم ٦٠٠ فارس الى الفرقة العسكرية في حين لم يضم مثل هذا العدد الكبير الى الفرقة في اي رقت من الاوقات. فقد كان ملاكها مائتين أولاً ثم ارتفع الى ثلاثمائة ثم بلغ أخيراً الاربعمائة وبقي كذلك. وأمّا الخطأ الثاني فقوله ان رومولوس جعل فرقة الرجالة في حين لم تتعد في زمانه نصف هذا العدد. وقال بعضهم ان (ماريوس) كان أوّل من رفع ملاك الفرقة الى ستة آلاف. لكن (ليڤي) يخبرنا، ان ذلك حصل قبل عهد (ماريوس) بزمن بعيد، وقد احدثه سكيپيو افريقانوس. وبعد طرد الملوك جُعل ملاك الفرقة ما بين ٣٠٠٠ و٤٠٠٠ ثم أرتفع الى ٥٠٠٠ حتى جعلها (سكيپيو) ٦٠٠٠ ولم يلجأ الى هذا الاّ في الحالات الخاصة وعند الضرورة القصوى فملاك الفرقة الرسمي هو أربعة آلاف راجل ومائتا فارس. الاّ ان [م. ريكارد] يتفق مع پلوتارخ بايراده هذا العدد الذي اثبتــه النص وباعتباره فرقــة رومانية – سابينية =

قبائل: سميت الأولى [رامنينسيس Ramnenses[٧٦]] من رومولوس، والثانية [طاطينسيس Tatinses] من طاطيوس، والثالثة [لوچيرنسيس Lucerenses] من لوكوس، اي البستان، حيث يقوم الملجأ الذي شيّد ليلوذ به كل هارب أو لاجيء فيلقى الأمان المنشود، ويقبل مواطناً في المدينة. ومما يدل ان القبائل كانت ثلاثة ما يظهر من الصفة «تربيه Tribe» و«تريبيون Tribune». وكل قبيلة تتألف من عشرة [كيوريات Curiae] أو أفخاذ، والاسم مأخوذ من اسم المرأة السابينية على ما يقوله البعض. لكن لا أساس لهذا التعليل فكثير من النساء يسمين باسماء امكنة مختلفة. وان كانوا والحق يقال كثيري الاكرام نسائهم لطالما احيوا ذكراهن بوسائل مثل هذه. كانوا يفسحون لهن طريق المرور كلما التقوا بهن. ولاينطقون بكلمة نابية في محضرهن، ولايظهرون عُراة امامهنّ واذا قتلن شخصاً لايحاكمن امام القضاة العاديين[٧٧]. وان يتحلّى اطفالهنّ بحليةٍ تسمّى لوللاً[٧٨] (لأنها شبيهة بفقاعة الماء) يحطن بها أعناقهم. ويلبسنهم البرتكستا Praetexta وهو رداء ذو حواش ارجوانية.

لم يجتمع الزعيمان للمشاورة في الحال. وإنما اجتمع كل منهما بشيوخه المائة على حدة أولاً، ثم اجتمعوا سويةً. وسكن [طاطيوس] حيث يقوم اليوم معبد [مونيتا Moneta] وسكن رومولوس بالقرب من درجات «الساحل الجميل»[٧٩] وهو الموقع القريب من منحدر جبل [پالاتين Palatine] المتجه نحو الملعب الأكبر. ويقال ان شجرة توت مقدسة نمت هناك، وذكر

= مختلطة اي فرقتين في الواقع.

(٧٦) أختلف الباحثون في أصل هذا الاسم. وثم عدة افتراضات فـ[ليفي ١:٣] يقر باستحالة التحقق من اصله. في حين يستقّه [فستوس] من لفظة ليچروس Lucerus وهو ملك اردبا Ardea ويشتقه فارو من لفظة لوكومو Lucumo وهي اسم زعيم إترووري شهير روملوس في حروبه. وامّا (الرّانييسي) فأغلبهم من (ألبا) سكنوا تلّي پالاتينا وچيليا. وامّا التاتينسي) فهم سابين خصص لهم تلاّ كاپتولين وكورينال. واما القبيلة الباقية فتشمل اللاجئين من اتروريا ولاسيوم وقد سكنت الفسحة الواقعة بين القبيلتين المشار اليهما آنفاً.

(٧٧) وانما امام مندوبين يعينهم مجلس الشيوخ من بين اعظائه.

(٧٨) عندما يرتدي الشبان «الرداء الرجولي Toga Virilis» فانهم يخلعون الـ(پوللاّ) وهي خلية ذهبية على شكل كرة جوفاء ويقدمونها لآلهة البيت Dü Lares. فاذا توفي الشاب قبل بلوغه السادسة عشرة، فان الحليه توضع في الوعاء الذي يحوى رماد الميت. ويقول ساتورنينوس ٦:١ ان هذه الحلية لا يقتصر التحلي بها على الاحداث بل أنها تزين أولئك الذين يكرّمون بموكب نصر اذ تقوم بتقليد واحدة كبيرة منها كبيرة الكاهنات الڤستالات كعلامة من علامات التكريم. كما ان النسوة يضفها الى ما يتزيّن به الحلى. وامّا بخصوص الجلباب ذي الحاشية الارجوانية فان الفتيات العازبات يرتدينه حتى يتزوجن. كما يرتديه الشبان حتى يبلغوا السابعة عشرة. الاّ ان ما كان اشارة تكريم لأولاد نساء السابين في عهد روملوس اصبح شائعاً بين الجميع حتى شمل اولاد العبيد العتقاء.

(٧٩) ربما كان النص اليوناني [خاخون] محرفاً، ولا شك ان المقصود هنا «Scalae Caci: درجات كاكي».

(٨٠) أو لأجل تحديد فسحة للعرافة على حدّ زعم (سرڤيوس).

عن كيفية نموها ان رومولوس اراد مرة أن يجرب قوته(٨٠) فقذف من جبل آفنتين برمح قناته مصنوعة من خشب تلك الشجرة فطار بعيداً ثم انغرز عميقاً في الأرض ولم يفلح أحدٌ في انتزاعه رغم تعاون الكثرة وبقي في موضعه وكانت التربة خصبة فامدت الخشبة بالغذاء فنمت وافرعت وازهرت واستوت جذعاً كبير الحجم. وتولى السلف الشجرة بالعناية وأكرموها وعبدوها وعدوها من أقدس الذخائر واحاطوها بجدار. فاذا بدت لأيّ ناظر قليلة الاخضرار والازدهار مائلة الى الذبول والاصفرار فزع حالاً الى اي مستطرق يلقاه لتهيئة الماء فتقوم ضجةٌ حتى لكأن بيتاً يحترق ويهرع الناس من كل صوب بأوعية الماء ليسقوا الشجرة... وعدما كان (كايوس قيصر Caius Caesar] يرمم الدرجات المحيطة بها، اتلف بعض العمال جذورها عندما كانوا يحفرون بالقرب منها فيبست.

واتخذ السابين الأشهر الرومانية؛ وقد ذكرنا في سيرة [نوما] كل ما هو مهم في هذا الباب. واتخذ رومولوس تروسهم الطويلة ونبذ دروعه ودروع الرومان كافة واتخذ دروعهم، فقد كان الرومان يشبتون فوق صدورهم درقات مستديرة على الطراز [الاركيفي Argive] وكانت اعيادهم وقرابينهم مشتركة، ولم يلغ عيد من أعياد الشعبين. واستحدثوا أعياداً جديدةً منها عيد [ماتروناليا Matronalia](٨١) الذي انشيء تكريماً للنساء وأعترافاً بمجهودهن في أطفاء نار الحرب، وأحدثوا أيضاً عيد [كارمنتاليا Carmentalia](٨٢)، ويخيل لبعضهم ان [كارمنتا Carmenta] هذه هي ربّة تشرف على ولادة البشر، لذلك تكرمها الامهات كثيراً. ويظن بعضهم انها زوج [ايفاند] الأركادي. وهي كاهنة عرافة ترسل نبوآتها شعراً، وقد أسميت [كارمنت] من (كارمن: اي شِعر). واسمها الحقيقي [نيقوستراتا]، ويرى بعضهم أن أقرب الإحتمالات في اسم الكاهنة هو اشتقاقه من لفظ [كارنس - منتي] ومعناه مختل العقل(*)، اشارة الى الحركات الجنونية والتشنجات التي تعتربها اثناء نزول الوحي عليها.

---

(٨١) في اثناء هذا العيد يتوجب على كلّ الرومانيات المتزوجات القيام بخدمة عبيدهن على المائدة. وان يقبلن الهدايا من أزواجهن مثلما يقدم الازواج لهن من هدايا في عيد [ساتورناليا]. ولم يكن عيد (ماتروناليا) قاصراً على تكريم النساء السابينيات بل هو مخصّص لـ (مارس) ولـ(جونو لوكانيا) الى حدّ ما. ويقعُ في الاول من شهر آذار على خلاف ما ذكره بعض المعلقين الآخرين.

(٨٢) وهو عيد كبير يقع في ١١ من كانون الثاني وتقام مراسيمه في اسفل الكابتول بالقرب من باب كارمنتال. ويرفع الدعاء والصلاة للربة (كارمنتا) من أجل اخصاب نساء روما ولساعة ولادة سهلة (اوفيد ٦١٧:١) وبلوتارخ أيضاً في (أسئلة رومانية) فانه يجعل (كارمنتا) أمّا لـ(ايڤانْدر) ان قصة هذه السيدة وقصة لوبركاليا التي تتلوها في المتن هي من نسج الخيال المحض.

(*) Caurc «مختل او مسلوب» و Mens «عقل».

أما عيد [پاليليا] فقد سبق لنا الكلام عنه. والذي يبدو ان عيد [لوپركاليا Lapercal-ia][٨٣] هو عيد التطهر، لأنه مأخوذ من الزمن الذي يقام فيه وهو غير ايام السفاد Dies Nefasti من شهر شباط واسم (شباط February) نفسه يعني التطهر. والعيد نفسه كان يدعي في قديم الزمان [فبرواتا Februata] إلاّ أن اسمه مرادف للاسم اليوناني (لكيا Ly-caea) ويبدو انه موغل في القدم جاء به الاركاديون الذين صحبوا [ايڤاندر][٨٤]. على ان كل هذا رجمٌ بالغيب وتخمين، اذ قد يأتي ايضاً من «الذئبة» التي ارضعت رومولوس، وأننا لنشاهد الكهّان [اللوپيركي Luperci][٨٥] يبدأون طوافهم من الموضع الذي قيل ان رومولوس تُرك فيه. لكن المراسم التي تتمّ فيه تجعل من أصعب الأمور التوصل الى الحقيقة. فثم ماعزٌ ينحرُ، ومن ثم يؤتى نبيلين صبيين ويقوم بعضهم بوسم جبهتيهما بالسكين الدامية، ثم يقوم آخرون بمسح ما خلفته السكين من دماء بقطع من الصوف مغموسة بالحليب، وعلى الصبيين أن يضحكا بعد مسح جبهتيهما وبعد هذا تقطع جلود الماعز سيوراً يمسك بها الصبيّان ويهرولان وهما عاريان إلا مما يستر عورتيهما، يضربان بها كل من يصادفهما، ولا تتجنّب الزوجات الصغيرات تلك الضربات لأنّها تساعدهنّ على الحمل كما يشاع بينهنّ. أو ثم شيء آخر غريب في هذا العيد، وهو ان [اللوپيركي] يضحون بكلبٍ. هذا وان شاعراً من الشعراء كتب تفاسير خرافية للعادات الرومانية على شكل قصائد تقريض فيقول في هذا الصدد، انه رومولوس وريموس بعد ان حققا النصر على اموليوس، ركضاً فرحين الى الموضع الذي ارضعتهما فيه الذئبة. وأحياءً لهذه الحادثة انشيء هذا العيد، ولذلك يركض الصبّيان النبيلان...

«وهما يضربان كل من يصادفهما. حين أقبل التوأمان الشهير ان من مدينة [ألبا] مسرعين والسيف في يد كل منهما».

أما إمرار السكين الدامية على جبهتيهما، فهي اشارة الى الأخطار التي حفل بها ذلك اليوم، وما جرى فيه من سفك دماء. واما مسحهما بالحليب فهو ذكر اطعامهما وتغذيتهما. ويكتب [كايوس اچيليوس Cauis Acilius][٨٦] ما مفاده أن قطيع ابقار لريموس ورومولوس شُتتت في الفلاة، قبل ان تبنى روما، صليا لرب [فونوس Faunus] ثم خرجا للبحث عنها

---

(٨٣) يحتفل بهذا العيد في الحادي عشر من شباط تكريماً للرب (پان) وبسبب عداءٍ يكنّه للذئاب فقد سمي [لوپركوس]: من ذئب Lupa.

(٨٤) ليڤي ١:٥ و ١-٢.

(٨٥) اي كهانة الرب (فاونُس) الذي هو (پان) عند الرومان مثلما ذكر.

(٨٦) هو مفوض الشعب (Tribume) كتب بالاغريقية في بعض الحوليات. ويخبرنا ليڤي ان (كلوديوس) ترجمها الى اللاتينية وأقتبس منه شيشرون.

وهما عاريان لئلا يعرقلهما العرق الناضح منهما. وهو الذي جعل [اللوپيريكي] يتراكضون عراة. امّا اذا كان القربان للتطهر فحسب فتضحية الكلب أمرٌ واجبٌ لأن اليونانيين كانوا يضحون بالجراء كما يشاهد ذلك في نقوشهم ومنحوتاتهم. وهم كثيراً ما يزاولون هذه المراسيم التي يسمونها [پريسكلاسيزموس Periscylacismus][87] اما اذا كان القربان لشكر الذئبة التي أطعمت رومولوس وحفظت حياته. فثم سبب وجيه للتضحية بكلب لأنه عدوّ الذئاب. إلاّ اذا كان سبب قتله عقاباً له على عرقلته اللوپيريكي اثناء ركضهم. وقيل ايضاً ان رومولوس هو أول من استحدث فريضة النار المقدسة. وعين عذارى مقدسات للابقاء عليها مشتعلة[88]، سمين فستالات. ويقول آخرون أن [نوما بومپيليوس] هو موجد هذه الفريضة. وهم يتفقون على كل حال أن رومولوس كان تقياً شديد التدين، ماهراً في اقامة الفرائض ولهذا كان يحمل عصاً معقوفة [ليتّوس Littuus] مما يستخدمه السحرة لرسم اركان السماء عندما يجلسون لمراقبة الطير، ظلّت عصا [رومولوس] محفوظة في البالاتيوم، وضاعت عندما استولى الغاليون على روما، ثم عثر عليها بعد طرد هؤلاء البرابرة في الأطلال والخرائب مدفونة تحت كومة عظيمة من الرماد[89]، ولم تمسها النار بضرّ في حين أتت على كان ما كان حولها. واستن رومولوس قوانين، تميز احدها بالصرامة وهو يقضي بألاّ تهجر المرأة زوجها، ويخول الزوج حق طلاقها في حالة تسميمها أولادها أو تزييف مفاتيح الزوج، أو اذا زنت[90]. واذا

---

(٨٧) أو [بيرسكو لاكيزموي Perisku Lakismoi]، ويتم ذلك بأن يدور كلب أو جروه حول الشخص المراد تطهير وبعد انتهاء الطواف يقتل الحيوان. وهذه المراسيم شائعة جداً عند الأغريق.

(٨٨) ما زال معبد فستا الرئيس قائماً في روما. وهو على شكل دائرة يتألف محيطها من عشرين اسطوانة - رخامية يعلوها افريز ذو نقوش بديعة ويتألف سقف من قرص مدبب أعلى في وسطه مثل قبعة الصينين وإطاره يرتكز على تيجان الاعمدة العشرين بني ليكون محراباً لشعلة النار المقدسة، التي كان الرومان يعتقدون انها ترمز الى قوة روما وعظمتها والتي كانت ترعاها الربة فستا في عرفهم. وتتناوب عذارى فستا السهر على الشعلة الدائمة ليل نهار، كما كان من واجباتهن رفع الصلاة للربة لتكفل رفاهية الشعب والدولة ونصر جيوش روما في الحروب وكان يعهد اليهن ايضاً ببعض محفوظات الدولة ووصايا الأباطرة والوثائق الهامة التي يتوقف على سرّيتها كيان البلاد. ولذلك كن يعتبرن حاميات روما وحارسات مجدها [م. ت].

ولابد وان پلوتارخ يقصد بانّ (روملوس) الأول هو أوّل من استحدث النار المقدسة في روما. وامّا عن وجود العذارى الفستالات قبله في ضاحية (ألبا) فهذا مؤكد لأن امّه كانت واحدة منهن. امّا النار المقدسة الخالدة فلم تكن مقصورة على روما بل هي شائعة في مصر وبلاد الفرس وما بين النهرين واليونان ولدى كل الشعوب تقريباً. أخذها الاغريق عن الشرق وهي النتيجة الطبيعية لعبادة الشمس أو النار كما في الدين المجوسي.

(٨٩) يذكر شيشرون في رسالة النبوءات. انها أكتشفت في معبد كهنة ساليا في اعلى قمة تلّ پالاتينا.

(٩٠) مع هذا، فان الامتياز الذي اعتبره پلوتارخ تعسّفاً بحق المرأة، كان موسى النبي قد اباحه للرجال بدرجة واسعة. على ان حرية النساء عند الرومان كانت تبلغ حدّ أعطائهن الحق في تطليق ازواجهن كما يظهر =

سرّحها زوجها لسبب اخر غير هذه الأسباب الثلاثة، يصادر منه ملكه، ويعطي نصفه للمطلقة ويوقف النصف الآخر على الربّة [چيريس Ceres] (٩١) وعلى كل من طلق امرأته كفارة، وهي ان يضحى لآلهة الأموات. ولوحظ في رومولوس أنه انفرد عن غيره بعدم وضعه عقوبة ما لجريمة قتل الأب أو الأم الحقيقي(٩٢)، ولكنه ادمج الجريمة مع غيرها من القتول وفرض حكماً عاماً معتقداً أن القتول عامة اعمال شنعاء وأنّ هذا القتل مستحيل لا يقدم عليه أحد وثبت أنه كان مصيباً في حكمه هذا، فقد مرت ستمائة سنة متواصلة ولم يرتكب مثل هذه الجريمة في روما. وذُكر ان [لوشيوس هوكتيوس Lucius Hoctius] كان أول قاتل لأبيه وقد وقع ذلك بعد حروب [هانيبال]. وفي ما ذكرنا الكفاية.

في السنة الخامسة لحكم [طاطيوس] كان بعض اصدقائه وبني قومه قد صادفوا سفراء موفدين من [لورنتوم](٩٣) الى روما فحاولوا سلبهم اموالهم ولما قاومهم هؤلاء بطشوا بهم جميعاً، وكان غدراً فظيعاً حمل رومولوس على الاستعجال في انزال العقاب بالمجرمين، إلاّ ان [طاطيوس] حال دون ذلك. وكان هذا مبدأ الخصام العلني الذي نشأ بينهما. ولم يظهر شيئاً منه في اثناء تصريفهما الشؤون العامة وكانا شديدي الحذر من الاصطدام وظهر بمظهر المودة والتفاهم. امّا ذوو القتلى فبعد ان حيل بينهم وبين الانتصاف الشرعي لقتلاهم بسبب تدخل طاطيوس. تربصوا به اثناء ما كان يقدم قرباناً برفقة رومولوس في [لاڤينيوم]، ووثبوا عليه وذبحوه(٩٤)، إلاّ انهم لم يتعرضوا [لرومولوس] بل رافقوه الى بيته باحترام وهم يثنون عليه لما ابداه من عدالةٍ، ودَفَنَ رومولوس جثمان [طاطيوس] دفنة فخمة جداً في جبل آڤنتين، قرب

= من جوڤينال ومارچيال (٤١:١٠) وفي الوقت نفسه يجب ان يلاحظ انه لم يعرف عن طلاق واحدٍ وقع في روما خلال خمسمائة وعشرين عاماً وهو دليل على فضائل الرومان ومتانة أخلاقهم ولذلك يخصُ بالذكر [كارڤيليوس كيوريوس] بوصفه اول من طلق زوجه من الرومان.

(٩١) وهذا هو النص القانوني اللاتيني:

Familiam ad aedem Clreis; ispe sacer esto.

(٩٢) في هذا غرابة كبيرة. كما يلاحظ المؤرخ داسييه أن تعبير «القتل الابوي» كان موجودا قبل ان يرد ذكر لارتكاب مثل هذا الجرم.

(٩٣) ليڤي ١٤:١ و ١-٣. ويقول [ديون] انهم كانوا سفراء قدموا من [لاڤينيوم] في السنة السادسة لحكم (طاطيوس)، لرفع الشكوى من الاعتداءات التي ارتكبها اصدقاءٌ له في موطنهم. وانهم وقعوا اثناء عودتهم في كمين نصبه لهم السابين في الطريق فسلبوهم وقتلوا بعضهم. وكلتا المدينتين متجاورتان ومن اعمال (لاسيوم).

(٩٤) ربما كانت هذه ذبيحة للرب الأسيومي المسمي (اريديگدس) وروما تشارك فيه أيضاً لأن المهاجرين الطروادبين استقروا في ذلك الموضع. على ان (لوچينيوس) يقول ان [طاطيوس] لم يذهب الى هناك برفقه رومولوس. بل لم يذهب من أجل تقدمة الذبيحة وانما خرج وحده محاولاً اقناع الأهالي بالعفو عن القتلة.

موضع يدعي [ارميلوستريوم Armilustrium] [٩٥] ولم يحاول الاقتصاص لمقتله. وذكر بعض الكتاب ان مدينة لورنتوم خافت العواقب فأسرعت بتسليم قتلة [طاطيوس] الاّ ان رومولوس أطلقهم قائلاً: لقد جَبَّ القتلُ القتلَ. وبهذا أحدث اسباباً للتقولات والتخرصات وثرثرة السنة الحسّاد اذ راحت تذيع انه ارتاح من ازاحة زميله وشريكه في الحكم، على ان مثل هذا الكلام لم يؤثر في السابين ولم يثرضغينة فيهم واستمروا يعيشون بسلام. وبقي اعجابهم واحترامهم له، إما لحبٍّ حقيقي يكنه له بعضهم، وإما خوفاً من بطشه، وامّا لاعتباره في منزلة الأرباب، وأظهرت الأمم الأخرى اجلالها لرومولوس ايضاً وارسل اللاتين عدة سفراء اليه ودخلوا في حلف اتحادي معه. وأستولى على [فديني Fidenae] [٩٦] وهي مدينة مجاورة لروما بكوكبة من الفرسان فقط سبقوه على ما قيل، مزودين بأوامر تقضي بكسر رتاجات ابوابها. وبعدها هجم بنفسه على غير انتظار. وقال آخرون ان سكان المدينة بداؤا العدوان وراحوا ينهبون الريف ويدمرون ما فيه فكمن لهم رومولوس، وبعد أن قتل عدداً كبيراً منهم أقتحم مدينتهم إلاّ انه لم يهدمها أو يقوضها بل جعلها مستعمرة رومانية وارسل اليها في الثالث عشر من نيسان الفين وخمسمائة مستعمر روماني.

وبُعيد هذا انتشر وباء الطاعون، وأخذ يهلك الناس دون سبق مرضٍ، فأمحل الزرع وجفّ الضرع وامطرت السماء دماً على المدينة[٩٧]، فأضيف الى البؤس الذي يعانونه، الخوفُ من غضب الآلهة. وعندما حلت المصائب نفسها [بلارنتوم] حكم الجميع أن النقمة السماوية حلّت بالمدينتين لأنهما لم تسلكا سبيل العدل في مقتل طاطيوس والسفراء. فما أن سُلّم القتلة وعوقبوا حتى خفت وطأة الوباء بصورة ملحوظة. وطهّر رومولوس المدينتين بفرائض الغسول المقدسة، وقد بقيت تمارس على ما يقال في غابة تدعى [فرنيتنا Ferentina]. وقبل ان تزول آثار الطاعون غزا الرومان قوم [الكامرتين Camertine] واجتاحوا البلاد متوهمين ان النوائب أعجزت اعداءهم عن المقاومة. إلاّ ان رومولوس مالبث أن عاجلهم القتال واستظهر عليهم بفتكه بستة آلاف فيهم والاستيلاء على مدينتهم وسوق ما وجده فيها من الأهالي الى روما.

---

(٩٥) سمي بهذا بسبب الاحتفال المعروف بهذا الاسم. ويقام في ١٩ من تشرين الأول كل سنة وفيه تستُعرض الوحدات العسكرية صفوفاً ويجرى تطهيرها بتقدمة القرابين.

(٩٦) في هذا يتفق پلوتارخ مع ليڤي (١٤:١) إلاّ ان [ديون ٢:١٣] يقول: عندما ارسل أهالي (كريستوميريوم) ارزاقاً لأغاثة الرومان الذين أضرت بهم المجاعة أو... الوباء، كمن أهالي (فديني) للقافلة وسلبوها.

(٩٧) هذه الزّخات المنذرة الحافلة بالوعيد، يعزوها م. ريكارد الى الحشرات والابخرة القرمزية ويقول انها لم تكن نادرة في الأيام المتأخرة واننا لنقرأ عن أمثال هذه الخوارق فيما غير من الازمان. ولدينا ما يشبهها في ايامنا الحالية كسقوط حجارة برشقات.

ونقل الى [كاميريوم Camerium(٩٨)] من الرومان ضعف العدد الباقي فيها ، وكان ذلك في اليوم الأول من شهر آب.

إن عدد من عفا عنهم من الناس خلال السنوات الستّ عشر الأولى من بنائه روما كان كبيراً جداً. ومن بين الغنائم التي استولى عليها من [كاميرويوم] عجلة نحاسية تجرها أربع خيول وضعها في معبد [ڤولكان] ونصب فوقها تمثالاً له مفتوحاً بصورة إله النصر.

هكذا صارت قوة روما تتنامى يوماً بعد يوم، وضعف أمر جيرانها وخمل شأنهم وقنعوا أن يُتركوا بما لديهم. إلاّ ان الأقوام الأقوى منهم، بدافع من الحسد أو إباء عن الخضوع الى رومولوس، والسكوت على تعاظم سلطانه، قرروا الوقوف في وجه طموحه، وأول تلك الأقوام الـ[ڤينيتس Veinetes](٩٩) وهم شعب من توسكانيا كثير المال والرزق يسكن مدينة عامرةً. فأختلقوا سبباً للحرب خلاصته ان [فيديني] تعود لهم وهو ادعاء فضلاً عن كونه غير معقول، فهو سخيف، فهم الذين تركوا أهلها لشأنهم في أشدّ المواقف حراجة ولم يمدّوا اليهم يدالعون فهلك كثير منهم، وهم الآن يدعونّ بملكية اراضيهم ومساكنهم عندما آلت الى أيدي الآخرين.

كان جواب رومولوس على طلبهم هذا ، حازماً هازئاً. فقسّموا قواتهم الى قسمين وهاجموا بالأوّل منهما حامية [فيديني] وزحف الثاني لقتال رومولوس، ونال الأول نصراً وقتل الفين من الرومان. أما القوات الثانية فقد هزمها رومولوس وقتل منها ثمانية آلاف. ثم جرت معركة أخرى قرب [فيديني] وهنا يتفق جميع الكتاب ان الفضل الرئيس في نصر ذلك اليوم يعود الى مجهود رومولوس فقد أبدى مهارةً فائقةً وشجاعة لاتبارى. وبدت القوة والسرعة اللتين اظهرهما وكأنهما ليستا من طبع البشر. امّا قول بعضهم ان أكثر من نصف الأربعة عشر ألفاً الذين قتلوا في ذلك اليوم كان هلاكهم بيد رومولوس فهو حديث خرافة ووهم لا يقبله العقل ابداً، فحتى [الماسينيين] بالغوا كثيراً في ادعائهم ان [ارسطومينيس Aristo-menes] قدم ثلاثة قرابين متوالية لقتله مائة فقط من أعدائه اللقديمونيين(١٠٠).

بعد أن هزم رومولوس جيش عدوه، وترك فلوله تنجو يحلدها وجه قواته نحو المدينة وكان

(٩٨) تلك المدينة في (لاسيوم) كان رومولوس قد أستولى عليها من قبل. وقد انتهز أهاليها الاصليون هذه الفرصة للعصيان فانتفضوا وذبحوا الحامية الرومانية.

(٩٩) ڤيي Veii هي عاصمة بلاد التوسكان وتقع على صخر جبلي وتبعد عن روما زهاء مائة فرسخ. ويضاهيها (ديون) بأثينا من جهة غناها وحجمها.

(١٠٠) يؤيد [پاوسنياس ٤٣:١٩] هذه الرواية وينوه بالزمان والمكان فضلاً عن ذكره الهيكاتومب المقدم لـ(جوپتر اتيوماتس). هذه الحروب بين المسينيين والسپارطيين كانت قد جرت على عهد (توللوس هوستيليوس).

العدو قدمني بخسائر جسيمة فلم يفكر في ابداء مقاومةٍ وأنما أعلن استسلامه وابرم معاهدة حلفٍ وصداقة أمدها مائة عام، وتنازل ايضاً عن مساحة كبيرة من الأرض تدعى [سپتمياگيوم Septempagium](١٠١) اي المنطقة ذات المدن السبع، كذلك نزلوا له عن مماحهم التي تقع على ضفاف النهر، ودفعوا اليه بخمسين رهينة من نبلائهم، ضماناً لتطبيقهم شروط الصلح، ودخل المدينة في موكب نصر - في الخامس عشر من تشرين الأول(١٠٢)، ومن بين الأسرى الذين ساروا فيه قائد جيش الڤينيتس وهو رجل طاعن السنّ، لم يعمل على ما يبدو بما تمله حكمة السِن. وتصرف ينزق ومن هذا جاءت عادة ظلّت تطبق في كل مناسبة تقريبٍ لقرابين النصر، وهي ان يقاد رجل كبير السن خلال السوق حتى الكاپيتول، متشحاً برداء الأرجوان ومتقلداً لعبة الاطفال (بوللاً) والمنادي ينادي قائلاً «الساردين سيتّم بيعهم الآن!»(١٠٣) اذ يقال ان توسكانيا هي أحدى مستعمرات الساردين، وان [ڤينيتيس] هي مدينة توسكانية.

كانت هذه المعركة آخر ما خاضه رومولوس من معارك. وبعدها أقدم على ما يقدم عليه معظم الرجال لا بل كل الرجال الذين ارتفعوا الى ذروة المجد والسؤدد بفضل ظروف معجزة فائقة العادة. (باستثناء القليل جداً) نقول أقدم على ما أقدم معتمداً على رصيده من جلائل الاعمال والمآثر.

... ازداد تيهاً بنفسه وغروراً، واستبدل بسلوكه الشعبيّ المتواضع، الكبرياء الملكية الكريهة من الشعب، وتزيا بزيٍّ بغيض جداً الى قلوب العامة، فلبس القرمز وفوقه رداء مطرز الحاشية بالارجوان(١٠٤). وكان يقابل الناس وهو جالس على عرش يحيط به دوماً زمرة من الشبان عرفوا باسم [چيليرس](١٠٥) اي العدّائين لسرعتهم في قضاء المهام. وكان يسير امامه آخرون سيوراً من الجلد لتقييد من يأمر بتقييده حالاً. وللاتين يستعملون كلمة (الليكاري Alligre)

---

(١٠١) تمتد من مدينة ڤيي حتى ضفاف نهر اليتبر.

(١٠٢) للمرة الثالثة كما يزعم (ديون) وبشكل افخم من السابق بكثير.

(١٠٣) الڤينيتس والاترورين الآخرون هم مستوطنون قدموا من ليديا. وكانت مدينة (ساردیس) مسقط رأسهم. ويؤرخ [فستوس] نقلاً عن [سينيچيوس كاپيتو] هذه العادة من وقت فتح جزيرة سردينيا من قبل طِيبيريوس سمپيتوس كراخوس] عند جلبه هذا العدد من أسرى تلك الجزيرة. حتى لم يبق من يشاهد في سوق النخلسة من بضاعة غير العبيد الساردينين.

(١٠٤) يطلق عليه Sagum أو «الزّي العسكري» وفوقه يبسط الـ[الپالودامنتوم] أو معطف الجنرال ويشدّ فوق الكتف على ان ما جعله مكروهاً بالدرجة الأولى هو قسوته المتناهية في عقاب المجرمين. ومن ذلك اتهم عدد من الشبان الاشراف بقيامهم باعتداءات غير مسموح بها على اراضٍ مجاورة فحكم عليهم بالموت بالقائهم من أعلى الصخرة التاربية (ديون: ١١:١٤).

(١٠٥) ليڤي ١:١٥: و ٨. أمر رومولوس الأفخاذ (كيوراي) الثلاثين بأن يختاروا له حَرساً يتألف من ثلاثمائة رجل اي عشرة من كل فخذ وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم پلوتارخ «چيليرسي».

الحالية، ومنها جاء لقب [ليكتورس Lictors] لهؤلاء الحرس. وكلمة [باكيولا Bacula] اي صولجان للعصيّ التي يحملونها (فاچي Fasces)، لأن القضبان كانت شائعة آنذاك. ولعلهم كانوا يستعملون اول الأمر لفظة [ليتورس] اليونانية، ثم زيدت حرف C فصارت (لكيتورس) أو (ليتورغي لائيتوس Liturgi Leitos) باليونانية «خدام للشعب» لأن كلمة «لائيتوس» اليونانية تعني «العامة» و«لاوس Laös» تستخدم للجمهور عموماً.

إلاّ انه عندما توفي جده [نوميتور] في [ألبا] وآل العرش اليه، وضع الحكم في ايدي العامة لأجل ان يخطب ودّهم، وعين حاكماً على أهالي [ألبا][١٠٦] يستبدل سنوياً. وهذا ما لقّن رجال روما العظام درساً في ان يفضلوا دولة حرةً على الملكية، حيث يكون الكلّ رعية وحكاماً في الوقت نفسه. اذ حال بين الپاتريشيان وبين الاسهام في سياسة الدولة، ولم يبق لديهم غير الاسم واللقب. تراهم يجتمعون بحكم العادة وحفظاً للمظاهر أكثر من ابداء المشورة، ولا يفضلون عن العامة إلاّ بأنهم اسبق الى معرفة ما يجري، ولم تكن هذه المسائل ذات بالٍ أو قيمة، ولكن عندما عمد رومولوس الى توزيع الأراضي التي غنمها على الجنود من تلقاء نفسه، وعندما اعاد الى مدينة ڤينتيس رهائنها، أعتصب مجلس الشيوخ ولم يوافق ولم يقره على ذلك - وكان قبلاً يجتمع ليستمع صامتاً الى أوامر الملك ثم يتفرق. الظاهر انهم عدّوها اهانةً عظيمة لهم. وغدا المجلس موضع شكٍ وريبة عندما أختفى رومولوس اختفاءه الغريب المفاجيء بعد زمن قصير من هذا. غاب في السابع من تموز [يولي الذي كان يسمى آنذاك كونتيلس Quintilis] غير تارك شيئاً مادياً يروى عن موته، إلاّ يوم اختفائه. وفيه ما تزال تقام عدة احتفالات تمثل ما وقع[١٠٧] وعلينا الاّ نعتبر هذا الغموض مما يستغرب له اذا تذكرنا كيفية موت [سكيپيو افريقانوس][١٠٨] فقد قضى نحبه في داره بعد العشاء ولم يكن في موته ما ينفي سبباً أو يثبتهُ، فبعضهم يقول انه موته كان طبيعياً لعلّةٍ مزمنة كان يشكو منها. وبعضهم قال أنه تجرع السمّ، وذكر آخرون أن أعداءه فاجاؤه ليلاً وخنقوه. مع هذا كله فان جثته عرضت للملأ وراح الجميع يستنتجون ويخمنون، في حين لم يترك رومولوس أثراً عند غيبته، ولو جزءً صغيراً من جسمه أو خرقة من ثيابه. لذلك مال الظنّ الى أن الشيوخ

---

(١٠٦) أو السابين. هناك بعض المؤرخين ممن يفضل اطلاق اسم ألبان عليهم.

(١٠٧) امثال ما يدعى: Monae Carprolimae أو Popeal ipagima أو Festum Amcillarum.

(١٠٨) هو سكيپيو افريقانوس ابن پاولس ايچيليوس - تبناه سكيپيو الاكبر وبما انه كان دائم المعارضة لمشاريع الشقيقين (كراخوس) فقد ظن أن زوجه سمپورينا وهي اختهما - قد دست له سمّاً وقتلته. وبحسب زعم [ڤاليريوس ماكسيموس] لم يفتح تحقيق قضائي لمعرفة اسبابِ موته. ويحدثنا (ڤكتور: ٥٨) ان الجثة حملت وقد قنع الوجه بقماش من الكتان لئلا يظهر الوجه وقد اسودّ.

فتكوا به في معبد [ڤولكان] وقطعوا جثته اجزاء صغيرة أخفى كل واحد منهم جزءاً في طيات ثيابه وتخلصوا منها. وفي رأي آخرين أن غيبته هذه لم تكن لا في معبد ڤولكان ولا بفعل مجلس الشيوخ، وان حقيقة ما حدث هو انه كان يخطب في الناس خارج المدينة قرب موضع يدعى [مستنقع الماعز][١٠٩] فاكفهر الجوّ فجأة وحصلت ظواهر عجيبة في السماء وأظلمّ وجه الشمس[١١٠] وانقلب النهار ليلاً مضطرباً حفل بالرعود والصواعق المهولة والرياح الهوج تهب من كل صوبٍ. فتفرق الناس وهربوا لايلوون. إلاّ ان الشيوخ بقوا في موضعهم كتلةً واحدة. ولما سكنت العاصفة وانكشف الظلام واجتمع الناس ثانية افتقدوا ملكهم ولم يجدوه وسألوا عنه فقال الشيوخ لهم لاتبحثوا عنه ولا تشغلوا انفسكم بأمره. وامروهم أن يكرّموه ويعبدوه لأنه ارتفع الى مصاف الالهة. وانه مزمع ان يكون لهم ربّاً كريماً رحيماً بعد ان كان لهم ملكاً صالحاً باراً فآمن الناس بما سمعوا ورجعوا فرحين في آمالهم بنوال خير الأمور منه. إلا انه وجد بينهم من أخذ يكلّل القضية بسؤ نية وأخذ يتهم الپاتريشيان ويغتابهم، ويقول انهم خدعوا الناس واغروهم بحكايات سخيفة، لتغطية الحقيقة وهم الذين قتلوا الملك في الواقع.

قالوا: ولما أخذت الأمور تنحدر من سيّء الى أسوء وملات الاشاعات الجوّ، قام [يوليوس پروكولوس Juluis Proculus][١١١] أحد الشيوخ الپاتريشين عرف بالخلق الحميد وبصداقته الحميمة لرومولوس[١١٢]، وبكونه ممن جاء معه من البا كما كان ينحدر من اسرة نبيلة، ووقف متكلماً في الفوروم. أقسم باغلظ الايمان وامام الناس جميعاً انه رأى رومولوس قادماً نحوه وهو مسافرٌ في طريق، وكان يبدو اطول قامة وأبهى منظراً ويرتدي دروعاً براقّة تشع ناراً. فادركته الرهبة من الشبح فابتدره قائلاً: أيها الملك ما الذي دعاك الى تركنا؟ ولماذا جعلتنا نتخبط في ظنون سيئة زائفة. والمدينة كلها في حزن وترحٍ لا نهاية له؟ «فأجاب يقول: «كانت مشيئة الارباب، اي پركولوس - ان نبقى نحن الذين انحدرنا من صلبهم. بين البشر هذه المدة من الزمن. وبعد ان بنينا أعظم مدن العالم بمجدها وجبروتها آن لنا ان نعود الى السماء،

---

(١٠٩) انظر ليڤي المرجع السالف ١٦ و ٤٠١.

(١١٠) نوه [شيشرون] بهذه الظاهرة العجيبة ايضاً في «الجمهورية: الكتاب السادس» ويبدو من تدقيق الازياج الفلكية، انه كان ثمّ كسوف كلي طويل، في عام وفاة روملوس ويقع في ٢٦ من آذار فإن قارنا ذلك بالتقويم الروماني المستخدم وقتذاك فانه يوافق شهر تموز. او لعل الرومان هم أكثر اطمئنانا من زمن موته من وقت ميلاده.

(١١١) ليڤي: المرجع السالف ١:١٦، ٥-٨. وهو سليل ايّولوس أو أسكانيوس.

(١١٢) من هنا جاء الاحتمال الغالب بان الشيوخ اختاروه ليحمل للناس ابناء الرؤيا المختلقة وهو ما كان مسموحاً به باعتباره فنّا قريباً مزيداً في اختلاق المعجزات تعظيماً للأقدمين!

فتكوا به في معبد [ڤولكان] وقطعوا جثته اجزاء صغيرة أخفى كل واحد منهم جزءاً في طيات ثيابه وتخلصوا منها. وفي رأي آخرين أن غيبته هذه لم تكن لا في معبد ڤولكان ولا بفعل مجلس الشيوخ، وان حقيقة ما حدث هو انه كان يخطب في الناس خارج المدينة قرب موضع يدعى [مستنقع الماعز][١٠٩] فاكفهر الجوّ فجأة وحصلت ظواهر عجيبة في السماء وأظلمّ وجه الشمس[١١٠] وانقلب النهار ليلاً مضطرباً حفل بالرعود والصواعق المهولة والرياح الهوج تهب من كل صوبٍ. فتفرق الناس وهربوا لايلوون. إلاّ ان الشيوخ بقوا في موضعهم كتلةً واحدة. ولما سكنت العاصفة وانكشف الظلام واجتمع الناس ثانية افتقدوا ملكهم ولم يجدوه وسألوا عنه فقال الشيوخ لهم لاتبحثوا عنه ولا تشغلوا انفسكم بأمره. وامروهم أن يكرّموه ويعبدوه لأنه ارتفع الى مصاف الالهة. وانه مزمع ان يكون لهم ربّاً كريماً رحيماً بعد ان كان لهم ملكاً صالحاً باراً فآمن الناس بما سمعوا ورجعوا فرحين في آمالهم بنوال خير الأمور منه. إلا انه وجد بينهم من أخذ يكلّل القضية بسؤ نية وأخذ يتهم الپاتريشيان ويغتابهم، ويقول انهم خدعوا الناس واغروهم بحكايات سخيفة، لتغطية الحقيقة وهم الذين قتلوا الملك في الواقع.

قالوا: ولما أخذت الأمور تنحدر من سيّء الى أسوء وملات الاشاعات الجوّ، قام [يوليوس پروكولوس Juluis Proculus][١١١] أحد الشيوخ الپاتريشين عرف بالخلق الحميد وبصداقته الحميمة لرومولوس[١١٢]، وبكونه ممن جاء معه من البا كما كان ينحدر من اسرة نبيلة، ووقف متكلماً في الفوروم. أقسم باغلظ الايمان وامام الناس جميعاً انه رأى رومولوس قادماً نحوه وهو مسافرٌ في طريق، وكان يبدو اطول قامة وأبهى منظراً ويرتدي دروعاً براقّة تشع ناراً. فادركته الرهبة من الشبح فابتدره قائلاً: أيها الملك ما الذي دعاك الى تركنا؟ ولماذا جعلتنا نتخبط في ظنون سيئة زائفة. والمدينة كلها في حزن وترحٍ لا نهاية له؟ «فأجاب يقول: «كانت مشيئة الارباب، اي پركولوس - ان نبقى نحن الذين انحدرنا من صلبهم. بين البشر هذه المدة من الزمن. وبعد ان بنينا أعظم مدن العالم بمجدها وجبروتها آن لنا ان نعود الى السماء،

---

(١٠٩) انظر ليڤي المرجع السالف ١٦ و ٤٠١.

(١١٠) نوه [شيشرون] بهذه الظاهرة العجيبة ايضاً في «الجمهورية: الكتاب السادس» ويبدو من تدقيق الازياج الفلكية، انه كان ثمَ كسوف كلي طويل، في عام وفاة روملوس ويقع في ٢٦ من آذار فإن قارنا ذلك بالتقويم الروماني المستخدم وقتذاك فانه يوافق شهر تموز. او لعل الرومان هم أكثر اطمئنانا من زمن موته من وقت ميلاده.

(١١١) ليڤي: المرجع السالف ١٦:١، ٥-٨. وهو سليل ايّولوس أو أسكانيوس.

(١١٢) من هنا جاء الاحتمال الغالب بان الشيوخ اختاروه ليحمل للناس ابناء الرؤيا المختلقة وهو ما كان مسموحاً به باعتباره فنّا قريباً مزيداً في اختلاق المعجزات تعظيماً للأقدمين!

فوداعاً وقل عني للرومان، انهم لن يبلغوا أعلى مراحل السلطان البشري بغير الوحدة والتمسك بحميد الخصال. وسنكون نحن لهم الآله الشفيع [كويرنيوس Quirinaus].

ومال الرومان الى تصديق هذا القول لما عرف عن المتحدث من امانة واخلاص، ولمسحة من الحقيقة والحماسة كانت تشوبه لهجته كأنها نفحة آلهية نزلت عليه أو كان آلهاً تقمصه، ولم يعارض قصته أحدٌ ونبذوا كل دعوى واعتراض، ورفعوا أكفّ الدعاء لكويرنيوس وأقراوه تحية الرب. ما اشبه هذه الحكاية ببعض الخرافات اليونانية التي رويت عن كل من [ارستياس Aresteas البروكونيزي Proconnesian(١١٣) وكليوميدس Cleomedes الاستپالي Asty-palaeam](١١٤) إذ رووا أن [ارستياس] توفي في دكان دباغة، ولما جاءه اصدقاؤه لم يجدوا جثته. وبعد فترة من الزمن قدم بعض معارفه من الخارج وزعموا أنهم شاهدوه سائراً في الطريق المؤدي الى [كروتون Croton] وروي عن [كليوميدس] الذي كان جباراً هائل الخلقة ذا قوة فائقة، يخالط عقله جنون، وطباعه وحشيّة، ارتكب كثيراً من أعمال العنف كان آخرها أنه وجّه بقبضة يده لكمة الى عمود في مدرسة كان بدعم سقفها، فكسره من منتصفه فخرّ السقف على من بداخل المدرسة من اطفال فقتلوا جميعاً(١١٥)، فطورد، فهرب واختبأ في صندوق كبير وأغلق عليه الغطاء وامسكه من الداخل فحاول عدد كبير من الرجال فتحه فلم يوفقوا فلجأوا الى كسره قطعاً قطعاً ولكنهم لم يجدوا كليوميدس داخله، ودفعهم العجب والحيرة الى استخارة عرافة دلفي منزل الوحي فأجابتهم بالجواب التالي: «كان كليوميدس الاستيپالي آخر الجبابرة». وقيل أيضاً ان جثمان [ألكميني] تلاشى اثناء ما كانوا يحملونه الى القبر ولم يجدوا في التابوت غير قطعة من حجرٍ. ويقصّ كتاب الخرافات كثيراً من هذه الحكايات غير المعقولة، متحدين مبدأ موت البشر الطبيعي. فمع ان تجريد الفضيلة البشرية من اي صفات ربّانية تجريداً تاماً هو كفر وضعة، فكذلك يكون من السخف والهذيان مزج السماء بالأرض، ولنؤمن [پيندار] القائل:

اجسام البشر كلها تخضع لحكم الموت. والروح تبقى خالدة مدى الدهر.

فهي وحدها من صلب الأرباب منهم جاءت واليهم تعود، وحدها لامع الجسم، وذلك بعد انفصالها عنه وفك ارتباطها به. عندما تكون طاهرة نظيفة تماماً خالية من اوضار اللحم. وفي

---

(١١٣) للاستزادة راجع [هيرودوتس ٤:١٣-١٥].

(١١٤) انظر [پاوسنياس ٩:٦] وما بعدها.

(١١٥) يقول [پاوسنياس] ٩:٤ وقعت هذه الفاجعة لأنه لم يعط الجائزة بعد فوزه في نزال مصارعة على (ايكوس) الايپاري. وصار يعبد كأله للمأثرة البطولية التي حققها. واستيپاليا هي جزيرة من جزر الكيكلادس بالقرب من (كريت).

عرف [هيراقليطس] ان الروح الطاهرة، هي السامية الى ما لا نهاية تندفع من الجسم، كما يخرج البرق من السحابة. إلاّ ان الروح التي تبقى اسيرة الشهوات والغارقة في الأحاسيس فهي تشبه البخور الفاسد الثقيل يصعب ايقاده وتصعيده ابخرة».

فيتبقى علينا والحالة هذه ألاّ نسارع الى ارسال اجسام الناس الصالحين الى السماء خلافاً لمباديء الطبيعة واحكامها! بل يجب أن نؤمن بأن فضائلهم وارواحهم تنتقل من الحالة البشرية الى حالة الجبابرة بحسب طبائعهم الالهية وبمقتضى سُنة الأرباب تم ينتقلون من حالة الجبروت هذه الى أنصاف ارباب وبعد ان يمرّوا في مرحلة القداسة والتطهر الأخير، كما في السنن المعروفة. ويحررون انفسهم من كل ما يربطهم بالبشر والشعور البشري، يرتفعون الى مصاف الآلهة لا بحسب نظام بشريّ مقنن وانما بحسب حكم العقل السليم[١١٦]. وهناك يتمتعون بالكمال الأعظم وما فيه من قداسة وبركة.

يقول بعضهم ان لقب [كوريتيوس] الذي عرف به رومولوس، مرادف لـ(مارس)، ويقول غيرهم بل أطلق عليه لأن المواطنين الرومان عرفوا بهذا الاسم Quiritus، وزعمت طائفة أخرى أن الأقدمين سموا الرمح أو قناة الرمح (كويريس Quiris). فيكون اسم تمثال يونو Juno. المستقر على رمح، [كوريتيس] والرمح المحفوظ في الريجيا، بمثابة [مارس]. ومن يبرز في القتال من المحاربين يهدى اليه الركح في العدة. ولأن رومولوس آله حرب، أو آله الرماح فقد سميّ [كوريتيوس] ولابُدّ أن معبداً ما، بني تكريماً له على جبل [كويرنياليس Quirinalis] وهو مأخود منه:

امّا اليوم الذي غاب فيه رومولوس فقد أطلق عليه «يوم فرار الناس»، أو «سابوعاء الماعز» لأن الناس يخرجون فيه الى ظاهر المدينة ويقدمون القرابين في «مستنقع الماعز» وينادى احدهم الآخر وهم خارجون من المدينة، باسماء رومانية كقولهم [مركوس،! لوسثيوس! كايوس!] مقلدين ما جرى اثناء هروب الناس في ذلك اليوم، وكيف كانوا ينادي أحدهم الآخر في ذعرهم وعجلتهم. ولكن بعضهم بنفي ان يكون هذا تقليداً لما جرى، ويزعم انه تمثيل الهجوم مباغت سريع يُعزى الى الحادثة التالية: بعد ان طرد [كاميلوس Camillus] الغاليين من روما، والمدينة تقاسي الامرين مما حل بها وتتحامل على نفسها لتستعيد قواها انتهزت

(١١٦) كان هسيود أوّل من فرق بين الطبائع الأربع: الإنسان، الجبّار، الجنيّ، الآله. ويظهر انه رأى امكان التحول الدائم والتقدم الى حالة الخلود. وعندما يقول لنا عبيدة الاوثان ان الكائن الحيّ قبل وصوله الى الطبيعة الأخيرة (طبيعة الآله) يمكن ان يقذف به ثانيةً الى الظلام البدائي الأول، لا يسعنا الاّ التّصور بأن الاوائل سمعوا بدون شك شيئاً عن الملائكة المغضوب عليهم المطرودين من الجنّة!

جموع اللاتين هذه الفرصة وزحفت عليها بقيادة [ليڤيوس پوستيميوس Livius Postimius] وعسكرت قواتهم في موضع غير بعيد عنها وأرسل القائد منادياً للمدينة يعلم السكان ان اللاتين يحبذون تجديد حلفهم القديم واتحادهم (بعد ان ادركه الانحلال وكادت تنبتّ عراه) وان هذا لايتم الاّ بعقد روابط مصاهرة جديدة بين الشعبين. فان ارسل الرومان عدداً مناسباً من عذاراهم واراملهم فسيكون ثم سلم وصداقة بين الشعبين، وهو ما ناله السابين من قبل بشروط مشابهة. واصغى الرومان الى هذا وكانوا من جهةٍ يخشون الاشتباك في حرب ومن جهة أخرى فإن النزول من نسائهم هكذا، يعني الرضا بحالة تكاد لا تختلف عن الاسترقاق. وفيما هم يقلبون الأمر من شتّى وجوهه قامت خادمة بيت تدعى فيلوتيس Philotis (بعضها يسميها توتولا Totola) وأشارت عليهم ان يتريثوا في الاقدام على أحد الأمرين، وان يلجاؤا الى الحيلة لاجتنابهما وكانت خطتها ان يبعثوا بها مع عددٍ من الخادمات الجميلات بعد ان يرتدين ثياب العذارى الحرّات. وأن تقوم هي عندما يجنّ الليل، بقاد نارٍ كاشارة الرومان فيخرجون على اثرها ويباغتون العدو النائم. وانطلت الحيلة على اللاتين. وأوقدت [فيلوتيس] مشعلاً في شجرة تين برية وسترتها من جهة العدوّ بستارٍ واغطية وكشفتها للرومان فخرجوا حالاً وكانوا في عجلتهم ينادي أحدهم الآخر، وهكذا باغتوا العدوّ على حين غرة وانتصروا عليه. ولهذا اقاموا عيد النصر وسمّوه «تاسوعاء الماعز» لأن شجرة التين تُسمى عند الرومان [كاپرينكوس: أو تين الماعز] وهم يكرمون النساء به، باحتفالات تقام خارج المدينة وفي خمائل مصنوعة من اغصان التين. وتجتمع الخادمات معاً ويتراكضن ويتلاعبن جذلات ويمثلن معركة زائفة فيما بينهنّ ويتقاذفن الحجارة دليلاًعلى أنهن عاونّ رجال الرومان في حربهم تلك. إن هذه الرواية لايؤيدها الاّ قلةٌ من الكتاب، لأن التنادي بالاسماء نهاراً والخروج الى مستنقع الماعز لتقديم القرابين يبدو انه يستقيم مع الرواية الأولى أكثر من الثانية إلاّ اذا افترضنا وقوع الحدثين في يوم واحدٍ من عامين مختلفين.

في العام الخامس والاربعين من عمر رومولوس وفي العام الثامن والثلاثين لحكمه غادر(١١٧) هذه الدنيا على ما قيل لنا.

---

(١١٧) [ديون] وپلوتارخ نفسه يذكر في اول سيرة [نوما] ان رومولوس ودّع الحياة في العام السابع والثلاثين لبناء روما. ولعلهما لا يجانبان الحقيقة ولا يتناقضان. لأن أولهما يقول ان عمر رومولوس كان عند موته (٥٥) سنة وثانيهما يذكر (٥٤).

اوجه المقارنة بين روميولوس وثيسيوس

هذا ما وصل الى علمي من اخبار عن كلّ من روميولوس وثيسيوس، مما يستحق التدوين. والظاهر مبدئياً أن ثيسيوس كان يبحث عن المغامرات وجلائل الأعمال بحثاً بمحض اختياره في حين كان بوسعه ان يحكم آمناً مطمئناً في [طروزين] بلاداً واسعة. أما روميولوس فلأجل التخلص من عبودية كان يرزح تحتها، ودفعاً لما كان يتهدده، أصبح شجاعاً من فرط الخوف (على قول افلاطون)، ولخشيته من النوائب الكبار اقدم على أجلّ الأعمال، تدفعه الحاجة ليس إلاّ، هذا وان اعظم مأثرة له هي قتله ملك البا، أما ثيسيوس فبوسعه ان يسمّى [سكيرون، وسينيس، وبروكرونتوس، وكورينتيس] وكلها وقائع على الهامش ومقدمات لأعمال اضخم وأجلّ، فبقتله هؤلاء خلص بلاد اليونان من شر الطغاة قبل ان يدري هؤلاء المساكين من هو مخلّصهم وفضلاً عن هذا فقد كان اسهل عليه السفر الى اثينا بحراً. فاشرار البرّ ولصوصه لم يأتوا عملاً ضده، في حين لم يكن روميولوس آمناً مادام اموليوس حياً. زد على هذا أن ثيسيوس كان يتعرض للأوغاد لا لأذى ألحقوه به، بل في سبيل الآخرين. اما ريموس وروميولوس فلم يعترضا اعمال الطاغية مادامـا في نجوة منه. واذا كانت الاصابة بجرح في معركة السابين، وقتل الملك اكرون والاستظهار على كثيرٍ من الأعداء. مآثر جليلة فلنا ان نضاهي بها معركة ثيسيوس ضد السنطورس، وضروب البطولة ضد الامازونات، لكن المرء يعجز حقاً عن وصف عمل ثيسيوس، بانضمامه طوعاً الى الشبان والعذارى المرسلين الى كريت إمّا ليقع فريسة في براثن الغول، واما ان يضّحى به على قبر [اندروغيوس] وإمّا كأهون الشرّين أن يعيش عيشة الاراذل المحتقرين في عبودية أشدّ الرجال قسوة وغلاظة، أيوصف بالشجاعة؟ ام بسمّو النفس؟ أم بحُبّ انصاف الناس، أم التعلق بالشرف أم بالاقدام أو البأس؟ ولذلك أرى ان الفلاسفة قد اجادوا في تعريف الحُبّ بأنه علاج الآلهة تزود به الصغار لتحميهم وترعاهم[1]. فحبّ [اريادنه] يبدو أساساً من عمل آله شاءت ارادته

---

(١) انظر ليڤي ٢ : ١٢.

المحافظة على حياة ثيسيوس. وليس لنا والحق يقال ان نلومها على حبّه بل ان نقر بكونها جديرة[٢] ، لأن الرجال والنساء لن يكونوا سواسية في شكل عاطفتهم تجاهه، واذا كانت اريادنه الوحيدة في هذا ، فيقيناً انها تستحق حبّ آله، هذه التي كانت قد احبت الفضيلة والصلاح واشجع الرجال طرا.

ومع ان كلاً من تيسيوس وروملوس كانا رجلي دولة بطبعهما إلاّ انهما لم يحافظا حتى الأخير على اخلاق الملك فقد انحرف كلاهما عنها، وتغيّرا. فأولهما مال الى الديمقراطية. وثانيها انحدر الى مهالك الطغيان وانتهى بهما السبيل الى غلطة واحدة وان اتبعا طريقين مختلفين. ذلك ان الحاكم يجب ان يحافظ قبل كل شيء على كيان البلاد وهذا يتم بالإمتناع عن الاتيان بما لايليق بقدر ما يتم بالتمسك بما هو لائق. الاّ ان ذلك الذي يحدّ من سلطانه أو يوسّعه عمداً فهو لا يصلح كملك ولا كحاكم بل هو امّا غوغائي وامّا طاغية وكلاهما انما يشيعان الكره والاحتقار في قلوب الرعية ومهما يكن فان خطأ الأول فهما يبدو نابعاً من الحنان والمشاعر الانسانية النبيلة. امّا الثاني فمصدره الانانية والفظاظة.

وان لم يكن من الجائز أن تعزى مصائب الناس الى سوء الطالع، بل بالأحرى الى اختلاف الطبائع، فمن يبريء ثيسيوس من غضبه الجائح الذي خرق حدود المعقولات - على ابنه، ومن يبريء روملوس من جريرة قتله أخاه؟ لو نظرنا الى الحوافز لسهل علينا الصلح من غضب مأتاه سببٌ أقوى من سبب ثيسيوس، كالغضب الذي تثيره ضربة شديدة مفاجئة. ولما كان روملوس قد أختلف مع أخيه عمداً وتقصداً في امور عامة فمن الحمق أن يصل هذا الخلاف فجأة الى مرتبة الثورة العارمة القتالة. الاّ أن الحبّ والغيرة واتهام[٣] الزوج وهي مما لايستطيع الخلاص من تأثيره غير قلة من الرجال - هي التي دفعت بثيسيوس الى ارتكاب ذلك الجرم بحق ابنه. زد على هذا أن روملوس ارتكب في فورة غضبه عملاً ذا أثر فاجع في حين انتهى غضب ثيسيوس عند حدود الكلام، اي عبارة آثمة، ولعنة اب طاعن في السن... وأمّا مصائب الشاب الباقية فيبدو أن سببها كان سوء طالعه. والى هذا الحَدّ لا يسع المرء الاّ ان ينحاز الى جانب ثيسيوس.

(٢) هنا يتفق پلوتارخ مع سقراط. الذي يُعلِّم بان حبّ الفضيلة التسامي هما وحدهما القادران على تحقيق اتحادنا بالكائن الأسمى. لكن مع أن هذا المبدء هو من أحسن المبادئ لكنه غير ممكن التطبيق هلى [اريديانه] فاين الفضيلة من هذه الأميرة التي وقعت في حب اجنبيّ من أول نظرة وسارعت الى تحقيق لبانتها بدمار اقربائها وبلادها.

(٣) لا ينوه پلوتارخ في سيرة تيسيوس بشيء عن هذه التهم. مع انها يجب ان تكون بدرجة من الخطورة بحيث ادت به الى تلك المأساة المفجعة.

إلاّ ان لرومولوس ارجحيّة ممتازة على قرينه، وهي أن أعماله الكبار نبطت من براعم وبدايات صغيرة جداً. فكلا الأخوين عُرفاً بكونهما ابنين لراعي خنازير، وخادمين، وقبل أن يعتقا منحا الحرية لجميع اللاتين تقريباً ونالا فجأة كل القاب التعظيم والتكريم، فسميا بالقاهرين اعداء بلادهما، والحادبين على اصدقائهما وابناء قومهما، وزعيمي الشعب، وبناة المدن لامهدميها كثيسيوس، الذي بنى بيتاً واحداً فقط من بين البيوت العديدة التي قوضها وهدم عدة مدن تحمل اسماء الملوك والابطال الاقدمين. ألحق يقال ان رومولوس حذا حذوه في ايامه الأخيرة، وارغم اعداءه على تقويض وتهديم منازلهم ومساكنة قاهريهم. إلاّ انه لم يحز لنفسه اراضي وبلاداً ومملكة وزوجات واطفالاً واقرباء بازالة مدينة من الوجود أو بتوسيع مدينة، بل نالها كلها باستحداث مدينة جديدة عظيمة. ولم يقتل أحداً في عمله هذا وأنما نفع أولئك الذين كانوا في حاجة الى المأوى والمسكن، ورغبة في تكوين مجتمع ترعى لهم حق المواطنة فيه. ولم يبطش باللصوص والمجرمين بل اخضع امما وقهر مدناً. وأنتصر على الملوك والقادة.

امّا عن قضية ريموس فليس من يدري بايّ يد قتل. وعلى الارجح يُعزى قتله الى آخرين وليس ثم من شبهة في انه انقذ امّه من موت محتوم ونصب ملكاً على عرش [اينياس] القديم، ورفع من شأنه بعد خمول وضعة وانحطاط الى منزلة التابع الخانع. وقدم له خدمات جليلة. ولم يلحق به أذى ولو بصورة غير مباشرة. لكن نسيان ثيسيوس أوامر والده برفع الشراع الأبيض لا يبرئه من عقاب جريمة قتل الأب لا في رأيي ولا في رأي أي قاض مهما بلغت سماحته. وأدرك أحد الكتاب [الآتيكيين] صعوبة الاعتذار لهذا العمل، فزعم كذباً ان ايجيوس أسرع يعدو عند اقتراب السفينة متجهاً نحو الاكروپوليس ليستطلع الأنباء فزلقت به قدمه وسقط... وكأني به قد سار وحيداً ليس معه خادم أو حارس يمشي في ركابه!

والحق يقال ان خطيئات خطف النساء التي ارتكبها ثيسيوس، لاتسمح له بأي عذر مقبول، أولاً لتكراره الجريمة عدة مرات فقد خطف [اريادنه] ثم [انتيوب] ثم [اناكسو] الطروزينية، وأخيراً سرق [هيلين] وهي طفلة لم تبلغ سن الزواج الشرعي وثانياً من ناحية السبب، فان عذارى الطروزينين واللقيديمونيين والامازون فضلاً عن كونهن غير مخطوبات له، فلسن أكثر جدارة بانجاب اولاده من الاثينيات اللاتي ينحدرن نسلاً من [ارخيتيوس] و[كيكروپس Cecrops] إلاّ أن دافعه الى هذا كان الشهوة لا الحاجة. اما [رومولوس] فعندما خطف زهاء ثمانمائة امرأة لم يتخير لنفسه كما قالوا إلاّ امرأة واحدة هي [هرسيليا] وفرق الباقيات على رؤوساء المدينة. وأثبت بضروب الاحترام والتجلة ومظاهر العطف والعدل التي عامل بها هاته النسوة، ان هذا الاعتداء لم يكن إلاّ عملية سياسية حسنة القصد غايتها تكوين مجتمع،

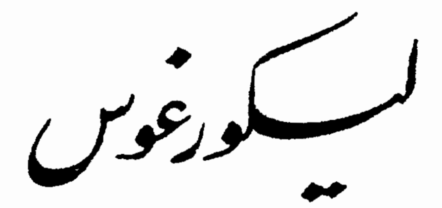
وتوحيد شعبين، وجعلها ينبوعاً يفيض بالصداقة والاستقرار العام. وكدليل على ما احدثه هذا الرباط الزوجي من حبّ واحترام وتلاحم، لم يحصل خلال مائتين وثلاثين سنة تالية أن طلّق رجل امرأته، أو هجرت[٤] امرأة تزوجها والزمن شاهدٌ. ولكن كما أن أوّل قضية قتل يرتكبها أحد بامّه أو أبيه، هي من الأمور الغريبة النادرة عند الأغريق، كذلك يدري الرومان جيداً أن [سپوريوس كارڤيليوس Spurius Carvilius] كان اول من طلق زوجه متهماً اياها بالعُقم[٥]. والنتائج المباشرة كانت متشابهة فعلى اساس هذه الزيجات تقاسم الزعيمان [رومولوس وطاطيوس] الحكم فيما بينهما، وخضع الشعبان لحكومة واحدة. ولكن لم ينجم عن زيجات ثيسيوس صداقة أو تحالف او تبادل تجاري، بل نشأت عنها عداوات وحروب وسببت قتل المواطنين وآلت أخيراً الى خسارة مدينة [افيديني] التي لم ينقذ أهلها من مصير طروادة إلا سلوك أهلها تجاه العدّو[٦]. ومقابلته بالضراعة والتوسل، ولم تتعرض أم تيسوس للخطر وحده، بل عانت كذلك ما عانته [هيكوبا] من هجر الأبن وإهماله. الا اذا كانت حكاية أسرها مختلفة كما هو بودّي ان يكون ذلك مع مسائل أخرى، ولقد قيل ان ظروف تدخل الآلهة التي سبقت او وافقت ولادة روملوس وتيسيوس كانت مختلفة فأولهما عاش بنعمة خاصة من الأرباب. ولكن النبوءة نزلت لايجيوس محظرة عليه مضاجعة النساء، أوضحت كما يبدو أن ولادة ثيسيوس لم تكن محل رضى الأرباب أو ارادتهم.

---

(٤) يخبرنا [ديون ٢:٨] بدقةٍ أكثر أن ذلك حصل في العام ٥٢٠ ق.م ايام كان [پومپونيوس ماثو وپاپيريوس ماسّو] قنصلين.

(٥) اقسم [كارڤيليوس] يميناً أمام الچنسورين، بانه يكنّ لزوجه اعظم احترام وانه لا يطلقها الاّ لأن انجاب الاولاد كان من ضمن الاتفاق المقدس عند زواجهما. الاّ أن ذلك يجنبّه الاستنكار والكره من الجميع الذين وجدوا ان يختّط مسلكاً قبيحاً بعمله هذا [Aul G-ll ١٧ : ٢١ و ٣:٤].

(٦) كاستور وپوللوكس.



LUKOUGUS

دوّن پلوتارخ حياة ليكورغوس قبل تدوينه سيرة تيسيوس. كما ذكر هو نفسه عند سرده حياة الأخيرة. والظاهر انه كان شديد الكلف بالسپارطيين عظيم التقدير لهم ولعاداتهم. فقد ترك لنا الى جانب هذه السيرة وسيرة غيره من عظماء السپارطيين – رسالة حول قوانين اللقيديميين وتقاليدهم وأخرى حول الحكم الليقيّة. لقد جعل من ليكورغوس بطلاً مثالياً وعلل سلوكه ليقدمه كدليل على ان الحكيم الذي اتى الفلاسفة الى اعطاء اوصاف له كثيراً، ليس مجرد شخصيّة مثالية لا يمكن ان ترتفع اليها الطبيعة البشرية.



في الروايات التي تركها لنا المؤرخون عن ليكورغوس واضع قوانين سپارطا Sparta كثير من الخبط والتخمينات والرجم بالغيب، وقل أن ذكر أحد شيئاً لم ينقضه الباقون أو يشككوا فيه. وتختلف وجهات نظرهم حتى حول شؤون الأسرة التي نبغ منها. أو الرحلة التي قام بها، أو موضع وفاته وكيفية موته، ويأتي أعظم الخلاف حين يبحثون عن القوانين التي استحدثها، والجمهورية التي انشأها. ويتعذر اتفاقهم تماماً حول العصر الذي عاش فيه، اذ يقول بعضهم انه عاش في أيام [ايفيتوس Iphitus][1] وأنهما تعاونا معاً على سنّ شريعة إيقاف الحروب[2] اثناء احياء الالعاب الاولمپية، ومن هؤلاء ارسطو. وتثبيتاً لقوله زعم وجود كتابة على قرص من الأقراص النحاسية التي تستخدم في تلك الالعاب نقش عليها اسم ليكورغوس وأن هذه الكتابة كانت مقرؤة في ايامه. إلاّ ان [راتوستينس Eratosthenes] و[پوللودورس Apollodorus][3] وغيرهما من المؤرخين يحاولون بحساب الوقت على أساس تعاقب الملوك السپارطين - ان يثبتوا انه عاش في زمن أبعد كثيراً من تاريخ منشأ الالعاب الاولمپية[4]،

(١) ملك (ايليس) الذي قيل أنه أنشأ أو بالأحرى أحيا الالعاب الاولمپية قبل مائة وثماني سنوات من قيام أوّل أولمپياد معروف في العام ٧٧٦ ق.م وعرف بنسبته الى كوربوس. كما جرت عادة الاولمپيادات التالية بنسبتها للفائزين الآخرين.
بدء [ايفيتوس] بتقديم ذبيحة لهرقل الذي كان الاليائيون يعتقدون انه ساخط عليهم لسبب ما. وبعدها أمر بالالعاب الاولمپية لتعلن في سائر بلاد اليونان. ووعد بالحرية والأمان لكلّ الواردين لمشاهدة الالعاب وخدد موعداً لها - وكانت قد انقطعت بسبب تفشي الوباء على ما قيل. كذلك نصب نفسه رئيساً لها وحكماً. وهذا امتياز كان اهل (بيزا) كثيراً ما يتنازعون عليه مع خلفائه الذين انحصر فيهم طوال ما كانوا ملوكاً. وبعد انقراض الأسرة عيّن الاهلون رئيسين حكمين ثم ارتفع العدد الى عشرة ثم الى اثني عشر بمرور الزمن.

(٢) في اثناء إحياء الالعاب الاولمپية (فضلاً عن الالعاب الپيثية والإسثمية والنيمية) تفرض دائماً وكمبدءٍ عام، هدنة في سائر بلاد اليونان يصدر بها بيان رسمي وتتم اذاعته (پاوسنياس ٥:٢٠) فاذا دخلت وحدة عسكرية [ايليس] بعد هذا البيان. فتفرض غرامة قدرها ميناءان على كلّ جندي [توكيدس ٥:٤٩].

(٣) لقب [ايراتستينوس] بافلاطون الثاني لسعة مداركه وأطلاعه وهو مؤرخ شهير وشاعر وفيلسوف نبغ وتمتع برعاية [بطليموس فيلوباطر] اذ كان والده [بطليموس سوركيتيس] قد دعاه من اثينا ونصبه أميناً مشرفاً على مكتبة الاسكندرية الشهيرة. ومعاصره [ابوللو دوروس] كتب كتاباً عن الميتولوجيا، ما زال موجوداً، ويحتوي على مختصر لتاريخ الآلهة والابطال الاقدمين. الى جانب آثار أخرى له مفقودة.

(٤) الاولمپياد الأول كان في ٧٧٣-٧٧٦ ق.م.

ويظن [طيماؤوس]، أنه يوجد شخصان بهذا الاسم عاشا في زمنين مختلفين، ولأن أحدهما كان أشهر من الثاني فقد اسند اليه الناس مجد الإثنين وعلى تظنيّه، أن أسبقهما عاش في زمن يداني عصر [هوميروس]. وأسهب بعضهم وافرطوا في التفاصيل الى الحدّ الذي زعموا فيه أنه التقى بالشاعر. أمّا وأنه عاش في عصرٍ بعيدٍ فهذا ما يمكن استخلاصه من فقرة وردت في گزينفون Xenaphon اذ جعله معاصراً للهيراقليدي Heraclidae والحقيقة هي أن آخر ملوك سپارطا[٥] هم هيراقليديون نسباً. لكن گزينفون يبدو في هذه الفقرة وهو يتكلم عن خلفاء هرقل المباشرين الأوائل.

وان ضربنا صفحاً عن هذا الاضطراب والغموض، فبإمكاننا محاولة تأليف تاريخ لحياته معتمدين على أقّل النصوص تناقضاً وميّالين الى اولئك الكتاب الأجدر بالثقة من غيرهم.

وعند الشاعر [سيمونيذس] أن ليكورغوس هو ابن پريتانيس Prytanis لا ابن [يونوموس]، على انه كان أوحد رايه في هذا، لأن الباقين كافة يرتبون سلالة نسبهما على الشكل التالي:

اريسطوذيموس Aristodemus

پاتروكلس Patrocles

سوئيس Soüs

يوريپون Eurypon

[ليكورغوس [من زوجه الثانية ديوناماسا Dionassa وپولينكتس من زوجه الأولى]

ويقول [داخيداس Dieuchidas] أنه النسل السادس من پاتروكلس والحادي عشر من الهراقليدي[٦].

---

(٥) يقول (سترابو) لن ليكورغوس عاش بالتاكيد في الجيل الخامس بعد [الثيمنيس] الذي قاد حملة استيطان الى (كريت) والثيمينيس هذا هو ابن (كيسّوس) الذي بني مدينة (اركوس) في الوقت الذي قام (پاتروكليس) جدّ ليكورغوس الخامس بوضع أسس سپارطا وعلى هذا يكون ليكورغوس قد عاش بعد (صولون) بوقت قصير وفي حدود العام ٩٠٠ ق.م. وان ظن بعض المؤرخين المتأخرين انه عاش في عصر الهيراقليدي.

ان هذه الفقرة اقتبسها پلوتارخ من رسالة (گزنيفون) الممتازة عن «جمهورية سپارطا». كما اقتبس من تلك الرسالة اهم ما اورده عن سيرة ليكورغوس.

(٦) من [ارسطو ذيموس] خرج التؤامان يورستينس وپروكلس ومنهما نبغ الخطّان الملكيان الأكبر والأصغر في سپارطا. وهما الخطّ الآغيذي والأفريتونتيدي. و[ارسطو ذيموس] هذا هو ابن (هيللوس) ابن (هرقل) [انظر پاوسنياس ٣:١-١٠] و[هيرودوتس ٧:٢٠٤ و ٨:١٣١].

واياً كان الأمر فان [سويوس] كان بالتأكيد أشهر اسلافه، فبقيادته اخضع السپارطيون الهيلوت Helot[٧]، واضافوا الى بلادهم بقوة الفتح جزءً كبيراً من أركاديا، وهناك قصّة تروي عن [سويوس] وهي ان الكيتوريين[٨] ضربوا حصاراً حول جيشه وهو في موضع صخري قاحلٍ ليس فيه قطرة ماء وأضطر الى ان يتفق مع اعدائه على ان يعيد اليهم كل ما استولى عليه من املاكهم إن شرب الماء هو وكل جنوده من أقرب ينبوع. وبعد حلف اليمين على الاتفاق، جمع جنوده وعرض مملكته كلها على أيّ واحد منهم هدية منه، إن تمكن من ضبط نفسه ولم يشرب ماءً. ولما لم يصبر واحدٌ منهم على العظش، أو بعبارة أخرى لما شرب جميعهم وارتووا، تقدّم هو الى الينبوع في اعقابهم ومد رأسه وأصاب وجهه برشاش من مائه دون ام يدخل فمه قطرة واحدة ثم سار عنه مبتعداً امام اعين اعدائه، رافضاً ان تنازل عن فتوحاته، لأن الاتفاق نصّ على أن يشرب من مائهم (هو) وكل رجاله.

ومع ذيوع اسمه واستطارة شهرته لهذا العمل البطولي، إلاّ ان أسرته لم تتخذ اسمه لقباً. وانما لقبت باسم ابنه [يوريپون] (عرفوا باسم الاڤريپونتيد Eurypontids)[٩]. ويعزى هذا الى أن [يوريپون] أرخى من قبضته على المحكومين متطلعاً الى خطب ودّهم ورضاهم.

فكثرت مطالبهم بعد هذه الخطوة الأولى. وكره العامةُ الملوك المتعاقبين بعده وسخطوا عليهم بعض الشيء لأنهم حاولوا استخدام القوة، أو لاعطائهم تنازلات أخرى وإظهارهم الضعف اما لخورٍ في نفوسهم او لنيل المزيد من حبّ الناس. وسادت الفوضى سپارطا زمناً طويلاً ومما سببته، موت والد ليكورغوس. اذ بينما كان يحاول تهدئه شغب، طعن بسكين جزار فقضى نحبه وخلف الملك لابنه الاكبر پولندكتُس Polydectes.

(٧) سكان (هيليوس) وهي مدينة بحرية من مدن لاقونيا فتحها اللقيديميّون واستعبدوا أهاليها وأطلقوا اسم الهيلوت لا عليهم وحدهم بل على كلّ عبيدهم الآخر. وعلى اية حال فمن المؤكد ان نسل الهيلوت الاصلاء وان كانوا قد لقوا اسوء ما يتصور من المعاملة (بعضهم أغتيل) فانهم مكثوا في لاقونيا عصوراً.

(٨) الكليتوري Clitori شعب من اركاديا، اسمهم جاء من مدينتهم التي استمدت اسمها من اسم ملوكهم. يوجد بالقرب من هذه المدينة نبع ماء يثير الشرب منه اشمئزازاً وصدوداً في النفس عظيماً عن الخمر. [ارسطو: ميتافزيقا ١٥: ٣٢٢].

(٩) من المفيد هنا نقدم للقارىء فذلكة عن نظام الحكم الملكي اللاقوني على عهد الأسرة الهيراقليدية. هذه الأسرة طردت [تيسامينيس] ابن [اورستس]. وحلّ يورستينس وپروكلس ولداً [أرسطو ذيموس] محلّه. واتخذ حكمهما منحىً جديداً فكان ثم ملكان بدلاً من واحدٍ سلطتهما متساوية ولم يقسم الأخوان المملكة بينهما ولم يتفقا على المناوبة في الحكم بل حكماً معاً وفيّ ان واحد ومما يدعو الى العجب انه يصرف النظر على المحاسدة والمنازعة. فان هذه الملكية الثنوية لم تنته بنهاية هذين الأخوين بل استمرت في تعاقب لثلاثين ملكاً من فرع يورستينس، وسبعة وعشرين ملكاً من صلب پروكلس. [يورستينس] خلف [أغيس] وبه سميّ نسل هذا الفرع (أغيدي) في حين اتخذ الفرع الثاني اسم (اڤريتيونيذي) نسبة الى (اڤريتيون) حفيد [پروكلس]. [انظر پاوسنياس، سترابو، هيرودوتس وغيرهم].

وتوفي هذا بعد فترة قصيرة، فآل حق العرش (كما خيل للجميع) الى ليكورغوس، وملَك فعلاً، حتى تبيّن ان زوج أخيه المتوفى حاملٌ، فسارع ليعلن ان الملك يعود لعقب أخيه ان ولد ذكراً. وانه سيمارس تبعات الحكم وصلاحياته بالوصاية فحسب. والاسم السپارطي للوصاية هو پروذيكوس Prodicus بعد ذلك عرضت عليه الملكة الحامل ان تسقط جنينها بصورة من الصور شريطة ان يتزوجها عندما يعتلي العرش. ماستنكر شرّ المرأة ومحيته نفسه إلاّ انه لم يرفض اقتراحها صراحةً وانما تظاهر بقبوله وأرسل رسولاً لابلاغها شكره وفرحه ولكنه أصرّ مشدداً بالاّ تلجأ الى اسقاط جنينها لما ينطوي عليه ذلك من الأذى، هذا إن لم يتضمن خطراً على حياتها قائلاً انه سيقوم هو نفسه بالتخلص من الوليد حال وضعه. وبامثال هذه الوسائل والحيل أمكنه أن يحوز ثقة المرأة ويبلغ بها نهاية أيام حملها. ولما سمع انها في المخاض ارسل اشخاصاً ليكونوا قريبين منها وليلاحظوا كل ما يجرى. وزودهم باوامر تقضي ان يتركوا الوليد لأمه إن كان بنتاً وان يأتوا به اليه حالاً أينما وجد ومهما كان يفعل، إن وُلد ذكراً، وأتفق انه كان يتناول عشاءه مع كبار القضاة عندما وضعت الملكة ابناً. فجيء به اليه وهو جالس الى المائدة فتناوله بيديه وقال لمن حوله: «يا رجال سپارطا هوذا ملكٌ ولد لكم» ثم وضعه على سرير الملك وسمّاه [خاريلاوس Charilaus] أي «فرحة الشعب» لأن الجميع تملكم الاعجاب والغبطة لما راؤوا من روح ليكورغوس النبيلة العادلة.

لم يطل به الحكم غير ثمانية أشهر، إلاّ أن الشعب أكبره وأحبّه لأسباب أخرى غير المُلك. واطاعه العديد لفضائله السامية لا لأنه وصيّ على العرش بيده الحلّ والعقد. إلا ان بعضهم حاول غمز نفوذه المتعاظم وقت شبابه. لاسيما اصدقاء الملكة الأم واقرباؤها فقد زعموا أنه لم يعدل في معاملتهم وكثيراً ما الحق به الأذى. وفي نقاش حادّ جرى بين [ليكورغوس] وبين [ليونيداس Leonidas] أخ الملكة لم يتورع ان يشتمه بقوله: انه لعلى يقين تام بأنه لم يمرّ زمن طويل حتى يراه ملكاً! يريد من قوله هذا أن يزرع الشكّ في النفوس، ويهيء الاذهان الاتهام [ليكورغوس] باهلاك الطفل في حالة موته ولو بصورة طبيعية. ونشرت الملكة الأم واتباعها امثال هذه الحكايات من عمدٍ، وتصميم فأنتابه قلق شديد، وأصبح وهو في خوف مما سيجيء به المستقبل. ووجد خير سبيل لأجتناب الشر هو النفي الاختياري والانتقال من بلاد الى أخرى حتى يبلغ ابن أخيه سِنّ الزواج، ويضمن وليّ عهد له.

فركب البحر إذن يحدوه هذا العزم وبلغ (كريت) أولاً، وفيها درس مختلف أجهزة حكمهم وتعرف بأعلامهم، وأستحسن بعض قوانينهم[١٠] ورأى ان يفيد منها في بلاده، وأهمل طائفة

(١٠) يرى اقدم الكتاب (امثال ايفورس، كاالتينس، ارسطو افلاطون) ان ليكورغوس اقتبس كثيراً من شريع =

كبيرة منها اذ لم ير فيها جدوى وصلاحاً وكان [طاليس Thales](١١) من أشهر الرجال الذين عرفوا بالحكمة، والعلم، والوقوف على شؤون السياسة والحكم، فاقنعه [ليكورغوس] بحكم صداقته وبالحاحه الشديد، ان يسافر معه الى [لقيديمون] ومع أن مظهر طاليس الخارجي ومهنته الخاصة لا ترفعه الى أكثر من درجة شاعر غنائي، إلاّ انه قام والحق يقال بمهمة مشترع من أقدر واكفأ المشترعين في العالم. فاناشيده التي تدفع وتحث النفوس على الطاعة والتعاضد، وقوافيه واوزانه التي تحمل في طياتها فكرة النظام والهدؤ، كان لها تأثير عظيم على عقول المستمعين تلين طباعهم وتهذب نفوسهم فلا يشعرون، إلاّ وقد نبذوا الحزازات والأحقاد واتحدوا معاً في اعجابهم وحبهم بالفضيلة. ان [طاليس) مهدّ السبيل للنظام الذي ابتدعه [ليكورغوس].

وأنتقل من كريت الى آسيا عازماً -كما قيل- على تأمل أوجه الخلاف بين قواعد وأساليب حياة أهل كريت الجدّية الرزينة جداً، وبين عادات الآيونيين(١٢)، الرقيقة المرفهة. ليبنى له من ذلك رأياً - كما يقارن الاطباء بين المرضى والاصحاء. ووقع نظره هنا ربما(١٣) لأول مرة على ملاحم هوميروس وقد حفظتها أيدي أسلاف [كريوفيلوس Creophus] بلا شكّ. ولما وجد أن الدروس السياسية الرضية والمبادئ الخلقية والحكم تشيع في تلك الاشعار حتى تكاد تعفو على التعابير المتبذلة والأمثال السيئة التي توجد فيها(١٤)، شرع حالاً في نقلها وتنسيقها

= جزيرة كريت الاّ ان يوليبيوس (٦) يصرّ على تخطئتهم جميعاً ويقول «في سپارطا، الأراضي كلها موزعّة على المواطنين، ولا وجود للثروة، والحكم وراثي في حين ان الامر خلاف ذلك في كريت» على ان هذا لا يدل بأن ليكورغوس لم يأخذ بطائفة من الاحكام الجيدة والأعراف السائدة في كريت، واغفال ما لا يصلح. على انه ثم تشابها عظيماً بين شرائع ليكورغوس وشرائع (مينوس) ملك كريت بحيث وجب علينا ان نشايع سترابو [١٦] في ايمانه بأن الواحدة كانت أساساً للأخرى. أيهما؟!!

(١١) كان طاليس شاعراً وموسيقياً ويجب الاّ يخلط بينه وبين (طاليس المليسي) الذي عُدّ من حكماء اليونان السبعة. وقد عاش الشاعر قبل الفيلسوف بمائتين وخمسين عاماً تقريباً.

(١٢) ارسل الايونيون من اتيكا مستعمرين الى جزءٍ من آسيا الصغرى يقع بين ليديا وكاريا في حدود العام ١٠٥٠ ق.م اي قبل عصر ليكورغوس بقرن واحدٍ ونصف قرن ومع انهم يقطعوا اواصرهم مع الوطن خلال هذه الفترة القصيرة. الاّ ان مشترعنا استطاع الحكم على التأثير المناخي والانتاجي لآسيا، حتى ان هؤلاء المستعمرين اصبحوا مضرب المثل في الخنوثة والميوعة.

(١٣) ويضيف كلمة «ربّما» لأن بعض الكتاب الاغريق أكدوا ان ليكورغوس التقى بـ(هوميروس) بالذات وكان انذاك يعيش في (خيدس). على ان پلوتارخ هو صاحب الرأي المعتمد هنا، فقد مات هوميروس قبل ميلاد ليكورغوس ولم تكن اليونان قبل عهد ليكورغوس تعرف شيئاً عن هوميروس خلا مقطوعات متفرقة عرفت بعناوين موضوعاتها مثل «بطولة ديوميد» أو «فدية هكتور» وغير ذلك.

(١٤) ان حكم افلاطون في هذا الموضوع يختلف تماماً عن رأي ليكورغوس فحين استبعد الشعراء من «جمهوريته» لم يستثن حتى هوميروس نفسه الذي وجده اديباً مفسداً للشباب لأنه لم يقدم صورة لائقة للآلهة كما يراها افلاطون. في عدائه هذا لهوميروس يقف افلاطون وحيداً لاناصر له.

بنظام لطيف لما رأى فيها من فائدة لبلده. كانت هذه الملاحم في الحقيقة قد حظيت ببعض شهرة بين الأغريق، ووصلت شذرات واجزاء مقتضبة منها قبله الى أيدي بعض الأفراد بحكم الصّدف الاّ ان ليكورغوس هو أوّل من نشرها واذاعها.

يقول المصريون أنه رحل الى مصر ومكث فيها، وأعجب كثيراً بأسلوب تميز الطبقة العسكرية عن بقية السكان(١٥)، فنقل هذا النظام الى سپارطا. لأن إبعاد هذه الطبقة عن الذين يمتهون الأعمال الجسديّة يكسب الدولة روعة ومهابة عظيمتين. ولقد دوّن ذلك أيضاً بعض الكتاب الاغريق. وامّا عن رحلاته في اسپانيا وافريقيا والهند، ومناقشاته مع [الجنموسوفسيين Cymnosophist](١٦)، فمصدر كل الروايات الوحيد عنها كما وجدتُ - هو ارستوقراطس Arstocrates السپارطي ابن هيپارخوس Hipparchus.

واشتاق أهل سپارطا الى ليكورغوس كثيراً. والحّوا عليه بالعودة مراراً قائلين. «حقّا ان لدينا ملوكاً، يرتدون شارات الملك ويتخذون ألقاب الجلال والسلطان، أما عن مداركهم وسعة عقولهم فليس فيها ما يميزها عن عقول أفراد رعيتهم.» وزادوا قائلين ان فيه وحده تظهر أرومة السيادة الحقة، والطبع الذي خلق ليحكم، والإرادة التي وجدت لتُطاع. ولم يكن الملكان نفسهما بالكارهين عودته، لأنهما كانا يعتبران وجوده سداً واقياً لهما من غائلة شعبهما.

وطالعته هذه الحقيقة عند عودته، فانصرف حالاً دون، أن يضيع وقتاً - الى الاصلاح الشامل، عزم أن يغيرّ وجه الجمهورية بأسره اذ ما فائدة قوانين قليلة وتغييرات جزئية؟ كان عليه أن يعمل كالطبيب الواسع العقل عندما يجابه مريضاً تكالبت عليه الاسقام وأختلطت فيه، فبقوة الأدوية ينهكه وبضعفه، ويغير من كلّ مزاجه ثم يخضعه بعد ذلك الى نظام حمية

---

(١٥) المصريون لم يميزوا العسكريين والكهنة (وهما غالباً من الأشراف) عن بقية طبقات الشعب لكنهم ميّزوا ذوي المهن الأخرى كالرعاة، ومربيّ البقر، والتجار، والبحارة والمترجمين وهم ينحدرون من قبائل وطبقات مخصوصة يأخذ فيها الابن عن الأب حرفته. ويرى هيرودوتس (١٨٦:٢) ان النظام المذكور استمده ليكورغوس من مصدر أقرب الى موطنه من مصر، فقد كان سارياً عند التراقيين، والصيثيين وغيرهم.

(١٦) فلاسفة الهنود القدماء هي طائفة منصرفة الى التأمل والصمت، يكاد أهلها لا يرتدون شيئاً من الثياب يعيشون في الغابات. والبرهميون فصيلة من الطائفة نفسها وهم يكرهون البطالة كراهة تحريم. ويحدثنا ابوليّوس انهم اوجبوا على تلاميذهم تقديم حساب يوميّ عن عمل طيب قاموا به إو بالتأمل بعملٍ أقدموا عليه قبل السماح لهم بالجلوس لتناول العشاء. وهم يؤمنون بالتناسخ وبحياة أخرى أفضل وأطيب حتى انهم ما كانوا ليترددوا قذف أنفسهم الى النار عندما يشبعون من الحياة. أو تصيبهم مصيبة. ونخشى ان يكون الخيلاء والاعتداء بالنفس، الدافع الذي دفع أحدهم الى احراق نفسه امام اسكندر الكبير، وآخر الذي قضى حرقاً امام اغسطس قيصر. وما يزال الخلاف قائماً حول صحة زيارة ليكورغوس الهند من عدمه - بين مترجمي پلوتارخ الفرنسيين امثال (داسييه وريكارد).

دقيق جديد تماماً. وبعد ان صورّ لنفسه مشاريعه المقبلة، قصد دلفي لاستخارة ابوللو[١٧] هناك وبعد أن نال بغيته، وقدم قربانه عاد بالنبوءة الشهيرة التي سُمّي فيها «حبيب الله» و«الاقرب الى الآله منه الى البشر» وان صلاته استجيبت وان قوانينه ستكون خير ما وجد، وأن الجمهورية التي ستسير عليها وستكون اشهر جمهورية في الدنيا. كل هذا شجعه على كسب وجهاء سپارطا الى جانبه وأقنعهم بمدّ يد العون له في مشاريعه العظيمة، وأسرّ بالمسألة اولاً لأقرب اصدقائه وكسبوا هم أنصاراً آخرين بالتدريج، والهب حماسة الجميع لتنفيذ مآربه، ولمّا حانت ساعة العمل، أمر ثلاثين من سراة سپارطا، أن ينزلوا سوق المدينة بسلاحهم فجر اليوم التالي، ليبثّ الرعب في نفوس الحزب المناوئ. وذكر [هرميپوس Hermippus] اسماء اشهر وابرز عشرين منهم. إلاّ أن [ارثميادس Arthmiades] كان أسم ابرز الجماعة كافةً، وأقربهم الى ثقة ليكورغوس وسرّه، وأكثرهم نفعاً له في سنّ قوانينه ووضعها موضع التطبيق. أضطربت الخواطر، وساد الهياج وتوهم الملك [خاريلاوس] أن مؤامرة تحاك ضده، فاسرع يحتمي بمعبد البيت النحاسي[١٨]، ولكن بعد أن تبين انه واهم، واخذه العهود والمواثيق منهم بأنهم لا ينوون به شراً، ترك ملجأه وانضم هو نفسه اليهم. كان [خاريلاوس] إنساناً من ارقّ والطف الناس وأكثرهم سماحة. حتى ان [ارخيلاوس Archelaus] أخاه في الملك يقول فيه عندما كانت طبيبته تمدح أمامه: «من يستطيع القول عنه أنه طيبٌ؟ وهو لا يعرف الصرامة حتى مع الأشرار».

من التغييرات الكثيرة والاصلاحات التي عملها ليكورغوس، اولّها وأعظمها أهمية انشاء مجلس للشيوخ. سلطاته مساوية لسلطات الملك في الأمور الهامة جداً، ليحدّ من سلطات الملك، ويعدّل ويلطف من اندفاعاتها الناريّة[١٩]، وبذلك يشيع الثبات والاطمئنان في بناء

---

(١٧) اقنع (مينوس) أهل كريت بان قوانينه نزلت عليه وحياً من (چوپتر) وقلده في ذلك ليكورغوس تحدوه الرغبة في اقناع أهل سپارطا بأن فعل ما فعل بتوجيه وأمر من (ابوللو). هناك مشترعون آخرون وجدوا من الأفضل كثيراً ان يضخموا هذه الفكرة القائلة بأن شرائعهم ونظمهم انما جاءتهم من الأرباب. لأن حبّ النفس في الطبائع البشرية الذي لا يتسامح ولا يتحمل تفوقاً عبقرياً تمثل في مشترع لم يعاونه أحد في عمله، يجد راحة وسهولة في تطبيق احكام ذلك المشترع عندما يقال له انها أوحيت اليه في السماء ولهذا نجد واضعي الشرائع القديمة يعزونها الى الارادة الآلهية دائماً لأن في ذلك تعزيزاً لشأنها ورفعاً من قدرهم كما يضمن لهم فضلاً عن ذلك قيام الأهالي بالدفاع عنها ومعاونته ضميرياً في تطبيقها والتقيد باحكامها.

(١٨) اي خاليوكس وهو هيكل الربة اثينا، وكان شاخصاً في ايام (پاوسنياس) المعاصر لماركوس انطونيوس.

(١٩) الفقرة التي يشير اليها المؤلف هي في كتاب افلاطون الثالث حول الشرائع حيث نجده يبحث في أسباب سقوط الدول ويضع الكلام التالي على لسان اثينيّ قائلاً يخاطب اللقيديميين: «في اعتقادي إن آلهاً من الآلهة مدفوعاً بغيرته على دولتكم ولمعرفته بما سيأتي به المستقبل أعطاكم ملكين من أسرة واحدة =

الجمهورية» على ما يقول [افلاطون]. لأن الدولة قبل ذلك لم تكن تستند على قاعدة ثابتة فمرة تميل الى الملكية المطلقة لفترة من الزمن، عندما يستظهر الملوك، ومرة تميل الى الديموقراطية الصرفة عندما ترجح كفة الشعب وتكون لارادته الكلمة العليا. فكان مجلس الشيوخ هذا بمثابة قطب الرحى. كالمثقلة في السفينة فانها تحفظها دائماً في توازنٍ تام، ينحاز اعضاؤه الثمانية والعشرون دائماً الى جانب الملوك لمقاومة التيار الديمقراطي، ويساندون الشعب من الجهة الثانية ضد اي محاولة لقيام ملكية مطلقة. واما بخصوص تحديد العدد بثمانية وعشرين فيقول [أرسطو] عُزي سببه الى ان اثنين من المؤتمرين الثلاثين الأصليين عدلاً عن المساهمة في الخطّة لجبنٍ اعتراهما ولكن [سفيروس Sphaerus] يؤكد لنا ان العدد المؤتمرين كان ثمانية وعشرين بالأصل، ولعل هناك سراً في العدد الذي يتضمّن سبعة مضروبة في أربعة والسبعة هو أوّل عددٍ تام بعد الستّة ولذلك كان متساوياً في كلّ اجزائه[٢٠]. وأما رأيي الخاص فهو ان ليكورغوس حدّد العدد بثمانية وعشرين على أن يُعدّ الملكان بين الاعضاء فيكمل العدد ثلاثين.

ولقد كان شديد الاهتمام بإنشاء هذا المجلس حتّى أنه راح ينشد نبوءة عنه من دلفي. فأنزل عليه ما سمي بمرسوم [الريترا Rhetra] وهو كالآتي: «بعد أن تقوم ببناء معبد [لجوپتر هيليانيوس Helianius] و [مينرڤا هلانيا M. Hellania] أن تقوم بتنظيم الشعب في «فيليس Phyles» وترصهّم في «أوبس Obes» عليك أن تؤسس مجلس شورى من ثلاثين شيخاً بضمنهم الزعيمان، وعليك أن تجمع الشعب بين فترة وأخرى في اپيّللازين -Apellaze

= ليحكما بعدالة أكثر عند ممارستهما الحكم وبذلك تتمتع سپارطة باعظم الاستقرار. وبعد هذا عندما تنزع الملكية الى الاستبداد والحكم المطلق تقوم روح آلهية متقمصةً جسداً بشرياً (هو ليكورغوس) بوضع اسباب الحكم ضمن حدود العدل والمساواة عن طريق سلطة مجلس الشيوخ الحكيمة المساوية لسلطة الملكين». ويقوم ارسطو [السياسة ٢:٧] بتخطئة هذه الفكرة من ناحية بقاء الشيوخ في مناصبهم طوال العمر فيقول: «من السخف إن تودع مصائر المواطنين ايدي رجالٍ قد يحول تقدمهم في السن دون دقة التمييز. فالعقل يهرم مع هرم الجسد. كذلك ليس معقولاً أن يكون هؤلاء معصومين لا يمكن محاسبتهم على اجراءاتهم واحكامهم». لكن يبدو ان حلاً مجدياً تم الوصول اليه للمشكلة الأخيرة بابتداع نظام الايفوري فيما بعد. وقد استحدث بصورة رئيسة للدفاع عن حقوق الشعب ولذا يضيف افلاطون قوله: «والنعمة الثانية التي حظيت بها سپارطه هو ذلك الأمير الذي رأى ان السلطان الشيوخ وسلطان الملكين مفرطات في التحكم والاستبداد ويستحيل وضع رقابة عليهما. فابتدعت سلطة الايفوري كبح جماحهما.»
ان اعجب ما في النظام هو وجود ملكين لكن وبعد ان فقدت أجهزة حكم ليكورغوس نفوذها الأول حطمت الاحزاب التي خرجت في هذه المنازعات، كيان سپارطه. ومع هذا فارسطو في [السياسة ١١:٥] يعزو دوام تلك الدولة الى توزيع السلطات!

(٢٠) على أغلب الاحتمال لم يكن ليكورغوس على علم بقانون الاعداد. كما كان ابعد من ان يضع قوانينه على أساس التفكه واللعب الفكري.

in، مـا بين [بابيـكا Babyca] و[كنـاسيـون Cnacion][21]. وهنـاك يقـتـرعـون وتؤخـذ اصـواتهم، ان للشـعب الكلمـة الأخيـرة والقرار النهـائي». ويقـصـد بكلمتي Obes & Phyles طبقتا الشـعب، وبالزعيـمين يقصد الملكان، وبأپيللازين يشيـر الى اپوللو البيثيّ، ويقصد بها الاجتماع، وبابيكا وكناسيون هما الآن [اونوس Oenus] على ان ارسطو يقول أن [كناسيون] هو نهـر، و[بابيـكـا] جِسـر، وبين هذا النهر والجسر كان يتمّ الإجتـمـاع اذ لم يكن لـديهم بيت شورى، ولا بناية يجتـمعـون تحت سقـفـهـا. وكـان ليكورغـوس يرى أن البـهـرجة والزخـرفـة في مـجالس الاجـتماعـات لا تفـيـدهم في شيء، وانما قـد تغـدو عـائقـاً لانه يـصـرف المجـتـمعين عن الشـؤون التي اجتـمعـوا لهـا الى التـماثيـل والتـهـاويل والسقـوف المزخرفـة المنقوشـة، وغيـرها من التـوشيـة الفنيّـة التي تحـفل امثـال هذه البنايات عند الاغـريق الآخرين في هذه الاجـتـمـاعـات العـامة تعقد في الهـواء الطلق لا يسمح لاي فرد أن يعطي رأيه بل يحق له إمّا أن يصـادق أو ان يرفض ما يعرضـه عليهم الملك أو مجلس الشيـوخ. ولكن عندما أخذت العـامـة تشوّه وتحرفّ مـدلـولات المبادئ عن مـعـانيـهـا الاصليـة باضـافـة كلمات مـعـينة أو حـذفـهـا، أدخل الملكان [پوليـدوروس Polydorus وثيـوپومـپـوس Theopompus] الفـقـرة التـاليـة الى [الرتيـرا العظمى] أو الميـثـاق الاعـظم: «يحق مـجلس الشيـوخ والزعـمـاء أن ينقـضـوا اي قـرارٍ أخطل اتخذته العـامـة». أي أن يرفـضـوا ابرامـه ولهم أن يحلّوا جـمـعـيـة الشـعب بحـجّـة أنهـا أخطأت وحادت عن جادة الصواب في مشورتها.

وتمكنوا بالخداع والحيـلة أن يلقوا في روع الجـمهـور بأنهـا مـسـاوية لـبقـيـة الرتيـرا في درجة صحتها كما يبدو ذلك من أبيات الشاعر [ترتيوس Tyrtaeus] التالية[22]:

هذي النبـوءات الصـحـيـحـة التي سـمـعـوها من [اپوللو]
وجـاؤوا بـأقـوالـهـا الصـادقـة من مـعـبـد [پيـتـو Pytho]:
«الملوك الذين عـيـنتـهم السـمـاء، واحـبّـوا الأرض،
يـكـونـون اوائـل فـي مـجـلس شـورى الـبـلاد.
ويـأتي الشـيـوخ في المحل الثـاني، ويـأتي العـامّـة أخـيـراً.
ألا فـلتُـسـد شـريعـة ريتـرا صـحـيـحـة بين الجـمـيع!

ومع ان ليكورغوس اتخذ كُلّ الاحتياطات الممكنة لتلطيف جهاز حكمه الجمهوري فان اولئك

---

(21) لعلها اسماء روافد صغيرة لنهر افروتاس.

(22) شاعر غنائي اربله الآثينيون بعد منحه رتبة جنرال - على رأس قوة لنجده السپارطيين. نصراً على المسينيين. عندما حمّسهم واستنهض هممهم بقصيدة انشدها وهو على رأس قواته العسكرية.

الذين عقبوه وجدوا ان التيار الاوليغارشي(*) «مرغياً ومزبداً ولأجل أن يكبح مزاجه الحادّ وصولته الجائحة، «وضعت لُقمة في فمه» على حَدّ قول افلاطون(٢٣)، هذه اللقمة هي إحداث سلطة الايفوري Ephorie(٢٤) التي أنشئت بعد موت ليكورغوس بمائة وثلاثين سنة. وكان [ايلاتوس Elatus] وزملاؤه أول من أسندت اليهم هذه الوظيفة في زمن حكم الملك [ثيوپوپوس]، الذي اجاب زوجه الملكة عندما عيّرته يوماً ما، بأنه سيخلف سلطة الملك لأولاده وهي أقل مما تسلمها من أسلافه؛ قال «كَلاّ بل أكثر، لأنها ستدوم وقتاً أطول». ذلك لأن الملوك السپارطيين بعد أن رسمت لسلطاتهم حدود معقولة، تحرروا تماماً في الأخطار، والمؤامرات ولم يعانوا قط المصائب التي انصبت على جيرانهم في مسيني Messene وآرغوس Argos، أولئك الذين حرصوا على سلطاتهم، وابوا التنازل للشعب عن قليل منها، فخسروها كلّها.

(*) Oligarchy: هو حكم الأقلية أو الصفوة المنتخبة [م. ت].

(٢٣) افلاطون: القوانين ٦٩٢.

(٢٤) هيرودوتس (١:٦٥) و[كزينفون: جمهورية لقيديمية ٨] يقولان ان ليكورغوس هو الذي عين الايفوري شخصياً. الاّ ان التفاصيل التي يبسطها المؤلف مقتبساً من ارسطو (السياسة ٧) وغيره، باعتبار انها لم تستحدث الاّ بعده بزمن طويل، يبدو اقرب الى المعقول. اذ لا يحتمل مطلقاً ان ليكورغوس الذي ساند الارستقراطية بكل قواه ولم يترك للشعب شيئاً الاّ حق القبول أو الرفض - انه يعين نوعاً من مفوضين شعبيين ويجعلهم سادة مساوين للملك ولمجلس الشيوخ. بعض المؤرخين يرون ان الايفوري كانوا في مبدء الأمر خلصاء للملك ينتدبهم لممارسة سلطته عندما يذهب للحرب. لكن المعروف الاكيد ان الشعب كان يختارهم عن طريق الانتخاب من مجموع الدهماء وأحياناً من بين ادنى طبقة من الدهماء حيث ان اجرأ المواطنين وأصلبهم يكون أكثر حظّاً للفوز بمثل هذه الوظيفة - كائنا ما كانت صفته. فهي وظيفة القصد منها الحدّ من سلطة الملكين وسلطة الشيوخ. وعدد الايفوري خمسة. في جمهورية قرطاجة ويجرى انتخابهم كل سنة. وقد رسم ان تكون قراراتهم بالاجماع لتغدو سلطاتهم ذات تأثير. كانت سلطاتهم محددة بشكل جيد. إلاّ انها تحررت بمرور الزمن من كل قيد. فصاروا يرأسون الاجتماعات العمومية ويقومون باحصاء الاصوات في الاقتراع. ويعلنون الحرب ويعقدون معاهدات السلم ويتفاوضون مع الدول، ويقررون عدد القوات المجنّدة، مع تحديد مصروفاتها ويوزعون المكافآت ويفرضون العقوبات باسم الدولة. ويعقدون مجالس قضاء ويحققون في سلوك الحكام والقضاء ويشرفون على تعليم الشباب وتوجيه سلوكهم. كما زوّدوا بسلطة خاصّة على الهيلوت، وبمختصر القول انهم حصروا كل السلطات الادارية والتنفيذية بايديهم شيئاً فشيئاً ومضوا الى الحدّ الذي قاموا بتنفيذ حكم الموت بالملك [آغيس] بزعم انهم ينفذون حكم العدالة. أخيراً قتلهم [كليومنيس] صبراً.
يرى (بارثلمي) في كتابه (رحلات اناخارسيس) ان صلاحيات الايفوري كانت حتى عهد ليكورغوس قاصرة على الحكم الداخلي حين آثار والشعب وحرضوه على مقاومة الشرائع الجديدة. وكان لأهالي كريت الذين أقتبس عنهم - ضباط يقارنهم ارسطو بالايفوري، يعرفون باسم (كوزمي). على ان معظم الكتاب لا يذكرون الايفوري بوصفهم بدعة من بدع النظام أوجدها [ثيوميوپوس] بل اعتبارهم جهازاً من شأنه الحدّ من سلطة الملك وكبح جماحه. فالاحتمال اذن هو ان ليكورغوس ابقى لهم بعض الامتيازات. وان ثيوميوپوس زوّدهم بسلطات أخرى مما جعل النظام يبدو نوعاً من الاوليگارشية.

والحق يقال ان كل من يتأمل في الفتن والثورات وسوء الادارة التي حلّت في هاتين الدولتين الجارتين اللتين تتصلان بالدم فضلاً عن صلة الجوار لا يسعه إلاّ أن يجد خير سببٍ للاعجاب بحكمة ليكورغوس وبعد نظره. فهذه الدول الثلاث من أول نشأتها كانت متساوية، أو اذا كان هناك اي امتياز فقد اختصت به دولتا [مسّين وارغوس] اللتين اعتبرتا أسعد حظاً من الثالثة (سپارطا)[٢٥] في أولّ القسمة. وكانتا يمتلكان اراضي أفضل[٢٦] ومع هذه لم تطل سعادة البلدين طويلاً، بسبب طغيان ملوكهم من جهة، وبسبب صعوبة حكم الشعبين من جهة، وسرعان ما سادتهما الفوضى، وانهارت صروح اجهزة الحكم والمجتمع فيهما، ممّا أظهر بكلّ وضوح مبلغ الحظوة التي نالها السپارطيون من لدن الآلهة بانعامها عليهم بواضع قوانينهم الحكيم الذي منح حكومتهم استقراراً وتوازناً سعيداً.

بعد تعيين الشيوخ الثلاثين، كانت مهمته التالية التي باشرها هي أخطر المهام طراً. أعني القيام بتوزيع جديد للأراضي الزراعية. حيث كان يوجد تفاوت عظيم في هذا بين الناس، والدولة ترزح تحت عبء الشكوى والسخط العام الذي يثيره الفقراء والمحتاجون في حين كانت الثروة كلها مركزة في أيدي قلةٍ ضئيلة، فلأجل أن يزيل من مجتمع الدولة التحاسد والتباغض، والاجرام والترف، وتلك الأمراض المتأصلة المزمنة، الفقر، والغنى الفاحش، حملهم على التنازل عن ملكياتهم جميعاً، والرضى بتقسيم جديدٍ للأرض، وأقنعهم بأن يعيشوا معاً على قدم المساواة، وان تكون الجدارة والأهلية هي السبيل الوحيدة الى التقدم والشهرة؛ وتقبيح الشرّ، وحسن الجزاء للأعمال الطيبة يكونان معيار الخلاف الوحيد بين انسان وانسان.

بعد موافقتهم على مقترحاته هذه، باشر في الحال بوضعها موضع التطبيق فقسم بلاد [لاقونيا] مبدئياً الى ثلاثين ألف سهم متساوٍ وقسم الجزء المرتبط بمدينة سپارطا الى تسعة آلاف سهمٍ وزعها على السپارطيين، كما وزع السهام الأولى على باقي المواطنين الريفيين. ويقول بعضهم أنه خصّص للمواطنين السپارطيين ستة آلاف سهم فقط وان الملك [پوليدوروس] أضاف اليها ثلاثة آلاف أخرى. وقال: آخرون ان [پوليدورس] اضاف مثل عدد السهام التي حددها ليكورغوس بأربعة آلاف وخمسمائة فصارت تسعة آلاف وكانت قطعة الأرض الواحدة تنتج سنوياً (بأخذ معدل سنتين متتاليتين). حوالي سبعين بوشلاً[*] من القمح

---

(٢٥) هذه الدول الثلاث تدعي انحدارها من دولة واحدة هي دولة الهيراقليدي فـ(ارغوس ومسيني) تردان اصولها الى (تمينيس) (وكرسفونتس وسپارطا) تُردّان الى اقريستينس وپروكلس ابني اريسطو ذيموس.

(٢٦) تغطي الجبال ارض سپارطا لتجعلها غير صالحة للزراعة تقريباً في حين نجد (سترابو) يصف سهول ارغوس ومسيني بالخصوبة وكثرة المياه ويجعلهما اخصب جزءٍ من بلاد الاغريق.

(*) ميكال للقمح تعادل سعته ثمانية غالونات [م.ت].

لربّ الاسرة، وأثني عشر بوشلاً لامرأته. مع مقدار مناسبٍ من الزيت والخمر، وهو ما يكفي في أعتقاده لبناء الأجسام قوية صحيحة، أما الفائض عن الحاجة فلا خير فيه لهم. ورُوي أنّه كان عائداً من رحلة له، بعد تقسيمه الأراضي بزمن وجيز، وصادف ان كان وقت الحصاد والأرض قد حصدت لتوها. فأبتسم إذ شاهد اكوام القمح قائمةً وكلها متساوية وقال لمن حوله «أرى لاقونيا كلها تبدو مثل مزرعة اسرةٍ واحدة، قسمت بين عددٍ من الأخوة».

ولم يقنع بهذا، وقرّر أن يجرى توزيعاً في اموالهم المنقولة أيضاً. حتى لا يبقى اي فرقٍ أو تفاوت كبير بينهم. ووجد أن تطبيق ذلك بصورةٍ صريحة، ينطوى على أعظم المخاطر، فسلك سبيل الحيلة[٢٧] وتغلّب على حرصهم بالخطّة التالية: أمر أن يُلغيالتعامل بالنقد الذهبي والفضّي الغاء تاماً. وان لا يسمح إلاّ بنوع من النقود الحديد وهي ذات حجوم كبيرة وثقل عظيم، وقيمة تافهة جداً. فلأجل حفظ ما قيمته مينائين[*] يتطلب خزانة واسعة جداً. ولأجل نقل هذه الكمية يحتاج الى ما لا يقل عن زوج من الثيران. وتداول هذه النقود أختفى في الحال عدد من الرذائل وزالت من لقيديمونيا. اذ من يخطر بباله أن يسرق مثل هذه النقود؟ ومن يمسك شيئاً بدون لا تكون قيمة له، ولا فائدة فيه حتى لو قطع اجزاءً. اذ انهم كانوا يغطون السكّة وهي محمرة في الخلّ وبهذه الوسيلة بتلف معدنها ولا تعود صالحة لشيء.

ثم انه أصدر أمراً بعدم قانونية مزاولة كل الفنون غير المفيدة، المُترفة، وما كان الأجدر به هنا أن لا يصدر مثل هذا الأمر، فهذه الفنون ماتت من تلقاء نفسها ولحقت بالذهب والفضة، لأن النقود الجديدة لم تعد ثمناً صالحاً ومناسباً للتحف الفنية. لكونها من الحديد ولا يمكن تداولها بين سائر الأغريق الذين سيهزأون بها - هذا إن أمكن تصديرها ونقلها. وهكذا لم يعد ثمّ وسائل لشراء بضائع أجنبيّة وكماليّات صغيرة، ولم يعد التجار يرسلون سفنهم المحملّة بالبضائع الى المواني [اللاقونية) أما أساتذه البلاغة، وقارئو الخط المشعبذون، وتجار البغايا، ونقاشو الفضة، وصاغة الذهب، والجواهريون، فلم يعودا يرون جدوى في زيارة بلاد ليس فيها

---

(٢٧) ظلّ السپارطيون بعد ليكورغوس ردحاً طويلاً من الزمن ينفرون نفرة شديدة من زيادة الحرص وحب الاقتناء الى حدٍ ان شاباً أشترى ضيعة بفائدة عظيمة فاستدعي ليؤدي حساباً على ذلك وفرضت عليه غرامة. فقد وأرا انه عظيم الجشع الى جانب جرعية في شراء حاجة باقل من قيمتها لانه استخدم عقله من اجل الربح وهو في العمر الذي يجب ان يفكر الناس في الاتفاق. لكن عندما لم يعد السپارطيون قانعين بحدود بلادهم واردوا التوسع خلافاً لما كان ليكورغوس ينهاهم عنه، فقد اشتبكوا في حروب خارجيّة. ولم تقبل نقودهم في البلاد الأخرى. ووجدوا انفسهم مرغمين على التوجه نحو الفرس الذين بهرتهم فضتهم وذهبهم. وازداد جشعهم الى حَدّ شنيع حتى ضرب بهم المثل الذي ذكره افلاطون وهذا هو «يرى المرء قدراً كبيراً من النقود يدخل الى لقيديمون، لكنه لا يرى منها شيئاً يخرج».

(*) حوالي ٤٠ پاوناً استرلينياً.

نقود وهكذا أخذ الترف يزول ويتلاشى وهو يتجرد شيئاً فشيئاً مما يقويه وينعشه، حتى قضي عليه تماماً ومات. لم يعد للاغنياء هنا افضلية على الفقراء لأن غناهم وثراءهم الواسع فقد سبيله الوحيد الخارجي، فظّل حبيساً في الداخل لا يفعل شيئاً. وبهذا السبيل نبغ من الناس صناع مهرة وفنانون في عمل الأشياء المفيدة الضرورية للعموم، كالكراسي، والأسرة، والموائد، ومختلف ادوات الاسطبل في حدود حياة الأسرة. وكانت تلك الحاجات موضع اعجاب من يراها لدقتّها. وتذكر بصورة خاصة طاس الشراب السمى كوثون Cothon(٢٨) فقد شاع أمره وتسابق الناس على اقتنائه. ولاسيما الجنود، على قول [كريتياس Critias]. فلونه يحول دون ملاحظة الشارب للماء العكر أو المشوب الذي قد يضطر المرء الى شربه بدافع الحاجة والضرورة. فقد جعلت هيئته بحيث يعلق الطين بجوانبه فلا يبلغ فم الشاب إلاّ الماء النقي. ولهذا أيضاً عليهم ان يشكروا واضع قوانينهم الذي أطلق منهم كوامن مهاراتهم وابداعاتهم في اضفاء صفة الجمال على الأدوات الضرورية ذات الاستعمال اليومي، بإراحة الصناع الفنانين من متاعب صنع الأشياء غير المفيدة. امّا الضربة الثالثة، الأشد وقعاً والأمضى حداً التي انزلها واضع القوانين العظيم هذا بالترف والشهوة الى الغنى فهو المرسوم الذي قضى بأن يأكل الجميع من مائدة عامة(٢٩). فيتناولون الخبز واللحم وكلّ الوان الطعام المقررة دون تفضيل، وأن لا يقضوا حياتهم في البيوت، مستقلين على الأرائك الوثيرة جالسين الى الموائد الحافلة باطايب الطعام، مستسلمين الى ايادى طهاتهم وحشمهم ليُسمنّوهم في الزوايا مثل الحيوانات النهمة، وليتلفوا لا عقولهم وحدها، بل أجسامهم التي سيدركها بلا شكّ الخمول للافراط في الملذات، فتظل في حاجة مستمرة الى النوم الطويل والحمام الساخن، والراحة والابتعاد عن الجهد، وبعبارة أخرى ستكون بحاجة الى العناية والرعاية قدر ما يحتاج دوو الأسقام والزّمنى إنه في الواقع لمعجزة خارقة ان يتم الوصول الى هذه النتائج.

---

(٢٨) اقرأ وصفاً لهذا الكأس الفخاري في الفقرة التي كتبها «كريتياس» وهي في الآثينيوس ١١:١٠.

(٢٩) تعمق كزينفون في تعليل اسباب ذلك فراح ابعد مما ذهب اليه پلوتارخ وغيره اي انها ترمي الى قمع الرغبة بالترف. فقال ان المائدة الجماعية تقوم مقام مدرسة أو هي بمثابة معهد علمي يقوم فيه الكبار على تهذيب الصغار بان يقصّوا عليهم قصص الأحداث العظمى التي علقت بذاكراتهم وبهذا يثيرون في نفوس الجيل الجديد حبّ المعالي والشوق للاتيان بأشرف العمل. لكن وجد ان هذا لا يمكن اني يتحقق فعلاً بالنسبة لجميع المواطنين عندما زاد عددهم على عدد قطع الأراضي المقرر توزيعها لذلك انتقد المؤرخون ليكورغوس وقالوا: كان عليه ان يجعل هذه الموائد الجماعية على حساب الدولة مثلما جرى ذلك في (كريت) وبعد ان اقتبس معظم شرائعه منها (ارسطو: السياسة ٨:٢). لكن علينا ان نتذكر بأنهم كانوا قد أحتاطوا لتلك الزيادة في السكان بارسال مستوطنين الى الخارج لذلك لم ينقل الفقراء عبء ليقيديمون الى أن اصيبت الحكومة بالانحلال.

على أن «أعظم ما يمكن أن يُسلب من الغنى ليس مجرد الشهوة الى التملك، وإنما طبيعة الغنى نفسها» على ما لاحظه [تيوفراستوس Theophrastus]، فبارغام الاغنياء على مجالسة الفقراء لتناول الطعام من مائدة واحدة، لا يسعهم ان يفيدوا من ثرائهم ولا أن يستمتعوا به ولا ان يرضوا كبرياءهم بالنظر اليه أو عرضه على الأنظار. ولذلك لا توجد بقعة في الدنيا يصدق فيها المثل السائر بالحرف الواحد «پلوتوس Plutus آله الغنى، أعمى» مثلما يصدق في سپارطا. وهو هنا ليس أعمى فحسب، بل مثل صورة لا حياة فيها ولا حركة.

ولا يسمح لأحد أن يتناول طعاماً في بيته أولاً ثم يحضر الموائد العامة فكل امرىءٍ هناك يراقب اولئك الذين لا يأكلون ولا يشربون كالباقين ويعيّرونهم بالتخنث والرقّة.

هذا القانون الأخير اغاظ الاغنياء واستنفد صبرهم بنوع خاص فاجتمعوا كتلة واحدة ثائرة على ليكورغوس، وانتقلوا من الكلمات الجارحة الى رجمه بالحجارة. حتى اضطر الى ترك السوق هارباً واتجه الى ملاذٍ مقدس لانقاذ حياته وشاء حسن حظّه ان يسبقهم جميعاً إلاّ شاب يدعى [ألكاندر Alcander] لم يكن فظاً بطبعه، وأن عرف عنه التسرع والصنف، فقد لحق به وحاذاه ولما التفت ليكورغوس نحوه ليرى من المطارد عاجله بضربة عصا على وجهه. ففقأنه عينا. فتوقف ليكورغوس دون أن تؤثر هذه الحادثة فيه أو تفلّ من غِراب عزمه. وكشف عن وجهه المشوّه وعينه الجاحظة لانظار بني قومه فأدركهم الأسف والخجل، ودفعوا بالضارب اليه ليقتصّ منه وصحبوه الى بيته وهم في غمّ شديد لاعتدائهم عليه وبعد ان شكرهم ليكورغوس على اهتمامهم بأمره صرفهم جميعاً واستبقى [الكاندر] وأدخله بيته ولم يوجه اليه كلمة غاضبة، أو عملاً عنيفاً. ولكنه صرف أولئك الذين يجالسونه على المائدة، وطلب من [الكاندر] أن يقوم على خدمته. وكان الفتى طيباً بطبعه فقام بما طُلب منه دون تذمر أو شكوى، وسمح له أن يشاطره العيش فاتيحت له الفرصة ليتبين فيه رقتّه المأثورة، وهدؤ طبعه فضلاً عن رجاحة عقله الفائقة وجلده على العمل الذي لا يعرف وهناً وما الى ذلك. فأنقلب من عدوّ له، الى أشدّ المعجبين به تحمساً ومشايعة. وأخبر اصدقاءه وأقرباءه انّ ليكورغوس ليس بذلك الشخص الجهم السيىء الطبع الذي توهمه الكثيرون من قبل بل يمتاز بألطف وأرق طباع في الدنيا. وهكذا جعل ليكورغوس من شاب أهوج مندفع، واحداً من أكثر المواطنين السپارطيين اتزاناً ورجاحة، بدل أن يعمد الى عقابه عن خطأه.

واحياءً لذكرى هذه الحادثة أقام معبداً لمينرڤا، سمّاه [اوپتيلتيس Optiletis]. إن كلمة [أوپتيلوس Optilus] هي اللفظة الاغريقية الدارجة في تلك الأنحاء ومعناها «عين» [اوفَتالموس Ophathalmus] ويقول بعض الكتاب الذين كتبوا رسالة عن جمهورية سپارطا،

ومنهم [ديُسيقوريدس Dioscorides] أنه جُرح حقاً، ولكنه لم يفقد عينه نتيجة الضربة. وأنه بنى المعبد اعترافاً بفضل شفائه. ومهما يكن من أمرٍ ومهما بلغت هذه الروايات من الحقيقة، فبعد هذا الاعتداء، استنّ اللقيديميون لأنفسهم مبدأ حمل ما لا يزيد عن عكازٍ في اجتماعاتهم العمومية.

ولنعد الآن الى وجبات الطعام العامّة؛ إن لها عدة اسماء باليونانية فأهالي كريت يسمونها [آندريا Andria] لأنها للرجال فقط. والليقديميون يسمونها [فيديتيا Phiditia] بقلب «اللام» الى «دال» في كلمة [فيليتيا Philitia] ومعناها «الحبّ في المآدب» لأن الطعام والشراب المشترك يعقد حبال الودّ. أو لعلها جاءت من [فيدو Phido]، أي الشحّ والتقيتر، لأنها بمثابة مدارس عديدة للاعتدال وربما كان الحرف الأول زيادة في الكلمة التي هي بالأصل [ايديتيا Editia] اي الأكل من [Edode]. وهم يجتمعون زمراً من خمسة عشر أو نحوها. وعلى كل فردٍ منهم أن يساهم في اداء بوشل واحدٍ من الخبز، وثمانية غالونات من الخمر، وخمسة پاوندات من الجبن وپاوندين ونصف پاوند من التين ومبلغ طفيف جداً من المال لابتياع سمك أو لحم شهرياً للمائدة العامة. والى جانب هذا إذاً قدم أي واحدٍ منهم قرباناً للأرباب فهم يرسلون على الدوام صدقة الى القاعة العامة. كذلك عندما يصطاد احدهم قنيصة «فانه يرسل الى الجهة نفسها، شيئاً من قنيصته. وفي هاتين المناسبتين فقط يسمح للمرء أن يتناول طعامه في بيته. وقد بقيت عادة الطعام الجماعي سارية المفعول بكلّ دقةٍ زمناً طويلاً بعد ليكورغوس. حتى أن [آغيس Agis] الملك نفسه بعد أن هزم الاثينين أرسل عند عودته الى بلاده يطلب الحصّة المعينة من المائدة العامّة معتذراً بأنه يرغب في تناول طعامه مع الملكة في خلوةٍ[٣٠] فرفضها [البوليمارخوس(*)]. وهو الرفض الذي أحنق الملك واحفظه حتى انه الغى مراسم صباح اليوم الثاني الخاصة بتقدم القرابين الواجبة لكلّ حرب طيّبة الختام، فما كان فهم الاّ وحكموه بتأدية غرامة.

وكانوا يرسلون صغارهم الى هذه الموائد كأنما يرسلونهم الى مدارس تهذيب وتثقيف. فيلقنون فيها شؤون الحكم وادارة والدولة باصغائهم الى رجال السياسة المجربين. وفيها يتعلمون كيف يطرزون احاديثهم بالنوادر وأن يتبادلوا المزاح والتندر دون حَدّ الإيلام وان يتقبلوها برحابة صدرٍ وفي هذه النقطة من حسن التربية فاق اللقيديميون غيرهم بصورة خاصة.

(٣٠) كان لملوك اسپارطا حق دائمي في تناول وجبتين من الطعام. ليس للسماح لهم باظهار مزيد من الشهوة. بل لتتاح لهم فرصة مشاركة حصتهم من الغذاء مع رجل مشهود له بالشجاعه يُختار لينال هذا الشرف.

(*) البوليمارخوس السپارطيون هم الذين يقودون الجيش تحت امرة الملوك. انهم كبار رجال الدولة وهم دائماً يوزعون الطعام على المائدة.

ولكن ما أن يُبدي المرء ضجراً منها حتى يكف الجميع عن توجيه القول له بعد اشارة خفيفة جداً. وجرت العادة ايضاً أن يقول أكبر الزمرة سنّا لكلّ منهم مشيراً الى الباب عند دخولهم: «لا تخرج كلمة واحدة من هذا الباب». واذا رغب أحد في الانضواء الى احدى هذه الزُمر الصغيرة فعليه ان يفوز في الاختبار التالي: يأخذ كل عضو من أعضاء الندوة كرة صغيرة من العجين. ويلقونها كلٌ بدوره في آنية عميقة يطوف بها عليهم نُدُل وهي فوق رأسه فمن يرغب في انضمام المرشح الى ندوتهم يلقى كرته في الآنية دون أن يغير من هيئتها ومن لا يريده يضغطها بين أصبعيه ويجعلها مسطحة وهذا ما يعادل التصويت بالرفض. وإن وجدت عجينة مدحاة واحدة فقط لا يقبل المرشح، إذ يشترط الإجماع عليه، ليكون كُلّ اعضاء الزمرة متفاهمين بعضهم مع بعض، ويطلق على الآنية [كادّيخوس Caddichus] ومنه اشتق اسم المرشح المرفوض(*). وأشتهر لون من الطعام عندهم هو العصيدة السوداء وهي ذات قيمة غذائية كبيرة بحيث كانت طعام كبار السن الوحيد، فهؤلاء كانوا يتحسّونها ويتركون اللحم لمن دونهم سنّا. ويقال أن ملكاً من ملوك(٣١) [الپنطوس Pantus] سمع الكثير عن عصيدتهم السوداء تلك فبعث يستقدم طاهياً ليقديمونياً ليعمل له شيئاً منها. ولما ذاقها استقبحها ولم تعجبه قطّ وكان الطاهي يرقبه فقال له «لأجل أن تجعل هذه العصيدة شهيّة عليك يا مولاي أن تغتسلَ في نهر ايروتاس Eurotas!».

وينصرف كل رجل الى داره بعد أن يشرب خمراً باعتدال ولا يستخدم نوراً لأن استخدام النور ممنوع مهما كانت احلك الظروف، والسبب في هذا هو أن يعوّدوا أنفسهم على السير بجراءةٍ في الظلام(٣٢)، تلك هي القواعد العامة المتبعة في وجبات طعامهم.

لم يضع ليكورغوس قوانينه في مدونّات، ومع أنه لا يوجد في أيّ [ريترا] ما يمنعه صراحةً. لأعتقاده بأنّ أكثر النقاط فائدة، ومعظم ما هو أكثر تعلقاً بالمصلحة العامة، انما ينطبع في قلوب الشباب بالضبط والربط الجيّدان. ويبقي بالتأكيد، ويجد مكاناً أحفظ له واضمن من أي شكل من أشكال الإرغام، هذا هو التثقيف، أي مبدأ العمل الذي وضعَه أعظم المشترعين وأفضلهم. وإمّا عن المسائل الأقل أهميّة، كالعقود الماليّة والتجارية وأمثالها التي تتغير أشكالها وصيغها بتغيرّ الظروف والأحوال فقد رأى من الأوفق الاّ يضع لها قاعدة ثابتة، أو

(*) ولعل كلمة Candidate التي تطلق على كل مرشح لأية انتخابات مأخوذة من هذه.

(٣١) سرد پلوتارخ الحكاية في موضع آخر وعزاها الى (ديونيسيوس) طاغية صقلية ويؤكد شيشرون ايضاً بانه الشخص المقصود. واڤروتاس هو نهر سپارطا.

(٣٢) يقصر كزنيفون هذا المنع على الشبان. ويقول ان الغرض منه هو بقاؤهم بحيث لا يخطئون طريقهم الى منازلهم!

صيغة معينة، متوقعاً أن أشكالها ونصوحها خاضعة لتقلبات الأزمان وإرادات الناس ذوي الأحكام الصائبة، وفي عرفه أن الثقافة هي غاية كلّ قانون وهدف كل نظام.

لذلك كان من مبادئه أن لا تدون تلكم القوانين. وشرع قانوناً موجّهاً بصورة خاصّة ضَدّ الترف والبذخ، فقد رسم به أن لا تهندم سقوف البيوت بأكثر من الفأس، وأن لا تسوّى ابواب المنازل بغير المنشار، ويمكن القول أن ليكورغوس كان يهجس بصحة قولة [اپامنداس] عن مائدته «الخيانة، وعشاء كهذا لا يمكن ان يجتمعا معاً[٣٣]». الترف وبيت كهذا لا يمكن أن يكونا صاحبين. اذ لابدّ أن يكون المرء مأفوناً أحمق ليفرش منزلاً بسيطاً وكهذا وغرفاً عادية ارائك ذات ارجل مفضضة ويبسط عليها أغطية ارجوانية، ويزوقها بصفائح الذهب والفضة. لاشكّ ان لديهم الادراك ما يجعلون أسرّتهم مناسبة لبيوتهم وأغطيتهم مناسبةً لأسرُتهم وباقي ادواتهم المنزلية وأثاثهم مناسبة للأغطية. ويروى أن الملك [ليوتخيدس Leotychises] الأول. كان يجهل تقريباً وجود اشياء غير هذه الأثاث البسيطة، ولما دعي الى كورنث، وأدخل غرفةً فخمة أدركته الدهشة الشديدة لرؤيته خشب الاعمدة والسقف منحوتاً نحتاً بديعاً ومكفتاً فسأل مضيفه أتنمو الأشجار في بلاده مربعةً هكذا؟[٣٤] وكان المبدأ الثالث (الريترا الثالثة) أن لا يشنوا الحرب كثيراً وان لا يجعلوا الحرب الطويلةً مع العدوّ الواحد. لئلا يفيد منها تدريباً، ويتعلم فنونها باضطراره الى الدفاع المستمر عن نفسه. وهذا ما كان مصدر لوم كثير لأغيسلاوس Agislaus بعدها بزمن طويل اذ وُجد أن هجماته المستمرة على (بيوسيا)[٣٥] جعل الليثبيين اقراناً اكفاء لليقديمونيين ولذلك معندما رآه [انتالكيداس Antalcides] جريحاً يوماً ما، قال له: لقد أُجزل لك العطاء عن الجهود التي بذلتها في جعل الليثبيين جنوداً اكفاء، شاؤوا أم أبوا». هذه القوانين سميت (ريترا) للدلالة على انها نبؤات أو قوانين إلهية مقدسة تقف في منزلة الوحي[٣٦].

ولأجل أن يثقف شبابهم ثقافة حسنة (وهو في رأي ليكورغوس أهم وأنبل عمل للمشترع كما قلتُ آنفاً)، فقد ذهب تفكيره ابعد مذهبٍ حتى بلغ به الى الاهتمام بهم من وقت الحمل بهم وولادتهم، مبتدئاً بتنظيم الزواج. لقد كان [ارسطو] مخطئاً في قوله ان ليكورغوس بعد

(٣٣) جوڤينال ٢٦:١٠ .Nulla aconita libuntin Fictilibus

(٣٤) يجب ان لا يعتبر ملقي هذا السؤال غبياً أو جاهلاً بالتجارة الى هذا الحد. فهو في الحقيقة نوع من السخرية ببنايات كورنث الفخمة.

(٣٥) كما ظهر ذلك واضحاً في معركة (ليوكترا) اذ هزم (ايپامنداس) اللقيديميين فخسروا ملكهم كليوبرتس وزهرة مقاتلي جيشهم.

(٣٦) أو ربما لأنها لم تكن مكتوبة، تنتقل من فم الى أذن الى فم.

تجربته كل الطرق لردّ النساء الى الرزانة والدماثة، اضطر أخيراً الى تركهن على ما هن فيه. ذلك لأن زوجات الرجال الذين يقضون معظم ايام حياتهم في الحروب يكونون مضطرين الى تركهّن اثناء غيابهم سيدات البيت المطلقات فينهين ويأمرن ويتصرفن على هواهن، ويعاملن باحترام فيه كثير من الافراط ويطلق عليهن لقب السيدات والأميرات. هذا ما يقوله ارسطو والحقيقة أنه بذل في مسألتهنّ أكثر ما امكنه من الجهود. فأمر أن تمارس الفتيات رياضات المصارعة والعدو ورمي القرص وقذف الرمح حتى تنمو ثمرات أحشائهن في أجسام قوية صحيحة وتتخذ جذوراً أثبت وتجد وسطاً للنمو أفضل، وتكون النتيجة أنهن يكنّ أقدر على تحملّ متاعب الحمل والآمه بهذه القوة التي اجتمعت لهنّ. ولأجل أن يزيل منهنّ رقتهم المفرطة، وخوفهنّ من التعرض لتقلبات الجوّ وكُلّ ما هو من طبيعة الأنثى أمر بأن تخرج الفتيات في المواكب العامة عاريات الشبان وان يرقصن أيضاً بهذا الوضع في بعض الأعياد الدينية وينشدن أناشيد معينة. في حين يقفك الشباب حواليهن يسمعونهن ويشاهدونهنّ. وفي هذه المناسبات يعرّضن بأسلوب المزاح تعريضات مناسبة بأولئك الذين لم يبلوا بلاءً حسناً في القتال كما ينشدن أناشيد الثناء والإشاءة بأولئك الذين أظهروا البطولة وبهذه الوسيلة يرفعن من معنويات الشباب للمنافسة في حلبة المجد والفخار، وينصرف الممدوحون وقد أمتلأوا اعتزازاً ورضىً بالمكانة التي كسبوها عند الفتيات. أما أولئك الذين عرضّن بهم فإن التأثير الذي يحدثنه فيهم لا يقل وقعاً عن التوبيخ الرسميّ والأنكى من هذا كلّه أن ذلك يتمّ بمسمع ومرأى من الملوك والشيوخ وكلّ سكان المدينة.

وليس في تعريّ الفتيات على هذه الشاكلة ما يخجل أو يجلب العار. فالعفّة تحوطهنّ، وكلّ عوامل الشهوة والفجور لا محلّ لها. ان ذلك يعلمهن البساطة والاهتمام بالصحّة ويكسبهن ذوقاً خاصّاً للمشاعر والأحاسيس السامية، لأنه يفسح لهن السبيل الى ميدان الأعمال النبيلة والمجد. ولذلك كان من الطبيعيّ أن يفكرّن، ويتكلمن مثل [گورگو Gorgo] امرأة [ليونيداس]. فقد قيل أن سيدة أجنبيّة قالت لها على ما يظهر أن النساء الليقديمونيات، هن الوحيدات في الدنيا اللأتي يحكمن الرجال، فأجابتها: «ولسبب وجيه، لأننا النساء الوحيدات اللاتي يلدن رجالاً».

ان هذه المواكب والمسيرات النسائية العامة وظهور الأناث عاريات في اثناء رياضاتهن ورقصهنّ، لهي من محرّضات الزواج، «لأنها تعمل في نفوس الشبان بشدّة الحبّ وصدقه، إن لم يكن بدقة الرياضيات وصدقها» - كما يقول افلاطون(*). ثم زاد على هذا بعدد من

(*) في الجمهورية.

الاجراءات فجرد اولئك الذين آثروا حياة العزوبة[٣٧] الى درجة ما من حقوق المواطنة بحكم القانون، فقد استثنوا من مشاهدة المواكب العامة حيث الشبان والشابات يرقصون عراة. وفي ايام الشتاء يرغمهم الضباط على السير وهم عراةً حول ساحة السوق ينشدون نشيداً فيه هجاء وتحقير لأنفسهم يتضمنّ ما معناه أنهم يستحقون هذه العقوبة لتمردهم على القوانين. زد على هذا انهم محرومون من مظاهر التجلة والاحترام التي يقابل بها الفتيان كبار قومهم وشيوخهم. فمثلاً لم يعب أحد ما قيل لدركيلليداس Dercyllidas وهو قائد شهيرٌ بارز، عندما دنا يوماً من شاب، فلم يقم هذا احتراماً له بل بقي جالساً وقال «لن يفسح ولدٌ لك مكاناً لي».

وفي الزواج يحمل الزوج عروسه بما يشبه القوة والإكراه، لا لأن العرائس صغيرات السنّ ضعيفات الجسم، بل يكنّ عادة في شرخ شبابهن وتمام نضوجهنّ وبعد ذلك تأتي المرأة المشرفة على مراسيم الزفاف وتقص شعر العروس جَمْعاً حول رأسها وتلبسها ثياب الرجال وتتركها فوق مطرحٍ في الظلاّم فيأتي العريس وهو مرتدٍ ثيابه الاعتيادية رزيناً هادئاً، بعد أن يكون قد تناول عشاءه على المائدة العامة ويدخل غرفة العروس وحده ويحلّ رباط منطقة عذرتها ويفتّضها وبعد ان يبقى فترة من الوقت معها يعود بهدوءٍ الى مسكنه لينام كالعادة مع الشبان الآخرين، ويستمر على هذا المنوال: يقضي ايامه بل لياليه مع اصحابه، يزور عروسه بين الفينة والفينة زورات الوجل الخجل مستعيناً بالكتمان، إذ ينبغي أن لايشاهده أحدٌ وعلى المرأة نفسها أن تستخدم ذكاءها وحيلتها لايجاد فرصٍ حسنة للقائهما عندما تكون زمرة الشاب منشغلة عنهما. ويعيشان على هذه الشاكلة زمناً طويلاً وقد يرزق الازواج باولادٍ قبل أن يشاهدوا وجوه زوجاتهم في ضوء النهار. إن اجتماعاتهما النادرة العسيرة تفيد لا لتمرين انفسهما عن ضبط الإرادة، وأخذ النفس بالحزم فقط، بل لتجمعهما معاً بجسدين قويين صحيحين وبعاطفة متجددة حيّة نشيطة لم يخمدها ويذبلها الافراط في الشهوة والجماع المستمر ويكون افتراقهما مبكراً على الدوام بحيث يترك في نفس كل منهما بقية نارٍ مشتعلة من الشوق واللذة المتبادلة. وبعد احاطة الزواج بمثل هذه الحشمة والتحفظ، أهتّم بازالة الغيرة النسويّة الفارغة اهتماماً مساوياً. فحرّم كل انواع الفجور، ولكنه اعتبر مما يُشرّف الرجال أن يسمحوا لأولئك الذين يتوسمون فيهم النجابة والخير - بمضاجعة نسوانهم لأجل

(٣٧) يحدد الوقت للزواج. وان لم يتزوج الرجل في سنّ البلوغ فانه يتعرض للعقاب كما يعاقب كل من يتزوج من كان عمره أزيد أو أقلّ. ومن كان اباً لثلاثة أولاد فانه يتمتع بامتيازات كثيرة. ومن كان ابا لأربعة أعفي من الضرائب. والعذارى الباكرات يتزوجن من غير بائنة لأن الحاجة لا تمنع الزواج ولا الغنى يحثّ عليه. ويضيف (كليارخوس) تلميذ ارسطو ان هناك عيداً في سپارطة يسمح فيه النساء بجلد العزّاب حول المذبح ليرغموا بشعور من الخجل والألم على الزواج!

الإنجاب[٣٨]، مستخفين بأولئك الناس الذين يرون ان هذا النوع من المُلك مما لا نصح المشاركة فيه، محتقرين سفك الدماء واثارة الحروب في سبيله. وسمح ليكورغوس للطاغين في السن ان يختاروا شاباً معروفاً بحسن الخلق والسيرة لمضاجعة نسوانهم الصغيرات السنّ حتى يكون لهم ابناء من هذا الوصال، يرثون سجايا الوالد الطيبة، واذا وقع رجلٌ مستقيم السيرة في حبّ امرأة متزوجة، بسبب حشمتها، وحسن تربيتها لأولادها فله أن يطلب من زوجها وصالها بكلّ بساطة، حتى يُنبت له من قطعة الأرض الطيبة هذه أولاداً صالحين، كان ليكورغوس يعتقد أن أولادهم ملك للدولة قبل ان يكونوا لأبويهم، ولذلك لم يكن يريد أن يولد المواطنون من نطفة أول مواصلٍ للمرأة، بل باختيار أفضل الرجال. لقد بدت له قوانين البلاد الأخرى سحيفة عقيقة لاتلائم العصر، فالناس هناك شديدو الحرص على أنسال كلابهم وخيولهم يبدون اهتماماً كبيراً بها ويبذلون مالاً كثيراً ليحصلوا على نسلٍ محسّن منها، في حين يستأثرون وحدهم بزوجاتهم ويحبسونهن لأنفسهم فقط ويستولدونهن، وقد يكونون ضعفاء العقل مرضى، سقيمي الاجسام. كأنما لايدرون أنهم أول من سيعاني مغبّة إستيلاد أطفالٍ عليلين لأنهم سيضطرون الى تربيتهم والعناية بهم. والأمر خلاف ذلك لو كان الأطفال حسني الصفات. هذه القواعد التي اقيمت على أسس طبيعية واجتماعية، لا صلة لها قطّ بالحرية الفاجرة التي اتهمت نساؤهم بها فيما بعد، ذلك لأن الزنا كلمة لا معنى لها قطّ عندهم. وقد روي مثلاً عن [جيراداس Geradas][٣٩] وهو من السپارطيين الأقدمين، أن أحد الأغراب سأله:

- ما هي العقوبة التي فرضتها قوانينهم على الزّناة؟ فأجاب:

- لا يوجد في بلادنا زناة.

فقال الغريب:

- ولكن هب أنهم وجدوا.

فأجاب:

- عند ذلك يجب على المدعى عليه أن يقدّم على سبيل الغرامة، ثوراً يبلغ عنقه من الطول ما يجعله قادراً على شرب الماء من نهر اڤروتاس تحته وهو واقف في رأس تايغتوس Tay-getus[٤٠]، فتعجب الرجل من هذا وقال:

---

(٣٨) وستثنى الملوك من ذلك. اذ لا يسمح لهم باعارة نسائهم.

(٣٩) في كتابة «الاخلاق» يشبه: جيراداتوس».

(٤٠) أعلى جبل في سپارطا. ومنه يمكن البلوپوتيس كلها.

- محال أن يوجد ثور كهذا.

فأجاب [غيراذاس] باسماً:

- ممكن بقدر ما هو ممكن العثور على زانٍ في سپارطة.

وفي هذا الكلام عن الزواج الكفاية.

ليس في مقدور الأب أو سلطته أن يربي أبنه كما يشاء. وعليه أن يعرضه على خبراء مختصين في موضع يدعى [ليسكه Lesche] وهؤلاء هم شيوخ القبيلة التي ينتمي اليها الطفل ومهمتهم أن يفحصوا الطفل فحصاً دقيقاً فإن وجدوه قوياً حسن التركيب اصدروا قرارهم بتنشئته وبتربيته ويمنح سهماً من سهام الأرض التسعة الآف التي أسلفنا ذكرها: لأجل الانفاق عليه منها. واذا وجدوه سقيماً ضئيلاً سيء التركيب أمروا بأخذه الى ما مُسمّي [آپوثيتي Apothetae] وهو يشبه غوراً من الأرض يقع تحت [تايگيتوس]. فهم لايرون من مصلحة الطفل ولا من مصلحة المجتمع أن يبقى في الحياة إن لم يظهر من فجر حياته ما يدل على انه سيكون متين البيان صحيح الجسم. ولهذا السبب نفسه لاتغسل النساء الوليد بالماء، كما جرت العادة في البلاد الأخرى، بل يغسلنه بالخمر ليعجمن عود الأجسام وقابليتها. إذ انهن يعتقدن بأن الأطفال الذين يولدون بداء الصرع، أو بكيان سقيم، سيموتون بحمام الخمر هذه، بخلاف ما لو كانوا اقوياء اصحاء فأنها تقوّي وجودهم وتشدّ من عضلهم وتجعلها كالحديد المسقيّ. وتستخدم المرضعات فنوناً وضروباً من العناية بهم، فلا يشدونهم بالاقمطة والأربطة فتنشأ أجسامهم حرّة ولا تنضغط اعضاؤهم وتشوه، ولا يكونون متنطعين في أختيار طعامهم. ولا يخشون الظلام أو يخافون البقاء وحدهم، بدون تهيبٍ أو قلق أو بكاء[٤١]. ولهذا تتسابق البلاد الى استقدام واستئجار المرضعات السپارطيات وذكر أن مرضع [الكپيادیس Alcibiades] سپارطية. واذا كان محظوظاً في مرضعته، فإنه لم يكن كذلك في معلّمه، اذ يخبرنا افلاطون ان وصيّه [پريكليس Pericles] اختار لهذه الوظيفة خادماً اسمه [زوپيروس Zopyrus] لايفضل اي عبد عاديّ في شيء.

كان رأي ليكورغوس مختلفاً، فلم يسمح أن يؤتى بالمعلمين لصبيانه السپارطين عن طريق شرائهم من السوق. ولايعطي لهم أجراً على اتعابهم ولم يجز شرعاً أن يقوم الآباء على تربية أولادهم كما يحلو لهم. ولكن ما أن يبلغوا السابعة من العمر حتى يُضمّوا الى فصائل وصفوف مدرسيّة في ظلّ نظام وضبط واحدٍ يؤدون تمارينهم ويلعبون معاً. ومن يبرز منهم في

(٤١) يجيز ارسطو البكاء للاطفال (السياسة ١٧:٧) بوصفه نوعاً من انواع الرياضة فيه فائدة للصحة والنمّو!

الجسارة ويظهر احسن السلوك بعين رئيساً لهم: فيتابعونه بانظارهم ويطيعون أوامره ويتحملون بصبر اي عقاب يفرضه عليهم. وهكذا يكون كل مناهج ثقافتهم وتربيتهم تمريناً مستمراً للطاعة التامة السريعة. ويكون كبار السنّ في موضع الرقباء على ما يعملون. وكثيراً ما يثيرون بين الصغار خصاماً وشجاراً حتى تسنح لهم منها فرصة لمراقبة طباعهم المختلفة، وليتبينوا الجسور من الجبان عندما يبلغون مرحلة التعرض الى المخاطر الجسام. ولا يلقنونهم من القراءة والكتابة الاّ بقدر ما يحتاجون اليه في حياتهم المدرسيّة، والاهتمام الرئيس منصبّ على جعلهم مواطنين صالحين، وتعليمهم كيفية احتمال الألم، والنصر في المعركة، تمرّ بهم الأعوام وهم يزدادون ضبطاً وخضوعاً للنظام. وتراهم برؤوسهم الحليقة، يسيرون حفاة بدون نعال، ويلعبون أغلب لعبهم وهو عراة.

ولما يبلغون الثانية عشرة، لايسمح لهم بارتداء ثياب داخلية وكساؤهم الوحيد هو عباءة واحدة تكفيهم سنة كاملة. وأجسامهم جافة صلبة لاتعرف الحمامات ولا الأدهان، فهذا الترف البشري لا يسمح لهم به إلاّ في ايام قليلة معينة من السنة ويسكنون معاً في زمرٍ صغيرة، وينامون على فراش من بنات القش الذي ينمو على ضفاف نهر [يوروتاس]. وهم يكسرونه ويسوّونه بأيديهم بدون سكاكين، واذا كان الزمن شتاء خلطوا به شيئاً من الحَسك اذ يعتقدون ان في هذا النبات صفة اشاعه الدفء.

وفي الوقت الذي يبلغون هذه السن لا تجد أحداً من الصبيان المبرزين فيهم إلاّ ولديه محبّ يصاحبه ويعاشره. ويهتّم الرجال الكبار بهم أيضاً وكثيراً ما يأتون الى ميدان الالعاب ليسمعوهم ويشاهدوهم يتبارون بعضهم مع بعض إمّا بالحديث أو بقوة العضل. ويرقبون الأمر بجدّ واهتمامٍ عظيمين كما لو كانوا اباءهم او مدرسيهم، أو محكميهم. ويندر ان تجد ملعباً خالياً من شيخ واحد على الأقل في اي وقت أو مكان، لينبههم الى واجبهم أو ليعاقبهم أن وجد اهمالاً فيهم.

والى جانب هذا، يعينون شخصاً من أكثر رجال المدينة صلاحاً واستقامة للإشراف عليهم وادارة شؤونهم. فيقوم بتنظيمهم في عدة فصائل ويُعين رئيساً لكل فصيلة، يختاره منهم متميزاً بالجراءة وحسن الخلق ويسمّى [ايرين Iren] ويكون عمر الايرين عشرين عاماً، أي يزيد عن أعمار مرؤسيه سنتين عادةً أمّا أكبر الفتيان عمراً فهم [ملّ - ايرين Mell - Iren] أوكما لو قلت، «شرفٌ للرجولة». اذن يكون هذا الشاب رئيسهم، عندما يقاتلون، سيداً لهم في زمن السلم يستخدمهم في شؤون بيته، ويبعث بأكبرهم سناً للاحتطاب. ويرسل أضعفهم وأقلهم قابلية لجمع الأعشاب والخضروات. فإمّا عادوا خالي الوفاض، وإمّا عمدوا الى

سرقتها، ويتمّ ذلك بأن يدخلوا البساتين زحفاً، أو يتسللوا بخفة وسعة حيلة الى غرف الطعام. فإذا قبض عليهم متلبسين جلدوا بلا رحمة. لقيامهم بالسرقة على هذا النحو الفاشل الخالي من المهارة. ويسرقون أيضاً ما تقع عليه ايديهم من اللحم وهم متربصون متحينون كل فرصة عندما ينام الناس أو يغفلون على غير عادتهم. فإن قبض عليهم لايكتفى بجلدهم بل تجويعهم، بابقائهم على حصتهم الاعتيادية من الطعام وهي لاتسدّ رمقاً. ويكون ذلك التجويع عن قصدٍ لتضطرهم الحاجة الى وضع نشاطهم وحيويتهم موضع التطبيق(٤٢). وهذا هو الغرض الأساس المتوخى من اعطائهم وجبات غير كافية ينضاف اليها غرض آخر لا يقل اهميّة وهو أن تطول قاماتهم. لأن حيوية الروّح ترتفع بخفة الجسم الطبيعية، في حين انها تنوء تحت ثقل الكميات الفائقة الحد من الغذاء الذي لايجد له منصرفاً إلاّ في البدانة والسمنة، والجسم يزداد طولاً وينمو ويترعرع اذا كان لدنا(٤٣). والجسم الجاف العود، اللدّن هو خيرها تعرضاً لعناصر الطبيعة، أما الاجسام الضخمة المفرطة في التغذية فتكون ثقيلة وأقل صلاحاً للتعرض للطبيعة. وخير مثالٍ نجده في النساء الحاملات اللاتي يتعاطين الحمية في غضون أشهر الحمل، فهن يضعن أطفالاً ارق جسماً واصغر حجماً، ولكنهم يكونون احمل وجهاً وابدع تكويناً. لأن المادة التي صيغوا منها الين وأسهل تكويناً. اما السبب في كل هذا، فأترك تقديره لغيري.

ولنعد الآن الى موضوعنا الذي بترناه - يهتمّ أطفال الليقديميين بشؤون السرقة اهتماماً جدياً، حتى أن شاباً سرق ثعلباً واخفاه تحت عباءته فراح هذا الحيوان يمزق احشاءه تمزيقاً والشاب صابر على ما تعمل فيه مخالبه واسنانه ومات لساعته ولم يكشف المسروق. وما يجرى تطبيقه اليوم في [ليقديمون] يكفي للبرهان على صدق هذه الحكاية. فقد شاهدت انا نفسي عدداً من الفتيان يجلدون حتى الموت تحت درجات مذبح [ديانا] الملقبه [اورتيا](٤٤).

و[الايرين] أو مساعد الرئيس، يمكث وقتاً قليلاً مع الشبان بعد العشاء ويطلب من أحدهم أن يغنّي أغنية، ومن آخر ان يطرح سؤالاً يقتضي جواباً دقيقاً وإعمال فكرٍ. مثلاً: من هو خير

(٤٢) من هذا يتضح ان القصد ليس تشجيعهم على السرقة أو تعويدهم عليها بخفة ومهارة. بل القصد الحقيقي هو تعويدهم السرعة والحذر في اوقات الحرب والأزمات.

(٤٣) لعل المقصود هنا [دياناتوريكا] التي جلب اورستوس تمثالها الى لقيديمون على ماقيل، ومان البشر قرابينها، يزعمون ان ليكورغوس ابطل هذا النوع من القرابين واستبدلها بجلد الشبان حتى يلطخ المذبح بدمائهم على الأقل.

(٤٤) اعل المقصود هنا [دياناتوريكا] التي جلب اورستوس تمثالها الى لقيديمون على ما قيل. وكان البشر قرابينها، يزعمون ان ليكورغوس ابطل هذا النوع من القرابين واستبدلها بجلد الشبان حتى يلطخ المذبح بدمائهم على الأقل.

الرجال في المدينة؟ ما هو رأيه في العمل الفلاني الذي قام به الشخص الفلاني؟ وهكذا يدربونهم في هذه السن المبكرة ليصدروا أحكاماً صائبة على الأشخاص والاعمال وليكونوا على علم ومعرفةٍ بقابليات ومواطن ضعف ابناء قومهم ومن لايملك جواباً آنياً عن سؤال من هو المواطن الصالح ومن هو المواطن الطالح، ينظر اليه وكأنه مخلوق غبيّ قليل الاهتمام. لايملك شعوراً بالشرف والفضيلة، أو قلّ ما يملك منه، وفضلاً عن هذا يجب أن يعللوا اجوبتهم بالأسباب الوجيهة المعقولة وبعبارات مقتضبة خالية من الاطناب، كثيرة المعنى. ومن يفشل في هذا، أو لا يكون جوابه موفياً بالغرض، يعضُّ الرئيس إبهام يده! وينفذ الايرين هذه العقوبة أحياناً في محضر من الشيوخ والمحكمين حتى يتبينوا هل يعدل في تنفيذ العقوبة حسبما يستحق صاحبها. فاذا أخطأ في ذلك لا يعنّفوه امام الفتيان ولكنه يستدعى بعد انصرافهم ليقدم حساباً على خطأه وليودّب أقاسياً كان في تطبيق العقوبة، أم رحيماً.

ولعشاقهم، ولمصطفيهم سهم أيضاً في تكريم الفتيان أو تعزيرهم وهناك قصة تروى أن حكماً غرمّ أحدهم لأن الفتى الذي يحبه، بكى كالانثى أثناء ما كان يقاتل. وهذا النوع من الحبّ لا غبار عليه فيما بينهم بحيث ان معظم الأمهات الفاضلات لا يتحرجن في الكلام عنه امام الفتيات الصغيرات، والمنافسة فيه لا وجود لها. واذا اصطدمت رغبات عدة رجالٍ في شخصٍ واحدٍ يتفق الجميع معاً على ارضاء رغباتهم بخير ما يمكن الاتفاق عليه.

ويعلمونهم أيضاً أن يتحدثوا بأسلوب طبيعيّ طليّ ساخرٍ. وأن يضمنوا اكثر المعاني بأقل ما يمكن من الألفاظ. فليكورغوس الذي توخى كما رأينا، أن يفرض أزهد قيمة لأكبر قطعة من النقود، عكس الآية في الكلام ولم يسمح إلاّ بالأحاديث التي تصاغ بأقصر العبارات وأقلّ الالفاظ وتحوى أكثر ما يمكن من المعاني وألطفها. ولاعتياد أطفال سپارطة الصمت الطويل والزهد في الكلام، نمت فيهم قابلية اعطاء أجوبة محكمة بليغة، وكالأفاقين المتشردين الذين لا يعيشون حياةً مستقرة نادراً ما كانوا كثيري الأولاد، كذلك الثرثارون، كثيرو الكلام فنادراً ما تخرج من افواههم كلمات رصينة بليغة. عندما سخر اثينيّ بسيوف السپارطيين القصار قائلاً أنّ الحواة على المسرح يبتلعونها بكل سهولة اجابه الملك [آغيس] بقوله: «نحن نراها من الطول بحيث تكفي للوصول الى قلوب اعدائنا». ويبدو لي أن شيئاً ما في اسلوب كلامهم الموجز فهو يبلغ حالاً الهدف المقصود، ويخلف تأثيره العميق في عقل السامع معاً.

ويظهر ان ليكورغوس نفسه كان يليغ العبارة سريع البديهة، إنْ صدقنا ما روي عنه. هذا ما يدل عليه جوابه لذلك الذي كان متحمساً لإقامة نظام ديمقراطيّ في لقيديمون قال له: «إبدأ أيّها الصديق فأقمها في اسرتك». وسأله آخر لماذا يسمح بتقريب هذه القرابين الزهيدة التافهة

للآلهة. فأجابه «حتى يكون بالامكان أن نقدم شيئاً لها بصورة مستديمة». وسُئل أي شكل من التمارين العسكرية أو المعارك يُفضل فأجاب «كل الأشكال، إلاّ تلك التمارين التي تقتضي منك مدّ يديك الى الأعلى(٤٥)» وعزيت اليه أجوبة أخرى وجهها الى بني قومه خطيّاً. فقد سئل عن أفضل وسيلة لمقاومة غزو العدو، فأجاب «بالاستمرار في بقائكم فقراء، وبأن لا يطمع الرجل في ان يكون أعظم شأنا من زميله». كذلك استشير في هللاً كان ضرورياً احاطة المدينة بسور؟ فبعث بالجواب التالي: «المدينة الجديدة التحصين هي التي تملك سوراً من الرجال لا من الآجر». ولكن يصعب القول بأن هذه الرسائل حقيقية وليست منحولة.

وأمّا عن كرههم الثرثرة فإن اجوبتهم اللاذعة شاهدٌ: انفرد شخص بالملك [ليونيداس] يحدثه في مسألة مفيدة، ولكن ليس في الزمان والمكان المناسبين. فقال الملك «ما أكثر الفائدة يا سيدي، ولكن في غير هذا المكان». وسئل الملك [خاريلاوس] ابن أخ ليكورغوس لماذا استنّ عمّه هذا المقدار الصغير من القوانين فأجاب «قليلو الكلام لايقتضي لهم غير قوانين قليلة». ومرّة دعي المدعو [هيكاتيوس Hecatarus] السوفسطائي الى واحدة من تلك الموائد العامة، فلم ينطق بحرفٍ واحد طوال العشاء، ولهذا جاب [أرخيداميداس Archidamidas] يبرّر مسلكه ويزكيه: «ذلك الذي يعرف كيف يتكلم، يعرف ايضاً متى يتكلم».

أما الأجوبة المسكتة اللاذعة والحادة التيّ نوهت بها، فدونك طائفة منها: وجه أحد الرجال الكثيري اللجاجة الى [ذاماراتوس] سؤالاً بأسلوب استفزازي مزعج: «من هو خير رجال ليقديمونيا فردّ عليه أخيراً «أقلهّم شبهاً بك». وراح بعض الناس الذين كان بصحبة [آغيس] يثنون على الايليائين Eleans لأشرافهم الدقيق وتنظيمهم العادل الشريف للألعاب الاولمپيّة. فأجاب [آغيس]: «بلا شكّ، ينبغي أن يُمدحوا كثيراً لإنهّم تمكنوا من أن يعدلوا يوماً واحداً في غضون خمس سنوات(٤٦)». وأجاب [ثيوميوپوس] أجنبياً تمادى في اظهار حبّه للقيديمونيين قائلاً أنه بني قومه لقبوه [فيلولاقون: أي محب اللاقونيين]:

- كان يشرفك كثيراً لو لقبوك [فيلوپوليتس: أي محبّ بني قومه].

ولما قال احد الخطباء الآثينيين أن الليقديمونيين لا ثقافة لديهم، اجابه [پلستواناكس Plis-toanax] ابن [پاوسانياس Pausanias] «اصبت يا سيديّ فنحن من دون سائر الأغريق لم

---

(٤٥) هذا هو الشكل الذي يطلب فيه التسليم اثناء المعركة.

(٤٦) ان «موزعي الجوائز: هيلانوديك» على الفائزين في الالعاب الاولمپية يجهدون انفسهم الى أقصى حَدّ خلال الأشهر العشرة السابقة على الالعاب (پارسنياس ٦:٢٤) ليكونوا أهلاً للوظيفة، بدراستهم الدقيقة لكلّ البيانات واللوائح المتعلقة بالمراسيم ليكونوا أهلاً للقيام بمهمتهم خير قيام.

نثقف بأي شيء من سوء طباعكم». وسأل أحدهم [ارخيداميداس] كم يعد السپارطيون يا تُرى؟ فأجابه «ما يكفي لردّ غائلة الأشرار يا سيّدي».

ونتبين أيضاً طباعهم من نكاتهم ومزاحهم، لأنهم لا يرسلونه جزافاً واعتباطاً، بل أن عنصر الفكاهة فيه يستبطن ويستند الى شيء يدعو الى التفكير والتأمل فمثلاً سئل شخص لماذا لا يذهب ويشاهد رجلاً يقلد صوت العندليب تقليداً متقناً، فأجاب «سيدي! إني سمعت العندليب نفسه»(٤٧). وآخر قرأ الكتابة التالية على أحد القبور:

راموا أن يطفئوا نار الطغيان القاسي

في [سيلنيوس] فخروا ضحايا آله الحرب مارس

فقال معقباً» يستأهلون الموت، اذ بدلاً من محاولتهم إطفاء الطغيان كان الاجدر بهم أن يتركوه يحترق». وعرض على صبيّ ديك قتالٍ لا ينكص حتى يموت في مكانه فقال: وما شأني بالديكة التي تموت. أريد ديكاً يعيش ويقتل الآخرين!» وآخر شاهد فريقاً من الناس يريحون انفسهم على مقاعد فقال: «معاذ الله ان أجلس في مكان لا أستطيع القيام منه لتحيّة كبار قومي». وبمختصر القول ان اجوبتهم بلغت حداً كبيراً من البلاغة والنكتة الحادة. وصَدَق من قال أن الاتجاه الذهني في الطبع السپارطي أكثر ظهوراً منه التمرين الرياضي، والحق يقال.

ولا تقلّ عنايتهم بالثقافة الموسيقية والشعر عن اهتمامهم الكلام وطهارته واتقانهم فن الحديث. وتمتاز اغانيهم بالحيويّة والنشاط بحيث تثير نار الحماسة والثورة في نفوس رجال وتشيع روح الاقدام فيهم. واوازنها بسيطة خالية من الصنعة الفنية. ومواضيعها أخلاقية جديّة دائماً وأغلبها عادة يدور حول تمجيد الرجال الذي قتلوا دفاعاً عن بلادهم، أو هجاءً أولئك الذين أظهروا جنباً، ترفع اولهم الى أعلى درجات التمجيد، والسعادة في حين تصف ثانيهم بالضّعة والحقارة. وثم أيضاً أناشيد أفتخار بما سيقدر لهم من أعمال، وتعظيم لما فعلوه، وتختلف الأناشيد باختلاف السنّ فمثلاً كان لديهم ثلاثة اجواق في حفلاتهم الدينية. الأول يتألف من كبار السنّ والثاني من الشبان والثالث من الأحداث، فيبدأ الجوق الأول بالمصراع التالي:

كنا ذات يومٍ صغاراً، شجعاناً، اقوياء».

فيرد عليهم جوق الشباب منشداً:

---

(٤٧) هذه الحكاية عزاها بلوتارخ الى اغيسيلاوس في سيرة حياته. فلتراجع.

«ونحن الآن كذلك، فتعالوا وجربوا»

ويأتي جوق الاحداث بالأخير فيقول:

«لكننا سنكون أقوى من كليكما عما قريب»(٤٨).

واذا نحن تعنّينا التأمل في أصولها وتأليفها. وبعضها ما زال شائعاً حتى يومنا هذا، وفكّرنا في الالحان التي تنفخ في الناي (وعلى ايقاعها يتقدمون الى ميدان القتال) فسنجد أن [تيرپاندر Terpander](٤٩) وپندار سبباً وجيهاً للقول بأن الأناشيد الدينية والحماسية صنوان وحليفان. ويقول أولهما عن بلاد ليقديمونيا:

«الرمح وأغاني الميوزات الرائعة فيها يلتقيان.

والعدل الصارم يسير متجولاً في شارعها».

ويقول [پندار] هنا تجد مجالس الشيوخ الحكماء

ورماح الشبان التي عقدت عليها ألوية النصر

وتشاهد الرقص والغناء والطرب.

وكلاهما يصفان السپارطيين بأن تعلقهم بالموسيقي لا يقل عن تعلقهم بالحرب، بكلمات واحد من شعرائهم:

مع الحديد الصلب المرهف

يأتي العزف على القيثار!

فقبل أن يشتبك السپارطيون في القتال، يقوم الملك أولاً بالتقريب الى الميوزات Muses(*)، تذكرة لهم بما نشأوا عليه ودرّبوا، وتنويهاً بالحكم الذي سيصدر على ما يقومون به من عمل، ولدفعهم الى البطولات وانجاز جلائل الأعمال التي تستحق التدوين.

---

(٤٨) هذه الردة من الأبيات انما هي جزءٌ من نشيد ربما كان ناظمه ترتيوس.

(٤٩) شاعر وموسيقي (كل شعراء ذلك الزمن كانوا موسيقيين تقريباً). عزي اليه اضافة ثلاثة اوتار الى المعزف Harp وكان ذا اربعة. عاش بعد عصر هوميروس بمائة وعشرين سنة في (لسبوس) ثم استدعي الى سپارطا بحكم نبوءة – لتهدئة فتنة. قيل انه نظم شرائع ليكورغوس شعراً.

(*) الميوزات [مفردها ميوز Muse]. ربّات تسعة هن بنات جوپتر (زفس) وزوجه [منيموسين Mnemosyne] ويعتبرن في الميثولوجيا اليونانية موحيات بالفنون التسعة المعروفة: [كاليوپ Calliope] لشعر الملاحم، و[كليو Clio] للتاريخ و[ايراتو Erato] للشعر الغنائي، و[ايترپه Euterpe] لشعر الغزل] و[ملپومين Melpomen] للتراجيديا، و[پوليهمينا Polyhymnia] للأغاني الدينية، و[ترپسيخوري Terpsichore] للرقص، و[ثاليا Thalia] للكوميديا واورانيا Urania] للتاريخ.

في تلك المناسبات يخففّ الليقديميون قليلاً من صرامة عاداتهم وانظمتهم، ويسمحون للشباب ان يطيلوا شعر رؤوسهم ويشذبوه. وأن يقتنوا الأسلحة الثمينة والثياب الفاخرة. وكان السرور والغبطة يتملكان السپارطيين وهم يشاهدون شبانهم يخطرون مندفعين الى الحلبة كالجياد العتاق تصهل وتحمم. فما أن يبلغ الفتى أشدّه ويصلب عوده حتى ينصرف الى العناية شديدة بشعر رأسه فيهذبه ويشذبه ويفرقه ويصنفه، ولاسيما يوم المعركة تطبيقاً لوصيّة واضع قوانينهم المدوّنة «إن لمة كثيفة من الشعر فوق الرأس تزيد في الوجه الجميل جمالاً. وتضفي على الوجه المنفرّ رهبة وتشيع في النفس رعباً».

وعند وصولهم ميدان القتال، تخفّ تمارينهم الرياضيّة كثيراً ويطرأ تحسّن على ارزاقهم، وترتخي قبضة الضباط الصارمة عنهم. ولذلك كانوا الشعب الوحيد الذي يجد راحته في الحرب. ولما ينتظر صفوف جيشهم للقتال امام العدو القريب، يضحّي الملك بمعزاة[٥٠]. ويأمر الجنود أن يحيطوا رؤوسهم بقلائدهم، ويشير على النافخين بالسرناي ان ينفخوا نشيد[٥١] [كاستور] العسكري ويبدأ هو نفسه بانشاء [پايان Paean][*] التقدم الى الأمام. ويلوح للنظر فجأة منظر مهيب رهيب، كتلة قراصة تزحف الى الأمام على انغام السّرنايات، لا يختلّ لها نظام، ولا يعتور اذهان اعضائها تردد أو تهيبّ، ولا يطرأ أيّ تغيّر على ملامح وجوههم وهم يتقدمون بنفوس هادئة مطمئنة منشرحة الى القتال الدمويّ على انغام الموسيقي. رجال في مثل هذا التكوين قليلاً ما عرفوا معنى الخوف أو التهيب من الشدّة. وانما يملأوهم الإقدام والبأس الذي يدفعه الأمل والثقة. كأنّ ربّا من الارباب يرعاهم ويقود خطاهم. ويلازم جانب الملك دائماً شخص توّج بالغار في الألعاب الاولمپية. وعلى هذا الأساس قيل أن لاقونياً رفض هدية كبيرة جداً شريطة أن يخرج من قائمة اللاعبين المتسابقين وعندما تمكن من خصمه في السباق وغلبه بكلّ سهولة صاح به المتفرجون «والآن ما الفائدة التي جنيتها من انتصارك أيها السيد الليقديموني؟» فأجابهم باسماً «سأقاتل مع الملك جنباً لجنبٍ».

وبعد ان يلحقوا الهزيمة بالعدوّ. يطاردونه حتى يثبت لهم النصر تماماً، ثم يصدر أمر التقهقر. لأنهم يرون من الضعة والحقارة لشعب أغريقي أن يفتك ويذبح رجالاً استسلموا وانتهت كل مقاومتهم. وهذا الاسلوب في معاملة اعدائهم يفصح عن كرم نفسٍ عالٍ فضلاً عن

---

(٥٠) يقول (كزينفون) ان الملك الذي يقود الجيش كان عليه ان يضحيّ لكلّ من جوپتر ومينرڤا عند حدود مملكته. وربما خُمت (الميوزات) الى مينرڤا بوصفها حاميةً للعلوم والفنون.

(٥١) كذا كان يدعى. وربما نظمه البطل نفسه او لعله يتضمن تفاصيل عن مآثره.

(*) بالاغريقية Paian وهو نشيد لابولو الپاياني، وقد يكون موجهًا الى الربة [ارطميس] أخذه الرومان عن الأغريق. وأصبح مرادفاً لاي نشيد أو شكرٍ على نجاة.

كونه سياسة حكيمة فعندما يعلم العدو انهم لايَقتِلون إلاّ من يبدي مقاومة، ويؤمنون الباقي على أرواحهم، يجد عادةً في الفرار خير طريق للنجاة.

ويزعم [هيپيوس Hippius] السوفسطائي أن ليكورغوس نفسه كان جندياً عظيماً وقائداً محنكاً. ويعزو اليه [فيلوسطيفانوس Philostephanues] أول تقسيم للخيالة الى كوكبات تتألف من خمسين وتسير على شكل مربعات. الاّ ان [ديمتريوس] الفاليرياني يخالفه تماماً بقوله أن كل القوانين التي وضعّها كانت لإغراض السلّم والحق يقال إن الهدنة الاولمپية المقدسّة. او ايقاف القتال التي وجدت بمساعيه ومجهوداته، تميل بي الى الاعتقاد بأنه رجل عطوفٌ رقيق القلب، يحّب السلام والاستقرار، بصرف النظر عن كلّ ما يرويه لنا [هرميپوس Hermippus] عنه بخصوص الهدنة. وزعمه أنه لا فضل له فيها ،ان [ايفيتوس] وحده هو الذي أوجدها، وان ليكورغوس كان أحد الحاضرين عند عقدها وبمحض الصدفة ليس إلاّ. فقد كان هناك وسمع صوت رجل من خلفه يلومه ويعجب منه لأنه لم يشجع بني قومه على المشاركة في الاجتماع. فالتفت ولم ير أحداً، فاستنتج أنه صوت السماء ولذلك أسرع حالاً الى [اينيتوس] وباشر في مساعدته على أقامة احتفالات ذلك العيد الذي كان بمساعيه ومجهوداته أثبت بناءً، وأعظم شهرة من السابق.

ولنعد الى الليقديمونيين، بقى النظام سارياً عليهم حتى بعد بلوغهم مبلغ الرجال لا يسمح لايّ منهم أن يعيش على هواه، وكانت المدينة أشبه شيء بمعسكرٍ فيه لكل شخص سهمه من الرزق وأسباب المعيشة والعمل مجدّد ومقنن والمواطن لا ينظر الى نفسه كفرد ولد ليعيش لذاته وفائدته الخاصّة، بقدر ما يعيش لبلاده ولأجلها. لذلك إن لم يؤمروا بعمل شيء ما، تراهم يذهبون لرؤية الصبيان وهم يقومون بتمارينهم كي يعلموهم شيئاً مفيداً أو ليتعلموا ممن هم أخبر به منهم والحق يقال أن من أعظم وأرفع النعم التي حباهم بها ليكورغوس هو كثرة ساعات الفراغ التي نجمت عن منعه ممارسة ايّ حرفة أو تجارة رخيصة وضيعة. فأما عن مهنة جمع المال وهي تعتمد على كثرة الحركة المتعبة والمزعجة ومقابلة الناس وعقد الصفقات فلم يكونوا بحاجة اليها في دولةٍ لا يلقى الغنيّ فيها أي احترام أو تجلة وكان قوم (الهيلوت) يستنبتون الأرض لهم ويدفعون لهم سنوياً الكميّة المتفق عليها عيناً، دون اي متاعب. وفي هذا الصدد تروى حكاية عن لقيديموني اتفق وجوده في اثينا اثناء انعقاد المحكمة وأخبروه عن حكم أحد المواطنين باداء غرامة لأنه كان يعيش عاطلاً لايعمل شيئاً وأن أصدقاءه رافقوه الى منزله للتسرية عنه وهو في أشدّ حالات الألم والتعاسة، فأدرك اللقيديموني العجب من هذا ورغب من صديقه أن يريه ذلك الشخص الذين أدين لكونه يعيش عيشة المواطن الحُرّ. كانوا

يعدونّ الاحترام التافه للوقت، والاهتمام بالفنون اليدوية، وجمع النقود ، أعمالاً أقلّ قدراً منهم بكثير. ولسنا بحاجة للقول أن خطر التعامل بالذهب والفضّة أدى الى زوال الدعاوى القضائية حالاً، اذ لم يعد يوجد في مجتمعهم فقرٌ ولا حرص، بل ساد العدل؛ وراح كل فرد ينال ما هو في حاجة اليه، وعلى وجه الإستقلال لأن تلك الحاجات محدودة قليلة وكانوا ينفقون كلّ أوقاتهم - ما عدا ساعات تمارين الميدان والحرب - في اجواق الرقص، والمواكب والصيد والقنص، أو مشاهدة التمارين الرياضية في ساحات اللعب. وأولئك الذين تقلّ اسنانهم عن الثلاثين[٥٢] لا يذهبون الى السوق أبداً وانما يقضي حاجتهم من المؤن والارزاق أقربائهم وأصدقائهم وليس مما يشرف كبار السنّ أن يروا متسكعين هناك باستمرار بدلاً من قضاء القسم الأكبر من النهار في ساحة التمارين التي يطلق عليها [لسخاي Leschai] اذ لو انهم اجتمعوا هنا لقضوا وقتاً مستمراً، واحدهم مع الآخر.

لا بخصوص كسب المال، أو السؤال عن أسعار السوق بل في الحكم على عملٍ من الأعمال يستأهل تبادل الرأي فيه على الأغلب. مُكبرين في الأخيار مآثرهم عائبين على الاشرار مثالبهم بأسلوب يمتاز الفكاهة، ويخلو من القسوة، وتتخلل احاديثهم التي لا تحمل الكثير من الطابع الجدي - دروساً في النصيحة، والارشاد الى طريق التقدم. ولم يكن ليكورغوس بذلك الرجل المتشدّد الصارم الفائق عن الحَدّ، فهو الذي اقام تمثال [الضحك] الصغير على ما يذكر [سوسيبيوس Sosibius] ، الذي يقول أيضاً، إن المرح المقبول يشيع بينهم في أوقات العشاء، وفي محلات الولائم العامة، فيكون بمثابة حلوى ومقبلات يلطف من حياتهم الخشنة الصارمة. والإجمال نرى أن ليكورغوس صاغ السپارطيين بشكلٍ ما عادوا يستطيعون أو يقبلون العيش كل لنفسه على وجه الانفراد. لقد انقلبوا فهم كيانٌ واحدٌ موقوف على النفع العام، تراهم يتجمعون حول قائدهم مثل دَبْر النحل. وقد أنسلخوا انسلاخاً تاماً عن «أنيّتهم» بدافع الحماسة وروح الجماعة التي سادتهم، فتفانوا في خدمة بلادهم وتسابقوا اليها. وأقوالهم هي خير ما يظهر به أحاسيسهم ومشاعرهم في هذا المآل.

لم يُقبل دخول [پيدايراتوس Paederatus] في قائمة الثلاثمائة فعاد الى بلده ضاحك السَنّ مسروراً لأن في سارطة ثلاثمائة من الرجال كلهم خير منه[٥٣]. وكان پوليقراتيداس

---

(٥٢) يقولون انه سنّ البدء بالخدمة العسكرية. لكن لما كان القانون يقضي ببقائهم في الخدمة حتى سن الاربعين فالمعقول هو ان سنّ الخدمة العسكرية لم يكن ثابتاً.

(٥٣) يقول كزنيفون ان الايفوري اعتادوا تعيين ثلاثة ضباط. وكل ضابط ينتقي مائة من أفضل ما يجده والشخص المنتقى يعتبر اختياره شرفاً عظيماً.

Polycratidas من ضمن وفدٍ ارسل في سفارة لنوّاب ملك الفرس. فسألوه هل كان قدومهم بصفتهم الشخصيّة. ام بصفة رسمية عامة؟

فأجاب: «بصفة عامة أن نجحت سفارتنا، وبصفة شخصية إن فشلنا وسألت [ارغيليونيس Argileonis] بعض القادمين من [امفيپوليس Amphipolis]. هل مات ابنها [براسيداس Brasidas][٥٤] ميتة الشجاع كما هو جدير بالسپارطي؟ ولما بدأوا يثنون عليه أعظم الثناء قائلين «لم يبق له نظير في سپارطا» ردّت عليهم قائلة «دعكم من هذا القول، كان [براسيداس] رجلاً شجاعاً طيباً، ولكن هناك الكثير ممن يفوقه في سپارطا».

قلت سابقاً أن مجلس الشيوخ تألف من أعوان ليكورغوس ومساعديه الأصيلين في خططه واصلاحاته. أما الشواغر فقد أمر ان تُملأ بخير الرجال وأكثرهم استحقاقاً ممن جاوز الستين من عمره وليس ثم مدعاة للعجب أن كانت العضوية فيه مصدر تنافس عظيم. فأي تنافس بين الرجال أسمى من التنافس لا على من هو أسرع عدواً من أسرع العدائين، أو أقوى جسماً من الأقوياء، بل على من هو أوفر حكمة بين كثير من الحكماء ومن هو الأصلح من الصلحاء، والانسب ليعهد اليه بالسلطة العليا في الجمهورية وبالسلطان على حياة، وحقوق ومصالح بني قومه العليا كمكافأة على سجاياه وقابلياته؟ أمّا الطريقة التي يجرى بها انتخابهم فهي كما يلي يدعى الشعب لاجتماع عامٍ، ويختار منهم عدد، ويؤخذون الى غرفةٍ قريبة من مكان الانتخاب ويغلق عليهم بابها فلا يرون أحداً ولا يراهم أحدٌ[٥٥]، ولكن يسمعون أصوات الاجتماع في الخارج لأنهم يقررون الأمر من هتافات الجمهور، كما يقررون معظم شؤون الساعة الخطيرة. وبعد ان يتمّ ذلك، لا يؤتى بالمرشحين المتنافسين ويقدمون للجمهور معاً بل يتقدم واحدٌ بعد آخر بموجب قرعةٍ، فيشخص المرشح أمام الجمهور بدون أن ينطق بحرفٍ. ويزوّد الأشخاص في الغرفة، بمناضد للكتابة، ليدونوا كل هتاف، ويقدروا قوته ويسجلوها دون أن يدروا لمصلحة من كان ذلك الهتاف. بل مجرد كتابتهم انه الهتاف الفلاني بالشدة وبمقدار كذا هو للأول أو للثاني أو الثالث وهكذا. فمن يكون قد حاز أكثر وأعلى الهتافات والتشجيع

(٥٤) انتصر هذا الجنرال اللقيديمي على الآثينيين في معركة بالقرب من امفيپولس المقدونية الواقعة على ضفاف نهر ستريمون. لكنه خرّ صريعاً في المعركة (ثوكديدس ٥:١٠).

(٥٥) كانت هذه الطريقة مشوشة غير مؤكدة للتوصل الى من فاز بأغلبية الاصوات فكثيراً ما كانوا يضطرون الى فصل الناس وعدّ الاصوات والدليل على هذه الصعوبة ما حصل في احدى المناسبات للانيورس المدعو ستينلايداس [توكيديدس ١:٨٧]. يظن ارسطو أن على الناس عدم ترشيح انفسهم في مثل هذه الأحوال ولا ان يطلبوا المنصب أو العمل بل يجب ان يطلب منهم بدعوةٍ، بسبب كفاءاتهم أو اهليتهم (السياسة ٢:٧).

ينصب شيخاً في الحال. وعندئذ يوضع أكليل غار على رأسه. ويسير في موكب حافل ليزور كل المعابد ويقدم شكره للأرباب. يتبعه عدد عظيم من الفتيان وهم يهتفون له، والنساء وهن ينشدن الشعر تكريماً وتعظيماً لفضائله، متمنيات السعادة له في الحياة. وبسيره على هذا الشكل خلال المدينة. يبسط كل صديق أو قريب له، مائدة طعام ويقول: «المدينة تكرمك بهذه المأدبة». اما هو فبدلاً من قبولها - ينصرف عنها الى المائدة العامة التي أعتاد انه يتناول عليها طعامه سابقاً، وتعطى له وجبته باضافة شيء اليها فيتسلمها ويضعها أمامه. وبعد ختام العشاء تتجمع قريباته النسوة عند الباب. فيختار من بينهن، أعظمهن مكانة عنده، ويقدم لها الوجبة الاضافية التي نحّاها. وهو يقول انها كانت دليل تكريم له، وهي الآن دليل تكريمٍ لها. وبهذا تنال منزلة كبيرة في البيت ويقوم سائر النسوة على خدمتها.

وبصدد دفن الموتى استحدث ليكورغوس نظاماً ينطوي على حكمة كبيرة، فلأجل القضاء أولاً على جميع الخرافات سمح لهم ان يدفنوا موتاهم داخل المدينة بل سمح ان نقام انصابهم حتى حول المعابد وقصده من هذا أن يتعودّ الفتيان هذه المناظر. وان لا يخافوا رؤية الجثة[٥٦]. وان يتصوروا أن لمس جثة أو وطء قبرٍ يصيبهم بالنجاسة. وأمر ثانياً - أن لا يدفن شيء مع الجثث إلاّ بعض اوراق من الزيتون إن شاؤا مع الكفن الأحمر الذي يلفون الجثة به[٥٧] ولم يسمح بنقش اسماء الموتى على الاضرحة إلاّ لأولئك الذين سقطوا في الحرب صرعى. أو للنسوة اللاتي يقمن بالواجبات الدينية. وحدّد وقتاً جدّ قصيرٍ للحِداد، لا يزيد عن أحد عشر يوماً، وفي اليوم الثاني عشر يقربون للرب [كيريس Ceres] وينتهي كل شيء وهكذا نرى في الوقت الذي وضع حداً لكلّ التوافه من الأمور بدت الأمور الهامة الضرورية وليس فيها صغير أو زهيد إلاّ ويعبر عن إكبار للفضيلة، وشجبٍ للرذيلة. لقد ملأ بلاد لقيديمونيا كلها بدلائل وأمثلة عن أحسن السلوك. تلازمه فكرة واحدة وهي أن افراد الشعب منذ عهد الشباب فصاعداً لايمكن أن يقفوا حيث هم في مجال الفضيلة والصلاح وانما يتقدمون بالتدرج المطرد.

ولهذا السبب منعهم في السفر الى الخارج، والانتقال في البلاد الأخرى للتعرف بأجهزة الحكم الاجنبيّة، والاخلاق السائدة فيها، واكتساب عادات الناس السيّئ التهذيب، وذوي

---

(٥٦) جرت العادة في عموم بلاد اليونان والرومان ان يدفن الموتى على جانبي الطرق الخارجية. والسبب في ذلك هو المحافظة على الصحة العامّة. ومهما يكن السبب الخرافي الذي قرن بهذا. فاننا نجد ليكورغوس يرفض كلّ ما يتعلق بالعدوى. وقد جاء من هنا عادة حرق جثث الموتى ووضع الرماد المتخلّف في أوعية. ولم يقم ليكورغوس بالغائها.

(٥٧) يخبرنا ايليان (٦:٦) ان الاكفان الاحمراء واوراق الزيتون انما هي للموتى من المواطنين البارزين في مجال الخدمة العامة ولاسيما في الحرب وليست مباحة للجميع بدون تفريق.

الآراء المختلفة في أسلوب الحكم. وكذلك نفى كل الأجانب الذين لا يتمكنون من عرض سبب وجيه مقنع لمجيئهم، لا لخوفه من مدارستهم شكل حكومته وتقليدها كما يزعم [ثوسكيديدس]، أو أن يتعلموا شيئاً ينفعهم، بل لئلا ينشروا أموراً مضادة للآداب العامة. فبوجود غرباء، يجب التسامح في الكلمات الغريبة، وتلك البدع تنتج بدعاً فكرية، ويستتبع ذلك آراء ومشاعر تتلف صفاتها الشاذة قوام الدولة المتناسق. كان مهتماً بانقاذ مدينته من العدوى بالأخلاق السيئة الأجنبيّة، قدر ما يهتمّ الناس عادة بدفع الطاعون عنهم.

والى هنا لا أجد أنا شخصياً أي شيء ينمّ عن ظلم وعدم مساواة في قوانين ليكورغوس. مع أن بعض الذين يقرون أنها صالحة للغاية لتربية خير الجنود، يرونها معيبة من ناحية العدالة. وربُمّا كانت شريعة «الكريتيا Cryptia»(٥٨) (هذا اذا كانت قانوناً من قوانين ليكورغوس كما يقول ارسطو)، تجعل ارسطو وافلاطون على السواء يريان هذا الرأي في ليكورغوس ونظام حكمه. فبمقتضى هذا القانون يرسل الحكام بصورة سرية عدداً من أقدر الشبان الى انحاء البلاد بين الفينة والفينة وليس معهم من سلاح غير خناجرهم، ولا من القوت الا الضروري القليل. فيخفون أنفسهم ليلاً في مواضع بعيدة أعين الرقباء ويبقون هكذا حتى يجنّ الليل فيخرجون من مكامنهم وينبثون في الطرق العامة ليقتلوا اي هيلوتي يصادفونه واحيان يثبون عليهم نهاراً وهم في اعمال الحقل منشغلون ويذبحونهم، وعلى ما روى لنا [ثوكيديوس] في تاريخه عن حرب البيلوبونيس، إن عدداً كبيراً من هؤلاء بعد أن اتم

---

(٥٨) كلّ المؤلفين كتبوا مستنكرين قسوة اللقيديميين على الهيلوت. وان حاول بلوتارخ المعجب الكبير بالسپارطيين التخفيف من وطأة ذلك جهد ما امكنه. ان هؤلاء المساكين البائسين ميزوا بالعبودية في شتّى مظاهر حياتهم اليومية حتى في ثيابهم وحركاتهم. فقد رُسم لهم ان يغطوا رؤوسهم بجلود الكلاب ويرتدوا صدُراً من جلود الغنم. ويحظر عليهم تعلم اي فنّ من الفنون الحرة. او الاقدام على اي هو من لياقة اسيادهم ويضربون مرة في اليوم بالسياط لئلا ينسوا بانهم عبيد. فضلاً عن هذا منهم معرضون (الكريتيا) وتلك عقوبة لاينجو منها مطلقاً كل من يتكلم أو ينظر أو يمشي أو يتحرك مثل الانسان الحرّ! يحاول بلوتارخ ان يثبت لأعمال القسوة والوحشية تاريخاً ابعد بكثير من عهد ليكورغوس فيزعم، انها ما طبقت الاّ بسبب انضمام الهيلوت الى المسينيين بعد الزلزال المدمر الذي وقع في ٤٦٧ ق.م. فهدم جزءً كبيراً من لقيديمون، وفتك باكثر من عشرين الف سپارطي. لكن ايليان يذكر بكل وضوح ان الرأي السائد في بلاد الاغريق هو أن هذه الهزة الارضية المدمرة كانت حكماً سماوياً عوقب به السپارطيون لمعاملتهم اللاإنسانية للهيلوت.

ويقول م. بارثلمي في [رحلات اناخارسيس] ان الكريپتيا كما فرضها ليكورغوس لم تكن الاّ نوعاً من التمهيد للعمليات الحربيّة، حيث يقوم الشبان بنصب كمائن وشنّ هجوم ليلي خارج المدينة. غير قاصدين ان يكون ذلك ضد الهيلوت. وان اعمال القتل فيهم ربما بدءَ في زمن كتابة رسالة افلاطون في الشرائع. بسبب مقاومة الهيلوت لتلك الغارات الليلية. فاذا بالتمارين تغذو قاصرة على مطاردة هؤلاء العبيد المساكين وتنوسي الغرض الأصلي منها.

السپارطيون اختيارهم لبسالتهم، توجوا بأكاليل الغار ومنحوا امتياز المواطنة وحقوقها وطيف بهم كل المعابد تكريماً لهم وتعظيماً. ما لبثوا أن اختفوا جميعاً بصورة فجائية. وكان عددهم يقارب الألفين. ولم يستطع أن يتوصل أحد لا في حينه ولا بعده، الى كيفية موتهم. ويضيف ارسطو الى ذلك قوله أن «الايفوري» ما أن تسلموا مقاليد الحكم حتى أعلنوا الحرب عليهم واتقوا بأن ذبحهم حلال لايحرمه الدين. ويجمع الكتاب قاطبة» أن السپارطيين عاملوهم باشدّ القسوة، اذ كان من الأمور الاعتيادية ارغامهم على أن يتناولوا قدراً كبيراً من الخمر حتى يثملوا فيقودونهم وهم في هذا الوضع الى قاعاتهم العامة حتى يشاهد الأحداث ماذا يفعل السكر في الانسان ويجبرونهم على أداء رقصات خليعة وضيعة وغناء مقطوعات مضحكة قبيحة ويمنعونهم من انشاء أناشيد جيدة منعاً صريحاً حتى انه لما غزا الثيبيّون لاقونيا(٥٩) وأسروا عدداً كبيراً من الهيلوت حاولوا عبثاً أن يحملوهم على انشاد قصائد من [ترپاندر(٦٠)] أو [الكْمان Alcman] أو [سپندون Spendon]. وكانوا يجيبون قائلين: «لا، ان سادتنا لا يريدون!» وصدق من قال: «في سپارطه. الحُرّ يملك أعظم الحريّة، والعبد فيّها أتعس العبيد في العالم». وفي رأيي ان هذه المظالم والاضطهادات بدأت تمارس في سپارطة في زمن متأخر جداً لاسيما بعد حصول الزلزال العظيم(٦١) وقيام الهيلوت بانتفاضة عامة، فقد ضموا قواتهم الى المسينيين واجتاحوا البلاد وخربوها والحقوا الخطر الجسيم بالمدينة. لأني لا أستطيع اقناع نفسي الى إسناد سلوك بربريّ شرير كهذا لليكورغوس، لما عُرف به في اللطف والدماثة وحب للعدل في كل المناسبات الأخرى، وهو ما تشهد به النبوءة أيضاً.

عندما تأكد أن تنظيماته الاكثر أهميّة قد رسخت جذورها في عقول بني قومه وان العادة جعلتها سهلة المتناول محبوبة، وان جمهوريته باتت ثابتة رصينة لا تحتاج الى معين، ويمكنها أن تمضي في سبيل التقدم وحدها «عندئذ شعر بالسعادة كما شعر خالق الأرض بالارتياح وهو يراها كائنة متحركة» على حَدّ قول افلاطون. اجل شعر ليكورغوس بالفرح وهو يتطلع الى عظمة بنائه السياسي وجماله وهو يعمل ويتحرك. وتملكته فكرةٌ وهي أن يجعل نظامه هذا باقياً ما بقي الجنس البشري ينقله الخلف عن السلف. وعقد اجماعاً عاماً استثنائياً حضره

(٥٩) في عهد ايپامنناس. بعد معركة ليوكترا في ٣٧١ ق.م.

(٦٠) شاعر غنائي شهير ولد في حدود الاولمپياد السابع والعشرين في (ساردیس) من اعمال (ليديا) لكن جيء به وهو صغير الى ليقديمون وأستغلّ عبداً إلاّ ان عبقريته الشعرية أمنت له العتق والحرية.

(٦١) وقع هذا الزلزال في عهد [ارخيداموس] في حدود المائة الخامسة ق.م فدمّر المدينة وابتلع عشرين الف سپارطيّ ورجّ جبل (تايفتوس) رجاً عنيفاً. ويعزو پلوتارخ هذه النكبة في موضع آخر الى سلك السپارطيين ازاء بنات [السبوس] يخلاف ما يراه ايليان من ان ما حلّ بهم كان بسبب معاملتهم السيئة للهليوت.

الشعب جميعاً، وقال لهم. إنه يرى الأمور قد استقرت بشكل مناسب معقول لأجل سعادة الدولة وصلاحها. على ان شيئاً في غاية من الأهمية كان يراه ناقصاً ولم يشأ التصريح به حتّى تنزل عليه نبوءة فيه. وانه يرغب منهم في الوقت عينه أن يطيعوا القوانين ويطبّقوها دون أي تغيير حتى عودته وعندئذ سيفعل ما تأمر به الآلهة. فأسرع الجميع للموافقة ورجوه أن يعجلّ في رحلته. وقبل أن يفارقهم جعل الملكين واعضاء مجلس الشيوخ والعامة جميعاً يقسمون يميناً بالابقاء على أسلوب الحكم الراهن حتى عودته. ولما تمّ ذلك انطلق الى [دلفي]، وقربّ لابولو ثم سأله هل أن القوانين التي وضعها جيدة، كافية لسعادة الشعب وصلاحه؟ فجاءت النبوءة بأن القوانين ممتازة جداً وان الشعب بالخضوع لها سيبلغ أعلى مراقي التقدم والرخاء فقام ليكورغوس بكتابة النبوءة وبعث بها الى سپارطا ثم قربّ لابولو ثانيةً. وأستأذن من أصدقائه وأبنه وغادرهم وهو على يقين بأن السپارطيين لن يحنثوا بالقسم الذي أدوّه، وانه لذلك يجب أن يختتم حياته العامة بالشكل الذي يجده مناسباً وهو لايزال في السن التي تكون فيه(٦٢) الحياة عبئاً والموت مرغوباً فيه وفي حين كان كل ما حوله في حالة طيبة راضية، فأنهى حياته بالامتناع عن تناول الطعام معتقداً اته واجب السياسي ان يجعل في موته. إن أمكن - خدمةً للدولة. وان يقدم حتى في ختام حياته مثلاً من أمثلة الفضيلة، ويحقق غرضاً مفيداً. انه من ناحية يتوّج ويختم سعادته الخاصّة بموت جدير بمثل هذه الحياة الكريمة ومن ناحية أخرى يضمن لبني قومه التمتع بالمنافع التي انفق حياته كلها في سبيل كسبها لهم بعد أن اقسموا الايمان المغلظة على البقاء امناء مخلصين لتنظيماته حتى عودته. ولم يكن مخطئاً في آماله. لأن مدينة ليقديمون بقيت المدينة الرئيسة في كل بلاد الاغريق زهاء خمسمائه عام. وظلت تحافظ محافظة دقيقة على قوانين ليكورغوس. وخلال هذه المدة كلها لم يحصل فيها شيء من التغيير اثناء حكم اربعة عشر ملكاً ختموا (بآغيس) ابن [ارخيداموس Archidamus] فانّ استحداث منصب «الايفوري» وان كان قد ظنّ أنه لمصلحة الشعب، إلاّ أنه زاد من ملامح الحكم الارستوقراطية(٦٣) وبرزها الى اقصى حّدٍ بدلاً من أن يخفف من غلوائها.

وفي اثناء حكم [آغيس]، بدأ الذهب والفضة لأول مرة يتدفقان الى سپارطا، ومعها جاء كلّ الوذائل والشرور التي تصاحب الرغبة المفرطة في الثراء. وزاد [ليساندر] من هذه الفوضى

(٦٢) ومع هذا يقول لوسيان ان ليكورغوس كان في الخامسة والثمانين عندما قبض.

(٦٣) ينكر ارسطو ذلك [السياسة ٢:١٧] والواقع انّه غير ممكن وليس معقولاً ان يقوم الضباط المزودون بمثل هذه السلطة العظيمة بابطال الجزء الديمقراطي من الدستور الذي كان له الفضل في توليهم تلك السلطة.

بحلبه الاسلاب والغنائم الحربية الثمينة فملأ بلاده بمظاهر البذخ والترف وان كان هو نفسه رجلاً مستقيماً[٦٤]، وأبطل قوانين ليكورغوس ومراسيمه. اذ ما دامت تلك القوانين نافذة المفعول في سپارطا فقد كانت تبدو أقرب الى حياة رجل حكيم ذي خلق حميد منها الى حكومة سياسية لشعبٍ من الشعوب. وكأسطورة الشعراء التي ألفوها عن هرقل، وهي تجواله في البلاد معاقباً الطغاة القساة، والأشرار المجرمين بجلد اسده وهراوته، كذلك ما قيل عن اللقيديمونيين بأنهم تمكنوا من كسب خضوع كلّ الاغريق الطواعي الودود، بعكّاز بسيط وبرداء خشن واستمروا طوال الوقت يحاربون الطغيان والفساد والعدوان، ويتدخلون كوسطاء لفض الحروب، وانهاء النزاعات المدينة. ولم يكلفهم هذا في أغلب الأحيان تحريك جندي او درعٍ واحد بل بمجرد إرسال مندوب واحدٍ، يخضع الجميع لتوصياته دونما اعتراض. ذلك هو الرصيد من النظام والمساواة الذي وجد في دولتهم وكان يفيض على الآخرين بالكثير من النعم والخيرات.

ولذلك لايسعني إلاّ أن أعجب من أولئك الذي يقولون ان السپارطيين خير الرعايا، واسوء الحكام، وبرهاناً على هذا، ينسب قول الى الملك [ثيوپوميوس]. عندما قال أحدهم أمامه: «أن سؤدد سپارطا ما بقي هذه المدة الطويلة إلاّ لأن ملوكها كانوا من القادة المحنكين.» اجابه قائلاً: «كلاّ بل لأن الشعب يعرف جيداً كيف يطيع». ذلك لأن الشعب لايطيع حكامه إلاّ اذا أتقنوا فن القيادة والحكم. والطاعة هي درس يلقنه القادة. والزعيم الحقيقي يخلق بنفسه طاعة اتباعه، وكما أن الغاية الأخيرة لفن ركوب الخيل هي تذليلها وكسر شكيمتها، كذلك هو فن الحكم، فانه يهدف الى اشاعة وايحاء الرغبة في الطاعة بين الناس، واللقيديمونيون لم يكتفوا بالايحاء بهذه الرغبة، بل تَعدّوها الى كسب رغبتهم المطلقة ليكونوا رعايا خاضعين لهم. ولم يكن هؤلاء يطلبون من السپارطيين ارسال سفن ومال ونجدات عسكرية لهم. بل كانوا يطلبون قائداً سپارطياً واحداً فحسب. وهم ينزلون هذا القائد ارفع منزلة من التجلّة والاحترام. وهو ما كان موقف الصقليين في [غيليپوّس Gulippus] وموقف [الخلقيديين Chalcidians] من [پراسيداس] وموقف كلّ اغريق آسيا[٦٥] من [ليساندر وآغيسلاوس وكالليكراتيداس Cal-

(٦٤) يذكر [سيستوس] نقلاً عن [ديودورس ١٠٦:١٨] أنه جلب الى سپارطا الفاً وخمسمائة تالنت من الذهب فضلاً من غيره من النفائس ويخبرنا كزنيفون ايضاً انه عند استيلائه على اثينا بعث الى سپارطا بالكثير من الغنائم الثمينة ومن بينها (٤٧٠) تالنت من الفضة.

(٦٥) ارسل السپارطيون [غليپوس] للدفاع عن [سيراقوز] عندما غزاها الاثينيون بقيادة [الكيپيادس]. واما الخلقيديون الذين صُرع (براسيداس) اثناء ما كان في خدمتهم فلم يكونوا من [خلقيس] [يوبويا] بل من جوار [امفيپوليس]. وباغريق اسيا يعني كلّ سكان آسيا الصغرى وايونيا والجزر المجاورة. و[كالليكراتيداس] هو أمير بحرٍ ليقديموني في نهاية حروب الپلوپونيسيس.

lacratidas] ولم يبخل عليهم الأقوام أو الأمراء الذين ارسلوا لهم بالقاب «البناة والمقتّصين». وكانت انظارهم دوماً شاخصة الى مدينة سپارطا نفسها بوصفها اكمل نموذج للسجايا العالية والحكم الصالح في حين أعتبر باقي الاغريق مجرد علماء واساتذة وقد أشار الى هذا [ستراتونيكوس Stratonicus] بنوع من الفكاهة، عندما اقترح مازحاً أن يُسنّ قانونٌ يدير الآثينيون بموجبه شؤون المواكب الدينية والطقوس المقدسة الخفيّة، ويشرف الاليائيون على الالعاب الاولمپية، واذا هفا واحدٌ منهما أو اخطأ فيجب أن يُعاقب اللقيديميون بالضرب(٦٦). وقال آنتسيتنس بلهجة جدية (وهو أحد متتلمذي سقراط) عن [اليثبيين] عندما استخفهم الطرب بانتصارهم في [ليوكترا Leuctra](*)، أنهم أشبه بصبيان المدرسة الذين ضربوا معلّمهم.

ومهما يكن من أمر، فإن ليكورغوس لم يرد لمدينته أن تحكم عدداً كبيراً من المدن الأخرى. بل كان يرى أن سعادة الدولة كسعادة الفرد من البشر، هي في ممارسة الفضائل أساساً، وفي وحدة السكان. لذلك كان هدفه في كل تنظيماته أن يجعل قومه أحراراً بالفكر، مستقلين بالنفس، أقوياء الارادة. لذلك، فإن كل أولئك الذين أجادوا الكتابة في السياسة امثال افلاطون وديوجينس Diogenes وزينو Zeno، أتخذوا ليكورغوس نموذجاً لهم. لقد ترك هؤلاء وراءهم كلمات وأفكاراً فحسب في حين أن ليكورغوس كان منشئ نظام حكم لا كتابةً بل حيقيقة واقعة، حكومة قصر الآخرون عن تقليدها واستنساخها(٦٧). وفي الوقت الذي اعتبر الناس الطبيعة الفلسفية الفردية شيئاً لايمكن بلوغه، نجده بالمثل الذي ضربه من دولة ذات فلسفةٍ كاملة، قد ارتفع وسما فوق كل واضعي القوانين في بلاد الأغريق. ولهذا قال ارسطو أن الإكرام الذي اكرموه في لقيديمونيا بعد وفاته كان أقلّ مما يستحق. مع أن لديه هناك معبداً يقدمون فيه القرابين اليه سنوياً كأنه اله.

(٦٦) لأن المعلمين يحاسبون على اخطاء تلاميذهم ان أصل النكته ولبابها هو هذا: أعتاد اللقيديميون انزال العقاب بالوالدين أو المتبنيّن ولداً اذا ارتكب ابنهما أو ابنتهما خطأ أو ضلا سواء السبيل. ولما بات اللقيديميون الآن معلمين للشعوب الأخرى فقد وجب عليهم تحمل القصاص الواقع عليهم جراء اخطاء تلاميذهم!

وستراتونياكوس هو موسيقار آثيني، مدحه (آشينيوس، ٨:٨) لجمال تآليفه، وقابليته على التنكيت. الاّ ان تعلق ابناء وطنه بالخرافات والاوهام أضفى مسحة غلابّة على سحره.

(*) في السنة ٣٧١ ق.م بقيادة ايپامننذاس.

(٦٧) يختلف افلاطون وارسطو عن پلوتارخ في هذا حتى پولپيوس نفسه الذي كان شديد الاعجاب بنظام الحكم السپارطي، نجده يقول ان السپارطي وان كان صاحب انصاف وفضيلة لكن الجماعة قليلو الاهتمام بنشر العدل لا يكترثون بمكارم الأخلاق.

وذكروا ان صاعقة سقطت على الضريح الذي ضم رفاته بعد نقلها الى سپارطا ودفنها، وهي حادثة لم تحصل لرجلٍ عظيم سواه، باستثناء [اڤريپديس] الذي دفن في مدينة [اريثوسا Are-thusa] بمقدونيا[٦٨]. وقد تكون هذه الظاهرة للمعجبين بالشاعر، برهاناً ودليلاً على انه حظي بعين ما حظي به ذلك الرجل القديّس مصطفى الآلهة، يقول بعضهم ان ليكورغوس توفي في [كيّرا Cirrha][٦٩]، ويزعم (ابوللوثيميس Apollothemis] انه توفي بعد مجيئه الى [ايليس Elis]، ويقول [طيماؤوس] و[ارسطوكزينس Arstoxenus] ان حياته انتهت في كريت، ويضيف ثانيهما أن قبره عند الكريتين قائمٌ في منطقة [پرغاموس] بالقرب من «درب الغرباء». وترك ابناً واحداً هو [انتيوروس Antiorus] الذي مات بلا عقب فأنقرضت الأسرة، إلاّ أن أصدقاءه وأقرباءه ظلوا يقيمون له حفل ذكرى سنوياً لوقت طويلٍ، وسميت ايام الاجتماع [ليكورغوس] ويقول [ارستوقراطس] ابن [هيپارخوس][٧٠] انه توفي في (كريت) وان اصدقاءه الكريتيين بناء على طلب منه أحرقوا جثته وذروا رماءها في البحر، خوفاً من أن تنقل عظامه الى لقيديمون، وعندئذ يتخذونها حجّة وتعلّة ليحلوا انفسهم من القسم، ويقوموا باجراء تجديد، في أصول الحكم.

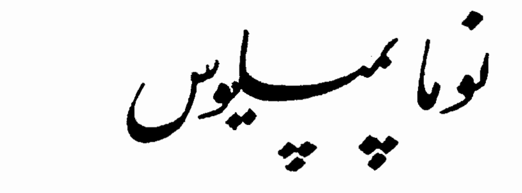
وفي هذا الكفاية عن حياة وأعمال ليكورغوس.

---

(٦٨) هذا اذا كان عاد الى بلاط [ارخيلاوس] على أن ثم ضريحاً له في آثينا.

(٦٩) بلدة بالقرب من دلفي.

(٧٠) مؤلف كتاب في تاريخ لقيديمون. أقتبس فيه آثينيوس ٣:٧.



NUMA POMPOLIUS

715-672 ق.م



مع أن شجرة الأسرة النبيلة تصل بشكل متسلسل دقيق حتى [نوما پوميوليوس] باتفاق المؤرخين جميعاً، فهناك تناقض كبير بين المؤرخين بخصوص زمن حكمه، فثم كاتب يدعى [قلوديوس Clodius]يذكر في كتاب له بعنوان [تعليقات على التاريخ] أن سجلات روما القديمة فقدت عندما نهبها الغاليّون[1]، وان كلّ ما هو موجود منها الآن هو مزيّف، قصد بتزيفه ارضاء ومجاملة بعض الناس الذين يرغبون في ان يتوهموا أنفسهم بأنهم من نسل عريقٍ نبيل في حين أنهم ليسوا كذلك. ومع أن الشائع المعروف أن [نوما] كان من تلاميذ [فيثاغوراس][2] الحميمين، إلاّ ان آخرين ينفون ذلك ويؤكدون أنه لم يكن واقفاً على اللغة اليونانية ولا علومها. وأنه كان رجلاً ألمعيّ الذهن بفطرته، وهُب قابليات طبيعية بلغت به مراقي الفضائل العليا، أو انه عثر على معلم من البرابرة يفوق فيثاغوراس علماً ويؤكد بعضهم كذلك، ان فيثاغورس لم يكن معاصراً لنوما. وانما عاش بعده بخمسة اجيالٍ على الأقل[3]. وان هناك فيثاغوراس آخر وهو مواطن سپارطي، نال جائزة في سباق أولمپي، في الاولمبياد السادس عشر[4]، الموافق للسنة الثالثة من اختيار [نوما] ملكاً. ربما تعرف به في رحلته الى ايطاليا وعاونه على انشاء مملكته ومن هنا كان السبب في ظهور عدة عادات وقوانين [لاقونيّة] بين الأنظمة الرومانية. وعلى أية حال كان [نوما] من نسل سابيني[5]،

(١) ٣٩٠ ق.م.

(٢) لم يزر فيثاغوراس الفيلسوف ايطاليا حتى الاولمپياد الحادي والخمسين اي بعد اربعة أجيال مرت على عصر (نوما) ويضيف (ديون ٢:١٥) الى هذا بأنه لم يهتم بالدراسات الفلسفية في كروتونا وقت انتخابه فان تلك المدينة لم تبنى الاّ في السنة الرابعة من تاريخ اعتلائه العرش.

(٣) ليڤي (١:١٨) يجعله في عهد سرڤيليوس تُلليوس. وشيشرون في الخطب (٢:٢٧) يجعله في وقت متأخر مؤكداً انه قدم ايطاليا على عهد تاركوينوس سوپربوس.

(٤) ٦٥٤-٦٥٧ ق.م.

(٥) أكتشف [ديون ٢:١١] في تاريخ السابين أنه بينما كان ليكورغوس وصياً على ابن أخيه اثنومس (خاريلاوس بلا شك) هرب بعض اللقيديمين الذين لم يستطيعوا احتمال صرامة قوانينه واتجهوا الى ايطاليا فاستقروا أولاً في (بوميتيا) ثم انتقل عدد منهم الى ارض السابين وامتزجوا بهم ولقنوهم عاداتهم لاسيما تلك التي تعلق بالحرب. ودربوهم على الجلد والصبر وشطف العيش. وعلى هذا الأساس تكون هذه الدفعة من اللاجئين قد استقرت في ايطاليا قبل ميلاد [نوما] بمائة وعشرين عاماً.

وذكروا أنهم مستعمرة لقيديمونيّة. والتاريخ على العموم غامض، ولاسيما عندما يحقق على ضوء قوائم الفائزين في الألعاب الاولمپية التي نشرها في زمن متأخر [هيپياس Hippias] الإليائي، وهي لا تستند الى مرجع ثقة. وبابتدائنا من نقطةٍ مناسبةٍ سنباشر في عرض أهم الوقائع المدونة عن حياة [نوما] وأجدرها بالملاحظة.

كانت السنة السابعة والثلاثين (محسوبةً من يوم بناء روما) عندما قام رومولوس الحاكم آنذاك - بتقديم قربان عام في «مستنقع المعزّ» في الخامس من شهر تموز - المسمّى [كابروتين نونس Caprotine Nones] بحضور الشيوخ وأهالي روما. فأظلمت السماء فجأة وخيّمت على الأرض سحب كثيفة صحبها كثير من العواصف والمطر. وفرّ العامة هاربين وقد تملكهم الذعر وتفرقوا أيدي سبأ. وفي هذه العاصفة أختفى رومولوس ولم يعثر على جسمه حيّاً أو ميتاً. وثار شك خبيث في أن غيبته من عمل الپاتريشيان وأنتشرت اشاعات بين الناس بأنهم تآمروا عليه وازالوه من الوجود بعد ان ضاقوا ذرعاً بالحكم الملكي، ونفذ صبرهم في الآونة الأخيرة من المسلك الاستبدادي التحكمي الذي اتخذه ازاءهم. وانهم ارادوا أن يستحوذوا على السلطة وادارة دفة الحكم بأنفسهم. وقد حاولوا تبديد هذه الشكوك وازالتها من الاذهان بالافراط في تكريم رومولوس وجعله في مصاف الآلهة فقالوا لم يمت بل عرج الى السماء وانتقل الى حالة اسمى من حالة البشر وأقسم [پروكلوس] وهو رجل محترم الكلمة بارز الشخصية - بانه رأى رومولوس يصعد الى السماء لابساً ثيابه الملكية وبكامل شكة سلاحه وسمعه يقول وهو يصعد، بأن على الرومان من الآن فصاعداً أن يطلقوا عليه اسم [كويرينيوس].

بعد أن هدأت الخواطر وخمدت الفتنة، ظهرت مشكلة أخرى حول انتخاب الملك الجديدِ، لأن عقول الرومان الأصلاء والسكان الجدد لم تبلغ بعد ذلك المبلغ من وحدة الاتجاه، بل كان ثمّ أحزاب تختلف وجهات نظرها اختلافاً بينا - وكان ثم تنافر وتباغض ما بين الشيوخ أنفسهم. ومع أنهم اتفقوا جميعاً على ضرورة اختيار ملك، إلاّ انهم أختلفوا فيما بينهم على شخصه. فأولئك الذين بنوا المدينة مع رومولوس، وسبق لهم أن نزلوا عن جانبٍ من أراضيهم ومساكنهم [للسابين]، كانوا يستنكرون أي اقتراحٍ يقضي بخضوعهم لحكم من كان موضع احسانهم ورعايتهم. والسابين يزعمون من الجهة الثانية أنهم خضعوا لحكم رومولوس وحده، بعد وفاة ملكهم [طاطيوس] دون شكوى أو تذمرٍ، وقد حان دورهم الآن ليكون الملك من بني جنسهم. ولم يكونوا يعتبرون أنفسهم أدنى منزلةً من الرومان، ولايعدون مساهمتهم في توسيع روما أقل من مساهمة الرومان. فلولا جموعهم الكبيرة ولولا مساعدتهم لكان من العسير أن

تستحق اسم المدينة. وظل الحزبان يتنازعان ويتجادلان على هذه الصورة. وخشية أن يسبب الاختلاف فوضى عامة - بغياب اي شكل من أشكال الحكم والقيادة اتفق على أن يقوم اعضاء مجلس الشيوخ المائة والخمسون دورياً(٦) - بوظيفة الحاكم الأعلى ويكون لكلّ واحد منهم عندما يحين دوره حق استعمال شارات الملك وتقديم القرابين الدينية الرسمية وتصريف شؤون الحكم لمدة قدرها ستّ ساعات نهاراً وستّ ساعات ليلاً، وهذا الانتقال السريع في السلطة والتوزيع العادل لها، سيزيل كل آثار المنافسة بين الشيوخ والتحاسد بين الشعب لما يرون شخصاً يرتفع الى مرتبة الملك، لينخفض الى متسوى فردٍ عادي خلال يوم واحد. وسمّي هذا الشكل من الحكم عند الرومان بالملكيّة الدورية [Interregnum].

على أن هذا الشكل البسيط الساذج من الحكم ما كان يمنع شكوك العامة وتنديدهم، كأنما وجدوا فيه تغييراً في شكل الحكومة ومفضياً الى حكم الأقلية [اوليغارشي] وان الشيوخ ينتوون ابقاء السلطة العليا في ايديهم عن طريق نوع من الوصاية. دون أن يباشروا في اختيار الملك. أخيراً أتفق الحزبان على أن يختار السابين ملكاً من بين الرومان. ووجد أن هذا هو خير حَلّ لأنهاء روح التحزبّ والتكتل. وان الأمير الذي سينتخب سيكون موضع رضى وتعلق أولئك الذين انتخبوه وأولئك الذين انتخب منهم على حدٍ سواء. وترك السابين حق الاختيار للرومان الأولين. وهؤلاء بدورهم كانوا أكثر ميلاً الى قبول ملك سابينيّ ينتخبونه هم، في ان يروا ملكاً رومانياً يختاره السابين ويشايعونه، فعقدت مجالس مشاورة ورشحّ [نوما پومپيوليوس] من شعب السابين(٧). وهو شخص بلغت اخلاقه الساميّة من الشهرة حداً عظيماً، فما أن ذُكر اسمه حتى وافق عليه السابين بحماسةٍ تفوق حماسة الذين انتخبوه. وكان يسكن خارج روما. وبعد أن أعلن الانتخاب للجمهور عين عدد من كبار ووجهاء الحزبين لزيارة المرشح وعرض الحكم عليه. وكان [نوما] يسكن في مدينة سابينيّة مشهورة تدعى [كيوريس Cures] ومنها أطلق السابين والرومان على أنفسهم الاسم المشترك [كيورتيس]. وكان أبوه [پومپونيوس Pomponius] رجلاً فاضلاً، ونوما أصغر بنيه الأربعة وُلد (كما

---

(٦) بحسب دعوى المؤلف كان عدد الاعضاء في عهد رومليوس مائتين. على انّ [ديون] يقول ان الكتاب يختلفون في هذه النقطة. فبعضهم يؤكد اضافة مائة عضو على اتحاد السابين والرومان. وبعضهم يؤكد اضافة خمسين. واما حول شكل حكم النواب الملكيين فـ(ليڤي) يزوّدنا باقرب التفاصيل احتمالاً اذ يقول ان الشيوخ انفسهم انقسموا الى مجموعات عشرية واقترعوا على من يحكم اولاً وثانياً الخ... بحسب ترتيب الاقتراع على أن يكون لشخصٍ واحد فحسب من كل عشرة حاكمة، امتياز حمل شعار السلطة.

(٧) في ذلك الوقت دعا نواب الملك الأهالي ووجهوا اليهم الكلام التالي «ايها الرومان. انتخبوا لأنفسكم ملكاً. ان مجلس الشيوخ موافق. وان انتم أخترتم ملكاً خليقاً بخلافة (رومليوس) فان المجلس سيصادق على انتخابكم». وقد سرّ الشعب جداً بتنازل الشيوخ وعدم استخدامهم صلاحياتهم.

شاءت العناية الرّبانية) في الحادي والعشرين من نيسان وهو يوم بناء [روما]، وقد وهب نفساً نادراً ما هذبت الطبيعة مثلها، تعلقت بالفضيلة والصلاح، وأخضعها بالنظام واخذها بالتثقيف والحياة الصارمة ودراسة الفلسفة وهي وسائل من شأنها أن تطرد النزغات الحقيرة والعواطف الوضيعة فضلاً عن قمعها حدة الطبع، وعنف المزاج. وهي صفات لها مكانة عالية بين البرابرة. وكان رأيه أن الشجاعة الحقيقية تكمن في اخضاعنا عواطفنا للعقل.

كان قد جردّ منزله من كل مظاهر الترف والنعومة. وفي حين كان المواطنون والأجانب على حَدٍّ سواء يجدون فيه قاضياً نزيهاً ومستشاراً لا يرقى الى مشورته شك، فانه انصرف في حياته الخاصة الى عبادة الأرباب الخالدين لا الى اللهو والفسوق. وعكف على التأمل العقلي في قوى الطبيعة، والمقدرة الالهيّة. وبلغ من شهرته أن [طاطيوس] زميل رومولوس في الحكم زوّجه ابنته الوحيدة وجعله ختنه، لكن هذا لم يُغر كبرياءه بالرغبة في العيش مع حميّه في رومه. وفضل الحياة مع السابين، والعناية بأبيه في آخر عمره. وفضلت (طاطيا) أيضاً عيشة زوجها البسيطة الخاصة على حياة الفخفخة والترف التي كانت تتمتع بها وهي مع والدها. وقيل انها توفيت بعد حياة زوجية دامت ثلاث عشرة سنة.

وعندئذ ترك [نوما] ضوضاء المدينة ونزع الى حياة الريف. يتجول في البساتين والحقول، ويؤدي فرائضه الدينية، ويقضي جل أوقاته في الاماكن الخلوية وحده وهذه الوحدة كانت سبباً في حكاية اتصاله بالربّة. خلاصتها أن نوما لم يعتزل المجتمع بسبب حالة من السوداء اعترته، أو لإضطراب عقلّي انتابه، وانما لأنه ذاق مسرات وصال أسمى كثيراً من الوصال البشري، وسمح له بالزواج من الآلهة لّما احبته الرّبة [ايجيريا Egeria][8] وأختصته لنفسها وبذلك نال البركة والحكمة الألهية.

هذه الحكاية تشبه الاساطير الموغلة في القدم كما هو واضح. تلك الأساطير التي انحدرت الى الفريجيين وما زالت تروى عن [أتيس Attis][9] وما انحدر للبيثيين عن [هيرودوتس]،

(٨) ان ميل [نوما] الى العزلة. واعتياده الانزواء في أمكنة غير معروفة من غابة [أريشيا] كان سبباً في شائعات مختلفة راجت بين الناس. وظن بعضهم أن الحورية (ايجيريا) هي التي أملت عليه الشرائع الدينية والمدنية التي قام بسنّها. وأكد ذلك هو نفسه كي يؤمن المصادقة الربانية عليها ولكن لما لم يكن ثم من يخلو من سوء الظن والنزغات فقد ظن بعضهم ان ما يجتذبه الى الغابات والكهوف شيء لا يمتّ الى العفّة بصلة. وهذا ما حدا بجوڤينال الى السخرية عند ذكره بستان [ايجيريا] ليقول (١٥:٣) Hic, ubi mocturnae Numa Constituebat amieae ويعقب أوڤيد بقوله: ان ديانا من أجل ان تنسى حزنها على فقدان [نوما] حولتها الى نبع ما زال يدعى باسمها (١٥ المسوخ) وهو وپلوتارخ الذي تبنى الرأي نفسه هما الوحيدان اللذان ذكرا انها كانت زوجه (انظر ايضاً ديون ٢:١٥).

(٩) قيل ان (آتيس) كان موضع حبّ الربّة (كيبيله) وان (ديانا) عشقت انديميون. وأمّا هيرودوتس هذا =

وللاركاديين عن انديميون Endymion، ولا نذكر عدداً آخر ممن ظنّ أن الآلهة اصطفتهم واسبغت عليهم حبّها. وليس يبدو غريباً أن لا تتنزلّ آلهة شاءت ان تحب رجلاً، لا طيراً ولا حصاناً وتعيش مع نفس فاضلة وتتبادل الحديث مع حكيمٍ ذي خلقٍ رفيع. وان كان يصعب حقاً الاعتقاد بأن للآلهة والجنّ قابلية على الحبّ الحسيّ والجسماني والتولّه في جمال انسيّ أو جسم بشري. على أن حكماء المصريين لا يقرون حقاً بهذه التفرقة، وهي: من الممكن لروح إله ان تتقمصّ طبيعة انثى من البشر، لتحمل في أحشائها نطفة أوليّة لجيلٍ بشري، في حين يرون من الوجهة الثانية أنه يستحيل على جنس الذكر من البشر أن يتصل جنسياً، أو يمتزج جسمانياً بربةٍ من الربّات، غير معتبرين على ما يبدو أن ما هو قابل الحصول في شقٍ، يفترض وجوب حصوله في الشق الثاني، والمنطق يفرض ان التزواج ذو طبيعة تبادلية. وليس يصيح إلاّ الإفتراض بان الآلهة تتجاوب لحبّ البشر، أو انها تحبهم على شكل الرعاية والاهتمام بهم وبفضائلهم. ولم يخطئ أولئك الذين زعموا أن (أپوللو) عشق [فورياس]، و[هياسينثوس Hyaeinthus] و[ادمتوس Admetus] [10]، أو أن [هيپوليتوس السيكيوني Sicyoiuon] كان ذا حظوة عندهم، مشمولاً برعايتهم. فطالما كان يبحر من [سيكيون] إلى [سيرّا]، كانت العرّافة البيثية تنشد هذا البيت الملحميّ المعبرّ عن اهتمام الربّ وحبّه:

الآن رجع هيپوليتوس مرة أخرى يخاطر بحياته العزيزة في غمار البحر

وذكروا أيضاً أن [پان] وقع في عشق [پندار] وأشعاره[11]. وأن القوى الالهية كرمت [هسيود، وارخيلوخوس][12] بعد وفاتهما، لأجل [الميوزات]. وثمّ رواية أخرى هي أن

= [يسميه داسييه: رودوتس] فلم يذكر في اي موضع آخر على ما نعتقد.

(١٠) كان (فورباس) ابن (تريوپاس) ملك أرغوس قد انقذ الروديين مما لا يحصى من الافاعي التي عاشت في جزيرتهم ومن تنّين هائل على الأخصّ، كان قد ازدرد عدداً كبيراً من الناس. ولذلك اعتبر مقرباً من [اپوللو] الذي قتل (البيثون). وقد وضع مع البيثون في السماء بعد موته في برج الثعبان. كذلك هياسنثوس ابن اميكلاس باني مدينة اميلكي القريبة من سپارطا فقد كان محبوباً من اپوللو و[زفيروس] فقتله الأخير في نوبة من الغيرة. وعندها تحوّل الى زهرة الهياسنثا التي سميت باسمه. [پاوسنياس – لقيديمون ٣:١٩، أوفيد المسوخ ١٠:٥:١٠. اما (ادمتوس) فهو ابن (فيريس) ملك تيتاليا. تقول الاساطير ان اپوللو حفظ له غنمه.

(١١) كان لـ(پان) منزلة عبادية خاصة عند پندار. ولذلك نجده يسكن بالقرب من هيكل (ريا) و(پان). ونظم تلك الاشعار التي غنتها عذارى ثيبه في عيد تلك الربّة. وقيل ان سَعُد بسماع صوت الاله نفسه وهو يتلو أحدى مقطوعاته الشعرية.

(١٢) قتل (ارخيلوخس) بيد الجندي كالكوندس أو أرخياس النخسوسي. أرغمته كاهنة الأولى على تأدية فريضة الكفّارة لقتله رجلاً مكرساً للميوزات. ولعنت نبوءه دلفي «الرجلَ الذي فتك به» لأنه «قتل خادم الميوزات». وامّا عن (هسيود) فقد كان ضحية شكٍ ظلوم والقي في نهر [دافنُس] فحمله التيار الى البحر ونقلته الدلافين الى رِيُوم وهو لسان من خليج كورنث. فأمر الارخومينيون وهم من سكان بويوتيا الذي =

[ايسكولاپيوس Aeaculapius] لازم [سوفوكليس] طوال حياته وتبرك بالحديث معه وما زالته توجد عدة براهين على ذلك، منها أنه لما توفي، قامت آلهة أخرى بمراسيم جنازته[١٣].
وإن نحن أقمنا أيّ وزنٍ لهذه الوقائع، فلماذا نعد من قبيل السخف والتخريف - القول بأن روحاً مماثلة من ارواح الآلهة كانت تعمد الى ملازمة [زاليوكس Zaleucus] و[مينوس]، و[زرادشت Zoroaster][١٤]، و[ليكورغوس]، و[نوما]، أولئك الذين وضعوا دساتير الممالك، واشترعوا انظمة الجمهوريات؟ بل ومن المعقول أن نعتقد أن الآلهة بدافع من أغراضٍ سامية، تمدّيد المساعدة لهؤلاء الرجال، فتوحي اليهم بالرأي الصواب في اثناء التشاور وتبادل الآراء بالأمور الهامة، كما تزور الشعراء والموسيقين، ان لم يكن دائماً ففي أوقات ابداعهم... وأختلاف الآراء في هذا الموضوع كبير و«الطريق فيه لاحبة» كما يقول [باخيليدس Baechy-lides][١٥]، وليس ثم أي سخفٍ في التعليل الذي روي أيضاً عن [ليكورغوس ونوما] وغيرهم من مشاهير المشترعين وعظمائهم فقد زعموا هم أنفسهم أنهم مزودون بسلطانٍ من الآلهة، لأن مهمتهم كانت ازالة الشرّ وسياسة الجماهير الصعبة القياد، وفرض انظمة وقوانين جديدة على مجتمعاتهم... حتى لو كان ادعاؤهم هذا كاذباً، فهو بالتأكيد مفيدٌ لصالح أولئك الذين فرضت الاصلاحات عليهم فرضاً. ولأجل ان تكمل الحكاية:

كان نوما في حدود الأربعين عندما أقبل الوفد يعرض المُلك عليه. وكان المتكلمان [پروكولوس] و[ڤيلسوس Velews] (وهما أول من رُشح للمُلك. فنشب الخلاف حول من يكون منهما وكان الرومان الأصائل يميلون الى[پروكولوس]، والسابين الى [فيلسوس]). فالقيا كلمة قصيرة جداً نيابة عن الوفد لاعتقاد ان عرض الملك لايستلزم الكثير من القول لاقناع المرشح ولكنهما وجدا - خلافاً لما حسباه - بأن عليهما أن يتوسلا بمختلف وسائل

= فتك بهم الطاعون فتكاً ذريعاً، أمروا بنبوءةٍ ان يرفعوا رفاته وينقلوها الى بلادهم وقد جاء في النبوءة «العلاج الوحيد هو اعادة عظام هسيود من أرض ناوپاكتس الى ارض أرخومينس» وبعد ان نفذوا ما جاء في النبوءة، انقشعت غيمة الوباء عنهم.

(١٣) توفي سوفوكلس في اثينا اثناء ما كان ليساندر يشدّ الحصار عليها. وقيل ان [باخوس] أو [ديونيسوس] أمر القائد السپارطي في حلم «بان يسمح للنعّار الطائر الاثيني الجديد بان يدفن في (دليكيا) مقبرة اسلافه وبعد تكرار هذا الأمر لم ير ليساندر مندوحة من الرضوخ له [پاوسنياس ١:٢١] [پليني التاريخ الطبيعي ٧:٢٩].

(١٤) استن زاليكوس شرائعه للوكريين في بلاد الاغريق الكبرى زاعماً ان (مينرڤا) هي التي أوحت له بها. واما زرادشت فهو النبي المجوسي (تذكره المآثر اليونانية بانه ملك باختيريا) الذي استنّ الشرعة التي عرفت باسمه. ومينوس الملك هو مستن الشرائع الكريتية.

(١٥) اشاد هذا الشاعر بفوز هيرو كينذار في الالعاب الاغريقية وانه بزّ منافسه العظيم أحياناً. وكان الامبراطور يوليان من أشدّ المعجبين به وكثيراً ما تمثل باشعاره.

الإقناع والمنطق مع شخص عاش في هدؤ ودعةٍ - ليقبل بحكم مدينةٍ بنيت وتأسست وتوسعت بالحرب، فأجاب [نوما] بحضور ابيه وقريبه [مارشيوس Marcius] بما يلي: «كل تبدّل في حياة المرء، خطر عليه، وان الجنون وحده يستطيع أن يحمل شخصاً لايحتاج الى شيء، قانع بكلّ ما هو حوله، على ترك الحياة التي اعتقادهما، فمهما كانت نقائض تلك الحياة فلها على أية حالٍ افضلية الحقيقة الواقعة ومزيّاتها على حياة مجهولة، يحفّ بها الشكّ. وان كانت مصاعب هذا الحكم في الواقع لا يمكن ان تنعت بالمجهوليّة. فرومولوس الذي كان أول الحكام لم ينج من الشكوك، والتخرصات في أنه تآمر على حياة شريكه [طاطيوس] ولم يخلص مجلس الشيوخ من مثل هذه التهمة في أنه قتل رومولوس غدراً. على أن رومولوس امتاز بالفكرة العامة السائدة عنه وهو أنه ولد من الآلهة، وعاش بمعجزة. في حين ان ولادتي كانت طبيعية وقد ربّاني وانشأني أناسٌ معروفون لديكم. وإن الصفات الموجودة في طبعي وشخصيتي هي أفضل دلالة على عدم صلاحي للملك. - حبّ الوحدة، والدراسات التي لا علاقة لها بشؤون الحياة المادية، ميل فيّ الى السلام والهدؤ تمكّن في فلا اطيق التخليّ عنه، انشغالي في اعمال لا تمت الى الحرب والعنف؛ اندماجي باناسٍ لا يلتقون إلاّ في العبادة وفي صلات رقيقة متعاطفة، قضوا حياتهم كلها في حقولهم ومزارعهم وأظنني سأكون مبعث سخرية عامة إذا طغتُ حاثاً على عبادة الآلهة، مبشراً وخطيباً في التمسك بالعدالة، وكره العنف والحرب في مدينة هي أحوج الى قائد جيش منه الى ملك.

وبإدراك الرومان من كلامه هذا أنه يرفض قبول المنصب الملكي زاد الحاحهم واصرارهم قائلين: لايجدر به أن يتركهم ويخيب رجاءهم في هذا المطلب، وبذلك يضطرهم الى العودة بلا شكّ الى الاختلاف والنزاع فيما بينهم، اذ لا يوجد شخص غيره، يكون موضع قبول الفريقين المتناحرين. وأخيراً انتحى به ابوه ومارشيوس جانباً واقنعوه بقبول هبة كريمة ومنحة كانت السماء مصدرها أكثر مما كان من البشر وقالا: «مع أنك عازف عن الغنى، راضٍ بما لديك، لاتبحث وراء شهرة السلطان بعد أن نلت شهرة الفضيلة التي هي أثمن من الأولى. إلاّ انه يجب أن تعدّ الحكُم خدمةً الهيّة. فالله الآن شاء أن يفيد من اعمال فضائلك وحكمتك وعدالتك. وهي سجايا لن يُقدر لها أن تبقى عاطلة مهملة. فأرجع عن اصرارك على ورفضك هذا لمنصبٍ هو لحكماء الرّجال ميدان لممارسة الاعمال الشريفة العظيمة، ولعبادة الالهة عبادة لائقة ممتازة، وبثّ العادات الصالحة الخيّرة التي لاتستطيع نشرها بين الناس الاّ السلطة. كان [طاطيوس] محبوباً وان كان اجنبياً، وذكرى رومولوس اضفت عليها الآلهة مختلف النعم والبركات، ومن يدري؟ لعل هذا الشعب المنتصر ابداً قد اتعبته الحرب وقنع بالأسلاب والغنائم التي غنمها، قد يكون

راغباً أكثر من اي شيء آخر بملك مسالم وادعٍ محبٍّ للعدل، يقود خطاهم الى الاستقرار والسلام؟ واذا كانت عواطفهم تنزع الى الحرب بما لا قبل بدفعه، أفليس من الأفضل أن تكون الأعنّة بيدٍ معتدلةٍ قادرة على تحويل شدة الحرب الى مسلك آخر وان مدينتك وكل شعب السابين سيجعلان منك رابطة صداقة ودليل حسن نيّة لهذه السلطة الفتيّة المتنامية؟

ورافق هذا الإقناع والالحاح عددٌ من العلامات الالهية السعيدة، على ما قيل. كذلك حماسة بني جلدته الذين بعد ان فهموا مضمون الرسالة التي حملها اليه الوفد الروماني، رجوه أن يرافقهم ويقبل بالملك كعامل من عوامل الوحدة والأئتلاف بين الشعبين.

فرضخ [نوما] لهذا الالحاح، ورحل الى روما بعد أن انجز تقديم قربانه للآلهة. وأستقبله في الطريق الشيوخ والعامة الذين خرجوا للترحيب به برغبة لا تكبح. واستقبلته النساء ايضاً بهتاف الفرح وقدمت القرابين عنه في كل المعابد وكان الفرح عاماً حتى لكأنهم يستقبلون مملكة حديدة لا ملكاً جديداً. وعلى هذه الصورة أرتقى درج [الفورم] حيث كان [سپوريوس ڤيتيوس Spurius Vettius] في تلك الساعة الملك الوقتي؛ فقام هذا بأخذ الاصوات، وأعلن [نوما] ملكاً، وجيء اليه بشارات واوشحة السلطة. ولكنه أبى أن يتقلدها قبل أن يستشير الآلهة ويحظى بموافقتها ورضاها. فأخذه الكهنة والعرّافون [Ougur][*] الى الكاپيتول وكان الرومان في ذلك العهد يسمونه (التلّ التاربيّ). ثم قام رئيس العرّافين بتغطية رأسه[١٦] وتحويل اتجاهه الى الجنوب ووقف خلفه باسطاً ذراعه اليمنى على رأسه وأخذ يصليّ وهو يدير له رإسه الى كل الجهات توقعاً لإشارة خيرٍ من الآلهة. وكان المنظر عجيباً رائعاً، والصمت والخشوع يهيمنان على الجموع المحتشدة في الفورم. وهم في عين التوتر والتوّقع. حتى ظهرت الطيور السانحة ومرت من جهة اليمين. وعندئذ اتشح [نوما] بالرداء الملكي وانحدر من التلّ الى الجماهير، فقابلته بالتهاني وبالهتاف، والصراخ، وحيته ملكاً مقدساً، ذا حظوة عند الآلهة. وأول ما فعله عند توليه الحكم، انه حَلّ كتيبة الرجال الثلاثمائة الذين كانوا حرس رومولوس الشخصّي وقد عرفوا باسم [كيليرس][١٧]، قائلاً إنه لن يظنّ سوءً في أولئك الذين

(*) موظف ديني روماني واجبه ينحصر في التنبوء بالحوادث المقبلّة بدلائل من حركات الطير، أو من حالة احشاء الذبائح، أو من الظواهر السماوية. وربما كان الاسم تركيباً مزجياً من الكلمتين الرومانيتين [Ovis = طير] و[Gar = كلام] (م.ت).

(١٦) هذا هو النص الحرفي الذي اورده المؤلف. لكن يظهر من [ليڤي ١:٨] ان العراف لم يغطّ وجه [نوما] بل غطّى وجههُ Augar ad laevam yejus capite velato sedem cepit. وهذا هو الوقع لأن العراف يلفّ دوماً برداء خاص يدعى Laena عند قيامه بالعرافة.

(١٧) يقول [ديون الهاليكارناسوسي ٢:١٦] ان [نوما] لم يحدث اي تغيير في الأجهزة التي أوجدها رومولوس. لذلك ومع انه لم يستخدم الچليرس بمثابة حراس لكنه ابقاهم باعتبارهم من صغار الكهنة وواجبهم =

وضعوا ثقتهم فيه، ولا يحكم شعباً ليس له ثقة به. وثاني ما فعله انه اضاف الى كاهني جوبتر ومارس، كاهناً ثالثاً، تكريماً لرومولوس وأطلق عليه اسم [فلامين كويرينالس Flamen Quirinalis][١٨]. كان الرومان القدماء يسمون كهنتهم [فلامينس Flamines] بتصحيفهم كلمة [پيلامينس Pilamines] اليونانية من كلمة [پيليوس Pileus] وهي القبعة او القلنسوة التي كانوا يلبسونها. وفي تلك الأيام كانت الألفاظ اليونانية أكثر امتزاجاً باللغة اللاتينية من الوقت الحاضر[١٩]. ويجرى مجرى هذا أيضاً «الرداء الملكي» الذي يُسمى [لينا Laena] [فجوبا] يقول أنه [خلينا Chlaena] وهي الكلمة اليونانية المطابقة له. وان اسم [كاميللوس Camillus][٢٠] الذي يطلق على الصبي الخادم في معبد جوبتر حين يكون ابواه على قيد الحياة، فهو مأخوذ من الإسم الذي يطلقه بعض الاغريق على مارس مشيرين الى وظيفته وهي قيامه بخدمة الآلهة الباقين.

وعندما فاز [نوما] بمودة وحبّ الشعب، بهذه الاجراءات، باشر حالاً بهمّة تحويل الطبائع الرومانية الصلبة الحديدية الى طبائع تمتاز بالرقة والوداعة، وليس أدق من وصف افلاطون بـ«المدينة التي تجتاحها حُمّى محرقة» - لروما في ذلك الحين. فقد انشأتها بالأصل نفوس ما عرفت إلاّ الجراءة والاقدام سبيلاً وعجمت عودها المخاطر والمواقف الصعبة وجاءت بهم اليها صروف الدهر من كل فجّ عميق، وهكذا لم تر الوجود إلاّ بالحروب الدائمية مع جيرانها كانت، والغزوات سبيلاً لبقائها ونموّها والتعرض للأخطار مصدراً لكلّ قوة جديدة لها مثل اوتاد اثبتها في الأرض إلاّ ضربات المطارق لأجل أن يحقق [نوما] غرضه العسير - تحويل طباع هذا الشعب العنيدة الاعتدائية الى طباع هادئة مسالمة رقيقة، بدأ بمهمته عن طريق الدين. فأكثر من تقديم القرابين والمواكب والرقص الدينيّ وكان يترأس معظمها بشخصه. محاولاً بهذه المظاهر الدينية التي تمازجها صنوف من الملاهي ووسائل التسلية الانسانية الرقيقة، التغلّب على امزجتهم القتالية العنيفة والتخفيف منها. وكان يملأ بين الفينة والفينة أيضاً اذهانهم بالمخاوف الدينية، مدعياً ظهور اشباح غريبة، وسماع اصوات مرعبة. ليخضع عقولهم

= الاهتمام بالقرابين والعمل تحت اشراف التريبونات ضباطهم القدماء.

(١٨) وعلى هذا الأساس يكون Flamin Martialis كاهن مارس و Flamin Dialis كاهن جوبتر وعلى هذا فقس.

(١٩) مؤلفة أصلاً وبشكل رئيس من الأغريقي الايولي القديم. وان كان الزمن والصيانة والتحسين المتدرج قد اكسبها المظهر الأخير المختلف جداً.

(٢٠) كاميلوس مشتقة من كلمة (كادميلوس) البويوثية ومعناها في الغالب (خادم) في هيكل في العادة يوجد شاب حسن الخلق وظيفته خدمة الكاهن. من الضروري ان يكون ابواه على قيد الحياة ولذلك استخدم پلوتارخ الكلمة التي تقابل باللاتينية لفظي Matrium e, Patrium اي الأبوة والأمومة.

ويذلّها ، بمشاعر الخوف من خوراق الطبيعة.

هذه الطريقة التي استخدمها [نوما] أدت الى الاعتقاد بأنه على صلة كبيرة [بفيثاغورس] ، ففي فلسفة الأخير منهما وفي سياسة الأول. تحتلّ علاقات الإنسان بالالهة منزلة عظيمة وقيل أيضاً أن هيبة وجلال مظهره وثيابه إنما استمدها من شعوره الشبيه بشعور فيثاغورس. اذ روي عن هذا ، انه درّب نسراً على الهبوط اليه كلما ناداه، أو الميل نحوه اثناء طيرانه. وانه كان في اثناء مروره بين الناس المجتمعين لمشاهدة الالعاب الأولمبية، يريهم فخذه الذهبيّة الى جانب معجزات وغرائب أخرى كان يقوم بها. مما دعا [تيمون الفيلاسي Phila-sian][21] الى كتابة البيت التالي: «إنه ذلك الذي كان معتزاً بمجد المشعبذ بكلامه المهيب الذي يلقيه الى سمع الجمهور»

وعلى هذه الشاكلة تحدث [نوما] عن ربّة معينة، أو حورية من حوريات الجبل تعلقت بحبّه، وراحت تقابله سراً كما سبق لنا ذكره، كما اذاع أنه كان كثير اللقاء بالميوزات ومحادثتهن وعزا الى تعاليمهن معظم الوحي الذي نزل عليه. ومن بينهن واحدة اوصى الرومان بإكرامها بنوعٍ خاص وهي [تاچيتا Tacita] اي الصامتة، وربما فعل ذلك تقليداً وتكريماً للصمت الفيثاغوري. ورأيه في الصور يوافق جداً مبدأ فيثاغورس. الذي يعتبر أول مبدأ للكينونة شعوراً وعاطفة تسمو على الحسّ البشري، ولا يمكن الوصول اليها إلاّ بالتفكير المطلق التجريدي. ولذلك منع [نوما] الرومان ان يمثلوا الآلهة بهيئة انسان أو حيوان. وانك لاتجد اي صورة مرسومة أو منحوتة لربّ من الأرباب لفترة طولها مائة وسبعين عاماً فقد بقيت هياكلهم ومعابدهم خالية من الصور والتماثيل. وشاع الاعتقاد بينهم أن هذه الأشياء الوضيعة، أرذل من أن تشبه أرفع الكائنات واسماها. والوصول الى الاله مستحيل إلاّ بالذهن الطاهر النقيّ. وقرابينه تشبه بتفاصيلها قرابين فيثاغورس شبهاً كبيراً، فالدم لايسفك فيها، بل يكتفى بتقديم الازهار والخمر وما اليها من أرخص التقدمات وهناك براهين واضحة أخرى تثبت ارتباط [نوما] بفيثاغورس هذا وان الكاتب الفكه القديم [ايپخارموس Epicharmus] وهو من المدرسة الفيثاغورية ذكر في كتاب له مهدى الى [آنتينور Antenor] أنّ فيثاغورس جُعل مواطناً حراً من مواطني رومه، وسمّى نوما أحد اولاده الأربعة[22] [ماميركوس -Mamer

---

(٢١) كاتب سِلّي Silli وهو نوع من الهجاء، سمي كذلك نسبة سيلاموس الذي كان يشتد في نقده للفلاسفة بسبب تمسكهم بالمبادئ.

(٢٢) على سبيل اكرام الكتّاب بعضَ الأسر الرومانية عمدوا الى ربط نسبها بنسب (نوما) وعزوا اليه اربعة اولاد. لكن المعروف عموماً انه لم يخلّف غير ابنة واحدة اسمها [پومپيليا] واسرة [إميلي] هي واحدة =

cus] وهو اسم أحد اولاد فيثاغورس. ومنه جاءت (كما قالوا) الأسرة الپاتريشية العريقة [اميللي Aemilli]، اذ أن اباه الملك لقبه على سبيل المزاح [اميليوس Aemilius] لأسلوبه اللطيف الطليّ في الحديث، وسمعتُ اثناء وجودي في روما، انه عندما نزلت نبوءة تأمر باقامة تمثالين[٢٣] أحدهما لأعظم الناس حكمة بين الاغريق وثانيهما لأعظمهم بسالةً، أقاموا تمثالين من النحاس أحدهم [لالسكيبيازيس]، والآخر [لفيثاغوراس]. ومهما يكن من أمرٍ فلنتحول عن هذه الأمور التي يكتنفها الكثير من الأوهام، فضلاً عن كونها من قلة الأهمية بحيث لا تستحق صرف وقت أكثر من هذا. والى نوما يعزى انشاء رتبة الكنهة المعروفين باسم [بونطيفچيس Pontifices][٢٤]. وقيل أنه كان أولهم. وأنّ الكلمة مشتقة من [پوطنس Po-tens] أي «ذا القوة» لأنهم يقومون بخدمة الآلهة ذوي الحول والسلطان على الجميع. ويزعم آخرون ان الكلمة تشير الى «استثناءات من قضايا مستحيلة» فالكهنة عليهم أن يقوموا بكلّ الواجبات الممكنة. فان وجد أمر يفوق طاقتهم وحدود إمكاناتهم فينبغي الاّ يثار أحتجاج على قصورهم فيه. وأكثر الاراء شيوعاً هن أصل الكلمة هي أكثرها سخافةً[٢٥] يشتقون الكلمة من [پونس Pons] و[الجسر باللاتينية هو Pontem] وتمنح الكهنة لقب بناة الجسور»! القدماء، وحراسة الجسر وترميمه مناط بالكهنة كأي واحدةٍ من الوظائف العامة المقدسة أخرى الذي يرونه اقدس وأقدم المراسيم الدينية. هؤلاء الكهنة أيضاً يقال أنهم خولوا العناية بالجسور بوصفه اهم عملٍ في وظيفتهم الكهنوتية. وعُدّ هدم الجسر الخشبي[٢٦]، وكسره من قبيل

= من أشهر الأسر الرومانية يتفرع منها فروع الپاولي Pauli والپاپي Papi. وكلمة اميليوس بالاغريقية تعني الرقيق أو الجميل.

(٢٣) بحسب رأي پليني (تاريخ الطبيعة ٣٤:٥) انه كان اثناء حربهم مع السانيين (٣٢٩-٣٢٤ ق.م) حين أمر ابوللو البيثي الرومان باقامة التمثالين فتم نصبهما في الكوميسيوم وبقيا ثم حتى دكتاتورية سيللاً ٧٨-١٣٨ ق.م ولعل الأمر الذي ورد في النبوءة كان يشير على الرومان بأن يتزودا بحكمة الأغريق ويتحلوا بشجاعتهم إن ارادوا النصر.

(٢٤) نصب [نوما] أربعة وكلهم من الپاترشيين. ولكن اضيف اليهم في العام ٤٥٣ أو ٤٥٤ ق.م اربعة من البليبيين. وفي عهد (سيللا) بلغ عددهم خمسة عشر. والملك نفسه يؤكد هنا انه كان يترأسهم، أو ما يدعى بالكاهن الأعظم على ان [ليفي ٢٠:١] يعزو ذاك الشرف الى شخص آخر بنفس الأسم هو [نوما مارشيوس] ابن احد الشيوخ. وربما كان پلوتارخ قد التبس عليه الأسم. ومن المحتمل جداً ان [نوما] احتفظ لنفسه بهذا المنصب لشدة تدينه. فالملوك في العالم القديم كانوا يسيرون على هذا الخط. وقد حذا حذوهم اباطرة الرومان في فترة متأخرة كما سنرى.

(٢٥) ومع هذا فان [ڤارو الأول منهما على الأخص بان پونس سوبليشيوس بنيت اولاً ثم جرت عليها ترميمات عديدة تحت اشرافهم. ان هذا العمل الشعبي الممتاز كان يُستبق دائماً بتقديم الذبائح والدعوات لربّ النهر وقد نقل هذا الواجب من اختصاص الكهنة الى (الكستور) في عهد اغسطس قيصر.

(٢٦) ما زال موجوداً ينظر اليه باحترام ومهابة وهو يربط يانيكولوم بالمدينة [انظر ديون ١٤:٣] كذلك الكتاب المتأخرون حول روما الحديثة.

الكفر والاثم الديني لا مجرد جريمة ممنوعة قانوناً. وقيل فضلاً عن هذا أن بناءه كان من الخشب يشد اجزاءه مسامير خشبية لا مسامير أو عضادات حديدية، اطاعةً لنبوءة[٢٧]. ولم يبن الجسر الحجريّ إلا بعد زمن متأخر جداً، عندما كان [اميلوس] أميناً للخزانة العامة Quaestor[*]. وقالوا أيضاً أن الجسر الخشبي لم يسبق عصر [نوما] وانّما أكمل بناءه [انكوس مارشيوس Ancus Marcius] لمّا ملكَ، وهو حفيد [لنوما] من بنته.

إن وظيفة [پونطفيكس ماكسيموس] أو الكاهن الأعلى، أستحدثت لأجل تفسير الشريعة الالهية أو بالأحرى للهيمنة على الفرائض المقدسة وليست وظيفتها قاصرة على مراقبة قواعد الاحتفالات الدينية العامة بل على تنظيم تقديم قرابين الأفراد ومراقبتها لئلا تخرج عن العرف الجاري وتقديم المعلومات لكل شخص، عما هو مفروض في العبادات والصلاة وكذلك يكون الكاهن وصياً حارساً على عذارى ڤستا. ويُعزى الى [نوما] انشاء وظيفتهن[٢٨] هذه الى جانب استحداث النار الخالدة التي يرعينها. ولعلّه تصور انه من المناسب جداً أن يعهد بالنار الطاهرة غير النجسة الى اشخاص ذوي عفةٍ وطهارة. أو ان النار التي تضطرم ولاتنتج شيئاً حتى تخمد، فيها وجه شبه بحياة العذراء[٢٩] وفي بلاد اليونان، يعهد بأمر النار المقدسة الخالدة اينما وجدت -كما في دلفي وآثينا- لا الى العذارى بل الى الأرامل اللاتي فات أوان زواجهن. وقد يحدث بمحض الصدفة أن تنطفيء هذه النار كما أنطفأ المصباح المقدس في اثينا على عهد طغيان [ارسطيون Aristion][٣٠]، وفي دلفي عندما أحرق الميديون المعبد[٣١]، وكذلك في أيام الحروب الاهلية الرومانية[٣٢] والحروب الميثريداتية Mithridatie حيث هدم

(٢٧) اسلوب البناء هذا يعزوه پليني (١٥:٣٥) لا الى النبوءة بل للصعوبة التي جابهت الرومان عند كسره (وكان موصولاً بخطافات حديدية) في حروبهم ضدّ (پورسينّا).

(*) سنة ١٧٩ قدم مسألة معرفة نوما بفيثاغورس مسألة يكتنفها الغموض كانت موضع أخذ وردطويلين وهي اشبه بجدال الاطفال.

(٢٨) بالأحرى بناء معبد ڤستا لأن [رياسلڤيا] والدة روملوس كانت ڤستا له ألبا.

(٢٩) هناك تناقض بين هذه العبارة والعبارة التي اوردها المؤلف بالذات في سيرة كاميللوس فلتراجع.

(٣٠) بقي ارسطيون (٨٦-٨٨ ق.م) صامداً مدة طويلة لحصار (سيللا) مدينة آثينا وكان قد استولى عليها اثناء حروب (ميثريدات) وكان ارسطيون هذا قد ارتكب أعمالاً شنيعة عديدة بحق المدينة. كما كان السبب في القاء الحصار عليها ونهبها بالأخير. كانت النار المقدسة تحفظ في معبد مينرڤا.

(٣١) في عهد كيخسرو الفارسي.

(٣٢) يحدثنا پليني (الملحق ٦:٨٦) ان ما حدث والحرب الاهلية بين ماريوس وسيللا تكاد تشرف على نهايتها - هو ان (ميوتيوس سكيڤولا) الكاهن أغتيل عند مدخل معبد ڤستا. لكننا لم نجد النار المقدسة مطفأة. الاّ ان (لوكان) يقول انه سقط بالقرب من المعبد وان دماءه كادت تطفئ النار المقدّسة. بل عندما احرِق هذا المعبد عند نهاية الحرب اليونية ٥١٢ ق.م. فإن الكاهن چيچليوس متللوس اندفع خلال النيران وانقذ الپلاديوم وغيره من المقدسات وقد دفع بصره ثمناً لذلك. كذلك أحترق الهيكل مرة أخرى عند نهاية حكم =

الهيكل أيضاً، في هذه الحالة كان يعد من قبيل الإثم والنجاسة أن توقد هذه النار ثانيةً من لهيب اية نارٍ اعتيادية، أو شرارة رمادٍ أو من اي شيء آخر إلاّ أشعة الشمس النقية غير النجسة. ويتم ذلك عادة بالعدسات اللامة[٣٣] وهو جسم يتألف من منشور مستطيل مثلث كلّ خطوطه من أسطحه تلتقي في مركزٍ واحد ويكون دائم الدوران فبتعريضه الى الشمس يتمكنون من جمع أشعة الشمس فيه وتركيزها كلها في نقطة التقاء تلك (البؤرة) فيغدو الهواء ساخناً وتلتهب كل مادة خفيفة جافة قابلة للاشتعال حالما تُقرب من الأشعة التي تتطلب المادة والقوة الفاعلة للنار، ويرى بعضهم أن وظيفة هالة الڤستالات هي حفظ النار ليس غير، إلاّ أن آخرين يقولون انهم يحافظن على اسرار مقدسة أخرى[٣٤] كتمت عن الجميع. وقد آتينا في سيرة كاميللوس الى ذكر كلّ ما تصحّ روايته، أو السؤال عنه من تلك الاسرار.

وقد ذكر ان [جيغانيا Gegania] و[ڤيرينيا Verenia] كانتا أول كاهنتين رسمها [نوما] لوظيفة الڤستالات. ثم اعقبهما [بكانيوليا Canuleia] و[تارپيا] ثم أضاف [سرڤيوس Serviaus] اثنتين، وظلّ العدد أربعة حتى يومنا هذا...

إن النظام الذي استنّه [نوما] للڤستالات هو كما يلي: يجب ان ينذرن عذريتهن لمدة ثلاثين عاماً. يقضين العشرة الأولى منها في تعلم واجباتهنّ، والعشرة الثانية في مزاولتها، والعشرة الباقية في تعليمها للاخريات وتدريبهن عليها. وبعد أن تنتهي المدة، يكنّ حُرات في أن يتزوجن. ولكن يقال أن قليلات منهن إخترن مزاولة هذا الامتياز وقد لوحظ أن حياتهن الجديدة بعد تقاعدهن عن وظيفتهن، لم تتميز بالسعادة، وانما وافقها الأسف والندم والكآبة ولذلك تجد القسم الأكبر يؤثرن البقاء والاستمرار حتى أرذل العمر والموت محافظات بأشدّ ما يمكن على حياة العزوبة بدافع من الخوف الدينيّ، وضغط الضّمير.

وبمقابل تلك الصرامة عوّضن بامتيازات وسلطات كبيرة. فلهنّ أن يوصين في حياة آبائهم، ولهنّ حق ادارة شؤونهم بدون وصيّ أو قيّم. وهذا امتيازٌ لا يمنح الاّ لمرأة متزوجة أم أولاد ثلاثة. واذا خرجن لشأن، سار امامهن حملة الفاچي[٣٥]، واذا لقين في سيرهن مجرماً يساق

= (كومّودوس) ولعل پلوتارخ كان يخلط هنا بينه وبين الكاپتول.

(٣٣) العدسات الحارقة التي تجمع الأشعة في البؤرة، هي من مخترعات أرخميدس الذي عاش بعد (نوما) بخمسة قرون.

(٣٤) كتلك التي تتعلق بـ(الپلاّديوم) والتماثيل وغيرها لآلهة ساموثراكي [انظر ديون ٢:١٧].

(٣٥) حزمة العصي في وسطها فأس، يحملها [اللكتور] امام الحكام الكبار الرومانيين اشارة الى السلطة. وهي من كلمة [Fascis] اللاتينية ومعناها [حزمة] ومنها جاء اسم الحزب الفاشي (الفاچي) الذي اسسه [موسوليني] في أيطاليا الحرب العامة الأولى، ولم يخصهّم [نوما] وحده بهذا الامتياز بل حباهم به =

الى حتفه امكنهن انقاذ حياته بعد أن يُقسمن[٣٦] بان اللقاء كان بمحض الصدفة وليس مُدبّراً.
وإذا احتك أحد بالكرسي الذي يحملن عليه يحكم بالموت، وإن أقترفت أحداهن خطأً بسيطاً عاقبها الكاهن الأعظم وحده بجلدها بالسياط (عاريةً أحياناً) في مكان مظلم وبينهما ستار مسدل، ومن تفرط بنذرها تدفن حية[٣٧] قرب باب في المدينة اسمه [كوللينا Collina] حيث يقوم كثيب من التراب داخل المدينة ويمتد بعض مسافة، ويدعى باللاتينية (Agger)، فتبنى في جوفه غرفة صغيرة. ينزل المرء اليها بدرجات. ويهيئون في تلك الغرفة فراشاً ويشغلون مصباحاً ويتركون كمية زهيدة من الطعام تتكون من الخبز والماء واناء من الحليب. وشيء من الزيت. حتى لا يقال أن ذلك الجسم الذي كُرسّ ونُذر لأقدس خدمةٍ في الدين، قد هلك جوعاً[٣٨]. وتوضع المذنبة في محفة، وتغطى تماماً وتربط بالحبال حتى لا تسمع الأذن شيئاً مما قد تقول، ثم ينقلونها الى الفورم، وينسحب كل المارة عن سبيلها صامتين اثناء مرور المحفة ويتبع النعش زميلاتها بألم صامتٍ كئيب ولعمري ليس ثم منظر أشدّ ايلاماً من هذا المنظر، ولا يوم مثل هذا اليوم تعيشه المدينة بأعظم الأسى والكآبة. وعندما يبلغ الموكب ساحة التنفيذ يَحّل الضباط الحبال ثم يرفع الكاهن الأعلى يديه الى السماء ويتمتم ببعض الأدعية المخصوصة قبل المباشرة. ثم يأتي بالمحكومة وهي مستورة ويضعها على الدرج المؤدي الى الحجرة ثم يدير رأسه جانباً مع الكهنة الباقي. ثم يرفع الدرج بعد أن تقذف الى اعماق الغرفة ثم يهال مقدار من التراب فوق الفتحة وتسوىّ حتى لا يمكن تمييزها عن باقي سطح الكثيب. ذلكم هو عقاب تانك اللاتي يكسرن نذر عفتهن.

وقيل أيضاً ان نوما بنى معبد فستا. ليكون مذخراً للنار المقدسة وهو على شكلٍ دائري، لايمثل هيئة الأرض كأنها مثل فستا تماماً. بل ليمثل عموم الكون. ففي الوسط يضع الفيثاغوريون عُنصر النار[٣٩] ويطلقون عليه اسم فستا والوحدة، ولم يكن من رأيهم أن

= ايضاً ثلاثي الحكم في ٧١٢ ق.م وأعطى اغسطس ما دعى بـ Juo trium libesorum بتشجيع المواطنين بعد الدمار الذي احدثته الحروب الأهلية.

(٣٦) لايجرؤ كاهن لـ(جوبتر) أو لـ(فستا) على تأدية قسم. فهو مصدّق بكلامه. ولو شاؤا فهم مختارون في تأكيد أقوالهم وتوثيقها باليمين لكن ان يندر ان طلب منهم ذلك. وان حلفوا فهم يحلفون بربّتهم فستا فحسب.

(٣٧) في البا يجلدن بالسياط بسبب ما يقترفن ولا أكثر [ديون ١:١٧]. الاّ ان [نوما] شددّ العقوبة الى حَدّ الرجم. أخيراً جعلها تاركوينوس پريسكوس الدفن حيةً.

(٣٨) هناك أمر يجافي العقل والمنطق. اذ ما فائدة الطعام للفستاله المقبورة حية بعد انقطاع الهواء عنها بسدّ القبر؟ إو لعل ما قصده پلوتارخ من استخدامه كلمة ارزاق - هو بعض مواد القرابين؟

(٣٩) معروف جداً انها نظرية فيلولايوس وغيره من الفيثاغوريين الاّ ان ثيوغينس ليئريتوس يذكر لنا ان فيثاغوراس نفسه يرى الأرض هي المركز.

الأرض ثابتة أو أنها تقع في مركز دائرة الكون وانما هي مستمرة الدوران حول مجلس النار وليست في عداد العناصر الأولية. وهم في هذا يتفقون مع فكرة افلاطون الذي قال في أواخر حياته (على ما زعموا) بأن الأرض تحتلّ مركزاً ثانوياً وأن الفضاء المركزي المهيمن احتجزه جسم آخر أسمى من الأرض.

وهناك وظيفة أخرى للكهنة، هي أن يشرفوا يرشدوا الناس الى المراسيم المتبعة في مراسيم الجناز. وقد علمهم [نوما] أن لا ينظروا الى هذه الأعمال نظرة تقزز واشمئزاز، بل كواجب محتم للأرباب السفليين الذين ينتقل الى ايديهم خير جزء منّا، وكذلك أوجب عليهم ان يعبدوا الربّة [ليبيتينا Libitina] التي تشرف على كلّ مراسيم الدفن. وسواء أقصدوا بها [بروسپوينا Prospuina] أو [ڤينوس] (كما يرى معظم الرومان المطلعين)[٤٠]، فليس مما لايتسق منطقياً أن يُعزى بدء حياة امرءٍ ونهايتها الى مسعى ربّ واحدٍ.

وعين [نوما] أيضاً قواعد تتوخى تنظيم ايام الحداد، بموجب اوقات مخصوصة وبحسب الأعمار. فمثلاً طفل في الثالثة من عمره لايقام له حداد مطلقاً فاذا زاد سنه عن هذا حتى العاشرة يكون الحداد عليه شهراً لكلّ سنة زيادة في عمره. ومهما بلغ سِنّ الميت فيجب الاّ يزيد أقصى فترة للحداد عن عشرة أشهر. وهو الزمن المعين للنسوة اللاتي مات عنهن ازواجهن لمواصلة حياة ترملهن حتى تنقضي المدة. وان تزوجت الأرمل قبل انقضاء هذه العدّة، فعليها بمقتضى شريعة [نوما] أن تضحّي ببقرة مع عجل[٤١].

وأحدث [نوما] أيضاً اصنافاً أخرى من مراتب الكهنوت، وسأتكلم اان عن اثنين منها. هما

---

(٤٠) ان [ڤينوس ليبيتينا] هذه هي [بروسپرينه] بعينها. وقد اطلق عليها في دلفي اسم [ڤينوس ابيتوفقيا] وپلوتو هو رئيس آلهة الظلام السفلي كما ان لديهم ايضاً (عطاردهم).

(٤١) قربان غير طبيعي كهذا، يقصد به ردع الارامل عن الزواج ثانية قبل ختام عدة الحداد. ان السنّة التي اشترعها [روملوس] تمتد عشرة أشهر لا أكثر. وعندما اضاف (نوما) شهرين آخرين فيما بعد، لم يغير من الفترة المقررة سابقاً للحداد. ولذلك فنحن كثيراً ما نجد ما يسمى بسنة الحداد Lutus Annus بعد الزمن المحدد. وهي في الواقع سنة (رومولوس) ان لون ثياب الحداد المعتاد الذي يستخدمه الجنسان اظهاراً لحزنهم هو الأسود الصرف دون ان يخالطه لون آخر. لكن الموضة التي سادت البلاد بعد قيام الامبراطورية شملت الواناً عديدة من الثياب. وصار الأبيض الساذج المحلي مبتذلاً الى الحدّ الذي صار النسوة تستخدمه لثياب الحداد [پلوتارخ: مسائل رومانية] والملاحظ في يومنا هذا ان الابيض هو لون الحداد عند الصينيين.

هناك أحوال وأحداث توجب انهاء فترة الحداد العام أو وقف الحداد الخاصّ قبل انصرام الفترة التي عينها العُرف كتدشين هيكل، او الاحتفال بالعاب عامة، أو أعياد، أو التطهّر الذي يقوم به الچنسور)، أو حلّ قسم قاض أو جنرال. وتنزع ثياب الحداد أيضاً عند عودة أب أو أخ أو ابن من الأسر أو عندما تسند وظيفة الى احد افراد الأسرة، أو يُرقى.

[السالي Salii](٤٢) و[الفشياليس Feciales](٤٣) مقدماً بهما اسطع برهانٍ على تقاه وقداسته. هؤلاء [الفشيال] أو القيّمون على السلام، يبدو أن أسمهم مشتق من طبيعة وطيفتهم، وهي وضع حَدّ للخلافات بالنصح ومجالس الصلح، اذ لا يسمح باللجوء الى السلاح إلاّ بعد أن يعلنوا هم أن كلّ أمل في التفاهم قد زال. ونحن أيضاً نطلق باليونانية كلمة سلام عندما تُحلّ الخصومات بالكلام لا بالقوة. يرسل الرومان عادة [الفسيال] أو السعاة الى أولئك الذين اعتدوا عليهم أو أضروا بهم بطلب الانتصاف والتراضي، فاذا رفض هؤلاء. دعوا الآلهة ليشهدوا فعلهم ونادوا بالويل لهم ولبلادهم إم كانوا الظالمين، ثم أعلنوا الحرب عليهم. ولا يجوز للجندي ولا للملك أن يلجأ الى السّلاح ضدّ رغبة هؤلاء الكهنة أو دون موافقتهم. والحرب تبدأ باشارة منهم فان ابلغوا القائد بأن الحرب التي سيشنها هي حربٌ عادلة فتكون مهمته تقرير كيفيتها ووضع خططها.

ويعتقد أن المذبحة التي أوقعها الغاليون بالرومان والدمار الذي انزلوه ببلادهم كان عقاباً للمدينة لإهمالها هذه الإجراءات الدينية. فعندما غزا هؤلاء البرابرة [الكلوينيين Cluinians]. أوفد [فابيوس امبوستوس Ambustus] الى معسكرهم للتفاوض في صلح مع المحاصرين فكان جوابهم خشناً فظاً، فتصور فابيوس أن مهمته كسفير أنتهت والتحم معهم بمعركة منحازاً الى صفّ الكوسينيين، متحدياً أشجع محارب من العدو لمبارزته في نزال ثنائيّ. وحالفه الحظ فقتل حضمه وأخذ سلاحهُ غنيمة. ولما عرف الغاليون بما حصل بعثوا الى رومه برسول يشكون أمره، لأنه نقض قانون الحرب الدولي واخّل بالسلام قبل أن تشهر الحرب. فنوقش الموضوع في مجلس الشيوخ وكان من رأي [الفيسيال] أن يُسلّم [فابيوس] الى أيدي الغاليين. ولسبق انذاره بالقرار، فرّ الى عامة الشعب ونجا من العقوبة بحمايتهم ووقوفهم الى جانبه. فما كان من الغاليين إلاّ وزحفوا بجيشهم على رومه، واستولوا على الكاپيتول ونهبوا المدينة؛ وإن تفاصيل هذه الحادثة مثبته في سيرة حياة [كاميللوس].

ومنشأ كهانة [سالي] هو كما يلي: في السنة الثامنة من حكم [نوما] ظهر وباء فظيع

---

(٤٢) السّالي هم حرس الأنچيليا، اي الدروع الاثني عشر المعلقة في هيكل مارس. لصق هذا الاسم بهم من عادة رقصهم عند الاحتفال بالعيد السنوي المقام تخليداً لذكرى الدرع العجائبي الذي ادعى [نوما] انه هبط عليه من السماء. ولا يزيد عدد هؤلاء الحرس عن اثني عشر يتمّ اختيارهم من الشباب الپاتريشي الذين يمتازون بالرشاقة وجمال القوام (ديون ٢:١٨).

(٤٣) ديون: يراهم من الاروميين (السكان الأصليين) ويقال ان [نوما] استعار هذا من اهل لاسيوم. اذ عين عشرين [فييچيال] بعد اختيارهم من اعرق الأسر في روما ووضعهم في معهد خاص. وان ما يدعى پاتر پاتراتوس وهو الذي يعلن الحرب وينهيها ربما كان احد اعضاء هذه الجمعيّة يختار لهذه الغاية شريطه ان يكون ابوه وابنه في قيد الحياة[ليڤي ١:٢٤ و ٣٢] [ديون ٢:١٩] [چيلوس ١٦:١٤].

اجتاح ايطاليا كلّها وغزا رومه أيضاً وملكت الرهبة والكربة قلوب الناس. وقيل أن درقةً نحاسيّة سقطت من السماء بين يدي [نوما]. فأنهى الى الناس عنها الرواية التالية: إن [ايجيريا] و[الميوزات] أكدّن له بأن الدرقة هي هبة سماويّة لشفاء أهل المدينة وخلاصهم. ولأجل الأبقاء عليها أمرته الربات بأن يصنع أحدى عشرة درقة أخرى تماثل الاصلية في حجمها وشكلها بحيث لا يمكن لأي لصٍ أن يفرق بين الأصلي والمقلّد. كما أنه أعلن نيته في تكريس الموضع الذي يلتقي فيه مع [الميوزات] ووقفه عليهن مع الحقول المحيطة به، كذلك النبع الذي يروي تلك الحقول، جعله مقدساً ووقفاً على استعمال العذارى الڤستالات. ليقمن بغسل وتنظيف قدس الأقداس في هيكلهن بتلك المياه المقدسة، وكانت سرعة زوال الطاعون برهاناً دامغاً على صواب اجراءاته هذه وعرض [نوما] الدرقة على ارباب الصنعة ورجا منهم ابداء مهاراتهم في عمل أشباه لها. ولم يفلح في ذلك أحدٌ، حتى توصل صانع ماهر اسمه (ماميوريوس ڤيتوريوس Mamurius Veturius] الى ما قصر عنه باع الآخرين وعمل نسخاً من الدرقة لم يستطع نوما نفسه أن يميز الأصيلة منها وعهد بحفظ هذه الدرقات الى كهنة مخصوصين يسمون [سالي] وهؤلاء لم يأخذوا اسمهم هذا من [ساليوس Salius] استاذ الرقص، كما يدعي بعضهم زاعماً أنه ولد في [ساموثراكه Samothrace] أو [مانتينيا Mantinea]. وكان يعلم الرقص بالسلاح. وإنما اشتق على أغلب الاحتمال من الرقص بالقفز وهو ما يزاوله [السالي] أنفسهم عندما يحملون الدرقات المقدسة في شهر آذار ويطوفون بها في انحاء المدينة. وهم في هذه المواكب يرتدون قمصاناً قصاراً من الارجوان ويتمنطقون باحزمة عريضة مكفتة بالنحاس ويضعون على رؤوسهم لامات نحاسية ويشهرون خناجر قصاراً.

ويقومون بين الفينة والفينة بتمثيل عملية التحام وطعان بالدرقات إلاّ أن المظهر الرئيس في الموكب هو الرقص. فيتمايلون ويتأودون برشاقة ويمثلون بسرعة ولمحات خاطفة بعض الحركات المعقدة بكثير من مظاهر القوة والخفة. ويطلق على الدرقات اسم [انكيليا Ancilia] لأنها ليست دائرية الشكل ولا كاملة الاستدارة كالدرقات الاعتيادية، وإنما مقرنصة متعرجة تثنى حوافها بعضها الى بعض نحو الداخل في أثخن المواضع منها.

وبهذا تكون ذات شكل مقوّس أو ما يُسمى بالاغريقية [انكيلون Ancylon] أو لعلّه جاء من كلمة [انكون Ancon] أي المرفف فبه تُعلّق، وهو ما يقوله [جوبا] الشديد الرغبة في ان يجعلها اغريقية الأصل. ومن المحتمل أنها جاءت من (Anecathen) اي النزول من فوق. لأنها هبطت من السماء، أو من [اكيسيس Akesis] لما لها من قابليّة الشفاء. أو من [أوخمون ليسيس Auchmon Lyusis] لأنها وضعت حداً للمحل والجفاف. أو من

[اناسخيسيس Anaschesis] أي الخلاص من النائبات. وهي اصل الإسم الآثيني [أناسيس Anaces] الذي منح [لكاستورو وللوكس] إذا كان علينا أنه نردها الى أصل أغريقي. وكانت مكافأة الصانع [ماموريوس] على مهارته أن أسمه بات يذكر بالثناء في القصائد التي يغنيها كهنة السالي وهم يرقصون بسلاحهم في شوارع المدينة على أن بعضهم يزعم أن السالي لايلفظون «ڤيتوريوم ماميوم Yeturium Mamwium» بل [فيتيرم ميموريام Veterem Ma-moriam] أي الذكر القديمة.

بعد أن أستحدث [نوما] هذه الرتب الكهنوتية المختلفة أقام بالقرب من معبد ڤستا، ما يسمى حتى يومنا هذا «ريجيا» أو بيت الملك. حيث كان يقضي جل أوقاته في التعبد وخدمة الأرباب، مرشداً الكهنة أو متحدثاً معهم في مواضيع دينية مقدسة. وكان لديه منزل آخر فوق جبل [كويرناليس] ما زالت آثاره باقية الى يومنا هذا. وكان المنادون يخرجون قبل أن يبدأ أي موكب ديني، أو صلاة، ينادون الناس بوجوب تركهم عمالهم والخلود الى الراحة. ويقولون ان الفيثاغوريين ما كانوا يسمحون للناس بأن يتعبدوا ويصلّوا الى آلهتهم على هواهم وكلما سمحت لهم الظروف بل أن يخرجوا من بيوتهم واذهانهم متهيئة لاداء الفريضة. ولذلك رغب [نوما] تبعاً لذلك أن لا يرى مواطنوه المراسيم الدينية أو يسمعوها وهم غافلون غير خاشعين، بل أن يتركوا ما بأيديهم من اعمال وان ينصرفوا بمجامع نفوسهم الى الدين بوصفه أرفع عمل للبشر وأكثر جدية. وأن تزول الضوضاء من الشوارع. وتقلّ ضجة الأعمال الجسديّة وينقطع مرور السابلة إفساحاً لسبيل المواكب الديني. وقد بقيت آثار لهذه العادة في رومه حتى يومنا هذا، اذ عندما يبدأ القنصل باستخارته بمراقبة الطير، أو بتقديم قربان. ينادى في الناس Ha-cage أي انصتوا لهذا!». وهو تحذير للحاضرين بأن يضبطوا أنفسهم ويخشعوا. وكثيرٌ من هذه التنظيمات تشابه ما وصفه الفيثاغوريون. فمن اقوالهم «لا تجعل المكيال بمثابة مقعد تجلس عليه[٤٤]. لاتحرك النار بالسيف[٤٥]. عندما تخرج الى سفرٍ فلاتنظر خلفك[٤٦]. فلتكن أُضحياتك لآلهة السماوات بعددٍ وتريّ، ولتكن اضحياتك لآلهة الأرض بعدد شفعي[٤٧].» إن مدلولات كل هذه الوصايا لم تكشف للعامة، وكذلك بعض مبادئ [نوما] لا

(٤٤) بمعنى ان لاتستسلم لدواعي الكسل.
(٤٥) اي «لاتزيد في غيظ من كان مغتاظاً».
(٤٦) في موضع آخر اثبت پلوتارخ الوصية بهذا الشكل «لا تكر من الحدود راجعاً» والمعنى واحد وهو «مت رجلاً، ولا تتحسر على الحياة وهي تتركك، ولا تتمّن ان تعود صغيراً».
(٤٧) يرى الاقدمون العدد الوتري اكثر كمالاً، ويعتبرونه رمز الاتحاد اذ لا يمكن قسمته الى نصفين متساويين كالعدو الشفعي. ولم يكن هذا هو السبب الوحيد للتفضيل اي باعتبار الشهر الثاني لآلهة الارض على انه نجم عن ذلك آلاف من الرسوم الخيالية ما زال بعضهم يحتفظ بها الى يومنا هذا.

ترى لها معنى واضحاً كقولهم «لاتقدم قربان خمر الى الآلهة من خمرٍ فطيرة، لاتقدم اية أضحيات بدون خبز[٤٨]. قم بالدوران لمّا تؤدي صلاتك للآلهة[٤٩]. أجلس بعد أن تكمل فريضتك» إن الوصيتين الأوليين تشيران الى أن فلاحة الأرض واصلاحها هما جزء من الدين. واستدارة المصلين اثناء قيامهم بالفرائض انما يمثل دوران الأرض على ما زعموا. وفي رأيي: إنه لما كانت المعابد تستقبل جهة الشرق، فإن المؤمن يدخلها وظهره مستدبرُ القبلة اي مَشرق الشمس بينما وجههُ يستقبل الآلهة فبدورانه يؤدي صلاته للربّين معاً. هذا إلاّ اذا كان في تغيير الإتجاه في الصلاة معنى غامض مثل «العُملة المصرية»[٥٠] التي تشير الى تقلّبات حظوظ الانسان ووجوب الرضى بكل ما قسمه الاله من حظوظ أو غيره من أحوال مهما كانت وجهتها، فهي صحيحة ومناسبة. ويقولون أيضاً أن الجلوس بعد الصلاة هو علامة على أن دعوات المصلين قد استجيبت، والبركة التي طلبوها مُنحت لهم. ثمّ كانت الأعمال المختلفة مقسمه بفترات من الراحة. فلربما كان جلوسهم بعد فراغهم من عملهم، لأجل نيل رضا الآلهة عن عملٍ آخر سيبدأونه. وهذا ما يتسق تماماً مع ما ذكرنا قبلاً، وهو أن المشترع يريد تعويدنا على رفع صلاتنا الى الربّ لا بحسب ما تسنح به الظروف ولا بوجه العجلة لأجل الانصراف الى اعمال أخرى، ولكن بتوفير وقتٍ وفراغٍ لها. وبهذا التنظيم والتثقيف الديني أنتقلت المدينة دون ان تدري الى حالة من هدوء الطبع، وأمتلأت أعجاباً واحتراماً لفضائل [نوما] بحيث كانت تطيع كل ما يستنّه بثقة خالصة من أي شكّ وإن لم تكن مغرقة في الخيال وما وراء الطبيعية، ووجدوا به انساناً لا يعصيه شيء أو يستحيل عليه ولا يذكر عنه أمر الاّ ويصدق عليه.

وهناك حكاية هي انه دعا مرةً عدداً كبيراً من المواطنين الى مأدبة[٥١] وكانت الصحاف التي وضع فيها اللحم بسيطة جداً مما يستعمل في بيوت العامة والطعام نفسه كان اعتيادياً

(٤٨) الغرض الاساس من هذا الشرط ربما من أجل صرفهم عن تقدمه الدم واستدراجهم لتقديم الكعك وتماثيل الحيوانات المصنوعة من العجين أو ربما للتدليل بان الخبز هو أفضل هدية من الطبيعة. أمّا الخمر الماسخة فلا قيمة لها.

(٤٩) ربما لتمثيل عظمة رئيس الآلهة.

(٥٠) يقتبس كليمنت الاسكندراني (٥:٨) فقرةً من أحد نحاة تلك الدينة جاء فيها قوله: ان الكهنة المصريين كانوا يعبدون العجلة في أماكن العبادة لأنها تمثل سرعة التنقل وعدم الاستقرار. ويعبدون الزهر تذكيراً بقصر الحياة».

(٥١) يحدثنا [ديون ٢:١٥] ان [نوما] أشهد هؤلاء المدعوّين الرومان بعد ان أطلعهم على كلّ غرف قصره صباحاً بحقارة الاثاث الذي لا ينبئ عن المأدبة العظيمة التي تعين قيامها مساء ذلك اليوم. ثم انه ابقاهم معه الجزء الأكبر من ذلك اليوم وبعد ذلك دخلوا محل العشاء فوجدوا لدهشتهم كل شيء ينطق بالفخامة والنفاسة. وربما عزا هذا كلّه الى صديقه وخلّه الخفيّ!

فقيراً، وعندما جلس الضيوف بدأ يحدثهم ان الآلهة التي أعتادت محادثته، قد زارته الآن. وعلى حين غرةٍ ظهرت في القاعة انواع مختلفة من أثمن الأقتراح وحفلت المائدة بأنفس الطعام واللحوم. إلاّ ان المحاورة التي قيل انها جرت بينه وبين [جوپتر] تفوق كل الأساطير الخيالية التي صنفت عنه. قيل أن آلهين نصفين هما بيكوس Picus وفاونس Faunus كان يختلفان الى ينابيع وخمائل «جبل آڤنتين» قبل أن يصبح مأهولاً ويدخل في المدينة، وربما كانا من جماعة المسوخ Satyr أو اليان Pan خلا انهما كانا يتجولان في كل ارجاء ايطاليا ويقومان ببعض انواع الحيل والخوراق عن طريق السِّحر والعقّار، كما عزا الأغريق ذلك الى ما يسمونهم انيدي داكتيلي Idaei Dactyli[٥٢]، وعزم نوما يوماً ان يفاجيء هذين الآلهين النصفين بسكب مزيج من الخمر والعسل، في مياه النبع الذي يشربان منه عادة. وعندما وجدا انهما وقعاً في الفخ خرجا عن هيئتيهما الحقيقيتين واتخذا مُختلف الاشكال وتزيّا بكلّ زيّ بشعٍ ومظهر غير عاديّ. ولكن لما وجدا أن لا فكاك لهما من الفخّ، ولا أمل في تحرير نفسيهما، اضطرا الى أن يكشفا له عن مختلف الأسرار، وما سيحصل من المستقبل. وخصوصاً تعويذة للبرق والرعد ما زالت مستعملة، ويقتضي لها بصل، وشعر، وسمك الپلشارد، ويقول بعضهم انهما لم يكشفا له سرّ التعويذة. إلاّ انهما استدعيا جوپتر من السماء بسحرهما. فراح يقول لنوما بلهجة غاضبة انه اذا أراد أن يسحر الرعد والبرق فعليه أن يفعل ذلك بالرؤوسِ فسأله نوما:

- كيف؟ أبرؤوس البصل؟

فأجاب چوپتر

- لا، برؤوس الرجال

واراد [نوما] أن يصرفه عن قسْوة هذه الوصفة فحوّل الموضوع الى جهة أخرى. بقوله

- قولك يعني، شعر رؤوس الرجال.

فأجاب چوپتر:

---

(٥٢) يخبرنا ديودورس نقلاً عن ايفوروس بأن [الأيدي داكتيلي] هم أصلاً من جبل (ايدا) في (فريجيا) وقد عبروا منها الى اوروپا مع (مينوس) الملك واستقروا أولاً في [ساموثراقي] حيث علموا سكانها الممارسات الدينية. ويُظن ان (اورفيوس) هو تلميذهم وهو أول من جاء الى اليونان بنوع ما من انواع العبادة. ويقال كذلك ان ألداكتيلي هم اول من استخدم النار وعرف خصائص الحديد والنحاس ولقنوها سكان البلاد الذين يسكنون قرب جبل پيريكنثوس. كما علموهم طرق الإفادة منها ومن أجل هذا ولكثير من مكتشفاتهم الأخرى عبدوا كما تعبد الآلهة بعد مماتهم واسمهم باليوناني [داختيلوس] وهي اصبع (عشر اصابع) يستخدم كتعويذة ضد المخاطر وتلبس حجارة معينة كتعويذة، تحمل اسمهم.

- لا بل أحياء - ...

فقاطعه نوما بقوله

- ... السمك؟

وكانت [ايجيريا قد علمته هذه الأسئلة. وعاد جويتر الى السماء وقد هدأت سورة غضبه وبات « Ileos » أي طيّب النفس. ولهذا أطلق على هذا الموضع اسم اليشيوم Ilicium[٥٣] من تلك الكلمة اليونانية، بعد أن صُحِفّ اللفظ كما اثبتناه.

هذه الروايات على قدر ما هي مضحكة سخيفة تظهر لنا مشاعر الناس تجاه الآله، تلك المشاعر التي تمكنت منهم بحكم العادة. وتظهر أن أفكار نوما الخاصّة انحصرت كما قيل - في المسائل الآلهية الى حدّ لا مزيد عليه حتى انه عندما أبلغ بأنّ «الاعداء يقتربون» أجاب مبتسماً «وانا أضحي»!.

وهو الذي بنى أيضاً معبدي «الايمان»[٥٤] و«الحدود Terminus»[٥٥]. وعَلّم الرومان أن الحلف «بالايمان» هو أغلظ يمين يمكن أن يحلفوا به، وهم مازالوا يحفظونه[٥٦]. ويقومون لترمينوس اي آله الحدود، قرابين خاصة وعامة الى يومنا هذا، فوق حدود اراضيهم وشواخصها الحجرية. على أن تكون القرابين من صنف الأحياء، وإن كانت قبلاً ذبائح، فأبطلها نوما لأنه قدّر أن ربَّ الحدود الذي يحرص على السّلام ويشهد للحَقّ، لا شأن له بالدماء. ومن الواضح جداً أن هذا الملك هو أول من خطط الحدود بين اراضي رومه، لأن [رومولوس] كان دائم العدوان على اراضي جيرانه، ولم يؤثر عنه انه رسم حدوداً ما. فالحدود هي في الواقع وسيلة دفاعٍ لأولئك الذين يختارون رعايتها واحترامها. في حين انها شاهدٌ على ظلم الذين يعتدون عليها. والحقيقة هي أن البقعة التي استاثر بها الرومان في مبدأ الأمر، كانت صغيرة المساحة للغاية فوسعّها رومولوس بحروبه وقام نوما الآن بتقسيمها وتوزيعها على أفراد العامة

---

(٥٣) هنا يجانب پلوتارخ الصواب. وربما عُزى ذلك الى قلة تضلّعة في اللغة اللاتينية. ويخبرنا [أوڤيد ٣:٣٢٨] ان جوپتر يطلق عليه اسم (اليشيوس) من فعل (اليچري) اي الخروج، لأنه خرج من السماء بهذه المناسبة.

(٥٤) Filles.

(٥٥) الآلهة تيرميني تمثل بالحجارة التي أمر [نوما] بوضعها على حدود الدولة الرومانية، وحول كل ارضٍ خاصّة. كما انه امر تكريماً لها باقامة عيد سنوي سماه ترمينالیا في ٢٢ أو ٢٣ من شهر شباط وهو آخر يوم من أيام السنة القديمة. ولذلك ضوعف عندما قام يوليوس قيصر باصلاح التقويم. وعندها سميت السنة بيسكتال. والاضحية التي تقدم في هذه المناسبة هي امّا خنزير خنوص رضيع أو حمل. ان رفع رمز الآلهة ترمينيكان يعتبر اهانة عظيمة بحيث كان دم المجذف مباحاً ولايّ شخصٍ الحق في قتله وهو أمن من العقاب.

(٥٦) «اقسم بايماني Medius fidius» وهو يمينٌ روماني يعادل قولنا اليوم «بشرفي!» أو «بناموسي!».

المتظلمين الساخطين، مدفوعاً برغبته في ازالة الفقر المدقع الذي يدفع الى الغواية. ولتوجيه الناس الى الزراعة لإيصالهم الى حالة أفضل من النظام والاستقرار كذلك اعاد قسمة أراضيهم نفسها. ليس هناك مهنة فاضلة مثل الزراعة. وحياة الريف تولد رغبةً وتعلقاً شديدين بالسلم والدعة وتختلف عند كل الناس مهما أختلفت صفاتهم. تلك الروح من الشجاعة والصلابة وتجعلهم مستعدين للقتال دفاعاً عن كل شبر من أرضهم في حين انها تقضي على كل اعتداء متأتٍ من أعمال الظلم والعنف. ولهذا وزع نوما الاراضي بعد تقسيمها قطعاً مؤملاً ان تكون الزراعة تعويذةً تأسر نفوسهم وتصرف إهتمامهم الى السّلم، ومقدراً بأنها ستكون وسيلة للربح الأدبي فضلاً عن الكسب الاقتصادي. وسمىّ كل قطعةٍ ارض [باغوس Pagus]، وعين لكلّ واحدةٍ منها رئيس رقباء، وكان يمتع نفسه أحياناً بتفقد هذه المستعمرات شخصيا ليكوّن احكامه الخاصّة على طبائع كُلّ امرءٍ من النتائج. وكان بحضوره يمدح ويكرّم ويستخدم أولئك الذين يحسن عملهم وبالتوبيخ واللوم يدفع المتكاسلين والمهملين(٥٧) الى مضاغفة جهودهم.

إلاّ أجلّ اعماله وأعظم مآثرة له، هي تقسيم الناس بحسب حرفهم وصناعاتهم الى جمعيات أو نقابات. فقد كانت المدينة تتألف، أو بكلمة أخرى - منقسمةً الى قبيلتين تعذر إزالة الخصام بينهما، في حين أن ذلك الخلاف كان يحول دون قيام أي وحدة، وبسبب نزاعات وثارات دموية مستمرة، وهداه تفكيره الى أن الشعب أقرب شيء الى المواد الصلبة لا يمتزج بعضها ببعض الا عندما تكوّم كومة واحدة وتسحق الى ذراتٍ وبهذه الطريقة تمتزج، فقرر أن يقسّم السكان جميعاً الى عددٍ من الاجزاء الصغيرة مؤملاً من استحداث تفرقة أخرى - انه يزيل التفرقة الأصلية الكبرى لأنها ستضيع في الصغرى. فميّز الناس بمختلف ما يتعاطون من حرفة أو صناعة، وأسس جمعيات للموسيقيين والصاغة والنجارين والصباغين، والاسكافية والسلاّخين والصفّارين والفخارين. كما جمع كل أرباب الصناعات اليدوية الأخرى في نقابة أخرى. وعين لكل واحدة مجالس قضائها ومنظماتها الادارية ومراسيمها الدينية. وعلى هذه الشاكلة بدأت تضمحّل كُلّ صفوف التفرقات الحزبية لأول مرة ولم يعد يتحدث عن أي شخصٍ بوصفه رومانياً أو سابينياً. روموليّا أو طاطيّاً، وغدت التقسيمات الجديدة مصدراً للتمازج العام والتالف.

ومن مآثره الممدوحة جداً تغييره أو تعديله ذلك القانون الذي يمنح الحق للآباء في بيع اولادهم(٥٨)، مستثنياً من ذلك المتزوجين ومشترطاً رغبة وموافقة الأبوين إذ يبدو من القسوة

(٥٧) ان اهمال زراعة الحقل يعتبره الرومان جرماً يستحق عقاب الجسنور Censorium Probrum.

(٥٨) منح روملوس سلطة للاباء على ابنائهم، تزيد عن سلطة الأسياد على عبيدهم. ففي حين لا تجد السيد =

الشديدة أن تتزوج امرأة من شخص حُرّ، فتجد نفسها فيما بعد تعاشر عبداً.

وحاول أيضاً تنظيم تقويم سنويّ وهو ان لم يكن دقيقاً الغاية، لا يخلو من الأسس العلمية. كان الرومان في أيام رومولوس لايحددون اشهر السنة بايام معينة ومدد متساوية. فبعضها يحتوي عشرين يوماً وبعضها يبلغ خمسة وثلاثين يوماً أو أكثر. ولم يكونوا واقفين على اختلاف حركات الشمس والقمر وانما استقروا على قاعدة واحدة وهي أن السنة الكاملة تتألف من ثلاثمائة وستين يوماً. ولكن [نوما] حسب مقدار التفاوت بين السنتين الشمسية والقمرية بأحد عشر يوماً لأن القمر يكمل دورته السنوية بثلاثمائة واربعة وخمسين يوماً بينما تكملها الشمس بثلاثمائة وخمسة وستين. ولأجل أن يزيل هذا التفاوت ضاعف فرق الأحد عشر يوماً وزاد شهراً واحداً على كُلّ سنة ثانية وأمده أثنان وعشرون يوماً وهو يلي شهر شباط يوسمىّ عند الرومان شهر [مرسيدينوس Mercedinus]، وقد أقتضى لهذا التعديل بمرور الزمن، تعديلاتُ أُخرى. كذلك غير نظام تعاقب الأشهر، فوضع شهر آذار في المرتبة الثالثة بعد أن كان أوّل أشهر السنة. وكانون الثاني جعله الأول بعد أن كان الحادي عشر. وشباط الذي كان الثاني عشر والأخير، جعله الثاني، ويعتقد الكثيرون أن [نوما] هو الذي أضاف شهري كانون الثاني وشباط أيضاً. ففي البداية كان لديهم سنه تتألف من عشرة أشهر فقط. وهناك من اقوام البرابرة ما يعدّون ثلاثة اشهر فقط في سنتهم. وسنة الاركاديين في اليونان، أربعة أشهر؛ وكانت سنة المصريين في مبدأ الأمر، شهراً واحداً على ما قيل، ثم جعلت اربعة أشهر. وهكذا فمع أنهم يعيشون في أحدث بلدٍ من البلدان[٥٩]، تراهم معروفين بأنهم أقدم الشعوب في العالم ويعدوّن في شجرات سلالاتهم ارقاماً هائلة من السنين معتبرين الأشهر سنوات[٦٠].

= قادراً على بيع عبده أكثر من مرّة واحدة، نجد الاب يحلّ له بيع ابنه ثلاث مرات مهما كانت حالته القانونية ومهما بلغ من عمر. كان هذا العرف سائداً في بلاد اليونان الى زمن (صولون). وقد قام هذا بوضع حدود لها. فحرم بيع الابن عند بلوغه سنّ الرجولة، الاّ انه استثنى من التحريم البنات والأخوات اللاتي يفاجأن متلبسات بالزنا. ولم يطل امد التحديد الذي وضعه [نوما] لهذا المبدأ اذ ما لبث ان الغي بعده. الاّ ان حكم العشرة Decemvir في اللوح الرابع أحيا هذا التقليد (ديون ٢:٨) وعدل عنه تدريجياً بالتقدم الحضاري. لكن كان يحصل تطبيق للعرف في عهد شيشرون الأمر الذي يدّل على أن هذا الحق ظلّ سارياً بكلّ ما فيه من صرامة.

(٥٩) عندما جفّت الدلتا. وهي على أغلب الاحتمال احدث جزءٍ مأهول من البلاد المصرية [هيرونوتس ٢:٩ و ٥].

(٦٠) اذا افترضنا ان المصريين كانوا يسمون الشهر سنةً، فان حساباتهم وتواريخهم ستبدو أقرب الى الحقيقة نظراً الى عمر الدنيا حالياً. فهم يحسبون تسلسلاً للملوك يعود الى فترة (٣٦٠٠٠) سنة. على ان فرضيتنا تجعل عهود حكم ملوكهم قصيرة جداً لا يقبلها العقل. هذا مع العلم ان هيرونوتس يقول ان المصريين هم أول من بدء الحساب بالسنة الحوليّة وانهم أول من جعل السنة اثني عشر شهراً. ان الاسبقية التي يتباهون بها يجب ان يعزى والحالة هذه الى مدّهم الجزء الخرافي من تاريخهم الى عهد =

وامّا ان الرومان حصروا السنة كلها بعشرة أشهر في مبدأ أمرهم. ولم يحصروها بأثني عشر، فهذا يبدو واضحاً من اسم آخرها «ديسمبر December» ومعناه «الشهر العاشر». وكون آذار March هو الأول، فهذا ايضاً واضحٌ لأن الشهر الخامس بعده كان يدعى «كونتيليس Quintilis» والسادس يدعى [سكستيليس Sixtilis] وهكذا الى الأخير. اذ لو كان شهر كانون الثاني وشباط يتقدمان آذار، لوجب أن يكون (كونيتيليس) الخامس بالتسمية والسادس بالترتيب. وكذلك يكون طبيعياً أن آذار March المكرّس للآله مارس Mars هو الأول في تقويم رومولوس. وإپريل April (نيسان) الذي أخذ اسمه من ڤينوس (أي أفروديت Aphrodite) هو شهره الثاني. وفيه يقربّون الى ڤينوس، وتستحمّ النساء في أوّل يوم «Calend» منه وهن ضافرات رؤوسهّن باكاليل الزّهر، ولوجود حرف (پ) في اسم الشهر، لا حرف (ف) يرى بعضهم انه غير مشتق من اسم [افردويت]، ويقولون انه من كلمة «اوپريو Operio» وهي كلمة لاتينية تعني «فَتح Opan» لأن هذا الشهر يأتي في أول الربيع، ويفتّح البراعم والأزهار، وينهي موسمها. ويليه ما يسمىّ أيار May من كلمة [مايا Maia] وهي اسم امّ [الرب عطارد] وهو مكرّس له. ثم يتبعه حزيران June [يونو Juno]. على أن بعضهم يجعل اسميهما مشتقين من اسم موسم بقوة السنة [مويورس Majores]. اما الأشهر الأخرى فقد سموّها بحسب ترتيبها فسمي الخامس [كوينتيلس]، والسادس [سكستيليس] والسابع [سپتمبر] والثامن [أوكتوبر] والتاسع [نوڤمبر] والعاشر [ديسمبر]. ثم أن [كوينتيلس] تبدل اسمه باسم «يوليوس Julius» من اسم قيصر الذي هزم [پومپي]، كذلك استبدل أسم سكستيليس [بأوغسطس] وهو القيصر الثاني الذي عرف بهذا اللقب وحذا [دوميتيان] حذو هذين، فأعطى اسمه للشهرين التاليين وعرفا بـ(جرمانيكوس Germanicus] و[دوميتيانوس Domitianus] ولكن اسميهما عادا اليها بعد أن أغتيل اي سپتمبر وأكتوبر وبقيا كذلك حتى الآن دون تغيير. ومن الأشهر التي اضافها [نوما] أو نقلها عن مواضعها،.شباط [فيروُوَري] من فبروا Februa وهو شهر التطهر وفيه يقدمون التقدمات الى الموتى ويحتفلون بعيد [لوپركاليا] وهو يشبه مراسيم التطهير في معظم تفاصيله، وكانون الثاني [جانوري] من يونو Juno وقد قدّمه [نوما] على آذار المكرس لمارس، والسبب الذي دفعه الى ذلك في اعتقادي هو رغبته الشديدة في التأكد والايضاح بأن الفنون والعلوم في زمن السلم، لها الارجحية على فنون الحرب وصناعتها. فقد كان [يانوس Janus] هذا إمّا

= سحيق جداً. واما عن مقولة پلوتارخ بان مصر هي بلاد حديثة العهد فهو قول غريب من رجل له مثل هذه المعرفة الواسعة. واما عن سنتهم ذات الأشهر الأربعة فما زال المتتبعون المختصون في حيرة من ذلك.

إلهاً نَصفاً أو ملكاً في العصور الغابرة السحيقة، وكان على وجه التأكيد محبًا للوحدة المدنيّة والاجتماعية، وعرف بأنه انتشل الناس من الحياة البربرية الهمجية. ولهذا السبب مثلوه بوجهٍ، اشارةً الى الحالتين أو الوضعين الاول منهما الوضع الذي كان عليه البشر، والثاني الوضع الذي آلوا اليه بعد أن انتشلهم.

ولمعبده في رومه مدخلان يسمونها بابيْ الحرب، لأنهما يبقيان مفتوحين في أيام الحرب ويغلقان في ايام السلم، والحالة الثانية كانت نادرة جداً ذلك لأن الامبراطورية الرومانية في حالة اتساعها وتضخمها كانت ابداً محاطة باقوام البرابرة وباعداء يتربصون بها الدوائر ولهذا ما عرفت للسلم طعماً إلاّ في القليل النادر. وقد أغلق هذا المعبد في أيام [اوغسطس قيصر] فقط[٦١]. بعد أن حقق انتصاره على [انطوني]، كذلك أغلق مرة ثانية عندما كان [ماركوس آتيليوس Marcus Atilius][٦٢] و[تيطس مانليوس Titus Manlius] قنصلين. ثم لم تمرّ فترة وجيزة من الزمن مفتوحين قط طوال حكم نوما وظلا مغلقين باستمرار لمدة ثلاثة وأربعين عاماً كاملة وهي مدة سلم لم يعرف مثلها من قبل ومن بعد ولم يكن الرومان الوحيدين الذين لان جانبهم، ومال بهم طبعهم الى الدعة والسلم بحكم ملك مسالمٍ رقيق الطبع، بل تعدتهم هذه الروح الى شعوب المدن المجاورة كأنما هَبّ عليها نسيم رخيّ من رومه. فبدأ الجميع يعانون تغييراً في المشاعر، وشاركوا كافة في الشوق العام الى لذة السلم ونعم النظام والاستقرار. الى حياة تستغرقها اعمال استنبات التربة وتنشئة الأولاد وعبادة الآلهة. وساد ايطاليا ايام أعياد، وحفلات الالعاب والتزاور بين الاصدقاء والألفة والاستضافة والكرم. وكان حبّ الفضيلة والعدل يتدفق من حكمة نوما كما يتدفق الماء من نافورة. وكان هدوء طبعه يشع بالهدوء والطمأنينة الى جميع الجهات ولذلك أصبحت مبالغات الشعراء وفقاعاتهم الكبيرة تتضامن الى الواقع البسيط بوصف ما حدث على النحو التالي: «... نسجت العناكب خيوطها فوق تروس الحديد»

أو قولهم: «الصدأُ يأكل الرمح المسنون، والسيف ذا الحدين. ولايسمع بعدُ صوت أبواق النحاس. ما عاد النوم الهنيء يزايل عيون الناس[٦٣]».

---

(٦١) قبل مجيء اغسطس قيصر أغلق معبد (يانوس) عدة مرات وخلافاً كما ذكر في المتن (غلقه في ٧٥٠ ق.م) فقد أغلق في ايام نيرون، وفي ايام فسپاسيان بعد تغلّبه على اليهود.

(٦٢) علينا ان نثبت «كايوس» بدلاً من «ماركوس». فزميله (تيتوس مانليوس) أغلق معبد (يانوس) في نهاية الحرب التيونية الأولى في ٥١٩ق.م. وظلت روما مشتبكة في نضال مستمر منذ عهد نوما حتى هذه الفترة.

(٦٣) اقتبس پلوتارخ هذه القصيدة من مجموعة قصائد (باكليدس) التي حفظها لنا [ستومبيوس] حول الإشادة بالسلم.

اذ لم تقم حرب ولا فتنة ولا انقلاب في أحوال الدولة طوال حكم [نوما] ولم يواجه بحقد أو نية سوءٍ ولم يحصل مؤامرة عليه أو تحاك خطة، مبعثها الطموح ضده، فإما كان الخوف من الآلهة هو الذي يعصمه من الخطر وإمّا الاحترام لفضائله، أو لعلّها نعم الحظ الآلهية التي كانت في ايامه ترعى البراءة الأنسانية هي التي جعلت حكمة مثلاً حيّاً وبرهاناً ساطعاً مهما كانت الوسائل - على ذلك القول الذي نطق به افلاطون بعد مرور زمن طويل وهو أن الوسيلة الوحيدة والدواء الناجع الوحيد للخلاص من الشرّ الانساني هو في اتساقٍ سعيد للأحداث حين توجد في شخص واحدٍ سلطات الملك وحكمة الفيلسوف لأجل أن ترفع الفضيلة الى سلطة مراقبة الشر والهيمنة عليه. وهذا الرجل الحكيم هو مبارك بشخصه، «ومباركون ايضاً أولئك الذين يستطيعون الاصغاء اليه والاستماع الى تلك الكلمات التي تخرج من فمه»(*).

وربما لم يكن هناك حاجة أيضاً للاكراه أو التهديد في التأثير على الجمهور لأن الصورة بنفسها هي المثل الساطع الواضح على الفضيلة في حياة اميرهم وهي التي ستؤدي بهم طوعاً واختياراً الى جادة الفضيلة والى مواجهة حياة طاهرة مباركة تمتاز بحسن النيّة والتعاون المتبادل ويدعمهما الخير والعدل وهذا أعلى مكسب يمكن أن يناله سعي الانسان. ونوما هو خير حاكم يغرس هذه الفكرة في قلوب رعاياه ويحملهم على أعتناقها. إنه المديح الذي لم يستحقّه أحد كما أستحقّه [نوما]. وهو ما يبدو جلياً.

هناك اختلاف بين جمهرة من المؤرخين حول أولاده وزوجاته فبعضهم يزعم أنه لم يتزوج بأحد بعد [طاطيا] ولم يكن لديه منها غير بنت واحدةٍ اسمها [پومپيليا Pompilia]، ويقول آخرون انه خلف اربعة ذكور آخرين وهم [پومپو Pompo، وپينوس Pinus، وكالپوس Cal-pus، وماميروكوس Mamerocus] وقد كان واحد منهم مؤسساً للأسر العريقة الشهيرة الأربعة [پومپوني، پيناري، كالپورني ماميركي Pomponii, Pinarii Calpranu, Mamerei وزادت هذه الأسر الى اسمائها لقب [ريكس Rex(٦٤): ملك] أيضاً لانحدارها من [نوما]. على أن طائفة ثالثة من الكتاب تقول أن شجرات النسب تلك لم تكن غير مجاملة وتملق اختلقها الكتاب لينالوا حظوةً عند هذه الأسر العظيمة، فعملوا لهم شجرات نسبٍ كاذبة متسلسلة من نوما. وقالوا أيضاً أن [پومپليا] ليست بنت [طاطيا] بل بنت [لوكريسيا Lu-creti] وهي زوج أخرى بنى بها بعد أن أختير ملكاً. ومهما بلغ أختلافهم، فكلهم يتفقون في

(*) افلاطون: الشرائع.

(٦٤) ركس Rex هو لقب اسرة ايميلي Aemilii واسرة مارچي Marcii. ولم يكن لقب پومپوني Pompomii أو پيناري Pinarii أو مامرچي Mamerci. وقد انحدر آل پيناري من أسرة كهنة هرقل وهم أعرق وأقدم عهداً من عصر [نوما]. انظر [ليڤي ١:٢٧، ديون ١:٩، ڤرجيل الاينياد ٨:٢٧١].

الرأي بأن هذه البنت تزوجت ابن [مارشيوس] وهو الشخص الذي اقنعه بتسلم مقاليد الحكم ورافقه الى رومه، فأختير عضواً في مجلس الشيوخ تكريماً له. وبعد وفاة نوما نافس [تُللوس Tullus] ابن [هوستيليوس] على الملكية. وبفشله في الانتخاب، بخع نفسه حسرةً وكمداً. إلاّ ان ابنه [مارشيوس] الذي تزوج [پومپليا] بقي في روما. وهو والد [انكوس مارشيوس] الذي عقب [تُلكوس هوستيليوس] في الملك وكان عمره خمس سنوات عند وفاة [نوما].

وعاش [نوما] حتى زادت سنّه على الثمانين وبعدها لم يقض نحبه بموت الفجاءة أو بعد مرضٍ حاد وأنّما توفى بكبر السنّ وبتهافت قواه ووهنها التدريجي على ما قاله [پيسو Piso].

وقد أجتمعت في جنازته كل أمجاد حياته كاملةً، عندما التقت كلّ الدول المجاورة وهي في تحالف وصداقة مع روما، لتكريم وتشريف مراسيم دفنه بالاكاليل وبهدايا الشعوب. وحمل الشيوخ النعش الذي يضمّ جثمانه يتبعهم الكهنة، ثم موكب المشيعين المهيب، في حين ساهم الجمهور عامةً باحداثه ونسائه وأطفاله وهم يصرخون وينتحبون كأنما يندبون موت وفقد قريب عزيز لهم أعتبط وهو في شرخ شبابه لا ملكاً شيخاً بلغ ارذل العمر وقيل أن جثمانه لم يحرق، لانه أوصى بذلك[٦٥]، بل نحتوا ناووسين من الرخام حسب وصيته وأدعوا جثمانه فيما دفنوهما في جبل يانيكولوم Janiculum، وكان في أحدهما جثمانه وفي الثاني كتبه المقدسة[٦٦]. التي دونت له خاصةً كما هي ألواح المشترعين اليونان. ولكن محتوياتها انطبعت في نفوس الكهنة وقلوبهم في اثناء حياته، حتى تشبعت بها اذهانهم وتشربت بروحها وغاياتها. وقد أوصى أن تدفن معه. كأنما هذه الوصايا المقدسة لا يمكن أن تبقى وتنشر في كتاباتٍ جامدة إلاّ وتفقد مكانتها واحترام النفوس لها. ولهذا السبب نفسه يقال ان الفيثاغوريين منعوا أن يحتوي تعاليمهم كتابة لا روح فيها[٦٧] بل فضلوا ان تحفظها الصدور والذاكرات القمينة بحفظها فيقولون عندما كان يتسرب بعض المعادلات الهندسية المعقّدة الغريبة الى شخصٍ غير جدير بها أن الأرباب تهدد بالاقتصاص من هذا العمل الشنيع والتجديف، بأشارة مخصوصة وبهيبة واسعة شاملة. وبتعاقب جملة من هذه الحوادث لتثبت

(٦٥) في الأزمان القديمة كانت جثث الموتى توارى التراب، ثم أخذ المصريون يحنطونها حفظاً لها اعتقاداً بعودة الروح اليها. اما اليونان فقد كانوا يحرقونها تفادياً لتفسخها وما يترتب على ذلك من آثار سيئة. على ان (پليني) يزعم بأن (سيللا) هو أوّل روماني أحرقت جثته.

(٦٦) يبدو ذلك مناقضاً لديون (١٢:٣) الذي يقول «بعد وفاة تللوس هو ستيليوس تسلم خلفه [انكوس مارچيوس] من الكهنة شرائع [نوما] الخاصة بالطقوس والعبادات وأمر بحفرها في الحجر وعرضها على الجمهور.

(٦٧) ذلكم ما مال اليه الكهنة المصريون. ومنهم انتقلت الى فيثاغوراس على ما يبدو ثم الى افلاطون ونوما لميلهم الى عادات تلك البلاد، وربما استمد الأخير من نفس المصدر.

وجوه الشبه في حياتي: [نوما وفيثاغورس] يسهل علينا الاعتذار لأولئك الذين يحاولون اثبات تجاوب في أفكارهما ووجود علاقة شخصية فيما بينهما فعلاً.

ويذكر [ڤاليريوس انتياس] أن الكتب التي دفنت في الصندوق أو الناووس المشار اليه بلغت اثني عشر مجلداً في الشرائع الدينية ومثلها من المجلدات في الفلسفة اليونانية ولما كان [پ. كونيلوس P. Cornelius] و[م. بيبوس M. Baebius] قنصلين بعد اربعمائة عام من وفاة نوما(٦٨)، سقط مطر عزيز وجرفت السيول العرمة التراب وكشفت عن التابوتين الحجريين وقد سقط عنهما غطاؤهما فشوهد أحدهما خالياً تماماً من أي اثر لبقايا جسم بشري. ووجد في الآخر الكتب التي اشرنا اليها، فأخذت الى البريتور [پيتيليوس Petilius] وبعد أن قرأها وتأمل ما فيها، أقسم يميناً امام مجلس الشيوخ بأن محتوياتها لا تصلح في رأيه - للنشر بين العامة، فحملت المجلدات الى الكوميتيوم وهناك تمّ احراقها.

من حظ الأخيار أن قداستهم تمجد بعد موتهم وان الحسد الذي يضطغنه لهم الأشرار لا يعيش بعدهم طويلاً، وقد يسعد الحظّ بعضهم أن يشاهدوا موته قبل أن تحين آجالهم، وفي قضية [نوما] أيضاً كانت مصائر الملوك الذي عقبوه بمثابة طبقات عاكسة تطلق نور سمعته الساطع. فقد عقبه خمسة ملوك انتهت حياة آخرهم في المنفى وهو شيخ هرم بعد أن نحي عن العرش. ومن الأربعة الباقين ثلاثة اغتالتهم يد الخيانة والآخر وهو [تللوس هوستيليوس]. الذي خلف [نوما]، سخر من فضائل سلفه ولاسيما تعلقه بالعبادة وأعتبرها اعمال ضعف وخور نفسيّ وحوّل عقول الشعب الى الحرب إلاّ أنه أُلجم وكُبح جماح هذا التهور والطيش. وتردى هو نفسه في حمأة الدجل والشعوذة المختلفة جداً عن تُقى وتهجّد نوما حين ألمّ به مرض مزمن كثير الأوجاع وعندما مات بضربة صاعقة(٦٩)، ترك آخرين يقاسون ما قاسى من آلام.

---

(٦٨) هذا الحدث وقع في العام ٥٧٣ ق.م، ولعل بلوتارخ كتب (٥٠٠) يقول ڤارو: «ان شخصاً اسمه (ترنتيوس) كان يملك قطعة ارض بالقرب من يانيكولوم. وقد شاعت الصدف ان واحداً من رعاته مرّ يوماً بقطيعه فوق قبر [نوما] فانكشفت له كتب قانون كان [نوما] قد دون فيها الاسباب التي دعته الى تقنين الديانة الرومانية بالشكل الذي رسمه. فحمل الراعي هذه الكتابات الى (البريتور) الذي أخذها بدوره الى مجلس الشيوخ. وبعد قراءة التعليق والاسباب الموجبة أمن بسلامة نيّة [نوما] وامر باحراق الكتب على ان يقوم (البريتور) بقذفها الى اللهب.

(٦٩) ضربت الصاعقة قصر (تللوس هوستيليوس) فاحرقته وهلك فيه هو وزوجه وأولاده. على ان بعض المؤرخين يقولون ان [انكوس مارجيوس] حفيد [نوما] الذي كان يطمح الى الملك. انتهز فرصة اشتداد العاصفة ففتك بالملك.

اوجه المقارنة بين نوما وليكورغوس

بعد انتهائنا من الكلام في سيرتي ليكورغوس ونوما، سنضع معاً نقاط اختلافهما كما هي مبسوطة هنا امام اعيننا وان كان العمل صعباً. إنْ أوجه الشبه بينهما واضحة: اعتدالهما، تديّنهما، كفاءتهما في الحكم ثمّ اختلافات جوهرية في شؤونهما العامة، أولها أن نوما قبل المُلك وليكورغوس نزل عنه. نوما تسلّمه دون رغبة فيه، وليكورغوس كان حائزاً له فتخلّى عنه. الأول ارتفع من شخصٍ عاديّ غريبٍ، الى منصب الملك، رفعه اليه آخرون. والثاني نزل من حالة الأمارة الى شخص عادي بمحض اختياره. إنه لمجدٌ مؤثل أن تنال عرشاً بالحقّ، ولكن أعظم منه أن تفضل الحق على العرش فالفضيلة التي جعلت الأول يبدو جديراً بالسلطات، هي نفسها سَمت بالآخر الى درجة عدم المبالاة به. وأخيراً، فكما يحزق الموسيقيون اوتار قيثاراتهم كذلك أرخى الأول منهما روحيّة اهل رومه المندفعة المُوتَرة الى درجة اوطأ شدهّا الآخر في سپارطا ورفعها الى نغمة أعلى عندما اضرت بها الفتن واصابها الانحلال والانقسام. وكان العمل الأصعب من نصيب ليكورغوس. اذ لم تكن مهمته اقناع مواطنيه بنزع دروعهم، وحل انطقة سيوفهم وانما كان يريد منهم نبذ ذهبهم وفضتهم، وترك اثاثهم الغالي وموائد طعامهم الفاخرة لم تكن مهمته الوعظ والارشاد الى حفظ تعاليم الدين واعياده وتقديم القرابين للأرباب كما يجب وتخليهم عن السلاح وانما حثهم على نبذ الولائم والحفلات والشراب، وصرف أوقاتهم في التمارين العسكرية المجهدة. وهكذا فبينا تجد الأول يحقق مسعاه كله بالاقناع وبحبّ شعبه له وتعلقه به، نجد الآخر بالكاد نجح في الأخير، بعد ان تعرضت حياته للخطر والمتاعب. وكانت فكرة نوما وحياً رقيقاً ودوداً، يناسبه تماماً، وهو ان يوجه اهتمام شعبه ويميل بهم الى السّلام والعدل، لترق طباعهم الوحشية الناريّة، وان سلمنا هنا بان معاملة [الهيلوت] وهي جزءٌ مما قررته شرائع ليكورغوس تُعدّ اجراءات لا مثيل لها في القسوة والظُلم، فعلينا الاقرار أن نوما كان أكثر انسانية بما لا يقاس، واقرب شبهاً بالمشترعين اليونان

فقد بلغ به الأمر ان منح للعبد المسترق حق الجلوس وتناول الطعام مع سيده[١] في عيد [زحل] حتى بتذوق بعض اطايب الحرية وملاذها. فهذه العادة أيضاً تعزى الى نوما. اذ يقولون أنه كان يرغب أن يُفسح لأولئك الذين ساهموا في استغلال الأرض مجالاً للتمتع بخيراتها. ويعللها آخرون، بأنها أحياء لعصر [زحل] حيث لم يكن هناك فرق بين السيد والعبد. والجميع يعيشون كالأخوة في حالة متقدمة من المساواة.

وبصورة عامة يبدو أن الأثنين كانا يسعيان الى غرض واحدٍ وغاية واحدة. وهو الوصول بالشعبين الى حالة الإعتدال، والتقشف أما من السجايا الأخرى فقد ركز احدهما جل اهتمامه في تقوية شعبه، والآخر في العدالة. إلاّ اذا أسندنا أختلافهما في السبل الى اختلاف أمزجة الشعبين وطباعهما واحوالهما وقابلية تطبيق قوانينهما. فنوما لم يعمل للسلم جبناً منه أو خوفاً بل لأنه لا يريد أن يظلم فيأثم، ولم يكن ليكورغوس بالذي يرغب في رفع الروح العسكرية في شعبه ليظلموا الأخرين، بل ليكونوا قادرين على حماية أنفسهم بها.

وفي سبيل الوصول بالأمزجة التي كوّناها في شعبيهما الى سبل واهداف عادلة وغايات سعيدة يحدان منها عندما تزيد في انطلاقها ويقويانها في مواطن ضعفه، وجدا نفسيهما مضطرين الى استحداث ابداعات عظيمة. فشكل النظام الحكومي الذي اقامه نوما، كان ديمقراطياً جمهورياً الى أقصى حدٍ فنقابات الصاغة والموسيقين والاسكافيين تؤلف طبقة العامة المختلفة الألوان والصور. امّا ليكورغوس فكان ارستوقرطياً صارماً جامداً، في حصره كلّ المهن اليدوية والأعمال الوضيعة بطائفة الخدم والأجانب، ولم يسمح لمواطنيه من أدوات العمل، الاّ بالرمح والترس اي صناعة الحرب فقط وخدمة إلهها مارس. ولم يسمح لهم بشيء من المعرفة والفهم غير اطاعة آمريهم العسكريين، والنصر على الأعداء في الحرب. ومنع اي مضاربة مالية بينهم بوصفهم رجالاً احراراً ولأجل جعلهم على هذه الصورة وابقائهم عليها تماماً طوال حياتهم، حَوّل كل ما يتعلق بأمور المال والنقود الى أيدي العبيد والهيلوت بما فيها من أعمال الطهي وخدمة البيوت. إلاّ أن نوما لم يُحدث مثل هذه التفرقة، وانما قمع الروح

(١) افي ساتُرْ ناليا، وكان يعيّده في الرابع عشر من شهر كانون الثاني. وتقرب القرابين تكريماً لذلك الذي جاء بسعادة ورخاء العصر الذهبي الى ايطاليا. وفيه ينعم الخدم بالحرية ويمارسون كل ضروب اللهو والمرح استعادة لذكرى المساواة الاجتماعية التي سادت ذلك العصر. وفيه يتبادل الاصدقاء الهدايا، ولا تعلن حرب ويوقف تنفيذاً احكام الموت بالمجرمين. على اننا لانعلم شيئاً عن منشأ العيد. يقول (ماكروبيوس) انه كان معروفاً في ايطاليا قبل بناء روما. وقد يكون مصيباً في قوله، لأن الأغريق كانوا يحتفلون بعين هذا العيد تحت اسم «خْرونِيا» [ماكروبيوس ساتورناليا ١:٧] ويؤكد (ريكارد) انه نشأ بعد حكم [نوما]، إمّا في عهد [تللوس هوستيليوس] واما في عهد [تاركوينيوس سوبربوس].

العسكرية، وسمح بحرية مطلقة للحصول على الثروة بكلّ وسيلة شاءها الانسان. ولم يهتّم بازالة الفروق الاجتماعية من هذه الناحية. وانما سمح للاغنياء بأن يزيدوا في ثرواتهم دون حد. ولم يهتّم بازدياد الفقر وتفاقمه المطرد، وهو ما كان يجب عليه أن يحتاط له من البداية عندما كانت الفروق في احوال الناس المالية صغيرةً، والناس ما زالوا يعيشون في أحوال اقتصادية متقاربة نوماً ما. لم يتخلص من ذلك كما فعل ليكورغوس، ولم يتخذ التدابير والاحتياط للفتن والفوضى التي تنجم عن الحرص على المال.

فتن ليست ذات خطر قليل، بل هي البذرة الحقيقية والمبدأ الأولي لكلّ الشرور والمكاره العظمى وفي اعتقادي أنه لا يمكن لوم ليكورغوس على اعادة تقسيم الأراضي، ولا لوم [نوما] على عدم اعادة تقسيمها، إن هذه المساواة كانت القاعدة والأساس لجمهورية واحدة. اما في رومه حيث سبق توزيع الأراضي، فلم يكن ثم ما يدعو الى اعادة تقسيمها والاخلال بالاجراءات الأولى التي كان معمولاً بها على ارجح الظن.

واما بخصوص الزوجات والأولاد واحوال المجتمع فكلاهما اتبع سياسة صحيحة لإزالة التنافر والخلاف منه. على أن ساليبهما كانت مختلفة. فعندما يجد الروماني أن لديه عدداً كافياً من الأولاد، وعندما يرجوه جاره الذي لا ولد له أن يسلفه زوجه، فليس هناك ما يمنعه شرعاً تسليفها لمن يرغب فيها لفترة مؤقتة أو بصورة دائمة. في حين نجد الزوج اللقيديموني، قد يسمح لأي رجل آخر بزوجه، اذا رغب في انجاب اولاد منها، ولكنه يبقيها في منزله، وتظلّ الرابطة الزوجية الأولى وواجباتها كما كانت.

لا بل رأينا كثيراً من الأزواج، يدعون رجالاً الى بيوتهم لمضاجعة نساءهم، حتى ينسلن لهم أولاداً جميلي الخلقة حسني التركيب. اذن مالفرق بين العادتين؟ أنقول أن نظام اللقيديمونين هو نظام لا يهتم قَطّ بالنساء وانه يسبب لأغلبية الناس ازعاجاً وقلقاً لا نهاية له، تراقفه الهواجس والأحقاد؟ وان نظام الرومان الذي يحوطه مظهرٌ أكثر رقّة وسماحة، يرخي حجاباً على هذا التغير ويجعله أشبه بعقد زواج جديد ويتغاضى عن وضع عام اجتماعي لا يمكن احتماله؟ كذلك كانت انظمة [نوما] حول العناية بالفتيات أكثر مناسبة لهنّ وللجنس الأنثوي، في حين كانت انظمة ليكورغوس غير انثوية وصارمة فسحتا مجالاً كبيراً لتندر الشعراء عليهما [ومنهم مثلاً يبيكوس Ibycus)[٢] اذ أطلقوا عليها «فينوميريدس Phae-nomirides» اي الفخذ العاري وعملوا كيوربيدس[٣] على إثارة نار الغيرة في ازواجهن.

---

(٢) شاعر غنائي في ريحبيوم.
(٣) اندروماخة.

هؤلاء اللاتي كن مع الشبان في رائعة النهار، يخرجن من الدار وافخاذهن مكشوفة، وارديتهن تتطاير لتظهر عريهن.

ذلك لأن الغلائل التي ترتديها الفتيات العازبات مشقوقة الجانبين من الأسفل بحيث تنكشف عن افخاذهن العارية اثناء سيرهنّ. وقد وصف سوفوكلس[٤] ذلك وضعاً دقيقاً بقوله: «تلك [هرميون Hermione] الفتاة الصبية أيضاً بغلالتها التي ليس فوقها رداء، تنحس الى الخلف وتترك فخذها العاري حُراً مكشوفاً»

ولهذا قيل ان نساءهّن المسترجلات الجريئات مصدر ضيق لأزواجهن بالدرجة الأولى. سيدات مطلقات الأمر في بيوتهن، يدلين بآرائهن في الشؤون العامة بحرية تامة، ويتكلمن علناً دون قيدٍ في أهم المواضيع. إلاّ ان الأمهات وربات البيوت في عهد نوما، كن محترمات، وموضع اجلال أزواجهنّ، وهو من آثار ذلك التكريم الذي نلفه في أيام رومولوس بمثابة تعويضٍ عن اختطافهن عنوةً[٥] ومع ذلك فإن الحشمة الكبيرة تسود حياتهنّ. وهن ممنوعات من التدخل في الشؤون الخارجة عن طبعهن، والوقار مفروض عليهنّ والصمت عادة فيهنّ. لا يقربن الخمر مطلقاً ولا يتكلمن إلا بمحضر من أزواجهن حتى في ابسط الأمور. بحيث أنه عندما سُمح لامرأةٍ مرّةً بعرض قضيتها في ساحة القضاء، قيل ان مجلس الشيوخ ارسل يستفسر من العرافة، بماذا تنذر هذه الحادثة الخارقة[٦]!؟ والواقع أن سلوكهن العام الصالح وخضوعهن، وطاعتهن، يبرهن عليه بحقّ إشتهار عددٍ منهنّ بسوء الطبع والسلوك.

وكما يدون المؤرخون الأغريق في حولياتهم اسماء أوّل من امتشق السيف في الحروب الأهلية، أو قتل أخاه أو اباه أو أمه، فكذلك الكتاب الرومان يذكرون أن [سيوريوس كارثيليوس] كان أول من طلق امرأته، بوصفها حادثة لم يقع مثلها خلال مائتين وثلاثين عاماً اي منذ بناء المدينة. وان من تدعى [تاليا Thalaea] امرأة [پنياريوس Pinarius]،

---

(٤) القصيدة ٧٨٨.

(٥) فرض (روملوس) عقوبة الموت على الزانية أو الشاربة خمراً. لانّ الزنا - على حدّ قوله - يفتح باباً لكل انواع الجرائم. والخمر تفتح باباً للزنا. وجاء في المأثر [ان اغناطيوس مچينيوس] قتل زوجه بيده لأنها عاقرت الخمر فبرّأه مجلس الشيوخ [پليني المرجع السالف ١٤:١٣] وهناك حادثة أخرى أفظع فقد حكم على امرأة سرقت مفاتيح مخزن بأن تُرجم فقام اقرباؤها برجمها حتى قضت نحبها. لقد خفت حدّة هذا القانون بتعاقب الاجيال فأصبح عقاب المرأة التي تصرعها الخمره هو حرمانها من البائنة.

(٦) ما بدأ في ذلك الزمن غريباً، اصبح فيما بعد عادياً. حتى ان كلّ امرأة مزعجة عن هذا الطراز تلقب بـ(افرانيا) نسبة الى زوج أحد أعضاء مجلس الشيوخ التي أشغلت ساحات القضاء بمراجعاتها. وثم (هورتنسيا) الفصيحة بنت الخطيب المصقع (هورتنسيوس) فقد تكللت بالنجاح مرافعتها في «الدفاع عن النساء عندما فرض عليهم ثلاثي الحكّام» غرامة، فقد ووفقت نحفضها الى حدّ كبير [٣:٨ و ٤].

اختصمت مع حماتها [جيفانيا] في عهد [تاركوينيوس سوپربوس Tarquinius Superbus] بوصفها أول حادثة من نوعها.

وتتسق تشريعاتهما وانظمتها بخصوص زواج البنات، مع تلك التي شرعت لتثقيفهن. ولم يسمح ليكورغوس بزواجهن إلاّ بعد يبلغن النضوج التام ويتوفر لديهن الميل. فالوصال الجنسيّ، عندما يكون متفقاً مع قوانين الطبيعة، يولد الحبّ والحنان عوضاً عن الكراهية والخوف الذي يرافق الوصال غير الطبيعي. ذلك هو رأي ليكورغوس كذلك تكون اجسامهن أكثر استعداداً لتحمل متاعب الحمل وتربية الأولاد وهو في رأيه هدف الزواج وغايته.

أمّا الرومان فيزوجون بناتهن قبل بلوغهنّ العشرين أو في السنوات الأولى بعدها. معتقدين ان اجسامهنّ وعقولهن معاً ستصل أزواجهن المقبلين وهي طاهرة لا تشوبها نجاسة. وتبدو وجهة نظر ليكورغوس من ناحية الولادة أصح وأقرب الى الطبيعة. أما نوما فيرى أن الحياة الزوجية المتواصلة أقرب الى الأخلاق(٧)، على أن القواعد التي وضعها ليكورغوس للعناية بالاولاد والاشراف على تربيتهم وجمعهم في زمر ووضعهم تحت طائلة النظام والضبط، كذلك تنظيمه الدقيق لوجبات طعامهم ورياضاتهم، كل ذلك يُظهر [نوما] مشترعاً عادياً. فقد ترك الأمر كله لرأي الأبوين ورغباتهما وحاجاتهما. فبإمكان الأب لو شاء أن يجعل ابنه مزارعاً أو نجاراً أو صفّاراً أو موسيقياً. حتى لكأنّ تدريبهم وتربيتهم منذ نعومة اظفارهم لغاية عامة مشتركة أمرٌ لا يستحق الاهتمام، فيكونون اشبه بمسافرين جمعتهم سفينة واحدة، ركبها كل واحد منهم بمحض اختياره ولغرضٍ خاص به لا وحدة عمل تجمعهم في سبيل المصلحة العامة إلاّ عندما يدق ناقوس الخطر، وفي حالات مخاوفهم الخاصّة تراهم عموماً لا يعملون إلاّ وفق ما تمليه مصالحهم الخاصة.

ولا مندوحة لنا الا أن نلوم المشترعين العاديين الذين قد تعوزهم المعرفة ويفتقرون الى السلطان، ولكن عندما يتسلم رجل حكيم كنوما، مقاليد السلطة المطلقة على شعبٍ طيّع. أفهناك شيء يستحق اهتمامه أكثر من موضوع تثقيف الشئ الجديد، وتدريب الشباب. ليس خلافاً لطبيعتهم، أو ضدّ أمزجتهم بل وفق أعلى نموذج عام للفضائل ومبادئ الاخلاق مما يجب أن ينشأوا عليه منذ أظفارهم؟ وبين الفوائد الكثيرة التي جناها ليكورغوس من خطّ سيره هذاو هو الثبات الذي ضمن بقاء قوانينه. ولم يكن للأيمان التي حلفها السپارطيون بان يقيموا

---

(٧) يفضل ارسطو [السياسة ١٦:٧] المبادئ السپارطية باعتبارها ذات فائدة عظمى بآثارها ومردورها على الانسان. وكان النظام الروماني في رأيه أقرب الى تحقيق الغاية المرجوة - ويقضي بتأخير الوصال الجنسي الى أن تغدو الأنثى أكثر تفهماً لواجباته وأهمية بعامل نضوجها وتقدمها في السنّ.

عليها، من أثر كبير لو لم تثبت في نفوس وأخلاق الصغار بالتدريب والثقافة، ولو لم يشرب حياتهم كلها بحب الحكومة التي أقامها. وكانت النتيجة أن الأصول والأسس التي بنى عليها تشريعاته ظلّت سارية اكثر من خمسمائة سنة. بقيت مثل صبغة عميقة ثابتة جداً، تسود كتلة الشعب باسره. في حين كان كل خطة نوما وهدفه استمرار السلم وحسن النية، وقد زال كل أثر لهذا بعد وفاته. إذ ما ان قُبض ولفظ آخر انفاسه حتى انفتح بابا معبد [يانوس] على مصاريعهما. واندفعت ريح الحرب، كأنما كانت حبيسة محصورة داخل هذه الجدران تجتاح ايطاليا وتملأ أرضها بالدماء والضحايا[٨]. وهكذا لا يكتب البقاء الطويل لاسمى الأعمال وأنبلها، لأنها تحتاج الى ذلك الجُصّ الذي يبقى اجزاءها ملتحمة وبناءها ثابتاً، وأعني به التهذيب والتثقيف. ولعل قائلاً يقول: ماذا اذن؟ ألم تتقدم رومه، وتزداد عظمتها بالحروب التي خاضتها؟ انه السؤال يتطلب اجابة طويلة، اذا قصدنا به ارضاء أولئك الناس الذين يرون «الحال الأفضل» في الغنى والترف والتملك. لا في الاستقرار والدعة والاستقلال. وهي جميعاً مظاهر لروح العدل. وعلى اية حال، فمما يرفع قدر ليكورغوس، ان الرومان بعد نبذهم أنظمة نوما وسياسته نمت امبراطوريتهم وتعاظمت قوتهم كثيراً بينما خمل شأن اللقيديمونيين حالما ابتعدوا عن انظمة ليكورغوس وهبطوا من أوج عظمتهم الى الحضيض. وبعد أن انحسر نفوذهم عن سائر بلاد الأغريق، تعرضوا هم أنفسهم لخطر الزوال التام على انك في الوقت نفسه لا يسعك إلاّ ان تجد الظروف التي جاءت بنوما علامة غريبة جداً، تكاد تكون آلهية المصدر، فهو أجنبيّ، أقنع بالمجيء مكرهاً وبقبول مملكة قام هو بنفسه بتغيير جهازها تغييراً تاماً، وكان سبيله الى هذا، الإقناع فحسب. حكم مدينة لم تكن في حينه قد غدت مدينة موحدة، ولم يلجأ الى السلاح أو أي عملٍ من أعمال العنف.

(في حين استخدم ليكورغوس قوة المواطنين النبلاء، ضدّ معارضة العامّة) وانما بمجرد قوى الحكمة والعدالة، فيها وحدها تمكن من تحقيق الوحدة واحلال التفاهم بين الجميع.

(٨) يقصد حروبهم مع الفيديناتي والألبان واللاتين.

معلومات عن
بعض الآثار التاريخية والمباني الشهيرة
التي ورد ذكرها في الكتاب

١- الاكـربـوليـس [الـپـارثـنـون]

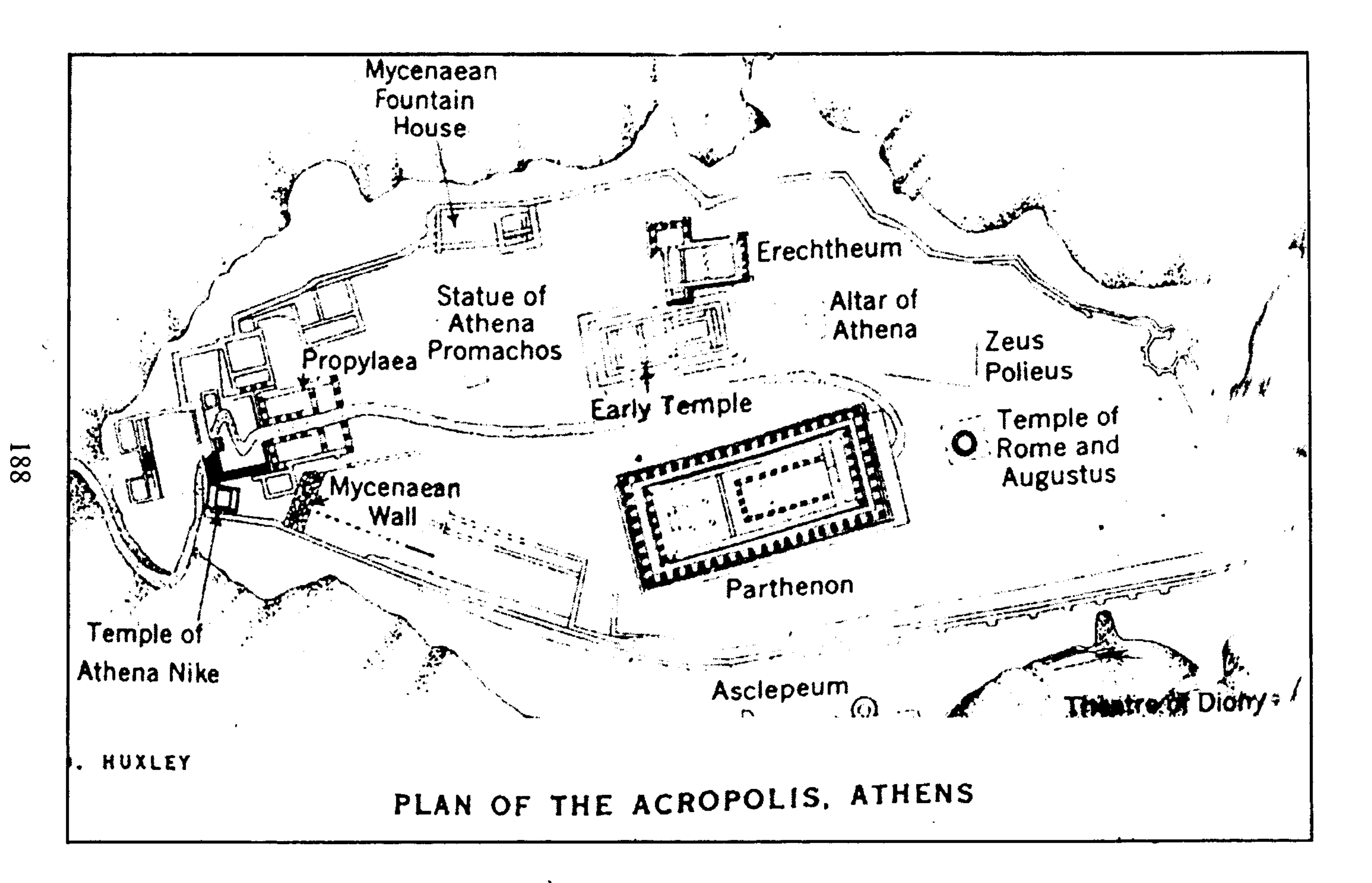
ومعنى الكلمة باليونانيـة (الأرض المرتفعة) وعرف باكروپوليس اثينا لوجود تمثال اثينا ومعبدها البارثنون فيـه ويقع وسط مدينة اثينا تقريباً على ارتفاع 150 قدماً تقريباً وبطول 1150 قدماً وعرض 500. ويطلق الاسم عادة على القلاع التي تبنى على نشز من الأرض ليتجمع حولها أماكن سكنى ولتغدو بمثابة قلعة حامية Citidal وكانت مسيجة وفيها اعتاد ملوك اثينا بناء قصورهم وهياكل آثينا التي تعرف باسم هيكاتومبيدون.

حينما نتحدث عن الاكروپوليس Acropolis يرد الى ذهننا في الحال الأثر الوحيد الباقي قائماً أو بالأحرى قشرته أو ما بقي من قشرته. وهو هيكل اثينا المعروف بالبارثنون وهي عند الرومان الآلهة منيرڤا وكلمة اكرپوليس كلمة عامة يمكن أطلاقها على أي موقع محصن وان كان خارج بلاد اليونان.

تحصينات الاكرپوليس في اثينا هدمها الفرس اثناء أحتلالهم المدينة وسووا بالأرض اسوارها وهي كلها. الاّ ان (كيمون) الذي سترد سيرته في واحد من الأجزاء التالية قام بتجديد معظم للسور المحيط به بعد معركة (يوريميدون) في العام 468 ق.م.

يحمنا من الاكرپوليس الذي كان في عهود طويلة مقراً لحكام آثينا وحكوماتها. نيابة الپارثنون وهي أهم آثار الاكرپوليس على الأطلاق. كما بدت في الرسم التخطيطي للاكرپوليس المنقول عن دائرة المعارف البريطانية (مادة آثينا).

ابنية قليلة في العالم استخدمت امكنة عبادة لديانات مختلفة. والبارثنون بقشرته المحطمة والمشوهة ما زالت تأخذ باللب. صمم بناءه (اكتينوس Actinus) على هيئة مستطيل كما يرى في الصورة عرضه 101.34 قدماً وطوله 224.14 قدماً. بدأ معبداً للالاهة آثينا وتحول الى كنيسة للعذراء مريم وانتهى بصيرورته مسجداً لنبيّ الله محمد. والسياح اليوم ومنذ حازت اليونان استقلالها في مطلع القرن التاسع عشر يصعدون الاكرپوليس ليتجولوا في ارجاء المعبد



PLAN OF THE ACROPOLIS, ATHENS

ويقفوا تحت اساطينه القائمة ليلتقطوا تصاويرهم. بوصفه اروع ما أنجزه الاغريق او ربما اي نحات آخر. ان الدقة الحسابية وجمال التصميم التحما معاً ليخرجا منحوته تنبض بالحياة، كأنها نحتت من قطعة رخامية واحدة هائلة الجرم بل حتى الرخام فيه يغير من الوانه بتغيير الضياء الواقع عليه. حتى الآن ورغم الخراب العظيم الذي نزل به فانه يمثل الميزات الرفيعة للطبع اليوناني وذوقه الغريزي كما عبر عنه منشئه الحاكم (پيركليس) بقوله «نحن نحب الجميل وان كان ساذجاً بسيطاً في ذوقنا. ونحن نهذب العقل دون خسارة الرجولة». كان ذلك في حدود 450 ق.م عندما شرع في بناء المباني الجميلة في هذه المدينة التي تحدّت قوة الفرس وتسلّمت قيادة العالم الأغريقي وكان الپارثنون ابرز تلك الابنية على الاطلاق اقيم في موضع هيكل قديم للآلهة عينها. طبق المهندس والنحات العظيم فيدياس Pheidias، تصميم اكتيونس وجرى العمل وفق تصاميمه بتعاون عدد كبير من المتعهدين المحليين على أساس القطعة. ومن ضمنها الاعمال المتعلقة بالمنحوتات والأشكال. كل طاقم من النحاتين يعمل لنفسه والقطعه النحوته (تمثال وما اشبه) سُعّرت بستين دراخما.

انتهى بناء الپارثنون في 432 ق.م. باستثناء السقف الخشبي بقي الپارثنون في الاكرپوليس (يحمي) آثينا تسعة قرون سيما خلال حرب الپيلوپونيس بعد الانتهاء من تحصين الاكرپوليس لعام واحد 431 ق.م وبقي الپارثنون قائماً شامخاً رغم الخراب الذي احدثته هي وما تلاها من الحروب ورغم اضمحلال مركز المدينة حوفظت قدسية الاكرپوليس لوجود البارثنون فيه عند نشوب الجرب بين المقدونيين والأغريق. وقد قام والاسكندر نفسه بتزيين واجهته.

واهمل الاكرپوليس في احيان عديدة واعتدى عليه بالسرقات خلفاءُ الاسكندر المتنازعين فيما بينهم، وعومل الاكرپوليس باحترام عندما ضمت اليونان الى الامبراطورية الرومانية الاّ ان احفاد (پركليس) غرتهم معاملة الرومان واتفقوا على حلف عسكري ضد روما مع الملك الأرمني ميثيربدات وفي 88 ق.م فحاصر جنود (سيللا) المدينة واقتحمها وأطلق عسكره يقتل وينهب ويسلب.

والظاهر من وصف پاوسنياس في القرن الثاني الميلادي ان معظم ابنية الاكروپوليس وأظهرها البارثنون - سلمت وكانت قائمة مثلما بنيت قبل ستمائة عام.

في العام 330 م أعلن الامبراطور قسطنطين المسيحية ديناً رسمياً. وفي العام 400 ميلادية أنقلب الپارثنون من هيكل لآثينا الى كنيسة مسيحية للعذراء مريم (ثيودوكس) وكمل تحويل داخلها (المذبح) الى هيكل تقام فيه المراسم الدينية المسيحية مكرّسة على الطقس الارثذكسي. وازدانت الحيطان من الداخل بصور القديسين حتى السقوف بفن التكفيت

الرخامي (الفريسكو). وفي 1204 أقتحمت الكرپوليس غوغاء الصليبين في الحرب الصليبية الرابعة. بعد استيلائهم على القسطنطينية واقتسم الامراء والفرسان الطليان والفرنسيون الاقاليم اليونانية بينهم وكلهم عدوّ متحمس لمذهب الارثذكسي. هؤلاء الرعاع لم يكونوا على اطلاع بمجد اثينا وقدسية الاكرپوليس كانوا ويعتبرون الارثذكسية مجرد زندقة يجب انه تحارب بجميع الوسائل. فنهبوا كل ما هو ثمين في الپارثنون واذابوا الأوعية المقدسة واتلفوا مكتبة الاسقفية. وأصبحت اثينا من حصة نبيل بورغندي. وسمي الاكرپوليس باسم جديد بلغة مالكه وباسمه Cháteau de Sathines وجعل مقراً للحاكم العسكري الفرانكي. وسيم لكاتدرائية العذراء (الپارثنون) بطريرك فرنسي وصادق الپاپا انوسنت الثالث على هذه التغييرات.

في العام 1453 دخل محمد الثاني الفاتح القسطنطينية ودانت له اثينا التي دخلها دخول الظافر، حامداً الله لأنه «رأي في حياته امّ الفلاسفة» وبقي اربعة ايام يرتاد مواقعها الأثرية والتاريخية، وقال عنها «انها أعز عليه من كل مدن مملكته، وأعاد الاعتبار الى كهنة الارثذكس والغى الطقوس اللاتينية التي عاشت فيها حوالي قرنين ونصف قرن. الاّ انه كان استثناء عن سائر السلاطين الذين عقبوه، اذ ما جاءت نهاية القرن الخامس عشر حتى تحول البارثنون الى مسجد وانتهى دور كنيسة العذراء مريم، فالآغا التركي (القائد) لحامية المدينة اتخذ مسكنه في الاكرپوليس وفي ملحقات الكنيسة بالضبط وقسّمها الى دار حكومة ودار حريم وغاب الاكرپوليس في ثنايا التاريخ حتى القرن السابع عشر حيث أخذ الفضول السياح فوجهوا اهتمامهم اليه وتعاقبت الارساليات الدينية الجزويتية (في 1645، وفي 1772) وكتبت تقارير عن الزيارات وقبل انه يلحق الخراب التام بالاكروپوليس ذكر ان السفير الفرنسي في تركيا المركيزدي توانتيل قصده بصحبة رسام فلمنكي وعمل مخططاً له، وعقبه جورج ويلر البحاثة الكلاسيكي الانكليزي بصحبة رسام فرنسي بدراسة كلّ ما على قمة الاكرپوليس مستخدمين وصف پارسنياس.

في العام ١٦٨٧ هاجم البنادقة بقيادة فرانشسكو موروسيني الحامية التركية في الاكرپوليس بعد اجتياحهم معظم بلاد اليونان فتحصن الاتراك فيه واختزنوا بارودهم في البارثنون. وفي ٢٦ من ايلول ١٦٨٧ اسقط المهاجمون قنبرة وسط البارثنون فانفجر البارود وأحدث تخريباً هائلاً منها سقوط الجناح الغربي بكامله، وتشويه اوجه الكثير من التماثيل لم يكن هناك اي أملٍ باصلاح الخراب الذي احدثه هذا القصف لاسيما بالتماثيل ولم يكتف (موروسيني) بهذا التخريب بل حاول قلع تماثيل بوسيدون وخيول مركبة آثينا من المدخل

الغربي فسقط الجميع على الأرض وأصبحوا حطاماً لا يسوى نقلها الى مدينته شيئاً إلاّ انه ارضاءً لرغبته هذه قام بنقل اربعة أسود من الرخام ما زالت تزين قمة قصر الارسنال في البندقية.

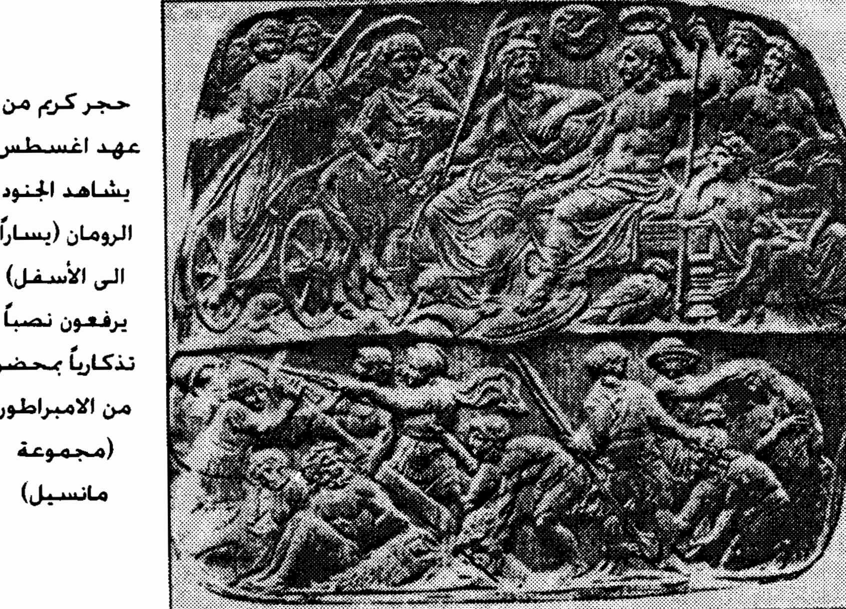
وفي العام 1801 استحصل اللورد آلجين سفير بريطانيا في استانبول رخصة من الترك تخوله حيازة ونقل اي قطعة رخامية من الاكربوليس عليها كتابات ونقوش ومن ضمنها التماثيل. وترجمت هذه الاجازة على نحو واسع وبسخاءٍ عظيم واستخدم لورد آلجين مئات العمال لنقل ما بقي من تماثيل البارثنون. وقد قدر عددها صدقاً أو كذباً بثمانين قطعة حملت كلها الى بريطانيا ، وهناك قام المتحف البريطاني بشرائها بمبلغ 35 الف پاون.

ثارت الخواطر على ما فعله لورد آلجين، وهجاه والشاعر البريطاني المفلق لورد بايرون ولقبّه بالسارق.

منذ حيازة اليونان استقلالها في 1827 واعلانها آثينا في 1834 عاصمة لها وهي تطالب كل جهة من الجهات التي نهبت الاكربوليس والبانثيون باعادة ما سلبته من تماثيل وقطع أثرية. كما بدت باصلاح ما أمكن اصلاحه من هذا الأثر العظيم وهدم المسجد ورفعت البنايات التي اقامها الترك كما أعيد نصب الاساطين المتهافتة وترميم ما بقي من سور الاكربوليس الى غير ذلك من اصلاحات ما أمكن.



نقش من عمود تراجان. يظهر مسيرة عسكرية حول خط الخيم في معسكر فرقة رومانية



حجر كريم من عهد اغسطس. يشاهد الجنود الرومان (يساراً الى الأسفل) يرفعون نصباً تذكارياً بمحضر من الامبراطور (مجموعة مانسيل)

٢ - دلفي

هيكل استخارة

يقع في اقليم (فيوكيس) بالقرب من قرية عرفت أيضاً باسم دلفي وعلى مجنبة من جبل پارناسوس القريب من آثينا.

كانت تعتبر دلفي عند اليونان مركز الأرض ويرتبط اعتبارها كذلك من أسطورة نقول ان رئيس الآلهة (زفس) أطلق نسرين اثنين، واحدٌ من جهة الغرب وأخرى جهة الشرق على أن يكون اتجاههما نحو المركز فالتقيا في دلفي.

وقد أبدت التنقيبات التي جرت موقعياً ان الموضع كان مسكوناً منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد. على ان التاريخ الحقيقي لدلفي بدأ في القرن السادس ق.م. اذ اصبحت مركز العرافة بالمستقبل بعد التحاقها بالعصبة الامفياكتونية واهم مراكز الكشف عن حجب المستقبل والنهي أو السماح بمباشرة هذا العمل او ذاك بوساطة الكاهنات أو العرافات اللاتي يلازمنه. ولم تكن (دلفي) تستشار في أمور الدولة وحدها بل في شؤون المرء الخاصة وكثيراً ما كان لنتائج عرافتها القول الفصل في السياسة وميادين النشاط الوطني.

في دلفي كان يوجد شق في الأرض ينطلق منه غازٌ يؤثر في الأعصاب ويترك المستنشق في حالة من الهذيان وتقربه من الغيبوبة. وأفترض في هذا الغاز انه انفاس الآله اپوللو.

وعند الاستخارة كان ثم كاهنة تجلس على كرسي ثلاثي الارجل موضوعة فوق الشق لتستنشق الغاز. فتروح في شبه غيبوبة يخرجها عن وعيها لكنه لا يمنعها من الكلام. وعندما يقوم القادم بسؤالها وانتظار الجواب فانها تنطق بأقوال مبهمة قد لا ترتبط بعلة القدوم اليها وتعتبر الاستخارة فاشلة اي ان الآله لا يريد ان يقطع في القضية وانما يترك التصرف بها لاصحابها أو أنها تتقول باشياء مبهمة وعندها يقوم كاهن باخبار الزائرين بما قالت.

سيرى القاريء فيما بعد أن القادمين يقصدون دلفي من أماكن بعيدة بهدايا وتقدمات نفيسه استرضاء للموافقة الالهية على ما يخططون وينتوون أو النصح بالابتعاد عن عمل ما ينتوون أو معرفة ما يجب عليهم عمله او ما سيحدث وهم مطلقاً يعتقدون بما تشير عليهم النبؤة وفي العادة يكون الجواب اشبه باللغز يفهم باشكالٍ مختلفة ويفسّر بمعانٍ عديدة، وعلى سبيل مثال: ملك يريد شنّ حربٍ على ملك آخر، ما هي النتيجة؟ من سيكون الرابح؟ وتأتي الاجابة المحيّرة من فم الكاهنة: «ستسقط مملكة عظيمة!». وهنا يترتب على المستخير ان يقطع اي مملكة ستسقط أملكته أم مملكة خصمه؟

فقدت دلفي قيمتها وشهرتها بمجيء المسيحيّة ولم يعد لها قيمة بعد انقراض الوثنية. وبدأت (المدرسة الفرنسية) الاركيولوجية عملية التنقيب في الموقع في 1892. ومن نتائج ما توصلت اليخ آكتشافها هيكل ابوللو والمذبح الذي خصص لأهالي (جنوس) وهما في أسفل الاستاديوم والمسرح وآثارهما باقية.

٣- الـفـورم Forum

بالاصل ساحة مفتوحة (ميدان) تجدها في سائر المدن الرومانية تستخدم كأماكن لقاء أو كالاگورا اليونانية اي سوقاً عاماً للتبادل التجاري. أو لتصريف الشؤون السياسية أو المقاضاة أو مجلس قضاة ويكون مستوى السطح متساوياً وبهيئة مستطيل عادة ويحاط باعمدة أو بهياكل عبادة صغيرة (باسيليكا) أو معابد أو بنايات المحاكم أو ما سواها من ابنية تشيد للاغراض العامة. وفي قوانين الالواح الاثني عشر استخدمت الكلمة بوصفها مدخلاً للقبر. وفي المعسكر الروماني يكون الفورم فضاءً لا تحيط به بنايات أو اسيجة يقام الى جانب مقر قيادة الجيش (البريتوريوم).

عموماً يراد من الكلمة اللاتينية الساحة المفتوحة أمام باب بناية أو مخرجها.

وفي روما أشارت الكلمة الى ساحة من الأرض كانت مستنقعاً جُفف - تقع بين تليّ الكاپيتولين والپالاتين. ويعرف للموقع أيضاً بـ(فورم رومانوم Forum Romanum). وقد خصص في العهد الملكي للاجتماعات العامة (الشعبية) عندما كان يتعذر الاجتماع من ميدان الكاپيتولينا Area Capitolina. وقبلها كان الفورم في روما يستخدم لألعاب المصارعة وغيرها. وقد بنيت فوق الأعمدة المحيطة به مقصورات للمتفرجين.

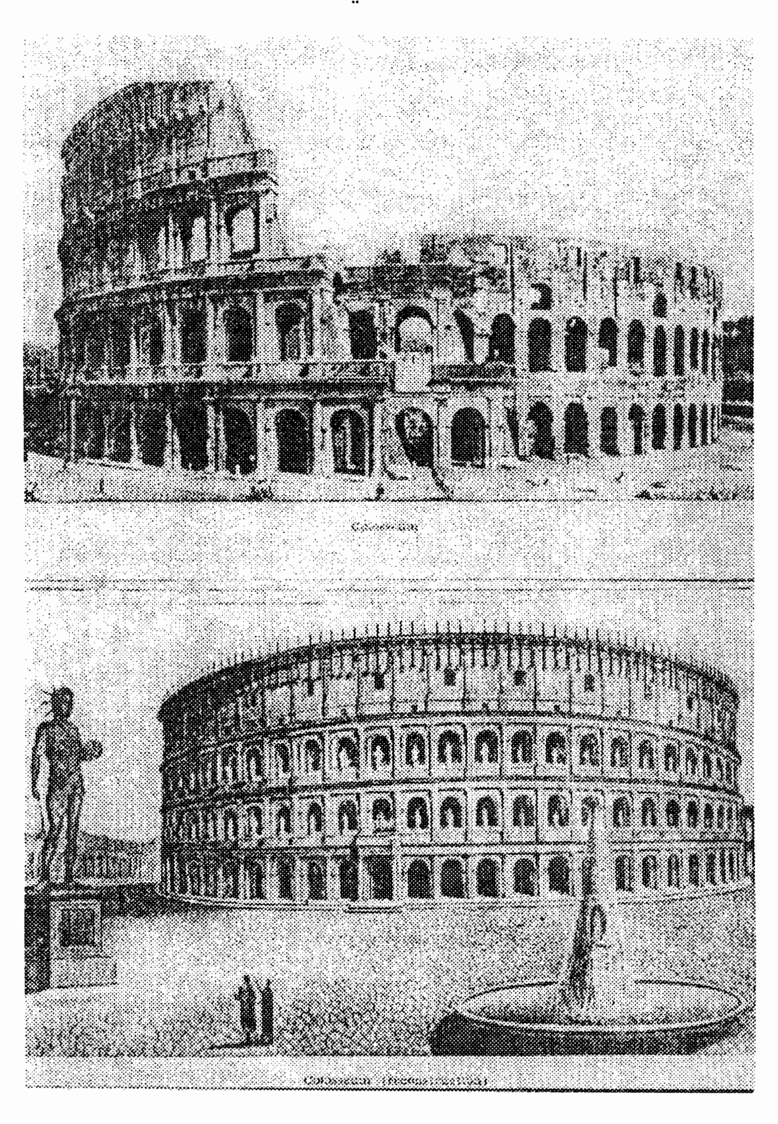
وباتساع رقعة المدينة أقيم أكثر من فورم واحد، ويختص كلّ منها بناحية حياتية، فاستحدث فورم قضائي تجرى فيه مرافعات المتقاضين ويجلس قاضٍ فيها للفصل في الدعاوى ويترافع امامه المدعون أو وكلاؤهم.

واستخدم فورم خصيصاً لبيع الخضراوات، وفورم قاصر على بيوع وشراء الماشية. وفي أواخر أيام الجمهورية وأوائل العهد الامبراطوري استحدث عدد من الميادن (الفورم) مثل فورم (پومپي) وفورم (تراجان) وفورم (ڤبساسيان) وقد خلف هؤلاء وغيرهم آثاراً لهم فيها.

في العادة يكون الفورم ذا سطح مستوٍ مرصوف وفي الأعياد العامة والاجتماعات

السياسية كان يسمح للعجلات بدخوله وهو مفتوح من جميع جانب ولا أبواب مُقدمة في أي جزءٍ منه والدخول والخروج لا يعوقه عائق.

هذا ما تأيد من فورم (مدينة پومپي) التي ازيح عنها رماد بركان ڤيزوڤ. فضلاً عن مخططات أخرى للفورم في مدن عدة، وأظهرها (فورم روما) الذي ترى صورته الحالية أو بعبارة أخرى انقاضه الى جانب مخططات له تعطي صورة واضحة لشكله الأول ومحتوياته.



٤- نظام الحكم الآثيني
(دولة المدينة Polis)
على ضوء اصلاحات صولون

الديمقراطية السياسية في نظام الحكم الآثيني وصلت الى أقصى نهاية منطقية لها. بطبيعة الحال هناك من ينكر على آثينا ديمقراطية نظامها لأن جميع النساء والعبيد والغرباء المقيمين فيها محرومون من حق التصويت، ولا يحق لهم في المداخلة وادارة شؤون الدولة. فآثينا ليست والحالة هذه ديمقراطية اذا عرّفنا الديمقراطية بأنها نظام يقضي بمشاركة جميع البالغين من السكان وانه لا يمكن ادراج نظامها ضمن ايّ نوع من أنواع ديمقراطيات عصرنا هذا، باعتبار الحجم والسعة وعدد السكان حيث كان من الواجب على كل دولة حديثة اناطة الحكم بممثلين واداريين محترمين فدولة المدينة كأثينا مثلاً قد يكون بحسابنا هذا مشكلاً من اشكال الانظمة الاوليغارشية[١]. اما اذا عرفنا نظامها بانه مشاركة جميع المواطنين في الحكم فبالامكان اعتبار آثينا دولة ديمقراطية. علينا أيضاً ان نتذكر بان من شروط المواطنة الاغريقية ان يكون الشخص مولوداً لأبوين أغريقيين أو أبٍ على الأقل. والدولة الاغريقية هي نضرياً أو شعورياً بالنظر الى هذا، مجموعةٌ من الاقرباء أو مجرد أهالي منطقة أو حيٍّ معين.

على ان التحديد الدقيق للديمقراطية بالنسبة الى ما نرى اليه حالياً ليس مهّماً[٢]. لأن

(١) Oligarchy: اللفظ التقليدي المستخدم لنعت حكم القلّة أو الصفوة المختارة عندما لا ينظر الحاكم بعين الرضا. استخدمه ارسطو لتعريف حكم الأقلية عندما لا يمارسه أفضل الاشخاص بل أظلمهم واسوأهم.

(٢) لما كان معنى كلمة ديمقراطية ينطوي على أهمية فبوسعنا أن نشرح المقصود بها في الاستعمال اليوناني، في الاحاديث العادية كلمة Demokratia تعني حرفياً «السيطرة بواسطة الشعب» اي الديمقراطية السياسية كما جئنا الى وصفها في المتن. إلاّ ان النظريين السياسيين لاسيما افلاطون وارسطو استخدموها لتعني «حكومة من الفقراء» وعلى هذا الاساس فقد ادانوها باعتبارها نظاماً أو شكلاً معكوساً من أشكال الاوليگارشية أو الديكتاتورية. أو حكم الطغيان. اي حكومة هدفها النفع الخاص وكلمة Polity والشيء بالشيء يذكر هي الاسم الذي لقبت به حكومة اتفق عليها الجميع دون أن تختص بطبقة.

اهتمامنا ينصبّ في كيفية عمل الاجهزة السياسيّة في اثينا وما هو مقدار تأثيرها وعملها في الحياة، وفي عقول الاثينيين.

الجمعية العامة هي الرأس، وهي السلطة العليا. وقد جاهد الآثينيون بكل طاقاتهم للابقاء على هيمنتها وعلى سلطاتها وان رمزياً (على الورق). ولم يكن هناك أية قابلية في اثينا لجهاز أو ماكنة ادارية تتولى زمام الحكم ذات فائدة بحجم صغير. وتتألف الجمعية العامة من كل ذكر بالغ، قَبِلهُ مجلس الديمي Deme (مجلس المنطقة) وأفتى بانه مؤهل وحائز الشروط المطلوبة شرعاً وانه لم يحرم شرعاً من حق التصويت بسبب ارتكابه جرماً خطيراً. والغي شرط الملكية والقدرة الملكية وأكتفى بشرط أوجب على الاثينيّ اثناء قيام حرب، أن يُزودّ نفسه بشكة سلاحه وجميع المعدات التي تؤهله للانخراط في الجيش وان يكون قادراً مالياً على تأمين حصانه والانفاق على علفه ان كان من صنف الخيالة.

على أن الحكومة Polis مكلفة من طرف آخر بالانفاق على مأكله عندما يكون في سلك الخدمة الفعلية. اما المواطنون ذوو الامكانات الماليّة الجيدة فهم يخدمون في صنف المشاة الثقيلة (الهوپلتيس Hoplite) وهم يجهزون انفسهم بالسلاح. اما الفقراء الذين لا يملكون ما ينفقون به على سلاحهم فهم يبقون في الاحتياط أو يستخدمون جذافين في الاسطول. ويخدم في الجيش الغرباء كالمواطنين سواء بسواء. ولا يستخدم العبيد لا في الجيش ولا في الأسطول الاّ عند الضرورة القصوى، عندما يحدق بالوطن أعظم الخطر وعندها يدعى العبيد للتطوع مع وعدٍ أو تعهد حكومي يوفى به دوماً بالعتق وحق المواطنة المدني الكامل Civl بدون حق المساهمة في العمل السياسي Politicia.

الجمعية العامة هي جلسة عامة علنية يحضرها كل المواطنين الذكور الذين لهم حق التصويت وهي السلطة الاشتراعية الوحيدة ولها سلطة الهيمنة بطرق ووسائل مختلفة في الاشراف على الادارة والقضاء.

في الإدارة: لم يعد للاريوباغوس القديم المؤلف من الاراخنة السابقين ما يعمله في الأزمنة المتأخرة، غير الفصل في قضايا القتول. كان الأراخنة (ج: ارخون) في زمن ما ذوي سلطة واسعة. تختارهم الجمعية العامة سنوياً بطريق الاقتراع العلني. ان مواطن في اي عمرٍ يمكن ان يرشح نفسه لملء كرسيّ واحدٍ من الأراخنة التسعة. واناطة أمر انتخابهم بالجمعية العامة يعني بالطبع ان سلطتهم مستمدة منها وان السلطة باقية عند الجمعية. والجمعية تلتئم مرة واحدة كلّ شهر. الاّ اذا اقتضى امرٌ طاريء عقد اجتماع غير عادي للفصل في قضية هامة.

الكلام في الاجتماع هو حق من حقوق المواطن عندما يفلح في استرعا انتباه الاعضاء للاصغاء اليه. ولكل مواطن حاضر الحق في اقتراح اي شيء ضمن قيود دستورية احترازية مرسومة.

إن جمعيّة كبيرة كهذه تحتاج الى مجلس أو لجنة تسمّى البولي Boule أو المجلس الذي يتألف من 500 عضو غير منتخبين لكن يختارون بالقرعة. لكل قبيلة (عشيرة) من القبائل العشرة خمسون عضواً. هذا المجلس يختار كما رأينا بشكل اعتباطي ويضم اعضاءً يختارون سنويّاً وهم بطبيعة الحال ذوو مشارب مختلفة لا يؤمل منهم كثير من الشعور التعاضدي الموحّد وهذا هو الغرض والهدف من الفكرة، لا شيء يهيمن على جوّ الجمعيّة العامة وتبقى حَرّة بوجه اي تغلّب أو تأثير.

الاجهزة الادارية تملأ باعضاء من المجلس التحضيري (البولي). ولما لم يكن بالامكان عملاً أن يحضر أعضاء الخمسمائة في جلسات متواصلة. فكثرتهم تحول دون تكوين هيئة تنفيذية فعّالة. لذلك يختار خمسون عضواً لتكوين مجلس البريتاني Prytany من القبائل العشرة، يبقى في حالة اجتماع لعُشر سنة. ويختار هذا المجلس رئيسه لكل يومٍ بالقرعة، اي يكون رئيساً له طوال اربع وعشرين ساعة فقط ويعتبر رئيساً تشريفيا للدولة[٣].

لوضع حدودٍ أخرى على تصرفات الهيئات الادارية فرض علي جميع الحكام الذين انتهت فترة خدمتهم تقديم حساب عن أعمالهم الرسمية ولا تنتهي مسؤوليتهم أو تعرضهم للاتهام حتى يقدموا هذا البيان الذي يسمىٰ اوديت Audit. ويبقون شبه محجوزين ولا يحق لهم مغادرة اثينا او بيع اي شيء من ممتلكاتهم.

هناك دائرة واحدة لم يكن بالامكان تركها عرضة لمخاطر التصويت هي قيادة القوات البحرية أو البريّة. فهذه الهيئة وتسمى ستراتيگوي Stratigoi تتألف من جنرالية أو امراء بحر عشرة ينتخبون لمدة سنة واحدة كاملة واعادة الانتخاب جائزة بل هو امرٌ اعتيادي في الواقع. وليس بالأمر الغريب عند الاثينين ان يتولى جندي بسيط مهمة الجنرال ويتقلد رتبته في معركة، وان تراه في معركة أخرى وقد عاد جندياً بسيطاً. تلك هي الصورة الاكثر تطرفاً في المفهوم المبدئي للديمقراطية. اي «تَحكم (بفتح التاء) وان تُحكم (بضم التاء) بالتناوب».

(٣) اتفق ان تقلد سقراط الفيلسوف هذا المنصب يوماً واحداً عندما أشرفت حرب البلوبونيز على النهاية ودبّ الانقسام في الجمعية كما يحصل في بعض الأحيان. وطلبت الجمعية من دون اي علّة أو مبرر قانوني اصدار وثيقة اتهام بكل مجلس الجنرالية لفشلهم في انقاذ الناجين من المعركة البحرية (اركينوساي). إلاّ ان سقراط تحدّى الغوغاء ورفض انه يوضع الاقتراح في التصويت.

إن الجنرال أو الستراتيكوي بوصفه الموظف الوحيد الذي ينتخب بسبب مؤهلاته وقابلياته الخاصة ويتولى مثل هذا المنصب الذي لايدانيه منصب في خطورته، نجده يمارس نفوذاً عظيماً وسلطة واسعة في شؤون المدينة[٤].

ولايقتصر سلطان الجمعية على أمور الاشتراع والادارة بل يتعداه الى امور القضاء. وكما انه لايوجد هناك اداريون محترمون. كذلك لا يوجد قضاه محترفون ولا مدعون عامون ولا محامون، والمبدء السائد هو ان المغدور أو المدعي يتقدم بشكواه رأساً الى بني جلدته من المواطنين - الى المحاكم المحلية في المسائل الشخصية أو البسيطة والى المحاكم الآثينية في المسائل الجسيمة كالقتل والسرقة وسائر الجرائم المدينة. وتتألف للفصل فيها هيئة محلفين Juru وهيئة قضاة هي في الواقع قسمٌ من الجمعية العامة ويختلف حجمها بين مائة عضو وعضو واحد 101 والف عضو وعضو واحد 1001 بالنظر الى أهمية القضية. وليس هناك قاضٍ وانما مجرد شخص يرأس الجلسة المخصصة لسماع المرافعة من بين هيئة المحلفين وهو بهذا الاعتبار يشبه ما يدعى بـ(فورمان Forman) في نظام هيئة المحلفين الاوربية الحالية. وكما قلنا ليس هناك ادعاء عام ولا محامون والطرفان مكلفان بالسير في مراحل الدعوى بشخصيهما وان كان بمقدور المدعي أو المتهم - كما جرت العادة ان يسمح لهما باستخدام خطيب (كاتب خطب) يعدّ للمتهم دفاعه على شكل خطبة يجب ان يلقيها هو بنفسه ولا حق له بانابة آخر الالقائها عنه. كذلك الأمر بادّعاء المدعي.

تلك هي هيئة المحلفين الشعبيّة وكيفية تأليفها ومدى صلاحيتها هي الفصل في الوقائع وفي تطبيق القانون وليس هناك محكمة أعلى منها وليس هناك استئناف وان لم يكن يوجد عقوبة محددة في القانون للجرائم، ولذلك ففيما ان هيئة المحلفين عن فرض اي نوع من العقوبة يكون على المدعى الذي فاز في دعواه ان يقترح اولاً العقوبة التي يريدها وبعدها يقدم المحكوم اقتراحاً خصوصياً كبديل لاقتراح المدعي. ثم يترك الاختيار للهيئة القضائية بين الاقتراحين[٥].

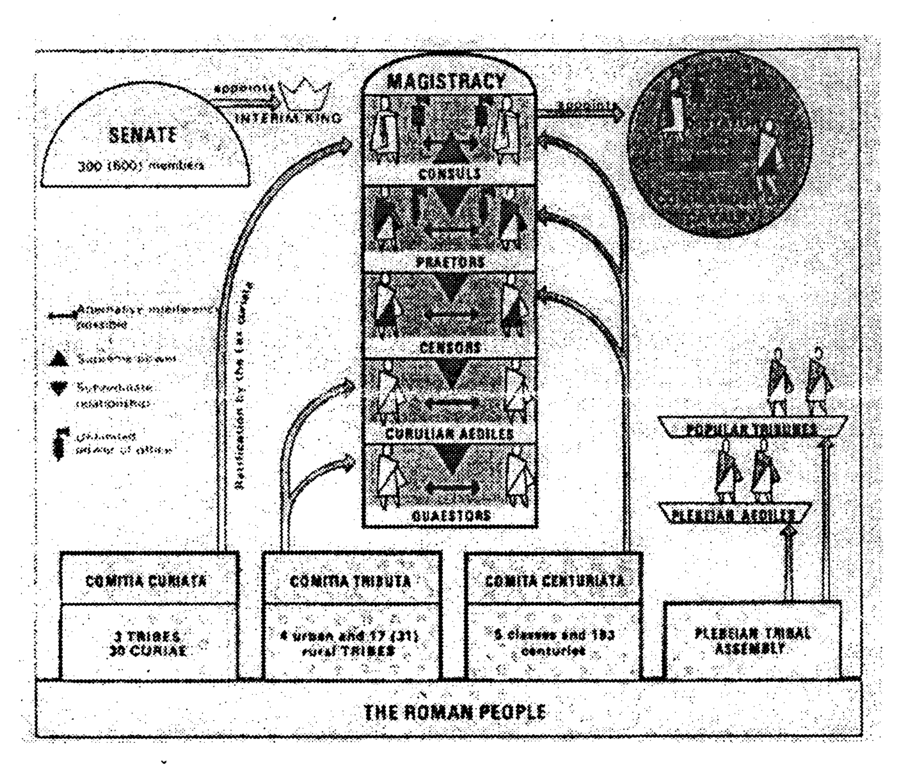
من كل ما جئنا الى شرحه. يستنتج القاريء ان شؤون الدولة في اثينا يديرها هواةٌ، وان

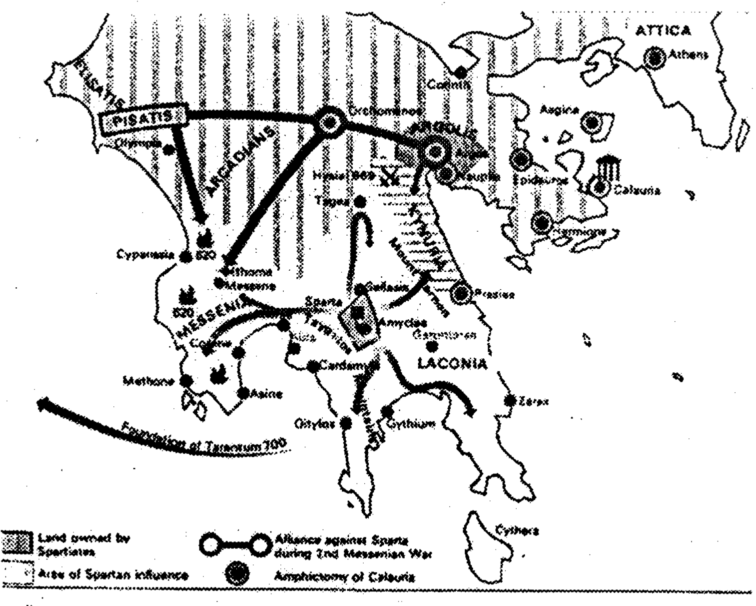
---

(٤) من خلال هذا المنصب ومركزه في الجمعية العامة استطاع بيركليس مثلاً أن يقود الاثينيين مدة طويلة.

(٥) هذا ما يفسر الاجراءات الفضائية في محاكمة سقراط (٤٧٠-٣٩٩ ق.م) التي وردت في كتاب افلاطون (ابولوجيا: الدفاع) (٤٢٧-٣٤٧ ق.م) طلب المدعون فرض عقوبة الموت. الا ان سقراط اقترح تغريمه فحسب مينا واحدة لأنه لا يملك أكثر من هذا واصرّ على ذلك فأثار موجة من السخرية والتندر. في حين لو انه اقترح النفي فقد كان يسرّ ذلك هيئة المحلفين وتقبل به بكل سرور.

ذوى ألاحتراف لا يعطى لهم فسحة للعمل أو مجال لممارسة مهاراتهم الاّ الاقل منهم. القليل والواقع ان الخبير فيهم هو عادة (عبد شعبي) وكل آثيني التبعيّة أما جندي أو بحار أو مشترع أو قاضٍ أو عضو ادارة إن لم يكن (ارخوناً) وهو حتماً عضو في (البولي) وقد انتقد افلاطون وسقراط هذا النظام لا لانه غير فعال بل لأنه اودع الأمور بيد جهلة جهلاً تاماً بمزاولة (فنّ السياسة) لتحسين أحوال الناس.





ie Peloponnesus to 500 B.C.

ملحق

الجيش الروماني

النظام - التركيب - الاستحكام - العقيدة - النبوءات

الجندي الروماني أينما كان موجوداً ضمن تخوم الامبراطورية الواسعة الأرجاء يمحض ولاءه وإخلاصه المباشر والمطلق للدولة وللامبراطور والى آلهة روما الوطنية. ودين الجيش ينسرب بدقة وحذقٍ الى هذه المثل الموحدة فالجندي الروماني على هذا الأساس له ان يزعم بانه مشارك فعّال في مصائر روما ويستمد رضى النفس والراحة الفكرية من الاعتقاد بأنه انما ينجز واجباً مقدساً عن طريق هذه المشاركة. والتقوى على هذا الاساس تعد فعلاً من الفضائل عند العسكري كالشجاعة والحذاقة في استخدام السلاح وآلات الحرب. ولذلك كان الدين عاملاً هاماً في نجاح الماكنة الحربية الرومانية عبر العصور مثلما أمن للجيش الروماني عامل التفوق في التنظيم والضبط والتسليح والتاكتيك فمنذ أوائل العهد الجمهوري وجد الرومان في الدين رابطة وثيقة بين انفسهم وبين الآلهة من اعتقادهم بأن السلطة المطلقة الرومانية تنبثق من هذه الآلهة وهي التي تحميها. فالموضوع والحالة هذه وفي كل حين هو أمر في غاية من الاهمية. وليس هناك ما هو أكثر ظهوراً من المنجزات العسكرية وهي سرّ بقاء الامبراطورية ومصدر امنها.

ان الاصلاحات التي احدثتها الامبراطورية الاوغسطية (نسبة الى اغسطس قيصر) الى جانب اشاعتها النظام المبدئي في التطبيق، لم تستغن عن الكثير من التقاليد العسكرية الرومانية ولم تعمد الى خلخلة احكامها. وقد استغل اوغسطس قيصر مركزه بوصفه الفرد المنتصر في الحكم الثلاثي (راجع سيرة يوليوس قيصر). استغل مركزه هذا ليغدو «المواطن القائد Princeps» والامبراطور (القائد الاعلى للجيش Imperator) معاً وهو جمع في غاية الذكاء لسلطة واحدة دون لقبٍ أو صفة (ملك) فبوصفه پرنسيپس، كان كما وصفه احد

الكتاب «الاول بين الأقران Primus inter pares». لكن ختمه كان يساند مائة واربعين سيفاً من جنود فرقه واول ما عمله من اصلاح هو انقاص عدد الفرق الرومانية (والجنود هم مواطنون رومان) فأصبح قوام الجيش الروماني حوالي ٢٨ فرقة بعد ان كان ٥٠ وملاك الفرقة خمسة آلاف ضابط وجندي مقسمة الى خمسين سرية على رأس كلٍ آمرُ سرية (سنتوريون) وأنيط بكل فرقة واجب محدد لاتتعداه وألغى الجيش الاحتياطي القادر على الاخلال بتوازن السلطة.

والى جانب الفرق الرومانية كان هناك قطعات عسكرية نظامية من الشعوب الأخرى التابعة، نظمت بشكل ألوية (ج لواء Cohert) تعداد الواحد منها يبلغ ألفاً من الجنود والضباط وانيط بهذه الوحدات واجبات الدوريات والمحافظة على الأمن في الحدود، ومساندة الفرق الرومانية حيثما تمّ حشدها في النقاط الستراتيجية.

ويهيء الجيش له مخيماً (قلعة)، وهي قاعدة أو مقرّ منتظم له حين يخرج للقتال في ارض العدو، وهذه تكون بمثابة مقرات شتوية. يجرى فيها النظام الصارم ويطبق تدريب متواصل وتكون الوحدات في درجة انذار قصوى على الدوام. قانون انضباط حازم شديد خضع له الجنود والضباط معاً ولم يستثن منه أحد. وعندما يكمل جنود الاحتياط هؤلاء مدة خدمتهم بجدارة فانهم يمنحون صفة المواطن الروماني.

وكما بيّنا آنفاً ينسحب ولاء الجندي أيضاً الى الآلهة الرئيسة عند الشعب الروماني بالدرجة الاولى فضلاً عن ولائهم للامبراطور رئيس دولة وقائد عام للجيش معاً.

كان يفرض على العسكري قبل عهد (اغسطس) قسم يمين الولاء لقادة الميدان. وهو عمل فيه من الخطر ما فيه وكثيراً ما ادى الى حرب أهلية. اما الآن فليس هناك غير قائد واحد وله تقسم اليمين وهو كبير الآلهة (جوبتر او بتيمسوس ماكسموس) وهو الذي يتقدم الكل وبرمحه الذي يرسل الصواعق يحمي الدولة، وقواه الطاغية في التدمير مصورة على دروع ومجنات وتروس الجنود، وطيره الجارح النسر تراه يرتفع على قطب كالرّاية امام الجنود مصنوعاً من الفضة. والنزول عن هذه الراية او فقدانها يصم بالعار الاكبر حامله ويصيب الوحدة بهزيمة مخجلة لا منجى منها.

سنوياً وفي اليوم الأول من شهر كانون الثاني. يقام استعراض عسكري بكل شكة الحرب والسلاح امام كل مخيم (قلعة) يعلن فيه تجدد الولاء لجوبتر وتوقد له نار جديدة. ويتم لهذا الغرض تمهيد ساحة بمساحة ١٠٠ ياردة مربعة لتقام عليها منصة القائد لتلقى تحية القطعات وهي تمرّ به اثناء الاستعراض ويبنى فيها مذبح لجوبتر Tribunal وقد اكتشف هذا في مواطن

عديدة اوروبيه. فتكريم الامبراطور الحاكم وتاليهه هما القاعده التي لا يحاد عنها في كل معسكر روماني وهناك مذبح مكرس «لروح سيدنا الامبراطور» ويبنى بمواجهة العدو، ويحتفظ فيه بالراية والاوعية الدينية التقليدية وغير ذلك من ادوات المراسيم والاشياء والغنائم الثمينة ورواتب الجنود. ودوائر الادارة وأماكن حفظ السجلات تحتلها حجرات مساعد القائد وموظفيه ومعاونيه وتدعى كورنيكيولاريس Cornicularis وأمّا مقر القائد المركزي فيبنى له او ينصب له خيمة أخرى ويدعى بريتوريوم Praetorium. وفيها يجتمع اليه مجلس الحرب ورؤساء الاركان والضباط للتخطيط للحملة او المعركة المقبلة اذ كان يجب على القائد اضافة الى استشارة ضباطه والاستماع الى رأيه، ان تجرى عملية الاستخارة أو النبوءة وتسمع من فم (عرّاف) بعد تقديم اضحية (قربان) للاله. وتتم بأساليب عدة، ومن بينها فحص احشاء الاضحية، او مراقبة السارح والبارح من الطير، او في غرابة مشية الدجاج، او بظهور حيوان من جهة ما بشكل غير متوقع، او بعلامات مخصوصة في الرعود والبروق. وتحت اي ظروف خاصّة اي حدث قد يفسره (العارفه) بالشكل الذي يتراءى له، ومهنة العرافة عند الرومان هي هبة آلهية خصّ بها اناساً معينين دون غيرهم. لكن كان هناك فترات تعليم لمعهد دراسة العرافة يسبق مزاولتها.

مراسيم تقديم الاضحية هي بحدّ ذاتها مصدر عون شديد القوى للعّرافة. لكن الغرض الأساس منها هو تطهير وإعداد أولئك الذين سيشاركون في الحرب. والتقدمة العظمى هي ان يضحّى بخنزير وكبش وثور تقدم نيابةً عن الدولة.

هذه المراسيم لابد منها عند انطلاقة الجيش الروماني الى مغامرة او فتح عسكريين. وعندما تأتي نبوءة العراف مبشرة بالنجاح ومشجعة على الانطلاق تقوي النبوءة تأليه اصحاب الولاء بتقديم القرابين وستكون النتيجة النجاح بدون شك.

وفي حالة الاستيلاء على ارض جديدة، او استعادة أقاليم فقدتها روما يقام نصب تذكاري للمعركة التي خاضها الجيش في هذا السبيل. وهي من جملة التقاليد العسكرية الرومانية وقد نقلوه عن الأغريق. ويتخذ النصب التذكاري على شكل كدسٍ من الاسلحة والدروع والتروس وشكة الحرب وغيرها من آلات الحرب المنتزعة من جثث قتلى العدو في عين الميدان الذي جرت فيه المعركة وتحققت هزيمة العدوّ في العادة كانت هذه العدد الحربية تكدّس قطعه فوق قطعة كيفما اتفق وبدون ترتيب لتمثل العدو المنهزم وتكدّس عادةً عند قاعدة صليب خشبي يعلوه سيف وخوذة وتروس أو سلاح آخر. وكثيراً ما ينقش وصف للمعركة اذا كانت القاعدة مبنية بالحجر، او انها تنقش فوق المسكوكات والعملات. لاتزال آثار وخرائب لبقايا هذه الانصاب

قائمة. عرف منها النصب التذكاري الشهير الرابع في (لا تربي) بمقاطعة (موناكو) بمقابل الجانب البحري وكان قد اقيم في ١٦ ميلادية تذكاراً لاخضاعه ٤٦ قبيلة آلبيّة. وهناك ايضاً نصب الامبراطور التذكاري في رومانيا تخليداً لارواح ثلاثة آلاف جندي روماني فقدوا حياتهم.

ويعبد الجيش الروماني آلهة مختلفة متعددة الجنسيات تبعاً لتقاليدهم الدينية ويعبدون الارواح والاطياف والاشباح، وتبدو العبادة بتقديم صفوف معينة من الهدايا والقرابين والاضاحي. ويأتي الأول في التصنيف بطبيعة الحال دين الدولة الرسمي. وعبادة آلهتها الوطنية ويأتي اثر ذلك تقديس الامبراطور، وهو فرض واجب على كل روماني أو غير روماني خاضع للحكم الروماني[1].

وتقام حفلات دينية عديدة بصورة منتظمة وليس من المفروض فيها أن تكون رزينة ويحفّ بها الاجلال والوقار، بل كانت بالاصل بهدف الترفيه ولكن بصورة مهذبة وبجلال ديني وكان يتخللها في العادة ألعاب وتمثيل، وهي طابع المناسبات الرومانية منذ القدم فقد اقيمت بالاصل للترفيه والتسلية.

ويطول الحديث بنا عن الديانات غير الرسمية التي كان الجنود يزاولونها ويعتنقونها ومقدار قيمتها عندهم وانتشارها بينهم ففي زمن ما ولنقل القرنين الاول والثاني الميلاديين كانت عبادة الاله (ميثرا) الفارس معروفة جداً ومتفشية في الجيش الروماني يقيمون لها المناسبات كما يقيمون للآلهة الوطنية، وهياكل هذه الآلهة غير الوطنية كانت عادة تقام خارج المعسكر وبالقرب منه.

---

(١) في بلدة (الدورة) التي تقع على نهر الفرات. عثرت بعثة آثار من جامعة ييل على كدس كبير من وثائق البردي تعود الى مقر دائرة سجلات اللواء البالميري (التدمري) الذي كان يعسكر هناك وقد وجد في أحد الاوراق التي لم يعترها تلف كبير قائمة بالاعياد الدينية فضلاً عن مناسبات الاعياد الرومانية. وكان فيها عدد من الآلهة الشرقية. وقد وجدت البعثة ان الايدي عدلت فيها وشطبت وأضافت. وفي الواقع كانت الصحيفة بمثابة تقويم عسكري، ويستشف منها ايضاً ان نوعاً من احتفال كان يجرى كل اسبوع تقريباً. إمّا بتقديم قربان الى آلهة وطنية او اقامة حفل تكريم لعضو من بيت الامبراطور ذكراً أكان أم أنثى.

صولون

SOLON

640-558



ذكر [ديديموس Didymus][1] النحوي، في جوابه على رسالة [أسقلپيادس -Asclepi ades] حول ألواح شريعة صولون، فقرةً أوردها المدعو [فيلوكليس Philocles] تشير الى أن اسم والد صولون هو [يوفوريون Euphorion] خلافاً لرأي جميع الآخرين الذين كتبوا عنه، فهم يتفقون بصورة عامة على أنه ابن [إكسيقستيدس Execestides] وهو رجل متوسط الثروة والنفوذ في المدينة، الا انه سليل اسرة من أعرق الأسر فهو منحدر من صلب [قدروس Codrus] وامّه كما يؤكد [هيراقليدس پونتيكوس] هي بنت عَمّ أم [پستراتوس] وكانت الوالدتان صديقتين حميمتين في مبدأ الأمر، لأنهما قريبتان من جهة، وبسبب نبل سجايا [پسستراتوس] وجماله الرائع من جهة أخرى[2]. ويقولون ان صولون أحبّه أولاً. وأعتقد ان هذا هو السبب في عدم وصول عدواتهما، بعدما اختلفا حول الحكم - الى حدود العنف والحقد بالعكس فإن ودادهما السالف ظل يقيم في قلبيهما. ليبقى ذكرى مودتهما العزيزة حيةً:

إن جمرات صاعقة زفس الملتهبة ظلّت متوهجة.

كما صورها يوريپيدس. وفي قصائد صولون أيضاً نجد شواهد على أنه لم يكن قادراً على مقاومة الجمال، ولا تحدّي الحبّ.

بمواجهته مثل ملاكم في الحلبة

---

(١) ديديموس الاسكندري من مدرسة ارسطوخوس، ومعاصر لاغسطس. وقال عن بعض الكتاب ان تعقيباته ولاسيما على خطباء الاغريق وشعرائهم بلغت أربعة الآف!

(٢) كان پسستراتوس رجلاً كريماً محبوباً في منتهى الرقة واللطف. وكان يلازمه ابداً عبدان أو ثلاثة يحملون حقائب مفعمه بالنقود الفضية فاذا ما وجد علائم مرض على شخص ما أو سمع بأن أحداً ما توفي فقيراً، بادر الى معالجة الأول على نفقته وتكفل بمصاريف تشييع الثاني ودفنه. واذا وجد مغموماً حزيناً تحرىً عن السبب فان كان الفقر، بادر الى ستر الخلّة لكن لا بالشكل الذي يسلمهم الى الكسل والتواكل، وفتح ابواب بساتينه ومزارعه للمواطنين يقطعون ويجنون من ثمارها ما شاؤا. كان وسيماً بهيّ الطلعة هاش الوجه باشاً، رفيق اللسان متواضع الجانب. ويمختصر القول كانت فضائله حقيقية خالصة لا متعمّله. أو مقصودة أو مشوبه باغراض الهيمنة والاستبداد بحكم أثينا، ولو لم يكن كذلك لعدّ أفضل مواطن في أثينا على حدّ قول (صولون) نفسه. مدحه [هيرودوتس] كثيراً لحسن ادارته واثنى عليه [شيشرون: في الخطب ٣٤:٢] وأشاد ببلاغته وفصاحته.

كما نتبين من أحد قوانينه الذي حظر على العبيد[٣] المشاركة في الألعاب الرياضية ودهن أجسامهم بالزيت. أو أن يَعْلقوا بحبِّ شاب. وبهذا جعل مثل هذه العلاقة وغيرها في مرتبة الشرف، وموضع الثناء. مقبولة من الوجهاء ومحرمة على الوضعاء.

وقيل أن [پسِستراتوس] كان متيماً بالمدعو [خارموس Charmus] وهو الشخص الذي أوقف له تمثال الحب في «الأكاديمي» بالقرب من الموضع الذي كان العداءون في سباق الشعلة المقدسة يشعلون منه مشاعلهم[٤]. وكتب [هرميپوس] يقول:

ضيّع والد صولون ثروته[٥] في التصدق والإحسان الى الآخرين وكان لديه اصدقاء كثيرون يرغبون في انقاذه من ضيقه إلاّ انه كان يخجل من أن يكون مديناً بفضل، لأنه منحدر من أسرةٍ اعتادت عمل الخير فلاتقبله. ولذلك انصرف صولون الى التجارة في شبابه، وان كانت طائفة من الكتاب تؤكد لنا أن انصرافه الى الأسفار لم يكن للربح وحده، بل في طلب العلم والخبر. ومن المؤكد انه كان محباً للمعرفة. اذ لما بلغ من العمر عتيّاً نراه يقول عن نفسه بصيغة الغائب:

«كل يوم أزداد عمراً، وأتعلم شيئاً جديداً».

وهو ليس من المولعين بالغنى، ولذلك يستوي عنده، الرجل...

«الذي تحتوي يده الفضة والذهب واحمال القمح ويملك الخيل والبغال، واقطاعات واسعة من الأراضي، مع ذلك الذي لايملك إلاّ خبز يومه والثياب التي تكسو ظهره والحذاء الذي ينتعله[٦] وزوجاً شابّة وولداً وامرأة شابة وولداً وعدداً من السنين يقضونها معاً فكلاهما في عرفه.

---

(٣) أفريبدس الباكاي ٨.

(٤) يقام سباق المشاعل ثلاث مرات في السنة ويتم في الپاناثينياي إكراماً لـ(منيرفا) و(پروميثيوس) كُل في عيده. ويتم احياؤها بالشكل التالي: ينير المتبارون مشاعلهم من مذبح (پروميثيوس) في السيراميكوس ويبدأون بالعدو بأسرع ما يمكن متجهين الى المدينة ومن يتنطفيء مشعلة اثناء ذلك، يخرج من الحلبة ومن يسبق الى الهدف يعلن فائزاً في المباراة [پاوسنياس ١:٣٠].

(٥) يضع ارسطو (صولون) في مرتبة الفقراء من مواطني أثينا. ويتخذ من آثاره الدلائل على ذلك. في الواقع لم يكن صولون غنياً. ففي شبابه كان انصرافه الى الشعر يستغرق معظم اهتمامه. ويقول افلاطون في رسالته (تيميون) «لو أن صولون أكمل كل قصائده (لاسيما ملحمته في تاريخ جزيرة الاطلانتيد التي جلبها معه من مصر) ولو خصص وقتاً لتنقيح واصلاح تلك الملحمة كما فعل غيره. لظهر وهو أشهر وأشعر وأبعد صيتاً من هوميروس وهسيود وكلّ شعراء الأقدمين. وواضح من سيرة حياته وكتاباته انه يتخلق باسمى الفضائل وأطيب مزاج واحبّ الطباع.»

(٦) هذه المقطوعة والتي هي من المنسوبات الى ثيوغنس.

وكتب ايضاً في مكان وفي موضع آخر: لا ضير في أن أكون غنياً، لكني لاأريد الغنى ان جاء بوسيلة غير لائقة. العدل حَق وان كان بطيئاً(*).

من الممكن جداً أن يظهر الرجل الصالح أو السياسي بعض اهتمام بالحاجات الضرورية دون أن يُعتبر مهتماً بالصغائر والتوافه. وفي عصر [صولون] «لم يكن العمل مَعرّة لأحد» كما قال [هسيود] (**) ولم تكن المحنة سبباً للتفرقة والامتياز، وكانت التجارة حرفة نبيلة فهي التي تأتي الى البلاد بالحاجات اللطيفة التي يستمتع بها البرابرة. وكانت واسطةً للتصرف بملوكهم ومصدراً لاينضب معينه للتجارب والخِبَر. وقد بنى بعض التجار مدناً كبيرة امثال [پروطيس Protis] مؤسس مدينة [ماسيليا] التي تعلق بها الغاليون أشد التعلق، وهي قريبة من نهر «الرون». وهناك أخبار تفيد أن [طاليس] (٨) و[هيپوقراطيس] الحاسب كانا يزاولان التجارة. وافلاطون نفسه كان يسدّ نفقات رحلاته من بيع الزيت في مصر (٩).

وعزيت رقة صولون واسرافه وأسلوبه الشعبي، لا الفلسفي، في تصويره اللذات والمسرات باشعاره الى حياة التجارة فقد ركب الآف الأخطار، وكان من الطبيعي أن تعوض ببعض المتع والمسرات. اما انه يعد نفسه أميل الى الفقر منه الى الغني، فهو واضح من أبياته التالية:

كثيراً ما ينعم الاشرار بالغني في حين يجوع الخيرون

مع هذا فإني لن ابدل حالي بحالهم

وفضيلتي بذهبهم. لأن ما املكه يدوم

في حين يبدل الغنى مالكيه يومياً

الفضيلة شيءٌ لايستطيع ان سلبه أحد

في حين ترى الغنى يبدل اصحابه

(*) المقطع ١٣.

(**) الاعمال والأيام ٣١١.

(٧) ربما كان هذا الذي ذكره (جوستين) قائلاً انه واحد من أبرز المهاجرين الذين هربوا من (فوكسين) تخلصاً من سلطان الفرس وبنى مدينة مارسيليا والى الاسم عينه يعزو ارسطو تلك المستوطنة أيضاً. (اثيناغورس ٥:١٣).

(٨) العمل الذي عزي ثمّ طاليـعي – اي التجارة هو على الغالب ما قصده ديوغينس لابيريتوس عند تدوينه سيره حياته (٢٦:١) فقد قال من أجل أن يبرهن على سهولة جمع المال والغنى. وبادراكه ببعد نظره وبصيرته أن المحصول من الزيتون سيكون كثيراً، فاتباعه قبل نضوجه وربح عظيماً من الصفقة.

(٩) بيع زيتون اليونان وبلاد اليهودية في مصر كان من الأمور وهو محصول آتياكا الوحيد. ولوفرته سمح صولون بتصديره.

ويبدو انه قرض الشعر، ولم يكن يرمي من ذلك بالأول الى هدف بل كان يعالجه للتسلية وتمضية الوقت ثم راح يضمّن المبادئ الفلسفية في قصائده ويشيع فيها كثيراً من التعاليم السياسية. ولم يكن قصده تسجيلها ونشرها، بل لتبرير أعماله. كما كانت أحياناً تهدف الى استنهاض هم الآثينيين وحثهم أو تأنيبهم وتوبيخهم، وزعم بعضهم انه حاول صياغة قوانينه في قالب شعر حماسي قبل سنّها. وقد اتحفونا بالمقدمة الشعرية:

ألا فلنتقدم بالصلاة الى زفس ابن كرونوس الملكي. ليمنح هذه الشرائع، شرائعي النجاح والشهرة(*)

وفي مجال الفلسفة اهتم أساساً بالناحية السياسية من الاخلاق شأنه في ذلك شأن معظم الحكماء. اما في العلوم الطبيعية فهو يكشف عن قصور ومعلومات بسيطة عتيقة كما يبدو من هذه الأبيات:

الغمام هو الذي يدفع بالثلج والمطر

والرعد لا يلبث أن يصدر من البرق الخاطف

والبحر يصطخب موجه عند هبوب الريح

لكنه لطيف سمح عندما يُترك وشأنه.

وعلى أغلب الاحتمالات أن طاليس في ذلك العهد، هو الذي ارتفع بالفلسفة من مجرد ممارسة، الى درجة الامتهان والاحتراف. وبقية الحكماء إنما سمّوا فلاسفةً لتضلعهم في المسائل السياسية.

ولقد قيل أنهم عقدوا اجتماعين في دلفي ثم في كورنث. بمسعى من [برياندر] الذي قام بتهيئة الاجتماع مع مأدبة العشاء. إلاّ أنّ مكانتهم ارتفعت أساساً عندما أرسلت اليهم جميعاً الطبلة ذات القوائم الثلاثة، فراح أحدهم يدفع بها الى الآخر تواضعاً وايثاراً، وأبى واحدهم تفضيل نفسه على صاحبه، بمنتهى الطيبة وحسن النية. والحكاية تروى على النحو الآتي:

كان بعض [الكوان Coan] يصطادون السمك بالشباك. فأشترى بعض الأجانب [الميليسين] مقدماً كلّ ما تخرجه رمية الشبكة في البحر فألقى بها الصيادون فخرجت بهذه الطَبَلة الذهبية التي قيل أن [هيلين] القتها في هذا الموضع عن عودتها من [طروادة] لما

(*) ما وصل من شعر صولون جمع في كتيب لـ Bergre باسم الشعر الغنائي الأغريقي Paetae Lyrid Gra-cii.

تذكرت بنوّة قديمة. وراح هؤلاء الغرباء ينازعون الصيادين على الطبلة. وسرى الخصام الى المدن حتى كاد يؤدي الى حرب. ثم فصل [ابوللو] في النزاع بأن حكم أن تُهدى اللقطة الى اوفر الناس حكمة. فأرسلت أولاً الى [طاليس] في مدينة [ميليطس]. وقد نزل له [الكُوان] عنها بكل سخاءٍ وهي التي كادت تؤدي بهم الى قتال [الميليسيين] جميعاً. إلاّ أن [طاليس] ابى قبولها قائلاً أن [بياس Bias] أوفر الناس حكمةً، فأرسلت اليه ومنه ارسلت الى آخر وهكذا دارت عليهم كرةً أخرى حتى طاليس، وبعد انتقالها من [ميليطس] الى [ثيبه] أوقفت على [ابوللوارسيمينين][١٠]. ويكتب [ثيوفراستس] انها عرضت على [بياس] أولاً في مدينة [پريان Priene] ثم الى [طاليس] في [ميليطس] ودارت على الجميع لتعود من جديد الى [بياس]، ثم ارسلت الى دلفي. تلك هي تفاصيل الحكاية عموماً. خلا أن بعضهم يقول ان الهدية لم تكن طبلة ذهبية ذات قوائم ثلاثة، بل هي كأس بعث بها [كروسوس Cruesus]. وقال آخرون بل هي صفيحة تركها [باثيكلس Bathycles].

وروي أن كلاً من [اناخارسيس Anacharsis][١١] [صولون]، وكلاً من [صولون و طاليس] كانوا عشراء واصدقاء. ونقل بعضهم اجزاء من احاديثهم وزعموا أن [اناخارسيس] قدم الى آثينا لرؤية صولون فطرق بابه وقال له انه غريبٌ عن البلد قصده ضيفاً، يريد صداقته. فأجابه صولون اليس من الأفضل له ان يبحث عن الأصدقاء في موطنه؟ فأجاب [اناخارسيس]:

- اذن فأنشيء صداقة معي أنت الذي تقيم في موطنك!

فأعجب صولون بحضور بديهة الطارق وذكائه، ورحب به في بيته وابقاه معه ردحاً من الزمن. وكان في ذلك الحين قد انصرف الى الشؤون العامة وقطع شوطاً في تهيئة قوانينه. ولما

(١٠) مشتقة من اسم هيكل مكرس لذلك الآله ويقع على ضفاف نهر اسيمينوس الذي يجرى بالقرب من ثيبة. اما عن حكماء الأغريق السبعة. فالمُجمع عليهم بصورة عامة هم باياس Bias السيريني. وخيلون السپارطي Chilon، وكليوبولوس Cgeobulus اللندوسي، وپرياندر Periander الكورنثي، وبيتاكوس Pit- tacus الميتيليني، وصولون Solon الآثيني، وطاليس Thales المليطي.

(١١) عُرف الصيثيون قبل صولون بزمن بعيد بالزهد والعفة ومكارم الاخلاق والعدالة. واناخارسيس هو منهم، أمير من أمرائهم. نزح الى اثينا في حدود الأولمپياد السابع والاربعين (٥٩٠ ق.م) وأهلّه عقله الراجح وسعه مداركه وكثرة تجاربه الى ان يعده بعضهم من ضمن الحكماء السبعة. إلاّ أن أحكم الحكماء لاينجو من الشذوذ. ولهم كغيرهم من البشر هفواتهم وسقطاتهم. وقد كان الأمر مع (اناخارسيس) كذلك اذ حمل معه طقوس (كيبيله) الأغريقية خلافاً لشرائع بلاده وظلّ يمارسها بصورة سرّية فاتفق ان واحداً من بني قومه أطلع على سرِّ فوشى به الى أخيه الملك الذي أسرع اليه ليصرعه بسهم مسدّد الى قلبه (هيرودوتس ٤:٧٦).

علم [اناخارسيس] بما يفعل ضحك منه واستغرب محاولة تنظيم حياة بني قومه بقوانين مسطورة، وتوسله بها الى ازالة الطمع والغش وقال له ان الشرائع اشبه بنسيج العنكبوت لا يقع في خيوطها الاّ الفقير والضعيف، في حين يسهل على الغني والقوي قطعها فأجابه صولون قائلاً: «إن الناس يظلون خاضعين للقوانين مادامت لا تستفيد ايه جهةٍ من خرقها، وانه بنى قوانينه لمواطنيه على هذه الفكرة والأسس ونظمها بحيث يدرك الجميع ان من الخير لهم ان يكونوا منصفين عدولاً متمسكين بالقانون لا ان يخرقوه. إلا ان الوقائع اثبتت أن [اناخارسيس] كان اصوب من صولون ونظرته أحق من آمال ذاك. ويؤثر عن [اناخارسيس] عندما كان عضواً في الجمعية العامة انه أظهر عجبه من أن الحكماء في اليونان يتكلمون فحسب، بينما الحمقى هم الذين يتخذون القرارات.

قالوا ان [صولون] رحل لرؤية [طاليس] في [ميليطس] وابدى عجبه من بقائه عازباً لم يتخذ زوجة ولم ينجب أولاداً فلم يجبه طاليس عن سبب عزوبته حالاً، لكنه أوصى بعد ايامٍ أحد الغرباء بأن يقول انّه غادر آثينا قبل عشرة أيام. فأخذ صولون يسأل عما وقع هناك من حوادث. فأجاب الرجل مطبقاً التعليمات التي أوصاه بها طاليس: «لا شيء يذكر، خلا تشييع جنازة شاب، شاركت فيه لمدينة كلها لأن الميت كان كما قالوا ابن رجل محترم، بل أكرم أهل المدينة خلقاً ولم يكن في المدينة عندما توفي ابنه فقد مضى عليه زمن طويل في الأسفار «فأجاب صولون: يالشقاء هذا الرجل! ولكن ما اسمه؟» فقال الرجل: «لقد سمعته لكني نسيته الآن، وكل ما اذكر هو الكلام الكثير عن حكمته وعدله» وهكذا كان صولون يُدفع الى الشكّ بكلّ سؤال وزادت مخاوفه، وأخيراً استبد به القلق، وذكر للغريب أسمه وسأله هل أن الشاب الميت يدعى ابن صولون؟ فأومأ بالايجاب طفق صولون يلطم رأسه ويأتي بحركات وأقوال تنم عن كربٍ عظيم(١٢). وهنا أسرع اليه طاليس وأمسك بيده وقال له مبتسماً: «هذه الأشياء يا صولون هي التي ابعدتني عن الزواج وانجاب أولاد. فهي صعبة شديدة حتى بالنسبة الى شخصك، ولكن لاتقلق، فالنبأ مختلفٌ من أساسه». هذه الرواية نقلها [هرميپوس] عن [پاتيكوس Pataecus] الذي يتباهى بأن له روح [ايسوبٌ Aesop].

ومهما يكن من أمر، فانه مما لا ينسجم مع العقل السويّ، ولا مع الروح القويّة أن نتجافى

(١٢) الأمر سواء أكان في هذه المناسبة أو غيرها أي عند وفاة ابن له فقد كان جواب (صولون) انسانياً ومعقولاً للغاية عندما طلب منه أن يكفكف دمعه لأن البكاء غير مجدٍ فقال «ولهذا فانا أبكي!» اي لأني لاأرى فيه جدوى. وبهذا يقول الشاعر العربي اللسان اليوناني الأصل ابن الرومي مخاطباً عينيه عندما فجع بوفاة ابن له

بكاؤ كما يشفي وإن كان لا يجدي فجودا فقد أورى نظيركما عندي.

السعادة خوفاً من فقدانها. اذ ينبغي على هذا الأساس ألا نسمح لأنفسنا بالرغبة في الغنى والمجد والحكمة مادام يلاحقنا الخوف من فقدانها كلها. لا بل الفضيلة نفسها، وهي أعظم ما يرغب المرء في امتلاكه فكثيراً ما تتأثر بالمرض وتناول العقّار. حتى [طاليس] نفسه وهو غير متزوج لا يسعه التحرّر من القلق إلاّ إذا بطل اهتمامه باصدقائه وأقربائه وبلاده في حين قيل أنه تبنىّ ابن أخته [كبيسثوس Cybisthus] لأن النفس يلازمها عنصر العطف، ولأنها ما خلقت الا لتحبّ، ولتدرك وتفكر أو لتتذكر، فلا سبيل لها إلاّ أن تميل الى شخص غريب وتركز اهتمامها به عندما لا تجد من تحنو عليه من صلبها. والاشخاص الغرباء وغير الشرعيين ينالون الحظوة عندها فتتعلق بهم كمن يتعلق بمالٍ لا وريث له. والحب يأتي بالقلق والاهتمام وقد ترى أناساً لا يكفون عن التنديد بفراش الزوجية وبثمرته، فاذا مرض ابن أحدى خادماتهم أو محظياتهم أو مات. رأيتهم وكأن الحزن يكاد يقضي عليهم، فيبكون وينتحبون بحرقةٍ. وترى بعضهم يظهرون ذلك الحزن المُخجل العميق على فقد كلب أو حصانٍ. وآخرين يتحملون موت ابنائهم الصالحين الشرعيين دون أن يبالغوا في إظهار ما لايليق من الحزن، هؤلاء أمضوا حياتهم رجالاً بكل معنى الكلمة، وعاشوها على مبادئ العقل ضدّ صروف القدر، الى مثل هذه الآلام والأحزان التي لاتنتهي. وهم في واقع الحال لا يملكون فرصة الاستمتاع الآني بما هو موضوع حبهم، لأن احتمال خسارتهم المقبلة له تظلّ ابداً تسبب لهم قلقاً ورعباً وآلاماً مستمرة. وينبغي لنا ألاّ نتحصّن بالفقر ضد الغنّى أو ضدّ الاصدقاء باجتناب كل المعارف أو ضدّ بنين بعدم انجابهم، بل يجب أن نتسلح بالعقل والأخلاق. وفي هذا الكفاية من القول.

بعد أن أتعبتْ الأثينين حربُهم العسيرة التي أعلنوها على الميغاريين بسبب جزيرة [سلاميس] وبلغت بهم حَدّ الضنى والانهاك. أصدروا قانوناً يعاقب بالموت كُلّ من يدعو بالقول والكتابة بلزوم استعادة الجزيرة أو بذل الجهود في سبيل ذلك. فأحنق ذلك صولون، وأدرك أن آلافاً من الشبان يريدون شخصاً يكون هو البادئ، ولكنه لم يجرأ على أن يكون أوّل المحرضين خوفاً من حكم القانون. فتصنع الجنون ودفع اسرته الى أن تذيع في المدينة بأن عقله قد أختل. ثم نظم في السرّ قصيدة وحفظها عن ظهر قلب حتى تبدو وكأنها من وحي البديهة، ثم هرع الى ساحة السوق وعلى رأسه قبعة[١٣] وتجمع الناس حوله وتبعوه حتى أعتلى منصّة المنادي وبدأ ينشد مرثيته بهذه الافتتاحية:

انا هو المنادي الذي جاء من سلاميس الجميلة.

---

(١٣) جرت عادة الآثينيين بالاّ يغطّوا رؤوسهم إلاّ عندما يلّم بهم مرض.

وأشعاري التي انشدها الآن هي بدلاً من الخطبة(١٤)

ويطلق على القصيدة اسم «سلاميس». وتتألف من مائة مصراعٍ وهي رائعة الأسلوب. وقد أثنى عليها اصدقاؤه. ولاسيما [بستراتوس] الذي حث الناس على العمل بالوصايا التي نضمتها. وبلغ الأمر أن ألغي القانون واستونفت الحرب تحت قيادة صولون. على إن الرواية الشائعة، تروى على الصورة الآتية: ابحر صولون مع [بسستراتوس] الى كولياس Colias فوجد النساء هناك يضحين الى [سيرس] جرياً على عادة أهل البلاد فأرسل الى سلاميس صديقاً يثق به، ليظهر بمظهر الخائن أمامهم ويقدم اليهم معلومات كاذبة وينصحهم أن يرافقوه حالاً الى [كولياس] اذا ارادوا الفوز ببعض النسوة الاثينيات فأسرع الميغاريون بأرسال رجال معه في سفينة وشاهدها صولون تقلع من الجزير فأمر النسوة أن ينصرفن ودفع بعدد من الشباب المُرد اللابسين ثياب النساء ونعالهن وأغطية رؤوسهن، وقد تسلحوا بالخناجر. الى الرقص واللعب بالقرب من الساحل حتى ينزل العدوّ من السفينة ويغدو تحت رحمتهم، وأنطلت الخدعة على الميغاريين وغرهم مظهر الشبان المرد فتقدموا من الساحل ونزلوا والرغبة تراود كل واحد في أن يكون أوّل الفائزين بالغنيمة فلم ينج منهم أحدٌ وأعتلى الاثينيون ظهر السفينة وتوجهوا الى الجزيرة وأحتلوها.

ويقول آخرون انهم لم يحتلوها على هذه الشاكلة. بل أن صولون استنزل أوّلاً هذه النبوءة من دلفي:

أولئك الأبطال الذين يثوون في [اسوبيا Asopia] الجميلة كلهم دفنوا واوجههم متجهة نحو الشمس الغاربة الآ فأذهب وأدخل السكينة اليهم بأفضل القرابين.

ثم أبحر نحو الجزيرة ليلاً، وضحّى للبطلين [پيريفيموس Periphemus وكيخريوس Cych-reus](١٥)، ثم أخذ معه خمسمائه متطوع من الآثينين (كان قد صدر قانون جديد يمنح أولئك الذين يستولون على الجزيرة ارفع المناصب في الحكومة وأخذ أيضاً عدداً من زوارق الصيد وسفينة واحدة ذات ثلاثين مجذافاً وأرسى في خليج سلاميس الذي يشرف على [نيسيا Ni-

---

(١٤) لم يصلنا منها غير ستة أبيات. أنظر المقطوعة ١-٣ في برك Bergk وانها تنطوى على لوم وتأنيب للآثينيين بسبب تخليهم عن (سلاميس) كما تتضمن تحريضاً واستنهاضاً للقتال في سبيلها.

(١٥) هو ملك سلاميس. ولديه هيكل كُرس له في تلك الجزيرة. يخبرنا پاوسنياس (٣٦:١) ان حيةً ضخمة شوهدت في احدى السفن الآثينيية اثناء المعركة البحرية بين الفرس والآثينيين. ولم تكن في الواقع غير البطل [كيخريوس] كما أبلغهم ابوللو.

saea]. ولم يسمع الميغاريون الذين كانوا ساعتئذ في الجزيرة غير أخبارٍ غامضة، ففزعوا الى السلاح وأرسلوا سفينة لاستطلاع حركات العدوّ. فأسرها صولون وقبض على من فيها وملأها بالآثينيين وأصدر أمره بابحارهم الى الجزيرة بأقصى ما يمكن من السرية والكتمان وفي الوقت زحف براً على الميغاريين ببقية الجنود وأشتبك معهم في القتال، في حين استولى جنود السفينة على المدينة، وتؤيد هذه الرواية المراسيمُ الدينية التي اتبعت فيما بعد وهي: أن تبحر سفينة آثينية بكلّ هدوء أولاً الى الجزيرة ثم يعدو - وهو يهتف - نحو مرتفع [سكيراديوم -Sciradi um] ليلتقي بأولئك الذين يزحفون عليه براً. وهناك يقوم معبد للآله آرس Ares(١٥)، بناه صولون لانتصاره على الميغاريين ومن لم يقتل منهم في المعركة لم يفكهّم إلاّ بشروط.

إلاّ أن الميغاريين ظلوا يقاتلون، ومُني الجانبان بخسائر جسيمة حتى لجأوا الى المفاوضات وأختاروا السپارطيين محكمين في النزاع. ويؤكد كثيرون أن ثبتَ هوميروس أظهر مزيداً من العطف على قضية صولون فحشر سطراً في قائمة سفنه - اثناء ما كانت القضية امام المحكمين، فصارت الفقرة تقرأ على الوجه الآتي: «اثنا عشر سفينة جاء بها [اياكْس] الشجاع من سلاميس».

ويقال انه اضاف: «وصَفَّ قواته في المواقع التي يقاتل بها الآثينيّون. على أنه الآثينيّن(١٦) يصفون هذه الحكاية بالشرثرة والهراء، ويذكرون ان صولون جعل الأمر يبدو للمحكمين، وكأن [فيليوس Philaeus وافريساكيس Evrysaces] ولديْ أياكس قدّما الجزيرة الى آثينا هدية لأنهما منحا حقوق المواطنة الآثينية. وان أحدهما كان يعيش في براورون Brauron آتيكا والثاني في [ملاطيه Malite] وانهما كانا يملكان في مدينة [فيليادي Philaidae]، واسمها مشتق من [فيليوس]، وهي مسقط رأس [پستراتوس].

ومن حجج صولون التي استخدمها ضد الميغاريين، كيفية دفن جثث الموتى، فقال أنها كانت تدفن حسب عادات الآثينيين لا بحسب عادة الميغاريين. فالذي جرى العمل به عند هؤلاء أنهم يحولون وجوه موتاهم الى الشرق، أما الآثينيون فيوجهونها نحو الغرب(١٧). إلاّ ان

---

(١٥) اي اينياليوس Enyalius.

(١٦) الالياذة [٢٠:م ٥٥٧] قد لا يصح هذا البيت دليلاً. فهناك كثير من القصائد عند [هوميروس] تثبت ان سفن [أياكس] كانت قد أتخذت مواقعها بالقرب من التساليين (٦٨١:٨) و(كذلك سترابو ١٠). وفيليوس الذي ذكر في المتن بعد هذا انما هو حفيد (اياكس) بحسب رواية پاوسنياس [٣٥:١].

(١٧) أنكر ديوغينيس ليئرتيوس ذلك انكاراً باتاً. إلاّ انه مخطئ على الأغلب لأن ايليان في [تاريخه ١٩:٧] يتفق مع پلوتارخ حول طريقة الدفن عند الآثينيين. وامّا بخصوص طريقة الميغاريين فهو يختلف معه اذ يقول انهم لا يتقيدون بشكل معين في دفنهم موتاهم ويتركون ذلك للصدف.

[هيرياس] الميغاري ينكر الحجة مؤكداً ان بني قومه يديرون وجوه موتاهم الى الغرب أيضاً. كذلك تعلل صولون بان الاثينين لا يدفنون الاّ ميتاً واحداً في القبر[١٨]. ولكن الميغاريين يدفنون اثنين أو ثلاثة في قبر واحد. ومهما يكن من أمرٍ فإن بعض نبوءات [ابوللو] التي ورد فيها ذكر الجزيرة باسم [سلاميس ايونيا][١٩] عززت من ادعاء صولون كثيراً. فحكم له القضاة السپارطيون الخمسة هم [كريتولايداس Critolaidas، وأمومفاريتوس Amomphare-tus وهيپسيخيداس Hypsechidas واناكسيلاس Anaxilas وكليوفييس Cleomenes].

وعظم شأن صولون وقوى مركزه بهذا. إلاّ ان ما بلغ به أعظم مواطن الشهرة والتقدير عند الأغريق هو نصحه بالدفاع عن نبوّة دلفي والوقوف الى جانبها وببذل العون وان لا يدعوا الكيريين Cirrhaeans[٢٠] يمتهنونها بل بوجوب المحافظة على شرف الآلهة، فبناءً على محاولاته أعلن الامفكيتويّون الحرب. ومن بين من يؤكد ذلك أرسطو عند ايراده ثبتا باسماء الفائزين في الالعاب البيثية. فهو يجعل صولون صاحب تلك المشورة. على أن صولون لم يكن قائد تلك الحملة كما يقول [هرميپوس]، نقلاً عن [ايانثس Evanthes] الساموسي Sami-an. وهذا ما ينفيه ايسخينس Aeschines الخطيب[٢١]. فقد ورد في سَجّل دلفي [الكمون] لا صولون كان قائد الآثينين... وكان فساد البكيلونيين قد استفحل في الجمهورية ونشر فيها الاضطراب اكنافه منذ عهد بعيد يرجع الى حكم [ميغاكلس] الأرخون عندما اقنع المتآمرين مع [كيلون Cylon][٢٢] الذين لجاؤوا الى معبد [مينرڤا] بالخروج منه ووعدهم بمحاكمة عادلة

---

(١٨) ويرجح بعض الشراح أن يكون سبب ذلك سعة البلاد وعدد سكان كلا البلدين.

(١٩) آيونيا القديمة تشمل آتيكا فقط.

(٢٠) هم سكان (كيرّا) وهي بلدة تقع على خليج كورنث أجتاحت بغزواتها المتكررة اراضي (دلفي) المجاورة، وحاصرت قواتها المدينة نفسها يحدوها الطمع في الاستيلاء على نفائس معبد (ابوللو). واستنجد بالإمفكتون وهم قادة دول الإغريق، فكان من رأي (صولون) أن يصدر استنكارٌ عامٌ للعمل ثم أرسل (كلستينوس) طاغية (سيكيون) قائده العام لحرب قوات (كيرّا) ونُصب (إلكيميون) قائداً للقوات الآثينية والتحق صولون بوصفه مساعداً أو مشاوراً لـ(كلسيتنوس) والقى الجيش الاغريقي الحصار على [كيرا] ردحاً من الزمن دون ان يصيب نجاحاً. فاستُخير (ابوللو) وكان الجواب انهم ان يفلحوا في الاستيلاء عليها الى ان تلتطم امواج البحر الكيرّي بساحل بحر دلفي. هذه النبوءة أخذت الجيش على حين غرة، إلاّ ان صولون أسرع بالتفسير والحلّ، بان نصح (كلسيتنوس) ان يوقف كل أراضي (كيرا) على معبد (ابوللو) دلفي وبهذا تصبح دلفيّة وبالطبع سيلتطم الموج أنذاك بأراضي دلفي. ولما أصبحت من موقوفات دلفي تم الاستيلاء عليها وينوه (پاوسنياس ٣٧:١٠) بخطة أخرى أقترحها صولون، تنم عن رجاحة عقله وعمق تفكيره، وهي تحويل مجرى نهر (پليستوس) الذي تعتمد (كيرا) على مائه.

(٢١) في خطبته «ضد قطيسيفون».

(٢٢) ظل الحزب المناويء للديمقراطية قائماً بعد مرور زمن طويل على ارساء قواعدها ولم يترك اصحابه وسيلة الاّ جربوها لاعادة نظام الحكم القديم. وكان (كيلون) انساناً جليل القدر رفيع المقام وصهراً =

فشدوا خيطاً بالصورة المقدسة وامسكوا باحدى نهايتيه وغادروا ملجأهم لحضور المحكمة[٢٣].

ولكن الخيط انقطع من تلقاء نفسُه عند وصولهم معبد [فوريس Furies] وكانت الربّة قد رفضت بسط حمايتها عليهم، وعندئذ قبض عليهم ميغاكلس والقضاة. ومن حيل بينه وبين المعبد منهم رجم بالحجارة، ومن هرب عائداً الى الملجأ ذبح على درج الهيكل. ولم ينج إلاّ أولئك الذين توسلّوا بزوجات القضاة. لكنهم بقوا نجسين، ينظر الناس اليهم نظرة الكراهية والاشمئزاز، وأستعادت بقية حزب [كيلون] قوتها، وأستمر شجارها مع أسرة [ميغاكلس]. وفي أيام صولون بلغت الشحناء أوجهاً وانقسم الجمهور الى حزبين، ولما كان صولون مرجعاً عاماً، فقد تدخل في الأمر بمعونة رؤوساء آثينا. وتمكن باللطف والتأنيب من إقناع النجسين بالمثول امام محكمة مؤلفة من ثلاثمائة مواطن نبيلٍ والخضوع الى القرار الذي يصدرونه وترافع ضدهم [ميرون Myron] و[فليا Phlya]. وأدينوا بنتيجة القرار، ومن كان منهم حيّاً نفي، ثم نبشت قبور الموتى منهم وأخرجت جثثهم والقيت خارج حدود البلاد. وفي اثناء هذه الاضطرابات والخبال انتهز الميغاريون فرصتهم فأنقضوا على الاثينيين وأنتزعوا منهم [نيسيا وسلاميس][٢٤] ثانيةً. زد على هذا ان المدينة غشيتها الأوهام، والمخاوف، وشتى الظواهر الغريبة. وأفتى الكهنة أن القرابين قد مَسّها بعض الدنس والنجاسة، وينبغي أن تظهر. فبعثوا يستقدمون [ايبيمنيدس Epimenedes][٢٥] الفايستي Phaeist من كريت. وكان هذا يعدّ

= لـ(ثياغينس) طاغية ميغارا.، وهو ممن ينفر من تغيير الحكام الفجائي. ويكره فكرة الركض وراء المنصب بوصفه فضلاً من الآخرين يطوق به عنق الفائز به، لاسيما وان حقه فيه واضح من جهة والدته. لذلك رتب خطة للاستيلاء على القلعة اثناء انعقاد الاولمپياد الخامس والأربعين. عندما يكون عدد كبير من الأهالي منشغلين بمشاهدة الألعاب. وقد تم تنفيذ ذلك وأستولى (كيلون) على القلعة. إلاّ ان (ميغالس) رئس الأراخنة آنذاك اتفق مع الحكام الآخرين وكل قوات آثينا وضربوا الحصار على القلعة وضيقوا على أصحاب المؤامرة الخناق حتى اضطر [كيلون وأخوه الى الفرار، تاركين بقية اصحابهم يتدبرون أمرهم بأنفسهم. يقول پلوتارخ: «من نجا من السيف، لجأ الى هيكل منيرڤا. لكن الحكام لاحقوهم وفتكوا بهم هناك وبذلك اسخطوا الآثينيين الذين أستنكروا عملهم بقتلهم في حرم الهيكل وهي جريمة عظيمة. هذه الحادثة يوردها مفصلةً (١٢٦:١).

(٢٣) في حدود العام ٦٣٦ ق.م أنظر المرجعين سالفي الذكر.

(٢٤) مدينة كانت تقع على خليج كورنث.

(٢٥) يخبرنا [ديوغينيس لايرتيوس] أنه بينما كانت تجرى عملية تطهير المنازل والحقول والاشخاص. جاء (ايبمنندس) بعدد من الغنم السود ومثيله من الغنم البيض وأطلق الجميع في [الاريوباغوس] وأمر الناس أن يتابعوها فرادى ويعينوا المواضع التي تضطجع فوقها ليقوموا بتضحيتها فيها. وعندها تقام مذابح ومنصات تخليداً لذكرى هذا التطهير الديني يقول (ديوغينيس) ان هذه المذائح التي لا تكنى باي اسم ظلت شاخصة حتى ايامه. وكان التعويض الوحيد الذي طلبه (ايبمنندس) من الآثينيين على عمله هذا، هو ان يعقدوا حلفاً مع بلاده (كريت). واما الاسطورة التي تقول انه رقد ٥٧ أو ٥٠ عاماً وظلّ على قيد الحياة. وحياته المَحفوفة بالاسرار وعمره المديد، فكلّ هذا معروف وقد ذكره المؤرخون.

سابع الحكماء عند اولئك الذين لا يدخلون [پيرياندر] في عدادهم(٢٦). ويبدو أنه كان يعتبر مفضلاً عند الأرباب، وعلى معرفة بكلّ الأسرار الدينيّة وما هو فوق الطبيعة منها ولذلك أطلق عليه رجال عصره [كيوريس](٢٧) الثاني. وابن الحوريّة المسماة [بالطه Balte]. ولما قدم الى آثينا وتوثقت علاقته بصولون، قدم اليه معونات في مناسبات مختلفة. وعبّد السبيل لتشريعاته وعدل من أشكال العبادات وقلل من صرامتها. وخفف من القواعد الخاصّة بالحداد فأدخل بعض القرابين لتقدم حالاً بعد التشييع، وأطرح تلك المراسيم القاسية البربرية التي تتعاطاها النساء عادةً(٢٨). إلاّ أن أعظم مأثرة له هو تطهير وتنقية المدينة، بفضل قرابين تهدئة، وتطهير معينة. واقامة بنايات مقدسة. وبهذه الواسطة جعلهم أطوع الى العدالة وأكثر ميلاً الى التآلف. وذكروا أنه نظر الى مونيخيا Munychia(٢٩)، واطال التأمل ثم قال لمن حوله «ما أشدّ عمى الانسان في أمور المستقبل! فلو تكهن الآثينيون أي فتنة وبلوى ستلحق هذه بمدينتهم لأكلوها أكلاً بأسنانهم ليتخلصوا منها(٣٠)، وثم نبوءة أخرى تعزى الى [طاليس] يقولون أنه أوصى اصدقاءه بأن يدفنوه في موضع خامل الذكر قذر من اراضي [ميليطس] قائلاً أن البقعة ستكون يوماً مركز لقاء الميلطيين الرئيس. وأكرم ايپيمينيدس أجل اكرام وعرض عليه أهل المدينة هدايا عظيمة وأغدقت عليه الامتيازات والنعم، إلاّ أنه اكتفى بطلب غصن واحد من الزيتون المقدس، فأعطي ما اراد وعاد الى بلاده.

بعد أن قُضي على الفتنة الكيلونية ونفي المُدنسّون منهم، عاد الآثينيون الى شحنائهم الأولى ونزاعهم على الحكم، وكان يوجد احزاب وشيع مختلفة، بقدر ما كان يوجد اختلاف رأي في البلاد. كان حيّ التلال يحبذ الديموقراطية، وحيّ السهل يفضل الأوليغارشية، أما اولئك الذين يعيشون على الساحل فيريدون مزيجاً من النظامين، وبهذا حيل دون استظهار حزب على آخر(٣١) وكانت الفروق في الاحوال بين الاغنياء والفقراء في ذلك الحين قد بلغت اقصى الحدود حتى بدت المدينة في حالة خطيرة جداً، وليس هناك من وسيلة لانقاذها من

(٢٦) انظر ارسطو [دستورآثينا: ١].

(٢٧) من يدعى كيوريتس Curetes، انما هم الكهنة الكريتيون الذين يقومون على خدمة [زفس الإيديّ] واسمهم مشتق من اسم انصاف الآلهة الذين قامت الربة (ريا) بايداع (زفس) الطفل لديهم.

(٢٨) كالضرب على الصدور، وجرّ الشعور، ولطم الوجوه الخ...

(٢٩) ان اكروپوليس [پيريوس] يشرف ستراتيجياً لا على شبه الجزيرة وحدها بل على اثينا نفسها كذلك. وكثيراً ما وضع فيه فاتحو اثينا جنوداً.

(٣٠) تحققت هذه النبوءة (على ما يقولون) بعد ٢٧٠ سنة عندما ارغم [انتيباطر] الآثينيين على القبول بحامية في ذلك الموضع. انظر سيرة [ديموستينس]. وأفلاطون يعزو اليه نبوءات أخرى.

(٣١) انظر ارسطو [دستور آثينا ٨:٤].

الاضطرابات والوصول بها الى حالة من الاستقرار إلاّ سلطة دكتاتورية مطلقة. وكان الجمهور كله مثقلاً بالديون للاغنياء وكان عليهم أن يختاروا إمّا زراعة اراضيهم لدائنيهم وأعطاؤهم سُدس المحصول فيسمون اذ ذاك: ثيتيس Thetes أو هكتوموري Hectemprii] وإما يسلموا اجسامهم لقاء الدين وقد يحجزون أو يرسلون الى العبودية في الوطن، أو يباعون للأجانب واضطر بعضهم الى بيع أولاده، (لأن القانون لا يمنع ذلك)، أو الهروب من البلاد خلاصاً من قسوة الدائنين. إلاّ أن معظمهم وهم اثبتهم جناناً بدأوا يتكتلون، ويبث أحدهم في الآخر روح الاقدام للوقوف في وجه هذا الظلم. واختيار قائد للقيام بتحرير الدائنين الذين صدرت الاحكام بحقهم وتوزيع الأراضي وقلب الحكومة.

وهنا ادرك أعقل الآثينيين أن صولون هو الشخص الوحيد من بين الجميع ممن ليس له علاقة بالمشكلة أو هو طرف فيها. وأنه لم يشارك في استغلال الاغنياء، ولم يعان بؤس الفقراء. والحوا عليه أن يمد يداً الى الحكومة، ويفضّ النزاع. وان كان [فانياس Phanias ولسبيان Lesbian] يؤكدان ان صولون احتال بحيلة على الفريقين لكي ينقذ بلاده. فوعد الفقراء سراً بتقسيم الأراضي، ووعد الاغنياء بضمان ديونهم، على أن صولون بالذات يقول عن نفسه أنه تردد في مبدأ الأمر في المساهمة في شؤون الدولة. لخوفه من مكابرة هذا الحزب، ومن طمع ذاك، ومع ذلك فقد انتخب (ارخوناً) بعد [فيلومبروتوس] ومنح سلطة سنّ القوانين والتحكيم ورضي به الاغنياء، لأنه غنيّ، ووافق عليه الفقراء لأنه نزيه. وقد أشيع عنه قبل انتخابه قوله «انه لن تقوم حربٌ لما تكون الأمور متوازنة.» وهذا ما أرضى جشع حزبي الاغنياء وخاصة حزب الفقراء[٣٢]. أولهما فَسّر التوازن: ان ينال كلّ امرءٍ نصيبه المناسب. وثانيهما فسره: ان تعمّ المساواة التامة الجميع. ولذلك ارتفعت آمال الجانبين. والّح رؤوساء القوم على صولون ليقبض على ناصية الحكم ففعل[٣٣] وليعالج الأمور على هواه وبكلّ حريةٍ حين أستتب الأمر له. وكان الكثير من العامة يرغبون أن يحكمهم رجل عادل حكيم، يصرف أمورهم بحكمته، لعلمهم أن التغيير الذي يفرضه القانون والعقل فقط، هو تغيير صعبٌ عسير المنال. ويقول بعضهم أن صولون تلقّى هذه البنوءة من ابوللو: «خذ المقعد الوسط، وكن مرشد السفينة فكثير من أهل أثينا هم الى جانبك». ولكن أصدقاءه المقربين عابوا عليه بالدرجة الأولى أباءه الحكم بنظام الملكية المطلقة بسبب الاسم المقترن بها فحسب[٣٤]. كأنّ فضائل الحاكم

---

(٣٢) المرجع نفسه [٣:٤].

(٣٣) في العام ٥٩٤ ق.م.

(٣٤) يجب علينا الاستدراك للقول انه كلمتي «طاغية» و«طغيان» اللتين تردان أحياناً في النّص لا تعني دائماً عند الاقدمين الحكم البغيض المتميز بالقسوة والعنف والاستغلال والفساد. فكثيراً ما كان الطغاة =

لاتستطيع أن تجعل منه شكلاً شرعياً من أشكال الحكم. لقد اقدمت [يوبيا Euboea] على هذه التجربة لما أختارت [تينونداس Tynnondas] وكذلك دويلة [ميتلين Mitylene] التي أمّرت عليها [پيتّاكوس Pittacus][٣٥] إلاّ أن هذا كلّه لم يثن صولون عن عزمُه. ولكنه على ما قيل - أجاب أصدقاءه: «صحيح أن الحكم المطلق بقعة جميلة، ولكن لا يوجد فيها مكان للنزول، وكتبٍ على نسخة من اشعار [فوكوس Phocus] ما يلي:

«فلأنيّ أنقذت أرضي. وكففت يدي عن الظلم والقسوة. وابيت أن اشوه اسمي الصالح بلطخةٍ أو بعار - لن آسف قطّ، وأعتقد ان ذلك سيكون رأس شهرتي»

ومنها يتضح أنه كان رجلاً عظيم الشهرة قبل أن يستنّ شرائعه[٣٦]. وقد سجّل صنوف السخريّة التي صُبت عليه لرفضه الحكم والسلطة في هذه الأبيات:

«لا شك ان صولون من الحالمين والسذّج فعندما تحبوه الآلهة بالنعم، تراه يرفضها بمحض اختياره. عندما تكون الشبكة ملأى بالسمك ويراها مفرطة في الثقل، يأبى أن يرفعها، جُبناً منه، وقلة عقل. لو اني اهتبلت تلك الفرصة في الغنى والحكم وكنت طاغية لآثينا يوماً واحداً لأعطيت جلدي للسلخ، وتركت بيتي يضمحل ويموت[٣٧].

وهكذا يجعل الفقراء والدهماء يلهجون بذكره. ومع انه رفض قبول الحكم، إلاّ انه لم يكن لينّ الجانب كثيراً في شؤونه، فلم يظهر امام السلطات ذليلاً طائعاً ولم يستنّ شرائعه لإرضاء أولئك الذين انتخبوه. فما كان جيداً من القوانين لم يدخل اليه تعديلاً أو يغير فيه لئلا...

«تخرّ الحكومة على ركبيتها وتتقوض تماماً»

لقد كان أضعف من أن يعمد الى صياغة نموذج حكم جديد أو يعيد تشكيله بهيئة يغلب

= يمارسون سلطانهم بشكل قانونيّ عادل. إلاّ ان بغضه والقيام ضدّه كان مصدره بصورة عامة المبدء الذي أختطه هذا الحكم لنفسه أعني السلطان المطلق الذي قد يخشى دائماً تطرّف من يمارسه والوصول به الى أقصى درجة من التحكم والبربرية، والى تبرير اي استغلال أو اغتصاب.

(٣٥) هو واحد من الحكماء السبعة قبض على زمام السلطة في (متيلين) فراح [الكيوس] الذي ما كان مواطناً ومعاصراً له ومدافعاً عن الحريات - يهجوه وينتقده ويخفض من شأنه، كما فعل بالطغاة الآخرين. فتغاضى [بيتاكوس] عنه ولم يكترث به. واقدم على قمع تمرد الأهالي بالقوة ونشر السلام والعدل والانسجام بين المواطنين ثم تنازل عن السلطة بمحض اختياره واعاد الحرية الى بلاده. إلاّ انه أرغِم في آخر عمره على تولى السلطة مجدداً باجماع ملحّ من المواطنين. فنطق بحكمته الشهيرةك «الفضيلة لا تخلو من عوائق» وبعد أن حقق ما جيء به لتحقيقه أعتزل الحكم ليعود فرداً عادياً.

(٣٦) المقطوعة ٣٢.

(٣٧) المقطوعة ٣٣.

عليها الاعتدال. ولكنه طبق ما خيل له انه ممكن التطبيق عن طريق إقناع المستعدين للاقناع، وباستخدام القوة للمعاندين كما قال هو نفسه: «القوة والعدل، يعملان معاً».

ولذلك، فعندما سئل فيما بعد: هل ترك للآثينيين خير قوانين يمكن لأحد أن يعطيها؟» اجاب «تركت خير ما يستطيعون أخذه» وهذا أسلوب في الجواب يقول عنه المحدثون أن الآثينيين يلجأون اليه للتحقيق من سوء شيء. بأعطائه وصفاً جميلاً بريئاً لا يخدش الأسماع. فهم يسمون الطاهرات حظايا. والجزية: مكساً، والحامية حرساً، والسجن غرفة. ويبدو أن هذا من مبتدعات صولون. أساساً. فقد أطلق يقضي قانوناً بالغاء الديون مصطلح [سيساكثيا Siesacthea]. أي الإغاثة أو تخفيف الإعباء. فأول قاعدة وضعها هي الاعفاء الشامل عن كلّ ما تخلّف من الديون، ولا يحق في المستقبل لأي شخص أن يسخّر لنفسه عَمَل جسم مدينه ضماناً لدينه. على أن بعضهم ومنهم [آندروسيون Androtion] يؤكد انه لم يلغ ما تخلف من الديون وانما حفضت الفائدة فحسب وهو ما كان موضع رضى الناس فسمّوا هذه المنفعة [سيساكيثيا] كما شملوا بالتسمية، توسيع الكاييل ورفع قيمة النقدّ والقوة الشرائية(٣٨). فقد حددّ قيمة [اليپاون] مجدداً بمائة درهم [دراخمه] في حين كان قبلاً ثلاثة وسبعين درهماً، وهكذا فمع كون عدد القطع النقدية المدفوعة عن الدين كانت سواءً، إلاّ أنها أقلّ قيمةً. وهذا ما عاد بالفائدة الكبيرة على أولئك الذين يدفعون ديوناً كبيرة. وفي الوقت نفسه لا يخسر الدائنون شيئاً من ديونهم.

على أن معظم الكتاب يتفقون على أن الغاء الديون هو المقصود [بسيساكْثيا] اي ابراء الذمة. ويؤكد هذا في بعض مواضع من قصيدته التي يعزو فيها هذه المأثرة لنفسه: «لقد رفعتُ عن الأرض المرتهنة حجارة الرهن - وما كان منها مستعبداً أصبح حُراً.»(٤٠ أ)

ففيها يعزو لنفسه بانه رفع شارات الحجز عن الأراضي(٣٩) التي كانت العين تشاهدها من قبل في كل مكان وحرر الحقول التي كانت قبل ذلك محجوزة. وحرر أولئك الذين حبسهم دائنوهم. وأعادهم الى البلاد بعد أن ظلوا متشردين في الخارج كما اخبرنا عنهم: قضت الأقدار عليهم بالنأي والتشرد زمناً طويلاً فنسوا لغة موطنهم (لغة اتيكا).

وحررّ بعض أولئك الذين «رسفوا هنا في أغلال العبودية المخزية في بلادهم»(٤٠ ب).

---

(٣٨) انظر ارسطو [دستور آثينا ١٠ و ٥٠].

(٣٩) من عادة الآثينيين وضع بطاقة على المنازل أو الأراضي اشارة الى انها خاصّة أو محجوزة.

(٤٠ أ) المقطوعة ٣٦ الابيات الرابع وما بعده بعد ارجاعها من صيغة المتكلم الى صيغة الغائب. البيت ٦ من اقتباس ارسطو.

(٤٠ ب) المقطوعة ٣٦ (الابيات ٩-١٢ من برگ.) (الابيات ١١-١٤ من ارسطو).

وفيما هو يرسم هذه الخطط حصل أمرٌ مخجلٌ جداً، اذ لمّا قرّر الغاء الديون، وأخذ يفكرّ بأفضل الطرق للبدء بالتنفيذ واسّر لأقرب اصدقائه اليه [كونون Conon وكلينياس Clinias وهيپو نيكوس Hipponicus] رهم ممن يضع فيهم أعظم الثقة - بأنه لن يتدخلّ في قضية الأرض، وإنما سيحررّ الناس من ديونهم فحسب. فأنتهزوا الفرصة وعجلوا باستدانة مبالغ كبيرة من المال وابتاعوا مساحات واسعة من الأراضي الزراعية لأنفسهم. ولما طبّق القانون بقيت املاكهم لهم دون أن يضطروا الى دفع المال الذي استدانوه. وهذا ما أثار الشكوك العظيمة في صولون ومما زاد في السخط عليه والكره، ان حالته المالية لم تتأثر بالقانون، إلا أنه بادر حالاً الى قطع دابر الشكّ بأن أبرأ ذمة كل مدينيه الذين يدينون له بخمسة تالنتات فأكثر حسب أحكام القانون، وكانوا كثيرين. على أن بعضهم مثل [پوليزيلوس Polyzelus] الرودسي، يقول أنه أبرأ من كان مديناً له الى حدّ خمسة عشر تالنت. وسُمّي اصدقاؤه أولئك منذ ذلك الحين بالمنافقين Chreocopidae أو قُطّاع الدين[٤١].

لم يُرض صولون بعمله هذا أيّاً من الحزبين، فالأغنياء سخطوا لخسارة اموالهم، والفقراء سخطوا لأن الأراضي لم يجر تقسيمها مجدداً وبقيت على حالها ولم تفرض المساواة التامة بين المواطنين على نحو ما فعله ليكورغوس في جمهوريته. والحق يقال أن ليكورغوس هو سليل هرقل الحادي عشر، فضلاً عن انه كسب اشياعاً واصدقاء عديدين بعد حكمه الطويل في [لقيديمونيا] ونال شهرة عظيمة ونفوذاً واسعاً استخدمها كلها في اشادة صرح نظام دولته وأعتمد غالباً على القوة لا على الاقناع، حتى انه فقد أحدى عينيه في معركة[٤٢]، كما كان قادراً على استخدام أحدى الوسائل لسلامة الدولة واستقرارها، وهو ازالة الفقر والغنى في مجتمعه، إلا أن صولون لم يبلغ هذا الحدّ في سياسته فقد كان متوسط الحال، ومع ذلك لم يتقاعس ولم يدخر وسعاً في ممارسة كل سلطته، ولم يكن ثم ما يعتمد عليه غير ثقة الناس به حسن ورأيهم فيه واعتمادهم عليه. أما أنه أثار سخيمة معظم من كان يؤمل نتيجة أخرى عنه، فهو ما أشار اليه في ابياته:

بالأمس كانوا يتيهون بي أعجاباً ويباهون واليوم ينظرون إليّ شزراً كأني عدوهم.
الاصدقاء كلهم انقلبوا أعداء[٤٣].

(٤١) هنا مفارقة لفظية واضحة. فـ(كركوپيدي Cercopidae) الذي يطلقه الآثينيون على أنفسهم، يشبهم الى ملكهم الأول ككربوس Cecrops فيقولون انهم من نسله [جوڤينال ٨:٤٦].

(٤٢) ارسطو: الدستور الآثيني ٦.

(٤٣) المقطوعة ٣٤. الآن الابيات الأربعة فما بعدها من المقطوعة ذات الابيات التسعة التي اقتبسها أرسطو (انظر الدستور ١٢:٣).

ومع هذا فلو حاز اي امرء «ما حزته من سلطان» على حدّ قوله. لما امتنع أو قصر عن احتلاب أدسم الحليب لنفسه وصادر الكل. ولكن لم يمرّ طويل زمن إلاّ وشعروا بفائدة ما صنع. فزال حقدهم عليه. وقدموا قرابين عامة أطلقوا عليها اضحية الغاء الديون [سيّساكثيا] وأختاروا صولون ليضع القوانين النموذجية الجديدة لجمهوريتهم، ومنحوه صلاحيات مطلقة في كل شيء، وسلطاناً ماله حدود على أقضيتهم ومجالسهم ومحاكمهم ومجالس شوراهم، ليقرر بنفسه مواعيد اجتماعاتها وعددها، وتخصيص الأموال لها. ومُنح صلاحية حلهّا أو الابقاء عليها حسبما يرتأيه.

وكان أول اعماله الغاء كل قوانين [دراكو Draco] (٤٤) لصرامتها الفائقة وعقوباتها القاسية، خلا ما يتعلق بجرائم القتل منها. كانت عقوبة الموت في قوانين [دراكو] تفرض تقريباً على كل الجرائم حتى تلك التي تعاقب على البطالة، أو على من يسرق رأس خسّ واحد أو تفاحة واحدة كان الموت عقابها مثل جرائم القتل والكفر. وصدق عنها حقاً قول [ديماديس Demades] (٤٥) الذين نبغ بعده بزمن طويل. «لم تكتب قوانين دراكو بالحبر، وانما كتبت بالدم». وسئل [دراكو] نفسه: لماذا جعل الموت عقاباً لمعظم الجرائم فأجاب «الجرائم الصغيرة تستحق ذلك. وليس عندي عقوبة أشدّ من الموت للجرائم الكبيرة».

ولما كان صولون يرغب في ابقاء الجهاز القضائي بأيدي الطبقة الغنية، وان يفتح امام العامة في الوقت نفسه أبواب أجهزة أخرى من أجهزة الحكم. فكانت خطوته الثانية هي أحصاء أموال المواطنين(٤٦) فرداً فرداً فالذين ملكوا خمسمائة ميكال من الغلة: مائعةً وجافة جعل منهم

---

(٤٤) كان [دراكو] ارخوناً في أول سنة وثاني سنة من الاولمبياد التاسع والثلاثين الموافق لـ٦٢٣ ق.م. مع أن اسم هذا الرجل الشهير يظهر كثيراً في صفحات كتب التاريخ القديم الاّ اننا لانجد أكثر من عشرة أسطر محترمة عنه وعن شرائعه، ويمكن القول بانه اول مشترعي آثينا، ذلك لأن قوانين أو بالأحرى «توصيات Precepts» (تريبطرليموس) كانت قليلة جداً لا تكفي لتثبيت الحقوق والواجبات ومن تلك الوصايا «أكرم ابويك» و«اعبد الآلهة». «لاتؤذِ حيواناً» وما الى ذلك. وكان (داركو) أوّل اغريقي عاقب على الزنا بالموت. وأعتبر القتل أشنع جريمة وأفظعها واراد ان يعزز كرهها في الذهن فشرع بان تجرى التعقيبات القضائية بحق الجمادات والأشياء الخالية من الروح ان كانت سبباً لإحداث الموت. لكنه الى جانب جريمتي القتل والزنا اللتين عوقبتا بالموت. فقد جعل عدداً من الجرائم الاصغر شأناً تستحق عقوبة الموت ايضاً وهذا ما أدىّ الى الغاء كلّ شرائعه تقريباً. فصرامتها المتناهية الشبيهة بالحدّ المسنون المرهف، جعلها كالنصل الذي ينفذ عميقاً وقد حفظ لنا بروفيري في (de Abstin) نصاً من تلك القوانين وهو ما تعلّق بالعبادة «انه لقانون ابديّ في آتيكا. ان تعبد الآلهة وجوياً، وكذلك تعبد الابطال بحسب تقاليد اسلافنا. في السرّ تعبد فقط وبصلاة لائقة، وبالثمار الأولى واراقة الخمر سنوياً».

(٤٥) خطيب آثيني عاصر فيليب المقدوني وابنه الاسكندر.

(٤٦) ارسطو دستور آثينا ٣:٧ وما بعده.

الطبقة الأولى هو أطلق عليها اسم [پنتاكورسيوميذيمني Pentacosiomedimini] (٤٧) (اي ذوي الخمسمائة مكيال). أمّا أولئك الذي ملكوا حصاناً أو مالاً يعادل ثلاثمائة مكيال فأطلق عليهم اسم [هيپادا تيلوميتس Heppada Telumtes]وجعلهم طبقة ثانية. أمّا من ملك ما يعادل مائتي مكيال فسماهم [زويگيتي Zeugitae] وجعلهم الطبقة الثالثة أما الباقون فجعلوا طبقة رابعة وسمّاهم [ثيتيس Thetes] وهؤلاء لا يحق لهم ان يتولوا أي منصب حكومي. لكن لهم أن يحضروا الجمعية العامة ويعملوا عمل المحلفين، وهو عمل يبدو للوهلة الأولى شيئاً تافهاً، لكن سرعان ما تبيّن أنه حق ذو سلطان عظيم. لأن كل موضوع خلافٍ رئيسٍ يرفع اليهم ليصوتوا عليه، ولايستثنى منها حتى الامور التي هي من اختصاص الارخون اذ قرر ان تستأنف اليهم قضائياً.

وكذلك قيل أن صياغة قوانين صولون كان يشوبها الغموض وكانت معانيها مزدوجة التفسير مطاطيّة. وقد تعمّد ذلك لتزاد هيبة مجالسه القضائية. لأن غموضها وصعوبة تفسيرها وعدم توصل الناس الى فهم منطوقها الحرفي يضطرهم الى رفع دعاواهم الى القضاة المختصين الذين حذقوا الصناعة. اما عن المساواة الطبقية فهو ينوه بها على الصورة الآتية:

> منحت الشعب سلطة كافية ولم اجردهم من الكرامة ولم أعطهم الكثير جداً واما اولئك الذين يملكون السلطة. ويتمتعون بالغنى الطائل فقد جعلتهم القوانين في نجوة عن كُلّ ما يحطّ من قدرهم. ووقفت بدرعي الجبار امام كلا الطبقتين ولم أدع أحد الفريقين يعتدي على حقوق الآخر (٤٨)

وقويّ من ضمانات أمن الطبقة العامة، بمنح الحق العام إقامة الدعوى عن اي جريمة من جرائم الايذاء العمديّ. فاذا تعرض اي فردٍ للضرب، أو بُتر منه اي عضو أو اعتدي عليه بأي شكلٍ من الاشكال، كان لكل مواطن الحق في اقامة الدعوى على المعتدي. وهدف صولون من هذا، أن يعوّد المواطنين أن يشعروا بشعور المعتدى عليه، كأنهم اعضاء في جسمٍ واحدٍ. وان تثور

---

(٤٧) ان هؤلاء [البنتاكورسيوميديمني] يدفعون ثالثاً واحداً لبيت المال. أمّا [الهيپاداتيلوانتيس] فيتوجب عليهم كما تدل عليه عبارة النص – أن يقتنوا حصاناً وان يخدموا في الجيش فرساناً. واما الزڤخيتي فقد أطلقت عليهم هذه التسمية لأنهم وسط بين طبقة الفرسان وطبقة العامة (ذلك لأن الجذافين الذين يحتلون المتعد الوسط بين الثالاميت في قيدوم السفينة وبين الترامييت في الدفّة. ومع أن الـ(ثيتيت) الذين لا يدفعون ضريبة. لا صوت لهم في الجمعية العامة، فانهم كما لاحظ پلوتارخ حازوا أمتيازاً عظيماً باعتبارهم مرجعاً استينافياً في معظم الاحكام القضائية وقد بلغ استخدام هذا الامتياز من الخطورة حداً حسب رأي ارسطو (السياسة ٢:١٠) أن اثينا وقعت فعلاً بيد الرعاع وسلطانهم الطاغي.

(٤٨) المقطوعة ٥ وما بعدها. ارسطو [دستور آثينا ١:٢] أنظر أيضاً ١:٩ وما بعدها.

ضمائرهم للجريمة كأنها وقعت عليهم. وهناك قولة له تنسجم ومنطوق قانونه. اذ سئل ما هو النموذج الأمثل للمدينة في رأيه فأجاب: «المدينة التي يتساوى فيها المعتدى عليهم وغير المعتدى عليهم بحق ادانة ومعاقبة المعتدين.»

عندما ألفّ صولون مجلس [الاريوباغوس](٤٩) من الآراخنة السابقين الذين تولوا هذا المنصب السنويّ وكان هو واحداً منهم(٥٠)، لاحظ أن الشعب الذي تخلص من الديون مازال أمره مضطرباً يجأر بالشكوى فألّف مجلساً آخر قوامه اربعمائة عضو(٥١)، تنتخب كل طبقة من الطبقات الأربع، مائة عضو له. وواجبه تدقيق واقرار كل ما يفرض على الشعب من أوامر وقوانين، وبعد ذلك يتمّ عرضه على الجمعية عامة. اما المجلس الأعلى أو [الأريوباغوس] فقد جعله حارساً ومراقباً على القوانين وبذلك كان هذان المجلسان بمثابة مرساتين للنظام الجمهوريّ،

---

(٤٩) Areopayas: اي جبل مارس [اريوس = مارس Arius] و[پاغوس جبل Pagus] وهو موضع في اثينا مرتفع تعقد فيه أعلى محكمة قضائية [م.ت].
إن المحكمة الاريوباغية وان كانت أسسها قد ثبتت منذ عهد طويل الاّ انها فقدت الكثير من سلطاتها عندما قام (دراكو) بتفصيل محكمة ايفيتاي Ephetae. في الزمن القديم حتى مجيء صولون كانت هذه المحكمة تضمّ أناساً أشتهروا بغناهم ونفوذهم ورجاحة عقولهم. على انه لم يجز لعضويتها إلاّ من كان ارخوناً. وهذا ما حقق الهدف الذي رمى اليه فقد ارتفع قدر [الاريرباغوس] وسمت مكانتها وامست قراراتها محترمة، بحيث لم يعد احد يقوى على انتقادها أو رفضها. وظلّ الأمر كذلك أجيالاً عديدة.

(٥٠) بعد انقراض نسل الميذونتيذي Medontidae. حدد الآثينيون فترة حكم الأرخون بسنة واحدة. وجعلوا المجلس يتألف من تسعة بدل أن يتولاه ارخون واحد. بعبارة أخرى انهم حققوا ما كانوا يصبون اليه منذ عهد بعيد أعني أن يجعلوا حكامهم الأعلين تحت الرقابة الشعبية العامة. حصل هذا الانتقال العظيم الى الديمقراطية في آثينا أثناء الاولمپياد الرابع والعشرين الموافق للعام ٦٨٤ ق.م. كان لهؤلاء الحكام مظاهر تمييز وتكريم واضحة ومنها التسميةفالارخون الأول هو ايپونيموس Eponumus باسمه تختم السنة. والثاني يدعي باسيليوس أو ملك Basileus وقد جعلوا اللقب ثانياً لتجريده من صفة الأولوية. ووظيفة المنصب رعاية الشؤون الدينية وأطلقوا على الثالث اسم [پوليمارخوس Polemarchus] وللأشرف على شؤون الحرب. اما الستة الباقون فيحمل كلّ منهم لقب [تسموثيتي Thesmothetae] وهم الاوصياء على القوانين يراقبون تفسيرها وتطبيقها والمحافظة عليها وازالة الغموض والتناقض فيها. ويمرّ هؤلاء الحكام قبل انتخابهم بفحوص صارمة للغاية تشمل التحقيق الدقيق في أصلهم وفصلهم [يجب أن تكون الاجيال الثلاثة الأخيرة التي سبقته على الأقل من اسرته آثينية الجنسية من جهة الأب والأم] ودرجة تقواهم وعباداتهم للآلهة، وحبهم لابويهم وبلادهم وما يملكون من ثروة الخ... وقد بقي هذا المجلس قائماً حتى زمن الامبراطور الروماني كاللنيوس.

(٥١) رُفع عدد القبائل في عهد كاللستينوس الى عشرٍ بعد طرده أسرة الپسستراتيدي الحاكمة. ورفع عدد اعضاء مجلس شيوخه الى خمسمائة. كل قبيلة تنتخب خمسين عند نهاية العام. ويقدم زعيم القبيلة قائمة بالمرشحين ومن هؤلاء يختار العدد المقرر بالقرعة. ثم يقوم الشيوخ بتعيين الضباط الخمسين ويطلق عليهم اسم (پريتاني). ويترأس عشرة منهم الآخرين لمدة أسبوع ويسمون پروئدري ومهمتهم الحيلولة دون وقوع فوضى ومن هؤلاء يختار (إپستاته) أو رئيس لا يدوم منصبه أكثر من يوم واحد [ارسطو: دستور آثينا ٨:٤].

يقللان من تعرضها للنوء والغرق، ويجعلان الشعب أكثر هدؤاً واستقراراً. وهذه هي الاسباب التي دعت صولون الى انشاء مجلس [الاريوباغوس] ويبدو ذلك ثابتاً تاريخياً لأن [دراكو] لم ينوه بشيء عن وجود الاريوباغيين، في حين يشير الى [الزفيتي Zaphetae] في كل قضايا الدم. على ان لوح صولون الثالث عشر المتضمن القانون الثامن، كانت صياغته كالآتي: «كل من كان مجرداً من حقوق المواطنة قبل أرخونية صولون يستعيد حقوق مواطنته. إلاّ أولئك الذين ادانهم الاريوباغوس والايفيتي، أو ادانهم الملوك في البريتانيوم لارتكابهم جرائم القتل العمد مع سبق التصميم، والقتل قصداً، أو من دسّ الدسائس على الدولة أو تآمر عليها - على ان يكونوا في ديار الإبعاد عند سنّ هذا القانون».

من هذه الصياغة يتبين أن الاريوباغوس كان موجوداً قبل قانون صولون، فمن يمكن أن يحاكمه هذا المجلس قبل صولون إن كان هو الذي أوجد مجلس قضائه؟ اللهم اذا كان قد حذف شيء من النص أو شابه سوء صياغة أو عدم دقة وهو أمر محتملٌ. وأقرب صياغة الى الوضوح هي ان يقال «...أولئك الذين ادينوا بجرائم كان الحكم بها من اختصاص الاريوباغوس والايفيتي(٥٢) والبريتانيوم عند تشريع هذا القانون»

... يبقون مجردين من حقوقهم، لا تمحى عنهم وصمة العار، أمّا ما عداهم فيعاد اليهم اعتبارهم ويلغى الحكم عنهم. وعلى أية حال نترك الموضوع لحكم القاريء.

من بين قوانين صولون، قانون غريب عجيب، فهو يجرد حقوق المواطنة من كل من يقف على الحياد في اثناء ثورة أو تمرّد(٥٣). والظاهر أن المشترع لم يكن يرى بقاء اي مواطن فاقد الشعور والاهتمام بالمصلحة العامة، منصرفاً الى شؤونه الخاصة فحسب مهتماً بما يعود عليه بالفائدة، مجرداً عن أي تحسسٍّ باضطراب سياسي يداهم بلده، بل يجب عليه أن ينحاز فوراً الى الجانب المصيب أو الى الحزب الذي يكون الحق الى جانبه فيناضل ويتعاون معهم. لا أن يبتعد عن مواطن الخطر ويجلس مراقباً المعركة عن كثب ليرى من الغالب؟

---

(٥٢) كان أول عمل المجلس القضائي في عهد الملك [ديموفون ابن تيفس] للنظر في دعاوى القتل العمد والقتل القصد دون تصميم. ويتألف المجلس من خمسين قاضياً آثينياً، وعدد غير محدود من الارغوسيين. إلاّ ان [داركو] أخرج الارغوسيين. وأمر المجلس بأن يتشكّل من واحد وخمسين من افاضل الآثينيين وان لا يقل عمر العضو فيه عن خمسين سنة. ومنحهم سلطاناً يعلو على سلطان اعضاء الاريوباغوس. إلاّ أن صولون خفض هذه السلطة. بحيث جعل هذا المجلس تحت اشراف الاريوباغوس كما حدد صلاحيته القانونية.

(٥٣) يورد [اولوس غيليوس] النص الحرفي لهذا القانون. ويضيف قائلاً «ذلك الذي يقف الحياد، يجب ان يجرد من منازله ويخسر بلاده وأملاكه وان ينفى خارج الوطن. ويمدح (غيلويوس) قصد المشترع من هذا القانون حين يذّمه پلوتارخ.

ويبدو للمرء قانوناً سخيفاً تافهاً أن يسمح لزوجة ذات مال موروث بأن تتخذ أقرب ذوي زوجها عشيراً، إن لم يقم زوجها بمعاشرتها! على أن بعضهم يمدح القانون ويراه فعّالاً لردع أولئك العاجزين عن واجباتهم الزوجية ويسعون للزواج بالوارثات طمعاً بما لهنَّ، مستخدمين السماح القانونيّ ليخرقوا به سنن الطبيعة. اذ كان الواجب يقضي أما أن يعزفوا عن هذا الزواج أو أن يعيشوا حياةً زوجيّة شائنة، ويعانوا العار والخزي جراء طمعهم وخطأهم المتعمّد. هذا فضلاً عن أن اشتراط كون خليلها أقرب اقرباء زوجها هو عملٌ طيبٌ حتى يظل نسب الأسرة لثمرة هذه العلاقة.

ومما جرى مجرى هذا القانون في غرابته، ذلك الذي قضى أن يوضع العريس والعروس في غرفة مغلقة الباب حيث يأكلان معاً(٥٤) سفرجلة وان زوج الوارثة يجب أن يعاشرها ثلاث مرات في الشهر على الأقل فهذا يكون من قبيل التكريم لها واظهار الحب الواجب من الزوج لزوج عفيفة محصنة. وإن لم تنجب له أولاداً. وهو ما يقضي على كل اسباب الخلاف ولايؤدي بالخصام الطفيف الى قطيعة. وفي غير مثل هذه الزيجات، منع صولون دفع أي بائنة منعاً باتاً. فلا يكون للعروس غير ثلاث فساتين، وأثاث بيتية بسيطة(٥٥). لاشيء سوى ذلك. لأن صولون لم يشأ ان تعقد الزيجات على أساس الربح أو المال بل أن يسبقها الحب الخالص، واتفاق الميول، وانجاب الأولاد. كما طلبت أم [ديونيسيوس] من ابنها ان يقوم بتزويجها أحد مواطنيه اجابها قائلاً« حقاً اني حطمت قوانين البلاد بالطغيان الذي امارسهُ، لكنيّ لا أستطيع أن تحدّى قوانين الطبيعة أو اواخرقها بزواج غير متكافيء». مثل هذا الإخلال غير مسموح به في الجمهورية، كما انه لا يفسح اي مجالٍ لعقد مثل هذه الزيجات غير المتكافئة، التي لايربطها الحُبّ ولاتصل الى غاية ولا ثمرة. ولقد حق على كلّ حاكم بعيد النظر، أو مشترع للقوانين ان يقول لشيخ كبير السن ما قيل «لفيلوكتيتس Philoctetes] (٥٦) في التراجيديا

---

(٥٤) ليس غريباً ان تأكل الوارثة وزوجها سفرجلاً (فكلّ المتزوجين حديثاً يأكلون هذه الثمرة) وهذا ما يجعل حديثهما المتبادل رائقاً. ولاسيما وانها تجعل رائحة الفم طيبة. لكن لداسييه تفسيراً آخر من مؤداه الحرص المتبادل على سلامتها لأن السفرجل كما هو شائع لدى العامة ترياق للسموم ويظهر من [پليني: التاريخ الطبيعي ١١:١٥ و٦:٢٣) ان لهذه الثمرة منزلة عظيمة لدى الاقدمين من نواحٍ عدة.

(٥٥) تجلب العروس الى منزل الزوجية قصعة فخارية تسمى [فروغيتيوس] تخبز فيها ارغفة الشعير. كإشارة الى انها صارت تضطلع بأمور البيت وانها ستشارك في اشغال الأسرة.

(٥٦) تمثيلية بهذا الاسم لايعلم باسم مؤلفها على وجه الدقة. تدور احداثها حول [فيلوكتيتس] صديق هرقل ومرافقه. بعد موت هرقل ورث عنه سهامه المغموسة بدم الهيدرا. سقط أحد هذه السهام على قدمه بمحض الصدفة، فأحدث جرحاً ونغر الجرح فأضطر الأغريق الزاحفون على طروادة الى تركه وهو يقاسي آلاماً مبرحة في لمنوس. ولما لم يكن بوسعهم الاستيلاء على تلك المدينة بغير هذه السهام القتالة. فقد أرسلوا اليه وفداً يلتمسونها منه. بنى [سوفوكليس] من هذه الاحدوثة مأساة مازالت موجودة.

تزوج امرأة في مقتبل العمر ايتها الفتاة المسكينة: «خطأ انك تزوجت في حال ملائمة!»

ومن احكام هذا القانون انه «اذا وجد شاب تزوج امرأة غنية كبيرة السن. وقد ازداد بدانة وسمن كالقطاة وهو في مرتعه، أبعد عنها حالاً وتُزوج بامرأة صغيرة ذات سنّ مناسبة»... وفي هذا الكفاية.

من قوانينه الأخرى النافعة التي اصدرها، تحريم ذكر الموتى بسوءٍ(٥٧) فمن الصلاح والدين أن يحتفظ المرء للذاهبين بحرمة وقداسة، ولايعبث بذكرى من قضى نحبه. ومن حسن الخلق أيضاً أن يوضع حَدّ للشنآن، بمنع المواطنين من اغتياب الأحياء في المعابد وساحات القضاء ودوائر الحكومة، أو اثناء الألعاب العامة، ومن يفعل ذلك يجازى بدفع ثلاثة دراخمات للمقذوف من غرامة للحكومة قدرها دراخمان. فالعجز عن ضبط العاطفة، دليل على طبع ضعيف وسوء تربية يصعب تهذيبها في أغلب الأحيان، وقد يكون تقويمها مستحيل. وعلى القوانين أن تضع في حسابها جميع الاحتمالات ان كان غرض صانعها فرض العقوبات على القلّة المذنبة لأجل الإصلاح لا معاقبة الكثرة دون ما هدف أو غاية.

وكان موضع ثناءٍ عظيم لقانونه الخاص بالوصايا. فقبله لم يكن احدٌ يستطيع ان يوصي بماله. لأن تركة الميت هي ميراث مؤكد لأسرته لا ينازعها فيه أحد. فسمح صولون بالوصيّة، كذلك سمح بها في حالة ما لو كان الموصي بلا عقب ذكر فله ان يهب ماله لمن يشاء(٥٨) وأظهر صولون بذلك أن رابطة الصداقة أقوى من رابطة القرابة، والميول البشرية أقوى من دواعي الضرورة وجعل مال المواطن ملكاً حقيقياً له يتصرف به دون قيد أو شرط إلاّ أنه منع وصية المحتضر وأبطل كل ما جاء منها نتيجة شدة مرضٍ أو بسبب سحر، أو سجن أو اكراه. أو اغراء اقدمت عليه المرأة الموصى لها، لأن الاغراء على ارتكاب خطأٍ هو في مستوى الاكراه وليس ثم فارق كبير بين الخديعة والإجبار وبين الاغراء والاكراه مادام كلا الأمرين يحدان من حرية العقل سواء بسواء(٥٩).

وأصدر قانوناً بتنظيم افراح المرأة وحدادها وكيفية مشيتها وألغى كل ما هو ضد الحشمة أو غير معقول. فلم يسمح للمرأة اثناء خروجها من الدار ان تلبس أكثر من ثلاث قطع من

---

(٥٧) حتى من قبل أولادهم. وهذا أقصى حدٍ للتحريم [ديموستينس].

(٥٨) «اولاد شرعيون» كما يضعها ديموستينس.

(٥٩) وكذلك رُسم أن لايستفيد الابناء بالتبني من الوصية. ولكن ما أن يرزقوا أولاداً شرعيين حتى يكونوا أحراراً في العودة الى الأسرة التي جاؤوا منها. اما اذا بقوا دون اولاد فان الاملاك الموروثة بفضل تبنيهم تعود الى اقرباء المتبني [ديموستينس].

الثياب، وان لا تحمل من اللحم والخمر ما تزيد قيمته على اوبول Obol واحد(*) أو سلّة يزيد ارتفاعها عن كيوبيت(**) واحد. وان لايخرجن ليلاً إلاّ في عربة يتقدمها مشعل مضيء[٦٠]. ومنع اهل الميت أن يضربن صدورهن اثارة للعواطف أو ان يندبن ميتاً في جنازة آخر[٦١]. وأبطل عادة التضحية بثورٍ على القبر، ودفن أكثر من ثلاثة أردية مع الميت، وان لايزور القبر غير ذوي الفقيد[٦٢] باستثناء مناسبة التشييع. ومعظم هذه الأمور ممنوعة في قوانيننا الحالية. لكن يزيد عليها فيما بعد حالة واحدة، وهي أن تقوم مراقبات للنساء الثاكلات باصدار احكامٍ طفيفة على كل من تسرف في حدادها واظهار حزنها.

ولاحظ صولون ان المدينة أخذت تكتظ بالأشخاص الذين يأتون الى اتيكا من كل حدبٍ وصوبٍ سعياً وراء الرزق، وان معظم البلاد قاحلة ماحلة وان تجار البحر لا يصدرون لمن لا يستوردون منه بالمقابل فوجه المواطنين الى التجارة. وسنّ قانوناً ينصّ على أن الأبن ليس مكلفاً باعاشة ابيه ان لم يقم الأب بتنشئته على حرفةٍ ما[٦٣]، والحق يقال أن ليكورغوس ورث مدينةً خالية من الأجانب، وارضاً... «تتسع لجماهير غفيرة، تكفي ضعْف عددهم»

على حَدّ ما قال [يوربيدس] زد على هذا أن الشغيلة كانوا كثيرين حول سپارطا، ليس بينهم عاطل واحدٌ، وكلهم يعمل ويكدح. ولذلك كان مصيباً حين أعفى مواطنيه من الأعمال اليدوية والحرف الاعتيادية، ابقاهم تحت السّلاح وعلمهم صناعة الحرب لا غير. في حين أن صولون استوحى قوانينه من واقع بلاده، ولم يحاول جرّ الواقع الى قوانينه.

ووجد خصوبة الأرض اضعف من تؤمن عيشة المزارعين، ناهيك بعجزها عن اعاشة الجموع

(*) عملة يونانية قيمتها عشرة افلس تقريباً.

(**) قياس يوناني طوله ١٨ انجاً.

(٦٠) لمنعهن من ارتكاب اية جريمة تحت ستر الظلام.

(٦١) يسرد [ديموستينس] في (تيموكراتيس) قواعد صولون الخاصة بالجنائز على النحو التالي: «فلْتسبَح اجساد الموتى في البيت بحسب وصية الميت. وفي اليوم التالي قبل شروق الشمس تحمل منه ويتقدم الرجال الجنازة اثناء السير، وتسير النسوة في أعقابها. ويحظر على اية امرأة في الحداد ابن تدخل حَرمَ اي ميت أو تسير في جنازته حتى تنقضي على ميتها ثلاثة أعوام كوامل، الا اذا كان الميت الثاني بدرجة ان عم أو ابن خال. هذه القواعد اقتبسها مشترع «الالواح الاثني عشر» الروماني ففرضها على الرومان.

(٦٢) تعتبر هذه الزيارة عملاً من أعمال البرّ. اما زيارة الغرباء فهي مكروهة اذ يفترض انها تستبطن نية خبيثة مجرمة وهي سرقة عظام الميت لتستخدم في اعمال الشعبذة.

(٦٣) من يحكم بجريمة الكسل والبطالة ثلاث مرات. يعلن للملأ بأنه انسان «سيء السيرة»، وقال بعض الكتاب ان [دراكو] جعل البطالة مرةً واحدة جريمة عقوبتها الموت. إلاّ أن صولون خفف من هذه الصرامة وجعل عقوبة السيء السيرة الغرامة بمبلغ مائة درهم (دراخمة). ويؤكد هيرودوتس وديون [المرجع السالف ١ و ٦:٢] ان مثل هذا القانون كان مطبقاً في مصر ويحتمل جداً أن يكون صولون المطلع على قوانين تلك البلاد، قد أقتبس هذا المبدأ من هناك.

العاطلة التي لا تمتهن الزراعة. فأدخل التجارة في عداد المهن. وأمر مجلس الاريوباغيين بالتحقيق عن مصدر ارزاق كل فرد وعقاب العاطلين. لكن القانون التالي كما شرحه [هيراقليدس پونتيكوس] كان اشد صرامة، فقد قضى بأن لايجبر أولاد النساء غير المتزوجات بإعالة آبائهم غير الشرعيين. فمن يأبى شكليات الاتحاد الشريف بالزواج، يعتبر انه يعاشر النساء لأجل المتعة لا لإنجاب الولد، وبهذا يكون حرمانه من كد ابنه السفاح جزاءً وفاقاً لأنه حرم على نفسه كلّ حق له في تأديب أولاده. وجعل من ولادتهم نفسها فضيحة وعاراً.

واغرب ما في قوانين صولون تلك تتعلق بالنساء[٦٤]. فقد سمحت لكلّ امرىءٍ بقتل الزاني حين يضبط في الفراش. لكن اذا اجبر اي رجل حُرٌّ على الزنا، فعليه ان يدفع غرامة قدرها مائة دراخما، واذا اغواها يُغرم عشرين دراخما. أما أولئك اللاتي يبعن انفسهم علناً أي العاهرات اللاتي يذهبن علنا الى كل من يدفع لهن أجراً. فلا جناح عليهن وعلى معاشرتهن. وحَرّم بيع البنت والأخت إلاّ اذا ثبت انهن خلعن عذارهن، وان يكن عير متزوجات.

الحق يقال انه ليس من العدل في شيء أن يفرض على الذنب عقاب جدّ صارم أحياناً، دون اتاحة مجال لندم صاحبه، في حين يعاقب المرء عنه وأحياناً بعقوبة طفيفة جداً، بفرض غرامة زهيدة مثلاً، كأن القضية مجرد لعبة! إلاّ اذا كانت النقود في آثينا من الندورة بمكان آنذاك. فقلّة النقد تجعل هذه الغرامات عقوبات شديدة جداً. ونحن نرى في تقديم الأضاحي ان ثمن الشاة الواحدة والبوشل الواحد من القمح قد حددا بدراخما واحد لكل منهما. والفائز في الألعاب [الإستمية] يعطى مائة دراخما جائزةً. والفائز في الألعاب الاولمپية يعطى خمسمائة ومن يأتي بذئب يعطى خمسة. ومن يأتي بجروه يعطى درخما واحدة وقيمة الثور خمس دراخمات، وقيمة الشاة دراخما واحدة كما يؤكد [ديمتريوس] الفاليري. على أن الأسعار التي حددها صولون في لوحه السادس عشر بخصوص الحيوانات الممتازة هي بالطبع أعلى بكثير من هذه الأسعار، ومع هذا فهي واطئة جداً نسبةً الى الأسعار الحالية. لقد كان الاثينيون أصلاً اعداءً للذئاب ارضهم اصلح للرعي منها للزراعة. وبعض المورخين يؤكدون أن طبقاتهم لم تأخذ اسماءها من ابناء [أيون Ion] وانما من الصنائع المختلفة التي يزاولونها، فالجنود يسمون [هوپليتي Hoplitae]. والصنّاع [ايرغادس Ergades] والفلاحون [غيليونتس Gele-ontes] والرعاة والباحثون عن الكلأ [ايغيكوريس Aegicores][٦٥].

---

(٦٤) الزانية لايسمح لها بالزينة أو المشاركة في القرابين العامة. وان فعلت فلكل شخصٍ الحق في خرق ثيابها من دُبر وضربها في اي مكان من جسمها على ان لايؤدي الضرب الى القضاء على حياتها أو فقء عينيها.

(٦٥) هذا التقريب اللغوي العسير في تفسير اسماء القبائل القديمة الأربع التي اشتقت من أسماء ايون =

ولما كانت البلاد الاتيكية قليلة الانهار والبحيرات[٦٦]، وليس بها ينابيع ثرة والناس معظمهم يستخدمون الأبار التي يتولون هم حفرها. فقد سن صولون قانوناً يسمح بالاستقاء من الآبار العمومية التي تقع ضمن مسافة هيبكون Hippicon واحدٍ (أي اربع فورلنغات)(*) من المستقين. فاذا كانوا على مسافة أبعد فعليهم أن يحفروا بئراً خاصة بهم. فاذا حفروا الى عمق ستين قدماً ولم ينبط ماء فلهم الحق في أن يأخذوا ملء مكيالٍ (سعته اربعة غالونات ونصف غالون) يومياً من جيرانهم. لأنه كان يرى من الحكمة أن تؤمن الحاجة، وأن لا يشجّع المرء على الكسل. وكان ذكياً في أنظمته المتعلقة بشؤون الغراس، فمن يغرس شجرة جديدة عليه أن يبعد موضعها مسافة خمسة أقدام من حدود حقل جاره على الأقل. فاذا كانت شجرة تين أو زيتون فيجب أن لاتقلّ المسافة عن تسع أقدام لأن جذورها تمتد وتنتشر ولا يمكن ان يغرس هذان الصنفان قرب اي نوع من الأشجار الأخرى. إلاّ وألحقا بها ضرراً لأنهما تمتصان غذاءها وأحياناً تخنقها بعملية تنفسهما ومن يحفر حفرة أو ساقية فعليه أن يجعلها بعيدة عن أرض جاره بمسافة تساوي عمقها ومن يربيّ قفائر نحل فعليه أن يضعها ضمن مسافة ثلاثمائة قدمٍ من قفائر نحل شخصٍ آخر.

ولم يسمح بتصدير مادة الى الخارج غير الزيت ومن يصدر مادة أخرى غيرها يلعنه الأرخون لعنة دينية. أو أن يدفع عنه مائة دراخما والقانون التالي مثبت في اللوح الأول من القوانين فلا يظنن أحد – كما يؤكد بعضهم – انه لايعقل ان تصدير التين كان ممنوعاً في يومٍ ما وانّ المبُلغَ عن المخالفين كان يدعى «المتبصبص»[٦٧]! كذلك استنّ قانوناً بخصوص جراح الحيوان والأذى الذي يحدثه في الغير. فاذا عضّ كلبٌ شخصاً أوجب القانون على صاحبه أن يسلمه وقد ربط الى عنقه جذع خشبٍ طوله اربع اقدام ونصف قدم[٦٨]. وهو ضمان جيد لأمان الآخرين من غائلة الحيوان. أما القانون الخاص بحصول الأجانب على الجنسية الآثينية فهو مما

= الأربعة كما يقول هيرودوتس [٥:٦٦]، فالأول لا علاقة له بـ Nolpe اي الأسلحة. والثاني لا علاقة له بـ Ergon اي العمل. والثالث لا صلة له بـ ge اي الأرض. والرابع لا صلة له بـ aix اي العنزة.

(٦٦) يحدثنا [سترابو] عن وجود نبع ماءٍ غير بالقرب من ليكيوم. وينوّه افلاطون بنبع ماء بارد في غاية الصفاء. الا ان آتيكا هي بلاد قاحلة عموماً وكلّ من نهري ايليسوس، دارياداتوس لا يجريان باستمرار. حتى كنيسوس نفسه الذي كثيراً ما يتدفق ماؤه، ويلبث أن يجف صيفاً في أغلب الأحيان.

(*) مقياس طولي يبلغ حوالي ٢٢٠ ياردة فيكون الهيبكون حوالي ٨٨٠ ياردة.

(٦٧) الترجمة الحرفية يجب أن تكون «عارض التين» وقد أنتشر هذا الاسم فيما بعد فأصبح هكذا Sycophant ويقترن بصفات رذيلة كالحقارة والذّلة والوضاعة.

(٦٨) هذا الحكم وعدد آخر من أحكام صولون، دخلت في أحكان الالواح الاثني عشر الرومانية. فقد أرسل الرومان في حدود ٣٠٠ ق.م وفداً الى آثينا لإختيار بعض القوانين اليونانية لقانونهم المدني.

يشكّ في صلاحه. اذ لم يسمح بهذا الامتياز الاّ لأولئك الذين حكموا في بلادهم بالنفي المؤبد أو من جاؤوا اثينا للتجارة تصحبهم أُسرهم. ولم يكن يقصد من هذا التحديد، تثبيط همة الاجانب في الحصول صفة المواطن الآثيني الحُرّ، بل لتحريضهم على المساهمة الفعالة الدائمة في الحكم، زد على هذا أن أولئك الذين اخرجوا قسراً من بلادهم أو تركوها بمحض اختيارهم سعياً وراء الرزق سيكونون أكثر إخلاصاً لبلادهم الجديدة من وطنهم الأول.

وأمّا قانون الملاعب العامة (واسمه پاراسيتين Parasitein)[٦٩] فهو نموذج للقوانين الصولونية بغرابته. لأنه يعاقب المتردد عليها كثيراً، مثلما يعاقب المنقطع عنها، فالأول مفرط في استمتاعه، والثاني مستخف بالدولة!

وحدد سريان هذه القوانين بمائة عام، وكتبها على ألواح، أو بكرات خشبية أو ما يدعى [آكسون Axon] تدار حول محورٍ وهي في خزانات. وقد ظلّت بقايا منها في الپريتانيوم أو القاعة العمومية في آثينا معروضة للناس حتى أيامي. وقد عرفت حسب قول ارسطو باسم [كيربيس Cyrbes][٧٠] بدليل ابيات للكوميدي [كراتينوس Cratinus]:

«بعد استئذانك - أقول بفضل صولون وبفضل دراكو اللذين أشعلت [كيربيساتهما] النار التي حُمِّصت بها حبات فاصوليائنا»[٧١]

لكن بعضهم يقول أنها [كيربيسات] تامّة تتضمن قوانين متعلقة شعبنا بالقرابين وبفرائض الدين وغيرها.

لقد أقسم المجلس كله على تأييد هذه القوانين. كما أقسم كل فرد من طبقة الـ: تسموتيتيا عند حجر ساحة السوق، بأن يقدم كل من خرق نصاً من نصوصه - تمثالاً ذهبياً مساوياً لجسمه الى دلفي[٧٢]. ولاحظ مقدار الاختلاف بين أيام الأشهر، وان القمر لايطلع ولايأفل بحسب

---

(٦٩) ومنها جاءت كلمة طفيلي Parasite المعروفة في أغلب اللغات الاوروپية على أنها كانت من الصفات المشرفة في الأزمنة القديمة [أثينيوس ٦:٦] اذ كان يقصد بها رفيق الطعان على مائدة القرابين. وبيان ذلك أنه كان ثم في بلاد الأغريق عددٌ من الأشخاص كرّم بهذه الصفة وظيفة افراده انتقاء الحبوب والثمار وما هو ضروري للتقدمات العامة. وقد أمر صولون بان تقدم كل قبيلة ذبيحة واحدة في الشهر وبعد انتهاء مراسيم القربان تقدم مأدبة عامة يساهم فيها كل فرد من القبيله بدورٍ والاّ شُهِر به أو وجب عليه تقديم عذر مشروعٍ لتقاعسه.

(٧٠) ارسطو: [دستور آثينا ١:٧].

(٧١) معاصرٌ [پريكلس] وبعد صولون بحوالي مائة وخمسين سنة، عندما أهملت قوانين هذا الأخير تماماً.

(٧٢) في ذلك الزمان كان الذهب نادراً في اليونان، حتى ان السپارطيين الذين أمرتهم النبوءة بطلاء وجه تمثال ابوللو بالذهب. لم يجدوا الذهب الكافي. فأشارت العرافة الكاهنة عليهم بشرائه من (كروسوس) ملك ليديا.

حركة الشمس، فكثيراً ما يسبقها ويشرق قبلها. وأمر لذلك أن يسمّى اليوم قديماً أو جديداً معيداً الى الشهر القمري السابق ذلك الجزء الباقي منه قبل حصول الاندماج، ومضيفاً اليوم المتخلف الى الشهر القمري الجديد، ويظهر انه أوّل من فهم بيت الشاعر هوميروس:

«تلك نهاية الشهر القديم وبدأ الشهر الجديد»(٧٣)

وأطلق على اليوم الذي يتلوه «القمر الجديد». وبعد اليوم العشرين لم يعدّ بالاضافة اليه. بل بطرح العشرين من الثلاثين بحسب اوجه القمر المتناقصة. وعندما بدء بتطبيق قوانينه(٧٤)، أخذ الزوار يتقاطرون اليه يومياً يمدحون بعضها وينتقدون بعضها وينصحون بتهذيبها وتعديلها الاّ ان القسم الاكبر جاء ليطلب معرفة السبب في وضع هذه المادة أو تلك تفسير واضح دقيق للهدف والمعنى. وتفادياً للحراجة وخوفاً من اساءة التفسير أو خليقاً بتنفيذ رغباتهم قرر التخلص من هذا الموقف الصعب ومصادر الحيرة هذه والحاح المواطنين «ففي الأمور الكبرى يصعب ارضاء الجميع(٧٥)» كما قال لنفسه وتحت الادعاء بالتجارة...

---

(٧٣) إكتشف صولون خطأ نظرية (طاليس) القائلة بان القمر يكمل دورته في ثلاثين يوماً. فقد وجد أن الوقت الذي تستغرقه الدورة هو تسعة وعشرون يوماً ونصف يوم. فأمر بأن يكون شهرٌ واحدٌ مؤلفاً من ٢٩ يوماً، وشهر ثانٍ مؤلفاً من ٣٠ يوماً بالتناوب وبعد هذا وجد ان مجموع ايام السنة القمرية ٣٥٤ فلأجل مساواتها بالسنة الشمسية امر باستحداث ٢٢ يوماً أو ٢٣ يزاد كلّ سنتين. كذلك أمر الآثينيين بتقسيم شهورهم الى ثلاثة اقسام وهي البداية والوسط والنهاية. كل قسم من الشهر يتألف من عشرة ايام. والشهر الأخير البسيط يتألف قسمه الثالث من تسعة أيام. وبحساب الايام فانهم يتداولون القول هكذا: أوّل يوم من مبدأ القمر أو ثاني يوم من وسط القمر (اي اليوم الثاني عشر من الشهر) أو آخر يوم من نهاية القمر (ويقصدون اليوم الثلاثين من الشهر).

(٧٤) نوّه بلوتارخ بذلك الجزء من قوانين صولون التي وجدها فريدة تستدعي الالتفات. إلاّ ان [ديوغينيس ليئرتيوس] و[ديموستينس] ذكرا مجموعة أخرى لا يمكننا اغفالها هنا وهي: (١) من لا ينفق على امه وابيه بالشرير السيء الصيت. (٢) وكذا يعامل ناكرابوته. (٣) الرجل الذي يختلف الى بيوت الفسق والفجور يمنع من الكلام في الاجتماعات العامة. (٤) محظور على الوصي أن ينام أو يعاشر أو يتزوج والدة ذلك الذي نُصب وصياً عليه. (٥) لايناط تعليم القاصر بذلك الذي يليه في حق الميراث. (٦) يحظر على حُفّار الاختام الاحتفاظ بالاصل الذي نقش عنه الختم. (٧) من فقأ عين آخر فلتفقأ عينه. (٨) اذا ادمن (أرخون) على الخمر فيجب قتله. وأمّا الاحكام التالية فقد أوردها ديموستينس (أ) من رفض التطوع في الحرب أوفرّ وأظهر جبناً، يمنع من غشيان الاماكن العامة والميدان العام واماكن العبادات العامة. (ب) اذا فاجأ رجل زوجه متلبسةً بالزنا وعاشرها بعد ذلك فانه يعدّ من الاراذل. (ج) يلاحق القوّاد ويقتل عند القبض عليه. (د) إن قام أحد بسرقة في ساعات النهار، فليؤت به الى الضباط الأحد عشر، واذا قبض عليه متلبساً بسرقة في ساعات الليل فليقتل. أو يُجرح في حالة هروبه، ويحمل الى الضباط الأحد عشر في حالة القاء القبض عليه. وان سرق اموالاً عامة فعليه أن يدفع ضعفها. واذا شاء المحكوم (عند عدم رفع الغرامة) فليكبل بالاغلال لمدة خمسة ايام. وان جدّف أو ارتكب عملاً محرماً فليقتل.

(٧٥) المقطوعة رقم ٧.

ابتاع سفينة تجارية قاصداً السفر، ورحل وغاب فترة أمدها عشر سنوات، وكان يأمل من ذلك أن تثبت قوانينه في نفوس المواطنين ونزل مصر(٧٦) أولاً وسكن حسب قوله «قريباً من الموضع الذي منه يصب النيل فيه ماءه الدافق عند ساحل قنوب - Canopus».

وامضى ردحاً من الزمن يدرس مع [پسنوفيس Psenophis] من مدينة هليوپوليس، و[سونخيس Sonchis] السايتي Saite وهما أوسع الكهنةثقافة وعلماً. ومنهما ظفر بمعلوماته عن قصة جزيرة اطلانطيا Atlantia(٧٧). فقرر نقلها الى اليونانيين وشرع في نظمها شعراً على قول افلاطون. ومن مصر رحل الى [قبرص] فأحتفى به [فيلوقبروس Philocy-prus] وأكرمه إكراماً عظيماً. وهو أحد الملوك فيها، كان يحكم مدينةً بناها [دوموقون] ابن (تسيوس] بالقرب من نهر [كلاريوس] وموقعها حصين. إلاّ انها صعبة الوصول، غير مريحة للسكان. فأغراه صولون بأن ينقلها الى السهل الجميل المنبسط تحتها ويجعلها مدينة جديدة أجمل واوسع من مدينتــه تلك وبقي هناك وساعد في جمع السكان اليها، وفي هندسة تحكيماتها ودفاعاتها وجعلها مريحة للسكنى، بحيث تقاطر الناس اليها. وحذا ملوك قبرص الآخرين حذو [فيلوقبروس] وأختطوا مدنهم الجديدة بالشكل نفسه وإكراماً لصولون واعترافاً بفضله أطلق الملك اسمه على المدينة فصارت تدعى [صولي Soli] وكانت قبلاً [إيپي Ae-pae]. ونوه صولون بحادث تأسيسها في أحدى ملحماته المهداة الى [فيلوقبرص] اذ قال:

«ألا فلتعش على عرش [صولي] عمراً مديداً، وليخلقك ابناءٌ من صُلبك. ومن جزيرتك السعيدة [قبرص] فلتُرسل لي وانا أبحر - ريح رخاء، لتهبّ مباركةً حكمك الجديد. وليشع الإزدهار في مدينتك، ولترسِ بي الى البرّ بأمان.

ويرى بعضهم أن حكاية لقاء صولون [بكروسوس] لاتتفق مع الوقائع التاريخية. إلاّ اني لااستطيع أن اتعامى عن حادثة بلغت هذا المبلغ من الذيوع وأُسقطها من الحساب بعد أن

---

(٧٦) من المحتمل أن ذهابه الى مصر كان لغرض بقائه بعيداً عن الأحداث لا هرباً من طغيان [پسستراتوس]. كما يقول بعض الكتاب فسنّه لم تكن تتحمل ذلك في الثانية، وتعليل پلوتارخ لسفره هو الصحيح. و[اقنوب] مدينة تقع على مصب النيل ويدعوها هيرودوتس «معادي» وهيليوپوليس هي «المطريّة» وسايس هي «سا» وكلاهما من المدن العتيقة الموغلة في القدم.

(٧٧) انهى افلاطون هذا التاريخ من ذكريات صولون [كما يتضح من مناظرتيه طيماؤس وكريتياس). وبحسب ادعائه كانت الاطلانطيس الذي ينسب اليها المحيط الأطلنطي. أكبر مساحةً من آسيا الصغرى وأفريقيا (المعلومة آنذاك). وبصرف النظر عن سعتها فانها غرقت في يومٍ وليلة! ويحدثنا [ديودورس] ان القرطاجيين الذين أكتشفوها فرضوا عقوبة الموت على من يسكنها. ومن ضروب الحدس التي لحقت بهذه الاسطورة هو ان القرطاجيين عرفوا أمريكا عن طريقها. وهناك رأي آخر مؤاده ان الانطلانطيدي (الجزر السعيدة) هي المعروفة اليوم بجزر الكناري.

تواترت وقوي سنادها. هذا فضلاً عن ملاءمتها التامة لطبيعة صولون وجدارتها بحكمته وسعة عقله. وان كانت في الواقع لا تتفق وبعض الروايات التاريخية. التي لم تفلح جهود آلاف المؤرخين في ترتيبها وتنسيقها وفق نظام يتفق عليه الجميع وترضى عنه كل الآراء.
يقولون ان صولون قدم الى [كروسوس] بطلب منه. وكانت حاله عند اللقاء شبيهة برجل البرّ عندما يرى البحر لأول مرة في حياته، فكما يتوهم بكلّ نهرٍ يصادفه بحراً محيطا، كذلك كان صولون وهو يسير في بلاط الملك مشاهداً العدد الهائل من النبلاء وعليهم انفس الحلل، يحيط بهم الحرس الكثير والسعاة الصبيان. وتوهم في كل واحد بأنه هو الملك، حتى بلغ [كروسوس] وكان هذا يتحلّى باندر وانفس ما يخطر بالبال من الجواهر والذهب ويرتدي أغلى حلل الأرجوان- وبدأ منظره مهيباً فخماً يبهر العين. لكن صولون لم يظهر ما يدل على دهشة واستغراب عندما مثل امامه. كذلك لم يثن عليه بما كان كروسوس يتوقعه. بل اوضح بمسلكه لكلّ عين نفاذه انه رجل يحتقر كل مظاهر الأبهة والفخفخة، والاختيال الرخيص الذي ينطوي عليه المشهد. وأمر كروسوس خدمه أن يفتحوا لصولون ابواب خزائنه وكنوزه ويعرضوها لانظاره ولم يكن صولون ليرغب في شيء من هذا. لأنه كوّن فكرته الصائبة عن صاحبها حال ما وقع نظره عليه. ولما عاد من جولته تلك سأله كروسوس: هل عرف أحداً يرفل في مثل سعادته؟ فأجابه صولون انه عرف شخصاً يدعى [تيللوس Tellus] وهو مواطن اثيني من بني قومه. كان رجلاً نزيهاً ذا ابناء صالحين وثروة لا بأس بها. مات موت الأبطال في ساحة القتال دفاعاً عن بلاده. فوماه كروسوس بسوء الفهم وأفن الرأي لأن مقياس السعادة عنده لم يكن كثرة الذهب والفطنة. وانه فضلّ عليهما حياة وموت رجل بسيط مغمور النسب بالقياس الى هذا القدر في العظمة والسلطان. ثم انه سأله ثانية: هل عرف رجلاً أكثر منه سعادة غير [تللوس] فأجاب صولون: «بلى، [كليوبيس Cleobis] و[بيتون Biton] وهما شقيقان عظيما الحب بعضهما لبعض وابنان طائعان لوالدتهما الى أقصى حدود الطاعة ولما تأخر جلب ثورين لجرّ عجلتها، شدّ انفسيهما في النيّر وسارا بالعجلة الى معبد [جونو] وأكبر جيرانها سعادتها في ابنيها، فامتلأت حبوراً، وبعد تقديم القرابين واجراء المراسيم الدينية خرج الشقيقان ليصيبا شيئاً من الراحة وناما ولم يستيقظا، ماتا ميتةً هادئة هنيئة وهما في ذروة التشريف والتكريم». قال كروسوس غاضباً: «اذن فأنت لا تعدّنا بين السعداء قطّ؟» ولم يكن في نية صولون مجاملته، ولا اغضابه أكثر مما أغضبه قائلاً: «إن الآلهة أيها الملك قد تفضلت على الأغريق بكلّ النعم الأخرى على درجات معتدلة، لذلك كانت حكمتنا عادية بسيطة، لا حكمة ملوكية نبيلة. وهذا ما يمنعنا - بعد ملاحظتنا مالا يحصى من البلايا المحدقة بأحوال

البشر - من التجبّر والتأفف من متع حياتنا آلانية، ويحول بيننا وبين الدهشة لسعادة ايّ إنسان لأن التبدل يطرأ عليها بمرور الزمن. فالمستقبل المجهول قد يأتي بأي تغيير في حظوظ الانسان. ونحن لانعدّ المرء سعيداً إلاّ ذلك الذي حبته الآلهة بسعادة دائمة طوال حياته. ونحن لانميل الى وصف المرء بالسعادة وهو في متنصف حياته عرضةً الى تقلبات حظوظه. وليس من سلامة الرأي وثباته أن يُتوجَ مصارعٌ ويعلِن فوزه وهو ما يزال في حلبة النزال».

بعد هذا صرفه [كروسوس] وفي نفسه ضيق وانزعاج. ولم يعظه صولون بشيءٍ ما.

كان [ايسوپ] مدون الأساطير في [ساردیس] قد حُل ضيفاً على كروسوس آنذاك بدعوة منه، ونال لديه خطوة كبيرة. وقد اصابه غمّ عظيم لاساءة استقبال صولون، فأتصل به وقدم له النصيحة بقوله: «اي صولون! فليكن حديثك مع الملوك إمّا قصيراً أو معقولاً فأجابه صولون: «لا هذا، ولا ذاك، لن يكون قصيراً ولا معقولاً. لذلك استخفّ [كروسوس] بصولون في حينه. لكن لما تغلّب عليه [كورش] وأستولى على مدينته، وأخذه حياً وحكم عليه بالحرق ووضع فوق اكداس الحطب مقيداً على مشهد من جميع الفرس وبحضور الملك كورش نفسه هتف بأعلى صوته ثلاث مرات: «ايه يا صولون!» فعجب الملك وارسل من يستفسر: اي رجل أو آله صولون هذا الذي استصرخه وحده في ضيقته شديدة؟ فافضى اليه [كورسوس] بالحكاية كلها قائلاً: «انه أحد حكماء الأغريق العظام، استقدمته لا ليعظني أو يعلمني شيئاً احتاج اليه. وانما لأريه سعادتي وأشهده عليها فظهر أن البؤس في فقدان تلك السعادة كان أشدّ وقعاً من لذة التمتع بها. عندما كنت حائزاً عليها بداخيرُها موضع أخذ وردٍ واحتمالات. اما الآن فقد جلبت خسارتها بلوى حقيقية يصعب احتمالها. وقد أدرك صولون ذلك ونظر الى نهاية حياتي فاستنتج ما سيكون مما هو كائن حينئذ ولم يعتمد على المجهول المشكوك فيه، ولم يزلزل حكمه ما رأى». لما سمع كورش ها الكلام - وكان اوفر عقلاً من [كروسوس] ووجد في المثل الشاخص امامه تجسيداً لنبؤة صولون، لم يكتف باطلاق كروسوس، والعفو عنه بل اكرمه طوال حياته. فكان لصولون أن يفخر في أنقاذ ملك ووعظ آخر.

عندما غادر صولون آثينا بدأ الخصام بين الآثينيين. فتزعم المدعو [اليكورغوس] حيّ السهّل. وتزعم [ميغالس ابن ألكميون] سكان الساحل ووقف [پسستراتوس] على رأس حزب حيّ المرتفعات(٧٨) حيث يسكن [الثيتس] أفقر الناس، وأعدى اعداء الاغنياء، وأخذت المدينة تتطلع الى حكم جديد، وان ظلّت تطبق قوانين صولون الجديدة. وكان امل الثيتس كبيراً

(٧٨) هذه الاحزاب الثلاثة التي انشعب اليها الآثينيون كنا قد نوهنا بها سابقاً وهي على التوالي «پيدیائي Pe-diaei» و«پارالي Parali» و«ديكيكرئي Dicicrii».

في ان التغيير سيكون أصلح لهم، وسيجعلهم أقوى نفوذاً من الحزب المناوىء.

هكذا كانت الأحوال عندما آب صولون فاستقبله الجميع بتجلّة وإكرام. لكن كبر سنّه حال دون قيامه بأي عملٍ أو نشاط. بل حتى القاء الخطب العامة كالسابق. إلاّ أنه حاول رأب الصدع وتسوية الخلافات بالمباحثات الخاصة مع زعماء مختلف الأحزاب. وبدا له [پسستراتوس] أكثرهم تفاهماً بأنه كان لين العريكة الى أقصى الحدود، لطيفاً غاية اللطف في أقواله. وصديقاً كبيراً للفقراء[٧٩]، معتدلاً غاية الاعتدال في خصومته السياسية. وقد أوصله ذكاؤه وفراسته الى ما حرمته منه الطبيعة لذلك كان موضع ثقةٍ أكثر من الآخرين. وأشتهر بالحصافة وحب النظام والعدل، ومعاداة كل من يحاول النيل من نظام الحكم القائم. بهذا كله استمال أغلبية الجماهير ونجح في اقناعهم. ولم يلبث صولون أن فهم طبيعته، وأدرك نواياه ووقف على خططه قبل غيره. إلاّ انه لم يكرهه بسبب طموحه. وأخذ يحاول تعويده على التواضع وتخليصه من الطموح وكثيراً ما قال له وللآخرين. لو استطاع القائد أن يتخلص من حبّ العظمة ويجتثّها من فكره ويبرأ من رغبته في الحكم المطلق فلن يقوم مثله رجلاً فاضلاً ومواطناً ممتازاً في البلاد كلها. وكان [تسپيس Thespis] في تلك الأيام قد بدأ يغير في شكل التمثيليات التراجيدية، فتعلق الناس بها كبدعة جديدة، وإن لم تصل في حينه الى مرحلة المنافسة والمسابقة. وكان صولون بطبعه ممن يحبّون سماع الأشياء الجديدة وتعلمها وبما انه كان عاطلاً بالغاً ارذل العمر وليس لديه ما يشغل به نفسه غير الخمر والموسيقى، فقد ذهب لرؤية [تسپيس] هذا وهو يمثل جرياً على العادة. وبعد انتهاء والتمثيلية وجه اليه الكلام قائلاً: الا يشعر بالخجل وهو ينشر الاكاذيب نثراً امام هذا العدد الكبير من الجمهور؟ فأجابه [تسپيس] قائلاً: لا ضرر ثَمَّ في ترديد الأكاذيب وتمثيل المسرحيات. فرفع صولون عصاه ودق بها الأرض وقال: و«ويحك يا هذا! لو أننا حبذنا مسرحية كهذه وآثنينا عليها فسنجد انفسنا يوماً ونحن نباشر أمثالها!».

فلما أحدث [پسستراتوس] جرحاً بجسمه[٨٠] وحمل في عجلة الى ساحة السوق الكبرى وراح يُثير الناس موهماً أن خصومه هم الذين جرحوه بسبب نشاطه السياسي. فثار غضب

(٧٩) المقصود بالفقراء هنا ليس أولئك الذين تحلّ الصدقة عليهم. فأمثال هؤلاء لم يكن لهم وجود في آثينا. يقول [ايزوقراطس] «في تلك الايام لم يكن ثم مواطن مات بسبب الفقر. ولم يكن ثم من يستجدي في الطرقات جالباً على المجتمع العار».

(٨٠) يضيف هيرودوتس (٥٩:١) انه جرح أيضاً بغال عجلته، وفي خطبة حماسية لبني قومه ذكرهم بمآثرة في خدمتهم ضد الميغاريين الخ.. وقد وقع هذا الحدث في اثناء الاولمپياد الثامن والخمسين = ٥٦٠ ق.م [ارسطو دستور آثينا ١٤:١].

الجمهور وراح يهتف له، وتقدم منه صولون وقال له: «يا ابن هيپوقريطس، انك تقدم نسخةً غير دقيقة من أوديّسا [اوليسيوس] هوميروس، عملها ليخدع بها أعداءه، بينما فَعَلْتَها انت لخداع بني قومك[٨١]» بعد هذا هاج الجمهور وتدافع لحماية [پسستراتوس] وعقدوا اجتماعاً عاماً فيه تقدم أحدهم وهو [ارسطون] باقتراح يقضي بتخصيص خمسين حامل دبوّس لحراسة [پسستراتوس] فعارض صولون في ذلك وتكلم كثيراً بالمعنى الذي ضمنه الابيات التالية:

«لقد سحركم بكلماته المنحقه، وعباراته الأخاذة

الى ان يقول:

حقّا أن كل فرد منكم ذكيّ أريب بنفسه

ولكن ما أن تجتمعوا معاً حتى تكونوا اشبه بشخص غبيّ اجوف!»

ولاحظ ان الطبقة الفقيرة تميل الى تحبيذ الاقتراح بحماية [پسستراتوس] وقد هاج هائجهم، ورأى الخوف يستولي على الاغنياء وهم ينسلّون مبتعدين عن مكامن الخطر والأذى. فترك الاجتماع قائلاً: انه أعقل من بعض الناس، وأقوى من بعضهم الآخر. أعقل ممن يفهم الدوافع والغايات، وأقوى ممن فهم و خاف الوقوف في وجه الطغيان. وبعد ان صدر الشعب قراراً يقضي بحراسة [پسستراتوس]، لم تتم الموافقة حول عدد الحرس، إلاّ انه لم يهتم بذلك قلامة ظفر وجنّد العدد الذي شاء منهم وأحتل بهم [الاكروپوليس] فضجت المدينة وسادها الاضطراب، وهرب [ميغاكلس][٨٢] وكل افراد أسرته. اما صولون الهرم - المعدوم النصير فقد خرج الى ساحة السوق الكبرى والقى خطبة على المواطنين، أنّبهم فيها على ضعف نفوسهم وعدم مبالاتهم من جهة أخرى على ان لايخسروا حريتهم بهذا الشكل الذليل الخانع ثم قال قولته المشهورة:

«في الماضي كان وقف الطغيان مهمّة سهلة. أما الآن فليس أدعى الى التمجيد والفخار من العمل على ازالته عندما بدأ يذّر قرنه ويشتد ساعده.»

لكن الجمهور كان يخشى الانحياز الى صفّه. فآب الى معناه كئيباً وحمل شكة سلاحه ووضعها في شرفة امام باب داره، ومعها العبارة التالية: «لقد انجزت مهمتي في المحافظة على بلادي وقوانيين»[٨٣] ثم اعتزل كل شيء. ونصحه الاصدقاء بالفرار فأبى، وعكف على

---

(٨١) الاوديسيّ ٤:٢٤٤-٢٦٤.

(٨٢) ام افلاذون وهي سليلة أخٍ لصولون.

(٨٣) «وان على الآخرين أن يعملوا كذلك». أنظر [ارسطو دستور آثينا ١٤:٢].

قرض الشعر في تأنيب الآثينيين كقوله:

إن ركبتكم النوائب اليوم لجبن اصابكم كلكم فلا تلقوا باللوم على الآلهة. فهي آلهة خير والخطأ خطأونا جميعاً. لقد وضعتم كل الحراس بين يديه، وعليكم الآن ان تنفذوا ما يأمر به».

وقال له كثيرون ان [الطاغية] سينزع منه حياته لهذا السبب، وسئل على من يعتمد في البقاء إن كان مصمماً على الاستمرار في هذه الأقوال الجريئة فأجاب «على شيخوختي» ولكن لما تسلم [پسستراتوس] مقاليد الحكم أكرم صولون كثيراً ورعاه. ولم يبطل قوانينه وانما طبقها حتى على نفسه وارغم اتباعه على احترامها، وبعث يرجو ملاقاته وطلب النصح منه ووافق على كثير من اقتراحاته. حتى بعد أن انقلب طاغية مستبداً؛ لما اتهم بجريمة قتل أمام [الاريوباغوس]، مثل بكلّ هدوء امامه لدفع التهمة عنه وتبرئة نفسه ولكن المشتكين لم يحضروا. وأضاف قوانين أخرى جديدة منها: تكفل الخزينة العامة بالانفاق على مشوهي الحرب. وهذا ما ذكره [هيراقليدس پونتيكوس]، قائلاً انه اتبع خطى صولون فيما رسمه بقضية المدعو [ثيرسيپوس Thersippus] الذي اصابته الحرب بعاهة ويؤكد [ثيوفراستوس] ان مشترع قوانين معاقبة العاطلين الذي سبب زيادة الغلّة في البلاد والاستقرار والهدوء انما هو [پسستراتوس] لا [صولون].

وتوقف صولون عن العمل في اثره الشعري العظيم «تاريخ أو أسطورة الاطلانطيد»، التي أخذها عن حكماء [سياس Sais][٨٤] ورأى من المناسب أن ينقلها للآثينيين، فبدأ بنظمها ولكنه توقف، «لا لضيق وقته، بل للكبر سنه وقصود همته عن عمل ضخم كهذا» على حَدّ قول افلاطون. فأوقات فراغه كانت كثيرة كما يشهد عليه بيته التالي:

«كل يوم ازداد سنّا، واتعلم شيئاً جديداً»

وهذا الآخر: «والآن – فان آلهة الجمال والغناء والخمر «التي هي مصدر سعادة معظم الناس اصبحت آلهتي ايضاً.

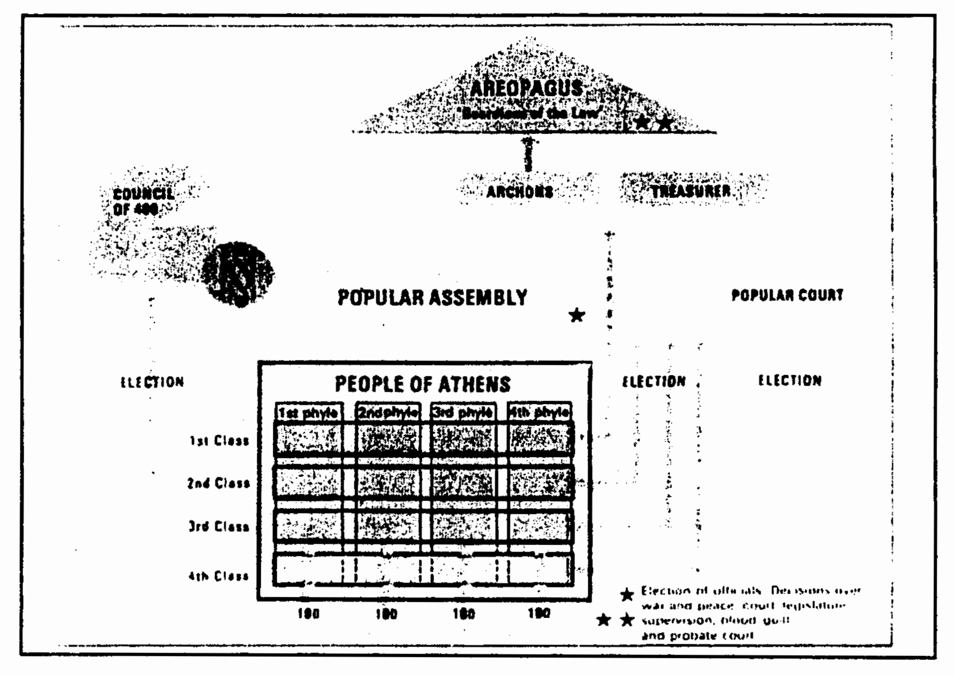
ورغب افلاطون ادخال تحسين على قصّة جزيرة الاطلنطيس[٨٥]، كأنها ضيعةٌ جميلة بحاجة الى وارث أقبلت تسعى اليه بسند ملكيتها، فعمل لها باباً فخماً وسوراً مهيباً وخطّ لها

(٨٤) لا أثر لمثل هذا الكتاب ولعل نسبته اليه من نسج خيال أفلاطون.

(٨٥) يزعم [ديوغينس ليئرتيوس] انه مات في قبرص [٦٢١:٥٠]. وان تذرية رماد جسده تمّ بناء على وصيته. وسواء أكان ذلك صحيحاً أو ان تضيع ذلك جاء من الكتّاب، مباعتقادنا ان الجهة التي أختلقت ذلك كانت تريد أن اتشبيه بوصية [ليكورغوس] حول مصير جثمانه بعد موته.

باحات واسعة، وأعتنى بها بشكل لم يسبق لقصّة أو أسطورة أو رواية شعرية. إلاّ انه بدأها وهو في شيخوخةٍ، فمات عنها ولم يتمها. والقاريء يأسف حقاً لأن القسم الناقص هو الأكبر. ولأن المتعة التي ينالها من هذا الجزء متعة فائقة، وكما تركت اثينا معبد [جويتر اولمپس] ناقصاً كذلك تركها افلاطون. وهو الأثر الوحيد بين آثاره الكثيرة الذي خلفه ناقصاً.

عاش صولون مدة طويلة بعد استيلاء [پسستراتوس] على الحكم كما ذكر [هيراقليدس پونتيكوس] إلاّ أن [فانياس الايريسي Eresien]، يقول انه لم يكمل سنتين. لأن [پسستراتوس] بدأ عهد استبداده عندما كان [قومياس Comias] ارخوناً. ويقولون [فانياس] ان صولون مات في عهد [هيغستراتوس Hegestratus] خلف [قومياس]... أما حكاية نذرية رماد جثته في انحاء جزيرة [سلاميس] فهي سخيفة غريبة يصعب تصديقها[٨٦]. أو لاتعدو أن تكون مجرد تخريف. على أن كثيراً من الكتاب الثقات أوردوها ومنهم ارسطو.



دستور صولون

(٨٦) حفيد [ميغاكليس] الذي جلب على الأسرج العار وقد سمح له بالعودة من دار المنفى وتعرف اسرته باسم «الكمايندای Alcmaenidae».

پوپلیکولا

POPLICOLA

(publicola)

503



هكذا كان صولون، وبه نقارن [پوبليكولا] - منحه الرومان هذا اللقب بالأخير إعترافاً بفضله(١) وزيادة في تكريم اسمه القديم [پوبليوس ڤاليريوس Publius Valerius](٢) وهو من نسل [ڤاليريوس] أحد مواطني روما الأوائل. وعرف بأنه رئيس العاملين على ازالة الخلافات بين الرومان والسابين. ذو لسان قوي في اقناع الملوك بالخلاد الى السكينة وتوحيد الشعب. هذا هو نسب [پوبليوس ڤاليويوس] على ما قيل. نال سمعة داوية في فترة حكم الملوك - لفصاحته، كما اشتهر بغناه. إلاّ أنه كان يوزع ماله بلا حساب على المعوزين، ويستخدم البلاغة بكفاءة ونشاط في خدمة العدالة، وغدا معروفاً أنه المرشح الوحيد ليستنّم المنصب الأول في البلاد فيما لو تغيّر نظام الحكم وأصبح جمهورياً. إن ارتقاء [تاركوينيوس سوپربوس Tarquinius Superbus] العرش بالخديعة(٣) والغش، وجعله المقام الملكي اداة للإعتداء والطغيان بدل ان يكون حكماً ملكياً عادلاً، ملأ الشعب كرهاً لحكمه وبموت لوكريسيا [التي قتلت نفسها بعد اعتدائه عليها(٤) حانت الفرصة للثورة، وشارك [لوشيوس

---

(١) في نهاية قنصليته الأولى عندما هدم منزله. وكسر شوكه الفاشيّ امام قوة الشعب وعظمته.

(٢) كان ڤاليريوس ڤوليوس -كما يقول ليڤي- أول رجل من أسرته أستقرّ في روما. وهو واحد من الزعماء الاشراف الثلاثة الذين تبعوا (طاطيوس) الى روما [ديوان ٢:١٠].

(٣) من الانتهاكات الأخرى انه وطيء جَسَد حميّه القتيل [سرڤيوس تللوس] وهو في طريقه للجلوس على العرش [ديون ٤:١٠] و[ليڤي ١:٤٨] وآخرين.

(٤) يقول ليڤي [١:٥٨] انها طلبت حضور ابيها وزوجها الى منزلها فاقبل [لوكريسيوس] أبوها برفقه [پوبليوس ڤاليريوس اي پوبليكولا] وزوجها [لوشيوس يونيوس بروتوس] وعدد كبير من عظماء الرومان وبكلمات قليلة كشفت لهم عن جلية الأمر. وصرحت بعزم ثابت بقرار انهاء حياتها بعد ان ثلم شرفها. وحثتهم على أن لا يتركوا الجريمة التي أقترفها مغتصبها دون عقاب. راحت كل جهودهم لثنيها من قصدها عبثاً وغيبت خنجراً في صدرها. بينما شاع الحزن والأسى في نفوس الجميع، وهنا استلّ بروتوس الخنجر الدامي ورفعه (وكان حتى تلك الساعة يتصنع الجنون كي لا يناله اذى المستبّد) وقال: «أقسم بهذا الدم الذي هو في منتهى الطهر. والذي لايمكن ان يبخسه الاّ دناءه تاركوين القذرة. اقسم اني سألاحق تاركوين الغطريس وامرأته الشريرة وأولادهما بالنار وبالسيف ولن أدع واحداً من هذه الأسرة يحكم روما. فأشهدي على قسمي هذا ايتها الآلهة»، بعد ذلك سلّم الخنجر لكولاتينُس ولوكريسيوس وڤاليريوس وبقية الحاضرين وربطهم بالقسم نفسه. يقول ديونيسيوس: ان بروتوس راح يخطب في الناس جهاراً وعلناً، حتى أن المؤتمرين انتخبره قنصلاً مع كولاتينُس ولما علم تاركوين بالثورة عملَ في العودة الى روما فوجد ابوابها موصدة في وجهه ورُفض دخوله الى المعسكر فذهب الى «گابي».

بروتوس Lucius Brutus] في الانقلاب. واتصل [بڤاليريوس] قبل أن يتصل بكل أحدٍ بدلاً من ملك. فوافق [ڤاليريوس] وقال ان المنصب من حق [پروتوس] لكونه مؤسس الديموقراطية. لكن لمّا كان اسم (النظام الملكي) بغيضاً من الشعب. وان توزيع السلطة بدأ أكثر اتساقاً واستساغة وموائمة للنظام الجديد. فقد انتخب اثنان ليمارساها، وكان [ڤاليريوس] يأمل أن يفوز بمنصب القنصل مع بروتوس(*)، فخاب فأله وانتخب [تاركوينيوس كوللاتينوس Tar-quinius Callatinus] (٥) زوج [لوكريسيا] قنصلاً بدلاً منه رغم مساعي [بروتوس] نفسه(**). وهو رجل لا يرقى أحد مرقاه في الكفاءة، لكن البلاء، لخشيتهم من عودة الملوك الذين لم يكفّوا عن استخدام كل مجهوداتهم في الخارج وكل وسائل الاغراء في الداخل - استقرّ رأيهم عليه لكرهه الملوك كرهاً عميقاً واستحالة صفحه عنهم بأية حالٍ من الأحوال.

وأضطربت نفس [ڤاليريوس] لتوهمه ان حرصه على خدمة بلاده. صار موضع شكٍ، فهو شخصياً لم يتضرر باستبداد الطغاة، ولم يلحق به أذى. ولذلك انسحب من مجلس الشيوخ، وانقطع عن مزاولة المحاماة وأعتزل الحياة العامة، مما أطلق الالسنة بالحديث، واشاع في النفوس خوفاً من أن تدفعه ضغينته الى المعسكر الملكي فيكون بذلك دمار الدولة وهي مازالت تتأرجح بين على أثر الانقلاب الأخير. وكان [بروتوس] يشك أيضاً في نوايا عدد من أعضاء مجلس الشيوخ غيره، فعزم على ربطهم بيمين غموس في هياكل المعابد. وأقبل [ڤاليريوس] الى الفورم في اليوم المعين وهو في أطيب حالةٍ. وأصفى مزاج وتقدم الشيوخ في حلف اليمين على عدم الخضوع أو الميل الى قضية [تاركوين] بأي شكل من الأشكال، بل التمسك بالحريات العامة أشدّ التمسك. وهو ما ارتاح له الشيوخ كثيراً. وقوىّ أيدي(٦) القنصلين. وماعتم عمله التالي أن أظهر مدى إخلاصه ليمينه فقد جاء وفدٌ من [تاركوينيوس] يحمل مطاليب لطيفة خدّاعة يقصد بها التغرير بالناس والتمويه عليهم مظهرةً الملك بمظهر النادم على أعماله واعتداءاته، وعزمه على اتباع سياسة الاعتدال في رغباته. ووجد القنصلان من الضروري اذاعة تفاصيل هذه الوفادة على الجمهور إلاّ ان [ڤاليريوس] عارض الرأي ولم

(*) ليڤي ١:٥٨، ٢:٢، ١١.

(٥) سمي بذلك لأنه حكم (كولاّسيا) وهي مدينة انتزعها من السابين تاركوين الأب. ووالده هو (ايجيريوس). وهو وتاركوين المكابر ابنا عم.

(**) ليڤي ١:٦ و ٤.

(٦) بهذا انتهى عهد في روما (٢٤٤ ق.م) وهو التاريخ الشائع إلاّ ان هذا لا يتفق في الواقع مع منطق الاحداث فنحن لانجد في التاريخ منذ بدئه حتى هذا الزمن سبعة من الملوك (معظمهم لم يمت ميتة طبيعية) حكموا هذه المدة الطويلة من السنين بتعاقبٍ مستمر غير منقطع!

يقبل أن توضع الطبقة الفقيرة - التي كانت تخاف الحرب أكثر مما تخاف الاستبداد لو سنحت لها فرصة الخيار بينهما - موضع حيرة واغراء ازاء خطّة الملك الجديدة. ثم أقبلت سفارة ثانية برسالة مغادها أن الملك [تاركوينيوس] لا يمانع في النزول عن عرشه والقاء السلاح ان عُوّض هو واصحابه وحلفاؤه عن أموالهم واملاكهم التي تركوها(*)، ليعيشوا في منفاهم بالتعويضات. فمال فريقٌ الى الأستجابة للطلب ولاسيّما [كولاّتينوس] الذي تحمّس للاقتراح. إلاّ أن [بروتوس] وهو رجل صارم عنيد، اندفع الى [الفورم] وأعلن خيانة زميله القنصل، بقبوله دفع تعويضات للمستبدين، وتزويد أولئك (الذين كان مجرد منحهم ما يعيشون به في المنفى شيئاً منكراً) بأموال وارزاق تسهل لهم آثارة الحرب. وقد نجم عن هذا اجتماع عامٌ كان اول المتكلمين فيه [كايوّس مينيشيوس Caius Minicius] وهو من العامة. ان يعطي ما يريد الا ان بروتوس ذا الطبع الحاقد السريع الثورة أسرع الى الفورم وحضّ الرومان على رفض الطلب واستخدام الأموال ضدّ المستبدين(٧)، وحذرّ من ارسالها اليهم لئلا تستخدم ضدهم.

على ان قرار الرومان في الموضوع كان ضد ذلك. قالوا انهم الآن يتمتعون بحريتهم التي حاربوا لاجلها فينبغي عليهم ألاّ يضحوا بالسلّم لأجل المال، ولذلك كان من الأفضل ارسال املاك الطغاة(٨) اليهم. إلاّ أنّ طلب التعويض كان جزءٌ ثانوياً من خطّة [تاركوينيوس] فالقصد منه كان جسّ مشاعر الأهلين والتمهيد لمؤامرة جاهد اعضاء الوفد في سبيل تنظيمها، فأخرّوا عودتهم بحجة شراء بعض البضائع وبعثوا اشخاصاً آخرين الى مرسلهم وبقواهم، حتى تكلت مساعيهم بالنجاح باستمالتهم أسرتين من أعرق الأسر في روما. فآل اكويللي Aquilliii كان لديهم ثلاثة شيوخ في المجلس، وآل ڤيتللي Vitelliii لديهم شيخان. وهؤلاء كلهم أولاد اختي [كوللاتينوس]. هذا فضلاً عن أن [بروتوس] كان مرتبطاً برابطة المصاهرة مع آل ڤيتللي، لأن زوجته وام اولاده هي أختهم(٩). وكان من ابنائه شابان يناهزان في السن ابناء آل

(*) ليڤي ٢:٣، ٥.

(٧) يقول [ديون] ان الموضوع نوقش بهدؤ وبكثير من التجردّ في مجلس الشيوخ، وعندما أستعصى الحَلّ، ووصلوا الطريق المسدود «هل يفضّل الشرف أم المنفعة؟» أحالوا المسألة الى الشعب. فصادق هذا بأغلبية صوت واحد على تفضيل الشرف. وضرب أول مثل للشعور بالكرامة الوطنية ويقول المؤرخ نفسه، انها لم تكن السفارة الثانية بل اقتراحاً ثانياً من السفارة الأولى وكان الغرض كسب الوقت.

(٨) المرجع نفسه ٢:٤، ٣.

(٩) يذكر [ديون] و[ليڤي] انها أمّ ولدين فحسب. لكن المؤلف يتفق مع أولئك الذين يقولون ان العدد أكثر من هذا، وان [ماركوس بروتوس] الذي شارك في قتل [قيصر] هو من ذرية أحدهم. ويتفق [شيشرون] مع الرأي الثاني أو انه يتظاهر بذلك ليضفي على قضية (بروتوس) وشخصية شعبية أكثر.

ڤيتللي وبربطهما معاً رابطة صداقة وثيقة فضلاً عن القرابة فيكادون لا يفترقون نهاراً. وتمّ ادخال ابني برتوس في المؤامرة، وأن يتحالفا مع بيتهم الكبير، ويعملا لتحقيق آمال التاركوينين في استعادة ملكهم، والتحرر من استبداد ابيهما وحماقته (كذا كان يطلقان كلمة الاستبداد على صرامة ابيهما مع المجرمين! في حين ان الحمق كان مظهراً يتقنع به منذ عهد بعيد ليحمى نفسه من اعتداء الطاغية. وقد ظلّت الصفة لاصقة به اسمياً على الأقل) هكذا اتصل الشابان بآل أكويلي وتم التفاهم بينهم، ولم يتحرجا من ربط نفسيهما بقسم ديني غليظ موثق بلطعة من دم رجل قتيل قدم قرباناً لهذا الغرض! ولمس احشائه. واجتمع المؤتمرون في دار آل اكويلي[١٠].

وكان موضع الاجتماع داراً ملائمة مظلمة غير مطروقة. وصادف أن عبداً يدعى [ڤنديشيوس Vindicius][١١] كان في الدار بمحض الصدفة. وشاهد ما ظهر على القادمين من انشغال وعجلة. فركبه الخوف من افتضاح أمره وأخفى نفسه وراء خزانة. وأمكنه من مراقبة حركاتهم وسكناتهم وسماع أحاديثهم. فعلم بخطتهم وتتضمن قتل القنصلين، وتابعهم وهم يكتبون الرسائل الى [تاركوينيوس] بهذا المآل. ويدفعون بها الى السفراء الذين كانوا ضيوفاً في دار آل اكويلي[١٢][١٣] وحاضرين في الاجتماع.

بعد انصراف المؤتمرين، إنسلّ [ڤنديشيوس] سراً من البيت، لكن الحيرة استبدت به ولم يدر ماذا يفعل. لأن أخبار الأب [بروتوس] عن أبنيه، واخبار الخال [كوللاتينوس] عن اولاد الأخت بدأ له أمراً صعباً ثقيلاً وهو كذلك والحق يقال. ولم يكن ليركن أو يثق برومانيّ واحد ليفضي اليه بهذه الاسرار الخطيرة، كما لم يكن قادراً على التزام الصمت واحتمال عبء هذه المعلومات الثقيلة. أخيراً أسرع الى [ڤاليريوس]، مسوقاً بما أشتهر من رقة بتواضح، ولسهولة الولوج الى بيته الذي لم تكن ابوابه تغلق في وجه المحتاج ومظلمات الناس البسطاء، وكانت امرأة ڤاليريوس وشقيقة [ماركوس] حاضرتين لما نفض [ڤنديشيوس] ما في جعبته. فطار

(١٠ و١٢) يقول [ديون] شعر هذا العبد بشك مزاح يراقب الجماعة، ويؤكد ليڤي (٤:٢) انه كان على علم بالمؤامرة فعلاً. لكنه أجل كشفها حتى يجتمع لديه كل الدلائل الدامغة التي تقنع من يسمعها. ويقول ليڤي أيضاً انه قصد القنصلين ،أطلعهما على الأمر (٤:٢، ٦).

(١١) بل في بيت آل ڤيتيللي على ما يزعم ليڤي (٤:٢، ٥). وكان تاركوين قد نفذ حكم الموت بوالد (بروتوس) وشقيقه بسبب ما يتمتعان به من غنى لا غير.

(١٣) قد يكون ثم بعض غموض وعدم دقة. لم تجر العادة في ذلك الزمان بان ينزل السفراء في البيوت الخصوصية. فقد كان ثم منزل حكومي مخصص لهم. ويبدو من العبارات التالية في النص أن بعض رسائلهم وعدداً من خدمهم قد احتجزوا في قصر الملك السابق. والعبارة الواردة باللغة اليونانية قد تشير الى انهم دعوا من المنزل المخصص لهم، لقضاء بضعة ايام مع زعيم المتآمرين.

صواب ڤاليريوس وعلقه البغتة ولم يدع العبد يخرج من منزله وحبسه في غرفة ووضع امرأته حارساً على بابها كما ارسل اخاه في الوقت عين لمهاجمة قصر الملك، ووضع اليد اما امكنه على جميع المكاتبات. والقاء القبض على من فيه من خدم وحشم في حين أنطلق هو واتباعه المخلصون والاصدقاء وجمع كبير من الخدم والحاشية الى بيت [آكويلي] وكانوا بمحض الصدفة خارج الدار، فاقتحموا الأبواب عنوة» ووقعت ايديهم على الرسائل وهي ملقاة في جناح السفراء. وفي اثناء ذلك عاد آل كويلي الى منزلهم واشتبكوا مع المهاجمين عند المدخل محاولين استعادة الرسائل. فقاومهم المهاجمون والقوا بعباءاتهم على رؤوس خصومهم. وأخيراً وبعد كفاح طويل أفلت المهاجمون بغنائمهم وأسراهم وتسللوا الى [الفورم]. وحصل اشتباك مماثل في قصر الملك، حيث وضع [ماركوس] يده على بعض الرسائل الأخرى وهي مدسوسة داخل البضائع لأجل تهريبها الى الخارج، كما القى القبض على الموجودين من خدم الملك واستاقهم الى [الفورم]. وبعد ان قام القنصلان بتهدئة الوضع، جيء بالعبد [ڤنديشيوس] بايعاز من [ڤاليريوس] وطرحت التهمة علنا. وفُضت الرسائل، ولم يستطع الخونة انكارها. ومعظم الناس واقفون وكأن على رؤوسهم الطير، والهمّ مرتسم على الوجوه. ونوّه بعضهم بفرض عقوبة النفي. عطفاً منهم على [بروتوس] وكانت دموع [كوللاتينوس] وصمت [بروتوس] قد أشاعا بعض الأمل في الرحمة. الاّ أن [بروتوس] نادى ابنيه كلاً باسمه وقال لهما «الا تستطيع أنت يا [تيطس]، وأنت يا [طيباريوس] أن تدليا بدفاع عن تهمتكما؟» وكرر عليهما السؤال ثلاثاً فلم يلق جواباً خلا الصمت. فأشاح بوجهه ملتفتاً الى ضباط الحرس وقال «لم يبق إلاّ أن تؤدوا واجبكم» فأسرعوا وقبضوا على الشابين ونزعوا عنهما الثياب واوثقا كتافهما وراء ظهريهما. وشرعوا يجلدونهما بالعصي، وكان منظراً يفطر القلب. وقيل ان [بروتوس] لم يدُر رأسه ولم يسمح بأي نظرة عطفٍ تلين ملامحه الجامدة الصارمة وترقق منها. وانما كان ينظر اليهما بصرامة وهما يقاسيان مُرّ العذاب، الى أن طرحوهما أرضاً وقطعوا رأسيهما بالفأس، ثم غادر محل الاجتماع تاركاً النطق بباقي الحكم الى زميله(١٤). وكان عمله هذا يستحقّ ارفع الثناء وأشدّ التنديد في آن واحدٍ. إن سمو فضائله رفعته فوق

---

(١٤) قارن النص بما جاء في ليڤي ٢:٥، ٥-٩ فهو يدلى بحكاية مختلفة حول سلوك بروتوس وهي بالنص اللاتيني Quam inter Omme Tempus pater, Valtusqne etos eyus Spectacala esset, emimento animo Patrio inter Publicae Poenae Minstrium.

وتعريبه: خلال هذا الموقف المأساوي كانت كلّ الانظار عالقةً بوجه الأب، حيث كانت آلام الأب واضحةً للعيان.» قارن أيضاً (ديون ٥:٢) الذي يتفق مع پلوتارخ. اي ان بروتوس لم يكن يظهر اي حزن أو الم ساعة التنفيذ مهما كان شعوره الباطن الحقيقي.

مشاعر الحزن، أو أن عظم سلبه كل شعور بالحزن. وكلا الأمرين ليسا من الطبائع الانسانية الاعتيادية في شيء. فهو إمّا شعور آله، واما شعور همجي. على أن الأدعى بنا الى المعقول، إن يكون حكمنا عليه خاضعاً لسمعته لا ان تنال سمعته انتقاصاً من ضعف حكمنا عليه. وفي رأي الرومان أن عمل بروتوس هذا، في تثبيت دعائم الحكم الجمهوري كان أعظم من عمل [رومولوس] ببنائه مدينة رومه. وبعد مغادرة بروتوس [الفورم] استولى على المشاهدين، مزيج من الدهشة والرعب وران صمت عام وان أشاع التساهل والرخاوة التي عرف بها [كوللاتينوس] - بفض الثقة في آل اكويلي وشجعتهم على طلب مهلة للإجابة عن التهمة، وطلب تسليم عبدهم [ڤنديشيوس] وعدم بقائه في حماية متّهميهم، وبدا القنصل ميالاً الى تحقيق ذلك، وهمّ بغضّ الجمعية. لكن [ڤاليريوس] لم يقبل بتسليم العبد (وكانت جماعته تحيط به)، ولا بارفضاض الاجتماع قبل انزال العقاب بالخونة. أخيراً تمكن من تحكيم قبضته على آل [اكويلي] واستدعى [بروتوس] لمعاونته، وهاجم فكرة [كولاّتينوس] الخرقاء في فرصه على زميله ضرورة انتزاع حياة ولديه بيديه بينما مال هو الى يمنّ بحياة الخونة واعداء الشعب على بعض النسوة من قريباته. فاستاء [كولاّتينوس] مما سمعه وأمر ان ينتزع [ڤنديشيوس]، وهمّ [اللكتور] باطاعة الأمر وشقوا الجمع الحاشد اليه وقبضوا عليه وراحوا يضربون كل من يحاول استنقاذه. فوقف اصدقاء [ڤاليريوس] على رأس المقاومة. وطالب الشعب باحضار [بروتوس] فجاء. وبعد أن ساد الصمت والسكون قال لهم. انه استعمل حقه في اصدار الحكم على ولديه وترك الباقي للاقتراع العام لكلّ المواطنين الأحرار. و«ليتكلم كل شخص ما يريد، وليقنع من يستطيع اقناعه» ولم يتطلب الأمر القاء خطب ومزيد من النقاش. فما أن طرحت قضية المتهمين في التصويت حتى ادينو بالاجماع وقطعت رؤوسهم.

كانت قرابة [كوللاتينوس] للملك المخلوع قد وضعته موضع شكّ واسم أسرته جعله مكروهاً. ممن كان يتعوذّ عند سماع كلمة [تاركوين] فحسب. فلما حصل ما حصل وادرك أنه مصدر سخط الجميع، استقال من منصبه وغادر المدينة سراً[١٥]. وبالانتخاب الذين جرى لملء منصبه الشاغر فاز [ڤاليريوس] بأغلبية ساحقة، مع التكريم. واصبح قنصلاً جزاء اخلاصه وحرصه. ووجد أن ڤندشيوس يستحق بعض ما كوفيء هو به. فاعتقه وجعله مواطناً رومانياً ومنحه بعدها حق التصويت مع اي حزبٍ شاء الانضمام اليه. ولم ينل العبيد العتقاء حق الاقتراع ولا بعده بزمن، اي من عهد [ابيوس Appius][١٦] الذي ظفر بحبّ العامّة لهذه

---

(١٥) انظر ليڤي ٢:٢ و٣-١٠.

(١٦) ابيوس كلوديوس كايكيوس كان قد عين چنسوراً في العام ٣١٢ ق.م.

المأثرة ومنذ [ڤنديشيوس] حتى يومنا هذا وحالة العتق التام(١٧) تدعى [ڤندكتا Vindicta] نسبةً الى اسمه.

بعد ذلك، استبيحت اموال الملوك ونهبها العامّة، وقوّض بناء القصر، وكان أجمل جزءٍ من «حقل مارس(١٨) الذي يملكه [تاركوينيوس] قد كُرس لخدمة ذلك الربّ. واتفق ان كان موسم الحصاد، والغلّة المحصودة ملقاة على الأرض حزماً. ووجد من غير المناسب أن تلقى للدرس والتذرية أو تنجس بأي استعمال كان، لذلك حملوها الى ضفاف النهر ثم قطعوا أشجاراً وقذفوا بالجميع في الماء لأجل تكريس الأرض وهي خالية من كل شاغلٍ. وكان القاؤها واحدة فوق الأخرى متحاجزة فلم يحملها التيار بعيداً وحيث وقفت الدفعة الأولى منها وغاصت في القاع، تكدست الدفعات التالية ولم تجد مجالاً وأشتبك بعضها ببعض، وأخذ مجرى الماء يعمل على رصّها رصاً شديداً وأسفى عليها طبقات من الطمى فثبتت وكبرت وصارت أشبه بالسمنت يلتصق به كل ما يأتي به التيار من طرح. وتعذرّ على المجرى اقتلاعه بل رَصُّه وضَغطَهُ فزاد حجماً وتماسكاً بمرور الزمن وانداح حتى تكونَ سَدّ يوقف كل ما يأتي به التيار من تربة. وهو الآن جزيرة مقدسة تقع قرب المدينة، تزدان بمعابد الأرباب والمتنزهات، وتُسمّى باللاتينية «إنتر دوّس پونطس Inter Duas Pontes»(١٩). على أن بعضهم يقول أنه الأمر لم يقع اثناء تكريس حقل [تاركينوس] وانما بعد زمن، لما أوقفت [تاركوينيا] كاهنة ڤستا الحقل المجاور له على النفع العام فكرّمت. ومنحت أمتيازاً على سائر النساء. وهو ان تَكون شهادتها معتبرة، وان يكون لها حق الزواج فأبت استعمال الحق الأخير. وعلى هذه الصورة يروى بعضهم الحكاية.

لما يئس [تاركوين] من العودة الى عرشه بطريق التآمر، التفت نحو التوسكانيين فوجد

---

(١٧) هناك ثلاث حالات عتقٍ أصولية وليس بينهما ما يقضى اعطاء حق الاقتراع المعتوق. ولم يصل العبد المعتوق الى حالة المواطنة الكاملة الى في الجيل الثالث من نسله.

(١٨) كان الاصح قوله انه أعاد وقف حقل كاميوس ماريتوس لأن هذا الحقل كان قد أوقف على مارس منذ عهد رومولوس. وقد استعاده تاركوين وجعله لمنفعته الخاصّة [ديون ٥:٢].

(١٩) الجسر الفابريشي Ponte dei quatro capi بسبب التمثال المرمري ذي الرؤوس الاربعة، الذي قيل انه يمثل الرّب (يانوس). كان يربطه بالمدينة من ناحية الكاپتول. وجسر جستيا سانت بارثولونا Ponte Ces-tia st. Bartolonea من جهة باب يانيكولين Janiculine (ويسمى الآن جزيرة القديس بارثوليميو) نسبة الى اسم الكنيسة التي بنيت عليه تكريماً لهذا القديس. وقد تكون الحكاية أقرب الى التصديق لو أعتبرنا ان سرعة النهر كانت على أقلها في ذلك الموسم الصيفي القائظ بحيث ان الاشجار التي تقطع من (حقل مارس) المذكور ما كان بالإمكان ان تدفعها قوة التيار، وترتب على الرومان التعاون على جرّها ونصبها في مواضعها لتقوم هياكلهم وشرفات منازلهم على أسس واساطين أكثر ثباتاً. ان طول الحقل يعادل ربع ميل تقريباً وهو مدبب النهاية اشبه شيء بهيكل سفينة.

فيهم استعداداً وترحيباً[٢٠]، وشرعوا يعدون له جيشاً جراراً. فنهض القنصلان لمقاومتهم على رأس الرومان. وجعلا موضع اللقاء في موقعين مقدسين مخصوصين أحدهما يدعى البستان الآرسي Arsian والثاني هو المرج الايسوفي Aesuvian، ولما بدأت المعركة برز [ارنوس Ar-nus] ابن تاركوين لبروتوس القنصل الروماني، فاشتبكا يدفعهما الكره والغيظ لا اشتباك الصدفة، أحدهما يريد أن يطفيء غلّه وحقده على الاستبداد والآخر يريد ان يثأر لنفسه، فهمزا جواديهما واصطدما بعنفٍ فاق المعقول والروية فسقط قتيلين أحدهما بيد الآخر. وأصطدم الجيشان في معركة رهيبة انتهت بعد الجهد الجهيد بخاتمة طيبة فبعد ان ألحق الطرفان احدهما بالآخر خسائر متساوية فرقت ما بينهما عاصفة[٢١]، وانتهبت القلق [فاليويوس] لجهله نتيجة معركة اليوم ولرؤيته حزن رجاله لمشهد قتلاهم وفرحهم لخسائر العدو. وكان واضحاً للعيان أن عدد القتلى متساوٍ في الجانبين. وكل جيش أكثر احساساً بهزيمة خصمه من أحساسه بنصره، عند تقديره خسائره وأرخى الليل سدوله (ليل كالذي يتصوره المرء في أعقاب مثل هذه المعركة) واخلد الجيشان للراحة. واذا بالبستان يزلزل زلزاله على ما قيل - ويصدر منه صوت قائل: «ان خسائر التوسكان تزيد على خسائر الرومان بقتيل واحد فقط» وكان من المؤكد أنه بيان سماوي من آله»[٢٢]. فاستقبله الرومان بهتاف الفرح وعلامات السرور، بينما هجر التوسكان خيامهم خوفاً وذهولاً وتفرق معظمهم أيادي سبأ. واوقع الرومان بالباني وكانوا يناهزون خمسة الآف وأخذوهم أسرى واستولوا على كل ما في المعسكر. ولما احصي القتلى وجد ان التوسكان قد خسروا أحد عشر ألفاً وثلاثمائة قتيل أي بزيادة قتيل واحدٍ عن خسائر الرومان. هذه المعركة جرت في شهر شباط. وسار ڤاليريوس في موكب الظفر احتفاءً بها، وكان أوّل قنصل يسوق في موكب النصر مركبةً ذات اربعة جياد، وكان منظراً فخماً. وأستقبله الأهلون باعجاب خالٍ من الحسد أو الغيرة على ما قيل، ولم تكن المواكب التالية بمثل هذه الحماسة والروّحية قطّ. فلقد أكبر الشعب في [ڤاليريوس] التكريم الذي اضفيناه على ذكرى زميله الصريع، باضافته الى مراسيم التشييع خطبة التأبين، وكان وقعها عند الرومان جميلاً للغاية ووجدوها عملاً سديداً ومدحوها، حتى غدت عادة في عظماء الرجال أن يلقوا خطب تأبين عامة في جنائز المشاهير من المواطنين، مع تعداد مآثرهم[٢٣]. وقد ثبت ان

(٢٠) ليڤي [٢:٦، ٤] كان الترحيب من قبل أهالي ڤيي وتاركويني فحسب.

(٢١) ليڤي (١١:١، ٧) يقول ان التوسكان ولوّا مذعورين بعد المعركة.

(٢٢) يذكر ليڤي بصدد روايته الحادث عينه (٢:٧، ٧) انه الربّ سلڤانوس. ويزعم [ديون] انه [ڤاونوس]. وقال بعضهم انه صوت (پان) أحد مساعدي [باخوس] الذي كان أول من أستخدم هذه الخطة لأرعاب جيوش الاعداء.

(٢٣) لم تكن خطب التأبين معروفة عند الأغريق حتى معركة ماراثون كما يؤكد لنا [ديودورس ١١:٣٣] الذي =

قدم هذه العادة عند الرومان يزيد عن قدمها لدى الاغريق. إلاّ اذا اعتبرنا صولون أوّل منشيء لها - بقيام الخطيب [أناكسمينيس Anaximenes] في عهده.

إلاّ أن جانباً من تصرفات ڤاليريوس آلم الجمهور وأثار سخطه. [فبروتوس] الذي يعتبرونه أباً لحريّتهم لم يقبل الحكم إلاّ مع شريك في السلطة. فضم اليه واحداً ثم آخر أثناء حكمه. في حين ان ڤاليريوس بتركيزه السلطان كله في يده، لم يكن يعتبر بأية حالٍ خليفة [بروتوس] في منصب القنصل، بل خليفة [تاركوين] في الاستبداد. صحيح انه القى خطبة في تأبين [بروتوس] لكنه كان يشاهد و«العصي والفؤوس» تحفّ به من كل جانب وهو يهبط من منزله الفخم ولم يكن بيت الملك الذي هدمه بأفخم منه، تصرفات كهذه جعلته يبدو أقرب شبهاً بالملك المخلوع حقاً أن معناه المبني على [الڤيليا Velia] كان مهيباً بعض الشيء. فهو يعلو (الفورم) ويشرف على كل ما يجري منه والمرتقى اليه صعب. وكان موكبه وهو يهبط اشبه بالموكب الملكي المهيب. لكنه اثبت كم هو حسن لرجال السلطة المسؤولين ان تكون لهم آذان تسمح بدخول الحقيقة قبل دخول المداهنة والملق اليها. فلما ابلغه اصحابه بأقاويل الناس وغيظهم من سلوكه لم يستأ ولم نحاول في الأمر. ولم ينتظر لينبلج الصبح على منزله، بل ارسل يستقدم فعلةً وهدادين قوضّوه وسوّوه بالقاع. وفي الصباح الباكر تجمع الناس يتطلعون بدهشة واحترام الى عمله الجليل، مبدين اسفهم لهذا المنزل الجميل الذي اصبح أثراً بعد عين بسبب تحاملهم الظالم، كأن الذي انهدم ليس جماداً بل كائناً حياً. وأضطر القنصل [ڤاليريوس] الى البحث عن سقفٍ يظلّه عند اصحابه بعد أن فقد المأوى. فاستضافه هؤلاء حتى بنى له الشعب بيتاً على أرض خصصت له. وكان أقلّ فخامة من منزله الزائل. والآن يقوم في موقع هذا المسكن المعبد المعروف باسم [ڤيكا پوتا Vica Pota][٢٤].

= كان عمره ١٦ سنة عند وفاة بروتوس. فالقانون الذي استنّ بخصوص رثاء وتعداد مآثر عظماء القوم هو ذو تاريخ متأخر، ويسبق پلوتارخ الأحداث كثيراً عندما يحدد للقانون عصر صولون وحتى عند السماح به، لم يكن يخطى به الاّ أولئك الذي استشهدوا دفاعاً عن بلادهم في حين وسع الرومان من شموله ليدخل في حكمه كلّ من يقدم لبلاده خدمة في اي مجالٍ [ديون ٥:٣].

(٢٤) لعل المقصود بها ربّة النصر Victorese Passesor التي يقوم معبدها عند قدمة الڤيليا Velia. لكنه تجنباً لحسد الأهالي أنزل مواد البناء الى اسفل التل وبنى منزله هناك. ويلاحظ أن پلوتارخ اورد اسم ربة النصر اصلاً هكذا: اونيكي پوني ويعني باللاتينية القديمة (نصر). وبما انه لم يفهمها حق الفهم فقد استبدلها بلفظة Vicus Publicus وهي لا تعني شيئاً هنا. على أن الاسم الذي جاء في المتن ظهر عند ليڤي [٧:٢] ويرجح انه مأخوذ من Vinceres و Potiri واما ما تلا ذلك من خطر على سكنى اي پاتريشي بالقرب من الكاپتول فقد عزاه پلوتارخ في محل آخر الى هذا السبب. لكن ليڤي (٢٠:٦) يجعله لاحقاً للحكم على مانليوس، فبعد ان أنقذ هذا السياسي الصرح من الغاليين حام الشك في انه يطمح الى اعلان نفسه ملكاً فحكم عليه بالقائه من فوق الصحرة التاربية.

قرر [فاليريوس] أن يجعل الحكومة وشخصه مظهرين محبوبين من الشعب، يدل ان يكونا مصدر مهابة وخوف. فأخرج الفؤوس من حزمة العصي. وكان عند دخوله قاعة الجمعية يخفض تلك الحزم دليل احترامه الشعب[٢٥]، واعتباره مصدر سلطته واساس حكومته. فقلّده القناصل الذين عقبوه وحرصوا على التقليد حتى يومنا هذا وفي رأيي أن إذلال المرء نفسه ليس وسيلة لأظهار التواضع فيه، وانما هو مجرد طريقة لتفادي التخرصات والنميمة بالأخذ بأسباب الاعتدال. لأن ما أطرّحه من مظاهر المنصب، اضافه الى سلطانه الحقيقي. وظلّ مرتاحاً مطمئناً الى انه سيبقى مطاعاً محبوباً. والدليل على ذلك انهم منحوه لقب «پوبليكولا» اي «محبّ الشعب»، فلصق به وأشتهر على بقيّة اسمائه، لذلك سنظلّ نشر اليه بهذا الاسم في بقية حديثنا عن سيرته.

وأطلق حرية الترشيح لمنصب القنصل[٢٦]. وقبل ان يفسح السبيل لشريكه المقبل، واحتياطاً لمفاجآت الصدف وعدم ثقة منه بها ولئلا يفسد الجهل والمنافسة خططه، استن بموجب صلاحيته فقط خير المبادىء واهم الأنظمة، وبدأ بملء شواغر مجلس الشيوخ التي كانت خالية بسبب فتك [تاركوين] باعضائه، أو لموتهم في الحرب الأخيرة، ويذكر المؤرخون أنه أدخل الى المجلس على هذا الأساس مائه واربعة وستين شيخاً. ثم انه سنّ عدة قوانين أعطت الشعب مزيداً من الحرية. ولاسيما ذلك القانون الذي يمنح المدانين حق استيناف أحكام القناصل الى الجمعية العامّة. وفي قانون آخر فرض عقوبة الموت على كل من يغتصب منصباً قضائياً دون موافقة الشعب. وسنّ قانوناً ثالثاً للترفيه عن فقراء المواطنين، قضى بالغاء الضرائب عنهم[٢٧]. وتشجيع أعمالهم وحرفهم. وهناك قانون في التمرد والعصيان على أوامر القناصل لايقل صلاحه عن القوانين الأخرى، توخى به منفعة عامة الشعب أكثر من منفعة النبلاء، لأنه يفرض على المتمرد أو العاصي غرامة قدرها عشرة ثيران وشاتين. وثمن الشاة عشرة اوبولات، وثمن الثور مائة[٢٨]. وقد حدد السعر هكذا لأن النقود في ذلك الحين كانت نادرة قليلة الاستعمال والتداول عن الرومان، إلاّ ان ثروتهم الحيوانية كبيرة. ولذلك تجدهم يطلقون على اي مال مُقيّم كلمة «پكيوليا Peculia» وهي مأخوذة من لفظة بيكوس Pecus اي ماشية. كما أنهم

---

(٢٥) إلاّ في فترات الحروب فقد كانت انفاس توضع وسط الحزمة.

(٢٦) إن أعطى پوبليكولا هذا الحق للجميع فعلاً فمن الأكيد انه لم يطبق فهو نفسه اتخذ التدابير كما سنرى - لانتخاب قنصلين باتريشيين هما لوكريسيوس وماركوس هوراشيوس واتخاذهما زميلين له على التوالي وكان [ليوشيوس سكسيتوس] أول قنصل من طبقة البليبيين يتولى المنصب بعد احقاب واحقاب من الزمن الذي يحدده پلوتارخ. ولم يدم هذا التقليد غير أحد عشر عاماً [ليڤي ١٨:٧].

(٢٧) أعفي الصنّاع والارامل، وكبار السن الذين لا أولاد لهم من دفع الضرائب.

(٢٨) قبل هذا كانت الغرامة باهظة جداً بحيث يصاب دافعها بالدّمار التام.

صكوا على نقودهم القديمة جداً صورة ثور أو شاة أو خنزير، وسموا اولادهم باسماء «سوييللي Suillii» و«بوبولجي Bubulci» و«كاپراري Caprari» و«پورجي Porcii» - من كاپرا Ca-pra اي عنزة، وپورجي اي خنازير Porci(٢٩).

ومع كل هذا الاعتدال والليونة، فرض على جريمة خطيرة واحدة عقوبة شديدة صارمة فقد أباح لأي مواطن ان يقتل اي شخص متآمر قبل المحاكمة، ولا جناح على القاتل اذا قدم دليلاً على تآمر القتيل اذ مع انه يبدو أمراً بعيد الاحتمال ان يظلّ أمرٌ خطير الغاية كهذا في طيّ الكتمان، كذلك ليس ببعيداً أن يبقى سراً، وإن ظهرت بوادر له قبل فرض الحكم. ولتفويت الفرصة على التآمر أو تعويقها أجاز لأيّ شخصٍ أن يحبط المؤامرة بقتل المتآمر فوراً. وعظمت مكانة [پوبليكولا] بقانون استحداث بيت المال. فقد وجد من الضروري ان يساهم المواطنون ببعض المال للنفقة على الحروب. ولم يرغب في ان تكون تلك الأموال تحت ضبطه شخصياً ولا أن يوكل بأصحابه أمر حفظها ولا ان يدعها تدخل البيوت الخاصّة. فجعل حفظها منوطاً بمعبد زُحل. ولذلك تراهم الى يومنا هذا يودعون الأموال المجباة هناك. ومنح الشعب حقاً في انتخاب شابين بمنصب أمين خزانة [كويستور Quaestor](٣٠). وأول اثنين تقلدا الوظيفة هما (پوبليوس ڤيتوريوس Publius Veturius] و[ماركوس مينيشيوس Marcus Minicius]. وتمّ جمع مبالغ كثيرة لأن الجباية حددت بمقدار مائة وثلاثين ألفاً، وأعفى الأيتام والأرامل منها. بعد هذا كله صادق على تعيين [لوكريشيوس Lucretuis] والد لوكريسيا قنصلاً مزاملاً له ومنحه حق التقدم عليه، إذ نزل له عن (الحرس الفاجيّ) احتراماً لسنّه وبهذا استمر نظام الأقدمية بسبب السنّ الى يومنا هذا. الاّ أن القنصل الجديد [لوكريشيوس] توفي بعد ايام قليلة، فانتخب [ماركوس هوراشيوس] خلفاً له وبقي قنصلاً الى نهاية العام.

في تلك الفترة. وحين كان [تاركوين] في توسكانيا يتأهب لحربٍ ثانية مع الرومان، قيل

---

(٢٩) الأولى من لوس Lus اي الخنزير أيضاً. والثانية من Los اي الثور.

(٣٠) وظيفة المحتسب (الكويستور) هي المحافظة على أموال الخزانة العامة يحاسبون عليها عند ختام مدة وظيفتهم وهي سنة واحدة. كما انهم ينفقون من الأموال العامة على الخدمات العامة، ويستقبلون السفراء ويقومون برعايتهم ويهتمون بتأمين معيشتهم وتوفير السكن لهم. ولا يمكن ان يسمح لجنرال بموكب نصر الاّ بعد أن يقدم للمحتسب حساباً عن الاسلاب والغنائم التي أستولى عليها معززاً بالقسم. في المبدء كان يوجد في الدولة كويستوران، وباتساع الامبراطورية زيد في العدد، ومع أن هذا المنصب كثيراً ما كان يشغله قناصل سابقون الاّ انه كان يعتبر أوّل خطوة يخطوها رجل الدولة نحو المناصب الرفيعة. ويظهر أن پلوتارخ يشير هنا الى أوّل تاريخ لاستحداث هذا المنصب [انظر ليڤي ٤:١٤] على أن تاكيتوس في الحوليات [٩:٢٢] يعزو انشاءه الى عهد الملوك ويقول ان حق انتخابهم لم ينتقل الى الشعب الاّ بعد مرور ثلاثة وستين عاماً على طرد تاركوين.

انه وقع حادث عجيب: باشر [تاركوين] في فترة حكمه بتشييد بناء الكاپيتول حتى شارف على أكماله وقرر اما من تلقاء نفسه أو اطاعة لنبوءة، أن ينصب فوقه تمثال مركبة الجبس الأ انه اضاع ملكه(٣١). وكان التوسكان قد باشروا في صبّ المركبة وصنعوا كوراً. ولم يظهر الجبس تلك الخواص السليمة المعتادة فيه وهي الانكماش والتصلب بعد ان يُفخر ويتبخر منه الماء، بل انتفش وكبر حجمه حتى بعد التصلّب والبرودة بحيث أخترق جدران الكور ولم يكن بالامكان أخراجه من فوهته، كما كان نقله في غاية الصعوبة، وعَدّ السَحَرة هذه الظاهرة دليل قوة ونجاح كل من يملك التمثال. وقرر التوسكان الأ يسلموه الى الرومان رغم الحاحهم بطلبه اذ ردّوهم قائلين: ان [تاركوين] احق به ممن نفاه. وبعد ايام قليلة اقاموا سباق خيل، وما يناسبه من حفلات والعاب، وفيما كان سائق مركبة النصر يسوقها بهدوء وعلى رأسه أكليل الغار، يريدان يخرج بها من الحلبة اذا جفلت الخيل ثمّ جمحت اما بمشيئة الهيئة، أو بحدث طرأ للخيل. فعجز السائق عن كبحها وأفلت زمامها من يده اذ أسرعت تعدو بكلّ قواها نحو روما غير عابئة بصياحه وانتهاره وقوة ساعده فأستسلم لها مضطراً ولم يحاول شيئاً معها حتى بلغت الكاپيتول، وهنا انقذف السائق منها عند مدخل [راتومينا Ratumena](٣٢). إثارت هذه الحادثة عجب التوسكان وهلعهم فنزلوا عن تمثال المركبة للرومان.

كان [تاركوين ابن ماراتوس] قد نذر ان يبنى معبد [كاپيتولين جوپتر] في أيام الحروب مع السابين. فقام على بنائه مع بعده، ابنهُ أو حفيده المدعو [تاركوينيوس سوپيربوس](٣٣) ولكنه لم يتمكن من تكريسه لضياع الملك منه قبل تمامه. ولما كمل بناؤه وتمت زخرفته(٣٤)، رغب [پوبليكولا] في تكريسه إلاّ أن النبلاء حسدوه على هذا الامتياز فضلاً عن حقدهم السالف عليه لما أصابه من شعبية بسنّه القوانين وادارته دفة الحرب، مما كان يجعله أجدر الناس بهذا الشرف. على اية حال كانوا يحملون له ضغنا، فدفعوا زميله [هوراتيوس] الى طلب تكريس المعبد وفيما كان [پوبليكولا] يقود أحدى الحملات العسكرية صَوّت على طلب بالموافقة [هوارشيوس] وأخذوه الى الكاپيتول خلسة كأنهم عاجزون عن ذلك لو كان پوبليكولا

---

(٣١) كان نصب عجلة فوق اسطح المعابد من الأمور المألوفة. ويطلق عليها لهم فاستيجيا Fastigia والزيادة أو التوسع في أي شيءٍ كان يعتبر نذير سوءٍ وبشير يُمن في آن واحدٍ معاً.

(٣٢) اسم الشاب [راتوميناس]. أنظر [پليني ٤٢:٨].

(٣٣) ليڤي يشاركه في شكه [٤٦:١]. لكنه يميل للقول بانه ابنه. غير ان [ديون ٢:٤] اثبت بصورة لا يعتورها شك ان [لوشيوس] و[ارنوس] تاركونيوس هما حفيدا تاركوين الكبير.

(٣٤) يبلغ طول هذا المعبد ٢٠٠ قدم وعرضه ١٨٥، زينت أوجهته بثلاثة صفوف من الأعمدة. وحف بجوانبه الثلاثة الأخرى صفان من الأعمدة. واقيم في البهو ثلاثة محاريب ليونو ولجونو ولمنيرڤا و[ديون ١٣:٤] يعرض وصفاً مفصلاً له.

موجوداً، ويذكر بعضهم أن القنصلين[٣٥] اقترعا فرست قيادة الجيش على پوبليكولا خلافاً لرغبته. في حين يذكر بعضهم أن القرعة رست عليه في تكريس المعبد، وما حدث اثناء مراسيم التكريس.

يعزز هذا الرأي بعض الشيء على ما يبدو الثالث عشر من ايلول الذي وافق البدر التمّ لشهر [ميتاگتنيون Metagitnion] تقريباً، أجتمع الناس في الكاپيتول وخيم الصمت على الرؤوس، وبعد أن ادّى [هوراشيوس] المراسيم الواجبة وهم بنطق عبارات التكريس انتهز [ماركوس] شقيق [پوبليكولا] فرصة وقفته المقصودة قرب الباب، وصاح قائلاً «أيها القنصل إن جثة ابنك مسجاة في المعسكر» فأحدثت تأثيراً على كل الحاضرين إلا [هوراشيوس] فلم تنل من أعصابه وكان جوابه على هذا: «القوا الموتى خارجاً حيث شئتم، أنا لستُ في حداد» ثم باشر في اكمال المراسيم. وظهر النبأ كاذباً لكن [ماركوس] أعتقد أن المفاجأة قد تصرف هوراشيوس عن مواصلة الشعائر لكن هذا أدرك الحيلة، أو أظهر ضبط نفس ولم يفسح سبيلاً لمشاعره ان كان قد صدقها.

واصاب تكريس المعبد الثاني ما اصاب الأول من مصير. قلنا ان المعبد السابق بناه [تاركوين] وكرّسه [هوراتيوس] وقد احترق ابان الحروب الأهلية[٣٦]. أما المعبد الثاني فقد بناه [سيللا Sylla] ومات قبل تكريسه تاركاً هذا الشرف [لكاتولوس Catulus] فأنهزم هذا في الفتنة [الڤيتيلية]، وشرع [ڤسپسيان] ببناء الثالث يحالفه فيه النجاح الذي واكبه في كل الأمور الأخرى وعاش لدى اكتمال البناء لكنه لم يكن في عداد الاحياء عندما هدم. خلافاً [لسيللا] الذي مات قبل تكريس معبده. اذ ما أن قضى (ڤسپسيان) نحبه حتى اتت عليه النار. اما المعبد الرابع القائم الآن فقد بناه [دوميتيان]. ولقد قيل أن [تاركوين] انفق اربعين الف اوقية من الفضة على اقامة اسسه فحسب. اما المبالغ المنفقة على طلائه وزخرفته في

(٣٥) يؤكد ليڤي حصول القرعة (٨:٢) ولعل پلوتارخ أعتمد عليه في النقل. لقد كان ذلك شرفاً عظيماً لأن اسم الدكتاتور كان محفوراً على مدخل المعبد.

(٣٦) يشير الى تدميره اثناء حروب [ماريوس - سيللا] في ٨٣ ق.م. وقد قام الأخير باعادة بنائه مستخدماً اعمدة رخام انتزعها من معبد زفسي في أثينا. لكن لم يوفق الى تكريسه فقد عاجلته المنية قبل تمامه. وذكروا انه قال وهو يعالج سكرات الموت ان هذا هو أسوء ما صادف من حظّ طوال حياته. وكرّسه كاتولوس في العام ٦٩ ق.م. وقد أحترق مرة ثانية عندما كان ڤيتللوس يضرب حصاراً على (فلاڤيوس سابينوس) في الكاپتول في العام ٦٩ للميلاد. اي بعد ١٣٨ سنة من تشييده ولا يعلم من كانت له يد في احراقه. (تاكيتوس التاريخ ٧١:٣ و٧٢]. وجدد الامبراطور ڤسپاسيان بناءه. ثم أحترق مع الكاپتول في العام ٨٠ للميلاد بالأخير اعاد دوميتيان بناءه ونقش عليه اسمه دون ان يذكر شيئاً عن أوّل بناته [انظر سوتونيوس].

أيامنا هذه، فهي تزيد على ثروة أغنى أغنياء رومه، وتقدر بما يزيد عن أثني عشر ألف تالنت[٣٧]. وكانت اعمدته من المرمر [البنتيلي] بطول يتسق اتساقاً لطيفاً مع غلظها. وهي الأعمدة التي كنا قد شاهدناها في اثينا، ولم تزدد جمالاً ورواء عندما أعيد نحتها في روما، قدر ما فقدت من تناسق، اذ جُعلت مستدقة الأطراف نحيلة وان دهش المرء لما أنفق على الكابتوا فما عليه الاّ أن يلقى نظرة على احدى مقصورات قصر [دوميتيان] أو إحدى قاعاته أو على حمام من حماماته أو مسكن محظية من مخظياته. وستكون على شفتيه قولة [ايبخارموس]:

« [الاشراف لايكشف عن عقلية حرة بل هو مرضٌ عضال والحق يقال] ».

فهو يقول مشيراً الى دوميتيان: «ليس هذا تقى منه ولا عظمة، وانما مرض البناء ورغبة كرغبة [ميداس Midas] في تحويل كلّ شيء الى ذهب أو مرمر» وفي هذا ما يكفي.

بعد المعركة التي فقد فيها [تاركوين] ابنه على اثر مبارزته مع بروتوس ولىّ هارباً الى كلوسيوم Clusium مستجيراً بـ[لاراس پورسنّا Laras Porsenna] أقوى ملوك ايطاليا، ورجل فاضل كريمٌ فأجاره وحقق سؤله وطلباته[٣٨] وأرسل في الحال أمراً الى رومه بأن تستقبل ملكها [تاركوين] ولما رفض الرومان ذلك أعلن الحرب عليهم محدداً الزمان والمكان اللذين قررهما للمعركة وزحف بجيش لجبٍ. وكان [پوبليكولا] قد أنتخب قنصلاً للمرة الثانية[٣٩] اثناء غيابه، وأنتخب [تيطس لركريتيوس] زميلاً له. فأسرع بالعودة الى رومه.

(٣٧) من أجل تقريب فهم المبلغ للاذهان. نقدر قيمة التالنت الواحد بالسعر الحالي للدولار اعني ما يعادل ٢١٠٠ دولار أو ١٠٠٠ پاون سترليني ان البون الشاسع ما بين ما يملكه المواطن العادي في ايام الجمهورية وايام الملكية يستحق التأمل هنا. ففي عهد (تراجان) لم يكن هناك غنيّ تزيد ثروته عن ٧٠٠٠٠ پاون سترليني. في حين أن (ايميليوس سكاوروس) اثناء توليه منصب (الايديل) اقام ملعباً مؤقتاً على حسابه كلّفه تسعمائة الف پاون استرليني. وتلك (ماركوس كراسوس) ضياعاً وقرى كانت تغّل له أكثر من مليوني پاون سنوياً. وترك [كورنيليوس بالبوس] في وصيته ٢٥ ديناري لكل مواطن روماني وهي تعادل خمسين شلناً بحساب القوة الشرائية المقارنة الحالية. وكان الكثير من الرومان من يملك ما بين عشرة آلاف وعشرين الف عبد. فلا عجب أذن ام رفع العبيد السلاح في وجه روما ونازلوا الجمهورية في حروب طويلة منهكة.

(٣٨) كثير من الشراح يرونه اسم تكريم يخلع على رئيس اللوكومون الاثني عشر أو ما يدعى بـ dodecaechy etruria. على ان (ديون) يعتبره اسماً لشخصٍ[٤:٤]. كان (تاركوين) توسكاني الأصل الى جانب كونه يساعد ملكاً وقع في ضيق. لم يذكر ليڤي ولا ديون أنه أعلن طلباته لروما.

(٣٩) في اثناء قنصلية پوبليكولا الثالثة وكان هوراشيوس پولشيللوس يزامله فيها - زحف (پوسينّا) على روما. و(ليڤي) في هذا يتفق مع پلوتارخ.

ولأجل أظهار معنوية أعلى من تحدّي [پورسنا] بنى مدينة [سيگليوريا Sigliuria] [40] وجيش پورسنا معسكر على مقربة منه. وانفق مبالغ طائلة في تسويرها وتحكيمها. ووضع فيها سبعمائة رجلٍ من المستعمرين كأن الحرب امرٌ تافه عنده. لكن [پورسنا] قام بهجوم عنيف وارغم المدافعين على التقهقر الى روما. وكاد جيش پورسنا يدركهم ويدخل المدينة معهم. لكن پوبليكولا انقذ الموقف بكرّةٍ على العدو من داخل المدينة، وأرغمهم على التراجع. ثم اشتبك معهم في معركة على ضفاف [التيبر] وقاومهم مقاومة ضارية وكان العدو يهاجم بجموع هائلة. واصيب [پوبليكولا] بجراح بالغة ونقل خارج ساحة القتال. ولم يكن حظّ زميله [لوكريتيوس] بأحسن من حظه وخاب امل الرومان وتقهقروا الى المدينة حفظاً على أرواحهم. وأحدق برومه خطر داهم وأشرفت على السقوط بيد العدّو الذي كان يندفع متقدماً فوق الجسر الخشبي ووقف [هوراشيوس كوكليس Horatius Cocles] [41] يصدهم بمعاونة اشجع محاربين في روما: [هرمينينوس Herminius ولارتيوس Lartius] وجاءه لقب «كوكليس» لأنه فقد أحدى عينيه في الحرب. وقيل أن هذه الكُنية لصقت به لأنه افطس الانف مفلطحه حتى يكاد لا يبين له أنف ما بين عينيه فيخيل للناظر انه ذو عين واحدة، وكان القصد أنه يُكنى چكلوپس Cyclops [42] لكن الاسم صُحّف الى «كوكلس». بقي [كوكلس] هذا صامداً يصد تقدم العدو حتى تمكن رفيقاه من كسر الجسر خلفه، فالقى بنفسه في الماء بدروعه وسلاحه وسبح الى الجانب الاخر، وهو مصاب بطعنة رمح توسكاني في فخذه. وأعجب [پوبليكولا] ببسالته وأقترح حالاً أن يقدم له كل رومانيّ رزق يوم كامل هديةً له. ثم منحه قدر ما يستطيع محراثه تحويط ارضٍ بخطٍ في يومٍ كاملٍ. كذلك اقام تمثالاً برونزياً تكريماً له في معبد [ڤولكان] على سبيل التعويض للعرج الذي أصابه من الطعنة.

القى [پورسنا] حصاراً شديداً على المدينة. وانتشرت المجاعة بين الرومان. كذلك قام جيش توسكاني جديد بشنّ الغارات على البلاد. ولما انتخب [پوبليكولا] قنصلاً للمرة الثالثة، قرر تقوية تحصينات المدينة والدفاع عنها دون اللجوء الى تحركات هجومية خارج المدينة. على أنه تسلل سراً [43] وهاجم المغيرين التوسكان والحق بهم هزيمةً وقتل منهم خمسة آلاف.

---

(40) لم تبنَ سيگليوريا على سبيل التحدي ولا في ذلك الزمن كما يزعم پلوتارخ بل كان بناؤها لتصير حاجزاً ضد اللاتين والهرنيشي في قنصليته الثانية. بل لعله الموضع الذي يطلق عليه ليڤي (55:1) سيگينا.

(41) هو ابن اخ لهوارشيوس القنصل.

(42) يقول (ديون): لقب بذلك لأنه فقد أحدى عينه في هذه المعركة. كان مقاتلاً رهيباً بدون شك فهو أحد ثلاثة صمدوا الى الأخير ثم انسحب رفيقاه قبل أن يكسر الجسر بعدهما (ليڤي 2:10 يذكرها بتفصيل أكثر).

(43) اذاع القنصلان خبراً قام العبيد الهاربون بنقله فوراً الى معسكر التوسكان، مؤداه ان كل القطعان =

إن قصّة [موشيوس Mucius](٤٤) تروى باشكال مختلفة ونحن هنا لا نرى مندوحة من ايراد الشكل الشائع لها: كان هذا رجلاً يجمع في شخصه كل الخصال والسجايا الحميدة، وابرزها الشجاعة والميل للقتال ولذلك قرر اغتيال [پورسنّا]. فتزيا بالزيّ التوسكاني ونطق بلغتهم. وخرج يقصد طلبته حتى بلغ معسكر الاعداء. ودنا من مجلس الملك. وكان يحف به النبلاء فوقع في حيرة لأنه لم يكن يعرف الملك بالوجه، وخاف السؤال للاستيثاق لئلا يفتضح أمره. ولم تطل به الحيرة بل امتشق سيفه وطعن أوّل شخصٍ ظنه الملك فقبض عليه في الحال وفيما كانوا يستنطقونه جيء الى الملك بمستوقدٍ يضطرم ناراً لأجل تقديم القرابين. فدّس [موشيوس] يده اليمنى(٤٥) في لهب جمراته وأخذ يحدق [بپورسنا] بوجه هادىء لا أثر لما يحسّ بالم فتملك پورسنا الاعجاب به وأطلق سراحه واعاد اليه سيفه، اذ رفعه وقذف به اليه فتلقاه [موشيوس] بيده اليسرى مما دعا الى تكنيته [سكيفولا Scaevola] اي الأعسر. وذُكر انه قال معقباً: «لقد تغلبتُ على إرهاب پورسنا، لكن كرمه غلبني، والاعتراف بالمنّة تضطرني الى الكشف عما يقصر العقاب عن استخلاصه منيّ» ثم راح يؤكد للملك بأن ثلاثمائة روماني مثله يحومون الآن حول معسكره يحدوهم العزم على قتله وانهم يتحينون فرصتهم. وصارحه بأنه ليس آسفاً بفشله في القيام بمهمته فهذا حكم القدر. وان رجلاً شهماً شجاعاً مثله يستحق ان يكون صديقاً للرومان لاعدّوا. وأصدق [پورسنا] ظنّه وأعلن عن ميله الى المهادنة، لا خوفاً من الرومان الثلاثمائة حسب اعتقادي - بل تقديراً لشجاعة الرومان عموماً(٤٦).

يجمع كلّ الكتاب على أن اسم الرجل هو [موشيوس نكيفولا](٤٧) إلاّ [اثندوروس Athendorus] ابن [ساندون Sandon]، فقد ذكر في كتاب مهدى الى [اوكتافيا] أخت [قيصر] ان اسمه [پوستموس] ايضاً. ولم يكن پوبليكولا يعتبر عداوة [پورسنا] خطراً على رومه قدر ما كان يعتبر صداقته ومحالفته عنهما لها وفائدة. لذلك عهد الى الملك [پورسنا] بمهّمة التحكيم بينه وبين [تاركوين]. وأثبت له ببراهين عديدة أن خصمه من اسوء الرجال وانه

= التي جيء بها من الارياف سترسَل للرعي في الحقول. وستكون تحت الحراسة. هذا الطُعم أجتذب العدو ليقع في كمين.

(٤٤) C. Mucius Cordus.

(٤٥) ليفي (١٢:٢) يقول ان [پورسينّا] هدد موشيوس بالتعذيب وبالنار ليرغمه على الاعتراف بشركائه وعندها دسّ موشيوس يده في النار ليثبت له انه لا يقيم اي وزن لتهديده.

(٤٦) [ديون] يعزو الصلح الى هجوم پوبليكولا الناجح الذي جاء ذكره في النص. فيسرده بوصفه نتيجةً لمأثرة موشيوس.

(٤٧) ساندون فيلسوف روائي من طرسوس. كان معلماً لأغسطس ثم لـ طيبريوس قيصر.

يستحق الحرمان من الملك. لكن [تاركوين] رفض بغطرسةٍ اي تحكيم، ولاسيما تحكيم [پورسنا] الذي نكث بعهدٍ قطعه له، فأغضب جوابه هذا [پورسنا]، وشكّ في عدالة قضيته، كما أنه مال الى الأخذ بحجج ابنه ارنوس الذي حرص على مصلحة رومه. وعقد صلحٌ بين الطرفين على الشروط التالية: أن ينزل الرومان عن جميع الأراضي التي اغتصبوها من التوسكان. وان يعيدوا اليهم كل الأسرى، وان يستعيد الرومان كلّ من لجأ منهم الى التوسكان[٤٨]. وتوثيقاً لعهد السلم هذا يقدم الرومان رهائن تتألف من عشرة من ابناء الپاتريشيين ومثله من بناتهم. وممن وقع عليه الاختيار [ڤاليريا] بنت پوبليكولا.

بعد هذه المواثيق توقف كل الأعمال العدوانية. وخرجت البنات الرهينات الى النهر للاستحمام في موضع يؤلف انحناءُ النهر خليجاً راكد المياه. ولم يجدن حراساً ولا مستطرقاً، فتشجعّن للسباحة الى الضفة الأخرى غير مباليات بعمق الماء وقوة التيار. ويؤكد بعضهم ان [كلوليا Cloelia][٤٩] عبرت على ظهر جوادٍ وحَمّلت الأُخريات على اللحاق بها. لكنهن أنّبنَ على عملهن بوصولهن سالمات ومثولهن بين يدي پوبليكولا واستنكر الأمر منهن وأشتد قلقه لئلا يفسر العمل تفسيراً سيئاً ويبدو هو أقل حرصاً على العهد من پورسنا. وان تفسر هذه الجرأة الانثوية، اخلالاً من الرومان وخيانة. فما كان منه إلاّ ان ردّهن الى پورسنا. لكن رجال [تاركوين] وقفوا على القضية فنُصبوا كميناً قوياً على الضفة الأخرى يريدون الايقاع بمن يرافقهن. وفيما هم مشتبكون اندفعت [ڤاليريا] بنت پوبليكولا مخترقةً صفوف الاعداء وافلحت في الفرار بمساعدة اثنين من خدمها اما الباقيات فقد طُوقّن واحدق بهم الخطر لكن [ارنوس] ابن پورسنا اسرع الى انقاذهن عندما بلغته الابناء. وانهزم العدو وسلم الرومان وشاهد [پورسنا] عودة الفتيات فسأل عمن دبّر الهروب واشار به، ولما ابلغ بأنها [كلوليا] رفعها بنظره اعجاب وسرور وامر ان يقاد اليه أحد خيوله فجيء بجواد مطهم فخم السرج نفيس الحلى واهداه لها. وهذا ما يقوم دليلاً للذين يزعمون ان [كلوليا] كانت الوحيدة التي عبرت النهر على ظهر جواد. اما من ينكر ذلك فيرى الهدية مجرد اعجاب توسكاني بجرأتها. وعلى اية حال يوجد تمثال فارسة ينتصب في [ڤيا ساكرا Via Sacra][٥٠] وانت ذاهب الى

---

(٤٨) طلب من الرومان اعادة سبع قرى كانوا قد انتزعوها من الڤينيتين Veientes في الحروب السابقة (ليڤي ١٣:٢).

(٤٩) يدلي [ليڤي ١٣:٢ و٦-١١] برواية مختلفة جداً عن حادثة كلوليا. المثل الذي ضربه موشيوس في الشجاعة آثار حماسة الفتيات وتخليداً لذكراها أقام الرومان في رأس الطريق المقدس تمثال Virgo insid-ens equa.

(٥٠) بعبارة لاتقبل لبساً يذكر لنا (ديون) انه لم يعد لهذا التمثال اي أثر في زمانه (ايام أغسطس) فقد اتت النار عليه. على أن پليني (٣٤:٦) يتفق مع پلوتارخ في هذا.

الپالاتيوم، يقول بعضهم انه تمثال [كلوليا]، ويقول آخرون انه تمثال [ڤاليريا]. وبهذا تصالح [پورسنا] مع الرومان وقدم دليلاً آخر على سماحته بأن أمر جنوده بترك المعسكر بأسلحتهم فقط، وخيامهم ملأى بالقح وغيره من المؤونة، هديةً للرومان. ومن هنا جاءت العادة المطبقة الى يومنا هذا، وهو أن ينادى بكلمة «پورسنّا» عندما يبدأ أي بيع علني لبضاعة، تخليداً لعطفه، وترى في مجلس الشيوخ ايضاً تمثالاً برونزياً له عتيقاً ساذج الصفة[٥١].

كان [ماركوس ڤاليريوس] أخو پوبليكولا و[بوستيميوس توبيرتوس Postimius Tuber-tus] قنصلين عندما اغار السابين على الرومان وتمكن [ماركوس] بفضل معونة پوبليكولا، وتصريف الشؤون العامة عنه من احراز انتصارين كبيرين. قتَل في اولهما ثلاثة عشر ألف سابيني دون ان يخسر رومانياً واحداً. فأهدي له بيت بُني في الپالاتيوم[٥٢] على حساب الخزينة العامة اعترافاً بفضله. وفي حين كانت ابواب سائر البيوت تفتح الى الداخل. جعلت ابواب بيت ماركوس تنفتح الى الخارج، تأكيداً لأعتراف الجمهور الأبدي بجميله، لأن ذلك يشير الى افساحه لاي اقتراح في اقامة قرابين عامة. واليونان[٥٣] عموماً كانوا ينهجون هذا النهج في هندسة بيوتهم منذ القديم وهو ما يستدل عليه من تمثيلياتهم الهزلية لأن من يريد الخروج الى الشارع يعمل ضجة مسبقة قرب الباب تنبيهاً للمارة والمتسكعين في الشارع انتخب پوبليكولا قنصلاً للمرة الرابعة، لمّا هدّد التحالف بين السابين واللاتين باثارة حرب جديدة[٥٤]، كذلك انتشر خوفٌ غامض في المدينة بسبب تواتر حوادث اجهاض النساء، حتى لم تحصل ولادة واحدة في أجَلِها الموعود. ورجع پوبليكولا الى كتب [السبلليّن Sibyl-line][٥٥]، ثم ضحّى لپلوتو، وجدّد انشاء العاب معيّنة أمر بها ابوللو. فاعاد الى المدينة

(٥١) كذلك ارسل اليه المجلس سفارةً مع هدية تتألف من عرش مطعم بالعاج وصولجان وتاج من الذهب. ورداء النصر. ولم يذكر هو أو ليڤي شيئاً عن التمثال البرونزي هذا.

(٥٢) نصب امام هذا المنزل تمثال برونزي لثور وهو شعار ڤاليريوس الذي كان نصره سبباً في المحافظة على الزراعة وخيرات روما (انظر پليني ١٥:٣٦).

(٥٣) كان لـ(پوستيميوس) حصته في هذا النصر كما كان له سهمه في الأعمال الجليلة التي تمت.

(٥٤) يعرض ليڤي (٦:٢، ٢-٦) وصفاً جد مقتضب لهذه الحرب.

(٥٥) قصدت تاركوين امرأة مجهولة الهوية عارضةً عليه تسعة مجلدات من النبوءات كان قد دونها المدعو سيبيل من كوما وطلبت ثمناً لها مبلغاً كبيراً من المال أستكثره وابى شراءها. فأحرقت ثلاثة منها وعرضت عليه الستة الباقية بالثمن عينه فرفض بسخرية. فأحرقت ثلاثة أخرى وطلبت للثلاثة الباقية الثمن الذي حددته للتسعة. فأستغرب الملك من سلوكها العجيب ودفع بالكتب الثلاثة الباقية الى العرافين لفحصها فنصحوا بشرائها مهما غلى ثمنها، ففعل وعين اشخاصاً من ذوي الجاه والمكانة أطلق عليهم اسم دووميڤري Duamviri ليكونوا اوصياء عليها. فحفظوها في خزانة تحت معبد (جوپتر) الكاپيتولي وبقيت هناك حتى أتت نار الحروب المارسيّة على المعبد [ديون ١٤:٤] هؤلاء الحفظة الاوصياء الذين زيد عددهم فيما بعد الى العشرة، كانوا يعودون الى تلك الكتب يستشيرونها بامرٍ من مجلس الشيوخ كلما أحدق =

الثقة بالآله. ثم استعدّ للقضاء على تهديد البشر لها، وبدت الاستعدادات العظيمة وأثر الحلف القويّ. وكان يوجد بين السابين شخص يدعى [ابيوس كلوسوس Appius Claus-es][٥٦] وهو من أعظمهم ثراء واقواهم جسماً، ولكن أخلاقه العالية ابرز ما فيه فهو ذو منطق حسن وكلام مقنع، على أنه لم يتخلص من الحاقدين والحساد وتلك حال جميع العظماء المشاهير، لقد زاد من حقدهم عليه وقوفه ضدّ هذه الحرب وظهوره بمظهر المدافع عن مصالح الرومان. وقيل ان غايته من دفاعه هذا، هو السيطرة على بلاده وادراكه التام مدى تحبيذ العامة لفكرته. ومدى خطلها عند العاملين لاثارة الحرب. وكان خائفاً من أحالته الى المحاكمة، لكن لما كان اصدقاؤه قد عاهدوه على الفكرة ووعدوه بالمساعدة فقد اثار فتنة بين السابين عوّقت نشوب الحرب. وكان [پوبليوكولا] واقفاً على دوافع هذه الفتنة، فلم يأل جهداً في تأجيج وتوسيع رقعتها. وبعث وفداً يحمل رسالة الى [كلوسوس] يمدحه فيها ويشيد بطيبته وحسن نواياه قائلاً انه يرى انه لا يليق بالمرء مهما بلغ الأذى الذي ناله، أن يطلب من بني قومه ثأره. ولأجل سلامته، يدعوه انه شاء الى النزوح عن أرض اعدائه والقدوم الى رومه وسيرحّب به الشعب الروماني ويستقبله بالاكرام اللائق بمقامه وسجاياه الرفيعة. فوزن [كلوسوس] المسألة وزناً دقيقاً ووجد انها خير حل تُمليه الضرورة. وشاور أصحابه واتصل هؤلاء بآخرين والتأم شمل الجميع وشدوا الرحال الى رومه. وكانوا خمسة الآف أسرة[٥٧] بأطفالها ونسائها. من أطيب السابين خلقاً وأهدأهم مزاجاً وابلغ [پوبليكولا] بدنوهم فخرج لاستقبالهم بكلّ مظاهر الحفاوة والصداقة منحهم فوراً حق التصويت وخصص لكل فرد مساحة من الأرض تبلغ ايكرين، على ضفاف نهر آنيو Anio، ومنح [كلوسوس] خمسة وعشرين (ايكرا) واعطاه مقعداً في مجلس الشيوخ، وهذه بداية لسلطة سياسية استخدمها بتعقّل وحكمة دفعت به الى احضان الشهرة واكسبته نفوذاً كبيراً. فكان عميداً للبيت (الكلودي)[٥٨] الذي لايقل شرفاً عن أعرق بيوت رومه.

= بالبلاد خطر عصيان أو حلت بالجيوش الرومانية هزيمة. أو حصلت مخاريق يظن انها طالع نحس. كما كان هؤلاء يترأسون تقديم القرابين، والعرض المرسحي الذي تأمر به تلك الكتب تهدئة للغضب السماوي.

(٥٦) يسميه [ديون ٥:٧] تيطس كلوديوس Titus Claudius وليفي بسميه [أتّا كلوسوس Atta Clausus] وفيما بعد [ابيوس كلوديوس Aippius Cloudius].

(٥٧) هذا يعني عشرين الف شخصٍ على الأقل، بمعدل اربعة افراد في الأسرة الواحدة، كان نصيب كلّ فردٍ نصف ايكر.

(٥٨) في روما اسرتان شهيرتان باسم كلودي Cloudii أحداهما پاتريشية والأخرى پليبيّة. الأولى أطلق على أفرادها لقب پولكر Pulcher والثانية أطلق عليهم لقب مارجللوس Marcellus. وقد خرج من الثانية ثلاثة وعشرون قنصلاً، وخمسة دكتاتورين، وسبعة تقلدوا وظيفة چنسور، ونال اثنان من القواد فيها موكبي نصر وتكريمين. ومنها نبغ الامبراطور طيبريوس ومن اتباعه تألفت العشيرة الكلودية (أنظر ليڤي وديون).

إن نزوح هؤلاء هدأ من الأمور في بلاد السابين. على أن رؤوساءهم وزعماءهم ما كانوا يريدونهم ان يخلدوا الى الراحة والاستقرار. وزاد من حنقهم ان [كلوسوس] اجهض محاولة الانتقام الذي دبروه، بفراره وانحيازه الى الرومان بعد أن استمر في معارضته له ونجح بتعويق الحرب الى امد. فساقوا جيشاً جراراً وعسكروا على مشارف [فيدينيا] ونصبوا كميناً بألفين من الرجال قرب رومه، ووزعوا قواته في عدد من الوديان والغابات وزودوها بأمر يقضي عليها بالخروج من مكامنها فتعيث في البلاد فساداً ونهباً وان تقترب من المدينة ثم تتراجع امام العدو لتجره خلفها وتوقعه في الكمائن. وما لبث بوبليكولا ان وقف على الخطة من جماعة الفارّين فقسم قواته بمجموعات ثلاث واناط بزوج بنته [بوستيميوس بابلوس Posti-mius Bablus] قيادة ثلاثة آلاف محارب يخرجون مساءً ويحتلون التلال التي تشرف على مكامن الأعداء، ويراقبون حركاته واناط بزميله القنصل [لوكريتيوس] قوة تتألف من اشجع الرجال واسرعهم لمقابلة خيالة العدوّ. بينما تولى بنفسه قيادة بقية الجيش الذي أوكلت اليه مهمة التعرض للجيش السابيني. وانتشر فجأة ضباب كثيف وقام [بوستيميوس] في الصباح الباكر بالهجوم على مواضع الكمائن بصياح داوٍ منحدراً من التلال. وهجم [لوكريتيوس] على الخيالة الحقيقة وحاصر بوبليوكولا وحلت الهزيمة بالسابين من كل ناحية عسكروا بها وراح الرومان يفتكون بالمنهزمين من غير ان يلقوا مقاومة اذ كان املهم بالنجاة هو الذي يوردهم موارد حتوفهم لأن كل موقع كان يتوهم الموقع الآخر سليماً صامداً فلا يبدي قتالاً ولا يثبت محاربوه في مواضعهم فيخرج من في معسكر الى الكمين، ومن هم في الكمين يهرعون الى المعسكر فيلتقي الفارون بالفارين ليجد الاثنان انهما يطلبان الحماية أحدهما من الآخر. على أنه قرب مدينة [فيدينيا] من السابين هو الذي انقذ البقية الباقية منهم، ولاسيما الهاربون من المعسكر. أما من لم ينجح في الوصول الى المدينة فإما هلك أو وقع أسيراً. ومع ان الرومان يعزون نصرهم الى أحد آلهتهم فإنهم يقرون بالفضل الى قيادة قائد واحد. ويقال ان الجنود كانوا يتحدثون فيما بينهم قائلين: «ان بوبليكولا دفع بالعدو اليهم وهو أعمى أعرج لا يعوزه إلاّ السلاسل، ليذبحوه بحد سيوفهم» وغنم الرومان ثروة كبيرة من الأسرى والأسلاب.

بعد أن انجز بوبليكولا نصره واودع مقدرات المدنية الى رعاية خلفائه القناصل. قضى نحبه وانتهت بذلك حياة حافلة بكلّ ما هو شريف ونبيل(٥٩). على قدر ما تكون حياة البشر، وبدا

---

(٥٩) يقول ليڤي (٢:١٦ و٧) «في السنة التالية انتخب أكريبا مينيموس وبوبليكولا بوستيموس. كان بوبليكولا ڤاليريوس باجماع الكل اعظم الرومان وانبغهم في فنون الحرب والسلم توفي وهو في قمة مجده وبلغ من الفقر حداً انه لم يخلّف ما يكفي لسد نفقات جنازته لذلك دفن على نفقة الدولة. وليست النساء الحداد عليه مثلما فعلن عند موت بروتوس... كان على بلوتارخ هنا أن ينوه بفقرة تنويها واضحاً، لأن الجنازة التي =

وكأن الشعب لم يكرم الراحل في اثناء حياته الاكرام الواجب وانهم مازالوا مدينين له. فقرروا ان يكون تشييعه شعبياً وساهم كل مواطن بكوادرانس Quadrans(*) واحد للنفقات واستصدر قرار خاص للنساء بلبس الحداد عليه سنة كاملة وهي شارة تكريم انفرد بها دون غيره. ودفن حسب رغبة الشعب داخل اسوار المدينة(٦٠)، في جزء منها يدعى [ڤليا Velia]. ومنح نسله امتياز الدفن فيها. والآن لم يعد يدفن هناك أحدٌ عن أعضاء الأسرة على كل حال. اذ يحمل جثمان الميت اليها عادة ويوضع فيها، ثم يأتي شخص ويضع مشعلاً تحت الجنازة ثم يسحبه حالاً، كدليل على امتياز الميت وعلى تنازله عنه. وبعد ذلك يرفع الجثمان ويحمل الى المقبرة.

= تنفق عليها الدولة وهي أحياناً من قبيل الشرف الذي تحفله على الميت. ولا شك ان المبلغ الذي أكتبته السكان كان كبيراً.

(*) عملة رومانية.

(٦٠) في الأصل كانت عادةً إلاّ ان الالواح الاثنتي عشرة منعت الدفن داخل الاسوار. وبعد هذا صار دفن الموتى يتم على جانبي الطرق الخارجية العامة. وأحتفظ بامتياز الدفن المدينة لأولئك الذين قدموا خدمات جليلة للدولة كما هو الحال عند الاغريق. ويقول [ديون] انه امتياز خصّى به پوبليكولا لكن پلوتارخ يطذكر في موضع آخر ان [فاريچيوس] حظي بهذا الامتياز ايضاً كما حظي به كل من دخل في موكب نصر على ما يؤكده لنا پيرّ Pyrrho من ليپارا Lipara.



أوكتافيا

أوجه المقارنة بين پوبليكولا وصولون

هناك شيء فريد في هذه المقارنة، لا وجود له في أية سيرة من السير الأخرى. وهو ان أحدهما لابُدّ ان يكون مقلداً للآخر وان السابق كان خير مثال للاحق. فعند تأمل عبارة صولون التي فاه بها امام [كروسوس] بخصوص سعادة [تللوس]. يتضح انها أكثر انطباقاً على پوبليكولا. اذ ان سجايا [تللوس] وميتته المثالية اكسبته صفة اسعد الناس، ومع هذا فان صولون لم يشد به في شعره، كما لم ينل أحدٌ من صلبه ولا رؤوساء قومه امتياز نصب تذكاريّ لكن حياة پوبليكولا كانت ابرز حياة بين الرومان، لاخلاقه وللسلطة التي حازها. فيها قد مرّ على وفاته قرابة ستمائة عامٍ[١] ومازالت اسر رومه العريقة مثل پوبليكولي Popico-lae ومسّالي Messalae وڤاليري Valerie[٢] تعتبره أصل عراقتها وبذرة نبالتها. ومع ان [تللوس] صمد في موقعه وقاتل قتال الجندي الباسل فأنه قتل على يد اعدائه لكن الأسعد منه حظاً، هو من قتل اعداءه ورأى بلاده منتصرة تحت زعامته وبلغت به مآثره وانتصاراته المجيدة، نهاية سعيدة، وهذا هو مطمع صولون. وان الصرخة التي أطلقها في قصيدته بهجاء [مينرموس Minnermus)][٣] حول استمرار حياة الانسان: «الا فليسر قلب الصداقة المخلص في ركاب نعشي فيُصعد حسرة أليمة، ويُذرف دمعة رثاء».

وهي شاهد على سعادة پوبليكولا، فموته لم يقتصر على استدرار الدمع من عيون اصدقائه ومعارفه فحسب وانما كان مصدر حزن واسىً عامٍ لكلّ المدينة. وبدت النسوة وكأنهن فقدن به ابناً إو أخاً أو أباً. قال صولون «لست بمن يكره الغنى، لكني ارفض الغنى الذي يأتي بطريق غير مشروعة لأن عاقبته دينونة. على ان ثراء [پوبليكولا] جاءه بطريق مشروعة، لا بل انفقه

---

(١) يبدو من هذه العبارة ان پلوتارخ كتب هذه السيَر في بداية حكم الامبراطور تراجان.

(٢) أعني الڤاليري الآخرين وهم ماكسيمي، كورڤيني، پوتيتي، ليڤيني، فلاچي.

(٣) مخترع البيت المخمس في الشعر. هو شاعر موسيقي من كولوفون أشتهر بمريثاته بصورة خاصة. ولم يصل لنا منها غير مقطوعات قليلة وقد وصفه الشاعر (هوراي) فوق [كالليماخوس].

في اغراض سامية نبيلة. وصرفه على وجوه البر والاحسان ولذلك يجب علينا ان نقرّ بان پوبليكولا هو الأسعد وان ما اعتبره صولون اكمل الصلاح وأعظمه توفر في پوبليكولا ومارسه وتمتع به في موته.

ويمكن القول ان لصولون يداً في مجد پوبليكولا، كذلك يصحّ القول ان پوبليكولا يداً في مجد صولون باختياره اياه نموذجاً يحتذى ومرشداً في سن الأنظمة الديمقراطية وجدّه من السلطة المفرطة للمنصب القنصلي. والواقع انه نقل عدداً من قوانينه الى رومه مثل اعطاء الحق الجمهور في انتخاب الرؤوساء، ومنح الحرية للمحكومين باستيناف احكامهم امام الجمعية العامة كما أعطى صولون هذا الحق للمحلفين. انه لم ينشيء مجلس شيوخ[٤] كما عمل صولون، لكنه وسّع المجلس القديم حتى ضاعفه اوكاد. ويعود استحداثه منصب امين الخزانة الى صولون نفسه. والحكمة في هذه البدعة انصراف رئيس الدولة الفاضل الى الأمور الهامة، لا مباشرة الأمور الثانوية كالمسائل المالية، اما اذا كان سيّء الخلق فقد يزيد المال في غوايته ان انيط به المال والحكم معاً. وكره الاستبداد عند پوبليكولا أشدّ منه عند صولون، وفي قوانين صولون لا يمكن معاقبة شخص يحاول اثارة فتنة أو تدبير مؤامرة إلاّ بعد ادانته قضاءً. بينما اجاز پوبليكولا قتله قبل اجراء محاكمته. وارتفعت منزلة صولون حقاً عندما عرض عليه الحكم المطلق بحكم الظروف وقومه يلحوّن عليه في قبوله. الاّ أنه أبى ذلك. لكن فضل پوبليكولا لا يقل عن فضله، فقد تسلم قيادة لاحدّ لسلطانها فحولّها الى حقوق للجمهور، ولم يستعمل كل الصلاحيات التي يمارسها القنصل بحكم منصبه. وعلينا ان نتذكر بأن صولون كان أول من راعى ذلك:

الشعب يُجلّ قدر حكامه دوماً، عندما لايعتدون عليه ولايسايرونه.

ان الغاء الديون كان من معجزات صولون. وكانت وسيلته العظمى لتثبيت حريات المواطنين. إن كل قانون يمنح حقوقاً متساوية لسائر الطبقات هو قانون لا فائدة منه حين يضطر الفقراء الى تضحية تلك الحقوق على مذبح ديونهم. ففي هذه الحالة يكونون رهن اشارة الاغنياء وطوع امرهم سواء في المعابد العامة ومحرابها أو في دور العدل ودواوين الحكومة وعلى الخصوص في اثناء المناقشات العامة، إن أعظم نجاح لصولون اي الغاء الديون ادّى فعلاً

(٤) يفهم من النصّ ان پلوتارخ يقصد الشيوخ (أو مجلس الاربعمائة) لا المجلس الاريوباغي، ان مجلس الاربعمائة الذي يقرر ما يجب عرضه على الشعب من أمور. وليس ثم ما يمكن أقتراحه غير ما تم عرضه على الجمعية العامة وهضمه هؤلاء، لذلك المجلس على قدر الإمكان وسيلةً لكبح الشهوة الى الاستبداد عن دالحكام الاعلين، والرغبة في الحرية المنطلقة من كلّ إسار عند الطبقات الدنيا فالاريوباغوس يكبح الاولين، ومجلس الشيوخ اداة استئصال الثاني.

الى اجحاف بحقوق طائفة من الدائنين الاّ انه كان علاجاً خطراً فعّالاً انهى الأجحاف العام الذي أزم الوضع في المدينة. وسمعة صولون الشخصيّة وقيمته ترتفع كثيراً عما وصم به من سوء التغيير وانتقص من شأن مبادىء الحكم التي وضعها، فقد كانت نسيج وحدها، لم تحذ فيها حذو احدٍ وأكملها وحده دون معاونة آخرين وبمجهوده الفردي فحسب، على أن آخر حياة پوبليكولا كانت أسعد وأحلى من نهاية حياة صولون، فقد شهد هذا الأخير بام عينه انهيار جمهوريته. اما پوبليكولا فقد خلف دولته بحالة جيدة ونظام تام وبقيت كذلك حتى الحروب الأهلية. وترك صولون قوانينه بعد ان سنها وحفرها على الخشب وغادر آثينا ولم يخلف حماة لها في حين ظلّ پوبليكولا يجاهد في تثبيت اقدام نظام حكمه، سواء وجد في الحكم أم كان خارجه. ومع علم صولون بنوايا [پسستراتوس] واطماعه الاّ انه لم يحرك ساكناً لوقفه بل ظلّ مكتوف اليدين امام عملية الغضب وهي ماتزال تحبو على أربع في حين قوّض پوبليكولا صرح الملكية وسحقها وهي في عنفوانها ثابتة البنيان راسخة الجذور لطول العهد بها فكانت ميزاته مساوية لميزات صولون، اللهم الا حسن الحظّ (فقد حالفه وحده دون صولون). وحرية ممارسة السلطان وكلاهما عاملان كفيلان بتحقيق تلك الأهداف(٥).

وفي الشؤون العسكرية نرى أن [دياماخوس Diamachus] الپلاتي Plataea، لايقرّ لصولون حتى بادارة دفة الحرب ضد الميغاريين كما اسلفنا. في حين ان پوبليكولا خرج منصوراً في معظم الحروب التي خاضها جندياً بسيطاً أو قائداً، اما في السياسة الداخلية فنجد ان صولون لم يتمكن من حمل مواطنيه على مواصلة الحرب لاستعادة سلاميس الاّ بالخداع وانتقال الجنون. اما پوبليكولا فقد عرض نفسه من البداية الى أعظم الأخطار. فأشهر السلاح ضدّ [تاركوين]، وكشف المؤامرة وفضحها وكان العامل الرئيس في القبض على المتآمرين والاقتصاص منهم. ولم يكتف بنفي المستبدين من المدينة بل قضى قضاً مبرماً على آمالهم في العودة. وكان مسلكة يتسم بالجراءة وقوة العزيمة في الأحوال التي تستدعي التحدي والمقاومة والمعارضة، وهو أجدر بالثناء في المواضيع التي تستدعي استخدام الكلام ولغة السلام وحيث يكون التطامن والتنازل واجباً. لقد نجح في كسب صداقة [پورسنا] وهو عدوّ رهيب لا قبل له بمقارعته. وقد يحتج بعضهم بان صولون استعاد سلاميس المفقودة في حين تنازل پوبليكولا عما غنمه الرومان من اراضٍ. لكن عامل الزمن يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار عند الحكم على الأحداث والوقائع، وسلوك السياسي الحكيم يجب قطعاً ان يتأثر بالوضع الراهن كثيراً ما

---

(٥) يقول (سترابو) انه أرسل في سفارة الى أمير من أمراء الهند يدعى الليتروخادس Allitrochades. وانه كتب تاريخاً للبلاد التي زارها، لا يصح الاعتماد عليه كثيراً.

يجب التنازل عن جزءٍ لئلا يفقد الكلّ، والسماح بالقليل لضمان الكثير. وبهذه الطريقة انقذ پوبليكولا املاك الرومان الخاصّة، باعادة ما غصبوه وكسب مؤناً من العدو لأولئك الذين كانت امنيتهم الكبرى الا بقاء على مدينتهم فحسب. وبايداعه الحكم في النزاع لخصمه نال النصر، فضلاً عن نيله ما كان هو نفسه ينزل عنه بطيب خاطر ليفوز بالنصر، الا وهو قيام پورسنا بانهاء الحالة الحرب وتركه الارزاق لهم. متأثراً بالسجايا الرومانية التي وجدها في قنصلتهم.

تيميستوكلس

THEMISTOCLES

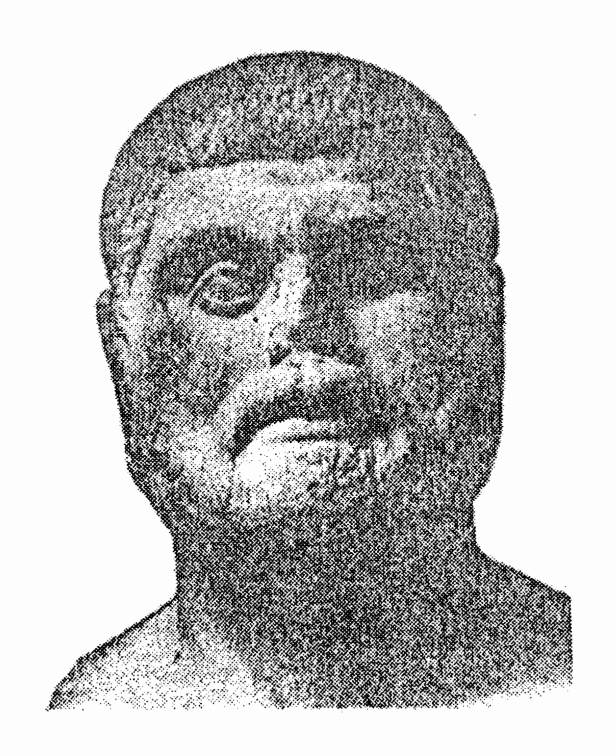
525-460 ق.م

اهم احداث عهده (ق.م)

٤٨٠ انتصار على احشويرش (ارتحششتا) في معركة سلاميس البحرية بعد عشرة اسابيع من مقتل ليونيداس في ثرموپيلي.

٤٧٩ هزيمة الفرس قيادة ماردونيوس في پلاتيا على يد پاوسنياس.

٤٧١ نفي تموستوكلي بقرار ابعاد ووصوله الى بلاط احشويرش.



تميستوكلس — متحف أوستا

كانت الملابسات التي صحبت ميلاد تمستوكليس أشد غموضاً وخمولاً من أن تشرفه[١].
فأبوه [نيوكلس Neocles] لم يكن من الآثينيين المبرزين، بل من سكنة مدينة [فرياري Phrearhi][٢] ومن عشيرة ليونتس واما عن امّه فلقد قيل أنها وضيعة الأصل:

«أنا لست من معشر الأغريق النبلاء. أنا [آبروتونون Abrotonon] المسكينة المولودة في تراقيا. فلتحبني النساء الأغريقيات ما شاء لهن الهوى. فأنا أم تمستوكليس!»[٣]

على أن [فانياس] يذكر ان أم تمستوكليس ليست من تراقيا، بل من [كاريا Caria] وان اسمها [يوتيربه Euterpe] لا [ابروتونون]، ويزيد [نياثس Neathes] على ذلك انها من مدينة [هليكارناسوس] في [كاريا]. ولما كان الابناء غير الشرعيين[٤]، وبضمنهم المولدّن، ومن كان أحد والديه غير آثيني، يترددون على [الكينوسارغس Cynosarges][٥] (وهو نادٍ للمصارعة خارج سور المدينة مكرس لهرقل - وهرقل هو كما لا يخفى من الأرباب المولدين لأن امّه من البشر)، فقد أقنع تمستوكليس عدداً من الشباب ابناء الوجهاء بغشيان ذلك النادي معه ليدلكوا اجسامهم بالزيت ويمارسوا الرياضة هناك. وكانت بدعةً اريبة تهدف الى ازالة التفرقة بين النبلاء والدهماء، ومحو التمايز بين الآثينيين الخلّص وبين المولّدين. على اية حال فهو لاشكّ يمت بصلة قربى الى البيت اللقوديمي[٦]، لأن [سيموينْدس] يذكر خبر بنائه هيكل

---

(١) ينمّ النص عن وجود مقدمة لهذه السيرة مفقودة.

(٢) هذا الحيّ من المدينة، سمي بهذا لوقوعه على الساحل قرب بيريوس حيث يوجد بئر بالقرب منه موضع يُحضر اليه كل محكوم بالنفي لجريمة قتل ارتكبها - عندما يتهم بجريمة أخرى [پاوسنياس ١:٢٨].

(٣) اثينوس ٨ ص ٥٧٦.

(٤) في آثينا قانون يقضي بان كل طفل من امّ أجنبية هو ابن سفاح وان كان ثمرة زواج شرعي. ولذا فهو لا يرث اباه. كما كان أحياناً يستثنى من العطاءات التي توزعها الدولة على مواطنيها [انظر سيرة پيركلس].

(٥) عن [پاوسنياس ١:١٩] في هذا الموضع كرست مذابح لكل من هرقل وزوجه هيبا Heba وامه ألكمينا، ورفيقه الذي يلازمه ايولاوس. وقد شرح (سويداس) أصل الكلمة. والغرض من الفصل الذي ذكره النص هو بلا شك للمحافظة على حسن السلوك ونقاء لغة الشاب.

(٦) Lycomedae من Lycus ابن پانديون. وهي أسرة أثينية قال پارسنياس عنها أن أعضاءها هم سدنة =

[فليا Phlya] الذي يعود الى تلك الأسرة وتزيينه بالتماثيل والصور وغير ذلك من الزخارف بعد أن أحرقه الفرس.

واجمع المؤرخون انه كان منذ فتوته مندفعاً متهوراً سريع الخاطر، ذا ميل شديدٍ الى خوارق الأعمال، وضروب النشاط مع وضاعه اصله، ولم يكن يقضي أوقات فراغه وعطله الدراسية في اللهوّ والتبطل كغيره من الفتيان، بل يعكف على كتابة خطبة أو نظم القريض لنفسه، في مواضيع لا تخرج عن نقد زملائه وفي الإعتذار والترسلّ، وما انفكّ استاذه يقول له «انك يا ولدي لن تكون شيئاً صغيراً، بل شخصاً عظيماً، ولست ارى لك خلاصاً من هذا، أعظيم شرٍ كنت أم عظيم خير». وكان يضيق بالوصايا التي تبذل له بخصوص تحسين سلوكه وأخلاقه ولا يكترث بها، كما كان يستثقل تعلّم كلّ ما يمت الى الموسيقى وسائر الفنون التثقيفية الأخرى، ويصغي بكلّ جوارحه الى كل الدروس التي تلقى عليه في السياسة والحكم وادارة الشؤون العامة، وهو اهتمام يثير الاستغراب ممن كان في مثل سنّه، ولاشكّ انه متأت من قابلياته الطبيعية لمثل هذه الأمور. ولما كان فيما بعد يجد نفسه في صحبة أناس جمعهم الانس والطرب وسائر ما يدعى باللهو الحرّ - ويوجد اليه النقد أولئك الذين يعتبرون أنفسهم في أعلى درجات التهذيب، كان مضطراً الى الردّ عليهم بصلافة: انه بالتأكيد لا يستطيع ان يستخدم ايّاً من الآلات الموسيقية الوترية، لكن اذا وضعت في يديه بلدة صغيرة خاملة الشأن، فبإمكانه أن يجعلها مدينة عظيمة شهيرة. ويقول ستيسمبروتوس Stesimbrotus[٧] من جهة أخرى. أن [ثموستوكليس] كان أحد المختلفين الى دروس (اناكساغوراس) وانه درس فلسفة الطبيعة على يد [ميليسوس Melissus] خلافاً لما ورد في التواريخ[٨]. كان [ميليسوس] يقود الساميانيين Samian في حصار [پيركليس]، وپيريكاس أصغر سنّاً من تمستوكليس بكثير. وكان [اناكساغوراس] على صلة وثيقة [بپيريكاس] أيضاً، وبذلك يدعم هؤلاء قول

= معبد كيرسه Cerse ومتولى امور قرابينه في هذا المعبد الذي اعاد (ثيفس) بناءه تمارس طقوس التكريس وما اليها من الأسرار وقد انيطت حراسته بقبيلة چكروپيس.

(٧) من ثاسوس. شاعر غنائي وسوفسطائي مشهور في آثينا. عاش في ايام كيمون وپيركلس.

(٨) كانت ولادة [أنكساغوراس في السنة الأولى من الألمپياد السبعين (حوالي ٤٣٢-٤٦٠ ق.م) وهو في [كلازوميني] في ايونيا الآسيوية. من مفكري اليونان المشهورين كان عظيم النفوذ في آثينا عندما نُفي تمستوكليس. ربح تمستوكليس معركة (سلاميس) في السنة الأولى من الاولمپياد الخامس والسبعين ودافع [ميليسوس] عن [ساموس] قبالة پيركلس في السنة الرابعة من الالمپياد الرابع والثمانين. لذلك لم يكن ممكناً أن يتلمذ تمستوكليس على انكساغوراس الذي كان له من العمر عسرون سنة فحسب عندما انتصر هذا القائد في معركة سلاميس. كما انه لم يتتلمذ على ميليسيوس الساموسي الفيلسوف الطبيعي الشهير تلميذ پارمينيدس، اذ لم يعل قدره ويرتفع صيته الاّ بعد مرور ٣٥ سنة عن المعركة. ويذكر ان حصار ساموس حصل في العام ٤٤٠ ق.م.

القائلين ان تمستوكليس كان أحد المعجبين بـ[منيسيفيلوس Mnesiphilus] الفرياري الذي لايعد من الفصحاء ولا من من الفلاسفة الطبيعيين بل مُعلماً لما كان يدعى آنذاك - بالحكمة(٩)، وهو علم يتضمن شيئاً من الحكمة العمليّة. والحنكة السياسية ونشأ وتكامل من وقت صولون(١٠) كمذهب فلسفيّ. إلاّ ان المتأخرين الذين، خلطوا به صناعة المحاماة وعلوم القضاء وحوّلوا الجانب العملي منه الى مجرد فن للحديث وصياغة للعبارات، أطلق عليهم عموماً اسم السفسطائيين Saphist(١١). ولصق تمستوكليس بـ(منيسيفيلوس) بعد دخول الأخير حلبة السياسة.

لم يكن تمستوكليس في مبدأ شبابه متزناً هاديء الطبع منتظم التصرفات، فقد أطلق لنفسه العنان وارسلها على سجيتها دون رادع من عقل أو إعارة اذن لنصحٍ(١٢). فكان والحالة هذه عرضةً لشتىّ انواع المزالق، والتردي في اخطارٍ، وكان كثيراً ما يخلع العذار تماماً وينحدر بسلوكه الى أسفل دركٍ ويتخذ شرّ السبل وقد اقرّ هو نفسه بذلك اذ قال: «إن أكثر الأمهار جموحاً وشراسةً قد يغدو أجود حصان ان درب التدريب الصحيح وكسرت شكيمته». على ان الذين نبوا على هذه الوقائع قصصاً من نسبح مخياراتهم كقولهم ان اباه انكر نسبته اليه وان امّه ماتت حزناً لسوء سمعة ابنها، لاشكّ يفترون عليه ويكذبون. وهناك فريق يخالف مزاعمهم هذه ويقولون أن أباه صحبه لمشاهدة السفن القديمة وهي جانحة الى الساحل المحطمة متروكة. ليروعه عن ممارسة الشؤون العامة، وليوضح له كيف يكون مسلك الجماهير والدهماء ازاء قادتهم وزعمائهم، عندما لايبقى نفع فيهم.

---

(٩) في الواقع أن الحكماء الأولين كانوا في الوقت عينه من كبار الساسة. وهم الذين يمدون الحكومات بالانظمة والقوانين ويضعون المبادئ، وكان طاليس أول من تدرج في هذا السلم ليبرز عالماً طبيعياً.

(١٠) خلال فترة مائة عام أو مائة وعشرين تقريباً.

(١١) الصوفيست هم في الواقع بُلغاء أكثر منهم فلاسفة. برعوا في صياغة الكلام وتنميته بزخرف البيان. وهم سطحيون فكرياً كما يخبرنا [ديوغينس ليئريتوس]. وأول من سُمي بهذا هو (پروتاغوراس) الذي عاش في حدود الالمپياد الرابع والثمانين قبل ميلاد افلاطون بقليل. إلاّ ان سقراط الذي كان أكثر تعمقاً في مبادئ الأخلاق من السياسة والطبيعة والبلاغة والذي كان يهدف الى تحسين اوضاع العالم عملياً لا نظرياً، فقد أتخذ لنفسه لقباً أو صفة متواضعة وهو الفيلسوف Phelasophos اي محبّ الحكمة. ونبذ صفة صوفس Sophos اي الحكيم.

(١٢) يقول [ايدرمينوس] في صبيحة يوم شدّ تمستوكليس اربعاً من الغانيات الآثينيات الى عربة، وحملهن على سحب عربته هذه عبر السيرانيكوس على ملأ من الناس جميعاً في الوقت الذي كان الآثينيون يجهلون معنى الفجور والانغماس في اللهو والخمر والنساء. لكن ان كان مثل هذه الأمور مجهولاً حقاً عند أهالي آثينا فكيف تسنى لتمستوكليس أن يجد اربع عاهرات بمثل هذه الدرجة من الاستهتار والتبذل بحيث يقبلن بعرض انفسهم على هذا الشكل الفاضح؟

ومن الجلي الثابت أن ذهنه كان مشغولاً بالأمور العامة، مهتماً بها من البداية. كما تملكت روحه عاطفة جائحة للبروز والشهرة واللهفة الى ارفع المناصب. ولذلك قبل بدون تردد أن يكون موضع كره أكبر زعماء المدينة وأوسعهم نفوذاً وسلطاناً ولاسيما [اريستيدس Aristides] ابن [ليسيماخوس Lysimachus] الذي كان منه على طرفي نقيض دوماً. ومع هذا يبدو ان عداءهما المتبادل نشأ عن حادثة صبيانة تافهة جداً. فكلاهما كان متعلقاً بـ[ستسلاوس -Stes ilaus] الكيوسي Ceos الجميل الصورة، كما ذكر ارسطون الفيلسوف، وعلى أثر ذلك اتخذا مواقف متعارضة. وتنافساً في ميدان السياسة. ولا يعتقد أن تباين حياتيهما وأخلاقهما أدّى الى زيادة التناقض وحدة الخلاف. لأن اريستيدس ذو مزاج هاديء وخلق نبيل، وهو في الشؤون العامة يعمل دوماً لمصلحة الدولة بأمانة وأخلاصٍ وإنكار ذات، دون ان يسعى وراء المجد والشهرة لشخصه. وكثيراً ما كان يضطر مكرهاً الى معارضة (تمستوكليس) والتدخل للحيلولة دون ازدياد نفوذه، وذاك يثير الجماهير ويدفعهم الى كل انواع المغامرات، مبتدعاً مشاريع جديدة على الدوام.

لقد قيل ان تمستوكليس كان يصبو الى المجد، ويتلهف الى القيام بعظائم الأمور حتى بدأ مشغول البال متحفظاً كثير الانفراد بنفسه عندما نشبت معركة [ماراثون] مع الفرس، مع انه كان حدثاً. فاذا جرى الحديث أمامه عن مآثر القائد اليوناني المحنك [ميلتياديس]، اب الى بيته وامضى الليل مسهَّداً واجتوى المغاني التي اعتاد الاختلاف اليها لقضاء الوقت والتسلية وان سئل عما به ردّ على السائلين بقوله: ان التذكارات الحربية التي غنمها ميليتاديس لا تدع له سبيلاً للنوم» وكان يعارض كل من يقول ان معركة [ماراثون](*) ستضع نهاية الحروب، ويرى انها البداية لحروب اشدّ هولاً(١٣). ولذلك ظلّ في تأهب واستعدادٍ دائم وابقى المدينة مستعدة استعداداً حسناً متكهناً بما سيحصل، ببعد نظرٍ ولمصلحة بلاد اليونان بأسرها.

تعوّد الآثينيون اقتسام مستخرجات مناجم الفضة في [لورنتيوم](١٤) فكان تمستوكليس الرجل الوحيد الذي تجرأ فأقترح على الشعب الكفّ عن توزيعها بل صرفها على بناء السفن لاستخدامها في الحرب مع الايجنتان Aeginetans(**)، أغنى اقوام بلاد اليونان، الذين

(*) في العام ٤٩٠ ق.م.

(١٣) كان واثقاً تمام الثقة بان [داريوس] سيدرك بالأخير بالاّ سبيل له الى الاغريق الاّ مهاجمتهم بحراً بقوة لايستطيعون معها ابداء اية مقاومة.

(١٤) جبل يقع شرق اتيكا بالقرب من رأس (سونيوم). هذه المناجم أستغلت تماماً ونضبت في ايام پاوسنياس.

(**) ٤٨٤-٤٨٣ ق.م.

حققوا السيادة التامة على البحر بالسفن الكثيرة التي يمتلكونها. وسهل على تمستوكليس اقناعهم بذلك مجتنباً اي ذكر للخطر الآتي من [داريوس] والفرس الذين تفصلهم عن اليونان مسافة شاسعة ولم يكن زحفهم مؤكداً. لذلك ما كانوا يعتبرون حينذاك مصدر خطرٍ كبير. لكنه استخدم الكره الشديد الذي يحمله الآثينيون للايجنيتين استخداماً بارعاً، وحملهم على التأهب. وبنى بالمال المجتمع لهم مائة سفينة[١٥] وهي التي حاربوا بها [احشويرش: Xerx-es] فيما بعد. وأخذ يحوّل اهتمام المدينة منذ ذلك اليوم الى البحر بالتدريج اذ كان من رأيه أن بني قومه في البرّ ليسوا انداداً لجيرانهم، وان في امكانهم دحر الفرس بسفنهم وتزعم المدن اليونانية وبهذا «قلب الآثينيين من جنود محترفين الى بحارة وملاّحين يجوبون البحار» على حّد قول افلاطون[١٦]. وانتقد بأنه نزع الرمح والترس من أيدي الآثينيين وربطهم على لوح التجذيف. ويقول [ستسيمبروتوس] انه نجح في حمل المجلس على المصادقة رغم معرضة [ميليتاديس]. اما وانه جرح طهارة الحكم بهذا العمل واخلّ بتوازنه الصحيح، فهو مما لايقره الفلاسفة. لأن خلاص اليونان تحقق عن طريق البحر وان هذه السفائن هي صاحبة الفضل في اعادة تعمير المدينة بعد ان دمرت ولم تكن حالها حال المدن الأخرى المنكوبة. و[احشويرش] نفسه شاهد على ذلك، فمع ان قواته البريّة لم ينلها ضررٌ بعد هزيمته في البحر، فقد اضطر الى النكوص على اعقابه بعد أن أيقن بالاّ قبل له بمقارعة اليونان. وارى انه لم يخلّف وراءه [مارادنويوس Maradonius] لأملٍ خالجه في امكان قهرهم، بل ليحول دون مطاردتهم له.

وأثر بعضهم عن تمستوكليس حبه المال والغنى[١٧]. ويعزو بعضهم ذلك الى رغبة في الاكثار من جوده وسخائه، فقد كان يحبّ التقريب الى الآلهة بكثرة. وينفق ويسرف في اكرام الغرباء، ولذلك كان دوماً بحاجة الى المال. على أن بعضهم اتهمه بالشحّ والخسّة، وقالوا انه لايتردد في بيع كل ما يهدى اليه من زادٍ ومؤن. ومرة طلب من [ديفليليدس Diphilide] مربي الخيول أن يعطيه مهراً، فرفض ذلك فهدده [تمستوكليس] بأنه لن يمرّ وقت طويل إلاّ وسيجعل من منزله حصاناً خشبيّاً. يقصد أنه سيعمل على اثارة نزاع وخصومة بينه وبين أقاربه. وفاق الجميع في اطّلابه المجد والشهرة. ولما كان فتى يافعاً لا يعرفه الناس دعا الى داره (ايسكليس Episcles) الهرميوني الضارب الشهير الحاذق، الذي كان الاثينيون يتنافسون على دعوته - ليعزف له على العود، وغرضه من ذلك ان يجلب انتباه الناس اليه

---

(١٥) العام ٤٨٠ ق.م.
(١٦) القوانين ٤: ص ٧٠٦.
(١٧) هيرودوتس ٨:١١٢، يصوره انساناً جشعاً لايشبع نهمه الى المال ولعل جمعه الثروة كان يقصد منها تحقيق اطماعه بشراء الاعداد الكبيرة من الانصار، أو ربما ارضاء لنزعة البذخ والاسراف فيه.

وليسألوا عن بيته ويخشوا مجلسه. وعندما حضر الالعاب الاولمپية بمتاعه الفخم ومآدبه الباذخة وخيامه واثاثه النفيس محاولا الظهور بها على [كيمون] آثار عليه غضب اليونانيين الذين كانوا يرون ان هذا البذخ والفخفخة لا يجدران بشاب يافع غير مشهور لاينتسُب الى بيت عريق وليس لديه من الاسباب التي تؤهله لهذا المظهر. وفي مسابقة تمثيل فازت التمثيلية التي انفق عليها بالجائزة(١٨)، وكان مثل هذه المسابقات يثير وقتذاك كثيراً من الاهتمام والتنافس. ولذلك عمل تمستوكليس لوحاً ونقش عليه العبارة التالية «تمستوكليس الفرياري أشرف عليها Choregus وفرينيخوس Phrynichus(١٩) ألّفاها. وأديمانتس كان ارخوناً عند اخراجها». وكانت العامة تحبّه كثيراً، فقد اعتاد تحية المواطنين باسمائهم، واظهار نفسه بمظهر الحكم العادل في مشاكل الناس. قال مرة (لسيمونيدس](٢٠) الشاعر الكيوسي الذي طلب منه أمراً غير معقول عندما كان قائداً للجيش(٢١): «لن تكون ياسيمونيدس شاعراً مفلقاً إن كتبت شعرك باوزان مضطربة. ولن أكون حاكماً صالحاً إن صدرت قراراً غير عادلٍ ارضاءً لأحدهم» وفي مناسبة أخرى قال يسخر بسينونيدس: «انه رجل أقل تعقلاً من ان يتكلم ضدّ الكورنثيين سكان المدينة العظيمة. وأقل حصافة من أن ترسم له صور كثيرة ووجهه بهذا القبح».

وارتقى سلم الشهرة درجة درجةً وكسب محبة الناس. ومالبث ان تغلبّ حزبه على حزب [اريستيديس] ومنفاه دون محاكمة(٢٢).

(١٨) في زمانه بلغت التراجيديا اليونانية الغاية في النضج. وتعلّق بها الآثينيون تعلقاً شديداً حتى ان اهمّ ما كان يرضي الأهالي من حكامهم وعظمائهم هو ما يقدمه هؤلاء من عرضٍ لخير التراجيديات والاعداد لاخراجها مرسحياً بالزينات والزخرف. كما تخصص جوائز عامة للمجيدين المبرّزين.

(١٩) كان تلميذاً لـ(ثيسپس) مبتدع فن التراجيديا. وهو أوّل من أدخل العنصر النسائي الى التمثيليات. واهم ما قدمه «اكتيون، والكستس، دانائيده.» في حدود ٤٧٦ ق.م. وكان اسخيلوس معاصراً له.

(٢٠) أشاد [سيمونيدس] بمعركتي ماراثون وسلاميس في شعره. وقد نظم عدة قصائد ومرثيات وصلنا بعضها. كان صديقاً مقرباً ومحبوباً من (پاوسنياس) ملك سپارطه، و[هيرو] ملك صقلية. ولأفلاطون فيه رأي رفيع جداً حتى أنه خلع عليه لقب «الآلهي». أدركته الوفاة في السنة الأولى من الاولمپياد الثامن والسبعين وهو يبلغ من العمر تسعين عاماً تقريباً. ولهذا فلم يكن يتعدى الثمانين عندما وصف معركه سلاميس.

(٢١) ان عبارة «قائد جيش» الواردة في النص لا تنطبق على واقع تمستوكليس هنا وپلوتارخ يستخدم كلمة (زرادخوس) اي ارخون. في حين انه لا يمكن ان يكون كبيراً للاراخنة لأن صغر سنّه لاتؤهله لإشغال هذا المنصب ذي المسؤولية. ويظهر من توكيديدس (٩٣:١) وهيرودوتس [١٤٣:٧] أنه لم يبلغ هذا المنصب الرفيع الاّ بعد عدة سنوات.

(٢٢) ٤٨٢-٤٨٤ ق.م. لا يعلم من أستحدث عقوبة الإبعاد. يقول بعضهم انه (پسستراتوس) أو بالأحرى ابناؤه. ويقول آخرون أنها أوجدت بعد طرد اسرة بسستراتوس. في حين يدعى آخرون بانها قديمة تعود =

ثم زحف ملك الفرس على بلاد اليونان. واجتمع الآثينيون يتشاورون فيمن سينصب قائداً للجيش. وانسحب كثيرون من تلقاء أنفسهم وقد تهوّلوا عظم المسؤولية. وكان ثم خطيب جماهيري يدعى ابيكيدس Epicydes ابن يوفيميدس Euphemides وهو رجل فصيح اللسان، خائر القلب عبد للغنى، رغب في تسلّم القيادة وبدأ حظّه جيداً في نيلها، بتفوقه في عدد الأصوات. وقيل ان تمستوكليس لخشيته ان تقع القيادة في مثل هذه اليد، ويضيع كل شيء - عمد الى شراء منافسه بالمال ودفع له مبلغاً لقاء تنازله.

ارسل ملك الفرس وفداً مع مترجم يوناني، الى الاغريق بطلب «الماء والتربة»[٢٣] اعترافاً منهم بسلطته عليهم وخضوعهم له. فقبض (تمستوكليس) على المترجم ونفذ فيه حكم الموت بموافقة الشعب. لأنه اذاع أوامر البرابرة ومراسيمهم باللغة اليونانية. فنال عمله هذا كثيراً من الثناء. ولم يسكت عن ارثميوس Arthmius الزيّلي Zelea[٢٤] الذي جلب ذهباً من ملك الفرس ليشترى به ذمم الاغريق، فأسقط عنه حقوق المواطنة والغى جنسيته هو وأولاده ونسله من بعده. على أن أعظم ما عزز مكانته وقوى فيه، هو وضعه حداً نهائياً للحروب الداخلية في اليونان ونجاحه في تسوية خلافاتهم وإقناعهم بنبذ العداوات جانباً طوال حربهم مع الفرس. وكان [خليوس Chileus][٢٥] الأركاديّ عوناً له في ذلك على مل قيل.

بعد أن أخذ على نفسه قيادة القوات المحاربة الآثينية. راح يُغري أهل آثينا بترك المدينة

= الى زمن [ثيسفس] وبمقتضى هذه العقوبة يتم ابعاد الرجال الذين يقوى نفوذهم بحيث يصبح خطراً على المجتمع ويهدد سلامة النظام - الى خارج البلاد لمدة عشرة سنوات [ديودورس المرجع السالف ١١-٥٥ يحدد الابعاد بخمس سنين]. ويجب على المُبعد ان يترك حدود اثينا خلال عشرة ايام. والاسلوب المتبع في اصدار هذه العقوبة هو: يعطى كل مواطن كسرة من الفخار أو صدفة فيكتب عليها اسم الشخص الذي وضع ابعاده قيد الاقتراع. ثم تجمع القطع الفخارية بعد أن تكمل ستة آلاف (عدد المصوتين) ثم يبدأون بفرزها فمن ورد اسمه في اكبر عدد من القطع ينفى عن البلاد لمدة عشر سنوات. وكان الابعاد شائعاً في ارغوس وميليتوس وميغارا وغيرها والابعاد هو غير النفي لأن الأولى مؤقتة، ولأن المبعد يحدد له محل اقامة ولاتُصادر امواله. وتوقع العقوبة في لحظات تطغى عاطفة الحسد والغيرة والغيظ على النفوس. ولايلحق بصاحبها عار ولاتشوه سمعته ولاتسقط حقوق مواطنته.

(٢٣) هذا يعني طلب الخضوع والاستسلام المطلقين. إلاّ ان هيرودوتس [٣٢:٧] يؤكد بأن كيخسرو لم يرسل مثل هذا الوفد لا الى الآثينيين ولا الى اللقيديميين. لقد عومل سفراء ابيه معاملة في منتهى الفظاظة عندما تقدموا بهذا الطلب، ذا القاهم الآثينيون في الخندق حيث أعتادوا القاء مجرميهم المحكوم عليهم بالموت قائلين بشماتة «هنا تجدون ما يكفيكم من الماء والتربة».

(٢٤) [زيلة] هي بلدة في آسيا الصغرى تقع بين كبدوكيا والبحر الأسود. الاّ ان ارغيوس عاش زمناً طويلاً في آثينا. ولم يعلن عن «رداعته» لأنه «أدخل الذهب الفارسي» وحاول افساد ذمم عدد من كبار الآثينيين به وتم نفيه بنفير البوق. ينوه [ديموستينس] به أيضاً في [الفيليبيات ٤].

(٢٥) وهو الذي مارس نفوذه عند اللقيديميين وأقنعهم بوجوب ارسال مساعدة للآثينيين ضد [ماردونيوس] فاستجابوا له.

حالاً والابحار بسفنهم ومفاجأة الفرس بالحرب وهم بعدُ على مسافة بعيدة من سواحل اليونان. فعارض فكرته كثيرون. فقاد قوة كبيرة مع اللقيديمونيين ومسكوا مَمّر تمپه Tempe للمحافظة على [تسالي] التي أبت الرضوخ لملك الفرس لكن لما عادت تلك القوات دون ان تحقق غرضاً وبات معلوماً ان التساليين فضلاً عن جميع البلاد الممتدة حتى [بويوتيا] قد دخلت طاعة [أحشويرش] بدأ الآثينيون يدركون قيمة نصيحة [تمستوكليس] وزادت اهميّة مدينتهم، ولذلك أقروا الحرب البحرية وبعثوا به على رأس الأسطول لحماية مضايق ارتميسيوم Artemis-sium[٢٦].

والتقت اساطيل الحلف هنا. ورغب كل الأغريق ان تكون القيادة العليا للقيديمونيين وان يكون زعيمهم [يوريبيادیس Eurybiades] قـ داً عاماً لجميع القوات البحرية. إلاّ ان الآثينيين الذين كان عدد سفنهم يزيد على سفن كل حلفائهم[٢٧] أبوا أن يكونوا ثاني ايّ أوّل. حتى قام تمستوكليس مدفوعاً بادراكه أخطار هذا الخلاف، وتنازل عن القيادة الى [يوريبياديس] وحمل الآثينيين على القبول. وحفف وقع الأمر عليهم بقوله لهم: إن سلكوا في هذه الحرب مسلك الرجال فسيتحمل هو وحده كل المسؤولية الناجحة عن هذا التعيين. وسيجدون ايضاً ان الاغريق لن يترددوا في الخضوع الى قيادتهم طوعاً. واتضح ان تنازله هذا كان عاملاً أساسياً في خلاص بلاد الأغريق. وذيوع صيت الآثينيين في تفوقهم على أعدائهم بالشجاعة وعلى حلفائهم بالحكمة وبعد النظر.

وما ان وصلت العمارة البحرية الفارسية العظمى آفيتي Aphetae[٢٨]، حتى أصيب [يوريبياديس] بذهول للعدد الهائل من السفن الممتد أمامه. ولما أبلغ بأن مائتي سفينة أخرى تدلفّ خلف جزيرة سياثوس Sciathus، قرر ان ينسحب في الحال الى الشواطيء اليونانية، ومنها يبحر عائداً الى عدة مواقع في الپيلوبونيس لينضم اسطوله الى الجيش البّري المعسكر هناك، فقد كان رأيه انه يستحيل التغلّب في البحر على القوات الفارسية المجتمعة. وخشي الأيوبويّن Euboeans ان يخذلهم الأغريق ويتركوهم تحت رحمة العدوّ. فأرسلوا [پلاغون

(٢٦) في الوقت ذاته فكرّ الاغريق في الدفاع عن شعب [ثرموپيلي] براً ووجهوا اسطولاً لمنع مرور الاسطول البارثي من مضايق (ايڤيا) فاجتمع الاسطول في ارتمسيوم وهي أحد مرافيء الجزيرة (هذه الواقعة يوردها [هيرودوتس بتفصيل ٧:١٧٣].

(٢٧) ينبئنا [هيرودوتس] بان الآثينيين ساهموا بـ١٢٧ سفينة عززت فيما بعد بـ٥٣ سفينة أخرى في حين كان مجموع ما ساهم له سائر الاغريق لا يتعدى [٩١] سفينة منها (٢٠) سفينة آثينية أصلاً كانت معارة للخلقيدونين [٨:١].

(٢٨) هذه البلدة تقع في خليج [مغنيزيا] وسميت كذلك لأن الارغنوط على قول [سترابو ٩٠] انطلقوا منها في سبيل بحثهم عن الجزة الصوف أو إستناداً الى قول هيرودوتس [٧:١٩٣] لأنهم اقلعوا منها تاركين هرقل.

Pelagon] للمداولة سراً مع [تمستوكليس] ومعه مبلغ كبير من المال، فقبله تمستوكليس منه وقدّمه هوية الى [يوربيبادس][٢٩] على حَدّ قول [هيرودوتس] ولم يعترض أحد من بني قومه[٣٠] الذي لم يكن عنده من المال ما يدفع به أجور بحارته، ولذلك كان شديد الرغبة في العودة. لكن تمستوكليس أثار عليه الاثينيين فهاجموه ولم يبقوا له ما يتعشّى به، فأدركه ألم شديد وامتعض، لكن [تمستوكليس] سارع بإرسال مقدار من الأرزاق اليه في صندوق ووضع في أسفله تالنتاً واحداً من الفضة. ورجاه أن يتعشّى الليلة، ويدفع غداً لبحارته. وإن لم يفعل فسوف يذيع بين الآثينيين، انه قبل رشوةً من العدو. هذا ما رواه [فانياس] اللسّبي.

ومع ان المعارك العديدة[٣١] التي نشبت بين الأغريق في مضايق [يوبويا] لم تكن معارك فاصلة يتقرر فيها مصير الحرب. إلاّ أن التجربة التي استخلصها الأغريق كانت ذات فائدة جليلة. فقد ثبت لديهم عملاً ، وفي مواجهة الخطر الحقيقي أن عدد السفن أو الغنى والأبهة والزينة وصيحات الفخر، واناشيد النصر البربرية ليس فيها مما يخيف الرجال الذين عجموا عود القتال وحلبوا أشطرَه، وسرعان ما أدركهم الاستخفاف بمثل هذه المظاهر وبرزوا الى الاعداء غير هيّابين وصارعوهم وقارعوهم وقد شهد [پندار] ما فعلوا في القتال عند ارتميسيوم ووصفه ادق وصف وأصدقه بقوله:

«... فهناك ثبّت أبناء آثينا، الحجر التي استقرت عليها الحرية منذ ذلك اليوم»

إن أوّل مرحلة الى النصر هو أن يتحلى المحارب بالشجاعة، وكانت ارتميسيوم تقع في [يوبويا] فيما يلي مدينة [هستيا Histiaea][٣٢] يليها ساحلٌ مفتوح نحو الشمال. وتقوم مقابلها على مسافة قصيرة [اوليزون Olizon] في بلاد يحكمها رسمياً [فيلوكتيتس -Phi

(٢٩) يرويه هيرودوتس بالشكل التالي [٨:٥] «لما لم يفلح الايڤيان في اقناع [اڤريبيادس] بالبقاء في ساحلهم حتى يكلموا نقل زوجاتهم وأطفالهم. فانهم توجهوا الى تمستوكليس ودفعوا له ثلاثين تالنتاً. فرشا اڤريبيادس بخمسة منه. ثم لما كان [اديامنتس] الكورنثي القائد الوحيد الذي أصرّ على القاء المراسي، فقد صعد تمستوكليس الى سفينته وقال له باختصار «انك لن تتركنا يا اديامنتس، لأنك ستقبض مني لقاء قيامك بواجبك - ما يزيد على ما سيعطيك ملك الماديين لقاء خيانتك له». وبرّ تمستوكليس بوعده وارسل له ثلاثة تالنتات. وبهذا انجز ما اراده الايڤيان وأستبقى لنفسه في الوقت عينه اثنين وعشرين تالنتاً.

(٣٠) السفينة المقدسة هي السفينة التي أعتاد الآثينيون ارسالها الى [ديلوس] محملة بقرابين الـ(ابوللو) وهي كما يدعون عين السفينة التي حمل بها [تيسيوس] الجزية الى [كريت]. [انظر سيرة تيسيوس].

(٣١) اشتبكوا في معارك ثلاث خلال ايام ثلاثة، في آخرها حقق [كلينياس] والد [الكيبياديس] الاعاجيب. وكان قد بنى سفينة حربية وجهزها بماعتي مقاتل من حُرّ ماله.

(٣٢) [استيئا] مدينة ساحلية في [ايڤيا] و[أولنيرون] مدينة في تساليا. هنا يشير بلوتارخ الى قيام [فيلوقراطس] بارسال عدد من جنوده في حصار طوادة [هوميروس الالياذة ٢:٧١٧].

Ioctétes] وثم معبد صغير للآلهة ديانا يعرف باسم معبد الفجر يحفّ به الشجر وتكتنفه في سائر جهاته اعمدة من الرخام الأبيض إن فركتها بيدك تلونت بلون الزعفران وفاحت منها رائحة شبيهة برائحته. وقد نقش على أحدها الابيات التالية:

حارب ابناء اثينا في هذه المياه، عدداً لايدركه الحصر من

القبائل التي تدفقتّ من اصقاع آسيا. وبعد ان غلبوا هؤلاء

الميدين أقاموا لأرتميس هذا النصب شاهداً على ما عملوا.

وثم موضع مازالت العين تراه في ذلك الساحل. هو تلّ من الرمال كبير، يستخرج الناس من قلبه مسحوقاً أسود أشبه بالرماد، أو شيئاً أتت عليه النار، والمقول الشائع ان حطام السفن واجساد القتلى قد أحرقت هنا. لكن عندما وردت الأنباء من [ترموپيلي Thermopylae] الى ارتميسيوم[٣٣] تنعى لأهلها [ليونيداس Leonidas] الملك، وتقول ان [احشويوش] قد سيطر على كلّ المسالك البريّة، تراجعوا الى داخلية بلاد اليونان، وكان الآثينيون قد أوكل اليهم حراسة المؤخرة وحماية التقهقر وهو اشارة تكريم وواجب يحف به الخطر. وقد تاه الآثينيون وأختالوا زهوا لما تمّ على ايديهم نتيجة ذلك.

وعندما كان [تمستوكليس] يجوب البحر على طول الساحل، أخذ ينعم النظر في الامكنة والمواضع التي يحتمل ان ترُسى اليها سفن الاعداء. وعمد الى كل ما وجده فيها من صخور، وما نقله اليها من قطع رخام قريبة من مواضع الانزال المحتمل، أو على حافة الماء فنقش، نداءات ورسائل بخط كبير يناشد فيها الآيونيين أن يخلعوا نير الفرس ان كان باستطاعتهم ذلك وينضموا الى جانب الاغريق فهم اباؤهم واجدادهم وأصل نسبهم وهم اليوم يخاطرون بكلّ ما لديهم في سبيل حرياتهم. فإن تعذر عليهم ذلك فعليهم ان يعرقلوا زحف الفرس، ويوقعوا الاضطراب في خططهم ومعاركهم على الأقل. وكان أمله أن هذه النداءات ستدفع الآيونيين الى التمرد والثورة. أو اثارة المتاعب للفرس، عندما يساورهم الشكّ في أخلاص هؤلاء لهم.

ولم يبعث الأغريق بنجدات لما اجتاز [احشويرش] [دورس Dorus[٣٤]] وعزا بلاد [فيوكيس Pheocis] وراح ينهب مدنهم ثم يحرقها[٣٥]. وكان الآثينيون يودّون من صميم

(٣٣) كان على علم بأن [ثرموپيلي] هو شعب جبلي ضيق يقع بالقرب من [اڤريپوس]. في زمننا الحالي لا يرى اثر لهذا الخانق الجبلي نظراً لتراكم الرسوبيات. مما جعل الأرض المحيطة به مستوية.

(٣٤) مستوطنة في آسيا الصغرى. اصل أهلها من آتيكا.

(٣٥) يقصد نجدات من أخائيا والپلوپونيسوس. كان الدوريون قد انحازوا الى صفّ احشويرش الپارثي [هيرودوتس ٨: ٤٠].

قلوبهم أن تلتحم القوات الاغريقية بالفرس في [يوبوتيا] قبل أن يبلغوا اتيكا، مطبقين خطتهم البحرية التي اصرّ عليها تمستوكليس وهي التقدم بحراً حتى ارتميسيوم، الاّ ان الاغريق لم يستجيبوا لهم لأنهم ركزوا اهتمامهم كله بالپيلوپونيس، وتقرر تحشيد القوات كلها معاً في البرزخ، وبناء جدارٍ من البحر الى البحر في ذلك العنق الضيق من الأرض. واغتاظ الاثينيون وسخطوا حين وجدوا انفسهم مخدوعين بحلفائهم، على ما هم فيه من الوهن واليأس وارتخاء العزيمة بسبب الورطة التي كانوا فيها. فاشتباكهم وحدهم بحرب مع هذا الجيش الجرار دون معاونة الأغريق، ستكون عاقبته الهزيمة المؤكدة. والقوات الباقية كان مقرراً لها أن تترك المدينة وترابط في السفن، ولم يكن السكان كما أسلفنا راغبين في ترك مدينتهم، متصورين ان النصر بعيد المنال، وأنهم بعد تركهم معابدهم وتعريض قبور وانصاب اسلافهم الى عدوان الغزاة، لن يبقى لهم وسيلة أخرى للنجاة.

واسقط في يد تمستوكليس كما أسلفنا - وعجز عن تحبيذ الشعب رأيه[٣٦] وفشلت فيهم كل حجة عقلية أو منطقية، وهنا أطلق قابلياته الخلاّقة وراح يستخدم سلاح النبوءات والخوارق لغرض فكرته هذه فرضاً. فأولاً أختفى تنيّن [مينرڤا][٣٧] الذي كان محفوظاً في أعمق مكان من المعبد وقام كاهنه يذيع للناس بأن القرابين التي وضعت امامها لم تمسّ. وصرّح بايحاء من تمستوكليس أن الربّة تركت المدينة وسبقتهم في الهروب الى البحر، وأخذ يزيد من تذكيرهم بتلك بالنبوءة الأخيرة التي تحضهم على الركون الى الجدران الخشبية[٣٨]، موضحاً أن تلك الجدران المذكورة في النبوءة لايقصد بها غير السفن، وان جزيرة سلاميس لم تصفها النبوءة بالجزيرة البائسة الشقية بل بالصفات القدسيّة وما الى ذلك الاّ أنها ستكون في أحد الأيام

(٣٦) بالأخير نجح أعظم نجاح بحيث ان الجمهور الآثيني شرع يرجم كيرسيلوس Cyrsilus وهو خطيب كان شديد المعارضة له في الشؤون العامة. واما بخصوص إظهار الحبّ للوطن الأم، والتعلق بالنساء والاطفال المشردين، فقد أظهرن كرههن وخوفهن من فشل قضية الاغريق بسببهن فرحن يرجمن امرأة هذا الخطيب ايضاً.

(٣٧) استناداً الى هيرودوتس ٨:٤١] كان هذا التّنين حارساً للقلعة يعيش على التقدمات اليومية من اقراص العسل. وپلوتارخ على أكثر الاحتمال يعزو النبأ المذكور الى كاهنة [منيرڤا].

(٣٨) كانت هذه النبوءة الثانية التي تسلمها وفد الآثينيين من أرسطوتيكي عرّافة ابوللو. اما الأولى منهما فقد اتّسمت بالصرامة والشدة في الأمر بترك القلعة، وباعلان خراب المدينة الشامل. وكان تمستوكليس الموحي للكاهنة بهاتين النبوءتين دعماً للحظة التي نوى تطبيقها. وكان الرأي الارجح في تفسير عبارة «الاسوار الخشبية» التي تنصحهم النبوءة بالاحتماء بها انما تقصد بها القلعة لأنها محاطة بأطم خشبية. في حين فسرّها أخرون بأنها لا تعني غير السفن. وزعم تمستوكليس في مجال تفسيره الخاص. ان النبوءة لو قصدت ابادة الآثينيين لما وصفت اثينا بالمدينة «الخالدة» بل «التاعسة سلاميس». وان قولها «اولاد النساء» لا ينصرف الاّ الى الپارثيين الذين عرفوا بخنوثتهم الغاضحة [هيرودوتس ٧:١٤٣ و ١٤١].

عاملاً غي أعظم الخير للأغريق. حتى نجح في مسعاه، واستحصل مرسوماً يقضي بأن تودع المدينة الى رعاية [مينرڤا][39] ربة الآثينيين، وأن يمتطي متن البحر كل قادر على حمل السلاح بعد أن يعمل على ترحيل اولاده ونسائه وعبيده الى حيث يشاء. وبعد أن صودق على المرسوم باشر الآثينيون بنقل آبائهم ونسائهم وأولادهم الى [طروزين][40] فاستقبلهم أهلها باكرام ومودّة، وصوّتوا على قرار يقضي ان تكون معيشة اللاجئين على حساب الخزينة العامة بأن يدفع [اوبولان] يومياً لكلّ شخص، مع السماح للاحداث بقطف الفاكهة من حيث شاؤوا، وان يدفع للعلمين أجور تعليمهم، وكان صاحب هذا الاقتراح [نيكاغوراس Nicagoras].

لم يكن في اثينا خزينة عمومية في ذلك الحين، الاّ ان المجلس الاريوباغى وزّع على كلّ مجند في الخدمة العسكرية ثمانية دراخمات على حدّ قول ارسطو وكانت هذه الخطوة عاملاً رئيساً في سَدّ حاجة الاسطول من الرجال ويعزو [قليديوس] هذه الخطوة الى عبقرية تمستوكليس. ولما كان الآثينيون في طريقهم الى ميناء پيريوس Pirieus، اكتشفوا أن الترس الذي يحمل رأس (ميدوسا) مفقود، وبحجّة البحث عنه عاث تمستوكليس سلباً في الانحاء المجاورة، وعثر بين ما وقع عليه، على مقادير كبيرة من النقود المخفية فصادرها لانفاقها على الحرب. وهكذا تمّ تجهيز الجنود والبحار تجهيزاً حسناً لرحلتهم.

كان منظر أهالي آثينا عند ركوبهم السفن مما يثير الرثاء والاعجاب في آن واحدٍ، فتراهم وهم يرحّلون آباءهم وأولادهم الى الجزيرة بهدوءٍ وجلد ولاتتحرك عواطفهم بالدموع والصراخ، وأشد ما كان يبعث على الألم ان النازحين اضطروا الى ترك عدد كبير من الناس الطاعنين في السن في السفن حيث هم. والحيوانات الأليفة نفسها لايتمالك المرء نفسه من الشفقة عليها حين يراها تهيم على وجهها سائبة في أزقة المدينة تنبح وتصيح كأنما تطالب بأسيادها واصحابها. ومما روي أن كسانتپوس Xantheppus والد [پيركليس] كان يملك كلباً وفياً لم يتحمل البقاء وحيداً فقفز الى البحر وراح يسبح بمحاذاة السفينة التي أقلت سيده حتى بلغت جزيرة سلاميس فخرج من الماء وسقط ميتاً على الساحل من فرط الجهد، ويقال ان البقعة التي مازال ثم يطلق عليها «قبر الكلب» انما هي قبره.

من مآثر تمستوكليس العظيمة في هذه الأزمة، دعوة [اريستيديس] وهي مأثرة لاتقل شأناً عما سبقها. فقبل نشوب الحرب نفي هذا السياسي دون محاكمة بسعي الحزب الذي يتزعمه

(٣٩) نعتقد ان پلوتارخ وقع في تناقض. اذ كيف هذا في حين سبق له واخبر الآثينيين بان [منيرڤا] قد تخلّت عن المدينة؟!

(٤٠) قام آخرون بارسال ذويهم الى إجينا وسلاميس.

تمستوكليس وظلّ في دار الغربة، وقد تبين تمستوكليس بفكره الثاقب ان الشعب الآن آسفٌ لغيابه، وخشي من جهة أُخرى ان ينحاز للفرس ليثأر لنفسه ويلحق ضرراً بقضيّة اليونانيين فاقترح استصدار مرسوم يقضي بعودة المبعدين للمساهمة قولاً وفعلاً في قضية البلاد مع سائر المواطنين.

كان [يوريبيادس] بسبب بروز سپارطا على غيرها، قد نصب قائداً عاماً لكلّ الاساطيل الأغريقية، إلاّ انه كان قعيدهمة خائر عزيمة، كثير التردد في الساعات الحرجة. وكان من رأيه أن يرفع مراسيه ويبحر الى مضيق كورنث ليكون الاسطول قريباً من الموضع الذي عسكرت فيه الجيوش البرية. فعارض تمستوكليس في هذا. وتبودلت بهذه المناسبة تلك الأقوال التي أشتهرت وتناقلها الناس فيما بعد. قال [يوريبيادس] يريد أن يتخلص من لجاجة تمستوكليس: «الا تدري ان أولئك الذين يبدأون السباق قبل غيرهم يجلدون بالسياط»؟[٤١] فأجاب تمستوكليس «ومن يتخلف في السباق لايضفر له أكاليل الغار» فرفع [يوريبيادس] عصاه كأنما يهم بضربه. فقال له تمستوكليس «إضرب إن شئت، لكن اسمع» فعجب [يوريبيادس] لما أظهره من لين، وسمح له بالكلام، وبهذا تمكن تمستوكليس في الوصول الى أفضل التفاهم. وتوجه اليه أحد الواقفين قريباً منه، بقوله «لايجمل بمن ليس لديه مدينة أو منزل يخشى فقدانهما، إن يقنع الأخرين بالتنازل عن دورعم والنزوح عن بلادهم» فردّ عليه تمستوكليس قائلاً «حقاً اننا تركنا بيوتنا واسوارنا ايها العلج والوضيع، لأننا لم نر جديراً بنا أن نُستبعد لحرصنا على أشياء لا روح فيها ولا حياة، على أن مدينتنا هي أعظم مدن اليونان طراً، وقد جرّدت للحرب مائتي سفينة تقف الآن هنا للدفاع عنكم بعد أذنكم! فإن هربتم وغدرتم بنا كما فعلتم بنا مرةً في الماضي، فإن معشر الأغريق لن يلبثوا ان يسمعوا بنا استيلاء الآثينيين على بلاد جميلة ومدينة حرة كبيرة لاتقل بأية حال عن تلك التي فقدوها». هذا القول حمل يوريبياس على الشك في ان الآثينيين سيتركون خطّ القتال وينسحبون ان هو انسحب. وانبرئ أحد سكان اريتريا Eretria يحاجّ تمستوكليس فقال هذا له «الديك ما تتحدث به عن الحرب انت هي الشبيه بسمك الحبّار Cuttle الذي يملك غلاصم فارغه في موضع القلب.

وقيل، بينما كان تمستوكليس يقول هذا وهو منتصب في برج السفينة. شوهد بوم[٤٢] يطير

(٤١) لا بادرة تبدو من هذا القائد لتدل على افتقاره الى الشجاعة والبسالة بدليل ان اللقيديميين وهم أعدل الحكّام في تقديم ووزن اخلاق الرجال قدموا له غصن الشجاعة. كما انه عين قائداً لأسطولهم مرتين وان لم يكن يجري في عروقه دمٌ ملكيّ. هذه المحادثة عزاها [هيرودوتس ٨:٥٩] الى تمستوكليس واديامنتس قائد الكورنثيين؛ إلاّ أن نصّ پلوتارخ هو الراجح في ان اوريبيادس كان القائد العام.

(٤٢) طائر البوم مقدّس عند [منيرڤا] حامية مدينة آثنيا. وهو ينقش على كل الميداليات الآتيكية وقد شوهد =

عن يمين الاسطول، واقترب ثم حطّ فوق رأس الصاري. وهذا الفأل الحسن أقنع الاغريق بوجوب اتباعهم رأيه حتى أنهم تأهبوا حالاً للمعركة. ولكنهم نسوا نصيحة تمستوكليس بأسرع من لمح البصر عندما وصلت اساطيل العدوّ ميناء [فاليرم] على ساحل آتيكا. وغطت سفنهم الشواطيء وشاهدوا الملك يتقدم قواته البريّة الى الساحل بقضّها وقضيضها وعادت اعين البيلوبونيين تتطلع ثانية الى المضائق، وضاقت صدورهم بكلّ من لامهم على العودة الى ديارهم. واتفقت كلمتهم على الرحيل في تلك الليلة، وأعطيت للملاحين الجهة التي سيقصدونها.

وحزن تمستوكليس حزناً عظيماً لقرار الاغريق، وضياع فرصة الحرب في بحر ضيق الارجاء، ومداخل مائية قليلة السعّة، وآلمه أن يراهم ينسلون واحداً اثر الآخر كلّ الى مدينته. فأعمل التفكير واطال التأمل حتى اهتدى الى تلك الخطة التي قام بتنفيذها سيكيناس Sicin-nas[٤٣] وكان هذا أسيراً فارسياً شديد التعلق بتمستوكليس، مربّياً لأولاده. يتوخى مصلحته ويعمل على خدمته. ولهذا يرغب ان يكون أول من يخبره بأن الآثينيين قد تأهبوا للفرار، ويشير عليه بأن يحول دون ذلك بالانقضاض عليهم اثناء الهرج والمرج، وهم بعيدون مسافةً عن جيشهم البريّ، وهذا ما يضمن له تدمير كل قواتهم البحرية فسرّ احشويرش بالرسالة سروراً عظيماً وصدّقها وعدّها صادرة من شخص لايريد له إلاّ الخير. وأصدر أوامر فورية لضباط سفنه بان ينطلق حالاً بمائتي سفينة ويحيط بكلّ الجزر ويضبط المداخل والمضايق حتى لايدع للأغريق سبيلاً للفرار. وبعد ذلك عليهم ان يحملوا مع باقي الأسطول على العدو، على رسلهم.

لم يعرف بتدبير تمستوكليس هذا أحد، الاّ ان ارستيدس ابن ليسيماخوس كان أول من حزره، فقصد خيمة عدوّه لا للتصافي وطرح الأحقاد، (لأنه نُفي بمساعيه) بل لينبئه بأن العدوّ قد طوقّهم. وكان تمستوكليس خبيراً بسماحة ارستيدس، ثم ان زيارته وقعت في نفسه موقعاً عظيماً في تلك اللحظة، فلم يكن منه إلاّ وصارحه بما فعله [سيكيناس] وطلب منه ان يستفيد من الثقة التامة التي يودعها فيه الأغريق، فيساعده على أغرائهم بالبقاء حيث هم ودخول المعركة مع العدو في المضائق. واستحسن ارستيدس الفكرة وذهب الى القادة الباقين وربانية السفن وحمسهم وشجعهم على النزال. على انهم لم يصغوا الى قوله حتى انفصلت

= في كل ما هو موجود فيها.

(٤٣) كان [اسخيلوس] موجوداً في هذه المعركة وقد تكلم عن [سيكيناس] اذ قال «واحدٌ من الاغريق من مرتبات الجيش الآثيني أخبر احشويرش الخ...» في الواقع ليس من المحتمل ان يوكل تمستوكليس أجنبياً أمر رعاية اولاده.

سفينة تينوسية Tenos(٤٤) بقيادة [بانيتيوس Panaetius] عن الفرس وجاءتهم وهم مازالوا في حيرة، فأبدت الانباء بأن كل المضايق والممرات البحرية مغلقة وعندئذ التهبت مشاعرهم وطارت أنفسهم شعاعاً فضلاً عن صيرورتهم امام الأمر الواقع، مما دفع الجميع الى احضان المعركة.

وما ان انبلج الصبح حتى صعد احشويرش موضعاً مرتفعاً ليستعرض اسطوله وينظم صفوفه. ويقول [فانوديموس Phanodemus] أنه جلس على نشزٍ فوق معبد هرقل حيث يفصل ساحل اتيكا عن الجزيرة قناة ضيقة الا أن ما دوّنه [آكستدوروس Acestodorus] يشير الى أن احشويرش اختار مجلسه في ضواحي ميغارا على التلول المسماة بالقرون. حيث جيء له بكرسي(٤٥) من ذهب وأحاط به امناء السرّ ليكتبوا كل ما يجري في القتال من احداث.

وفيما كان تمستوكليس يهّم بتقديم القرابين بالقرب من بارجة القائد، اذ جيء اليه بثلاثة من الأسرى جميلي الوجوه بثيابهم الفاخرة، الموشاة بالذهب وقيل انهم أولاد [احشويرش] وساندوكي Sandauce أخت احشويرش وما أن وقع نظر المتنبي [يوفرانتيدس Euphran-tides] عليهم حتى لاحظ ناراً تشب(٤٦) من التقدمات ويخرج منها لهب خارق وهو بشير بحادث سعيد، فأمسك بيد تمستوكليس وطلب منه تكريس الشبان الثلاثة للتضحية. وتقريبهم بالصلوات، الى «باخوس الناهش» لأجل النصر. وبذلك ينقذ الأغريق ويكتب لهم النصر. وانتاب تمستوكليس قلق شديد لهذه النبوءة العجيبة الرهيبة إلاّ أنّ العامة من الناس، الذين تراهم في اي ازمة عصيبة وكارثة عظيمة يتطلعون لخلاصهم الى وسائل غريبة، مسرفة، لا الى وسائل معقولة، ارتفعت اصواتهم بالدعاء [لباخوس] كافةً ودفعوا بالأسرى الى المذبح وفرضوا تقديم القربان مثلما أمر به الكاهن(٤٧). هذا ما ذكره [فانياس اللّسبي] وهو فيلسوف واسع

(٤٤) جريدة صغيرة في البحر الإيجي وتعد ضمن المجموعة المسماة [كيكلادس] فاعترافاً بفضل هذه الجزيرة بالنسبة للحادث، نقش اسم سكنتها على مائدة ذات ثلاثة قوائم مكرسة لـ[دلفي] من بين اسمين آخرين أعتبرا قاهري احشويرش انظر هيرودوتس ٨٢:٨].

(٤٥) هذ الكرسي أو العرش – أهو من الذهب أو من الفضة أم منهما معاً، فقد وقع غنيمة بيد الآثينيين وحمل الى مدينتهم حيث كرّس في معبد منيرفا مع سيف ماردونيوس الذهبي الذي غنم بعدئذ في معركة [بلاتيا] ولكن ديموستنيس (الكرسي يسميه الاقدام الفضية).

(٤٦) اللهب الساطع يعد دائما فالاً حسناً. أكان حقيقياً صادراً من المذبح أو وهمياً يخرج من رؤوس أناس أحياء! ويذكر ڤرجيل (الاينياد: ٦٨٢:٢) لهباً من هذا النوع ظهر حول رأس ايولوس. ويذكر (فلورس) انه شوهد فوق رأس [سرڤيوس تللوس]. ان العطاس الى جهة اليمين يعتبر كذلك من الفال الحسن عند سائر الاغريق واللاتين [انظر ارسطو في النفس ١١:١] وكذلك [هوميروس في الاوديسا ٥٤٥:٢٧] فهو يعتبر العطسة فالاً حسناً من اي جهة كانت.

(٤٧) وبعين الطريقة قدم كل من [خيوس] و[تيديدوس] و[لسبوس] قرابين بشرية الى باخوس الملقب =

الاطلاع في التاريخ.

وكان عدد سفن الاعداء حسبما اثبتها [اسخيلوس] الشاعر في مأساته المسماة «الفرس» بحسب اطلاعه الخاص:

«علمت ان احشويرش كان في المعركة يقود ألف سفينة. بينها مائتان وسبع بوارج سرعتها أكثر من السفن الاعتيادية. وهو ما استقرّ الرّأي عليه.»

وكان عدد سفن الآثينيين مائة وثمانين، في كل سفينة ثمانية عشر محارباً على سطحها، منهم أربعة رماة سهام والبقيّة مقاتلون.

وكما كان تمستوكليس قد أختار أصلح ميدان للقتال، فإنه والحق يقال لم يكن بأقل حكمة في أختياره ساعة الصفر للبدء. فلم يوّجه مقدّم سفنه نحو الفرس ولم يشرع في القتال حتى هبت ريح رخاء من البحر وجاءت معها بمدٍّ قوي الى البرزخ وكان ذلك في مصلحة سفن الأغريق لأنها منخفضة البدن تكاد حافاتها لاترتفع عن الماء إلاّ قليلاً ولقد ألحقت ضرراً بالغاً بالسفن الفارسية ذات الدفة والسطح العالي، فضلاً عن ثقلها، وبطء حركتها بحيث اصبحت فريسة سهلة لهجمات اليونان الخاطفة وكان الأغريق جميعاً يتابعون تحركات تمستوكليس، متخذين منه انموذجاً يحتذى، فضلاً ان أنه اتخذ موقعه مقابل سفينة القائد [آريامنيس Aria-menes] وهو رجل باسل شجاع تفوق سجاياه ومنزلته سائر اخوة احشويرش بكثير. شوهد هذا القائد يقذف بالرماح ويطلق السهام من بارجته الضخمة كأنما يطلقها من اسوار قلعة وكان كلّ من [امينياس Aminias] الدكيلي Decelean وسوسيكلس Sosicles البيديّ Pedian على ظهر سفينه واحدة، فعندما اختلط الحابل بالنابل والتقى جؤجؤ سفينة بدفة أخرى ووجهت الواحدة قيدومها النحاسي الى الأخرى فكبلتها فتلاحقتا حاول [آريامينس] الهبوط الى سفينتهما فهجما عليه بالرماح وقذفاه الى البحر فطفت جنته مع حطام السفن وعرفته ارتميسيا(٤٨) فحمل الى [أحشويرش].

= [بالناهش: Omodius] وهذه هي الواقعة الوحيدة التي دوّنت عن الآثينيين. ولم يذكرها هيرودوتس ويذكر (پاوسنياس) قصة تتعلق بتقريب مؤقت لقرابين بشرية في بويوتيا. وبخلافه فانّ باخوس مختصّ بمثل هذه القرابين فمن العادة في اليفا بـ(اركاديا) ان تجلد النسوء بالسياط فوق مذبحه.

(٤٨) أرتميسيا هي ملكة هاليكارناسوس. برزت في مقدمة القوات الپارثية وخاضت المعركة الى النهاية وكانت آخر من ترك ميدانها ، ولحظ الملك الپارثي ذلك فقال معقباً «سلك الرجال مسلك النساء، وسلكت النساء مسلك الرجال» أشتد حقد الآثينيين عليها كامرأة وكبطلة في عين الوقت وعرضوا مكافأة قدرها عشرة آلاف دراخمة لمن يقبض عليها حيّة، وهيرودوتس [٩٣:٨] يروي قصة نجاتها في آخر لحظة والخطة التي استخدمت من أجل ذلك. من الواجب ان لايخلط بينها وبين سميّتها امرأة [طاوسولس] ملك كاريا التي عاشت في عصرٍ لاحق.

وجاء في الأنباء لهباً عظيماً أرتفع في الفضاء فوق مدينة ايليوسيس Eleusis، ساعة احتدام القتال، وسمع منه ضجيج وأصوات في كلّ ارجاء سهل الثرياسيّين حتى بلغ البحر. وكان أشبه برجال يراسلون ويرافقون الصُوفيّ [إياخوّس Iacchus] وان ضباباً تجمع حيث تقوم الضجة أرتفع ثم زحف وسقط على السفن. وخيل للآخرين انهم شاهدوا أشباحاً على هيئة رجال بشكة سلاحهم وقد مدوا أيديهم مستنجدين من جزيرة (إيجينا) مقابل البوارج الأغريقية والمقول، انهم [الآياكسيدي Aeacidae](٤٩) الذين إستغاثوا وطلبوا العون قبل بدء المعركة.

واول من أستولى على سفينةٍ للعدوّ، هو [ليقوميدس Lycomedes] الآثيني قبطان أحد السفن. فقطع شعاراتها(٥٠) وكرّسها الى [ابوللو المكللّ بالغار]، وكان الفرس يقاتلون في لسانٍ بحريٍّ ضيق، بحيث تعذر عليهم تحشيد قطعهم البّحرية كلّها، وراحوا يتخبطوت ويقاتل بعضهم بعضاً، بهذا حقق الأغريق عامل التكافؤ في القوى، وقاتلوهم حتى اضطرهم الليل الى الكفّ عنهم، ونالوا نصراً عظيماً مؤزراً وصفه [سيمونيدس] بأنه نصر لا مُشبه له ولا قرين في كلّ ما عرف من الانتصارات البحرية المجيدة لا عند الاغريق ولا البرابرة. وكان بطبيعة الحال حصيلة البسالة والحماسة اللتين اجتمعتا في كلّ من خاض المعركة، مع حكمة ثمستوكليس وعبقريته الفذة(٥١).

بعد هذه الموقعة البحرية حاول [احشويرش] بدافع الغيظ من فشله وأن يربط سيلاميس بالقارة بممربرى ثابت بالقاء اكرام من الصخور والحجارة حتى يجعل منها سداً، ثم يستخدم السدّ المتكون لنقل قواته البريّة الى جزيرة سلاميس. ثم يغلق الممر تماماً بوجه الاغريق(٥٢).

ورغب ثمستوكليس أن يستطلع رأي [اريستيديس] فيما كان يفكر من خطّة، مقترحاً ان

(٤٩) ارسلت الى [ايجينا] سفينة لطلب المعونة من [اياكس] وذريته [هيرودوتس ٦٤:٨] واياكس هو ابن جوبتر من ايجينا أشتهر بعدالته حتى ان ادعيته حققت فوائد عظيمة للأغريق لاسيما في سنوات القحط التي اصابت البلاد [پاوسينياس ٢٩:٢] عين بعد وفاته واحداً من القضاة الثلاثة في العالم السفلي!

(٥٠) هي في العادة تماثيل وقطع من المنحوتات الخشبية تمثل اشكالاً شتى وتثبت في جؤجؤ السفينة لتمييزها عن غيرها أو لمحض الزينة.

(٥١) في هذه المعركة التي تعد من المعارك الكبرى في التاريخ القديم خسر الاغريق ٤٠ سفينة فيما بلغت خسارة الفرس ٢٠٠ خلافاً لأسر عدد أكثر من هذا بكثير.

(٥٢) يقول هيرودوتس (٩٧:٨) ان احشويرش اراد ان يوهم الأغريق بانه يعتزم تجربة الحظّ في معركة بحرية ثانية لئلا يقوم الاغريق بالاقلاع والاتجاه الى مضائق الهللسپونت وكسر الجسر العائم الذي بناه فوق السفن اثناء وجوده في (سارديس) مستخدماً الصناع الفينيقيين والمصريين. فقد شدّوا السفن بعضها الى بعض بحبال وامراس. وكان عرض المضيق ميلاً واحداً تقريباً وقد ثارت عاصفة به فدمرت ما وفقوا الى مدّه قبل اكماله. واستبد الغيظ بالملك الفارسي. وحكاية أمره بجلد البحر بالسياط لسوء سلوكه معروفة. إلاّ أن المجهود في المحاولة الثانية لقي نجاحاً أكبر [المرجع نفسه ٣٣:٧-٣٦].

يقلع الاسطول [هلسپونت Hellespont] لكسر جسر السفن حتى «يتم حبس آسيا، وأسرها داخل اوروپا» لكن [ارستيديس][٥٣] كرِهَ الخطة وقال له «الى الآن حاربنا عدواً لايهتمّ بشيء قدر اهتمامه بملذاته وترفه. فاذا حبسناه في بلاد اليونان وألجأناه الى عمل يائس، فلا يعود الملك هادئاً ساكناً بقواته الجبارة وقد نشر فوق رأسه الشمسيّة المذهبة، يرقب القتال كما يرقب ملهاة. ان وجد نفسه محصوراً فسيحاول المستحيل، وسيشتد عزمه، ويظهر بشخصه في كل موقعة ومناسبة ولا يلبث أن يصححّ اخطاءه ويُظهر ما كان قد اخفاه قصوره وأهماله وسيكون أكثر حنكة في تقديره الأمور. لذلك لا يفيدنا في شيء يا تمستوكليس ان نحطمّ الجسر الذي بنيناه لا بل يجدر بنا أن نبني آخر إن امكننا - لكي نعجلّ في انسحابه».

فأجابه تمستوكليس قائلاً: «إن كانت هذه غايتنا فعلينا أن نستخدم حالاً كلّ حيلة ومواظبة وجهدٍ للتخلص منه بأسرع ما يمكن». ولأجل هذه الغاية وجد بين الأسرى خصياً من خصيان الملك الفارسي يدعى [ارناكسيس][٥٤] فبعث به الى سيده برسالة يقول فيها: بعد أن حقق الأغريق نصرهم البحريّ، قرروا الانتقال بأساطيلهم الى [هلسپونت] حيث السفن مشدودة بعضها الى بعض مثل جسرٍ ليتلفوها. ولما كانت مصلحته تهّم [تمستوكليس] فقد كشف له عن ذلك ليعجل في انسحابه الى البحار الآسيوية ووصوله الى مملكته، وانه في الوقت نفسه سيعمل على اعاقة وتأخير الأساطيل الحليفة عن اللحاق به. وما أن سمع احشويرش الرسالة حتى ارتعدت فرائصه[٥٥] وأسرع بالانسحاب من بلاد الأغريق فوراً. وقد افتضحت حيلة تمستوكليس واريستيديس فيما بعد وعرفت بتفاصيلها في معركة [پلاطيا Plataea]. حيث عرّض ماردومينوس Mardominus الأغريق لخطر خسارة كلّ شيء باستخدامه وحدة صغيرة من قوات احشويرش.

ويكتب [هيرودوتس] أن [ايجنيا] برزت بين سائر مدن اليونان الأخرى بانجازها أعظم خدمة في الحرب. بينما أقرّ كل الرجال على انفراد بفضل [تمستوكليس] وان كان ذلك ضد رغبتهم بسبب الحسد. وعندما عادوا الى مدخل الپيلوپونيسس وادلى عدد من القواد

(٥٣) هيرودوتس (١٠٨:٨) لم يكن [اريستيدس] المتكلم هنا: بل هو اورييادس القائد العام.
(٥٤) ذكر هيرودوتس (١١٥:١٣) سيكينيوس الذي كان قد أرسل من قبل في مهمة مماثلة.
(٥٥) بعد أن ترك احشويرش قائده (مردان) في اليونان بجيش قوامه ثلاثمائة ألف، انسحب بالباقي نحو تراقيا تمهيداً العبور البوسفور. ولم يكن قد امّن لجيشه ارزاقاً فعانى مشقة عظيمة في مسيرته التي استغرقت ٤٥ يوماً. ووجد أن الوضع لايسمح له لمواصلة السير بشكل مريح وعلى النحو الذي يرغب فيه تقدم جيشه بحاشية قليلة العدد. ووجد الجسر معطوباً بفعل عاصفةٍ فاستقل قارب صيد وعبر الى الجهة الثانية ومن المضايق واصل انسحابه حتى [ساردیس].

باصواتهم على المذبح(٥٦). لتقرير من هو أحق شخص بأعظم الإكرام، صوت كل واحدٍ منهم لنفسه في المقام الأول ثم صوتوا جميعاً لتمستوكليس في المقام الثاني وأخذه اللقيديمونيون معهم الى سپارطا وقدموا جائزة الشجاعة [ليوريبيادس] وجائزة الحكمة وحسن الادارة له وتوجوه باغصان الزيتون. وأهدوه أحسن مركبة في المدينة وأرفقوا ثلاث مائةِ شابٍ حتى حدود بلادهم اجلالاً له(٥٧). وفي الالعاب الاولمپية التالية عندما دخل السباق شخصت انظار المتفرجين اليه ولم تعد تهتمّ بالمتسابقين وقضوا بقيّة اليوم يرمقونه باعجابٍ، ويعرّفون الأجانب الحاضرين بشخصه، ويختالون به عجباً ويعبرون عن تكريمهم له بالتصفيق وغيرها من تعابير الفرح حتى أقرّ هو نفسه لاصدقائه وقد امتلأ امتناناً بأنه يحصد الآن ثمرة كُلّ ما بذله من جهود في سبيل الأغريق.

وكان بطبعه يحبّ العظمة والتكريم حُباً جماً، وهذا يتضح من الحكايات التي أثرت عنه. فعندما اختاره الآثينيون قائداً للأسطول لم ينجز عملاً من الأعمال بصورة تامة أكان بشخصه أم بالدولة. وانما استمر في تأجيل البت فيها حتى يوم الإبحار، حتى يبدو بمظهر العظمة والسلطان وهو يصرف تلك الأمور المتراكمة العديدة دفعةً واحدة وما يستتبع ذلك من مقابلات مجموعة كبيرة من مختلف الناس، وعندما كان يستعرض جثث القتلى وهي تلقى في البحر، لاحظ عقوداً وأسورة من الذهب عليها. فمرّ بها غير آبه خلا أنه قال لصاحب له كان يتبعه: «خذ انت هذه الحلى، لأنك لست تمستوكليس». وقال لأنتيفاطس Antiphates، وهو شاب حسن الصورة كان يتحاشاه قبلاً، ثم راح يغازله بعد المجد الذي ناله: «لقد علمنا الزمان أيها الشاب درساً». وقال أن الآثينيين لم يمجدوه ولم يكرموه. وانما جعلوا منه في الواقع شجرة الدردار. يحتمون بها عندما يسوء الطقس، وما أن يغدو المناخ جميلاً حتى يقطفوا اوراقها ويقطعوا اغصانها. وعندما قال له ذلك السيريفي Seriphian(٥٨) انه لم ينل شهرته بفضله بل بعظمة مدينته، أجابه: «لقد اصبت القول. ما كنت لأنال الشهرة لو انحدرت من [سيريفوس]، ولا كنتَ تنالها لو جئتَ من آثينا».

ولمّا ظنّ واحد من القادة أنه حقق خدمات جليلة للآثينيين، مقارناً اعماله باعمال

(٥٦) مذبح [پنتيلون]. هذه المراسيم انما تقررت لتؤمن اصدارهم حكماً خالياً من التحيز لأعطائه بمحضر من الآلهة (هيرودوتس).

(٥٧) يقول هيرودوتس: انها المناسبة الوحيدة التي قدم اللقيديميون خلالها تكريماً مثل هذا لأي كائن ولـ(ديودورس ١١:٢٧) رأي آخر اذ يقول انهم ما اقدموا على ذلك إلاّ خوفاً من ان يحمل لهم ضغناً.

(٥٨) جزيرة صغيرة من مجموعة جزر كيكلادس. يهزء (جوفينال ١٠ المسوخ) بصغر حجمها ويصفها [تاكيتوس: الحوليات ٢١:٤] بانها صخرة يرسل اليها الرومان منفييهم في العادة.

تمستوكليس على سبيل التباهي، أجابه تمستوكليس «راح اليوم التالي للعيد» يعيب يوم العيد وينتقص منه قائلاً: ليس يوجد فيك الاّ العجلة والمتاعب والاستعدادات لكن عندما يحين يومي ترى كل انسان يجلس بهدوءٍ مستريحاً ويمتّع نفسه. فأقرّ العيد بصحّة ذلك قائلاً: لقد اصبت في هذا، لكن لو لم أكن سابقاً لك، لما جئت قط.» ثم استطرد يقول «وحتى لو كان الأمر كما تقول، فلولا تمستوكليس قد سبقك بمجيئه لما درى أحد أين ستكون الآن». وقال يمزح لتصرفات ابنه واستئثار باهتمام امه وتحكمه فيها وكيف انه استبد به عن طريق امه «...فالآثينيون يقودون اليونان، وأنا أقود الآثينيين وامكّ تقودني وانت تقود أمكّ» ولولوعه في أن يكون نسيج وحده في كل الأمور، كان يأمر المنادي عند بيع قطعة أرض تعود له - أن يضيف الى ندائه الملاحظة التالية «حول الارض جيران طيبون» وتنافس اثنان على يد ابنته، ففضل منهما الرجل ذا السمعة الحسنة، على الغنيّ، قائلاً انه يفضلّ رجلاً بلا مالٍ على مالٍ بلا رجل. وهذا هو أسلوب احاديثه[٥٩].

بعد النصر الذي اتينا الى وصفه بدأ يعيد بناء مدينة آثينا ويحصّنها ورشا الايغور اللقيديمونيين حتى لا يقفوا ضدّ هذا العمل، كما ذكر [ثيومپوپوس] إلاّ ان معظم الكتاب يقولون انه خدعهم واستبقهم في الأمر. اذ سافر الى سپارطا متعللاً بسفارة. وهناك اتهمه اللقيديمونيون باعادة بناء الأسوار القائلين أن [پوليارخوس Poliarchus] ما قدم من ايجينا الاّ لغرض الاحتجاج على ذلك، فانكر [تمستوكليس] وطلب منهم ان يبعثوا بوفد الى آثينا ليحققوا من صحة ذلك. وفي خلال تلك الفترة اكمل بناء الأسوار ووضع اعضاء الوفد في ايدي ابناء قومه كرهائن مقابل شخصه. ولما عرف اللقيديمونيون الحقيقة لم يتمكنوا من الحاق اي اذىً به. واضطروا الى اخفاء سخطهم وكل مظهر من مظاهر الحنق في وقتها واعادوه الى وطنه[٦٠].

وبعدها باشر في بناء ميناء [پيريوس] ادراكاً منه لموقعه الطبيعي الممتاز للغاية، ورغبة في ربط المدينة كلها بالبحر، وخالف السياسة التي جرى عليها الملوك الآثينيون الأقدمون الذين جاهدوا دوماً في ابعاد رعاياهم عن البحر وتعويدهم العيش على الزراعة وفلاحة الأرض لا على الملاحة وتطواف البحار، فنشروا حكاية عن وجود نزاعٍ بين [مينرڤا] و[نپتون] حول

---

(٥٩) ذكر شيشرون في [De Fiss ٢:٣٢] قولةً أخرى من أقواله تستحق التسجيل هنا. فعندما عرض عليه [سيموندنس] تعليمه فن تقوية الذاكرة ردّ عليه قائلاً «آه! ايجمل بك ان تعلمني فن النسيان لأني كثيراً ما تذكرت ما لايحسن ان اتذكره وتعذّر على نسيان ما يجب نسيانه».

(٦٠) تفاصيل هذه الحكاية أوردها [ثوكيديدس ١:٩٠] وعللّ ذلك بان اللقيديميين كانوا يخشون وقوع آثينا في يد العدو الپارثي خلال غزوة ثانية محتملة، وهي محصنة منيعة فتنقلب الى قلعة مفيدة في يد العدو.

السيادة على المدينة، وأن [مينرڤا] ربحت القضية بإبرازها للمحكمين شجرة زيتون، إلاّ ان تمستوكليس لم يكتف بجمع الميناء في واحدة، بل جعل المدينة معتمدة اعتماداً مطلقاً على الميناء لا بل تابعة له هي والأراضي المجاورة للبحر الأمر الذي زاد من قوة الشعب وثقتهم بنفسهم ازاء النبلاء - وهذا ما ذكر - أرسطوفانس Aristophanes] واصبح النفوذ كلّه بيد البحارة والملاحين والصيادين[٦١]. ولذلك كان أحد أوامر الطغاة الثلاثين[٦٢] تحويل منصّات الاقتراع في الجمعية من اتجاهها الذي كان نحو البحر الى البرّ. مستندين في رأيهم هذا الى أن السيادة البحرية هي أساس الديمقراطية وان جماهير الفلاحين لاتعارض كثيراً في نظام الحكم الاوليغارشي.

على ان تمستوكليس كان يضمر تدابير أعلى وأخطر بخصوص التفوق البحري. فبعد رحيل احشويرش عن البلاد وعودة الأسطول اليوناني الى [پاغاسي Pagasae] حيث قضى شتاءه. قال تمستوكليس من خطبة عامّة في أهل اثينا أن لديه فكرة في عمل شيء سيكون ذا نفع عظيم لهم وآثاراً كبيرة في سلامتهم ولكن لا يجمل التصريح به او اذاعته فأمره الآثينيون بأن يكشفه [لاريستيدس][٦٣] فقط فاذا وافق عليه باشره. وعندما ابلغه أن خطته هي احراق الاسطول الاغريقي في ميناء [پاغاسي]، خرج اريستيدس الى الجمهور وأدلى برأيه في الحيلة التي تفتق عنها ذهن تمستوكليس. وقال في وصفها «لا يوجد اقتراح أخبث منه ولا أخزى»، وعند ذلك أمر الأثينيون تمستوكليس بالاّ يفكر فيها.

وأقترح اللقيديميّون في الجمعية العامة الامفكتيونية أن يطرد من المجلس ممثلو تلك المدن التي هي ليست اعضاء في العصبة، أو التي لم تحارب الفرس، فقام تمستوكليس يعارض هذا الاقتراح ويساند نواب تلك المدن خشية أن يؤدى اخراج التساليين وأهل [ثيبه] و[ارغوس] وغيرها، الى أن يغدو اللقيديميّون المسيطرين على الاصوات في المجلس. ونجح في اقناع الاعضاء المجتمعين بتغيير[٦٣] رأيهم في هذا الموضوع موضحاً لهم أن المدن التي ساهمت في الحرب لاتزيد عن واحدٍ وثلاثين وان معظمها في منتهى الصغر. وانه ليس من الممكن أو المعقول أن تستثنى مدن يونانية كثيرة وان يسيطر على المجلس العام مدينتان أو ثلاث مدن كبيرة. وبهذا أثار سخط اللقيديمونيين عليه، فمالوا الى [كيمون] ووجهوا كلّ رعايتهم

---

(٦١) «الفرسان» وقول ارسطوفان هذا هو هجاء في معرض المديح. انه يلوم تمستوكليس لأنه عمل على اشاعة التحلل الخلقي والتفسخ في المدينة وهو من مظاهر الموانيء.

(٦٢) كان قيام عهد الطغاء الثلاثين في آثينا ابتداء من ليساندر في العام ٤٠٤ ق.م.

(٦٣) بيلاگوري بالأصل. مأخوذة من اجتماعهم في ثرموپيلي. وسميت المضايق بهذا الاسم لقربها من الحمامات الحارة المجاورة ولأن فتحتها ضيقة مثل فتحة الباب.

وأكرامهم له ليجعلوه خصماً سياسياً [تمستوكليس].

وكان تمستوكليس مصدر مضايقة واحراجٍ للحلف، بابحاره المستقيم الى الجزر وجباية الأموال منها. ويقول [هيرودوتس] أنه جاء يطلب مالاً من سكان جزيرة [اندروس Andros][٦٤] زاعماً لهم أنه «جاء ومعه ربّتان: ربّة الإقناع وربّة القوة»، فأجابوه «أن لديهم أيضاً ربتين عظيمتي الحول، هما ربّة الفقر، وربة المستحيل تقفان حائلاً دون دفع اي مبلغ من المال له.» ويهجوه [تيموكريون Timocreon] الشاعر الروديسي ويعرض به لتهافته على المال لقاء السماح بعودة بعض المنفيين الى بلادهم، في حين يهمله هو صديقه وضيفه. والأبيات هي التالية:

«ان كان ذلك ان تمدح [پاوسنياس]، وكذلك كزانتيپوس Xanthippus
وثالثهم [ليوتيخيداس]. فانا أظيفُ اليهم [اريستيديس] الذي
جاء من آثينا المقدسة، وهو الرجل الحقيقي بين الجميع.
مادام ليتو Leto يكره تمستوكليس،
ذلك الكذاب الخائن الغادر الذي لم يشأ اعادة صديقه
[تيموكريون] الى موطنه لياليسوس Lalysus[٦٥]، طمعاً بالمال
لقد أخذ ثلاثة تالنتات من الفضّة وانصرف لعنة الله عليه.
ينفي بعض الناس بلا حق ويعيد بعضهم
ويقتل بعضهم الآخر، وهو لاينني يملأ جيبه بالمال. وفي
المضايق عمل مأدبة من اللحم الفاسد كانت مصدر ضحك وازدراء.
أكلوها ودعوا للآلهة أن يقوم أحد غيره بهذا الواجب في السنة الأخرى».

لكن [تيموكريون] اشتط في هجاء تمستوكليس وخرقه كل الحدود قي التهجم عليه بعد صدور الحكم بابعاده - في قصيدة هذا مطلعها:

ألا يا ربّات الشعر (الميوزات) عودي الى جميع الاغريق
وانشدي هذه الأبيات المناسبة الجميلة لهم.

والحكاية هي أن قضيّة [تيموكريون] كانت قد وضعت موضوع بحث هل ينفى بسبب تعاونه مع الفرس أم لا؟ وكان [تمستوكليس] يحبذ نفيه وقد صوّت ضده. فعندما اتهّم تمستوكليس

(٦٤) هي احدى جزير كيكلادس بين آثينا ونخسوس وقد فصّل هيرودوتس في الطلب وفي الجواب [١١١:٧].

(٦٥) هي من مدن ساحل رودس سميت كذلك نسبةً الى لوحة مشهورة من عمل پروتوغونيس تمثل الصياد ايااليسوس وكلبه.

بتآمره مع الميديين نظم تيموكريون الابيات التالية بهذه المناسبة:

والآن لم يعد [تيموكريون] عميل الميديّين الوحيد حقاً
فهناك بعض الأوغاد الآخرين معه - ولست الوحيد
الذي خاب - فهناك ثعلب آخر نزل الميدان.

عندما بدأ أهالي آثينا يعيرون آذاناً صاغية لأولئك الذين يثلبونه وينتقصون منه، اضطر الى تفكيرهم بالخدمات الجليلة التي انجزها - باستمرار ولجاجة باعثة على الضيق. وسأل أولئك المستائين منه، عما اذا كانوا قد ملّوا من اغتنام المنافع الكثيرة من ذات الشخص الذي يذمونه، وبهذا القول ضاعف من كره الناس على ان أشد السخط كان مبعثه بناؤه معبداً لديانا، كتب عليه الكنية التي كنّاها بها [ارسطوبول Aristobule] اي «ديانا خير المشوارت» مشيراً بهذا او انه قدم خير المشورات لا للآثينيين وحدهم بل لكلّ الأغريق. بناه قرب بيته في الحيّ المسمىّ[ميليت] حيث يأتي ضباط الشرطة اليوم بجثث من ينفذ فيهم احكام الموت ويرمون فيها حبال الخنق وثياب المخنوقين وسائر حاجات اولئك الذين يُقضى عليهم. والى يومنا هذا يوجد تمثال صغير [لتمستوكليس] في معبد «ديانا خير المشورات» يمثله رجلاً ذا عقلية كريمة وملامح بطوليّة فائقة الحدّ. وبالأخير نفاه الآثينيون، وأستخدموا النفي بدون محاكمة لاذلاله والحطّ من كبريائه وسلطانه كما يفعلون عادة بكلّ من قوي سلطانه وطغت عظمته بحيث ما عادت تناسب مبدأ المساواة الذي يقوم عليه البناء الجمهوري فالنفي دون محاكمة وضع بالأصل لا لمعاقبة المذنب، بقدر ما كان لأجل قمع وتخفيف حدة الحاسدين الذين يسرهم إذلال عظماء الرجال، فبإلصاق هذا العار بهم ينفسون عن شيء من حقدهم وحسدهم.

بعد أن نُفي [تمستوكليس](*) من آثينا، وعند وجوده في ارغوس افادت قضية [پارسنياس](٦٦) اعداءه وزودتهم بمزيد من الحجج ضدّه وكان [ليوبوتس Leobotes]

(*) في سنة ٤٧٢ ق.م تقريباً.

(٦٦) هذا الرجل الفاضل هو ابن كليوبروتس، وملك لاسپارطة. دحر الپارثيين في معركة پلاتيا وأشتهر بالعدل والكرم والنزاهة. لكن اخلاقه انحطت وسفلت في الأخير اذ عقد معاهدة قبيحة مع الپارثيين أملاً في أن يساعده نفوذهم على امتلاك بلاد الاغريق كلها. وكان مشروعه يتلخص في تسليم البلاد الى [احشويرش] وان يحكمها هو باعتباره ملكاً تابعاً له على أن يزوجه ابنته. [ثوكيديدس ١٢٨:١] ما أن تبنى هذه الفكرة الغريبة حتى بدء بتقليد العادات الپارثية والنزوع الى حياة الترف التي يعيشونها. ونبذ ارتداء ثياب وطنه البسيطة. وصبر الايفوري عليه بعض الوقت ليتوفر لهم الدليل القوي على مشاريعه الخيانية. وما ان وضعوا ايديهم عليها حتى اصدروا أمراً بايداعه السجن لكنه هرب والتجأ الى معبد [منيرڤا خلقيوخوس] فما كان منهم إلاّ ان بنوا جداراً سدّوا به المداخل وقامت والدته بوضع اول حجر في البناء. وعندما =

الأركولي ابن [آلكيميون] هو الذي اتهم [پارسنياس] بالخيانة ودعمه السپارطيون في اتهامه هذا.

عندما باشر [پاوسنياس] في خطته الخيانية، عمل على أخفائها عن تمستوكليس في مبدأ الأمر مع انه كان صاحباً له. ولكن عندما رآه يطرد من البلاد وتبين شدة وقع النفي عليه، أقدم على الاتصال به والافضاء اليه بسرّه ورغب في ان يساعده وأطلعه على رسائل ملك الفرس وأوغر صدره على الأغريق، وصورهم له بناكري الجميل والأوغاد. على أن [تمستوكليس] رفض مقترحاته، وأبى أن يكون طرفاً في المشروع بصورة مطلقة إلاّ أنه لم يكشف سرّ هذه الاتصالات ولم ينه بسرّ المؤامرة لأي أحد إمّا لأنه كان يأمل عودة [پوسنياس] الى صوابه، والعدوان عن نيته، أو لتوقعّه بأنّ محاولةً هوجاء طائشة كهذه ترمي الى أغراض شيطانية دنيئة ستنكشف بوسائل أخرى.

وبعد ان نفد حكم الموت [بپاوسنياس] ووجدت في حوزته رسائل ووثائق خطية حول هذا الشأن تدين تمستوكليس وتضعه موضع شبهة ثارت ثائرة اللقيديمونين عليه، واتهمه اعداؤه في آثينا بالتآمر. ولما كان غائباً عن آثينا فقد قدم دفاعه على شكل خطابات، مناقشاً بصورة خاصّة النقاط التي كانت في السابق محور اتهامه. وكان جوابه على اتهامات اعدائه الظالمة الكاذبة، رسالةٌ بعث بها للمواطنين وذكر فيها أن الشخص الذي كان طامحاً للحكم دوماً، ليس من طبيعته أن يُحكم ويُخدم أحداً، لن يبيع نفسه ولا وطنه أبداً ليكونا عبدين لبلاد عدوّة بربرية.

ولم يقم المواطنون الآثينيون وزناً لدفاع [تمستوكليس] بعد أن اقتنعوا بأدلّة متهميه وبعثوا بقوة من الشرطة للقبض عليه وجلبه. للمحاكمة أمام مجلس قضاء أغريقيّ، إلاّ أنه أنذر مسبقاً فانتقل الى جزيرة [كوركورا Corcura] وكانت حكومتها مدينةً له بفضل لأنه أختير فيما مضى حكماً في نزاع بينها وبين الكورنثيين(٦٧) فصل فيه بفرض مبلغ قدره عشرون

= أشرف على الموت جوعاً تمكنوا منه. وما أن وفقوا الى سحبه خارج المعبد حتى اسلم الروح [توكيديدس المرجع نفسه ١٣٤] و[ديون ٩: ٤٠].

(٦٧) قدم تمستوكليس لأهل كوركورا خدمة هامة: كانت دويلات الأغريق تهّم بشن الحرب على هذه الجزيرة لأنها لم تنظم الى الحلف الأعظم ضد احشويرش. لكن تمستوكليس عارض الفكرة بقوله لو عاقبنا بهذا الشكل كل من لم ينضّم الى الحلف لاوقعنا بالبلاد الاغريقية ضرراً يفوق كثيراً ما كان سينالها من أذىً على يد الغازي. وعلى اية حال فقد غلب الخوف الذي كان يعتمل في احشاء أهل الجزيرة، على عرفان الجميل فلم يستقبلوا تمستوكليس خشية ان يثيروا مشاعر آثينا وسپارطه ضدهم. ورفضوا ان يقبلوه ضيفاً عندهم وبعثوا به الى ايبيروس. [ثوكيديدس ١: ٣٠] تعتبر ليوكاس مستوطنة كورنثية صرفة.

تالنتا يدفعه الكورنثيّون، وأعتبر لمدة [ليوكاس Leucas] وجزيرتها مستعمرة مشتركة للمدينتين. ومن [كوركورا] هرب الى [ابيروس] والآثينيون واللقيديمونيون يجدّون في أثره وكان يتشبث بفرص نجاة يائسة تبدو مستحيلة. فقد فرّ لاجئاً الى [ادمتوس Admetus] ملك المولوسيّين. وكان هذا قد طلب طلباً من الآثينيين في عهد حكم تمستوكليس وأوج سلطانه. فرفض الطلب بشدّة واحتقارٍ واهانة، حتى أظهر الملك المهان ما يدلّ على انه سيثأر لنفسه منه إن ظفر به. على أن [تمستوكليس] في سوء حظّه هذا كان يخشى كره جيرانه الأخير ونقمة مواطنيه عليه، أكثر من خشيته سخط الملك - ولذلك وضع نفسه تحت رحمته واذلّ نفسه أمامه فبضراعاته بأسلوب غريب يختلف عن عادات البلاد الأخرى اذ حمل ابن الملك وكان طفلاً وجثا بالقرب من المستوقد امام الهة البيت، وهذا هو أقدس وأعلى أسلوب في الإستجارة عند المولوسيين، لا يمكن رفضه مطلقاً ويقول بعضهم أن [فثيا Phthia] زوج الملك هي التي أشارت على تمستوكليس بهذه الطريقة(٦٨) ووضعت طفلها أمام المستوقد. وقال آخرون أن الملك نفسه بالاتفاق مع تمستوكليس اعدّ وأخرج هذه التمثيلية ذراً للرماد على العيون، حتى يكون مقيداً بعهدٍ ديني يمنعه من تسليم المستجير لمطارديه وفي ذلك الزمن قام [ابقراطس Epicrates] الأخارني Acharnae بارسال زوجه وأطفاله اليه سراً من آثينا. ودفع حياته ثمناً لهذه الخدمة فقد ادانه [كيمون] وأعدمه الحياة، وفي رواية اوردها [ستسبمروتوس] (ربّما ناسياً ذلك بشكل ما، أو مستهدفاً أظهار تمستوكليس بمظهر القليل الإهتمام) قال أن المنفيّ أسرع يبحر الى صقلية، وهناك طلب يد ابنة [هيرو] طاغية [سيراقوس] ووعد أباها أن يُخضع له بلاد الأغريق.

ولما رفض [هيرو] طلبه غادره الى آسيا. إلاّ أن هذه الرواية مشكوك فيها، بدليل ما كتبه [تيوفراستس] في مؤلفه [الملَكية المطلقة Monarchy] قال: لما أرسل [هيرو] خيل سباق الى الالعاب الاولمپية ونصب سرادقاً فخماً باذخاً، القى تمستوكليس خطبته على الأغريق حمل فيها عليه وحرّضهم على قلع خيمة الطاغية ومنع خيله من المشاركة في السباق.

ويذكر [ثوكيديدس] بعد أن وصل تمستوكليس [بحرايحه] عن طريق البرّ استقلّ سفينة من [پيدنا Pydna] على خليج ثيرم [Therme]. ولم يكشف عن هويته طوال وجوده على ظهر السفينة حتى تبين له أن الريح تدفع بالسفينة قريباً من [نكسوس](*) وارتعب اذ رأى

---

(٦٨) ليس بالشيء الملفت للنظر يقدم المستجير ادعيةً لآلهة بيت الذي استجاره. كما فعل [اوليوس] عند وصوله بلاط [الكينونوس] (الاوديسي ٧:١٥٣) أمّا ان يقدم على ذلك وابن الملك بين ذراعيه مضمومٌ فتلك واقعة غير اعتيادية.

(*) حوالي ٤٦٩ ق.م.

الآثينيين يحيطون بها. فكشف عن حقيقته لقبطان السفينة وملاّحها وبين الرجاء والتهديد بقوله أنه سيتهمهما بمساعدته وبقبولهما رشوة مالية منه اذا خطر ببالهما ان يقتربا من الساحل وسيجعل الآثينيين يعتقدون بأنهما كانا يعرفان هويته عندما حملاه. وهكذا أرغمهما على الأقلاع والابتعاد وتوجيه السفينة الى ساحل آسيا ونقل اصدقاؤه جزءً كبيراً من ثروته سراً وبعثوها وراءه الى آسيا عن طريق البحر، في حين أن ما أكتشف وصودر منها قاربت قيمته الثمانين تالنتاً على ما يذكر [ثيوفراستس]. ويقول [ثيومپوپوس] بل مائة تالنت في حين لم يقوّم تمستوكليس بأكثر من ثلاثة تالنتات قبل أن يتولى الشؤون العامة(٦٩).

عندما وصل [كيمه Cyme] وعلم أن الكثير الرجال يكمنون له على طول الساحل ولاسيما [ايرغوتيلس Ergoteles] و[پثيدوروس Pythodorus] (إن القنيصة تسوى عناء الصيد لمن يكون شاكراً ان كسب مالاً باية وسيلة. وقد أعلن ملك الفرس للعموم عن استعداده لدفع مكافأة نقدية قدرها مائتا تالنت لمن يقبض عليه) فهرب الى ايجي Aegae وعي بلدة آيوليّة صغيرة، لا يعرفه فيها أحد غير مستضيفه [نيقوجينس Nicogenes] أغنى أغنياء [ايوليا] ومن أشهر من يعرف عند عظماء الرجال في داخلية آسيا. وفيما كان [تمستوكليس] يسكن داره متخفياً لعدة أيام وقع [اولبيوس Olbius] معلم أولاد نيقوجينس في غيبوبة وادركته نوبة وجدٍ آلهي على أثر تضحية عقبها عشاء. ونطق بالنبوءة التالية شعراً:

«الليل سيتكلم - والليل يرشدك بصوت الليل سيسدّد خطاك»(٧٠)

وبعدها آب [تمستوكليس] الى فراشه ورأى في الحلم حَيّة تلتف على نفسها فوق بطنه ثم تزحف الى عنقه ثم ما أن تمسّ وجهه حتى تنقلب الى عقاب نشر جناحيه فوقه ورفعه وطار به مسافةً بعيدة، ثم ظهر له قضيب المنادي الذهبي. فما كان من الطائر إلاّ وحَطّ به آمناً بعد متاعب ومشاق لا تُحصى.

وتمّ رحيله عن [نيقوجينس] بركون هذا الى الحيلة التالية:

ان اقوام البرابرة ومنهم الفرس، هم بصورة خاصة شديدو الغيرة، والشكّ والصرامة بخصوص نسائهم، لا زوجاتهم وحدهن بل إمائهن المشتريات وجواريهن، ويحرصون عليهن ويحجبونهن عن الأعين ولا يدعونهن خارج الدار بل يوصدون دونهن الابواب طوال حياتهن واذا سافرن، يحملن في هوادج صغيرة ترخى عليها السجف من كل الجهات وتوضع فوق مركبة. فهيأ

(٦٩) هذا لايستقيم قط مع ما وصفه پلوتارخ من البذخ والعزّ الذي كان يستمتع به تمستوكليس قبل ان يتولى وظيفة عامة.

(٧٠) اي «اسمع نصيحة وسادتك وستنجح».

[نيقوجينس] لتمستوكليس هودجاً كهذا واخفاه فيه وحملوه في الرحلة. وأوصى الحمّالين ان يزعموا للذين يصادفونهم في الطريف انهم يحملون فتاة أغريقية خارج [آيونيا] الى نبيل في البلاط الفارسي.

يقول [ثوكيديدس]، و[خارون Charon] اللمّپساكوسيّ Lampsacus أن [احشويرش] كان قد مات وأن تمستوكليس واجه ابنه ارتحشِشتا، إلاّ أنّ [ايفورس ودينون وقليتارخوس، وهيراقليدس Ephorua, Dinon, Clitarchus] وكثير غيرهم، يذكرون أنه التقى بأحشويرش إلاّ أن الالواح الحولية تتفق ورواية [ثوكيديدس]. ومع هذا لا يمكن الجزم اياً من الروايتين هي الصحيحة والمعتمدة(٧١).

عندما جوبه [تمستوكليس] بأحرج موقف له. قدّم نفسه أولاً [لأرطبان](٧٢) وهو قائد ألفٍ، وقائلاً له أنه أغريقي يرغب في ان يكلم الملك في امور هامة هي الآن شغله الشاغل فأجابه [ارطبان] «إن قيم الرجال الخلقية ايها الغريب، تختلف. فما هو شريف عند أحدهم قد لا يكون كذلك عند آخر. ولكن من الشرف والنبل للجميع أن يحافظوا ويحترموا شرائعهم الخلقية ولقد قيل لنا أن من خلق الأغريق الاعتزاز بحريتهم ومبدأ مساواتهم أكثر من اعتزازهم بأيّ شيءٍ آخر. أمّا عن فمن شرائعنا الممتازة العديدة نحن نعتبر اكرامنا الملك وعبادته أسمى ما في شرائعنا من مبادئ، إننا نعدّه صورة لرب الكون الأعظم. فإن أنت ارضيت شرائعنا وسجدت لملكنا وعبدته ففي الامكان ان تراه وتكلمّه، أما اذا كان رأيك خلاف ذلك. فعليك ان تتصل بغيري للتوسط لك. اذ ليس من العادات القومية هنا أن يسمح لأي شخصٍ بمقابلته إن لك يسجد له».

أصغى تمستوكليس لهذا الكلام ثم أجاب «آنا آتٍ يا أرطبان لأعمل على زيادة سلطة الملك ومجده، ولذلك لن أكتفي بتطبيق شرائعه على نفسي، مادامت مشيئة الآله أن يرفع الامبراطورية الفارسية الى أوج العظمة، بل سأعمل على أن يزيد عدد الساجدين والعابدين له كثيراً. ولن يكون هذا إذن عائقاً لي عن الاتصال به والافضاء اليه بما عندي». فسأله أرطبان: «ما الاسم الذي سنقدمك به اليه؟ لأن اقوالك تدلّ بأنك لست شخصاً اعتيادياً» فأجابه

---

(٧١) فيكون وصوله البلاط اليارثي في السنة الأولى من الالمبياد التاسع والسبعين أعني في ٤٦٤ ق.م (ديودورس ٩:٦) وهي السنة الأولى لتولي (ارتحشِشتا) العرش. ولكن بعض المؤرخين ومنهم ايفورس الكومي في (تاريخ الاغريق) وهو يلي تاريخ هوميروس في الأهمية يقول ان وصوله كان قبل هذا التاريخ بسبع سنين [ديودورس المرجع السالف] كذلك ثوكيديدس وديون والد كليتارخس الذي كتب تاريخاً لبلاد الفرس وهو من زمرة الاسكندر المقدوني.

(٧٢) ابن ارطبان قائد الحرس الذي قتل احشويرش وأقنع ارتحششتا بقتل داريوس اخيه الأكبر.

تمستوكليس: «لن يعلم اي انسان بذلك يا أرطبان قبل الملك». هذا ما يسرده [فانياس]، ويضيف [ايراتستينوس Eratosttenes][٧٣] في رسالته «عن الغنى» أن تمستوكليس توصل الى مقابلة [أرطبان] بمسعى من امرأة اريترية كانت في حرم ذلك القائد.

قد يكون كذلك وقد لايكون لكن عندما أدخل على الملك وقدم له فروض التجلة والتعظيم وقف صامتاً حتى أمر الملك المترجم بسؤاله عن هويته. فأجاب «أيها الملك أنا هو تمستوكليس الآثيني، وقد نفاني الأغريق. إن الأضرار التي ألحقتها بالفرس عديدة إلاّ أنّ المنافع التي كسبوها مني أعظم، فقد حلتُ بين قومي وبين مطاردتكم حالما سمح لي خلاص بلدي بإظهار الرعاية لكم أيضاً. لقد جئت تحدوني افكار متفقة مع النوائب التي اصابتني، متهيئاً لاقتبال عطفكم وغضبكم معاً، مُرَحّباً بعفوكم الكريم أو مستعداً لاحتمال سخطكم العظيم، ولديكم من بني وطني شهودٌ على الخدمات التي قدمتها لبلاد فارس. فانتفع بهذه الفرصة، لتظهر للملأ سجاياك، فهذا أحرى بك وأجدى لك ارضاء حنقك. إن انقذتني انقذت مستجيراً بك مخلصاً، وإن فعلت خلاف ذلك فستقضي على عدوّ للأغريق».

وتكلّم أيضاً عن النذير الآلهي كالرؤيا التي حلم بها في منزل [نيقوجينس] والأمر الذي نزل عليه في نبوءة [دودونا Dodona] حيث طلب منه [جوبتر] ان يقصد ذلك الذي كان أسمه شبيهاً باسمه مما فهّم أنه مرسل اليه من جوبتر لأن كليهما عظيمان ولكليهما اسم ملك.

واصاخ الملك السمع معجباً بروحيته وشجاعته، ولكنه لم يجبه بشيء في حينه. إلاّ أنه أظهر فرحه أمام ندمائه المقربين وحمد حسن حظه وعد نفسه في غاية السعادة لذلك. ودعا لآلهة [اهريمان][٧٤] ان يتجه رأي كلّ اعدائه اتجاه رأي الأغريق فيهينون ويطردون اشجع رجالهم من بينهم. ثم قربَ للآلهة، وعكف على الشراب ووصل به السرور حداً أنه صرخ في نومه ثلاث مرات «تمستوكليس الآثينين عندي».

وفي صباح اليوم التالي جمع الملك عظماء البلاط، وأمر باحضار [تمستوكليس] امامه فتوجس هذا شراً عندما رأى الحراس مثلاً يرمقونه شزراً عندما يعرفونه، فيسمعونه قارص الالفاظ، وتقدم من ناحية الملك الذي كان جالساً والباقون سكوت، فمرّ بـ[روكسان] وهو قائد الف، وسمعه يتمتم قائلاً دون أن يتحرك من مجلسه: «أيها الثعبان الأغريقي المراوغ الماكر! إن عبقرية الملك السامية تمكنت من أحضارك هنا». وعندما مثل أمامه سجد له كالسابق فحياه الملك وكلمة برقة قائلاً أنه مدين له الآن بمائتي تالنت، اذ من المعقول والعدل أن يتسلّم

(٧٣) رعاه [بطليموس آفريفيتس] من مسقط رأسه (كيرين) للاشراف على بأفلاطون الثاني.
(٧٤) أو أهريمن وهو آله الشر والظلام مسبب الطاعون والنكبات في الثنوية الفارسية.

المكافأة التي خصصها «لمن يأتي بتمستوكليس» ووعده بمال كثيرٍ وشجعه، وحضّه على التحدث معه بكلّ حرية عن شؤون الأغريق. فأجاب [تمستوكليس] أن حديث المرء يشبه السجّادة الفارسية النفيسة، لاتظهر زخارفها وصورها الجميلة إلاّ اذا فرشت بكامل ابعادها، فاذا ما طويت أو لُفتّ ضاعت تلك التهاويل أو بدت شوهةً للعين. لذلك فهو يرغب في مهلةٍ من الوقت وسر الملك بالمقارنة وسمح له بما شاء من الوقت فطلب سنة كاملة وفي خلالها اتقن اللغة الفارسية وتكلم بها مع الملك دون مساعدة مترجم، وكان المفروض ان يتناول الحديث شؤون اليونان فحسب. ولكن حدثت في تلك الفترة تغييرات كبيرة في بلاط الملك وطُرد عدد كثير من ندمائه فاستهدف تمستوكليس لنقمة العظماء الذين تصوروا أن الجرأة بلغت به الحدّ الذين أخذ معه يتكلم عنهم. لأن الاكرام الذي أصاب غيره من الأجانب كان لا شيء بالنّسبة لما أغدق عليه من النعم. فقد لازمه في لهوه ومجالس طربه ونزهاته في القصر ورافقه في صيده وجعله نديماً مقرباً حتى أنه سمح له برؤية والدته الملكة، ومحادثتها مراراً كثيرة، وبأمر منه سمح له بالاطلاع على أسرار المجوسيّة وتعاليمها.

وعندما أمر الملك أن يطلب [ديماراتوس Demaratus] اللقيديموني ما يريد منه وسينيله طلبه مهما كان، طلب هذا أن يعينه على دخول [سارديس] دخولاً رسمياً وأن يحمل على عرش خلال المدينة وان يزين مفرقه تاجٌ على عادة الملوك(٧٥)، فمدّ [ميثروبوستس] ابن عمّ الملك يده الى رأس ديماراتوس ولمسه قائلاً انه لا يملك عقلاً ملكياً يستأهل تغطيته بتاجٍ ولو أن [جوبتر] نفسه أعطاه برقه ورعده، لما أنقلب بهما الى جوبتر ثان! ورفض الملك أيضاً طلبه غاضباً وعزم ألاّ يرى وجهه ابداً، وأن لايقبل أي استرحامٍ بشأنه. على أن تمستوكليس تمكن من تهدئته واقنعه بالصفح عنه. وقد جاء في الأخبار أن ملوك الفرس المتعاقبين بعد، ممن كانت صلاتهم وثيقة بالأغريق، عندما كانوا يدعون أيّ يونانيّ جليل القدر لخدمتهم فإنهم يكتبون له عهداً بأن قدره عندهم سيكون عظيماً مثلما كانت مكانة تمستوكليس، تشجيعاً وترغيباً لهم. ويردون أيضاً كيف ان تمستوكليس عندما كان يعيش عيشة رغيدة هناك، وهو قبلة انظار الكثير، وجه الكلام الى ابنائه من حوله وهو جالس الى مائدة الطعام والخدم والسقاة يتسابقون الى خدمته «أولادي! كان الدمار سيلحق بنا لو لم نُدَّمر!».

ويتفق معظم الكتاب أنه منح ثلاث مدن وهي [مغنيزيا Magnesia وميوس Myus(٧٦)

---

(٧٥) كان هذا أعظم تكريم يصدر عن ملوك الفرس.

(٧٦) ان الأراضي المحيطة بمغنيزيا الواقعة على نهر ميئاندر في أسيا الصغرى وغير البعيدة كثيراً عن أفسس، هي اراضٍ في غاية الخصوبة، حتى انها كانت تدر على تمستوكليس من غلّة ما يبلغ ثمنه اربعين تالنتاً. و[لامپساكس] في المضايق ينمو الى جوارها اجود الكروم في سائر المشرق. و[ميوس] أو [ميون]=

ولمپساكوس] لتأمين مطلبه من اللحم والخبز والخمر، ويضيف [نيانثس Neanthes] من [كيزيكوس Cyzicus] و[فانياس] الى هذه المدن مدينتين أخريين هما [پاليسكپيس Pa-laescpsis] لتأمين حاجته من الثياب، و[پيركوته Percote] لسدّ حاجته من الفرش والأثاث المنزلية.

وفيما كان في طريقه الى ساحل البحر لاتخاذ تدابير عسكرية ضد الأغريق، نصب له فارسي اسمه ايپكسيس Epixyes (وهو حاكم فريجيا العليا) كميناً لقتله، وكان قد أعد قبل زمن زمرةً من الپسيديين، ليهجموا عليه ويوقعوا به عندما يقف للاستراحة في بلدة تدعى «رأس الأسد»(٧٧). الاّ ان ام الآلهة تراءت له أثناء غفوة الظهر فحلم انها قالت له: «ابتعد يا تمستوكليس عن الأسد وحاذر لئلا تقع في شدقيه، ولهذا التحذير اتوقع منك أن توقف ابنتك [منسيپتوليما Mniseptolema] على خدمتي». فعجب تمستوكليس لذلك وبعد أن نذر النذر المذكور للربّة. حاد عن الطريق العام وقام بدورةٍ وسلك سبيلاً ثانية مغيراً موضع استراحته المقرر، واناخ ركبه ليلاً في العراء. إلاّ أن أحد الخيول التي تحمل أثاث خيمته سقط في النهر ذلك اليوم. فعمد خادمه الى نشر السجاد والابسطة المبللة وعلقها لتجفّ وفي الوقت نفسه لحق بهم الپسيديّون وسيوفهم مُشرعة إلاّ أن ضوء القمر لم يسمح لهم بمعرفة ما هو منشور في العراء بالضبط وحسبوه خيمة تمستوكليس، وظنوه يرتاح داخلها. ولما أقتربوا ورفعوا الابسطة المعلقة، انتهز اتباع تمستوكليس الكافين فرصتهم وهجموا عليهم واسروهم واعترافاً بفضل ربّة الأرباب عليه لانذاره بالخطر المحدق، أقام لها معبداً في مدينة مغنيزيا كرسّه باسم «دندمين Dindymene» امّ الآلهة ونذر لخدمتها فيه ابنته «منسيپتوليما».

وبوصوله [سادريس] زار معابد الآلهة، وعُني في أوقات فراغه باصلاح بنائها وزخرفتها، وبعدد التقدمات التي تقدم لها ولاحظ في معبد امّ الآلهة، تمثال العذراء النحاسي المسمىّ «حاملة الماء» ويبلغ ارتفاعه ثلاثة أقدام وكان قد أمر بصنعه وأقامته في موضعه ذاك، عندما

= وهي مدينة [كاريّة] تقع على مصب النهر المذكور سابقاً - غنية بالحاصلات لاسيما بالاسماك [ثوكيديدس ١٣٨:١] وقد جرت العادة عند ملوك الشرق بان يمنحوا اصدقاءهم وخلصاءهم غلاّت مدنٍ أو مقاطعات بدلاً من مبالغ مالية. والملك يعطي من المدن التي تعود له مثلاً مقداراً مما تدره من الخمور، أو المآكل او الأموال أو الاكسية.

و(بيركوتي) هي الأخرى مدينة من مدن المضايق تقع بين ابيدوس ولامپساكس. وپاليسكيس تقع في (ترواد).

(٧٧) لم يرد اسم ليونتكيفالس لا في سترابو أو ستفانوس البيزنطي أو ايلين واما امّ الارباب فهي (ريا Rhea أو كيبيله Cybele أو الأم الكبرى Magna Mater)، كما تسمى ايضاً دنديميني Dindymene مشتقاً من اسم جبل دينديمون في فريجيا.

كان مراقباً للماء في أثينا - وأنفق على صنعه من الغرامات التي كان يفرضها على أولئك الذين يغتصبون المياه العامة بحرفها عن مجاريها وتحويل أنابيبها، لاستعمالهم الخاصّ. وسواء أأدركه بعض الحزن لرؤية تمثاله مأسوراً، أو لرغبته في إطلاع الآثينيين على الحظوة الكبيرة التي نالها من الملك، والسلطان الواسع الذي متّعه به، راح يفاوض حاكم المدينة ليقنعه باعادة التمثال الى اثينا. فاستشاط القائد الفارسي غضباً وأبلغه انه سيكتب للملك بهذا، فانتاب تمستوكليس خوف شديد للعاقبة، وعمل على الاتصال بزوجات ذلك الحاكم ومحضياته ووصلهن بالهدايا النقدية حتى انفثأ غضب الحاكم. وقد جعلته هذه الحادثة أكثر حذراً وتحفظاً في سلوكه وتصرفاته خشية حسد عظماء الفرس وتحاملهم. ولم يواصل رحلته في ارجاء آسيا، كما ذكر [ثيومپوپوس] وانما عاش عيشة هادئة مستقرة في منزله بمغنيزيا. وقضى أياماً طوالاً على هذا المنوال آمناً مطمئنّاً يحترمه الجميع ويرفل في النعم والعطايا، ويكرمه اعاظم رجال الفرس. وكان الملك في ذلك الزمن مشغولاً في أمور آسيا الداخلية، غير مهتّم بشؤون الأغريق.

لكن عندما شبت الثورة في مصر، وخفّ الآثينيون الى مساعدتها(*) ومخرت سفن الأغريق عباب البحار حتى وصلت (كليكيا) و(قبرص) وجعل (كيمون) نفسه سيد البحار، تحول اهتمام الملك ثانية الى بلاد اليونان وعزم عزماً أكيداً على تأديب الأغريق والحدّ من سلطانهم المتنامي على حساب سلطانه. وبدأ يعبئ جيوشه ويرسل الى القادة باوامره العسكرية، وبعث رسلاً الى تمستوكليس في مغنيزيا يذكره بالوعد الذي قطعه، ويطلب منه العمل ضد الأغريق - على أن ذلك لم يزد من حقد تمستوكليس على الآثينيين ولا من سخطه؛ ولم تفتنه فكرة المجد والقيادة العليا التي سيتقلدها في هذه الحرب، ولعلّه قدرّ أن الهدف سيكون بعيد المنال، لا لأن الأغريق كانوا في ذلك الزمن تحت قيادة [كيمون] بصورة خاصة وغيره من القوّاد المحنكين الذين كانوا يحرزون النصر تلو النصر ويفوزون بمعارك رائعة، بل بالدرجة الأولى لأنه كان خجلاً من تلويث المجد الذي نالته مآثره العظيمة السابقة وانتصاراته العديدة وغنائمه العسكرية. ولذلك قرر ان يضع حداً لحياته بشكل يناسب السبيل الذي سلكته فيما مضى(٧٨). فقربّ للأرباب ودعا اصحابه الى مأدبة فأكرمهم وصافحهم واحداً واحداً ثم شرب دم الثور(٧٩)، كما جاء في الرواية الشائعة. أو السم النافع كما يزعم آخرون. وانتهت حياته

(*) في السنة ٤٥٩ ق.م.

(٧٨) عندما كانوا يضحون بالثور، تلقّى بعض دمه في قدحٍ وشربه ساخناً فقضى عليه (حسب قول پليني) لأن هذا الدم يتخثر في الحال.

(٧٩) لايوجد موضع في اتيكا باسم [الكيموس] وانما توجد مقاطعة تسمى (اليموس) وتقع شرق (پيريوس) =

في مدينة مغنيزيا وله من العمر خمسة وستون عاماً انفق معظمها في الحروب والسياسة وفن القيادة العسكرية. وأبلغ الملك بأسباب موته وكيفيته، فازداد به أعجاباً واستمر يظهر العطف لأقربائه وأصحابه.

خلّف [تمستوكليس] ثلاثة ابناء من زوجه [آرخيپّه Archippa] بنت ليساندر الالوپيكي Alopece وهم [ارخيپتوليس Archiptolis وپوليوكتوس Poleuctus وكليوفانتطس Glio-phantus]. وذكر افلاطون ان ثالثهم كان فارساً ممتازاً فحسب وهو ما عدا ذلك شخص مغمور. وابنه الرابع الذي ولد له قبل هؤلاء واسمه [نيوقليس] مات صغيراً بعضّة حصان. وابنه الخامس [ديوقلس] تبناه جدّه [ليساندر] وخلفّ بنات كثيرات منهمنّ [منسيپتوليما] التي ولدت له من زوجه الثانية، تزوجها اخوها غير الشقيق [ارخيپتوليس]، و[ايطاليا Ital-ia] التي تزوجت [پانثيوديس Panthaides] من جزيرة [خيوس]. وابنته الأخرى [سيباريس Sybaris] تزوجت [نيقوميدس] الآثينيّ. بعد وفاة تمستوكليس رحل ابن أخيه [فراسيكلس Phrasicles] الى مغنيزيا وتزوج بنتاً أخرى له اسمها [نيقوماخ] بموافقة أخوته وتعهد برعاية صغرى الاولاد: [آسيا] ولدى المغنيزيين ضريح فخم لتمستوكليس يقوم في وسط ساحة السوق الكبرى. ولا يستأهل منّا الذكر ما أورده [اندوكيدس Andocides] في خطابه لأصحابه حول رفاة [تمستوكليس]، وكيف ان الآثينيين سرقوا قبره وذروا رماد عظامه في الهواء. فقد أختلق هذه الرواية ليثير الحزب الاوليغارشي على عامة الشعب. وليس ثم حيّ يجهل أن [فيلارخوس Phylarchius] انما يخترع اختراعاً وينسج من الخيال في تاريخه حتى لم يكن يعوزه غير مرسحٍ فعلي. فقد عمل من [نيوقلس وديموپوليس] ابنين لتمستوكليس، ليثير العواطف ويحرك الشجون والمشاعر، كأنمّا يكتب تمثيلية مأساوية. ويقول [ديودوروس] الفلكي في كتابه «عن القبور» تخميناً لا عن معرفة ثابتة: يوجد بقية عن بناء قرب ميناء [پيريوس] حيث تخرج الأرض بهيئة المرفق من مرتفع الكيموس Alcimus(٨٠) عند اجتيازك اللسان الأرضي الى الداخل حيث البحر هادىء دوماً وعلى هذا البناء يقوم قبر تمستوكليس(٨٠) على هيئة مذبح ويؤيد ذلك [افلاطون] الكاتب الكوميدي في ابياته التالية:

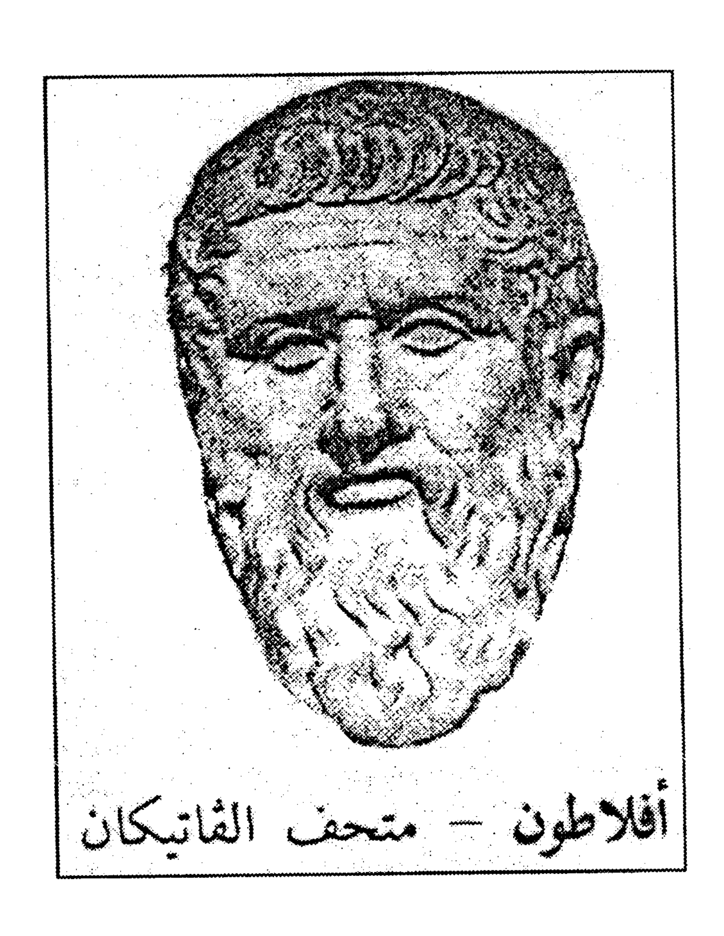
يقوم ضريحك على موضع رائع من الساحل. والتجار مازالوا يقرؤنه التحية مع

= أشتهرت بوجود معبد لـ(كيريس) فيها ولأنها مسقط رأس المؤرخ (توكيديدس). لذلك كان مقريسيوس موفقاً في تصحيحه [پاوسنياس ١:١٣].

(٨٠) يقول توكيديدس ١:١٣٨. ان عظام تمستوكليس نقلت سراً الى اتيكا بمسعى أقربائه وتطبيقاً لوصيته ودفنت هناك. الاّ ان (پاوسنياس) يتفق مع [ديودورس] بانَ الآثينيين الذين ندموا على ما فرط منهم بحق رجلهم العظيم، كرموه باقامة ضريح له في پيريوس. ويقول (پاوسنياس) انه كان قائماً في ايامه.

الأرض القادمين اليها. وسيظلّ ينظر اليهم وهم غادون رائحون، خارجون داخلون. ويرقب السفن وهي تمخر الماء تحته.

وظلّت عادة اكرام نسل تمستوكليس متبعة في مغنيزيا الى يومنا هذا. والآن يتمتع بها تمستوكليس آخر من أهل اثينا تعرفتُ به وتوثقت صداقتي معه في دار الفيلسوف امونيوس.



أفلاطون — متحف الڤاتيكان



ديانا والأيلة

كاميللوس

CAMILLUS

(Marcus Furius)

ت 365 ق.م

من بين الأمور العديدة البارزة التي تروى عن [فيوريوس كاميللوس] كان أعجبها وأروعها طراً أنه لم يبلغ منصب القنصل قطّ، في حين ظلّ يتقلد ارفع القيادات بصورة مستمرة يواكبه النجاح تلو النجاح، واختير دكتاتوراً خمس مرات، ودخل ظافراً اربع مرات، ولقب بباني روما الثاني. أن السبب في ذلك يعود الى أحوال الجمهورية ووضعها في ذلك الحين، لأن العامة رفضوا انتخاب قناصل لخلافهم مع الشيوخ[1] وأنتخبوا عوضاً عنهم حكاماً أسموهم بالتريبيونات العسكريين، لهم صلاحيات القناصل وسلطاتهم كافةً. وكان المأمول من هذا الاجراء أن يتناقص أذى الحكام لأن الحكم سيكون موزعاً على عددٍ أكبر. فوضع ادارة الحكم في ايدي ستة أشخاص لا اثنين.

كان فيه بعض الاطمئنان لخصوم الحكم الاوليغارشي. تلك هي حالة الزمان عندما بلغ كاميللوس أوج مجده وعظمته. ومع أن الجمعية العامة Comitia كانت تجمع في بعض الأحيان خلال تلك الفترة[2] فينتخب القناصل إلا انه لم يستطع اقناع نفسه بطلب المنصب القنصلي ضدّ رغبة الشعب. أمّا في وظائفه العامة الأخرى العديدة فمسلكه: عندما يكون مطلق السلطة، ان يمارسها كأنها موزعة بينه وبين غيره. والفضل في النتائج يعود له وحده في جميعها، وان كان ثم شارك في القيادة. وعدالته جعلت حكمه امنا من الحسد بالدرجة الأولى وأن قابليته وكفاءته هي التي ادخرت له المقام الأول الذي لم ينازعه فيه أحدٌ بالدرجة الثانية.

---

(١) الخلاف القديم حول توزيع الأراضي تجدّد. والعامة تصرّ على أن كل مواطن يجب ان يحصل على حصة متسارية، فيجتمع مجلس الشيوخ عدة مرات ليرفض هذا الاقتراح. أخيراً نصح [ابيوس كلوديوس] بكسب عدد من التريبونات للعامة، باعتباره العلاج الوحيد العناد المجلس والتحكم الذي يمارسه، فنفذ الشعب هذه النصيحة. اذ دفع اليأس العام بالعامة الى انتخاب تريبيونات عسكرية بدلاً من القناصل. وقد خرج بعض التريبيونات من طبقة البليبيان (ليڤي ٤:٤٨).

(٢) من ٣١٠ عندما لبتدأوا بانتخاب التريبيونات العسكريين (ليڤي ٤:٧) ص ٣٨٨ ق.م عندما صار القناصل ينتخبون بصورة مستمرة – كان يجرى انتخاب قلةٍ من القناصل بين حين وآخر. لكن لم ينتخب اثناء فترة ادارة كاميللوس أكثر من قنصل واحدٍ أو اثنين وكانت الجمعية العامة مئوية القوام Centuriata اذ يتم تصويت الجمهور بمجموعات تتألف كلٌ منها من مائة فصرّت لاختيار اصحاب المناصب الرفيعة كالقنصل، والچنسور والپريتور وكان عدد التريبيونات العسكريين في المبدء ثلاثة فقط.

لم يكن آل فيوري Furii[٣] في ذلك الحين بيتاً رفيعاً بارزاً قط[٤]. وهو الذي رفع من شأن نفسه بأعماله. وصار يشار اليه بالبنان، فقد خدم بأمرة الدكتاتور [پوستيميوس توبرتنس] في المعركة الكبرى ضدّ الإكويين Aequians والڤولسيكيين Voliscians[٥]. قد خرج راكباً صهوة جواده عن بقية الجيش وهاجم العدوّ فأصيب فخذه بطعنة سنان مقذوف. فلم يأبه وترك الرمح مغروراً في مكانه واستمر يهاجم أشجع مقاتلي العدو حتى هزمهم. فأنعم عليه لمبسالته هذه بمنصب الچنصور Censor[٦] الى جانب مكافآت أخرى، وكانت هذه الوظيفة في ذلك الحين خطيرة، ذات سلطة كبيرة. وقد أُثِر عنه عملٌ طيّب جداً خلال فترة بقائه في تلك الوظيفة. كان المقاتلون يسقطون صرعى في الحرب ويتركون ارامل كثيرات فأصدر أمراً يقضي بأن يتزوج العازبون بهنّ طوعاً، وإلاّ تفرض على من لا يقبل، غرامةٌ شخصية كما أنه أخضع الأيتام للضريبة كاجراء ضروريّ لتنفيذ الأمر الأول، وكانوا قبلاً معفويّن منها، وكانت الحروب المستمرة تتطلب نفقات أكثر من العادة لهم إلاّ أن ما أضنك الرومان أكثر من ايّ شيء هو حصار [ڤيي Veii]. يسميّ بعضهم هؤلاء القوم بـ(الڤيينتاني Vientani] وهي كبرى مدن التوسكان ولاتقل عظمةً عن روما لا في عدد الجنود ولا في مقدار السلاح. ولاعتبار نفسها على هذه الدرجة من الغنى والثراء، ولاعتدادها بفنونها وحضارتها وقوتها، دخلت في مناسبات شريفة كثيرة مع الرومان اطلاباً للمجد والسؤدد. أمّا الآن فقد تخلوا عن مطامحهم

---

(٣) اسم الأسرة [فيوريوس] و[كاميللوس] هو اسم الابناء الفضلاء الذين يخدمون في هيكل أحد الآلهة. وكان كاميللوس اول من أحتفظ به وجعله أسماً أخيراً له. امّا اسمه الصغير فهو [ماركوس].

(٤) ربما قصد پلوتارخ به الرفعة العسكرية لا الرفعة المدنية. ففي العام ٢٦٦ ق.م وجدنا سكستوس فيوريوس يتولى منصب القنصلية [ديون ٣:٨ وليڤي ٣٩:٢]. وفي فترة تقل عن قرنٍ واحد ما بين تريبيونية كاميللوس الأولى وتلك الفترة نجد ما لا يقل عن سبعة عشر من هذه الأسرة قد وصلوا الى هذا المنصب.

(٥) كان ذلك في العام ٢٢٤ ولكاميللوس من العمر ١٤ سنة أو ١٥. ومع ان المواطن الروماني لا يحمل السلاح عادة قبل السابعة عشرة ومع ان پلوتارخ يؤكد بان شجاعته الفائقة في ذلك الحين هيأت له الأسباب لتسنم منصب الچنصور، ان كان الأمر كذلك فلابد انه انتخب لشجاعته فحسب اذ لم يكن من المألوف ان يسند مثل هذا المنصب الى حدث له مثل هذا العمر. في الواقع ان كاميللوس لم يصل الى هذه الوظيفة الاّ في العام ٣٥٣.

(٦) ان سلطة المحتسب (الچنسور) اول استحداثها في العام ٣١١ لتأسيس روما، في زمن الجمهورية كانت جدّ واسعة. فمن صلاحياتها طرد اعضاء مجلس الشيوخ وتأنيب الفرسان وتوبيخهم. ومنع الپليبيان من الادلاء باصواتهم في الاجتماعات العامة. الاّ ان الاباطرة أستقلوا بها وأحتكروها ولم يعد اللقب يشرف حامله. فيعمد الى التخلى عنه. واما ما ذكره پلوتارخ عند قيام كاميللوس باجبار عزّاب الرومان على الزواج بارامل الحرب. فانه يدخل ضمن سلطات الچنسور ويدعى: Caelibes esie Prohobento ومن واجباتهم ايضاً الاحصاء السكاني العام Census الذي يجب اجراؤه كل خمس سنوات. [انظر ديون ١١:١٥، ليڤي ٤:٨-٢٤]. شيشرون: ٣] وغيرهم.

الغابرة بعد أن أضعفتهم الهزائم الكبيرة، فحصنوا أنفسهم باسوار عالية قوية وجهزوا المدينة بمختلف انواعٍ الأسلحة الهجومية والدفاعية وتموّنوا أيضاً بالقمح وكلّ أنواع المؤون والأرزاق، واحتملوا بكلّ راحة حصاراً كان على محاصريهم أشق مما هو عليهم وأنكى. لأن الرومان لم يتعودوا البقاء بعيداً عن ديارهم إلاّ في أيام الصيف ولمدة ليست بالطويلة، وكان شأنهم دوماً أن يقضوا الشتاء مع أهلهم، فلهذا اضطرهم المفوضون [التريبيونات] الى بناء حصون في أرض العدو واقامة تحكيمات قوية حول معسكرهم لدمج فصلي الصيف والشتاء معاً. وساد الشكّ في أن القادة يتباطؤن ويتماهلون كثيراً في تضييق الخناق على المدينة بعد أن كادت تمر السنة السابعة على الحصار(٧)، حتى بلغ الأمر الى حَدّ اقالتهم من القيادة واختيار أخرين لادارة الحرب ومنهم [كاميللوس]، فأصبح (تريبيويا) للمرة الثانية(٨). إلاّ أنه لم يعط في حينه دوراً في الحصار، لأن الواجب الذي وقع له بالقرعة هو قتال الفاليسكان Faliscans والكاپينات Capenares(٩) الذين انتهزوا فرصة انشغال الرومان التّام فراحوا يعيثون في بلادهم سلباً ونهباً واستطاع [كاميللوس] أن يكسر شوكتهما رغم حراجة موقف الرومان بحرب التوسكان، والحق بهما خسائر فادحة وأجبرهما على الفرار والتحصن وراء الاسوار.

وفي اثناء احتدام المعارك هذه، حصلت ظاهرة غريبة ادت الى قلق واضطراب عظيمين في بحيرة ألبان Alban. بدت هذه الظاهرة اشبه بخارقة من الخوارق لأنها فاقت كُلّ ما سبق خَبَرُه من الخوارق، وتحدّت كلّ التفاسير المعروفة على ضوء الأسباب الطبيعية(١٠). كان وقت بدء الخريف، وقد انتهى الصيف، ولوحظ أن الفصل الجديد خلافاً للعادة لم يكن ممطراً ولا كثير الاضطراب بالرياح الجنوبية وغاض ماء كثير من مختلف البحيرات والبرك والينابيع، التي

---

(٧) من التريبيونات الستة العسكريين المعينين في تلك السنة اثنان منهما فحسب كانا على رأس القوات التي حاصرت (ڤيي) هما [لوشيوس ڤرجينيوس] و[مانيوس سرجيوس] ثانيهما قاد الهجوم واولهما اشرف على الحصار. وفيما كان الجيش منقسماً بهذا الشكل قامت قوات الفالسكيين والكاپيناتي بالأنقضاض على سرجيوس، في الوقت الذي اندفع المحصورون من الداخل وهاجموه خارج الأسوار. وظن الرومان الذين تحت امرته انهم يواجهون كل قوات [اتروريا] فانهارت معنوياتهم وتقهقروا، وكان بوسع (ڤرجينيوس) انقاذ الموقف. الاّ ان كبرياء (سرجيوس) ابت عليه طلب العون من زميله وقرر هذا ان لا يقدم له اية مساعدة. فأوقع العدو مذبحة هائلة في صفوف الرومان (ليڤي ٥:٨).

(٨) في العام ٣٩٦ ق.م.

(٩) يقول ليڤي (١٤:٥) ان ڤاليريوس پوتيتوس] التريبيون العسكري للمرة الخامسة هاجم الفالسكيين ودمرهم وكذلك فعل (كاميللوس) بالكابيناتي اذ اوقع بهم خسائر عظيمة في الأرواح وغنم منهم الكثير.

(١٠) كان علماء ذلك الزمن قادرين على مساعدة الرومان في فهم هذه الظاهرة الطبيعية. و(سترابو) الذي عاصر (آغسطس) كان بوسعه حَلّ اللغز أيضاً من تعليقاته على بحيرة فوچيني التي تدعى اليوم «بحيرة قلعة گوندولفو».

تحفل بها ايطاليا، وبعضها جَفّ تماماً. وبعضها لم يعد فيه إلاّ حثالة. وظلّت مناسيب مياه الأنهار واطئة جداً كما هو حالها صيفاً، إلاّ بحيرة [ألبان] التي تتغذى بمياه أخرى غير مائها والتي تحيط بها الجبال ذات الاشجار المثمرة من كلّ جانب، فقد فاض ماؤها دون ما سبب (الاّ اذا كان آلهياً) وارتفع منسوب مياهها بشكل ظاهر حتى سفوح الجبال وأستمر في الارتفاع الى أن بلغ قممها كل ذلك دون أن يعتري ماءها هياج أو ثورة. وكانت في مبدأ الأمر منظراً عجباً للرعاة والسارحين بالماشية. ولكن عندما تشققت الأرض التي كانت تمسك مياهها، بسبب ضغط كمية الماء المتزايدة وانكسرت كما ينكسر السد الكبير إندفعت المياه الى الاراضي الواطئة بسيول عرمة دفاقة وطغت على الحقول المحروثة والاراضي المزروعة لتنصبّ في البحر. ولم يقتصر أثرها على الرعب الذي اشاعته في نفوس الرومان، بل ساد الاعتقاد كل سكان ايطاليا، بأنها مقدّمة لحادث خارق للعادة وكان أكثر الكلام عنها يجري في المعسكر الذي يحاصر (ڤيي)، ولذلك بلغت انباؤها المدينة المحصورة نفسها.

وكما يحصل عادة في الحصار الطويل، يلتقي كلا الفريقين ويتبادلان الحديث بعضهم مع بعض، وأتفق أن رومانيا وصل حبل الودّ بينه وبين أحد أهل المدينة وصار موضع ثقته، وكان هذا واسع الاطلاع في نبوءات الأقدمين، ذا شهرة فوق العادة، في تفسير الأسرار الالهية، ولحظ الروماني أن رفيقه هذا كان في غاية السرور لحكاية البحيرة، بادي الاستخفاف بالحصار، فقال أنها ليست المعجزة الوحيدة التي حصلت للرومان فقد رأوا معجزات أخرى أعظم منها وأعجب، وانه ليودّ أن يقصها عليه ليكون على بينة واتماماً لفائدته من هذه البلايا العامة. فسارع الرجل الى قبول عرضه متلهفاً ومتوقعاً سماع اسرار عجيبة. فأخذ الروماني يلهيه بالكلام ويصرف انتباهه مبتعداً به شيئاً فشيئاً عن ابواب المدينة وهو مستغرق في الحديث حتى اذا صارا على مسافة بعيدة ارتمى عليه وطوقه من وسطه (وكان أقوى منه) وبمساعدة آخرين هرعوا اليه من المعسكر حَمَلهُ مقبوضاً عليه الى قواد الجيش. ووجد الرجل نفسه امام الأمر الواقع ولم ير مناصاً مما قدر له، فباح لهم بنبوءة (ڤي) السريّة. وهي أن المدينة مستبقى ممتنعة عن العدو ولايمكن الاستيلاء عليها إلاّ اذا حُولت مياه بحيرة [ألبان] المتجهة الى البحر، عن مجراها الجديد هذا بحيث لا تعود تصبّ في البحر[11]. وابلغ مجلس الشيوخ بذلك واقتنعوا بالأمر، فقرروا أرسال مندوبين الى دلفي يطلبون الراي من الآلهة وكان

(١١) يورد ليڤي (١٥:٥) النبوءة على هذا النحو «لن تؤخذ ڤيي حتى ينضب ماء بحيرة ألبا». [انظر ايضاً شيشرون. النبوءات ١:٤٤].

الوفـد يتـألـف من أناس رفـيـعي المقـام وهم [لـومـپـينيـوس كـوسـاسّ Lucunius Cossas وڤـاليـريوس پوتيـتـوس Valerius Potitus وفـابيـوس امـبـوسطوس Fabius Ambustus] فـأبحـروا واسـتـخـاروا الآلهـة. فـعـادوا بجـواب خـاص وهو أن الرومـان يـهـملون بعض المراسيم المتعلقة بالأعـيـاد اللاتـينيـّة[١٢]، وأمـا عن بحـيـرة [ألبـا] فـان النبـوءة أمرت أن يحـال دون البحيرة والبحر باقامة سد ان كان ذلك مستطاعاً. وان تبقى مـياهها ضمن حدودها الأولى وإن لم يكن ذلك ممكناً فـعليـهم أن يصرفـوا الماء الى الاراضي المنخفـضـة بـفـتح السـواقي والخنادق لتجفّ. فـأبلغت الرسالة وقـام الكهنة بانجاز مـا يتعلق بالقرابين وخرج الناس للعـمل في تحويل الماء عن البحر[١٣].

وفي السنة العـاشـرة للحـرب، سـحب مـجلس الشـيـوخ كل السلطات من القـادة ونصـبـوا [كاميللوس] دكتاتوراً[١٤]، فنصب بدوره [كرنـيليوس سكيپـيو Cornelius Scipio] قائداً للخـيّـالة. وكـان اول عـمله انـه نذر للآلهـة اذا انتـهت الحـرب نهـاية حـسنة فـسـيُـحي الالـعـاب العظمى القديمة تكريماً لهم[١٥]، ويوقف معبداً على الربّة التي يسميها الرومـان [ماتوتا Ma-tuta] اي [الأم]. ومع أن الطقـوس التي تقـام لـهـا تحـمـل المرء على الاعـتـقـاد أنهـا الربّة [ليـوكوثيـا Leucothea]. لأنهم يأخذون أمـةً الى الجزء السرّي من المعـبـد وهناك يضـربونهـا بالأيدي ثم يخرجونها[١٦]، ويحملون أولاد أخوتهم بين احضانهم بدلاً من اولادهم[١٧]. وعلى العـموم بانّ الطقـوس التـي تصـاحب القـرابين تذكـر المرء برعـاية [باخوس] لـ[إينو] والكوارث التي أحدثتها خطية زوجها. بعـد هذا النذر زحف كاميللوس على بلاد الثاليسكان وهزمهم في معركة طاحنة هم وحلفـاؤهم الكاپينات. ثم تفـرّغ الى حصار [ڤي] ووجد أن الاستيلاء عليـها بهـجوم، هو مـن الصعوبة بمكان، ومـحـاولة تنطوي على مـخـاطر جمّـة، فبدأ يحفـر انفاقـاً تحت

(١٢) العيد المقصود هنا، هو أكثر الأعياد حرمةً عند الرومان وقد انشأه (تاركوين) المكابر [ديون ٤:١١] وكان للرومان فيه الصدارة لكن وجب على كلّ أهالي لاسيوم حضوره والمشاركة في تضحية الثور (لچوپتر لاسيالس). وقد يمتد العيد اربعة أيام. والمدّة يحددها القناصل بمحض رغبتهم.

(١٣) ما زال هذا المشروع الهندسي باقياً ومياه بحيرة ألبا تجرى خلاله.

(١٤) في العام ٣٩٥ ق.م ويقول ليـڤي (١٩:٥) نجم عن هذا التـحـويل انقـلاب فكري عـام وحلت الثـقـة مـحل اليأس.

(١٥) نوع من السباق يجرى في الملعب الكبير. انشأه الدكتاتور [پوستوميوس] بعيد اشتباكه مع اللاتين عند بحيرة (ريگيللوس). وقد أتى [ديون] الى وصف مراسيها بتفصيل.

(١٦) وتدعى ايضاً [اينو Ino] وهي مثل [ماتوتا] فقد كانت تغار من أمة لها تعلق بها زوجها (اثاماس).

(١٧) كانت (اينو) والدة بائسة جداً. فقد شاهدت ابنها [ليارخوس] يقتل اباه اي زوجها. فقذفت بنفسها في البحر مع ابنها الآخر (ميليكرش] لكنها كانت أسعد حظاً كخالة. لقد حفظت حياة باخوس وهو ابن اختها المدعوة سيميلي Semele [انظر اوڤيد].

الأرض وكانت التربة حول المدينة هشة سهلة الحفر، فعمد الى حفرها على عمق كبير حتى يتعذر أكتشافها وفيما كان العمل مستمراً بها، لم يترك للعدوّ مجالاً للشكّ في حرصه على ابقائهم فوق الأسوار بهجماته المستمرة لصرف انظارهم عن الخطة حتى أمتدت الانفاق الى قلب المدينة وبلغت القلعة الداخلية القريبة من معبد [جونو] وهو أعظم المعابد في المدينة واجلّها مكانة... قيل أن امير [التوسكان] كان ساعتئذ يقرّب للآلهة، وان الكاهن بعد أن فحص احشاء الأضحية صاح بصوت عالٍ أن الربّة ستمنح النصر لأولئك الذين يكملون تقدمة القربان. فسمع الرومان الذين كانوا في النفق كلماته هذه ففتحوا الثغرة حالاً[١٨] وخرجوا الى العراء بجلبة شديدة وقعقعة سلاح فاوقعوا الرهبة في العدو ففر لايلوي فحملوا التقدمات وأخذوها الى [كاميللوس]. إلا أن هذا الحكاية تبدو محض أسطورة. ومهما يكن من أمرٍ فإن المدينة اقتحمت عنوة وانهمك الجنود في النهب وجمع كميات لاتحصى من الأموال والغنائم. وتطلع كاميللوس من برجٍ عالٍ الى ما حصل فبكى أولاً مشفقاً. ولكن عندما أقبل أقرب الذين يحيطون به لتهنئته على نجاحه رفع يديه الى السماء ونطق بالدعاء التالي «يا جوپتر ذا الحول والسلطان، ويا أيتها الآلهة التي هي الحكم الفاصل فيما هو خير وشرّ. انتم تعلمون بأننا لم نثأر لأنفسنا من مدينة اعدائنا الاشرار الظالمين إلاّ بسبب وجيه وانما بدافع من الضرورة فحسب أرغمنا على ذلك. واذا ما حصلت مصيبة في مجرى الأمور لموازنة هذا الحدث السعيد، فأرجو أن تتحول عن المدينة وعن الجيش الروماني، وتقع على رأسي وان يصيب الرومان بأقل أذى ممكن». وبعد أن أكمل دعاءه هذا واستدار ليمضي (من عادة الرومان أن يدوروا الى اليمين بعد العبادة أو الدعاء). عثر وسقط وسط دهشة الحاضرين جميعاً، إلاّ أنه أقال نفسه من العثرة حالاً وقال لهم أنه نال ما طلبه من الآلهة وهو حادث بسيط جداً، وقع له لموازنه اسعد حظ حُبي به الرومان.

وبعد نهب المدينة تماماً قررّ ايفاءً بنذره - أن يحمل تمثال (جونو) الى روما. وتهيأ العمّال[١٩] لذلك، وقام بالتضحية للربّة، وصلى لها قائلاً لاشك انه سيسرّها قبول عبادتهم لها، والتنازل متفضلة باحتلال مكان بين الآلهة التي تعبد في روما. وقيل ان تمثالها أجاب

(١٨) الكلمات والعبارات التي تخرج من افواه اشخاص لا علاقة لهم في موضوع بحث أو مسألة لا دخل لهم فيها، لا تهمل وانما تفسر بحسب الذوق فتحمل محمل فألٍ حسنٍ أوفال سيء ان انطبقت باي شكل على قضية تشغل البال وعندها فيبذلون أقصى الجهود لتحقيق ذلك الفأل ان خيل لهم بانه يبشرّ بخير أو لتحاشيه ان انذر بشرّ.

(١٩) العمال المقصودون هناك ليسوا بشغيلة اعتياديين قد ينقص لمسهم من قدر هذا الضم الشهير [ليڤي ٥:٢٢] وانما هم شبان أمتازوا بالوسامة يتمّ انتقاؤهم من بين سائر افراد الجيش سبقوا لهم ان اجروا مراسيم التطهر وارتدوا ثياباً بيضاً ويقومون بحملها بأعظم التجلّة.

بصوت منخفض أنها مستعدة وراغبة. ويكتب المؤرخ [ليفي Livy] أن كاميللوس اثناء صلاته لمس الربّة ودعاها وأن بعض الحاصرين صاحوا أنها ترغب في الإنتقال. وان أولئك الذين ايدّوا حصول المعجزة، ودافعوا عنها، وجدوا حجّة دامغة واحدة تعزّز دفاعهم هي حظوظ المدينة السعيدة العجيبة التي لا يمكن أن تصل بها الى هذا الأوج من العظمة والسلطان من بداية خاملةٍ تافهة لولا العديد من الدلائل المثيرة الى العناية الآلهية والتعاون. ومن الاعاجيب التي جرت مجراها، ما لوحظ على التماثيل من حبّات العرق، أو ما سمع من أنين يصدر عنها، وما يخيل للناظر انها تدور الى الخلف وتطبق اجفانها، الى آخر ما ذكره المؤرخون الأقدمون ونحن بدورنا نستطيع أن نروي حكايات عجيبة مختلفة من هذا القبيل، سمعناها عن أناسٍ احياءٍ، لايمكن أن ترفض بسهولة. إنما من الخطورة بمكان أن نشرع في تصديق هذه الحكايات، أو أن نستعجل في تكذيبهافالنفس البشرية بالغة القصور والعجز عن ضبط ارادتها، أو الصبر على حدودٍ معينةٍ، تراها تسبق أحياناً الى الأوهام والتخريف. وتراها أحياناً تلجأ الى الاستخفاف والازدراء بكلّ ما هو فوق الطبيعة إلا أن خير الأمور أوسطها، وأجتناب التطرّف هو أفضل السبل. وسواء أأدرك [كاميللوس] الزهو والخيلاء لمأثرته الكبرى في فتح المدينة التي كانت منافسة لروما بعد أن صمدت للحصار عشر سنين، أو لأصابته بالعظمة جراء اخضاعه الاقوام المجاورة، فقد اتخذ لنفسه سلطات الحاكم القضائي والمدني. إن افراطه في الشعور بالغرور والعظمة بدا جلياً في تجاوزه حدود الابهة في موكب نصره، فقد دخل المدينة راكباً عجلة حربية تجرها أربعة خيول شهباء، وهو عمل لم يسبقه فيه قائد من قبله، ولم يجرأ عليه أحدٌ من بعده، لأن الرومان يعدون واسطة لنقل التي هي على هذا الشكل - من المقدّسات وهي وقفٌ على ملك الآلهة وأبيها لا ينازعه فيها أحد[٢٠]. وهذا العمل باعد ما بينه وبين قلوب مواطنيه الذين لم يعتادوا مثل هذه المظاهر والأبهة.

والمأخذ الثاني الذي أخذوه عليه، هو معارضته القانون الذي يقضي بتقسيم المدينة. فالستربيونات الشعبيون تقدموا باقتراح ينص على تقسيم العامّة والشيوخ الى قسمين، أحدهما يبقى في روما والآخر ينتقل الى المدينة المفتوحة، ويتمّ الاختيار بالقرعة وكانوا يريدون بهذا، التخفيف من زحام مدينة روما وتوفير مجال العيش فضلاً عن ضمان سلامة حدودهم ومصائرهم بسكناهم في مدينتين كبيرتين هامتين. اذن فقد تبنّى عامة الشعب الساخط هذه الفكرة بحماسة وكانوا هم الأغلبية - وأخذوا يعقدون اجتماعات مستمرة في [الفوروم]

---

(٢٠) يقول ليفي [٥:٢٧] انه شارك (ابولو) بهذه العدة. ويظهر ان العجلات التي تجرها ستة خيول لم تكن معروفة عند الرومان. كما انه كاميللوس طلا وجهه بالقرمز وهو اللون الذي تطلى به تماثيل الأرباب عادة.

وينادون بضرورة وضع الاقتراح في النص محدثين ضجة كبيرة إلاّ ان الشيوخ والنبلاء كانوا ضد الفكرة، يعارضونها بقوة محتجين بأن هذا الاجراء لن يقسمّ روما بل سيدمّرها[٢١]. وقصدوا كاميللوس يطلبون منه العون. فخشي هذا العاقبة إن وصل الأمر نهايته الحديّة وآل الى اتخاذ قرار حاسم، فعمل على اشغال عامة الشعب بأمور أخرى. وأحبط المشروع، وهكذا اصبح مكروهاً. إلاّ ان السبب الأظهر والأعظم لبغضتهم له نجم عن قضية أعشار الغنائم الحربية. والجمهور هنا قويّ الحجّة في السخط عليه إن لم يكن محقاً. إذ يبدو أنه نذر لاپوللو قبل القائه الحصار على [ڤيي] أن يوقف عليه عشر الغنائم إن وقعت المدينة بيده. ثم استولى على المدينة ونهب أموالها وسواء أكره ازعاج الجنود ومضايقتهم، أو نسي نذره بسبب تراكم أشغاله في تلك الفترة، فقد تركهم يتمتعون بذلك الجزء من الغنائم أيضاً وبعد مرور وقت وبتوطدّ سلطانه، أحال موضوع النذر للبحث امام مجلس الشيوخ. وقد أعلن الكهنة في الوقت عينه بدوام ملاحظتهم للقرابين أن هناك علامات تدل على الغضب الآلهي، وان ذلك يتطلب عطايا وتقدمات.

وقرر مجلس الشيوخ وجوب الايفاء بالنذر. ولما وجد من الصعب أن يعيد توزيع الغنائم، قُرر أن يدفع كل شخص عشر حصته من الغنيمة مع حلفه اليمين. وهذا ما أضنك الجنود وضايقهم، لأنهم فقراء الحال، فبعد ان تحملوا الكثير من هذه الحرب تراهم يجبرون الآن على اعادة هذا المقدار الكبير من المال من حلالهم بعد انفاق الذي أصابهم. وتشبث كاميللوس بأضعف دفاع بعد أن هوجم وقامت القيامة عليه. مُبرراً فعلته هذه بنسيانه نذره فحسب. فأحتجوا بدورهم أن نذره ينصّ على استخلاص عشر أسلاب العدوّ. أمّا الآن فهو يجبيها من عشر أموال المواطنين. وعلى اية حال اعاد كلّ شخص عشرهُ المفروض عليه ورسُم ان يصنع بثمنه وعاء من الذهب المصبوب ويُرسل الى دلفي وكان الذهب من الندرة بمكان في المدينة. والحكام يفكرون في كيفية الحصول عليه. فأجتمعت السيدات الرومانيات وتداولن في الأمر معاً وقدمت بالمساهمة في المشروع كل واحدة بشيء من حليها الذهبية حتى اجتمع منه مازنته ثمانية تالنتات. واعترافاً بفضلهن هذا قررّ مجلس الشيوخ أن يكرمهن الاكرام الواجب، فأصدر أمره بإباحة القاء خطب تأبين للموتى من النساء اسوةً بالرجال. وكانت العادة قبلها أن لا تلقى ايّ مرثية عامة بحق امرأة ميتة[٢٢]. واختار الرومان ثلاثة سفراء من أعرق الأسر

---

(٢١) كانوا يخشون بأنْ تتحول المدينتان بمرور الزمن الى دولتين تحتربان فيما بينهما حتى تقعا معاً فريسة لأعدائهما.

(٢٢) دفع للنسوة قيمة الذهب وليس بسبب هذه المناسبة بل بعدها عندما قمن بجمع كلّ حليّهن الذهبية اكمالاً للمبلغ الذي طلبه الغاليون ليعطى لهن حق إلقاء خطب التأبين [انظر ليڤي ٥:٥٠]. اما الامتياز الذي =

وارسلوهم صحبة الاناء الحربيّ، الذي بدأ رائعاً بدقة صنعته وجمال زخرفه. وكان البحر خطراً أبهدونه بعواصفه على حدٍ سواء - كما تبينوا هم بأنفسهم حتى كادوا يغرقون وكانت نجاتهم من قبيل المعجزات عندما وصلوا الى جزر[٢٣] [ايلوس Aelus] والريح رخاء فادركتهم سفن الليپاريين Leparians، وقد حسبوهم قراصنة. وأستولوا على سفينتهم ولم ينجوا من الموت إلاّ بعد الدعاء والصلاة وقطروا السفينة الى الميناء وعرضوا مقتناهم واشخاصهم للبيع عبيداً بوصفهم غنائم شرعية ولأن هؤلاء كانوا قراضنة ولم يخل سبيلهم إلاّ بشق الأنفس بعد تدخل وتوسط رجل واحد هو [طيماسيثيوس Themasitheus]، وكان يتقلد منصب القائد، فقد استخدم كل وسائل الاقناع وأطلقهم بعد جهد كبير واعادهم بحراسة بعض سفنه. وسهل سفرتهم وساعدهم على تقديم النذر، ولهذا نال التكريم الذي يستحقّه في روما.

وواصل [تريبيونات] الشعب ضغطهم مجدداً بخصوص تقسيم المدينة، ويشاء حسن الصدف ان تنشب الحرب بينهم وبين الفاليسكان، مما أعطى الحرية لرؤساء الرومان في اختيار الحكام الذين يريدونهم. وان يعينوا [كاميللوس] تريبيوناً عسكرياً[٢٤]، مع خمسة زملاء. وكانت الأمور تتطلب قائداً ذا سلطان وسمعة فضلاً عن التجربة والخبرة. وبعد مصادقة الشعب على الانتخاب زحف بقواته على أرض [الفاليسكان] والقى الحصار على [فاليري Falirii] وهي مدينة جيدة التحصين. كثيرة المؤن ومخازن السلاح، وإن أدرك صعوبة الاستيلاء عليها وما يتطلب لذلك من وقت طويل إلاّ أنه كان يرغب في إلهاء المواطنين وإبقائهم خارج المدينة منشغلين حتى لا يظلوا عاطلين في ديارهم لايعرفون ما يصنعون بأوقات فراغهم غير التحزب للتريبيونات واثارة النعرات الحزبية والشغب السياسي وهذا في الواقع انجع دواءٍ للرومان، يشفيهم من كلّ الامراض التي يعانيها الحكم لجمهوريّ، كفعل الاطباء النطاسيين.

ولم يهتم أهل [فاليري] بالحصار كثيراً لاعتمادهم على قوة المدينة فضلاً عن أسوارها المنيعة التي تحميها من كل جانب. فكان السكان - خلا حرس الاسوار يروحون ويغدون في الطرقات بثيابهم العادية، والاولاد يداومون في المدارس. يأخذهم معلمهم للنزهة واللعب بالقرب من الأسوار لأن الفاليريين كالاغريق اعتادوا تخصيص معلم واحدٍ لعدة تلاميذ تدفعهم

= أعطي لهن في المناسبة التي يذكرها پلوتارخ فهو السماح لهنّ بركوب العجلات، في مجال الالعاب العمومية وفي القرابين والعجلات المكشوفة من نوع أقل درجة في الشوارع.

(٢٣) ايتوليان أو ايوليان: هذه الجزر التي يسكنها قوم الليپاري تقع بين ايطاليا وصقلية، وسميت بهذا لما قيل بانها كانت موضع سكن الرب ايكلوس Aeclus وموطن رياحه. ولطبيعتها البركانية فهنا ايضاً يعزو القدماء وجود حدّاد الآلهة فيها.

(٢٤) كان ذلك في ٣٩٢ ق.م.

الى ذلك رغبتهم في تنشئة الصغار من البداية على الاجتماع ومصاحبة بعضهم بعضاً.

كان هذا المعلم يبطن نية الغدر بالفاليريين عن طريق أولادهم، ولهذا عمد الى أخذهم يومياً الى الخارج بالقرب من السور، ولم يكن يبتعد بهم كثيراً في مبدأ الأمر. وبعد أن ينتهوا من تمارينهم يعيدهم الى منازلهم. ثم أخذ بالتدريج يبتعد بهم حتى أصبحوا بالتمرين المتواصل لا يخشون ولا يهابون كأن الخطر ليس قريباً منهم. وأخيراً جمعهم كلهم وأخذهم الى ربايا الرومان. وسلمهم طالباً أن يؤخذ هو الى كاميللوس. فجيء به اليه ومثل امامه في الوسط وافاد قائلاً أنه سيّد ومعلم أولئك التلاميذ ولكنه فضّل عطفه على كلّ الواجبات الأخرى وجاء لتسليم تلاميذه له وبهم يكون تسليم المدينة كلّها. وعند سماع كاميللوس اقواله هذه تملكه الذهول والعجب لهذا الغدر والتفت الى الحاضرين وقال «لا شكّ ان العنف والظلم مظهران من مظاهر الحرب بالضرورة ومع هذا فهناك مبادئ معينة يجب على الناس الطيبيّن مراعاتها حتى في الحرب، وليس النصر غاية تبلغ من السموّ ما يبرر لنا التحلل من واجباتنا وارتكاب اشنع الأعمال واحّطها. والقائد العظيم يجب أن يعتمد على مواهبه وكفاءته لا على نذالة الآخرين».

وبعد أن قال ذلك، أمر الضباط بتمزيق ثياب المعلم الخائن وشد يديه الى الخلف وسلّم تلاميذه عصيّاً وسياطاً وامرهم بإنزال العقاب به. ثم طرده الى المدينة. وفي ذلك الوقت أكتشف الفاليريون الخيانة وارتفع النواح والعويل في كل ارجاء المدينة لفاجعتهم بابنائهم، وراح الرجال والنساء يتراكضون نحو الأسوار والأبواب وهم في منتهى الحزن. فاذا بهم يشاهدون التلاميذ عائدين وهم يجلدون استاذهم العاري المكتوف اليدين، فارتفعت أصواتهم بالدعاء لكاميللوس وسمّوه بالمنقذ والأب. واحدث هذا العمل أثره الشديد لا في الآباء وحدهم بل في بقية السكان الذين عاينوا ما وقع وامتلأوا أعجاباً وحباً بعدالة كاميللوس وعقدوا في الحال اجتماعاً عاماً ارسلوا على أثره وفداً اليه لعرض استسلامهم له، ووضع انفسهم تحت تصرفه، فبعث كاميللوس السفراء الى روما، فأحضروا امام مجلس الشيوخ وتكلموا عما جاؤوا بخصوصه على هذا الشكل: «إن الرومان الذين يفضلون العدل على النصر، علموهم على حب الخضوع والطاعة أكثر من حبّ الحرية، وانهم لا يقرّون قط بأنهم أقلّ قوة من الرومان قدر ما يقرون بأن الرومان يفوقونهم في كرم السجايا». وأحال مجلس الشيوخ الأمر الى كاميللوس للبت فيه وتقرير ما يراه مناسباً، ففرض مبلغاً معيناً من المال على الفاليريين وعقد صلحاً مع الشعب الفاليسكاني كلّه وعاد الى بلادهُ.

إلاّ أن الجنود الذين كانوا يتوقعون نهب المدينة هاجموا كاميللوس بقارص الكلام عندما عادوا خالي الوفاض واتفقوا مع بقية المواطنين في نعته، بعدو الشعب وبالرجل الذي يقف ضد

المصلحة العامة. وبعد ذلك عندما جدّد [تريبيونات] الشعب اقتراحهم بتجزئة المدينة ووضعوه في التصويت ظهر كاميللوس معارضاً له بصورة علنية، غير مكترث برضا الجمهور عنه(٢٥)، وهاجم محبذّيه بشدة وظلّ يعارض ويناقض رغبة الجمهور وميلهم الى ان رفض الاقتراح، ولكنهم ظلّوا على كرههم له. حتى عندما حلت به مصيبة عظيمة بفقد أحد ابنيه بمرض، فإن الشعور بالعطف نحوه لم يخفف قط من غلواء التحامل ضدّه. ولم يكن معتدلاً في حزنه على ثكله فهو رقيق الشعور مرهف الحسّ بطبيعته وعندما قُدّم الإتهام ضدّه ظلّ في منزله يشارك نساء بيته حدادهن.

كان متهمه [لوشيوس ابيوليوس Lucuis Apuleius] وموضوع التهمة هو احتجاز الأسلاب التوسكانية لنفسه. إذ أُشيع ان أبواباً نحاسية معينة وهي جزء من الأسلاب قد ظلّت في حوزته وتألب سخط الناس عليه وكان واضحاً أنهم سيتشبثون بأي فرصة تعنّ لإدانته. فجمع اصحابه وزملاءه الجنود وغيرهم ممن تولى القيادة معه وكان عددهم كبيراً. ورجاهم أن يحولوا دون تعريضه لتهم باطلة وضيعة وتركه هدفاً لسخرية اعدائه وسخيمتهم. فتداول اصحابه في الأمر وتشاورا وأجابوه بقولهم انهم لا يعرفون كيف يمكنهم مساعدته في مسألة الإدانة، إلاّ أنهم سيساهمون كلّهم في دفع أية غرامة تفرض عليه. فلم يستطع تحمل هذه المذلّة العظيمة وعزم وهو في فورة من غضبٍ على ترك المدينة والذهاب الى المنفى. فودّع زوجه وابنه وتوجه بهدوء نحو باب المدينة(٢٦) ووقف هناك ثم استدار وبسط يديه نحو الكاپيتول وصلى للأرباب قائلاً أنه إذا كان خروجه من وطنه متأتياً عن الغدر وسوء النيّة لا لذنبٍ قارفه، فلتكن ندامة الرومان عنه عاجلة. ولتشهد البشرية جمعاء على حاجتهم اليه ورغبتهم في عودته اليهم».

وكان مثله مثل [آخيل Achilles](*) الذي خرج الى المنفى وهو يصب لعناته على بني قومه وأدين دون أن يحضر أو يقدّم دفاعاً عن نفسه وعوقب بغرامة قدرها خمسة عشر ألف [آس Asse](٢٧)، وهي تعادل بعيار الفضّة ألفاً وخمسمائة دراخما. وكان [الآس] عملة ذلك العهد، وعشرة من هذه السكة النحاسية تعدل [ديناريوساً Denarius] واحداً أو ما

(٢٥) فاز الپاتريشي باكثرية صوت قبيلة واحد. وسرُوّا للغاية من موقف الشعب حتى انهم اصدرو في صباح اليوم الباكر قانوناً يقضي بمنح ستة ايكرات من أراضي (ڤيي) لكل وبّ اسرة. ولكل عازب لا يملك وسيلة رزق واضحة. فقابل الشعب ذلك بالسماح بانتخاب القناصل بدلاً من التريبيونات العسكريين [انظر التفاصيل في ليڤي ٥:٣٠].

(٢٦) كان ذلك بعد الاستيلاء على (فالوري) باربع سنوات اي في ٣٨٩.

(*) الالياذة ١:٤٩٧-٤١٢.

(٢٧) الآس As هي عملة زهيدة القيمة.

سمي بالقطعة ذات العشرة». ولم يبق روماني واحدٌ بعد دعاء كاميللوس إلاّ وهو مؤمن أن جزاءً عادلاً فجائياً سيتبع ذلك الظلم وأنه سيصيب ثأره حتماً للغدر الذي هزّ الدنيا هزا وانما وجده مرّ الطعم ووقعه اليماً. لقد نالت روما عقابها كاملاً بكل ما فيه من خزي وعار وأخطار وحار. والأمر سواء، أكانت نكبتها قضاءً وقدراً أم بسعي أحد الأرباب الذي لم يشأ أن تبقى الفضيلة مهضومة الحق لا ينتصف لها[٢٨].

وأوّل إشارة كانت نذيراً بالكارثة، هي موت الچنصور [يوليوس][٢٩] لأن الرومان يجلّون هذه الوظيفة أجلالاً دينياً ويعدونها من الوظائف المقدسة. والأمر الثاني هو رؤيا [ماركوس كويدشيوس Marcus Coedicius] وهذا رجل لايتمتع بمكانة عالية وليس من الشيوخ، لكنه عرف بالصلاح والاستقامة، قصد هذا تريبيونات العسكر قبل خروج كاميللوس الى منفاه، وأبلغهم بأمر يستدعى التأمل، قال انه كان يمشي ليلة امس في الشارع الذي يسمىّ «بالطريق الجديدة» فناداه أحدهم بصوت جهوري فالتفت فلم يشاهد أحداً وانما سمع صوتاً أقوى من صوت الآدمي ينطق بهذه الكلمات «يا ماركوس كويديشيوس»! اذهب فجر يوم الغد الى تريبيونات العسكر». سخروا من القصة وتندروا عليها، وبعدها بقليل خرج كاميللوس من المدينة الى المنفى.

والغاليوّن هم من الشعب [الكلتّي Celtie][٣٠] قيل أنهم أرغموا على ترك موطنهم لأن بلادهم لا تكفي حاجتهم من الرزق جميعاً فنزحوا انتجاعاً لديار أخرى. وكان فتيانهم والمحاربون فيهم يعدوّن بالآلاف فضلاً عن النساء والأطفال الذين يزيدونهم عدداً، حتى بلغت بهم رحلتهم بحر الشمال واستقروا في اقصى جزء من اوروپا، بن جبال [پيرينيا Pyrenean] وجبال الألب، بعد عبورهم جبال [ريفينا Riphaean] وعاشوا ثمّ زمناً طويلاً مجاورين اقوام (السينون Senones) [الكلتوري Celtorii][٣١] وبعد ان ذاقوا الخمر التي عرفوها لاول مرة مرة ايطاليا فتعلقوا واشاعت فيهم نشوة ولذة لم يجدوها في غيرها فأحتقبوا سلاحهم وزحفوا بنسائهم وأطفالهم نحو جبال الالب سعياً الى الأرض التي تنتج ثمرة هذا العصير غير مبالين

(٢٨) يعتقد الأقدمون ان الربّة (غسيس) تخصصت في الاقتصاص من ذوي الاعمال الشريرة في هذه الحياة. لاسيما الكبرياء ونكران الجميل.

(٢٩) في النصّ الاغريقي خطأ ارتكبه الناسخ الجاهل فقد كتب بدل ذلك «شهر يوليوس» اي تموز. فعند وفاة [يوليوس] هذا، استخلفه ماركوس كورنيليوس في منصب الچنسور. وأفتتحت جنسوريته السيئة لا ينتخب چنسورٌ لملء الشاغر اذا مات السلف. وانما يرغمون زميله الحيّ الآخر على الاستقالة (ليفي ٥:٣١).

(٣٠) الكلت Celtae هو الاسم الذي يطلقه الاقدمون على سكان الغرب والشمال حتى سكيثيا.

(٣١) اراضي السينوني تشمل السيَن Sen والاوكسير Auxerre وترويي Troye، حتى مدينة (پاريس) ولا يعرف اصل الكلتري ولعل الكلمة مصحفة. لم يرد ذكرهم عند ليفي (٥:٣٤ و٣٥).

بغيرها من الأراضي وقيل ان شخصاً يدعى [ارنوس] هو الذي عرفهم بالخمر وكان المحرض الأساسي لمجيئهم الى ايطاليا(٣٢). وهو رجل توسكاني عريق الأصل طيب الخلق، إلاّ انه وقع في المشكلة التالية: كان وصيّاً على يتيم من أغنى ابناء البلاد وأجملهم صورة، اسمه [لوكومو Lucumo](٣٣). ربي منذ طفولته في كنفه ومع أسرته. وعندما شبّ عن الطوق لم يترك بيت مربيه تعلقاً به وأعلن رغبته في البقاء، وظل زمناً يغازل امرأته وتغازله وتطارحه الحب ويطارحها سراً حتى لم يعد في الامكان ابقاء عاطفتهما في طيّ الكتمان ولا اخفاؤها عن العيون. فاستأثر الشاب بالمرأة بصورة علنية فراجع الزوج القضاء، ولكنه لم ينل حقه بسبب ما تمتع به خصمه من جاه وكثرة مالٍ، فترك بلده، ولسماعه بوجود بلاد الغال توجه اليهم وكان دليلاً لهم في حملتهم على ايطاليا.

في مبدأ دخولهم استحوذوا على كل البلاد التي سكنها التوسكان من قديم الزمان وهي تمتد من جبال الألب الى البحرين كما تشهد بذلك الأسماء. فالبحر الشمالي أو الادرياتي، أخذ اسمه من المدينة التوسكانية [ادريا Adria] أما البحر الواقع الى الجنوب فاسمه «بحر الجنوب» فحسب، وكانت البلاد كلها خصبة، حافلة بالشجر المثمر، والمراعي الممتازة، حسنة الإرواء بمياه الأنهار. وفيها ثماني عشرة مدنة كبيرة جميلة تحفل بالصناعات المختلفة والغنى، وكل مباهج الحياة وافانين اللهو. وطرد الغاليون التوسكان منها وأستقروا فيها وقد جرى هذا منذ عهدٍ جد بعيد.

كان الغاليون في الزمن الذي تتكلم عنه يحاصرون المدينة التوسكانية [كلوسيوم Clu-sium]. فأستنجد أهلها بالرومان وطلبوا التوسط لدى البرابرة بالوفود والرسائل. وبعثوا بثلاثة اشخاص من أسرة [فابي] وكلهم ذوو مكانة عالية وصيت حسن في المدينة، فأحسن الغاليون استقبالهم احتراماً لاسم روما، وأوقفوا الهجوم على الأسوار وجلسوا يتفاوضون معهم. وسأل الوفد عن الأذى الذي نالهم من الكلوسيين فالجأهم الى الاغارة على مدينتهم، فضحك [برينّوس Brennus] ملكهم وأجاب قائلاً ان الأذى الذي الحقه بنا الكلوسيون هم

---

(٣٢) يحدثنا ليفي ان ايطاليا كان معروفة للغاليين قبل هذا الزمن بمائتين من السنين. وان كان هو الآخر قد نوّه بقصة (اونوس) واستطرد ليقول ان هجرة الغاليين الى ايطاليا وغيرها من البلدان كان سببها ضيق بلادهم عن استيعاب عددهم المتكاثر وان الأخوين بللوفيسوس وسيگوفيسوس أقترعا على الاتجاه الذي سيسلكه كل منهما. فوقعت ايطاليا من نصيب الاول ووقعت المانيا من نصيب الآخر وكان الأول في رأي ليفي أوفر حظّاً.

(٣٣) لوكومو Lucumo ليس هو الاسم بل لقب الشاب وهو صاحب لوكوموني. وقد كانت اترووريا مقسّمه الى اثنتي عشرة دويلة من تلك الدويلات.

عـجـزهم عن الزراعـة إلاّ القليـل جداً من الأراضي الواسـعـة التي يمتلكونهـا واصـرارهـم على التمسك بها ورفضهم التنازل لنا عن اي جزءٍ منها ونحن غـربا ء كثيرو العدد فقرا ء. وانتم أيها الرّومـان أيضاً كنتم على شاكلتنا، اضربّكم [الألبان، والفيـديناتي Fidenate والأوربان] من قبل، والآن يلحق بكم [الفيينتيون والكاپينات] وكثير من [الفاليسكان والفولسكان] الأذى نفسه، فتستعبدونهم وتنهبون بلادهم وتستحوذون عليها وتقرّضون مدنهم، ولايعد عملكم هذا من قبيل القسوة والاعتداء فانما انتم تتبعون أقدم الشرائع، تلك التي تمنح مقتنيات الضعيف للقويّ، مبتداها الاله ومنتهاها الحيوان فكلّ هذه الكائنات بطبيعتها تسلّم بحق الأقوى في غصب الأضعف فكفاكم أيها الرومان شفقة على الكلوسيين الذين نُحاصرهم لئلا تعلّموا الغاليين درساً في العطف على أولئك الذين تظلمونهم، وتحركوا فيهم النخوة لمساعدتهم».

ادرك الرومان من هذا الجواب بأنهم لا قبل لهم باقناع [برينوس] فقصدوا الكلوسيين وراحوا يشجعونهم ويحرضونهم على مهاجمة البرابرة بمساعدتهم. أقترحوا عليهم ذلك إمّا لاختبار قوة أهل المدينة، أو لإظهار شجاعتهم هم. وتمّ الهجوم وحمي الوطيس بالقرب من الأسوار. وكان أحد الفابيين الثلاثة واسمه [كوينتوس امپوستوس] يمتطي جواداً قوياً فأعمل به مهمازيه واندفع كالبرق نحو أحد الغاليين وهو رجل ضخم الجسم شديد العضل لمحه وهو على حصانه بعيداً عن الآخرين. ولم تكشف هويته في مبدأ الأمر لسرعة القتال ولمعان دروعه التي حالت دون تركيز الانظار فيه، لكن [برينّوس] عرفه حالما جندل الغالي وبدأ بجمع شكّة سلاحه. فأشهد الآلهة على ما حصل خلافاً للتقاليد والأعراف المتبعة بين الشعوب المعتبر عند الجميع جزءً من الدين، مشيراً الى ذلك الذي جاء في سفارةٍ سلمية وهو الآن يشارك في أعمال العدوان ضدّه.

وما كان منه إلاّ ان سحب رجاله ورفع الحصار عن [كلوسيوم] وسار على رأس جيشه الى روما مباشرةً. ولم يشأ أن يبدو عمله هذا ذريعةً واستغلالاً للإهانة وتوخياً لابداء استعداده لتفادي ايّ سبب للقتال، أرسل منادياً يطلب الرجل لانزال العقاب به وفي الوقت نفسه استمر في زحفه على رسله.

اجتمع الشيوخ في روما. وكان كهنة [الفيسيال] بين الكثيرين الذين نددوا بعمل [الفابيين] ومن أكثرهم استنكاراً. وهؤلاء طلبوا من الشيوخ انطلاقاً من اسباب دينية - أن يُحمّل الشخص الذي ارتكب هذا الجرم كلّ الوزر والعقاب الذي يستحقه عمله. وبذلك تبرأ ذمة البقية. لقد نصب [نوما پومپليوس] أعدل الملوك وأطيبهم خلقاً هؤلاء [الفيسيال] ليكونوا حماة للسلام وقضاةً ومحكمين في كل الأسباب التي تبرّر اعلان الحرب. وعمد

الشيوخ الى إحالة القضية الى مجموع الشعب للبت فيها. وتكلّم الكهنة هناك ضدّ آل فابي كما فعلوا امام الشيوخ. إلاّ أن العامّة استهانوا بسلطة هؤلاء الى الحدّ الذي بادروا معه الى اختيار [فابيوس] واخوته [تريبيونات]عسكريين نكايةً بهم واحتقاراً[٣٤]. ولما سمع الغاليون بذلك استشاطوا غضباً واطرحوا جانباً كل استبطاء وأسرعوا غاية ما أمكنهم الى هدفهم يشيعون الرعب في من يمرّ به زحفهم ويذهل لعددهم وما تجهزوا به للحرب من عددٍ هائلة، واستبد بهم الخوف للوحشية والعنف اللذين أظهرهما جيشهم اللجب حتى أدركهم الخوف على بلادهم وأعتبروها في حكم الضائعة ولم يعد لديهم شكّ في أن مدنهم ستلحق ببلادهم، ولكن الغاليين خلافاً لما كان متوقعاً - لم يلحقوا بالمدن ضرراً خلال مرورهم، وأعلنوا بأنهم ذاهبون الى روما وان الرومان هم اعداؤهم لا غير وانهم يعتبرون كل الأقوام الأخرى اصدقاء لهم.

وبينما واصل البرابرة زحفهم السريع ساق التريبيونات العسكريون الرومان في ساحة القتال استعداداً للحرب ولم يكونوا أقل عدداً من الغاليين[٣٥] (إذ كان عدد مشاتهم لا يقل عن اربعين ألفاً) على أن غالبيتهم جنود مستجدون، لا عهد لهم بسلاحٍ قبلاً ذلك، زد على هذا انهم كانو قد اهملوا فرائضهم الدينية تماماً، ولم يتسيرّ لهم أضاحٍ مناسبة ولم يستخيروا المتنبئين وهو ما جرت به العادة في أوقات الخطر وقبل المعركة. ولم يكن الجم الغفير من القادة بأقل أهمية ينتخبون زعيماً واحداً ويمنحونه لقب [دكتاتور] لإدراكهم أهمية توحيد الجنود كلهم تحت أمره جنرال واحدٍ في الأيام العصيبة، وبوضع السلطة المطلقة كلها في يديه، أضف الى كل هذا، ان الضباط تذكروا معاملة كاميللوس لجنوده فحرصوا الآن في قيادتهم على أن يتطامنوا لجنودهم ويتحروا رضاهم وتركوا المدينة وهم على هذه الحال وعسكروا بالقرب من نهر آلليا Allia على بعد عشرة اميال تقريباً من رومه. وعلى مسافة غير بعيدة من مصبّه في [التيبر] وهذا داهمهم الغاليون وبعد مقاومة ضعيفة مخزية هزموا هزيمة شنعاء ودب الخلل في صفوفهم وسادتهم الفوضى ودفعت ميسرتهم بطرفة عين الى النهر وهلكت كلها. اما الميمنة فلم يلحقها التلف لانها تفادت الاصطدام بانسحابها من الأرض المنخفضة الى رؤوس التلال ومن هذه المواقع تمكن القسم الأكبر من ولوج المدينة. وامّا الآخرون فقد هرب الكثير منهم ونجوا، وتعب العدوّ من كثرة القتل، وانسحب ليلاً الى [ڤيي] وهو على يقين بأن رومه لن تقوم لها قائمة وأن من فيها في حكم الهلكي.

---

(٣٤) كان ذلك في العام ٣٨٧ ق.م بجسب رأي بعض المؤرخين أو ٣٨٨ بحسب رأي آخرين.

(٣٥) في الواقع كانوا أقل عدداً منهم لأن الغاليين كانوا قد حشدوا سبعين ألفاً لذلك اضطر الرومان قبل الاشتباك الى مدّ جناحيهم بحيث اضعفوا القلب. فكان ذلك من اسباب انكسار صفوفهم بسرعة.

جرت هذه المعركة في حوالي التغير الشمسي الصيفي(٣٦) وكان البدر تماً. وهو عين اليوم الذي حلت الفاجعة الآليمة [بالفابي] عندما وقع ثلاثمائة رجل من هذه الأسرة بيد التوسكان فافنوهم عن بكرة ابيهم. ومن هذه الخسارة الثانية ومن الهزيمة أطلق على ذلك اليوم اسم [اللينسس Allinsis] نسبةً الى النهر (ألليا)(٣٧) ومازال يسمى به.

اما موضوع الأيام النحسة، وهل يجب علينا أن تعتبر أيّا منها كذلك، وهل أحسن هيراقليطس صنعاً في تأنيب [هسيود] لتقسيمه الأيام الى أيام نحسٍ وايام سعدٍ. وبلوغه من الجهل حدّ اعتباره الأيام سواء لاتختلف، فكلّ هذا ناقشتهُ وبحثتهُ في موضع آخر. ولكن مناسبة هذا الموضوع لا تجعلني(٣٨) خارجاً عن الصدد إن أوردت امثلة قليلة نتعلق به. ففي اليوم الخامس من شهر [هيپودروس] البويّوسي الذي يوافق شهر [هيكاتومبيون] الآثيني حقق البويوسيون نصرين فريدين، أولهما في [ليوكترا Leuctra] والآخر في [جريستوس Geres-tus] وذلك قبل ثلاثمائة عام وفيهما قهروا [لاتمياس Lattamyas] والتساليين، وبهما تأيدت حرية اليونان واستقلاله. وفي يوم السادس من شهر [بيودروميون] الحق الأغريق الهزيمة المنكرة بالفرس في معركة (ماراثون). وفي اليوم الثالث هزموهم في پلاطيا Plataea، كما هزموهم كذلك في [ميكاله Mycale]، وفي اليوم الخامس والعشرين دحروهم في معركة (اربيلا) ونال الآثينيون نصرهم البحري في [نخسوس] بقيادة [خابرياس] في تمام بدر شهر [بيودروميون]، وغلبوهم في اليوم العشرين منه في سلاميس كما بيّنا في رسالتنا «عن الأيام». وكان شهر [ثارجيليون Thargelion] أنحس شهر للبرابرة ففيه تغلّب الاسكندر على قادة [داريوس] في [غرانيكوس Granicus] وتغلّب [تيمولون] على القرطاجنيّن في صقلية. في اليوم الرابع والعشرين واليوم نفسه والشهر نفسه يبدو على قول كل من ايفورس Ephorus وكاللستينس Callisthenes(٣٩أ) وداماستس Damastes(٣٩). إن طراودة

(٣٦) في السادس عشر من تموز من العام ٤٧٦ ق.م سقط الفابيّ.

(٣٧) Torrento de Catine. وقد أشير الى اليوم في التقويم الروماني اشارة واضحة باسم Dies Alliensis.

(٣٨) عمد الاقدمون الى اعتبار ايام مهنية ايام نحس، وأخرى ايام سعد اما لقوة سحرية عزوها في الاعداد بسبب طبيعة الآلهة التي تشرف عليها. أو جراء متابعة الاحداث الاليمة والسعيدة التي تقع في ايام مخصوصة ونحن نجد ان هسيود وڤرجيل قد اهتما ببحث هذه الفروق التي لا علاقة لها بالفلسفة.

(٣٩) التساليون بقيادة [لاتامياس] اندحروا امام البويوتيين قبيل معركة [ثرموپيلي] وقبل اكثر من مائة عام من معركة لڤيكترا. هناك ايضاً خطأ في اسماء ومواضع بويوتية فـGeraestus ؛ جيريستوس، يجب ان تقرأ Geressus (جريسوس. لان الأولى هي نتوء داخل في ايڤيا. والثانية هي قلعة في بويوتيا. راجع پاوسنياس ٩:١٤.

(٣٩ أ) كاللستينس المؤرخ أحد تلاميذ ارسطو. راح ضحية شكوك سيده الاسكندر المقدوني الذي كان قد دون سيرته، وداماستس هو من مدينة سيكيوم Sigeum. خلف بعض الآثار التاريخية منها تاريخ =

فتحت. ويظهر من الجهة الأخرى أن شهر [ميتاغتنيون Metagitnion] الذي يسمىّ [پانيموس Panimus] في [بويوسيا] ليس بالشهر السعيد تماماً عند الأغريق ففي اليوم السابع منه هزمهم [انتيپاطر Antipater] في موقعة [كرانون Cranon] والحق بهم الدمار التام. وقبلها هزمهم [فيليب] في [خيرونيا] وفي اليوم والشهر والعام عينها أباد البرابرة كل أولئك الذين غزوا ايطاليا بقيادة [ارخيداموس Archidamus](٤٠). ويهتمّ القرطاجنيون أيضاً باليوم الحادي والعشرين من الشهر نفسه لأنهم مُنوا فيه بافدح الخسائر في الأرواح وباشنع هزيمة. ولست أجهل أن الاسكندر دمرّ طيبه للمرة الثانية في حدود ايام «عيد الأسرار». وبعدها في العشرين في الشهر نفسه (اي بيودرميون) إصطدم الآثينيون بالجيش المقدوني، وهو اليوم الذي أخرجوا فيه الصوفيّ اياكوّس Jacchus وفي اليوم ذاته. فقد الرومان جيشهم الذي كان بقيادة [كيپيو Caepio] على يد الكمبريين Cimbri(٤١) وفي السنة التالية تغلبوا على الأرمن و[ديكران] بقيادة (لوكوللوس Locullus]، ومات الملك [أطالوس Attalus] وپومپي كلّ في يوم ميلاده. والمرء يمكنه أن يتذكر كثيراً من الناس كانت حظوظهم متقلبة مختلفة في اليوم نفسه.

على أية حالٍ كان ذلك اليوم من أيام النحس عند الرومان ولأجله اعتبر يومان آخران كذلك(٤٢)، في كل شهر. وسيطر الخوف والخرافات أكثر فأكثر كما تفرض العادة. على اني اسهبت في شرح ذلك بدقة في «مسائلي الرومانية».

ولو أن الغاليين طاردوا الهاربين بعد المعركة حالاً، لما نفع علاجٌ في انقاذ روما من الدمار التام ولما سلمت البقية الباقية من الهلاك. واستبد الرعب بأولئك الذين نجوا بحياتهم من المعركة فسرى منهم وانتشر في المدينة وزرع الفوضى والقلق في النفوس. ولكن الغاليين لم يدركوا جسامة النصر الذي حازوا، وتملكهم الفرح فعكفوا على اللهو والولائم وتوزيع الغنائم والأسلاب وبذلك منحوا فرصة لأولئك الذين تأهبوا لمغادرة المدينة والنجاة، وأمهلوا أولئك الذين آثروا البقاء، للتأهب والإستعداد لهم. وهؤلاء الذين قرروا البقاء، تركوا المدينة كلها واحتشدوا في الكاپيتول بعد أن حصنوه باسوار جديدة ونصبوا عليه مجانيق.

وكان في مقدمة ما أهتموا به ذخائرهم المقدسة فنقلوا معظمها الى الكاپيتول إلاّ أن

= انساب (ثوسه) في حصار طروادة.

(٤٠) كان هذا الأسير في طريقه الى نجدة [تارنتوم] عندما قتل في [مادوريا] وهي مدينة قريبة من مدينة كاسال نوڤو في كالابريا.

(٤١) حصل هذا في العام ١٠٤ ق.م وكانت خسارة الرومان تربو على ثمانين الفاً.

(٤٢) اليوم الذي يلي (كالند) واليوم الذي يلي (ايدز) في كل شهر.

[عذارى ڤستا] حملن النار المقدسة وهربن بها مع ذخائرهن المقدسة الأخرى. ويقول بعضهم أنه لم يكن في عهدتهن غير النار الخالدة التي رسم [نوما] أن تعبد بوصفها مصدر الأشياء كلها. لأن النار هي أشدّ كائن فعاليةً في الطبيعة. وكل حادثٍ هو إمّا حركة، وإمّا تلازمه حركة وكلّ اجزاء المادة الأخرى، ما دامت بدون حرارة، تبقى جامدة ميتة وتتطلب اضافة نوع من الحياة أو الفعالية في عنصر الحرارة، وعند هذه الإضافة - بأي شكلٍ تمت - فإن المادة تكتسب قابلية الفاعلية، أو المفعوليّة. ولهذا السبب جعل [نوما] للنار حرمة وقدسيّة، وأمر أن تبقى مشتعلة بأستمرار بوصفها صورة للقوة الخالدة التي تنبعث منها وتصدر عنها كل الأشياء، ولهذا عرف [نوما] بالنبوغ والحكمة التي أدت بالناس الى الظنّ بأنه متصل [بالميوزات]. ويقول بعضهم الآخر أن هذه النار تبقى موقدة أمام الذخائر المقدسة، كما تبقى في بلاد اليونان لأجل التطّهر، وان هناك أشياء أخرى مكنوزة في أكثر اجزاء المعبد سرية لتظلّ في نجوة عن الانظار كافة، خلا تانك العذارى اللاتي يسمين بالڤستالات. وأكثر الآراء شيوعاً هو أن تمثال [باللاّس] الذي جلبه [اينياس] الى ايطاليا - محفوظٌ هناك. على ان بعضهم يقول أن تماثيل الساموتراقيين Samothracions هي المحفوظة هناك ويقصون كيفية نقل [دردانوس Dardanus][٤٣] لها الى [طروادة]، وكيف أنه أقام تلك الطقوس عند بنائه المدينة وأوقف تلك التماثيل عليها. وبعد أن تمّ الاستيلاء على المدينة سرق [إينياس] تلك التماثيل وأحتفظ بها لديه حتى جاء الى ايطاليا. إلاّ ان أولئك الذين يدعون معرفة بالموضوع أكثر من هذا يؤكدون وجود برميلين حجمهما ليس بالكبير أحدهما مفتوح ليس فيه شيء، والاخر مختوم وممتلىء. ولكنهم لم ير أي واحدٍ منهما مخلوقٌ خلا إقدس العذارى. ويظنّ آخرون أن من يقول هذا وأهمٌ وان مصدر وهمه هو أن العذارى وضعن معظم ذخائرهن المقدسة في برميلين في زمن الغزو الغاليّ هذا، واخفينها تحت اطباق الثرى في معبد [كويرينوس] ومنذ ذلك الزمن والموضع يسمّى «البراميل».

ومهما يكن من أمرٍ، فإن العذارى حملن اثمن الأشياء وأهمهّما، وهربن بها، وأخترن طريق فرارهن يحاذاة النهر، حيث كان يسلك الطريق نفسه، مواطن بسيط من رومه يدعى [لوشيوس

---

(٤٣) قيل ان [دردانوس] الذي عاصر موسى الكليم (حوالي ١٤٨٠ ق.م) كان اصله من اركاديا. وقد رحل عنها الى ساموثراكي. وبعدها تزوج (ناتيا) أو (اريستا) بنت تيوكر Teucer فريجيا. ذكرنا فيما سبق شيئاً عن الآلهة الساموثراكية، ونزيد هنا قول [ماركوبيوس]. وهو ان الآلهة ماكين Dü Magni التي جلبها (دردانوس) من ساموثراكي هي في الواقع آلهة البيت التي جاء بها (اينياس) من هناك الى ايطاليا. ويقول [ديون] انه شاهد تلك الآلهة في معبد قديم بروما. وهما من صناعة موغلة في القدم تميلات شابين جالسين وبيد كلٍ رمح.

البينيوس Lucius Albinius] وهو من بين من فر. وقد أدركهنّ بعجلته التي حملّها زوجته وأطفاله ومتاعه، وشاهدهنّ وهن يرزحن تحت عبء الذخائر المقدسة الخاصة بالأرباب، وفي حالة من الأعياء والضنك لا توصف، فأنزل زوجه وأطفاله وأخرج امتعته واركب العذارى في العجلة لكي ينجين بها الى أحد المدن الاغريقية(٤٤). إن هذا العمل الورع والاحترام الذي أظهره [البينيوس] بهذا الشكل البارز، تجاه الألهة في هذا الوقت العصيب، لايمكن ان يمرّ به المرء مَرّ الكرام ولا يصحّ. السكوت عنه. على أن الكهنة الذين يخدمون أرباباً أخرى، وأكبر الشيوخ سِناً، وهم قناصل سابقون لما ذاقوا لذة النصر وتمتعوا به، عَزّ عليهم مغادرة المدينة. فأرتدوا ثيابهم الدينية المقدسة بالنفيسة. وقام [فابيوس] الكاهن الأعلى باكمال مراسيم الصلاة وقدم الجميع نذورهم الى الآلهة(٤٥). وبعزم منهم على جعل حياتهم فداءً لبلادهم جلس كُلّهم على كراسيهم العاجية في [الفوروم](٤٦)، منتظرين ما سيأتي به القدر. وفي اليوم الثالث للمعركة ظهر [برينوّس] على رأس جيشه في المدينة. ووجد ابوابها مفتوحة على مصاريعها ليس عليها حراس ولا رأى فوق الأسوار جنوداً، فداخله الشكّ أوّل الأمر وظنها خطة مبيتة للايقاع به، أو حيلة لاستدراجه، ولم يحلم أن الرومان بلغوا هذا الحَدّ من اليأس والقنوط. لكن لما تحقق من الأمر، دخل من الباب الكولليني Colline وأستولى على روما في المائة الثالثة والسنة الستين من بعد بناء المدينة بزمن قليل هذا إن جاز لنا افتراض وجود سجلّ تاريخي دقيق بالاحداث السابقة(٤٧) التي كانت هي نفسها السبب في صعوبة تحديد الفترات الزمنية للأحداث التاريخية التالية لها ويبدو أن بعض الإشاعات البسيطة قد تسربت الى بلاد اليونان عن فتح المدينة. أذ نرى [هيراقليدس پونتيكوس] الذي عاش بعد هذه الحوادث بزمن وجيز(٤٨)، يتحدث في كتابه «عن الروح»: بأن خبراً ورد من الغرب، عن جيش متقدم من

---

(٤٤) يذكر ليڤي ان [البينوس] قادهم الى (كايري) وهي من مدن (اترويا) وحسن استقبالهم. وكان بينهم بعض الكهنة والكاهنات الرومان الهاربين. بقيت الڤستالات زمناً طويلاً في (كايري) يمارسن واجباتهن الدينية المعتادة. ومن هنا جاءت كلمة [كيريمونيا Ceremonie] كنعتٍ لطقوسهن.

(٤٥) يعتقد الرومان ان الاضطراب والفوضى سيشيعان بين صفوف العدو بهذه القرابين التي تقدم لربة جهنم.

(٤٦) هذه الكراسي العاجية كوروليّ Curule لايجلس عليها الاّ من تقلد ارفع المناصب. ان من يحق له استخدامها يحمل أيضاً عصا عاجيّة.

(٤٧) يقول ليڤي (٦:١) في تلك الازمان لم يهتم الرومان كثيراً بالكتابة ثم ان تعليقات الكهنة وغيرها من المدونات المتخلفة الخاصّة منها والرسمية قد تلفت عندما أحرق الغاليون المدينة.

(٤٨) عاش في ذلك العصر بالذات. كان أوّلاً تلميذاً لافلاطون ثم لأرسطو وكان افلاطون في الحادية والاربعين عندما أجتحت روما. وهذا الاحتلال لم يخلّف صدى داويا في بلاد الاغريق مما يدل على أن العلاقة بين القطرين كانت ضعيفة لايؤبه بها.

بلاد [الهيپربوريين Hyperborian] قد استولى على مدينة اغريقية تدعى روما وان الغزاة أستقروا في موضع ما من تخوم البحر المحيط. ويظهر ان أفلاطون الفيلسوف كان قد سمع انباء صحيحة عن فتح الغاليين المدينة، لكنه يسمى منقذها «لوشيوس» في حين لم يكن هذا لقب كاميللوس، بل «ماركوس»، على أن هذا موضع أخذ وردّ وتخمين. ونعود الى موضوعنا: بعد أن وقعت روما في قبضة [برينوّس]، وضع حرساً قوياً حول الكاپيتول ثم قصد الفوروم وهناك علته الدهشة لمنظر العدد الكبير من الرجال وهم جالسون على تلك الصورة والصمت يخيم عليهم. ولاحظ انهم لم يقوموا عند مجيئه ولم تتحرك عضلة في وجوههم أو تغير شيء من قسماتهم وانما ظلوا غير مكترثين أو خائفين مستندين على عصيّهم جالسين بكلّ سكون يحدق أحدهم في الآخر. وبقي الغاليوّن مسمرين في الأرض برهة طويلة يتأملون بدهشة في المنظر العجيب، لايجراؤن على التقدم اليهم أو لمسهم، متوهمين بأنهم جماعة من المخلرقات التي تفوق البشر، ثم أنّ واحداً منهم كان أكثر شجاعة من زملائه. تقدم من [ماركوس پاپيريوس Marcus Papirius] ومد يده ومَسّ ذقنه بلطف ومَسَد لحيته الطويلة فرفع پاپيريوس عصاه وأهوى بها على رأس الغالي بضربة شديدة فانتضى هذا سيفه وقتله، وبدأت بذلك المذبحة اذ حذا الباقون حذوه ووقعوا فيهم قتلاً وأفنوهم ثم استداروا ليضعوا السيف في رقاب كل من اعترض سبيلهم وراحوا ينهبون البيوت ويسلبون ما فيها واستمروا عدة أيام في ذلك، ثم اشعلوا النار بها وهدموها حتى سوّوها بالقاع، وقد أثار حنقهم أولئك المتحصنون في الكاپتول لأنهم لم يقبلوا الإستسلام، وإنما راحوا يصدون هجومهم من مواقعهم الدفاعية ملحقين بعض الخسائر وهذا ما استفزهم ودفعهم الى احراق المدينة ووضع السيف في رقاب كل من وقع في ايديهم صغيراً كان أم كبيراً، رجلاً أم امرأة بالغاً أم طفلاً.

واستمرّ حصار الكاپتول زمناً طويلاً، وبدأ الغاليون يشعرون بحاجتهم الى المؤونة[٤٩]، وقسموا قواتهم، جزءٌ منها بقي مع ملكهم يضيق الحصار على الكاپتول والباقي خرجوا للغزو ونهب المدن والقرى وانتزاع الأرزاق اينما حلّوا، وتفرقوا الى زمرٍ وعصابات كل منها توجه الى ناحية لا على وجه التعيين وبدون خوفٍ أو اكتراث لما قد يجابهها من أخطار. على أن أكبر وحدةٍ منهم وأكثرها نظاماً توجهت الى مدينة [ادريا] وهي المدينة التي أختارها [كاميللوس] سكناً له منذ رحيله عن روما... وكان قد اعتزل كلّ عملٍ وقنع بالعيش الهادىء لكن روحه بدأت الآن تتوثب ويدب فيها النشاط. ولم يفكر في اجتناب العدو أو الفرار. بل في التربص

(٤٩) لم يكن الغاليون مستعدين للحصار كما ان كلّ احتياطي الغلة كان مختزناً في (ڤيي) انظر (ليڤي ٥:٤٢).

بفرصة للثأر منه وكان مدركاً أن الادرياتيين لا يشكون نقصاً في الرجال وأنّما هم بحاجة الى المغامرة والتدريب بسبب قلّة تجربة ضباطهم وجبنهم. فبدأ يتحدث الى الشبان أولاً بقوله لهم انهم يجب الاّ يعزوا نكبة الرومان الى شجاعة عدوّهم، ولا الخسائر التي نزلت بهم بسبب أفن الرأي قيادة الرجال الذين لاحق لهم في النصر وان الحدث كان شاهداً على سلطان القدر وتحكمه، وأنه من البسالة حتى عند الخطر - أن يُصدّ غازيا بربريا اجنبياً، غايته من الحرب أن يدمّر ويخرّب، كما تفعل النار. فاذا تحلوا بالشجاعة والعزم فهو مستعد لوضع فرصة للنصر بين ايديهم، دون تريث قطّ. ولما وجد الشبان ميّالين الى ذلك، قصد حكام المدينة ومجلس شوراها، وأقنعهم أيضاً، ثم جَنّد كُلّ قادر على حمل السلاح ورتبهّم ووزعهم داخل الأسوار بأسلوب يصعب على العدوّ ملاحظة وجودهم وكان العدوّ قد اقترب بعد أن اكتسح البلاد وجردها كل شيء وبات الآن وهو مثقل بالغنائم، وضرب خيامه في السهول دون ان يأخذ بأسباب الحذر والحيطة. وقضى ليلته في فجور وشراب ولهوٍ حتى خارت قوى الجنود وتطرحوا اعياء وساد السكون التام في المعسكر ولما علم كاميللوس من كشافته بحقيقة الأمر خرج بالادرياتيين عليهم، وفي هدأة الليل قطع المسافة التي تفصل بين العسكرين بكلّ سكون حتى بلغ مواقعهم وأمر بان يُنفخ في الأنفار، وان يطلق رجاله صيحة الحرب فأوقع الرعب فيهم من كل جهةٍ في حين أن السكر والنعاس اثقلا حركة عدوّهم. ودفع الخوف ببعضهم الى الصحو والعمل على تنظيم صفوفهم بكيفية ما تمكّنهم من المقاومة فترة من الزمن وماتوا وسلاحهم في ايديهم. إلاّ ان القسم الأكبر منهم فوجئوا وهم غارقون في سكرهم ونومهم فذبحوا قبل أن تصل ايديهم الى سلاحهم. أما الذين استفادوا من ظلام الليل وهربوا، فقد عثر عليهم مبعثرين هائمين على أوجههم في الحقول وأسرتهم الخيالة التي أرسلت لمطاردتهم.

وذاعت انباء هذه الموقعة بسرعة وانتشرت في المدن المجاورة وبعثت روح الحماسة في الشباب ودفعتهم الى القدوم من كلّ حدب وصوب والتطوّع في جيشه. ولم يكن متحمساً لذلك، أكثر من أولئك الرومان الذين نجوا من معركة [آليا] ولجأوا الى [ڤيي]، فقد راحوا يتحسرون ويلومون أنفسهم بقولهم:

- أيتها السماء! أيّ قائد حرمت المشيئة الآلهية رومه، لتكرم (ادريا) وترفع من قدرها بمآثره! وتلك المدينة التي ولدت ربّت هذا الرجل العظيم ضاعت الآن وذهب ريحها، ونحن الآن بلا قائد، خلف أسوار أجنبيّة. عاطلون نشاهد ايطاليا يحيق بها الخراب امام أعيننا. تعالوا نبعث الى الادريانيين نطلب منهم ارجاع قائدنا الينا، أو أن نذهب نحن اليه والسلاح في ايدينا، لأنه لم يعد شخصاً منفياً، ولم نعد نحن مواطنين وبلادنا في قبضة العدوّ.

واتفقوا جميعاً على هذا وأرسلوا الى كاميللوس يطلبون توليه القيادة لكنه اجاب بأنه لن بفعل ذلك إلاّ اذا أصدر أولئك الذين في الكاپتول، أمراً بتعيينه بصورة شرعية. لأنه يجلهّم ماداموا في الوجود ويعتبرهم منتخبيه(٥٠)، فإذا أمروه فسيطيع بلا تردد، ولن يقحم نفسه في شيء إن لم يكن برضاهم. وأعجب الرومان بتواضع كاميللوس وخلقه لدن ابلغوا بجوابه هذا، لكنهم وقعوا في حيرة. بخصوص العثور على رسول لأبلاغ الكاپتول بالقضية. أو بالأحرى كان يبدو ضرباً من المحال وصول ايّ شخصٍ الى القلعة والعدوّ يطوقها ويحتل المدينة تماماً.

وكان بين الشبان فتى اسمه [پونتيوس كونينيوس Pontius Coninius] من أسرة لاتمتاز بشيءٍ، لكنه جسور مقدام ملبّ لداعي المجد. عرض نفسه لأخطار الرحلة ولم يأخذ معه اية رسالة لجماعة الكاپيتول لئلا يعرف العدوّ نوايا كاميللوس، في حالة وقوعه في ايديهم. وارتدى ثياباً رثة أخفى تحتها قطعاً من الفلّين وقطع معظم رحلته غير متخفٍّ وفي وضح النهار، حتى وصل المدينة ليلاً، ولم يتمكن من عبور الجسر لأن البرابرة كانوا يحرسونه، فنضا عنه ثيابه ولم تكن كثيرة أو ثقيلة وشدها حول رأسه وعوّمَ جسمه بالفلينّ سابحاً الى المدينة فدخلها مجتنباً الأحياء التي كان العدوّ فيها يقظاً مهتدياً الى ذلك بأصواتهم والضياء. وقصد الباب الكرمنتالي حيث الهدؤ أعظم وتلّ الكاپتول أشدّ انحداراً ووعورة لكثرة ما على سطحه من الصخور الحادة والمشققة. وصعّد هذا السفح ووصل بكثير من المشقة الى جوف الجُرف وقدّم نفسه للحراس وسَلّم عليهم وأعلمهم باسمه، فأخذه الى القُواد، وأستدعى مجلس الشيوخ حالاً فشرع يقصّ عليهم بالترتيب انباء نصر كاميللوس الذي لم يكونوا يعرفون عنه شيئاً. واحوال الجنود ومفاوضاتهم، ثم راح يلّح عليهم بتثبيت آمريّة [كاميللوس] فهو الوحيد االذي يعتمد عليه بنو قومهم خارج روما. وبعد سماع المجلس ذلك، ومداولته قرر تعيين كاميللوس دكتاتوراً وارسلوا [پونطيوس] من حيث أتى فتمكن من أختراق صفوف العدو من غير أن يكتشف أمره وحالفه النجاح في ايصال قرار الشيوخ الى الرومان خارج روما، فتسلموه فرحين.

ولدى وصول كاميللوس وجد عشرين الف محارب شاكي السلاح متأهباً. وبهذا العدد، وبما أحضره من القوات الحليفة تهيّأ للاشتباك مع العدوّ.

وفي روما، بينما كان بعض البرابرة يمرون بالصدفة بالموضع الذي سلكه [پونطيوس] ليلاً

---

(٥٠) ويحدثنا (ليڤي) ان الجنود الرومان في (ڤيي) تقدموا الى من تبقى من اعضاء مجلس الشيوخ في الكابتول.. بطلب الأذن لهم أن يعرضوا القيادة على (كاميللوس) وهذا دليل على النضج السياسي الذي تحلى به المواطن الروماني.

للوصول الى الكابيتول، اكتشفوا آثار ايدٍ واقدام في عدة أماكن مسيره وتسلّقه، كما وجدوا في مواضع أخرى بقعاً على سطوح الصخور أزيلت نبتاتها ومواضع أنهيار ترابي جديد، فرجعوا الى الملك وأبلغوه بذلك فذهب وشاهدها بنفسه ولم يقل شيئاً في حينه وعند حلول الليل أختار من رجاله البرابرة أرشقهم قداً وأكثرهم اعتياداً على التسلق لعيشهم في الجبال. وخطب فيهم قائلاً:

- إن العدوّ قد دلّنا بنفسه على طريقة للتغلّب عليه، لم يكن لنا علم بها من قبل، وبرهن لنا أنها ليست بالصعبة أو المستحيلة على همم الرجال. ومن العار الكبير أن نحسن العمل بالبداية ونفشل في النهاية، فيدركنا اليأس ونتولى عن موضع متوهمين انه لايقتحم في حين اثبت لنا العدوّ بالذات وجود وسيلة قد تؤدي الى الاستيلاء عليه. وما يسهل بلوغه على رجل واحدٍ، لن يكون صعباً على الكثير من الرجال، واحداً بعد واحدٍ، اما ان اضطلع بالأمر جماعة فسيكون كل واحد منهم عوناً وقوة للآخر وسيكافأ كُلّ رجل يُبلي بلاءً حسناً ويكرّم تكريماً.

لما سمع الغاليون اقوال الملك، قبلوا المهّمة بكلّ سرورٍ، وما أن حَلّ الليل بهدوئه حتى بدأت جماعة كبيرة منهم تتسلق المرتفع الصخري معاً بكلّ سكون متشبثين بالنتوءات الصخرية الشديدة الانحدار، ومصعدّين بمشقة لم تكن بالكبيرة كما توقعوا في أوّل الأمر، حتى أن الزمرة الأولى منهم سبقت الى القمّة ونظمت صفوفها وفاجأت نقاط الحراسة الخارجية واستولت على مواقع المراقبة وكان رجالها يغطون من نومهم إذ لم يلحظ زحفهم كلبٌ أو رجل. ولكن كان يوجد بالقرب من معبد [جونو] اوزّ مقدّس[٥١]، هذا الأوز كان يُعنى باطعامه وتغذيته في الأوقات الاعتيادية أما الآن فقد امست حالته سيئة بسبب شح القمح. وهذا الحيوان مستوفز، دقيق السمع بطبيعته، حسّاس لأقل صوت أو حركة. وقد زاد الجوع من رهافة حسه وابقاها يقظة قلقةً، فأنتبهت حالاً الى مقدم الغاليين فضجّت وراحت تصيح وتتراكض هنا وهناك حتى ايقظت كل من في المعسكر، وكان البرابرة في الجهة الأخرى فادركوا أن أمرهم قد أنكشف فلم يحاولوا اخفاء محاولتهم وتقدموا للهجوم وهم يصيحون ويضجون. وأسرع الرومان يمسك كل منهم بأوّل سلاح تقع يده عليه، وفعلوا ما أمكنهم في ظرف مفاجيء كهذا وكان [مانِليوس Manlius] وهو ذو منصبٍ قنصلي، وقوة في الجسم، وشجاعة نادرة، أول من

(٥١) بات الأوز منذ ذلك الحين موضع تكريم أهالي روما. وظلّ يربّى عدد كبير فيه على حساب الخزينة العامة. ونصب تمثال ذهبي للحيوان تخليداً لأولئك الابطال. وكان يطاف بعدد من الأوز كل سنة محمولاً على وسائد من المخمل ذات زخارف ونقوش انيقة، في الوقت الذي تمت عندهم كراهة الكلاب فكانوا يخوزقون واحداً سنوياً بخشبة [پليني وپلوتارخ].

تصدى للمهاجمين واشتبك في قتال مع اثنين من رجال العدوّ في آن واحدٍ فقطع بحدّ سيفه ذراع أحدهم اليمنى، اثناء ما كان هذا يرفع سيفه ليهوي به. ثم صفع وجه الآخر بدرقته فسقط وهوى من أعلى الصخرة ثم علا المتاريس ووقف صامداً فلحق به آخرون لشدّ ازره. ودفع الباقين الى التقهقر، ولم يكن عددهم كبيراً في الواقع ولم يحققوا شيئاً يستحق الذكر في هذه المحاولة الجريئة.

بعد أن نجا الرومان من هذا الخطر أمسكو بضابط المراقبة في الصباح اليوم الباكر وقذفوا به من أعلى الصخرة على رؤوس اعدائهم وصوّتوا لمنح مكافأة [لمانليوس] على نصره. وكانت مكافأة رمزية ترمي الى تكريمه لا منفعته. فقد قدم له كل رجل منهم جرايته اليومية من الارزاق وهي نصف پاوند من الخبز وثُمن پاينت من الخمر.

ومن تلك الموقعة بدأت أحوال الغاليين تسوء وتتردى يوماً بعد يومٍ، وأدركتهم الحاجة الى الطعام، إذ لم يعد باستطاعتهم نهبه من الانحاء المجاورة خوفاً من كاميللوس[٥٢]، وتفشت فيهم الأمراض بسبب العدد الكبير من الجثث التي تكومت أكداساً ولم تدفن. ولما كانوا يعيشون بين الخرائب والرماد المتكدس طبقات كثيفة تأتي الريح وتثيره، بالأضافة الى الحرارة الشديدة الخانقة، فقد اصبح الهواء جافاً مخنقاً، وأدّى استنشاقه الى تدمير صحتهم. على أن السبب الأساسي هو تبدل المناخ عليهم، لاعتيادهم العيش في بلاد جبليّة كثيفة الظلّ، كثيرة الوسائل الواقية من الحرّ. وهم الآن في أرضٍ منخفضة غير صحيّة بالمرة وفي فصل الخريف[٥٣]. أضف الى هذا فترة الحصار الطويلة ومصاعبه، فقد تصرمت عليهم سبعة أشهر وهم امام الكاپيتول. ولذلك كان التلف فيهم عظيماً وتصاعد عدد الموتى بينهم حتى عجز الاحياء عن دفنهم، ولم تكن أحوال المطوقين في الواقع بأحسن من البرابرة مطلقاً فقد تفشت المجاعة بينهم وزادت حدةً، وتعاظم يأسهم لعدم سماعهم شيئاً عن كاميللوس لاستحالة ارسال مبعوث اليه بسبب حراسة البرابرة الشديدة. وهكذا ساءت أحوال الطرفين بحيث بدأ حديث عن الصلح فيما بين جماعات من رابايا المتحاربين عندما راحوا يتبادلون الأحاديث، وتبنىّ الفكرة قادة الطرفين. واتصل [سولپيشيوس Sulpicius] التريبيون الروماني بزعيم الغاليين برينوّس، وتمّ الإتفاق على أن يدفع الرومان ألف وزنة من الذهب، للغاليين، ليجلو هؤلاء عن المدينة وتخومها حال تسلمهم الفدية. ووثقت المعاهدة باليمين وجيء بالذهب إلاّ ان الغاليين

(٥٢) كان كاميللوس بعد سيطرته التامة على الريف قد وضع حاميات ونقاطاً عسكرية في جميع الطرق، فاصبح محاصراً لمحاصريه!

(٥٣) خريف روما في العادة سيء.

وضعوا موازين مغشوشة سراً في مبدأ الأمر ثم أخذوا يسحبون الميزان ويخلّون بالوزن بصورة علنيّة. وطفق الرومان يحتجون ساخطين، وعندها نزع برينّوس سيفه ومنطقته بأسلوب استفزازي مهين وقذف بهما الى كفة الموازين وعندما سأله [سولپشيوس] عن القصد من ذلك. فأجابه «ماذا يمكن أن يقصد منها إلاّ الويل للمغلوب؟»(٥٤) فسارت مثلاً من الأمثال وثار الغضب ببعض الرومان حتى فكروا في حمل ذهبهم والعودة للبناء تحت وطأة الحصار، ومال بعضهم الى التغاضي، والتغافل عن اهانة طفيفة، وأن لا يعتبروا العار في دفعهم أكثر مما هو واجب مادام العار هو في دفع اي مبلغ مهما ضئول، فهذا هو العارُ بحد ذاته ولا يمكن النزول اليه إلاّ عند الضرورة.

وظلّت هذه الخلافات قائمة فيما بين الرومان من جهة وبين الغاليين من جهة أخرى، دون أن يتوصل الطرفان الى تسوية حتى وصل كاميللوس بجيشه - الى ابواب روما. وعلم بحقيقة ما يجري فأمر القسم الأكبر من قواته أن تزحف خلفه ببطء وبنظامٍ واسرع هو يتقدمها بنخبة من محاربيه، حتى بلغ معسكر الرومان فأفسح له الجميع واستقبلوه بوصفه حاكمهم الأوحد، والصمت والنظام يسودهم، فأخرج الذهب من الميزان وسلمه الى ضباطه وطلب من الغاليين أن يرفعوا موازينهم ومعاييرهم وينصرفوا، قائلاً لهم: من عادة الرومان أن يحرروا بلادهم بالحديد لا بالذهب. وعندما بدأ برينوس يضجّ ويقول: إنه عومل معاملة غير عادلة بنقض هذا الاتفاق، أجابه كاميللوس: إن الاتفاق لم يبرم بصورة شرعية، والصلح غير قائم ولاتترتب عليه اية تبعات لأنه يتقلدّ منصب الدكتاتور وليس هناك حاكم شرعي غيره بحكم القانون. وان الاتفاق عقد مع أناس لا يملكون صلاحية ابرامه. أمّا الآن فلكلّ منهم ان يبسط وجهة نظره ويقول ما يريد قوله، لأنه جاء مزوّداً بصلاحية كاملة بحكم القانون. للعفو عمن يطلب عفواً ويعاقب المسيء إن ظّل مقيماً على غيه. وعندها استشاط [برينوّس] غيظاً، ووقع اشتباك آنيّ، وامتشق الجانبان السيوف والتحما بدون نظامٍ، وكان الاضطراب لابد منه لأن ميدان المعركة كان ما بين المنازل وفي الأزقة الضيقة ومواضع ينتفي فيها النظام تماماً. إلاّ أن [برينوس] سيطر على الموقف في الحال، وأمر رجاله بالكفّ عن القتال وسحبهم الى معسكرهم بخسارة قليلة ثم استيقظ ليلاً وترك المدينة منسحباً بكلّ قواته وبعد ان قطع ثمانية أميال تقريباً خيم على جانب من الطريق المؤدية الى مدينة [غابي Gabii]. ولم يكد الصبح ينبلج حتى ادركه [كاميللوس] وهو مستعد تمام استعداد لملاقاته باسلحة ممتازة وبرجال مفعمين ثقة وشجاعة ودارت رحى معركة طاحنة استمرت وقتاً طويلاً. أسفرت عن هزيمة ساحقة للغاليين ومنوا فيها

(٥٤) Vae Victis!

بعدد كبير من القتلى وخسروا معسكرهم وامّا الناجون فقد طوردوا وقتل بعضهم وتفرق الجزء الأكبر ايادي سبأ يفتك بهم الناس الذي خرجوا اليهم من المدن والقرى المجاورة(٥٥).

وهكذا كان الاستيلاء على روما، غريباً في بابه كما كان خلاصها بعد أن بقيت في قبضة البرابرة سبعة أشهر كاملة. فقد دخلوها في الخامس عشر من تموز، وطُردوا منها في حدود الخامس عشر من شهر شباط التالي، ودخل كاميللوس الميدنة في موكب النصر وهو مما يستحقه فعلاً بعد أن انقذ بلاده الضائعة وأعاد المدينة الى أهلها على حَدّ شائع القول. وأنضم الى موكبه أولئك الذين فروا مع زوجاتهم واولادهم وصحبوه الى المدينة، وأولئك الذين حوصروا في الكاپتول، وآلت بهم الحال الى شفا الهلاك جوعاً خرجوا لاستقباله وآخذ الطرفان يعانق بعضهم بعضاً عند اللقاء، وجرت دموعهم فرحاً، ولسعادتهم التي فاقت الحدود كانوا بين مصدق ومكذب للواقع. وظهر الكهنة ورجال الدين حاملين الأشياء المقدسة التي كانوا قد أخفوها هناك قبل رحيلهم أو أخذوها معهم في فرارهم. وعرضوها للمواطنين سليمة». فلما رآها هؤلاء شعروا وكأن الآلهة عادت معها الى المدينة. وبعد أن قدم كاميللوس القرابين للآلهة وطهّر المدينة وفقاً للتعليمات التي أشار بها الخبيرون بالأمور. باشر في اصلاح المعابد القائمة واقام معبداً جديداً للرب «صوت» أو «اشاعة»، في البقعة التي سمع فيها [ماركوس سيديشيوس] ذلك الصوت السماويّ ينبئه بقدوم جيش البرابرة.

وكان من أصعب الأمور وأشق المهام تعيين وكشف المواقع المكرسة في وسط الانقاض المتراكمة. ولكن دأب [كاميللوس]، وجهود الكهنة المتواصلة بلغت بالمهّمة حدّ النجاح. وعندما طرحت مسألة اعادة بناء المدينة التي دمرت تدميراً تاماً، تملّك الجموع يأسٌ واحجموا عن الاضطلاع بعمل يحتاج الى مواد ٍ ليست لديهم، وزاد في ترددهم حاجتهم الشديدة الى الراحة والاستجمام بعد كدحهم وتفضيلهم ذلك على مطالب جديدةمن قواهم المنهوكة وحالهم المرزية. ولذلك توجهوا بانظارهم الى مدينة [ڤيي] بصورة لا شعورية وهي مدينة حسنة البناء وفيرة الرزق. وأعاروا أذانهم الصاغية لحيل المتملقين المتشوقين الى ارضاء رغباتهم، ومالوا الى سماع أقوال رجال السوء المحرّضة على [كاميللوس]. كقولهم: انه يمنعهم عن الانتقال الى مدينة صالحة لسكناهم، ويرغمهم عن البقاء والعيش بين الانقاض، سعياً وراء طموحه، ومجده الشخصيّ. وانه يريد أعادة بناء انقاضٍ محترقة حتى يرتفع قدره، عم مجرد رئيس حكومة،

(٥٥) هناك سبب وجيه للشك في صحة الجزء الأخير من هذه الحكاية وقد نقلها پلوتارخ عن (ليڤي) بقضّها وقضيضها. الاّ ان پوليپيوس يذكر ان الغاليين قد تسلموا الذهب من الرومان فعلاً. قفلوا عائدين الى بلادهم بسلام. وهذا ما يؤيده [جوستين] و[سوتيونيوس] بل [ليڤي] نفسه في محلّ آخر من تاريخه (١٠:١٦).

وزعيم روما وقائدها الى مؤسس روما أيضاً، (باستثناء رومولوس).

لذلك خاف الشيوخ من فتنةٍ، فلم يقبلوا باعتزال كاميللوس السلطة في بحر السنة وان كانوا يرغبون في اعتزاله، اذ لم يحدث أن بقي دكتاتور في منصبه أكثر من ستة أشهر.

ولم يأل الشيوخ أنفسهم جهداً في تشجيع المواطنين على العمل وتهدئة ثورتهم بالإقناع والملاينة وطيّب الكلام، ونوّهوا لهم بمزارات اسلافهم وأضرحتهم وذكروهم بالإماكن المقدسة، والمشاهد الدينية التي أوقفها [رومولوس ونوما] وغيرهما من الملوك. وتركوها لهم ليقوموا عليها ويحفظوها. ومن أقوى وسائل الإقناع الدينية التي استخدموها معهم قضية عثورهم على رأس مقطوعٍ عن الجسم لم يمرّ عليه زمن طويل - اثناء وضع أسس بناء الكاپتول(٥٦). واعتباره اشارة الى حكم القدر بأن يكون هذا الموقع رأس كل ايطاليا. ولفتوا انظارهم الى النار المقدسة التي أعاد ايقارها عذارى ڤستا بعد الحرب وقالوا:

- اي عار هو خسرانهم الكاپتول وأطفاؤهم النار، وتركهم المدينة تنعي من بناها، ليسكنها أجانب وأغراب، أو لتكون مرجاً ترعى فيه المواشي؟

مثل هذه الحجج والبراهين، يرافقها العتاب مرةً والتعنيف مرةً أخرى؛ تلقى على الافراد بصورة خاصّة، وعلى الجماعات بصورة عامة في الاجتماعات، لم تجد غير الاعتذار والحسرات التي يبعثها القنوط وكان الردّ عليها يتلخص في أن شملهم الآن قد اجتمع بعد أن تحطمت سفينتهم، وهم مازالوا عراة وغرثى، ومن العسير ارغامهم على شدّ أوصال مدينة ممزقة متهدمة، في حين توجد مدينة أخرى كاملة البناء حسنة التموين، تحت تصرفهم.

واستحسن كاميللوس أن يحال الأمر الى المناقشة العامة والاقتراع، ونهض هو بالذات يتكلم مخلصاً في تحبيذ البقاء، وفعل كثيرٌ غيره، وبالأخير استدعى [لوشيوس لوكريتيوس] الذي كان منصبهُ يؤهله الى التقدم في الكلام على الجميع، وطلب منه كاميللوس أن يلفظ حكمه، ثم يتعاقب الآخرون بعده للإدلاء بآرائهم حسب الترتيب المرسوم. فساد سكون تام

---

(٥٦) وقعت هذه المعجزة في عهد الملك (تاركوين) الذي لاشك انه وضع الرأس هناك بنفسه فقد وجد حاداً يقطر منه الدم. وقد وجدوه عندما كانوا يحفرون الأسس وكأنما قد قُطع لتوه Olenus Calenus وأدركت الحيرة أحد العرافين الذين استشيروا في الأمر. فبعد ان عجز عن تفسير الظاهرة بشكل تبدو انها في مصلحة بلده. قال متردداً: إن الموضع الذي وجد فيه الرأس يجب ان يكون كاپتولاً لايطاليا كافةً (ديون ١٣:٤) ويورد [پليني] في تاريخه الطبيعي هذه القصّة (٢:٢٨) أمّا (ليڤي) الذي يقدم تعليلاً أكثر بساطة فهو يتفق مع (ديون) على أن لفظة (كاپتول) أخذت عن هذه الحادثة. ويزعم (ارنوبيوس: ٤) مستشهداً بكثير من المراجع القديمة ان اسم الرجل الذي وجد رأسه مفصولاً هو Tolus Vulcentonws تولس ڤلچنتانوس فيكون Capt - toli = Capitolium إلاّ ان (ڤارو) لم ينوه باي شيء حول الموضوع.

وماكاد [لوشيوس] يفتح فاه للكلام حتى اتفق مرور قائد مائة [سنتوريون] بسريته المخصصة للحراسة، على مقربة من الكابتول، وسمع المجتمعون صوته العالي يأمر حامل الراية بالوقوف حيث هو نصب الراية لأن الموقع خير المواقع أو أنسبها للبقاء. هذا الصوت المنطلق في تلك اللحظة الحرجة، وفي ازمة شديدة من الشكّ والقلق على المستقبل، اتخذه الشعب هادياً ونذيراً، الى ما ينبغي عمله بصدد القضية. وما كان من [لوشيوس] إلاّ أن أتخذ وضع المصليّ العابد، وأدلى بحكم يتفق ومشيئة الآلهة على حَدّ قوله، واحتذى خدوه كل من عقبه. وأحدث الأمر تغييراً مفاجئاً في مشاعر الأهلين والتفت كل واحدٍ الى صاحبه يشجعه ويحضّه وأنطلق الجميع وباشروا في أعمال البناء ولم يجر عملهم وفق خطوط منتظمة أو تصميم مرسوم وانما كان أعتباطياً مضطرباً اذ انهمك كل فرد باول قطعة أرض صادفها أو وافقت مزاجه، وأدّى هذا الاستعجال والفوضى في البناء الى تشييد مدينة جديدة ذات أزقة ضيقة متعرجة سيئة النظام، ومنازل متزاحمة ومتلاصقة يعلو أحدهما الآخر. فقد قيل ان بناءها كله تمّ في غضون سنة واحدة(٥٧) مع أسوارها الخارجية وابنتها الداخلية. غير أن الاشخاص الذين عينهم كاميللوس لمهمة تثبيت مواقع جميع الاماكن المقدسة في هذه الفوضى العامة، واعادة بنائها كلها. وصلوا في اثناء طوافهم حول البالاتيوم - الى هيكل مارس وكان البرابرة قد أحرقوه وهدموه على آخره حتى سووه بالقاع كغيره من الابنية، وفيما هم يزيلون الانقاض ويمهدون الأرض عثروا بمحض الصدفة على عصا العرافة التي تعود لرومولوس(٥٨)، وكانت مدفونة تحت كدسٍ من الرماد، تسمّى هذه العصّ [ليتوس Lituus] وهي عادة معقوفة النهاية والعرافون يستخدمونها للتربيع الفلكي عندما يقومون بتنبؤاتهم بطريقة مراقبة مسارّ الطير، وكان رومولوس عرافاً يشار اليه بالبنان، ولما اختفى تسلم الكهنة عصاه تلك وحفظوها ذخراً مقدساً محجوباً عن أعين الناس ولمسات ايديهم. فلما وجد هؤلاء العصا سليمة في حين أتت النار على كل شيء حولها. راحوا يبنون أضخم الآمال لروما، وأستنتجوا من هذا الحادث برهاناً على سلامة مستقبلها وخلودها.

لم يكد الرومان يتنفسون الصعداء مما دهاهم حتى ابتلوا بحربٍ جديدة. اذ ان الآيكويّين Aquians والڤولسكيين واللاتين، غزوا بلادهم دفعةً واحدةً وبصورة مباغتة. كما القى التوسكان الحصار الشديد على مدينة [سوتريوم Sutrium](٥٩) وحليفتهم. وطوق اللاتين

(٥٧) سببت سرعة بناء المدينة متاعب ومشاكل عديدة لاسيما بخصوص المجاري العامة التي كانت تمتد عادة تحت الشوارع الرئيسه فقد صارت تمتد تحت المنازل الخاصة (ليڤي ٥:٥٥).

(٥٨) ينوه شيشرون في [النبوءات ١:١٧] بهذا الاكتشافات أيضاً.

(٥٩) ساتري أو سوتري في توسكاني. وجبل مارشيوس قرب لانوثيوم يبعد عشرة فراسخ تقريباً عن روما.

جيش التريبيونات العسكريين الذين كانوا معسكرين حول جبل [مويشيوس Maecius]، وضيقوا عليهم الخنادق حتى أصبح معسكرهم في خطر فبعثوا الى رومه برسل النجدة. وكان كاميللوس وقتئذ قد انتخب دكتاتوراً للمرة الثالثة.

توجد روايتان مختلفتان عن وقائع هذه الحرب. وسأبدأ بأبعدها خيالاً وأحفلها بالأساطير: قيل ان اللاتين بعثوا يطلبون من الرومان بعض بناتهم المولودات لآباءٍ أحرار، ليتخذوهن زوجات. ولم يكن هذا الطلب يتعدى أحد امرين إما أنهم يريدونه ذريعة للتحرش، وإما أن يكون نيةً صادقة ترمي الى احياء العلاقة الماضية بين الشعبين. واستبدت الحيرة بالرومان وعَزّ عليهم الوصول الى قرار، فهم من جهةٍ يخشون حرباً جديدة إثر حرب ما كادت تضع أوزارها بعد امن نالهم منها ما نالهم. وكانوا من جهة أخرى يشكون في أن «طلب زوجات» ما هو في الحقيقة إلاّ طلب رهائن، كُسي عبارات مهذبة رقيقة وكلمات رشيقة من قبيل «التحالف» و«المصاهرة» وما اشبه، وبينما هم في حيرتهم تلك، انبرت لهم خادمة بيت اسمها [توتولا Tutula] أو [فيلوتيس Philotis] كما يسميها بعض الكتاب. وأقنعت حكام رومة بتنفيذ خطتها وهي أن يرسلوا معها عدداً من أجمل الخادمات وأصغرهن سنّاً بعد أن يلبسنهنّ ثياب عرس العذارى النبيلات، وأن يتركوا البقية لحيلتها ومكرها، فوافق الحكام وأختاروا العدد الذي طلبته. وجملوهن بالذهب ونفائس الحلل، وأرسلن جميعاً الى اللاتين الذين كانوا يعسكرون في موقع قريب من المدينة. وعندما جَنّ الليل قامت البنات بسرقة سيوف العدوّ النائم. وأعتلت [توتولا] أو [فيلوتيس] شجرة تين بريّ ونشرت خلفها رداء صوفياً سميكاً ورفعت مشعلاً بمواجهة رومه، وهي الإشارة المتفق عليها مع قادة الرومان فقط، أُخفيت عن سائر المواطنين الآخرين) وهذا ما أدّى الى خروج الرومانيين من المدينة في فوضى عامة، وكان الضباط يدفعون رجالهم الى أمام دفعاً. والرجال ينادي أحدهم الآخر بالإسم، وصعب عليهم أن يعيدوا النظام الى صفوفهم وهجموا وهم بهذه الحالة على مواقع العدوّ واقتحموا موانعه وكان معسكرهم وافنوا معظم من فيه. وقد جرى ذلك في اليوم السابع من شهر تموز الذي كان يعرف في حينه بشهر كونتيليس. والعيد الذي يحل في هذا اليوم من السنة انما هو تذكار لما جرى في تلك الوقعة، اذ يخرج الناس زرافات من المدينة وهم يتنادون باسماء مألوفة مثل [كايوس أو ماركوس أو لوشيوس!] وغيرها تمثلاً بالحالة التي كانت تسود الرومان عند خروجهم العاجل على اللاتين وهم يتنادون بالأسماء، ويلي ذلك مشهد خادمات البيوت، يبرزن في العيد مرتديات أزهى الثياب، ويجرين هنا وهناك لاعبات لاهيات، ممازحات كل من يصادفنه، ثم يلجأن الى تقليد معركةٍ فيما بينهن أظهاراً لدورهن في قتال اللاتين. وبعد ذلك يجلسن تحت

ظلال اغصان التين ليأكلن ويشربن. ويعرف هذا اليوم باسم [نوني كاپروتيني: Nanae Cap-rotionae] ويظن بعضهم أنه مشتق من «شجرة التين» وهي الشجرة التي ارتفع منها مشعل الخادمة كما تقدم. لأن الأسم الروماني للتينة هو [كاپريفيكوس Caprificus]. ويعزو فريق من الكتاب، كل ما يجري قوله وعمله في هذا العيد الى ظروف انتهاء حياة رومولوس. فقد غاب عن الأنظار خارج اسوار روما، عندما انتشر ظلام دامس وهبت عاصفة هوجاء مفاجئة. [قال بعضهم أنها ظاهرة كسوف شمسيّ] فالاسم اللاتيني للعنزة هو [كاپرا Capra] والوضع الذي أختفى منه رومولوس كان يعرف باسم «مستنقع العنزة» آنذاك.

على أن عامة الكتاب يفضلون الرواية الأخرى عن الحرب وتفاصيلها تروى على النحو الآتي بعد أن أنتخب كاميللوس دكتاتوراً للمرة الثالثة، وعندما أبلغ بأن جيش التريبيونات العسكريين قد طوقه اللاتين والڤولسكيون، دعا الى النفير العام. ولم يقتصر في دعوة من بلغ سنّ الخدمة، بل جند من لم يناهزها. ثم أنه قام بجولة استطلاعية واسعة حول جبل [مريشيوس] في غفلة عن عيون العدوّ وبعدها ساق جيشه الى مؤخرته. ثم أعطى الإشارة بقدومه الى الرومان المطوقين باشعال عدة نيران، فبث الشجاعة في نفوسهم وتهيأوا للتعرض للعدو ومبادأته بالهجوم.

ولكن اللاتين والڤولسكيين الذين دبّ الخوف فيهم لانكشافهم للعدوّ من الجناحين بادروا للانسحاب وراء مواقعهم وأخذوا يحصنون معسكرهم بمتاريس وموانع قوية من جذوع الأشجار على جميع الجهات، قرروا الانتظار لحين وصول نجدات من بلادهم، مع توقعهم المعاونة من التوسكان حلفائهم. وأدرك كاميللوس خطتهم، فخاف أن يؤول أمره الى الوضع الذي أرغمهم هو عليه، أعني أن يُطوّق هو، ولذلك قررّ ان لايضيع وقتاً، ولما كانت متاريسهم من الخشب وللاحظته أن ريحاً شديدةً تهبّ باستمرار عند بزوغ الشمس من الجبال باتجاه المعسكر، فقد هيّأ مقداراً من المواد الملتهبة وحشد قواته على خطّ الصّولة، وأعطى أمر الهجوم لجزء منها بالقذائف فأندفعوا الى العدو بصيحة عظيمة وجلبة شديدة من ناحيةٍ، بينما توجه هو بالوحدات التي ستطلق النار، الى الجهة التي تهبّ الريح نحو معسكر العدوّ، عادةً وكمن هناك يتحينّ فرصته. ولما بدأت المعركة وبزغت الشمس انطلقت ريح شديدة من الجبال فأعطى اشارة الحركة والهجوم وقذف بكميات ضخمة من المادة الملتهبة واستعرت النيران في متاريس الخشب القريبة ثمّ سرت الى المعسكر نفسه وقامت الحرائق في شتى ارجائه ولم يكن اللاتين قد استحضروا من الوسائل ما يدفع عنهم غوائلها ويعمل على إخمادها وعمت المعسكر وأخذت تلتهمهُ فلم يجدوا مفراً من الابتعاد عنه مسافة قليلة، ثم أنهم وجدوا أنفسهم مرغمين على

خوض المعركة فألقوا بأرواحهم في أيدي عدوّهم الذي كان لهم بالمرصاد أمام المتاريس مستعداً بسلاحه، ولم ينج منهم إلاّ نفر قليل. أما الذين مكثوا في المعسكر فقد راحوا طعمة للنيران، وعمل الرومان على اخماد الحرائق قبل أن تأتي على الأسلاب والغنائم.

بعد أن تحقق لكاميللوس النصر المؤزر، أناب عنه ابنه [لوشيوس] لحراسة الأسرى واحصاء الغنائم في المعسكر واستاق جيشه مخترقاً بلاد العدو فسقطت في يده عاصمة الايكويين، وأخضع الڤولسكيين، ثم أسرع متوجهاً الى [سوتريوم] لمعاونتها في حربها مع التوسكان وليس لديه أية فكرة عما حَلّ بها. وكل ما كان في علمه انها مازالت في خطر وان التوسكان يشدوّن عليها الحصار، على أن الحقيقة كانت خلاف ذلك فقد استسلم [السوتريوّن] وفتحوا ابواب مدينتهم لأعدائهم فدخلوها وطردوا جميع سكانها منها بعد ان سلبوها كل شيء ما خلا ثيابهم التي يرتدونها ولقيهم كاميللوس في الطريق يدفعون زوجاتهم وأولادهم أمامهم ويندبون سوء حظهم وهم في حالة من البؤس لاتوصف فثارت عاطفة كاميللوس، وابصر جنوده يذرفون الدمع عليهم ويظهرون مشاعر الحزن العميق، وأهالي [سوتريوم] المنكوبون يتشبثون بهم ويتعلقون باذيالهم. مخلف بالاّ تغيب شمس اليوم إلاّ ويكون قد أنتقم لهم، وزحف حالاً الى المدينة، مخمّناً أنه سيجدها لاهية غافلة بمن فيها، غير محروسة، ففاتحوها استولوا على مدينة غنيّة كثيرة الغنائم وما عادوا يخشون عدواً من الداخل ولا مغيراً من الخارج، وكان كاميللوس صادقاً في حدسه فلم يعرف العدو بقدومه حين أقترابه ولم ينتبه له حتى عند دخوله المدينة واحتلاله أسوارها التي لم يترك فيها العدوّ ولا حارساً واحداً، وكان التوسكان قد أووا جماعات متفرقة الى البيوت يعاقرون الخمر ويلهون، ولما فطنوا الى أن عدوّهم قد أكمل الاستيلاء على المدينة كانوا ثملين بما عبّوا من الخمر، متخمين بما التهموا من اللحم، لا بل غاية ما تمكن منه أقليتهم هو الفرار. أما الأغلبية فإما انتظروا موتهم المخزي وهم داخل البيوت، أو استسلموا للفاتح. وهكذا استولي على مدينة سوتريوم مرتين في يوم واحدٍ، وأولئك الذين كانوا يملكونها فقدوها وأولئك الذين فقدوها استعادوها وكل ذلك بفضل كاميللوس. إستحق كاميللوس بهذا موكب نصر آخر. نال فيه من الرفعة والسمعة ما ضاهى به النصرين الأولين، فمن كان سيء النظرة اليه من المواطنين، ومن كان يعزو انتصاراته الى الحظّ لا الى نبوغ فيه، أرغمتهم أعماله الأخيرة على التسليم بقابلياته العظيمة وحيويته وعلى وجوب إكرامه وتمجيده.

كان [ماركوس مانليوس] أبرز خصومه وأقوى حسّاده. وهذا هو الشخص الذي تصدى للغاليين عندما هجموا ليلاً على الكابتول، وأجبرهم على الانسحاب، ولهذا السبب منح لقب

[الكابتولي Capitolin]. أحتل هذا الرجل المقام الأول في الجمهورية، لكنه عجز عن مطاولة شهرة كاميللوس ومجاراة سمعته شريفة، فلجأ الى السبيل المعروف لانتزاع السلطة المطلقة، وأعنى به خطب ودّ الجماهير، ولاسيما أولئك الذين غرقوا في الديون. وراح يدافع عن فريق بالتزامه قضاياهم ضدّ دائينهم وينقذ الفريق الآخر بالقوة والشدة. ويمنع القضاء عن ملاحقتهم بالدعاوى. ولم يمرّ به طويل زمنٍ إلاّ وأجتمع له عدد كبير من الساخطين، كانت ضوضاؤهم وصخبهم في [الفوروم] يلقيان الرعب في قلوب كبار القوم ووجهائهم فلم يجد [كوينتيوس كابيتولينوس Quintius Capitoliunus] الدكتاتور الذي نصب لأجل قمع الحركة - سبيلاً غير زجّ مانليوس في السجن، فكان ردّ الجمهور الآني على ذلك أن بادر «بتغيير ثيابه» والناس لا يلجأون الى تغيير ثيابهم إلاّ عندما تحلّ نكبة عامة. فخاف الشيوخ فتنةً لا تبقي ولا تذر وسارعوا الى إخلاء سبيله. لكن مانليوس زاد عتوا بعد أطلاق سراحه واشتد عنفاً في آهدافه وملأ المدينة فوضى وخراباً. فلم يجد الشيوخ بداً من انتخاب كاميللوس لمنصب الحاكم العسكري [تريبيون]. وعين هذا يوماً لمحاكمة [مانليوس]، والاجابة عن التهمة التي رفعت ضده. وكانت الجلسة في موضع لايساعد المدعين في مرافعتهم، لأنه يشرف على البقعة التي خاض فوقها مانليوس معركته مع الغاليين - وهي في الكابتول بالقرب من الفوروم. فكان المتهم يمدّ ذراعيه الى تلك الجهة باكياً مذكراً مستمعيه بمأثرته تلك. مثيراً عواطفهم. فحار قضاته في أمره ولم يدروا ما يفعلون، وراحوا يؤجلون المرافعة عدة مرات؛ فهم من جهة لا يرغبون في تبرئته من الجرم الذي تضافرت عليه دلائل كافية جداً. وهم من جهة أخرى عاجزون عن تطبيق أحكام القانون ومأثرته الجليلة مائلة أمام أعينهم. وفكر كاميللوس في الأمر ملياً ثم أمر بنقل المحكمة الى البستان [البتيلنيّ Petiline] خارج السور، فمن هناك لايمكن مشاهدة شيء من الكابتول. وواصل المدعي شرح التهمة، وتمكن القضاة من وزن أعماله واستنكارها وادانوه، فافتيد الى الكابتول والقي منكوساً من فوق الصخرة، وبذلك كانت تلك البقعة شاهداً على أعظم مجد له، وتذكاراً لأسوأ نهاية له. وهدم الرومان بيته وبنوا فوق ارضه معبداً للربة [مونيتا Moneta] وصدر مرسوم يحظر على أي فرد من البارتريشين سكنى الكابتولين في المستقبل.

وطلب من [كاميللوس] تولي منصب الحاكميّة للمرة السادسة، فأعتذر عنه بكبر سنّه. ولعلّه شعر بخوفٍ من أن يقلب الحظّ له ظهر المجن فيبادره بنحسه بعد أيام السعد[٦٠]، على

(٦٠) وذلك كي لايُغري موقع القلعة الممتاز المشرف على سائر المدينة، الى استعبادها أو يسهل الوصول الى ذلك الغرض فقد اتهم [مانليوس] بالسعي لنصب نفسه ملكاً ولم يستطع اثبات براءته أو =

أن أظهر الأسباب لرفضه كان ضعف صحته فقد أبتلي بمرضٍ في ذلك الحين. لكن الشعب لم يقبل بايّ عذر وراح الناس يصرخون انهم لايريدونه ليركب خيلاً أو ليسير على قدميه، وانما يريدون منه سلامة الرأي وحسن المشورة. وهكذا اضطروا على تسلم زمام القيادة، على أن يسوق أحد زملائه الحكام [تريبيون] الجيش حالاً لمواجهة [البرينستيين Praenestines] والفولسكيين الذين أجتاحوا أراضي حليفات روما بقواتٍ كبيرة، فخرج كاميللوس على رأس الجيش اليهم. وتوقف وعسكر على مقربة منهم. وفي نيته أن يماطل في الحرب، ان لم يكن منها بدٌّ حتى يستعيد قواه وينظم صفوف جيشه لخوض اية معركة تحمها الضرورة. أو يجبر عليها . إلاّ ان زميله [لوشيوس فيوريوس Lucius Furius] كان قليلاً الصبر، تتملكه رغبة جامحة في نيل المجد وأطلاب المعالي، فلم ير رأيه والحّ في دخول المعركة وراح يثير حماسة صغار ضباط الجيش ويغذيهم بالشعور نفسه. وخشي [كاميللوس] أن يظنّ بأنه ما أعطى قرار التريّث إلاّ لحرمان الشبان من مجدٍ يصبون اليه وينالونه من حملة عسكرية شريفة الغاية، وافق على أقتراح زميله وهو كاره، وتخلّف في المعسكر بسبب ضعفه وليس معه غير نفر قليل[٦١]، وهاجم [لوشيوس] العدوّ بنزقٍ وتهوّر، فصُدّ هجومة وعندما أبلغ كاميللوس أن الرومان أنكفأوا الى خلف وأخذوا ينهزمون، لم يستطع ضبط أعصابه وقفز عن فراشه وأسرع بالنفر القليل المتخلف معه، لمقابلة المندحرين لدى ابواب المعسكر شاقاً طريقه بين المنهزمين - قاصداً صَدّ المطاردين، وكان لعمله هذا ردّ فعله فأولئك الذين دخلوا المعسكر فارّين داروا على أعقابهم في الحال وتبعوه، وأولئك الذين خرجوا من المعسكر هاربين، أتجهوا اليه والتفوه حوله وأخذ واحدهم يلوم الآخر على تركه جانب قائده! بهذه الوسيلة تمكن من صَدّ زحف العدوّ في قتال ذلك اليوم.

وفي اليوم التالي صَفّ كاميللوس فرقة بنسق المعركة وصال على العدو صولة شديدة

= استدرار الرحمة من الشعب مع انه ابرز ثلاثين شكة سلاح غنمها من ثلاثين خصماً التحم معهم في قتال اليد باليد وقضى عليهم جميعاً، كما كُرم باربع تشريفات بينهما (Mural) اكليلان. وثمانية تيجان سدن. كما انقذ كثيراً من المواطنين وفي مقدمتهم سرفيليوس قائد الخيالة. ويزيد پليني في تاريخه الطبيعي فيقول (٢٨:٧) عندما كان مانيلوس في السابعة عشرة من عمره، غنم اسلاب عدوين. وكان اول فارس في روما يوضع على رأسه تاج الغار. وتلقى جسده ثلاثة وعشرين جرحاً بقيت ندوبها ظاهرة في قتال شريف. وعند انقاذه سرفيليوس تلقى طعنتين غائرتين في ساقه وذراعه. ويضيف (ليڤي) قوله انه صدر قرار بان لا يسمى أحد من اعتاب اسرته باسمه.

(٦١) من الخرافات المنتشرة بين الرومان ان (نمسيس) آلهة الانتقام قد تبتلي المرء بنكبة بعد عمرٍ طويل حالفه النجاح وحسن الحظ دون انقطاع وكاميللوس الذي بلغ الآن السادسة والستين تقريباً (٣٧٩ ق.م) هم بتأدية يمين التقاعد المعتاد والتخلي عن الحكم بسبب المرض الاّ ان الشعب رفض حتى سماع هذا الاقتراح منه [ليڤي ٦:٢٢].

وهزمهم هزيمة شنعاء ولحق بهم الى معسكرهم حتى أختلط الحابل بالنابل ودخلوا معسكرهم معهم واستولوا عليه وأبادوا بحدّ السيف معظمهم. ثم، لما سمع باستيلاء التوسكان على مدينة [ساتريكوم Satricum] (٦٢) وقتلهم كل أهاليها وهم رومانيون. بعث الى رومه بمعظم وحداته ذات السلاح واستبقى له وحدات مسلحة بأخف الأسلحة، مما أمتاز بالبسالة والإقدام، وهجم بهم على التوسكان المسيطرين على المدينة وكسرهم شرّ كسرة، وقتل عدداً منهم وطرد البقية. وعاد الى روما محمّلاً بغنائم كثيرة، مقدّماً بهذا دليلاً ساطعاً على نبوغه وحكمته الفائقة وعلى صحة رأي أولئك الذين لم يعدموا الثقة فيه عندما فضلوه على الشبان الطموحين المشوقين الى القيادة وعزل الشيخ العليل العازف عن الحكم، مبرهنين بذلك على أن ضعف جسم القائد وشيخوخته لا يجردانه من الإقدام أوحدّة الذهن.

لذلك، فعندما وردت الابناء بتمردّ التوسكولان Tusculan، انيطت بكاميللوس مهمّة قمعه، وخير في تعيين زميل مساعدٍ له من أحد الحكام. وكان كل زملائه متلهفاً الى هذا المنصب فمرّ بالجميع مرور الكرام ووقف عند [لوشيوس فيوريوس] فأختاره دون غيره خلافاً لما كان متوقعاً، وفيوريوس هذا، هو الذي قاد الهجوم الفاشل الطائش ضد رغبة كاميللوس في الحرب الأخيرة كما مَرّ بنا، وكاد يخسر المعركة والحرب كلها. وكان غرض كاميللوس من أختياره، هو أن يداوي نكسته ويمحو عارها عنه على ما يبدو.

ولما سمع التوسكولانيون بمقدم كاميللوس، لجأوا الى حيلة للرجوع عن تمردهم وتفادي النتائج فكان كاميللوس يمرّ بحقول امتلأت بالزراع والرعاة المنصرفين الى اعمالهم كأنما في عزّ السلْم. ووجد ابواب المدينة مفتوحة على مصاريعها، والتلاميذ يذهبون الى مدارسهم، ورأى الصناع والبقالين في دكاكينهم عاكفين على أعمالهم اليومية، ووجهاء القوم يروحون ويغدون في المحلأت العامة بثيابهم العادية (٦٣). وأسرع قضاة المدينة لتهيئة مقرات سكنى للجيش الروماني كأن شيئاً لم يحصل، وكأنهم لا يشعرون بأي خوفٍ أو خطر، ولا يثقل ضميرهم ذنبٌ. ولم تنطل هذه المظاهر على كاميللوس، وتشككه في انباء خيانتهم إلاّ أن قلبه رقّ لهم لما رآه من ندامتهم، فاشار عليهم بمراجعة مجلس الشيوخ والعمل على تهدئة غضبه، وتبرع هو نفسه بالتوسط في أمرهم والدفاع عنهم. وهكذا برئت ساحة المدينة وقبلت في حظيرة المواطنة رومانية (٦٤). وتلك هي أهم أعمال كاميللوس أثناء حاكميته السادسة، وأجدرها بالذكر.

---

(٦٢) يقول [ليڤي ٦:٢٢] انه اتخذ مقراً على مرتفع مع وحدات الرديف لمراقبة سير المعركة.

(٦٣) هذا الموضع ليس السوتريوم الذي جاء ذكره قبلاً. ويبدو ان پلوتارخ قد خلط بين الموضعين.

(٦٤) التوكا Toga هو ثوب السلم، والساكوم Sagum هو لباس الحرب وينوه ليڤي [٦:٢٥] ببعض ازياء أخرى يرتدونها بالمناسبة.

بعد كل هذه الأحداث أثار [ليشينيوس ستولو Licinius Stolo] مشكلة كبيرة واقام رومه واقعدها وألب العامّة على الشيوخ برفعه شعار حق العامّة في أختيار واحد من القنصلين الحاكمين من طبقتهم، لا أن يكونا قاصرين على طبقة الپاتريشيين. وكان قد تمّ انتخاب [تريبيونات] الشعب ألاّ أن طبقة العامة أوقفت عملية انتخاب القنصلين وحالت دونها(٦٥). ولما كان عدم وجود رئيس دولة، يؤدي الى تفاقم الوضع وازدياد الفوضى. فقد لجأ الشيوخ تطمينا لرغباته وخلافاً لرغبة الشعب الى انتخاب كاميللوس دكتاتوراً للمرة الرابعة(٦٦)، وضد رغبة كاميللوس الذي ان يكره الاصطدام بأناس اعطتهم خدماتهم الماضية الحق في أن يقولوا له ان مآثره الحربيّة التي انجزها بفضلهم هي أجلّ وأعظم شأناً من الأعمال السياسية التي أنجزها بالتعاون مع الپاتريشيين. وهؤلاء في الواقع لم يبرّزوه ويدفعوا به الى أعلى المنصب الاّ غيره وحسداً أو بكلمة أخرى اذا نجح سيسحق الشعب، وان فشل سيسحق نفسه. وعلى اية حالٍ ولأجل أن يعالج الأمر انجع معالجة ممكنة في تلك الساعة، ولبلوغ علمه باليوم المحدد الذي سيطرح فيه تريبيونات الشعب اقتراحاً بسن هذا القانون أصدر أمراً بالنفير العام، ودعا الشعب الى الخروج من الفورم والذهاب الى المخيمات مهدداً بفرض غرامات ثقيلة على المخالفين. فقابل التريبيونات تهديده، باحتجاج صارم وهددوه بفرض غرامة عليه قدرها خمسون ألف دراخما من الفضّة اذا أصرّ على منع افراد الشعب من الادلاء باصواتهم عند الاقتراع على القانون. وسواء أخشي كاميللوس نفياً آخر، أو حكماً بالإدانة لا يتفق

(٦٥) المواطن الروماني الأصيل الذي يتمتع بحقوق المواطنة كاملة: له ان يملك منزلاً في روما، وان ديدلي بصوته في الجمعية العامة. ويرشح نفسه للوظائف الحكومية. وهو من ثم منتسب الى واحدة من القبائل الرومانية. اما الانسان الحُرّ في عهد الجمهورية فهو محروم من هذه الامتيازات. والبلدان الأخرى والمستوطنات الرومانية التي يتمتع أهلها بحق المواطنة فلبعضها الحق في المشاركة في الاقتراعات العامة وترشيح أهاليها للوظائف في روما. في حين حرم بعضها الآخر من ذلك. ولم يعط للتوسكولان حقوق المواطنة الاّ بعد ذلك بزمن [ليڤي ٦:٢٠].

(٦٦) دام هذا الاضطراب خمس سنين في اثناء قيام التريبيونات بمنع اجتماع الكوميسيا وهو ضروري لانتخاب القناصل وكبار الحكام. وكانت المناسبة التالية السبب في ذلك: قام [فابيوس أمبوستوس] بتزويج بنته الكبرى من [سرڤيوس سولپيشيوس] الپاتريشي الذي كان وقتذاك تريبيوناً عسكرياً. وزوج الصغرى من [لوچينيوس ستولو] وهو پليبي غنيّ. واتفق ان الأخت الصغرى اثناء قيامها بزيارة لأختها، ان عاد زوجها من الفورم وراح حرسه اللكتور يطرقون الباب بعصيهم طرقاً شديداً فخافت الأخت الصغرى فضحكت أختها ساخرة بجهلها بالحياة الراقية التي تحياها. فآلمتها الإهانة كثيراً. ولكي يهدئ ابوها من روعها قال لها انها ستجد عما قريب في بيتها من الحياة الراقية والابهة ما يفوق ذاك الذي تجده في بيت شقيقتها. واتفق الأب والزوج مع [لوشيوس سكستيوس] الذي أصبح أول قنصل بعد نهاية الفترة – واقترحوا عدة قوانين منها تخفيض سعر الفائدة. وتحديد الملكية الزراعية بحدٍّ اقصى لا يتجاوز الخمسمائة ايكر. وجواز انتخاب أحد القنصلين من بين عامة الشعب وقد اورد ليڤي ٦:٣٤-٣٨ كل التفاصيل في هذا الباب.

وشيخوخته ولا يناسب ماضيه المجيد، فقد وجد نفسه أعجز الناس عن وقف زخم الجماهير الذين استفحل أمرهم واضطرمت أنفسهم بالثورة والتمرد. فأنسحب الى بيته لوقتٍ ما، ثم أدعى المرض عدة ايام، وأخيراً استقال من منصب الدكتاتور(٦٧)، فانتخب الشيوخ دكتاتوراً آخر، بادر حالاً الى تعيين [ستولو] زعيم المعارضة، آمراً لقوات الخيّالة. وتقرّر سن قانون جديد وصادق عليه ووضعه موضع التنفيذ - وقع هذا القانون وقع الصاعقة على الشيوخ فقد حدد ملكية الأراضي الزراعية بما لا يزيد عن خمسمائة ايكر مساحةً، وبهذا علت منزلة [ستولو] كثيراً، ولكن يمرّ طويل زمن(٦٨) حتى وجد [ستولو] يحتفظ بمساحة تزيد عن التحديد، ففرضت عليه العقوبات التي قررها قانونه!

ثم حُلّ النزاع حول انتخاب القناصل - وكان هذا علة الخلاف والنقطة الأساسية للتناخر، ظلّ يمدّ الخلاف بين طبقتي الشيوخ والعامة بوقودٍ لاينضب معينه.

ووصلت في اثناء ذلك، انباءٌ تشير الى أن الغاليين ينوون اعادة الكرّة، وقد تقدمت جحافلهم من البحر الادرياتي مندفعة نحو روما بجموع هائلة، وفي أعقاب هذا النبأ تواترت الأخبار عن أعمال التخريب التي يرتكبها العدو، فقد كان يترك الأرض التي يجتازها قاعاً صفصفاً، والأهالي يفرون من أمامهم، يهيمون على أوجههم في الجبال مبعثرين، ولم يصل منهم الى روما الاّ نفر ضئيل. إن مخاوف هذه الحرب هدأت الحالة في روما، وأعادت الى المدينة وحدتها، وأختار الشيوخ والعامة، والنبلاء والدهماء بالأجماع كاميللوس، لمنصب الدكتاتور مرةً خامسة وكان يشارف ثمانين من عمره. لكنه لم يدّع المرض أو خور القوى في هذه المرة كما أدعى قبلها، تقديراً منه للخطر الذي يتعرض له الوطن، ومستجيباً لداعي الضرورة الملحة. وباشر في الحال بالتجنيد.

علمته تجربة الحرب مع الغاليين، ان قوة هؤلاء تكمن في سيوفهم البتّارة، فهم يهوون بها بشكلٍ اعتباطيّ خشنٍ لا فنّ فيه، فيبقرون ويبترون الاعظاء ويقطعون الرؤوس والاكتاف بصورة وحشية فعّالة. لذلك أمر بضع خوذٍ حديدية واقية يرتديها معظم رجاله، وأوصى بصقلها وتلميعها من الخارج حتى تنزلق فوقها سيوف الأعداد أو تتكسّر. كما أُمر بثبت اطارات خفيفة من النحاس حول التروس لأن الخشب لا يتحمل ضربات السيوف الشديدة كذلك دربّ جنوده على استعمال رماحهم الطويلة في القتال القريب. وعلمهم كيف يدرّءون بها

---

(٦٧) في ٣٦٦ ق.م.

(٦٨) زعموا بوجود شيء مخالفه في الاستخارة التي تمت بعد تعيينه. [ليفي ٦: ٣٨]. وقد خلفه [پوبليوس مانليوس] في المنصب.

ضربات سيوف العدو عندما يلتحمون بهم.

إقترب الغاليون من نهر [اكينو] يجرون خلفهم اثقالاً لا تحصى، وهم متخمون باسلاب تفوق الحصر. نظم كاميللوس جيشه لخوض المعركة، فاختار موقعه على تلّ سهل المرتقى فيه كثير من الوهاد والمنخفظات وأخفى في تلك التعاريج معظم فرقه. وأبقى القسم الأقل فوق التل بشكل ظاهر ليبدو وكأنه لجأ الى القمة بدافع الخوف. ولأجل تثبيت الخدعة في نفوس العدوّ، تركه ينهب ويسلب دون أن يتعرض له حتى دنا وأصبح على مشارف خنادقه وكاميللوس رابض في مواقعه الحصينة خير تحصين. لايأتي بأقل حركة، حتى رأى القسم الطلائعي منه يتفرق زمراً في النواحي ينهب ويخرب ويدمرّ.

أما القسم الذي بقي في المعسكر فقد عكف على الشراب والقصف موصلاً الليل بالنهار ملقياً جانب الحذر. وفي هدأة من الليل قام كاميللوس بتحشيد أخف فرقه سلاحاً وارسلها في المقدمة لاعاقة العدو عن تنظيم صفوفه، ولايقاع الفوضى فيهم بالمشاغلة والهجمات المتكررة عندما يهمون بالخروج من المعسكر وعند ابنلاج الفجر انحدر بالقسم الأكبر من الجيش وهم بنسق الهجوم - الى الأرض المنبسطة وكان جيشاً جراراً يتوثب أقداماً وشجاعة، لا كما حسبه البرابرة فرقةً صغيرة أطاش الرعب صوابها.

وكان أوّل ما زعزع ثقة الغاليين وأفقدهم الشجاعة هو أن شرف المبادأة بالهجوم كان لأعدائهم خلافاً لما توقعوا وثاني ما أثر فيهم تلك الوحدات الخفيفة السلاح والحركة تفاجئهم بالكرّات الشديدة دون أن تتيح لهم فرصة لتنظيم صفوفهم وفق الأصوال الحربي الذي اعتادوه فشاعت الفوضى فيهم، ووصل الضنك بهم حداً أن اضطروا الى القتال بصورة اعتباطيّة لا نظام فيها، ولما زجّ كاميللوس بفرقه الثقيلة، اندفع البرابرة اليهم بقوة وسيوفهم مشرعة فراح الرومان يكيلون لهم الطعن برماحهم ويتقون ضربات السيوف على الاجزاء التي يحميها الحديد حماية جيدة. وتثلمت سيوف الغاليين المصنوعة من معدن سيّء السقي والتوت وتكسرت في ايديهم وخرقت الأسنّة تروسهم وانغرس فيها كثير حتى ثقلت بها، فأضطروا الى ترك أسلحتهم وحاولوا الاستفادة من أسلحة أعدائهم، وراحوا يحاولون انتزاع الرماح من تروسهم. ولما وجدهم الرومان عزلاً لاسلاح في ايديهم، امتشقوا سيوفهم وكانوا يتقنون استخدامها - وأوقعوا مذبحة كبرى في الصفوف الأولى، بوقت قصير. بينما هربت البقية وتفرقت في الأراضي المجاورة. وكان كاميللوس قد أستعدّ لذلك من قبل باحتلال المرتفعات والتلا. وكان الغاليون يعرفون أن العدوّ ان يصعب عليه الاستيلاء على معسكرهم لأنهم تركوه دون حراسةٍ وحماية لوثقهم بالنصر، ولذلك لم يلجأوا اليه في فرارهم.

قيل أن هذه المعركة جرت في السنة الثالثة عشرة[٦٩] بفتح روما. ومنها فصاعداً ارتفعت معنويات الرومان، وازدادوا شجاعة، وتغلبوا على مخاوفهم من البرابرة، الذين عزوا هزيمتهم السابقة الى تفشي الوباء فيهم، وسوء حظوظهم، أكثر مما عزوه الى بسالة الرومان. في الواقع أن هذا الخوف كان شديداً عند الرومان حتى انهم سنوا قانوناً يقضي باعفاء الكهنة من الخدمة العسكرية، إلاّ عند غزوات الغاليين.

كان هذا، آخر عملٍ عسكري انجزه كاميللوس. لأن استسلام مدينة الڤيليترانى Velitrani طوعاً لم يكن الاّ مجرد عملية تابعة. إلاّ أن أعظم المعارك السياسيّة وأشقهّا حلاً مازالت تنتظر منه تسوية، وكان عليه أن يخوضها ضد الشعب.

عاد الجيش الى أرض الوطن ثملاً بخمرة النصر والنجاح مصراً على تغيير القانون السائد، وانتخاب قنصل واحدٍ من طبقتهم فعارض الشيوخ في ذلك أشدّ معارضةٍ ولم يسمحوا لكاميللوس بالاستقالة من منصب الدكتاتور، نشبثوا به متوهمين بأن احتماءهم باسمه العظيم وسمعته، يضاعف من قدرتهم على النضال لابقاءنظام الحكم ارستقراطي الشكل.

لكن، بينما كان كاميللوس جالساً على منصّة الحكم يصرّف شؤون الدولة، إذ صعد اليه ضابط ارسله تريبيونات الشعب، وأمره بالنهوض والسير خلفه، ووضع يده عليه كأنما يريد القبض عليه ونقله. فأمتلأ الفوروم بضجيج وصخب لم يسمع بمثله من قبل. وحاول بعض من كان حول كاميللوس أن يصدوا الضابط وقذفوا به من فوق المنبر. وراحت الجماهير في الأسفل تهيب بالضابط أن يقتاد كاميللوس وينزله عن مقعده. وأستبدت الحيرة بكاميللوس وأسقط في يديه. ولم يدر كيف يخرج من هذا الموقف الصعب. على انه لم ينزل عن سلطاته بل جمع الشيوخ وأخذهم الى المجلس وقبل ان يدخل دعا للآلهة أن تلهمهم الحلّ الصائب وتبلغ بهم الى نتيجة خيرٍ وسط هذه المحنة ونذر بقسم مغلظ أن يبني معبداً لـ[كونكورد Concord] أن أنكشفت الغمة وزالت المحنة. ثم عقدت الجلسة، وأصطدمت آراء المجلس اصطداماً عنيفاً وكثر الجدال، أخيراً نجح أكثر الاقتراحات اعتدالاً، وأحسنه قبولاً عند العامة. وبه تمت الموافقة على تعيين قنصل من العامة الى جانب القنصل الآخر[٧٠]. وعندما أعلن كاميللوس قرار المجلس لعامة الشعب، أستبد به الفرح، وصالح الشيوخ صلحاً صميماً لم يسبق مثيله من قبل. ورافق الجمهور كاميللوس الى منزله بتظاهرة عظيمة، حافلة بضروب التجلة والتعظيم،

---

(٦٩) بعد ١١ سنة (اي في ٣٥٦ ق.م) فرض عليه پوبليوس ليناس غرامة مقدارها عشرة آلاف ستدركه لأنه كان يملك الف ايكر بالاشتراك مع ابنه الذي أخرجه من السلطة بسبب ذلك [ليڤي ١٦:٧].

(٧٠) ليس ثلاثة عشر بل ثلاثة وعشرون عاماً [ليڤي ٤٢:٦].

ومظاهر الغبطة. وأجتمع المواطنون كافةً في اليوم التالي وصوتوا بتأييد اقامة معبد [كونكورد] تحقيقاً لنذر كاميللوس، على أن يشييد بمواجهة بناية مجلس الشيوخ والفورم. كما صوتوا على اضافة يوم رابع الى أيام العيد الثلاثة المعروفة «بالأعياد اللاتينية». ورسموا في تلك المناسبة، أن يقدم كل الرومان قرباناً وعلى رؤوسهم أكاليل الغار مضفورة.

في الانتخابات العامة التي أشرف عليها كاميللوس أنتخب [ماركوس اميليوس Marcus Aemilius] قنصلاً عن الباترتشين. و[لوشيوس سكسيتوس Lueius Sextius] أوّل قنصل عن العامة. وكان هذا آخر أعمال كاميللوس.

في السنة التالية أنتشر في رومه وباءٌ أهلك عدداً لا يحصى من عامة الناس، وراح ضحيته معظم الحكّام ومن بينهم [كاميللوس]. وليس يصح القول انه أعتبط، أو مات قبل أوانه باذا فكرنا في عمره الكبيرة أو أعماله الكبيرة، إلاّ ان الحزن عليه فاق الحزن على كلّ من ماتوا بهذا الوباء مجتمعين(٧١).

أهم الأحداث في عهده (ق.م)

٣٨٧ معاهدة السلام التي عقدها القائد السبارطي انطالقيداس مع الفرس وبموجبها أصبحت المدن الاغريقية في أسيا الصغرى خاضعةً للفرس.

٣٧٧ (خابرياس) زعيم الآثينيين يهزم القائد اللقيديي [پوليسدس] في معركة [نخسوس] البحرية.

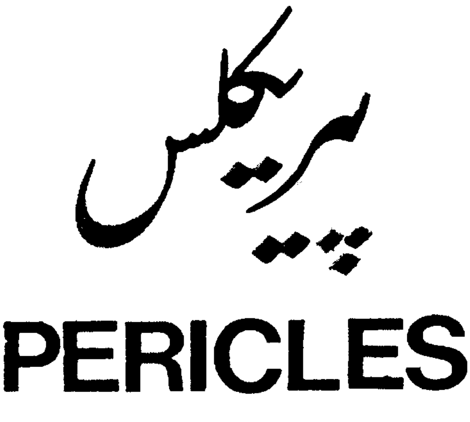
٣٧١ الثيبيون بقيادة (اپامنناداس) يهزمون اللقديميين في لفكترا.

---

(٧١) بعد ان فرض عامة الشعب ارادتهم بتعيين احد القنصلين من بينهم وتم احياء المنصب القنصلي والتخلص من منصب التريبيون العسكري نهائياً. إلاّ ان طبقة الپاتريشي لم تتنازل عن هذا الامتياز إلاّ بعد استحداثها وظيفة جديدة هي منصب الپريتور الذي نصّ على ان يكون من الپاتريشي دائماً. والقناصل هم جنرالات في الجيوش الرومانية وهم في الوقت عينه قضاة مدنيون. لكن لما كانوا في ميادين القتال في أغلب الأحيان فقد روعى من الانسب أن تسحب منهم الواجبات المدنيّة وتناط بقضاة يطلق عليهم اسم «بريتور» يلون القناصل في درجة الوظائف العامة. وأول پريتور نصب في روما كان ابن (كاميللوس). وبالمناسبة فقد استحدث في عين الوقت منصب الكورول ايديل (ليڤي ١:٧) الذي سيأتي الكلام عنه. وفي حدود العام ٢٥١ ق.م. استحدث منصب بريتور ثانٍ وانيط به حلّ النزاعات والخلافات التي تنشب بين الاجانب غير الرومانيين. وعند الاستيلاء على صقلية وسردينيا أضيف اثنان آخران، وأضيف عدد آخر عند فتح اسپانيا.



مارس



495 – 425



إتفق أن القيصر(*) شاهد بعض اغنياء الأجانب في (رومه) يحملون الجراء والقردة الصغيرة، يهدهدونها ويحتضنونها ويدللونها ويضمونها الى صدورهم بإعزاز وحبّ، وكان من الطبيعي أن ينتهز الفرصة ليسأل: هل تعودّت النساء في بلادهن أن لايحملن أطفالاً؟» إن هذا النقد الملكي الوجيه أحرى كثيراً بالناس الذين يغدقون على الحيوانات والبهائم ذلك الحب والعطف اللذين، ما زرعتهما الطبيعة في أنفسنا إلاّ لنخصّ به بني جنسنا من البشر، وللعلّة نفسها يحق لنا العتب على أولئك الذين يسيئون استخدام حبّ الاستطلاع، والاستفسار ويصرفونه في أمور لاتستأهل من اسماعهم وأبصارهم اهتماماً، في حين تراهم لايبالون بما هو حسن بذاته، ولايكترثون بما يصلح ويستقيم لهم.

إن مجرد الحسّ الظاهر، لما كان جامداً عاجزاً عن الأستجابة لتعبيرات الأشياء التي تقع في طريقه أو تعترضه، فقد لا يقوى على ملاحظة أو اقتبال كل ما يعنّ له أياً كان، مفيداً أو ضاراً. لكن الأمر يختلف عندما يستخدم المرء قواه العقلية. ففي كل انسان قوة طبيعية لتكييف نفسه لكلّ مناسبة عندما يشاء وان لديه مقدرة على تغيير نفسه وتحويلها بأسهل ما يمكن الى ما يجده حسناً له. لذلك كانت مهمة الإنسان أن يتتبع خير الأشياء وأن يستخلص أصلحها، وبذلك لايكون عمله قاصراً على تشغيل وتنمية قوى إدراكه، بل الانتفاع بتلك القوى أيضاً. وكما يكون لون من الألوان أبهى للعين من غيره، وكما تكون لطافته ورونقه باعثاً على تقوية النظر وزيادة حِدته، كذلك ينبغي للانسان أن يستخدم بشعور من البهجة قوى ذهنه في الأمور الكفيلة بصقله وتنشيطه، لمنفعته الخاصة، ومصلحته .

تلك الأمور المحفزة للذهن نجدها في أعمال الفضيلة، لأنها تخلق في عقول قرائها العاديين دوافع وحوافز قد تؤدي بهم الى محاكاتها، في حين أن الأعجاب بما سواها لا يستتبع حتماً نشوء رغبة قوية في النفس الى محاكاتها. بالعكس، والف مرة بالعكس، فنحن عندما نعجب بصناعةٍ، لانكترث أو نهتّم كثيراً بالصانع أو الفنان، كحالة أعجابنا بالعطور أو الأصباغ

(*) المقصود أغسطس قيصر.

الحمراء، اننا نميل الى هذه الاشياء، كأشياء فحسب ولا نفكر بالعطارين والصباغين الذين صنعوها، أكثر من كونهم أناساً عاديين من عامتهم ودهمائهم.

لم يركب [انتستينس Antisthenes][1] متن الشطط لما قال رَداً على ما سمع أن المدعو [ايسمينياس Ismenias، خير نافخ بالناي]، فقال: «قد يكون كذلك، إلاّ انه مخلوق بشريّ بائس لا غير، وإلاّ ما كان نافخ ناي ممتازاً» وقال الملك [فليپس] لابنه الأسكندر شيئاً في الموضوع نفسه. فقد عزف هذا الابن مقطوعة موسيقية عزفاً مبدعاً عجيباً في مجلس لهو وطرب. فعقب أبوه على ذلك بقوله: «الا يدركك الخجل يا بنيّ، لعزفك عزفاً ممتازاً؟»[2] والقصد من هذا انه يكفي الملك أو الأمير أن يجد لنفسه فراغاً من الوقت أحياناً، لينصت الى موسيقى الآخرين، وأنه ليرفع من قدر الفن كثيراً عندما يجد في نفسه رغبة في حضور مجلس يمارس فيه آخرون هذه الأمور الفنيّة الرفيعة.

ومن يشغل نفسه في مهنٍ وضيعة، ينهض شاهداً ضد نفسه على إهماله وعجزه عن الاتيان بالأعمال الصالحة المفيدة، في تلك المعاناة التي يتكبدها اثناء انجازه الأمور القليلة الفائدة، أو التي لا فائدة فيها. ولن يجد أي شاب نابغ أريب أي رغبة في أن يكون [فيدياس Phidias] عندما يشخص بنظره الى تمثال جوپتر في [پيزا Pisa][*] أو يتمنى أن يكون [پولقليطوس Polycletus] عند مشاهدته تمثال [جونو] في [ارغوس] ولا أن تتأثر نفسه بأشعار [اناكريون Anacreon] أو فيليطاس Philetas أو ارخيلوخس الى الحد الذي يشتاق أن يكون أحدهم. اذا حازت أعجابنا قطعة دقيقة الصنع أو أي اثر فنيّ لجمالهما ورعتهما فليس ضرورياً أن يستحق صاحبها أعجابنا أيضاً ومن حيث ان هذه الأشياء لاتفيد ناظريها ولاتجديهم نفعاً في الحقيقة، فإن الناظر اليها لايشعر بأيّ شوق لمحاكاتها، كما أنه لايجد اي حافزٍ يدفع رغبة فيه أو يحرك جهداً منه لصنع شبيه لها.

أمّا الفضيلة فتأثيرها آنيّ عميق يبعث الرغبة الى محاكاة صانعيها عادةً، ونحن نتملك ثمار الحظ ونتمتّع بها، أما ثمار الفضيلة فنهفو الى ممارستها ومزاولتها. نحن نُسرّ بأن نأخذ الثمار الأولى من الآخرين، لكننا نتمنّى أن يأخذ الآخرون منّا الثمار الثانية. إن الثروة الأخلاقية حافز واقعيّ عمليّ، ما أن يقع عليها النظر حتى توحي الى نفس الناظر بدوافع

(١) تلميذ سقراط ومؤسس المذهب الفلسفي المعروف بالفلسفة الكلبيّة نبغ في حدود (٣٦٥-٤٤٤ ق.م) وهو معلم ديوكينيس.

(٢) وقع (فيليب) نفسه في خطأ شبيه بهذا الذي عنّف ابنه بسببه فمرة أختلف مع احد الموسيقيين حول مبادئ الموسيقى. فصاح مخاطبه قائلاً «السماوات لا تسمح لك بان تعرف عن هذا الموضوع أكثر منيّ».

(*) أعني أولمپيا.

لمحاكاتها واحتذائها. وليس تأثيرها على العقل والخلق مجرد اندفاع للتقليد. بل هو تأثير عميق تفصيليّ خلاّق للغرض الخلقي الذي ننتويه.

لهذا وجدنا من الملائم أن نصرف الوقت ونبذل الجهد في تدوين سير مشاهير الرجال. وألفنا هذا الكتاب العاشر في سيرتي پيركليس وفابيوس وماكسيموس الذي ادار دفة الحرب ضدّ [هنيبال]، والرجلان متشابهان في أخلاقهما الأخرى ونواحيهما الحسنة، وهما كذلك سواءً في مزاجهما الرقيق ولين عريكتهما واستقامتها وسلوكهما العام. صنوان في مقدرتها على تحمل الأمزجة المتناقضة الجامحة لبني قومهما وزملائهما في الحكم. ولذلك افادا بلديهما كثيراً وأصلحا من أمور وطنيهما. وسواء أإتخذا السبيل القويمة الى الغرض المشروع آنفاً أم لم يتخذا، فهذا ما سنترك الحكم فيه للقاريء، مستهدياً بما سيجده هنا.

كان پيركليس من قبيلة [أكامنتس Acamantis] ومن مواطني مدينة [خولارغوس Cho-largos] ونسبه أعرق الأنساب سواء من جهة ابيه أو أمّه. [فكزانتيبوس Xanthippus] أبوه، هو الذي هزم قادة ملك فارس في معركة [ميكاله Mycale]، تزوج [اغاريستي Aga-riste][٣] حفيدة [كلسطينيس Clisthenes] الذي قام بمأثرة طرد ابناء [پسستراتوس] ووضع حداً نهائياً لطغيانهم وأغتصابهم الحكم، فضلاً عن سنّه مجموعة من الشرائع، وإقامته نموذجاً صالحاً للحكم يتفق تمام أتفاق وسلامة الشعب واستقراره.

في آخر أيام حمل أمّه به، رأت في الحلم أنها ضاجعت أسداً. وبعد أيام وضعت پيركليس، وكان كامل التكوين إلاّ رأسه فهو مستطيل بعض الاستطالة غير متناسق، ولذلك لاتجد صورة له أو تمثالاً إلاّ والرأس مستورٌ بخوذة. ويظهر أن الصناع والمثّالين ما كانوا يرغبون في إبراز ذلك العيب الجسمانيّ.

ولقبّه شعراء آثينا [سخينوسيفالوس Scinocephalus] أو «رأس العُنْصُل» مأخوذاً من كلمة [سخينوس Schinos] وهي تستعمل أحياناً لتسمية نبات العُنصلان أو بصلة البحر.

---

(٣) نجد عند هيرودوتس (١٣١:٦) النسب الكامل لپيركلس. كان «كلستينيس» ملك [سيكيون] ابنة واحدة تدعى [أغاريستي] فزوجها بـ[ميغاكليس] ابن [آلكيمون] فكانت ثمرة الزواج ابنان هما [كلستينيس] و[ايپوقراطس]. وولد للثاني منها ابن دعي بـ[ميغاكليس] وابنة سماها [آغاريستي] وهي والدة پيركلس. ولذلك فهي ليست حفيدته بل بنت أخيه.

إن معركة (ميكالي) في ايونيا، وقعت في اليوم نفسه وبين النتيجة العظيمة التي آلت اليها معركة (پلايتي) في ٤٧٩ ق.م. اذ ترك الفرس في ميدان القتال اربعين الف قتيل، وهلك عدد أكبر من هذا اثناء المطاردة. ولم يكتب النجاة للبقية الاّ بالتقهقر المشين والاحتماء باسوار ساردين. وكانت خسارة الاغريق تزيد عن اية خسارة حلت بهم في اية معركة أخرى خلال تلك الحروب كلها.

ويورد لنا أحد الشعراء الساخرين. المدعو [قراطينوس Cratinus] [٤] في «الحوليّات الخيرونات Cheirons» بأن:

«الزمان القديم» تزوج مَرّج، بالملكة «تمرّد» فكانت نتيجة الزواج، ذاك القذر الطاغية المدعو پيركليس في الأرض جامع الرؤوس Head Compeller! في السماء.

وفي «آله الانتقام اللعنة Nemesis» يوجه الكلام اليه قائلاً:

يقال يا ربّ - يا أنت «رأس» الآلهة المبارك الأعلى القوى[٥] أخا الجود والكرم!

ويصفه [تيلقيدس Teleclides] الشاعر الآخر: وهو جالس في الاكروپوليس وقد ارهقته المتاعب السياسية:

ينوء تحت عبء رأسه. وهو الآن من خارج مقصورة رأسه ذات الأحد عشر متكأ مسبباً المتاعب والضجة العظمى.

وفي مسرحيّة هزلية لشاعر ثالث هو [ايپوليس Eupolis] اسمها «النَصَف Denes» يسأل عن ابناء كل خطيب ديماغوغي من الديماغوغيين الذين جعلهم في مسرحية (قادمين من جهنم) (ايداس)، عندما خرج پيركليس في الاخير تراه يهتف:

هل صعد الى فوق، رأس القبائل التي تدور في تلك العوالم الواسعة؟

واتفق معظم الكتاب ان الاستاذ الذي لقنه الموسيقى هو [دامون Damon] (يقولون ان المقطع الأول من اسمه يلفظ قصيراً)، على أن [أرسطو] يخبرنا أن [پيتوقليدس Pythoe-lides] هو الذي جعله يتقن هذه الفنون ويحذقها، وليس ببعيد أن يكون [دامون] هذا من السفسطائيين، أحتال باحتراف الموسيقي على حماية نفسه كي يخفى عن الناس عامةً نبوغه في المسائل الأخرى وتحت ستار هذا الزعم لازم الرياضيّ الشاب پيركليس في شؤون السياسة، أو بكلمة أخرى باعتباره مدرباً في التمارين الرياضية، وعلى أية حال لم تكن «قيثارة»

---

(٤) قراطينوس هو كاتب هزليات قديمة. كتب آخر مقطوعة له وهو في السابعة والتسعين من العمر. واقبوليس الذي كان اسبق منهم عند عبوره المضايق وقع «ضحية خياله الشعري الساخر».

(٥) كان پيركلس يلقب بـ(اوليمپوس) أو (جوپتر) كما نوه پلوتارخ بذلك فيما بعد. والشاعر هنا يوجه اليه القول بهذه الصفة ويشير اليه بكلمة «المبارك» أو «ذي الرأس الأكبر». وليس في العربية كلمة كهذه ذات معنى مزدوج ولفظ واحد. وفي الابيات الأولى لقب بـ(كيفالگيرتس) أو جامع الرؤوس (كان رأس پيركلس لفرط ضخامته، يبدو وكأنه مجموعة رؤوس) بدلاً من نيفاليگيرتس أو جامع الغيوم. وهي صفة من صفات (جوپتر) المعروفة.

دامون ناجحة كل النجاح لستر نفسه اذ نفي عن البلاد دون محاكمة، لمدة عشر سنوات متهماً بتدخله لمصلحة السلطة المستبدة، وبهذا اتاح للمرسح فرصة التندر عليه، فمثلاً نجد افلاطون الشاعر يخترع شخصية مسرحية ويسألها:

«اذن قل لي أولاً من فضلك يا دامون، أنت الخيرون الذي زود پيركليس بصنعته[٦] وتتلمذ پيركليس أيضاً على زينو Zeno [الأليائي Elea][٧] الذي عالج فلسفة الطبيعة بعين الطريقه التي عالجها [پارامينِدس] إلاّ أنه أبلغ الذروة في فن لا ينازعه فيه أحد، وهو وحض حجج خصومه في الجدال واسكاتهم؛ ودونك وصف [تيمون الفيلوسي] له:

«كذلك كان لسان زينو الجبار؛ لسان ذو حدّين يستطيع أن يبرهن على خطأ أي قولٍ مهما كان»

إلاّ أن [أناكساغوراس] الكلازوميني Clazomenae كان الأكثر لصوقاً بپيركليس، وهو الذي أفاده أكثر من غيرهم، لاسيما بتوسيع مداركه والارتفاع بوعيه على كلّ المفاهيم الشعبيّة الاعتيادية، وفتحّ عينيه على سموّ المقاصد ورفعة الأخلاق. كان رجال العهد قد لقبوا هذا الفيلسوف بـ[نوس Nous] اي العقل، أو النبوغ إما بدافع أعجابهم بمواهبه العظيمة الفائقة التي برزت في علوم الطبيعة. وإما لأنه أوّل الفلاسفة الذين عزوا المسبب الأول للوجود، لا الى المصادفة وحكم الظروف ولا الى الضرورة والوجوب، بل الى ادراك محضٍ نقيّ خالص يعمل في الأشياء الأخرى المركبة والمختلطة، كعنصر فصلٍ أو عنصر اتحادٍ بين النظير والنظير.

وكان أحترام [پيركليس] لهذا الفيلسوف وأعجابه به لا حدّ لهما ولا غرو فقد أثر في نفسيته وملأها بالادراك المتسامي أو كما يوصف بالادراك الضارب في كبد الفضاء، ولم يكن معين هذا الادراك قاصراً على سموّ الغاية، وسلامة القول البعيد جداً عن تهريج البلاغة الغوغائية، المضِلّة الوضيعة، بل أوجد فيه الى جانب ذلك رباطة جأشٍ وهدواً ووقاراً في حركاته وسكناته، حتى لم يعد يقوي حادث طاريء على حديث استرسل فيه. وكانت نبرات صوته قوية هادئة مطردة. الى غير ذلك من الميزات التي تخلف أعظم التأثير في سامعيه.

(٦) وكلمة (خيرون) هنا ذات معنيين فهي إمّا تفهم في العبارة هكذا: "أأنت معلم پيركلس؟ أو تفهم" - "أأنت أكثر شراً من پيركلس؟"

(٧) (إيليا) بلدة ايطالية ومستوطنة للفوكيين. وعلينا ان لا نخلط هنا بين زينو هذا وبين زينو الاليائي موجد الفلسفية الرواقية. فالمقصود هنا هو رجل نال احترام بلاده لمحاولته انقاذها من يد أحد الطغاة. فقبض عليه الطاغية وأمر ان يوضع تحت مدقّه الجصّ ويدقّ حتى يموت إلاّ ان ميتته حققت ما لم تحققه حياته فقد عصف الغضب بمواطنيه لهذه الجناية ووثبوا على الطاغية مرتكبها ورجموه حتى الموت.

ومرة أبتلي بشخص وضيع متهتك ظلّ يشتمه ويهينه على مسمع منه طوال اليوم وهو منشغل في ساحة السوق بتصريف أمرٍ عاجل، فلم يأبه به وأستمر في عمله بصمت تام، ثم قفل الى منزله عند حلول المساء وهو في تمام هدوئه والرجل يجرى في أعقابه يلاحقه بالشتائم ويرشقه ببذيء القول طول الطريق. ودخل پيركليس بيته وقد جنّ الليل، فأمر أحد خدمه أن يحمل مصباحاً ويرافق الرجل حتى منزله.

الحق يقال، ان الشاعر الدرامي [ايون Ion] يذكر أن سلوك [پيركليس] مع مجالسيه كان متسماً بالخيلاء والتعاظم، وغطرسته هذه كان يتخللها قدر كبير من الاستخفاف والازدراء بالآخرين، ويتحفظ في إطرائه بساطة [كيمون] ومرونته وكياسته الطبيعية في سلوكه مع الناس. وعلى كل حال، فأيون هذا يرمي الى أن يعامِل الأخلاقَ معاملته لمشاهد تمثيلية مأساوية، فيحشر فيها بعض المواقف الهزلية، مما لا يمكن الركون الى اي منها(٨). واعتاد [زينو] أن طلب ممن يسمون رزانة [پيركليس] بتظاهر المشعبذ أن يروحوا ويتصنعوا تلك الرزانة الى أن يزرع فيهم هذا التقليد حباً حقيقياً لهذا الخلق النبيل وأدراكاً له.

ولم يكن هذا، كل ما جناه پيركليس من مخالطته لاناكساغوراس إذ تدل الدلائل أنه صار وفقاً لتوجيهاته ينفر من تلك الخرافات التي يتطلع اليها الجاهل مشدوهاً خاشعاً وهي تبدو في السماء مثلاً... تلك الأوهام التي تستولي على عقول من لايدري اسبابها، فيذهلون للظواهر الخارقة للطبيعة ويكون سريعي الاستشارة لقلة التجربة التي تنّحي ادراك العلل الطبيعية جانباً، وتضع الأوهام الطائشة المحدودة الأفق، موضع الأمل الخيّر، وأطمئنان التُقى المنبعث من الفهم والادراك.

وتحضرني حكاية عن پيركليس: أُحضر له من مزرعته الريفية يوماً، كبش ذو قرنٍ واحد. فلما وقع نظر العَرّاف [لامپون Lampon] على القرن بارزاً من وسط جبهة الرأس صلباً قوياً، نطق بتفسيره قائلاً: لما كان يوجد في تلك الفترة رأيان أو مصلحتان أو حزبان قويان في

---

(٨) التمثيلية التراجيدية كانت بالاول عبارة عن جوق من المنشدين لتكريم باخوس. وكان الممثلون يرتدون ازياء تنكرية كالمسوخ وكثيراً ما كانوا اثناء التلاوة والالقاء يتبادلون عبارة المزاح بدون حدود. بعدها اتجهت الجوقة الى الجدية والوقار فبدت تراجيكوميدية اي مزيج من المأساة والهزل. وبمرور الوقت بدأ التراجيديون يعالجون مواضيع جدية وبدأ الممثلون شخصيّات وقورة مؤدبة. وتم التخلص من المزيج المتناقض في التمثيلية واصبحت دراما تامة الابعاد الاّ أن الممارسة العملية حتى في الزمن الذي نحن بصدده كانت تقتضي عرض ثلاث مقطوعات تراجيدية جديّة. وبعدها اعتاد الشعراء ان يختموا مسابقتهم على الجائزة بقطعة ساخرة. ويوجد من هذا النوع تمثيلية جيدة هي «السيكلوبا» لـ[يورپيدس].

وأيون هو مرسحي تراجيديّ من مدينة (خيوس) ومن بعض اصولٍ لآثاره جائتنا مقطوعات قليلة من مرثياته.

المدينة، أحدهما يتزعمه [ثوكيديوس][٩]، والثاني يرأسه [پيركليس] فان الحكم سيؤول الى من خرجت إشارة الأقدار هذه من أرضه! فلم يكن من اناكساغوراس الاّ أن فلق جمجمة الكبش نصفين، وعرض للحاضرين أن الدماغ لم يتخذ موضعه الطبيعيّ، ولأنه مستطيل كالبيضة فقد التمّ من كل تجاويف القحف الذي يستوعبه وأجتمع في نقطة الموضع الذي نشأ منه جذر القرن البارز. في حينه أثار اناكساغوراس أعجاب الحاضرين بشروحه وتعاليله، إلاّ أن الأعجاب [بلاسپون] فيما بعد لم يكن بأقل منه، عندما هزم [ثوكيديدس] وقبض پيركليس على زمام الحكومة والدولة.

ولست أجد أي غرابة في القول بأن كلاهما كان مصيباً، فيلسوف الطبيعة ذاك، والعراف هذا فاولهما كشف عن سبب تلك الظاهرة كشفاً صحيحاً وأظهر للملأ علتها. أما الثاني فقد أبان الغرض من وجودها. وكانت مهّمة أولهما الوصول الى أصل تكوينها وتفسيره، اي ايضاح السبب في نموّ القرن بهذه الهيئة الشاذة. في حين قصرت مهمة ثانيهما على التنبؤ بالغاية التي استهدفها نموّه وعلام تدّل، وأي خبر يستبطن؟

لقد خفي عن القائلين بان البحث عن مسببات الخوراق يؤدي الى ضياع وتلف ما تنبيء به وتدل عليه انهم يضيعون مع تلك الخوارق السماوية كل البراهين والدلائل المثبتة للمكوّنات الانسانية، والتناسق البشري. ومثل هذه، كمثل اصطفاق حلقات الرمي النحاسية بعضها[١٠] ببعض، وكتعارض انوار النيران المرشدة ليلاً، وكتصادم ظلال المزولات الشمسية؛ فلكل من هذه سببٌ ووسيلة ولكلّ سبب دليل الى آخر... إلاّ ان هذا البحث قد يلائم موضعاً آخر غير هذا الموضوع ولنكتف بما عرضنا منه.

كان پيركليس في شبابه يتردد من مواجهة الجمهور الى أقصى حدٍ، اذ كان يُعتقد بانه يشبه [پسستراتوس] الطاغية شبهاً شديداً بملامحه وتركيبه البدني، وكبار السنّ المعمّرون الذين أدركوا الطاغية، فيذهلون للشبه العجيب بين صوتيهما عندما ينصتون لعذوبة نبرات [پيركليس] وسرعة كلامه وذلاقة لسانه.

واطال [پيركليس] التأمل في حالة، فكر في ثرائه العريض ونبل محتده، وكثرة اصدقائه المتنفذين، ورأى أن هذا قد يؤدي به الى أعتباره من الاشخاص الخطرين على النظام فيحكم

(٩) سياسيّ معاصر لـ(پيركلس) وواحد من مناوئيه. وابوه هو [اوروولوس] في حين ان اسم والد المؤرخ الشهير هو (ميلسياس).

(١٠) ان ضرب الأحلاق أو الصناجات النحاسية بعضها ببعض هي اشارة عسكرية عند الاغريق أحياناً، في حين انها عند الرومان اشارة يدعو بها المصارعون للنزال (شيشرون: الخطابة ٣) كما تستخدم الحلقات في المحاكم لدعوة المتقاضين.

عليه بالنفي فخوفاً من هذا عمد الى الابتعاد عن شؤون الدولة ولم يتدخل في شيء. لكنه برهن على شجاعةٍ وبسالةٍ في خدمته العسكرية. وبموت [اريستيدس] وطرد [تمستوكليس]، وانشغال [سيمون] بالحملات العسكرية التي قادها الى أجزاءٍ من بلاد الأغريق وقضائه معظم أوقاته خارجاً، تقدم [بيركليس] بعد طول تفكير ليأخذ مكانه، لا الى جانب الأغنياء والأقلية، بل الى جانب المعدمين والأكثرية، خلافاً لميله الطبيعي البعيد جداً عن الديمقراطية، وأغلب الاحتمالات انه خشي أن يشك في أنه يطمح الى السلطة المستبدّة، كذلك لأن [كيمون] كان يؤيد الحزب الارستقراطي، والمبرزون ورجال الطبقة العليا متعلقون به شديدو الحب له. فلم ير بداً من الانتماء الى حزب العامّة يحدوه في الوقت نفسه غرضان: ان يحصنّ نفسه من أي سوء، وأن يضع يده على الوسائل الفعّالة لمناجزة خصمه [سيمون].

ما أن استقرّ رأيه على هذا حتى أتخذ أسلوباً جديداً في حياته، وبدّل من عاداته، وأعاد تنظيم أوقاته. فلم يُر بعدها سائراً في شارع غير الشارع المؤدي الى ساحة السوق وقاعة مجلس الشورى، وأجتنب دعوات الخلان الى ولائم العشاء، وانقطع عن زيارة الاصدقاء، وأنهى كل علاقة له من هذا القبيل وتفرغ للجمهور تفرغاً تاماً ولم يكن هذا كله بالجهد القليل. ولم يسمع عنه بعدها انه قصد صاحباً له لتناول العشاء إلاّ مرة واحدة، عندما تزوج قريبه [يوريبطليموس Euryptolemus] إذ بقي في الحفل حتى تمام مراسيم تقدمة الخمر، وبعدها أسرع بالنهوض وترك المائدة عائداً الى بيته(١١).

كان يدرك إن هذه اللقاءات الوديّة من شأنها ان تزيل الكلفة وتمحو عامل التفوق بسرعة شديدة. وفي العلاقات الصميمة الوثيقة يصعب جداً الاحتفاظ بمظاهر الوقار والرزانة، ويزداد التصرف على التمايز الحقيقي عندما يكشف صاحبه عنه كشفاً جلياً، وفي أخيار الرجال الحقيقين لا شيء منهم يستأهل أعجاب مراقبي السلوك الظاهري، مثل حياة أقرب اصدقائهم الاعتيادية اليومية.

وعلى كلٍ، ولأجل أن يجتنب [بيركليس] اي شعور بالابتذال، أو تكوّن اشباعٍ في الجمهور من رؤيته، لم يكن يظهر في المجتمع كثيراً، ولا يتكلّم في كلّ شأن، ولا يحضر جلسات الجمعية العامة دائماً. بل كان على حدّ قول [قريطولاوس Critolaus] يدّخر نفسه للمناسبات الكبرى، مثل سفينة سلاميس(١٢)، ويصرف الأمور الثانوية عن طريق أصدقائه، أو يدفع

(١١) أعني حتى جيء بالخمر لمجلس الطرب والشرب. وبُديء بتعاطي الرّاح.

(١٢) الى جانب تلك المهام الكبرى الخاصّة التي تستخدم لها سفينة (سلاميس) فهي ترسل لنقل الجنرال الذي يريد الآثينيون منه تقديم حساب. واما كريتولاوس المشاء فقد كان موفداً من قبل مجلس شيوخ روما في ١٥٥ ق.م مع ديوغينس الرواقي، وكاريناد‌س الاكاديمي.

متكلمين آخرين بتوجيه منه، ومن هؤلاء الأنصار [أفيالطس Ephialtes] الذي قضى على سلطة المجلس الاريوباغي، وسقا الشعب جرعة من الحرية كبيرة وقوية جداً - على حَدّ تعبير افلاطون[13]، بحيث أصبح صعب القياد، متمرداً على كل نظام، أو على حد قول الشعراء الساخرين - كالحصان الجموح -...

«الذي لم يعد فيه الصبر على

اطاعة اللجام تراه يعضّ في ايوثيا، يطأ الجزر»

وأخذ أسلوب حديثه المتسق تمام اتساق مع السبيل الذي سلكه في الحياة ورزانة آرائه. عن نغمات تلك الآلة التي منحها له اناكساغوراس. وأما بخصوص تثقيف نفسه فقد أستمر في الإفادة وتقوية ألوان بلاغته الخطابية من صيغة علم الطبيعة، ففضلاً عن نبوغه العظيم بالسليقة، توصل كما قال أفلاطون الآلهي[14] الى الإفادة من الطبيعيات: فبلغ تفوقه العقلي هذا وقدرته الواسعة في استيعاب كل العلوم ثم أخذه بكل ما هو مفيد له من فن الكلام ما جعله يرتفع على الأقران بمسافة شاسعة. وقيل أنه ما لُقبّ بالاولمبي إلاّ لهذا السبب. إلاّ أن بعضهم يقول أن اللقب جاءه بسبب تزيينه المدينة بكثير من المباني العامّة. ويرى آخرون أنه سُميّ بذلك لما أظهره من كفاءة في تصريف شؤون الدولة، سواء في السلم أو في الحرب. ولا يستبعد أن تكون التسمية نتيجة اجتماع عدة مآثر وخصالٍ في شخصه. ومهما يكن، ففي الكوميديات التي ألفت آنذاك، كلمات متطايرة تعرّض به تعريضاً حاداً إمّا بقصد قدحه والنيل منه واما على سبيل الفكاهة والنكتة المحضة. ومنها يظهر أن تسميته هذه جاءت من أسلوب كلامه، فهي تنوّه «برعوده وبروقه» عندما يقف خطيباً في الجماهير، وتشير الى «الصواعق المرعبة التي تتفجر من لسانه»[15].

يتناقل الكتاب حديثاً لثوكيديدس ابن ملسياس عن پيركليس قاله على سبيل التندر في براعة لسانه. وكان ثوكيديدس أحد المواطنين السراة البارزين، ومن أشدّ خصوم پيركليس، وعندما سأله [ارخيداموس] ملك اللقيديمونيين أيهما أظهر في المصارعة؟ هو أم پيركليس؟ أجابه قائلاً: «عندما أرفعه وأطرحه على الأرض بمسكةٍ تتفق مع الأصول، يغلبني باصراره على أنه لم يسقط، ويحمل المتفرجين على تصديقه وتكذيب أعينهم». والواقع هو أن پيركليس كان شديد الحذر فيما يتكلم وكيف يتكلم. وبلغ به الأمر أنه كان يبتهل للآلهة كلما

(١٣) افلاطون [الجمهورية: ٨].

(١٤) فيدروس: افلاطون.

(١٥) ارسطوفانس: الآخارنانيوس.

صعد منبراً[(١٦)] بالاّ تدع لسانه يزّل بكلمة واحدة غير مناسبة للمقام ولا للموضوع.

ولم يترك أثراً مخطوطاً عند موته، إلاّ بعض المراسيم والبيانات ولم يسجلّ التاريخ من أقواله إلاّ النزر اليسير. كقوله مثلاً «يجب أن ترفع [ايجينا] من [پيريوس] كما يزال القذى من العين.» وقوله: إنه رأى الحرب وهي تزحف في طريقها نحوهم من البيلپونيوس. ومرة عندما كان [سوفوكليس Sophocles] مندوباً مفوضاً يزامله في القيادة وكان يصعد معه ظهر سفينة، أخذ يطري جمال فتىً التقيا به وهما في طريقهما الى السفينة فقال له پيركليس: «ياسوفوكلس! لا يكفي أن تكون يدا الجنرال نظيفتين، بل عيناه أيضاً».

ويحدثنا [ستيسمبروتوس] أنه قال في أثناء تأبينه أولئك الذين سقطوا صرعى المعركة في [ساموس][(*)]:

أنهم كالآلهة اصبحوا من الخالدين «فنحن لانرى الآلهة بالعين المجردة، بل نعزو اليها الخلود بالعبادة التي نقدمها لها وبالنعم التي تسبغها علينا، وهو الوصف نفسه ينطبق أيضاً على أولئك الذين يموتون في سبيل وطنهم».

كان ثوكيديدس[(١٧)] يصف حكم پيركليس بالحكم الارستقراطي المتستّر باسم الديمقراطية، وهو في الواقع سيادة فرد أوحدٍ عظيم، المقام ويقول كثيرون بعكس ذلك، ويذكرون ان عموم الشعب شجع بفضله وأقدم لأول مرة على الاستيلاء على أراضي الآخرين الممنوحة اقطاعاً لهم وعلى غيرها من الشرور، كاباحة ارتيادهم الملاعب والمسارح، ودفع مخصصات لهم عند أداء واجبٍ عامٍ فبهذه التدابير السيئة وبتأثير من سياسة العامة انقلب الشعب من ذلك الجدّي الحريص الدؤوب عن كسب رزقه من كدحه، الى شعبٍ محبٍّ للترف واللهو والخلاعة. وبين هذين الرأيين في حكم پيركليس لا مناص لنا من جلاء السبب في هذا التغيير على ضوء الحقائق المادية[(**)].

بالأول: قالوا أنه استمال قلوب الشعب لما قرّر منازلة كيمون ومزاحمته على سلطانه الكبير. اذ وجد نفسه أقل ثراء ومالاً من خصمه الذي أفاد من سعة ثروته برعاية الفقراء والحدب عليهم، فكان يدعو الى مائدة عشائه ليلياً، مواطناً أو أثنين من المحتاجين، وكان

(١٦) يقول كوينتليان انه يدعو بأن لا تخرج كلمة واحدة غير حسنة لأذان المتستمعين. وهذا أقرب الى منطق لأن [سويداس] يذكر ان پيركلس كان يكتب خطبه قبل القائها على الجمهور. وهو أول من عمد الى ذلك من الخطباء.

(*) ٤٤٠-٤٣٩ ق.م.

(١٧) المرجع السالف ٦٥٢، ٩ في تقريظه لپيركلس.

(**) دستور اثينا ٢٧ : ٤.

يكسو العجزة ثياباً، ويهدم جدران بساتينه واسيجتها، ليجني الثمار منها كل من يريد ويقدر ما يشاء، وبهذا حقق الغلبة على پيركليس بهذه الأساليب الجذّابة لقوى الشعب. لكن پيركليس أخذ بنصيحة شخص يُدعى [ديمونيدس Demonides] (١٨) الأويائي على ما ذكر [ارسطو]، فعمد الى توزيع النقود العامة؛ مشترياً الجماهير بوقت قصير. فقد خصص المال للملاعب وفرض أجوراً لخدمات القضاء(١٩)، وغير ذلك من أشكال المنح والهبات، أستخدمها سلاحاً ضد المجلس الاريوباغي للحدّ من سلطانه. ولم يكن هو عضواً فيه، إذ لم يجر تعيينه بالاقتراع في منصب يؤهله للعضوية، كأرخون بسيط، إو ارخون پوليمارخ فمنذ قديم الزمان وأرخون Thesmothetes أو ارخون Basileus او ارخون بوليمارخ هي من الوظائف الانتخابية. ومن تنتهي وظيفته فيها يغدو عضواً من المجلس الاريوباغي. فبعد أن ثبت پيركليس قدمه وأمن جانب جماهير الشعب وجه مجهودات حزبه ضدّ هذا المجلس وحقق نجاحاً باهراً، بأن سحب منه حق النظر في معظم الدعاوى والنزاعات القضائية التي كان من صلاحيته اجراء المرافعات فيها، وتم ذلك بمسعى [افيالتس] ومجهوداته. وعمل على إبعاد [كيمون] أيضاً باعتباره موالياً للقيديمونيين، وعدواً للشعب(٢٠). وكان المواطن الأول من حيث النسب والمال، وفاز بانتصارات باهرة على البرابرة، وملأ المدينة بالأموال وغنائم الحرب؛ على ما دوّن في تاريخ حياته.

حقاً كان نفوذ پيركليس عند الشعب عظيماً هائلاً.

لقد حدد القانون مدة النفي بعشر سنين. لكن [كيمون] عاد من منفاه قبل انتهاء المدة(*) - والسبب في ذلك ان اللقيديمونيين دخلوا حدود [تناغرا](٢١) بجيش لجب فنهضت اثينا لحربهم، فأنضم كيمون الى معسكر قومه وتقلد سلاحه وانتظم في صفوف قبيلته، يريد بذلك ازالة الشكّ في موالاته للقيديمونيين. مقدماً برهاناً في المغامرة بحياته الى جانب بني قومه.

(١٨) هي مقاطعة في آتيكا. أو ربما قصد بها احدى الجزر المسماة سپورادس Sporades في بحر ايجه. أشتهرت بوجود قبر هوميروس فيها.

(١٩) هناك انواع عديدة من المحاكم في آثينا. وتؤلف من عدد معين من المواطنين ويصرف لكل مواطن (أُوبول) واحد من الخزانة عن كلّ قضية ينظر فيها. ويحاول بعض الاشخاص ان يكسبوا شعبية وشهرة فيحاولون المطالبة برفع هذا الأجر.

(٢٠) الخيانة العظمى التي نسبت اليه هي انه قبل هدايا ورشاوى أخرى في المقدونيين مما جعلته يتخلى عن الاستمرار في فتوحاته بعد أن وضع يده على مناجم الذهب في (تراقيا) وكان جواب (كيمون) انه وسع رقعة الحرب الى أقصى حدّ ممكن ضد التراقيين والاعداء الآخرين أما عدم توغلّه في مقدونيا فذاك يرجع انه لا يريد ان يكون عدواً وخصماً للبشرية كلها. وقد تم ابعاد كيمون في ٤٦١ ق.م.

(*) أي في سنة ٤٥٧ ق.م.

(٢١) في بويوتيا ما بين اسمينوس واسوبوس.

إلا أن اتباع پيركليس تكالبوا عليه وأرغموه على الانسحاب من الحرب لأنه محكوم بالنفي. والظاهر ان پيركليس بذل في هذه الحرب مجهوداً يفوق ما بذله في أية حربٍ. وانه عرض نفسه للخطر بنوعٍ خاص. كذلك أبلى أصدقاء [كيمون] فيها خير بلاءٍ هؤلاء الذين أتهمهم پيركليس مع صاحبهم بممالأة اللقيديمونيين[٢٢]. وهزم الآثينيون في الحرب وطوردوا حتى حدودهم، وكانوا، بتوقعهم هجوماً جديداً كاسحاً في أوائل الربيع القادم - يشعرون بالأسف والأسى على خسارة [كيمون] وبالندم لطرده. وكان پيركليس أشدّ احساساً من غيره بما يخالجهم من هذه المشاعر، فلم يتردد ولم يتوان في انالتهم يتفاهم وتقدم باقتراح يقضي بالسماح لـ[كيمون] بالعودة الى الوطن. فتم له ذلك. وعند عودته قام بعقد صلح بين المدينتين[٢٣]، مستفيداً من منزلته الكبيرة عند اللقيديمونيين وحبهم له بقدر كرههم پيركليس وغيره من الزعماء الشعبيين.

على أن فريقاً من الكتاب يزعم ان پيركليس لم يقترح عودة [كيمون] إلاّ بعد أن عقد معه اتفاقاً يتضمن شروطاً سرية خاصة وكان الوسيط بينهما [الپينيكي Elpinice] أخت [كيمون]، وتقضى الشرط أن يعيّن [كيمون] قائداً عاماً لأسطول تبلغ عدته مائتي سفينة، يقوده للاستيلاء على ممتلكات ملك الفرس، وأن يتفرد پيركليس بالحكم في المدينة.

ويظنّ ان [الپينيس] هذه، كانت قد حققت لأخيها كيمون منّة على يد [پيركليس]، إذ أقنعته بأن لا يشتد في تعقيب التهمة على كيمون وان يترفق به عندما حوكم بتهمة الخيانة العظمى[٢٤]، وكان هو عضواً في لجنة الاتهام التي عينها مجلس العموم. اذ جاءته [الپينيس] راجية في امرِ أخيها فأجابها مبتسماً «انك يا الپينيكي قد بلغت من الشيخوخة مبلغاً لا يسمح لك بمعالجة مثل هذه الأمور» لكن لما حضر الجلسة المخصصة لشرح التهمة والادعاء عليه بها. وقف للكلام مرة واحدة فقط، ليقدم استقالته من العضوية ثم خرج حالاً من قاعة المحكمة، وبهذا كان أقلّ متهمي كيمون تحاملاً عليه، وضرراً به.

فكيف بجوز لنا أن نصدق [ايدومينيس Jdomenes][٢٥] الذي يتهم پيركليس بما يفهم منه أنه الذي دبرّ مقتل السياسي الجماهيري المحبوب [أفيالطس] غيلةً وغدراً؟ وهو صديقه الحميم وأحد اركان حزبه طوال حياته السياسية، بدافع الحسد بله غيرةً من سمعته الداوية؟

---

(٢٢) كانوا يبلغون المائة عَدّاً كما سنرى في سيرة [كيمون].

(٢٣) في العام ٤٥٠ ق.م.

(٢٤) مع هذا فقد حُكم على [كيمون] بغرامة قدرها خمسون تالنت (٢٠٠٠٠ پاون سترليني تقريباً) ولم ينج من حكم الموت الاّ بعد اللتيا والتي. اذ انقذ أغلبية ثلاثة أصوات فحسب!

(٢٥) مسقط رأسه لامبساكُس. وهو تلميذ ابيقور. كتب تاريخاً حول اتباع سقراط وتلاميذه.

لأدري من اين نبش هذا المؤرخ، تلك القصص. قاصداً تلويث اسم رجلٍ لم يسلم في الواقع من الاخطاء واللوم، إلاّ انه ذو نفس نبيلة، وشخصيّة متمسكة باهداب الشرف، وهي سجايا لايمكن أن تفسح للقسوة والوحشية موضعاً أو سبيلاً اليها. واما حقيقة حكاية [إفيالطس] فهي كما أوردها ارسطو على النحو الآتي(*): اصبح افيالطس غولاً مرعباً لحزب الاقلية بسبب دفاعه عن حقوق الشعب دفاعاً لايعرف المهادنة ولا المساومة، وبمحاسبته المجرمين بحق الشعب ودوام اتهامه لهم. فضاقوا به ذرعاً وهم على كل حال اعداؤه - فكمنوا له وأغتالوه سراً بتوجيه ارسطوديكوس Aristodicus التناغرْي.

وانتهت أيام كيمون في هذه الدنيا وهو قائد الأسطول في قبرص[٢٦].

ووجد الحزب الارستوقراطي تعاظم سلطان بيركليس في المدينة وبروز شخصه على الجميع، فأدركت الحاجة الي شخص يوضع في مقابلته، لثلم حدّ سلطانه وفلّ غراب تفوقه لئلا يؤول به الى الحكم الفردي المطلق، فرشحّ [ثوكيديدس] الألوبيكه Alopece وهو شخص حكيم عاقل من أقرب اقرباء كيمون - ليقود المعارضة ضدّ بيركليس، ولم يكن ثوكيديدس يطاول (كيمون) في الفنون العسكرية، إلاّ أنه كان يفوقه في تملك ناصية البيان، والسياسة وبدوام لبثه في المدينة ودخوله مع خصمه في معارك خطابية انتخابية تمكن بوقت قصير من ايجاد توازن حزبي في عالم الحكومة. فقد أبى أن يبقى أولئك الذين يتسمون بصفة الأمانة والصّلاح (البارزون وذوو السمعة) على أسوأ حالٍ من التفرق هنا وهماك، ضائعون بين عامّة الناس لا أثر لهم، زاهدون في مكانتهم الرفيعة، معزولون مهملون في زوايا الخمول؛ عمد [ثوكيديدس] الى انتشالهم من وهدتهم واحداً واحداً وجمع كلمتهم ووحدهم، وتمكن بثقلهم من تحقيق التوازن المنشود مع الحزب الآخر كما في كفتي الميزان. والواقع أنه كان يوجد من البداية ما يشبه الصدع أو الشقّ الخفيّ، كما في قطعة حديد، يقوم حداً فاصلاً بين النوازع الشعبية والنوازع الارستقراطية. إلاّ ان التناحر المكشوف والمنافسة بين هذين الخصمين زاد في الصدع عمقاً، وقسم المدينة الى حزبين: حزب الشعب وحزب الأقلية. لذلك عمد بيركليس في هذا الوقت بالذات الى اطلاق العنان للشعب أكثر من أي وقت مضى وجعل سياسته خادمة لاهوائه وصار يبذل الجهود المستمرة لارضائه باقامة مهرجانات عامة أو أحتفالات دينية أو ولائم أو مواكب وغير ذلك، تحرّياً لأدخال المسرة والبهجة في حياته، مثلما يستمال الأطفال بالالعاب والملاهي، التي لا شأن لها برفع مستواهم الثقافي وتهذيبهم، وتمادى في التودد الى الشعب بأن عمد كل

(*) ارسطو: دستور أثينا ٢٥:٤.

(٢٦) في حصار كيتيوم ٤٤٩ ق.م.

سنة الى ارسال ستين سفينة الى البحر مشحونة بالمواطنين الذين تدفع لهم الدولة أجر ثمانية أشهر ليتعلموا فنون الملاحة ويتدربوا على خدمة السفن. وبعث بألف مواطن الى جزر [الخيرسونيز](٢٧) لأعمار الأرض وزراعتها بتوزيع اراضيها عليهم بالقرعة. وأرسل خمسمائة الى جزيرة [نكسوس]، ونصف هذا العدد الى [آندروس]، والفاً الى [تراكيا] ليشاطروا قوم البيزالتي Bisaltae العيش. وبعث بآخرين الى ايطاليا عندما تقرر اعادة تأهيل مدينة [سيپاريس Sybaris](٢٨) التي تسمى الآن [ثوري Thurii]. فعل ذلك لتخليص المدينة من العاطلين الذين يصيرون بسبب البطالة كتلة مزعجة من الفضوليين المتطفلين ويكون فيه أيضاً علاج لتشغيل فقراء المدينة وسدّ خلّتهم، كذلك تفيد هذه الجاليات في اخافة حلفائهم وصدهم عن محاولة الانتقاض أو اجراء اي تغيير، فهم بمثابة حاميات اثينية تعيش في وسطهم.

إن تشييده المباني العامة والمعابد والهياكل، هو الذي أعطى آثينا رواءها وجمالها وجعلها محطّ اعجاب الأجانب ودهشتهم، وها هي الآن الشاهد الوحيد الأغريقي، بأن السلطان الذي فخرت به، والغنى السالف الذي كانت ترفل فيه لم يكن حديث خرافة ولا ضرباً من الخيال. مع هذا فان أعماله الانشائية هذه كانت دون سائر أعماله الأخرى في الحكومة، مطعناً أتخذه أعداؤه للنيل منه، وراحوا يستنكرون باعتراضاتهم التافهة في المجالس والاجتماعات العامة بقولهم: أنظروا كيف فقدت جمهورية آثينا سمعتها في الخارج وآضت هدفاً للنقد والتجريح، لنقلها خزينة دول اليونان العامة من جزيرة [ديلوس](٢٩) الى مدينتها وأطلقت يدها فيها تغترف ما تشاء، وكيف أن حجتهم بنقلها خوفاً من استيلاء البرابرة عليها ولغرض وضعها في حرز حريز، فقدت قوتها ونُسفت نسفاً باعمال پيركليس. وكيف أن «بلاد الأغريق لها كل الحقّ في أن تسخط وتستنكر هذا العمل وتعتبره أهانة غير محتملة، وتعد نفسها ضحية تحكّم وطغيان عندما ترى أموال الخزينة التي شاركت في جمعها بدافع الضرورة الملجئة لسدّ نفقات الحرب. تبذرّ تبذيراً وتصرف بشكل لا مبرر له على طلاء مدينتنا وتجميلها وتزيينها بالتماثيل والمعابد التي كلفت ألف تالنت(٣٠) كالمرأة المزهوة بنفسها حين أثقلت بالجواهر».

وقال پيركليس للشعب رداً على هذا – أن الآثينيين غير مضطرين أبداً الى تقديم اي

(٢٧) في العام ٤٤٧ ق.م.

(٢٨) في العام ٤٤٤ ق.م. هذه المدينة كانت قد دمرت ثلاث مرات آخرها في العام ٥١٠ ق.م. ولم يعد پيركلس بناءها فوق ارضها وانما اقامها في أرض مجاورة.

(٢٩) المساهمة السنوية النقدية للدويلات الأغريقية في الحرب المقدونية، كانت تودع مع المبالغ الأخرى في معبد ابوللو بـ(ديلوس) وتكون بعهدة امناء يعيّنهم جمهور الأغريق. فقام پيركلس دون اي مبرر بنقلها عنوةً الى آثينا وانفقها في اقامة البنايات العامة لتجميل المدينة.

(٣٠) قيل ان [الپارثنون] أو معبد [منيرڤا العذراء] كلف هذا المقدار [انظر الملحق].

حساب ٍعن هذه الأموال لحلفائهم، ما دامت آثينا قد تكلفت بالدفاع عنهم وبواقفها للبرابرة بالمرصاد لحمايتهم، في حين لا يقدم هؤلاء الحلفاء حصاناً واحداً أو رجلاً أو سفينة؛ وانما يساهمون بالمال فحسب في المجهود الحربي «هذا المال الذي يخرج من ملك معطيه الى مُلك متسلّمه، عندما يقوم هذا المتسلم بانجاز الشروط المترتبة عليه». ثم زاد على ذلك بقوله، أن المدينة بعد أن أستعدت تمام استعداد لكلّ طاريء، واختزنت كل ما هو ضروري للحرب، لها كل الحق والمبررات في انفاق ما فاض من مالها هذا، على المشروعات التي ستضفي بعد اكمالها شرفاً خالداً عليهم، وستمدّهم أثناء القيام بها بموارد رزقٍ عظيمة . وبما أن ذلك يتطلب صناعات مختلفة وأعمالاً كثيرة فقد اقتضى تحشيد كل أرباب المهن والحرف اليدوية الماهرة وتوزيعها على المشاريع. وبذلك غدا الجمهور كله شغيلة حكوميين تدفع أجورهم من أموال الدولة، فضلاً عن تجميل مدينتهم وإصلاحهما بسواعدهم. كان الرجال الذين أهلتهم قواهم وأعمارهم للخدمة العسكرية يعيشون في الثكنات العسكرية خارج الوطن بما تدفع له الدولة من رواتب، وكان من خطة پيركليس وتدبيره أن لايبقى الجماهير الكادحة وذوو الحرف الدقيقة الذين لايخضعون لنظام، مستثنين عن غيرهم محرومين من الأموال العامة، كما لا يمكن أن تصرف لهم أجور ورواتب من غير عوض أو مجهود يبذلونه، لذلك ارتائ بعد موافقة الشعب أن يقوم بهذه المشاريع الضخمة وخطط أسلوب العمل بحيث انها تحافظ على استمرارية العمل حتى يتم انجازها دون فترة عطالة. وبذلك تمنح فرصةٌ لمزاولة مختلف الفنون والحرف فلا يحرم اي فرد بقي في الوطن من سهم طيّب عادلٍ في الأموال العامة لايقلّ عن أسهم أولئك الذين يعملون في البحر أو في حاميات الخارج، أو في حملات عسكرية.

وكانت المواد الانشائية التي استخدمت، الحجر، والنحاس، والعاج، والذهب والأبنوس، وخشب الأرز. واما ارباب الصناعات والحرف التي أقتضى مزاولتها في هذه المواد منهم الحدادون والنجارون، والصهّارون واللحامون والصبّابون وقاطعو الحجر، والصباغون والصاغة وصناع العاج والطلاؤن، والمطرزون، والخزّافون. ثم أولئك الذين نقلوا تلك المواد الى المدينة؛ التجار، والملاحون، وربابنة السفن في البحر، وسائقو العجلات، ومربو المواشي، وصانعو العربات وصانعو الحبال، ونساجو الكتّان والأسكافيون، والدباغون، ومعبدّو الطرق وعمال المناجم. وكما يقوم الرئيس في الجيش على رأس كل سريّة من الجنود، فكلّ صناعة كان لديها سريتها الأجيرة من أعمالها الدائميين المهرة وشغيلتها. يجرى ضمهم معاً كما في خطّ قتالٍ، لتكون الآلة والجسم في انجاز الأعمال. وهكذا توزعت الفرص والخدمات في هذه المشاريع العامة بصورة واسعة ضخمة على كل عمرٍ وحالةٍ.

وبرز العمل للعيان، لا تقلّ روعة حجمهُ عم جمال شكله الصناع يبذلون جهدهم ليفوقوا على المواد والتصميم بجمال صناعتهم، على ان أعجب شيء هو سرعتهم في انجاز العمل.

ظنوا أن كل مشروع منفرد يتطلب لانجازه سلسلة متعاقبة من الرجال ذوي اعمار مختلفة، كل منهم يجب أن يكون ضليعاً في مهنته في ذروة خدمه وعنفوان مهارته. وقالوا أيضاً أن [زيوكسيس Zeuxis] سمع مرة الرسّام [اغاثارخوس Agatharchus] يتبجح بانجاز عمل من أعماله بسرعة وسهولة، فقال معقباً «أما انا فيلزمني وقت طويل» لأن السهولة والسرعة قد لا يورث العمل المنجز قوة دائمة ودقة في الجمال. إن قوة الحيوية وقابلية البقاء في عمل ثمّ، لهو خير مكافأة وتعويض عن الزمن الطويل الذي انفق فيه. ولذلك كان الاعجاب بآثار پيركليس شديداً بصورة خاصّة، فقد تمت بوقت قصير، لتبقى زمناً طويلاً وعد كل قطعة منها تحفة أثرية ساعة انجازها لجمالها ورونقها مع انها بدت وكأنها مصنوعة في تلك اللحظة بالذات لجدتها واتقانها. هناك نوعٌ من الرواء والجدة في آثاره، تحفظها من عوادي الزمان، كأن حيوية خالدة وروحاً آبدة تقمصتها أثناء عملها.

وأشرف [فيدياس] علي كل الأعمال وكان المهندس العام. على انه استخدم اساتذه عظاماً وصناعاً حاذقين في مجالات واقسام مختلفة، فبنى [قلليقراطس Callicrates] و[اقتينس Gctinus]، صرح[٣١] البارثنون الذي هو بهيئة مربع طول ضلعه مائة قدم، وبدأ [كوريبوس Coroebus] ببناء الهيكل في [اليوسيس Eleusis] حيث يقام الاحتفال بالأسرار، ونصب الأعمدة على الأرضية أو الممشى ثم ربطها معاً بالعوارض العليا. وبعد موته أضاف [ميتاجينس Metagenes] الإكسپيتي Xyptte، الأفريز، ورصف الأعمدة العليا. وسقّف [كسرينوكليس Xenocles] الخولارغوسي عقادة المشكاة فوق معبد [كاستور وپوللكس]، وقام قلليقراطس ببناء الحائط الطويل[٣٢] الذي قال عنه سقراط[*]: أنه سمع پيركليس بأذنه يقترح على الجمهور اقامته، وقد سخر [كراتينوس] بهذا الأثر لطوله عند أكماله قائلاً.

كدّس الخطيب الحجارة فوق الحجارة
بكلمات منقوضة إلاّ أن الكلمات لا تبنى جداراً.

---

(٣١) بني هذا المعبد داخل اسوار القلعة وأطلق عليه اسم هيكاتومپيدوم لأن طول ضلعة ناهز بالأصل مائة قدم وبعد أن أحرقه الفرس اعاد پيركلس بناءه وقد أحتفظ باسمه وان وسع مساحته كثيراً. ما زال هذا المعبد قائماً حتى يومنا هذا وهو قبلة السيّاح.

(٣٢) طول الجدار خمسة اميال. وسمكه من الأعلى يتسع لمسيرة عربتين معاً. وهو يصل پريوس بالمدينة.

(*) افلاطون (غورغياس).

وأمّا الأوديوم Odeum أو قاعة الموسيقى، التى ملئت من الداخل بالمقاعد وصفوف من الأعمدة، والذي جعل سقفها من الخارج يبدأ من القمة منحدراً الى الجانبين فقد قيل لنا أنه بني تقليداً لفسطاط ملك الفرس(٣٣). وكان ذلك بأمرٍ من پيركليس أيضاً. فجعله منه [كراتينوس] مناسبة للتعريض والسخر، في مهزلته المسماة «النساء التراكيّات» اذ قال:

ها هو رأس جوبتر البصلي قادم. انه الاديوم الجديد الشبيه بقبعة فوق هامته، بعد ان زال عنه خطر النفى الى الأبد.

وكان پيركليس مغرماً بالبروز أيضا، فحصل على مرسومٍ يقضي بانشاء مباراة في الموسيقى يقام سنوياً في الپاناثينيا Panathenaea، وأختير هو حكماً، فنظم الطرائق والقواعد التي يلتزم بها المتبارون في غنائهم أو عزفهم على القيثار أو الناي وكان الحاضرون في تلك المناسبة أو غيرها فيما بعد يجلسون في قاعة الموسيقي هذه ليروا ويسمعوا تجارب في الحذق والبراعة.وتمّ عمل الپروپيليا Propylaea أو مداخل [الاكرپولس] في خمس سنين وكان [منسيكلس Mnesicles] المهندس الرئيس لها. وقد وقعت اثناء بنائها حادثة غريبة، أظهرت ان الربّه كانت راضية عن العمل. تتعاون وتساعد في انجازه على الوجه الأكمل. زلت قدم أحد الصناع، وكان انشطهم وأحذقهم فسقط من ارتفاع كبير وغدا في حالة خطرة وقطع الاطباء الأمل في شفائه. وفيما كان پيركليس مهوماً قلقاً عليه أذ ظهرت له [منيرڤا] ليلاً في الحلم وشرحت له أسلوباً في علاجه(٣٤)، فطبّقه وشفي الرجل بوقت قصير وبسهولة. وتخليداً لهذه المناسبة أمر باقامة تمثال نحاسيّ [لمنيرڤا] لُقب «بالصحّة» في القلعة بالقرب من الهيكل، وقيل أنه كان هناك في الأيام السالفة. إلاّ ان [فيدياس] هو الذي صنع تمثال الربّة من الذهب، ونقش اسمه على قاعدته(٣٥). والواقع أن المشاريع كلها كانت تحت مسؤوليته الى حدّ ما وكان له كما قلنا صلاحية الاشراف على كلّ الفنانين والحرفيين العاملين، بسبب الصداقة التي تربطه بپيركليس. وقد جعله هذا المنصب موضع حسدٍ، وأدىّ الى صبّ الشتائم والأهانات على حاميه بصورة مخزية، وتأليف الحكايات عنه كقولهم أن [فيدياس] كان يتصيد النساء الحرات

---

(٣٣) في هذه البناية يعقد سوق القمح أيضاً وكل ما يمت اليه بصلة وقد أحرقه (سيلّلا) اثناء حصار (آثينا). فاعاد اريوبارزانوس ملك كبدوكيا بناءه.

(٣٤) للنبات المسمى Parthenium الذي هو من فصيلة اعشاب الماتريكاريا - تاثير عجيب جداً على الاضطرابات العصبية. (پليني: التاريخ الطبيعي ٧:٢٢) يورد قصّة هذا الشفاء العجيب ويشتق اسم النبات من علاقته بالربّة العذراء وينوه ايضاً بتمثال هذا العبد الذي أمر پيركلس النحاتَ (ستيپاس) القبرصي بصنعه.

(٣٥) قيل ان التمثال كان من الذهب والعاج. ولپاوسنياس (٢٤:١) وصف مفصل له.

اللاتي يأتين لمشاهدة العمل، لحساب لذة بيركليس. وعندما وصلت هذه الحكايات كتاب المدينة الهزليين، راحوا يتفننون في اذاعتها والتعليق عليها، ولوّثوا سمعته بكل ما توصلت اليه قريحتهم من بذيء القول. واتهموهُ زوراً بعلاقة مع زوج [مينيپوس] وهو صديق له عمل معه في الحروب مساعداً وضابط ركن. كذلك زعموا أن صديقاً آخر له اسمه [پيريلامپس Py-rilampes] يربي طيوراً، كان يهدي طواويس لخليلات پيركليس(٣٦). وكيف يعجب المرء كأيّ عددٍ المزاعم الغريبة التي يطلقها أناس عاشوا حياتهم كلّها على السخر والتفكهة، وكانوا على أستعداد في اي وقت لتضحية سمعة رؤوسائهم على مذبح الحسد المتبذل والاضطغان. كأنما لروح ما شريرة.

تجرأ حتّى [ستسيبمروتوس التراكي] على أن يتهم پيركليس بأشنع تهمة وأكثرها خيالاً زاعماً بوجود علاقة آثمة له مع زوج ابنه. من الصعوبة بمكان تتبع الحقيقة وأستخلاصها من التاريخ عندما يجد أولئك الكتاب المتأخرون فترات طويلة من الزمن تقف عثرة في سبيل وجهات نظرهم، وعندما تجد المدونات المعاصرة لكل سيرة أو حدثٍ مشوّهة الحقيقة، ممسوخة، إمّا مداهنة وتملقاً، وإمّا حسداً وسوء نية.

عندما راح الخطباء المنحازون الى ثوكيديدس وحزبه ينادون كما كانت عادتهم منددين بپيركليس لتبذيره الأموال العامة، وايقاعه الخلل في عائدات الدولة، نهض في الجمعية العمومية وطرح القضية امام الشعب: هل أنه أنفق كثيراً؟ فأجابوا: «كثير جداً، كثير جداً» وعند ذلك قال: «اذن ما دام الأمر كذلك، فلترفع النفقات كلهاعن عاتقكم ولتقيد على حسابي على أن يسجلّ أسمي على جميع المباني المشيدة»(٣٧). وعندما سمعوا هذا، هتف له بصوت عالٍ: إمّا بدافع دهشتهم من عظمة نفسه أو حرصاً على مجد هذه الآثار، وطلبوا منه انفاق المزيد والاستمرار في عمله هذا بالشكل الذي يراه مناسباً وأن لا يألوا في ذلك جهداً أو مالاً حتى ينجزها.

وبالأخير بلغ النزاع بينه وبين ثوكيديدس مرحلته النهاية، وآل الأمر الى التساؤل من منهما سيفلح في نفي الآخر من البلاد، فخاض پيركليس غمار هذه المعركة الحافلة بالخطر، وقذف بخصمه الى الخارج، وقضى قضاءً تاماً على الحلف الذي نُظم ضده.

---

(٣٦) هذه الحيوانات كانت وقتذاك نادرة وغالية الثمن جداً.

(٣٧) من عبارة اوردها (ثوكيديدس) يبدو ان الخزينة الآثينية العامة كانت تقوّم في ذلك الحين بتسعة آلاف وسبعمائة تالنت (اي ما يعادل اربعة ملايين پاون سترليني) صرف منها پيركلس على اقامة البنايات العامة أكثر من الثلث ولذلك كان من الطبيعي ان يفتح تحقيق بكيفية الصرف.

وبذلك ازال الانقسام والتفرقة من المدينة ازالة تامة، ونعمت بعدها بالهدوء والوحدة. وحكمّ قبضته على كل آثينا، وكل الشؤون المتعلقة بالآثينيين، غراماتهم الحربية، جيوشهم، سفنهم، الجزر، البحار، سلطانهم الواسع الرقعة على الأغريق الآخرين وعلى البرابرة. وكلّ المستعمرات التي ملكوها، وحصونها في بلاد الشعوب الخاضعة لهم، أمّا بموجب معاهدات التحالف، أو بمقتض صداقتهم مع الملوك.

بعد كل هذا، لم يعد پيركليس شخص الأمس، لم يعد كما كان سابقاً مع الجماهير ذلك الرقيق اللين العريكة المحبوب المستعد حالاً للنزول عند رغباتهم وتلبية طلبا تهم من ضروب التسريات والترفيه، كقائد الدفّة يتحولّ مع الريح. ونبذ تلك الرعاية المتراخية، المنطلقة والتودد للشعب الذي وصل في بعض الحالات الى حد تخطيّ العرف والقانون. وأبدل اللهجة الانيقة اللينة الوقع، بصرامة الحكم الارستقراطي الملكيّ، مستخدماً اياه لمصالح البلاد العليا باستقامة ودون انحراف، فاستطاع بشكل عام أن يقود الجماهير ويسوسها دون ما ارغام بل برغبة منها وموافقة، عن طريق اقناعها بما يجب عمله. وارشادها الى كيفيته. وأحياناً كان يلح ويدفعها دفعاً الى حدّ التطرف خلافاً لارادتها. وجعلهم يخفضون جناحاً لكل ما فيه نفعهم شاؤوه أم أبوه. وكان يعمل ذلك والحق يقال ببراعة الطبيب النطاسي الذي يسمح لمريض بداء مزمن معقد، ويكبده في ظرف آخر آلاماً شديدة ويسقيه الأدوية لتحقيق شفائه.

نشأت وترعرعت طبعاً - مختلف مشاعر السخط بين الشعب الذي كان پيركليس يمارس عليه سيطرةً وضبطاً لا حدود لهما، فعرف ذلك السياسي العظيم كيف يعالج أمر كل فرد من أفراده ويعامله المعاملة الصحيحة. واستخدم سياسة الأمل والخوف استخداماً حاذقاً وجعلها كعصوي سكان الدفّة. يسبر بالعصا الأولى مسالك ثقتهم في أي وقت شاء، ويرفع بالعصا الثانية معنوياتهم ويشدّ من عزماتهم عند كُلّ نكسة أو خيبة. وأظهر بجلاء أن بلاغة اللسان، أو فن الكلام هو خير ضابط لأنفس الرجال (اذا استخدمنا لغة افلاطون) وان مهمته الرئيسه هي مخاطبة الشعور والعاطفة وهما أوتار الروح ومفاتيحها، تتطلب من يد الضارب عليها لمسات رشيقة حذرة. على أن قوة عارضته لم تكن وحدها مصدر سلطانه المطلق، بل وجد الى جانبها. السمعة التي كسبها في حياته، والثقة التي توحيها شخصيته وطهارة نفسه من اي شكل من أشكال الفساد، وتساميه على كل الاعتبارات المالية ومتاع الدنيا - كما يؤكد لنا ذلك ثوكيديدس. واذا ضربنا صفحاً عن جعله آثينا العظيمة بذاتها، مدينةً لا يسمو أي خيال في وصف غناها وعظمتها، ومع انه كان - بما مارسه من سلطة ونفوذ - أكثر من يدٍ مساوٍ للعديد من الملوك، والحكام المستبدين، الذين يورث طائفة منهم ملكهم لأولادهم، فهو من

جهته لم يزد في الميراث الذي تلّقاه عن والده درهماً واحداً.

زودّنا ثوكيديوس والحق يقال بكلمة صريحة، عن عظمة سلطانه وفيما تركه الشعراء الهزليون أكثر من أشارة اليه بأسلوبهم الجارح التعريضي، وهم يخلعون على اصحابه واتباعه اسم «اليسستراتوسيين الجدد» ويهيبون به أن يصرف النظر عن كل نية في سلوك طريق الاستبداد والتحكم، كأن ما بلغه من السؤدد والتفوق، لم يعد شخصه مناسباً للديمقراطية أو الحكم الشعبي، ولا بامكانه التجاوب معها. ويقول [تلقليدس](*) أن الآثينيين تنازلوا له...

«عن اتاوات المدن، ومعها المدن أيضاً، يحلّ ويربط كما يشاء وان يبني إن شاء - اسواراً حجرية حول مدينة ما. وان ينقض تلك الأسوار إن طاب له ذلك. وسلموا له معاهداتهم، وأحلافهم وسلطانهم ومستعمراتهم، وسِلمُهم وحربَهم وثرواتهم، وكل أسباب فلاحهم الدائم.»

ولم يكن هذا حظاً واتاه في صدفة من صدف الدهر السعيدة، ولا ثمرة نعمة مزدهرة لموسمٍ واحدٍ لا غير. لكنها حالة طويلة الأمد، بقي فيها اربعين سنة(**) وهو يحتّل أرفع مقامٍ بين رجال السياسة من أمثال افيالطس، وليوقراطس Locrates وميرونيدس Myronides وكيمون، وتولميدس Tolmides وثوكيديدس، كما استمرت بعد نفي ثوكيديدس واندحاره خمسة عشر عاماً أخرى ، مارس خلالها قيادة منفردة مستمرة غير منقطعة، اذ كان يعاد انتخابه جنرالاً كل سنة، وظلّ حريصاً على استقامة لم تصمها وأقل وصمة، على أنه لم يكن في غير شؤون الحكم مهملاً غير مبالٍ، فكان يرعى شؤونه المالية مثلاً. وقد ورث عقارات عن أبيه، فحرص على ان لا يلحقها الخراب، أو العيب بسبب الإهمال، وعلى ان لا تأخذ من اهتمامه وعنايته وقتاً لانصرافه الذي يكاد يكون تاماً الى شؤون الحكم. وأختار لادارتها أسلوباً كان في رأيه أسهل وأدّق ما وجد. فكان يبيع كل ما تنتجه من غلّة سنوية صفقة واحدة، ويموّن بيته بما يقتضي بشراء الحاجات العائلية من السوق ولذلك ضاق أولاده ذرعاً بأسلوب والدهم هذا عندما بلغوا أشدّهم، ولم يشذّ عنهم نسوة البيت فقد كان يقترّ عليهن، وشكون من تلك الادارة حيث كل شيء يتمّ حسابه من يوم الى يوم بمنتهى الدقة فلا ينقص شيء ولا يفضل شيء الى الغد، ولم تكن هذه بحالة أسرة سريّة بارزة. كل ما يخرج وكل ما يدخل، وكلّ ما يؤخذ وكل ما يعطى الكيل يجرى حسابه بالعدد والقياس وكان قد أوكلّ خادماً واحداً لادارة البيت اسمه [ايفانجلوس Evangelus] وهو رجل كان يتميز بذكاء

(*) من مسرحية لايُعرف لها اسم.

(**) ما بين ٤٦٩ و ٤٢٩ ق.م تقريباً.

مطبوع، أو كان يعمل وفق توجيهات پيركليس، فقد بلغ الغاية في فنّ الاقتصاد المنزلي.

ولم يكن في كل هذا ما ينسجم وفلسفة اناكساغوراس(٣٨)، إن كان صدقاً ما روي عن خروجه من منزله وتركه أرضه مرعى للأغنام وعيشته عيشة عامة الناس ودهمائهم اطاعة لإلهام رباني، أو لسموّ نفسٍ فيه، على أن حياة الفيلسوف المفكرّ وحياة السياسيّ النشيطة لا تتشابهان في رأيي. فأولهما يستخدم في مسائل العقل الخيّرة السامية، ذكاءه وعبقريته، وكلاهما لا يحتاج الى اداة أو مادة محسوسة، أما الثاني فإنه بتوجيه قابلياته العقليّة وطاقاته الى واقع الاستعمال البشري، قد تتاح لنفسه فرصة لتتدفق بالخير، لا بالضرورة، بل بدافع النُبل والصلاح لذلك نرى [پيركليس] يرفه عما لايحصيه عدّ من مواطنيه الفقراء.

ومهما يكن من أمر فثم حكاية تروى عن [اناكساغوراس] الذي خمل ذكره واختفى في زوايا النسيان بينما كانت أمور الدولة تستأثر بكلّ وقت پيركليس واهتمامه. بلغ هذا الفيلسوف مبلغ الشيخوخه، وعقد العزم على أن يكون موته بامتناعه عن الطعام. فبلغ ذلك پيركليس بمحض الصدفة. فأذهله الخبر وارعبه وأسرع اليه في الحال واستخدم كلّ حيلة ورجاء ومنطق ليثنيه عن عزمه، ولم يكن في ذلك محزوناً على حالة أناكساغوراس قدر ما كان أسفاً على نفسه، خوفَ أن يفقد ذلك الناصح الذي خبر قيمته وقدرها، وعندها نضا اناكسوغوراس ثوبه مظهراً جسمه عارياً وقال: «يا پيركليس، حتى أولئك الذين تدركهم الحاجة الى مصباح، فأنهم يزودونه بالزيت».

بدأ اللقيديمونيون يظهرون امارات القلق لتنامي قوة الآثينيين وعمد پيركليس من جهته، ليرفع معنويات الشعب، وينميّ في رؤوسهم فكرة إطلاب المجد بعظائم الأعمال، الى أقتراح يقضي بدعوة كل الأغريق اينما كانوا أفي اوروپا أو آسيا في كل مدينة صغيرة أكانت أم كبيرة، لإرسال مندوبين الى جمعية عامة تعقد في آثينا، أو مؤتمر عام للمداولة والمشاورة في أمور المعابد الاغريقية التي أحرقها البرابرة، وفي القرابين المفروضة عليهم بموجب النذور التي قدموها للأرباب على سلامة بلاد اليونان عندما قاتلوا البرابرة، وكذلك للبحث في شؤون الملاحة البحرية، وعقد معاهدة حرية فيما بينهم، حتى لا يتعرض أحدهم لسفن الآخر فيما بعد.

وأوفد عشرون شخصاً تزيد اعمارهم عن الخمسين(٣٩) للدعوة الى المؤتمر، خمسة منهم ذهبوا

---

(٣٨) جرت عادة الاقدمين ان يقوم الشخص الذي ينوي الانتحار باسدال غطاء على رأسه بصرف النظر عن الاسباب التي دعته الى ذلك أفي سبيل بلاده أو التخلص من متاعب الحياة [ديوغينس لايئرتوس يقول ان هذا الفيلسوف اورث أقرباءه.

(٣٩) هو سنّ البلوغ التام عند الآثينيين. من بلغه جازله حق التصويت في الاجتماعات والانتخابات العامة.

لدعوة الآيونيين والدوريين Dorians في آسيا وسكان الجزر حتى [لسبوس ورددس]، وخمسة منهم رحلوا لزيارة كل أرجاء [هللسپونت وتراقيا] حتى [بيزنطة] وخمسة غيرهم، لزيارة بويوتيا وفوكيس Phocis وبيلوپونسوس ومنها يرحلون الى القارة المجاورة عبر بلاد اللوكريين Locrians حتى أكارنانيا Acarnania وامبراكيا Ambracia، والباقون يأخذون طريق [يوبيا] الى الأوتيانيين Oetaean وخليج ماليا Malia والى أخائيا[٤٠] [فوثيوتيس Phothiotis] والتساليين. وقد نبّه جميعهم يتصلوا بالشعوب التي يمرون بها ويفاتحوها ويقنعوها بالحضور والمساهمة في مداولات السلام، وتنظيم شؤون الأغريق معاً.

ولم ينتج شيء من هذا، ولم تجمع المدن معاً عن طريق المندوبين. كما كان منتظراً. وقيل أن اللقيديمونيين عملوا على إحباط المشروع من طرفٍ خفي[٤١]. وكان أوّل فشل للمحاولة في البيلوپونيس. واني أرى من المناسب أن أشرح تفاصيلها هنا لإظهار نفسية پيركليس وسمو أفكاره.

نال في قيادته العسكرية صيتاً داوياً لحنكته ومهارته في فنون الحرب. فهو لا يشتبك بمحض رغبته في قتال ما اذا كان في نتيجته شكّ كثير، أو خطورة. ولم يحسد قائداً على مجدٍ ناله من مغامرات طائشة تكللت بنجاحٍ باهر وحالفه فيها الحظّ، مهما بلغ به أعجاب الآخرين. ولم يرهم جديرين بالتقليد والمحاكماة وانما كان لايفتأ يقول لمواطنيه انه لن يألوا جهداً قط في العمل على توفير حياة دائمة خالدة لهم جميعاً. وسيبذل في ذلك قصاراه. ولما رأى [پيركليس] ان توليدس ابن [طوليموس Tolmoeus] المليء بالثقة نتيجة انتصاراته السابقة[٤٢] التيّاه الفخور بالمكانة التي رفعته اليها أعماله العسكرية - يقوم بالاستعداد لمهاجمة البويوتيين في عقر دارهم حين لم يكن له في الحملة اية فرصة للنصر. ولما رآه يستميل اشجع الشبان وأكثرهم أقداماً فتطوعوا في الخدمة تحت لوائه وعددهم ألف مقاتل، عدا قواته الأخرى، حاول پيركليس جهده في الجمعية العمومية، أن يثنيه ونصحهُ بالعدول عن قصده ووجه اليه عبارة مأثورة ظلت تضرب في الامثال: قال ما مفاده ان لم يأخذ بنصيحته، فلن يخسر شيئاً إن تربّص بالزمن وانتظر إقباله، وهو خير الناصحين. هذا القول لم يقم له وزن كبير في حينه، لكن الأنباء وصلت بعد أيام قليلة، بهزيمة توليدس وقتله في معركة بالقرب من [كوورونا Coronea] وأن عدداً كبيراً من أشجع المواطنين سقطوا صرعى معه. فأكبر

(٤٠) يقصد بالاخيين الاغريق عموماً في بعض الأحيان. لاسيما عند الكتابة عن الشعراء ويقصد بهم سكان منطقة معينة من البلوپونيسي. لكن علينا أن نعرف ان المقصود بهم هنا - هم أهالي من تسالي.

(٤١) لا عجب ان يعارض اللقيديميون في هذا! اذ ان الموافقة عليه تعنى اعترافهم بالآثينيين سادة الاغريق وما كان بمقدور الآثينيين محاولة ذلك دون أمرٍ أو مرسوم صادر من الامفكتيون.

الناس كلمة پيركليس، ونال منها سمعة كبيرة، فضلاً عن أزدياد ايمان الشعب بحكمته ومحبته بني جلدته.

الاّ أن حملته الى [الخرسونيز][٤٣] هي التي أشاعت من الرضى والارتياح في النفوس ما لم تُشعها أية حملة من حملاته، لأنها أكدت سلامة الأغريق الذين كانوا يسكنون تلك الجزر. فعلاوة على أخذه معه متواطنين آثينين جدد، ومدّه المدن بقوة جديدة من الرجال، سوّر عنق البرزخ بجدار دفاعي من البحر الى البحر وبذلك أوقف غارات التراقيين الذين كانوا يطوقون الخرسونيز، فقطع دابر حرب مستمرة طاحنة، كانت تهدد البلاد منذ عهد طويل، بموقعها المكشوف لغزوات وموجات جيرانها من البرابرة. وتئن وتتلوى من وطأه شرور عصابات قطاع الطرق الذين أستقروا على حدودها وفي داخلها.

ولم يكن الأعجاب والأشادة بعمليّة تطوافه حول الپيلوپونيسوس[٤٤] بأقل من تلك. فقد أنطلق من پيكيا Pegae أو النافورات، وهي ميناء [ميغارا] بمائة من السفن ولم يكتف باجتياح سواحل البحر، كما فعل [تولميدي] من قبل، وانما نزل البرّ بجنوده وتقدم مسافة كبيرة في داخلية البلاد، وجعل كثيرين يلوذون بحمى اسوارهم، بمجرد الرعب الذي أحدثه ظهوره، وفي نيميا Nemae هزم [الاسيكونيين Sicyonians] ونصب تذكاراً لفوزه. وكانوا قد صمدوا بوجهه أشتبكوا معه في قتال. ثم عقد بين الآثينين وبلاد آخائيا Achaia حلفاً وأخذ منهم جنوداً وخبأهم في سفنه وعبر بالاسطول الى القارة، وسار به على مصبّ نهر آخيلاؤس Achelaus، واجتاح أكارنانيا وألجأ [الوينادي Oeniadae] الى الاحتماء بأسوار مدينتهم وخرب بلادهم ونهبها ثم عاد الى الوطن ملقياً مرساه، بفائدتين: أنه أظهر لأعدائه بأسه. وظهر لبني قومه سالماً غانماً. اذ لم يعنّ في كل السفرة حادث سوء لأي واحدٍ من مرؤوسيه ولو بمحض الصدفة.

ودخل أيضاً البحر الأسود Euxine[٤٥] بأسطول كبير حسن العدّة وحصل للمدن الأغريقية على كلّ التسهيلات الجديدة التي ارادوها، ودخل في علاقات صداقة معهم وأظهر لشعوب لبرابرة، عظمة الآثينيين وقوتهم ومقدرتهم التامة وثقتهم بإمكانهم الملاحة اينما شاؤوا، واثبت للملوك والأمراء المجاورين، أن بوسع الآثينيين السيطرة على البحر جميعه. وترك [للسينوپيين Sinopians] ثلاث عشرة بارجة حربية، مع جنودها بقيادة [لاماخوس Lamachus]

---

(٤٢) اجتاح البلوپونيسس وأحرق سفن قرطاجة، وهزم السيكيونيين الخ... الخ على انه اندحر امام اللقيديميين في كورونيا ٤٤٧ ق.م.

(٤٣) العام ٤٤٧ ق.م.

(٤٤) العام ٤٥٣ ق.م.

(٤٥) ربما كان ذلك في حدود العام ٤٣٦ ق.م.

لمساعدتهم ضدّ [طيمسيليوس Timesileus] (٤٦) الطاغية وعندما قضى عليه وعلى شركائه واديلوا عن السرير، صدر مرسوم بإبحار ستمائة يوناني من الراغبين - الى [سينوب Si-nope] ليستقروا هناك ويعيشوا بين السينوپيين ويشاطروهم المنازل والأراضي التي كان الطاغية وحزبه قد ضبطوها.

إلاّ انه لم ينزل في الأمور الأخرى الى نوازع المواطنين الطائشة النشوانة. ولم يحد عن قراره في اتباع ما يحبون وتحقيقه لهم. فقد اسكرتهم وادارت رؤوسهم قوتهم وانتصاراتهم الرائعة، وأشتدت رغبتهم في استعادة (مصر) (٤٧) وتدويخ سواحل الفرس. والحق يقال كان هناك عدد كبير ممن تملكته حتى في ذلك الزمن - تلك الرغبة المشؤومة النحسة، بحيازة جزيرة صقلية (٤٨) الرغبة التي أشعلها خطباء حزب [الكيپيادس Alcibiades] فيما بعد - ناراً ملتهبة لا تبقى ولا تذر. وكان هناك بعض من يحلم بتوسكانيا (٤٩) وقرطاجنة، ولم يكن ميلهم هذا خالياً من أسباب وجيهة في حالتهم هذه من الرخاء وكثرة أملاكهم ومستعمراتهم.

إلاّ أن پيركليس استأصل هذه الرغبة في الفتوح الخارجية من جذورها وبددّ بلا رحمة أحلامهم واجتثها اجتثاثاً، وكانت متخفرة ناشطة دوماً لما لايُحصى من المشاريع والمغامرات، ووجه طاقاتهم لترصين ما حصلوا عليه وتثبيته وأشغل بذلك معظم أوقاتهم. معتبراً فرض الكفاية منهم النجاح في كبح جماح اللقيديمونيين. فهؤلاء كان يراهم الخطر الحقيقي الداهم، ولم يكن يتردد في اظهار مشاعر كرهه لهم في كثير من المناسبات. ونخصّ منها بالذكر ما أقدم عليه أثناء الحرب المقدسة (٥٠). وحكاية ذلك أن اللقيديمونيين ساقوا جيشاً الى [دلفي] وأستعادوا معبد أپوللو للدلفيين، من يد الفوسيين الذين كانوا قد ظبطوه. فتربص پيركليس، حتى رحلوا وبادر في الحال الى الدخول بجيش، وأعاد الفوسيين الى المعبد. وكان اللقيديمونيين قد نالوا من الدلفيين امتياز الأولوية باستخارة الآلهة، وسجلوا أمتيازهم هذا بعهدٍ نقشوه

(٤٦) لم يرد ذكر اسم هذا الطاغية في اي موضعٍ آخر. و(سينوبه) هي من مدن [پافلاغونيا] استعمرها الميليسون. وتقع على ساحل البحر الأسود.

(٤٧) كان الآثينيون [توكيديدس ٢:١٠٩] يسيطرون على مصر الاّ ان [ميغابيس] أحد قواد [ارتحشستا] تولى طردهم منها في السنة الأولى من الاولمپياد الثمانين. ولم يتكلم عن نجاح حملة پيركلس على البلوپونيسس في السنة الرابعة من الاولمپياد الحادي والثمانين. وليس من الغريب اذن ان يتحدث الآثينيون الآن وهم في أوج قوتهم - عن استعادة نفوذهم في بلادٍ كانوا قد فقدوها قبل فترة قصيرة.

(٤٨) خمسة عشرةعاماً أو ستة عشر بعد وفاة پيركلس.

(٤٩) بعد أن فكّر الآثينيون في ازدراء صقلية لابد ان يراودهم حلم التوسع في الأراضي الواقعة الى شمالها والى جنوبها.

(٥٠) في حدود العام ٤٤٨ ق.م سميت كذلك لعلاقتها بمعبد دلفي وهناك ما هو أكثر شهرة وبعين الاسم في عهد فيليب المقدوني.

على جبهة الذئب النحاسيّ القائم هناك[٥١]، فبادر بيركليس الى كسب امتياز مماثل للآثينين من الفوسيين، وأمر فنقش على الصفحة اليمنى من جسم الذئب النحاسي نفسه.

وتشهد الحوادث التي تعاقبت شهادة قويّة على صواب عمله وحكمته في صد اندفاعات الآثينيين، وقَصْر مجهوداتهم على الدائرة الاغريقية. فبالدرجة الأولى ثار الايڤيون[*] عليه، فزحف بقواته عليهم واخمد ثورتهم، وتلا ذلك مباشرةً انباء اشارت انقلاب الميغاريين عليهم وان جيشاً معادياً يتقدم على حدود [آتيكا] بقيادة [بلستراناكس Plistoanax] ملك اللقيديمونيين. فأنسحب بيركليس من [يوبيا] وعاد باسرع ما يمكن ليجابه حرباً تهدّد موطنه نفسه انه لم يغامر في الدخول بمعركة مع جيش عزيز الجانب تواق للقتال، بل ولادراكه ان [بلستواناكس] الشاب اليافع، كان يطيع في أكثر الأمور نصيحة [كلياندريدس Clean-srides] الذي بعثه [الايغور] مع الجيش ليكون بمثابة وصيّ ومساعدٍ للملك الشاب، فقد قام سَراً باختبار نزاهة هذا المستشار ونجح في افساد ذمته بمبلغ من المال، ودفعه الى الاشارة على الملك بالانسحاب وتمّ انسحاب البيلوپونيسيين من آتيكا، وانحل الجيش وتفرق افراده عائداً كلٌ الى موطنه. فاستشاط اللقيديمونيون غيظاً وعمدوا في سورة من غيظهم هذا الى فرض غرامة ثقيلة على ملكهم، فعجز عن تسديدها واضطر الى ترك [لقيديمون][٥٢]. وهرب [كلياندريدس] وحكم عليه بالموت غياباً. وكلياندريدس هذا، هو والد [غيليپوس Gylipus] الذي استظهر على الآثينيين في صقلية. ويظهر ان الطمع كان مرضاً موروثاً في الأسرة، أنتقل من الأب الى الأبن، اذ قبض عليه فيما بعد متلبساً بعمل جرمي مماثل وطرد بسببه من سپارطا. وقد اتينا الى المزيد من الشرح في هذا، عند كلامنا عن سيرة [ليساندر].

وذكر [پيركليس] في أثناء تلاوته تقريره عن هذه الحملة امام الجمعية العمومية، انه أنفق عشرة تالنتات، بمناسبةٍ معينة في سبيل المصلحة العامة، فصادق الشعب على الصرف دون سؤال أو تحقيق في باب الصّرف. ويؤكد بعض المؤرخين ومنهم [ثيوفراستوس] الفيلسوف ان پيركليس اعتاد كل سنة أن يبعث سراً الى سپارطا بعشرة تالنتات رشوة لرجال الحكم فيها، لا ليشتري سلمهم، بل ليشتري الزمن، وليستعد على مهله ويكون الأقدر والأكثر استعداداً للحرب.

---

(٥١) قيل انه قبض على الذئب ووضع الى جانب الذبح الكبير لأن ذئباً قتل لصاً كان قد سرق المعبد ويعوانه المتواصل دل أهل دلفي على الموضع الذي أخفى فيه المسروق [پاوسنياس ١٠-١٤].

(*) في ٤٤٦ ق.م.

(٥٢) يقول توكيديدس [٢١:٢] ان رعيته حكموا عليه بالنفي بعد ان شكوا في انه قبل الرشوة لينسحب من الحياة العامة.

بعد هذا وجّه جيشه فوراً الى الثائرين، وهاجم جزيرة [يوبيا] بخمسين بارجة وخمسة آلاف مقاتل وأستولى على مدنها وطرد المواطنين الخلقيديين Chalaidians الملقبين [هيپوبوتي Hippobotae] أيّ «علاّفي الخيل» ويعتبرون من أغنى السكان وابرزهم سمعةً. وأخرج كل [الهستيانيين Histiaeans] من البلاد، وأحلّ محلهم جالية آثينية، ضارباً بهؤلاء مَثَله الوحيد في الصرامة والشدة لأنهم كانوا قد أسروا سفينة آتيكية وقتلوا كل من فيها.

وعقد هدنة بين الآثينيين واللقيديمونيين، أمدها ثلاثون سنة. وأصدر مرسوماً جمهورياً بالحملة على جزيرة [ساموس] (*)، ولرفضها طلبه بإيقاف حربها مع الميليسيين. ولما كان الرأي يميل الى أن هذا الإجراء ضد الساموسيين إنما أتخذ ارضاءً لسپاسيا Spasia فمن المناسب ان نذكر هنا شيئاً عن هذه المرأة. أيّ جاذبٍ فيها واي دهاء مكنها من ايقاع أعظم ساسة العصر في حبائل حبها واستهوائه. ومن ثم اتاحة المجال لحديث الفلاسفة (٥٣) عنها كثيراً، لا بما يشيتها أو يجرحها.

ومن الثابت انها [ميليسيّة] بالولادة (٥٤). وانها ابنة [أكسيوخوس Axiochus] وقيل انها كانت تمكنت من امتلاك ناصية رجال من ذوى النفوذ والجاه الكبير بتقليدها، [تارجيليا Thargelia] (٥٥) العاهرة التي عاشت في العهد الآيوني القديم، وقد عرفت بجمالٍ نادر، وشخصية ساحرة للغاية يزينهما ذكاء وحصافة مدهشين. وكان عشاقها بين الأغريق كثيرين، وأستمالت كل من كان ذا علاقة بها لموالاة الفرس وخدمة مصالحهم بنفوذهم ومراكزهم العالية. وبذلك زرعت بذرة التحزّب للميديّن في مدن كثيرة. هذا عن [تارجيليا]، ويقول بعضهم أن [سپاسيا] أستأثرت بقلب پيركليس، واعزازه، لوقوفها الواسع على السياسة وحذقها أساليبها. وكان [سقراط] نفسه يختلف اليها أحياناً مع بعض معارفه، وأعتاد كثير ممن يختلفون اليها أن يصحبوا زوجاتهم للاستماع اليها. ولم تكن مهنتها تمت الى الشرف بصلة ما، ومنزلها في الواقع دار للعاهرات الشابات. ويخبرنا [ايسخينيس Aeschines] (٥٦) أيضاً أن [ليسيكليس Lysicles] وهو تاجر أغنام ذو منبت وضيع، وخلق دنيء، أصبح فهو أوّل شخصية في اثينا بعد موت پيركليس، بسبب معاشرته [سپاسيا] (٥٧). ونحن، وان كُنا

(*) في ٤٤٠ ق.م.

(٥٣) سقراط وافلاطون.

(٥٤) [ميلتوس] من مدن [ايونيا] أشتهرت بكثرة مشاهير الرجال الذين ولدتهم حتى ضرب بها المثل.

(٥٥) نالت ملك تساليا بفضل جمالها. لكنها أعتُطبت وهي في ريعان الشباب اذ فتك بها واحد من عشاقها.

(٥٦) اسخينوس السقراطي. في محاورة عنوانها «آسپليا» لم تصلنا.

(٥٧) لايُعلم المنصب الذي اشغله هذا الشخص والدرجة التي رفع اليها. فمن اثنين بهذا الاسم بلغا مرتبة =

لانأخذ مقدمة [مينيكزينوس Menexenus] لافلاطون، مأخذ الجدّ التام، فإن ما تضمنت عن أسپاسيا فيه واقع تاريخي، جاء فيه انها اشتهرت باختلاف كثير من الآثينيين الى مجلسها ليتعلموا فنّ الكلام منها[٥٨]. ويبدو أن تعلّق پيركليس بها كان مبعثه العاطفة والحبّ على أية حال. كان متزوجاً بقريبة له، سبق أن تزوجت بهيپونيكوس Hipponicus قبله وأنجبت له [كاليّاس Callias] الملقب بـ«الغنيّ»، ثم أنجبت لپيركليس طوال عشرتها الزوجية له - ولدين وهما [كزانتيپّوس Xonthippus وپارالوس Paralus] ثم انفصل عنها برضاها بعد أن ضاقا بالعيش معاً لعدم انسجامهما، فبنت برجل آخر، وتعلق هو باسپاسيا وأحبها حباً جارفاً، وكان يقرؤها التحية ويقبّلها يومياً كلما غادر البيت أو عاد اليه من ساحة السوق.

ولقبت بأسماء عديدة في التمثيليات. منها «أومفال الجديدة» و«ديئيانيرا Deianira» ولقبت أيضاً «بجونو» وأعطاها كراتينوس[٥٩] صفتها الحقيقية «العاهرة».

«لقد حملت له يونو هذه، بتلك العاهرة التي لاتعرف الحياء المسمّاة أسپاسيا».

ويبدو انها انجبت له إبنا. ففي تمثيلية [ديمي Demi] [ليوپوليس Eupolis] قدّم شخصية پيركليس وهو يسأل عن سلامة ابنه فيجيبه ميرونيدس Myronides و «إبني هل هو حيّ»

«أجل... انه أصبح رجلاً متزوجاً منذ زمن طويل لو لم يخش سوء السمعة لولادته من أمّ عاهرة.»

أشتهر أمر أسپاسيا على ما يقال وذاع صيتها، حتى أن [كورش] الذي نازع [ارتحششتا] العرش الفارسي سَمىّ أحَب محظياته اليه باسم اسپاسيا وكانت تدعى قبلاً [ميلتو Milto] وهي فوسيّة الأصل وابوها [هرموتيموس Hermotemus]. ولما سقط كورش في المعركة قتيلاً، حُملت الى الملك[٦٠]، فكان نفوذها في بلاده كبيراً... خطرت لي هذه الأشياء وأنا

= السلطة في اثينا، توفي أولهما بعد سنة واحدة من موت پيركلس، ولم يكن محتملاً ان انتفع الى هذا الحدّ بعلاقته مع اسپاسيا خلال مثل هذا الموقف القصير. اما الثاني الذي كان اصل السبب في نكبة (خيرونيا) [ديودورس ١٦:٨٨] فقد نفذ فيه حكم الموت جراء ذلك في تاريخ متأخر عن الأول بتسعين عاماً. وليس من المعقول ان تكون اسپاسيا قد عاشت قرناً من الزمن وهو محتفظة بنفوذها.

(٥٨) يجب الاّ نتصور ان اسپاسيا انما برعت في مطارحات الهوى والحديث التافه الخفيف. في الواقع ان احاديثها كانت جدية عميقة حتى ظن معظم أهل المعرفة الآثينيين بأنها هي التي كتبت خطبة التأبين الشهيرة التي القاها پيركلس مخلداً ذكرى أولئك الذين سقطوا في حرب ساموس. ولايستبعد ان قام پيركلس بشن هذه الحرب بناء على اقتراح منها، انتقاماً من منازعة الميليسيين وقيل انها رافقته في الحملة وانها شيدت معبداً تخليداً لنصره هذا [انظر ثوكيديدس ١:١١٥].

(٥٩) في مسرحية الخيرونيون Cheirons.

(٦٠) أنظر كزنيفون: اناباسيس ١:٢، ١٠.

أكتب القصّة فلم أجد من المناسب اغفالها.

على أية حال، كان من أهم المآخذ على پيركليس أقتراحه في الجمعية العمومية أعلان الحرب على ساموس مناصرة للميليسيين، واكراماً لخاطر اسپاسيا، فالدولتان كانتا مشتبكتين في حرب على [پرين Priene]، وكانت كفّة الساموسيين راجحةً فيها، ولذلك ابوا القاء سلاحهم والاستجابة الى فضّ النزاع بطريق التفاوض وان يكون الآثينيون المحكمين فيه. فجهز [پيركليس] أسطولاً وأتجه الى جزيرتهم حيث قضى على حكومة الأقلية فيها وأخذ خمسين رهينة من كبار رجالهم ومثله من أولادهم وبعث بهم الى جزيرة [لمنوس] وأبقاهم هناك. وذكر بعض المؤرخين أنه رفض عرضاً بافتدائهم بتالنتٍ واحدٍ لكل منهم، فضلاً عن هدايا كثيرة عرضها عليه أولئك الذين كانوا يكرهون جداً اقامة نظام ديمقراطيّ عندهم؛ زد على ذلك أن [پسوثنس Pisuthnes][٦١] الفارسي أحد ضباط الملك، الذي كان ذا نوايا طيبة للساموسيين، أرسل اليه عشرة آلاف قطعة ذهبية ليصفح عن المدينة، فردّها [پيركليس] ورفض كل العروض. ومضى قدماً في ما أختطه للساموسيين، وما وجده مناسباً وأقام النظام الديمقراطي عندهم[٦٢] ثم ابحر عائداً الى آثينا.

إلاّ أنهم مالبثوا ان ثاروا، وأفلح [پسوثنيس] في تهريب الرهائن اليهم وأمدّهم بكلّ وسائل الحرب. فكرّ پيركليس راجعاً اليهم باسطوله فلم يجدهم غافلين ولا متهيبين، بل تبين فيهم عزفاً راسخاً على نيل السيطرة البحرية؛ وكانت النتيجة أن پيركليس نال نصراً ساحقاً بمعركة بحرية ضارية قرب جزيرة تراجي[٦٣]، فقد هزم باربع وأربعين بارجة، سبعين بارجة للعدوّ منها عشرون تحمل جنوداً.

وبنصره هذا وما تلاه من مطاردةٍ للعدوّ، حقق سيطرته على الميناء والقى حصاراً عليهم وضيق الخناق، وكانوا رغم ذلك يحاولون أن يواصلوا كّراتهم بشتىّ الأشكال، ويشتّبكوا في القتال تحت أسوار المدينة، لكن پيركليس اتمّ تطويقهم من كل جهة وحصرهم في مساحة ضيقة جداً من الأرض، بعد أن وصله من آثينا أسطول كبير آخر[٦٤]. ويذكر معظم الكتاب أن پيركليس أخذ ستين بارجة وأنطلق بها الى عرض البحر عازماً على أعتراض سفن الفينيقين التي خفّت لمعونة الساموسيين، وقتالهم في أبعد نقطة ممكنة عن الجزيرة. على أن

(٦١) هو ابن هشتاسب. كان حاكماً على (ساردیس) وتبنى قضية الساموسيين طبعاً لأن كبار قومهم هم من الموالين للفرس.

(٦٢) كذلك وضع فيها حامية [ثوكيديدس ١:١١٥].

(٦٣) تراجيئاي هي جزيرة من مجموعة جزر سپورادس مقابل ساموس.

(٦٤) يتألف من أربعين سفينة آثينية و٢٥ سفينة أخائية ولسبوسيّة [ثوكيديدس ١:١١٦].

[ستسمبروتوس] يزعم انه ما خرج الاّ ليستولي على قبرص، وهو زعم لاينطوي على إصابة ومهما كانت نيته، فالظاهر انه أخطأ الحساب. لأن [ميلسوّس Melissus] القائد الساموسيّ آنذاك وابن الفيلسوف [ايثاجينس Ithagenes] أغرى أهل المدينة بمهاجمة القوات الآثينية الباقية امّا مزدرياً العدد القليل من سفنهم، أو مستفيداً من قلة تجربة ضباطهم وكسب الساموسيون المعركة وأخذوا عدداً من الأسرى كما عطلوا عدداً من السفن وتمت لهم السيطرة على البحر، ونقلوا الى الميناء كل ما يحتاجونه للحرب، ولم تكن بتناول يدهم قبلاً. يقول [ارسطو] أن [موليسوّس] كان قد استظهر على پيركليس مرة واحدة في معركة بحرية سابقة.

ووسم الساموسيون الآثينين الأسرى وسماً على جباههم يُمثل صورة بوم غسلاً لإهانة سبق ان أصابهم بها خصومهم هؤلاء. فقد وسموا عدداً منهم بوسمٍ يمثل سامينةً Samaena وهذا نوع من السفن واطيء مسطح من ناحية القيدوم ليبدو كالأنف الأشمّ، وهو من المؤخرة عريض واسع رحيب يتسع لحمولة كبيرة، ويسهل قياده، وسميت بهذا الاسم لأن أوّل مَن صنعها كان في [ساموس] بنيت بأمر من [پوليقريطس Polycrates] الطاغية وهذا الوسم الذي رسم على جباه الساموسيين نوهت به الفقرة التالية - من أرسطوفان[٦٥]:

«لأن الساموسيين - وا أسفي - قومٌ مُعَلَّمون بالحروف».

ما أن بلغت أنباء النكبة پيركليس، حتى خفّ مسرعاً لانقاذ قواته[٦٦] وأوقع بميلسوّس الهزيمة وراح يطارد جيشه حتى حصرهم وراح يبنى حولهم جداراً وغايته ايقاعهم جميعاً في قبضته والاستيلاء على المدينة. وان كان في هذا الاسلوب تضحية في بعض النفقات، والوقت فهو ينّم عن حرصه على أرواح مواطنيه وعدم التفريط بخسارة فيهم. ولكن صعب عليه كبح الآثينين الذين أغضبهم هذا التأخير وكانوا تواقين للقتال مصرين عليه. فقسم الجيش كله الى ثماني وحدات. وسحب قرعة بينهما فكل وحدة يخرج لها حبّة الفول البيضاء تسحب من خطّ القتال وتعطي أجازة فيها يروّح الأفراد عن أنفسهم ويطربون ويلهون، بينما تستمر الوحدات السبع الأخرى في القتال. والى هذا يعزى تسمية الآثينيين ليوم طربهم ومرحهم باليوم الأبيض أشارة الى حبّة الفول البيضاء[٦٧].

ويخبرنا المؤرخ [ايفوروس Ephorus] زيادة على ما تقدم، أن پيركليس استخدم في ذلك

---

(٦٥) من مسرحية «البابليون» لم تصلنا.

(٦٦) يقول ثوكيديدس ان النجدة التي ادركته كانت تتالف ثمانين سفينة.

(٦٧) تعتبر حبة الفول البيضاء اشارة على البراءة في القضايا الجنائية وقد جرت العادة بذلك منذ زمن أبعد مما ذكر.

الحصار آلات الثغر، فقد كان شديد الاهتمام بالمستنطبات العجيبة، تواقاً لاختبارها. وقد عاونه في ذلك [آرتيمون Artemon] المخترع الميكانيّ، وكان يرافقه في حملته، ولعرج فيه اعتاد أن يجلس في محفّةٍ لينقل الى مواقع العمل كلما أستدعى الأمر وجوده، ولهذا السبب سُميّ [پيريفوريتوس Periphoretus]. إلاّ أن [هيراقليدس پونتيكوس] يثبت عكس ما تقدم، مستنداً الى شعر [اناكريون][٦٨] الذي جاء فيه تنويه [بارتيمون پريفوريتوس] هذا قبل حرب ساموس والأحداث الأخرى المعاصرة لها باجيال عديدة. يقول انه كان حريصاً على راحته، شديد الحذر من مداهمة الخطر على حين غرة. لهذا أعتاد قضاء جل أوقاته داخل البيوت، وأناط باثنين من خدامه أن يرفعا فوق رأسه ترساً نحاسياً لئلا يسقط عليه شيء من فوق. وان أستدعت حاجةٌ ملحّةٌ خروجه، حمل في محفّة متدلية من قضبان على مستوى واطيء من الأرض ولذلك سُميّ [پريتوريتوس].

في الشهر التاسع استسلم الساموسيّون، وسلّموا مدينتهم. فهدم پيركليس أسوارها وصادر سفنها وفرض على الأهلين غرامة مالية ثقيلة، دفعوا جزءً منها في الحال، واتفق على تسديد الباقي في أجلٍ مضروب. وسلّموا رهائن ضماناً لحسن سلوكهم. وقد ألف [درويس Duris] الساموسي مأساة درامية حول هذه الأحداث متهماً فيها الآثينيين وپيركليس بالفظائع والقسوة الشديدة - دون اعتبارٍ ما للحقيقة، بينما لانرى ثوكيديدس او انيوروس او ارسطو يذكرون شيئاً من هذا. ذكر مثلاً أن پيركليس ساق ضباط السفن وجنودها الى ساحة السوق في [ميليتوس] وهناك شدّ وثاقهم على ألواح خشبية وأبقاهم هكذا عشرة ايام حتى اصبحوا بين أحياءٍ وأموات، ثم أصدر أمره بسحق رؤوسهم تحت ضربات الدبابيس وإلقاء جثثهم في الشوارع والساحات العامة دون دفن؛ كيف يمكن تصديق هذا؟

وعلى اية حالٍ، كان من المحتمل جداً ان يبالغ (دوريس) في المصائب التي حلت بموطنه ليخلق شعوراً بالنفور العام من الآثينيين. فهو كثيراً ما يبالغ في سرده التاريخي حتى يتعدى بعضه حدود الحقيقة[٦٩]، وإن لم يكن منساقاً وراء غرض أو عاطفة.

والحاصل، عاد پيركليس الى اثينا بعد اخضاعه الساموسيين، وأهتم بدفن أولئك الذين سقطوا في ساحة الحرب، دفنة مشرّفة لائقة، وألقى بتلك المناسبة خطبة تأبين حسب العادة،

(٦٨) تجد هذه الابيات في الاثيناوس (١٢:٩). الحقيقة ان المرء لا يسعه الاّ الاستغراب من وجود شخصين بعين الاسم وعين الاخلاق والنقص العقلي. إلاّ ان المهندس الذي رافق پيركلس ربما لا يتفق في شيء مع الآخر ما عدا الاسم. وان پلوتارخ وقع هنا في وهم عندما عزا اليه كل هذه التفاصيل.

(٦٩) عاصر بطليموس فلاديلفوس. يقول عنه شيشرون ان دقيق وامين.

اثناء مواراتهم التراب، أثارت عظيم الإعجاب[٧٠]، حتى أنه عندما هبط من المنبر، أقبلت عليه النسوة وأخذن يمدحنه وقُدنه من يده وضفرن على رأسه أكاليل الغار والشرائط، كاحتفائهنّ بالرياضي الفائز في الالعاب. وهناك دنت [ألپينيكي] منه قائلة: «لقد اتيت يابريكليس بأعمال البطولة والبسالة وهو ما تستحقه اكاليل غارنا التي جعلتنا نفقد كثيراً من كرام مواطنينا لا في حروب مع الفينيقيين أو الماديين كحروب كيمون، بل لقهر وأخضاع دولة حليفة ارتبطت معنا برابطة الدم والصداقة» وقيل انه كان يبتسم ابتسامة رقيقة اثناء حديث الپينيكي، ولما أنتهت ردّ عليها بهذا البيت من الشعر:

«ينبغي للعجائز من النساء الاّ ينشدن التعطر»[٧١]

وقال عنه [آيون] أن العظمة ركبته بعد مأثرته هذه في انتصاره على الساموسيين، وبدأ ينظر الى نفسه نظرة التيّاه المُدلّ فلقد أقتضى عشرة أعوام [لأغاممنون Agamemnon] حتى يستولي على مدينة من مدن البرابرة. في حين لم يقتض پيركليس أكثر من تسعة أشهر للاستيلاء على أعظم مدن الآيونيين واقواها. ولهذا كان له ملء الحق في الفخر بهذا المجد الذي كسبه لنفسه. فقد كانت حرباً تنطوي على مخاطرة كبيرة، وكان هناك شكّ أكبر في نتيجتها. هذا اذا صدق ما قاله لنا [ثوكيديدس]عن اقتراب ساموس على قيد خطوة في انتزاع السيادة البحرية من أيدي الآثينيين.

بعد هذا[٧٢]، بدأت حرب الپيلوپونيس تتخذ شكلاً خطيراً وتبلغ مرحلتها الحاسمة. ونصح پيركليس مواطنيه ان يرسلوا نجدة للكوكريين Cocyraeans الذين تعرضوا الهجوم الكورنثيين[٧٣]. وان يضعوا يدهم على جزيرة ذات موقع سوقي بحريّ هام جداً. مادام بادر

---

(٧٠) هذه المرثية التي اُلقيت في السنة الرابعة من الالمبياد الرابع والثمانين هي غير الخطبة الشهيرة التي القاها بمناسبة تأبين أولئك الذي سقطوا صرعى في بداية حروب البلوپونيسس. في السنة الثالثة من الاولمبياد السابع والثمانين (توكيديدس ٢:٣٥-٤٦). ان الاريوباغوس هو الذي يختار الخطباء في هذه المناسبات. ولم يكن بالشرف القليل لبيركلس ان يختار مرتين لتعزية بلاده بالفاجعة.

(٧١) معناه «لقد بلغت من الكبر حداً بحيث لايجمل بها التدخل في الشؤون».

(٧٢) اي بعد الاستيلاء على ساموس بخمس سنين. وبالضبط في السنة الثانية من الالمپي السادس والثمانين [بدأت حروب البلوپونيسس في السنة الثانية من الالمبياد السابع والثمانين].

(٧٣) هذه الحرب بدأت في ٤٣٢ ق.م بخصوص اراضي ايپيدامنوس المدينة الصغيرة في مقدونيا التي بناها الكوركيري. وكان لهؤلاء قوة بحرية عظيمة لا تعدلها الاّ بحرية الآثينيين. طلب هؤلاء والكورنثيون المعونة من الآثينيين في آن واحد ومن قصائد الشعراء الهزليين وهم صدى صوت الجمهور الأمين - يمكن ان نعزو سبب الحرب الى الغضب الذي اجتاح اسپاسيا لاهانة وجهها اليها بعض من شبان ميغارا. ويزعم آخرون ان پيركلس انما شنها لحماية نفسه والتخلص من تقديم حساب على فترة حكمه. إلاّ أن هذه الاسباب غير معقولة لأنها ليست جديرة بسياسيّ شهير مثله لا تستقيم مع خلقه ومنزلته. ويدحض =

كل [البيلوبونيس] بالاعمال العدوانية ضدهم. فوافق الجميع على اقتراحه بلا تردد، وصوّتوا على ارسال معونة ونجدات عسكرية لهم. فبعث بيركليس اليهم بلقيديمونيوس(٧٤) ابن كيمون على رأس عمارة بحرية تتألف من عشر سفن لا غير. وكان يقصد بهذا الإجراء ان يجنبّه الإهانة. فلما كان بين اسرة [كيمون] واللقيديمونيين عطف متبادل وصداقة فقد تعمد أن ينيط به هذا العدد الضئيل من السفن حتى اذا فشل في مهمته وأخفق في تحقيق مأثرة في الحملة فلن يعزى ذلك الى ممالأة للقيديمونيين أو على الأقل لكيلا يشكّ في مسلكه أو يتهم بالغدر؛ والواقع أن ارساله كان ضدّ رغبة بيركليس، لأنه ما فتيء يحتاط للحيلولة دون ارتقاء ابناء كيمون في مناصب الدولة، وحجته في ذلك أن أسماءهم وحدها تجعل الناس لا ينظرون اليهم نظرة المواطنة الآثينية، بل أن يعتبروهم أجانب وغرباء عنهم. فأحدهم يدعى [القيديمونيوس]، والآخر [تسالوس Thessalus] والثالث [ايليوس Eleaus]، والمظنون أن ثلاثتهم جاؤوا من أم اركادية. ومهما قيل عن نجدة السفن العشر والانتقاد الموجه اليها باعتبارها معونة تافهة جداً، لقوم كانوا يعانون ضيقاً شديداً كما أنها في الوقت نفسه وقعت بمبرّر قوي لأولئك انتقدوا بيركليس لتدخله في الحرب. فان آثينا بعثت بعد ذلك بقوات أكبر، الى [كوركيرا Corcyra](٧٥) الا انها وصلت بعد انتهاء القتال. وأشتد سخط الكورنيثين وغضبهم على الآثينيين واتهموهم علناً في لقيديمون، وساندهم الميغاريّون في ذلك متظلمين من قيام الآثينيين بابعادهم عن كل سوق وطردهم منها ومن جميع المواني الواقعة تحت سيطرتهم خلافاً للحقوق العامة المشتركة التي أقسم على أحترامها كل دول الأغريق في عهد السّلام المتفق عليه. وأعلن الايجينيون أيضاً بأنهم عوملوا معاملة سيئة قاسية وطلبوا من اللقيديمونيين انصافهم ولم يجرأوا على تسمية الآثينين واتهامهم بالاعتداء جهراً. كما أعلنت مدينة [بوتيديا Poti-daea] الثورة على سادتها الآثينين في الوقت نفسه، وكانت قبلاً من مستعمرات الكورنيثين. فألقى عليها الجيش الآثيني الحصار وكانت سبباً آخر من أسباب الحرب.

ومع هذا فقد وفد الى اثينا سفراء للتوسط في السلام، وبذل [ارخيداموس] ملك اللقيديمونيين مجهودات صادقة للوصول بمعظم الشكاوي والخلافات التي هي مدار النزاع –

= ثوكيديدس هذه المزاعم وهو محايد غزير المعلومات. والتعليل المعقول الوحيد هو الحسد الذي ابتليت به آثينا بسبب ما بلغته من منعة وقوة ومهابة بعد انتصارها في الحرب الميدية. وسلوكها المشوب بالتعالي والعجرفة واستنكار سيارطة لروح التسلط فيها.

(٧٤) يقول [ثوكيديدس] لم يكن قصد الآثينيين مساعدة الكوركيري بصورة فعالة. وانما كان ارسالهم العمارة البحرية الصغيرة من أجل المراقبة ومتابعة تطورات القتال في حين يصاب الفريقان بالانهاك هذا فضلاً عن انه لم يكن القائد الوحيد فقد زامله في القيادة كل من ديوتينس و«پرونياس» (١:٤٥).

(٧٥) إلاّ أن هذا الأسطول الذي تألف من عشرين سفينة حال دون اشتباك ثانٍ كانوا قد تهيأوا له [ثوكيديدس ١:٥٠].

الى حلول عادلة مرضية للأطراف المعنية، ولتهدئه عواطف الحلفاء المستوفزة وكان من المحتمل جداً ان لا تقع مغبّة الحرب على الآثينيين لأي سبب من أسباب النزاع لو أنهم وافقوا على الغاء قرارهم ضدّ الميغاريين، وهو الذي عمل على اثارة عاطفة العداء للميغاريين في نفوس الآثينيين، فانه يُعدّ مثير هذه الحرب الأوحد.

ويذكر المؤرخون في هذا العدد، أن السفراء الموفدين رحلوا من لقيديمون الى اثينا للبحث في هذه القضية، وقيل أن پيركليس تعلل بوجود قانون يحرّم عليه انزال أو الغاء اي لوح كتب عليه قرار اتخذه الشعب. ومنها اللوح الذي كتب عليه القرار ضد الميغاريين، فعقبّ أحد السفراء المسمىّ [پوليالسيس Polyalscis] قائلاً: «لا بأس اذن، لاتنزلوه، بل أديروه على وجهه الثاني اذ لايوجد قانون يمنع ذلك»[٧٦]. ومع أن قوله هذا كان تعريضاً جميلاً بپيركليس، فانه لم يزحزح الرجل عن موقفه ولم يثنه عن عزمه؛ ويغلب الاحتمال أن يُظنّ فيه نية خفيّة أو عداوة مستترة بينه وبين الميغارين، ولكن تصرفه التالي ينفي هذا الظنّ، فعند طرح التهمة للعامة، وهي اغتصابهم جزءً من الأراضي المقدسة على الحدود[٧٧]، تقدم هو نفسه باقتراح يقضي بارسال منادٍ اليهم أولاً ثم الى اللقيديمونيين ثانياً يحمل صيغة الاتهام للميغاريين، وهذا عمل يبرهن بما لا يقبل الشكّ على نية طيبة تتحرى العدل. ثم ان المنادي الموفد [انتيموقريطس Anthemocritus] قضى نحبه. وظنّ أ للميغاريين ضلعاً في مرته. فقام [خارينوس Charinus] يقترح اصدار بيان ضدهم بالصيغة الآتية: «سيكون من الان فصاعداً عداء مستحكم لا شافع فيه بين الجمهوريتين. وإنْ وَضَع ميغاريٌ قدماً في آتيكا يقتل حالاً. وان يضاف الى أوّل اليمين المعتادة التي يحلفها القوّاد العسكريّون، تعهدهم بالقيام بغارتين على بلاد الميغاريين سنوياً، وان يدفن [انتيموقريطس] بالقرب من الباب الثراسي، المسمىّ الآن ديپليلون Diplylon أو الباب المزدوج.»

وانكر الميغاريون انكاراً باتاً تهمة تدبير مقتل انتيموقريطس[٧٨] وتنصلّوا منها والقوا اللوم كله على أسپاسيا وپيركليس مستشهدين بالابيات الأخارنية Acharnian المشهورة التالية:

---

(٧٦) للمزيد من التفاصيل قارن ثوكيديدس [١٤٠:١] وغيره.

(٧٧) ان الارض التي تقع بين ميغارا وآتيكا، كرّست للربّتين الالوسينيّن [كيريس] و[پروسپريني] كذلك اتهم پيركلس الميغاريين بانهم كانوا يؤمنون الحماية للعبيد الآبقين.

(٧٨) لم يورد [ثوكيديدس] اي ذكر لهذا المنادي، على ان الميغاريين كانوا يعتبرون مدبري هذا القتل حتى انهم عوقبوا عليه وإنْ بعد اجيال عديدة. ولهذا السبب حرمهم الامبراطور هادريان كثيراً من الامتيازات، والالطاف التي خصّ بها مدن الاغريق الأخرى ان ضريح انثيموقريطس كان على جانب الطريق المقدسة المؤدية الى ايليوس [پاوسنياس ٣٦:١].

خرج الى الميغاريين بعض رجالنا الأغرار الطائشين السكارى. واغتصبوا منهم عاهرتهم [سيميثا Simaetha] فلأجل أن يثأر المغاريون لهذا العمل. إقتحموا منزل [اسپاسيا] وأختطفوا عاهرتين منها.

ليس من السهل معرفة السبب الحقيقي للحرب. إلاّ أن الجميع يلقون تبعته على پيركليس، لأنه حضَ على رفض الغاء البيان الصادر ضدٌ الميغاريين. وزعم البعض أن رفضه الطلب بصورة باتة كان متمشياً مع مصالح البلاد التامّة، نابعاً من معنوية عالية. فقد استخلص فكرة، ان الطلب الذي تقدمت به السفارة، كان يرمي الى اختبار اعصاب الآثينيين، وانّ اي تنازل منهم سيؤخذ بمثابة اقرارٍ بضعفهم، ويظهرهم بمظهر العاجز الذي لا مخرج له غير هذا الحلّ؛ وهناك من يقول أن الرفض كان مبعثه التحدي والرغبة في القتال، اظهاراً لقوته، وخلقة مناسبة لتحقير اللقيديمونيين.

وأشدّ الدوافع هي الحادثة التالية التي أكدّت علاقتها الوثقى بالحرب، معظم الشواهد والأدلة: كان فيدياس قد قام بعمل تمثال لمنيرڤا على نحو ما بيّنا، وقد ابتليَ بعداوة الكثيرين غيرة منهم وحسداً لأنه يتمتع بمكانة كبيرة وصداقة متينه عند پيركليس وهذا ما دفعهم الى تلفيق تهمة عليه ساقته للمحاكمة الشعبية، وغرضهم من هذا أن يختبروا اتجاه الشعب كقاضٍ اذا ما سنحت لهم فرصة تقديم پيركليس امامه بتهمةٍ ما. وكان سبيلهم الى فيدياس وانهم اغروا عاملاً من عمّاله يدعى [مينون Menon] ودفعوا به الى ساحة السوق وبيده عريضة يطلب فيها منحه الأمان الجمهوريَ عند ادعائه على فيدياس، فأجيب طلبه، وسُمح له بسرد شكواه. وفي المرافعة التي أقامها الادعاء العام ضده امام الجمعية العمومية لم يثبت عليه سرقةٌ أو غش، لأن فيدياس الذي أخذ بنصيحة پيركليس من البداية وعمد الى الذهب المخصص للتمثال فكساه كالقميص به بصورة يمكن معها نزعه ووزنه بصورة دقيقة، على أن صيت أعمال پيركليس العمرانية هي التي جرت المصائب على فيدياس، ولاسيّما تصويره حرب الامازونات في سبيل ترس الآلهة. فقد رسم صورته، شيخاً أصلع الرأس رافعاً صخرة عظيمة بكلتا يديه. ورسم صورة أخرى تشبه پيركليس شبهاً تاماً وهو يحارب الامازونات، وكان وضع اليد المسكمة بالرمح أمام الوجه محاولةً بارعة من المثال لحجب الشبه الى درجة ما، إلاّ انه كان واضحاً وضوحاً كافياً من الجانبين.

وعلى هذا أودع [فيدياس السجن ومات فيه بمرض[٧٩]، أو على ما قيل بسمٍ دسه له أعداء

(٧٩) يزعم بعضهم انه نفي وانه صنع في فترة منفاه تمثاله الشهير «جوبتر في الاولب» الذي لم يبذه في الفن والدقة غير تمثال [منيرڤا] الذي جاء ذكره في المتن.

بيركليس لإثارة فضيحةٍ أو شكوك على الأقل حول بيركليس بوصفه قاتله. واقترح [غليكون Glycon] اعفاء [مينون] من الضرائب والمكوس وايصاء القادة بالمحافظة على سلامته فأجاب الشعب بالموافقة.

ثم تلا ذلك الاتهام اسپاسيا بتعاطي البغاء، بشكوى قدمها [هرميپوس] الممثل الكوميدي، وزاد عليها تهمة أخرى، هي استقبالها في بيتها مواطنات من طبقة الأحرار، ليستمتع بيركليس بعشرتهن. كذلك تقدم [ديوبيپوس Diopithes] باقتراح سن قانون يقضي برفع الدعوى العامة على كل الأشخاص الذين يهملون شعائرهم الدينية أو يبشروا بالمبادىء الجديدة عن الأمور العليا، موجها الشكّ الى بيركليس عن طريق [اناكساغوراس]، وكان قبول العامة بهذه الأمور وموافقتهم على التهم، يتمثلّ في اصدارهم بياناً (بناءً على أقتراح [دراكونيتدس Dracontides] يقضي بمحاسبة بيركليس على الأموال التي انفقها أمام البريتان(٨٠) وان القضاة يجب أن يجزوا المرافقة بالبطاقات التي توضع فوق هيكل الاكربوليس، فذبح الربة في الاكروپولس(٨١) داخل المدينة، لكن [هاغنون Hagnon] الغى الشرط الأخير من البيان، وأقترح أجراء المحاكمة امام ألف وخمسمائة مواطنٍ محلّفٍ. سواء أشاء الادعاء اسناد تهمة السرقة أو الرشوة أو غيرها. وتشفعّ بيركليس باسپاسيا ذارفاً دموعاً غزيرة وترجى المحلفين في أمرها شخصياً، على ما روى [ايسخينوس]، ولكنه عمد الى أخراج اناكساغوراس من المدينة لخوفه عليه(٨٢)، وتأمل فوجد انه لم يفلح مع الشعب في قضية فيدياس خوفاً من أن يتعدّى الاتهام اليه. لذلك استعجل باشعال نار الحرب وكانت خامدة هامدة حتى الساعة أوقد لهيبها مؤملاً بهذه الخطّة أن يضيّع معالم التهم ويبعثر الجهود

---

(٨٠) هم كما ذكرنا في حاشية سابقة اعضاء مجلس الشيوخ الخمسمائة الذين اصبحوا السلطة العليا في ذلك الزمن.

(٨١) في بعض القضايا الخارقة للعادة، حيث يتطلب من القضاة التمسك بأدق موازين العدالة والشكليات، عليهم ان يتسلموا رقاعهم من فوق مذبح [نبتون] على حد قول هيرودوتس ١٢٨:٨، وعليها يدونون احكامهم أو أن يتناولوا حبات الفاصوليا البيضاء أو السوداء. وما يقصده پلوتارخ من قوله «... وان يجروا المرافعة داخل المدينة» يصعب اعطاء تفسير له إلاّ اذا كان المقصود به الجمعية العامة للشعب كله. امّا الألف والخمسمائة التي جاءت بعد العبارة فربما كان يقصد بها محكمة هلياي، سميت بهذا لأن القضاة يجلسون في الهواء الطلق معرضين لاشعة الشمس. والمحكمة من هذا النوع تتشكل من هذا العدد في الحالات الخاصّة.

(٨٢) كان اناكساغوراس يؤمن بالوحدة الالهية اي بوحدانية الله الحكيم الخبير العليم خالق هذا الكون الجميل من عالم الفوضى. إن كان هذا دين المعلم فلاشك ان الناس سيتنتجون بان التلميذ [پيركلس] على دين المعلمه وانه يرفض فكرة تعدد الالهة السائدة في ذلك زمن. هذا الرفض ينطوي على أعظم الخطر. فقد تبين بعد فترة وجيزة اي في عهد سقراط بأنها عقيدة مهلكة.

في ملاحقتها واسكات تحامل الأعداء والحساد. فالمدينة عادةً تلقى بحملها عليه في الملمات، والخطر ولا تثق بغير قيادته لقوة شكمية وحزمه.

تلك هي مجموعة الأسباب التي دفعت پيركليس، على الاّ يرضى لأهل آثينا بالانصياع الى مقترحات اللقيديمونيين. إلاّ أن وجه والحقيقة فيها غير واضح.

واللقيديمونيون من جهتهم، كانوا يدركون أن بامكانهم حمل الآثينيين على قبول أية شروط شاؤوها لو نجحوا مرة واحدة في ازاحة پيركليس ولذلك أرسلوا يطلبون منهم طرد «الدنس» الكيلوني Cylon الذي علق بپيركليس من جهة أمّه، كما ذكر لنا [ثوكيديدس][٨٣]. فباؤا بعكس ما أملوا، وبدلاً من وصفهم شخصيته بأنها موضع شكٍّ ونفرة. رفعوا من قدره في نظر مواطنيه وزادوا الثقة فيه، بوصفه اكره الناس الى أعدائهم وأخوف ما يخافون. وأستبق پيركليس غزوة [ارخيداموس] لآتيكا على رأس حلف الپيلوپونيسوس بابلاغه الآثينيين أن ارخيداموس في أثناء أجتياحه البلاد، سيستثنى متعمداً أراضيه من التخريب إما لحقوق صداقتهما والتكريم المتبادل بينهما. وأمّا لإعطاء أعداء پيركليس فرصة للنيل منه بالشبهات. لذلك فهو يهب للدولة كل اراضيه وما عليها من بناء، اللانتفاع العام!

ومالبث اللقيديمونيون وحلفاؤهم أن هاجموا أراضي آتيكا بجيش جرار تحت قيادة [ارخيداموس]. وخربوا ودمروا حتى بلغوا [آخارني][٨٤] وهناك ضربوا خيامهم متوقعين ان الآثينيين لن يحتملوا وسيخرجون لقتالهم دفاعاً عن بلادهم واستنقاذاً لشرفهم، لكن پيركليس ابى أن يتعرض لستين ألف مقاتل من الپلپونيين والبويوتيين - في معركة تنطوي على مخاطر كبيرة قد تؤدي الى ضياع المدينة نفسها، وبذل جهوداً عظيمة في تهدئة المتشوقين الى القتال المستائين المتألمين لما آلت اليه الأمور، ونصحهم بخير الكلام كقوله «الأشجار اذا قلمت أو قطعت لا تلبث أن تنمو ثانية. لكن خسارة الرجال لا تعوض بسهولة». ولم يدع العامة الى الاجتماع، لئلا يرغموه على عمل معاكسٍ لخططه إلاّ أنه كان أشبه بقائد الدفّة البارع أو ملاّح السفينة عندما تثور العواصف الهوج وهو في عرض البحر، يتخذ كل التدابير ويحتاط ويتأكد بأن كلّ شيء هو في محلّه، ثم يتبع ما يمليه عليه علمه وبراعته، ويحصر كل مجالات تفكيره في شأن سفينته، غير ملقٍ بالاً على دموع الركاب المدرارة، ولا على ضراعة المصابين

(٨٣) يقصدون افراد الأسرة الألكيمونية التي كانت قد وصمت بوصمة عاد الدم عندما قتل الأرخون ميغاكليس في حدود العام ٦٣٦ ق.م اتباع (كيلون) كفراً منه وتجديفاً. انظر سيرة صولون [ثوكيديدس ١:١٢٦ و١٢٧].

(٨٤) أقليم أخارني وهو أكبر الاقاليم المرتبطة بأثينا يستطيع أن يجند من مواطنيه ثلاثة آلاف مقاتل. وكان يبعد عن المدينة الفاً وخمسمائة خطوة فحسب.

بالخوف ودوار البحر. فاحكم أغلاق مداخل المدينة، وثبت الحاميات العسكرية في كل المواقع السوقية، زيادة في الحذر، متبعاً وحي ضميره ورايه غير مكترث بمن ينتهرونه سخطاً عليه واستنكاراً لخططه. وكان كثير من أصدقائه يلحون بالرجاء وكثير من أعدائه يتهددونه بالويل، ويتهمونه بخطأ ما يفعل. وعمد عدد كبير الى نظم الأغاني وقصائد الهجاء فيه، وراح أهل المدينة يتغنون بها ويذيعونها زيادة في الفضيحة، وكلها تصبّ اللوّم عليه لجنبه في تمشية شؤون القيادة، والتنازل الذليل للعدوّ عن كل شيء.

ومن هاجمه، [كليون Cleon][٨٥]. فقد أستفاد من شعور السخط المتنامي ضدّه، متخذاً من هجومه مرقاة للزعامة، كما بدا من (مخمّس) هرميبرس واليك مصراعين منه:

«أيا ملك المسوخ والهزل! أستبقى أبداً

تستخدم الكلام التافه بدل السيف؟

فبه وحده كنت تدير دفة الحرب

حتى الآن فتزعج آذاننا حتى لكان

تيلس Teles قد جاءت ثانية؟

لو أن أصغر مدية وضعت على المسنّ

ليكون حدّها ماضياً، فانك تصرّف

أسنانك فرقاً كأنك أصبت بضربة كليون النارية

على أن هذا لم يحدث أثراً ما في بيركليس. لم يعبأ قلامة ظفر بتلك التهجمات، بل أحتملها بصبر، وسكت محتسباً عن الإهانات التي صبّوها عليه والتخرصات التي ارادوا بها تشويه سمعته. مضى في خطته قدماً، فبعث بأسطول مؤلف من مائه بارجة الى البيلوبونيسس وبقى هو في المدينة لتصريف الأمور برقابته المباشرة، الى أن رفع ابيلوبونيسس مضاربهم ورحلوا، على أنه أخذ بتوزيع الأموال العامة وأصدر قانوناً يقضي باعادة توزيع الأراضي الزراعية. وطرد كل أهالي [ايجينا] ووزع اراضيها بالقرعة على الآثينيين، سعياً لإرضاء عامة الشعب المتألم الحانق من الأسلوب الذي اتبعه في الحرب وترفيهاً لهم وتخفيفاً عن شقائهم لما عانوه من الحرب، ورداً للكيل الذي كاله العدوّ لهم،

(٨٥) هو عين [كليون] الذي سخر منه (ارسطوفانس). تمكن من الفوز برتبة الجنرال، نتيجة خطبه وافانينه السياسية.

أجتاح الاسطول الذي أرسله الى البيلوبونيسس قسماً واسعاً من بلادهم وعاث سلباً ونهباً في المدن والقرى، ثم ما عتم أن زحف هو براً على بلاد الميغاريين[٨٦] بجيش وخرّب ودمرّ على هواه، ولو أن ما لقيه [البيلوبونيون] من الآثينيين في البحر، يقل عما لقيه الآثينيون في البرّ منهم، لما أطالوا أولئك من أمد الحرب. بل وسارعوا الى انهائها[٨٧]، وهو عين ما تنبأ به بيركليس وتوقع حصوله لولا تدخل المشيئة الربّانية التي تعمد أحياناً الى احباط مساعي البشر، والإخلال بخططهم.

فالبدرجة الأولى دهم المدينة المرض الوبائي أو الطاعون وراح يقضي على زهرة شبابها وأصلبهم عوداً، وأصاب بعدواه النفوس فضلاً عن الأبدان فعميت البصائر، وساءت الأمزجة، وهبّ الناس كالمجانين المسعورين يصرخون في وجه بيركليس، وراحو كالمصابين بنوبة هذيان يصبون جام غضبهم على طبيبهم المعالج، أو بالأحرى على ابيهم. اذ طفق اعداؤه يروجون بينهم أن سبب الطاعون انما هو ناشيء عن تقاطر أهل الريف الى المدينة وأكتظاظها بهم وأضطرارهم الى العيش مزدحمين في أماكن ضيقة ان استطاعوا الى ذلك سبيلاً، وأنحشروا معاً في منازل صغيرة وأكواخ فاسدة الهواء. في قيض الصيف، وبقوا يعيشون داخلها عيشة التعطل والخمول بعد أعتيادهم العيش في الهواء الطلق النقيّ، وكان الحديث العام: إن الحرب التي اثارها هو، كانت السبب والعلّة في تكالب العدد الضخم من المتعطلين في عملٍ ما وابقائهم مكدسين تكديساً كالبهائم تفتك بهم العدوى دون أن يهيء لهم أسباباً للانتقال أو الوقاية.

اراد بيركليس أيجاد حلٍّ لهذه المآسي واصابة العدوّ بشيء من القلق، فأعد مائة وخمسين[٨٨] بارجة وأصعد اليها قوات كبيرة من المشاة والخيالة المجربين وتهيأ للأبحار، مُفسحاً للأمل سبيلاً الى نفوس مواطنيه، باعثاً الخوف والفَرَق في نفوس أعدائه بهذه القوة الضخمة. وبعد أن سد كل بارجة حاجتها من الرجال وصعد بيركليس سفينته، شاءت الصدف أن يقع كسوف[٨٩] شمسيّ فاكفهر الجو وساد الظلام فجأة فتطيّر الجميع واعتبروه دليل نحسٍ

---

(٨٦) جرّد حملته في الخريف بعد انسحاب اللقيديميين [ثوكيديدس ٢:٣١].

(٨٧) في الواقع عدلوا عنها وعادوا الى سپارطة. إلاّ ان ارخيداموس عاد في السنة التالية وان لم يلخط پلوتارخ ذلك. وفي اثناء هذه الهجمة الثانية انتشر الطاعون في العام ٤٣٠ ق.م [قارن توكيديدس ٢:٤٧-٥٤] الذي يصفه وصفاً دقيقاً ويقال انه جاء من بلاد الجيشة ونشر دماراً تاماً وهو في طريقه.

(٨٨) كان قوام الحملة مائة سفينة آثينية استوعبت اربعة آلاف مقاتل. ولحق بها سفن نقل كانت تحمل الخيول. كما كان ثم خمسون سفينة أخرى من خيوس وليسبوس [ثوكيديدس ٢:٥٦].

(٨٩) هنا أيضاً يخلط پلوتارخ بين حملتين والكسوف انما وقع في مبدء الحملة الأولى (ثوكيديدس ٢:٢٨).

عظيم. والتفت پيركليس فرأى قائد دفة سفينة يتملكه الرعب والحيرة لايدري ما يفعل مما كان منه الاّ ان رفع عباءته ونشرها وهي مفجوجة امام وجه الملاح فحجب نظره «أيرى في هذا الستر بأساً أو أي اشارة الى ضرر محتمل؟ «فأجاب الرجل بالنفي. فقال پيركليس «فكيف اذن وبأية صورة يختلف هذا الحجاب، عن احتجاب الشمس إلاّ بأن الذي سبّب الظلام هناك أعظم من العباءة»، هذه حادثة كان الفلاسفة يروونها لتلاميذهم.

ومهما يكن لم يقم پيركليس على ما يبدو بمأثرة بحرية تستحق الذكر وتوازي استعدادته الكبيرة، عند الحلاقه ذلك الأسطول. ثم انه القى حصاراً على المدينة المقدّسة [إپيداروس Epi-daurus][٩٠] ولما ظهر ما يدل على قرب استسلامها له، تفشىّ المرضى بين جنوده فقضى على أمله، ولم يصب الداء الآثينيين وحدهم بل سرت عدواه الى كل من كان على صلة بالجيش. أخيراً وجد أن صبر الآثينيين قد نفد، وروحهم بلغت التراقي. فبذل جهوداً جبارة في تهدئتهم وتقوية عزائمهم فكان كمن يضرب في حديد بارد[٩١]، وعجز عن ازالة سخطهم أو أرضائهم ولم تنجح أي حيلة معهم. والقوا بأصواتهم جميعاً ضده، وأستعادوا سلطتهم منه ونحوّه عن القيادة مع تغريمه مبلغاً من المال، أقلّ ما قدّره المؤرخون بخمسة عشر تالنتاً، وأكثر ما ذكروه خمسون، ويحدثنا [ايدومينيوس Jdomeneus] أن المدعي وصاحب الشكوى كان (كليون)، وإن [سمياس Simmios] يتأثر في ذلك خطى [يثوفراستوس]. اما هيراقليدس پونيتكوس فهو يتفق مع [لاكراتيداس Lacratidas] في مقدار الغرامة.

بعد هذا اشغلت الاضطرابات العامة الناس عنه، أو بعبارة أخرى أفرغ الشعب سمّ حنقهم كله في الضربة التي وجهت له، وحلّف حمته في مكان اللسعة، وتركوه لشأنه . إلاّ ان أحواله العائلية كانت أسوء ما يخطر بالبال. فكثيرٌ هم أصدقاؤه ومعارفه الذين قضوا بالوباء. أما أعضاء أسرته فكان التنابز والتباغض ينهش فيهم، ورفع جميعهم ما يشبه راية العصيان عليه؛ كان ابنه الشرعيّ البكر [كزانيتپوس] متلافاً سفيهاً بطبعه؛ وزاد من سوء حاله زواجه ببنت [تيساندر Tisander] ابن [اپيليكوس Epilycus] الغريرة المسرفة وكان يشكو مرّ الشكوى تقتير أبيه عليه ومنحه مرتباً تافهاً لا يدفعه له إلاّ باقساط زهيدة. وفي أوقات متباعدة. وبسبب ذلك بعث الى صديقٍ يوماً يطلب اقراضه بعض المال باسم ابيه، زاعماً أنه

(٩٠) في آركيا. كرست لـ(اسكولاپيوس) ويصفها پلوتارخ بالمقدسة ليفرقها عن بلدة أخرى في (لاقونيا) بالاسم عينه. لم يأت (ثوكيديدس) الى ذكر هذه الفاجعة، لكنه يقول ان پيركلس فشل في محاولاته تلك لا في [اپيداروس] وحدها بل (طروزين) و(ايرميوني) وغيرها ولم يستدل الاّ على (پروسيا) وهي بليدة بحرية في لاقونيا.

(٩١) حفظ لنا ثوكيديدس (١١:٦٠-٦١) خطبته بهذه المناسبة.

فعل ذلك بأمرٍ منه. وأقبل الدائن على پيركليس يطالب بدينه، فامتنع هذا عن الدفع فاقام عليه الدعوى. ووقعت الإهانة على الابن وقعاً شديداً وتحلل من قيود البنوة وراح يندّد بأبيه علناً وأخذ يتندر في مبدأ الأمر بقصص عن أحاديث ابيه في مجلسه ومناقشاته مع السوفسطانيين كذكره مثلاً: كيف أن واحداً ممن كان يجيد الألعاب الخمس المفضلة، قتَلَ [ايپتيموس Epitimus] الفارسالي Pharsalion بطعنة رمح أو خِطيٍّ من دون ان يدري ما فعل، وخلافاً لارادته وكيف قضى ابوه خمسة أيام في نقاش جدي مع [پروتاغوراس Prota-goras][٩٢] في أيّهم المسؤول عن القتل: ألرمح؟ أم الرجل الذي قذفه أم اساتذة اللعبة المؤسسون لهذه الألعاب، وذلك بحسب أسلم المبادىء العقلية وأقربها الى المنطق.

وكذلك يذكر لنا [ستسبمروتوس] أن [كرانتيپوس] هو الذي روج بين الناس تلك القصّة الشنعاء عن علاقة زوجه بأبيه. وعلى العموم ظلّت القطيعة بين الأب والابن ولم يرأب الصدع حتى موت الابن باول موجة وباء الطاعون. وفي غضونه أيضاً فقد پيركليس أخته ومعظم خلانه وأقربائه ومن أقرب الانصار له في شؤون الحكم وأنفعهم. وعلى كلٍ بقي عزمه لم يهن ازاء هذه الصدمات، ولم يبد ضعفاً أو يفضح مشاعره وظلت معنوياته عالية، وفكره ثاقباً ولم تنل منهما تلك النكبات. ولم يُر باكياً أو محزوناً، أو يحضر دفن أيٍّ من أصدقائه أو أقربائه، حتى ثكل ابنه الشرعي الثاني وهو الواحد الباقي. فخارت قواه لشدّة الضربة، ومع ذلك حاول التصبّر، والتجلدّ، الى أن حَلّ يوم قيامه بشعائر التشييع، فتغلّبت عليه العاطفة أمام منظر فقيده، عندما قام بضفر أكليل الزهر على الرأس، فصرخ صرخة أليمة. وتفجرّ دمعه الحبيس وسال حاراً على خديه. تلك هي المرّة الوحيدة التي أبدى فيها مثل هذا الضعف سائر حياته.

بعد أن أخذت المدينة تختبر القادة العسكريين الآخرين، لغرض مواصلة الحرب، وتعجم عود الخطباء لغرض اناطة شؤون الدولة بهم، وعندما تبين لها أن ليس فيهم من يضاهيه أو يعدله، ولا من يجاريه في الحزم والبراعة في الحكم بما يكفي لائتمانهم على واجبٍ له مثل هذا الوزن من الخطورة؛ انتابها أسف شديد لخسارتهم الفادحة به، وعزمت عليه أن يعود مرة أخرى ناصحاً لها وخطيباً، وقائداً كما كان.

وكان اذ ذاك منزوياً في بيته حزيناً كاسف البال. وأفلح [الكيبيادس Alcibiades] وغيره من الأصدقاء باخراجه من عزلته، والظهور للشعب، فما كاد المواطنون يرونه حتى أظهروا

---

(٩٢) پروتاغوراس من ابديرا تلميذ ديموقريطس. كان اذكى وابرع سوفسطائيي زمانه. الف خلال فترة نشاطه الذي دام اربعين عاماً. أكثر مما انتجه [فيدياس] المثال. وأثر عنه الالحاد لقوله «ليس ثم شيء مؤكد حول وجود الآلهة أو طبيعتها».

عرفانهم بجميله وأعتذروا له عن معاملتهم الظاهرة له، فتسلّم شؤون الدولة مجدداً. وعندما انتخب جنرالاً، كان أول عمل قام به الغاء القانون الخاصّ بالأطفال غير الشرعيين. وكان هو الذي تسبب في سنه، كي لاينطفي اسم أسرته ونسبه بعد موت وارثه الشرعي الوحيد وحكاية سن هذا القانون تعود الى الزمن الذي بلغ فيه پيركليس أوج عزته وسلطانهُ غير محرومٍ من الاولاد الشرعيين، فأقترح سنّ قانون لايحمل صفة المواطنة بمقتضاه إلاّ من ولد من أبوين آثينيين[٩٣]. وعلى أثر ذلك أهدى ملك مصر اربعين ألف بوشلٍ من القمح لتوزع على المواطنين الآثينيين. مما أدّى الى اقامة دعاوى وقضايا اثبات نسبٍ لايمكن احصاؤها. وهي قضايا لم تكن معروفة حتى ذلك الحين، لعدم أهميتها. وعانى كثيرون الأمرّين من التلفيق والتزوير، وناهز عدد المحكومين بذلك. الخمسة آلاف وبيعوا في سوق النخاسة عبيداً جراء ذلك[٩٤]. أمّا عدد من اجتاز هذه المحنة وأثبتوا مواطنتهم الآثينية الحقّة فقد تبين عند الاقتراع أنه يبلغ اربعة عشر الفاً واربعين مواطناً[٩٥].

يبدو من الغريب أن يلغى مثل هذا القانون، بعد تطبيقه على هذا المدى الواسع، ومن الأغرب أن يلغى بمسعىً من الرجل الذي الحّ في سنّه. على ان المصيبة التي قصمت ظهر پيركليس والحزن الذي أبتلى به لفجيعته بأسرته كان لهما أثرهما اللبات في تحطم كلّ معارضة والشفاعة له عند الآثينيين. وأشفقوا عليه شفقة ذلك الرجل الذي عوقب على غطرسته وتعاليه عقاباً كافياً بشكله ومعاكسة الأقدار بالمصائب، ووجدوا أن آلامه تستحق رثاءهم، بل تستحقّ منهم الندم على ما أتوه بحقه، وبدأ رجاؤه بالغاء القانون في نظرهم، مجردّ طلب يعرضه رجلٌ ويستجيبه رجال وسمحوا له بقيد ابنه في سجلّ الأخوية، وبمنحه اسم أسرة پيركليس. هذا الابن قتله الشعب الآثيني مع زملائه القواد[٩٦]، بعد أن حقق انتصاره على [الپيلوپونيين] في [أرغينوسيه Arginusea].

---

(٩٣) بحسب قول پلوتارخ في مفتتح سيرة تمستوكليس، ان هذا القانون سُنّ قبل ان يتولى پيركلس الحكم ولعلّ هذا تشدد في تطبيقه بسبب روح العداء لكيمون الذي كان من اولاد انصاف آثينيين.

(٩٤) ان عدم شرعية الاولاد لا تجعلهم في مرتبة الرقيق. وانما تدرجهم في عداد الغرباء.

(٩٥) عدد قليل جداً في الواقع. عندما كانت آثينا تفكر في بناء مستعمرات لها، واخضاع جيرانها. وقهر الشعوب الأخرى.

(٩٦) في السنة السادسة والعشرين للحرب كان الآثينيون قد عينوا عشرة قواد لادارة الحرب وبعد ان انتصروا حوكموا وحكم على ثمانية منهم بالموت نفذ بحق ستةٍ منهم في الحال (منهم ابن پيركلس غير الشرعي) كانت الجريمة الوحيدة التي ادينوا بها هي انهم لم يقوموا بدفن قتلى المعارك. حصل هذا زمن أرخونية (كاللياس) في السنة الثالثة من الاولمپياد الثالث والتسعين اي بعد ٢٤ سنة تقريباً من وفاة پيركلس ويعرض كزنيفون في كتابة (الهلينيات Hellenies) وصفاً مفصلاً لما حصل. كان الفيلسوف سقراط في تلك الفترة، واحدة من قضاة (الپريتان) لكنه رفض رفضاً باتاً ان يتولى مباشرة وظيفته.

في الزمان الذي جرى به تسجيل الأبن، أصيب بيركليس بالوباء على ما يبدو، ولم تكن اصابته صاعقة حادة كالآخرين، وإنما جاءته بصورة خفيفة هادئة وأخذت تستفحل شيئاً فشيئاً وكان يعتورها كثير من النكسات والتقلبات، وأخذ الداء يخترمه إختراماً ويذهب بقواه ويقضي على مداركه الروحية العقلية، ففي كتاب القوى الأدبية Moralia » ليثوفراستوس. تجد فقرة عن حالة بيركليس المرضية عند بحث الكاتب عن مسألة تغيّر مدارك الناس بتغيّر ظروفهم، وعاداتهم الخلقية، وهل أن أمراض البدن يوقع فيها الخلل فيظهر على تصرفاتهم انحراف عن قواعد السلوك العامة. فقد دوّن ذلك الكاتب ان بيركليس كان يعرض على عائديه تعويذة أو «حجاباً» علقته نساء بيته في عنقه ليقيه السوء. كأنما اراد الكاتب القول ان بيركليس قد بلغ به المرض وضعاً خطيراً، بدليل إعتقاده بسحر هذه التعاويذ الحمقاء.

ولما حانت مينّتهُ، لازمه نخبة من أصدقائه المواطنين ممن بقوا على قيد الحياة، وراحوا يلهجون بعظمة مآثرة ويثنون على أعماله الشهيرة، معددّين انتصاراته العسكرية. اذ أقام ما لا يقلّ عن تسعة أنصاب نصر، تشريفاً للمدينة التي تولى قيادتها وقهر أعداءها. واصلوا أحاديثهم فيما بينهم أعتقاداً منهم أنه لايعي ما يذكرون ولا يفهمه لاشتداد وطأة العلّة عليه. إلاّ ان سمعه كان يتابع ما يقال فقاطعهم هنا قائلاً: انه ليستغرب مديحهم، وتقليد الثناء لأمور كان للحظّ دور رئيس في تحقيقها ولم يكن القائد الوحيد الذي أسعدته الصدف بانجازها وان أمثاله لكثيرون. على أنهم نسوا أن ينوّهوا بأعظم مأثرة وأعزّها جانباً... «فبمجهوداتي لم يلبس الحداد آثينيّ واحدٌ».

حقّاً أن بيركليس شخصيّة تستأثر منا بأشدّ الاعجاب. لا لهدوء طباعه وعفّتها، وهو الخلق الذي ظلّ يلازمه في معظم حياته، وفي مجابهة الخصومات العديدة الشديدة التي واجهته خلالها، بل للمعنوية العالية، والروح السامية التي جعلته قادراً وهو يزاول سلطاته الضخمة، على قمع كل عاطفة، انتقامية واشفاء غليله من أي خصم، وكبح نفسه عما تريد. ولم يعامل أي عدوّ معاملة من لا يمكن التفاهم أو المصالحة معه. ويظهر لي شخصياً، أن هذه السجيّنة وحدها، تفسّر بسبب تلقيبه بالاولمبي، ذلك اللقب الصبياني الفخم! فطبيعة بمثل هذه الرقة، وحياة خلت من هنوات العاطفة وهي في أوج سلطانها وارفع منزلتها، لتستأهل لقب «الاولمبي»، هذا بحسب مفاهيمنا عن الكائنات الالهية التي نعزو اليها سياسة العالم وحكمه بوصفها الفاعلة لكلّ ما هو خيرٌ، وبعدها عن كلّ فعل شرٍ. خلافاً لما يقول الشعراء، فهؤلاء يضللوّنا بخيالهم الجاهل الأخرق الذي يفضحه شعرهم الكاذب، فيسمون دار الأرباب منزلاً هادئاً مطمئناً آمناً من أي خطرٍ أو مفاجأة لاتزعمهم فيه الريح ولا الغيوم يشع منهم على حدٍّ

سواءٍ وبصورة دائمة نور نقيّ صافٍ رقيق. منازلُ أكثر ملائمة للطبيعة الخالدة المباركة، يقولون هذا في الوقت الذي يؤكدون أن الآلهة كثيرة المتاعب لا تخلص من العداوات والبغضاء وغير ذلك من العواطف التي لاتلائم أو تليق بأقل الناس عقلاً وادراكاً... لكن ربّما كان هذا الموضوع أليق للمعالجة والشرح في فرصة مناسبة أخرى.

إن السبيل الذي سلكته سياسة الدولة العامة بعد موت پيركليس سرعان ما كشفت عن مدى الخسارة به[٩٧]. فالحاقدون على ما ناله من سلطان في حياته، التي كسفت شمس حياتهم، راحوا بعد تركه المسرح السياسيّ يجربون الكثير من الخطباء والزعماء الشعبيين، ليدركوا أنه كان المفرد العلم، وانه لن يقوم مثل له بطبعه وسلوكه، ولن يجدوا شخصاً أكثر أعتدالاً منه، وأوسع إدراكاً وهو في أعلى درجة من سلطانه. ولا أكثر منه رزانه ومثاراً للأعجاب في رقتّه وحنانه. وبدت لهم تلك السلطة الفردية التي أطلقوا عليها قبلاً «حكم الطغيان، والفردية المطلقة»، وكأنها القلعة الرئيسة لسلامة البلاد. ومهما بلغ عظم الفساد، وما نجم بعده من أضطراب وشرور، فقد أفلح في ستره باضعافه وقمعه، وبذلك منعه من بلوغ مرتبة الداء العضال الذي لايمكن البرء منه، وكان سبيله الى ذلك الغفران والصفح الرفيق.

أهم الأحداث في زمنه (ق.م)

٤٤٠ أخضع ساموس التي ثارت على الآثينين.

٤٣٩ بدأت الحرب بين كورنث وكوركيرا.

٤٣١ يصير الحرب الپليپونيس التي دامت ٢٧ سنة ـــ فنرة من هُوَل.

٤٢٩ يموت بعد حكم آثينا ربع قرن.

(٩٧) توفي في السنة الثالثة لبدء الحرب البيلونية في ٤٢٩ ق.م.





وجها قطعة نقدية (٢٩٣ ق.م)

فابیوس ماکسیموس

FABIUS (Maximus)

(Cunctator)

275 _ 203

بعد أن سردنا سيرة وأعمال پيركليس العظيمة، يتقدم تاريخنا بنا الى سيرة [فابيوس] وجده الأعلى ابن [لهرقل] وحورية أو امرأة من نساء تلك البلاد ولدته على ضفاف التيبر، وكان أوّل فابيوس من تلك الأسرة الشهيرة الكبيرة العدد[1] وعميدها. ويقول آخرون أن لقبها الأول كان [فودي Fodii] لأن أوّل اعضاء الأسرة كانوا مغرمين بحفر النُقر لايقاع الوحوش وصيدها. وكلمة Fobese المرادفة لكلمة [حَفَر] ما زالت مستعملة في اللاتينية. وذلك Fos-sa أي خندق. ويتعاقب الزمن استبدل الحرفان فأنقلب الأسم الى [فابي Fabii][2]. وسواء في ذلك أكان الأمر صدقاً أو كذباً، فالثابت أن هذه الأسرة انجبت عدداً كبيراً من أبرز الرجال. وفابيوسنا هنا، هو الجيل الرابع المنحدر من [فابيوس روللوس Rullus][3] الذي كان أول من قلد الأسرة شرف اضافة لقب [ماكسيموس] اليها؛ ويلقّب فابيوس كذلك بـ[ڤيروّكوسوس Verrucosus] لثؤلولة في شفته العليا، ولقب أيضاً في حداثته [بأوڤيكولا Ovicula] أو الحَمَل بسبب وداعته المتناهية. وكان ثقل لسانه وبطئه وتعسّره في التعلّم، وتردده في مشاركته الأولاد الآخرين العابهم، وخضوعه وسهولة انقياده لأيّ انسان كأنما لايملك ارادة خاصة جعلت أولئك الذين تغرّهم المظاهر السطحيّة منه، وهم الأكثرية الغالبة، يحكمون عليه بالغباء والبلادة. في حين تبنيت أقلية الناس أن تثاقله هذا نابع عن الرصانة والثبات،

---

(١) ليڤي [١١:٥٠، ١٦، ٢١] هذه الأسرة اضطلعت كلها بالحرب ضدّ الفييدسنثيين في العام ٤٧٧ ق.م. فقد بعثت بستة وثلاثمائة من المقاتلين كلهم يحمل اسم «فابي». وقد قتلوا جميعاً وتعود شهرة الأسرة الى اعضاء فيها تقلدوا أعلى المناصب في الدولة، ومنهم اثنان تولى كل منهما منصب القنصل ست مرات.

(٢) پليني [تاريخ الطبيعة ٣:١٨] يرد الاسم الى صفة فيقول انهم كانوا بالاصل من ابرع زارعي الفاصوليا Fabae!

(٣) او روتليانوس [پليني: المرجع السالف ٤:٨] تولى القنصلية خمس مرات وحقق انتصارات عديدة هامة على السامنيين والتوسكان وغيرهما من الشعوب. إلاّ ان لقب مكسيموس (العظيم) الذي لصق به لم يكن سببه ما ذكرنا. بل ناله ايام كان چنسوراً (محتسباً) اذ جمع كلّ قبائل روما باربع فقط. وكان سكان المدينة قبلها متفرقين بين القبائل بصورة عامة. وقد ضمن له هذا السلطة العليا في الجمعيات الشعبية [ليڤي ٤٦:٩]. وقد سميت المجموعة بالقبائل الحضرية Tribus Urbana تقابلها القبائل الفضلى Tribus Rusti-cus وهي تعيش عادة في الريف.

وتوضحوا قوة ذكاء، وإرادة لها إقدام الأسد في ذلك. وما أن بلغ مرحلة العمل حتى برزت مواهبه وظهرت على حقيقتها، ووَجَد الناس عموماً أن ما عرف به من أفتقار الى الحيوية إنما هو التحرر من العاطفة. وثقل لسانه وبطء حركته، نتيجة للحكمة الحقّة. وأفتقاره الى السرعة، وتثاقله هما اية الاستمرارية والصرامة فيه.

وبعيشه في جمهورية عظيمة يحيط بها اعداء كثيرون، رأى من الحكمة أن يعوّد جسمه على التمارين العسكرية، ليشتّد عوده بسلاح الطبيعة الوحيد هذا. كما أخضع لسانه لنظام يتسق ويتسع لحياته وخلقه، مدرباً أياه على فن الخطابة الجماهيرية. ولم يكن في بلاغته الكثير من التنميق الشعبيّ المبتذل ولا تلك الصناعة الفارغة بل كان فيها قدر كبيرٌ من الحسّ والشعور. قوية عقليّة شبيهة بأسلوب [توكديدس]. وما زال موجوداً الى الآن خطاب تأبينه بمناسبة موت أبنه الذي قضى نحبه قنصلاً. وكان قد ألقاه أمام الجمهور.

تقلد منصب القنصلية خمس مرات[٤]. وكان له شرف الدخول في موكب الظفر اثناء فترة قنصليته الأولى للانتصار الذي اجرزه على [الليغوريين Ligurians][٥] في معركة فاصلة، ودفع بهم الى مجاهل جبال الألب. ومنذ ذلك الحين لم يعودوا يغيرون، أو يغزون جيرانهم. وبعد هذا أغار [هنيبعل][٦] على ايطاليا وكان عند دخوله قد فاز بمعركة عظيمة بالقرب من نهر [تريبيا Trebia] وأخترق توسكانيا بعد ان دوّخها بجيشه الظافر مخربّاً كل البلاد المجاورة، ومالئاً روما نفسها بالذهول والرعب. وزاد من قلق الأهالي وخوفهم بعض الظواهر الطبيعية من الرعود والبروق الفائقة للعادة، وانباء عن حصول خوارق غريبة جداً وغير مسموع بمثلها. فقد قيل أن بعض التروس عرقت دماً، وان عدداً من آذان أهالي [آنتيوم] امتلأت بالدماء اثناء قيامهم بحصاد القمح. وان السماء أمطرت حجارة محمّرة من شدة الحرارة، وان الغاليريين شاهدوا السماء وقد أنشقت وسقطت منها رقوق كُتب على أحدها بصورة واضحة «لقد رفع مارس سلاحه»[*] الاّ أن هذه الخوارق لم يكن لها تأثير على القنصل [فلامينيوس][٧] المتهوّر الأهوج الطبع الذي ارتفعت درجة اندفاعه عالياً بانتصاره الأخير

---

(٤) اول قنصلية له كانت في ٢٣٢ ق.م أو في ٢٣٤ على قول ليڤي [١٧:٢٢] والخامسة تولاها في العام ٢٠٨ ق.م. وقد مضى على الحرب الفونية الثانية، عشرُ سنوات تقريباً. اما قنصلياته الثلاث الأخرى فكانت على التوالي في الأعوام ٢٢٧ و٢٢٤ و١٩٣ ق.م.

(٥) الليغوريون سكنوا الساحل المتد من نهر جنوا حتى موناكو في فرنسا.

(٦) دخل هنيبعل ايطاليا في ٢٢٧ ق.م حسب زعم ليڤي (٣٨:٢١) اثناء قنصلية كورنيبليوس سكيپيو وسميرونيوس لونگوس. ودحر أولهما في معركة تيجينوس، قبل ان يهزم ثانيهما في معركة (تريبيا).

(*) Mauors telum Suum Concutit (ليڤي ١:٢٢).

(٧) يصوره [پوليبيوس ٣] رجلاً ذرب اللسان شديد الكبرياء لكنه فاشل كجنرال. فقد كان واثقاً من النصر =

غير المتوقع على الغاليين، أذ حاربهم خلافاً لأوامر مجلس الشيوخ ونصح زميله. ولك يجد فابيوس الاشتباك مع العدّو ينطوي على حكمة - من الجهة الأخرى، لا لأنه كان يعلق مزيداً من الأهتمام على الخوارق(٨) التي كان يراها أشدّ غرابة من امكان فهمها بسهولة، بل لأنه كان يرى القرطاجنيين قليلي العدو يفتقرون الى المال والتجهيزات، فوجد أن خير ما يعمله هو تحاشي الدخول في معركة ضدّ قائدٍ عجم القتال عود جيشه، وبلته المعارك العديدة فلا غاية له الاّ دخول المعركةٍ، بل أن يرسل العون الى حلفائهم، والسيطرة على حركات مختلف المدن الخاضعة وترك قوة اندفاع هنيبعل تتضاءل وتضعف وتنطفيء كاللهب بالافتقارها الى الوقود.

لم تفلح هذه الأسباب الوجيهة في [فلامينيوس] الذي احتجّ قائلاً انه لم يسمح بتقدم العدوّ الى المدينة، ولن يكون مضطراً بالأخير الى الدفاع عن روما من خلف أسوار روما، كما فعل [كاميللوس] في الماضي. وبناء على هذا أمر قادة الفرق بوضع الجيش على خطّ القتال. تأهباً للمعركة، وخرج هو يريد ركوب جواده، وما قفز على صهوته حتى أصيب الحيوان بنوبة هياج لا يعلم سببها ورمح براكبه فسقط فلامينيوس على الأرض، إلاّ أن هذه الإشارة لم تثنه عن عزمه وأستمر في تطبيق خطته وزحف عن هنيبعل الذي كان قد تمركز قرب بحيرة [ثراسيمينه Thrasymene] في توسكانيا وفي لحظة التقاء الجمعين حدثت هزة أرضية دمرت عدة مدن وغيرت مجاري الأنهار وجرفت أطنافاً جبلية عالية ولفرط لهفة المتحاربين الى القتال لم يشعروا قطّ بشيء منها.

وسقط [فلامينيوس] في هذه المعركة صريعاً بعد أن قدم كثيراً من الدلائل على بسالته وأقدامه. وسقط حوله أشجع المحاربين في الجيش، وبلغ مجموع القتلى الكلي خمسة عشر ألفاً. وأسر مثل هذا العدد(٩). ورغب [هنيبعل] في أن يضفي على جثمان [فلامينيوس]

= الى الحدّ الذي كان يوجد في جيشه من العبيد المعيدين بالسلاسل أكثر من الجنود. أحرز هذا النصر في ٢٢٤ ق.م في حين كان اندحاره المتوقع جداً متأتياً من أسباب ثلاثة: فأوّلاً كان جيشه أقل عدداً من جيش عدوه، وثانياً انه أهمل عمل الاستخارات ورفض قراءة الرسائل الواردة اليه من مجلس الشيوخ ولم يفضها إلاّ بعد ختام المعركة. وثالثاً وزّع قواته للمعركة بصورة لاتتفق وأصول الفنّ الحربي. إلاّ ان براعة بعض ضباط ركنه صحح تلك الاخطاء [انظر پوليبيوس: ٢، وليڤي ٢٠: ٤٩].

(٨) لم يكن [فابيوس] زميلاً لـ(فلامينيوس] هنا وانما كان سرڤيليوس جمينوس.

(٩) مع أن هنيبعل نال نصراً ساحقاً إلاّ انه ترك الفاً وخمسمائه قتيل بعضهم مات بعد المعركة متأثراً بجراحه [ليڤي ٢٢:٦]. لقد جرّ الرومان الى كمين نصبه لهم بين مرتفعات كوردتوما وبحير ثراسيمينه. ويتفق بلوتارخ مع ليڤي حول عدد قتلى الرومان الاّ انه يجعل عدد الأسرى ستة آلاف. في حين يؤكد [پوليبيوس] ان العدد أكثر من هذا بكثير. نجا من الرومان حوالي عشرة آلاف كان معظمهم مثخناً بالجراح واتجهوا صوب روما. إلاّ ان أغلبية الجرحى سقطوا موتى على قارعة الطريق. ولفظت والدتان انفاسهما لغلبة عاطفة الفرح عندما شاهدتا ولديهما يدخلان المدينة. =

مراسيم التشييع التكريمية، فقام ببحثٍ مضنى عنه، ولم يجده بين القتلى ولم يعرف مصيره. في المعركة السابقة التي جرت قرب [سِّريبيا] لم يستعمل القائد الذي كتب التقرير عنها، ولا المراسل الذي نقل نبأها، عبارات صريحة واضحة المفهوم[١٠]، ولم توصف بأكثر من معركة غير فاصلة تساوت فيها خسائر الطرفين. ولكن الأمر كان مختلفاً في هذه المعركة اذ ما أن وصلت انباؤها الى البريتور [پومپونيوس Pomponius] حتى جمع الناس وقال لهم بصراحة دون أن يحاول التغطية والموارية: «أيها الرومان! لقد غُلبنا في معركة عظيمة[١١]، القنصل فلامينيوس قد قتل، وعليكم أن تفكروا فيما يجب عمله لسلامتكم».

فكان كمن فتح بأنبائه باباً لريح شديدة على البحر، فماجت المدينة وعمتها فوضى تامة. في هذا الموقف العصيب لم تجد أفكارهم شيئاً ثابتاً تستقرّ عليه. وايقظهم الخطر الداهم أخيراً، فهداهم تفكيرهم افي اتخاذ قرار بتعيين [دكتاتور] قد يتمكن من تصريف الشؤون العامة بسلطة منصبه المطلقة، وبحكمته الخاصة وشجاعته، ووقع اختيارهم بالاجماع على [فابيوس][١٢] الذي بدا خلقه جديراً برفعة المنصب، وعمره متقدم به الى الحَدّ الذي يمنحه الخبرة المنشورة، دون ان يجرده من النشاط وقوة العمل، وجسمه قادر على تنفيذ ما تختاره نفسه، وطبعه هو مزيجٌ منجانسٌ من الثقة والحذر.

بعد أن ثُبت فابيوس في منصب الدكتاتور، قام أولاً بتعيين [لوشيوس مينوشيوس Lucius Minucius][١٣] قائداً للخيالة، ثم طلب من مجلس الشيوخ الأذن لنفسه بأن يوجه القتال في الميدان وهو ممتط حصانه. وهو ما كان محظوراً على القواد العسكريين الرومان بمقتضى قانون قديم. إمّا لأنهم يضعون كل قوتهم في مشاتهم، فيبقون قوادهم العامين معهم. وإمّا ليُذكر القواد دائماً أنه مهما بلغت سلطتهم من الرفعة. فالشعب ومجلس الشيوخ ما زالوا أسيادهم، ومنهم يتلقون الأوامر والأذون. وعلى أية حال ففابيوس عَمد الى احاطة نفسه بفصل كاملٍ من

= وسقط (فلامينيوس) صريعاً. جندله غاليّ يدعى [روكاريوس] بعد ان فتك بضابط ركنه الذي حاول عبثاً أن أن يحمي قائده.

(١٠) كتب سمپروتيوس الى مجلس الشيوخ معتذراً بسوء الطقس عن عجزه على تحقيق النصر (پوليبيوس ٣).

(١١) ليڤي: المرجع نفسه ٧. يقول أن الأمر اليومي الذي أصدره الجنرال لم يكن يزيد عن هذه العبارة «أيها الرومان، أننا خسرنا معركة عظيمة».

(١٢) لايمكن لأحد ان يتولى سلطات الدكتاتور أو يمنح هذا اللقب غير القنصل. ولما كان القنصل الباقي (سرڤيليوس) على رأس جيشه فقد قام الرومان بتعيين [فابيوس] نائباً للدكتاتور [Prodictator] بمبادأة خاصّة وسلطان وتجلى عرفان روما للجميل انهم سمحوا لذريته من بعده بوضع لقب دكتاتور بدلاً من برودكتاتور ضمن قائمة القابه (ليڤي ٢٢:٨ و٣١].

(١٣) پوليبيوس وليڤي [المرجعان السالفان] يثبتان اسمه [ماركوس مينوشيوس روفوس Marcus Minucius Rufus]. ولم يعينه (فابيوس) بل اختاره العموم.

الكتور قوامه اربعة وعشرون يلازمونه بمثابة حرس شخصي ليجعل سلطة واجبه أكثر ظهوراً وبروزاً، والشعب أكثر خضوعاً وطاعة. وعندما يأتي القنصل الباقي لزيارته يبعث يطلب منه صرف حرسه، مع [فاجيانهم] اي سلاحهم أي أن يتجرد من مظهر السلطة ليظهر أمامه شخصاً عادياً.

وأول عمل هام قام به بعد توليه منصب الدكتاتور، كان عملاً دينياً منسجماً تماماً مع الوضع: فقد أصدر بياناً تأنيبياً للشعب ذكر فيه أن هزيمتهم الأخيرة لم يكن سببها افتقار جنودهم الى الشجاعة بل الى إهمالهم شعائرهم الدينية عموماً. وحثّهم على أن يطرحوا كلّ خوف من العدوّ ولم يفعل ذلك بقصد اشغال عقولهم بالاوهام بل لرفع معنوياتهم واستخدام الشعور الديني لبث الشجاعة في نفوسهم وتقليل خوفهم من العدو، والايحاء اليهم بأن السماء تقف في صفهم وعلى هذا الأساس قرر استخارة النبوءات السريّة المعروفة «بكتب كيبيل»، فوجد فيها على ما قيل مختلف النبوءات التي تشير الى أحداث الزمن وتقلبات حظوظه، المقبلة ولكن يحرم عليه أن يكشفها للناس.

ومن ثمّ خرج الدكتاتور الى الشعب ونذر أمامهم قرباناً، يقدم فيه كل نتاج الموسم القادم في ايطاليا كلها، من بقرٍ وماعزٍ وغنم وخنازير في الجبال والسهول وتعهد باقامة الاحتفالات والمهرجانات الموسيقية على أن ينفق عليها مبلغ حُدّد بـ٣٣٣ سسترتيا Sestertia و ٣٣٣ ديناريوس وثلث ديناريوس[١٤] لا غير، وهو يعادل بعملتنا ٨٣٥٨٣ دراخماً وأوبولين. ويصعب علينا معرفة السرّ في تحديد المبلغ بهذا الرقم، إلاّ اذا كان إكراماً للعدد «٣» لأنه أول الأعداد الوترية، وأول رقم يحوي بذات نفسه مصدراً للاعداد، وبكلّ الصفات التي تعود للاعداد عموماً.

وبهذه الوسيلة نفخ فابيوس في قلوب الشعب آمالاً جديدة في المستقبل أذ جعلهم يوقنون ان الارباب تقف الى صفهم. أما هو فقد وضع ثقته في نفسه فحسب، مؤمناً بأن الآلهة لن تمنح النصر، وتنعم بالسعد إلاّ لمن يتحلّى بالبسالة وبعد النظر. وعلى هذا الأساس أنطلق فابيوس لمناجزة [هنيبعل] لا بنيّة التحرش به وجره الى معركة، بل بقصد اضعافه واتعابه بمرور الزمن. وكسب عنصر التفوق العددي والماديّ ومقابلته القلة بالكثرة، فكان يعسكر دائماً في الأراضي المرتفعة لئلا تطاله خيالة العدوّ ويلاحقه بدون هوادة ولا يدعه يغيب عن نظره، فإن سار لحق به وإن عسكر فعل مثله مع محافظته على مسافة كافية بينهما حتى لا يضطره خصمه الى

---

(١٤) الديناريوس عملةٌ تساوي الدراخما ويعادل اربعة سيستيرتي Sestertii وبذلك يكون مجموع السيستيرتي ١/٣ ٣٣٣، ٣٣٤، وبتحويله الى دراخما يصبح ١/٣ ٨٣٥٨٣ وهو ما يتفق مع النص.

خوض معركة. متخيراً دائماً والمرتفعات ليأمن صولة الفرسان. وهكذا لم يدع للعدوّ لحظة واحدة من الراحة وابقاه دوماً في حالة انذار.

وأثارت خطة التأخير هذه في معسكر فابيوس شكاً في إقدامه. وكان هذا الشكّ في معسكر هنيبعل أكثر منه عند الرومان إلاّ أن [هنيبعل] كان الرجل الوحيد الذي لم تنطل عليه الحيلة ولم تفته براعة الخصم وخطته السوقية ولقد أدرك أن القرطاجينيين لن يتمكنوا من أستخدام سلاحهم المتفوق إلاّ اذا أفلح في استدراج الجيش الروماني إو اضطره الى خوض معركة وان قواهم ستتناقص باطراد وستشح ارزاقهم بالتدريج ولن ينالوا من عدوّهم فتيلاً. فعزم على أن يحبط تدابيره هذه بكلّ ما أوتي من حيل ومراوغة حربية. وان يستدرجه الى اشتباك، مثل مصارع عظيم الدهاء، يرصد كل فرصة لينال مسكة جيدة والتحاماً وثيقاً من خصمه. فمرةً كان يهاجم، ومرة كان يحاول صرف انتباهه، وابعاده الى مختلف الجهات، مجاهداً بكلّ وسيلة لاغرائه بالتخلي عن خطته المأمونة. ولم يكن لكلّ هذه الحيل اي تأثير على تصميم الدكتاتور، واصْراره. إلاّ ان الجندي البسيط لم يكن يرى في خطة فابيوس طعماً أو جدوى. بل تعدى هذا الاستحفاف الى آمر الخيّالة نفسه، فمنيوشيوس التواق الى قتال مُبتسر، الجريء الواثق من نفسه كان قبلة انظار الجنود، وقد عمل هو نفسه الى بث الحماسة الهوجاء في نفوسهم وملئها بالآمال الجوفاء التي كانوا ينفسوّن عنها بتوجيه قارص اللوم الى فابيوس. وأطلقوا عليه لقب «مرافق هنيبعل»[١٥] لأنه لم يكن يفعل شيئاً خلا متابعته غدوةً ورواحاً والقيام بانتظاره، ثم راحوا يعلنون قائلين ان [مينوشيوس] هو القائد الوحيد الذي يليق بقيادة الرومان، وهذا ما ملأه فخراً، وإعجاباً بنفسه حتى أخذ يتطاول ساخراً من أختيار فابيوس معسكرات جيشه في شعاب الجبال، قائلاً أنه ليُجلسهم فيها كأنما هم في ملعبٍ مدرجٍ، ليشهدوا منها النيران تأتي على بلادهم والدّمار يعمها. وفي بعض الأحيان كان يسأل أصدقاء فابيوس: هل يقصد صاحبهم بنقلهم من جبلٍ الى آخر، أن يرتفع بهم الى السماء بالاخير لعدم وجود أمل لهم في الأرض؟ أم يقصد أخفاءهم في طيات السحب عن جيش هنيبعل؟ فينقل أصحابه الحديث الى الدكتاتور ويحاولون إقناعه بضرورة الاشتباك وبالعدّو إجتناباً للاستنكار العام. فيجيبهم بقوله: «لأكونن أجبن مما يصوروّنني لو أني تخليت عن فكرتي الخاصّة خوفاً من ملامتهم التافهة. ولست أجد عيباً في أن يتملك المرء خوفٌ على سلامة بلاده؛ لكن من يحيد عن السبيل الذي أعتزمه نزولاً عند رأي آخر، أو خشيه توجيه

(١٥) ذلك لأن وظيفة البيداكوكي منذ القديم وكما يدل عليه الاسم هو رعاية الاطفال في نزهاتهم القصيرة والعودة بهم الى البيت.

اللوم اليه، أو خوف اساءة فهم مقاصده، فهذا غير جدير بمنصبٍ كمنصبي. وبسلوكه هذا يجعل من نفسه عبداً رقيقاً لأولئك الذي كان واجبه تصحيح اخطاءهم وتقويم اعوجاجهم».

ثم سرعان ما ارتكب هنيبعل خطأً كبيراً. أراد ان تستجّم خيول جيشه في اراضٍ جيدة المرعى، والابتعاد بجيشه الى مسافة تخرجه عن رقابة خصمه فأمر ادلاّءه بأخذه الى اقليم [كاسينوم Casinum] [16] وأوهمهم سوء نطقه بالأسم أنه يريد [كاسيلينوم Casilinum] التي يمرّ من وسطها نهر [لوثرونوس Lothronus] (يطلق عليه الرومان اسم فُلتورنوس Vol- turnus] وكانت أراضيها تكتنفها الجبال وليس من منفذ فيها غير الوادي الذي يجرى فيه هذا النهر الى البحر فيصبّ في ساحل وعرٍ جداً غير مأمون - مخلفاً وراءه أراضي سبخة كثيرة المستنقعات وضفافاً رملية عميقة الغور. وتمكن فابيوس لمعرفته بالمسالك والطرق - من الاستدارة بجيشه والوصول الى المنطقة قبل هنيبعل، ووضع نخبة من فرقة قوامها أربعة آلاف مقاتل في مدخل الوادي واقفله. ثم تمركزت بقية الجيش في التلال المجاورة، وأتخذت مواقع مستحكمة، وانتقى وحدة تحمل أخف الأسلحة وأرسلها لمهاجمة مؤخرة [هنيبعل]، وكان نجاحها كبيراً فقد عزلت ثمانمائة من رجاله وأوقعت الفوضى في كل جيشه. ولما أدرك هنيبعل غلطته، وتبين الخطر الذي أحدق به أمر بالادلاء فصلبوا حالاً، ونظر فرأى العدوّ يحتلّ أفضل المواقع وامنعها وان الأمل باختراق جبهته معدوم، في حين أخذ الرعب واليأس يتسربان الى نفوس جنوده وسرى الاعتقاد فيهم بأنهم محاطون بطوق محكم يصعب جداً الخلاص منه.

إلاّ أن هنيبعل لم يقنط في حالته هذه، ولجأ الى حيلة بارعة. أمر بشدّ مشاعل، في قرون ألفين من ثيران معسكره شَدّاً محكماً ثم أشعلها عند حلول الليل وأمر ان تساق الحيوانات نحو المرتفعات المشرفة على الممّر في بطن الوادي، ونحو مواقع العدوّ. وجعل جيشه يسير الهوينا في الظلام خلف قطعان الثيران. وكانت الماشية في مبدأ الأمر تسير بخطى منتظمة بطيئة وتبدو والمشاعل في رؤوسها اشبه بجيش يزحف في الليل، وتثير الدهشة والعجب في نفوس الرعاة وأصحاب المواشي في التلول المجاورة. وعندما بلغت النار جذور قرونها جن

---

(١٦) إجتاح هنيبعل سافينوم وأكتسح أقليم بينيڤنتم وهو مستوطنة رومانية والقى الحصار على تيليسيا وهي مدينة تقع على سفح جبال الإپنين. لكنه وجدان عملياته هذه لم تفد في حمل (فابيوس) على تغيير خطته. فقرر استخدام طعم أكثر اغراء وهو دخول كامپانيا أخصب سهول ايطاليا واجتياحه امام سمعه وبصره لعل ذلك يدفعه الى الاشتباك في معركة. كما أن أحتلال كاسينم سيحول دون ارسال فابيوس نجدات لحلفائه. الاّ ان الخطأ الذي نوه به پلوتارخ في النص. جعل ادلاّءه يأخذونه لا الى سهول (كاسينُم) بل الى خانق كاسيلينوم Casilinum الضيق الذي يفصل سافينوم عن كامپانيا. ويخبرنا ليڤي (١٣:٢٢) ان رئيس الادلاء جُلد وصلب فحسب وهو أكثر احتمالاً لأن هنيبعل لم يؤثر عنه التسرع والاسترسال في الحنق الى حدّ السخف وحرمان نفسه من خدمات الادلاء الآخرين.

جنونها وراحت تعدو هائجة وقد أعماها الالم وتفرقت شذر مذر تهزّ رؤوسها هزاً عنيفاً فتنشر النار حواليها وتشعل اللهيب في الأشجار التي تمرق من بينها. وكان منظراً مفاجئاً لفصائل الحراسة الرومانية على المرتفعات. عندما راؤوا اللهب الذي راؤه كأن مصدره رجال يزحفون بالمشاعل شاع القلق فيهم معتقدين بأن العدوّ يتقدم نحوهم من عدة جهات وانهم مطوقون. فتركوا مواقعهم وخلفوا الممّر وأسرعوا يلوذون بمعسكرهم على التلال. وما أن تمّ انسحابهم حتّى قامت وحدات مشاة هنيبعل الخفيفة حسب أوامره باحتلال المرتفعات، وبعد زمن وجيز وصل الجيش كله باثقاله وسار مجتازاً الممّر آمناً.

قبل يمضي الليل كله أكتشفت فابيوس الخدعة اذ وقع بيده واحدٌ من تلك الثيران، وأبقى جنوده طوال الليل مستعدين بسلاحهم خشية من كمينٍ في الظلام. وما أن انبلج الصبح حتى شرع في مهاجمة مؤخرة العدوّ وكادت الاشتباكات التي حصلت جراء ذلك في الأراضي الوعرة توقع الخلل والفوضى العامة في جيش هنيبعل لو لم يفصل من مقدمة جيشه وحدة اسپانيّة، أشتهر رجالها بمهارتهم في تسلق الجبال فضلاً عن خفتهم وسرعة حركتهم. فأندفعوا نحو الجنود الرومانيين ذوي السلاح الثقيل وقتلوا منهم عدداً كبيراً وبذلك أعجزوا [فابيوس] عن استمراره في مطاردتهم وأجبروه على التوقف. وهذا ما أرى الى السخط الشديد على الدكتاتور وازدياد السخرية به وقالوا: لقد غذا الآن جلياً أن نقصه عن خصمه لا يقتصر على الشجاعة والأقدام فحسب، بل على بعد النظر واصالة الرأي وحسن القيادة وهي المزايا التي وعد أن ينهى بها الحرب.

وعمد هنيبعل الى رفع سخطهم عليه، بزحفه الى المناطق القريبة من ممتلكات فابيوس الخاصة وأراضيه وأمر فعاث جيشه حرقاً وتدميراً بكلّ ما يحيط بها، محظراً أياهم أن يمسوا أملاك خصمه بأدنى ضرر، بل ووضع حرساً عليها، فكان تأثير عمله على الجمهوري الروماني كما توقع ونُقلت انباؤه الى روما. فاشاع التريبيونات عليه آلاف الحكايات المخزية، بتحريك وتحريض من [ميتيليوس Metilius] خاصّةً، ولم يقم بهذا مدفوعاً بحقده على فابيوس، قدر ما كان بدافع صداقته لقريبه [مينوشيوس]. اذ كان يعتقد أن الحطّ من سمعة فابيوس سيرفع من شأن صديقه. وكان مجلس الشيوخ مستاءً من فابيوس أيضاً، الأتفاق الذي عقده مع هنيبعل على تبادل الأسرى، وكانت الشروط تنصّ على أن الفريق الذي يبقى له عدد من الأسرى بعد عملية تبادل رجل برجل، فانه يفتدى بمبلغ مائتين وخمسين[١٧] دراخماً للرأس

---

(١٧) ليفي (٢٢:٢٣) يصف هذه العملية بـ Ardenti Pondo bina et Selibras in militem ومن هذا صرنا نعلم ان اليوندو Pound الروماني يعادل وزناً مائة دراخما يونانية أو (مينا) واحدة. إن عدد فضالـه =

الواحد. وعلى هذا بقي مائتان وأربعون رومانياً بعد التصفية ولم يكتف مجلس الشيوخ برفضه المصادقة على مبلغ الفدية، بل وجه اللوّم لفابيوس على الاتفاق باعتباره غير لائق بشرف الجمهورية ولا متفقاً مع مصلحتها. لأن هذا من شأنه أفتداء رجالٍ أوقعه جنبهم في قبضة العدوّ. وسمع فابيوس كل هذا وأحتمله بصبرٍ لاينفد ولم يكن في حوزته مالٌ، كما أنه كان مصراً على الايفاء بعهده لهنيبعل وأستخلاص الأسرى، فبعث بأبنه الى روما ليبيع ارضاً له ويأتيه بثمنها الكافي للفدية. ففعل ابنه ما أمر به ودفعت الفدية وسُلِمّ الأسرى الذين أبدى معظمهم استعداده لدفعٍ نصيبه من الفدية الى فابيوس فرفض العروض رفضاً باتاً.

وفي حدود ذلك الزمن استدعاه الكهنة الى روما للمشاركة في قربان معيّن، بمقتضى واجبات وظيفته، فأضطر الى ايداع قيادة الجيش الى [مينوشيوس] وقبل أن يرحل لم يكتف بمعاملته معاملة القائد العام بل أخذ يرجوه متوسلاً بالاّ يشتبك في معركة مع هنيبعل اثناء غيابه. لكن أوامره ورجاءه ونصحه ضاعت كلها في [مينوشيوس] إذ ما أن ولاّه ظهره حتى بدأ يبحث عن فرص لمهاجمة هنيبعل، ووردت اليه ابناء عن إرسال العدوّ جماعات كبيرة للنهب والسب فلاحق فصيلة منها وأوقع بها مقتلة عظيمة وطرد البقية الى معسكرتها مشيعاً الرعب في الآخرين الذين أحسوا بوطأة العدو حين أخترق صفوفهم. إلاّ أن هنيبعل عندما سحب كل قواته المتفرقة الى داخل المعسكر قام مينوشيوس بتقهقر منظم دون ان تلحقه خسارة[١٨]. وكان نجاحاً زاد من خيلائه وتهوره، ملأ جنوده، بثقة عالية مندفعة وأنتشرت الانباء في رومه. وقال [فابيوس] عندما أبلغ بذلك: إن أخوف ما يخافه هو نجاح [مينوشيوس] إلاّ أن حماسة الشعب كانت عظيمة، دفعت بهم مسرعين الى [الفورم] ليستمعوا الى خطاب التريبيون [ميتيليوس]، مدح فيه [مينوشيوس] واشاد ببسالته، وبلغ بها أعلى عليين وهاجم [فابيوس] هجوماً عنيفاً واتهمه لا بالافتقار الى الشجاعة وحدها، وانما الى الاخلاص. وليس هو وحده بل كثير من الرجال البارزين وعظمائهم. قائلاً هؤلاء هم الذين جاؤا بالقرطاجنيين الى ايطاليا، وغايتهم سحق حرية الشعب وأستقلاله، ولهذا السبب بادروا فوراً الى وضع السلطة العليا في يد شخصٍ واحدٍ، قد يُعطى بطئه وتأخره، وقتاً كافياً لهنيبعل، حتى يسيطر على ايطاليا، ويمنح أهل قرطاجنة الوقت والفرص لامداده بنجدات جديدة حتى يكمل فتوحه.

= الأسرى الرومان هو ٢٤٧ بحسب زعم ليڤي ومع هذا فانه يختلف عن پلوتارخ في قول الأخير انه مجلس الشيوخ ابى دفع فديتهم. فيقول انما اجل الدفع فحسب.

(١٨) عن ليڤي (٢٢:٢٤) انه خسر خمسة آلاف، بينما لم تكن خسارة العدو تزيد عن هذا بأكثر من ألف.

وتقدم فابيوس الى المنبر وليس في نيته الردّ على التريبيون، وانما ليقول فحسب: بأنه يلزم الاستعجال في تقديم القربان ليسرع في العودة الى الجيش ومعاقبة [مينوشيوس] الذي عمد الى القتال خلافاً لأوامره. فملأت كلماته نفوس السامعين بالاعتقاد بأن حياة [مينوشيوس] هي في خطر لأن الحكم بالموت والسجن هما من سلطات الدكتاتور ولأنهم كانوا يخافون أن يكون فابيوس الوديع الخلق عادةً، صعب التهدئة عند استشارته، قدر ما كان يصعب إثارته. ولم يجسر أحد على رفع صوته بالإحتجاج. إلاّ [ميتيليوس] الذي كان منصبه يمنحه الحصانة ليقول ما يشاء (في فترة سيادة الحكم الدكتاتوري، تبقى لهذه الحاكمية سلطتها ولا تُلغى) فقد ابدى للشعب بجرأة مدافعاً عن [مينوشيوس]، مستصرخاً الجمهور بألاّ يعمل فيه قرباناً لعداوة فابيوس، ولا يسمح بالقضاء عليه مثل ابن [مانيليوس توركواتوس Manlius Torquatus] (*) الذي أحتزّ ابوه رأسه لنصر قاتل في سبيله وربح معركته، خلافاً لأوامره مع انه تكلل بالغار. وأخذ يحثهمّ على سحب السلطات الدكتاتورية من فابيوس، ووضعها في يدٍ أجدر وأقدر وأكثر استعداداً لاستخدامها في مصلحة البلاد. ومع أن هذه الملاحظات خلفتّ في النفوس تأثيراً كبيراً إلاّ أنها لم تبلغ حَدّ عزل فابيوس من منصب الدكتاتور، لكنهم رسموا أن يكون [لمينوشيوس] سلطة معادلة لسلطة الدكتاتور في ادارة دفة الحرب. ولم يكن لهذا سابقة في حينه[19]، إلاّ انه طبق بعد زمن قليل على الهزيمة في [كاني Cannae] فعندما الدكتاتور ماركوس جونيوس يقود الجيش اختاروا في روما [فابيوس بوتيو Fabius Buteo] دكتاتوراً، ليعين شيوخاً جدداً يأخذون امكنة الشيوخ العديدين الذين قتلوا. ولكن ما أن أكمل املاء الشواغر بالعدد الكافي، وبصورة علنية، حتى أستغنى عن حرسه من [اللكتور] وانسحب مع كل بطانته ومضى في تصريف أعمالهُ في الفورم بكلّ هدوء مختلطاً بالناس كأي فردٍ بسيطٍ.

وظنّ أعداء فابيوس أنهم حقروه وسحقوا كبرياءه سحقاً كافياً برفع [مينوشيوس] الى درجة مساوية له. في السلطان. إلاّ أنهم أخطاؤا وجهلوا خلق الرجل. فثم يعتبر حمتهم هذا خسارة له. بل كان مثل [ديوجينس] الذي قيل له أن بعضهم «يهزأون له» فأجاب «لكني لست مهزأة» وقصده من هذا أن المهانين حقاً، هم أولئك الذين تحدث الإهانة فيهم أثراً. وهكذا كان الحال بفابيوس فقد رضخ بهدوء عظيم وعدم مبالاة لما وقع. وقدم برهاناً للفكرة الفلسفية وهي أن الإنسان الصالح المستقيم غير قابل للتحقير. على أن حنقه الوحيد كان متأتياً من خوفه أن

(*) خالف الابن الأمر القنصلي واشتبك مع العدو الاثيني في نزال فردي، في المعركة الكبرى على قدمة جبل شيزوفيوس ٣٤٠ ق.م.

(١٩) يخبرنا ليفي بان مقترح المرسوم هو ترنتيوس ڤارو، الذي ساءت سمعته كثيراً بهزيمته في (كاني).

يؤدي هذا القرار الأخرق، الى خسارة قضية البلاد، باتاحة الفرصة لمرض الطموح العسكري المزمن في مرؤوسه، ولكيلا يؤدي تهور [مينوشيوس] الى تورطه في مأزق، عاد الى الجيش بأقصى السرعة واتم السرية.

فوجد [مينوشيوس] مزهواً مرتفع المعنوية بمنصبه الجديد، حتى انه لم يرض بالسلطة المشتركة وطلب ان تكون قيادة الجيش العامة بالمناوبة، يومٌ له ويوم لفابيوس. فرفض فابيوس طلبه وأقترح قسمة قطعات الجيش وعلّته في هذا ان القائد المنفرد أقدر على قيادة قطعاته العسكرية الخاصة وبهذا تسلم الفرقتين الأولى والرابعة. وأختص [مينوشيوس] بالفرقتين الثانية والثالثة، وقسماً القوات الاحتياطية بينهما بالتساوي.

وبالتعظيم الذي ناله [مينوشيوس] لم يعد يصبر عن التباهي بنصره، عن طريق الازدراء بالمنصب الرفيع والسلطان القوى أعطي الذي منصب الدكتاتور. وذكرّه فابيوس بأناةً ولينٍ، أن الخصم الذي يقارعه هو هنيبعل لا فابيوس، ولكن ان قضت الضرورة عليه أن ينافس زميله، فخير منافسه له هي في مثابرته واهتمامه بالمحافظة على روما لئلاً يقال: رجل أصطفاه الشعب وخصّه بثقته، كانت خدمه أسوء وأقلّ شأناً من رجلٍ أساء الشعب معاملته واذلّه.

ولكن القائد الشاب المستخف بهذا التأنيب، المزدري بالنصح باعتباره تواضع الشيخوخة الكاذب، ارتحل بقواته حالاً وعسكر وحده[٢٠]. ولم يكن هنيبعل غافلاً عن هذه الأحداث، وانما ربض وأخذ يتحين فرصتهُ منها. واتفق أن كان بين جيشه وبين [مينوشيوس] نشزٌ من الأرض، بدأ له موقعاً مفيداً يمكن انشاء مواضع فيه، وكانت الحقول المحيطة به تبدو من بعيدٍ مستويةً متطامنة وان ملأتها الوهاد والتضاريس الوعرة والوديان غير الظاهرة للعين وكان من أسهل الأمور على هنيبعل حيازة هذه الأراضي لو شاء، إلاّ أنه أراد أن يجعلها طُعماً، أو فخاً يقتاد به الرومان الى اشتباك في الموسم الملائم. فلما انفصل [مينوشيوس] عن [فابيوس] رأى الفرصة موآتية لغرضة، ولذلك عمد الى وضع عددٍ كافٍ من جنوده في تلك المغاور والأخاديد ليلاً[٢١]، ثم أرسل في الصباح الباكر وحدة صغيرة، تقدمت حتى أصبحت على مرأى من [مينوشيوس] وبدأت تحتل نشز الأرض، فابتلع مينوشيوس الطعم كما توقع، ودفع أولاً بوحداته الخفيفة، ثم اتبعها ببعض الخيالة لطرد العدوّ، وأخيراً لما شاهد هنيبعل بشخصه يزحف لمعاونة رجاله، تقدم بنسق المعركة، بكلّ قواته والتحم بالقوات المسيطرة على المرتفع

(٢٠) هنا يختلف ليفي مع بلوتارخ احتلافاً جوهرياً بقوله ان الفرقتين الأولى والرابعة كانتا مناطتين بـ(مينوشيوس) في حين اودعت قيادة الثانية والثالثة الى (فابيوس). على ان (پوليبيوس) يخالف الاثنين هذا وقد كانت المسافة بين المعسكرين حوالي الف وخمسمائة خطوة.

(٢١) خمسمائة فارس راجل (پوليبيوس ٣).

وصمد لمقذوفاتهم، وظلّت المعركة زمناً متوازنة، ولكن ما أن تأكد هنيبعل أن الجيش العدوّ كلّه قد تقدم مسافة كافية في تلك السهول الوعرة المتعادية ودخل في الفخاخ التي نصبها بحيث أصبح ظهره مكشوفاً لرجاله الكامنين في المغاور والأخاديد، حتى أعطى الاشارة فبرزوا من مخابئهم واندفعوا يهاجمون مؤخرة مينوشيوس من كلّ جهةٍ وهم يصيحيون صيحات مرعبة. وكانت المفاجأة عظيمة والمقتلة أعظم، وأصابت الجيش الروماني فوضى عامة وأختلت صفوفه. وفقد [مينوشيوس] ثقته بنفسه وأخذ ينقل ابصاره من ضابط الى آخر. فوجد الجميع غير مستعدين لمواجهة الخطر على السواء. يميلون الى الفرار، ولم يكن الفرار مأموناً كذلك، لأن الخيالة النوميديين Numidia كانوا قد أنتشروا في ارجاء السهل يجرون اذيال النصر، وهم يعقبون المنهزمين ويمزقونهم تمزيقاً.

لم يكن فابيوس يجهل الخطر المحدق ببني قومه. وقد أدرك ماذا سيحدث جراء تهور [مينوشيوس] ومكر هنيبعل لذلك أبقى رجاله في حالة الإنذار وسلاحهم بأيديهم متأهبين لتعاقب الأحداث. كما أنه لم يضع ثقته في تقارير الآخرين وانما راح يستطلع هو بنفسه كل ما حدث على رأس جيشه، فلما وجد جيش [مينوشيوس] يحيط به العدوّ وان التنقلات الأرضية ومظاهر القتال تدل على أنهم أقرب الى الهزيمة منهم للصمود ضرب منكبه بكفّه[٢٢] وأطلق تنهيدة عميقة وقال لمن حوله «ايه يا هرقل! لكم كان [مينوشيوس] أسرع الى تدمير نفسه مما توقعت وإن بدأ الأمر أبطا مما اراد هو!». ثم أمر حامل الراية بالتقدم الى الامام وسار الجيش خلفه، وهو في الطليعة يحثهم قائلاً «علينا أن نسرع لانقاذ مينوشيوس الباسل المحبّ لوطنه وإذا كان قد تعجّل في قتال الاعداء، فسنتحدث اليه عن هذا في وقت آخر».

وهكذا صال فابيوس على العدوّ وهو في الطليعة وطهر السهل من النوميديين بالأول، ثم انقض على الوحدات التي تهاجم مؤخرة الرومان وأباد كل من وقف في سبيله واجبر فلولها على التقهقر السريع انقاذاً لحياتها ولئلا تكون حالها حال الرومان المطوقين. ولما رأى هنيبعل رجحان الكفّة السريع، وفابيوس يشقّ طريقه صعداً، نحو المرتفع بين صفوف الجند، غير مبالٍ بالجهد الذي تتحمله سنّه المتقدمة، وانه قد يتمكن من الانضمام الى [مينوشيوس]، نكص على أعقابه وأطلق بوق التقهقر وسحب قواته الى معسكرهم، ولم يكن الرومان بأقل رغبة منهم في الارتداد سالمين. وقيل أن هنيبعل قال لأصدقائه مستندراً بهذه المناسبة: «ألم أقل لكم أن هذه السحابة[٢٣] التي كانت تحوّم دائماً فوق الجبل ستنقضّ علينا بعاصفةٍ، إن عاجلاً أو آجلاً؟»

---

(٢٢) ينوه هوميروس بعادة ضرب الفخذ بالكف في ساعة الخطر أو المفاجأة ويضرب الجبين بالكف بدلاً من الفخذ أحياناً.

(٢٣) يورد ليڤي قول فابيوس بهذا النص: =

وآب فابيوس الى معسكره بعد أن جمع رجاله الأسلاب من ميدان القتال. دون أن يوجه كلمة لوم، أو عبارة قاسية لزميله. وجمع [مينوشيوس] أفراد جيشه معاً وخاطبهم بقوله:

- قيادة جيش عظيم بلا خطأ، أمرٌ يفوق طاقة البشر، لكن التعلم من الاخطاء والاتعاض بها، هو مما يليق بالرجل العاقل الصالح. قد تحملني اسبابٌ معينة على الشكوى من الأقدار لكن لدي أسباباً أكثر منها تحملني على شكرها، ففي ساعات معدودات أصلحت خطأ طويل اللبث مزمناً، وعلمتني باني غير جدير بقيادة الآخرين، بل محتاجٌ الى ان يقودني الآخرون. كما علمتني بالاّ نحاول التفوق على من كان العمل برأيهم فائدة لنا. لذلك سيكون الدكتاتور قائداً لكم في كل الأمور، أمّا أنا فبقائي علي رأسكم الآن، يحدوني اليه اظهار امتناني له ليس الاّ، ولأكون أول من يطيع أمره».

وبعد أن فرغ من كلامه أصدر أمراً بتقدم كل النسور الرومانية وان يتبعه كل رجال جيشه الى معسكر [فابيوس]. وجمد الجنود ذاهلين لطرافة المنظر عندما دخل، وعلتهم الحيرة والشك في الغرض من هذه المظاهرة، ولما دنا من خيمة الدكتاتور خرج هذا لاستقباله، فأسرع [مينوشيوس] وألقى براياته تحت قدميه ونادياً أياه بيا أبي! بصوت مرتفع. بينما حيّا جنوده، زملاءهم في المعسكر كما يحيون الأسياد المحسنين وهي التحية الواجبة على العبيد المعتوقين لأولئك الذين انالوهم حريتهم. وبعد ان هدأت الضجة وساد الصمت انشأ [مينوشيوس] يقول:

- لقد أحرزت أيها الدكتاتور نصرين في هذا اليوم، أحدهما نصر على هنيبعل وكان سبيلك اليه بسألتُك وحنكتُك، والنصر الثاني على زميلك، وكان سبيلك اليه حكمتك وطيبتك بالنصر الأول انقذتنا وبالنصر الثاني ثقفتنا. وعندما كان يجللنا عار الهزيمة على يد هنيبعل جاءت هزيمة أخرى له على يدك فاعادت الينا شرفنا وسلمت ارواحنا. واني لا أجد أسماً اناديك به أعزّ وانبل من اسم الأب المشفق. وان كانت بركة الأب لا تداني ما حبوتني به. من أبٍ ظفرت وحدي بنعمة الحياة. واليك انا مدين ليس بها وحدها، بل بحياة كل من هم تحت أمرتي.

ثم أنه ألقى نفسه بين ذراعي الدكتاتور. وفعل افراد الجيش كذلك بعضهم ببعض وهم مسرورون والدموع تجول في أعينهم.

لم يمرّ طويل زمن على هذا، حتى أعتزل فابيوس منصب الدكتاتور وأعاد الحكم للقناصل[٢٤]. وطبق من خلفه أسلوبه في ادارة الحرب. وأجتنبوا كلّ التحامٍ بهنيبعل في

= Non Celerius Quam Timui, Depehemdit Fortun a Temeritatem.

(٢٤) ليفي (٢٢:٣٢) استعفى (فابيوس) من منصب الدكتاتور بعد انقضاء الأشهر الستة وسلم القيادة الى =

معركة فاصلة. وقصروا مجهودهم على أمداد حلفائهم بالمساعدات، والمحافظة على المدن والحيلولة دون سقوطها بيد الاعداء. ثم تولى القنصليّة [تيرنيتوس ڤارو Ternitius Varro] (٢٥) بعد زمن، وهو رجلٌ مجهول النسب خامله، إلاّ أنه جريء مقدام يتمتع بشعبية كبيرة، وبدأ واضحاً أنه مزمع على توريط البلاد كلها في مخاطر جسيمة بتهوره وجهله. فقد راح يوالي الخطب في المجالس قائلاً: مادامت روما تعهد بقيادة جيوشها الى امثال فابيوس فلن تكون للحرب نهاية. وأخذ يتبجّح بقوله أنه سيحرر أرض ايطاليا من قبضة الأجنبي في اليوم الذي يقع نظرَه على العدوّ. وبهذه الوعود التي بذلها ونادى بها، إمكنه ان يعبيء أعظم جيشٍ جردته روما لقتالٍ. فقد جنّد فيه ثمانية وثمانين ألف مقاتل(٢٦). إلاّ أن ما كان يوحي بالثقة لعامة الشعب، كان من جهة أخرى يصيب العقلاء المجرمين بالرعب وليس فيهم أكثر خوفاً من فابيوس. فلو قُدّر لهذا العدد الضخم من زهرة شباب الرومان أن يباد في القتال، لضاع كلّ أمل في سلامة روما، اذ لا احتياطي آخر لها غيره. وعلى هذا الأساس راجعوا القنصل الثاني [اميليوس پاولوس Aemilius Paulus] وهو رجل ذو تجارب عظيمة في الشؤون الحربية إلاّ أنه لايتمتع بشعبية، فضلاً عن شدة خوف فيه من الجماهير، تولدّ عن إدانتها له لمخالفةٍ ما أرتكبها(٢٧). فحكم ولذلك كان بحاجةٍ الى التشجيع ليحدّ من اندفاع زميله الأهوج. قال له فابيوس:!

- إن شئت أن تؤدي الى بلادك خدمة نصوحاً وتكون نافعاً لها، فعليك أن لا تكون أقلّ معارضةً لاندفاع [ڤارو] الأحمق من يقظة هنيبعل المستوفزة. لأن كلاهما اتفقا على تقرير مصير روما بمعركةٍ حربيةٍ. والأجدر بك والأقرب الى العقل أن تصدقنّي أكثر مما تصدق[ڤارو] في كل ما يتعلق بهنيبعل، عندما أقول لك: انه اذا أمتنعت خلال هذا العام عن قتاله. فإما سيهلك جيشه من تلقاء نفسه، وامّا سيكون مسروراً للرحيل بمحض

= قنصلي تلك السنة [سرڤيوس] و[اتيليوس] والأخير حلّ محل [فلامينيوس] الذي صرع في ثراسيميي. وپلوتارخ يقتضي خطى [پوليبيوس] في سرد هذه الاحداث.

(٢٥) ابن قصّاب، ورث مهنة ابيه في شبابه لكنه أغتنى فعاف حرفته الحقيرة واستجلب قلوب الجمهور بدعم أكثر التريبيونات فوضويةً وحبّاً للشغب وبهذا الاسلوب وصل الى منصب القنصلية (ليڤي ٢٢:٢٦).

(٢٦) جرى العرف الروماني على تجنيد اربع فرق عسكرية كل سنة. في الأوقات العصيبة والازمات تؤلف الفرقة الواحدة من خمسة آلاف راجل روماني وثلاثمائة فارس وكتيبة لاتينية واحدة بعدد متساوٍ من المشاة وضعف العدد من الخيالة. ويبلغ المجمع الكلي لقوة هذه الفرق البشرية ٤٣٠٠٠ مقاتل. إلاّ انهم جندوا بهذه المناسبة ثماني فرق بدلاً من أربعة. امّا ليڤي فيكتفي بالقول ان القوات المجندة كانت ضخمة جداً.

(٢٧) كان هو واخوه قد حققا نصراً على الالليريين واخضاهم لكنهما اتهما بالتحيز في تقسيم الغنائم، أو كما يقول [اوريليوس ڤكتور] باختلاس الأموال العامّة. وثبت عليهما ذلك وفرضت عليهما غرامة كبيرة وكانت غرامة أميليوس أقل (ليڤي ٢٢:٣٥).

اختياره. ويظهر هذا بجلاء من نفور البلاد والمدن الايطالية كلها من محالفته، وان جيشه الآن يكاد لا يبلغ ثلث ما كان عند أول مجيئه، ودعك من كل الانتصارات التي أحرزها.

فأجاب [پاولوس] على هذا [كما ذكر بعضهم]:

- لو اني أخذت شخصي فحسب بنظر الإعتبار لفضلّت تعريض صدري لاسلحة هنيبعل عن تعريضه مرّة أخرى لقضاء بني قومي الذين هم شديد والرغبة فيما لا توافقون عليه. ومع هذا، ومادام مصير روما في كفة القدر، فالأحرى بشخصي وخلقي أن أرضي وأطيع [فابيوس] ولو أجتمع عليّ الثقلان والعالم كله.

هذه التدابير السديدة، هزمتها لجاجة [ڤارو] وتسرعّه فعندما خرج القنصلان معاً لتسلّم قيادة الجيش لم يتوصل الى حَلّ غير القيادة المنفصلة اي أنّ كل قنصل يتناوب القيادة يوماً[٢٨].

وبحلول يوم [ڤارو] في القيادة أختار موضع الجيش بمواجهة هنيبعل في قرية تدعى [كانيّ Cannae][٢٩] بالقرب من نهر [اوفيدس Aufidus]. وانتهز أول يومٍ آخر لقيادته فنشر العباءة القرمزية فوق خيمته وهي اشارة المعركة. وأفزعت القرطاجنيين تلك الجرأة، وتفوق العدوّ العددي الذي ناهز الضعف. إلاّ أن هنيبعل أمر بالتأهب واعتداد السلاح وخرج مع بطانة قليلة للإستطلاع ومتابعة تحركات العدوّ وهو ينظم صفوفه للمعركة من مرتفعٍ لا يبعد كثيراً عنهم. وانبرى [غيسكو Gisco] القرطاجنّي (وهو من اتباعه المساوين له في المقام) يقول: إن عدد جيش العدوّ مدهش فأجابه هنيبعل بلهجة جدٍ لا أثر منها للمزاح: «هناك يا غيسكو شيء واحدٌ إدعى الى الدهشة، غاب عن ملاحظتك» ولما سأله غيسكو عَمّا هو؟ قال: «في كلّ هذه الجموع الزاخرة أمامنا لايوجد شخص واحدٌ اسمه غيسكو» وأغرقت السريّة كلها في الضحك لهذه المزحة غير المنتظرة من قائدهم. وعندما هبطوا من المرتفع ونقلوها لمن لقوه فكان الضحك عاماً متواصلاً، لا قبل لهم بوقفه، ولما شاهد الجيشُ حاشية هنيبعل تعود من مهمة الاستطلاع وهي مغرقة في الضحك والمزاح، استنتج أنه دليل على الازدراء العميق بالعدوّ. وأن ضعفه هو الذي جعل قائدهم في تلك الساعة منشرح المزاج.

---

(٢٨) يقع پلوتارخ في خطأ. فقد كانت القاعدة الأصولية عند الرومان ان القناصل يتناوبون قيادة الجيش اثناء ما يكون الاثنان في الواجب عينه (پوليبيوس: ٣).

(٢٩) يقول [ليڤي واپيان وفلورس] ان (كانيّ) هي قرية حقيرة خاملة اشتهرت للمعركة التي جرت قريباً منها. إلاّ أن پوليبيوس الذي عاصر الحروب الفيونية يصفها بالمدينة قائلاً انها دمرت قبل سنة واحدة من اندحار الجيش الروماني. وفي هذا يوافقه سيليوس ايتالكوس، بعد ذلك اعيد بناؤها اذ ان (پليني) يصنفها بين مدن (ابوليا). وما تزال خرائبها شاخصة حتى يومنا هذا بالقرب من مدينة (باري).

وكعادة هنيبعل، لجأ الى الحيلة والستراتيج للافادة من الموقف. ففي المقام الأولى، نظم صفوف رجاله بحيث يكون مهّب الريح(٣٠) من خلفهم وكان اتجاهها في ذلك الوقت نحو الانقلاب الى عاصفة هوجاء تامة تكتسح السهول الرملية العظيمة وتحمل باندفاعها سحابة من الغبار فوق الجيش القرطاجنيّ وتلقى بحملها في وجوه الرومان، فتلحق بهم أذى عظيماً وتعوقهم في القتال كثيراً، وعمد في المقام الثاني الى وضع خيرة رجاله في الجناحين. أما القلب فقد وضع فيه اسوء وحدات جيشه واضعفها. وأوصى الجناحين بتطبيق الخطة التالية: عندما يقوم العدوّ بهجوم كاسح على قلب الوحدات المتقدمة التي يعلم انها ستتقهقر لعجزها عن احتمال الصدمة وعندما يتقدم الرومان في مطاردتهم ويكونون مشتبكين بالقتال على مسافة كافية ما بين الجناحين. فعلى الميمنة والميسرة أن تطبقا من الجانبين عليهم، وتحاولا تطويقهم(٣١). ويظهر أن هذا هو السبب الرئيس في خسران الرومان. فقد القوا بكامل ثقلهم على قلب هنيبعل فتقهقر، فاستحال شكل جيشه الى هلال كامل، ومنحوا فرصة نادرة لضبّاط القوات المختارة للهجوم عليهم من اليمين واليسار على الجناحين. وأوقعوا تقتيلاً وابادةً بكلّ من لم يرتدّ الى الخلف قبل أن يتصل جناحا القرطاجنيين في مؤخرتهم. والى هذه الكارثة العامة قيل أن خطأ غريباً حصل عند قوات الخيالة قد ساهم فيها. فقد أصيب جواد اميليوس باذىً فرمح سيدّه. فترجل عدد من الفرسان المحيطين به حالاً لمعاونته. ولما رأى الجنود الرومان قادتهم يتركون خيلهم، ظنوها إيعازاً لهم بالترجل هم ايضاً والهجوم على العدوّ راجلين. وسمع هنيبعل يقول وهو ينظر الى المشهد: «إني لأعظم سروراً بهذا، مما لو جيء بهم إليّ مقيدين أيادي وأرجلاً»(*). وعن تفاصيل هذه الموقعة نحيل قارئنا الى أولئك الكتاب الذين كتبوا عنها بتوسعٍ(٣٢).

وفرّ القنصل [ڤارو] الى [ڤينوسيا Venusi] بشرذمةٍ من الاتباع أما [اميليوس پاولوس]، فبعد أن عجز تماماً عن ايقاف هزيمة رجاله، جلس على صخرة وجسمه كله تغطيه الجراح، وروحه لاتقل عن جسمه جراحاً متوقعاً أن يُرحم بضربة قاضية. وبلغ تشويه وجهه وكثره الدماء

---

(٣٠) هذه الريح الحارة التي تهب من الشرق والجنوب. يسميها ليڤي ٢٢:٤٦ [ڤولتورنوس] واسمها الحديث [سيروكّو]. ولما كان الجيش الروماني يواجه الجنوب فقد عانى منها الكثير وساءت حاله بها. والتأثير المعروف الذي تخدثه هو الخمول والضعف بدرجة كبيرة.

(٣١) يذكر ليڤي خطة أخرى لجأ اليها هنيبعل. فقد تظاهر خمسمائة من افارقته النوميديين بالانضمام الى صفوف الرومان الاّ انهم انقلبوا عليهم عند احتدام المعركة وهاجموا الجنود الرومان من الخلف.

(*) النص في ليڤي ٢:٤٩: Quam Mallem vinetod mihi trodeset.

(٣٢) لاسيّما پوليبيوس وليڤي (٢٢: ٤٧–٤٩) الذي كان پلوتارخ يعتمده اعتماداً رئيساً. على انهما لم ينجحا قط في اعطاء فكرة دقيقة واضحة عن الخطة التي أعتمدها هنيبعل في المعركة بصورة عامة.

التي تلطخه مبلغاً لم يعد معه معروفاً من أقرب أصدقائه وخدمه أثناء مرورهم به. وأخيراً عرفه الشاب الپاتريشي [كورنيليوس لينتولوس Cornelius Lentulus] فترجل عن حصانه وعرضه عليه طالباً فيه أن ينهض وينجو بحياته الضروريّة لسلامة البلاد. التي هي الآن في أمسّ الحاجة الى قائد عظيم مثله. ولكن لم يثنه شيء عن عزمه أو يقنعه بقبول العرض ورجا الفتى [لينتولوس] والدموع تجول في عينيه أن يمتطي حصانه. ثم أستوى قائماً ومد اليه يده مصافحاً وأمره أن يبلغ [فابيوس ماكسيموس] بأن [اميليوس پاولوس] قد أتبع توصياته الى النهاية ولم يحد قيد أنملة عن تلك الآراء التي تمّ التفاهم عليها بينهما. ولكن سوء حظّ جعل [ڤارو] يتغلّب عليه بالدرجة الأولى وهنيبعل بالدرجة الثانية. وبعد أن زوّد [لينتولوس] بتوصيته وصرفه، توجه الى مثار النقع حيث المعركة حامية الوطيس والقى بنفسه على سيوف العدوّ. وقيل أن الرومان خسروا في هذه الموقعة خمسين ألف قتيل(٣٣)، وأربعة آلاف أسير أستسلموا في ميدان القتال وعشرة آلاف أخذوا في معسكري القنصلين.

والحّ أصحاب هنيبعل لإقناعه باستثمار فوزه، ومطاردة الرومان المنهزمين حتى ابواب روما، مؤكدين له أن لن تمرّ عليه خمسة ايام الاّ ويكون في الكاپيتول يتناول عشاءه. وليس من السهل التكهن بالاعتبارات التي منعته من ذلك. وقد يبدو أنّ التدخل الرباني هو الذي سبب التردد والاحجام الذي ابداه الآن، وحمل [باركاس Barcas] القرطاجنيّ على أن يقول له ساخطاً: «إنك يا هنيبعل تعرف كيف تحرز النصر، إلاّ أنك لا تعرف كيف تفيد منه(٣٤)» على أن هذه الموقعة أحدثت تبدلاً عجيباً في أموره. فقد أصبح فهو السيد المطلق على أفضل الأقاليم والمدن في ايطاليا(٣٥)، وسيطر على [كاپوا Capua] نفسها التي تلي روما بالأهمية

---

(٣٣) ليڤي في المرجع السالف يذكر ان الرومان خسروا عشرين ألفاً وان حلفاءهم خسروا مثل هذا العدد فضلاً عن (٢٧٠٠) خيال بينهم كويستوران وواحد وعشرون تريبيوناً وعدد ممن كان قد تولى مناصب القنصلية والپريتورية والايديليّة ويخصّ منهم بالذكر سرڤيليوس جمينوس، ومينوشيوس قائد الفرسان. فضلاً عن ثمانين شيخاً من الاعضاء الحاليين في المجلس أو المنتخبين للدورة القادمة وكانوا قد تطوعوا للقتال. ووقع ثلاثة آلاف راجل في الأسر وثلاثمائة من الخيالة، يقول أيضاً ان هذا النصر كلّف القرطاجيين ثمانية آلاف من اشجع مقاتليهم. ويزع (پوليبيوس) ان سبعين ألفاً قد قتلوا وان أكثر من عشرة آلاف. من غرائب ما وقع انه وجدوا نوميديّا حياً تحت روماني ميت. كان الروماني قد بترت يداه فعجز عن استخدام سلاحه للقضاء على النوميدي فألقى بثقله عليه وباسنانه قطع اذنيه وانفه قبل أن يفارق الحياة (ليڤي المرجع نفسه ٥١).

(٣٤) يصور ليڤي (مهربال) هكذا Tum Maharbal: "Non omnia nimirum eidum di dedere Vincere scis Hannibal victoria ati nesas. ومهربال هو قائد الخيالة الرومانية. ولعله ذلك الذي كان يلقب بـ(باركاس) مثل هملقار. أن زوموراس يحدثنا بأن هنيبعل ادرك غلطه فيما بعد حين أمسك عن تعقيب فلول العدو بعد انتصاره. وقد اعتاد أن يهتف متحسراً في أحيان كثيرة: آه لي من كاني! آه لي من كاني.

(٣٥) الايوليوّن، والسامنيت، والتارنت وغيرهم.

والغنيّة الزاهرة، كل ذلك وقع بيده وخضع لحكمه، وهو الذي لم يكن قبلها - يملك مدينة واحدة أو سوقاً أو ميناءً، خالي الوفاض معدماً لايجد ما يطعم به رجاله إلاّ ما يأتيه عن طريق النهب من يومٍ الى يوم، ولا موضع ينسحب اليه ويتحصن فيه أو يتخذه قاعدة لعملياته، وانما كان يطوّف على غير هدى كأنما يقود عصابة ضخمة من الأفّاقين.

هناك قول ليوربيدس «يكون المرء في وضع سيّء حين يتوجب عليه أن يمتحن صديقاً كذلك يبدو أن وضع دولة ما لن يكون فضل عندما ترى نفسها بحاجة الى قائدٍ كفوء». وهذا ما كان عليه الرومان في ذلك الحين. فنصائح فابيوس، واعماله التي نعتوها قبل الموقعة بالجبن والخوف، صاروا ينظرون اليها الآن من الزاوية المعاكسة القصوى ووجدوا فيها ما فاق حكمة البشر السويّ. حتى لكأن للقدرة الآلهية يداً في هذه النظرة البعيدة، وانها التي تكهنت بغم فابيوس بنتيجةٍ صعب تصديقها حتى بعد وقوعها خلافاً لحكم الآخرين جميعاً. ولهذا بادروا الى وضع كلّ ما بقي لديهم من آمل فيه. وكانت حكمته الهيكل المقدس والمعبد الذي لاذوا بحماه بغية النجاة. ولقد منعتهم نصائحه أكثر من أيّ شيء آخر، من التشرد وترك مدينتهم، كما كان الوضع عندما أستولى الغاليّون على روما. وهذا الذي كانوا يعتبرونه خائر القلب رعديداً عندما كانوا - حسبما توهموا - في أمانٍ ومنعةٍ، صار الآن الرجل الوحيد الذي لم يظهر أثراً لخوفٍ في هذا الإضطراب والشقاء العام غير المحدود. وانما كان يسير في الشوارع بهدوءٍ وثقةٍ يكلّم ابناء قومه ويبادلهم الحديث ويضع حداً لانتحاب النساء، ويكبح الاجتماعات العامة التي يتولى عقدها من يريد التنفيس منهم عن كربه واحزانه. وبسعي منه عقد الشيوخ اجتماعاً، أو شاع روح الأمل في الحكام وكان هو نفسه روح كلّ دائرةٍ وحياتها.

ووضع حرساً على أبواب المدينة لمنع الأهالي الخائفين من مغادرتها ونظم واختصر مراسيم الحداد على القتلى زماناً ومكاناً. وأمر أن تقوم كل أسرة بما يقتضى من هذه الشعائر داخل المنازل وان لا تزيد مدة ممارستها عن شهر واحدٍ، يقوم أهل المدينة كلهم بالتطهر وفك الحداد بعد نهايته مباشرةً، وقررّ الغاء الاحتفال بعيد [چيرس Ceres] (٣٦) الذي وقع في تلك الاثناء لئلا تنكشف قلةُ المحتفلين به، ومظاهرُ حزنهم وبؤسهم، عَظِمَ الخسارة التي وقعت. فضلاً عن أن العبادة الأكثر قبولاً عند الآلهة هي التي تنبع من قلوبٍ منشرحة. على الشعائر المتعلقة بتهدئة غضبها وأطلاب إشارات سماوية ومع ذلك فقد اقيمت بخير ما امكن تحت

(٣٦) لم يكن هذا السبب الحقيقي المؤدي الى الغاء العيد ويقع عادة في الثاني عشر من شهر نيسان. بل لأنه يحرم على الذين يقضون ايام الحداد ان يُعيّدوا فيه. وانك لاتجد وقتذاك امرأة في روما إلاّ وهي في حداد. والواقع هو ان الاحتفال بالعيد أجل حتى نهاية فترة الحداد التي أختصرت الى ثلاثين يوماً كي لا تتأخر المراسيم الدينية الخاصّة والعامة أكثر مما تأخرت.

اشراف الكهنة والعرافين وارسل [فابيوس پكتور F. Pictor] وهو قريب لفابيوس ماكسيموس الى دلفي ليستوحي نبوءةً من العرافة. وفي ذلك الزمن تحقق زنى [ڤستالتين] فقتلت واحدة نفسها، ودفنت الثانية حيةً كما جرى به العرف(٣٧).

دعنا قبل كلّ شيء نبدي أعجابنا بالمعنوية العالية والتماسك الشديد اللذين تتمتع بها هذه الجمهورية الرومانية. فعندما جاء [ڤارو] مدحوراً مهزوماً يجلله الذلّ والعار، وبعد أن آل أسلوب تصريفه الأمور الى النكبة والخزي خرج الشيوخ والعامة جميعاً لاستقباله عند أبواب المدينة، وأضفوا عليه كل مظاهر التكريم والاحترام. وبعد ان ساد السكون أخذ الحكام ورؤوس الشيوخ ومنهم فابيوس، يثنون عليه امام الشعب لأنه لم ييأس من سلامة الجمهورية بعد هذه الخسارة الفادحة وانما جاء ليتسلم مقاليد الحكم بيده وينفذ أحكام القوانين ويعاون ابناء قومه في جهودهم لأجل نصرٍ مقبل(٣٨).

وبدأت قلوب الرومان تنبض بالحياة وتنتعش عندما وصلت الى روما ابناء تشير الى ان هنيبعل زحف بجيشه الى انحاء أخرى من ايطاليا على أثر المعركة، وطفقوا يبعثون بالقادة والجيوش لمناجزته. وأختص بأعلى القيادتين [فابيوس ماكسيموس] و[كلوديوس مارچللوس Claudius Marcellus] وكلاهما من المشاهير، ولكن على أسسٍ مختلفة. فمارچللوس كان كما ذكرنا في سيرته. رجل أعمالٍ وإقدامٍ، سريعاً جريئاً بشخصه - وكما وصف هوميروس ابطاله: عنيف يعشق القتال. وكان تاكتيه الحربي الذي واجه به هنيبعل الاقدام والجرأة وحب المغامرة، وهو الطابع الذي اتسمت به معاركه. إلاّ أن فابيوس ظلّ مقيماً على مبدئه الأول وما زال مقتنعاً بأن متابعة هنيبعل دون قتاله كفيل على الأقل بانهاكه والقضاء عليه مثل مصارع بلغ نهاية طاقته. وباستعمال كلّ قواه، غالباً ما تراه يستنفدها فجأة فيتهاوى منهوكاً ويخسر الشوط. ويذكر لنا [پوسيدونيوس] أن الرومان يسمون مارچللوس سيفهم، وفابيوس درعهم. ومن قوة الأول وثبات الثاني، يخرج مزيج يكون فيه خلاص روما. ووجد هنيبعل بالتجربة إن اصطدامه بأولهما يشبه التقاءه بنهر ثرثار سريع المجرى يدفع به الى الخلف إلاّ أنه لايعدم أن

---

(٣٧) يضيف ليڤي [المرجع السالف ٥٧] ان [كانتيليوس] عشيق احداهن جلد حتى فاضت روحه. وان الديكاميتر راجعوا كتب الكبيل فأمروا باربع ضحايا بشرية «تدفن أحياءً في سوق الحيوانات: ذكر وانثى اغريقيان. واثنان من أهالي اليونان.

(٣٨) من تعليق [ليڤي] على هذا قوله «ولو كان جنرالاً قرطاجيّاً للقي شرّ ميتة. ويحدثنا ڤاليرويوس ماكسيموس [٤:٣ و ٤:٥] قائلاً ان الشيوخ والعامة حزموا عن طورهم بأن عرضوا عليه منصب الدكتاتور، إلا انه رفضه بكلّ تواضع. ويخبرنا فرونتينوس [٤: ٥-٦] انه ظلّ بقية حياته مرسلاً شعر ذقنه ورأسه لا ياكل على اريكه كغيره من الرومان ويقول عندما يقابل بمظاهر التكريم ان على الرومان أن يحظوا بحكام أوفر حظاً منه.

يعمل كسراً في ضفافه، وأمّا الثاني، فمع أنه يمرّ بالقرب منه هادئاً ساكناً، فهو يجرفه ويلتهمه التهاماً. وأخيراً أستقر رأيه على هذا: انه يخشى [مارچللوس] عندما يتحرك. ويخشى [فابيوس] عندما يكون ساكناً. وكان عليه طوال تلك الحرب أن يواجه أحدهما أو كليهما. فكلّ من هذين القائدين تولى منصب القنصلية خمس مرات، وبقيا جزءاً دائماً في جهاز القيادة العسكرية إمّا بصفة قنصل أو برو قنصل أو بريتور، حتى وقع [مارچللوس] في الفخ الذي نصبه له هنيبعل وقتل وهو قنصل للمرة الخامسة. إلاّ أن كلّ مكره وبراعته لم يفلح مع [فابيوس] فلم يتعرض هذا للخطر إلاّ مرة واحدة. وذلك عندما وردته رسائل مزورة عن لسان أعيان مدينة [ميتاپونتوم Metapontum] يعدونه فيها بتسليم مدينتهم إن قدم اليها بجيشه، وبالصداقة والتحالف الذي ينتظره. وكاد يقع فريسة لهذه المؤامرة، إلاّ انه قررّ التقدم نحوها بجزءٍ من قواته. بعد استطلاع الحظ من مسرى الطير فوجدها تشير سوء العقبى فعدل عن مسيره. ومالبث أن علم بأن الرسائل من صنع هنيبعل الذي أعد لاستقباله كميناً محكماً، وحرّي بنا أن نعزو هذا الحظ الى بركة الآلهة أكثر مما نعزوه الى بُعد نظر [فابيوس].

كان مسلكه رائعاً في اجتناب تمرد المدن وثورة الحلفاء بالمعاملة الرقيقة العادلة، وعدم استخدام الشدة أو اظهار الشكّ عند أقل اشتباهٍ. وذُكر عنه أنه أبلغ عن شخصٍ يدعى [مارسيان Marsian][٣٩] مشهور بالبسالة معروف بشرف النسب، بأنه كان يكلم بعض الجنود سراً، عن الهروب من الجيش. فلم يلجأ فابيوس الى استخدام أي شدّةٍ معه، بل بعث في طلبه وقال له إنه ليعلم بالأهمال الذي أصاب مؤهلاته وخدماته الممتازة، وهو خطأ عظيم من الضباط الذين يمنحون مكافأتهم لا على أساس الكفاءة والمؤهلات، بل على غلطة منك إن شعرت بغبنٍ وراجعت أحداً غيري». ثم أنه خلع عليه جواداً مطهماً وهدايا أخرى، ومنذ ذلك الحين وهذا الرجل مثلٌ يضرب في الاخلاص والتفاني، في سائر الجيش. فقد ادرك بعمق بصيرته انه اذا كان سائسو الخيل ومدربا الكلاب يستخدمون أساليب لينة رفيقة لتذليل طباع هذه الحيوانات الشرسة، ولا يلجأون الى خربها أو معاملتها بالشدة. فأولى بأولئك الذين يقودون الرجال أن يحاولوا غرس حبّ النظام والضبط بأسوء مما يعامل البستانيون النبت البريّ الذي يفقد بالتشذيب والعناية طباعه الوحشية بالتدريج، ليؤتي أفضل الثمر.

وفي مناسبة أخرى أبلغه بعض ضباطه أن رجلاً من رجالهم يتغيب كثيراً من موقعه ويخرج

---

(٣٩) ليفي [١٥:٢٣] يعزو هذه الحكاية الى [مارچللوس] لا الى [فابيوس] ويقول ان الاسم الوارد هو (بانيتوس) أو Bandius بانديوس في سيرة مارچللوس. وهو مواطن من (نولا) وجل نصف ميت بين أكداس القتلى بعد معركة (كاني) وقد خصّ بامتياز الدخول على الجنرال متى شاء.

ليلاً، فسألهم اي نوع من الرجال هو ؟ فأجمعوا كلهم بانه لا يوجد في سائر الجيش من هو أفضل منه، وانه مواطن من [لوكانيا Lucania]، ثم طفقوا يروون مآثر عدة راوه يقوم بها. فأمر فابيوس بتحقيق دقيق عنه، وعلم أخيراً إن الغياب الكثير الذي لوحظ منه كان لزيارة فتاة وقع في حبّها. وعندها أمر بعض رجاله أن يبحثوا عن الحبيبة سراً، وان يأتوا بها الى خيمته، ففعلوا، ثم أنه أحضر [اللوكانيّ] وانفرد به وقال له أنه يعرف جيداً بكثرة غيابه عن المعسكر ليلاً، وهو أخطر جريمة ضدّ النظام العسكرية والقوانين الرومانية، لكنه يعلم كذلك مبلغ شجاعته، ولا يجهل ايضاً الخدمات الجليلة التي قدمها، وهو لأجلها يرغب في العفو عنه والتغاضي عن خطأه لكنه وسعياً وراء ابقائه في حدود النظام - قررّ أن يضع حارساً عليه يكون مسؤولاً عن حسن سلوكه. وبعد ان قال هذا، أخرج له الفتاة وخاطب الجندي المرتعب المذهول بالمفاجأة: «هذا هو الشخص الذي سيكون ضامناً لك. وسنرى حسن سلوكك المقبل هل أن تجوالك الليليّ كان بسبب الحب أم لغرض أسوء منه!».

وثم واقعة أخرى تشابه هذه، كانت عاملاً على دخوله مدينة تارنتوم(*) واحتلالها. بعد أن خسروها بدسيسة:

يوجد فتى [تارنتيّ] في الجيش له أخت تسكن [تارنتوم] التي كانت في قبضة العدوّ، هذه الاخت كانت شديدة الحب لأخيها، متعلقة به للغاية، وعلم الأخ أن بروتياً [Bruttian] نصبه هنيبعل قائداً لحامية المدينة، قد تولّه بحبّ أخته. وخيل له أن علاقة كهذه قد تثمر ما فيه خير للرومان، وأتصل بفابيوس وانهى اليه بخطته ثم ترك الجيش كمن فرٌ منه ظاهرياً، وذهب الى تارنتوم. ومرت الايام الأولى و[البروتيّ] ممتنع عن زيارة الأخت لأنهما ما كان يعرفان ان الأخ على بينة مما يقوم بينهما من حبّ. على أن الفتى [التارنتي] أنتهز فرصةً ليخبر أخته بكيفية سماعه عن تعلق رجل كبير المقام والسلطة بها وطلب منها أن تكشف له عن هويته. «فاذا كان شجاعاً حسن السمعة فلا يهمّ أصله وقوميته، مادام السيف في هذا العصر يمزج كلّ الشعوب ويجعلهم متساوين والاضطرار يجعل كلّ عمل شريفاً حيث الحقّ ضعيف، فعلينا أن نحمد اللّه إذا أتخذ شكل الرقّة». وعندئذ بعثت الفتاة تدعو صديقها. وعرفته بأخيها وأظهرت بعدها تجاوباً معه أكثر من الماضي. وزاد عطفها عليه بالنسبة التي توثقت بها صداقته بأخيها. الى أن أعتقد [التارنتي] بأن الضابط البروتي أصبح مهيئاً لقبول العروض التي أعدّها له، وأنه وهو الجندي المرتزق الواقع في اسر الحبّ، سيكون على اتمّ استعداد للرضا بالمكافآت السنحية التي وعده بها فابيوس، حسب الشروط التي سيتفق عليها.

(*) خسرها الرومان في ٢١٢ واستعادوها في ٢٠٩ ق.م.

والنتيجة تم عقد الصفقة، بتسليم المدينة للرومان. وهذه هي الحكاية الشائعة إلاّ أن بعضهم يرويها بشكل آخر. فيقول أن هذه المرأة التي أتخذت آلة لحمل [البروتي] على تسليم المدينة لم تكن [تارنتيّة] بل [بروتية] وانها جارية لفابيوس. ولكونها بروتية، وعلى سابق معرفة بحاكم المدينة البروتي فقد بعث بها سراً لإغرائه وإيقاعه في الشرك.

وعمد فابيوس الى تغطية مساعيه هذه - صرفاً لانتباه هنيبعل الى خطته - باصداره أمراً الى الحامية الرومانية في [ريگيوم Rhegium] بأن تجتاح البلاد البروتية وتعيث فيها سلباً ونهباً وان تلقي حصاراً على [كاولونيا Caulonia] وتكتسح الموقع بكلّ شدة وزخم. وكان قوام تلك الحامية ثمانية آلاف رجل هم أسوء ما في الجيش الروماني ومعظمهم من الهاربين استاقهم مارچللوس[٤٠] في صقلية بحالة غير مشرفة، ولم تكن خسارة هؤلاء بالأمر المزعج أو الاليم للرومان ولذلك القى بهم فابيوس طعما لهنيبعل، لصرف انتباهه عن [تارنتوم] فابتلعه حالاً وساق قواته الى كاولونيا. وفي الوقت نفسه كان فابيوس قد عسكر في ظاهر تارنتوم والقى عليها الحصار وفي اليوم السادس منه تسلل الفتى التارنتيّ ليلاً من المدينة. بعد أن تفحص بدقة الموضع الذي كان مقرراً أن يدخل منه الرومان المدينة حسب الاتفاق مع القائد البروتي، وقدم تقريراً بالموضوع كله الى فابيوس. الذي لم يجد من السلامة في شيء أن يعتمد اعتماداً تاماً على المؤامرة، بل أعطى الأمر بالهجوم العام براً وبحراًمن الجهة الأخرى بينما كان يتقدم بقواته سراً الى الموضع المتفق عليه - وفي الوقت الذي هرع التارنتيون لصد الهجوم عن المدينة، تسلّم فابيوس الاشارة في البروتي فتسلق الأسوار ودخل المدينة دون مقاومة.

وعلينا الإقرار هنا أن الطموح الجرمي تغلّب عليه فيما يبدو. اذ اراد أن يظهر للعالم بأنه فتح تارنتون بالحرب، وبمجهوده العسكريّ لا بالخيانة والخدعة، فأمر رجاله بقتل [البروتيين] قبل الآخرين، إلاّ انه لم ينجح في تثبيت هذا الانطباع كما رغب، ولم يحصل من جراه إلاّ على صفة القسوة والغدر. وقُتل عدد كبيرٌ من التارنتيين أيضاً وبيع ثلاثون ألفاً منهم في أسواق العبيد، وأعطي الجيش أسلاب المدينة، وجيء الى الخزينة العامة بثلاثة آلاف تالنت من النقد. وفيما كانوا ينقلون الأموال المنهوبة سأل الضابط المتسلّم ما الذي ينبغي عمله بآلهتهم؟ يقصد صورها وتماثيلها فأجاب [فابيوس]: «فلندع للتارنتيين آلهتهم الغاضبة» ومع هذا فقد حمل

(٤٠) لم يستقدم مارچللوس هذه القطعات العسكرية. والمسؤول عن استقدامها هو زميله [ليڤينوس]. الأول غادر صقلية قبل الاستيلاء على سيراقوز في [ليڤي ٢٦:٤٠] العدد يخفض الى اربعة آلاف كانوا يعيشون على كل انواع السرقات طوال اقامتهم في المدينة الصقليّة «انما ترنا».

تمثال هرقل الضخم. ووضعه في الكابتول الى جانب تمثال له على ظهر جوادٍ، مصبوب من النحاس[٤١]. وهي أعمال تختلف كثيراً عن أعمال مارچيللوس في مناسبة مماثلة، أظهرت في الواقع انسانيته وطيبة للعالم، كما أوضحناها في سيرة حياته[*].

قيل أن هنيبعل كان على بعد خمسة أميال عندما بلغه نبأ سقوط [تارنتوم] فأعلن قائلاً «لقد ظفرت روما أيضاً بهنيبعل، خسرنا تارنتوم مثلما كسبناها» وأسرّ الى خاصتّه للمرّة الأولى بأنه كان دوماً يرى السيطرة على ايطاليا أمراً عسيراً أمّا الآن وبالقوات التي لديه، فهو يرى الأمر مستحيلاً.

وبهذا الفوز منح فابيوس امتياز موكب النصر في روما، وفاق بفخامته وروعته موكبه الأول[٤٢] وأخذ الرومان ينظرون اليه كبطلٍ مغوار تعلّم كيف يقارع خصمه، ويحبط مكائده بسهولة ويصيب حذقه ومهارته بالعقم. والواقع هو أن جيش هنيبعل كان في هذا الزمن قد أصيب من جهة بالانهاك لدوام خوضه الحروب، ومن جهة بالضعف والتفسخ الخلقي لإفراطه في الترف والشهوات. وقد ازعج [ماركوس ليڤيوس Marcus Livius] التكريم والشرف الذي خُلع على فابيوس. وكان هذا حاكم [تارنتوم] عندما سلمت غدراً الى هنيبعل، فأنسحب متحصناً في قلعتها وظلّ ممتنعاً فيها حتى استعادها الرومان.

وفي احدى المناسبات صرح علنا امام مجلس الشيوخ إن الفضل في استعادة تارنتوم[٤٣] يعود الى مقاومته أكثر مما يعود الى مجهود [فابيوس فردّ عليه ضاحكاً «لقد أصبت كبد الحقيقة. فلو لم يخسر [ماركوس ليڤيوس] [تارنتوم]، لما استعادها فابيوس ماكسيموس».

ومن آيات التكريم والاعتراف بالجميل التي أضفاها عليه الشعب، انتخاب ابنه[٤٤] متصلاً لدورة السنوية التالية[**]. وبعد تسلمه مهام منصبه بفترة وجيزة، عرضت أمور تتعلق

---

(٤١) من صنع ليسپّوس [سترابو ٦].

(*) أغنى مارچللوس روما بالتحف الفنية الاغريقية التي أخذها من سيراقوسه في ٢١٢ ق.م ويختلف راي ليڤي عن المؤلف فيقول ان فابيوس فتك بالأهالي وحافظ على الآلهة أما مارچللوس فقد حافظ على الارواح ولكنه نهب الآلهة.

(٤٢) بعد انتصاره على الليغوريين – انظر ما سبق.

(٤٣) ليڤي، يبدو هنا أقرب الى المنطق والمعقول. فالفخر المعزو الى ليڤيوس هنا وهو يكاد يحال الى المحاكمة، يظهر بعيداً عن الواقع. انظر كذلك شيشرون: الخطب ٢:٦٧.

(٤٤) يجانب پلوتارخ هنا الدقة الزمنية احياناً. فمن (ليڤي) يبدو أن ابنه وكان يحمل اسمه بالضبط، قد انتخب قنصلاً قبل استيلاء الأب على تارنتوم باربع سنين، ويحفظ لنا [ڤاليريوس ماكسيموس] بهذه المناسبة دليلاً دامغاً على تواضع الأب فابيوس ووطنيته. فقد علّق على دوام انحصار المنصب القنصلي في أعضاء اسرته قائلاً أن هذا خطر قد يهدد كيان البلاد.

(**) في السنة ٢١٣ ق.م.

بشؤون الحرب يقتضى تصريفها فجاء الأب للقاء الأبن ممتطياً جواده إما بداعي الشيخوخة والضعف أو ربّما متقصداً بذلك لاختبار ابنه، ولحظ الابن ذلك وهو ما يزال بعيداً عنه بمسافة، فأمر واحداً من حرس اللكتور أن يطلب من أبيه الترجل وأن يقول له، إن كان لديه عملٌ مع القنصل فعليه أن يدخل ماشياً. وبدأ على الحاضرين الاستنكار لصفاقة الابن وتجاسره على أب يتمتع ببالغ الاحترام لسنهً وسلطانه وتحولوا بانظارهم الى [فابيوس] وهم صامتون، فما كان منه إلاّ أن ترجل بسرعة وتوجه الى ابنه بمثل الركض وذراعاه مبسوطتان وعانقه قائلاً:

- أجل يا بني! ونعم ما فعلت. لقد أحسنت فهم السلطة التي أودعت اليك، وعرفت حق المعرفة على من تمارسها. فتلك هي السبيل التي استخدمها أجدادنا الأولون لرفع شأن روما. مفضلين دوماً شرفها وحنقها على ابائهم وأولادهم[(٤٥)].

والواقع أنه قيل عن والد جدّ فابيوسنا هذا[(٤٦)] ما يشبه ذلك. فقد كان بلاشكّ أعظم الرومان في عصره سمعةً وسلطاناً، نصب قنصلاً خمس مرات، وشُرّف بالعديد من مواكب الظفر للانتصارات التي حازها. لم يرايّ بأس في أن يخدم برتبة ضابط تحت إمرة ابنه[(٤٧)] عندما ذهب بوصفه قنصلاً الى تسلم القيادة[(*)]. وعندما منح الابن فيما بعد[(**)] شرف الدخول في موكب النصر لحسن خدماته ركب الأب جواده خلف عجلة النصر كواحد من بطانته. فجعل من هذا مجداً له، إذ كان فعلاً أعظم الرومان على الاطلاق باقرار الجميع. كما انه يمارس سلطة الأب الكاملة على ابنه، ومع هذا خضع لحكم القوانين ولسلطة الحاكم.

على أن حمدنا ومديحنا بفابيوس لايُحّد بهذا. فقد ابنه بعد زمن وكان مثار الاعجاب في تحمله الخسارة العظمى بوداعة تليق بأبٍ فاضل وانسان حكيم. ومن عادة الرومان عند موت شخصٍ كبير المقام أن يلقى أحد أقربائه الأدنين خطبة تأبين، فقبل أن يقوم بهذا الواجب والقى خطبة في [الفورم] سجّلها كتابةً فيما بعد.

بعد أن أرسل [كورنيليوس سكيپيو] الى اسپانيا وانتصر على القرطاجنيين في عدة معارك

---

(٤٥) يقول ليڤي [٢٤:٢٦] بعد أن مرّ بأحد عشر لكتوراً وهو على صهوة جواده. أمر ابنه اللكتور الثاني عشر بان يقوم بواجبه. إلاّ أن فابيوس الأب أسرع يترجل وهو يقول «اني لأرغب يا بُني أن أعرف هل تدري بأنك قنصل؟ أم أنت لا تدري؟

(٤٦) يقصد به فابيوس روللوس الذي ورد ذكره في أول السيرة. [ليڤي ٣٨:٨].

(٤٧) هو كوينتُس كوركيس فابيوس هزمه السامنيت. وكاد يعزل من منصب القنصلية لو لم يعد ابوه أن يقوم برعايته وتسديد خطاه في حملته الثانية وان يستخدمه مساعداً له [انظر ليڤي ٥:٩، وڤاليريوس ماكسيموس ٧:٥].

(*) في ٢٩٢ ق.م.

(**) في ٢٠٥ ق.م.

وطردهم من تلك البلاد وحصل لروما على مدن وأراضٍ ذات موارد عظيمة، عاد الى الوطن فأستقبله الشعب باعظم مظاهر الغبطة والحبور وكانت حماستهم به لا نظير لها وأنتخبوه قُنصلاً للدورة السنوية التالية برهاناً على امتنانهم. وكان يدرك انهم يأملون منه أعمالاً جساماً، ولقد رأى بعد تفكير أن قضيّة المنازعة على ايطاليا مع هنيبعل، هي مهنة الشيخ العاجز، فأقترح لنفسه مهّمة في غاية الخطورة وهي جعل قرطاجنة نفسها مرسح جربٍ، وملء وملء افريقيا بالجيوش والسلاح ونشر الخراب في ارجائها. وبهذا يُرغم هنيبعل على الانسحاب للدفاع عن بلاده بدلاً من غزو بلاد الآخرين، وسعياً وراء هذه الغاية بدأ يستخدم كل نفوذه وتأثيره على الشعب. إلاّ ان [فابيوس] عارض الفكرة بكل قوته، واقام المدينة وأقعدها قائلاً للرومان: لاشيء يوحي اليهم بهذه الآراء الخطرة إلاّ تهوّر وطيش فتى أهوج حارّ الرأس. ولم يدخر وسعاً للحيلولة دون تبنيّ هذه الخطة بالقول والفعل. ونجح في اقناع الشيوخ(٤٨) بالانحياز الى رأيه إلاّ أن العامّة أعتقدت أنه يغار من شهرة (سكيپيو) ويخاف أن ينجز الفاتح الشاب مأثرة عظيمة جليلة وربما يحرز شرف طرد هنيبعل من ايطاليا أو حتى انهاء الحرب التي ظلّت مستعرة عدة سنوات وكانت تحت ادارته تتعثر وتتلكأ.

وإن شئت الحقيقة، فإن [فابيوس] عارض مشروع [سكيپيو] في مبدأ الأمر، بدافع الحذر والفطنة، جاعلاً نصب عينه سلامة المواطنين ليس غير والخطر الذي قد تتعرض له الجمهوريّة بالنتيجة. ولكنه أندفع أكثر فأكثر في معارضته بعامل المنافسة والطموح عندما وجد مكانته ترتفع عند الشعب يوماً بعد يوم، فأنقلب في معارضته عنيفاً جارحاً، شخصياً حتى بلغ الأمر به الى الإتصال بكراسوس Crassus القنصل زميل [سكيپيو] وحثه على التمسك بالقيادة في ذلك الاقليم وعدم النزول عنه لزميله(٤٩)، بل عليه أن يقود الجيش بنفسه الى قرطاجنّة إن أستقرّ رأيه على ذلك. كذلك أوقف دفع المال [لسكيپيو] لانفاقه على الحرب ولذلك أرغم على استدانته بكفالته وضمانته من مدن [اتروريا Etruria] التي كانت متعلقة به للغاية. وكان [كراسوس] من الجهة الأخرى لا يرغب أن ينبرى لمعارضته ولا مغادرة ايطاليا، فهو بطبعه يكره كل أنواع الخصام والمعارضة كما وأنه يقوم باعباء وظيفة الكاهن الأعظم ومن شأنها أن تبقيه دائماً في البلاد.

---

(٤٨) بحسب المناقشات في مجلس الشيوخ بهذه المناسبة [انظر ليڤي ٢٨: ٤٠-٤٤] تجد كذلك خطبتي سكيپيو وفابيوس. وهما من أطرف ما يمكن.

(٤٩) لم يكن (كراسوس) يستطيع قيادة الجيش خارج ايطاليا بحكم منصبه الديني اذ كان يتقلد وظيفة (الكاهن الأعلى) وعليه أن يبقى (تاكيتوس الحوليات ٤٣:٧١). لذلك لم يكن من المحتمل ان يصرّ فابيوس على طلبه ويصل به الى هذا الحدّ. وان بدا السبب هو حبس الضروري من الارزاق عنه. ويفصّل ليڤي في العون الذي ساهمت به المدن الصديقة: كيري، پوپيولونيا، تاركويني، قولاترا، أربسيوم وغيرها وغيرها.

فحاول فابيوس وسائل أخرى لمعارضة المشروع وعرقل عملية النفير والتطوع وصرح في مجلس الشيوخ وأمام العامّة أن [سكيپيو] فضلاً عن هروبه من وجه هنيبعل، يعمل على تجريد ايطاليا من كلّ قواها، وأختلاس شباب البلاد لزجهم في حربٍ خارجية تاركين وراءهم آباءهم وأولادهم وزوجاتهم والمدينة نفسها دون دفاع تحت رحمة عدوّ فاتح منتصر على ابوابهم. بهذا كله آثار قلق الجمهور، الى حدٍ لم يسمحوا لسكيپيو أخيراً إلاّ باستخدام الفرق المعسكرة في صقلية للحرب، مع ثلاثمائة محارب يثق بهم ثقة خاصة كانوا قد خدموا تحت امرته في اسپانيا. ويظهر أن [فابيوس] إتبع في هذه الإجراءات ما أملاه عليه طبعه الحذر.

ولكن؛ ما ان نزل سكيپيو البرّ الافريقي، حتى بدأت(*) الأنباء ترد الى روما عن الانتصارات العجيبة والأعمال الرائعة التي يأتيها. وقد أيدّت وصفَها الغنائمُ التي ارسلها الى الوطن، ووقوع ملك نوميدي(٥٠) في الأسر، والمقاتل العظيمة في رجالهم. وحرق وتدمير معسكرين للعدو بما فيهما من كميات كبيرة من الأسلحة والخيل، وعندما أضطرت هذه الكوارث القرطاجينين، الى ارسال وفدٍ لهنيبعل تطلب منه العودة الى الوطن وصرف النظر عن آماله العقيمة في ايطاليا ورحل منها(**)، لأجل الدفاع عن قرطاجنة، هللت روما وكبّرت وعظّمت اعمال [سكيپيو] وخدماته الجليلة. ولم يكن لهذا كله تأثير على موقف [فابيوس] حتى أنه ارتأى أن يستبدل [سكيپيو] بخلفٍ يحل محلّه، متخذاً من «تقلبات الحظّ» وهو السبب القديم سنداً لادعائه، حتى لكأن آله الحظّ سيدركها الملل في ايثارها الشخص نفسه ببركتها! بهذه اللهجة بدأ عدد كبير من الناس يرتابون في اقواله ويستنكرونها منه. وبدت وكأنها سوء نية وتشاؤم، وخور نفس متأت من كبر السن أو خوف من ذكاء هنيبعل مبالغ فيه. بله عندما عبأ هنيبعل جيشه في السفن وغادر ايطاليا، لم يستطع أن يمسك نفسه عن المعارضة وتعكير فرح روما العام، مصرحاً بمخاوفه، وشكوكه قائلاً لهم أن الجمهورية لم تقع في خطرٍ مثلما هي فيه الآن وأن هنيبعل أقوى حراساً داخل اسوار قرطاجنة مما كان في ايطاليا. وان [سكيپيو] سيقضى عليه القضاء المبرم أذا ما أشتبك بمعركة مع جيوشه المنتصرة التي ما زالت تشعر بحرارة دماء العدد العديد من جنرالات الرومان ودكتاتوريهم وقناصلهم

(*) في السنة ٢٠٤ ق.م.

(٥٠) وقع سيفاكس في الأسر [ليفي ٣٠:٥ و ١١] بعد حرق معسكره ومعسكر هسدروبال. وهلك اربعون الفاً من الاعداء بالنار وبحدّ السيف وأسر أكثر من خمسة آلاف بينهم عدد كبير من نبلاء قرطاجنة. مع أحد عشر شيخاً، وغنمت مائة واربع وسبعون راية وأكثر من الفين وسبعمائة حصان نوميدي. وستة من الفيلة وقتل ثمانية. مع مقادير كبيرة من الأسلحة.

(**) في السنة ٢٠٣ ق.م.

الصرعى. وأجفل الشعب الى حد ما، بهذه التصريحات حتى بدأوا يعتقدون أن الخطر أقرب اليهم كلما كان هنيبعل. أبعد عنهم. على أن [سكيپيو] لم يعتم أن قاتل هنيبعل والحق به هزيمة نكراء، وسحق عظمة قرطاجنة تحت قدميه(٥١)، وسنح بني قومه ما صبوا اليه من غبطة وسعادة فاقت آمالهم وثبتت قواعد امبراطوريتهم التي أضحت مهزوزة مضعضعة بكثير من العواصف.

على أن فابيوس ماكسيموس لم يعش ليرى نهاية هذه الحرب السعيدة وسقوط هنيبعل النهائي، ولا ليفرح لعودة الحياة المطمئنة السعيدة الى الجمهورية. ففي حوالي الزمن الذي غادر هنيبعل ايطاليا(٥٢)، سقط مريضاً وتوفي(*). في [تيبه] قضى [اپامينداس] نحبه فقيراً لا يملك شروى نقير حتى انه دفن على نفقة العامة. وقيل انه لم يعثر في داره إلاّ على قطعة نقد واحدة صغيرة القيمة. ولكن فابيوس لم يكن بحاجة الى هذا فالشعب نفسه تكفل بنفقات تشييعه باكتتاب خاص ساهم فيه كل مواطن باصغر قطعة نقد كدليل على حبهم له(٥٣) وبهذا أعتبروه والدهم العام وجعلوا مماته لا يقل شرفاً عن حياته.

اهم الاحداث العالمية في زمنه

٢٠٧ ق.م: اسد روبال في طريقه لنجدة هنيبعل - يهزم ويقتله كلوديوس نيرو.

٢٠٢ ق.م: يتغلب سكيپيو افريقانوس (الأكبر) على هنيبعل في موقعة زاما Zama بافريقيا.

٢٠٠ ق.م: بدأت الحرب المقدونية الأولى وأستمرت اربع سنين تقريباً.

---

(٥١) لاشك ان پلوتارخ يشير الى السفراء الشيوخ الذين ارسلوا الى سكيپيو عارضين عليه الصلح. اذ ما ان بلغوا خيمة الجنرال حتى انبطحوا على الأرض أمام قدميه جرياً على ما اعتادوه في بلادهم (ليڤي المرجع السالف) وثم حادثة اذلال مشابهة لزعماء المدينة العشرة الذين ارسلوا بعد معركة زاما Zama الكبرى، لعقد الصلح. [انظر أيضاً پوليبيوس ١٥].

(٥٢) بعد ذلك بقليل اتمّ هنيبعل انسحابه من ايطاليا وكان ذلك في ٢٠٤ ق.م. لابد وان (فابيوس) اصبح الآن شيخاً هرماً. فقد قال ليڤي معتمداً على من الكتاب انه ظلّ في منصب الكهانة اثنتين وستين سنة متوالية.

(*) في السنة ٢٠٣ ق.م.

(٥٣) يجب أن يكون المبلغ ضخماً جداً. فقد بلغ تعداد المواطنين الرومان في السنة التالية (٢١٤٠٠٠).

أوجه المقارنة بين فابيوسْ وپيركليس

لدينا هنا سيرتان غنيّان بالأمثلة، كلاهما ضربتا بالقدح المعلىّ في الحنكة السياسية والعسكرية، ولنقم الآن أولاً بمقارنتهما من جهة الكفاءة الحربية... ترأس پيركليس جمهوريته عندما كانت في أرفع درجة من الازدهار والرخاء، عظيمة السلطان منيعة الجانب، لذلك قد يتوهم ان نجاحه هو نجاح اعتياديّ وحسن طالع حفظه من كل عثار أو كارثة.

إلاّ أن مهمة فابيوس الذي اضطلع باعباء الحكم في أحرج الأوقات وأصعبها لم يكن ملزماً بمحافظة وترصين دولةٍ ثابتة الاركان مزدهرة الأحوال يرفل سكانها في بحبوحة من العيش. فضلاً عن أنّ انتصارات [كيمون] وغنائم النصر التي جاء بها [ميرونيدس وليوقريطس] مع العديد من مآثر [تولميدس] الشهيرة، إستخدمها پيركليس أساساً في ملء المدينة بمظاهر الافراح واللهو والحفلات الدينية أكثر من أستخدامه لها في توسيع وتوطيد دعائم امبراطوريتها. في حين وجد فابيوس أمامه عند توليه الحكم حالة ترتعد لها الفرائص. من جيوش رومانية ابيدت. وجنرالات وقناصل لها قتلوا، وبحيرات وسهول وغابات مملؤة بجثث القتلى. وأنهار أختلط ماؤها بدماء بني قومه. ومع هذا، فبأحكامه الناضجة الرصينة وبقوة ارادة فيه لا تتزعزع. كان كمثل من أسند بكتفه جدار الجمهورية المتقوض ومنعه من الإنهيار، بسبب ضعف واخفاق الآخرين وربما كان أسهل على المرء أن يحكم مدينة روّضها الزمان واناخ عليها بكوارثه وبلاياه، وأرغمها الخطر المحدق على الاصغاء لصوت العقل، من أن يسرج سرجاً على الطيش والجموح، وحكم شعب نعموا بعهد طويل من الاستقرار والرخاء كالآثينيين عندما أمسك پيركليس بأعنة الحكم. ولكن الشجاعة في فابيوس، وقوة ارادته الفائقة للعادة لم تقف حائرة خائرة امام مخلفات الكوارث المكدسة التي كان أهالي روما يومئذ يرزحون وئينون تحتها.

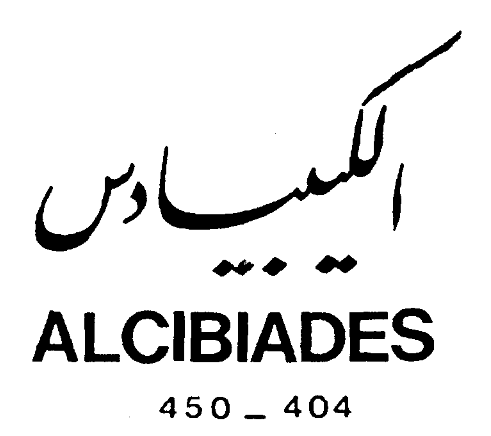
ويجوز لنا أن نضع استعادة تارنتوم أمام عمل پيركليس بجزيرة [ساموس]. وان نعادل فتح [ايوبيا]، بفتح مدن [كامپانيا]، وان كان إخضاع [كاپوا] بالذات قد تمّ على يد القُنصلين

[ڤولڤيوس Fulvius وآپيوس Appius]. ولم أجد معركة فاصلة واحدة أنتصر منها فابيوس باستثناء معركته مع [الليغوريين Ligurians] التي كوفيء عنها بموكب ظفرٍ. في حين نجد بيركليس قد أقام تسعة أنصابٍ لتسعة أنتصارات نالها براً وبحراً. إلا أننا لانجد عملاً لبيركليس يمكن مضاهاته بمأثرة انقاذ [مينوشيوس] الخالدة. عندما انتشل فابيوس جيشه وشخصه من هلاك محقق، انه لعمل جليل أمتزج فيه الاقدام بالحكمة والانسانية. ويبدو من جهة أخرى أن بيركليس لم يعان ما عاناه [فابيوس] من هنيبعل بثيرانه الملتهبة. فقد وقع عدوه تحت رحمته دون مجهود منه وبمحض الصدفة، ومع ذلك فقد تركه ينسّل انسلالاً من قبضته في جنح الليل، وعندما انبلج الصبح تعرض لأذاه واستبقه في ساعة النصر، وسيطر عليه أسيره بالأمس. وإذا كان من صفات القائد الجيّد أن لا تقتصر نظراته على الحاضر، وانما أن يتصف ببعد نظر فيما يستقبل من الزمان، فلا شكّ أن بيركليس يتفوق على فابيوس من هذه الناحية. لأنه حذّر الآثينيين وأنذرهم مسبقاً، بويلات الحرب وبما سيُجرّ عليهم طمعهم في ما يزيد عن مقدرتهم على ادارته. ولم يكن [فابيوس] بهذه المقدرة على التنبؤ عندما أخذ على الرومان تحمسهم لخطة [سكيپيو] ووجد فيها خراب الجمهورية. ولهذا كان بيركليس متنبئاً حسناً لنجاحٍ سيء، وكان فابيوس متنبئاً سيئاً لنجاح حسنٍ. والواقع أن خسارة منفعة بسبب فقدان الثقة في النفس ليست بأقل لوماً، من الوقوع في خطر بسبب الافتقار الى بعد النظر، على العموم. فكلاً النقيصتين مع أختلاف طبيعتيهما تنبعان من جذر واحد، هو الافتقار الى الخبرة واصالة الفكر.

وأمّا من الناحية السياسية فقد عزي الى بيركليس اثارة الحرب، عندما لم يقنع بالشروط التي عرضها اللقيديمونيون عليه. الحق يقال ان فابيوس أيضاً لم يكن بالذي يتنازل للقرطاجنيين عن أية نقطة بل كان مستعداً للمجازفة بالكلّ ولا يرضى باقتطاع جزءٍ من الامبراطورية الرومانية. إن طيبة فابيوس وحسن معاملته لزميله[مينوشيوس] تدين - بطريق المقارنة محاولات بيركليس لنفي [سيمون وتوكديدس] الرجلين النبيلين الارستقراطيين، اللذين حكم عليهما بالنفي والتشريد بمسعىً منه. ولقد كانت سلطة بيركليس في أثينا أوسع وأعظم من سلطة فابيوس في روما. ولذلك كان أسهل عليه أن يحول دون الارهاصات الناجحة عن اخطاء ضباط آخرين وقلة كفاءاتهم، ولم يخرج أحد عن أمره غير [توليدس]، فقد قاتل [البويوتيين] خلافاً لرغبة بيركليس ونصحه، فقتل. إن قوة نفوذه جعل الآخرين يخضعون لحكمه ويطيعون أوامره. في حين ان فابيوس الواثق من حجته وصحّة حكمه لافتقاره الى السلطان الواسع - لم يملك الوسائل الكفيلة باصلاح هفوات الآخرين. ولقد كان من حسن حظ

الرومان لو أعطي سلطة أوسع، عندئذ ستقلّ الكوارث التي حلت بهم - على ما نعتقد.

أمّا عن الجود والبذل العام فقد أشتهر پيركليس بعدم قبوله اي هدية، وأشتهر فابيوس بافتداء الجنود الأسرى بماله الخاص وان لم يزد المبلغ عن ستة تالنتات. وفي الوقت نفسه لم يكن أحد كپيركليس بملك الفرص للشراء فقد عرض عليه الملوك والأمراء والحلفاء الهدايا الثمينة، ومع هذا لم يكن هناك أعفّ منه وأبعد عن الفساد، ويجب الأقرار هنا أن جمال المعابد والمباني العامة الفخمة التي زين بها پيركليس بلده لا تضاهيها في الرواء والهندسة كل ما بني وأقيم في روما من تأسيسها حتى أيام القياصرة وهو واحدٌ وهم كثيرون.



ALCIBIADES

450 _ 404

المعروف عن [الكيبيادس] أنه منحدر بالأصل من نسل(١) [ايفريسكي Evrysaces](*) ابن [أجاكس] من جهة الأب، ومن [الكيمون] من ناحية الأم. ووالدته [دينوماخي Dinom-ache] هي بنت [ميغاكلس] وابو [كلينياس Clinias] الذي جهز سفينة على نفقته الخاصة، نال أعظم الشرف في المعركة البحرية بالقرب من [ارتميسيوم](٢) وقتل فيما في موقعة [كورونيا Coronea](**) ضد [البويوتيين].

وكان [پيريكليس واريفرون Areiphron] ابنا [كزانتيپوس] يتصلان به بنوع من القرابة من ناحية أوصيائه، وفي رواية لا أراها تخلو من الحقيقة، ان شعور الوّد الذي كان يحمله له [سقراط] يرجع غالباً الى ما ذاع عنه ومع أننا لا نجد كاتباً واحداً بين الكاتبين يذكر لنا خبراً عن والدة [نقياس Nicias] أو [ديموستينس] اللاّماخُسي، أو [فورميون Phormion] الثراسيبولي Thrasybulus] وكلهم رجال ذاع صيتهم في تلك الفترة، فاننا نعلم أشياءً حتى عن مرضع الكيبيادس، فأسمها [أميكلا Amycla] وهي من لقيديمون. ونعلم أيضاً ان [زوپيروس Zopyrus](٣) كان معلماً ومرافقاً له والخبر الأول جاءنا من [انتستينس] والثاني أورده [أفلاطون].

ومن النوافل هنا أن نتحدث عن جمال الكيبيادس، ويكفي القول في هذا الصدد أن هذا

(*) افلاطون: الكيبيادس: ١.

(**) في السنة ٤٨٠ ق.م.

(١) شهد عدد كبير من أفاضل المؤرخين بعراقة اسرته ونبل محتده، وكادوا يجمعون كافة في الاتفاق على الخطوط العامة لسيرته مع أختلاف طفيف في الجزئيات. ان جدّ ميغاكلس المذكور في المتن، كام قد تزوج (اغاريستي) بنت (كلستينس) طاغية سيكيون. وانحدر من [الكيميون] الذي أشتهر اسلافه منذ عهد [تقيسفسن] مع العلم ان (خزانيتيوس) والد (پيركلس) تزوج أغاريستي ثانية هي بنت عم للأولى.

(٢) انظر هيرودوتس [١٧:٨] إن معركة (كورونيا) التي قتل فيها. انما وقعت في السنة الثانية من الاولمپياد الثالث والثمانين [ديودورس المرجع السالف ٦:١٢]. وكانت من أعظم النكبات التي حلت بالآثينين. فالقسم الأعظم منهم بات بين قتيل أو أسير. وصرع جنرالهم [توليدس] وقامت المدن البويوتية المستسلمة العديدة بافتداء الأسرى.

(٣) يحدثنا افلاطون في رسالته [الكيبيادس: ١] أن [زوپيروس] هذا، هو عبد تراقي أبق طاعن في السن.

الجمال بقي زاهراً طوال حياته ولازمه منذ حداثته وشبابه حتى رجولته، منسجماً مع كل مرحلة من مراحل عمره انسجاماً عجيباً، ومكسباً شخصه جلالاً وسحراً ومع أن قول [يوربيدس]: «جمال الخريف، جميل أيضاً»

لايصدق بشكل عام، إلاّ أنه حقيقة واقعة في [الكيبيادس] من بين القلّة التي انطبق عليها القول. وهذا يعود الى جمال تكوينه ومتانة بنيته الطبيعية. ولقد قيل ان لثغة لسانه كانت تزيد من حلاوة نطقه، وتضفي على حديثه المتسارع طابعاً جذاباً، وشعوراً بالثقة والاقتناع. وقد اثبت [ارسطوفانس] ذلك في الأبيات التي نظمها بالتندر على [ثيوروس Theorus] قال: «قال الكيبيادس: لكم هو شبيه (بكولاكس Colax] قاصداً [كوراكس Corax = الغراب]، ثم يعلق الشاعر على هذا قائلاً: «ما أجمل ما يلثغ بالحقيقة!»

كذلك يشير [ارخيبوّس][٤] الى هذه اللثغة في قصيدة يسخر بها من ابن الكيبيادس:

«ولكي يتوهمه الناس صنو أبيه وشبهه تراه يمشي وكأنه مجبول بالنغمة غارق في الترف تاركا أهداب ثوبه تجرجر على الأرض خلفه. ويحني رأسه بقلة أكتراث ويتصنع اللثغة في حديثه.

وبدا في سلوكه مفارقات ومتناقضات بحسب تقلبات الزمن العجيبة المتعددة له. على أن الطموح ورغبة الاستعلاء كانت من أبرز النوازع التي تدمغ شخصيته بطابع قوي، وبدت منها لمحات في أقواله وتصرفاته أيام كان صبياً. فمرة ضايقه خصمه في مباراة مصارعة، ولما تبين أنه سيطرح أرضاً عضّ يد خصمه بكلّ قوته فأرخى في الحال قبضته عنه وقال «اراك يا الكيبيادس تعضّ كالمرأة» فردّ عليه «لابل كأسدٍ!» وفي مناسبة أخرى كان يلعب الزهر مع اتراب في عرض الشارع وهو بعد صبيٌ يافع، فأقبلت عربة حمل نحوهم، وكان قد حان دوره لالقاء الزهر فأهاب بالسائق أن يقف لأن رميته ستكون في طريق مرور العربة، فلم يكترث الرجل بقوله وواصل السير فأفسح بقية الصبيان للعجلة وانسحبوا الاّ [الكيبيادس] فقد انبطح على الأرض امام العربة ووجهه الى أسفل متحدياً السائق ان يمرّ ان استطاع. ففزع الرجل وبادر الى شدّ اعنّه الخيل وايقافها، وشاع الخوف في نفوس المستطرقين وأخذوا يتصايحون وهرعوا لإقالة الصبي.

وتميزت معاملته لمعلميه بالطاعة - عندما بدأ يتلقى أصول العلم. إلاّ أنه أبى ممارسة النفخ بالناي[٥]، وعده مهنة وضيعة لا تليق بالمواطن الحُرّ. وحجته في هذا ان العزف على العود أو

---

(٤) أحد كتاب الكوميديات الأقدمين.

(٥) هذا ما جاء ارسطو الى ذكره في [السياسة] فقد بحث ببعض اسهاب فوائد دراسة الموسيقى ومضارها.

المزهر لايحدث تشويهاً في جسم المرء أو وجهه بأية حالٍ من الأحوال، لكن النافخ بالناي يكاد لايعرف حتى من أقرب اصدقائه عندما يقوم بالعزف. زد على هذا أن العازف على المزهر يستطيع ان يغني أو يتكلم أثناء عزفه، لكن استعمال الناي يؤدي الى اطباق الفم وحبس الصوت ومنع اللسان عن النطق...

«فلندع اذن النفخ بالناي لشبّان [ثيبه] الذين لايعرفون كيف يتكلمون. أما نحن الآثينيين فلدينا - كما قال لنا أجدادنا - الربّة [منيرڤا] حاميةً والربّ [ابوللو] حامياً، الأولى نبذت الناي وعافته، والثاني سلخ جلد النافخ به[٦]» وهكذا عمل [الكيبيادس] بين جدّه وهزله على التخلص من ممارسة نفخ الناي، وغرس في الآخرين كرهه أو أن الشبان راحوا يتحدثون عن أحتقار الكيباديس له وسخريته بمن يتعلمه، فسقط هذا الفنّ وأُهمل بصورة عامة.

وفي النقد الشديد الذي ألّفه [أنتيفون Antiphon][٧] ضدّ الكيبيادس، ذكر انهُ هرب في حداثته مرةً ولجأ الى منزل [ديموقريطس] وكان هذا ممن أختص به وصاحبه. فعزم انتيفون التشهير به على الملأ، وهم بذلك لو لم يشنه [پيريكليس] بقوله: «إن كان قد مات فالتشهير به لن يعجلّ بالعثور عليه أكثر من يومٍ واحدٍ. وإن كان حيّاً سالماً فسيكون عملك سبّة له طوال حياته». ويقول [انتيفون] أيضاً، انه قتل واحداً من خدمه بضربة عصا في نادي سبرتيوس Sibyrtius للمصارعة. لكن ليس من المعقول أن نصدق كل ما يتخرص عدوه عنه، بعد اقراره علناً انه عازمٌ على تشويه سمعته.

ولم يمرّ وقت طويل حتى أخذ الكثير من ذوي الحسب والوجاهة يتنافسون دوماً على مصاحبته ووصاله، انما كان يجتذبهم منه ألمعيته وجماله الفتانّ اللذين فاقا العادة. على أن حبّ [سقراط] العظيم له، يصحّ أن يتخذ شاهداً قوياً على سجايا الفتى النبيلة وخلقه الحميد، وقد تمكن هذا الفيلسوف بنفاذ بصيرته من الكشف عنها في جمال خلقته، وفي مواطن سريرته. فقد وجد أن مقامه وثراءه والعدد الكبير من الآثينيين والأجانب يتملقونه ويمتدحونه، أمور قد تؤدي الى افساده، ولذلك قرر أن يتدخل في أمره ما وسعه ذلك للمحافظة على نبتة تبشر بأعظم الخير لئلا تذبل وهي ماتزال زهرة لم تنضج ثمرتها. فالحظّ لم يسعد أحداً كما أسعد الكيبيادس ولم يحطه كما احاطه بالكثير مما يدعى باللغة الدارجة «أموالاً». أو حماه

(٦) يشير افلاطون الى هذه العقوبة التي انزلت بـ(مارسياس) لكنه يعزو اسبابها الى أمور أخرى. وفضلاً عن هذا فأن الربة [آثينا منيرڤا] القت بالناي جانباً بعد أن شاهدت خديّها المورمّين المتقرحين منعكسين على صفحة ماء النبع. وغلب (ابوللو) المسخ (مارسياس) في مباراة على العزف فسلخ المغلوب حياً.

(٧) سفسطي العقيدة. عاش في أيام سقراط. وورد ذكره عند كزينفون في (الميمواربليا ١) وهو بصدد مناقشة هذا الفيلسوف. ولا وجود لهذه المحاورة وربما عزي ذلك كذباً الى [انتيفون].

من كل سلاح من أسلحة الفلسفة أو حصنه من أي غـائلة من غوائل الطعن والتجريح. فقد كان من البداية هدفاً لتملق الذين لاينشدون غاية سوى ارضائه. مما كان يعمل على أضعاف نفسه، ويكرّهه بنصيحة اي ناصح أو واعظٍ صادق النية. ويشاء حظ عبقريته أن يستخلص له [سقراط] صديقاً من دون الجميع. فلصق به وأجتوى الاغنياء وأكابر القوم المتكالبين على صحبته، وما عتم حبل الودّ أن توثق فيما بين الاثنين بشكلٍ لا انفصام له. وأنقلب حال [الكيبيادس] فصار يعير أيضاً صاغية لكلّ حديث خلا من التهتك وفكرة العشق المخنث ومظاهر التودد السخيفة المتبذلة، وعرف حق المعرفة إنه يعاشر إنساناً هدفه الكشف له عن نواقصه العقلية، وقمع تعاليه الباطل المتبذل فمالبث: «عَرَفُه أن نام وذهبت كبرياؤه وتهدل جناحه كالديك المغلوب»

ووقعت مجهودات سقراط في نفسه موقع التقدير العظيم بوصفها أصحّ الوسائل التي تلجأ اليها الآلهة لإصلاح الشباب والعناية بهم. وعاد يحتقر ذاته، ويعجب بسقراط، ويداخله الفرح للعطف الذي يلقاه منه. ويقف موقف الخاشع من فضائله، وبدأ دون أن يشعر، يكّون في ضميره صورة انعكاسية متبادلة للحب و «لأنيتروس Anteros» الذي تكلم عنه افلاطون. وكان موضع دهشة عامة إذ رآه الناس يشارك سقراط طعامه ونزهاته ويساكنه خيمته، بينما أخذ يظهر صدوداً وتحفظاً تجاه كل من يحاول انشاء صلة به. ووصل صدوده من هؤلاء حَدّ الخشونة والمعاملة المهينة القاسية، ويذكر بنوع خاص معاملته لأنتيوس Anytus ابن [انثيميون Anthemion] الذي كان مغرماً به الى حَدّ الوله. ودعاه هذا الى وليمة كان قد أعدّها لبعض الأغراب فرفض [الكيبيادس] دعوته. إلا أنه أفرط في الشراب في منزله مع أصحاب له، وخرج ثملاً يقصد محل الوليمة ليلعب لعبة مزاح. ووقف عند باب الغرفة حيث المدعوون في قصفهم ولهوهم ونظر الى الموائد وقد تكدست فوقها اقداح الفضة والذهب، فالتفت الى خدمه وأمرهم أن يجمعوا نصفها ويحملوه الى بيته ثم غادر المنزل[٨]، مترفعاً حتى عن الدخول الى غرفة الوليمة وعصفت سورة من الغيظ في نفوس الجماعة، وراحوا يندوون بمسلكه الشائن المهين، لكن انتيوس اسكتهم قائلاً انه لايتفق معهم في هذا، وان الكيبيادس أظهر كياسةً وحسن تصرفٍ عظيمين اذ أخذ الجزء بينما كان يستطيع أن يأخذ الكلّ!

وكان سلوكه هذا واحداً مع جميع عاشقيه الذين يريدون وصاله، إلاّ أجنبياً واحداً كان كما

---

(٨) يقول [أثينيوس] انه لم يأخذها لنفسه. لكنه انتزعها من صديقه الغني ليعطيها [تراسيللوس] الفقير. وهو ما يخفف من وقع الحكاية الى حدٍ ما. كان انتيوس أحد الرؤوس الذين وجهوا الاتهام لسقراط فيما بعد.

تروى الحكاية يملك عقاراً صغيراً ليس له غيره فباعه بمبلغ يناهز مائة (ستاتر)[٩]، وقدّمه لالكيبيادس ورجا منه قبوله فابتسم الكيبيادس مسروراً بهذه المبادرة ودعاه الى العشاء وبعد أن أكرمه وأحتفى به أعاد اليه ذهبه وطلب منه الحرص على الحضور في اليوم الثاني عندما تعرض جباية الضرائب العامة للمزايدة وان يتدخل بين المزايدين ولا يكفّ عن رفع السعر. فطفق الرجل يعتذر لأن المبلغ المطلوب جسيم للغاية وقد يبلغ كثيراً من التالنتات. إلاّ أن [الكيبيادس] الذي كان في ذلك الحين يحقد حقداً خاصاً على متعهدي الجباية الحاليين - هددّ الرجل بالضرب إن هو رفض طلبه. وفي اليوم التالي حضر الغريب ساحة السوق وزاد تالنتاً واحداً على السعر الحالي. فثار غضب الجباة ثم أخذوا يتشاورون فيما بينهم وتوجهوا نحوه طالبين منه تسمية التأمينات التي ثبت أهليته، مستنتجين بأنه لن يجد أي ضمان. فافزعه هذا الطلب وبدأ يتراجع ولكن الكيبيادس الذي كان واقفاً عن كثب نادى الحكّام قائلاً: «ضعوا أسمي الى جانب اسمه. انه صديق لي وساكون ضامناً له». ولما سمع المزايدون الآخرون ذلك، ادركوا أن محاولتهم هذه قد أخفقت. وكانوا في محنةٍ لأنهم ارادوا بارباح السنة التالية أن يدفعوا بدل تعهد السنة السالفة. ولم يجدوا مخرجاً من ورطتهم هذه إلاّ بالرجاء من الرجل الغريب وتقديم مبلغ من المال. ولم يرض الكيبيادس له بأقل من [تالنت] واحد، وعندما دفع له ذلك أمره بكفّ يده عن المزايدة، وبهذه الحيلة أخرجه من ضيقه المالي.

ومع أن [سقراط] كان له كثير من المنافسين الأقوياء. فان سجايا الكيبيادس الخلقية الطيبة أعطت صداقته السيادة على كل المنافسين. كانت كلمات الفيلسوف تؤثر فيه أعمق تأثير حتى تستدر الدموع من عينيه، وتهزّ نفسه هزاً عنيفاً. على أنه كان في بعض الأحيان يستمريء تملقّ المتحلقين عندما يزينون له تعاطي مختلف الملذات، فيترك [سقراط] الاّ أن الفيلسوف يتبع آثاره كأنما يطارد عبداً آبقاً. وكان السيبيادس يحتقر الناس ولم يحترم أو يجلّ أحداً سواه. ويقول الفيلسوف [كليانثس Cleanthes] في معرض حديث له عن شخص كان لصيقاً به: إن اذنيه هما مجال تأثيره الوحيد فيه، بينما كان منافسوه على صداقته يملكون منه سائر المجالات الأخرى للتأثير فيه. وليس من سبيل للشكّ في أن (الكيبيادس) كان ضعيفاً للغاية أمام مباهج الحياة سهل الوقوع في حبائلها. وان العبارة التي استخدمها ثوكديدس لوصف سبيل العيش المفرط في الملذات الذي اختطه الكيپيادس يؤكد هذا الاعتقاد الاّ ان الذين حاولوا افساده استفادوا بالدرجة الأولى من نزوعه الى الطموح والغرور ليدفعوا

(٩) عملة (ستاتر) تزن اربع دراخمات آتيكية. وقد تكون من الذهب أو الفضة. والفضة منه تعادل قيمته دولاراً امريكياً واحداً على وجه التقريب. أما (ستاتر داريكوس) فهو النقد الذهبي الآتيكي ويجب أن يكون أعلى قيمة من هذا بكثير اذا ما حسبت نسبة تحويل الذهب الى فضة بواحدٍ الى عشرة.

به قبل الآوان الى ركوب أعظم المغامرات. وأقنعوه بأنه ما أن ينصرف الى الشؤون العامة حتى تكسف شمسه شمس كل الساسة والقادة، بل سيفوق پيريكليس شهرة وسلطاناً في بلاد الأغريق. وكثيراً ما لاحظ سقراط مع هذا - أن مثل الكيبيادس كمثل الحديد تلينه النار وتصلبه البرودة وتشدّ أجزاءه ثانية. تضله الكبرياء والترف سواء السبيل، ليعود نادماً مصححاً أخطاءه بنصائح الفيلسفوف، ويستقيم ويتضّح عندما يوضح له النقائص الكثيرة التي فيه، وكم هو بعيد عن كمال الأخلاق.

عندما اجتاز دور الحداثة قصد مرّة مدرسة للنحو وطلب من الاستاذ أحد كتب هوميروس. ولما أجابه انه لايوجد شيء من مؤلفات هوميروس، أهوى عليه بلكمةٍ وخرج. ومرة قال له معلم آخر أنه نقحّ آثار هوميروس بنفسه. فقال الكيبيادس:

- كيف؟ وهل تصرف وقتك في تعليم الصبيان القراءة؟ أنت الذي تتمكن من تصحيح هوميروس ما أجدر بك أن تثقف الرجال.

ورغب يوماً أن يبادل پيريكليس الحديث فقصد منزله فقيل له أن پيريكليس ليس فارغاً له، لأنه مشغولٌ في التفكير بكيفية تقديم تقرير باعماله للآثينيين فقال الكيبيادس وهو ينصرف خير له أن يفكر في كيفيةٍ يتجنب بها تقديم أي تقريرٍ ما».

وفي مطلع شبابه كان جندياً في الحملة التي جردت على [پوتيديا](*) وكان سقراط يساكنه في عين الخيمة، ويقف في المعركة الى جانبه. ومرة حصل اشتباك عنيف، أبديا فيه شجاعة عزّ نظيرها إلاّ ان الكيبيادس أصيب بجرح ووقف سقراط حاجزاً امامه يحميه، ولم يساور الشكّ أحداً في أن هذا العمل أنقذ صديقه مع سلاحه من الوقوع في يد العدوّ وكان العدل يقضي أن يمنح سقراط جائزة البسالة لعمله هذا. إلاّ أن القادة مالوا الى منح الكيبيادس هذا الشرف بسبب مركزه الطبقي. وكان سقراط يرغب في أن يزيد من تعطشه الى المجد النبيل القصد، فأنبرى أوّل شاهدٍ له، والحّ عليهم لضفر أكليل الغار على رأسه وخلع شكة سلاحٍ كاملة عليه. وبعد هذا، لما هُزم الآثينيّون في موقعة [دليوم Delium](١٠) وفيما كان سقراط مع فلولٍ قليلة العدو تتراجع ماشيةً، اذ لمحه الكيبيادس وكان على صهوة حصانة، فلوى عنانه ولم يمضِ عنه بل وقف ليحيمه من الخطر، حتى نقله سليماً معاني رغم أن زخم الهجوم كان شديداً

(*) في العام ٤٣٢-٤٣١ ق.م.

(١٠) يخبرنا [لاخيس] الذي كان ملازماً سقراط في ذلك الحين ان الآثينين ما كانوا ليهزموا لو وقف سائرهم الوقفة التي وقفها سقراط وصمدوا وادوا واجبهم مثله [ثوكيديوس ٢:٢، ٤:١٠١]. ان افلاطون الذي نقلنا عنه هذه الرواية عن حادث (پوتيديا) يزعم اثينيوس بأنه أختلق هذه الرواية على كلٍّ ليكرم ذكرى استاذه. وهذه المعركة جرت في الالمپياد التاسع والثمانين اي بعد وقعة پونيديا بثماني سنوات.

عليهم والمقتلة فيهم عظيمة. على أن ذلك حصل بعد زمن بعيد.

ومرة صفع [هيپونيكوس Hipponicus] والد كالّياس Callias وهو رجل عظيم الشأن كبير المقام لنسبه العريق وثرائه، فعل ذلك دون سبب أو استفزاز أو سورة غضب مفاجئة، أو خصام نشأ بينهما. بل لأنه تراهن مع صديق له في لحظة مزاحٍ، بان يقدم عليها. وسخط الناس سخطاً شديداً على هذا الاعتداء عندما انتشر خبره في المدينة. إلاّ أن الكيبيادس قصد منزل هيپونيكوس في صباح اليوم الثاني الباكر وطرق الباب، فسمح له بمواجهة المعتدى عليه، وهناك بادر الى خلع ردائه الخارجي وعرض جسمه العاري له ليجلده ويعاقبه كما يحبّ ويشتهي فنسي هيپونيكوس كل ما شعر به حنق ولم يكتف بالعفو عنه بل زوجه بعد قليل بابنته [هيپاريته Hipparete]. ويقول بعضهم أن كالياس ابنه هو الذي اعطى هيپاريت، وليس اباه. ومهرها بعشرة تالنتات، وان الكيبيادس عندما انجبت له ابناً أرغمه على أعطائه عشرة تالنتات أخرى مجتحاً بأن الاتفاق قد تمّ بينهما على ذلك عندما تنجب هيپاريت. ودبّ الخوف في قلب كالياس من أن يدبّر الكيبيادس اغتياله فأعلن في اجتماع عمومي للمواطنين الآثينيين، أن بيته وأمواله كلها وقفٌ للدولة إن توفي بلا عقب. وكانت هيپاريت زوجاً مخلصة رفيعة الخلق، إلاّ أنها زهقت أخيراً وعيل صبرها للإهانات التي كانت تلقاها من زوجها لمعاشرته المستمرة للعاهرات الآثينيات والاجنبيات، فانفصلت عنه ولجأت الى منزل أخيها ولم يبد الكيبيادس أهتم بالأمر مطلقاً وواصل حياته الدنسة إلاّ أن القانون كان يتطلب أن تحضر بنفسها أمام [الأرخون] لا بوكيل ينوب عنها وتقدمّ الدليل الذي يعطيها حق الادعاء بالطلاق. فتطبيقاً لحكم القانون تقدمت بشخصها للإدعاء، فجاء الكيبيادس ورفعها بيديه وحملها الى منزله ماراً بساحة السوق دون أن يجرأ أحدٌ على أعتراض سبيله أو استخلاصها منه. فبقيت في كنفسه حتى وفاتها التي حصلت بعد فترة ليست طويلة عندما كان الكيبيادس في [أفسُس Ephesus]. ولم تكن هذه الفعلة تعتبر من الكبائر أو مما لايليق بالرجال. لأن القانون الذي أوجب على طالبه الطلاق أن تحضر في مجلس علني، يبدو أنه قصد بهذا أعطاء زوجها فرصة لاقناعها والعمل على اعادتها.

كان [الكيبيادس] يملك كلباً اشتراه بسبعين [مينا][*]، ضخم الجسم في غاية الرشاقة والجمال. وكان ذيله أظهر حليةٍ فيه، فعمد الى بتره[11]، وراح كل اصحابه يلومونه على فعلته وقالوا أن آثينا آسفة على ما حل بالكلب ولا حديث لأهلها إلاّ أستنكارها مضحك

(*) ما يعادل ٧٠٠٠ دراخما.

(١١) عن لونگهورن: إن التمثال الأثري النفيس الذي يمثل هذا الكلب مقطوع الذيل موجود الآن في دونكومبه پارج في مقاطعة يوركشاير بانگلترا. الموقعة حصلت في العام ٤٢٤ - انظر افلاطون [المحاورات].

وقال: «ما قصدته حصل بالتمام اذن. كانت رغبتي أن يتحدث الآثينيون عن هذا حتى لايتقولوا بالسوء عني».

وقيل أن أول حضوره مجلس العموم كان مناسبة تقديمه منحةً مالية للشعب. ولم يكن عمله هذا نابعاً عن سبق تفكير به، بل صدر منه عفواً بينما كان ماراً في سبيله، اذ سمع صيحةً فسأل عن السبب فأعلم أنه تبرّع عامٌ للشعب فجاء اليهم وتبرّع هو أيضاً. فهتف له الجمع وصفقوا، وأخذ بالمفاجأة، حتى أنه نسَيَ سمانيّاً quail كان يخفيه تحت عباءته، فأجفلته الضجة وأفلت طائراً، وزادت هذه الحادثة من ضجيج الناس وهتافهم وأنطلق كثير منهم وراء الطائر، وتمكن أحدهم، [انطيوخُس Antiochus] الملاحَ من امساكه واعادته له، فجعلته هذه الحادثة من أعزّ اصدقاء الكيبيادس[١٢].

كان لديه كثير من المؤهلات العظيمة للدخول في معترك الحياة السياسية فشرف نسبه، وثراؤه، والبسالة التي ابداها في مختلف المعارك وكثرة أصدقائه ومشايعيه، فنحت كل الأبواب بوجهه على ما يقال إلاّ انه لم يرض أن يدع نفوذه مع الشعب يستند كل شيء غير موهبة الخطابية ومضاحته. أما وانه استاذ من الخطابة فهذا ما يشهد به الشعراء الساخرون. وأعترف له أقدر الخطباء الجماهريين إنه الى جانب مواهبه الأخرى - بلغ الذروة في فن الخطابة، بخطابه الزي ألقاه ضَدّ ميدياس [Midias] (*).

واذا وثقنا بكلام [ثيوفراستوس] وهو من دون كل الفلاسفة أكثرهم تحقيقاً وتدقيقاً وحبّاً للتاريخ، فلنا أن نذكر أن الكيبيادي كان ذا قدرة عجيبة على استنباط واستخراج كل ما هو صائب وصالح القول لأي غرض ولأي مناسبة، مع وضعه في قالب لفظي بليغ لفظاً وتركيباً. وعندما لا تحضره العبارات المناسبة أو الكلم الدقيق فكثير ما يسكت وهو في وسط حديثه ويظلّ صامتاً حتى يقع على التعبير المنشود ويسيطر على نفسه.

وكانت نفقاته الضخمة على خيول الالعاب العامة والعدد الكبير الذي يحتفظ به من العجلات موضع حديث الناس، اذ لم يرسل أحد غيره -ملكاً كان أم شخصاً عادياً- سبع عجلات مرة واحدة الى الالعاب الاولمپية وان يفوز دفعة واحدة بالجوائز الأولى والثانية والرابعة

---

(١٢) في تلك الايام كانت تربية طائر السماني شائعة. وكان سقراط قد نصح الكيبيادس بقوله ان بروزه في الحياة العامة يقتضي منه المزيد من الدراسة يحقق تفوقه على قادة العدو. ثم عقب بمزاح قاس «كلاّ كلاّ يا الكيبيادس، ان الدرس الوحيد الذي انشغلت به هو كيف تتفوق على [فيدياس] في تربية السّماني! [افلاطون: الكيبيادس ١] كان اسم الرجل الذي امسك بطائر الكيبيادس سيبقى مغموراً لو لم يُنيبُه في قيادة الاسطول عند غيابه. وعندما سخت له فرصة أصيب بشرّ هزيمة.

(*) ديوستينس: «ضد ميدياس» ١٤٥٠.

(على قول ثوكديدس)(*) أو الثالثة (على قول يوربيدس). فيسبق بدرجة عالية جداً كل امتياز عرف أو منح في هذا الباب. وقد حيّا يوربيدس فوزه بالابيات التالية:

إن نشيدي هذا واجب لك عليّ يا ابن كلينياس

النصر نبيل ولكن الانبل منه أن تنجز ما لم ينجزه أحد من اليونانيون قبلاً

أن تفوز في سباق العجلات الكبير، بالدرجة الأولى والثانية، وتخرج من السباق دون أن يصيبك التعب.

وتجعل المنادي يطلب ثلاث مرات أكليل زيتون زفس(١٣)

إن التنافس الذي ابداه مختلف وفود الدول - في تقديم الهدايا له زاد من قدر نجاحه. وضرب له وفد [أفسّس] خيمة ذات زخارف في نهاية الفخامة، وأهدته مدينة [خيُوس] علفاً لخيوله مع كثير من حيوانات الأضاحي. وأرسل له وفد [ليسبوس] خموراً وزاداً للولائم الكبرى التي أقامها(١٤). على أن لم يخلص من الألسن الحادة والنقد رغم كل هذا، وحصدوه إما لسوء طبع أعدائه. أو لسوء سلوكه. فقد قيل أن آثينياً يدعى [ديوميدس] من سراة القوم، وصديق لالكيبيادس، كان شديد الرغبة في الفوز بالسباق الأولمبي وكان قد سمع الكثير عن العربة التي تملكها الدولة في [آرغوس]، ولعلمه أن الكيبيادس يتمتع بمنزلة ونفوذ كبيرين هناك واصدقاء كثر، رجا منه أن يتوسط لشراء العجلة له، واتباع الكيبيادس العربة فعلاً وأختصها لنفسه، تاركاً وديوميديس يتميز غيظاً منه. ويبتهل الى الآلهة ويدعو الناس ليشهدوا الظلم الذي أصابه. ويبدو أن دعوى أقيمت في المحكمة بهذا الخصوص، كما يوجد لدينا مقولة عن العجلة كتبها [ايسوقريطس Isocrates] دفاعاً عن ابن الكيبيادس. إلاّ ان المدّعي في هذه الدعوى هو [تسياس Tisias] لا [ديوميدس].

وما أن بدأ يدخل معترك السياسة ويتدخل في شؤون الحكم وهو ما يزال فتىً يافعاً، حتى أضعف منزلة جميع أولئك الذين استوحوا الثقة من الشعب، ما عدا [فاياكْس] ابن

(*) هو Epini Kion أو ترتيله، النصر مثل اناشيد پندار الميسورة.

(١٣) فاز الكيبيادس بالجوائز الأولى والثانية والثالثة بشخصه في حين فازت عربته في غيابه مرتين.

(١٤) يكتب [انتستينوس تلميذ سقراط ان مدينة [خيوس] كانت تقدم العلف لخيله. وخيزيكوم تؤمن له الأضاحي، هذه العبارة تستحق التأمل فقد علمنا منها ان ذلك لم يقتصر على مناسبة ذهاب الكيبيادس الى الالعاب الالمپية بل تعداه الى حملاته العسكرية وتنقلاته. فيقول بهذا الصدد: «كلما سافر الكيبيادس قامت اربع مدن على خدمته كما تقوم وصيفات على الخدمة في البيت. و(أفسيس) تمدّه بخيمٍ فاخرة شبيهه بالخيام الفارسية. و[خيوس] تمده بعلن دوابه. و[خيزيكوم] تمدّه بالاضاهي والارزاق موائد طعامه، .[لسيوس] ترسل اليه الخمر وكل ما هو ضروري لادارة بيته».

[ايرسيستراتوس Erasistratus] ابن [نسياس] ابن [نيكيراتوس Niceratus] الذي وقف وحده في حلبة المنافسة خصْماً له. كان [نسياس] قد عاد وهو في سنٍّ متقدمة، ونصبٍ قائداً أعلى. وكان [فاياكس] كالكيبيادس سياسياً صاعداً. وهو سليل بيت عريق لكنه يقلّ شرفاً وعراقة عن نسب الكيبيادس كما كان يقلّ عنه في أمور شتىّ أخرى في مقدمتها البلاغة. على أنه كان يتمتع بمقدرة نادرة على الاقناع في مجال الأحاديث الخاصة، لا في نقاش عام امام الشعب. وكما قال فيه [يوپوليس Eupolis]:

«هو اخر المتحدثين واعجز الخطباء»

هناك مقالة نقد كتبها [فاياكس][*] في الكيبيادس. ذكر فيها مما ذكر. أنه كان يستعمل يوميّاً على مائدة طعامة أواني الذهب والفضة التي تعود للمواكب والحفلات العامة كأنما هي ملك خاص[١٥] به.

كان ثمّ رجل اسمه [هيپربولوس Hyperbolus] من مدينة [پيريثودي Perithodae] يذكر عنه (ثوكديدس)[١٦] أيضاً، بأنه رجل سيء الخلق، وموضع سخرية عامة لكلّ الكتاب الهزليين في عصره، لايهتم قطّ بما يقولون عنه مهما بلغت أقوالهم من السوء فيه. وهو عادم الاكتراث بالسمعة، قليل الإحساس بالعار، خُلُقٌ ير يعدّه بعض الناس جراءة وشجاعة. في حين أنه وضاعةٌ وقلة حياء. لم يكن يحبّه أحدٌ إلاّ أن الناس كثيراً ما أستخدموه كلما انصرفت نيتهم الى تحقير شخص في الحكم أو اساءة سمعته. وفي هذا الوقت كان الشعب بناء على تحريض هذا الرجل، مهيئاً للأضطلاع باجراءات أصدار حكم بالنفي لمدة عشر سنوات وهو ما يطلق عليه «النفي من دون محاكمة Osracism». وكانوا يلجأون الى هذه العقوبة لإذلال وطرد المواطنين الذين تفوقوا على غيرهم في في السطان والشهرة وكانت دوافع الحسد والغيرة في عملهم هذا تغلب على دافع التخوف والحذر من خطر المحكومين بها. ولم يكن أنذاك من شكّ في ان العقوبة ستقع على أحد الثلاثة. وبذل الكيبيادس جهده ليقيم ائتلافاً بين الاحزاب وفاتح [فسيساس] بمشروعه، وكانت نتيجته وقوع النفي عن نصيب [هيروبولس]. ويقول

(*) هذه المقالة وصلتنا من بين خطب اندوفيدس (الرابعة) وهي واضحة التصنيع نحلّها مؤلف مجهول لسان فاياكس.

(١٥) الظاهر انه كان يستعير هذه الصحاف المكرّسة فيبخسها بالاستعمال الدنيوي ولا يعيدها الا قبيل المواسم الدينية للعرض كي يبدو للأغراب وكأنها ملكه وانه أعارها للمدينة. اما (فاياكس) فقد جاء ثوكيديدس الى ذكره ووردت مقالته هذه بين خطب [اندوقيدوس: الخطب ٤] وهي خطبة واضحة الزيف نحلّها كاتبها المجهول لسان [مایاکس].

(١٦) التاريخ الطبيعي ٨:٧٣.

آخرون انه لم يشاور [نسياس] في هذا الأمر بل [فاياكس]، وبمساعدة حزبه ضمن قرار النفي بحق [هيپربوليس] عندما كان أقل الناس توقعاً له، فقبل هذا لم يقع تحت طائلة العقوبة شخص نكرة وضيع. وكان الشاعر الساخر افلاطون مصيباً كبد الحقيقة في قوله عن [هيپربوليس]: «مع هذا استحق المصير الجدير بالغابرين، المصير الذين لايستأهله أمثاله من الرجال لأمثاله، وللعبيد الموسومين بميسم العبودية.

على أننا أثبتنا في موضع آخر تفاصيل أوفى، مما نما الى علمنا في هذا الشأن.

ولم يكن الكيبيادس بأقل هَمّا بخصوص المنزلة الرفيعة التي نالها [نيقياس] لدى اعداء اثينا، من التشريف الذي خلعه الاثينيون عليه في الوطن. فمع أن [الكيبيادس] كان الشخص المعين رسمياً لاستقبال كل اللقيديمونيين عند قدومهم الى آثينا، ومع أنه أهتم إهتماماً خاصاً بالأسرى الذين أخذوا في [پيلوس Pylos][17] فإنهم خصّوا [نيقياس] وحده بالتكريم والتجلة بعد أن نالوا سلماً واستعادوا الأسرى بمسعى [نيقياس] بالدرجة الأولى وكان القول المأثور في بلاد الأغريق أن بيريكليس بدأ الحرب و[نيقياس] انهاها، وان السلم نُعت رسمياً[18] بسلم [نيقياس] اظطرب الكيبيادس اضطراباً شديداً لهذا الأمر ولما كان الحسد يملاؤه فقد راح يعمل على تشتت شمل العصبة المتحالفة. فوجد أولاً ان الأرغوسيين يريدون الحماية من غائلة اللقيديمونيين خوفاً وكرهاً.

فعقد بينهم وبين آثينا حلفاً معززاً بميثاق سري، واتصل بصورة شخصية وبطريق المراسلة مع رؤساء المستشارين في ارغوس مشجعاً أياهم على طرح جانب الخوف من اللقيديمونيين، وعدم التنازل لهم عن شيء ما. ونصحهم بالتريث قليلاً وان يبقوا شاخصين بأنظارهم الى الآثينين الذين أدركهم الندم الشديد للجنوح الى السّلم وانهم لن يلبثوا ان ينقضوه.

ووجد [الكيبيادس] أيضاً أن اللقيديمونيين كانوا قد عقدوا صلحاً ومعاهدة تحالف مع البويوتيين، من شروطها أن يسلّموا لهم مدينة [پاناكتوم Panactum] سليمةً، إلا أنهم لم يسلّموها إلاّ بعد أن دمّروها[19] مما أثار غضب الآثينيين الشديد. ولذلك أسرع الكيبيادس

---

(١٧) في العام ٤٢٥ ق.م وهي تعزى خطأ الى [نيقياس] من قبل پلوتارخ وغيره من المؤرخين. فثوكيديدس يعلمنا ان تسمية (الكيبيادس) جاءت من الجهة اللقيديمية. وان «حقوق الضيافة» المذكورة في النصّ بدأت بين ابيه [كلينياس] وبين الكيبيادس والد اڤيديوس Eudius أحد الايغوري الذي كان قد حلّ ضيفاً عليه في آثينا، فمنح اسمه لابنه (تكريماً) وعلى سبيل المقابلة بالمثل سمّى الكيبيادس أحد ابنائه (باڤيديوس)اسم الضيف اللقيديمي:

(١٨) جرى عقده في السنة ٢٤١ ق.م.

(١٩) قلعة على حدود بويوتيا وآتيكا. [انظر ثوكيديدس ٥:٣، ٤٢].

ينتهز الفرصة، ليسعرَ من غيظ مواطنيه مهاجماً [نقياس] هجوماً عنيفاً ومتهماً إياه بأشياء كثيرة لم تكن تخلو من الحقيقة. منها انه لما كان جنرالاً لم تبدر منه بادرة لأسر جماعة من جنود العدو[٢٠] كان قد قطع عليها سبيل الهروب في جزيرة [سفاكيتريا Sphacteria]، ولما قام آخرون بأسرهم سعي شخصياً الى إطلاق سراحهم وإعادتهم الى اللقيديمونيين لنيل الحظوة عندهم. ثم انه لم يستخدم نفوذه لديهم، لمنعهم من عقد هذا الحلف مع الكورنثيين والبويوتيين، بينما عمد من الناحية الأخرى الى اعتراض سبيل بعض الدول الأغريقية التي كانت تحبذ عقد معاهدة تحالف وصداقة مع آثينا لأن اللقيديمونيين لايرغبون في ذلك.

وفي هذا الزمن الذي بدأت منزلة [نيقياس] وسمعته تهويان الى الحضيض في عيون الشعب بمساعي الكيبيادس وفنونه، وأتفق أن حضرت سفارة من لقيديمون الى آثينا وصرح اعضاؤها انهم جاؤوا يحملون شروطاً مرضية جداً وانهم مفوضون مطلقو الصلاحيّة في تسوية كل ما هو موضوع نزاعٍ بشروط مبنية على أسس العدالة والمساواة. ونالت مقترحاتهم قبول مجلس الشورى وأعلن انعقاد مجلس العموم في اليوم التالي لتجرى فيه مناقشة عروضه. فأشتبدّ القلق بالكيبيادس لتطور الأمور بما لايشتهيه، وعمل على ان يجتمع بالسفراء سِراً فتمّ له ذلك. ووجه اليهم القول التالي:

- ما الذي تسعون وراءه يا رجال سپارطا؟ أهكذا يغيب عن بالكم أن المجلس اعتاد دائماً أن يتخذ موقف الإحترام والإعتدال من كل السفراء؟ إلاّ أن جماهير الشعب خلاف ذلك فهي طموحة مندفعة بطبعها وراء المغامرات العظيمة والمطالب الضخمة، وإن علموا بانكم خولتم صلاحيات مطلقة فسيشددو عليكم النكير، ويرغموكم على شروط غير معقولة فإياكم والسذاجة، وحذار من سلامة النية إن كان قصدكم الاتفاق مع الآثينيين على شروط متوازنة فبها. والاّ انتزعت منكم امتيارات لا تتفق وخططكم. وابدأوا بالتعامل مع الشعب على أسس ومبادىء معقولة، واحذروا من القول بانكم مفوضون مطلقو الصلاحية».

---

(٢٠) بعد أن فقد اللقيديميون قلعة (پيلوس) في ميسينيا. وضعوا حامية جزيرة [سفاكتيرتا] المقابلة لها، قواتها (٣٢٠) جندياً مع عدد من الهيلوت بقيادة [إپيتادس ابن بولوبروس] وأعتذر نيقياس عن الخروج الى الجزيرة واحتلالها وان يتولى منصب القائد في حينه. إلاّ ان (كليون) وُفق الى استعادتها وقتل عدد من افراد حاميتها وسوق البقية أسرى الى آثينا وكان بينهم مائة وعشرون سپارطياً نالوا حريتهم بفضل نيقياس. بعد هذا استعاد اللقيديميون القلعة فقد فشل انتيوس الذي قاد النجدة، في الوصول اليها لمعاكسة الريح وعاد الى آثينا فحكم عليه بالموت واستبدل الحكم بغرامة كبيرة. فكان أول من يفتدي حكم موته بالمال على هذا الشكل.

بعد أن أنهى حديثه هذا حلف لهم الأيمان بأنه سينجز ما وعدهم من المساعي لقضيتهم وبهذا الشكل ابعدهم عن نيقياس وجعلهم يعتمدون عليه اعتماداً كلياً. وغادرهم وهم يلهجون بالثناء على حصافته ونفاذ بصيرته. وفي اليوم المضروب اجتمعت العامّة، وتقدم السفراء فنهض الكيبيادس وسألهم بكلّ احترام وتوقير: «ما نوع الصلاحيات التي تزودوا بها؟» فأجابوا أن تفويضهم غير مطلق. وهنا بدأ الكيبيادس وكأنه موضوع الإهانة لا فاعلها، وأخذ ينددّ بهم بصوت داوٍ وينعتهم بالمراوغين والخداعين قائلاً إن هؤلاء لم يأتوا ليقولوا ويعلموا ايّ شيء يتفق ومبادىء الصدق وسلامة القصد. وثارت ثائرة مجلس الشورى وضج الجمهور سخطاً عليهم. أمّا [نيقياس] الذي كان يجهل اللعبة فقد استبدت به الحيرة وكان كغيره مذهولاً خجلاً من التغير في كلام اعضاء الوفد.

وبهذا رفضت سفارة اللقيديمونيين رفضاً باتاً. وأعقب ذلك انتخاب الكيبيادس جنرالاً. فبادر في الحال الى عقد حلفٍ اثينيّ مع الأغوسيين(٢١) والأليائيين وأهالي مدينة [مانتينيا Mantinea].

لم يقع عمل الكيبيادس موقع رضا أحدٍ من الناس، إلاّ أنه كان مناورة سياسية بارعة ادت الى شقّ البلوپونيسوس كلها تقريباً، وتقويض بناء وحدتها. والى تأليب ذلك العدد الضخم من المحاربين ضد اللقيديمونيين امام [مانتينيا] في يوم واحدٍ فقط. الى ذلك إنها نقلت ميدان الحرب الى مسافة بعيدة جداً عن تخوم الآثينيين. فاذا حدث وأنتصر العدوّ فإن انتصاره لن يفيده كثيراً. أمّا اذا هزم فقد لا تسلك سپارطا نفسها على أغلب الإحتمال.

بعد خوض المعركة قرب مانتينيا(٢٢)، حاولت فرقة الألف المنتخبة الأغوسيّة، الإطاحة بحكومة الشعب في أرغوس وبسط سلطانهم عليها، وخفّ اللقيديمونيون الى مساعدتهم، وأزالوا الحكم الديمقراطي. إلاّ ان الشعب قام بانتفاضةٍ مسلّحة واحرزوا بعض النجاح(*)، وعاجلهم الكيبيادس بالنجدة فكمل انتصاره وأعيد الحكم الديمقراطي. وتمكن الكيبيادس من إقناعهم ببناء اسوار طويلة(**) توصل المدينة بالبحر لتصبح ضمن متناول يد آثينا. وأمدّهم بشغيلة وبنائين من آثينا وأظهر منتهى الإخلاص في معاونتهم وكان المجد والسلطان الذي ناله لايقل عما نالته جمهورية آثينا.

---

(٢١) في السنة الرابعة من الاولمبياد التاسع والثمانين: ٤٢١ ق.م. عقد صلحاً مع هذه الدول أمدُه مائة عام.

(٢٢) وقعت المعركة في السنة الثالثة للالمپياد التسعين اي بعد مرور ثلاث سنوات على الاتفاق مع ارغوس. [ثوكيديدس ٦٦:٦ وما بعده] وذلك في العام ٤١٨ ق.م.

(*) في ٤١٧ ق.م.

(**) في ٤١٩ ق.م.

ثم وجه اهتمامه الى [باتري Patrae](٢٣) وتمكن من اقناع أهاليها بربط المدينة بالبحر أيضاً ببناء اسوار طويلة. ولما قال أحد الناس لهم على سبيل التحذير أن الآثينيين سيبتلعونهم في نهاية الأمر. ردّ الكيبيادس بقوله: «ربما كان الأمر كذلك. إلاّ أن عملية البلع ستتم بالتدريج وسيكون البدء من القدمين، اما اللقيديمونيون فسيبدأون من الرأس ويمزقونكم بطرفة عين».

لم يهمل حثّ الآثينيين على الاهتمام بالبرّ وتثبيت مصالحهم فيه وظلّ باستمرار يذكرّ الشبان بالقسم الذي ادّوه في معبد [اغراولوس Agraulos](٢٤): ويقضي ان يعتبر حقول القمح والشعير والخمر والزيتون حدوداً لآتيكا. وهو كناية عن حقهم بملكية كل الأراضي الزراعية والمثمرة.

إلاّ أنه مزج كل هذه المآثر السياسية وبعد النظر وذلاقة اللسان، بحبّ الترف، المفرط، والاسراف في الشراب والمأكل، والحياة المتحللة من المباديء الخلقية. وكان يرتدي ثياباً قرمزية سابغة كزيّ النساء، ويسحب ذيولها على الأرض خلفه عند مروره في ساحة السوق، وأمر بنزع الألواح الخشبية في سفينة لينعم باستلقاء ليّنٍ اذ أن فراشه لايفرش على السطح، بل يعلق في الهواء بسيور من الجلد وترسه الكثير الوشي والزخرفة، لم ينقش عليه الشعار الآثينيّ الاعتيادي(٢٥). وانما رسم عليه صورة [كيوبيد] ممسكاً بشرارة صاعقة. هذه المظاهر وأمثالها ملأت نفوس كرام المواطنين بشعور التقزز والإشمئزاز، وسخطوا للحياة الفاجرة التي يحياها، ولاستهتاره بالقوانين. ووجدوها تصرفات شنعاء بحد ذاتها تحمل في طيّاتها بذور السيطرة والطغيان. ولقد اجاد [ارسطوفانس] التعبير عن مشاعر الشعب تجاهه حين قال:

«انهم يحبونه، ويكرهونه ، ولا يطيقون العيش بدونه».

وبلغ النهاية في الإعجاز ودقة التعبير تحت ستار الكتابة إذ قال:

«من الأفضل أن لا تربّي شبلاً تلاطفه داخل الأسوار المدينة وان فعلت، فعليك أن تعامله معاملة الوحش!».

والحق يقال ان كرمه، وأقامته الحفلات واللهوّ للعامة، وما الى ذلك من ضروب البذل للجمهور، لم يكن يعدله فيها أحد. وأن عراقة أسلافه، وقوة عارضته، ومهابة شخصه ومتانة

---

(٢٣) مدينة من مدن آخائيا. هذا المشروع احبطه أهل كورنث وسيكيون وغيرهما من المدن المجاورة.

(٢٤) هيرودوتس وپاوسنياس يثبتانها [اغلاوروس]. إلاّ أن ما اثبته پلوتارخ هو الصحيح.

(٢٥) للمدن والاشخاص شعارات خاصّة ترسم على صفاحهم. وشعاراتينا المعروف هو (البوم) أو (الزيتون). ولايسمح بحمل الشعار بالنسبة للاشخاص الاّ للبارزين من القوم او من قام بعملٍ مجيد.

تركيبه التي خالطتها شجاعة فائقة، وبراعته في الفنون العسكرية، كل هذا حَكَم على الآثينيين أن يتحملوا تهتكه، ويتغاضوا عن أشياء كثيرة فيه وأن ينعتوا أخطاءه بأخف النعوت كما هي عادتهم، وان يعزوها الى اغترار الشباب وسماحة الطبع. ومن بين المآخذ عنه أنه أبقى الرّسام [آغاثاركوس Agatharcus] (٢٦) أسيراً حتى انتهى من زخرفة وطلاء بيته ومن بعدها أطلقه ونفخه بمكافأة. كذلك اعتدى على [طورياس Taureas] بالضرب لأنه عرض بعض التمثيليات منافسة له بها، قاصداً منازعته الجائزة. وأختار لنفسه أسيرة ميلانية Melan وانجب منها ولداً أهتم بتربيته وتعليمه، وأعتبر الآثينيون ذلك انسانية عظيمة منه، مع أنه كان السبب الأساس لذبح كل الرجال جزيرة (ميلوس) (٢٧) من البالغين سنّ الخدمة العسكرية كانت قبضته تقع عليه لانه كان أحد محبذي اصدار البيان وعندما نقش الرسام [ارسطوفون Aristophon] صورة [نيميا Nemea] (*) العاهرة جالسةً والكيبيادس في حضنها، تقاطر الجمهور زرافات لمشاهدتها وابدوا سرورهم بها. إلاّ أن الناس المتقدمين في السن استكرهوها واستفظعوها. ووجدوها وامثالها شراً مستطيراً، واتجاهاً نحو الإستبداد. لذلك لم يتعد [ارخستراتوس Archastratus] الحقيقة إذ قال أنّ الآثينيين لايستطيعون تحمّل [الكيبيادس] ثانٍ، ومرة عندما بلغ درجة كبيرة من النجاح في خطبة ألقاها. هرع اليه كل المجتمعين يهنئونه ويثنون عليه، ولم يمرّ [تيمون] ذو الطبع الانطوائي، به عرضاً ولم يتجنبه كما فعل غيره، بل توجه نحوه متقصداً، وامسك بيده وقال له:

- امض في سبيلك يا بنيّ ولا تتردد، وزد من رصيدك عند الشعب، لأنك ستجرّ عليهم يوماً من المصائب ما يكفيهم.

وسخر بعض الحاضرين من قوله، وبعضهم اسمعه قارص الكلام. إلاّ أن عبارته نفذت عميقاً في نفوس بعضهم. وكذا كان أختلاف حكم الناس عليه، مثلما كانت أخلاقه كثيرة الشذوذ.

كان الآثينيون منذ عهد [پيريكليس] ينظرون الى صقلية نظرة طمع واشتها ء(٢٨). إلاّ انهم

---

(٢٦) كان لهذا الرسام صلة بعشيقة الكيبيادس. انظر [ديوستينس].

(٢٧) إحدى جزر كيكلادس. وهي مستعمرة لقيديمية حاصرها (الكيبيادس) بست وثلاثين سفينة و(٨٠٠٠) مقاتل صيف العام ٤١٦ ق.م الموافق للالمبياد التسعين. وأستولى عليها بعد أن وصلته نجدة في السنة التالية. ويسرد توكيديدس تفاصيل المذبحة التي أعقبت فتحها لكنه لايذكر شيئاً عن الرسوم. ولعله اراد ان ينقل تبعة ما حصل على الحقد الذي ملأ الجنود فأهاجهم آنياً. دون ان يهتم به الآثينيون.

(*) پاوسانياس: (١: ٢٢: ٧) تمثيل لمنطقة نيميا في الالعاب التي فاز فيها. الاصل الاغريقي: يشير الى انها عاهرة.

(٢٨) تمكن پيركلس بذكائه وسلطانه القوى من كبح هذه الرغبة العارمة عند الآثينيين. الاّ انهم بعد موته بسنتين أثنتين ، ارسلوا بعض السفن الى ريگيوم لنجدة الليونتيين الذي كانوا ضحية هجمات الصقليين =

لم يحاولوا شيئاً الاّ بعد موته. فقد ارسلوا بدعوى مساعدة حلفائهم، نجدات متوالية في شتىّ المناسبات لأولئك الذين كانوا موضع اضطهاد [السيراقوزيين] ممهدين بذلك الطريق لإرسال قوات أكبر. إلاّ أن الكيبيادس هو الذي اضرم نار الرغبة واججها في النفوس، واقنعهم بألاّ يمضوا في غايتهم سراً بعد الآن ولا ان ينفذوها شيئاً فشيئاً، بل أن يجردوا عليها أسطولاً كبيراً ويبسطوا سلطانهم على الجزيرة كلها. وملأ الجماهير بآمال عريضة مثلما كان هو مفعماً بها بل وأكثر، ففتح صقلية كان عندهم نهاية الطموح، بينما كان عنده مجرد البداية. وحاول [نيقياس] جاهداً أن يثني الشعب عن تجريد الحملة، بشرحه لهم أن الاستيلاء على [سيراقوز Syracuse] أمر صعب للغاية إلاّ أن الكيبيادس ما كان ليحلم بأقل من فتح قرطاجنة وليبيا، وببلوغه هذه الغاية التي تجعله حالاً سيّد ايطاليا والپلوپونيس. كان يبدو له غزو صقليّة مجرد مستودع لتفجير الحرب. وشاعت الحماسة في نفوس الشباب لهذه الآمال الجسام وأخذوا يرهفون آذانهم الى كبار السنّ منهم يحدثونهم عن عجائب البلاد التي سيشاهدون، فيشيع الفرح في نفوسهم. وانك لتلقى العدو الكبير من هؤلاء الفتيان جالسين في ميادين المصارعة والمحلات العامة يخططون على الأرض خريطة الجزيرة، وليبيا وقرطاجنة. وقيل أن [سقراط] الفيلسوف وميتون Meton المنجم لم يكونا يأملان خيراً للجمهورية من هذه الحرب. أولهما متكهناً بما سيأتي بوساطة جنّه الذي يلازمه – على ما قيل، وثانيهما أظهر المخاوف من نتائجها إمّا بعد تحليل منطقيّ عقليّ للمشروع، أو باستخدامه فن التنجيم والاستخارة. ولهذا تصنّع الجنون وأمسك بمشعل موقد وبدأ وكأنما يريد أحراق منزله. وذكر آخرون انه لم يتصنع حالة جنونٍ بل عمد سراً في موهن من الليل الى أحراق بيته وفي اليوم التالي انهى بفجيعته الى الجمهور لكي يحملهم على استبقاء ابنه الذاهب للحرب، تخفيفاً عنه ومواساة له. وبهذه الحيلة خذع بني قومه وحصل منهم على بغيته.

وعُين [نيقياس] جنرالاً مع [الكيبيادس] كرهاً عنه وخلافاً لرغبته وجَهد في العزوف عن القيادة أكثر كرهاً بها لوجوده مع الكيبيادس، إلاّ أن الآثينيين رأوا أن ارسال الكيبيادس وحده، دون وجود من يكبح جماحه مما يضرّ بمجرى الحرب، ولذلك عمدوا الى معالجة تهوره بحذر نيقياس ولم يكن تعينيه ناجحاً عن هذا السبب وحده، فالجنرال الثالث في الحملة [لاماخوس] مع تقدمه في السنّ ابدى في عدة معارك ما برهن انه لايقل حِدّة وتهوراً عن

= وبعدها بسنة واحدة أرسلوا عدداً أكبر من السفن. وعقبوها باسطول أكبر بعدها بسنتين أخريين. إلاّ أن الصقلبيين اتّحدوا فيما بينهم وصدوا هذه الحملات تباعاً. وبلغ الغضب بالآثينيين حداً أنهم حكموا على الجنرالين بيثودورس وسوفوخلس بالابعاد جراء فشلهما. كما فرضوا على الجنرال الآخر (أقويميدون) غرامة ثقيلة.

[الكيبيادس] نفسه. وعندما بدأوا يتداولون حول عدد القوات وطرق تجهيزها بالمؤون والعتاد الضروريين قام [نيقياس] بمحاولة أخرى لمعارضة الفكرة ومنع وقوع الحرب إلاّ أن الكيبيادس خالفه ونقل القضيّة الى مجلس العموم(٢٩). وهناك أقترح خطيب يدعى [ديموستراتوس] منح القوّاد الثلاثة صلاحيات مطلقة بخصوص التأهب للحرب، واتخاذ كلّ التدابير المتعلقة بها. فصودق على إقتراحه. وعندما تمّ كل شيء للحملة، ظهرت نبوءات نحسٍ عديدة. ففي ذلك الوقت وقع عيد [أدونيس Adonis](٣٠) وفيه أعتادت النسوة أن يعرضن في كل أنحاء المدينة صوراً وشواخص تمثل رجالاً موتى يحملون الى المدفن وان يمثلن شعائر الجنازة بالندب والعويل واناشيد الرثاء. على أن التقطيع الذي أحدث في صور شواخص و[مارس](٣١) أدّى بأغلبها الى تشويه في أوجهها خلال ليلة واحدة . وأفزع ذلك كثيراً من الأشخاص الذين تعوّدوا الاستخفاف بمعظم ما هو من هذا القبيل. وأشيع أنه من عمل الكورنثيين لأجل السيراقوزيين الذين كانوا مستعمرةً لهم(٣٢)، آملين أن يعدل الآثينيون عن الحرب أو يؤخروها، كردّ فعل لهذه الخوارق. إلاّ أن النبأ لم يؤثر في الناس أي تأثير، ولم يكن رأي أولئك الذين لم يعتقدوا بوجود اي اشارة نحسٍ في الحادثة، إلاّ مجرّد كونها عملاً فاضحاً مباحاً قام به فتيان طائشون على سبيل المزاح اثناء خروجهم من اجتماع لهو وشراب. إلاّ أن مجلس الشورى والجمعية العامّة أفزعتهم وأغضبتهم الحادثة ونظروا اليها نظرة شكّ وعدّوها تمهيداً لمؤامرة عدد من الاشخاص لقلب نظام الحكم وواصلت الجمعية والمجلس اجتماعاتهما أياماً، للتحقيق الدقيق في كل ما يستدعي الشكّ.

وفي أثناء التحقيق أحضر [اندروكلس Androcles] وهو غوغائي- عدداً من الأرقاء والاجانب. ليتّهموا الكيبيادس وبعض اصدقائه بتشويه الصور الأخرى بعين الطريقة.

---

(٢٩) هذه الخطب التي تستحق القراءة للاسلوب الجميل في ايضاح الاجراءات الحكيمة الحذرة التي باشرها نيقياس. والتهور والطيش اللذين باشرهما الثاني. حفظها لنا ثوكيديدس، أو ربما قام هو بتدبيجها (٦: ٩-١٨).

(٣٠) في عيد [ادونيس] تبدو كلّ المدن بمظاهر الحداد. وتعرض الرسوم امام كلّ باب. وتحمل في المواكب تماثيل ڤينوس وادونيس مع اوعية معينة فيها تراب انبتوا فيه قمحاً واعشاباً وخساً وتدعى هذه الأوعية بـ(حدائق ادونيس). وترمى في البحر بعد ختام الاحتفال. ويحتفل كل بلاد اليونان ومصر به، كذلك كان اليهود يحتفلون به عندما انتقلوا الى عبادة الاوثان (حزقيال ٨: ١٤) وفي خلال ساعات الاحتفال كثيراً ما ترى النسوة جالسات يندبن ويبكين من أجلّ تموز اي أدونيس.

(٣١) كان الآثينيون ينصبون تماثيل (مارس) امام ابواب بيوتهم. وهي على شكل قطع صخرٍ مربعة يوضع فوقها رأس ذلك الرب. ويقول باوسيناس [٤: ٣٣] إن سائر الاغريق استعاروا منهم هذا التقليد. اما التشويه الذي ينوه به بلوتارك فقد جرى قبل هذا التاريخ كما يؤكد [ثوكيديدس ٦: ٢٨].

(٣٢) أرسل هؤلاء المستوطنون بقيادة (ارخياس) وهو أحد الهيراقليدي [ثوكديدس ٦: ٣] و[سترابو: ٥].

والتجذيف على الأسرار الآلهية وإتيان أعمال كفرٍ بحقها في مجلس شراب، ومثل [ثيودوروس] دور المنادي، وبوليتيون Polytion تقمص شخصية حامل المشعل، وقام [الكيبيادس] بدور رئيس الكهنة. وظهر بقية الجماعة بدور المرشحين للرسامة واقتبلوا درجة التكريس. هذه الوقائع تضمنّها بلاغ المعلومات الأولى الذي قدمه (تسّالوس ابن سيمون] ضدّ الكيبيادس حول اتهامه الإستخفاف الإلحادي بالربّتين [سيربس] و[پروسپرين] الأمر الذي اسخط الشعب عليه وأحنقهم للغاية، و[اندروكلس] اخبث اعدائه زاد في الطين بلّة وهوّل التهّمة فأقلق أصدقاءه للغاية. ولكن لما علموا أن البحارة الذاهبين الى صقلية يقفون في صفّه وكذلك الجنود. وعندما أعلن الجنود الالف الاحتياط من أرغوس ومانتينيا أنهم ما تكلفوا عناء هذه الحملة العسكرية البحرية البعيدة المدى إلا لأجل الكيبيادس، فإنْ أُسيئت معاملته فسيعودون الى ديارهم، عادت اليهم شجاعتهم، وخفوا عجالاً للاستفادة من الفرصة، وتزكيته، وأصيب اعداؤه بالخزي مرّة أخرى نكصوا خوفاً من أن يكون الشعب أكثر رقّة في حكمهم عليه، بسبب ما لديه من خدمات. فلأجل ان يحولوا دون ذلك، سعوا الى دفع خطباء آخرين، ممن لم يعرف عنهم عداوة لالكيبيادس، بينما لايقل حقدهم عليه عن أولئك الذين صرحوا بعداوتهم له، الى ان يقفوا في الجمعية ويخطبوا بهذا المعنى: «إنه لمن السخف أن يتعرض رجل انتخب قائداً لمثل هذا الجيش، بصلاحيات مطلقة، وبعد أن وصلت القوات الحليفة، وتمّ تحشيد جنوده - لخسارة الفرصة بينما يقوم الشعب بالاقتراع على انتخاب القضاة الذين سيحاكمونه، ويصبون الماء في الأواني لقياس الوقت المخصص لدفاعه[٣٣].

«دعوه يبحر في الحال، وليرافقه السّعد، وعندما تضع الحرب أوزارها، يتفرغ الى تنظيم دفاعه شخصياً حسب أحكام القانون». وأدرك الكيبيادس سوء القصد في هذا التأجيل، ووقف في الجمعية قائلاً انه لأمر فظيع أن يعهد اليه بقيادة مثل هذا الجيش العظيم، وهو يرزح تحت عبء تهم ووشايات يستحق عليها عقوبة الموت إن لم يفلح في تبرئه نفسه من الجرائم التي الصقت به، ولكن إن فعل ذلك وبرهن على براءته، فاذ ذاك يمكنه التفرغ الى الحرب بكلّ سرورٍ، اذ لايعود بعدها في خوف من اي متهمٍ كاذبٍ.

(٣٣) أستخدمت الساعات المائية اثناء المحاكمات الشعبية في اثينا لتحديد اوقات المرافعات. ويتم ايقاف هذه الساعات عند شروع الشهود بالادلاء بشهاداتهم ويقوم بهذا ضابطٌ يختار لهذا الغرض من طبقة العامة. ويخبرنا [پوللوكس] ان الماء في القضايا الخاصة بالخروج على القوانين - يقسم الى ثلاثة اجزاء. جزءٌ مخصص للمدعي ولتلاوة نصوص القانون ولأقوال الدولة، وجزءٌ مخصص للمتهم وشهوده. وجزءٌ مخصص للقضاة ان لم تعلن برادته بالقرار الاول ذلك لأن القضاة - كما هي العادة الآن عند أكثر المحاكم - يصدرون حكمين الأول بالادانة أو البراءة، والثانية بتحديد العقوبة في حال التجريم.

إلاّ أنه لم ينجح في اقناع الشعب برأيه وأمروه بالابحار فوراً[٣٤]، فرحل مع الجنرالين الأخرين وكانت الحملة تتألف من ١٤٠ بارجة حربية تقريباً و٥١٠٠ محارب، وحوالي ١٣٠٠ نابل ورامي مقلاع، وجنود خفاف السلاح، وكل ما يتعلق بذلك من تجهيزات ومؤون.

وبلغ ساحل ايطاليا ورسا في [ريجيوم Rhegium] وهنا أدلى بآرائه عن الأسلوب الذي ينبغي اتباعة في ادارة دفة الحرب. فعارضه [نسياس]، ووافقه [لاماخوس]. وأقلعت الحملة الى صقلية في الحال، وأستولت على [كاتانا Catana. وهذا كل ما تمّ تحقيقه أثناء وجود الكيبيادس، إذ استدعي الى اثينا بعدها بقليل لاجراء لمحاكمته.

كما ذكرنا قبلاً لم يكن يوجد ضدّ الكيبيادس إلاّ شك ضئيل، والتهم التي الصقها به بعض العبيد والاجانب. إلاّ أن أعداءه زادوا في هجومهم عنفاً اثناء غيابه ووحدوا بين كسر التماثيل، والكفر بالأسرار وصورها كأنما أرتكبت معاً تمهيداً لعين المؤامرة التي كانت ترمي الى قلب الحكومة[٣٥]. وشرعت الجمعية في زجّ كل المتهمين في السجن دون تفريق ودون سماع دفاع منهم، وأدركهم الندم بالنظر الى جسامة التهمة - لأنهم لم يجروا محاكمة الكيبيادس وإصدار حكم بحقه في حينه. وعومل كل أصدقائه ومعارفه الذين وقعوا في يد الشعب وهو في سورة غضبه هذه المعاملة فظة وعذّب. ولم يذكر [ثوكيديدس] اسماء المخبرين[٣٦] إلاّ ان غيره من الكتاب اوردوا اسم [ديوقليدس Dioclides] و[تيوسر Teuc-er]. ومن هؤلاء الشاعر الساخر [فرينيخوس Phrynichus] الذي نجد في شعره الأبيات التالية:

بربك يا [هرميس][*] العزيز! كن على حذر وانتبه لئا يكسر انفك المرمري. فلو لحق بك أذى فقد تدرك الحاجة بك الى [ديوقليدس] جديد ليطلق كذبة.

ويردّ الشاعر نفسه عن لسان [مارس] بالجواب التالي: «سأفعل ذلك وأكون على حذر ولن

---

(٣٤) في السنة الثانية من الاولمپياد الحادي والتسعين اي في منتصف صيف ٤١٥ ق.م.

(٣٥) قالوا انه دبّر مؤامرة لتسليم المدينة للقيديميين وانه أقنع الارگيف بالغدر بهم.

(٣٦) مع هذا ذكر اندركلس [٨:٦٥] باعتباره واحداً من خصوم الكيبيادس الالداء الى جانب شركة پينونيكوس واندوكيدس. اما المخبرون فهم عبدٌ اسمه [اندروماخوس] و[تيفكر] الميغاري الذي أقرّ على نفسه وليس على الكيبيادس. واغاريستي زوج [الكمايونيدس] و[ليدوس] وهو من عبيد [فيريكلوس] ونال [تيفكر] ألف دراخماً من الخزينة العامة مكافأة. وأبرز [ديوقليدس] عبداً من عبيده ليشهد بانه رأى على ضوء القمر أكثر من ثلاثمائة رجل وهم دائبون على تشويه التماثيل. وأشار بالاسم الى أربعين منهم بينهم [اندوقيدس] واعضاء اسرته وابيه الاّ ان [اندوقيدس] اتهمه بشهادة الزور وأثبت التهمة عليه فحكم عليه بالموت وجرى تنفيذه به.

(*) عطارد = مارس.

أدع بعد الآن ذلك الغادر تيفكر، ذلك الاجنبي الخائن يفخر بمكافأة أخرى على شهادة الزور.

في الواقع أن متهمي الكيبيادس لم يسندوا اليه شيئاً معيناً ثابتاً وعندما سئل أحدهم: كيف تسنّى له معرفة هويات الاشخاص الذين شوهوا وجوه التماثيل، قال انه رآهم على ضوء القمر، وهذا تزوير وافك واضح لأن القمر في وقت الحادث كان هلالاً في اوله. وهذا ما أثار الاستنكار وصيحات الاحتجاج من ذوي الفهم والمعرفة، إلاّ أن جماهير الشعب كانت متعطشة الى سماع المزيد من التهم ضده، فالنار الأولى ما زالت مستعرة في النفوس، وقد ظهرت آثارها في اصدار أمر القبض فوراً على كل المتهمين وزجهم في السجن.

وكان من بين المكلفين والموقوفين المحالين للمحاكمة الخطيب [اندوكيدس Andocides] الذي يُرجع المؤرخ [هيللانيكوس] نسبه الى [يوليسيس]. وهو ممن كان موضع شكّ دائمٍ في بغض النظام الديمقراطي السائد، ومناصر لحكم القلّة. والسبب الأول الذي جعله موضع اتهام بتشويه التماثيل، هو بقاء تمثال مارس الكبير المجاور لبيته سليماً لم تنله يد التشويه، من بين التماثيل الشهيرة القليلة التي ظلت سالمة. وكانت قبيلة [ايجيس Aegeis] قد اقامته نصباً تذكارياً، إلاّ انه سميّ منذ الصاق التهمة باندوكيدوس، [بمارس اندوكميدس] مع أن النقش الكتابي في القاعدة يدل على خلاف هذا. واتفق أن هذا الرجل وثق عرى صداقة حميمة مع شخص بين الموقوفين بالتهمة نفسها، يدعى [طيماؤوس Timaeus] وهو أقل منه منزلة وشخصيّة الاّ انه أشتهر بسعة الحيلة والجسارة، فأقنع [اندوكيدس] باتهام نفسه مع عدد قليلٍ بهذه الجريمة، وعلل ذلك بقوله له: إن اعترافه هذا سيضمن له العفو حسب احكام المرسوم الشعبي. وفي الوقت نفسه سيكون احتمال الحكم على كل الباقين المعترف عنهم ضعيفاً في حين أنّ الاحتمال قويّ في الحكم على كبار القوم امثاله. فخير له أن يهتم بنفسه وينقذ حياته بكذبة من أن يتجرع غصص ميتة مخجلة كأنما هو مجرمٌ حقاً. وان كان يهتم بالمصلحة العامة، فالأجدر هو التضحية بمتهمين قليلين بهذه الوسيلة، سعياً لانقاذ الكثير من الأشخاص المتازين، وحمايتهم من غضب الشعب. فراقت الفكرة له واعترف على نفسه وبعض الأفراد الآخرين ونال عفواً بموجب احكام القانون في حين نفذ حكم الموت بجميع من أعترف عنهم ما عدا نفراً قليلاً نجحوا في الفرار. واتهم [اندوكيديس] خدمه انفسهم لينال المزيد من الحظوة لكن سخط الشعب رغم هذا كله لم يهدأ، وبعد أن لم يعد يشغلهم أمر المشوهين عما هم فيه، توجهوا لصب جام غضبهم كله على الكيبيادس دون ان تأخذهم عجلة. وبعثوا بسفينة اسمها «السلاميسي» لجلبه. إلاّ انهم أوصوا الموفدين بالا يستخدموا العنف بايّة حالٍ، وان لايلقوا

القبض عليه، بل يتوجهون اليه بكامل الإحترام ويطلبون منه بأدب أن يتبعهم الى اثينا لحضور المحاكمة وتبرئة نفسه امام الشعب. وكانوا يخشون عصيان الجيش وتمرده في بلاد العدوّ وهو في الواقع من أسهل الأمور عند [الكيبيادس] لو رغب فيه. فقد هبطت معنوية الجنود عند رحيله، وأعتقدوا أن الحرب في المستقبل ستنهج نهجاً متباطئاً متعثراً تحت قيادة نسياس. إذا ما سُحب الكيبيادس من القيادة لأنه كان بمثابة مهماز لاحتثاث القتال. فمع أن لاماخوس كان مثال المعسكري المقدام، إلاّ ان فقره جرّده من السلطة والاحترام في الجيش.

وكان من أثر رحيل الكيبيادس انه اخرج [ميسيلنا] في ايدي الأثينيين[٣٧]. اذ كان يوجد لطائفة من سكانها رغبة في تسليمها وعندما ارادوا ذلك أبلغ الكيبيادس السيراقوزيين بالأمر وكان يعرف الأشخاص، فأحبط المشروع كله. وعندما بلغ [ثوري] نزل الى الساحل وأخفى نفسه عن أولئك الذين يبحثون عنه. إلاّ انه كشف عن نفسه لواحد يعرفه فسأله هذا اليس له ثقة ببلاده؟ فأجابه الكيبيادس «أثق بها في أي شيء، ما خلا الأمور التي تمسّ حياتي، ففي هذه لا أثق حتى بأميّ، اذ ربّما زلّت يدها فألقت بالكريّة السوداء بدلاً عن الكرية البيضاء» ولما سمع فيما بعد ان الجمعية نطقت بحكم الموت عليه، كان كل ما قاله هو هذا «لأجعلنهم يشعرون بأني حيٌّ!.

وكان نص لائحة الاتهام التي رفعت ضده كما يأتي: «ثسالوس ابن كيمون، من مدينة لاشيا Lacia: «يعرض بلاغ اتهامٍ الكيبيادس ابن كلينياس من مدينة [سكامبونيدا Scambonida] بأرتكاب جرمٍ ضدّ الربّه [سيريس] والربّة [پروسپرين]، بتمثيل الأسرار المقدمة تمثيلاً هزلياً محقراً، وعرض ذلك على اصحابه في منزله حيث أرتدى حللاً لايلبسها إلاّ رئيس الكهنة عندما يقوم بعرض الذخائر المقدسة، وأتخذ لنفسه منصب رئيس الكهنة وجعل پوليتيون حاملاً للمشعلٍ وثيودورس من مدينة [فيجيا Phegaea] منادياً. وحيّاً بقية اصحابه باعتبارهم رهباناً ومكرسين مستجدين Myastae، فعل كل ذلك ضد قوانين ودستور [الايومبولپيدي Eumolpidae][٣٨] ومنادي وكهنة معبد [اليوميس]».

(٣٧) ركب سفينة خاصة به لا سفينة تعود الى [سلاميس ميسانا] وذلك في ايلول في العام ٤١٥ ق.م.

(٣٨) كلمة Mystae تعني أولئك الذين رشحوا او كرّسوا لتلقى الأسرار. وهؤلاء يجب ان يبقوا سنة واحدة تحت الاختبار وليس لهم خلال هذه المرة أن يتقدموا في أكثر من ممر الهيكل. ولا يساهمون الاّ في الأسرار الدنيا. وفي آخر السنة تفتح لهم ابواب المذبح ليشاهدوا الربّة بكامل بهائها. ان يومپولوس وهو مواطن تراقي سكن [ايليوس] كان أول من رتب وأنشأ هذه الأسرار الخاصّة بالربة [كيريس ولذلك صار نسله سدنةً لها. واذا انقرض النسل فمن يخلفه يجب أن يلقب بلقبه [انظر باوسنياس ١:٣٨].

وحكم أيضاً بتهمة الاستخفاف بالمحكمة لعدم حضوره وصودر كل ممتلكاته وأمر كل الكهنة والكاهنات بلعانه رسمياً الاّ أن [ثيانو Theano] بنت [منون Menon] من مدينة [ارغول] عارضت في هذا الجزء من الحكم وعلى ما ذكر- انها قالت ان واجبها الديني المقدس يحتّم عليها ان تقدم الصلاة والدعاء لا اللعنات والشتائم.

وبادر الكيبيادس وهو مثقل بهذه الأحكام والعقوبات القاسية، الى الفرار من [ثوري] أولاً واتجه الى البيلوبونيسوس مستقراً في [ارغوس] فترة من الزمن. ولما وجد ان لا أمل هناك في العودة الى بلاده ولخوفه من أعدائه، بعث يطلب من حكام سپارطا الأمان وحق اللجوء السياسيّ مؤكداً لهم بأنه سيعوض لهم بخدماته المقبلة عن كل الأذى الذي لحقهم منه عندما كان عدواً لهم. فمنحته سپارطا الأمان المطلوب فأسرع الرحيل اليها، وأحسنوا استقباله، وتمكن حال وصوله من اقناعهم بلا حذر أو تردد - بأن يرسلوا مساعدات للسيراقوزيين واشتد في حثهم واثارة حماستهم حتى انهم بعثوا فوراً [غيليپوّس Gylippus][٣٩] الى صقلية لسحق القوات التي يملكها الآثينيون هناك. والنقطة الثانية التي أشار بها، هي تجديد الحرب ضد الآثينيين وقتالهم في عقردارهم. أما النصيحة الثالثة وهي الأهم، فكانت تقضي بتحصينهم [ديكيليا Decelea] وهذا من شأنه ان يستنفد ويقضي على موارد الآثينيين وجمهوريتهم[٤٠].

إن الشهرة التي كسبها من هذه الخدمات العامة تعادل الإعجاب الذي أثارته حياته الخاصة في النفوس. فقد أجتذب وسحر كل الناس بتعوده وتخلّقه الاخلاق السپارطية. فالناس الذين رأوه يحلق شعر رأسه ويستحم بالماء البارد ويأكل وجبة طعام بدائية ويتعشى بالشورباء السوداء، يشكون، بله لايصدقون بأنه كان لديه طاه في بيته. أو أنه عرف حلاّقاً أو أنه لبس في حياته عباءة من الارجوان الميليزي. وقد لوحظ عنه أنه تميّز بتلك العبقرية العجيبة والبصيرة النفاذة التي مكّنته من خطب ودّ الناس، فهو عظيم المقدرة على ترويض نفسه بسرعةٍ، يسهل عليه تبنيّ عادات الناس وطرق عيشهم، وممارستها بلا حرج أو تكلّف، ويتلون

(٣٩) لم يضع [ثوكيديدس] اسم هذا الجنرال على لسان الكيبيادس اثناء الخطبة.

(٤٠) هاجن (آغيس) ملك اللقيديميين آتيكا على رأس جيشه والكورنثيين وغيرهم من أقوام البلوپونيسي، وبناء على مشورة الكيبيادس أحتل [ديكيليا] وحصنها في السنة الرابعة من الاولمبياد الواحد والتسعين = ربيع العام ٤١٣ ق.م وتقع على منتصف الطريق بين آثينا وحدود بويوتيا. وبهذا حُرم الآثينيون من مناجم الفضة. ومن بدلات ايجار اراضيهم. ونجدات جيرانهم. وعرض قطعان مواشيهم للنهب. وامن ملجأ لعبيدهم الابقين الذين ترك ما يزيد عن عشرين الفاً منهم آثينا ومعظمهم صناع ماهرون وفنيون. لكن النكبة الكبرى وقعت في بداية الحرب وفي صقلية فقد خسروا أهدافهم فضلاً عن سمعتهم وأسطولهم وجيشهم وقواده.

بأسرع مما تتلون الحرباء، والقول الشائع ان الحرباء تستطيع أن تتخذ لنفسها اي لون تشاء إلاّ لوناً واحداً وهو الأبيض، غير ان [الكيبيادس] كان قادراً عن تكييف نفسه والانسجام مع أي جماعة يجد نفسه فيها، أشراراً كانوا أم أخياراً، وبالسهولة نفسها يمكنه أن يتجلبب بثوب الفضيلة أو الرذيلة، حسبما يمليه الموقف. ففي سپارطا انصرف انصرافاً تاماً الى الرياضة البدنية، وظهر بمظهر المتحفظ المقتصد. وفي آيونيا كشف عن نفس مرحة خالية البال مترفةٍ خَلودٍ الى الكسل والخمول. وفي تراقيا لم يكن يصحو من سكر أو يغادر مجلس شراب. وفي تسّاليا تراه وكأنه سُمّر على صهوات الخيل. وعندما قذف به العيش الى كنف [طيسافرنس Tisaphernes] نائب الملك Satrep الفارسي، ظهر على جميع الفرس وبزّهم في معالم الأبهة والفخفخة. وما ذلك لأن مزاجه الطبيعي سهل التغيير ولا لأن أخلاقه الحقيقية ذات جوانب متعددة، بل لأنه وُهبَ قابلية فذةً في أن يلبس لكلّ حالة لبوسها، وأن يتخذ الهيئة المناسبة كلمّا أحسّ بأن ممارسة ما تعوده ودرج عليه قد يكون مصدر ضيقٍ وازعاج لعشيره أو جليسه فقد ابى الاّ ان يحرص على حسن المعشر عند من يخاطبهم... وان رآه. أحدٌ في لقيديمون وحكم عليه بمظهره الخارجي لما وسعه إلاّ بالتمثّل بمأثور القول: «ليس هذا ابن [أخيل]، بل أخيل نفسه» الذي اجتهد [ليكورغوس] في تكوينه أما ميوله وتصرفاته الحقيقية الأصيلة فقد كانت تثير مثل هذه التساؤلات «أظلتّ المرأة نفسها أم بُدلت؟»[٤١] فقد أغوى الكيبيادس [تيميا Timaea] زوج [آغيس] الملك اثناء غيابه مع الجيش في الخارج فحبلت منه، ولم تحاول نكران ذلك. ولما وضعت حملها وكان ذكراً سمته رسمياً [ليوتخيدس Leotychides] إلاّ انها كانت تسرّ لصديقاتها وخدمها همساً بأن اسمه [الكيبيادس]، الى هذا الحدّ بلغ بها العشق. أما هو فيقول بلهجة اللامبالي «لم أقدم على ذلك لمجرد الاستمتاع بالإهانة، ولا اشباعاً لعاطفةٍ، بل قدرت أن يكون قومه ملوكاً على اللقيديمونيين يوماً ما».

وانهى كثير من الناس الى [آغيس] بالقصّة، إلاّ أن صروف الزمان كانت أقوى مؤيدٍ لها. فقد قلقت نفس [آغيس] من هزة ارضية، فابتعد عن زوجه [تيميا] ولما يطأها طوال عشر أشهر، وبما أن وضع [ليوتخيديس] حصل بعد هذه الفترة مباشرة فانه لم يعترف بالبنوّة، ولهذا لم يورثه العرش.

على أثر الهزيمة التي حلّت بآثينا في صقلية بعثت [خيوس] و[ليسپوس] و[سيزيكوس Cyzicus] بسفراء الى سپارطا لينهوا اليها بعزمهم على شق عصا الطاعة على آثينا.

---

(٤١) هذا البيت انشدته (الكترا) عن لسان (هيلين) في (اورستس) وهي تمثيلية ليوريپيدس. بعد أن أكتشف بها وقد تقدمت بها السن نفس المباهاة والاعتزاز بجمالها.

وتوسط [البويوتيون] لأهل [ليسپوس] وتدخل [فارنابازوس Pharnabazus] لصالح أهل [سزيكوس]. لكنهم فضلوا أوّلاً مساعدة [خيوس] قبل غيرها بسعي الكيبيادس.

وركب هو نفسه متن البحر وطاف ارجاء آيونيا ونشر الثورة فيها بصورة مفاجئة وألحق بالآثينيين افدح الخسائر والأضرار بالتعاون مع قادة لقيديمونيا. إلا أن [آغيس] ظلّ يلاحقه بالعداء بسبب ما لما فعل بزوجه، وبدافع الحسد منه للمجد الذي ناله؛ ولم يكن وحده في هذا الحسد، بل جاراه فيه أعيان سپارطا وعظماؤها، اذ كانت تعزى الى مقدرته كلّ مأثرة أو موقعة ناجحة، وبالأخير حملوا حكام المدينة على إرسال الأوامر الى آيونيا، لقتله، ولكنه أبلغ مقدماً وبالسرّ فخشي النتائج، إلاّ انه ظلّ يتعاون تعاوناً وثيقاً مع اللقيديمونيين مع أخذه الحذر بالاّ يقع تحت رحمتهم. وبالاخير يمّ شطر [طيسافيرنس] نائب ملك الفرس، ومالبث أن عدّ أقرب المقربين اليه وأوسعهم نفوذاً. فهذا البربري الذي لم يكن قطّ طيب القلب والنوايا بل أخاً مكرٍ وشرٍ، أعجب بمجلس الكيبيادس، ودهائه العجيب. والحق يقال إن جاذبية حديثه وعشرته اليومية لم تقو على مقاومتها أي طبيعة بشرية. ولا يتخلص من أسرها أمرء، ولايستثنى من ذلك أولئك الذين خافوه وحسدوه فهولاء أيضاً كانوا يضمرون له نوعاً من العطف ويستأنسون بمجلسه ويرتاحون الى صحبته لذلك انجذب [طيسافيرنس] علق الكيبيادس ومداهنته وهو الفظّ بطبعه، وعدوّ الأغريق الأول - واندفع الى منافسة صاحبه في التوادّ والأكرام بما لا مزيد عليه حتى انه أمر باطلاق اسم «الكيبيادس» على أجمل بساتينه التي كانت تحتوي على مجاري ماء صحيّة، ومماشي وأرصفة وخمائل وجواسق للاستراحة، وتوفرّ على تجميلها باروع الزخارف وافخمها. وبقيت تعرف باسمه ويشار اليها كذلك.

هكذا عاف الكيبيادس خدمة مصالح السپارطيين بعد أن فقد ثقته فيهم ولخوفه غدر [آغيس]، وطفق ينسج الخطط للايقاع بهم. وراح يقبحهم في عين [طيسافيرنس] ويخصّه على قطع سيل المساعدات عنهم وقصرها على القليل. ويثنيه عن تشجيعه لهم على تدمير آثينا التام. وان يزودهم بالقليل القليل من المال، لإتعابهم وأضعافهم تدريجاً دون أن يشعروا، فاذا استنزف الجانبان قواهما بحرب سجالٍ طويلة الأمد، كانا على أتمّ الاستعداد للخضوع معاً لملك الفرس. فاستحسن [طيسافيرنس] مشورته وطبقها حالاً وأخذ يلهج به ويعلن عن أعجابه الشديد به. وأخذ سائر الأغريق ينظرون نظرة أمل ورجاء في السيبيادس، والآثينيون المتحنون في بلواهم، خالطهم الندم أيضاً على العقوبة القاسية التي فرضوها عليه. كما أنه كان شديد القلق والخوف من وقوعه في يد اللقيديمونيين اعدائه لو قدّر لهم القضاء على جمهورية آثينا قضاءً تاماً.

في ذلك الحين كانت آثينا قد حشدت كل قواتها في [ساموس](*) وعبأت أسطولها هناك وجعلتها نقطة انطلاق لاخضاع من شق عصا الطاعة عليهم من الحليفات، ولحماية ما تبقى من ممتلكاتهم. وحاولوا بمختلف الوسائل الصمود لاعدائهم في البحر. وكان أخوف ما يخافونه [طيسافيرنس] والأسطول الفينيقي ببوارجه المائة والخمسين الذي قيل انه أنطلق في عرض البحر. فلو وصل هذا الاسطول، لرجحت كفة الأعداء وفقدت الجمهورية كل أملٍ.

أدرك الكيبيادس هذا كله، فبادر في الحال الى الاتصال سراً بزعماء قومه وكانوا في [ساموس) ونفخ فيهم روح الأمل بقوله انه سيسعى الى جعل [طيسافيرنس] صديقاً لهم؛ وانه لايقدم على هذا العمل الطيب حُبّا في اوزاع الشعب ودهمائهم، ولا كسباً لهم وتوخياً للاعتماد عليهم، بل لأجل فضلاء المواطنين وأخيارهم إن هم أقدموا على محاولة القضاء على عتو الدهماء، كرجال شجعان. وتسلم أزمة الحكم، والعمل على انقاذ المدينة من الفوضى. فحبذ الجميع اقتراح الكيبيادس، ولم يعارض إلاّ القائد [فرينيخوس Phrynichus] [الديراديسي Dirades] فقد أبدى شكه -وله الحق في ذلك- بان الكيبيادس لايهتم سواء أظلّت الحكومة بيد الشعب أو انتقلت الى طبقة المواطنين العليا، وهو الآن ينشد بكل وسيلة، التوطئة لعودته الى أرض الوطن، فراح يحرض على الشعب ويؤلب ليكسب الآخرين الى صفه، ولأجل أن يأسر عقولهم ويقع عندهم موقعاً حسناً». ولكنه كان كمن يضرب على حديد باردٍ. وادرك أنه جاهر بعداوةٍ لالسكيبيادس لارجوع له عنها. فخابر في السرّ [أستيوخوس Astyochus] قائد اسطول العدوّ محذراً اياه من السكيبيادس، ومشيراً أن يقبض عليه بتهمة الغش والخيانة. ولم يكن يدري إنه خائن يتعامل مع خائن آخر!

فاستيوخوس كان متلهفاً لنيل الخطوة عند [طيسافيرنس] عن طريق السكيبيادس، فبادر الى نقل كل ما ورده من [فرينيخوس] الى الكيبيادس. فأسرع الى ارسال رسل الى [ساموس] ليفضح خيانة [فرينيخوس]. فبلغ حنق القادة على زميلهم مبلغاً عظيماً وتكالبوا عليه يوبخونه ويهاجمونه. ولم يجد سبيلاً لانقاذ نفسه من المأزق، وكان الخطر يطبق عليه. فحاول أصلاح الشرّ بشرٍ أعظم وبعث برسالة أخرى الى [اسطيوخوس] يعاتبه فيها على نميمته والفضيحة التي سببها له. وقدم له في الوقت نفسه عرضاً جديداً، يتم بمقتضاه تسليم كل قطع الاسطول الآثيني مع جيشهم اليه. ولم يصب الآثينيون بضررٍ جراء ذلك، اذ عاد [اسطيوخوس] ينقل الاقتراح لالكيبيادس. وكان [فرينيخوس] يتوقع ذلك منه وينظر تهمة جديدة يبعث بها الكيبيادس الى بني قومه، فلأجل أن يردّ الكيد عنه ويقلل من أهمية نبأ

(*) في شتاء ٤١٢-٤١١ ق.م.

الكيبيادس، أنذر وأشار بتحصين المعسكرات والتأهب لركوب السفن. وفيما كان الآثينيون منهمكين في استعدادهم، وصلتهم رسائل أخرى من السيبيادس فيها تحذير لهم من [فرينيخوس] لأنه يريد تسليم اسطولهم الى الأعداء. فلم يهتموا بالخبر هذه المرة، وقدروا أن السيبيادس الذي كان على بينة تامةٍ من خطط العدوّ واستعداده، يبقي من تلك المعلومات مجرد الفائدة الشخصية، ليحسن في عينهم ويدخل في آذانهم صحة التهمة التي عزاها الى [فرينيخوس][*].

لكن عندما هجم [هرمون Hermon] على [فرينيخوس] في ساحة السوق وقضى عليه بطعنة خنجر، بوشر بالتحقيق عن اسباب القتل، وكانت النتيجة ادانة القتيل رسمياً بالخيانة، ومكافأة القاتل بضفر أكاليل الغار على رأسه ورؤوس شركائه، عمد اصدقاء [الكيبيادس] المقيمون في آثينا الى شرح المسألة للزعماء الآثينيين في [ساموس] فبادر هؤلاء الى ارسال [بيساندر Pisander] ليقوم بمحاولة قلب نظام الحكم في العاصمة وليبث الشجاعة في نفوس المواطنين الارستقراطيين، حتى يأخذوا مقاليد الحكم بايديهم، ويزيلوا النظام الديمقراطي، وان يضع أمامهم اقتراح [السكيبيادس] بالسعي لكسب صداقة [طيسافيرنس] ومحالفته، عند وقوع هذا التغير.

هذا هو اللون الذي تلّون به، والزعم الذي روج له، أولئك الذين تأمروا على الاطاحة بالنظام الديمقراطي في اثينا واقامة حكومة الاوليغارشية في مكانه. ما أن نجحوا في مسعاهم وسيطروا على الحكم تحت اسم «حكومة الألاف الخمسة» [في حين لم يكونوا غير اربعمائة][42]. حتى نبذوا السكيبيادس وأهملوا أمره. وراحوا يتقاعسون في ادارة دفة الحرب لأنهم من جهة كانوا يوجسون خيفة من الشعب الناقم على هذه الردّة والكاره لها ولأنهم من جهة أخرى كانوا يأملون من اللقيديمونيين شروط صلح مناسبة. لأن هؤلاء كانوا دوماً على وئامٍ مع حكومات القِلّة.

وأرغم أهل المدينة على الخضوع لأساليب القمع والاضطهاد، وأعدم المستبدون عدداً كبيراً

(*) في صيف ٤١١ ق.م بعد أن عزل فرينيخوس من قيادته في ساموس وأظهر نفسه مسانداً متحمساً للثوريين الاربعمائة في آثينا.

(٤٢) اقترح أولاً أن لايخسر السلطة الاّ للطبقة السفلى من عامة الشعب وان توضع بيد خمسة آلاف من أغنى المواطنين ومقدّميهم لكن عندما اكتشف (بيساندر) وزملاؤه قوة حزبهم اقترحوا اصدار قرار بالغاء نظام الحكم الحالي وأن ينتخب خمسة من الـ(بريتاني) وان لهؤلاء الخمسة الحق في انتخاب مائة. ولكل واحدة من المائة أن ينتخب ثلاثة وان هؤلاء الاربعمائة المنتخبين يكونون مجلس شيوخ تستقر فيه السلطة العليا. ويقوم المجلس باستشارة الخمسة آلاف كلما وجدوا حاجة لذلك. هذا وقد نجح المؤتمرون في سنّ هذا القرار. [توكيديدس ٦٧:٨ و٦٨].

ممن تجرأ على نقد ومعارضة «حكم الاربعمائة» علناً. ولما وردت هذه الانباء الى [ساموس] ثار الغضب بهم وتملكتهم رغبة الابحار فوراً الى [پيريوس]. وبعثوا يطلبون من [الكيبيادس] الحضور، وانتخبوه جنرالاً، وامروه ان يقودهم للقضاء على المستبدين. فكان ردّ الفعل عنده خلافاً لما يتوقع اي امرىءٍ من رجل رفعه تقدير الجمهور على حين غرة الى مركز القيادة لم يجد السكيبيادس نفسه مرتبطاً باي عهدٍ يقضى عليه بتنفيذ مطالب أولئك الذين خلقوا من لاجيء مطرود جنرالاً لمثل هذا الجيش العظيم وقائداً لهذا الاسطول الضخم، ولا مجبراً على الخضوع لمشيئتهم وبادر بحكم منصب القيادة الذي تسلمه الى معارضة تلك القرارات الهوجاء التي ساقهم اليها غيظهم الفجائي. وسعى لمنعهم من اقتراف الخطأ الجسيم الذي همّوا بالاقدام عليه وأنقذ بذلك الجمهورية من الفناء بحقٍ وحقيق. فلو انهم ابحروا الى اثينا، لتركوا كل آيونيا والجزر وهللسپونت تقع غنيمة باردة في أيدي العدو دون اي مقاومة. في حين لايكون للآثينيين المنشغلين في حربهم الأهلية إلاّ قتال بعضهم بعضاً داخل أسوارهم. كان السبيادبس هو العامل الوحيد أو العامل الرئيس الذي حال دون الكارثة، ولم يقتصر على استخدام وسائل الأقناع مع قادة الجيش، بل نزل الى الجنود بنفسه واتصل بهم فرداً فرداً يرجو بعضهم ويضغط على بعضهم الآخر، وابدى [تراسيبولوس Thrasybulus] الاستريائي Stiria[*] صاحب أعلى صوت بين كل الآثينيين، همّةً قعساء في هذا الصدد على ما قيل لنا. فقد ظلّ ملازماً لالسكيبيادس في جولاته لينادي أولئك الذي استعدوا للإبحار ويطلب منهم العودة.

وأدّى السكيبيادس خدمة جليلة أخرى. هي مسعاه لايقاف الاسطول الفينيقي الذي كان اللقيديمونيون يتوقعون ان يبعث به ملك الفرس لمساعدتهم، او لانحيازه الى جانب الآثينيين إن جاء. وبادر الى الأبحار على جناح السرّعة لتحقيق ذلك. تقدمت العمارة البحرية حتى شوهدت بالقرب من [آسپيندووس Aspendus][٤٣]. إلاّ ان [طيسافيرنس] منع تقدمها الى ابعد من هذا نكايةً باللقيديمونيين إلاّ ان الفريقين اعتقدا انها لم تحرف عن قصدها الاّ بجهود السكيبيادس ومساعيه. واتهمه اللقيديمونيون خاصةً، بأنه نصح البرابرة بالوقوف على الحياد وترك الأغريق يدمّر بعضهم بعضاً، اذ كان واضحاً ان وصول مثل هذه القوة العظيمة الى ايّ فريق، سيرجح كفته على الآخر ويمكّنه من الاستيلاء عن كل ممتلكات الآخر البحرية.

لم تمرّ فترة وجيزة، إلاّ وتمّ طرد «الاربعمائة»[٤٤] المستبدين من دست الحكم وراح اعوان

(*) يجب ان يميز هذا الجنرال الشهير عن ثراسيبولوس ثراسو (في الفقرة ٣٦).

(٤٣) مدينة ساحلية في [پامفيلية] بين رودس وقبرص.

(٤٤) اغتصبوا السلطة في حزيران ٤١١ ق.م. وتم القضاء عليهم في ايلول من تلك السنة. وهي السنة الثانية من الاولمبياد الثاني والتسعين، ولنذكر القاريء بوجوب التفريق بين هذا المجلس وبين مجلس الشيوخ =

الكيبيادس يدعمون بكلّ قواهم العناصر التي كانت تعمل على اعادة الحكم الديمقراطي.
الجماهير الشعبية لم تكتف الآن بمجرد الرغبة في عودة الكيبيادس الى الوطن، بل أصدرت أمراً له بذلك. إلاّ انه لم يشأ أن يكون مديناً بمنةٍ للشعب ولا ان يكون موضع اشفاقه . وحلف ان لايطأ ارض الوطن خالي الوفاض، بل مثقلاً بمجدٍ أو خدمة للبلاد . ولذلك ابحر من ساموس بعددٍ قليل من السفن ومخر عباب بحر [كْنيدوس Cnidos] وحوّم حول جزيرة [كوس Cos].
ولما بلغه ان [مينداروس Mindarus] قائد الاسطول السپارطي قد خرج بكلّ عمارته الى [هللسپونت] وان الآثينيين يجرون في أعقابه. لوى عنانه وأسرع يلحق بالقواد الآثينيين. وشاء حسن الحظ ان يكون وصوله في احرج ساعةٍ بسفنه الثماني عشرة. فقد اشتبك الاسطولان قرب [ابيدوس Abydos] في معركة ضارية وأستمر القتال حتى الليل. سجالاً ولم يستظهر فريق على آخر استظهاراً بيّناً. وكان رجحان الكفة موضعياً. هذا متغلب هنا وذاك مستظهرٌ هناك والعكس بالعكس. وخلّف ظهور سفنه في نفوس الفريقين اعتقادين خاطئين إذ ارتفعت معنويات العدوّ. وأدرك الآثينيين الفزع، إلاّ انه رفع العلم الأثيني على صاري سفينة القيادة. وحمل حملة صادقة على سفن الپلوپونيسوس التي كانت بيدها المبادأة وهي تطارد سفن الآثينيين. فهزمها ومزّقها وأخذ يطاردها من مسافة قريبة حتى أرغمها على الجنوح الى الساحل فتحطمت عليه، فتركها بحارتها وسبحوا الى البّر. رغم وجود [فارنابازوس] الذي خفّ الى معونتهم برّاً، وعمل ما أمكنه لحمايتهم من جهة الساحل. وبالاختصار، غنم الآثينيون من الاعداء ثلاثين سفينة وأستعادوا كل سفنهم الأسيرة. وأقاموا نصباً تذكارياً لانتصارهم.

بعد أن ظفر الكيبيادس بهذا النصر الكبير، أبى عليه زهوه وخيلاؤه إلاّ أن يُشهِد [طيسافيرنس] على حاله الجديدة، فتزود بالهدايا والجوائز، وأعتدّ بكل ما يتفق ومنزلته وأنطلق لزيارته. إلاّ ان النجاح لم يحالفه في هذا كما تصور [فطيسافيرنس] كان منذ زمن بعيد موضع ريبة اللقيديمونيين، وفيه خوف من سخط الملك لهذا السبب وجد في زيارة الكيبيادس فرصةً نادرةً فقبض عليه وأرسله سجيناً الى [سارديس] متوهماً بأن عمله الشائن هذا سيرفعه في عين الملك ويكون له صك براءة من اي أيامٍ سابق.

ولكن لم يمض شهرٌ واحدٌ على أعتقاله حتى أفلح في الهروب، وبجواد حصل عليه تمكن من الوصول الى [كلازومينى Glazomenae]، وهناك ألبس آسره [طيسافيرنس] ثوب عارٍ جديد باعلانه أنه كان مسهماً في خطّة فراره. ومن هناك رحل الى معسكر الجيش الآثيني(*).

= الذي ابتدعه صولون ويتكون من عددٍ مساوٍ.
(*) في مبدء ربيع ٤١٠ ق.م. كان الآثينيون في كارديا وهي مدينة بالخرسونيز الشرقية.

حيث علم أن القائدين [منداروس] و[فارنابازوس] موجودان معاً في [سيزيكوس]. فقام بين الجنود خطيباً. ومما قاله «إن القتال براً والقتال بحراً -ولعمر الآلهة- القتال ضد المدن المحصنة، يجب أن يكون قتالاً واحداً غير مجزأ بالنسبة اليهم. وإن لم يحققوا نصراً كاملاً في كل مكان فلن يوجد مالٌ لهم.». ثم أمر بركوب السفن واتجه مسرعاً الى [پروكونيسوس Proconnesus]. وأصدر أمره باحتجاز كلّ ما يعترض الاسطول من المراكب والسفن الصغيرة وايداعها في الوسط لئلا يسبق العدوّ علم بقدومه، وزاد في سرّه كتماناً هبوب عاصفة مطرية عظيمة صحبها رعدٌ وظلام داجن. والحق يقال أن العدوَّ لم يكن الوحيد في جهله، لأن الآثينيين أنفسهم ما كانوا يعرفون وجهة سيرهم فالأمر كان فجائياً غامضاً قاصراً على ركوب السفن واطلاقها في عرض البحر، دون وجود نيةٍ مسبقة. وبعد ان انجاب الظلام شوهد الأسطول البلوپونيسيّ جاثماً على مقربة من ميناء [سيزيكوس] يختال فوق سطح الماء. وخشي الكيبيادس أن يكتشفوا قوته الحقيقية فيصيبهم الذعر ويحاولون النجاة بالهروب براً، أمر بقية ضباط السفن ان يخففوا السرعة ويلحقوا به عن كثب. بينما تقدم هو بأربعين بارجة وأظهر نفسه للعدوّ وأستفزهم للمعركة، فانخدع العدوّ بضآلة عدد السفن واستهانوا بها وبادأوه القتال وكل اعتقادهم أن عدوّهم لايملك غير هذه القوة. ولكن ما أن حمي الوطيس حتى لاحت طلائع القسم الأكبر من الأسطول واطبقت عليهم فأدركهم الذعر ونزلوا البرّ لائذين بالفرار، إلاّ ان الكيبيادس أخترق القلب، بعشرين من أفضل سفنه وأسرع الى الساحل وأنزل جنوده وشرع في مطاردة العدوّ الذي ترك سفنه وهرب براً، ففتك بعدد كبير منهم، وخفّ [فارنابازوس] و[منداروس] لمعونتهم ولكنهما هزما شرّ هزيمة وقتل [منداروس] بعد ان أبلى خير بلاءٍ وفرّ [فارنابازوس] ناجياً بجلده وغنم الآثينيون عدداً كبيراً من قتلى العدو(٤٥) وأسلاباً كثيرة وأسروا سفنهم وأحتلوا [سيزيكوس] التي جلا عنها [فارنابازوس] وابادوا حاميتها البلوپونسسّية. وبذلك لم يكن كسبهم قاصراً على [هللسپونت] وأنما طردوا اللقيديمونيين بالقوة من كل البحار الأخرى. وضبطوا عدداً من الرسائل كانت في طريقها الى حكّام سپارطا، جاء فيها شرح للهزيمة الساحقة بالأسلوب السپارطي الموجز المقتضب «آمالنا قُضي عليها. [منداروس] قتل. الرجال يشكون الجوع. لاندري ما نفعل...».

وبلغ الزهو والغرور بالجنود الذين حاربوا تحت أمرة الكيبيادس في القتال الأخير حداً عظيماً، وثملوا بخمرة النصر حتى أنهم راحوا ينظرون الى أنفسهم نظرة صناديد لايشق لهم

---

(٤٥) ليس هذا التعبير غريباً. فلجثث القتلى حرمتها الكبيرة وهي تفتدى كذلك. وما علينا الاّ التذكر بان الآثينيين فرضوا عقوبة الموت على قوادهم المنتصرين في معركة [ارغيتس] لإهمالهم دفن القتلى.

غبار ولا يقف دونهم شيء. وترفعوا عن مخالطة الجنود الآخرين الذي عانوا عدداً من الهزائم. اذ حدث قبل فترة غير طويلة(*) ان [ثراسيللوس Thrasyllus] أصيب بهزيمة قرب [أفسّس] وان الأفسوسيين أقاموا نصباً تذكارياً من النحاس ازدراءً بالآثينيين(٤٦). فراح جنود الكيبيادس يعيرون الجنود الذين كانوا تحت أمرة [ثراسيللوس] بهذه النكسة معظمين أنفسهم وقائدهم في الوقت نفسه كما انهم رفضوا القيام بالتدريب العسكري معهم أو مساكنتهم معسكراً واحداً. ولكن لم يمرّ طويل زمن إلاّ وهاجم فارنابازوس بقوات عظيمة من المشاة والخيّالة - وحدات تراسيللوس التي كانت منصرفة الى السلب والنهب في ارض [ابيدوس]. فخفف الكيبيادس اليه وتعاونا على هزيمة [فارنابازوس] وجدّا في أثره حتى جن الليل. هذه الحادثة ألفت بين القلوب وعاد الجميع الى المعسكرات جذلين يهنيء بعضهم بعضاً. وفي اليوم التالي أقام الكيبيادس نصباً تذكارياً، وأنطلق لاجتياح كل الاقاليم الذي يسيطر عليها [فارنابازوس] مستخدماً السيف والنار فلم يقف في سبيله أحدٌ. وأسر عدداً كبيراً من طبقة الكهنة والكاهنات، إلاّ أنه أطلقهم بدون فدية. ثم استعدّ لمهاجمة الخلقيدونيين(٤٧) الذين كانوا قد شقوا عصا الطاعة على آثينا، وقبلوا بحاكم وحامية من لقيديمونيا. لكنه استخبر بأنهم نقلوا غلالهم وماشيتهم من حقولهم واودعوها اصدقائهم البيثيين، فوجه حملته نحو تخوم هؤلاء، وبعث رسولاً يتهمهم بهذا العمل. وكان ذعرهم من زحفه عظيم الوقع اذ مالبثوا أن سلّموا له الغنائم ودخلوا معه في حلف.

فانثنى الى [خلقيدون] والقى عليها الحصار وأحاطها بسورٍ من البحر الى البحر(*) لعزلها تماماً، فزحف [فارنابازوس] عليه بقواته لفكّ الحصار، وحشدّ هيپوقريطس حاكم المدينة كل قواته وحمل على الآثينيين في عين الوقت، فقسم الكيبيادس قواته الى قسمين لمقابلة العدوين في آن واحدٍ، وأرغم [فارنابازوس] على فرار مخجل، وكرّ على هيپوقريطس وهزمه وقتله مع عدد من جنوده. وبعدها أبحر الى [هللسپونت] للتزود بالمال، فأستولى على مدينة [سيلمبريا Selymbria](٤٨). وهنا تعرض الى خطر جسيم بسبب تهوره وقلّة حذره. فقد تعهد بعض السكان أن يسلموا له المدينة بلا حرب وكان الاتفاق يقضي أن يعطيه المؤتمرون الإشارة بالدخول

(*) في صيف ٤١٠ ق.م بعدنصر كيزكوس.

(٤٦) كانت الانصاب في باديء الأمر تقام من الخشب وتبقى حتى يعفو عنها الزمن ويمسح العداء بين الشعوب مسحاً. إلاّ ان الأفسسيين أقاموا النصب من النحاس تخليداً لذكرى العار لاثيني. ولهذا راح جنود (الكيپيادس) يسخرون من جنود (ثراسيللوس).

(٤٧) مدينة على البوسفور الأيمن وأنت تتجه الى البحر الأسود.

(*) في ربيع ٤٠٩ ق.م.

(٤٨) مدينة في تراقيا على ساحل (پروبونتس). كزينفون يسميها سيامبرايا.

من مشعلٍ مضاء يرفع فوق السور بعد منتصف الليل لكن احد المتآمرين خالجه الندم عن الخيانة، فخشي الآخرون أن يفتضح أمرهم، وأكرهوا على أعطاء الاشارة قبل الموعد المتفق عليه وما ان لمح الكيپيادس المشعل مرتفعاً في الهواء حتى هرع الى الأسوار، ولم يكن جيشه متأهباً بعد، ولذلك كان في رفقته ثلاثون رجلاً تقريباً. بعد أن أمر أن يلحق به الجيش بأسرع ما يمكن. وبلغ السور ليجد الباب مفتوحاً له، فولجه مع رجاله الثلاثين وعشرين آخرين من ذوي السلاح الخفيف لحقوا به في آخر لحظة. وما أن صارت الشرذمة داخل المدينة حتى جوبهوا بأهاليها يحملون عليهم شاكي السلاح. فبهت وتحيرّ في أمره. اذا بقي وقرر الاشتباك معهم ضاع منه سبيل نجاته. أمّا النكوص فصعب عليه، إذ انه لم يعرف هزيمة، ولم يفرّ في معركةٍ. ولهذا طلب السكوت بصوت النفير. ثم أنه أمر أحد رجاله أن يعلن قائلاً: «عبثاً ترفعون أيها السلمپريون السلاح في وجه الآثينيين، هذه العبارة خففت من غلواء الفريق التائق للقتال اذ توهموا ان كل جيش العدوّ قد صار ضمن اسوار المدينة. ورفعت معنويات الآخرين الذين أختاروا التفاهم على تسوية. وفيما هم يتبادلون الحديث ويتداولون الاقتراحات دخل كل جيش الكيبيادس المدينة. والآن وبعد تخمينه الصحيح بأن السلمبريين جانحون الى السلم حقاً، ولخوفه ان يعمد التراقيون من جيشه الى نهب المدينة (وكانوا قد أنضموا الى جيشه بأعداد كبيرة إكراماً له) أمرهم بالانسحاب خارج الأسوار كافةً. ولتقديم المدينة الطاعة عفاها من النهب وفرض عليها غرامة مالية فحسب، ثم انسحب منها بعد أن وضع فيها حامية آثينية.

وفي أثناء هذه الوقائع توصل القادة الآثينيون الذين يحاصرون حخلقيدون] الى عقد معاهدة صلح مع [فارنابازوس] على الشروط التالية:

أن يدفع لهم مبلغاً معيناً من المال وأن يعود الخلقيدونيون الى حمى جمهورية آثينا. وان لايقوم الآثينيون بغارات على الأقليم الذي يحكمه [فارنابازوس] وأن يسمح [فارنابازوس] بمرور سفراء آثينا في طريقهم الى ملك الفرس.

ثم لما عاد الكيبيادس طلب [فارنابازوس] أن يصادق هو أيضاً على المعاهدة ويحلف يميناً على التمسّك بها. فرفض الكيبيادس أن يفعل ذلك إلا بعد أن يحلف [فارنابازوس]. وعندما تمت المراسيم على هذا النحو، ساق الكيبيادس حملةٍ على البيزنطيين الذين كانوا قد شقوا على آثينا عصا الطاعة، وأقام أطاماً حول المدينة(*).

إلاّ أن [انكسلاووس Anxilaus] و[ليكورغوس] وآخرين عرضوا تسليم المدينة غيلةً أذا تعهد الكيبيادس بحفظ ارواح السكان وأموالهم، فنشروا اشاعة عن وجود حركة غير متوقعة

(*) أثناء شتاء ٤٠٩-٤٠٨ ق.م.

في آيونيا أضطرته على رفع الحصار والانسحاب. وفي اليوم عينه أظهر علائم الرحيل والإقلاع بجميع الاسطول، إلا أنه عاد ليلاً وانزل الى الساحل كلّ جنوده وزحف نحو الأسوار بسكون وخفة وفي الوقت عينه أدخل سفنه الى الميناء مفتعلاً أقصى ما يمكن من الحركة والضجيج والصياح والعنف.

فاعترت البيزنطيين الدهشة وفوجئوا من حيث لايتوقعون وفيما هم يسرعون للدفاع عن مينائهم وسفنهم، سنحت الفرصة لأنصار الآثينيين بادخال الكيبيادس الى المدينة بكلّ أمان. ومع ذلك لم تنته المسألة بدون قتال، فقد تصدّى البلوبونسسيون والبويوتيون والميغاريون، الجنود الخارجين من السفن وأرغموهم على ركوبها ثانيةً، ولما سمعوا أن الآثينيين دخلوا من الجانب الآخر، نظموا صفوفهم وأندفعوا اليهم، على أن الكيبيادس تمكن من النصر بعد قتال ضار، وكان يقود بنفسه الميمنة و[ثيرامينيس Theramenes] يقود الميسرة. وأخذ ثلاثمائة أسير تقريباً، وهم كل ما تبقى من قوات العدوّ. وبعد انتهاء المعركة لم يقتل بيزنطي واحدٌ أو يطرد خارج المدينة تطبيقاً للشروط المتفق عليها لتسليم المدينة وهيالاً يضار أحد من سكانها لا بنفسه ولا بماله. ووقف [انكسيلاووس] فيما بعد في لقيديمون متهماً بهذه الخيانة فلم يستنكر عمله، ولم يعترف بخطأه. وكانت حجّته انه ليس لقديمونياً بل بيزنطياً وان الخطر لم يكن مُحدقاً باسپارطا بل ببيزنطة. فقد أحكم الحصار حول المدينة واستحال نقل الارزاق اليها، وكان رجال حامية البلوبونسسيين والبويوتيين يلتهمون كل ما هو مختزن في حين يتضور البيزنطيون جوعاً مع زوجاتهم وأطفالهم. ولذلك فانه لم يخن بلاده ويسلمها للعدوّ وانما انقذها من فواجع الحرب، متأثراً بذلك خطى معظم مشاهير رجال لقديمونيا الذين لايرون أكثر شرفاً وكرامةً من تحقيق كل ما هو نافع لبلادهم. فأحترم اللقيديمونيين دفاعه هذا وبرأوا كل المتهمين.

وهزّ الشوق الكيبيادس الى موطنه أو بالأحرى تاق الى ان يعرض على بني قومه شخصاً ظفر لهم بانتصارات عديدة. فأبحر الى اثينا(*) وزينت السفن التي رافقته بالعديد من التروس وغيرها من غنائم الحرب وسحبت خلفها كثيراً من البوراج التي أستولي عليها. مع شعارات وزينات الكثير الآخر الذي أغرق وحُطِّم، ويبلغ مجموعها الكلي مائتين ولا يُعتدّ كثيراً بما أورده [دوريس Duris] الساموسي الذي يّدعي نسباً بالكيبيادس - من القول أن [خريسوغونوس Chrysogonus] أحد الفائزين في الالعاب [البيثية] كان ينظمّ حركة مجاذيف السفن بانغام نايه فتتحرك بانسجام الايقاعات الموسيقية، وأن [كاليپّديس -Callip

(*) من ساموس في ربيع ٤٠٨ ق.م.

pides] الممثل التراجيديّ كان يلقى الكلام الى النوتية وهو مرتد جزمته وطيلسانه الأرجواني وماليها من حلله وحليّه السركسيّة. وان سفينة القيادة رفعت شراعاً ارجوانياً عند دخولها الميناء. كل هذه الوقائع لم يرد ذكرها عند [ثيوپومپوس أو ايفوروس أو گزينفون] والحقيقة هي أنه لايُعقل البتة أن يعود المرء الى موطنه وقومه من نفي طويل الأمد تخلله كثير من المصائب والنوائب مثلما يعود نشوانٌ طروبٌ من مجلسٍ لهو وشراب. وأمّا الواقع فكان بعكس هذا اذ دخل الكيبيادس الميناء متوجساً خيفة مرتعد الفرائض. ولم يجرؤ على النزول الي اليابسة حتى شاهد ابن عمّ له يدعي [يوريطموس Euryptemus] مع آخرين من أصدقائه ومعارفه، وهم وقوف على الرصيف متلهفون لاستقباله ودعوته للنزول. وما أن وطئت البّر قدمه حتى اندفعت اليه الجماهير مستقبلةً وكأنها لا ترى أحداً من القواد الآخرين غيره. وتزاحمت عليه وتكأكأت وحيته بهتافات شقت عنان السماء وراحت تتبعه خطوة خطوة. وأخذ القريبون منه يضفرون الأكاليل على رأسه. أما الذين لم يصلوا اليه فقنعوا بالوقوف بعيداً ومتابعته بانظارهم. وكان كبار السنّ والعجزة يدلّون الصغار عليه بالاشارة اليه. إلاّ أن الفرحة الشعبية ما زجها شيء من الدموع، والسعادة الحاضرة شابتها ذكرى مؤلمة للمصائب التي عانوها. وعاد بهم الفكر الى الماضي وتبينوا أنهم ما كانوا ليصابوا بنكسة صقلية، ولا ليهزموا في اي موقعة حربية لو تركوا تصريف الأمور وقيادة الجيوش لالكيبيادس، لما تسلّم مقاليد الأمور قبلها كان حالهم سيئاً فقد قُضي على نفوذهم في البحر أوكاد. وعجزوا عن حماية ضواحي مدينتهم من البرّ، كما كان التناحر الحزبي قد مزقهم وبلغ بهم وضعاً مشينا من البؤس. وسرعان ما انتشلهم من وهدتهم، وأنقذهم من حالتهم المزرية ولم يكفه أن يستعيد لهم سلطانهم الداثر على البحر بل قلب هزائمهم الى انتصارات في كل برّ.

سبق للشعب ان أصدر مرسوماً بعودة الكيبيادس من المنفى، بناءً على اقتراح [كريتياس Critias] [٤٩] ابن [كالليسخروس Callaeschrus] كما يظهر من مرثيته التي أراد بها تذكرة الكيبيادس بالخدمة التي قدمها له:

من اقتراحي صدرَ ذلك المرسوم الذي جاء بك الى الوطن من منفاك الشاق.

الاقتراع العام أنا الذي بدأته، وصوتي هو الذي وضع الختم على المرسوم.

---

(٤٩) صدر هذا المرسوم قبل ثلاث سنوات في آخر خريف العام ٤١١ ق.م. بعد اسقاط مجلس الاربعمائة وكريتياس هو ابن عم افلاطون وهو الذي ذكره في محاوراته وأصبح صديقاً لالكيبيادس بعد عداء مستحكم. ان الشهوة الى السلطة تدمّر كل الروابط. فقد كان من الدّ اعدائه عندما أصبح الكيبيادس واحداً من الطغاة الثلاثين. وأرسل يؤكد لليساندر بأن آثينا لن ترتاح وسپارطا لن تأمن الاّ بتصفية الكيبيادس. قتلُ [كريتياس] فيما بعد، قتله (ثراسيبولوس) عندما تولى هذا انقاذ آثينا من حكم الطغاة.

ثم دُعي الجمهور الى اجتماع عام(*)، ووقف الكيبيادس بينهم خطيباً فأسهب في وصف ما عاناه متأسياً متألماً. ثم شكا بلهجة رقيقة من المعاملة الفظة التي عومل بها، وعزاها جميعاً الى معاندة الاقدار وشرّ الجنيّ الذي يلازم روحه. ثم انتقل فأفاض في الكلام عن مستقبلهم وآمانيهم. وحثهم على التمسّك باهداب الشجاعة والأمل الباسم. وقام المواطنون بوضع تيجان الذهب على مفرقه، وانتخبوه قائداً عاماً للبرّ والبحر ومنح صلاحيات مطلقة. كما أصدروا قراراً باعادة املاكه المصادرة اليه، واوعزوا الى اليومولپيدي Eumolpidae والمناديّ الأقدس، بَحلّه من اللّعان الديني الذي نطقوا به بموجب الحكم الصادر عليه فاطاع الجميع، ألاّ أن الكاهن الأعظم [ثيودوروس] أعتذر بقوله «إن هو برئ، فاني ما لعنتُه مطلقاً».

وبصرف النظر عن سير أمور الكيبيادس سيراً حسناً يتفق مع المجد الذي بلغه. فإن كثيراً من الناس ما زالوا قلقين بعض الشيء، ينظرون الى ظروف تطهير عودته نظرة شؤم. ففي اليوم الذي وصل الميناء كانت اثينا تحتفل بعيد الربة [منيرڤا](٥٠) التي يطلقون عليها [پلنتيريا Plynteria] ويقع في الخامس والعشرين من شهر [ثارجيليون] عندما يقوم [الپراكيبيرغيدي Praxiergidae باحياء شعائر الطقوس السريّة الخاصة بهم. فينتزعون كل الحلي والزينات من تماثيل الربّة ويسدلون أغطية وستائر على الجزء الذي تحتلّه من المعبد لحجبه عن النظر ولذلك بعتبره الآثينيون انحس يوم واشأمه ولا يأتون عملاً مهماً من أعمالهم فيه. وبموافقة قدوم الكيبيادس فيه، تصوروا أن الربّة لم ترحبّ به ولم ترتح اليه لأنها أخفت وجهها ورفضته. ومع هذا كلّه سار كل شيء وفق رغبته. وعندما تمّ اصلاح السفن المائة التي عادت معه، وهيئت للأبحار، اخرته رغبة شريفة حتى ختام الاحتفال بالأسرار المقدسة، فمنذ احتلال [دسيليا Decelea] وسيطرة العدوّ على كل الطرق المؤدية الى اليوسيس من آثينا، والموكب يسلك سبيل البحر لا تصاحبه أيه شعائر لائقة. فقد أضطروا الى حذف مراسيم القرابين والرقص وغيرها من الطقوس الأخرى التي جرت العادة بادائها في مراحل من الطريق. عندما يتقدم المركب الى [ياكوّس Jacchus](٥١). فوازن الكيبيادس القضية في فكره، ووجد في إعادة جلال هذه الشعائر القديمة عملاً مجيداً فيه تكريمٌ للآلهة وارتفاع جديد لمنزلته بين

(*) في أوائل صيف ٤٠٨ ق.م.

(٥٠) في هذا اليوم يغسل تمثال منيرڤا. وتحاط المعابد بخيط إشارة الى انها مقفلة في وجه المصلين كما جرت العادة في ايام النحس. ويحمل تين مجفف اثناء الموكب لأنه أول فاكهة تؤكل بعد الاكورن. اما البراكيرغيدي فهم الكهنة المختصون بـ(منيرڤا).

(٥١) يدوم عيد كيريس وپروسپرين تسعة أيام، وفي اليوم السادس يحمل من كيريس تمثال [باخوس] أو [اياخوس] الذي يعتقدون انه ابن جوپتر ويطاف به في موكب. ولفظ [اياخوس] يطلق أحياناً على الترتيلة التي تنشد اثناء مسيرة الموكب أو حتى على ايام العيد برمته.

الناس. وقرر مرافقة الموكب في طريق البرّ، وحمايته بجيشه من العدوّ. فاذا بقي [آغيس] في موضعه ولم يعترض سبيله فسيكون في هذا اضعافٌ لسمعته وصيته. واذا أضطر الكيبيادس الى خوض حربٍ مقدسةٍ في سبيل الآلهة ودفاعاً عن أقدس وأجلّ شعائر الدين، فسيكون ذلك على مرأى من بلاده وسيثبت بها لبني قومه مدى بسالته. ما أن قرّ رأيه على هذا وابلغها للايومولپيدي والمنادين، حتى بادر الى وضع ربايا عسكرية على رؤوس التلال. وعند انبلاج الصبح أطلق كشافته ترود الطريق. ثم أخذ معه الكهنة والرهبان والمكرسّين واضعاً اياهم في وسط رتل جنوده وقادهم بنظام دقيق وهدؤ تامٍ. وكان موكباً جليلاً رائعاً وقال أولئك الذين لايضمرون كرهاً لالكيبيادس انه مارس فيه وظيفتي الكاهن الأعظم والقائد العسكري في وقت واحدٍ ولم يجرؤ العدوّ على القيام باي عمل ضدّه فوصل المدينة بأمان ولم يكن ارتفاع قدره في وعين ذاته بأقل من ارتفاع منزلته في عيون الشعب لهذه المأثرة المجيدة. وسرح بهم الخيال حتى وصل الى حَدّ الايمان بان قيادته تجعل جيوشهم منيعة عن العدوّ لايمكن قهرها. وأشتد تعلق أوزاع الشعب ودهماؤه به بحيث راحوا يصرخون برغبتهم في نصب نفسه حاكماً «طاغية» عليهم، ولم ير بعضهم معرّة «في مفاتحته بذلك ونصحه بأن يجعل نفسه في نجوة عن الحسد والبغض، بازالة قوانين الشعب ومراسيمه، وقمع الثرثارين الذين يلحقون الدّمار بالدولة، ليكون قادراً على تصريف شؤون الحكم وحده دون خوفٍ من حسابٍ أو ادانة.

وليس في الإمكان معرفة المدى الذي وصله ميله في ضبط السلطة المطلقة، وكل ما نعرفه أن اعيان المدينة وكبراءها كانوا شديدي الخوف من ذلك، حتى انهم استعجلوه في الابحار، وعينوا الزميلين اللذين أختارهما هو، وسمحوا له بكلّ ما طلب(٥٢). فأنطلق بأسطول قوامه مائة سفينة(*) فبلغ [اندروس] وهناك قاتل أهلها وقاتل اللقيديمونيين الذين ساعدوهم وتغلبّ عليهما معاً. على أنه لم يفلح في الاستيلاء على المدينة، وهذا ما أطلق ألسنة أعدائه بمختلف التهم ضدّه. والحقيقة هي: اذا كان ثم شخص في الدنيا دمّره مجده، فهو الكيبيادس. لأن انتصاراته المستمرة، كونت فكرة معينة عن شجاعته وألمعيته، وهي أنه اذا فشل في أمرٍ ما سعى اليه، فالسبب هو إهماله. ولن يعتقد أحدٌ بأن السبب هو إفتقاره للسلطة. إذ كان الظنّ السائد عنه أن لاشيء يصعب عليه إذا عالج أمره بجدٍّ وحزمٍ.

وأخذ الآثينيون يتوقعون يومياً وصول الانباء عن إخضاع [خيوس] وبقية [آيونيا] وعيل صبرهم لأن الأمور لا تسير بالسرعة التي كانوا يقدرون لها. ولم يفكروا بمبلغ حاجته الى المال،

---

(٥٢) يخبرنا كزينفون بأنّهما [ارسطوقراطس] و[اديمانتوس] وقد اقتصرت مشاركتها في القيادة على البرّ.
(*) في نهاية تشرين الأول ٤٠٨ ق.م.

وبانّ مواصلة الحرب ضدّ عدوّ لاينقصه شيء من الأعتدة والأرزاق تأتيهم من ملك عظيم، وكثيراً ما لجأ الكيبيادس الى النزول عن أسلحته ليؤمن المال والأرزاق لإطعام جنوده. وهذا ما فسح مجالاً لآخر اتهام وُجّه اليه. فقد أرسِل [ليساندر Lysander] من لقيديمون ليتسلّم قيادة أسطولهم ومعه مبلغ كبير من المال نفحه به [كورش] ملك الفرس. فراح يدفع لكلّ بحار اربعة [اوبولات] أجوراً يومية وكانت ثلاثةً قبلاً، ولم يكن الكيبيادس قادراً حتى على دفع ثلاثة [اوبولات] لرجاله، وحزم أمره أخيراً على دخول [كاريا Caria] للحصول على المال وترك قيادة الاسطول في غيابه [لأنطيوخس] وهو رجل بحر مجربّ، إلا أنه متهور متسرع قليل الشعور بالمسؤولية(٥٣). مع أوامر صريحة له بأن لايشتبك في قتال مع العدوّ مهما استفزّ. إلاّ انه لم يبال بالأوامر وأستخف بها الى الحدّ الذي عمد الى سفينة الخاصة وسفينة أخرى فأنطلق بها الى أفسس حيث يرسو اسطول الاعداء وراح يخطر بسفينتيه أمامهم وأقترب منهم متحرشاً حتى قَيَاديم السفن واستخدام كل وسائل الاستفزاز الممكنة قولاً وعملاً. فأوسق ليساندر سفناً قليلة بالرجال ولاحقه، فخرجت كل السفن الآثينية لمعاونة انطيوخس، ولم يكن من ليساندر إلاّ وجرد الاسطول كلّه وأشتبك الفريقان في المعركة ودارت دائرتها على الآثينيين ونال بها نصراً ساحقاً. وقتل انطيوخس. وأخذ ليساندر أسرى من السفن والرجال. واقام نصباً تذكارياً.

وأسرع الكيبيادس الى ساموس حال سماعه بالنبأ، ثم خرج منها بكل اسطوله يريد ليساندر، إلاّ أن هذا القائد لم يخرج اليه وابى النزال قانعاً بالنصر الذي كسبه.

وكان [ثراسيبولوس] أبن ثراسون Thrason أشدّ رجال الجيش حقداً على الكيبيادس وكرهاً به، حتى أنه سافر الى أثينا بقصد رفع شكوى عليه، واثارة اعدائه في المدينة ضده. وقام خطيباً في الاجتماع الشعبي واوضح «إن الكيبيادس فرّط بمصالحهم وأتلف أمورهم وحقر سفنهم بمجرد الإهمال المكابر لواجباته، وأودع قيادة الجيش في غيابه أناساً أصبحوا موضع ثقته من جراء مجالس الشراب والقصف وبذيء الكلام. في حين كان يروح ويغدو على هواه يجمع الأموال، وينغمس في الوان من الترف والبذخ والفجور بين عاهرات [آبيدوس وآيونيا] ، واسطول العدوّ قريب متربص بنا الدوائر مستعد اللأنقضاض». واصاخ الآثينيون سمعهم لهذه الشكاوى وأظهروا حنقهم وعدم رضاهم بانتخاب قادة آخرين للجيش(٥٤).

---

(٥٣) وهو الذي أمسك له بالسماني. يقول گزينفون ان ليساندر أخذ خمس عشرة سفينة وانسحب بعد المعركة الى (لسيپوس).

(٥٤) وهم بحسب قائمة گزينفون: كونون وذيوميذون وليونتس، پريكلس وابراسينيدس وارسطوقراطس وارخستراتوس وپروتوماخوس وثراسيلوس وارسطوغينس.

لما سمع الكيبيادس بما جرى بادر الى ترك الجيش كله[٥٥] خشية مما سيعقب، وجمع حوله جيشاً من الجنود المرتزقة وهاجم على حسابه الخاص أولئك التراقيين الذين يسمون أنفسهم بالأحرار ولا يعترفون بسلطة اي ملك. وبهذه الوسيلة جمع ثروة طائلة وفي الوقت عينه حافظ على الأغريق الذين يقطنون الحدود من غارات البرابرة.

كان الجنرالات الثلاثة الجدد [تيديوس Tydeus وميناندر Menander وآدمينتوس Adi-mentus] قد أتخذوا [ايگوسپوتامي Aegospotami][٥٦] قاعدةً لهم بكلّ ما بقي للآثينيين من سفنٍ، وكانوا ينطلقون الى البحر صباح كل يوم من هذه القاعدة لاستدراج [ليساندر] الى معركة. بأسطوله الراسي قرب [لامپاسكوس Lampascus] ويعودون بعد كل اشتباك للاستراحة بقية اليوم احتقاراً للعدو وعدم مبالاة به، ودون نظام ولم يكن الكيبيادس الغريب منهم[*]. بمن يتعامى عن الخطر المحدق بهم أو بالذي يقلل من شأنه ولم يهمل التصريح لهم بذلك اذ ركب جواده وإقبل عليهم وشرح لهم أنهم أختاروا قاعدة غير صالحة ابداً، لأنها لا تمتاز بمناعةٍ ولا تمنحهم أماناً من غارة، كما أنها بعيدة عن أية مدينة مما يضطرهم الى جلب تجهيزاتهم وارزاقهم الضرورية من [سيستوس Sestos] البعيدة. وأشار أيضاً الى عدم مبالاتهم بوضع الجنود عند نزولهم الى البرّ، وحذرهم من مغبة تركهم الحبل على الغارب لهم يتفرقون دون نظام ويروحون ويغدون كما شاؤوا في حين كان اسطول العدوّ الذي هو بقيادة جنرال واحدٍ، يقظاً متربصاً بهم، مطيعاً للنظام الى آخر حَدّ وعلى مسافة قريبة جداً منهم. ونصحهم بالانتقال بالاسطول الى [سيستوس][٥٧]. فلم يكترثوا لقوله، وأمره [تيديوس] بلهجة مهينة أن ينصرف قائلاً انه ليس القائد الآن، وانما هناك آخرون يقودون الجيش. وبادر الكيبيادس الى الانصراف وقد لاحت له نية غدر. وقال لاصحابه الذين رافقوه الى خارج المعسكر: لو احترم الجنرالية رأيه ولم يعاملوه بهذا الاحتقار الذي لايحتمل، لأفلح خلال أيام معدودات في إرغام اللقيديمونيين مهما كرهوا، إمّا على قتال الآثينيين في البحر،

(٥٥) أخذاً معه بارجة واحدة. انسحب بها الى القلاع التي بناها ربما ليتخذها ملاذاً.

(٥٦) يتخطى پلوتارخ هنا ثلاث سنين في غضونها حلت هزيمة بـ(كونون) بعد ان توغل قليلاً في أرض العدو وفي السنة التالية وهي السنة السادسة والعشرين من الحرب البلوپونيسية نال الآثينيون نصر [ارغينس]. وقاموا باعدام ستة من جنرالاتهم بتهمة بسيطة تقدم بها زميلهم [ثيرامينيس]. وفي السنة الأخيرة ابحر الآثينيون الى [ايغوس - پوتامي] وهو موضع على مقربة من المضايق. مقابل لامپلسكوس كما جاء في المتن - الفترة تبدأ من ربيع ٤٠٧ حتى خريف ٤٠٥ ق.م.

(*) في قلعته قرب پاكتيي Pactye (كزنيفون الهيللنيون ٢:١:٢٥).

(٥٧) الضباط الذين يؤمرون على الجيوش الاغريقية واساطيلها يطلق عليهم اسم جنرال أحياناً، ويطلق عليهم اسم اميرال أحياناً. لأنهم عادة يشرفون على الحركات العسكرية في البرّ والبحر على حَدّ سواء.

أو مغادرة سفنهم. وعد بعضهم كلامه هذا مجرد ادعاء فارغ، وقال آخرون أن المسألة ممكنة إذ انه قد يأتي بمجموع كبيرة من الخيالة والنبّالة التراقيين ليهاجمهم براً ويشيع الفوضى في معسكرهم(٥٨). وسرعان ما أثبتت الأحداث صحة استنتاجه وحكمه على اخطاء الآثينيين. فقد انقضّ عليهم [ليساندر] فجأة، وهم أبعد الناس عن الشكّ في الأمر، وبلغ عنف هجومه حداً لم يفلت من يده غير [كونون Conon] وحده بثماني سفن فقط(٥٩). أما البقية وكان عددها يناهز المائتين فقد أستولى عليها وساقها خلفه غنيمةً مع ثلاثة آلاف أسير أعمل السيف في رقابهم جميعاً، وبعد فترة قصيرة أستولى على آثينا نفسها وأحرق كل ما وجده فيها من السفن وهدم اسوارها الطويلة(٦٠). ودبّ الخوف في نفس الكيبيادس اللقيديمونيين، الذين غدوا سادة البحر والبرّ من غير منازع، فرحل الى [بيثينيا]، بعد أن بعث اليها بأموال كثيرة، وأخذ معه ما يزيد على ذلك، وترك في الحصن الذي كان يقيم فيه مقداراً يزيد بكثير على ما سبق ذكره. إلاّ أنه خسر جزءً كبيراً من ثروته في [بيثينيا] فقد سطا عليه بعض التراقيين هناك وسرقوهُ وعندها قرّر الذهاب الى بلاط [ارتحششتا] وكان واثقاً أن الملك لن يجده أقلّ مواهب من [تيمستوكليس] عند امتحانها، زد على هذا أنه أنما يقصده في قضية أنبل وأشرف مما قصده به تيمستوكليس. فلم تكن غايته عرض خدماته ضدّ بني قومه ووطنه كما فعل تمستوكليس، بل ضدّ اعدائهم. أراد أن يحصل على عون من الملك للدفاع عن بلاده. وقدّر أن [فارنابازوس] لن يبخل عنه بحق اللجوء فقصده في [فريجيا].

وظلّ يعيش هناك ردحاً من الزمن يتبادلان الودّ والاحترام والتكريم وكانت حال الآثينيين أثناء ذلك - يرثى لها، اناخ البؤس عليهم بعد خسرانهم كل مستعمراتهم، وزاد في شقائهم حرمانهم الحريّة أيضاً، وقيام ليساندر بتعيين ثلاثين حاكماً مطلقاً في المدينة، واذ ذاك وفي وسط خرابهم بدأوا يستعيدون الأفكار التي عرضت عليهم ولم يوافقوا عليها حين كانت السلامة ممكنة. وأقرّوا باخطائهم الماضية وندموا على حماقاتهم ووجدوا في اساءتهم معاملة الكيبيادس الثانية خطيئة لايمكن اغتفارها. فقد طردوه دون أن يرتكب خطأً بنفسه، بل ولمجرد حنقهم على مرؤوس من مرؤوسيه فقد بضع سفن بصورة مخجلة، أرتكبوا هم أنفسهم جريمة أدعى الى الخجل والعار بحرمان الجمهورية من أشجع قوادها وأعظمهم حنكة ودهاء. وكانوا

(٥٨) عندما يُرسي الاسطول مدة معينة. تنزل عادةً قوات بريّة وبحرية وتعسكر في البرّ على الساحل.

(٥٩) هربت سفينة تاسعة تعرف باسم (پارالوس) لتحمل انباء الهزيمة الساحقة الى آثينا. ولجأ (كونون) الى قبرص. وكان ايڤاگوراس ملكها (انظر سيرة ليساندر).

(٦٠) حصل ذلك في السنة الرابعة من الاولمپياد الثالث والتسعين اي في السنة الثامنة والعشرين من الحرب البلوپونيسية.

يشعرون مع ذلك أن مجرد وجود الكيبيادس في قيد الحياة، يجعلهم يتشبثون بالأمل الواهي، ويمنعهم من اليأس التام بأحياء الجمهورية في آثينا. وكانت أنفسهم قانعة بأنه ان لم يستطع وهو في المنفى أن يجلس عاطلاً غير مكترث فسيكون الآن أقل صبراً على السكوت وتحمل إهانة اللقيديمونيين لبلاده، وأشد سُخطاً على استبداد الحكام الثلاثين، إن واتته الفرصة. وليس من قبيل السخف أو اضغاث الأحلام ان تخالج أفراد الشعب مثل هذه الامنيات وها هم «الحكام الثلاثون» أنفسهم شديدو اللهفة الى تسقّط اخباره ومتابعة كل حركاته وسكناته. وبمختصر القول بيّنَ [كريتياس] لليساندر أن اللقيديمونيين لن يصفو لهم الجوّ في بلاد الأغريق، وليس ثم ضمان لسيادتهم عليها إلاّ بالقضاء التام على الديمقراطية الآثينية. واذا كانت المظاهر تشير الى خنوع الآثينيين وصبرهم على هذا العدد الضئيل من الحكام فان مجرد علمهم بان الكيبيادس ما زال حيّاً، لن يدعهم يذعنون أو يرضون بحالتهم الراهنة.

إلاّ أن ليساندر لم يقتنع بهذه الحجج، حتى بلغته بالأخير أو امر سرية من حكام لقيديمون، تريد منه بصراحة أن يعمل على قتل [الكيبيادس]. ولا يعرف هل أن الدافع الى هذا، كان خوفهم من حيويته وجراءته في الاضطلاع بكلّ ما هو خطر أو اطفاءً لحقد [آغيس] عليه. وعندما وصلت الأوامر بذلك الى [ليساندر] بعث رسولاً الى [فارنابازوس] يطلب منه تنفيذ ذلك. فعهد [فارنابازوس] الى [ماچيوس Magaeus] أخيه، و[سوساميثريس Susamith-tes] عمّه بالأمر. وكان الكيبيادس في حينه يسكن قرية صغيرة فريجيّة مع [تيماندرا Timandra] مخطيته. ورأى فيما هو نائم الحلم التالي: وجد نفسه يرتدي ثياب مخطيته وهي تحتضنه بين ذراعيها وتصفف شعره وتجمّل وجهه بالمساحيق كأنه امرأته»، وزعم آخرون أنه رأى في الحلم [ماجيوس] يحتز رقبته ويحرق جسده. وعلى أية حال انه شاهد هذه الرؤى قبل مقتله بزمن قصير. وهؤلاء الذين أرسلوا لقتله لم يكن لديهم الشجاعة الكافية لدخول منزله، بل طوقوه اوّلاً ثم أشعلوا النار فيه. وما ان أدرك الكيبيادس نيتهم حتى جمع مقداراً كبيراً من الثياب والأثاث وغطى بها النيران محاولاً اخمادها ثم لفّ طيلسانه حول ذراعه اليسرى وامسك بسيفه المنتضى بيده اليمنى وقذف بنفسه وسط اللهب وخرج منها سليماً قبل أن تحترق ثيابه، وتراجع البرابرة الى الخلف حالما رأوه ولم يجرؤ أحد على التقدم منه أو الاشتباك معه بل وقفوا على مسافة وأجهزوا عليه بالسهام والرماح المقذوفة، وأنصرف البرابرة بعد قتله. فرفعت [تيماندرا] الجثّة وغطتها ولفتها بثيابها[٦١]. وقامت على دفنها

(٦١) دفنته في ميليّسا. وقد أعلمنا [آثينيوس ١٣:٤] أن النصب كان باقياً في عهده وانه شاهده بعينه وقد أمر الامبراطور هادريان تخليداً للرجل العظيم ان يصنع له تمثال من مرمر (پاري) وينصب فوق الضريح وأمر بتضحية ثور له، كل سنة... =

دفنة لائقة محترمة على قدر ما سمحت به ظروفها وقيل أن بنت [تيماندرا][٦٢] هذه هي [لايس Lais] الشهيرة، الملقبة بالكورنثيّة وان كانت من [هيكّارا Hyccara] وهي بلدة صغيرة في صقلية. هناك فريق يتفقون على وقائع موت الكيبيادس التي سردناها في كل تفاصيلها، خلا انهم لايعزون سببها الى [فارنابازوس] أو [ليساندر] أو اللقيديمونيين. بل يزعمون أنه كان يعاشر في منزله سيدة صغيرة السن من أسرة نبيلة هتك عرضها، ولم يستطع أخوتها احتمال عارها فأشعلوا النار في المنزل الذي يسكنه وقتلوه وهو يحاول النجاة بالشكل الذي فصّلناه.


(ادونيس)

= الى جانب الروايتين اللتين رواهما بلوتارخ هنا حول كيفية موته، توجد رواية ثالثة [ديودورس ١٤:١١] الذي يعزو السبب الى الحسد الذي كان يكنه له [فارنابازوس] السياسي الدنيء. ويقول ارسطو: الطبيعة ٤:٢٩ كان موته في [الافوس] وهو جبل في فريجيا.

(٦٢) [داماساندرا Damasandra] كما يسميها [اثينيوس] ويضيف قائلاً: ان [ثيودوتا] مخطيته الأخرى قامت بكلّ ما في امكانها لتشييعه ودفنه دفنة لائقة.

کرِیولانوس

CORIOLANUS

(Caius Marcius)

5 Th.C



أنجب البيت الپاتريشي المسمى [مارچيي Marcii] في روما، كثيراً من عظماء الرجال ومشاهيرهم، ومن بين الغابرين [آنكوس مارشيوس Ancus Marcius] حفيد [نوما] [1] لابنته، وخَلَفُ [تللوس هوستيللوس] في العرش الروماني، ومن الأسرة نفسها نبغ أيضاً [پوبليوس Pubbius وكونيتوس مارشيوس] اللذان أسالا الى روما أفضل وأكبر كمية من الماء عرفها أهلها. ومثلهما [چچنوسوريوس Cecnsorinus] الذي أختاره الشعب مرتين لمنصب أمين بيت المال، وحملهم هو نفسه على أصدار قانون يحرم على المرء ان يتولى هذا المنصب مرتين، على أن [كايوس مارشيوس] الذي أكتب عنه هنا؛ كان يتيم الأب، نشأ وربي في فترة ترمل امّه. فأثبت لنا بهذا أن فقد الأب لايمنع أحداً من توقلّ درجات المجد والشهرة، والتحلي باسمى الفضائل في الحياة، ولا أن يكون عقبة دون التفوق والصلاح الحقيقي. وعلى أية حال، فأشرار الناس مغرمون في القاء تبعة شرهم ورداءتهم على سوء طوالعهم والإهمال الذي عانوا في الصغر. وانه كذلك لشاهدٌ لايقل قيمةً عمّا أسلفنا على صواب رأي أولئك الذين يؤمنون بأن الخلق الكريم الممتاز المتجردّ عن الضوابط والقيود الملائمة، هو أشبه بالتربة الخصبة غير المحروثة، فهي أهل لانتاج الكثير من السّيء والرديء أيضاً. وفي حين تراه يتنقل من نجاح الى نجاح في كل اعماله الشريفة بقوة روحٍ فيه، وفاعليةٍ متأججة واستمرارية عنيدة لازمت كل ما أضطلع به من مهامٍ، كان من جهة أخرى يرخي العنان لجموح عاطفته واطلاق العنان لها. ولقد كان من نتيجة إصراره العنيد على عدم إنزال نفسه الى ارادة الناس المحيطين به أو تكييف به أو تكييف أحاسيسه وأخلاقه لهم أن جعل نفسه عاجزاً عن العمل مع الآخرين. إن أولئك الذين كانوا يرقبون معجبين، كيف كانت طباعه صامدة ازاء كل مناعم الملذات، واغراء الكسب الماديّ، صابرة على مشاق الخدمة، في حين أمّت صلابة إرادته العامّة

---

(1) تزوجت پوملیا بنت نوما بـ(مارچيوس) ابن سابيني، عندما أقنع (نوما) بقبول المنصب الملكي وتبعه الى روما، كان يأمل هو أن يخلفه في هذا المنصب. لكنه ما لبث عن بخع نفسه عندما أغفل وتخطوه لينصبوا (توللوس هوستيليوس]. ومن زيجة پومپليا ولد (انكوس) ابن مارچيوس ووصل الى المنصب الذي حرم منه جدّه. ومن هذه الأسرة جاء (كريولانوس). والماء المنوه به في السطر التالي هو أصفى ماء في روما. وقد جيء به بعد شق ساقية له من منبعه طولها ستون ميلاً.

تلك الصفات الملازمة لها مثل ضبط النفس والعزيمة والاستقامة؛ لم يسعهم إلاّ أن يضيقوا ذرعاً بصرامته وفظاظته وغطرسته واستبداده التحكميّ. وهي من حياة المواطن ورجل السياسة وان الدراسة والثقافة والتمرس في الفنون لا تنطوي على فوائد لطلاّبها، أعظم من فوائد الدروس الراميّة الى التهذيب البشري، والتحضّر. فهذه تدرّب أخلاقنا الطبيعيّة على الخضوع للحدود التي يرسمها العقل، وتجنبنا التطرف الجامع.

في تلك الأزمان كانت هذه المؤهلات تعتبر في روما أرفع ما يمكن أن تسمو اليه النفس، والأعمال الحربية هي ميدان ممارستها الوحيد وخير دليل على ذلك: الكلمة اللاتينية «Vertuten: الفضيلة(*)». فانها مرادف دقيق لشجاعة الرجل، حتى لكأن البسالة، والفضائل مجتمعة شيءٌ واحد، وانهم يستخدمونها كصفة عامة لتفوقٍ خاصٍ بشخص.

و[مارشيوس] الذي كان ميله يندفع به الى بطولات الحرب بحماسة تفوق ايّ من في سنّه، بدأ بالتدريب على السلاح منذ نعومة أظفاره. ولما كان يدرك ان الأسلحة ما هي إلاّ ادوات عرضيّة، مصنوعة لا تأثير لها، ولا قيمة كبيرة فيها عند من لم تزودهم الطبيعة باسلحةٍ حسنة التركيز معدة إعداداً جيداً للخدمة، فقد انصرف الى تكييف وتدريب كيانه على ضروب الفعاليات وشتىّ فنون القتال. فجمع فيه خَفّة العداء، وثقل المصارع الذي يصعب التخلص من قبضته حالما تطبق على الخصم في التحام، وبلغ في ذلك الغاية حتى كره منازلوه من بني قومه ولداته أن يصرحوا بنقص كفاءتهم ازاءه، وأعتادوا أن يعللوا قلة حيلتهم فيه وضعفهم بقوة جسمه، قائلين أنها لا تعرف معنى الانهاك ولا التعب، ولا يمكن الوقوف أمامها.

وأوّل ما دخل معترك الحرب وهو غلامٌ مراهق(٢)، كان في آخر معركةٍ [لتاركوينيوس سوپربوس] ملك روما الذي طرد من البلاد. فبعد محاولات فاشلة عديدة بذلها للعودة، راح الآن يبذل الجهد الأخير ويتامر بكلّ شيء في رميةٍ واحدة. ووحد كل اللاتين قواهم وزحفوا معه نحو المدينة لأجل أعادته الى العرش لا لشدة رغبتهم في خدمة تاركوينيوس وارضائه، قدر ما كان يدفعهم الى خوفهم من شوكة الرومان وغيرةً من ازدياد نفوذهم الذي ارادوا كبح جماحه وايقافه عند حدٍ. وتقابل الجيشان واشتبكا في معركة فاصلة ظلت متراوحة(**)، وكان [مارشيوس] في قلبها وفي مثار نقعها يقاتل ببسالة بمشهدٍ من الدكتاتور، وفي أثناء ذلك لمح جندياً رومانياً يسقط على الأرض بضربة من خصمه فبرز اليه ووقف دونه وقتله وأنقذ

(*) معناها الحرفي الرجولة.

(٢) في ٤٩٦ ق.م المعركة المشار اليها وقعت بالقرب من بحيرة (ريگلس) في عهد الدكتاتوري [اولوس پوستيموس]. لم يذكر لا ليفي ولا ديون شيئاً عن هذه المأثرة اثناء حديثهما عن وقائع ذلك اليوم.

(**) قرب بجدة Regillus في ٤٩٨ ق.م.

الجندي الجريح. وعلى أثر انتصار الجنرال الروماني توّجهُ لهذا العمل باكليل مصنوعٍ من أغصان البلوط(٣). وهي عادة درج عليها الرومان في تكريم أولئك الذين ينقذون حياة أحد المواطنين وليس من المعروف هل يقصد من العادة تكريم خصوصي للبلوط نفسه على سبيل ذكرى الاركاديين(*) الذين أشتهر أمرهم لنبوءة ابوللو سمتهم بأكله البلوط(**). وان السبب فيه يعود الى سهولة حصولهم على ثمر البلوط في كل المواضع التي حاربوا فيها، أو لأن أكليل البلوط المقدس عند [چوپتر] حامي المدينة، أعتبر لهذا السبب حليةً مناسبة لمن ينقذ حياة مواطنٍ. والحق يقال أن شجرة البلوط تحمل أجمل الثمر وأكثره من بين كل الأشجار البريّة المثمرة وهي أيضاً أقوى ما يستنبتُ من الشجر وثمرها كان القوت الأساس للأقدمين من البشر، والعسل الذي يجدونه فيها كان أول ما شربوا. ويحق لي القول أيضاً أن الدبق الذي ينمو عليها يزوّد المرء بالطيور وغيرها من الحيوانات ذات اللحوم الذيذة، لأنه يوقعها في شراكه الصمغية.

وكان هذا من بواكر مآثر [مارشيوس]. ويقال أن [كاستور وبوللوكس] ظهرا في هذه الموقعة، وانهما شوهدا بعدها مباشرة في روما بالقرب من النافورة التي يقوم الآن معبدها في مكانها، حصاناهما ينضحان عرقاً، يذيعان انباء النصر على الشعب في [الفورم]. وتعين الخامس من تموز الذي هو يوم النصر، عيداً دينياً مكرساً للأخوين التوأمين.

ومما يلاحظ بصورة عامة إن الشبان عندما تبلغ بهم المقادر مراقي الشهرة والصيت في عُمر مبكرٍ، فانهم يستنيمون لها ويقفون عندها. وهي كفيلة باطفاء غلتهم واشباع نهمهم المحدود، وإن كان طبعهم يشوبه قليل من روح المباراة والمنافسة. والأمر على العكس عند عظماء الرجال وصناديدهم وأقوياء الأخلاق منهم بأن أول أشتهارهم يحتثهم ويدفعهم كما تدفع الريح الى ملاحقة أمجاد أخرى. وهم لاينظرون الى ثمرات فضائلهم نظرتهم الى مجرد تعويض نالوه عما فعلوه. بل يعتبرونها بمثابة عهودٍ قطعوها على أنفسهم للقيام بمآثر أخرى في المستقبل، وهم يخجلون ويستنكفون من المجد الرصيد الذي كسبوه. وبكلمة أخرى يترفعون عم جعله حجاباً مسدلاً على ما مرّ من أعمالهم وغطاءً يدفن تحته بهاء الأعمال التي قدر لهم انجازها في

---

(٣) «التاج المدني» برفق به امتيازات كثيرة. فالفائز به الحق في وضعه على رأسه قدر ما شاء ومتى ما شاء. وعلى الشيوخ ان ينهضوا أحتراماً له كلما ظهر به للجمهور. وله أن يطالب بوضع معقد له بينهم في الاجتماعات العامة وان يكون لجدّه الصلبي وابيه عين الامتياز. وهو تشجيع لذوي المواهب والمؤهلات لا يكلف العامة شيئاً. وكان يمنح بالأصل لكل مواطن ينقذ مواطناً آخر من خطر الموت.

(*) اول مستعمرين لروما بقيادة ايفاندر Evander.

(**) هيرودوتس ١:٦٦.

المستقبل. ولقد كانت روح [مارشيوس] من هذا المعدن النبيل، فهي طموحة أبداً للتفوق على ذاتها دائماً، وهو لم ينجز عملاً فائقاً إلاّ وكان موقنا أن القدر يريد له عملاً آخر أعظم من سالفه في فرصة تالية. ولازمته الرغبة في تقديم دلائل مستمرة جديدة على بطولته وسيطرت على كيانه تماماً. فراح يضيف مجداً الى مجدٍ ويكدس النصر فوق النصر. وجعل من ذلك ميدان منافسة بين آمريه، ايهما يبز الآخر في تكريمه والثناء عليه؟ ولم يعد من أي حربٍ أو معركة خاضها في تلكم الأيام الاّ وهو متوج باكاليل الغار مثقل بالجوائز والمكافآت وفي الوقت الذي نرى غيره يجعل المجد والمنزلة الرفيعة آخر مطاف بسالته، نجد [مارشيوس] يجعل سعادة أمّه نهاية مجده. فالغبطة التي تتملكها عندما تسمع الثناء عليه، وتراه وهو يتوج باكاليل النصر، وبكاؤها فرحاً عندما يعانقها وتضمّه الى صدرها، تجعله يشعر بذات نفسه، انه نال أعظم ما يناله بشرٌ من تشريف وسعادة. وقيل أن [إپامنداس] كان يتملكه مثل هذا الشعور تماماً. فأهنأ لحظة عنده، هي أن أباه وامّه عاشا ليسمعا بالنجاح الذي حققه في القيادة وبانتصاره الكبير في [ليوكترا Leuctra]، إن الحظّ الذي أسعده بمشاركة ابويه في الاستمتاع بلذة نجاحه، لم يمكن [مارشيوس] إلاّ من واجب تقديم كل فروض الشكر والامتنان لأمه [ڤولومنيا Volumnia][٤] وحدها، كما لو كان ابوه حياً ولذلك لم تكن نفسه تشبع من حنانه وأحترامه لها. حتى أنه لم يفترق عنها عندما اتخذ زوجاً ورزق بأولاد بناءً على رجائها ورغبتها وظل يعيش معها تحت سقف واحد.

في ذلك الحين، أكسبته استقامته وشجاعته صيتاً كبيراً ونفوذاً طائلاً في روما. وكان مجلس الشيوخ بمحاباته اغنياء المواطنين، في خلافٍ مستعصٍ مع طبقة العامّة التي أخذت تجأر بالشكوى المرّة من المعاملة الفظة اللاإنسانية التي يلاقونها على أيدي المرابين[٥]، فكثير منهم أثقل كاهله بالديون، وكثيرون جردوا من كل مقتنياتهم وأملاكهم بطريق البيع أو الرهن تسديداً للدين. أما من بلغ الأمر بهم نهاية الأملاق بسبب المصادرات الماضية ولم يعد لديهم ما يصحّ مصادرته، فقد سيقوا الى السخرة والعمل الشاق دون أي اعتبار للجراح والندوب التي خلفتها في أجسامهم خوضهم شتىّ المعارك، دليلاً على خدماتهم الوطنية. وكان السابين آخر من أصمته السّهام. فقد وثقوا بعهدٍ قطعه لهم دائنوهم الاغنياء أن يحسنوا معاملتهم ويكونوا أكثر رفقاً بهم في المستقبل. وأنيب [ماركوس ڤاليريوس] القنصل، بايعاز من مجلس الشيوخ لمتابعة تطبيق هذا العهد واستنجازه. لكن، بعد أن حارب السابين الأعداء

---

(٤) ومن الكتاب الآخرين الذين ذكروا [ڤولمنيا] أسماً لزوجه، ديون وليڤي وڤاليريوس.

(٥) أو كما قال الآخرون ان الدكتاتور [ماكسيموس ڤاليريوس الذي وعد الشعب بقانون الغاء الديون [ديون ٦:٥].

ببسالةٍ، وحققوا النصر، لم يجدوا رفقاً من الدائنين ولا سماحةً كذلك صرح المجلس بانه لايذكر شيئاً عن وجود عهدٍ كهذا! وجلس ساكتاً غير مكترثٍ، وهو يشاهد افواج المدنيين يساقون كالعبيد، وأموالهم ومقتناهم ينزع منهم قسراً كالسابق. وبدأت الثورة تعتمل في النفوس وذرّ قرن التمرد علينا، وعقدت اجتماعات عامة ذات طابعٍ خطير في انحاء المدينة. ولم يخف أمر هذا الاضطراب الداخلي عن عين العدوّ، فأغار على البلاد وعاث فيها سلباً ولما أعلن القنصلان النفير وطلباً حضور كل من بلغ سنّ الخدمة العسكرية الى مقرات التجنيد، لم يلبّ أحدٌ من المواطنين الدعوة في بضعة ايام فبادر مجلس الشيوخ الى عقد اجتماع للمداولة في الأمر واتخاذ قرارٍ إلاّ أن اعضاءه اتقسموا على أنفسهم وأختلفت وجهات نظرهم، فبعضهم ارتاىء التنازل للفقراء عن القليل وخطب ودّهم بالتخفيف من صرامة القانون المتناهية، وارخاء قبضتهم عن حقوقهم المهضومة جداً. وعارض بعضهم الآخر هذه المقترحات وكان [مارشيوس] أشدّ الاعضاء الآخرين تحمساً لرأيه وهو أن قضيّة المال من كلا جانبيها، ليست الموضوع الأساسي. وقال إنّ أعمال التمرّد والعصيان ما هي إلاّ الخطوة الأولى الوقحة نحو أعلان الثورة الصريحة على أحكام القانون. وان واجب قمعها قبل أن يذرّ قرنها يقع على عاتق الحكومة، ويتوقف على حكمتها في معالجة الموقف.

وواصل مجلس الشيوخ عقد اجتماعات عديدة في فترة من الزمن قصيرة، لبحث المشكلة ولكنها لم تسفر عن نتيجة أو قرارٍ معين.

وعندئذٍ أقتنع العامة بأن احتمال انصافهم من ضيمهم يكاد يكون منعدماً. فأتفقوا فيما بينهم على رأي واحدٍ وأجمعواأمرهم على ترك المدينة دفعةً واحدة. فخرجوا واحتلوا المرتفع المسمّى «بالجبل الأقدس» وأنتشروا في السهل القريب من نهر [آنيو](*) دون القيام بايّ عملٍ من أعمال الشغب أو العنف. وانما كانوا يرفعون أصواتهم بالشكوى وهم راحلون: بأنهم كانوا في الواقع قد طردوا من المدينة قبل زمن طويل، لقسوة الأغنياء وظلمهم. وان ايّ جزءٍ من ايطاليا لن يبخل عليهم بالماء والهواء، والمدفن، وهذا كل ما كانوا يحصلون عليه في روما، اللهّم إلاّ إمتياز الموت والجرح في الحرب دفاعاً عن دائنيهم!.

وتوجّس المجلس خيفة من نتائج ذلك فأختار من أعضائه شيوخاً من طبقتهم، اكثرهم استقامة وشعبية وبعث بهم لمفاوضة طبقة العامّة. وأسهب رئيس المفاوضين [مينينيوس أغريبّا Menenius Agrippa] في النصح والرجاء من الشعب، نيابة عن المجلس، وختم كلامه الصريح بالحكاية المشهورة الآتية:

(*) يبعد ثلاثة أميال عن المدينة (ليفي ٢:٣٢ - ٢).

«حدث مرّة ان اعضاء الجسم كلها ثارت على المعدة واتهمتها بأنها العضو العاطل الوحيد، والذي لايقدم اي خدمة للبدن، في حين يتعب سائر الاعضاء ويقوم بأشق الأعمال لإشباع نهمها، وسدّ حاجاتها وشهواتها. فسخرت المعدة من رقاعة الأعضاء التي يظهر انها لا تعلم شيئاً عن واجب المعدة، حيث انها لا تتسلّم الغذاء إلاّ لتوزيعه من قبلها على بقية الاعضاء، تلك هي القضية بينكم ايها المواطنون، وبين مجلس الشيوخ. انّ الخطط والمقرارات التي تنقل اليكم وتضمن لجميعكم الفائدة والمصلحة، انمّا تهضم هناك كما ينبغي».

وحَلّ الصلح والوئام، ونزل مجلس الشيوخ الى مطالب العامّة حول انتخاب خمسة محامين[٦]، لأولئك المحتاجين الى المعونة. وهم الذين يقال لهم «مفوضو الشعب: تريبيوني Tribune» في أيامنا هذه. يتمّ انتخابهم سنويّاً. وأوّل من تولى هذا المنصب [جونيوس بروتوس Junius Brutus][٧] و[سيثنيوس ڤيللوتوس Sicinnius Vellutus]، اللذين تزعما العامّه في خروجهم من المدينة.

وهكذا عادت الوحدة تسود المدينة وفزع العامة الى سلاحهم فوراً وساروا الى الحروب وراء قادتهم، بحميّة ونشاط. وامّا عن [مارشيوس] فمع أن غيظه لم يكن بالقليل، لتغلب ارادة مجموع الشعب على مجلس الشيوخ وتحقيقهم مطاليبهم، ومع أنه وجد عند الكثير من الپاتريشيين السخط والاستنكار نفسه للتنازلات الأخيرة، فقد رجاهم مع ذلك أن لايكونوا أقل حماسة واندفاعاً في خدمة الوطن والبذل له، من العامة على الأقلّ، بل أن يبرهنوا على تفوقهم في الجدارة والكفاءة أكثر من تفوقهم في الغنى والجّاه.

كان الرومان وقتذاك يخوضون حرباً مع الڤولسيين. الذين اتخذوا [كوريولى Corioli] عاصمةً. ولذلك ضرب القنصل [كومينيوس Cominius] الحصار على هذا الموقع الهام، ولخوف بقية الڤولسيين أن تسقط، حشدوا كلّ ما أمكنهم من القوات واستقدموها من كل

---

(٦) كان عددهم خمسة في الأول. وبعد سنوات قليلة ضمّ اليهم خمسة آخرون. وقبل أن يترك الجمهور [مونس ساچير Mons Sacer] استنوا قانوناً جعلوا فيه شخص التريبيون مصوناً ومقدساً. ورسموا بأن على أن تكون مهّمة التريبيون الوحيدة التدخل لايقاف كلّ اعتداء يقع على افراد الطبقة العامة من جانب الاسياد وهو ما يدعى بـIntercesso ومؤداه أن يقف التريبيون على قدميه وينطق بكلمة واحدة (Veto: أنا امنع) ذلك. وتوضع للتريبيونات مقاعد عند باب مجلس الشيوخ ولا يدخلون المجلس الاّ عندما يستدعيهم القناصل لتبادل الرأيء حول مسألة تتعلق بمصالح الشعب.

(٧) اسم هذا التريبيون [لوچيوس جونيوس] وبما أن لوچيوس جونيوس بروتوس قد أشتهر لأنه انقذ البلاد من تحكم الملوك فقد اضاف الى اسمه لقب [بروتوس] مما عرضه الى كثير من السخرية والتعليق الفكه. (الكلمة اللاتينية Butus تعني بالدراج الغبي، وباللغة الأدبية الثقيل).

ناحية لأجل فكّ الحصار عنها، وكانت خطتهم أن يشتبكوا مع الرومان أمام المدينة، ليمكن حصرهم من الجانبين. ولكيما يجتنب كومينيدس هذا الموقف الصعب، قسم جيشه الى قسمين وزحف بأحدهما للهجوم على الڤولسيين عند أقترابهم من الخارج تاركاً [تيطس لارتيوس Tit-us Lartius] وهو من أشجع الرومان، على رأس القسم الثاني لمواصلة الحصار. وتبينت الحامية الڤولسيّة في داخل المدينة كم كان عددها قليلاً فدفعها اليأس الى الهجوم على المحاصرين، ورجحت كفتهم أولاً وطاردوا الرومان حتى خنادقهم. وهنا خرج عليهم [مارشيوس] بسريّة قليلة العدد ومزق أوّل المهاجمين تمزيقاً، وأجبر الباقين على تخفيف وطأة هجومهم ثم أطلق صيحة عظيمة بالرومان وأهاب بهم لتجديد المعركة. فقد كان في إهابه كل ما يتطلب من الجندي ليس قوة الساعد وشدة الطعن وحدهما بل قوة الصوت وصرامة النظرات التي من شأنها أن تُلقي الرعب في قلوب العدوّ - كما قال [كاتو Cato]. وأستجمعت طوائف من صحبه قواها، وهرعت لإسناده فأنقلب هجوم العدوّ الى تقهقر، إلاّ أن [مارشيوس] لم يقنع بمشاهدتهم يلمون شعثهم وينسحبون بل شدّ عليهم النكير وصكّ مؤخرتهم صكاً عنيفاً ودفعهم بما يشبه الهزيمة السريعة الى ابواب مدينتهم. وهنا تبين أن الرومان يريدون النكوص على أعقابهم، مدحورين لفرط ما يمطرهم العدوّ بالرماح من فوق الأسوار. وإن ليس بين من تبعه ألشجاعة الكافية للتفكير في الاختلاط بالعدوّ الهارب والدخول الى المدينة المكتظة بالعدوّ المستعدّ بسلاحه، على أنه وقف وأخذ يحثهم على المحاولة صارخاً، أنّ القدر لم يفتح أبواب [كوريولي] لايواء الهاربين قدر ما فتحها لاستقبال الفاتحين. والتحق به عدد قليل كانوا راغبين في مشاركته في المغامرة، فشقوا طريقهم خلال الحشود المندفعة وأفلح في الوصول الى الباب واقتحمه من وسطهم ولم يجرأ أحدٌ على مقاومته في مبدأ الأمر. إلاّ أن العدوّ تشجع عندما تبين قلة عددهم، وحمل عليهم فدارت معركة يقف القلم عن وصفها وفيها تمكن [مارشيوس] من التغلّب على كل مهاجم تصدى له بقوة الساعد وخفة القدم وجرأة النفس، ونجح في تشتيت شمل العدوّ الذي فرّ ناجياً الى داخل المدينة. أما الباقون فقد استسلموا له والقوا سلاحهم. وبهذا اتاحوا [للارتيوس] فرصة كبيرة جداً للزحف على المدينة ببقية الرومان وأحتلالها بسهولة وإطمئنان.

بعد أن تمّ إحتلال [كوريولي] بهذه الصورة المفاجئة، انصرف القسم الأعظم من الجنود الى النهب والسّلب، و[مارشيوس] الذي أحنقه هذا العمل راح يؤنبهم ساخطاً، ويصف أعمالهم بالدناءة والضّعة، فبينما يخوض القنصل وبنو جلدتهم معركة مع القسم الثاني من جيش الڤولسيين، ويخاطرون بارواحهم في القتال، وجدهم يسيئون استخدام وقتهم في الركض وراء

الغنائم هنا وهناك. مبتعدين عن مكامن الخطر بحجّة أغتنام الأموال. ولم يعره أذناً صاغية إلاّ نفر قليل، فما كان منه إلاّ أن وضع نفسه على رأسهم سالكاً الطريق الذي تحرك منه جيش القنصل قبله وكان وهو يكدّ دؤوباً يدعو للآلهة كثيراً أن تسعده بالوصول الى ميدان الحرب قبل نهاية المعركة، وبلوغ [كومينيوس] لمعونته في اللحظة المناسبة، والمشاركة في أخطار القتال. وكان من عادة رومان ذلك العصر، عندما تتحرك قطعاتهم الى خط المعركة، ويكونون على وشك أن يرفعوا تروسهم ويشدون عباءاتهم على خواصرهم، أن يتبادلوا وصاياهم غير المكتوبة أو الشفوية فيما بينهم، وأن يسموا وارثيهم بشهادة ثلاثة أو اربعة شهودٍ. وقد لحق بهم مارشيوس ليجدهم في تلك الحالة والعدو على قيد النظر منهم.

ولم يكن اضطرابهم بالقليل عندما وقع عليه نظرهم وهو يسبح بالعرق والدم وليس معه إلاّ شرذمة. ولكنه أسرع الى القنصل وعيناه تومضان سروراً ومد اليه يده، وقصّ عليه تفاصيل الاستيلاء على المدينة، ولما رأى الجنود [كومينيوس] يحتضنه ويحيّه أيضاً أنتعشت قلوبهم جميعاً وارتفعت معنوياتهم وسمع من كان قريباً منهما ماحصل، وضمّنه من كان بعيداً وصاح الكل بصوت واحدٍ يطلبون الأمر بالمعركة وسأل [مارشيوس] منه اولاً عن كيفية تنظيم الڤولسيين جيشهم واين وضعوا خيرة رجالهم فأجابه أنه يعتقد أن جنود [الانتيات Antiates] في القلب هم خيرة محاربين. وانهم لا نظير لهم في الإقدام والشجاعة. فقال [مارشيوس] «فدعني أطلب منك، ولأحصل على موافقتك في وضعي أمامهم» فحقق القنصل رجاءه وقد أمتلأ أعجاباً ببسالته ولما التحم الجمعان وراح الجنود يصوبون رماحهم بعضهم الى بعض، وسبق مارشيوس سائرهم في الهجوم، عجز الڤولسيون المتصّدين له عن أن ينالوا منه قتيلاً، وكان يخرق صفوفهم أنىّ حمل عليهم، ويشقّ فيهم شقاً عميقاً إلاّ أن الشق يعود ثانية ليطبق عليه من الجانبين ويحصره في وسط السلاح المشرع. واذ أدرك القُنصل الخطر الذي يتعرض اليه، دفع بنخبة من المقاتلين اليه لنجدته، وعندئذ حمي الوطيس واستشرى القتال حول [مارشيوس] وسقط عدد كبير من القتلى في رقعة صغيرة من الأرض. وأشتدت وطأة الرومان على أعدائهم، واذاقوهم مرّ القتال حتى ارغموهم على الانكفاء وزحزحوهم عن مواقعهم ثم أخرجوهم من ميدان القتال. وطلبوا من [مارشيوس] متوسلين وهم يهمون باستثمار الفوز - أن يعود الى المعسكر ويرتاح بعد ما رأو ما اصابه من الإرهاق وخور القوى لما فقده من دماء. فأجابهم أن التعب لم يخلق للمنتصرين واندفع معهم لمطاردة العدوّ. وهزمت بقية الجيش الڤولسيّي على هذه الشاكلة وقتل منهم خلق كثير وأسر ما لايقل عدده عن القتلى.

وفي اليوم التالي قدم [لارسيوس] نفسه مع أفراد الجيش الى القنصل في سرادقة. فنهض

[كومـينيـوس] وبعـد أن قـدم فـروض الـشكر الواجبـة للآلهـة على النصر الذي توجت به تلك الحـرب. التـفت الى [مـارشـيـوس] وألقى كلمـة ثناءٍ لا نظيـر لهـا بحقّ بلائه النـادر المثـال وشجاعته الفـائقة التي كـان شاهداً عـياناً لقسم منهـا في المعركـة الثانيـة. وسامـعاً لتـفاصـيل القـسم الأول من فم [لارسيـوس][٨] وبشـهادته. ثم طلب منه أن يختـار لنفسـه العُشـر من كل الأمـوال والخيـل والأسرى التي في ايديهم قـبل اجراء اي توزيع منهـا على الآخريـن. وقـدم له هدية شخصية اعتـرافاً باعماله المجيدة وهي جواد بكامل سرجه وزينته. وهتف له جميع افراد الجيش. على أن [مـارشـيـوس] برز الى الأمـام، وأعلن عـن قـبوله الجـواد مع الشكـر وامتنانه للمـديح الذي ناله من قـائده. وقـال: أنه ينبـغي له رفض كـلّ مـا يراه أمـيـل الى مـجـرد منافع للجنود المرتزقة من كونه مـيـزة من إمتيازات الشرف، ولذلك لايسعه قبـول العشر ويقنع بالسـهم الذي يقع له عـادة أسوة بغيـره. «ولديَّ رجـاء خاص واحدٌ أطلبه وأملي ان لايرفض. عندي بين الڤـولسـيين صديق كـريم، رجل ذو فـضـيلة واسـتـقـامة. وقع اليـوم أسيـراً وآل الى العـبـودية بعـد الغنى والحريّة. فـأرجو أن تسـمـحوا لتدخلي فـي أمره بأنقاذه من أحدى مصـائبـه، والحيلولة دون بيعـه كعـبد من العـبيد.» وآثار رفض [مـارشيـوس] ورجاؤه هتاف اسـتحسان أشدّ مـن السابق وكان الـذين أعجبوا باستعـلائه الكريم عن الجشع أكـثر عـدداً من المعجـبين العديدين بـشجاعة التي ابداها في القـتال. وان عين الأشـخاص الذين شعروا بشيء من الحـسد والكره عندما رأوه يُخصّ بالتـكريم عـلى هذه الشـاكلة، لم يسـعـهم إلاّ أن يقروا بأنّ الرجل الذي لايتـردد فـي رفض مكافأة بهذه الطريقة النبيلة لهو أرفع بكثير من ايّ مستحق لها. وقد كان أعجابهم وانذهالهم أشدّ بسجـيته تلك التي جعلتـه يحتقر المال والمنفعـة المادية، من سجاياه ومآثره الأخرى السابقة التي أنالته لقبه. انه لأسمى عـملاً أن يحسـن المرء اسـتعمال المال مـن استعمـال السّلاح، إلاّ أن رفضه وعدم استعماله هو انبل من استعماله.

ولما سكتت الهتافات ونداءات الاستحسان استأنف [كومينيوس] حديثه قائلاً: «من العبث أيهـا الرفـاق الجنود أن نحـاول حمل الرافض المتـأبيّ على قـبـول هدايانا بالقـوّة والإلحـاح ولذلك فلنعطه هديةً من النوع الذي لايمكن رفـضـه قطّ. فـلنصوّت على إقـتـراحٍ يقـضي بتـسـمـيتـه [كريولانوس] من الآن فصاعـداً، إلاّ اذا رأيتم أن مأثرته فـي [كوريولي] قد سبقت هي نفسها اي قرارٍ بهذا الشأن» وهكذا جاء هذا الاسم الثالث [كريولانوس] موضحاً بأن [كايوّس] هو الأسم المجـرد الشخـصي، والثاني وهو اسم الأسرة أو اللقب [مـارشيوس] الذي يعـرف به بيتـه

(٨) هو الضابط الذي تُرك لمواصلة حصار (كوريولي). ان شهرة مارچيوس بسبب العمل البطولي كانت تكسف مأثرة القنصل كما يخبرنا ليڤي [٢:٣٣] ولم يخلد اسم [پوستيميوس كوتينيوس] إلاّ لأنه كان حفاراً على النحاس دعت اليه الحاجة عندما عقدت معاهدة الصلح من اللاتين فيما بعد.

وأسرته. والثالث هو أضافة تالية، جرت العادة على اتخاذه لصفة عارضة من صفات الحياة لحقت بصاحبه، جسمانية كانت أم خُلقية أو لسجيّة طيبة في صاحبه. مثلما كان الأغريق أيضاً يلصقون اسماء اضافية في العهود الأولى بالاسماء الأصلية في بعض الحالات بسبب عمل أو مأثرة ما. فتجد مثلاً اسم «سوتر Soter»(*) و«كاللينيكوس Callinicus»(**) أو لمظهر شخصيّ كقولهم «فيسكون Physcon (ذو البطن المفتوحة) وغريپوس Grypys (ذو الأنف المعقوف)». أو لميزات طيبة كقولهم «يورغيتس Eurgetes (المحسن) و«فيلادلفوس Phila-delphus (محب الأخ أو الأخت) أو لحسن حظ كقولهم يوديمون Eudaemon (المتنعم) والأمير الثاني من عائلة وهو لقب باتوس(٩).

ولقب عدة ملوك أيضاً بألقاب سخرية مثل انتيغونس الذي اشاع له لقب دوسون Doson (الرجل الكثير المواعيد). وبطليموس الذي لقبّ لاثميروس Lathymerus (فول العلف) وهذا النوع من الالقاب هو أكثر انتشاراً عند الرومان فقد لقب شخص من أسرة ميتللي Metelli بلقب ديادماتوس Diadematus لأنه كان يخرج للناس زمناً طويلاً وقد عصب رأسه بعصابة تغطى ندبةً في جبينه وثم آخر من الأسرة نفسها لقب چلير Celer لسرعته في تهيئة وعرض حفلة مصارعين بمناسبة تشييع جنازة ابيه خلال ايام قليلة. بتلك السرعة والحمية اللتين عُدّا من الخوارق. ويوجد الى يومنا هذا بعض من أنتسب اسمه الى حوادث طارئة حصلت اثناء ولادته. فالطفل الذي يولد وابوه بعيد عن البيت أو هو في سَفَر يدعي بروكولوس Pruculus أو پوستيموس Postiumus اذا ولد بعد موت ابيه وعندما يولد توأمان ويموت أحدهما اثناء الوضع يدعى الحيّ منها ڤوبيكوس Vopiucus. ومن ذوي الشواذ جسمانياً لم يقتصروا على اشتقاق اللقبين سيلا Sylla (البقع) ونيجر Niger (أسود) ورفوس Rufus (الأحمر). بل كايكوس Caecus (الأعمى). وكلودي Claudii (الاعرج). يريدون تعويد شعبهم لحكمةٍ فيهم، بالا يكترثوا لا لفقد البصر، ولا لأي عاهة جسمية أخرى، والاّ يدركهم الخجل من تلبيةً أي نداء بهذا الاسم كما لو كان أسمهم ولا يعدونه نقيصة أو مجلبة للعار. ولنكتف بهذا القدر من الموضوع فسبيلنا اليه موضع آخر.

(*) الحفيظ.

(**) المنتصر.

(٩) يقول هيرودوتس [١٥٩:٤] انه أعطي للثالث وليس للثاني [ملك كيرينه] ومن قبيل هذه الالقاب والصفات أشتهر ثامن ملك من ملوك البطالمه بلقب (سوتر). كما منح لانطيوخوس وديمتريوس وكاللينيكوس لسلوقوس الثاني رابع ملك على سورية. و(فيكون) لبطليموس سابع ملك على مصر و(غريبوس) لانطيوخوس التاسع عشر ملك سورية.

ما أن وضعت حرب الڤولسيين اوزارها حتى أحيا زعماءُ الشعب الخطباء الشعبيون القلاقل الداخلية، وأثاروا نزاعاً آخر دون سبب جديدٍ أو شكوى أو ظلم واقع، وانمّا جعلوا من المصائب التي تأتي حتماً في أعقاب التناحر السابق، حجّة لمهاجمة الپاتريشيين. كان معظم الأراضي الصالحة للزراعة قد ترك دون حراثة أو بذار، فالحرب لم تمنحهم فترة راحة، أو مجالاً لاستيراد الأقوات من بلادٍ أخرى. فشحّ الطعام في روما الى درجة متناهية(١٠). ولاحظ مثيرو الشعب انه لايوجد من القمح ما يمكن شراؤه، وإن وُجِد فلا مال هناك لشرائه. فراحوا يختلقون الروايات والحكايات على الاغنياء ويذيعونها همساً، وكلها ترمي الى تصوير المجاعة بأنها نتيجة حقدهم وبتدبير متعمدٍ منهم. وفي ذلك الوقت أقبل وفدٌ من [الڤيليترانى Velitrani] الى روما باقتراح تسليم مدينتهم للرومان، وبرغبتهم في أن ترسل مستوطنين جدد ليسكنوها، لأن الوباء الذي اجتاحها لم يبق من مجموع سكانها إلاّ ما يناهز العُشر. وأعتبر الرومان البعيدو النظر هذه الضرورة الڤيليترانية، فرصة نادرة المثال على ضوء أوضاعهم العصيبة الراهنة. لأن المجاعة المتفشية أوجب القيام بالتنفيس عن المدينة وتخليصها من فائض السكان. وكانوا يأملون من هذا أيضاً تبديد سُحب الثورة المجتمعة بالتخلص من أكثر المواطنين عنفاً وأحمى المشاغبين رأساً، وتفريغ عناصر الفوضى والمرض خارج جهاز الدولة على ما يقال.

وعلى هذا الأساس قام القنصلان بتسجيل اسماء المواطنين الذين وقع عليهم الإختيار للسكنى في مدينة [ڤيليتري Velitrae] التي كادت تقفر. كما أخطروا بقية المواطنين بوجوب التأهب لحمل السلاح ضدّ الڤولسيين. وكان الهدف من ذلك سياسياً وهو الحيلولة دون فتنة داخلية باشغال جماهير الشعب في أمور خارجية. ورأيهم هو أن يؤدي أختلاط الفقير بالغنيّ والپاتريشيّ بالپليبنيّ في صفوف الجيش ومعسكراته وقيامهم معاً بخدمة وطنيّة واحدة - الى حلول التصافي ووصل حبال الودّ فيما بينهم.

إلاّ أن المفوضين الشعبيين [سيبخيوس] و[بروتوس] تدخلا في هذه الاجراءات وأعلنا أن انقنصلين يخفيان أشنع وأقسى عملية تحت الإسم البرّاق اللطيف «الإعمار والإسكان»، وانهما يطوحان بالعدد الكبير من فقراء المواطنين الى وهدة الدمار والخراب بعرضهما عليهم السكن في مدينة اثقل هواؤها بالوباء، وغطيت أرضها بجثث الموتى. وانهما يدفعان بهم الى غضب

(١٠) انسحب العامة الى الجبل المقدس Mins Secer قبل موعد الفلاحة ولم يبرم صلح بينهم وبين الپاتريشي حتى انقلاب الشتاء. وهكذا ضاع وقت البذار [ديون ١:٧ و٢] وأرسلت روما وكلاءها لشراء القمح من أقطار أخرى كاترويا وكامپسانيا وڤولسكي حتى بلغوا صقلية. لكنهم عادوا خائبين الاّ من اترويا. [انظر ليڤي ٢:٣٤].

آلهةٍ غريبةٍ عنهم. وكأن حقدهما لم يكفه القضاء على فريق منهم جوعاً، وتعريض الفريق الآخر الى شرّ طاعون فتّاك، تراهما الآن يباشران أيضاً عملية إقحام المواطنين في حرب لا ضرورة لها، حرب أثاراها بتدبير منهما فحسبٍ. وبهذا لايعود يبقى نائبةٌ أو مصيبة للامتصاص من المواطنين، بسبب رفضهم الاستخذاء للأغنياء واستعبادهم، إلاّ مارسوها بحقهّم.

بهذه الأقوال وأمثالها جُنّ جنون الشعب، ولم يلبّ أحد منهم الأمر القنصلي بالحضور وقيد اسمه في سجلّ التطوع، وأظهروا عزوفهم التام عن طلب المباشرة بزراعة الموسم الجديد، فأسقط في يد مجلس الشيوخ ولم يدر ما يقول وماذا يفعل إلاّ ان [مارشيوس] الشاعر بقوة نفوذه، المعتمد على رصيد مآثره الماضية، والمتأكد من أعجاب ومشايعة خيرة رجال روما وأشرافها ما لبث أن أخذ بيده زعامة معارضة المؤيدين لمطالب الشعب. وتم إرسال المستعمرين الى [ڤيلتري] من الذين خرجت اسماؤهم بالقرعة، وأرغموا على الرحيل تحت التهديد بانزال أشدّ العقاب بهم. ولما بقي الآخرون مصرين على رفض الخدمة العسكرية والخروج لحرب الڤولسيين، قام [مارشيوس] بتعبئة اتباعه ومناصريه ومن أستطاع أقناعه، وشن بهم غارة على تخوم [الانتيات] وسطا على قدر جسيم من القمح، وغنم كثيراً من الماشية والأسرى، وعاد الى روما منتصراً ولم يحتفظ لنفسه بشيء مما غنمه، إلاّ أن جنوده عادوا مثقلين بالأسلاب يسوقون انعامهم وأسراهم أمامهم. هذا المشهد أفعم المستنكفين عن القتال أسفاً وقهراً وأدركهم الندم لسوء موقفهم، وأمتلأوا حسداً وغيرة من أخوانهم، وبذلك رسخ في نفوسهم كره عميق لمارشيوس، وحنقوا عليه وعلى سمعته الداوية ونجم سلطانه الصاعد الذي قد يستخدم ضدّ مصالح الجماهير.

ولم يمرّ طويل زمن حتى تقدم [مارشيوس][11] مرشحاً لمنصب القنصل، وكانت الظواهر تشير الى ان الجمهور بدأ يميل الى جانبه ويحبذ انتخابه، اذ كان الشعور السائد أنه من المخجل أن ينبذ رجل كمارشيوس عريق النسب، ذي مؤهلات وكفاءة، بعد قيامه بتلك الخدمات الجليلة الفريدة في بابها.

ولقد جرت العادة أن يمتزج المرشحون لمنصب القنصل بكلّ طبقات الشعب ويدعون لانتخابهم بالخطب والكلام الرقيق وسائر ضروب التزلف والاستمالة، وان يحضروا الى [الفورم] وليس على أجسامهم من ثياب غير الرداء الفضفاض المسمىّ «توگا Toga»، ولا يخلو القصد من

(١١) في ٤٩٠ ق.م. لاينوه ليڤي بموضوع ترشيح. وكان [ماريشيوس] يلح على مجلس الشيوخ للاستفادة من حالة المجاعة وارغام العامّة (الپليبيان) على التنازل عن تريبيوناتهم. فأحنق العامة حتى أنهم حاكموه غيابياً وأصدروا حكماً بنفيه، فالتحق بالڤولسكيين. وتتفق رواية پلوتارخ مع رواية [ديون ٧: ٢١-٦٤] في هذا الصدد.

هذا إمّا تواضعاً في اللباس أمام الجماهير ليحسنوا في عينه، وإمّا ليسهل من أصيب منهم بجراحٍ - أمر عرض ندوبها الشاهدة على حسن بلائهم. ومن المؤكد أن الظهور بالثوب الفضفاض من دون مشدّ أو حزام لايقصد به إزالة ايّ شكٍّ في نفي مظنّة الرشوة والفساد عن صاحبه المرشح الذي يريد أن يخطب ودّ الشعب. إن صفقات البيع والشراء لم تتسلل في عمليات الانتخاب، والمال لم يصبح من مقومات النجاح الأساسية في الاقتراع العام إلاّ بعد قرون عديدة من القرن الذي نحن الآن بصدده.

فعندما بدأ الفساد يستشرى استبيحت حرمة مجالس القضاء، وهوجمت حتى المعسكرات. وأصبح المال فهو سيد الدّولة بلا منازع عن طريق استئجار الشجاعة وشراء البطولة، واستعباد الفضّة للحديد. وأنقلب النظام الجمهوري الى حكم فرديّ ملكي. ولله در القائل: إن أوّل من هدم حريات الشعب هو أول من أغرقهم بالهدايا والأعطيات. وفي روما يظهر أن الفساد تسلل في الداخل سراً وبصورة متدرجة، فلم يظهر للملأ فجأة ولم تلحظه العين في مسراه، وليس يعرف الضبطَ أول من أستخدم الرشوة مع المواطنين وأوّل من أفسد دور القضاء والمحاكم. في حين كان المشهور في آثينا إن [أنتيوس ابن انتيميون][١٢] هو أوّل من رشا القضاة لما حوكم في آخر مرحلة من نهاية حرب البلوبونيوس، بتهمة تسليمه حصن [بيلوس][*] الى العدوّ، وهو عهد كان يسيطر فيه على (فورم) روما جيل طاهر نقيّ ذهبّي من الرجال.

وكعادة المرشحين لمنصب القنصل، كشف مارشيوس عن الندوب والجراح الظاهرة في جسمه، من جراء الوقائع والمعارك العديدة التي أبلى فيها أحسن بلاد خلال سبع عشرة سنة متصلة، فأثر فيهم تأثيراً عميقاً وراح أحدهم يقول للآخر: إن السماحة الشعبية تفرض انتخابه قنصلاً. ولكن لما أزف يوم الاقتراع، وظهر [مارشيوس] في الفورم تحفّ به بطانة فخمة من الشيوخ، ويحيط به جميع الباتريشيين، وسيماؤهم تنطق بعظيم اهتمامهم بالأمر، وحركاتهم تنمّ عن جهدٍ يبذلونه في سبيل إنجاح [مارشيوس] فاق اي جهدٍ بذلوه في مناسبة مماثلة أخرى، توجس الجمهور خيفة وأصيب بصدود مفاجيء عنه، وارتدوا عن العطف الذي ابدوه له، واستبدلوا النية الطيبة له، بشعور السخط والحنق والتقت هذه العاطفة الأخيرة بالخوف من أن يستخدم الباترشيون هذا الرجل الارستوقراطي الخلق، العظيم النفوذ سلطة المنصب الممنوح له لغمط حقوق الشعب وسلبه الحريات التي بقيت له. فعدلوا عن انتخابه وولّوا قنصلين آخرين. وكان

---

(١٢) تانت شهرته من توجيهه الاتهام لسقراط.

(*) بقعة على الساحل الغربي من مسينيا في البلوبونيس. احتلها الآثينيون في ٤٢٥ ق.م (توكيديدس ٤:٢ - ٤١. في ٤١٠ حاصرها اللقيديميون فسلمت حاميتها المسينية وفشل أسطول اثيني في قهرها.

هذا أشبه بطعنة نجلاء اصابت مجلس الشيوخ في الصميم وشعر اعضاؤه إنهم قُصِدوا بالإهانة أكثر مما قصد [مارشيوس]، ولم تكن حالته بأفضل منهم، وصعب عليه احتمال العار بايّ قدرٍ من الصبر والاحتساب فلقد كان دوماً يطلق العنان لما في نفسه ولا يجعل لمشاعره ضابطاً وكان يعتبر صفتي الكبرياء والتّحدي في الطبع البشري مرادفتين للنبل والشهامة أما النظام والعقل فلم يزرعا فيه صفة الاتزان وضبط النفس وهما من السجايا الأساسية التي تلازم رجل السياسة. انه لم يتعلّم كم هو ضروري وجوهري لمن يتولى الشؤون العامة، ويتعامل مع بني البشر، أن يتجنب غرور النفس والاعتزاز بها، تلك الصفة التي يقول عنها أفلاطون «انها تنتمي الى عائلة العُزلة»[١٣]، لم يتعلّم أن يتّصف قبل كلّ شيء بقابلية الكظم، والسكوت على سوء المعاملة التي كانت موضع احتقارٍ عموماً. إن [مارشيوس] الصريح كل الصراحة، والمستقيم الذي كان يؤمن بأن الشجاعة الحقة هي قهره كل معارضة والقضاء على كل مناجز. لم يكن يستطيع أن يتصور بأن ما انفجر في نفسه هو الضعف والأنوثة في طبعه. أعنى قروح الغيظ هي التي تفجرت من مكامن نفسه، فجعلته ينسحب وهو ممتليء حقداً ومرارة وضغنا على الجمهور. وزاده حنقاً رؤيته الشبان الپاتريشيين المعتزين بعراقة أصولهم المخلصين لقضيته، الذين ناصروه باخلاص لم تُجن منه أية فائدة؛ وهم يظهرون الآن علائم سخطهم، ويحاولون تعزيته والتسرية عنه. ولا عجب فقد كان لهم قائداً ومعلماً متفانياً في فنون الحرب والقتال، وكان نموذجهم المحتذى في مجال المنافسة الحقّة والاستباق الى المجد والبطولات، الذي يجعل المتنافسين ثيني بعضهم على مآثر بعض باخلاص خالٍ من الغيرة والحسد.

وفي وسط هذه الغليان السياسيّ وصلت شحنات كبيرة من القمح الى روما. قسم منها ورد من أنحاء ايطاليا، وقسم معادل له قدمه [غيلو Gelo] ملك سيراقوز هديةً لروما. وداعب الكثيرين الأمل بانفراج الأزمة على أثر ذلك، مُقدرّين ان المدينة ستتخلص من أنياب الفاقة والعسر، ومن مضاعفات النزاع الداخلي. وبادر المجلس الى عقد اجتماع فوريّ وتقاطر الجمهور وأحاط بقاعة المجلس ينتظر بلهفة نتيجة الإجتِماع، وكان يتوقع أن يجرى تخفيض من أسعار السوق التي أرتفعت إرتفاعاً جسيماً، وان يتمّ توزيع شحنة القمح المهداة بدون ثمن. وفعلاً نصح بعض أعضاء المجلس باتخاذ قرارٍ بهذا. إلاّ إن [مارشيوس] هبّ قائماً وهاجم بكلّ عنفٍ كل من تكلم لمصلحة الجمهور ونعتهم بالمتزلفين للأوشاب، والغادرين بالنبلاء، قائلاً أنهم سيرسخون بهذه المنحة، جذور البذور السيئة من الوقاحة والغطرسة التي غرسوها في نفوس الشعب، خدمةً لأغراضهم الخاصّة. وانهم ليفعلوا حسناً لو انتبهوا الى تلك

(١٣) ترجمتها الدقيقة من اليونانية القديمة: «الأنَفَة تعيش مع العُزلة تحت سقفٍ واحد».

الجذور واجتثوها قبل أن تخرج شطئها ، لا أن يدعوا طبقة الپليبيين تزداد قوةً ومناعة بمنحهم حق تعيين حكام ذوي سلطان عظيم «كمفوضي الشعب: تريبيون». وهاهم الآن يمارسون نفوذاً واسعاً في دوائر الدولة ما دام يلبّى لهم كل طلب، وما دام لايوجد كابحٌ لاراداتهم وما داموا يرفضون اطاعة أوامر القناصل ويأبون الانصياع لأي قانون أو حكم قضائي ويمنحون لقب القضاة لزعماء احزابهم... و«عندما تؤول الأمور بنا الى هذه النهاية، ونجلس نحن هنا لنقرر لهم منحاً وهبات. مثل الاغريق الذين أودعوا السلطة العليا في أيدي جماهير الشعب، فليس لنا من حيلة إلاّ أن نسلّم مقاليد أمورنا اليهم طائعين ونقوم على رعايتهم ومداراتهم لأجل خرابنا جميعاً. لاشكّ في أن هذا الكرم لايمكن أن يعتبر مكافأة عن خدمات عامة. لطالما أبوا المساهمة فيها ، وهم أعرف بذلك من غيرهم، ولا منحةً عن الفوضى والأنقسام الذي أحدثوه. فكانوا بها كالمتبرئين من وطنهم والمتخلفين عنه. ناهيك بالإهانات والشتائم التي كانوا دوماً مستعدين لقذف مجلس الشيوخ بها. واخال أنهم يرون الدافع الى تقرير المنحة لهم خوفنا منهم وتزلفاً اليهم، لذلك لايمكن أن يوضع لتمردهم حَدّ، ولن يقفوا عن أثارة القلاقل والاضطراب، وأنّ التنازل لهم، محض جنون، ولو كان لدينا ذرة من العقل، وشيء من العزم فعلينا ألاّ نهدأ بل نسترجع منهم كل سلطات المفوضين الشعبيين[١٤] التي انتزعوها منّا ابتزازاً. لأن بقاءها في ايديهم معناه هدم السلطة القنصلية، وعامل تفرقة مؤبدة في مدينتنا ، التي أصابها منه الآن جرح بليغ لم تصب بمثله من قبل وبفتق ليس ثم احتمال في التحامه مرة أخرى، ولا أمل في رأبه والعودة الى الرأي الموحّد، والكفّ عن اذكاء نار الخلاف وصيرورتنا مصدر عذاب أحدنا للآخر»[١٥].

وبدوام ضرب [مارشيوس] على هذا الوتر الحساس ضرباً بارعاً، نجح في اذكاء المشاعر العنيفة في نفوس الشيوخ الپاتريشيين الأصغر سناً، وحمل كل الأغنياء تقريباً على الانحياز الى صفه، فلهجوا باسمه ووصفوه بالرجل الأوحد في المدينة الذي ارتفع فوق الرّياء، وتحدّى القوة. على أنه لقي معارضةً من بعض كبار السنّ، يدفعهم الخوف من النتائج. والواقع انه لم ينجم عنه إلاّ الشرّ المستطير. اذ عندما أدرك مفوضو الشعب الهدف الذي يرمي اليه [مارشيوس]، خرجوا من المجلس مسرعين وأهابوا بالحشود المجتمعة أن يتراصوا ويتكاتفوا ويسرعوا الى معونتهم. ثم عقدوا إجتماعاً جماهيرياً أنقلب الى تظاهرة عاتية. ولخصّ

(١٤) كان التريبيونات مؤخراً قد سنوا فقانوناً يجعل مقاطعتهم اثناء الخطاب جريمة معاقباً عليها.

(١٥) حذف بلوتارخ أخطر وأهم فقرة في خطبة كريولانوس. فقد أقترح في هذه الفقرة ابقاء سعر القمح كما كان عليه من ارتفاع ليبقى الشعب معتمداً على السلطة خاضعاً لها. [انظر ديون]

للجمهور كلام [مارشوس]، فثأرت ثائرته واجتاحته عاصفة من الحنق، وهمّوا باقتحام المجلس، إلاّ أن مفوضي الشعب حالوا دون ذلك، بالقائهم التبعة كلها على [كريولانوس]. وعلى أثر ذلك بعث المفوضون بحرسهم الخاص يطلبون حضوره امامهم للدفاع عن نفسه. فردّهم عنه باحتقار عندما أبلغوه بأمر الحضور، فدخل التريبيونات بأنفسهم عليه ترافقهم ثلة من ضبّاط [الايديل Aediles] وهم حرس السوق، يريدون أخذه بالقوة، ومدّوا ايديهم اليه فأنبرى الپاتريشيون لانقاذه، ثم طردوا مفوضي الشعب، بل أعتدوا بالضرب على ضباط السوق مناصريهم. لكن الليل وضع حَداً للنزاع، ولما انبلج الصّبح وتبين القنصلان مبلغ هياج أفراد الشعب وسخطهم، وشهدوا كيف يتقاطرون من كل حدبٍ وصوبٍ الى [الفوروم]، أدركهما خوف عظيم على المدينة بأسرها. فطلبا اجتماع مجلس الشيوخ مرة ثانية. لاتخاذ قرار من شأنه تهدئة خواطر الجماهير الساخطة المستنفرة، ومخاطبتهم بلغة السماح واللين، واصدار قرارات تقسم بالتساهل. وانهم اذا فكروا في الوضع الراهن بحكمةٍ، فسيجدون أن الحالة لا تتحمل التمسّك بمقاييس الشرف، والتمشدق بالمجد والسؤدد. ومثل هذا الموقف الحرج يتطلب تدابير رفيقة ومعالجة ليّنة، ومقررات معتدلة انسانية. وعلى هذا الأساس وافقت أغلبية المجلس وباشر القنصلان في تهدئة هياج الشعب بخير ما استطاعا، وأخذ يجيبان بأناة وصبرٍ. على اتهاماتهم وشكاواهم التي صبّوها صبّاً على مجلس الشيوخ واستخدما نهاية الرقة والاعتدال في لومهم ومعاتبتهم على سلوكهم المندفع. وابلغوهم أنه لن يكون هناك فرق في الأسعار بين الطبقات.

ولما هدأت سورة القسم الأكبر منهم وبدا من مسلكهم الهادىء الوديعٍ إطمئنانهم لما سمعوا. أنتصب مفوضو الشعب وأعلنوا باسم الجمهور قراراً مفاده إنه مادام مجلس الشيوخ قد ثاب الى رشده وأختار الروّية وقرر أن ينصفهم، فهم من جهتهم مستعدون لإطاعة كل ما هو عادل ومنصف، لكنهم على أية حالٍ مصرون على أن يتقدم [مارشيوس] باجوبةٍ عن التهم الآتية:

فأولاً: أيسعه الإنكار بأنه حمل مجلس الشيوخ على تغيير نظام الحكم والغاء امتيازات الشعب؟

ثم: عندما طلب منه الحضور للإجابة على التهمة، ألم يعصي أمر الاستقدام؟

وأخيراً: ألم يعمل بكلّ ما في وسعه على اثارة فتنة وحرب أهلية بتسببه في الاعتداء على ضباط (الايديل) وغير ذلك من ضروب الاهانات والاعتداءات العلنية.

وإسناد هذه التهم الى [مارشيوس] كان يرمي إمّا الى إذلاله وارغامه على إظهار خضوعه

للشعب (إن ظلّ راغباً في خطب وده والتزلف اليه خلافاً لطبعه). وإمّا الى احلال القطيعة النهائية بينه وبين الجمهور (إن شاء أن يبقى أميناً على طبعه، وهو ما توقعوه منه بحكم معرفتهم باخلاقه).

وهكذا حضر [مارشيوس] امام جمهور الشعب ليقدّم اعتذاره ويبرىء نفسه، وهو ما كان الشعب يتوقعه، فحافظ على الهدوء والسكينة، وانصّت اليه دون مقاطعة، إلاّ أنه راح يستخدم لغة وقحة وأسلوباً تهجمياً كان فيه متهما لا معتذراً، لا بل كانت نبرات صوته ومظهره المعتدّ ينمان عن غطرسة واستهانة تقرب من الازدراء والاحتقار للسامعين، بدل الاستخذاء والتواضع المنتظر منه. فتملك الجمهور غضب شديد، وأظهر علائم نفاد الصبر والاشمئزاز. ونهض [سينّيبوس] أكثر المفوضين صرامة وعنفاً، وبعد مداولة سرّية مع زملائه الآخرين، أعلن امام الجميع قراراً مفاده أن مفوضي الشعب حكموا على [مارشيوس] بعقوبة الموت، ثم انه أمر [الايديل] بأخذه الى الصخرة التاربيّة وقذفه من حالق الى الهاوية دون تأخير. فتقدم هؤلاء لتنفيذ الأمر الذي تميزّ بالقسوة والصرامة حتى في أعين بعض [البليبيين]. وعندها جنّ جنون الپاتريشيين ألماً واستفظاعاً وهرعوا وهم يضجون ويصيحون لانقاذه، واستخدم بعضهم الأيدي فعلاً، لمنع تنفيذ أمر القبض وتحلقوا [مارشيوس] وجعلوه في وسطهم، وعمد بعضهم الى مد الأيدي الضارعة لوقف هذا الاجراء العنيف المتطرف لأن الكلام في مثل هذه الضجّة لايفلح عادةً. وادرك اصدقاء مفوضي الشعب ومعارفهم صعوبة أخذ [مارشيوس] الى موضع تنفيذ العقوبة وكم سيسفك من الدماء، ويهلك من الناس ويقتل من الپارتريشيين، فاقنعوهم بالعدول عما هو خلاف القانون. والاّ يقتلوه قتلة سريعة شنعاء كهذه دون محاكمة اصولية، بل أن يودعوا مصره الى الاقتراع الشعبي العام.

بعد مرور فترة من التأمل، التفت [سيچنيوس] الى الپارتريشيين وسألهم: ماذا يقصدون من انتزاع [مارشيوس] عنوة واقتداراً من قبضة الجمهور وهو في سبيل تنفيذ العقوبة به؟ فردّ عليه الپاتريشيون بالسؤال المماثل: «بل قل لنا كيف سولّت لكم أنفسكم أن تجرّوا واحداً في أعظم رجال روما جراً الى ساحة الاعدام بطريقة بربرية لا قانونية ومن دون محاكمة؟ وما هو قصدكم من ذلك؟». فقال [سينسيوس]:

- «حسن جداً، لن نترك لكم سبباً للخصام من هذه الجهة... ولن ندع لكم علة للشكوى من الشعب. الشعب الآن يلبيّ طلبكم وصاحبكم هذا سيحاكم وفق القانون»

ثم وجه القول الى [مارشيوس]:

- نعيّن لك يا مارشيوس، اليوم الثالث إعتباراً من «يوم السوق» القادم، لتحضر وتدافع عن

نفسك وتحاول ان أمكنك اثبات براءتك امام المواطنين الرومانيين الذين سيفصلون في قضيتك بالتصويت.

ورضي الپاتريشيون بهذه الهدنة. وافرخ روعهم وعادوا الى منازلهم مسرورين بنجاحهم في المحافظة على حياة [مارشيوس].

في غضون الفترة التي سبقت موعد المحاكمة (إعتاد الرومان أن يعقدوا جلسات المحاكم في كل يومٍ تاسعٍ ومن هنا جاء الاسم اللاتيني [موندنياي Mundinae)(١٦)، نشب القتال بين الرومان والأنتيات(١٧)، وتوقع الپاتريشيون أن يستمرّ حيناً، وبذلك شاع فيهم الأمل في إمكان التملص من اجراء المحاكمة، وقدروا أن تهدأ أسورة غضب الشعب، ويقلّ سخطه حتى يضمحل بمرور الزمن عليه، هذا إن لم تصرف الحرب والمشاغل الأخرى اذهانهم عن الموضوع بصورة نهائية. وعندما توصلوا الى عقد صلح عاجلٍ خلافاً لما توقعوا وعاد الجيش الى روما من آنتيوم، عاد القلق والارتباك يسود صفوف الپاتريشيين وبادروا الى عقد عدة اجتماعات ليقرروا خطّة لا تفريط فيها بمارشيوس أو أعطاء فرصة لمثيري الشعب لخلق اضطرابات جديدة. ووقف بينهم [أپيوس كلوديوس Appius Claudius] المعروف بأنه أشدّ الشيوخ نفوراً من الامتيازات الشعبية، وقال منذراً: «إن مجلس الشيوخ سيقضي على نفسه قضاءً تاماً، ويخون الحكومة إذا سمح للشعب مرةً واحدةً بتولي سلطة أصدار حكم على ايّ پاتريشيّ.» إلاّ أن الپاتريشيين الأكبر سناً، والأقرب الى افئدة الشعب عارضوا بقولهم «ان جماهير الشعب لن تكون شديدة القسوة والصرامة كما يخيّل لبعضهم. ولكنها ستكون أكثر ميلاً للدعة والسكينة عند منحها تلك السلطة، فالذي دفعها الى طلبها لم يكن اذلال مجلس الشيوخ وانما الفكرة التي تكونت عندها وهو أن المجلس هو الذي قصد اذلالها وتحقيرها، ألا فلتمنح لها هذه السلطة مرة واحدة وليكن ذلك دليلاً على الاحترام وشعور التعاطف والودّ. إن مجرد حيازة الشعب سلطة التصويت في هذا الشأن سيزيل فوراً العداء فيما بيننا».

ولما وجد [مارشيوس] محنة المجلس والتوتر الذي يسوده بسببه، وحيرته بين عطفه عليه، وخوفه من الشعب، طلب من مفوضي الشعب أن يعرفوه بالجرائم التي ينوون إسنادها اليه، واصول التهم التي ستجرى المرافعة فيها امام الشعب، فأجابوه أنه متهم بمحاولة اغتصاب الحكم. وانهم سيثبتون عليه محاولته وشروعه في اقامة حكم استبدادي(١٨). فنهض

---

(١٦) يقول [ديون ٨:٧] كان ثم فترة سبعة أيام فقط. بين ايام السوق.

(١٧) ورد نبأ مفاجيء الى روما يفيد بان أهالي (انتيوم) وضعوا ايديهم على سفن سفراء (غيلون) اثناء عودتهم الى صقلية بل انهم صادروا السفن واعتقلوا السفراء. وعندها تهيأ الرومان بسلاحهم لمعاقبة أهالي [انتيوم] لكن هؤلاء ما لبثوا أن عادوا للطاعة وتم الصلح.

مارشيوس وتقدم قائلاً:

- فلنذهب أذن الى الشعب، لتبرئة نفسي من هذه التهمة الباطلة امام جمعيتهم العامّة. اني أعرض نفسي بملء اختياري الى أي نوعٍ من المحاكمة، ولن اتظلّم من أي عقابٍ يفرض عليّ، وكلّ ما أطلبه هو أن تنحصر تهمتي بما ذكرتموه الآن، وان لا تخدعوا المجلس.

فوافقوا على شروطه، وذهب الى موضع المحاكمة. لكن، عندما اجتمع الشعب تقدم مفوضوه باقتراح مراوغ، وهو أخذ الأصوات لا على أساس [الجنتوري] كما جرت العادة عليه بل على أساس رؤوس القبائل[19]، وهو تغيير يمكنّ الغوغاء الحاقدة المشاغبة التي لا قيمة عندها للعدالة والنزاهة من صبّ جام حقدها فعلاً على رؤوس الاغنياء واشراف القوم ومن اعتاد بذل الخدمة للدولة اثناء الحرب. وبعد هذا عمد المفوضون الى تغيير مواد الإتهام، في الوقت الذي تم القرار على الاّ يحاكم مارشيوس إلاّ عن تهمة الاستبداد والاستئثار بالحكم وهي تهمة ضعيفة يتعذر اثباتها عليه. فأسقطوا هذه التهمة واستعاضوا عنها بتهمة تحريضه في مجلس الشيوخ. ومعارضته في تخفيض أسعار القمح، ومطالبته بالقضاء على سلطات مفوضي الشعب. وأضافوا أيضاً تهمة ثالثة جديدة، بخصوص توزيعه الغنائم والأسلاب الحربية التي انتزعها من الأنتيات عند غزوه بلادهم، لأنه خصّ بها من تطوع في جيشه فحسب في حين يقضي القانون السائد بايداعها بيت المال[20]. ولقد قيل ان هذه التهمة أحرجت موقف [مارشيوس] أكثر من أية تهمة أخرى لأنه لم يستعد ولم يكن متوقعاً استجوابه عنها، لذلك

(١٨) استناداً الى [ديون] قال مارشيوس في معرض دفاعه عن نفسه «... فضلاً عن اصابتي بهذه الجراح التي ترونها في سبيل انقاذ المواطنين: الا فلندع التريبيونات يقسرون لنا إن استطاعوا - كيف يمكن ان تنسجم مثل هذه المآثر مع النوايا الغادرة التي يتهموني بها» إلاّ ان [ديون] لم يذكر بان التريبيونات وافقوا على الشروط التي ذكرها النصّ.

(١٩) منذ عهد الملك [سرڤيوس توليوس] صارت الأصوات تؤخذ بطريقة الجنتوري اي المئات اذ قدروا حتماً ان مارچيوس سيبرّاً أن أخذت الأصوات بهذه الطريقة. فالفرسان وأغنى المواطنين هم الأغلبية. حيث تؤلف الطبقة الأولى أو العليا ٩٨ صوتاً من أصل ١٩٣ وهي مجموع الطبقات الستّ. لكن التريبيونات الاذكياء، افتوا بأنه في قضية تتعلق بحقوق المواطنين يجب أن يكون لكل مواطن واحد صوت واحدٌ ولم يرضوا باحصاء للأصوات الاّ على اساس القبائل. والى جانب محكمة جميعة المائة Teibuna Comitia Centuriata، توجد أيضاً الكيورياتا Curiata التي أقامها (رومولوس) وتقسم سكان روما الأصليين الى ثلاث قبائل في كل قبيلة عشرة أفخاذ Curiae. [ديون ٢:٣-٥]. بقي هذا النظام ساريا حتى مجيء [سرڤيوس توليوس] الذي ابدله بالطريقتين الأخريين في أحصاء آراء الجمهور.

(٢٠) افاد التريبيون [دجيوس] «إن هذا دليل واضح على نواياه الشريرة فبالأموال العامة ضمن له مخلوقات وحرساً يساندونه في ما أعتزمه من أغتصاب للسلطة. الا دعوه يثبت انه كان حائز السلطة التي تؤهله لتوزيع هذه الغنيمة دون خرق للقانون دعوه يُجب مباشرة عن هذه القضية وحدها دون ان يلجأ الى فنون وتعلاّت أخرى القصد منها تضليل الجمعية...» [ديون ٩:٧].

لم يكن دفاعه قوياً مقنعاً بسبب عامل المفاجأة. ولما بدأ على سبيل الاعتذار والقنصّل - يعظّم من مآثر أولئك الذين شاركوا معه في القتال، وبما أن من تخلّف عن الحرب كان أكثر عدداً ممن تطوع، فقد قوطع بصيحات الإستنكار والتنديد. وأخيراً جاء دور التصويت، فأدين بأغلبية ثلاث قبائل(*)، وفرضت عليه عقوبة النفي المؤبد.

بعد النطق بالحكم ترك الجمهور محل الاجتماع بتظاهرة صاخبة وهتاف مدويّ فاق بكثير اي تظاهرة قام بها الشعب بمناسبة نصرٍ على عدوٍّ. في حين وجم اعضاء مجلس الشيوخ وأستولى عليهم الحزن العميق. وادركهم ندم شديد لأنهم لم يحاولوا شتىّ الطرق للحيلولة دون طغيان ارادة الجمهور، ولسماحهم له بممارسة هذا القدر الكبير من السلطة، فكانت نتيجتها اساءة استعمالها والتعسف في تطبيقها. ولم تكن الحاجة تدعو لتفحص ثياب الناس أو استقراء علامة مميزة فيهم للتثبت من طبقته، فمن كان فرحاً منهم بالنتيجة، فهو پليبي، لاشكّ فيه، ومن بدأ واجماً كئيباً فهو باتريشيّ.

وكان [مارشيوس] الشخص الوحيد الذي لايشعر بذلّةٍ أو صدمةٍ. فمن سيمائه وملامحه وتصرفاته كان يبدو مثالاً لضبط النفس وفيما كان الأسى يعمر قلوب اصحابه كافة، ظلّ الرجل الوحيد الذي لم تؤثر فيه مصيبته. لا لأن ترويضه العقليّ علمه الرضا بحكم القدر، ولا لأن رقّه طبعه جعلت القناعة خلقاً فيه، فالأمر بعكس ذلك تماماً اذ شاع في كيانه حقد عميق متأصل الجذور عنيف، لايحّس له ألماً كثيرٌ من الناس. الحق يقال أن الألم يتحول بفاعلية حرارته اللاهبة الى غضبٍ، ويُفقد صاحبه كل مظهر من مظاهر التخاذل والكآبة، وفي الغاضب حيوية كثيرة، كالمصاب بالحمىّ المحرقة ففي مرضه حرارة مادية ظاهرة، وفي عمل الروح والحق يقال عوارض مرضيّة ظاهرة من ارتجاف والتهابٍ وانتفاخٍ، وكان يبدو مثلها في حالة [مارشيوس] المضطربة، وتظهر في أعماله وحركاته.

عند وصوله البيت اقرأ التحية والدته وامرأته وكانتا تذرفان دموعاً غزيرة وتنتحبان وتعولان، فنصحهما بان يقصدا في مشاعرهما والاّ يستسلما للحزن جراء مصيبة(٢١)، وبعدها توجه الى ابواب المدينة فوجد اشراف روما كلهم مُجتمعين لتوديعه. ولم يصحب معه متاعاً ولم يطلب شيئاً أو يرجو رجاءً من مشيعيه، وفارقهم وليس في ركابه غير ثلاثة أو أربعة من الاتباع وأنطلق الى موضع في الريف حيث مكث بضعه ايام يُطارحه مختلف الأفكار التي

(*) يقول ديونيسيوس هاليكارناسوس (٦٤:٧) صوت لبراءته ٩ من أصل ٢١ قبيلة.

(٢١) وضع كريولانوس ولديه في رعايه امّه جدتهما ولأولهما عشر سنين من العمر. والثاني صغير جداً. [ديون ٩:٧].

يدفعها الغيظ والسخط الى رأسه، ولم يكن فيها فكرة ذات هدف نبيل أو صالح. وكان عقله يدور به باحثاً عن أجدى الوسائل لاطفاء جذوة انتقامه من الرومان. حتى استقر رأيه بالأخير على أن يشنّها حرباً شعواء عليهم، عن طريق أقرب الجيران اليهم، وعزم مبدئياً على جسّ نبض الڤولسيين، والتأكد من مدى استعدادهم لذلك. وكان يعلم انهم ما زالوا شديدي القوى كثيري الموارد في المال والرجال. وأن بأسهم لم يضعف بالدرجة التي أشتدّ حنقهم على الرومان وكرههم، بسبب الهزيمة الأخيرة التي ذاقوها منهم.

كان يعيش في [آنتيوم] رجل يُدعى [توللوس اوفيديوس Tullus Aufidius] له بين الڤولسيين ما للملك من مكانة واحترام بسبب ثرائه وشجاعته وشرف أسرته. وكان [مارشيوس] يعلم أنه يكن له من العداء الشخصيّ ما لايكنه لأي روماني آخر، فقد تبادلا اثناء المعارك عدة تهديدات وتحديات ودعوات للنزال. وبهذه التحرشات المتبادلة التي كان من شأنها أن تثير حماسة صغار الجنود وتدفعهم الى خضّم المعركة، اضافت العداء الشخصي الى الخصومة الطبيعية بين المتحاربين. ومع كُلّ ذلك فقد توقع في [توللوس] سماحة خُلقٍ، وقدّر ان ليس بين الڤولسيين قبله، يرغب في فرصة تتيح له ردّ أذى الرومان صاعاً بصاعٍ، ولذلك أقدم على ما أيدّ قول القائل:

من الصعب ان تقاتل الغضب. فهو يشتري
كلّ ما يريد. وان كان ثمن ذلك حياتنا

وتنكر بثيابٍ غيرت من هيئته بحيث ينكره كل من يعرفه، مثل ما فعل [يوليسيس] في: «انه دخل مدينة اعدائه الألداء[٢٢]».

وكان دخوله [آنتيوم] في حوالي المساء، ومرّ في الشوارع دون أن يعرفه أحد من المارة الكثيرين ووصل منزل [توللوس] ودخلها دون ان يحسّ به أحد وقصد الموقد وجلس اليه دون أن ينطق بكلمة واحدة مغطياً رأسه[٢٣]. ولم يسمع افراد الأسرة إلاّ أن يندهشوا، ولكنهم احجموا عن انهاضه أو طرح سؤال عليه. لما كان يحفّ بصمته وهيئته من جلالٍ ومهابة. إلاّ أنهم أبلغوا [توللوس] بالحادثة الغريبة وكان يتناول عشاءه فنهض حالاً ودخل عليه وسأله عمن يكون، وما الذي جاء به الى منزله فكشف [مارشيوس] عن هويته وحسر رأسه وبعد فترة صمت قال:

---

(٢٢) الاوديسي [٤:٢٤٦] إما لأجل قياس جدار طروادة وامّا لإقناع هيلين بالتعاون مع مواطنيها الأغريق.
(٢٣) يعتبر الموقد مكاناً مقدساً في البيت -، لأن فيه آلهة الأسرة. وكل مستجير يأتيه وكأنه يلوذ بحرمٍ.

- إن كنت لاتذكرني يا توللوس، وان كنت لا تصدق عينيك، فالضرورة تقضي أن أكون المتهّم لنفسي. أنا [كايوس مارشيوس] مسبب الأذى الكثير للڤولسيين. ولو أنكرت هذا فلقبي [كريولانوس] الذي احمله الآن هو وحده دليل كاف عليّ. التعويض الوحيد الذي نلته عن كل الأخطار التي تعرضت لها، والمصاعب التي خضتها، هو ذلك اللقب الذي يكشف عن عدائي لقومك. وهو الشيء الوحيد الذي بقي لي جردت وحُرمت كل الامتيازات الأخرى، جراء حسد الرومان حقدهم، وبسبب جبن وغدر الحكام وأولئك الذين ينتمون الى طبقتي وأخرجتُ من بلادي منفياً، وصرت مستجدياً متسكيناً عند موقد نارك. لا باحثاً عن الأمان والحماية قدر ما انا باحث عن الانتقام ممن طردني. ولو كنت خائفاً من الموت لما جئت. وأعتقد اني حصلت على مرادي بوضع نفسي بين يديك. فان كنت تريد حقاً قتال أعدائك فهيّاً اذن وأستفد من البلية التي تراني فيها. للنهوض بهذه المهمّة، وتحويل سوء حالي الى نعمة عامة للڤولسيين. فأنا في الواقع أكثر فائدة في قتال لكم، من القتال عليكم، والأفضليّة التي املكها الآن هي وقوفي على كل أسرار العدوّ الذي سأهاجمه. فإن كنت عازفاً عن القيام باية محاولات أخرى، فلست بالراغب في الحياة هنا، ولا يكون جميلاً منك استضافة شخص طالما كانت خصماً لك ومنافساً والآن عندما يعرض عليك خدماته يتضح لك أنه غير صالح لك ولا نافع.

عندما وعى توللوس كل هذا الكلام جُنّ فرحاً ومدّ اليه يده اليمنى وصاح:

- قم يا [مارشيوس]، وأستجمع شجاعتك. لقد جئت لأنتيوم بأعظم السّعد، فيما قدمت نفسك له من فائدة. ولك أن تتوقع كل ما هو حسن من الڤولسيين.

ومن ثم أخذ يظهر له الإكرام والحفاوة وضروب العطف. وقضيا عدة أيام بعدها في التداول معاً بخصوص امكانيات الحرب.

وفيما كانت هذه الخطط تتخذ شكلها الماديّ، كان الاضطراب والفوضى يعمان روما، بسبب العداء المستحكم بين اعضاء مجلس الشيوخ وقد زاد حدةً الآن بإدانة [مارشيوس]، والى جانب ذلك أخذ العرّافون، والسحرة والكهنة وحتى الناس العاديون يتناقلون انباءً عن علامات وخوارق لايمكن الاستهانة بها. ومنها ما اشيع حدوثه على النحو الآتي: هناك رجل يدعى [تيطس لاتينوس] انسان رقيق الحال ذو خلق طيب هادىء، بعيد كل البعد عن الاوهام والخيال والشعبذة، وأبعد من ذلك عن المبالغة والتفاهة رأى في المنام كأن جوپتر جاءه وطلب منه أن يخبر اعضاء مجلس الشيوخ بأنهم وضعوا على رأس موكبه الديني راقصاً سيئاً غير ذي أهلية. ولكنه لم يهتمّ بالحلم ولم ير فيه أي أهمية لأول وهلة. ولكن بعد أن تكرر مرة

ثانية وثالثة، فقد أبناً عزيزاً عليه، وأصيب هو نفسه بالفالج وحمل الى مجلس الشيوخ على محفة ليدلي بتفاصيل حلمه، وتقول الحكاية أنه أبلّ من مرضه وأستوى على قدميه حال ابلاغ الرسالة. وذهب الى بيته دون مساعدة أحدٍ. وتملك المجلس العجب والحيرة، وراحوا يبحثون الأمر بحثاً دقيقاً. أما ما كان يشير اليه الحلم فهو هذا: أحد المواطنين في روما كان يملك عبداً ارتكب جرماً شنيعاً، فسلّمه لزملائه الأخرين وأمرهم بجلده في السوق ثم قتله. وفيما هم ينفذون أمره هذا بجلد البائس الذي كان يتمطىّ ويتقلص ينقلب ظهراً لبطن وعلى كل شكل من الأشكال والحركات الغريبة بسبب الألم الذي يحسّه. اتفق أن أقبل في أعقابهم موكب ديني تكريماً لجوبتر. فأستنكر عدد من السائرين فيه مشهد الخادم المجلود إلاّ انه لم يتدخل أحدٌ منهم أو يقم بعملٍ أكثر من مجرد النطق بعبارات اللوم المعتاد والتنديد بالسيد الذي حكم على عبده بهذه العقوبة القاسية. فالرومان كانوا يعاملون عبيدهم في ذلك الزمان، معاملة انسانية للغاية. عندما يشتغلون ويكدحون معهم جنباً الى جنبٍ فمن الطبيعيّ أن ترتفع الكلفة بينهم، وأن يعاملوهم برقة، ومن أشدّ العقوبات التي كانت تفرض على العبد المخطيء، أن يحمل قطب الخشب الذي يسند محور العجلة ويدور بها في الجوار، والعبد الذي يحلّ به هذا العار، فيشاهده الجيران وأهل البيت ينفذ العقوبة، يسقط من عيون الناس، ولايعودون يثقون به أو يعتمدون عليه، ويطلق عليه اسم فورچيفر Furcifer، من كلمة فوركا Forca اللاتينية ومعناها العمود الخشبيّ أو الجذع.

عندما قصّ [لاتينوس] حلمه، وانكفأ الشيوخ يتساءلون عمن يكون ذلك الراقص السّيء المكروه، فتذكر بعض الجماعة الذين أستلفت نظرهم غرابة العقوبة التي حلت بالعبد البائس، كيف جُلد على طول الشارع ثم ازهقت روحه. وأيد الكهنة هذا التخمين عندما استشيروا. فعوقب صاحب العبد وأمروا باقامة احتفال جديد للموكب الديني تكريماً للرب. وبالمتابعة نذكر [نوما] الحكيم في تنظيمه الوظائف الدينية، فهو يبدو بصورة خاصّة شديد الحرص في توجيهه لها. ووضع نصب عينه انتباه الشعب اليها وإحترامه لها. وقد رتبّ عند قيام الحكام والكهنة بالمراسيم الدينية، أن يسبق موكبهم مناد يخرج للناس وينادي بأعلى صوته: Hogage: أعملوا هذا الذي تهمون به؛ وبهذا ينذر الناس بالتنبّه للشعائر المقدسة التي سيمارسونها، وان لايدعوا عملاً دنيوياً أو مشاغل يومية تشوش المراسيم أو توقع الخلل فيها. ومعظم ما يأتيه الناس. في هذا الصدد مفروض عليهم فرضاً، بكيفية ما. وأعتاد الرومان اقامة الشعائر الدينية، ومواكب صلواتهم لأقل الأسباب واتفه الدواعي. فإن حدث وتعثرّ أو كبا حصان من الخيل التي تجرّ العجلات المسماة «تنسي Tensae» أو إذا جمع السائق أعنتها بيده اليُسرى،

يأمرون باعادة المراسيم كلها من الأول. وفي العصور المتأخرة بلغ الحال بهم الى حدٍ أنهم كرروا شعائر قربان واحدٍ ثلاثين مرةٍ لحصول خطأ أو هفوة أو حادث في اثناء الحفل. هكذا كان مبلغ احترام الرومان وشدة حذرهم في شعائر الدين.

وأخذ [مارشيوس] و[توللوس] يتداولان في مشروعهما سراً مع رؤساء [آنتيوم] ويحثونهم على غزو الرومان بينماهم متناحرون فيما بينهم وكان يظهر أن الخجل يصدهم عن قبول الاقتراح لأنهم عقدوا هدنة يتم بموجبها وقف القتال لمدة سنتين، ولكن ما لبث الرومان أن هيأوا لهم حجّة لنقض الهدنة. باعلانهم في اثناء الالعاب بوجوب مغادرة كل من جاء من الڤولسيين لمشاهدة الألعاب وعدم بقاء أحدهم في روما قبيل مغرب الشمس. ودفعهم الى ذلك الإحتقار أو خبر ملفق عن الڤولسيين. ويؤكد البعض أن هذا العمل هو من تدبير [مارشيوس]. فقد بعث سراً برجل الى القنصلين، ليتهّم الڤولسيين كذباً وبهتاناً، بانهم يدبرون غزوة مفاجئة لرومان اثناء انشغالهم بالألعاب، واشعال النار في روما[٢٤]. فألهب هذا التحقير المرزي مشاعر الڤولسيين، وملأهم حنقاً على الرومان. واهتبل [توللوس] فرصته فراح يعمل على تسعير النار وزيادتها ضراماً، وأخذ يهوّل الأمر على مواطنيه حتى أقنعهم أخيراً بارسال وفدٍ الى الرومان يطلب منهم اعادة الأراضي والمدن التي أقتطعوها من بلادهم جراء الحرب الأخيرة. فأجاب الرومان حانقين: إن الڤولسيين كانوا البادئين في إشهار السلاح، وسيكون الرومان آخر من يضعه. وعاد الوفد بهذا الجواب فدعا توللوس الڤولسيين الى اجتماع عامٍ، وجرى التصويت على اعلان الحرب. ثم انه اقترح انه يُدعى [مارشيوس]، ونزع الاحقاد من النفوس وتناسيها، وطلب أن يثقوا بأن الخدمات التي سيقدمها لهم مارشيوس بوصفه صديقاً لهم وشريكاً، ستزيد كثيراً على جميع الأضرر والخسائر التي ألحقها بهم عندما كان خصماً لهم.

فاستدعي [مارشيوس]، فحضر ووقف بينهم متكلما، فأجتذب الجمهور الى صفّه وأقنعه بالثقة في كفاءته وبراعته وحسن مشورته وجراءته، بقوة عارضته أكثر مما أقنعه بسجلّ بطولاته وأعماله المجيدة السالفة. وانتدب الى جانب [توللوس] ليتولى منصب جنرال في جيشهم، مزوداً بسلطة مطلقة في كل ما يتعلق بادارة الحرب. ولما كان يخشى ان يطول الوقت في تحشيد كل قوات الڤولسيين وتعبئتها تعبئة تامة، بحيث يفقد عامل المباغتة، فقد ترك

(٢٤) قال توللوس «وحدنا من دون سائر الشعوب لايروننا نستحق الحضور لمشاهدة هذه الالعاب. نحن وحدنا نطرد من الأعياد العامة كاحقر الكفرة وارذل المجرمين! اذهبوا الى مدنكم وقراكم وأظهروا الشارة المميزة التي وسمنا بها الرومان». ليڤي [٢:٣٧، ١-٧] يقول انه جاء الى مجلس الشيوخ بتدبير سابق مع مارشيوس. لكن پلوتارخ هنا ينحو منحى [ديون ٢:٨]. على أن كريولانس كان صاحب اقتراح اعادة الاراضي والمدن التي استلبها الرومان منهم.

أوامر لحكام المدينة بخصوص أمور التعبئة والتأهب وجمع ما تحت يده من المتطوعين الأكثر تحمساً. وزحف بهم غير منتظر أو متريث، ووقع على الحدود الرومانية بغزوة مفاجئة لايتوقعها أحدٌ[٢٥]، واستولى نتيجة ذلك على غنائم كثيرة جداً زادت عما استطاع الڤولسيون حمله، أو استهلاكه في معسكرهم.

على أن المؤون العظيمة التي غنمها والخراب الذي أحدثه في البلاد كان بالنظر اليه والى ما سيتلوه اصغر النتائج المتوخاة من غارته، فالبلاء العظيم الذي اراده وصبا اليه كان في الواقع توسيع شقّة الخلاف بين الپاتريشيين وعامة الشعب في روما، وزيادة الشكوك في نفوسهم. وسعياً وراء هذه الغاية عمد أثناء اتلافه المزارع وأملاك الناس الاخرين - الى بسط حمايته على املاك رحقول أشخاصٍ معينين منهم وعدم مسّها بسوءٍ ولم يسمح لجنوده بالنهب منها أو سلب ما فيها. وبهذا تجددت الملاحاة ونشب الخصام مجدداً، وأشتدّ وبلغ درجة لم يبلغها من قبل: الشيوخ يلومون العامّة للظلّم الذي الحقوه بمارشيوس، والعامة لايترددون في اتهام الشيوخ بأن حملة [مارشيوس] هي من مكائدهم وتحريضهم انتقاماً منهم وبغضاً بهم، في حين جلس الآخرون على التلّ خوفاً وضعفاً كمتفرجين غير مكترثين بما يجرى في ميدان الحرب. لأن لديهم في شخص عدوّ بلادهم حارساً وحامياً خارجياً لممتلكاتهم وثرواتهم.

بعد أن توجّت حملة [مارشيوس] بالنصر وعادت بالفائدة الجليلة على الڤولسيين انسحب بهم الى بلادهم سالمين وقد أشتدّ عودهم وارتفعت معنوياتهم وعادوا يستهينون بعدوّهم بعد رهبةٍ وتخوفٍ.

عندما تمّ حشد كلّ قوات الڤولسيين في ميدان عرض الحرب وظهرت بفيالقها الجسيمة وأستعدادها العظيم، بدت جيشاً جراراً فوجد من المستحسن أن يترك جزءٌ منه لحماية المدن وحراستها، وان يزحف بالقسم الآخر على الرومان. وطلب [مارشيوس] من [توللوس] أن يختار القيادة التي يريدها. فقال [توللوس] «لما كان يعلم ان «مارشيوس] لايقلّ عنه بسالة وأقداماً، ويفوقه في حسن الطالع، فهو يحبذ أن يراه قائداً للجيش الخارج للحرب. في حين يقوم هو بتدابير الدفاع عن المدن في الداخل، ويضطلع بتأمين حاجة جيش الهجوم من مؤون وتجهيزات». وهكذا تحرك [مارشيوس] وقد زاد قوة وسلطاناً - نحو مدينة [چيركيوم Cir-caeum] وهي مستعمرة رومانية، وقَبلِ استسلامها ولم يلحق أذىً بسكانها. ثم غادرها ليجتاح بلاد اللاتين وكان يتوقع لقاء الرومان فيها لأنهم اصدقاؤهم وحلفاؤهم، وكثيراً ما اعانوهم وانجدوهم. إلاّ أن القوم في روما لم يظهروا حماسةً وميلاً الى الخدمة في الجيش،

(٢٥) قام تللوس في الوقت عينه بغارة مماثلة على أراضي اللاتين. وعاد بعين النتائج الطيبة [ديون ٨:٢].

كذلك لم يكن القنصلان يريدان التورط في مخاطرة حربيّة، لأن فترة وظيفتهما كادت تنتهي. فصرفا سفراء اللاتين خائبين. ولم يجد [مارشيوس] أمامه جيشاً يقاتله، فزحف على مدنهم وأستولى عنوةً على [توليريا Toleria] و[لاڤيچي Lavici] و[پيدا Peda] و[بولا Bola]، وهذه كلها قاومت زحفه فلم يكتف بنهب منازلها بل ساق سكانها عبيداً. وفي الوقت نفسه أظهر رعاية خاصة لكلّ من انحاز الى صفّه. ولما كان يخشى قيام جيشه باعمال تخريب لم يأمر بها فقد أختار موقعاً بعيداً لمعسكره، متعففاً عن التعرض للأراضي والمزارع.

بعد أن فتح مدينة [بولا] وهي لاتبتعد أكثر من عشرة اميال عن روما نفسها ونهب منها أموالاً لا تحصى ووضع السيف في رقاب سكانها الذكور البالغين، وردت ابناء نجاحه وفتوحاته الى القُولسيين الذين تخلفوا لحماية المدن، فلم يصبروا على البقاء حيث هم وأسرعوا ساكي السلاح للانضمام اليه، قائلين انه جنرالهم وقائدهم الأوحد الذي لايطيعون غيره. وذاع صيته واسمه في كل أرجاء ايطاليا وكانت الدهشة عامة لانقلاب الخطّ الفجائي عند شعبين، كانت خسارة أحدهما وربح ثانيهما من عمل شخصٍ واحدٍ.

كانت روما تعجّ بالفوضى الشديدة، وأهلها زاهدون عن خوض اية حربٍ. يقضون كل أوقاتهم في النزاع وحبك المؤامرات من تحت الستار ولوم أحدهم الآخر. حتى وردت الانباء بأن العدوّ يضيق الخناق على [لاڤينيوم Lavinium] التي يوجد فيها تماثيل آلهتهم ابائهم الحارسة[٢٦]، والذخائر المقدسة ومنها نشأ شعبهم الروماني بوصفها أول مدينة في ايطاليا بناها [اينياس] هذه الأنباء أحدثت تغييراً عاماً غير عاديّ في أفكار الشعب وميوله. إلا انها ولدت شعوراً بالصدود عند الپاتريشيين أكثر غرابة. فقد مال الشعب الآن الى الغاء الحكم الذي اصدره على [مارشيوس]، ودعوته للعودة الى المدينة. فأجتمع مجلس الشيوخ لاعادة النظر في القرار، وعارض الاقتراح أولاً ثم رفضه. إمّا لمجرد رغبته في معاكسة الشعب ومناقضته في كل ما يريده أو ربّما لأنهم لايريدون أن يكون مارشيوس مدينا باعادة اعتباره الى عطف الشعب. أو ربّما لادراكهم الآن بوجود شعور سخط ضد [مارشيوس] نفسه لأنه يصبّ البلوى على الجميع سواء بسواءٍ مع ان سوء معاملته لم يصدر من الجميع، ولصيرورته عدواً لسائر البلاد مع علمه أن كبار القوم وأخيارهم كانوا الى جانبه، وقد تألموا لما أصابه.

وأعلن الشيوخ قرارهم هذا، وأسقط في يد الشعب لأنه لايملك سلطةً في اقرار ايّ شيء بالاقتراع العام أو سنّه قانوناً، إلاّ اذا سبقه مرسومٌ من مجلس الشيوخ.

وزاد حنق [مارشيوس] عند سماعه بما جرى، وتخلّى عن حصار [لاڤينيوم][٢٧] وزحف نحو

(٢٦) بالأصل جيء بها من طراودة [انظر سيرة روملوس].

روما بسرعة جنونية. وعسكر على بعد خمسة أميال من المدينة تقريباً، في موضع يدعى «خنادق كلويليا Cluilia» وخلق وجوده القريب رعباً عظيماً وقلقاً، إلاّ أنه وضع أيضاً حداً لإنقسامهم في حينه، إذ لم يعد أي منهم أقنصلاً كان أم شيخاً - يستطيع معارضة الشعب في دعوة [مارشيوس] للعودة. وعلموا أن الجماهير محقّة في إقتراحها بمصالحته عندما رأوا نساءهم يتراكضن جيئة وذهاباً في الشوارع مرعوبات، والعجّز وكبار السن يملاؤون المعابد كلها يبكون ويرسلون الدعاء والضراعة. وقُصارى القول فقد كل سكان المدينة اسباب الشجاعة والعقل الضرورية لتدبير أمرهم. وأدرك الخاص والعام أن مجلس الشيوخ ارتكب خطأ فاحشاً في استحداث سبب عداء جديد مع [مارشيوس] بينما كان الواجب يفرض عليه نسيان الأحقاد والتفكير في جبر الخواطر وتهدئتها. وبين هذين، حلّ الوفاق محل الخلاف بين مختلف الفئات، واتحدت الآراء، وتوصلوا بالاجماع الى قرار يقضي بارسال وفدٍ اليه يعرض عودته الى بلده. ويطلب منه وضع حدٍ لأهوال الحرب وويلاتها، وأختير أعضاء الوفد من أقربائه وأصدقائه(٢٨) الذين يتوقعون منه خير ملقى وأحسن استقبال لما تربطه بهم من العلاقات والوشائج العديدة القديمة. إلاّ انهم كانوا مخطئين جداً في ظنّهم. فبعد أن أقتيدوا اليه في المعسكر وجدوه جالساً تخفّ به مظاهر السلطان ويحيط به عظماء الڤولسيين، ويبدو عليه التجهّم والصلافة. وطلب منهم أم يفصحوا عن أسباب مجيئهم ففعلوا بأرق عبارة والطف أسلوبٍ وأنسب سلوكٍ للهجتهم. وبعد أن فرغوا من أقوالهم ردّ عليهم بجوابٍ لاذعٍ مفعم بالقسوة الغاضبة والمرارة، بخصوصه وبخصوص اساءتهم معاملته. وأمّا بوصفه جنرالاً للڤولسيين فقد طلب اعادة كل المدن والأراضي التي انتزعوها منهم بالحرب الأخيرة وأن يعطوا الڤولسيين نفس الحقوق وامتيازات المواطنة في روما، التي منحت سابقاً للاتين، مادام لايوجد ايّ ضمانٍ في حلول سلمٍ ثابت دائمٍ دون شروط عادلة متعادلة للجانبين. وأعطاهم ثلاثين يوماً مهلةً للتوصل الى قرار.

بعد أن انصرف الوفد، عمد مارشيوس الى سحب قواته خارج الأراضي الرومانية؛ فتذرع مبغضوه وحاسدوه من الڤولسيين الذين لم يستطيعوا تحمل نفوذه بين الشعب، بهذا العمل واتخذوه حجّة للتنديد به ومن بينهم [توللوس] نفسه. لا لأذى شخصيّ لحقه من مارشيوس بل لضعفٍ في طبيعة النفس البشرية، اذ لم يسعه إلاّ أن يشعر بالذلة عندما وجد مجده السالف يكسف تماماً، ويغدو هو بالذات شخصاً عادياً في نظر الڤولسيين، لايثير الأعجاب ولا

(٢٧) ترك وحدة من الجنود لمواصلة الحصار [ديون ٨:٤].

(٢٨) اورد [ديون: المرجع السالف] اسماءهم هكذا: ماركوس مونيشيوس، پوستيمي،س كومينيوس، سپوريوس لارغيوس، پوبليوس يناريوس، كونيتس سوليشيوس. ويورد ديون خطبه رائعة القاها مونشيوس بالمناسبة، وجواب كريولانوس عليها.

يكترث به أحدٌ، في حين ارتفع عندهم رصيد زعيمهم الجديد بحيث ما عادوا يرون غيره. وفي رأيهم أن القادة الآخرين ينبغي لهم أن يقنعوا بذلك الجزء من السلطة الذي يراه مناسباً لهم. ومن هذا زرعت أولى بذور الشكوى والإتهام وأخذت تنتشر سراً، وتلاقى المشاغبون وأخذ يعمل الواحد منهم على إلهاب سخط الآخر، بالقول: ان الانسحاب الذي قام به هو في الواقع غدرٌ بالجيش وبالمدن، بل أفدح وانه تغرير وتعمد اضاعة أخطر فرصٍ وأنسبها للعمل، تلك التي يتوقف عليها الفوز بكلّ شيء أو خسارة كل شيء. ففي فترة الأيام الثلاثين هذه يمكن أن يحصل ايّ شيء في الدنيا.

على أن مارشيوس لم يضيع لحظة واحدة من هذه الفترة. فقد أستولى خلالها على سبع مدن عظيمة عامرة بالسكان، دون أن يجرأ الرومان على مد يد العون اليها. فقد شلهم الخوف شللاً تاماً وأفقدهم الحركة ولم يبد منهم ما يدل على الحياة أو الحسّ. وبانتهاء فترة الثلاثين يوماً ظهر [مارشيوس] مرة أخرى على رأس جيشه، فبعثوا اليه بوفدٍ آخر، يرجوه ان يخفف من حنقه ويسحب جيش الفولسيين، وبعدها يعرض ما يراه مناسباً للطرفين من المقترحات فإن الرومان لايقبلون باي تنازل تحت التهديد، واذا وجد أن الفولسيين محقون في طلب أي أمتياز، فبإمكانهم الحصول على ما يريدون ضمن حدود معقولة إن تخلّوا عن السلاح.

وكان ردّ [مارشيوس] انه لن يجيب بشيء بوصفه قائداً للفولسيين أمّا بوصفه رومانياً وما يزال يملك صفة الروماني، فهو ينصحهم بله يحضّهم - والحالة هذه - على ترك هذا الموقف المتعنت، والتفكير في عقد صلح مناسبٍ، على ان يذهبوا الآن ويعودوا بالموافقة على مطاليبه السالفة - بعد انقضاء ثلاثة أيام أخرى. وإلاّ فليعلموا أنهم لم يعودوا أحراراً في دخول معسكره بسعايات ووساطات لا طائل تحتها.

لما عاد الوفد وأطلع الشيوخ على جواب [مارشيوس]، ادركوا أن بناء الدولة وصرحها يتعرضان الآن الى عاصفة هو جاء وأن الأمواج لن تلبث ان تطغى عليهم وتغيبهم في اللّجة. فلم يروا مناصاً من «انزال الماساة المقدّسة» على حَدّ شائع القول، وهو ما كان يلجأون اليه في أشدّ ساعات الضيق. اذ صدر الأمر لطبقات الكهنة جميعاً، أولئك الواقفين على الأسرار أو سدنتها، وأولئك الذين يستوحون النبوءات من حركات الطير حسبما درج عليه الناس؛ أمروا كافةً أن يخرجوا ولا يتخلف منهم واحد، بحللهم وكسوانهم الكهنوتية التي يرتدونها عادةً اثناء ادائهم وظائفهم الدينية وينتظمون بموكب حبريّ ويسيرون الى [مارشيوس] ليطلبوا منه كالسابق - سحب قواته ثم التفاوض عن الفولسكان (الفولسيين) مع بني قومه الرومان. ورضي أن يستقبلهم في معسكره إلاّ انه لم ينزل لهم عن أي شيء، ولم يرقق لهجته وعباراته،

وطلب منهم بصلافةٍ لايشوبها تنازل أو تطامن أن يختاروا بصورة نهائية بين أمرين الطاعة أو القتال. فالشروط الأولى كانت شروط سلم لا غير. وفشلت هذه الوساطة الدينية ايضاً ورجع الكهنة خائبين، واذ ذاك قرر الرومان البقاء داخل المدينة والسهر على اسوارها. وهكذا كانت خطتهم قاصرة على صدّ كل هجوم قد يقوم به العدوّ. ووضع كل آمالهم في تقلبات الخطّ المفاجئة، وفي عامل الزمن لا غير. فقد كانوا يشعرون بعجز تام في المحافظة على ارواحهم، وأستولى على المدينة المزيد من الرعب والإضطراب، وسرت اشاعات مشؤومة تنبيء كلها بشرّ مستطير. ثم وقع حادث يشبه ما نقرأ عنه كثيراً في آثار [هوميروس] ولولا ذلك لأخذه الجمهور مأخذ الحقيقة الواقعة. فنحن نجده يقول في وصف مناسبة خارقة للعادة.

«ثم [باللاس] نزلت عليه الربّة ذات العيون الزرق الحادة بالالهام (اثينا)»[٢٩].

ويقول في موضع آخر: على أن واحداً من بني البشر وجّه عقله بان دخل في قلبه الى الخوف مما سيقوله الآخرون.

وقال أيضاً: «أكانت تلك فكرته الخاصة، أم أمراً القاه عليه الربّ؟»[٣٠]

في هذه المواقف يميل الناس الى تكذيب الشاعر وعدم الاعتداد بما يقول، كأنما بعرضه المستحيلات، وتصديه للخيال العابث المجرّد، ينكر عمل الفكر الانساني المترويّ، وعامل اختياره الحُرّ، وليس هذا ما نجده دائماً في صور هوميروس ووصفه. فان الاستنتاجات المألوفة منها والمحتملة والاعتيادية يعزوها دوماً الى قوانا البشرية، وبذلك كثيراً ما يقول

«... على أني لا أركن إلاّ لنصح نفسي العظيمة»[٣١].

وفي بيت آخر: «... وأصغى [آخيل] متأملاً وأخذ مختلف الأفكار يتزاحم في رأسه العظيم»[٣٢].

وفي ثالث: «... من رغبات نفسها – لم تنل فتيلاً الشاب النبيل بللروفون Bellerophom المتسلح بدرع الحكمة»

لكن عندما يتسم الحدث بطابع الخروج عن المألوف، والخارق للعادة، ويبدو بشكلٍ ماورائي المنشأ، ويتطلب تعليلاً آلهياً من قبيل الالهام المفاجيء، فهُنا فحسب تتدخل القوى السماوية لا لإحباط الارادة البشرية، بل لتنشيطها واتبعاثها، لا لخلق قوى أخرى فينا، بل لتزويد قوانا

(٢٩) الاوديسيّ ١٨: ١٥٧ و ١٥٨.
(٣٠) المرجع نفسه ٩:٣٣٩.
(٣١) المرجع نفسه ٨:٢٩٩.
(٣٢) الالياذة ١:١٨٨.

بصور وبعوامل محرضة، هذه الصور لاتجعل عملنا عملاً لا إرادياً باي شكل من الاشكال، بل لتفسح المجال بالأحرى للعمل الارادي التلقائي، يساعده ويوآزره الشعور بالثقة والأمل. اذ ينبغي لنا إمّا ان ننكر انكاراً باتاً على عاملٍ التأثير الربّاني ايّ شكل من الاشكال السببيّة والابداع فيما نعمله وإلاّ، فبايّ سبيل تعمل فينا الموزآرة والمساعدة الالهية؟ نحن بالتأكيد لانستطيع الافتراض بأن الكائنات الالهية هي التي تسير حركة اجسامنا وتوجه ايدينا وأقدامنا الى هذا السبيل أو ذاك لنتنكب طريق الزلل قولاً وعملاً: وواضح انها تحرضّ العنصر العملي والاختياري في طبيعتنا بمحرضات أولّية معينة، عن طريق صورٍ ترسمها في مخيلتنا وافكارٍ تودعها في ضميرنا، فإمّا تثيرها وتوجهها الى السبيل القويمة، أو تحرفها أو تمسكاً عن سلوكها.

وفي الارتباك العام الذي أتيت الى وصفه، قام معظم سريّات الرومان وعقائلهنّ بالذهاب الى معبد [چوپتر كاپيتولينوس] وبعضهن قصدن معابد أخرى. ومن بين هاته النسوة [ڤاليريا] بنت [پوبليكولا] الكبير الذي قام بأجل الخدمات للرومان في السلم وفي الحرب. كان پوبليكولا قد قضى نحبه منذ زمنٍ كما أوردنا في سيرة حياته. إلاّ ان ڤاليريا ادركت هذا العهد، وكانت تتمتع بمقام كبير واحترامٍ في روما، ولم يشن سلوكها وحياتها نُبل مولدها. تملكت هذه المرأة فجأةً عاطفة أو فكرة من النوع الذي اتيتُ الى شرحه. ووقعت على السبيل القويمة بهديٍ ربّاني. فنهضت وطلبت من الأخريات النهوض ومرافقتها في الحال الى منزل [ڤولمنيا] امّ [مارشيوس]. ففعلن ودخلن ليجدنها جالسة مع كنتها وقد وضعت احفادها في حُضنها وتكلمت [ڤاليريا] باسم رفيقاتها اللاتي كن يحطن بها، قالت:

- جئناك ياڤولمنيا وانت يا ڤرجيليا كما تأتي نساءٌ الى نساءٍ لا بأمرٍ من مجلس الشيوخ أو بتحريض من أحد الحكام. إن الكائن الالهي نفسه وقد أثرت فيه صلواتنا ودعواتنا تراءى لي ودفعنا الى زيارتكما لنرجو منكما رجاءً واحداً تتوقف عليه سلامتنا وسلامة قومنا، إن قبلناه وحققناه فسترتفعا الى أعلى مقام بلغته النساء السابينيات اللاتي استبدلن العداوة القتالة بين آبائهن وأزواجهن، بالصداقة والسلام فهيّا بنا الى [مارشيوس]، وشاركا معنا في رجائنا، واحملا عن امتكما هذه الدعوة العادلة لخيرها. فهي مع الأخطاء والاذيّات الكثيرة التي أتتها، لم تصبكما بأذى ولا فكرّت هي في الإساءة اليكما بشيءٍ وهي في ذروة هياج حقدها، انها الآن تعيدكما اليه سالمتين، وان كان الأمل ضعيفاً في نيل شروط عادلة منه.

وأمّن جميع النسوة على اقوال [ڤاليريا] بكلمات الاستحسان والرضا. وأجابت ڤولنيا على

ذلك بما يلي:

- إن حصتي وحصة ڤرجيليا من المصائب العامّة لا تقل عن حصصكّن يا بنات قومنا على أن لدينا مصيبة خاصة انفردنا بها عنكنّ. وهي فقدنا كفاءة [مارشيوس] وصيته، ومشاهدتنا اياه وهو سجين سلاح الاعداء، لا محروساً به. واني مع هذا اعتبر أعظم بلوى حلت بروما هما الحالة التاعسة، والعجز المخجل اللذان جعلاها تعتمد علينا نحن الاثنتين. فعندما لا تَرَيْنَ [مارشيوس] يقيم أي وزن واعتبار لوطنٍ كان عليه أن يفضله على أمّه ويضعه فوق زوجه واولاده. يكون من الصعب جداً أن آمل ببقاء أي منزلة وأعتبار لنا عنده. وعلى كل حال، استفدن من خدمتنا وقدننا إن شئتنّ اليه، فبإمكاننا على الأقل أن نلفظ مع التماسنا اليه آخر انفاسنا.

قالت هذا وأمسكت بيد [ڤرجيليا] والاولاد[٣٣] وذهبن جميعاً الى معسكر الڤولسكان. فكان موكبهن منظراً مفجعاً أليماً أثرّ كثيراً حتى على العدوّ الذي راح يتابعه بالنظر وهو صامت صمت الاحترام والمهابة. في تلك الساعة كان [مارشيوس] جالساً في مقرّه يحفّ به اركان حربه وكبار ضباطه فلما لمح جماعة النسوة يقتربن من مجلسه ادركته الحيرة ولم يفهم للأمر معنى ثم لما تبين أمّه على رأس الجماعة زايله جلده وفارقته صلابته وغلبت عليه عاطفة الحنان، وأرتبك جداً ولم يقو على البقاء جالساً في دست الحكم، فأسرع لاستقبالهن وحيّا أمّه وعانقها عناقاً طويلاً، وانثنى الى زوجه وأولاده ليفعل كذلك، ولم يدّخر دمعة في عينيه، ولا حناناً ولا ملاطفة، بل سمح لعواطفه الجيّاشة ان تحمله وتنطلق به متحررة ناشطة من إسارها.

وبعد أن شفا غليله، ولحظ أن أمّه تريد أن تقول شيئاً له، دعا مجلس الشورى الڤولسكاني للاجتماع وجلس الجميع يصغون الى اقوالها التالية:

- يا بنيّ! إن ثيابنا وملامحنا قد تفصح لك دون كلام أو نطق عن شقائنا منذ ان نفيت وغبت عنا. والآن فلتفكر في نفسك ألسنا أشقى امرأتين في العالم؛ حين نجد أشهى وأعذب منظر تمنيناه ينقلب الى أبشع موقف واشدّه هولاً؟ فبعامل من سوء طالع لا أدري كنهه ترى [ڤولمنيا] ابنها، وترى [ڤرجيليا] زوجها يرفع السلاح لدكّ أسوار روما! حتى الصلاة التي كانت دوماً مصدر سلوى وعزاء للنساء في كل ضيق وبلوى، أمست عندنا مصدر ألمٍ واضطراب. لأن أفضل الدعاء الذي نرفعه الى الآلهة، لايتفق ودعاء

---

(٣٣) أخبرت (ڤاليريا) القنصلين بنيتها في الأول. فأخذا الاقتراح الى مجلس الشيوخ الذي وافق عليه بعد نقاش طويل. عندها ركبت هي وعقائل روما في مركبات هيأها لهن القنصلان واتجهن بها الى معسكر الأعداء مشيعه بتحيات وهتافات الشيوخ والعامة معاً.

الأخريات. ونحن في الوقت عينه لا نستطيع أن نضرع الى الآلهة لتنصر روما ولرعايتك من السوء معاً، بل أن اسوء ما يمكن أن يلحق بنا الاعداء من لعنة، كان موضع نذورنا ودعواتنا. وزوجك وأولادك يعيشون محنةً أليمة، فإمّا أن يحرموا منك وإمّا أن يحرموا من تربة الوطن. أمّا انا فقد وطدت العزم على استباق احدى النتيجتين اللتين ستسفر عنها الحرب بالنسبة لي. فان فشلتُ في اقناعك بتفضيل السلام والوئام على الحرب والخصام ونجحت في حملك على الاحسان للفريقين بدل أن تقضي على احدهما، فخذها منيّ كلمة صدق وكن على يقين بأنك لن تبلغ بلادك إلاّ بعد ان تطأ أولاً جثة تلك التي جاءت بك الى النور. من الصعب علي ان انتظر واتسكع في هذه الحياة حتى اليوم الذي أرى ولداً لي إمّا يقاد أسيراً في موكب النص بزمام بني جلدته، وإما أن يدخل منتصراً عليهم. ولو اني طلبتُ منك انقاذ بلادك باهلاك. الڤولسكان، فإن الأمر سيصعب عليك حقاً يا بنيّ، من الضعة والعار أن تجلب الدمار لبني قومك، ومن الظلم والشرّ ان تغدر بمن وضع ثقته فيك. على أن ما نريده هو حَلّ مناسب لنا ولهم[٣٤]. وانه لمما يشرف الڤولسكان ويرفع قدرهم كثيراً وهم في تفوقهم العسكري هذا، أن يعمدوا الى أعظم نعمتين في الدنيا: السلم والصداقة، وإن نالوا منهما قدراً مساوياً لا غير. وإن نلنا هاتين البركتين، فسيكون لك الشكر العام بوضعك العامل الرئيس لوجودهما. فإن لم يتسّن ذلك، فلا سبيل لك الاّ ان تتحمل وزر الشعبين كليهما. وتستهدف لومهما. إن فرص الحرب غير مؤكدة، على أن ما هو أكيد في هذه الساعة هو أنك لن تنال من فتح روما صيتاً اللهم الاّ تقويضك صرح بلادك كلها أنك جلبت البؤس والشقاء لاصدقائك والمحسنين اليك، ارضاءً لعاطفة الانتقام فيك.

وكان [مارشيوس] يصغى الى أقوال أمّه صامتاً لاينطق بكلمةٍ. ولما رأته [ڤولمنيا] يقف برهةً كالأبكم بعد فراغها من الكلام، استطردت تقول:

- يا بني! ما معنى سكوتك هذا؟ اليس هو واجباً أن تغلّب ارضاء امك بتحقيق رجائها، على كل شعورك بالأذى والظلم؟ أهو من أخلاق عظماء الرجال ان يتذكروا الأخطاء التي ارتكبها الناس بحقهم؟ أو ليس من شيم الانسان الصالح الكبير النفس أن يذكر تلك المنافع التي نالها كتلك التي يبذلها الآباء للابناء؟ وان يجازوهم عليها بالاحترام والاكرام؟ وانت، وعهدي بك صلب القناة لا تلين قطّ في عقاب ناكري الجميل، يجب ألاّ تكون أكثر اهمالاً لهذا الواجب من الآخرين فلا تحفظ جميل غيرك. لقد فرضت على

(٣٤) طلبت هدنة أمدها سنة كاملة يتم خلال البحث عن تسوية لعقد صلح ثابت دائم.

بلادك عقاباً، الاّ انك لم تدفع لي دَيْني بعد، الحق يقال أن الديّن والأخلاق اللذين لا إكراه فيهما كانا يجب أن يدفعاك الى اجابة طلب شريف عادلٍ كهذا الذي أعرضه فاذا كان الأمر خلافاً لذلك، فعليّ أن أتوسلّ بآخر ما لدي من حيلة...».

ما أن أنهت كلامها حتى القت بنفسها على قدميه وكذلك فعلت زوجه وأولاده. وهنا صرخ [مارشيوس].

- آه يا اميّ! ماذا صنعت بي؟

ثم رفعها وهو يضغط يدها اليمنى بشدة غير اعتيادية وقال:

- لقد نلت للرومان نصراً ما بعده نصر، لكنه سيهلك ابنك الذي غلبته أنت وحدك لا سواكِ!

وبعد تبادل أحاديث خصوصية مع أمه وزوجة فترةً قصيرة، اعادهما الى روما حسب مشيئتهما.

وفي صباح اليوم التالي، قوّض المعسكر وعاد بالڤولسكان الى ديارهم. وفي أنفسهم انطباعات مختلفة من فعله هذا، فبعضهم كان يندّدً به ويدين تصرفه، وبعض من كان يميل الى السلم وقفوا على الحياد. وفئة ثالثة اسخطهم ذلك جداً، إلاّ انهم لم ينظروا اليه نظرتهم الى الغادر المخادع، بل وجدوا ضعفه الأخير واستسلامه تحت هذا الضغط العاطفي، مما يمكن اغتفاره والتغاضي عنه. وعلى أيّة حال فان أوامره لم تلق معارضة من أحدٍ، وتبعوه بمنتهى الطاعة وان كانت طاعتهم هذه ناجمة عن أعجابهم بخلقه، أكثر من احترامهم لسلطته.

في الوقت عينه، كشف الرومان عن مبلغ الخوف الذي كانوا يشعرون به، وخشيتهم من الحرب، بما بدأ منهم من تصرفات بعد أن انجابت عنهم سحبها. ما ان تأكد حرس الأسوار من تقويض الڤولسكان معسكرهم وارتحالهم، حتى عمدوا الى فتح ابواب المعابد كافة بطرفة عين. وراحوا يتوجون رؤوسهم الاكاليل ويستعدون لتقديم الأضاحي والقرابين، كعادتهم عندما تردهم انباء نصرٍ ساحق ولكن فرحة المدينة كانت فريدة بصورة خاصة في تكريمهم النسوة واظهار دلائل الاعتزاز والإكبار لهن من الشيوخ ومن العامة على حدٍ سواءٍ. ولهج الجميع بمأثرتهم وقال أنهن بلا مماراة منقذات الوطن. وأصدر مجلس الشيوخ أمراً باستجابة كل ما يطلبنه من تكريم، وان يحقق لهن الحكام كل رغبة، وكانت طلبتهن قاصرة على اقامة معبد للآلهة الانثى [فورتونا: الحظّ]. وعرضن أن تسدّ نفقات اقامته من تبرعاتهم الخاصّة، إن تعهدت المدينة بالصرف على القرابين من الخزينة العامّة وغير ذلك من مراسيم التكريم الخاصة بالآلهة، فلم يسع مجلس الشيوخ إلاّ الاعجاب بروحهّن الوطنية، وأمر بانشاء المعبد فوراً، واقامة تمثال فيه

للربة على حساب الخزينة العامة[٣٥]. إلاّ أن النسوة اكتتبن فيما بينهن بمبلغ لعمل تمثال آخر لربة الحظّ الذي يؤثر عنه الرومان انه نطق بالعبارة التالية عندما كان يجرى نصبه: «بركات الآلهة هي هديتكن ايّتها النساء».

يقولون إنّ هذه العبارة سمعت مرة أخرى من فم التمثال. مؤكدة بذلك رأينا في امكان وقوع ما يبدو انه قريب من المستحيل.

من المحتمل أن تشاهد التمثال وهي يتضح عرقاً، أو تنحدر من احدقيته الدموع أو أن يتجمع على سطحه قطرات متحلبه ذات لون دمويّ، لأن المادة التي صنعت منها وهي الخشب أو الرخام كثيراً ما تتقشر أو تدركها عفونة ينجم عنها رطوبة، وقد تنشأ على سطوحها ألوان مختلفة من جراء التفاعل الداخلي أو من تأثير الهواء الخارجي، وبهذه العلامات، لم يكن من الغرابة والسخف أن يتصور المرء ان الآلهة تريد انذارنا بحدث مقبلٍ. ويحدث أيضاً ان يصدر من التماثيل والصور اصوات قريبة الشبه بالأنين أو التاوه من جراء تشققٍ فجائي، أو انفصال داخلي قوي بين اجزائها. أمّا ان تصدر أصوات قولية ذات تعابير واضحة ولغة دقيقة من جمادٍ فهو في رأيي من المستحيلات. اذ لم يعرف قطّ عن روحٍ انسانية أو الهيّة انها نطقت بكلمات أو عبارات لغوية من ذات نفسها ومن دون وجودها في جسم ذي اجهزة واعضاء منتظمة العمل، وحاسة نطق. ولكن لما كانت وقائع التاريخ بما تواتر فيها من الشهادات العديدة الموثوقة، ترغمنا على التسليم بهذه الظاهرة، فعلينا ان نعلل ذلك مستنتجين بأن انطباعاً معيناً خلاف الاحساس البشري الاعتيادي يؤثر على الجزء المتخيل من طبيعتنا، فيبتعد بنا عن الحكم الصائب بحيث يحملنا على الاعتقاد بأننا نحسّ احساساً مادياً لا غبار فيه كما يحدث لنا في النوم. فنحن نتخيّل بأننا نسمع ونرى بينما الأمر ليس كذلك. على ان الاشخاص الذين يكنون إحتراماً عميقاً للآلهة. ويتمسكون بالدين أشد تمسك، لايسمح لهم احترامهم وتمسكهم بما بعتقدون، بانكار أو دحض اي شيء من هذا القبيل، وحجتهم القوية تكمن في ايمانهم بالصفات الأثيرية العجيبة للقوى الالهية التي لا مجال لمقارنتها بقوانا البشرية، لا من حيث طبيعتها ولا من حيث فاعليتها. ولا من أسلوب فعلها أو قوته؛ وليس مما يناقض العقل، انها تفعل أشياءً لا نقوى عليها نحن، ونبتدع أموراً غير ممكنة بالنسبة لنا لاختلافها عنّا من شتى الوجوه، وفي مقدمة الاختلاف أفعالها الخاصّة، وليس لنا الاّ الاعتقاد

(٣٥) أقيم في الطريق اللاتيني Via Latina، على بعد اربعة اميال من روما في عين المكان الذي وفقت فيه ڤيتوريا في التغلب على عناد ابنها [ڤاليريوس ماكسيموس ٨:١) أمّا ڤاليريا التي كانت أول من أقترح هذا الوفد الناجح فقد صارت اول كاهنة للهيكل الذي كانت ترتاده الرومانيات كثيراً (ليڤي ٢:٤٠).

بأنها لاتشبهنا قط، وانها بعيدة جداً عنّا. يقول (هيراقليدس):

«ان الشكّ الذي يلازمنا، ضيع علينا معظم المعرفة باللاهوت».

لما عاد [مارشيوس] الى آنيتوم، بدأ [توللوس] فوراً باعداد الوسائل الكفيلة بالقضاء عليه وكان كرهه العظيم له بقدر خوفه منه - كان يدرك جيداً لو أن، مارشيوس أفلت من يده الآن فإن احتمال سنوح فرصة أخرى كهذه، بعيد جداً. فبعد تأليبه عدداً من بني قومه عليه، طلب منه اعتزال منصبه وتقديم الحساب للڤولسكان عن أعماله. ولخشية [مارشيوس] من الخطر الذي يتعرض الفرد البسيط الذي سيكونه، بينما سيبقى توللوس في منصب القائد الحائز أعظم السلطة بين المواطنين، أجاب قائلاً انه مستعد لاعتزال منصبه متى ارتاي‌ء سحب سلطته أولئك الذين تسلمها منهم، كما انه مستعد في الوقت ذاته لتقديم الحساب عن تفاصيل أعماله وتصرفاته متى رغب الانتيات.

وعقد اجتماع عام، وتقدم الخطباء الشعبيون للكلام حسب الخطة المرسومة- ومرادهم اثارة حفائظ الشعب واضرام كوامن احقادهم. وعندما حان دور مارشيوس ونهض للاجابة، سكت فجأةً أكثرهم صخباً وهياجاً، إحتراماً له. وتُرك يتكلم دون ان يقاطعه أحد. وظهر على أخيار الناس كافة وكل من كان يصبو الى السلام أنهم سيصيخون السمع اليه بكلّ عطف وانهم سيحكمون عليه بما يتفق مع العدل والوجدان.

فدبّ دبيب الخوف في [توللوس] وخشي نتيجة الدفاع الذي كان [مارشيوس] يهّم بالقائه، فهو خطيب مفوّه ساحر اللسان، زد على هذا فان الخدمات الجليلة السالفة التي قدمها للڤولسكان حفظت له في قلوبهم ومازالت تحفظ وداً وعطفاً لايقلل من شأنه أي اعابة أو تنديد بسلوكه الأخير، والحقيقة هي أن الاتهام كان بحدّ ذاته دليلاً وشاهداً على عظمة نفسه لأن الشعب لاحق له في الشكوى منه أو اعتبار نفسه مخدوعاً ومغبوناً لأن مارشيوس عدل عن اخضاع روما. فبفضله وحده اصبحوا على قاب قوسين من فتحها لهذا قدّر المتآمرون ان الحكمة تقضي عليهم بالاستعجال في الأمر وعدم التأخر، ليتذقوا طعم المشاعر الشعبية في حكمها لصالح مارشيوس فصاحت الفئة الجريئة من حزبهم ان لا ضرورة تدعو للاصغاء الى غدارٌ خائن والسماح له بالبقاء في منصبه وممارسة سلطة الطاغية المستبد بين ظهرانيهم. قالوا هذا وحملوا على [مارشيوس] حملة رجلٍ واحد، وفتكوا به في محل الاجتماع[٣٦].

وسرعان ما تبيّن أن عملهم هذا لم يقع موقع رضىً وقبولٍ من غالبية الڤولسكان، اذ خرجوا

(٣٦) يقول [ديون] انهم رجموه حتى قُضي عليه. ويتفق مع پلوتارخ إلاّ في قوله ان الاشتباكات التي حصلت بينه وبين تللوس استمرت عدة أيام. أما شيشرون (الخطب ١٠) فيفضل الرأي القائل بأنه بخع نفسه.

زرافات ووحداناً من مدنهم العديدة لاستقبال جثمانه واظهار آيات التكريم والاجلال له. ودفنوه دفنة مشرفة تليق بمقامه[٣٧]، وزينوا ضريحهُ بمختلف تهاويل السلاح والشواخص، وجعلوه مثل اي نصب تذكاري لبطل نبيل، وقائد شهير. ولم يظهر من الرومان شيء يدّل على تكريمه أو تحقيره عند سماعهم بمقتله. على انهم استجابوا الى طلب النساء الرومانيات في ان يقمن عليه الحداد ويندبنه لمدة عشرة أشهر، بمقتضى العادة التي جروا عليها عند فقدهم اباً أو ابناً أو أخاً. وهذه أطول مدة من مدد الحداد على الميت التي رسمتها قوانين [نوما پومپليوس]، كما ذكرناها بتفصيل في سيرة حياته.

ولم يمرّ طويل زمن حتى شعر الڤولسكان بفداحة خسارتهم فيه، ومدى حاجتهم اليه. فقد أختلفوا باديء ذي بدءٍ مع الايكويين Aeqiuians، حلفائهم واصدقائهم حول تعيين جنرال لقواتهم المشتركة، فأقتتلوا فيما بينهم وسفكت الدماء وهلكت ارواح كثيرة. ثم انهم منوا بهزيمة نكراء على يد الرومان، فيها فقد [توللوس] حياته. وابيدت زهرة جيوشهم ابادة تامة وبهذا ارغموا على الخضوع لهم. وقبول سلم وفق شروط غير مشرفة لهم، وصاروا بذلك، تابعين لروما خاضعين لسلطانها.

(٣٧) قتل كريولانوس في السنة الأولى من الاولمپياد المائة والثالث والعشرين بحسب هذه الرواية. لكن (ليڤي) نقلاً عن كاتب قديم جداً يدعي [فابيوس پكتور] يخالفه في الرأي ويقول انه عاش حتى بلغ من العمر عتياً ومات ميتةً طبيعية.

أوجه المقارنة بين الكيبيادس وكوريولانوس

بعد أن أتينا الى وصف كل أعمالهما التي تستحق الذكر؛ لنا أن نقول عن القسم العسكري منها أن الكفتين فيهما تقفان على مستوى واحد لايميل الثقل بأحدهما دون الأخرى أبداً فبمقياس كاد يكون متساوياً أظهرا كلاهما في مناسبات عديدة بسالة الجندي وأقدامه، وابديا براعة القائد وبُعد نظره، خلا أن انتصار الكيبيادس ونجاحه في عدة معارك بحرية وبريّة، يضفي عليه صفة القائد الأكمل. وطالما كان كل منهما في بلاده متسلماً القيادة فقد كسب لها من المجد والرفعة ما يعادل الأذى الذي الحقه بها عند نفيه منها. ولقد شعر عقلاء الناس كلهم الكيبيادس الى استخدامها في حياته السياسية لخطب ودّ الشعب وكسبه الى صفّه. ونفروا من التعالي الاوليغارشي والغرور والغطرسة التي استخدمها [مارشيوس] في بلاده وكانت موضع كره الجمهور الروماني له. لايمكن أن يكون هذان الموقفان موضع تقريظ أو تقدير. على أن الرجل الذي يحببّ نفسه للآخرين بالمداهنة والرّياء لايلام بقدر ما يلام من يلجأ الى السبّ والإهانة ليتحاشى الظهور بمظهر المداهنة والريّاء. إن إطلاب السلطة عن طريق تحقير النفس، والاستعباد للجمهورلهو الإنحطاط بعينه. إلاّ أن الوصول الى السلطة بالإرهاب والعنف واضطهاد الناس، هو انحطاط وظلم عظيم.

كان [الكيبيادس] حسب فهمنا لخلقه، رجلاً بسيطاً صريحاً لاشكّ فيه. اما الكيبيادس السياسيّ ورجل الدولة فكان مراوغاً بعيداً عن الاستقامة. ونال الملام الأعظم من الأسلوب الغادر غير الشريف الذي اتبعه مع سفراء اللقيديمونيين، حسب رواية [ثوكيديدس] - فانهى به عهد السلام والاستقرار. على ان سياسته هذه التي ورطت مدينته في الحرب ثانية واوصلتها الى منزلة وطيدة وحققت لها مكانة رفيعة بما ضمنه لها الكيبيادس من تحالفٍ مع [ارغوس] و[مانتينا]، كذلك [مارشيوس]، فهو على حدٍّ ما روى [ديونيسيوس]، استخدم وسائل غير شريفة لإثارة حرب بين الرومان والڤولسكان عندما أفتعل نبأ كاذباً حول سوء نوايا مشاهدي الالعاب، إن الدافع لهذا العمل، لهو اقبح من دافع الكيبيادس الى عمله، حسب

رأيي لأن سببه لم يكن الحسد السياسي ولا روح المنافسة والمباراة، بل لمجرد ارضاء عاطفة حقد «لم ينل عنها أحدٌ عوضاً على الاطلاق» كما يقول [إيون]، فقذف باقاليم كاملة من ايطاليا في لجّه الفوضى، وضحّى بكثير من المدن البريئة على مذبح عاطفة كرهه بلاده. الحق يقال، ان الكيبيادس سبّب ايضاً نكبات عظيمة لبني قومه، لكنه أمسك عن ذلك حالما تغيرّ شعورهم نحوه، وبعد أن طرد من البلاد للمرة الثانية؛ لا نجده يتشفى بالاخطاء التي ارتكبها قوادها، ولا أغتبط بعثراتهم. ولم يجلس على التلّ غير مكترث بالخطر الذي يداهمهم، بل قام بشبيه العمل الذي قام به [اريستيديس] [ثيموستوكليس] واستحق عليه الثناء الأعظم. أقبل على القادة وهم أعداء له، وبيّن لهم ما يجب أن يعملوه. أمّا [كريولانوس] فقد هاجم في مبدأ الأمر كل قومه، وان كان جزءٌ منه فقط اساء معاملته في حين وقف القسم الآخر في صفّه وتحمل معه الإساءة - في الواقع وعطف عليه، وهو أنبل الجزئين وافضلهما وثانياً: إن العناد الذي ركبه في مقاومة السفارات العديدة والرجاءات والتوسلات التي استهدفت تهدئة غضبه الشديد وشعوره بالإهانة، أظهرت أن أثارته الحرب الزبون على بلاده وتأليب الاعداء ضدها كان الغرض منه القضاء عليها وتدميرها لا استعادتها ونوالها. على أن هناك فرقاً واحداً قد نستخلصه، فقد يقال أن [الكيبيادس] لم يُعده الى احضان اثينا إلاّ الخطر الذي كان يحدق به وهو بين السپارطيين، فكان عامل الميل لهذا ألخوف والكره معاً. في حين لم يكن [مارشيوس] يستطيع ترك الڤولسكان بصورة شريفة بعد أن أكرموا وفادته، وأمرّوه على جيوشهم وجعلوه موضعاً لثقتهم التامّة، فكان موقفه يختلف اختلافاً بيّنا عن موقف [الكيبيادس] الذي لم يرغب اللقيديمونيون حتى في استخدامه عاريةً، أي استعماله ثم نبذه. فكان ينقلب من منزل الى منزل في المدينة ومن جنرال الى جنرال في المعسكر حتى اضطر أخيراً الى وضع نفسه تحت رحمة [طيسافيرنس]. إلاّ اذا وجب علينا الافتراض بأنه لم يلجأ اليه ويستمنح رضاه الاّ للحيلولة دون القضاء التام على مسقط رأسه. المدينة التي كان يصبو للعودة اليها. أمّا من ناحية المال فلقد قيل لنا أن [الكيبيادس] أهتم كثيراً باطلابه وجمعه عن طريق الرشاوى وانفاقه باسوء ما يمكن في البذخ والتبذير. لكن [كوريولانوس] ترفع عنه، حتى عندما أرغمه على قبوله قوّاده، على سبيل التكريم. وان السبب الأساسي الذي ابتلاه ببغض العامّة عند المناقشات حول ديونهم، كان وطئه الفقراء بقدمه لا لأجل المال، بل قحةً منه واعتداداً بنفسه.

ذكر [انتيپاطر Antipater] في رسالة له كتبها عن موت [ارسطو] الفيلسوف العبارة التالية «من بين الصفات التي تخلّى بها، قوة العقيدة». وافتقار خلق [مارشيوس] الى هذه

المزيّة جعل كل أعماله المجيدة، وفضائله الحميدة غير مقبولة من المنتفعين بها و«الكبرياء والاعتداد بالنفس صنوان للعُزلة» كما يقول [افلاطون]، وهذا ما جعله مكروهاً. أما الكيبيادس، فالبراعة التي حازها في معاملة كلّ أمرء بأحبّ أسلوب اليه خلافاً لمارشيوس، لم يكن عجيباً أن يلقى كلّ انتصاراته اعظم التكريم وخالص الامتنان، حتى غلطاته نفسهابين آن وآخر، تجد فيها نوعاً من البركة، واللطف. ولذلك تراه رغم الأذى الكثير الذي احدثه بالمدينة، يعاد انتخابه للسلطة والقيادة تكراراً، في حين فشل [كوريولانوس] في سعيه لنيل المنصب الذي استحقه بخدمة العظيمة الأول، رغم ما أحدثه من ضرر بقي محبوباً ولم يكره. والثاني لم ينجح في نيل محبّة بني قومه بكل الأعجاب الذي ناله.

زد على هذا، ما يجب قوله وهو أن [كوريولانوس] لم يحز لبلاده نجاحاً ونصراً عندما تولى القيادة العسكرية. وانما كانت انتصاراته كلها لعدوّه ضدّ بلاده. واما [الكيبيادس] فخدماته لآثينا كثيرة، قائداً وجندياً. وطالما يكون موجوداً فهو المتفوق أبداً على خصومه السياسيين ولا يفلح الدّس عليه الاّ في غيابه. وأدين [كوريولانوس] حضورياً في روما وبالشكل نفسه قتله الڤولسكان، ولم تكن ادانته أو قتله بأي وجه حقٍ أو تطبيقاً لمبدأ العدالة، إلاّ انهما لا تخلوان من أسبابٍ وحجج نشأت عن أعماله نفسها. مادام فرّط في فرص عسكرية مواتية، بعد رفضه كل المقترحات السليمة علناً، ونزوله عند وساطة النساء سراً، دون اللجوء الى عقد صلحٍ وتثبيت دعائم سلمٍ. كان يجب عليه أن يحصل على موافقة أولئك الذين وضعوا ثقتهم فيه قبل أن يعتزم الانسحاب، هذا اذا كان حقاً يعتبر مصلحتهم فيه هي الأقوى أو أن قلنا بأنه لم يكترث بمصلحة الڤولسكان وانه ما شنّ الحرب (التي عافها الآن) إلاّ ليشفي غليله ويرضي عاطفة حقده، فان العمل النبيل لن يكون الصفح عن بلاده بسبب أمّه، ولكنه عمل أمّه لوطنها. ما دامت امّه وزوجه جزءً لايتجزأ من البلاد التي أحدق بها الخطر. لقد رفض رفضاً قاسياً شفاعة الجمهور، ووساطة السفراء، وضراعة الكهنة، وبتنازله عن كل شيءٍ كفضلٍ خاصٍ حابى به أمّه، فقد أكرمها إكراماً أقل وقعاً من تحقيره المدينة التي ما نجت إلاّ بوساطة امرأة واحدة على ما يبدو، ورغم الاخطاء التي ارتكبتها. فضلٌ كهذا هو الواقع فضلٌ مقيتٌ مرّ المذاق، غير معقول في أعين الطرفين. لقد انسحب دون يلبيّ طلب خصومه، أو يطلب الموافقة على انسحابه من أصدقائه. والعلّة كلّها تكمن في خلقه المتعالي المعتدّ والستوحش الغطريس، وهو خلق مكروه من معظم الناس في كلّ الحالات، وتكون الطامة الكبرى أن اقترن هذا الطبع بطموحٍ الى الرفعة والامتياز، فإنه ينقلب الى قسوةٍ ووحشيّة صرفة.

يأبى بعض الناس أن يستمنحوا الشعب فضلاً لزعمهم بأنهم ليسوا بحاجة الى أي تكريم منه، ويتميزون غيظاً عندما لايظفرون به. ومن المؤكد أن [ميتيللوس واريستيديس وابامنداس] لم يطلبوا فضلاً من الجمهور، وكان ذلك لأنهم والحق يقال، لم يقيموا أو يقدروا قيمة الهبات التي يحبسها الشعب بمجموعه أو يمنحها. كذلك لم يظهروا حقداً أو يستولدوا ضغنا لبني قومهم عندما أبعدوا الى المنفى أكثر من مرة، بل لم تزايلهم الرغبة في العودة قط، وكانوا يعملون لها وللمصافاة مع الشعب عند تحول الشعور العام نحوه ومن كان ازهد الناس في طلب المنّة والفضل ولا يُعطاه. والشعور بالكرامة الجريحة لما يحبس عن المرء ما يهفو اليه من الرفعة والمكانة، لاينشأ الاّ عن الشهوة العارمة اليهما. ولم يؤثر عن [الكيبيادس] انه أخفى سروره واغتباطه باي تكريم ناله. كما كان يتألم من الإهمال وعدم الاكتراث، لذلك حرص دوماً أن تكون علاقاته طيبة مع بكلّ من عرفه. وكبرياء [كوريولانوس] حالت بينه وبين اظهار اللطف والرعاية لمن كان بيدهم رفعة واعلاء شأنه. ومع هذا فان غرامه الشديد بالمعالي جعله يشعر بالكرامة الجريحة والغيظ لما أهمل الشعب أمره. وتلك ناحية النقص في طبعه. وطبعه فيما عدا هذا نبيلٌ فرقّته وعفته وامانته تجعله في مصاف عظماء الأغريق وأطهارهم، وهو على كلّ ليس من الفئة التي ينتمي اليها [الكيبيادس] أقل الناس تمسكاً بهذه السجايا، وأكثرهم إهمالاً لها.

تيموليون

TIMOLEON

410 _ 336



بدأت بكتابة السيّر لأجل الآخرين، إلاّ أني وجدت نفسي أباشرها وأعكف عليها لأجل نفسي. فأخلاق وطبائع هؤلاء العظماء، صارت عندي أشبه بالمرآة التي أُلحظُ فيها كيفية تقويم حياتي وتعديل سيرها. هذه الكتابة في الواقع لا تخرج عن وصف الحياة اليومية واللقاءات والمخالطات البشرية، ونحن في تحقيقاتنا عنها نلتقي ونرحبّ بضيوف متعاقبين فنظر الى:

«... منزلتهم والى خُلقهم وطبعهم»

ونختار من أعمالهم الأنبل، والأجدر بالذكر:

«فآه! واية لذة عظيمة تلك التي ينال المرء منها»

وأية وسيلة أقوى أثراً منها في رفع مستوى اخلاق المرء!

يقول لنا [ديموقريطس] «ينبغي لنا ان نتمنى لأنفسنا لقاء السمح الكريم من جمهرة الأطياف التي تسبح في الأثير المحيط بنا، والأخلق بنا أن نختار منها الأقرب الى اذواقنا وطباعنا، أي الاطياف الصالحة الخيرة، لا الطالحة الشريرة.»

هذا القول إنمّا يقحم في الفلسفة مبدأ غير صحيح في ذاته، يؤدي بالمرء الى معتقدات خرافية لا نهاية لها، وهذا مخالف لطريقتي؛ فبدراستي التاريخ، وبالعادة التي الفتُها في الكتابة روضّت ذاكرتي على إقتبال واستبقاء صور أفضل الشخصيات وابرزها في الحياة. وهذا ما مكّنني من معالجة نفسي وتحريرها من الانطباعات الخسيسة الوضيعة الفاسدة المنتقلة اليّ بعدوى سوء العشرة المفروضة على نفسي رغم أنفي - بدواء تحويل افكاري نحو الأمثلة الرفيعة الشريفة، بمزاج هادىء مبهج. وقد أخترت الآن لكتابتي من هذه الطائفة مثلين هم[تيموليون الكورنثي] و[پاولوس اميليوس] رجلان وقفا على درجة واحدة من سلّم الشهرة لا باخلاقهما بل بالنجاح الذي أصاباه في الحياة. حتى بات من المشكوك فيه أن يدينا بأعظم أعمالها الى حسن حظهما، ام الى سعيهما وألمعيتهما.

كانت أحوال السيراقوزيين قبل إرسال [تيموليون] الى صقلية، قد آلت الى الوضع الآتي:

بعد أن عمد [ديون Dion] الى طرد [ديونيسيوس] الطاغية، قُتل غيلةً وخيانةً، وأنقسم أعوانه الذين ساعدوه في تحرير سيراقوز، على أنفسهم. وكادت المدينة تقفر من سكانها لكثرة تبدل يد الحكام عليها. ولتعاقب سلسلة من المصائب والويلات فيها[1]. وبات قسم من صقلية بلقعاً يباباً خالياً من السكان لاستمرار الحروب مدة طويلة، ووقع معظم المدن التي نجت من التدمير في ايدي البرابرة والجنود العاطلين غير المرتبطين بخدمة، المستعدين لمصانعة اي شكل من الاشكال الحكم. تلك هي الحال عندما اهتبل [نيسيوس Nysaeus][2] سيّد [سيراقوز] في السنة العاشرة لنفيه. وليستعيد مجدداً سلطانه ويستقر في ملكه. لقد كان غريباً أن يفلح حزبٌ صغير جداً خلال الفترة الأولى من حكمه، في تجريده من أعظم سلطاته وأشدّها استبداداً. على أن الأغرب منه نجاحه في استعادة تلك السلطة وهو في المنفى لا حول له ولا طول، وفرض نفسه حاكماً مطلقاً على من طردوه. ووجد من بقي في سيراقوز أنفسهم مرغمين على طاعة طاغيةٍ وخدمته. طاغية مستبدٌ، فظّ الطبع (ان استخدمنا أخف وصف له). أمتلأ غيظاً الآن الى درجة الوحشية بما اصابه من بلايا ونكبات. ولجأ سراة القوم وأخيارهم الى [هيكيتس Hicetes] حاكم [الليوتينيين][3] في الوقت المناسب، ووضعوا أنفسهم في حمايته وأختاروه قائداً لهم في الحرب لا لأنه يَفْضَل في شيء أي طاغية مستبد عنيد، بل لأنه الملجأ الوحيد الذي وجدوه في حينه ومما منحهم شيئاً من الثقة منه: إنه من أسرة سيراقوزيّة، ويملك القوات التي تمكنّه من منازلة قوات [ديونيسيوس].

في هذا الوقت ظهر القرطاجنيون على ساحل صقلية بأسطول عظيم، وراح سكان الجزيرة يرصدون المكان والزمان الذي يختاره الغزاة للنزول الى بلادهم. ودفعهم الرعب من الاسطول الى ارسال وفد الى بلاد اليونان لطلب العون من الكورنثيين الذين كانوا مَحَل ثقتهم أكثر من غيرهم[4] لا للقرابة التي تصل فيما بينها ولا للفوائد العظيمة التي طالما جنوها من وضع

(١) قُتل ديون الذي طرد ديونيسيوس الأبن من سيراقوز في ٣٥٧ ق.م وقام قاتله [كاليپوس] باغتصاب السلطة لنفسه لكنه طرد منها بعد عشرة اشهر. وقتل بعين الخنجر الذي غيبّه في صدر صديقه. وأقبل هيپارينوس Hipparinus أخو ديونيسيوس يقود اسطولاً كبيراً احتل المدينة وابقاها تحت حكمه زهاء سنتين وأنقسمت صقلية الى شيع واحزاب وكتل حاكمة.

(٢) كان رجلاً عسكرياً لامعاً. وقائداً عاماً بأمرة ديونيسيوس.

(٣) هؤلاء القوم كانوا يسكنون مدينة اسمها ليونتيني كما يثبتها هيرودوتس وهي لا تبعد كثيراً عن شمال سيراقوز بين نهري ليسّوس وفيويوس. يعزى بناؤها الى الخلقيديين. ويطلق على الريف المحيط بها ليوستريگوني أو مخيم ليونتيني وأشتهر بخصوبته.

(٤) أوجد أرخياس الكورنثي المستعمرة السيراقوزية في ٧٣٢ ق.م. كان الفينيقيون قد غزوا صقلية قبل ذلك بثلاثمائه عام وانشأوا فيها مستعمراتهم.

ثقتـهم فـيـهم بـل كذلك لما أظهـرته كـورنث دومـاً من شـدّة تعلق بالحـرية، ونفرة من الطغـيـان ودخولها في عدة حروب لا سعياً وراء الكسب والعظمة بل، دفاعاً عن حرية الأغريق ليس إلاّ. إلاّ أن [هيكتيس] الذي جعل هدف قيادته تحرير السيراقوزيين من ظلم طاغية، لإستعبادهم بطغيانه؛ كان قد اتصل سراً بالغزاة القرطاجنيين وفاوضهم وتوصل الى اتفاق معهم، بينما كان يمتدح جهراً غايات اتباعه السيراقوزيين، حتى انه ارفق بوفدهم الى الپيلوپونيس وفداً من لدنه لا لرغبته في نيل أية معونة أو نجدة تأتي منهم. بل كان أمل أن يرفض الكورنثيون بذل العون وهو أمر قريب الإحتمال بسبب الاضطراب الذي كان يسود بلاد الاغريق وانشغال هؤلاء فيه، واذ ذاك يكون أقدر على تحقيق مصالح القرطاجنيين بسهولة، وتنفيذ ما تعهد لهم به، وبهذا الأسلوب يتمكن من استعمال الغزاة الأجانب اداة لتحقيق اغراضه، وقوة احتياطية له يوجهها ضدّ السيراقوزيين أو ضد [ديونيسيوس] حسبما تدعو اليه الظروف وقد أنكشفت خطته هذه فيما بعد.

وصلت السفارة الى الكورنثيين، وعرضت مهمّتها. وكان هؤلاء القوم دوماً شديدي الرعاية والإهتمام بكلّ جالياتهم وزراعتهم في الخارج. إلاّ أنهم خصّوا [سيراقوز] بأعظم اهتمامهم وكان الوضع في كورنث مستقراً اذ ذاك، والقوم يتمتعون بظلّ السلام الوارف والراحة فصوتوا بالإجماع على تقديم العون لهم. وفي اثناء ما كانوا يتداولون في أختيار قائد للحملة، والحكام يجاولون في طلبات مختلفة من أولئك الطمّاحين الى المجد. نهض واحدٌ من الجمع الحاشد ونطق باسم [تيموليون] ابن [تيموديموس Timodemus] الذي كان قد توارى منذ زمن طويل عن ميدان الشؤون العامّة ولم تكن لديه اية فكرة أو دعوى لهذا النوع من المناصب. ويبدو وكأن إلها من الآلهة أوحى الى قلب هذا الرجل بذكر اسمه، وظهرت محاباة آلهة الخظّ، وحسن نواياها في انتخابه، وفي مرافقتها كُلّ أعماله التالية حتى لكأنها أوصت بجدارته وأضافت السموّ والشهوة الى اخلاقه الشخصية لغاية في نفسها. كان [تيموديموس] أبوه و[ديمارست Demariste] أمّه من الطبقة العليا في المدينة. وامّا عنه فقد أشتهر بحبّ وطنه، ورقّة طبعه، خلا مقته الشديد للطغاة واشرار الناس وكانت قابلياته الطبيعية في الحرب والقتال حسنة التكوين فيه بحيث أنه ظل يظهر شجاعةً وأقداماً نادرين في آخر مآثره ووقائعه عندما بلغ من العمر اراذله، لايقلاّن ابداً عن الكفاءة والألمعيّة التي بدأت في كلّ مشاريع شبابه. وكان أخوه الأكبر [طيموفانس Timophanes] لايشبهه في شيء، فهو حادّ الطبع متهور أحمق، أفسده بعض اصدقائه، والجنود الاجانب الذي كانوا يلازمونه وأغوا في نفسه حب النزوع الى السلطان المطلق، ويبدو انه كان قد كسب اسماً وتبريزاً في كل فنون الحرب، بل

كان ركّاب اخطارها وفارسها المجلّي، ولهذا وقع حُبه في قلوب الناس، ورفعوه الى مناصب هامة لحسن بلائه وجسارته وكان فضل تيموليون عليه في وصوله الى مركزه كبيرا، فقد دأب على اخفاء هفواته أو التقليل من شأنها على الأقل، يكسو بثنائه العاطر كلّ ما يستأهل الثناء من أعمال اخيه، ويدفع الجانب الطيب من شمائله مشجعاً لتنطلق بما فيها من فوائد وحسنات.

حدث مَرّة في معركة خاضها الكورنثيون ضدّ قوات [ارغوس] و[كليوني Cleonae] (٥)، أن كان تيموليون جندياً في صنف المشاة، و[طيموفانس] يقود خيالتهم، فاستهدفت حياته الى خطر جسيم اذ جُرح حصانه وكبابه ورمحه الى أواسط العدوّ في حين تفرقت عنه كتيبته وولت الأدبار فزعاً، وكانت الشرذمة الباقية القليلة العدو التي تواجه قوات عدوه متفوقة قد دبتّ فيها الفوضى وعجزت عن الصمود ولو لساعة. وما أن علم [تيموليون] بالخطر المحدق قد هرع لانقاذه وستر بترسه جسده الذي أصيب هو ودروعه بكثير من طعنات الرماح والسيوف. وقاتل العدو حتى أرغمه على التقهقر بعد لأي وحمل أخاه وعاد به حيّاً سالماً.

وعندما خشي الكورنثيون على حرية مدينتهم بالسماح لحلفائهم بدخولها، اصدروا مرسوماً يقضي بتجنيد اربعمائة جندي اجنبيّ مرتزق للمحافظة عليها، وسلمت قيادتهم [لطيموفانس] فما لبث ان تجبّر ولم يرع مبدءً من مبادىء الشرف، وجعل نفسه حاكماً مطلقاً واخضع البلد الى سلطانه الفرد. وبعد ان فتك بالعديد من رؤساء القوم ممن خشي صولتهم ومقاومتهم نواياه دون إدانة ولا محاكمة؛ اعلن نفسه طاغيةً لكورنث. ووقع هذا على [تيموليون] وقعاً أليماً، معتبراً شرور أخيه مصدر خزي له وبلوى. وحاول اقناعه بالمنطق والعقل بالعدول عن سبيل الغواية والطموح السيء النقيبة. وان يبحث عن وسيلة لاصلاح ومعالجة الشرور التي الحقها ببني قومه. فازدرى [طيموفانس] تحذيره المخلص ورفضه. وكرر [تيموليون) محاولته وأخذ معه [اسخيلوس] قريبه شقيق امرأة طيموفانس، وكاهناً نبيّاً صديقاً يطلق عليه ثيومبوبوس في تاريخه اسم [ساتيروس Satyrus]، ويسميه [ايفوروس Ephorus] وطيماؤوس في تاريخهما [اورثاغوراس Orthagores]. عاد اذن الى أخيه برفقة هؤلاء، وتحوطوه وأخذوا يلحفون عليه بالرجاء في الموضوع نفسه وينصحونه باخلاص الى الاصغاء لصوت العقل وأبدال طرائقه. لكن [طيموفانس] راح يضحك ساخراً من سذاجة الرجال ثم انفجر بهم محنقاً ساخطاً فما كان من [تيموليون] إلاّ أن انتحى جانباً عنه ووقف يبكي بوجه مستور في حين انتضى آلاخران سيفيهما ووثبا على الطاغية وقتلاه في الحال(٦).

---

(٥) آخر قرية ارغوليّة من جهة كورنث.

(٦) لديدورس الصقلي (١٥: ١٠) رواية أخرى مختلفة، قال: بعد أن قام تيموليون بقتل أخيه بيده في ميدان =

وسرعان ما شاع النبأ. وأشاد سراة الكورنثيين وكرامهم بتيموليون كثيراً، وقدروا فيه بغضه الجور وسمو نفسه التي جعلت التزاماته تجاه وطنه أقوى من وشائج القربى، رغم كونه رقيق الطبع، شديد الحب والعطف على أسرته، وهكذا قدّم ما هو عدل وخير على الربح والفائدة والمصلحة الشخصيّة. فأخوه الذي أنقذ حياته بشجاعة خارقة عندما كان يحارب في سبيل كورنث ببسالة وأخلاص، قام الآن بقتله لأنه استعبدها فيما بعد باستبداده القذر. فكانت تضحية منه في غاية النُبل. على أن أولئك الذين لايعرفون كيف يعيشون في ظلّ الديمقراطية، ممن تعوّد حطّة التزلف الوضيع للحكام ورجال السلطة، راحوا سراً يسلقون [تيموليون] بالسنتهم الحداد، ويشيرون اليه بالرجل الذي أقترف عملاً لا أشنع منه ولا اقبح، مع انهم أظهروا في العلن شدة اغتباطهم بمقتل الطاغية. فانتاب [تيموليون] الغمّ والكآبة الشديدة. ولما علم كم كان وقع الأمر شديداً على أمّه، وكيف أنها جأرت بالشكوى الأليمة وصبّت عليه أقسى اللعنات وأهولها كأولئك الآخرين. قصَدَها ليشرح لها ما وقع ويبرّر عمله لها، فوجد أنها لا تريد حتى النظر اليه اذ أغلقت ابوابها دونه لئلا يجد سبيله اليها. فنال منه الهمّ كثيراً وطاش صوابه وبلغ به اليأس حداً أن قرر معه وضع نهاية لقلقه بقتل نفسه بالاضراب عن تناول الطعام حتى الموت. إلاّ أن عناية اصدقائه وسهرهم المتواصل والشدّ عليه بين الالحاح والتوسّل، الى استخدام القوّة والارغام ادّى في نهاية الأمر الى أن يقرر ويعد باحتمال العيش شريطة أن تحترم عزلته التامة، وابتعاده عن اي عشرة. وهكذا تقطعت الاسباب بينه وبين الحياة العامة وحلت بينه وبين المجتمع جفوة تامة وخرج من كورنث وظلّ بعيداً عنها مدة طويلة يهيم على وجهه في الحقول والفيافي تعذّبه افكاره وتقضّ عليه مضجعه. ينفر أشدّ النفرة من اي صلة بالناس أو علاقة بالحياة الاجتماعية.

حقيقة لا جدال فيها: وهي انه ليس ثم أسهل من هزّ عقول الناس وافقادها التوازن والصواب بكلمة مدح أو قدح تقال لها. إلاّ اذا كانت الأحكام المتخذة والغايات المنشودة مبنيّة على قاعدة الفلسفة والوعي، فتحوز صفتي الثبات والمتانة. وليس يكفي في العمل أن يكون عادلاً ممدوحاً بحدّ ذاته. بل يجب أن ينشأ من دوافع مكينة ومبدأ راسخ، وسيظلّ اذ ذاك جميلاً في اعيننا. ونبقى راضين عنه رضاءً تاماً لايتزعزع. فإن لم يكن العمل كذلك، فسيسلمنا ضعفنا الى القلق والاضطراب عندما يدبّ في مظهري الصلاح والجمال اللذين زيّنا

= السوق، ثارت ثائرة المواطنين وهاج هائجهم فلاجل تهدئة الخواطر التأمت الجمعية العامة وفي حمى النقاش وصل سفراء صقلية وطلبوا جنرالاً. فصار الإجماع على تيموليون إلاّ انهم حذروه قائلين: «إن أديت واجبك بنجاح فستعامل معاملة من قضى على طاغية. وان أخفقت فستعامل كمجرم قتل اخاه. إلاّ ان رواية بلوتارخ قد تكون ارجح وقد ايدتها مراجع أخرى.

لنا العمل، دبيبَ البِلى وتُخْلِق جدّته في خيالنا، كالناس النهمين، فهم يتهافتون على ألذّ ما في الصحفة من اللقّم، ثم ما يلبثون أن يعافوها عندما تتخم بطونهم بالأكل فيحسوّن بالضيق والتعب مما كانوا شديدي الاشتهاء له.

إن الكره الذي يعقب الحبّ، يفسد خير الأعمال، والندم يجعل اروع الأعمال وأحسنها تأديةً، وضيعاً حافلاً بالاخطاء. في حين لايتغيرّ الاختيار المبنيّ على أسس المعرفة والتحكيم العقلي، بعوامل الخيبة والإخفاق، ولا يُسلمنا الى الندامة. وقد يتفق أن يكون عملنا عند انجازه، أقل نجاحاً من المأمول، وفي هذا الصدد أذكر قولاً مأثوراً [لفوكيون Phocion]. كان هذا قد وقف من تدابير [لوسثينيس Leosthenes] موقف المعارضة الشديدة المستمرة. وعندما رأى علائم النجاح تتوالى وقومه مغتبطين بها، يقدمون القرابين بمناسبة الانتصار، قال لهم:

- إن السرور الذي قد ينتابني فيما لو كنت أنا الذي حقق لكم انتصار ليوسثينيس بدلاً منه، يعادل سروري لكوني أنا الذي أدلى برأي ضدّه.

ولدينا جوابٌ آخر أشدّ من هذا وأوقع. عندما طلب [ديونيسيوس] الأكبر الزواج من أحدى بنات [اريستيدس] اللوكري Locria صاحب افلاطون. ردّ عليه بما يأتي:

- أفضل أن أرى العذراء تدرج في قبرها، على أن اراها في قصر طاغية!

وفي سورة غضب [ديونيسيوس] لهذه الإهانة، عمد الى قتل ابناء [اريستيدس]، ثم عاد يسأله بوقاحة: أما زال مصراً على رأيه السابق في مصائر بناته، فأجابه اريستيدس:

- لايسعني إلاّ أن أتألم، لوحشية اعمالك، إلاّ اني لستُ بآسف على حريّة كلماتي.

على أن الآلام التي استولت على [تيموليون] لما فعله، حَطّمت عزيمته وسحقت روحه، وسواء كان مأتاها تعاسة مصير أخيه، أو الأحترام الذي يكنّه لأُمّه فقد بقي زهاء عشرين عاماً عازفاً عن شرف المساهمة في حياة بلاده السياسية، ولما قُدّم اسمه مرشحاً لمنصب الجنرال وايّد الترشيح إقبال الجمهور بكلّ سرور على الاقتراع له، قصده [تيلكليدس Teleclides] وكان في حينه أقوى وأبرز رجل في كورنث وبدأ يحضه على القبول بقوله، أن الواجب يحتّم عليه الآن أن يتصرف كما يتصرف الرجل الشجاع الجدير بالاحترام...

- لأنك إن أظهرت في مهمتك هذه تفانياً وبطولة فسنجمع على أنك أنقذتنا من طاغية حقاً. وإلا كنت قاتل أخيك في نظرنا.

وفيما كان يستعّد للإبحار، ويجنّد المحاربين، وصلت الكورنثيين رسائل من [هيستيس] توضح تمرده وخيانته. اذ ما أن توجّه سفراؤه الى كورنث حتى ألقى بحظه الى جانب

القرطاجنيين، وفاوضهم في معاونته على ازاحة [ديونيسيوس] وحلوله محلّه في [سيراقوز]. ولما كان يخشى على خطته الفشل في حالة وصول جيش وقائدٍ من كورنث قبل تنفيذها، فقد بعث بكتاب على جناح السرعة ليحول دون ذلك، قائلاً بالاّ حاجة تدعوهم الى تكبدهم العناء والنفقات والتعرض لأخطار حملةٍ الى صقلية، فقد اضطره تباطؤهم في ارسال النجدة الى قبول التحالف مع القرطاجنيين ضدّ [ديونيسيوس]، وان هؤلاء سيتربصون بحملتهم، ويهاجمونها في عرض البحر باسطول ضخمٍ. وازالت تلاوة هذا الخطاب على الجمهور كلّ تردد في النفوس، حتى البارد غير المكترث بالحملة منهم، وثارت كوامن سخطهم على [هيسيتيس] وأضطرمت نفوسهم غيظاً وأقبلوا جميعاً على تجهيز حملة تيموليون بحماسة واخذوا يستعجلونه في الرحيل.

لما جُهزت السفن، وكملت أهبة الجنود من كل النواحي. حدث أن حملت كاهنة الربّة [بروسپرينا: ربة الخصب] حلماً أو نزلت عليها رؤيا، خلاصتها إنّ هذه الربّة وامّها [سيريس: آلهة الزراعة] ظهرنا في عدة السّفر، وقالتا للكورنثيين انهما ستبحران الى صقلية مع [تيموليون]. وعندما قام الكورنثيون ببناء سفينه مقدسة اسموها «سفينة الربّات» وكرسوها لهما. ثم أن تيموليون رحل الى [دلفي] بنفسه وضحّى لاپوللو، ثم نزل الى موضع الوحي من المعبد، ليفجأ بالرؤى الخارقة الآتية: انزلقت عصابة رأسٍ مطرزة بالتيجان وصور النصر من بين الهدايا المقدمة وطارت في فضاء المعبد ثم سقطت مباشرة على رأسه، وهكذا بدأ وكأن اپوللو يتوجّه بالنجاح مقدّماً ويرسله الى هناك للفتح والنصر. وأنطلق في عرض البحر بعشر سفن فقط: سبع منها كورنثية، واثنتان من [كوركيرا][٧] وواحدة تبرع بها الليوكاديون Leuca-dia، ودخل أحشاء البحر ليلاً تدفعه ريحٌ رخاء وعلى حين غرّة انشقت السماء وخرج منها لهبٌ ساطع مُنتشر واخذ يحوم فوق سفينته، ثم تجمّع اللهب ليغدو مشعلاً شبيهاً بالمشاعل ملازماً جانبها، ليديها بنوره الى الجزء الايطالي الذي قرروا النزول فيه وايّد السحّرة أن هذه المعجزة تؤيد حلم الكاهنة، لأن الربتين ترافقان الحملة فعلاً. وقد ارسلتا هذا النور من السماء ليتقدمهما: ذلك لأن صقلية مكرّسة [لپروسپرينا] لزعم الشعراء أن حادثة الخطف وقعت هناك وان الجزيرة أعطيت مهراً لها[٨] عندما تزوجت [پلوتو]: آله الموتى وجهنم.

شجعت هذه الخوارق الآلهية أفراد الحملة كثيراً. فانطلقوا باقصى سرعتهم في رحلتهم

(٧) هي كورفو وقد عرفت ايام هوميروس موطناً للفياكيين. وليكاديا هي شبه جزيرة مجاورة. أشتهرت بلسانها المشهور باسم «قفزة الحبّ».

(٨) في اليوم الثالث من الزفاف أعطت العروس هدية للعريس عند ظهورها لأول مرة دون برقع بحسب عادات ذلك الزمان. ولهذا السبب يطلق عليها اليونان كلمة «أناكالوبسوريون».

يشقون عباب الاوقيانوس حتى وجدوا أنفسهم بعد زمن قصير يجرون على طول الساحل الايطالي. إلاّ أن الانباء التي وردت تيموليون من صقلية أقلقته كثيراً وثبطت عزائم جنوده. فقد تغلّب [أكيتيس][٩] على [ديونيسيوس] في ساحة القتال وأخضع لسلطانه معظم أحياء مدينة سيراقوز نفسها، وهو في تلك اللحظة يطوقه ويحاصره في قلعتها وفي ما يسمى بالجزيرة حيث هرب وجعلها ملجأه الأخيرة. في حين كان على القرطاجنيين حسب الاتفاق، ان يحولوا دون نزول [تيموليون] في أي ثغر من ثغور صقلية. فبطرده وطرد اتباعه، يمكنهم على هونهم وهواهم تقسيم الجزيرة فيما بينهما. وعلى هذا الأساس بعث القرطاجنيون بعشرين من بوارجهم الى [ريجيوم][١٠] ومعها سفراء من [هيسيتيس] الى تيموليون، وقد حمّلهم تعليمات مناسبة لخطتّه هذه ومقترحات خادعة للإلهاء وحكايات ظاهرها معقول، لستر وتزويق غايات غير شريفة. أمروا أن يقدموا اقتراحاً يتضمن الطلب من تيموليون ان يحضر الى [هيسيتيس] ان شاء ويشاركه كلّ فتوحاته بعد ارساله السفن والجنود الى كورنث لأن الحرب تكاد تكون في حكم المنتهية. والقرطاجنيون قد أغلقوا المدخل وعزموا على صدّهم اذا حاولوا اقتحام سبيلهم عنوةً الى الساحل، وعندما التقى الكورنثيون بالوفد في [ريجيوم] ووعوا رسالتهم وشاهدوا السفن الفينيقية راسية في الخليج ثارت كرامتهم للاهانة وسادهم سخط عامٌ على [هيسيتس] وتملكهم خوف شديد على جيرانهم الصقليين Sicaliotes، الذين سيكونون ثمناً وتعويضاً [لهيسيتيس] على غدره من جهة، وغنيمة للقرطاجنيين بسبب ما يمارسونه من سلطان على [هيسيتيس] من جهة أخرى.

كان أشبه بالمستحيل هزم السفن القرطاجنية التي تقع عليهم الطريق وعددها ضعف عدد سفنهم. كذلك كانت مسألة دحر الجنود الظافرة التي يقودها [هيسيتيس] في سيراقوز وأخذ زمام المبادأة منه بأولئك الجنود الذين ابحروا في الحملة.

ذلكم هو الموقف برمته. فبعد أن تحدث [تيموليون] برهة مع وفد [هيسيتيس] ورؤساء القرطاجنيين قال لهم: إنه موافق بكلّ سرورٍ على مقترحهم (واي جدوى في رفضه؟) لكنه يرغب قبل عودته الى [كورنث] أن يكون أهالي [ريجيوم] على بينّة تامة بكل ما دار من مفاوضات بينهما وان تذاع لهم بشكل علنيّ لأن المدينة اغريقية، وتربطها بالجانبين صلة الصداقة، وهذا

---

(٩) وجد اكيتيس نفسه بحاجة الى ارزاق فانسحب كم حصار سيراقوز متجهاً الى بلاده فخرج عليه (ديونيسيوس) وهاجم مؤخرته إلاّ ان (إكيتيس) استدار وواجهه وقتل ثلاثة آلاف من رجاله ثم تعقبه الى داخل المدينة وأحتل جزءً منها. ويذكر پلوتارخ أن المدينة التي قُسمت بأسوار قوية بدت وكأنها مجموعة من المدن.

(١٠) (من أعمال كالابريا) تقع في مضيق مسينا.

التدبير سيكون ذا أثر كبير على سلامة عودته، كما سيجعلهم متمسكين وملتزمين بشروط الاتفاق لمصلحة أهالي سيراقوز حيث كانوا أشهدوا على أنفسهم علناً بمساعدتهم.

كان هدف [تيموليون] من كل هذا تحويل الأنظار عمّا بيتّه، وهو اهتبال فرصة للإنسلال باسطوله من بين سفنهم، ولم يكن سراة المدينة واعيانها يجهلون غرضه، بل عمدوا الى مساعدته في تنفيذه، تحدوهم رغبتهم الشديدة في تولي الكورنثيين زمام الأمور في صقلية، ويدفعهم خوفهم العظيم من مغبّة مجاورة البرابرة لهم. ولذلك دُعي الى عقد اجتماع عام وأغلقت ابواب المدينة لئلا ينشغل المواطنون عنه بشؤونهم الخاصّة، وتعاقب الخطباء على المنبر كل بدوره لشرح الموضوع للشعب، ينتهي واحد ليبتديء آخر وهكذا دون التوصل الى نتيجة، يتعمدون تبديد الوقت بالكلام الفارغ حتى تخرج السفن الكورنثية من المرفأ. وكان ربابنة السفن القرطاجنية قد عُوِّقوا في المدينة لهذا الغرض، ولم ينتبهم اي شكّ، لأن [تيموليون] بقي معهم، وكان يبدي اشارات من يحاول التهيؤ لالقاء خطاب. ثم وردته اشارة سريّة تعلمه بخروج بوارجه كلها الى عرض البحر[١١]، خلا سفينة التي كانت بانتظاره، وتمكن بالتخفي ومساعدة [الريجيين القريبين في المنصّة، من النزول عنها سراً والتسلل بين الحشود وأسرع الى الميناء ليبحر فوراً ويدرك باقي السفن؛ ووصل الاسطول كله الى [تارومينيوم Tauromeni-um] المدينة الصقلية. وكان حاكمها المدعو [أندروماخوس Andromachus] قد دعاهم قبلاً، فاستقبلهم ورحب بهم أحسن ترحيب. كان اندروماخوس هذا، والد المؤرخ [طيماؤوس]، وهو بلا جدال أو مقارنة خير حكام صقلية آنذاك. فقد نشر العدل في المدينة. وجعل الكلمة العليا للقانون، وكان يمقت الطغاة مقتاً شديداً، ويعاديهم عداءً صريحاً. لذلك سمح [لتيموليون] بانزال جنوده هناك، واتخاذ مدينته مقراً لادارة دفة الحرب، وأقنع السكان بالانضواء الى صفوف الحملة الكورنثية ومساعدة [تيموليون] في أنجاز مهمته.

بعيد إرفضاض اجتماع [ريجيوم] أدرك القرطاجنيون المتخلفون هناك ان تيموليون أفلت منهم، فثار ثائرهم. وسخطوا لانطلاء الحيلة عليهم[١٢]. قدر ما أفعم الريجيون سروراً. ولم يسعهم الا الابتسام والضحك عندما راح الفينيقيون يتشاكون الغش والخديعة. ثم انهم بعثوا برسول الى [تاورومينيوم] على ظهر أحدى سفنهم. وهناك أخذ يتوعد ويستفزّ بأسلوبه البربري الوقح، ثم التفت الى [اندروماخوس] وصار يتهدده بالويل والثبور إن لم يبادر الى

---

(١١) خيل القرطاجيين ان اقلاع السفن التسع الى كورنث انما هو نتيجة انفاق تمّ بين قادة الفريقين وان السفينة العاشرة انما ابقيت لنقل (تيموليون) الى (اكيتيس).

(١٢) اي «الحيلة الفينيقية» وقد جرت مثلاً: Fraus Punica.

اخراج الكورنثيين من مدينته فوراً. ثم مد يده مقلوبة الكفّ وقلبها الى فوق قائلاً انه سيعمل هكذا بمدينته، أي يقلب عاليها سافلها في غمضة عين وبكلّ سهولة، فقلّد [اندروماخوس] حركة يده ساخراً وأمره بالانصراف حالاً إلاّ اذا اراد ان تُطبقّ لعبته هذه البارعة على السفينة التي أقلّته.

وبلغ (ايكيتيس] نجاح تيموليون في خرق الحصار ونزوله البرّ، فأستولى عليه خوف عظيم من النتائج، وأرسل يطلب من القرطاجنيين تخصيص عدد كبير من سفنهم لخفارة الساحل والسهر عليه، ويئس السيراقوزيون من سلامة ارواحهم. فالقرطاجنيون سادة الميناء(١٣)، و[ايكيتيس] مطلق السلطان على المدينة. و[ديونيسيوس] متحصنّ في القلعة. بينما لايسيطر تيموليون في صقلية الاّ على هامش أو حافةٍ منها وهي بلدة [تاورومينيوم] الصغيرة. وقواته لا تذكر، وأمله ضعيف. كان تحت أمرته ألف جندي على اكثر تقدير. ولا يملك من القمح ما بقيته به، ولا من المال لدفع المرتبات حتى لهذا العدد الضئيل. ولم تسعفه المدن الأخرى بشيء من الإمداد، اذ لم تكن لها ثقة به، بعد الارهاب والإضطهاد الذي ذاقته على ايدي قادة الجيش سابقين، وخصوصاً غدر [كاليپوس Callipus] الاثيني، واللقيديموني [فاراكس Pharax]. فبعد أن أوضحا أن مجيئها يهدف الى استنقاذ حريتهما من يد الطغيان والقضاء على المستبدين، وضمنا العون من أهاليها؛ بلغ طغيانهما حداً عُدّ معه العهد المباد عصراً ذهبياً، وأعتبر الصقليون من مات في عهد الطغيان السالف أسعد حظاً ممن عاش ليرى تلك الحريّة المزهقة للأنفاس. ولهذا ما كانوا يتوقعون خيراً من القائد الكورنثي وتصوّروا انها المهزلة عينها يعاد تمثيلها ثانية، ورأوا فيه سيداً جديداً مليئاً بالادعاءات الخادعة، والعهود الكاذبة يعمل على اجتذابهم الآمال العِراض، والأماني البراقة. فأعلنوا شكهم في اقواله، ورفضوا العروض التي قدمت اليهم باسمه، إلاّ أهالي [دارانوم Adranum]. وهي مدينة صغيرة مكرّسة للربّ [ادرانوس](١٤) الذي يُجَل كثيراً في صقلية. فهؤلاء دبّ فيهم الخلاف وأنقسموا حزبين أحدهما اتصل [بهسيتيس] وحلفائه القرطاجنيين لإرسال نجدة له. والآخر فاوض [تيموليون]. وحكمت الصدف أن تصل النجدتان في وقت واحد، رغم الجهود العظيمة التي بذلها الجانبان لاستباق الوصول. زحف [ايكتيس] على رأس جيش قوامه خمسة آلاف بينما خرج [تيموليون] من [تاورومينيوم] وليس معه أكثر من ألفٍ ومائتين. وتاورومينيوم

---

(١٣) عبأ القرطاجيون مائة وخمسين سفينة حربٍ، وستين ألف رجل وثلاثمائة مركبة حربية [ديودوروس ١٦:٦٧].

(١٤) من الشعار الذي جاء في النصّ بعدئذ يجب أن يكون مارس وهيكله محروساً بمائة كلبٍ. والمدينة نفسها تقع في أسفل جبل (إتنا) على نهرٍ بعين الأسم يصدر من الجبل.

تبعد من ادرانوم بحوالي ٣٤٠ فُرلُنغ [٩٣ ميلاً حديثاً تقريباً] وكانت مسيرته في اليوم الأول تمتاز بالبطء، وبكثرة التعسكر في غضون مراحل سير قصيرة. إلاّ أنه غذّ السير في اليوم التالي وبعد أن أجتاز أرضاً شديدة الوعوثة بلغه وقت المساء أن [هسيتيس] وصل [ادرانوم] وهو يقوم بضرب خيامه امامه، واذ ذاك هرع ضباطه ورؤساء عسكره الى وقف تقدم حرس المقدمة ليرتاح الجيش ويكون في حالة نشاط واستجمام عند التحامه بالعدوّ. إلا أن تيموليون خرج اليهم مسرعاً وأوقفهم عند حدّهم وامرهم باستيناف التقدم واستخدام كل همّة ممكنة لمفاجأة العدوّ الذي سيكون في حالة فوضى واضطراب، لأنه باشر بضرب خيامه واعداد وجبة عشائه حال انتهاء مسيرته. ثم ان تيموليون حمل ترسه ووضع نفسه في مقدمة الرّتل، وبهذا قادهم الى نصرٍ أكيد. ان بسالته ارغمت كل جنوده على السير خلفه بالشجاعة والعزيمة نفسها حتى باتوا على بُعد لايزيد عن ثلاثين فُرلُنغ [١٦٠٠ يارد] وقطعوا هذه المسافة بسرعة خاطفة وحملوا على العدوّ الذي كانت الفوضى تسوده فتقهقر في أوّل التحامٍ. ثم وبعد مقاومة ضعيفة ومناوشة قصيرة أنقلب التقهقر الى هزيمة عامة خسر فيها العدوّ ما لايزيد عن ثلاثمائة قتيل وضعف العدد من الأسرى. ووقع معسكره وكل ما فيه من عفشٍ غنيمةً في يد تيموليون. وكان من أثر هذا الهجوم أنه فتحت [ادرانوم] ابوابها لاستقبال المنتصر والانضواء تحت رايته وحدثوه بمزيج من الإعجاب والذعر كيف انفتحت ابواب معبدهم من تلقاء ذاتها ساعة بدء الهجوم. كما لوحظ أيضاً أنّ الرمح الذي يمسكه تمثال الآله راح يهتز في يده، وشوهدت حبّات من العرق تنحدر على وجهه. والظاهر ان هذه الخوارق لم تكن قاصرة على التنبؤ بالنصر المنجزّ بل هي البشيرٌ بانتصارات [تيموليون] المقبلة ايضا. وكان النصر الأول هو السبب لظهورها.

وبادرت المدن المجاورة والحكّام بارسال موفدين اليه يلتمسون صداقته، ويعرضون عليه الخدمات. ومنهم [مامرقوس Mamercus][١٥] طاغية [كتانا Catana] وهو محارب ذو مراسٍ، وامير ثريّ، عرض عليه التحالف. على أن الأهم من كلّ هذا هو ان [ديونيسيوس] الذي ركبه اليأس وبلغ شفا الاستسلام، وبدافع من أحتقاره [لهسيتيس] على اثر هزيمته النكراء المخزية، وأعجابه بشجاعة [تيموليون]. حقق الاتصال بالقائد الكورنثي وببني قومه، وأعلن لهم رغبته في تسليم نفسه والنزول عن القلعة اليهم، فسرّ [تيموليون] وقبل فوراً بهذه العروض غير المتوقعة وبعث بالقائدين الكورنثيين [اقليدس، وتيليماخوس] على رأس فوج من جيشه قوامه اربعمائة مقاتل لاحتلال القلعة والاحتفاظ بها. وأمرهم بألاّ يدخلا بكلّ

(١٥) يثبته «ماركوس» [ديودورس: المرجع السالف].

جنودهما حالاً أو على مرأى من الناس لما في ذلك من محذور ومادامت حراسة العدوّ يقظة، بل أن يتسللّوا الى الداخل بفصائل قليلة العدد. وهكذا تم احتلال القلعة وقصر [ديونيسيوس] ووضعوا ايديهم على كل الارزاق والمؤون التي كان قد استحضرها وأدخرها لتمكينه من مواصلة الحرب. كما وجدوا عدداً لا بأس به من الخيل ومختلف الآت الحرب والحصار ومقادير لا تحصى من الأسلحة والأسنّة تكفي لتسليح جيش قوامه سبعون ألفاً، في مستودع أعدّ لأختزانها منذ عصر سحيق. كذلك وجدوا ألفي جندي من اتباع ديونيسيوس فضمّوا الى قوات [تيموليون]. أما الطاغية فقد نقل كنوزه ونفائسه الى سفينة ابحرت به سراً مع قليل من اصحابه دون ان يفطن اليها [هيسيتيس]، حتى بلغت به معسكر [تيموليون] فدخل بثياب عادية مما يرتديه عامة الناس لأول مرة في حياته(١٦). وبعد ذلك بقليل أرسل الى كورنث في سفينة واحدة، ومعه مبلغ يسير من المال.

ولد [ديونيسيوس] وربُي في افخم بلاطٍ ملكي. وكان أشدّ الحكام استبداداً وطغياناً. قبض على ناصية السلطان وظلّ يمارسه عشر سنين بعد وفاة ابيه وقضى بعد حملة [ديون] اثنتي عشرة سنة أخرى في حروب طاحنة، وفتن دائمة وتقلبت به حظوظه فيها ولبست ازياء شتىً. وجوزي في اثنائها بنكبات ومصائب تزيد كثيراً على ما اقترفه من آثام وزرعه من شرور خلال فترة ملكه الأولى. وعاش ليشهد بعينه موت ابنائه وهم في عزّ رجولتهم. وهتك اعراض بنا ته وهن في زهرة عُذرتهن ورأى الانتهاك الشنيع لستر اخته التي هي امرأته(١٧)، فبعد أن تعرضت هذه لشتى الإهانات الوقحة من الجنود قتلت مع أولادها والقيت جثتها في البحر.

بنزول [ديونيسيوس] برّ كورنث تقاطر الاغريق من كل انحاء البلاد لمشاهدة ذلك الطاغية الرهيب الأسبق يدفعهم حُبْ الاستطلاع، ولتوجيه بعض القول له. أمّا الفريق الذي دفعه خالص الكره والإحتقار للتشفي بمصيبته فقد جاؤوا ليطاؤا انقاض حظّه المحطم الزائل على حَدّ شائع القول، الاّ ان الفريق الذي كان إهتمامه وعطفه منصرفاً الى التأمل في تقلبات حياته والزعازع التي عصفت بها، فلم يسعهم إلاّ ان يجدوا فيها دليلاً على قوة وجبروت العالم الآلهي غير المنظور على الضعف البشري والأشياء المنظورة.

لم تضع يد الطبيعة أو يد الفن(١٨) في ذلك الحين، أمراً يمكن مضاهاته بما عملته الاقدار

(١٦) كان الوحيد الذي ولد وهو طاغية. في حين أن جميع الطغاة الآخرين ولدوا من أصولٍ خاملة ليرتقوا ان هذا المنصب.

(١٧) سوفراسينه بنت ابيه من زوجه ارسطوماخه.

(١٨) باضافة عبارة «يد الفن يريد پلوتارخ القول ان الشعراء التراجيديين الذين يعالجون على الأغلب موضوع سوء طوالع الملوك والأمراء لم يصوروا مثيلاً لمصيبة فرد كهذه المصيبة.

وابدعه الحظّ في معجزة [ديونيسيوس]. فهذا الذي كان قبل فترة ليست طويلة حاكم صقلية الأعلى تراه الآن يتسكع في سوق السّمك، إو يجلس في دكّان عطّار، يحتسي شراب الخمارات الرخيص المشعشع بالماء، أو يخاصم امرأة من الإوشاب في قارعة الطريق، أو يتظاهر بارشاد مغنيات المسرح، ويسترسل معهن في جدالٍ عنيف حول هارمونية المقطوعات الغنائية، وايقاعاتها وسلالمها الموسيقية، مما يؤدينه هناك. وكان سلوكه هذا موضع انتقاد مختلف الناس. وظنّ كثيرون ان تصرفاته هذه متأتية من ضعف طبعه، ومزاحه الشكس، أمّا الناس الأبعد منهم نظراً وتفكيراً فقد عللوا ذلك بأنه يؤدي به دوراً سياسياً، القصد منه تعويد الكورنثيين على الإستهانة بشخصه وصرف النظر عن خطورته فلا يعودون يشعرون بايّ شكّ في نواياه ولا يحاذرون من ردود فعل حظه العاثر فيه، أو تبينوا رغبة منه لتغيير حاله. واجتناباً لما يأتي به هذا الشكّ، تعمد الظهور بمظهر يخالف طبعه الحقيقي، بتقمص مظهر الرقاعة والحمق في حياته الخاصّة واوقات فراغه.

مع هذا فقد سجلّ التاريخ له أقوالاً ورودوداً على أسئلة، يبدو منها رجلاً كيفّ نفسه لوضعه الجديد تكييفاً خسيساً وضيعاً. ويتجلى بعض هذا من اعتراف ادلى به عند وصوله الى [ليوكاديا Leucadia] وهي من مستعمرات كورنث كسيراقوز، اذ قال لسكانها: انه وجد نفسه شبيهاً بالأولاد المذنبين الذين لايتحرجون في الكلام امام إخوتهم، إلاّ ان الخجل يعروهم إذ يواجهوا آباءهم، وأنه ليسرّه العيش بينهم في جزيرتهم هذه، بينما يشعر بنوع من التهيب والرهبة، فيه كره وصدود لكورنث التي هي أمٌ لكليهما، ويظهر الأمر أكثر وضوحاً في اجابة له على سؤال اجنبيّ لقيه في كورنث، هزأ بأسلوب فظّ مهين وتعرض بالقدح والزراية للاحاديث التي اعتاد [ديونيسيوس] تبادلها مع الفلاسفة والحكماء، (كانت صحبتهم مصدراً من مصادر سروره) عندما كان ملكاً، وتساءل بالنتيجة ما الذي افاده كلّ هذه الأحاديث الفلسفية الحكيمة من أفلاطون فأجابه: «أو تظنني لم أنتفع بفلسفته، وها أنت تراني اتحمل عثار حظّي على خير وجه؟». وعندما رغب منه [ارسطوكزينس Aristoxenus] الموسيقي وعدد آخر أن يفسر لهم كيف اضرت به تعاليم افلاطون، واين هو موطن استيائه منها، أجابهم:

- من بين الشرور العديدة التي ترافق الحكم الاستبدادي المطلق، يبرز في مقدمتها انه لايعود واحد من الاصدقاء المعتمدين والموثوق بهم، يجرأ على الكلام بحريّة، أو قول الحقيقة الصريحة. وبهذا حُرمتُ افضال تعاليم افلاطون.

وفي مناسبة أخرى كان من بين أصحاب الفكهين، رجل يريد دوماً أن يظهر بمظهر الفطنة

ودقّة النكته، فعلى سبيل التندر [بديونيسيوس] قام بنفض طيّات ثيابه عند دخوله الحجرة التي كان يوجد فيها [ديونيسيوس] إشارة الى أنه لايخفى بينها سلاحاً - كأن ديونيسيوس ما زال طاغيةً، فعلّق هذا رداً على عمله بقوله: انه يفضّل أن يراه وهو يقوم بعمله هذا عند تركه الغرفة اثباتاً بأنه لم يخف حاجةً ويخرج بها...»

وعندما بدأ [فيليب المقدوني] يتحدث في مجلس شرابٍ على سبيل المزاح معه عن القصائد والتمثيليات التراجيدية التي خلفها ابوه [ديونيسيوس الأكبر] وتظاهر بالعجب من توفر الوقت له لتأليف هذه القطع الرائعة الفريدة(١٩) رغم اشغاله الكثيرة اجابه ديونيسيوس اجابة مفحمةً.

- انه الفها في ساعات الفراغ هذه التي نبددها أنا وأنت وأولئك الذين يسمّون بالمحظوظين ونحن عاكفون على الرّاح والأقداح.

لم يتيسرّ لأفلاطون الفيلسوف لقاء [ديونيسيوس] في كورنث فقد طواه الردى قبل قدومه. إلاّ أن [ديوجينس] [السينوپي Sinope] سلّم عليه عند أول لقاء معه في الشارع موجّها اليه هذه العبارة الغامضة:

- هيه يا ديونيسيوس! ما أقل ما تستأهل من عيشك الحالي!

فوقف [ديونيسيوس] وأجاب:

- شكراً لك على التعزية يا ديوجينس.

فقال ديوجينس:

- على تعزيتك؟ ألست تظنّ اني أقصد خلاف ذلك. واني لناقم لأنّ عبداً مثلك لو نال ما يستحقّ فعلاً لوجب ان تترك وحيداً تهرم وتموت وانت طاغية كما كان شأن ابيك من قبلك. بينمت تستمع الآن برخاء عيش بسطاء الناس، وتمرح وتعبث في مجتمعنا؟

ولهذا لما أتامل حكايات [فيلستوس Philistus] المحزنة حول بنات [ليتينس -Lep

(١٩) عن ديودورس الصقلي [١٠٩:١٤، ٦:١٥] كان ديونيسيوس الكبير يعتزّ كثيراً بما ينظمه من الشعر وان كان يدرك انه من اسوء الشعر. وحاول الشاعر المفلق [فيلوكزينس] مصارحته بالحقيقة. متحاشياً خداعه بفكرة طيبة يظنها عن قابلياته. لكنه ارسله للعمل في المناجم بسبب ذلك. ثم أعادة في اليوم التالي الى مكانته الأولى التي كان يحتلها ثم راح يردد على مسامعه قصائد بذل مجهوداً كبيراً في نظمها عله يسمع منه اطراءً. إلاّ ان الشاعر بدلاً من اطرائها نظر الى الحرس وخاطبهما وهو يبتسم «أعيدوني الى المناج الحجرية» ومع ذلك كله فقد شارك ديونيسيوس في مباراة الشعر اثناء الالعاب الاولمپية فسخر السامعون وصفروا له وحطموّا السرادق الفخم الذي نصبه تحطيماً تاماً. لكنه نجح في الفوز بجائزة في أثينا نتيجة تحيز واضح من المحكمين. وقد عبّ كثيراً من الخمر بهذه المناسبة، وفجر وفسق حتى ركتبه آلام عظيمة فاعطاه الأطباء منوماً لم يفق منه قطّ.

tines] [٢٠] حين تجده يطلق الزفرة الاليمة عليهن لسقوطهن من علياء السلطان ونعمائه في هاوية البؤس وحياة الذُل، لا أرى زفرته تلك أكثر من بكاء امرأةٍ على فقد صندوق ادهانها أو ثيابها الارجوانية، أو حلّيها الذهبيّة الزهيدة. وفي اعتقادي ان حكاياتٍ كهذه قد لا تُعدّ متقحمةً على أهدافي من كتابة السيَر، أو تعتبر غير مفيدة بحدّ ذاتها في نظر القراء غير المستعجلين كثيراً، أو من تشغلهم عنها أمور أخرى.

وعلى كلٍ، فاذا بدت نكبة [ديونيسيوس] غريبة أو استثنائية، فلا شكّ في أن حظّ تيموليون أغرب ودهشتنا منه لن تكون بأقل من استغرابنا من الأول. فقد تمكن في ظرف خمسين يوماً لنزوله صقلية من الاستيلاء على قلعة [سيراقوز] وارسال [ديونيسيوس] الى منفاه في الپلوپونيسوس، هذه البداية المحمودة رفعت من معنويات الكورنثيين في بلادهم حتى أمروا له بنجدة قوامها الفان من الرجالة ومائتان من الخيالة. فنزلت في [ثوري Thurii] ومرامها العبور منها الى صقلية. إلا ان البحر كان يعجّ بسُفن القرطاجنيين مما جعل عبورها متعذراً فأضطرت الى البقاء فيها متربصة بفرصةٍ. إلاّ انها لم تضيع وقتها سدى فقد قامت بعمل نبيل عندما خرج الثوريون لقتال اعدائهم [البروتيين] ودفعوا مدينتهم الى يد الحملة الكورنثية للدفاع عنها والسهر على حراستها ففعلت كأنها مدينتها، ثم سلمتّها لأهلها بكلّ امانة.

في اثناء ذلك كان [ايكيتيس] مثابراً على حصار قلعة [سيراقوز] ومنع كل أمداد من الوصول اليها بحراً لإنجاد الكورنثيين الذين يدافعون عنها. وفي الوقت نفسه استأجر اثنين من الأجانب المجهولي الهوية وارسلهما الى [ادرانوم] لاغتيال [تيموليون]، الذي لم يكن قطّ يحيط شخصه باي حرسٍ. وكان في تلك المدينة آمناً مطمئنا على سلامته يختلط بالسكان غير محاذرٍ، والأيام ايام اعيادٍ لألهتهم. وتشاء الصدف أن يعلم الرجلان أن [تيموليون] سيقوم بتقديم القربان فأسرعا الى المعبد وقد أخفى كل منهما خنجراً تحت معطفه، وشقا طريقهما خلال الجمع الحاشد مقتربين شيئاً فشيئاً من المذبح. وفيما كان أحدهما يتطلع الى الآخر منتظراً اشارة الوثوب على الضحية، هجم رجل ثالث على واحد منهما وضربه بالسيف على رأسه فخرّ صريعاً في الحال. وبرح القاتل وزميل القتيل مكانيهما حالاً. الأول شق طريقه شاهراً سيفه الدامي وهرب لايلوى حتى لاذ بقمة صخرية عالية تشرف على هاوية. أما الثاني

(٢٠) طاغيه «ابوللونيا» وهي مدينة صقليّة قرب رأس پاكينوس. كتب فيلطس تاريخ مصر باثني عشر مجلداً، وتاريخ صقلية بأحد عشر وتاريخ الطاغية ديونيسيوس بخمسة. ويفضّل شيشرون (الخطابة ٢:٣) ثالثها على الأثنين الأولين.

فقد تشبث باركان المذبح وراح يتوسل [بتيموليون] ليصفح عنه ويمنحه الحياة، وسيفضي اليه بتفاصيل المؤآمرة، فأمّنه وغفر له، فاعترف بالمهمة التي كلّف بها هو وزميله، وبينما كانت هذه الحقيقة تنجلي قبض على القاتل وانتزع من ملاذه الصخري واقتيد وهو يصرخ ويحتج قائلاً انهم يرتكبون ظلماً في القبض عليه، لأنه أخذ بثأرٍ حقٍ عن دم أبيه الذي كان القتيل قد فتك به في مدينة [ليونتيتي Leontini]. وأيد قوله هذا عدد كبير من الحاضرين، الذين لم يسعهم الا يبدوا عجبهم من افاعيل الأقدار الغريبة والطرائق المدهشة التي تسلكها والسهولة التي تدفع حدثاً من الأحداث لتحرك به حدثاً آخر يختلف اختلافاً بيّنا عن باعثه وان كان منبثقاً منه فتراها توحّد ما بين الحدثين المفترقين، وتجمع الدقائق والتفاصيل المتباعدة وتصل الأعمال المنفصلة واحدها بالآخر تحقيقاً لمآربها. فاذا بالاشياء المتنافرة ظاهراً، والتي لايربطها رابط، تغدو في كفّ القدر نهاية وبداية بعضها لبعض»على حَدّ ما يقال.

وتأكد للكورنثيين أن عمل الرجل لا جناح عليه فضلاً عن وقوعه في أحسن ظرفٍ فأكرموا صاحبه ووصلوه بما يعادل عشرة جنيهات بعملتهم لقد أعار خدمات حقده العادل للروح الحارسة التي كانت تحمي [تيموليون] وظلّ مدةً طويلة لايشفي غلة حقده الذي يضطغنه وأجّل الأخذ بثأره بتدخل الأقدار، حتى يُنقذ به [تيموليون].

إن هذه النجاة التي رسمها حسن الحظّ تعدت آثارها ونتائجها الحاضر الى المستقبل. فقد زرعت أعلى الأماني والآمال في النفوس، ورفعت درجة الاعتماد على [تيموليون] ودفعت الناس الى احترامه وإجلاله قدر إجلالهم لمقدّساتهم. وأعتبروه رسولاً بعثت به السماء لتحرير صقلية والانتصاف لها من طغاتها. ولمّا وجد [هيسيتيس] فشل مؤآمرته، وانتقاض كثيرين من اتباعه عليه وانحيازهم الى [تيموليون]، بدأ يُنحي على نفسه باللائمة لاقتصاده الأحمق في قواته الكبيرة. فقد كان تحّت تصرفه جحافل القرطاجنيين كلها مستعدة للعمل رهن اشارته وهو لايستخدم منها إلاّ اقساطاً اقساطاً ووحدات صغيرة بحذرٍ وتوجّس حتى لكأنه يختلسها اختلاساً، أو يخجل من زجّها في القتال. فقرر أن يطرح هذا التردد وبعث يستقدم [ماغو Mago] أمير بحرهم وكل اسطوله، فأقلع هذا القائد بعمارة بحرية جبارة لايقل عدد بوارجها عن مائة وخمسين، وأستولى على ميناء سيراقوز، وأنزل ستين ألفاً من الرجالة عسكروا جميعاً داخل المدينة. فصدق ما قيل منذ أقدم العصور وما تناقلته الناس حتى يومها، بأن صقلية ستقع غنيمة في يد البرابرة. وكان هذا الإنزال ختام النبوءة فالقرطاجنيون قبل هذا لم يفلحوا في الاستيلاء عليها طوال حروبهم وصداماتهم الدموية الماضية مع أهاليها وها هوذا [هيسيتيس] يمهد لهم السبيل ويضعُ كل شيء في ايديهم، ويجعل المدينة معسكراً للبرابرة.

وبهذا وجد جنود الكورنثيين في القلعة الخطر العظيم يحدق بهم وأشتدّ بهم الضيق. وأنقلب شحّ قواتهم الى حاجةٍ ماسةٍ لأن المواني محروسة حراسة دقيقة، وقد أقفلها العدوّ ببوارجه وهو دائم التعرض لهم بالمناوشات وقتال الأسوار، لايترك لهم سبيلاً للراحة، أو ساعة واحدة لنزع سلاحهم. ويضطرهم الى توزيع قواتهم لصدّ مختلف انواع الهجمات من جميع الجهات.

وأحتال [تيموليون] على هذه الورطة بارسال كميات من القمح بقوارب صيد وزوارق صغيرةمن [كتانا]، وسهل على هذه ان تتسلل عبر السفن القرطاجنية وقت هبوب العاصفة فتمرق مُروقاً عندما يُرغم هياجُ البحر سفن الحصار على الابتعاد أحداها عن الأخرى، ولما اتضح [لهيسيتيس وماغو] تدبير العدو في اغاثة قواه المحصورة، قررا مهاجمة [كتانا] قاعدة التموين، وخرجا من [سيراقوز] يقودان خيرة وحدات الجيش، ورأى قائد القلعة الكورنثي [نيون Neon] أن بقية الجيش في [سيراقوز] تتراخى في حصار القلعة وتهمل رصد مزاغلها ومداخلها أعتداداًمنها بنفسها واطمئناناً الى ضعف المحصورين، فلم يلبث أن فاجأها بهجوم كاسح منتهزاً فرصة تفرق وحداتها فقتل منها وهزم البقية ووفق في الاستيلاء على منطقة [اكرادينا Acradina] وهي منطقة من سيراقوز عرفت بمناعتها وقوة تحصينها. والحقيقة هي أن سيراقوز تألفت من اجتماع واتصال عدة مدن كانت متقاربة(٢١). وقد غنم [نيون] منها مقادير كبيرة من المال والقمح، ولم يجلُ عنها الى القلعة بل عمد الى تقوية تحصيناتها، ووصلها بالقلعة بسور محكم رغير ذلك من التحكيمات. وأخذ على عاتقه الدفاع عن الاثنتين.

عندما بلغ [ماغر رايسكيتس] مشارف كتانا، ادركهما فارس مُرسلٌ من سيراقوز لإبلاغهما نبأ سقوط [أكرادينا]. فقفلا عائدين بقواتهما على جناح السرعة، والفوضى والاضطراب يسود صفوفها، وهكذا عجزا عن أخذ المدينة التي خرجا اليها، وخسرا ما كان تحت سيطرتهما.

هذه الانتصارات التي لايمكن نكران عنصر الشجاعة والمهارة فيها، اسهم الحظ ومحاسن الصدف بدورٍ رئيسٍ فيها، إلاّ أنه يصعب جداً ان يعزى الحادث التالي الى شيء غير حسن الحظّ ومحاباة الأقدار: قلنا أن الاحتياطي من جنود الكورنثيين ظلوا معسكرين في [ثوري]

---

(٢١) هناك رابع منها وهي: الجزيرة أو القلعة التي هي بين الميناثين. الاخرادنيا وهي على مسافة قصيرة من الأولى. وتيخه وقد أطلق عليها هذا الاسم من هيكل الهة الخط ونيابيوليس أو المدينة الجديدة [انظر ليڤي ٢٤:٢٥ وقارن بديودورس ٧:١٣) والى هذه المدن يضيف بعض الكتاب ومنهم بلوتارخ مدينة خامسة يسمونها إيپيولي.

لايستطيعون الابحار الى صقلية خوفاً من بوارج القرطاجنيين التي كانت لهم بالمرصاد بقيادة [هانو Hanno]، ومن غوائل البحر الذي اجتاحه النوء واهاجته العواصف أياماً عدة فبات من الخطر ركوبه. ولهذا قرروا الوصول الى مدينة [ريجيوم] براً فأخترقوا بلاد [البروتيين] معتمدين على قوتهم وحذرهم وبلغوا هدفهم والبحر مايزال هائجاً صخاباً. وفي تلك الاثناء توصّل [هانو] الى فكرةٍ خالها مجديةً. لم يتوقع أن يغامر الكورنثيون في الابحار، ورأى من العبث الانتظار أكثر مما أنتظر، وكان يتوهم في نفسه أبرع ستراتيجي، وأمهر خبير في التمويه على العدو ونصب الفخاخ له. بناء على هذا أمر بحارته بضفر أكاليل الزهر على رؤوسهم، وتزيين السفن بالتروس الاغريقية والقرطاجنية، وأقلع متجهاً الى [سيراقوز] بمظاهر النصر هذه مستخدماً كل المجاذيف عند مروره تحت القلعة وبكثير من الهتاف والضجيج قاصداً بث الهلع في قلوب المحصورين والإيحاء لهم بأنه لم يجيء الاّ بعد ان قضى على النجدة الكورنثية وهي في عرض البحر متجهة نحو صقلية. وفيما هو يواصل لعبته هذه امام سيراقوز، كانت النجدة الكورنثية في [ريجيوم]، وامامها الساحل خالٍ من سفن العدوّ، والريح ساكنة والبحر هاديء كأنما حدث بمعجزة. فأسرعوا يركبون كل ما وقعوا عليه من زوارق صيد ومراكب خفيفة، وأقلعوا ليبلغوا ساحل صقلية بسلام وهدوء لا مثيل لهما. حتى انهم انزلوا خيولهم وأخذوا يقودونها من اعنتها سباحةً وزوارقهم متجهة الى الساحل.

نزلت الحملة كلها واستقبلها تيموليون، وبفضلها تمكن من أحتلال [مسينا Messena] فوراً، ومنها تقدم بنظام بديع نحو [سيراقوز] واضعاً اعظم ثقته في نجاحه الأخير، لا بما لديه من قوات. اذ لم يكن مجموع جيشه الكليّ يزيد عن أربعة آلاف. ومع هذا فقد انتاب [ماغو] القلق والاضطراب عندما ابنيء بمقدم [تيموليون]. وزاد وضعه سوءً وتعاظم خوفه بالحادثة التالية:

تحيط بسيراقوز مستنقعات مترامية[٢٢]، تستمدّ ماءها العذب الكثير من الينابيع فضلاً عن البحيرات والأنهار التي تصبّ في البحر ويتكاثر في هذه المياه السمك الجريّ (الحنكليس) حتى لتعجّ بها، ويتقاطر الناس على صيدها. فكان الجنود المرتزقة الذين يستخدمهم الفريقان يقضون أوقات فراغهم في ممارسة هذه الرياضة معاً، فيجتمعون في كل فترة هدنة او وقف قتال ويتبادلون احاديث الودّ فيما بينهم، اذ كانوا كلهم من الأغريق ليس بينهم عداء شخصيّ (على شجاعتهم وبلائهم في الحرب). وفيما كانوا يوماً يصطادون أخذوا باسباب الحديث

(٢٢) هناك مستنع يدعي ليسميليا [ثوكيديدس ٧:٥٣] وآخر يعرف بـ(سيراكو). ومن هذا الأخير أخذت المدينة اسمها. وهذان المستنقعان يجعلان هواء المدينة فاسداً وغير صحي بالمرّة.

فأعلن هذا عن أعجابه بالبحر القريب، ولهج آخر بالثناء على ما يجده المرء من راحة ورفاهة في بنايات سيراقوز ومحلاتها العامّة. فتدخل أحد الكورنثيين قائلاً:

- وانتم الذين جئتم من بلاد الأغريق كافة[٢٣]. الا تشفقون على هذه المدينة الرائعة الجليلة، لتدعوها فريسة للبرابرة، باذلين الجهود، لتثبيت قدم القرطاجنيين في بلاد قريبة جداً من بلادنا. وهم شرّ الخلق وأشدّهم وحشية، بينما كان جديراً بكم أن تجعلوا بين بلادنا وهؤلاء القرطاجنيين، سدّاً من الأقوام، أمنع وأقوى من هؤلاء الصقليين. أإلى هذا الحدّ بلغت بكم قلة الفطنة لتعتقدوا بأن القرطاجنيين جاؤوا من «اعمدة هرقل» والمحيط الاطلنطي متجشمين كلّ هذه المخاطر لتثبيت مُلك [هيسيتيس] فحسب؟ هذا الرجل الذي لو اقام وزناً للاعتبارات واتصف بما يليق بالقائد، لما تنكرّ لأرومته وأسلافه وجاء باعداد بلاده في محلهم. في حين كان يستطيع التمتع بالمكانة والقيادة المناسبة برضىً من تيموليون وبقية الكورنثيين.».

راح مرتزقة [ايكيتس] من الاغريق يرددون هذه الأقوال في معسكرهم مما زوّد [ماغو] بأسبابٍ للشكّ في وجود مؤامرة تحاك ضدّه، فتمسك بها وتعللّ. واتخذها حجة للرحيل الذي كان قد اعتزمه منذ أمدٍ. ولم يعر اذنا صاغية لتوسلات [هيسيتيس] والحاحه عليه بالبقاء لإظهار مدى تفوقهما على العدوّ. على أن [ماغو] كان يدرك انهما أدنى من تيموليون بكثير لأن البسالة والحظّ الى جانبه ولا قيمة لتفوقهما العددي ازاء هذين العاملين. فأسرع يركب سفنه ويقلع بها الى افريقيا وترك صقلية تفلت من يده بصورة لا تشرفه. ولدوافع موهومة صورتها مخيلته يعيا العقل السويّ عن تبرير اتخاذها سبباً وجيهاً للرحيل.

وبعد إقلاعه بيوم واحد تقدم [تيموليون] نحو المدينة بنسق المعركة. ولما سمع هو واركان حربه بالفرار الفجائي وشاهدوا ارصفة الميناء خالية تماماً لم يمسكوا أنفسهم عن الضحك والتندر والتنديد بجبن [ماغو] وعلى سبيل السخرية والمزاح اذاعوا في المدينة بياناً يعلن عن استعدادهم لدفع مكافأة لكلّ من يستطيع ان يأتيهم بنبأ مغادرة الاسطول القرطاجنيّ ديارهم! على أن [هيسيتيس] قرر خوض المعركة وحيداً، وعدم ارخاء قبضته عن المدينة بل الصمود في المناطق التي يسيطر عليها والثبات في المواضع الجيدة التحصين الصعبة الاقتحام. وقسم تيموليون قواته الى ثلاثة جحافل. وحمل بنفسه على الجبهة التي يجرى فيها نهر [اناپاس Anapas] وهي جبهة منيعة صعبة التقحم وأمر الجحفل الذي يقوده الضابط الكورنثي [ايسياس Isias] بالهجوم من موقع [اكرادينا]في حين يحاول [دينارخوس Dinarchus]

(٢٣) المرتزقة الاغريق في جيش هذا الأخير.

و[ديماريتوس] اللذان جاءا بالنجدات من كورنث، الاستيلاء على منطقة [ايپيپولي Epipol-ae] بالجحفل الثالث وحمل الجيش كله حملة شديدة في وقت واحد من جميع الجبهات، فانهارت مقاومة [هيسيتيس] وفرّ جنوده. وعلينا هنا أن نعزو أخذ المدينة عنوة وسقوطها السريع بعد اندحار العدو - إلى بسالة المهاجمين وحنكة قائدهم دون جدال. ولكن الأمر الذي لايجعلنا ننكر دور حظّ تيموليون هو أن الكورنثيين لم يخسروا رجلاً واحداً أقتيلاً كان أم جريحاً حتى لكأن ثم مباراة وتحدياً بين حظه وعمل حظه اعني وجود نوع من المنافسة في مجالات أعماله نفسها بحيث جعل الحظ هدفه أن يتفوق ويطمس على كل ما يُقدم عليه من أعمالٍ. وينبغي لمن يسمع الثناء عليه لمآثره الجليلة أن يعجب بمحاباة الحظّ لها أكثر مما يعجب بالجهد الشخصي فيها. وتعدت انباء نجاحه صقلية وملأت ايطاليا دهشةً. حتى بلاد الاغريق فقد أهتزت من اقصاها الى ادناها حبوراً وفخراً بجلائل أعماله بعد بضعة ايام فقط من وقوعها، حتى ان الكورنثيين الذين لم يعرفوا بنزول نجداتهم في الجزيرة، واذ بانباء نزولها وانتصارها تردهم في آن واحدٍ. بهذا السبيل المفلح كانت عجلة الأمور تدرج، وبهذه السرعة والنشاط كان الحظّ يطلق سناد الكفاءة الطبيعية، كمفخرة جديدة من مخافرها.

بعد أن سيطر [تيموليون] على القلعة، تجنب الخطأ الذي وقع فيه [ديون] قبله. فلم يضَن على البلد بشيء في سبيل فخامة ابنيتها وجمالها. ولكي يجتنب مظنّة السوء التي أدت أولاً الى بغض [ديون] وسببت أخيراً في سقوطه، أمر أن يدور المنادي مُعلناً لأهالي سيراقوز بأن كلّ من يرغب في المساهمة بالعمل، فعليه أن يأتي ومعه فأس ومجرفة وغيرها من الأدوات ليعاون في هدم التحصينات التي اقامها الطغاة. فتقدموا للعمل جميعاً كرجل واحدٍ معتبرين الإعلان واليوم الذي أذيع فيه، أقوى دعامة لحرياتهم، وانقضوا على القلعة فهدموها، وقوضوا القصور والأنصاب التذكارية وكلّ ما يمت الى ذكرى الطغاة السالفين، ونقضوها حجراً على حجر، وبعد أن سوّى ارضها بنى فوقها دوراً للقضاء لتوزيع العدل بين الأهالي وبنى أيضاً دوائر للحكومة الجمهورية التي أقامها على انقاض الحكم المستبد.

وكانت المدينة عندما دخلها خالية من السكان تقريباً. بعضهم قضى نحبه بسبب الحروب الأهلية والفتن والثورات، وآخرون هربوا من الطغيان. وبلغت قلة السكان فيها حَدّاً أن ساحة السوق العامة في سيراقوز وكانت تمتاز بسعتها تكاثر فيها العشب ونما وغطّاها فأصبحت مرعى للخيل يتطرّح سائسوها على العُشب بينما هي ترعى الكلا. كذلك هجرت مدن أخرى تماماً باستثناء القليل. فصارت مرتعاً ومأوى للخنازير البريّة والإيائل، فكان المتعطلون يرتادونها للصيد فيجدون فرائسهم في مشارفها وبالقرب من أسوارها. وتعذر أقناع من لاذ

بالريف أو التجأ الى القلاع، بترك مستقره أو قبول دعوة للعودة الى المدينة، فقد بلغت كراهتهم من مجرد اسم المجامع، والاجتماعات وانواع الحكومات والخطب العامة حداً عظيماً لأنها هي التي انجبت معظم المستبدين الذين تعاقبوا على حكمهم واضطهادهم. وفكر تيموليون مع السيراقوزيين في المعضلة، وتأمل الخراب الشامل، وضعف الأمل في محاولة الاقناع التي ارتأها. ثم فضلّ الكتابة الى بلاده، بطلب ارسال جالية أغريقية لتأهيل سيراقوز. والاّ بقيت اراضيها المتاخمة بوراً. كذلك ذكر انه يتوقع حرباً أعظم من سابقتها مصدرها افريقيا لأن الانباء التي وصلته تشير الى ان [ماغو] بخع نفسه وأن القرطاجنيين الساخطين على تصرفه في الحملة الأخيرة، أمروا أن تُسمّر جثته على صليب، وهم الآن عاكفون على تهيئة قوات جبارة للهجوم على صقلية في الصيف القادم.

وصلت رسائل تيموليون الى كورنث. وفي الوقت نفسه عرض وفد سيراقوز رجاء اهلها اليها بأن يولوا مدينتهم البائسة رعايتهم وأن يصيروا مرة أخرى مؤسسين لها. ولم يغرّ الكورنثيين الطمع بفائدة من هذه العروض، ولا كانوا يريدون الاستيلاء على المدينة واستغلالها. لذلك قصدوا بالاول دورة الالعاب التي كان الاغريق يضعونها في منزلة القداسة ثم الى مختلف الاجتماعات الدينية المعقودة وأطلقوا المنادين يعلنون قائلين: إن الكورنثيين الذين قضوا الى الاستبداد في سيراقوز وطردوا الطاغية، يَدْعون بهذا كلّ المبعدين والمنفيين السيراقوزيين وأيا من الصقليين الى العودة لسكنى المدينة، مع تمتعهم الكامل بالحرية بموجب قوانينهم الخاصّة. وان الأراضي ستوزع عليهم بانصبة عادلة متساوية. ثم انهم ارسلوا مبعوثين الى آسيا وعدة جزر يسكنها كثير من اللاجئين المتفرقين، وطلبوا منهم السفر الى كورنث، وهناك سيزودون بسفن وربابنة وقافلة حراسة لتأخذهم الى سيراقوز على نفقة الكورنثيين. وكان من أثر هذه العُروض الكريمة التي انتشرت انباؤها وشاعت، أن ارتفعت مكانة الكورنثيين ونالوا الكثير من الثناء والمديح تعويضاً لسخائهم وشهامتهم وانقاذهم تلك البلاد من جور الظالمين، وتخليصها من يد البرابرة، واعادتها بالاخير الى أصحابها أهل الحق من السكّان. فأجتمع هؤلاء في كورنث، ولما وجدوا عددهم قليلاً طلبوا من الكورنثيين أن يزوّدوهم بعدد آخر منهم ومن سائر بلاد الأغريق لينضموا اليهم كنازحين مشاركين. فأرتفع عددهم الى عشرة آلاف وابحر الجميع الى [سيراقوز]، وفي غضون هذه الفترة تقاطر على تيموليون من ايطاليا وصقلية حشود عظيمة بلغ رجالها على قول (اثانيس Athanis) ستين ألفاً. فقسم بينهم الأراضي كلها. وباع المنازل بألف تالنت. وبهذه الطريقة مكّن السيراقوزيين الأصليين من استعادة بيوتهم، كما توسّل بها الى جمع المال للمصلحة العامة، واملاء الخزانة التي خلت تماماً

وعجزت عن سدّ اي نفقات، لاسيما مصاريف الحرب، حتى أنهم لجاؤا الى عرض تماثيلهم للبيع. واتبعت في هذا طريقة نظامية. وكان يرسو قرار المزايدة على اي منها بأغلبية الاصوات. كأنما تجري مرافعة لعدد كبير من المجرمين. وقيل أن تمثال المستبد القديم [جيلو Gelo] قد استثني اثناء النطق باللعان على التماثيل الأخرى تكريماً له وأعجاباً به، وبسبب الانتصار(٢٤) الذي حازه على القوات القرطاجنية في نهر [هيميرا Himera].

وهكذا تمّ بعث الحياة السعيدة في [سيراقوز] وأكتظت بالسكان لنزوح الناس اليها من كل الأمصار. ورغب [تيموليون] بعدئذ في تحرير مدن أخرى من عبودية مماثلة، والقضاء قضاءً مبرماً على الحكم المستبد وازالته من صقلية. فزحف على البلاد التي كانت ترزح تحته، وأرغم [هيسيتيس] أولاً على التخليّ عن مصالح القرطاجنيين وهدم القلاع التي كان يسيطر عليها واعتزل الحكم ليعيش بين [الليونتينين] فرداً عادياً. وحذا حذوه [لپتينس] طاغية [اپوللونيا Apollinia] وكثير من المدن الصغيرة الأخرى، بعد ابدائه بعض المقاومة، ورؤيته الخطر الذي يكمن في هزيمة عسكرية، فاستسلم. فأبقى [تيموليون] عليه وارسله الى كورنث، معتبراً قيام المدينة الأم بعرض هؤلاء الطغاة الصقليين على الأغريق في المنفى وبحالة بائسة، من قبيل الأعمال المجيدة ومن دواعي الفخر. وبعد هذا عاد الى سيراقوز حتى يتفرغ الى سَنّ دستورٍ جديد(٢٥)، وليساعد [كيفالوس Cephalus] و[ديونيسيوس] اللذين بعثت بهما كورنث لوضع القوانين، في تثبيت أهم موادّه واحكامه. ورغب في الوقت نفسه أن لايبقى جنوده المأجورون عاطلين، وإن يغنموا لأنفسهم شيئاً من العدوّ بالأحرى، فبعث بقسم منهم تحت قيادة [دينارخوس] و[ديماريتوس] الى ناحية من الجزيرة ما زالت تحت السيطرة القرطاجنيين. فاستنفروا عدة مدن للثورة على البرابرة. وغنموا ما أمّن لهم الحياة الباذخة فضلاً عن توفيرهم من اسلابهم ما يكفي لمواصلة الحرب. في تلك الاثناء نزل القرطاجنيون في ساحل [ليلپبيوم Lilybaeum] الصخري بجيش قوامه سبعون ألفاً نقلتهم مائتا سفينة ضخمة، فضلاً عن الف سفينة أخرى موسقة بآلات الحصار والثغر، والعجلات الحربية، والقمح وغير ذلك من المهمات الحربية. وكل هذا يدل على ان نيتهم شنّ حربٍ طاحنة هدفها طرد الاغريق كافةً وبصورة نهائية من صقلية لا حرباً متقطعة متدرجة كالسابق.

---

(٢٤) هُزم هملقار الذين انزل قواته في صقلية وكانت تبلغ ثلاثمائة ألف مقاتل في السنة الثانية من الاولمپياد الخامس والسبعين [ديودوروس].

(٢٥) من الأنظمة الحكيمة التي قررها انتخاب رئيس قضاة كل سنة يطلق عليه أهالي سيراقوز لقب «امفيپولس جوپتر اولمپيوس» وبهذا أضفي عليه شخصية مقدسة وكان أول من تولى المنصب (كومينس) ومنها جاءت عادة السيراقوزيين في حساب سنيّهم بحكم هؤلاء القضاة.

كانت في الواقع قوة كافية للتغلب على الصقليين حتى ولو كانوا قلباً واحداً متحدين فيما بينهم لم تضعفهم النزاعات الحادة. وبسماع القرطاجنيين ما حَلّ من دمار بمستعمرتهم، زحفوا على الكورنثيين ونار الغيظ تأكل افئدتهم، بقيادة الجنرالين [هسدروبعل Asdrubal] و[هميلقار Hamilcar].

ووصلت الانباء عن عدوهم وقوتهم الى سيراقوز فجأة، فدبّ الفزع في الاهلين حتى انه لم ينضم للجيش من عشرات الألوف فيها غير ثلاثة آلاف أو أقل. أمّا الجنود الاجانب الذين يتقاضون أجراً فكان عددهم اربعة آلاف فقط، دبّ الهلع في قلوب ألفٍ منهم فتخلوا عن [تيموليون] وهو في مسيرته الى العدو وتركوا صفوف الجيش، فبدأ عليه الاهتياج والذهول وذهبت المفاجأة بلبّه وشتتتّ خاطره وهو أمر لم يكن منتظراً منه في هذه الساعة الحرجة من حياته أن يحاول الاشتباك بجيش قوامه سبعون ألفاً، وليس معه غير خمسة آلاف من الرجالة والف من الخيالة في حين كان المنطق يقضي بابقاء هذه القوات من للدّفاع عن المدينة، إختار ان يحركها من [سيراقوز] ويكبّدها مسيرة أيام ثمانية. فإن هُزموا في ميدان القتال فلا موضع يتقهقرون اليه ولا قبور تضم رفاتهم أن سقطوا قتلى في المعركة. على ان [تيموليون] وجد في كشف الجبناء عن أنفسهم قبل المعركة فألاً حسناً وحدثاً لايخلو من فائدة. وانصرف الى تقوية معنوية الباقين وتشجيعهم. وأسرع بهم الى نهر [كريميسوس Crimesus][٢٦] حيث بلغه ان القرطاجنيين قد حشدوا قواتهم.

وفيما كانت قواته تتوقل مرتفعاً لتستطلع من قمته جيش العدو وقواه المحشودة إذ بها تلتقي بقطارٍ من البغال المحملة بأعشاب البقدونس. فعدّه الجنود فأل سوءٍ وطالع نحس، فهذا النبات كثيراً ما تزين به اضرحة الموتى. وهناك مثل سائر مشتق من هذه العادة فيقال عن المريض مرضاً عضالاً، انه ليس بحاجة الى شيء غير البقدونس. ولأجل ان يهدىء تيموليون من روعهم ويطمئن خواطرهم ويحرر اذهانهم من كل الخرافات ونذر الشر؛ توقف وارتجل خطبة مناسبة للحال قال فيها «ان الحظ اسعدهم الآن بأكاليل النصر التي جاءتهم منقادة من تلقاء نفسها ووقعت في ايديهم كبشير من بشائر الظفر: فهذا النبات يتوّج به الكورنثيون ابطالهم الفائزين في الالعاب الاسثمية. مُعتبرين البقدونس في ذلك العصر شعار الفوز في الالعاب الاسثمية كما هو الآن شعار الرياضة [النيمية Nemean] ولم يبدأ استعمال أغصان الصنوبر بديلاً عنه إلاّ في زمن ليس ببعيد جداً عن عصرنا هذا.

وختم تيموليون كلمته بتناول مقدار من البقدونس وعمل إكليلا منه لنفسه وحذا حذوه

---

(٢٦) نهير في صقلية يشير اسمه الى عشب البقدونس الذي ينمو على ضفافه بكثرة.

ضباط جيشه وسائر قطعاته. وفي تلك الاثناء لاحظ العرافون عقابين يطيران نحوهم. أحدهما مُنشنب مخالبه في أفعى. والآخر يطلق وهو طائر صيحة عالية تدل على الجرأة والتحدي. فوجهّوا اليهما انظار الجنود الذين جثوا كافةً وتوجهوا الى الآلهة بالصلاة ودعوها الى شدّ ازرهم كان الوقت أولّ الصيف، ونهاية الشهر المسمى [تارجيليون] غير البعيد كثيراً عن الانقلاب الفصلي: Solstic. وكان النهر يُصعدّ ضباباً كثيفاً ينتشر فيسدل على السهل كلّه ستاراً من الظلام. لذلك تعذر عليهم لفترة من الزمن ان يستوضحوا شيئاً من معسكر العدوّ. خلا اللغط والمزيج غير الواضح من الأصوات التي تتناهى الى المرتفع، مما ينشأ عادة من حركات بعيدة وضجيج جموع غفيرة. بعد أن اتمّ الكورنثيون صعود المرتفع وبلغوا القمّة، والقوا بتروسهم جانباً ليصيبوا شيئاً من الراحة، أرتفعت الشمس في كبد السماء وأصعدت معها الا نجرة من الاسفل وتجمّع الهواء المثقل بالضباب وتكاثف عالياً وكوّن سحباً فوق الجبال وانقشع الضباب عن الأراضي الواطئة فآضت الرؤية واضحة، وبدأ نهر [كريميسوس] لهم ثانية والاعداء يعبرونه اولاً بعجلاتهم الحربية الضخمة التي تجر واحدتها اربعة خيول، وتلاها عشرة آلاف مقاتل راجل يحملون اتراساً بيضاً وتدل نفاسة أسلحتهم وبطء مشيتهم وأسلوب خطوهم أنهم قرطاجنيون. ثم جاءت في أعقابهم حشود متدافعة من مختلف الأقوام تتسابق على العبور متزاحمة دون نظام وادرك تيموليون أن النهر يتيح لهم فرصة في الانفراد بقتال اي عدد من الاعداء يقررون الاشتباك معه الاشتباك معه فوراً ووجه انتباه جنوده الى انقسام قواتهم الى قسمين منفصلين بمجرى النهر فبعضهم اتمّ العبور في حين كان يهمّ الآخرون بعبوره. واعطى اشارة [لديماريتوس] ليهجم بخيالته على القرطاجنيين حتى يوقع الخلل في صفوفهم قبل ان يلمّوا شعثهم وينتظموا في نسق المعركة. ثم انحدر بنفسه الى السهل واضعاً السيراقوزيين في القلب مع أقوى وأصلب الجنود المرتزقة يحيطون بشخصه ثم أنتظر قليلاً ليرى ما يحققه هجوم خيالته. وتبين له أن العجلات الحربية التي كانت تجرى ذاهبة آيبة امام الجيش، لم يقتصر عملها هذا على منع الخيالة من الالتحام بالقرطاجنيين، بل كانت ترغمهم على الدوران لئلا تخترق صفوفهم وتمزقها، ثم يعودون فيصولون مجدداً. فما كان منه إلاّ أن قبض على ترسه وصاح بالمشاة أن يتبعوه بثقةٍ وشجاعة وبدا وكأنه يكلمهم بلهجة لا بشرية، وبصوت أقوى من الاصوات الاعتيادية. والأمر سواء أكان صوته قد ارتفع تلقائياً بالحماسة والحمية اللتين ابتعثهما تصميمه على قتال العدوّ، أو أن ربّا من الأرباب كل تحت لسانه - كما خيل لكثيرين، فإن جنوده رددّوا صدى صيحته وطلبوا أن يدفع بهم الى قلب المعركة فوراً فأعطى الخيالة اشارة الانسحاب من الجبهة الأمامية حيث توجد العجلات وكرّ على الأعداء

من الزاوية ليكون الهجوم من المجنبة. وثبت قدمه جيشه الأمامية برص الرجال ووضع الترس لصق الترس. وأمر بأن ينفخ في النفير وهجم.

تلقى القرطاجنيون الهجمة الأولى وثبتوا لها. فان جسومهم كانت مغطاة بالزُرد الحديدية ورؤوسهم محمية بالخوذ النحاسية، فضلاً عن تروسهم الكبيرة التي كانت تردّ عنهم طعنات الرماح اليونانية. لكن لمّا احتكم الجمعان الى السيوف، والتفوق فيها يعتمد على البراعةِ لا القوة وحدها. ولمّا سمع هزم رعود قاصفة مصدرها قمم الجبال، تخللتها ومضات بروق تخطف الأبصار، وأعقبها حلول ظلام داجن حام برهةً فوق المرتفعات وذرى الجبال ثم هبط لنشر جناحيه على ميدان القتال حاملاً معه عاصفة مطرٍ وريحٍ وبَرَد. اندفعت هذه العاصفة الى الاغريق ومسّت ظهورهم مَسّاً ثم مضت واناخت بكلكلها على وجوه البرابرة. وانثال المطر عليها وبهر البرق الاعين، فصعب الأمر على القرطاجنيين وأسقط في يدهم، شأنهم في هذا شأن كل مستجدّ في هذه العوارض لأنهم لم يتعوّدوها، لاسيّما هزيم الرعد ودويّ زخات المطر، والضجّة التي تنشأ عن اصطدام البرد بالأسلحة والدروع المعدنية مما حال دون سماعهم أوامر ضباطهم والى جانب هذا كان الطين من أصعب العوائق للقرطاجنيين. لأن تجهيزاتهم لم تكن بالخفيفة، فقد أرهقوا أنفسهم كما ذكرتُ بالدروع الثقيلة. ثم أن قمصانهم الداخلية أشبعت بالماء، كما أمتلأت به ثنيات صُدُرهم فأثقلتهم وأعاقت حركتهم في القتال، وسهلت على الأغريق أن يطرحوهم ارضاً فلا تقوم لهم قائمة اذ يتعذر عليهم القيام وأسلحتهم بأيديهم من فرط ثقل الحديد. وارتفعت مياه[كريميسوس] أيضاً بفعل الأمطار، والحاجز الذي اعترض مجراه من أعداد العابرين الوفيرة. فطغى على الضفاف وانساح في السهول المجاورة التي تشقها الأخاديد والسواقي النازلة من سفوح المرتفعات، وملئت ماءً فآضت مجاري ونهيرات لا مسالك معينة لها، فتعثر فيها القرطاجنيون وتاهوا في شبكتها ووجدوا أنفسهم في أخطر مأزق. وبمختصر القول العاصفة تصبّ عليهم جام غضبها والأغريق اتمّوا ابادة اربعمائة مقاتل من خطوطهم المتقدمة. وانكفأ الجيش على الأعقاب وراح ينهزم، فلحق المنتصرون باعداد كبيرة منه واعملوا فيها حَدّ السيّف أما البقية فقد أتجهت الى النهر وأخذت تعبر الى الضفة الأخرى فأصطدم جنودها بالوحدات القادمة من وسط النهر فجرفهم التيار وأغرقهم. ولكن القسم الكبير منهم حاولوا الصعود الى المرتفعات والإحتماء بها. فأدركتهم وحدات العدو الخفيفة وقضت عليهم. وقيل أن ثلاثة آلاف[٢٧] من بين عشرة آلاف قتيل كانوا من المواطنين القرطاجنيين، خسارة فادحة ونكبة عظيمة لقومهم! فهؤلاء القتلى كانوا من خيرة مواطنيهم

(٢٧) يقول [ديودوروس ١٥:٨] ان عدد القتلى بلغ الفين وخمسمائة.

حسباً وثروةً وجاهاً. ولم يسجل تاريخهم قطّ مثل هذا العدد من القتلى القرطاجنيين في اي معركة لهم قبل هذه لأنهم عادةً يستخدمون الأفارقة والاسپان والنوميديين في حروبهم، فاذا هزموا فإن الغُرم والأذى يقع على عاتق الأقوام الأخرى.

واتضح للاغريق حالاً مكانة القتلى وحالتهم الاجتماعية من نفاسة الغنائم لأنهم عندما بدأوا بجمعها - لم يأبهوا لا بالحديد ولا بالنحاس، فالمعادن الأكثر نفاسةً كانت كثيرة، وكانت رؤية الفضة والذهب أمراً اعتيادياً. وأمّا عن الأسرى فقد سُرق الجنود عدداً كبيراً منهم وبيع خلسةً، ومع هذا فقد جيء بحوالي خمسة آلاف وسلّموا للمسؤولين للمنفعة العامة. وأغتنم مائتا عربة حربية ايضاً. وبدت خيمة [تيموليون] بأفخم وازهى منظر فقد ملئت بشتى أنواع الأسلاب وعلقت في جوانبها مختلف التذكارات الحربية والزينات منها ألف درعٍ صدريّ ذي صنعة دقيقة وجمالٍ أخاذ، وتروس يبلغ عددها عشرة آلاف. ولم يكف عددُ المنتصرين لعملية تجريد القتلى من سلاحهم. ولنفاسة الغنائم وكثيرتها تأخرت اقامة النصب التذكاري للمعركة، ثلاثة ايام. وبعث [تيموليون] بابناء انتصاره الى كورنث مع أفضل وابدع الأسلحة المغتنمة، شاهداً واثباتاً. ورفع اسم بلاده عالياً في ارجاء الدنيا. ولهج الناس بالثناء عليها اذ يررا معابدها وحدها دون سائر المدن اليونانية الأخرى. مزدانة مكتظة بما انتزع من البرابرة أعداء الشعب الأغريقي عنوةً واقتداراً لا بغنائم وتقدمات سلبوها من بني الأغريق الآخرين. نتيجة سفك دماء اخوانهم والاعتزاز عندما يرون امثال هذه الأقوال مكتوبة عليها: لقد انتشل الكورنثيون وقائدهم تيموليون أغريق صقليه من عبودية القرطاجنيين، ولهذا فانهم يقدمون الى الأرباب هذه القرابين اعترافاً بجميل فضلهم وامتناناً منهم وهي عبارات تنمّ عن عدالة الفاتحين فضلاً عن شجاعتهم.

بعد أن أكمل تيموليون عمله هذا، أبقى الجنود المرتزقة في اراضي العدو لمصادرة وحمل كل ما يجدونه في المناطق الخاضعة لقرطاجنة وساق بقية الجيش عائداً الى [سيراقوز] وأصدر ساعة وصوله أمراً بنفي الجنود المرتزقة الألف الذين تخلوا عنه بدناءةٍ، وانفصلوا عن جيشه قبيل المعركة. وأرغمهم على مغادرة المدينة قبل مغيب الشمس. فابحروا الى ايطاليا وهناك ابادهم [البروتيون] الى آخر نفر رغم عهد الأمان الذي قطعوه لهم. وهكذا لاقوا جزاءهم العادل من القوى الالهية على خستهمّ وغدرهم. على أن [مامیرقوس] ومن بعده [هيستيس] جددا حلفهما مع القرطاجنيين ربما بدافع الغيظ من انتصارات تيموليون، أو لتأكدهما بأنه ممن لايمكن التفاهم معه ولا المهادنة وان لا وجه للقاء بينه وبين الطغاة. وأشتدّ الحاحهما على حليفتهما بارسال جيش وقائدٍ جديدين الى صقلية. إلاّ اذا قامروا بخسارة كل

شيء. أو في حالة تخليهم نهائياً عن الجزيرة. فبعثوا بالقائد [غيسكو Gisco] على رأس عمارة بحرية قوامها سبعون بارجة. تحمل عدداً كبيراً من جنود الأغريق المرتزقة. وكان هذا اول تطوع لهم في خدمة القرطاجنيين. والظاهر أن مستأجريهم كانوا معجبين بهم يعلقون آمالاً جساماً على بأسهم وشدّة مراسهم. وتمّ توحيد قوات الحلف في [مسينا]. وفي تلك المناطق تمكنوا من الفتك باربعمائةٍ من مرتزقة تيموليون. ونصبوا كميناً أيضاً لجميع المرتزقة الآخرين الذين كانوا بقيادة [يوثيموس Euthymus] [الليوقادي Leucadian] في موضع من المستعمرة القرطاجنية يقال له [هيراي Hierae][٢٨] وافنوهم. كانت هذه الحادثة أقوى دليل على رعاية الحظ لتيموليون فهؤلاء القتلى وكانوا من جماعة [فيلومليس Philomelus] وفوكيس Phocis وانومارخوس Onomarchus] الذين أقتحموا معبد ابوللو في دلفي وشاركوهم في الكفر والتجديف[٢٩]. فجفاهم الكّل ونبذوهم كما ينبذ الملاعين فأضطروا الى التجوال في أرجاء البلوبونيسوس بلا هدف أو عملٍ حتى ضمهّم تيموليون الى حملة صقلية بسبب حاجته الى الجنود وحالفهم النجاح في كل المعارك التي خاضوها تحت أمرته. حتى زالت الأخطار الجسيمة. فاذا بآجالهم تحين عند ارساله اياهم لإسناد قطعاته الأخرى، فيهلكوا جميعاً وتذهب ريحهم بعيداً عن تيموليون، بجماعات وشراذم صغيرة هنا وهناك، وبهذا تحقق الانتقام الالهي الذي كتب عليهم وكان خادماً طيعاً للحظ الذي ما برح يحرس تيموليون مانعاً كل أذى واحجاف عن أخيار الرجال اثر عقاب ينزل بالأشرار، إن حرص الآلهة على رعاية البركات والنعم التي أدخرتها لتيموليون كان عظيماً في حالتي النجاح والفشل والسعد والنكد.

كان التحقير والاهانات التي عاناها السيراقوزيون من الطغاة، أشدّ وقعاً عليهم من كل الاضطهادات الآخر. خذ مثلاً [ماميرقوس]، كان هذا الطاغية الكثير الزهو بنفسه والاعتداد بموهبته في نظم الشعر والتراجيديا انتهز فرصة تقديمه للآلهة تروس الجنود المرتزقة الذين فتك بهم، ليفخر بانتصاره في هذين البيتين البذيئين:

---

(٢٨) ليس ثم موضع في صقلية بهذا الاسم. وربما كان المقصود (هيتي) وهي قلعة ذكرها الكتاب الاقدمون.

(٢٩) بدأت في السنة الأولى من الاولمپياد المائة والثمانية. وكانت اسباب نشوبها كما يلي: فرض أهالي امفكيتون على أهالي فوكيس غرامة ثقيلة بسبب اجتياحهم ونهبهم أراضي [كيّرا الموقوفة على ابوللو. فعجز هؤلاء عن دفعها فصودرت اراضيهم كلها وأوقفت على أبوللو. فجمع [فيلونيلوس] الأهالي وحرضهم على نهب كنوز معبد دلفي واستخدامها لاستئجار جنود للدفاع عن انفسهم. وقد جرّ هذا الى حرب السنوات الستّ. هلك خلالها معظم من حلّت عليه لعنة ابوللو حسب تعبير ديودورس ١٦:١٥ و ٢٧ و ٦٠]. فقد هوى فيلوميلوس من منحدر فهلك. واتومارخوس الذي خلفه في القيادة قتله جنوده وعلقوه على صليب. واخوه فايالوس مات بآكلة داء الصدر. ولم تخلص نسوتهم من اللعنة لأنهن لبسن الحلى التي نهبت من المعبد.

هذه التـــروس[٣٠] المزدانة بالذهب والأرجــوان والعـــاج
انما غنمـــانـاً من حــــربنا مع أناس فـــقــــراء!

ثمّ عندما زحف تيموليون الى كالاوريا Calauria]، بادر [ايكيتس] بالاغارة على تخوم سيراقوز فضم مقداراً كبيراً من الأسلاب وعاث فيها فساداً وأحدث كثيراً من التخريب ثم قفل عائداً الى [كالاوريا] مستخفاً بتيموليون وقوته الضعيفة التي كانت معه اذ ذاك. فلم يعترضه بل تركه يتقدمه مسافةً، ثم لحق به بفرسانه مشاته الخفيفة، ولما أدرك [هيسيتيس] ان العدوّ يتابعه بادر الى عبور نهر [داميرياس Damyrias][٣١] وتوقف وصَفَّ جنود للقائه وكانت مواضعه جيدةً منيعة اشاعت في نفسه الثقة فقد أفاد من وعورة الممرّ وارتفاع الضفتين وشدّة انحدارهما. وفي تلك الاثناء وقعت مشادة غريبة بين الضباط على اسبقية الهجوم، اذ لم يكن واحد منهم يرغب أن يكون زميله سبّاقاً عليه والجميع يدعون بحق التقدم على سائرهم في القتال. وكان من المحتمل جداً أن يغدو عبورهم النهر فوضى تامة ويختلّ حبل النظام بتكالبهم وتزاحمهم. لذلك قرر تيموليون تسوية الأمر بالقرعة وأخذ من كُلّ مطالب بالحق خاتماً وجمعها في ذيل عباءته وهزّها، وشاء القدر أن يكون أول خاتم أخرجه ذا نقش يمثل نصباً تذكارياً لانتصارٍ على شكل ختمٍ. فهتف الضباط فرحاً ولم ينتظروا حكم الخطّ في البقية وانما مضى كل منهم لطيته وعبروا النهر باسرع ما يمكن وحملوا حملة واحدة على العدوّ الذي لم يحتمل عنف الهجوم وأطلق السيقان للريح تاركاً سلاحه مع ألف قتيل في ميدان القتال.

واستعجل تيموليون الزمن، فزحف على مدينة [الليونتينيين] وأخذ هيسيتيس وابنه [يوبوليموس Eupolemus] وقائد خيالته [يوثيموس] أحياء. اذ ان جنودهم انفسهم قدموهم الى تيموليون مقيدين بالحبال. وقتل [هيسيتيس] وابنه لكونهما من الطغاة والخونة، ولم يجد [يوثيموس] رحمة ولا غفراناً ولم تشفع له شجاعته الذائعة الصيت. لأنه متهماً بسب الكورنثيين وإهانتهم عند أول نزول لهم في صقلية. فقد أثر عنه انه قال لأهالي [ليونتيين] في خطاب له حول نزول القوات الكورنثية: إن الأنباء ليست مخيفة. ولا خطر يحسب حسابه من جراء: «خروج نساء الكورنثيات من منازلهن!»

حقاً إن التعريض المهين والكلام البذيء الفاضح أشدّ وخزاً وأبعث على الحقد في نفوس الرجال من أعتداء اليد واعمال السوء أنّ الناس لايعبرون على الإهانة بقدر ما يعبرون على الجراح. والضرر والأذى الفعلي الذي يوقعه الخصم قد يمكن اغتفاره ففي حالة الحرب لايتوقع

(٣٠) وهي التروس التي أخذت من معبد دلفي.
(٣١) أو «لاميرياس» فالفرق بين نطق A الاغريقية و A اللاتينية خفيف جداً.

أقلّ من هذا. في حين ان قارص الكلام وفاحشه قد يبدو مظهر كره وحقد لا ضرورة له، نابعٌ عن الافراط في الحقد والتمادي في الاضطغان.

لما عاد تيموليون الى سيراقوز دفع المواطنون بزوجات هيسّيتيس وبناته وابنه الى المحاكمة الشعبيّة وحكموا على الجميع بالموت. ويبدو أن هذا العمل كان أقل أعمال تيموليون تشريفاً في حياته فلو انه تدخل، لحَفَظَ حياة هؤلاء النسوة التاعسات. وظاهر الحال يؤيد انه لم يقم للأمر وزناً وسلمهم للجماهير التي كانت متحرقة لأخذ ثار [ديون] الذي طرد ديونيسوس، فان [هيسيتيس] قبض على زوجه [أريته Arete] وأخته [اريستوماخه Aristomache] وابنه الذي لم يتعد دور الحداثة والقاهم في اليمّ وهم أحياء، كما فصلنا ذلك في سيرة [ديون]. ثم توجه الى [كتانا] لقتال [ما ميرقوس] والتحم معه في معركة قرب نهر [ابولوس Abolus] (٣٢) وهزمه فهرب من وجهه بعد أن خلفّ أكثر من ألفي قتيل منهم عدد كبير من الفينقيين الذين أرسلهم [غيسكو] نجدةً له، وعلى أثر ذلك طلب القرطاجنيون عقد الصلح فأجيب طلبهم واتفق الجانبان على الشروط التالية: أن يكون نفوذ القرطاجنيين قاصراً على الحدود التي يرسمها مجرى نهر [ليكوس Lycus] (٣٣)، وان لايمنع السكان الراغبون في النزوح الى اراضي سيراقوز من الرحيل مع ذويهم وأموالهم. وان تتعهد قرطاجنة بقطع كل ارتباط والغاء كل اتفاق لها مع الطغاة. ولم يجد [ماميرقوس] اليائس المنبوذ إلاّ أن يستقل سفينة للابحار الى ايطاليا، مستهدفاً حضّ [اللوكانيين Lucanians] على حرب تيموليون وسيراقوز. إلاّ ان بحارة السفينة عادوا بها من حيث أتت وسلموا مدينة [كتانا] الى تيموليون، فاضطر [ماميرقوس] الى الفرار خوفاً على حياته واللجوء الى [مسينا] حيث يحكم [هبّو Hippo] الطاغية. فتقدم تيموليون والقى الحصار على المدينة من البرّ والبحر وخشي [هبّو] سوء العاقبة وحاول الافلات خلسة من طوق العدو باحد السفن إلاّ أن أهالي [مسينا] فاجاؤها قبل اقلاعها وامسكوا بالطاغية، ثم جمعوا أولادهم من المدارس كافةً وجاؤوا بهم الى الملعب ليشاهدوا منظر انزال العقوبة بالطاغية المتجبر. ضربوه أولاً بالسياط، ثم قتلوه علناً. واستسلم [ماميرقوس] الى تيموليون بعد أن تعهد له هذا بأن تجري محاكمته في سيراقوز، وان لايشارك تيموليون في الاتهام. فاقتيد الى المحاكمة بناء على ذلك ووقف ليجيب عن التهم امام الشعب المحتشد وباشر في القاء خطبة أعدها من قبل تتضمن الدفاع

(٣٢) بطليموس وآخرون يسمونه Alabus او Alabis او Alabon وهو قريب من [هيبله] بين [كاتانا] و[سيراقوز].

(٣٣) ربما نقل بلوتارخ الاسم كما وجده عند [ديودورس ٨٢:١٦] إلاّ ان المؤرخين الآخرين يطلقون عليه أليكوس أو هاليكوس. ولعل القرطاجيين أضافوا اليه «أل» أو «ها» التعريف الخاصة بلغتهم.

عن نفسه. فقوطع بالضجيج والهتاف العدائي. ولاحظ من سلوك العامة واشكالهم أن لا أمل فيهم فألقى عباءته جانباً وأسرع يعدو في أرجاء الملعب باقصى ما يطيق. ثم نطح صخرة في أسفل المقاعد قاصداً القضاء على حياته، إلاّ أنه لم يفلح واخطأ الموت الذي اراده، فقبض عليه واذيق ميتة اللصوص وقطاع الطرق.

بهذا قطع [تيموليون] أعصاب الطغيان ووضع حداً للحروب. كانت صقلية في أوّل نزوله تسبح في بحر من الفوضى، وكانت أمورها قد أختلتّ الى حدٍ كره أهلها السكنى فيها ونزحوا عنها تخلصاً من الشرّ والبؤس. فما لبث تيموليون أن أصلح من شأنها. وأعاد اليها مظاهر الحضارة والمدنية وجعلها قبلة انظار الجميع، ومطمحهم، وتقاطر اليها الاجانب من شتىّ الامصار للسكنى في المدن والبلدان التي تركها أهلها قفرا يباباً. وأكتظت مدينتا [اگريگنتوم Agrigentum وغيلا Gela] الشهيرتان بالسكان ثانية وكان القرطاجنيون قد خربوهما وهدموهما بعد الحروب الآتيكية. عَمّر الأولى منهما [ميجيللوس Megellus وفيريستوس Phirestus] الاليائيان. وعمر الثانية [غُرغُس Gorgus] السيوسيّ. وأجتمع فيهما سكانهما الأصليون الذين أعيد جمعهم من شتى الانحاء، ونازحون جدد من الخارج. ولم تكن مهمة تيموليون قاصرة على تأمين العيش الآمن المستقرّ للجميع بعد هذه الحرب الضروس، وانما تعداه الى بذل المعونة ومديدّ المساعدة لهم. ولذلك لُقبّ بمؤسس البلاد. وكان هذا الشعور يسود أهل صقلية كافةً. وأستولى عليهم اعتقاد وهو انه لا سبيل للسلم يسلك ولا اصلاح للقوانين ولا توزيع للأراضي الزراعية ولا اعادة لبناء اجهزة للحكم يتم بل ولا اي شيء حسن يتحقق الاّ اذا كان تيموليون طرفاً فيه أو كان مهندسه الأول. ليقوم على انجازه واحكام صنعه. أو هندمته بلمسات دقيقة أخيرة من يده ليغدو جميلاً في عين اللّه والانسان.

انّ بلاد اليونان أنجبت في ذلك العهد عدداً من عظماء الرجال وعباقرتهم. وأشتهروا كثيراً بجلائل الأعمال من الامثال [تيموتيوس Timotheus وآغيسيلاوس Agesilaus وپيلوپيداس Pelopidas واپامننداس (النموذج المحتذى الأول لتيموليون). إلاّ أن جلال خير أعمالهم تضاءل بالشدة والجهد العسير الذي بذل فيها (باستثناء الضرورة التي الجأته الى قتل أخيه) إلاّ وينطبق عليه شعر [سوفوكليس] كما لاحظ طيماؤوس:

ايتها الآلهة! ماذا فعلت ڤينوس بل ماذا فعلت النعمة الالهية، باجتماعهما معاً في الأعمال البشرية!؟».

فكما يظهر الجهد والتعب والزخرفة في شعر انتيماخوس Antimachus(٣٤)، ورسوم

(٣٤) شاعر ملحمي. من كولوفون وهي مدينة آيونية. نبغ أيام سقراط وأفلاطون ونظم قصائد حملت اسم =

[ديونيسيوس][٣٥] وتُحفُ [كولوفون Colophon] مع انها تزخر بالحركة والقوة، اذا ما قورنت باشعار [هوميروس] ورسوم نيقوماخوس[٣٦] التي تتضمن سحراً عجيباً الى جانب قوتها وجمالها العام - ذلك السحر الغريب المتأتي من سهولة عملها وبداهته كما يظهر للمتأمل لأول وهلة، كذلك كانت أعمال وحملات [اپامنداس واغيسيلاوس] العسكرية، يظهر فيها الجهد الكبير والمشقة اذا ما قورنت باعمال [تيموليون] السهلة الانجاز المنقادة طبيعياً... والنبيلة الاهداف أخيراً. وهذا ما يُرغم اجتهادنا العادل غير المتحيزّ على الحكم بأن اعمال [تيموليون] ليس مبعثها الحظ وانما هي نجاحات للمؤهلات المحظوظة، وان كان هو بالذات يعزو ذلك النجاح الى محاباة الآلهة له ليس إلاّ. ولذلك تجده يقول في رسائله الى اصدقائه الكورنثيين وخطبه في أهالي سيراقوز: انه ليشكر الآله الذي خلصّ صقلية، وشاءت ارادته أن يشرفه باسم ولقب «المنقذ» الذي تلطف عليه به. ولهذا بنى في منزله هيكلاً يضحيّ فيه لآلهة الحظّ التي حبته بعطفها. وأوقف المنزل نفسه على «الروح القدس».

كان المنزل قد اختاره السيراقوزيون له هديةً وصرحاً تذكارياً لمآثره وبطولاته. كما منحه قطعة أرض من أفضل وأجمل الاراضي في البلاد. وكان يقضي فيهما جلّ ايامه مستمتعاً بحياة خاصة هادئة مع زوجه وأولاده الذين استقدمهم من كورنث، لأنه لم يعد الى وطنه قطّ لعزوفه عن اضطرابات بلاد اليونان ونزاعاتها، أو لأنفته من تعريض نفسه للغيرة العامة (وهو أخطر الأذى الذي يتعرض له كبار القادة عادةً ويتأتى من شهوتهم الى الرفعة والسلطان التي لا تقف عند حدٌ)، وكان حكيماً في اختياره قضاء بقية أيامه في صقلية لينعم بقسط من آثار أعماله. وأعظمها طُراً مشاهدته ذلك العدد الكبير من المدن تنمو وتزدهر وتعمر بالألوف العديدة من الناس. وهم يحيون حياة رغيدة راضية بجهوده ومساعيه.

وعلى كلّ حالٍ فان قول [سيمونيدس] «لا مفرّ من قيام عَرْفٍ على رأس كلّ قبرّة» ليس قاصراً على هذا المثل وحده، بل ينطبق على كل نظام ديمقراطي، فلابدّ أن يبرز فيه معارض مزيف ومتهم كذاب. وكذلك كان الأمر في [سيراقوز] اذ انبرى اثنان من الخطباء الجماهيريين

= مدينة ثيبة Thebiad.

(٣٥) كان رسّاماً. ولذلك سمي بالانتروپوكرافوس (پلين ٣٥:١٠). ويخبرنا ان نيقوماخُس كان يرسم بيد سريعة ماهرة وان لوحاته كانت تباع بما يعادل ثمن بلدة! اتفق معه اريستراتوس طاغيه سيراقوز على رسم صورة ولم يكن يبدو أنها ستحتاج الى كثير من الوقت. إلاّ أن نيقوماخس تباطأ ولم يقدم الاّ بعد ايام موافقاً على القيام بالرسم. إلاّ ان الطاغية نقم عليه لامبالاته وفكر في عقابه. لكن الرسام اكمل عمله خلال المدة المتفق عليها وبلغ فيه الابداع بحيث نال رضى الطاغية.

(٣٦) توفي في العام ٣٢٧ ق.م بعد أن حكم صقلية ثماني سنوات [ديودورس ١٥:٩٠].

وهما [لافيستيوس Laphystius وديميانتوس Demaenetus] وأنشأ يفتريان على تيموليون ويشوّهان سمعته وطلب أولهما منه أن يتعهّد بالإجابة على التهم التي ستوجه اليه. وأبى تيموليون أن يتدخل الجمهور في الاجراءات القضائية أو يعمل على ايقافها مدفوعاً بسخطه واستنكاره وحجته في ذلك أنه ما خاض هذه الحروب الطاحنة، وتكبد تلك المشاق والأخطار إلاّ للوصول الى هذه الغاية اي ان يكون لكلّ مواطن الحقّ في الرجوع الى القانون بكلّ حرية عندما يشاء. وعرض [ريمنيتسوس] للشعب لائحة بعدد من التهم ضده عن أعمال عزاها اليه عندما كان قائداً للجيش. فلم يجب تيموليون بشيء خلا قوله انه مدين بالكثير للآلهة لانها حققت له رجاءً طالما ناشدها انجازه. وأعني به أن يعيش ليرى السيراقوزيين وهم يتمتعون بحرية القول، وهي تبدو الآن وكأنها ملك يمينهم.

وهكذا اعترف الجميع انه قام بأشرف ما قام به أي أغريقي معاصر له وأشتهر وحده وبرّز في تلك الأعمال التي أعتاد فلاسفه الأغريق وخطباؤهم سردها ليحمّسوا ويرفعوا بها معنويات ابناء جلدتهم في سائر خطبتهم وتقاريضهم التي يلقونها في الاجتماعات الدينية القومية. وقدم دليلاً دامغاً على حكمة ادارته وشجاعته بمواجهة البرابرة وبانسحابه المسبق من مصائب الحروب الأهلية التي ما لبثت أن أجتاحت بلاد اليونان، وتجنيب صقلية الدماء دون أن يلحقها عيب أو أن تلوث سمعته، يقابل ذلك عطفه على الأغريق وعلى اصدقائه بصورة عامة. كذلك تقديمه تلك التذكارات التي غنمها في معارك لم يسفك في أغلبها دم كورنثي أو سيراقوزيّ واحد. فجنبهم ذرف الدموع ولبس الحداد، زد على ذلك انه انتشل صقلية في غضون أقل من ثماني سنوات من عللهم المتأصلة وفسادهم الداخلي ودفع بها حُرّةً الى ايدي أهلها.

وطعن في السنّ وبدأ يشعر بضعف في بصره لينطفيء تماماً بعد زمن قصير، لم يحرم الرؤية لازورار الحظّ عنه ولا لإقدامه على عمل كانت نتيجة تلك العاهة، بل هو ضعف وراثي داخليّ ظهر بشكل طبيعي فيه بمرور الزمن. فلقد قيل أن عدداً كبيراً من اقربائه وافراد اسرته تعرضوا لهذا الضعف الذي تفاقم بهم، حتى فقدوا ابصارهم مثله في أواخر حياتهم. ويحدثنا [اثانيس] المؤرخ ان بقعة بيضاء صغيرة نزلت على انسان عينه ايام كان يقود الحرب ضدّ [هيوّ وماميرقوس] ومنها أمكن الجميع ان يتكهنوا باقتراب العمى منه. إلاّ ان ذلك لم يمنعه من مواصلة الحصار وادارة دفة الحرب حتى وقع الطاغيتان في قبضته إلاّ أنه أعتزل منصب القائد الأعلى حال رجوعه الى سيراقوز وطلب من المواطنين اعفاءه من أي تكليف آخر. ولاسيّما بعد تحسنّ الأحوال وسيادة الأمن والاستقرار. ولم يكن ثم ما يدعو الى العجب لإحتماله مصيبته برحابة صدر ودون ان تبدر منه اشارة الى نفاد الصبر أو الضيق. إلاّ ان

الاحترام والاعتراف بالجميل الذي أظهره له السيراقوزيون بعد فقده بصره - يستحّق اعجابنا والحق يقال. اذ اتخذوا لهم عادة في زيارته أفواجاً وجماعات وكانوا يصحبون الاجانب من الزائرين الى منزله ومزرعته ليسرّوا أيضاً بمشاهدة منقذهم النبيل. وكان حجّهم هذا مصدراً من مصادر سعادتهم وغبطتهم. لقد تعلق هو الآخر بالأرض التي حررها، وأبى إن يستمتع بعودة الظافر الى اليونان بعد بطولاته وانتصاراته ولم يقم وزناً للاستعدادات الفخمة التي اتخذت في الوطن لاستقباله، وآثر البقاء حيث هو وانهاء حياته فيها. وأسمى ما أكرم به تيموليون وأكبرها دليلاً على منزلته في نفوس السيراقوزيين، أنهم اصدروا قانوناً يحتم عليهم الا يستعيروا الاّ خدمات جنرال كورنثيّ في حالة اشتباكهم بحرب مع بلاد أجنبية. ومن مظاهر التشريف النبيلة التي اتبعوها في مجالس اداراتهم العامة مما يقوم شاهداً على مدى أحترامهم له، أنهم كانوا ينشدون ابداً مشورته في الأمور الهامة المعقدة، ولايستغنون عن رأيه في الأزمات، أما المسائل الصغرى فكانوا يعالجونها بأنفسهم. وفي تلك المناسبات كان ينقل الى الملعب محمولاً على محفّة وهو جالس. فيمرّ في الساحة العمومية وعندما يستقرّ في الملعب يحيّيه الجمور كلّه باسمه المجرد، فيردّ على تحيتهم ويصمت برهة لتنقطع هتافاتهم وتمنياتهم الطيبة له. ثم يرهف اذنه الى مواضيع المناقشة ويدلي برأيه، وبعد أن يوضع في الاقتراع العام وتتم الموافقة يرفعه الخدم الى المحفة ويخترقون به المواطنين المجتمعين خارجاً وهتافهم وتهاليلهم تدوي من الجانبين. وبعد انصرافه يعودون الى النظر في الأمور الثانوية. كذا كان حبّه متأصلاً في النفوس وهو على حافة قبره. كان حبّاً مشبعاً بالاحترام والحنان الواجب للأب الذي والد الكلّ.

ثم ان وعكة جدّ بسيطة انتابته إلا انها كانت كافية لانهاء حياته بمعونة الزمن. وأعلن عن تخصيص ايام معينة يتفرغ السيراقوزيون في أثنائها الى تهيئة كل ما هو واجب وضروري لتشييعه، ولافساح المجال أيضاً لمشاركة السكان المجاورين والأجانب في المراسيم. وكان يحفّ بالجنازة كلّ مظاهر العظمة والأبهة والروّعة وزين النعش بتذكارات الحرب وغيرها من الحلى وحملته نخبة من الشبان ووضعوه على البقعة التي كان [ديونيسوس] قد شيد فوقها قلعته فجاء هو وقوضهما. وحضرت المراسيم ألوف مؤلفة من الرجال والنساء وقد ضفروا اكاليل الزهر على رؤوسهم وارتدوا الثياب الجديدة النظيفة حتى بدأ التشييع وكأنه عيد شعبيّ. وكانت كلماتهم ودموعهم التي تمتزج بالمديح والدعوات لتيموليون الراحل، تظهر أن ولاءهم لم يكن مجاملةً وتكريمهم ليس ارغاماً وجبراً بل هو تعبير عن حزن حقيقي وأظهار لحبهم الصادق. أخيراً وضع النعش فوق كومة من الخشب وأشعلت فيه النار. وفي أثناء ذلك بدأ

[ديمتريوس] أعلى المنادين صوتاً، يقرأ البيان العام التالي:

«أصدر أهل سيراقوز مرسوماً يقضي بدفن [تيموليون ابن تيموديوس الكورنثي] على نفقة الخزينة العامة وخصص مبلغ مائتي مينا لذلك. ووضع جوائز سنوية تخليداً لذكره، تمنح للفائزين في مباريات الموسيقى وسباق الخيل وغيرها من الرياضات البدنية، لأنه كسر شوكة الطغاة وهزم البرابرة وعمر المدن الرئيسة بسكان جدد بعد أن هجرها أهلها. وأعاد للأغريق الصقليين نعمة الحياة الحرة وميزة العيش وفق شرائعهم الخاصة».

وتمادوا في تكريمه وتخليد ذاكره، فبنوا له ضريحاً في الساحة العامة. وأحاطوه فيما بعد بصفوف من الأعمدة، ثم الحقوا به معاهد رياضية للشباب، يمارسون فيها مختلف الالعاب البدنية، وأطلقوا عليها اسم [تيموليونتيوم Timoleonteum]. وظلوا يحافظون على شكل الادارة والنظام الحكومي(٣٧) والقوانين والدساتير التي وضعها لهم وعاشوا زمناً طويلاً يرفلون في بحبوحة من الرخاء والدّعة(٣٨).

---

(٣٧) من قوانينهم التي صاغها ديوقليس، بقي بعضها يمارس وتتعلق بصورة خاصة بالوصايا والعقود. اما بخصوص الواجبات والحقوق المدنية التي غيرها الطغاة أو صادروها فقد صححها أو أعادها. وقد طلب في هذا الصدد معاونة كيفالوس [ديودوروس ١٦:٨٢].

(٣٨) انقطع هذا الازدهار بعد ٣٠ سنة تقريباً بالفظائع التي ارتكبها اغاتوكلس الذي نصب نفسه طاغية على سيراقوز.

إميليوس پاولوس

ÆMILIUS PAULUS

في ترجمة لونگهورن وترجمة كوليز وردت المقدمة التي صدرها پلوتارخ لسيرة تيموليون هنا.



أجمع المؤرخـون كـافـةً أن أسرة «إمـيلي Aemilii» هي أحد الأسر الرومـانيـة الپـارتـريشـيـة العريقـة. ويخبـرنا أولئك المؤرخون الذين يؤكـدون بأن [نوما] الملك كـان تلميذاً [الفـيثـاغورس] أن أوّل من خلف اسمـاً لذريته هو [ماميرقوس] ابن [فـيثـاغـورس] الفيلسـوف الذي كان يلّقب «إميليـوس» ارشاقته وليـاقته في الكلام. واقبل الحظّ ايضـاً على معظم سلالته الدين ارتـفعوا الى مـصاف العـظمـاء لكفـاءاتهم وقـابليـاتهم. حتـى سوء الحظّ الذي لازم [لـوشيوس پاولوس] في معـركـة [كـايّني][1] فـهـو دليل على حكمـتـه وبسـالتـه. فـبـعـد أن عـجز عن أقناع زمـيله بالعـدول عن المجازفـة في مـعـركـة، شـارك مـعـه في الهـجـوم إلاّ انه لم يـكن زمـيله في الفـرار، بالعكس فقـد صمد في الميدان وقـتـل وهو يحارب في حين تخلّى عنه من كان شديد العزم على الاشتبـاك، وكـان [لاميليوس] هذا، بنت اسـمـهـا [اميليـا] تزوجت [سـكـيـپـيو الكبيـر]، وابن اسمه [پاولوس] وهو موضوع سيرتي هذه.

في مطلع رجـولتـه التي صـادفـت عـهـداً اشـتـهـرت فـيـه رومـا بنشـاهـيـر الشـخـصـيـات، تميز اميليوس، بابتـعـاده عن العلوم والدراسات التي أعتـاد تلقيـها الشبـان الوجهـاء، ولم يسلك الى الشـهـرة السـبل نفسـهـا. لأنه لم يمارس الخطابة لكي يمتهن المرافعـة في قضـايا النـاس، ولم يؤثر عنه الانحنـاء عند التـحـيـة أو العـنـاق أو مـصـاحـبـة الدهمـاء تزلفـاً لهم. وهذا كلّه من الوسـائل المعتـادة للتقرب الى الناس وخطب ودّهم، لا لأنه قـاصرٌ عنها، بل لكونه اختـار الاستئثـار بمجد البطولة والاستقامـة والصلاح وهي اسمى الأمجاد وأكثرها خلوداً وفي هذه الفضائل ما لبث أن بزّ كلّ اقـرانـه. وكـانت وظيـفـة [الايـديل] الكريمة أوّل مـا تقلّده. فـقـد تنافس عليـهـا ضَدّ اثني عـشر مرشحـاً بلغت كفـاءاتهم ومؤهلاتهم حداً انهم تسنمـوا فـيـمـا بـعـد منصب القنصليـة كافـة بالتـعاقـب. ثم أنتـخب فـيـمـا بـعـد الى صنف الكـهنة الذين يعـرفون [بالاوغـور][2]، ووظائفهم

(١) إعتباراً من لوشيوس اميليوس الذي كان قنصلاً في ٤٨٣ ق.م وهزم الڤولسكيين حتى لوشيوس پاولوس والد پاولوس اميليوس الذي قتل في كـاني ٢١٥ ق.م كان قد أشـتـهـر عدد كبـيـر من أفراد هـذه الأسرة بانتصاراتهم ونجاحهم الاداري.

(٢) كـان بإمكان الاوكـور (العـراف) ان يحـبط اي عـمل من الاعـمـال العـامـة أو ان يجـيـزه بزعم بزعم ان الاسـتخارة موآتية أو غير مـوآتية. وفي معـهد الاوكور هذا يدخل معظم الپاتريشـيـيـن الذين يرغبون فـي =

عند الرومان أن يراقبوا ويسجلّوا النبوءات المستخلصة من مسّار الطير، أو معجزات الفضاء ولذلك تفرغ الى دراسة عادات بلاده القديمة دراسة دقيقة، وتمكن من أسرار دين اسلافه حتى ارتقى بوظيفته التي كانت مجرد لقب شرفٍ يُطلب لنفسه، الى مرتبة من الصناعة والفن عالية جداً بمجهوده الخاصّ واثبت صحّة التعريف الذي وصفه الفلاسفة للدين بوصفه «علم عبادة الآلهة»[٣] وكان يحرص عند قيامه باي واجب ديني على الدقة والمهارة، ويتفانى فيها كأنما لا يشغله في الدنيا غيرها. وهو لا يحذف من الشعائر جزءً مهما ضؤل ولايضيف شيئاً مهماً قلّ بل كان يشدد على زملائه من الطائفة أن يلتزموا حتى بما قد يبدو تافهاً ويشتد في توصيتهم بأن توهمهم بسهولة تهدئة غضب رب من الأرباب واستعداده للصفح عن الأخطاء غير المقصودة، لا ينفى كون اي تراخٍ واهمال هو خطر شديد على السلامة العامة اذ لم يبدأ أي شخص قط في الاخلال سلامة بلاده بخرق شرائعها خرقاً شنيعاً. وان من يهمل في الجزئيات يوجد سابقةً وتعلّه للإهمال في الكليات والواجبات الهامة. ولم يكن أقل من هذا تشدداً في تطلبه مراعاة النظام الروماني القديم في الأمور العسكرية. وعندما تولى القيادة لم يبذل اي مجهودٍ في تعزيز مكانته بين الجنود[٤] والتحبب اليهم بخطب ودّهم ومجاملتهم في حين كان هذا عادة جرى عليها كثيرٌ من القادة في ذلك الزمن. ففي فترة قيادتهم الأولى يظهرون المحاباة والتردد للمادون كي يضمنوا لأنفسهم فترة ثانية. على انه استعاد لبلاده عظمتها الغابرة وسؤددها بتلقين الرومان قوانين الضبط العسكري بالعناية والدّقة التي يستخدمها الكاهن في تدريسه اصول الشعائر والأسرار المرعبة. وبصرامته في معالجة أمر كل من يخرق تلك القوانين أو يعتدى عليها مقداراً ان النصر على الأعداء هو بحدّ ذاته نتيجة لاحقة للتدريب الصحيح، والنظام الدقيق.

بينما كان الرومان مشتبكين في حربٍ مع أنطيوخوس الأكبر[٥]، مستخدمين ضدّه عدداً من خيرة قادتهم وأكثرهم تجارب، نشبت حرب أخرى في الغرب، وضجّت أسبانيا بقعقعة السّلاح[٦]. أرسلوا اليها [اميليوس] برتبة [بريتور] لا بستة فؤوس، وهو العدد الذي يتقدم

= الانصراف الى العمل السياسي.

(٣) انظر افلاطون «افثيفرون».

(٤) الجنود الرومان يتمتعون بحقوق المواطنة الرومانية ولهم أن يدلوا باصواتهم في كل الشؤون المدنية والعسكرية ذات الشأن.

(٦) بدأت الحرب مع انطيوخس الكبير ملك سورية في حدود العام ١٩٢ ق.م اي بعد معركة كاني باربع عشرة سنة. وكان يقود الجيوش الرومانية كلابريو ثم الأخوان سكيپيو بعده. وقد ارتضى أكبرهما أن يكون مجرد معاون لأخيه [ليڤي ٣٧:١].

اصحاب هذه الرتبة عادة ،إنّما بأثني عشر فأساً، لذلك كان في منصبه البريتوري يتمتّع بمظاهر سلطان القنصل. وهزم البرابرة في معركتين[٧] وقتل منهم ثلاثين ألفاً: ويعزى نجاحه هذا أساساً الى حكمة القائد وادارته. فبمهارته العظيمة في أختيار أصلح ارضٍ وبمباشرته الهجوم في معبر أحد الأنهار حقق لجنوده نصراً سهلاً. وبعد ان سيطر على مائتين وخمسين مدينة وبلدة خضع له أهاليها تلقائياً وربطوا أنفسهم بقسمٍ على الطاعة والولاء، غادر الاقليم والسلم يخيم عليه وعاد الى روما دون أن يضيف الى ما يملك درهماً واحداً من الحرب وكان في الواقع وبصورة عامة لا يكترث لجمع المال وان كان يعيش دوماً عيشة باذخة مسرفة على ما يملك وهو ليس بالكثير، حتى انه لم يخلّف حين وفاته ما يكاد يفي بصداق امرأته.

كانت [پاپيريا Papiria] أولى زوجيه. وهي بنت [ماسو Maso] الذي كان قنصلاً فيما مضى. عاش معها زمناً طويلاً في رباط الزوجية ثم طلقها مع أنها انجبت له ابنين من انبل الابناء، فهي أمّ [سكيپيو] الشهير، و[فابيوس ماكسيموس]. ونحن لا ندري سبب انفصالهما هذا. إلاّ أن جانب الحق الذي يبدو في حكاية ذلك الروماني الذي طلق زوجه قد يفسّر لنا السبب في قضيتنا هنا: كان هذا الروماني موضع لومٍ شديدٍ من اصدقائه، وراحوا يسائلونه: أليست هي عفيفة؟ أليست هي جميلة أليست هي ولوداً؟» فرفع نعله وسألهم «أليس هو جديداً؟ أليس هو جيد الصنع؟ ومع هذا فلا أحد منكم يدري اين يؤذيني.» ومما هو مؤكد أن الاخطاء الكبيرة والفاضحة لا تؤدي الى انفصال الزوجين في كثير من الأحيان. في حين يكون مجرد المضايقة الخفيفة المتكررة الناجمة عن التنافر في الطبع أو سبباً للفرقة. ففي هذه الحالة يتعذر على الرجل والمرأة العيش معاً في أي درجة من الوئام.

وبعد أن ترك [اميليوس] [پاپيريا] بنى بزوجه الثانية فأنجبت له ولدين رباهما في منزله. وحوّل الولدين الآخرين إلى أعظم وأشرف أسرتين في روما. فالأكبر[٨] تبناه [فابيوس ماكسيموس] الذي تقلد منصب القنصلية خمس مرات ورباه في بيته. والثاني كفله ابن [سكيپيو افريقانوس] وهو ابن عمّته، فسماه [سيپيو].

أوَاعن بنيته فإحداهن تزوجت ابن [كاتو Cato] والثانية تزوجت [ايليوس توبيرو Aelius Tubero] وهو رجل فاضلٌ جداً ويعد بين الرومان خير من جمع بين الجود والفقر. وكان لديه

---

(٧) يتكلم ليفي (المرجع السالف ٥٧) عن معركة واحدة ناجحة. فيها أخترق ايميلوس پاولوس الاستحكامات الاسپانية وفتك بثمانية عشر الفاً وأسر ثلاثمائة.

(٨) اتخذ له اسم كونيتس فابيوس اميليانوس. وهو اب الخطيب الشهير [كوينتس فابيوس] وكذلك أخوه افريقانوس الأصغر أو الثاني الذي ازال قرطاجة من الوجود في ١٠٥ ق.م. فقد أتخذ هو الآخر اسم اميليانوس.

ستة عشر قريباً كلهم صلبيوّن من أسرة [ايلي Aelii] لا يملكون غير حقل واحدٍ كان يكيفهم العيش، ويسكنون في بيت صغير واحدٍ أو كوخٍ بالأحرى يأويهم مع ذريتهم الكثيرة وزوجاتهم، ومن بينهن بنت [اميليوس] صاحبنا. ولم تكن تخجل من فقر زوجها مع ان اباها تقلد منصب القنصل مرتين، وأستقبل استقبال الفاتحين مرتين. بل كانت تفخر وتعتز بسجاياه التي ابقته فقيراً والأمر يختلف أختلافاً بينًا عند الأخوة والأقارب في مثل سنه. فان لم تفصل ما بين ميراثهم ارض واسعة أو أنهار وجدران على الأقل فتجعلهم بعيدين بعضهم عن بعض، فإن الشجار والخصام لا ينقطع فيما بينهم. إن التاريخ - والشيء بالشيء يذكر- يقدم نماذج من هذا النوع لأولئك الذين يعتبرون ويرغبون في التعلم والصلاح.

ونعود الى موضوعنا فتقول: بعد أن أختير [اميليوس] قنصلاً خرج الى حرب [الليغوريين Ligurians] [٩] أو الليغوستينيين Ligustines] وهم قوم يسكنون بالقرب من جبال الألب، أشتهروا بالإقدام وكثرة الحروب بدأ يُكسِبهم جوارُهم من الرومان مهارة في فنون الحرب. وكانوا يشغلون القسم الأقصى من ايطاليا المنتهي بسفوح الألب وتلك الأجزاء من الألب التي تلامس مياه بحر التوسكان وتواجه افريقيا يساكنهم على الساحل الغاليون والايبريون. وكانوا في ذلك الزمن قد وجهّوا إهتمامهم الى البحار ووصلوا في ملاحتهم حتى «اعمدة هرقل» - بسفن خفيفة تناسب أغراضهم وهي القرصنة ونهب وتدمير كلّ ما يمرّ بهم في تلك الأنحاء. هؤلاء انتظروا قدوم [اميليوس] بجيش قوامه اربعون ألفاً، أي خمسة أضعاف الجيش الروماني الزاحف إلاّ ان اميليوس تغلّب عليهم والجأهم الى الفرار واضطرهم الى الاحتماء بأسوار مدنهم. وعرض عليهم وهم في وضعهم هذا، شروط صلح كريم. اذ كان من سياسة الرومان أن لا يقضوا قضاءً تاماً على الليغوريين لأنهم أشبه بحرس أو سَدٌّ يحول دون مختلف محاولات الغاليين التوغل في ايطاليا. وبثقة تامة من [اميليوس] سلموا اليه مدنهم وسفنهم. فأبقى على الأولى، ولم يتعرض بالهدم إلاّ لتحصيناتها واعادها اليهم إلاّ انه صادر السفن ونقلها معه تاركاً فحسب، تلك المراكب التي لا يزيد عدد مجاذيفها عن ثلاثة، وأطلق سراح عددٍ كبيرٍ من الأسرى الذين استولوا عليهم براً وبحراً رومانيين وأجانب. تلك هي أجدر أعماله بالذكر في فترة قنصليته الأولى.

وبعد هذا ألح كثيراً الى رغبته في تجديد قنصلية فترة ثانية، ورشحّ مرة وعندما قوبل ترشيحه بالرفض، وتخطاه الناخبون صرف النظر عن الرغبة بصورة باتة وتفرغ لواجبات كهانته وتثقيف أولاده الذين لم يكتف بتنشئتهم كما نشأ هو على أصول التربية الرومانية القديمة،

(٩) ليفي [٤٠:٢٥] كان ذلك في السنة التي تلت انتخابه قنصلاً.

وإنّما بتعليمهم على الأصول اليوناني، وأبدى في ذلك إهتماماً فائقاً للعادة. فجاء باساتذة لتعليمهم النحو والمنطق والبلاغة، فضلاً عن معلمين للرسم وضع التماثيل، ومدربين في الفرودسيّة والكلاب، وأساتذة لرياضة الساحة والميدان، كلهم من بلاد اليونان. ولو لم تعقه شؤون الدولة لانضمّ اليهم في دراساتهم وأشرف على انجازهم تمارينهم، لقد كان خير أب في روما وأشدهم حُبّاً باولاده.

في المحيط السياسيّ لتلك الفترة من الزمن كانت الحرب بين الرومان وبين [پيرسيوس Perseus][١٠] ملك مقدونيا، تحتل مركز الصدارة. وكانت الأصوات في روما تجأر بالشكوى والتذمر الشديدين من قوّادهم[١١]. فهؤلاء كانوا يديرون أمور الحرب بشكل يبعث الأسى والخجل. لإفتقارهم الى الحنكة والشجاعة حتى أن الخسارة التي يلحقونها بالعدوّ كانت أقل بكثير مما ينالون منها على يده. أولئك الذين أرغموا منذ زمن غير بعيد - انطيوخوس الأكبر على الجلاء عن بقية آسيا[١٢] والانسحاب الى ما وراء جبال طوروس، والاقتصار على سورية مسروراً لشرائه الصلح بخمسة عشر الف تالنت[١٣]. أولئك الذين لم يمر زمن طويل على انتصارهم على [فيليب] الملك في [تسالي] وتحرير الاغريق من النير المقدوني[١٤] لا بل انتصارهم على [هنيبعل] نفسه ذلك الذي فاق كل الملوك في البأس والسلطان بمدى بعيد، وأعتبر الرومان سُبّةً وعاراً عليهم أن يجد [پيرسيوس] نفسه نداً للرومان وقريناً قادراً على شنّ حربٍ ضدهم على قدم المساواة لمدة طويلة بما تبقى فقط من قوات أبيه المدحورة. جاهلين ان فيليب بعد هزيمته قد رفع كثيراً من مستوى الجيش المقدوني قوةً ونظاماً.

أتخذ [انتيغونس Antigonus][١٥] لنفسه ولعقبه لقب ملك وهو أقوى وأبرز قادة [الاسكندر] وخلفائه. وكان له ابن يدعى [ديمتريوس]، أنجب ابناً سماه [انتيغونس] عرف بلقب [غوناطاس Gonatas] وخلف هذا بدوره ابناء دعاه [ديمتريوس] مات بعد ان حكم فترة قصيرة واورث الملك لابنه الصغير [فيليب] ولخوف رؤساء المقدونيين من وقوع فوضى عظيمة

---

(١٠) كانت الحرب المقدونية الثانية مع [پرسيوس] قد بدأت في العام ١٧١ ق.م.

(١١) هؤلاء القادة هم: پاولوس ليچينيوس كراسوس، تلاه اميليوس هو ستيليوس مانچيتوس، ثم كونيتس مارشيوس فيليوس الذي مدّ في أجل الحرب طويلاً. من خلال سنوات قنصلياتهم الثلاثة.

(١٢) قبل ذلك بسبع عشرة سنة.

(١٣) يقول ليڤي بل أثنا عشر الفاً تدفع باقساط متساوية خلال اثني عشر عاماً [المرجع السالف ٣٨: ٣٨].

(١٤) نهض فلامنينوس (انظر سيرته) بهذه المهمة. فأهلك ثمانية آلاف من رجال فيليب في ساحة القتال وأسر خمسة آلاف. بعدها أرسل منادياً يبشر بنبأ عودة الحرية الى بلاد الاغريق.

(١٥) انتيغونس هذا فتك بـ[اقمينس] وانتزع (بابل) من يد (سلوقوس) وبعد ان دحر ابنه ديمتريوس اسطول بطليموس كان أول من لبس التاج من بين خلفاء الاسكندر وأتخذ لقب ملك.

في البلاد، جراء حداثته، استدعوا ابن عمٍ لابيه المتوفى يدعى [انتيغونس] أيضاً وزوجوه بالأرملة والدة [فيليب]، وجعلوه أول الأمر وصياً وقائداً للجيش فحسب. ولما وجدوا بالتجربة أنه يحكم المملكة بعدلٍ ويحقق لها الخير منحوه لقب ملك. وهذا هو الذي عُرف بلقب [دوسون Doson](*) كأنما كان واعداً جيداً ومُنجزاً سيئاً. وخلّفه [فيليب] في الملك وكان في شبابه قد أظهر ما يبشر بآمال كبيرة في أنه سيضاهي خير الملوك. وانه سيعيد لمقدونيا يوماً ما منزلتها وعظمتها السالفة. وسيثبت انه الرجل الوحيد القادر على الحدّ من السلطان الروماني الذي قويت شوكته وارتفع وامتد ليشمل الدنيا. إلاّ أن نيته خابت عندما حلت به الهزيمة أمام [تيطس فلامينيوس] في معركة حاسمة بالقرب من [سكوتونيا Scotussa]، ووضع نفسه وكلّ ما يملك تحت رحمة الرومان، مغتطباً لتمكنه من الخلاص بدفعٍ غرامة زهيدة. ولكن ما لبث أن ضاقت نفسه ذرعاً بالأمر ولم يطق عليه صبراً فبعد أن راحت السكرة وجاءت الفكرة - وجد نفسه يعيش أكثر شبهاً بالعبد المستسلم للراحة، من الحرّ الشجاع العاقل، يحكم مملكته وفق إهداء الفاتحين وبحسب مشيئتهم، فتركز كل افكاره في الحرب ودفعته الى الأستعداد لها بكلّ ما وسعه من حيلة وخفاءٍ. ولهذا ترك مدنه الواقعة على الطرق الخارجية دون حاميات، وجرّد سواحل بلاده البحرية من الحراسة حتى بدت مهجورة، إظهاراً لعدم اهتمامه بها. بينما راح في الوقت نفسه يحشد قوات كبيرة في المناطق العليا من البلاد، ويمدّ نقاطه العسكرية الداخلية وقلاعه ومدنه بالمال والسلاح والرجال القادرين على حمل السلاح يُعدّ بها عدته للحرب. إلاّ انه أبقى استعداده هذا سراً. وكان قد اختزن في مستودعاته الحربية ما يكفي لتسليح ثلاثين ألفاً. وفي اهرائه ومواقعة الحصينة أحتكر ثمانية ملايين بوشلاً من القمح. ومبالغ ظائلة من المال تكفي لصرف رواتب ونفقات عشرة آلاف من الجنود المرتزقة يدافعون عن البلاد لمدة عشر سنوات. وقبل أن يضع فكرته هذه موضع التنفيذ أو يفيد من استعدادته العسكرية قضى نحبه حزناً وتأنيبَ ضمير، بعد أن أدرك هول ما فعل بقتله ابنه البريء [ديمتريوس] بسبب وشاية شخص أكثر اجراماً، أو أورث ابنه الثاني [پيرسيوس] الذي خلّفه على العرش، كرهه للرومان، إلاّ انه لم يكن كفوءاً لتحقيق مأربه لافتقاره الى الشجاعة ولسوء طباعه. وكان الطمع في مقدمة امراض نفسه وأخطائها. وهناك أيضاً رواية تتضمن طعناً في نسبه. خلاصتها أن امرأة فيليب الملك أخذته من أمّه الحقيقية [غناثينيون Gna-thaenion] (وهي امرأة أرغوسية تعيش على مهنة الخياطة) فور وضعه، وقدمته لزوجها على انه ابنه، وربما كان هذا السبب الرئيسي لدسّه على [ديمتريوس] وموته اذ كان لا شكّ

(*) دوسون معناها ذلك الذي سيعطي.

يخشى أن ينكشف عن ميلاده الوضيع طالما يوجد خلف شرعيّ في الأسرة.

وبصرف النظر عن هذا، ورغم خلقه الوضيع وطباعه الدنيئة فقد وضع ثقته في قوة موارده وشن حرباً على الرومان واستمر بها سجالا وقتاً طويلاً يصّد خلالها الهجمات، بل حتى يهزم بعض القادة من ذوي الرتب القنصلية وبعض الجيوش والاساطيل الكبيرة. وهزم [پوبليوس ليچينيوس Publius Licinius] أوّل من غزا مقدونيا، في معركة خيالة[١٦] وقتل الفين وخمسمائة من الجنود المدربين واسر ستمائة. وباغت اسطولهم وهو ملق مراسيه امام [اوريوم Oreum] [١٧] فاستولى على عشرين سفينة حمل موسقة بحملها وحطم ما كان محمّلاً بالقمح واستولى على أربع بوارج ذوات طبقات مجاذيف اربع. وخاض معركة ثانية ضدّ هوستيليوس وهو قنصل عسكري، اثناء توغله في البلاد وأجبره على التقهقر بعد قتال ضارٍ بالقرب من [اليميائي Elimiae]. وتحدّاه مرة أخرى للقتال عندما دبرّ غارة تسلليّة على (تسالي) فخاف هوستيليوس النتيجة وأبى القتال. ومضى أبعد من هذا أظهاراً لازدرائه بالرومان ورغبة في اشغال نفسه خلال فترات وقف الحرب معهم، فحمل على الدردانيين Dardanians وقتل من هذا الشعب البربري عشرة آلاف وحمل عنهم غنائم كثيرة. وتمادى، ففاوض الفاليين [ويسمون أيضاً باستيرني: Basternae] سراً وعقد معهم حلفاً. وهؤلاء شعب محارب أشتهر بالفروسيّة كان يسكن مشارف الدانوب. واستمال (الألليريين Illyrians) بوساطة ملكهم [گنتيوس Genthius]. للإنضمام اليه في الحرب. وذكرت الأخبار أيضاً أن البرابرة يهمّون بغزو ايطاليا من بلاد الغال الجنوبية القريبة من ساحل الأدرياتي[١٨]، باغرائهم بالوعود والمكافآت.

وعند ما أحيط الرومان علماً بهذه الأمور وجدوا ان الضرورة تقضي بألاّ يتمّ أختيار قادتهم بعامل المحاباة والرجاء والتوسط. بل المبادرة الى انتخاب جنرالٍ ذي كفاءةٍ وحكمة للتصرف في الأمور الجُسام. وكذلك كان پاولوس اميليوس. فمع تقدمه في السن ومشارفته على الستين، فقد ظلّ قوي البدن، غنياً باولاده وأختانه الشجعان، فضلاً عن العدد الكبير من أقربائه واصدقائه المتنفذين وكلهم اجتمعوا عليه يلحّون لكي يستجيب الى رغبة الشعب الذي

(١٦) قدم لنا ليڤي وصفاً لهذه المعركة في آخر كتابه الثاني والاربعين. عرض (پرسيوس) الصلح على المندحرين بشروط سهلة كأنما هو المغلوب. إلاّ ان الرومان رفضوها. اذ كان من مباديء الرومان أن لا يعقدوا صلحاً وهم مغلوبون.

(١٧) في اڤبويا.

(١٨) انظر پوليبيوس. وهو كاتب معاصر. يروي عما حصل في السفارة التي بعث بها [پرسيوس] لقد حاول ايضاً مع [يومينيس] ملك بثينيا وأرسل وفداً الى انطيوخوس ملك سورية قائلاً ان الرومان اعداء جميع الملوك على حدّ سواء الاّ أن يومينيس طلب الفاً وخمسمائة تالنت فتوقفت المفاوضات. وقد أحدثت المفاوضات بحدّ ذاتها جفوةً بين الرومان وبين صديقهم يومينيس ولم يستفد منها پرسيوس.

دعاه لقبول منصب القنصل. فأبدى في أول الأمر احجاماً وخجلاً من الشعب واراد أن يتخلص من الحاحهم مظهراً تردده في تولي المنصب. ولكنهم ظلوا يتوافدون على منزله يومياً ويقفون على بابه طالبين منه الخروج والذهاب الى مقرّ الانتخاب، ويشتدون في الالحاف عليه بالصياح والهتاف، حتى نزل الى رغبتهم. وعندما بدا بين المرشحين، بدا وكأن ظهوره ليس للادعاء بالمنصب بل ليجيئهم بالنصر والنجاح، هكذا بدا عندما دخل مخيّم الاجتماع. فأستقبله الجميع بالأمل والغبطة العظيمين وأختاروه بالاجماع قنصلاً للمرة الثانية ولم يصبروا على اجراء الاقتراع كالعادة حول الاقليم الذي سيكون من نصيبه وانما أعلنوه في الحال، قائداً للحرب المقدونية. وقيل أنه بعد صدور الأمر بتعيينيه قائداً ضد [پرسيوس] وتكريم الجمهور العظيم بمرافقته الى منزله وجد بنته الطفلة [ترتيا Tartia] تبكي فجذبها اليه وسألها عن سبب بكائها فطوقت عنقه بذراعيها وقالت وهي تقبله:

- الا تدري يا أبي أن [پرسيوس] مات؟

تقصد كلباً صغيراً بهذا الاسم ربي معها في الدار. فأجاب اميليوس :

- فأل حسن يا ابنتي، واني لأتقبّلها كما أتقبّل نبوءةً!

لقد ذكر شيشرون Cicero الخطيب هذه الحكاية في كتابه عن «النبوءات»(١٩).

جرت العادة أن يرتقى القناصل الذين تمّ انتخابهم منصّة معدّة لذلك الغرض والقاء خطبة على الجمهور يضمنونها شكرهم وامتنانهم لما حبوهم به من الثقة. وهكذا اجتمع لاميليوس جمهور لسماعه فكان مما قاله:

- عندما رشحت نفسي لمنصب القنصل أول مرة فاني كنت في حاجة الى التكريم انا نفسي. أما الترشيح للمرة الثانية فلأنكم كنتم فعلاً في حاجة الى جنرال، ولهذا لا أرى ما يدعوني الى تقديم الشكر لكم.

فاذا حكمتم بأن في مقدوري ادارة شؤون الحرب بصورة أكثر فائدة ونجاحاً، بشخص آخر غيري فاني متنازل له عن طيب خاطر. واذا وضعتم ثقتكم الكاملة بي فعليكم ألاّ تنصبوا من أنفسكم زملاء لي تشاطرونني الوظيفة أو تنتقدون أعمالي أو تقدموا تقارير، بل عليكم أن تعملوا بدون كلام - على إمدادي بالوسائل الضرورية والمعونة الواجبة للاستمرار في الحرب. أو لو كان قصدكم أن تتولوا قيادة قائدكم فان هذه الحملة ستكون أخيب من سالفتها.

---

(١٩) يقول ليڤي [٤٤:١٧] بعكس ذلك.

وأشاع بهذه الخطبة إحتراماً عميقاً له في نفوس المواطنين، كما بعث آمالاً عراضاً في النجاح المقبل. وسُرَّ الجميع لأنهم تخطوا الطامحين الى المنصب والباحثين عنه بالتملق والمداهنة، ليستقر قرارهم على قائد له من الحكمة والشجاعة ما يكفل قوله الحقيقة والمصارحة مهما كانت مؤلمة. الى هذا القدر كان الرومان يحنون هاماتهم في طاعة القنصلية والمعقولات، ولولا ذلك لما حكموا الدنيا وغدوا أسيادها.

ويمم اميليوس وجهه شطر الحرب فوراً. وأنطلق مسرعاً الى معسكر جيشه في رحلة موفقة خالية من الأخطار رعاه خلالها طالع سعوده؛ على اني حين أتامل بحسن نهاية الحرب تحت قيادته، فلا يسعني إلاّ استبعاد الحظّ من تلك الاعمال المجيدة والمآثر السامية. (لا مثلما عزوت اليه أعمال قادة آخرين) وأن كان قد أشتهر للغاية بحسن الحظّ. إن انتصاراته كانت حصيلة جرأته الفائقة، واصالة افكاره، وتوجيهه الحازم لأتباعه واصدقائه وحضور بديهته، ومهارته في أختيار أصلح الآراء وأجدر المشورات في احرج ساعات الضيق والخطر العظيم. هذا ان لم يذهب بي الرأي الى أن جشع [پرسيوس] وحبه الشديد للمال كان بمثابة مطلع يمن لأميليوس. والحق يقال أن حرص [پرسيوس] على ماله قضى بالدمار والخراب التام على كل الاستعداد الحربي العظيم الرائع الذي أصعد آمال المقدونيين الى درجة الايمان بكسب الحرب لا محالة. فقد دعا عشرة آلاف من [الباستيرني] وكل واحد منهم يلازمه واحد من المشاة[٢٠] وكانوا كلهم جنوداً محترفين لا يعرفون غير القتال صناعة وتجارة، ولا غرض لهم إلاّ التغلّب على من يقاومهم. ولا يفقهون شيئاً من الزراعة أو ملاحة السفن أو الرّعي. وصل هؤلاء مديكا[٢١] وضربوا خيامهم فيها وأمتزجوا بجنود الملك. وكانوا ضخام الأجسام يمارسون تمارين عجيبة، كثيري المباهاة، يوقع اصواتهم الجهيرة الرعب في قلوب العدوّ. وكل هذا رفع معنويات المقدونيين الذين اعتقدوا حالاً بأن الرومان لن يصمدوا أمامهم، وسيصابون بذعر وهلع لمنظرهم الغريب وحركاتهم المتسمة بطابع القوة والعنف. بعد أن بث [پرسيوس] الحماسة في نفوس جنوده وانعش آمالهم. تقدم رؤساء الجيش الحليف يطلبون من [پرسيوس] ألف قطعة ذهبية لكلّ واحدٍ فذهل وطار صوابه لجسامة المبلغ. وما لبث أن انسحب عنهم وحرم

(٢٠) وصف ليڤي [٤٤:٢٦] هذه الخيالة وصفاً جيداً الى جانب جندي المشاة المرافق أذ يقول «أقبل عشرة آلاف خيّال ومثلهم من المشاة يسايرون الخيالة خطوةً بخطوةٍ. ما ان يفقد احد الخيالة حصانه حتى ينضم الى المشاة» وقد تبنى الرومان هذا التنظيم في صنف الوحدات الخفيفة وأطلقوا عليه اسم Velites بناء على اقتراح السنتوريون [كوينتوس ناڤيوس] اثناء حصار [كاپوا] في الحرب الفينونية الثانية [ليڤي ٢٦:٤]. ما ان علم پرسيوس بقدوم الباسكرناي حتى ارسل انتيغونس لاستقبال ملكهم كلودنديقوس فقال هذا ان الغاليين لن يخطوا خطوة واحدة دون ان يدفع لهم المال. فرفض پرسيوس ذلك لفرط بخله وقصر نظره.

(٢١) منطقة ميديكو في تراقيا تقع بين نهري ستريمون ونيسوس (أونستوس).

نفسه من معونتهم. وكان بهذا أشبه شيء بوكيل أملاك للرومان لا عدواً لهم. وكيل عليه أن يقدم حساباً بنفقات الحرب لمن شنّ عليهم الحرب، بل وكأن خصومه اساتذة يلقن على ايديهم ما يفعل، وهم الذين حشدوا له مائة ألف مقاتل دفعةً واحدة، ناهيك باستعداداتهم الأخرى. لقد كان يواجه هذا الجيش اللجب في حرب عظيمةٍ تضمّ هذا العدد الضخم من المحاربين، ومع هذا لم يبذل شيئاً من ماله بل ختم على خزائنه. وأستبد به الخوف من مسّها حتى لكأنها ملكُ لغيره. هذا ما فعله رجل لا هو باللّيدي ولا بالفنيقيّ، بل رجل له حق الادعاءِ بالانتماء الى [الاسكندر] و[فيليب]، وتصله بهما وشائج النسب. إن الرجال الذين فتحوا العالم كانوا يرون أن الامبراطوريات يجب أن تشرى بالمال، لا أن يُشرى المال بالامبراطوريات. ومما جرى مجرى الامثال قولهم: «إن مدن اليونان لم يفتحها [فيليب] بل فتحها المال». ولما زحف الاسكندر بجيشه على الهند، ولاحظ بطئاً في مسيرة المقدونيين لما أثقلوا به أنفسهم من غنائم الفُرس بدأ فأشعل النار في عرباته، وحمل الآخرين على احتذاء حذوه. وبتخلصهم من هذه الأثقال أمكنهم الانطلاق الى المعركة دون عائق. أمّا [پرسيوس] فلم يدفع الغائلة عن نفسه وأولاده ومملكته بجانبٍ صغيرٍ من أمواله وكنوزه الطائلة، وأختار أن يحمل أسيراً مع عدد آخر من مواطنيه بأسم «الأسرى الاغنياء»، ليُري الرومان الأموال الطائلة التي جمعها وادّخرها لهم. إنه لم يكتف بمخاتلة الغاليين، واعادتهم من حيث أتوا. بل بعد أن أشبع [گنثيوس] ملك الايلليرين بالوعود ومنّاه بثلاثمائة تالنت لقاء مساعدته في الحرب، أمر أن يحصى المبلغ بحضور رسُله وان تختم حقائبها. وعندها ظنّ [گنثيوس] ان المال أصبح ملكاً له، فبادر الى ارتكاب عملٍ قبيح مخجلٍ بقبضه على سفراء روما وحبسهم. فاطمأن [پرسيوس] ورأى انه لم يعد بعد بحاجة الى دفع المال [لگنثيوس] لشراء عدائه للرومان بعد أن صنع بسفرائهم ما ولد عداءً ابدياً وورطه في حرب لا مناص منها بهذا الغدر الفاضح. وهكذا احتال على الملك البائس فسلبه تالنتاته الثلاثمائة، دون اي وازع من ضمير. وشاهد طرده هو وزوجه وأولاده من مملكته كما تطرد الطيور من عشها - بالجيش الذي ساقه الرومان عليه تحت قيادة [لوشيوس آنيشيوس] (٢٢).

لم يتهوّل اميليوس خصمه بل لم يقم له وزناً في الواقع، الاّ أنه أعجب باستعداداته وقوته. اذ كان قد عبّأ أربعة آلاف من الخيالة وما يناهز أو يكاد اربعين ألف راجل. بشكك سلاحٍ كاملة للكراديس المقدونية المعروفة بالفلانكس Phalanx نشرهم في مواقع تحاذي الساحل

---

(٢٢) أنظر ليفي [٤٤: ٣٠ و٣١] دامت الحملة ثلاثين يوماً فقط ووصلت انباؤها روماً قبل ان عرفت التفاصيل. ومن اسم غيتوس هذا اشتق اسم عشب الجنطيانا لأنه أوّل من أكتشف مرارته المفيدة [پليني ٢٧:١٧].

على سفح جبل الأولمپ في أرضٍ لا منفذ اليها من كل الجهات، أحكم تحصينها بالمواقع والعوائق الخشبية فأضحت منيعة يصعب اقتحامها. وكان [پرسيوس] يأمل أن يغلب خصمه اليأس والتعب بالتأخير. وكثرة الإنفاق. إلا أن اميليوس كان في هذا الوقت بالذات يعمل الفكر ويزن الآراء ويقلب في ذهنه إمكانات الهجوم ووسائله. ولقد وجد جنوده ناقمين متذمرين من تأخير الهجوم، بسبب إفتقارهم الى الضبط والربط العسكريّ وهم يهتبلون كل فرصة للتدخل وتعليم قائدهم واجباته! فانحى عليهم تقريعاً وتوبيخاً، وحظر عليهم التدخل فيما لايعنيهم، ونبههم الى الاهتمام فحسب باليقظة والاستعدادهم وسلاحهم بصورة مستمرة. وان لايستعملوا سيوفهم. بوصفهم رومانيين إلاّ عندما يرى قائدهم ذلك. كما أنه منع الحرس الليلي من اصطحاب رماحهم الثقيلة عند قيامهم بنوبات خفارتهم، ليكونوا أكثر انتباهاً، وأقوى على مغالبة النوم حين لايوجد سلاح فعّال في يدهم يدافعون به عن أنفسهم اذا فاجأهم العدو.

وكان شحّ الماء مصدر ضيق الجيش الرئيس. فما توفر منه وهو نزر مجّ يصدر أو بالأحرى ينزل بقطراتٍ من ينبوع قريب للبحر. ورأى اميليوس أن يعسكر فوق سفح جبل الاولمپ الشاهق المشجرّ. ومن نموّ الغابات الكثيف وازدهارها استنتج وجود مياه جوفية ذات مجارٍ باطنيّة فحفر عدداً كبيراً من الآبار والحُفَر على طول قدمة الجبل ما لبث الماء أن نبط منها نقياً عذباً وفاض منها الى السواقي التي حفرت لها والاحواض التي رتبت لاستقبالها. في الواقع هناك بعض من ينكر وجود صهاريج ماءٍ ممتلئة في باطن الأرض في المواضع التي تنبثق منها الينابيع وانها عندما تنبثق يسيل ماؤها ويتحدرّ ليس إلاّ. انهم ينكرون ذلك ويزعمون أن هذا المخزون من الماء انما يكون أوّل تكوينه واجتماعه من تميعّ المواد المحيطة به وأن هذا التغيير يتمّ بالضغط والبرودة، عندما تتبخر الرطوبة ويشتد الضغط على البخار يصبح مائعاً. مثل اثداء النساء فهي لا تشبه الأوعية الملأى بالحليب معدّ ومهيأ دائماً للسيلان. وإنما يتغير غذاؤهن في اثداؤهن، الى حليبٍ ويسيل خارجاً بالضغط. وكذلك الحال في المواضع الباردة الغنيّة بالينابيع، فهي لا تحوي أيّ مياه جوفية أو صهاريج لتزويد كل البحيرات والانهار العميقة الغور كأنما تستمّد الماء من مصادر لاتنضب قطّ. إلاّ أنها تكثف الأبخرة والاهوية وتضغطها وتحيلها الى تلك المادة المائعة. ولذلك تجد الماء يندفع بهذا الضغط في الأمكنة التي تحفر وتفتح، وتعطي من الماء بقدر ما يترطب البخار ويتميّع (مثل ما تحتلب اثداء النساء عند الضغط عليها) في حين ان الاراضي المهجورة التي لا تحفر، تعجز عن انباط الماء لأنها تحتاج الى الحركة التي هي سبب التميع. إلاّ أن أصحاب هذا الرأي يتيحون الفرصة للمرتابين بقولهم

- يجب والحالة هذه وللأسباب نفسها الاّ يوجد دمٌ في الأجسام الحية وان الدماء يجب أن تتكون بالجراح اي أن نوعاً من الروح أو اللحّم يتحول الى مائعٍ أو مادةٍ سائلة! زد على ذلك أن تعليلهم تدحضه الوقائع العملية فالناس الذين يحفرون انفاقاً سواء في أوقات الحصار أو بحثاً عن المعادن، قد يصادفون انهاراً لم تجمع ماءها شيئاً فشيئاً (كما يقضي التعليل، أي اذا كان تكوينها يتم في اللحظة التي تثغر الأرض) بل تتدفق فجأة باندفاع كميات عظيمة من الماء بعنف ثم يقف التدفق فجأة كما يُرى كثيراً عند قطع صخرةٍ. ولنترك هذه المسألة.

ظلّ اميلليوس ساكناً عدة أيام. وقيل لم يحدث أن جيشين عظيمين كانا متقاربين بهذه الدرجة، هادئين ساكنين بهذه الدرجة. وعندما استنفد تجربة كل شيء، وقلب وجوه النظر في كل الانباء والمعلومات. أبلغ بوجود ممر واحدٍ فقط تُرك دون حراسة[٢٣] يقع في [پيرّبيا Perrhabia] بالقرب من بثيوم وپترا. وتغلب فيه عامل الأمل بترك العدو هذا الموضع من غير دفاع على عامل التخوف من وعورة الممرّ وصعوبة اجتيازه فأمر بعقد مجلس حربٍ للتداول في الأمر، وكان من بين الحاضرين [سكيپيو] الملقب [ناسيكا Nasica] ختن [سكيپيو افريقانوس]، (نال أعظم النفوذ فيما بعد في مجلس الشيوخ)، وعرض نفسه لقيادة الجيش الذي تقرّر ارساله للاحاطة بقوات العدوّ، وتلاه [فابيوس ماكسيموس] ابن اميليوس البكر وكان في شرح شبابه، فاشاع اندفاعه وحماسته الشديدين السرور في نفس أبيه، وأمّرهما على قطعات عسكرية أختلف في عددها [پوليبيوس Polybius] مع ما ذكره لنا [ناسيكا] نفسه. قال هذا في رسالة مقتضبة بعثها الى أحد الملوك[٢٤] بخصوص الحملة أن الجيش الذي قاده كان يضم ثلاثة آلاف مقاتل ايطالي غير روماني. وأن ميمنته قوامها خمسة آلاف والحق به مائة وعشرين فارساً مع سرية مختلطة قوامها مائتان من التراقيين والكريتيين ارسلها [هرپالوس Harpalus].

اتجه [ناسيكا] بقطعاته نحو البحر وعسكر بالقرب من «هراقليوم»[٢٥]، موهماً العدوّ بأنه يريد ركوب البحر والاقلاع للاحاطة بالعدو من جهة البحر. وعندما انهى الجنود وجبة عشائهم

(٢٣) من تاجرين في پيرينيا في تساليا [ليڤي ٤٤:٣٥] وبيثيوم أو بيثوم هي مدينة في مقدونيا، وپترا قلعةٌ في البلاد نفسها.

(٢٤) لا وجود لا لرسالة [ناسكا] ولا لتقرير [پوليبيوس].

(٢٥) اذاع القنصل أنهم سيستقلّون الاسطول الذي كان قد أُمر بالارساء بعيداً عن الساحل بقيادة البريتور أوكتاڤيوس، موهماً العدو بأنه يقصد أجتياح سواحل مقدونيا. لكن القصد الحقيقي كان اخراج [پرسيوس] من معسكره [ليڤي ٤٤:٣٥]. وهذه المدينة (هراكليوم) وهي واحدة من أكثر من أربعين مدينة بهذا الاسم منتشرة في ارجاء العالم القديم - تقع في لنسنتس وهو من اقاليم مقدونيا لاتبعد كثيراً عن غرب خليج (ثيرما).

وخيمَ الظلام، جمع الضباط وأبلغهم بالخطة الأصلية. وأنطلق يسري طوال الليل في الاتجاه المضّاد مبتعداً عن البحر حتى بلغ به السُّرى الى موضع يشرف عليه معبد ابوللو وفيه اراح عسكره برهةً.

يرتفع جبل الاولمپ في هذا الموضع الى ما يزيد عن عشرة فُرلُنغات (حوالي الفي يارد) كما يظهر من ابيات نظمها الشخص الذي قاس ارتفاعه واليك هي:

إن قـــمـــة الأولمپ من الموقع الذي يقـــوم عليـــه
معبد ابوللو، يبلغ ارتفاعـهـا عـشرة فرلنغات كاملة
بخطٍ عـمـودي. وقـد تزيد عن عـشرة فُـرلنغـات
بمائـة قـــدمٍ إلاّ أربع. وإن گـــزيـناغـــوراس
ابن يوميوس Eumelus Xenagoras بلغ هذا الموضع
فـالى الملتـقى أيهـا الملك، وقم بحـجّك المبـرور

يقول علماء الهندسة - ليس بين الجبال ما يزيد ارتفاعه عن ألفي ياردٍ وليس بين البحار ما ينزل عمقه الى أكثر من هذه المسافة ومع هذا فيبدو ان [كزيناغوراس] لم يقم بقياساته تلك اعتباطاً وانما بحسب قواعد العلم وبآلات وافية بالمرام.

هنا قضى ناسيكا ليلته، وكان أحد الجنود الكريتيين قد فرّ في اثناء المسيرة ولجأ الى العدوّ، وهناك أفضى الى [پرسيوس] بفحوى الخطة التي رسمها الرومان لتطويقهم. وكان پرسيوس خالي الذهن تماماً من إحتمال قيام اميليوس بمثل هذه المحاولة، وهو جاثم لا يحرك ساكناً أمامه. فصعق للنبأ، إلاّ أنه لم يضع جيشه في الإنذار ولم يتم بتحريكه. بل أكتفى بوضع عشرة آلاف من المرتزقة والفين من المقدونيين تحت أمرة [ميلو Milo] وأمره بمسك كل الشعْب والمسالك وتثبيت اقدامه فيها. ويحدثنا [پوليبيوس] ان الرومان فاجاؤا هؤلاء وهم نائمون. لكن [ناسيكا] يقول أن المعركة كانت ضارية والصدام دموياً على القمة. وانه هو نفسه نازل تراقياً من المرتزقة واصماه بطعنة رمح نجلاء فأرداه قتيلاً وان العدوّ أرغم على التقهقر وألقى بمعاطفه وفر فراراً مخزياً تاركاً سلاحه ودروعه في الميدان. واستأنف [ناسيكا] تقدمه وهبط بالجيش سالماً الى السهل.

وملك الخوف [پرسيوس] بعد هذه الموقعة، وهبطت آماله الى الحضيض فبادر الى نقل معسكره باسرع ما أمكنه. وكان عليه أن يختار أحد أمرين، أما التوقف أمام [پيدنا -Pyd

na] وهذا يؤدي به الى المخاطرة بمعركةٍ حتماً. وامّا أن يقوم بتوزيع قطعات جيشه على المدن المقدونية وينتظر قدوم الحربِ الى عقر داره. حربٌ إن وجدت سبيلها الى بلاده صعب الخلاص منها دون سفك دماءٍ ثرة وهلاك أنفس كثيرة. إلا أن ما أحيا في نفسه الشجاعة هو قول اصدقائه له، بانه متفوق على العدوّ عددياً. وان عزيمة الرجال تشتد وبسالتهم تتضاعف لما يدافعون عن أولادهم وزوجاتهم، سيّما اذا كانت بمحضر ومرأى من ملكهم المعرضّ الى الاخطار نفسها. فضرب خيامه حيث هو وأخذ يتأهب للقتال. فأستطلع الأرض ووزع القيادات والأوامر كأنما قرر أن يحمل على الرومان حالما تبدو له طلائعهم وكان الموقع صالحاً لحركات الفلانكس التعبوية ومناوراتها، لأنها تتطلب ارضاً مستوية، وميداناً خالياً من العوائق. وكان فيها أيضاً آكام لا تُحصى تتصل أحداها بالأخرى وتفيد في حركات الكرّ والفرّ للقطعات الخفيفة والاشتباكات الجانبية، ويخترق وسطها [ايسوت Aeson وليوكس Leucus] وهما نهران قليلا العمق في ذلك الوقت من آخر الصيف. إلاّ انه كان المحتمل أن يخلقا للرومان بعض المتاعب.

في اللحظة التي انضّم اميليوس الى [ناسيكا] اتخذ نسق المعركة وتقدماً نحو العدوّ. واستعرض اميليوس صفوفه المنتظمة في أسلوبٍ رائعٍ فلم يسعه إلاّ الاعجاب والدهشة واصدر امره بالوقوف. وأخذ يفكر في الأمر ملياً. وراح صغار الضباط المتحمسين للقتال يلحون عليه وهم راكبون الى جانبه - ببدء المعركة فوراً وكان ناسيكا المنتشي بخمرة نجاحه الأخير في الأولمپ أشدّهم الحاحاً ولجاجة. فردّ عليه اميليوس باسماً

- كذلك كنت أفعل وانا في مثل سنّك يا صديقي، الاّ ان الانتصارات المتعددة هدتني الى السبل التي يمكن ان تؤدي بالرجال الى الهزيمة، وهي التي تمنعني من القاء الجنود في خضّم المعركة وقد اعياهم السير الطويل[٢٦] ضد جيش مستعدٍ منتظم الصفوف.

ثم انه أصدر أمراً بأن تنتظم طلائع الجيش وقطعاته التي يشاهدها العدوّ بنسق المعركة لتبدو وكأنها مستعدة للصولة. أما الباقي فعليه أن يخندق ويقيم التحكيمات لحماية المعسكر. حتى ينفسح مجال للمؤخرة القصوى أن تدور على نفسها شيئاً فشيئاً وتنسحب بالتعاقب وتحلّ صفوفها بحيث لا يشعر بها العدوّ. وبهذا تتمّ عسكرة الجيش دونما ضجّة أو عائق.

عندما جَنّ الليل وانهى الجنود وجبة العشاء وتهيأوا للراحة والنوم، زحف الظلام فجأة على وجه القمر وكان بدراً تمّاً، مرتفعاً في كبد السماء، وراح نوره يتضاءل بالتدريج متخذا ألوانا

---

(٢٦) ليڤي [٤٤:٣٦ - ٣٨] انظر خطبة (ناسكا) وجوابيْ ايميليوس عنها (احداها آنية، والثانية صدرت في اليوم التالي) فضلاً عن تفاصيل أخرى.

مختلفة، ثم حُجب تماماً بخسوف كليّ. فأنشأ الرومان على جاري عادتهم يقرعون الأواني النحاسية ويرفعون المشاعل والاخشاب الملتهبة في الهواء. ليحثثوا النور اليه[٢٧]، وكان ردّ الفعل عند المقدونيين عكس ذلك تماماً فقد استولى عليهم ذهولٌ ورعب عام، وسرت الشائعة في المعسكر من اقصاه الى ادناه، بأن هذا الخسوف هو نذير سوء حتى للملك نفسه. أمّا [اميليوس] فقد كان خبيراً في هذه الظاهرة غير جاهل بأسباب هذا الشذوذ في الطبيعة، فحقيقة الأمر: ان القمر في مسراه يدخل ظِلّ الأرض في دورة معينة من دورات الزمن ويظلّ مستتراً حتى يجتاز منطقة الظلام. وبعدها تلقى الشمس عليه نورها فيشع ضياءً. وكان [أميليوس] انساناً ورعاً تقيا حريصاً على مراسم القرابين. واقفاً على علوم النبوءات، فما أن لحظ القمر يستعيد نوره حتى قرب له أحدى عشرة بقرة من الأبكار، وعند انبلاج الفجر ضحّى بعشرين منها متعاقبة للربّ [هرقل] دون أن يظهر ما يشير الى قبوله الأضاحي وعندما قدم القربان الحادي والعشرين وردت الاشارة بأن النصر سيكون حليف من يقف موقف الدفاع. فنذر [أميليوس] قرباناً عظيماً عمومياً لـ: (هيكاتومب Hecatomb) وألعاباً رسميّة لهرقل. وامر رؤساء العسكر بالاستعداد للمعركة. وقدر لهم أن تبدأ عندما تتحول الشمس الى الغرب وتميل الى المغيب لئلا تبهر أشعتها عيون الجنود إن دارت رحى المعركة صباحاً. اما هو فقد أمضى تلك الفترة في خيمته التي كانت مفتوحة نحو السهل حيث معسكر العدوّ.

يذكر بعض المؤرخين أن أميليوس أستخدم عند حلول المساء لحمل العدوّ على المبادأة بالقتال حتى يتخذ هو موقف الدفاع تحقيقاً للنبوءة. فأطلق حصاناً بدون سرج نحو العدوّ وأرسل وراءه بعض الرومان ليتظاهروا بطرده، وهكذا بدأت المعركة. ويقول آخرون أن [الثراقيين] هاجموا بقيادة المدعو [الكساندر] قطار حيوانات نقلية للرومان كانت تحمل علفاً للمعسكر. فدفع أميليوس بسبعمائة من الليغوريين لإسناد القافلة. وبدأت النجدات تتوالى تباعاً على الفريقين، حتى آل الأمر الى التحام الجيشين الرئيسين.

وكالربّان البعيد النظر، استنتج أميليوس بفكره الثاقب، مبلغ ما في العاصفة القادمة من هولٍ، لشدّة اندفاع الجيشين والموجات التي كانت تتعاقب على الميدان، فخرج من خيمته ليمرّ بين صفوف فرقه مشجعاً ومحمّساً. كما تبين [ناسيكا] الذي اندمج بالمشتبكين وهو على جواده، ان قوات العدوّ كلها قد دخلت ميدان القتال وهي توشك على الالتحام. برز التراقيون

---

(٢٧) يخبرنا ليفي أن (سولپيچيوس كاللوس) وهو تريبيون روماني قد تنبأ بالخسوف وأخبر القنصل ثم أنهى الأمر للجيش باذن منه ولذلك لم تبد الظاهرة مفاجأة للجيش الروماني ولم تشع الخوف فيهم كما هو شأن الناس ازاء هذه الظاهرة. وبهذا زادت ثقة الجنود الرومان بضباطهم ودخلوا المعركة وهم في أفضل حالٍ نفسيّ.

في المقدمة أولاً، وأوقع منظرهم الهلع في نفسه كما أخبرنا بشخصه. فقد كانوا ضخاماً عُتُلاً يحملون تروساً صقيلة كالمرآة تبرق بريقاً، ويشتملون بمعاطف سوداء، وتكسو سيقانهم طماقات معدنيّة راقية، وقد اردفوا وهم يتقدمون رماحهم المستقيمة المثقلة بالحديد، على أكتافهم اليمنى. وأعقبهم الجنود المرتزقة يحملون مختلف انواع الأسلحة، مختلطين بمحاربي (بايونيا Pæonia) ثم تلتهم صفوة من المقدونيين، تم انتقاؤها ممن عرفوا بالقوة والشجاعة وعنفوان الشباب تلمع أجسامهم بما عليها من الدروع الصقيلة وتبهر العيون معاطفها الارجوانية. وفيما كان هؤلاء يتخذون مواقعهم تحركت من المعسكر على أثرهم القطعات المعروفة باسم «التروس البرونزية» وهي معبّأة وفق نظام [الفلانكس] حتى بدأ السهل كله متوهجاً بالنحاس المجلوّ ساطعاً بالفولاذ المصقول، ورددت الآكام صدى هتافهم يحمّسون به بعضهم بعضاً. ويحثونهم على القتال. وصالوا صولة سريعة جريئة بترتيبهم هذا، فوقع أوّل القتلى منهم على مسافة لا تبعد عن معسكر الرومان أكثر من أربعمائة يارد. ونشب القتال حامياً، وبرز أميليوس الى الميدان ليجد أن الفصائل المقدونية المتقدمة قد أتمت غرز اسنّة رماحها في تروس الرومان وسمرتهم وحالت دونهم ودون اعمال سيوفهم فيهم، لما رأى ذلك، ولما شاهد بقية المقدونيين يتناولون درقاتهم المعلقة في أكتافهم اليسرى ويضعونها أمامهم درءًثم يوجهون أسنة حرابهم الى تروس أعدائهم، راعته قوة هذا الجدار من التروس المنيعة ومظاهر الإلتحام في تلك الجبهة الزاخرة بالسلاح فانتابه قلقٌ وذهول. لم تقع عينه من قبل على شيء كهذا ولقد ظلّ المنظر راسخاً في ذهنه بعد المعركة، كثيراً ما تحدث عنه ووصف الشعور الذي تملكه وقتئذ. وعلى أية حالٍ نفض عن نفسه الوجل، وأنطلق على صهوة جواده يجول في صفوف جيشه دون درع يحمي صدره، ولا خوذة تقي رأسه والهدوء والبشاشة تضيئان أساريره.

ويحدثنا [پوليبيوس] أن ما جرى في معسكر المقدونيين كان خلاف ما فعله اميليوس. اذ ما أن حمي وطيس المعركة حتى سارع ملك المقدونيين في الابتعاد بدناءة وخسّة ميمّماً شطر مدينة پيدنا[٢٨] بحجة تقديم قربان [لهرقل]، ذلك الآله الذي أنف عن قبول قرابين الجبناء التافهة وترفع عن تحقيق شروط النذور التي لاترضى السماء عنها. فالحق يقال انه لضرب من المحال أن يقبل الأرباب بفوز الخائر بالجائزة، أو انتصار المنسلّ من المعركة أو نجاح من لم يتعبه الوصول الى النجاح، أو أن يظفر الأشرار بما يتمنوّن. ولقد استجيب دعاء أميليوس،

---

(٢٨) [پيدنا] هي بلدة من مقاطعة پيريا في أقليم مقدونيا قرب رأس ثيرما أمّا پللاّ التي هرب اليها فيما بعد فهي تبعد عنها بمسافة قليلة الى الشمال وقد أشتهرت بكونها مسقط رأس الاسكندر الكبير.

لأنه صلّى للنصر والسيف في يده، وقاتل وهو يطلب عون الآلهة.

وثم مؤرخ ما، يدعى [پوسيدونيوس Posidonius][٢٩] الذي يزعم انه عاش في ذلك الوقت كان قد دون تاريخاً مفصلاً لپرسيوس، وشهد تلك الأحداث وضرب سهماً فيها، هذا المؤرخ ينفي ترك [پرسيوس] الميدان خوفاً أو بحجة تقديم القرابين ويقول أنه أصيب بضربة من ساق حصان في فخذه قبل المعركة بيوم واحد، وكانت اصابة خطيرة أعجزته تماساً، إلاّ أنه أمر أن يؤتى له بأحد خيول الركوب وبرز الى الميدان وهو أعزل رغم الحاح اصدقائه جميعاً؛ وبات هدفاً لما يحصى من الحراب يرشق بها من كل جهة، فاخطأته جميعاً الاّ واحداً مرق من جنبه الأيسر بقوة عظيمة فمزق ثيابه وأحدث في لحمه جرحاً سطحياً ظلّت ندبته مدة طويلة. هذا ما أثبته [پوسيدونوس] في صدد الدفاع عن پرسيوس.

عجز الرومان عن فتح ثغرة في [الفلانكس]. فما كان من [ساليوس Salius] أحد قواد البليغنيين Pelignians إلاّ وأختطف علم كتيبته وقذف به في وسط الأعداء. (عند الايطاليين كان يعتبر التخليّ عن الراية عاراً كبيراً وثلماً للشرف مهما كانت الظروف)، فاندفع البليغنيون بجنون ووحشية لاستعادتها، ووقعت مذبحة مريعة في صفوف الجانبين هؤلاء كانوا ينزلون الضربان بسيوفهم على قنا العدوّ ليقطعوها تقطيعاً أو يعملون على دفعهم الى الخلف بتروسهم أو إزاحتهم الى جانب بأيديهم وكان المقدونيون قابضين على قنطارياتهم الطويلة بكلتا اليدين يخرقون بأسنتها اجسام من تعترض سبيلها فتثقب دروعهم. وليس ثم درعٌ اوزرد يصمد لهذا السلاح. لقد سار البليغنون والمارسيون Marrucians[٣٠] الى حتوفهم الأكيدة دون أعتبارٍ بشيء وبحالةٍ من الهياج الوحشي لاتوصف فخروا صرعى في ساحة الوغى. أبيد اول خطٍ منهم ابادة تامة وأضطر من يليهم الى التقهقر بشكل لا يمكن وصفه بالهزيمة. وانسحبوا الى اكمة [أولوكروس Olocrus].

يقول [پوسيدونيوس]، لما شاهد [أميليوس] ما حصل مزق ثوبه عن جسمه، وهم بعض جنوده بالفرار، واحجم الباقي عن الاشتباك مع الفلانكس، فقد اصابهم يأس من فتح ثغرة فيه والتوغل في داخله فلقد كان وايم الحق سداً منيعاً لايمكن الدنّو منه ولا اقتحامه بخط قنطارياته الطويلة متلاحماً متقارباً يواجه المهاجمين انى تولوا، على أن طبيعة الأرض

---

(٢٩) قد يكون المقصود [يوسيدونيوس] الأيامي الذي كتب تكملة لتاريخ پوليبيو. اذ انه كان في روما زمن قنصلية [مارچللوس] وبعد هذه المعركة بمائة وثمانين عاماً. وقد اعتبره پلوتارخ على ما يظهر مؤرخاً متطفلاً أو قليل الأهمية عندما ذكره بعبارة تنّم عن ذلك.

(٣٠) من هذه الأقوام الايطالية كان المارسيون أول من سكن هناك وأصلهم من [السابين] وقد عاش هؤلاء في منطقةٍ مُعينة على ساحل البحر الأدرياتي.

المتعادية لم تكن تسمح للفلانكس بنشر جبهة طويلة تظلّ فيها التروس متلاحمةً آخذاً بعضها بحُجُز بعضٍ على امتدادها ولاحت لأسيليوس ثغرات وفراغات كثيرة فيه واستفاد مما يحصل عادة في اشتباكات الجيوش الكبيرة حيث يقوم المحاربون بمناورات وجهودٍ متباينة. ففي موضع يشتد ضغطهم على العدوّ ويستميتون في التقدم. وفي موضع آخر يتقهقرون. إذ أسرع الى حلّ صفوف فرقهم وأعادهم الى تنظيم الكوهورت Cohort الروماني المعتاد، وأصدر اليهم أمراً بأن يحملوا حملات متقطعة وبفترات متتالية هدفهم منها فتح ثغرات في جبهة العدوّ. وحظر عليهم أن يقوموا بهجوم شامل عليه بكلّ القوات، بل ان يشتبكوا معه في معارك جانبية ثانوية. أبلغ أميليوس هذه الأمر الى قوادّ الفرق، فنشروها بدورهم على الجنود. ثم بداؤا يطبقون الخطّة فما يكادون يلجون الثغرات ويتخللون الفراغات ويفصلون كتائب العدوّ بعضها عن بعض حتى يبداؤا بهجماتهم الموضعية، بعضهم يتعرض له من الجوانب حيث يكون مكشوفاً لايستره سلاح. وبعضهم يلتّف عليه ليهاجمه من الخلف. وبهذه الخطّة نجحوا في تحطيم الفلانكس المقدوني وكانت قوته تكمن في العمل الموحد والوحدة المتلاحمة. وآلت المعركة العامة بالنتيجة الى قتال الفرد للفرد، أو الفصائل الصغيرة للفصائل الصغيرة حيث ضربات سيوف المقدونيين القصيرة لاتنال مأرباً من تروس الرومان الطويلة، في حين لا تصمد دروعهم الخفيفة لطعنات سيوف الرومان القوية الثقيلة، فكانت تخترقها وتنفذ الى الأبدان. ولا نطيل القول، ما لبث المقدونيون ان انكفاؤا على الأعقاب وولوا الأدبار.

في زخم القتال، سقط سيف [ماركوس] ختن اميليوس وابن [كاتو] من يده وكان قد أبلى خير بلاء وأظهر من الشجاعة ما لا زيادة عليه. فحزّ ذلك في نفسه، ولا غرو فهو شاب فائر الدم وابن رجل شهير، ربي على أسمى المبادئ الخلقية وأشدها صرامة، فكانت تدفعه دائماً الى ابداء الشجاعة التي تجعله قُدوةً. ولهذا هانت الدنيا في عينه وعَدّ حياته عبئاً عليه أن عاش ليرى اعداءه يغنمون سلاحه فأخذ يركض هنا وهناك، مستوضحاً الوجوه وكلّما تبين له في احدهما صديقاً أو زميلاً أنهى اليه بمصيبته ورجا منه العون حتى اجتمع له عدد كبير من الشجعان فشقوا طريقهم كتلة واحدة وهو في مقدمتهم بين صفوف جيشهم وحملوا على الموقع فهزموا من فيه بعد معركة ضارية وكثير من الجرحى وأكثر منهم قتلى واتموا أحتلاله وأنطلقوا يبحثون فيه عن سيف [ماركوس] حتى استخلصوه من أكداس الأسلحة والقتلى. فطاروا فرحاً بنجاحهم وارتفعت اصواتهم بنشيد النصر، ثم واصلوا هجومهم وقد تضاعفت حماستهم - على من بقي صامداً في مواقع العدوّ. أخيراً تمّ القضاء على ثلاثة آلاف مقدوني ثبتوا الى آخر لحظة وواصلوا القتال بشجاعة مذهلة حتى النهاية. ووقعت مقتلة عظيمة بالغاريّن أيضاً

حتى أمتلأ السهل وسفوح التلال بجثتهم وصبغت الدماء مياه نهر [ليوكوس] الذي لم يعبره الرومان الا في اليوم التالي للمعركة. وقيل أنه قتل ما يزيد عن خمسة وعشرين ألفاً من جنود العدوّ. في حين يذكر [پوسيدنيوس] أن قتلى الرومان لم يزيد عن المائة ويقول [ناسيكا] انه ثمانون ليس غير. لقد تقرر مصير هذه المعركة في فترة وجيزة جداً على سعتها وأهميتها وضخامة الجيوش التي خاضتها فقد بدأ الاشتباك في الساعة الثالثة بعد الظهر وما أن أزفت الرابعة حتى كان العدوّ يولى الأدبار. وقضى المنتصرون بقية النهار في مطاردة الفارين فقطعوا في هذا، حوالي ثلاثة عشر وأربعة عشر ميلاً. ولما ثابوا الى المعسكر كان الليل قد تقدم بهم كثيراً. وأستقبلهم خدمهم بالمشاعل وجاؤوا بهم الى خيامهم التي كانت مضاءة ومزدانة بأكاليل الغار واللبلاب[٣١]، وهم يهتفون لهم ويهللون فرحين. لكنّ القائد العام كان حزيناً لأن أصغر ابنيه اللذين جاءا معه الى الحرب، لم يعد مع المنتصرين. كان أحبّ ابنائه الى قلبه لعلمه بتفوقه على كل أخوته في الشجاعة والخصال الحميدة فهو جريء، ركّاب خطر طماحاً الى المجد، ما زال في مطلع شبابه يافعاً[٣٢]. ولم يكن لاميليوس من سبيل الاّ ان يعتبره من الهالكين في حين أن قلّة تجربته في الحرب جعلته يتوغل كثيراً في صفوف الأعداء ويتأخر. ترك الجنود عشاءهم وحملوا المشاعل والمصابيح وتوجه فريق الى خيمة اميليوس بينما خرج فريق الى الخنادق يبحثون عنه بين قتلى أوّل الهجوم. وران الأسى والوجوم على المعسكر كله وضجّ السهل باصوات الرجال وهي تنادي [سكيپيو]. فهو على يفاعته موضع حبّ وأعجاب الكلّ لأنه بزّ اقرانه باخلاقه الرفيعة التي كانت تؤهله للقيادة والمشورة. وانصرم الليل أغلبه وكاد اليأس يستولى على الباحثين، واذا به يعود والدماء الجديدة تعلوه لقد افرط في استثماره نصره الأول وتمادى في الاستمتاع بفوزه مثل كلب أصيل. ذلكم هو [سكيپيو] الذي دوّخ قرطاجنة [ونومانتياً Numantia] وقوضهما، وكان بلا مماراةٍ أعظم من يستحق الاجلال والتعظيم بين كلّ الرومان، وأكبرهم سلطاناً ومكانة بينهم. هكذا أرجات آلهة الحظّ استياءها وغيرتها من النجاح العظيم الى مناسبة أخرى وتركت أميليوس يستمتع بهذا النصر دون أن تشوبه شائبة أو يخالطه اذى.

---

(٣١) الغار هو النبات المقدس عند ابوللو واللبلاب هو النبات المقدس عند باخوس. إن باخوس يخلط أحياناً بينه وبين هراقليوس، كان محارباً. واننا لنقرأ في الاساطير عن حملاته في الهند. الاّ ان العادة التي درج عليها الرومان بتزيين خيم المنتصرين بنبات اللبلاب – ربما نشأت من سبب أكثر بساطة. يقول يوليوس قيصر انه وجد في معسكر پومپي خيمة لنتولُس وغيره من القادة مُزدانة باللبلاب اذ كانوا قد وثّقوا أنفسهم بالنصر.

(٣٢) كان يبلغ السابعة عشرة من العمر اذ ذاك.

أما عن [پرسيوس]، فقد بادر الى الفرار من [پيدنا] بخيالته التي لم تلحقها خسارة تذكر، وبلغ [پللاً Pella] وهنا أنضمت اليه فلول الرجالة الذين أخذوا ينحون باللائمة والتقريع على الخيالة ويصمونها بالخيانة والجبن وامتدت ايديهم لانتزاعهم من فوق سروجهم وإلقائهم على الأرض فتشابكوا بالأيدي وتضاربوا وخشي [پرسيوس] عاقبة الخلاف فحاد في سيره عن الطريق العام ونزع عنه ثياب الأرجوان لئلا تُعرف هويته، ووضعها امامه ونزع تاجه وحمله بيده ثم نزل عن صهوة جواده ليسهل عليه تبادل الكلام مع اتباعه، وظلّ يقوده من الزمام ثم توقف أحد الجنود متظاهراً بشدّ سير نعله، وتبعه آخر متعللاً بارواء حصانه، وأحتج ثالث بشرب الماء وهكذا بداؤا ينفضوّن من حوله متباطئين متسكعين بالتدريج. ولم يكن يدفعهم الى هذا خوفهم من العدوّ قدر ما كانوا يخشون بطش [پرسيوس]، فقد دفعه اضطرابه واختلال عقله بسبب ما أصابه، الى محاولة تبرئة نفسه بالقاء وزر الهزيمة على كل شخصٍ. وبلغ مدينة [پللا] ليلاً فقصده [يوكتوس Euctus] و[يودئيوس Edæus] أمينا بيت المال وأثارا سخطه بتعدادهما له اخطاءه الماضية، وبالجراءة التي أظهراها، واللوم الذي أختارا له وقتاً غير مناسبٍ فطعنهما بخنجره وقتلهما. وبعد هذا تخلّى عنه الجميع خلا [ايڤاندر] الكريتي، و[ارخيديموس الايتولي] و[نيون] البويوسي. أما من الجنود العاديين فلم يتخلّف غير الكريتين لا بدافع من أخلاصٍ بل لطمع في ثروته الطائلة التي حرصوا عليها كما يحرص النحل على قفيره. فوزع عليهم منها بعض الاقداح والأواني الذهبية والفضية وغيرها مما بلغت قيمته خمسين تالنتاً[٣٣]. لكن عندما خرج من مدينة [امفيپوليس Amphipolis] الى [غاليپسوس Galipsus][٣٤] وهدأت مخاوفه بعض الشيء عاد اليه داؤه القديم المعروف «الجشع» فراح يتظلم الى اصدقائه قائلاً انه اضطر بحكم الظروف القاسية الى النزول للكريتيين عما يخصّ الاسكندر الكبير، وأخذ يتوسل الى من كانت في حوزتهم والدموع تجول في عينيه، بأن يسمحوا له بافتدائها بالمال. وأدرك الخبيرون بنفسيته أنه يريد أن يلعب بالكريتي على الكريتيي. اما من صدقّهُ واعاد اليه فقد خرج بصفقة المغبون، اذ لم يدفع لهم شيئاً مما وعدهم. بل وتمكن بالحيلة ان يبتزّ من أصدقائه ثلاثين تالنتاً (كله وقع في يد العدوّ بعد زمن وجيز). ثم انه ابحر بما معه من أموال الى [ساموثراكي Samothrace] وهناك لجأ الى معبد [كاستور وپوللوكس][٣٥].

(٣٣) كان يخشى ان يدفع بها اليهم لئلا يثير المقدونيون حقد الآخرين [ليڤي المرجع نفسه ٤٥].
(٣٤) في أحدى المخطوطات كتبت Alpsus.
(٣٥) حمَل معه مبلغاً قدره (٢٠٠٠) تالنت. كان الخوف مستولياً على پرسيوس عند وصوله [امفيپولس] لئلا يسلمه الأهلون الى الرومان خرج يحمل فيليب الابن الوحيد الذي صحبه فصعد المنبر وحاول الكلام إلاّ =

عُرف المقدونيون دائماً بحبّهم لملوكهم وشدّة إخلاصهم لهم. والآن بعد أن تحطّم قطبهم الرئيس أنهارت معنوياتهم وأعلنوا الطاعة لاميليوس، ومكّنوه من بلادهم في غضون يومين ليس غير. وهذا يؤيد الرأي القائل بمحالفة الحظّ له على ما يبدو. إن العلامة السماوية التي نزلت عليه في [امفيلپوليس] كانت من قبيل الخوارق الطبيعية.

فعندما كان يقرّب هناك وقبل بدء الشعائر المقدسة نزل من السماء برق على الهيكل بصورة مباغتة وأشعل النار في الخشب فأكمل حرق القربان وعلى أية حال فإن أجلى المظاهر الخارقة للطبيعة التي حصلت بمشيئة من السماء - يبدو من حكاية الاشاعة التي أنتشرت في روما عن نصره. ففي اليوم الرابع لهزيمة [پرسيوس] في [پيدنا] وبينما كان أهالي روما يشاهدون سباق خيل[٣٦]. بدأت فجأة اشاعة من مدخل الملعب مؤداها ان [اميليوس] قد هزم [پرسيوس] في معركة عظيمة. وانه يقوم الآن بإخضاع مقدونيا كلها لسلطانه. وسرى هذا النبأ بين الناس ليخلق فرحةً عامة فتعالت الهتافات والتهليل، وضجت المدينة به طوال اليوم. وعندما لم يتعيّن مصدر النبأ وظهر أن كل شخص كان ينقله الى الآخر على علاّته، صرف عنه النظر مؤقتاً واسقط من الحساب الى أن وصلت الأخبار المؤيدة بعد أيام قليلة[٣٧]. فعدت الاشاعة الأولى من قبيل الخوارق. لاحتوائها على الواقع والحقيقة تحت مظاهر الخيال. وقيل أيضاً ان انباء المعركة التي جرت قرب نهر [سارغا Sarga][٣٨] في ايطاليا، أنتقلت الى البلوپونيسوس في اليوم بالذات. كذلك معركة الميدين في [ميغال] فقد وصلت انباؤها الى [پلاطيا Plataea] في فترة يوم واحد أيضاً. وعندما هزم الرومان اتباع [تاركوين] وحلفاؤهم اللاتين شوهد في روما بعدها بقليل، شخصان طويلا القامة مهيبا الطلعة زعماً انهما يحملان انباءً من المعسكر، ورجح انهما [كاستور وپوللوكس] وكان أول حديث لهما قرب النافورة. فأبدى عجبه لما سمح منهما وقيل انهما ابتسما ومسّا لحية الرجل مساً رفيقاً فتحول شعرها

= ان العبرة خنقته ولم يساعفه اللسان بعد عدة محاولات فطلب من [ايڤاندر] أن يتكلم عنه إلاّ ان الأهالي الذين كانوا له من الكارهين رفضوا الاستماع اليه وهتفوا «إذهب، اذهب لقد قرّ رأينا أن لانعرض أنفسنا وزوجاتنا وأطفالنا للخطر بسببكم، فالهرب الهرب وأتركنا لعلنا ننال أفضل ما يمكن الحصول عليه من شروط الغالب». وكان ايڤاندر الشخصيّة الرئيسة في عملية اغتيال [يومنيتس] وقد فتك برسيوس بايڤاندر بعد ذلك في [ساموثراكي] خشية أن يكشف دوره في الاغتيال.

(٣٦) ڤاليريوس ماكسيموس [١:٨، ١] يقول ان مصدر الاشاعة هو شخص يدعي [ڤاتينيوس] وهذا نقلها عن شابين يمتطيان جوادين اشهبين (كاستور وپوللوكس... طبعاً!).

(٣٧) تأيد الأمر بوصول كوينتوس فابيوس ماكسيموس ابن ايميلوس، ولوكوللوس لينتولوس، وكوينتوس ميتللوس الذين أرسلهم [ابيلوس] فبلغوا روما في اليوم العشرين الذي عقب المعركة.

(٣٨) في (ماغناغريكيا) وهي ليست بالبعيدة عن (ريجيوم).

من الأسـود الفاحم الى الاشـقر الذهبي، وهذا ما أيد صحـة اخبـارهما. وألصق بالـرجل لقب [اهينوباربوس Ahenobarbus] [٣٩]: اي ذا اللحـيـة الصـفـراء. وفـي زمننا هذا وقع حـدث يجعل كل مـا اتينا الى ذكره قـابلاً للتصـديق. فـعندمـا شق [انطونيـوس] عـصـا الطاعـة على [دوميتيان] أعترى روما غمّ عظيم اذ توقعت حروباً طاحنة تأيتها من نـاحية جرمـانيا. وعلى حين غرّة سـرت اشـاعـة النصـر على افـواه الناس دفـعـة واحدة، دون أن يدري أحد مـصـدرها، وضـجت المدينة كلهـا بانبـاء تشـيـر الى مـقـتل انطونيـوس، وابادة عـسكـره عن بكرة ابيـه إلاّ شرذمة [٤٠]. وقـوي الاعـتـقـاد ورسخ في النفـوس حتى عدداً كـبيـراً من الحكّام أخذوا يـقدمـون القرابين. وعندما حُقق عن المصدر ولم يعثر عليه تضاءلت الاشاعة وأخذ كل أمرءٍ يزيحها عن عاتقه ليلقيها على الآخر، وأخيراً ضاعت في الجمّ الغفير كأنما غيبها البحر الاوقـيانوس ولم يعد أحد يذكرها بكلمة في المدينة لانها لم تجد حقيقة تدعـمها. ومع هذا زحف [دومـيتـيـان] بقواته الى مـيدان القتـال. فالتقى بالسعاة القـادمين وسلمّوه رسائل تنبئه بالنصر وعند التأمل وجد أن ظهـور الاشـاعـة كـان يوافق اليـوم الذي تحـقـقت فـيـه الغلبـة، مع العلـم ان المسـافـة بين منطلق الاشاعة وميدان المعركة كانت تزيد عن الفين وخمسمائة ميلٍ. في الواقع ان اموراً كهذه لا تجد معاصرينا تعليلاً أو تفسيراً.

ولنعد الآن الى موضوعنا، وصل الى [ساموثراكي]، القائد الرومـاني [كيينوس أوكتافيـوس Cnaeus Octavius] وألقى مراسي اسطوله تحـتهـا. وسمح [لپرسيوس] أن يبقى متـمـتعـاً بحق اللجوء إكرامـاً منه واجلالاً للأرباب [٤١]. إلاّ أنه اتخذ كل الاحتـيـاطات للحيلولة دون هروبه بحـراً. على أن [پرسـيـوس] لـم يقم وزناً لـهـذا وانما أتصـل [باورواندس Oroandes] الكريتي وهو صـاحب سـفينة صغيـرة، واقنعـه بان ينقله هو وأمـواله بحراً. وبرهن هذا على انه نموذج صـادق للكريتـيين فـقـد نقل المال الى السـفينة وأوصى پرسـيـوس أن يكون هو وأولاده وأقرب خدمه وأكثرهم ضـرورة مجتمعين علي الرصيف القريب من مـعبد [سيريـس] ليركبوا السـفينة. لكن اورواندس أقلع بغنيـمته من المال في مسـاء ذلك اليوم دون أن يـأخذ پرسيوس. كان يكفي هذا بؤساً وعاراً أن يضطر الى الهبوط هو وزوجه وأولاده من نافذة ضيقة في الجدار وهم الذين لم يعـرفوا في حياتـهم معنى الضيق أو الفرار. وها هـو الآن يطلق الزفرات من قلبه الذي أثقله الألم والشقـاء، عندما استـوقفـه أحدهم وهو يدور في ارجـاء السـاحل هائـمـاً يبـحث

---

(٣٩) اسمه [لوشيوس دوميتيوس] ومن نسله نيرون الامبراطور.

(٤٠) شبت هذه الثورة في جرمانيا العليا في العام ٩٢ ق.م.

(٤١) كانت آلهة ساموثراكي تتمتع باحترام ومهابة خاصين عند سائر الاقدمين ديودورس.

عن السفينة. وأبلغه أن [اروانـدس] هو الآن في عرض البحر. كان الوقت فجراً، فلم يبق له اي أملٍ بالفرار[٤٢] وقفل راجعاً مع زوجه فبلغا الجدار ركضاً وان كان الرومان قد لمحوهما قبل أن يصلوهما بزمن. وكان هو نفسه قد وضع أولاده وديعةً عند [ايون] أخلص ندمائه في الماضي، واحد الغادرين به في الحاضر. وهذا ما حمله بالدرجة الأولى على تسليم نفسه لأولئك الذين كان أولاده تحت رحمتهم (الحيوانات نفسها قد تقدم على ذلك عندما ينزع منها صغارها). وكان قد وضع أكبر ثقته في [ناسيكا] فقصده ولم يجده هناك، فلم يسعه إلاّ أن يندب سوء حظه وان يسلّم نفسه الى [اوكتافيوس] بعد أن سُدّت أمامه كل السبل. وهنا تبين انه مبتلى برذيلةٍ أحطّ من الجشع وأعني بها التهالك على الحياة، وكانت سبباً في حرمانه العطف وهو الشيء الوحيد الذي يأبى الحظّ عن استلابه حتى من أحَطّ الناس وأعظمهم شراً. فقد طلب أن يؤخذ الى [اميليوس][٤٣]، فنهض هذا من مقعده وتقدم لاستقباله يحفّ به اصدقاؤه وأدمعت عيناه لمنظر رجل كبير المقام هوى الى الحضيض عندما غضبت عليه الآلهة وعثر به حظّه. وهنا بدأ [پرسيوس] في أخزى موقف وأدعاه الى الاشمئزاز، إذ ألقى بنفسه تحت قدمي أميليوس وأخذ يقبل ركبته ويولول ويصرخ مستجيراً صرخات لا تمت الى الرجولة بصلة. فلم يحتمل اميليوس ذلك ولم يطق سماعه وخزره بنظرات يشيع فيها الأسى والغضب وقال له:

- لماذا تتعب نفسك أيها الشقيّ في تبرئة الحظّ من أشدّ ملامك له بسلوكك هذا الذي يظهرك بمظهر المستحق لهذه النكبة ويجعل سعادتك الزائلة تبدو وكأنها أكثر مما تستحق، لاحالتك الحاضرة؟ ثمَ لماذا تحطّ من قيمة انتصاري وتجعل فتوحاتي تافهة بالكشف عن جبنك والبرهنة على أن خصومتك تحط من قدر الرومان. إن البسالة المنكوبة تستدرّ الاحترام العظيم حتى من قلوب الاعداء، لكن الجبن وإن لم يكن كثير النجاح، إلاّ أن الرومان لا يجابهونه إلاّ بالاحتقار.

ومع هذا فقد أنهضه ومد اليه يده، وأوصى [توبيرو] أن يبقيه عنده. ثم أنه دعا ولديه وختنيه، وطائفة من وجهاء الرومان الشبان الى دخول خيمته معه. وظلّ جالساً مدة طويلة وهو مطرق لا ينطبق بحرفٍ حتى اعجبوا لأمره، وأخيراً راح يحدثهم عن الحظوظ وأحوال البشر فقال:

---

(٤٢) يقول ليڤي انه أخفى نفسه في أحدى زوايا معبد (كاستور وبوللوكس) لا تلفت النظر.

(٤٣) ما أن صار الملك في امفيپولس تحت رحمة (اوكتاڤيوس) حتى وضعه في سفينة القيادة وحمّل كل أمواله وكنوزه ثم أرسل ساعياً سريعاً الى اميليوس يعلمه بالأمر. فارسل هذا (توبيرو) ختنه مع آخرين من علية القوم ووجهائهم لأستقبال [پرسيوس] وكذلك أمر بنحر الذبائح وكأنه نال نصراً جديداً. وخرج كل من كان في المعسكر لمشاهدة الملك الأمير الذي توجّه وحيداً نحو خيمة اميليوس وهو مشتمل بمعطف أسود.

- مما قدر لذلك الذي يعلم جيداً بأنه بشرٌ لا أكثر، أن يعتز بنفسه ويُصعّر خده وهي في أحسن حالٍ من الرخاء والرفاه، وان يتيه عجباً وخيلاء عندما يفتح مدينة أو بلاداً أو مملكة، لا أن يفكر في تغيّر حظّه هذا تفكيراً متزناً. فعلى كل المحاربين أن يجدوا فيه عبرة، ويتخذونه مثالاً لضعفٍ قد ينتابهم، ولاحتمال تعرضهم للخطأ بصورة عامة، وان يتعلموا منه درساً وهو أن لاثبات ولا دوام لحالٍ والى كم يستطيع المرء أن يضمن السلامة لنفسه؟ في حين أن النصر والنجاح هو في مقدمة ما يوجب علينا التخوف من أنقلاب حظوظنا. وتأملنا القليل في جوهر الأشياء، وملاحظتنا دوران المقادير السريع، وعرضة أحوال المرء الى التبدّل أن يشعرنا بالترح ونحن في وسط الفرح العظيم. عندما ترون سليل الاسكندر نفسه الذي بلغ أعلى درجة من السلطان وحكم أعظم امبراطورية يوطأ بالأقدام في فترة من الزمن وجيزة، لا تزيد عن ساعة واحدة. عندما ترون ملكاً يحيطه جيش جرار وما هي لحظة إلاّ وهو يتسلّم قوت حياته من أيدي المنتصرين عليه. أقول ايسعكم الايمان بثبات وخلود ما نملكه في ايدينا مع وجود ما يدعى بتقلبات الحظّ؟ كلاّ أيها الشبان، دعوا جانباً كبرياءكم الباطلة وزهوكم الفارغ بالنصر، وأجلسوا جلسة التواضع ولا تحولوا أنظاركم عَمّا سيأتي به الزمن، وما كتب لكم في لوح المستقبل يحمل أن يعكس ما قد يجعله غضب الآلهة الأخير نهايةً وختاماً لسعادتنا الحاضرة».

وقيل أن [اميليوس] أسهب في هذا وتلكم كثيراً، وبعدها صرف الشبان فخرجوا وهم يشعرون باتضاع كبير، وان خيلاءهم وزهوهم قد استؤصلا من نفوسهم تماماً.

بعد هذا، وزع [اميليوس] قطعات جيشه على المقرات في المدن ليصيبوا الراحة. وخرج هو في زيارة لبلاد الأغريق. وقضى هو الآخر فترة راحة مفيدة مشرفة له ذات طابعٍ انساني لا تقلّ خطراً عن أعماله الحربية، فقد خفف من ضيقة الناس أثناء رحلته وأصلح حكوماتهم ووزع الهبات والعطايا على المحتاجين، من القمح والزيت وما شاكلها مما أكتظت به مستودعات الملك المغلوب. فقد قيل انه أختزن كميات لم تنضب. حتى بعد أن أنتهى تحقيق جميع الطلبات وتوزيع كل الهبات. ووجد في دلفي عموداً عظيم الجرم مربع الشكل من الرخام الأبيض أُعد ليكون قاعدةً لتمثال الملك الذهبي فأمر ان ينصب فوقه تمثاله قائلاً أن العدل يقضي بأن يُخلي المغلوب مكانه للغالب وذُكر أنه نطق في [اولمپيا Olympia] القول الذي سمعه الجميع: «إن [فيدياس] نحت جوپتر [هوميرس]» وعندما وصل المفوضون الرومان العشرة من روما[٤٤]، أعاد الى المقدونيين مدنهم واراضيهم، ومنحهم حق العيش في حريّة

(٤٤) هؤلاء الموفدون العشرة كانوا من درجة قنصل. وقد قدموا لمساعدة ايميلوس في وضع أسس لحكم =

يمارسون شرائعهم الخاصة دونما تدخل وأكتفى باستيفاء غرامة للرومان قدرها مائة تالنت وهي ضعف ما كانوا يدفعونه لملوكهم. ثم احياء مختلف حفلات التمثيل والالعاب الرياضية، وقدم القرابين للأرباب وأقام الولائم وضروب الملاهي، وقد سددت نفقاتها كلها من خزائن الملك. ولم يبخل بشيء من المال في احيائها. وأظهر فيها مبلغ علمه بالمقامات وأماكن الضيوف في تلك المناسبات، وبأيّ أسلوب يستقبل كل واحدٍ وفقاً لمنزلته وقيمته. وانجز ذلك بدقةٍ جميلة انتزعت الأعجاب من الأغريق فقد وجدوا أنه قوي الملاحظة في ما يتعلق بأصول الدعوات والحفلات، دقيق الذوق حتى في هذه الصغائر رغم انشغاله في الأمور العظيمة. ولم يكن بما يشينه أن يبدو هو نفسه بين كل هذه المظاهر الفخمة الرائعة أبهى المشاهد وادعاها الى الإعجاب ومصدر أعظم السرور لمدعويه. ولقد قال لاولئك الذين بدوا مشدوهين من اهتمامه ومواظبته: إن ما يظهره من دقّة في تنظيمه وليمةً لا يقلّ عما يظهره في تنظيم وادارة جيش والثاني منهما يجعله مرهوب الجانب في نظر العدو. والأول يجعل الوليمة مقبولة من الضيفان ولم يكن ثناء الخلق على كرمه وسمّو روحه بأقلّ من ثنائهم على سجاياه وشجاعته. لم يطق صبراً على المقادير العظيمة من الفضة والذهب التي كدّست أكداساً في قصور الملك، ودفع بها الى أيدي أمناء بيت المال الكويستورية Quæstor لتودع الخزانة العامة. وسمح فحسب لابنيه اللذين عرفا بحبهما للعلم أن يستأثرا بكتب الملك. وعندما جرى توزيع جوائز البسالة النادرة منح [ايليوس توبيرو] ختنه، اناء ذهبياً يزن خمسة ارطال، وهذا هو [توبيرو] الذي نوهنا سابقاً به، وقلنا أنه كان واحداً من ستة عشر قريباً يعيشون معاً في بيت واحدٍ ولا يملكون إلاّ حقلاً صغيراً. ولقد قيل أنه الاناء الوحيد الذي دخل منزل آل [ايلي] ليس عن طريق الشراء بل المكافأة للشجاعة وتكريماً ولم يكونوا قبل هذا قد استعملوا ذهباً أو فضة لا هم ولا زوجاتهم.

بعد أن أعاد أميليوس الأمور الى نصابها[٤٥] غادر اليونان. وفي مقدونيا نصح المقدونيين بألا يفرّطوا في الحرية التي نالوها بمساعي الرومان وان يحرصوا عليها باطاعتهم القانون والمحافظة على وحدتهم وتماسكهم[٤٦]. ثم انه توجه الى [ابيروس]. وكان قد تسلّم أوامر من

= جديد. وعن مهمتهم واسمائهم أنظر ليڤي [٤٥:١٧ و١٨] لم يفهم الأغريق المقصود بالحرية التي جاءهم بها الرومان لاسيما وقد أقترنت بغرامة مقدارها مائة تالنت! كما وجدوا تناقضاً في البيان نفسه فقد تحدث عن تركهم يمارسون تطبيق قوانينهم الخاصّة في حين فرضت عليهم في الوقت عينه قوانين جديدة وانذروا بغرض المزيد. وما كان يقلقهم أشدّ القلق هو تقطيع اوصال مملكتهم ووضع نهاية لوحدتهم الوطنية.

(٤٥) بنهاية هذه الاجراءات أمر بتنفيذ حكم الموت بـ(اندرونيكوس] من اتيوليا، وبـ(نيون) من بويوتيا فقد كانا صديقي (پرسيوس) دائماً ولم يتخلياً عنه.

(٤٦) هذه الامتيازات التي حُبي بها المقدونيون من الرومان لم تكن بالأمر الفائق العادة. فقد قسمت بلادهم =

مجلس الشيوخ تقضي أن يمكن جنوده الذين حاربوا [پرسيوس] تحت امرته، من نهب مدن تلك البلاد، ولكي ينجز تنفيذ الأمر بصورة مفاجئة ويأخذ السكان على حين غرّة، بعث يستقدم عشرة من رؤساء كل مدينة وعند حضورهم أمرهم أن يهيئوا له كل ما يوجد من المنازل الخاصة والمعابد من الذهب والفضة ويأتوا به اليه في يوم حدده لهم. وأرسلهم وبرفقة كل وفد نقيباً [سنتوريون = قائد مائة] مع سرية جنود بحجة التفتيش عن الذهب وتسلّمه. ولكن لما حلّ اليوم المتفق عليه هبوا في كل المدن وأنطلقوا لتنفيذ قرار النهب والسلب، وساقوا في ساعة واحدة مائة وخمسين ألف عبد رقيق من أهاليها. ونهبت سبعون مدينة. على أن كلّ ما أعطي من هذا الخراب الشامل والدمار التام، لم يكن ليزيد عن أحد عشر دراخما للجندي الواحد. وبعد هذا كان الناس يرتعدون من سماع كلمة اعلان حربٍ بعد أن عادت ثروة أمّة بكاملها، بهذه الفائدة التافهة والربح الضئيل على كل فردٍ عند توزيعها.

بعد أن أنجز أميليوس هذا العمل الذي كان يتنافى تماماً مع طبعه الرقيق وخلقه السمح، أنحدر الى [اوريكوس Oricus](٤٧) ومنها أركب جنوده السفن مبحراً الى ايطاليا، ومخر عباب التيبر على ظهر سفينة الملك، وهي ذات ستة عشر رصيف تجذيف. وكانت قد تزينت زينة مفرطة بغنائم الأسلحة وأقمشة الأرجوان والقرمز. حتى أن الرومان المحتشدين على الضفاف لاستقباله أخذوا يتلمضون مسبقاً بحلاوة موكب نصره القادم، وهم يرقبون سفينته تشق الماء متهاديةً ضدّ التيار. إلاّ أن الجنود الذين اثارت كنوز پرسيوس الجشع في نفوسهم ولم يحصلوا على ما توهموه حقاً لهم، كانوا يبطنون سخطاً وحنقاً على اميليوس، وظهر سخطهم هذا على شكل شكوى من صرامة قيادته وطغيانه. وأشارت الدلائل الى انهم راغبون عن منحه موكب نصر. وعلم بوجهة نظر الجنود هذه، [سرڤيوس غالبا Servius Galba] عدوّ اميليوس. وكان يخدم تحت أمرته بمنصب [تريبيون]، فخرج يعلن بكلّ جرأة ان اميليوس لا يستحق موكب نصر، ودخل بين الجنود يبذر الفتنة ويحرض عليه فزاد من صدودهم عن أميليوس، وتمادى في هجومه بأن طلب من مفوضي (تريبيونات) الشعب أن يسمحوا له بارجاء سرد اتهاماته وحججه الى اليوم التالي لأن الساعات الاربع الباقية من النهار لا تكفي. لكنهم ابوا عليه ذلك وأمروه بالكلام فوراً دون تأجيل إن كان لديه شيء. فبدأ يلقي خطبةً طويلة عريضة ملأها بشتى المفتريات وصنوف الملام حتى أنتهى الوقت وزحف الظلام،

= الى اربعة أقاليم وحرم بحكم القانون على أي شخصٍ أن يتزوج أو يتاجر أو يبيع عقاراً لآخر ليس من سكنه للأجانب وأوجب على كل نبلائهم وأطفال هؤلاء الذين تزيد أعمارهم عن الخامسة عشرة بان ينقلوا فوراً الى ايطاليا كما وضعت السلطة العليا في سائر مقدونيا بأيدي شيوخ رومانيين معينين.

(٤٧) ميناء في مقدونيا.

ففض التريبيونات الاجتماع. وأشتدت ثورة الجنود واحدقوا [بغالبا] وعقدوا الخناصر على مؤامرة، وفي صباح اليوم الباكر حاصروا [الكاپتول] وهو الموضع الذي عينه التريبيونات لعقد الاجتماع الثاني.

وفي ساعة الصباح الأولى وضعت قضية موكب النصر في التصويت، وباشرت القبيلة الأولى بالتصويت ضدّه، فأنتشر النبأ بين الأهالي حتى بلغ مجلس الشيوخ. كان الجمهور والحق يقال، شديد الألم لما يلاقيه اميليوس من نكران وسوء معاملة، لكن هذا الألم لن يتعدّ حَدّ الكلام ولم يخلّف أثراً. وأستنكر رؤساء المجلس هذا العمل ووصفوه بالخطّة والنذالة وأخذوا يحضوّن بعضهم بعضاً على وضع حَدٍ لتمرد الجنود ووقاحتهم، والاّ فلن يلبثوا أن يخرجوا عن طورهم، واذ ذاك يتعذر ضبطهم ويلجأون الى أعمال العنف اذا ما ترك لهم أمر حرمان اميليوس من موكب النصر.

ثم أنهم ساروا بعدد كبير يشقون لأنفسهم طريقاً بين الجموع الحاشدة الى محل الاجتماع وطلبوا من [مفوضي الشعب] تأجيل التصويت الى أن يتكلموا بما في ضميرهم امام الشعب. فأوقف التصويت وبعد أن ساد الصمت نهض [ماركوس سرڤيليوس Marcus Servilius] الحائز درجة القنصل، وكان قد أشتهر بفتكه بثلاثة وعشرين خصماً تَحدّوه كلهم في معركة واحدةٍ، ووجه الكلام الى الجمهور قائلاً:

- لقد وضح لي الآن أكثر من أي وقت مضى، كم كان عزيزنا اميليوس پاولوس قائداً عظيماً، واني لأعجب حقاً اذ أرى كيف استطاع تحقيق هذه الانتصارات العظيمة بجيش ساده التمرد وركبته الخطّة والدناءة. كما اني لا أجد في نفسي قدراً من الدهشة يكفي شعباً فخر بالانتصارات على الايلليريين والليغوريين وأبى الآن، حقداً وحسداً، أن يستمتع بمنظر الملك المقدوني يقاد الى الأسر حيّاً بقوة الرومان وسؤددهم، ويخفّ به كل تراث فيليب وأمجاد الاسكندر. وانتم الذين تقدمتم الى الأرباب بالقرابين فور سماعكم بأصغر أشاعة نصرٍ أنتشرت في المدينة بمحض الصدفة، وتوجهتم اليها بالدعاء ليكون النبأ حقيقياً، أليس غريباً منكم أن تخدعوا الآلهة وتحرموها الاكرام الواجب وتخدعوا انفسكم بحرمانها فرصة النصر، بعد أن عاد القائد يحمل لكم فتوحاتٍ لا شكّ فيها ولا شبهة. وكأني بكم لا تطيقون رؤية ثمرة مجهوده العسكري، أو كأني بكم عازمين على الصفح عن عدوكم! ومن هذين البديلين يجمل بكم أن تحرموه موكب النصر خير لكم من حبسه عنه حسداً له وحقداً! الى هذا الحدّ بلغ بكم سوء النيّة، حتى تعيروا أذناً صاغية لرجلٍ ليس في جسده الأملس الطريّ من فرط الراحة والعناية البيتيّة الزائدة - أثر ما لندبةٍ

حين يقف أمامنا هنا منتقصاً من قيمة جزال ومطالباً بالحدّ من حقوقه، جنرال علمته جراحنا كيف يحكم على بسالة القادة وجبنهم».

قال هذا ونضا عنه ثوبه وعرض صدره العاري الذي ازدحمت فيه الندوب ثم دار على عقبيه ليكشف عن أجزاء أخرى من جسمه جرت العادة سترها. ثم توجه بالخطاب الى [غالبا] قائلاً:

- لعلك تسخر بي لما أفخر به الآن أمام أخواني المواطنين؛ إني ما أصُبت بها إلاّ في مجال خدمتهم التي اثبتتني على صهوات الخيل ليلاً ونهاراً. ولكن، اذهب فاجمع الأصوات وانا في أثرك، وكن منتبها الى الوضيع وناكر الجميل، والى من آثر الملق والمداهنة على اطاعة أمر قائده.

قيل إن هذه الخطبة افحمت الخصوم والجمت ألسِنَة الجنود، وقلبت آراءهم رأساً على عقب فبادرت القبائل الى اعلان موكب نصر لاميليوس وقد تمّ تنظيمه على الشكل التالي:

نصبت الجماهير منصات ومنابر في الفورم وفي ملاعب السركس Circus (وهو الأسم الذي يطلقونه على محلات سباق الخيل) وفي كل المواضيع التي يمكن رؤية المواكب منها. وأرتدى المتفرجون ثياباً بيضاء، وفتحت ابواب المعابد جميعاً وكانت مزدانة بالاكاليل يفوح منها البخور والعطور. واخليت الطرق ومنع المرور فيها وعين عدد كبير من ضباط الشرطة لحفظ النظام فكان يدفعون الناس الى الخلف ويمنعون احتشادهم في الطرق وعبورهم في الشوارع الرئيسة. ودام الموكب ثلاثة أيام كاملة. ولم يتسع اليوم الأول لكلّ ما خصص له، وقد شاهد المتفرجون التماثيل والصور والمنحوتات الضخمة التي غنمت من العدوّ وهي تمثل مختلف الآلهة؛ حُملت على مائتين وخمسين عربة ومرت تباعاً.

وفي اليوم الثاني شاهد الجمهور رتلاً من عربات النقل أثقلت بأبدع الدروع المقدونية، الفولاذية منها والنحاسية. وكانت قد صقلت بهذه المناسبة فأخذت ترسل بريقاً يخطف البصر. وكانت قطع السلاح مكدسة كدساً ظاهره الاهمال وباطنه تدبير متعمد ينطوي على براعة. والقصد منها أن تبدو مكدسة كيفما أتفق فألقيت اللأمات والخوذ فوق التروس، والزُرد فوق طماقات الساق وطرحت الدرقات الكريتية بعضها على بعض، والقيت دروع الصدر وكنانات النّشاب التراقية بين لجُم الخيل. وبرزت من كل هذا ذبابات السيوف عارية عن اغمادها، مختلطة بالحراب المقدونية الطويلة. كانت هذه الأسلحة قد شدّت وحزمت بقدرٍ من الرخاوة يسمح لها أن تصطفق وتحتّك فيخرج منها رنين حادُّ وضجة مزعجة رهيبة، تبعث الخوف والرعدة في أوصال الناظر اليها، وان كانت غنائم من عدوّ مغلوب.

بعد هذه العربات أقبل ثلاثة آلاف رجل يحملون فضة مصكوكةً نقداً، في سبعمائه وخمسين وعاءً كل واحد منها يزن ثلاثة تالنتات. ويحمله أربعة رجال، وتقدم آخرون يحملون آنية وأكواباً من الفضة رتبت بنظام دقيق ليجعل منها منظراً بديعاً، وهي من التحف العجيبة من ناحية احجامها ودقة صنعتها وغرابة نقشها.

وفي الصباح الباكر لليوم الأخير تقدم الموكب نافخو الأبواق، يوقعون اللحن الذي يضربه الرومان لتحريض الجنود على القتال، وليس الحان المواكب والاحتفالات الدينية والاستقبالات الرسمية. ثم تلتهم ارهاط من الشباب وعليهم معاطف سوداء مزركشة الحوافّ يقودون مائة وعشرين ثوراً مسّمناً مطلية القرون رؤوسها مزدانة بالشرائط وأكاليل الزهر، ولحق بهم صبيان أيفاع يحملون أوعية ذهبية وفضية، تحوي القرابين السائلة. وأعقبها رتل يحمل العملة الذهبية في أوعية يزن الواحد منها ثلاثة تالنتات وعددها سبعة وسبعون(٤٨). ثمّ تلاهم حملة الوعاء المكّرس للآلهة الذي أمر أميليوس بصنعه وزنته عشر تالنتات(٤٩)، وهو مكفّت بالاحجار الكريمة. ثم مرت أكواب [انتيغونس] و[سلوقوس Seleucuse]، والاكواب المصنوعة في تراقيا وصحاف الذهب التي كانت تستعمل في مائدة [پرسيوس] وضع فوقها سلاحه ودروعه وعلاها تاجه. ثم انقضت فترة، بعدها أقتيد أولاد الملك الأسرى تحفّ بهم بطانة من خدمهم وحشمهم ومعلّميهم وكلّهم منخرطون في البكاء يرفعون الى المتفرجين أيدي الضراعة. وكانوا يحثون الأولاد على أحتذائهم في التوسل لاستدرار العطف وكان بينهم إبنان وبنت. حال صغر سنهم دون شعورهم بمقدار بؤسهم. وعدم الشعور هذا جعل حالهم أدعى الى الألم والرثاء. فشخصت عيون الرومان المشفقة الى الأحداث وسمرت فيهم بحيث لم يشعروا بپرسيوس عندما مَر، ولم يقو كثيرون على مغالبة دموعهم. تابع الجميع هذا المشهد بمزيج من الأسى والفرح حتى غاب الوُلدْ عن النظر.

ثم مَرّ [پرسيوس] وهو متشح بالسواد وفي قدميه حذاء مقدونيّ. وبدأ ذاهلاً شارد الذهن لعظم بلواه، وتبعه رهط كبير من أصدقائه وندمائه وقد قلب الغمّ سحناتهم، وحملوا المتفرجين على الاستنتاج من بكائهم ومن دوام تطلعهم الى [پرسيوس] بأنهم يحمّلون حظه العاثر معظم شكواهم، وانهم لا يكترثوت بمصائرهم - وكان پرسيوس قد رجا في اميليوس أن يجنبه هذا

(٤٨) بحساب پلوتارخ كان ثم ما وزنته ٢٢٥٠ تالنت من العملة الفضية، و٢٣١ تالنت من العملة الذهبية. وبحسب ما أورده ڤاليريوس أنتياس فان الكميّة تزيد عن ذلك. ويقول ڤيليوس پاتروكولوس أنها ضعف هذا المبلغ. وربما كان قوله أصبح من تقديرات غيره. لأن النقود التي جلبت من مقدونيا حررت الرومان من دفع الضرائب لمدة (١٢٥) سنة.

(٤٩) هذا الاناء يزن ستمائة پاوند، لأن زنة التالنت الواحد تساوي ستين پاوند. وقد كُرّس لـ(جوپتر).

الموقف ولا يدخله في مسيرة الموكب. فبعث اليه اميليوس الذي سبق له ان أحتقر جبنه وتهالكه على الحياة - بجواب مفاده ان الأمر منوط به الآن كما كان منوطاً به في الماضي - وقصده أن يقول له أن هذا العار يمكن تفاديه بالموت، وهو ما لا قبل لهذا الرجل الخائر القلب به. فظهر مخنثاً جباناً لأملٍ ما يساوره، وسمح لنفسه أن يعرض كجزء من غنائمه!

بعد هذا عرض اربعمائة تاج من الذهب الخالص قدمتها لاميليوس وفود المدن تكريماً لنصره. ثم لاح [اميليوس] وهو جالس في عجلة حربية فخمة الزينة (رجل قمين بالنظر حتى وهو مجرد عن شارات السلطة) وكان متسربلاً بالأجوان المنسوج بخيوط الذهب. وفي يده اليمنى غصن من الغار، ومرّت خلفه قطعات الجيش كلها يحمل افرادها جميعاً أغصان الغار وهم في نظام الكتائب والسرايا. وكان بعضهم ينشد القصائد التي تتخللها النكات التعليقات اللاذعة جرياً على العادة الرومانية في هذه المناسبات[٥٠]، وراح بعضهم ينشد أغاني النصر، ومشيداً ببطولات [اميليوس] الذي كان محط اعجاب كل الرجال وتقديرهم. وامّا الطيبون منهم فما كانوا يشعرون نحوه بايّ حسدٍ، إلاّ قدر ما قد تشاء ارادة أحد الأرباب التقليل من سعادة عظيمة جداً ومفرطة فيعمد الى تعقيد شؤون الحياة البشرية بحيث لا يعود يخلصُ أحدٌ من النوائب والمصائب. وقد صدق [هوميروس] وأجاد في قوله «إن الذين يعتبرون أنفسهم موضع يمن وبركة، هم كل من كان حظّه من الخير والشر متساوياً»[٥١].

كان لاميليوس اربعة ابناء، اثنان منهما تبنتهما أسرتان كما أسلفت وهما [سكيپيو] و[فابيوس] أما الباقيان اللذان انجبهما من قرينته الثانية فقد نشأ في بيته. وتوفيا في مقتبل العمر. الأول مات قبل دخول ابيه ظافراً بخمسة ايام وله من العمر اربعة عشر عاماً ومات الثاني بعد تمام موكب النصر بثلاثة ايام وله من العمر اثنا عشر عاماً. ولم يبق روماني واحد الاّ وهو عميق الشعور بما اعتلج في نفس اميليوس من آلامٍ. ولم يبق من لم ترتعد فرائصه من قسوة الحظّ. وعدم تردده في صبّ هذا القدر الكبير من الزح على بيت، كان ممتلئاً بالسعادة والبشر، حافلاً بالقرابين. وفي مزجه الدموع والحسرات بأناشيد النصر والظفر.

واهتدى أميليوس بتفكيره المجرد الى أن الشجاعة والاقدام ليسا مجرد الثبات امام السلاح والرماح، بل الصمود في وجه صدمات الحظّ ونوائبه. ولهذا ثبت وكيف نفسه لهذه الاضداد والمتناقضات في أحواله، بترجيحه الخير على الشرّ، وموازنة شؤونه الخاصة بشؤونه العامة،

---

(٥٠) اورد سويتونيوس في السيرة التي كتبها ليوليوس قيصر نماذج من أناشيد انشدت بمناسبة النصر الذي حققه على الغاليين.

(٥١) يشير هنا الى فقرة من خطبة أخيل الموجهة لبريام [الالياذة ٢٤:٥٢٦].

ولم يترك اي مجال لاستلاب شيء من عظمة انتصاره، والحظّ من شأنه. فما أن فرغ من مواراة ابنه الأول التراب حتى دخل في موكب النصر. وما أن أكمل مراسيم دفن موت الثاني بعد تمام الموكب حتى بادر الى عقد اجتماع عام وخطب في المواطنين خطبة رجل لا يحتاج الى تعزية الآخرين، بل الآخذ على نفسه معونة أخوانه المواطنين في الضراء التي عاناها هو نفسه. قال:

- أنا الذي ما كنت أخشى قطّ كل ما هو بشريّ، ظللت دائماً أشعر برهبة وتخوفٌ من تقلبات الحظ وغدره، ولهذا السبب بالذات كان الحظ في هذه الحرب يساير كلّ أموري مثلما تسير الريحُ الرخاءُ السفينة، وهو ما جعلني اتوقع تغييراً وتحولاً. لقد قطعت البحر الآيوني في يوم واحد وبلغت [كوركسيرا] مبحراً من [برنديزيوم Brundisium]. ومن هناك وصلت [دلفي] بعد خمسة ايام وضحيت فيه. وفي خمسة ايام أخرى كنت بين عساكري في مقدونيا. وبعد أن أنجزت قربان تطهير الجيش المعتاد، باشرت واجباتي فوراً وفي غضون خمسة عشر يوماً وضعت نهاية مشرفة للحرب. لكني بقيت هدفاً لانقلاب الحظّ عليّ، وأنا ماض في سبيل تصريف شؤوني السبيل الممهد العظيم اليُسر. كنت أخشى أكثر ما أخشى تغيّر ربة الحظّ عليَّ وأنا آمن بعيد عن غائلة اي عدوّ. وانتابني الشعور نفسه وانا في عرض البحر انقل جيشي المظفر الى ارض الوطن مع غنائم هائلة وملك أسير. والواقع أن الشكّ لم يبرحني حتى بعد عودتي اليكم سالما ورؤيتي المدينة ترفل باثواب البهجة وتعمها الفرحة والبشائر وتفرط في تقديم القرابين وبقيت غير مطمئن، وانا العالم الخبير بان ربة الحظّ لا تغدق النعم العظيمة إلاّ اذا ما زجتها النقمة وشابها الترح. ولم أستطع أن احرّر ذهني من الخوف. وبقي فكري يكدح ويجاهد كشأنه دوماً ليتكهن بما سيحلّ من سوء بهذه المدينة، حتى سقطت هذه البلية عليّ بين اسرتي، وحملت الى القبر جثمانيْ اعز وأغلى ابنين، هما خلفاي الشرعيين واحداً اثر الآخر وليس لي ثالث بعدهما - جرى ذلك في وسط الاحتفالات بالنصر. وانا الآن شخصياً مطمئن، آمن من الخطر على الأقل فيما يحظى عندي بأعظم الاهتمام. واني في الواقع واثق ومقتنع بأن ربة الحظ ستبقى من الآن فصاعداً الى جانبكم ولن تلحق بكم اي أذى بعد أن شفت غليل حسدها كاملاً من نجاحنا الأعظم بما فعلته به وأخذته منيّ. لقد جعلت الفاتح مضرب المثل في تغير حال البشر كما جعلت الأسير الذي قاده في موكب النصر، مع فارق واحد وهو ان [پرسيوس] وان كان مغلوباً - ما زال يتمتع باولاده، بينما حرم المنصر عليه من هذا.

تلك هي الخطبة القيمة الرفيعة التي قيل ان اميليوس وجّهها الى الشعب نابعةً من قلب

مخلص، ليس فيه تصنع أو افتعال.

ومع اشفاق أميليوس على حال [پرسيوس] ورغبته في بذل ما يمكنه من عون بما هو في حدود سلطته، إلاّ انه لم يفلح في أكثر من العمل على نقله من السجن العمومي [الكورچير Corcer] الى مكان أكثر نظافة وأحفل بالراحة واليق بالبشر. وذكروا أن [پرسيوس] أضرب عن تناول الطعام حتى الموت اثناء ما كان تحت الحراسة. وقال بعضهم أن موته كان من أعجب وأغرب ما حدث: فقد حفظ له حراسه الجنود ضغينه وبغضاً شديداً لسبب ما، ولم يجدوا طريقة لازعاجه ومضايقته أجدى من حرمانه النوم باقلاقه كلما اراد ان يخلد الى الراحة واستنبطوا حيلاً ووسائل لابقائه مستيقظاً على الدوام، فرق جسمه ونحل حتى مات(٥٢). ولحق به اثنان من ابنائه بعد زمن قصير، وقيل ان ابناً ثالثاً له اسمه [الاسكندر] أصبح فنّاناً بارعاً في نحت وحفر التماثيل الصغيرة. واتقن اللغة الرومانية قراءة وكتابةً مما أهلّه الى وظيفة كاتبٍ قضائية كان فيها مثالاً للنزاهة وقدوة في الاخلاص للعمل.

وعزوا الى اميليوس منفعة طيبة للشعب من جراء فتحه مقدونياً وهي المبالغ الطائلة التي صبّها في الخزانة العامة مما جلبه فأعفي الناس من اداء الضرائب الى عهد قنصلية [هرتيوس Hirtius] و[پانسا Pansa] ويصادف ذلك أول الحرب بين [قيصر] و[انطوني].

ولوحظ أمر غريب عجيب في حياة [اميليوس] وهو انحيازه الدائم الى طبقة الاشراف رغم تعلق الشعب الشديد به وأجلالهم له ولم يؤثر عنه أنه قال أو عمل شيئاً ينطوي على توددٍ للجماهير، أو أستجلابٍ ارضاها، بل كان دوماً يقف في صف الأشراف في كلّ المسائل السياسية. وهذه هي المثلبة التي قذف بها ابيوس Appius في وجه [سكيپيو افريقانوس] ابنه بعد زمن. كان هذان أقوى رجلين في روما وقتذاك، متنافساً على منصب الرقيب العام Censor أولهما يعضده الاشراف ومجلس الشيوخ وهو الحزب الذي لم يتخلّ عنه آل آپي Ap-pii مطلقاً. أما الثاني فقد ركن الى نفوذ عامة الشعب وتعلقه وعلى منزلته الرفيعة، وفي ذات يوم لمحه [آپيوس] قادماً الى الساحة العامة يحفّ به أخلاط من الدهماء وعامة الناس ورهط ممن لم يمرّ على عتقه وحريته زمن طويل. إلا انهم كانوا يمتازون بكفاءتهم في دخول أي حوار يعمل على جمع كلمة العامة واستخدامهم في تحقيق كل ما يطلبون بالضجيج والالحاف. فناداه بصوت جهير قائلاً:

- ايه يا اميليوس پاولوس! لو عرفت ما يحدث فوق الأرض، لما وسعك الاّ اطلاق الزفرات في

---

(٥٢) أورد هذا [ديودورس الصقلي ٢٦]. وقيل ان [فيليب] توفي قبل ابيه، لكن لا يعرف متى كان ذلك واين؟ لأن كتب ليڤي وديودورس التي تعالج هذه الفقرة - مفقودة.

قبرك! فهاهوذا ابنك يطمح الى وظيفة المراقب العام بمعاونة [اميليوس] الدّلال العمومي [ليچينيوس فيلونيكوس Licinius Philonicus]!

لقد كان [سكيپيو] أبداً موضع ثقة الشعب لأن سيل فضله لم يكن ينقطع عنهم، ولكن [اميليوس] اباه رغم بقائه في صف الاشراف، كان يتمتع بمنزلة شعبية لا تقل باية حالٍ عن أكثر الناس أطلاباً لثقة الشعب، وسعياً وراء حبّه بمختلف الوسائل. لقد أظهرت الجماهير ذلك عندما وجدته لائقاً لمنصب المراقب العام(٥٣) فآثرته به دون كل الشخصيات الرفيعة التي سعت اليه، وهي ثقة تعدّ في أعلى درجات القدسيّة لما تتضمن من سلطة عظيمة ناهيك بتدخلها في شؤون أخرى. فللمراقب العام سلطة طرد اي عضو في مجلس الشيوخ وتعيين من يراه لائقاً، بدلاً منه. وله أن يفرض عقوبة فضح الشبان المتعطلين بمصادرة خيولهم. ومن سلطته أن يقوّم اموال كل فرد لأغراض دفع الضريبة، وان يقوم باحصاء النفوس العام [بلغ عدد رجال في الاحصاء الذي اجراه اميليوس عندما كان يمارس الوظيفة: ٣٤٧,٤٥٢ رجلاً بالغاً. وأعلن إسناد زعامة مجلس الشيوخ الى (ماركوس ليپيدوس) الذي أكرم بهذا المنصب اربع مرات قبلها، ورفع عن مقعد المجلس ثلاثة هم أقلّ الشيوخ منزلة وأهمية وأجرى مثل هذه التعديدلات في احصاء طبقة فرسان الجيش الروماني بمعاونة زميله في الوظيفة (مارشيوس فيلپوس).

فيما كان اميليوس منشغلاً في كثير من الأمور الخطيرة، ابتلي بداءٍ دلت اعراضه الأولى على الخطورة، ثم تبين بعد زمن أنه ليس كذلك، على انه كان مزعجاً مستعصياً. فابحر الى [ڤيليا Velia](٥٤) في جنوب ايطاليا للاستشفاء نزولاً عند نصح اطبائه، وبقي قريباً من البحر مدة طويلة مستمتعاً بكلّ ما اتيح له من هدوء وراحة. في حين ظلّ الرومان يشتاقون الى عودته، وكثيراً ما عبروا عن مشاعرهم ورغبتهم في قدومه جهراً في الملاعب والمحلات العامة. ثم انه دنا موعد تقديم قربانٍ دينيّ دعت الضرورة اليه، وخيل لأميليوس أن جسمه يقوى على المشاركة فيه، فعاد الى روما. وأنجز المراسيم الدينية مع بقية الكهنة. وكان الشعب في اثناء ذلك يتكالب عليه ويحيط به حشوده لتهنئة بسلامة العودة وطيب المقام، وفي اليوم التالي قربّ الى الآلهة أعترافاً بفضلها في شفائه. وبعد انتهائه من ذلك عاد الى منزله وجلس الى الطاولة ليتناول غداءه واذ بنوبة مفاجئة تعتريه فراح يهذي، ثم غاب عن الوعي تماماً وفي

(٥٣) أنتخب لوظيفة الچنسور مع [كوينتوس مارشيوس فيليپوس] بعد قنصليته الثانية باربع سنوات. ومما يذكر ان هذا المنصب استحدث في العام ٤٤١ ق.م.

(٥٤) يكتب پلوتارخ «إليا Elea» هنا تفريقاً لها عن (ڤيليا) ويقول انها مدينة ايطالية لئلا يخلط بينها وبين سميتها في بلاد الاغريق.

اليوم الثالث[٥٥] لفظ انفاسه الأخيرة. وبذلك انتهت حياة لم تجد في اي نمط أو أسلوب من الأشياء سبيلاً قد يؤدي بها الى السعادة، حتى أن روعة جنازته كان فيها من الغرابة ما يستوقف النظر ويدعو الى العجب. فلقد كُرِّمت فضائله وسجاياه بالجليل المهيب من المراسيم عند مواراته التراب اذ انها خلت من الذهب و ومظاهر الفخفخة المعتادة في تلك المناسبات وحفلت بالحبّ والثقة والاحترام لا من ابناء وطنه وحدهم بل من الاعداء الذين قاتلهم أيضاً فقد تعاون على حمل نعشه والسير به كل الشبان الاشداء من الاسپان والليغوريين والمقدونيين[٥٦]، وسار خلفه الطاعنون في السنّ منهم، ينادونه بالمحسن اليهم والمحافظ على أوطانهم. لأنه كان يعامل المغلوبين بالعطف والتسامح، ولا ينفك في كل أدوار حياته يهتم بشؤونهم ويواصل بذل الخير لهم ويقضي لهم حاجاتهم كأنهم من ذويه وأقربائه. وذكروا المؤرخون أن تركته لم تزد عن ثلاثمائة وسبعين ألف دراخماً خلّفها لابنيه بالتساوي الاّ أن أصغرهما [سكيپيو] نزل عن حصته لأخيه لأن أسرة [افريقانوس] التي تبنته كانت ذات ثراء عريض.

هذا ما جاءنا عن حياة وسيرة أميليوس[٥٧].

---

(٥٥) في ١٥٩ ق.م.

(٥٦) بعض النبلاء المقدونيين الذين كانوا آنذاك في روما. ويقول ڤاليريوس ماكسيموس [٢:٤:٣] انه كان أشبه بموكب نصرٍ ثان فقد حمل هؤلاء نعشه وهو مثقل برسوم وأشكال تمثل مناظر من هزيمة بلادهم.

(٥٧) هناك قولة واحدة وجهها لابنه (سكيپيو) تستأهل الذكر هنا: «الجنرال الكفؤ لا يبدء معركة الاّ عندما يُدفع اليها كضرورة لابدّ منها».

أوجه المقارنة بين تيموليون وباميليوس پاولوس

تلكما قصتا حياة هذين الرجلين العظيمين، وهما عند المقارنة متشابهتان بدون شكّ باستثناء أختلافٍ بسيط للغاية. فقد حاربا عدوين قويين: حارب أحدهما المقدونيين ونازل ثانيهما القرطاجنيين. وكان نصرهما مجيداً. الاول انتزع مقدونيا من خليفة [انتيغونس] السادس في المُلك. والثاني حرّر صقلية من الطغاة المغتصبين وأعاد الى الجزيرة حريتها السالفة. إلا اذا كان سجّلنا لاميليوس ميزة على صاحبه، وذلك باشتباكه مع جيش [پرسيوس] الكامل العدة والعدد، المؤلف من رجال كثيراً ما تغلبوا على الرومان في سوح القتال. في حين كان تيموليون قد وجد خصمه [ديونيسيوس] في أسوء حال، وأكثره يأساً. وبطريق المعادلة تقدّم تيموليون اميليوس لأنه قضى على حكم طغاةٍ عديدين، وسحق جيشاً قرطاجنياً جراراً، بعدد تافه لا يذكر من الرجال الذين جمعهم من كل صقع وبلد وليس كجيش اميليوس المتجانس المؤلف من جنودٍ نظاميين حسني الضبط عجم القتال عودهم وتعودوا الطاعة. خلافاً لجيش تيموليون الذي جمعهم اليه أمل الكسب والربح لا خبرة ولا مراس لهم في القتال تحكمت فيهم الفوضى وتعذّر قيادهم.

عندما تتكلل خاتمه الحروب بالنجاح، وتكون وسائل بلوغهاغير متساوية فان أعظم التقدير هو بالتأكيد، للقائد الذي حقق انتصاره بقوات أقلّ عدداً.

وكلا الرجلين عرفا برصانة الخلق، وحسن المسلك في معالجتهما كل ما عَنّ لهما من مهامٍ وواجبات إلا أن اميليوس انفرد عن صاحبة بأن لشرائع وعادات بلاده التي ربي عليها وثقف منذ نعومة اظفاره يداً في صلاحه لتولى الشؤون العامة وتصريفها، في حين أن تيموليون كوّن شخصية بمجهوده وسعيه الخاص وهذا واضح: لأن الرومان في ذلك العصر كانوا على حدٍ سواء شعباً منظماً طائعاً يحترم القانون، ويتبادل أفراده الخضوع والانصياع بعضهم لبعض، بينما نرى والدهشة تأخذ بلبّنا أنه لم يخلص قائد واحد من قواد اليونان في صقلية من الفساد والتفسح باستثناء [ديون]، ولهذا كان الكثير يحقدون عليه، ويتهمونه كذباً بعمله على اقامة

نظام ملكي هناك، وفق النظام اللقيديموني. ويكتب [طيماؤوس] أن سوء الحال أدى بالسيراقوزيين حتى الى اخراج [غيليپوس Gylippus] من البلاد بصورة غير مشرفة له بعد أن دَمرّ سمعته الذي لم يقف عند حدا ما ظهر منه عندما كان قائداً للجيش، ويورد كثير من المؤرخين حكايات عن الاعمال الشريرة القذرة التي ارتكبها [فاراكس] السپارطي، وكاليپوس Callippus الآثيني لغرض نصب نفسيهما ملكين في صقلية. من هما هذا الرجلان؟ ماذا كانا يملكان من قوة ليندفعا الى تحقيق فكرتهما هذه؟ كان أولهما تابعاً لديونسيوس عند طرد الطاغية من صقلية. وكان ثانيهما آمر سرية مشاة مأجور، من مرتزقة [ديون] جاء معه الى صقلية. لكن تيموليون أرسل نزولاً عند رجاء السيراقوزيين والحاحهم وجاء مزوداً بسلطة قائد ولم يكن بحاجة الى من يؤمره لأن سلطة جاءت منقادة اليه برجاءٍ وطلب. إلاّ انه مع هذا تنازل عن سلطانه بملء رغبته فور اتمامه تحرير صقلية من الغاضبين المضطهدين.

ومما يستحق أعجابنا هو أن اميليوس فتح مملكة مقدونياً الواسعة الفنية دون أن يلمس أو ينظر الى مالٍ، ولم يفد منها فلساً واحداً في حين عُرف بالكرم وسخاء اليد على الآخرين بكلّ ما يملك. وليس قصدي أن أضع علامة استفهام على تيموليون لأنه قبل منزلاً ومزرعة ثمينة في الريف، هدية من السيراقوزيين فليس قبولها مما يخلّ بقواعد الشرف، على أنه يكون أعظم شاناً ومجداً في رفضه لها. واسمى ما ترتفع اليه النفس هو عزوفها عن شيء لا غبار على أخذه، وبما أن أقوى الاجسام واصحها هي التي تستطيع احتمال صبارة الشتاء، وحمارة الصيف وقت تغيّر الفصول الفجائي بكامل اليُسر، وبما أن أصحّ العتود وأشدّها ثباتاً هي التي لا تتورم بالرخاء والعيش الهنيء، ولا تذوى وتضمر بالنوائب والملمات، لذلك نجد خلق اميليوس بقي ثابتاً بارزاً على سلوكه وتصرفاته، ظلّ سامياً رفيعاً حتى عندما فقد ابنين عزيزين مثلما كان عندما حقق أعظم انتصاراته وفتوحه. في حين أن تيموليون بعد أن أنزل العقاب العادل باخيه وهو عمل بطولي لا جدال فيه، استسلم لحزن لا مبرر له وحط من قدر نفسه بالغم والكآبة وحرم نفسه عشرين سنة، من الظهور في المحلات العامة أو ممارسة اي عمل سياسيّ.

والحق يقال أن من الحسن والجميل جداً أن يُشجب أي عملٍ وضيع، ويقابل بالكره والاحتقار، أما أن يظلّ المرء عرضةً للخوف من اي شكل من أشكال الملام، أو التقريع، فهذا يدل على قلب رقيق سليم الطوية، ولا يدل على قلب باسل شجاع.



PELOPIDAS

364 ـ 420 ق.م

سمع [كاتو الأكبر Cato Majer] أحدهم يثني على آخر بالاقدام والجرأة التي لا حدود لها في المعركة فقال: «هناك فرق كبير بين التقدير الواجب للبسالة وبين الاستهانة بالحياة». وهو قول في غاية الصواب. فنحن نعلم على أقل تقدير أنه كان [لأنتيغونس] جنديٌ مقدام لا حَدَّ لجرأته وكان يشكو علةً وسقم بدنٍ، فسأله عن سبب سوء حاله ولما علم بدائه أمر اطباءه ببذل جهدهم في شفائه. وما أن شفي البطل المغوار، حتى زايلته الجرأة وطلق ركوب الاخطار طلاقاً لا رجعة فيه ولم يعد يظهر ذلك الاندفاع الاهوج في المعارك. فعجب [انتيغونس] لأمره وأخذ يلومه على تبدّل حاله، فلم يخف الجندي عنه السبب اذ قال:

– سبب جبني أنت يا مولاي! بانقاذي من ذلك البؤس والشقاء الذي كان يدفعني الى الاستهانة بالحياة.

وهذا الشعور نفسه كان يحدو السيباريتي Sybarite[1] في قولهم عن السپارطيين: إن استسهالهم الموت في الحرب، ليس مما يستوجب الاعجاب والتقدير، مادام ذلك يحررهم من عملهم الشاق وحياتهم البائسة. في حين كان الواقع يقضي على [السيباريت] وهم شعبٌ رقيق خانع أن يكرهوا الحياة، لأنهم لم يكونوا يخشون الموت في اطلابهم المجد وشوقهم الى السؤدد. لكن اللقيديمونيين وجدوا أن سجاياهم تحقق لهم سعادة في الحياة وفي الممات سواءً بسواءٍ. كما نجد في قول القائل:

ماتوا، لا استهانةً منهم بدمائهم وارتخاصاً لارواحهم
ولا بتوهمهم أن الموت هو شيء حسن بذاته.
لم يكن من رغبتهم أن يعيشوا لا أن يموتوا،
بل أن ينهضوا باعبائهما، بصورة تستحقّ الثناء.

---

(١) مستعمرة يونانية أسست منذ زمن قديم في خليج تارنتوم. كان موقع المستعمرة الجغرافي وغنى أهلها وقوتهم قد وصل بهم حتى الترف الذي ضرب به المثل. كانت عاصمتهم تدعى أولاً [سيباريس] من اسم النهر الذي يجرى قربها. ثم أبدل الاسم بـ(يثوريوم) أو (يثوري).

والمجاهدة في اجتناب الردّى ليس موضع لوم إن لم يكن الغرض من الحياة العيش الدنيء الذليل. وليست الرغبة في الموت من الخصال الحميدة إن كان الدافع اليها أحتقار الحياة. ولهذا نجد [هوميرس] يحرص دوماً على أن يدفع باشجع ابطاله وأكثرهم أقداماً - الى ميدان المعركة وهم مدججون بالسلاح الجيدّ. ولذلك كان المشترعون اليونانيون ينزلون العقوبات بأولئك الذين يتركون دروعهم ولايعاقبون من يفقد رمحه أو سيفه، ففي عرفهم أن الدفاع عن النفس هو أقرب الصفات الى الرجولة من الهجوم في المعركة. وهذا يصدق خصوصاً على حاكم المدينة أو القائد العسكري. وبحسب تصنيف [إفيقراطس Iphicrates][٢] اذا كانت القطعات الخفيفة بمثابة اليدين للجيش واذا كانت الخيالة بمثابة قدميه والمشاة بمثابة صدره، فإن القائد هو الرأس. وعندما يقتحم القائد مواطن الخطر، لا يخاطر بحياته وحدها بل بكلّ من تعتمد سلامتهم على سلامته، والعكس بالعكس. لقد كان [كاليكراتيداس Callicratidas] عظيماً في كل شيء سوى الخطأ الذي تضمن جوابه لكاهنٍ نصحه بأن ينتبه لسلامته لما بدأ في قربانه من دلائل غير طيبة. فقد قال «في هذه الحالة لن تفقد سپارطاً رجلاً واحداً». الحق يقال أن [كاليكراتيداس] ليس غير فردٍ واحدٍ عندما يشارك في معركة برية أو بحرية، انّا بوصفه جنرالاً فهو يجمع في حياته حياة الكلّ، ويصعب أن يعتبر فرداً واحداً اذا ادّى موته الى هلاك عدد كبير. وخير من هذا الجواب، جواب [انتيغونس] الشيخ عندما اضطر الى القتال في [اندروس]. فقد قال له أحدهم «ان سفن الاعداء تزيد سفننا عدداً» فأجابه قائلاً «وأنا؟ بكم من السفن تعدّني؟» يقصد بهذا أن القائد المجرب الباسل تقويمه بالكثير. ومن الواجبات الأولى التي تحتمها وظيفته هو المحافظة على نفسه فبانقاذها من الخطر انقاذ من تعتمد سلامتهم على سلامته. وانه لا يسعني الاّ الاشادة [بتيموثيوس Timotheus] الذي قال لـ[خاريس Chares] عندما كشف له عن الجراح التي اصابته وترسه المخروق بسنان رمح:

- على أنيّ كنت أشعر بالخزي والعار في اثناء حصار ساموس عندما سقط رمحٌ بالقرب منيّ، لأني انكشفت للعدوّ مثل صبيّ غرير وانا جنرال أقود جيشاً عرمرماً.

الحق يقال ان مخاطرة الجنرال بحياته لا غبار عليها إن كانت تصل الى حَدّ تقرير نتيجة فاصلة. فهنا ينبغي عليه أن يقاتل بنفسه ويقامر بحياته غير مبالٍ بالعواقب الحتميّة التي قد تجعل قائداً يموت في اراذل الشيخوخة على الأقل، إن تجعله يموت بسبب الشيخوخة. أمّا اذا كانت الفائدة من اقدامه قليلة، والخسارة من سقوطه كبيرة، فمن يرغب في أن يخاطر بحياة جنرال، لأجل الحصول على نجاحٍ جزئي يستطيع ان يحرزه اي جنديّ بسيط؟

---

(٢) جنرال أثيني شهير. كان مغموراً إلاّ أن أعماله رفعت في صيته.

هذا، حسب اعتقادي، ما يجدر بي أن أوطيء به لسيرة كلّ من [پيلوپيداس، ومارچللوس] وكلاهما من عظماء الرجال، وكلاهما سقطا بسبب اقدامهما وبسالتهما. كانا من الشجعان المعدودين وكسباً لبلاديهما انتصارات عظيمة ورفعا من شأنها لحسن بلائهما في الحرب ضدّ عدوين رهيبين. فالتاريخ يذكر عن ثانيهما دحره [لهنيبعل] وهو في أوج قوته. وأولهما هزم اللقيديمونيين في معركة فاصلة حينما كان هؤلاء سادة البحر والبرّ. إلا أنهما خرقاً كلّ حدفي تهورهما وارتخصا الحياة بطيش لا مثيل له في حين كان الحاجة الى أمثالهما من القادة ماسه جداً. إن الشبه الذي يجمع بين خصالهما، وأتفاق ميتتيهما دفعني الى أن أقرن ما بين سيرتيهما.

انحدر پيلوپيداس ابن [هيپوكلس Hippoclus] من أسرة شريفة في [ثيبه]، مثل [إپامننداس]. ونشأ في خفض من العيش ورغده وورث وهو صغير مالاً كثيراً. فجعل همّه التفريج عن ضيق المستحقين الطيبين من الفقراء، مبرهناً على أنه سيد ماله لا عبداً له. وقد رأى افلاطون «أن من الرجال فريقاً ضاق عقله عن استعمال ثروته. وفريقاً من السفهاء اساء استخدامها، فالأول يعيشون عبيداً مخلدين لأرباحهم، والأخيرون يظلون دوماً عبيداً لملاذهم وشهواتهم». وهناك فريق ثالث من قبيل من سمح لنفسه أن يتنعّم بجود پيلوپيداس شاكراً كرمه وعطفه ألاّ [اپامننداس] صديقه، فانه لن يستطع اقناعه بشيءٍ مما يملك من دون سائر اصدقائه، فلم يَر بُداً من النزول الى مستوى فقره، وجدان الرضى في لبس الثياب الرثة مثله، وتناول طعامه التافه وأحتمال للمشاق لا يهن، وأبداء جرأة لا تعرف احجاماً في ميدان الحرب. وكان مثل [كاپانيوس Capaneus] في يورپيدس: «يملك ثروة طائلة، ولا تراه يفخر بها»

اذ يدركه الخجل وبفضل حياة اپانداس المنفردة وتفلسفه، أصبح فقره العتيد الموروث أخفّ وأسهل حملاً. إلاّ أن [پوليپداس] تزوج امرأة من أسرة رفيعة وأنجب أولاداً، ومع هذا فقد بقي لا يفكر في مصالحه الخاصة إلاّ تفكيراً ثانوياً، وانصرف انصرافاً تاماً الى معالجة المسائل العامة، فضيع ثروته. فلما توجه اصدقاؤه بلومه، والتأكيد على ضرورة المال الذي أهمل شأنه، أجابهم قائلاً:

- أجل، فهو ضروري لنيقوديموس Nicodemus. مشيراً الى رجل مقعدٍ ضرير.

وبدأ كلاهما مؤهلين بطبعهما لكلّ أسباب المعالي والبروز. على أن [پيلوپيداس] فضّل الرياضات البدنية بينما شُغِل [اپامننداس] بالدراسة والعلم. وكان أولهما يقضي ساعات فراغه في الصيد والاختلاف الى الپاليسترا Palaestra (مدرسة المصارعة)، والثاني كان

يداوم سماع المحاضرات وممارسة التفلسُف؛ ومن آلاف المزايا الجديرة بالثناء فيهما، التقدير المعقول الذي لا يوازيه شيء، لتلك الرغبة الدائمة في عمل الخير والصداقة التي صاناها من كل ما يشينها في حملاتهما العسكرية، وأعمالهما العامة، وفي فترة حكمهما الجمهورية. فلو نظر ايّ شخص الى حكم [اريستيديس مع ثموستوكلس]، و[سيمون مع پيركلس] و[نيسياس مع الكيپيادس] لهالة الفوضى والحقد، والتباغض الذي كان يسود علاقة كل زميلين. ولو تحول بنظره الى [پوليپيداس واپامنونداس] وتأمل العطف والاحترام الذي كان يظهره أولهما للثاني، لما وسعه إلاّ الاقرار بأنهما أفضل قرينين وأكثرهما انسجاماً في الحكم والقيادة، وأحق وأحفى بالتجلّة من الآخرين الذين كانوا أكثر انشغالاً في مناصبة العداء بعضهم لبعض، من مناجزتهم لاعداء البلاد. ويعود السبب الحقيقي في هذا الى خصالهما الحميدة وأخلاقهما العالية، فهما لم يجعلا الثروة والجاه هدف مساعيهما - وهو هدف لابُدّ يؤدي الى الشنآن المنطوي على التنافس والخصام - بل كانا من البداية موطنيّ النفس بدافع سامٍ على أن يريا بلادهما تنعم بامجاد أعمالهما. ولهذه الغاية جنّد الواحد منهما مؤهلات الآخر واستخدم كما لو كان واستخدمها مؤهلاتهما معاً ويرى كثيرون أن جبل الودّ المتين هذا قد شدّهما منذ معركة [مانتينيا][3] التي شاركا فيها جنباً الى جنبٍ. اذ كانا بين افراد النجدة التي ارسلتها [ثيبه] لتعزيز صفوف اللقيديمونيين اصدقائها وحلفائها في ذلك الحين. فقد وضعا في صنف المشاة معاً واشتبكا مع الاركاديين. فانكفأ الجناح اللقيديموني على اعقابه وفرّ عدد كبير. فما كان منهما إلاّ أن ضمّا ترسيهما وصمدا في وجه المهاجمين. فأصيب [پيلوپيداس] بسبعة جراحٍ امامية، وخرّ صريعاً فوق كومة من قتلى الجانبين. ومع أن اپامنداس عَدّه في حكم الميت، فقد تقدم للدفاع عن سلاحه وجثته، وحارب جمهرة كبيرة من الاعداء بمفرده. مفضلاً موته على التفريط بصديقه البائس. وخارت قواه لاصابته بطعنة رمح في صدره وضربة سيف في ذراعه، فخفّ ملك السپارطيين [آغيسيپوليس Agesipolis] من الجناح الثاني الى نجدته وأنقذهما في آخر لحظة.

بقي اللقيديمونيون بعد هذا، يظهرون الصداقة (لثيبه)[4]، وهم في الواقع ينظرون نظرات

---

(٣) علينا أن لا نخلط بين [اپامنداس] فتلك كانت عزماً على اللقيديميين وهذه كانت غنماً. وربما وقعت المعركة موضوع حديثنا في السنة الثالثة من الاولمپياد الثامن والتسعين [ديودورس ٢٥:٥].

(٤) وجدت سپارطا طوال حروب الپلوپونيسي حليفاً مخلصاً في الثيبيين. وبمساعدة سپارطا استعاد هؤلاء حكمهم على بويوتيا التي كانوا قد فقدوها بسبب هزيمتهم امام الفرس. وبالأخير تعاظمت قوتهم وجبروتهم حتى انهم رفضوا عقد معاهدة سلام مع انتلقيداس ولم يقبلوا إلا بعد أن ارغموا. وعلمنا من [پوليبيوس] ان اللقيديميين خلال فترة الساعة تلك لم يسحبوا حامياتهم من أية مدينة أغريقية رغم انهم أعلنوا حرية تلك المدن.

الشكّ الحاقد الى تنظيمات المدينة وقوتهما. وكان بغضهم منصبّاً بالدرجة الأولى على حزب [ايسمنياس Ismenias] و[اندروقليدس Androclides] الذي ينتمي اليه پيلوپيداس، وهو حزب ينهج منهج التقدم ويعمل على ارساء دعائم الحريات لمواطني المدينة. ولذلك استمر به كلّ من [ارخياس Archias] و[نيونتيداس وفيليب] وهم من الاثرياء ذوي المطامع الاشعبية الذين ارادوا إحلال النظام الاوليغارشي، فطلبوا من [فيوپيداس Phoepidas] القائد السپارطي وكان ماراً بالمدينة بقوات كبيرة[٥]، أن يفاجيء [قادميا Cadmea] ويشتت شمل الحزب المعارض لهم ويبعد اعضاءه عن البلاد لاقامة نظام حكم اوليغارشي، وبهذه الوسيلة يتمّ اخضاع المدينة لسلطان السپارطيين. فقبل باقتراحهم، وفاجاء الثيبيين في عيد [كسيريس][٦] من حيث لايتوقعون واستولى على القلعة. وقبض على [ايسكنياس] وحُمل الى سپارطا وهناك قتل بعد زمن وجيز. لكن پليوپيداس، وفيرينيكوس واندروقليدس وعدداً كبيراً آخر تمكنوا من الفرار، فأعلنوا رسمياً بأنهم خارجون على القانون. وبقي اپامنداس في البلاد اذ لم يكن الطلب عليه شديداً فقد جعلته الفلسفة خاملاً، وأحاله الفقر عاجزاً.

وعزل اللقيديمونيون [فيوپيداس] وفرضوا عليه غرامة قدرها مائة وخمسون ألف دراخما، إلا انهم لم يسحبوا حاميتهم من ألقاديميا وابقوها. فراح كل الأغريق يعجبون للتناقض بعد أن عاقبوا الفاعل، ووافقوا على الفعل. ومع أن الثيبيين الذين فقدوا استقلالهم، وآضوا عبيداً لأرخياس وليونتيداس لم يعد لديهم اي أمل في التحرر من هذا الطغيان الذي وجدوا كلّ قوة سپارطا العسكرية تحرسه، ولا وسيلة عندهم لكسر النير إلاّ اذا أمكن ازاحة هؤلاء من سيطرتهم على البحر والبرّ، فإن ليونتيداس وعصابته، علموا أن المبعدين يعيشون في اثينا مقدرين من الأهالي ويحترمهم كلّ الأخيار والطيبين فبادروا الى الائتمار سراً بحياتهم وأغروا بعض الاشخاص المجهولين فنجحوا في اغتيال [اندروقليدس] إلاّ أنهم لم يفلحوا في الباقين. وبعثوا ايضاً برسائل من سپارطا الى الآثينيين، حذروهم فيها من ايواء المبعدين أو تشجيعهم باية صورة. بل أن يعمدوا الى طردهم بوصفهم اعداء الداء للإتحاد الاغريقي. إلاّ أن الآثينيين لم يلحقوا اي أذىً بالثيبيين اللاجئين تدفعهم الى ذلك ميولهم الطبيعية الموروثة الى العطف ومجازاة الثيبيين عن جميلهم في الماضي فقد ساعدهم هؤلاء كثيراً في المحافظة على نظامهم

---

(٥) كان [فوبيداس] يزحف على مدينة [اولينثوس] في الوقت الذي أخذه أخوه [اڤيدوميداس] يضيق عليها الخناق بجيشه اللقيديمي وبعدها قام ليونتيداس أو ليونتيادس أحد البوليمارخيين - بتسليم مدينة ثيبته وقلعتها [كزينفون: الهللينييون ٥].

(٦) أو عيد تسموفوريا. يحتفل النساء بهذا العيد في كارميا. وهو أكبر أعياد [illegible] التي تقيمها الاغريقيات ويحيين فيه أيضاً ذكرى أعظم بركتين خصّ بهما البشر وهما الزراعة وسن[illegible].

الديمقراطي وأصدروا مرسوماً عاماً بما مفاده كلّ اثيني يجتاز [بويوسيا] مسلحاً لغرض مقاتلة الطغاة، على أي بويوسيّ أن يتغاضى عنه كأنه لم يره ولم يسمع به».

ومع أن پيلوپيداس كان من أصغر أعضاء الحزب سناً، إلا انه كان من انشطهم، لأيني الاتصال بكلّ مبعد على حدة سِراً فيثير حماسته، وكثيراً ما كان يخطب في اجتماعاتهم قائلاً انه لمن العار والحقارة إهمال بلادهم المستعبدة المحتلّة والقناعة بالعيش هكذا عيشة التعطل والأمان والكسل معتمدين على مراسيم الحكومة الآثينية، متبصبصين بدافع الخوف لأي خطيب معسول اللسان، قادر على استمالة الجمهور: كلاً أبداً، بل ينبغي عليهم أن يخاطروا في سبيل هذا الهدف العظيم ويتخذوا لهم مثلاً وقدوة من شجاعة [تراسيبولوس Thrasybu-lus] النادرة. وكما أنه زحف من [ثيبه] وكسر شوكة الطغاة الآثينيين، فعليهم أن يزحفوا من آثينا ويحرروا [ثيبه]. ونجح في اقناعهم بهذه الطرائق والأساليب فبعثوا سِراً الى ثيبه ببعض الاشخاص الى جملة من الاصدقاء ما زالوا في المدينة، وكشفوا لهم عن خططهم، فتمت الموافقة عليها وعرض [خارون Charon] وهو شخصية بارزة جداً – منزله لاستقبال المؤتمرين. واحتال أحدهم المدعو [فيلليداس Phillidas] على أن يُعين بمنصب كاتم سرّ لكلّ من [ارجناس وفيليب] وكانا في ذلك الحين يملآن وظيفة [البوليمارخ] أو القائد العام. وكان اپامنداس قد نجح في اثارة حماسة الشباب. اذ كان يشجعهم في اثناء التمارين الرياضية على تحدي السپارطيين والدخول معهم في حلبة المصارعة. فاذا ما وجدهم يترنحون بنشوة انتصاراتهم وفوزهم. خاطبهم بحدّةٍ وقسوة بقوله أنه لمن العار الكبير أن يصل بهم الجبن الى الحدّ الذي لا يتورعون عن خدمة من لا يفوقهم بالقوة.

وحُدّد يوم التنفيذ وأتفق المبعدون على أن يمكث [فيرينيكوس] في السهل الثرياسي Thria-sian[٧]، في حين يتقحم أوّل الخطر فئة قليلة من الشباب بمحاولة دخول المدينة. فاذا فاجأهم العدو وقضى عليهم فعلى الآخرين أن يُعنوا بأولادهم والأبويين. وعرض پيلوپيداس نفسه أولاً، وتبعه [ميلون Melon] و[داموقليدس Damoclides] و[ثيوپومپوس]، رجال من أسر عريقة المحتد يحبّ ويخلص بعضهم لبعض إلاّ في اطلاب المجد واظهار الشجاعة فهم خصوم دائمون ينافس أحدهم الآخر. وكانوا اثني عشر فقط، ودعوا صحبهم الباقين وبعثوا برسول الى [خارون]، ثم انطلقوا في سبيلهم يرتدون معاطف قصاراً ويحملون عصيّ صيدٍ ويجرونّ كلاب صيدٍ ليبدوا بمظهر صيادين يتجولون في الحقول بحثاً وراء صيدٍ، وبذلك يبعدون عنهم شبهة كل من يلقاه. ووصل رسولهم الى [خارون] وأخبره بأنّ أصحابه سيصلون وشيكاً فلم يثن

(٧) ثرياسيوم هي مدينة بالقرب من جبل [كيثيرون].

الخطرُ [خارون] عما اعتزمه وبقي محافظاً على كلمة الشرف التي قطعها مقدّما منزله لايواء المؤتمرين القادمين. على أنه كان يوجد شخص اسمه [هپوسثينيداس Hipposthenidas]. وهو رجل ذو مبادئ قويمة لا غبار عليها، محب لوطنه، صديق للمبعدين، إلا أنه كان يفتقر الى العزم والارادة التي تتطلبها طبيعة العمل المفروض وقصر الوقت. ولذلك تهوّل المغامرة الوشيكة وبدأ الآن لأول مرة يتحسب للأمر: فوجد القضية تنحصر في الاعتماد على تلك القوة الضعيفة التي سيقدمها المبعدون للقيام بعمل لا يقل عن الاطاحة بالحكومة والتغلّب على كلّ قوة سپارطا، فانسلّ الى منزله وبعث بصديق له الى [ميلون وپيلوپيداس] ينصحهم بالعدول عن المغامرة مؤقتاً والعودة الى اثينا تربصاً بفرصةٍ أفضل، فعاد الرسول المدعو (خليدون Chlidon) الى بيته مسرعاً وأخرج جواده وسأل عن السرج. ولما كانت زوجه تجهل موضعه، ولم يظهر له أثر منذ أدعت أنها اعارته لصديقٍ فبدأ يتلاومان ثم انتقلا الى التلاعن ودعت عليه زوجته أن تكون سفرته نحسةً له ولكلّ من أُرسله وهكذا أمتدّ الخصام بهما حتى وجد [خليدون] أن عاطفته ضيّعت عليه الجزء الأكبر من يومه. وعندها رأى في ذلك نذير شؤمٍ فعدل عن التفكير في الرحلة، وانصرف الى شأن آخر. فتأمل كيف كاد الفشل يحيق بهذه المشاريع المجيدة والعظيمة في ساعة مولدها الأولى.

وأنقسم [پيلوپيداس] وصحبه الى قسمين، وكانت الدنيا نهاراً عندما دخلا المدينة من طريقين مختلفين وهم مرتدون ثياب الريفيين. وكان اليوم عاصفاً ثم أخذ الثلج يسقط وهذا ما ساعد في اخفائهم كثيراً لأن معظم الناس أووا الى بيوتهم بسبب سوء الطقس. وأستقبلهم شركاؤهم في الداخل، حال وصولهم وقادوهم الى منزل [خارون] فأجتمع فيه من المعبدين وغيرهم ثمانية واربعون لا غير. وكان خطّة القضاء على الطاغية بهذا الشكل: ذكرت قبلاً أن كاتم السرّ [فيلليداس] هو شريك للمبعدين ومطلع على كلّ تدابيرهم، وقد دعا ليلة التنفيذ الى داره [ارخياس] وآخرين الى وليمة مجلس وشراب وأستقدم بعض نسوة المدينة لهذا الغرض. حتى اذا لعبت الخمرة بالرؤوس وانصرف المدعوون الى ملاذّهم أعطيت الاشارة الى المؤتمرين للايقاع بهم، وتمّ ذلك كما رسم ولكن قبل أن تسري نشوتها في اوصال [ارخياس] تماماً أبلغ بأن المبعدين قد دخلوا المدينة سراً. وكان بلاغاً صحيحاً طبعاً لكنه غامض غير مؤكدٍ تماماً: ومع ذلك بذل [فيلليداس] مجهوده في تحويل مجرى الحديث الى موضوعٍ آخر، إلاّ أن [ارخياس] أرسل أحد حراسه الى [خارون] يطلب حضوره فوراً وكان الوقت ليلاً وپيلوپيداس واصحابه قد أكملوا التأهب للعمل وهم في المنزل بعد. ودق الباب فجأة بعد أن اتمّوا لبس دروع الصدر وشدوا انطقة السيوف، فتقدم أحدهم من الباب ليسأل عن الأمر، ولما علم من

الحرس أن [البوليمارخ] طلب احضار [خارون] عاد في غاية الاضطراب ليطلع الآخرين، فتوهموا حالاً أن المؤامرة كلها قد افتضحت، وانهم سيمزقون إرباً قبل يتمكنوا من تحقيق أي عملٍ يثبت بسالتهم على الأقل: على انهم اتفقوا جميعاً، بوجوب اطاعة خارون للأمر والذهاب الى [البوليمارخ] دفعاً للشكّ. وكان [خارون] والحق يقال شجاعاً جميع القلب ثبت الجنان في وجه الخطر، إلا انه كان في هذا الموقف شديد القلق لئلا يظنّ به اصحابه المؤتمرون، ويوصم بالخيانة ويُحمّل وزر موت هذا العدد الكبير من أبسل المواطنين. لذلك عمد الى احضار ابنه بعد أن استعدّ للرحيل - فجيء به من جناح النساء وكان صبيّاً حدثاً لكنه بدأ أجمل وأقوى كل من هم سِنّه. فأخذه ودفع به الى [بيلوبيداس] قائلاً:

- إن وجدتموني خائناً، فعاملوا هذا الصبيّ معاملة عدوّ لايستحق اي رحمة!

إن هذا الحرص الذي ابداه [خارون] استدرّ الدمع من عيون الكثيرين. واحتجّ الكلّ بشدّة على وصول الأمر به الى حَدّ افتراض سوء النية والحطة باي واحد منهم عند ظهور الخطر الداني الى درجة اللوم والشكّ في أخلاصه وابوا عليه أن يدخل ابنه في المسألة، وان يبقيه بعيداً عن مكامن الأذى: فلعله يخلص من غائلة الطاغية ويعيش ليثار للمدينة واصدقائه؟ على أن [خارون] رفض نقله الى محل أمين وتساءل قائلاً:

- أي حياة وأي سلامة تكون أشرف من الموت مع أبيه ومع مثل هؤلاء الصحب الكرام بشجاعةٍ واقدام؟

وبعد أن دعا الآلهة لحمايته، وحيّاهم جميعاً وشجعهم، انصرف وهو يعمل الفكر ويقلب وجوه النظر، مخفظاً من صوته وساتراً من سيمائه ما من شأنه ان يفضحه، ومظهراً أقل ما أمكنه مما يضمره في نفسه.

وعندما بلغ الباب خرج اليه [ارخياس] مع [فيلليداس]، وقال له:

- سمعت يا خارون بقدوم بعض الرجال الى المدينة قبل قليل، وانهم يتجولون في انحائها وأن بعض الناس ينضمون اليهم.

فانتاب [خارون] الاضطراب، إلاّ انه سأل:

- من هم؟ من يخفيهم؟

ولما وجد أن [ارخياس] ليس على علمٍ تامٍ بالقضية استنتج أن المؤامرة لم تنكشف، وان المعلومات التي وصلته لم يكن مصدرها ايّ مساهم مطلّع، وعندئذ قال له

- لاتزعج نفسك بهذه الاشاعات الفارغة: وعلى اية حال فسوف اتحقق منها بنفسي إذ ينبغي

الاّ يهمل ايّ خبر من هذا القبيل.

فما كان من [فيلليداس] الواقف إلاّ وطفق يثني عليه ثم أعاد ارخياس الى مجلسه وسقاه حتى اثمله، ومد من أجل الوليمة ليكون ختامها صحبة النساء. وعندما عاد [خارون] وجد الرجال مستعدين لا كالمؤمل بالسلامة والفلاح، بل كالمتأهب للموت بشجاعة بعد أن يوقع مذبحة بالاعداء. فأبلغ [پيلوپيداس] والآخرين بجلية الأمر، لكنه ادعى امام آل بيته بأن [ارخياس] طلبه لشأن آخر وأخترع حكاية مناسبة ولكن ما ان أوشكت هذه العاصفة على الختام حتى دفع «الحظّ» بأخرى فقد اقبل رسول الى [ارخياس] يحمل اليه رسالة من سميّه [ارخياس] كاهن الأسرار [الهيروفانت Hierophant] في اثينا. وكان صديقاً له ومستضيفاً. ولم يكن مضمون الرسالة مجرد شكوك غامضة عابرة، بل حقائق ثابتة كشفت عن تفاصيل الخطة كلها كما تبين ذلك فيما بعد. فجيء بالرسول أمام [ارخياس] الذي كان في حالة سكرٍ شديد فسلمه الخطاب قائلاً:

- يرغب المرسل ان يقرأ خطابه فوراً. إنه يتعلق بموضوع هام جداً.

فأجابه [ارخياس] باسماً:

- الأمور الهامّة غداً!

وتناول الخطاب ودسّه تحت الفراش، وعاد يستأنف ما انقطع من حديث مع [فيلليداس]. وذهبت كلماته هذه مثلاً عند الأغريق حتى يومنا هذا.

عندما بدت الفرصة مناسبة للعمل انطلق المؤتمرون بفرقتين، واتجه [پيلوپيداس وداموقليدس] وجماعتهما المداهمة [ليونتيداس وهيپاتيس Hypates] (٨) وكان منزلاهما متجاورين. وأنطلق [خارون وميلون] الى حيث [ارخياس وفيليب] وقد غطى جميعهم دروع صورهم بثياب النساء ووضعوا قلائد كثّة من الصنوبر والشربين أخفاء لمعالم وجوههم. وما وصلوا الباب حتى أخذ المدعوون يصفقون ويهللون، متصورين انهم النسوة اللاتي كانوا يتوقعونهنّ. ودخل المؤتمرون وأجالوا بصرهم في الغرفة ليتثبوا من كل الموجودين، ثم انتضوا سيوفهم وتقدموا من [ارخياس وفيليب] بين الموائد وكشفوا عن هوياتهم. وأقنع [فيلليداس] فئة قليلة من المدعوين بالهدوء. أما الذين حاولوا مساعدة [اليوليمارخ] فقد سهل قتلهم لحالة السكّر فيهم إلاّ أن مهمة [پيلوپيداس] ورهطه، كانت اصعب من مهمة زملائهم. فقد

(٨) لم يدع هؤلاء للحفل لأن [ارخياس] الذي كان يتوقع لقاء امرأة رفيعة المقام، لم يختر أن يرى ليونتيداس هناك.

قصدوا [ليونتيداس] وهو رجل عظيم القوة أريب، ووجدوا باب منزله مغلقاً وقد آوى الى فراشه، فطرقوه زمناً طويلاً دون مجيب وأخيراً سمعهم أحد الخدم فجاء ورفع المزلاج فأندفعوا الى الداخل فور فتحه، وأزاحوا الخادم جانباً وأسرعوا الى حجرة [ليونتيداس]، وأدرك من الضجة والركض، حقيقة ما يقع فهبّ من فراشه قائماً وأشهر خنجره إلاّ انه نسي إطفاء النور ليعرقلهم ويجعل المهاجمين تائهين يقع أحدهم على الآخر في الظلمة. وهكذا استقبلهم في غرفته المضيئة وهو بالباب وطعن اول الداخلين وكان [سكفيسودورس Cephisodorus] وعند سقوطه التحم بالثاني وهو پيلوپيداس، وكان الممر ضيقاً وجسد سفسودورس يعترض السبيل، وتلا ذلك صراع عنيف وحشيّ، وأخيراً تغلّب پيلوپيداس وبعد أن قتل [ليونتيداس] خرج وجماعته يريدون هيپاتس وأقتحموا بيته بالطريقة نفسها، فعرف مما هو مبيت له وهرب الى الجيران، إلاّ انهم لحقوا وادركوه وقتلوه.

وبعد ذلك انضموا الى [ميلون]. وبعثوا يستعجلون المنفيين الذين تركوهم في [آتيكا]. وأعلنوا حرية المواطنين الثيبين[٩]، وانزلوا الغنائم من الأروقة. وكسروا ابواب مخازن صانعي الاسلحة القريبة وسلّحوا من جاء لنصرتهم. وأقبل [أپامنداس وغورغيداس Gorgidad] وهما شاكيا السلاح يقودان جمهرة من الشباب المندفع الملتهب حماسة، ومن خيرة كبار السنّ، وساد المدينة هياج عظيم وضربت الفوضى اطنابها، وامتلأت ضجيجاً وحركة، وأشعلت الأنوار في كلّ بيت، وراح الناس يتراكضون هنا وهناك، على أن الأهلين لم يجتمعوا كتلةً واحدة فقد صعقوا لما حدث، وجهلوا حقيقة ما يجري بالضبط. وفضلوا التريث وانتظار ما سيأتي به الغد. ولذلك اتجه الاعتقاد بان الضباط السپارطيين أخطأوا بوقوفهم موقف المتردد وعدم مهاجمة المؤتمرين بينما كان تحت امرتهم حامية تتألف من الف وخمسمائة مقاتل فضلاً عن كثير من الأهلين الذين لجأوا الى القلعة، إلا أنهم يتحركوا من القلعة وهم قلقون للضجة والحرائق، وتراكض الناس. وما أن انبلج الصبح حتى كان المبعدون القادمون من آتيكا، داخل المدينة وكلهم شاكو السلاح. وعقد اجتماع شعبي عامٍ بمسعى من [اپامنداس وجورجيداس] وقدما الى الشعب [پيلوپيداس] ورهطه يحفّ بهم الكهنة وبايديهم قلائد الزهر، وانثنى هؤلاء يحضون الشعب على القتال في سبيل الوطن والآلهة، فهبّ المجتمعون دفعة واحدة عندما بدوا لهم واستقبلوهم بالهتاف والتهليل، ورحبوا بهم كما يرحبون بالمنقذين.

وما أن تقرّر انتخاب [پيلوپيداس] قائداً عاماً [لبويوثيا]، حتى باشر بالتعاون مع [خارون

---

(٩) وكذلك قام پيلوپيداس بارسال [فيليداس] الى جميع سجون المدينة لأطلاق سراح شجعان الثيبيين الذين اعتقلهم الطغاة السپارطيون وكبلّوهم بالاغلال.

وميلون] بالقاء الحصار على القلعة ومداهمتهما بهجومٍ من كلّ الجهات لتحريرها، وكان مستعجلاً في ذلك لئلا يخرج جيش من سپارطا لانجاد من فيها[١٠]. وقد نجح في مسعاة بعد أن كان على قاب قوسين من الفشل، إذ وافق على شروط خروج السپارطيين ورحيلهم عن البلاد، وفيما هم في طريق العودة التقوا عند [ميغارا] بكليومبروتوس Cleombrotus الزاحف على [ثيبة] بقوات كبيرة. وادان السپارطيون كلاً من [هريپيداس Herppidas وارسيسوس Arcissus] حاكميهما في [ثيبة] ونفذوا فيهما حكم الموت. أما الحاكم الثالث [ليسانوريداس Lysanoridas] فقد فرضوا عليه غرامة فادحة ففرّ الى [پلوپونيسوس][١١]. هذه المأثرة كانت أشبه بمأثرة [ثراسيبولوس Thrasybulus]، من ناحية بأس القائمين بها، وأخطارها، وتطوراتها ونهايتها الناجحة، حتى وصفها الأغريق بالأخت التوأم لها. أذ يندر ان تجد أمثلة أخرى لها، حيث فئة صغيرة ضعيفة جداً تتغلب باقدامها الخارق على عدوّ وفير العدد عظيم السلطان، وينجم عن انتصارها مثل هذا القدر من النفع والخير للبلاد. إلاّ أن الأحوال التي طرأت نتيجة هذا، زادت من شهرة النصر ورفعته. فقد بدأت في تلك الليلة بالذات الحربُ التي قضت القضاء المبرم على كل ادعاء لسپارطا في الزعامة، وانهت الى الأبد تلك السيادة التي كانت تمارسها آنذاك على البر والبحر معاً. في تلك الليلة لم يداهم [پيلوپيداس] قلعة أو حصناً أو مدينة محصنة وانما كان الرجل الثاني عشر الذي دخل بيتاً خاصاً، فحلّ وكسر سلاسل الحكم السپارطي - (ان عبّرنا عن الحقيقة بالمجاز) وكان يبدو قبل ذاك محكماً لا فكاك منه.

وغزا اللقيديمونيون [بويوتيا] بجيش عرم. وتخوف الآثينيون من الأخطار، فأعلنوا انهم ليسوا بحلفاءٍ [لثيبه] وضيقوا على كل منحازٍ الى قضية البويوتيين. ونفذوا حكم الموت ببعض، ونفوا وغرمّوا آخرين: وبدت قضية [ثيبة] يائسةً لا أمل منها لفقدها النصير والحليف. على أن پيلوپيداس وجورجيداس اللذان تسلما زعامة [بويوتيا] دبّرا خلق نزاع بين اللقيديمونين والآثينيين فاهتديا الى الحيلة الآتية: كان المدعو [سفودرياس Sphodrias] قد ترك في [ثسپايي Thespiae] على رأس جيش سپارطي لاستقبال ونجدة الثيبيين المنشقين.

---

(١٠) لما لم يكن محتملاً احتلال موقع منيع كهذا خلال يوم واحدٍ وبالقوة القليلة العدد التي كان يقودها پيلوپيداس آنذاك. فعلينا ان نرجع الى ديودورس ١٦:٢٥ وكزينفون: الهلينيون ٥، ليخبرانا بأن الآثينين في فجر اليوم التالي الذي تمّ فيه أحتلال المدينة. قاموا بارسال خمسة آلاف من الرجاله والفين من الخيالة بقيادة كزينفون ووصلت من مدن بويوثيا تعزيزات أخرى قواتها سبعة آلاف أو أكثر فشاركت قوات پيلوپيداس بالحصار. إلاّ ان المدينة صمدت عدة أيام ثم استسلمت بعد أن نفدت ارزاقها.

(١١) من التقاليد التي درج عليها المقاتلون السپارطيون ان يموتوا والسيف بيدهم دفاعاً عن الموضع الذي أوكل اليهم أمر الدفاع عنه.

وهو في الحقيقة قائد مشهور بشجاعته في ميدان القتال إلاّ انه مأفون العقل، مليء بآمال خيالية، ومطامح رفيعة. إن هذا الرجل أرسل پيلوپيداس وزملاؤه تاجراً من أصدقائهم يحمل اليه بالسرّ مبلغاً من المال... ونصيحةً - كانت أقوى أثراً من المال. قال له انه ليجدر برجل في مثل منزلته أن يسعى وراء مغامرة عظيمة، وانه لن يجد خيراً من غزو الآثينيين وهم في غفلة من أمرهم، ويباغت ميناءهم [پيريوس] اذ ليس ما يسرّ سپارطا أكثر من الاستيلاء على آثينا، كما أن الثيبيين لن ينبروا طبعاً لمساعدة أناس يبغضونهم ويعتبرونهم خونةً في الوقت الحاضر. وظل يضرب فيه على هذا الوتر حتى اقنعه، فزحف ليلاً عن آتيكا وتوغل بجيشه حتى بلغ [اليوسيس][١٢]، وعند هذه المرحلة من مغامراته اصيبت قلوب رجاله بالتردد فأنسحب الى [تسپايي] ولكن بعد أن أنكشفت نوايا ووّرط قومه في حرب خطرة. بعد هذه الحادثة أخذ الآثينيون يبعثون بالمساعدات الى ثيبة وهبّوا ساخطين الى البحر مبحرين الى عدة أمكنة ومقدمين المعونة الى كلّ بلد يوناني يرغب التخلص من نفوذ السپارطيين.

وفي تلك الفترة خاض الثيبيّون بمفردهم عدة معارك مع السپارطيين في [بويوتيا]، وأشتبكوا كثيراً بالعدوّ، ولم تكن تلك المعارك بالكبيرة لكنها مهمّة في تدريبها وتلقينها أياهم فنون القتال، وبهذا انصرفت اذهانهم الى الحرب، وتعودت ابدانهم المشاق فكسبوا الخبرة والشجاعة بهذه الصدامات المتعددة، مما يفصح عنه قول [انتالكيداس Antalcidas] لاغيسيلاوس بعد عودته جريحاً من [بويوتيا]:

- لقد أجزل لك البويوتيون العطاء حقاً، مكافأة لك على تلقينهم فنون الحرب رغماً عنهم وكرهابها.

وإن شئت الحقيقة، فان [اغيسيلاوس] لم يكن استاذهم في هذا. بل أولئك الذين أطلقوهم بذكاء وبعد نظر على أعدائهم كما تطلق صغار الكلاب، وعادوا بهم سالمين جميعاً بعد أن اذاقوهم حلاوة النصر، وقوة العزيمة. وپيلوپيداس يستأهل أعظم التكريم من بين كل هؤلاء الزعماء: اذ ما أن أنتخب جنرالاً لأول مرة، حتى بقي يقود الرجال سنة بعد أخرى طوال حياته إمّا بمنصب قائد «الكتيبة المقدسة» أو قائداً عاماً للجيش البويوتي وهو أكثر المنصبين لصوقاً به. هُزم السپارطيون بالقرب من [پلاطيا Platæa] و[تسپايي] ولاذوا بالفرار. وقتل [فيويبداس] الذي أحتل القلعة [قادميا]. وفي [تناغرا] ابيدت قوة كبيرة وقتل قائدها

---

(١٢) كان أملهم أن يبلغوا [پيريوس] ليلاً، لكنهم وعندما أصبح الصباح وجدوا انهم لم يتقدموا أكثر من [اليفسيس]. وادرك [سفودرياس] أن أمره انكشف فاجتاح في رجعته ضواحي آثينا. وأستدعى اللقيديميون [سفورديّاس] وأتخذ الايغوري الاجراءات القضائية ضدّه. الاّ ان [اغسيلاوس] بشفاعة والحاح من ابنه الذي كان صديقاً لابن سفورديّاس - عمل على انقاذه [كزينفون المرجع السالف ٥].

[پانثيودس Panthoides]. إلاّ أن هذه الإشتباكات وغيرها لم تصب المنهزمين بيأسٍ تامٍ، وان رفعت من معنويات المنتصرين اذ لم تقع بين الفريقين معركة فاصلة، أو قتال منظم، وانما مجرد غزوات مفاجئة تمليها الفرص والمناسبات ويسودها الكرّ والفرّ، ثم الهجوم ثم الانسحاب وهكذا. إلاّ أن معركة [تيجيري Tegyrae] التي كانت مقدّمة وتمهيداً [لليكوترا] رفعت من سمعة پيلوپيداس كثيراً. اذ لم يكن لايّ من القادة الآخرين أي فضلٍ فيها، ولم يظهر العدوّ أي دعوى بنصرٍ بها. كانت مدينة [الاورخومينيين] منحازة الى جانب السپارطيين، وقد عززت الحماية فيها بكتيبتين، وكان [پيلوپيداس] شاخصاً اليها ينتظر فرضته فلما سمع أن الحامية انتقلت الى [لوكريس Locris] وان [اورخومينيس Orchomenes](١٣) باتت بلا حماية زحف عليها بكتيبته المقدسة وكوكبةٍ من الخيالة، وعند وصوله مشارفها وجد التعزيزات القادمة من سپارطا تتقدم نحوها. فقام بدورةٍ حول قدمات الجبال وانسحب بجيشه الصغير عبر [ميجيري] وهو السبيل الوحيد الذي يمكن مروره منه لأن نهر [ميلاس Melas] تنتشر مياهه حال فيضانه ويكوّن مستنقعات وبركاً صالحة للملاحة، ويجعل كل الأرض السهلة التي تتخللها غير صالحة للسيّر. والى اسفل المستنقعات بمسافة قصيرة يقوم معبد ومهبط وحي [ابوللو تيجيريوس] المهجور قبل زمن ليس بالطويل، وكان مزدهراً حتى الحروب الميدية، بكاهنه [ايخيقراطس Echecrates]. ويزعمون أن هذا الرب ولد هناك. والجبل المجاور يسمى [ديلوس Delos]، وهنا أيضاً يعود نهر [ميلاس] الى مجراه، ومن خلف المعبد يجرى ماء نبعين عجيب بحلاوته وكثرته وبرودته. نبع يسمى [فيونكس Phoenix] ونبع يسمى [ايلويا Elœa] الى يومنا هذا. حتى لكأن [لوچينا Lucina] لم تولد بين شجرتين بل بين ينبوعين. وثم موقع قريب ظاهر يدعى [پتاوم Ptoum] يقال أنها روّعت اثناء وجودها فيه بظهور خنزير برّي. وتتصل حكايات [پيثون Python] و[تيطيوس Tityus] بهذه المواقع أيضاً على المنوال نفسه. واني لأضرب صفحاً عن كثيرٍ من النقاط التي يمكن استخدامها موضع نقاش. لأن اساطيرنا لا تضع هذا الرب في مصافّ الأرباب المولودين ثم تحولوا الى آلهة خالدين، مثل [هرقل]، [باخوس] اللذين رفعتهم فضائلهم فوق طبقة البشر وقابلية الفناء إلاّ أن ابوللو آله خالد غير مولودٍ من بشر(١٤)، اذا استندنا في حكمنا هذا على أي حقيقةٍ مما أنحدر الينا من أقدم الواقفين على هذا الموضوع، وأوفرهم حكمةً.

---

(١٣) واحدة من أكبر وأهم مدن بويوثيا. وكان فيها حامية لقيديمية وقتذاك.

(١٤) هذه فقرة تستدعي تأملاً عظيماً: يؤمن الحكماء والفلاسفة القدماء امثال فيثاغوراس وأفلاطون وغيرهما. إنّ الله ينجب ابناءهم مثله خالدون. وانهم لم يولدوا من رحم امرأة وهم يساوونه في جوهره ان هذه الفكرة انحدرت اليهم من أقدم العصور وما ورد عنها من مآثر كان ينوّه بابن الله الخالد مع الأب.

وبينما كان [الثيبيون] يتقهقرون من [اورخومينوس] نحو [تيجيري] كان السپارطيون يتقدمون من [لوكريس] في الوقت نفسه. واذا بهما يلتقيان. ولما بات هؤلاء على مرأى من الثيبيين يتقدمون عبر المضيق قال أحدهم لپلوپيداس:

- لقد وقعنا في يد العدو؟

فاجابه:

- ولم لايكون هم الذين وقعوا في ايدينا؟

وأمر خيالته فوراً بترك المؤخرة والهجوم. بينما جمع مشاته كتلة واحدةً وكانوا ثلاثمائة[١٥]، مؤملاً بهذه الطريقة أن يفتح ثغرة لنفسه في تشكيل عدوه الأكثر عدداً منه، من أي جهة يقوم بالهجوم. وكانت قوة السپارطيين تتألف من كتيبتين (الكتيبة قوامها خمسمائه على ما يذكر [يفوروس]، أو سبعمائة على ما يقول [كالليستينس -Callis thenes]، ويزعم آخرون ومنهم [پوليبيوس] أنها تسعمائة). بقيادة [جورجوليون -Gorgole on] و[ثيومپوپوس]. فقررا التقدم لمهاجمة الثيبيين وهما واثقان من النصر والتحم الفريقان، وكان زخم القتال على أشدّه حيث يقف القادة. ووقع القائدان السپارطيان قتيلين أولاً ولحقت بالقوة التي تحيط بهما خسارة فادحة فما لبثت القوة كلها أن خارت معنوياتها وفتحت طريقاً للثيبيين كأنها تريد مرورهم ونجاتهم. لكن پيلوپيداس دخل الثغرة دون أن يفكر في الافلات بل استدار نحو الصامدين من الاعداء وأوقع بهم قتلاً وذبحاً، عقبه فرارٌ من صفوف السپارطيين. ولم تستمر المطاردة مسافة طويلة لخوف المنتصرين من الاورخومينين المجاورين، ومن نجدات لقيديمون. مهما يكن فقد نجحوا في شق طريقهم عنوةً بين أعدائهم وتغلبوا على قوتهم كلها. لذلك عمدوا الى اقامة نصب تذكاري لنصرهم ونزعوا أسلحة القتلى ثم قفلوا راجعين الى مقرهم مزهوين بما حققوا. لم يهزم السپارطيون في كلّ حروبهم العظيمة التي خاضوها ضدّ الاغريق أو البرابرة أمام قوة أصغر من قوتهم قبل هذا. ولم يندحروا في معركة فاصلة وكان عددهم فيها مساوياً لعدد خصمهم. ومن هذا ساد الاعتقاد بأن شجاعتهم لا يقف أمامها شيء، وان سمعتهم الداوية كانت توقع الرعب في قلوب أعدائهم فيخسروا المعركة قبل دخولها. لأنهم لا يجدون أنفسهم أكفاء لرجال سپارطا حتى عند تساوي الفرص. على أن هذه الموقعة علمت الأغريق في المقام الأول أن الشجاعة والعزيمة وشدّة المراس ليست قاصرة على

---

(١٥) هذا العدد القليل كان زهرة الجيش الثيبي. وقد خلع عليه لقب «الكتيبة المقدسة» أو «عصبة المحبين» تكريماً لأفراد الوحدة وقد عرفوا جميعاً وبلا استثناء، بولائهم وأخلاصهم لدولتهم الثيبية وبمفاداتهم بعضهم لبعض [انظر افلاطون: المحاورات].

رجال [يوروتاس] والبلاد الواقعة ما بين [بابيس Babyce] و[كناصيون Cnacion] بل عندما يثور الشباب خجلاً من الدناءة والخِطّة، ويكونون مستعدين للمغامرة في سبيل قضية عادلة، عندما يخشون العار أكثر مما يخشون الخطر، فاذ ذاك تجد أمامك أشجع الخصوم، وأشدهم بأساً، أيّاً كانت البلاد التي انجبتهم.

كان [غورغيداس] على ما يزعمون، أوّل من ألّف الكتيبة المقدسة من ثلاثمائه رجلٍ مختارين. وكانت مهمتهم حراسة القلعة ولذلك كانت الدولة تنفق عليهم وتزودهم بكلّ ما هو ضروريٌ لتدريبهم، ومن هنا جاء اسم «كتيبة المدينة». لأن الحصون كان يطلق عليها اسم المدينة عادةً، ويقول آخرون أنها تألفت من شبان ارتبط بعضهم ببعض برباط الودّ الخاصّ. وهناك قول فكه شهير [لپومينوس Pommenes] «هو» إن [نسطور] شاعر هوميروس، لم يكن بارعاً في قيادة الجيش حين نصح الأغريق أن يضعوا قبيلة في صف قبيلة وأسرة لُصق أسرةٍ حتى «تساعد القبيلةُ القبيلةَ، ويعاون القريب قريبه!» بل كان عليه أن يضع المحبّ الى جنب حبيبه». لأن الرجال الذين ينتمون الى عشيرة واحدة، وينحدرون من أسرة واحدة، قليلاً ما يهتم احدهم بالآخر عندما يتأزم الموقف. ولكن عصبةً شدت عراها الصداقة المبنيّة على الحبّ، لا يُفلّ غرابها ولا تنفصم آصرتها. لأن المحبوبين يدركهم العار اذا أظهروا خِسّةً وجبناً أمام محبوبيهم، فتراهم يندفعون الى ركوب الخطر بكلّ سرور لانجاد بعضهم بعضاً. وليس هذا بالذي يدعو الى العجب مادامٍ إهتمامهم بمحبيهم الغائبين يزيد عن اهتمامهم بالحاضرين منهم. كقصّة ذلك الذي هم عدوّه بقتله، فكان رجاؤه الحارّ منه أن يقضي عليه بطعنة في صدره لئلا يدرك حبيبه الخجل لدن يراه جريحاً في ظهره. ومن الاساطير المتداولة، أن [ايولاوؤسٍ Io-laus] الذي عاون [هرقل] في أعماله وقاتل الى جانبه، كان حبيباً له. وذكر [ارسطو] أن المتحابين كانوا يقسمون على الوفاء فوق تُربة [ايولاؤوس]. فمن المحتمل والحالة هذه أن تلك الكتيبة سميت «مقدسة» بسبب ذلك، لان [افلاطون] يُسمّي المحبّ «الصديق الملهم الهياً»[١٦]، وقيل أنها لم تخسر معركة قطّ، حتى الموقعة التي جرت قرب [خيرونيا]: شَخَصَ [فيليب] الى ميدان القتال بعد نهايته ليتنقد جثث القتلى فبلغ الموضع الذي سقط فيه «الثلاثمائة» صرعى معاً. اثناء اشتباكهم مع [فلانسكه] فادركه عجب شديد، ولما علم انهم «كتيبة المحبين» بكى وقال:

- لا كان ذلك الرجل الذي يشكّ في أن هؤلاء الرجال أقدموا على أي فعل دنيء، أو عانوا منه.

---

(١٦) افلاطون المحاورات.

لم تكن نكبة [لايوس Laius[١٧]] سبب نشوء هذا الشكل من العلاقة ما بين الثيبيين كما خيل للشعراء؛ فإن أوّل نشوئها كان على يد المشترعين وهدفهم منها تطرية الطباع الجامحة اثناء الصغر. فجعلوا للعب بالناي مقاماً جلياً في مناسبتي اللهو والجدّ على السواء. وأهتموا كثيراً بتشجيع هذا اللون من الصداقة في مدارس المصارعة، لترق امزجة الشباب وتلين طباعهم، وحداهم هذا الى افضل عملٍ وهو جعل الربة [هارموني Harmony] بنت [مارس] و[ڤينُس] ربتهم المفضلة. لأن التحام القوة والشجاعة، بالرقة وحسن السلوك الى «انسجام» يجمع كل عناصر العشرة والاجتماع في نظام تامٍ توافقي.

وزّع [غورغيداس] افراد هذه الكتيبة على الصفوف الامامية من المشاة، فتضاءلت بسالتهم، لأن تفرقهم وانفراط عقدهم، وأختلاطهم بمن يقلّ عنهم عزيمة وبأساً حرمهم فرصتهم العادلة لإظهار كفاءاتهم كاملةً. على أن [پيلوپيداس] الذي عجَمَ بأسهم وخبره في [تيجري] حيث قاتلوا بمفردهم ملتفين حول شخصه، لم يفرّق ما بينهم قطّ. وأبقى قوام الكتيبة على حاله. وكان يسند اليهم الواجب الأول في أعظم المعارك. اذ كما يكون عدو الجياد المشدودة الى العجلة أشدّ وأسرع من عدوها منفردةً (لا لأن قوتها المتحدة تشق الهواء بسهولة بل لأن مغالبتها بعضها بعضاً وتنافسها على السبق يذكي حماستها، ويلهب روحها بالإقدام) كذلك فكر [پيلوپيداس] أن ذوي البأس والعزم - باستفزازهم أحدهم الآخر الى أشرف الأعمار، سيكون أكثر نفعاً وأشدّ مراساً وأقداماً إن اتحدوا معاً.

بادر اللقيديمونيون الى مسالمة كلّ الاغريق، ثم وحدّوا كلّ قواتهم ضدّ الثيبيين. وأخترق ملكهم [كليومبروتوس] الحدود بجيش قوامه عشرة الآف راجلٍ وألف فارس. الى ما قبل هذا كانت [بويوتيا] مهددة بالاحتلال فحسب، أما الآن فان شبح الفناء التام والدمار العامّ يخيم عليهم. واستولى على البلاد رعبٌ لم تعرف له مثيلاً من قبل. وترك [پيلوپيداس] منزله الى الحرب فلحقت به زوجته وتوسلت به باكية أن يكون حذراً على حياته فأجابها قائلاً:

- الجنود البسطاء يُنصحون بالحذر على حياتهم يا زوجي العزيزة. أمّا القادة فيُنصحون بالحرص على سلامة الآخرين.

ولما بلغ المعسكر ووجد امراء الجيش منقسمين الى رأيين فبادر ينحاز بداهةً الى جانب [اپامينداس] الذي كان من رأيه الاشتباك مع العدوّ. ولم يكن [پيلوپيداس] وقتذاك قائداً عاماً لبويوتيا، بل آمر الكتيبة المقدسة، واهلاً لتلك الثقة التي تناسب مثله رجلاً قدم لبلاده الكثير في مجال حرصه على حريتها واستقلالها. فكان له القول الفصل واتفق على القتال،

---

(١٧) او لاكوس Lacus.

وعسكروا في [ليوكترا] أمام السپارطيين. وهنا رأى [پيلوپيداس] رؤيا أسلمته الى قلق عظيم: في السهل المتد امامه كانت ترقد جثث بنات [سكيداسوس Scedasus]، ويطلق على المرقد [ليوكتريداي Leuctridæ] نسبة الى شهرة الموضع. وقد تمّ دفنهن هناك بعد أن اغتصبهنّ وقتلهنّ جماعة من السپارطيين الأغراب. بعد ارتكاب هذه الجريمة الشنعاء راح الأب يطلب الانتصاف في لقيديمون فلم يفز بطائل وعاد ليبخع نفسه على قبر بناته وهو يرسل أهول اللعنات والدعوات بالشرّ الى السپارطيين. ومنذ ذلك الحين والنبوءات والعرافة تترى منذرة قوم الجناح بالحذر الشديد من الانتقام الآلهي في [ليوكترا] وأغلق الأمر على الكثيرين ولم يفهموا المقصود بطبيعة الحال، وكان الغموض ناجحاً عن الموقع فهناك بُليدة لاكونيا Laconia الواقعة على ساحل البحر، هي الأخرى تدعى [ليوكترون]، وثم موضع قريب من مدينة [ميغاپوليس] في [اركاديا] يدعي [ليوكترا]، كما ان هذا الحادث وقع قبل المعركة بزمن سحيق.

خيل لپيلوپيداس وهو نائم في الخيمة أنه رأى هاته العذارى يبكين على قبرهنّ ويلعنّ السپارطيين. ورأى [سكيداسوس] يقول: اذا رغبوا في النصر فعليهم أن يضحوا لبناته بعذراء ذات شعر كستنائي. وعدّه [پيلوپيداس] أمراً ينطوي على قسوةٍ والحاد، إلاّ انه نهض وقصّ الحلم على العرافين وأمراء الجيش، فكان من رأي بعضهم أن الأمر صحيح واجب الطاعة. وضربوا امثلة من التاريخ القديم تبريراً لوجهة نظرهم. فذكروا [مينيوكيوس Menœceus] ابن [كريون Creon] و[ماركاريا Marcaria] بنت [هرقل]. واوردوا امثلة من الأزمنة المتأخرة فذكروا [فركيديس Pherecydes] الفيلسوف الذي ضحاه اللقيديمونيون، وما زال جلده محفوظاً عند ملوكهم تنفيذاً لما قضت به النبوءات. و[ليونيداس] الذي انذرته النبوءة فنفذ ما أمرته وضحّى بنفسه لمصلحة البلاد الاغريقية. و[ثيموستوكلس] الذي قدم اضاحي بشرية الى [باخوس أوميستوس] قبيل خوضه معركة [سلاميس] وكل هؤلاء برهن نجاحهم على صواب أعمالهم. وعلى الضدّ من ذلك فعل [آغيسيلاوس] فقد خرج من الموضع نفسه لقتال الاعداء الذين قاتلهم [اغاسمنون] في ما مضى، وأمر في حلم جاءه في [آوليس Aulis] ان يضحي بابنته قرباناً فحال ضعفه دون ذلك، وكانت نتيجة حملته الفشل والخيبة الذليلة[١٨].

---

(١٨) كزينفون: الهلّينيون ٧: يعلمنا ان پيلوپيداس في اثناء سفارته الى ملك الفرس شرح له بان الكره الذي حفظه اللقيديميون لأهل ثيبه سببه انهم لم ينضموا الى قوات اغيسيلاوس عند خروجه لحرب الفرس، ولأنهم منعوه من التضحية بابنته في [اوليس] عندما طلبتها [ديانا] ولو فعل ذلك لضمن النجاح في حربه.

على أن الفريق الآخر وجده فريضةً بربريةً لا يمكن أن يكون محل رضى الكائنات العليا، وقالوا أن الجبابرة والأعاصير ليست هي التي تحكم العالم، بل هو الأب الكليّ الأسمى، للآلهة وللبشر، ومن السخف أن يتصور سرور آله من الآلهة أو قوة من القوى العليا. بقتل البشر وتضحيتهم وان وجد بينهم من كانت صفته هذه، فعلينا الاّ نعتد بهم، لضعفهم هذا الذي يجعلهم أعجز عن أسداء العون لأحد، فمثل هذه النزوة القاسية اللامعقولة لا تحيا لا تصدر الاّ من عقول ضعيفة مأفونة.

وفيما كان امراء الجيش بين أخذٍ وردٍّ، و[پيلوپيداس] يعاني أعظم الحيرة، اذ بمهرة تتفلت من قطيع وتروح تعدو في ارجاء المعسكر، حتى وصلت موضع اجتماعهم فوقعت فجأة بلا حراك. وبينما أخذ بعضهم يبدي عجبه للونها الكستنائي الفاتح، وبعضهم يعجب برشاقة تكوينها، أو بقوة صهيلها وشدّته، أستغرق الكاهن العراف [ثيوقريطس Theocritus] في التفكير، ثم هتف بپيلوپيداس:

- دونك يا صاحبي الطيب فأنظر! ها هي الضحية قد أقبلت فلا تنتظر عذراء أخرى سواها. وخذ ما بعثت به الآلهة لك.

فوثبوا على المهرة واقتادوها الى قبر العذارى بالمراسيم الدينية والصلوات المعتادة، وضحوا بها منشرحي الخاطر، واذاعوا بين صفوف الجيش حكاية رؤيا [پيلوپيداس]، وكيفية تقديمهم القربان المطلوب منه.

وعند بدء المعركة عمل [إپامنناداس] على إمالة [فلانكسه] الى جهة اليسار محاولاً قدر استطاعته فصل الميمنة المؤلفة من السپارطيين عن بقية الوحدات الاغريقية، ومبادهة [كليومبروتوس] بهجوم عنيف وفق نظام الرتلّ ضدّ ذلك الجناح. فأدرك العدوّ الخطة، وبدأ بتغير نظام اصطفافه بفتح ونشر ميمنته على جبهة واسعة للالتفاف حول [اپامنناداس] وتطويقه مستفيدين من تفوقهم العدديّ الساحق. إلاّ أن [پيلوپيداس] اسرع يقود كتيبة الثلاثمائة الى الميدان كالريح العاصف قبل أن يفلح [كليومبروتوس] في مدّ خطّه وسدّ الثلمات فيه، وهكذا وثب عليهم وصفوفهم مختلفة. كان الجنود اللقيديمونيون يعدوّن أعظم الجنود في الدنيا خبرة وأحسنهم تدريباً. ولم يتعودوا شيئاً أو يتمزقوا عليه قدر ما تعودوا المحافظة على نظامهم عند انتقالهم من وضع الى وضع في المعركة فلا يقع في صفوفهم أي خلل، ولا يترددون في السير وراء اي قائد أو مساعد قائد، بتشكيلات منتظمة. ويندفعون الى اي موضع يكون الخطر على اشده. وفي هذه المعركة تجاهل [اپامنناداس] سائر القوات الاغريقية وحصر همّه بالسپارطيين، فصكّهم بفلانكسه وأقبل [پيلوپيداس] باندفاع وسرعة لا

تصدق. فهدّ شجاعتهم، وأوقع البلبلة في خططهم التعبوية، وبدأ الفرار الأعظم ثم المقتلة الكبرى فيهم مما لم يعرف مثله من قبل(١٩). ونال [پيلوپيداس] وهو بمنصب قائد كتيبة صغيرة لا جنرالاً رفيع القيادة، شهرةً ومجداً من هذا النصر لا يقل عنا ناله أپامنداس الذي كان يشغل منصب القائد العام لبويوتيا.

مهما يكن، فقد تقدم كلاهما نحو الپيلوپونيسوس زميلين في القيادة العليا وحصلا من الحلف السپارطي على أكبر جزء من البلاد المتحالفة، وهي [ايليس Elis]، [وارغوس] و[اركاديا]، ومعظم [لاكونيا]. وكان الوقت أقسى الشتاء، ولم يبق من الشهر الأخير غير أيام قلائل. وفي بداية الشهر التالي كان من المقرر أن يّعين الضباط الجدد ومن يتأخر من الضباط القدماء في تسليم وحداته يقطع رأسه. فاشار قادة الجيش بالإنسحاب خوفاً من حكم القانون، وإجتناباً لشدّة برد الشتاء. إلاّ أن [پيلوپيداس] انضّم الى [اپامنداس] في حث بني قومه وتشجيعهم على القتال، وزحفا بهم على سپارطا وعبروا [يورتاس] واستولوا على مدن عديدة وأجتاحوا البلاد وتوغلوا حتى بلغوا البحر.

كان الجيش الذي جرده الثيبيون يبلغ سبعين ألفاً من الأغريق، وتبلغ نسبتهم فيه واحداً الى اثني عشر إلاّ أن سمعة الرجال رغبت كل حلفائهم في الانضواء تحت لوائهم واتخاذهم زعماءً، بدون اتفاق أو معاهدة تنصّ على هذا، ولا شكّ في أن ارفع القوانين واولها هو أن يكون من في حاجة الى الحماية مطيعاً للقادر على الدفاع عنه. وكالبحارة الذين يظهرون الوقاحة والعنجهيّة في الطقس الهادىء والبحر الساكن وفي اثناء مكوثهم في الميناء يتطاولون حتى على الربّان، فاذا ما أقبل النوء وعصفت العاصفة وبات الخطر ماثلاً رأيتهم يتصاغرون للربّان ويتسابقون الى خدمته معلقين عليه كل آمالهم، كذلك كان الأرغوسيون والاليائيون والاركاديون، تراهم في مؤتمراتهم العامة ينازعون الثيبيين على القيادة العليا، فاذا جاءت المعركة، أو داهمهم الخطر العظيم، واحتموا بقادتهم الثيبيين طوعاً، وتأثروا خطاهم دون تردد. وقد وفق الثيبيون في هذه الحملة فوحدّوا بلاد [اركاديا] وطردوا السپارطيين الذين كانوا قد

(١٩) لم يكن الجيش الثيبي يزيد عن ستة آلاف مقاتل باي حال من الأحوال [ديودورس ١٥:٥٥ وكزينفون: ٦] في حين كان جيش خصمه مع خيالته التي كانت أفضل تدريباً وكفاءة في حين لم يكن يمتطي الخيل من المحاربين اللقيديميين الا أغنياءهم الأمر الذي جعل هذا الصنف سيء النظام سيء التغذية بفرسان تنقصهم البراعة والدراية. كما انه سدّ عجزه العددي بترتيب وحداته بعمق خمسين مقاتلاً في حين كان العمق السپارطي اثني عشر. ولما استظهر الثيبيون وقتلوا [كليمربوتس] استماتت السپارطيون وهدفهم استنقاذ جثة ملكهم فاشفع الجنرال الثيبي انتصاره الأول بانتصار ثانٍ تسببّ عن مغامرة السپارطيين بهجوم ثان. ولم يصدق حلفاء سپارطا معهم في القتال اذ كانوا يتوقعون نصراً دون أن يسبقه قتال أما الثيبيون فقد خاضوا المعركة وحدهم دون حلفاء [ديودورس وكزينفون]. نشبت هذه المعركة في العام ٣٧١ ق.م.

أستعمروا [ميسّينيا Messenia] وسكنوها. ثم استدعوا الميسينيين القدماء، وأسكنوهم جميعاً في [ايثوم Ithome] وفي [كنچرايه: Cenchreae] [٢٠] عند رجوعهم، شتتوا شمل القوات الآثينية التي كانت تريد الايقاع بهم اثناء عبور المضيق، لعرقلة سيرهم.

وازداد الحب والاعجاب بشجاعتهما في نفوس سائر الاغريق لما ابدياه من بسالة وحققاه من انتصارات. في حين زاد حسد مواطنيهم لهما لصعود نجمهما، فاعدوا لهما استقبالاً شائناً مخجلاً. وحوكما بتهمة عقابها الموت، لأنهما لم يسلّما قيادتيهما في أوّل شهر [بوكاتيوس Buvatius] كما يحتمّه القانون، بل احتفظا بها اربعة أشهر أخرى فوق مدتهما، وانجزا خلالها تلك الاعمال الباهرة في [ميسينيا واركاديا ولاقونيا] وحوكم [پيلوپيداس] أولاً، وتعرضت حياته لأعظم الخطر، إلاّ انهما بُرئا. وتحمل [اپامنداس] الاتهام والمحاكمة بصدر رحبٍ وصبر جميلٍ، وعدّ هذه المحنة جزءً هاماً من فضيلتيّ الشجاعة والسماحة اللتين تعلمانه بانّ الأذى الذي يصيبه في حياته السياسية لا يبرر له أن يحمل موجدة!. أما پيلوپيداس فكان حاد الطبع عاطفياً وقد اثاره اصدقاؤه وحثوه على الانتقام للإهانة، فاهبتل المناسبة الآتية: كان [مينيقليداس Meneclidas] الخطيب أحد أولئك الذين وحدوا جهودهم مع [ميلون] و[پيلوپيداس] في منزل [خارون] لتدبير الانقلاب ضدّ الطغاة. إلاّ انه لم يقم بمآثر توازي ما قاما به، وكان خطيباً مصقعاً ذرب اللسان، إلاّ انه متحلل الخلق، سيء الطبع. وحصر همه في النيل من پيلوپيداس والحطّ من قدر مآثره واستمر في ذلك حتى بعد المحاكمة. وهدفهُ الانتقاص ممن علوه قدراً وفضلوه، والصاق الاتهامات بهما. وتمكن من إبعاد [اپامنداس] عن منصب القيادة العامة. وظلّ مدة طويلة صاحب اليد الطولى. إلاّ أن نفوذه لم يبلغ به حَدّ نزع حبّ [پيلوپيداس] من قلوب الشعب وحرمانه عطفهم. فعمد الى خلق خصومةٍ بينه وبين [خارون]. إن الحاسدين من طرازه يجدون لذتهم وراحتهم في الانتقاص ممن عجزوا عن التفوق عليهم، واظهارهم بمظهر أسوء من الآخرين، لذلك دأب في مبالغته بتعظيم أعمال [خارون] في خطبه العامة، وفعدقا المديح على حملاته وانتصاراته، وحاول تخليد النصر الذي احرزته الخيالة التي قادها في [پلاطيا Platæa] (قبل معركة ليوكترا)، بالشكل التالي: كان [اندروكسيدس Androcydes] الكيزيكيني Cyzicenian الرّسام قد استؤجر لتصوير معركة سابقةٍ، فانصرف الى العمل بها في ثيبه. ثم قامت الثورة وأستعرت نيران الحرب، فحفظ الثيبيون الصورة وهي تكاد تكمل. فأخذ [مينيقليداس] يعمل على اقناع الثيبيين بتكريسها

(٢٠) حصل هذا بسبب خطأ من ايفيقراطس وهو قائد أشتهر بالحنكة والدهاء فقد نسي ان يضع جنوداً في ممرّ كنخريسي في حين وضعهم في مركز أقل أهميّة وخطراً.

لخارون ونقش اسمه عليها. وقصده من هذا أن يطمس مآثر [پيلوپيداس واپاميننداس]. وكانت دعوى سخيفة، واقتراحاً غير معقول، معناه وضع نصر منفردٍ لم يقتل فيه إلاّ سپارطي مغمور الأسمه [جيرانداس Gerandas] مع أربعين من جنوده، في موضع أعلى من كل تلك المعارك الهامة العديدة، ولذلك انبرى [پيلوپيداس] يعارض الاقتراح بوصفه مخالفاً للقانون قائلاً ان العرف الذي جرى الآثيبيون عليه، يقضي بالا يخلّد رجلٌ منفرد أيّاً كان. بل أن تعزى الانتصارات كلها للشعب. غير انه ظلّ طوال المناقشات يثني على خارون أجمل الثناء، وحصر همّه في محاولة الكشف عن خبيئة [مينيقليدس] وأظهاره على حقيقته، شخصاً دساساً حاقداً، وطلب من الثيبيين إن ارادوا الاقدام على عمل ممتاز ان يعاملوه بما حقيق به وأقنعهم الى أن فرضوا على [مينيقليدس] غرامة فادحة عجز عن دفعها، وحاول بعد ذلك أن يثير القلاقل في الحكومة. هذه الأمور تنير لنا بعض الجوانب من حياة [پيلوپيداس].

عندما أعلن [الاسكندر] طاغية [فيري Pheræ][٢١] الحرب على قسم من مدن الثساليين، وبيت السوء للجميع، بعثت المدن بسفارة الى [ثيبه] تطلب عونها. وكان [پيلوپيداس] يعلم أن انشغال [اپاميننداس] في شؤون [الپيلوپونيسوس] يمنعه من المساهمة فعرض نفسه لقيادة التساليين في كفاحهم، لأنه لم يكن يريد ان تستسلم شجاعته ومهارته للكسل والبطالة، فضلاً عن ان انسحاب [اپاميننداس] من واجبه لا ينطوي على حكمة أو فائدة. وما أن وصل [ثساليا] بجيشه حتى استولى على [لاريسّا Larissa]، ثم حاول اصلاح سلوك [الاسكندر] الذي أعلن ولاءه - واجتهد في حمله على نبذ أسلوب حكمه المستبدّ، واحترام القانون والحكم بعدلٍ ورفقٍ، لكنه وجد فيه وحشاً ضارياً عنيداً لا تلين قناته، وبلغته عدة شكاوى عن جوره وبطشه، فضيق عليه الخناق حتى اضطره الى الانسلال سِراً من المدينة هو وحرسه.

وعلى أثر ذلك ترك [پيلوپيداس] التساليين آمنين. وقد زال عنهم كل خوف من الطاغية، وحل ما بينهم الصفاء والوئام، وانحدر الى [مقدونيا][٢٢]: وكان [بطليموس Ptolmy] اذ ذاك في حرب مع الاسكندر ملكها. وقد بعث الفريقان المختصمان بطلبه ليستمع الى خلافهما وليحكم فيما بينهما ويعاون الجانب المهضوم حقه. فقدم وصالحهما، ودعا المنفيين الى العودة وأخذ [فيليب] أخا الملك وثلاثين من أولاد الأشراف بمثابة رهائن، وجاء بهم الى [ثيبه]،

(٢١) دس لعمّه پوليفرون السَمّ بعد ذلك وجعل نفسه طاغيةً في مكانه. وكان پوليفرون نفسه قد فتك باخيه پوليدوروس والد الكساندر. لقد غصب هؤلاء تساليا وكانت دولة حُرّة [ديودورس ٢٥-٦١، كزينفون ٦].

(٢٢) خلّف أمنتاس الثاني ثلاثة أولاد شرعيين هم الكساندر، وپردكاس، وفيليب، كما خلف ابنا غير شرعي هو (بطليموس) الذي حارب الكساندر وقتله غدراً وكان حكمه ثلاث سنوات.

مبرهنا للاغريق على مبلغ الثقة والسمعة التي نالها الثيبيون بفضل نزاهتهم(٢٣) وجراءتهم، وفيليب هذا(٢٤)، هو الذي حاول فيما بعد أن يستعبد الاغريق، ولم يكن في حينه يتعدى الصبّا، يعيش مع [پامينس Pammenes] في [ثيبه]. ومن هنا ظُنّ انه اقتدى في اعماله التالية بأپامنداس ورجّح انه اتخذ من براعته في الحرب وخفته مثلاً يحتذيه. وهذا على كل حال جانب يسير من سجايا [اپامنداس] أمّا عن دماثته ونزاهته وكرمه وطيبة التي برز فيها حقاً، فلم يتصف [فيليب] بواحدة منها لا طبعاً ولا تطبعاً.

وبعد فترة من الزمن عاد الثساليّون يشكون [الاسكندر] الفيري لإثارته الفتن في المدن. فخرج [پيلوپيداس] مع [اسميناس Ismenias] في سفارة اليه من [ثيبه] بدون جيش لأنهما ما كانا يتوقعان قتالاً، على أن يستخدما الثساليين عندما تضطرهما الحاجة. ودبّ الاضطراب في الوقت نفسه - في احوال مقدونيا مرةً ثانيةً بعد أن عمد [بطليموس] الى اغتيال الملك، وتسلم زمام الحكم. فبعث اصدقاء الملك يستدعون [پيلوپيداس] فلم يرفض التدخل في الأمر ألاّ انه كان مفتقراً الى جيش خاص به، جنّد بعض المرتزقة من البلد وتقدم بهم لمواجهة [بطليموس]، ولما تقابلت القوات عمد بطليموس الى افساد مرتزقة پيلوپيداس بالمال واغرائهم بعصيانه. ومع هذا فقد كانت اوصاله ترتعد خوفاً من مجرد اسم خصمه وشهرته، فأقبل عليه كما يقبل التابع على متبوعه وأعلن الولاء وطلب الصفح معتذراً بأنه ما مارس الحكم إلاّ ليحفظه لأخوة الملك الميّت، وانه مستعد لتقديم الدليل على كونه صديقاً لأصدقاء [ثيبه] وعدوّاً لأعدائها. وضماناً لهذا وضع ابنه [فيلوكزينوس Philoxenus] وثلاثين من لداته بمثابة رهائن فارسلهم [پيلوپيداس] الى [ثيبه]. على انه حنق بصورة خاصة على مرتزقته لما أظهروه من غدر وخيانة. ولما علم أن معظم أموالهم وزوجاتهم وأولادهم في [فارسالوس Pharsalus]، فكر أنه يصيب منه انتقامه كاملاً لو تمكن من الاستيلاء عليها. فجمع حوله عدداً من الثساليين وزحف بهم على [فارسالوس] ولم يكد يدخلها حتى ظهر (الاسكندر) الطاغية بجيش على أبوابها. وحسب [پيلوپيداس] انه جاء لتبرئة نفسه من الجرائم التي عزيت اليه، فخرجا اليه، متصورين ان سلطة [ثيبه]، ومنزلتهما وسمعتهما تقيهما اي اعتداء، مع علمهما التام بقسوته وتهوره. ولما وجد الطاغية انهما وحيدان اعزلان بادر بالقبض عليهما وأحتلال [فارسالوس]، فاستولى على رعيته خوف عظيم، وساد

(٢٣) في هذا العهد كانت كل دويلات الاغريق قد نسيت إهتمامها بقضية الحرية. ولم يعد من بين كلّ هذه الحكومات من طبق النظام الجمهوري ويهتم بأمور المستضعفين والمظلومين ويشعر بالوطنيّة غير جمهورية ثيبة. ديودورس ١٥:٦٠.

(٢٤) هو والد الاسكندر الكبير.

الاعتقاد عندهم - بعد هذا الاعتداء الدنيء الصارخ - ان لا أحد سيسلم من بطشه، وان تصرفه ازاء الجميع وفي كلّ الأمور سيكون كسلوك اليائس من الحياة.

ولما بلغت الثيبيين هذه الانباء ثار ثائرهم وتميزوا غيظاً وبعثوا بجيش يقوده آخرون غير [ايامنندس] الذي كان مغضوباً عليه وقتذاك. وكان الطاغية قد سمح للناس كافة ان يتصلوا [ببيلوبيداس][٢٥] أولَ ما نقله الى [فيرى]، متصوراً ان نكبته هذه ستحطم معنوياته، وتجعله يبدو موضع مهانة واستصغار، ولكن [بيلوبيداس] راح ينصح أهل [فيرى] أن يتجملوا بالصبر فبعده فرجٌ حتى لكأنه مطمئن الى أن الطاغية لن يعتم ان يدفع ثمن الإهانات التي الحقها به، وبعث للطاغية بمن يخبره «انه من السخف والعبث أن يعذبّ يومياً رعاياه الابرياء ويوقع بهم ذبحاً وتقتيلاً ويُبقي عليه وهو يعلم جيداً بأنه سينتقم منه انتقاماً هائلاً لو نال حريته». فبهت الطاغية لجرأته، وحريته في الكلام وأجاب: «لماذا يستعجل [بيلوبيداس موته الى هذا الحَدّ؟»، فردّ بيلوبيداس عليه بما يأتي:

- لكي تكون أسرع الى منيّتك. اد ستصبح بعد قتلي ابغض الى الآلهة مما أنت عليه.

وبعد هذا منع الطاغيه محادثته منعاً باتاً، إلاّ أن [ثيبي Thebe] زوجه، التي هي بنت [جاسون Jason] تملكتها رغبة شديدة في رؤيته ومكالمته بعد أن سمعت من الحراس عن نبل سلوكه وجرأته، فأقبلت عليه في السجن. ولكونها أمرأةً، لم تفلح لأول وهلة في ادراك عظمته وهو في وسط نكبته وانما حكمت بأنه عومل معاملة فظّة دنيئة لا تليق بشهرته، من رثاثة ثيابه ومظهره العام، فبكت، وكان [بيلوبيداس] يجهل هويتها. فتسمّر في مكانه مبهوتاً، وعندما علم صفتها اقرأها التحية منادياً اياها بلقب ابيها (فقد كان وجاسون صديقين وعشيرين ودودين). قالت له

- إني لأشفق على زوجك يا سيّدي.

فأجابها:

-- أمّا أنا فاشفق عليك لأنك تستطيعين احتمال [الاسكندر] مع أنك غير مقيدة به بسلاسل!

ومست عبارته من المرأة وتراً حساساً فلطالما ابغضت زوجها لقسوته وظلمه وفجوره الذي فاق كل حد، ولاعتدائه الشنيع على أخيها الاصغر وتعددت زياراتها له وكاشفته بما تجرعت من إهانات على يده، وأظهرت مزيداً من الحقد والكره لزوجها الطاغية.

---

(٢٥) كانوا قد غضبوا عليه لأنه لم يمض في مطاردة العدو بعد المعركة الأخيرة مع اللقيديميين قرب كورنث، واستثمار نصره هذا بقتله وأسره الكثير من الاعداء. فعزل وتحي عن الحكم في بويوتيا وجعلوه يخدم كجندي بسيط في الجيش [ديودورس ١٥:٧٢].

إن الجنرالية الثيبيين الذين أرسلوا الى [ثساليا] لم يفعلوا شيئاً، الا قيامهم بانسحابٍ مخجلٍ منها لقصر باعهم في القيادة، أو لسوء حظوظهم(٢٦). ففرضت المدينة على كل منهم غرامة قدرها عشرة الآف دراخما، وبعثت باپامنداس على رأس قواتها نفسها. فانتعشت آمال التساليين بشهرة القائد الجديد وانتفضوا ورفعوا حالاً لواء الثورة. وكانت أحوال الطاغية تسير به الى الخراب سيراً حثيثاً. وبلغ الخوف بقادة جيشه وانصاره مبلغاً شديداً وأشتدت رغبة الرعية في الانتقاض عليه أملاً في عقابٍ عاجلٍ ينزل به، إلاّ أن [أپامنداس] كان أكثر إهتماماً بسلامة [پيلوپيداس] من أي مجدٍ يحرزه. ولخوفه من استيلاء القنوط على الاسكندر اذا ضيق عليه الخناق، فيندفع كالوحش الهائج لينهش ويعضّ. لم يشنها عليه حرباً ضاربة وانما ظلّ يحوّم فوقه بجيشه كالباشق المستعد للانقضاض حتى اتلف أعصابه وحطّم ثقته ولكنه لم يدفعه الى اليأس والهياج. كان [اپامنداس] يعلم مبلغ وحشيته، واستهانته التامة بكل ما هو عدل وحق. فلطالما دفن الناس أحياء والبس الابرياء جلود الدببة والخنازير وأطلق عليهم كلابه الشرسه ينهشونهم، أو جعلهم هدفاً لنباله واسنة حرابه! وفي [ميليبوا -Meli boea] و[سكرتوسا] المدينتين الحليفتين(٢٧) له، دعا السكان جميعاً الى اجتماع عام ثم أمر حراسه فأحاطوا بهم وأعملوا السيف فيهم كافةً. وكرّس الرمح الذي اردى به عمّه [پوليفرون Polyphron]، وزينّه بقلائد الزهر يضحّي له ويقدم القرابين كما لو كان ربّاً، مطلقاً عليه اسم [تيخون Tychon](٢٨)، ومرّة شاهد ممثلاً تراجيديا يمثل مسرحية «الطرواديون Troades» ليوريپيدس فخرج من الملعب، وأرسل بطلب الممثل فلما حضر طلب منه ألاّ يمتعض من خروجه اثناء التمثيل وان ينصرف الى إكمال دوره لأنه لم يترك الملعب تحقيراً له بل لخجله من رعاياه إن رأوه يبكي لمشهد ما تعانيه [هيكوبا Hecuba] و[اندروماخه Andromache] في سياق التمثيلية، وهو الذي لم يدركه أسف على اي شخصٍ فتك به! هذا المستبّد انتابه القلق لأسم ونبأ وقدوم حملةٍ بقيادة اپامنداس وسرعان ما «خفض جناحيه المقهورين، كالديك الجبان» وأرسل وفداً يعرض ويرجو ترضيةً، ورفض [أپامنداس] أن يقبل مثل هذا الرجل ضمن حلفاء [ثيبه] على انه منحه هُدنةً أمدها ثلاثون يوماً، تم خلالها أطلاق سراح [پيلوپيداس واسميناس] فعادا الى الوطن.

وعلم الثيبيون ان السپارطيين والآثينيين أرسلوا وفداً الى مملكة الفرس، بطلب العون.

---

(٢٦) عقبهم الكساندر وانزل بهم خسائر جسيمة اثناء المطاردة. ويعود الفضل في سلامة البقية الباقية الى كفاءة [اپامنداس] الذي اجبره الجنود على أن يتسلم القيادة [ديودوروس ١٥:٧١].

(٢٧) هي من مدن مغنيزيا. ومغنيزيا أقليم يقع جنوب مقدونيا.

(٢٨) معنى الكلمة «ذو الحظ السعيد» أو «المحظوظ».

فانتدبوا هم أيضاً [پيلوپيداس] لسفارة مماثلة، فكانت صدفة ممتازة لرفع مقامه وزيادة شهرته. اذ لم يسبق أن مرّ في بلاد ملك فارس شخصية جليلة القدر شهيرة الصيت. لأن المجد الذي ناله من انتصاراته على السپارطيين لم يزجف كالسلحفاة ببطء وخمول بل انتشر كالنار في الهشيم بعد أن تردّد في البلاد صدى الموقعة الأولى في [ليوكترا] ثم عقبتها انباء الانتصارات الجديدة تباعاً. فزادت كثيراً في شهرته وصيته ونشرته على القاصي والداني. وكان موضع أعجاب وتقدير كل جنرال أو قائد أو ساتراب فارسي يلقاه، وموضوع أحاديثهم. فقالوا مشيرين اليه:

- هذا هو الرجل الذي طرد اللقيديمونيين من البحر والبرّ، وحبس سپارطا بين نهري [تايغيتوس] و[يورتاس]، وكانت قبلها بزمن قصير قد اشتبكت في حربٍ ضروس مع الملك العظيم تحت قيادة [اغيسيلاوس]، حوالي [صوصه] و[اكبتانا].

ولقد أشاع هذا، السرور في أعطاف [ارتحشتا Artaxerxes] وزاد من رغبته في أن يُظهر [لپيلوپيداس] التفاتاً ورعاية، فقد كان يحبّ أن يرى نفسه كعبة القصاد من عظماء الرجال، وموضع تبجيلهم وأرتفعت منزلة السفير الثيبيّ عندما لقيه وسمع حديثه الذي كان أكثر رزانة من حديث السپارطيين، وأدّى له من الاحترام ما يليق بامثاله الملوك. الامر الذي لم تفت السفراء الآخرين ملاحظته وكان الاعتقاد سائداً أن [انتالسيداس] الاغريق هو من نال أعظم الحظوة لديه من سائر الاغريق(٢٩)، فقد بعث اليه بتلك القلادة المغموسة بالزيت التي كان قد أحاط بها عنقه في وليمة من الولائم. والحق يقال انه لم يعامل پيلوپيداس بمثل هذه المعاملة الرقيقة، على أنه اتحفه بأنفس وأغلى الهدايا حسب العادة المتبعة. وحقق سؤله وطلباته (وهي عدم التعرض لحرية الأغريق، واعمار [ميسينيا] بالسكان، ونشوء صداقة متوارثة بين الملك والثيبيين). وبعد أن نال ذلك قفل راجعاً معتذراً عن قبول كلّ الهدايا إلاّ ما اعتبره رمزاً لحسن النية ودليلاً على التعاطف. وكان نجاح [پيلوپيداس] سبباً من خراب السفراء الآخرين. فقد أدان الآثينيون سفيرهم [تيماغوراس Timagoras] ونفذوا به حكم الموت، ولو أنهم فعلوا ذلك بسبب قبوله مقداراً كبيراً من هدايا الملك(٣٠)، فحكمهم هذا عادل

(٢٩) إن كان پلوتارخ يقصد السفير السپارطي فهو يختلف عن گزينفون الذي يثبت اسمه بـ(يوثيكلس Euthy-cles] كذلك يعلمنا أن [تيماغوراس] هو الرجل الذي كان الملك يرفع من قدره ويكرمه بعد پيلوپيداس. وربما كان ذلك في فترة سابقة عندما كان (انتالقيداس) في البلاط الفارسي. ان عادة ارسال العطور والروائح الزكية عنواناً للتقدير والمحبّة، ما زالت سائدة في الشرق.

(٣٠) وعن گزينفون (المرجع السالف ٧٠) ان جريمة تيماغوراس الحقيقية هي ما زعمه زميله الموفد معه (ليون من أنه كان على اتصال دائم بـ[پيلوپيداس] مؤيداً كلّ شيء أقترحه لمصلحة أهل ثيبه.

وصحيح. اذ لم يقبل ذهباً وفضة فحسب بل قبل سريراً فاخراً وعبيداً للعناية به، [كأن الاغريق لا يفقهون هذا الفن!] فضلاً عن ثمانين بقرةً مع رعاتها، متعللاً بأنه حليب البقر ضروري لداءٍ ابتلي واخيراً كان قد حمل بمحفة الى ساحل البحر مع هبة لخدمه قدرها أربعة تالنتات. ولكن من المحتمل جداً ان لا يكون جشعه هو السبب في سخط الآثينيين، لأن [ايبقريطس Epicrates] ناقل الامتعة، لم يكتف بالاعتراف للجمهور، بأنه تسلّم هدايا من الملك. بل تقدم باقتراح يقضي أن ينتخب بدلاً من «الأراخنة» التسعة، فقراء تسعة من أشدّ المواطنين إملاقاً وان يرسلوا بمثابة سفراء الى الملك ليغنيهم بهداياه. فضحك الجمهور فحسب على هذه النكتة. على انهم في الحقيقة كانوا ساخطين ناقمين لفشل سفرائهم وحصول الثيبيين على كلّ ما سعوا اليه، دون أن يحسبوا حساب شهرة [پيلوپيداس] التي كانت أقوى أثراً من فصاحة الآثينيين ومقدرتهم الخطابية. مع رجلٍ ما زال قلبه يميل الى المنتصر بقوة السّلاح. إن هذه السفارة التي أعادت ميسينيا الى أهلها الشرعيين وضمنت حرية بلاد الأغريق الأخرى. حصلت لپيلوپيداس على قدر كبير من حسن الثقة عند عودته.

في ذلك الزمن عاد [الاسكندر] الفيري الى طبعه الأول من العدوان فاستولى على كثير من المدن الثسالية ووضع حاميات في بلاد آخائيي Achaen فْيوتيس Phthiotis، والمغنيزيين، ولما سمعت المدن بعودة پيلوپيداس أرسلت الى ثيبة وفداً مستنجداً، يطلب معونة بقيادة [پيلوپيداس] نفسه. فأجاب الثيبيون سؤلهم بطيبة خاطر. وعندما تم تجهيز كل شيء لما وبدأ الجنرال في مسيرته كسفت الشمس وساد الظلام المدينة ظُهراً. فبهت [پيلوپيداس] للظاهرة العجيبة ولم ير من اللائق أن يرغم الرجال الخائفين الخائري العزيمة على الرحيل، ولا أن يخاطر بمصائر سبعة آلافٍ من مواطنيه، ولذلك انطلق بثلاثمائة فقط من الخيالة المتطوعين - في الطريق الى ثساليا خلافاً لرغبة العرافين واخوانه المواطنين عموماً. وكانوا كلّهم يرون في الظاهرة نذير شؤم يستهدف هذا الرجل العظيم إلاّ انه كان يتميز غيظاً من الاسكندر وينقم عليه لما اصابه منه. كما كان يأمل أيضاً - مما سمعه قبلاً من حديث [ثيبي]، أن أسرته الآن منقسمة على نفسها وعلى خلافٍ كبير. إلاّ أن انتصار الحملة كان أكثر اثارة له من اي دافع آخر، ففي هذا الوقت كان اللقيديمونيون يرسلون الضباط العسكريين لمساعدة [ديونيسيوس] الطاغية الصقليّ. والآثينيون يتقاضون الأموال من الاسكندر ويعظمونه باقامة تمثال برونزي له باعتباره محسناً لهم. فكان شديد الرغبة في أن يظهر الثيبيين للناس بأنهم هم وحدهم بين الأغريق، يتبنون قضية المستضعفين الذين يضطهدهم الطغاة، ولا يترددون في القضاء على اي شكل من أشكال الحكومات المستبدة غير الشرعية في كل بلاد الاغريق.

عندما وصل پيلوپيداس مدينة [فارسالوس] جمع جيشاً وتقدم به لملاقاة الاسكندر، وعلم هذا ان الثيبيين في جيش خصمه قليلون، وأن مشاته ضعف مشاة الثساليين فسعى اليه في [ثيتيديوم Thetidium] وقال أحدهم لپيلوپيداس:

- الطاغية يواجهنا بجيش جرار.

فأجابه:

- وهذا أفضل لنا، اذ سنتغلّب والحالة هذه على الكثرة.

وكان يمتدّ بين الجيشين سلسلة من التلال العالية الشديدة الانحدار بالقرب من مدينة [سينوسكڤالي Cynoscphalæ] التي حاول الفريقان الاستيلاء عليها بمشاتهما. وقاد پيلوپيداس خيالته الجيدة الكثيرة العدد في هجوم على خيالة العدوّ فهزموها ولاحقوها في السهل. لكن الاسكندر أحتل التلال في تلك الاثناء وهاجم المشاة الثساليين الذين تقدموا بعد ذلك وحاولوا أن يشقوا طريقهم صعداً في المرتفع الوعر الصخري. فقتل طلائعهم وعجز الآخرون عن الحاق أي ضررٍ بقواته لما أصابهم من انهاك شديدٍ، فلما تبين پيلوپيداس ذلك نفخ بوق التراجع لخيالته وأمرها بمهاجمة وحدات العدوّ الصامدة في مواقعها. وتناول ترسه والتحق فوراً بالوحدات التي كانت تقاتل حول التلال وتقدم الى الصفوف الأمامية وملأ رحاله بالشجاعة والحماسة حتى خيل للاعداء أنهم يصولون عليهم بأرواح وأجسام أخرى غير تلك التي يملكونها؛ وصدوا هجومين أو ثلاثة لهم ولكنهم وجدوا اندفاعهم كاسحاً عنيفاً، كما أطبقت عليهم الخيالة العائدة من المطاردة فانكفاؤا الى الوراء بنظامٍ. وأدرك پيلوپيداس بثاقب نظره ومن الأرض المرتفعة ان جيش العدوّ تسوده الفوضى ويعمه الاضطراب وان لم تلحق به الهزيمة بعد، فأخذ يبحث عن الاسكندر ولما رآه على الجناح الأيمن يشجع مرتزقته ويصدر اليهم الأوامر، لم يتمالك شعور الغضب الذي اجتاحه لمرآه. وانساق وراء عاطفته كالأعمى غير مقيم وزناً لا لحياته ولا لمسؤوليته القيادية فتقدم كثيراً عن جنوده وهو يصرخ متحدياً ويدعو الطاغية للنزال فلم يجب هذا وتقهقر وأخفى نفسه بين حرسه. وصدّ [پيلوپيداس] طلائع المرتزقة التي التحمت معه عن قربٍ وقتل بعضها إلاّ ان كثيراً منهم صوبّوا اسنتهم الى دروعه من بعيدٍ وخرقوها فجرح حتى اذا أسرع الثساليون وقد استبد بهم القلق من النتيجة يهبطون التل لنجدته، وجدوه قد فارق الحياة. ووصلت الخيالة أيضاً ودحروا الفلانكس وطاردوا العدو المقهور مسافة طويلة وملأوا الميدان بجثث القتلى الذين انافوا على الثلاثة آلاف.

ما كان لأحدٍ ان يدهش للحزن العميق الذي استولى على الثيبيين الحاضرين، لمصرع [پيلوپيداس]، فقد راحوا بندبونه وينادونه بالأب والمنقذ والمعلم لكلّ ما هو حسنٌ وأهل للثناء. ولكن الثساليين والحلفاء يزوّهم في ذلك بما اصدروا من مراسيم بتكريمه غاية التكريم الحرّي بالتقديم للشجاعة البشرية. وقدموا شواهد أقوى من هذا، على الودّ الذي يحفظونه له بابداء مشاعرهم الخاصة. وذكر أن الجنود اذ علموا بمصرعه - لم يفكروا في نزع دروعهم أو رفع السروج عن ظهورهم خيولهم أو معالجة جروحهم، بل أسرعوا وهم لاهثون بحرارة القتال وبايديهم السلاح، الى حيث جثته مسجاة وراحوا يكدسون الغنائم الحربية عليه كأنه ما يزال في قيد الحياة يرى ما يصنعون. ثم قصوا أعراف خيلهم وجزوا نواصيهم[٣١]، وامتنع أكثرهم عن ايقاد النار في خيامهم، وعافوا وجبة عشائهم، وران الأسى والصمت على الجيش برمته. كأنهم لم يربحوا أعظم معركة وأخطرها، بل كأن الطاغية هزمهم وأخذهم عبيداً. وما ان علمت المدن بالفاجعة حتى خرج حكامها وشبابها واحداثها وكهنتها لاستقبال الجثمان وأخذوا معهم تذكارات حرب وتيجاناً ودروعاً ذهبية. وعندما حان موعد الدفن تقدم شيوخ الثساليين طالبين من الثيبيين أن يتولوا عنهم مراسيم التشييع وقال واحد منهم:

- ايها الاصدقاء، نحن نطلب منكم فضلاً به تشريف لنا وراحة معاً في فاجعتنا العظمى هذه. إن التساليين لن يتيسرّ لهم بعد الآن أن يقوموا على خدمة [پيلوپيداس] الحيّ، ولن تتاح لهم فرصة تكريمه تكريماً يشعر به. ولو سمحتم لنا بجثمانه، وبتزيين جنازته وتشييعه الى مقره الأخير، فاننا نأمل أن نثبت بهذا، الحقيقة الواقعة وهي ان خسارة التساليين به، أعظم من خسارة الثيبيين. انكم فقدتم به جنرالاً حاذقاً فحسب، اما نحن ففقدنا جنرالنا وحريتنا. اذ كيف سنتجرأ على طلب قائد آخر منكم مادمنا لا نقوى على اعادة پيلوپيداس؟

وأجابهم الثيبيون الى طلبهم. فعملوا له تشييعاً فخماً لا يساويه تشييع، كما كان رأي أولئك الذين لا يرون الفخامة في المواكب التي يزينها الذهب والعاج والارجوان، كما فعل [فيليستوس Philistus][٣٢] الذي أنفق ببذخٍ واسراف جنوني على جنازة [ديونيسيوس] فختم بها طغيانه مثل خاتمة فخمة لمسرحية تراجيدية عظيمة. ولم يكتف [الاسكندر الكبير] عند وفاة [هيفيستيون Hephæstion] بجزّ أعراف خيله وبغاله، بل عمد الى هدم دعائم اسوار المدينة لتظهر أيضاً بمظهر الحداد وتبدو عند تشييعه كاسفةً كئيبة عاطلة عن شكلها

(٣١) من تقاليد الحداد عند الاغريق.

(٣٢) هذا الكاتب خدم بالتتابع الديونيسيين جميعاً. وبعد ان هزم ديون آخر طاغيه منهم قام بقتل نفسه.

الجميل. إلاّ أن مثل هذا التكريم الذي يجبر عليه الناس ويؤمرون به، انما يشاركون فيه بمشاعر الحَسد والغيظ ممن خصصت لهم وبمشاعر السخط والكراهية لمن فرضها عليهم. فهذه ليست ادلة على الحب والاحترام وانما مظاهر ترفٍ ومباهاة قوم البرابرة وغطرسة أولئك الذين يغدقون ثرواتهم على هذا العبث المقيت. وهذا رجل من طبقة العامة، يموت في بلاد الغُربة ولا زوج أو ولد أو اقرباء بجانبه. تتنافس المدن فيما بينها دون ارغامٍ أو طلب بالخدمة والتشييع والدفن، على استباق أحداها الأخرى في إظهار ما تكنه من حبّ. إن هذا ليبدو خلاصةً وختاماً لحظّ سعيد. «فموت الرجل السعيد ليس أعظم فاجعة، بل أعظم بركة» كما قال [ايسوب Ae-sop] لأنه يضمن سعادتهم العظمى ويجعلها بمنأى عن متناولٍ يد القدر. وانها وايم الحق لنعم النصيحة، تلك التي نقدم بها ذلك السپارطي الذي عانق [دياغوراس Diagoras][(٣٣)] المتوج بالغار في الالعاب الاولمبية، وعاش ليرى أولاده واحفاده يفوزون فيها ويتوّجون، قال له:

- ألا مت يا [دياغوراس] لأنك لا تستطيع أن يكون إلها!

ومع هذا لو وضعت انتصارات كل الالعاب الپيثية والاولمپية معاً، فمن ذا الذي يضاهيها بانتصارٍ واحدٍ من انتصارات پيلوپيداس وكا أكثر ما حققه! لقد انفق حياته كلها في أعمال تقسّم بالنبل والبسالة ومات بالأخير وهو القائد العام لقوات [بويوتيا] المسلحة للمرة الثالثة عشرة، وخرّ صريعاً وهو يقاتل ببأس لتقويض حكم طاغيةٍ، دفاعاً عن حرية الثساليين.

وكما أن موته أورث حزناً شاملاً، فانه عاد بالنفع أيضاً للحلفاء اذ لم يتأخر البيثيون ساعةً عن الثأر له ما أن سمعوا بمصرعه ودفعوا بسبعة آلاف من الرّجالة وسبعمائة من الخيالة تحت قيادة [مالسيطاس Malcitas] و[ديوجيتون Diogiton]. فوجدا [الاسكندر] ضعيفاً لا يملك قواتٍ، فارغماه على اعادة المدن التي استولى عليها. وسحب حاميته من بلاد المغنيزيين، وآخائيي فثيوتيس، وأعطائه عهداً بمساعدة الثيبيين ضدّ اي عدوٌ يشاؤون. وقد أرضى هذا التدبير الثيبيين إلاّ ان العقاب ادرك الطاغية للشر الذي عمله، وانتقمت السماء لموت [پيلوپيداس] بالطريقة التالية: كان [پيلوپيداس] قد علم [ثيبي] زوج الطاغية بالاّ تخاف المظهر الخارجي لقوة دفاع الطاغية واحتياطاته ما دامت تعيش هي بينها ولا تمنع من ولوجها. كما أنها كانت تخشى هي الأخرى تقلبات مزاجه، وتكره قسوته ولذلك ائتمرت به مع اخوتها الثلاثة [طيسفونس Tisiphonus] و[پيثولاوس Pytholaus] و[ليوكوفرون Lycophron]

---

(٣٣) دياغوراس هذا، انحدر من نسل هيراقليوس من خطّ [تليپوليموس] الذي كان حاكماً لرودس. وقد قتل امام اسوار طروادة. وكان موضوع النشيد الاولمپي السابع الذي نظمه الشاعر (پندار) ونقشه الرودسيون بماء الذهب فوق هيكل منيرڤا في ليندوس Lindus.

فقاموا بالمحاولة التالية لقتله: كانت كل الأجنحة تملأ بحرس الطاغية ليلاً. إلاّ ان غرفة نوعهما كانت في طابق علوي، وامام الباب كلب مقيد بسلسلة يقوم على حراستها وهو يهاجم كل انسان إلاّ الطاغية وزوجه والخادم الذي يطعمه. فلما قررت [ثيبي] أغتيال زوجها، عمدت الى اخفاء أخوتها طوال اليوم المقرر للعملية - في حجرة مجاورة. ودخلت هي على عادتها الى حجرة الاسكندر بمفردها وكان نائماً، وبعد قليل خرجت وطلبت من الخادم المختص أن يأخذ الكلب ويروح به لأن زوجها يريد أن يصيب نوماً هادئاً ثم انها القت صوفاً على الدرج لئلا تصدر اصوات من أقدام أخوتها اثناء صعودهم، ثم قادت أخوتها الى أعلى وهم شاكوا السلاح وتركتهم عند باب الحجرة ودخلت، ثم رجعت اليهم وبيدها سيف الطاغية وكان معلقاً فوق رأسه، تأكيداً بأنه مستغرق في نومه. ولكن الخوف بدأ على الشبان، وظهر منهم صدود عن القتل. فتملكتها سورة من الغيظ وراحت تقرعهم وأقسمت بأنها ستوقظ الاسكندر وتكشف له عن المؤامرة. وهكذا تقدمتهم والمصباح في يدها الى الداخل، وكانوا يشعرون بمزيج من الخوف والعار، وادانتهم من السرير فاسك أحدهم بقدميه وسحبه الآخر من شعره الى الخلف وطعنه الثالث طعنة قاتلة. ربما كان موته أسرع مما يجب. إلا أنه كان أوّل طاغية يقتل بمؤامرة زوجه. واهينت جثته وطرحت الى الخارج وأصبحت موطئ اقدام أهل [فيري].

يبدو أنه تجرع ما تستحقه جرائمه الشنعاء.



مارچلّوس

MARCELLUS

(Marcus Claudius)

268 _ 208



قالوا أن [ماركوس كلوديوس] الذي تولى منصب قنصل الرومان خمس مرات، كان ابن [ماركوس] وهو الاول الذي لُقب [مارچللوس] في أسرته وهو من لفظ Martial[١]: «عسكري» كما يؤكد [پوسيدونيوس Posidonius] وكان والحق يقال متمرساً في فنون الحرب لخبرته العسكرية الطويلة، قوي البدن، باطش الكف، ميّالاً بطبعه الى مزاولة صناعة الحرب. ولايبدو مزاجه الناريّ وطبعه العنيف إلاّ في المعركة وبصورة بارزة، وإلاّ فهو متواضع رقيق الشمائل لين العريكة. واما وقوفه على العلوم اليونانية. والتهذيب العقليّ، فلا يرتفع الى أكثر من اعجابه وتقديره لمن تمرسوا فيها وبرعوا، ولم يكن هو بالذات قد أصاب منها حظاً يشبع به رغبته اليها، بسبب انصرافه الى مشاغله الأخرى العسكرية - فلو وجد في الدنيا ايّ من الرجال الذين قال عنهم هوميروس[٢] بأن السماء قد -

قدرت عليهم أن يخوضوا حروباً طاحنة ضروساً

منذ شرخ الشباب حتى اراذل العمر!»

فهم على وجه التأكيد كبار الرومان في ذلك العصر. ففي مطالع شبابهم خاضوا الحرب ضدّ القرطاجنيين في صقلية. وفي ابان كهولتهم قاتلوا الغاليين دفاعاً عن أراضي ايطاليا الاصلية. وأخيراً لما بلغوا سنّ الشيخوخة قادوا الكفاح ضدّ هنيبعل والقرطاجنيين[٣]. وارادوا في أواخر سنيّ حياتهم ما كان مضموناً لمعظم الناس - أي الخلاص من متاعب الحرب ومشاقّها، إلاّ ان مراتبهم ومواهبهم العظيمة كانت دوماً تستدعي انتدابهم للقيادة.

---

(١) الرومان مغرمون باتخاذ أسماء آلهتهم الكبار أسماءً لهم ومن هنا جاءت أسماء: ماركوس، مارشيوس، ماميروس، مامركوس الخ...

(٢) الالياذة ١٤:٨٦.

(٣) سنّ الخدمة العسكرية عند الرومان بمقتض قانون [سرڤيوس توليوس] يتراوح بين السابعة عشرة والسادسة والاربعين. وبعدها يعفى الروماني من أية خدمة عسكرية ولم يخرق هذا القانون الاّ في الحرب الغالية كما ذكر فيما بعد. أما اللقيديمي فيظلّ خاضعاً للخدمة العسكرية حتى سنّ الستين. وتبدأ الخدمة العسكرية عند الآثينيين في الثامنة عشرة حتى الاربعين. ويقضي الآثيني السنتين الأوليين في الدفاع عن المدينة. والخدمة في حاميات قلاع آتيكا.

وكان [مارچللوس] خبيراً في كل نوع من أنواع القتال، إلاّ أن تفوقه الأعظم هو في النزال الفردي، ولم يعلم عنه انه رفض تحدياً، أو قتل تحدياً إلاّ وقتل متحديه. وفي صقلية حمى أخاه [اوتاسيليوس Otacilius] وأنقذ حياته عندما طوقه الاعداء في أحدى المعارك. وقضى على كل من داناه. وبسبب هذه البطولة أهدى اليه قادة الجيش، وهو بعد صغير - تيجاناً وما اليها من جوائز التقدير. وبدأت سجاياه تتكشف أكثر فأكثر، حتى نصبه الشعب رئيس شرطة [كورول ايديل Curule Ædile][٤] وعينه الكهنة بمنصب [عراف: Augur]، وهي طبقة من الكهانة أودع لها الشرع أساساً مهمّة مراقبة دلائل النبوءات. وفي فترة توليه الشرطة الجأتة حادثة مؤسفة الى رفع شكوى امام مجلس الشيوخ: كان ابنه [ماركوس] يتمتع بجمالٍ أخاذ، وهو في زهرة شبابه، وكان الاعجاب بذلك منه لا يقل عن الاعجاب بحسن اخلاقه. حاول زميل [مارچللوس] في الوظيفة الاعتداء على الشاب. وكان يدعى [كاپيتولينس Capitolinus] وهو رجل سيء الطباع وقحٌ، فصده الشاب عن نفسه أولاً، فلم يكفّ وتحرش به ثانية، فأبلغ اباه بالأمر. فأحتدم مارچللوس غضباً وسخطاً وشكاه الى مجلس الشيوخ: فاستأنف المتهم الشكوى الى مفوضي [تريبيونات] الشعب محاولاً بشتىّ الحيل والمساعي أسقاط التهمة عنه. فلم يقبل هؤلاء بسط حمايتهم عليه، وعمد هو الى جبّ التهمة عن نفسه بالإنكار التام، ولما لم يكن في القضية شاهد عيان فقد وجد الشيوخ من اللازم احضار الشاب أمامهم. ولما رأوا خجله ودموعه، واحساسه بالعار، مقرونة بالسخط والقرف لم يعودوا بحاجةٍ الى دليل آخر لأثبات الواقعة، وادانوا [كاپتولينوس] وحكموا عليه بغرامة يدفعها للمشتكي. فصنع مارچللوس بها وعاء تقدمةٍ فضيّ واهداه للآلهة.

بعد أن وضعت الحرب البونية Punie[٥] أوزارها، وكانت قد امتدت عشرين سنةً، ذرّ قرن

---

(٤) تشمل وظيفة الإيديل في عهد الجمهورية واجبات كثيرة وخطيرة فهو فضلاً عن مسؤولية في الأشراف على الالعاب العامة، يقوم بوظائف مدير الاشغال العامة كما انه يراقب الأسواق وهو مسؤول عن ثبات الأسعار وتأمين القمح الكافي والمحافظة على المعابد. وتأتي هذه الوظيفة الرابعة في سلّم المناصب الكبيرة التنفيذية [قنصل. بريتور. چنصور]. وقد استحدثت في العام ٣٦٦ ق.م كما تنقله التواريخ. وهي نوعان فما يدعى بـ Curulian Aedile. وما يدعى بـ Plebian Aedile ومدة الخدمة هي سنة واحدة.

(٥) يخطيء پلوتارخ هنا في سرده الوقائع. فالحرب الفيونية الأولى دامت ٢٣ عاماً. اذ بدأت في ٢٦٢ ق.م وأنتهت في ٢٤٩ ق.م. وفي أثناء ذلك بقي الغاليون ساكنين لا يأتون بحركة ثم تحركوا بعد اربع سنوات وزحفوا نحو [ارمينيوم] إلاّ ان البوئي Boii الذين تمردوا على زعمائهم، أقدموا على قتل الملكين آتيس Ates وگالاتيس Galates. وعلى أثر ذلك انقضّ الغاليون بعضهم على بعض فهلك عدد كبير، وقفل الباقون عائدين الى بلادهم. وبعد خمس سنوات بدأوا يعدون لحرب جديدة بسبب التقسيم الذي أحدثه فلامينينوس في أراضي البيجنتس Pecintines التي انتزعت الغاليين السينين الذي يقطنون ما وراء الألب وقد استمرت الاستعدادات مدة طويلة. وبدأت الحرب بعد التقسيم بثماني سنين. وكان يقود الغاليين كلّ من =

الخطر الغاليّ، وبدأ يقلق روما ثانيةً. وكان الاينسوبريون Insubrians[٦] الأقوياء الذين يسكنون اصقاع الألب الدُنيا من ايطاليا قد جندوا من الغاليين مرتزقةً عُرفوا باسم [گيساتي Gaesatae][٧]، وكان من قبيل المعجزة وحسن الحظّ النادر لروما، ان الحروب الغالية لم تتفق زمنياً والحرب البونية. وان يظلّ الفاليون ساكنين بكلّ اخلاص. يقفون كالمتفرجين بينما كانت نار الحرب البونية مستعرةً. كأنما تعهّدوا لروما بألاّ يحركوا ساكناً، وان ينتظروا المنتصرين لمهاجمتهم! ولأن وبعد ختام تلك الحرب لم يعد ثم ما ينعهم من الظهور على المسرح. على أنّ الوضع السياسي السائد، وشهرة الغاليين السالفة، أشاعت خوفاً ليس بالقليل في نفوس الرومان. لأنهم كانوا في سبيل خوض حرب قريبة الميدان من أرض الوطن، بل ضمن حدود البلاد. كما كانوا ينظرون الى القوم نظرة حذرٍ وتوجّس يفوق توجسهم من أي قوم آخرين، فذكرى استيلائهم مرة على عاصمتهم ما زالت ماثلة لأذهانهم. وبدأ خوفهم هذا واضحاً من القانون الذي استنوه وقتذاك وهو ينصّ على اعفاء الكهنة من كلّ الواجبات العسكرية إلاّ عندما تهدد البلاد بغزوات [غاليّة].

وبلغت الاستعدادات الرومان لهذه الحرب أقصى درجة (لم يؤثر سابقاً أو لاحقاً أن عبّأ الرومان مثل هذا العدد من الفرق الكاملة السلاح كما عباؤا الآن). وكان هذا وقرابينهم الفائقة للعادة دلائل واضحة على مبلغ خوفهم. فمع أنهم كالاغريق يمقتون الطقوس البربرية القاسية مقتاً شديداً، ويمتازون على سائر الشعوب الأخرى بمشاعرهم الوادعة المفصحة عن احترامهم للآلهة، لم يترددوا عندما داهمتهم هذه الحرب - في تطبيق نبوءات معينة وجدوها في «أسفار كسبيل» فعمدوا الى دفن رجل وامرأة يونانيين وهم أحياء[٨]. واتبعوهما بذكر وأنثى غاليين - في سوق يدعى «سوق الوحوش». وأستمروا الى يومنا هذا يقدمون الى هؤلاء الارباب الضحايا الأربع خلال مراسيم دينية معينة في شهر تشرين الثاني من كل سنة.

وكانت الحرب سجالاً بين الفريقين في مبدئها. يحرز الرومان أحياناً انتصارات باهرة، ويصابون أحياناً بهزائم منكرة. ولم يتقرّر النصر التام لأحدٍ في هذا الكفاح حتى نصب [فلامينيوس Flaminius] و[فيرويوس Furius] قنصلين، فساقا جيشاً لجباً على [الانيسوبريين]. وشوهد النهر الذي يجري في أقليم [پيسنوم Picenum] عند رحيلهما -

---

= كونكوليتانس و أنيرويتس اثناء تولي [ايميليوس پاپوس وايتليوس ريگولوس منصب القنصلية في العام ١٢٤ ق.م [انظر پوليبيوس ٢٠٠٩ وليڤي ٢٢:٣٥].

(٦) اي الميلاتيون.

(٧) ربما لقبوا بهذا من نوع اسلحتهم.

(٨) فعلوا مثل هذا ثانيةً في الحرب الفونية الثانية [ليڤي ٢٢:٥٧].

وهو طافح بالدم. وذكر انه شوهدت اقمارٌ ثلاثة دفعةً واحدةً في [اريمنيوم Ariminum]. وفي اجتماع قنصلي بروما اعلن الكهنة العرافون أن انتخاب القنصلين لم يكن شرعياً، وليس مما يتفق والنبوءات التي تنذر بشؤم تنصيبهما. فعجّل مجلس الشيوخ بارسال كتبٍ الى المعسكر باستدعاء القنصلين الى روما بأسرع ما يمكن وأمرهما بالامتناع عن الاشتباك مع العدوّ، والتنازل عن منصبهما القنصلي وفي أوّل فرصة جيء بهذه الكتب الى [فلامينيوس] فأرجأ فضّها، حتى كسر العدو[٩] وطارد قواتهم وتوغل وراء حدودهم وأجتاح بلادهم وعاث فيها سلباً. إلاّ أن الشعب لم يخرج لاستقباله عند عودته مثقلاً بمقادير ضخمة من الغنائم. لأنه لم يُطع في الحال الأمر الذي ورده بالعودة، بل لم يكترث به وازدراه،. وكادوا ينكرون عليه حقه بموكب النصر. ولم نيته الاحتفال به حتى عزلوه هو زميله عن الحكم وانزلوهما الى مرتبة المواطن العاديّ. هكذا كانت تصرف كلّ الأمور في روما، بالاعتماد الكليّ على الدّين. فلا يسمحون بأي استصغار بوجه الى العرافة وطقوس القدماء، مهما كانت تصيب الامور المنهي عنها - من النجاح الكبير. وراح بهم الوهم الى أن احترام الحكّام لارادة الآلهة هو أهم واجدى للسلامة الوطنيّة من قهر الاعداء. كان [طيباريوس سمپرونيوس Tiberius Sempronius] الذي وضع الجمهور سجاياه وأستقامته في أرفع منزلة، قد نصب [سيبيو ناسيكا] و[كايوس مارشيوس Caius Marcius] قنصلين ليخلفاه، فخرجا كلّ الى الاقليم الذي عين فيه. ثم أن [طيباريوس] هذا بينما كان ينقّب في كتب الطقوس الدينية اذابه يقع على شيء كان يجهله وهو هذا: عندما يريد أي قنصل ان يقوم باستخارةٍ، فانه يجلس في بيت أو خيمة تكترى له خارج المدينة، فاذا استدعاه أمر عاجل الى المدينة قبل ان يشاهد علامة ما، فعليه أن ينتقل الى خيمة أو بناء آخر عند عودته ليتابع منه المراقبة. ويظهر أن [طيباريوس] جهلاً منه، استخدم البيت نفسه مرتين قبل اعلانه تعيين القنصلين الجديدين.

ولما أدرك خطأه فاتح به مجلس الشيوخ، ولم يمرّ المجلس بهذه الهفوة البسيطة مرور الكرام بل عجّل بالكتابة عنها لكلّ من [سيكپيو ناسيكا] و[كايوس مارشيوس]، فتركا اقليميهما وعادا فوراً الى روما ونزلا عن منصبيهما. حصل هذا في فترة متأخرة[١٠]، وفي حدود ذلك الزمن أيضاً سحبت وظيفة الكهنوت من رجلين ذوي مكانة رفيعة جداً هما [كورنيليوس چيتيگوس Cornelius Cethegus] و[كونيتوس سولپيشيوس Quintus Sulpicius]. عُزل

(٩) لا يعود الفضل له بالنصر [ليفي ٢١:٦٣] فقد دخل المعركة والنهر وراءه ولم يكن للجنود مهرب غير العمل على دحر العدو. ويعود الفضل بالحقيقة الى التريبيونات الذين لجأوا الى فنون عسكرية يشرحها ليفي بتفصيل. لقد اندحر (فلامينيوس) هذا أيام هنيبعل في معركة تريبيا Trebia العام ٢١٦ ق.م.

(١٠) ستون سنةً.

أولهما لأنه لم يرفع احشاء اضحيةٍ مذبوحة، بصورة صحيحة. ونُحي الثاني لأن الطاقية المهدّبة التي يلبسها كهنة الأرباب أمثاله [فلامين Flamen] سقط من رأسه اثناء قيامه بذبح الأضحية. و[مينوشيوس] الدكتاتور الذي كان قد عين [كايوس فلامينوس] آمراً للخياله عزلوه هو ومن عيّنه عن القيادة لأن صوصأة فأرة سُمعت! وبصرف النظر عن اهتمامهم الشديد بمثل هذه الصغائر التافهة، فإن هذا الحرص لم يؤد بهم الى الشعبذات والاوهام لأنهم لم ينحرفوا بها أو يغالوا عن أسلافهم في تطبيقها.

ما أن استقال [فلامينيوس] وصاحبه من منصب القنصلية، حتى قام الضباط المترئسون المعروفون باسم [انترركس Interrex][١١] باعلان [مارچللوس] قنصلاً وما ان تسلم مقاليد السلطة حتى أختار [كنيوس كورنيليوس Cnaeus Cornelius] زميلاً له. وقيل أن الغاليين أقترحوا عقد صلح، وكان مجلس الشيوخ ميالاً الى السلم كذلك، لكن [مارچللوس] حمّس الشعب للحرب. على أن الظواهر تشير الى ان الطرفين أتفقا على الصلح لكن مرتزقة الگيساتي، نقضوه بعبورهم الألب واثارتهم الاينسوبريين (كان عدد الگيساتي، ثلاثين ألفاً فقط، بينما تجاوزهم الاينسوبريون بكثير) وزحفوا وهم معتدون بقوّتهم - نحو [أچيّراي Acerrae][١٢] وهي مدينة تقع شمال نهر الپو، ومنها أندفع ملكهم [بريتومارتوس Brito-martus] بعشرة آلاف منهم يجتاح الاراضي المحيطة بها. فبلغت الانباء [مارچللوس] فخلّف زميله عند [اسيّري] تاركاً معه المشاة وكلّ الأسلحة الثقيلة وثلث وحدات الخيالة وأخذ بقيتها وستمائة من المشاة الخفيفة وراح يغذّ السير ليلاً ونهاراً دون استراحة ولم يقف حتى أدرك هؤلاء العشرة آلاف بالقرب من قرية غاليّة تدعى [كلاستيديوم Clastidium][١٣] كانت قد ضمت الى ملك الرومان منذ وقت قصير. ولم يتسنّ له فاصل زمني لإراحة، جنوده واستجمامهم الاّ ان البرابرة انتهبوا اليه حالاً واستخفوا به لقلة مشاته. وكان الغاليون أحذق من ركب من امتطى الخيل - لذلك ايقنوا بالغلبة ولاسيّما وان تفوقهم العدديّ على مارچللوس كبيرٌ جداً فلم يأبهوا وعاجلوه الهجوم، وملكهم على رأسهم كأنما يريدون وطئه تحت سنابك

---

(١١) أو [انتريگيس Interreges] وهؤلاء هم ضباط يتّم تعيينهم في فترة خلّو الدولة من الموظفين الاجرائيين كما يدل عليه معنى الكلمة اللاتينية المركبة «بين الحاكمين». ويكون واجبهم دعوة الجمعية العامة لانتخاب الحكام الجدد من قناصل وهلم جراً. وقد استحدث المنصب زمن الملكية وبقي في عهد الجمهورية ولم يلغ.

(١٢) بلدة ما بين مدينتي ميلان وپلاچنتيا. قريبة من نقطة اتحاد نهري (ادّا) و(پو) كان الرومان يحاصرونها في حين زحف الغاليون لفك الحصار عنها. لكن ما لبثوا ان تبينوا عجزهم فعبروا نهر الپو بجزء من عسكرهم والقوا الحصار على (كلاستيديوم) لتحويل الضغط وتخفيفه عن اچيري. [پوليبيوس، ليڤي ٢٠:٥٢].

(١٣) يضعها ليڤي في ليگوريا مونتانا.

خيلهم، وهم يهددون بما سيرتكبون من الفظائع والوحشية. عمد [مارچللوس] الى نشر جناحي خيالته وركب الى المشاة ومَدّ في جناحيهم طولاً حتى بلغ جبهة العدوّ، وقد لجأ الى هذا بسبب قلّة جنوده وخوفاً في حركة التفاف يقوم بها العدوّ يستهدف بها الهجوم عليهم من سائر الجهات. وفيما هو يهمّ بالدوران لمواجهة العدوّ، أجفل حصانه لمنظر الغاليين المرعب وصيحاتهم، ونكص على عقبيه مرغماً راكبه على التنحيّ الى جانب، وخشي [مارچللوس] أن يفسرّ جنوده الحادثة تفسيراً سيئاً ويتخذوها فألاً نحساً فتثبط عزائمهم، أسرع يدير حصانه ليواجه العدوّ.

وأتى بحركة بدأ فيها وكأنه يصليّ للشمس وانه لم ينكص دائراً على عقبيه بمحض الصدفة بل لغرض الدعاء. اذ كان من عادة الرومان أن يدوروا على أعقابهم عندما يرفعون الصلاة للآلهة. وفي هذه اللحظة التي كان سيصطدم فيها بالعدو قيل انه نذر خير السلاح [لجوپتر فيريتريوس Jupiter Fertrius].

تطلع ملك الغال الى [مارچللوس] فخمن أنه الجنرال، من شعار السلطة الذي يتقلده فتقدم مسافة عن جيشه المهيأ للالتحام وتحداه للنزال بصوت عال ملوحاً برمحه وهمز جواده فأنطلق به نحوه كالعاصفة، وكان أفرعَ هامةً من سائر الغاليين وابرزهم بدروعه المحلاّة بالذهب والفضّة ومختلف الألوان وهي تلمع كالبرق الخاطف. وبدت هذه الدروع لمارچللوس وهو يستعرض جيش العدوّ المصطف للمعركة، خير دروعٍ وأجملها وحسبها تلك التي نذرها لجوپتر، فأسرع نحو الملك وخرق درع صدره بطعنة رمح ثم أخذ يشدّ عليه بثقل حصانه حتى القاه على الأرض وعاجلهُ بضربتين أو ثلاثٍ أخرى فقتله. وترجل في الحال ووضع يده على سلاح القتيل وشخص ببصره الى السماء، وتكلم بالآتي:

- يا [چوپتر فيريتريوس]، يا حكماً في بطولات القادة، وأعمال الجنرالات في الحرب وفي المعارك، كن شاهداً بأنيّ أنا جنرالٌ، قتلت جنرالاً. أنا قنصل قتلتُ ملكاً بيدي هاتين، فكنت الثالث من الرومان في هذا. واليك أقدّم أوّل وأفضل الغنائم؛ هب لنا القدرة على انهاء بقية هذه الحرب بهذا الحظّ المؤآتي نفسه.

ثم زجّت الخيالة نفسها في المعركة ضدّ فرسان العدوّ ومشاتهم الذين هاجموها ونالوا نصراً فريداً لم يسمع بمثله. إذ لم يحدث من قبل ومن بعد ان هزمت فئة قليلة من الخيالة هذا العدد الكبير من المشاة والفرسان معاً. لقد قتل من العدوّ عدد كثير. وجمعت الغنائم، وعاد [مارچللوس] الى زميله[١٤] الذي كان يدير الحرب بدون توفيقٍ ضدّ العدوّ وبالقرب من

(١٤) في غياب مارچللوس اتمّ زميله سكيپيو الاستيلاء على (اچيري) ثم زحف على ميديولانوم والقى عليها =

[ميلان Milan] أعظم مدن الغاليين وأحفلها بالسكان، وكانت عاصمتهم ولذلك راحوا يدافعون عنها باستمائة وبسالة، حتى بدأ وكأنهم يحاصرون [كورنيليوس] أكثر مما يحاصرهم هو. وبعودة مارچللوس وانسحاب الگيساتي فور سماعهم بمصرع ملكهم واندحار جيشه، انقلبت الآية وتم الاستيلاء على ميلان(١٥). ونزل الغاليون عن بقية بلدانهم وكل ما يملكون طواعيةً. وعقد صلح بين الطرفين بشروط عادلة.

وأعطي [المارچللوس] وحده حق الدخول بموكب النصر بمرسوم صادر من مجلس الشيوخ. وكان الاحتفال فخماً، باذخاً، مدهشاً بغنائم الحرب واجسام الأسرى الجبارة وهم يقادون. إلاّ أن المنظر الأروع والأندر كان الجنرال نفسه وهو يحمل سلاح الملك البربريّ الى الربّ الذي نذرها له. أتخذ عموداً خشبياً طويلاً مستقيماً من البلوط وهذبه وشذبه على هيئة نصبٍ وعلّق عليه دروع الملك والبسه وسلاحه واضعاً كل قطعة منها في مكانها المناسب، وسار به الموكب مهيباً وهو يحمل النّصب وصعد العجلة ودخلّ المدينة ليبدو صورة لأروع نصر، ومشى خلفه الجيش وفق النظام العسكري وهو مزدان بدروع براقة صقيلة. ينشد قصائد نظمت بالمناسبة ويترنم بأغاني الظفرأشادة بمدح چوپتر، وجنرالهم، ثم دخل [مارچللوس] معبد [چوپتر فيريتريوس] وقدم هويته وهو على ما نعلم ثالث من فعل هذا وآخرهم. الأول كان [رومولّوس] بعد قتله [اكرون] ملك [الكينينيّن] والثاني كان [كورنيليوس كوسوس] الذي قتل [طولمنيوس] الاتروسكاني، وثالثهم مارچللوس الذي صرع [بريتومارتوس] ملك الغال، وكان فيه مسك الختام، ان الربّ الذي قدمت له هذه الغنائم يدعى [چوپتر فيريتريوس] ومن الغنائم التي حملت على القطب: Feretrum. وهي إحدى الكلمات اليونانية التي كثر استعمالها في ذلك الزمن في اللغة اللاتينية. أو هي كما يقول بعضهم لقب «چوپتر ذي الرعود» مشتقاً من كلمة «Ferire». أي «الضّرب» وهناك من يقول أنها مشتقة من «الضّربات» التي تكال في القتال. ففي اثناء المعارك حتى يومنا هذا - ينادي المشتبكون في القتال أحدهم الآخر عند ضغطهم على العدوّ: «أضرب» وهي باللاتينية Feri. وبالغنائم يطلقون عليها عموماً اسم Spolia، وبصورة خصوصية: «Opima»، وان يقولوا أن [نوما پومپليوس] ينوّه في تعليقاته بصنف أول وثان وثالث من الغنائم التي يسميها Spolia Opima. ويذكر الصنف الأول الذي يتم أغتنامه موقوف على [چوپتر فيريتريوس] والثاني مخصص [المارس] والثالث لـ[كويرينوس]. وان المكافأة عن الأول ثلاثمائة أسّي Asses، وعن الثاني مائتان وعن ثالث

= الحصار [پوليبيوس المرجع نفسه، ليڤي ٢٠:٥٤].

(١٥) استسلمت كونوم وهي مدينة هامة. وبذلك غدت كل ايطاليا رومانية صرفة من جبال الآلب الى البحر الآيوني.

مائة. والمفهوم العام السائد على كلٍ - هو ان تلكم الغنائم لا تكون «أوپيما» إلاّ اذا وقعت في يد القائد العام أوّل غنيمة في معركة حاسمة وبشرط أن تسلب من القائد العام للعدوّ على أن يُصرع بيد قائد العدوّ.

ارتاح الرومان بالنصر وختام الحرب ايّما ارتياح. وبلغ بهم السرور الى حَدّ ارسالهم دليل امتنانهم من [اپوللو دلفي] كأساً ذهبية زمنتها مائة پاوند على سبيل الهدية ووزعوا جانباً كبيراً من الغنائم على حليفاتهم من المدن. وحرصوا على ارسال عددٍ كبير من الهدايا الى [هيرو Hiroe] ملك السيراقوزيين صديقهم وحليفهم.

لما غزا [هنيبعل] ايطاليا، أرسل [مارچللوس] الى صقلية على رأس عمارة بحرية. ولما هُزم الجيش الروماني البرّي في كاني Cannæ وهلك من جنوده بضعة آلاف، ونجّت القلّة منهم بالفرار الى كاموزيوم Canusium وخشي الجميع أن يقدم هنيبعل على الزحف نحو روما فوراً بعد سحقه الجيش الروماني، وبعث مارچللوس أولاً الفاً وخمسمائةً من جنوده لحماية البلدة ثم سار الى [كانوزيوم] بأمر صدر اليه من مجلس الشيوخ، بعد أن بلغه تجمّع كثير من الجنود الفارين وفلول الجيش المهزوم داخل تلك المدينة، ونجح في سحبهم خارج الاستحكامات وانقاذهم حائلاً دون قيام العدوّ بنهب تلك الانحاء. وكان معظم جنرالية الرومان قد صرعوا في ساحة القتال وفي اثناء المعارك، وارتفعت شكوى الأهالي من طريقة ادارة الحرب، قائلين ان حذر [فابيوس ماكسيموس] المتناهي هو أشبه بالجمود والاحجام، وان كان بُعد نظره وصواب احكامه مما رفعه الى اسمى درجة من التقدير عند المواطنين، وكانت ثقتهم في ابعاد الخطر عنهم لأحدّ لها، الاّ انهم ما كانوا يتوقعون منه أن يردّ الكيل بكيل، ولذلك اتجهوا بافكارهم الى مارسللوس، يحدوهم الأمل في أن تقرن جرأته وعزيمته وفورية اجراءاته بحذر فابيوس وفطنته، وأن يُطعّم أحدهما بالآخر. فراحوا يدفعون بهما الى العدوّ معاً أحياناً بسلطة القنصل القائد لكليهما، وأحياناً بوظيفة [قنصل] لأحدهما، وبمنصب [پروقنصل] للآخر. وذكر [پوسيدونيوس] أن [فابيوس] لُقبّ بدرع روما، ولقبّ [مارچللوس] بسيفها. ومما هو ثابتُ أن هنيبعل أقرّ بأنه يخشى فابيوس كما يخشى معلماً. ويخشى مارچللوس كما يخشى خصماً، يخاف من الأول لئلا يردعه عن خلق تشويشٍ وفوضى، ويخاف الثاني لئلاً يُلحق به أذىً.

في مبدأ الأمر بينما كان جنود هانيبال ثملين بخمرة انتصاراتهم، لا يقيمون ايّ وزن لقوة العدوّ، وقد بلغ اعتدادهم بأنفسهم حداً كبيراً، راح [مارچللوس] يهاجم فصائل السلب المغيرة التي كان يطلقها العدوّ، ويغير على ساقته في المؤخرة فيبيدها واحدة بعد الأخرى، وبهذا كان يُنقص من قوات خصمه شيئاً فشيئاً. ثم قدّم العون الى [النابوليين Neapolitans] وأهالي

[نولا Nola] . فاستقرت أحوال الأولين الذين كانوا مخلصين في حلفهم مع الرومان في الواقع، لكنه وجد النولانيين مختلفين منقسمين على أنفسهم ولم يكن الشيوخ قادرين على ممارسة الحكم ومماشاة العامة، لأن هؤلاء كانوا بصورة عامة منحازين الى جانب هنيبعل. وكان في المدينة شخص يُدعى [بانتيوس Bantius][١٦] وهو رجل مشهود له بالبأس وشرف المحتد، أبلى بلاءً مُرّاً في معركة [كاني] وفتك بعدد كبير من الاعداء، ثم وجد مدفوناً تحت اكداس من جثث القتلى تغطيّ جسده الرماح والأسنّة فجيء به الى هنيبعل فأحتفى به واكرامه غاية الإكرام ولم يكتف باخلاء سبيله دون فدية، بل آخاه واستضافه، فأنقلب نصيراً من أقوى انصار [هنيبعل] عرفاناً منه بجميله الكبير. وأنشأ يحرض الناس للانتقاض على الرومان، وراحت المساعي المبذولة لحمل [مارچللوس] على قتله عبثاً نظراً لما يتمتع به من مكانة وشهرة، ولاحتماله شتىّ الأخطار في القتال الى جانب الروما. وكان مارچللوس شديد الثقة بقدرته على استمالة شخصية كهذه جبلت بمعدن الشرف، بما طبع عليه من مزاجٍ رفيق وسحرٍ وجاذبية في حديثه وفي ذات يوم التقى [ببانتيوس] فحيّاه هذا، فسأله [مارچللوس] متجاهلاً عمن يكون؟ ليس لأنه لا يعرفه، بل ليتخذ من ذلك ذريعة لمجاذبته اطراف الحديث. فأفصح [بانتيوس] عن اسمه وكنيته فافتعل [مارچللوس] الدهشة المشوبة بالسرور والاعجاب[١٧] وقال:

- أفأنت هو [بانتيوس] الذي لهج الرومان بمديحه، وخصوه بثناء فاق ثناءهم على كل من حارب في [كانيّ]، بوصفه البطل الذي ظلّ ملازماً [پاولوس اميليوس] ولم يتخلّ عنه، لا بل تلقّى بصدره الرماح التي كانت موجهة اليه؟

فأقرّ [بانتيوس] بأنه هو بعينه وكشف عن ندوبه. فقال له [مارچللوس]

- فلماذا إذن تشرفني بزيارة عند أول قدومي؛ وتلك هي براهينك على محبتك بنا؟ اترانا نحجم عن ردّ الفضل لمن يستحقونه ولاسيما أولئك الذين أكرمهم اعداؤنا بالذات؟

واتبع مجاملته هذه باهدائه حصان قتال ومبلغاً قدره خمسمائه دراخما. فانقلب [بانتيوس] لساعتها نصيراً من أخلص انصار مارچللوس. ونشط في الكشف عن كل من يعمل على الدّس والفتنة.

وكان هؤلاء الدساسون من الكثرة بحيث دبرّوا مؤامرة واسعة تهدف الى سلب اثقال الجيش الروماني وامتعته حال قيام هؤلاء بحملةٍ على العدوّ، لذلك قام [مارچللوس] بتدابير أمنٍ

---

(١٦) أو بانديوس Bandius.

(١٧) أنظر سيرة [فابيوس ماكسيموس].

وحماية داخل المدينة، ووضع أمتعة الجيش في أمكنة قريبة من ابواب المدينة. وأصدر أمراً رسمياً بحظر أقتراب النُولان من الأسوار. وبهذا لم يعد يُرى سلاح في المدينة من الخارج. وهكذا استدرج هنيبعل للتحرك نحو المدينة بجيشه الذي كان يتخلّله بعض الفوضى، متوهماً أن المدينة تموج بالاضطراب. وعندئذ أمر مارچللوس بفتح أقرب بابٍ وخرج للهجوم بنخبة من خيالته من الامام، وتبعه المشاة بالهجوم من بابٍ ثانٍ[١٨] وهم يصيحون. ثم فتح الباب الثالث اثناء ما كان هنيبعل يصدّ الهجومين بجزء من جيشه، واندفعت منه بقية قوات [مارچللوس]، ووثبوا من جميع الجهات على العدوّ الذي خارت عزائمه بفعل المباغتة وكانت مقاومتهم ضعيفة لمن هاجمهم بالأول بسبب عنف الهجوم التالي عليهم من القوات الأخيرة. وهنا هُزم جنود هنيبعل وطوردوا حتى معسكرهم بعد أن خسروا كثيراً من القتلى والجرحى وهي أول مرة يولون أدبارهم للرومان. وقيل أن أكثر من خمسة آلاف منهم سقطوا صرعى في هذه العملية، بينما لم يتجاوز خسائر الرومان خمسمائة قتيل، على أنّ المؤرخ ليڤي لايؤيّد أنّ نصر الرومان كان كبيراً ولا الخسارة التي مني بها العدو بلغت هذا المبلغ. ومهما يكن فلا جدال في أن هذه المعركة رفعت كثيراً من منزلة مارچللوس وأنعشت معنويات الرومان بعد النكبات السالفة، وأحيت الثقة في أنفسهم بدرجة كبيرة اذ أبدأ الأمل يداعبهم في أن العدوّ الذي يكافحونه من الممكن أن يغلب، وانه عرضة للهزيمة مثلهم.

ولذلك استدعى الرومان [مارچللوس] إثر وفاةِ القنصل الآخر[١٩] ليعملوا على نصبه في محلّه، وتمكنوا رغم معارضة الحكام في ارجاء الانتخابات لحين قدومه[٢٠]، وفعلاً ثمّ انتخابه باجماع الأصوات، ولكن اتفق أن أرعدت الدنيا في تلك الساعة، فأفتى الكهنة العرافون بأن انتخابه لم يكن شرعياً، فهو باطلٌ ألاّ انهم لم يجرأوا على أعلان قرارهم رسمياً، خوفاً من الشعب[٢١]، فنزل [مارچللوس] عن القنصلية من تلقاء نفسه مستبقياً قيادته على كلٍّ، ثم

(١٨) عن هذه الهجمات وأثرها يزودنا ليڤي [١٦:٢٣] بمعلومات متواضعة هي أقرب الى المنطق والمعقول.

(١٩) القنصل المتوفى هو [پوستيموس البنوس] الذي قضى عليه قوم بوئي Boii وكل جيشه البالغ خمسة وعشرين ألفاً داخل غابةٍ واسعة الرحاب يطلق عليها الغاليّون اسم (ليتانا). ويبدو انهم قطعوا كلّ الأشجار القريبة من الطريق الذي كان الجيش الروماني سيسلكه، وبشكل يمكنّهم معه من مباغتة دون أن يتوقع ذلك (ليڤي ٢٤:٢٣). وقد جعل الغاليون من جمجمة القنصل وعاء للشراب يستخدمونها في أعيادهم. وقع ذلم بعد معركة (كاني) بأشهر قليلة.

(٢٠) شك العامة بانه ازيح عن الطريق عمداً بفعل مجلس الشيوخ.

(٢١) كان مارچللوس من الطبقة العامة (الپليبيان) الذين يقال لهم باللاتينية Terra Pilii ابناء الأرض، وكذلك كان القنصل المزامل (سمپرونيوس) ولم يكن الپاتريشي مرتاحين لوجود قنصلين من الطبقة العامة انكرت صحة النبوءة. لكن مارچللوس أظهر نفسه رجلاً حريصاً على النظام الجمهوري فرفض شرفاً لم يجمع عليه المواطنون كافة.

نُصب [پروقنصلاً] وعاد الى مقرّ قيادته في [نولا]. وراح يضيق الخناق على الموالين[٢٢] للقرطاجنيين ولما أقبل هؤلاء مسرعين لنجدتهم أبى مارچللوس قبول تحديهم والدخول في معركة فاصلة، ولكن عندما أرسل هنيبعل جماعات للسلب وزايله كل توقعٍ للقتال[٢٣]، باغته [مارچللوس] بجيشه، وكان قد زوّد جنوده المشاة برماح طويلةٍ مما يستعمل عادة في قتال البحر ودربهم على قذفها بقوةٍ عظيمة الى مسافات مناسبة نحو العدوّ الذي لم يكن لديه اية خبرة بهذا الأسلوب في القذف وتعود القتال بسيوف قصيرة، ملتحماً بعدوه التحام اليد باليد[٢٤]. والمعتقد أن هذا هوّ السبب الذي أدى الى اندحار القرطاجنيين المشاركين في المعركة اندحاراً تاماً وفرارهم أثر ذلك وتركهم خمسة آلاف قتيل[٢٥]، وموت أربعة فيلة وغنيمة اثنين؛ لكن أعظم انتصار له، كان بعد ثلاثة ايام من هذه المعركة، حين أقبل أكثر من ثلاثمائة فارسٍ اسپاني ونوميدي يعلنون انفصالهم[٢٦] عن جيش العدو والانضمام اليه، وهي ضربة موجعة لهنيبعل لم يتلق مثلها حتى ذلك اليوم، فقد عرف دوماً بمقدرته الفائقة في تحقيق الانسجام والوئام بين جيشه البربري المؤلف من أقوام مختلفة ذات طبائع متنافرة، وأفاد مارچللوس وخلفاؤه[٢٧] فبهذه الكتيبة خدماتٍ جليلةً مخلصة في الحروب التالية.

وأختير قنصلاً للمرة الثالثة، وأرسل بحراً الى صقلية[٢٨] لأن نجاح هنيبعل شجع القرطاجنيين على الادعاء بالجزيرة كلها. والسبب الرئيس في ذلك، هو ان الفوضى والاضطراب عمّا سيراقوز بعد قتل [هيرونيموس][٢٩] طاغيتها، فألجأ الرومان في الوقت نفسه الى ارسال قوة برية نحو المدينة بقيادة [ابيوس][٣٠] البريتور. وبينما كان مارچللوس

(٢٢) وهم الهيرپيني Hirpini والسامنيت Samnite. (المرجع السالف ٤٢).

(٢٣) قبل هذا بأربعة ايام كان ثم معركة طاحنة أمام اسوار مدينة (نولا) كادت تكون من الحواسم الفواصل لولا أن حالت العاصفة بين الفريقين فانكفأ بعض عن بعض (المرجع نفسه ٤٤).

(٢٤) كانت سيوف المقاتلين الأقدمين قصيرة بصورة عامة ويشمل ذلك سيوف الرومان والسپارطيين والقرطاجيين والغاليين و... الخ.

(٢٥) وأكثر من هذا. فضلاً عن اسر ستمائة منهم. وخسارة تسعة عشر لواءً. اما الجانب الروماني فلم تزد خسائره عن الألف [ليڤي ٢٣-٤٦].

(٢٦) يجعلهم ليڤي ١٢٧٢، لذلك فمن المحتمل اننا نستطيع قراءة هذه العبارة بزيادة لفظة ألف.

(٢٧) هَزَمَ مارچللوس [هنيبعل] امام تولا للمرة الثالثة. ولو ان كلوديوس نيرو الذي بعث به لمهاجمة القرطاجيين من الخلف وصل في الوقت المناسب لعوّض عن الخسارة التي الحقت به في (كاني).

(٢٨) في ٢١٢ ق.م.

(٢٩) وثب رعية (هيرونيموس) عليه ففتكوا به في [ليونتيوم]. وهذا هو ابن كيلو Gelo وحفيد هيرو. توفي (هيرو) قبل ابيه الذي عَمّر تسعين عاماً. وهيرنيموس الذي لم يتم الخامسة عشرة عند وفاة جدّه، قتل بعد بضعة أشهر. وهذه الوفيات الثلاث وقعت في نهاية السنة السابقة لقنصلية مارچللوس الثالثة (ليڤي ٢٤، ٤-٧).

(٣٠) ارسل [ابيوس كلوديوس] قبل مقتل هيرونيموس.

يستقبل هذه القوة، بادر عدد من الجنود الرومانيين الى القاء انفسهم على قدميه مستعطفين، هذا العمل كان يمتّ بصلةٍ الى النكبة التي سنورد وقائعها فيما يلي:

كان من نتائج معركة [كانيّ] أن عدداً من الجنود نجوا بفرارهم، ووقع عدد آخر في اسر العدوّ. وكانت الخسارة فادحة والعدد كبيراً حتى ظُنّ انه لم يبق ما يكفي من الرومان للدفاع عن سور المدينة.

ومع هذا فقد أبت كبرياء المدينة، ورسوخ عزمها أن تفتدي أسرى الرومان من هنيبعل رغم تفاهة مبلغ الفدية، وصدر قرار من مجلس الشيوخ بحظر ذلك مفضلاً أن يقتلهم العدو أو يبيعهم رقيقاً خارج ايطاليا، كما أمر أن ينفى الى صقلية كل من فرّ ناجياً بنفسه ولا يسمح لهم بالعودة الى ايطاليا حتى نهاية الحرب مع هنيبعل، هؤلاء الفارون المبعدون توجهوا الى مارچللوس فور وصوله صقلية والقوا بانفسهم على قدميه، طالبين منه، بكثير من التوسل والبكاء أن يعيد اليهم شرفهم بقبولهم في الخدمة ووعدوه أن يثبتوا باخلاصهم وتفانيهم وحسن بلائهم في المستقبل بأن الهزيمة التي حلت بهم كانت اليد الطولي فيها الى معاندة الحظّ وليس مبعثها جبنهم. وكان عددهم كبيراً، فأشفق عليهم مارچللوس وعرض مسألتهم على مجلس الشيوخ مقترحاً أن يمنح صلاحية غير مشروطة بزمان أو مكان بقبول تطوعهم وتأليف فرقةٍ منهم. وبعد أخذ وردٍ طويلين، أصدر المجلس قراراً مفاده أنه لايرى خيراً للجمهور في خدمة جنود جبناء. أمّا اذا رأى [مارچللوس] خلاف هذا فلا بأس أن يطوعهم، شريطة الاّ يحظى أحدٌ منهم بايّ تكريم في أية مناسبة، ولا يعطى تاجاً أو جائزة عسكرية أو مكافأة عن اي عمل بطولي أو شجاعة يبديها. وقد حزّ هذا القرار في نفس [مارچللوس] حزاً. حتى انه انبّ مجلس الشيوخ عند عودته الى روما بعد انهاء الحروب الصقليّة. وعاتبهم لأنهم انكروا عليه حرية التصرف في التفريج عن كربة المواطنين العظيمة، وهو الرجل الذي يستأهل الكثير من الجمهورية.

واراد [هيپوقريطس] قائد السيراقوزيين أن يقدم برهاناً على ولائه للقرطاجنيين، ولينصب من نفسه حاكماً مستبداً على البلاد، فعمد الى قتل عدد من الرومان في مدينة [ليونيتني]. فثارت ثائرة [مارچللوس] وحاصر المدينة واستولى عليها عنوةً. ولم يتعرض لأي من سكانها بسوءٍ، إلاّ أنه قبض على الفارين من الجيش، وأوقع بهم عقوبة «العصّي والفأس». فما كان من هيبوقريطس إلاّ ونشر نبأ كاذباً في سيراقوز، زعم فيه أن مارچللوس أعمل السيف في رقاب كل البالغين من سكان المدينة. ثم انه جاء الى سيراقوز التي كانت تضجّ بالويل والثبور وتتلظى سخطاً لما أشيع عن مارچللوس فبادرت الى نصبه سيّداً لها. فتحركّ مارچللوس بكلّ قواته نحو المدينة وعسكر بالقرب من أسوارها وبعث بوفد الى سكانها ليكشفوا لهم عن

حقيقة الأمور في [اليونيتني]، فلم يتوصلوا الى تفاهمٍ لأن السلطة كانت مركزة بيد [هيپوقريطس][٣١] ولا شأن للأهالي بها. فباشر هجومه على المدينة من البرّ ومن البحر. وكان لواء القوات البرية معقوداً [لأپيوس]، أمّا هو، فشرع يهاجم الأسوار من جهة البحر بستين بارجة من ذوات الاطناف الخمسة. وكانت مجهزة بكلّ انواع السلاح والقاذفات وبجسر ضخمٍ من الالواح مركب على ثماني سفن مشدودة بعضها الى بعض، وقد نُصب فوق هذا الجسر آلة المنجنيق لقذف الحجارة والحراب، إضافة الى استعداده الضخم هذا، كان معتمداً على شهرته وماضيه العسكري؛ إلاّ أن هذا كله لم يعد شيئاً مذكوراً امام [ارخميدس Archi-medes] وآلاته، كما سنوضح.

صممت هذه الآلات وركّبت بناءً على طلب ورغبة الملك [هيرو] بوصفها ادوات تسلية وتجريبٍ في علوم الهندسة (جيومطريا)، ولم يقصد بها غايات مهّمة، وتم صنعها قبل زمن وجيزٍ، لأن الملك العالم كان يريد أن يخرج بعض جوانب ابحاثه العلمية العجيبة الى حيز التطبيق العمليّ. ويخضع الحقائق النظرية الى عالم الحسّ، وينزلها الى ميدان العمل، ليستثار اهتمام الناس بهذا العلم ويرتفع تقديرهم له عموماً. وكان [يدوكسوس Eudoxus] و[آرخيتاس Archtas][٣٢] أوّل من عالجا هذا العلم الشريف الجليل القدر، علم الحيل و(الميكانيكا)، واستخدماه تفسيراً رائعاً عجباً للحقائق الهندسة (الجومطرية)، ووسيلة تجريبية لاقناع الحواس والبرهنة العملية على نتائج الشديدة التعقيد، والصعبة على الفهم بمجرد الرسوم والكلمات التي لاتفي بالغرض مهما كانت واضحة فمثلاً كثيراً ما يتطلب لحلّ مسألة من المسائل فرض اشكال هندسية يتعين فيها ابعد الحدّين في التناسب لايجاد أقصر خطين وتشبث هؤلاء الهندسيون بادواتهم، واتخذوا لأغراضهم خطوطاً معينة من منحنيات وقطوع. فأنبرى [افلاطون][٣٣] يندّد بها ويستنكر تعاطيها لأنها «افسادٌ بل قضاء مبرم على علم الهندسة الصالح المجدي، يعزوفها المخجل عن كل ما لا يدخل في عداد المعقولات المجردة حيزاً ومادةً، ولنحوها منحى الحسّ واستنادها التام الى المادة. وهو ما لايتّم تحقيقه إلاّ

---

(٣١) على أثر أغتيال هيرونيموس عاد الحكم جمهورياً. وتمكن كلّ من [ايبوقريطس] و[پيكيدس] وهما عميلان لهنيبعل من أصول صقلية، أن يصبحا پريتورين. وكان نتيجة ذلك أن لجأ الى وسائل لبذر بذور الشقاق بين صقلية وروما دون القاء بال على معارضة زملائهما الباقين الحريصين على مصلحة البلاد.

(٣٢) (افدركسيس) فلكيّ وهندسيّ شهير من [كيندوس]. ويعزى اليه وضع السنة الاغريقية. كتب سيرته [ديوغينس لانيريتوس] اما [ارخيتاس] فقد نبغ في ايام حكم ديونيسيوس الأب قبل حصار سيراقوز باكثر من مائة وستين عاماً.

(٣٣) لا يجد افلاطون شيئاً ذا جدوى في غير ما هو عامل ثقافة. ولذلك نراه لا يقرّ أن يشغل الفيلسوف نفسه في علوم الطبيعة الاّ لتكون مادة للتسلية وتزجية الوقت فحسب.

بخسارة ودناءة». وهذا ما أدّى الى انفصال علم (الحيل) الميكانيكا عن الهندسة، فاهمله الفلاسفة وانكروه وأحتقروه، فاحتل مكانة بين الفنون العسكرية. على أن [ارخميدس] ذكر في رسالته التي كتبها لصديقه وقريبه [هيرو] الملك، انه يمكن رفع وتحريك اي ثقل بالغ ما بلغ اذا توفرت قوة معينة. وقيل لنا أن الأمر بلغ به حَدّ الفخر اذ قال: انه بالاستناد الى قوة مركزة، وفي حالة ووجود ارض أخرى غير ارضنا هذه. فهو يستطيع بالذهاب اليها، أن يرفع هذه الارض من مكانها! فبهت [هيرو] وصُعق وطلب منه أن يبرهن على هذه المسألة بالتجارب، ويثبت كيف يتسنّى لآلة صغيرة الجرم أن ترفع ثقلا عظيماً. فأتخذ ارخميدس سفينة نقل من أحواض الملك موضعاً لتجربته، لا يمكن سحبها الى اليابسة دون استخدام مجهود عدد كبير من الرجال. فأركب فيها المسافرين حتى ضاقت بهم. وملأها بالأمتعة. وابتعد عنها مسافة كبيرة وجلس وامسك برؤوس حبال مشدودة ببكرات وانشأ يسحب عدداً منها بصورة تدريجية فتحركت السفينة اليه وتقدمت سحوية بخطّ مستقيم وبسهولة ويسر كأنما تسير على سطح البحر دون أن يستدعي ذلك منه مجهوداً عظيماً. فعجب الملك غاية العجب وأقتنع بجدوى هذا العلم وسلطانه والحّ على ارخميدس أن يصنع له الآت تصلح لكلّ اغراض الحصار الهجومية والدفاعية، فحقق [ارخميدس] طلبه إلاّ أن الظروف لم تلجئه الى استخدامها لأنه قضىّ جُلّ حياته في سلام ودعةٍ ورخاءٍ. وبقيت تلكم الآلات مهيأة لأستعمال السيراقوزيين ومعها مخترعها وصانعها بشخصه.

وأوّل ما هاجم الرومان الأسوار من جهتين في آن واحدٍ استولى الرعب على السيراقوزيين حتى شلّ حركتهم، إذ خيل لهم الاّ قبل لهم قط بهذه القوات. وهنا بدأ [ارخميدس] يستخدم آلاته، وراح يمطر القوات البريّة بكلّ انواع المقذوفات من الأسلحة وكتل الصخر العظيمة التي كانت تسقط بقوة هائلة وضجيج يصّم الآذان، فلا يقف أمامها أحدٌ إلاّ قضت عليه فصرعت من المهاجمين أكداساً مكدسة. وحطمت صفوفهم تحطيماً غير مستثنية ضابطاً من جندي، ثم برزت من الأسوار في الوقت نفسه - اعمدة في غاية الضخامة والطول، أمتدت الى السفن وأخذت تفرقها بنزولها عليها بقوة هائلة وتحطيمها. أو برفعها في الفضاء بكلابّة(٣٤) حديدية في رأسها تشبه منقار الكروان تنزل الى السفينة وتقبض عليها من قيدومها وترتفع بها

---

(٣٤) الأذى الأعظم الذي حَلّ بالرومان هو آلة حربية على شكل غراب ذي مخليين أو خطافين. مشدود الى سلسلة طويلة تتدلى من أعلى بوساطة عتلة. ان ثقل الحديد يجعلها تهوى بسرعة هائلة فترطم السفن وتحطمها. ويحملها المدافعون رصاصاً من النهاية الثانية ويرفعون الغراب مع القيدوم الذي يمسك به فتميل المؤخرة وتغرق في الماء في عين الوقت ثم يغلب الغُراب قنيصته اي السفينة - بصورة مفاجئة فيسقط القيدوم في البحر بقوة عظيمة وتمتلىء السفينة بالماء وتغرق.

منكوسة ثم تطلعها ليبتلعها البحر. أو كانت تسحب السفن بقوة آلة منصوبة داخل السور فتدور على نفسها ثم تصطدم بصخور الجرف النافرة في أسفل السور، فتتحطم ويهلك من عليها. وكثيراً ما كانت الرافعة ترتفع بالسفينة الى علو كبير في الفضاء(وهو منظر مهول للرائي)، وتهزّها الى أمامٍ وخلفٍ، وتؤرجحها حتى تقذف منها بحارتها ثم تطلقها من حالقٍ لتتحطم فوق الصخور.

أمّا عن الآلة التي جاء بها [مارچللوس] محمولة فوق جسرٍ عائمٍ، فتدعى [سامبوكا -Sam buca] لوجود وجه شبهٍ بينها وبين آلةٍ من الآت الطرب. وفيما كانت تقترب من السور، سقطت عليها كتلة صخرية تزن عشرة تالنتات[٣٥]، ثم ثانية وثالثة تباعاً هوت ظهرها بقوة خارقة وصوت أشبه بهزيم الرعد فقصمت دعائمها وفتّتها تفتيتاً، وقلقلت الاحزمة التي تربطها بالجسر وفصلتها عنه. وأستولت الحيرة على [مارچللوس] ولم يدر اي سبيل يسلك. ثم عمد الى سحب كل سفنه الى مسافة تكون معها بمنجى من تلك الآلات. وأصدر أمراً بالتقهقر العام لجيمع قواته البرية. ثم نفذ خطة أخرى وهو الدنو من الأسوار ليلاً ان امكن، يحدوه ظنّه بأن اقترابهم الشديد من الاسوار سيحمي الجنود من غائلة [ارخميدس] الذي كان يستعمل الاقطاب المحدودة الى مسافات طويلة، في ادارة آلاته. ويكون الجنود في هذه الحالة تحت القاذف وستطير الحراب فوق رؤوسهم ولاتؤثر فيهم، بخروجهم من دائرة التصويب. والظاهر ان [ارخميدس] كان قد احتاط لهذا أيضاً منذ زمن بعيدٍ فصنع آلات توافق اية مسافة. وتناسب المقذوفات ذات المدى القصير. وفتح ما لايحصى من المزاغل الضيقة في الأسوار وراح يوجّه منها للمهاجمين ضربات غير متوقعة بالآت ذات مديات قصيرة. وهكذا بينما كان الأمل يراودهم بنجاح حيلتهم، ما رأوا إلاّ ورشقات من الحراب تنثال عليهم مع مقذوفات أخرى، وعندما بدأت الصخور تهوي على رؤوسهم عمودياً وانطلقت السهام كالمطر من الأسوار كافةً، لم يروا بداً من الانسحاب، وفيما هم يتقهقرون عادت الآلات من النوع الأول تمطرهم بوابل من النشاب والرماح ذات المدى البعيد وأوقعت بهم مقتلة عظيمة. وأخذت سفنهم تصدم إحداها الأخرى بفعل آلاته، وهم عاجزون عن الردّ باي شكل كان. فقد ثبت

---

(٣٥) ليس سهلاً علينا أن نستوعب أو نكوّن فكرة عن عمل آلات ارخميدس وكيف يتمّ لها قذف كتلة صخرية عظيمة زنتها (١٢٥٠) پاوندا على سفن مارچللوس وهن على مسافة كبيرة من الأسوار. ان الشرح الذي يقدمه [پوليبيوس ٨] أقرب الى المعقول هنا. اذ يقرر بان الصخرة التي قذفتها آلات أرخميدس تبلغ زنتها خمس پاوندات ويظهر ان (ليڤي) يتفق معه في هذا. واذا نحن افترضنا بأن پلوتارخ إنما يقصد التالنت الصقلي لا الروماني وهو يزن ٢٥ پاونداً على قول بعضهم و ١٠ پاوندات على قول بعضٍ، فأن زعمه يكون أقرب الى الحقيقة والمعقول.

[ارخميدس] معظم آلاته فيما يلي السور مباشرة من الداخل ولذلك لم يكن بمقدور الرومان مشاهدتها ولا معرفة الجهة التي يأتيهم البلاء منها، بلا رفقٍ ولا نهاية حتى خيل اليهم أنهم لا يقاتلون البشر بل الآلهة.

وكتبت السلامة [لمارچللوس] في هذه المعمعة. وراح يسخر بمهندسيه وصناعه قائلاً:

- ماذا؟ الا سبيل لنا إلاّ أن نكفّ عن قتال هذا الغول الهندسي المتعددّ الايدي [برياريوس: Briareus] الذي يلعب بسفننا لعبة «الرفع والقذف»، ويمطرنا بآلاف مؤلفة من الحراب في كلّ دقيقة! انه لعمري يفوق جبابرة الأساطير ذوي الأيادي المائة!

ومما لا ريب فيه أن السيراقوزيين لم يكونوا غير وعاء لمخترعات [ارخميدس] حلتّ فيه روح واحدة تحرك الجميع وتحكمهم. فنبذوا جانباً كل اسلحةٍ وراحوا يلقون الرعب في نفوس الرومان بهذه الآلات وحدها. وآمنوا لأنفسهم الحماية. ولا نطيل، فقد كان الفرق يستولى على الرومان كلما شاهدوا حبلاً صغيراً أو قطعة خشب تخرج من السور، فيصرخون:

- ها انها تعود ثانية!

متوهمين أن [ارخميدس] يهم باطلاق آلة من آلاته عليهم، فيطلقون سيقانهم للريح لا يلوون على شيء، وكف [مارچللوس] عن القتال والهجمات المتكررة وأودع كلّ آماله في الحصار الطويل الأمد.

على أن [ارخميدس] كان ذات نفس سامية، وروح عميقة، أودعت كنوزاً لاحصر لها من المعارف العلمية، حتى انه لم ير من المناسب أن يترك مذكرات، أو أي كتابة في هذه المواضيع، رغم أن مخترعاته هذه، وضعته في أعلى درجات الشهرة، وفوّقته على كل الحكمة البشرية. فقد انكر صناعة الميكانيكا كلها، وعدّها من العلوم التافهة التي لا جدوى منها وصدّت نفسه عن هذا الفن الذي ليس وراءه الاّ الربح والاستعمال المادي الرخيص. وأوقف كلّ مطمح له وحصر همّه في الابحاث والتتبعات التي تطهرت من كل علاقة بحاجات الحياة الدنيا. وأنصرف الى الدراسات التي لا مجال لإنكار سموّها أو الشكّ في علوّ مقامها إلاّ بدرجة احتواء جمال وعظمة المواضيع المبحوثة على الدقة وقوة الاقناع من ناحية طرائقها ووسائل برهانها. تلك هي الدراسات الجديرة منا بأكثر الاعجاب والاحترام، وفي عالم الهندسة افي الامكان حَلّ مسائل أكثر صعوبة وتعقيداً مما حلّه؟ أو ايجاد تفسيرات أكثر وضوحاً وبساطة من تفسيراته؟ بعضهم يعزو مقدرته الفذة الى (جنيّه) الملازم له. في حين يعزوه بعضهم الى الدأب المتواصل والجهود المدهشة التي بذلها ليصل الى نتائج بدأ ظاهر حالها يسيرة سهلة في

حين يتعذر عليك ان تجد لها اي تعليل أو سبب مهما بذلت من جهد للتحري عنها. ومع هذا فما يقع نظرك عليها حتى يستولى عليك أعتقاد بأن لا شيء يحول دون كشفك عن سرِّها. وهكذا يستدرجك بسبيل ممهّد قصير الى النتيجة المطلوبة، وبهذا لا تعود ترى مخترعاته من قبيل المعجزات أو الخوارق. ولقد شاع قول الناس فيه «إن سحر عروسة بحره [سيرين Siren] الآليفة المحبوبة هذه كانت تنسيه طعامه، وتجعله يهمل نفسه ولايحسّ لها وجوداً حتى انه كان يحمل الى الحمّام قسراً ليُغسل جسمه ويدهن بالزيت وهناك يقوم بمتابعة الاشكال الهندسية في رماد النار، ويرسم مخططات هندسية في الزيت المنتشر على جسمه، وينقلب الى حالة انجذاب تامٍ يصرفه عن عالم المواقع. وبأصدق التعابير يكون في حالة الوحي الآلهي مع حبّه وتعلقه بالعلم. وكانت مكتشفاته عديدة وعجيبة، وقيل انه أوصى اصدقائه والأقربين أن يضعوا على القبر الذي يحوى رفاته، كرة تحتوي على اسطوانه وينقشون هذا «الجسم الذي يغمر في سائل يفقد من وزنه بقدر حجمه فيه»(٣٦).

هكذا كان ارخميدس الذي برز الآن مع مدينته كائنين لايقهران بسعيه ومجهوده. وأستمر الحصار، إلاّ ان مارچللوس استولى في غضون ذلك على [ميغارا] وهي من أوائل المدن التي بناها الاغريق في صقلية، كما أحتل أيضاً معسكر [هيپوقريطس] في أكيلي [Acilæ] وفتك بما يزيد على ثمانية آلاف من رجاله(٣٧)، اذ فاجأهم وهم منصرفون الى اقامة استحكاماتهم. ثم أجتاح قسماً كبيراً من الجزيرة وحقق الغلبة على كلّ من اشتبك معه. وفي اثناء الحصار وقع بيد الرومان لقيديموني يدعى [داميپوس Damippus](٣٨) كان قد رحل عن سيراقوز في

---

(٣٦) أكتشف هذا النصب شيشرون عندما كان يشغل وظيفة الكويستور في صقلية وهو بشكل عمود صغير. عرضه على السيراقوزين فلم يفيدوه بشيء عنه. ويقول هو انه وجد أبياتاً شعرية محفورة عليه تكاد أعجازها تكون متآكلة بفعل الزمن. وكان يبدو فيه – وهو ما تؤيده بقايا الإبيات الشعرية – صورتا الاسطوانة والكرة وهما الشكلان الهندسيان اللذان أكتشف ارخميدس النسبة بين مساحتيهما [انظر شيشرون ٥:٢٣] ويضيف قائلاً انه قبر ارخميدس كاد يختفي تماماً فلا يلفت النظر بسبب العشب الذي نما حوله فغطاه، لولا الجهود التي بذلها الرجل الابيرينوي فأدت الى العثور عليه.

(٣٧) دخل همليكو ميناء هراكليا على رأس اسطول ضخم ارسل من قرطاجنة فأنزل عشرين ألف راجل وثلاثة آلاف خيال وأثني عشر فيلاً. ما ان أكمل الانزال حتى زحف بجيشه هذا على أكركنتم وانتزعها من الرومان مع عدة مدن أخرى كان مارچللوس قد أستولى عليها. عندئذ قررت حامية سيراقوزه التي ظلت سالمة ان تعزز قوات (همليكو) بعشرة آلاف راجل والف وخمسمائة خيال تحت قيادة [هيپوقريطس]. وعاد مارچللوس الى سيراقوزة بعد ان فشل في استعادة اكركنتوم وفيما هو على مقربة من (اكريللي) انتبه فجأة الى (هيپوقريطس) وهو مشغول في تحكيم معسكره فانقض عليه دون ان يدعَ له فرصة تجريد قواته أو تنظيم صفوفه ونثر ثمانية آلاف من مرتباته اشلاءً. [ليڤي ٢٤:٣٥ و ٣٦].

(٣٨) طالباً نجدة من الملك فيليب [ليڤي ٢٥:٢٣].

أحدى السفن، وأظهر السيراقوزيون لهفة شديدة في افتدائه، فجرت لهذا الغرض عدة لقاءات ومداولات بين مارسللوس وبينهم واتيحت له الفرصة خلال ذلك ان يتأمل برجاً من الابراج كان في الامكان أدخال مجموعة من الجنود اليه سراً. وفي غفلة عن العيون. لأن الجدار المجاور له لم يكن صعب المرتقى كما كان العدوّ مهملاً حراسة البرج بشكل يدلّ على عدم الاهتمام، وتردد الى موقعه كثيراً ودرس ارتفاع السور اثناء المداولات حول فدية [داميپوس] حتى تأكد منه وأمر بتهيئة سلالم لتسلقه، وفي يوم ما أحتفل السيراقوزيون بعيد [ديانا] فلما أخذت الخمر مأخذها منهم وانصرفوا تماماً الى اللهو والقصف، تمكن [مارچللوس] من البرج ولكنه لم يكتف بذلك بل ملأ الجدار القريب منه جنوداً قبل أن ينبلج الصبح. ثم شق طريقه الى [الهكساپيلوم Hexapylum]. فانتبه السيراقوزيون من غفلتهم وأقلقتهم الضجّة. وهنا أمر [مارچللوس] بنفخ الأبواق في كل مكان فاستولى عليهم رعب شديد وأطلقوا سيقانهم للريح، وهم يظنون ان الرومان سيطروا على المدينة بأسرها في حين كانت أمنع منطقة فيها واجملها وأكثرها غنىً بعيدة عن متناول المهاجم. هذه المنطقة تعرف باسم [اقرادينا Acradina] ويفصلها عن سائر المدينة الخارجية جدار شاهق وهي تتألف من حيين: [نياپوليس Neapo-lis] و[تايخا Tycha] استولى مارچللوس على هذين، وعبر فجرا [الهكساپيلوم]، فأقبل عليه ضباطه يهنئونه بالنصر[٣٩]، إلاّ انه شخص ببصره الى المدينة الجميلة الممتدة تحته وهو واقف على مرتفع. وقيل أن الألم أبكاه[٤٠] للفاجعة التي توشك أن تحل بها. اذ تمثلت لذهنه صورة المدينة كيف سينقلب شأنها بعد ساعات معدودات، حين يعيث الجنود بها سلباً ونهباً، لم يكن ثم ضابط واحدٌ من كل ضباطه يجرأ على معارضة مطلب الجنود. كان عدد كبير في الواقع بصرّ على اشعال النار فيها. وهدمها حجراً على حجر وتسويتها بالقاع. لكن [مارچللوس] لم يعر أذناً صاغيةً لمثل هذا. وسمح بكثير من الاحجام وهو كاره، ان يكون النهب قاصراً على النقود والعبيد. وأصدر أمراً جازماً بخطر الاعتداء على اي مواطن حُرّ أو قتل أو استرقاق أو اذية أي سيراقوزي. ومع كل لينه هذا، فقد ظلّ يرى ان حالة المدينة تدعو الى الرثاء حقاً. ولم يكتم مشاعره القوية وهو في بحران التهاني والفرح. وعبر عن حزنه واشفاقه عندما شاهد كل تلك النفائس ومظاهر الترف التى جمعت بعضاً على بعضٍ في حقبة طويلة من سنوات الرخاء والاستقرار، تغدو خلال ساعة واحدة فقط فهي أثر بعد عين فقد ذكر

---

(٣٩) دخل مدينة [ايپپولى] ليلاً، ودخل [تيخه] صباح اليوم التالي وكان يحيط بالأولى سورٌ هو صورة طبق الأصل من سور اورتيكيا والاخرادينا وتيخه ونياپوليس لكنها أمتازت عن البقية بقلعتها المسماة يوريالنوم وهي مقامة على صخرة كبيرة ذات جوانب شديدة الانحدار. لتبدو وكأنها مدينة قائمة بذاتها.

(٤٠) ليڤي ٢٥:٢٤].

ان ما نهب منها لم يكن باقل مما نهب من قرطاجنة[٤١] فيما بعد. اذ ما عتم الجنود ان حصلوا على أمرٍ بنهب الاحياء الأخرى من مدينة التي تمّ الاستيلاء عليها بالخديعة. ولم يتركوا شيئاً إلاّ أخذوه الاّ اموال الملك فقد حُملت الى بيت المال، ولم يحزن [مارچللوس] لشيئ قدر ما احزنه قتل [ارخميدس]. فقد شاءت الأقدار ان يكون منصرفاً وقتئذ، الى الاشتغال بمسألةٍ في شكل هندسي مركزاً ذهنه وعينيه في موضوع شغله فلم ينتبه الى هجوم الرومان واقتحامهم المدينة. وفي حالة لاوعيه هذا دنا منه جنديّ على غير انتظار وأمره ان يتبعه الى مارچللوس، فأبى إلاّ بعد اهتدائه الى حَلّ للمسألة التي يفكر فيها، فثار بالجندي الغضب وانتضى سيفه وعاجله بطعنة نجلاء. وكتب آخرون أن جندياً رومانيا أسرع نحوه مشهراً سيفه يريد قتله فالتفت اليه [ارخميدس] واستأذنه متوسلاً بان يمسك يده عنه ريثما ينتهي بما بين يديه من مسئلة الى حَلّ ونتيجة. إلاّ ان الجندي قتله حالاً دون أن ينيله رجاءه. وحدثنا آخرون أن [ارخميدس] وهو يقصد [مارچللوس] التقى ببعض الجنود حاملاً ادوات حاسبة ومزولات، وزوايا وكُرات وهي ما يقاس به حجم الشمس بالنظر المجرد، فظنوه يحمل ذهباً في اوعية فقتلوه. ومن الثابت أن موته كان شديد الوقع على مارسللوس وظلّ يعد الجندي الذي فتك به مجرماً قاتلاً. وأستدعى اقرباء العالم وذويه وأجزل لهم الهبات ووصلهم بكثير من المال.

كانت الشعوب والحق يقال، تعتبر الرومان من حيزة الجنود في ساحات القتال. لكن لم يشتهر عنهم في ذلك الحين ما يكشف فيهم عن انسانية وتهذيب ورقة قلب، والظاهر ان مارچللوس كان أوّل روماني أظهر للاغريق حرص بني قومه على العدل والقسط. فقد بات تساهله ولينه مما يضرب به الأمثال تجاه اي من كانت له صلة به وعطفه الكبير على المدن الكثيرة والاشخاص، حتى اذا أصدر أمراً فيه صرامة أو قسوة بحق أهل [امنا Emna] أو [ميغارا] أو [سيراقوز] فيجب ان ينصرف الذهن حتماً الى لوم من هبت عليه العاصفة، لا من ارسلها. وسأورد مثلاً واحداً من عدة أمثلة:

في صقلية بلدة تدعى [انجيوم Engyum] ليست كبيرة ولكنها عتيقة تتمتع بمنزلة محترمة بوجود معبدٍ لربّات يسميّن «الأمهات»[٤٢] ويقال ان الكريتيين هم الذين بنوه، إلاّ ان أهاليها يعرضون بعض الحراب وخوذ الحرب، نقش عليها اسماً [مريونيس Meriones] (تهجئته اليونانية لا تختلف عن اللاتينية) و[يوليسيس] اللذين قدماها هدية للربّات، ومهما يكن،

(٤١) دام حصار سيراقوزه ثلاث سنوات كوامل. وپلوتارخ لم يورد تفاصيل عما جرى خلال تلك الفترة. وما تلاها اي بعد اقتحام المدينة، ولكن ثم وصفاً دقيقاً مسهباً يقدمه لنا ليفي ٢٥ : ١٣ – ٣١].

(٤٢) المقصود: كيبيله، جونو، كيريس. وينوه شيشرون هم وجود معبد للأولى في انجيوم فحسب [٤:٤٤].

فهذه البلدة انتصرت للقرطاجنيين وعدّ أهلها من أخلص اشياعهم. ونصحهم [نيسياس] وهو أبرز مواطن فيها أن يعدلوا عن ذلك ويعلنوا ولاءهم للرومان، وبشرّ برأيه في خطبه وإجتماعاتهم ووصف سبيلهم الأولى بالجنون والخرق. فقرروا القاء القبض عليه وتسليمه للقرطاجنيين موثقاً، خشية نفوذه وتأثيره على النفوس. فادرك نيتهم المبيتة. ولما وجد الرقابة قد أحكمت عليه راح يجذفّ على [الامهات] ويقذفهّن بهجر القول، وأظهر استحقاره لهنّ وبدأ كالناكر الجاحد للرأي المتواتر بوجود هاته الراهبات. فطرب خصومه لما حَلّ به وايقنوا انه كالساعي الى حتفه بظلفه أو كالباحث عن خرابه المعلق فوق رأسه وفيما كانوا في سبيل الامساك به عقد اجتماع عام، فقام [نيسياس] لالقاء خطبة على الناس تتعلق بأحد المواضيع التي يجرى البحث فيها، وفيما هو مسترسل، توقف فجأة والقى بنفسه على الأرض - ثم أسرع بالنهوض والناس مذهولون، لا يأتون حراكاً. (كما يحصل عادة على أثر مثل هذه المفاجأت) ودار برأسه وأستأنف الكلام بصوت راعش ونبرة عميقة أخذ يرفعها بالتدريج حتى وصل حَدّ الزعيق. ولما ايقن ان كل من في الملعب قد صعقه الرعب والجمه، ألقى بمعطفه جانباً وشق ثوبه ووثب مسرعاً نحو الباب وهو شبه عارٍ يصرخ قائلاً ان «الأمهات» يدفعنه خارجاً. ولم يجرأ انسان أن يضع يده عليه أو يوقفه، تزمناً وخشوعاً دينياً، بل أفسحوا له الى الباب، فأسرع غير باخلٍ عليهم بأيّ صرخة أو حركة تجعله من صنف المجاذيب أو المجانين. وكانت زوجه على علمٍ بما يفتعله وما هو غرضه. فأخذت أولادها وقصدت أولاً معبد [الربّات] وانطرحت متوسّلة، ثم تظاهرت ببحثها زوجها الذي هام على وجهه فلم يعترضها أحد وهكذا خرجت من المدينة بسلام ووصلت الأسرة كلها الى [مارچللوس] في سيراقوز، ولما ازدادت الإهانات من أهل [انجيوم] وكثر تطاولهم على [مارچللوس] القى القبض على رجالها وكبلهم بالاغلال، وأوشك أن ينفذ فيهم القصاص الاكبر أنبرى [نيسياس] ملقياً بنفسه على قدميه والدموع تنحدر من عينيه، راجياً العفو عن بني قومه، وأشتدّ في رجائه حياتهم لاسيما خصومه منهم حتى رقّ [مارچللوس] وأطلق الجميع ومنح [نسياس] ضياعاً واسعة ونفائس من الصلات والجوائز. هذه الرواية اوردها [پوسيدونيوس] الفيلسوف.

أخيراً، أستدعى الشعب [مارچللوس] الى روما[٤٣] لادارة دفة الحرب في أرض الوطن. فحمل معه مقداراً كبيراً من أجمل آثار سيراقوز الفنيّة، يريد أن يزيد من موكب نصره روعة وجلالاً، ويزين عاصمة بلاده بها. كانت روما عاطلةً عن مثل هذه الآثار الفنية والزخارف

---

(٤٣) حقق انتصاراً كبيراً على [اپيكيدس وهانو] قبل عودته الى روما واهلك فيه عدداً كبيراً واستولى على أسرى كثيرين وغنم ثمانية من الفيلة [ليڤي ٢٥:٤٠].

الرائعة ولم تكن تتذوق منتوج الفنانين أو تبتهج بالنظر اليه مهما كان صنعه دقيقاً. لقد اتخمت بأسلحة البرابرة والغنائم الحربية التي تلطخها الدماء، وهي ليست بالمنظر الذي يشرح الخاطر ويّسر العين. ويفتح قلب المتفرج المهذب الوديع المسالم. فكما سمىّ اپامنناس حقول [بويوتيا] «بمرسح مارس»، وكما أطلق [كزينفون] على [أفسّس] اسم «مصنع الحرب»، كذلك يصّح في رأيي أن تسميّ روما ذلك العهد بعبارة الشاعر [پندار] «مقرّ مارس الذي لا يعرف سلاماً» ولذلك أحبّ الشعب [مارچللوس] لأنه زيّن المدينة بآثار مؤتلقة أنيقة فيها سحر كلّ التناسق والرشاقة الاغريقية، على أن [فابيوس ماكسيموس] الذي لم يمسّ شيئاً من آثار [تارنتوم] عند استيلائه عليها، ولم ينقل منها حجراً الى روما، كان موضع إكبار ورضى من كبار السنّ، أكثر من [مارچللوس]، لقد أكتفى بأخذ النقود والحاجات الثمينة ولم يسمح بنقل التماثيل. متعللا بقوله [كما قيل لنا]: «الا فلنترك للتارنتيين هذه الآلهة الساخطة».

وعتبوا على [مارچللوس] أولاً لأنه وضع روما موضع المتطاول اذ جعلها تبدو وكأنها تحتفل بانتصارات وتحيّ مواكب ظفرٍ نالتها لا من بني البشر وحدهم بل من الآلهة أيضاً بعرضها تماثيلها كالأسرى.

أما اللوم الآخر الموجه له، فهو صرف اتجاه الشعب الى التعطّل والهاؤه بعبث الكلام حول الفنون الجميلة والفنانين. وهو الذي نشأ على الحرب والفلاحة ولم يتذوق طعم الترف والنعيم كما وصف يورپيدس هرقل:

«انه فظّ خشن، لا يصلح الاّ لعظائم الأمور».

وانقلبوا ليبددوا جُلّ أوقاتهم في تفقدّ وانتقاد التوافه من الأشياء. وبصرف النظر عن لوم [مارچللوس] في هذا المجال، فانه رفع من قدر الاغريق أنفسهم بتعليمه بني قومه الجهلة احترام نتاجهم العجيب الجميل وتقديرهم له.

وعندما عارض خصومه في دخوله بموكب الظفر بحجة وجود بقية حربٍ في صقلية، ولأن منحه موكباً ثالثاً قد يزيد من الحاقدين عليه، بادر هو الى صرف النظر عنه مكتفياً باحتفاله بالنصر فوق جبل [ألبان Alban]، ثم دخل المدينة «بمهرجان شعبي» وهو ما يطلق عليه باللاتينية «Ovation» وباليونانية «eua». ولم يركب في هذا المهرجان عجلة ولم يكلّل بالغار، ولم يعلن دخوله بنفخ الابواق، وانما دخل ماشياً منتعلاً حذاءه، وانطلقت أصوات عددٍ كبير من من النايات والسرنايات في وقت واحدٍ، وكان وهو مطوق بقلائد اللبلاب بمظهر سلميّ يثير في النفوس احتراماً وحبّاً أكثر من الخوف. وهو ما يجعلني استنتج ان الاختلاف بين

«المهرجان الشعبي» وبين موكب النصر لا يعتمد على عظمة العمل بل على أسلوب انجازه. فأولئك الذين خاضوا معركة طاحنة وفتكوا بكثير من الاعداء وعادوا منتصرين، حقّ لهم ان يتقدموا ذلك الموكب العسكري المرعب. ثم أن العادة المتبعة آنذاك قضت بتطهير الجيش كله عن طريق تقديم القرابين، وبتزيين الجنود وأسلحتهم بكثير من نبات الغار. أمّا أولئك القادة الذين انجزوا ما كلفوا به عن طريق المفاوضة والمنطق دون استخدام أية قوة فان العرف كان يقضي بمنحهم شرف «المهرجان الشعبي الحافل» الخالي من المظاهر العسكرية. فالناي هو شعار السلام، واللبلاب هو نبتة [ڤينوس]، تلك الربّة التي تبغض القوة والحرب أكثر من كل الآلهة الآخرين. وكلمة Ovation ليست مأخوذة في اللفظة اليونانية «إڤاسموس Evasmus» كما تظنّ الأغلبية بسبب ما يتخلل المهرجان من هتاف وصياح بكلمة «إيڤا !Eua» فهذا ما يسمع أيضاً في مواكب النصر. لقد ادخل اليونانيون هذه الكلمة الى لغتهم مصحفةً، لتوهمهم أن هذا التكريم لابّد وان يكون له بعض علاقة هو الآخر [بباخوس] الذي يلقبه اليونانيون [ايبوس Euius] و[ثريامبوس Thriambus]. على أن الأمر خلاف ذلك، فقد جرت العادة في مواكب النصر ان يضحي القادة بثورٍ، وفي المهرجانات الشعبية ان يضحوا بشاةٍ ومن هنا جاءت لفظة «Ovation» المأخوذة من الكلمة اللاتينية «أوڤيس Ovis». والشيء بالشيء يذكر أن قرابين السپارطين المشرعة قانوناً، كانت بعكس العادة الرومانية، فالعسكرى اللقيديموني الذي ينجز ما كلف به بالدهاء والمكر أو بالتفاهم والطيبة يقوم بتضحية ثور عند تنحيه عن قيادته، واما اذا انجز مهمته بطريق القوة والحرب، فانه يضحيّ بديكٍ. من هذا ترى ان اللقيديمونيين - رغم كونهم شبّوا على الحرب وشابوا، يعتبرون المهمة التي تنجز بالحكمة والعقل أليق بمقام الرجل وأشرف له من استخدام قوته وشجاعته المجردتين. وأني لأترك الحكم لغيري في أفضلية هاتين الطريقتين.

وانتخب [مارچللوس] قنصلاً للمرة الرابعة، فقام السيراقوزيون بتحريض خصومه، يلفقون تهمةً عليه ويعرضون شكواهم في روما، وزعموا فيها انهم لاقوا اضطهاداً وأذىً على يده خلافاً للعهد الممنوح لهم(٤٤). وأتفق أن مارچللوس كان وقت تقديم الشكوى، في الكاپتول يُقدّم قرباناً. فمكث في المجلس ليتيح لهم فرصة عرض الشكوى والظلامة وحاول زميل [مارچللوس] صرفهم ليحمي زميله في غيابه، لكن أقبل حال سماعه بالأمر وجلس على

(٤٤) ما ان أستقر المقام بالسيراقوزيين في روما. حتى بدء القنصلان بسحب القرعة على توزيع الاقاليم بينهما. ووقعت (صقلية) من سهم مارچللوس فكانت ضربة شديدة وقعت على هؤلاء المندوبين ولم يجرؤا على الاحتجاج والتظلّم لو لم يعرض مارچللوس استبدال صقلية باقليم آخر [ليڤي ٢٦: ٢٩ و ٣٠].

كرسي الرئاسة وبدأ أولاً يعرض على المجلس المسائل العاجلة والشؤون الأخرى لتصريفها. وما انتهى من ذلك حتى ترك معقده ويمّ شطر المحلّ المخصص للمتهمين عند تقديم دفاعهم، كأي شخصٍ عاديّ. وافسح الحرية التامة للسيراقوزيين حتى يدلوا بشكاواهم. فوهت عزائمهم من موقفه الجليل ومن فرط ثقته بنفسه وتسمّروا في الأرض مذهولين وبدأ تأثير وجوده في المجلس وهو مرتدٍ ثوب السلطة أشدّ مهابة وصرامة وهو في دروعه وشكة سلاحه على أنهم باشروا بتعداد التهم حين وجدوا تشجيعاً وتحريضاً من خصومه. والقوا خطبةً مزجوا فيها التهم القضائية بظلاماتهم وشكاواهم، قالوا أنهم ذاقوا على يده ما احجم قادة آخرون من ايقاعه باعدائهم، مع كونهم حلفاء وأصدقاء للرومان، فردّ عليهم [مارچللوس][٤٥] ان السيراقوزيين ارتكبوا أعمال عدوان كثيرة ضد شعب روما. وانهم لم يعانوا شيئاً يزيد عمّا لا مفر للعدو المغلوب الأسير من تذوقه. وانهم جنوا على أنفسهم وأنّ أعمالهم هي التي جعلتهم يرسفون في أغلال الأسر لأنهم رفضوا الانصياع الى محاولات الاقناع بالحسنى واللين التي بذلها كثيراً، وهذه الحرب التي شنوها لم يرغمهم عليها الطغاة أبداً، وأنما عمدوا الى خلق طغاةٍ لغرض اثارة الحرب فحسب. ثم ختمت الخطب. وغادر المشتكون قاعة المجلس كما يقضي به العرف. كما ترك [مارچللوس] زملاءه منسحباً مع السيراقوزيين، وبقي خارج الباب ينتظر قرار الحكم[٤٦]. ولم يبد عليه انشغال بالٍ من التهم، ولا سخطٌ من متهميه. بل ظلّ ينتظر النتيجة بهدوءٍ تام ووقارٍ. أخيراً توصل المجلس الى قرار اجماعيّ صدر بموجبه مرسوم يقضي بجبّ كل التهم عن [مارچللوس][٤٧] والإشادة بافعاله، وبراءته.

فإلقى السيراقوزيون بأنفسهم على قدميه وعيونهم مخضلّة بالدموع، يرجون صفحه وغفرانه عن الحاضرين، وعطفه على شقاء سائر أهل المدينة وسيبقون دائماً أبداً أسرى فضله شاكرين. فرن لهم قلبه ولان لدموعهم وآلامهم ولم يكتف بصفحه عن الوفد بل وعدهم خيراً وظلّ أبداً ينتهز الفرص ليخص السيراقوزيين بالتفاته ويشملهم بعطفه. وايدّ مجلس الشيوخ استقلالهم

(٤٥) عندما فرغ السيراقوزيون من عرض اتهاماتهم ضد مارچللوس أمرهم زميله القنصل ليڤنيوس Lavinus بالانسحاب. إلاّ ان مارچللوس أصرّ على ان يبقوا ليسمعوا دفاعه.

(٤٦) في اثناء ما كان القضاة يتداولون في الحكم. خرج هو الى الكابتول لتسجيل اسماء المجندين الجدد [ليڤي المرجع نفسه ٣١ و ٣٢].

(٤٧) لم يحض سلوك مارچللوس بالموافقة التامة من مجلس الشيوخ حين استيلائه على سيراقوز. فبعض الاعضاء أخذ يتذكر التعلق الشديد بالجمهورية الذي عبّر عنه (هيرو) في كثير من المناسبات ولم يسعهم إلاّ أن ينحوا باللائمة على جنرالهم الذي استباح المدينة. ولم يكن السيراقوزيون في وضع يستطيعون به أظهار شعورهم الحقيقي حيال وجود جيش من المرتزقة بين ظهرانيهم فأضطروا للنزول عند حكم الظروف واطاعة أوامر ضباط (هنيبعل) الذين كانوا يسيطرون على سائر قطعات الجيش.

وحريتهم التي أعيدت اليهم، وأقرّ حقوقهم وقوانينهم وثبت لهم ما بقي من ممتلكاتهم الخاصّة. ورداً لهذا الجميل أصدر السيراقوزيون قانوناً ينصّ على أن يطوق المواطنون اعناقهم بقلائد الزهر ويقدموا القرابين للآلهة كلما وطئت قدم [مارچللوس] أو واحد من ذريته، فضلاً عن ضروب أخرى من التكريم.

بعد هذا، تحرّك [مارچللوس] نحو [هانيبل]. كاد كل قناصل الرومان وجنرالاتهم منذ هزيمة [كانيّ] يطبقون خطة واحدة ضدّ هنيبعل لم يحيدوا عنها أبداً وهي اجتناب الالتحام معه في معركة كيفما كان. ولم يجد أحد منهم شجاعة كافية تدفعه الى الاشتباك معه في قتال، وتحكيم السيف وحده. إلاّ أن [مارچللوس] تبنىّ الخطة المعاكسة. فقد رأى ان ايطاليا سيحيق بها البوار بالتأخير الذي أملوا منه انهاك [هنيبعل]. وكان [فابيوس] الذي تمسكّ بسياسة الحذر، ينتظر أن تنطفيء نار الحرب من تلقاء نفسها في حين كانت حال روما تتردّى وتسوء باطراد. ويأبى الأخذ بهذا السبيل الصحيح لعلاج داء البلاد، فموقفه يشبه موقف الطبيب المتردد الذي يخشى أعطاء الدواء لمريضه، ويبقى منتظراً مؤمناً أن ضعف قوى المريض وانتكاسته هو ضعف المرض وزواله.

وكانت حصيلة خطّة [مارچللوس] الأولى، سيطرته على مدن السّامنيين Samnites الكبيرة التي انتقضت على العدوّ، ووجد فيها مقادير كبيرة من القمح والأموال، وثلاثة آلاف جندي قرطاجنّي تركهم هنيبعل فيها لأغراض الدفاع. ثم على أثر مقتل البروقنصل [كنيوس فلوڤيرس Canæus Fluvius] وأحد عشر تريبيوناً (مفوضاً) عسكرياً وابادة معظم الجيش الذي يقوده. في [ابوليا Apulia]، بعث [مارچللوس] برسائل الى روما يطلب فيها من الشعب ان يتحلّى بالصبر والشجاعة، لأنه سيزحف فوراً للاصطدام بهنيبعل ليقلب نصره مأتماً[٤٨]. ويحدثنا [ليڤي] انه عندما قُرئت رسائله لم تحدث الأثر المأمول ولم ترفع من معنويات الشعب، وانما هبطت بها كثيراً. فقد تبينوا فراحة الخطب لأن [مارچللوس] كان في نظرهم اثمن من [فلوڤيوس]. ولكن هذا ما كان قد قرره وتقدم نحو بلاد اللوكانيين. والتقى بخصمه في [نوميسترو] وكان قد سبقه الى احتلال المرتفعات، فضرب خيامه في السهل المنبسط وفي اليوم التالي وضع فرقه في نسق المعركة فقبل [هنيبعل] التحديّ والتحم الجمعان واستمر القتال سجالاً بين الفريقين دون أن يستظهر أحدهما، وأقبل الليل ففصلهم مرغمين. ولم تكد تبزغ شمس اليوم التالي الا وجيش [مارچللوس] متأهب الاستئناف القتال. وقد خرج من معسكره، ونشر صفوفه بين جثث قتلى الأمس يتحدى هنيبعل لانهاء النزاع بمعركة أخرى،

(٤٨) في الساعة التاسعة صباحاً.

فأبى التحدي وانسحب بجيشه، حتى أسرع الى اللحاق به. وكان في كل الاشتباكات الموضعيّة، والتعرضات الجانبية التي حصلت اثناء المطاردة، هو الجانب المتفوق ابداً، مما زاد من شهرته كثيراً، حتى انه لما أزف موعد عقد الكوميتيا Comitia في روما فضّل مجلس الشيوخ استدعاء القنصل الثاني من صقلية[٤٩]، على سحب [مارچللوس] من جبهة القتال. ولما وصل زميله طُلب منه أن يعين [كوينتوس فلوڤيوس] بمنصب الدكتاتور، لأن الدكتاتور لا يعينه الشعب أو مجلس الشيوخ بل القنصل الپريتور بحضور الجمعيّة العموميّة أذ يسمّي مرشحه الذي يختار ويقلده المنصب علنا. ومن هنا جاء لقبه «دكتاتور»، فهو من لفظة «ديكيري Decere» اي «تسمية». ويقول آخرون إنه ما سميّ دكتاتوراً إلا لأن كلمته هي بحكم القانون، وأن أوامره التي يصدرها لاتوضع في التصويت، ولذلك كان الرومان يسمّون قرارات الحكّام «اديكت Edict».

كان زميل [مارچللوس] القادم من صقلية، يريد تعيين رجل آخر لهذا المنصب[٥٠]، ولم يكن ليرضى بالتحول عن رأيه مرغماً، فغادر روما ليلاً عائداً الى صقلية. فما كان من عامة الشعب إلا أن أصدر قراراً إجماعاً باختيار [كونيتوس فلوڤيوس] وأرسل مجلس الشيوخ رسولاً عاجلاً الى [مارچللوس] يأمره بتسمية مرشح الشعب، فأطاع وأعلنه دكتاتوراً حسب رغبة الشعب، مستبقياً منصب الپروقنصل لنفسه مدة سنة أخرى. ثم أتفق مع [فابيوس ماكسيموس] بأن يضرب الحصار على [تارنتوم] بينما يقوم هو باستدراج هنيبعل ومشاغلته لتعويقه عن نجدة المدينة. وهكذا ادركه في [كانوزيوم] وحاول الالتحام به الاّ ان [هنيبعل] راح يروغ منه ويرفض الدخول معه في معركة بكثرة تغييره لمعسكره، الى أن باغته وهو يعسكر فأستفزه باشتباكات خفيفة موضعية حتى جرّه جراً الى معركة طاحنة، لكن الليل حاجزهما والقتال على أشدّه. وفي اليوم التالي خرج مارچللوس للقتال ونشر عسكره بنسق الهجوم، وهنا أمر [هنيبعل] باجتماع عام للقوات القرطاجنيّة وقام يخطب فيهم وقد اثقله الهمّ، راجياً بحرارةٍ أن يقاتلوا قتالاً جديراً بانتصاراتهم الماضية ومما جاء فيها «انتم ترون كيف تعزّ علينا الراحة، وكيف يحال بيننا وبين الاستجمام بعد كلّ الانتصارات التي احرزناها. لا سبيل لنا الى ذلك إلاّ اذا الحقنا الهزيمة بهذا الرجل».

(٤٩) بناء على اقتراح مارچللوس نفسه الذي شرح لهم كتابةً أهمية استمراره في الضغط على هنيبعل. ولهذا قام مجلس الشيوخ باستدعاء [ليڤينيوس] [ليڤي ٤٧:٤].

(٥٠) كان [ليڤينيوس] يرغب في تسمية [ماركوس ڤاليريوس ميسّالا] دكتاتوراً. ولما ترك روما فجأة موصياً نائبه الپرينور بان لا يرشح [فلوڤيوس] قام تريبيونات الشعب بالاضطلاع بالمسؤولية. وحمل المجلس مارچللوس على مصادقة الترشيح [ليڤي المرجع نفسه].

ثم التقى الجيشان في قتال مُرّ عنيف. وأتى [مارچللوس] بحركة تعبوية غير مناسبة أدت الى ارتكابه خطأ[٥١]: كانت الميمنة ترزح تحت ضغط شديد فأمر أحدى فرقة الاحتياط بأن تتقدم الى خطّ القتال. هذه الحركة أحدثت خللاً في صفوف الفرق المقاتلة وترتيبها الهجومي، ودفعت بالنصر الى يد العدوّ، وسقط ألفان وسبعمائة من الرومان. فأنسحب [مارچللوس] الى معسكره وجمع الجنود وخطب فيهم. ومما قاله:

- اني أرى كثيراً من جثث الرومان وسلاحهم، ولا أرى رومانيا واحداً.

ورفض رفضاً قاطعاً أن يقبل رجاءهم بالصفح عنهم، طالما هم مغلوبون، إلاّ انه وعدهم بالصفح عند انتصارهم. وقرر أن يخرج بهم الى الميدان في اليوم التالي، لتصل انباء انتصارهم فيها الى روما قبل وصول انباء هزيمة الأمس. ثم أمرهم بالانصراف، وأشار بتوزيع جراية شعير عوضاً عن القمح[٥٢] على كل الوحدات التي أولت ظهرها للعدوّ. فكان لهذا التقريع وقع أليم في نفوس الجنود، وقيل أنه رغم اصابة أغلبيتهم بجراح بليغة فلم يكن بينهم أحد إلاّ وشعر أن خطبة الجنرال أشد ألماً له من جراحه نفسها.

وانبلج الصبح وارتفع الوشاح القرمزي على خيمة القائد، اشارة للقتال الفوري. وطلبت السرايا التي وصمت بالجبن وسوء التصرف أن يكون ترتيبها في الصف الأمامي، فنالت مبتغاها، ثم قدّم التريبيونات العسكريون بقية القطعات ووضعوها في نسق الهجوم، ولما أبلغ [هنيبعل] بتهيؤ العدوّ هتف قائلاً:

- ياللعجب! ما حيلتنا بهذا الرجل الذي لا قبل له بتحمل حسن الحظّ ولا بسوئه؟ انه الرجل الوحيد الذي لايدعنا في راحة عندما يكون منتصراً، ولايدع نفسه ترتاح عندما يصاب بهزيمة. ويبدو إلاّ مناص لنا من قتاله أبداً. فالثقة التي يبثها نجاحه الباهر في نفسه، تدفعه الى البحث عن مغامرة أخرى كذلك عاره لفشل ذريع اصيب به يدفعه الى مغامرة مماثلة.

ثم اشتبك الجيشان. وظلت النتيجة غامضة. فأمر [هنيبعل] بنقل الفيلة الى اللواء الأول المتقدم وأنْ تساق نحو وحدات الرومان الأمامية، فتم ذلك وأحدث اندفاعها ووطئها كثيراً من الجنود فوضى خطيرة في صفوف الرومان فأسرع التريبيون العسكري [فلاڤيوس] يختطف رايةً

---

(٥١) لم تكن الحركة غير معقولة. لكن أُسيء تنفيذها. ويقول ليڤي ان الميمنة تراجعت باسرع مما كان يجب عليها وان الفرقة الثامنة عشرة التي أُمرت بالتقدم من المؤخرة الى الطليعة كانت حركتها بطيئة جداً وهذا ما خلق فوضى.

(٥٢) تلك هي العقوبة الشاملة. والى جانب هذا أمر ضباط السرايا ان يظلوا اليوم بطوله ممتشقي السيوف بدون احزمة [المرجع نفسه ١٣].

من يد حاملها. وتقدم من أحد الفيلة واصابه بجرح من السنان المثبت في عقب قناة الراية، وحمله على الفرار. وباصابته بطعنة ثانية استدار وانسحب وتبعته الفيلة الأخرى، وبمشاهدة [مارچللوس] ذلك أسرع يدفع خيالته بهجوم عنيف عليها وعلى العدوّ خلفها. ففرت وأوقعت الخلل في صفوف القرطاجنيين. وأستمرت الخيالة تشد شداً عنيفاً وراحت تطارد العدوّ حتى دفعت به الى معسكره هارباً. والفيلة تصول وتجول فيهم وتهلك منهم الكثير. وقيل ان عدد قتلاهم أناف على ثمانية آلاف. ووقع من الرومان ثلاثة آلاف قتيل ولم يسلم واحد بلا جراح. وهذا ما اتاح [لهنيبعل] مجالاً للانسحاب في هدأة الليل، واضعاً بينه وبين خصمه مسافة بعيدة. وكان عدد الجرحى من جنود [مارچللوس] سبباً في عجزه عن مطاردة العدو؛ وانتقل بمسيرات بطيئة هيّنة الى [كمپانيا] وقضى فصل الصيف في [سينويسا Sinuessa](٥٣) منشغلاً في تضميد جراح جيشه واعادة تنظيم فرقه.

لكن ما أن انتزع [هنيبعل] نفسه من مخالب [مارچللوس] حتى راح يتنقل بجيشه في ارجاء ايطاليا بحيث سالباً غاضباً ناهباً لايخشى أحداً. وارتفعت الأصوات في روما تهاجم [مارچللوس] وتنتقد سلوكه. وتوصل منتقدوه الى اقناع [پوبليشيوس بيبولوس Publicius Bibulus] أحد مفوضي [تريبيون] الشعب، وهو رجل عنيف المزاج وخطيب مفّوه الى الاضطلاع بتوجيه الاتهام له. فتمكن هذا بخطبه المتواصلة الملحاحة من حمل الشعب على سحب قيادة الجيش من يد [مارچللوس] لأنه «انسحب بعد عملية عسكرية صغيرة، من ميدان القتال، ليستجّم وينتعش بالحمامات الحارة هناك على حَدّ قوله(٥٤).

ولما بلُغَ مارچللوس بهذا، عيّن عدداً من مساعديه الضباط الادارة معسكره وأسرع الى روما لتفنيد التهم الملصقة به. ووجد في انتظاره لائحة تتضمن قائمة كاملة بالتهم. واجتمع الشعب في الملعب الفلاميني، يوم المرافعة، فنهض [بيبولوس] من مجلسه ووجه التهمة اليه، فالقى [مارچللوس] بردود مختصرة بسيطة، وتبعه رؤساء المدينة وافاضلها يتكلمون بقوة عارضة وبلاغة واسهاب، يعيبون على الشعب موقفه ويتحدونه أن يكون أسوأ حكماً على مارچللوس من اعدائه بادانته بالتردد والجُبن وهو القائد الوحيد بين كل قادتهم الذي صفع العدوّ في وجهه، بينما كان هذا يتحاماه ويروغ منه بقدر ما كان يرغب في الاشتباك مع غيره من قادة

---

(٥٣) ليڤي [المرجع السالف ٢٠ يقول «بل من (ڤينوسيا) فهي أقرب بكثير من كانوسيوم وأسهل سبيلاً لايصال الجرحى.

(٥٤) هناك حمامات حارة بالقرب من سنيوساً. كما يحدثنا سترابو(٥) ولا يوجد في (ڤينوسيا). فان كان مارچللوس قد قصد المدينة الأخيرة. فالشعر الساخر الذي قيل بحقه لا مبّرر له أو مناسبة. لذلك أهمل ليڤي ذكره. لكن أورد عين ما قاله (لپيوبولس) من «أن مارچللوس قضى الصيف في مقرّه».

الرومان، وبعد أن أنتهى الخطباء. خُدع المدعي بآماله في الإدانة، ولم يُكتف بتبرئه مارچللوس انما أعيد انتخابه قنصلاً للمرة الخامسة.

وعند أوّل مباشرته الوظيفة زار مدن اتروريا[٥٥] قمع فيها فتنة خطيرة كادت تؤدي الى ثورة. وزار مدنها وطيبّ الخواطر فيها. وعارض الكهنة في شرعية تكريس معبد كان قد نذره للربيّن «الشرف» و«الفضيلة» من الأموال التي غنمت في صقلية، زاعمين أنه لا يجوز تكريس معبد واحدٍ لربّين اثنين[٥٦]، فما لبث أن لحقه بشان، وهو شديد السخط لتلك المعارضة التي كاد يفّسرها بنذير شؤم. والحق يقال أن الخوارق التي تعاقبت حينذاك، اشاعت الخوف في نفسه. فقد سقطت صواعق على بعض المعابد. وفي معبد [جوپتر] قرضت الفيران الذهب، وتنوقل ايضاً ان ثوراً أخذ يتكلم، وان طفلاً ولد بر أس يشبه رأس الفيل. لقد عولج أمر هذه الخوارق كلها بطبيعة الحال، ولكن الآلهة لم تعلن عن رضاها كما ينبغي. وعلى هذا اضطرته استخارة الطير الى البقاء في روما وهو يحرق الإرم غيظاً ويتلهّب شوقاً للقتال، ولم يكن أحد مثله يضطرم بالرغبة في خوض معركة مع [هنيبعل] فهي مدار أحلامه في الليل، وهي موضوع كل أحاديثه مع أصدقائه واصحابه، وهي رجاؤه الوحيد الذي يتقدم به الى الآلهة. كانت امنيته الكبرى ان يلاقي [هنيبعل] في ساحة الوغى، بل يخيل لي أنه سيكون مغتبطاً جداً بالهجوم عليه والجيشان ضمن معسكر واحدٍ. ولو لم يكن [مارچللوس] مثقلاً بالتكريم، متخماً بالشهرة، ولو لم يقدم البراهين بشتىّ الطرق على نضوج احكام وبعد نظر لايدانيه فيهما ايّ قائد محنك، لقلنا أن نزّق الشباب الذي لا يليق برجل في مثل سنه، هو عامل الإثارة والتحمس فيه. وكان قد تجاوز الستين عندما بدأ فترة قنصليته الخامسة.

بعد أن قدمت القرابين، وتمّ كل ما يتعلق بارضاء الآلهة وتهدئة خاطرها حسبما أوصى به العرافون، خرج مع زميله[٥٧] لمواصلة الحرب وأخذ يحاول بشتى الوسائل استفزاز [هنيبعل] الذي كان وقتذاك قد ضرب معسكره الدائمي في موضع يقع ما بين [بانتيا Bantia] و[ڤينوسيا Venusia]، إلاّ انه أبى القتال، على أن استخباراته أعلمته بأن بعض الوحدات

(٥٥) قبل ذلك. بحسب رواية ليڤي.

(٥٦) كانت حجتهم في ذلك انه اذا نزلت بالهيكل صاعقة أو أرعدت الدنيا أو ابرقت أو حلّت به أية ظاهرة تستدعي تقديم الكفارة فانهم لن يعرفوا لأيّ من الالهين يجب تقديم الاضحية؟ وعلى هذا الاساس قام (مارچللوس) ببناء معبد ثانٍ لالهة الفضيلة Virtue ارضاءً لهم. ولم تطل به الحياة ليقوم بتكريسه الاّ ان ابنه قام بتكريس المعبدين بعد اربع سنوات من وفاته.

(٥٧) انظم اليه زميله قادماً من موضع آخر.

الرومانية تتجه نحو مدينة [لوكري أو ايبيفيري الغرب Locri, Epiyephyrii] [٥٨] فكمن لهما تحت جُبيل يدعي [پتليا Petelia] وقتل منهما ألفين وخمسمائة جندي، فاستشاط مارچللوس غيظاً وعصفت بنفسه ريح الانتقام وتحرك مقترباً من هنيبعل. وكان بين المعسكرين أكمة ذات مناعة تغطيها الغابات، والمرتقى اليها صعب من الجهتين وفيها ينابيع ينحدر ماؤها الى أسفل. وكان الموقع ممتازاً ذا فائدة عسكرية كبيرة، حتى عجب الرومان لأن هنيبعل أهمل أحتلاله وتركه يقع بيد عدوّه مع انه كان اسبق اليه منه. اما الحقيقة في الأمر فلم تكن كما تصور الرومان ففائدة الأكمة لم تغب عن [هنيبعل]، إلا أنه وجده أصلح لنصب كمين ولهذا تركه في الظاهر وأخفى في غاباته وغاره أعداداً من الرماة بالنشاب والرماح. وكان واثقاً أن صلاح الموقع سيُغري به الرومان، ولم يكن مخطئاً في حدسه. فقد أخذ الرومان يبحثون في أمره، ويتناقشون حوله فيما بينهم حتى كان الكلّ ضباط وقادةٌ وقَرّ الرأى على احتلاله والاستفادة منه للنيل من العدوّ. ولاسيما اذا نقلوا معسكرهم اليه ومتنوه بحصنٍ. فقرر مارچللوس الخروج بسرية خيالة لاستطلاعه وأستدعى عرافاً وباشر في التقريب للآلهة. وفي الضحية الأولى أخرج الكاهن [الاروسپكس Aruspex] الكبد من دون رأس، وفي الضحية الثانية ظهر الرأس بحجم اعتيادي. وكانت العلامات الأخرى فيها، مشجعّة مبشرة بالخير. وبظهور كفاية هذه العلاقات لتبديد الخوف من علامات النحس الأولى، أعلن العرافون انهم يخشون الثانية أكثر من الأولى. لأن الاحشاء الحسنة جداً والمبشرة بالخير، اذا تلت أحشاءً ضحية أخرى مشوهة مخيفة، يكون التغيير موضع شكّ، والدليل منذراً بشؤم. لكن...

«لا يفلح في صدّ القدر المحتوم، لا النار ولا جدار من البرونز» كما يقول [پندار]. وهكذا خرج [مارچللوس] الى الأكمة يصحبه زميله [كرسپينوس Crispinus] وابنه وهو [تريبيون] عسكريّ، مع مائتين وعشرين فارساً على أكثر تقدير. ليس بينهم روماني واحد، وهم من الاتروسكيين، مع اربعين من [الفريجللان Fregellan]، لطالما قدموا لقائدهم الدليل على بأسهم وأخلاصهم في كل الظروف.

كان التلّ مكسّواً بالغابات تماماً. وعلى قمته جلسّ أحد كشافة العدو، مستتراً عن اعين الرومان، في حين كان معسكرهم مكشوفاً له برّمته. فلما دنا [مارچللوس] وجماعته من الكمين أعطى الكشاف اشارة لهم فبرزوا من حفائرهم وخباياهم وباغتوه دفعة واحدة وأحاطوا به من كل جهة وراحوا يقذفونه بوابل من الرماح فاصابت فريقاً، وأدركت ظهور الفارين. ثم

(٥٨) لم تكن هذه وحدات من وحدات الجيش الروماني المرتبطة بأمره القنصلين. بل هي قطعات عسكرية سحبت من صقلية ومن حامية (تارنتوم) المرجع نفسه.

حملوا بشدة على من صمد وهم الفريجللانيون الأربعون (الذين عملوا حلقة بعد هروب الاتروسكيين عند بدء الهجوم). وأستمروا يدافعون عن القنصلين ببسالة حتى أصيب [كرسپينوس] برمحين فالوى بعنان جواده هارباً. وأصيب مارچللوس في خاصرته بطعنة حربة عريضة السنان، وعندها ترك الاحياء القلة من الفريجللانيين قنصلها صريعاً وهربت [بمارچللوس الاصغر] الذي اصيب هو الآخر، حتى بلغت المعسكر. ولم يزد عدد القتلى عن الأربعين، ووقع في الأسر خمسة من [اللكتور] وثمانية عشر فارساً. وتوفي [كرسپينوس] متأثراً بجراحه بعد بضعة ايام(٥٩). كانت خسارة قنصلين في اشتباك واحد نكبة لم يمن بها الرومان بمثلها من قبل.

ما أن انبيء [هنيبعل] بمصرع مارچللوس حتى ترك كل ما يشغله وهرع الى الأكمة. وهناك وقف ينظر الى الجسد الهامد، ويتأمل طويلاً في شكله ومتانة بنيانه، ولم تخرج من فمه كلمة واحدة تعبرّ عن زهو أوتباهٍ كما كان يحق لغيره أن يفعل حين يتخلص من عدوٍّ عنيدٍ محرج. على أن النهاية اذهلته تماماً. ولم يأخذ من خصمه الصريع غير خاتمه(٦٠). وأمر بكسائه ثياباً لائقة وتزيينه وحرقه بغاية الاحترام ثم وضع بقايا الجثة في دعاء فضيٍّ مغطى بتاجٍ ذهبي، وبعث به الى ابنه. إلاّ أن بعض النوميديين من عسكره، سطوا على حامليه وأنتزعوه منهم والقوا بالعظام. فبلغ ذلك هنيبعل فقال:

- اذن فمن المستحيل أن نعاند ارادة الله!

وأنزل بالنوميدين اللصوص عقاباً، إلاّ انه لم يتخذ ايّ اجراءٍ لجمع العظام واعادتها. مدركاً أن القدر المحتوم حكم على مارچللوس أن يخر صريعاً هكذا، وان يظلّ ملقىً على ظهر الأرض هكذا.

هذا ما دوّنه لنا [كورنيليوس نپوس Cornelius Nepos] و[ڤاليريوس ماكسيموس Vari-us Maximus] عن الحادث، إلاّ أن [ليڤي](٦١) و[اوغسطس قيصر] يؤكدان أن الوعاء بلغ

(٥٩) لم تدركه الوفاة الاّ في آخر السنة وذلك بعد ترشيحه [تلليوس مانليوس توسكواتوس] دكتاتوراً من أجل عقد الجمعية العامة. ويقوم بعضهم انه توفي في [تارنتوم] وبعضهم يقول لا بل في كامپانيا (المرجع نفسه ٣٣).

(٦٠) خيل لهنيبعل انه سيفيد كثيراً من خاتم مارچللوس الرسمي الاّ ان [كرسپينوس] بادر على الفور باذاعة نبأ وفاته بين سائر المدن مع التحذير بأن خاتمه الرسمي قد وقع في يد هنيبعل وعليهم ان لا يصدقوا من يعرضه عليهم. وقد انقذ هذا التحذير (سالاپيو) في (اپيوليا) وان انطلت الخدعة على رسلهُ الذين جاؤا بالخاتم وأدخلوهم المدينة وذبحوهم عن بكرة ابيهم وكانوا حوالي الستمائة من الرومان الهاربين من الخدمة اما الباقون فقد تمكنوا من الهرب.

(٦١) يحدثنا بان (هنيبعل) قام بدفن [مارچللوس] في التلّ الذي سقط فيه. اما عن أثر [اغسطس قيصر] =

الإبن، فشيعت رفاته بجنازة فخمة. وأقيم له نصب تذكاري في روما. وخلّد اسمه بميدان مصارعة واسع في [كاتانا] بصقلية. ونصبت تماثيل وصور مما غنمه من سيراقوز، في معبد الآلهة المسماة [كابيري Cabiri] بساموثراس، وفي معبد منيرفا بـ[ليندس Lindus] حيث أقيم أيضاً تمثال له. نقشت عليه الابيات التالية (على ما يذكر پوسيدونيوس).

أيها ذا الغريب! كان هذا نجم روما الالهي يوماً. انه «كلوديوس مارچللوس» الكريم النسب، الذي حارب حروبها ونصب قنصلاً عليها سبع مرات. وبذراعه المرعدة ذبحت الألوف!

اضاف ناظم هذه الابيات فترة توليه منصب البروقنصل مرتين الى قنصلياته الخمس. وظلّ نسله موضع اكبارٍ وأجلال حتى [مارچللوس] ابن [اوكتافيا] شقيقة [اوغسطس قيصر][62] التي انجبته لزوجها [كايوس مارچللوس]، وتوفي هذا الابن في شرخ الشباب عام توليه منصب [ايديل] وهو حديث عهد بالزواج من بنت [قيصر] فأوقفت امه [اوكتافيا][63] مكتبة على روحه تخليداً لذكراه، وأوقف [قيصر] الملعب الذي يحمل اسمه.



اوغسطس

= فلا وجود له.

(٦٢) استمر النسل على الانجاب بعد موته زهاء مائة وخمس وثمانين سنة. اذ انه قتل في ٢٠٦ ق.م ومات مارچللوس الشاب آخر السلالة في ٢١ ق.م.

(٦٣) يقول (سويتونيوس) ان اغسطس هو الذي أوقف المكتبة باسم اوكتافيا. [اغسطس ٢٩] و [ديون ٥٣:١].



(اغسطس)

اوجه المقارنة بين پيلوپيداس ومارچللوس

ذلكم هو أهم وابرز ما وجدته عند المؤرخين عن [مارچللوس وپيلوپيداس]، والشبه قريب جداً بين هذين الرجلين العظيمين في طباعهما وأخلاقهما، فكلاهما كان باسلاً مقداما، حازماً وثاب الروح. إلاّ أن ثم اختلافاً جزئياً في نقطة واحدة. وهي أن [مارچللوس] فتك بارواح الكثير في المدن العديدة التي استولى عليها، أما [پيلوپيداس واپامنونداس] فلم يؤثر عنهما أنهما قتلا أو استرقّا شخصاً واحداً عقب اي نصر حازاه. وقيل لنا أيضاً أن الثيبيين انفسهم ما كانوا ليقدموا على عمل كهذا ضدّ [الاورخمينيين] لو وجد هذان القائدان في حينه. كانت انتصارات [مارچللوس] على الغاليين باهرة رائعة، فقد قهر وهزم عدداً هائلاً من الخيالة والمشاة، بعدد ضئيل من الفرسان - (وهو عمل لا تجد له نظيراً فيما سجله المؤرخون عن قائد آخر غيره) وأخذ ملكهم أسيراً. وكان پيلوپيداس يطمح الى مثل هذا المجد إلاّ أنه لم يبلغه وقتله الطاغية في اثناء محاولته. على أن في امكانك ان تضع مقابل ذلك معركتي [ليوكترا وتيجري] المجيدتين. ونحن لا نجد في وقائع مارچللوس، واقعةً تمتاز بالحيلة والتآمر الخفي، كما فعل [پيلوپيداس] عند عودته من المنفى فقضى على الطغاة في [ثيبه]. مما يمكن اعتباره في مقدمة الأعمال الباهرة التي استعمل فيها المكر والكتمان. ولا نكران في أن [هنيبعل] كان أخطر خصوم روما واقواهم ولكن اللقيديمونيين ما كانوا ليقلوا عنه خطراً بالنسبة للثيبيين ومن المسلم به انهم ذاقوا مرارة الهزيمة والفرار على يد [پيلوپيداس] في [ليوكترا وتيجري] في حين يذكر [پوليبيوس] ان هنيبعل لم يذق طعم الهزيمة إلاّ مرة واحدة على يد [مارچللوس]. وبقي النصر معقوداً له في كل المعارك حتى مجيء [سكيپيو] وقد ملت أنا نفسي الى الأخذ بأقوال [ليڤي] و[قيصر] و[كورينليوس نيپوس]، وبأقوال [يوبا Juba] الملك، من الأغريق، في زعمهم أن جنود هنيبعل، عانوا الاندحار والهزيمة امام [مارچللوس]
ذلكم هو أهم وابرز ما وجدته عند المؤرخين عن [مارچللوس وپيلوپيداس]، والشبه قريب جداً بين هذين الرجلين العظيمين في طباعهما وأخلاقهما، فكلاهما كان باسلاً مقداما، حازماً

الكثير في المدن العديدة التي استولى عليها، أما [پيلوپيداس وإپامننداس] فلم يؤثر عنهما أنهما قتلا أو استرقّا شخصاً واحداً عقب اي نصر حازاه. وقيل لنا أيضاً أن الثيبيين انفسهم ما كانوا ليقدموا على عمل كهذا ضدّ [الاورخمنيين] لو وجد هذان القائدان في حينه. كانت انتصارات [مارچللوس] على الغاليين باهرة رائعة، فقد قهر وهزم عدداً هائلاً من الخيالة والمشاة، بعدد ضئيل من الفرسان - (وهو عمل لا تجد له نظيراً فيما سجله المؤرخون عن قائد آخر غيره) وأخذ ملكهم أسيراً. وكان پيلوپيداس يطمح الى مثل هذا المجد. إلاّ أنه لم يبلغه وقتله الطاغية في اثناء محاولته. على أن في امكانك ان تضع مقابل ذلك معركتي [ليوكترا وتيجري] المجيدتين. ونحن لا نجد في وقائع مارچللوس، واقعةً تمتاز بالحيلة والتآمر الخفي، كما فعل [پيلوپيداس] عند عودته من المنفى فقضى على الطغاة في [ثيبه]. مما يمكن اعتباره في مقدمة الأعمال الباهرة التي استعمل فيها المكر والكتمان. ولا نكران في أن [هنيبعل] كان أخطر خصوم روما واقواهم ولكن اللقيديمونيين ما كانوا ليقلوا عنه خطراً بالنسبة للثيبيين ومن المسلم به انهم ذاقوا مرارة الهزيمة والفرار على يد [پيلوپيداس] في [ليوكترا وتيجري] في حين يذكر [پوليبيوس] ان هنيبعل لم يذق طعم الهزيمة إلاّ مرة واحدة على يد [مارچللوس]. وبقي النصر معقوداً له في كل المعارك حتى مجيء [سكيبيو] وقد ملت أنا نفسي الى الأخذ بأقوال [ليڤي] و[قيصر] و[كورينليوس نيپوس]، وبأقوال [يوبا Juba] الملك، من الأغريق، في زعمهم أن جنود هنيبعل، عانوا الاندحار والهزيمة امام [مارچللوس] في بعض المعارك. إلاّ انها معارك لم تؤثر في مجرى الحرب العام بلا شكّ، حتى بدت وكأنها مجرد اشتباكات خادعة يقصد بها القرطاجنيون نوعاً من المشاغلة والالهاء. وأروع ما في الأمر هو معنوية الرومان، فبعد اندحار عددٍ كبير من جيوشهم ومقتل العديد من قوادهم وبمختصر القول - بعد الفوضى التي عمت امبراطوريتهم. ظلّوا يظهرون من الشجاعة ما يوازي خسائرهم، ولم تفارقهم رغبتهم في خوض غمرات معارك جديدة، قدر رغبة اعدائهم فيها. وكان [مارچللوس] الوحيد الذي حقق المغلبة على الرهبة والخوف العظيمين المتأصلين. فأحيا معنويات الجنود، ورفع منها، وثبت كيانها، لتنقلب الى بسالة وحماسةٍ جعلتهم لا يتخلون بسهولة عن النصر، بل يناضلون في سبيله الى آخر رمق. كان هؤلاء الرجال قد عودتهم هزائمهم المستمرة على أعتبار أنفسهم سعداء لو نجوْها بالفرار من وجه [هنيبعل]، فجاء مارچللوس ليعلمهم بأن الإقرار بانهم نكصوا خطوة واحدة في مثار النقع وزخم القتال، وان يركبهم الهَمّ الناصب اذا فاتهم النصر.

وبمختصر القول: لم يغلب [پيلوپيداس] قط في اية معركة كان هو قائدها العام، وموجوداً فيها، وفاز [مارچللوس] بمعارك تزيد عن اي عدد فاز به قائد معاصر له. والحق يقضي أن يوضع الشخص الذي يصعب قهره، (مع الأخذ بنظر الاعتبار بطولاته العديدة) على قدم المساواة مع ذلك الذي لم يُقهر قطّ.

لقد استولى [مارچللوس] على سيراقوز عنوةً، في حين أخفقت آمال [پيلوپيداس] في الاستيلاء على سپارطا. واني لأرى في رفع رايته الى جدران سپارطا وطموحه الى أن يكون أول من يعبر نهر يورتاس بقوة السلاح، عملاً أصعب بكثير من اخضاع صقلية، إلاّ اذا اعتبرنا [أپامنانداس] أحق وأولى بنسبة هذه المأثرة اليه كما كانت معركة ليوكترا أيضاً، في حين بنى مارچللوس شهرته وعظمة أعماله البطولية على معارك تفرد بها وحده ولم يكن لغيره سهمٌ فيها. فهو وحده استولى على سيراقوز ودحر الغاليين دون معونة من زميله وانبرى لملاقاة [هنيبعل] في ساحة القتال بمفرده ودون زميلٍ، عندما أحجم الآخرون عن ذلك. وبتغيره في أسلوب حرب الخصم قدّم أوّل مثلٍ من أمثلة الجرأة على التعرض له.

وليس بوسعي الاشادة بمقتل ايّ من هذين العظيمين. فعامل الغرابة والفجاءة في نهاية حياتهما يشيع في نفسي شعوراً بالألم والحسرة. ويستأثر هنيبعل باعجابي لأنه لم يصب بخدش واحد في سائر المعارك العديدة الطاحنة التي لا يكفي يوم واحد لإحصائها.

وانني لأجلّ [خريسانتيس Chrysantes] (الذي ورد ذكره في كيروپيديا Cyropædia گزينفون) فقد رفع سيفه ليهوى به على خصمه، حين نفخ بنفير الانسحاب فتركه وتقهقر بملء الطاعة والسكينة، على أنه قد يمكن أغتفار ثورة الغضب التي دفعت [پيلوپيداس] الى ملاحقة ثأرة في زخم المعركة، وكما يقول [يوريپيدس]:

أولى صفات القائد أن يحرز نصراً مضموناً.

وثاني صفاته، أن يموت ميتة الشرف».

ففي هذه الحالة لا يمكن القول ان القائد «عانى» موتاً، والحرّي أن يقال: عاني معركة. إن عزم [پيلوپيداس على قتل الطاغية وهو ماثل امام عينيه، لم يفقده رشاده ويسلمه الى جموع العاطفة الى الحدّ الذي ينسيه الهدف المتوخى من النصر، على انه ما كان ليتوقع أن تسنح له فرصة ثانية مساوية لهذه الفرصة في يسرها ومجدها وخلودها وبنضال في قضية عادلة شريفة كهذه. لكن مارچللوس أوقع نفسه في الخطر وسقط في كمين ليس الحسبان في سبيل هدف لا يعود عليه بفائدة كبيرة، وعندما لم تستدع اليه ضرورة ماسة أو وجود خطرٍ ماثل يسلمه الى

نزف العاطفة، وهو الذي تولى القنصلية خمس مرات، ودخل في مواكب نصر ثلاثة وغنم أسلاب ونفائس ملوك، وأحرز الانتصارات، تراه ينزل الى مرتبة كشّاف أو ديدبان فيعرض كل امجاده لتُداس باقدام المرتزقة الاسپان والنوميديين الذين باعوا أنفسهم للقرطاجنيين حتى شعروا هم أنفسهم بأنهم أصغر من ان يستحقوا مثل هذا النجاح، وكادوا ينكرون على أنفسهم هذا النصر غير المنتظر بقتلهم أشجع وأكفأ وأشهر الرومان مع قليل من الفريجللان.

ولا يتوهمّن أحد أننا ما قلنا هذا إلا ونحن نقصد انتقاد هذين الرجلين العظيمين أو انتقاصهما، فالحقيقة هي أننا نريد أن نعبّر بهذا عن سخطنا الصريح وألمنا لأنهما اضاعاً كلّ فضائلهما على مذبح شجاعتهما وانفقا حياتيهما كأن خسارتها قاصرة على شخصيهما، لا على بلادهما وحلفاء بلادهما واصدقائهما.

بعد مصرع [پيلوپيداس] قام بتشييعه اصدقاؤه الذين ضحىّ بحياته في سبيلهم. أمّا [مارچللوس] فإن اعداءه هم الذين قاموا بهذا. وكان حظاً سعيداً كريماً لأولهما. إلاّ انه كان يوجد شيء أسمى واروع في التكريم والإجلال الذي ابداه العدوّ لفضائل وشخصيّة كانت عقبتهم الكأداء، من اقرار الاصدقاء بالفضل. ففي الواحدة يكون الدافع الى التكريم والتقدير الفضيلة وحدها. وفي الأخرى تكون مصلحة الناس الشخصية وفائدتهم هي الأصل فيما ينتهجون.


الدار العربية للموسوعات

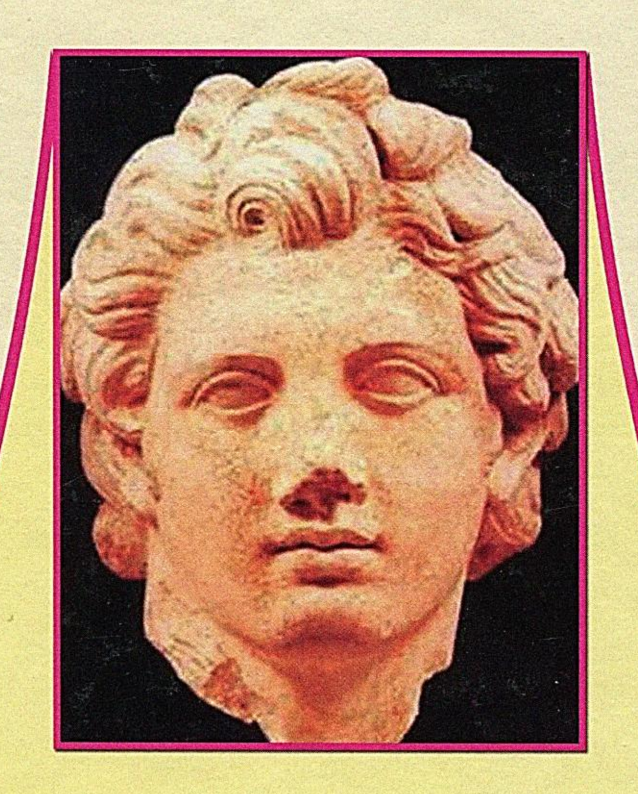

الدار العربية للموسوعات

علي مولا

تاريخ أباطرة وفلاسفة الإغريق

بلوتارك «فلوطرخوس»

تاريخ
أباطرة وفلاسفة الإغريق



المجلد الثاني

علي مولا

الدار العربية للموسوعات


الدار العربية للموسوعات


الدار العربية للموسوعات

تاريخ
أباطرة وفلاسفة الإغريق

تاريخ
أباطرة وفلاسفة الإغريق

بلوتارك «فلوطرخوس»

ترجمة
جرجيس فتح الله

المجلد الثاني

الدار العربية للموسوعات

الطبعة الأولى

٢٠١٠م - ١٤٣٠هـ

الدار العربية للموسوعات

الحازمية - مفرق جسر الباشا - سنتر عكاوي - ط1 - بيروت - لبنان
ص.ب: 511 الحازمية - هاتف: 00961 5 952594 - فاكس: 00961 5 459982
هاتف نقال: 00961 3 388363 - 00961 3 525066 - بيروت - لبنان
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

مؤسسها ومديرها العام: خالد العاني



468 ـ 540 ق.م



كان [اريستيدس] اين [ليسيماخوس]، من قبيلة [أنطيوخيس Antiochis] ومدينة [آلوبيكي Alopece]. وقد أختلفت الأخبار في موضوع ثرائه فقال بعضهم أنه قضى حياته في فقر مرقع، وترك ابنتين ابقاهما فقرهما عازبتين مدةً طويلة[1]. ولكن [ديمتريوس] الفاليري، يخالف غالبية المؤرخين فيقول في كتابه [سقراط Socrates] انه يعرف حقلاً في [فاليروم] مُسجّلاً باسم [اريستيدس]. وهو مدفون فيه. وكدليلٍ على ثرائه يقدّم أولاً: توليه منصب «أرخون ايبونيموس Archon Eponymus»[2] الذي ناله باقتراع «حَبات الفاصوليا»، وهو وقف على أعلى الأُسر الغنيّة التي تُسمى [پنتاكوزيوميديمني Pentaco-siomedimni]، ويعرض ثانياً نفيه دون محاكمة الذي لم تجر العادة بفرضه على المواطنين الفقراء بل على أولئك الذين ينحدرون من كبريات البيوت، فتعرضهم مقاماتهم العالية الى الحسد والكره، ويقدّم ثالثاً وأخيراً، ما تركه في معبد [باخوس] من محامل أواني مثلثة الأرجل تقدمةً لفوزه في اخراج تمثيلية درامية. ما زالت موجودة الى يومنا هذا، وقد نقش عليها العبارة التالية «قبيلة أنطيوخيس هي الفائزة. اريستيدس تكفلّ بالنفقات. التمثيلية التي مثلت هي [لأرخيستراتوس Archestratus]». ومع ما يبدو في منطق هذه الدلائل من قوةٍ فانها أقلها أهميّة.

فالدنيا كلها كانت تدري مثلاً أن [اپامنداس] دَرّس وعاش حياته وهو معدم لايملك شروى

(١) ومع هذا فبالنظر الى قانون صولون لم يكن يترتب على العروس ان تأخذ الى بيت الزوجية من جهاز غير ثلاثة اثواب. مع أثاث منزلية قليلة جداً ذات قيمة زهيدة [انظر سيرة صولون). يذكر پاوتارخ هذا لا احتراماً منه للثروة وانما لأنّ الطبقة التي ينتسب اليها المواطن تحدد بحسب ثرائه وما يملكه من مال حسب ما تمليه قوانين صولون.

(٢) يقوم حساب تقويم الآثيينين بحكم الأرضنة جـ. ارخون) كما يحسبه الرومان بحكم قناصلهم. ولهذا الغرض يختار واحد من الأرضنة التسعة بالقرعة وهو من أغناهم ويطلق عليه اسم (ايپونيئين) فيدون اسمه في السجلات العامة. فمثلاً قام ديمتريوس الفاليري بتعيين (كساندر) ارخوناً على أثينا بعد سنوات قليلة من وفاة الاسكندر الكبير. وقد شرف لحكمه العادل خلال عشر سنوات باقامة ثلاثمائة تمثال له [پليني التاريخ الطبيعي ٣٤:٦]. و[ڤارو باقتباس نونيوس ١٢] إلاّ أن الآثينيين حكموا عليه بالموت بالأخير. وكان قد هرب الى مصر. ثم انهم حطموا جميع تماثيله.

نقير. وأن أفلاطون الفيلسوف الذي أحيا الحفلات الفخمة، كحفلة الموسيقين النافخين بالناي، وحفلة غناء الديثيرامب Dithyramb(*) وهو فقير. وأن [ديون] السيراقوزي هو الذي تكفل بدفع نفقات حفلات الأخير منهما. و[پيلوپيداس] هو الذي أهتم بمعيشة أپامنداس. فأخيار الناس لا يسمحون لأنفسهم بأخذ هدايا من أصدقائهم في أية عداوة متأصلة لا يمكن رأبها. في حين يرون في من يقبلها ليكتنزها بدوافع بخلٍ وحرصٍ، وضيعاً مسخطاً هؤلاء الأخيار لا يترددون قطّ في مكافأة حب الرفعة والتسامي الخالصين.

ويوضح [پانيتيوس Panætius](٣) بأن [ديمتريوس] كان مخدوعاً في هوية صاحب الاسم المحفور على مَحْمَل الآنية. فمن الفترة التي ابتدأت بحروب الفرس وختمت بنهاية حرب الپيلپونيسوس، وردنا شخصان باسم (اريستيدس) كانا قد انفقا على اخراج تمثيليات وفازا بالجائزة، ليس بينهما ابن لليسيماخوس، بل كان والد احدهما يدعى [كزينوفيلوس Xeno-philus]، أما الثاني فقد عاش في وقت متأخر جداً عن عصر اريستيدس صاحب السيرج، كما يدل عليه شكل الكتابة التي لم يبدأ استعمالها الا منذ عصر [اقليدس Euclides](٤)، ووجود اسم المؤلف [ارخيستراتوس] هو بحدّ ذاته برهام آخر، اذ لم يذكره كاتب قط في اثناء حروب الفرس. بينما أورد ذكره عدة كتاب في زمن حرب الپيلوپونيوس، قائلين انه شاعر درامي. ان حجج [انيتيوس] تستدعي تاملاً فيه كثير من التدقيق.

أمّا موضوع النفي بدون محاكمة، فكلّ انسان كان معرضاً له اذا ارتفع به صيته أو نسبه أو بلاغته الى ما فوق المستوى الاعتياديّ. حتى انه تناول [دامون] معلّم [پيركلس] لأن مداركه العقلية بدت تفوق المدارك العاديّة. وأكثر من هذا ما يذكره [ايدومينيوس Idomenus] من أن [اريستيدس] لم يُنصب [ارخوناً] على طريقة الاقتراع بحبّة الفاصولياء، بل بالانتخاب الحرّ الشعبي. واذا كان قد أرتقى المنصب بعد معركة [پلاطيا Plataea] كما ذكر [ديمتريوس] نفسه(٥)، فإن شهرته العظيمة وانتصاره في الحرب، هما اللذان زكّياه لتسنّم

(*) Dithyramb: نوع من الغناء الاغريقي يؤديه جوق ويمتاز بالحانه الصاخبة [م. ت].

(٣) من رودس. معلم رواقي المذهب شهير جداً. ومن تلاميذه [سكيپيو] و[ليليوس]. وقد صحب الأول الى مصر. على أنه لم يكن من أولئك الرواقيين الذين أخذوا بالمنطق الشائك والمتعصب الذي يميز تلك المدرسة. وكثيراً ما كان يستشهد بافلاطون وارسطو وكزينوقراطس وثيوفراستوس ويكيارخوس وغيرهم من أساطين الرواقيين.

(٤) اقليدس المقصود هنا، هو حوارى من ميغارا كان واحداً من تلامذة سقراط وقد نزل افلاطون ضيفاً في داره عند وفاة الفيلسوف بالسّم وكان له من العمر ثلاثون عاماً. سبق سميّه المهندس الاسكندري المشهور بتسعين عاماً.

(٥) يخطيء ديمتريوس في هذا، لأن اريستيدس لم ينصب أرخوناً بعد معركة (پلاتيا) التي وقعت في السنة =

منصب اشغله آخرون لثرائهم العريض. على أن [ديمتريوس] كان متلهفاً بلا جدال، الى جبّ صفة الفقر لا عن [اريستيدس] وحده، بل عن [سقراط] أيضاً، كما كان حريصاً على نفي صفة الشرّ عنهما، ويخبرنا عن ثانيهما، أنه كان يملك داراً خاصةً، فضلاً عن سبعين [مينا][٦] وضعها بالربّا شركةً مع [كريتو Crito].

كان [اريستيدس] صديقاً ونصيراً [لكلستينس Clisthenes] وهو ذاك الذي تولّى شؤون الحكم بعد طرد الطغاة[٧]، وباحتذائه وأعجابه بليكورغوس اللقيديموني أكثر من اي سياسيّ آخر، انحاز الى المبادئ الارستوقراطية في الحكم. وكان [تيمستوكلس] ابن [نيوكلس] خصمه منحازاً الى عامة الشعب. ويقول بعضهم، إنهما نشأ وربيا معاً منذ نعومة أظفارهما، وكانا على طرفي نقيض دوماً في كل عملٍ لهما أو قول. سواء في مواطن الهزل أو في مواطن الجدّ. وفي أوّل منافسةٍ لهما سرعان ما برهن كل واحد منهما على اتجاهات طباعه الخاصة نواجدهما كان متخفراً مغامراً ماكراً متحمساً لكل شيء سريع الاقتبال له، أما الآخر فكان رزيناً، وقور الطبع، موطن النفس على السيّر بعدلٍ، غير متسامح في سوء أدب وخداع أو تدليس حتى في لهوه ولعبه. ويقول [أرسطون الخيُوسي] ان أوّل منشأ للعداوة التي بلغت الغاية، هي قضية حُبّ. اذ تنافسا على محبّة [ستسيلاووس] السيوسيّ الجميل، فخرق جموح عواطفهما كلّ الحدود ولم يلقيا بالعداوة جانباً عندما آفلت شمس ذلك الجمال الذي سببها بل انتقلت بها الى ميدان السياسة والشؤون العامة، حتى لكأن عاطفة الحب تلك، لم تكن إلاّ حافزاً وتمريناً. وعلى هذا انضّم [ثيميستوكلس] الى أحدى الجمعيات الشعبية، فزودته بقوة لا يستهان بها. ولما عتب عليه أحدهم بقوله انه لو ظلّ على الحياد، لرقي الى منصب الحاكم. ردّ عليه قائلاً:

- بوديّ أن لا أجلس على منصّة تلك المحكمة التي تأبى على أصدقائي من الشعب حقاً يزيد على ما تمنحه غريب عن الوطن.

إلا أن [اريستيدس] سار وحيداً على الدرب الذي اختطه لنفسه -إن جاز لنا القول- فقد

= الثانية من الالمبياد الخامس والسبعين وقد وجد اسم اريستيدس في قائمة اراخنة السنة الرابعة من الالمبياد الرابع والسبعين اي معركة ماراثون بعامٍ واحدٍ. كما وجد في قائمة السنة الثانية من عين الالمپياد اي قبل معركة پلاتيا باربع سنوات.

(٦) خلا ان سقراط في دفاعه عن نفسه امام قضاته صرح بانه نظراً لفقرة لا يمكنهم تغريمه أكثر من (مينا) واحدة.

(٧) هؤلاء هم آل [بسستراتيندي) الذين طردوا في السنة الثالثة من الالمبياد الثاني والسبعين. وقد حمل (كلستينس) حفيد الطاغية (سيكيون) الاسم نفسه.

كان يكره في المقام الأول مسايرة شركاءه في أعمال السوء، أو أن يسبب لهم إحراجاً بامتناعه عن تحقيق رغباتهم وتلبية مطالبهم. وأراد في المقام الثاني - ان يلتزم جانب الحذر بعد ملاحظته أن كثيراً من الناس جَرّأتهم مناصرة اصدقائهم لهم، على الاعتداء والشرّ. ووجد الاستقامة في العمل والأمانة في القول هما الضمان الأمثل الاوحد للمواطن الصالح.

وعلى ايّة حال اتخذ تيمستوكلس عدة خطوات خطرة ضدّ [اريستيدس] وعارضة ووقف عقبةً في سبيل كل نشاط يبديه، فأضطر هذا الى مقابلته بالمثل دفاعاً عن نفسه من جهة، وحَدّاً من نفوذ خصمه المطردّ الزيادة بمساندة الشعب له من جهة أخرى. ورأى الأفضل له أن يتغاضى عن بعض الفوائد المادية العامة للخصم، لكيلا يكون بنزوله عنها بالقوة سبباً في تغلبه ووصوله الى السلطة العليا في كل الشؤون. وبكلمة أدق قام يوماً يعارض ثميستوكليس في اجراءات مفيدة اقترحها هذا، ففاز عليه. ولم يتمالك نفسه من القول معقباً على ذلك وهو يغادر الجمعية:

- لن تعرف آثينا سلاماً الاّ اذا ارسلتنا أنا وتيمستوكلس الى الباراثوم Barathum(*).

وفي مناسبة أخرى كان يدافع عن وجهة نظره في اقتراح قُدم للجمعية العامة، وكانت اراؤه تنال مساندة تدريجية رغم المعارضة الشديدة وثورة النفوس عليها، ولم يدرك فساد رأيه وخطله الاّ في اللحظة التي هَمّ رئيس الجمعية بوضع الاقتراح في التصويت فبادر الى اسقاط رأيه وسحب معارضته. وكثيراً ما كان يدفع أشخاصاً آخرين لعرض لوائحه القانونية، حتى لا ينبرى [ثميستوكلس] الى معارضتها مدفوعاً بروح التحزب والتحامل ضده، كُلّ ذلك في سبيل المصلحة العامة.

وكان جَلَده في تحمّل كل التقلبّات السياسية، يثير أعمق الاعجاب. فلا التكريم يصيبه بالزهو، ولا سوء الحظّ يفقده هدوءه واتزانه. وكان يرى ان الواجب يقضي عليه بوقف نفسه على خدمة بلاده مترفعاً عن الغنم الماديّ، مستنكفاً عن الشهرة والمجد نفسه. وأتفق يوماً أن القيت ابياتٌ لاسخيلوس في المرسح تتعلق [بأمفياروس Amphiaraus]:

«اذ ليس لأنه يبدو عادلاً، بل لأنه يهدف الى العدل فعلاً، ومن اعماق تربته الدفينة ينمو حصاد الحكمة، والرأي الحصيف.

فشخصت انظار كل المتفرجين الى [اريستيدس] كأن هذه الفضيلة قد أختصّ بها هو وحده.

وكان بطلاً من أبطال العدالة لا يلين عزمه، وكانت وقفته ضدّ مشاعر الصداقة والمحاباة

(*) حفرة عميقة يقذف اليها المحكوم عليهم بالموت. أنظر (سبويداس وهاربوقراص).

بمستوى وقفته ضدّ الغدر، والضغينة فقد روي عنه أنه كان يترافع قضائياً في تهمةٍ ألصقت بشخصٍ كان من اعدائه. ورفض الحكام بعد سماع أقوال الادعاء، أن يستمعوا الى دفع المهّم، وباشر فوراً في اصدار القرار بحقّه. فهبّ [اريستيدس] من مجلسه مسرعاً وشاركه في الالتماس بافساح مجال الدفاع عن نفسه، مستفيداً من القانون. وفي مناسبة أخرى كان يحكم بين المواطنين متخاصمين، فقال احدهما لاريستيدس: إن خصمه عدوّه وقد سبب له أذى كثيراً، فردّ عليه اريستيدس:

- الأحرى بك يا صاح أن تحدثني عما سبب لك من أذى، فالقضية التي أحكم بها هي قضيتك، وليست قضيتي.

وأنتخب امين عائدات الخزانة العامة. فأمكنه أن يثبت أن المديرين السابقين والمديرين المعاصرين قد أمتدت ايديهم الى اموالها، ولاسيما [ثيمستوكلس] -

«المعروف جيداً بأنه رجلٌ كُفء. إلاّ أن أنامله كانت حُرّة جداً!»

ولذلك حرض [تيمستوكلس] بعض الناس على [اريستيدس] واتهموه عندما سَلّم حساباته، وتسببوا في ادانته بجريمة سرقة أموال الشعب كما ذكر ايدومينيوس لكن كبار القوم وافاضلهم[٨] أستنكروا الأمر جداً فلم يُكتف بالغاء الغرامة التي فرضت عليه، بل عادوا الى اسناد الوظيفة عينها اليه. فتظاهر بندمه على تصرفاته السابقة، وزاول عمله بكثير من الإهمال والتراخي، فآض مقبولاً من أولئك الذين دأبوا على نهب الخزانة، لاغضائه عنهم، وأعفائهم عن تقديم حساب دقيق. فبدأ أولئك الذين اتخمنهم السرقة من الاموال العامة بمدح اريستيدس وحمده. وتوجهوا الى الشعب يحرضونه على انتخابه أمين الخزانة العامة ثانيةً، وعندما بلغ الأمر حَدّ الاقتراع. قام اريستيدس يؤنب الاثنين قائلاً:

- عندما انجزت اعمال وظيفتي باستقامة واخلاصٍ، كوفئت بالإهانة والتجريح، أما الآن فلأني تركت للصوص الشعب الحبل على الغارب، وسمحت لهم بمزاولة عملهم الدنيء، أعتبر وطنياً مثالياً وموضع مدحٍ وأجلال. اني الآن أشدّ شعوراً بالخزي والعار مني عندما أدِنتُ في الماضي. وأنا أرثي لحالكم الذي ترون فيه الإمتنان من رجال السوء أجدر بالمدح من المحافظة على الأموال العامة.

قال هذا وبدأ يفضح السرقات المرتكبة فكم افواه أولئك الذين أشادوا به وناصروه، إلاّ انه كسب ثناء صادقاً حقيقياً من أفاضل الناس.

---

(٨) تدخل مجلس الاريوباغوس من أجله.

أرسل [داريوس] القائد الفارسي [داتس Datis] بحجّة معاقبة الآثينيين لاضرامهم النار في [ساردیس][٩]، في حين كانت نيته الحقيقية إخضاع كلّ بلاد الاغريق لسلطانه، فنزل في [ماراثون] وتوغل في البلاد وعاث ما طاب له، وكان [مليتاديس] ابرز اسم بين القادة العشرة الذين عينهم الآثينيون لادارة الحرب، إلاّ أن المكانة الثانية كان يحتلّها [اريستيدس] سمعةً ونفوذاً. وعندما ثنّى على اقتراح [مليتاديس] بدخول المعركة رحجت الكفة[١٠]. وكان كل قائد يتولى القيادة العامة يوماً واحداً يليه الأخرفي اليوم التالي وهكذا. ولما جاء دور اريستيدس سلّم القيادة لمليتاديس، مثبتاً لزملائه القادة أنه ليس مما يخلّ بشرف المرء أن يطيع ويتبع خطى عقلاء الرجال وأكفائهم، بل هو النُبل وحسن الادراك نفسه، وبهذا فلَّ من غراب المنافسة، ووصل بهم الى قبول الرأي الواحد الذي هو خير الآراء، ومثبتاً [مليتاديس] في مركز القيادة غير المجزّأة، أو المعرضة للانتقاص، فقد أخذ كل منهم ينزل عن يومه في القيادة [لمليتاديس]، ويتلقى الأوامر منه فحسب[١١].

وفي أثناء الحرب كان الضغط على أشدّه في الجبهة التي يحتلها القسم الرئيس من قوات الآثينيين، وظلّ البرابرة زمناً يضيقون الخناق على قبيلتي [ليونتيس وانطيوخيس] منها بصورة خاصة. وقاتل [تيمستوكلس واريستيدس] هناك جنباً لجنب ببسالة، اذ كان أولهما ليونتياً، وثانيهما انطيوخياً. وبعد أن الحقا الهزيمة بالبرابرة ودفعا بهم الى سفنهم. أدركوا العدوّ لن يتجه الى الجزر، وأن قوة الريح وموج البحر يدفعانه نحو [آتيكا] فلخوفهم من استيلائهم عليها وهي مجردة من اسباب الدفاع، بادرا اليها مسرعين بقوات تسعٍ من القبائل وبلغوها في اليوم نفسه[١٢]. وترك [اريستيدس] مع قبيلته في [ماراثون] لحراسة الاسلاب والأسرى ولم يخيبّ رأيهم فيه. فقد ابى على نفسه أية رغبة في أمتلاك شيء من أكداس الذهب والفضة وكل انواع الحلل والأواني النفيسة التي غنمت، وغير ذلك مما لا يمكن عدّه في داخل الخيام، ولم يدع أحداً يقربها. اللّهم ما خرج دون علم منه كما فعل [كالليّاس Callias]

(٩) قبل تسعة اعوام أو عشرة. وقد كان وصوله في العام ٤٩١ ق.م.

(١٠) هيرودوتس [٦:١٠٩] كان القادة على خلاف شديد في الرّاي. بعضهم يحبذ القتال، وبعضهم لا يرى ذلك. ولما وضح هذا المشكل لـ(ملتيادس) توجه الى كاليماخوس الافيدين وهو بمنصب پوليمارخ وسلطة مساوية لسطلة القادة الآخرين وأظهر تحبيذه للدخول في المعركة فوراً. لعل [اريستيدس] ساعد أيضاً كاليماخوس المتردد لاتخاذ قراره هذا.

(١١) ومع هذا لم يدخل المعركة الى ان حان يومه الرسمي لتولي القيادة العامة. فعل ذلك كي لا تقدح شراره حسدٍ خفية في نفس اي جنرال ويتعمدون الكسل والتراخي في تاديه واجباتهم.

(١٢) بين ماراثون واثينا حوالي اربعين ميلاً وتلك مسافة تسير تكاد لاتصدق لجنود خاضوا قبل قليل معركة طاحنة كهذه المعركة.

حامل المشعل[١٣]، إذ يبدو أن أحد البرابرة القى بنفسه على قدميّ هذا الرجل متوهماً انه ملك، من شعره الطويل وعصابة رأسه[١٤]، فأقامه فأخذه هذا بيده وأراه مقداراً كبيراً من الذهب ملقى في بئر. إلاّ ان كاللياس وهو من أشدّ الرجال غلظة وقسوة أخذ الكنز وقتل الرجل لئلا يبلغ عنه. ولهذا منح الشعراء الهزليون أسرته لقب [لاكّوبلوتي Laccopluti] أو المُغتنين من البئر مشيرين الى الموضع الذي وجد [كاللياس] الذهب فيه.

بعد هذا مباشرةً، عُيِنّ [اريستيدس] أرخوناً وإن قال ديمتريوس الفاليري أنه تولاها قبيل وفاته، على اثر معركة [پلاطيا]. على أننا لانجد ولا اسماً واحداً لشخص يدعى [اريستيدس] من بين اسماء عديدة جداً وردت في سجلّ خلفاء [كزانثيپيدس Xanthip-pides] وهو الأرخون الذي حدثت في غضون سنة توليه هزيمةُ [ماردونيوس Mardonius] في معركة [پلاطيا]. في حين نجد اسم [اريستيدس] مدونًا مباشرة بعد اسم [فينيپوس Phænippus] وهو الأرخون الذي حقق الآثينيون في غضون فترة حكمه - انتصارهم في ماراثون.

وكان عدله أكثر ما يحبّ عامة الشعب من سجاياه؛ لطبيعة العموميّة والاستمرار فيه، لذلك فاز - رغم فقرة المدقع وخصاصة منبته، بلقب «العادل» وهو أعظم ما يلقب به الملوك والآلهة إن الملوك والطغاة على كل حال، لا يستهويهم نشدان هذه الصفة قط. وانما يسرّهم أن يلقبوا بمحاصري المدن Poliorceti والفاتحين Nicanor وذوي الصواعق Cerouni بل احب أحدهم ان يشار اليهم بالنسور والصقور، ملتمسين لأنفسهم كما يبدو الشهرة المتأتية من السلطة وأعمال العنف لا النابعة من الفضائل والخصال الحميدة[١٥]. مع أن الروح الآلهية التي يريدون أن يقارنوا بها أنفسهم ويتشبهوا بها، تمتاز كما هو مفروض باشياء ثلاثة هي: الخلود، والسلطان، والفضيلة وأشرف الميّزات الثلاث وأقدسها هي الأخيرة. لأن العناصر والفضاء تتميّز بالوجود الأبدي، والزلازل، والصواعق، والعواصف، والطوفانات فيها سلطان عظيم وقوة، أمّا في العدالة والمساواة فلا شيء يُسهم إلاّ بوساطة العقل والمعرفة التي تنبعث من كلّ ما هو قُدسيّ. وعلى هذا الأساس فهنالك أنواع ثلاثة من المشاعر يشعر بها الناس عادة تجاه

(١٣) حاملوا المشاعل» أشخاص خُصّوا بخدمة الالهة وحفظوا أقدس الأسرار، ويسهب [پاوسنياس ١:٣٧] في وصف الفرح العظيم والسعادة الكبرى التي تغمر المرأة الآثينية حين تجد اخاها أو زوجها أو ابنها يتقلد هذا المنصب على التوالي. والظاهر ان (كاليّاس) هو ابن عم لاريستيدس.

(١٤) الكهنة والملوك يحيطون جباههم بعصابة أو يطوقونها بتاج ومما هو جدير بالذكر هنا ان السلطتين الزمنية والروحية كانتا تجمعان في واحدٍ - في العصور الغابرة.

(١٥) بالاسم الأول تسمى ديمتريوس المقدوني. وبالأسم الثاني والثالث تسمى (سلوقيّو) سورية وبالاسم الرابع والخامس ملكان متأخران في انطاكية.

الآله: سعد حظّه، الخوف منه، التكريم له. فهم يعتبرونه محظوظاً منعماً عليه لأن الموت والفساد لا يتطرق اليه، وخوفهم وارتعابهم منه، متأتٍ من حَوله وقوته، إلاّ انهم يحبونه ويكرمونه ويعبدونه لعدالته. ومع استقرارهم على هذا الاتجاه فإنهم يشتهون ويطمحون الى الخلود الذي لاتستطيعه طبيعتنا الأنسيّة، ويرغبون في ذلك السلطان الذي كان القسم الأعظم منه تحت تصرف «الحظّ» ورهن اشارته ولكنهم يضعون الفضيلة في آخر قائمة ما يطمحون اليه غباءً منهم وحمقاً، وهي الصفة الالهية الطيّبة الوحيدة التي كانت في متناول يدنا حقّاً، مادامت العدالة تجعل حياة ذلك الذي يعيش في بحبوحةٍ وسلطان ونفوذ أشبه بحياة الآلهة، في حين يمسخه الظلم وحشاً.

ولذلك سعد اريستيدس بالحب المتأتي من لقبه في مبدأ الأمر، ولكنه غدا محسوداً به على تمادي الزمن. ولاسيّما عندما بث [تيمستوكلس] أشاعة بين الشعب خلاصتها أن [اريستيدس] باقراره وتصريفه شؤون الحكم كلها سِراً، أهدر حرمة المحاكم القضائية كلها وعطلها، وهو يريد التمهيد سِراً لإقامة حكم فردي يكون فيه ملكاً دون مساعدة قوى الحرس الوطني. زد على هذا أن زهو الشعب بنفسه الذي ارتفع كثيراً، وأشتداد ثقته بها للنصر الأخير، لابدّ رافقه شعور بالكره تجاه كلّ من تمتع بشهرةٍ وسمعة تفوق العادة. فتقاطر المواطنون من كلّ المدينة وحكموا بنفي [اريستيدس] من غير ادانةٍ قضائية. ساترين نقمتهم على سمعته بغطاء الخوف من طغيانه.

فقد كان النفي دون ادانة، لايعتبر عقوبة عن عمل جُرميّ، وانما يقال عنه ظاهرياً انه كسرٌ لشوكة العظمة المفرطة وقمع للسلطان المتجبّر، لكنه في الباطن تلطيفٌ وتنفيس رقيق لمشاعر الحقد والحسد فلا يحال بينها وبين شفاء غليلها بايقاع اذى ممكن احتماله وهو الابعاد عن الوطن عشر سنين، إلاّ أن الشعب تخلّى عنها بعد أن صارت تفرض على الوضعاء والسفلة الأوغاد. وكان [هيپربولس] آخر من نفي بلا محاكمة.

قيل أن السببَ في نفي [هيپربولس] هو هذا: كان [نيقياس] و[الكيبياديس] صاحبا أكبر نفوذ في المدينة وهما من حزبين مختلفين. وفيما كان الشعب يهمّ بالاقتراع على النفي، يصيب واحداً منهما بلا ريب. تقارباً فيما بينهما ووحّدا حزبيهما واحتالا على نفي [هيپربولس]. وكان من نتيجة ذلك أن الشعب شعر بالاهانة كأنما لحق بهذه العادة تحقيرٌ وازدراء لانزالها الى مستوى نفي [هيپربولس] فتخلوا عنها وابطلوها. وكانوا يقومون بها على النحو الآتي (موجزاً): يأخذ كل مواطن «اوستراكون Ostracon» أي فخارة، أعني كسرة من اناءٍ فخاريّ ويكتب عليها أسم المواطن الذي يريد نفيه ويحملها الى موضع ما في

الساحة العامة محاطٌ بقضبان خشبية. ويقوم الحكام في أول الأمر باحصاء كل القطع فاذا كانت تقل عن ستة آلاف لا يتمّ النفي. ثم تفرز الكُسر بحسب الأسماء، ومن وجد اسمه في أكبر عددٍ منها، نفي لمدة عشر سنين، مع السماح له بالتمتع باموالـه. قيل بينما هم يكتبون الأسماء على قطع الفخار. أن مواطنًا أميًا ريفياً، زريّ الهيئة كان يقف الى جانب [اريستيدس] دون أن يعلم من يكون، وظنه مواطناً عادياً اذ طلب منه أن يكتب على قطعة الفخار الخاصة به اسم «اريستيدس». فعجب وسأله هل نالته أذية من اريستيدس هذا؟

فأجابه المواطن: كلاً أبداً، حتى أني لا أعرفه، إلاّ اني أنزعجت من سماع لقب «العادل» يطلق عليه، اينما حللت.

قيل أن [اريستيدس] لم يردّ عليه بشيء ولكنه أعاد القطعة اليه بعد أن كتب اسمه عليها كما طلب منه. وعند تركه المدينة رفع يديه نحو السماء ودعا أن لا تدفع الآثينيين الحاجة يوماً ما وتضطرهم الى تذكّر [اريستيدس]، وهو عكس الدعاء الذي نُسب الى [آخيل](١٦).

وعلى أية حال فلم تمرّ ثلاث سنين حتى أقدم الآثينيون على الغاء القانون الخاص بالنفي، واصدروا مرسوماً بعودة جميع المنفيين والمبعدين على أثر توغلّ جيوش [ارتحشستا] في [ثسالي] و[بويوتيا] ووصوله [آتيكا]، يحدوهم بالدرجة الأولى خوفهم من انحياز [اريستيدس] الى العدوّ، وافساده كثيراً من مواطنيه، وضمهّم الى معسكر الفرس البرابرة. ولقد اخطأوا كثيراً في الحكم على الرجل وظلموه، فقد كان قبل صدور مرسوم العفو يعمل بحماسةٍ على تشجيع الأغريق واثارة عاطفة الدفاع عن حرية الوطن في أنفسهم. وبعدها عندما عُين [تيمستوكلس] قائداً عاماً مطلق الصلاحيات لم يتردد في اسداء العون له بكلّ الطرائق في ميادين القتال، وفي معرض النصيحة. فجعل من ألدّ عدوّ له في الدنيا، أشهر الرجال وأعلاهم مجداً بوضعه الاستقلال الوطنيّ فوق كل أعتبار. فقد كان [اقريبيادیس] يداعب فكرة التخلي عن [سلاميس](١٧) عندما خرجت سفن العدوّ ليلاً الى البحر وطوقت

---

(١٦) (الالياذة ١: ٤٠٨ - ٤١٠) اذ توسل بوالدته كي تؤثر على چوپتر لترجيح كفة الطراوديين كي يلحقوا الدمار بمواطنيه. اذ كان يجد انها الطريقة الوحيدة التي ستنبههم الى ضعف قيادتهم. فيبادروا الى ازالة آثار الظلم الذي لحق به، بل تمادى واشتط فدعا الى أن يتمّ القضاء على الأغريق واعدائهم الى آخر رجل بيد بعضهم بعضاً وان لا يبقى في قيد الحياة غيره وغير (پاتروكليس) ليقوما بدكّ اسوار طروادة [الالياذة ١٦: ٧٩ - ١٠٠].

(١٧) لم يشأ [اقريبيادس] ان يترك برزخ كورنث ليكون قريباً من الجيش في البرّ. إلاّ ان [تموستوكليس] وجد بوضوح من الرؤية انه في امكانهم الوقوف بمواجهة الاسطول الفارسي في مضايق سلاميس وهو بهذا يكون قد أنقذ نفسه من خطر التفوق العظيم الذي يحققه الاسطول الفارسي عليه. ذلك لأن خليج كورنث كان مفتوحاً للبحر (هيرودوتس ٨: ٥٧ و ٥٨).

الجزر وأقفلت البرزخ الضيق، ولم يعلم أحدٌ كيف تمّ هذا.

وما ان شعر [اريستيدس] حتى بادر فوراً الى الإقلاع من [ايجينا]، وأفلت مخترقاً أسطول العدو دون أن ينتبه اليه. وبلغ خيمة [تيمستوكلس] فناداه فخرج اليه فبادأة اريستيدس بالكلام:

- لو تمتعنا يا تيمستوكلس بأي ادراكٍ، لوجب علينا في هذه اللحظة بالذات أن نتناسى خصومتنا الصبيانية التافهة؛ إلاّ دعنا ندخل في منافسةٍ شريفة سليمة القصد، فلنبتار في مجال محافظتنا على وطن اليونان. لك الحكم والقيادة ولي الرأي والدعم حتى وانا أعلم يقيناً بأنك الوحيد الذي توصّل الى خير الأراء، وهو ضرورة الاشتباك مع العدوّ في المضايق. ولقد رأيت العدوّ يعينك على هذا، وان كان اصحابنا يعارضونك - وها أن البحر يكاد يغطيه أسطوله من خلفنا ومن حولنا ولا سبيل لنا إلاّ أن نثبت باننا رجال بأسٍ وقتال شئنا أم أبينا، بعد أن اقفلت في وجهنا طرق الفرار.

فأجابه [تيمستوكلس]: ما كنت لأدعك تستظهر عليّ يا [اريستيدس] وانا مختارٌ، في مثل هذه المناسبة العصيبة، وسأعمل جهدي للتفوق عليها بأعمالي، متأثراً خطى هذه البداية الطيبة.

ثم انه كشف له عن خطته التي دبّرها للايقاع بالبرابرة[١٨]، وطلب منه أن يعمل لإقناع [يوربيادس] بجدوى رأيه، ويبرهن له بانّ الخلاص بلا معركة هو من المستحيلات. لأنه أكثر ايماناً به من الآخرين. وفي مجلس الحرب الذي عقده قادة الأغريق نوّه [كليوقريطوس Cleoc-ritus] الكورنثي بأن اريستيدس لا يوافق على خطة تيمستوكلس، بدليل صمته المطبق. فقال [اريستيدس] انه ما كان ليصبر على الصمت الاّ لأن رأي تيمستوكلس هو الأفضل، وأن سكوته الآن ليس مبعثه عدم الرضا أو المعارضة، بله الموافقة والرضا عينه.

وفي اثناء انشغال القادة بهذا، وجد [اريستيدس] ان [پستّاليا Psyttalia][١٩] الجزيرة الصغيرة الواقعة داخل المضايق مقابل [سلاميس] ممتلئة بقوات عدوّة، فركب سفنه الصغيرة مع نخبة من أشجع قومه وأشدّهم اقداماً، ونزل ساحلها وأشتبك في معركة ضارية مع البرابرة وفتك بهم عن آخرهم إلاّ قبضة من أبرز رجالهم أخذهم أسرى. وكان بينهم ثلاثة أولاد

(١٨) كانت الحطّة تقضي بدس شخصٍ يضلل العدو بالزعم بان الاغريق يتأهبون لترك سلاميس. فاذا رغب الفرس في القضاء عليهم بأسرع ما يمكن فعليهم ان يهاجموهم قبل اقلاعهم. [أنظر سيرة تمستوكليس. وأيضاً هيرودوتس ٨:٥٧].

(١٩) معركة سلاميس: ٤٨٠ ق.م.

[لسانداوس Sandauce] أخت الملك، فبعث بهم الى تيمستوكلس في الحال. وقيل أنهم ضُحّوا قرباناً [لباخوس] الملقب «اومستوس» اي «الناهش»، تحقيقاً لنبوءة، وبإشارة من [يوفرانتيدس] الكاهن المتنبئ. وأبقى اريستيدس رجاله شاكي السلاح حول الجزيرة لانقاذ من يدفعه الموج اليها من أصحابه، ولكي لايفلت من يده رجل واحدٌ من العدوّ. فان القتال يتوقع أن يكون على أشدّه بالقرب من ساحلها، وقد صح ما توقع ولهذا اقيم النصب التذكاري للمعركة في تلك الجزيرة.

بعد المعركة اراد [تيمستوكلس] استطلاع رأي [اريستيدس] فقال له: انهما انجزا عملاً طيباً لكن هناك عملاً أعظم واضخم منه ينتظرهما. وهو ابقاء «آسيا» أسيرة «أوروپا»، وذلك بالابحار فوراً الى الهللسپونت (البحر الاسود) وقطع الجسر الذي يربط ما بين القارتين. وما كاد [اريستيدس] يعي قوله حتى صاح به: أن لا يفكر في مثل هذا العمل مطلقاً، بل ان يلتمس وسيلةً لإخراج [الميديين] من اليونان بأسرع ما يمكن لئلا يضطروهم اليأس الى شق طريقهم عنوة بجيشهم اللجب الجبار عندما يُقطع عليهم خطّ الرجعة، وتقفل امامهم ابواب الانسحاب. فأخذ برأيه وأرسل الى ملك الفرس أسيره [أرناكيس] الخصيّ، ليبلغه عن لسانه بأنه نجح في تحويل الاغريق عن نيتهم في الابحار الى الجسور، تحدوه في ذلك الرغبة الخالصة لسلامته.

فخاف [ارتخشتا] العاقبة وابحر فوراً الى الهللسپونت، الاّ أنه أبقى مع [ماردونيوس] أصلح قطعات جيشه وكانت تبلغ نحواً من ثلاثمائة ألف. وأثبت هذا القائد أنه خصم عنيدٌ يخشى جانبه فقد وضع ثقته في مشاته وأخذ يكتب للأغريق ما جرى في هذا السبيل:

- لقد قهرتم في البحر رجالاً تعودوا الحرب براً، ولم يحذقوا مسك المجاذيف. والآن ها هي ثسالي أمامنا، وكلها سهول منبسطة، وتلك بطاح [بويوتيا]، لتكونن ميداناً لذوي البأس الصناديد من المشاة والخيالة لا أصلح منه ولا أرحب.

على أنه أقدم على ارسال خطابات ووفود في السرّ الى الآثينيين بأمر الملك يعدهم فيها باعادة بناء مدينتهم. ودفع مبالغ طائلة من المال لهم، وبجعلهم سادة الأغريق، اذا خرجوا من هذه الحرب[٢٠]. وعلم اللقيديمونيون بالمفاوضة. فدفعهم خوفهم من قبول الآثينيين بها الى ارسال وفد يعرض على حلفائهم نقل زوجاتهم وأولادهم الى سپارطا مع تعهدهم بالنفقة لهم وضمان معيشتهم. وكان الآثينيون يمرون بمحنة شديدة بعد خراب مدينتهم وبلادهم - فلما

(٢٠) عرضت هذه المقترحات عن طريق الاسكندر المقدوني التي ضمنها خطبةً له، أجاب عليها الوفد السپارطي [هيرودوتس المرجع السالف ١٤٠، ١٤١].

سمعوا أقوال السفراء علناً أجابوا بردٍ مستوحى من اقتراح [اريستيدس] يستأهل أعظم التقدير والاعجاب. قالوا: إنهم لايعتبون على أعدائهم اذا ظنّ هؤلاء ان كل شيء يمكن شراؤه بالمال، لأنهم لايعرفون شيئاً ترتفع قيمته عن المال، أما اللقيديمونيون فهم متألمون منهم، لحصر اهتمامهم بفقرهم ومهنتهم التي يرزخون تحتها الآن فيعرضوا عليهم ارزاقاً ومؤناً، دون أن يذكروا بسألتهم وعزيمتهم الراسخة في القتال لأجل قضيّةٍ عامة. نطق اريستيدس بهذا ثم أمر بادخال السفراء الى مَحلّ الاجتماع، وأوصى مواطنيه أن يقولوا للوفد اللقيديموني بأن كل ما هو فوق الأرض وتحتها من كنوز، لا يعدل حرية اليونان عند الآثينيين. ثم اشار لسفراء [ماردونيوس] الى الشمس وقال:

- سيبقى مواطنو آثينا ما بقيت هذه الشمس ثابتةً في مسارّها - يواصلون حربهم مع الفرس في سبيل البلاد التي اضحت خراباً والمعابد التي ونّسوها وأحرقوها.

وزاد مقترحاً أصدار مرسوم يوجب على الكهنة فرض عقوبة الحَرَم الدينيّ على كلّ من يخرج عن الحلف اليوناني، أو يبعث بمناديه الى الميديين.

ولما قام [ماردونيوس] بغزوٍ آخر لآتيكا، نزح الأهالي مرة أخرى الى جزيرة [سلاميس]. فأرسل اريستيدس موفداً الى اللقيديمونيين، وراح يؤنبهم لتأخرهم عن نجدة آثينا وتخليهم مرة أخرى عنها لتقع في أيدي البرابرة. وطلب مساعدتهم للابقاء على الجزء الذي لم يقع بعد في يد الاعداء من بلاد اليونان. وعلى أثر سماع [الايفوري][٢١] ذلك عمدوا الى اقامة مهرجان رياضي طوال ذلك اليوم احتفاء به وعطلّوا فيه بوصفه يوماً مقدّساً (كانوا وقتئذ يحيون عيد الخزامى Hyacinth)[٢٢] متظاهرين بعدم الاكتراث وبالانشغال باللهو والمرح ولما جن الليل جردوا خمسة آلاف سپارطي منتقىً، يقوم على خدمة كل واحدٍ منهم سبعة من [الهيلوت] وأمروهم بالسير في غفلةٍ عن الوفد الآثيني. ثم عاودوا [اريستيدس] اللوم والعتاب، فقالوا له هازئين: إما انه معتوهٌ أو حالمٌ، لأن جيشهم وهو الآن في [اوريستيوم Oresteum]، يتقدم لملاقاة «الغرباء» كما يسمون الفرس. فأجابهم [اريستيدس] ان مزاحهم هذا في غير محله، وعليهم ان يخدعوا أعداءهم بذلك لا اصدقاءهم وهذا ما يذكره [ايدومينيوس] أما اقوال [اريستيدس]، فلا تعزى اليه بل الى [سيمون وگزانثيپتوس]. وهم الذين ارسلوا وفداً.

---

(٢١) أرجأوا اجابتهم من يوم الى يوم حتى افادوا من عشرة ايام اكملوا خلالها بناء الجدار عبر المضايق ليؤمن حمايتهم من البرابرة.

(٢٢) هي ثلاثة ايام عند السپارطيين أولها وآخرها يقضونهما في حداد على موت [هياسنت] ويقضى الاوسط كعيد حافل بالبهجة والافراح ويمارس فيه كل افانين الطرب واللهو. [انظر سيرة نوما].

ثم انتخب [اريستيدس] جنرالاً عسكريا، فعاد الى [پلاطيا] يقود ثمانية آلاف مقاتل آثيني، وهناك أنضمّ اليه [پاوسانياس Pausanias] القائد الأعلى لجميع قوات اليونان، بكلّ القوات السپارطية التي يقودها ثم تقاطرت عليهما كل القوات اليونانية الأخرى. وكانت مضارب جيش الفرس ممتدة على طول ضفاف نهر [آسپوس Aspus] وعددهم هائل، حتى أن المعسكر لم يكن يتسع له. فلجأوا الى تكديس اثقالهم ومعظم حاجاتهم الثمينة في ساحة مربعة مسيجّة يبلغ طول ضلعها عشرة فُرلنغات (حوالي ٢٠٠٠ يارد).

وتنبأ [تيسامينوس Tisamenus][٢٣] من الاليسي [لپاوسانياس] ولكلّ الأغريق بأن النصر سيكون من نصيبهم ان لم يبادروا العدو بالهجوم وأتخذوا موقف الدفاع. إلاّ أن اريستيدس لم يقنع بهذا وبعث يطلب الوحي من دلفي، فكان جواب الاله: أن الآثينيين سيقهرون اعداءهم ان هم توجهوا بالدعاء والضراعة [لجوپتر] و[لجونو] الكيثيروني Cithæron، و[لپان]، ولحوريات [سفراجيتيدس Sphragitides][٢٤]، وتقديم القرابين للأبطال [اندروقراطس Andeocrates] و[هيپسيون Hypsion] و[اكتيون Actaeon] و[پوليدوس Polyidus]، شريطة أن يخوضوا غمرات الحرب ضمن تخومهم في سهل [سيريس اليوسينيا Ceres Eleusinia، وپروسپرين] فزادت حيرة [اريستيدس] بهذه النبوءة، لأن الابطال الذين اشير عليه بالتقريب لهم كانوا من زعماء الپلاطيين، ولأن كهف حوريات (سفراغبيتدس) كان يقع في قمة جبل (كسيثرون) من الجهة المواجهة للشمس الغاربة في وقت الصيف. وفي هذا الموضوع على ما يذكره الرواة، كان يوجد معبدٌ لاستنزال الوحي، وقع كثير ممن يسكن المنطقة تحت تأثيره، واطلق عليهم اسم (نيمفولپتي Naympho-lepti). أي الذين حلّت فيهم ارواح الحوريّات. امّا بخصوص سهل (سيريس اليوسينيا) ومسألة ضمان النصر للآثينيين اذا جرى القتال في بلادهم فكان يقتضي عودتهم من حيث أتوا ونقل الحرب الى اراضي آتيكا بالذات.

وفي تلك الاثناء رأى (اريْمنيستوس Arimnestus) قائد الپلاطيين في الحلم أن (چوپتر

---

(٢٣) تنبأ العراف [تيامينوس] بانتصارات خمسة. وكان اللقيديميون يريدون ان يجعلوه عرافة خاصاً بهم فطلب منحه المواطنة السپارطية فأبوا عليه ذلك أول الأمر. وباقتراب الفرس منهم عدلوا عن رأيهم ومنحوه هذا الامتياز هو واخوه [ايفياس].
وهو حدث بسيط قد لايستدعى ذكره. إلاّ أن هذين الشخصين كان أوّل من فاز بهذا الامتياز في تاريخ سپارطا.

(٢٤) سميت حوريات الجبل [كيثيرون] بهذا، نسبة الى كهف في الجبل يعرف بهذا الاسم (سفراكيديون) وربما أطلق على أولئك الذين أعتادوا الذهاب اليه للتأمل واستنزال الوحي [انظر باوسنياس ٩ وهيرودتس ٩:٦٩].

المخلّص) سأله عما اعتزمه الاغريق فأجابه:

- غداً يا مولاي سنزحف بجيشنا على اليوسيس، وهناك نقاتل البرابرة طبقاً لما أوحى به ابوللو.

فرد عليه ابو الآلهة قائلاً: انهم يخطأون خطأ مبنياً، لأن المواضع التي ورد ذكرها في النبوءة تدخل كلها ضمن حدود پلاطيا.

ولو بحثوا لوجدوها هناك.

هذه الرؤيا الواضحة بمعانيها تبدت (لاريمنيستوس) فما ان استيقظ حتى ارسل بطلب المعمرين من قومه واكثرهم معرفة وتجربة. وقصّ عليهم الأمر وناقشهم فيه. فظهر بالنتيجة أنه يوجد معبد قديم جداً يدعى «معبد كيريس اليوسينيا، وپروسپرين» بالقرب من (هيساي Hy-siae) عند قدمة جبل (كيثيرون). فأخذ اريستيدس اليه، وتبين انه افضل موضع لتعبئة جيش المشاة لان المنحدرات التي هي في لحف جبل (كيثيرون) تجعل السهل الذي ينتهي بصعودٍ حتى المعبد، غير صالح لحركات الخيالة مطلقاً. كما كان يوجد في الموضع نفسه معبد (اندروقريطس) يحيط به الأيك الظليل ولأجل تحقيق شروط النبوّة كلها توصّلاً للنصر، اقترح (اريمنيوستوس) ان تزال حدود بلادهم المتصلة باتيكا ويُمنح هذا الجزء من الأرض للآثينين حتى يكون قتالهم عن الآغريق في داخلية بلادهم فعلاً، فلم يبد الپلاطيون اية ممانعة.

ذاع امر هذا الجرد والشهامة واشتهر، حتى ان الاسكندر بعد استيلائه على كلّ ممالك اسيا، راح يعيد بناء اسوار (پلاطيا) وأمر أن ينادي منادي الالعاب الاولمپية بأن الملك خصّ المدينة بهذا الإنعام تقديراً لنبل أهلها وسمو روحهم في تنازلهم عن جزء من بلادهم بكلّ رحابة صدر في اثناء الحرب مع الميديين. وقاتلوا بكلّ تفانٍ في صفوف الاغريق.

ونازع التيجياتيون الآثينيين على مركز الشرف وطلبوا ان يكون موضعهم في المعركة - الميسرة، بعد أن وُضع السپارطيون، في الميرنة كما جرت به العادة. وراحوا يتشبثون بمزاعم عديدة حول مآثر اجدادهم واسلافهم. واستنكر الاثينيون هذا الإدعاء وثار سخطم فانبرى (اريستيدس) قائلاً:

- الموقف الحاضر لايسمح بالتفاخر مع التيفياپتين بالشجاعة وشرف المحتد لكن اسمعوا قولنا انتم ايها السپارطيون، وانتم ايها الأغريق جميعاً، انه موضع المعركة لايجرّد المرء من الشجاعة، ولايكسبه اياهًا. ونحن سنجاهد بصمودنا وبلائنا الحسن في الموضع الذي يصيبنا، بالاً نلحق عاراً بماضينا ومآثرنا السالفة. لم نأت هنا بالالعاب مع اصدقائنا، بل

لنحارب اعداءنا. جئنا لانشيد بامجاد اسلافنا، بل لنسلك سلوك ذوي البأس. وستثبت هذه المعركة قيمة كل مدنية وكل قائد وكل جندي بسيط الاغريق.

وبناء على هذا الكلام قرّر مجلس الحرب الأعلى اعطاء الحكم لصالح الآثينيين، ووضعوا في الجناح الأيسر.

كان القلق يسود كل بلاد الاغريق. ولاسيما وضع الآثينيين غير المستقّر، فقد افقرت الحرب بعض ذوي الأسر الراقية الغنية. وزالت مظاهر نفوذهم ومنازلهم الرفيعة مع ثرواتهم. فاتفقوا مع آخرين مازالوا محتفظين بنفوذهم وغناهم، واجتمعوا سراً في منزل (بيلاطيا) ليأتمّروا على نظام الحكم الديمقراطي ويزيلوه وبعد نجاح مؤامرتهم هذه، يسلمون بلاد الاغريق للبرابرة. ويجهضون القضية الكبرى. وسادا للغط والاضطراب المعسكر، وامكن استمالة عدد كبير من الرجال. ووقف اريستيدس على المؤآمرة، وكانت الظروف التي تمر بالبلاد عصيبة دقيقة فقررّ أن يضع حداً لهذا، وأن لايكشفها كشفاً تاماً ولانه كان يجهل كم سيبلغ عدد المتهمين الذين سيطالهم الاتهام، ولرغبته في وضع حدٍ للعدالة يتفق والمصلحة العامة لم يقبض على اكثر من ثمانيةٍ بين مساهمين كثيرين، وكان ثم اثنان من الرؤوس الاكثر اجراماً: (ايسخينيس Æschines) اللامپري Lampria و اجيسياس Agesios الأخارني اطلقا ساقيهما للريح وهربا من المعسكر. ثم عفا عن المقبوض عليهم، وبذلك اتاح فرصة ندمٍ مشجعة للذين لم ليفتضح أمرهم، معتبراً الحرب التي سيخوضونها اعلى محكمة يتطهرون بها من رجس جريمتهم باظهار نواياهم المخلصة الطيبة ازاء الوطن.

بعد هذا[٢٥]، رغب (ماردونيوس) في امتحان شجاعة الاغريق بارسال خيالته باجمعها للهجوم وكان يعتقد انه متفوق بهذا السلاح تفوقاً ساحقاً. وكان الاغريق قد اتخذوا مواقعهم في قدمات جبل (مسيپرون)، ومتحصنين في مواضع صخرية منيعة ماعدا (الميغاريين)، وهؤلاء، ويبلغ عددهم ثلاثة الآف، قد ضربوا خيامهم في السهل المنبسط فالحقت بهم الخيالة اضراراً بنيغة بهجومها عليهم من جميع الجهات واختراق صفوفهم. فعجلوا بطلب النجدة من (پاوسانياس) لأنهم عجزوا وحدهم عن صدّ العدد الكبير من البرابرة. وابلغ (پاوسانياس) بذلك، وشاهد خيام (الميغاريين) تكاد تحجبها موجات من الرماح والسهام المقذوفة، وهم

(٢٥) جرت موقعه پلاتيا في ٤٧٩ ق.م اي بعد موقعة سلاميس بسنةٍ واحدة. وكان هيرودوتس في ذلك الزمن صبياً في العاشرة أو التاسعة استقى تفاصيله عنها - وهي تختلف عن رواية پلوتارخ - من أشخاص كانوا فيها وخاضوا غمارها. ويقول ما يستفاد منه ان ما ذكر پلوتارخ انما وقع قبل ان يترك الاغريق المعسكر في [ايريثري] الى معسكرٍ آخر حول پالاتيا وقبل أن يتنازع الآثينيون والتيگياني.

يتقهقرون كتلةً واحدةً الى فسحة ضيقة. فحار في امره ولم يدر كيف ينجدهم بلوائه المؤلف من اللقيديمونين ذوي الاسلحة الثقيلة. فاقترح على القادة والضباط المحيطين به أن يعملوا من نجدة الميغاريين، مباراة في البسالة واطلاب المعالي، وأودع المسألة الى اختيارهم. فأحجم الجميع إلاّ (اريستيدس) الذي اضطلع بالمهّمة للآثينيين وأرسل (اولمپيودوروس Olympiudor-us) اشجع ضباطه الصغار بثلاثمائة من الصفوة المنتقاة وبعض رماة السهّام. فتهيّأ فوراً وصال على العدوّ. وما أن لحق (ماسيستيوس Masistuis) قائد الخيالة الفارسية علمٌ بذلك حتّى ألوى عنان جواده واتجه اليهم، و(ماسيستيوس) هذا رجل ذو بأس نادر المثال، وهيكل جبّار، وصورة حسنة جذابة. وتمكن الآثينيون من صّد الهجمة والاشتباك معه. وحمي وطيس القتال الى آخر حدٍ حتى لكان مصير الحرب كلّها متوقف عليه، وان الطرفين يحاولان كسبها هنا. واصيب جواد (ماسيستيوس) بطعنةٍ فرمح راكبه فسقط على الأرض وتعذر عليه القيام لثقل دروعه، وادركه الآثينيون وصاروا يهوون عليه بضرباتهم دون جدوى لأن سائر بدنه مصفح بالدروع، حديداً ونحاساً وذهباً ولاسيما صدره ورأسه واطرافه الاّ ان واحداً منهم قضى عليه في النهاية بطعنة مرت من فتحة خوذته. فترك بقية الفرس جثته وهربوا. ولم يعلم مقدار نجاح الآثينين من كثرة عدد القتلى لأنهم لم يفتكوا بعددٍ كبيرٍ، بل بالحزن الذي ابداه البرابرة. فقد حلقوا شعورهم وجزواً نواصلي خيّلهم وبغالهم لموت قائدهم وملأوا السهل نواحاً وعويلاً. فقد خسروا قائداً يفوق اعظم ماردونوس قادتهم بمراحل - سواء في الشجاعة او في السلطة.

وبعد معركة الفرسان هذه، احجموا عن القتال فترة طويلة لأن العرافين تنباؤا من القرابين بالنصر للأغريق وللفرس إن اتخذوا موقف الدفاع وتنباؤا بالعكس ان لجأ اي فريق الى الهجوم واخيراً عيل صبر ماردونيوس. فقد نفدت ارزاقه ولم يبق له الاّ مايكفي لايام معدودات. بينما كانت قوات اليونانيين تزداد باطراد بما ينضم اليها باستمرار، فقرر ان يخرج من سباته فيعبر نهر (آسپوس) عند الفجر ويفاجيء الاغريق من حيث لايتوقعون. وانهى بخطته هذه الى رؤوساء عسكره ليلاً. وفي حوالي نصف الليل تسلل فارسٌ الى معسكر الأغريق وطلب من الخفراء أن يستدعوا (أريستيدس) الآثينين اليه. فجاءه حالاً فابتدره قائلاً:

- أنا الاسكندر ملك المقدونيين! جئت راكبا الأهوال والمخاطر العظام مدفوعا بالنوايا الطيبة التي اكنها لك لئلاتحلّ بكم نكبة من هجوم مباغت بتصرفكم في القتال تصرفاً سيئاً. غدا سيدخل ماردونيوس معكم في معركةٍ مضطراً بسبب قلة ارزاقه، لا آملاً بالنصر او اعتماداً على الشجاعة؛ فقد منعه العرافون من القتال لان القرابين والوحي لم تكن تبشر بخير. والجيش قد تردت معنوياته وعمّه السخط؛ فالضرورة ترغمه على تجربة خطّه في

القتال. او البقاء ساكناً واحتمال اقسى حالات الجوع والحرمان.

وبعد أن انهى الاسكندر اقواله، اوصاه أن يتذكره ولاينساه وان لايذكر شيئاً لأحدٍ. الاّ ان (اريستيدس) قال انه ليس من المناسب اخفاء الأمر عنٍ پاوسانياس لأنه القائد العام، وسيحتفظ بالسّرِ ولا يعلم به احداً غيره، حتى ختام المعركة. ولكن إذا عُقد لواء النصر للاغريق فلا شكٌ في أن من حق الاغريق كافةً أن يعلموا بحسن نية الاسكندر تجاههم وعطفه عليهم. وبعد هذا امتطى ملك المقدونيين جواده وانصرف وعاد اريستيدس الى خيمة پاوسانياس وابلغه بما جرى، ثم بعثا بطلب امراء القطعات الآخرين وابلغوهم بوجوب تنظيم الجيش على خط القتال.

وهنا، يقول (هيرودوتس) المؤرخ، ان (پاوسانياس) تكلّم مع (اريستيدس) طالباً منه الانتقال بالآثينيين الى الجناح الايمن من الجيش، بمواجهة الفرس، (إذ ان فائدتهم ستكون اكثر لأنهم كانوا اعرف من غيرهم بأساليب حرب الفرس واكثر خبرة بها. وكذلك للمعنويات التي بثتها انتصاراتهم الماضية في نفوسهم) وان يأخذ هو الجناح الأيسر حيث سيقوم الاغريق (الميديزنگ Medizing) بهجومهم. وعَدّ كل قادة الآثينيين هذا، اهانة وتدخلاً من (پاوسانياس) لانه نقلهم وحدهم من محلّ الى محلّ كالهيلوت الكثيرين، ليواجهوا قوة العدوّ الكبرى في حين ترك بقية قطعات الجيش ثابتةً في اماكنها. إلاّ ان اريستيدس، قال انهم على خطأ مبين. فان كانوا قبل فترة حدّ قصيرة قد نازعوا (التيجانيين) على الميسرة، واغتبطوا كثيراً عندما فضلّوا على عليهم واختصوا بها، فكيف يمتعضون عندما ترك لهم اللقيديمونيون الميمنة وهو ما يقرب التنازل لهم عن قيادة الجيش، وبأي وجه يتظلمون من كسبهم شرفٍ كهذا ولايعدون قتالهم لا لبني قومهم وذويهم بل للبرابرة وغيرهم ممن هم اعداؤهم الطبيعيون. غُنماً لهم وتكريماً؟ وعلى اثر ذلك تبادل الآثينيون المواضع مع اللقيديمونيين بكل سرور واخذوا يتبادلون احاديث التشجيع والحماسة كقولهم أن العدوّ لايهاجم الآن باسلحة افضل، وقلوبٍ اقوى مما حارب به معركة (مراثون). ونشّابه هي هي، ومعاطفهم المطرزة وذهبهم نفسه، كذلك اجسامهم الرقيقة وادمغتهم الضعيفة لم تتغير: «ونحن مازالت عندنا اسلحتنا واجسامنا نفسها، وشجاعتنا المتعاظمة بانتصاراتنا. واننا لانقاتل كالآخرين دفاعاً عن انفسنا فحسب، وانما نقاتل لاجل ذكريات (سلاميس ومراثون)، حتى لاينظر اليها كانها انتصارات للمتياديس، أو للحظ، بل انتصارات شعب آثينا».

ولهذا خفوا سراعاً ليتخذوا مواقعهم الجديدة في المعركة. ولكن (الثيبيين) الذين اطلعوا على هذا التغيير من احد الفارين، أسرعوا لإبلاغ (ماردونيوس) به. فقام هذا امّا خوفاً من

الاثينيين او رغبة منه في الاشتباك مع اللقيديمونيين - بتحويل قطعاته الفارسية مقابل الجناح الآخر وأمر بوحدات الاغريق التي تخدم في جيشه، ان توضع بمواجهة الآثينيين. ولوحظ هذا التغيير من الجانب الثاني، فاستدار (پاوسانياس) على عقبيه واحتل الميمنة ثانيةً، وقام (ماردونيوس) أيضا باحتلال الميسرة من جيشه ضد اللقيديمونيين كما كان في الاول وهكذا مَرَّ اليوم بدون اشتباك.

بعد هذا اجمع رأي الأغريق على نقل معسكرهم الى مسافةٍ ابعد. ليسيطروا على موضع يؤمن لهم حاجتهم من الماء. لأن الينابيع القريبة منهم دمرتها الخيالة الفارسية وعكرتها. ولكن الليل ادركهم والضباط يتوجهون نحو الموضع المعين لعسكرتهم، إلا ان الجنود لم يكونوا مستعدين للسير وراءهم وتكتلّوا معاً، وما ان تركوا المتاريس والاستحكامات الامامية حتى اندفعوا نحو (پلاطيا). وحصلت فوضى واختلال عظيم اثناء تفرقهم لضرب خيامهم في رقاع مختلفة من الارض. وشاء القدر أن يتخلف اللقيديمونيون عن الباقين رغم ارادتهم. فقد اعلن (آمومفراريطس Amomphraretus) وهو رجل باسل مقدام كان يلتهب حماسة الى القتال منذ زمن طويل، وينقم على تأخيراتهم المتعددة وتأجيلهم، ووصف نقل المعسكر فراراً وهزيمة لاغير؛ اعلن هذا إنه لن يترك موقعه وسيبقى مع سريته لصدّ هجوم ماردونيوس؛ فاقبل عليه (پاوسانياس) وقال له أنه يفعل ذلك اطاعة للقرار الاجماعي الذي اتخذه الاغريق نتيجة الاقتراع. فرفع (امومفراريطس) صخرة كبيرة والقاها عند قدمي (پاوسانياس) وقال:

- أشهدتك بهذه! أما اعطيت صوتي الى جانب المعركة؟ هل شاركتُ احداً من الرجال في مقرراتهم ومقترحاتهم المتسّمة بالجبن

ولم يدر (پاوسانياس) ما يفعل في تلك الساعة الاّ ان يبعث الى الآثينيين الذين كانوا ينسحبون، فيأمرهم بالبقاء معه. ثم انطلق هو وبقية الجيش الى (پلاطيا) مؤملاً ان يحمل (امومفراريطس) على احتذائه.

وفي تلك الاثناء انبلج الصبح. وكان ماردونيوس يعلم بمغادرتهم معسكرهم. فأمر بتهيئة جيشه للمعركة ثم حمل على اللقيديمونيين بضجة وصياحٍ عظيمين كما هي عادة البرابرة كانهم يريدون سحق الاغريق سحقاً وهم في عملية الانسحاب، لا أن يشتبكوا معهم في قتال، يحاول كلا الجانبين الاّ يكون البادىء فيه. الاّ ان المعركة وقعت فعلاً اذ ان (پاوسانياس) توقف عن الانسحاب عندما رأى ما يحصل - وأمر الجميع أن يتخذوا نظام المعركة. الاّ انه نسي أن يصدر الامر الى الاغريق عموماً إمّا لان غيظه من (امومفراريطس) اطار صوابه، واما بسبب صولة العدوّ المفاجئة. ولهذا لم يعودوا حالاً جملةً واحدة الى مساعدتهم، بل بسرايا وفصائل

قليلة العدد متتابعة متباطئة بينما كان القتال قد نشب. وباشر (پاوسانياس) بتقديم القرابين إلاّ أنه لم يجد دلائل مشجعة فيها. ولهذا أمر اللقيديمونيين أن يلقوا بتروسهم عند اقدامهم وان يتبعوا وينفذوا تعليماته بهدوء، والاّ يقاوموا العدوّ ابداً. وبينما هو يُقرّب ثانية هجمت خيالة الفرس وجرح بعض اللقيديمونيين. وفي هذا الوقت أصيب (كاللّيكراتس) بسهمٍ، وكان على ما قيل أجمل رجلٍ في الجيش، وفيما هو يُحتضر قال انه لا يأسف على موته لانه جاء من بلاده ليبذل حياته دفاعاً عن اليونان، بل يأسف لانه يموت بلا قتال. وكان الموقف صعباً في الواقع، واحتمال الرجال عجيباً، لانهم تركوا العدوّ يهجم عليهم دون ان يحاولوا مقابلته وصدّه وتحملوا الجراح والقتول التي كان العدوّ يوقعها في صفوفهم منتظرين فرصتهم المناسبة من آلهتهم وقائدهم. ويقول بعضهم بينما كأن پاوسانياس منهمكاً في تقريبه ودعائه على مسافة بعيدة من خط المعركة، حمل عليه بعض (الليديين) فجأة وعبثوا بقرابينه ونهبوها، ولم يكن (پاوسانياس) ورفاقه يحملون سلاحاً، فقابلوهم بالسياط ومحارك النار والعصي وطردوهم. ويقوم الناس في سپارطا الى يومنا هذا بجلد الاولاد بالسوط حول المذبح تقليداً لهذه المعركة، ومن بعدهم الاحتفال (الليدي) كذلك.

وضاقت نفس پاوسانياس بهذه الامور، فترك الكهنة مستمرين في القرابين احدها بعد الاخر، والتفت نحو المعبد والدموع في عينيه ورفع يديه الى السماء متضرعاً الى (جونو صيثيرون) وغيره من آلهة البلاطين الكبار الشفعاء. قائلاً ان لم يكن النصر مقدراً للاغريق، فدعهم لايموتون قبل ان يحققوا مأثرة، وان يثبتوا باعمالهم لعدوهم انه يقاتل رجالاً ذوي بأس، وجنوداً رضعوا لبان الجندية. وبينما كان (پاوسانياس) يقوم بدعواته على هذه الشاكلة ظهرت بشائر طيبة في القرابين وتنبأ العرافون بالنصر. فسرى الخبر، واذا بجحفل المشاة اللقيديموني يهب فجأة كما ينهض وحش هائل ويشب على قدميه متحفزاً للمعركة. وادرك البرابرة انهم يواجهون بهم رجالاً حلفوا على القتال حتى الموت. فرفعوا تروسهم المنسوجة من الاغصان لحماية ابدانهم وراجوا يفوقون سهامهم على صفوف اللقيديمونين، لكن هؤلاء حافظوا على رصانة (فلانكسهم) وحملوا حملة صادقة على العدوّ واطاروا تروسهم من ايديهم ووجهوا اسنة رماحهم الي الصدور والوجوه. وصرعوا منهم عدداً كبيراً، ولم يسقط هؤلاء دون ان يثأروا لانفسهم، ولم يظهروا ما يدل على جبنٍ، فقد كانوا يقبضون على رؤوس الرماح بايديهم العارية ويكسرون قناها، واستخدموا سيوفهم استخداماً مؤثراً. وصالوا بسيوفهم العريضة منها والمعقوفه وانتزعوا التروس من ايدي اللقيديمونيين وتشابكوا معهم بالأيدي، وظلوا يقاومون امداً طويلاً.

بقي الآثينيون وقتاً ملياً لايأتون بحركةٍ، منتظرين مقدم اللقيديمونيين. فلما سمعوا ضجيج القتال العظيم، وعندما جاءهم - على ما قيل - رسول من (پاوسانياس) يحمل اليهم انباء ما يحدث، خفوا سراعاً الى نجدته. وبينما هم يقطعون السهل نحو مصدر الضجة، اذا بهم يلتقون بالاغريق المنحازين الى صفوف الاعداء، وعندما أثبتهم اريستيدس، ابتعد عن قطعاته مسافة كبيرة وصاح يستحلفهم بالآلهة الحارسة الاغريقية أن يتخلوا عن الحرب ولايكونون عقبة، او عثرة لاؤلئك الذين يتجهون الى معونة المدافعين عن بلادهم. ولما وجد انهم لا يلقون بالاً على ما يقول، وانهم اخذوا يستعدون للمعركة. صرف النظر عن نجدة اللقيديمونيين حالياً، والتحم بهم وكانوا يعدون خمسة الآف. ولكن مالبث معظمهم أن تخاذل وتقهقر، كما اطلق البرابرة سيقانهم للريح ايضاً. وقيل ان اشد القتال كان مع الثيبيين وفي ذلك الوقت كان رؤوساؤهم واكثر ذوي النفوذ فيهم منحازين الى جانب الميديين، متحمسين لهم، وقد جروا معهم الشعب خلافاً لرغبته، لأن الحكم الذي ساد ثيبة آنذاك كان حكماً او ليغارشياً.

كانت صفحات المعركة اذن، كما يلي. في المبدأ هزم اللقيديمونيون الفرس، وتمكن سپارطي اسمه (أريمنيستسوس)[٢٦] من قتل (ماردونيوس) بصخرة شجت رأسه تحقيقاً لبنوءة في معبد (امفياروس) Amphiarsus نقلت له. فقد بعث (ماردونيوس) للغرض المذكور، رجلاً ليدياً وبعث وبآخر كاريّ الى كهف (تروفونيوس)[٢٧] Trophonius). واجاب كاهن المعبد ثانيهما بلغته الخاصة. اما الليدي فبينما كان نائماً في معبد (امفياروس)[٢٨] خيل له ان كاهناً عرافاً يقف منتصباً امامه يأمره بالرحيل وعندما رفض ذلك دفع بصخرة كبيرة فوق رأسه فظن أن الضربة قتلته تلك هي الحكاية. ولنعد الآن الى المعركة: دفع اللقيديمونيون المنهزمين الى داخل حيطان الخشب المحيطة بمعسكرهم، وبعد قليل هزم الآثينيون (الثيبين) وقتلوا ثلاثمائة من ابرز وارفع رجالهم مقاماً في ساحة القتال نفسها. وعندما بدأوا يولون الأدبار وردت الانباء بأن البرابرة محاصرون داخل معسكرهم. وبهذا اعطى الآثينيون فرصة النجاة لهؤلاء الاغريق، بسيرهم لمساعدة اللقيديمونين في الحصار، وكان هؤلاء قليلي الخبرة،

(٢٦) في بعض النسخ يكتب ديامنستُس Diomnestus. ومن جاء ذكره في المتن هو قائد الپلاتيين.

(٢٧) بالقرب من مدينة ليباديا في بويوتيا فوق دلفي. كان [ماردونيوس] قد أرسل لاستخارة لا هذا المعبد وحده، بل كل المعابد في البلاد. فقد كان قلقه شديداً بخصوص نتيجة الحرب [المرجع السالف ١٣٥ و ١٢٣].

(٢٨) هو [أمفايراؤوس] الذي أبتلع هو وعربته حَيّاً أثناء حرب الزعماء السبعة ضدّ (ثيبه) كان لديه معبد وعرافة في (اوريوس) في آتيكا على حدود بويوتيا. كان مفسراً أحلام لايشق له غبار في اثناء حياته وبعد موته صار يرسل نبواته عبر الاحلام والرؤى. لذلك كان طالبوا الاستخارة في معبده يستلقون نائمين على جلد كبش ضحوا به له.

والمهارة في اقتحام التحصينات. فقاموهم باقتحامها واستولوا على المعسكر[٢٩] واوقعوا بالمغلوبين مقتلةً عظيمة. اذ لم ينج مع (ارطباز Artobozus) الاّ اربعون الفاً من اصل الثلاثمائة الف على ما قيل، وكانت خسارة الجانب الاغريقي الفاً وثلاثمائة وستين فقط[٣٠]. بينهم اثنان وخمسون آثينياً، كلهم من قبيلة (إيانيتس Æantis) وقد قال عنهم (قليديموس Clidemus) انهم فاقوا الجميع شجاعة. ولهذا السبب اعتاد رجال هذه القبيلة ان يقدموا القرابين الى (حوريات سفراجتيدس) بمناسبة النصر كما نصت عليه النبوءة، وتصرف نفقاتها من الخزانة العامة. وقتل من اللقيديمونيين واحد وتسعون ومن التيجيانيين ستة عشر. والمرء يستغرب حقاً علام استند (هيرودوتس) في قوله انهم وحدهم اشتبكوا بالعدوّ ولا احد غيرهم، لان عدد القتلى، وانصابهم تشهد بأنّ النصر كان بمجهود الجميع وإسهامهم عموماً. واذا كان الباقون قد وقفوا كالمتفرجين بينما خاض رجال المدن الثلاث غمار المعركة وحدهم، لما نقشوا على المذبح هذه الكتابة:

قُدّم هذا المذبح العمومي من اليونان الحرة الى جوبتر حارس الاحرار. عندما دحر الاغريق الفرس في ساحة القتال بقوتهم وشجاعتهم.

خاضوا هذه المعركة في اليوم الرابع من شهر (بيودروميون) حسب التقويم الآثيني. وفي اليوم السابع والعشرين من شهر (پانيموس Panemus) حسب التقويم (البويوتي) وفي هذا اليوم من كل عام يقام اجتماع للاغريق في (پلاطيا). وما يزال الپلاطيون يقدمون قرابين النصر الى (جوبتر الحرية). اما عن اختلاف الايام فلا غرابة في الامر. فمبدأ الاشهر يتفاوت حتى في ايامنا هذه التي امتازت بزيادة معلوماتنا الفلكية ودقتها.

وبعد ان ابى الآثينيون أن ينزلوا للقيديمونيين عن شرف ذلك اليوم. وابوا عليهم اقامة نصب تذكاري. باتت الامور على شفا جرف هار من الانقسام والخلاف بين قوات اليونان المسلحة، لو لم يهدىء اريستيدس الحالة ويقنعهم بترك الامر الى قرار الاغريق كافة. وقد بذل في ذلك جهدا عظيماً لتسكين الخواطر وتبادل الرأي مع القادة ولاسيما (ليوقراطس Leocrates) و (ميرونيدس Myronides). فلما بدأوا يتداولون في الامر أعلن (ثيوجيتون Theogiton) الميغاري أن شرف النصر يجب أن يمنح لمدينة أخرى اذا ارادوا تجنب الحرب الاهلية. ونهض بعده

(٢٩) الغنائم أكثر من أن تعد وتحصى. فهنالك كميات كبيرة من الاقداح والاوعية والمعاضد والحلي وكلها امّا من الذهب أو من الفضة. والأرائك الثمينة وكل أنواع الأثاث. وقد أعطي پاوسنياس عُشر الغنيمة برمتها.

(٣٠) اتضح لـ(أرطباز) سوء فعلة [ماردونيوس] وشعر بما سيحل به من نكبات. فبعد أن أبلى أحسن البلاء في المعركة انسحب في الوقت المناسب بأربعين ألفاً كانوا تحت قيادته. فبلغ (بيزنطيوم) سالماً ومن ثم عبر الى آسيا. وفيما عدا هؤلاء لم ينجُ غير ثلاثة آلاف أخرين [هيرودوتس ٩: ٣١ – ٦٩].

(كليوقريطوس Cleocritus) الكورنثي فخيل للناس انه يريد ان يطلب (الغُصن) للكورنيثين (لأن كورنث جاءت في التقدير بعد سپارطا وآثينا). لكنه لدهشة الجميع أدلى برأيه في اختصاص (پلاطيا) بهذا الشرف. واقترح ازالة اسباب الخصام باعطائها الجائزة والشرف لان تقليدها هذا المجد لن يكون مكروها من اي طرفٍ. فبادر (اريستيدس) لاعلان قبوله نيابةً عن الآثينيين، وتبعه (پاوسانياس) عن اللقيديمونيين. وبهذا تمّ رأب الصدع. فأخرجوا ثمانين تالنتاً للپلاطيين، الذين انفقوها على بناء معبد لمينرڤا مع تمثال وزينوه بصور وتهاويل، مازالت الى يومنا هذا تبهر الناظر، لاحتفاظها بروعتها. على ان كلاً من اللقيديمونيين والآثينيين اقام لنفسه ايضاً نصباً تذكارياً خاصاً. وعندما استخاروا في كيفية تقديم القرابين اجاب اپوللو بأن عليهم تكريس مذبح خاصٍ (لجوپتر الحرية)، وان لايقربوا شيئاً إلاّ بعد اطفاء النيران في كلّ البلاد، لأن البرابرة قد دنسوها؛ واشعال نار طاهرةٍ في المذبح العمرمي بدلفي. فباشر حكام الاغريق فوراً بحمل كل ذي نار على اطفائها. وتعهد (يوخيداس) الپلاطي أن يأتي بالنار باسرع ما يمكنه من معبد الإله وانطلق الى دلفي وبعد أن اغتسل وتطهر وظفر رأسه بتاج الغار أخذ النار من المعبد واسرع يعدو نحو پلاطيا فوصلها قبل مغرب الشمس، منجزاً في يوم واحدٍ قطع مسافة قدرها الف فرلنغ (١٠٠٠٠٠ يارد تقريباً) وحيا اهل مدينته وقدم لهم النار، ثم سقط ولفظ روحه بعد قليل. فدفنه الپلاطيون في معبد (ديانا يوكليـ) وخطوا على ضريحه العبارة التالية:

«جرى يوخيداس نحو دلفي ثم عاد منها في يوم واحد».

ويعتقد معظم الناس ان (يوكليا) هي (ديانا) ويطلقون عليها هذا الاسم. الاّ ان بعضهم يقول انها بنت هرقل من (ميرتو Myrto) بنت (مينويتوس Menoetus) واخت (پاتروكلس Patroclus). وبموتها عذراءَ عبدها (البويويتون واللوكريون). واقاموا مذبحها وصورتها في ساحتهم العمومية. ويقدم القرابين لها العرسان من كلا الجنسين قبل الزواج[٣١].

ودعي الى اجتماع لعموم الأغريق. واقترح اريستيدس، اصدار قانون يقضي ان يعقد اجتماع سنوي في (پلاطيا) يحضره نواب وممثلون من رجال الدين عن جميع الدول الاغريقية. وان يحتفل كل خمس سنواتٍ باقامة ألعاب الحرية = (إليوثيريا Eleutheria). وأن يُطوّع الاغريق كلهم جيشاً قوامه عشرة آلاف رامح وألف فارس واسطول قوامه مائه سفينة، على ان يعفى بعض الپلاطيون من المساهمة فيه، ويبقوا وقفاً على خدمة الآلهة وأن يقدموا القرابين

(٣١) مبدء قانوني: تقديم اضحيته قبل الزواج الى ديانا «ذات الخبر السّار» دليل على أن سعادة الزواج تتوقف الى حدٍّ يعيد على التمسك بعرى الخلق الرفيع.

لخير بلاد اليونان، فصودق على اقتراحه. وتعهد البلاطيون بتقدمة القرابين السنوية عن روح من قتل ودفن في ذلك الموضع ومازالوا يقومون بذلك بالمراسيم التالية:

في اليوم السادس عشر من شهر (ميماكتيريون Memacterion) (وهو شهر «الالكومينس Alalcomenes» عند البويوتيين). يبدأ الموكب بالمسيرة وقت انبلاج الصبح ويتقدمه بوقيٌ ينفخ نفير الهجوم ثم يتبعه عدد من العجلات موقرة بالمرّ وقلائد الزهر ويأتي بعدها ثور أسود ثم مجموعة من الشبان الايفاع، الأحرار بالولادة يحملون القرابين المائعة من خمرٍ وحليب في اوعية كبيرة ذات مقبضين، وجراراً مليئة زيتاً ودهاناً. ولا يسمح لمن كان في اية حالة من حالات الرقّ بالمساهمة في هذه المراسيم لأن الرجال ماتوا دفاعاً عن الحرية. وبعد هذا يأتي كبير حكام بلاطيا وهو بثياب الأرجوان في تلك المناسبة (في غير ذلك من المناسبات لايسمح له لا بلمس الحديد، ولا بارتداء ثوبٍ ملون خلا الأبيض) ويحمل وعاء ماء يؤخذ من دائرة سجلات المدينة ويسير مشهراً سيفاً بيده الى وسط المدينة حيث تقوم الاضرحة، ويستقي ماءً من الينبوع فيغسل الاساطين[٣٢] ويدهنها بالزيت ويضحي بالثور وهو ملقى فوق كومة من الخشب ويصليّ لجوبتر الارضي[٣٣]، ويدعو اولئك الشجعان الذين ماتوا دفاعاً عن بلاد اليونان الى المأدبة والى قربان الدم. وبعد ذلك يمزج وعاءٍ خمراً ويصب شيئاً منه لنفسه ويقول:

- إني اشرب نخب اولئك الذين فقدوا حياتهم في سبيل استقلال اليونان.

وتحرص بلاطيا على اقامة هذه المراسيم الى يومنا هذا.

ولحظ (اريستيدس) ان الآثينين يرغبون في الحكم الديمقراطي حال عودتهم من الحرب الى المدينة. وقدر أن الشعب يستحق الاعتبار والاحترام بسبب ما ابداه من بسالةٍ. كما كان من الصعوبة بمكان معارضته ومجابهته بالقوة وهو شاكي السلاح قويّ، ذو معنوياتٍ عالية لما اصابه من نصرٍ. فاصدر مرسوما يقضي بمساهمة كل مواطن في الحكم، وأن ينتخب الأراخنة من الشعب بالاقتراع. وعندما قال (تمستوكليس) للآثينيين في الاجتماع العام، ان لديه نصيحةً لهم لايستطيع إعلانها جهراً وهي ذات فائدة عظيمة جداً لأمن وسلامة المدينة[٣٤]،

---

(٣٢) يظهر من ملاحظة [كاليماخوس] ان العادة قضت باقامة أساطين صغيرة فوق الاضرحة. ليقوم اصدقاء الميت بسكب العطور عليها وتزيينها بعقود من الزهر ويبدو ان الدفن جرى بعد العمل بشهر واحد لأن شهر [ميماكتيرون] يأتي بعد [بويدوميون] في السنة الاغريقية.

(٣٣) هو [بلوتو] ولديه (مارس) أيضاً، كجوبتر السماوي. والاّ فانه يستدين رسول الآلهة من أخيه. كذلك يوجد مارسان اثنان كما يوجد جوبتران. إلاّ أن قيادة الارواح في الظلمات السفلى هي من واجبات (مارس) في قسم منها. ومارس يخدم جوبتر في السماء.

(٣٤) كان ذلك قبل معركة بلاتيا في الزمن الذي طرد (كيخسرو) من آسيا. أنظر سيرة (تمستوكليس).

عينوا (اريستيدس) وحده ليسمعها منه، وليقوّمها لهم. فأسرَّ اليه بنيته وهي اشعال النار في مستودعات سلاح الاغريق، وبذلك يكون الآثينيون سادة بلاد اليونان المطلقين. فعاد (اريستيدس) الى الجمعية وقال: ليس ثم اكثر فائدة من نصيحة تمستوكليس وخطته، كما ليس هناك اكثر ظلماً منها. فأقفل الآثينيون الباب في وجه نصيحة تمستوكليس وامروه بان يعدل عنها. هكذا كان حُبّ العدل مغروساً في نفوس الشعب. وتلك هي الثقة التي اودعوها في اريستيدس.

وأرسل الى الحرب بزمالة (كيمون)[٣٥] ضد البرابرة فلاحظ أن (پاوسانياس) وغيره من القادة السپارطين مكروهون من سائر الحلفاء لغطرستهم وصرامتهم. فتمكن من استخلاص القيادة العليا من يد اللقيديمونيين لا بالسلاح ولا بالسفن او الخيالة بل بالسياسة الحكيمة واللجوء الى مبدأ المساواة والعدل. فبالرقة والرعاية التي كان يبديها لهم وبروح التجرد وعدم الانحياز التي كان يبديها (كيمون) في الحملات العسكرية متأثراً خطى زميله، عززت مكانة الآثينيين عند سائر الاغريق وزادت باستبداد (پاوسانياس) وانانيته. اذ كان هذا القائد السپارطي يعامل قواد الحلفاء وضباطهم معاملة خشنة فظّة. وكان يفرض على الجنديّ البسيط عقوبة الجلد بالسوط ذي الشُّعَب، او يوقفه تحت مرساة حديد يوماً باكمله، ولم يكن يسمح لأحد أن يأخذ قشاً لفراشه او علفاً لحصانه او التقرب من ينابيع الماء قبل ان يصيب السپارطيون مايريدون منها. اذ كان المراسلون والخدم يقفون بسياطهم لمنع كل من يدنو. وراح (اريستيدس) مرّة يشكو الأمر لپاوسانياس وينبهه بلطف فقال له متجهماً إنه مشغول ولم يكترث به. وكان من نتيجة ذلك أن امراء البحر والجنرالية الاغريق ولاسيما الخيوسيين والساموسيين واللسبيين، جاؤوا الى (اريستيدس) وطلبوا منه ان يكون جنرالهم، ويتولى منصب القيادة العليا للإتحاد الذي كان يريد التخلي عند قيادة السپارطيين منذ امد طويل وينضمّ الى الآثينيين. فأجابهم انه يرى فيما يقولون ضرورةً وعدلاً، الاّ أن اخلاصهم ووفاءهم يتطلب تمحيصاً بعملٍ ما، بحيث يكون من المحال أن يعود الجميع الى تغيير رأيهم هذا. وعلى هذا الأساس اتفق (اوليادس Ulaides) الساموسي، و(انتاغوراس Antagorass) الخيوسي على ادراك سفينه (پاوسانياس) في (بيزنطيوم) وجعلاها بينهما اثناء ما كانت تمخر عباب البحر في المقدمة. وعندما لمحهما (پاوسانياس) ثار ثائره وراح يهددّهما حانقاً بأنه لن يلبث أن يلقنهما درساً في انهما لايعرضان سفينته للخطر بل بلادهما.

فطلبا منه أن ينصرف عنهما ويشكر آلهة الحظّ التي قاتلت عنه في (پلاطيا)، وان الاغريق

---

(٣٥) بعدها بثماني سنوات.

احتراماً لذلك احجموا حتى اليوم عن ايقاعهم به العقاب الذي يستحقه، والخلاصة خرجوا كلهم وانضموا الى الآثينيين. وهنا ظهرت عظمة روح اللقيديمونيين وروعتها. فعندما ادركوا أن عظمة سلطانهم أفسدت نفوس جنراليتهم نزلوا بملء اختيارهم عن القيادة العليا، وامتنعوا عن إرسال امثالهم الى الحروب، واختاروا مواطنين امتازوا بالعدل والحيدة والحرص على اتباع تقاليدهم اكثر من السيطرة على كلّ الاغريق.

كان الاغريق يدفعون حتى في فترة قيادة اللقيديمونيين مبالغ معينة لادامة الحرب. وقد رغبوا في ان يتمّ تقدير الإعانة الواجبة على مدينة ومدينة، واستعاروا (اريستيدس) من الاثينيين وسلموه القيادة، ليقوم بتدقيق احوال البلاد وعوائدها وفرض الجعالات على اساس قابلية كل مدينة وامكاناتها. ومع تلك السلطة العظيمة التي مارسها على بلاد الاغريق واشرافه على كل شؤونها فانه ذهب فقيراً وعاد وهو اكثر فقراً. ففضلاً عن ان فرضه الضريبة كان عادلاً وبدون تحيزّ، فانها كانت موضع رضا الجميع وقبولهم. وكما كان الاوائل يحتفلون بعصر (زحل) احتفل حلفاء اثينا بعصر ضريبة اريستيدس، واطلقوا عليه «عهد اليونان السعيد». لاسيما بعد ان تضاعفت الجباية في غضون فترة قصيرة جداً. واصبحت بعد زمنٍ ثلاثة اضعاف. وكان المبلغ الذي فرضه (اريستيدس) قد حُددّ باربعمائة وستين تالنتاً. إضاف اليها پيريكليس مايقارب ثلثها. ويقول (ثوكديدس) ان مادخل الآثينيين من اعانة حلفائهم في بداية حرب الپيلوپونيسوس بلغ ستمائة تالنت. إلاّ أن (الديماغوغيين) بعد وفاة (پيريكليس) رفعوها شيئاً فشيئاً حتى ابلغوها ألفاً وثلاثمائة تالنت. لا لأن تكاليف الحرب زادت، ولا لما طرأ عليها من مفاجأت وتقلبات في مسيرتها الطويلة ونجاحاتها القليلة، بل بسبب اغرائهم الشعب بالانفاق على الكماليات ووسائل اللهو واماكن التسلية باسرافٍ عظيم. وباقامة التماثيل وبناء المعابد. لذلك كانت السمعة العالية المستفيضة التي نالها من جراء جباية هذه الاعانة هدفاً لسخرية (تمستوكليس) بقوله أنها ليست تقديراً لرجل بل لصندوق مفعم بالمال. قال هذا رداً (وان لم يكن مطابقاً) على عبارةٍ جارحة تفوه بها (اريستيدس). فمّرةً ذكر تمستوكليس أن أعلى مزّية يجب ان تكون في الجنرال. هو انه يدرك ويعلم مسبقاً بكلّ ما سيتخذه العدوّ من تدابير. فعقبّ (اريستيدس) على هذا بقوله:

- هذا في الواقع ضرورة لازمة يا تمستوكليس، الاّ أن أسمى ما يجب ان يمتاز به الجنرال، هو ان ترفع يداه عن المال.

وحمل (اريستيدس) دول الاغريق على القسم بألاّ يخرجوا عن الإتحاد. وحلف هو اليمين نيابة عن الآثينيين. والقى باوتاد حديدية في البحر بعد أن حماها بالنار الى درجة الإحمرار،

واعقبها باللعنات على كل حانث بيمينه[٣٦]. لكن عندما آلت الأمور في أثينا الى حالة تستدعي مجيء يد اقوى الى الحكم، طلب من الآثينين تحويل مغبّة الحنث باليمين على عاتقة وقيامهم بما يرونه مناسباً للظروف. وعلى العموم، فإن (ثيوفراستوس) يحدثنا عن (اريستيدس) بأنه كان عادلاً بكلّ ما في الكلمة من معنى في شؤونه الخاصة وشؤون مواطنيه. إلاّ انه كان في المسائل العامة كثيراً ما يعمل وفقما تمليه مصلحة بلاده وسياستها. وهو ما يلجئه واحيانا الى انحراف عن العدالة انحرافاً ليس بالقليل. وقد ذكر عنه في اثناء مناقشةٍ على اقتراح الساموسيين برفع الخزانة العامة من (دلوس) ونقلها الى اثيناً خلافاً لرغبة الاتحاد - انه قال: إن المسألة لا تتفق ومبادىء العدالة في الواقع إلاّ أنها ذات نفعٍ من الناحية السياسية.

وقصارى القول - بعد أن وطدّ (اريستيدس) دعائم سلطان مدينته على هذا العدد العديد من الناس، بقي هو معدماً لايملك من حطام الدنيا شيئاً، وظلّ دائماً معتزاً بالمجد المتأتي من فقره اكثر من اعتزازه بانتصاراته. وهو ما تكشف عنه الحكاية التالية: كان (كاللياّس) حامل المشعل يمتّ اليه بصلة القربى وقد اتهمه خصوم له بقضيةٍ كبيرةٍ. فبعد أن تعرضوا قليلاً لموضوع التهمة. انحرفوا عنها ووجهوا الى القضاة الأقوال التالية:

- انتم تعلمون منزلة اريستيديس ابن ليسيماخوس الرفيعة عند سائر الاغريق. كيف تتصورون حالة أسرته في البيت عندما ترونه يبدو في المحلات العامة بمعطف مهلهل بالٍ؟ أليس من المحتمل أن رجلاً كهذا يخرج بحالة مرزية متعرضاً للبرد، لابدّ وان يكون في حاجةٍ الى الطعام وغيره من ضروريات المعيشة؟ وها هو ذا (كاللياس) اغنى الآثينيين، لا يفعل شيئاً لاغاثته وزوجه واولاده في فقره، مع أنه بن عـمه، وقد استفاد منه في ظروف كثيرة، وكثيراً ما جنى الفائدة من نفوذه عندكم».

وادرك (كاللياس) أن القضاة قد تأثروا بهذا كثيراً، واشتد تحاملهم عليه. فطلب (اريستيدس) شاهد دفاع له. ليشهد على المرأت العديدة التي قدم له فيها الهدايا المختلفة، والحاحه عليه بقبولها، فكان يرفض قائلاً إن اعتزازه بفقره أليق له وأحفى به من اعتزاز كاللياس بغناه، مادام هناك كثير من الناس يسيئون او يحسنون التصرف باموالهم، في حين

(٣٦) وتفسير العمل هو كالآتي: مثلما تتظفيء النار في هذه القطع الحديدة بلخطة) كذلك ستنطفيء أيام كلّ من يخلّ بهذا العهد» وانك لتجد تطبيقات عديدة لهذه العادة عند الأقدمين ولاسيما عند الفينيقيين عندما ارادوا تحاشي جيوش (ارپاغوس) قائد (كورش) فتركوا بلادهم وأسسوا مدينة مارسيليا في فرنسا العام ٥٣٩ ق.م.

يصعب بعض الشيء أن يصادف المرء ذلك الذي يستطيع احتمال الفقر بروحٍ نبيلة، ولا يخجل من الفقر إلاّ اولئك الذين وقعوا فيه رغم أنوفهم.

عندما وضع (اريستيدس) هذه الحقائق دفاعاً عن (كالليباس) لم يبق سامع إلاّ وفضل ان يكون فقيراً كأريستيدس، لا غنيا ككالليباس. هذا مادونه لنا (ايسخينوس) تلميذ سقراط. إلاّ ان افلاطون قال أن (اريستيدس) هو الوحيد الجدير بالتقدير من بين كل الرجال المشاهير في اثينا، لأن (تميستوكليس) و (كيمون) و (پيريكليس) ملاؤا المدينة بالابهاء والأعمدة والنفائس وغير ذلك من العبث لكن (اريستيدس) قاد حياته العامة بالحكم على اسس العدل. لقد اظهر اعتدال طبعه بصورة واضحة جداً بالسلوك الذي اتخذه حيال (تمستوكليس) فمع انه كان خصماً له في كلّ اعماله ومشاريعه وسبباً في نفيه؟ رأيناه عندما سنحت له فرصة الثار منه عندما اتهمته المدينة، لم يحمل له موجدة. وظلّ وحده ساكتاً لايفعل شيئاً بينما كان (الكميون) و(كيمون) وكثيرون غيرهما يستابقون في اتهامه والانتقاص منه. ولم يكن احساسه بالانتصار على عدوّه في ميدان الخصومة اكثر من حسده له في حالة مجده وسؤدده.

قال بعضهم ان اريستيدس توفي في (پونطس Pontus) في اثناء رحلة تتعلق بالمسائل العامة. وقال آخرون انه توفي في اثينا بعد عمر مديد كان فيه موضع تجلة واحترام مواطنيه. الاّ ان (قراطيروس Craterus)[٣٧] المقدوني يروي عن موته الحادثة التالية: بعد نفي (تمستوكليس) زادت جرأة الاوشاب ووقاحتهم وبرز منهم عدد من المفترين واتهموا خيرة المواطنين واوسعهم نفوذا وعرضوهم لنقمة الجماهير، التي ملأتها قوتّها، وسعود حظهّا فخراً وفيها. وكان بين هؤلاء المتهمين (اريستيدس) الذي ادين بالرشوة بناء على اتهام (ديوفانطس Diophantus) الامفيطروپي Amphitrope له، بأنه اخذ مبلغاً من الآيونيين عندما كان محصلاً للغرامة. ولما كان عاجزا عن دفع الغرامة وقدرها خمسون (مينا) فقد ابحر الى ايونيا وتوفي فيها. الاّ أن (قراطيروس) لا يقدم دليلاً خطياً على مايزعمه. لامن قرار ادانته، ولامن مرسوم الشعب. وإنْ كانت العادة المتسامح بها عموماً قد جرت بتدوين هذه الروايات فقط على اساس الاقتباس دون ذكر المرجع. والكتاب كلهم تقريباً، حين يتكلمون عن سوء افعال الشعوب حيال قادتها وزعمائها، يجمعون الوقائع معاً فيتحدثون عن نفي تمستوكليس وغرامة (پريكليس) وحبس (ملتيادس) وموت (پاخيس Paches) في قاعة المحكمة. اذ نجع نفسه فوق المنصة على اثر ادانته. هذا الى جانب امور عديدة مشابهة لها وانهم يضيفون الى ما

(٣٧) عاش فترة قصيرة بعد اريستيدس ويظنه [موشيوس: تاريخ الاغريق ٣] الرجل الذي رافق الاسكندر الكبير الى الشرق. توفي اريستيدس في ٤٦٧ ق.م.

سبق نفي اريستيدس، لكنهم لايذكرون شيئاً عن ادانته قضاءً.

فضلاً عن هذا مازال ضريحه قائماً في (فاليرُم) بني كما يقال على نفقة المدينة، لأنه لم يترك ما يكفي لسدّ نفقات جنازته. وذكر ايضاً أن بنتيه زوجتا على نفقة الدولة وبمسعى من (البريتانيوم) اي مجلس الدولة. وان المدينة مهرت كلاً منهما ببائنة زواج قدرها ثلاثة آلاف دراخما. ومنح الشعب ابنه (ليسيماخوس) هبة من المال وقدرها مائة مينا ومائة ايكر من الارض الصالحة للزراعة. كما أمروا له بناءً على اقتراح (الكيبياديس) باربعة دراخمات يومياً[٣٨] اضافة الى ما سبق. ثم إن ليسيماخوس هذا ترك ابنة تدعى (بوليكريته -Poly crite)، يقول (كاليستينس Callisthenes) انّ الشعب صوت ايضاً على منحها إعانةً للطعام تساوي ما يمنح للفائزين في الالعاب الاولمبية[٣٩]. الا أنّ (ديمتريوس) الفاليري و (هيرونيموس) الروّدوسي، و(ارسطوكزينس) الموسيقيّ، وارسطو الفيلسوف (اذا كانت رسالته «في النُّبل» تعتبر من كتاباته حقاً) يذكرون ان (ميرتو) حفيدة (اريستيدس) عاشت مع (سقراط) الفيلسوف، الذي كان لديه زوج أخرى كما هو معروف، فقد ادخلها بيته زوجةً بعد ترملها[٤٠] لإملاقها ولافتقارها الى ضروريات الحياة. إلاّ ان (پانيتيوس) يفند هذا بالبراهين القاطعة في كتابه عن سقراط. ويقول (ديمتريوس) الفاليري في كتابه عن سقراط، انه عرف شخصاً إسمه (ليسيماخوس) هو ابن بنت (اريستيدس) نقير لا يملك من حطام الدنيا شيئاً اعتاد الجلوس قريبا مما يطلق عليه (إياخيّوم Iaccheum) ومعه زيجٌ لتفسير الاحلام يعتاش منه. وبناء على اقتراحه وبمسعى منه صدر مرسوم شعبي يقضي بصرف مبلغ نصف دراخما[٤١] يومياً لأمّ هذا الرجل[٤٢] وخالته من الخزانة العامة. ولما بلغ (ديمتريوس) نفسه

---

(٣٨) ربما بدا هذا الراتب التقاعدي بسيطاً تافهاً. لكنه كان يعني مبلغاً كبيراً في ذلك الوقت ويخبرنا [اخارتينس الارسطوفاني [ج١: ٢، ٦٥] ان السفير كان يصرف له دراخمان يومياً. وهذا الشاعر في الواقع يتكلم عن سفير ارسل الى بلاد فارس. والسفير المرسل الى هذا البلاط يكون واثقاً انه سيعود غنياً.

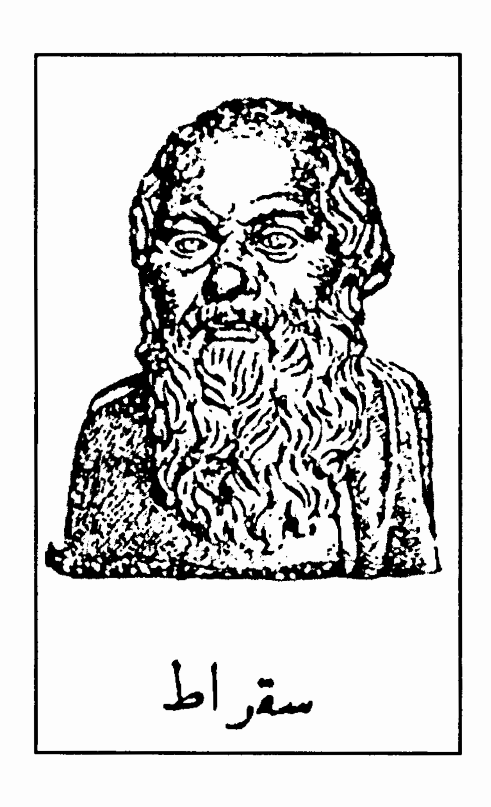
(٣٩) هؤلاء الذين يصرف عليهم في البريتانيوم من الخزانة العامة انما يتسلمون ارزاقاً محددة طوال ايام حياتهم.

(٤٠) كيركوبس: كان قد حرم تعدد الزوجات في أثينا. لكنه استن قانوناً في عهد سقراط يعطى حق المواطنة الأثينية للأولاد المولودين من المخصبات وخارج الرباط الزوجي. وكان السبب هو تناقص عدد السكان، على أن هناك عدداً من المؤرخين يستبعدون ذلك.

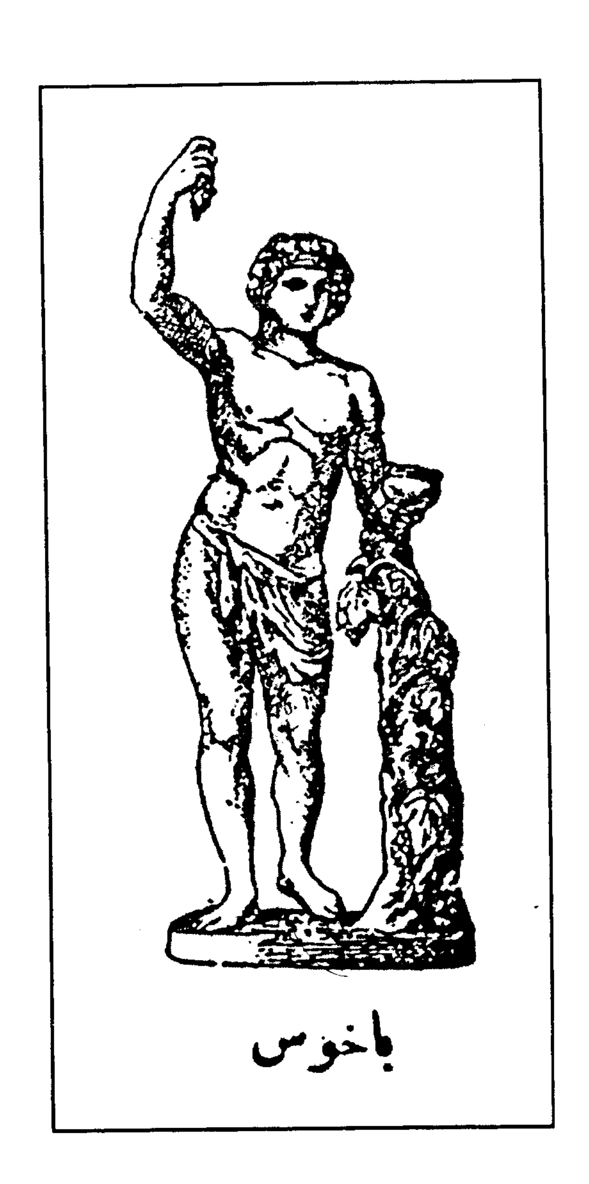
(٤١) اي ثلاثة أوبولات. (ج اوبول) كانت المعيشة رخيصة جداً في اثينا آنذاك كما أوضحنا في سيرة صولون.

(٤٢) هذا البطل قام مع [هرموديوس] بتوجيه الضربة الأولى لطغاة اسرة بسستراتيدي بقتله (هيپارخوس) أحد ابناء بسستراتوس في العام ٥١٣ ق.م فقام الابن الآخر الذي نجا وهو (هيپياس) بقتلهما في الحال. وقد بقي هذا في الحكم اربع سنين ثم طرده الأثينيون.

منصب الحاكميّة قرر تخصيص دراخما واحد لكلّ من المرأتين يومياً. وليس بعجيب أن يهتم أهل آثينا بالناس الذين يعيشون في المدينة الى هذا الحد؛ فقد فعلوا اكثر من هذا، عندما سمعوا أن حفيدة (ارسطوجيتون Aristogiton) تشكو حالة عسر شديد في جزيرة (لمنوس) بحيث لم يخطبها أحد، فجاؤا بها الى آثينا وزوجوها برجل شريف النسب ومهروها بحقل في (پوتامُس Potamus). لقد قدمت اثينا ومازالت الى يومنا هذا تقدم البراهين المماثلة على انسانيتها وكرمها. ولهذا كانت جديرة بالاحترام والاجلال الذي تتمتع به الآن.



سقراط



باخوس

مارکوس کاتو

MARCUS CATO

(Porcius)

234 – 149



قيل لنا أن (ماركوس كاتو) ولد في (توسكولوم Tusculum)، وانه نشأ وعاش في بلاد السابين حيث هناك ضيعة والده حتى انصرف الى الشؤون العسكرية والسياسيّة. وتشير الاحتمالات كلّها الى أن نسبه لم يكن عريقاً وأن اسلافه يكتنفهم الخمول التام وهو نفسه يثني على ابيه (ماركوس) ويصفه بحميد الخصال بالجنديّ الشجاع. ويذكر عن جدّ ابيه أيضاً بأنه نال جوائز حربية كثيرة. وقد قتل تحته خمسة خيول وصرفت له قيمتها من الخزانة العامة تقديراً لبسالته. وكان من عادة الرومان أن يطلقوا على الرجال الذين لايمتون بنسب عريق، لكنهم بلغوا مراقي الشهرة والنجاح بمسعاهم. الرجال الجدّد[1]، او حديثي النعمة، ولم يكن (كاتو) ينكر ذلك عندما يصفونه بهذا في ايّ تكريم رسميّ يحوزه أو منصب حكومي يتقلده، بيد أنه لايني يؤكد أن اسلافه عريقون جداً في مجال الشجاعة والاخلاق الفاضلة. ولم يكن اسمه الثالث (كاتو) أصلاً بل (پريسكوس Priscus) على أنه لُقّب (بكاتو) فيما بعد لكفاءاته. لأن الرومان يطلقون صفة (كاتوس Catus)[2] على كل شخصٍ حاذق مجرّب. وكان مورّد الوجه، أشهل العينين، والشاعر الذي نظم الابيات التالية بنية سوءٍ، جعلنا نرى:

(پورشيوس Porcius) الذي لايفتأ يصيح في كل مكان بعينيه الشهلاوين
وشعره الأحمر وبنابيه[3] الحادين المرهفين يصعب أن تسمح له (هيكاته He-cate)، حتى بعد موته بدخول مملكة جهنم!

ووهب منذ حداثته بدناً قوياً متيناً بالدوام على العمل اليدويّ، والعيش باعتدالٍ، والخدمة

---

(١) قُصر حق التصوير Jus imaginam على رجال الدولة الكبار. فلا ينصب تمثال أو تعلق صورة لغيرهم. ومن كان اسلافه من هؤلاء عدّ ضمن طبقة النبلاء. ومن كانت صورته وتماثيله وحدها معلقة أعتبر «رجلاً جديداً» ومن هو ليس من هذين عُدّ وضيع المولد Ignble. وهذا ما يقوله [اسكونيوس] لكن لا يبدو منسوباً الى النوع الثالث رجلٌ تقلد منصباً عظيماً كمنصب القنصلية، لأن تماثيله أو صوره ليست منصوبة. فمن الممكن ان يكره ذلك ككاتوا الذي كان ينفر من عرض صوره.

(٢) كلمة كاتوس Catus اللاتينية تعني «البعيد النظر» ولعله الأول الذي حمل هذا اللقب.

(٣) يقول أحد الشعراء فيه انه كان «پانده ختنس» وهي كلمة أغريقية معناها «من لا يقف في سبيله شيء» وبضمن هذا التعبير اللاتيني يستخدم اسمه الثاني Porcius توريةً باستبداله بـ Poreus اي خنزير. لاشتهار هذا الحيوان بالعناد.

في الجيش. ويظهر انه نال حظاً متساوياً من القوة والصحّة. واستغلّ ومارس قوة عارضته في الانحاء المجاورة والقرى الصغيرة. فعنده ان الفصاحة تلي في الاهمية قوة البدن لمن يتطلع إلى حياة أرفع من حياة الخمول والبساطة. ولم يكن يأبى التوكل عن كل من يقصده، وعرف منذ مطلع حياته بأنه محامٍ جيد ولم يلبث أن أشتهر خطيباً قديراً.

واخذ عمق شخصيته وقوتها يتضحان شيئاً فشيئاً واكثر باكثر لمن يهمّه أمره، وراحت مواهبه تبحث عن منطلق لها في الأمور الهامة، والاماكن القيادية في عالم السياسة. ولم يكتف بالامتناع عن تقاضي اجورٍ عن اتعاب المحاماة والرأي القانوني، والمرافعات، وانما كان لا يعلق كبير اهتمام على المكانة والشهرة التي يصيبها من تلك المعارك القضائية، وكان يريد على مايبدو أن يُبرزّ نفسه في ميدان القتال الحقيقي. وبدا صدره وهو في عنفوان شبابه مغطى بالندوب التي رسمتها عليه اسلحة العدو. وقال ان اول معركة خاضها ولم يتجاوز عمره السابعة عشرة. كان ذلك عندما بلغ (هنيبعل) أوج عظمته وقوته، يعيث في ايطاليا حرقاً مخريباً[٤]. كان في قتاله يكيل ضربات صاعقة ويقف ثابتاً في محله لاينكص خطوة الى الوراء، وينظر الى خصمه نظرة حادةً جريئة، ويفاجئه بصياحٍ راعدٍ تهديدي، ويعلل موقفه هذا للآخرين أن اسلوبه الفظ ذاك يشيع الرعب في الآخرين اكثر من رهبة السيف نفسه احياناً. وكان في المسيرات يحمل كل سلاحه ويمشي، ولا يوكل لخادمه الاّ حمل المؤونة والطعام. وقيل أنه لم يغضب منه ولم ينتهره قطّ اثناء اعداده طعام الغذاء والعشاء بل كان غالباً ما يساعده ويزامله في الطبخ عند خلوه من الواجبات العسكرية. ولم يشرب طوال خدمته في الجيش غير الماء القراح الاّ اذا كان شديد العطش فاذ ذاك يمازجه بقليل من الخل[٥] وقد يتعاطى شيئاً زهيداً عندما يبلغ به الانهاك غايته القصوى.

وصادف أن الدار الريفية الصغيرة العائدة (لمانيوس كيوريوس[٦] Manius Curius) (وهو القنصل الذي دخل دخول ظافرين ثلاث مرات) كانت قريبة من حقله، فاخذ يتردد اليها كثيراً ويتأمل في صغر مساحتها وبساطتها وخلوّها من أي زخرف وكون في رأسه فكرة عن رجل عُدّ من اعظم عظماء الرومان أخضع اشدّ الشعوب مراساً وتعلقاً بالحرب، لا بل طرد (بيروس Pyrrhus) من ايطاليا. وهو الآن بعد مواكب ظفر ثلاثة، قانعٌ بفلاحة هذه القطعة الصغيرة من

(٤) اذا عزونا هذا الى السنة التي نشبت فيها معركة (كاني) = ٢١٥ ق.م فسيكون ميلاد كاتو في العام ٢٣٢ ق.م.

(٥) ميزة الخلّ هو خفضه حرارة الجسم ولذلك فانّ العمّال يُسقون منه اثناء الحصاد.

(٦) مانيوس كيوريوس دنتاتيوس نال موكبي نصر في أول فترة قنصلية لتغلبه على السابين والسامنيت وأنتصر على بيروت في قنصليته الثالثة ثم نال «ترحيباً حماسياً» للنصر الذي حققه على اللوكانيين.

الأرض، والعيش في كوخ بسيط. هنا وجده سفراء الساميين Samnites يسلق اللّفت في زاوية من المدخنة فقدموا له هدية من الذهب. إلاّ أنه صرفهم عنه بهذا القول: انه راضٍ بعشائه هذا وليس بحاجة الى الذهب وهو يرى قهر من يملكون النهب أشرف من مُلك الذهب نفسه. بعد أن يتأمل (كاتو) في هذه الامور يقفل راجعاً ويروح يعيد نظره في حقله وخدمه وشؤون بيته، ويزيد من عمله وينقص من مصروفاته الزائدة.

كان (كاتو) الشاب جندياً في جيش (فابيوس ماكسيموس) عندما استولى على (تارنتوم) وكان يساكن شخصاً يدعى (نيارخوس Nearchus) يعتنق الفلسفة الفيثاغوريّة، فرغب في ان يطلع على شيء من عقيدته وسمع منه المبادىء التي كان افلاطون ينادي بها ايضاً. إن اللذة هي طعم الشرّ الاساسيّ. والجسم هو بلية الروح الرئيسة... وإن تلك الافكار التي تفصل الروح عن الجسم وتأخذها وتنأى بها عن نوازعه هي التي تطهّرها وتحررها. فازداد تعلقاً وحبّاً بالزهد والتقشف، باستثناءٍ واحدٍ وهو عكوفه على دراسة اليونانية عندما تقدمت به السنّ على ما قيل. وقد استفاد من فن الخطابة من (ثوكيديدس) قليلاً، وكانت فائدته من (ديموستينس) اكثر وقد عمد الى توشية كتاباته بكثير من الأقوال والحكايات اليونانية بل كان يخلط عباراته وجمله بالكثير المترجم منها حرفياً.

كان يوجد رجل من الطبقة العليا، ومن اوسع الناس نفوذاً بين الرومان يدعى (ڤاليريوس فلاكّوس Valerius Flaccus). عرف هذا بنفاذ بصيرته في استشفاف النبوغ وهو في براعمه، وباهتمامه الكبير في تغذية هذا النبوغ وتعهّده بالنموّ. وكان على ما يظهر يملك عقاراً ملاصقاً لملك (كاتو)، وكان خدمه يحدثونه عن الاسلوب الذي يتبعه في حياته، كيف انه يشتغل بيديه، ويخرج في معظم الايام صباحاً، سائراً على قدميه الى المحاكم لمساعدة من هم في حاجة الى مشورته. وكيف يعود الى البيت في ايام الشتاء فيلقي فوق كتفيه عباءة خشنة[٧]. وكيف يشتغل بين خدمه وعماله صيفاً، وليس عليه شيء من الثياب، يجالسهم ويأكل من خبزهم ويشرب من خمرهم. ولم يكن هؤلاء الخدم في معرض حديثهم عن مزاياه الطيبة الأخرى كحسن معاملته ورقة طبعه، ينسون ترديد بعض الحكَم التي ينطق بها. فزاد اعجاب (ڤاليريوس) به ودعاه الى العشاء، وبات متأكداً من سمّو خلقه وحميد خصاله التي اشبهت نبتةً لاتحتاج الى غير التشذيب وارض افضل لنموها، فالح عليه حتى اقنعه بخوض غمار حياة السياسة في روما، فانتقل الى العاصمة، ولم يلبث أن كسب بمرافعاته القضائية كثيراً من الاصدقاء والمعجبين، إلاّ أن (ڤاليريوس) كان اكبر عضد له في صعوده؛ فقُلّدَ اولاً منصب

(٧) رداء (بتيّة) قصيرة مستقيمة تغطي الكتفين فقط.

التريبيون العسكري، ثم عين بمنصب (الكويستور) أي «أمين بيت المال». ولما اشتهر أمره وبرزت شخصيته راح يتقلب في ارفع المناصب القيادية بزمالة (ڤاليريوس) نفسه. فغدا (قنصلا) معه، ثم عُين «چنسوراً» على انه اختصّ (بفابيوس ماكسيموس) من دون أقدم الشيوخ ولصق به، لالغرض الافادة من سعة نفوذه، او تكرّما بشخصه، بل لأنه وجد في اسلوب حياة هذا الرجل واخلاقه المثل الأعلى الذي يحتذيه. ولهذا لم يتردد في معارضة (سكيپيو) الكبير الذي كان آنذاك شاباً - عندما طاب له أن يتحدّى سلطان (فابيوس). ومع أنه استهدف لحقد وخصومة (سكيپيو). فقد رافقه بحكم "امانته لبيت المال" الى صقلية. فوجده يسرف في النفقات ويوزع المال على الجنود بلا حساب جريا على ماطبع عليه من سخاء. فاغلظ (كاتو) له القول. ونبهه الى ان الانفاق الكثير ليس أدعى الامور الى الاهتمام بحد ذاته، وان الخطورة هي فيما ينجم عنه من إفساد الجنود واستسلامهم لحياة الترف بمنحهم اسباب تعاطي اللذائذ واللهو العابث فردّ عليه (سكيپيو) أن لاضرورة تدعوه الى أن يكون امين بيت مالٍ حريصاً الى هذه الدرجة (وهو كما يرى منطلق الى الحرب باسرع ما تدفعه اشرعة سفنه)، وانة ملزم أمام الشعب بتقديم الحساب عن اعماله الحربية لاعن الاموال التي ينفقها. فترك (كاتو) صقلية عائداً، وشنّ مع (فابيوس) حملة على (سكيپيو) في جلسة علنية لمجلس الشيوخ، متهماً اياه بتبديد الاموال الطائلة، وقضائه اوقاته بعبثٍ صبياني، في مباريات مصارعة وتمثيليات هزلية، كأنه ليس في حرب بل في عطلة. ونجح في حمل المجلس على ارسال عدد من تريبيونات الشعب للتحقيق وارسال (سكيپيو) الى روما في حالة ثبوت صحة التهم. إلاّ أن سكيپيو، باستعداداته وبالنصر الذي كان يتوقعه، وبتبيّنهم أنه يعيش عيشة طيبة لاغير مع اصدقائه عندما لايوجد ما يشغله من المهام وان ترفه وسخاءه لم يجعلاه مهملاً في الامور الهامة الدقيقة، جبّ عن نفسه التهمة وبادر الى الاقلاع عن صقلية الى ميدان الحرب فوراً.

وتعاظم نفوذ (كاتو) بفضل بلاغته حتى اشتهر بلقب «ديموستينس الرومان» إلاّ أن اسلوب حياته كان مداراً لأكثر الحديث عنه وادعى الى اشتهاره. ذلك لأن اتقان الخطابة كوجه من وجوه التربية والتثقيف كان غاية دراسية عامة لكلّ الشبّان، الا انه يندر جداً أن تجد شخصاً يطبق المبادىء الغابرة في العمل الفصلي والجهد اليدويّ، او يفضلّ تناول العشاء الخفيف، او اعداد فطوره من طعام لايرى النار، او يتعشق ارتداء ثياب الخصاصة والعيشة المنزلية البسيطة، او يوجه مطمحه الى الاستغناء عن وسائل الترف والنعيم لا الى حيازتها.

كانت الحكومة عاجزة عن الاحتفاظ بطهرها ونقائها بسبب ما بلغته من العظمة والسؤدد،

ولاتساع دائرة اعمالها ودخول كثير من شعوب العالم تحت سيطرها كانت مضطرة الى قبول كثير من العادات المزيجة، والتسامح في طرائق عيش حديثة. لذلك كان لإعجاب الجميع (بكاتو) سببه الوجيه، فهم يرون الآخرين غارقين في الشهوات وقد تخنثوا بما نهزوا من اللذاذت بينما حقق الرجل انتصاره على الإثنين معاً. فسواء في عزٍّ شبابه، وعنفوان رغبته في السلطان والشهرة، أو عندما تقدم به العُمر وشاب فوداه بعد توليه القنصلية ودخوله في موكب النصر، كان في الحالتين اشبه ببطلٍ فائز من ابطال الالعاب الرياضية لاينقطع عن ممارسة تمارينه. ويبقى محافظاً على طرائق عيشه الى الاخير. ويقول (كاتو) عن نفسه انه مالبس يوماً حلّة من الثياب تزيد قيمتها عن مائة دراخما، وانه لما كان جنرالاً وقنصلاً، لم يتعفف عن شرب الخمر الذي يتناوله مرؤوسه وعمّاله، وقال ان اللحم او السمك الذي يشتريه لغدائه من سوق اللحم لم يكلفه قط اكثر من ٣٠ (أسّاً asses)، وكل هذا كان في سبيل الجمهورية ليخشوشن بدنه ويقوى على الحروب.

وكان قد ورث قطعة سجّادٍ بابليّة مطرزة، فباعها لانه لايوجد كوخ ريفي واحد من اكواخه التي يسكنها وهو مجصّص الجدران، ولم يشتر عبداً زاد ثمنه عن ألفٍ وخمسمائة دراخما، لأنه لم يكن يقبل على العبيدَ المخنثين الحسني الصورة، بل كان ينشد عمالاً اشداء كفوئين، وسائسي خيل ورعاة بقر، يمكنه ان يبيعهم ثانيةً عندما يتقدم بهم العُمر، لكيلا يطعم افواهاً لا فائدة من اصحابها.

فهو بكلمة مختصرة لايعد ما يزيد عن اللزوم كسباً. ويرى انه اذا ماباع ما لاحاجة له به. بفلس واحد، فقد حصل على ثمن طيبٍ. وكان يشتري حقولاً للبذار والجني، لااراضي للرعي والارواء.

قد يرى بعض الناس في هذا مايشبه البُخل إلا ان بعض الناس لايرون فيه بأساً ويستحسنونه منه كأنما اخذ على نفسه الحرمان وفرض عليها التقتير لأجل تهذيب الآخرين وحثهم على هذا النهج... انها لعمري وفي اعتقادي لنفسٌ مفرطة في الحرص والإمساك تلك التي تعتصر العمل من الخدم كأنهم حيوانات بهيمة، ثم تنبذهم نبذ النواة ليباعوا وهم في اراذل العمر، أنها لطبيعة كزّة ان تظنّ بالاً علاقة اوصلة بين انسان وانسان إلا اذا كان فيها بعض الكسب. ونحن نرى إن للعطف او للإنسانية ميدانا أرحب من ميدان العدالة المجردة، فيه تمارس عملها ونشاطها. إن القانون والعدل وفقاً لنواميس الطبيعة لايطبقان إلاّ على البشر إلاّ انه يمكن نشر احساننا وطيبتنا في دائرة تشمل المخلوقات التي لاعقل لها، واعمال كهذه إنما تصدر من طبيعة رقيقة سمحاء مثلما ينبجس الماء من ينبوع ثرّ. ومما لاجدال فيه أن واجب

ذي القلب الرقيق ان يحتفظ حتى بالخيول والكلاب الهرمة. وان لاتكون عنايته بها قاصرة على وقت نفعها له. بل تمتد منذ ان تكون امهاراً وجراءً حتى تنفق.

عندما بني الآثينيون (الهيكاتومپيدون Hecatompedon) اطلقوا البغال التي قامت بأشق الاعمال فيه ترعى وتتواثب حُرَّةً. وقالوا ان واحداً منها تقدم من تلقاء نفسه يعرض خدمته فساير بل استبق ازواجاً منها كانت تجر عجلات صعداً الى (الاكروپوليس) كأنه يريد تشجيعها وتحميسها للجرّ بقوة. فصوّت الآثينيون على اقتراح يقضي أن يبقى هذا البغل متمتعاً بحريته على نفقة الدولة حتى يفطس. وان قبور خيول (كيمون) التي فازت في السباقات الاولمپية ثلاث مرات، مازالت شاخصةً الى يومنا هذا بالقرب من ضريحه. ودفن (كزانيثپوس) الشيخ، كلبه الذي سبح خلف سفينته حتى (سلاميس) عند خروج الناس من اثينا، دفنه على قمة جرف مازال يسمى "بقبر الكلب"[٨] الى يومنا هذا. وهناك كثير من الناس دفنوا كلابهم التي ربّوها.

ليس لنا أن نعامل المخلوقات الحية كما نعامل الاحذية والاواني القديمة فنلقي بها خارجاً عندما تبلى او تنكسر لفرط الإستعمال. ومن الواجب على المرء ان يعود نفسه باديء ذي بدء على هذا الميل إن لم يكن لغرضٍ ماسوى لدراسة العمل الانساني وتطبيقه ليكتسب المرء طبعاً عطوفاً جذاباً. واما عن نفسي فلن اقدم قط على بيع الثور الذي يجرّ عربتي بسبب تقدمه في السنّ، فما قولك باستبدال انسان هرم بائس بقطعة نقد تافهة وطرده خارج موطنه وابعاده عن المحل الذي عاش فيه طويلاً وحرمانه شكل الحياة الذي تعوده ولاسيما عندما لايكون فيه نفع للبائع او للشاري. ومع هذا فإن (كاتو) كان رفيعاً عندما ترك حصانه رمز الانتصارات والمجد بعد أن ركبه في حروبه وفي فترة قنصليته، لئلا يُحمّل الخزينة العامة نفقات شحنه الى روما! ولنترك لكلٍ رأيه الخاص في هل أن مثل هذه التصرفات تعزى الى عظمة نفسه ام الى صغارها؟

امّا عن خلقه العموميّ، وضبطه لنفسه فهو وايّم الحق يستحق أعظم الإعجاب، ففي اثناء ماكان قائداً للجيش، لم يأخذ اكثر من ثلاثة بوشلات من القمح شهرياً لنفسه ولمن هم في معيته. وما لم يزد عن بوشل واحد ونصف بوشل من الشعير علفاً لدواب الحمل الخاصة به. ولما تولى حكم (سردينيا Sardinia) كان الفرق الذي حققه في اقتصاده النفقات لا يصدّق. فقد اعتاد اسلافه الحكام ان يطلبوا من الخزينة العامة خياماً وأفرشة وثياباً ويتقاضوا من الدولة مبالغ طائلة للارزاق والطعام لافواج كبيرة من الخدم والحشم والاصدقاء. ولم يكن يقدم

---

(٨) باللاتينية Cynos Sema.

على عمل مهما كان - اذا كلف بيت المال مبلغاً، فتراه يسير ماشياً على قدميه ولايستخدم وسيلة نقل عند زيارته المدن لايصبحه في جولاته غير ضابط شرطة بلديّ، يحمل رداءً له وكأساً لتقديم القرابين. ومع انه كان يبدو لمرؤسيه وعماله متساهلاً زاهداً، الأ انه كان يظهر صرامة لاتلين وحزماً في كل ما يعود الى عدالة الدولة. وكان متشدداً دقيقاً فيما يتعلق بقوانين الجمهورية. ولذلك لم يبد الحكم الروماني اكثر مهابة ورهبة واكثر تسامحاً وليناً مما بدا وقت ادارته شؤونه.

وكان في حديثه مايحمل على الظن أنه يقصد به نوعاً من غايةٍ، فهو انيس إلاّ انه عنيف، شيق لكنه مسيطر، هزليّ غير انه صارمٌ، قويّ الحجّة الاّ انه حاد؛ (كسقراط) حسب وصف افلاطون: يبدو لمن حوله ظاهرياً فهو لااكثر من شخص بسيطٍ فيه ثرثرة وعناد، أمّا في باطنه فهو رجل مفعم بالجد مكتنز المادة، يمكنه ان يفجرّ الدمع من عيون مستميعه ويمسّ شغاف قلوبهم». ولذلك فانا لاادري ما الذي حمل بعضهم على القول ان اسلوب (كاتو) يشبه كثيراً اسلوب (ليسياس Lysias) وعلى اية حالٍ فلنترك الحكم في تلك الامور للناس الاكثر وقوفاً وتمييزاً بين مختلف الاساليب الخطابية في اللغة اللاتينية. ولننتقل الى اثبات بعض اقواله المأثورة، فرأينا - وهو ليس كما يظن البعض - ان اخلاق المرء تنضح من اقواله اكثر مما تنّم عنها صورته بكثير.

أراد مرة أن يحمل عامّة الرومان على العدول عن مطالبتهم العاجلة اللجوجة بالمال، والحاحهم بتوزيع القمح فاستهلّ خطابه فيهم بقوله: "انها لمهمّة شاقة ايها المواطنون، أن يتوجه المرء بخطابه الى البطون التي لاأذان لها!". وفي معرض تأنيبهم على إيغالهم في الاخذ بأسباب البذخ والترف قال لهم:

«من الصعب جداً المحافظة على كيان مدينة تباع سمكتها بثمن اعلى من ثمن ثورها».
ومن اقواله المأثورة: أن الشعب الروماني يشبه الاغنام الواحدة منها لايسلس لها قياد، فإذا اجتمعت في قطيع لم تتردد في اتباع قائديها،...» كذلك انتم، تسلسون قيادكم عندما تكونون كتلةً واحدة - لاولئك الذين لاتفكرون في اتباع نصحهم وانتم افراداً». وقال في حديث له عن سلطان النساء: «الرجال عادةً يقودون النساء، ونحن نقود كلّ الرجال، والنساء تقودنا» وهذا القول في الواقع مقتبس من تمستوكليس. حين كان ابنه يشتط في طلباته العديدة عن طريق امّه قال تمستوكليس:

- إن الآثنييّن ايتها الزوج يحكمون اليونان، وانا الحكم الآثنيين وانت تحكمين، وابنك يحكمك. فدعيه إذن يقصد في استخدام سلطانه هذا، مادام قادراً - وهو في حالته هذه

من السذاجة - على أن يفعل اكثر مما يستطيعه الاغريق مجتمعاً.

وله قول آخر وهو: ان الرومان لم يقفوا عند حدّ تسعير كذا وكذا من الاصباغ الحمراء، بل سعروا قيمة كذا وكذا من العادات والتقاليد... "فكما ان الصباغين يصبغون غالباً الألوان الالطف والأقرب الى الذوق، كذلك الشبان فهم يثابرون على تعلّم ماهو احبّ الى نفوسكم، والتخلّق بما هو اقرب الى ذوقها» وقال لهم مرة على سبيل التأنيب: «عندما تجلُون وتعظمون لفضائلكم وادبكم، فاحذروا أن تتغير حالكم الى الأسوأ، أما اذا كانت تلك العظمة متأتيةً من الرذيلة وسوء الخلق فعليكم أن تتغيروا الى الأحسن. فبهذه فقط تكونون عظماء حقاً بقدر ما تريدون».

ويقول ايضاً عن اولئك المتشبثين بمناصبهم الكارهين تركها: هؤلاء كما يبدو لايعرفون الطريق مادام‍وا عاجزين عن السير بدون ادلائهم الذين يقودونهم فيها».

وعتب على المواطنين لأنهم يعيدون انتخاب عين الرجال حكاماً فقال: «من هذا يبدو لي إما انكم لاتضعون في الحكم قيمة كبيرة، وأمّا ترون ان اللائقين بالحكم قلة ضئيلة».

وقال عن عدوّ له يحيا حياة العار والرذيلة: «إن دعاء أمّ هذا الرجل بأن تتركه وراءها في الحياة انما هو لعنة له لابركة» وقال مشيراً الى رجل باع ارضاً تقع على ساحل البحر كان قد ورثها عن ابيه: «لقد كان عمله هذا مظهراً معبراً عن دهشته من كونه اقوى من البحر نفسه، فما جرف البحر بكثير من الجهد والمشقة، استنفذه هو شرباً بكثير من اليُسر. واستقبل مجلس الشيوخ الملك (يومينيس Eumenes) بكثير من الحفاوة والفخفخة عند زيارته روما وتنافس وجهاء المدينة ومبرزوها على التقرب منه. وبدا (كاتو) ينظر اليه بريبة وحذر. وسمع أحد القريبين من الضيف يقول له متزلفاً ان الملك طيب جداً كثير الحبّ للرومان. فعلّق (كاتو) على العبارة قائلاً «قد يكون الامر كذلك لكن هذا الملك الحيوان هو نوعٌ من اكلة لحوم البشر بطبعه»[٩].

وتلك حقيقة لامراء فيها، فليس بين الملوك من يمكن مقارنته بـ(إپامنداس، او پريكليس) أو تمستوكليس او مانيوس كيوريوس، او هميلقار) الملقّب (باركاس Barcas).

وكان يردد القول أن اعداءه يحقدون عليه لأنه يرى من واجبه أن ينهض مبكراً يومياً قبل بزوغ الشمس لينكب على تصريف شؤون البلاد مهملاً شؤونه الخاصّة. ويخبرك أيضاً أنه يفضل أن يحرم المكافأة عن عملٍ حسن يؤديه، على أن يعاني عقوبة عن عمل سيء أتاه. وأنه

(٩) هذه المزحة مأخوذة من عبارة وردت في الالياذة (١:٢٣١) «الملك الذي ينهش في الناس».

لقادر على ان يصفح عن كل مذنب، إلاّ نفسه.

كان الرومان قد بعثوا بوفد الى (بيثينيا) مؤلف من ثلاثة، اولهما مصاب بداء النقرس، وثانيهما قد اجريت في رأسه عملية قصّ عظام الجمجمة trepamed. والثالث لايفضل المعتوه بكثير. فعقبَ (كاتو) على ذلك ضاحكاً: «ان الرومان أرسلوا وفدا بلا اقدام ولا رأس ولا قلب. وقوبل اقتراحه بخصوص المنفيين الأخائيين(١٠) بمعارضة (سكيپيو) بسبب (پوليبيوس) ونجم عن ذلك مناقشة طويلة حامية في مجلس الشيوخ بعضهم يحبذ عودتهم، وبعضهم يحبذ ابقاءهم فنهض (كاتو) واقفاً وادلى ببيانه هذا:

- أسنبقى هنا جالسين طوال اليوم، وكأن لا عمل لنا إلاّ شحذ قرائحنا وكدُّ ادمغتنا لنقرر هل يجب أن يقوم الناس هنا بحمل هؤلاء اليونانيين الهرمين الى قبورهم، أم النّاس في (آخائيا)؟

وبعد أن فاز اقتراح عودتهم بالتصويت بدا بعد أيام قلائل وكأن أصدقاء (پوليبيوس) كانوا يريدون أن يتقدموا الى المجلس باقتراح آخر لاعادة حقوق وامتيازات هؤلاء المنفيين التي كانت لهم في (آخائيا)، واقبلوا على (كاتو) تحددهم هذه الغاية لاستطلاع رأيه في الموضوع فأجاب باسماً:

- ما اشبه (پوليبوس) بيوليسيوس. بعد أن نجا من عرين (سيكلوپه Cyclope)، كأنه يريد أن يعود اليه ثانيةً لإنه نسيَ قبعته وحزامه هناك.

وتعوّد ان يردد ايضاً ان حكماء الناس يستفيدون من اغبيائهم اكثر مما يستفيد الاغبياء من الحكماء. لأن الحكماء يجتنبون اخطاء الاغبياء في حين يستنكف هؤلاء عن تقليد اعمال الحكماء الجيدة. وهو يقر ايضاً أنه اكثر ميلاً وانجذاباً الى الشبان الذين يحمرون خجلاً ممن يصفرونّ. وانه لم يرغب قطّ في جنديّ يحرك يديه كثيراً في اثناء السير ويحرك قدميه كثيراً في اثناء القتال او ان شخيره اعلى من صياحه. وسخر من رجل بدين بطين قائلاً: «ما الفائدة التي تجنيها الدولة من جسم رجلٍ، استحوذ كرشه على كل مابين لُهاته وحقويه؟ ورغب شخص غارق في ملذاته وشهواته أن يتعرّف به فاعتذر منه بقوله أنه لايعاشر رجلاً سقف حلقه اكثر احساسا من قلبه. ويقول ايضاً أن روح العاشق تحيا في جسم آخر. وانه لم يأسف في حياته

---

(١٠) كانت الاخائيون قد دخلوا في مفاوضات مع ملك الفرس لتسليم بلادهم اليهم. إلاّ ان تدبيرهم انكشف فقبض على ألفٍ منهم وأرغموا على العيش مبعدين في ايطاليا حيث مكثوا سبع عشرة سنة ولما صدر مرسوم باعادتهم (من مجلس الشيوخ بناء على اقتراح ولپيوس أحدهم وتكريماً له) لم يكن قد تبقى منهم غير ثلاثمائة. [ليفي ٣٩:٣].

كلها إلاّ على ثلاث: الأولى أئتمانه امرأة على سرٍّ، والثانية سفره بحراً في حين كان يستطيع السفر برّاً. والثالثة قضاؤه يوماً كاملاً دون ان يكون لديه ارادة على القيام بعمل هامٍ. وتوجه بالقول الى رجل شيخ اقدم على عملٍ دنيء:

- ايها الصديق، ان الشيخوخة نفسها فيها من العيوب ما يكفي، فلا تضف اليها عيب الرذيلة.

وخاطب تريبيوناً عرف بأنه يدسّ السُّم للآخرين، حين زادت لجاجته واحتدم في اثناء تقديمه لائحةً يريد أن تسنّ قانوناً، صاح به قائلاً:

- رويدكَ أيها الشاب، فلست ادري ايهما افضل. أشربي ما تخرجه يداك. أم تصديقي على لائحة تقدمها؟

وقدح فيه شخص يحيا حياة بذخٍ ودعارة فقال له:

- ليس ثم تكافؤ بينك و بيني. فانت تطيق سماع الكلام البذيء بسهولة، مثلما تلفظه. أما أنا، فكرهي في لفظ مثله يعادل عدم اعتيادي سماعه.

ذلكم هو اسلوبه في التعبير عن افكاره، تجده واضحاً في مأثور اقواله.

انتخب قنصلاً مع صديقه وصفيهّ (ڤاليريوس فلاكّوس)، ووقع من نصيبه حكم ذلك الجزء من اسپانيا الذي يطلق عليه الرومان صفة "الأدنى". وهنا بينما كان منشغلاً في اخضاع بعض القبائل بالقوة، وضمان ولاء الاخرى باللين والحسنى، بوغت بجيش جرارٍ من البرابرة يهجم عليه، وبان ماثلا خطر طرده من البلاد طردة غير مشرّفة. فطلب من جيرانه (الكلتيبيريين Caltiberians) المعونة عليهم. فاشترطوا عليه أن يدفع لهم مائتي تالنت اجراً على المساعدة. فضجَّ الكلّ واستنكروا نزول الرومان الى مستوى وعد البرابرة بمكافأة على معونتهم. فردّ (كاتو) قائلاً: "ليس في هذا ضرر أوعار فان نحن انتصرنا دفعنا لهم من جيب العدوّ، وإن حلّت بنا الهزيمة لايبقى من يطالب بالمكافأة ولا من يدفعها». على انه انتصر انتصاراً ساحقاً وربح المعركة، وبعدها حالفه الحظ وراح ينتقل من نصرٍ الى نصرٍ. حتى قال (پوليبيوس) في غضون قيادته هناك، هدمت بيومٍ واحد اسوار كل المدن التي تقع على هذا الجانب من نهر (بيتيس Baetis)[(١١)]. وكان اغلبها آهلاً باقوام محاربة. ويذكر (كاتو) بالذات. ان عدد

(١١) كانت الرهبة من مجرد ذكر اسمه قد ضمنت له مهابة وإحتراماً عظيماً في كل اقاليم ما وراء نهر ابرو (ابيروس). وكان قد كتب رسائل خاصة الى عدد من قواد مدن محصنة يأمرهم فيها بهدم خصونهم دون تأخير موكداً لهم انه لن يعفو عن أي أحدٍ يتلكأ في تنفيذ أمره. فقام كل قائد بهدم أسوار مدينته وابراجها معتقداً ان الامر قد صدر له وحده [ليڤي ٣٤:١٥].

المدن الاسپانية التي استولى عليها، يزيد على عدد الايام التي قضاها هناك. وليس هذا القول مجرد مبالغةٍ وتباهٍ اذا كانت الفترة التي قضاها تبلغ اربعمائة يوم[(١٢)]. ومع ان الجنود غنموا اسلاباً كثيرة جداً، الاّ انه وزع على كل واحدٍ منهم پاونداً واحداً من الفضة قائلاً: ان عودة الكثرة من الرومان الى بلادهم ومعهم فضة، لهو خير من عودة قلةٍ ومعهم ذهب. ويؤكد هو بالذات، انه لم يضع يده على شيء مما اغتنم غير ما أكله وشربه ويستطرد قائلاً: "ليس لأني أعيب على اولئك الذين يريدون الإفادة من هذه الأسلاب. لكنيّ افضل منافسة اشجع الناس في شجاعتهم، على منافسة اغنى الناس في ثرواتهم، او أطمعهم في اموالهم". ولم تكن أنفته هذه قاصرة على نفسه، بل تعدتها الى خاصته واقرب من في معيته. وكان لديه خمسة من الخدم في الجيش، احدهم (پاكوس Paccus) الذي ابتاع ثلاثة صبيان من الاسرى لنفسه وما أدرك ان سيده علم بالأمر حتى شنق نفسه خوفاً من مثوله امامه. فباع (كاتو) الصبية وقيد بدل بيعهم ايراداً للخزينة العامة.

كان (سكيپيو) الكبير عدواً له وكان يرغب في ان يضع امامه العقبات وهو يصرف كل الامور بنجاحٍ ودراية، فعمل على أن يتسلّم مقاليد الحكم في اسپانيا وافلح في ان يكون خليفة له هناك: فأسرع الى البلاد لينهي فترة حكم (كاتو). فعاد هذا الى الوطن بعسكر قافلةٍ يتألف من خمسة ألوية Cohort وخمسمائة خيّال. وهزم وهو في طريق العودة اللاچيتان Lacetanious[(١٣)]، واخذ منهم ستمائة من الجنود الهاربين وأمر بقطع رؤوسهم جميعاً. ويظهر أن عمله هذا اسخط (سكيپيو) وكان موضع استنكاره. فعلق (كاتو) (متظاهراً بالحط من نفسه على اسلوب السخر) بقوله:

- ان روما لتزداد عظمة عندما يأبى أرفع الرجال صيتاً واعلاهم شرفاً - النزول من مقام البطولة الأول للخاملين المغمورين، وعندما يقوم عامة الناس (وهو منهم) بمنافسة أشرف الناس واعرقهم محتداً ومولداً، في ميادين البطولة.

وعندما صوّت مجلس الشيوخ على إقرار اعمال واجراءات (كاتو) في اسپانيا وعدم احداث أي تغيير فيها. آخر حكم (سكيپيو) هناك؛ فلا هدف له ولا غاية، وانما بطالة وكسلٌ، فانخفض رصيده اكثر من (كاتو) بكثير. وظل (كاتو) مع هذا متمسكا باعنة الفضيلة لايرخي قبضته عنها كما قد يفعل كثيرون ممن لايناضلون لأجل الفضائل بحد ذاتها، قدر ما

(١٢) هذا العدد هو أكثر اتساقاً وموافقة لقائمة (بطليموس) الذي حسب المدن وغيرها في اسپانيا القديمة بثلاثمائة وثمانين. في حين كانت مائة واربعاً وثمانين بحساب (پليني).

(١٣) قبيلة قطالونية صغيرة تعيش بالقرب من سفوح جبال البرينيه.

المدن الاسپانية التي استولى عليها، يزيد على عدد الايام التي قضاها هناك. وليس هذا القول مجرد مبالغةٍ وتباهٍ اذا كانت الفترة التي قضاها تبلغ اربعمائة يوم[١٢]. ومع ان الجنود غنموا اسلاباً كثيرة جداً، الاّ انه وزع على كل واحدٍ منهم پاونداً واحداً من الفضة قائلاً: ان عودة الكثرة من الرومان الى بلادهم ومعهم فضة، لهو خير من عودة قلةٍ ومعهم ذهب. ويؤكد هو بالذات، انه لم يضع يده على شيء مما اغتنم غير ما أكله وشربه ويستطرد قائلاً: "ليس لأني أعيب على اولئك الذين يريدون الإفادة من هذه الأسلاب. لكنيّ افضل منافسة اشجع الناس في شجاعتهم، على منافسة اغنى الناس في ثرواتهم، او أطمعهم في اموالهم". ولم تكن أنفته هذه قاصرة على نفسه، بل تعدتها الى خاصته واقرب من في معيته. وكان لديه خمسة من الخدم في الجيش، احدهم (پاكوس Paccus) الذي ابتاع ثلاثة صبيان من الاسرى لنفسه وما أدرك ان سيده علم بالأمر حتى شنق نفسه خوفاً من مثوله امامه. فباع (كاتو) الصبية وقيد بدل بيعهم ايراداً للخزينة العامة.

كان (سكيپيو) الكبير عدواً له وكان يرغب في ان يضع امامه العقبات وهو يصرف كل الامور بنجاحٍ ودراية، فعمل على أن يتسلّم مقاليد الحكم في اسپانيا وافلح في ان يكون خليفة له هناك: فأسرع الى البلاد لينهي فترة حكم (كاتو). فعاد هذا الى الوطن بعسكر قافلةٍ يتألف من خمسة ألوية Cohort وخمسمائة خيّال. وهزم وهو في طريق العودة اللاچيتان Lacetanious[١٣]، واخذ منهم ستمائة من الجنود الهاربين وأمر بقطع رؤوسهم جميعاً. ويظهر أن عمله هذا اسخط (سكيپيو) وكان موضع استنكاره. فعلق (كاتو) (متظاهراً بالحط من نفسه على اسلوب السخر) بقوله:

- ان روما لتزداد عظمة عندما يأبى أرفع الرجال صيتاً واعلاهم شرفاً - النزول من مقام البطولة الأول للخاملين المغمورين، وعندما يقوم عامة الناس (وهو منهم) بمنافسة أشرف الناس واعرقهم محتداً ومولداً، في ميادين البطولة.

وعندما صوّت مجلس الشيوخ على إقرار اعمال واجراءات (كاتو) في اسپانيا وعدم احداث أي تغيير فيها. آخر حكم (سكيپيو) هناك؛ فلا هدف له ولا غاية، وانما بطالة وكسلٌ، فانخفض رصيده اكثر من (كاتو) بكثير. وظل (كاتو) مع هذا متمسكا باعنة الفضيلة لايرخي قبضته عنها كما قد يفعل كثيرون ممن لايناضلون لأجل الفضائل بحد ذاتها، قدر ما

---

(١٢) هذا العدد هو أكثر اتساقاً وموافقة لقائمة (بطليموس) الذي حسب المدن وغيرها في اسپانيا القديمة بثلاثمائة وثمانين. في حين كانت مائة واربعاً وثمانين بحساب (پليني).

(١٣) قبيلة قطالونية صغيرة تعيش بالقرب من سفوح جبال البرينيه.

يناضلون في سبيل المجد الزائل، اولئك الذين بلغوا أرفع المناصب كمنصب القنصلية، ومنحوا شرف موكب النصر، تراهم يقضون بقية حياتهم في كسل وتعاطي مسرات الحياة، ويبتعدون عن الحياة العامة وينفضون ايديهم من السياسة. لكنه وهو الذي منح شرف موكب النصر، كان كمن دخل معترك الحياة السياسية لأول مرة، متعطشا للمجد والشهرة من معين منصب آخر فيبذل فيه أقص مجهوداته كأنه في اول انطلاق له. والى جانب هذا فانه ما انفكّ يبذل خدماته لمواطنيه واصدقائه على الصعيد العام ولم يتخلّ لا عن مهنة المحاماة ولا عن الجندية.

رافق (طيباريوس سميرونيوس) معاوناً ورئيس اركان له عندما سار إلى (ثساليا) والدانوب[١٤]. وزامل (مانيوس أچيليوس Manius Acilius) بمنصب (تريبيون) في حربه (انطيوخوس) الأكبر في بلاد اليونان. وكان (انطيوخوس) قد اوقع رعباً في قلوب الرومان لم يوقعه بهم أحد غيره باستثناء (هنيبعل) فقد اعاد السيطرة الأولى على آسيا كلها تقريباً واخضعها لحكمه، اي كل ما كان تحت سيطرة (سلوقوس نيقاطور Seleucus Nicator) واخضع اقواماً محاربة عديدة من البرابرة. حتى استبدت به الرغبة في مقارعة الرومان كأنهم آخر من بقي جديراً بقتاله. ولهذا عبر من آسيا متذرعاً بحجة ظاهرها مقبول. هي تحرير اليونانيين. ولم يكن اليونانيون في الواقع بحاجة الى تحرير، اذ لم يمرّ زمن طويل على تحررهم من ربقة الملك فيليب والمقدونيين، ونيلهم استقلالهم وممارستهم حقوقهم وتطبيق شرائعهم وفقاً لهواهم بفضل الرومان وسماحتهم[١٥]. فغلت مراجل الثورة في اليونان كلها وعمت الفتنة وأفسدتهم الآمال التي بثها في نفوسهم رؤوساء المدن وزعماؤها بمساعدة الملك لهم. وتمكن (تيطس فْلامنينوس Titus Flamninus) (كما دوّنا في سيرته) من قمع كل محاولات المحرضين على العصيان دون صعوبة تذكر، واخضع (كاتو) الكورنثيين من سكان (پاترو Pa-troe) و(ايجيوم Ægium) وقضى ردحاً من الزمن في آثينا. وثم خطبة له قيل ان نصّها مازال موجوداً كان قد ألقاها على الآثينين باللغة الاغريقية. عبرّ فيها عن اعجابه بفضائل الأغريقيين القدماء واحترامه لها، وبينّ أنه جاء وهو يطفح سروراً لمشاهدة جمال مدينتهم وعظمتها...

إلاّ أن هذا الخبر مختلق من أساسه. لأنه تكلم مع الآثنيين عن طريق مترجم لا لجهله اللغة اليونانية، بل أنه كان يقصد اظهار اعتزازه بلغة بلاده. والاستخفاف باولئك الذين لايعجبهم شيء الاّ اذا كان مكتوباً باليونانية. ومازح (پرستيميوس ألبيتوس) الذي كتب تأريخاً باللغة

---

(١٤) في السنة التي عقبت قنصليته. ان الامثلة على التواضع والتنازل عند القادة والقناصل لا تحصى في تاريخ الرومان. وفي اليونان نزل (أپامنداس) بعد أن أشغل عدة مرات منصب (بيوتارخ) الى قبول وظيفة شرطي صغيرة جداً، ونهض باعباء وظيفته هذه بغيرة وجديّة تجلان عن الوصف.

(١٥) أعلن تيطس كوينتكيتوس فلامينيوس استقلال اليونان في اثناء الالعاب الاستمية العام ١٩٦ ق.م.

اليونانية وطلب لنفسه إعانةً على مجهوده هذا، قائلاً: لاشكّ انه يتأهل الإعانة لو ان تأليفه قد فُرض عليه فرضاً صريحا بموجب مرسوم (امفكيتوني)!.

ويقول (كاتو) أن الآثنيين أعجبوا بسرعة كلامه وحماسته، لأن المترجم كان يتأخر كثيراً في ترجمة ما يقوله، مع اختصار شديد ويزعم أن كلمات الأغريق تخرج من شفاههم عموماً، بينما نبنع كلمات الرومان من قلوبهم.

كان (انطيوخوس) قد احتل بجيشه سائر الممرات الضيقة حول (ثرموپيلي)، ثم انه اضاف متاريس وموانع جدارية اليه فزاد من مناعة الموقع الطبيعية وعسكر فيه متوهما أنه فعل كل مايجب فعله لتحويل اتجاه الحرب عنه إذ كان الرومان والحق يقال قد بلغوا حَدَّ اليأس في امكانهم اقتحام الممّر. إلاّ ان (كاتو) راح يقلّب في ذهنه موضوع المسافة التي قطعها الفرس في الماضي والدورة التي قاموا بها للوصول الى هذا الموقع بالذات. ثم تقدّم ليلاً بقسم من الجيش، وفيما هو يُصعّد المرتفع، ضلَّ الدليل (وهو من الاسرى) سبيله وطفق يروح ويغدو على غير هدىً في ممرات وشعاب غير مطروقة شديدة الانحدار، فشاع الخوف في نفوس الجنود وخارت عزائمهم وأحس (كاتو) بالخطر، فأصدر أمراً بالوقوف حيث هم واخذ معه شخصاً يدعى (لوچيوس مانليوس Lucius Manluis) وهو خبيرٌ لايشق له غبار في تسلق الجبال، فتقدما سويّةً بغاية الصعوبة، مستهدفين لأعظم الخطر في ذلك الليل الحالك الذي خلا من ضوء القمر، يجوسان خلال شجر الزيتون الجبليٌ والصخور الوعرة المتحدرة الزلقة، لاتلتقى ابصارهما الاّ بالظلام والمهاوي، حتى عثرا على شعب صغير ظنّاه يؤدي بهما الى الاسفل حيث يقوم معكسر الأعداء. وهنا وضعا بعض العلامات على عددٍ من(١٦) القمم البارزة التي تتوّج جُبيل (كالليدرومون Calledromon) ثم كرّ كاتو راجعاً ليقود الجيش نحو الشعْب الذي اكتشفاه مهتديا بالعلامات حتى بلغوه فتوقفوا قليلاً وما أن بداؤا السير حتى غابت آثار الشعب واختفت في منحدرٍ فضاقت بهم النفوس وركبهم خوف جديد، ولم يدركوا انهم كانوا على مقربة من العدو، ثم اخذ الصبح ينشر قليلاً من الضياء، وترامت الى اسماعهم اصواتٌ، ثم تبدت لهم خنادق الاغريق وحرس المقدمة يحتلون أسفل الصخرة. هنا اوقف (كاتو) قواته، وأخبر جنود (فيرموم(١٧) Firmum) دون البقية بأنه يريد أن يكلمهم كلاماً خاصاً فقد عهدهم في الماضي مخلصين تواقين الى القتال في كل حين. فجاؤا واتخذوا مواقعهم حوله في صفوفٍ

---

(١٦) الجبال الواقعة الى شرق مضايق ثرموپيلي تسمى (أوتا Œta)وأعاليها يطلق عليها [كاليدروموس] وفي قدمة الجبال طريق عرضه ستون قدماً [ليڤي ١٥:٣٦ وسترابو ٩].

(١٧) مستعمرة رومانية في پيكينه.

متدانية، فوجه اليهم الأمر التالي:

- اني لأرغب في اقتناص اسير واحدٍ من العدوّ. لاستخلص منه بعض المعلومات عمن يقوم على حراسة الممّر؛ كم هو عددهم وما هي خطتهم وبايّ نظام واستعداد سيقابلوننا ؟

ثم استطرد يقول:

- على ان عمليتنا الوشيكة، يجب ان تمتاز بكثير من الخفّة والجرأة، علينا ان نهجم مثل هجمة الاسد وهو يثب على حيوان شديد الحذر والنفار.

وما ان أنهى قوله حتى انحدر (الفيرميّون) من اعالي الجبل وفاجاؤا الحرس بغتةً وعلى غفلةٍ منهم فأوقعوا الهلع في نفوسهم وفرّقوهم ايادي سبأ، وأسروا واحداً منهم وجاؤوا به الى (كاتو) فعلم منه أن بقية القوات معسكرة في مضيق، وهي ملتفة حول الملك، وأن الربايا في أعلى القمم هي نخبة من جنود (الإيتوليين) يبلغ عددهم ستمائة. فاستهان (كاتو) بعددهم الضئيل، واعتمد على عامل المفاجأة، فانتضى سيفه وحذا جنوده حذوه وحملوا عليهم بين الصراخ ودوّي الأبواق. فما شاهدهم العدوّ ينحدرون عليه من القمم حتى ولىّ الأدبار والتحق بالقسم الاكبر فاوقع الفوضى في صفوفهم واخلّ بنظامهم. وعندما كان (مانيوس) زميله يقتحم الاستحكامات في الاسفل، ويدفع بزخم قواته خلال الممرات الضيقة اصيب (انطيوخوس) بحجرٍ حطمّ اسنانه، ولم يتحمل آلامه الشديدة، بل ألوى عنانه وهرب، ولم تصمد اي وحدة من جيشه امام صولة الرومان بسبب وعورة المسالك وكثرة المستنقعات ذات الاغوار العميقة والمنحدرات الصخرية الحادة التي كانت تتلقف في احشائها كل من تزل به القدم. كما ان الفارين اخذوا يتدافعون بالمناكب ويتزاحمون على تلك الممرات الضيقة فيُهلِك بعضهم بعضاً ناهيك بخوفهم من سيوف الرومان وضرباتهم القاصمة.

لم يكن (كاتو) كما هو معروف عنه يزهد في اي مديح يوجّه اليه، وندر انه اقتصد أو أمسك عن التفاخر بعمل بطولي او مأثرة حققها. اذ كان مؤمنا بأن حب المديح طبيعة ملازمة لجلائل الأعمال. لذلك كنت تراه بعد هذا النصر وقد تاه عجباً وانتفخ زهوا وذكر عن نفسه قائلاً ان من رآه في ذلك اليوم يطارد الاعداء، ويصرعهم، مستعدُ للتأكيد بأن (كاتو) لم يكن مديناً لوطنه، قدر ماكان وطنه مديناً له، ويضيف الى قوله هذا، أن (مانيوس) القنصل أقبل عليه رأساً وهو ثمل بخمرة القتال، واحتضنه مدة طويلة حتى امتزج عرق جسميهما، ثم صاح قائلاً: انه والشعب الروماني كافة، لعاجزان عن مكافأته بما يعدل بطولاته!

وأرسل الى روما عقب المعركة ليكون الرسول الذي يحمل لها انباء النصر، فواتته الريح

وبلغت به (برنديزيوم)، ومنها وصل (تارنتوم) في يوم واحدٍ. وانجز رحلة امدها اربعة ايام اخرى ليصل روما ويتحفها بأولى انباء النصر، فأفعم المدينة غبطة وملأها بقرابين الشكر وغرس في قلوب الشعب الايمان بامكانهم السيطرة على كل برّ أو بحر يريدون.

هذا على وجه التقريب كل أعمال (كاتو) العسكرية العظيمة. وبانتقالنا الى ميدان السياسة والأعمال المدنيّة، يطالعنا اولاً برأيه في واجب الدولة، فيقول أن من أهم واجباتها هو تعقيب المجرمين ومحاكمتهم وادانتهم، وقد ترافع بالذات ضدّ الكثيرين واتهّم كثيرين وساعد الآخرين على تهيئة اسباب اتهامهم، بل وتمادى الى حد دفع وتحريض بعضهم على الشكوى كما دفع آل (بتيلي Petilii) الى اتهام (سكيبيو)، غير أنه عجز عن تحطيمه، اذ وقف نبل أسرته، وجبروت عقله الحقيقي حائلاً دون ذلك، وامكنه أن يطأ التهم التي وجهت اليه بقدميه.

واخيراً كّف (كاتو) عن التعرض له. بيدأنه انحاز الى صف متهمي اخيه (لوشيوس) ونجح في استصدار حكم بادانته وفرض غرامة باهظة جداً يدفعها الى الدولة. معجز عن دفعها وكاد يزجّ في السجن لو لم يتخلص من الغرامة بالغاء الحكم عندما تدخل تريبيونات (مفوضو) الشعب لصالحه، وبعد كثير من الضجة واللغط.

وقيل ايضاً أن (كاتو) لقي مرةً في الساحة العامة، شاباً تمكن من فضح وهتك سمعة عدوٍ لأبيه المتوفي، فاقبل عليه مصافحاً وقال له: «هذا ما يجب ان نقدمه قرباناً لموتانا، لا أن نقدم حُملانا ومعزاً بل دموع خصومهم، واحكاماً بادانتهم». بيد أنه لم يسلم هو من الاتهام اثناء ممارسته الشؤون العامة. ولو أن قدمه زلت به أقل زلة واعطى خصومه اصغر حجةٍ لاستهدف لخطر تقديمه الى القضاء. ويروى أنه سَلُم من خمسين تهمة على أقل تقدير. وفي مقدمتها وهو آخرها تهمة الصقت به وهو في السادسة والثمانين من العمر، قال عنها قولته الشهيرة جداً: «انه لمن الصعب عليه وهو الذي عايش جيلاً من الناس ان يدافع عن نفسه الآن امام جيلٍ اخر». ولم تكن هذه آخر وقفةٍ له امام القضاء اذ تقدم بعدها بأربع سنين وله من العمر تسعون عاماً[(١٨)]- باتهام لـ(سرڤيليوس غالبا Serviluis Galba)، وعلى هذا نرى ان حياته العملية امتدت لتستغرق ثلاثة اجيال بشرية كاملة، مثل (نسطور) ان جاز لنا القول. فقد رأيناه يخوض في خصومات عديدة حول شؤون الدولة مع (سكيپيو) الاكبر، ووجدناه

(١٨) پلوتارخ لم يكن هنا دقيقاً ففي مبدء السيرة يقول ان كاتولم يكن يبلغ من العمر ١٧ عاماً عندما بدأت انتصارات هنيبعل تتوالى في ايطاليا ثم يعلمنا بالأخير انه توفي في بداية الحرب الفيونية الثالثة. على ان معركة [كانيّ] حصلت في ٢١٥ ق.م. والحرب الفيونية الثالثة بدأت في ١٤٨ ق.م وعلى هذا الأساس لا يكون (كاتو) قد تجاوز الخامسة والثمانين عندما وافاه الأجل في العام ١٤٧ ق.م وهذا ما يؤيده شيشرون (الخطب ٢) أنظر أيضاً پليني في تاريخه ١:٢٩.

يواصلها مع (سكيپيو) الاصغر، الحفيد المتبنى لأولهما، والابن الحقيقي (لپاولوس) الذي قهر (پرسيوس) والمقدونيين.

بعد مرور عشر سنين على تسنّم (كاتو) منصب القنصل، عاد يرشح نفسه لوظيفة (الچنصور) وهو بمثابة نهاية التكريم وشرف الخدمة. وارفع منصب مدنيّ في الدولة إن صح القول، فمن بين السلطات الكثيرة التي انيطت بصاحبه، سلطة التحقيق في حياة كل انسانٍ وسلوكه الشخصي. فقد كان الرومان يرون أنه لايجمل بأن يترك الحبل على الغارب للمواطن، يتزوج من يشاء ويربي أطفاله وفق هواه، ويقيم المآدب ومجالس الراح كما يشتهي، الاّ ويكون للدولة كلمة فيه. لأن مصلحتها تقضي بالتحقيق والتدقيق منه عن سلوكه واخلاقه التي هي أسرع بالظهور في مثل هذه الامور علنا وفي وضح النهار. ولهذا اختاروا اثنين من الپاتريشيين، وواحداً من العامة، لوظيفة الرقابة والتقويم والعقاب، ان اشتط احدٌ في حياة اللذة والتهتّك، أو حاد عن السلوك العام المعتاد في البلاد، ويطلق على القائم باعباء الوظيفة اسم (چنصور). ولهم صلاحية مصادرة حصان من راكبه. وطرد اي عضو من اعضاء مجلس الشيوخ لايعيش عيشة لائقة، أو يخرق حدود النظام العام. ومن واجباتهم ايضاً أن يحددوا ثروة المواطن. وان يدونوا في سجل خاص صفة اخلاق المرء وزمن مولده، هذا الى جانب صلاحيات أخرى كثيرة.

لذلك عارض نقباء الأشراف وزعماؤهم في ترشيح (كاتو) واثاروا بدافع سخطهم، طبقة الپاتريشيين الذين عدّوا رفع اشخاصٍ لاأصل نبيل يدعمهم الى اعلى درجة من السلطة والتكريم، بمثابة سبةٍ وعارٍ لشرف الكل.

أماّ من كان يدرك شرّ أعماله، ومدى خرقه قوانين البلاد، وامتهانه مقدساتها، فقد سرى الخوف في نفسه من صرامة الرجل الذي لاشكّ في انه سيكون قاسياً غير مساوم. فقلبوا الأمر من شتىّ وجوه واجتمعت كلمتهم على تقديم سبعة مرشحين ضدّه. فراحوا يغرون الشعب ويمنونه بشتى الوعود ويعللونه بأطيب الآمال حتى لكان الشعب يريد حكماً متهاوناً سائباً يسرح فيه الاشرار ويمرحون. أما (كاتو) فناقضهم في الدعوة لنفسه، ولم يعد الشعب بتسامح أو ليونة، بل هددّ فاعلي الشر بسوء المصير علنا واوضح نيته بصراحة من منبر الخطابة، قائلاً ان المدينة بحاجةٍ إلى تطهير شاملٍ عامٍ وناشد حكمة الشعب وادراكه، بالاّ يختار الارحم والأرقّ من الأطباء، بل أشدهم صرامة وغلاظة. وانه هو الطبيب المنشود من طبقة العامة، و(ڤاليريوس فلاكوس) من طبقة الپاتريشيين. وانه لمتأكد بأنهما سيقومان بعمل طيب معاً. وسيقطعان أوصال التهتك والترف وحرقها كما كانت نهاية افعى (الهيدرا hydra). وزاد

قائلاً أن بقية المرشحين لاينشدون الفوز بالوظيفة بدافع حسن القصد، فهم يخشون من سيمارس واجباتها وفقاً لقواعد الحق والعدل، كما هو واجب.

وكان الشعب الروماني شعباً عظيماً حقاً، جديراً بعظماء الرجال زعماءً له وقادة، اذ لم يخشَ صرامة (كاتو) ولا قطوب وجهه وجهامته، وأبى انتخاب ذوي الوعود الخلابة والوجوه الصبوحة الباشة المستعدين للقيام بكلّ شيء في سبيل فوزهم. وانتخبوه مع (ڤاليريوس فلاكوس) اي انهم عملوا بنصيحته التي قدمها لهم وهو مرشح، كأنما كان حائزاً سلطةً فعلية للأمر والنهي قبل انتخابه!

وكان من اولى اعماله تعيين صديقه وزميله (لوشيوس ڤاليريوس فلاكوس) رئيساً لمجلس الشيوخ، وطرد عددٍ من الاعضاء بينهم (لوشيوس كوينتوس) الذي تولى منصب القنصل قبل سبع سنين. وهو أخُ (ليتطس فلامنينيوس) قاهر الملك فيليب وهذا بحد ذاته شرف يعلو شرف القنصليةً. وكان سبب طرده من المجلس كما يلي: كان يرافق (لوشيوس) في سائر قياداته التي أوكلت له، شابٌ غرانق في ميعة الصبا، وقد تعلق به ومنحه سلطات هامة وجعل له مكانة عنده تزري بمكانة اعزّ اصدقائه وأدنى اقربائه. واتفق أن عُين (لوشيوس) حاكماً بصلاحية قنصل، في احد الأقاليم الرومانية فلم يفارقه الشاب، ومرة كانا في مجلس شراب فراح هذا يغرق لوشيوس كعادته بفيض من الملق والمداهنة بين الكأس والطاس. ومما قاله انه شديد الحبّ له الى حدٍ انه كان في روما عرضٌ للمصارعين «وأنا لم اشاهد عرضاً كهذا في حياتي وكنت عظيم الشوق لحضوره ورؤية رجلٍ يقتل فيه، الاّ إني تركت ذلك وخففت اليك بأسرع ما امكنني». فاراد (لوشيوس) ان يعوض له ايثاره وصدق عواطفه وقال مطيّباً خاطره: «لاعليك بهذا ولا تكتئبنَّ فبإمكاني تدبير الأمر لك» وأمر أن يؤتى الى المأدبة حالاً بأحد المحكومين بالموت. مع جلادٍ وفأس. وسأل الشاب أيريد مشاهدة تنفيذ حكم الموت فأجاب الشاب "بلى". فأمر (لوشيوس) الجلاد بقطع رقبة المحكوم. ذكر هذه الحادثة عدة مؤرخين. وجعل (شيشرون) (كاتو) يرويها بلسانه، في كتابه الموسوم de Senectute. إلاّ ان (ليڤي) يزعم ان المحكوم كان جندياً غالياً هارباً من الخدمة. وان (لوشيوس) هو الذي قتله بيده، ولم يمت بفأس الجلاد. وهذا ايضاً ماورد في خطبة (كاتو).

خلّف طرد (لوشيوس) من المجلس أثراً عميقاً في نفس أخيه فاستانف القرار للجمعية العمومية. وطلب ان يتقدم (كاتو) من جمهور الشعب ليدلي بالاسباب التي حملته على اصدار قراره. ولما بدأ يروي حادث المأدبة عجلّ (لوشيوس)[19] بإنكارها أصلاً، الاّ ان

(١٩) نرجح وضع [تيطس] هنا: بدلاً من [لوشيوس] ذلك لما سبق ان ورد عن هذا الطّرد من رواية تكاد =

(كاتو) تحداه باجراء تحقيق رسميّ، فرفض وتراجع وبهذا عُدّ مستحقاً للطرد. ومَرَّ زمنٌ على ذلك وفي ذات يوم كان ثم عرضٌ في الملعب وشوهد (لوشيوس) يمرّ بالمقاعد التي اعتاد ان يحتلّها القناصل السابقون، ويعبرها ليجلس في معقد بعيد فأثار بعمله هذا عاطفة الجماهير فراحت بكثير من الهتاف والضجة تطلب منه الدنو والجلوس في الصف الأمامي محاولةً جهد امكانها تصحيح واحصل، وازالة أثرة في نفسه.

وعمد (كاتو) ايضاً الى طرد (مانيليوس) الذي كان الشائع انه سيحتل منصب القنصلية في الدورة التالية، لأنه قبل امرأته علنا وعلى مشهدٍ من ابنته. وقال (كاتو) معقباً على العمل:

- وأما عن نفسي فان زوجي لاتأتي الى ذراعي [٧] عندما ينطلق رعدٌ شديد، فيكون مِزاح (جوبتر) معي باطلاقه رعوده، مدعاة سرورٍ ليَ!

على أن معاملته (للوشيوس) الآخر الذي هو أخو (سكيبيو) وأحدُ من مُنح موكب نصرٍ، اثارت السخط العام على (كاتو)، إذ صادر منه حصانه، وشاع انه مافعل ذلك إلاّ بقصد إهانة (سكيبيو افريقانوس) المتوفى. على ان اشدّ الكره الذي ناله، نجم عن حَدّه كثيراً من مظاهر البذخ والترف العام. فبعد أن فسد عامة الشباب بهذا الداء، بدا من المستحيل أن يعالج الأمر معالجة مباشرة، ولذلك لجأ الى حركة التفافٍ حوله، فأمر ان يجرى تقدير ثياب الخروج، والحلي النسّائية والاثاث البيتية التي تتجاوز قيمتها الفاً وخمسمائة دراخما بعشرة اضعاف قيمتها الحقيقية، قاصداً رفع نسبة التخمين على هذا الملك لزيادة الضريبة عليه. كما اصدر مرسوماً يقضي بدفع ثلاثة (اسات) بالألف ضريبةً عن كل صنف من اصناف هذه الملكية، ليستثقل الناس هذا العبء الزائد من الضرائب، حين يجدون غيرهم ممن يملكون ثروات مساوية لهم معفويّن منها، وان بدا مظهرهم اكثر فقراً واقلّ غنى منهم، بينما هم يدفعون ثمن اسرافهم وبذخهم. ولهذا نجد ان الحنق على (كاتو) لم يكن قاصراً على دافعي ضريبة الترف، بل تعداهم الى اولئك الذين اخفوا مظاهر ثروتهم وغناهم واخفوا مظاهرها عن الانظار تخلصاً من الضريبة. فالناس بصورة عامة يعتبرون الأمر الذي يؤدي بالنتيجة الى منعهم من عرض ثرواتهم ومظاهر غناهم، مساوياً لمصادرتها وانتزاعها منهم. لأن دلائل الغنى وكثرة المال تُرى في الكماليات اكثر مما ترى في ضروريات الحياة. وهذا في الواقع هو الذي أثار دهشة (أرسطون Ariston) الفيلسوف أعني اعتبارنا اولئك الذين تكثر عندهم الكماليات اكثر رضىً وسعادة ممن حازوا الكثير من الضروري والمفيد. فقد طلب احد اصدقائ. من الثريّ

= تكون مطابقة (سيرة فلامينينوس). أنظر إيضاً ليفي ٣٤:٤١.

التسالي (سكوپاس Scopas) أن يهديه شيئاً لايحتاجه كثيراً. فأجابه الغنّي:

- الحقيقة هي ان هذه الأشياء التي لا احتاجها ولا انتفع بها، هي التي كونّت ثروتي وزادت في غناي.

وهكذا نجد ان الرغبة في الغنى لاتدفعها حاجة طبيعية فينا، وانما تنشأ بالأحرى من حكم مبتذل شائع يكوّنه اناس آخرون.

ورغم هذا كلّه راح (كاتو) القليل الاكتراث بمنتقديه يزداد صرامة، فأمر بقطع أنابيب اسالة الماء عن اولئك الذين كانوا يستحوذون بوساطتها على المياه العموميّة لارواء حدائقهم ومنازلهم. وحكم بهدم كل البيوت التي برزت منها الى الشوارع العامة شرفات ونتوءات واجرى تخفيضاً في أسعار التعهدات المتعلقة بالاشغال العمومية الى أدنى حَدٍّ ممكن، بينما رفع تخميناتها لأجل جباية الضريبة الى اعلى حَدٍّ. فنال كرهاً على كرهٍ وعمد اشياع حزب (تيطس فلامينيوس) في مجلس الشيوخ الى الغاء كل التعهدات والاتفاقات التي عقدها (كاتو) في ترميم وصيانة المباني العامة وبيوت الدين بدعوى عدم فائدتها للجمهورية، ورفعوا ايضاً اشدّ تريبيونات الشعب جرأة الى إتهامه، وغرم تالنتين اثنين. كذلك عارضوه معارضةً عنيفةً في قضية تشييده داراً للقضاء او ما يدعى (باسيليكا Basilica)، أمر ببنائها على حساب بيت المال في الساحة العمومية بالقرب من قاعة المجلس، وسُميت «بورچيون Porcion» على اسمه. ومع هذا كلّه، فإن الدلائل كلها تشير الى أن الشعب كان راضياً بطريقة تصريفه شؤون وظيفته، وانها وهنا وجه الغرابة - وقعت موقعاً طيباً منه، اذ عملوا له تمثالاً نصبوه في معبد ربّة الصحّة. ونقشوا على قاعدته عبارة لم يأتوا فيها الى ذكر قياداته العسكرية التي تولاها اثناء الحرب، ولا موكب نصره، وانما قصروها على مايلي:

«كان هذا، (كاتو) الچنصور، الذي انتشل بإجراءاته الصالحة العادلة، كيان الجمهوريّة الرومانية عندما كان يشير الى الانحلال، ويغرق في حمأة الرذيلة»

قبل أن يُعطى هذا التكريم، كان يضحك من اولئك الذين يحبونّ هذه الاشياء قائلاً: «لايدري هؤلاء أن زهوهم واعتزازهم مُنَصبٌّ على فنّ المثالين والرسامين. في حين أن خير صورة هي تلك التي يرسمها المواطنون لهم في صدورهم» ولما كان يدهشهم رفضه القاطع في ان يُنصب له تمثال، في حين كانت التماثيل تنصب لعامة الناس، فانه يقول لهم: ان سؤالي لماذا لايقام لكَ تمثال؟ هو خير واجدى من سؤالي لماذا يُقام لك تمثال؟» وبعبارة أخرى كان يكره أن يقبل المواطن النزيه بمدح او ثناء يوجه له إلا اذا قدّم الدليل الواقعي على نفعه للجمهورية.

وهو يقول لنا: «ترى الواحد من اولئك الذين يرتكبون خطأ ما، او يعابون على عمل أتوه، يقول على سبيل الاعتذار: ما أنا بكاتو» ويقول أيضاً: «ما أصح ما يُطلق على الذين يقلدون اعمالي تقليداً سيئاً - بكاتو الأعسر!» وكان مجلس الشيوخ عندما تحزب الأمور وتتأزم يشخص اليه ببصره كما يشخص البحارة الى ربان السفينة، وكثيراً ماكانوا يؤجلون البتّ في الامور الخطيرة جداً عندما يكون غائبا عن المجلس. وهذا ماشهد له الناس به، وكان نفوذه عظيماً في المدينة وسمعته عالية لسنه وألمعيتّه في الخطابة والأسلوب الذي اتخذه في العيش.

كذلك كان أباً صالحاً وزوجاً ممتازاً، بلغ الغاية في التدبير والاقتصاد وسوف يكون حديثي في هذه الأمور مستفيضاً بعض الشيء بما هو أهل للثناء عليه منها بسبب اهتمامه الخاص بها وان لم تكن من الاحداث الهامّة في حياته العامة: تزوج أمرأة كان شرف أصلها يفوق غناها، فمن رأيه أن الثريّ والكريم النسب يكونان على درجة واحدة من الأنفة والعجرفة إلاّ أن الثاني منها يميل إلى الحياء والخجل من الأمور الوضيعة، والزوج الأصيلة أكثر طاعة لزوجها في ما هو لائق حسن من الزوج الغنيةّ. وقال ايضاً أن البعل الذي يضرب زوجه او وُلده إنما يعتدي على أقدس حرمة، وهو يعتبر الزوج الصالح أجدر بالثناء والتجلة من عضو مجلس الشيوخ البارز. واكثر ما يعجبه في (سقراط) حياته القانعة الوادعة التي عاشها مع زوج سليطة واولاد معتوهين.

وما ان ولد ابنه حتى اتخذ له عادة التقرب من زوجه اثناء قيامها بغسله والباسه ثياب القماط، عندما لايشغله عمل هام إلاّ ما يتعلق منها لشؤون الدولة. ولم تكتف بأرضاعه هي نفسها، وانما كانت تلقم ثديها لأطفال خدمها حتى تنشأ علاقة حبّ طبيعية فيهم لإبنها برضعهم الحليب نفسه. ولماّ بلغ الصبيّ سنّ التمييز، اضطلع (كاتو) شخصياً بتعليمه القراءة مع وجود خادم يدعى (خيلو Chilo) عرف بتضلعه في النحو وكان يعلم كثيراً من الصبية. بيدانه لم ير من المناسب - على حدّ قوله - أن يؤنب ابه عبدٌ او يجرّ أذنه عند اهماله دروسه، كما انه لم يكن يرضى لأبنه أن يظلّ مديناً لخادمٍ بهذه المِنّة الكبرى، منةّ التعليم. فقام هو بتدريسه - كما قلنا - علوم النحو والقانون، وبتدريبه في العاب الرياضة (الجمناستيك). ولقنّه حذف الرمح واصول القتال وهو مدرّع، وركوب الخيل، وأعطاه ايضاً دروساً في الملاكمة. ودربّه على تحملّ الحرّ والبرد، والسّباحة في اقوى تيارٍ واخطر الأنهار. كما ذكر ايضاً أنه كتب دروساً في التاريخ بأحرف كبيرة بخطّ يده ليعلّمه بها شيئاً عن اسلافه وشعبه، حتى لايضطر الى الخروج من البيت، وكان تحرزّه وحذره من لفظ اي شيء قبيح امامه، لايقل عن تحرزه من لفظه امام عذارى الفستال المقدّسات. ولم يصحبه الى الحمام قطّ، وكان هذا ما جرى عليه

العرف عند الرومان. فترى الأختان يجتنبون الاستحمام مع حَمَيهم لئلا يرى أحدهم الآخر وهو عارٍ. لكن سرعان ما اخذوا عن الأغريق عادة خلع الثياب رجالاً امام رجالٍ، ثم عادوا ليعلموا الأغريق ذلك مع اضافة جنس النساء.

وهكذا صوّر (كاتو) ابنه وثقفه بالفضائل، كأنه أحد الأعمال التي تفرغ اليها فأنجزها على أحسن مايرام. ولم يجد عيباً في استيعابه وطاعته، على أنه تبين في جسمه رقةً وفي تكوينه ضعفاً يعجزه عن تحملَ المشاقّ، فلم يصرّ على نمط صارمٍ له في الحياة، ومع هذا فقد ظهر أن رقة جسمه تخفي شجاعةً نادرة في ميدان القتال. فقد أبدى في حرب (پاولوس اميليوس) و (پرسيوس) بطولة فذّة، لما طار السيف من يده بضربةٍ، أو بالاخرى عندما افلت من يده لعرقها. فقد طار صوابه وركبه العناد فانثنى يستعين باصدقائه ومن حوله لاسترداده وعاد الى ميدان القتال وهو في طليعتهم وهجموا على العدوّ وقاتلوه قتالاً طويلاً حتى أجلوه عن الموقع، ووجدوا السيف بين كدس عظيم من السلاح وكوم من أجسام القتلى اصدقاء واعداء؛ فنال بذلك ثناءً عاطراً من جنراله (پاولوس). ولدينا رسالة بعث بها (كاتو) الى ابنه يمدح فيها مسعاه الشريف لاستعادة سيفه.

بعد ذلك، تزوج الأبن (تيرتيا Tertia) بنت (پاولوس) واخت (سكيپيو)، وكان قبوله ضمن أسرة پاولوس يعود الى سجاياه وحميد خصاله، قدر ما يعود الى مكانة والده وفضائله لذا فإن جهود (كاتو) في تهذيب ابنه لم تذهب جفاءً، بل اثمرت ما هو جدير بها من النتائج.

أبتاع (كاتو) عدداً ضخماً من العبيد أسرى الحرب، ولاسيما الشباب منهم، لأنه يسهل تقويمهم وتعليمهم كما تدرب الأمهار والجراء. ولم يدخل أحد من عبيده بيتاً آخر الاّ اذا ارسله هو او زوجه فإذا سئل احدهم ماذا فعل (كاتو) اجاب انه لايدري، ولايزيد على ذلك. ولم تكن ترى في بيته خادماً إلا وهو إما نائم أو منكبّ على عملٍ ما. ذلك لأن (كاتو) كان اكثر رضاء على المكثرين من النوم، فهم في عرفه ألين عريكة وأطوع له من اليقظين، واصلح لما يكلفون به من أعمال بعد انتعاشهم بغفوة قصيرة. كذلك يرى أن السبب الأساس في الكسل وسوء السلوك هو انصرافهم الى ملاهيهم وشهواتهم فوضع جعلاً محدداً يدفعونه للجماع وللوصال فيما بينهم، ولم يسمح بعلاقة جنسية لهم خارج البيت. ولم يكن كثير التدقيق والتشديد فيما يتعلق بمأكله أيام كان جندياً فقيراً، وظلّ يعتبر انتهار الخادم في اي شأن من شؤون البطون من السخافة والتفاهة بمكان، حتى أثرى، وراح يقيم الولائم لاصدقائه وزملائه في الحكم، وبلغ من تشدده فيها أنه كان بعد انتهاء العشاء يدخل على خدمه وبيده سوط جلدي يقنّع به المقصر من خدم المائدة والمهمل في تقطيع اللحم. وكان يحرص أن يوجد خصام

بين خدمه، فهو دائم الخوف والريبة من تفاهم يوحّدهم. فكان يجعل من خدامه وعبيده قضاةً على اي زميل لهم ارتكب جرماً يستحق عليه الموت. وينفذ فيه حكمهم مهما كان. ودفعه ميله الشديد للربح الى اعتبار الزراعة مدعاة للهو وهواية اكثر من كونها وسيلة للربح، وعمد الى استغلال امواله في مجالات مضمونة الربح خالية من المخاطرة فابتاع بحيرات، وحمامات حارة، واراضي ملأى بالصلصال وقطع اراضٍ تدر ارباحاً بالمضاربة، ومراعي، وغابات، وكان يجنى منها كسباً طائلاً، لايستطيع (جوپتر) نفسه أن يصيبه منه بضررٍ كبير - على حَدّ قوله[٢٠]- وتعاطى الربّا أيضاً في عمليات البحر التي كانت تعتبر من الاعمال الشائنة للغاية. وفرض على اولئك الذين اوكل اليهم استثمار امواله في هذا المجال ان يتخذوا لأنفسهم شركاء، حتى اصبحوا خمسين، يملكون خمسين سفينة، وساهم هو بحصة عن طريق معتوقه (كوينتو Quinto) الذي ترتب عليه في هذه الحالة ان يبحر مع هؤلاء القراصنة ويشرف على مصالحه عندهم، حتى لايعود ثم خطر في خسارته كل ماله المستثمر، بل جزء صغير منها، يقابل ذلك توقع الربح الفاحش. وكان يقرض المال لمن يريد من عبيده ليبتاعوا به عبيداً صغار السّن، فيهذبونهم ويعلمونهم على نفقة سيدهم ثم يبيعونهم بربح في ختام السنة. وكان (كاتو) يتخير بعضهم لنفسه ويدفع بهم ثمناً يوازي الثمن الذي الذي يدفعه الشارون الآخرون بدون نقصان. واهتم في ان يطبع ابنه على اخلاقه فكان يردد امامه: بأن انقاص المرء ثروته ليس من شيم الرجال بل من شيم الأرامل. وخير دليل على حرص (كاتو) ونجله هو تصريحه الجريء عن نفسه حيث يقول: «انه ادعى الناس الى الإعجاب والاحترام، بل هو أقرب شبها للآلهة مادام سيخلف اكثر مما تلقى».

وكان شيخاً همّاً عندما قدم الى روما كل من (قارنياديس Carneades) الأكاديمي و(ديوجينس) الروّاقي مندوبين عن آثينا[٢١]، لمهمة طلب اعفاء الآثينيين من عقوبة الغرامة المفروضة عليهم بمبلغ خمسمائة تالنت، في قضية مدنية رفعها ضدّهم (الاوروپيون Oropi-ans)[٢٢]، وكان (السيكيونيون Sicyonions) فيها قضاةً. ولم يحضر الآثينيون فحوكموا غياباً. وما أن انتشر خبر قدومهما حتى تقاطر الشباب المثقف عليهما وقاموا بخدمتها

(٢٠) أعني باصابته بالآفات الطبيعية كالامطار الغزيرة الزائدة عن الحدّ أو الزلازل أو الجفاف الخ...

(٢١) اوليوس (١٤:٧) يذكر سفيراً ثالثاً معهم هو كريتولاؤس المشاء [جماعة ارسطو الذين كانوا يلقبون بالمشائين].

(٢٢) كان الآثينيون قد نهبوا مدينة [اوروپوس] فشكا أهلها الأمر الى المراجع فعهدت الى السيكونيين امر البت في النزاع. ولم يحضر الآثينيون للدفاع عن أنفسهم ففرضت عليهم غرامة قدرها خمسمائة تالنت [انظر ملحق ليڤي ٢٤:٢٧ پاوسنياس ٢:٧].

واستمعوا الى اقوالهما باعجاب وجمعت مقدرة (قارنياديس) الفذة وسحر خطابه وشهرته المساوية لكفاءته، عدداً هائلاً من النُظّار المعجبين المشايعين ولم تلبث كالريح أنه ملأت المدينة كلها بصداه، وتنوقل الحديث عن ذلك اليوناني الذي يفتن القلوب ويسلب العقول، ويبذ الجميع في اجتذاب الناس وأنّ افتتان الشباب به كان من اعجب الأمور فقد انصرفوا عن ملاهيهم وغواياتهم، واخذوا يجرون وراء الفلاسفة كالمجانين فاشاع غبطة عظيمة عند الرومان ولم يسعهم إلاّ أن يتطلعوا بكثير من الفرح الى شبانهم وهم يقبلون باذهان متفتحة مستوفزة على الآداب اليونانية ويختلفون الى مجالس الحكماء.

وجد (كاتو) إن عاطفة جائحة تدفع المدينة الى سحر اللفظ والكلم وكان منذ البداية متطيّراً من هذا الميل العام الفجائي، يخشى ان ينحرف الشبان عن سبيل اطلاب المجد بالحرب والأعمال الصالحة وينجرف بنيار فصيح القول وبليغ الكلمات. وبلغ السيل الزبى عندما تقدم (كايّوس أسيليوس Caius Acilius) الشخصية البارزة، متطوّعاً للترجمة لهما في مجلس الشيوخ عند أوّل مثول رسمي لهما امامه. فتحرك (كاتو) للعمل على التخلص من هذين، متخذاً حجّةً عامةً بوجوب طرد كل الفلاسفة من المدينة. ونهض في مجلس الشيوخ يلوم الحكام على سماحهم ببقائهما في روما هذه المدة الطويلة، دون أن ينتبهوا الى تأثيرهما على العامّة، ومقدرتهما على اقناع الشعب كلّه بما يريدانه. وطالب باتخاذ قرارٍ فوريّ حول طلبهما واعادتهما الى ديارهما ومدرستيهما ليخطبا في ابناء اليونان ويتركا شباب الرومان على طاعتهم لقوانينهم وحكامهم تلك الطاعة التي لم يفكروا حتى الآن في التمرد عليها. ولم يكن (كاتو) بعمله هذا مدفوعاً بايّ حقدٍ او ببغضاء (لقارنياديس) كما خيل لبعض الناس. وانما لأنه كان ينفر ويحتقر كل انواع الفلسفة. وهو لم يعكف على دراسة العلوم اليونانية لأجل المعرفة، وانما لإظهار مقدرته على تناول كل شيء والفخر بتلك المقدرة ليس الاّ. فكان يرى (سقراط) مثلاً: ثرثاراً كبيراً ومحرضاً على الفتنة، عمل جاهداً ليكون طاغيةً لبلاده، وليقضي على العُرف والتقاليد الضيقة، فأغوى المواطنين، وحرفهم الى افكار مخالفة للنظام العام والقانون. كذلك سخر بمدرسة (إيسوقراطس Isocrates) قائلاً ان تلاميذ هذا الفيلسوف يشيخون قبل اكمال دراستهم عنده، حتى لكأنهم يريدون ان يستخدموا منهم في العالم الآخر، بالترافع بالقضايا في محكمة (مينوس Minos) هناك. واراد أن يبعد أبنه عن كل شيء يوناني ويخيفه منها نطق جازماً كما ينطق العرّاف الكاهن بنبوءة، وبلهجة لاتليق بمن هم في سنة:

- سيقضى على الرومان قضاءً تاماً وتذهب ريحهم، ما ان تبدأ عدوى العلوم اليونانية تنتشر فيهم.

واظهر الزمن عُقم هذه النبوءة وفسادها. ففي الواقع لم تبلغ روما اوج عظمتها إلاّ عندما نهلت من علوم اليونان. هذا ولم يكن كرهه قاصراً على فلاسفة اليونان بل لقدّاه الى اطبائهم. ولعله كان قد سمع بما روي عن (ابقراط Hippocrates) عندما ارسل ملك الفرس بطلبه ووعده بأجر يبلغ بضع تالنتات فرفض هذا قائلاً انه لن يعالج البرابرة لأنهم اعداء بني قومه.

ولعله كان يعرف ان رفض (ابقراط) هذا، صار بمثابة قسم عام يلتزم به كلّ اطبائهم إزاء الأعداء. ولذلك حَثَّ ابنه على الحذر منهم واجتنابهم. وكان هو قد ألف كتيباً في الوصفات الطبية، وعلاج المرض من اهل بيته. ولم يصف فيه الصوم قط، وانما كان يشير باقتصار مريضه إما على الخضار، واماً على تناول لحوم البط او الحمام او صغار الأرانب. قائلاً ان طعاماً كهذا مناسب للمرض لأنه سهل الهضم، الاّ انه يصيب متعاطيه بأحلامٍ كثيرة! وادعّى ان تطبيقه هذه الحميةَ على اهل بيته، تعدّى شفاءهم من امراضهم الى ابقائهم في حالة دائمة من الصحة والعافية[٢٣]. على انه لم ينج من القصاص لادعائه هذا، فقد ماتت زوجه ولحق بها ابنه. وإن امتد عمره بعدهما قليلاً فلم يكن سببه نطس طبه بل متانة تركيبه وقوة جسمه الطبيعية. التي كفلت له الوصال الجنسيّ حتى آخر ايامه. فقد تزوج بفتاة في مقتبل العمر بعد اجتيازه مرحلة الحب بمدى بعيد، متعللاً بالحجّة الآتية:

بعد ان ماتت زوجه، خطب لابنه بنت (پاولوس اميليوس) واخت (سكيپيو)، ثم واصل فتاةً صغيرة السنّ كانت تراجعه في بيته سراً، وكان المنزل صغيراً تعيش فيه كنّتُه. ولم يبق سرّه مكتوماً زمنا طويلاً، فبينا كانت هذه الفتاة تخرج يوماً، دون أن تلتزم سبيل التخفيَ كما يجب، رآها ابنه فلم يقل شيئاً الاّ انه اظهر مايدلّ على النفور، فأحسّ الأب الشيخ بذلك وأدرك أن مايأتيه ليس بالأمر المستحب. وخرج دون أن ينطق بكلمة أو يظهر غضباً - الى السوق كعادته للإجتماع بأصحابه وعشرائه. وتوجه بالحديث الى (سالوينوس Salonius) احد موظفيه وسأله بصوت مرتفع: «ألم يزوج ابنته بعد؟» فأجابه: لا، واضاف انه لن يزوجها قبل استشارته. فقال (كاتو):

- لقد وقعت على ختن مناسب لك. إلا اذا رفضته لكبر سنه. لا عيب فيه إلاّ انه هرم جداً كما قلتُ.

---

(٢٣) لاشك انه كان فاشلاً تماماً كطبيب فوصفاته الطبية التي يمكن أن يجبرها الباحث في تضاعيف رسالته حول« في ريف» أمّا ساذجة للغاية. أو خطرة جداً. والصيام هو خير وصفاته جميعاً اما أكل البط والحمام والأرنب فهو لا يندرج في قائمة الحمية الخفيفة بل في من الاكلات الثقيلة العسرة الهضم ولذا تصيب آكليها بالكوابيس!

وافق (سالونيوس) على كلٍ، وطلب من (كاتو) أن يتابع مساعيه ويعطي البنت لمن يريد فهي خادمته المطيعة، وهي في حاجة الى حمايته ورعايته. فانتقل (كاتو) بلالفّ ودوران من التلميح الى التصريح وقال انه يريد بنته زوجاً له. ولاشكّ ان الدهشة عرت الرجل كما ينتظر منه فقد توهم ان (كاتو) ابعد الناس عن الزواج، قدر ما هو ابعدهم عن مصاهرته، وتوحيد اسرتيهما، وهو القنصل السابق الذي منح شرف موكب النصر. ولكنه تبيّن الجدّ فيه فبادر الى القبول مسروراً وقصدا الفورم حالاً لاجراء مراسيم العقد. وفيما هما في ذلك، جمع ابن (كاتو) بعض اصحابه وقصد معهم أباه وسأله: هل أن جلب زوج ابٍ الى البيت، كان بسبب خطأ ارتكبه بحقّه؟ فهتف (كاتو) قائلاً:

- لا لعمري يا بنيّ. فأنا راض عنك غاية الرضا، ولست أجد اية مذمّة لا فيك ولا فيمن يلوذ بك. وكل ما أرمي اليه من زواجي، هو ان يكون لي اولاد كثيرون مثلك اتركهم لخدمة الجمهورية.

ويقولون إن (پسستراتوس) طاغية آثينا أجاب بالجواب عينه على سؤال مماثل من ابنائه الذين كانوا في عنفوان رجولتهم عندما بنى ابوهم بزوجه الثانية (تيموناسّا Timonassa) الارغوسية التي ولدت له على مايذكرون - (ايوفون Iophon) و(تسّالوس Thessalus).

وانجبت له زوجه الجديدة ابنا لقّبه (سالونيوس) وهو لقبها. ثم توفي ابنه البكر. وهو في منصب (بريتور)، وقد جاء ذكره مراراً فيما كتبه ابوه واصفاً اياه بالرجل الصالح. وقيل أنه احتمل مصابه فيه بصبر وضبط نفس مثل فيلسوف، ولم يؤثر في نشاطه ولم يعتر اهتمامه بشؤون الدولة اهمالٌ. ولم ينقلب شخصاً لا اباليا في آخر عمره كما حصل (للوشيوس لوكوللوس Lucius Lucullus) و(ميتللوس پيوس Metellus Pius) اللذين اعتبرا الشؤون العامة من قبيل الواجب المفروض، ما أن يعفى منها المرء حتى يتركها الى غير رجعة. كذلك لم يكن مثل (سكيپيو افريقانوس) الذي نال الحقد من مجده، فدفعه الى تطليق الحياة العامة، وتغيّر حاله وقضى بقية حياته عاطلاً لايعمل شيئاً. لكنه كان كما قال أحدهم في وعظ (ايونيسيوس): إن أفخم واكرم نصب تذكاري يحصل عليه، هو ان يموت وهو يعمل لمملكته. ولهذا وجد (كاتو) أن اكرم الشيخوخة واجلها هي أن ينفقها صاحبها في الشؤون العامة. على انه كان يستجم وقت فراغه بمزاولة الفلاحة والكتابة. ولقد ألف في الواقع كتباً وتواريخ متنوعة[٢٤]. وكان في شبابه منصرفاً الى الزراعة بقصد الربح، واعتاد القول ان

(٢٤) الى جانب ما يتأهز مائة وخمسين خطبه تركها. ألف رسالة في الانضباط العسكري. وكتباً في الآثار. منها اثنان في نشوء وبناء المدن الايطالية. وثم كتب خمسة أخرى منها عن تاريخ الرومان. وبالاخص وقائع الحربين الفيونية الأولى والثانية.

طريقيه في الحياة هما الزراعة، واستثمار المال، أما الآن، بعد ان شاخ، فنجده يتخذ الأولى منهما منصرفاً لوقته وموضوعاً للدراسة، فتراه يؤلف كتاباً في شؤون الريف يعالج فيه مما يعالج كيفية صنع الكعك وطرائق حفظ الفاكهة. وهكذا كان (كاتو) يريد أن يبرز في شذوذه وتفرده بتصرفاتٍ واعمال لايشارك فيها غيره من البشر.

واكثر من دعوات العشاء في بيته الريفيّ، فكان يستقبل يومياً اصدقائه وجيرانه الأقربين ويقض وقتاً مرحاً طيباً معهم، ولذلك كان مجلسه مثابةً لالكبار السنّ بل للشباب ايضاً. فهو رجل جمع خبرات شتىً في امور كثيرة، طويل الباع في كل حديث يستأهل السماع سواء في مجالات القول، أو ميادين العمل. واعتبر المائدة الحافلة باطايب الطعام خير مناسبة لتوثيق عرى الصداقة، وبسط الحديث في تقريظ اعمال المواطنين الصلحاء والشجعان، والاقتضاب الشديد في الكلام عن التافهين والحقراء، لأنه لايسمح أن يقال في مجلسه شيء في قدحهم او مدحهم[٢٥].

وينسب اليه بعض المؤرخين القضاء على قرطاجنّة، ويعدّه عملا آخر من اعماله العامة في الدولة. الحق يقال ان (سكيپيو) وجه اليها الضربة القاصمة باقدامه المعهود. لكن اضرام نار الحرب مجدداً كان قد اتخذ بمشورة وتحريض (كاتو) أساساً. وبالشكل التالي:

أرسِل (كاتو) وسيط صلحٍ بين القرطاجنين وملك النوميديين (ماسينيسًا Masinissa) ليتعرف على أسباب نزاعهما واحترابهما. وكان ملك النوميديين على ما يبدو صديقاً للرومان منذ البداية. وان الخصمين كانا قد دخلا الاتحاد الروماني بعد أن تغلب عليهما (سكيپيو) وجردهما من قواهما بانتزاعه اراضيهما وفرض غرامة باهظة جداً عليهما[٢٦]. إلاّ أن (كاتو) وجد قرطاجنة بحال تختلف تماماً عما يظنّه الرومان. لم يجدها مهيضة الجناح سيئة الحال، بل زاهرة عامرة متخمة بالمال والغنى مكتنزة لكلّ انواع السلاح والذخيرة. كما وجد القرطاجنيين ابعد الناس عن المسكنة او الذلّة، وانما يبدون العجرفة والغطرسة التي تليق بالمنتصر لا بالمغلوب. فادرك حالاً أن الظرف ليس ظرف اصلاح الرومان خلافاً بين فريقين مختصمين، وان الموضوع هو الخطر الذي يحيق بالرومان من تزايد قوة القرطاجنينّ، والبحث عن الوسائل الكفيلة بوضع حَدّ لنموّ وتعاظم شوكة عدوة روما اللدودة التقليدية. فعاد مسرعاً الى بلده وابلغ مجلس الشيوخ بصراحةٍ أن الهزائم والضربات السابقة التي انزلت بالقرطاجنيين لم

---

(٢٥) De Re Rustica وهو الكتاب الوحيد الذي وصلنا كاملاً دون ان يفقد منه شيء. ومن بين المواضيع «الغريبة الخاصة» التي عالجها موضوع «كيفية تسمين الاوزّ والدجاج والحمام الخ...».

(٢٦) في العام ٢٠١ ق.م ارغم سكيپيو افريقانوس القرطاجنيين عند نهاية الحرب الفيونية الثانية على تسليم اسطولهم للرومان واقتطاع الجزء الماسنيي من اقاليم سيفاكس وضمه الى الامبراطورية الرومانية وبدفع عشرة آلاف تالنت للخزانة العامة.

تضعف قواهم كثيراً كما لم تقلل من عنجهيتهم ونزقهم. وانهم لم يزدادوا ضعفاً كما توهموا بل ازدادوا خبرة في الحرب. وما قتالهم مع النوميديين الاّ مناوشة يقصدون منها التمرن والتدرب لقتال الرومان وان الصلح والإتحاد الذي عقدوه مع الرومان هو في الحقيقة اشبه بهدنة حربية مؤقتة تنتظر الفرصة المؤآتية للنقض وبدء الحرب.

ويذكر هو بالذات أنه عمد بعد ختام اقواله الى نفض عباءته ليسّاقط منها امام المجلس بعض التين الافريقي. فأخذ الاعضاء يبدون دهشتهم من جمالها وحجمها، فاستطرد يقول: ان البلاد التي تنمو فيها هذه التينات، لاتبعد عن روما اكثر من ثلاثة أيام بطريق البحر». ولم يدل برأيه بعد ختام بيانه، ولكنه نطق عند اخذ الآراء بالعبارة التالية:

- «وأنا ايضاً أرى ان قرطاجنة يجب أن يقضى عليها قضاءً تاماً»[٢٧].

إلاّ ان (پوبليوس سكيپيو ناسيكا) ظلّ يتمسك بخلاف هذا الرأي وادلى برايه في الصيغة الآتية:

- «يبدو لي ان بقاء قرطاجنة ضرورة لابدّ منها».

وكان يدفعه الى هذا الرأي تفشي اللامبالاة في نفوس بني قومه وازدياد صفاقتهم واستهتارهم بالحكومة. واستهانتهم بمجلس الشيوخ وعصيانهم أوامر الزعماء، وجعلهم الاستقرار والرخاء لايسلس لهم قياد، يجرّون المدينة كلها خلفهم متى شاؤا. فكان يرمي باقتراحه ان يظلّ الخوف من قرطاجنة في قلوبهم. لتكون الجماهير اسلس قياداً. واسرع الى الطاعة. كما كان يرى القرطاجنيين اضعف من مقارعة الرومان واكبر من أن يستهين الرومان بهم. أماّ (كاتو) فيعلل رأيه أن الخطر كل الخطر هو بقاء قرطاجنة ساكنة مترّقبةً هفوة يأتيها الشعب الروماني لتنال منه مأربها. وانه لايجمل بروما التي كانت عظيمة دائماً، وآضت الآن تحفل بالحكمة والتجارب مما اصابها من النكبات، أن ينسيها انغماسها في الملذات الخطر الذي تتعرض له. وان افضل السبل هو ازالة هذا الخطر الآن قبل ان يستفحل ويُخرج شطْء اخطار أخرى كثيرة.

بهذا أثار (كاتو) على مايقال الحرب الثالثة والاخيرة على قرطاجنة، والمعروف انه توفي حال نشوبها متنبأ باسم الشخص الذي قدر له أن يختتمها وكان في ذلك الحين شاباً غرانقاً بوظيفة (تريبيون) عسكريّ، يبدي ضروباً فذة من البسالة والحنكة، وقد ذكر نبأه (لكاتو) في روما قبيل موته فنطق بهذا:

(٢٧) ومن هنا جاء المثل اللاتيني Delenda est Curthage.

«هو الرجل الحكيم الأوحد بين الجميع.

اما الآخرون فقد فروا وانهزموا كما تنهزم الظلال!»[٢٨].

نبوءة حققها (سكيپيو) باعماله البطولية بعد قليل.

لم يترك (كاتو) ذرية غير ابنه من زوجه الثانية. وقد اطلق عليه كما اسفلنا (كاتو سالونيوس)، كذلك ترك حفيداً لابنه البكر، ومات (كاتو سالونيوس) وهو في منصب (بريتور)، الا ان ابنه (ماركوس) صار قنصلا فيما بعد، وهو ابن جد (كاتو)[٢٩] الفيلسوف الذي كان من ابرز شخصيات عصره في مجال الفضيلة والشهرة.

(٢٨) هذان البيتان اومیروس [الاوردیس ٤٩٥:١٠] عزاه الى تيريسيوس كميركي أو ليسيوس بزيارة الأشباح.

(٢٩) الشجرة هي كالآتي:

١- كاتو الجنسور. ٢- كاتوسولانيوس [من زواجه الثاني]. ٣- ماركوس كاتو (القنصل). ٤- كاتو الاوتيكي الفيلسوف.

أوجه المقارنة بين اريستيدس وماركوس كاتو

بعد أن نوهّنا بأهم ماقام به هذان الرجلان العظيمان من أعمال وجئنا الآن لمقارنة مجموع حياة اولهما بمجموع حياة الثاني. لما سهل علينا التوصل الى اوجه الخلاف بينهما، لأنها تضيع في عدد كبير من الوقائع التي يتشابهان فيها. وإن نحن انعمنا النظر في التفاصيل واكثرنا التدقيق مثلما نفعل بمقطوعة شعرية أو صورة لوجدنا، انهما يتحدان في وصولهما الى ذروة المجد والرفعة في الجمهورية بفضل اخلاقهما ومجهوداتهما ليس غير. ويبدو أن نبوغ اريستيدس حصل في وقت لم تكن آثينا قد بلغت بعد أوج عظمتها وغناها. وكان كبار الحكام وقادة الجيش في عصره ذوي يسارٍ معتدل وثروات متقاربة، وكانت قيمة أعظم عقارٍ لفرد من هذه الطبقة تقدّر بخمسمائة (ميديمْن Medimn) كما قدرت ثروة فرد الطبقة الثانية اي الفرسان بثلاثمائة وقدر لفرد الطبقة الثالثة أو (زيوغيتوي Zeugitoe) مائتان. ولكن (كاتو) قفز من قرية صغيرة في اعماق الريف إلى حاضرة الجمهورية، أو بالأحرى الى البحر الاوقيانوس، في ذلك الزمن لم يكن يوجد حكام من آمثال آل (كوريي Curii) و (فابريجي Fabricii) و (هوستيلي Hostilii)، ولم يكن الكاردحون الفقراء قد نبذوا المحراث والفأس إلى مناصب الحكم والقضاء وكانت الثروة وشرف النسب، وكثرة الهدايا، وتفريق المال والتشبثات الشخصية هي عماد النجاح في المدينة، أماّ اولئك الطامحون الى الرقيّ والشهرة. فكانت محاولاتهم تقمع بيد باطشة، ويهانون ويحقّرون. ولم يكن حدثاً خطيراً أن ينافس تمستوكليس شخصٌ وضيع النسب قليل اليسار (وتمستوكليس نفسه لم يملك اكثر من اربعة او خمسة تالنتات عند دخوله معترك السياسة كما يقال)، مثلما كانت منافستك لشخصٍ مثل (سكيپيو افريقانوس) و (سرڤيليوس غالبا) و (كوينتيوس فلامينينوس) ولا سلاح لديك غير لسانك الذرب في قول الحق.

الى جانب هذا، كان (اريستيدس) في ماراثون ثم پلاطيا. قائداً من مجموع عشرةٍ من القادة، اما (كاتو) فقد انتخب قنصلاً مع زميل واحدٍ، من دون منافسين كثيرين له. كما

فُضل على سبعة مرشحين لوظيفة (الچنصور)، وهم من ابرز القوم وسراتهم، مع زميل واحدٍ ايضاً. على ان (أريستيدس) لم يكن الرجل المتفردّ باية مأثرة سعى فيها. فمجد يوم (ماراثون) عُزي الى (ملتياديس) ومأثرة (سلاميس) تقلّدها (تمستوكليس) وخُصّ (پاوسانياس) بشرف ذلك النصر المؤزر على الفرس كما يحدثنا به (هيرودوتس).

ان رجالاً من امثال (سوفانيس Sophanes) و(أمينياس Aminias) و(كالليماخوس Callimachus) و(سينيگيروس Cynaegyrus) أظهروا من حسن البلاء في كل المعارك مارفعهم الى مرتبة (اريستيدس) في منافسته حتى على المحلّ الثاني. أما (كاتو) فقد سلم له مقام الشجاعة والحنكة الأول في حرب اسپانيا وهو قنصل. كما استأثر بشرف النصر في (ثرومپيلي) وهو (تريبيون) تحت أمرة قائد، لأنه فتح ثغرة واسعة للجيش الروماني في استحكامات العدوّ وأتاح له الإيقاع بانطيوخوس. ولأنه حمل الحرب كلها على ظهره، في حين وجه اهتمامه بما هو قدامَه. وهذا النصر الذي كان من عمل (كاتو) بلا مماراة، أجلى الأغريق عن آسيا، ووطأ السبيل فيما بعد للتوغّل الروماني فيها. وكلاهما لم يخطئه النصر من اية حرب خاضها. إلا ان اريستيدس كبابه حظه في بلاده فنفي وأضطهد بمساعي حزب (تمستوكليس). أما (كاتو) فقد بقي ثابتاً راسخ القدم، رغم تألب كل اشراف روما والمتنفذين تقريباً عليه حتى شيخوخته، وكذلك كان طرفاً في عدة دعاوى قضائية مدعياً او مدعى عليه، وفاز بأغلب الاولى، وخرج من سائر الثانية بريئاً. والفضل لبقائه سليماً لاينوشه أذى طوال حياته يعود بلاشك الى تلك الاداة الباشطة المحكّمة وهي البلاغة، وحسن البيان. ولقد كان (انتيباطر) مصيباً حين خصّ ارسطو الفيلسوف بأرفع الثناء اذ كتب عنه بعد وفاته: في مقدمة مواهبه العظيمة، تلك المقدرة على إقناع الناس باي طريق شاء.

ولا جدال في أن السياسة (پوليطيقا) هي أوفى واكمل نعمةٍ يُحبى بها الإنسان، وناحية "الاقتصاد" والتدبير منها قد تكون أجلّ النواحي الاخرى. واي مدينةٍ من المدن تتألف بطبيعة الحال من بيوتٍ ومجموعة أسر خاصة، فهي لاتنمو ولا تغدو جمهوريةً مستقلّة بشؤونها إلاّ بمجهودات المواطنين فيها، وبازدهار احوالهم ورخاء عيشهم. و(ليكورغوس) نفسه الذي منع التعامل بالذهب والفضة في سپارطه وجعل خُبث الحديد العملة النقدية الوحيدة المشروعة. لم يمنع بهذا الاجراء او غيره اهتمام المواطنين بتدبير امورهم المنزلية الخاصّة، بل كان هدفه لقضاء على الترف والإسراف وهما من آفات الغنى ومظاهر فساده - ليس الاّ، لأنه من الجهة الاخرى اهتم بحشد الكثير من الحاجات الضرورية والمفيدة للناس في المدينة وبزّ غيره من المشترعين في ذلك. ولم تكن رعايته للغنيّ الرفيع القدر، مثل رعايته واهتمامه بالفقير والمحتاج

والمعدم. وكان (كاتو) في هذا الباب مُجلياً كما كان في الشؤون العامة. فقد زاد في امواله وأتربَ. وصار استاذا ومعلما للآخرين في الزراعة والاقتصاد. وجمع في كتاباته عدة مواضيع وملاحظات مفيدة من هذه الجهة. أما (اريستيدس) فكان بعكس ذلك. لقد جعل عدالته كريهةً وبدت كأنها عامل تدمير وافقار لإسرته. كانت عدالته نعمةً للجميع باستثنائه هو، مصدرها وواليها. على ان (هيسيود) يحثنا من جهة أخرى على الالتزام بالحق في معاملاتنا والإهتمام بشؤون بيوتنا، ويهاجم الكسل والتواكل هجوماً عنيفاً ويقول انه أصل المظالم[٣٠].
ولله درّ (هوميروس) القائل:

«لم يكن العمل عزيزاً عليّ، ولا تدبير المنزل بالذي يهمني وان كانت المجهودات فيه تزيد من غنى أسرتي - إن لذّتي وسعادتي في سفينة كاملة العُدّة، وفي الحروب، ورماح الطعان وسهام القتال -».

يريد أن يبين أن الاشخاص المقصودين في ابياته، يهملون واجبات بيوتهم ولا يعباؤن بعقاراتهم ويعيشون على سلب الآخرين وظلمهم. يقول الأطباء عن الزيت إن وضعه على الجلد مفيد للغاية، وشربه مضرّ، وهكذا يكون اثر عمل الرجل العادل اذ يهمل شأنه ويهتم بشأن الآخرين. ونرى ان خلق (اريستيدس) السياسي يشوبه نقص من هذه الجهة، فقد اجمع معظم المؤرخين على أنه لم يهتم بأن يخلّف لابنتيه مهراً أو يدخر مايكفي لسدّ مصاريف دفنه. في حين نبغ من اسرة (كاتو) شيوخ وقادة عديدون حتى الجيل الرابع منها. وكان احفاده واولاد احفاده من فرسان السياسة المجلّين أما (اريستيدس) رجل اليونان الأول، فقد ألجأ فقره اعضاء اسرته الى كسب قوتهم بالشعبذة والتدجيل، وبعضهم اضطرتهم الحاجة الى التسول ومدّ الكف في المحلات العامّة. اذ لم يترك ربّهم لهم تلك الوسيلة التي توطيء لهم مزاولة العمل الشريف الجدير بذكراه.

مع هذا كله، فلماذا تؤول نتيجة الفقر الى هذا؟ مادام لايعتبر عيباً او منقصةً بحد ذاته، إلاّ اذا كان نتيجة الكسل وعقبى السفاهة واللامبالاة والتمادي في الشهوات؟ إنك لتجده في الضعيف المثابر والعادل الشجاع الذي يوقف سجاياه الفاضلة على المصلحة العامة، أشبه بالتاج الذي يزين مفرق ذي العقلية السامية. لأن الذي يهتم بصغائر الأمور، لايجد له متسعاً من الوقت للاهتمام بعظائم الامور. ومن لم يكن ذا حاجات كثيرة لاقبل له بالنظر في حاجات الآخرين. وما يعين المرء على خدمة شعبه وبني قومه ليس الغنى، بل القناعة والاستقلال في الأمور، ولأن هاتين الخصلتين لاتتطلبان مظاهر ترف وكماليات في المنزل أصغر وهو نواة

(٣٠) يشير بلوتارخ هنا الى بيت لهذا الشاعر كان قد تمثل به قبلاً في مفتتح روايته لسيرة صولون.

مجتمع المدينة – فإنهما لا تصرفان الذهن عن العمل في حقل المصلحة العامة. إن الله وحده هو المعصوم عن الحاجة وهو المكتفي لاغيره، وان ذا الحول المطلق والقداسة ليس له حاجة بالفضائل البشرية كالجسم المتين النامي فإنه لا يتطلب صنفاً فاخراً من الطعام او الثياب. وكذلك الرجل الصحيح بدنا، والبيت القويم الصالح منهما لايحتاجان الى الكثير. ومن يجمع المال الكثير ولا يفيد الاّ من قليله لايُعدّ انساناً مستقلاً بأمره. فإن لم يكن المرء بحاجة الى اشياء معينة فمن الحمق أن يسعى جاهداً في سبيلها لأنه لايريدها. واذا كان يريدها وقمع في نفسه متعته فيها لوضاعته ودناءته وجشعه، فإنه شقي بائس. واذا كنا ننشد الغنى لأجل الاستمتاع به. فإني لأودّ معرفةَ ما دفع (كاتو) الى الفخر بربح المال الكثير وقناعته منه بالقليل؟ وان كان من دواعي النبل والشرف أن يعتاش على خبز النخالة وشرب الخمر الرخيصة التي يشربها اقنان الأرض ويزهد في لبس الأرجوان، والمنازل المسيّعة بالجصّ، فلا (اريستيدس) ولا (ايامنداس) ولا (مانيوس كيوريوس) ولا (كايوس فابريشيوس) كانوا بحاجةٍ الى ضروريات الحياة، كذلك لم يعمدوا الى السعي وراء الكماليات التي كانوا يترفعون عنها. وليس مايزين الإنسان ويُجديه أن يباهي بالدرهمين والثلاثة في كل مناسبة عندما يعتبر اللّفت الذي يسلقه بيده، ألذّ طعام، وعندما تقوم زوجه بخبز الخبز، ولا يرتفع قدره بتأليف كتابٍ في اسرع السبل المؤدية للغنى.

إن وجه الصلاح، هو في القناعة بالقليل. فهذا الكفاف من شأنه ان يقضي في الحال على رغبة المرء في الكماليات، وحنانه اليها. ولذلك قال (اريستيدس) في محاكمة (كاللياس) على ما وردنا: إنه الخجل من الفقر وقفٌ على من كان فقيراً خلافاً لرغبته أما الذين أحبوا الفقر فقد جعلوه مدعاة فخرٍ لهم.

ومن السخف حقاً أن نظنّ أن فقر اريستيدس كان متأتياً من كسله، فما كان أهون عليه واسهل أن يثري ويوسر باسلاب بربريّ واحد، أو الاستيلاء على خيمةٍ من خيم العدوّ. ولكن فلنكتف بهذا ولنقفل الموضوع.

لم تضف حملات (كاتو) العسكرية الى رقعة الامبراطورية الرومانية شيئاً كثيراً. لأنها كانت قد بلغت أوج اتساعها قبله ولم يبق لمستزيد زيادة. إلاّ ان حملات (اريستيدس) كانت اشرف قصداً وابعد منها اثراً بكثير، مثلما كانت اعماله المدنية أسمى وأروع ماسطّره شعب اليونان في تاريخه. فهذه معارك (ماراثون وسلاميس وبلاطيا) شاهد. كذلك نحن لانستطيع مضاهاة حروب (انطيوخوس) او هدم اسوار المدن الاسپانية بحروب (احشويرش: أخشيرش) الطاحنة وابادة عشرات الألوف من جنوده في البّر والبحر. لم يتفوق على (اريستيدس) أحد

من الكُماة في كل هذه المواقع، وإن زهَدَ في المجد واكاليل الغار كما زهد في المال والغنى وتركها الى من هم في لهفة اليها، فقد كان ارفع واسمى من كل هذه الأمور. واني لاالوم (كاتو) لتمجيد نفسه بلا حساب او انقطاع ولا لرفع نفسه فوق الجميع، وهو القائل في احدى خطبه: من السخافة أن يمدح المرء نفسه او يقدح فيها، بيد أن ذاك الذي كان يكره أن يمدحه الآخرون يبدو لي اعلى خلقاً وارفع منزلة ممن لاينفك يعظم نفسه. إن الفكر الذي حقق التحرر من قيْد الطموح، هو العون الرئيس للمرونة السياسية والدهاء السياسيّ، واذا استولى الطموح على الفكر، غلّظ القلوب وسعّر اعظم نيران الحقد والاضطغان على الطمّاح. وقد خلص (اريستيدس) من هذا خلاصاً تاماً، بينما كان عند (كاتو) اكبر هدفٍ له. مد (اريستيدس) يد العون لتسمتوكليس في احرج الأعمال واخطرها؛ ورفع من شأن اثينا بصورة ما - وهو ضابط تحت امرته. وكاد (كاتو) بخصومته ومعارضته لسكيپيو يقضي على حملة الرومان بالفشل وهي التي ادت الى دحر هنيبعل الذي لايقهر. وظلّ يلاحق هذا البطل باتهاماته وشكوكه حتى طرده من المدينة، كما اثقل اخاه بحكم مشين يتضمن ادانته بسرقة اموال الدولة. واخيرا نجد ان ما لهج به (كاتو) حول ضبط النفس قد تحلى به اريستيدس ولم يشن نقاوته او يلحق به وصمة. الاّ ان زيجة كاتو غير اللائقة بوقاره وسنه، انما هي مثلبة من هذه الجهة، فليس من الحشمة والحياء في شيء ان يدخل بيته الذي يسكن فيه ابنه وكنته، ابنة موظف بسيط في الدولة يتلقى اجراً على خدمته وسواء في ذلك أكان الدافع الى الزواج شهوة الجنس، او الغضب من الإبن، فالابتذال والمعرة لاينتفيان من العمل والسبب معاً. والحجّة التي ادلى بها لابنه كانت كذباً في كذبٍ. اذ لو شاء ان تكون له ذرية كبيرة من الابناء الصلحاء انما كان قمينا به أن يتزوج عقيلة، نسيبة حسيبة لا ان يشبع شهوته سراً ولأمد طويلٍ من امرأة لاتربطه بها رابطة الزوجية. حتى اذا افتضح امره؛ اختار لنفسه حمواً مغموراً مثل هذا بينما كان بسهل عليه مصاهرة آخر يتشرف بمصاهرته.

١٩٦٨/٤/٧





253 _184

فيلوپومين[١]

كان (كليـاندر) رجلاً رفيع العـماد كريم المحـتد واسع النفوذ في مدينة (مانتـينيا)[٢] ولكن مشيئة الاقدار حكمت باخراجه منهـا. وكـان بينه وبين (كروغيس Crougis) والد فيلوپومين وهو شخص من السُّراة، صداقة وطيدة، فـاستقّر في (مـيغالوپوليس) حيث يسكن صديقه هذا وتمتع بكلّ مايرغب فيه تحت كنفه طوال حياته، فلما مـات هذا الصديق عني بابنه اليتـيم وفاءً لجميل ابيه وعطفه الكريم. فكان (فيلوپومين) مدينا له بالتـهذيب والتـثقيف مثلما كان (فونيكس Phoenix) قد تعهّد بتربيـة (أخيل) حسب ما روى هوميـروس. وشبّ فـيلوپومين منذ نعومة اظفاره على الخلق النبـيل العـالي. على أن تعليـمه الأساسّي تمّ على يد (إقـديموس Ecdemus) و(ديموفانص Demophanes) بعد اجتيازه عـهد الصبا. وكلاهما كان من أهل (ميـغاپوليس) ومن المتشبـعين بالفلسـفة الاكاديمـية وصديقين (لأركيسـيلاوس Arcesilous)، وقد فـاقا أياً من معاصـريهما في جعل الفلسفة عـاملاً فاعلاً ناشطاً في شؤون الحرب وسيـاسة الدولة. وحررا وطنهـما من الطغيان بـهلاك (ارسطوديمـوس) الذي قتل بسعي منـهما. وعـاونا (اراطوس Aratus) في طرد الطـاغـيـة (نيكوكليس Nicocles) من (سـيـكيـون Sicyon). وابحـرا الى مـدينة (القـيـرينيين Cyreneans) بطلب من اهلهـا عـندمـا كـانت الفـوضى والاضطراب قد ضربا اطنابهـما فيـها وافلحا في اقـامة حكومة صالحة واحكما تثبيت النظام الجمهوري فيها. وباقـرارهما شـخصـيّاً كان تثقيف (فيلوپومين) من أجلّ الاعـمال التي قاما بها، لاعتـقادهمـا بأنهمـا افادا بلاد اليـونان عمـوماً بغرس بذور الفلسـفة في نفس تلميـذهمـا. والواقع أن كل بلاد اليـونان جُنت به حُباً (فـقد وجدت فـيه نوعاً من ولد مـتـأخر جاءت به الى الحيـاة في عصر انحلالها وضـعفها بعد عدد كـبير من أنبل الزعماء) وكـانت تزيد من سلطانه كلما زاد مجداً. ولقبه أحد الرومـان على سبيل المدح باخر الاغريق، كأن بلاد الاغريق لم تنجب عظيماً بعده، ولا من يستحقّ اسم الاغريقي.

---

(١) ولد في ميغالوپولس ونشأ فيها وتلقى تدريبه العسكري وتعليمه هناك.

(٢) ماتيا، مدينة في أركاديا. لم نعثر على ما حدا بكلياندر ليخرج من مدينته هذه.

ولم تكن خلقته مشوهةً كما يتصور بعضهم، فصورته مازالت موجودة في (دلفي) وإنَّ خطأ مستضيفتُه في (ميغارا) حصل على مايبدو، بسبب لين عريكته، وبساطته. فقد أبلغت هذه المضيفة أن جنرال (الاخائيين) سيأتي بيتها في غياب زوجها، وراحت تهيء عشاءً له بعجلة شديدة. وفي تلك الاثناء دخل عليه (فيلوبومين) في دثارٍ وعباءة عاديةٍ فظنته من حاشية القائد أرسل قبله فطلبت منه أن يساعدها في شغلها، فبادر بالقاء عباءته عنه وراح بقطع خشباً للوقود. وعاد الزوج وشاهده منصرفاً الى عمله فقال مشدوها: «ماذا نقصد بهذا يا (فيلوبومين) ؟ فردّ عليه بلهجته الدوريّة Doric:

- إني أستوفي عقوبة منظري القبيح.

ومرةً كان (تيطس فلامينينوس) يمازحه في شكل جسمه فقال له: أن لديه يدين وقدمين بديعة التكوين. ولكن ليس لديه بطن. لأنه كان في الحقيقة ضامر البطن. على أن هذه المزحة كانت موجهةً الى حالة العسر المالي التي تلازمه فقد كان لديه افضل الرجّالة وأحسن الخيّالة، وكثيراً ما كان يخلو وفاضه ولا يجد ما ينفق منه عليهم او يدفع به اجرهم.

ولم يكن حبه الشهرة والشرف بمنفصل عن شعور الغيرة والمنافسة، هما في طبعه ممتزجان، حتى جعل من (أپامنداس)[٣] مثله الاعلى ولم يبتعد عنه كثيراً في بطرلاته وحكمته واستقامته التي لم يعتورها فساد. إلاّ ان مزاجه العنيف الحارّ كان يخرجه دائماً عن حدود الاعتدال والكياسة واللوذعية والانسانية التي امتاز بها (اپامنداس)، وهذا ما جعله نسخة عسكرية له، اكثر مما جعله نسخةً سياسية. والعجيب في الامر أنه مال منذ صباه الى حياة الجندية فدرس ومارس كل ما يتعلق بها وكان يجد لذته في الخيل والسلاح. ولأن طبيعة تكوين جسمه كانت تؤهله لممارسة المصارعة والامتياز فيها فقط نصحه اصدقاؤه ومدربوه بأن يتعاطى التمارين الرياضية ووجهوا اهتمامه اليها. ولكن اراد اولاً ان يتأكد بأن ذلك لا يعوقه عن التمرّس في الجندية فقالوا وكانوا مصيبين أن حياة المصارع هي على طرفي نقيض من حياة العسكري. فحالة البدن الضرورية وطريقة العيش وشكل التمارين كلها تختلف. فالرياضي المحترف ينام كثيراً ويأكل كثيراً. وله اوقات مخصوصة لاجراء تمارينه ونيل راحته لا يحيد عنها وهو عرضة لخسارة الكلّ إن افرط قليلاً أو حاد قيد شعرة عن طريقته التي اعتادها. في حين يتحتمّ على الجندي أن يعود نفسه على مختلف التقلبات، والتغييرات،

(٣) الجنرال والسياسي الاغريقي ولد في ثيبه من مدن بويوتيا (٣٦٢ - ٤١٨ ق.م) وكان من المدافعين عن استقلال بلده. وقد قاد حروباً كثيرة ضد اللقيديمين وضمن استقلال ثيبة عندما حقق نصره الحاسم في موقعه لوكترا الشهيرة على اللقيديمين. ٣٧١ ق.م وقد جرح في معركته الناجحة مع المانتيين وتوفي من أثر الجراح.

ولاسيمّا تعويد نفسه على الجوع والحرمان من النوم دون ان يشق ذلك عليه. ولما سمع (فيلوپومين) هذا القول نبذ كل فكرة في احتراف المصارعة وازدراها، حتى انه زهّد الآخرين فيها عندما تسلم القيادة بانتقادها والانتقاص منها بكل وجهٍ متصوّر، وقال عنها انها رياضة تجعل الرجال الصالحين للقتال والحرب، لافائدة فيهم قطّ عندما يدعو الداعي الى القتال.

وترك مدربيه ومعلميه وبدأ يحمل السلاح مع بني قومه في الغارات التي كانوا يفاجئون بها اللقيديمونيين للنهب والغصب، فكان بها اولّ المتقدمين، وآخر العائدين. وكان يأخذ جسمه بأسباب الخشونة ويدربه على تحمل المشاق في وقت الفراغ، فيتعاطى الصيد والقنص ويعمل في ارضه ليبقى جسمه قوياً ناشطاً. وكان يملك مزرعة جيدة تبعد حوالي عشرين (فرلنغاً) عن المدينة وكان يقصدها يومياً بعد الظهر والعشاء. ويلقى بنفسه على اول فراش يجده وينام مثل واحد من عماله. وفي تباشير الصبح ينهض مع الباقين ويعمل امّا في الكرم او في المحراث، وبعدها يؤوب الى المدينة ويصرف وقته في مجلسه مع اصدقائه أو مع الحكام في الشؤون العامة. وما كان يكسبه في الحرب ينفقه على الخيل او السلاح او يدفعه فدية للاسرى. وكان يسعى الى تحسين ملكه بالوسائل العادلة النزيهة، وهي الزراعة والفلاحة، ولم يكن يقصد بهذا، التلّهي، أو قضاء الوقت وانما كان يرى من واجبه ان يحرص حرصاً شديداً على تدبير شؤون عقاره ليبقى في منجى عن الاغراء بالحاق الاذى بالأخرين.

وانفق كثيراً من الوقت في مدارسة الفلسفة والفصاحة، بيد انه كان يتخيرّ مؤلفيه ولا يهتمّ إلاّ بمن قد ينتفع من سجاياهم وفضائلهم. وكان اهتمامه بملاحم (هوميروس) مقصوراً على كل ما يرى فيه محفزاً للشجاعة والاقدام. وعلق قلبه بتعليقات (ايڤانجيلوس Evangelus) حول التاكتيك العسكري واستمتع ايضاً في ساعات فراغه بقراءة وقائع الاسكندر، ورأى في مثل هذه القراءات ما يفيد في التطبيق العملي، إلاّ اذا قصد منها المتعة البحتة، او النقاش العابث. وكان في تناوله الموضوعات العسكرية قد اعتاد أن يهمل الخرائط والمخططات. ويعمد الى وضع النظريات موضع التطبيق والتجربة في ميدان التدريب نفسه. وكنت تراه يُعمل افكاره ويجربّها وهو يسير، فيجادل منهم حوله في غلاظة الأرض الوعثاء او المتحدرة. وما قد يطرأ في الانهار والاودية والشعاب الجبليّة اثناء مسيرة العسكر بنظام الضمّ او الانفتاح، وبهذا الشكل او ذاك من نسق المعركة، ولامراء في أن لذته في العمليات العسكرية وشنّ الحروب لم تكن تعرف اعتدالاً، وليس ذلك بالمستغرب من رجل جعل كيانه وقفاً على هذه الصناعة واعتبرها وسائله الخاصّة لإظهار مختلف المواهب، واحتقرّ كل من هو ليس جندياً ووجدهم أناساً كسالى لانفع فيهم للجهورية.

وكان يبلغ الثلاثين من عمره عندما فاجأ (كليومينيس)[٤] ملك اللقيديمونيين مدينة (ميغالوپوليس) في موهن من الليل وازاح الحرس ودخل واحتل الساحة العامة من المدينة. فخرج (فيلوپومين) على صوت التذير وقاتل ببسالة منقطعة النظير الاّ انه لم يتمكن من ازاحة العدو وطرده. على انه نجح في اخلاء المدنيين ونجاتهم بالخروج منها بوقوفه صامداً في وجه مطارديهم وظلّ يشاغل (كليومينيس) وفقد حصانه واثخن جراحاً وهو صامدٌ يقاتل قتالاً شديداً حتى خلص منها المنسحبين. ولجأ (الميغاليون) الى (مسّينا Messene) فأرسل (كليومينيس) من يعرض عليهم اعادة مدينتهم واموالهم اليهم. ووجد فيهم (فيلوپومين) رغبة دلهفة عظيمة للعودة. فاوقفهم عند حدهم واقتلع الرغبة من نفوسهم بخطبةٍ، ادركوا منها أن الهدف الذي يرمي اليه (كليومينيس) من إعمار المدينة هو في الحقيقة سيطرته على اهلها. وضمانه بقائها تحت سلطانه في المستقبل بوجودهم فيها فإن بقاء المدينة مهجورة سيضطره حتى الى الخروج منها بعد زمن قليلٍ اذ لا معنى للبقاء في حراسة بيوت خالية وجدران عارية. هذه الأسباب جعلت (الميغالوپوليتان) يحجمون عن العودة، لكنها زوّدت (كليومينيس) بحجة لنهب المدينة وتدمير جزءٍ كبير منها وحمل غنائم كبيرة عنها.

وبعد ردح من الزمن زحف (انتيغونس)[٥] الملك لنجدة الأخائيين، وتقدموا بقواتهم الموحّدة نحو (كليومينيس) الذي كان قد عسكر في هضاب (سللآسيا Sellasia) آمناً عزيزاً بعد أن أمسك بكلّ الطرق. فاقترب منه (انتيغونس) عازماً على ارغامه وفرض القتال عليه. وكان (فيلوپويمين) وبنو قومه قد اتخذوا مواقعهم مع الخيالة يومئذ، تليهم الرَّجالة الإليرية، وهم وحدة كثيرة العدد عرف افرادها بالبأس في القتال كانوا يكملون خطّ المعركة بتأليفهم القسم الإحتياطي مع الأخائيين. وكانت الاوامر تقضي ببقائهم حيث هم دون أن يشاركوا في القتال حتى تلوح لهم من الجناح الآخر حيث الملك يقاتل - عباءة حمراء مرفرعة فوق سنان رمح. فاطاع الاخائيون الامر ولم يحيدوا عنه الاّ ان ضباط الالليريين ساقوا جنودهم الى الهجوم. ولما

(٤) باوسنياس ٧ في زمن فيلپويمين لم تكن بلاد الاغريق موحدة في جبهة وانما كان لكل بلاد نظامها الخاص. وكان الاخائيون أقوى الجميع ولم تعرف اية مدينة من مدنهم دكتاتورية ما عدا «پلليني» كما لم يُطال اخائياً الطاعون ولا الحروب. إلا ان اسپارطه بقيت عدوة تتحين الفرص للهجوم عليهم واستعبادهم. أستولى (آغيس) ملك سپارطة على (پلليني) لكن اراتومى السيكيولي أجلاه عنها. وبعد برهة قام الملك المزامل [كليوفيس] بمهاجمة (اراتوس) والتغلب عليه في معركة طاحنة التحمت فيه الأيدي والاجسام. عرفت بـ(دايمه Dyme) وعلى أثر ذلك عقد صلح بين سپارطه واخائيا.

(٥) حاكم مقدونيا، كان وصياً على فيليب ابن ديمتريوس ملك مقدونيا وهو كذلك ابن عم له. يقول باوسنياس انه كان يفترش أم فيليب قام كليومينس بعقد هدنة مع انتيغونس والآخائيين. لكنه ما لبث ان نقض الهدنة وأستولى على ميغالوپولس. لمّا بلغ فيليب أشدّه سلّم انتيغونس ادارة المملكة اليه بكلّ رضا. إلا ان فيليب جرى على أسلوب فيليب ابن امينتاس بنشره ارهاباً في كل بلاد الاغريق.

رأى (اقليدس) أخو (كليومينيس) مشاة العدو ينفصلون عن الخيالة انتخب أحسن جماعة من وحداته الخفيفة وأمرهم ان يعملوا حركة التفاف ويهاجموا الاالليريين المكشوفين من المؤخرة. واوقع هذا الهجوم الفوض في هؤلاء. ووجد (فيلوپومين) أن من السهولة بمكانٍ صَدّ هذه الوحدات، فقصد اولاً ضباط الملك ليطلعهم على ما يتطلبه الموقف فلم يكترثوا بما قال، واستسخفوه ولقبوه بدماغ الأرنب (وكان في ذلك الزمن مغمور الصيت لايتمتع بالشهرة التي تدعم مثل هذا الاقتراح الخطير)، فما كان منه الاّ ان ارتدّ الى بني قومه وحمل بهم على العدوّ، وفاخلّوا بنظام صفوفه اولاً ثم سرعان ما اجبروه على الفرار بعد ان اوقعوا به مقتلة عظيمة. ثم عمد الى حيلة لتشجيع عسكر الملك واغرائه بالعدوِّ وهو مختلّ الصفوف، فترجل عن جواده وراح يقاتل راجلاً بصعوبة متناهية رازحاً تحت ثقل شكة سلاح الخيال، وفي ارض غليظة متعادية ملأى بالجداول والحفر واصيب فخذاه بطحنة نافذة من رمح مربوط بسير جلديّ بلغ من قوة قذفه انه خرج من الجهة الثانية واحدث جرحاً بالغاً لكنه ليس بقاتل. فوقف برهة كأنه مكبلّ بقيدٍ لايستطيع حركة. فقد صعب عليه أن يسحب الرمح من الجرح ولم يجرأ احد ان يفعل ذلك، لوجود العُقلة التي تشد الرمح بالسير الجلدي. وبلغ القتال اشده وحمي وطيسه ولم يبق الاّ القليل لتقرير نتيجة المعركة فتملكته رغبة جنونية في المشاركة بها واخذ يكافح ويناضل نضالاً عنيفاً مع نفسه فقدم ساقاً واخراً لأخرى الى ان كسر قناة الرمح الى نصفين ثم سحبهما من الجرح وما أن وجد نفسه حراً حتى النقط سيفه واسرع مهرولاً وزجّ نفسه في مثار النقع حتى بلغ الصفوف الامامية وراح يشجع رجاله ويذكي في نفوسهم نار الحماسة. وبعد ان عقد لواء النصر (لانتغيونس) سأل المقدونيين على سبيل الإختيار، كيف قامت الخيالة بالهجوم قبل صدور الاشارة بذلك ومن دون أن تتلقى أمراً؟ فأجابوا ان ذلك تمّ خلافاً لرغبتهم فقد ارغمهم عليه شابٌ من (ميغالوپوليس) تعجلّ الهجوم. فقال (انتيغونس) باسماً: «هذا الشاب فعلَ فِعلَ القادة المجربين».

وكان من الطبيعي أن ينال (فيلوپومين) شهرة مستفيضة من جرّاء ذلك. والحٌ (انتيغونس) على ضمّه اليه عارضاً عليه شروطاً طيبةً جداً: أجراً ومنصباً. لكن (فيلوپومين) لم يقبل لإنه يعرف قلّة صبره على العمل تحت أمرة الأخرين. كما انه لم يكن يحتمل البقاء عاطلاً، فرحل الى كريت عند سماعه بوجود حرب هناك، لكي لاينقطع عن تمرينه العسكري. وقضى ردحاً من الزمن مع اولئك الكماة المحاربين الذين جمعوا الى بأسهم ظرف الطبع والرزانة فأصاب تقدماً كبيراً في خبراته العسكرية، وعاد تحفّ به الشهرة الذائعة والصيت الداوي الذي أهاب بالآخائيين ان يختاروه قائداً لصنف الخيالة في عسكرهم. كان فرسان ذلك العهد أبعد

المحاربين عن الشجاعة والتجربة. فقد جرت العادة أن يؤخذ عند الخروج الى الحرب أول ما يعنّ لهم من الخيالة الاعتياديين. وأقلهم أجراً، وكانوا في كل الأحوال تقريباً لايذهبون هم بانفسهم وانما يستأجرون آخرين في محلهم ويبقون هم في ديرتهم. ويغضى قوادهم السابقون الطرف عن هذا إذ كانت الفروسية في الجيش الأخائي تعدّ شرفاً. ولهؤلاء نفوذ كبير في الجمهورية، إن شاؤا أضروا وإن شاءوا نفعوا. وقد وجد (فيلوپومين) أمورهم هكذا عندما تولى القيادة فأبى السكوت عنهم ومسايرة الوضع واخذ يتنقل بنفسه من مدينة الى مدينة وينفرد بشبانها ويكلمهم واحداً واحداً يريد بث الطموح وحب المعالي في نفوسهم مستخدما العقاب حيثما وجد ضرورة. ثم تمكن بالتدريب العمومي والاستعراضات والمباريات على مرأى من جماهير النُظّار - أن يجعل منهم رجالاً شداداً كُماةً ابرز ما فيهم الخفة والرشاقة وهما أهم والزم صفتين للجنديّ في الخدمة الفعلية. وبكثرة المران والجهود المبذولة بلغ القوم حَداً عظيماً من الكمال وسيطروا سيطرة تامة على الخيالة فباتت وسريعة الاستجابة في الحركات التعبوية وانتقالها الفوري حتى تبدو القطعات كلها وكأنها جسم واحدٌ يتحرك بمرونة وفورية وارادة رجل واحد عند أيّ تبديل آني يطرأ على نظام القطعات في حومة القتال. وضرب لهم مثلاً من عمله في الوقعة الكبرى التي حصلت بينهم من جهة وبين الايتوليين والاليائيين من جهة أخرى عند نهر (لارسّوس Larissus). أثبتَ (داموفانطس Damophantus) آمر خيالة الإليائيين، (فيلوپومين) من العدوّ فحمل عليه واحتث جواده اليه باقص سرعة. فانتظره (فيلوپومين) ساكنا، وقبل أن تهوى الضربة عليه، جندل عدوّه بطعنة رمحٍ جبارة. وبمصرعه ولىّ جنوده الادبار. وبات اسم (فيلوپومين) على كل شفةٍ ولسان ووصف بالرجل الذي لايقوى الصغار على نزاله، ولا يطاله الكبار في الحنكة والدهاء. وان ليس في ميدان القتال افضل منه محارباً وقائداً.

وكان (اراتوس Aratus) اوّل من رفع من ذكر الأخائيين وانتشلهم من وحدة الخمول والإسفاف التي كانوا فيها، فأنبه أمرهم ووسع من سلطانهم بتوحيد مدنهم المنقسمة على نفسها في جمهورية واحدة، تقوم عليها حكومة ذات طابع أنساني، وتسير وفق أصوب النظم الأغريقية في الحكم. ووقع كما يقع في مجاري المياه: يحمل التيار بعض الاشياء الصغيرة ثم تأتي أخرى وتلتصق بها فيشدّ بعضها بعضاً واذا بالكلّ يغدو مادة مستقرة صلدة. وهكذا يكون الامر في الضعف والانحلال العام القومي فقد استسلمت بلاد اليونان الى عامل التفكك والانقسام عندما اخذت كل مدينة تعتمد على نفسها،. وهنا بدأ (الاخائيون) يتكتلون ويعملون على توحيد أنفسهم ولما تمّ لهم ذلك راحوا يجتذبون جيرانهم الى وحدتهم هذه،

فضموا بعضهم بتحريرهم من الطغاة الذين حكموهم وقيامهم على حمايتهم، واغروا بعضهم بطرائق سلميّة في الاتحاد. وحاولوا أخيراً ان يجعلوا البيلوبونيسوس بلاداً واحدة بمنح صفة المواطنة لجميع القاطنين فيها على انهم كانوا في حياة (اراتوس) - يعتمدون كثيراً على المقدونيين، فتقربوا اولاً من (بطليموس) ثم من (انتيغونس) و(فيلپس) الذين ظلوا يتدخلون جميعاً في كل ما يهمّ الاغريق. ولكن الأخائيين بعد تسلم (فيلوپومين) القيادة - شعروا انهم أكفاء لاقوى اعدائهم فنبذوا المعونة الاجنبية. وحقيقة ما في الامر هو أن (اراتوس) كان حاكما مسالماً يكره الحرب، حقق اغلب اصلاحاته ومآثره بالسياسة والصداقة والتعامل بالرقة واللطف مع الحكام الاجانب، في حين كان (فيلوپومين) رجل عمل وقيادة، وجندياً عظيماً، حالفه الحظّ في باكورة اعماله. إنه رفع من شجاعة الأخائيين وعززّ مكانهم وقوتهم بصورة مدهشة، بحيث عودّ القوم على النصر تحت قيادته.

على أنه غيرّ من سلاحهم وطرقهم التعبوية ما وجده عتيقاً غثاً وكانوا الى ذلك الزمن يستخدمون في حروبهم دلاصاً رقيقة خفيفة لا تغطي البدن كله، ورماحاً اقصير فناً من الحراب بكثير. ولهذا كانوا متفوقين في القتال اذا ابتعد عنهم عدوهم مسافةً. إلاّ أن الدائرة تدور عليهم في القتال القريب والالتحام أماً في خطط المعركة. فقد كانوا يجهلون التشكيلات المنتظمة بشكل وحدات وكتل منسجمة. وكان خط هجومهم مكشوفاً لا تحميه صفوف كثيفة من الرماح المشرعة، ولا سدّ ملتحم من التروس كما هو الشأن في الفلانكس المقدوني، حيث يتكاتف الجندي بالجندي حتى تتلامس حافات تروسهم، ولهذا كان خطهم ضعيفاً يسهل اختراقه وفتح ثغرات فيه. فغيرّ (فيلوپومين) هذا كله واصلح منه. واستبدل درقاتهم الصغيرة بتروس واسعة، وحرابهم القصيرة برماح طويلة القنا والبسهم الخوذة، وحملهم على تدريع اجسامهم وافخاذهم وسيقانهم بالصفائح. ونبذ شكل القتال القديم، وهو المنادشة التي تمتاز بالكرّ والفرّ، وعلمهم أساليب القتال الثابت المنضّم. واعزى الجنود بلبس شكة سلاح كاملة وبهذا صاروا واثقين من منعتهم. وان عدوهم لاينال منهم فتيلاً. ثم أنه حَوّل ما اعتبر إسرافاً وبذخاً في قومه إلى أشرف وجه من وجوه الانفاق، فقد تعودوا منذ عهد بعيد على التفاضل في فاخر الثياب وغالي الرياش، ونفيس الطعام، وان يتباهوا في منافسة بعضهم بعضاً على ذلك. وتفاقم الخطب وانقلبت العادة فيهم مرضاً عضالاً يتعذر استئصاله برمته. ولذلك لجأ الى تحويل هذا الميل الى سبيل آخر، وجعلهم يتعوضون حبّ الظهور هذا، بحبّ أجدى وانفع وادنى الى صفة الرجّال: انمى في نفوسهم حُبّ بشكآت سلاح فاخرة، واختيالهم باسلحة ممتازة فراحوا ينفقون على اقتنائها مثلما كانوا ينفقون على كمالياتهم. ولم يعد في الحوانيت والاّ الصفائح

تطرق وتُصهر والدروع تُصقل» وتروس ولجُم تكفَّتُ بالفضة. ونزل ساحات الرياضة مدربو الخيول يدربون على الفروسية، والشباب يتمرنون على استعمال اسلحتهم، ولم يكن يُرى في ايدي النسوة الأ خوذات ولم ريش تُصبغ ومعاطف عسكرية وطيالس ركوب تطرز. كان المجهود العام يشحذ نشاطهم ويرفع من معنوياتهم الى حَدّ الاستهانة بالخطر، ويستفزهم الى تقحم ميادين القتال الشريفة وهم مطمئنون الى حسن استعدادهم. إن الاشكال الاخرى من وجوه الترف والاسراف في الانفاق قد تشيع في انفسنا السرور إلاّ أنها تسلمنا إلى التخنث. وبنضات الحس تضعف من قوى الفكر، إلاّ أن البذل والترف في السلاح تيشدان العزمات وتضاعفا الشجاعة مثلما جعل (هوميروس)، بطله (آخيل) يرقص طرباً عند وقوع نظره على شكة سلاحه الجديدة فاشغلت فيه نار الرغبة في استخدامها. وبعد أن نجح (فيلوپومين) في توجيه جهودهم نحو التسلح فانصرفوا اليه بهمّةٍ فعساء، باشر في تدريبهم عسكرياً بصورة مستمرة فلقي منهم طاعة تامة واستجابة سريعة حماسية. واعجبوا كثيراً بالطرق التعبوية الجديدة وبنظام قتال المعركة. فهو اسلوب من شأنه ان يشدّهم الى بعضهم شداً محاكماً ويثبت اقدامهم ويحبك صفوفهم حبكاً شديداً يصعب كسره. وباتت دروعهم وبزاتهم الحربية خفيفة عليهم سهلة الحمل علاوة على اختيالهم بها لجمالها ونفاستها، وكانوا مشوقين جداً لاختبارها في ميدان القتال الحقيقي.

كان (الاخائيون) وقتذاك في حربٍ مع (ماخانيداس Machanidas) طاغية (لقيديمون) وكان بجيشه القويّ ينتظر الفرصُ المؤآتية ليجعل من نفسه السيّد المطلق على (البلوپونيسوس). وعندما وردت (فيلوپومين) الانباء بحملته على المانتينيين، نزل فوراً لقتاله وزحف اليه. وتقابلا بالقرب من (مانتينيا). واعد جيشه للمعركة أمام المدينة. وكان كلاهما يستخدمان عدداً لايستهان به من الجنود المرتزقة زيادةً على قواتهما المجتمعة من عدة مدن. وفي بدء الهجوم دحر (ماخانيداس) بمرتزقته الرمّاحة والتارينتيين Tarentines الذين وضعهم (فيلوپومين) في الخطّ الاول، وبدلاً من ان ينثني الى قلب المعركة الرئيسة مهاجماً، حيث كانت جبهتها صامدة متلاحمة - راح يطارد المنهزمين مطاردة حامية. وبدلاً من مهاجمة الأخائيين ايضاً اجتازهم وخلّفهم وراءه، بينما ظلوا في مواقعهم على أهبة واستعداد. من هذه البداية الخالية، خيل لحلفاء الأخائيين انهم خسروا المعركة. إلاّ أن فيلوپومين لم ير فيها اي تأثير على المعركة ولم تنل من عزيمته فقد تبين غفلة العدوّ الذي فتح بعمله هذا، ثغرة في الجزء الرئيس من قواته، وكشف فلانكسه. فلم يأت باية حركة تعرض لهم، وتركهم ماضين في مطاردتهم على هواهم، حتى ابتعدوا عنه مسافةً كبيرة. ووجد مشاة اللقيديمونين أمامه

مكشوفي الاجنحة لانفصال خيالتهم عنهم فحمل عليهم وفاجأهم وهم لايتوقعون هجوماً، هم من دون قائدٍ يوجههم. فقد حسبوا النصر مستتباً لهم بعد رؤيتهم (ماخانيداس) يجرى في اعقاب العدو المنهزم. وهكذا اخذهم على حين غرّة واوقع بهم مقتلة عظيمة وهزيمة مُنكرة (قيل أنه فتك باربعة الآف منهم في ساحة المعركة نفسها). وبعد ذلك استدار لمواجهة (ماخانيداس) الذي عاد بمرتزقته من المطاردة. واذا بخندقٍ عريضٍ يفصلهما. ووقف خيالة الطرفين كل فريق الى جانب منه، أحدهما يريد عبوره للفرار والآخر يريد منعه ولم تكن المسألة مسألة مباراة بين جنرالين بل هي اشبه بالدفاع الاخير الذي يبذله وحشٌ ضارٍ حاصره الصيادُ الماكر (فيلوپومين) واضطره الى القتال قتال حياة او موت. كان حصان الطاغية قوياً مقداماً مستوفزاً واذ شعر بالمهماز يدمي خاصرتيه وثب نحو الخندق. وما كاد يبلغ الحافة الثانية حتى زرع قائميته زرعاً فيها وحاول جاهداً أن ينهض نفسه الى فوق فهرع (سمياس Simmias) و(پوليينوس Polyœnus) وهما راكبان – الى معونته وكانا يقاتلان الى جانب (فيلوپومين) إلاّ انه سبقهما اليه وواجه (ماخانيداس) ليجد أن هامة الحصان المشمخرة الى اعلى تحجب جسم راكبه عنه، فحاد قليلاً بجواده ورفع حربته وهو قابض عليها من وسطها ودفعها بكلّ قوته في جسم الطاغية فسقط ميتاً في الخندق. واليومَ تشاهد تمثال فيلوپومين البرونزي وهو بهذه الهيئة تماماً قائماً، في (دلفي) صنعه له الأخائيون تكريماً لشجاعته في هذه المعركة الفردية، ولحسن تصرفه وقيادته للمعركة كلها.

وذكروا أن (فيلوپومين) في فترة قيادته الثانية وبعد هذه المعركة بزمن وجيز، انتهز فرصة الالعاب النيميّة Nemea ومناسبة الاحتفال بها، فأخرج لجماهير الاغريق القادمين اليها عسكره اوّلا، وصفه بتشكيلات المعركة الكاملة كما لو كان ثم معركة. وبعدها قام بتمرينٍ حربيّ كامل طبق فيه فصول المعركة وصفحاتها بنظام عجيب وقوةٍ وخفةٍ مدهشة، ثم دخل الملعب بينما كان الموسيقيون يغنون للفوز بالجائزة الموسيقية. وكان يحفّ به رهط من الجنود الشباب، بمعاطفهم العسكرية ولبودهم الحمراء تبدو من خلال دروعهم وكلهم في أفضل حال من النشاط والصحة، وفي عمر واحدٍ تقريباً. تفصح سيماؤهم عن الاحترام الذي يكنّونه لجنرالهم، في الوقت الذي تظهر تقتهم التامة بانفسهم التي ارتفعت بعدد من الانتصارات المجيدة. واتفق لما دخلوا – أن الموسيقي (پيلاديس Pylades) بدأ ينشد بأسلوب الشاعر الاخاذ، ملحمة «الفُرس» لمؤلفها «طيموثيوس Timotheas»...

«تحرر اليونان، وعلا مجدهم تحت قيادته...»

فشخصت ابصار النظار كلها الى القادمين، واستقرت حالاً على (فيلوپومين). وراحوا

يصفقون جذلاً وحبوراً وراحت أمانيهم تداعب فكرة استعادة بلادهم مجدها الذاهب ومكانتها التليدة، وارتفعت معنوياتهم حتى خيل اليهم أنهم يعيشون في روح الماضي المشمخرة.

وكأني بالاخائيين أمهار لايسلس قيادها لغير صاحبها ولا تسلم صهوتها إلا لمن تعودت ركبْته. ويتعذّر قيادها وتصير جموحاً شموساً إذ اركبها شخص آخر غير صاحبها. فاذا هم خرجوا الى حربٍ دون أن يكون (فيلوپومين) على رأس الجنود رأيتهم واجمين كسيري الفؤاد كثيري الافتقاد له. فاذا لاح لهم هدأ روعهم وارتدت اليهم روحهم وثقتهم وشجاعتهم. كانوا قد ادركوا أنه الوحيد بين قادتهم الذي يخشى العدوّ صولته واسمه وحده كفيل بايقاع الرعب في نفوسهم. وهذا (فيلپس) ملك المقدونين يرى نفسه عاجزاً عن اعادة سلطانه على الاخائيين إلا اذا تخلصّ من (فيلوپومين)، فيدفع سراً بمن يغتاله، فينكشف أمره وتنتشر حكاية هذا الغدر في ارجاء اليونان فيفقد سمعته فيها ويجلله العار. وكان (البويوتيون) الذين يحاصرون (ميغارا) على وشك اقتحامها عندما بلغتهم اشاعة عن سعي (فيلوپومين) الى نجدتها بقواته، فأسرعوا برفع الحصار عنها وولوا هاربين وتركوا وراءهم سلالم الحصار متكئة على الأسوار. و(نابيس Nabis) الطاغية اللقيديموني الذي خلف (ماخانيداس) باغت اهل مدينة (ميسّين) عندما كانت القيادة بيد شخص آخر غير (فيلوپومين) وهو (لِسپوّس Lysiphus) الأخائي. فحاول (فيلوپومين) حثه على نجدة المسينيين نأبى معتذرا بأن العدوّ قد دخلها وهي تعدّ في حكم الضائعة. فقرر أن يذهب اليها بنفسه دون أمرٍ او صفة رسمية وخرج ومعه قلة من المواطنين المتحمسين الذين رأوا فيه جنرالاً طبيعياً ارسله القدر المحتوم وجعله أصلح القادة. وسمع (نابيس) بمقدمه ووجد السلامة في الانسحاب مع ان جيشه كان معسكراً داخل المدينة. واسرع بجيشه متسللاً من الرّتاج الأبعد، حامداً حسن حظه في النجاة سالماً. لقد نجح في هروبه إلاّ أن (ميسين) ردّت الى اهلها.

كل ما ذكرناه عن (فيلوپومين) حتى الآن جديرٌ بالمدح والتكريم إلاّ انه عرّض سمعته للطعن والإتهام بالجبن والطموح الى الشهرة غير المشرفة عند الاجانب، لما قصد (كريت) لتسلم منصب القيادة بطلب من (الغورتينين Gortyniano)، في الوقت الذي كانت بلاده تعاني ضيقاً شديداً ووضعاً حرجاً. فالعدو كان سيدّ الموقف، يعسكر أمام أبواب مدينته، ويرى من معسكره شوارعها وبينها وبين فيلوپومين البحر وهو يتولى القيادة العامة في بلاد غير بلاده ويخوض عمار الحروب لادفاعاً عنها. مزوّداً حسّاده ومبغضي بمادة اتهام وقدح كافية للنيل من سمعته. ولقد اعتذر له بعض الكتاب بقولهم أنه ما قبل عرض (الغورتينيين) إلاّ لأن (الاخائيين) اهملوا شأنه واختاروا غيره جنرالاً. فقد كان يضيق ذرعاً بالبطالة والجمود، بل

كان يرى الحرب وقيادة الجنود منصرف نشاطه الوحيد وصناعته المفضلة وهذا يتفق تماماً وما قاله يوماً عن (بطليموس) الملك؛ فقد مدحه احدهم امامه قائلاً أنه أبقى نفسه وجيشه في أفضل حالة واستعداد للطواريء من ضبط وتدريب. فأجاب (فيلوپومين):

- أي مدح هذا الذي نخصُّ به ملكاً ظلّ في الحكم هذه السنوات الطوال يستعد ويتأهب دون أن يحقق أمراً؟

مهما يكن اعتبر (الميغالوپوليسيون) أن (فيلوپومين) خانهم وغدر بهم، واشتد سخطهم عليه حتى كادوا يحكمون بنفيه. إلاّ أن الأخائيين أحبطوا الفكرة بارسال جنرالهم (اريسطيوس Aristœus) الى (ميغالوپوليس) لاقناعهم بالتخلي عنها مع أنه كان يناصب (فيلوپومين) العداء. وهكذا وجد نفسه شريراً مغضوباً عليه من بني قومه فأخذ يغري بهم مختلف الأقوام الصغيرة المجاورة، ويحرضها على الفتنة واقترح عليها مبدئياً ان ترفض دفع الضرائب، وتبطل العمل بقوانينهم ولا مقبل بقيادتهم، ودعم هو بالذات مطالبهم ودافع عن وجهات نظرهم واثار جميع الأخائيين على (ميغالوپوليس). على ان هذه الاحداث وقعت بعد فترة من الزمن.

في اثناء قيامه بخدمة (الغورتينيين) في كريت. لم يلجأ الى القتال على الاسلوب البلوپونيسيّ او (الأركاني Arcanian)، في السهل المنبسط دائماً، وانما كان يقاتلهم بسلاحهم ويقلب خططهم التعبويّة وحيلهم على رؤوسهم، ويبرهن لهم أنهم انما يستخدمون صنعةً ضدّ براعة، وانهم اطفال ليس الاّ أمام جنديّ مجرّب. ثم أنه عاد الى الپيلوپونيسوس بعد بطولات رائعة تحفّ به شهرة داوية. فوجد (تيطس كوينتيوس) قد هزم (فيليپس)، ووجد (نابيس) يخوض حربين. حرب مع الرومان وحربٌ مع الأخائيين. واختير جنرالاً ضدّ (نابيس) فور وصوله.

إلاّ انه آثر القتال البحري معه فكان ما لقيه فيه أشبه بمالقيه (اپامينداس): الفشل الذي لايتوقع من شهرته. بيد أن بعض المؤرخين يعللون هزيمة (اپامينداس) بأنها من عمله، وقد تعمّدها لأنه لم يكن يريد أن ينصرف ميل بني قومه الى البحر ومنافعه، لئلا ينقلب افضل الجنود الى أسوء بحارة بالتدريج - على حد قول افلاطون. ولذلك قفل اپامينداس راجعاً عن آسيا والجزر دون ان يحقق شيئاً ما، لغرضٍ في نفسه. في حين توهم (فيلوپومين) أن حنكته القيادية، وبراعته في القتال البريّ ستظهر النتائج الطيبة نفسها في القتال البحريّ، فخاب أمله وادرك أن التجربة والخبرة هي جزء هامٌ من البسالة. وان الممارسة دعامة رئيسة في تدبير كل امرٍ من الامور. وليت الأمر ظلّ قاصراً على هزيمته في المعركة. فقد كاد غشمه يؤدي به الى نكبة اذ كان قد أعد سفينة قديمةً ذاعت شهرتها منذ اربعين عاماً واركب فيها بعض

مواطنيه، فتقوض بناؤها واحدق الخطر براكبيها وكادوا يغرقون جميعاً.

وتظاهر العدوّ بترك مواقعه في البحر وتحاشي عملياته الحربية في حين كان قد الغى الحصار على (غيثيوم Gythium) تحدياً واستهانة (بفيلوپومين)، فاقلع اليها حالاً وباغتهم من حيث لايتوقعون، وكانوا قد تفرقوا جماعات بعد انتصارهم. فزل البر ليلاً واحزم النار في معسكرهم وقتل عدداً كبيراً منهم.

وبعد ايام قلائل من هذا كان يقود جيشه بمسيرةٍ في ارض غليظة وعثاء، فالتقى بقوات (تابيس) على غير موعدٍ او انتظار. فوجفت قلوب الآخائيين. وخيل لهم ان لا أمل لهم في النجاة لأن العدوّ كان يحتل مواقع جيدة في هذه الأرض المتضرسّة. إلاّ ان (فيلوپومين) اصدر امر الوقوف لفترة قصيرة قام خلالها بعملية استطلاع ارضية. ليثبت فيما بعد أن اهم ما يقرر نتيجة الحرب هو البراعة في التعبئة للمعركة وتنظيم الجيش لها. فقد تقدم بجيشه خطوات قليلة مغيراً نظام سيره بحسب طبيعة الأرض فلم بعد الجنود يشعرون بمشقةٍ ولم يضطروا الى الإخلال بصفوفهم وهكذا تخلص من كل عقبة وهجم على العدوّ والجأه الى الفرار. ثم وجدهم لا يفرون باتجاه المدينة وانما إلى كل اتجاه فرادى مبعثرين في ارجاء الميدان الذي كان يصعب على الخيل، لغاباته وكثبانه وبركه وحفره. فأطلق نفير الانسحاب والكف عن المطاردة وعسكر في ارضٍ منبسطة غير خائف، مقدّراً أن فلول العدو ستحاول التسلل خلسة الى المدينة آحاداً وثُنى في موهنٍ من الليل فوضع كمائن وارصاداً قوية على طول الجداول والسفوح القريبة من اسوار المدينة. وهكذا وقع بايديهم عدد كبير من رجال (تابيس) وصح ما توقعه اذ لم يعودوا كتلة واحدة بل افراداً كما غَشّهم فرحهم بالفرار فقنصهم كما تقنص الطيور قبل أن يدخلوا المدينة.

وواتت الشهرة (فيلوپومين) ودان كل الاغريق له بالحت والإجلال الاّ ان الدنيا لاتخلو من الحاسدين المبغضين. وكان (تيطس فلامنينوس) أحد من وجَدَ عليه. فقد رأى أنه أجدر بالشهرة والإكرام من (فيلوپومين) عند الأخائيين فهو قنصل روماني وذاك (اركاديّ) عاديّ. ثم انه لاسبيل للمقارنة بين ما فعله هو لأجلهم وبين ما فعله ذاك. فقد اعاد لبلاد اليونان حريتها بمرسومٍ واحدٍ وازاح عنها كابوس (فيلپس) والمقدونيين.

عقد (تيطس فلامنينوس) صلحاً مع (نابيس)، ثم نصب (الايتوليون) كمينا (للفابيس) وفتكوا به فاضطربت الأمور في سپارطا، وعمتها الفوض. فاهتبل (فيلوپومين) فرصته فيها، وتوجه نحوها بجيشه. وهناك تمكن من اقناع بعض أهلها بالمنطق، واسكت الخوف بعضهم فوافقوا على دخول بلادهم في الحلف الأخائي. ولم يكن بالأمر الهين أن تصبح سپارطا عضواً في هذا الحلف ولذلك استطارت شهرة (فيلوپومين) عند الأخائين واغرقوه بالثناء لتقوية

اتحادهم بهذه المدينة العظيمة القوية. ولم يكن امتنان أفاضل السپارطين وكبارهم باقلّ من اولئك منهم أيضاً وكانوا يريدون حليفاً قوياً يصون حريتهم واستقلالهم، فاعترافاً منهم بالجميل باعوا قصر (نابيس) وممتلكاته بمبلغ مائة وعشرين تالنتاً من الفضة وقرروا أن يقدموه هديةً لفيلوپومين وارسلوا وفداً عن المدينة لتقديمه باسمها. وهنا ظهرت عفة المهديّ ونزاهته، عفّةً حقةً لاشائبة فيها فقد استنكف اعضاء الوفد واحداً واحداً عن مفاتحته. وراح كل منهم يعتذر ويلقى التبعة على من يليه الى أن رست على (طيمولاوس Timolaus) وهو سپارطي كان فيلوپومين قد حَلّ عليه ضيفاً. فسافر طيمولاوس الى (ميغالوپوليس) واحتفى به فيلوپومين واستضافه، ولم يسع هذا الاّ أن يبهت ببساطة حياته ووقار عيشته ورزانتها. وصعب عليه مفاتحته بامر الهدية فلم يذكر له شيئاً عنها وتعلل بأسباب أخرى لمجيئه وقفل راجعاً دون أن يفصح بكلمة عن مهمته. فأعيد ثانية الى ميغالوپوليس، فلم يجرأ وعاد، وفي عودته الثالثة انهى اليه بالغرض من قدومه بعد كثير من التردد، وبكلمات متعثرة متلجلجة.

فأصغى اليه (فيلوپومين) شاكراً مسروراً، وشدّ الرحال الى سپرطا لينصحهم بالاّ يحاولوا رشوة رجل نزيه، وصديق مخلص لهم، لاشك لديهم في حسن نيته وسجاياه. يخدمهم دون جزاءٍ او ثمن. والحريّ بهم أن يشتروا بهذه الهدية سكوت المغرضين الدساسين من مواطنيهم الذين دأبوا على اثارة الفتن والقلاقل في المدينة بخطبهم المهيجة في الاجتماعات العامة. او خير لهم أن يحبسوا حرية الكلام عن اعدائهم، من أن يحرموها على اصدقائهم. ان هذا لأقوى برهانٍ على احتقار (فيلوپومين) الرشوة.

انتخب (ديوفانص) جنرالاً للآخائيين فوردته أنباء تشير الى ان اللقيديمونيين يضمرون حرباً جديدةً فاعتزم ان ينزل بهم عقاباً. إلاّ ان (فيلوپومين) بذل جهوداً مضنية لحمل (ديوفانص) على السكوت والتريث. قائلاً ان الزمن قد يتمخض بأحداث غير منتظرة فالآن يصطرع انطيوخوس والرومان في قلب بلاد اليونان بجيوش جرارة على مطامعهما الخاصة، وعلى رجل في مثل مركزه أن يبقى ساكنا ويترقب نتيجة الصراع بعين يقظة. وان يعمل جهده للتواري عن انظار المتصارعين، ويتسامح في المشاكل الداخلية التي تقل عن هذه النتيجة اهميةً، ويسهر على اشاعة الهدؤ والاستقرار في الوطن. ولكن ديوفانص لم يدرك الحكمة في قوله وانضمّ الى (تيطس فلامنينوس) وحملا معاً على (داقونيا)، وزحفا بريدان سپارطا. وهنا دفع الحنق (فيلوپومين) الى الاقدام على خطوة لا مبرر لها قطّ ولا وجه عدل فيها من اية ناحية نظرت اليها. إلاّ انه اقدم عليها بجسارة غريبة وجرأة خارقة: دخل سپارطا شخصاً عادياً لايتمتع باية سلطةٍ وابى على قنصل روما وجنرال الآخائيين دخولها. وقام بقمع الاضطراب فيها

واعادها الى خطيرة الاتحاد الآخائي بالشروط الاولى نفسها.

على انه أخذ اللقيديمونيين بصرامة لاحَدّ لها عندما أصبح جنرالاً. فعلى أثر مخالفات جديدة ارتكبوها، اعاد اولئك الذين سبق ابعادهم ونفيهم، وقتل بحد السيف ثمانين سپارطياً (على حد قول پوليبيوس، وثلاثمائة وخمسين على حَدّ قول (اريسطوقراطس) وهدم اسوار المدينة، واقتطع جزءً كبيراً من اراضيها وضمها الى ملك الميغالوپوليسيين. وأخرج منها كل من منحه الطغاة حقوق المواطنة السپارطية واستاقهم الى آخائيا ماعدا ثلاثة آلاف لم يقبلوا بهذا التهجير فما كان منه إلاّ أن باعهم عبيداً، وعلى سبيل التشفي منهم، بني باثمانهم بهو اعمدة (ميغالوپوليس). وزاد في الطين بلة وتمادى في اضطهادهم ووطئهم بالنعال وهم يرزحون تحت المصائب وشفى منهم غله بعمل فيه غلظة وفظاظة لا مزيد عليهما: ألغى وابطل العمل بشرائع (ليكورغوس) وارغم السپارطيين على تربية اولادهم وفق الاصول الاخائي وعلى العيش باسلوب عيشهم، كأنما لايمكن سحق روحهم العالية وارغام انوفهم في التراب إن استمروا في تطبيق شرائع (ليكورغوس). ولم يرفعوا يداً لمقاومة فيلوپومين وهو يمضي قدماً في تقطيع اوصال جمهوريتهم. وذلّ بهم الدهر ولم تبق لهم كرامة. كأن نكبتهم وقارعتهم قد جردتهم عن الحسّ. الاّ ان الزمن لم يطل بهم كثيراً وتحاملوا على أنفسهم لينفصلوا عن الحلف الأخائي بمساعدة الرومان. ولينبذوا جنسيتهم الآخائية الجديدة التي فرضت عليهم، وراحوا جهد امكانهم يعملون على اعادة نظم ليكورغوس وتطبيق شرائعه الغابرة والخراب والبؤس مازالا يعشعشان فيهم.

لما نشبت الحرب في بلاد اليونان بين (أنطيوخوس)[٦] والرومان، كان (فيلوپومين) مواطناً عاديا لا منصب مسنداً له. وكان شديد الحنق والتنديد بانطيوخوس اذ وجده ساهياً لاهياً في (خلقيس)[٧] لا همّ له الاّ مطارحه الهوى المحرمّ، والزيجات المتوالية بينما كانت وحداته مشتتةً في مختلف المدن لانظام يجمعها ولا قائد عليها. انشغل افرادها في المحرمات وعكفوا على الملذات. وادركته الحسرة لانه لم يكن في قيادة الجيش الآخائي. وصرح قائلاً انه ليحسد الرومان على نصرهم، ولو انه كان سعيد الحظّ بالقيادة في تلك الفترة لباغت جيش انطيوخوس كله وذبحه عن آخر رجل في الخمارات والحانات!

وبعد هزيمة (انطيوخوس) واشتداد قبضة الرومان على اليونانيين وتضييقهم الخناق على الآخائيين بسلطتهم المتعاظمة لم ير زعماء المدن الاغريقية الشعبيون بداً من خضوعهم... وامتد

---

(٦) انطيوخوس الثالث السلوقي ١٨٧ - ٢٢٣ ويلقب بـ[ميكاس Mégas].

(٧) Chalies: المدينة الرئيسة في ايڤيا على مضيق إڤريپوس.

سلطانهم بسرعةٍ وارتفع - بعناية الالهة وهَدْيها - إلى قدرة دورات الحظّ لهم من سموّ. وكان (فيلوبومين) في ذلك الحين أشبه بالملاّح الخبير في عرض البحر يغيرّ خطّ سيره آنا، ويساير الريح آناً، إلاّ انه لايفلت الدفة، ويمسك بها بقوة لا يخطىء اية فرصة تعنّ له، ولايدخّر اي جهد في رعاية كل من يبرز من مواطنيه في ميدان الفصاحة او الثروة ويشدهم الى عجلة الدفاع عن حريات بلادهم شداً محكماً.

كان (ارسطينوس Aristœnus) الميغالوبوليسي وهو رجل يتمتع بثقة عظيمة عند الأخائيين، من اشدّ انصار الرومان المتحمسين لهم على الدوام، قال هذا يوماً في مجلس الشيوخ: ينبغي الأيثار غضب الرومان أو أن يقاوموا بأي شكل كان. واصغى فيلوبومين الى قوله هذا بصمت كظيم. ثم لم يستطع ضبط نفسه فأجابه غاضباً «ما الذي يجعلك مستعجلاً لرؤية نهاية الوطن اليوناني ايها الرجل التاعس؟». وطلب (مانيوس) القنصل الروماني من الأخائيين بعد هزيمة (انطيوخوس) إعادة اللقيديمونيين المنفيين الى بلادهم ودعم (تيطس) طلبه هذا بحرارة. إلاّ ان (فيلوبومين) رفض الطلب لا لضغينة يحفظها على المنفيين، بل لكيلا يكونوا مدينين لغيره ولغير الآخائيين بهذه المنة، إذ سرعان ما اعادهم فور انتخابه جنرالاً. هكذا كانت روحه طليقة تضيق بايّ ضغط، وتكره الخنوع مثلما كانت طبيعته تهفو الى مصاولة ذوي السلطان في اي ميدان من الميادين.

عندما بلغ فيلوبومين السبعين من عمره، كان قد تولى قيادة الآخائيين العامة ثماني عشرة مرة. وأمل وهو في سنه هذه أن يقضي عام حكمه وبقية عمره في هدؤ وراحة. فلقد كانت روح النضال عند اليونانيين (مثل الداء المستفحل يدركه الضعف والانحلال، بانحلال قوى الجسم) تضعف باطراد عندما يخطئون الوصول الى المجد السياسيّ. إلاّ ان نكد الحظّ او قوة آلهية ناقمة جندلت (فيلوبومين) وسحقته في ختام حياته فكان كالعداءّ السابق الذي يعثر ويسقط أمام نهاية الشوط. وذكر انه كان حاضراً في مجلس ورد خلاله مديح قائد فقيل عنه انه عظيمٌ فقال (فيلوبومين): «ليس ثم الكثير مما يقال في مدح رجل ترك عدوّه يأخذه أسيراً وهو حيٌّ». وبعد ايام قليلة من قوله هذا وردت ابناءٌ تشير الى ان (دينوقراطس Dinocrates) الماسيني وهو من الدّ اعداء فيلوبومين، مكروه مبغض عموماً لنذالةٍ فيه وخبث طوية؛ تمكن هذا من اشاعة روح الثورة ضدّ الآخائيين في نفوس الماسينيين فرفعوا لواء العصيان، وكان (دينوقراطس) على وشك إحتلال موضع يدعى (قولونس Colonis) وفيلوبومين في (ارغوس) طريح الفراش يعاني الحمّى. فلما سمع غادر فراشه واسرع الى (ميغالوبوليس) وقطع مسافة تزيد عن اربعمائة فُرلنغ ليصلها في يومٍ واحدٍ، ثم ساق خيّالته وهم نخبة من

اشرف مواطني المدينة، شباب في ميعة الصبا وعنفوانه تواقون إلى اظهار بطولاتهم يجمعهم حُب (فيلوپومين) واخلاصهم لبلادهم. وفيما هم يتقدمون نحو (ميسينا) التقوا بقوات (دينوقراطس) قرب جُبيل (ايڤاندر Evander) فحملوا عليها ودحروها. إلاّ أن خمسمائةً من مقاتليه التحقوا به متأخرين وكانوا يقومون بحراسة خارجية، فأحيوا الامل فيه فعاد ينظم صفوفه ويلمّ شعثه عند التلال، وخاف (فيلوپومين) من حركة تطويقٍ وكان حريصاً على سلامة رجاله فتراجع في ارض غليظة وأشرف على قتال المؤخرة بنفسه وراح يواجه العدوّ ويتعرض له بالهجمات الموضعية ويجتذبهم اليه يغريهم بقتاله إلاّ انهم ظلوا يتحاشونه ولا يجرأون على تقصير المسافة بينهم وبينه؛ وباتوا يتنادون ويتصايحون من حوله ليس الاّ. ودفعه اهتمامه بانقاذ كل رجل من جيشه، الى ترك القسم الأكبر، والابتعاد عنه ليجد نفسه أخيراً وهو وحيدٌ وسط حشود من العدوّ ومع هذا أحجموا عنه ولم يحملوا عليه خوفاً منه وواصلوا رشقه بالنبال والحراب ودفعوا به الى جُرُفٍ صخرية ولاقى عناءً كبيراً في قيادة جواده خلال عقبات الارض رغم احتشائه. ولم يكن كبر سنه حائلاً فقد جعل التدريب الدائم جسمه مرناً متيناً، إلاّ أن المرض وطول الرحلة هدّاً من قواه وأنهكاه فلم يستطع الثبات على صهوة حصانه عندما عثر وسقط بدروعه سقطة عنيفه على ارضٍ صخرية فغاب عن وعيه حينا. وظلّ من شدة الصدمة لايقوى على الحركة والكلام. حتى ظنه الاعداء ميتاً فتقدموا منه واخذوه ينزعون عنه دروعه؛ وهنا رفع رأسه وفتح عينيه، فتراموا عليه جميعاً وربطوا يديه خلف ظهره وحملوه الى مدينتهم وكانوا يصبوّن عليه كل انواع الإهانات والشتائم. ذلك الذي ما كان يحلم يوماً أن يقاد اسيراً في موكب نصرٍ (الدينوقراطس).

وجُنّ الميسينيون فرحاً بالنبأ وخرجوا زرافاتٍ الى ظاهر المدينة لمشاهدة الاسير. ولما اقبل بهيئة زرية لاتليق بسمعته واعماله الباهرة وانتصاراته اللامعة، تملكهم الأسى. وراحوا يلعنون حظوظ البشر الخداعّة النصّابة وجبروتها الطاغي، بل ذرفوا دموعاً تحولت شيئاً فشيئاً الى كلمات عطفٍ. واخذت الافواه كُلّها تذكر بما فعله لأجلهم. وكيف حفظ لهم استقلالهم وصان حرياتهم بطرده (نابيس) اللقيديموني. واراد بعضهم ان يتقرب من (دينوقراطس) ويتملقه فاقترح تعذيب (فيلوپومين) ثم قتله، بوصفه عدواً خطراً لايؤمن جانبه ابداً. وكان اخشى ما يخشاه (دينوقراطس) الذي أسره، ان يظفر بحريته بعد أن أصابته هذه البلية. واخيراً زجّوه في مطبقٍ تحت الارض كانوا يسمونه «الخزانة» وهو موضع لا ينفذ اليه نور او هواء من الخارج وليس له باب وانما تسدّ فوهته بصخرة كبيرة. فدحرجوها وثبتوها في موضعها واقاموا حرساً عليها، ثم تركوه.

وفي تلك الاثناء لم جنود فيلوپومين شعثهم وافتقدوه فلم يجدوه فادركهم خوف من موته وتفرقوا جماعات ينادونه باسمه ويصيحون باصوات جهيرة وانثنوا يلوم بعضهم بعضاً لفرارهم المخزي الشائن وتخليهم عن جنرالهم الذي فقد حياته صوناً لحياتهم. وعادوا ساهمين بعد كثير من البحث والتحري. ثم سمعوا بأسره فاطلقوا رُسُلاً لتبليغ البلاد بالحادث. وكان وقعه على الأخائيين شديداً وادركهم ألم عميق وتقرر أن يطلب اطلاق سراحه وفي الوقت نفسه اعدوا الجيش لانقاذه.

استولى على (دينوقراطس) خوفٌ من أن يؤدي أيّ تأخير الى انقاذ (فيلوپومين) فقرر أن يسبق الأخائيين الى حياته. وانتظر حتى فرّق الليل الجماهير المحتشدة فبعث اليه بجلادٍ يحمل كأساً من السمّ وامره ان لايغادر المطبق حتى يتجرعه. وكان (فيلوپومين) قد استلقى ملتفاً بمعطفه غير نائم، والالم والقلق قد نالا منه كثيراً، فجاهد في النهوض عندما لمح نوراً وشخصاً قريباً منه يمد اليه كأس السمّ. وتناوله منه وسأله هل سمع شيئاً عن فرسانه ولاسيمّا (ليقورتاس Lycortas)[8] ؟ فأجابه ان معظمهم قد نجوا. فاحنى رأسه ونظر اليه مسروراً وقال:

- هذا حسن! اذن لم تكن سيئي الحظّ من كل ناحية!

ولم يزد على ذلك. وتجرع السمّ واستلقى مرةً اخرى، وعجّل ضعفه بتأثير السم فقضى عليه فوراً.

وملأ نبأ موته كلّ آخائيا حزناً وبكاء، واجتمع شبابها وزعماء عدد من المدن، في (ميغالوپوليس) وكلهم تصميم وعزم على الانتقام له حالاً، وأمرّوا عليهم (ليقورتاس) جنرالاً وزحفوا على الميسينيين واعملوا فيهم النار والسيف، حتى اخضعوهم[9]. وادرك (دينوقراطس) ومن افتى بقتل (فيلوپومين) ماينتظرهم فبخعوا انفسهم وماتوا غير مأسوفٍ عليهم. اماّ الذين ارتاؤا تعذيبه قبل موته فقد كبلهم (ليقورتاس) بالسلاسل، واحتفظ بهم لعقوبة صارمة. وقاموا باحراق جثته ووضعوا رمادها في إناء ثم قفلوا عائدين الى بلدهم لابمسيرة عسكرية اعتيادية. بل بموكب مهيبٍ اختلف، بين موكب نصرٍ، وموكب تشييع. واكاليل الظفر تعلو رؤوسهم والدموع تجول في محاجر أعينهم واسراهم معهم يساقون

(٨) «Lycortas» ارتفع قدر هذا القائد كما يقول پاوسنياس بسبب صداقته لفيلپويمين وتعلقه به وهو من ميكالوپولس كذلك: وقد دسّ له السمّ أيضاً في ١٨٢ أي بعد وفاة فيلوپيمين بسنتين.

(٩) باوسنياس: قام الميغالوسيون بطردهم على أساس أنهم من المشاركين في تسليم فيلپويمين الاّ ان السپارطيين حرضوهم على رفع قضيتهم الى روما.

بالسلاسل. وحمل انا ء الرفاة (پوليبيوس) ابن الجنرال وقد دُفن في القلائد والشرائط فلايبين منه شيء، وحف به نخبة من نبلاء الآخائيين، وتبعتهم القطعات العسكرية راكبةً شاكية السلاح، لاتفصح نظرات افرادها لا عن كآبة الحداد، ولا عن كبرياء النصر. وكان الناس يخرجون من المدن والقرى لاستقباله كتلاً وحشوداً كأنما هو قادم من فتوح. وبعد أن يحيوه ينتظمون في آخر الموكب المتجه الى (ميغالوپوليس). وفي المدينة اختلط الشيوخ بالنساء والأطفال والقادمين وصعدَ الجميع زفراتهم وضجّت المدينة كلها بالندب والعويل فقد كانت خسارة (فيلوپومين) خسارة مكانتهم وعزتهم بين الأخائيين. بهذا التكريم والحفادة اللائتين بمكانته تمّ دفن رفاته، ورُجم الاسرى حول ضريحه.

نصب (الفيلوپومين) عدد كبير من التماثيل في كثير من المدن، وخلع عليه ما لايحصى من ضروب التكريم. وفي عهد الإنحلال اليوناني بعد تدمير (كورنث) قام احد الرومان يتهمّ فيلوپومين علناً كما لو كان حياً - واقترح بوصفه عدواً للرومان ازالة كل ما يذكر به، فتلا هذا، مناقشة حامية والقيت خطب، وقام (پولينيوس) بالردّ على بطانة المتملقين بالمرائين فأفاض واسهب. وأبى (موميوس Mummius)[١٠] وضباطه تشويه انصاب الرجل العظيم، وان كان قد وقف كثيراً في وجه (تيطس) و (مانيوس) واحبط اعمالهما. لقد كان هؤلاء والحق يقال يدركون الفرق بين المنفعة وبين الفضيلة، بين ما هو صالح لنفسه، وبين ما هو مفيد لطرفٍ من الأطراف، ولأنهم اناس طيبون شرفاء، فقد حكموا بأن الشكر والجزاء الطيب هو حق واجبٌ لفاعل الخير من نائله. وان تكريم الطيبّ للطيب أمر لايمكن نكرانه.

وبهذا القدر نختتم الكلام عن فيلوپومين.

(١٠) لوشيوس لومپوس تولى القنصلية في العام ١٤٦ ق.م. وقاد الحملة الرومانية على بلاد الاغريق واتمّ تصفية العصبة الأخائية ونهب مدينة كورنث ثم الحق اليونان بالامبراطورية الرومانية فأصبحت اقليماً تابعاً وقد أستدعي موميوس فيما بعد ليحل محله تيطس فلامينيوس كما سيجي شرحه في سيرته.

فلامينوس

FLAMININUS

(Titus Quinctus)

229 _ 174

فلامنينوس[1]

(تيطس كوينكتوس فلامنينوس)[2]

الذي اخترناه قريناً (لفيلوبومين) فإنه واجدٌ ضالته في تمثاله البرونزي القائم اليومَ مقابل الملعب الاكبر Circus Maximus[3]، بالقرب من تمثال ابوللو الكبير الذي جيء به من قرطاجة. والناظر يرى عليه كتابة باللغة اليونانية. هذا عن شكله، أما عن طبعه فقيل أنه كان حار العواطف في حالتي الغضب والرضى، إلا أنهما ليستا متساويتين في آثارهما. فقد كان دوماً معتدلاً في العقاب لا يتوخى فيه الاصرار ولا الصرامة، في حين لايقف في جميله وعمل خيره وانما يمضي فيهما قدماً الى النهاية وقد يبلغ جوده وسماحته لمن يخصّهم بنعمائه مايبدو به وكأنهم هم المحسنون اليه، وليس هو المحسن اليهم. ان اولئك الذين يحبوهم بفضله وفضله يعتبرهم اثمن مالديه ولذلك يغار عليهم ويحرصُ حرصاً شديداً على سلامتهم! على أنه كان دائم التعطش الى المجد والرفعة. كثير البحث عن عظائم الامور وخوارقها لينفرد بفصلها ويبز فيها الآخرين. وكان اكثر سعادة بالمحتاجين من القادرين على سَدّ الحاجة. لأن الأولين هم ميدان لممارسة حميد سجاياه، ولأن الآخرين منافسون له في المجد.

كانت روما في ذلك العهد ميداناً لصراع حادٍ، وقد انشغل شبانها بالحروب، وخاضوا

---

(١) المخطوطات تثبت الاسم عموماً بصورة غير صحيحة هي او تكتبه (فلامينوس) - و«تيطس» هو الاسم الذي يعرف به عادة عند الاغريق.

(٢) كان فلامينينوس قد أرسل بهدف تحرير كل بلاد الاغريق من حكم فيليب (فيلبس) المقدوني. وأعلن انه يعتزم اعطاء ايلاتيئا Elateia استقلالها وقانونها الأساسي السليب، واذاع عن طريق سعاة ينادون في المدن بوجوب انتقاض ايلاتيئيا على المقدونيين بثورة ولكن غباءهم ابقاهم مخلصين لفيليب لاصقين به الا ان حصار ايلايتيا وسقوطها بيده كان أول عمل عسكري أتاه [باوسنياس ١٠ - ٣٤].

(٣) تقع آثار هذا الملعب الأكبر على قدمة تلّ الپالاتيني وهو على شكل اهليليجي. وفيه كانت تجرى سباقات الخيل. بني في عهد ملوك الرومان وجرى توسيعه تدريجياً في عهدي الجمهورية والامبراطورية لاسيما في حكم قسطنطين (القرن الرابع بعد الميلاد) وهو يتسع لمائة الف متفرج.

غمارهما وحلبوا اشطرها وهم في مقتبل العمر، وتمرسوا في فن القيادة العسكرية وهم صغار السن. وكذلك كان فلامنينوس فقد تلقى أول مبادىء القتال ونال اول منصب قياديّ وهو منصب التريبيون في الحرب ضدها ينبغل تحت أمرة (مارچلووس) عندما كان قنصلاً. ثم سقط (مارچلووس) في كمين وقتل، وعُين (تيطس) بوظيفة حاكمٍ عامٍ (لتارنتوم) والانحاء المجاورة لها بعد استرجاعها فنال شهرة في نشره العدل تساوي شهرته في الحرب. وهذا ما هيأ له أن يكون مؤسساً وزعيماً لمستعمرتين رومانيتين ارسلتا الى مدينتي (نارينا Narina) و (كوسّا Cossa)، فملأه هذا بأعرض الآمال واوسعها وجعله يطمح الى تخطي المناصب العامة المتدرجة التي كان عليه مزاولتها تباعاً كما جرى عليه العرف وهي (تريبيون الشعب)، ثم (پريتور) ثم (أيديل)، للوصول الى المنصب القنصلي المنشود وهو أعلى منصب في الدولة. فباسناد هاتين المستعمرتين وتشجيعهما له ووضعهما مواردهما رهن اشارته تقدم لترشيح نفسه في المنصب القنصلي مباشرةً، إلاّ ان تريبيونات (مفوضي) الشعب بالاتفاق مع (فولڤيوس Fulvius) و(مانيوس)[٤] وحزبهما عارضوا في انتخابه معارضة شديدة قائلين انه لايجوز قطّ ان يتقحّم شابٌ غض الإهاب مركز رئاسة الدولة، وهو غير حائز مراناً او خبرةً في اوليأت الطقوس المقدسّة واسرار الحكم، ليفرض نفسه هكذا مستهيناً بالشرع وبكلّ القوانين.

ومهما يكن، فإن مجلس الشيوخ راغ من المشكلة بايداع أمر الانتخاب الى الشعب، واخضع المرشحون الى الاقتراع العام، فنجح (تيطس) وهو شاب لم يبلغ الثلاثين، مع زميله الآخر (سكستس ايليوس Sextus Aelius). ووقعت حرب (فيلپس) والمقدونيين، عليه بالقرعة. ويبدو وكأن حسن الحظّ قد واتى الرومان في تلك اللحظة فقرر ذلك. فإن مصلحة الشعب وطبيعة الاحوال الراهنة ماكانت تتطلب جنرالاً عسكرياً بحتاً ديدنه القوة المجردة وانزال الضربات، بل رجلاً أهلاً لحسن التفاهم بلغة المنطق، وطيب المعاملة ورقتها. والواقع انه مملكة مقدونيا كانت تزود (فيلپس) بكلّ ما يحتاجه جيشه من تجهيزات لمعركته مع الرومان، ولكن مواردها المحدودة لاتكفي لحرب طويلة مضنية وكان عليه والحالة هذه ان يعتمد على بلاد اليونان بالمؤن والارزاق والملجأ، أو بمختصر القول القاعدة ومركز التموين الوحيد لعسكره. فإن لم يتحقق إبعاد بلاد اليونان عن ممالأة (فيلپس) فلا يتوقع انهاء الحرب بمعركة واحدة. وهذه بلاد اليونان (لم تكن علاقاتها في ذلك الزمن قد توثقت بعد مع الرومان، وانما بدأت تباشير الصلات في هذه المناسبة) لم تتعود المبادرة بسرعة إلى قبول سلطان اجنبيّ عليها، بدلاً من قادتها وزعمائها الذين تخيرتهم واطمأنت اليهم، لو لم يكن جنرال هؤلاء

---

(٤) المقصود به (مانيوس كيوريوس Manius Curius).

الاجانب سمحاً رقيقاً يفضل الوسائل السلمية العادلة على استخدام القوة الغاشمة. وكان حسن الكلام والخطاب فيما يوجهه الى الآخرين مع تمسكٌ بقواعد العدل والإنصاف الى آخر حَدٍ لا يحيد عنها قطّ. ولم يكن بأقل من هذا استعداداً وسماحه لتلقي خطاب الآخرين وكلامهم. على أنَّ قصة اعماله العسكرية هي خير ما يوضح ذلك.

وجد (تيطس) أن سلفيه القائدين (سولپشيوس) و(پوبليوس) لم يحققا اي عملٍ عسكري ضدّ المقدونيين ولم يتعرضا لهم إلا بعد أن تصرم من العام معظمه على انهما لم يديرا الحرب كما يجب واقتصرا على مناوشات موضعية وحركات استكشاف هنا وهناك لتأمين المسالك والممرات والتجهيزات. ولم يلتحما قطّ مع (فيلپس) بمعركة كبيرة. فقررّ أن لايضيع سنةً أخرى كما فعلا - ببقائه في ارض الوطن يستمتع بمظاهر التجلّة والفخفخة، ويصرف الشؤون الادارية الداخلّية، وبعد ختامها يلتحق بالجيش يحدده أملٌ خالب، في تمديد فترته سنةً أخرى، فيكون قد قض الاولى بوظيفة القنصل والثانية بمنصب الجنرال. ترفع (تيطس) عن هذا، وكان يحسّ برغبةٍ عارمة في استخدام سلطاته في الحرب ومصائرها، وهو ما كان يستخف بالعظمة التي تحفّ بمنصبه في داخل الوطن. فطلب من مجلس الشيوخ أن يخوله حق يقين اخيه (لوشيوس) أميرالاً للاسطول، فتمّ له ذلك. واخذ معه ثلاثة آلاف جنديٍّ من اولئك الجنود الكُماة الذين دحروا (اسدروبال) في اسبانيا، و(هانيبال) في افريقيا بقيادة (سكيپيو)، ومازالوا يتقدون شباباً وقوةً، أخذهم ليكونوا شفرة الحملة القاطعة. ووصل (اپيروس) سالماً ليجد (پوبليوس) معسكراً بجيشه في مواجهة (فيلپس) الذي كان قد نجح في عبور نهر (اپسوس) والمضايق هناك منذ زمن طويل. ولم يتمكن (پوبليوس) أن يحقق شيئاً ضد فيلپس لمناعة الموقع الطبيعية. فقرر (تيطس) ان يقود الجيش بنفسه، فأقال (پوبليوس) وقام باستطلاع أرضيٍ. فلم يجده أقل مناعةً من (تمپه Tempe)[٥] وإن كان براحاً ليس فيه الشجر والغاب والمروج الاريضة اللطيفة والمسالك التي تزدان بها (تمپه). ويجد نهر (اپسوس) مجراه بين جبالٍ مشمخرة باذخة تلتقي جميعها في هضبة فوق مِفصلٍ عميق الغور في الوسط. وهو كثير الشبه بنهر (پنيوس Peneus)[٦] في سرعة تياره ومظهره العام، ويغطى مجراه سفوح [illegible] محاذاة النهر، لايسهل سير الجيش فيه دائماً،

ويسلك طريقاً لاحباً أميناً عند منطقة (لينكوس Lyncus). الاّ انه استقرّ على اقتحام الجبال ولا يسلك السبيل المأمونة لئلا يبتعد كثيراً عن البحر في بقاع جرداء موات. وسيفطر عندما يأبى (فيلپس) القتال الى أن يعود من حيث أتى ليكون قريباً الى البحر بسبب تموينه. إلاّ أن (فيلپس) الذي كان قد سيطر بجيشه على الشعب برمته راح يمطر رتل (تيطس) بالرماح والتبال من حالق فتسقط على الرومان من كل جهة. وحصلت اشتباكات عنيفة وسقط كثير من القتلى والجرحى بين الطرفين. وبدا الاحتمال بعيداً بانتهاء الحرب على هذه الشاكلة. وفي هذه المرحلة اقبل بعض الرجال الذين كانوا يرعون قطعان ماشيتهم في الجوار، على (تيطس) بكشفٍ هامٍ قالوا انه يوجد طريق دائري احمل العدوّ حراسته وعرضوا أن يقودوا مسيرة الجيش خلاله حتى يبلغوا به شعفة الجبال في غضون ثلاثة أيام على اكثر تقدير، واخبروه زيادة في اطمئنانه أن (خاروپس Charops) ابن (ماخاتاس Machatas) وهو من سراة (اپيروس) وصديق للرومان. طالما ساعدهم سراً (لخوفه من فيلپس)، واقفٌ على الخطّة وعالم بمجيئهم اليه. فلم يداخله الشكّ في معلوماتهم وجرّد اربعة آلاف راجلٍ وثلاثمائة فارس بقيادة ضابطٍ، ودلالة هؤلاء الرعاة الذين اوثق كتافهم زيادة في التحوّط وكانوا يتخفون نهاراً في فجوات الجبل وغابات الكثيفة، ويغذوّن السرُى ليلاً على ضوء القمر، وكان بدراً. وبقي (تيطس) بعد فصله هذه القوة، هادئاً ساكناً ببقية الجيش. ماخلا بعض مناوشات مع العدّو للمشاغلة وصرف نظره عن التجريدة. ولما حلّ اليوم المرسوم لوصولها الى القمة من المؤخرة، أخرج جيشه بنظام المعركة في الصباحِ الباكر بكل وحداته الثقيلة والخفيفة ثم قسمها الى ثلاثة اقسام وقاد هو العشم المتقدم في الشعب الضيق الممتدّ بمحاذاة المجرى. فقابله المقدونيون بمقذونهم ومحذوفهم فالتحم معهم في مداعسةٍ ومماسكة فوق الارض الغليظة في حين برز القسمان الآخران للقتال وانتشرا بين الصخور بخفة وبمعنويات عالية، وراحوا يشقون طريقهم الى الامام، وما ان بزغت الشمس حتى رأووا دخانا ضعيفاً يشبه الضباب يمور فوق الجبال على مبعدة منهم. ولم يكن باستطاعة العدوّ مشاهدته لأن مواقع الرومان كانت خلفهم في الذّري العليا. والرومان ايضاً كانوا يعانون توتراً وارهاقاً ومشاقّ شديدة لذلك لم يسعهّم إلاّ ان يفسروا مع الشكّ الكثير تلك الإشارة بما يتفق ورغباتهم. ولكن شكهم تبددّ عندما أخذ يتكاثف ويسودّ ويتعالى. وايقنوا أنه اشارة الانار التي يطلقها زملاؤهم، فصاحوا صيحة الانتصار واندفعوا يشقون طريقهم الى الامام وانكفأ العدوّ على اعقابه يلوز بأصعب الارض واوعرها. ورددّت جماعة القمة صيحة زملائهم من الاعلى.

وولى المقدونيون الادبار فراراً بأسرع ما امكنهم ولم يسقط منهم في الواقع غير ألفين،

والفضل بنجاتهم يعود الى صعوبة الارض التي منعت الرومان من ملاحقتهم، على انه المنتصرين نهبوا معسكرهم واستولوا على اموالهم وعبيدهم واصبحوا سادة المضيق واحتلوا كل (ايبروس)، وقاموا بكل هذه الأعمال وهم حريصون على الضبط او النظام والاعتدال والسماحة. في حين كانوا بعيدين عن البحر تفصل بينهم وبين سفنهم مسافة شاسعة، وهم يعانون شحاً كبيراً في جراياتهم الشهرية من القمح، ومصاعب عظيمة في شراء ما يحتاجون منه. مع هذا كله لم تمتد ايديهم الى نهب البلاد مطلقاً وفيها من الفلات والارزاق ما يزيد عن حاجة اهلها ومن كل نوع. ثم وردت الانباء بتراجع (فيلپس) تراجعاً أقرب الى الفرار منه الى المسيرة في بلاد (ثسالي)، وأنه يرغم سكان المدن على الخروج من ديارهم واللجؤ الى الجبال، فيقوم بحرق مدنهم ويبيح لجنوده مقتناهم الذي تركوه بمثابة غنائمَ حربٍ، فبدأ وكأنه يسلمّ البلاد كلها للرومان. ولذلك كان (تيطس) حريصاً على ان يمرَّ بها جنوده كانما هي بلدهم أو امانة اودعت بايديهم، وقد شددَ عليهم بذلك. فما لبثوا أن حصدوا جزاء مسلكهم السوّي الطيب. فقد فتحت المدن ابوابها لهم تباعاً ما أن وضعوا قدماً على الارض الثسالية. وهبّ يونانيو (ثرموپيلي) بلهفة وشوقٍ لمصافحتهم وربط مصيرهم بهم. ونقض الأخائيون حلفهم مع (فيلپس) وصوتوا بالإجماع على محالفة الرومان عسكرياً، ورفعوا السلاح ضدّ حليفهم السابق. وكان الاتيوليون الذين هم اخلص حلفاء الرومان يرغبون كثيراً في أن يأخذوا على عاتقهم حماية مدينة آلاوپونتيين Opuntians إلاّ أن هؤلاء لم يرضوا بغير الرومان حامياً وارسلوا بطلب (تيطس) ووضعوا أنفسهم ومصائرهم بين يديه. وقيل عن (پيروّس Pyrrhus) أنه كان ينظر الى الجيش الروماني من جبل قريبٍ أو من برج مراقبة. لأول مرةٍ في حياته، فتابعه وهو ينتظم في خطّ المعركة وقال معقباً. «انه لم ير خطّ معركة لَقرب شبهاً للبرابرة من هذا». ولم يكن يسع من وجد انذاك قريباً من (تيطس) أن يحكم عليهم بخلاف ذلك لأول وهلة. على أن من أدخل المقدونيون في روعهم اموراً تخالف الواقع مخدتوهم عن غازٍ يقود جيشاً بربرياً وعلى ذبابة سيفه يحمل الخراب والعبودية اينما حَلّ، كانت دهشتهم عظيمة وفرحهم لا يوصف عندما راؤوا فيه رجلاً مهيباً في زهرة العمر رقيق الطبع مهذب الحاشية انساني النزعة، اغريقياً بحديثه وصوته. فتمسكا باهداب الفضيلة والخلال السامية فعلقوا به واحبوه وتركوه وهم ألسنة حمد به وانتشروا في المدن يعددون سجاياه ويرددن أفضل الاخبار عنه واعلنوا بما يقرب الإيمان انهم يجدون فيه نصيراً وصائناً لاستقلالهم وحرياتهم. وتاكد ذلك عند اليونانيين عندما طلب (فيلپس) عقد الصلح بعد فترة، فقدم (تيطس) عرضاً بالصداقة والسلام يتضمن شرطاً يحتم عليه ترك اليونانيين يصرفون امورهم وفق شرائعهم، وسحب كلّ

حامياته من المدن اليونانية. فرفض (فيلپس) ذلك؛ ومن هذا ساد يقين عام حتى عند انصار (فيلپس) بان الرومان لم يأتوا القتال الاغريق بل المقدونيين في سبيل الاغريق.

ولهذا سارعت بقية الدول اليونانية الى مسالمته ومحالفته. وفيما كان يجتاز (بويوتيا) دون ان بقدر منه بادرة عداء، خرج اشراف (ثيبة) وسراتها الى ظاهر المدينة لاستقباله، وكانوا بسعي من (براخيللتس Brachylles) متمسكين بحلفهم مع المقدونيين إلاَّ انهم رغبوا في اظهار حسن نواياهم وتكريمهم (لتيطس) اثباتاً لحيادهم وصداقتهم للغريقين. فتلقاهم (تيطس) بحفاوة وترحاب وجلس اليهم يشاغلهم بمسامرته الرقيقة ويلقي عليهم مختلف الاسئلة والاستفسارات تتخللها حكايات. كسباً للوقت واتاحة فترة راجه لجنوده بعد مسيرتهم الشاقة، وهكذا دخل المدينة ساعة رجوع اعضاء الوفد اليها وأسقط في يدهم لأن الجنود الذين دخلوا معه كانوا كثيرين فسلّموا بالأمر الواقع كارهين. ولم يتصرف (تيطس) في المدينة تصرف الفاتح فقد قام فيهم خطيبا واخذ يحثهم على ربط مصيرهم بمصير الرومان، وعقبه (اطالوس Attalus) ملكهم وحاول ان يقوم بدور المحامي والراعي وبذل جهدا فاق ما يتحمله كبر سنه على ما يبدو. فأصيب بدوار في وسط خطبته وترنح وسقط فاقد الوعي. وبعد ذلك بقليل نقل إلى آسيا بسفينة، وهناك توفي ودخل البويوتيون في حلفٍ مع الرومان.

لما بعث (فيلپس) بسفارةٍ الى روما، بادر (تيطس) ايضاً الى ارسال مندوبين يمثلونه لاقناع مجلس الشيوخ بابقائه قائداً للجيش اذا ما قررَ مواصلة الحرب، أو ان يمنحه شرف عقد الصلح اذا قرر انهاءها. ولشوقه العارم الى الجاه والرفعة تجاذبه الخوف من خسران ماكسبه من صيت في حالة تعيين جنرال آخر لمواصلة الحرب وافلح مندوبوه في تسوية الأمور وتدبيرها بما فيه مصلحته. وفشل (فيلپس) في كل مساعيه ومقترحاته، كما عهد الى (تيطس) بادارة دفة الحرب كالسابق. وما بلغه قرار مجلس الشيوخ حتى زحف على ثسالي لمناجزة (فيلپس) تحدوه الآمال الجسام. وكان جيشه يعدّ ستة وعشرين الفاً (منهم ستة آلاف راجل واربعمائة فارس امدّه بهم الايتوليون) وهو مقارب لعدد قوات (فيلپس). وكان كلاهما يتحرقان شوقاً الى المعركة، فتقدم احدهما من الآخر حتى بلغا موضعا قريباً من (سكوتوسّا Scotussa) وقد استقر عزمهما على الاشتباك. إن كرة هذين الجيشين الجرارين احدهما على الآخر لم تخلف في قائديهما القلق والخوف المعهود في مثل هذا الموقف بل كان الامر على خلاف ذلك اذ كان طموح القائدين وحماستهما للقتال متوقدة». فالرومان كانوا يطمحون الى فتح مقدونيا، تلك البلاد التي رفع الاسكندر اسمها عالياً وجعلها مثلاً مضروباً في المنعة والقوة. اما المقدونيون الذين وجدوا في الرومان عدداً يختلف عن الفرس فقد كانوا يأملون من انتصارهم ان يجعلوا

اسم (فيلپس) أشهر من اسم الاسكندر. ولذلك راح (تيطس) يحمس جنوده، ويطلب منهم ان يضربوا مثلاً فريداً في الإقدام لأنهم سيلعبون على اعظم مرسح في الدنيا وهو بلاد اليونان، وسيقاتلون اشجع الخصوم. والقى (فيلپس) خطبة على جنوده قبيل المعركة كما جرت به العادة عندهم، وارتقى ربوة عالية تقع خارج المعسكر ليصل صوته الى أبعد مسافة ساهيا عن خطورة ما فعل إمّا نتيجة الاستعجال المبتسر أو بمحض سوء الصدف، إذ تبين فيما بعد أن هذه الربوة هي مقبرة. وأستبد به قلق عظيم لما رأى من خور عزائم جنوده لهذا الفأل السيء فلازم معسكره طول اليوم وابى القتال.

واسفر الصباح الذي تلا ليلاً ماطراً طليلاً، عن يوم انقلبت فيه الغيوم الى ضباب نشر على السهل ظلاماً داجناً. وزحف من الجبال المجاورة الى الارض التي تفصل بين المعسكرين هواء ثقيل هيدبٌ ضبابيّ في رأب الضحى فاخفى الجيش عن الجيش فأخرجا فصائل منهما بعضها للاستطلاع وبعضها للكمائن. فوقعت احداها على الاخرى حال انفصالها عن القسم الأكبر واشتبكت في قتال فوق ما يُدعى (كينوس كيفالي Cynos Cephalae) وهو عدد من رؤوس تلال حادة المرتقى متقارب بعضها من بعضٍ واسمها مشتق من شبه شكلها، ثم بدأ يطرأ على الموقف مفاجآت وتغييرات أسرع، مما كان متوقعاً من ميدان قتال ارضه متعادية غير مطمئنة، فآنا تجد مطاردة عنيفة، وآناً تجد فراراً سريعاً. وظلّ قائدا الجيشين يرسلان النجدات تباعاً الى موضع المناوشات كلما شاهدا رجالهما يشدون على العدوّ أو ينسحبون، الى ان تبددت الغيوم وصفت السماء واصبح الطرفان على بينه مما يجري فزحف الجيش على الجيش وبدأت المعركة. وكان (فيلپس) يلازم الميمنة وهناك ضغط ضغطاً شديداً على الرومان بفلانكسه، مستفيداً من الموضع المرتفع الذي تمركز فيه فلم يصمدوا له، وعجزوا تماماً امام الصف الكثيف من الأسنّة المشرعة، والثقل المركز للكتلة المتلاحمة على أن مسيرته كانت قد تكسّرت بسبب تموج الأرض وقد لاحظ (تيطس) ذلك. فانصرف ذهنه عن الجناح الذي تراجعت فيه قواته غير معلق عليه أملاً كبيراً أو لا أمل مطلقاً. وخفّ مسرعاً الى الجناح الآخر وشنّ هجوماً على المقدونيين، فلم يستطع هؤلاء المحافظة على سلامة فلانكسهم بسبب تعادي الأرض ووعوثتها. كما عجزوا عن تنظيم صفوفهم بالعمق. وهو أهم النقاط في قوتهم التعبوية. وارغمهم العدو على القتال الآحادي، فالتحم الرجل بالرجل وهو ينوء تحت دروع ثقيلة لاقبل له بها. إن الفلانكس المقدوني اشبه بوحش واحدٍ هائل القوة، يتعذر الوقوف بوجهه مادام كتلة واحدة متلاحمة، محافظاً على نظامه: ترسٌ يلامس ترساً كالجدار المرصوص. ولكن ما ان ينقصم او يتفكك حتى تقع الواقعة ولاتكون الخسارة قاصرة على القوة المتحدة وانما تتعداها الى افرادها، اذ

يخسر كلّ منهم قدرته القتالية بسبب طريقة تدريعهم، كذلك لأن كل جنديّ يكون أقوى وهو جزءٌ من كلٍ، مما لو كان فرداً بنفسه. فعندما لحقت الهزيمة بهذا الجناح اخذت وحدات من الرومان تطارد المنهزمين، بينما انثنى القسم الآخر الى الهجوم على اجنحة المقدونيين التي مازالت تقاتل، وهذا ما أخلّ بصفوف الجناح المستظهر فما لبث ان ولىّ الادبار والقى بسلاحه. ووقع من المقدونيين ثمانية الآف قتيل. واخذ منهم خمسة آلاف أسير. وأنّب (الايتوليين) لأنهم كانوا السبب في نجاة (فيلپس)، اذا انشغلوا في سلب المعسكر ونهبة تماماً لما كان الرومان يطاردون العدو المغلوب. فلم يبق شيء من الغنائم للذين عادوا من المطاردة.

وتبودلت كلمات جارحة، انقلبت الى شحناء وخلافٍ كبير. ثم تمادوا في نزقهم واغاظوا (تيطس) بنسبة الانتصار الى انفسهم، والايحاء الى اليونانييّن بهذا، لما نشروه وبثوه بينهم. حتى ساد الاعتقاد بين الشعراء وعموم الناس حتى اليوم بأنهم اصحاب الفضل الأول فيه. وبدا ذلك مما ألفّ من أغانٍ وكتب من تقاريظ تخليداً للنصر والمقطوعة التالية، هي من أكثر المقطوعات شيوعاً:

انظر ايها المستطرق! انظر الألوف الثلاثين من ابناء (ثسالي) عراة، بلا قبور!
جندلهم الايتوليون قطعات اللاّتين التي جاء بها (تيطس) من أرض ايطاليا فهرب
فيلپس الملك لايلوي مثلما يعدو الظلّيم!

ألف هذا الشعرَ (الكيوس Alcaeus)[7] في هجاء (فيلپس) او السخر به، مبالغاً في عدد القتلى. وقد شاع وتغنت به الركبان، وكان حنق (تيطس) منها اكثر من حنق (فيلپس) الذي عارض الشاعر بقصيدة فحسب من نظمه جاء فيها:

انظر ايها المستطرق، أنظر الى الصليب الذي سيصلب عليه (ألكيوس) عارياً
لايستر عورته شيء.

على ان حوادث صغيرة كهذه، كانت تمضّ (تيطس) الى أبعد حدّ، لحرصه الشديد على سمعته عند اليونانيين. ولذلك انفرد بالعمل وحده بعد الحادثة، ولم يعر الايتوليين اهتماماً قلّ أم كثر. فجرحهم في عزة نفسهم.

وعندما مال (تيطس) الى سماع حديث الصلح، وقبل سفارة تحمل عروضاً من الملك

(٧) شاعر من ليسبوس. من شعراء القرن السادس ق.م. وهو من أقرباء الشاعرة المعروفة (سافو). ارستقراطي المنشأ. وصلنا من شعره قصيدتان في الربّة (أثينا) الايتونية. وقد اثبتهما (سترابو). كما عثر له على مقطع واحد من قصيدة في (ابوللو). وهنالك عدا ما ورد في پلوتارخ بيتان من الشعر يعرّض بوحشية فيليب واعتياده التخلص من اصدقائه باسقانهم السمّ بدل الخمر.

المقدوني. راح الايتوليون ينشرون في طول بلاد اليونان وعرضها قولهم. إن الصلح هو من شأن الجميع وليس لأحد ان يستقلّ به، وان (تيطس) يبيع سلماً لفيلپس في الوقت الذي يسهل حلبه استئصال جذور الحرب. وسحق القوة التي استعبدت بلاد اليونان اولاً.

وفي الوقت الذي دأب الايتوليون على نشر هذه الاشاعات المغرضة لتحطيم التحالف الروماني، بادر فيلپس الى اعلان استسلامه واستسلام مملكته المطلق لتيطس والرومان، وبذلك وضع حَداً لدسائس هؤلاء، كما وضع (تيطس) نفسه حداً للحرب بقبوله خضوع (فيلپس)، وابقائه في حكم مملكته مقدونيا مشترطا عليه سحب قواته من اليونان ودفع غرامة قدرها ألف تالنت، وتسليم كُلّ سُفنه إلاّ عشراً. وأرسل (ديمتريوس) أحد ابنائه رهينة الى روما، وبهذا عززّ موقفه بخير ما يمكن، واتخذ الاحتياطات الحكيمة للمستقبل ففي ذلك الزمن كان (هنيبعل) الأفريقي ألدُّ اعداء الرومان قاطبة قد وصل منفياً من بلاده الى بلاط الملك (انطيوخوس)، واخذ يغريه وينصحه باستغلال محالفة الحظّ له ولا يتقاعس عن استثمار توفيقه في كل الشؤون التي اضطلع بها، وها أن عظمة نجاحاته أنالته لقب انطيوخوس الأكبر. وبهذا بدأ العاهل يستطيب فكرة السيطرة على الدنيا. وحتى بات وهو يتحرق شوقاً إلى مقارعة الرومان ولو لم يعمد (تيطس) الى عقد الصلح حكمةً منه وبُعدَ نظر، ولو وقع (انطيوخوس) على الرومان وهم منشغلون بحروب (فيلپس) في اليونان. ولو اتحدت مصالح هذين الملكين العظيمين المحاربين ضدّ الدولة الرومانية، لوجد الرومان أنفسهم في ورطة أخرى لاتقلّ حراجةً وخطورة عن محنتهم في حروب (هنيبعل). ولكن تيطس عجل ببناء اركان السلم بين الحربين فتخلص من الخطر الحاضر قبل أن يداهمه الخطر المقبل. وبهذا تم له في آن واحد: تخييب (أنطيوخوس) في أولّ آماله، وتخييب (فيلپس) في آخرها.

ولما أرسل مجلس الشيوخ عشرة مندوبين الى (تيطس) لتبليغه بقرار تحرير كلّ بلاد الاغريق ومنحها استقلالها ماعدا (كورنث) و(خلقيس) و(دمترياس Demetrias) حيث تقرر ابقاء الحاميات الرومانية فيها احتياطاً وحذراً من (انطيوخوس) ملأ (الايتوليون) الدنيا اتهامات وافتراءات وأثاروا المدن عليه صاخبين مطالبين (تيطس) بكسر قيود «بلاد اليونان (كان فيلپس يدعو هذه المدن الثلاث ببلاد اليونان) وتوجهوا الى الاغريق متسائلين بصورة استفزازية: أليس هو مصدر سلوى وعزاء لهم كبيرين أن تغدو قيودهم اكثر نعومةً وصقلاً مما كانت قبلاً، وإن ازدادت ثقلا؟ ألا يستأهل (تيطس) لقب المخلّص والمحسن وهو الذي كسر قيد أرجل اليونان وطوّق عنقها بالحديد؟ كل هذا أثار غيظ (تيطس) واسخطه فراح يطلب من مجلس الشيوخ الأذن بسحب الحاميات الرومانية من هذه المدن، فأجيب الى طلبه فسحبها فوراً

حتى يكون اليونانيون مدينين له بكامل الفضل لا بجزءٍ منه.

وازف موعد الاحتفال بدورة الألعاب (الاستّمية) فتقاطر النُظّار وملأوا المقاعد التي تحيط بميدان السباق. ولم يسبق ان حضر مثل هذا العدد الكبير قبلاً. لقد أنعشت آمال اليونانيين بُعيد الحروب الطاحنة الطويلة لا بفضل السلم والطمأنينة، بل لنيلهم حريتهم فأقبلوا يستمتعون بعيدهم هذا، وهم آمنون، خالي البال. وجلجل نفير البوق يعلن الصمت. ثم خرج المنادى ووقف في وسط النُظّار واعلن قائلاً: إن مجلس الشيوخ الروماني و(تيطس كونتيوس) البروقنصل والجنرال، بعد أن اتماً دحر فيلپس الملك، والمقدونيين، اعادا إلى الكورنثيين، واللوكريين، والفوكيين، واليوبويين، والأخائيين والفْثيوتيين Phthiotis والمغنيزيين Magne-tians والثساليين والپيروُبيين Perrhoebians[٨] اراضيهم، وحرياتهم، وحق مزاولة شرائعهم وألغياكل الإتاوات والضرائب عنهم، وسحبا جميع الحاميات من مدنهم...

في مبدأ الأمر لم يسمع البيان كثير منهم، وحصل لغط، وضجة حائرة بين الجموع الحاشدة، فريق منهم يتساءل عن الخبر، وفريق مرتبك، وفريق يصيح مطالبا باعادة إلقاء البيان. ثم ساد السكون مرة أخرى، ورفع المنادي صوته جهيراً بالبيان وافلح في إسماع الجميع، فندت في اعقابه صرخة من الجمهور كانت من الارتفاع بحيث سمعت في ساحل البحر. وهبّ الجميع وقوفاً ناسين ماهم فيه من احتفال وسيطرت عليهم رغبة في الوثوب اليه وتحية بطل الأغريق المنقذ.

هذه الحادثة ايدت بالبرهان العملي ما سمعته كثيراً عن تأثير قوة الصوت البشري، فقد صادف أن كانت جماعة من الغربان تحوم فوق ميدان السباق فسقطت ميتةً على أثر الصرخة. ولابدّ أن يُردّ هذا إلى انفصام آني في الهواء، لأن الصوت كان هائلاً والهتاف له دوي. فتمزق الهواء وترك الطير بلا سندٍ فهوت، مثل من يحاول السير فوق فراغٍ، إلاّ اذا تصورنا أن سقوطها وموتها كان نتيجة ضربة ذات دوّي مثل حذف الرمح، ومن المحتمل ايضاً انه إعصارٌ دوار، كالدوامة البحرية بلغ من عنفه أنه احدث تفككاً شديداً في الهواء كما اسلفنا.

ولنعد الى (تيطس)؛ انتهت الألعاب فاندفعت الجماهير تحاصره من كل جهة، ولو لم يكن يتوقع أن تنسحب هذه الحشود الهائلة في الوقت المناسب لما عرف كيف يتخلص منها، فقد اعياهم الهتاف والصيّاح وهم امام مقصورته وداهمهم الليل فأخذوا يتفرقون تباعاً، ليلتقي

---

(٨) حول ما ذكر عن الفثيوتس [باوسنياس ٧:١٠]. يظهر أن امفكتيون ابن ديوكاليون كان قد أنشأ مجلس العصبة الاغريقية في دلفي من القبائل التي ذكر پلوتارخ معظمها في المتن. إلاّ ان [اندروسيون: حوالي ٣٥٠ ق.م] وأحد خصوم ديموستينس يقول ان هؤلاء الناس لم يكونوا أكثر من جيران، أجتمعوا في دلفي وسموا «بالجيران امفكتيونيز» وقد بقي هذا المجلس حتى عهد فلامينينوس.

الصديق بالصديق والمواطن بالمواطن فيتعانقان ويتبادلان التهاني والتحايا ويدعو احدهما الآخر الى داره للاحتفال بالمناسبة في مجلس طعام وشراب، وهناك يتضاعف السرور حين يبدأون بالحديث عن الماضي ويستذكرون احوال بلادهم، والحروب التي خاضت غمارها دفاعاً عن حريتها، ولم تكن سيدة حرية اكثر استقراراً وابعث على الشكر والإمتنان من حرية كسبها لهم رجال آخرون غير رجالها، فجاءتهم خالصةً دون ان يسفكوا في سبيلها قطرة دمٍ واحدة، او يلبس فردٌ منها ثياب الحداد. في هذا اليوم احتوت يدها على جائزة هي اثمن الجوائز وارفعها قدرا واجدرها بالصيانة والذود.

لاشكّ في أن الحكمة والشجاعة هما من أندر الخصال الحميدة في البشر، ولكن الأندر بين الأفاضل والكرام هو الرجل العادل المنصف. وان رجالاً من امثال (أغيسلاوس) و(ليساندر) و(نيقياس) و(الكيبيادس) عرفوا كيف يمثلون دور القائد، وكيف يديرون دفة الحرب، ويقودون رجالهم الى النصر براً وبحراً، إلاّ انهم لم يعرفوا كيف يستخدمون هذا النجاح في غايات كريمة نزيهة. واذا استثنى المرء مجد (ماراثون)، وقتال (سلاميس) البحري، ووقعتي (پلاطيا) و(ثرموپيلي)، ومآثر (كيمون) في (يورميدون Eurymedon) وسواحل قبرص، فإن اليونان خاضت كل حروبها ضدّ نفسها. ليستعبد بعضها بعضاً. واقامت كل انصاب انتصاراتها على اشلاء بؤسها وعارها. ووصلت حافة الخراب والدمار بجرائم عظماء رجالها ومطامعهم ثم يأتي شعبٌ غريب عنها. بقي محافظاً على بضع جذوات، أو بقايا تافهة من المزايا العامة التي اخذوها من سادتهم الغابرين، شعب كان من أعجب العجب ان تجنى اليونان منه أية فائدة فكرية او لسانيّة، يأتي لينقذها من الطامّة الكبرى والنازلة العظمى ويخلصها من قبضة الاسياد الجائرين، والطغاة المستبدين ويعيد اليها حريتها السليبة.

وظلوا يمتعون السنتهم وافكارهم على هذا المنوال. بينما باشر (تيطس) في وضع بيانه موضع التطبيق، فبادر في الحال بارسال (لنتولوس Lentulus) إلى آسيا لتحرير البارغيلين Bargylians، وبعث بـ(تيتيلّيوس Titillius) الى ثراقيه، ليشرف على سحب حاميات (فيلپس) من المدن والجزر هناك، بينما أبحر (پوپليوس ڤيلليوس) لمفاوضة (انطيوخوس) بشأن حرية اليونانيين الخاضعين لحكمه. ورحل (تيطس) نفسه الى (خلقيس)، ومنها الى (مغنيزيا) بحراً لتسريح الحاميات هناك وتسليم مقاليد الحكم الى ايادي الشعب. وعقب ذلك بقليل أرسل الى (آرغوس) ليترأس الاحتفالات بالالعاب النيمية. وقام بواجبه في إدارة الحفل خير قيام، واعاد اذاعة البيان الخاص باستقلال اليونان، ثم بزيارة كل المدن وحضّ آهاليها على طاعة القانون واحترامه، والتمسك بالعدل والاتحاد ومحبة بعضهم بعضاً. وازال التناحر الحزبي

فيما بينهم، وأعاد المبعدين والمنفيين السياسيين. وبمختصر القول أن اكثر من سَرّه من انتصاره على المقدونيين، هو صيرورته العامل الرئيس في مصالحة اليونانيين بعضهم مع بعض، وهكذا بدت حريتهم أصغر جزءٍ من الافضال التي حباهم بها.

يروى أن (ليكورغوس) الخطيب انقذ (گزينوقراطس Xenocrates) الفيلسوف من ايدي جباة الضرائب اثناء ماكانوا يسوقونه الى السجن لنكوله عن دفع الاتاوة الاجنبية. ثم تحرى انزال العقاب بهم لاعتدائهم هذا. وبعدها التقى (گزينوقراطس) بأولاد (ليكورغوس) فابتدرهم بقوله:

– اني يا ابنائي أفي والدكم الجميل الذي أسداه لي خير وفاء وانبله، فقد نال في مقابله ثناء كل الناس.»

على ان المكافأة التي كانت تنتظر (تيطس كوينتوس) والرومان على الجميل الذي صنعوه لليونان لم ينته بالثناء الفارغ، فالذي اقدموا عليه اجزاهم ما يستحقون من السمعة والثقة، ثم من السلطان والسيادة على سائر الشعوب. فمنها من رحّب بقادتهم ومنها من ارسل يطلبهم ويرجوهم بسط حمايتهم عليه، ولم تنفرد الدول ذات النظم الجمهورية، او المدن الواحدة، بهذا بل تعداها الى الملوك الذين يقاسون اضطهاد غيرهم من الملوك، لم يترددوا في القاء أنفسهم في الكنف الروماني الأمين. وما هي فترة جدّ قصيرة حتى ودان العالم كله بالولاء للرومان هم وليس ببعيد أن يكون للعناية الالهية دخل في هذا. وكان اعتزاز (تيطس) وتيهه بتحرير اليونان يفوق اعتزاز بكل مجد آخر حققه كما يظهر من الكتابة التي قدم بها التروس الفضية مع ترسه الخاص الى (اوپوللو دلفي) وهذه هي:

ايها التنداريّان Tyndarids السپارطيان يا ابني جوپتر القوامين اللذين خصصتما الفروسية بحبكما

إن (تيطس) الذي ينتمي الى قوم (اينياس) العظيم قد اوقف هذا على شرف تحررّ اليونان.

وأهدى اپوللو تاجاً ذهبياً أيضاً مع هذه الكتابة:

يا ابن (لاتونا Latona) المبارك: أن القائد العظيم المنتسب الى اسم (اينياس)

قد وضع هذا التاج الذهبي فوق قطط شعرك الإلهي، لكي يتألق ويسطع.

نطلب منك يا فيوبوس Phœbus أن تمنح (تيطس) النبيل المجد والشهرة

وقد وقع هذا الحدث التاريخي مرة أخرى في مدينة كورنث أيضاً. الحدث الاول كان بطله (تيطس)، والثاني (نيرون) في عهدنا الحاضر، وبمناسبة الألعاب الاستمية في كورنث أيضاً فقد سمح كلاهما أن يتمتع الأغريق بحرياتهم ويطبقوا شرائعهم. والأول مهما اعلن ذلك عن طريق المنادي أما (نيرون) فقد اذاعها في اثناء اجتماع عام من منصة القضاء في خطبة القاها على الجمهور. على ان ذلك حدث بعد زمن طويل مما نحن فيه.

واشتبك (تيطس) مع (نابيس)[٩] في أشرف واعدل حرب خاضها. وكان خصمه هذا من أعتى طغاة (لقديمون) وأشدهم استبداداً. الاّ انه خيب آمال الاغريق في النهاية، فقد عقد صلحاً معه عندما سنحت له فرصة الظفر به فلم ينتهزها وتركها تفلت من يده عن قصد. وترك سپارطة تندب خطها وترزح تحت أحقر اشكال العبودية. ولاندري هل دفعه الى هذا خوفه من استمرار الحرب مدة طويلة، مما يستتبع حتى إرسال جنرال جديد في محلّة لمواصلتها وحرمانه مجدها، أم كان بدافع الحسد والغيظ والمباراة من فيلوپومين الذي مسّت شهرته منه وترا حساًساً (كان فيلوپومين قد اشتهر عند الأغريق آنذاك ببطولات ومعارك كثيرة، إلاّ انه حقق مايشبه المعجزات في حربه مع نابيس هذه سواء في ميادين الشجاعة أم ميادين الرأي، فراح الأخائيون يبجلونه ويرفعون من شأنه على خشبات مسارحهم، ويساوونه بتيطس) فتملك القنصل الروماني الغيظ حين وجد اركادياً عادياً قاد بضع اشتباكات محليّة ضمن تخوم بلاده - يلهج بذكره الناس ويضعونه في مصافّ القنصل الروماني الذي خاض حروباً عظيمةً غايتها تحرير الاغريق كافة وحمايتهم من الاستبداد. مع هذا فإن ما اقدم عليه (تيطس) لايخلو من وجاهة، اعنى انه وضع حداً لهذه الحرب عندما ادرك بثاقب بصيرته أن القضاء على الطاغية قد يتسبب في القضاء على كثير من السپارطيين.

قام الأخائيون بالكثير لإعلاء شأن (تيطس)[١٠] وتكريمه عن طريق اصدار مراسيم وقوانين

---

(٩) [باوسنياس] دكتاتور سپارطي (حوالي ١٩٢ ق.م) يذكره ليڤي وپوليپيوس أيضاً ذكر بانه حصّن سپارطه وقوىّ اسوارها. ولكنها لم تصمد امام الرومان. وما زالت بقايا هذه الاسوار قائمة ومعظمها يشاهد في بساتين البرتقال والليمون بالقرب من نهر يوروتاس.

(١٠) لم يكن الاخائيون [پاوسيناس] راضين على اسلوب فلامينينوس في حربه مع المقدونيين وكان أسلوباً يقسم بالقسوة والفظاظة فقد نهب اريتريا والقى على كورنث الحصار ودعا الأخائيين الى مشاركته في قتال جيوش فيليب لقاء منحهم لقب [الحليف الروماني لكنهم ظلوا ينقمون عليه ويوجهون اليه اللوم للطريقة اللانسانية التي كان يعامل بها مدنهم القديمة الواقعة تحت الاحتلال المقدوني والتي لم يأت منها أي ضرر للرومان. وقد طال النقاش بين مندوبي الأخائيين وبين (فلامنينوس) وأخيراً تغلّب رأى أولئك الذين كانوا يميلون الى الرومان - وعقد الحلف وكان نتيجة ان ابتلعت بلاد الاغريق وأصبحت أقليماً من أقاليم الامبراطورية الرومانية بحجة تحريرها من يد المقدونيين.

بذلك ولم تصل واحدة من هذه الانعامات الى مرتبة المآثر التي حققّها إلاّ مكافأة واحدة أشاعت في نفس تيطس السعادة والغبطة التي لم يحسّها لأي مكافأة أخرى فقد شاء نكد طالع الرومان الذين اسرهم (هنيبعل) في حروبه مع روما، أن يباعوا عبيداً هناك وهناك، فيتفرقوا آحاداً في مشارق الأرض ومغاربها، ليرزحوا تحت وطأة الرق القاسية. وكان يوجد في اليونان وحدها الف ومائتان منهم تقريباً في ذلك الحين. وكانت حالهم تدعو الى الرثاء وتستدر الشفقه والعطف وخصوصاً، عندما كانوا يلتقون باخوة لهم اشقاء، وبابناء ومعارف واصدقاء؛ عبيدٌ من الرومان، يلتقون بأحرار من الرومان، أسرى بمنتصرين! وقد تملك (تيطس) هَمّ عظيم، لهم وأنشغلت خواطره بأمرهم، لكنه لم يقدم على نزع اي واحد من يد سيده قسراً. فما كان من الأخائيين إلاّ واكتبوا بمالٍ لافتدائهم جميعاً، ودفعوا خمسة باوندات من الذهب فدية للعبد الواحد منهم ثم جمعوهم في موضع وقدموهم هدية لتيطس في الساعة التي كان يهمّ بركوب السفينة. فأبحر وهو في أسعد حالةٍ، ولاغرو فإن اعماله الشريفة ضمنت له مكافأة شريفة قمينة بالبطل المجاهد المحبّ لأوطانه. وكان هؤلاء العبيد المحررون أروع منظرٍ في موكب نصره التالي. فقد ساروا في الموكب خلفه وهم في زيّ عبوديتهم (في العادة إن العبيد بسبب حالة رقهم، يحلقون رؤوسهم ويسترونها بقبعات من اللباد) وزاد من منظر الموكب روعة وفخامة الخوذ اليونانية والتروس المقدونية، والرماح الطويلة التي عرضت على الجمهور المتفرج مع بقية الغنائم، ولا نذكر المبالغ الطائلة من المال، فقد احصى (توديتانوس Tuditanus) مبلغ ٣٧١٣ باوندا من الذهب المسبوك، و٤٣٢٧٠ باونداً من الفضة الخالصة و١٤٥١٤ قطعة نقد مما يدعى (فيلبيّة Philipies) وهذه لايدخل فيها التالنتات الألف التي كان (فيلپس) مديناً بها للدولة الرومانية، وتنازلت عنها فيما بعد بناء على توسط تيطس ومساعيه الرئيسة فقد أبرئت ذمته منها واعيد اليه ابنه الرهينة، على اثر دخوله الاتحاد الروماني وعقد الحلف معهم.

وبعد هذا الزمن بقليل دخل (انطيوخوس) بلاد اليونان باسطول كثير السفن وجيش لجب واخذ يتقرب الى الدويلات اليونانية ويحرضها على الثورة والعصيان، يؤيده ويساعده في ذلك (الايتوليون) الذين مافتئوا طول هذه المدة يبطنون غلا وحقداً عميقاً للرومان. واقترحوا عليه أن يذيع على اليونانيين بأنه ماجاء إلاّ لتحريرهم، وهي حجّة ظاهرة السخف لاثارة الحرب فهم لم يكونوا في حاجة الى الحرية بعد أن نالوها. إلاّ أن الايتوليون اشاروا على انطيوخوس بهذه السياسة وبتقديم العروض الطنانة لافتقاره الى سبب وجيه للحرب.

خاف الرومان من ثورة تجتاح بلاد اليونان، وادركتهم رهبة من قوة (انطيوخوس)

العسكرية، فبعثوا بالقنصل (مانيوس اچيليوس Manius Acilius) لادارة دفة الحرب، على ان يكون (تيطس) معاوناً في القيادة، رعايةً لخاطر اليونانيين الذين أفلح في ضم بعضهم الى صف الرومان ساعة ان فاتحهم بهذا، كما اعاد بعضهم الى خطيرة الحلف حين بداؤا يترددون ويتأرجحون كالطبيب الذي جاء في وقت مناسب. ليستخدم العلاج الشديد، علاج حبهم الكبير له. فأوقف اول مرحلة للمرض قبل الوقوع في الخطأ الجسيم. وبقيت قلة كان الايتوليون قد استمالوهم الى صفهم فعجز عنهم طبه ولم يستطع انه يفيدهم في شيء. وعلى أيّة حالٍ فقد انقذ هؤلاء المتمردين وحماهم من كل ضَرٍ بعد ان انتهت المعركة فهما بلغت اخطاؤهم ودرجة عصيانهم. فقد حاقت الهزيمة بانطيوخوس في (ثرموپيلي) ولم يكتف بترك ميدان القتال هارباً وانما ركب البحر في الحال وابحر الى آسيا. وقام (مانيوس) القنصل شخصياً بغزو قسم من بلاد الايتوليين ومحاصرتهم بينما سُمح للملك (فيليپس) باخضاع البقية الباقية. وهكذا فبينما تجد المقدونيين ينهبون أموال اهالي (دولوپس Dolopes)، ومغنيزيا من جهة، ويسلبون مقتنى الأثامانيين Athamanes والأپرانيتين Aperantians من ناحية أخرى، وفيما كان (مانيوس) يعيث في (هراقليا) فساداً وخراباً، ويحاصر (ناوباقتوس Nau-pactus) التي كانت في قبضة الايتوليين. نجد (تيطس) الذي مازال يكنّ لليونانيين العطف والرأفة الحادبة عليهم، يبحر من (الپلوپونيسوس) لملافاة القنصل، وليأخذ في زجره وتعنيفه اولاً لأنه ترك فيلپس يستأثر بالغنائم والمنافع الحربية وهو الذي ربح الحرب سلاحه، بينما انطلق يصب جام غضبه على مدينة واحدة والمقدونيون يجتاحون الممالك والأمم العديدة. واتفق أن أهل المدينة المحاصرة لمحوه واقفاً وما ان تثبتوا من شخصه حتى راحوا ينادونه من فوق الأسوار، مادين اكفّ الضراعة اليه والتوسل به. فلم يحر بنبت شفة وأنما دار على عقبيه والدموع تجول في عينيه وانطلق لحال سبيله. وبعد فترة من الوقت قصيرة، اجتمع بمانيوس وبعد مداولة مثمرة في الموضوع تمكن من اقناعه باثارة عاطفة الشفقة فيه، أن يمنح الايتوليين هدنة ووقتاً لإرسال وفدٍ الى روما ليطلبوا من مجلس الشيوخ شروطاً معتدلة.

وكان أصعب مهمّة وضعت (تيطس) في اشدّ المواقف حراجةً، هي توسطه (للخلقيديين) عند (مانيوس). فقد أثار هؤلاء حنقه بسبب زيجة عقدها (انطيوخوس) في مدينتهم أثناء ماكانت تدور رحى الحرب. وكان زواجاً غيرُ مناسب قط من ناحية العمر فالعريس شيخٌ هرم، وقد وقع في عشق صبيّة، كذلك لم يكن الوقت صالحاً لانه الزواج تمّ اثناء دوران رمى الحرب. كانت العروس بنت من يُدعى (كليوپتوليموس Cleoptolemus) وقيل أنها كانت ذات جمال فتان. وبناء على هذه المصاهرة تبنىّ (الخلقيديون) قضية الملك بحماسة واخلاص. وتركوه يجعل

مدينتهم قاعدة لعملياته العسكرية طوال فترة الحرب، واليها لجأ بأسرع ما امكنه عندما هزم واندحر. ولم يمكث في (خلقيس) مدة اكثر مما تطلب لأخذ زوجه الصبية وامواله واصدقائه المقربين والإبحار الى آسيا. وهكذا هُرع (مانيوس) الى (خلقيس) يدفعه سخطه وغيظه فأسرع (تيطس) خلفه. باذلاً جهده لتسكين ثورته وتهدئه انفعاله حتى نال بغيته منه ومن رؤوساء القوم في روما وانقذ خلقيس.

وبهذا كان الخلقيديون[١١] مدينين بحياتهم (لتيطس)، فاوقفوا على اسمه أفضل وافخم صروحهم ومعابدهم. ولا زالت الكتابات واضحة عليها حتى يومنا بهذا المآل:

«اوقف اهل خلقيس هذا النادي الرياضي (جمنازيوم) لتيطس ولهرقل».

و: «كرّس الأهالي هذا الدلفينيوم الى تيطس والى هرقل».

بل عملوا اكثر من هذا، فقد جعلوها عادة منذ ذلك الحين الى يومنا هذا أن ينتحبوا ويعلنوا كاهناً لتيطس. وينشدوا بعد تقديم الذبائح والقرابين المائعة نشيداً خاصاً لم نورده هنا لطوله وانما سنقتصر على اثبات خاتمته:

نحن نقدم نذورنا ودعاءنا الى دين الرومان الذي كان لنا عونا من قديم الزمان فنصلي له الآن والى أبد الآبدين.

فيا أيتها العذارى قمن للرقص، فإن الرقص واناشيد (ايو - پايان Io - pœan) معه هما فرضان واجبان لدين الرومان، ولك أيضاً يا (تيطس) المنقذ!

وامطرته البلدان اليونانية الأخرى بصنوف التكريم والتشريف الذي يناسب جلائل اعماله. ومما جعل هذا التكريم صادقاً حقيقياً تلك الثقة العجيبة وذلك الحبّ الذي كسبته له خصاله العادلة المنصفة، وصفاء قلبه، فإن وقع بينه وبين شخص آخر اي خلاف او خصام لأي شأن من شؤون الدنيا، أو كان مبعثه حبّ المنافسة والمباراة (كخلافه مع فيلوپومين، ثم مع ديوفانص عندما تولى قيادة جيش الأخائيين) رأيت حنقه لايستمر كثيراً ولايمضي به شوطا بعيداً او يخرج الى حيزّ العمل، لكن ينتهي حالما يجد له متنفساً في اقوالٍ لا تتعدى الحدود المتعارف عليها من حرية القول العامة للمواطنين. ومختصر القول لم يتهم (تيطس) أحدٌ بالخبث والغلّ وإن عزا اليه كثير من الناس العجلة والرعونة. وعلى العموم كان من اطيب الناس معاشرةً واحلاهم مجلساً مع قابلية مدهشة في لباقة الحديث وقوة الحجّة البليغة. وتروى عنه في هذا

(١١) فيلسوف خلقيدوني [٣١٤ - ٣٩٦ ق.م] تلميذ لأفلاطون حاول التوفيق بين مذهب استاذه والفلسفة الفيثاغورية.

الصدد حكايات منها: أنه توّخى من الأخائيين ان يعدلوا عن فتح جزيرة (زاكنثوس Zacyn-thus) فقال:

- لو انهم مدوا رأسهم مسافة بعيدة جداً عن البيلوپونيسوس لتعرّضوا الى خطر لايقل عما تتعرض له السلحفة التي تخرج من طبقها العظمي.

ومنها ما جرى في اوّل لقاء له مع (فيلپس) عند اجتماعهما لمفاوضات السلام وايقاف القتال، فعرّض به هذا قائلاً أنه جاء تّحف به بطانة ضخمة، بينما أقبل هو بمفرده ومن غير بطانة، فرد تيطس قائلاً:

- أجل فقد ابقيت نفسك وحيداً بقتلك جميع اصدقائك!

ومنها: أن (دينوقراطس) الميسّيني سكر في احد مجالس القصف واللهو بروما، فقام يرقص وهو مرتدٍ ثياب النساء. وفي اليوم التالي قصد (تيطس) للمداولة معه في خطة رسمها لانقاذ الميسينيين من أيدي الاخائيين وطلب المساعدة فيها. فقال له (تيطس):

- هذا ما يتطلب منيّ بعض التأمل! فإني والحق يقال لأعجب كيف يستطيع رجل يتبنى مثل هذه المشاريع، أن يرقص في مجلس شراب وهو مرتد ثياب النساء!

ومنها انه بعدما فرغ سفراء (انطيوخوس) من تعداد قائمة بالجماعات التي تتألف منها قوات سيدهم الملكية - امام سفراء آخائيا واستعرضوا أسماء صعبة عقب (تيطس) بقوله:

- مرة تناولتُ العشاء مع صديقٍ، ولم اجدني الاّ وأنا اجادله بخصوص الأصناف التي هيأها وابديت عجبي كيف تمكن من اعداد مثل هذه الاصناف العديدة فاجابني «إن شئت الحقيقة يا سيدّي، فكلّ هذه الألوان قد هيئت من لحم الخنزير، الاّ انها طُهيت بطرائق مختلفة» كذلك الأمر عندما سردوا عليكم يا رجال آخائيا اسماء رمّاحة انطيوخوس وحرسه المشاة وحملة الأسنّة في عسكره، ونصيحتي لكم أن لاتداخلكم الرهبة والعجب فكلّهم سوريون ولكنهم يحملون اسلحة متنوعة».

بعد أن انجز تيطس كل هذا في بلاد اليونان، وانتهت حروبه مع (انطيوخوس)، عاد الى روما وعُين (چنصوراً) وهي من اهم وظائف الدولة، واعلى تكريم تخلعه الجمهورية. وكان يزامله فيها ابن (مارچللوس) الذي تولى القنصلية خمس مرات. وقد قاما بمقتض السلطة التي يخولها لهما المنصب بعزل اربعة من اعضاء مجلس الشيوخ غير بارزين. كما أدرجا في سجلات المواطنة الرومانية كل السكان الذين ولدوا من ابوين حُرين، ولم يقدما على ذلك تلقائيا وانما فُرض عليهما فرضاً. فقد أثار (تيرنتيوس كوليو Terentius Culeo) مفوض

(تريبيون) الشعب آنذاك، العامة ودفعها الى المطالبة بذلك رغم معارضة طبقة الأشراف:

في ذلك الزمن كان (افريقانوس سكيپيو) و(ماركوس كاتو) اعظم شخصيتين في روما وهما على خلاف كبير، فاسند (تيطس) منصب الشيخ الاول في المجلس (لسكيپيو) وبذلك ابتلي بعداوة (كاتو) كما سأبسطه في الحادثة النحسة التالية:

كان لتيطس أخ يُدعى (لوشيوس فلامنينوس) لايشبهه في أية ناحية من أخلاقه ولاسيما انغماسه الشديد في الملذات واستهتاره وتجرده عن كُلّ صفات الحشمة والإستقامة. وكان عنده نديم من الفتيان الغرانيق اعتاد أن يأخذه معه اينما رحل سواء أعهد اليه بقيادة جيش، أم ادارة أقليم من الأقاليم. ومرة كانا في مجلس شراب والفتى يفسق مع (لوشيوس) ويقول له:

- ان حبيّ لك يا سيدّي عظيم الى درجة يجعلني أفضل سعادتك على سعادتي. لذلك جئت اليكَ دون ان امتع نفسي بعرضٍ للمصارعين في روما بينما لم اشاهد رجلاً يقتل في حياتي.

فسُرَّ (لوشيوس) بقوله واجابه:

- لا عليك بهذا وقرّ عيناً فبإمكاني اشباع رغبتك.

واصدر اوامره باحضار واحد من المحكومين بالموت من السجن، وباستقدام احد الجلادين وأمره أن يقطع رأسه قبل ختام مجلس الشراب.

ويورد (ڤاليريوس أنتياس Valerius Antias) الحادثة طبق ماذكرناه إلاّ في نقطة واحدة وهي أن (لوشيوس) اقدم على هذا تحقيقاً لرغبة امرأة. إلاّ ان (ليڤي) يقول نقلاً عن خطبةٍ (لكاتو) أن غاليّاً هارباً من الخدمة العسكرية جاء هو وزوجه واولاده الى باب المجلس، فقبض عليه لوشيوس واقتاده الى الغرفة وقتله بيده ارضاءً لمعشوقه. وربما قال (كاتو) هذا، على سبيل المبالغة في شناعة الجرم. إلاّ أن (شيشرون) - ولا نذكر غيره من الثقات - يخبرنا في رسالته «عن الشيخوخة» أن القتيل لم يكن هارباً من الجنديّة، بل هو سجين محكوم بالموت، وشيشرون يذكر هذا نقلاً عن رواية (كاتو) الشخصية للقضية حسب ادعائه.

ومهما يكن من أمرٍ، فالحقيقة الثابتة هي أن (كاتو) عَمدَ في اثناء إشغاله منصب (الجنصور) إلى التحري الدقيق الصارم عن سيرة اعضاء مجلس الشيوخ وحياتهم الخصوصية، مستهدفا تطهير المجلس واصلاحه واخراج العناصر الفاسدة فيه، وبنتيجة ذلك طرد (لوشيوس) مع انه كان قنصلاً سابقاً، فضلاً عن أن العقوبة الحقت العار بأخيه ايضاً. فتقدم الأخوان بالاستئناف الى الجمعية العامة مستنجدين ووقفا والدمع يجول في اعينهما

طالبين أن يدلي (كاتو) بالدوافع والأسباب التي حملته على وسم اسرة شريفة بهذا العار. فوجد الشعب أن الطلب عادل ومتواضع. فبرز (كاتو) دون تردد أو وجل، ووقف مع زملائه وسأل (تيطس) هل له علم بقضية مجلس العشاء، فأجاب تيطس بالنفي، فرواها (كاتو). وتحدى (لوشيوس) ان كان قادراً على انكارها رسمّياً. فسكت (لوشيوس) ولم يُحر، فاستنتج الشعب أن عقوبة الطرد كانت عادلة ومناسبة. وشيعوا (كاتو) من منصة القضاء الى بيته تشييعاً جماهيرياً حافلاً. الاّ ان (تيطس) بقي طعين الكرامة يحز في نفسه العار الذي اصاب أخاه. فانضم إلى اولئك الذين حقدوا واضطغنوا (لكاتو) منذ زمن بعيد. ونجح في تأليب معظم اعضاء المجلس ضدّه، فألغى وابطل كلّ التعهدات والمناقصات، والصفقات العامة التي عقدها (كاتو) على حساب الضرائب العامّة، كذلك وجه اليه عدداً كبيراً من التهم، ملاحقاً بغضبه حاكما عادلا شرعيا، ومواطنين ممتازين بسبب شخصٍ لايستحق ذلك وإن كان أخاً له. ونال مبتغاه وشفى غليله بطريق الهجوم العنيف القاسي الذي يصعب أن ينعت بالعمل الوطنيّ أو الصائب. ومهما يكن من أمرٍ ففي يومٍ ما كان ثم عرض في الملعب وشاهد جمهور المتفرجين (لوشيوس) يجتاز المقاعد المخصصة لجلوس الشيوخ القناصل السابقين متلصصاً ليجلس في مقعد حقيرٍ لا يليق به. فأثار عاطفة الجماهير ولم يسعهم احتمال المنظر فاخذوا يهيبون به بأن يتقدم وزاد صراخهم حتى نهض واحتل مقعداً بين القناصل السابقين الذين افسحوا له مكاناً.

ان طموح (تيطس) الى الشهرة كان له ما يبرره في نظر الدنيا كلها عندما راحت الحروب التي فصلناها آنفاً تقدم الوقود اللازم لتغذيته. كأن ظلّ مثلاً في منصب التريبيون العسكري بعد انتهاء فترة قنصليته، دون أن يلح عليه أحدٌ في قبولها. ولكن لما خرج من الوظائف العامة وتقدمت به السنّ، اخذتْ نقائصه تزداد ظهوراً. وسمح لنفسه وهو في أواخر عمره أن ينساق وراء تعطشه الى الشهرة بنزق الشباب وتهوره. وأدىّ به هذا الشوق الى ان يتورط في مؤامرة على حياة هنيبعل - على ما قيل، ففقد بذلك احترام الكثيرين.

كان (هنيبعل) قد فرّ من بلاده، ولجأ اولّ الأمر الى (انطيوخوس)، وبعد أن حلت الهزيمة بهذا الملك في (فريجيا Phrygia) وبادر مسروراً الى عقد الصلح، بات هنيبعل في وضع حرج واحتال للهروب ثانيةً، وبعد أن تجول في عدة بلاد شريداً طريداً، استقرّ أخيراً في (بيثينيا) عارضاً خدماته على ملكها (پروسياس Prusias). وكان كل الناس في روما يعرفون اين هو، ولكنهم آثروا أن يتغاضوا عنه ويتجاهلوا وجوده بعد أن بلغ من الضعف والعمر عتيّاً وتخلىّ عنه الحظ ولم يعد يخشى منه أذىً. لكنّ (تيطس) الذي أرسل الى تلك البلاد في سفارة معينة من مجلس الشيوخ الى الملك (پروسياس)، وجد هنيبعل هناك فثارت حفيظته واسخطه

أن يجده حياً بعد. وأبى (تيطس) أن يلين ويتسامح، رغم توسّلّ (پروسياس) وتوسطهً له عنده بوصفه صديقا مخلصاً ومستجيراً له. هناك بنوءة قديمة يظهر أنهّا تنبيء بنهاية هنيبعل على الشكل الآتي:

«الأرض الليبيّة هي التي تضمّ رفات هنيبعل».

وقد فسرّ المقصود بليبيا الافريقية، وأنه سيدفن في قرطاجنة كانما كان يتوقع ان يعود الى مدينته ويختم حياته فيها. الاّ انه كان يوجد موضعٌ رمليٌ في (بيثينيا) يحدّ البحر، وبالقرب منه قرية صغيرة تدعى (ليبيسّا Libyssa). كان من تصاريف القدر أن يتخذها هنيبعل سكنا إلاّ انه احتاط من اول قدومه لنفسه فأمر بحفر سبعة انفاق تحت الأرض تمتد مسافة شاسعة من بيته الى مختلف الجهات المتضادة، لايمكن معرفة فتحاتها الخارجية قط، فعل ذلك خوفاً من جبن (پروسياس) وعدم ثقة بصلابته. وحذراً من الرومان. فما أن بلغه ما أمر به (تيطس) حاول أن يفرّ من خلال هذه الانفاق. الاّ انه وجد جنود الملك يطوقونها فقررّ أن يضع حداً لحياته. ويقول آخرون أنه لفّ القسم الأعلى من ثوبه حول عنقه وأمر خادمه أن يضع ركبته خلف ظهره ويخرق طرفي الثوب ويبرمه حتى يخنقه به تماماً ويقول آخرون أنّه شرب دم الثور مثلما فعل (تمستوكليس) و(ميداس Midas). ويكتب (ليڤي) أنه كان يحتفظ بسّم جاهز خلطه لهذه الغاية وانه تناول القدح بعد أن ملأه به، واحتساه قائلاً:

- ألا فلنرح الرومان من خوفهم الدائم وقلقهم المستمر، فقد ارهقتهم وطال عليهم انتظار موت شيخ مكروه منهم. ولعمري ان (تيطس) لن يكسب حرباً مجيدة بهذا وهي ايضاً ليست جديرة باولئك الأسلاف الذين أرسلوا يحذرون عدوّهم وقاهرهم (پيروّس) من سُمّ دسّه له بعض الغادرين!

كذلك اختلف النقلة في كيفية موت (هنيبعل). ولكن عندما بلغت ابناؤه مجلس الشيوخ، ثار بعضهم استنكاراً لتيطس، ونددوا بعمل لم يأمروه به واستقبحوا قسوته. فقد ارسل هنيبعل الى حتفه عندما امسى طيراً كبير السن وفقد ريشه وعجز عن الطيران وابى أن يتركه لشأنه يعيش منسياً اليفاً دون تعرض، كل ذلك لشهوته العارمة إلى المجد، ومن دون أن يدعو اليه داعٍ.

وبدأوا الآن أيضاً ينظرون باعجاب متزايد إلى سماحة وسمو خلق (سكيپيو افريقانوس) واستذكروا كيف ترفع عن نفي هنيبعل أو ارغام بني قومه على تسليمه اليه، بعد أن الحق به هزيمة ساحقة وهو في أوج قوته واروع شهرته. وكيف أنه صافحه مرة في لقاء بينهما قبيل

الاشتباك في المعركة، وكيف فرض عليه شروطاً سهلةً بعد أن تغلب عليه وعقد الصلح ولم يُهن حظوظه عندما هوت به. وقد قيل ايضاً أنهما التقيا مرة أخرى بعد ذلك في (إفسّس) فسارا معا وكان هنيبعل يتقدمه، فلم يجد (سكيپيو) بأساً في ذلك واستمر في سيره دون ان يبدي اقل اشارة. ولما اخذا يتكلمان عن القادة قال هنيبعل مؤكداً أن (الاسكندر) اعظم قائد انجبته الدنيا ويليه (پيروّس)، واما الثالث فهو نفسه. فسأله (افريقانوس) باسماً:

- ماذا كنت ستقول اذن لو لم اغلبك؟

فأجاب هانيبال:

- كنت جعلتُ نفسي الأول لا الثالث يا (سكيپيو)!

كان سلوك (سكيپيو) في هذا محطّ إكبار واعجاب. أماّ سلوك (تيطس) الذي أهان «الموتى» بعد أن قضى عليهم غيره، فقد مجّه الناس وخطّاؤه كثيراً، على ان بعضهم والحق يقال استحسنوا منه هذا العمل فهولاء كانوا يعتبرون (هنيبعل) كالنار لاتحتاج إلاّ الى نفخ لتتأجج ويرتفع لهيبها. لم يكن بدنه ولا ساعده وهو في عزّ رجولته وزهرة عمره - مصدر عظمته وقوته، وانماّ كانت خبرته وحنكته الكاملتان المتحدتان بمكره الغريزي وكرهه الشديد لاسم الرومان وهو مما لا تضعفُه الشيخوخة او تفلُّ من غُرابه. لأن ما طبعت عليه النفس وجُبلت يبقى ملازماً لها في حين تتغير الحظوظ باستمرار. وليس بأسهل من أن يؤدي أمل جديد الى محاولة جديدة، عند اولئك الذين دفع بهم حقدهم الى احضان العداوة حتى النفس الأخير. هذا وان الحوادث التي عقبت ذلك بررت عمل (تيطس) اكثر من هذا. فقد تمكن (أرسطونيقوس Aristonicus) وهو من اسرة موسيقىّ ضاربٍ عاديّ أن يملأ آسيا بالقلاقل والفتن بادعائه انه ينحدر من نسل (يومينوس). ورفع لواء العصيان والثورة (مثيرْداتس Mithridates) بعد الهزائم والاندحارات التي القها به (سيللاّ Sylla) و(فيمبريا Fimbria) والمقتلة العظيمة التي اوقعها بين ضباطه من ذوي الرتب العليا، فضلا عن جنوده وبرهن على خطورته امام (لوكوللوس) بحراً وبراً.

إن (هنيبعل) لم يذلّ ولم يبلغ الدرك الذي بلغه (كايوس ماريوس)، فقد كان يتمتع بصداقة الملك (پروسياس) وحرية استخدام موارده كلها وقيادة اسطوله البحري ومشاته وخيالته. في حين يضحك الآن من يسمع أن (ماريوس) هائم على وجهه في فيافي افريقيا شقياً بائساً مستجدياً، وهو الذي كان قبل فترة قصيرة جداً يفرض رحمته على روما، وعصيّه تلهب ظهور الرومان وفؤوسه تجزر في رقابهم. كان الأمر حقيقياً واقعياً بحيث لا مجال ثم لنسميّ هذا

الشيء بالصغير، وذاك بالعظيم، إذ ليس هناك ما يضع حداً باتاً لعوامل التغيّر والتبدّل في الأشياء. بل هناك ما يضع حداً نهائياً لوجودها وكينونتها فحسب. وعلى هذا يخبرنا بعض الكتاب أن (تيطس) لم يفعل ما فعل من تلقاء نفسه، وانما بعد سبق تفاهم فيه مع (لوشيوس سكيپو). وأن سفارته انما كانت لغرض القضاء على (هنيبعل) فحسب.

والآن وبعد هذا لانجد في بطون التاريخ اي تنويه آخر بعمل قام به (تيطس) حربياً كان أم سياسياً، فقد مات بهدوء وسلام وها نحن اولاء سنراه من زاوية مقارنته (بفيلوپومين).

أوجه المقارنة بين فيلوپومين وفلامنينوس

أولاً: بخصوص ما اسبغه (تيطس) على اليونان من منافع، لانجد أحداً بزّه في ذلك، لا فيلوپومين ولا غيره ممن فاقوه شجاعة واقداما. كان هؤلاء اغريقاً يقاتلون اغريقاً، في حين كان (تيطس) رجلاً اجنبيا عن البلاد، حارب لأجلها وفي سبيل تحررها، في الوقت الذي تركها (فيلوپومين) ورحل الى جزيرة (كريت) فتخلياً عن كلّ ما يكفل معاونة بني قومه المطوقين من كل جهة. وتغلب تيطس على فيلپس ودحره في قلب بلاد اليونان وبذلك انقذهم وحرر مدنهم. أما اذا استعرضنا المعارك التي خاضاها، فإن (فيلوپومين) لما كان جنرالاً للآخائيين - قتل من اليونانيين اكثر ممن قتل (تيطس) من المقدونيين، اثناء نجدته لليونانيين. واما عن نقائصهما فإن نقطة الضعف في خلق (تيطس) هي الطموح، بينما كان عيب (فيلوپومين) العناد، وبقدر ما كانت نار غضب الأول سريعة الاتقاد كانت نار غضب الثاني صعبة الإطفاء. لقد حفظ (تيطس) لفيلپس مهابة الملك وسلطانه وعفا عن الايتوليين ووقف صديقاً لهم، لكن فيلوپومين أضرّ ببلاده وخاصمها ونزع منها بعض القرى المجاورة وكان (تيطس) على عهده مع كلّ من منحهم صداقته مرةً. أما الثاني فكان قُلّباً سريع التغيّر على اصدقائه مستعداً لسحب فضله عند اوّل خطأ يبدر منهم. فهذا الذي كان يوما ما صديقاً حميماً للقيديمونيين، ما لبث أن هدم اسوار مدينتهم وسوّاها بالقاع وعاث فيها سلباً وتخريباً، ثم انقلب عليهم أخيراً وقوض صروح حكومتهم ودمرّ شرائعها كلها. وكان والحق يقال كالمستهين بحياته والمرتخص لها بدافع التهور والطيش، اذ حمل على الماسينيين باستهتار بعيد عن ذلك الحذر والحكمة التي اتّسمت بها اعمال (تيطس) ولم يكن في عجلته ضرورة او ايّ شيء من الادراك.

إن المواقع العديدة التي خاضها فيلوپومين والغنائم الكثيرة التي حازها، تدفعنا الى تفضيله على تيطس في الفنون الحربية. لقد قررّ (تيطس) بوقعتين فقط نتيجة الصراع بينه وبين فيلپس بينما خرج (فيلوپومين) من عشرة آلاف معركة منتصراً وليس للحظ فيها سهمٌ مهما قلّ، وانما كان لمهارته اليد الطولى فيها. ونال (تيطس) شهرته مستنداً الى سلطان روما

المزدهر، اما فيلوپومين فقد ازدهر في فترة انحلال قوة اليونان وتقلص سلطانها لذلك عُزي نجاحه الى مجهوده الشخصي بينما ساهمت روما بنصيب كبير في نجاح تيطس، فقد وضعت تحت امرته وطوع بنانه رجالاً شجعاناً. امّا الآخر فهو الذي صاغ رجاله لأنه كان فوقهم. ومع أن (فيلوپومين) اصابه الكثير من نكد الحظ لوقوفه غالباً ضدّ بني قومه، الأ ان اسوء الحظّ هذا هو دليل على كفاءته. وكلماً تساوت الظروف وجدنا النجاح الاكبر من نصيب المؤهلات والكفاءات الخاصّة المتفوقة. فقد وجد فيلوپومين نفسه يقارع اشدّ الاغريق مراساً في القتال وهم الكريتيون ثم اللقيديمونيون، فتسلط على الأولين وهم اشد الاغريق مكراً بالحيلة والسياسة، واخضع الآخرين وهم اشجع الأغريق - ببسالته واقدامه. وقد يقال أن تيطس وجّه جنوده بمجهوداته ودربّهم ليطيعوا اوامره وينفذوا خططه، كما أشرف هو على تسليحهم، وبهذا حقق انتصاراته شخصيّاً الى حدٍ ما. أمّا (فيلوپومين) فقد اضطر الى ابتداع نظام جديد في التدريب والتعبئة وإلى بناء جيشه من العدم وفقما شاء، لذلك كان اهم عامل وضمان للنصر من صنع يده وابتداعه. أماّ (تيطس) فقد وجد كل شيء جاهزاً مهيئاً لفائدته. لقد حقق (فيلوپومين) اعمالاً كثيرة تقسم بطابع الجرأة والفروسية في حين لم يحقق (تيطس) شيئاً من هذا القبيل. مما دفع شخصاً يُدعى (ارخيديوس) الإيتولي أن يسخر به قائلاً: «بينما كنت اعدو والسيف مشهر في يدي حيث مواقع اللقيديمونيين وهم في أخطر ميدان من المعركة، رأيت (تيطس) واقفاً وقد رفع يديه الى السماء بصلاة للأرباب مستعينا مستغيثا».

ولامراء في أن (تيطس) أنجز واجباته انجازاً رائعاً في ميدان السفارة وفي شؤون الحكم، إلاّ ان (فيلوپومين) لم يقلّ عنه في هذا الصدد، بنفعه الآخائيين واصلاح أمورهم وهو قائد، ثم وهو مواطن عادي. كان مواطناً بسيطاً لّما اعاد للماسينيين حريتهم ونزع مدينتهم من يد (نابيس) وكان مواطناً عادياً أيضاً عندما انقذ اللقيديمونيين واغلق ابواب سپارطا في وجه القائد (ديوفانص) و(تيطس). وهكذا تراه خُلق للقيادة وكان اهلاً للتحكم في مقدرات الناس وشرائعهم وقوانينهم لأجل الصالح العام، وما كان بحاجةٍ الى شكليات الانتخاب لمنصب القيادة والزعامة من قبل المحكومين، بل عمد الى تسخير مجهوداتهم وسوقهم سوقاً عندما الجأته الظروف حيثما أرتاى ووجده مناسباً مؤمنا بأن اليق الحكام واصدقهم هو أفهمهم بمصالح الشعب، لا من يجري انتخابه بالاقتراع العام.

ان عدل (تيطس) وكرمه وانسانيته للأغريق انما تفصح عن خلق سمح عظيم، إلاّ أن اعمال (فيلوپومين) المنعمة بالشجاعة والاقدام الهادفة الى دعم حرية بلاده بمواجهة الرومان، لتستبطن ما هو أنبل وأسمى. اذ ليس يصعب عليك ارضاء المنكوبين والمحرومين كما يصعب

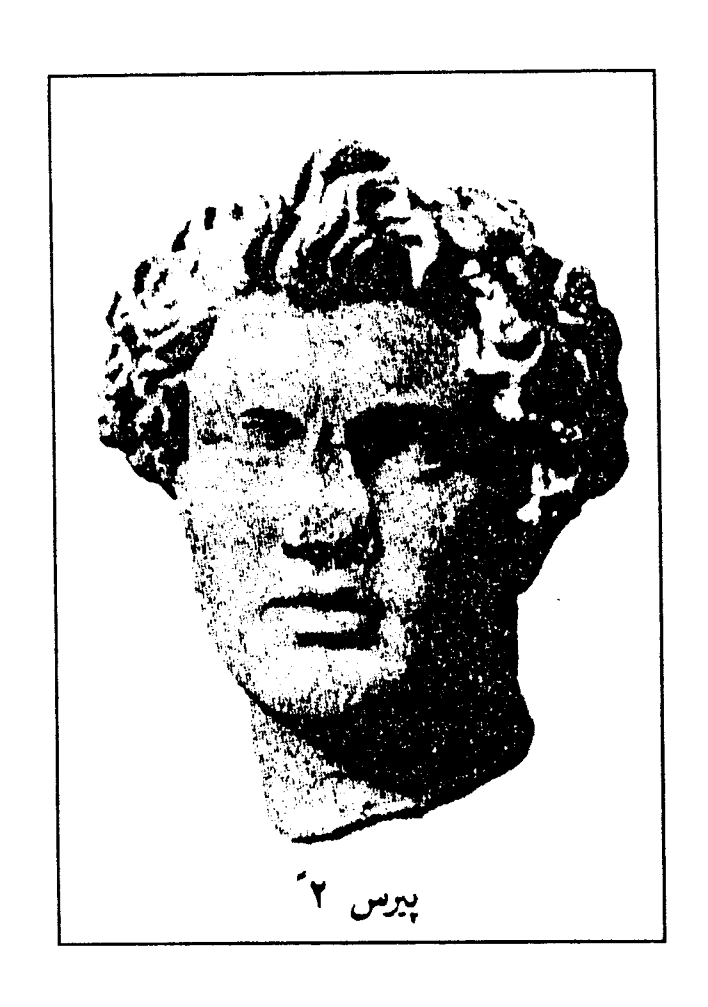
الاقدام على اثارة حفيظة القوي، ومقارعة ذي السلطان العظيم.

وختاماً: مهما كانت قوة حجتنا في النقاش، فليس من السهل علينا أن نرسم اوجه خلاف متمايزة بين الشخصيتين، او ان نرجح احداهما على الأخرى. ولكننا قد نكون منصفين اذا تركنا للأغريق تاج الحنكة العسكرية والفن الحربي. وتركنا الرومان يستأثرون بتاج العدل والتسامح.





318 ـ 272



پیرس ۲ ٓ

كان (فيثون Phœthon) على زعم بعض المؤرخين - أول ملك للثيسپروتيين Thespro-tians والمولوسّيين Molossians، بعد الطوفان الكبير. وهو أحد الذين جاؤا الى (ابيروس) مع (پيلاسغوس Pelasgus)؛ ويحدثنا آخرون ان (ديوقاليون) و(پيرا)[1] اللذين عملا سفينة (جوپتر) الحربية واوجدا حرم دودونا[2] قد استقرا هناك بين المولوسيين، وبعد مرور حقبة من الزمن أسس (نيوپطليموس Neoptolemus) أبن (أخيل) مستعمرةً له، وبسط يده على تلك الأنحاء وخلّف سلالة من الملوك أطلق عليهم لقب (پيرّيدوي Pyrrhidœ) مشتقاً من الاسم الذي كان يعرف به في صباه: (پيروس). وكان بين ابنائه الشرعيين ابن انجبته له (لاناسّا Lanassa) بنت (كليوديوس Cleodaeus) ابن (هولّيس Hullys)، وقد سمّاه بهذا الأسم الأخير. ومنه نال (أخيل) التكريم الآلهي ورفع الى مصافهم تحت اسم (اسپيتوس As-petus) في ابيروس (وهو بلغة أهل البلاد المحلية) وعقب هؤلاء الملوك الأولين مجموعة وسطانيّة حكمت فترة مابين العهدين وكانوا خاملي الذكر اقرب شبهاً بالبرابرة، سواءً من ناحية قوتهم او حياتهم الخاصة وقيل أن (ثاريّپاس Tharrhypas) هو أول من اشتهر منهم ونبه أمره بادخاله الحضارة اليونانية وثقافتها، وقوانينها الإنسانية الى المدن التي تخضع له. وكان (ألكيتاس Alcetas) أبنه، وكان (آريباس Arybas) ابن (ألكيتاس)، وولد (لأريباس) من زوجه الملكة (ترْواس Troas) ابنه (اياكيداس Æacidas)، الذي تزوج (فثيا Phthia) بنت (مينون Menon) الثسالي وهو رجل شهير في زمن حرب اللاميـاك Lami-ac[3]، وقد تقلد نيابة القيادة العليا لعساكر الحلف بعد (ليوسثينس Leosthenes) وولد (لأياكيداس وفثيا) بنتان هما (ديدامـيا Deidamia) و (ترواس)، وابن هو (پيروس) صاحب هذه السيرة.

ودبّ الإنقسام والشنآن بين المولوسيين، فطردوا (اياكيداس) وجاؤا باولاد (نيوپطليموس)،

---

(١) الناجيان الأثنان من الطوفان العظيم بحسب الاسطورة الاغريقية.

(٢) هو المزار الشهير ومهبط وحي زفس، القريب من مدينة يانينا الحالية.

(٣) ما بين ٣٢٢ - ٣٢٣ ق.م. انظر سيرة ديموستينس.

وقضوا على كل من وقع بايديهم من اصدقاء (اياكيداس) واتباعه، وانتشروا يفتشون عن (پيروس) الذي كان بعد طفلاً فأخفي عنهم وفرّ به (اندروقليدس) و(انجيلوس). ولم يجدا مندوحة من اصطحاب قليل من الخدم والنساء للعناية بالطفل، مما اعاقهما وأخرهما كثيراً في فرارهم هذا. ولما ادركهما الأعداء، عهدا به الى اندروقليون، و(هيپياس Hippias) و(نياندر Neander) وهما من أخلص الناس واقدرهم، وأمراهم أن يذهبا به الى (ميغارا) المدينة المقدونية، بأقص ما يمكنهم من السرعة، بينما اوقفا المطاردة بالقوة آناً، وبالتفاوض آنا حتى جَنَّ الليل. واخيراً تمكنا من صدّهم الى الوراء وانتهزا الفرصة ليلحقا (بپيروس) وحفظته. ولكن الشمس توارت في الوقت الذي بدا تحقيق بغيتهما وشيكاً، فصارت بعيدة المنال واسقط في يديهما، اذ لما بلغا النهر الذي تجثم المدينة المنشودة على جهته الأخرى، وجداه فائضاً مزبداً، وفشلت محاولاتهما في عبوره. كانت الامطار الاخيرة قد رفعت كثيراً من منسُوبه، وجعلت تياره عنيفاً، وزاد ظلام الليل من هول الموقف فلم يقدما على المخاطرة بنقل الطفل والنساء اللاتي يرعينه. على انهما شاهدا بعض الناس في الضفة الأخرى فاستنجدا بهم وعرضا (پيروس) لانظارهم واخذوا ينادونهم ويتوسلون بهم فحال هدير الماء وضجيجه دون وصول ندائهم واضحاً. ومرّا الوقت وهم ينادون والآخرون لايفهمون النداء. ثم اهتدى احدهم الى وسيلةٍ. فنزع من شجرة بلوط قطعة لحاء وكتب عليها بلسان إبزيم رفيع، واقع حال الطفل، والضرورة الماسة التي تقتضي عبورهم ولفّ اللحاء حول حجرٍ ليسهل قذفه الى الضفة الأخرى. وقال بعضهم أنه شدّه بعقب رمح وحذفُه الى الجانب الثاني. ولما قرأ اهل المدينة ماكتب وادركوا حراجة الأمر بادروا فوراً بقطع بعض الاشجار وشدوا بعضها ببعض حتى استقامت طوفاً عبروا به اليهم. واتفق أن اولّ من وطأت قدمه الضفة منهم وتناول (پيروس) بين ذراعيه، أطلق عليه اسم (آخيل). وتعاون الآخرون على نقل الباقي.

بعد أن كتبت لهم السلامة، وأمنوا المطاردة قصدوا (غلاوشياس Glaucias) ملك الالليريين. فوجدوه جالساً في بيته مع زوجه فوضعوا الطفل (پيروس) امامهما. فراح الملك يوزان الأمر ويُقلب وجوه الرأي فيه. ويقلبه خوفٌ من (كسّاندر Cassander) عدوّ (اياكيداس) اللدود، وبينا هو غارق في افكاره صامت وقتاً ملياً، أخذ (پيروس) الصغير يحبو على الأرض ويتقدم بالتدريج من الملك حتى اذا بلغه مَدّيده وامسك بردائه وتشبث به ليرفع نفسه ويستوى على قدميه مستنداً على ركبتي الملك، فانفجر هذا ضاحكاً اوّل الأمر، ثم اقبلاً اشفاقاً، وهتافاً على المستجير الصغير الباكي الذليل. وقال بعضهم انه لم يلق بنفسه أمام (غلاوشياس). بل أمسك بركن مذبح الأرباب وتشبث به متحاملاً على قدميه، وان

(غلاوشياس) اتخذ منها نذيراً ودليلاً. ومهما يكن فقد اوكل العناية به الى زوجه وأمر أن يُربى مع اولاده. وبعد فترة قصيرة طلبه الأعداء منه، وعرض (كساندر) مائتي تالنتاً ثمناً لتسليمه فأبى الملك وامتنع. وعندما بلغ الثانية عشرة جاء به الى (ابيروس) مع جيش، ونصبه ملكاً. وكان وجه (پيروس) يوحي ببطش السلطان الملكي اكثر مما يوحي بعظمته وسمّوه. وكانت اسنانه العلوية شاذة الخلقة، فهي ليست اسناناً بالضبط وانما قطعة عظيمة واحدة تدور بالفك فيها حزوز خفيفة اشبه بالفراغات التي تفصل عادة بين سنّ وآخر وعرف عنه مقدرته على شفاء امراض الطحال بتضحية ديك أبيض والضغط بصورة رفيقة بقدمه اليمنى على موضع الطحال في المرضى وهم مستلقون على ظهورهم ولم يكن يضنّ بفائدة لمسته على أي شخصٍ مهما كان وضيعاً أو فقيراً وكان يرضى بالديك المُضحّى، كمكافأة ويسّر بها سروراً عظيماً. وقيل أن ابهام قدمه تلك فيها كرامة الهية فقد بقيت بعد موته سليمةً ولم يعترها الفساد أو تمّسها النار. وهذا ماسنعود اليه فيما بعد.

وبلغ (پيروس) السابعة عشرة[٤] من عمره تقريباً وكانت المظاهر تشير إلى استقرار حكمه، فرحل عن مملكته لحضور زواج أحد أبناء (غلاوشياس) وكانا قد نشأ معاً، فانتهز (المولوسيّون) الفرصة للثورة وطردوا اشياعه وانصاره جميعاً ونهبوا ممتلكاته وأمّروا عليهم (نيوبطليموس)[٥]. ولما وجد نفسه شريداً متجرداً عن الملك والمقتنى، استجار (بديمتريوس) ابن (انتيغونس) زوج اخته (ديدايا)، التي كانت زوجة بالاسم في ايام طفولتها للاسكندر ابن (روكسانه Roxana)، إلاّ أن القدر حرمها من زوجها وعندما ادركت سن البلوغ تزوجها (ديمتريوس). وفي وقعة (ابسوس)[٦] الكبرى التي شارك فيها عدد كبير من الملوك، كان (پيروس) في صفّ (ديمتريوس) وابدى وهو مازال في ريق شبابه من ضروب البسالة ما مّيزه على كل المحاربين المتمرسين، وكفل له دحر كل من هاجمه. وظلّ (پيروس) وفياً لديمتريوس ولم يتخلّ عنه حتى عندما خانه الحظّ. وكفل له السيطرة على المدن الاغريقية التي أودعت اليه. كما انه رضي ان يرحل الى مصر ويبقى رهينة عند (بطليموس) بمقتضى المعاهدة التي عقدها هذان الملكان. وهناك اظهر (پيروس) دلائل ساطعة على قوته وشجاعته في ميادين الصيد والقنص او غيرها من ضروب الرياضة. وتبين اثناء اقامته، أن (بيرنيكه Berenice) هي صاحبة السلطان الاكبر، وانها تتمتع بارفع مكانةٍ لفضائلها، وسعة عقلها، دون سائر زوجات (بطليموس). فلازمها وخصها باهتمامه، وكان ماهراً حاذقاً في خطب ودّ الكبار

(٤) في العام ٣٠٢ ق.م.
(٥) هو حفيد تيو بطليموس المذكور في الفصل الثاني أعلاه.
(٦) في العام ٣٠١م.

واستخدام تلك العلاقة لمصلحته، كما كان من الجهة الأخرى سريع الاجتواء لم هم دونه مكانةً. وبزّ كل الأمراء الشبان في البلاط بحسن سلوكه ودماثته واستقامة حياته هناك، ولذلك وجد انه خير عريس (لأنتيغون) وهي احدى بنات (بيرينيكه) من بعلها السابق (فيلپس)[7]، قبل زواجها ببطليموس.

وتمّ القران، وخلعت عليه افانين التكريم، وكانت انتيغون من أفضل الزوجات. ووضع يده على مبلغ من المال، انفقه على تأليف جيش. ورتّب الأمور بحيث تم نقله الى مملكته (ايپروس) واشاع وصوله الارتياح في نفوس الكثيرين، لبغضهم (نيوپطليموس) الذي كان يشتط في حكمهم ويستبّد. ولخوفه من ان يتحالف (نيوپطليموس) مع بعض الملوك المجاورين سارع الى المصالحة معه والاتفاق على مشاركته في الملك، واقتسام الحكم. وكان ثم أناس اخذت نقمتهم تتعاظم على حكمهما بمرور الزمن فراحوا يسعون سراً للوقيعة بينهما، ولبذر الحقد وتأريث نار الخصام. وكانت الحادثة التالية - على ما قيل، البداية التي حركت پيروس للعمل:

جرت عادة الملوك أن يقدموا الذبائح الى (مارس) في (پاسّارو Passaro) وهو موضع في بلاد المولوسيين. فبعد ان قام الملكان بذلك قطعا عهداً رسمياً مع الايپروسيين على أن يحكما بينهم بالعدل وفقاً للشرائع السائدة، وأن يقوم هؤلاء من جهتهم باطاعة القانون والحرص على شكل الحكومة، فأقسم هؤلاء على ذلك بمحضر من الملكين الحاضرين واصدقائهما المقربين. وبعد ذلك قدما هدايا كثيرة، وقبلا مثلها ثم اخذ (غيلو Gelo) احد مقربي (نيوپطليموس) بيد (پيروس)، وقدّم له زوجين من ثيران الجّر، فدنا (ميرتيلوس Myrtilus) ساقي الملك (پيروس) وطلب منه الهديّة المذكورة. فأباها عليه واعطاها لغيره، فتألم (ميرتيلوس) من ردّه، وكان (غيلو) يلاحظ ذلك، وشعر بما يعتمل في جوف الساقي فتقرب منه ودعاه الى مأدبة (وكان ميرتيلوس في ريعان الصبا آنذاك على ما قيل) وانتهز (غيلو) فرصته بين اللهو والقصف والشراب وفاتحه بما في نفسه حتى خيل له أنه تمكن من اقناعه بالانحياز الى صف (نيوپطليموس)، وقتل (پيروس) سيده بالسمّ، وتظاهر (ميرتيلوس) بالموافقة والرضّا إلاّ انه اسرع الى (پيروس) فأسرّ اليه بفحوى المؤامرة. فأمره هذا، أن يذهب الى (غيلو) ويزكيّ له (الكسيقراطس Alexicrates) رئيس سقاته بوصفه خير من يقوم بتنفيذ العمل. وكان (پيروس) يريد أن يظفر باكثر ما يمكن من الأدلة والشواهد على وجود المؤامرة. ولم تكن حيلة پيروس على (غيلو) بأقل انطلاء على (نيوپطليموس) نفسه، فتصور ان خطته تسير

---

(٧) مقدوني مغمور غير معروف وليس والد الاسكندر الكبير.

سيراً حسنا وضاق صدره عن كتمان امرها فراح يجاهر بها لفرط سروره بين مقربيه. وحدث بها اخته (قاديميا Cademea) في مأدبة اقامتها له متوهما انهما وحيدان، والحقيقة ان مجلسهما كان خالياً إلاّ من (فيناريت Phœnarete) امرأة (سامون Samon) مدير شؤون ماشية وقطعان (نيوبطليموس) وكانت مستلقية على اريكة فادارت وجهها الى الحائط متظاهرة بالنّوم العميق وسمعت كل الحديث دون أن يُشك بها. وفي اليوم التالي اقبلت على (انتيغون) امرأة (پيروس) وافضت اليها بما سمعت، فنقلية لزوجها فلم يقل (پيروس) شيئاً ولم يعلّق في وقته، وانما أولم لينوبطليموس وليمةً بمناسبة يوم تقديم القرابين، وهناك بطش به، وكان قد اطمأن قبل ذلك إلى صداقة وجهاء الابيروسيين وسراتهم والى انهم يرغبون في الخلاص من (نيوبطليموس) ويوافقونه على طموحه في الحكم وحده لا شريك له وعدم قناعته بنصيب صغير والسير على النهج العظيم الذي اختطه، وأن يسبق (نيوبطليموس) الى التآمر على حياته ويبطش به، بعد أن تضافرت الدلائل على نواياه. وقام الشّك الكبير على سعيه لقتل (پيروس).

واراد تخليد ذكرى (بيرنيك) و(بطليموس) فسمّى ابنه من زوجه (انتيغون)، بأسم ثانيهما، وبنى مدينة في شبه جزيرة (ايپروس)[8] اطلق عليها اسم الأولى ومنذئذ راحت تداعب ذهنه المشاريع العظيمة الكبيرة، ألاّ أنه حصر اهتمامه بشؤون اليونان الداخلية في مبدأ الأمر، وتوخى الوسائل الكفيلة لإقحام نفسه في شؤون مقدونيا وتوسّل بالحجّة الآتية: قتل (انتيباطر) أكبر اولاد (كساندر)[9] والدته (ثسالونيكا Thessalonica) وطرد اخاه (الاسكندر)، فاستجار هذا، بـ(ديمتريوس) وطلب منه العون، كما استنجد ايضاً بـ(پيروس) ولم ينجده اولهما لمشاكل اعترضته، ولبّى (پيروس) نداءه الاّ انه اشترط لمعونته ثمناً وهو ضمّ مقاطعات (تمفيا Tymphœa) و(باراوايا Paraucea) في مقدونيا، والمستعمرات الخارجية (امبراقيا Ambracia) و(اقرْنانيا Acarnania) و(امفيلوخيا Amphilochia)[10]. فلم يمانع الأمير الشاب في احتلالها وتعزيزها بحاميات قوية من جيش (پيروس) وبعد ذلك باشر باخضاع بقية المملكة (للاسكندر) بعد انتزاعها من (انتيباطر). وكان (ليسيماخوس) قد وعد بارسال نجدات عسكرية لانتيباطر إلاّ أن مسائل كثيرة اشغلته واقعدته. على انه كان يعلم بمنزلة (بطليموس) عند (پيروس) وانه لايردُّ له اي طلب كان. فعمد الى ارسال خطاب

---

(٨) بالقرب من مدينة پيريڤيزا Perveza الحالية.

(٩) في العام ٢٩٧ ق.م.

(١٠) كلّ هذه الاراضي تقع ضمن ساحل الخليج الامبراكي Ambraci في جنوب ابيروس.

مزيف له مذيل بتوقيع (بطليموس) وفيه يطلب منه وقف حملته لقاء ثلاثمائة تالنت يدفعها له انتيباطر، وما أن فضّ پيروس الخطاب حتى وقف على حيلة (ليسيماخوس) لأنه لم يكن مصدّراً بالديباجة المأثورة: «من الأب الى الإبن – صحةً وعافيةً» بل كانت فاتحته هكذا «من الملك بطليموس الى پيروس الملك – صحةً وعافيةً»، فوبخ (ليسيماخوس) على ما بَدَر منه، إلاّ انه وافق مع ذلك على احلال السلام واجتمع الملوك لعقد الصلح وتوثيقه بالقسم فوق القرابين. وجيء بمعزاة وثور وكبش لتضحيتها، وفجأة سقط الكَبش ميتاً فضحك الجميع، إلاّ أن (ثيودوتوس) العرّاف منع (پيروس) من اداء القَسَم قائلاً ان السماء عرضت بموت الذبيحة اشارةً الى موت أحد الملوك الثلاثة المجتمعين. وهكذا ابى (پيروس) أن يوثق معاهدة الصلح بقسمه.

بلغت أمور (الاسكندر) الآن الى نوع من الاستقطاب والاستقرار. ثم وصل (ديمتريوس) وتبين أن وصوله لايخدم مصلحة (الاسكندر) وانما زاد في حراجة موقفه، اذ ما مرت ايام قليلة على اجتماعهم حتى بدأت نار الحقد والضغينة تنهش قلوبهم وراح بعضهم يتآمر على بعض، واهتبل (ديمتريوس) فرصته واستبق الملك الشاب فقتله واعلن نفسه ملكا على مقدونيا[11]. ولم يكن بين (ديمتريوس) و(پيروس) تفاهم اوودّ كبير. فإلى جانب الغزوات التي كان يقوم بها على ثساليا، كان هناك الداء الدفين الذي ابتلى به الملوك، وهو طموحهم الشديد الى توسيع رقاع ملكهم. هذا الداء جعل الملكين الجارين ينظران أحدهما الى الآخر نظرة ريبة ورهبة، ولاسيما بعد وفاة (ديداميا). وبوضعهما اليد على مقدونيا سرعان ما نشب الخلاف بينهما للاستئثار بها، ولدوافع أخرى اقوى منها، فقد عاجل (ديمتريوس) الايتوليين بالحرب واخضعهم وترك في البلاد المفتوحة جيشا كبيراً بقيادة (پانطاوخوس Pantauchus)، وزحف بالباقي لمواجهة پيروس كما كان (پيروس) يسعى هو الآخر اليه كما ظن، واجتاز الجيشان احدهما الآخر دون أن يفطن اليه. ووقع (ديمتريوس) على اپيروس وعاث فيها سلباً ونهباً. والتقى (پيروس) بـ(پانطاوخوس) فاستعد لقتاله، ثم اشتبك الجيشان في معركة طاحنة عنيفة، وخصوصاً حيث يقف القائدان[12].

كان (پانطاوخوس) افضل ضابط في جيش (ديمتريوس) لما يتمتع به من قوة بدنية خارقة وشجاعة وحنكة عسكرية فضلاً عن عزمات شديدة وروح عالية، فتحدى (پيروس) للبراز ولم يتردد (پيروس) في قبول تحديه. وكان (پيروس) باجماع الكلّ أبسل الملوك وابعدهم صيتاً

---

(١١) في ٢٩٤ ق.م.

(١٢) في ٢٩١ ق.م.

في الاقدام. ولم تكن شهرة (آخيل) التي ورثها بسبب رابطة الدم بل بسبب وراثته الشجاعة. وهكذا برز الى (پانطاوخوس) أمام الجيش. فتطاعنا برمحيهما، ثم تضاربا بحساميهما في قتال بديع وضربات ماهرة حاذقة، واصيب (پيروس) بجرحٍ، فردّه الى خصمه مضاعفاً واصابه في فخذه وفي موضع قريب من رقبته، وصكّه صكاً عنيفاً حتى القاه أرضاً، ولكنه لم يفلح في الاجهاز عليه فوراً اذ خفّ اليه اتباعه وانقذوه. على ان الايپروسيين ارتفعت معنوياتهم كثيراً بانتصار ملكهم واضطرت حماستهم بشجاعته فانقضوا انقضاضاً عنيفاً على «فلانكس» المقدونيين ومزقوه شرق ممزق وراحوا يطاردون فلولهم فقتلوا خلقاً كثيراً وأسروا خمسة الآف.

ولم يحنق المقدونيون او يغضبوا لخسارتهم، ولم يشتّد بغضهم (لپيروس) قدر ما اعجبوا بشجاعته ونسجت حكايات وتعليقات لا نهاية لها عليه، ولهج بالحديث عنه شهود العيان وكل من كان موجوداً في الوقعة فشبهوا حركاته وتصرفاته وخفته بتلك التي عرفت عن الاسكندر الكبير وقالوا انهم راؤوا فيه هناك صورة ونسخة مطابقة لذلك البطل بسرعته وحسن بلائه في القتال وان غيره من الملوك ليس فيهم شبه بالاسكندر إلاّ بما يحيط بهم من حراس مهيبين، وبطريقته في خفض الرأس في المناسبات الرسمية، ولهجته الرفيعة في الكلام، امّا (پيروس) فكان شبيهه في القتال وحمل السلاح، ولنا في التعليقات التي تركها خير شاهد على خبرته العميقة بالتاكتيك العسكري وفن القيادة.

ولقد قيل لنا أن (انتيغونس) سئل عن أعظم عسكريّ في رأيه فأجاب

- پيروس، لو أنه ادرك سِنّ الشيخوخة.

منوّها فحسب بالذين عاصروه. إلاّ أن (هنيبعل) وضعه في المقام الأول، لمهارته وحسن قيادته، وجعل (سكيپيو) في المقام الثاني. واحتجز لنفسه المقام الثالث. وقد ورد ذلك في سيرة (سكيپيو)[(١٣)]. ومجمل القول ان (پيروس) اوقف كل همه وحصر افكاره وفلسفته في صناعة الحرب، بوصفها أليق للملوك، واجدر بتتبعاتهم ومدارستهم اما النواحي الأخرى فلم يُقم لها وزناً. وذكر أنه سئل مرةً في مأدبةٍ، ايهما خير الموسيقين؛ (پيثون Python) أو (كافيسباس Caphisias)؟ فأجاب قائلاً:

- ان (پوليسپيرخون Polysperchon) هو خير القادة!

كأنما لايليق بالملك أن يفهم في هذه الأمور أو يُحكّم فيها.

---

(١٣) هذه السيرة التي وضعها پلوتارخ مقابل سير [ايپامنينداس] هي الآن في عداد المفقودات.

وهو عند مقربيه واصدقائه الأدنيين رقيق الطبع تصعب اثارته حريص أشد الحرص على ردّ الجميل دون تريث، لذلك صعب عليه احتمال موت (ايروپوس Æropus) ووقع في نفسه موقعاً أليما وقال انه يدين نفسه ويلومها ويتألم كثيراً لأنه ارجأ ردّ جميل الميت وتأخر فيه. ذلك لأن الديون قد يرضي ردُّها ورثة دائنينا ولكنه لايقوم مقام الإقرار بالجميل، ولأن اهل الجميل ما عادوا بين الاحياء ليشعروا بوفائنا، فيحدث عملنا اثره الطيب الجدير بالثناء. ووجد بعضهم انه يجدر بـ(پيروس) أن يأمر بنفي شخص من (امبراشيو Ambracio) بذيء اللسان أساء اليه بالكلام كثيراً. فرفض (پيروس) قائلاً:

- خير لنا أن يشتمنا هنا امام نفر قليل، من أن يتخرص علينا في الخارج الى العدد الكبير.

وسبّه أخرون وانتقصوا منه في مجلس شراب، فجيء بهم للتحقيق في امرهم وسألهم اصحيح انهم تفوّهوا بما نُسب اليهم من قول، فأجاب واحد من اولئك الشبان الأغرار:

- أجل ايها الملك صحيح، ولو كان لدينا المزيد من الخمر لقلنا اكثر من هذا!

فضحك وعفّا عنهم. وبعد أن قضت (انتيغون) نحبها تزوج بعدد من النساء قاصداً تثبيت مركزه وتقوية سلطانه فاقترن بـ(بيريكنّو) بنت (اوطوليون Autoleon) ملك الپاونيين Paon-ions[١٤]، وبـ(بارديلليس Bardyllis) بنت ملك الالليريين، وبـ(لاناسّا Lanassa) بنت الملك السيراقوسي (اغاثوقليس Agathocles) وقد مهرته هذه مدينة (كوركيرا) التي كان اغاثوقليس قد ضمها الى ملكه. وانجب من (انتيغون) ابنه الاكبر (پطليموس) ومن (لاناسّا Lanassa) استولد (الاسكندر)، ومن (بيريكنّو) انجب (هيلينوس Hellenus) اصغر ابنائه.

وقد شبواً كلهم مفطورين على حبّ الحرب والطعان ورباًهم حتى استووا شباباً مضطرمي الروح ناشطين. واعدهم للقتال خير اعداد منذ نعومة اظفارهم كما يشحذ حَدّ السيف. وقيل أن احد ابنائه سأله وهو صبيّ «لمن سيخلّف المملكة منهم» فأجابه: «لمن كان أمضاهم سيفاً». وهذا الجواب في الواقع اشبه شيء باللعنة المأساوية التي خلّفها الملك (اوديب Oedipus) لابنائه:

«قسمة الميراث لن تتم بالقرعة وانما بالسيف لا غيره!»

الى هذا الحد من الوحشية والغلظة تبلغ بالمرء طبيعة الجشع!

بعد تلك المعركة مع المقدونيين عاد (پيروس) الى ارض الوطن متوجاً بالمجد، وانقادت اليه الشهرة، ولمع نجمه. وعندما اطلق عليه اهل (ايپروس) لقب «النّسر» عَقّب بقوله:

---

(١٤) هم الجيران الشماليون لمقدونيا.

- اني نسرٌ بكم. وكيف لا اكون كذلك ولي من سواعدكم اجنحة تسندني؟

وبعدها بزمن وردته أنباء تشير الى ان (ديمتريوس) يعاني مرضاً خطيراً الزمه الفراش. وأسرع بالدخول الى مقدونيا بدون سبق انذار، وكان يقصد غزوةً يشيع بها الرعب في نفوس اهل البلاد، لكنه وجد نفسه يتوغل في البلاد ويكاد يستولى عليها دون اي قتال. زحف حتى (إديسّا Edessa) ولم يجابه مقاومة، والتحق به عدد كبير من جنود العدوّ. وهذا ما استنفر (ديمتريوس) والجأه إلى الاستعداد الكبير. وتمكن بمعونة اتباعه وقواده من اعداد جيش جرار هاجموا به (پيروس) هجوماً عنيفاً. فتحاشى الاصطدام به وانسحب لأنه لم يأت لقتال بل لغارةٍ موضعية. وفقد اثناء تقهقره قسماً من جيشه جراء مطاردة المقدونيين المتواصلة الحامية. إلاّ أن (ديمتريوس) ظلّ يشعر بخطورة (پيروس) وأن سهل عليه ارغامه على الانسحاب السريع. واخذت تدور في رأس (ديمتريوس) مشاريع ضخمة، وفي مقدمتها إستعادة مملكة ابيه. فبادر الى اعداد جيش لهذه المهمة قوامه مائة الف مقاتل وخمسمائة سفينة حربية، يرهب به (پيروس) والمقدونيين الكثيري الإزعاج بنشاطهم الحربيّ، كذلك لم يكن لديه الوقت لمواصلة الحرب ضد الأول فعمل على عقد صلح معه للتفرغ الى الملوك الآخرين، وتم الاتفاق على شروط، ولكن مشاريع (ديمتريوس) انكشفت من الاستعداد الهائل الذي يقوم به. فاشتدّ قلق الملوك الآخرين وبعثوا الى (پيروس) بوفود ورسائل، وفيها يستغربون منه تركه الفرصة تفلت من يده، ويظهرون دهشتهم من انتظاره حتى يقوى (ديمتريوس) ويغتنم فرصته، بينما هو قادر الآن على طرده من (مقدونيا) واشاعة الخلل والاضطراب في كل مشاريعه وخططه.

وها انه الآن قاعد يرقب (ديمتريوس) وهو ماض الى اكمال استعداده على مهله دون وجل؛ لينقل الحرب فيما بعد الى عُقر داره، ويرغمه على القتال دفاعاً عن معابده واضرحته في بلاد (مولوسيا)، لاسيمّا بعد أن خسر (پيروس) مدينة (كوركيرا) ومع زوجه (لاناّسا) مؤخراً. فقد جرحها في عزة نفسها بتفضيله الفائق زوجاته البربريات عليها. فانتقلت الى (كوركيرا) وراحت تبحث لها عن زوج بين الملوك، ولما كانت تعلم ان (ديمتريوس) اكثر الملوك رغبة في يدها فقد رعته وقبلت عروض زواجه، فابحر اليها واقترن بها ووضع حامية عسكرية في المدينة.

وكتب الملوك (لپيروس) ماكتبوا وهم لايدّخرون من ناحيتهم جهداً في متابعة استعداد (ديمتريوس)، في حين كان يتباطأ في القيام باستعداده. ثم أقنع (پطليموس) بأسطول كبير فأرغم عدة مدن يونانية على الاستسلام وانقضّ (ليسيماخوس) من تراقيا على مقدونيا العليا واجتاحها، وهب (پيروس) للحرب ايضاً وزحف على (پيرويا Berœa). متوقعاً أن

يترك (ديمتريوس) الجزء الجنوبي من مقدونيا بلا دفاع. لأنه كان قد حشدَ كل قواته ضدَّ (ليسيماخوس)، فصحَّ ما توقعه. وفي تلك الليلة بالذات رأى في الحلم الاسكندر الكبير يناديه، ولما تقدم منه وجده عليلاً طريح الفراش إلاّ انه استقبله بكلام لطيف واحتفى به كثيراً ووعده بمساعدة فعالة، فردَّ عليه (پيروس) بكل جرأة:

- كيف تقوى على مساعدتي يا سيدي وانت عليل؟

فقال الاسكندر:

- اساعدك باسمي!

ثم اعتلى صهوة حصانه النّايسي Naesian، وبدأ وكأنه يسير في الطليعة. فشدد هذا الحلم من عزمات (پيروس) كثيراً، وتمكن بزحف سريع من الاستيلاء على كل الاقاليم المجاورة وبعد أن دانت له (بيرويا) جعلها مقراً عاماً وقاعدة أرسل منها قوّاده لاخضاع بقية البلاد وتم له ذلك وعلم (ديمتريوس) بكل هذا، وتحسّس أن الجنود المقدونيين يتململون داخل جيشه وهم على شفا التمرد، وخشي إن هو اقترب من ليسيماخوس وهو من الملوك المقدونيين البارزين، أن يشق هؤلاء الجنود عصا الطاعة وينظموا الى ابن جلدتهم. لذلك استدار نحو (پيروس) لأنه كان عدوا للمقدونيين وهم يكرهونه. وما أن عسكر امامه حتى انبث القادمون من (بيرويا) في معسكره يلهجون بالثناء على (پيروس) ويصفونه بالمحارب العظيم الذي لا يُغلب. والمنتصر الرفيق الذي يعامل اعداءه المقهورين بروح انسانية سمحاء، وعمد (پيروس) نفسه إلى ارسال عددٍ منهم في السر متظاهرين بأنهم مقدونيون، واخذوا يحرضُون جنود (ديمتريوس) على الانتقاض ويقولون لهم لقد حان يوم الخلاص من استبداد حكومة (ديمتريوس)، بالانضواء تحت راية (پيروس) ذلك الأمير النبيل الخلق الذي يكن للجنود اعظم الحب. فاثيرت خواطر قسم كبير من افراد الجيش بهذه الدعاية الماكرة. واخذهم الشوق الى رؤيته وراحوا ينشدونه في كل مكان. واتفق انه كان حاسر الرأس دون خوذةٍ، وادرك انهم لا يتبينونه بدونها فوضعها على رأسه فعرفوها حالاً بتاجها الريش وقرني الجدي واسرعوا اليه طالبين كلمة المرور، ووضع بعضهم اغصان البلوط على رؤوسهم لأن الجنود المحيطين به كانوا يزينون هاماتهم بها. واقدم بعضهم على نصح (ديمتريوس) بالانسحاب واعتزال الحكم، ووضح له تصاعد روح التمرد والثورة في صفوف الجيش، فأسرع يأخذ بالنصيحة وغادر المعسكر سراً وهو متنكر بقبعة واسعة الاطراف ومعطف جنديّ اعتيادي. وهكذا سيطر (پيروس) على جيشه دونه قتال واعلن نفسه ملكاً على مقدونيا.

إلاّ ان (ليسيماخوس) وصل، وراح يزعم أن هزيمة (ديمتريوس) انما كانت نتيجة مجهودهما، ولذلك ينبغي أن يتقسما الملك. ولم يكن (پيروس) اذ ذاك مطمئنا من المقدونيين، والشكّ في اخلاصهم مازال يساوره ولهذا وافق على اقتراح (ليسيماخوس) واجرى اقتسام الاقاليم والمدن فيما بينهما. وكان هذا العمل حسناً في وقته لأنه حال دون تشوب حربٍ بين الطرفين. ولكن سرعان ما وجد أن هذا التقسيم لم يكن بالتّسوية السليمة المجدية لأنها ستظلّ ابداً ينبوعاً للنزاع والشكوى فان اولئك الذين لاتحدّ من مطامعهم الجبال او البحار او البوادي والقفار ولا تستطيع الحدود التي تفصل آسيا عن اوروپا، من كبح رغباتهم الجامحة الأشعبية، يصعب عليهم احتمال أذى بعضهم بعضاً عندما تكون املاكهم ملاصقة او متقاربة. فهؤلاء لاتهدأ سورة القتال فيما بينهم ولا يخمد لحروبهم أوار وتبقى نفوس متحاقدة متحينة الفرص للانتفاع واحدهم على حساب الثاني، وهم يستخدمون في ذلك كلمتي «الحرب» و«السلم» واسطة للاستفادة كما تستخدم قطعة النقد المتداولة فيروجون بهما مصالحهم، دون اعتبار للعدالة والضمير وانه عندما يثيرون حرباً صريحة، لأفضل مما لو يطلقون على السلم والامتناع عن اقتراف الآثام، تلك الكلمات المقدسة: كالصداقة وكالعدل، بينما هم في الحقيقة مفتقرون الى السبب والفرصة للإيغال في تلك الشرور. و(پيروس) هو من امثال هؤلاء الرجال. فقد وقف عقبة في صعود نجم (ديمتريوس) ثانية ثم عمل جهده للحيلولة دون استعادة سلطانه كمن يحول دون ابلال مريض من داء. وساعد اليونانيين وزار اثينا وصعد الى الاكرپوليس وقدم القرابين للربّة ونزل الى المدينة في اليوم عينه واظهر للآثينيين امتنانه العظيم للثقة وحسن النية التي اظهروها له، وعليهم ان كانوا عقلاء الاّ يسمحوا بقدوم أي ملك الى مدينتهم ثانية ولا بفتح ابوابها له. وعقد ايضاً صلحاً مع (ديمتريوس) على انه عبر الى اسيا بعد ذلك بزمن قصير لمطاردة (ليسيماخوس) وحرض الثساليين على الثورة وحاصر مدنهم في اليونان اذ وجد أن احتفاظه بتعلق المقدونيين وحبهم اضمن ما يكون في الحرب مما هو في السلم. هذا فضلا عن ميله الكبير الى الحركة، ونفوره من الاستقرار. واخيراً هزم (ديمتريوس) في سوريا هزيمة ساحقة[١٥]، واستتب (لليسيماخوس) الامر تماماً فاستدار بكلّ قواته نحو (پيروس) الذي كان معسكراً في (إديسا) وانقض عليه مستولياً على القوافل التي تحمل له الارزاق والمؤن فأحدث مجاعة عظيمة في جيشه وتمكن بعدها من إفساد كبار قواد المقدونيين في جيشه بالرسائل والرسُل وبث الاشاعات بينهم بقوله لائماً أنهم أمرّوا عليهم سيداً غريباً لايمت اليهم بصلة، انحدر من صلب اولئك الذين كانوا دوماً عبيداً للمقدونيين وخدماً. وانهم سعوا الى

(١٥) في ابسوس Ipsos في العام ٣٠١ ق.م.

طرد اصدقاء الاسكندر القدماء ومقربيه من بلادهم. وبلغ نجاحه في التغرير بهم وبالجنود المقدونيين حداً ألجأ (پيروس) الى الانسحاب مع الايپروسيين وقواته الاحتياطية، من مقدونيا كما دخلها. ليس للملوك اي مبررٍ وجيهٍ لادانة الحكومات الشعبية او الجمهوريات، اذا ما بدلت مواقفها حسبما تمليه عليه مصالحها، فهي انما تحذو حذوهم في هذا، اولئك اساتذة فنّ التقلب والغدر الكبار، الذين يعتبرون اوفرهم حكمةً، من كان اقلهم اكتراثا بالاستقامة والأمانة.

وبعد أنسحاب (پيروس) الى (إيپروس) وتركه مقدونيا، واتاه الحظّ بفترة من الحكم مستقرة هادئة نعمت فيها رعيته ببحبوحة من العيش. على انه ضاق ذرعاً بهذا السبيل الغثّ المقيء من الحياة، حياة الهدؤ والاستقرار. لأنه من اولئك الذين لايطيب لهم العيش الاّ بالحاق الأذى بالأخرين او اذا اصابوا شيئاً منه على يد الأخرين ومثله في ذلك مثل (آخيل)...

... كاسفَ البال مهموماً أضرّ به الجمام راغباً في خوض غمرات القتال، مشوقاً لسماع صيحات الحرب[١٦].

واشبع ميله في اثارة المشاكل والمتاعب على الطريقة الآتية:

كان الرومان في حرب مع التارنتيين[١٧]. ولم يعد لهؤلاء الاخيرين قِبل بمواصلة الحرب، كما لم يفلحوا في عقد صلح وانهائها بسبب تهور خطبائهم الشعبيين وغلظتهم وحمقهم. فتداولوا بينهم على نصب (پيروس) قائداً لجيشهم واستخدامه من دون سائر الملوك المجاورين لأنه كان ابرعهم في القيادة واقلّهم مشاغل. وفاوض في ذلك عقلاؤهم ويعيدو النظر منهم فتغلّب على رأيهم ضجيج الجمهور وضوضاؤهم الصاخبة. في حين تغّيب الآخرون عن حضور الاجتماعات العامة لما رأوا من موقف الجمهور، الاّ رجلاً واحداً اسمه (ميتون Meton) وهو من ارجحهم عقلاً واكثرهم اتزاناً. ففي اليوم الذي عُين للمصادقة على تنصيب (پيروس)، دخل (ميتون) محل الاجتماع والناس الجلوس، دخل وهو يرقصُ ويتأود مترنحا كالشارب الثمل وقد طوق عنقه بقلادة زهر ذابلة وامسك مصباحاً، وامامه امرأة تنفخ في نايٍ. ولما كانت الرسميات لاتراعى عادة في امثال هذه الاجتماعات الصاخبة العامة، عمد بعضهم الى التصفيق له وضحك آخرون ولم يمنعه أحدٌ وانما راحوا يحثون المرأة على النفخ بالناي ويطلبون منه رفع عقيرته بالغناء للحاضرين. ولما خيل لهم أنه سينفذ ما طلبوه قال لهم:

- أصبتم يا رجال (تارنتوم) بفسح المجال للناس يفرحون وينشرحون عندما تميل قلوبهم الى

(١٦) انظر الالياذة ٤٩١ - ٤٩٢.

(١٧) في العام ٢٨١ ق.م.

ذلك وعندما يكون في متناول يدهم. وانتم ان كنتم عقلاء لما دخرتهم شيئاً من افراحكم ولا اطلقتم لمسراتكم العنان وانتم قادرون الآن لأنكم مزمعون عما قريب على احداث انقلاب في طريقة حياتكم وسلوك سبيل آخر بعد ان يحل (پيروس) بينكم.

أحدثت كلمات (ميتون) هذه تأثيراً عميقاً في كثير من التارنتيين وانتشرت همسات مختلطة تفيد انه اصاب كبد الحقيقة. الاّ ان بعض من كان يخشى أن تذهب حياته ضحية اذا ما تم عقد الصلح مع الرومان راحوا يؤنبون الجمهور الحاضر لإصغائهم بصبرٍ وخنوع الى توبيخ علج سكّير، ثم اجتمعوا عليه ودفعوا به الى الخارج. وهكذا تمت المصادقة الشعبية وأرسل وفد الى (ايپروس) يحمل الهدايا لـ(پيروس) ليس باسمهم وحدهم بل باسم كلّ اليونانيين القاطنين في ايطاليا. وابلغوه أنهم بحاجة الى جنرال حسن السمعة كثير الخبرة مثله، وانهم قادرون على امداده بقوات كبيرة من اللوكانيين والميسّاپيين Messapians، والسامنيين Samnites والتارنتيين مما يبلغ تعداده عشرين الف خيال وثلاثمائة وخمسين ألف راجل، ولم تثر هذه حماسة (پيروس) وحده، وانما حركت في نفوس (الايپريين) الرغبة الجامحة للقيام بحملة عسكرية.

وجد في ذلك الزمان رجل ثساليّ يدعى (كينياس Cineas) معروف برجاحة العقل، وهو تلميذ للخطيب العظيم (ديموستينس) وكان في طليعة من اشتهر امره في ذلك العهد بحسن القول، يحي في اذهان المستمعين ذكرى قوة عارضة استاذه وفصاحة لسانه حتى لكأنه صورة منه. وكان من مقربي (پيروس) ومستودع ثقته لا يفتأ يوكل اليه المهامُ الخطيرة في مختلف المدن حتى ليصدق فيه قول الشاعر (يوريپدس):

«... قوة الكلمة تستطيع أن تفعل ما تفعله السيّوف المظفرة».

وكان (پيروس) يردد دوماً ان (كينياس) فتح من المدن بمضاء اقواله اكثر مما فتح هو بحد سيفه، وظلّ يواصل تشريفه بايداع أخطر المأموريات اليه. وقد لاحظ هذا حماسة (پيروس) ونشاطه في استعداده للحملة الايطالية. فانفرد به يوماً وليس لديه ما يشغله وجرّه الى النقاش التالي قال (كينياس):

- المعروف عن الرومان يا مولاي انهم محاربون اشداء قهروا شعوباً محاربة كثيرة. فإن شاء لنا الله أن نغلبهم فكيف سننتفع بانتصارنا؟

فقال (پيروس):

- انت تسأل سؤالاً بديهياً يجيبك هو عن نفسه. فبعد أن يكتب لنا الظفر على الرومان لا

تعود مدينة يونانيـة أو بربرية ممتنعة عنّا وسنكون فجأة سادة أيطاليا كلّها. وأنت آخر من يجهل سعة أرجائها وكثرة مواردها ومدى قوتها.

سأل (كينياس) بعد فترة من الصمت:

- وماذا ترانا فاعلين بعد اخضاع ايطاليا؟

وكان (پيروس) يجهل ما يرمي اليه مخاطبه فأجاب بكلّ سذاجة:

- بعدها ستمدّ صقلية ذراعيها الينا مستقبلةً، وهي جزيرة غنيّة جداً حافلة بالسكان، تسهل السيطرة عليها. فعلى اثر فرار (اغاثوقليس) منها سادها التناحر، والعنف وركبتها الفوضى والشغب وزال عنها حكم القانون

فقال (كينياس): انكّ تفصح عَمّا هو قريب الاحتمال جداً. لكن، اسيكون في الاستيلاء على صقلية خاتمة الحرب؟

أجاب (پيروس): ألا فليهبنا الله النصر والفلاح في هذا وسنستخدمه بمثابة مقدمة وتمهيد لأمور أجلّ شأناً وأعظم. إذ من يعبر بعدها على (ليبيا) و(قرطاجنة) حين يراها في متناول يده؟ دونك (اغاثوقليس) عندما أرغم على الفرار من (سيراقوسة) بحراً بسفنٍ قليلة لم يستطع مقاومة الاغراء وفأجاهما بالغارة. فبعد أن نكمل هذه الفتوحات، لايبقى من اعدائنا الذين يستصغرون شأننا عدو واحد يجرأ على الوقوف بوجهنا. ولن يستطيع ان ينكر ذلك أحدٌ.

أجاب (كينياس): أبداً لا أحد! وواضح أننا سنستعيد مقدونيا بقوتنا الجبارة هذه وستدين لنا اليونان كلها بالطاعة. فماذا ترانا فاعلين بعد هذا؟

فقال (پيروس) باسماً: اذ ذاك سنركن الى حياة هانئة يا صديقي العزيز. سنتساقى كؤوس الراح صبوحاً وغبوقاً ونمتع انفسنا باطيب الاحاديث واجملها.

ولما بلغ (كينياس) من استدراجه (پيروس) الى هذه النقطة قال:

- وما الذي يمنعنا الآن يا مولاي من التنعم برغد العيش والاحتفال بعضنا ببعض مادام في متناول ايدينا وطوع بناننا كل ما نجاهد للوصول اليه بعد سفك الكثير من من الدماء وتكلف العناء، وركوب ما لا يحصى من المخاطر ومكابدة المصائب الشديدة على انفسنا وعلى الآخرين؟

هذا المنطق اشغل ذهن (پيروس) بفكرة السعادة التي تكاد تخرج من يده، إلاّ ان الحجّة

القوية لم تحمله على التخلّي عن هدفه فقد كان أعجز من صرف نظره عن آماله بتحقيق اعزّ أمانيه.

بعث اولاً (بكينياس) الى التارنتيين على رأس قطعة قوامها ثلاثة آلاف رجل ثم وفي الوقت اقلعت من تارنتوم عمارة بحرية كبيرة تتألف من سفن نقل خيالة وبوراج حربية، وزوارق مسطحة القاع من جميع الأنواع، قاصدة (ابيروس) لنقل الحملة فأوسقت بعشرين من الفيلة، وثلاثة آلاف خيالّ وعشرين الف راجل والفين من حملة القسّي، وخمسمائة من الرماة بالمجانيق. وبعد أن تمّ ذلك اقلعت بهم قاصدة ايطاليا. وما أن قطعت بهم نصف المسافة حتى هبت ريح الشمال العاتية على غير موعدها من السنة، وكانت هوجاء كاسحة حرفت القافلة عن سبيلها المرسوم. الاّ انه تمكن من النزول الى البّر بعد اهوالٍ وكثير من الجهد والمشقة واستخدام ربانية سفنه وبحارتها أقصى مهارتهم وعزماتهم. على ان قسماً من السفن تاه في عرض البحر واضطربت صفوفها وتبعثر بعضها واخطأ الساحل الايطالي مندفعاً بقوة الريح الى البحر الصقلي والليبيّ. ولم يفلح عدد منها في الوصول الى رأس (ياپيغيوم)[١٨]، وادركهم الليل البهيم، وقذفهم بحر هائج صخاب الى ساحل صخري خطرٍ وأصيبت كلها السفن بعطب جيسم إلاّ «الغاليون» الملكي فقد قاومت اندفاع الامواج العاتية نحو جانبيها وصمدت بمتانتها وضخامتها حتى هبت ريح من الساحل فسفعت وجوه راكبيها وظل مقدمها يشق الريح الى الامام حتى بات يخشى أن تمزق شر تمزيق على ان ذلك كان أهون شراً من الاستدارة بها ثانية الى البحر وهو عاصفٌ هائج وبريحه النكباء تهبّ عليهم من كل جهة. فنهض (پيروس) وقذف بنفسه من السفينة سابحاً الى الساحل وحاول حرسه واصدقاؤه أن يمدوا اليه يدالعون متلهفين إلاّ أن سواد الليل وضجيج البحر وعنف امواجه حال دون ذلك. وفي صباح اليوم التالي اخذت الريح تتطامن وتهدأ فبلغ الساحل وهو مبهور الانفاس خائر القوى إلاّ انه جلد ثابت العزم امام نكد حظه. وكانت العاصفة قد قذفت به الى ساحل (الميساپيين) فخفوا الى معاونته بغاية ما امكنهم ثم وصل بعض السفن الناجية المتخلفة وفيها القليل جداً من الخيالة، وما لا يزيد عن ألفي راجل، واثنين من الفيلة فحسب.

وسار (پيروس) الى تارنتوم فوراً بهذه القوة، وكان (كينياس) قد استخبر بمقدمه، فخرج الى لقائه، ودخل المدينة. ولم يبهض كاهلهم بقيود على حرياتهم في مبدأ الامر ولم يقدم على ما يسيئ اليهم حتى اذا بلغ كل السفن الميناء واجتمع له القسم الأعظم من جيشه راح يفرض عليهم بعض السلطان ويذيقهم شيئاً من الشدّة مدركاً ان القاء حبلهم على غاربهم سيجعلهم

---

(١٨) ويدعى حالياً برأس ريزوتو Cape Rizznto ويقع جنوب شرق كالابريا.

اعجز من معونة غيرهم فما بالك بأنفسهم! انه عند ذلك - سيتحمل عبء القتال برمته وينشغل في ميادين الحرب لأجلهم بينما يبقون هم في منازلهم يستمتعون عين بالولائم والحمامات وغيرها من ضروب الترف. ولذلك أمر باغلاق ابواب الملاعب والنوادي والمتنزهات العامة وهي ميادين قتالهم التي يحاربون فيها بشقشقه اللسان والثرثرة العابثة! ثم منع الاحتفالات بالأعياد، واقامة مجالس الشراب والمساخر والملاهي لأنها لاتناسب حالة الحرب. واستاقهم الى الخدمة العسكرية واظهر كل صرامة وقسوة في تجنيد المكلفين بالخدمة. مما الجأ الكثير من سكان المدينة الذين لم يعرفوا معنى للأوامر في حياتهم الى تركها قائلين: أن منعهم عما يريدون هو محض استرفاق واستعباد. ووردت الانباء بزحف (ليفينوس Lævinus) القنصل الروماني اليه بجيش جرار وهو يعيث سالباً في اراضي (لوقانيا) اثناء تقدمه. ومع أن قوات الحلف لم تلتحق بعد بقوات پيروس فانه لم يستطع البقاء ساكنا ازاء عدوّ اقترب منه الى هذا الحدّ فخرج عليه بجيشه، وارسل الى الرومان رسولاً يستفسرعما اذا كان في الامكان التوصل الى ازالة الخلاف بينهم وبين الايطاليين الاغريق قبل الإشتباك في القتال، وأن يكون هو حكماً ووسيطاً في ذلك؟ فرد (ليڤينوس) أن الرومان لا يريدونه وسيطاً ولا يخافونه عدواً. فتقدم (پيروس) منهم وعسكر في السهل بين مدينتي (پاندوسيا Pando-sia) و(هراقليا Heraclea) ليجد الرومان قد عسكروا على الضفة الأخرى من نهر (سيريس Siris) القريب. فخرج للاستطلاع ولما شاهد نظامهم، وكيفية وضعهم نقاط المراقبة، وطريقة عسكرتهم، عرته الدهشة والتفت إلى احد اصدقائه القريبين منه وقال له:

- إن هذا نظام البرابرة هذا يا (ميفاكليس) ليس بربرياً بمظهره وشكله. وسترى وشيكاً مالذي سيحققونه.

ثم استغرق في تأمل للموقف عميق. وقرر الانتظار ريثما تلتحق به قوات الحلف. وفي اثناء تلك الفترة قام بنشر وتركيز وحداته على طول ضفة النهر المواجهة للرومان خوفاً من محاولتهم عبوره اليهم استباقاً للقوات التي كان ينتظرها وصح ما توقعه فقد عجل الرومان بسوق المشاة الى الضفة الأخرى من مخاضات ممكنة، وبعبور الخيالة من عدة نقاط اخرى لإرغام الاغريق على الإنسحاب خوف تطويقهم من كل الجهات. وادرك (پيروس) خطتهم فزاد عجباً، وأمر قادة وحدات المشاة أن يصفوا قواتهم بنسق المعركة وان يبقوهم تحت انذار القتال، في حين برز الى الرومان المتقدمين بثلاثة الآف فارس يريد الاشتباك بهم اثناء العبور وهم مختلّو الصفوف مبعثرون. فوجد امامه جداراً هائلاً محكماً من التروس يزحف من الماء تتبعه الخيالة في اتمّ نظام. فما كان منه إلاّ أن اصدر أمره لقوته بالتجمع والتقارب في كتلة واحدة

وسار في الطليعة مهاجماً وهو بارزٌ للعيان بدروعه الفاخرة الجميلة، ومراده أن يكون معلوماً بأن شهرته لاتفوق ما هو قادر عليه من بطولات. ولم تمنعُه مشاركته الفعلية في القتال وهو مكشوف اليدين والجسم يصدّ عنه كل من يتصّدى له ببسالة، من قيادة المعركة بذهن وقاّد، وحنكةٍ لا يعتريها وهن وحضور بديهة لاتبارى كأنما هو خارج الميدان يراقب المعركة عن كثب ولم يثبت في موقع وكنت تراه يتنقل من نقطة اشتباك الى اخرى ليشد ازر من يحتاج الى عونٍ ازاء ضغط العدوّ. وفي غضون ذلك لاحظ (ليوناتوس Leonatus) المقدوني أحدَ الطليان يتعقب (پيروس) في روحاته وغدواته كأنه اتبع له من ظِلّه، وعيناه لاتريمان عنه، فنبّه (پيروس) اليه قائلاً:

- اترى يا مولاي ذلك البربريّ بحصانه الأسحم ذي القوائم البيض؟ يخيل لي انه يضمر شراً خطيراً لأنه لم يحول بصره عنك ولم يدعك تغيب عن رقابته كأن ليس في الدنيا غيرك يهتم به فكن منه على حذر يا سيدّي.

فأجاب (پيروس): لعمرك يا ليوناتوس، ان حكم القدر لا مناص منه، وما كتب للمرء سيلقاه حتماً. إنما كن على ثقة بان لا يظفر مني احد بطائل في حومة الوغى، لا هذا الإيطالي ولا غيره.

وفيما هما يتحدثان، الوى الايطالي بجواده فجأة نحو (پيروس) و صوب رمحه اليه وهاجمه فغاض سنان الرمح في احشاء جواد (پيروس) في الوقت الذي اخترق رمح (ليوناتوس) جسم جواد المهاجم فسقطا ميتين، واحاط رجال (پيروس) به وفتكوا بالايطالي بعد دفاعٍ مجيد عن نفسه. وكان من الضباط الكبار وهو من (فرنتانيا Frentania) ويدعى (أوپالشوس Opalcus).

هذا ما جعل (پيروس) يلتزم جانب الحذر. ولما وجد خيالته أعجز عن صَدّ الرومان، وقد انكفأت الى الخلف لشدة ضغط العدو قدّم مشاته الى زخم المعركة وتبادل شكة سلاحه ووشاحه مع (ميغاكليس) احد اصدقائه، متنكراً بها وهاجم الرومان فقابلوه واشتبكوا معاً. ومر وقت طويل دون ان يسفر القتال عن نتيجةٍ وقيل أنه أحصي سبع حركات كرٌ وفرٍ في خط القتال. كان استبداله سلاحه عاملاً هاماً في سلامته، إلاّ انه كاد يكون سبباً في الهزيمة وافلات النصر من يده. فقد حمل كثير من المقاتلين على (ميغاكليس) باعتباره (پيروس) وكان المدعوّ (دكسوس Dexous) اول من حماه بجرحه المميت، ثم عمد الى نزع خوذته ووشاحه وطار مسرعاً الى (ليڤينوس) يلوّح بهما صارخاً انه فتك (بپيروس). فطيف بالأسلاب على سائر الجنود الرومان فجنواً فرحاً وراحوا يهتفون ويزعقون غبطةً. في حين تفشى الرعب في الاغريق

وخارت عزائمهم حتى ادرك (پيروس) حقيقة الأمر فأسرع بجواده يخترق صفوف جيشه مكشوف الوجه رافع اليد معرّفاً اياهم بسلامته. أخيراً بدأت الفيلة تعمل عملها المدمِّر في صفوف الرومان وتوقع بهم الخسائر اذ كانت خيلهم تجفل منها قبل الدنوّ فتنكص على اعقابها براكبيها. وهنا اصدر (پيروس) أمراً بهجوم الخيالة الثساليين على مؤخرة المتقهقرين والحق بهم هزيمة نكراء وكبدّهم خسائر فادحة. ويؤكد (ديونيسيوس) أن قتلى الرومان في تلك الوقعة بلغ خمسة عشر الفاً. اما (هيرنيموس) فلا يرفع العدد الى اكثر من سبعة الآف. هذا ويذكر اولهما أن پيروس خسر ثلاثة عشر ألف قتيل، ويقدر ثانيهما ان خسائره لم ترتفع الى اربعة آلاف، إلاّ أن خسارته كانت لاتقدّر لانه فقد زهرة رجاله واعزّ اصدقائه فضلاً عن مجموعة من الضباط المحنكين كان قد وضع فيهم كل ثقته واعتمد عليهم اعتماداً تاماً. وعلى اية حال فقد تمكن من الاستيلاء على المعسكر الروماني الذي أخلوه منسحبين. ووضع يده على عدة مدن حليفة، واوقع نهباً في كل الاقاليم المجاورة. وواصل تقدمه حتى بات وهو لا يبعد عن العاصمة روما غير ثلاثين وخمسة اميال. وعلى اثر هذه المعركة انضمت اليه قوات اللوقانيّين والسامينيين المتخلفة. ولم يخلصوا من تأنيبه لتأخرهم عن اللحاق به. على انه كان طيب النفس منشرح الخاطر مرتفع المعنويات لما اصاب من نصرٍ عظيم على الجيش الروماني اللجب، بمعونة (التارنتيين) فحسب.

لم يقدم الرومان على عزل (ليڤينوس) من منصب القنصل. وقد ذُكر ان (كايّوس فابريشيوس) قال: «ان الايپروسيين لم يهزموا الرومان، وانما (پيروس) هزم (ليڤينوس)» معرضاً بان خسارتهم المعركة، ليس سببها تجردهم افتقارهم الى الشجاعة والاقدام، بل لسوء القيادة. على انهم سدواْ النقص في ملاك كتائبهم بطرفة عين، وجندوا عدداً كبيراً من الرجال، ولم تهن عزائمهم ولم نقل حماسة حديثهم عن الحرب. وهذا ما ملأ (پيروس) دهشةً وعجباً. وجعله يعاود جسّ بنض الرومان لعلهم يميلون الى المهادنة والصلح. فقد رأى أن لا قبل له قطّ بالاستيلاء على المدينة ونيل ظفر حاسم بجيش صغير كالجيش الذي يقوده. كذلك قدّر أن طلبه الصلح والصداقة بعد النصر الذي جازه هو أمر مشرف ينطوي على كرم نفسٍ. فبعث برسوله (كينياس) وحمّله عدة هدايا لزعماء الرومان وزوجاتهم، فأبوا جميعاً قبولها واجابوا رجالاً ونساءً إنهم مستعدون لارضاء الملك اذا ما تمّ عقد الصلح بصورة رسميّة. وراح (كينياس) يناقش مجلس الشيوخ متوسلاً بكل ما يملك من بلاغة وقوة عارضة، فلم يفلح معهم ولم يظفر بطائل منهم رغم ان (پيروس) عرض عليهم مما عرض اعادة جميع اسرى المعركة من دون فدية. ووعد ان يساعدهم في فتح سائر ايطاليا، ولم يطلب لنفسه لقاء ذلك غير صداقتهم، والأمن

والسلامة للتارنتيين. وعلى اية حال ظهر في البدء ميل من الاغلبية الى قبول الشروط وعقد الصلح بعد الهزيمة النكراء، ولخوفهم من هزيمة تالية على يد الطليان الذين انضموا الى (بيروس) الآن. وكان يوجد في روما رجل رفيع المقام يدعى (ابيوس كلوديوس)، اعتزل متاعب الحياة السياسية لتقدمه في السن وفقدان بصره. فلما تناهى اليه خبر مقترحات الملك وعلم باستعداد مجلس الشيوخ للتصويت على قبول الصلح المعروضة ثارت نفسه ولم يسعه الصمت والبقاء، فأمر خدمه بحمله على كرسي الى قاعة مجلس الشيوخ فساروا به مخترقين الفورم وعندما انزلوه عند باب المجلس هرع اليه ابناؤه واختانه واسندوه بأذرعتهم وحفّوا به وعاونوه الى الوصول الى الاجتماع. فسادسكون عام حال دخوله احتراماً لمقامه ومنزلته، ثم تحامل على نفسه ونهض والقى الكلمة الآتية:

«كنت حتى هذه الساعة دائم الشكوى والبثّ لحرماني بصري، وانه ليحزنني الآن ان لاّ اكون أصمّ فوق عماي هذا بعد سماعي القرارات غير المشرفة التي اتخذتموها بخصوص عقد الصلح. تلك القرارات التي سيكون من شأنها هدم مجدروما. اتراكم نسيتم قولكم الذي طبق آفاق الدنيا وسار مثلاً تتحدث به الركبان: «لو أن الاسكندر الكبير نزل برّ ايطاليا، واقدم على حربنا ونحن في عنفوان شبابنا واباؤنا في عز رجولتهم، لما كانت له تلك الشهرة التي يتمتع بها اليوم، ولا لقب القائد الذي لايغلب، بل كان سيواجه هنا أحد الأمرين: الهزيمة، أو لفظ أنفاسه هنا، وكلاهما مجدٌ زائد لروما»؟ انتم الآن تكشفون عن سخفٍ وحمق ليس إلاّ، بادعائكم الخوف من (المولوسيين) و(الخاونيين Chaonians) الذين كانوا دوماً فريسة سهلة للمقدونيين، وبرهبتكم من (بيروس) الذي لم يكن إلاّ خادماً وضيعاً لأحد حراس (الاسكندر) الخاصّين، قدم هذه البلاد متظاهراً بمساعدة الاغريق الذين يسكنون بيننا، في حين كان يريد الفرار من اعدائه في وطنه. شريد طريدٌ يجول في ايطاليا ومع هذا يتجرأ فيعدكم بفتحها بذلك الجيش الصغير الذي عجز عن الاحتفاظ لقائده بذلك الجزء الصغير من (مقدونيا) فاياكم وأقناع انفسكم بأن صداقته ومصالحته هما السبيل الوحيدة لاعادته من حيث أتى. ان هذه الوسيلة هي بالأحرى تمهيد وتشجيع لقدوم غزاة آخرين من هناك، يدفعهم اليكم استصغارهم لشانكم، واستسهال أمر اخضاعكم. هذا ما سيؤول اليه أمركم إن سَلمُ (بيروس) من العقاب على عدوانه، وخرج بغنيمةٍ لمساعدته (التارنتيين والسامنيين) في الضحك على ذقون الرومان!».

بعد أن فرغ (ابيرس) من كلامه. سرت الحماسة للحرب في كل النفوس، وصُرف (كينيلس) بالردّ التالي: «سيتفاوض الرومان مع (پيروس) في عقد ميثاق صداقة وتحالف إن شاء، عندما يسحب قواته من ايطاليا. اما اذا اختار البقاء بسلاحه وجيشه، فهم عازمون على مواصلة الحرب ضده بكلّ مالديهم من قوة، وإن حالفه الحظّ بالتغلب على ألف (ليڤينوس)». ولقد قيل أن (كينياس) ابدى اهتماماً كبيراً بدراسة اخلاق الرومان وعاداتهم درساً دقيقاً، وبتفهم اساليب ادارتهم شؤون الدولة والحكم اثناء قيامه بسفارته، كما انه أجرى احاديث عديدة مع ارقى طبقات مواطنيهم. وذكر (لپيروس) مما ذكر أن مجلس الشيوخ بدا في نظره اشبه بمجلس ملوك. واما عن عامة الشعب فقال أنهم سيقاتلون قتالاً شبيهاً بقتال الهيدرا (ليرنْويا Lernœa). فقد اكمل القنصل تعبئة جيش يبلغ عدده ضعف الجيش الأول. وهنالك اضعاف اضعاف هذا العدد من الرومان القادرين على حمل السلاح.

ثم اقبل اليه (كايوس فابريشيوس) سفيراً موفداً من الرومان للمفاوضة حول استعادة اسرى المعركة. ووصفه (كينياس) بالرجل العالي المقام الحسن السمعة المستقيم الخلق والجنديّ الفاضل الذي لايملك من حطام الدنيا شيئاً. فاستقبله (پيروس) بلطف جمّ وحاول بصورة خصوصية اقناعه بقبول مقدار من الذهب لا لحمله على عملٍ سيء وانما كما دعاها (پيروس) على سبيل الإكرام وحسن الضيافة. ولما رفض (فابريشيوس) الهدية لم يلّح عليه. ولكنه قرر أن يصيبه بالدهشة ويفلّ من غراب عزيمته في اليوم التالي. فلعلمه بأنه لم ير فيلاً في حياته أمر بواحدٍ من اضخمها فجيء به وهو كامل الدروع والتسليح ووُضع خلف السجف بينما هما يتبادلان الحديث. وباشارة منه نحي السجف جانبا وظهر رافعاً خرطومه فوق رأس (فابريشيوس) واطلق صيحة قبيحة منفرة، فأدار هذا رأسه بكلّ هدوء ووقار وقال لپيروس باسماً: لن يكون لأموال الامس، ولا لمفاخرة اليوم اي تأثير عليّ!

وكان ابرز مادار الحديث حوله عند العشاء، بلاد اليونان وفلاسفتها. وصادف أن انفسح المجال لكينياس للكلام عن (ابيقور Epicurus) ولشرح اراء تباعه حول الآلهة، والجمهورية، وغاية الحياة، وكيف أنه يجعل سعادة البشر الرئيسة في اللذة، ويصرف النظر عن الاهتمام بالشؤون العامة لكونها تحقيراً واهانةً للحياة الرغدة، وينزّه الآلهة عن اي احساس بالعطف او الغضب او الاهتمام بنا بأيّ شكل كان، ويرفعها الى حياة عاطلة حافلة بالملاذ والشهوات. وقبل ان ينتهي (كينياس) من حديثه هذا قاطعه (فابريشيوس) قائلاً بلهجة دعاء:

- اذن اضرع اليك يا هرقل؟ ان تدع (پيروس) والسامنيين يتمسكون بهذه الفكرة طوال ما هم في حرب معنا.

وادهشت (پيروس) حكمة الرجل ورزانته، وازداد رغبة في عقد صلح مع الرومان ونبذ الحرب ورجامنه شخصياً أن يقبل العيش معه في بلاده بمنصب رئيس وزرائه وكبير قواده، بعد احلال السلم، فأجاب (فابريشيوس) بكلّ وقار:

- لن يعود ذلك عليك بفائدة يا سيدّي، فإن اولئك الذين يجلوّنك ويعجبون بك سيفضلون حكمي لهم على حكمك عندما يجربونني.

هكذا كان (فابريشيوس)! واصغى (پيروس) الى جوابه هذا دون ان يعتريه غضبٌ او تنتابه سورة من سورات الحدة التي تنتاب الطغاة عادة. وظلّ يمتدح (فابريشيوس) ويثني عليه بين اصدقائه ومقربيه ويكبر فيه العقل والذكاء. وعهد اليه وحده بالأسرى على ان يعودوا الى آسريهم بعد زيارة اقربائهم واصدقائهم والاحتفال بعيد زحل - في حالة رفض مجلس الشيوخ الموافقة على الصلح، فتمّت اعادتهم بعد انقضاء العيد اذ فرض على كل متخلف عقوبة الموت.

بعد أن نصب (فابريشيوس) قنصلاً جاءه الى المعسكر رجل بخطاب من كبير اطباء الملك (پيروس) يعرض فيه أن يتولى القضاء على حياة سيده بالسمّ لقاء مكافأة مناسبة للعمل، فتنتهي الحرب ويزول الخطر عن الرومان. وكان (فابريشيوس) يكره النذالة فحمل القنصل الثاني زميله على أن يرسلا خطاباً الى (پيروس) على الفور لتحذيره من الغدر والخيانة وهذا هو فحواه:

«من (كايوس فابريشيوس)، و(كوينتوس إميليوس) القنصلين «الرومانيين الى (پيروس) الملك تحيةً وصحةً:

- يبدو انك اسأت الحكم بخصوص اصدقائك واعدائك على السواء؛ وستفهم بعد قراءة الخطاب الذي وُجه الينا وارسلناه الآن اليك، بانك الآن تخوض حرباً مع أناس شرفاء ذوي استقامة، وتثق باوغادٍ وحثالات. ونحن لا ننهي اليك بهذا اطلابا لمنة منك، وانما لئلا يتسبب ذهاب حياتك في لومنا، كأننا نحن الذين انهينا الحرب بالغدر والخديعة لعجزنا عن انهائها بالقوّة والحرب».

ما أن قرأ (پيروس) الرسالة حتى باشر التحقيق في المؤامرة وانزل العقاب بالطبيب. واطلق اسرى الرومان دون فديةٍ اعترافاً بجميلهم. وارسل (كينياس) ثانية للمفاوضة عنه في الصلح. على ان الرومان عدوّا اطلاق اسراهم دون فدية منّةً عظيمة جداً من عدوٍ، وجزاءً ضخماً لامتناع عن القيام بعمل وضيع شرير، فبادروا في الحال الى اطلاق عدد مساوٍ من اسرى التارنيين

والسامنيين. إلاّ انهم رفضوا فتح باب المفاوضة في السّلام وفي التحالف إلاّ اذا سحب (پيروس) قواته واسلحته من ارض ايطاليا واقلع الى (ايپيروس) بالسفن التي حملته اليها.

وانتهت الأمور بعد هذا الى وجوب خوض (پيروس) قتالاً آخر فبعد أن اصاب جنوده الراحة المنشودة، رفع معسكره وواجه الرومان بالقرب من مدينة (اسقلوم Asclum). فوجد صعاباً كثيرةً في تلك الأراضي الشّجراء التي لاتصلح لحركة الخيالة، وفي النهر القريب السريع المجرى. ولم تستطع الفيلة متابعة حركة المشاة لضيق رقعة الأرض. وبعد أن وقع كثير من القتلى والجرحى وضع الليل حداً للقتال، وفي اليوم التالي قرر (پيروس) تحويل ميدان القتال الى ارض متطامنة، واطلاق الفيلة الى مراكز احتشاد العدوّ فأمر وحدة من قواته بالسيطرة على تلك الأراضي الوعثاء التي جرت فوقها معركة أمس. وخلط حملة القسّي برماة المقاليع وزجهم بين الفيلة وتقدم بعزم شديد وصلابة، وبتشكيلة منضمّة على ابدع ترتيب. ولم يكن الرومان يملكون مزيّة الكرّ والفرّ في مواقعهم حسب ارادتهم ومتى ما شاؤوا مثل يوم امس، وارغموا على القتال الآحادي في ارض مستوية. وكانوا شديدي الاستعجال في ارغام مشاة العدو على التقهقر قبل أن تخفّ الفيلة لعونهم فراحوا يقاتلون بسيوفهم قتال المستميت امام رماح المقدونيين مسترخصين مهجهم غير مفكرين بغير القتل والطعن، دون ان يكترثوا بما يصيبهم وبعد قتال طويل عنيد، قيل أن اولّ من تزحزح من مواقعه هي الوحدات التي كان يقاتلها (پيروس) بشجاعة معدومة النظير. على أن تقهقرهم كان يعزى الى اندفاع الفيلة أساساً، فقد كانت قوتها كاسحة لم تجد معها بسالتهم وذكر انه كان اشبه بثورة البحر او بزلزال ارضيّ بحيث وجدوا ان الإنسحاب والحالة هذه - هو افضل من الموت بلاداع او فائدة واجدى من معاناة الأهوال والشدائد. وهكذا تراجعوا الى معسكرهم القريب. ويقول (هيرنيموس) انه سقط من الرومان ستة آلاف قتيل. وتشير مذكرات (پيروس) الشخصية، الى أن خسارته بلغت ثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسين قتيلاً. على ان (ديونيسيوس) لايورد تفاصيل ما عن المعركتين التي وقعتا بالقرب من (اسقلوم) ولا بصورة جازمة أن الدائرة دارت على الرومان فيهما. وكل مايذكره هو أنهما اشتبكا مرة واحدة حتى مغرب الشمس ثم ارغمهما الليل على الافتكاك كارهين، وأن (پيروس) أصيب بطعنة رمح في عضده. وأن (السامنيين) نهبوا اثقال (پيروس) وان مجموع القتلى من الجانبين يزيد على (١٥) ألفاً.

وتباعد الجيشان. وقيل أن (پيروس) اجاب على تهنئة احدهم بالنصر قائلاً: ان نصراً آخر مثل هذا سيقضي عليه القضاء المبرم! وقوله هذا يشير الى الخسارة الفادحة التي اصابته بقواته وفقده كل اصدقائه المقربين، وكبار ضباطه تقريباً. وعدم وجود من يسدّ مسدّهم. كما

رأى حلفاءه الطليان يتخلفون عنه في حين امتلأ معسكر الرومان حالاً برجال جدد. ولم تفتر عزائمهم قط ولم تثبط من شجاعتهم الخسائر التي حاقت بهم، وانما كسبوا من حنقهم هذا قوة جديدة ومعنوية لمواصلة الحرب.

وفي خضم هذه المتاعب وقع (پيروس) على آمال جديدة وانصرف الى مشاريع أخرى استأثرت باهتمامه. فقد قدم في تلك الفترة وفد من صقلية يعرض عليه مدن (اگرگنتوم) و(سيراقوسة) و(ليونيتي). ويطلب منه العون على طرد القرطاجنيين وانقاذ الجزيرة من حكم الطغاة، وجاء آخرون بانباء من اليونان تشير الى أن (پطليموس) الملقب (كيرانوس Cera-nus) قد قتل في معركة مع الغاليين وتمزق جيشه شرّ ممزق وان الوقت قد حان بشكل لامثيل له، لعرض نفسه على المقدونيين الذين باتوا بحاجة ماسة الى أمير. فراح يشكو من شذوذ الحظّ مرّ الشكوى لوضعه امامه فرصاً كثيرة لاشياء عظيمة في أن واحد. ولتفكيره بأن اضطلاعه بواحدة قد يحرمه من الثانية، اخذ يزن الأمور في ذهنه بكثير من القلق والشكّ. على انه وجد قضية صقلية احفاها بالاهتمام لما فيها من خير وما تتضمن من مشاريع عظيمة، لقرب افريقيا منها، فبادر الى ارسال (كينياس) كما كانت عادته. لعقد معاهدات مع المدن قبل القدوم اليها. ثم وضع حامية في (تارنتوم) خلافاً لرغبة اهلها الذين كانوا يريدون منه اما انجاز ما جاء لأجله ومواصلة الحرب معهم إما ترك المدينة كما وجدها. فلم يظفروا بجواب مرضٍ منه وانما أمرهم بالمحافظة على السكون وانتظار عودته ثم اقلع. ووصل صقلية ووجد الأمور فيها طبق ما اشتهتها نفسه واقرتها آماله، واستسلمت له المدن بكلّ رغبة. ولم يلق مقاومة كبيرة في المواضع التي كان يضطر إلى استعمال القوة فيها. فقد زحف بجيش قوامه ثلاثون ألف راجل والفان وخمسمائة فارس واسطول يبلغ تعداده مائتي سفينة وهزم الفنيقيين هزيمة ساحقة واجتاح كل الأقاليم الذي كانوا يسيطرون عليه. وكانت (ايريكس Eryx) أقوى المدن عندهم وامنعها بالحامية الكبيرة التي وضعوها فيها فعزم على فتحها عنوةً. ونهيأ الجيش للهجوم عليها وتقلد هو شكة سلاحه وبرز في طليعة قواته ونذر ومسرحيات وقرابين لهرقل اذا ما ابدى بطولة وحقق مأثرة في ذلك اليوم امام الاغريق الذين يعيشون في الجزيرة مما يليق بشرف محتده وحسن طالعه واعطي أمر الهجوم بنفير البوق وفرق البرابرة اشتاتاً بما قذفهم من الرماة ثم وضع السلالم على السور وكان أول الصاعدين اليه وظهر العدو باعداد كبيرة فدفع بهم الى الخلف والقى ببعضهم من اعلى السور عن الجانبين. وصرع بحد سيفه آخرين فتكدسوا حوله جثثا هامدة. ولم يصب بأقل خدش، ولهذا تعاظم رعب العدو منه. ولقد برهن بأوضح دليل على أن (هوميرس) كان مصيباً. ولم ينطق الأ بالحق

الصُراح حين قال: من دون كل الفضائل البشرية، يظهر الاقدام والعزم عادة في ساحة الأنجذاب الإلهي والانخطاف الربّاني. وبعد أن تم له الاستيلاء على المدينة، او في بنذوره لهرقل فقدم اعظم القرابين، وامر باقامة مختلف الألعاب والتمثيل المرسحي.

وكان يعيش الى جوار (مسينا) قوم من البرابرة يطلق عليهم إسم الـ(ماميريين Mamer-ites)، هؤلاء كانوا نكدا لحياة الاغريق هناك، ولم يدعوهم في راحة واخضعوا اعداداً كبيرة منهم للأتاوة. وكانوا كثيري العدد ذوي بأسٍ واقدام (ومن هذه الصفة جاء اسمهم، ومرادفه في اللغة اللاتينية معناه «المحاربون»)(*). فعمد (پيروس) الى القبض على جباة اموال الأتاوة هؤلاء وفتك بهم ثم هزمهم في موقعةٍ حربية ودك عدداً كبيراً من قلاعهم وتحكيماتهم. ولم ير القرطاجنيون بداً من مهادنته، وعرضوا عليه مبلغاً محدداً من المال الى جانب امداده بالسفن التي يحتاجها لقاء رضاه بعقد صلح، فأجابهم بكلّ وضوح وهو مازال ثملاً بآماله العظيمة المقبلة - ان ثم سبيلاً واحداً لا ثاني له الى الصداقة والتفاهم الحقيقي فيما بينهما، هو الجلاء التام عن صقلية والموافقة على جعل البحر الافريقي الحدود الفاصلة بينهم وبين الأغريق. وغرّه حسن خطّه كثيراً وزاده جبروتاً اعتزازه بقواته الجرارة. فجعل هدفه المباشر افريقيا وراء تلك الآمال التي حملته الى القدوم هنا. وكان يملك عدداً كبيراً من السفن الاّ انها ناقصة العدّة جداً فأخذ يجمع لها البحارة لا بأسلوب رقيق عادل مع المدن وانما باستخدام القوة الغاشمة والتحكم المستبد وتحت التهديد بانزال العقاب. ولما كانت معاملته للمدن قد امتازت في باديء الأمر بلطفٍ ورقة لا مزيد عليهما واستعداد للتفاهم ولين المعاملة مع الكلّ. فاذا بالزعيم الشعبي ينقلب الى طاغية مستبدٍ بتلك الاجراءات الصارمة وينعت بالغادر وناكر الجميل. ومهما يكن من امرٍ فقد تغاضوا عن هذه الأمور وقبلوا بها على مضضٍ كضرورة، وحقدوا عليه بصورة خاصة عندما بدأ يظهر شكه بـ(ثونون Thœnon) و(سوسيستراتوس Sosistratus) وهما ابرز رجلين في صقلية، وكانا صاحبي الدعوة له الى الجزيرة، ومسلمي المدن اليه عند قدومه وساعده الأيمن وعونه الاكبر في كل ما فعله منذ وصوله والآن ماعادا يستطيعان ان يكونا بقربه ولا ان يحتملا التغربَ بترك بلادهما. ثم انه لما انسحب (سوسيستراتوس) خوفاً منه، ولما اتهم (ثونون) بالتآمر مع زميله ونفذ فيه حكم الموت، تبدلت احواله تبدلاً مفاجئاً شاملاً لا تدريجياً ولا موضعياً. فقد تصاعد كرهه في المدن الى حَدّ لا مزيد عليه. وانثنى بعضها يناشد القرطاجنيين العون، واستنجد بعضها بالماميريين، ولحظ

(*) كلمة «مامير Mamer» هي الشكل القديم للفظة «مارس Mars». والماميريون اصلهم من المرتزقة الكامپانيين والاوسكانيين Oscans. وهم يتكلمون لهجة من اللهجات اللاتينية.

بيروس بوادر الثورة تعصف في كل ناحية، وتحسس شدة الرغبة في الانتقاض عليه والتكتل ضده. وفي تلك الاثناء وردته رسائل من (السامنيين والتارنتيين) الذين لحقت بهم عدة هزائم في ميادين القتال وعجزوا عن المحافظة على مدنهم في وجه صولات العدو - يطلبون منه العون بلجاجة واستماتة، فاتخذ من ذلك حجّة وغطاءً لتركه (صقلية)، لا هارباً او يائساً من تحقيق نجاح جيد، بل لعجزه في الواقع عن معالجة الموقف العصيب في الجزيرة التي كانت اشبه بالسفينة المكافحة في لجّة. اراد أن يتركها فالقى بنفسه على ايطاليا. وقيل أنه التفت الى الجزيرة قبيل ركوبه البحر وقال لمن يحيط به - يا له من ميدان قتال فسيح سنتركه ايها الاصدقاء للرومان والقرطاجنيين يصطرعون فيه.

وصدق ظنّه وتحقق ما تكهن به بعد فترة وجيزة من الزمن. وتحالف البرابرة ضدّه وهو في عرض البحر، وأرغم على قتال القرطاجنيين في الماء وفقد عدداً كبيراً من سفنه وافلت بالباقي وهبط برَّ ايطاليا. وكان يترصد قدومه ألفُ محارب (ماميري) عبروا البحر قبله وكمنوا له في شعب جبليّ وعرٍ، لخوفهم من قتاله في ارض منبسطة، واوقعوا الفوض في صفوف جيشه، وصرعوا فيلين من فيلته وفتكوا بجزء كبير من الساقة. وعندها برز اليهم بشخصه وهزمهم، بعد ان استهدف لخطر عظيم من رجال كهؤلاء رضعوا لبان الحرب صغاراً وتعودوا الاقدام والاستماتة فيها: فقد اصيب بجرح سيف في رأسه فانسحب من القتال فترةً، وهذا ما رفع من ثقة العدوّ بنفسه، وبرز احدهم مبتعداً مسافة عن أصحابه وراح ينادي (پيروس) نداء الغطريس المعتد بنفسه ويتحداه ان يخرج اليه اذا كان حياً. واخذ يخطر متباهياً بضخامة جرمه وبريق دروعه، فاخذت (پيروس) سورة من الغضب الجائح واندفع من بين حرسه كالوحش الهائج يشق طريقه الى متحديه بين جنوده والدماء تلطخ جسمه حتى بدا منظره مرعباً. ومادنامنه حتى عاجله بضربة سيف صاعقة على أم رأسه فنزل حد السيف فيه وشقه نصفين فكانت دليلاً على متانة حديد السلاح وقوة الساعد الذي هوى به، وبهذا اوقف اندفاع البرابرة، فقد صعقوا رهبةً وفرقاً وحكموا بأنه ليس من طينة البشر.

ثم واصل تقدمه من دون عائق وبلغ تارنتوم بعشرين ألف راجل وثلاثة آلاف فارس، عززها بنحبة ممتازة من المحاربين التارنتيين وتقدم فوراً من الرومان وكانوا معسكرين في أرض (السامنيين). فوجد هؤلاء يعانون الأمرين، من النكبات التي حلت بهم. حطمت معنويات قناصلهم كثرة الهزائم التي الحقها الرومان بهم، وامتلأت نفوسهم سخطاً وحنقاً على (پيروس) بسبب حملته الصقليّة، ولذلك لم يلتحق بجيشه الاّ عدد قليل منهم.

وقسم قواته الى قسمين ارسل احدهما الى (لوكانيا) لمناوشة القنصل المعسكر هناك، ومنعه

من الانتقال الى ميدان القتال لمساعدة زميله، وسار بالقسم الثاني يريد القنصل الروماني (مانيوس كيوريوس) الذي كان قد اختار لقواته افضل المواقع بالقرب من (بنفيتوم Bene-ventum) منتظراً انضمام قوات القنصل الثاني اليه، لأن الكهنة كانوا قد حذروه بما شاهدوا من العلامات النحسة، فقرر بناء على ذلك ان يبقى بلاحراك في مواقعه. فأسرع (پيروس) الى الانقضاض عليهم بخيرة رجاله واحسن فيلته، قبل ان تدركهم النجدة من القنصل الآخر. وزحف على معسكرهم في دجنة الليل، واضطر الى الدوران بقواته مخترقاً ارضاً كثيره الشجر، ولم يفدهم ضياؤهم فضلوا الطريق. فأمر (پيروس) بعقد مجلس حربٍ. وانقضى الليل وهم يتناقشون. وعند انفلاق الصبح لمحهم العدو في اثناء انحدارهم من المرتفعات. فقامت ضجة كبيرة في معسكر الرومان وساده الاضطراب الشديد. على ان القرابين التي قدمت اشارت الى نتائج طيبة، كما ان الزمن أملى عليهم قبول المعركة. ولهذا أخرج (مانيْوس) قطعاته من مواقعها الحصينة وهاجم طلائع قوات العدو فهزمها جميعاً. واوقع سائر جيش العدو في مأزق شديد الحراجة وقضى على عدد كبير من الجنود وأسر بعض الفيلة. وجرُّ هذا النجاح قوات (مانيوس) الى السهل المنبسط، وفيه نشبت معركة طاحنة اسفرت عن هزيمة جانبٍ من قوات العدوّ. لكنه وجد الفيلة تضغط على صفوفه ضغطاً شديداً وتنال منها، فاضطر الى سحب جميع قواته المهاجمة الى خنادقهم. واصدر أمراً للقطعات التي كانت قد تخلفت فيها بالانتفاض والقيام على حراستها والدفاع عنها، وكانت تتألف من قوة كبيرة تقف وراء التحصينات والموانع شاكية السلاح بصفوف كثيفة لايشكون تعباً. خرج هؤلاء من مواضعهم الحصينة وهاجموا الفيلة المتقدمة وارغموها على الانكفاء فدارت على اصحابها واحدثت أثناء ادبارها فوضى عظيمة واضطراباً شاملاً، واقبل النصر على الرومان ضامناً لهم التفوق في المستقبل. اذ ان المعارك التي كسبوها والمجهودات التي بذلوها بثت في نفوسهم شعور السؤدد والمنعة، وبهذا الشعور ماعتموا أن اخضعوا كل ايطاليا ثم ابسطوا سلطانهم على صقلية بعد زمن وجيز.

هكذا خابت آمال (پيروس) في ايطاليا وصقلية بعد ستّة أعوام من الحروب. ولم يفقده فشلُه اعتدادَه بنفسه، ولم ينل من عزمه وبسالته فتيلاً كل النوائب التي انصبت عليه. وبقي المفرد العلم بين كل امراء عصره وملوكه سواء في فنّ القيادة او في شجاعته الشخصية. الاّ انه كان يفقد بآماله الفاشلة الزائلة كلّ ما يكسبه في معاركهُ الفذة وبطولاته الرائعة، ويخسر كل ما يملكه بالسعي وراء تحقيق رغبات جديدة. واعتاد (انتيغونس) تشبيهه بلاعب زهر الفَرد: يرمي رميات ممتازة، ولا يعرف كيف يستخدمها لصالحه.

عـاد (پيروس) الى وطنه (ايپروس) بثمانيـة آلاف راجل وخمسمائة فـارس لاغير، وهو مـشغول البال بالبحث عن مغامرة عـسكرية جديدة لافتقاره الى المال الضروري لدفع مرتبات الجنود والانفـاق على الجـيش. وانضمّ اليـه بعض الغـاليين، فـأغـار على مـقـدونيـا وكـان (أنتيغـونس) ابن (ديمتريوس) ملكاً عليـها. ولم يقصـد من هذا غير النهب والسلب، لكن الأمال بدأت تداعب فخيلته في اغتنام مكاسب اعظم من مجرد الغنائم بعد اخضاعه عدداً من المدن والتحاق ألفين من المحاربين به. وباغت (انتيغونس) في شعب ضيق فـاوقع الفوضى في جيشه. إلاّ ان الغـاليين الذين كانوا ساقة الجيش صمدوا له وثبتـوا، فحصل اشتبـاك عنيفٌ قـضى فيه على القسم الاكبر منهم واستسلم له القائمون على الفيلة هم وحيواناتهم فركبه الطمع ورغب في استغلال حسن حظه واطرح جانب الرويّة والعقل، فـانقض على القسم الرئيس من الجيش المقدوني بتهورٍ واندفاعٍ، وكـان الخوف مستـوليا على العدو ونالت الخسائر من قوته كثيراً، فاستنكفوا عن القتال معه. وهنا رفع (پيروس) ذراعـه الى الأعلى وراح صوته منادياً كبـار ضبـاط المقدونيين وصغـارهم بأسمائهم فرداً فرداً، وبهذه الطريقة انحاز اليه كل مشاة (انتيغونس) فما كان من الملك المغلوب الا ان عمد الى الفرار متنكراً، وقد تجرد من ملكه خلا بعض المدن الساحلية.

وتبين (پيروس) ان ما حققه من نصر على الغـاليين يفوق مجداً كل ما حباه به الحظّ. فاوقف أنفس غنائمهم وافخرها على معبد (مينرڤا) إيتونس Itonis وخلد عمله بالكتابة الآتية:

> «ان (پيـروس) المنحـدر من نسل ملوك المولوسـيين يتـقـدم اليك ايتـهـا الربة الايتـونيـة بهـذه الدروع التي غنهـمـا مـن الغـاليين الشـجـعـان، عندمـا هرب (انتـيـغـونس) وكل مـقـاتليـه... لقد كـانت مـآثر (الاكـيـدي) البطوليـة مـعـروفـة منذ القديم، وليس اليوم او البارحة!»

بعـد هذا النصر الحربي، باشر پيروس في فـتح المدن. فاستـولى على (ايجي Ægae) وانزل فـيها كثيراً من النوائب ووضع فيها حامية من الغاليين بعضهم من عسكره. ليشبع نهمهم الى الغصب وتملك الأموال، فبادروا الى نبش قبور الملوك المدفوفين في المدينة وسلبوا الغفائس التي قبـرت معـهم، واخـرجوا العظام وبعـثروها ولم يبـدر من (پيروس) اي استنكار لهذا العـمل وتغـاض عنه اماً لانشغـاله في امور أخرى، او تـعـامى خوفـاً مما قد يجره عقـاب البرابرة من مضاعـفات وعـواقب. على أن المقدونيين كرهوا ذلك منه وندّدوا بتراخيـه. وفي الوقت الذي لم تستقرّ به الأحوال ولم تستتب له الأمور بدأ ببني قصـوراً من المشاريع ويعـقد الآمـال الجديدة. وعـرّض ساخراً (بانتـيغـونس) ووصفه بالرجل الذي لا يستـحي، لأنه ظلّ يلبس الارجوان، ولم

يستبدله بثياب الرجل الاعتيادي. ولما جاءه (كليونيموس Cleonymus) السپارطي وزين له الزحف على (لقيديمون) بادر بالموافقة. كان (كليونيموس) هذا، من نسل الملوك، لا يحظى في وطنه باي احترام او ثقة لميله الى الاستبداد والطغيان. وكان (اريوس Areus) وقتئذ ملكاً على البلاد. فانتهز (كليونيموس) الفرصة لأخذ ثأره واطفاء جذوة حقدة من نزاع قديم شهير مع المواطنين. وكان ايضاً قد تزوج وهو في اراذل العمر من سيدة صغيرة يجري في عروقها دم ملكي ذات جمال آسرٍ هي (خيلونيس Chilonis) بنت (ليوتيخيدس Leotychitedes)؛ ثم انها وقعت في حُبّ (اقروطاطوس Acrotatus) ابن (اريوس) الملك وهو شاب في معية الصبا. وهذا ما جعل زواج (كليونيموس) مضطرباً مخزياً، اذ لم يبق بين السپارطيين من يجهل مدى احتقار زوجه له. فانضمت مشكلته البيتية الى الحقد العام لتدفعه الى تحريض (پيروس) على دخول (سپارطا) فقدمها بجيش قوامه عشرون ألف راجل وألفان من الخيالة واربعة وعشرون فيلاً، وكشفت استعداداته الكبيرة بأن نيته ليس انتزاع العرش (لكليونيموس) بل لإخضاع كلّ الپيلوپونيسوس الى سلطانه. ولكنه أنكر الأمر انكاراً صريحاً عندما سأله سفراء (لقيديمون) الذين اعترضوه في (ميغالوپوليس) فأكد لهم انه ما جاء إلاّ لانقاذ المدن من استبداد (انتيغونس) وذكر لهم على سبيل المجاراة بأنه سيرسل صغار ابنائه الى (سپارطا) ليربّوا على الحياة السپارطية عندما يحين الوقت، ليكونوا افضل نشأة من سائر ابناء الملوك. بامثال هذه المزاعم كان يبدّد قلق من يلقاه في زحفه ويطيب الخواطر حتى اذا دخل (لاقونيا) بدأ يعيث في البلاد نهباً، ويجردها من خيراتها. ولما احتجّ السفراء على مباشرته في الحرب قبل اعلانها لهم اجاب قائلاً:

- نحن نعرف عنكم ايها السپارطيون أنكم لاتتكلمون مسبقاً عن امرٍ نويتم القيام به.

فانبرى (ماندروقليداس Mandroclidas) أحد السپارطيين الحاضرين وقال برطانته السپارطية الغليظة:

- إن كنتَ انتَ إلهاً، فلا يسعك ان تلحق بنا أذىً لأننا لم نخطيء بحق بشرٍ، ولم نؤذ احداً. وان كنتَ بشرا فثمّ من هو أقوى منك.

وتوجه الى (لقيديمون) مباشرةً ونصحه (كليونيموس) باستعجال الهجوم حال وصوله خشية أن يسبب دخول الجنود المدينة ليلاً، النهب والسلب على حَدّ قوله. فاجاب (پيروس) انه يفضلّ الهجوم في الصباح الباكر، لأن حامية المدينة قليلة العدد وجنودها في غفلة عن زحفه المفاجيء، (وآريوس) غائب عن المدينة فقد رحل الى كريت لنجدة الگوريتينين. فكان ارجاؤه الهجوم سبب انقاذ المدينة؛ لقد استهان بدفاعها ومناعتها وخيل له انه لن يلقي مقاومة مهما

كانت من أهلها ايّ وقت هاجمها. فعسكر أمامها طول الليل. وكان انصار (كليونيموس) والهيلوت وخدم بيته قد استعدوا استعداداً عظيماً في منزله لاستقبال (پيروس) عند وقت العشاء. بينما عقد اهالي (لقيديمون) اجتماع شورى لبحث موضوع نقل النساء الى كريت بحراً. الاّ أن هذا الاقتراع رفض بالإجماع. ثم دخلت على المجتمعين (ارخيداميا Archida-mia) وهي ممسكة بسيفٍ وسألت باسم النساء جميعاً: هل يتوقع الرجال من النساء أن يرتضين العيش على انقاض سپارطا؟ ثم تقرر حفر خندق على هيئة خط مستقيم بين المدينة وبين معسكر العَدو. ودفن مركبات في قاعه حتى محاور عجلاتها وتثبيتها في امكنتها لتكون موانع لزحف الفيلة. وما أن باشر الرجال في ذلك حتى اقبلت النساء العازبات منهنّ والمتزوجات (أولياتهن بارديتهنّ الوحيدة، واخيراتهن وقد شددن اثوابهنّ كالأنطقة تحت صُدُرهن) ورحن يساعدن كبار السنّ في حفر الخندق. أما الشبان الذين كانوا سيحاربون العدوّ فقد تركوا لراحتهم وقامت النساء عنهن بحفر ثلث الخندق المطلوب منهم انجازه.

وذكر (فيلارخوس Phylarchus) ان عرضه بلغ ستة كيوبيتات وعمقه أربعةً وطوله ثمانمائة قدم، على أنّ (هيرنيموس) يجعله أقلّ طولاً من هذا. وبدأ تحرك العدوّ عند فلق الصبح فجاءت النساء بالسلاح للشبان وعهدن اليهم بالدفاع عن الخندق والمحافظة عنه مهما كلّف الأمر. فمن حسن حظهم ان ينتصروا على مشهد من ابناء قومهم، أو أن ينالوا شرف الموت بين اذرعة امهاتهم وزوجاتهم وهو مجدٌ خليق بالسپارطيين والحق يقال. اماّ (خيلونيوس) فقد رجعت الى دارها وفي عنقها حبلٌ بشكل الشوطة مشيرة بهذا الى تفضيلها الموت على الوقوع في يد (كيلونيموس) زوجها اذا قدر له دخول المدينة منتصراً.

واتقضّ (پيروس) على رأس مشاته يريد أن يشق طريقه عنوةً خلال ثغرة من تروس السپارطيين المتلاصقة في صفٍ منيع امامه، ثم عبور الخندق وكان عسيراً لأن عملية الحفر جعلت التربة هشة لا تتحمل ثقل اقدام الجنود. وخرج ابنه (بطليموس) على رأس ألفين من الغاليين ونخبة من المحاربين (الخاوينين) يروم الالتفاف حول الخندق، والوصول الى مواضع دفن المركبات لإخراجها. الاّ أن تثبيتها متقاربةً ودفنها الى عمق كبيرٍ عرقل مروره، كما ان دفاع اللقيديمونيين المستميت كان مصدر ازعاج كبير له. على أن الغاليين تمكنوا من انتشال المركبات وطفقوا يسحبونها نحو النهر. وهنا لاحظ (اقروطاطوس) الفتى مدى الخطر الذي سيتعرضون له بعد زوال هذه الموانع فخرج من المدينة على رأس ثلاثمائة من الجنود، وقام بحركة التفاف حول (بطليموس) دون ان يدري، مستفيداً من انحدار الارض ثم انقض على مؤخرته فارغمه على التقهقر، ودفع احدهما بالآخر الى الخندق واشتبكوا بين المركبات. اخيرا

انسحب العدوّ بعد أن مني بكثير من الخسائر ولاقى الأهوال. وأطلّ الشيوخ والنساء على (اقروطاطوس) وهو يعود مُنتصراً ليحتل مواقعه في المدينة، وهو مصطبغ بالدماء وحشيّ المظهر مستوفز الحركة، وبدا في انظار السپارطيات اطول قامةً وأجمل وجهاً وحسدن (خيلونيس) على هذا الحبيب اللائق. وتبعه بعض الرجال الكهول وهو يقولون له بصوت جهوري:

- واصل يا (اقروطاطوس) وكن سعيداً مع (خيلونيس) وانجب منها ابناء شجعان لسپارطا.

وزجّ (پيروس) نفسه في اشد مواطن القتال خطراً. وحارب كثير من السپارطيين باستماتة وبسالة خارقة ولاسيمّا (فيلليوس Phyllius) الذي تفرّد بما أبداه من شجاعة معدومة النظير وبفتكه بعدد كبير من المهاجمين. ولما وجد قواه تزايله وانه على وشك السقوط لكثرة ما اصابه من جراح اخذ يتراجع شيئا فشيئاً محتمياً برفيق له ثم خرّ على ركبته بين إخوانه الجنود كل ذلك لئلا يُحرز الاعداء جثته. وانتهى قتال ذلك اليوم. ورأى (پيروس) في الحلم انه يقذف (لقيديمون) بالصواعق فيشغل فيها النار، وبلغ به السرور للمشهد حداً انه استيقظ وهو مأخوذ به، وأمر ضباطه أن يكملوا استعدادهم لهجوم ثانٍ، وقص رؤياه على اصدقائه قائلاً أنه أمرٌ سماوي له بأخذ المدينة عنوةً وامن اتباعه على قوله وهم في غاية العجب. إلاّ (ليسيماخوس) فانه لم يكن مسروراً بها وابدى تخوفه من أن تصيب تلك الصواعق محلات العبادة التي يجب ان تكون مصونةً. ولهذا يرى أن الآلهة تريد أن تمنعه بصورة غير مباشرة عن محاولة اخذ المدينة، وانها لاتقرّ عزمه. فقال (پيروس) ان هذا تعليل سخيف، ورجم بالغيب يصلح لتندّر الدهماء وانه على الجيش ان يجمعوا في راحات ايديهم قبضات سيوفهم ورأيهم معاً: «فهدف (پيروس) هو البشرى الوحيدة!»

ونهض وخرج الى جيشه فحشده امام الأسوار في صباح ذلك اليوم نفسه وامر بالهجوم، وابدى اللقيديمونيون دفاعاً باسلاً صامداً فآق كل ما أبدوه من قبل وكانت النسوة قريبات من خط القتال يساعدنهم في حمل سلاحهم ويأتين بالخبز والشراب لمن يحتاج منهم ويعنين بالجرحى. وحاول المقدونيون المهاجمون ردم الخندق وجاؤوا بمقادير كبير من الاتربة والقوها فوق الجثث والأسلحة المطروحة فطمردها. ولم تهن مقاومة اللقيديمونيين قط، وظهر (پيروس) على جناحهم مما يلي الخندق والمركبات الغارزة، منطلقاً نحو المدينة على صهوة حصانه. فصاح الرجال المتمركزون في تلك الجبهة واخذت النسوة يصرخن ويتراكضن، وپيروس يشق طريقه بعنفٍ ويُردى كل من يعترض سبيله، واصيبت بطن جواده بنبلة رشقه بها احد الكريتيين فقذف بپيروس الى الأرض وهو في تشنجات احتضاره فقد خرج في منزلق وساد الاضطراب من حوله

وشملتـهم، الفوضى، واندفع السبـارطيون الى امامٍ واحسنوا استـخدام مقذوفـهم من السلاح فـأجبروا العدو على التقـهقر. وبعدها عـمد (پيـروس) الى وقف القتـال في المواضع الأخرى متوهما بأن اللقيديمونيين باتوا على شفا الاستسلام اذ لم يبق بينهم من لم يصب بجرح واحدٍ على الأقل، فضـلاً عن كثرة عدد القتلى منهم في ذلك اليوم، إلاّ ان آلهـة حظّ المدينة، إمّا رضاءً منها على شجاعة المواطنين وتفانيـهم، وإما لأنها ارادت انه تظهر مدى تـأثير تدخلّها حتى في آخر مرحلةٍ واشدّها حراجةً، قررت ان تسرع الى نجدتهم وهم على الرمق الأخيـر ليس لديهم من أمل الاّ بصيص ضئيل، فارسلت اليهم (امينياس Aminias) الفيوكي أحد قـواد (انتيغونس) من (كورنث) بقوات من المرتزقـة، ثم ما ان وطئت اقدام هؤلاء ارض المدينة حتى وصلها (آريوس) الملك قادماً من (كريت) بألفين من المحاربين. وعندها قفلت النساء عائدات الى بيوتهنّ بعد ان انتـفت ضرورة مشاركتـهن في القتـال. كذلك تمّ تسريح كل الذكور الذين دعت الحاجة الى تجنيدهم وهم دون سنّ الخدمة العسكرية. واستعد الباقون (لپيروس).

انه هذه النجدات التي عززت قوات المدينة ضاعفت من حماسة پيروس وثبت في نفسه المزيد من الطموح والرغبة في اخضاع المدينة بالقوة، عكس ما هو متوقع، الاّ أن آماله باءت بالفشل الذريع وراحت الخسائر تترى عليه يومياً. فاضطر الى رفع الحصار عن المدينة وانطلق بجيشه في ارجاء البلاد يعيث سلباً ونهباً. لكن القدر المحتوم كان له بالمرصاد. فقد حدث نزاعٌ خطير في (ارغـوس) بين (ارسطيـاس) و(ارسطيپوس Aristippus) وهما زعـيمان من سراة المدينة، فلما قررّ ثانيـهما استغلال صداقته (لانتيغونس) باستقدامه، عمد الآخر الى دعوة (پيروس) للغرض عـينه كيداً لخصمه. وكنّا قد عهدنا (بپيروس) أن يبني الآمال فوق الآمال ولا يردّ اية فـرصـة تعنّ له منهـا، وان ينظر الى انتـصاراته السـابقة بمثابة توطئات للمـزيد منهـا، ويعّد نكساته مجردّ اخطاء قابلة للتصحيح بمغامرات جديدة. وان لا يسمح للهزيمة او النصر بأن يحددا من نشاطه في اثارة المتاعب لنفسه او تلقيها من عدوه، فلذلك لم يتردد في قبول الدعوة والسير الى (ارغـوس). فلحق (أريوس) بمؤخرته ونصب له الكمائن وتعرض له في مواقع منيعة حيث تكون الطرق وعثاء صعبة. فاوقع خسائر جسيمة بساقتـه المؤلفة من الغـاليين والمولوسيّين. ووجد احد الكهنة اثناء تقريب الاضاحي أن كبد الذبيحه مشوهة فـاتخذها فـألاً سيئاً وتنبأ لپيروس بأن هذا نذير بموت احد اقربائه الأدنين. الاّ انه نسي تلك النبوءة وسط انشغاله في المحافظة على مؤخرته التي تتعرض لهجمات العدوّ المستمرة، وبعث لنجدتها بفرقة من حرسه يقودها ابنه (بطليموس) بينما أشرف بنفسه على اخراج القسم الأكبر من المضيق بسرعةٍ في حين اشتد سعير القتال حيث ابنه (بطليموس)، الذي اشتبك مع افضل

محاربي اللقيديمونيين بقيادة (ايڤالكس Evalcus). وفي تلك الاثناء تقدم رجل ضخم الجرم سريع القدم يدعى (اوريسّوس Oryssus) من بلدة (آپتيرا Aptera) في كريت حتى حاذى الأمير الفتى من جانب وهو منشغل عنه في قتال شديد، وعاجله بطعنة جندلته، وبموته انفضّ جنودهُ من حوله مولين الأدبار فلحقت بهم الخيالة اللقيديمونية وصرعت عدداً كبيراً منهم حتى انتهت الى السهل المنبسط، تجد نفسها ملتحمة بقوات العدوّ دون ان تدري، وهي مكشوفة لا تحميها المشاة، فانبرى لهم (پيروس) بفرسان المولوسيين وقد طارت نفسه شفاعاً لمقتل ابنه وامتلأ قلبه حقداً، وهجم على رأس قواته فاشفى غلّه من دم اللقيديمونيين ومهجهم كالعهد به دائما. على ان شجاعته التي لم يقف أمامها شيء اتخذت الآن طابعاً مرعباً رهيباً، وفيما هو يحتث جواده الى (ايڤالكس) كاد هذا يبتر يده الممسكة بالاعنة لو لم يحد عنها قليلاً. فسقطت الضربة على سيور الاعنة وقطعتها وفي تلك اللحظة وجد سنان رمح پيروس مكانه في احشاء (ايڤالكس). هوى پيروس عن صهوة الحصان لكنه وقف على قدميه واستمر يجبذل من يلقاه من الصناديد والابطال الذين تكأ كاؤا حول جثة ايڤالكس. وكانت خسارة سپارطا به فادحة جداً في هذه اللحظة وبعد أن وضعت الحرب اوزارها. وسببها هو حقد القادة الشخصي ورغبتهم في اطفاء جذوة غليلهم ليس غير.

قدم (پيروس) القرابين عن روح ابنه، وخاض غمار معركة مجيدة تكريماً لجنازته وبعد أن نفّس كثيراً عن كربه في ضرب العدو ضربات موجعة، وأصل السير نحو (ارغوس) ووردته ابناء عن عسكرة (انتيغونس) في المرتفعات القريبة من (ناوپليا Nauplia) وفي صباح اليوم التالي من وصوله، بعث بمنادٍ الى معسكر (انتيغونس) يدعوه الى النزول من المرتفعات ومبارزته على المملكة ونعته بالوغد السافل. فأجاب (انتيغونس) بقوله أن الزمن والسلاح هما اللذان يحددان تصرفاته، واذا كان (پيروس) يريدان يستعجل حَيْنَهُ فثم طرق عديدة أخرى كفيلة بالقضاء عليه. ووفد على الملكين سفراء من (ارغوس) يطلبون منهما الانسحاب معاً وافساح المجال للمدينة في الابقاء على صداقتهما من غير وقوعها في يد احدهما. فوافق (انتيغونس) وارسل ابنه الى الأرغوسيين رهينةً ودليلاً على صدق نواياه، ولكن پيروس لم يرسل رهينة مع انه وافق على الانسحاب، وهذا ما جعل أمره موضع شكٍّ. ونزلت في تلك الفترة نبوءة (لپيروس) تلفت النظر، فإن رؤوس الثيران التي قُربت بدت وهي بعيدة عن الجثث - وكأنها تخرج ألسنتها وتلطع حناجرها المجزورة. وفي مدينة (ارغوس) اندفعت كاهنة (ابوللوليشيوس A. Lycius) الى خارج المعبد وهي تصيح باعلى صوتها انها شاهدت المدينة ملائ بالجثث وبالقتلى، وأن نسراً برز للقتال ثم غاب عن النظر فجأة كما ظهر.

تقدم (پيروس) من اسوار (ارغوس) في دجنة الليل فوجد الباب المسمى (باب داياميرس Diamperes) مفتوحاً لهم بسعي (ارسطياس)، وبقي امره مستوراً مدة كافية لدخول كل قطعاته الغالية واحتلال الساحة العمومية. الاّ ان الرتاج كان واطئاً لا يسمح بدخول الفيلة، فاضطروا الى انزال الابراج عن ظهورها، ثم اعادوا تثبيتها بعد دخولها، بصورة غير متقنة بسبب الظلام الحالك. وهكذا تبدد الوقت الثمين وانتبه اهل المدينة الى ما جرى فتناذروا واخذوا يتراكضون بعضهم الى الحصن الرئيس (آسپيس Aspis) وبعضهم الى غيره من المواضع الدفاعية المحصنة. وبعثوا يستنجدون (بانتيغونس) فتقدم هذا حتى بات على مسافة قريبة منها ثم توقف وارسل الى المدينة عدداً من كبار ضباطه وابنه على رأس قوة جسيمة، وخفّ (آريوس) ايضاً بالفٍ من الكريتيين وعدد من ابرز صناديد السپارطيين فانقضوا جميعاً على الغاليين، فمزقوا صفوفهم وشتتوا شملهم. ودخل (پيروس) من جهة قريبة (للكيلاربيس Cylarabis) بضجةٍ وصراخٍ ولما رجّع الغاليون الصراخ لاحظ أنه ضعيف يشبه صوت من يعاني شدّة وضغطاً مرهقاً فاندفع الى الأمام بسرعة يتقدم فرسانه لكنه ارغم على السير ببطء وحذر بسبب سواقي تصريف الماء والبالوعات التي تملأ شوارع المدينة. ثم حفّ الغموض المطلق بهذا القتال الليلي ولم يعد احد يدري ما يجري على وجه الدقة. وتعذر اصدار الاوامر او تطبيقها ووقعت ملابسات كثيرة وعدة اصطدامات دموية في الشوارع الضيقة، وبات فن القيادة في خبر كان ولم يبق للخبر والتجارب نفع في الظلام ووسط الضجة والزحام. وواصل الفريقان اشتباكهما دون نتيجة وكلاهما ينتظر ضوء النهار. وشاهد (پيروس) على اول خيوط الفجر حصن (اسپيس) حاشداً بقوات العدو. فشاع فيه القلق ولفت نظره من بين مختلف التماثيل القائمة في الساحة العمومية، تمثالَ ذئب وثورٍ من النحاس يمثلهما وهما يتحفزان للصراع فصعق من هول المفاجئة وحكم الصدف متذكراً النبوّة الماضية التي ربطت انتهاء اجله المحتوم برؤيته ذئباً يقاتل ثوراً! يقول الارغوسيون ان هذا التمثال كان قد اقيم تخليداً لحادثة وقعت في المدينة منذ زمن سحيق: عندما نزل (داناووس Danaus) برّ البلاد لأول مرة بالقرب من (الپيراميا Pyramia) في (ثرياتيس Thyreatis) لمح وهو في طريقه الى ارغوس. ذئباً يصول على ثورٍ، فقدرّ لنفسه أن الذئب يمثله (لأنه وهو الغريب يفعل مثل فعله بالانتقاض على اهل البلاد). وظلّ يرقب نتيجة الصراع حتى كتبت الغلبة للذئب، فنذر نذوراً (لاپوللوليشيوس) وانقض على المدينة فانتصر وطرد ملكها (گيلانور Gelanor) واقام في مكانه حزباً حاكماً. هذا هو السبب في اقامة التمثالين.

انتاب (پيروس) كرب شديدٌ لما رأى وادرك أنه لن ينجح في اي مسعى له، وفضل

الانسحاب من المدينة. ولخوفه من ضيق الباب. بعث برسول الى ابنه (هيلينوس) الذي كان قد تركه بقسم كبير من الجيش خارج المدينة - يأمره بالقدوم وهدم جزء من السور ومعاونته في عملية الانسحاب من المدن بمشاغلة العدوّ اذا اشتدّ ضغطه عليهم، لكن العجلة والاضطراب اللذين سادا الموقف ادّى بالرسول الى ابلاغ الأمر بصورة غامضة فاختلط الأمر على الأمير الفتى، وساق وهو في حيرته افضل جنوده وما تبقى من الفيلة الى داخل المدينة فولج الأبواب لمساعدة ابيه وكان (پيروس) وقتئذ قد قطع مرحلة كبيرة في انسحابه فقد قدمت له الساحة العامة رقعة واسعة لتنظيم التقهقر والقتال ونجح مرات عديدة في صدّ كرأت العدوّ عليه، ولما ارغم على اخلاء الساحة والتسرب في الشارع الضيق المؤدي الى الباب الخارجي اشتبك بالنجدة التي جاءته من الجهة المعاكسة ولم يسمع هؤلاء نداءه بالكفّ عن القتال والانسحاب معه. أما الذين سمعوه ووعوا أمره وهموا بالرجوع فقد دفعتهم الى الأمام موجة من رفاقهم الذين استمروا يتدفقون كالسيل من باب السور وفي تلك الاثناء هوى اضخم الفيلة على حينيه امام رتاج السوّر وظلت تنأم نئيماً هادراً وهي مستلقية تسدّ الطريق على الخارجين. وكان ثم فيلٌ يدعى (نيقون Nicon) قد دخل المدينة بالأول. سقط من فوق ظهره قائده بعد ان اثخن جراحاً، فاندفع نحو المتقهقرين يطأهم هم والاعداء ويرفعهم ويقذف بهم بعضهم فوق بعض، حتى وجد صاحبه المصاب فرفعه بخرطومه الى نابيه وعاد يصول بوحشيةٍ ليطء كل من يعترض سبيله. واسقط في يد الجميع واختلط الحابل والنابل واشتد الزحام والمدافعة فانحصر الكلّ وتسمروا والتصقوا وكأنهم كتلة واحدة ملتحمة تميل برمتها وتهتز ذات اليمين وذات الشمال ولا تقوى على عمل شيء ازاء العدوّ سواء في ذلك المهاجم منه في المؤخرة أو المتقرب بين الكتلة نفسها. إلاّ أن الضرر الأعظم كان يأتيهم من أنفسهم فكلّ من اشهر سيفه أو اشرع رمحه تعذر عليه اعادته الى غمده او جعبته فكانوا يصيبون بها رفاقهم عن غير قصدٍ حين ملامسة احدهم الآخر.

لما رأى (پيروس) تفاقم العاصفة الحائجة التي تسفّ على جيشه وايقن بالنهاية نزع تاجه وكان يضعه فوق الخوذة ليتميز به، ودفع به الى أقرب الواقفين ووضع ثقته بقوة حصانه واندفع به الى اكثر مواضع العدوّ احتشاداً. واصيب في صدره بطعنة رمح غير بليغة خرقت درعه لكنها لم تمنعه عن التحول الى الطّاعن، وكان ارغوسياً وابنا لأمّ عجوزٍ معدمة، لايتميزّ بنسب عريق. وكانت الأم تتابع سير المعركة من سطح أحد المنازل مع نسوةٍ أخريات فرأت (پيروس) يحمل على ابنها فاستولى عليها الخوف من الخطر الذي يتعرض له وتناولت آجرّة بكلتا يديها وألقتها على پيروس فهوت على خوذته وعطبت الفقرات العظمية لقاعدة الرقة ففقد الوعى

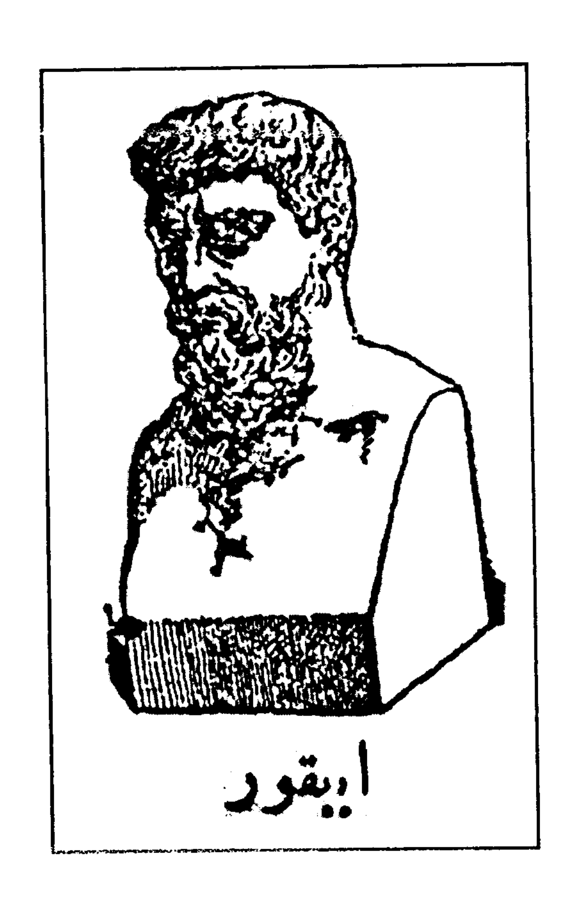
وعميت عيناه وافلت الزمام من يده وسقط على الأرض قرب ضريح (لِقيمنيوس Licymnius) ولم يعرف الجنود هويته الاّ أن (زوپيروس) أحدهم وهو من جيش انتيغونس، أسرع اليه برفقة اثنين او ثلاثة آخرين. فتفرس فيه مليا ولما تثبت من هويته سحبه الى باب أحد المنازل القريبة وقد أخذ يفيق بعض الشيء من الضربة. ثم انتضى (زوپيروس) سيفه الإيلليري وهم بقطع رأسه، فخزره (پيروس) بنظرة صاعقة ارتجف لها واشاعت الخوف في نفسه وراحت يداه ترتجفان برهةً. واعاد المحاولة لقطع رأسه وهو مضطرب وجل فلم يفلح وهوت ضربة السيف على فحه وذقنه، وعالج كثيراً حتى اتمّ احتزاز رأسه.

وسرعان ما ذاع الخبر وسرى بين الجنود، فأسرع (آلقيونيوس Alcyoneus) الى الموضع لالقاء نظرة على الرأس والتاكد من الخبر. ثم أخذه وركب جواده مسرعاً الى والده. وألقاه تحت قدميه وهو جلس مع بعض اصحابه. فتطلع اليه (انتيغونس) ولما وعرفه، نحىّ ابنه عنه بحركة غاضبة عنيفة وضربه بعكازه مطلقاً عليه صفتي الشرير والبربري، وستر عينيه بردائه وبكى مستعيداً ذكرى ابيه وجدّه البطلين، واحداثاً لأسرته اسهمت فيها يد القدر باداور متقلبة كثيرة. ثم أمر ان يحرق الرأس مع الجثة بالاكرام الديني الواجب.

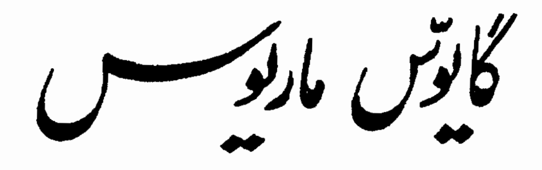
بعد ذلك عثر (آلقيونيوس) على (هيلينوس) ابن (پيروس) وهو متنكر بثيابٍ رثة ومعطف بالٍ، فعامله باحترامٍ كبير وجاء به الى ابيه فلما وقع نظره عليه التفت الى ابنه وقال:

- هذا العمل يا ابني هو افضل من ذلك. ومع هذا فإنك لم تنجزه على الوجه الأكمل، لأنك تركته بهذه الثياب الرثة فالحقت عاراً باولئك الذين ظهروا الآن منتصرين.

وعامل (هيلينوس) بعطف وتكريم جدير بأمير واعاده الى عرش مملكة ابيه. وكذلك خصّ كلّ قادة (پيروس) الكبار بلطفه ومعاملته الكريمة بعد ان وقع معسكره وكل جيشه في يده.



ابيقور



GAIUS MARIUS

157 – 86



اننا لانعرف إسماً ثالثاً لكايّوس ماريوس، كما نجهل (لكوينتوس سرطوريوس Quintus Sertorius) الذي حكم اسپانيا، او (لوشيوس مومّيوس Lucius Mummius) الذي دَمرٌ (كورنث) وإنه كان هذا الآخير قد لقب بـ(آخانيكوس Achaicus) بسبب فتوحاته مثلما لُقب (سكيپيو) بـ(افريقانوس). ومن هنا يستخلص (پوسيدونيوس) حجته الكبرى في تخطئة اولئك الذين يرون أن الأسم الثالث هو اسم العَلَم عند الرومان، كقولنا: «كاميللوس، ومارچللوس، وكاتو... الخ» فلا يكون في قضيتنا هنا اسم علم على الإطلاق لاولئك الذين لا يُعرفون باسم ثالث حسب رأيه، وقد فاته أن منطقه هذا يجرّه حتماً إلى تجريد النساء من اسمائهن الأولى تجريداً تاماً، فلا يبقى لهنَّ ما ينادين به، (اي الإسم الذي يتصوره اسمَ عَلَم عند الرومان) أماً عن الاسمين آلاخرين فاولهما هو اسم الأسرة ويعرف به كل افرادها كقولنا (پومپي Pompii و، مانْلي Manlii و، كورنيلي Cornelii). مثلما يطلق عندنا نحن الأغريق على أسرتي (هيراقليدوي Heraclidœ وپيلوپيدوي Pelopidœ)، واماً ثالث الاسماء او الالقاب فهو نعت لطابع خلقي في المسمى، او لعمل تميز به، أو لمظهرٍ جسماني فيه، كقولنا (ماكرنيوس Macrinus وتوركواتوس Torquatus وسيللا Sylla، مثلما هو عند الاغريق كقولهم (منيمون Mnemon وغرايپوس Grypus وكاللينيكوس Callinieus). وعلى اية حال فإن شواذ العادة في اطلاق الاسماء قد تفتح لنا موضوع حديث طويل إن شئنا خوضه.

هنالك منحوتة حجرية تمثلّ (ماريوس) في رافنّا Ravenna ببلاد الغال شاهدتها بنفسي وهي ذات ملامح تنطبق تمام انطباق على تلك الغلاظة والفظاظة التي عزيت اليه. لقد كان بطبيعته رجل حربٍ واقدام، أقرب طبعاً الى حياة المعسكر منه الى حياة المدينة، ولذلك تعذر عليه أن يخفف من غلواء طبعه عندما تولّى السلطة. وقيل انه لم يتدارس اللغة اليونانية ولم يستخدمها في أيّ موضوع هامٍ فقد كان يرى من السخف أن يخصصّ وقتاً لهذه الثقافة التي يتعهد أمرها معلمون لايزيدون عن عبيد بكثيرٍ. فمرة بعد موكب نصره الثاني أقام العاباً وملاهي على الطريقة اليونانية بمناسبة تكريس احد المعابد فقدم الى الملعب وجلس ثم خرج فوراً.

لقد اعتاد (أفلاطون) ان يقول لصديقه (گزينوقراطس) الفيلسوف الذي كانت صرامته وقسوته اكثر مما يجب: «اضرع اليك اي (گزينوقراطس Xenocrates) الفاضل أن تضحيّ لآلهة الرقّة»[1] وعلى هذا الاساس استطاع أحدهم اقناع (ماريوس) بعبادة «الميوزات» و«الغريسات» الاغريقية لما بلغ باعماله العظيمة التي لاتضاهى سواء الحربية منها والسلميّة - الى نتائج سيئة غير جديرة بالتقدير ولا جلب الخراب على نفسه وهو في شيخوخته القاسية الناقمة المندفعة بطموح أهوج انكد وجشع لايرتوي. على أن هذا سيتكشف فيما بعد بالتدريج عند سرد الوقائع.

ولد لأبوين كلاهما مغمور معوز، يقيمان أودهما بعمل اليوم وهو سَمّي ابيه، وأمه تدعى (فُولشينيا Fulcinia). وقضى فترة كبيرة من عمره قبل أن يرى ويتذوق ملاذّ المدينة. اذ انه شب في (كيرّياتون Cirrhœaton) وهي قرية من قرى اقليم (اربينوم Arpinum) وحياتها اذا قيست بمناعم المدينة ومباهجها - حياة خشنة غليظة إلاّ انها تتسق وتوائم الصرامة الرومانية الغابرة. وفي مبدأ الأمر خدم جندياً في الحرب ضد (الكلتيبيريين: Celtilerians) عندما حاصر (سكيپيو افريقانوس) مدينة (نومانتيا Numantia). وفيها برز على اقرانه جميعاً بالشجاعة أمام جنراله. ولفت اليه الانظار بتحمسه في اقتبال إصلاحات (سكيپيو) في جيشه الذي كاد يدمره الترف والملاذ. وقيل أيضاً أنه هاجم العدوّ وحده وهزمه على مشهدٍ من قائده، فنال بسبب ذلك كثيراً من التكريم. ومرةً في اثناء مأدبة جرى الحديث عن القادة فأنبرى أحد الحضّار يسأل (سكيپيو) (مدفوعاً أمّا برغبة حقيقية لمعرفة ذلك واما بقصد المداهنة والرياء): «هل سيقدر للرومان أن يحظوا بعده بقائدٍ مثله؟» فربت (سكيپيو) على كتف (ماريوس) الذي كان جالساً الى جانبه واجاب:

- ربّما هنا!

الى هذه الدرجة من الوضوح كانت الدلائل تشير الى عظمة مستقبل منذ مطلع شبابه. والى هذا الحدّ بلغت ملاحظة (سكيپيو) من الدقة، في تنبؤه بذلك المستقبل البعيد من مقدماته الأولية القريبة. إن عبارة (سكيپيو) هذه التي كانت أشبه بالنذير الالهي. حثتّ (ماريوس) ودفعته الى معترك الحياة السياسية اكثر من اي عامل آخر كما قيل لنا. ولقد اطلب وحاز منصب تريبيون الشعب بمعونة (كوشيليوس ميتلّلوس Cœcilius Metellus) الذي ينتسب الى أسرة تحدب عليه وعلى أبيه. وفي اثناء مزاولته منصبه هذا اصدر قانوناً لتنظيم التصويت يؤدي على ما يبدو الى التقليل من سلطة العظماء الذي يتولون شؤون المحاكم والأقضية،

(١) «Graces» آلهة اغريقية وهنّ ثلاث شقيقات، يمثلن السحّر والجمال (م. ت).

فعارض فيه (كوتّا Cotta) واقنع مجلس الشيوخ باصدار مرسوم يبطل حكمه واستدعى (ماريوس) لاستجوابه عنه. على انه حضر بنفسه الى مجلس الشيوخ حين أعُدّ قرار الإبطال. ولم يكن سلوكه هناك سلوك الشاب المستجد في ممارسة السلطة، او ذلك الذي حازها دون استحقاق. ولكنه انبرى (لكوتّا) بكلّ تلك الشجاعة التي بررت أعماله التالية وهدده بايداعه السجن إن لم يسحب القرار. والتفت الى (ميتللوس) طالباً صوته فنهض هذا واعطى رأيه لصالح القنصل. فنادى (ماريوس) الضابط من الخارج وأمره بانه يقبض على (ميتللوس). فطلب هذا تدخلّ التريبيونات الآخرين، ولما لم يتقدم أحد لنصرته بادر مجلس الشيوخ الى سحب القرار حالاً. وخرج (ماريوس) من هذا بكسب مجيد للشعب وبمصادقة على قانونه وعُدّ بعدها شخصاً لا سبيل الى فَل غراب عزمه واقدامه. ومعارضاً لا تلين قناته لمجلس الشيوخ والمصلحة العامّة. على أنه سرعان ما فقد ثقه الشعب بعمل مضادٌ. فقد عارض بشدّة اقتراح توزيع القمح ونجح في أبطاله، وبذلك جعل نفسه مكرّما على السواء من الجهتين في عدم محاباته لأحدهما خلافاً لمصلحة الجمهور.

ورُشحّ بعد منصبه هذا، لوظيفة رئيس (الايديل)، وكان يوجد درجتان منها: الأولى هي (الكورول) والصفة مأخوذة من الكرسي ذي القوائم الملتوية الذي يجلسون عليه اثناء تأديتهم واجبات وظيفتهم. والصنف الثاني أدنى من الأول ويطلق على صاحبه عنوان «ايديل الشعب». فما أن تمّ اختيار الأول حتى اعطيت الأصوات الثاني. ووجد (ماريوس) أنه سيفشل في نيل المنصب الأهم على الراجح، فبادر الى تغيير ترشيحه الى المنصب الأدنى. ولكنه فشل في الحصول عليه ايضاً لما بدا عليه من لهفة وتكالب ولم تؤثر خيبته المزدوجة في ما سعى اليه اي تأثير، مع انها لم تحصل لأحدٍ قبله. اذ ما لبث بعدها بقليل أن سعى الى منصب (البريتور) وكاد يفشل، ثم وان كان قد جاء انتخابه آخر الجميع، فقد اتهم بالرشوة.

وكان السبب الأساس للشكّ في أمره، عبدُ لـ(كاسيوس ساباكو Cassius Sabaco) شوهد داخل السياج بين المصوّتين، وقد كان (ساباكو) صديقاً عزيزاً لماريوس، فلما استدعاه القضاة للشهادة امامهم، زعم انه كان عطشاناً بسبب الحرٌ فطلب من عبده أن يأتيه بماء بارد فجاءه بكوب ماءٍ ما أن شربه حتى انصرف. وقد طرد هذا الرجل من مجلس الشيوخ – السنصورون التالون جزاءً وفاقاً سواء لشهادة الزور التي أداها أو لسوء اخلاقه. وكان الشاهد الآخر الذي استدعي للإدلاء باقواله (كايوّس هرينّيوس Caius Herennius) فاعتذر بأن العادة لم تجر بسماع شهادة الپاترون (وهو الكلمة الرومانية التي تعني «الحامي» او «الولي») ضدّ مواليه وان القانون قد اعفاهم من هذا الواجب الصارم القاسي وان (ماريوس)

وأباه كانا دائماً موليين لأسرة (هرينّي Herenni) وعندما قبل القضاة بدفوعه، اعترض (ماريوس) بالذات وقال (لهرينيّوس) بأنه خرج عن موالاته له في اللحظة التي انتخب لمنصب الحاكم، وهي حجّة لا تقوم على سند صحيح بصورة مطلقة. فليس كلّ وظيفة تحرر الموالي وذريتهم من الوجائب المفروضة عليهم ازاء حماتهم. الاّ اولئك الذين عهد اليهم القانون بكرسيّ الكورول. وبغض النظر عن كُلّ هذا فإن القضيّة بدت سيئة عصيبة بعض الشيء ولم يجد من القضاة اي عطفٍ. لكن الاصوات تساوت في نهاية الأمر خلافاً لما كان متوقعاً تماماً - فبريء من التهمة.

ولم نيل شرفاً او تكريماً كثيراً اثناء قيامه بوظيفة البريتور. إلاّ انه ارسل واليا على اسبانيا القصوى بعدها. وقيل أنه قضى على اللصوص وقطاع الطرق واستأصل شافتهم وكانوا وباء فتاكا يعيث فساداً في الاقليم كله. وكانت العادات البربرية سائدة آنذاك والإسبان في ذلك العهد مازالوا ينظرون الى السرقة والسلب كمظهر من مظاهر الاقدام والبطولة. ولم يكن لديه في المدينة ما يصح اعتماده عليه من الغنى وقوة العارضة، وهما الوسيلتان اللتان تكفلان لكبار القوم النفوذ عند الشعب في ذلك العهد. إلاّ ان نشاطه الجمّ، وحماسته الى الجدّ والعمل وعيشته البسيطة كانت بحدّ ذاتها عوامل نفوذه وسبب رفع قدره عند الشعب، وضمنت له زيجة مشرّفة من (جوليا) التي تنتمي الى اسرة القياصرة الشهيرة، وابن عمّها هو قيصر الذي يعدّ من اعظم عظماء الرومان؛ وقد كان من اثر قرابتهما أن جعل من ماريوس قدوة ومثلاً له الى حد ما كما سيتبين لنا فيما بعد من سيرته.

واشاد الناس بمتانة خلق ماريوس وشدة احتماله. وقدم على الصفة الثانية برهاناً دامغاً بعملية جراحةٍ أجريت له. فقد كانت ساقاه تشكوان على ما يبدو من دماملٍ كثيرة، فكره ذلك ورغب في ازالة التشويه بوضع نفسه في يد طبيب جراحيّ. ومدّ احدى ساقيه دون أن يربط وتحمل بصمت اقسى الآلام اثناء الاستئصال ولم تتغير ملامحه او تصدر منه شكوى او آهة. ولكنه أبى الاستمرار عندما همّ الجراحي بالساق الأخرى وقال:

- أرى البرء من دائي لا يستحقّ كل هذا الألم.

وعين القنصل (كَيْكيليوس ميتللوس) جنرالاً في الحرب ضدّ (يوغورثا Jugurtha) في افريقيا فأخذ معه (ماريوس) بوظيفة رئيس اركان حرب. وهناك بدافع من رغبته في انجاز اعظم الأعمال، والنهوض بالوجائب مما يؤهله الى الشهرة والمجد الشخصيّ، لم يقم وزناً لأمجاد (ميتللوس) ولم يتحر خدمته كالآخرين، ولم يعز تشريفه بمنصب اركان الحرب الى (ميتللوس) وانما عزاه الى جده وحظه الذي زوّده بالفرصة المواتية وبمسرح للأعمال الجليلة،

فأبدى اقصى الشجاعة والاقدام في هذه الحرب وعنت له ضروب من المصاعب فلم ينكص عنها مهما بلغ من عظمها ولم يستحقر القيام باصغرها شأناً، وتفوق على اقرانه في حسن الرأي ودقة التنفيذ. وبارى الجنود العاديين في كدحهم، وعيشة التقشف ونال عندهم شعبية واسعة. فالحقيقة هي أن كل مساهمة طوعية من رجل كبير المقام في عمل كادح شعبيّ تنظر نظرة تقدير وتخفف من عناء العمل نفسه بقدر ما تجعله طيباً وتزيل عنه صفة الإرغام والجبر، وانه لمن أبدع المشاهد واسماها أن يرى الجنديّ الروماني قائده يتناول الصنف الذي يتناوله هو من الخبز، او ينام على فراش مماثل أو ينزل معه عاملاً في حفر خندق أو اقامة متراس. ان الجنود لا يتعلقون ولا يعجبون بمن يغدق عليهم النعم والأموال قدر ما يعجبون بمن يشاركهم المخاطر والجهود مشاركة فعلية. وبهذا يكون حبهم للقادة الذين ينزلون الى المشاركة في اعمالهم أمتن واشد من حبهم اولئك الذين يشجعونهم على البطالة والكسل.

وهكذا ظفر ماريوس بقلوب الجنود وملكها. ولم يطل به الزمن حتى رددت افريقيا وروما اصداء شهرته. وخرجت رسائل من الجيش المرابط، الى المسؤولين في الوطن توصي به وتشير الى ان الحرب في افريقيا لن تنتهي الى نتيجة حاسمة الاّ بانتخاب (كايوس ماريوس) قنصلاً. وكل هذا كان يسيء الى سمعة ميتللوس؛ واكثر ما اغاظه منه هو نكبة (توربيلليوس Turpillius). كان (توربيلليوس) هذا صديقاً حميماً عتيقاً لميتللوس توارثا الصداقة أباً عن جد، وقد وجد معه في الجيش الافريقي بمنصب قائد سلاح الهندسة بما فيه من حدادين ونجارين. وظلت صلتهما دائمة وعلاقتهما وثيقة. ثم عهد (لتوربيلليوس) بآمرية حامية (ڤيغا Vega) وهي مدينة كبيرة. فوضع ثقة عمياء في سكانها، واطلق لهم الحبل على الغارب مطمئناً الى ان معاملته الطيبة جداً لهم ستضمن اخلاصهم. وهكذا وقع في يد العدوّ دون ان يدري. فقد فتحوا لـ(يوغورتا) ابواب المدينة فدخلها إلاّ أنهم تشفعوا (لتوربيلليوس) فاطلقه (يوغورتا) سالماً دون أن يلحق به اي أذى، وهذا ما دفع الى اتهامه بالخيانة وتسليم المدينة للعدو. وكان (ماريوس) عضواً في المجلس العسكري الذي حاكمه. فلم يكتف أن يظهر التحامل العنيف والصرامة، بل راح يثير عليه معظم اعضاء المجلس. وهكذا اضطر (ميتللوس) كارها الى فرض حكم الموت وانفاذه فيه. وما عتمت الحقيقة ان انجلت وظهر زيف التهمة، وبينما خف الآخرون لمواساة ميتللوس الذي وقعت عليه المصيبة وقعاً مُراً راح (ماريوس) يفخر بين كل السرايا بلهجة جارحة وقحة بأنه هو الذي ورط (ميتللوس) في انفاذ حكم الموت بصديقه.

ولم ينكشف خلافهما للملأ حتى ذلك الحين. وذُكر أن ميتللوس قال في مجلس كان

ماريوس فيه، بلهجة مهينة:

- أنت يا سيدي تنوي مغادرتنا الى الوطن لترشح نفسك لمنصب القنصل ولا تريد الانتظار لتصبح قنصلاً مع ابني هذا؟

وكان ابن (ميتللوس) صبياً يافعاً في ذلك الوقت. على أن (ماريوس) كان شديد الاصرار على السفر، وبعد عدة تأخيرات فكّ من منصبه ولم يبق من موعد انتخاب القنصل غير اثني عشر يوماً. فقطع المسافة الطويلة بين المعسكر وميناء (اوتيكا Utica) بيومين وليلةٍ وهناك قرّب آلالهة قبل أن يركب البحر وقيل أن العرّاف اخبره بأن السماء ادخرت له حظاً سعيداً لا يصدق ولا يتوقعه أحدٌ. وبدأ (ماريوس) رحلته وهو منتعش الروح بهذه النبوؤة الطيبة انتعاشاً ليس بالقليل وقطع البحر في اربعة أيام وبريحٍ رخاء، واستقبله الشعب بفرح عظيم وجاء به الى الجمعية العامة احد التريبيونات فاعلن ترشيح نفسه وهاجم (ميتللوس) مهاجمة عنيفة من كل ناحية. ووعد الناخبين امّا ان يقضي على (يوغورثا) أو يأتي به حياً.

وتمّ انتخابه باكثرية ساحقة وحماسة، وبدأ في الحال في تجنيد المحاربين خلافاً للقانون والعُرف، فسجّل عبيداً واناساً معدمين، مما لم يقدم عليه احد من القادة السابقين، وانما كانوا يصرفون السلاح والعُدّة كما يمنحون خلافها من النعم والمكافآت بمثابة تكريم وتبريز لذوي المؤهلات المستحقين، وعلى هذا الأساس تكون ملكية المرء نوعاً من الضمان لحسن سلوكه. ولم تكن هذه الأسباب هي العامل الأوحد لاضطغان طبقة الأشراف له واضمار السوء. فقد ثار حقدهم عليه ببعض خطبه الغريطسة المتعالية، ذات اللهجة الجارحة الساخرة. فقد كان يقول مثلاً: أنه فاز بمنصب القنصل كما يفوز بغنيمة حربٍ. وانتزعها من خنوثة المواطنين الأغنياء ذوي الحسب والأصل العريق! وقال لعامة الشعب انه ليعتز بالجراح التي اصابته لأجلهم، قدر ما يعتز غيره بتماثيل أو اضرحة الموتى من اجدادهم! وكثيراً ما ندّد بالقادة الذين عادوا من افريقيا يجرون اذيال الخيبة دون ان يحققوا شيئاً ويقدّم كلاً من (بستيا Bestia) و(البينوس Albinus) نموذجاً لهؤلاء القادة الفاشلين (وكلاهما من أسر كريمة جداً). فيقول عنهما أنها لا يصلحان للحرب، وقد فشلا فشلاً ذريعاً لانهما لا يملكان الخبرة. وتساءل ممن يحيط به قائلاً: أليس يرون أن الأجدر كثيراً باجداد هؤلاء الاشراف ان يخلفوا نسلاً مثله، ماداموا هم أنفسهم قد اشتهروا لا بسبب عراقة اصلهم ونبل ارومتهم بل لبسالتهم ولما حققوا من الأعمال الجسام. وهو لا يقول هذا تفاخراً واعتزازاً، او رغبة في جرح مشاعر الأشراف بل كان يتوخى منفعةً وهي أن عامة الشعب كانت تُسرّ كثيراً لكلّ إهانة أو عيب يقذف به الشيوخ وكانت مقاييس عظمة الخطيب عندهم هي جرأة الخطبة وسلاطتها. لذلك واصلوا تشجيع (ماريوس) وشد ازره

في ميله الى النيل من اي شخص ذي مقامٍ ارضاءً لعامة الشعب. ولم يستطع (ميتللوس) أن يخفي شعور حسده وحقده (لماريوس) بعد أن عاد الى الحرب وهو بمنصب قنصل. ذلك لأنه كان قد انهى الحرب فعلاً، ولم يتبق شيء خلا وضع اليد على (يوغورثا)، فيأتي ماريوس في هذه المرحلة شهيراً رفيع الشأن كبير المنصب عن طريق انكاره جميله، ليجرده من ثمار نصره وموكب الظفر الذي يستحقه! ولذلك لم يتحمل رؤيته ولم تجر مقابلة بينهما وترك (ميتللوس) المعسكر واناط بمساعده (روتيليوس Rutilius) مهمة تسليم قيادة الجيش لخلفه. والشيء بالشيء يذكر ان (ماريوس) لقي على يد (سيللا) المعاملة نفسها عند ختام الحرب اذ جرده هذا من مجد النصر كما فعل هو بمتيللوس. واني سأعمد الى ذكر الاحداث والوقائع باختصار هنا، لكونها قد فُصلت تفصيلاً وافيا في سيرة سيللا:

كان (بوخّوس Bocchus) ملكا للاقليم الأقصى من بلاد البرابرة، وهو حمو (يوغورثا) إلاّ أن المعونة التي ابداها له في هذه الحرب كانت تافهة تكاد لا تذكر، وقد الجأه الى هذا الموقف خوفه من غدر ختنه وانقلابه عليه اذا انتصر، وحسداً له اذا ما تعاظمت قوته. وبعد هزيمة (يوغورثا) رحل اليه في غمرة من يأسه ليكون له آخر ملاذٍ. فاستقبله (بوخوس) كما يستقبل اي لاجيء، لا بدافع من عطفٍ او حدبٍ حقيقي عليه بل حرصاً على سمعته، لئلا يُعيّر بأنه لم يقم بواجب الإجارة. وما ان غدا (يوغورثا) طوع يده حتى اتصل رسمياً (بماريوس) متشفعاً له موهما للناس بأنه مصرٌ على عدم تسليمه وهذا في الظاهر، إلاّ انه كان يبطن الغدر به. وارسل يطلب حضور (لوشيوس سيللا) الذي كان بمعيّة (ماريوس) في منصب الكويستور (امين خزانة الجيش) وكان (سيللا) قد ارتبط بعهد إخاء مع (بوخوس) في احدى مناسبات الحرب لذلك رحل اليه معتمداً على كلمته. ولما وصل بدأت الحيرة تتنازع نفس (بوخوس) وظلّ التردد مستوليا عليه عدة أيام: هل يسلّم (يوغورثا) أم يحتجز (سيللا)؟ اخيرا قرّ قراره على سلوك سبيل الغدر الذي نواه منذ البدء، وسلّم (يوغورثا) الى (سيللا) حياً، وكانت هذه الحادثة هي الشرارة الأولى التي قدحت نار النزاع الرهيب، نزاع لا يرأب صدعه كاد يطوّح بالامبراطورية الرومانية ويوردها موارد الدمار. لقد عزا حسّاد (ماريوس) الكثيرون كلّ النجاح الى (سيللا). وعمل سيللاً ختماً لنفسه حفر عليه صورة تمثل (بوخوس) وهو يدفع اليه بـ(يوغورثا) واخذ يكثر من استخدامه مثيراً بذلك حنق (ماريوس) وهو بطبعه سريع الاثارة والانفعال حاد المزاج مفطور على التهالك على الشهرة سريع الاضطغان، ضنين جداً على غيره بالشهرة يكره أن يشاركه احدٌ في اي مجد يناله. ولم يأل اعداؤه جهداً في اذكائهم نار النزاع، بترديدهم القول إن (ميتللوس) خاض اهم وقائع الحرب، وان (سيللا) كان

له فضل انهائها، يريدون أن يصرفوا الشعب عن تعظيم (ماريوس) واجلاله واعتباره اجدر الناس بهذا الحبّ.

لكن هذا التحاسد والتباغض ما لبث ان زال وانقشعت غيومه عن خاطر (ماريوس) بالخطر الذي بدأ يهدد ايطاليا من جهة الغرب. وآضت العاصمة الرومانية في امسّ الحاجة الى قائد محنك فراحت تبحث عمن ستودع اليه الدفّة لمواجهة اعصار الحرب العظيمة القادمة. ولم يُزَكِّ احد من المواطنين فرداً واحداً من افراد الأسر الغنية او الشريفة الذين عرضوا أنفسهم لمنصب القنصل، وانتخب (ماريوس) قنصلاً وهو بعيد عن ارض الوطن.

ما كاد يذاع نبأ وقوع (يوغورثا) في قبضة الرومان، حتى وردت اولى الاخبار عن بدء غارة (التيوتون Teutones) و(الكيمبري Cimbri) وفاقت المعلومات الأولية عن كل ما هو معقول. بخصوص عدد المقاتلين في عسكرهم الزاحف ومبلغ قوتهم، الاّ ان المعلومات التالية اثبتت ان الاخبار السابقة تنطوي على كثير من المبالغة وان الواقع هو اقلّ جداً. فقد قدروا بثلاثمائة الف مقاتل تحت السلاح مع عددٍ من النساء والاطفال يفوقه كثيراً. وكان ادعاؤهم انهم يبحثون عن بلاد واراضٍ جديد يستقرون فيها لإعالة هذا الحشد الهائل من اهاليهم، وينشدون مدناً يسكنونها كما فعل (الكلتيون) قبلهم عندما طردوا (التيّرينيين Tyrrheni-ans) من بلادهم وسيطروا على خير جزءٍ من ايطاليا على ما قيل لهم. كان الناس كافة يجهلون صفة هؤلاء القوم المغيرين، ومن اين جاؤا؛ ذلك لأنهم لم ينشئوا قط علاقات تجارة مع اقوام الجنوب، وتميزهم بصفة الترحال والتنقل في ارجاء واسعة من الارض. ولهذا كان اندفاعهم الآن اشبه بسحابة عظيمة انتشرت فجأة فوق بلاد الغال وايطاليا. على أنَّ عيونهم الرمادية، وضخامة اجسامهم كانت توحي بأنهم شعب من تلك الشعوب الجرمانية التي تعيش في سواحل بحر الشمال. هذا وانَّ الجرمان انفسهم يطلقون اسم (كيمبري) عادةً على الناهبين.

هناك بعض من يقول ان بلاد الكلت تمتد بارجائها الرحيبة من أقصى المنطقة القطبية الى بحيرة (ميوتيس Mœotis) شرقاً، الى ذلك الجزء من بلاد (الصيثيين) القريب من (بونطس) وتتمازج الاقوام هناك وتختلط، وهم لا يخرجون من البلادِ دفعةً واحدة وبصورة مفاجئة وانما يتقدمون على شكل موجات ويشقون طريقهم بقوة السلاح في موسم الصيف من كل سنةٍ حتى اجتازوا القارة كلها بكرور الزمن. ومع ان كل فرقة من هذه الفرق المغيرة كانت تعرف بعدة اسماء، الاّ ان الموجة كلها عرفت باسم واحدٍ عام هو (كلتوصيثيوّن). ويقول آخرون ان الكيمّريين Cimmerii الذين عرفهم الأغريق منذ قديم الزمان ما هم الاّ جانب صغير من هذا الشعب كان قد طرد من البلاد الأم على اثر نزاع بين (الصيثيين). فنزح برمته من اطراف

بحيرة (ميوتيس) الى آسيا بزعامة (ليغْداميس Lygdamis). ومازال معظم هذا الشعب واقواه مراساً يعيش في اقصى الأصقاع الممتدة على طول سواحل الاوقيانوس الخارجية. وقيل أنهم يستوطنون بقاعاً معتمة تكتائف فيها الغابات وقلما تخترقها اشعة الشمس لتقارب الاشجار الشديد وامتدادها الى الداخل حتى الغابة الهركينية Hercynian. وموْضعهم في الارض يقع تحت ذلك الجزء من الفلك الذي يرتفع عنده القطب ارتفاعاً كبيراً ليميل الى خطوط العرض، الى الحدّ الذي تبدو وكأنها على مسافة قريبة من سُموُت السكان. وبما ان ليلهم ونهارهم يكادان يكونان متساويين طولاً فإنهم يجزؤن سنتهم.

وعن هذا السبيل جاءت قصّة (هوميروس) عن (يوليسيس) وكيفية ندائه الموتى. ومن هذه الاصقاع انحدر شعبا (الكيمبري) الى ايطاليا (كان يدعى في قديم الزمان الكيمّيري وجرت عليه الالسن بهذا التعديل الملطف).

ويتفق معظم الكتاب أن عدد المغيرين لم يكن أقل مما ذكرنا. وذكر بعضهم انه أكثر. وكانوا قوماً اشداء محاربين لا يشقّ لهم غبار امتازوا بالغلاظة والوحشية الفائقة، تراهم يهرعون الى المعركة مسرعين كما تسرع النار العظيمة الآكلة، فلا يقف أمامهم شيء. ويفترسون كل من يعترض سبيلهم. وطالما الحقوا الهزائم النكراء بكثير من القواد الرومان وحض على جيوشهم المتقدمة للدفاع عن الغاليين الساكنين فيما وراء الألب. كانت المقاومة الضعيفة التي جابهوها في توغلهم المحرض الرئيس لهم هو الزحف على روما. فبعد ان هزموا كل من تصدّى لقتالهم. وبعد أن وقعوا على تلك الاسلاب والغنائم الكثيرة آلوا على انفسهم أن لا تستقرّ بهم ارض قبل أن يجتاحوا المدينة ويسوّدها بالقاع ويخضعوا كل ايطاليا. واستبد القلق الشديد بالرومان في كل مكان بهذه الانباء وبعثوا سيتقدمون (ماريوس) ليأخذ الحرب على عاتقه واختاروه قنصلا للمرة الثانية وان كان القانون لا يسمح أن يجري انتخاب القنصل بغياب المرشح له. أو أن يعاد انتخاب القنصل لدورة ثانية الا بعد مرور فترة معينة من الزمن على قنصليته الأولى. الاّ ان الشعب رفض كل الاعتراضات بهذا الخصوص. اذ لم تكن هذه المرّة الأولى التي أفسح القانون سبيلاً لتفضيل المصلحة العامة. ولم يكن الوضع الحالي بأقلّ حراجةً من ذلك الوضع الذي حملهم على انتخاب (سكيپيو) قنصلاً خلافاً لاحكام القانون. ولم تكن مدينتهم مهددّة بالدمار وقتذاك بل لأنهم كانوا يريدون تدمير مدينة القرطاجنيين.

هذا ما تمّ تقريره. وسحب (ماريوس) كتائبه من افريقيا في اليوم الأول من شهر كانون الثاني الذي يعتبره الرومان مبدأ العام الجديد. وتسلم مقاليد الحكم ثم دخل في موكب نصر عرض فيه على الشعب (يوغورثا) الملك الأسير، وهو مشهد كانوا قد يئسوا من تحقيقه، كما

لم يصدق أحد منهم انه سيرى في حياته اندحار العدوّ في افريقيا. لقد بلغ من قابلية (يوغورثا) على تكييف نفسه لكلّ دورة من دورات الخطّ، ما يوازي جرأته وسعة حيلته. ولكن قيل أنه كبا اثناء ما كان يقاد في الموكب، من فرط الحزن. ثم زجّ في السجن فأخذ بعضهم يشق ثيابه، وقطع آخرون شحمة اذنه اثناء نزاعهم على قرطه الذهبي. ولما القي في الجبّ عارياً، صاح وهو ذاهل، ضائع اللبّ يضحك ضحكة مخيفة رهيبة:

- ايه يا هرقل! ما أبرد حَمّامك هذا؟

وبقي ثمّ، ستة ايام يصارع الجوع، ولم يفارقه تشبثه بالحياة الى آخر لحظة. وهكذا لقي جزاءه العادل عن كل ما ارتكب من شر.

وذكر أن (ماريوس) جلب الى روما بمناسبة نصره مقادير من الذهب بلغت زنتها (٣٠٠٧) باوندات ومن سبائك الفضة ما يزن (٥٧٧٥) باونداً. ومن المصكوكات النقدية الذهبية والفضية ما قيمته (٢٨٧٠٠٠) دراخما. وبعد انتهاء مراسيم الموكب طلب (ماريوس) عقد اجتماع لمجلس الشيوخ في الكاپيتول. ودخل عليهم وهو مايزال في حُلّة موكب النصر، إماً غفلةً منه واهمالاً، وإما تباهياً واختيالاً غير لائق، واعتزازاً بالحظّ الذي حالفه، ولكنه ادرك فوراً استنكار المجلس لعمله فخرج وعاد مرتدياً وشاحه الاعتيادي بحاشيته الارجوانية. واهتم كثيراً بتدريب وتمرين جيشه في اثناء مسيرته الى ساحة القتال فكان ينظم له مسيرات طويلة، وتمارين عدة مختلفة مجبرا كل جندي على حمل تجهيزاته، وتهيئة طعامه، حتى بات الجندي الصبور على المشاق الذي يؤدي عمله بصمت وبدون تأفف يطلق عليه اسم «بغل ماريوس». على ان بعضهم يظن أن أصل اللقب هو غير ذلك وانه نشأ عندما كان (سكيپيو) يحاصر (نومانتيا) وامتاز بالدقة والعناية في تفقدّ خيول الجنود واسلحتهم، فضلاً عن بغالهم ومركباتهم، ليرى درجة تسليحهم، ومبلغ استعداد كل واحد منهم وتقدم (ماريوس) ليعرض حصانه المعلوف علفاً جيداً وبغله في حالة ممتازة جداً، يبدو اقوى واطوع قياداً في بغال الآخرين. فسُر الجنرال كثيراً، وظلّ يلهج بذكر حيوانات (ماريوس). ومنذ ذلك الحين والجنود يطلقون عبارة «بغل ماريوس» مازحين عندما يقصدون مدح زميل دؤوب كدود.

ولنعد الى الموضوع؛ يظهر أن حظاً نادراً حالف (ماريوس). فقد انحرف العدوّ بكيفية ما عن سبيل زحفه وانقض اولاً على اسپانيا وبذلك اتاح لماريوس وقتاً لتدريب جنوده واستئصال عوامل الخوف من نفوسهم واحلال الشجاعة في محلها، واهم من هذين ليعرّفهم بحقيقته ويظهر لهم صلابة معدنه. فإن اسلوب القيادة الصارم الذي اتبعهُ، وشدة العقوبات التي فرضها على الرجال ادّى الى اجتثاث حبّ الفوضى والتمرد على الأوامر من أنفسهم وجعلتهم يشعرون

بقيمته وفائدته، فضلا عن عدالته، وطبعه العنيف، وصوته القاسي وملامحه الصارمة، مما ألفوُه منه بعد فترة من الزمن قصيرة وعُدت عاملاً مخيفاً للعدوّ لا لهم. واكثر ما سَرّ الجنود منه استقامته في اصدار احكامه. وسنورد الحادثة التالية كمثل بليغ على ذلك: كان المدعو (كايوس لوسيوس Caius Lusius) وهو ابن عَمّ (الماريوس) يحتل منصباً قيادياً تحت أمرة قريبه في الجيش وكان رجلاً حسن الخلق بصورة عامة إلاّ أنه تميزّ بعلاقاته الآثمة مع الفتيان. وكان يوجد تحت امرته فتى في مطلع الشباب يُدعى تريبونيوس Trebonius امتنع عنه واستنكف عن مواصلته رغم الجهود التي بذلها معه ومختلف وسائل الاغراء التي عرضها له. ولما اعيته الحيلة فيه بعث اليه بالاخير رسولاً يطلب حضوره فقدم اليه لأن القانون العسكري لا يسمح له برفض أمر الاستقدام من المافوق، فجيء به الى خيمة (لوسيوس) وعندما بدأ هذا يستعمل معه وسائل الإرغام والعنف سحب الفتى سيفه وطعنه طعنةً نجلاء القته قتيلاً. حدث هذا اثناء غياب (ماريوس) فلما عاد أحال (تريبونيوس) الى المحاكمة. فجاء عدد كبير من الشهود وشهدوا ضده بينما لم يتقدم احد بشهادة دفاع عنه. وادلى المتهم بافادة صريحة وقدم دلائل وشهادات على مواقفه السابقة من (لوسيوس) وكيف أن هذا كان لا يفتأ يعرض عليه كثيراً من الهدايا الثمينة. فاعجب (ماريوس) بتصرفه وسُرّ كثيراً وأمر أن يؤتى بقلادة الزهر وهي المكافأة التي اعتاد الرومان أن يجازوا بها الشجاعة وقام هو بنفسه يضفرها على رأس (تريبونيوس) معتبراً عمله هذا مآثرة ممتازة في وقت كانت الحاجة ماسّة جداً الى مثل هذه الأمثلة.

وعندما انتشرت هذه الحادثة في روما، ساعدت مساعدة غير قليلة في انتخاب (ماريوس) قنصلاً للمرة الثالثة. وكذلك ادت بالبرابرة وهم في فصل الصيف إلى الاعتقاد بأن القوم لا يرغبون في ايداع مقدارتهم الى جنرال آخر غيره. على أن وصولهم لم يكن مُبتسراً كما انصرف اليه الذهن، فما بدت طلائعهم الاّ وكانت فترة قنصلية (ماريوس) قد انتهت. وحان موعد الانتخاب. وزميله قد قضى نحبه فأودع قيادة الجيش الى (مانيوس اكويليوس Man-ius Aquilius) وأسرع الى روما فوجد كثيرين من الشخصيات البارزة يزاحمونه المنصب.

وانبرى (لوشيوس ساترنينوس Lucius Saturninus) وهو من ألصق الناس (بماريوس) واكثر الناس تأثيراً على الجماهير بقوة عارضة وذلاقة لسان، واخذ يعمل على اقناعهم بانتخابه قنصلا. وعمد (ماريوس) الى تمثيل دور ذلك المعتفف الزاهد برفضه تسنّم المنصب. وراح (ساترنينوس) يدعوه بخائن الوطن لاستنكافه عن القيادة في هذه المحنة الخطيرة. ولم يكن يصعب على المرء أن يتبين هذه اللعبة المزدوجة. وأن يدرك مسعى (ساترنينوس) لمساعدة

(ماريوس) بفرض انتخابه على الجماهير كضربة لازب، ومع عدم انطلاء اللعبة عليهم فقد انتخبوه قنصلا للمرة الرابعة متعللين بأن الوضع الراهن يحتم عليهم الافادة من درايته، ومن السعود الذي لا يتخلف عنه. وانتخبوا (كاتولوس لاتوشيوس Catulus Latutius) زميلاً له، وهو رجل يجلّه الأشراف كثيراً، ولا تمجّه العامة.

ولاحظ (ماريوس) اقتراب العدو بكامل عدده وعدته وعبوره الألب وضرب معسكره على نهر الرون. فاهتم اولاً باختزان كميات كبيرة من الأرزاق ومواد الإعاشة، لئلا يضطر فجأة الى حرب غير متكافئة بسبب نقص الضروريات. وكان نقل الارزاق للجيش بحراً، يتم بمرحلة طويلة وتعتوره مصاعب جمة فجعله سهلاً وسريعاً. فالطمي والتربة المخلوطة بالطين تراكما بمرور الزمن ليسدا فم الممر الذي تمخره سفن النقل وليجعلاه ضيقاً خطراً. فأمر عسكره وكان في عطلة. أن يحفروا قناةً عظيمة، وحول اليه مجرى القسم الاكبر من النهر ليصل به الى نقطة مناسبة من الساحل، حيث كان عمق الماء كافياً لإمرار السفن ذات الحمولة الكبيرة، فضلاً عن هدوء سطح البحر في تلك الفتحة وخلوها من عوائق الملاحة. ومازالت هذه القناة تعرف باسمه حتّى يومنا هذا.

وقسم العدوّ نفسه الى قسمين: فقرر الكيمبري أن ينازلوا عسكر (كاتولوس) في اقليم النوريكي Norici الجبلي، وان يقتحموا الشعْب هناك وينحدروا منه الى داخلية البلاد، وقرر التيوتون والامبرونيون Ambrons أن يزحفوا على (ماريوس) بمحاذاة الساحل خلال اقليم (ليغوريا Liguria). وتأخر (الكيمبري) كثيراً في انجاز مهمتهم. الا ان التيوتون والامبرونيين اجتازوا بكلّ خيلهم ورجلهم الأراضي التي تفصل بينهم وبين عدوهم وسرعان ما اصبحوا على مرآى منهم، عدد لا يصدقه العقل! منظره يوقع الهلع في النفوس بصراخهم وصياحهم الغريب. وبعد أن ضربوا معسكرهم في جزء كبير من السهل بدأوا يستفزون (ماريوس) للقتال فلم يبد منه قبول وتجاهلهم كأنهم ليسوا موجودين وابقى جنوده وراء المتاريس والتحصينات، واشتدّ وقسا في تعنيفه كلّ المتهورين والمتحمسين لإظهار بسالتهم من الذين انساقوا الى القتال بدافع العاطفة الجامحة ليس غير، ووصفهم بخونة الوطن قائلاً لهم أن الواجب يقضي عليهم الآن بصرف اذهانهم عن مجد النصر والفوز بغنائم الحرب، وبالتفكير في كيفية صدّ هذا الإعصار الحربيّ الكاسح وانقاذ ايطاليا فحسب.

بهذه الأقوال كان يتحدث في مجالسه الخاصّة مع ضباطه واقرانه الا أنه عمد إلى توزيع جنوده بطريقة دورية في نقاط امامية من الاستحكامات لمراقبة العدوّ ومدارسته، وليألفوا شكله وصوته. (وكان والحق يقال بربرياً في هاتين الصفتين مُفرطا بهما) وليتفحصوا عن كثب

اسلحته ويدرسوا طرقهم في استعمالها. ولم يمرّ وقت قصير الاّ ووجدوا ما كان مخيفاً لهم ما هو الاّ شيء عاديّ بعد دوامهم النظر اليه اولاً. اذ كان يدرك بعقله الراجح المتوقد أن غرابة الاشياء كثيراً ما تسبغ عليها مهابة مظهرٍ في حين انها ليست كذلك. وإن معرفتنا الجيدة للاشياء المخيفة والمرعبة حقاً، تفقدها كثيراً من هاتين الصفتين. إن وصاياه وتنبيهاته اليومية هذه لم يقتصر أثرها على التقليل من خوف بعض الجنود، وانما ادت الى اثاره حقدهم واضرام النار في اقدامهم، لاسيما عند سماعهم تهديدات العدوّ وشتائمه القبيحة. هؤلاء الاعداء لم يكتفوا باجتياح الانحاء المجاورة وافناء سكانها وانما تمادوا بالتعرض للتحصينات والاستحكامات الرومانية استهانة بخصمهم واعتداداً بأنفسهم.

واخذت تبلغ اذنيّ (ماريوس) شكوى الجنود المتواترة:

- أيّ خنوثة يجدها (ماريوس) فينا ليحبسنا هكذا داخل المعسكر ويمنعنا من منازلة الاعداء؟ هيا بنا، لنكن رجالاً ولنسأله هل يتوقع من غيرنا قتالاً في سبيل ايطاليا؟ او أنه يريد فحسب أن يستخدمنا في الاشغال التي تخصص بها العبيد، كلما يرغب في حفر اقنية أو كري السواقي واستخلاصها من الطين والاتربة او تحويل مجاري الانهار؟ ام الظاهر أنه لم يُخضِعنا الى هذا التدريب العسكري الطويل إلا لتكليفنا بمثل هذه الأعمال، ثم يعود الى الوطن ليفخر امام الشعب بجلائل الاعمال، خلال فترة قنصليته. ايمكن ان يكون اندحار (كاربو Carbo) و(چيپيو Cœpio) امام العدو سبباً في احجامه وجبنه؟ الحق يقال انهما كانا أقل شأناً بكثير من (ماريوس) سواء من ناحية البسالة ام ناحية الشهرة، كذلك كان جيشهما ضعيفاً، وعلى اسوء الاحتمالات فإن القتال وإن تكبدنا به خسائر مماثلة لخسائر العدو، لهو افضل من القعود كالمتفرج العاطل. نشهد خراب حلفائنا وابادة اصحابنا ولا نحرك ساكنا!».

لم يكن سرور (ماريوس) بالقليل من هذه الأحاديث. الاّ أنه ظلّ يهدىء من غلوائهم باسلوب رفيق، ويقول لهم إنه ما ارتاب قط في شجاعتهم إلاّ انه يحسب للنصر حسابه الزماني والمكاني على ضوء تنبؤات معينة.

وكان هذا هو الواقع، فقد اعتاد دينياً أن يحمل معه في سائر تنقلاته في محفّةٍ امرأة سورية تدعى (مرثا) يقال انها نبيّة يوحى لها. فلا يقدم قرابينه إلا بتوجيه منها. وكان مجلس الشيوخ فيما مضى قد طرد هذه المرأة عندما اتصلت باعضائه شخصياً وعرضت تزويدهم بمعلوماتها في هذه الأمور والتنبؤ لهم بمستقبل الأيام. ثم انها مارست صناعتها هذه بين نساء روما، فصرن يراجعنها فاظهرت لهن قوة نبوآتها بالدلائل. وتحمست لها زوج (ماريوس)

بصورة خاصة، ويروى أنها كانت تجلس عند قدميها اثناء قتال المصارعين في الملعب. وتتبنأ لها بالغالب المنتصر من المتبارين وتصيب كبد الحقيقة دائماً. ولهذه العرافة ولغيرها عمدت الى ارسالها (لماريوس) وجيشه. فاحيطت هناك برعاية كبيرة وكانت تنقل غالباً في محفة. وكانت اثناء تقريبها الأضاحي تلبس رداء ارجوانياً مشطّباً محزوماً عليها. وتمسك رمحاً صغيراً مزدانا بالقلائد والشرائط. وكان هذا المشهد المسرحي مثار تساؤلات كثيرة عما يقصد (ماريوس) منه. هل انه يؤمن بها ويثق بنبوءاتها شخصياً أم انه يتظاهر بذلك زيفاً فيعرض ساحرته بهذه الهيئة ليبهر جنوده بها.

على إن ما يرويه الاسكندر المنداني Myndian عن العُقبان يستدعى الدهشة والعجب حقاً، فهو يقول أن طائرين من هذه يظهران دائماً قبل اي انتصار يحققه ماريوس ويرافقان الجيش وهما يتميزان بطوق نحاسي يحيط بعنق كل منهما (كان الجنود قد امسكوا بهما وطوقوهما واطلقوهما، ومنذ ذلك الحين اصبحا على معرفة بالجنود بكيفية ما، واعتادا تحيتهم!) وكان الجنود يغتبطون كلّما ظهرا لهم اثناء سيرهم ويداخلهم شعور اكيد بإصابة نجاح ما. وكان معظم الخوارق التي لوحظت في ذلك الزمن، ذات طابع اعتياديّ. وعلى كُلّ فقد ذكر عن ظهور رماحٍ نارية وتروس في سماء مدينتي (اميريا Ameria) و(تودر Tuder) الايطاليتين ليلاً، ترى وهي تتحرك في الفضاء آنا ثم تشتبك بعضها ببعض وتتقارع مثلما تتقارع الاسلحة في ايدي الجنود اثناء معركة حقيقية. ثم ينسحب فريق من هذه الاسلحة فيطارده الفريق الآخر ويغيب الكلّ معاً من ناحية الغرب. وفي حدود ذلك الزمن تقريبا جاء من (پسّينوس Pessinus) أحد كهنة (كيبيل Cybele) ويدعى (باتاشيس Bataces)، واعلن لمجلس الشيوخ أن الربة صرحت له بوحي انزلته عليه فحواه أن الرومان سيكسبون الحرب. فصدقه الشيوخ وصوّتوا على اقامة معبد لها تعشّما بالنصر. إلاّ أن (آولوس پومپيوس Aulus Pompeius) التريبيون اعترض سبيل (باتاشيس) عندما همّ برواية قصته هذه للشعب، ووصفه بالدّعي وجرّه من فوق المنصّة بصورة مخزية، الأمر الذي كان في النهاية عاملاً رئيساً في الوثوق بقصّة الرجل، اذ فما كاد الاجتماع العام ينفض ويعود (آولوس) الى بيته حتى ركبته حمّى شديدة واصبح شائعاً على لسان الجميع انه مات بعد اسبوع واحدٍ من تلك الحادثة.

وحاول (التيوتون) مهاجمة معسكر (ماريوس) وهو ساكن لا يأتي بحركة. ولكنهم بعد أن واجهوا وابلاً في مقذوف الرماح وخسروا عدداً من رجالهم قرروا الزحف الى الامام بقصد الوصول الى الجهة الأخرى من جبال الألب دون مقاومة. فشدوا اثقالهم ومروا بامان بجانب المعسكر الروماني وظهرت للعيان كثرة عددهم وخاصة من الوقت الطويل الذي استغرقوه في

المرور من امام استحكامات (ماريوس) ولم يكونوا يبعدون كثيراً ولذلك أخذوا ينادون المعْسكِرين الرومان ويسألونهم بلهجة مهينة هل يودون أن يزوّدهم بوصايا لزوجاتهم فهم سيكونون معهّن عما قريب! وظلّ سيلهم لا ينقطع ستّة ايام حتى اذا مروا جميعاً واصبحوا على مسافةٍ مناسبة، بدأ (ماريوس) بالحركة واخذ يتبعهم على هونه يعسكر دائما على مبعدة قليلة منهم، متخيراً المواقع القوية لمعسكره، ومهتماً بتحصيناته غاية الاهتمام حتى يضمن السلامة للجيش. وهكذا واصلوا السير حتى بلغوا موقعاً يدعى مياه (سكستيليوس: Sextil-ius)، وهو موضع لا يبعد كثيراً عن قلب جبال الألب. وهنا تهيأ (ماريوس) للقتال.

واختار موقعاً لمعسكره في غاية المناعة، الاّ انه كان شحيح الماء وقيل انه كان يريد بهذا أن يضع صبر رجاله وشجاعتهم على المحك وعندما برّح الفنى بعدد منهم وشكوا العطش قال لهم مشيراً الى النهر الذي يجرى بالقرب من معسكر العدوّ:

- قد تنالون شربة ماء من هناك إن ابتعتموها بدمائكم.

فأجابوه متسائلين: اذن فلم لا تقودنا اليهم قبل أن تجفّ دماؤنا في عروقنا؟

فقال لهم بلهجة أرق: فلنحصن اولاً معسكرنا.

فباشر الجنود بتلبية الأمر متذمرين. ثم خرجت جماعة كبيرة من اولاد المعسكر ومن يلحق به من خدم الى النهر تستسقي لنفسها ولخيولها واخذ بعضهم فؤوساً وبلطات وبعضهم تسلح بالسيوف والرماح الى جانب آنية الماء، مصممين على الفوز بالماء وإن قاتلوا في سبيله فاصطدموا إلا بشرذمة صغيرة من العدوّ معظمهم كان قد انتهى او كاد من استحمامه وهم يأكلون ويشربون بينما واصل عدد آخر الاستحمام وكانت البقاع المجاورة ملأىٔ بالينابيع الحارة. فانقض الرومان على قسم منهم وهم في شغل عنهم بالاستمتاع بمشاهد الطبيعة الرائعة وجمالها. ولما سمع الصياح هرع الى القتال اعداد أخرى. وعانى (ماريوس) صعوبة كبيرة في كبح جماح جنوده الذين داخلهم الخوف على خدم المعسكر، ولبىّ نداء الاستغاثة اولئك المحاربون الأمبرونيون الاشداء الذين هزموا (مانليوس) و(كيپيو) وانتفضوا فاحتقبوا سلاحهم وهرعوا الى القتال ثلاثين ألفاً او يزيدون عَدَاً رجلاً على رجلٍ.

ومع ان هؤلاء كانوا قد اتخموا انفسهم بالطعام، وسرت فيهم النشوة والهياج من فرط الشرب. إلاّ انهم تقدموا بخطى ثابتة منتظمة، لا يظهر عليهم ذلك الهياج الجنوني ولم تكن صيحاتهم مجرد ضجّة غير مفهومة. وانما تقارعوا السلاح باتساقٍ وساروا سيراً موحد الايقاع وكانت قفزاتهم وخطواتهم الأمام منتظمة مع تكرارهم لفظة «آمبرون!» إما لتشجيع بعضهم

بعضاً أو لايقاع المزيد من الرعب في اعدائهم. وكان الليغوريون اول الطاليان المهاجمين من جيش (ماريوس). وعندما طرقت اسماعهم صيحة العدوّ الغامضة، ردّوا عليها بصيحة مماثلة، لأن «امبرون» هو اسم بلادهم القديم والليغوريون يستخدمونه دائماً عند الاشارة الى مبنتهم واسلافهم، وانتقل هذا الهتاف من جيش الى جيش، قبل أن يشتبكا، وعملت على تصاعد حماستهم واندفاعهم في حين جاهد الرجال من الجانبين في رفع عقائرهم لتعلو اصوات بعضهم على اصوات بعضٍ.

واوقع النهر الفوض في صفوف الأمبرونيين. فقبل أن يتمكنوا من ترتيب صفوفهم على الجانب الآخر منه، انقض الليغُوريون فوراً على الطلائع وبدأوا يقاتلونهم يداً بيد. ثم تقدم الرومان ايضاً لمعونة اصحابهم هؤلاء وانحدروا من المرتفعات على الاعداء كالسيل الجارف وصكوهم صكاً عنيفاً ودفعوا واحدهم الآخر الى النهر وذبحوا معظمهم فيه وصبغوا ماءه بدمائهم وملأوا قاعه بجثثهم. وتلقى الرومان اولئك الذين عبروا النهر سالمين وقتلوهم اثناء ما كانوا يهربون الى مركباتهم ومعسكرهم وانبرت نسوة العدوّ للرومان بالسيوف والفؤوس وهن يصرخن صرخات منكرة، ينعتن الهاربين بالخيانة والجبن، ويهجمن على المطاردين كاعداء واختلطن بالمقاتلين يعاركن الرومان باذرعهن العارية على تروسهم وينتزعنها منهم ويتشبثن بسيوفهم متحملات الجراح وتمزيق اجسامهن الى آخر نفس بعزمٍ لا يلين. وهكذا بدت معركة النهر من قبيل الصدف، لا من سبق تخطيط القائد.

وما أن انسْحب الرومان بعد المذبحة التي اوقعوها في الامبروتيين حتى جنّ الليل. ولكن الجيش لم يكن عاكفاً كالعادة على انشاد اغاني النصر وشرب الراح واقامة المآدب المتبادلة (وهو ما يغرم به الجندي بعد القتال الناجح) ثم النوم الهادىء. وانما قضى ليلة نابغية حافلة بالخوف والقلق. فمعسكره مكشوفٌ لا يحميه خندق ولا متاريس. وهناك قبالتهم الآف مؤلفة من الاعداء لم تلحق بهم هزيمة انضم اليهم كل من نجا من الامبروتيين. وتناهت اليهم طوال الليل اصوات عويل وحشي لا يشبه آهات وانات البشر، بل هو أقرب شبها بعداء الضواري تتخلله اللعنات والشتائم مختلطة بالتهديد والوعيد، والنواح العظيم مرتفعاً من حناجر تلك الحشود الهائلة، ليرجع صداه الجبال المجاورة، وضفاف النهر الفقراء وامتلأ السهل كله بضجيج رهيب بعث رعباً ليس بالقليل في الرومان، وجعل (ماريوس) يخشى قتالاً ليلياً مضطرباً على شكل غارة إلاّ ان العدو لم يخرج من مكامنه لا في الليل ولا في النهار الذي عقبه وانما انشغل في تثبيت مواضعهم واحتلال مواقع قوية جداً في المرتفعات.

وافاد (ماريوس) من هذه الفرصة أحسن فائدة. فقد كان يوجد فيما وراء مواقع العدوّ بعض

المرتفعات المشجرة، والوديان العميقة التي تغطيها الغابات. فجردَّ اليها (كلوديوس مارچللوس) على رأس ثلاثة آلاف من الجنود النظاميين وأمره أن يزحف اليها خفية ويضع جنوده في كمائن هناك، تخرج لتتعرض الى مؤخرة العدوّ حال بدء القتال. أما هو فقد عمل على اراحة عسكره بالنوم والغذاء ولما اصبح الصبح أخرجه وصفه للقتال أمام معسكره، واصدر أمراً للخيالة بالنزول الى السهل والطراد في ارجائه. فلم يتمالك (التيوتون) اعصابهم للمشهد ولم يطيقوا انتظاراً لانحدار الرومان اليهم حتى يقاتلوهم في احوال متكافئة وانما احتقبوا السلاح وصعدّوا المرتفع لمهاجمتهم. وبعث (ماريوس) بضباطه الى جميع وحدات جيشه يوصيها بعدم الحركة وبالثبات في امكنتهم حتى اذا بات العدوّ قريباً امطروه بوابل من الرماح، من ثم يلجاؤن الى السيوف، وبعدها يضموّن تروسهم بعضها الى بعض ويدفعون بقية المهاجمين بها دفعاً الى الخلف. واشار بأن انحدار الأرض الشديد ستجرد ضربات العدوّ من اي أثرٍ فعالّ ولن تسمح له بضمّ التروس البعضِ الى بعضها، فضلا عن أن طبيعة الأرض المتعادية ستفقده ميزة الصمود والثبات.

وكان (ماريوس) أول من طبق الأمر الذي اصدره. اذ لم يكن ليقلّ عن أحد في متانة الجسم ونشاطه ولم يفقه احدٌ في شدة العزم. وهكذا استعد الرومان لمقدمهم واوقفوا اندفاعهم الى المرتفع ثم ارغموهم على التقهقر شبراً شبراً حتى ازاحوهم عن المرتفع وقذفوا بهم الى السهل. وهنا أخذ (الأمبرونيون) يلمون شعث المقدمة ويصلحون صفوفها ليواجهوا العدوّ بالمقاومة، فاذا بمؤخرتهم تدب فيها الفوضى. لأن (مارچللوس) لم يضيع الفرصة. فما أن ارتفعت الصيحة من الرومان المتمركزين في المرتفعات حتى أمر جنوده بالخروج من مكامنهم وانقضّ على العدوّ من الخلف انقضاضاً صاعقاً وهم يطلقون صيحات عظيمة، فهزموا أقرب وحدات العدوّ اليهم فهربوا واخترقوا صفوف من يليهم ونشروا اضطراباً عاماً في جيشهم. ولم يحاولوا إطالة المقاومة بعد أن دب دبيب الفوضى في صفوفهم ولم يعد يجمعهم نظام فولوا الأدبار. فولوا لاحقهم الرومان وقتلوا واسروا منهم مانيون على مائة الف وظفروا باسلابهم وغنموا خيامهم وعجلاتهم، وصوتوا على أن يكون من سهم (ماريوس) كل ما لم ينهب ومع أن المكافأة جزيلة إلاّ انها اعتبرت عموماً بأنها أقل مما يستحق اذا قورنت بالخطر العظيم الذي واجهه. واورد كتاب آخرون رواية مختلفة حول تقسيم الأسلاب وعدد القتلى. ويذكرون على كُلّ أن سكان (ماسيليا Massilia) عملوا اسيجة حول كرومهم من عظام القتلى وزادت خصوبة الأرض بتحلل الجثث وتفسخها بعد أن تشبعت بامطار الشتاء التالي ودرّت محصولاً عظيماً لا مثيل له في ذلك الموسم فاصدقت رأى (ارخيلوخوس) القائل بأن الأرض البائرة

هكذا تُسمد وتخصب. والذي يلاحظ كذلك عموماً ان امطاراً غزيرة غير اعتيادية تعقب المعارك الكبيرة. ويعلل بعضهم ذلك أن القوى الربانية تقوم بغسل الأرض النجسة وتطهيرها بصبّ سيول الماء عليها من السماء اثر المعركة، أو لأن الرطوبة والتبخر الثقيل المتصاعد من الدم المسفوح وغازات التفسخ والعفونة، من شأنها أن تكثف الهواء المعرض الى التغير لأقل سبب بطبيعة الحال.

وبعد انتهاء المعركة تخيرّ (ماريوس) من بين اسلاب البرابرة واسلحتهم أنفسها واجملها لتكون اروع مشهدٍ من مشاهد موكب نصره. أما الباقي فقد كدّسه فوق محرقة عظيمة، وقدّم قرباناً فخماً رائعاً، تحف به الكتائب باسلحتها وقلائدها. وكان (ماريوس) مشتملاً برداءٍ ذي اهداب ارجوانية كما يفرضه الزّي الشائع لتلك المناسبات، ثم انه امسك مشعلاً ملتهباً ورفعه بكلتا يديه نحو السماء، وفيما هو يريد وضعهُ على المحرقة، اذ لمح كوكبة من الفرسان تتجه نحوه تحثث خيلها بسرعة عظيمة فساد صمت شاملٌ في الجنود وبدت عليهم سيماء الترقب والتشوف، ولما وصل الفرسان حيث يقف (ماريوس) ترجلوا قفزاً وحيّوه وابلغوه بنبأ انتخابه قنصلاً للمرة الخامسة ودفعوا اليه بالرسائل الناطقة بذلك. فزاد هذا فرحاً عظيماً الى الحفل الديني. وفيما كان الجنود يقرعون اسلحتهم بعضها ببعض ويهتفون عمد الضباط الى تتويج (ماريوس) باكليل الغار دفعةً أخرى. وتقدم بهذه الهيئة من المحرقة والقى المشعل فيها واكمل تضحيته.

ولكن أيّا كانت القوى التي تتدخل للحيلولة دون التمتع بالنعم تمتعاً تاماً لا يشوبه كدر او نغصة، او الى اي شيء يُعزى تغير شؤون البشر الى ما هو مزيج من السيء والحسن. أهي عوامل الحظ، او غضب القوى العلوية، أو الضرورة التي تحتمها طبيعة الأشياء، فإن (ماريوس) تسلم بعد ايام قلائل تقريراً عما حصل لزميله (كاتولوس)؛ اشبه بغيمةٍ في هدؤها وجهامتها، فنشر الهلع في روما وافعم النفوس توجساً باقتراب عاصفة هوجاء. وخلاصة الأمر: أن (كاتالوس) الذي توجه بجيشه نحو (الكيمبري) رأى أن الدفاع عن ممرات الألب يكاد يكون متعذراً، لأنه سيرغمه على تجزئه قواته اجزاءً عديدة، فيضعف نفسه. فما كان منه الاّ وانحدر من منطقة الجبال عائداً الى ايطاليا واتخذ مواقعه فيما وراء نهر (أديغه Adige) بعد أن حصّن كل المسالك المؤدية اليه باستحكامات قوية على الضفتين. ثم اقام على مجرى النهر جسراً يستخدمه لمساعدة رجاله المتمركزين في الجانب الآخر اذا ما قرر العدوّ مهاجمة الاستحكامات بعد نجاحهم في شق طريقهم اليها عبر ممرات الجبال. على كلّ، تقدم البرابرة بكلّ جرأة مستهينين قوة الرومان ومظهرين مدى قوتهم وشجاعتهم فحسب دون أن تدعو الى

ذلك ضرورة عسكرية. ساروا وهم عراة تحت وابل متساقط من الثلج وفوق الجمد والثلج الكثيف. حتى بلغوا القمم الشاهقة ومنها نزلوا المنحدر باستلقائهم على تروسهم العريضة وانزلاقهم فوق سفوح واسعة حادة الى تحت.

ثم انهم ضربوا خيامهم على مقربة من النهر، واستشرفوا الممر فأخذوا يردمونه ويسوّنه باذلين مجهوداً جباراً، مزيلين المرتفعات المجاورة وناقلين اشجاراً مقتلعة من جذورها مع اكداس من التراب الى النهر ليعملوا سَداً فيه لقطع مجراه، وبعد ذلك دفعوا بموادً ثقيلة عظيمة الى المجرى لتصدم الجسرّ وتقوض الدعائم التي ترفعه، وهذا ماحدا بمعظم جنود الرومان الى ترك المعسكر الكبير وهروبهم خوفاً. وهنا أظهر (كاتالوس) نبلاً وانكار ذات بتقديم سمعة شعبه على سمعته. فحينما عجز عن اقناع جنوده بالبقاء كل تحت رايته، ورأى بأم عينه كيف اولوها ظهورهم وتركوها، أمر أن يؤتى بلوائه الخاص ورفعه واستبق به اوّل الهاربين وجعله في مقدمتهم وقاد عملية التقهقر مفضلاً ان يقع العار عليه ولا يقع على بلاده، ولكيلا يبدو الأمر فراراً بل مجرّد عملية انسحاب وراء القائد العام. وهجم البرابرة واحتلوا الحصن الذي هو على الجانب الآخر من نهر (اديغة) واعجبوا كثيراً بالرومان القليلين لمنتهى البسالة التي ابدوها في قتالهم قتالاً جديراً ببلادهم، واطلقوا سراحهم بشروط وجعلوهم يقسمون على عِجْلهم النحاسيّ الذي غنم منهم فيما بعد وحمل بعد المعركة الى منزل (كاتولوس) على ما يقال بوصفه اعظم تذكار للنصر.

وهكذا اندفعوا في ارجاء البلاد كافة واجتاحوها وعاثوا فيها ما طاب لهم وهي مجردة من اي دفاع. واستدعي (ماريوس) الى روما فوراً. وتوقع الجميع عند وصوله أن يدخل دخول الظافر كذلك صوّت مجلس الشيوخ بالاجماع على ذلك، إلاّ أنه لم ير ذلك مناسباً. وسواء أدفعه الى هذا عدم رغبته في حرمان جنوده وضباطه نصيبهم من المجد، أو تركه التكريم الذي يستحقه نصره السابق وديعةً في يد المدينة، وحظها المقبل، تشجيعاً للشعب في هذه الفترة، فأجله الآن ليستوفيه فيما بعد بصورة اكثر فخامة وروعة. وبعد أن أعلم الناس بقراره هذا ترك الاوامر التي تتطلبها معالجة الحالة واسرع الى (كاتالوس) الذي ارتفعت معنوياته كثيراً بقدومه بعد ان كانت قد بلغت الحضيض وارسل يسحب جيشه الخاص من بلاد الغاليين فما ان وصل قاطعاً نهر (البو) حتى اخذ يعمل على منع البرابرة من دخولهم للجزء الجنوبي من ايطاليا فيما يلي ذلك النهر.

وكانوا ينتظرون التحاق (التيوتون) بهم، ويبدون دهشتهم وحيرتهم من مرور زمن طويل دون ان يظهر لهم أثر. ولهذا ارجاؤا الدخول في معركة. أمّا جهلاً منهم باندحار اصحابهم أو

تجاهلاً وعدم رغبة في الظهور بذلك. إذ مما لاشك فيه انهم عاملوا اولئك الذين جاؤا اليهم بهذه الانباء معاملة في منتهى القسوة. وبعثوا الى (ماريوس) يطلبون رقعة من البلاد لهم ولإخوانهم ومدنا ملائمة ليعيشوا فيها. ولما سأل (ماريوس) سفراءهم عمن يكون اخوانهم هؤلاء، واجابوا: (ألتيوتون)، قهقه كل من كان حاضراً، واجابهم (ماريوس) متندراً:

- لا تتعبوا أنفسكم في سبيل اخوانكم. فقد سبق لنا وخصصنا لهم ارضاً سيبقون مالكين لها الى الأبد الأبيد.

وادرك السفراء وجه السخريّة في القول، فانفجروا يشتمون ويتوعدون قائلين أن (الكيمبري) سيجعلونه يدفع ثمنا غالياً، وكذلك (التيوتون) حينما يأتون. فاجاب (ماريوس):

- إن مكان اخوتكم هؤلاء ليس على مسافة بعيدة من هنا، وسيكون من القسوة أن تغادروا الأرض قبل أن تزوروهم.

وما أن انهى قوله حتى أمر بأن يُجلب امراء التيوتون وهم مكبلون بالسلاسل. فقد أسرهم (السيكواني Sequani) في جبال الألب ولم يفلحوا في الفرار منهم. وما أن ذاع هذا الأمر بين (الكيمبري) حتى هبوا بجموعهم لنزال (ماريوس) الذي ظلّ ساكنا يقظاً على معسكره. وقيل أن (ماريوس) استعداداً لهذه المعركة، احدث اولاً تعديلاً في تركيب الرمح الروماني الخفيف. فقد كان يوجد في موضع شدّ السنان الحديدي بقناة الخشب مسماران حديديان ثابتان، فترك (ماريوس) احدهما على حاله واستغنى عن الثاني بشظية خشبية ضعيفة، وكانت الحيلة التي توخاها من ذلك أنه عندما ينفذ الرمح في ترس الخصم لا يخرج السنان من الطرف الآخر مستقيما فيسهل نزعه. بل تنكسر الشظية الخشبية بفعل الطعنة فيلتوي السنان ويعوّج ويعصي ولا يعود الترس مؤشراً في القتال.

ثم أن (بيوريكس Bœorix) ملك الكيمبري جاء الى المعسكر الروماني بكوكبة صغيرة من الخيالة، وتحدى (ماريوس) للنزال في زمان ومكان معينين ليقررا مصير البلاد فودّ (ماريوس) قائلاً «إن الرومان لا يستشيرون اعداءهم في مواعيد قتالهم. ومع هذا فيسيحقق طلب الكيمبري من هذه الجهة». وعليه تقرر أن تكون المعركة بعد ثلاثة أيام وعُينَ موضعها في سهل يقع على مقربة من (ڤرچيللي Vercellœ) وهو ميدان مناسب جداً لحركة الخيالة الرومانية. كما أنه يتيح (للكيمبري) فرصة استعراض قواتهم الجرارّة وعددهم الكبير.

وحافظ الطرفان على الموعد واخرج كل منهما قواته وصفها قبالة الآخر. وكانت قوة

(كـاتولوس) تبلغ عشـرين الفاً وثلاثمائـة مقـاتل. امّـا (مـاريوس) فكان تحت امرتـه اثنان وثلاثون ألفاً، وزعهم على الجناحين تاركاً القلب لقوات (كاتولوس). وهذا ما يقولـه (سيللا) الذي كـان حاضـراً المعركة، ويضيف أيضاً أن (ماريوس) أختار لجيشـه هذه المراكز لتوقعـه ان يكون التـحام الجيـوش على الاجنحـة، لأن الذي يحصل عـمومـاً فـي المعـارك ذات الجبـهات العـريضـة أن القلب يتـقـهـقـر. وبذلك يسـتـأثر هو وجنوده بـثـمـار النصـر كله ولا يخلّف (لكاتولوس) شيئـاً، اذ لايتاح له فرصـة للاشـتبـاك الفعليّ. ويـروون لنا أيضاً أن (كـاتولوس) فسّر الموضوع هكذا انتصافاً لشرفه وانتقاماً لسمعته، واتهم انانـيـة (ماريوس) وحسده، بشتى الصور ومختلف الاتهامات.

زحف مـشـاة (الكيـمـبـري) بكلّ هدوء خـارج اسـتـحـكامـاتهم. وجـعلوا خطّ كل جناحٍ من جناحيهم مساوياً بالطول للجبهة. وكان كل جانب عيَدّ ثلاثين فرلنفاً. وكان منظر خيالتهم التي تعد خمسة عشر الفا، من أروع المناظر وافخمها. فخوذهم كانت تشبه رؤوس وفكوك الضواري والوحوش وغير ذلك من الاشكال الغـريبة. يتوجها ضّمات من الريش تجعلهم يبدون اكثر طولاً مما هم فـعـلاً، وكـانت دروع صدورهم من الحديد، وتروسـهـم تسطع بيـاضـاً. وامـا عن سـلاحـهم الهجومي فقد تزودّ كل واحدٍ منهم برمحين. وفي القتال القريب كانوا يستخدمون سيوفاً ثقيلة كبيرة.

ولم تنقض خيـالتهم على جبهة الرومان مباشرة. وانما اتجهت الى اليـمين، تريد أن تجرهم الى تلك الجهة شيئاً فشيئاً الى ان تجعلهم بينهم وبين مشاتهم الذين كانوا في المسيرة. وأدرك قوّاد الرومان الخطة من اوّل وهلة إلاّ أنهم لم يستطيـعوا كبح جنودهم إذ هتف أحدهم أن العـدو يلوذ بالفرار فـاندفع الكلّ لملاحقتـه وتقدمت مـشاة البـرابرة مـثلمـا تزحف ميـاه البـحر العظيم. وهنا غسل (مـاريوس) يديه ورفعهـمـا الى الأعلى نحو السـمـاء، ناذراً قربان الهـيـكاتوم الالهة. وقطع (كـاتولوس) على نفسـه عـهداً وهو واقف بـهذه الهـيئـة الخـاشعـة أن يكرّس معبـداً لـ«لحظّ ذلك اليـوم». ويروون أيضاً أن (ماريوس) صـاح بصوت عظيم عندمـا عرضت عليه الذبـيـحـة اثنـاء التضـحـية:

- النصر هَوَ لي!

ومـهـمـا يكن من أمرٍ فـقد صـادف (ماريوس) في الاشـتـبـاك، مـا يمكن أن يطلق عليه باشـارة عـدم رضـاً من الالهـة فعلىَ ما يـرويه (سيـللا) واصدقـاؤه ثار غـبـار عظيم حجب الجـيـشين عن الرؤية معاً (فعلى اغلب الإحتمال ان ذلك حصل). وفقد ماريوس اثر العدو اثنـاء مطاردتـه ومر بالقرب من تحشـداتهم دون ان يعثر عليهم وتحرك في مجـالات واسعة خلال ميدان القتـال ذاهباً

آيباً بلا جدوى. وفي تلك الأثناء اصطدم العدوّ بمحض الصدفة. بقوات (كاتولوس) واشتبك معه. وتحولت وطأة القتال الرئيسة عليه وعلى جنوده. وكان بينهم (سيللا) كما يزعم. ويضيف قائلاً ان الرومان أفادوا فائدة عظيمة من الحرّ والشمس التي كانت تلفح وجوه (الكيمبري). فهولاء القوم وهم خير من يصبر على البرد، لأنهم نشاؤا في بلاد باردة كثيرة الظلّ كما اسلفنا، لم يسعهم احتمال شدة الحرّ وعرقت اجسامهم عرقاً كثيراً، واخذوا يلهثون وتقطعت انفاسهم واضطروا الى ستر وجوههم بتروسهم. فالمعركة وقعت في زمن غير بعيد كثيراً عن انقلاب الصيف وهو عند الرومان اليوم الثالث قبل القمر الجديد للشهر الذي يُسمى الآن (أغسطس)، وكان قبلاً (سكستيليس). وعززّ الغبار من شجاعة الرومان تعزيزاً ليس بالقليل لأنه حجب العدوّ عنهم، ولم يترام بصرهم بعيداً ليتبنوا اعداد العدوّ الضخمة فيتهولوها. وانما تقدم كل جندي لقتال أقرب الخصُوم اليه وتم التحامهم قبل أن يُلقي منظر حشود العدوّ الهائلة الرعب والفرق في نفوسهم. ولقد بلغ من شدة تدريبهم وتعودهم اشق الأعمال أنه لم يصب أحد منهم بخور في قواه ولا عَرِق جسمه في ذلك القيظ المحرق وجهد المعركة. ولم يخف هذا حتى ملاحظة (كاتولوس) نفسه فسجلّه على سبيل المديح لجنوده.

وفي هذا الميدان أبيد ابادة تامة معظم شجعان العدو واكثرهم بسالة. وعمد من كان يقاتل في الجبهة الأمامية الى ربط أنفسهم بعضهم ببعض بسلسلة طويلة تمرّ من خلال احزمتهم كيلا لا ينكسر خط قتالهم ورأى الذين طاردوا العدوّ المقهور الى معسكره مأساة رهيبة. راؤا النساء يقفن في المركبات وهن متشحات بالسواد يوقعن ذبحاً بكلّ هارب من الميدان الزوجات يقتلن ازواجهن. الأخوات يردين اخوانهنّ، وآباءهنّ، ويخنقن اولادهن بأيديهن، ويلقين بهم تحت العجلات واقدام الماشية ثم يبخعن انفسهن. وروي عن واحدة منهن شنقت نفسها من رأس عمود مركبة بعد أن شدت اولادها في قدميها وتركتهم يتدلون منها. وانهى الرجال حياتهم بشد أنفسهم في قرون الثيران. وبعضهم ربط عنقه الى اقدامها. ثم يروحون يحثونها ويثيرونها بالوخز فتجفل وتتواثب لتستحقهم تحتها وتمزقهم ارباً. وقد لجاؤا الى هذه الطريقة في الموت لعدم وجود اشجار يشنقون انفسهم عليها. ومع كل هذا الانتحار والمذابح فقد وقع منهم في الأسر ستون ألفاً او يزيدون. وأما عدد القتلى فقد بلغ على ما قيل ضعف هذا العدد.

وروي ايضاً أن الأسلاب الاعتيادية استولى عليها جنود (ماريوس) أما الغنائم الأخرى كالرايات والابواق وما اشبه فقد جيء بها الى معسكر (كاتولوس). وقد اقام بها الحجّة الدامغة على أن النصر كان من عمله وعمل جيشه. ونشأ بعض الخلاف بين الجنود مما هو

طبيعي، فنصب المنتدبون من (پارما Parma) الذين كانوا موجودين حينذاك، محكمين للفصل في النزاع. ورافقهم جنود (كاتولوس) في طوافهم بين جثث الاعداء مثبتين لهم أنهم صرعوا برماحهم التي تميزت عن غيرها باسم (كاتولوس) الذي كان منقوشاً على خشب كل رمح. وعلى اية حالٍ فقد عزي مجد المعركة كله الى (ماريوس) بسبب نصره السابق، ولأنه تمّ تحت راية سلطته الحالية. وتمادى الجمهور في تكريمه فعدّه المؤسس الثالث لمدينتهم. لأنه ازال عنها خطراً لا يقل أثره عن الخطر الذي استهدفت له عند حصار الغاليين لها. وعمد كل روماني في احتفالاته ومهرجانات الفرح في المدينة الى تقديم القرابين الصلبة والمائعة مع زوجه واولاده تكريماً لـ«للأرباب ولماريوس» وكان الجميع يودون أن ينال وحده شرف موكبي النصر، ولكنه لم يفعل وانما اشرك (كاتولوس) ودخلا معاً، يريد ان يظهر زهده وايثاره حتى في مثل هذه المناسبات السعيدة العظيمة. زد على هذا ان خوفه لم يكن بالقليل من جنود جيش (كاتولوس) لئلا يحاولوا حرمانه من موكبه الظافر إن عمد الى حرمان جنرالهم من هذا الشرف حرماناً تاماً.

كان (ماريوس) في هذا الزمن يزاول سلطات قنصليته الخامسة، عندما ازف موعد الانتخاب فرشح نفسه للسادسة بشكل لم يسبقه فيه أحد من قبل. وبصورة مغايرة لترشيحه الأول ايضاً. فقد اخذ يخطب ودّ العامة بالتزلف اليه مستخدما كل نوع متصور من الوعود والتنازلات، ولم يكتف باهانة وظيفته الرسمية والحط من مكانة سلطانه الرفيع بهذا السلوك وانما ابتذل شخصيته بمحاولته الظهور بمظهر الشعبيّة والتواضع، وهو خلق بعيد عما جبل عليه من طبع. وعلى ما يقال كانت شدة طموحه الى الشهرة والبروز على الاقران قد جعلته كثير التردد في أمور السياسة كافةً، شديد الخفر والاحجام عن مواجهة الاجتماعات العامة الشعبية فترى حضور بديهته المتناهي الذي يواجه به العدوّ في سائر المعارك، يخذله دائماً كلما واجه الجمهور، فيعتريه الاضطراب ويتغيرّ حاله ويفلت زمام نفسه منه لأقل ثناء أو نقد. وذكر عنه مَرّة انه منح حرية المواطنة لألف من أهل (كاميرينوم Camerinium) لاستبسالهم وتفانيهم في حربه الاخيرة. ولم يتبع في ذلك الأصول القانونية على مايبدو. فلما نوقش الحساب أجاب قائلاً:

- إن صوت القانون لضعيف حتى انه لا يسمع في مثار النقع وضجّة الحرب.

على انه كان أضعف واكثر اضطرابا من القانون بالضجة التي تثيرها الاجتماعات العامة. حقاً أن ركون الشعب اليه في الملمات والحرب ضمن له السلطان والهيبة. إلاّ انه يعدم الحيلة في الشؤون المدنية ولما يدركه اليأس من احرازه المقام الأول فيها يلجأ مضطراً الى خطب ودّ

الجماهير او اليها. ولا يهتمّ بأن يكون رجلاً صالحاً مادام عظيماً.

ولهذا كرهه الأشراف. وكان (ميتللوس) أخشى من يخشاه منهم بعد أن انكر عليه حسن صنيعه واساء معاملته. و(ميتللوس) فضلا عن هذا يمتاز بسجايا عالية تجعله عدواً طبيعيا لمن ينشد الحظوة عند الشعب بطرق غير مشرفة، كالتزلف، والمصانعة والرياء؛ ولذلك عمل (ماريوس) جاهداً على نفيه من المدينة، فارتبط بكلّ من (غلاوشيا Glaucia) و(ساترنينوس Saterninus) وهما رجلان يمتازان بالجراة، ويتمتعان بسلطان كبير على الجماهير المعدمة الناقمة. وبمعونتها استصدر قوانين عديدة. واستقدم الجنود لحضور الجمعية العامة فحقق بذلك الغلبة على (ميتللوس).

يقول (روتيليوس Rutilius) (وهو من المراجع الأمنية المنصفة إلاّ في هذا الموضع لأنه يبطن عداء لماريوس): «إن (ماريوس) لم يفز بقنصليته السادسة الاّ بعد توزيعه مبالغ طائلة من المال على «القبائل» فتم له إسقاط (ميتللوس) بهذه الرشوة. كذلك سعى الى انتخاب (ڤاليريوس فلاكوس Valerius Flacchus) قنصلا ليكون اداة بيده لا زميلا له.» والواقع هو ان الشعب لم يخلع على رجلٍ روماني مثل هذا القدر من الفترات القنصلية خلا (ڤاليريوس كورڤينوس). وهذا نفسه لم ينل قنصليته السادسة والأخيرة إلاّ بعد مرور خمسة واربعين عاماً على آخر قنصلية له. في حين واصل (ماريوس) منصبه بلا انقطاع بمحالفة الحظّ.

وجرّ على نفسه اكثر النقمة والمقت في قنصليته الأخيرة. لإرتكابه عدة مخالفات كبيرة ترضية (لساترنينوس) وتحقيقاً لاطماعه. فقد اقدم خدينه هذا على قتل (نوينوس Nonius) منافسه على منصب التريبيون. وبعد فوزه به، اصدر قانوناً يقضي بتقسيم الأراضي يتضمن مادة توجب على اعضاء مجلس الشيوخ أن يقسموا يمين المصادقة على اي قرار يصوت عليه الشعب وعدم معارضته فيما يرتيئه. وفي المجلس تظاهر (ماريوس) أنه غير موافق على إعمال هذه المادة رياءً ومكراً، وقال أنه لن يقسم يميناً كهذا قط، ولا يعتقد بوجود شخصٍ عاقل يقبل بها. وإن لم يكن في القانون ما يوجب المؤآخذة فان مجرد وجود عنصر الإرغام فيه يعتبر اهانة للمجلس وحطّاً من قدره باظهاره مجرداً من اية سلطة. لم يصرّح (ماريوس) بهذا الرأي لاقتناعه بصحته، وانما توسل به، لايقاع (ميتللوس) في فخ لافكاك له منه. (فماريوس) الذي كانت اخلاقه ومثله تدور حول المخادعة والمكر، لم ير معرة في الرجوع امام المجلس عن هذا الرأي في حين كان يعلم أن (ميتللوس) هو من اولئك الذين يتمسكون بمعتقداتهم ولا يحيدون عنها مهما كلفهم الأمر. ويرون «الحق اول عناصر البطولة» على حدّ قول (بندار). ولذلك كان (ماريوس) يأمل أن يورطه بتصريح امام مجلس الشيوخ، يعقبه

رفضُ بات لحلف اليمين (الأمر الذي كان واثقاً منه) فيؤدي به الى نقمة الشعب العامة، وكره عظيم تتعذر ازالته. ونجحت مكيدته كما تمنّى، اذ ما ان صرح (ميتللوس) بأنه لن يؤدي القسم على المصادقة حتى تأجل اجتماع المجلس وانفضّ. وبعد مرور بضعة أيام دعا (ساترنينوس) اعضاءه الى الظهور امام الشعب لاداء القسم علناً. وانبرى (ماريوس) فران سكون عميق وشخص الجميع اليه ليسمعوا مقالته فكانت بمثابة وداعٍ ابديّ لخطبه الجميلة تلك التي طالما ألقاها في المجلس! قال: «أن ظهره ليس عريضاً بدرجة يرى نفسه ملتزما التزاما نهائياً بفكرة عابرة خطرت له يوماً عن هذا الأمر الخطير. وانه الآن ليقسم بطيبة خاطر على احترام هذا القانون». وهكذا اضاف هذا التبرير لستر صفاقته وقلة حيائه. فراح الجمهور يهتف له ويصفق وكاديجن فرحاً عندما كان يؤدي اليمين في حين انتحى الأشراف جانباً، وقد امتلاؤا خجلاً وغيظاً لما آبداه من غدر ونكول. إلاّ انهم تقدموا لحلف اليمين تباعاً خوفاً من غضبة الشعب. ولما حان دور (ميتللوس) رفض وأبى أن يتزحزح عن موقفه قيد شعرة، رغم الحاح اصحابه وضراعتهم ورجائهم. فقد كان يرى في ذلك عملاً وضيعاً دنيئاً غير جديرٍ بالرجل المبدئي مع علمه بالعقوبات المحتومة التي قررها (ساترنينوس) يحق كل من يستنكف عن اليمين. ثم أنه غادر (الفورم) قائلاً لمن رافقه:

- إن إقدام المرء على الوضيع من الأعمال ينطوي على دناءة. والاقدام على الحسن من الأعمال عندما لايحف به خطر، هو أمر اعتياديّ. أماّ الاقدام على العمل الحسن في ساعة الخطر فهو من خلق الرجل الكريم.

وعلى اثر ذلك وَضَع (ساترنينوس) في التصويت إقتراحاً يقضي على القنصلين بوضع (ميتللوس) تحت الحجز. وبحرمانه النار والماء والمسكن، فقرر ذلك. وكان ثم كثير من اوشاب الناس يبدون استعدادهم للفتك به. على أن عدداً كبيراً من كرام القوم اجتمعوا حوله وراحوا يظهرون شدّة اهتمامهم بشخصيه ومبلغ استعدادهم لمساندته. الاّ انه رفض قيام اي تمرد او اعتصابٍ بسببه وترك المدينة وهو يوازن الموقف بشكل هادىء على النحو التالي:

- إماً ان تنصلح الأمور، ويزجع عامة الشعب عن غيّه، وعند ذلك سيطلب مني العودة. وإماً ستبقى على حالها فيكون غيابي عن مسارحها افضل شيء.

وعن التكريم والحفادة التي لقيها (ميتللوس) خلال فترة نفيه، وباي اسلوب عاش في (رووس) ومامارس من فلسفة هناك. فألاجدر بنا أن نفصلها عند كتابتنا سيرته.

وكافأ (ماريوس) شريكه (ساترنينوس) عن هذه الخدعة باطلاق يده واغضائه عنه في كل

ما يفعل. فتمادى (ساترنينوس) في استهتاره وعنفه وغدا دون ان يدري مصدر الشرّ والفوضى التي فاقت كل حدود الاحتمال، وهذا هو السبيل الأوحد الى الطغيان والى الاستبداد بمقدرات الدولة، ثم الى المذابح والفضائح وهتك الحرمات.

وكان (ماريوس) يتهيبّ طبقة الأشراف من جهة، ويريد ارضاء طبقة العامة في الوقت عينه، ولذلك لجأ الى أحط الاعمال وادناها. فمثلاً قدم الى منزله لفيف من كبار القوم ليلاً يريدون اثارته على (ساترنينوس). وفي اثناء ذلك قدم هذا الى منزله، فادخله من باب ثان واجلسه في غرفة أخرى دون أن يُعلم الضيوف بمجيئه ثم تعلل بوعكةٍ ألمت به فخرج من لدنهم ليدخل الى زائره المنفرد ولا يلبث ان يحتج بالعذر نفسه حتى ينصرف الى الآخرين وهكذا ظلّ يتناوبهما مثيراً حفائظ بعضهم على بعض!

أخيراً اتفق الشيوخ وطبقة الفرسان الرومان على سوء سياسته واعلنوا سخطهم عليها بمجهود منسّق. فما كان منه إلاّ واقتحم (الفورم) بجنوده، وارغم المتآمرين على التراجع نحو الكابيتول فحوصروا فيه. ثم قطع عنهم انابيب الماء وارغمهم على الاستسلام بسبب العطش، فتوجهوا اليه مستسلمين وهم بحالةٍ يرثى لها، واودعوا انفسهم الى «حسن نية الشعب» كما اطلق على عملهم في حينه، وبذل (ماريوس) أقصى الجهود لانقاذهم فلم يفلح وقتلوا شرّ قتلة عندما هبطوا الى (الفورم) وبهذا اصبحت الطبقتان تحقدان عليه. ولذلك لم يرشح نفسه لمنصب (الجنصور) عندما أزف موعد الانتخاب مع انه كان اقوى المرشحين واضمنهم، لأنه كان يخشى مغبّة الفشل وعاره. فافسح السبيل لمن هم دونه بكثير فتقدموا للترشيح وفازوا وعزّى نفسه عن خيبته هذه متعللاً بكرهه تكدير عيش الناس نظراً لما يقتضيه المنصب من تدخل في مسلكهم وتصرفاتهم والتحقيق الدقيق عنها.

وقدّم مشروع مرسوم يقضي بالغاء قرار نفي (ميتللوس) استدعائه من المنفى. فانبرى يعارض فيه معارضة شديداً قولاً وعملاً. فلم يفده ذلك واضطر بالاخير الى الاقرار بهزيمته والنزول الى رأي الشعب الذي صوت بالاجماع على ذلك. ولم تحتمل نفسه رؤية (ميتللوس) يعود الى وطنه فشد الرحال الى (كّپادوكيا Cappadocia) و(غلاطيه Galatia) متعللاً بايفائه نذوراً كان قد وعد بتقريبها لـ(كيبل Cybele) امّا الدوافع الحقيقية خلافاً لما تقدم فقد شابها غمُوض وخفيت عن العين. (فماريوس) كان اجهل الناس بالحياة المدنيّة وشؤون السياسة، وكان مدينا بكلّ مجده وعلاه الى الحرب والشؤون العسكرية. وقد ادرك أن سلطانه وعزّه سيعفى عنهما الزمن شيئاً فشيئا، وهو قاعد لا يعمل شيئاً ولذلك كان شديد الرغبة للتشبث بوسيلة ما قد تثير ضجةً ونزاعاً حتى تتجه نحوه الأبصار. فأخذ يعمل على ايقاع

خلاف بين الملوك، وبخاصة اغاظة (ميثريداتس) الذي كان يتأهب للحرب علنا آنذاك. وبذلك يؤمن لنفسه منصب الجنرال في اي حرب تنشب ضده، ويتحف روما بنصر جديد، ويملأ منزله بأسلاب (البونطس) وثروات ملوكها. ولم ينثن عن مسعاه هذا، مع ان (ميثريداتس) بالغ في اكرامه واحاطه بكلّ ما يتصوره العقل من الرعاية والإحترام لم يتزحزح بل قال له بكل صرامة:

- عليك ايها الملك إما ان تكون اقوى من الرومان، واما أن تخضع لأوامرهم بهدوء.

وبهذا ودّع (ميثريداتس) الذي كان قد سمع الكثير عن شهرة الرومان بصريح القول وجرئه، ولم يجربه إلا الآن.

وبنى ماريوس منزلا بالقرب من الفورم على اثر عودته الى (روما). وقال ان قصده من ذلك أن لا يتعب زوّاره في السير مسافة طويلة لمقابلته. او لعله كان يتصور أن بعد بيته الأول كان يحول دون زيارة ناس اكثر له. وعلى اية حال فليس هذا هو السبب الحقيقي. وانما كانت العلة هي افتقاره الى طلاوة الحديث ولطف المجلس، وفن المعاشرة الاجتماعية. مما جعله اداة جامدة من ادوات الحرب لا نفع فيها أيام السلم. ولهذا نُبذ نبذ النواة ولم يُعد يطرق بابه زائر. وممن كسفت لوذعيتهم شمس عظمته كان (سيلّلا) فخصه باكثر الحقد لأنه كان مدينا بارتفاعه الى مراقي الشهرة للكره الذي اضمره الأشراف (لماريوس)، لهذا كان نزاعه معه منهاج حياته السياسيّ. ولما أقدم (باخوس) ملك النوميديين على اهداء عدد من التماثيل لآلهة النصر عربونا لصداقته مع الرومان لنصبها في اروقة (الكابيتول) ارفق بها تمثالاً من الذهب الخالص يمثله وهو يُسلم (يوغورثا) الى (سيلّلا) فجنَّ جنون (ماريوس) واخرجه الغضب والغيرة عن طوره وتوهم ان (سيلّلا) يريد ان يسلبه مجده ويتأثر به. وحاول بالقوة رفع التماثيل من مواضعها فتصدى له (سيلّلا) وقاومه مقاومة عنيفة. لكن «حرب الشركاء» التي هددت المدينة وضعت للنزاع حداً في الوقت الذي كادت تتفجر براكينه. فقد عقدت اكثر بلاد ايطاليا سكانا وتعلقاً بالحرب حلفاً عسكرياً ضدّ روما. وراحت عساكرهم تهدد امبراطوريتها بالويل والفناء. ولم تكن قوتهم قاصرة على سلاحهم وبسالة جنودهم وانما كان قوّادهم لا يقلون عن قواد الرومان في الحنكة والاقدام.

إن هذه الحرب التي حفلت بمختلف الاحداث والتقلبات، وامتازت بغموض نتائجها، اكسبت (سيللا) شهرة وسلطاناً بقدر ما سلبت من شهرة (ماريوس) وسلطانه. فقد ساد الرأي عنه أنه أمسى متخوفاً متردداً محجماً. ولا يعرف هل أن كبر سنهّ فلّ من غراب عرفه وخضد من قوته (وكان قد أناف على الخامسة والستين) أم لابتلائه بداء أثر على عضلات جسمه كما زعم - فبات غير صالح للنهوض باعباء القتال. ومع ذلك فقد انجز واجبه على خير ما يرام واستظهر

على العدوّ في معركة كبيرة صرع فيها ستة آلاف منه ولم يمنحه فرصة للتفوق عليه. ووجد نفسه مرة مطوقاً باستحكامات العدوّ. فصمد ولم يتحرك من مواضعه ولم يؤثر فيه استفزاز خصمه بالشتائم، والتحدبات ويروى في هذا الصدد أن (پوبليوس سيلو Publius Silo) وهو رجل عظيم المنزلة والسلطان عند العدو - قال له متحدياً:

- لو كنت حقاً جنرالاً عظيماً يا ماريوس، لخرجت من معسكرك وخضت معركة.

فاجابه: أرغمني على ذلك ان كنتَ أنت كذلك.

وفي مناسبة أخرى منحهم العدو فرصة موآتية لخوض معركة فتهيب الرومان الهجوم واحجموا ثم تراجع الفريقان فجمع (ماريوس) جنوده وقال لهم:

- انها مسألة ليست بالهينة أن أختار اكثركما جُبنا. أنتم أم عدوكم، فليس بينكما من تجرأ على مواجهة قفا خصمه!

ثم لم يسعه بالأخير الا الإقرار بعجزه عن مواصلة الخدمة فاستفعى من القيادة لاعتلال صحته.

وبعد أن تمت هزيمة الاتحاد الإيطالي أمام الرومان. تقدم عدد من المرشحين للقيادة العامة في الحرب ضد (ميثريداتس) يدعمهم زعماء الشعب وقادته. وانبرى (سولپيشيوس) أحد مفوضي الشعب (تريبيون) وهو رجل جريء مقدام، ورشح (ماريوس) للمنصب مقترحاً أن ينتخب بمثابة پروقنصل وجنرال لادارة الحرب فكانت مفاجأة لم يتوقعها احدٌ، وانقسم الناخبون الى حزبين: احدهما يؤيد (ماريوس) والأخر يناصر (سيللا) وراح هذا الفريق يشير على (ماريوس) متهكماً بالذهاب الى حمامات (باياي Baiae) للاستشفاء. بعد أن ضعفت قواه لكبر سنه واصابته بالتهاب القصبات كما أقرَّ هو بذلك. وكان (ماريوس) يملك هناك مغنى كڤيلا Cvilla بالقرب من (ميسينوم Misenum) فيها من الأثاث الفاخر والتحف النفيسة ما لا يتفق ابداً وصفة الرجل الذي قضى جل حياته في ميادين القتال والحملات العسكرية الكبيرة. وقد ابتاعت (كورنيليا Cornilia) هذه الڤيللا بمبلغ خمسة وسبعين ألف دراخما. وبعد فترة قصيرة من الزمن ابتاعه منها (لوشيوس لوكوللوس) بميلونين وخمسمائة ألف دراخما؛ وهذا الارتفاع الخيالي انما يدلّ على تضخم ثروات الرومان وبذخهم بسرعة.

ومع تهافت قوى (ماريوس) فقد اخذ يتردد يوميا الى مخيم (مارتيوس Martius) للتمرين مع المرتادين الشبان، تدفعه الى هذا عاطفة صبيانية للظهور بمظهر من يريد أن يتخلص من الضعف او الهرم، متوخيا أن يبدو خفيف الحركة في دروعه ماهراً في ركوب الخيل وان كان

الشيب قد اورثه بدانةً وجعله عرضةً للتعب الشديد والبهر.

وواصل بعض الناس الذهاب الى المخيم لمراقبته مستمتعين بتمارينه وعرضه نفسه على هذه الشاكلة. إلاّ أن أفاضلهم سخروا من تهالكه وطمعه اللذين رفعاه من حالة الفقر المدقع الى الغنى الفاحش، وجعلاه عظيماً بعد ان كان نكرة. وظلّ لا يريد الإقرار بحدودٍ لحسن طالعه العجيب ولا يقنع بأن يبقى محطّ اعجابٍ ويستمتع بما ناله بهدوءٍ. إذ ما الذي يدفعه الى ترك مجده وانتصاراته وهو في اراذل الشيخوخة ليرحل الى كپادوكيا والبحر الأسود مقاتلاً (ارخيلاوس) و(نيوپطُليموس) قائدي (ميثريداتس) كانما هو في حاجة الى المزيد مما عنده؟ يبرر (ماريوس) عمله هذا تبريراً في غاية السخف إذ يقول أن القصد من ذهابه هو تعليم ابنه كيف يكون جنرالاً.

وتردى وضع المدينة التي عمتها الفوض وانتابتها العلل السياسية من عهدٍ بعيد حتى آضت في حالة يأس وهنا وجد (ماريوس) ضالته المنشودة في (سولپيشيوس) واستهتاره، حتى تتم اعماله دمار البلاد وخرابها كان هذا الرجل نسخةً ثانية (لساترنينوس) من كلّ الوجوه خلا أنه كان يعيب على صاحبه غباءه، وقلة مكره وتردّده. فتوخى اجتناب معايبه بجمع ستمائة من «عصبة الفرسان eqmestrian» حوله بمثابة حرس خاصٍ له اطلق عليهم اسم «ضدّ الشيوخ anti - Sentors» وانقض بهم على القنصلين وهما في الاجتماع. فهرب احدهما من الفورم فقبض على ابنه وفتك به. وراح يطارد (سيللا) مطاردة عنيدة، فلجأ الى بيت (ماريوس) وهو ملاذ لا يمكن أن يكون موضع ريبة، وبهذا نجا من مطارديه الذين مروا بالدار دون أن يفطنوا له. وقيل أن (ماريوس) أخرجه سالماً من باب خلفيّ واوصله الى المعسكر، إلاّ أن (سيلّلا) في مذكراته ينكر انكاراً باتاً انه استجار (بماريوس) ويقول أنه حُمل الى هناك لاجراء مشاورات في امور كان (سولپيشيوس) يريد ارغامه عليها وهو لا يقبل. فاحاطه بحرس سيوفهم مجردة واسرع به الى (ماريوس) وهناك ارغم بالتهديد والوعيد على القبول فخرج من المنزل الى (الفورم) والغى قرار الاحتجاز الصادر حسب رغبة سولپيشيوس.

بعد ان استظهر (سولپيشيوس) ودانت له السلطة. اصدر مرسوماً بتعيين (ماريوس) قائداً للجيش فتأهب هذا للرحيل الى المعسكر وارسل قبله (تريبيونين) ليتسلما قيادة الجيش من (سيللا). وباشر سيلّلا من جانبه باثارة الجنود وتحريضهم وكان عددهم يناهز خمسة وثلاثين الفاً كاملي العدة. فاعلنوا ولاءهم له فزحف بهم الى روما ولقي رسولي (ماريوس) فقبض عليهما وقتلهما. فرد عليه (ماريوس) بذبح عدد مساوٍ من اصحابه في روما. واعلن قراراً بمنح الحرية لكلّ عبدٍ يحارب معه ويقال أن ثلاثة عبيد فقط التحقوا به. ولم يصمد (ماريوس)

امام سيللا غير فترة قصيرة جداً ثم غلب على أمره فولّى الأدبار وتفرق عنه اتباعه حال خروجه من المدينة. وادركه الليل فتوجه الى بيت في الريف يملكه واسمه (سولونيوم Solonium). ومنه ارسل ابنه الى أحدى مزارع حميه (موشيوس Mucius) القريبة للتزودّ بالمؤن الضرورية ورحل هو الى (أوستيا Ostia) حيث هيأ له صديقه (نوميريوس Numerius) سفينة. فلم يجلس في انتظار ابنه ورفع المرساة مبحراً يرافقه ختنه (غرانيوس Granius).

وتزود (ماريوس الأبن) بالمؤون الضرورية بعد وصوله مزارع (موشيوس) إلاّ أن المطاردين كادوا يكتشفونه قبيل ابنلاج الصبح فقد اشتبهت ثلة من الخيالة بوجوده هناك فداهمت الموضع إلاّ ان وكيل المزرعة بدافع من حذره وتوقعاً لهذا الأمر عمل على اخفائه في عربة ملأى بالفاصوليا. ثم شدّ في نيرها زوجاً من الثيران وساقها نحو المدينة والتقى بالقوة المعقبّة الخارجة عليه، فنجا (ماريوس الأبن) وبلغ منزله وزوجه وهناك تزوّد بما يحتاجه وتسلل الى ساحل البحر في موهن من الليل وركب سفينه كانت تهم بالاقلاع الى افريقيا.

لما صار (ماريوس الأب) في عرض البحر دفعت بسفينته ريحٌ قوية وجرت على طول الساحل الايطالي. ولازمه قلقٌ وخوف شديدين من عدوّ له هو أحد رجال (تيرّاكينا Terraci-na) البارزين فرجا البحارة أن يجانبوا تلك الانحاء. وكانوا والحق يقال يتوخون رضاه إلاّ أن الريح جرت خلاف ما تمنوا، اذ غيرت اتجاهها وراحت تهب من البحر فتدفع بامواج عالية كالجبال. حتى خافوا أن لا تقوى سفينتهم على الخروج من العاصفة، وأصيب (ماريوس) بدوار البحر وساءت حالته كثيراً. فوجهوا دفعهم الى اليابسة وبلغوا الساحل بشيء من الصعوبة ورسوا في موضع قريب من (كيركيوم Circeum). واشتدت العاصفة وشارفت قوات السفينة على النفاد، فتركوها وراحوا يضربون في الأرض على غير هدى هائمين على اوجههم كالذين اصابتهم مصيبة: يتغاضون عن حاضرهم لأنه شرّ عظيم ويتشبثون بآمال خادعة واهمة فالأرض والماء كلاهما موضعان غير مأمونين، والخطر كل الخطر ان يقابلوا أناساً ولا يقل عن هذا خطراً عدم عثورهم على احدٍ من الناس لحاجتهم الماسة الى القوت الضروري. وبعد لأيٍ وقعوا على نفرٍ من الرعاة الفقراء الذين لا يملكون ما يسعفونهم به. إلاّ انهم شخصّوا (ماريوس) واشاروا عليه أن يرحل بأسرع ما يمكنه، لأنهم لمحوا قبل قليل كوكبة من الفرسان على مسافة قريبة، تجد بحثاً من طلبه فلم يسعه ازاء هذا الخطر الجديد، ولأن الذين يرافقونه خارت قواهم جوعاً وعجزوا عن السير اكثر مما ساروا. الاّ ان يحيد عن الطريق العام مؤقتاً ويخفي نفسه في غاية كثيفة ليقضي فيها ليلة بائسة لم ير مثلها، واصبح عليه اليوم والجوع يقرص احشاءه. فقررّ أن يستخدم ما بقي من قواه الخائرة قبل أن تستنفد وسار اتباعه بمحاذاة الساحل يشجعهم

ويحضهم على البقاء معه حتى تتحقق آخر آمانيه. وهذا ما كان يبث في نفسه العزم ويزيد من صبره على المكاره، توقعاً لنبؤة قديمة بحقه ايام كان فتى يعيش في الريف. فقد سقط عليه عش عقاب وعلق بردائه وكان فيه سبعة فراخ. وادرك ابويه العجب الشديد لما شاهدا ذلك وراحا يستشيران العرافين فيما تعني الحادثة. فقالوا ان ابنهما سيغدو أعظم رجل في عصره. وان القدر حكم له بالسلطان والسؤدد المطلقين سبع مرات. وفي رأي بعض الكتاب أن مارويناه قد وقع (لماريوس) فعلاً الاّ أن بعضهم الآخر أن من روى هذه الحادثة المخرفة التي لا نصيب لها من الصحة، انما اخذها ورددها نقلاً عن صاحبها الذي كان يعيد ويُبدي فيها طوال مدة نفيه. لأن انثى العقاب لا تفقس اكثر من فرخين. ولقد كان (موسيوس Musaeus) واهما عندما قال مشيرا الى العقاب:

"انها تضع ثلاث بيضات فتفقس فرخين اثنين، وتربي واحداً»

ومهما كانت حقيقة الأمر في هذا، فالثابت ان (ماريوس) ظلّ يردد في منفاه وفي أحرج الساعات التي مرت به بأنه سيبلغ قنصليته السابعة حتماً.

عندما بات (ماريوس) وتابعوه على بعد عشرة فرلنغات تقريباً من المدينة الايطالية (منتورناي Minturnae) لمحوا عن بعد، ثلة من الفرسان تتقدم نحوهم بسرعة عظيمة وفي الوقت نفسه شاهدوا بمحض الصدف سفينتين تهمان بالاقلاع. فما كان منهم إلاّ وهرولوا نحوهما باقصى ما يطيقون وقذفوا بانفسهم في الماء وسبحوا اليهما فبلغ (غرانيوس) والفريق الذي كان معه واحدة منهما اخذتهم الى جزيرة تواجه الساحل اسمها (ايناريا Ænaria). أما (ماريوس) البدين البطيء الحركة فقد ساعده خادمان على البقاء فوق سطح الماء بصعوبة وعناء ثم رفعاه الى السفينة الثانية عندما بلغ الفرسان الساحل وراحوا ينادون الملاحين ويأمرونهم بالعودة الى البرّ أو باخراج (ماريوس) من السفينة وقذفه في البحر. واذ ذاك ينطلقون في سبيلهم آمنين. فانشأ (ماريوس) يتوسل بهم ضارعاً والدموع تجول في عينيه، بألاّ يفعلوا ذلك. ووقع الملاحون في حيرة شديدة. ومرت عليهم فترة من الزمن وهم لايدرون علام يستقرون. تجدهم تارة يميلون الى هذا الرأي، وتارة ينقلبون الى ضده. وهكذا حتى استقروا على رفض طلب الجنود واجابوهم انهم لن يسلّموا طريدهم. ولكن ما أن انقلب الفرسان عن الساحل حانقين، حتى غير الملاحون رأيهم وعادوا بالسفينة الى البّر والقوا المراسي في فم نهر (ليريس Liris) الذي ينساخ ماؤه هناك فوق رقعة واسعة من الأرض ليكوّن منها مستنقعاً. هنا اشاروا على (ماريوس) بالنزول الى الساحل لأراحة جسمه المنهوك واسترداد بعض قواه حتى تستقيم لهم الريح ونواتيهم. وعلى حدّ قولهم ان هذا سيحصل في الساعة كذا

عندما تهدأ الرياح القادمة من البحر وتبدأ الريح القادمة من المستنقع بالهبوب. فعمل (ماريوس) بقولهم. وانزلوه الى اليابسة وهو لا يتوقع ما سيأتي به القدر. اذ ما احتوتهم السفينة حتى رفعوا المرساة ورحلوا مخلفين (ماريوس) على الساحل. لم يروا من الشهامة أن يدفعوا (بماريوس) الى ايدي طالبيه، ولا من السلامة أن يتولوا حمايته.

وهكذا تركه الجميع وبقي ردحاً من الزمن قاعداً على الساحل لايدري ما يفعل. ثم استجمع قواه ونهض وسار يخوض البرك ويتخطى السواقي الملأى بالماء والاوحال بصعوبة والآم شديدة. يبحث عبثاً عن طريقٍ يسلكه، الى أن بلغ كوخاً لشيخ عجوز يشتغل في المستنقعات فخر جاثياً على قدميه يناشده العون والغوث ويعده بجزيل العطاء والمكافأ إذا نجاه من الخطر الذي يتهدده فأجاره إما بدافع معرفة سابقة به، أو تأثراً بمظهره الجليل، وقال له ان كوخه مناسب أن شاء ان يصيب راحته. أما ان كان هارباً من وجه أحدٍ فسيخفيه في موضع متطرفٍ. فرغب (ماريوس) في الأخيرة، فقاده العجوز الى المستنقع وانزله في نقرةٍ قريبة من ضفة النهر وغطاه بالقصب وبغيره من النبات الخفيف الذي لا يؤذيه ثقله. وما مرت برهة من الزمن حتى اشاعت الرعدة في اوصاله ضجة واصوات صادرة من الكوخ؛ فقد ارسل (گمينيوس) نفراً من اتباعه الى (تيراكينا) لتعقيبه واتفق أن بعضهم اختار ان يسلك ذلك السبيل فبلغ بهم كوخ العجوز فراحوا يستجوبونه ويتهددونه ويرهبونه بالعقاب لأنه آوى واستضاف عدواً للرومان. فخرج (ماريوس) من الحفرة وخلع ثيابه والقى بنفسه في حمأة مملوءة بماء جعله الطين كثيفاً لزجاً. ومع هذا خاب سعيه في التواري عن انظارهم، وأخرج من الحمأة وهو ملوث بالطين وحمل عارياً الى مدينة (مينتورنياي) ودفع الى حكامها اذ كانت الأوامر التي عُممّت على المدن تقضي ان يكون البحث عن (ماريوس) على نطاق شاملٍ. وأن ينفذ فيه حكم الموت حال العثور عليه. على ان الحكام مالوا الى التريث او التفكير في الأمر. واودعوه منزل امرأة تدعى (فانيا Fannia) سجيناً تحت الحراسة.

كان متوقعاً أن لا تحدب عليه هذه المرأة أو ترق لحاله، لحادثة سلفت لها معه. فقد تزوجت (فانيا) هذه من رجل يدعى (تينيوّس Tinnius) ثم طلقها فرفعت عليه دعوى المطالبة بمهرها وكان مبلغاً جسيماً. فاتهمها مطلقها بالزنا ورفعت القضيتان المتقابلتان الى (ماريوس) أثناء قنصليته السادسة. وبعد أن محصها ودققها من جميع الوجوه تبين له ان فانيا عفيفة الاّ ان زوجها كان يعرف فيها ذلك عندما تزوجها وعاشرها ذلك الزمن الطويل. ولذلك كان حكم (ماريوس) صارماً على المتداعيين فقد قضى بأن يدفع الزوج مهر مطلقته كاملاً. وفرض على المرأة غرامة رمزية قدرها أربعة أفلس نحاسية لتكون وصمة عارٍ لها. لكن (فانيا) هنا أبت

أن تستغلّ حالة (ماريوس) في اطفاء جذوة حقدها عليه ونسيت كل ما يتعلق بالأمر حالما وقع نظرها عليه وتوفرت الى العناية به ورعايته على قدر طاقتها وطيبت خاطره فشكرها وأظهر امتنانه منها وقال لها انه لن ييأس قط بعد أن صادفه الفأل الحسن لما جيء به الى منزلها. اذ ما أن فتح مدخل المنزل حتى اندفع منه الى الخارج حمار وعدا الى نبع قريب ليشرب منه ثم ألقى عليه نظرة جريئة لطيفه ووقف ساكنا أمامه ونهق ورفع قائميته الخلفيتين. ومن هذا استنتج آيةً، فسرها بأن القدر قد قصّ بنجاته بحراً لا برا لأن الحمار عاف علفه اليابس وانصرف عنه الى الماء. وبعد أن قصّى قصته هذه على (فانيا) طلب منها أن تغلق عليه باب الحجرة ليصيب راحته.

وفي اثناء ذلك كان قضاة (نيتوريناي) ومستشاروها يتداولون في مصيره. وقررا أن يقضوا عليه حالاً ولا يؤجلونه. ولما احجم كل رجال المدينة عن ذلك انبرى فارس (غاليّ) او (كيمبري) (وتروي القصة بالوجهين) ليأخذ على عاتقه قتله ودخل عليه وسيفه مشهر ولم تكن الغرفة مضاءة بنور كاف، ولاسيمّا الزاوية التي احتلها (ماريوس) فقد كانت مظلمة. وقيل ان عيني (ماريوس) كانتا ترسلان شواظ نار او شراراً إلى القادم. ثم انه صعقه بصرخة عالية من ركنه المظلم قائلاً له:

- اتجرأ يا صاح على قتل (كايوس ماريوس).

فاطلق البربريّ ساقيه للريح ملقياً بسيفه وخرج من الدار مهرولاً وهو يصيح

- لا استطيع قتل (كايوس ماريوس).

ولم ينطق بسواها.

في مبدأ الأمر ذهل المنتورينون لما جرى. ثم سرعان ما امتلأت قلوبهم بالعطف والألم. وادركهم الحنق على انفسهم لاصدارهم حكماً جائراً كفوراً بحق رجل حفظ ايطاليا وحماها، رجل يعد انكار المعونة له اسوء عمل يقدم عليه المرء. وقالوا بصوت واحد.

- الا فلندعه ينطلق الى حيث يشاء شريداً منفياً وسيلقى حتماً ما كتب له في لوح القدر في غير هذا المكان. وليس علينا إلا ان نطلب المغفرة من الأرباب لاخراجنا اياه من المدينة، مشرداً وحيداً طريداً.

وهرعوا اليه جميعا واخرجوه من الغرفة وساروا يحفّون به الى ساحل البحر، وكان بينه وبينهم مسافة طويلة يضيع فيها وقت ثمين. لأن بستاناً مقدساً يطلق عليه اسم «بستان مارشيا Marcia» كان يعترض سبيلهم. ولابد من الانحراف عنه والدوران حوله لأن الأهالي

يحرمون اخراج اي شيء يدخل اليه. فوقعوا في حيرة ثم صاح احد الكهول بهم قائلاً:

- ليس ثم شيء في الدنيا يبلغ هذه الدرجة من القداسة. وعليكم أن تمروا من داخل البستان توخيا لسلامة (ماريوس)

ثم اندفع الى الامام فصار في المقدمة ومعه شيء من المؤن الذي زود به ماريوس ودخل البستان فتبعه الآخرون بلا تردد. وبلغوا ساحل البحر حيث كانت السفينة التي هيأها (بيليوس Beloeus) راسية فصعد اليها. (اوحى هذا الرجل فيما بعد برسم صورة لهذه الواقعة وزين بها معبداً يقع قرب منطقة ابحار ماريوس) ونشرت قلوعها وشاء الخط أن يلقي بها البحر على السفينة ساحل جزيرة (ايفاريا) وهناك تمّ اللقاء (بغرانيوس) وصحبه وابحروا جميعاً الى افريقيا. ونضب ماء الشرب عندهم وهم في عرض البحر فاضطروا الى الجنوح بها ورسوا بالقرب من (اريكس Eryx) في صقلية، وكان فيها (كويستور) روماني يقوم بمهمة المراقبة والترصد وكاد يضع يده على (ماريوس) بعد ان فتك بستة عشر من اتباعه كانوا قد نزلوا البرّ بطلب الماء. فلما ادرك ما حَلّ بهم ابتعد عن الساحل متجها الى جزيرة (مينيْنكس Mininx) وفيها علم لأول مرة بنبأ سلامة ابنه مع (گثيغوس Gethegus) وعن ذهابه الى (هيمپسال Hiempsal) ملك النوميديين ليرجو منه العون.

واشاعت هذه الانباء بعض الراحة في نفسه، ورحل عن الجزيرة متجها الى قرطاجنة. وكان (سكستيليوس Sixtilius) الحاكم الروماني في افريقيا وهو شخص لم يصبه (ماريوس) بضرر أو بنفع. وكان المأمول منه أن يدفعه العطف فحسب الى اسداء بعض المعونة للمنفيّ ولكن ضابطاً من ضباطه كان في انتظار (ماريوس) عند وضع قدمه على البرّ مع نفر قليل. فتقدم منه وقال له:

- ان الحاكم (سكستيليوس) يمنعك يا (ماريوس) من وضع قدمك في افريقيا. وإن فعلت فسيطبق عليك المرسوم الذي اصدره مجلس الشيوخ بحقك ويعاملك معاملة اعداء الرومان.

واصغى (ماريوس) الى هذا القول وخانه التعبير عن حزنه وغضبه فارتج عليه وصمت ملّياً وهو ينظر الى الرسول شزراً. فسأله هذا عما اعتزمه وما هو الجواب الذي سينقله للحاكم فأجابه (ماريوس) وهو يتنهرّ تنهيدة عميقة:

- اذهب فقل له انك رايت (كايوس ماريوس) المنفيّ جالساً بين اطلال قرطاجنة.

مقارناً حظه وتغير احواله، بحظّ تلك المدينة ومصيرها الأليم. في أثناء ذلك كان

(هيمپسال) ملك النوميديين تتجاذبه الحيرة بين قرارين. وكان يعامل (ماريوس الابن) ومرافقيه اكرم معاملة الاّ انه اخذ يتعلل بشتى الحجج ليبقيهم عندما رغبوا في الرحيل، واتضح أنه كان يضمر لهم شراً وبيت لهم أمراً. إلاّ أن صدفةً من الصدف ضمنت لهم السلامة ضماناً اكيداً. فقد رقت مخطية من مخطيات الملك لحال ماريوس الإبن وكان جميل الصورة، ثم تحول عطفها الى مشاعر حبٍ وغرامٍ فصدّها عنه في مبدأ الأمر ولم يبادلها عاطفة حتى وجد سبيل الخلاص مقفلة في وجهه الاّ هذا السبيل وايقن أن شعورها ليس نزوة عابرة بل حُباً مقيماً فبادلها الحبّ. وهيأت له الوسائل لرحيلهم وهكذا نجا هو وصحبه في عملية الفرار وسعى الى ابيه حتى تم لقاؤهما وما كادا يبدآن السير على طول الساحل حتى لمحا عقربين تقتتلان فعدّها [ماريوس] فألاً سيئاً وأسرع بركوب قارب صيد صغير اتجه به الى [كرچيناس Cercinas] وهي جزيرة لا تبعد كثيراً عن القارة. وما ان غادر القارب اليابسة حتى رأى راكبوه ثلة من الفرسان ارسلها ملك النوميديين للقبض عليهم تتجه بأقصى سرعتها الى البقعة التي اقلعوا منها. وهكذا نجا [ماريوس] من خطر قيل انه فاق أعظم الأخطار التي تعرض لها قبلاً.

وفي روما وردت الانباء حول اشتباك [سيللاّ] في عدة معارك مع قوّاد [ميثريداتس] في [بويوسيا]. كما نشب صراع علني بين القنصلين سببه التناحر الحزبي. وأستظهر فيه [اوكتاڤيوس Octavius] على زميله [چينّا Cinna] فطرده خارج المدينة بلاستبداده بالحكم. ونصب [كورنيليوس ميرولا: Cornelius Merula] قنصلاً في محله. فراح (سينّا) يحشد قوات عسكرية في بعض انحاء ايطاليا وأعلن الحرب على القنصلين. وما ان سمع [ماريوس] بما يجري في الوطن حتى قرر ان يعود بحراً باسرع ما امكنه ومعه عدد من الخيالة الموريتانيين Mauritania الأفارقة، وبعض اللاجئين الايطاليين لا يزيدون جميعاً عن ألف رجل. وبهذه الحفنة بدأ رحلته فبلغ [تيلامون Telamon] من أعمال [اثروريا]. وما ان هبط الساحل حتى أعلن حرية العبيد الذين ينتظمون في صفوفه وتقاطر اليه أيضاً عدد كبير من ابناء البلاد، وجماعات من الرعاة الذين سبق تحريرهم من العبودية، حالما سمعوا باسمه فانضوا تحت رايته وهو بعد على الساحل. وأستهوت دعوته أصلب الرجال وأكثرهم فتوةً فالتحقوا به وأجتمع له في فترة وجيزة عسكرٌ كثير ملأ به اربعين سفينة.

كان يعلم عن [اوكتاڤيوس] الطيبة والصلاح، والتفاني في القيام بمهام وظيفته باعدل ما يتصور من أحكام. وكان يدري أيضاً أن [چينّا] موضع ريبة [سيللاّ] وشكه. ولم يطل تردده في اختيار شريكه في حرب الدائرة على الحكم القائم وقرر أن يحالف [سينا] وأرسل اليه

خطاباً يعلن فيه عن استعداده لأطاعته بوصفه قنصلاً.

وسرّ [چينّا] بعرض [ماريوس] وسارع بتوجيه منصب البروقنصل اليه وبعث له بالفاچي وغيرها من شعارات السلطة. فعاينها وقال: ان مظاهر العظمة لا تناسب عثار خطه الحاضر، وارتدى ثياباً عادية وابقى شعره نامياً مثلما أطلقه في اليوم الأول لنفيه. وأقبل على [چينّا] وهو الآن في السبعين يسير ببطء ومسكنة يقصد اثارة عطف الناس عليه. إلاّ ان تظاهره هذا لم يستر ملامحه القاسية التي ظلّت تغلب عليه وتفصح عن طبعه الحقيقي الغاشم. فكلّ التحقير والإذلال اللذين لقيهما عند تغيّر حاله، لم يظهرهما شديد ألمه ومسكنته تلك. وبعد أن حيّا [چينّآ] وسائر الجنود، عكف حالاً على تنظيم خطط القتال محدثاً تغييراً جوهرياً في الموقف بمنتهى السرعة. عمد أولاً الى وضع الحصار الاقتصادي وقطع سفن المؤون والارزاق. وصادر كل ما لدى التجارمن بضاعة ووضع يده على جميع مستودعات الخلال ثم استقدم اسطوله وأحتل به الموانيء. وأخيراً أستولى على [اوستيا] بالحيلة والغدر، ونهبها وفتك بعدد كبير من أهاليها، وسدّ مدخل النهر وبذلك قضى على آخر أمل للاعداء بالتمون عن طريق البحر. وبعدها زحف بالعسكر على العاصمة وركز قواته على جبل يدعى [يانيكولوم Ganic-ulum].

إن الضرر الذي أصاب المصلحة العامة من سوء تصرف [أوكتافيوس] من شؤون الحكم لم تبلغ جسامته مبلغ ما أصابها من اهماله اتخاذ الاجراءات الضرورية العاجلة التي تقتضي عدم التقيد الشديد باحكام القانون، بسبب تزمته وحرصه على مراعاته. فمثلاً عندما نصحه كثيرون بتحرير العبيد أبى وقال انه لم يمنح العبيد امتياز حرية البلاد التي يطرد منها الآن [ماركوس] تطبيقاً لحكم القانون فيه. ولما جاء [ميتللوس] الى روما (وهو ابن ميتللوس الذي كان جنرالاً في الحرب الأفريقية وسعى [ماريوس] فيما بعد الى نفيه كما اسلفنا، ساد الاعتقاد بأنه كقائد - أفضل بكثير من [اوكتافيوس] ولذا انفض الجنود عن هذا القنصل وأقبلوا على [ميتللوس الإبن] يلحون عليه بتولي قيادتهم والمحافظة على سلامة المدينة وعاهدوه على الاستبسال والاستماته في القتال اذا تسلّم قيادتهم رجل صنديد مجرب مثله وان النصر سيكتب لهم حتماً. ولكن [ميتللوس] استنكر عملهم هذا وأمرهم مغتاظاً بالعودة الى القنصل. فتمردوا والتحقوا بقوات العدو. وتبين [ميتللوس] الموقف الحرج في المدينة فتركها هو الآخر. إلاّ أن فئة من الكلدانيين Chadæns الذين يزاولون تقريب الذبائح وتفسير كتب [سيبيل Sybile] الدينية، اقنعوا [أوكتافيوس] بأن الأحوال ستنصلح وتتخذ سبيلاً طيباً فأبقوه في روما.

كان هذا القنصل بلا جدال أعدل الرومان وأشدهم استقامة مخفط للمنصب القنصلي كرامته وشرفه وابتعد به عن المصانعة والامتهان وقصره ضمن أضيق حدود قوانين الشريعة الأولى وقواعد الصرف القديم كانما هي حقائق رياضية ثابتة لا يمكن تحويرها. ومع هذا فأنا لا ادري حقاً كيف أبتلي ببعض الضعف من ناحية ميله الى الأخذ بأقوال قارئي الحظ والعرافين أكثر من نصح الرجال المترسين في الشؤون العسكرية والسياسية. وكانت نهايته أنه جُر جَراً من منبر الخطابة قبيل دخول [ماريوس] المدينة وقتل بيد أولئك الذين أرسلهم قبله. وورد في الأخبار انه وجد في طيات ثوبه عند قتله رقعة عليها كتابة كلدانية. ومما لا يمكن تفسيره والحق يقال. أن ينجح أحد جنرالين شهيرين وهو [ماريوس] في استخلاص الصائب من النبوءات. بينما يلحق الخراب بثانيهما وهو [اوكتافيوس] لخيبته فيها.

بعد أن آلت الأمور الى هذا الحدّ، اجتمع الشيوخ وقرروا ارسال وفد الى [چينّا] و[ماريوس] يرجو منهما دخول المدينة دخولاً سلمياً والعفو العام عن سائر المواطنين. وأستقبل [سينّا] الوفد بحكم منصبه القنصلي وهو جالس على كرسي [الكورول] وكان ردّه على الوفد لطيفاً. أمّا [ماريوس] فقد ظلّ واقفاً الى جواره ولم يقل شيئاً، انمّا أظهر امارات كافية على نيته في اغراق المدينة بالدماء، بانقلاب سحنته وصرامة نظراته. وما ان نهض الوفد وتوجه الى المدينة حتى دخلها [سينا] وحرسه لكن [ماريوس] توقف لدى ابوابها وارسل يقول مخفياً حقده: انه شخص منفي أبعد عن موطنه بحكم قانوني. فاذا وجد ان حضوره ضروري فينبغي ابطال القرار الذي قضى بنفيه، بقرار آخر جديد. وقد اراد بهذا الظهور بمظهر المتزمت الحريص على حرفية القانون، وبأنه يعود الى المدينة وقد تحرر من الجور والخوف. فأجتمع الجمهور للتصويت وقبل أن يتم أخذ أصوات ثلاث قبائل أو اربع. أسقط [ماريوس] قناع ادعائه الكاذب ونبذ تزمته القانوني الزائف حول قرار نفيه ودخل المدينة بنخبة من حرس خاص أطلق عليه الحرس البارداييي Bardyaei الفه من العبيد الذين التحقوا به. فباشروا بقتل المواطنين بناءً على أوامر كان سيدهم يلقيها اليهم لفظاً أو بايماءة من الرأس.

وأقبل على [ماريوس] السناتور [أناخاريوس Anacharius] وهو [بريتور] سابق، والقى بالتحية على الظافر فلم يرد عليه فهجم عليه الحرس بسيوف مشهرة وفتكوا به أمام رئيسهم. وبعدها أصبح عدم الرد على التحية الاشارة المتعارف عليها. فإن لم يلتفت ماريوس اليهم أو يردّ عليهم قتلوه. حتى شاع القلق والرعب في نفوس اصدقائه وكان الخوف على أرواحهم يتملكهم كلما واجهوه أو حدثوه.

بعد أن ذبح هذا الحرس عدداً كبيراً. بَشِم [چينا] وزاد نفوراً وملالاً من القتل. إلاّ ان

[ماريوس] لم يرتو من الدماء وواصل فتكه بالناس بشهوة متعاظمة، وأستمر في تعقيب ومطاردة كل من كان يشك فيهم بكيفية ما. وأمتلأت الطرق والمدن برجال التعقيب والمطاردة وبالفارين والمختفين. ومما كان يدعو الى الدهشة والعجب ان الثقة زالت من الناس، ولم تعد النفوس والحالة هذه تطمئن الى صداقة أو ضيافة. فلا ترى من لا يشيء باللاجيء اليه أو المستجير به إلاّ في القليل النادر. ولذلك استحق عبيد [كورنوتوس Cornutus] أعظم الثناء والأعجاب لأنهم أخفوا سيدهم في المنزل، وجاؤا بجثة أحد القتلى وفصلوا رأسها عنها ووضعوا خاتماً له في أصبعها وعرضوها على حرس [ماريوس] ودفنوها دفنة لائقة وبكلّ المراسيم الواجبة لمكانة سيدهم. ولم تكتشف الخدعة بتاتاً منجا [كورنوتوس] ورحله أهل بيته الى بلاد الغال.

ومع أن [ماركوس انطونيوس] الخطيب المصقع، وحد صديقاً وفياً فان خطه العاثر لازمه. هذا الصديق لم يكن إلاّ رجلاً معدماً من الطبقة العامة. ولأن ضيفه كان من سراة روما وأعلاهم مقاماً فقد حاول أن يقدم له أفضل ما في طوقه وبعث بخادمه الى الدكان ليتباع مقداراً من الخمر فراح الخادم يتذوق اصناف الخمر التي عرضها الخمار بدقة واعتناء فسأله البائع: ما خبره؟ وما الذي يدعوه الى التشددّ في الاختيار ولم لا يبتاع كعادته خمراً جديدة عادية ويريد سلافاً معتقة غالية الثمن؟ مما كان من الخادم إلاّ ان أفضى اليه بكلّ براءة وثقة من صديقه وعشيره: أن سيده أقام وليمة [لماركوس انطونيوس] المختفي في منزله. فأنتظر الخمار السافل حتى انصرف الخادم وأسرع الى [ماريوس] بذاته. وكان هذا جالساً على مائدة العشاء، فاحضر أمامه، وسأله عنا يريد فقال ان في مقدوره أن يدفع اليه [بانطونيوس] وما كاد [ماريوس] يعي حديثه حتى أطلق صيحة سرور عظيمة وصفق بيديه مغتبطاً على ما يروى. وتملكته رغبة شديدة في الذهاب الى المخبأ لولا وجود أصدقائه. على انه بعث [بآنيوس Annius] وثلة من الجنود وأمره أنه يأتيه برأس [انطونيوس] بأسرع ما يمكن ولما بلغوا المنزل تأخر [آنيوس] عنهم ووقف بالباب وأرتقى الجنود الدرج الى الأعلى ودخلوا الغرفة وعندما ابصروا به راح واحدهم يحاول نقل المهمة الكريهة الى الآخر. ويظهر أن سحر لسانه اذهلهم فوجموا واحجموا عن الاقتراب منه ولمسه وأطرقوا وقد علاهم الخجل وشعر كل واحد منهم ان العبرة تكاد تخنقه وطال وقوفهم مصغين الى بيانه الرائع ودفاعه عن نفسه حتى ضجر [آنيوس] من الانتظار وولج المدار ليشاهد [انطونيوس] مسترسلاً والجنود مبهوتون مأخوذون فأنبهم ووصمهم بالجبن وتولى هو قطع رأسه.

ولما راح بعضهم يتشفع في [كاتولوس لاتاتيوس Catulus Latatius] زميله وشريكه في

الانتصار على الكيمبري أجابهم بعبارة واحدة فحسب:

- موته لابد منه.

فما كان من المتشفع فيه إلاّ وأغلق باب حجرته عليه وأوقد فيها ناراً عظيمة فأختنق بدخانها. ولكثرة ما كانت الجثث المشوهة المحزوزة الرؤوس تلقى في الشوارع تحت مواطيء الاقدام لم تعد تثير في الناس مشاعر الألم والرثاء بقدر ما تشيع في انفسهم من الحنق والرّعب، إن الفظائع التي ارتكبها رجال الحرس البدراي كانت أعظم بلوى حلت بالناس، فهؤلاء فتكوا بارباب الأسر في عُقر دورهم واذاقوا مرّ العذاب أولادهم وهتكوا اعراض نسائهم لا رادع يردعهم عن اعتداءاتهم المنكرة وقتولهم حتى بلغ السيل الزبى وأتفق حزبا [چينّا] و[سرطوريوس] على تصفيتهم فانقضوا عليهم وهم في معسكرهم وفتكوا بهم الى آخر رجل.

ومرت فترة شبيهة بفترة تغير اتجاه الريح للسفينة. وتوازت ابناء من شتىّ الانحاء تفيد بأن [سيللا] بعد أنهى الحرب مع [مثيريداتس] وسيطر على الاقاليم - عائد الى أيطاليا بجيش لجب. فوضعت حداً للفظائع وهدأت النفوس منها قليلاً. ولأعتقاد [ماريوس] أن الحرب توشك ان تندلع جرى انتخابه قنصلاً للمرة السابعة فبدأ حكمه الموافق لليوم الأول من كانون الثاني وهو بداية السنة الرومانية بالقاء شخص يدعى [سكتوس لوكينوس] من فوق الصخرة الثارپية فكان شؤماً عليه كما يبدو ودليلاً على تجدد المآسي على المدينة وعلى حزبه. وكان الوهن والانهاك قد أعترى بسد [ماريوس] من ثقل السن، وهدت الهواجس قواه وعجز من استجماع معنوياته وراحت نفسه تتأرجح بالخوف من حربٍ جديدة ومعارك وأخطار مدلهمة. فقد علمته تجاربه الأولى من الدروس ما حتم عليه إلاّ يخاطر بحربٍ مع [اوكتاڤيوس] أو [ميرولا] وهو يقود أوشاباً ورعاعاً متمردين على الضبط العسكري، ولا خبرة لديهم. وها ان [سيللاّ] ذلك الشخص الذي سعى جاهداً الى نفيه، يقترب من المدينة عائداً بعد استظهاره على [مثيريداتس] ودفعه حتى أقاصي البحر الأسود (البونطس).

تناهبته الافكار المزعجة، وأخذ يتذكر نفيه وتشريده الأليم والأخطار التي تعرض لها في البرّ وفي البحر. فركبته السويداء، وطاردته أشباح المخاوف ولم تعد عيناه تكتحلان بنومٍ هنيء، وكان يتصور ان شخصاً يلازمه كالظلّ ولا يفتأ يهمس في أدنيه هذا البيت:

«... إن وجار الأسد خطر وان غاب عنه صاحبه»

وكان أخشى ما يخشاه ان يظل صاحياً يقظاً فعكف على الشراب ليلاً الى درجه الثمل

وتبلد الحسّ بدرجة لا تناسب عمره يريد أن يفقد وعيه أو يصطاد النوم بأية وسيلة للخلاص من أفكاره. وفي النهاية ادركه قلق جديد عند وصول رسول من الساحل. وما لبث ان سقط مريضاً بذات الجنب بتزايد مخاوفه وثقل حاضره بعد وعكة بسيطة، كما ذكر [پوسيدونيوس] الفيلسوف الذي يضيف قائلاً انه كان قد زاره اثناء مرضه وتحدث اليه حول أمور سفارته. ويحدثنا [كايوس پيسو Cauis Piso] المؤرخ ان [ماريوس] كان مرة يتمشى مع اصدقائه بعد تناول العشاء فأخذ يتحدث اليهم عن ماضي حياته ويستذكر التقلبات العديدة التى عاناها في حياته من المبدأ الى المنتهى فقال: «يجدر بالرجل الحصيف البعيد النظر أن لا يودع كل مقدراته الى تصاريف الحظّ دائماً». ثم انه استأذن من صحبه وانسحب الى فراشه فلازمه عدة أيام وبعدها ادركته الوفاة.

وروى بعضهم أن مرضه كشف عن مدى تهالكه على السلطة وطموعه الى العلا ففي هذيانه توهم أنه جنرال يقود معركة ضدّ [ميثريداتس] وأخذ يأتي بحركات وايماءات من جسمه وأطرافه مثلما كان يفعل عند خوضه معركة ويكثر صراخه وزعيقه، حتى لكأن رغبته الدفينة هي التي تدفعه بكبرياءٍ منه وحبّ للظهور. ومع انه بلغ السبعين من العمر وكان أول من تولى المنصب القنصلي سبع مرات، وجمع أموالاً طائلة تغني عدة ملوك. فقد ظلّ الى آخر لحظةٍ من حياته يندب حظّه العاثر وينعى على الاقدار غدرها به لموته قبل ان يحقق أمانيه.

لما حضرت الوفاة [افلاطون]، راح يشكر العناية الالهية، وسعادة حظه في الحياة؛ أولاً لأنه ولد رجلاً واغريقياً ولم يولد بربرياً أو همجياً. وثانياً لأنه عاش في عصر سقراط. وكذلك قالوا عن [انتيباطر] الطرسوسي انه أخذ يستذكر في ساعة أحتضاره السعادة التي استمتع بها ولم يفعل منها حتى رحلته الناجحة الى آثينا. مقراً بكل فضل لحظه عليه مع الشكران والاعتراف بالجميل، مختزناً اياها الى الأخير في ذاكرته وهي أمنع حجرة كنوز بشرية أما المتبذلون والمستهترون فمن شأنهم أن يطرحوا من ذاكرتهم كل ما صادفوه من أحداث فلا يشعرون باعتزاز بها ولا يفكرون باختزانها وبذلك يفقدون لذة حالهم الطيبة الحاضرة في أوهام توقع حال أفضل. في حين أن ما بيدنا لا تستطيع ان تحرمنا منه الاقدار مثلما هي قادرة على حرماننا مما سيأتي. أن هؤلاء لا يقبلون بواقعهم الناجح ولا يهمهم امره، ولا يجدون ضالتهم الاّ في الأحلام بالمستقبل غير المحقق. وهذا ليس بالشيء الغريب. فالرجال لن يستطيعوا مطلقاً ان يرضوا رغبات عقلهم اللا محدودة ألاّ باطلاب الثقافة والعلم فبهما فقط يضعون الأسس الجيدة للبناء الفوقي الخارجي.

قضى [ماريوس] نحبه في اليوم السابع عشر لممارسته مهام قنصليته السابعة فأحدث فرحاً

وارتياحاً في روما يقصران عن الوصف وانتعشت آمالها في الخلاص من بلايا الطغيان القاسي لكنها سرعان ما وجدت انها أستبدلت بسيدها الهرم المنهوك، سيداً آخر قوياً فتياً بشخص ابنه [ماريوس] الذي أظهر وحشية وقسوة لا توصفان في قتل اشرف المواطنين وأكرمهم. توهموا به أولاً، رجلاً جسوراً عزوماً بمواجهة اعدائه فأطلق عليه لقب [ابن مارس] لكن أفاعيله التالية كشفت عن الجانب السيء منه فلقب [بابن ڤينوس]. وقد حاصره [سيللا] في [برينيست Præneste] وضيق عليه الخناق ولما فشلت وسائله العديدة في انقاذ نفسه، وتم الاستيلاء على المدينة وسدّت بوجهه منافذ الهرب، نحر نفسه بيده غير مأسوف عليه.




ليساندر
LYSANDER
395



يوجد في غرفة كنوز [الأقانيثين Acanthians] بدلفي النقش التالي: «الغنائم التي استولى عليها [براسيداس Brasidas] والاقانثيون، من الآثينيين». وبناءً على هذا يتوهم كثيرون بأن التمثال الرخامي القائم في داخل البناية بالقرب من الابواب، انما هو تمثال [براسيداس] بينما هو في الحقيقة تمثال [ليساندر] يمثله بشعره الطويل المسترسل حسب الزيّ القديم، وبلحتيه الكثة. وليس بصحيح ما زعمه بعضهم بأن [الارغوسيين] عمدوا بعد هزيمتهم الى حلق شعورهم حزناً. وليس بصواب كذلك أن السپارطيين أطالوا شعورهم للانتصارات التي حققوها، أو أنهم أرسلوه تباهياً وفخراً لأن [الباخيادي Bachiadae] الذين هربوا من [كورنثا] الى [لقيديمون] كانوا يحلقون شعرهم قصيراً. انما كان ذلك بمقتضى قانون من قوانين [ليكورغوس] الذي روى أنه كان لايفتأ يقول: ان الشعر الطويل يزيد في وجه الرجل الجميل جمالاً وفي ذي الوجه القبيح نفرة وارعاباً.

وقيل أن والد [ليساندر] هو [ارسطوقليطس Aristoclitus] الذي وان كان لا ينحدر من صلب الملوك إلاّ انه من نسل الهيراقليدي. لقد نشأ الأبن نشأة فقر وأظهر من الطاعة وتقاليد بلاده والانصياع الى قوانينها بشكل لم يفعله أحد، وكان يمتاز ايضاً بالرجولة والترفع عن الملاذ كلها، خلا تلك التي تأتي للمفلحين والعظماء، بأعمالهم ومآثرهم الطيبة. ولم يكن يعتبر من الامتهان في سپارطا ان يستسلم الشباب لمثل هذا النوع من الملاذ. فمن المستحبّ عندهم أن ينشأ شبانهم من البداية وهم حساسون ازاء حسن السمعة وشؤنها وان يشعروا بالألم عندما يصابون بعارٍ وبالفخر عندما يثنى عليهم. ومن لا يكون مهتماً أو حساساً بهذا يُعدّ فقير النفس لا تجود بالسجايا والخلق الكريم، لذلك غرس الطموح والتهافت الى المجد في شخصيته بفضل تربيته اللاقونية. واذا كانت هاتان الخصلتان ملازمتين لأهل البلاد، فليس لنا ان نلوم طبيعته تلك. على انه كان شديد الطاعة للزعماء وعظماء الرجال بشكل غير مستحب وبافراط يبو عنه الذوق السپارطي. فهو يستطيع أن ينحمل بكلّ طيبة خاطر غطرسة مالكي زمام السلطة كلما عاد ذلك عليه بالنفع وهذا على رأي بعضهم من مقدمّات الحنكة السياسية الهامة ويقول ارسطو أن سوداوية المزاج تلازم كل عظماء الرجال وإن بدرجات متفاوتة ويضرب

مثلاً لذلك [بسقراط وافلاطون وهرقل]. وقد جاءنا من المصدر نفسه أن ليساندر غلب عليه هذا الطبع في كهولته لا في مقتبل عمره.

إن الأمر الذي تفرد به [ليساندر] هو مدى تحمّله فقره ورضاه بحاله بأفضل صورة. الثروة لم تقو على استعباده أو افساده مع انه ملأ بلاده بالأموال واغى في نفوس أهلها حبّ الغنى وجردهم من فضيلة أحتقار النقود السامية. لقد حمل الى بلاده قناطير مقنطرة من الذهب والفضة بعد الحرب الآثينية لكنه لم يختص لنفسه منها بدراخما واحد. وعندما بعث الطاغية [ديونيسيوس] اثواباً غالية الثمن لبناته من صنع صقلية هدية ردّها عليه قائلاً: انه يخشى ان يزددن قبحاً بها! وبعدها بزمن كان [ليساندر] قد أرسل بسفارة الى البلاد نفسها وللطاغية نفسه. فاعاد معه العمل نفسه وأرسل اليه ثوبين ليختار أحدهما لابنته فقال [ليساندر]:

- انها وحدها قادرة على اختيار الأفضل.

وأخذهما ورحل بهما.

مرّ على حرب البلوبونيس زمن طويل وكان يتوقع من الآثينيين بعد نكبتهم في صقلية أن يخسروا سيادتهم على البحار حالاً وأن تحل بهم الهزيمة في كل مكان بعد فترة قصيرة؛ إلا أن عودة [الكيبياديس] من المنفى وتوليه القيادة أحدث تغييراً عظيماً في الوضع ورفع الاثينيين الى درجة التكافؤ مع خصومهم في البحر. فدبّ القلق الشديد في نفوس اللقيديمونيين ودعوا الى المزيد من التفاني والحماسة والعمل للمعركة القادمة. ولشعورهم بنقص في عدتهم الحربية وحاجتهم الى قائد قدير، بعثوا [بليساندر] بمنصب قائد لأساطيلهم في عموم البحار. ورحل الى [افسس] فوجد مشاعر المدينة معه وأهلها يشايعون الحزب اللقيديموني. إلاّ انها كانت سيئة الأحوال معرّضة الى خطر صيرورتها بربرية القوام لممارستها عادات الفرس الذين كانوا في أشدّ التمازج والاختلاط فيما بينهم، ولأن بلاد [ليديا] تجاورهم، وقوّاد الملك قد استقروا فيها منذ عهد بعيد. ولذلك عسكر هناك وأمر بأن يتم ارساء كل سفن التجارية في مينائها وباشر في بناء السفن وبهذا النشاط التجاري الذي خلقه أحيا موانيهم وانعش اسواقهم بالأعمال التي اوجدها وملأ بيوتهم الخاصّة وحوانيتهم بالبضائع والأموال.

وهكذا بدأت المدينة منذ ذلك العهد وبمسعى [ليساندر] أولاً، تؤمل بعض الشيء في بلوغ ذلك السؤدد والعظمة اللذين ترفل فيهما الآن.

وعلم [ليساندر] أن [كورش Cyrus] ابن الملك قد قدم الى [سارديس] فقصده ليكلمه وليشكو اليه [طيسافيرنس] الذي بلغه الأمر بوجوب معاونته اللقيديمونيين وطرد الآثينيين من

البحر فتقاعس وتلكأ بسبب [الكيبيادیس] واساء العمل بدفعه اجوراً زهيدة للبحارة حتى يلحق الدمار بالاسطول. وكان [كورش] يتمنى أن يثبت التقصير على [طيسافيرنس] وأن تشوه سمعته وتظهر حقيقة أمره كما هي في الواقع لأنه كان يحقد عليه في سرّه. وافلح [ليساندر] في نيل ثقته وحبّه عن طريق ذلك وبمحادثاته اليوميّة المشوبة بطابع الخضوع للأمير الفتى، ورفع كثيراً من حماسته في مواصلة الحرب. واقام له [كورش] وليمة خاصة قبيل رحيله ورجا منه الا يتردد قطّ في الثقة به وان يتكلم بكلّ حرية ويطلب كلّ ما يريد، فسيحققه له مهما كان. فأجاب [ليساندر]

- لما كنت بهذه الدرجة من العطف، فانيّ الحّ عليك في الرجاء بأن تمنح البحارة دانقاً واحداً زيادة على اجرهم اليومي. فيكون اربعةً بدلاً من ثلاثة.

فسرّ [كورش] لاخلاص [ليساندر] وتفانيه في المصلحة العامة ولم يكتف باقرار الزيادة التي اقترحها وانما منحه عشرة آلاف «داريكي Daric». وكان من آثار هذه العلاوة أن فرغت سفن الأعداء من البحارة تقريباً وتقاطروا على الجانب الذي يدفع أعلى الأجور. واما من بقي فقد فترت حماستهم، وتمردوا على قباطنتهم وصاروا يثيرون لهم المشاكل يومياً. ومع كل هذا الضعف والاضطراب الذي سببه [ليساندر] لعدوّه فقد ظلّ يخشى الاشتباك معه في البحر. اذ كان [الكيبياديس] قائداً عبقرياً، ولديه عدد من السفن يزيد عما لدى [ليساندر] ولم يخسر قط اية معركة لا في البرّ ولا في البحر.

لكن عندما اقلع [الكيبيادیس] من [ساموس] الى [فوكيا] فيما بعد مودعا القيادة العامة لانطيوخوس القبطان، راه هذا القائد الجديد يتحرش بليساندر، وابحر بسفينتين فقط الى ميناء [افسس] بقصد اهانته وأخذ يتجول بهما على طول الساحل ساخراً متندراً أمام صفوف السفن. ودفع [ليساندر] في سورةٍ من الغضب ببضع سفن أولاً لمطاردة. ولكن ما أن وجد الآثينيين يخفون الى نجدته حتى أخرج عدداً اخر من سفنه وبالأخير انقلب الأمر الى معركة حاسمة انتصر فيها [ليساندر] وغنم خمس عشرة سفينة وأقام نصباً تذكارياً.

وغضب أهل المدينة لهذه الخسارة فعزلوا [الكيبياديس]. ولما وجد هذا نفسه موضع أحتقار ونقد شديد من الجنود في [ساموس] ترك معسكر الجيش الى [الخرسونيز] ومع أن هذه المعركة لم تكن هامة بحدّ ذاتها إلاّ ان آثارها كانت كبيرة بالنسبة الى [الكيبياديس].

ودعا [ليساندر] في اثناء ذلك الى [افسس] عدداً من شخصيات مختلف المدن البارزة، ممن توسم فيهم روح الجرأة والكبرياء وبدأ يضع أسس نظام حكم جديد فيها يرتكز على مجلس

دولة يتكون واحدها من عشرة اشخاص،. وزرع فيها بذور تلك الثورات التي انفجرت فيما بعد. وحث أولئك الأشخاص وحمّسهم على الاتحاد في نوادٍ واحزاب والانصراف الى الشؤون العامة فعما قريب ستنكسر شوكة الآثينيين. وسيقضى على نظم الحكم الجمهوري وبذلك سيتسلمون مقاليد الحكم في بلادهم المختلفة، وأثبت لهم بالبرهان اقواله هذه بتقليد اصحابه وخلاّنه المناصب الرفيعة والوظائف الحساسّة وخلع ضروب التكريم عليهم. وشارك في ظلمهم وشرورهم ارضاءً لأطماعهم حتى أحاطوا به واصبحوا بطانةً تتزلف اليه وتحرص على وجوده مؤملين من بقائه في دست الحكم، تحقيق أعظم رغباتهم وغاياتهم. ولذلك ضاقوا ذرعاً من البداية بـ[قاليقراتيداس Callicratidas] عندما عين خلفاً [لليساندر] في قيادة الاسطول وكرهوه في النهاية عندما جربّوا نبله وعدالته. ولم يكونوا مسرورين قط من اسلوبه في الحكم واستقامة اخلاقه وأمانته وطبعه «الدوري»[1] المثالي. الحق يقال انهم أعجبوا بمزاياه، مثلما يعجبون بجمال رسم بطلٍ من الأبطال فحسب. أما رغباتهم فكانت كلها تحوّم حول ليساندر ودعمه لمصالح اصدقائه وانصاره وترويجه كل ما فيه منفعتهم. ولذلك ذرفوا الدمع حزناً عندما رحل عنهم. وزاد في اضطغانهم لخلفه انه ارجع الى [ساردیس] بقية الأموال التي صرفت له لدفع مرتبات بحارة الاسطول، وأوعز لأصحابه بأن يراجعوا القائد الجديد، بهذا الخصوص ويحرجوه بطلب مالٍ لا يملك منه شيئاً. وأخيراً قال له قبل ابحاره: انه يسلم اليه الاسطول بعد أن صار سيداً مطلعاً على البحر. فبادر [قاليقراتيدس] وقصده أن يفندأ كذوبته هذه ويميط اللثام عن ادعائه الفارغ.

- إن كان الأمر كما تقول فأخرج بالاسطول من [ساردیس] متياسراً واتجه نحو [ميليطس] وقم بتسليم قيادة الاسطول لي هناك. اذ ليس ما نخشى منه بابحارنا عن طريق [ساموس] حيث اعداؤنا، مادمنا سادة البحر.

فردّ [ليساندر] قائلاً: «انه لم يعد قائداً للاسطول وانما هو ليساندر فقط.» ثم أبحر الى [البلوبونيس] مخلفاً [قاليقراتيداس] في ورطة ليس أعظم منها. لأنه كان خالي الوفاض ليس عنده ما يدفع نفقات الاسطول كما انه لم يشأ ان يجبي ضريبة من المدن، أو يرغمها على الدفع. فأصبح في عسرٍ شديد. ولم يجد وسيلة أفضل من أن يطرق ابواب قادة الملك مستعطياً كما فعل سلفه [ليساندر] لكن نفسه الرفيعة جعلته أبعد الناس جدارة بهذا العمل. فهو من أولئك الذين كانوا يرون من الأفضل للأغريق ان يؤذوا بعضهم بعضاً ولا يتصاغرون أو

(١) هي بالأصل نسبة لأهل «دوريس Doris». ودرويس اقليم من اقاليم اليونان القديمة. (اما الاقليمان الآخران منهما ايوليا وايونيا). ومنه جاء «المقام الدّوري Dorian» في الموسيقي اليونانية القديمة.

يتزلفون أو يقفون بذلة على ابواب البرابرة الذين لا نكران في انهم يملكون مالاً كثيراً. ولا يملكون شيئاً آخر غيره يستحق الذكر إلاّ أن الحاجة ارغمته، فرحل الى [ليديا] وقصد منزل [كورش] مباشرة. وأرسل من يعلمه أن [قاليقراتيداس] أمير البحر قد حضر لمحادثته فأجابه أحد المكلفين بحراسة الأبواب:

- إن كورش أيها الغريب مشغول لأنه يشرب.

فقال [قاليقراتيداس] بسذاجة: حسن جداً، سانتظر هنا اذن حتى ينتهي من شرابه.

وهذا ما حملهم على الاعتقاد بأنه نوع من المهرجين أو المضحكين فلم يابهوا به وانسحب هو يشيعه ضحك البرابرة. ولكنه شعر باهانةٍ لكبريائه عندما جاء ثانيةً ولم يفسح له. فأنطلق عائداً الى [إفسس] وأخذ يدعو بالويل والثبور على بني قومه الذين سمحوا الهؤلاء البرابرة باهانتهم وعلموهم الوقاحة والغطرسة، بسبب ثرواتهم. وقطع على نفسه عهداً امام من كان حاضراً بأنه سيعمل حال عودته الى سپارطا على بذلٍ أقصى جهوده لاصلاح ذات البين بين الاغريق ليكونوا اعزّ جانباً وأقوى من البرابرة. ولكي لا يمدوا يد الصدقة اليهم أو يطلبوا مساعدتهم بعضهم على بعض. إلاّ ان [قاليقراتيداس] هذا الذي حاول انجاز عملٍ جليل جدير باللقيديموني حقاً. وكان في جرأته عليه واستقامته وسمّو فكرته أهلاً لمضاهاته بأعظم عظماء اليونان وافاضلهم، ما عتم ان قضى نحبه عقب اصابته بهزيمة بحرية في [ارغينوسي Arginu-sae].

وراحت الاوضاع تنتقل من سيء الى أسوء، وبعثت دول الحلف العسكري بسفارة الى سپارطا تطلب منها [ليساندر] ليتولى قيادة الاسطول العامة. وزعموا ان هذا التعيين سيشد من ازرهم ويقوي من عزماتهم وايّد [كورش] هذا الاقتراح أيضاً. إلاّ ان القانون السپارطي لم يكن يسمح بتعيين الشخص نفسه أيداً للبحر أكثر من مرة واحدة ولكنهم كانوا يريدون ان يحققوا رغبة حلفائهم. ولذلك منحوا اللقب لشخص يدعى [آراكوس Aracus] وارفقوا به [ليساندر] بوظيفة نائب له اسمياً على أن تكون له جميع السلطات الفعلية. وهكذا عاد بعد طول انتظار وشوقٍ من معظم زعماء المدن وسراتها لأنهم كانوا يعتمدون على وجوده للقضاء على الحكومات الجمهورية في كل مكان حتى يزداد نفوذهم ويتعاظم.

على أن من أحبّ الاستقامة والنزاهة والنبل في قائده، وجد [ليساندر] اذا قورن [بقالقراتيداس] شخصاً مخادعاً مراوغاً ماكراً وسيلته في الحرب الغدر والحيلة. يُشيد بما هو عدلٌ ان كان في العدل منفعة له، فان لم يكن، تحول عنه الى ما يصلح له وان لم يكن حسناً.

وهو أصلاً لا يرى فضلاً للحقيقة على الزيف وقيتهما واحدة عنده نسبةً الى مصلحته. ويستخفّ باولئك الذين يرون أن أحفاد هرقل ينبغي لهم أن يترفعوا عن الخدعة في الحرب، وآيته في ذلك «إن لم يكن جلد الأسد كافياً فارقعه بجلد ثعلب». وكان هذا هو الأسلوب الذي أثر عنه في معالجته مسألة [ميليتوس] عندما آثر اصحابه وانصاره الذين وعدهم بالتعاون معهم للقضاء على الحكومات الجمهورية وطرد خصومهم السياسيين - أن يغيروا رأيهم ويصالحوا أعداءهم، فتظاهر بسروره من عملهم، والرّغبة في المزيد من الصفاء والوئام. إلاّ أنه انتقدهم وانبهم في السرّ وحرضهم واستفزّهم على الشعب. وعندما تبين بوادر محاولة جديدة للثورة حتى عجل بالدخول الى المدينة وأخذ يعنّف اول من التقى به من المتآمرين ويكلمه بخشونة مهدداً الجميع بالعقاب على ملأ من الناس، ولكنه أخذ يشجع الآخرين على تمردهم واوصاهم الاّ يخشوا شيئاً لأنه في جانبهم. وكان هدفه من كل هذا التمثيل والمراوغة والتستر، اشاعة الإطمئنان في قلوب زعماء حزب طبقة العامة فيطرحوا جانب الحذر ولا يهربون من المدينة ليفتك بهم. وهو ما حصل فعلاً فقد قتل كل من صدق اقواله.

وثم قول يُعزى الى [اندروقليدس]. يتهم فيه [ليساندر] بأنه لا يحترم قط اي عهد يقطعه، ولا يحافظ على اي قسمٍ يحلفه وأورد عن لسانه وصيّة وهي «الصّبية غشهم بالنرد، والرجال اخدعهم باليمين» وهو ما يشبه أخلاق [پوليقراطس] السّاموسي على انه ليس مما يشرف قائداً يخضع لحكم الشريعة أن يحتذي حذو طاغيةٍ مستبدٍ ويتخذه مثلاً. وليس بليق أخلاقياً، بالتقاليد اللاقونية، ان تعامل الالهة معاملة الاعداء بل أسوء. فمن يستظهر على خصمه بحلف يمين يكن مقراً ضمناً بخوفه منه ولا يحترم آلهته.

بعث [كورش] يستقدم اليه [ليساندر] في [ساردیس] فخف لمقابلته فأعطاه مقداراً من المال ووعده بالأكثر وتعهد له بنزق الشباب وتسرعه بان يمده بكلّ ما يحتاجه إن أمتنع ابوه الملك عن سدّ حاجاته، وإن اقتضى ذلك منه النزول عن كل ثروته وأملاقه، وأقسم انه سيصهر عرش حكمه المصنوع من الفضة والذهب لأجله. ولما رحل الى موطنه بلاد مادي لمواجهة ابيه أمر أن تدفع [لليساندر] أتاوات المدن وأوكله على تصريف شؤون الحكم في غيابه وأوصاه قبيل سفره بألاّ يدخل معركة بحرية قبل مجيئه، لأنه سياتيه بسفن كثيرة من [فنيقيا وكيليكيا].

كان عدد السفن التي وضعت بأمرة [ليساندر] قليلاً جداً لا يسمح له بالمغامرة في قتال. كما لا يسمح له بالسكون وعدم الحركة فأنطلق بها مستولياً على بعض الجزر، ومجتاحاً [ايجينا] و[سلاميس]. وبعدها نزل برّ [آتيكا] وسلم على [آغيس] الذي قدم من [ديقيليا

[Decelea] لمقابلته. وهناك قام باستعراض بحري لقواته أمام قوات البرّ، يريد أن يوحي لهم بقدرته على الانطلاق الى حيث يشاء لكونه سيد البحر المطلق. إلاّ انه هرب بطريق آخر عندما شعر بأن الآثينيين يتعقبونه فعبر الجزيرة الى آسيا. ولما وجد [الهللسپونت] من غير دفاع، هاجم بسفنه [لامپاسكوس] من جهة البحر. وتعرض [ثوراكس Thorox] بقواته البرية لأسوارها وما لبثا ان فتحوها عنوة، وأطلقوا جنودهم فيها ينهبونها ويستحلوّن حرماتها. وكان الاسطول الآثينيي في تلك الاثناء قد وصل [اپليوس] في [الخرسونيز] بسفنه المائة والثمانين. فبلغتهم ابناء دكّ مدينة [لامپاسكوس] فأسرعوا الى [سيستوس] حيث تزودوا بالمؤن والارزاق ثم اتجهوا الى [ايكوس پوتابي Aegos Potami] وانقضوا على أعدائهم الذين كانوا قد القوا مراسيهم حول [لامپاسكوس]. وكان [فيلوقليس Philocles] من القواد الآثينيين وقتذاك فاقترح أصدار مرسوم يقضي بقطع الابهام الأيسر من ايدي كل الأسرى الذين يقصون في ايديهم حتى لا يعدوا قادرين على مسك الرمح، في حين لا يعجزهم عن التجذيف.

واراح الطرفان قواتهما استعداداً لمعركة صباح اليوم التالي إلاّ ان تفكير [ليساندر] كان منصرفاً الى شيء آخر غير المعركة. فأمر البحارة والملاحين أن يصعدوا ظهر سفنهم في أول الفجر كأنهم يتأهبون لخوض معركة النهار. وان يتخذوا مجالسهم هناك بكلّ انتظام أو يتحاشوا اي ضجّة خلا الأوامر. وأوعز للجيش البريّ أن يتخذ عين موقفه وكان قريباً من الساحل. ثم بزغت شمس اليوم التالي فدبت الحركة في سفن الآثينيين كافةً وتقدمت من سفن [ليساندر] في صفّ المعركة وأخذت تتحرش به فلم يتحرك ولم يخرج لقتالهم رغم انه اتم حشد كلّ قواته قبيل الفجر. على انه أرسل عدداً من الزوارق الصغيرة الى القطع الأمامية من اسطوله يأمرها بالسكون ويحذرها من الإخلال بنظامها أو قبول المعركة. فلم يسع الآثينيين إلاّ ان يعودوا ادراجهم بحلول الليل. وابقى [ليساندر] البحارة في السفن حتى آبت سفينتان أو ثلاث كان قد أرسلها للاستطلاع وأبلغته بنبأ انسحاب الاسطول الآثيني. وفي اليوم التالي كرر العمل نفسه. ومضى اليومان الثالث والرابع على هذا المنوال. فأرتفعت معنويات الآثينيين وبلغت ثقتهم بانفسهم غايتها وزادوا استهانة بأعدائهم وتوهموا فيهم الخوف وخور العزم. وفي تلك الاثناء قدم الى الجيش الآثيني [الكيبيادس] على ظهر جوادٍ من حصنه في [الخرسونيز] وراح ينتقد القادة في أمورٍ كثيرة، منها عسكرتهم في الساحل المكشوف، بصورة سيئة تعرضهم للخطر. وعاب عليهم اختيار مواقع رسو سفنهم وذكرهم بأنها سترغمهم على الرجوع الى [سيستوس] في كل ما يحتاجه الأسطول. والمسافة بينها وبينهم بعيدة. فلو

تقربوا قليلاً من مدينة [سيستوس] وميناثها لكانوا أكثر أمناً من غائلة العدوّ الذي جثم في مواضعه يتابع كل حركة يأتونها تحت قيادة جنرال واحد، يطيع مرؤوسوه كل أمر يصدره اطاعة حرفية آنية بدافع الخوف منه. إلاّ ان الآثينيين لم يأبهوا بنصحه وردّ [تيديوس Tydeus] عليه باحتقار: «انه الآن ليس قائداً وهناك آخرون مسؤولون»، فرحل عنهم وكله شكّ في خيانتهم.

في اليوم الخامس خرجت سفن الآثينيين الى عدوّها ثم أقفلت راجعة كعادتها، وقد طغى على اصحابها شعور بالكبرياء، والاحتقار للعدو. وبعث [ليساندر] ببعض السفن للاستكشاف وامر قباطنتها أن يعودوا بأقصى السرعة حالما يشاهدون الآثينيين ينزلون من السفن الى اليابسة. وأمرهم أن يرفعوا في مقدمة سفنهم تروساً نحاسية بعد ان يقطعوا نصف المسافة في طريق العودة، ليكون ذلك اشارة الحركة وبدء القتال؛ ثم تجوّل بين سفن اسطوله لتشجيع الربابنة والملاحين. والتشديد عليهم بابقاء رجالهم كل في موضعه جنوداً وبحارة على حد سواء. حتى اذا لمحوا اشارة الحركة سارعوا بالتجذيف بكلّ قوتهم وانقضوا على اعدائهم.

وهكذا تّم الأمر وفقما رسم فما ان رفعت التروس في مقدمات السفن ونفخ نفير الهجوم من سفينة القيادة حتى دبت الحركة في الاسطول وتقدم الجيش البريّ على طول الساحل مستهدفاً بلوغ المرتفع. كانت المسافة بين القارتين خمسة عشر [فرلنغا] قطعها ليساندر بأقصر وقت بفضل مثابرة الجذافين وحماستهم وكان القائد الآثيني [كونون Conon] أوّل من فطن الى اسطول العدو وهو يقترب. فصاح يأمر بالعودة الى السفن. وراح يتوسل ببعض ويرجو آخرين، ويرغم سواهم بركوب السفن وهو في أشدّ حالات الغمّ والقهر. وذهبت جهوده ادراج الرياح لأن الرجال كانوا قد تفرقوا على أثر نزولهم البرّ ففريق ذهب الى السوق وفريق راح يتجول في الريف، وفريق آوى الى خيامه ورقد أو انهمك في تهيئة العشاء. فقد تركتهم غباوة قوّادهم وهم ابعد الناس عن توقع هجومٍ كهذا. وانقض العدوّ عليهم بضجة وصياح. وتمكن [كونون] من الافلات بثماني سفن فقط. اتجه بها الى [قبرص] ومنها ابحر الى [ايفاغوراس Evago-ras]. وهجم البلوبونيسيون على البقية وليس فيها بحارٌ واحدٌ وحطموا بعضها اثناء ما كان رجالها يحاولون الصعود اليها وهم يتقاطرون من كل الجهات فرادى عزلاً ليلاقوا حتفهم في سفنهم أو يفروا الى اليابسة فيقضى عليهم هناك لأن المنتصرين نزلوا من سفنهم وشرعوا يتعقبون فلولهم.

ووقع في يد [ليساندر] ثلاثة آلاف أسير مع قادتهم. وغنم كل سفن الاسطول خلا السفينة المقدسة المسماة [پارالوس Paralus] وما هرب به [كونون]. وقادوا السفن الأسيرة خلفهم

ونهبوا معسكرهم ثم ابحروا عائدين الى [لامپاسكوس] وهم ينشدون اناشيد الظفر وينفخون في السرنايات، ولا عزو فقد حقق قائدهم عملاً عظيماً بمجهود قليل، وانهى في ساعة واحدة حرباً طويلة مضنية، تقلبت خطوط المحاربين فيها تقلباً عجيباً يفوق العقل وكثرت أحداثها ومفاجآتها فغلبت كل ما سبقها. وها هي ذي خاتمتها يمليها حسن تدبير وسرعة بديهة رجل واحدٍ فيضع اوزاراً لها تسببت في دمار عدد من القادة يفوق كل ما دمرته حروب اليونان السالفة مجتمعةً. ولذلك مال بعضهم الى أن يعزو نتيجتها هذه الى التدخل الالهي. وهناك من يؤكد أن الكوكبين [كاستور] و[پوللوكس] شوهدا يحفان بجانبي سفينة [ليساندر] اوّل خروجه من الميناء الى عدوّه. تلتمعان ساطعتين عند الصاري.

أو زعم بعضهم أن الحجر الذي سقط كان نذيراً بهذه المذبحة. فقد ساد الاعتقاد ان حجراً عظيماً سقط فعلاً من السماء وانه ما زال موجوداً في ايكوس پوتامي في موضع سقوطه الى يومنا هذا. والخرسونيون ينزلونه منزلة تقديس واجلال. وقيل ان كساغوراس تكهن بأن اي انهيار أو هزة بين الاجرام السماوية الثابتة قد يؤدي الى زحزحة اي واحدٍ منها عن موضعه وتبعه حتى سقوط الاجرام كلها. اذ ليس هناك كوكب واحد وهو باق في موضعه الأول لأنها على حَدّ زعمه ثقيلة كالحجارة وسطوعها متأتٍ من انكسار الهواء الأعلى الذي يحيط بها، فوق سطحها وتظّل ثابتة في موضعها مرغمةً، بسبب شدة الحركة المحورية التي منعتها من السقوط عند انفصال الاجرام الثقيلة الباردة عن الكون في مبدأه. على أن لبعضهم رأيا أقرب من هذا الرأي احتمالاً. يقول هؤلاء أن الشهب ليست إلاّ نغثات، أو ألسنة من النار الآثيري، ما ان يلامسها الهواء الأسفل (الأرضي) حتى يخمد. ولا يمكن أن تكون تفجيراً أو ثوراناً مفاجئاً لكمية من الهواء الأسفل عندما ينطلق الى طبقات الجوّ العليا باندفاع هائل. على أن الاجرام السماوية الساقطة تتخذ بتباطيء قوة حركة دورانها - مساراً غير منتظم لا يتجه بها عادةً الى الجزء المسكون من الأرض وأنما يسلك بها سبيل البحر المحيط على الأغلب وهذا هو السبب في اننا لا نشاهدها.

ولايختلف الرأي الذي اثبته [دياماخوس Diamiachus] في رسالته «في الدين» عن رأي [اناكساغوراس] فهو يقول: قبل أن يسقط هذا الحجر ظلّ الناس طوال خمسة وسبعين يوماً متعاقبة يشاهدون جسماً نارياً كبيراً في السماء اشبه بسحابة ملتهبة دائمة الحركة لا تستقر على حال. ولوحظ ان تحويمها كان معقداً وخطّ سيرها متكسراً حتى أن الأجزاء الملتهبة التي كانت تنفصل عنها بفعل حركتها السريعة وثورانها، تتفرق في جميع الاتجاهات مثل الشهب التي تخرّ. وعندما هبطت الى الأرض فوق المنطقة التي أسلفنا ذكرها وزال الرعب والعجب من

الأهالي وذهبوا الى موضع سقوطها جّماً غفيراً، لم يشاهدوا ناراً، ولا أثراً النار. وانما رأوا حجراً كبيراً فحسب لا تكون شيئاً مذكوراً اذا قيس بحجم ذلك الحسم الناري ان صحّ هذا التعبير. وواضح أن [دياماخوس] يفتقر الى سامعين مقتنعين بتعاليله. أما اذا كان مصيباً الحقيقة فيما يزعم، فهو يخطيء كل قائل بأن تلك الصخرة انفصلت عن قرن جبل من الجبال بفعل الرياح والعواصف فحُملت عنه وراحت تدور على نفسها في الفضاء كالدوّامة. وما ان أعترى القوى المحركة لها بعض البطء أو توقفت حتى انتكست وسقطت على الارض، هذا إن لم نشأ اعتبار الظاهرة السماوية المتواصلة طوال الأيام الخمسة والسبعين ناراً حقيقية، تلاشت وانطفأت فتغير الجوّ بفعل ذلك تغيراً مصحوباً بريح زعزع ورجّات ارضية رفعت ذلكم الحجر الى الفضاء... وعلى اية حال فإن معالجة موضوع كهذا بشكل دقيق يتطلب ميداناً للكتابة غير ميداننا هذا.

بعد أن قضى مندوبو الحلفاء بالموت على الآلاف الثلاثة من أسرى الاثينيين، أستدعى [ليساندر] القائد [فيلوكيس] وسأله اية عقوبة يقترحها لنفسه تكفيراً عن أغوائه مواطنيه للقيام ضد الأغريق؟ ولم تفقد النكبة كرامة هذا القائد وقال رداً عليه - ليس لك ان تتهمني بأمور لا يحق لأحدٍ أن يحكم فيها. أما وأنك الجانب المنتصر الآن فلك أن تصنع ما كان سيُصنع بك لو هُزمت ثم انه أغتسل وارتدى معطفاً جميلاً وسار الى ساحة الموت على رأس مواطنيه المحكومين. وهذا ما ورد في تاريخ حياته.

وتنقلّ [ليساندر] في عدد من المدن زائراً. وأمر كل الآثينيين الذين لقيهم بالعودة الى آثينا وقال انه لن يتغاضى عن بقاء ايّ واحد منهم خارج آثينا والا قتله، وكان يرمي من جمع الآثينيين في مدينتهم، أحداث مجاعة وقحطٍ باحتشاد السكان فيها. حتى لا يتكلف جهداً كثيراً في حصار نوى ان يلقيه على المدينة. لأن نضوب المؤن والارزاق سيرغم المدافعين على الاستسلام السريع. ثم انه قضى على كل أنظمة الحكم الجمهورية والدساتير الأخرى، ونصب قائداً عسكرياً ليقديمونياً في كل مدينةٍ، وعين عشرة من الحكام المحليين لمعاونته، كان يختارهم من أحزابه التي سبق له تشكيلها. وقام بتطبيق هذا النظام الجديد في بلدان عديدة، وفرضه أيضاً على حلفائه. ثم استأنف تجواله البحري على رسله ناشراً بذلك سلطانه وهيبته على كل البلاد الأغريق.

لم يكن اختياره أولئك الحكام مبنيّا على الثروة أو كرم الأصل وانما قصره على محسوبيه ومنسوبيه. وقد عمل على أرضائهم بكلّ وسيلة، وخولّهم سلطات مطلقة في مجالي العقاب والثواب ولهذا كنت تراه حاضراً في عدة مذابح ومناسبات سفك دماء بشخصه. وعاون

اصحابه أيضاً في طرد وإبعاد معارضيهم فضرب للأغريق نموذجاً جدّ سيء لأسلوب الحكم اللقيديموني. ولقد كان وصف الشاعر الساخر [ثيومپوپوس] للقضية ضعيفاً تافهاً عند تشبيهه اللقيديمونيين بنساء الحان. لأن الأغريق عندما ذاقوا خمرة الحرية الحلوة في مبدأ الأمر عادوا فصبوا في الاقداح خَلاً فوجدوه حاداً حذيفاً. لقد ازال [ليساندر] كل الحكومات الجمهورية الشعبية. وتخيّر أشدّ أعضاء الحزب الاوليفارشي ظلماً واستهتار لحكم المدن.

في أثناء انشغال [ليساندر] بعض الوقت بتصريف هذه الأمور أرسل رسلاً الى آثينا يخطرها بقدومه على رأس مائتي سفينة وفي [آتيكا] أنضمت الى الهجوم قوات الملكين [آغيس] و[پاوسنياس]. وكان يأمل بحشد هذه القوات الكبيرة أن يستولي على آثينا فوراً. إلاّ ان الآثينيين دافعوا عن مدينتهم دفاع المستميت فما كان منه إلاّ وانسحب باسطوله عائداً الى آسيا. وهناك عمد جرياً على عادته - الى ازالة النظم الجمهورية من كل المدن ووضعها تحت سيطرة مجلس العشرة الرؤوساء. وذبح كثيراً من الأهالي ونفى عدداً أكثر منهم. وفي [ساموس] هجّر كل المواطنين وسلّم مدنهم للمبعدين الذين أعادهم وانتزع [سيستوس] من الآثينيين الذين كانوا يسيطرون عليها وقتذاك. واخرج كل سكانها منها وقسم المدينة والاراضي بين الملاحين وربابنة السفن الذين يعملون بأمرته. ولم يرضَ اللقيديمونيون على عمله الأخير فأمروا بعودة أهل [سيستوس] المطرودين الى موطنهم وكان هذا أوّل قرار ينقض له. على ان الاغريق كافةً أغتبطوا لاستعادة [الايجينيين] مدنهم بعد زمن طويل من التشريد بفضل [ليساندر] كذلك سُرواً بعودة الميليطين و[السكيونيين Sciomæans] الى اوطانهم في حين لم يتمّ طرد الآثينيين من كل مكان ويرغمون على اخلاء المدن وتسليمها.

وابحر عائداً الى [پيريوس] بعد علمه أن الآثينيين يعانون ضيقاً شديداً وقد ساءت حالهم داخل المدينة بتفشي المجاعة فالقى الحصار عليها وارغمها على الاستسلام اليه وفق شروط أملاها عليهم. ويروى نقلاً عن المصادر اللقيديمونية أن [ليساندر] كتب [للايفور] الزعماء ما يلي: «لقد اغتنمتُ آثينا».

فبعث اليه [الايفور] بالرد التالي: «كفى اغتناماً!».

إلاّ أن هذه الحكاية مخترعة أساساً، بسبب المقابلة اللفظية الظاهرة في العبارتين. اما البيان الحقيقي الذي صدر عن الحكام [الايفور] فاليك هو:

«يصدر حكام لقيديمون الأوامر التالية الى الآثينيين: أهدموا ميناء [پيريوس]، والأسوار الطويلة، اتركوا كل المدن التي تسيطرون عليها. ورابطوا في اراضيكم.

فان فعلتم فسيكون لكم سلامٌ حيثما شئتم. وليعد منفيوكم الى المدينة. واما بخصوص سفنكم فسيترك لكم ما انتم بحاجة اليه».

ورضي الآثينيون بهذه الشروط. وأيدها [ثيرامينيس Theramenes] ابن [هاگنون Hag-non]. وقيل أن [كليومينيس] احد الخطباء الشبان سأل ثيرامينيس في حينه كيف يجرأ على تأييد ما يخالف سياسة [ثمستوكليس] وكيف تطاوعه نفسه على تحبيذ تسليم الأسوار الى يد اللقيديمونيين وهو الذي بناها رغم أنفهم. فأجابه [ثيرامينيس]:

- ثق أيها الشاب اني لا أنقض سياسة [ثمستوكليس]. فقد بنى الأسوار لسلامة المواطنين ونحن الآن نقوضها لسلامتهم وان كانت الأسوار تضمن للمدينة أمنها وراحتها، فلا شك ان سپارطا انكد المدن خطّاً لأنها عاطلة عن الأسوار.

استولى [ليساندر] على كل سفن الآثينيين وترك لهم اثنتي عشرة فقط. واحتل اسوار آثينا في اليوم السادس عشر من شهر [مونيخيون] وهو الشهر الذي خلد انتصار الآثينيين على البرابرة في موقعة [سلاميس] الفاصلة. وعكف بعدها مباشرة على تغيير نظام الحكم فيها. فتبرم الآثينيون من ذلك وأخذوا يقاومون اجراءته. فاذاع بياناً الى الأهلين جاء فيه قوله انه المدينة أخلت بشروط الصلح فالأسوار ما زالت قائمة وها قد مضى عدة ايام على الأجل المضروب لتقويضها. فلا يسعه والحالة هذه وبعد أخلالهم بأول الشروط ان يعيد النظر في الصلح. ويقول بعضهم أن اقتراحاً عرض للمناقشة أمام مجلس الحلفاء يقضي ببيع كل الآثينيين في سوق النخاسة. وفي ذلك الاجتماع ايدّ [ايريانثوس Erianthus] الثيبيّ اقتراحاً بدك المدينة دكاً وهدمها الى آخر منزلٍ وجعلها مرعى ومسارح للغنم. إلاّ أن مواطناً من [فوكيس] نهض في اجتماع عقده قادة الوحدات العسكرية وانشد المقطع الأول من ترنيمة الجوق في مسرحية [يوربيديس] المسماة [اليكترا Electra] ويبتديء بالبيت الآتي:

«[ليكترا]! يا بنت [آغاممنون] ها اني قادم الى بيتك المهجور».

فذابت حدة الجميع بنار العاطفة، واتضح لهم جانب القسوة في تدمير مدينة كآثينا طبقت شهرتها الآفاق وأنجبت أولئك الرجال العظام.

بعد أن نزل الآثينيون عن كل شيء. أستقدم [ليساندر] عدداً من اللاعبات على الناي وارسلهن خارج المدينة وجمع في موضع واحدٍ كل من كان في المعسكر وباشر في هدم الأسوار واحراق السفن على انغام النايات. وطوق الحلفاء أعناقهم بقلائد الزهر حبوراً وأستسلموا للهو والطرب. فقد كان اليوم بمثابة بداية عهد جديد لحريتهم وخلاصهم من نير الآثينيين. وبعدها

باشر ليساندر في تغيير نظام الحكم فعين لآثينا ثلاثين حاكماً، وعين [لپريوس] عشرة حكام. ووضع حامية عسكرية في [الاكروپوليس] ونصب [كالليبيوس Callibius] السپارطي قائداً لها. وهذا هو الذي رفع عصاه مرةً ليضرب [اوتوليقوس Autolycus] البطل الرياضيّ لخلاف نشأ بينهما حول هوية الشخص الذي كتب له گزينفون رسالته «الوليمة». ولما تعمد عثارة بوضع قدمه امامه فأسقطه على الأرض لم يظهر [ليساندر] استياءً من عمل [كالليبيوس] وانما وبّخه قائلاً انه لا يعرف كيف يحكم احرار الرجال. ومهما يكن فقد عمد الحكام الثلاثون الى قتل [اوتوليقوس] ارضاء [لكاليبيوس] وتزلفاً اليه.

بعد هذا، ابحر [ليساندر] الى [ثراقيا] وبعث الى لقيديمون بما تبقى من أموال الخزينة. وبالهدايا والتيجان التي قدمت له شخصياً وكانت كثيرة لأن عدداً كبيراً من الناس كانوا يتزاحمون على التقرب منه بتقديم الهدايا له، كما هو متوقع بالنسبة الى شخص مثله يملك سلطات غير محدودة أو بكلمة أخرى سيد بلاد الاغريق المطلق. وأوكل أمر نقلها الى [غيليپوس Gylippus] الذي كان قائداً في صقلية. وقيل ان هذا الوكيل المؤتمن أحدث فتوقاً في قيعان الجوالق واختلس من كل جوالق كمية من الفضة جمعت له مالاً طائلاً ثم خاطها ثانية دون أن يدري بوجود قائمة في كل جولق ثبت فيها تفاصيل الأموال وكمياتها. ووصل سپارطا وأسرع يخفي ما أختلسه تحت آجر سقف بيته. ثم قام بتسليم ما استؤمن عليه الى الحكام مظهراً لهم سلامة اختامها ولما فتحوها واحصوا فيها وجووا نقصاً بين ما أحصوه وبين ما دون في القوائم. وبينما هم في حيرة شديدة، انبرى خادم [لفيليپوس] ليحل لهم اللغز بهذه العبارة: «تحت الآجر يختفي كثير من البومة!».

إشارة الى أن معظم النقود المتداولة آنذاك كانت تحمل النقش الاثيني وهو رسم البومة ولم يسع [غيليپوس] مرتكب هذا العمل المخزي الوضيع بعد أعماله البطولية، الا الرحيل عن لقيديمون.

بسبب هذه الحادثة خشي عقلاء السپارطيين من تأثير النقود في إفساد أشرف المواطنين. فانتقدوا عمل [ليساندر] وأشاروا على [الايغور] باعادة الذهب والفضة الى مصدرهما لأنها «عوامل فتنةٍ أجنبيّة عن الوطن» فتداول الايغور فيما بينهم. ويقول [ثيومپوبوس] ان [سكيرافيداس Sicraphidas] هو الذي اشار بمنع دخول الذهب والفضة الى المدينة والمداومة على استعمال نقود المدينة الحديدية. ويرغم [ايغوروس] أن الناصح بذلك هو [فلوغيداس Phlogidas] لا غيره. فالسپارطيون كانوا يغمسون مسكوكاتهم الحديدة بالخل وهي محمرة من فرط التسخين حتى يتلف معدنها ولا تعود صالحة لصناعة أو حاجةٍ لأن الحديد يتصلب

بالخلّ ويفقد مطاوعته. ثم ان أي مقدار كبير منها أوزاناً وحجوماً، لا يتضمن إلاّ قيمة تافهة، وربما كانت النقود المتداولة عموماً في ذلك العصر تسكّ من معدن الحديد. وتقوم المسامير النحاسية في بعض البلاد مقام النقود. ولهذا ما زلنا الآن نجد كثيراً من قطع النقد الصغيرة محافظة على الاسم القديم «اوبول»، وكل ستة اوبولات تعدل دراخماً واحداً. لأن اليد تستطيع أن تمسك بستة منها دفعةً واحدة.

إلاّ أن انصار [ليساندر] عارضوا في هذا الرأي وبذلوا كثيراً من الجهود لابقاء تلك الأموال في المدينة، وأخيراً تقرر ابقاؤها بيد الدولة فقط وحرموا تداولها على الناس. وأصدروا قانوناً يقضي بالموت على كل من وجد شيء منها في حيازته الخصوصية، كأنما كان خوف ليكورغوس متأتياً من المسكوكة الذهبية والفضية لا من الجشع الذي تولده في النفوس. وهو ما لم يفكروا بقمعه والقضاء عليه عند سنهم قانونهم. فقد حرموا على الشخص العادي اكتناز شيء منها، بينما شجعوا وجودها بسماحهم للدولة ان تحتفظ بها فاضفوا عليها نوعاً من القدسية والمكانة يفوقان فائدتها وقيمتها الحقيقية ولم يكن من المعقول ايضاً ان ما وجدوه موضع تقديس واحترام من جانب الدولة، يجب أن يحتقر ويعتبر عديم الفائدة عند الاشخاص. وان يجبر المواطن على الاّ يرى في هذا الشيء اي وجه من اوجه الانتفاع الشخصي له بينما وجب عليه أن يقرّ بعظم قيمته ومنفعته للدولة. والعادات الخلقية التي تسود المجتمع بالممارسة يكون طريقها الى حياة المرء الخصوصية أسرع من طريق أخفاقات الأفراد واخطائهم الى التفشي في المدينة على أوسع نطاق. وقد تفسد الاجزاء بفساد الكل، في حين ان الرذائل التي تنبثق من الجزء وتنفذ الى الكلّ قد تجد كثيراً من العلاجات وعوامل الاصلاح لابقاء الكلّ سليماً. إن الإرهاب وصرامة القانون سلطا لمراقبة بيوت المواطنين ومنع دخول النقد الذهبي والفضي اليها. ولكن لم يعد ثم قوة تستطيع تزّهد الناس فيه وتكبح رغبتهم الى اكتنازه بعد ان أنزلته الحكومة تلك المنزلة الرفيعة، واعتبرته مما يستأهل بذل الجهود للحصول عليه. وكنا قد بيّنا انتقاداتنا لموقف اللقيديمونيين من هذه المشكلة في كتابة سالفة لنا فلتراجع.

عمل [ليساندر] من غنائم الحرب عدة تماثيل من النحاس في دلفي، له ولكلّ قبطان من قباطنة أسطوله. وصاغ نجمتين ذهبيتين تمثلان كوكبي [كاستور وبوللوكس] اللتين غابتا في [ليوكترا] قبيل المعركة. وفي غرفة كنز [براسيداس] ،[الأقانيثين] يوجد نموذج لـ[تريريمه][٢] صيغ من الذهب والعاج. يبلغ طولها [كيوتين: حوالي ٤٠ انجاً]، كان [كورش] قد أرسلها

(٢) «Trireme» وهي بارجة اغريقية قديمة فيها ثلاث مصاطب للتجذيف [م.ت].

الى [ليساندر] بمناسبة انتصاره، ولكن [الكساندريدس] الدلفي ينوه في تاريخه بوجود وديعة هناك لليساندر مقدارها ثالثٌ واحدٌ من الفضة واثنان وخمسون مينا واحد عشر ستاتر[٣] وهذه رواية لا تتفق مع عموم الأخبار المتواترة عن فقر [ليساندر]. لقد كان يتمتع بسلطان وحول لم يتمتع بهما أغريقي آخر قبله، ولكن كبرياءه واستعلاءه زادا كثيراً عما يناسب ذلك السلطان. قال عنه [دوريس Duris] في تاريخه انه الأول من الاغريق الذي أقامت له المدن الهياكل كما تقيم للآلهة وقدمت له القرابين كما تقدم للأرباب وكان أول من صدحت الأصوات باناشيد نصره. ودونك مطلع واحد من تلك الأغاني وجدناه في الكتب:

«هوذا الجنرال الاغريقي العظيم، من سپارطا المفخمة. اننا لنستقبله بأغاني النصر...»

وقرر [الساموسيون] ان يطلقوا اسم «ليساندريا» على المراسم الدينية الخاصة بالآلهة [جونو]. ومن الشعراء الذين أختصوا به، [خوريلوس Choerilus] الذي كان يرافقه دائماً ويشيد بمآثره في أشعاره. ولازمه أيضاً [انطيوخوس] الذي نظم عدداً من القصائد في مدحه. وقد هزته الاريحيّة يوماً فملأ لكلٍّ قبعته فضةً ودخل كُلّ من [انطيماخوس Antimachus] [الكولوفوني Colophon] و[نيقراطوس Nicratus] الهيراكلي في مساجلة شعرية موضوعها تعداد مآثر [ليساندر] ووقائعه، فمنح الثاني منهما قلادة فاستاء انطيماخوس. واتلف كل ما قال فيه من الشعر. وكان [افلاطون] اذ ذاك فتى غضى الإهاب معجباً بشعره. فأخذ يهون عليه الفشل قائلاً: إن الجهلة هم الذين يقاسون من الجهل في الواقع كالأعمى الذي يعاني من فقدانه حاسة البصر. ثم ان [ارسطونس] الموسيقار الذي فاز ببطولة الموسيقي في الالعاب الپيثية ستّ مرات متوالية - التقى بانطيماخوس مرة فقال له على سبيل التزلف والرياء:

- لو اني فزت مرة أخرى لأعلنت نفسي باسم ليساندر...

فأسرع [انطيماخوس] يقول: تقصد: عبداً له؟

كان طموح [ليساندر] المفرط بحد ذاته عبئاً يرزح تحته أقرانه، وكبار القوم. فلما كثر الناس الذين يتسابقون الى خدمته ويتلهفون الى تلبية كل طلب له أو أمر يصدر منه. استعلى واستكبر حتى خرق كل الحدود وتطرف في استخفافه بالبشر ولم يعد يراعي الاعتدال الجدير بالبشر السوي في عقابه وثوابه. فتراه يمنح لانصاره وصحبه سلطاناً مطلقاً على مقدرات المدن،

(٣) عملة يونانية قديمة أختلفت قيمتها باختلاف العصور. وأشتهر بصورة خاصة الستاتر الذهبي Stater وقيمته عشرون دراخماً [م-ت].

لا يرقى اليه حساب وتحفّ به العصمة، وترى سبيله الوحيد لانفثاء غضبه من عدوه، القضاء عليه وتدميره.

والنفي والإبعاد لايكفيه منه. ولنذكر على سبيل المثال المصير الذي دبره لزعماء الشعب البليسين بعد زمنٍ عندما ادركه الخوف من قرارهم، ولرغبته في الكشف عن المختبئين منهم، فأقسم قأنه لن يلحق بهم اي أذىً فصدقوه وخرجوا من مكامنهم. فقبض عليهم وارسلهم الى الحكام الاوليغارشين ليقتلوهم كافة وكان عددهم ثمانمائة. أما المقتلة التي أوقعها باعضاء الحزب الجمهوري في سائر المدن فقد فاقت كل تصور وحساب. ولم تكن عقوبة الموت قاصرة على من يرتكب ضده جريمة. بل عممها على انصاره وأصبحت بمثابة امتياز يمنحه لمحسوبيه ومنسوبيه بكل سخاء. ولم يكن يتعفف عن المشاركة في تنفيذ أحكام الموت ارضاء لاطماع اصدقائه الكثيرين الملتفين حوله واشباعاً لاحقادهم وروح الانتقام فيهم. ومن هنا أشتهر قول [ايتيوكليس Eteocles] اللقيديموني: «ما استطاع الأغريق ان ينجبوا [ليساندرين]!». ويزعم [ثيوفراستوس] ان [ارخسطراطوس Archestratus] قال العبارة نفسها بحق [الكيبياديس]. على أن أكبر الأذى الذي لحق بالناس منه جاء من استهتاره بالقيم وأفتقاره الى ضبط النفس. فكانت سلطته توحي بالخوف والكره النابعين من قسوة طبعه. ولم يكن اللقيديمون يشغلون بالهم بالتحقيق في الشكاوى التي ترفع عنه حتى وردتهم شكوى [فارنابازوس] فقد بعث بوفد الى سپارطا ليبلغوا عن [ليساندر] ما أحدثه في بلاده من اضرار وفساد عندما اجتاحها بقواته. وعندها استشاط الايغور غضباً واستقبحوا ما فعل. ولما قبضوا على أحد ضباطه الكبار المدعو [ثوراكس] متلبساً بجريمة حيازة مقدار من النقود الفضية أوقعوا فيه عقوبة الموت فوراً. ثم انهم بعثوا اليه «بالرقّ» يأمرونه بالعودة الى البلاد. ويتم اعداد الرق على النحو الآتي: عندما يرسل الايغور امير بحرٍ أو جنرالاً في حربٍ، فانهم يزودونه بقطعةٍ خشبية اسطوانية ويحتفظون هم بمثيلتها طولاً وسمكاً ومظهراً؛ ويطلقون عليها [سكيتال Scytale]. فاذا ارادوا ارسال رسالة سرية أو هامة اليه، جاؤا بشريط طويل ورفيع من الرّق [الپارشمنت] تشبه السير الجلدي فيلفونها على قطعتهم الخشبية لفاً محكماً بحيث يغطون سطحها تماماً ولا يخلفون اي فراغ. ويقدمون اثناء اللّف بكتابة ما يريدون على الرقّ سطراً بعد سطر. وبعد الفراغ من ذلك يستلّون القضيب الاسطواني ويرسلون الرّق. ولايتمكن المرسل اليه من قراءته بحالته تلك لأن الاحرف والكلمات تبدو متفرقة متباعدة. فيأخذ قضيبه ويلّف الشريط المرسل اليه فتعود اجزاء الكتابة متلاحمة منتظمة كما كانت على القضيب الأول ويتصل اول الكلام بمايتلوه ويسهل على النظر تتبع المدون سطراً سطراً بإدارة الاسطوانة.

استبد القلق [بليساندر] عند ورود «الرقّ»، وكان في الهللسپونت. وعمد فوراً الى مقابلة [فارنابازوس] لازالة الخلاف بينهما. لأن شكوى هذا القائد كان اخشى ما يخشاه. وفي اجتماعهما طلب منه ان يوجه رسالة أخرى الى [الايغور] ينفي فيها اصابته باضرار أو اساءة وينزل عن كل شكوى. وقد جهل أن [فارنابازوس] هو ممن ينطبق عليه المثل السائر «استعمل الكريتي ضد الكريتي» فقد تظاهر له بانه سيفعل كلما يريده منه وكتب رسالة أملاها ليساندر عليه إلاّ انه أخفى رسالة أخرى كتبها سِراً تشبه في مظهرها الرسالة الأولى. وعند وضع الاختام أبدلها وأعطاها لليساندر فحملها معه الى لقيديمون. وذهب لمقابلة مجلس الايغور. كما تقضي به التقاليد ودفع اليهم برسالة [فارنابازوس] التي كان يعتمد عليها في سحب أكبر تهمة تعرض لها، ذلك ان [فارنابازوس] كان موضع تقدير اللقيديمونيين لتفانيه وتشيعه لهم في الحرب، تشيعاً فاق به كل قوّاد ملك الفرس. فقرأ الحكام الرسالة وناولوها لليساندر فما ان ادرك «ان ثم اذكياء آخرين خلافاً [ليوليسوس] وانه ليس العاقل الوحيد في هذه الدنيا...» انصرف وقد علاه اضطراب شديد. وبعد بضعة أيام زار الايغور وأبلغهم انه كان قد نذر في اثناء الحرب بعض القرابين للرب [آمون Ammon] ولذلك يتعين عليه أن يرحل الى معبده ليفي بنذره. ويقول بعضهم ان [ليساندر يكذب في زعمه هذا. فقد ظهر له [آمون] وهو نائم وأستوى واقفاً بالقرب منه - عندما كان يقود الحصار ضدّ مدينة آفيتي Aphytae في ثراقيا. فما كان منه إلاّ ان رفع الحصار عنها متوهماً أن ذلك الرب غير راضٍ عن حصاره، وبعدها نبّه أهل المدينة بأن يضحوا لآمّون. وقرر القيام برحلة الى ليبيا ليسترضي الآله ويهدىء من سورة غضبه عليه. على ان معظم الكتاب يرون ان حكاية النذر لم تكنّ إلاّ تعلة للرحيل لأنه كان يخشى اتخاذ الايغور اجراءات ضده، كما وانه ضاق ذرعاً بالنير الذي يطوق رقبته في بلاده، وكره العيش تحت سلطة أقوى من سلطته. فصبا الى السفر والتجوال مثله في ذلك كمثل جوادٍ أقتيد من المراعي المترامية الى الاسطبل وأعيد الى عملة اليومي. يقول [ايغورروس] ان هذا هو سبب جولته التي سأروى تفاصيلها فيما يلي:

نال موافقة الحكام على السفر بعد لأي. فأسرع بالابحار. وعلى أثر ذلك اجتمع ملكا لقيديمون واستعرضا الموقف السياسيّ فوجدا ان ابقاء المدن تحت سيطرة بطانة [ليساندر] ستبقيه سيد بلاد الاغريق الأعلى وملكها المطلق. فأتخذا تدابير لاعادة السلطة الى الجمهور وطرد عملاء [ليساندر] من الحكم فعادت الاضطرابات والقلاقل مجدداً وأستبق الآثينيون الى الثورة فانقضوا من [فيله Phyle] على «مجلس الثلاثين» واطاحوا به. فأسرع ليساندر الى بلاده، واقنع مواطنيه بمساندة حكم الاوليغارشية والقضاء على الحكم الجمهوري وتم ارسال

اعانة مالية للحكام الثلاثين الآثينيين تبلغ مائة تالنت لانفاقها على الحرب. وخف ليساندر الى معونتهم عسكرياً بحكم منصبه.

وهذا كله لم يرق في عين الملكين. وخشيا أن يستولي ليساندر على آثينا مرة أخرى. فسارع [پاوسانياس] بموافقة زميله الى المدينة ليقبض على زمام الأمور. وهناك تظاهر بتأييده حكم الأقلية ضد الشعب. وأخذ يعمل سِراً لأجل السلام وتهدئة الوضع ليحول دون استعادة [ليساندر] سيطرته على المدينة بمعونة بطانته. فلم تقف في وجهة أية عقبات ونجح في اصلاح ذات البين بين الآثينيين المختلفين وهدأ من الثورة وازال الشغب وبذلك حقق الانتصار على طموح [ليساندر] المتهالك. على انه واجه لوماً شديداً بعد زمن قصير لاندلاع السنة الثورة في آثينا من جديد. فقد نزع اللجام من فم الشعب بعد تحرره من الاوليغارشية المستبدة فانتفض انتفاضة عنيفة وأخذ يأتي باعمال فيها الكثير من الوقاحة والصلافة والاعتداء. وبذلك استعاد [ليساندر] سمعته، سمعة الرجل الذي يستخدم قيادته لا لارضاء الاخرين ولا لأجل الهتاف له والثناء عليه بل لمصلحة سپارطا وحدها.

امتاز [ليساندر] بالشدة في الكلام والجرأة امام معارضيه فمثلاً لما راح الارغيوسيون يجادلون في امر تعيين حدود بلادهم متوهمين ان حججهم ودلائلهم مدعمة بالعدل أكثر من ادعاءات اللقيديميين، استلّ ليساندر سيفه وقال:

- صاحب أقوى حجّة في قضية الحدود، هو من كان سيداً لهذا...

ومرة تمادى أحد [الميغاريين] في التطاول والتحرر من قيود الكلام اثناء انعقاد مؤتمر من المؤتمرات فقال له [ليساندر]:

- لهجتك هذه يا صاح، يجب أن يكون مصدرها مدينة!

وخير البويوسيين الذين كانوا يقومون بدور مزدوج، في أن يخترق بلادهم برماح ممدودة، أو برماح قائمة. وعندما زحف على كورنث بعد ثورتهم وجد اللقيديميين مترددين في الانقضاض على اسوارها. ولما شاهد ارنباً يقفز عابراً الخندق قال لجنوده المترددين:

- الا يخجلكم خوفكم من عدوّ بلغ من خموله انه ترك الأرانب تنام فوق أسواره؟

وتوفي [آغيس] الملك عن أخيه [اغيسلاوس]، والفتى [اليونتخيداس] الذي كان يُعدّ ابناً له. وكان [ليساندر] صديقاً [لآغيسلاوس] فتمكن من حمله على المطالبة بالعرش لأن نسبه من هرقل لا تشوبه شائبة. بينما كان ثم شك في ان [ليونتخيداس] هو ابن [الكيبيادیس] السّفاح من [تيميا] زوج [آغيس] التي عاشرت [الكيبيادیس] تأكد من عدم نسبة الفتى

اليه بحساب وقت الحمل. وبقي حتى ملازمته فراش المرض يهمل أمر [ليونتخيداس] وينكر عليه ابوته له. فلما دنا أجله راح الفتى يتوسل به ويلح عليه ليقرّ ببنوته وحثه على ذلك اصدقاؤه فاقر بمحضر من الكثيرين ببنوة [ليونتخيداس] وأشهدهم على اقراره وطلب منهم ان يشدوا ازر الفتى ويناصروه. وكان [آغيسلاوس] الذي يتمتع بتقدير عظيم من مواطنيه، ويستأثر بنفوذ ليساندر ومعونته، قد وقع تحت تأثير [ديوفيثس Diophithes] وهو رجل أشتهر بالوقوف على النبوءات. أستشهد هذا الرجل بالنبوءة التالية التي وردت فيها اشارة الى عرج [آغيسلاوس]:

«اي سپارطا العظيمة إحذري من انجاب ملك أعرج وان كنت انت صحيحة سليمة. فسيتبع ذلك قلاقل طويلة الأمد، ليست في الحسبان. وستهب عواصف من الحروب الطاحنة فلا تبقي ولا تذر».

فآمن الكثير بالنبوءة وقوي مركز [ليونتخيداس]. إلاّ ان [ليساندر] قال [لآغيسلاوس] أن [ديوفيثوس] قد أخطأ في تفسير النبوءة وان الآله الموحي بها لم يرد تحذير اللقيديميين من حكم ملك اعرج. والتفسير الصائب هو ان المملكة ستكون عرجاء اذ حكم ولد السفاح والنغولة مع نسل [هرقل]. وبهذا التعليل وبنفوذه الواسع على المواطنين حقق مسعاه في نصب اغيسلاوس ملكاً.

وزيّن [ليساندر] له أن يقود حملةً عسكرية الى قلب آسيا. وأقنعه بامكان كسر شوكة الفرس وبلوغه أوج السلطان والسؤود. وكتب الى عملائه وانصاره في آسيا، يطلب منهم أن يعلنوا [اغيسلاوس] قائداً لهم في الحرب ضدّ البرابرة. فأجابوه الى ذلك وبعثوا بسفارات الى اللقيديميين بهذا الشأن فكان فضلاً ثانياً به طوق ليساندر عنق [اغيسلاوس] لا تقل أهميته عن فوزه له بالعرش. على ان الطموح الى الشهرة الذي كان يجيش في نفس [آغيسلاوس] وصنوه الحسد الذي يلازم ذوي الطموح عادةً، كان يقف حجر عثرة في سبيل انجاز الأعمال الجليلة، مع ان [اغيسلاوس] لم يكن يفتقر الى مقومات القيادة الحكيمة الكفوءة. شعور كهذا، كان يبعد عن أمثال [اغيسلاوس] كل صديق ينتظر منه ان يغدو له عوناً، ويدفعهم الى منافسته في المآثر وأطلاب المعالي بدل ذلك. وكان [ليساندر] من بين ثلاثين مستشاراً خبيراً صحبوا [اغسيلاوس] في حملة آسيا. اراده مشاوراً خاصاً وصديقاً نصوحاً، وما ان توغل في قلب آسيا حتى تبين مكانة [ليساندر] عند السكان وكيف كانوا يتوجهون اليه ويزورونه ويتوفرون الى خدمته والسير في ركابه. اصدقاءً أيفاءً بواجب الصداقة واعداء بدافع الخوف في حين لم يكونوا يقبلون على [آغيسلاوس] لقلة معرفتهم به. وبات الأمر فهو شبيه

بما نراه في التراجيديات. فكثيراً ما تجد الشخص الذي يمثل دور الرسول أو الخادم يستأثر بالبطولة واهتمام النظّار وتتبعهم في حين لا يهتمون بالممثل الذي يتقمص دور الملك ويضع التاج على رأسه وتقبض على الصولجان في يده، هذا الممثل قلما يتكلم عادةً، وقلما يسمعه النظار. ووضع المستشار أقرب الى وضع الرسول في التمثيلية فهو الذي ينهض باعباء الحكم الحقيقية واليه تعزى سمعة الأعمال الجليلة فلا يترك للملك الاّ اسم السلطان الأجوف.

وكان باستطاعة [اغيسلاوس] أن يخفف من غلواء طموحه الشائه ويتخلص من موقفه الحرج بوضع [ليساندر] في المقام الثاني بعده وهو أهل له حقاً. لكنه أقدم على عمل معاكس فنبذه نبذ النواة واهانه وجرح عزة نفسه على مذبح طموحه ونسي أنه آخاه وأحسن اليه. ولم يكن هذا يجمل باغيسلاوس أو يليق به في الواقع. فهو لم يتح له فرصة لأيّ عمل، ولم يسند اليه منصباً من المناصب القيادية. وأخيراً عمد الى كل من وجده غيوراً على مصلحة [ليساندر] فجفاه وازور عنه وعامله كما يعامل ذوي الحاجة الاعتياديين من قلة اهتمام. وهكذا راح يضعف من مركز [ليساندر] ويهدد نفوذه بطريقة هادئة.

ووجد [ليساندر] اخفاقاً اينما توجه. وادرك ان حرصه وغيرته على مصلحة انصاره ستكون عقبة لهم. فانصرف عنهم ورجا منهم أن لا يتصلوا به ولا يراجعوه في أيّ أمرٍ من الأمور. بل يراجعون الملك وكل من هو انفع للاصدقاء منه في الوقت الحاضر. وامسك معظم اصدقائه عن ازعاجه بمشاكلهم حسب توصيته إلا أنهم داوموا على اظهار الاحترام والاجلال له والوقوف في خدمته والسير في ركابة في ميادين العرضات والمسيرات. وهذا ما زاد في انزعاج [آغيسلاوس] وغيرته. حتى انه أهمله عندما وزع مناصب قيادته على كثير من القادة وحاكميات المدن على الرؤوساء. واسند اليه وظيفة «مقطع اللحم» على مائدته وقال معرضاً بالآيونيين على سبيل الإهانة والتعشفي:

- فليذهبوا الآن وليقدموا ولاءهم لمقطّع لحم مائدتي.

ورأى [ليساندر] الوقت مناسباً لمصارحته القول فجرى بينهما حوار قصير بليغ على النحو الآتي:

ليساندر: لعمري انك أخبر الناس واعرفهم بكيفية ايلام اصدقائك.

اغيسلاوس: الاصدقاء الذين يريدون ان يرتفعوا عليّ. أما الذين يعملون على زيادة سلطاني فمن العدل أن يقاسموني اياه.

ليساندر: قد يكون في كل هذا مجرد أقوال من ناحيتك أكثر مما هو أعمال من جانبي. على

اني اوجو منك يا آغيسلاوس حفظاً للمظهر الخارجي، ان تضعني في أي منصب قياديّ تحت أمرتك - أكون فيه أقل ضرراً وأكثر نفعاً في اعتقادي.

فبعث به سفيراً الى الهللسپونت. ولم يهمل واجباته فيه مع أنه رحل عن [اغيسلاوس] حانقاً. وأفلح هناك في اقناع [سپيثريدات Spithridates] الفارسي بالثورة والتمرد وهو رجل شهم، أختلف مع [فارنابازوس] وكان يملك بعض القوات فأنضم الى اغيسلاوس بمسعى [ليساندر]. ولم يكلف بمهمة أخرى فعاد الى سپارطا فور انقضاء مدته دون ان ينال تكريماً. وهو حاقد على آغيسلاوس] والحكومة السپارطية حقداً طغى على كل شيء حتى انه قرر القيام بتنفيذ خططه في اشعال نار الثورة وتغيير الدستور. وكانت فكرتها قد أختمرت في رأسه منذ زمن على ما يبدو فعزم الآن على استغلال الوقت لها. وكانت خطته تدور حول الاستفادة في الطريقة التي يجري بموجبها اختيار الملوك. فحين قدم [الهيراكليدي] الى البيلوپونيس أمتزجوا بالدوريين وصاروا عشيرة كثيرة العدد مهابة الجانب في سپارطا. إلاّ ان أسرها لم تكن تملك كلها أمتياز أختيار الملوك فيها وانما كان ذلك مقصوراً على جماعتي [اليوريپونتيدي Eurypontidae] و[الاگيادي Agiadae] ولم يكن للبقية امتياز ممارسة الحكم أو تولي المناصب الرفيعة، التي كان يجب أن تسند الى كل ذي أهلية وكفاءة فهي وحدها تفتح الطريق امام المرء للوصول الى الحكم. و[ليساندر] الذي انحدر من أحدى الأسر التي لا تملك هذا الامتياز، فأرتفعت به مآثره الى أعلى درجات الشهرة والسلطان، وأجتمع له انصار كثيرون ونفوذ قوي، كره ان يرى المدينة التي رفع من شأنها، وزادها سعةً وعظمة انْ يحكمها اناس لا يفضلونه حسباً ونسباً وكفاءة فهيّأ الوسائل لانتزاع الحكم من أيدي العشيرتين وإتاحته للهيراكليدي عموماً. أو على ما يقول آخرون ليس للهيراكليدي وحدهم، بل لكلّ السپارطيين. كيلا يكون الامتياز مقصوراً على نسل [هرقل] بل تعميمه على اشباه [هرقل] في المؤهلات الكفاءات نفسها التي رفعته الى مقام الالوهية. وكان يأمل من هذا أن يبرز المرشح الوحيد للعرش بين السپارطيين. عندما تغدو المنافسة عليه وفق هذه الشروط.

وعلى هذا الاساس تهيأ أولاً للدعوة بين المواطنين وحاول اعداد اذهانهم. فدرس مليّاً خطبةً في هذا المآل أعدّها [كليون] الهليقارناسي. وما لبث ان وقع على حيلةٍ عظيمة لم تكن في حسابه تتطلب وسائل جريئة، ومعاونة كثيرة. وهي الإفادة من تأثير المعجزات والخوارق على العقول واستخدام الوحي الآلهي لغرضه هذا، فباشر وكأنه ممثل يلعب دوراً على المرسح - بجمع وترتيب ردود ونبوءات معزّوة الى اپوللو تعزيزاً لدعوته. وعدل عن استخدام فصاحة [كليون] إلاّ بعد اثارة عقول المواطنين بالمخافة الدينية وغزو اذهانهم بالأوهام والكهانات،

وبعدها يكون طريقه معبداً اليهم لتفهم حججه واسبابه. ويروي [ايغوروس] أن [ليساندر] بعد أن حاول الدسّ في نبوءة [اپوللو] وفشل وبعد أن أخفق في إقناع كاهنة [دودونا -Dodo na] عن سبيل [فيريقليس Pherecles] ، توجه الى سدنة [آمون] وعرافيه محاولاً شراءهم بكميات كبيرة من الذهب والفضة. فثاروا وغضبوا وبعثوا بنفرٍ منهم الى [سپارطا] يشكونه. وعندما برئت ساحته خرج الكهنة الليبيون وهم يقولون:

- ستجدونا أيها السپارطيون أفضل منكم حُكماً عندما ستأتون الينا وتساكنوننا في ليبيا.

وهم في هذا ينوهون بنبوءة قديمة تشير الى ان اللقيديميين سينزحون يوماً ما الى [ليبيا] ويستوطنونها. على أن مجمل مؤامرة [ليساندر] وسبل تنفيذها لم تكن اعتيادية ولا بسيطة وصفحاتها المتدرجة الى النهاية تعتمد على انواع من الافتراضات مثل مسألة حسابية، وتنطلق في سلسلة من الخطوات فيها تعقيد وصعوبات. لذلك نؤثر أن نسردها بالتفضيل نقلاً عن رواية مؤرخ وفيلسوف معاً:

قبل ردح من الزمن ادعت امرأة من [پونطس] انها حملت من اپوللو. وانقسم الناس بطبيعة الحال الى مصدق ومكذب ثم انها الحال. انجبت ذكراً أهتم عدد من سراة القوم بتربيته وتنشئته وسمي [سلينوس Selinus] لأمرٍ ما. فجاء [ليساندر] ليتخذ من هذه الحادثة قاعدة عملٍ وقام باستنباط البقية وبنائه مستخدماً عدداً ليس بالقليل من ابطال تلك الحادثة البسطاء الذين أوصلوا خبر الطفل الى مرتبة الحقائق التي لا يرقى الشك اليها في دفاعهم الحار عن زعم الوالدة بسذاجة الايمان وعناده. ثم انه قام بتهيئة نبأ آخر مصدره [دلفي] ونشره في [سپارطا] حول وجود نبوءات قديمة حافظ الكهنة على سرِّها في اسفارٍ. ولم يجيزوا قراءتها أو تداولها؛ الى أن يأتي في المستقبل ذلك الذي أنحدر من صلب اپوللو. فيقصدهم وبعد أن يعطي علامات مخصوصة للكهنة تقنعهم بهويته، يسلمون له أسفار النبوءات المكتومة. ورتبت الأمور بحيث يذهب [سلينوس] هذا الى الكهنة بوصفه أبناً لاپوللو للمطالبة بالنبوءات. ويتظاهر الكهنة - الواقفون على الخطة طبعاً - بالحذر والتدقيق في التفاصيل والجزئيات ويقومون باستجدابه حول ميلاده. ثم يتظاهرون بالقناعة فيدفعون اليه بالنبوءات. فيقوم هو بتلاوتها امام جمهور من الشهود ولاسيما تلك النبوءة التي جُعلت حجر الزاوية وبيت القصيد في موآمرة ليساندر حول منصب الملك وكيفية أختياره، والتنبيه على السپارطيين بانه يجمل بهم ان يؤمّروا عليهم اكفأ المواطنين ولا يلقوا بالاً على الحسب والنسب، وكان [سلينوس] الشاب آنذاك مستعداً للقيام بالمهمة إلاّ ان [ليساندر] فشل في اخراج تمثيليته بسبب نكوص ممثل فيها. فقد ركب الخوف واحداً من أعوانه في المرحلة الأخيرة

فانسحب فجأة. وبقي الأمر مع ذلك - سراً مكتوماً طوال حياة ليساندر.

وقضى نحبه قبيل عودة [اغيسلاوس] من آسيا. وكان هذا الملك قد تورط - أو لعل الاصح قولنا - ورط بلاد الاغريق في الحرب البويوسية. والشكلان مقبولان. فبعضهم يعزو سببها اليه وبعضهم الى الثيبيين. وآخرون الى الطرفين معاً. وكانت جهة اتهام الثيبيين: أنهم القوا بالقرابين جانباً في [اوليس Aulis] وانقضوا على [الفوكيين] وأجتاحوا بلادهم وغايتهم توريط اللقيديميين في حرب اغريقية. فقد حرضهم الملك ورشاهم بمالٍ حمله اليهم [اندروقليدس] و[أمفيثيوس Amphitheus]. ومن جهةٍ أخرى قيل ان [ليساندر اغضبه من الثيبيين طلبهم عشر الغنائم في حين لم يعترض بقية حلفاء [سپارطا] على نسبة ما ينالهم. واحنقه أظهار استنكارهم لارساله الأموال والنفائس الى سپارطا. على أن أعظم ما كان يضطغنه لهم هو وقوفهم الى جانب الآثينيين عندما انتفضوا لتحرير انفسهم من استبداد الحكام الثلاثين الذين نصبهم هو. وكان اللقيديمونيون قد أصدروا بلاغاً يقضي بالقاء القبض على كل اللاجئين السياسيين الهاربين من آثينا حيثما كانوا وفي اي بلد وجدوا ومن يمانع في ذلك يطرد من الحلف الاغريقي فأجاب الثيبيون على هذا ببلاغ مناقض له، جدير وايم الحق بسجايا [هرقل، وباكوس] ومرؤاتهما. ينص على ان يفتح باب كل منزل ومدينة في بويوسيا في وجه كل من يحتاجها من الآثينيين. ويقضي على كل شخص ابى مساعدة لاجيء مطارد أو مقبوض عليه، بدفع غرامة قدرها تالنت واحد تعويضاً له. ورسم أيضاً بأن كل من حمل السلاح الى آتيكا عبر بويوسيا، ليس لأي ثيبيٍ أن يراه، أو يسمع بخبره. والحق يقال انهم اصدروا هذه المراسيم الانسانية الخليقة بالروح الاغريقية لتنفيذها بالحرف الواحد، لا لتبقى حبراً على ورق. وبذلك قرنوا القول بالفعل. [فثراسيبولوس] ورجاله الذين أحتلوا [فيله] كانت ثيبة نقطة انطلاقهم. والثيبيون هم الذين زودوهم بالمال والسلاح واسدلوا على حملتهم ستار الكتمان وهيّاوا لهم وسائل الزحف. تلك هي بالاجمال اسباب تحامل [ليساندر] على ثيبة. وها هوذا الآن وقد زادته الشيخوخة عنفاً وسوداوية، يشتد في حث [الايغور] على وضع حامية عسكرية في [ثيبه] ثم انه تسلم القيادة وزحف عليها. وأوعز الى [پاوسنياس] بالتحرك على رأس جيش، بعده بقليل. فدار هذا حول [كيثيرون Cithæron] للانقضاض على [بويوسيا] واجتاز ليساندر [فوكيس] بعسكر جرار ليلتقي برتل [باوسنياس] عند الهدف. وأستولى في زحفه هذا على مدينة [الادرخونيين] التي استسلمت له بدون قتال. ونهب [ليباديا Lebadea] وبعث برسائل الى [پاوسانياس] يأمره بالحركة من [پلاطيا] لمقابلته في [هاليارتوس Haliartus] لأنه سيكون تحت أسوار تلك المدينة في فجر اليوم

التالي. فوقع الرسول بأيدي كشافة الثيبيين وضبطت الرسائل وجيء بها اليهم. فما كان منهم إلاّ أن عهدوا بحماية مدينتهم الى النجدات العسكرية التي جاءتهم من آثينا وخرجوا في أول هزيع من الليل بكلّ عسكرهم فبلغوا [هاليارتوس] قبل وصول [ليساندر] بقليل ودخل المدينة قسم منهم.

قرر [ليساندر] قبل كل شيء أن يعسكر فوق المرتفعات انتظاراً لوصول [پاوسانياس]. ولما تقدم به النهار ولم يعد يطيق الانتظار أمر جنوده باعداد أسلحتهم للهجوم، وقام يشجع الحلفاء ثم انحدر نحو الأسوار برتلٍ على طول الطريق إلاّ ان القسم الذي ابقاه الثيبيون خارج الأسوار وضع المدينة على جهته اليُسرى وتقدم متعرضاً لمؤخرة العدوّ بالقرب من النبع المعروف باسم [كيسوسا Cissusa] يروى عنه ان المرضعات غسلن فيه الطفل [باكوّس] على أثر ميلاده. ولون مائه أشبه بالخمر المشعشعة واعذب وأصفى من كل ماءٍ. وعلى مسافة قليلة منه تنتشر اشجار البلسم الكريتي بكثرةٍ. وقد غرس ثَمّ، تذكاراً للحياة التي قضاها [رادامانثوس Rhadamanthus] هناك. ويرشدونك الى ضريحه الذي يطلقون عليه اسم [أليا Alea]. وبالقرب منه يقوم نصب [الكمينا] أيضاً وهي زوج رادامانثوس تزوجته بعد وفاة بعلها الاول [امفتريون Amphitryon].

على ان من ولج المدينة من الثيبيين نظموا صفوفهم من الهاليارتين وظلّوا ساكنين برهة من الوقت حتى اذا شاهدوا [ليساندر] مع لفيف من جنوده يتقدمون طلائع الرتل اليهم فتحوا ابواب المدينة فجأة وانقضوا عليه وفتكوا به مع العرّاف الذي كان يرافقه ونفر قليل من الجنود. اما معظمهم فقد ولى الأدبار والتحق بالقسم الأكبر. ولم يفتر الثيبيون واطبقوا عليهم فاذا بالرتل كله ينقلب مولياً الأدبار نحو التلال. وسقط منهم ألف قتيل ومن الثيبيين ثلاثمائة خروا صرعى الى جانب قتلى الأعداء لتحمسهم في المطاردة فوق ارض وعرة مصخرة. كان هؤلاء الثلاثمائة موضع شك في ممالأة اللقيديميين فأرادوا أن يقدموا الدليل على كذب الشائعة عنهم ويبرئوا أنفسهم منه بتعريض أنفسهم لأشد الأخطار فلقوا حتوفهم.

وبلغت انباء فاجعة [پاوسانياس] وهو في طريقه الى [ثسپاي] من [پلاطيا] فاعدّ جيشه للمعركة المقبلة وزحف نحو [هاليارتوس] وخرج [ثراسيپولس] من ثيبة على رأس النجدات الآثينية. لتعزيز قوات الثيبيين. وأقترح [پاوسانياس] طلب هدنة لسحب جثث القتلى. فاستاء زعماء السپارطيين وأظهروا غضبهم الشديد فيما بينهم وأقبلوا على الملك قائلين:

- إن جثة [ليساندر] لايمكن أن تؤخذ تحت علم الهدنة، وان نحن قاتلنا بسلاحنا لانتزاعها عنوةً، وانتصرنا فسنقوم بدفنها بصورة لائقة. وان غُلبنا على أمرنا فذلك خير وأبقى.

وانه ليشرفنا أن نموت على البقعة التي سقط فوقها قائدنا.

إلاّ ان [پاوسانياس] كان يدرك صعوبة التغلب على الثيبيين بعد أن اسكرتهم خمرة الانتصار الأخير. ثم ان جثة [ليساندر] كان سجاة تحت الاسوار مباشرة وسيصعب عليهم حتى اذا انتصروا أن يحملوها الى المعسكر من غير هدنة. ولذلك بعث بمنادٍ وحصل على هدنة فسحب قواته الى الخلف ونقل جثمان [ليساندر] ودفنه في أول أرضٍ صديقة وطؤها بعد أجتيازهم حدود [بويوسيا] وهي ارض [الپانوپيين Panopæan] حيث يشاهد نصب ضريحه الآن. وأنت مارّ في طريقك الى [خيرونيا] من دلفي.

في الوقت الذي كان الجيش معسكراً هناك، قيل ان رجلاً من فوكيس راح يسرد وقائع المعركة على آخر لم يكن فيها، فقال ان العدو انقض عليهم إثر انتقال [ليساندر] الى [هوپليتس Hoplites] فعجب هذا وكان سپارطياً وصديقاً لليساندر. وسأله ماذا يقصد بـ[هوپليتس]؟ فالأسم غامض عنه. فأجاب [الفوكيّ]:

- قتل العدوّ هناك أوّل صرعانا. فالنهر الذي يحاذي المدينة، اسمه [هوپليتس].

وما ان سمع السپارطي الأسم حتى غلبه البكاء، وقال معقباً ان الانسان لا نجاة له قط من حكم القدر. فالظاهر أن مصير [ليساندر] نوهت به النبوءة التالية التي نزلت في عهد السابق:

انى انذرك. احذر أكثر من اي شيء آخر كل صوت صادر من الهوپليتس المندفع
ومن التنين المولود على الأرض الذي يضرب بمكر من ورائك.

على ان بعضهم يقول ان [هوپليتس] لايجري بالقرب من [هاليارتوس] وانما بالقرب من [كورونيا Coronea] وبعدها بمسافة يصبّ في نهر [فيلاروس]. عند مدينة [ايسومانتوس Isomantus] التي كانت تعرف سابقاً بـ[هوپلياس Hoplias].

والهياليارتيّ الذي فتك بليساندر واسمه [نيوخوروس Neochorus] كان يوجد على ترسه صورة تنين، وهذا ما تشير اليه النبوءة على ما يفسرون. وقيل ايضاً ان الثيبيين ايام حرب الپلوپونيس نزلت عليهم نبوءة في هيكل [ايسمينوس Ismanus] أشارت صراحة الى موقعه [دليوم Delium] مع التنويه بهذه الحادثة التي وقعت في [هاليارتوس] بعد ثلاثين عاماً من نزولها واليك نصّها:

عندما تخرج لصيد الذئب فعليك مراعاة أقصى الحدود.

وملاحظة جبل اورخاليدس Orchalides الذي تكثر فيه الثعالب وبتعبير «اقصى الحدود»،

يقصد [دليوم] حيث تكون الحدود مشتركة بين [بويوسيا] و[آتيكا]. وبا[اورخاليدس] يقصد الجبيل الذي يعرف الآن بـ[الوپيكوس Alopecus] الذي يقع في ظاهر [هاليارتوس] باتجاه [هيليكون Helicon].

وشاع الحزن في نفوس السپارطيين لميتة [ليساندر] هذه وبلغ الأمر حداً بهم أنهم قدموا الملك للمحاكمة بتهمة الخيانة التي تقضي بعقوبة الموت فلم يجرأ على مواجهتها وفرّ الى [تيغيا Tegea] وعاش حتى وفاته لاجئاً في محراب مينرڤا لا يغادره. وانكشف للعيان فقر ليساندر بموته فزاد هذا في تبجيل الناس له وتقديس ذكراه لأنه على حدّ ما أورد [ثيوميوس] في تاريخه، لم ينشد لنفسه ثروة خاصة مهما قلت، ولم يطمع شيء من كل الأموال والنفائس التي وضع يده عليها، وكل الهدايا التي قدمتها له المدن، ومملكة الفرس. وتلك فضيلة لا يسع اي امرءٍ ان يقلل من شأنها في معرض الثناء والمديح. فيقدمها على معايب صاحبها. و[ليساندر] بلاشكّ أكثر استحقاقاً للقدح منه للمدح. ويقول [ايفوروس] أن خلافاً نشأ بين الحلفاء في سپارطا، اضطروا معه الى مراجعة اوراق [ليساندر] فقصد [اغيسلاوس] منزله لهذا الغرض، وهناك عثر على الدفتر الذي دونت فيه كل النبوءات المتعلقة بمؤامرة الدستور السپارطي ويشير كلها الى وجوب اجراء تعديل فيه وسحب امتياز الملك من اسرتي [يوريپونتيدي داگيادي] وجعله حقاً مشاعاً للواطنين كافة. يختار له الأفضل الناس واكفأهم. وتملكت [اغيسلاوس] الرغبة في فضح القضيّة على نطاق شعبيّ.

وكشف خلق [ليساندر] على حقيقته. الاّ ان [لاكراتيداس Lacratidas] رئيس مجلس الايفور آنذاك. وهو من حكماء الناس وعقلائهم حال دون رغبة [اغيسلاوس] وقال له: ليس جديراً بهم أن ينبشوا قبر [ليساندر]، وحريّ بهم أن يدفنوا معه مسألة فيها الكثير من الوجاهة ومهارة الحبك.

واسبغوا على ذكراه ضروباً من التكريم. منها انهم فرضوا تعويضاً على أولئك الذين كانوا قد خطبوا بناته اثناء وجوده في قيد الحياة، فبادروا الى فسخها على أثر وفاته وانكشاف إملاقه. عوقبوا لأنهم لم يتقدموا بطلب ايدي بناته الاّ لتصورهم بأنه ثريّ. وتركوهن بعد أن قام فقره دليلاً على عدالته ونزاهته. ويبدو أن سپارطا كانت تطبق في ذلك العصر قانوناً يفرض عقوبات على من لا يتزوج، ومن يتزوج عن كبر وشيخوخة، ومن يتزوج زواجاً فيه تدليس وسوء نية وتطبق عقوبة الحالة الأخيرة بصورة خاصة على أولئك الذين ينشدون الغنى من الزواج لا الصلاح والحبّ.

هذا هو كل ما وجدناه من الاخبار الخاصّة بسيرة [ليساندر].

سيلا

SYLLA
(Lucius Cornilius)

138 - 78



انحدر [اوشيوس كورنيليوس سيللا] من أسرة پاتريشية أي أسرة شريفة. وقيل أن [روفينوس Rufinus] من أسلافه تولى منصب القنصلية، والحق عاراً بنفسه بلغ من عظمه أن كسف شمس مآثره. فقد طُرد من مجلس الشيوخ لحيازته صفيحة من الفضة تزن أكثر من عشرة پاوندات خلافاً لأحكام القانون وخمل ذكر ذريته من بعده. ولم يكن [سيللا] غنيّ الأبوين. وعاش مقتبل شبابه في بيت مأجور، أجرته بخسة. الأمر الذي اتخذ فيما بعد برهاناً ضدّه، في انه كان أكثر توفيقاً مما تستأهل طينته واصله. ولما كان في معرض الفخر والتباهي بنفسه والمبالغة في وصف مغامراته في ليبيا ردّ عليه رجل من كبار القوم بقوله

- وكيف يتفق أن تكون نزيهاً. وانت الآن بهذه الدرجة من الثراء حين لم يخلفَ لك ابوك شيئاً؟

ولم يكن العصر الذي عاش فيه عصر استقامة ونزاهة فقد تسرب الانحلال في الأخلاق وسقطت النفوس في أحضان الجشع وشهوة المال والترف. إلاّ أن الرأي العام بقي ينظر بعين السخط الشديد الى من ضاق صدره بفقر أسرته المتوارث فتطالب على الغنى، مثلما كان ينظر الى من هجر المزرعة التى ورثها عن أسلافه.

وعندما اجتمع [لسيللاً] السلطان المطلق وراح يرسل الناس زرافات الى حتوفهم، حام الشكّ يوماً في أن رجلاً من المعتوقين الأحرار قد أخفى واحداً من أولئك الذين أهدر دمهم ورفعت عنهم حماية القانون. فحكم عليه سيللاً لهذا الشكّ بأن يلقى من أعلى الصخرة [التارپيّة] فطفق يذكره بلهجة تقريع وعقاب، كيف أنهما عاشا معاً طويلاً تحت سقف واحد، هو في الطابق الأعلى بأجرة قدرها ألفا سستريوس[١]، وسيللاً في الطابق الأسفل بأجرة قدرها ثلاثة آلاف. فيكون الفرق بين حالتيهما الماليتين آنذاك ألف سستريوس وهو ما يوازي بالعملة الآتيكية ماءتين وخمسين دراخما. كذا كان وضع سيللاً الماليّ في مقتبل عمره.

---

(١) Sesterius أو Sesterces: عملة رومانية قديمة فضية [ثم برونزية] تساوي ربع ديناريوس أو أسيّن Ass-es وربع آس. وهي تعدل عشرة أفلس تقريباً.

وبامكانك الاطلاع على شكله وسيمائه العامة من تماثيله. وكان أهم ما يميزه عينان زرقاوان شديدتا الحِدّة حتى لكأنهما ترسلان شرراً من نارٍ يزيدهما رهبة وقسوة تقاسيم وجهه وكان ابيض تشوبه بقع خشنة لونها أحمر ناري. وقيل ان لقبه «سيللاً» جاء من هذه الصفة. وقد نظم أحد الساخرين الآثينيين الذي عرف البذاءة وسلاطة اللسان هذين البيتين معرضاً بذلك:

«يشبه سيللاً ثمر التوت الذي رشّ فوقه عدس»

وليس بالذي يخرج بنا عن موضوعنا أن نورد وصفاً للسمات الخلقية في صدد كتابة سيرة شخص كان طبيعته مغطوراً على حب المزاح والتندر، مما جعله منذ اول شبابه دائم الاختلاط بالممثلين ومشاهير المهرجين. كثير الصحبة لهم في دروب الغواية والملذات السافلة. وظلّ يزاول هذه العادة لما أصبح السيدّ الأعلى. فكان يجمع سفلة لاعبي المدينة وأوشاب ممثليها فيساقيهم الراح ويبادلهم المزاح دون اعتبار لسنه ومقامه السامي تاركاً الأمور الهامّة التي تتطلب منه الاهتمام والرعاية. ولم يكن من طبعه أن يسمح بايّ حديث جدّي عند جلوسه الى المائدة في حين تراه في سائر الاوقات رجل عملٍ وكدٌ. لايعرف البِشرُ والابتسام وجهَهُ. هذا القطوب والعبوس يعتريه أنقلاب عام مفاجيء ويتحول الى بشاشة وايناساً لا حدود لهما حالما يحتويه مجلس شراب ومنادمة. فينشرح صدره ويستخفه الطرب بين أهل الرقص والغناء الوضعاء ويكون على اثم الاستعداد لارضاء كل من يقصده محدّثاً. والظاهر ان سهولة وقوعه في اسر لذاذات الغرام، وتهافته بدون مقاومة على الشهوة والفسق هي اشبه بالاعراض المرضية لتراخيه واستهتارٍ في طبعه لم يكبح جماحها حتى شيخوخته. وقد بقي مدة طويلة يعشق ممثلاً اسمه [ميتروبيوس Matrobius]. وغازل في مفتتح حياته الغرامية سيدة غنية من طبقة العامة تدعى [نيقوبوليس Nicopolis] وتمكن بمظاهر شبابه الغضّ وبمعاشرته الطويلة لها أن يوقعها في غرامه وبأسر مشاعرها ففاق حبها له حبه لها حتى انها اوصت له بكلّ ثروتها عند موتها. واحبته زوج ابيه حبّ الأم لابنها فاورثته مزرعتها، وبهذين الحدثين السعيدين أعترى أحواله تغيير عظيم. واصبح في عداد الاغنياء.

وأختير [كويستوراً] لماريوس في أوّل منصب قنصلي له، فأبحر معه الى ليبيا لخوض الحرب ضدّ [يغورثا]. فكان موضع رضى هناك. ولاسيّما في حادثة وقعت على غير انتظار أحسن التصرف فيها فكسب صداقة [بوخوس] ملك النوميديين. فقد كاد سفراء هذا الملك يقعون في كمين نصبته عصابة من اللصوص لهم وفروا منهم فتلقاهم سيللاً بترحابٍ وأكرمهم غاية الاكرام وأطلقهم محملين بالهدايا وزودهم بحرسٍ لحمايتهم. وكان [بوخوس] دائم الخوف شديد الكره لختنه [جغورثا]، الذي فرّ اليه لاجئاً بعد أن مني بالهزيمة. وكان يبيّت أمر تسليمه

للرومـان وقـتـذاك. ولـهـذا دعـا [سـيللا] لزيارتـه حتـى يكون تـسليم الملك المقـهـور عن طريقـه وبواسطتـه لا ان يقـوم [يغـورثا] بـتسـليم نفسـه طوعـاً. وبورود الدعـوة اليـه فـاتح [مـاريوس] فـزوده هذا بثلة من الجنود قـليلة العـدد. فـخرج بـهـا لانجـاز المهـمـة وهو يدري انه يعـرض نفسـه لأعظم الأخطار، ويضـع ثقـتـه في بربريّ لم يخلص حتـى لاقـربائه. ويـعـتـمـد عـليـه للقـبض على شخص سلّم نفسـه له بمحض اختيـاره. ولما بات المطارد والطريدة تحت رحمـة [بوخوس]، وجد ان عليـه واجب الاختـيـار في الغـدر باحدهمـا فـأطال تقليب الأمر من شـتى وجوهه وقـررا أخيـراً أن يسلم [يغورثا] لسيللا كما نوى أولاً.

ومنح [ماريوس] شرف موكب النصر بهذه المناسبة. إلاّ أن فضلها عزي الى [سيللا] فأحقد عليه [مـاريوس] واضمر له السـوء فـي نفسـه. والحق يقال أن [سيللا] نفسـه كـان تياهًا معجباً بنفسه؛ ازداد غـروراً بهـذه المأثرة فقد نبـه ذكره عند المواطنين توجهت انظارهم اليـه ونقلتـه من الخمول الى عالم الشـهـرة وذاق طعم المجد وتعاظمت شهوته الى الشهـرة ودفعت به الى التباهي والفـخـر وعـمـد الى نقش صورة تمثل عـمله هذا على خـاتم لم يفـارقـه قط وظلّ يسـتعـمله بمثـابة ختم. ويرى في النقش [بـوخوس] يـسلم [يغـورثا] لسـيللا. آثار هذا العـمل حقـد [مـاريوس] الشـديد ومسّ منـه وتراً حسـاسـاً. إلاّ انه اعـتـبر [سيللا] أقل منزلة من ان يصلح خصـمـاً له. وابقـاه في خدمـتـه وجعلـه ضابط ركنه في قنصليتـه الثـانية، وتريبيـونـاً في قنصليتـه الثـالثـة. فحقق [سيللاً] أعمالاً جليلة عديدة في الفترتين. منهـا أنه أسر [كوپيللوس Copillus] زعيم التكتوسـاگ Tectosages وأجبر المارسيين Marsians وهم شعب كـثير العدد، على مـحالفة الرومان وموآخاتهم، خلال قيامه بوظيفته الأولى.

على أي حال لم يفت [سيللاً] حسـد [مـاريوس] وغيـرته منه وأدرك أنـه سيغلق في وجهـه فرص العـمل ويـقـيم العقبات في سبيـل تقدمه السـيـاسـي. فأنصرف عنه الى زميله [كاتولوس] وأختص به وكان هذا إنسـانـاً كريماً لكنه يفتقر الى حيوية القائد فأوكل الى سيللاً واجبات هامة وأعـمـالاً خطيـرة فانـقـادت اليـه الشـهـرة وتوقـل سلم المجد وأخضع بقـوة السـلاح معظم البرابرة الذين يسكنون أقـاليم الألب. وأضطلع شخصيـاً بتأمين ارزاق الجيـوش عندما شحّت فنجح في نقل مـقـادير هائـلة لسـد حـاجة جنـود [كـاتولوس] وجنـود [مـاريوس] أيـضـاً. ويـقـول سيللاً في مذكراته كان عملي هذا مثل طعنة في قلب ماريوس».

بدأت العداوة بين هذين الرجل باسباب تافـهـة صبيانية جداً لكنها سلكت سبيلاً عنيفاً وادت الى حرب أهليـة سفكت فـيـهـا دمـاء الرومـان. وأحـدثت انقـسـامـاً لارأب لـه. وآلت الى حكم الطغـيـان وتفشـى الفوضى في جـهـاز الدولة. كـل هذا يشـهـد على حكمـة [يوريپيـدس] وصدق

فراسته ومعرفته التامة باسباب الفوضى السياسيّة، عندما انذر الجميع وناشدهم بأن يحذروا من الطموح، فهو من بين كل القوى العليا أعظمها تدميراً لعبادّها.

ووجد سيللا في ذلك الزمن أن شهرته العسكرية التي نالها خارج الوطن كافية لتؤهله الى المناصب السياسية العليا فرحل الى روما وتقدم من الجمهور مرشحاً نفسه لمنصب البريتور فأخفق وعللّ سبب أخفاقه الى علم جمهور الناخبين بعلاقته الطيبة مع [بوخوس] الليبيّ ولهذا فضلوا ان يختاروه لمنصب الايديل قبل منحه البريتورية ليؤمن لهم مشاهدة العاب الصيد وقتال الوحوش باستيرادها لهم من ليبيا. نظراً لدالته على ملكها. وهكذا أختاروا حسب تعليله - آخرين لارغامه على قبول منصب [الايديل] وقام الدليل الساطع على خطأ تعليله هذا عندما نجح في الفوز بمنصب البريتور في السنة التالية، بتزلفه للجماهير من جهة، وبتفريقه الأموال على الناخبين من جهة أخرى وعلى هذا الأساس كان جواب قيصر له. فمرة قال [سيللاً] غاضباً:

- ينبغي لي أن استعمل سلطتي ضدك.

فأجاب [قيصر] باسماً: حسناً فعلت بتسميتها «سلطتي» لأنك اشتريتها.

وفي نهاية فترة [بريتوريته] أرسل الى [كبادوكيا] تحت زعم اعادة [آريو بارزان Ario Barzan] الى عرس مملكته في حين كان السبب الأصليّ لبعثته صدّ هجمات [ميثريدات] ووقف اعتدا ءاته المتكررة. والحدّ من سلطانه المتعاظم واتساع رقعة مملكته بما كان يضيفه الى ما ورثه عن أسلافه. ولم يُسلِّم [سيللا] قوات كثيرة. وكان جلّ اعتماده على مساعدات حلفاء روما الصادقة. وبعد أن خاض معارك طاحنة مع الكپادوكيين سألت فيها دماؤهم ودماء حلفائهم [الأرمن] انهاراً، نجح في طرد [غورديوس Gordius] واعادة [آريو بارزان] الى عرشه.

وفي اثناء اقامته على ضفاف نهر الفرات قدم اليه [اوروبازو Orobazus] الفرثي سفيراً من الملك [ارشاك Arsaces] وعلينا في هذا الصددّ أن لا ننكر حظّ [سيللا] بوصفه اول روماني فاوضه الفرثيون حول انشاء علاقات صداقة وحسن جوار. والحكاية التي تروى عن استقبال السفير المذكور تقول أن [سيللا] أمر بوضع ثلاثة كراسٍ ملكية. واحدة [لآريو بارزان] والثانية لاوروبازو وجعل كرسيه يتوسط الآثنين وتم الاحتفال على هذا الشكل إلاّ أن الملك الفرثي أرسل اوروبازو الى حتفه لهذا السبب. وبعضهم يثني على [سيللاً] لاتخاذه هذا الموقف المتعالي من البرابرة. بينما يأخذ عليه بعضهم ظهوره هذا بالذي لايتفق والظروف

آنذاك. ويذكر أيضاً كلدانيّا من حاشية [اوروبازو] انعم النظر في سيماء سيللاً وأطال التدقيق في تقاطيع وجهه متابعاً باهتمام انتقالاته الفكرية وحركات عضلاته. وأصدر حكمه عليه وفق مبادىء صناعته في الفراسة وقال: «من الصعب أن لا يكون أعظم الرجال طراً، ومن العجيب أن لا يبادر الآن في رياسة الجميع».

وعلى أثر عودته الى روما. اتهمه [كنسورنيوس Censorinus] بالغصب والابتزاز لأنه جبى أموالاً طائلةً من ممالك حليفة وبلاد حسنة العلاقات مع الرومان. ولكن الشاكي لم يحضر في يوم المحاكمة وتنازل عن التهمة. وما لبث ان شبت نار الخلاف ثانيةً بين سيللا وماريوس، والذي زوّده بمادة الوقود طموح [بوخوس] وحب ظهوره فقد أرسل الى روما تماثيل وانصاباً وتحفاً منها صورة من الذهب تمثل تسليمه [يغورثا] [لسيللا] وكان يرمي من ذلك التقرب الى الرومان. وتكريم [سيللا] فحاول [ماريوس] رفع الانصاب من معبد [جوپتر كاپيتولينوس] وهو في أشد سورات غضبه إلاً أن فريقاً من الرومان عارضوه ووقفوا في صف [سيللا] واستفحل الخلاف حتى كاد يؤدي الى اضرام النار ثورة جائحة في المدينة لو لم تندلع براكين «الحرب المشتركة» التي كانت خامدة منذ عهد بعيد، فوضعت بذلك حداً مؤقتاً لهذا النزاع.

في هذه الحرب الضروس التي اعترتها تقلبات عديدة واضرت بالرومان أكثر من أية حربٍ سابقة وهددت امبراطوريتهم كلها بالزوال لم يوفق [ماريوس] الى الإتيان باي عمل بطولي في اية موقعة حربية. وبذلك ترك دليلاً ساطعاً على أن التفوق في مجالات الحرب يتطلب بدناً قوياً قادراً على تحمّل اعبائها ومشاقها.

وأحرز سيللاً من مواطنيه لقب القائد العظيم بما حققه من المآثر العديدة اما صحبه فقد رفعوه الى مرتبة أعظم القادة، في حين اعتبره الاعداء أسعدهم حظاً. وكل هذا خلف في نفسه أنطباعاً مغايراً لما تخلّف في نفس [تيموثيوس Timothius] الاثيني ابن [كونون] الذي عزا خصومه اسباب نجاحه الى حسن حظّه فرسموا صورة له وهو نائم وآلهة الحظّ تقف الى جانبه وترمي بشيباكها فوق المدن، فكان فظاً في استنكاره العمل. كأنما سلبوه حقه في المجد بنسبتهم كل شيء فعله الى آلهة الحظّ، مرةً عاد من الحرب وقال للجمهور مذكراً بانتصاره:

- اعلموا يا رجال آثينا أن آلهة الحظّ لم تسهم في هذا النصر.

وهي عبارة تنمّ عن تسرع صبيانيّ. لم تسكت عنه الآلهة، فازورت عنه كما قيل لنا، ولم يعد يحقق اي عملٍ جليل، وناكده الحظّ في كل شيء. حتى سقطت منزلته في اعين الشعب، وحكم عليه بالنفي من البلاد. اما سيللاً ففضلاً عن قبول فضل الآلهة عليه بسرورٍ واعتزازه

بثقتها فيه؛ فانه عزا شرف كلّ ما عليه بسرور، واعتزازه بثقتها فيه؛ فانه عزا شرف كلّ ما تمّ الى الحظ، في معرض تعظيم تلك الأعمال وتمجيدها، سواءً قصد من هذا التباهي والفخر، أو أظهار شعوره الحقيقي من العناية الالهية. وفي مذكراته ينوه باعماله الحكيمة التي أقدم عليها بجرأة وغير مبالاة فيقول أن أعظمها توفيقاً هي الأعمال التي جاءته من وحي ساعتها وليس الأعمال التي نفذها بعد حساب وتدقيق. ومن الصفة التي أعطاها شخصه بذكره انه ولد للحظّ أكثر منه للحرب، يبدو انه ينزل الحظ منزلة أرفع من الكفاءة. فهو بمختصر القول يجعل نفسه مخلوقاً ذا قوى عليا من كل ناحية. حتى انه عَدّ قرابته من مينللوس زميله في الوظيفة عن طريق المصاهرة - نعمة من النعم الفائقة. فقد كان يتوقع أن يجد في هذا الرجل زميلاً مثيراً للمشاكل لا يسلس قياده فاذا به ألين الناس عريكة وأطيبهم نفساً، ويزيد على هذا في مذكراته التي خاطب بها [لوكوللوس] تحذيره للمخاطب من وضع ثقته في غير الارادة الالهية وما تشير عليه به ليلاً. وروى انه بينما كان يغادر المدينة بجيشه للقتال في «الحرب المشتركة» شاهد الارض بالقرب من [اللافيرنا Laverna] قد انشقت، وخرج من جوفها قدر من النيران ارتفعت نحو السماء يلهب خاطف وتكهن السحرة منها بأن شخصاً ذا مزايا عظيمة وسيماء فريدة نادرة المثال، سيتسلّم مقاليد الحكم. فأسرع [سيللا] يؤكد بانه هو الرجل المقصود لأن لمّة شعر رأسه الذهبي تظهره بمظهر غير اعتيادي وتجعل هيئته غريبة جداً، ولم يكن ليحسّ باي خجلٍ من الشهادة على ميزاته العظيمة الخصوصية بعد الأعمال الجليلة التي انجزها ونكتفي الى هنا بالحديث من آرائه في نفسه وفي العناية الآلهية.

وعلى العموم، بدا سيللاً شخصية حافلة بالمتناقضات. قلق النفس لايقر قراره على اتجاه خلقي ثابت. مفرطاً في استسلامه للحنق وأكثر. غير شاعرٍ بأية مسؤولية في اعزازه من يشاء واذلاله من يشاء، ذليلاً امام من كانت حاجته عندهم، متجبراً على من تكون حاجتهم عنده. ولذلك يصعب الحكم في أيهما أغلب على طبعه، أعزّة النفس أم ضعتها؟ وتراه أظلم الناس في العقاب: يسلم المرء الى العذاب لاتفه دليل.

ويصبر صبراً عجيباً على أعظم الزلل. تجده يصفح ويصفو حالاً بعد اشنع عملٍ من أعمال الحقد والعداء، في حين يفرض حكم الموت ومصادرة الأموال لأبسط المخالفات والهفوات. فلا مندوحة للمرء من ان يحكم على طبعه بالعنف وحب الانتقام، على انه كان يستطيع عند التبصر أن يستخدم هذا الطبع المصلحته. فيفيد منه. وفي هذه «الحرب المشتركة» لما هاجم جنوده ضابط ركنه [آلبينوس Albinud] الذي كان يحمل رتبة البريتور فقتلوه بالهراوات والحجارة أغضى عن هذه الجريمة الشنعاء ومَرّ بها مرور الكرام ولم يفتح تحقيقاً. وزاد فعلق

على الموضوع متباهياً بقوله إن سلوك الجنود سيحسن جداً بعد هذا وسيعوضون عن خرقهم هذا للنظام العسكري، بعمل بطولي مجيد. ولم يقم وزناً للأصوات التي ارتفعت تطالب باحقاق الحق والانتصاف من الفاعلين. ولأنه كان قد قررّ ازاحة [ماريوس] بعد أن وجد «الحرب المشتركة» تشارف نهايتها، فقد أفاد كثيراً من جيشه مؤملاً تعيينه جنرالاً على رأس القوات التي سترسل لقتال [ميثريدات].

وعند عودته الى روما، أنتخب قنصلاً مع [كوينتوس پومپيوس Quintus Pompeius]، وهو في الخمسين من عمره ووفق الى زواج طيب جداً من [كيسيليا Cæcilia] بنت [ميتيللوس] عظيم الكهنة. فنظم عامة الشعب مختلف القصائد في التندر على هذه الزيجة. وثارت نفوس كثير من الاشراف اشمئزازاً على هذه الزيجة. وقالوا ان سيللاً غير جدير بهذه المصاهرة. كما نقل لنا [ليڤي] ولسنا ندري كيف أعتبروه قبلها جديراً بمنصب القنصل!

ولم تكن [كيچيليا] زوجه الوحيدة ففي مطلع شبابه تزوج [إليا Ilia]، وانجب منها ثم تزوج بالثانية [ايليا Aelia] ثم بالتالية [كلوليا Cloelia] التي طلقها لأنها عاقرٌ. وسرحها باحسان واكرام وحملها هدايا واموالاً. إلاّ ان الزواج الذي تمّ بينه وبين [ميتللاً Metella] بعد أيام قليلة من طلاقه [كلوليا] آثار الشك في ان ادعاءه بعقمها لا يستند الى اسباب وجيهة. وظل دوماً يظهر [لميتللا] أعظم الاحترام حتى أن جماهير الشعب راجعتها بطلب تدخلها في قضية اعادة المنفيين من حزب [ماريوس] الى الوطن بعد ان رفض [سيللاً] ذلك. والمعتقد ان الاجراءات التي فاقت قسوتها العادة لم تتخذ ضدّ الآثينيين عند استيلاء [سيللاً] على مدينتهم الاّ لاستعمالهم عبارات جارحة مهينة في معرض سخرهم وتندرهم [بمتيللاً] من أعلى الأسوار اثناء الحصار. ولنا عودة الى هذا الموضوع فيما بعد.

في تلك الفترة من الزمن كان [سيللاً] يعتبر منصبه القنصلي شيئاً صغيراً بالنسبة الى ما سيصل من سموّ ورفعة. ولهذا أحتلت الحرب ضد [ميثريدات] كل جانب من تفكيره وأشتدت رغبته فيها فوقف [ماريوس] حائلاً يتعذر أقتحامه. وبدافع من الحب الجنوني للمجد والتعطش للشهرة وهما عاطفتان لا تموتان في البشر، واصل [ماريوس] مساعيه لتقلد منصب قيادة الجيش الخارجي الذي كان يقاتل فيما وراء البحار. غير مكترث لشيخوخته التي انهكت قواه والجأته الى اعتزال الخدمة في مراحل الحرب الأخيرة فأنتهز فرصة مغادرة سيللاً المدينة الى المعسكر للأشراف بنفسه على تنفيذ بقية أوامره. وقعد محتضناً بيوض جشعه ليفقس بالأخير تلك الفتنة الدنيئة الهوجاء التي أصابت روما من الرزايا ما يفوق كل الرزايا التي اصابها به كل أعدائها مجتمعين. والواقع أن الآلهة كشفت عن دلائل ومقدمات لها.

منهـا أن النار شبت في مـقـابض الرايات من الأسـفل ولـم يكن من السـهل السـيطرة عليـهـا واخمادها. وحمل ثلاثة من الغربان النوخية صغارها الى وسط الطريق العـام فاكلوها ثم عادوا الى الأعـشاش بعظامـها. ومنهـا ان الفيـران قرضـت الذهب الذي كان مـوقوفـاً على أحد المعـابد فوقعت أحداها في مصيدة نصبها الكهنة لها وهناك وضعت خمسة. وأكلت ثلاثة منها. وكان أعظم ظاهرة دوى صوت نفير راعدٍ رهيب في سماء هادئة صافية اشاع الهلع والبغتة في أفئدة الناس، فراح حكمـاء الاتروسكان يؤكدون أن هذه المعجزة تشير الى تغيير العصر وانقلاب حال الدنيـا. فعندهم ان العـصور ثمانيـة فـحسب وتغـيـرّ طباع الناس وطرز حيـاتهم هو الدليل على انتهـاء عصر وابتداء آخر. وقد جعل الله لكلّ عصر أجلاً مرسوماً تحدده دائرة السنة العظمى. وكلما شارف عصر على نهايته، ظهرت اشارة خارقة كدليل على مجيء العصر التالي سماوية أكانت أم ارضيـة وبهـا يسـترشـد الحكمـاء المتـخـصـصـون فـي دراسة هـذه الظواهر على انقلاب العـصر ومـجيء جـيل جديد مـن البشـر يختلف عن سابقـه في عـاداته وأسـاليب حيـاته ويتـميـز برعايـة متفـاوتة من الآلهة أكثر من سلفه. ويقولون أيضـاً ان صناعة الوحي والتنبـوءات ترتفع بهـذه المناسبـة الى مقـامٍ جليـل فجأة وتزداد تفـاسيـرها إصابة وتقلّ اخطاءً لأن الآلهـة تطلق اذ ذاك علامات واضحة أكيدة. ويدبّ في هذه الصناعة الانحلال والخمول في الجيل التالي فتغدو مجرد حدسٍ ورجم بالغيب في أغلب الأحـوال، وتكون شديدة الغمـوض في الكشف عن احداث المستـقـبل. تلك هي «مـيـثـولوجيـا» أحكم حكمـاء التـوسكان الذين لا ترقى مـعـرفـة أحد الى معرفـتـهم. وفـيـمـا كان مجلس الشيـوخ منعـقداً في معـبـد [بللونا Bellona] يناقش السـحرة والعـرافين في دلائل هذه الخـوارق. اذا بعـصـفـور دوري يقـبـل طائراً اليـهـم وفي منقـاره جُندبٌ فـأفلت جزءً مـنه وحلق بعـيـداً ببـقـيـتـه. ونـهى العـرافـون عن شـحناء أو أنشـقـاق تحـصل بين الاقطاعـيين الكبار وبين جمهور المدينة فهؤلاء الأخيرون كثيرو الضجّة والكلام مثل الجُندب. بينما يمثلّ العصفور الدوري «المزارعينَ سكان الريف».

وجعل [ماريوس] من التريبيون [سولبيشيوس] حليفاً له. وليس لهذا الرجل ثانٍ في النذالة واللؤم ولا نظيـر. والنقطة فـيـه هي أنك لا تبـحث عـمن فـاقه لؤماً وخسـّةً، وانما تبـحث عن أي ناحيـة فـيـه فـاقت الأخرى فـي الشـرّ. لقـد كـان فظاً غليظاً مـفطوراً على الاعـتـداء والأذى. لا يعـرف الخجل أو تـأنيب الضـمير قط ولا يتردد فـي عرض امـتيـاز المواطنة الرومـانيـة في المزاد العلني للأجانب وللعـبـيد المحررين، ويحصى الثـمن المدفوع بهـا على مناضـد الخزينة العـامـة. وكان قـد جمع حـوله ثلاثة آلاف من رجال السيـف، فلا تراه إلاّ وبرفقـتـه عـصبة من شبان طبقة «الفرسان» مسـتـعدين لسائر المناسبات، أطلق عليـهم اسم «حرس معارضـة الشيوخ». وكان قد

اشترع قانوناً، يحظر على عضو الشيوخ أن تزيد استدانته عن ألفي دراخما في حين تبين بعد موته أنه استدان ثلاثة ملايين ذلكم هو الرجل الذي أطلقه [ماريوس] على الجمهورية وكان السيف والقوة وسيلقاه في العمل وايقاع الخلل والارتباك في كل شيء.

واصدر مراسيم نجم عنها أخطر النتائج. منها مرسوم يقضي باسناد قيادة الجيش الروماني في حرب [مثيريدات] الى صفيه [ماريوس] وعلى أثر ذلك أعلن القنصلان عن عطلة عامة للأهلين وبينما كانا يعقدان إجتماعاً جماهيرياً بالقرب من معبد [كاستور و پوللوكس] أطلق عليهما الرّعاع والأوشاب وفتكوا بمن فتكوا بابن القنصل [پومپيوس] الأصغر في الفورم. ولم ينج [پومپيوس] من القتل الا بصعوبة باختلاطه بالجمع وطورد [سيللا] الى منزل [ماريوس] وأرغم على الخروج منه والغاء قرار العطلة. وهذا ما حدا [بسولبيثيوس] الى تركه في منصبه القنصلي، في حين عزل [پومپيوس] إلاّ انه وجّه قيادة الحملة على [مثيريدات] الى [ماريوس].

وأرسل الى [نولا Nola] فوراً [تريبيونين] من اتباعه لتسلم قيادة الجيش نيابة عن [ماريوس] إلاّ ان [سيللا] كان قد سبقهما الى المعسكر وأبلغ الجنود بما وقع فاستقبلوا التريبيون بالحجارة ورجموهما. فردّ [ماريوس] على هذا العمل بوضع السيف في رقاب أنصار [سيللا] ونهب أموالهم في المدينة. ونجم كل ما يتصور المرء من الانتقال والفرار فبعضهم هرع الى المدينة المعسكر، وبعضهم انتقل الى المعسكر من المدينة.

وفقد مجلس الشيوخ سيطرته على الموقف وباتت سلطته في حكم العدم وقبض [ماريوس] و[سولپيشيوس] على زمام الحكم والسلطة بلا منازع. إلاّ ان المجلس أقلقته انباء تقدم [سيللاّ] بجنوده نحو المدينة فأرسلا اليه البريتورين [بروتوس وسرفيليوس] ليمنعاه من الاقتراب أكثر من ذلك. وكاد الجنود يفتكون بالپريتورين في حدة ثورتهم لوقاحتهما في الحديث مع سيللا إلاّ انهم أكتفوا بكسر عصّي الفاچي رمز سلطتهما وبتمزيق ثوبيهما الحاشية الأرجوانييّ. وأطلقوهما أخيراً بعد معاملة فظّة واعتداءات كثيرة. فعادا الى أهل المدينة في هذه الحالة المرزية، وشاع في النفوس همّ عظيم لرؤيتهما مجردين بهذه الصورة الحقيرة من شعار الحكم وعلامات المنصب. وأعلن هذان للجمهور بأن الأمور آلت الى نهاية لا علاج لها ولا شفاء، وتأهب [ماريوس] وتحرك [سيللاّ] مع زميله من [نولا] على رأس ستّ فرق كاملة العدد والعدّة وكلها متحمسة للزحف فوراً على المدينة، على وان كانت افكاره في لجّة من الشكوك والتخوف من الخطر. وبينما كان يضحّى عمد الكاهن [پوستيميوس] الى فحص احشاء الضحية، ثم مد كلتا يديه الى [سيللا] وطلب منه ان يقيده ويضعه في السجن حتى

تنتهي المعركة. لأنه يقبل بطيبة خاطر أشدّ العقاب وأقساه إن ام يحرزوا نصراً سريعاً كاملاً. وقيل أيضاً أن ربّة من الأرباب كان الرومان قد أخذوا عبادتها عن الكبدوكيين. ولعلها «القمر» و«باللاس Pallas» أو «بلّلونا» قد ظهرت [لسيللاً] نفسه في الحلم ووقفت على ما نظنّ بالقرب منه ووضعت في يده الرعد والبرق. وعددت اسماء اعدائه واحداً واحداً وطلبت منه ان ينزل بهم ضربته كافةً، أولئك الذين أختفوا وتفرقوا وأن لا يستثني منهم أحداً. فزادته الرؤيا شجاعةً وقصها على زميله. وفي اليوم التالي تقدم بعسكره نحو مدينة روما. والتقى بالقرب من [پچيني Picinæ] بوفدٍ أخذ يتوسل به أن يؤجل هجومه قليلاً وان لاتأخذه حرارة الزحف. لأن مجلس الشيوخ قد قررّ أن لا يغمط له حقاً وان لا يرد له اي طلب عادل، فوافق على الوقوف حيث هو وبعث ضباطاً لقياس ارض للمعسكر كما جرت به العادة. فاطمأن الوفد الى ذلك وعاد ادراجه. وما كادوا يغيبون عن نظره حتى أمر بتقدم وحدة عسكرية بقيادة [لوشيوس باسللوس Lecius Busillus] و[كايوس موميّوس Caius Mummius] لإحتلال باب المدينة الذي يقع في جهة مرتفع [اسكويلين Esquiline] واحتلال الأسوار المجاورة له. وساق عسكره في اعقاب الوحدة بأسرع ما أمكنه. ونجح [باسيليوس] في دخول المدينة إلاّ أن الجمهور الأعزل أخذ يقذف جنوده بالحجارة والطوب من الأعلى المنازل فأوقفوا تقدمه ثم أرغموه على التراجع الى السور. وكان [سيللا] في تلك الاثناء قد بلغ المدينة وراى ما يحصل فصاح برجاله آمراً ان يشعلوا النار في المنازل وتناول مشعلاً ملتهباً وسار في الطليعة وأوعز الى رماة النبال باستعمال نبالهم المشتعلة فراحوا يفوّقونها على أسطح المنازل. ولم يكن في ذلك يطبق خطة سبق ان رسمها وانما انساق بسورة غيظ عظيم. فكان عمل ذلك اليوم كله من وحي العاطفة الجائحة التي تجد الكل اعداءها ولا ترعى حرمة أو تشعر بشفقة لصديق أو قريب أو صاحب. وهكذا دخل [سيللا] روما بالنار لا تعرف فرقاً بين صديق أو خصم.

وفي القتال الناشب أرغم [ماريوس] على التقهقر الى معبد «الأرض الأم» ومن مقره هذا أصدر بياناً يعد فيه العبيد بالحرية أن هم التحقوا به. إلاّ أن عدوّه ادركه فانهارت مقاومته وهرب من المدينة.

دعا [سيللاً] مجلس الشيوخ الى اجتماع عاجل للتصويت على حكم الموت بحق [ماريوس] وعدد قليل من اتباعه ومنهم [سولپيشيوس] مفوض الشعب، فوشى به خادمه فقتل. وكافأ [سيللا] الواشي بعتقه، ثم ألقاه منكوساً من الصخرة التارپيّة! ووضع لرأس [ماريوس] ثمناً ببيان عام أصدره. ولم يكن عمله هذا ينطوي على تبصر سياسيّ، ولا اعتراف بجميل اسداه اليه [ماريوس] حين آواه وحماه وأخرجه سالماً منذ زمن غير بعيد. ولو لم يُطلِق [ماريوس]

[سيللاّ] في ذلك الحين وترك [سولپيشيوس] يفتك به لكان السيد الأوحد الآن. على أنه حفظ له حياته وبعد بضعة أيام لقي هو معاملة مختلفة، عندما وجد نفسه في موقف مماثل.

أثار [سيللاّ] باجراءاته هذه اشمئزازاً خفياً في نفوس اعضاء مجلس الشيوخ. إلاّ أن سخط العامة واستنكارهم تجلّى في تصرفاتهم فقد أجمعوا على رفض ترشيح ابن أخيه [نونيوس Nonuis] و[سرڤيوس] لمنصب الحاكميّة، وهما من محسوبيه، وانتخبوا غيرهما نكايةً به وازعاجاً له فتظاهر بالرضا التام عن كل هذا كأنما الشعب لايتمتع بحرية التصرف وتقرير ما يراه مناسباً له الا بفضله. وعين [لوشيوس سينّا] قنصلاً تسكينا لعداء الجماهير، وهو من الحزب المعارض له. إلاّ انه انتزع منه قبل ذلك يميناً وعهداً موثقاً بأن يرعى مصالحه ويكون أميناً عليها. وظهر [سينّا] يرتقي درجات الكابيتول وهو يحمل حجراً وأقسم يميناً مغلظة، ودعا باللعنات المخيفة أن يطرد خارج المدينة وينبذ نبذاً إن لم يبق حريصاً على صداقته مع سيللاّ. مثلما يلقي هذا الحجر من يديه. ثم القى الحجر على الأرض امام حشد من الناس. ولكن ما ان تسلم مهام وظيفته حتى أتخذ اجراءات مضّادة تخالف العهد الذي قطعه وهيّا تهمةً ضدّ [سيللاّ] ودفع [ڤرجينيوس] أحد مفوضي الشعب ليرفعها الى دار القضاء. إلاّ ان [سيللاّ] تركه هو وقضاته ومحاكمة لشأنهم وأنطلق لقتال [ميثريدات].

وبينما كان يقوم بالاستعداد والتأهب للرحيل من ايطاليا بقواته حصل [لميثريدات] بعض الحوادث التي فسرت بالشؤم. ومنها الحادثة التي اشتهرت عنه اثناء وجوده في [برغاموس]. فقد صنع البرغاميون تمثالاً لآلهة النصر ووضعوا بيدها تاجاً وعملوا على انزالها بحيلٍ الميكانيكا من الأعلى بشكل يبدو معه وكأن التمثال يقوم بوضع التاج على راس الملك. وما كاد يُنزل ويقرب من رأسه حتى تفكك في الهواء وهوى التاج واصطدم بالأرض في وسط الملعب وتحطم. فأحدث هذا هلعاً عاماً واورث [ميثريدات] قلقاً عظيماً. مع انه كان ينتقل من نجاح الى نجاح ويحرز انتصارات رائعة غير منتظرة فقد أنتزع [آسيا] من يدّ الرومان و[بيثنيا] و[كبدوكيا] من ملكيهما وجعل [برغاموس] حاضرة ملكه، وراح يوزع الممالك والأقاليم والأموال على اصحابه والمقربين. وأستقر أحد ابنائه في [پونطس والبوسفور] ليحكم مملكة ابيه الأصلية الممتدة حتى البوادي فيما وراء بحيرة [ميوتيس] من غير منازع أو تحرش. وقام ابن آخر له اسمه [ارياراثوس Ariarathuz] باخضاع ثراقيا ومقدونيا بجيش جرارٍ.

وعمل قواده بالجيوش التي وضعها تحت تصرفهم على توطيد سلطانه في أقاليم أخرى. ونذكر منهم بصورة خاصة [ارخيلاوس] الذي حقق باسطوله السيادة التامة في البحر، وأخضع [السيكلاديين Cyclades] وأستولى على كل الجزر حتى [ماليا Malea]، وفتح [يوبوا].

ثم انه جعل اثينا مقراً لحركاته وتمكن من حمل الدويلات الاغريقية على الانسحاب من الحلف الروماني في منطقة تمتد حتى [تساليا]. ماعدا [خيرونيا] فقد وجد هناك قائد عسكري [لسنتيوس Sentius] حاكم مقدونيا ، يدعى [بروتوس سورا Brutus Sura] وهو جندي صنديدٌ وبطل فريد لا حَدّ لبسالته واقدامه. وقف في وجه [ارخيلاوس] الذي انقضّ بجيشه على [يوبوا] كما ينحدر السيل الجارف. فتصدى له [بروتوس سورا] وابدى مقاومة ضاريه وأشتبك معه في ثلاث معارك بالقرب من [خيرونيا] فصده وارغمه على التراجع نحو البحر. إلاّ ان هذا القائد الهمام سلّم القيادة لخلفه [سيللاّ] بناء على أمر صدر من [لوشيوس لوكوللوس] وعاد الى رئيسه [سنتيوس] بعد أن حقق من النجاح ما فاق كل آمال وهيّا بلاد اليونان من جديد الى الانتقاض والثورة لما أظهره لهم في البطولة والشهامة. تلكم هي المآثر المجيدة التي حققها [بروتوس].

وكان في استقبال سيللاً وفود من سائر مدن اليونان لتقديم التهاني والولاء باسمها ، إلاّ اثينا. فقد أرغمت باستبداد الطاغية [ارسطيون Aristion] على البقاء في صفّ [ميثريدات]. فزحف عليها [سيللاّ] بكامل قواته وأكتنف [پيريوس] والقى حصاراً شديداً على المدينة مستخدماً كل نوع من آلات الحصار ومطبقاً مختلف الخطط الهجوميّة. ولو انه صبر عليها قليلاً لامكنه الاستيلاء على الحيّ الأعلى من المدينة بدون صعوبة تذكر أو تعرض لأية خسارة بسبب المجاعة التي تفشت في المدافعين واستنزافهم كل ما لديهم من الارزاق وأفتقارهم الى الحاجات الضرورية جداً. ولكن سيللاً كان مستعجلاً العودة الى روما لتعاظم خوفه من المؤمرات هناك. فواصل الهجوم العنيف مع ما فيه من مخاطر وكثرة من النفقات. وكان من بين المهمات التي تزود بها سيللاً عشرة آلاف نير خشبي للبغال وهي مخصصة لبطاريات آلات الحصار والثغر لايستغنى عنها في العمل اليومي وكانت المتاريس الخشبية التي تحيط بمعسكر الرومان قد تعرضت للتلف بعضها تكّسر من تلقاء نفسه جراء ثقله، وبعضها أحترق بالمقذوفات النارية التي كان يوجهها العدوّ اليها بلا انقطاع. فشح الخشب كثيراً واضطر سيللاً الى قطع اشجار الحدائق المقدسة لسدّ حاجته من الخشب، فقطع أشجار «حديقة الاكاديميا » و[الليكيوم Lyceum] والأولى هي أكثف حدائق ضواحي آثينا وأكثرها ظلاً. وأدركت الحاجة الى المال لسدّ نفقات الحرب الطائلة، فلم يتردد [سيللا] من اقتحام الاماكن المقدسة اليونانية وبعث يطلب ما احتواه معبدا [اپيداوروس Epidaurus] و[اولمپيا] من تحف ونفائس التقدمات. واجملها وكتب أيضاً الى [الامفكتيون] في [دلفي] يطلب منهم أن يسلموه ثروة الربّ لأنه اقدر منهم على محافظتها. واذا خطر بباله انفاقها فسيعوض

عنها. وبعث بهذه الرسالة مع [كافيس Caphis] الفوكيّ أحد اصدقائه وأمره أن يتسلم كل قطعةٍ بالوزن. فقدم [كافيس] اى دلفي. ولكنه ارتعب من لمس الأشياء المقدسة وراح يذرف دمعاً غزيراً أمام جمهرة الامفكتيون معتذراً بالضرورة والحاجة وعندما قال بعضهم انه سمع عزف قيثار صادراً من المحراب الداخلي بادر حالاً بارسال رسول سريع الى سيللاً بهذا المآل إمّا لاعتقاده الحقيقي بها وإما لرغبته في تجربة تأثير المخافة الدينية في [سيللاً] فكان ردّ القائد الروماني حافلاً بالسخرية قال انه ليعجب منه كيف لا يدري ان الموسيقي هي علامة فرحٍ لا غضب. وعليه والحالة هذه أن يدخل بكلّ ثقةٍ ويتقبل ما يقدمه الربّ الكريم من نعمه وخيراته.

وتسربت أموال أخرى وأخذت طريقها اليه خلسة دون علم اليونانيين أو ملاحظتهم. إلا في قضية جفنة[٢] الفضة وهي الاثر الوحيد الباقي من أوقاف الملوك على معبد دلفي فقد بلغ من حجمها وثقلها أن لم تتسع لحمل أية عجلة، فأخطر الامفكتيونالى قطعها اجزاءً وأستذكروا اثناء عملهم هذا، كلاً من [تيطس فلامينينوس] و[ماينوس أچيليوس] من بلاد اليونان وأولئك الذين قهروا ملوك المقدونيين. كم كانت نفوسهم عفّة، وكيف أنهم لم يلوثوا ايديهم بهتك حرمة المعابد الأغريقية. ولكنهم قدموا اليها مختلف الهدايا واسبغوا عليها مختلف آيات التكريم ورفعوا بذلك من مقامها وأحترام العموم لها. هؤلاء في الواقع قادة شرعيون لجنود ديدنهم الطاعة ومتانة الخلق. كانوا عظماء بنفوسهم بسطاء في عيشهم واسلوب حياتهم لايتعدى مستوى نفقاتهم الحدود الاعتيادية السائدة. وهم يعتبرون التقرب من الجنود بالزلفى عالاً أعظم من عار خوفهم من الاعداء. أمّا قواد زمننا هذا فهم مدينون بمناصبهم الرفيعة الى القوة لا الأهلية ويلجأون الى السلاح لحَلّ خلافاتهم الخاصة بدلاً من توجيهه الى أعداء الوطن وهذا ما يدفعهم الى المخاتلة والمناورة في الحكم لكسب الوقت؛ ولدفع ثمن جهود جنودهم في تثبيت سلطانهم تراهم ينزلقون دون ان يدروا الى بيع بلادهم نفسها ويرتضون لأنفسهم ان يكونوا عبيداً طائعين للحثالات وأحطّ الأنذال في سبيل ان يحكموا رجالاً أرفع منهم وأفضل في كل شيء. هذه الأساليب هي التي أدت [بماريوس] الى الخروج من وطنه منفياً، لتأتي به ثانية امام [سيللا]. وهي جعلت من [سينّا] قاتلاً [لاوكتافيوس]، ومن [فمبريا Fimbria] ذبّاحاً [لفلاكوس Flacchus]. ولم يكن ذنب [سيللاً] بأقلّ من الثلاثة المذكورين. فلأجل إفساد وكسب الجنود الذين يخدمون تحت امرة الآخرين، تراه ينقلب كريماً جواداً لجنوده يحبب اليهم حياة الفسق والفجور مغرياً جنود القوّاد الآخرين بالانتقاض على رؤوساهم والغدر بهم

(٢) [Tun] وهي آنية كبيرة. تتسع لحوالي (٢٥٢) غالوناً من المائعات. وقد تستخدم مكيالاً والمرجح ان كلمة [Ton: طن] وهو الوزن المشائع الآن – مأخوذ منها.

فلا غرابة في أن يكون بحاجة دائمة الى الأموال الطائلة ولاسيما في اثناء الحصار.

وسواء أقَصَدَ سيللاً من فتح آثينا التباهي والفخر بقتال يجري تحت ظلّ ما كان يوماً ما مدينة شهيرة، أم حنقاً وغيظاً للكلام البذيء الخالي من الحشمة الذي كان يتندر به الطاغية [ارسطيون] من فوق الأسوار يومياً بايماءات شائنة معيبة الى سيللاً وزوجه ميتللاً، فان رغبة [سيللاً]في إقتحامها عنوة لم تكن تعرف حداً.

وكان [ارسطيون] مخلوقاً مركباً من الدناءة والقسوة. جمع في نفسه أسوء ما في [ميثريدات] من رذائل وبيلة شريرة، فكانت فيه داءً عضالاً لا سبيل للشفاء منه، حكم القدرُ به على المدينة في ايامها الأخيرة على يد الطغاة المتعاقبين، ونتيجة سلسلة من الفتن والدسائس في أعقاب خروجها سليمةً من حروب لا تحصى.

كان الوضع في الدينة لا يمكن وصفه فقد بيع المديمنوس Medimnus الواحد من القمح بألف دراخما. وأضطر الناس الى أكل حشيشة نبتة الاقحوان Feverfew التي تنمو حول القلعة. وسلق الأحذية الجلدية وأجربة الزيت ليسدوا بها رقعهم. بينما استمر [ارسطيون] في اقامة المآدب واحياء مجالس الشراب في رائعة النهار. والرقص بالسلاح والتندر على الاعداء. ولم يأبه لانطفاء سراج الربّة المقدس لنضوب زيته. وطلبت الكاهنة العظمى جزءً واحداً من أثني عشر جزء من مديمنوس قمح، فأرسل اليها بدل ذلك مقداراً من الفلفل مساوياً لما طلبته. أما الشيوخ والكهنة الذين أقبلوا عليه متوسلين، مناشدين عطفه على المدينة، ومفاوضة [سيللاً] في الصلح؛ فقد طردهم وفرقهم برشقات من النبال. وأخيراً، بعد الحاح كثير وضجّةٍ ونقاش، بعث بنديمين من ندماء مجلس شرابه الثلاثة للتفاوض مع [سيللا] فقدما اليه وتبين ان الموفدين لا يحملان عروضاً جدية تؤدي الى تسويةٍ، وانما أخذا يلقيان خطباً في تقريظ [ثسيوس] و[يومولپوس Eumolpus]، والاشادة بغنائم الحرب المادية فقال لهما:

- خير لكما يا صاحبي أن تختما حديثكما هذا وتنصرفا. فالرومان لم يرسلوني الى آثينا لأتلقى دروساً، بل لأرغم العصاة على الطاعة.

وفي أثناء ذلك رويت [لسيللاً] محاورة بين بعض الكهول في الكيراميكوس، فقد سُمعوا يَلومون الطاغية لإهماله في تحصين الممرات والمداخل المجاورة لـ[هبتاخلتوم Heptachalcum] وتعزيزها بالقوات. لأنه الموضع الوحيد الذي يمكن النفوذ منه الى المدينة بسهولة. فأصاخ [سيللا] سمعه للنبأ وخرج بنفسه لاستطلاع الموقع ليلاً وتأكد من سهولة اقتحامه فباشر بالحركة فوراً. وينوه [سيللا] في مذكراته بأن [ماركوس تايّوس Marcus Teius] كان أوّل

من اعـتلى السـور فاعـترضه أحد المدافعين فـأهوى على خوذتـه بضربة سيف صـادقة فـانكسر السيف. فلم ينثن عنه ولم يتزحزح عن مكانه بل صمد وامسك بعدوه فتلاحما. وتمّ الاستيلاء على المدينة من هذا الجزء على وجه التحقيق وفق التـواتر الذي اجمع عليه الآثينيون الأقدمون. وبعد أن اكملوا ثغر السـور وسوّوه بالأرض ما بين البـاب المقدس والپيرياك Pirac دخل سيللاً منها الى المدينة في حوالي متنصف الليل على صوت الأبواق والانفار المرعد وبهتـافات النصر المنطلقـة من أفـواه جـيش أنطلق مـن عـقـاله لينهب ويذبح ويصـول في الشـوارع والطرقـات وسيوفهم بايديهم مشهرة. ولم يعرفوا حَدّاً في فتكهم بالناس، وظلّ عدد القتلى الى يومنا هذا موضع تخمين وحدس. وقدّر بمساحة الأرض التي أغرقتـهـا الدماء فـحسب. فإن تركنا جانباً حوادث القتل التي وقعت في كل أحياء المدينة وركزنا تقديراتنا على منطقة الساحة العمومية فـان مـا نقله لنا مـعظم الكتـاب يؤكـد أن الدم المسـفـوك في السـاحـة أخـذ يجـري لـيـغطي [الكيـراميـكوس] وعبر البـاب المزدوج حتى بلغ مسيله الضـاحية القريبة وكان عـدد من قـتل نفـسـه بيده لا يقل عـمـا قـتله العدوّ. لقد كـره هؤلاء الحـيـاة بعـد أن تأكدوا أن نهـاية بلادهم محتومـة ولات حين مناص. كانوا من أفضل أهل المدينة وأشدهم تعلقاً ببـلادهم. اشاع يأسـهم من بقائها خوفاً فيهم من الحياة التي لا أمل لها في رحمةٍ أو انسانية من [سيللاً] واستمرت المذابح والقتـول في المدينة هكذا، حتى تدخلّ [مـيـدياس Midias] و[كـالليفون Calliphon] المبعدان الآثينيـان. بان القيا بنفسيـهما تحت قدمي القائد الظافر متـوسلين من جهـةٍ، وتوسط عـدد من اعـضـاء مجلس الشيوخ التحقوا بالمعسكر - من جهة أخرى. فـاستجاب [سـيللاً] لرجاء الجهتين وأوقف المذابح بعد أن شبع وارتوى وأخذ بثأره كـاملاً. وقال منّوها تنويهـاً كريماً بالآثينيين الأولين:

- ها اني اصفح عن العدد الكبير لأجل القليل، وأغفر للأحياء، من أجل الموتى.

إحتل [سيللاً] آثينا في اليوم الأول من شهر آذار حسبـما أثبت في مذكراته وهذا يوافق ظهور القمر الجديد لشهر [آنثستريون Anthesterion]. وهو اليـوم الذي أتخذه الآثينيـون للقيـام بكلّ المراسيم والواجبـات الخاصـة باحيـاء ذكرى الخراب والدمـار الذي أحدثه الطوفـان العظيم لوقوعه في ذلك اليوم بالذات كما هو معلوم.

على أثر الاستيلاء على المدينة فـرّ الطاغية الى القلعة وامتنع فيها. فـحاصره [كيوريو -Cu rio] وظلّ صـامـداً مـدة طويلة الى أن نضبت الميـاه فـيـهـا فـاستـسلم للعـدو. ولم تتـأخـر الارادة الأهلية عـن أظهـار الدليل على مـشيئـتـهـا فـيـمـا حصل، فـفي السـاعـة واليـوم الذي اقـتـيـد [كـيـوريو] الطاغيـة الأسيـر هابطاً من العلقة تجمعت الغيوم في السماء الصـافيـة وهطل المطر

مدراراً فملأ القلعة ماءً! ولم يطل الزمن [بيريوس] فقد سقطت هي الأخرى واشعل [سيللا] النار في معظم اجزائها، ومما التهمته النيران وأتت عليه «مستودع الذخيرة» المعروف باسم [فيلو] وكان بناءً فخماً مثيراً للأعجاب.

وفي أثناء ذلك انحدر [تاكسيلس Taxiles] أحد قواد [ميثريدات] من ثراقيا ومقدونيا بجيش جرار يبلغ تعداده مآئة ألفٍ من المشاة وعشرة آلاف من الخيالة وتسعين عربة حربية ذات عجلات مسلّحة بالأسنّة، وكانت خطته الانضمام الى قوات [ارخيلاوس] المرابط باسطوله على الساحل بالقرب من [مونيخيا Munychia]. وكان هذا متردداً بين النزول الى البرّ، وبين الامساك والاشتباك بالرومان، فهو يحبذ أن يمدّ في أجل الحرب ويتحاشى المعارك قدر امكانه معتمداً على خطة تهدف الى قطع امدادات العدو ،رزاقه. وكان [سيللا] أكثر ادراكاً وتحوطا للموقف الخطير الذي يعانيه. فتحرك الى [بويوسيا] تاركاً المنطقة القفراء التي كان معسكراً فيها لعجزها عن سدّ حاجة الجيش من الارزاق حتى في وقت السلم.

وإعتقد بعضهم أنه أخطأ الحساب بتركه [آتيكا] وهي منطقة جبلية وعرة لا تصلح لحركة الخيالة، ودخوله اراضي [بويوسيا] السهلة وحقولها المنبسطة، وهو العارف جيداً بأن قوة البرابرة هي في صنفي الخيالة والآليات. والحقيقة هي أنه كان مرغماً على مغامرة بمعركة، خوف المجاعة وانقطاع المؤون عنه كما أسلفنا. زد على هذا أنه كان في أشدّ القلق على مصير [هورتنسيوس Hortensius] وهو ضابط جريء كفء، كان قد خرج من [ثساليا] على رأس قوة عسكرية للانضمام اليه، وأخذ البرابرة يترصدونه عند المضايق وهذا هو السبب الآخر الذي حمل [سيللا] على التحول بقواته الى [بويوسيا]. في أثناء ذلك كان يستهدي طريقه بدليل من ابناء قومنا يدعى [كافيس Caphis] قاده من سبيل لا يعرفه البرابرة قريب من [پارناسوس Parnassus] فيما يلي [طيثورا Tithora] مباشرة. ولم تكن وقتذاك مثلما هي الآن مدينة كبيرة وانما مجرد حصن يقوم على نشز من الأرض وتحف به منحدرات حادة جداً، واليها انتقل الفوكيون بمالهم ونشبهم هرباً من جحافل [احشويرش] الغازية في زمن غابرٍ فسلموا منه.

عسكر [هورتنيسيوس] هنا وصدّ هجمات العدوّ الليلية عليه، وتسلّل تحت جنح الظلام من ممرات وعرة حتى بلغ [باطرونس Patronis] وانضم الى قوات [سيللاً] التي خفت لملاقاته وبعد اتحاد القوتين استقر في مرتفعات خصبة تتوسط سهل [ايلاتيا Elatea] تسمى [فيلوبيوتوس Philoboeotus] يُغطيها الشجر الوراف الظلّ وتسقيها المياة المتحدرة الى الجوانب والسفوح. وسيللاً يشيد بهذا الموقع، ويبدي أعجاباً شديداً بميزاته - فيما دونه.

كانت قوة الرومان في مواقعهم هذه مثار أحتقار العدوّ لقلة عددها. فهي تتألف من ألفٍ وخمسمائة من الخيالة، وأقل من خمسة عشر ألفاً من الرّجالة. ولذلك نجح قادة قوات البرابرة بتحويل [ارخيلاوس] عن رأيه في التربص والانتظار ونشروا جيوشهم فغطت السهل بخيولها وعرباتها، ودروعها ودرقاتها ومزقت الفضاء جلبة الاقوام العديدة المصطفة للمعركة وصياحها الداوي ولم تكن ابهة كسواتهم الفاخرة ونفاستها بأقل ابتعاثاً للرعب فدروعهم الصقيلة اللامعة المكفته تكفيتاً بديعاً بالذهب والفضة والألوان الزاهية التي تعرضها معاطفهم الميدية والصقلية، ممتزجة بالنحاس، والفولاذ اللامع تؤلف مشهداً مريعاً ملتهباً كالنار المتحركة عندما تميل صفوفهم وتتنقل في مواقعهم مما جعل الرومان ينكمشون في استحكاماتهم. وعجز [سيللاً] عن تبديد خوفهم بأيّ وسيلة أو منطق. فأضطر الى القعود وعدم الحركة لأنه كره ارغامهم على القتال ضدّ رغبتهم، وصعب عليه أن يغدو موضع اهانة البرابرة به واستخفافهم بقوته جعلتهم يطرحون جانب الحذر ويميلون الى الفوضى وكانوا بالأصل قليلي الاهتمام بالضبط العسكري والخضوع للأوامر بسبب كثرة القوّاد فيهم. ولم يلازم المعسكر منهم الاّ قليل وغادره القسم الأكبر جماعات وزرافات للقيام بغارات سلبٍ ونهب في الانحاء المجاورة، كانت تقتضي منهم الغياب أياماً عن المعسكر وذكر أنهم دكواً مدينة پانوپه [Panope] ونهبوا [ليباديا Labadea] وسلبوا «مهبط الوحي» هناك دون أمر من قادتهم.

وهاجت كوامن غضب [سيللا] واحتدّ وهو يرى المدن المجاورة تصبح خراباً وتدك دكاً. ولم يسعه ابقاء الجنود ساكنين حيث هم فأخرجهم من المعسكر وأمرهم بتحويل نهر [كفيسوس Cephisus] من مجراه القديم، بحفر ترع، ولم يستثن من العمل أحداً، وأشتد في معاقبة المقصرين مقدراً أن يضيقوا بهذا العمل ذرعاً وتنمو في أنفسهم الرغبة في القتال والتعرض للخطر تعوضاً عن مشقة العمل فكان مصيباً في تقديره. ففي اليوم الثالث من بدء العمل بينما كان سيللا ماراً... تقاطر عليه الجنود بين متوسل وراجٍ منه أن يقودهم الى المعركة. فأجابهم [سيللا] أن رغبتهم هذه في القتال انما جاءت من ضيقهم بالعمل، لا من تحمسهم للقتال. فاذا كانوا صادقين في رغبتهم ومستعدين عسكرياً فعليهم أن يتقلدوا سلاحهم ويصلوا الى هناك، وأشار بيده الى الحصن الپاراپوتامي Parapotanine القديم الذي باتت مدينته المجاورة بلقعاً خراباً ولم يبق الا التل الصخري وهو مستوعرٌ صعب المرتقى من أي جهة فيه يفصله عن جبل [هديليوم Hedylium] مجرى نهر [آسوس Assus] الذي يجرى بينهما ليصب في نهر [كيفيسوس] عند قاعدة التل، بتيار سريع صاخبٍ مما يجعل المرتفع منيعاً للغاية يشق احتلاله على الجنود. وكان [سيللا] قد لحظ أن فرقة «التروس النحاسية» العدوّة

تسعى في طريقها لأحتلال ذلك الموقع فأراد ان يسبقها اليه ونجح في ذلك بعد بذله الجهود العظيمة مع جنوده. ولما أبعد ارخيلاوس عن الموقع تحول بقواته الى [خيرونيا]. وأخذ الخيرونيون الذين كانوا يحملون السلاح مع الرومان - يرجون [سيللا] في المعسكر أن لا يتخلّى عن مدينتهم فأرسل التريبيون [غابينيوس Gabinius] على رأس فرقة رومانية واحدة ثم اشفعها بالمقاتلين الخيرونيين الذين حاولوا عبثاً الوصول الى المدينة قبل [غابينيوس]. فقد كان هذا متحمساً لنجدة المدينة، سريعاً في حركته بصورة بزّ فيها طالبي النجدة انفسهم. على أن [جوبا] يذكر أن [اريشيوس Ericius] هو الذي قاد الحملة الى خيرونيا، لا [غابينيوس]. وهكذا تمّ انقاذ المدينة في آخر لحظة.

وورد من [ليباديا]، وكهف [تروفونيوس] اشاعات ونبوءات طيبة عن النصر. وكان سكان تلك النواحي أدرى من الرومان بتفاصيلها وأكثر بثاً لها. على ان [سيللا] يؤكد في الكتاب العاشر من مذكراته أن [كوينتوس تيتيوس] وهو رجل ذو مكانة عند الرومان يزاول التجارة في بلاد اليونان، جاء اليه بعد ربح معركة [خيرونيا] وانهى اليه أن النبوءة الصادرة من [تروفونيوس] تشير الى قتال ونصر ثانٍ في الموضع نفسه بعد وقت قصير. وتلاه جندي يُدعى [سالڤينيوس Salvinius] بقرار من الربِّ حول مستقبل الأمور في ايطاليا. وأتفق كلا الرجلين على رؤيتهما من هو شبيه [بجوبتر] الاولمبي مهابة وجلالاً وهيئةً.

وعبر [سيّللا] نهر [آسّوس] وسار بمحاذاة قدمة جبل [هديليوم] ثم عسكر بالقرب من [ارخيلاوس] الذي أختار لقواته موقعاً حصيناً ما بين جبليّ [اكونتيوم Acontium] و[هديليوم] قريباً مما يدعى اليوم [آسيا Assia]. وظلّ موضع معسكره يسمى [أرخيلاوس] الى يومنا هذا. واستراح سيللاً يوماً واحداً ثم خلّف [مورينا Murena] وراءه بفرقة واحدة ولوائين لمشاغلة العدوّ بصورة مستمرة وازعاجه بصورة مواصلةً. وقصد هو ضفاف [كيفيسوس] وضحّى للآلهة، وبعد ختام المراسيم الدينية استأنف سيره نحو [خيرونيا] لضم القوات هناك واستطلاع جبل [ثوريوم Thurium] الذي كان قد ركز العدوّ فيه جانباً من قواته. وهو مرتفع يتعالى بصورة هَرَم حتى ينتهي بقمّة نطلق عليها قمة [اورثوپاغوس Orthpgus] وفي أسفله يجرى نهر [موريوس Morius] ويقوم معبد [اپوللو ثوريوس]. وهذه النسبة مشتقة من [ثورو Thuro] أمّ [خيرون Chæron] مؤسسة مدينة [خيرونيا] حسبما جاء في المدونات الغابرة. ويؤكد آخرون أن البقرة التي اعطاها [اپوللو] لـ[قدموس Cad-mus] لتكون بمثابة دليل له، قد ظهرت في هذه البقعة وان اسمها أطلق على الموضع لأن لفظة [ثور Thor] هي الكلمة الفينيقية للبقرة.

وبوصول [سيللا] الى [خيرونيا] خرج التريبيون الذي عين لحراسة المدينة بجيشه وهو شاكي السلاح لاستقباله بأكليل من الغار في يده. فقبله [سيللا] منه والتفت الى الجنود وحياهم وأخذ يحمّسهم على المعركة وتقدم كل من [هومولويخوس Homoloichus] و[أناكسيداموس Anaxidemus] الخيرونيان اليه وعرضا عليه أن يزيحا العدوّ المسيطر على جبل [ثوريوم] بقوةٍ صغيرة اذ كان يوجد ممر لا يعرفه البرابرة يبتدىء من [پطروخوس Petrochius] ويمتد على طول [الميوزيوم] منحدراً الى قمة الجبل مباشرةً. فيكون من السهل الانقضاض عليهم بصورة مفاجئة ورجمهم بالصخور من الأعلى او أرغامهم على النزول الى السهل. وبعد أن تأكد سيللا من اخلاصهم وشجاعتهم بشهادة [غابينيوس] سمح لهم بتنفيذ خطتهم في حين صف جيشه للمعركة وجعل الخيالة على الجناحين واستبقى لنفسه قيادة الميمنة. واناط قيادة المسيرة [بمورينا] ووضع في المؤخرة [غالبا] و[هورتنسيوس] مساعده فاتخذا المرتفعات موقعاً للألوية الاحتياطية. يرقبان منه حركات العدوّ، الذي لوحظ بأنه شكلّ جناحه من اعداد خيالة، ومشاة من صنف الاسلحة الخفيفة، ورجالة سريعي الحركة، ليكون اسرع الى تغييرّ مواضعه، وأقدر على التحول والإنتقال بخفةٍ. ومن هذا استنتج الرومان بأن العدو ينوي توسيع ميدان القتال للقيام بحركة التفاف حولهم وتطويقهم.

وفي تلك الأثناء كان [الخيرونيون] بقيادة [اريشيوس] الذي عينه [سيللاً] يلتفون خفية حول [ثوريوم]، ثم أظهروا أنفسهم للاعداء فجأة فأحدثوا فيهم اضطراباً وفوضى اعقبتها هزيمة، وقع فيها عدد من القتلى أغلبهم فتك بهم اخوانهم. لأنهم لم يبقوا في مواضعهم بل اندفعوا يهبطون المنحدر الوعر الحاد فراحت رماحهم تخرق اجسامهم وأخذ بعضهم يدفع بعضاً الى الجرف والاطنان الصخرية وكان العدوّ يشد عليهم من فوق ويصيبهم بالجراح كلما انكشفوا له حتى بلغ عددِ القتلى حول [ثوريوم] ثلاثة آلافٍ. وكان [مورينا] مستعداً للقاء الفلول الهاربة منهم فمزقهّم وابادهم. وتمكن بعضهم من اختراق النطاق المضروب عليهم للوصول الى رفاقهم وقذفوا بأنفسهم الى صفوفهم فأختلط الحابل بالنابل ودبت الفوضى في الجيش مما أدّى الى اشاعة الخوف والاضطراب في معظم الوحدات وآل الى تردد وتأخير عند القادة. ولم يكن هذا بالقليل لسيللاً فقد أنتهز فرصة اختلال صفوفهم وأسرع حالاً للهجوم وقطع برمضة عين الأرض التي تفصل بين الجيشين فضيع عليهم فرصة استخدام عجلاتهم المسلحة التي تتطلب فسحة كبيرة من الأرض ليستفاد من فعاليتها وقوة تسليحها في حين تكون ضعيفة قليلة الفائدة في الميدان القصير مثل الصاروخ الذي لا يملك مجالاً كاملاً.

هذا ما حصل للبرابرة حتى الآن. فقد اندفعت أولى عرباتهم اندفاعاً بطيئاً ولم تحدث غير

اثر تافه فقابلها الرومان بالصياح والضحك وأخذوا يطلبون المزيد منها سخريةً كما أعتادوا في الملاعب. وفي تلك اللحظة اصطدم الجيشان. قام جانب من البرابرة من جهتهم بتثبيت رماحهم الطويلة افقياً وضموا تروسهم ضّماً محكماً بعضها الى بعض مستهدفين المحافظة على سلامة خطّ قتالهم لوقوع ذلك على عاتقهم. بينمت اندفع الرومان اليهم بعد أن استنفذوا مقذوفهم من الحراب القصّار، وسيوفهم مشهرة متحاشين رماح العدوّ للوصول اليه بأسرع ما يمكنهم وقد استفزتهم رؤية خمسة عشر ألف عبدٍ وضعهم العدوّ امام صفوفه، وكان قواد الملك قد أعلنوا عتقهم في المناسبة وجعلاهم في مستوى محاربيهم. وروي عن سنتورين (قائد مائة) روماني انه قال بهذا الصدد: إنه لم يعرف قبل هذا - عبيداً سُمح لهم أن يمارسوا أعمال السادة إلاّ في [ساترناليا Saturnalia]. ولم ينكسر هؤلاء أمام الفرق الرومانية المهاجمة بسبب عمق خطوط قتالهم ومتانتها، فضلاً عن شجاعتهم الفائقة وانما أخذوا يتراجعون ببطءٍ شديد، ولم ينقلب تراجعهم المنظم هزيمة إلاّ بعد أن صب الرومان على مؤخرتهم وابلاً من حرابهم الطائرة ومقذوفات من آلات هجومهم. فتفرقوا وتبعثروا.

وفيما كان [ارخيلاوس] ينشر ميمنته مسافة بعيدة مستهدفاً تطويق عدوّه، انحدر [هورتنسيوس] بألويته الاحتياطية الخمسة بشدة لمهاجمته. إلاّ ان ارخيلاوس باغته منقضاً عليه بألفين من الخيالة. ولشدّة هذه الهجمة وللتفوق العددي أرغم على الانسحاب الى الأراضي المرتفعة، ليجد نفسه وهو يبتعد شيئاً فشيئاً عن بقية جيش [سيللاً] وينقطع اتصاله بها. فزادت احتمالات تطويق قواته. لولا أن خفّ اليه [سيللا] تاركاً الجناح الأيمن الذي لم يدخل المعركة بعد. فادرك ارخيلاوس نية خصّمه من الغبار الذي تثيره خيالته، فما كان منه الاّ واستدار الى الجناح الأيمن الروماني الذي بقي بدون قائد بعد أن تركه [سيللا] مؤملاً أن يحقق شيئاً بمباغتته. وانقض [تاكسيليس] في تلك اللحظة على [موريتا] بفرقة «التروس النحاسية» فأنطلقت صيحتا قتالٍ من ميدانين في آن واحدٍ رددت التلال صداها. ووقف [سيللا] موتر الاعصاب حائراً لايدري الى ايّ جهة يتحرك. ثم انه قرر العودة الى جناحه الأيمن. وأرسل أربعة ألوية «Cohort» بقيادة [هورتنسيوس] لشدّ أزر قوات [مورينا] وأمر اللواء الخامس الباقي أن يتبعه وساقه مسرعاً الى الميمنة. وكان هذا الجناح رغم غياب [سيللاً] عنه قد صمد أمام [ارخيلاوس] ولم ينل فريق من الآخر مأرباً. حتى جاء [سيللاً] فغير الموقف بهجمة جريئة واحدة تمكن بها من زحزحة العدو الى الخلف وحمل عليهم حملة صادقة فرجحت كفته وأنقلب يطاردهم فأنفرط عقدهم وأختل نظامهم وأخذوا يفرون نحو النهر وجبل [اكونتيوم]. على أن الخطر الذي كان يتعرض له [مورينا] لم يغب عن بال [سيللا]

فأسرع اليه ليجده مستظهراً على قوات العدوّ فوحدا قواتهما لاستئناف مطاردة العدوّ.

في هذه الوقعة قتل كثيرٌ من البرابرة في ميدان المعركة نفسها وتم الفتك بعدد أكبر اثناء محاولتهم ولوج معسكرهم. ولم ينج من ذلك الجيش اللجب غير عشرة آلاف وصلوا [خلقيس] سالمين. ويكتب [سيللا] في مذكراته أن خسائر الرومان لم نتعد اربعة عشر مفقوداً عاد اثنان منهم في آخر المساء. وأمر سيللا بنقش اسماء [مارس وڤكتوري وڤينوس] على انصاب النصر التذكارية التي اقامها. يريد بذلك ان يوحي بأن مداخلة الحظّ في نصره لم يكن بأقل أثراً من الشجاعة وحسن القيادة. واقيم نصب تذكاري للمعركة في عين البقعة التي لقي ارخيلاوس أوّل هزيمة له. وهي في أرض سهلة قريبة من جدول ماء [مولوس Molus]. كذلك أقيم نصب تذكاريّ على قمة جبل [ثوريوم] حيث بوغت البرابرة واجبروا على النزول منهزمين. ونقش عليه باللغة اليونانية ما يفيد أن الفضل في مجد ذلك اليوم يعود الى [هومولويخوس] و[اناكسيدامس]. واحتفل [سيللا] بانتصاره هذا في مدينة [ثيبة] احتفالاً جماهيرياً في ملعب بني خصيصاً بهذه المناسبة بالقرب من بئر [اوديپ] نكاية بالثيبيين. وكان محكمو المباريات من اليونانيين الذين تم أختيارهم بحسب المدن.

وصب جام حقدُه على الثيبيين وهو حقد لم يكن يعرف حدوداً. فصادر نصف اراضيهم واوقفها على معابد [جوبتر] و[ابوللو]. وأمر أن يُسدّد من غلاّتها كل الاموال التي اغتصبها من أوقات هذين الربين.

وأُنهي الى [سيللا] أن [فلاكوس] وهو من حزب معارضٍ له قد انتخب قنصلاً، وانه الآن يمخر عباب البحر الآيوني على رأس جيش زعم انه سيحارب به [ميثريدات] والحقيقة انه كان يقصده به. فعجلّ [سيللا] بالسير الى [ثساليا] لمقابلته. الاّ أن انباءً وصلته من كل الجهات تجمع على أن البلاد التي خلفها وراءه قد وقعت فريسة في يد جيش ملكيّ لا يقل عدداً وقوةً عن سابقه فأحالها خراباً ودمرها تدميراً. وخلاصة الأمر أن [دوريلاوس Dorylaus] وصل [خلقيس] باسطول ضخم يحمل على ظهره ثمانين ألفاً من خيرة جنود [ميثريدات] وأحسنهم نظاماً وتدريباً نزل بهم البر فوراً وغزا بهم [بويوسيا] مؤملاً باحتلال هذه البلاد ان يستفزّ [سيللا] ويجره الى معركة، غير ملق بالا الى نصح [ارخيلاوس] ففي رأيه أن الخيانة وحدها هي التي أدت الى خسارة الحرب الأخيرة، وليس من المعقول أن تباد هذه الألوف الولفة من المحاربين عن بكرة ابيها دون خيانة. على أن [سيللاً] عاجله بالرد المفحم الواضح بقوله أن [ارخيلاوس] هو من الرجال الفطنين الأذكياء. وهو يعرف الشجاعة الرومانية معرفة خبير. فكان اوّل من ارتاى خطل فكرة تحكيم السيف في هذه الحرب بعد أن أشتبك مع سيللاً عدة

مرات بالقرب من [تيلفوسيوم Telphossium] وفضل اللجوء الى خطة الإنهاك واطالة فترة الحرب واضاعة الوقت وانفاق المال.

وعلى أية حالٍ كانت طبيعة الأرض المجاورة [لاورخومينوس] حيث يعسكر الجيشان مما يشجع [ارخيلاوس] على القتال بعض الشيء لأن الميدان يصلح جداً لجيش متفوق على غريمه في صنف الخيالة. وامتاز هذا السهل بالذات دون سائر بطاح [بويوسيا] المشهورة بجمالها واستوائها، بانه يمتد من مدينة [اورخومينوس] أمتداداً لا انكسار فيه، كراحة اليد خالياً من النبت والشجر حتى ينتهي بالمستنقعات التي تضيع فيها مياه [ميلاس] وهو النهر الصادر من انحاء قريبة لاورخومينوس. والوحيد بين الأنهار اليونانية الصالح للملاحة من منبعه لعمق مياهه. وهو يغيض كالنيل Nile في الانقلاب الصيفي وتنمو على ضفافه انبتة كالتي تنبت على ضفاف النيل الاّ أنها تكون قصيرة الساق غير مثمرة. ولا يجرى مسافة طويلة قبل أن يختفي مجراه الرئيس بين فيقعان المستنقعات الكثيفة الأشجار. على أن فرعاً صغيراً منه يصبّ في نهر [كيفيسوس] بالقرب من الموضع الذي يقال أن البحيرة هناك تنتج أفضل القصب لصنع الرنايات.

وعسكر الجيشان أحدهما مقابل الآخر وبقي [ارخيلاوس] عاطلاً ساكناً، بينما أشغل [سيللاّ] جنوده بحفر المواضع والاستحكامات من مجنبتيه حتى اذا وفّق في دفع العدوّ من الميدان المنبسط الصلب فربما استطاع ارغامهم على الاتجاه نحو المستنقعات. امّا العدوّ فلم يسعه الانتظار أكثر مما انتظر وخرج باندفاع عظيم وجماعات كبيرة فور تلقيه اوامر قوّاده بذلك فشتتوا شمل الرومانيين الذين كانوا يشتغلون في الاستحكامات. وهرب بنظام مختل معظم الخفراء الذين خصصوا لحماية العمل وعندها ترجل سيللا عن حصانه بقفزةٍ وأختطف لواءً واندفع يرفعه بيده الى وسط الفلول الهاربة. ويصيح بملء فيه:

- سيكون لي الشرف أن أسقط هنا أيها الرومان. واما أنتم فعندما يسألونكم اين خنتم جنرالكم وغدرتم به فتذكروا وقولوا أنه [اورخومينوس]!

فعاد رجاله ينتظمون صفوفاً وقد أثرت فيهم أقواله وأقبل لواءان لنجدته من الجناح الأيمن فحمل على العدو بهم وغيير وجه القتال. ثم أنسحب مسافة قصيرة لاراحة رجاله ثم عاد يستأنف بناء الاستحكامات لعزل معسكر العدوّ وقطع مسالكه، وكرواً ثانية بنظام أحسن من سابقه وفي هذه المعركة خرّ ابن زوج [ارخيلاوس] المدعو [ديوجينس] صريعاً هو يقاتل في الميمنة بعد أن أبلى خير بلاءٍ وانهى حياته نهاية شريفة. وفي النهاية دفعوا مرغمين الى استحكاماتهم وقضوا ليلة ليلاء بين قتلاهم وجرحاهم. وفي اليوم التالي أخرج [سيللاّ] رجاله

الى مواقع العمل، فتمكنوا من اكمال خطوط الاستحكام، ولما برز العدوّ اليهم باعداد كبيرة للاشتباك معهم عاجله [سيللا] بالهجوم والحق به هزيمة نكراء ولم يجرء جندي منهم على الصمود وأستولى على معسكرهم عنوةً. وكان القتلى كثيرين حتى اصطبغت المستنعقات بالدم وأمتلأت البحيرة بالجثث. ولا يزال الناس الى يومنا هذا بعد مرور مائتي عام على المعركة يعثرون على خوذٍ بربرية وقسيٍّ وقطع حديدية ودروع وسيوف مدفونة عميقاً في الطين. والى هنا نكتفي بهذا القدر من الحديث عن وقعتي [خيرونيا] و[اورخومينوس].

وفي روما كان افاضل القوم وسراة الرومان يعانون الأمرين من ظلم [سينّا] و[كاربو Car-bo] وقسوتهما، حتى اضطر كثير منهم الى ترك المدينة والاحتماء بمعسكر [سيللا] تخلصاً من الطغيان وابقاءً على أرواحهم. حتى اجتمع لديه منهم ما هو اشبه شيء بمجلس الشيوخ وغادرت زوجه [ميتللا] مع أولاده المدينة خلسة وبعثت اليه بمن يخبره بأن خصومه قد احرقوا منزليه في الريف والمدينة وطلبت منه أن يفعل شيئاً لمساعدة الوطن فتناهبته الحيرة ولم يدر اي سبيل يسلك فما سمع عن الفظائع التي ترتكب في الوطن لم يبق من صبره بقية. وتركه هذا العمل الجبّار، الحرب مع [ميثريدات] دون الوصول الى نتيجة حاسمة أمر من الصعوبة بمكان. ولم تطل به الحيرة فقد أتاه [ارخيلاوس] التاجر الديلوسيّ بمخرجٍ وأملٍ في الوصول الى تسوية سلمية مع العدوّ. جاء هذا موفداً من [ارخيلاوس] قائد الملك يحمل منه تعليمات سريّة للتفاوض فرحب [سيللا] بالفكرة ترحيباً حاراً. ورغب في عقد اجتماع عاجل مع القائد [ارخيلاوس] شخصياً. فتم له ما اراد وجرى الاجتماع على الساحل بالقرب من [دليوم] حيث يقوم معبد ابوللو. وافتتح [ارخيلاوس] باب الحديث وبدأ يدعو [سيللا] الى التخلي عن مطالبته بآسيا وبونطس وان يقلع بسفنه ليخوض حربه في روما، مزوداً من الملك بالمال والسفن وكلما يحتاج اليه. فقاطعه [سيللا] طالباً منه أن يقصد من حرصه على مصلحة [ميثريدات] وان يطلب العرش لنفسه ويغدو حليفاً للرومان بتسليم الاسطول. فأظهر [ارخيلاوس] استنكاره لهذه الخيانة وترفعه عنها. فواصل [سيللاّ] الكلام قائلاً:

- انت يا ارخيلاوس الكيدوكي موطناً، والعبد لملك بربريّ. إن يسركَ هذا النعت يا صديقي، الا تشعر بجريمتك فيما يخل بمقاصد الشرف لموقفك هذا ازاء العروض الكبيرة ومع هذا تجرأ عليّ انا سيللا الجنرال الروماني نتكلمني في موضوع الخيانة؟ كأنك لست عين [ارخيلاوس] الذي ولى الادبار في [خيرونيا] بشرذمة هي كل ما تبقى من مائة وعشرين ألف رجل، ولست ذلك الذي لجأ الى مستنقعات [اورخونيوس] لمدة يومين وخلّف مسالك [بويوسيا] مسدودة بأكداس الجثث.

وعلى أثر ذلك عدّل [ارخيلاوس] من لهجته، وأخذ يرجو منه التخليّ عن فكرة القتال، وعقد صلح مع [ميثريدات]. فوافق سيللاً وتمّ الاتفاق على الشروط. وهي تنصّ على أن يخرج [ميثريدات] عن حيازة آسيا و[بافلاغونيا Paphlagonia]، ويعيد [بيثينيا] الى ملكها [نيقوديمس]، و[كبدوكيا] الى ملكها [اريو بارزان]، وان يدفع للرومان ألفي تالنت، مع تسليمهم سبعين سفينة حربية بكلّ مهماتها. وفي مقابل ذلك يتعهد [سيللاً] بأن يحترم ويؤيد سيادته على سائر ممالكه وان ينزله منزلة الحليف الروماني. وبناء على هذه الشروط ساق سيللاً جيشه الى [الهللسپونت] عبر [تساليا] و[مقدونيا] يصحبه [ارخيلاوس]، فاظهرا له غاية الاكرام والرعاية حتى انه أوقف مسيرة الجيش عند ابتلائه بمرض خطير في [لاريسّا] وتوفر الى العناية به مثل عنايته بقائدٍ من قواده او زميل له في الآمرية. وهذا ما أطلق الألسنة المرتابة تتحدث عن وجود دسيسة ولعبة قذرة في معركة [خيرونيا] ومما عزّز الشكّ ما لوحظ أيضاً أن [سيللاً] أطلق سراح كل أصحاب [ميثريدات] الذين وقعوا في يده أسرى حرب، إلاّ [ارسطيون] الطاغية الذي كان يوجد بينه وبين [ارخيلاوس] عداء، تمّ قتله بالسمّ في السجن؛ كما أنه منح هذا القائد الكبدوكي عشرة آلاف فدان من اراضي [يوبيا] وخلع عليه أيضاً لقب «صديق الرومان وحليفهم». وسيللاً يردّ على كل هذه التهّم ويبررها في مذكراته.

ووصل سفراء [ميثريدات] وأعلنوا قبولهم بالشروط، خلا تمسكهم بفلاغونيا. وامّا عن تسليم السفن فقد قالوا أنهم لم يحاطوا علماً بهذا الاتفاق فصاح سيللا غاضباً:

- «ماذا تقولون؟ ايتمسك [ميثريدات] بفلاغونيا؟ وأما عن السفن أفتراه ينكر الاتفاق؟ كنت أظنه سيلقي بنفسه على قدميّ شاكراً ابقائي على ذراعه اليمنى ليس إلاّ. تلك الذراع التي ارسلت عدداً كبيراً من الرومان الى حتوفهم.

ولكن صبراً فلن يلبث أن يتكلم بلهجة أخرى عندما أندفع الى قلب آسيا. وعندئذ فليجلس مرتاحاً في [برغاموس] ويدير دفة حرب لا يراها قطّ.»

وقف السفراء صامتين وقد شاعت الرهبة في نفوسهم. إلاّ ان [ارخيلاوس] حاول بالرجاء والتوسل تخفيف غضبه وأمسك بيده اليمنى وأخذ يبكي. وفي وسط الاضطراب تمكن من الحصول على أذن بالذهاب الى [ميثريدات] شخصياً. فإما يتمكن من التوسط في عقد سلم يرضى عنه [سيللاً]، وإما يقتل نفسه. وبعد أن رحل قام سيللا بشنّ غارة في [ميديكا Medica] وعاد منها بعد أن طرد سكانها وشردهم في مساحات واسعة. وفي مقدونيا استقبل [ارخيلاوس] بالقرب من [فيليبيّ Philippi] فاعلمه هذا ان كلّ شيء تمّ وفق المرام

وأنّ [ميثريدات] يرغب رغبةً مخلصة في مقابلته. والسبب الرئيس للمقابلة هو [فيمبريا Fimbria] الذي كان يتقدم من [ميثريدات] بجيشه بعد أن قهر قوّاده وفتك بزميله القنصل [فلاكوس] الذي هو من الحزب المعارض. فآثر الملك البربري خوفاً منه، أن ينشد صداقة [سيللا].

وجرت المقابلة في [دردانوس Dardanus]، الواقعة في [طرواد Troad] وكان في معية [ميثريدات] مائتا سفينة ومن القوات البرية عشرون ألف محاربٍ راجل وستة آلاف فارس ورتل كبير من العربات المسلحة. امّا سيللاً فقد جاء للاجتماع باربعة الوية فقط من المشاة ومائتي فارس. وعندما دنا [ميثريدات] ومديده عاجله [سيللا] قائلاً:

هل هو راغب في انهاء الحرب وفق الشروط التي سلّم بها ارخيلاوس أم غير راغب؟ ولما وجد الملك صامتاً لا يردّ، استطرد يقول

- ما خبرك؟ الا ينبغي على الطالب أن يكون البادىء بالكلام؟

وألا يكون من حق المنتصر أن يسمع صامتاً؟

ولما شرع [ميثريدات] بعرض وجهة نظره، راح يلقي بتعبة الحرب على الآلهة من جهة، ويلوم الرومان عنها من جهة أخرى فأعترضه [سيللاً] قائلاً: منذ زمن بعيد نُقل له أن [ميثريدات] متحدث قويّ العارضة وها هو الآن يرى بأم عينه حقيقة ذلك، ويتأكد بنفسه بأنه لا يعدم الحجج الخلابة والمزاعم الظاهرة المنطق في دفاعه عن أبعد القضايا عن العدالة واشدّها بطلاناً، ثم استطرد يندد به تنديداً قاسياً ويقدح فيه قدحاً عنيفاً مذكراً اياه بما أقدم عليه من الاعتداءات وهتكه من الحرمات.

واعاد السؤال عليه مرة أخرى قال: هل هو راغب في المصادقة على المعاهدة التي عقدها [ارخيلاوس] نيابة عنه، أم غير راغب ولما ردّ [ميثريدات] بالايجاب تقدم منه [سيللاً] واحتضنه وعانقه وبعد قليل أقبل الملكان [نيقوديمس] و[آريو بارزان] وتصافيا مع [ميثريدات] الذي أقلع الى [پونطوس] بعد أن سلّم لسيللاً مائتي سفينة، وخمسمائة من رماة القسيّ الثقيلة (القَتَلة).

ادرك [سيللاً] أن الجنود غير راضين عن الصلح. فقد بدأ لهم من الفظاعة المتناهية ان يشهدوا الملك الذي كان ألدّ عدوّ لهم، ومن تسبب في هلاك مائة وخمسين ألف روماني في آسيا خلال يوم واحدٍ، يبحر الآن بأمان حاملاً أموال آسيا وغنائمها التي سلبها منها واخضعها تحت للجزية اربع سنوات. فزعم سيللاً لهم في معرض الدفاع بأنه لم يكن يستطيع التغلّب على

[فيمبريا] الذي كان معسكراً بجيشه في [ثياتيرا Thyatira] فادركه وحزب خيامه حواليها في موضع غير بعيد عنه وراح يحصن معسكره بحفر خندق. فخرج جنود [فيمبريا] لتحية رجال [سيللا] بثيابهم العادية عزلاً، وطفقوا يساعدونهم في عملهم. ولما شهد [فيمبريا] هذا التغيير وفهم أن [سيللاً] لا يقبل اية مصالحة. انقلب الى المعسكر ونحر نفسه.

وفرض [سيللاً] على آسيا ضريبة عامة قدرها عشرون ألف تالنت وجرد الأسر مما تملك كل واحدة على انفراد، بأسلوب تحكمي مستهتر، وبسكن الجنود الطويل عند العائلات. فقد اصدر أمراً يقضي بأن يدفع كل ربّ اسرة مستضيف، مبلغ اربعة [تترا دراخمات] يومياً لضيفه الجنديّ وان يقوم باطعامه واطعام من يدعوه الى منزله من أصدقائه للعشاء، مهما بلغ عددهم. وان «السنتوريون» يجب ان يدفع له خمسين دراخماً يومياً مع بذلة بيت كاملة وبذلة أخرى للخروج.

أنطلق من [إفسّس] بكلّ اسطوله الى [پيريوس] فوصلها في اليوم الثالث وهنا تقبل الأسرار الآلهية. وضبط مكتبة [ابيلليكون Apellicon] التاياني Teian وهي تضمّ معظم مؤلفات ارسطوطاليس وثيوفراستوس التي لم تر بعد طريقها الى التداول بين العموم. وعندما نقلت برّمتها الى روما قيل ان معظمها انتقل الى حيازة [تيرانيون Tyrannion] النحوي وأن [اندرونيكوس] الرودسي الذي أفلح بوسائله الخاصّة في استنساخ عدد كبير من أُصولها جعلها في متناول يد الجميع، ورتّب لها القوائم والكاتالوكات الشائعة الآن ويبدو أنّ المشائين Peripateties الأقدمين كانوا في الواقع اناساً كثيري العلم والإطلاع إلاّ أنهم لم يكونوا على معرفة واسعة او وقوف تام على كتابات [ارسطوطاليس وثيوفراستوس] لأن ثيوفراستوس أوصى بكتبه الى وريث [نيليوس Neleus] السبيي Scepsis، فوقعت بأيدي مهملة جاهلة لاتقدر قيمة العلم.

وفي اثناء اقامة [سيللاً] في ربوع آثينا أصيبت قدماه بآلام شديدة ورثية تذهب بالحسّ، مما يدعو [سترابو Strabo] ببوادر النقرس غير الواضحة. فقام برحلة الى [ايدپسوس Aedep-sus] للانتفاع بينابيعها الحارة، محاولا في الوقت نفسه الابتعاد عن كل عوامل القلق وتناسيها ومنفقاً أوقاته مع الممثلين. وفيما كان يتمشى يوماً على ساحل البحر جاءه بعض الصيادين بسمكة نادرة فسرّ كثيراً بالهدية وعندما علم من سؤالهم بأنهم من أهالي [هالويي Halœœ] قال:

- ماذا؟ اما يزال يوجد أحياءٌ من سكان [هالييء]؟

فبعد انتصاره في [اورخومينوس]، خربّ ثلاث مدن بويوسيّة في ضرام نار ملاحقته العدوّ الهارب. وهي [آنثيدون Anthedon] و[لارمنا Larymna] و[هاليي]. ولم يدر. الصيادون بم يجيبون فرقاً ورعباً، فهش لهم سيللاً وبشّ. وطلب منهم ان لا يخشوا شيئاً وان يذهبوا بسلام فالشفاعة التي جاؤوا بها اليه لم تكن بالقليلة. ويقول الهاليون أن هذا الحادث كان أول ما شجعهم على لم شملهم والعودة الى مدينتهم.

وأجتاز [سيللا] بجيشه [ثساليا] و[مقدونيا] الى ساحل البحر وتهيأ بألفٍ ومائتي سفينة للاقلاع من ديرّ اكيوم Dyrrhachium الى [برنديزيوم]، وعلى مسافة غير بعيدة من هناك تقع أپولونيا وبالقرب منها [نيفيوم Nyphæum] وهي بقعة من الأرض تكسرها الأشجار الخضر والمروج التي تطرزها عدة ينابيع نارية يخرج منها اللهب. والشائع بين الناس انه كان يوجد هنا [ساتير][٣] من تلك التي يصورها المصورون وينحتها النحاتون القي القبض عليه وهو نائم وجيء به الى [سيللاً] فسئل عن طريق عدد من المترجمين عما يكون وبعد معاناة الكثير معه أخرج بالأخير صوتاً غليظاً غير مفهوم صهيل الخيل ويُعار الجدي، فأمر [سيللاً] برفعه عنه وهو فزع متعوذ لدليل الشؤم هذا.

وفي ساعة الرحيل شاع القلق في نفس [سيللاً] لئلا ينفرط عقد الجيش وينحلّ ويتفرق جنوده فرادى بين المدن فور نزوله البرّ الايطالي، ولكنهم تحالفوا فيما بمحض اختيارهم على البقاء الى جانبه جبهة متراصة وأن لا يلحقوا ايّ ضررٍ بايطاليا بصدق رغبةٍ فيهم. ثم لما وجدوه يعاني ضائقة مالية قاموا بجمع تبرعات فيما بينهم من تلقاء أنفسهم على ما قيل، وأكتتب كل واحدٍ منهم بمبلغ من المال حسب طاقته، إلاّ أن [سيللا] لم يقبل تبرعاتهم، وراح يثني ثناء عاطراً على إخلاصهم ويرفع من معنوياتهم ويشجعهم. واستظهر بهم على خمسة عشر قائداً تصدوا له، وقادوا في حربه اربعمائة وخمسين لواءً. على ما ذكر هو نفسه. واسهم تدخل العناية الالهية الواضح في نجاحه الرائع بدور رئيس. اذ بينما كان يضحي قرب [تارنتوم] اولّ ما وطئت قدمه البر الايطالي، ظهر في كبد الضحية صورة تاج من الغار يتدلى منه شريطان. وقيل وصوله [كامپانيا] القريبة من جبل [هفيوس Hephæus] شوهد جديان رشيقان في رائعة النهار وهما يقتلان ويأتيان بكل ما يأتيه رجلان من حركات في ساحة القتال. وتبين انهما مجرد خيال ظلّ. ارتفع عن الأرض تدريجاً وتلاشى في الهواء مثل الاخيلة والصور الموهومة التي تظهر عادة في السحب وترّق وتستدق حتى تغيب تماماً عن

---

(٣) Satyr: آله الغابة. ذو هيئة بشرية وذيل واذني حصان. أو كما يصوره الرومان بأذني جدي وذيله وساقيه وقرنيه المنفردين [م. ت].

البصر. بعد هذه الرؤيا بزمن وجيز وفي موضع ظهورها بالضبط هاجمه [ماريوس الأصغر]، و[ونوربانوس Norbanus] القنصل بجيشين جرارين من دون اصدار أمرٍ بخوض المعركة، وقبل أن يتوفر على تنظيم رجاله بحسب فرقهم. ومع هذا فقد حقق الغلبة عليهم بصولة عنيفة عامة وشجاعة متناهية ولاحق [نوربانوس] حتى حصره ضمن اسوار [كاپوا Capua] بعد ان جندل سبعة آلاف من رجاله. والشائع إن أنتصاره هذا، كان السبب في بقاء الجنود وعدم تفرقهم في المدن، والسرّ في تعلقهم به واستهانتهم بعدوّهم رغم تفوقه عليهم تفوقاً لاحدَّ له.

ويذكر أيضاً: انه لقي عبداً [لپونطيوس Pontius] اثناء وجوده في [سلڤيوم Dilvium] وهو في حالة انجذابٍ آلهي يتنبأ قائلاً أنه جاء اليه بسلطان النصر والسيف من [بللونا] ربّة الحرب. وان لم يستعجل فستلتهم النار بناية [الكاپتول]. وقد حصل هذا فعلاً في اليوم الذي عينه الرجل اي في السادس من شهر [كونتيليس] الذي يسمى [تموز - جولاي] في أيامنا هذه.

وفي هذه [فيدنتيا Fidentia] أيضاً بلغت ثقة [ماركوس لوكوللوس] [وهو أحد قواد سيللاّ] بحماسة جنوده مبلغاً لم ير معه حرجاً من مواجهة خمسين لواءً من جيش العدو وهو لا يملك غير خمسة عشر. إلاّ أن أفتقار كثير من رجاله الى السلاح، أرغمه على تأخير هجومه. وفيما هو يفكر في وضعه هذا مُنتظراً، إذ بريح رخاء تهب نحو قطعاته من المروج القريبة، حاملة اليه مقداراً من الأزهار لتلقيها على رجاله فتهبط مستقرة على خوذهم وتروسهم باشكال منتظمة رائعة. فظهر جنوده في نظر خصومهم بمظهر المتوجين بأكاليل الزهر فزاد الأمر في حماستهم واندفاعهم وخاضوا المعركة وانتصروا واوقعوا بالعدوّ ثمانية آلاف قتيل وأستولوا على معسكرهم. ان [لوكوللوس] هذا، هو أخُ [للوكوللوس] الذي حقق النصر الحاسم فيما بعد - على [ميثريدات و ديكران Tigranes].

تلفت [سيللا] فما وجد الاّ جيوشاً عدوة تفوقه عدداً وعدة، وتتميز بالقوة والبأس. فرأى مخرجه الوحيد باستخدام الحيلة والدهاء. وبدأ بدعوة [سكيپيو] القنصل الآخر الى عقد معاهدة صلح. فقبل هذا اقتراحه مسروا. وأعقب ذلك عدة اجتماعات ومؤتمرات، كان [سيللاّ] يقصد منها التأخير والاطالة بفتح ابواب حجج وتعلات جديدة، بينما انصرف خلالها الى إفساد رجال [سكيپيو] بجنوده أنفسهم ولم يكونوا يقلون عنه خبرة في كل فنون الإغواء. فراحوا يدخلون معسكرات العدوّ ويبادلونه الأحاديث. وبذلك كسبوا جانباً منه بالمال العاجل، وجانباً بالوعد الآجل، وآخرون بمعسول الكلام، وحسن الاقناع.

وهكذا فعندما أقترب [سيللاّ] من معسكر [سكيپير] بألويته العشرين وطفق جنوده

يحيون جنود الآخر. بادر هؤلاء بردّ تحاياهم والخروج من معسكرهم للانضمام اليهم الى ان خلا معسكر [سكيپير] منهم تماماً وبقي هو وحده في [خيمته] ولا ثاني معه. بعد ان استخدم [سيللا] ألويته العشرين طعماً لاصيطاد الألوية الأربعين وضمهم اليه مشي الى المعسكر الخالي بألويته الستين وأحتله.

ونقل عن [كاربو] قوله بهذه المناسبة: «علّي أت أتصدى للثعلب والأسد في صدر [سيللاّ]. والثعلب هو أكثر ما يشغل بالي منه».

وبعد ردح من الزمن تحدّى [ماريوس الأصغر]، [سيللاّ] لمعركة في [سغنا Signa]، وكان يقود خمسة وثمانين لواءً. لم يعرف شوق سيللا حداً في قبول هذا التحدي لتقرير مصير المعركة في ذلك اليوم بالذات. لأنه شاهد في الليلة السابقة له حلماً. رأى فيما يرى النائم [ماريوس الأب] (وكان قد مرّ على وفاته زمنٌ) ينصح ابنه بالحذر من خوض معركة في اليوم التالي لأنها ستكون القاضية عليه. ولهذا السبب كان [سيللاّ] يستعجل القتال في ذلك اليوم، وبعث يستقدم [دولابللاّ Dolabella] الذي كان معسكراً بقواته على بعض مسافة منه. ولكن الإرهاق أستولى على جنود هذا القائد لأنهم كانوا يسيرون ويقاتلون العدوّ الكامن لهم، الذي كان قد أغلق عليهم كل الطرق والمسالك بقواته. ومما زاد في الطين بلّة رداءة الطقس العاصف الماطر. وهو أكثر ما اضرّ بهم. وأقبل أمراء الوحدات وكبار الضباط على [سيللاّ] ورجوا منه تأجيل القتال الى يوم آخر وعرضوا عليه منظر الجنود وهم مستقلون على الأرض من فرط الاعياد مسندين رؤوسهم الى تروسهم ليصيبوا بعض راحة فنزل عند رأيهم بكثير من التردد واصدر الأوامر بضرب الخيام. وما أن باشروا في اقامة المتاريس وتخطيط الخندق حتى شاهدوا [ماريوس] يندفع راكباً في طليعة رجاله يريد أغتنام فرصة اضطراب نظام وانفراط عقدهم، لتشتيت شملهم. وهنا حققت الآلهة حلم [سيللا]. فقد اعترت جنوده سورة من الغضب الشديد وتركوا اشغالهم وغرسوا رماحهم على حدود الخندق وانقضوا سيوفهم والتحموا مع العدوّ وهم يصيحون صيحات الحماسة والشجاعة فلم يقو العدوّ على الصمود وابدى مقاومة ضعيفة وفقد عدداً كبيراً من القتلى اثناء فراره. وهرب [ماريوس] الى [پرينست Præneste]. فوجد الأبواب موصدة فشد الى وسطه حبلاً والقى برأسه من أعلى السور، ورفع به. ويؤكد بعض الكتاب ومنهم [فينستيلاّ Fenestella] ان [ماريوس] لم يكن يعرف شيئاً عن القتال فقد آوى الى ظلٍ ليصب بعض الراحة بعد ارهاقٍ اعتراه جراء قيامه بواجبه الشاق، عندما أعطيت اشارة القتال، وكان النوم في عينه لما بدأت هزيمة رجاله. وعلى رواية [سيللاّ] أنه قتل من العدو عشرين ألفاً، وأخذ ثمانية آلاف أسير في حين لم تزد

خسارته عن ثلاثة وعشرين رجلاً. ولقي قوّاده [پومپي Pompey] و[كراسوس] و[ميتللوس] و[سرفيليوس] نجاحاً مماثلاً. فبخسارة قليلة أو بدونها فتكوا بعدد هائلٍ من العدوّ، حتى ان [كاربو] المروّج الأول للقضية اضطر الى ترك قيادة جيشه وهرب ليلاً ثم أقلع الى [ليبيا].

وبرز له في آخر مرحلة من هذا الصراع [تيليسنيوس Telesinus] السامنيّ Samnite مثل بطل قضت القرعة أن يوضع اسمه في آخر قائمة المبتارين مع البطل الفائز المرهق ولم يبق بينه وبين الإطاحة [بسيللاً] وهَزْمه إلاّ قيد شعرة. وكاد يقضي عليه امام روما نفسها. فبمساعدة زميله في القيادة [لامپونينيوس Lamponinius] اللوقاني تمكن من تحشيد قوات كبيرة واسرع بها الى [پرينيست] لفكّ الحصار عن [ماريوس] إلاّ أن [سيللا] كان قد سبقهما، وجَدّ [پومپي] في مؤخرتهما يريدان الانقضاض عليهما وهما محصوران من امام ومن خلف وكان [تيلينوس] عسكرياً قديراً وجندياً مقداماً. فظلّ يقظا ليلتها وزحف تحت ستار الظلام بكلّ جيشه نحو روما وبلغها والليل داجن فعسكر امامها على بعد عشرة فرلنغات من الباب الكولليني Colline. وقد انعشه نجاحه وافعمه أملاً تفوقه الستراتيجي على أشهر قادة العصر. وفي تباشيرِ الصبح فوجيء بهجمة قام بها شبان المدينة النبلاء فصرع عدداً كبيراً منهم، وبينهم [اپيوس كلوديوس] الذي عرف بسموّ خلقه وطيب محتدة. ومن السهل ان يتصور المرء حالة المدينة من الهرج والمرج، والفزع الذي انتاب النساء خصوصاً فصرن يتراكض هنا وهناك ويصرخن حينما كان العدوّ قد اقتحم المدينة فعلاً. واستمر الاضطراب يعتمل في النفوس حتى شوهد [بالبوس Balbus] ممتطياً حصانه على على رأس سبعمائة من الخيالة بعث بهم [سيللا] وهم ينهبون الأرض نهباً ولايقفون الاّ لمسح العرق من اجساد حيواناتهم ثم يسرحونها ثانية ويستأنفون عدوهم. ولم ينتظروا. اذ ما وصلوا مواقع العدوّ حتى انقضوا عليه. وفي تلك الاثناء بدت طلائع جيش [سيللاً] ودخل الميدان مصدراً امره لمن سبقه بالانسحاب فوراً للراحة والاستجمام. وانشأ ينظم جنوده صفوفاً للمعركة، إلاّ ان قائديه [دبلولابللا] و[طوركواطوس Torquatus] ألحا عليه بالتريث فترة قصيرة، وعدم المخاطرة بقوات متعبة منهوكة في المغامرة بآخر أمل. لأن العدوّ الذي يواجههم ليس [كاربو] ولا [ماريوس] بل هما من الأقوام التي تمرست في فنون القتال، وأضمرت حقداً خالداً للرومان. انهم السامنيون واللوقانيون الذين سيقاتلونهم هذه المرّة.

لم يعمل [سيللاً] بنصيحتها وأمر أن ينفخ نفير الهجوم وكانت الساعة الرابعة عصراً عندما بدأت المعركة الطاحنة. أنيطت [بكراسوّس] قيادة الميمنة فحققت تفوقاً على العدوّ واستظهرت إلاّ ان الميسرة كانت في مأزق. فقد ضيق العدوّ عليها الخناق وصكها صكاً عنيفاً

فخفّ [سيللا] الى نجدتها على صهوة جوادٍ ابيض متين الفصل سريع كالبرق عرفه به اثنان من الأعداء فأشرعا رمحيهما لرشقه وهو غافل عنهما إلاّ أن تابعه الذي كان خلفه وكز جواد وكزة قوية فوثب [بسيللاً] وثبة خرجت به عن منطقة الهدف في الوقت الذي طار الرمحان نحوه فحادا عن قصدهما ومرقا من ذيل حصانه وانعرزا في الأرض ويوجد في هذه المناسبة قصة تروي عن [سيللاً] أنه كان يحمل تعويذة من [دلفي] وهي طغراء ذهبة لصورة ابوللو لا تفارقه في ساحة القتال مطلقاً ويحفظها معلقة في صدره. فبعد أن كتبت له النجاة من هذه الغائلة أخرج التعويذة ولثمها وقال يناجي صاحبها:

- سألتك يا [پوللو بيثيوس] الذي أخذت بيد [كورينليوس سيللا] الى أعلى مراقي المجد والرفعة في معارك كثيرة؛ أيرضيك الآن أن تتخلى عنه؟ ايرضيك أن تأتي به الى ابواب مدينته لإهلاكه هو وابناء وطنه وتقضي فيه قضاءً يحفّ به الخزي والعار؟

هذا ما ناجى به [سيللاً] ربّه على ما قيل. ثم انثنى الى جنوده يهدد فئة ويمسك بتلابيب أخرى. الى ان اضطر الى ولوج المعسكر اثناء التقهقر العام بعد ان مزقّ العدوّ مسيرة شرّ ممزق، وفقد كثيراً من اصحابه واصدقائه، كذلك هلك عدد لا يستهان به من الأهالي الذين خرجوا لمتابعة القتال، ماتوا وطئاً بالأقدام. وادرك اليأس التام سكان المدينة وايقنوا بضياع كل شيء. واعتقدوا بأن الحصار قد رفع عن [پرنيست] او كاد. وشق عدد كبير من الهاربين طريقهم الى [لوكريتيوس اوفللاً Lucretius Ofella] الذي انيط به تشديد الحصار على تلك المدينة، وراحوا يهيبون به أن يتحرك حالاً لأن [سيللاً] قد انتهى، وروما سقطت في يد العدوّ.

وفي حوالي منتصف الليل وفد على معسكر [سيللاً] سعاةٌ من جيش [كراسوس] ليأخذوا ارزاقاً له. وكانوا قد ضربوا خيامهم تحت اسوار [آنتيمنا] بعد أن الحقوا بالعدوّ هزيمة وطاردوه حتى لجأ الى المدينة هارباً. فما سمع [سيللاً] بذلك وتحقق من تدمير الجانب الأكبر من قوات اعدائه حتى خفّ الى [انتمنا] فوصلها فجراً فوجد رسولاً بعث به ثلاثة آلاف من المحصورين يريدون الاستسلام بشروط فوعدهم بمعاملة حسنة إذا اما انتقضوا على رفاقهم الباقين. فوثقوا بعهده وحملوا على المحصورين الآخرين بطريقة غادرة. فجرت مذبحة كبيرة سقط فيها قتلى من الفريقين. ولكن [سيللا] بعد دخوله المدينة جمع الأحياء من الفريقين فبلغوا ستة آلاف ووضعهم في محلٍ واحدٍ، وأوكل بذبحهم رجالاً عينهّم لذلك. وفي الوقت الذي كان [سيللاً] يخطب في اجتماع لمجلس شيوخ المدينة في معبد [بللّونا] بدأت المجزرة وتعالت صرخات هذا الحشد الكبير عندما راح السيف يعمل في رقابهم من الفسحة الضيقة التي حشروا فيها حتى تناهت الى اسماع المجتمعين فأجفلوا لها. ولم يكترث [سيللاً] واستمر في خطابه هادئاً،

طالباً منهم الانتباه ما يقوله وعدم اشغال اذهانهم بما يجري في الخارج، فكلّ ما هناك أنه أصدر تعليمات بخصوص عقاب بعض المجرمين. من هذا العمل أدرك حتى أغبى الرومان بأنهم لم يتخلصوا من الطغيان وانها استبدلوا واحداً بآخر ليس إلاّ. كان [ماريوس] فظّ الطبع غليظ الفؤاد بفطرته وظلّ هكذا ولم يتغيرّ عندما سيطر على زمام الحكم. أما [سيللاّ] فقد ظهر في مبدأ الأمر رجلاً معتدلاً عزوفاً عن استخدام حظه في مجال الطموح، وفتح باب الأمل الباسم للوطنيّ الغيور الحقيقي بحرصه الشديد على مصلحة طبقتي الأشراف والعامة على السواء؛ أضف الى هذا أنه كان مرحاً رقيقاً منذ شبابه. غنيّ العاطفة يسهل تحريك الشفقة في نفسه الى حَدّ استدرار الدمع من عينيه. هذا ما كانه قبل استيلائه على السلطة. ولكنه انقلب عندما استتب له الأمر فوصم المناصب العليا، بوصمة عارٍ ربّما تستحقها. وجعلها تبدو وكأن مهمتها العمل على تجريد الرجال من أخلاقهم السابقه ومسخ شخصياتهم مسخاً بزرع الكبرياء والقسوة والهمجية في أنفسهم. أما كون هذا التغيير انقلاباً خلقياً حقيقياً، وثورة عقلية، أو أنه فساد خلقٍ مستترٍ كشف عن نفسه عند وصول صاحبه الى السلطة، فهذا موضوع بحثٍ لا شأن لنا به الآن.

وهكذا رأينا [سيللاّ] يميل الى الارهاب والفتك بارواح الناس، وملء المدينة بقتول لا تعد ولا تحصى. وراح كثير من الابرياء الذين لا دخل لهم ولا مصلحة، ضحايا العداء الشخصي لا غير، ارضاء لأصدقائه. واستجابة لرغباتهم. وتجرأ الشيخ [كايوس ميتللوس] وهو من أعضاء المجلس الذين لم يتخطوا مرحلة الشباب على سؤاله في أحد الاجتماعات: متى ستنتهي هذه الشرور؟ وما هي الحدود التي ستتوقف عندها؟ واستطرد يقول له:

- نحن لانطلب منك ان تعفو عمن قررت ازهاق روحه. وانما نسألك أن تريح أولئك الذين يسرّك أن تبقي عليهم، من القلق والشك الذي يساورهم.

فأجاب [سيللا]: اني لا أعرف حتى الآن على من سأبقي!

فقال [كايوس]: إذن فسمّ لنا على الأقل، أولئك الذين ستنزل بهم عقابك فوعده [سيللاّ] بذلك.

ويقول بعض الكتاب ان قائل العبارة الأخيرة ليس [كايوس ميتللوس] بل [افيديوس -Afid ius] أحد اصحاب [سيللاّ] المتملقين.

وبعد هذا مباشرة أقدم [سيللاّ] على رفع الحصانة القانونية عن ثمانين شخصاً دون مراجعة اي قاضٍ كما تقضي به أحكام القانون غير ملق بالاً الى السخط والاستنكار العام. ومرّ يوم

بلا حادث وبعده أعلن قائمة بمائتين وعشرين آخرين، وأشفعها في اليوم التالي بعدد مماثل. وفي خطبة له موجهة الى الجمهور قال أنه ادرج في قوائم «رفع الحصانة القانونية» قدر ما وسعت ذاكرته من اسماء. أما من أغفلهم أو غابوا عن باله، فسيعلن عنهم في المستقبل. وبعد هذا أصدر مرسوماً يقضي بعقوبة الموت على كل من يظهر انسانية لأحد المحكومين وبعقوبة النفي على من يخفي أو يأوي أيّ محكوم برفع الحصانة، ولم يستثن فيه الأخ أو الأبن أو الأبوين. وقضى بمنح مكافأة حكومية قدرها تالنتان لكلّ من يقتل أحد المحكومين برفع الحصانة. حتى ولو كان القاتل عبداً وقتيله سيده. او ابنا وقتيله أبوه. وأما الظلم الأنكى الذي انزله [سيللا] فهو فرضه عقوبة مصادرة أموال ابناء المحكومين وابناء ابنائهم وبيع المقتنى في المزاد العلني. وعمم عقوبة «رفع الحصانة» على كل مدن ايطاليا ولم يقصرها على روما وتدفقت الدماء في كل مكان وجرت سيولاً ولم يعد ينفع اللجوء الى هياكل العبادة، أو منازل الأسلاف، أو مواقد المستجار بهم. وكان الرجال يجزرون وهم في احضان زوجاتهم والأطفال ينحرون على صدور امهاتهم. وكان عدد الذين راحوا ضحية غناهم أكثر بكثير ممن راح ضحية العداء الشخصي ومعارضة النظام القائم. حتى جرت على ألسنة القتلة امثال هذه العبارات:

«هذا المنزل الجميل قَتَلَ مالكه!»

«كان هذا البستان السبب في هلاك صاحبه»

«تلك الحمامات الحارة هي التي أودت بوليّها»

هذا [كوينتوس اوريليوس Quintus Aurilius] رجل وديع مسالم في غاية الطيبة، كانت موآساته للمنكوبين وتخفيفه عن آلام المفجوعين في هذه البلوى العامة، كل ما ساهم به، قدم الى [الغوروم] لقراءة قائمة المحكومين برفع الحصانة فوجد اسمه فيها، فهتف قائلاً:

- الويل لي! لقد وشت بي مزرعتي في آلبان Alban. ولم يسر مسافة بعيدة الاّ وادركه وغد من الأوغاد أرسل خصيصاً فقضى عليه.

وفي زخم هذه الأحداث بخع [ماريوس] نفسه لما وجد طرق النجاة مسدودة في وجهه والقبض عليه وشيك. فدخل [سيللا] [پرينيست] وأفتتح أعماله باجراءات قانونية في ملاحقة الاشخاص وما لبث أن وجد ذلك يستغرق منه وقتاً طويلاً. فحشر الجميع في موضع واحدٍ فبلغوا اثني عشر ألفاً، وأصدر أمراً بقتلهم جميعاً إلاّ الرجل الذي استضافه في بيته. وكان هذا شجاعاً جريء القلب واللسان فتحدى [سيللا] بقوله أنه لا يستطيع ان يقبل منّه

العيش من شخص دمّر بلاده. وانصرف عنه وانضم الى الآخرين ودفع بعنقه الى سيف الجلاّد مختاراً. ويعتقد أن العمل الذي ارتكبه [لوشيوس كاتيلينا Lucius Catilina فاق في شناعته كا الأعمال البربرية التي أرتكبت في حينه. فقبل أن تتردى الأوضاع عمد الى قتل أخيه ثم طلب من [سيللاّ] أن يدرج اسمه في قائمة المحكومين «برفع الحصانة» كأنه ما يزال حَياً، ففعل [سيللاّ]، وردّ [كاتيلينا] جميلة بقتله [ماركوس ماريوس] من الحزب المعارض والإتيان برأسه الى [سيللا] اثنان ما كان جالساً في [الفورم]، ثم قصد الى ماء [ابوللو] المقدس القريب فغسل يديه.

هناك أمور عدا سفك الدماء اثارت الاستياء والسخط. منها ان [سيللا] أعلن نفسه دكتاتوراً وهي وظيفة كان الرومان قد تحاشوها طوال مائة وعشرين عاماً. وثم كذلك قانون الاعتراف بالفضل الذي سُنّ لأجله. وعصمه عن اي محاسبة أو مسؤولية سابقة، ومنحه للحاضر والمستقبل سلطة الحياة والموت، والمصادرة وتوزيع الأراضي. وتخريب المدن وأعمارها، ونزع الممالك وأعطائها لمن يشاء. وأشرف في دار القضاء على اجراءات بيع الأموال المصادرة بأسلوب يتسمّ بالظلم والاستهتار، حتى ان انعاماته أثارت من السخط والاشمئزاز اضعاف ما أثار أغتصابه لها. ونال الموسيقيون، والممثلات الكوميديات، وأحط العبيد المحررين هدايا لا تخطر بالبال؛ كأقاليم برّمتها في بلدٍ من البلاد، وجزيات كاملة من المدن. واجبرت الحرائر والعقائل على الزواج من أمثال هؤلاء الأوشاب رغم اتوفهنّ. واراد [سيللاّ] أن يضمن أخلاص [پومپي الأكبر] له برباط القرابة، فطلب منه تسريح زوجه، وفرض عليه الزواج من [إميليا] ثبت [سكاوروس Scaurus] و[ميتللا] زوجه. بعد أن أجبرها على ترك زوجها [فانيوس غلابريو Manius Glabrio]، فدخلت عصمة [پومپي] وهي حامل من مطلقها وتوفيت اثناء الوضع.

وتقدم [لوكريتيوس افللاّ] لمنصب القنصلية مرشحاً. وهو عين القائد الذي تغلّب على [ماريوس] في حصار [پرينيست] فمانع [سيللاّ]، واشار عليه بألاّ يفعل فأصرّ هذا ولم يعمل بقوله. وفي ذات يوم شاهده وهو يدخل الفوروم وحوله جمهور غفير من الأنصار والمؤيدين. فأستدعى [سنتوريوناً] من الضباط الذين كانوا يحيطون به وارسله الى [لوكريتيوس] فالتقاه وقتله وسيللاّ يرقب الحادث من منصته القضاء في معبد [كاستور] العالي. فقبض المواطنون على السنتوريون القاتل وجروه جراً الى مجلس القضاء امام [سيللاّ] فأمرهم بالكف عن الضجة وعدم التعرض [للسنتوريون] لأن نفذ أمراً أصدره هو اليه.

وكان موكب النصر الذي دخل به المدينة آية في الفخامة والرواء. وامتاز بنفاسة الغنائم

الملكية. ولكن أعظم ما فيـه وادعى الى الحمد والثناء مشهد المنفيين عن أوطانهم فقد سار في المؤخرة جمهور من ابرز المواطنين العائدين من المنفى وقد ضفروا رؤوسهم بأكاليل الزهر يهتفون باسم سيللاً المنقذ وسيللاً الأب. الذي كان صاحب الفضل في عودتهم الى بلادهم والتمتع بالعيش مع أولادهم وزوجاتهم. وبعد انتهت المراسيم وازف الوقت لتقديم تقريره عن أعماله توّجه بخطابٍ الى الجمعيّة العمومية فيه اسهب واطنب في سرد فرص الحرب السعيدة الطيبة، قدر ما أسهب وأطنب في تعداد مآثرة وكفاءته العسكرية. درجا الشعب في الختام ان يلقبه [فيلكس Felix: أي ذا النعمة].. وكان يخلع على نفسه لقب [إپافروديتوس Epophrodit-us] في كتاباته الخاصة بالشؤون الاغريقية. وفي انصاب النصر الباقية له الى يومنا هذا يشاهد أسمه على هذه الصورة: [لوشيوس كورينليوس سيللا امپافروديتوس]. وعندما انجبت له زوجه توأمين سميّ الذكر منهما [فاوستوس Faustus] والأنثى [فاوستا Fausta] وهما الكلمتان الرومانيتان اللتان تطلقان على كل ما يبشر بالخير وحسن الحظّ. لقد اودع [سيللاً] أكثر ثقته في جنيّه الطيب الحارس، ولم يودع في قابلياته الاّ القليل من الثقة. وهذا ما دفعه الى التنازل عن سلطاته المطلقة، واعادة حق الإنتخاب القنصلي الى الشعب. وأبى أن يطلب هذا المنصب لنفسه بل عمل أكثر من هذا فقد تخلّى عن مظاهر الأبهة وكشف عن نفسه للجمهور وأخذ يروح ويغدو في [الفوروم] كايّ مواطن بسيط.

وكان [ماركوس ليپيدوس Marcus Lipidus] يطمح الى منصب القنصل ضدّ رغبة [سيللاً]. وهو شخص فيه صفاقة ويضطغن عداءً. ولم يكن في تقدمه للترشيح معتمداً على مزاياه قدر اعتماده على نفوذ [پومپي] ومنزلته ورغبة الجمهور في ارضائه وعلى أثر انتخابه لقي [سيللاً] [پومپي] وهو متوجه الى منزله يكاد يطير فرحاً لفوز مرشحه فاستدناه وقال له:

- ايّ عمل سياسي هذا أقدمت عليه أيها الشاب؟ باغتيالك إسناد [كاتولوس] خير الرجال، وانتصارك [لليپيدوس] أسوأهم! من الآن فصاعداً عليك أن تزداد يقظة وانتباه بعد أن قوّيت خصمك على حساب نفسك.

وعلى ما يبدو كانت غريزة التكهن الصائب في [سيللا] هي التي انطقته. فما مرّ زمن قصير على هذا حتى زاد [ليپيدوس] عتواً واسفر عن عداوته لپومپي واصحابه.

وأوقف [سيللاً] كل ما يملك على الرب [هرقل] وكثرت دعواته للناس الى الولائم الفخمة وكان مفرطاً في تقديم الطعام حتى كان يُلقى في النهر كميات كبيرة من اللحوم المتخلفة عنها. وكان يقدم في مجالس شرابه خمراً معتقة يزيد عمرها عن أربعين عاماً وفي اثناء تلك المادب التي أمتدت أياماً توفيت زوجه [ميتللا] إثر مرض ألمَّ بها. وكان الكاهن قبل هذا قد

حظر عليه عيادة المريضة أو جعل بيته نجساً باقامة مراسيم الحداد فيه فلم ير بُدّاً من استحصال قرار بالطلاق منها وهي حيّة لنقلها الى منزل آخر. هكذا كان [سيللا] شديد الدقة في تطبيق النواهي والمحرمات الدينيّة ورعاً ومخافةً. إلا انه تخطى الحدود التي رسمها في قانون «تحديد نفقات الجناز» الذي استنّه هو، ولم يبخل على زوجه الراحلة باية مصاريف وكذلك تخطى حدود الصرف التي شرعها هو في قانون الاسراف بخصوص الولائم التي اقامها ومجالس الشرف التي أحياها لصحبه المهرجين والصعاليك، على سبيل السلوى والعزاء.

بعد وفاة زوجه بأيام قلائل اقيمت حفلة نزال للمصارعين في الملعب. وكان جلوس النظارة في ذلك العهد مختلطاً بين الجنسين، ولم يجر بعد تخصيص مقاعد خاصة أو مقاصير ممتازة. واتفق أن حضر [سيللاً] وكان جلوسه بالقرب من امرأة بارعة الجمال شريفة الأصل تدعى [ڤاليريا] وهي بنت [ميّسالا Messala]، وأخت [هورتنسيوس] الخطيب، ومطلقة جديدة. مرّت هذه العقيلة من وراء ظهر سيللا فمالت اليه ونتفت بعض خيوط الصوف من ردائه ثم مضت الى مقعدها وجلست فتطلع اليها سيللاً بتساؤل ودهشة فابتدرته قائلة:

- ما ضرك أيها السيّد العظيم لو كنتُ من جملة الراغبين في شيء من بركاتك؟

وظهر على [سيللاً] سرورٌ، ولعبت هذه الحادثة في خياله لعبة لذيذة على ما يبدو. فقد استفسر في الحال عن اسمها ونسبها وحياتها وماضيها، وراحا يتبادلان اللحاظ وهما في مجلسيهما فيلتفت أحدهما الى الآخر لينظر اليه ويبادله الابتسام. وبعدها حصل اللقاء وتمّ الزواج. قد يكون كل هذا عملاً بريئاً خالي القصد من ناحية السيدة. إلاّ ان الزواج نفسه لم يكن زواجاً متكافئاً ولا لائقاً من ناحية [سيللاً] فضلاً عن كون الفتاة ممن لم يشتهرن بالحشمة والفضيلة. فاشتعال قلبه فجأة بنار الحبّ مثل فتى مراهق، بتأثير وجهٍ جميل ونظرة جريئة دليل على أن [سيللاً] قمين بأحط العواطف وأبعدها عن الحياء.

وظلّ بعد زواجه هذا مقيماً على عادته في مجالسة الموسيقيين والممثلات، والراقصات يشاربهم على المتكأت ليل نهار. وكان من أحبّ ندمائه اليه [روسكيوس Roscius] الممثل الهزلي. و[سوريكس Sorex] زعم المسخراتية، و[ميطروبيوس Metrobius] اللاعب، ظلّ متعلقاً بهم حتى بعد تجاوزه سنّ الكهولة. وأدّى هذا الأسلوب من الحياة الى تفاقم داءٍ كان منشأه بسيطاً. فقد بقي فترة طويلة غافلاً عن تقرّح امعائه، الى ان انشق اللحم المتعفنّ وفقس فيه العمل وأخذ يتكاثر بصورة عجيبة بحيث عجزت كثرة من المرضين عن مكافحته رغم عملهم المتواصل ليل نهار فانتشر في ثيابه وفي الحمام ولوث الاواني واللحوم اذ كانت تتوالد وتتدافع باعداد وكميات مذهلة. واضطر الى ملازمة الحمام لتنظيف جسمه وفركه فلم يأت

بنتيجة. اذ كان الداء يتفاقم وتتسع رقعة الإصابة بسرعةٍ ولم يعد يفيد فيه اغتسال وتطّهر.

إن هذا الداء كان سبب موت كثير من المشاهير في الأزمان الغابرة جداً، مثل [اكاستوس Acastus] ابن [پيلياس Pelias] وفي زمن متأخر عنه [الكمان Alcman] الشاعر، [وكاليستينس Callisthenes] الأولينثي Olynthia في فترة سجنه. و[موشيوس] المحامي. و[فيريكيدس Pherecydes] الفقيه وان جاز لنا ذكر اسماء اشتهرت بسوء السمعه والخسة فثمّ الثائر الشريد [يونوس Eunus] الذي حرض عبيد صقلية على الثورة ضدّ اسيادهم ابتلاه الداء بعد ان اقتيد الى روما أسيراً ومات به.

ولم يقتصر [سيللاً] على التكهن بنهايته وانما كتب كما قيل. ففي الكتاب الثاني والعشرين من مذكراته التي ختمها قبل نهايته بيومين كتب أن العّرافين الكلدانيين تنبأوا له بأن حياته المجيدة الحافلة ستختم بتمام الرغد والهناء وخفض العيش وزاد قائلاً انه رأى في الحلم ابنه الذي توفي بعد [ميتللا] بقليل واقفاً على مقربة منه وهو في ثياب الحداد يتوسل به أن يطرح هجوم الحياة جانباً ويلحق به وبأمه ميتلا ليعيش معهما هناك براحةٍ وهناء. مع هذا كله بقي حتى آخر ايامه مهتماً بالشؤون العامة. فقبل موته بعشرة أيام أكمل تسوية الخلافات بين أهالي [دقيارخيا Dicæarchia] ووضع لها قوانين حكم أصلح. وفي اليوم السابق لموته أبلغ ان القاضي [غرانيوس] أرجا دفع بذمته للحكومة توقعاً لموت سيللاً فطلبه في منزله ووضعه بين اتباعه ثم أمر بخنقه. إلاّ انه فقد مقداراً كبيراً من الدم للجهد الذي بذله من صوته، وانفجار الدّمل خارت قواه ولفظ انفاسه الأخيرة بعد ليلة مزعجة جداً وخلف من [متيللا] طفلين. وانجبت ڤاليريا بعد وفاته بنتاً سمتها [پوستوما] على عادة الرومان بتسمية ابنائهم بهذا الاسم حين يولدون بعد وفاة الأب.

وأسرعت جماعات كثيرة الى [ليپيدوس] تؤيده في حرمان جثمان [سيللا] من مراسيم الدفن المعتادة إلاّ ان [پومپي] وان حقد على [سيللا] (لأنه الوحيد الذي لم يذكره المتوفى في وصيته من بين كل اصدقائه) فقد تمكن بالاقناع وبنفوذه وتهديداته من أحباط مساعيهم فنقل الجثمان الى روما ودفن دفنة مشرفة لائقة. وقيل ان سيدات روما تبرعن بكميات كبيرة من التوابل بلغ مقدارها انها نقلت في مائتين وعشر محفات وبقي منها ما كفى لعمل تمثال كبير لسيللاً وتمثال ثان «للكتور» من صنفي الدراصيني واللبان الذكر. واصبح اليوم فهو مُغيم فأرجئت الجنازة حتى الثالثة ظهراً متوقعين هطول المطر. لكن ريحاً قوية هبت على المحرقة مباشرة فأججت اللهب وأحترق الجثمان في فترة مناسبة وما أن بدأت النار تخمد حتى هطل المطر واستمر حتى الليل. وهكذا لازمه حسن خطه الى الأخير وقام له

بالواجب النهائي. وما زال ضريحة الى الآن قائماً في خطته [كامپوس ماريتوس Campus Martius] وعليه نقشت عبارة من قلمه مفادها: «إن ليس هناك صديق من أصدقائه فاقه في عمل الخير، وليس ثم خصم من خصومه فاقه في عمل الشرّ».

أوجه المقارنة بين ليساندر وبسيللا

بعد إكمالنا هذه السيرة. سنقوم الآن بالمقارنة، فنقول باديء ذي بدء أن شهرة هذين الرجلين قامت على كونهما بنيا مجديهما بنفسهما. إلاّ أن ليساندر يمتاز عن قرينه بأنه كان موضع رضا مواطنيه في المجد الذي ناله وقتما كان المنطق والعقل السبيل في اصدار الأحكام. ولم يغتصب منهم شيئاً من الصلاحيات خلافاً لما منحوه، ولم ينتزع بالقوة سلطةً إلاّ أملته قوانين بلاده:

«وفي الصراع السياسيّ قد يصل الى السلطة حتى الأوغاد».

وفي روما حيث كان الشعب قد طحنته الرزايا والحكومة قد تفشت فيها الفوضى والفساد لا عجب أن يرتفع الى السلطة حكام مستبدون متعاقبون. وليس بالغريب ان يتولى [سيللا] الحكم عندما يقوم آل [غلاوشي Glauciæ] وآل [ساترنيني Saturnini] بطرد آل [ميتللي]. ويقتل ابناء القناصل في الاجتماعات العامة ويكون للذهب والفضة القول الفصل في شراء الرجال والسلاح ويتولى السيف والنار اشتراع القوانين الجديدة وقمع المعارضة المشروعة. واني لا الوم اي أحدٍ اذا عمل على الوصول الى السلطة العليا في مثل هذه الظروف، إلاّ اني لا أعدّ وصول رئيس دولة بلغت هذه الدرجة العظيمة من التحلل والفساد، دليلاً على صلاحه واستقامته. و[ليساندر] الذي ولّي اهم القيادات وأخطر شؤون الدولة برضى وتشجيع مدينة ناضجة فاضلة تتمتع باحسن الحكومات. يمكن القول عنه أنه بما يملك من حسن السمعة قد يعدّ خير الرجال واميزهم في خير الجمهوريات وأميزها. فكثيراً ما تراه يعيد السلطة التي منحت له الى المواطنين ليرجعوها اليه مراراً وتكراراً. وهكذا يضمن له تفوق مؤهلاته، المقام الأول في السلطة دائماً. أما [سيللاً] فما أن نصب نفسه قائداً للجيش حتى ظلّ حريصاً على قيادته عشر سنوات متتالية. يخلق من نفسه خلالها، قنصلاً مَرّةً، وبروقنصلاً مرة أخرى، ودكتاتوراً أحياناً إلاّ انه ظلّ على الدوام طاغيةً مستبداً.

صحيح أن [ليساندر] أعتزم على ما قيل - تغيير شكل الحكم، إلاّ انه لجأ الى وسائل أكثر اعتدالاً، وأقرب الى القانون من وسائل [سيللا]. فلم يستخدم قوة السلاح. وانما اتخذ طريق الاقناع ولم يرد باحداث انقلابٍ شامل فوريّ في نظام الدولة وانما حاول اجراء تعديل في تولي الملوك ليس غير. وهو في الواقع تعديل ينطوي على العدل والمنطق، لأنه يشترط فيمن يتولى الملك أهلية وكفاءة خصوصاً في مدينة تقوم بدور القائد في بلاد اليونان. لا بسبب عراقة اصل سكانها بل بسبب فضائلها ومزاياها الخلقية. فالصياد ينشد من الجراء ذكورها لا أناثها، وتاجر الخيل يبحث عن المهر لا المهرة [مالأمر لو ظهر المهر بغلاً؟] وكذلك السياسيّ المتحرز الشديد الدقة يجب عليه عند أختيار رئيس الحكومة أن يتحرىّ لا عن ماهية الرجل بل عن نشأته.

لقد قام السپارطيون أنفسهم بعزل عدة ملوك لافتقادهم فيهم مزايا الملوك، ولأنهم فاسدون لايصلحون للحكم. ولما كان الطبع المفطور على القسوة والغلظة مما يشين المرء ويحطّ من منزلته مهما شرف نسبه، فيجب والحالة هذه أن تكون الفضيلة والخلق الحميد مقياس سموّ الفرد وعلو قدره، لا نسبه وعراقة أصله.

هذا وان [ليساندر] ظلم وعتا ارضاءً لصحبه وانصاره في حين نشر [سيللا] مظالمه بين اصدقائه وصبّها على رؤوسهم ومن المقرر عند الجميع أن [ليساندر] جار على الناس حبّا في اصدقائه وقام بعدة مذابح لتوطيد ملكهم وتثبيت سلطانهم أمّا [سيللا] فإن حسده هو الذي دفعه الى عزل [پومپي] من قيادته للقوات البرية [ودولابللا] من قيادته للقوات البحرية مع انه هو الذي اسند اليهما هاتين القيادتين. كذلك أمر بقتل [لوكريتيوس أوفيللا] الذي رأى أن خدماته الجليلة التي اداها لبلاده تبرر له ترشيح نفسه للمنصب القنصلي. وجرى تنفيذ أمره امام عينيه مثيراً بذلك الرهبة والفزع في الناس جميعاً لهذه القسوة التي ابداها ازاء أعزّ اصدقائه.

أما بخصوص حبّ الغنى والجري وراء الملذات، فإنّا لنجد في [ليساندر] طبعاً رفيعاً ساميا، وفي [سيللاً] افراطاً في اللذة وجشعاً الى المال. ولم يقدم ليساندر على عمل مشين فاجر طوال فترة قيادته التي كانت مطلقة السلطة، حافلة بكلّ الفرص. وظلّ ابعد الناس عن المعنى الوضيع الذي يتضمنه القول التالي:

«هم أسودٌ في وطنهم، وثعالب خارجه».

وتمسك دوماً بالسلوك السپارطي المتزن والمتسم بضبط النفس في حين لـم يستطع [سيللاً] التزام جانب الإعتدال في نزعاته العنيدة فلم يؤثر في خلقه فقرٌ عاناه في شبابه. ولا وقار السّن في شيخوخته، ودأب على سَنّ قوانين تحضّ مواطنيه على العفة والاستقامة والجدّ، بينما كان هو يعيش في حمأة الفسق والفجور كما يؤكد لنا [سالّوست Sallust]. وعلى هذا المنوال أفقر مدينته وأخوى خزائنها من المال حتى لجأت الى بيع امتيازاتٍ وحصاناتٍ لمدن حليفة وصديقة لتسد بذلك حاجتها من النقد وكان في الوقت نفسه يتخير أغنى الأسرِ وأبرزها مقاماً فيصادر مقتناها ويعرضه في المزاد العلني يومياً، ويسرف في إغداق ما غصبه على بطانته من المتملقين والمداهنين بلا حسابٍ وبكلّ استهتار. أي أمل يتبقى للناس ثم؟ أي إحتمال في تبصرٍ أو اقتصادٍ يتوقع منه في ساعات لهوه الخاصة، وعكوفه على الشراب، عندما لا يتورع عن الكبائر علناً وأمام الشعب. فقد اراد مرة اثناء المزايدة على مزرعة كبيرة، ان يحيلها الى أحد اصدقائه بثمن بخسٍ. فقام مزايد آخر ورفع البدل فأعلن القائم على المزايدة رسوّها على المزايد الأخير وهنا ثارت ثائرة [سيللا] وصاح في نوبة من الغضب الشديد:

- ما أعجب هذا الأمر أيها المواطنون! وما أظلمه. أتراني لا استطيع أن اتصرف بغنيمتي كما أريد؟

على أن [ليساندر] كان نقيض هذا. فقد أرسل الى مدينته كل الغنائم المتبقية لتكون ايراداً للخزينة العامة وارفقها بكل الثناء على عمله هذا، فلعله سببٌ لسپارطا بأريحيتّه هذه وتساهله المفرط ضرراً أشد وانكى مما سبب الآخرون لروما باستبدادهم وتنطعهم. وقد اوردت هذا دليلاً على احتقاره الغنى ليس إلاّ.

كان كل من الرجلين ذا تأثير عجيب على بلاده [فسيللاً] المفرط في عبثه ومجونه اراد يعيد حياة الجد والزهد الى مجتمعه. و[ليساندر] الزاهد العفيف ملأ سپارطا بوسائل الترف والبذخ التي يحتقرها. فكانا بهذا جديرين باللوم اولهما لارتفاعه بنفسه فوق قوانينه وثانيهما للتسبب في خفض بني وطنه الى ما تحت مستواه الخلقي، فقد علم سپارطا أن تصبو الى الاشياء التي تعلم هو الاستغناء عنها. وفي هذا الكفاية من القول عن تصرفاتهما في شؤون الحكم المدني.

والبون شاسع بين [سيللاً وليساندر] في ما يعود الى مآثر الحرب والحنكة القيادية، والانتصارات العديدة، والمغامرات الحافلة بالمخاطر. الحق يقال ان [ليساندر] خرج منتصراً في معركتين بحريتين، وسأضيف اليهما حصار آثينا وهو عمل شهرته غطت على صعوبته. ولعل ما جرى في [بويوسيا] و[هاليارتوس] كان نتيجة سوء حظٍ، ولكن عدم انتظاره قوات الملك

التي كانت توشك على الوصول من [پلاطيا]، وتحرقّه الى القتال بدافع الطموح الى المجد ودنوه من الأسوار دنوا لا فائدة منه مما أدّى الى موته بهجوم قامت به فئة قليلة من الرجال، كلّ هذا لم يكن من الحصافة في شيء، ولا من حسن القيادة. لقد اصيب بجرحه المميت، لا كما أصيب [كيلومبروتوس] في [ليوكترا] وهو يقاوم هجوم العدوّ ببسالةٍ في خطّ القتال، ولا كما أصيب [كورش] أو [اپامنداس] في صمودهما في معركة تسير نحو الخسران. أو عند ارساء قاعدة النصر في القتال هؤلاء جميعاً ماتوا ميتة الملوك والقادة. أما هو فقد ضحىّ بحياته في ظرف لم يكسبه مجداً. وبهذا قدم الدليل على حكمة المبدأ السپارطيّ القديم الذي يحذر من الهجوم الجبهي على المدن المحصنة. حيث يكون أشجع الأبطال عرضة للموت بيد رجل لم تعرف عنه شجاعة لا بل بيد صبيّ أو امرأة، مثلما صُرع [آخيل] بيد [پاريس] عند باب الأسوار، على ما نُقل لنا.

ومن الصعب علينا احصاء المعارك التي خرج منها [سيللاً] فائزاً وكم من الألوف جندل. فقد أستولى على روما مرتين مثلما استولى على ميناء [پيريوس] آثينا لا بفعل الجوع كما كانت الحال مع [ليساندر] بل بعد سلسلة متعاقبة من المعارك الطاحنة دفع بها [ارخيلاوس] الى البحر. واهم من هذا كله صفة القادة الذين نازلوهما فثم فرق شاسع وليس ثم مجال للمقايسة. وانا أرى من الأعمال البسيطة الشبيهة بالتمرين الرياضي الحاق الهزيمة [بانطيوخوس] ربُان [الكيبياديس]، أو المكر بـ[فيلوقليس] الزعيم الشعبي الآثيني الذي

«لم يكن فيه شيء ماضٍ إلاّ رأس لسانه القذر».

حتى ان [ميثريدات] استحقر ان يضاهيه بسائس من سائسي خيوله وترفع [ماريوس] عن ان يرفعه الى منزلة [لكتور] من لكتوريه. ولو استعرضنا الملوك والقناصل والقادة وزعماء الجماهير الذين نازلهم [سيللاً] تاركين البقية. فلنا ان نتساءل: مَن مِن الرومان كان أعظم من ماريوس؟ واي ملك كان أقوى من [ميثريدات]؟ ومن الايطاليين كان يفوق [لامپونيوس وتيليسينوس] مراساً في الحروب؟ أولهم اخرجه [سيللا] منفياً من وطنه. وثانيهما خضد شوكته. وأودى بحياة الأخيرين.

وأهم من كل ما سردته، في رأيي أنا، أن [ليساندر] كان مدعماً بنفوذ الدولة في كل ما أقدم عليه. في حين كان [سيللا] طريد حكومته التي حكمت عليه بعقوبة النفي مضطهداً من الحزب السياسي المعارض. طردت زوجه من منزلها وقوّض بيته من أسسه وقتل انصاره وهو في [بويوسيا] يخوض المعارك مع اعداء وطنه وهم بعدد الحصى، معرضاً نفسه للمهالك في سبيل بلاده، حتى وفق الى اقامة انصاب النصر. لم يظهر منه خلال ذلك كله اي نوع من

التخاذل والمصانعة. حتى عندما تقدم اليه [ميثريدات] بعروض التحالف، والمساعدة على أعدائه، لم تأخذه به رأفة، ولم ينزل الى مخاطبته أو مصافحته، قبل أن يخرج من فم الملك وعدٌ بتنازله عن آسيا وتسليم الاسطول واعادة [كپدوكيا] و[بثينيا] الى ملكيهما. لم يقم [سيللا] بعمل آخر بضاهيه في النُبل والجرأة، ففيه قدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة. وضرب مثلاً نادراً في الايثار وانكار الذات. وكان مثل كلب الصيد الأصيل ما ان ينشب في خصمه حتى يتعذر أن يُفلت منه الى أن يستكين له. فبعد أن أستتب له النصر تحولَ الى خصوم الدار ليروي منهم غلّه ويسوّى خلافاته الشخصية معهم.

وقد يجوز ان تتأثر مقارنتنا هذه بأسلوب معاملتهما لآثينا. فعندما أستولى [سيللا] عليها لم يتردد في اعادة حريتها اليها. ومنحها حق ممارسة شرائعها الخاصة بلا قيد مع انها كانت تعضد سلطان [ميثريدات] وتقف الى جانبه في الحرب. اما [ليساندر] فكان على نقيض ذلك. لم يبد منه اي عطف عليها عندما هوت من حالق عظمتها وسموّ مكانتها. وانما قضى على نظام حكمها الديمقراطي. وفرض عليها حكم أقسى الطغاة وأشدّهم استبداداً.

وينبغي علينا الآن ان نفكر هل نحن نبتعد عن الحقيقة ونجانب الصواب في حكمنا على [سيللاً] بأنه كان الاروع مآثرَ من ليساندر وان ليساندر كان الأقل اخطاءً؟ هل نخطيء ان قدّمنا [ليساندر] على قرينه في الاعتدال وضبط النفس. وفوّقنا [سيللاً] عليه في حسن الادارة والجرأة؟


كيمون
CIMON
510 _ 450

أتى [پيريپولتاس Peripoltas] النبيّ، [باوفلتاس الملك Opheltas] ومن هم تحت قيادته، الى [بويوسيا] من ثساليا وهنا ترك أسرة سكن معظم افرادها مدينة [خيرونيا] وكانت الى المدن التي طرد منها البرابرة. وظلت هذه العشيرة تترعرع مدة طويلة وأنجبت صناديد وابطالاً عرضوا أنفسهم للأهوال في وجه الغزو الميديّ. وركبوا متن الاخطار في حروب الغاليين حتى انقرضت عشيرتهم او كادت.

بقي من هذا البيت يتيم اسمه [دامون] ويلقب [پيريپولتاس] فاق كل لداية بجمال صورته وحميّته. إلاّ انه أمتاز بفظاظة الطبع وباستقلال في النفس. وعندما بلغ الفتى مبلغ الرجال، أغرم به ضابط روماني غراماً شديداً ،أخذ يلاحقه بالهدايا والرجاء، والضراعة فلم تفد معه، فعيل صبره وظهر منه ما يدل على اعتزامه قضاء وطره منه بالاكراه. وكان أهل خيرونيا وقتذاك في أشد حالات البؤس والإهمال لقلة عددهم وإملاقهم. وكان [دامون] يدرك ذلك ويرى نفسه موضع أذى واهانة فعزم على الانتصاف لنفسه بيده. فأتمر بالضابط هو وستة عشر من رفاقه وعمدوا في أحدى الليالي الى تلويث أوجههم بالسخام ستراً لأشخاصهم وشربوا حتى لعبت الخمر برؤوسهم وأشعلت النار في نفوسهم وانقضوا على الضابط قبيل انبلاج الصبح فذبحوه هو وعدد ممن كان معه اثناء تقديمه القرابين في الساحة العامة. وفروا من المدينة هاربين. فاستبد القلق بأهلها وأجتمع مجلس شوراها حالاً ونطق بحكم الموت على [دامون] وشركائه في الجريمة يريدون بذلك تبرئة المدينة من التبعة أمام الرومان. فما كان من [دامون] ورفاقه الاّ وأقتحموا القاعة التي أعتاد اعضاء مجلس الشورى الاجتماع فيها كافة لتناول العشاء وقتلوهم ثم خرجوا من المدينة. وأتفق على أثر هذا أن [لوشيوس لوكوللوس] كان ماراً بالمدينة في حملة عسكرية فعرج عليها عندما انهي اليه الحادث للقيام بالتحقيق، وتبين بعد الاستفسار والسؤال أن المدينة لا دخل لها في القتل، فخرج بجنوده منها منسحباً. إلاّ ان [دامون] راح يدوّخ الأنحاء المجاورة بغاراته، فأخذ الخيرونيون يستميلونه بالرسائل والوعود الطيبة ويرغبونه في العودة الى المدينة ففعل وأسندوا اليه منصب [رئيس الجمناز -Gymna siarch] إلاّ انهم باغتوه يوماً وهو يدلك جسمه بالزيت في بخار الحمام فقتلوه. وشاهد الناس

رُوى وأحلاماً كثيرة وسمعت تنهدات في ذلم الموضع مدة طويلة من الزمن بصورة مستمرة، حسبما نقل لنا عن السلف. فبنيت ابواب الحمامات وسدّت. ويزعم الناس الساكنون على مقربة من الموضع انهم يرون بين آن وآخر آطيافاً ويسمعون أصواتاً مفزعة الى يومنا هذا. وان ذرية [دامون] الباقية ومعظمها في [فوكيس] قرب بلدة [ستيريس Stires] ، غلب عليها لقب [اسبولوميني Asbolomeni] ومعناها باللهجة الايتولية: «الذين لوثوا أنفسهم بالسخام] لأن [دامون] لوث وجهه بالسخام عندما أقدم على جنايته.

على أن خصومة نشبت بين أهالي [خيرونيا] و[اورخومنيوس] جيرانهم. فاستأجر هؤلاء الأخيرون مُخبراً رومانياً لاقامة الدعوى على كل سكان [خيرونيا] بالتضامن وكأنهم شخصٌ واحدٌ بتهمة قتلهم الرومان في حين كان [دامو] ورفاقه المجرمين. ورفعت القضية امام «بريتور مقدونيا » لأن الرومان لم يكونوا قد عينوا حينذاك حكاماً للبلاد اليونانية.

وطلب محامو أهل المدينة سماع شهادة [لوكوللوس]. اثناء النظر في القضية. فكتب البريتور يستوضح منه معلوماته فبعث له رداً تضمّن الحقائق كما هي وعلى هذا الأساس صدر قرار ببراءة المدينة من دم الرومان، ونجوا من داهية مهلكة. فاقاموا تيمناً بنجاتهم تمثالاً [للوكولوس] في الساحة العامة، نصب الى جوار تمثال الرب [باخوس].

ونحن خيرونيي هذا العصر ما زلنا نشعر بالامتنان لذلك الجميل وإن مر على الحادث أجيال عدة وكاد يسقط من تاريخ الأحداث ويغيب في زحمتها. أننا نرى بأن واجب الإقرار بالجميل قد انتقل الينا نحن ابناء هذا الجيل، وبما أننا نعتقد ان صورة الخلق والأدب يرسمها قلم الكاتب هي خير وأبقى من نحت وجه المعنيّ به واعضاء جسمه، وأعظم تشريفاً له، فنرى لزاماً علينا ان نضع سيرة [لوكوللوس] في مصاف سير عظماء الرجال وعلى المستوى الذي تخيرناه له. وسيجرى تدوين مآثره وأعماله بامانة والتزام بالحقيقة. وتخليد سيرته على هذه الصورة هو بحدّ ذاته دليل كاف علن شعورنا بالامتنان له. ولن يشكرنا هو إن عمدنا الى الاساءة لذكراه بتزوير اخباره وايراد الزائف منها على سبيل مكافأته لخدمة قدمها لنا، هي شهادته بالحقّ الصراح! فنحن نريد من الرسام الذي يقوم برسم وجه جميل فيه عيب: لا أن يتغاضى تماماً عن العيب ويتحاشى رسمه، ولا أن يتعمد ابرازه. لأن الأسلوب الأول لا يعطي شبهاً صادقاً للمرسوم، ولأن الثاني سيشوه الصورة نفسها. هكذا مادام يشق بل يتعذر أن يعرض أحدنا حياة شخصٍ ما عرضاً منزهاً عن كل ما يشينه. فعلينا أن نلتزم جانب الحقيقة في كل ما هو طيّب رفيعُ ونضع المسألة امام العين كما هي. وقد يجوز لنا أن نعدّ كل تغيير في عاطفة بشرية أو عمل سياسيّ، أو هفوة من هفواتهما، قصوراً في فضيلة معنية. لا أثراً

طبيعياً في آثار الرذيلة. فلا نحاول والحالة هذه حشرها حشراً واقحامها اقحاماً في قصتنا، فضولاً منا. وهي بعد متأتية من ضعف الطبيعة، التي لم تفلح قط في خلق انسان كامل الفضائل معصوم من النقد. وكلما فكرتُ في صنو [للوكوللوس] أضعه في مجال المقارنة وجدت [كيمون] الشخصيةَ الوحيدة التي تقف في مستواه بالضبط. فكلاهما كان جريئاً مقداماً في ساحة الوغى، موفقاً في حروبه مع البرابرة. وكلاهما امتاز باللطف واللين في حياته السياسية، ولم يمنح أحد غيرهما لبلده ما منحا من استقرار ونعمة بال بعد عهد طويل من الاضطراب السياسيّ. ولم يفقهما أحد في كثرة الانصاب التي اقاماها تخليداً للانتصارات التي نالاها في الخارج لبلديهما. وليس بين الأغريق والرومان من حمل لواء الحرب الى مراسح بعيدة كما فعلا، بعد استثناء أعمال [باخوس] و[هرقل]، وأي مغامرة من مغامرات [پيريوس] ضدّ الأحباش، والميديين والأرمن. ومما انحدر الينا من مآثر [جاسون] مما يستأهل التدوين.

وكانا سواءً في تركهما أعمالهما التي اضطلعا بها غير كاملة. فقد أوصلا أعداءهما الى شفا الخراب غير انهما لم يقضيا عليهم القضاء المبرم. وهنالك شبه اجماع أيضاً على سماحتهما وكرم ضيافتهما المتناهي وأسرافهما العظيم في الاحتفاء بالضيف وميوعة في خلقهما اشبه بميوعة الشباب وطيشه. اما أوجه الشبه الأخرى التي لم نقو على ملاحظتها فيمكن استقراؤها من الوقائع التي سنسردها.

و[كيمون] هو ابن [ميلتيادیس] و[هيگسپيله Hegesipyle] التراقية بالولادة، بنت [اولوروس Olorus] الملك. كما يتبين ذلك من قصيدة [ميلانثيوس Melanthius] و[ارخيلاوس] في مديح [كيمون]. وعلى هذا الأساس يكون [ثوكيديدس] المؤرخ قريباً له من جهة الرحم. واسم ابيه [اولوروس] انما هو أحياء لذكر السلف الواحد من القرابتين. وقد أشتهر بامتلاكه مناجم الذهب في [ثراقيا]. وقتل كما يقولون في [سكابته هيله Scapte Hyle] وهو من أقاليم [ثراقيا] ونقلت رفاته الى آتيكا فيما بعد. ويشار الى ضريح له على ما يزعمون بين قبور اسرة [كيمون] مجاور لقبر ألپنيس Elpinice أخت [كيمون]. إلاّ أن [ثوكيديدس] كان من سكنة مدينة [هاليموس Halimus]، و[ميليتادس] وأسرته من [الأگيادي]، حكم على [ميلتيادس] هذا بغرامة للدولة قدرها خمسون تالنتاً فعجز عن دفعها فأودع السجن ولم يخرج منه إلاّ ميّتاً وخلف [كيمون] حدثاً يتيماً مع أخته [الپينيس] وكانت مثله صغيرة السن عزباء. لم تكن نظرة الناس الى [كيمون] في مبدأ الأمر نظرةً حسنة. فقد رأوه أهوج منقلب الأهواء مولعاً بالشراب، اقرب الشبه باخلاق جدّه المدعو

[كيمون] أيضاً، إلاّ انه كان يلقب [كواليموس Coalemus] لسذاجته، والمؤرخ [ستسبمروتوس] الشاسوسي Thasos الذي عاش في عصر [كيمون] يذكر انه كان قليل الوقوف على الموسيقى، زهيد الاطلاع في الدراسات الفكرية الحرة، والفنون الشائعة بين الأغريق في تلك الحقبة من الزمن ولم يكن على شيء من طلاقة اللسان، وسرعة الكلام الذي امتاز به مواطنوه الآتيكيون. على انه كان نبيل الخلق صريحاً للغاية، مزاجه أقرب الى المواطن البيلوبونيسي منه الى المواطن الآثيني، أو كما وصف [يوربيدس] هرقل بقوله:

«فظّ غليظ، لكنه قمين بجلائل الأعمال».

ومن الإنصاف ان نضيف الى هذا، المزايا التي ذكرها [ستسبمروتوس] له.

واتهموه بمعاشرة أخته [الپينيس] في شبابه، وهي على كل حال لم تكن نقية السمعة قبل ذلك، وانما اشبع عن صلة لها مع [پوليغنوتس Polugnotns] الرسام. وقيل انه أتخذها نموذجاً لصورة [لاوديكه Laodice] في رسم «النساء الطرواديات» الذي رسمه على رواق [پلسياناكيتوم Plesianactium] المعروف اليوم باسم [بوكيله Poecile] ولم يكن [پوليغنوتس] من أولئك الفنانين الاعتياديين. فهو لا يأخذ عن أعماله أجراً، وانما قام برسم الرواق اشباعاً لهوايته ورغبة في ارضاء الآثينيين وهو ما أكده المؤرخون واورده الشاعر [ميلانثيوس] بقوله:

«رسمت يده في معابدنا وبلادنا وقائع الأبطال الجليلة، دون أن يستوفي أجراً».

ويصرّ بعض المؤرخين على أن معاشرة [الپينيس] لأخيها كانت أشبه بمعاشرة زوجية، ولم تكن سرية، فقد حال فقرها دون زواج مناسب لها. ألاّ أن [كالياس] هام بحبها وكان من أغنى أغنياء الآثينيين - فأبدى استعداده لدفع الغرامة التي حكم بها الأب ان وافقت [الپينيس] على قبوله بعلاً، فزوجها [كيمون] به.

ولا شك في ان [كيمون] كان مولعاً بالنساء، فقد عَرض [ميلانثيوس] بهذا الطبع في مرثياته وعاب عليه غرامه [بأستريا Asteria] وعلاقته بالتي تدعى [منيسترا Mnestra] أما عن حبه العجيب الخارق لزوجه [ايزيوديكه Isiodice] بنت [يوريپطليموس Euryptole-mus] ابن [ميغاكليس] فلا يجادل فيه أحدٌ أو يماري، يدل عليه حزنه الشديد لموتها الذين بلغ به حَدّ الخبال ان صدقت المرثيات والتعازي التي وجهت اليه عندما فقدها. ويرى [پانيتيوس Panætius] الفيلسوف ان كاتب هذه المراثي هو عالم الطبيعة [ارخيلاوس] والواقع أن الزمن يعزز رأي هذا الفيلسوف.

كان خلق [كيمون] فيما عدا ذلك نبيلاً، طيباً من كل النواحي. فهو في مستوى بسالة [ميليتادس]؛ وليس دون [تمستوكلس] في اصابة الرأي ورجاحة العقل، ألاّ انه يفوقهما نزاهة وعدلاً بما لا يقاس. ويساويهما تماماً في المؤهلات العسكرية امّا في وجائب المواطن العادي تجاه مجتمعه فقد سما عليهما كثيراً. وأعجب ما فيه أنه بلغ هذه المزايا وهو بعد شاب يافع لم تعمل التجارب عملها في حياته. فعندما أشار [تمستوكلس] على الآثينيين أيام الغزو الميدي بالجلاء عن المدينة والبلاد وحمل أسلحتهم وركوب السفن لقتال العدوّ بحراً في مضايق [سلاميس] وعندما جمد الناس ذهولاً من قطعية هذا الرأي وقسوته، شوهد [كيمون] أول رجل يمرّ [بالكيراميكوس Ceramicus] هاشاً باشاً على رأس لفيف من أصحابه متجهاً الى القلعة وهو يحمل سرج حصانه بيده لتقديمه الى الربة، والقصد هو أن الحاجة انتفت من الخيالة، والضرورة تدعو الى الاعتماد على البحرية.

وبعد أن تلا صلاته وقدم السرج أنزل درعاً من الدروع البحرية المعلقة هناك على جدران المعبد وساربه نحو الميناء. فاشاع عمله هذا الثقة بين كثير من المواطنين. وعلى ما ذكره [أيون] الشاعر انه كان وسيماً متناسق الأعضاء، فارع الطول ضخماً، لا يحلق شعر رأسه الغزير الجعد، وعاد من معركة [سلاميس] بعد بلاءٍ حسن ليشتهر أمره بين الآثينيين. فقد أخذوا ينظرون اليه نظرة ودّ واعزاز، وكسب انصاراً كثيرين لازموا جانبه وساروا في ركابه يحثونه على أطلاب المجد في معارك لاتقل شهرة عن معركة مراثون التي كان ابوه بطلها. ورحب به الجمهور مسرورين عند بروزه الى الحياة السياسية مللاً من تمستوكليس؛ فدفعوا به الى ارفع مناصب الحكم نكاية به، ومعارضته له فضلاً عن صراحة [كيمون] ولطف طبعه. وكان [اريستيدس] صاحب الفضل الأكبر في تقدمه. فقد كان أول من أكتشف فيه المؤهلات والقابليات. فأخذ بيده عن قصدٍ ليجعل منه نداً لتمستوكليس يقارع به مكره وجرأته.

بعد أن تم إجلاء الميدين عن بلاد اليونان، عين [كيمون] قائداً لأسطولهم، ولم يكن الآثينيون قد حققوا بعد سيادتهم البحرية، وانما كانوا مسلمين بقيادة [پاوسانياس] واللقيديميين. وبرز الآثينيون تحت قيادة [كيمون] ووصلوا الى درجة عالية من الكفاءة في أميتازهم على سائر اساطيل الحلفاء بالنظام والطاعة، وفي خفتهم وحماستهم لاداء ما يناط بهم من مهام. ثم ما لبث ان علم الحلفاء بوجود اتصالات سرية بين [پاوسانياس] والبرابرة وتبادله الرسائل مع ملك الفرس ضدّ مصلحة اليونان. اضف الى ذلك أنهم ضاقوا ذرعاً بخيلائه وغطرسته وسوء استعمال سلطاته الواسعة بعد النجاح الذي اصابه. وكثرة المظالم الشنعاء التي أتاها. ولم يدع [كيمون] هذه الفرصة تفلت من يده، فحرص دائماً على أن يقف

موقف المواساة والعطف من المظلومين.

فلم يدر [پاوسانياس] إلاّ وقد انتزعت من يده قيادة الأغريق العامة باستظهار شخصية [كيمون] ولباقته لا بقوة السلاح. ولم تعد أغلبية الحلفاء تطيق صلافة [پاوسانياس] وغلاظته، فثاروا على قيادته وسلموا زمامها [لكيمون واريستيدس] فقبلاها وكتبا الى [الايفور] في سپارطا يطلبون منهم استقدام رجلٍ يلحق وجوده أكبر العار ببلادهم، ويخل بسمعتها، فضلاً عما يسببه من متاعب لسائر بلاد الأغريق ورويا لهم قصة أغوائه سيدة صغيرة السن من اسرة نبيلة اثناء وجوده في [بيزنطة] تدعي [كليونيس Cleonice] واصراره على الزنا بها. وكيف أن ابويها اضطراً الى التسليم بالأمر الواقع خوفاً من قسوته مخلياً بينه وبينها. وفي الليلة التي قرر أن يقضي منها لبانته طلبت من الخدم خارج المخدع اطفاء كل الأنوار حياءً وتقدمت من فراشه في الظلام بسكون الاّ انها عثرت بمصابيح فقلبته فأيقظ الصوت [پاوسانياس] الذي كان النعاس قد غشيه. مجفلاً وهو يظنّ أن قاتلاً تسلل اليه تحت جنح الظلام يسعى للفتك به، فأسرع الى خنجر تحت يده وطعن به الفتاة فسقطت ميتة في الحال.

روي أن [پاوسانياس] لم يعرف طعماً للراحة بعد هذه الفاجعة وان خيال الضحيّة ظل يلاحقه، وزاره شبحها في نومه ووجه اليه هذه الكلمات الغاضبة:

«سر في طريقك الى شرّ نهاية تنتظرك، فتلك هي عاقبة شهوتك وظلمك».

كانت هذه الحادثة واحدة من أهم أسباب انتقاض الحلفاء على قيادته فتجمع حقدهم عليه، وتألبت قواتهم معه بحلف وتفاهم مع [كيمون] وحاصروه في [بيزنطة] فأفلت منهم. الاّ أن شبح الفتاة ما أنفك يطارده ويقضّ عليه مضجعه. فلم ير الاّ أن يحجّ الى هيكل الموتى في [هيراكليا] وهناك دعا لإستحضار شبح [كليونيس] راجياً منه الصفح والصفاء فخرج اليه واجابه انه سيتخلص من كلّ يعانيه حال وصوله الى سپارطا. ويبدو أن في هذا القول نبوءة غامضة عن قرب موته. وهذه الحادثة رواها كتاب عديدون.

وقوي مركز [كيمون] بنجاح الحلفاء في طرد [پاوسانياس] ورحل الى [تراقيا] بمنصب جنرال. اذ وردت انباء عن قيام لفيف من عظماء الفرس اقرباء الملك ببثّ الفساد وزرع الفتن بين الأغريق المجاورين لمدينة [آيون Eion] الواقعة على نهر [ستريمون Strymon] التي كانت بيد هؤلاء. فأنقض عليهم وهزمهم في معركةٍ فهربوا الى المدينة محتمين بأسوارها فألقى الحصار عليهم. ثم حمل على التراقيين الساكنين وراء نهر [ستريمون] لأنهم كانوا يزودون

[آيون] بالارزاق. واجلاهم بالسيف عن البلاد كافة بعد أحتلالها، فساءت حال المدينة المحصورة واضرّ بها الجوع وادرك قائدها [بوطيس Butes] اليأس فعمد الى اشعال نار في المدينة أحرق فيها نفسه ومقتناه وأهله. فدخلها [كيمون] ولم تقع في يده غنائم كثيرة لأن البرابرة لم يدعوا شيئاً ذا جدوى إلاّ أحرقوه مع أنفسهم. وارتاى أن يدع البلاد المفتوحة للآثينيين فكان هذا العمل أفضل تدبير وفيه أعظم فائدة له. فقد أكرمه القوم لقاء ذلك بأن سمحوا له أن يقيم «انصاب حرب: Mercuries» ففعل ونقش على أولها الأبيات التالية:

«هناك - حيث يجري نهر [ستريمون] تحت [آيون]
تمكن ذوو النفوس الجريئة الصابرة، وأخيراً -
من الحاق الهزيمة بصبيان الميديين.
بفعل الجوع وحدّ السيف. وأشدّ الضيق»

ونقش على النصب الثاني هذه الأبيات:

«منح الآثينيون قوادهم هذا التكريم الذي
استحقوه لقاء خدماتهم الجليلة النافعة
ومن هذا التكريم والثناء سيتعلم الآخرون
التفاني والأخلاص في قضايا أوطانهم»

وعلى الثالث حفر النقش التالي:

«في الزمان القديم، أرسلت هذه المدينة
الى سواحل طروادة - [مينيسثيوس] المتأله
بصحبة ابناء [ارتيوس Artius] وهو بشهادة
قصائد [هوميروس] أقدر من صَفّ الجيوش للقتال
بين سائر الأغريق: كذا كانت شهرة ابنائها
واسماؤهم عاليةً بين قادة الميدان وابطاله منذ قديم الزمان»

ومع أن اسم [كيمون] لم ينقش على هذه الانصاب إلاّ أن معاصريه يعدون هذا التكريم أعلى ما أسبغ على قائد لم ينل شبيهاً له لا تمستوكلس ولا ميلتيادیس. وهذا الأخير عندما طلب تاجاً من الزهر وقف[سوخارص Sochares] من [ديكيليا Decelea] في الجمعية

العامة يعارض الطلب بعبارات غير لائقة إلاّ انها قوبلت باستحسان وتشجيع. ومما قاله [ملتيادیس]:

- عندما تفوز أنت وحدك بنصرٍ فلك يا ميللتيادیس أن تطلب لنفسك تكريماً مثل هذا. اما الآن فلا.

اذن ما الذي جعلهم يخصون [كيمون] بهذا الشرف؟

ألانهم كانوا قبل ذلك في موقف المدافع دوماً تحت قيادة من سبقه. في حين لك يكتفوا بالهجوم على أعدائهم تحت زعامته وانما اغاروا عليهم في عقر دارهم وأنتزعوا منهم مدينتي [آيون] و[امفيپوليس Amphipolis] واستعمروهما بجاليات آثينيية. مثلما فعلوا أيضاً بجزيرة [سكيروس Scyros] التي أستولى عليها [كيمون] بالصورة الآتية:

أهمل الدولوپيّون Dolopias سكان هذه الجزيرة، الزراعة والفلاحة وانصرفوا الى القرصنة، وزاولوها عدة أجيال حتى بلغ بهم الأمر الى سلب الأجانب الذين كانوا يأتون ببضائعهم الى موانيهم. وذات مرة سطوا على بعض التجار الثساليين الذين نزلوا ساحلهم بالقرب من بلدة [كطيسيوم Ctesium]. وبعد ان سلبوهم أموالهم قبضوا عليهم وزجوهم في الحبس. وبعد فترة تمكن هؤلاء من الفرار وراجعوا مجلس القضاء «الامفكتيوني» في بلادهم واستحصلوا منه على قرار ضدّ الكيرونيين يقضي بدفعهم تعويضاً لهم من الأموال العامة. فأبى الأهالي تنفيذ الحكم وطلبوا من الجناة المسؤولين اعادة ما نهبوه الى اصحابه. ففزع هؤلاء الى [كيمون] وأرسلوا اليه رسائل يطلبون منه انجادهم باسطوله معلنين استعدادهم لتسليم المدينة اليه دون قتال، وبهذه الوسيلة وضع [كيمون] يده عليها وطرد قراصنه دلوپيا. وفتح طرق التجارة في البحر الايجي بعد أن ظلت مقطوعة زمناً طويلاً. وهناك علم ان [ثيسيوس] ابن [ايجيوس] كان قد لجأ الى تلك المدينة عند خروجه من اثينا. وقد أغتاله فيها [ليتوميدس] ملكها لخشيته منه. فباشر [كيمون] يسأل عن موضع قبره لأن العرافة كانت قد أمرت الآثينيين بنقل رفاته الى الوطن. وتكريمها بما يليق ببطولاته. الاّ ان مثواه كان مجهولاً، لأن أهالي [سكيروس] تعمدوا طمس معالمه ومسح أخباره من الذاكرة، كرها منهم أن يجرى أي بحث عنه. غير أن [كيمون] أمر بأجراء تحقيق واسعٍ جداً. وكشف بعد صعابٍ كثيرة عن القبر وحمل عظام البطل الى آثينا ببارجته الخاصة. فأستقبلت بحفاوة وابهة لا مثيل لهما بعد اربعمائة سنة أو حواليها من نفي صاحبها. ورفع هذا العمل من منزلة [كيمون] عند الشعب كثيراً. ومن دلائلها الحكم الشهير الذي صدر بخصوص الشعراء التراجيديين: كان [سوفوكليس] يومذاك شاباً في مقتبل العمر لم يمر على تقديمه أولى مسرحياته زمن طويل

وفي الملعب أختلف الرآي بشأنه وأشتدّ تحمسّ المتفرجين وهم بين مشايع ومخالف. وأبى [آپسيفيون Apsefion] الأرخون وقتذاك، أن تجرى القرعة لاختيار المحكمين عندما بلغ الخلاف حَدّ التأزم وأقتضى اتخاذ قرار حاسم. وفي تلك الاثناء دخل [كيمون] وزملاؤه الضباط الملعب قادمين بعد اداء الفريضة المعتادة لآله الاحتفال. فحال بين المحكمين والانسحاب وأمرهم ان يبرزوا للناس لأداء اليمين وكانوا عشرة، كل واحد منهم يمثل قبيلةً. ففعلوا وأنقلبوا اقضاة محلفين وبعدها أمرهم أن يجلسوا لاصدار حكم. وأشتدت الرغبة في الفوز، لما يتمتع به الحكام من مقام رفيع ولما في قرارهم من تكريم للفائز، أخيراً أعلن فوز [سوفوكليس] بالاسبقية. وقيل ان فوزه حزّ في نفس [اسخيلوس] كثيراً حتى أنه كره البقاء في آثينا وغادرها الى [صقلية] كليم القلب ساخطاً. وفيها توفي ودفن قرب مدينة [غيلا Gela].

ويروي [آيون] عن أيام شبابه بعد نزوحه الى آثينا من [خيوس] بزمن قصير. إن مأدبة عشاء جمعته مع [كيمون] في منزل [لاوميدون Laomedon] وعلى أثر انتهائهم من الأكل وصبّ الخمر تكريماً للآلهة حسب العادة المتبعة، رغب الحاضرون من [كيمون] أن يغنيّ لهم أغنية فغنىّ وأجاد وتوالى الثناء عليه من المجلس. وعلقوا على سبقه [تمستوكلس] في مناسبة مماثلة سابقة، حيث قيل انه لم يتعلم لا الغناء ولا العزف قط، وانما تعلم كيف يملأ المدن ثراء وغنى ويزيد في قوتها وسلطانها. وبعد أن تشعب الحديث فيما يتصرف اليه عادة خلال هذه المآدب والحفلات عرجوا على ذكر أعمال ووقائع برز فيها [كيمون]. وجرت مفاضلة بأروعها فقال [كيمون] انهم أغفلوا واحدة وصل بها الى نهاية الدهاء وبعد النظر في أعتقاده. ثم راح يقصّها عليهم فقال: عندما وقع في أيدي الحلفاء عدد كبير من أسرى البرابرة في [كسقوس] و[بيزنطة] أعطيّ حق قسمة الغنائم فجعلها نصيبين: وجمع كل الأسرى في سهمٍ وكل اسلابهم من الحلى والسلاح والنفائس والثياب في سهمٍ فأحتج الحلفاء قائلين انها قسمة بعيدة عن العدل فبادر [كيمون] الى منح الحلفاء حق الخيار في أحد النصيبين مصرحاً بان الآثينيين يرضيهم اي سهمٍ متخلف. فأشار [هيروفيتوس Herophytus] الساموسي على الحلفاء أن يختاروا الأسلاب ويتركوا الأسرى للآثينيين. وانصرف [كيمون] مشيعاً بالضحك والسخرية لهذه القسمة السخيفة التي جعلت الحلفاء يستأثرون بالأساور والمعاضد والأطراق الذهبية والثياب الارجوانية تاركين للآثينيين أجساماً عارية هزيلة لا يستطيعون استغلالها في عملٍ لعدم تعود هؤلاء الأسرى على الاشغال الجسدية. لكن ما مَرّ زمن قصير حتى تقاطر ذوو الأسرى واصحابهم من ليديا وفريجيا، لافتدائهم بمبالغ جسيمة. وبهذه الطريقة حصل

[كيمون] على أموال طائلة أنفق منها على أسطوله وغاليوناته طوال اربعة أشهر وأرسل ما تبقى، الى الخزانة العامة في آثينا!

واصاب [كيمون] حظاً كبيراً من الغنى. وما اغتنمه من البرابرة بشرف أنفقه على مواطنيه بشرف. فقد أمر بهدم جدران بساتينه واسيجة اراضيه. مفسحاً السبيل للغرباء والمعدمين من بني قومه أن يقطفوا ما شاؤا من ثمارها بلا مقابل. وفي منزله مَدّ سماطاً دائماً يتسع لعدد كبير من القُصّاد رغم بساطة الطعام الذي يقدمه. وكان فقراء المدينة يطعمون منها باستمرار وبذلك لا يشغلهم البحث وراء الرزق عن واجباتهم العامّة ويشجعهم على التفرغ لها. على أن [ارسطوطاليس] يقول أن هذه المائدة لم تكن مشاعة لجميع الآثينيين وانما قصرها على ابناء عشيرته اللاكيادي، زد على هذا أنه أمر تابعين أو ثلاثة شباناً بملازمته في غدواته وروحاته وعليهم ثياب حسنة. فاذا صادف مواطناً متقدم السنّ في ثياب مبتذلة قام أحد هؤلاء الشبان باستبدال ثيابه بثياب المواطن المُعدم. وقد اشتهرت هذه البادرة وعدت من انبل الأعمال. كذلك أوجب على تابعيه هؤلاء أن يتزودوا بصرر من النقود، ليدسّوا في ايدي أفاضل الناس المملقين مبالغ منها أثناء وقوفهم الى جانبهم في الساحة العامة. والشاعر [كراتينوس] ينوه بهذا العمل في «ارخيلوكي Archilochi» أحدى كوميدياته أذ يقول عن لسان أحد شخوص التمثيلية:

«أنا [متيروبيوس] مسجل العقود الفقير.
ضمنت راحتي، وخفض عيش في ارذل عمري
بفضل انبل ابناء الأغريق في هذه الدنيا الفانية.
... انه [كيمون] ذا النفس الزكية، [كيمون] نفحة الآلهة.
وكانت أمنيتي أن أبقى مستمتعاً بالذّ الماكل والولائم
حتى يحين الأجل... الأجل الذي أخذه وآسفي
- قبل أن يأخذني...

ويقول عنه [جورجياس Gorgias] الليونتي: أنه أوتي سعة في الغنى لاستخدامه فيما يشرفه ويرفع من مقامه. ونجد [كريتياس Critias] أحد الطغاة الثلاثين يتمنى في أحدى ملاحمه الشعرية أن يُحرز...

«ثروة [سكوپادس Scopads]. ونبل [كيمون]. ونجاح الملك أغيسلاوس»

ونعلم أيضاً أن [ليخاس Lichas] لم يرتفع مقامه ويشتهر أمره في اليونان إلا لأنه كان معتاداً استضافة الغرباء القادمين لرؤية الألعاب في العهد الذي كان الصبيان يدخلون مسابقات العدو وهم عراة. إلاّ ان [كيمون] بذ الكرم الآثيني القديم وسخاءه. وللآثينيين الحق في أن يفخروا باجدادهم الذين علموا بقية الأغريق زراعة القمح واستخدام ينابيع الماء واشعال النار، إلاّ أن [كيمون] بابقاء باب بيته مفتوحاً لمواطنيه كافة وبافساحه للغرباء، أن يجنوا ما شاؤا من ثمار بساتينه في مختلف فصول السنة، يبدو وكأنه أعاد الى المجتمع البشري نظام شيوعية الأموال الذي كان سائداً كما تقول الأساطير في أيام حكم [زُحل: Saturn] أما المغرضون من الناس الذين رأوا في كرمه هذا وسيلة لخطب ودّ الناس، وتأييد الاوزاع والصعاليك، فيرد عليهم رداً مفحماً وهو الطابع الذي يميزّ سائر أعماله السياسية فقد تحرت دائماً مصلحة الطبقة العليا من القوم. وسارت وفق المباديء السپارطية. ومن دلائلها قيامه هو و[اريستيدس] بمعارضة [تمستوكلس] الذي كان يعمل على توسيع سلطات الشعب الى الحد الذي ينافي مبادئ القدالة، ومعارضته ايضاً [لايفيالطس Ephialtes] الذي دعا الى الغاء سلطات المجلس الاريوباغي ارضاءً لجمهور الشعب. ولما عمل كلّ معاصريه من الساسّة على الاثراء من أموال الشعب باستثناء [اريستيدس] و[ايفيالطس] تمسّك هو بعفته وابى ان يلوث يديه بها، وظلّ الى آخر ساعة من حياته لا يقول أو يفعل شيئاً يتحرى منه منفعة خاصة أو كسباً شخصياً. ويحدثونا أن [روسايبس Rhoesaees] الفارسي الذي دبرّ مؤامرة للإطاحة بسيده الملك ثم هرب الى آثينا لاجئاً، أضطر الى مراجعة [كيمون] بعد أن ضاق ذرعاً باتهام المنافقين له الى الشعب لينتصف له منهم. ووضع أمام عتبة بيته تقرباً وتودداً – كأسين ملأ أحدهما بالذهب والثاني بداركيات Darcis فضية. فسأله [كيمون] باسماً: هل هو يرغب في خدمات [كيمون] المأجور، أم يريد صداقته، فأجاب انه يريد صداقته فقال [كيمون]:

– إن كان هذا مرامك فخذ نقودك؛ وقد تلجئني ظروف الحياة أن أرسل في طلبها يوماً بوصفي صديقاً لك!

دبّ الملل من الحرب في نفوس الحلفاء. وأثقلت عليهم الخدمة العسكرية، وثاقت أنفسهم الى الراحة والعودة الى زراعتهم وتجارتهم، بعد أن أجلوا أعداءهم عن بلادهم وقضوا على تهديداتهم. فأوقفوا ارسال السفن والرجال. إلاّ أنهم استمروا في دفع ضريبة نفقات الحرب المفروضة عليهم كالسابق. فراح جنرالية الآثينيين يكرهونهم بالاجراءات القضائية ضدّ المتخلفين وبالعقوبات الأخرى. مما جعل حكمهم ممقوتاً لدى الحلفاء. إلاّ أن [كيمون] عالج الموضوع بأسلوب جديد. فقد جعل الخدمة العسكرية اختيارية بالنسبة اليهم، شريطة أن يؤخذ

بدل نقديّ وسفن عوضاً عن الرجال من كل حليف يودّ الاعفاء من الخدمة العسكرية وهكذا تركهم يهيأون ببقائهم في أراضيهم والانصراف الى أعمالهم. فقعدا بهذا صفاتهم الحربيّة وقوتهم، وقلبتهم غباوتهم الى مزارعين وتجار يكرهون الحرب. أمّا [كيمون] فقد فرض على الآثينيين نظام التدريب العسكري الاجباريّ العام على شكل وجبات تدعى بالتعاقب الى الخدمة على ظهور السفن في تمارين عسكرية لتعويدهم على الضبط وحياة الجندية، وما هي الاّ فترة قصيرة من الزمن حتى جعلهم أسياداً لأولئك الذين قنعوا بدفع أجور لهم! فأخذوا يتملقونهم رهبة منهم ليجدوا أنفسهم بعد زمن مجرد تابعين وعبيد لهم لاحلفاء غباوة منهم وكسلاً وتراخياً. هذا والآثينيون دائبون على الاستزادة من المهارة والخبرة البحرية بانطلاقهم في كل مكان من البحر وعدم نزعهم السلاح.

وكان عمل [كيمون] في اذلال ملك الفرس مما يُضرب به المثل فلم يقنع بطرده من سائر بلاد الأغريق، وانما ظلّ يتعقبه باستمرار ولم يدع للبرابرة فسحة من الزمن لالتقاط انفاسهم، فهو أبداً في أعقابهم ينقض عليهم من حيث لا يحتسبون فيدمرّ ويخرب، ويستولي على المواقع والاقاليم، ويستحدث لهم الفتن والثورات في بعض البلاد، ويدخل صلحاً الى بعض الأقاليم، وهكذا حتى تمّ له تطهير آسيا كلها من القوات الفارسية، ابتداءً من [آيونيا] حتى [پامفيليا Pamphylia].

ووردہ ما يشير الى آن قواد الملك قد استعدوا له متربصين على ساحل [پامفيليا] بجيش من المشاة لا يحصى عدده، وباسطول جبّار. فقرر أن يجعل البحر كله من جهة الجزر الخلقيدونية مغلقاً في وجههم، منيعاً لا يجرأون على أقتحامه. وانطلق من [كنيدوس Cnidos] ورأس تريوپيا Triopia بمائتي بارجة كان [تمستوكلس] قد أشرف على بنائها بنفسه وفق مواصفات معينة فتميزت بسرعتها وسهولة دورانها، واضاف اليها [كيمون] تحسينات أخرى فوسعها وجعل سطوحها عريضة من الجانبين لتسهل حركة البحارة فوقها وتتسع لعدد كبير من الجنود بكامل سلاحهم وتتيح لهم المساهمة في القتال البحري. ورسم خطته بأن تكون مدينة [فاسيلس Phasiles] هدفه الأول وهي وان كانت مأهوله بالاغريق - موالية للفرس فاتجه اليها ولدى وصوله امتنعت عنه وابت دخول سفنه مرفأها فأجتاح اراضيها ثم القى عليها الحصار. وكان جنود [خيوس] الذين يخدمون في جيشه اصدقاء للفاسيليين منذ القديم فحاولوا التوفيق بالتوسط لدى الجنرال، وراحوا في الوقت عينه يفوقون على المدينة سهاماً تحمل رسائل بانباء مساعيهم. وبالأخير عقد الصلح ومن شروطه ان يدفعوا عشرة تالنتات غرامةً، وان ينضموا الى [كيمون] في حربه مع البرابرة.

يقول [ايفوروس] ان قائد الاسطول الفارسي هو [تثراوشتا Tithraustes] وقائد الجيش البريّ هو [پيراندات Pherendatus]. إلاّ ان [كاللسيثينيس] يؤكد بأن [آريوماند Ario-mandes] كان القائد الأعلى لجميع القوات. وانه كان ينتظر باسطوله في مصب نهر [يوريميدون Eurymedon]، وليس عنده اية نية في القتال، لأنه كان ينظر ورود نجدة فينيقية من ثمانين سفينة أقلعت من قبرص في طريقها اليه. وكان [كيمون] يعلم بهذا فأنطلق في ارغامهم عليه ان أبوا. وما أن لاح اسطوله للبرابرة حتى انسحبوا الى داخل المصب تفادياً لأي هجوم. إلاّ ان الآثينيين أطبقوا عليهم. فأضطروا الى التخلي عن فكرة الانسحاب، وواجهوا خصمهم بستمائة سفينة فحسب. إلاّ انهم لم يحققوا ما ينتظر من هذه القوة الضخمة اذ ما لبثوا أن اداروا دفاتّ السفن نحو الساحل، والقى اوّل الواصلين بأنفسهم الى اليابسة واسرعوا الى جيشهم البريّ الذي كان قد أعَدّ نفسه للقتال في تلك الناحية. في حين هلك الباقون أو وقعوا أسرى هم وسفنهم، والمرء يستطيع تخمين عددهم فخلافاً لمن فرٌ ناجياً من ميدان القتال، ومن أبتلعته الأمواج، غنم الآثينيون ماءتي سفينة.

ولما دنا الجيش الفارسي البّري من الساحل، أستبدت الحيرة [بكيمون] ولم يدر هل يغامر بشق طريقه الى البرّ فيعرض رجال اليونان الى سيوف البرابرة بعد أن أنهكت قواهم مذبحة الاشتباك الأول. في حين كان البرابرة مستجمين لم يدخلوا اية معركة فضلاً عن تفوقهم في العدد أضعافاً، الاّ أنه وجد حماسة جنوده لدخول المعركة ونشوتهم بالنصر أشدّ من أن يُحال دونها فأمر بالنزول الى البرّ وحرارة المعركة الأولى ما تزال في جسومهم. وما أن وطئت أقدامهم الأرض حتى أطلقوا صيحة عظيمة وانقضوا على العدو، فوقف لهم وصمد لأول هجمة مبدياً شجاعة كبيرة. ثم أنقلب القتال ضارياً عنيفاً. وخر في الميدان عدد من ابرز الآثينيين مقاماً وبسالة. وأخيراً تمكنوا من هزيمة البرابرة بعد صعوبات وأهوال. فقتلوا من العدو من قتلوا، وأسروا من أسروا، ونهبوا كل خيامهم وسرادقاتهم الملأى بالغنائم الثمينة. وكان [كيمون] اشبه بالرياضي البارع في المسابقة. فقد أحرز نصرين في يوم واحدٍ. وفاقت معركته البحرية معركة [سلاميس]، وكانت معركته البرية، أعظم من معركة [پلاطيا]. وهذا ما شجعه على اطلاب نصر آخر فقد وردته انباء عن وصول النجدة الفينيقية وقوامها ثمانون بارجة الى [هيدروم Hydrum] فأنطلق نحوها بأقصى سرعته. وكانت النجدة لا تدري ما حَلّ بالاسطول الأكبر. وانتابتها الحيرة فيما تفعل وبوغتوا [بكيمون] وهم في حيرتهم ينقض عليهم، ففقدت كل سفنهما ومعها معظم رجالها. هذا النصر الأخير اورث الملك الفارسي فزعاً عظيماً والجأه فوراً على طلب ذلك الصلح الشهير الذي تعهّد فيه أن لا تقترب جيوشه من

البحر اليوناني أكثر من مدى مرحلة حصانٍ وأن لا تظهر اية سفينة او بارجة من اسطوله فيما بين الجزر [الكيانية Cyania] والجزر [الخيليدونية Chelidonia]. على أن [كاللسثينيس] ينفي الاتفاق على مثل هذه الشروط ويقول أن الخوف الذي اشاعه هذا النصر، حمل الملك الفارسي على الابتعاد عن بلاد الاغريق بهذا المقدار من تلقاء نفسه. حتى ان [پيركلس] و[ايغيالطس] عندما انطلقا ما وراء جزر [خيليدونيا] أولهما بخمسين سفينة، وثانيهما بثلاثين، لم يقعا على سفينة فارسية واحدة. إلاّ ان مجموعة المراسيم الجمهورية العامة التي صنفها [كراتيروس Craterus] تتضمن صورة لهذه المعاهدة. وقيل أيضاً ان الآثينيين أقاموا في مدينتهم مذبحاً لآله السلم بمناسبة هذا الصلح، وقرروا تكريماً خاصاً لـ[كاللياس] الذي كان قد أرسل سفيراً لإبرام المعاهدة.

وجنى الآثينيون مالاً طائلاً من غنائم هذه الحرب. التي بيعت بالمزاد العلني. وصرفوا منها الكثير على بناء السور الجنوبي من القلعة ووضع أسس الأسوار الطويلة المسماة «بالسيقان»، التي لم تكمل الاّ بعد مرور فترة من الزمن طبعاً. وكانت مواقع الأسس منطقة مستنقعات وتربة رخوة ولذلك اضطروا الى استخدام كميات كبيرة من الحجارة الضخمة والأتربة لردمها وتقويتها. كلّ ذلك صرفوا عليه من الأموال التي كسبها [كيمون]. وكان أوّل من بدأ بتجميل الجزء المرتفع من المدينة، بتلك الابنية البديعة المزخرفة التي خصصت للاصطياف ومزاولة الرياضة وكثر الإقبال عليها فيما بعد. وشجرّ الساحة العامة وحوّل «الاكاديمي» الى حديقة تسقى ذات مماشٍ ظليلة تعكف عليها الغصون، وباحات منبسطة للسباقات الرياضية بعد ان كانت بقعة جرداء جافة.

عندما بسط الفرس سيادتهم على الخرسونيز ولم يكن لديهم نية في الخروج منها، ناشدوا الشراقيين من داخلية البلاد المساعدة ضدّ [كيمون] وكان هؤلاء مستهينين بقواته الضئيلة، فأنقضى عليهم باربع بوارج لا غير وأستولى على ثلاث عشرة سفينة من سفنهم. وبعد ان طرد الفرس من الخرسونيز وخضد شوكة الشراقيين ضمّ هذه الجزر الى املاك آثينا. وهاجم أهالي [تاسوس] الذين انتقضوا على حكم آثينا وهزمهم في معركة بحرية وغنم منهم ثلاثة وثلاثين سفينة، وأستولى على مدينتهم بعد تشديد الحصار عليها، ونقل الى الآثينيين ملكية كل مناجم الذهب الواقعة على الساحل المقابل. وجميع الاقاليم التابعة [لتاسوس]، وبذلك بات طريقه الى مقدونيا مفتوحاً وكان منتظراً منه أن يقتطع منها جزءً كبيراً، ولأنه لم ينتهز هذه الفرص حامت الشكوك حول ضعف ذمته، وارتابوا في أخذه رشوةً من الملك الاسكندر. ثم أتحدّ عليه خصومه واتهموه بالخيانة العظمى. وفي دفاعه الذي ألقاه امام مجلس القضاة قال: انه

ظلّ في حياته العامة يبدو لا كالآخرين، صديقاً للآيونيين والتساليين الاغنياء، يتسلم منهم الهدايا والعطايا، وانما ظهر صديقاً للقيديميين، لأنه كان معجباً بهم تألقاً الى احتذاء حذوهم في بساطة العيش وسذاجة الخلق. وهو ما كان يفضله على كلّ شكل من أشكال الغنى. على أنه كان فخوراً على الدوام بجهوده لجعل بلاده غنية بغنائم أعدائها. ونوّه [ستسمبروتوس] بالمحاكمة وذكر ان [الپينيس] قصدت [پيركلس] متشفعة في أمر أخيها. وكان هذا أشدّ متهميه اصراراً. فأجابها باسماً.

- إنك يا [الپينيس] في سن لاتسمح لك بالتدخل في مثل هذه الشؤون.

على أنه تبين بأنه أكثر متهميه اعتدالاً. ولم ينهض طوال الجلسة إلاّ مرة واحدة. ليتهمه وفق ما تحتمه الشكليات فحسب. وبرئت ساحة [كيمون].

وبعد هذه استمر في حياته العامة يعمل على كبح جماح جمهور الشعب والسيطرة عليهم لئلا يستظهروا على النبلاء ويستأثروا بكلّ السلطة والسيادة. ولكن الجمهور نشط من عقاله على اثر خروجه الى الحرب، واطاحوا بكلّ الشرائع القديمة والعادات التي ظلّت متبعة زمناً طويلاً، وسحبوا صلاحيات مجلس الاريوباغي كلها تقريباً. ومنعوه من رؤية الدعاوى القضائية وبهذا أنتقلت اليهم كل السلطات القضائية، وهذا تمّ باقتراح من [ايغيالطس] بنوع خاص، وأنقلب الحكم ديمقراطياً صرفاً وعاون [پيركلس] في ذلك إذ كان حينذاك في الحكم، ويقف الى جانب العامة بصورة واضحة. واضطرب [كيمون] اضطراباً شديداً لرؤيته مجلس القضاء الأعلى مجرداً عن سلطته، عند رجوعه الى الوطن وحاول معالجة هذه المشاكل باعادة السلطة القضائية للمحاكم المدنية، واحلال الارستقراطية الغابرة التي كانت تطبق منذ عهد [كلسثينس Clisthanes] ولقيت اجراءاته هذه أعنف مقاومة ممكنة وبدأ المعارضون في أحياء تلك الحكايات المتعلقة به وباخته وأخذوا يهاجمونه قائلين انه صنيعة اللقيديميين والى هذه الانتقادات تشير قصيدة الشاعر [يوپوليس Eupolis] المشهور اذ يقول قاصداً [كيمون]:

«إن المرء لا يسعه إلاّ ان يجد فيه الصلاح غير انه مولع بالشراب، ومجالس الأُنس وكثيراً ما تراه في الليّالي يخرج الى سپارطا متجولاً، تاركاً أخته في المنزل وحيدةً!»

واذا كان سكيّراً، كسولاً، فها هوذا يستولي على مدن كثيرة ويفوز بانتصارات عديدة مع ذلك. ولو كان خالصاً من هاتين الرذيلتين والتزم جانب الوقار والحشمة. لما كان له صنو بين قادة الأغريق لا قبله ولا بعده، في المآثر الحربية.

كــان في الـواقع من أنـصــار اللقــيــديميين منذ شـبــابه. ولذلك ســمّى ولديه التــوأمين [لقـيـديمونيـوس] و[ايليـوس] اللـذين ولدا له من امـرأة كليتـوريّة Clitorium على مـا يـقـوله [ستـسـبـمـروتـوس] - ولذلك كـثـيـراً مـا تجد [پيـركلس] يعيّـرها بأصل امـهـمـا. على أن [ديودوروس] الجغرافي يؤكد أن هذين التوأمين وابناً آخر لكيمون يُدعى [ثسالوس] قد ولدوا [لإيسدويك] بنت [يوربطوليموس] ابن [ميغاكليس].

وعلى اية حال فـمـا هو مـؤكـد في الأمـر، أن [كيـمـون] كـان يحظى بتـأييـد اللقـيـديميين ضدّ [تمستـوكلس] الذي كـان مبغـضاً منهم. وقـد ساندوه وهو بعـد فـتـىً وعـملوا على رفع مكانتـه وزيادة نفوذه في آثينا. ورحّب الآثينيـون بهذا وسرّوا له في مـبدأ الأمر، وكـانت المحاباة التي أظهرها له اللقيـديميـون مفيـدةً لهم ولأمـورهم من شـتّى الطرق، فـقـد كانوا في تـلك الحقبـة من الزمن يتوقلون أولى درجات العظمة والقوة ويعملون جاهدين لكسب الحلفاء الى صفهم ولذلك لم يجدوا في تكريم اللقـيديميين [كيـمـون] والعطف عليـه اي داعٍ للغـيظ و[كـيـمـون] اذ ذاك القـائد العـام لقـوات الاغـريق، والمدبّر الأعـلى لشـؤونهم مـوضع رضى اللقـيـديميين؛ مـحـبـوباً من الحلفـاء لحسن مـعـاملته. ولكن مـا أن تعـاظمت قـوة آثـينا وزادت شوكـتـهـا حـتى بدأوا يكرهون في [كيمون] اخلاصه للقيديميين وشدة حبّه لهم. وغـاظهم منه تفضيله اياهم على الآثينيين في كل حديث ومناسبـة يريد بهـا تعنيفهم عن خطأ أرتكبوه أو اثارة حـماستهم لعملٍ ما، فـينتـهرهم بقوله:

- ان اللقيديميين لايعملون هكذا.

فكان هذا يزيد من سخطهم عليـه ويبـغّضـه الى المواطنين إلاّ أن مـا شـددّ عليـه نـكير الاتهـام هو الحادثة التالية وما نجم عنها من مضاعفات:

في السنة الرابعة لحكم [ارخيداموس] ابن [زيوكسيداموس Zeuxidamus] ملك سپارطا. حَلّ بالبـلاد اللقـيـديميّـة أعظم زالزال ارضيّ وعـتـه ذاكرة البـشـر. فـقـد تشـقـقت الأرض شـقـوقـاً عظيـمـة. وبلغ من شدّة الهزّة في جبل [تايغـيتس Taygetus] أن انهار بعض قـمـمه الصخرية. ومن مـدينة سپـارطا لم يبق غـيـر خمسة مـنازل قـائمـة. فـقـد تقـوضت هذه الحـاضرة ودكت دكاً. وذكروا انه قبيل الهزّة بقليل كـان بعض الفتيان والصبيان الصغار يقومـون بتمارينهم الرياضية معاً في وسط رواق الملعب فمرق من جنبهم على حين غرةٍ، أرنبٌ مذعور فأسرع الفتيان وراءهم وهم عـراة واجسـامـهم مدهونة بالزيت، يريدون الاستزادة في التـمرن والريـاضة، حـتى اذا بـاتوا خـارج البنـاء، خرّ الملعب على الـصـبـيـان البـاقين ودفنوا تحت انقـاضـه. وضـريـحـهـم يـسـمّى «سيسماتياس Sismatias» الى يومنا هذا.

واستبد القلق [بارخيداموس] على بلادة. وأخذ يتحسب ما سينزل بها بعد هذه النكبة. وعندما رأى مواطنيه منشغلين باستخلاص ما غلا ثمنه من أموالهم المطمورة تحت الانقاض، أمر باطلاق اشارة الخطر كأن عدوّاً قد داهمهم. وقصد من هذا جمع شملهم حوله بكتلة واحدة، وهم بكامل سلاحهم. وهذا وحده هو الذي انقذ سپارطا في حينه، فقد تجمع [الهيلوت] في الارض المجاورة وفي نيتهم مباغتة السپارطيين بهجوم للقضاء على من أبقى الزلزال منهم فوجدوهم على اتم استعداد للقائهم وهم بكامل سلاحهم، فارتدوا عنهم الى المدن وبادؤوهم بالحرب واستظهروا على عدد من اللاقونيين في المناطق الريفية. واغار الميسينيون في الوقت ذاته على السپارطيين. فأرسل هؤلاء [پيريقليداس Periclidas] الى آثينا بطلب النجدة. وهو الذي قال عنه ارسطوفانس في معرض السخر والتندر: إنه جاء...

«بمعطف أحمر، وجلس في الهياكل بوجه ممتقع

أبيض، وراح يطلب رجالاً، وسلاحاً»

وعارض [ايفيالطس] في الطلب وحجته أن ليس ثم ما يحملهم على معاونة واعادة بناء مدينة كانت خصماً منافساً لآثينا ومن الخير ابقاؤها على حالها بعد أن هوت الى الدرك الأسفل. وان يترك كبرياء سپارطا وغطرستها تحت موطيء الأقدام...

إلاّ ان [كيمون] على حَدّ قول [كريتياس] «قدّم سلامة لقيديمون على عظمة بلاده»، فأقنع الشعب ان يبعث به على رأس جيش كبير لنجدتهم ويسجل [آيون] أبلغ تعبير لكيمون وانجحه في اثارة عواطف الآثينيين لمساعدة اللقيديميين، اذ قال لهم:

– لاتدعوا بلاد الأغريق تصاب بعرجٍ، ولاتدعوا مدينتكم نفسها تفقد زميلها في جرّ نير الفدان!

ومرّ بجيشه عبر اراضي كورنث عائداً بعد معونة اللقيديميين فعاقبه [لاخارتوس Lachar-tus] على اجتيازه بلاده قبل يطلب إجازة من الشعب الكورنثي لأن من يطرق باب غيره لا يدخل البيت حتى يأذن له ربّه، فأجاب [كيمون]:

– لكنكم أيها الكورنثيون، لم تطرقوا ابواب الكليونيين Cleonæens والميغاريين. وانما كسرتموها ودخلتموهما عنوة واقتداراً، وفي اعتقادكم يا صاحبي [لاخارتوس] أن كل الابواب يجب ان تفتح في وجه الأقوى!

كذا كان جوابه للكورنثي مسكتاً. ومر بجيشه عائداً الى الوطن. ومرّ بعض الوقت وبعث اللقيديميون يستجيرون بالآثينيين على الميسينيين والهيلوت ثانيةً، وكان هؤلاء قد استولوا

على مدينة [اثيوم Ithome] فلما وصل الآثينيون، ردّهم السپارطيون الى ديارهم معتذرين لهم بأن القصد من دعوتهم كان تطبيقاً لخطة أمنٍ ابتكروها لحماية أنفسهم لا غير. فأرتد الآثينيون الى بلادهم وهم يتميزون غيظاً لهذه المعاملة، وراحوا يصبون جام غضبهم، وينفثونه في كل نصيرٍ للقيديميين. وأتخذوا حجّة تافهة على [كيمون] لنفيه عن البلاد عشر سنوات. وهو العقاب الذي كان يوقع بأولئك الذين يراد ابعادهم عن البلاد دون محاكمة. وفي اثناء ذلك اتمّ اللقيديميون تحرير دلفي من سيطرة الفوكيين، وعادوا وضربوا خيام معسكرهم في [تناغرا] فأسرع الآثينينون اليهم مصممين على قتالهم.

وأقبل [كيمون] الى ميدان القتال وانخرط في صفوف رجال عشيرته الأونياس Oeneis ضدّ السپارطيين فسمع مجلس شورى الخمسمائة بمقدمه فخشي العاقبة، واقام خصومه القيامة على المجلس واحتجوا على بقائه قائلين أن ذلك سيحدث فتنة في صفوف الجيش فأصدر المجلس أمراً لآمري القطعات بعدم قبول [كيمون]، فأضطر الى ترك صفوف الجيش على انه استحلف [يوثيپّوس Euthippus] و[انافليستيان Anaphlyatain] وبقية رفاقه قبل انصرافه بأن يبلوا أحسن البلاء في القتال ويظهروا أقصى ما يمكنهم من البسالة في وجه العدوّ، وان يبرهنوا بأعمالهم على كذب الفرية التي الصقت بهم وهي ممالئتهم وانتصارهم للقيديميون تلك التهمة التي الصقت بهم ظلماً. وكانوا مائة فحسب؛ أخذوا سلاح [كيمون] وآلوا على أنفسهم العمل بما اوصاهم. وجعلوا أنفسهم كتلة واحدة وقذفوا بأنفسهم في اتون المعركة فقتلوا الى آخر رجلٍ وتركوا الآثينيين يعضون بنان الندم لشكهم الظالم فيهم، وكان اسفهم عميقاً لخسارة هؤلاء الرجال الصناديد. ثم أنّ حدتهم على [كيمون] زايلتهم بعد زمن وجيز وأخذوا يتذكرون خدماته الجليلة السابقة أو لعلّ أحوال الزمان هي التي الجأتهم الى ذلك. فقد أصيبوا بهزيمة نكراء في موقعة [تناغرا] الهامّة وغشيهم الخوف من مداهمة أهل الپيلوپونيس لهم في أوّل الربيع وبادروا الى أصدار مرسوم بالغاء نفيه واستدعائه. وأسهم [پيركلس] بالدور الأول في ذلك. كذلك كانت احقاد رجال ذلك العهد لا تخرج عن حدود المعقول، وكذا كان غيظهم معتدلاً، يفسح السبيل على الدوام لتقديم المصلحة العامة عليه، حتى طموح النفس وهو أشدّ الطباع تحكماً في البشر واصعبها سيطرة، فقد أمكنهم السيطرة عليه واخضاعه الى مقتضيات الحكم ودواعيه.

ما أن أستقر المقام [بكيمون] حتى بادر الى وضع نهاية للحرب. وأحَلّ الوئام والصفاء بين المدينتين ووطد دعائم السلم. إلاّ أن الفراغ الذي احدثه السلام عند الآثينيين جعلهم نافذي الصبر، تألقين الى الحرب وما فيها من عظمة ومجد. وخشي [كيمون] ان يؤدي ذلك بهم الى

الانقضاض على غيرهم من الأغريق او أن ينطلقوا بسفنهم العديدة نحو جزر الپيلوپونيس مُتحرشين خالقين عدة ذرائع لحرب داخلية، أو منح اسباب للتظلم والشكوى من حلفائهم. فهيأ مئتي سفينة حربية لغزو قبرص وبلاد مصر؛ وقصده تعويد الآثينيين قتال البرابرة، والاغتناء بطريق شريفة، من اسلاب أولئك الذين كانوا اعداء الاغريق الأصلاء. ولما تمّ اعداد كل شيء وتأهب الجيش لركوب السفن حلم [كيمون] حلماً، تراءت له فيه كلبة مسعورة أخذت تنبح في وجهه، ويسمع خلال نباحها صوت بشري يقول:

«تعال، فعمّا قريب ستكون مصدر سرورٍ لي ولجرائي»

وصعب تفسير هذا الحلم. ثم ان [اسطيفيلوس Astyphilus] اليوسيدوني Posidonia صديق [كيمون] وهو رجل مهر في تفسير النبوءات، قال ان الحلم ينبيء بموته وفسره على النحو الآتي: الكلب هو عدوٌ له ينبح في وجهه. وموت المرء يكون دائماً مصدر سرورٍ لعدوّه. والنباح الذي يتخلّله الصوت البشري يشير الى الميديين لأن جيشهم خليط من الأغريق والبرابرة.

بعد الحلم وفي اثناء تقريبه لباخوس، وحينما كان الكاهن يعمل في الذبيحة تقطيعاً، خرج بعض النمل وحمل قطعاً من الدم المتخثر والقاها عند إبهام قدم [كيمون] وفي أول الأمر لم يلخط ما جرى ولما انتبه اليها كان الكاهن يريه كبد الذبيحة ناقصاً القسم الذي يدعى الرأس منه. ومع كل هذه النذُر لم يسعه العدول عن سوق الحملة، وابحر لطيته. وافرد ستين سفينة من الاسطول لاحتلال مصر وأنطلق بالبقية لقتال اسطول الملك الفارسي المؤلف من السفن الفينيقية والكيليكية واستعاد كل المدن في تلك الربوع وهددً مصر. وكانت خطته العامة تتضمن القضاء التام على الامبراطورية الفارسية. زاد من حماسته لتطبيقها ما ورده عن [تمستوكلس] وسمعته العظيمة عند البرابرة، وقطعه عهداً للملك الفارسي بأن يتولى قيادة جيشه لحرب الاغريق متى خلاله اعلان الحرب عليهم. على ان [تمستوكلس] فقد كل أمل في تحقيق نياته على ما قيل، ومات حتف انفسه في غمرة يأسه من التغلّب على [كيمون] وحسن حظه.

صحّ عزم [كيمون] اذن على وضع خطته موضع التطبيق. فكان أول عمله ابقاء اسطوله مرابطاً بالقرب من قبرص. وارساله سعاة الى [جوپتر امون] بطلب نبوْه في أمرٍ حرص على كتمانه فلم يحظ بجواب من الربّ لسريّة الطلب، وأمرهم بالعودة من حيث اتوا لأن كيمون معه الآن. فعادوا الى البحر وبوصولهم معسكر الجيش اليوناني الذي كان اذ ذاك في جوار البلاد المصرية. علموا بموت [كيمون] واتضح لهم بالحساب أن النبوءة كانت تشير الى موته، وانه كان وقتئذ في عالم الأرباب.

وتقول فئة من الكتاب أن موته كان عن مرض ألمّ به أثناء حصاره [كيتيوم Citium] في قبرص، وزعم لفيف انه مات من جرح أصيب به في اشتباك مع البرابرة.

ولم ايقن بدنو اجله أمر ضباط جيشه بالعودة الى الوطن. وأوصاهم أن يكتموا نبأ موته كتماناً تاماً طوال الرحلة عن الصديق والعدوّ سواء بسواء، ففعلوا وهكذا قاد [كيمون] الجيش اليوناني ثلاثين يوماً بعد وفاته» على حَدّ تعبير [فانوديموس Phanodamus]. ولم يقم بعد موته بين الاغريق قائدٌ حقق عملاً يستأهل الذكر ضد البرابرة. وقام الزعماء الشعبيون وانصار الحرب - بدلاً من اتحادهم ضد العدوّ المشترك - يحرضّ بعضهم بعضاً ويصطرعون فيما بينهم وبلغ الانقسام حداً أحجم معه الخيّرون عن التدخل والتوسط في المصالحة. ولم تكن نتيجة خلافاتهم قاصرة على اضمحلال سلطان الاغريق وحده، وانما اتاحت للفرس وقتاً كافياً للاستجمام واستعادة كل ما خسروه. الحق يقال أن [اغيسلاوس] حمى راية القتال اليونانية الى قلب آسيا ولكن ذلك وقع بعد زمن متأخر جداً. وكذلك جرت له حروب قصيرة الأمد مع قواد الملك في الاقاليم الساحلية. الاّ أنهم تلاشوا امامه بسرعة. وقبل أن يحقق [اغيسلاوس] شيئاً مذكوراً أستدعي الى الوطن لمعالجة انقسام سياسيّ جديد وتناحر داخليّ فاضطر الى ترك قواد الملك الفارسي يفرضون ما يشاؤون من الأتاوات على المدن اليونانية الحليفة والمتحدة اتحاداً سياسياً مع اللقيديميين في آسيا. بينما لم يكن يجرأ ساعي بريد او فارس ان يدنو من الساحل أكثر من اربعمائة فرلنغ في عهد [كيمون].

والانصاب المشهورة [بالكيمونية] الى يومنا هذا في آثينا تؤيد نقل رفاته الى الوطن. ومع هذا فان سكان [كيتيوم] يقدسون بصورة خاصة ضريحاً يطلقون عليه [قبر كيمون] ويقول [ناوسيقراطس Nausicrates] البليغ ان أهلها استنزلوا نبوءة أيام مجاعة حلت بهم عندما أمحلت ارضهم. فأمروا بالاّ ينسوا [كيمون] وان يقدموا له اكرام الرب. هكذا كان القائد الاغريقي [كيمون].



LUCULLUS
(Lucius Licinius)

106 _ 57



كان جَدّ لوكوللوس قنصلاً وخاله هو ميتيللوس الملقب نوميديكوس Numidicus. واما عن ابويه، فان والده حكم عليه بجريمة الاستغلال. وسمعة امه لم تكن بعيدة عن الشبهات. وأول اعمال [لوكوللوس] قبل ان يتقدم لأية وظيفة أو يتدخل في شؤون سياسة الدولة هو اتهام متهم أبيه العرّاف الكاهن [سرفيليوس] فقد ضبطه بجريمة ارتكبها ضدّ الدولة. وكان ذلك في مطلع شبابه فحظي من الرومان باهتمام كبير ولفت اليه الانظار بهذا العمل الذي عد من الاعمال الجديرة بالثناء وان كان اقدامه عليه من دون استفزاز فالرومان يغتبطون لما يرون الشبان ثائرين على الظلم كالكلاب الأصيلة وهي تهاجم الوحوش الضارية. إلاّ ان خصومات عنيفة نشأت عن ذلك وادت الى معركةٍ بين الخصوم جرح فيها من جرح وقتل من قتل، وفرّ [سرفيليوس] على أثرها هارباً.

تابع [لوكوللوس] دراساته وتخرّج خطيباً مصقعاً باللغتين اليونانية واللاتينية، حتى أنّ [سيللاّ] قدم تعليقاته التي كتبها عن حياته وأعماله، اليه بوصفه الشخص القادر على الإتيان بمثل هذا التأليف بنفسه. ولم تكن خطبه مجرد خطب متفننة منسجمة والغاية المقصودة منها كأي خطبة عادية تُلقى في الساحة العامة على الجماهير...

«وتسوطُ صفحة البحر مثل سمكة التونة الجريحة»

ولكنها قد تكون في مناسبة أخرى:

«جافة خشنة لافتقارها الى النكتة»

وكان منذ مطلع شبابه منصرفاً الى مدارسة الفنون الحرة لذاتها ولما تقدمت به السنّ واجتاز حياة ملؤها الكفاح والنضال، أطلق العنان لعقله ومنحه الحرية التامة للتمتع بكلّ ما تمنحه الفلسفة من راحة وجدانية وانتعاش فكري. متوسلاً بكلّ مقدرته على التأمل ليكبح في الوقت المناسب جماح شعور الطموح وحبّ المناسبة بعد أن أشتدّ خلافه مع [پومپي] اشتهر ايضاً بأمرٍ آخر خلاف اطلابه العلم، وهو أن اقتراحاً عرض عليه في شبابه، للكتابة عن الحرب المارسيّة Marsian ماعتم ان انقلب الى أمرٍ جدّي فأتفق هو و[هورتنسيوس المحامي] ، و[سيسينا Si-

senna] المؤرخ ان يسحبوا قرعة في هذا الصدد. ففعلوا ويظهر أن السهم الذي وقع عليه كان الكتابة باللغة اليونانية، اذ ان تاريخياً يونانياً عن هذه الحرب قد وصلنا.

ومن الدلائل الكثيرة التي تؤكد مشاعر العظيم لأخيه [ماركوس] حادثة يتناقلها الرومان ويذكرونها أبداً. كان [لوكوللوس] أكبر من أخيه هذا الاّ أن نفسه أبت عليه ان يتسلّم اية سلطة عامة دون ان يكون أخوه فيها الى جانبه. فأخر تقدمه السياسي حتى وصل أخوه حَدّ اللياقة للمساهمة معه. وبلغ عمله هذا من قلوب الشعب مكاناً لن يترددوا معه من اسناد منصب الايديل معه في غيابه!

وأظهر قبل الاوان عدة دلائل على بسالته، وحسن ادارته خلال الحرب المارسية. وأعجب [سيللا] بمثابرته، ولطف حاشيته وكان ينيط به دوماً أهم الواجبات، نذكر منها اشرافه على دار الضرب. فهو الذي تولى في البلوبونيس صك معظم النقد الذي استخدم للصرف على حروب [ميثريدات]، شقت هذه العملة طريقها الى التداول بسرعة لحاجة الجنود الماسّة، وظلت رائجة مدة طويلة وعرفت باسم «عملة لوكوللوس». وبعد ان فتح [سيللاً] مدينة آثينا، وحقق انتصاراته البريّة. وجد ان خطوط تموين جيشه البحرية مقطوعة لسيطرة العدوّ التامة على البحر. فوقع اختياره على [لوكوللوس] لتأمين الارزاق وبعث به الى ليبيا ومصر. وكان الوقت عَزّ الشتاء عندما تلمس سبيله بثلاث سفن اغريقية صغيرة الحجم وبمثلها من الغاليونات الرودسيّة. وكان عليه أن يضرب في البحر الاوقيانوس المترامي متحاشياً ما لايحصى من السفن العدوة التي تجوب البحر ذاهبة آيبة وسيدةً مطلقةً. وبلغ جزيرة [كريت] فضمها الى جانبه. وكان أهلها الكيريتيون يرزحون تحت مظالم عهود الطغيان الطويلة، وقد انهكت قواهم الحروب. فازال شكاواهم ووطد دعائم حكومة جيدة لهم معيداً الى ذاكرتهم القول المأثور الشبيه بالوحي المنزل لدقته واصابته الذي وجهه اليهم افلاطون عندما طلبوا منه أن يضع لهم شرائع جديدة ويضع أسس جهاز حكومي سليم لهم فردّ عليهم قائلاً:

- إن اشتراع قوانين لأهل كريت عملٌ في منتهى الصعوبة، وهم في هذه الحالة من الغنى والثراء. اذ ليس ثم اصعب قياداً من المرّفه والثري، ولا أساس أكثر أستعداداً للطاعة ممن يُذِلّه الحظّ ويُملق.

فتبدل حال أهل كريت إذن هو الذي جعلهم يقبلون على تطبيق قوانين [لوكوللوس]، ويخضعون لها بملء الرغبة. بعد هذا أقلع [لوكوللوس] الى مصر، وعاني الكثير من مضايقة القراصنة وملاحقتهم وفقد معظم سفنه إلاّ انه أفلت منهم سالماً بما يشبه الاعجوبة. وبلغ [الاسكندرية] فدخلها دخولاً فخماً وبابهة تليق بالملوك. فقد خرج الاسطول كله وأنتظم صفوفاً

لاستقباله وأظهر له [بطليموس] الشاب لطفاً لا مريد عليه. واحله في قصره وآكله فيه وهو ما انفرد به لوكوللوس اذ لم يسبق لقائد أجنبي أن استضيف في القصر. وأغرقه بالهبات والعطايا لا كتلك التي تهدى لن هم في مقامه عادة، وانما بلغت اربعة اصفافها. لكن [لوكوللوس] أبى عنها وردّها إلاّ ما يسدّ حاجته وقدم له ما يربو على ثمانين تالنتاً منحة فلم يقبلها. وقيل أنه ابى زيارة مدينة [ممفيس] أو اي مشهد عجيب من مشاهد مصر. تاركاً هذا للطلعة المتبطلين الذين لا عمل لهم. لا لرجل مثله ترك قائده في ميدان القتال معسكراً امام استحكامات الاعداء.

كان [بطليموس] قد خرج من الحلف، بسبب تخوفه من نتائج هذه الحرب. إلاّ أنه ارفق بركبه قافلةً بحرية حتى قبرص. وفي ساعة الوداع الذي تمّ بكثير من الحفاوة والمجاملة تمنىّ له أطيب رحلة وقدم له زمردة ثمينة جداً في حلية من الذهب فهم [لوكوللوس] بردّها إلاّ ان الملك اراه صورته محفورة عليها. فلم يجد [لوكوللوس] من الحصافة واللياقة رفضها. إذ لو أفترق عنه باهانة صريحة كهذه لجعل رحلته محفوفة بالخطر ثم أنه خرج الى البحر ترافقه عمارة بحرية كبيرة كان قد أرسل بطلبها. فسار ميمماً المدن الساحليّة. ويتحاشياً منها تلك التي يشك في احترافها مهنة القرصنة، ثم أتجه الى قبرص ولما أشرف عليها علم ان العدوّ يتربص به في الجرف الساحلية المرتفعة فأخفى أسطوله وبعث الى المدن يطلب أقواتاً لرجاله لعزمه على قضاء الشتاء هناك، ولكنه تحين فرصة موآتية فأنزل سفنه في غفلة من العدوّ وأنطلق ناشراً كل اشرعته في الليل. وطاوياً اياها في النهار، حتى بلغ جزيرة رودس فتزود منها بمزيد من السفن، وتمكن من اقناع أهالي مدينتي [كوس] و[كيندوس] بالتخلي عن مناصرة الملك والانضمام اليه في حملة عسكرية ضدّ الساموسيين. وقام هو شخصياً بطرد انصار الملك من [خيوس] وحررّ الكولومونيين من ربقة الاستبعاد بالقائه القبض على طاغيتهم المستبد فيهم [ابيبغونس Epigonus].

وفي اثناء ذلك، ترك [ميثريدات] مدينة [برغاموس] مرتداً الى [پيتانه Pitane] فلحق به [فمبريا] والقى عليه وهو في المدينة حصاراً شديداً وضيق عليه الخناق من البرّ. ولم يكن [ميثريدات] في وضع يتمكن معه من الالتحام بمثل هذا القائد الجريء الظافر. وأخذ يعد الوسائل للفرار عن طريق البحر. فبعث يستقدم كل اسطوله الموزع في عدة اماكن، ليكون تحت تصرفه المباشرة. فوقف [فمبريا] على ما يدبّره واسقط في يده لأنه لم يكن يملك قوة بحرية خاصة. ولم يربُداً من مفاتحة [لوكوللوس] في التعاون معه باسطوله للقضاء التام على أقوى الملوك شكيمة وابغضهم الى النفوس وإلاّ « أفلتت من الرومان تلك الطريدة التي بذلوا في

مطاردتها كثيراً من الدماء، وعانوا اعظم الأهوال. وضاعت فرصة كسر شوكة [ميثريدات] بعد أن وقع في المصيدة وأصبح من السهل قنصه. فان نجح [لوكوللوس] في الإمساك به فليس ثم من يستحق التبجيل والثناء أكثر منه. لأنه هو الذي سيقوم بقطع طريق الفرار عليه، وبأسره. قائد يحاصره من اليابسة، وقائد يعترضه من جهة البحر، وعندها سيقتسمان الشهرة والمجد. وسيُنسي عملها هذا الرومان مأثرتي سيللاً في [اروخومينوس] وفي مظاهر [خيرونيا] فلا يعودون يذكرونهما». ولم يكن اقتراح [فمبريا] سخيفاً ولا بعيداً عن الصواب. فواضحٌ لو أن [لوكوللوس] عمل باقتراح [فمبريا] وسدّ الميناء باسطوله الذي لم يكن بعيداً عنه. لوضع خاتمة لهذه الحرب فوراً وجنب الفريقين ما لايحصى من المآسي والخسائر. إلاّ انه رفض التعاون، وترك [ميثريدات] يفلت من الفخّ هازئاً بمحاولات [فمبريا]. ولسنا ندري ما الذي دفع [لوكوللوس] الى هذا؟ أهو حرصه على قدسية الصداقة التي تربطه بسيللا ووضعها فوق كلّ اعتبارات المنفعة الشخصية والمصلحة العامة. أم لأنه كان يكره حطّة [فمبريا] وتسلفه، فقد أشتد مقته له لأنه ما حقق لنفسه ارتقاءً إلاّ عن طريق موت صديقه وقائده الذي وحصل منذ عهد قريب؟ أم لأن آلهة الحظّ تعمدت انقاذ [ميثريدات] من هذا المآزق آنذاك. لتبقيه خصم المستقبل وعلى اية حال نجا [ميثريدات] هازئاً [بفمبريا].

ووفق [لوكوللوس] وحده الى هزم اسطول الملك في معركة بحرية بالقرب من [ليكتوم Lec-tum] في [طرواس Troas]. وبعدها ادرك ان [نيوبطليموس] يكن له قرب [تينيدوس Te-nedos] باسطول أكبر من الأول. فركب متن غاليون رودسي ذي خمس مصاطب تجذيف، يقوده [داماغوراس Damagoras] وهو رجل ذو خبرة عظيمة ومن انصار الرومان - وأبحر قبل السفن الأخرى. فلحق به [نيوبطليموس] وهو يتميز غيظاً بسفينة القيادة آمراً ربّانها بالهجوم عليه بكل شدة ولتخوف [داماغوراس] من ضخامة السفينة المهاجمة ومانة جؤجؤها. ولادراكه الخطر في مقابلته صدراً لصدرٍ، انحرف عنه بسرعة ودار على عينه وأمر الملاحين بتوجيه السفن الى الأمام على ان تكون مقدمتها هي المعرضّة للهجوم. فتلقى صدمة عنيفة جداً، خفف من حدتها وقوعها على القسم الغائص من السفينة فلم تلحق به ضرراً يذكر وفي غضون ذلك ادركت [لوكوللوس] بقية الأسطول. فأصدر أمراً بالدوران لمواجهة العدوّ وانقض عليه وارغمه على الفرار وجدّ في أثر [نيوبطليموس].

بعد هذا توجه الى [سيللاً] الذي كان في [الخيرسونيز] يتأهب لاجتياز المضيق فكان قدومه في الوقت المناسب خيرعون له على نقل وحداته بأمان تام.

تمّ عقد الصلح بين الطرفين المحتربين، وأقلع [ميثريدات] الى البحر الأسود. وقام [سيللا]

بفرض عشرين ألف تالنت ضريبة تجبى من سكان آسيا، وعين [لوكوللوس] مشرفاً على جبايتها، وصكها نقوداً. وكان ارتياح المدن التي وقعت تحت حكم [سيللاً] الصارم ليس بالقليل حين انيط هذا المنصب الكريه الثقيل التبعات برجل مثله لطيف معتدل فضلاً عن نزاهته وعدله المأثورين. على أن [الميتيليينيين Mitylenæans] أعلنوا العصيان المطلق، وكان [لوكوللوس] يودّ من صميم قلبه أن يعدلوا عن تمردهم ويعودوا الى أعمالهم، قانعين بعقوبة بسيطة للعمل الذي ارتكبوه في قضية ماريوس لكنهم ظلوا سادرين في غيهم، وكانوا بذلك كالساعي الى حتفه ودماره بظلفه. ولم ير لوكوللوس بُداً من الزحف عليهم، فهزمهم في موقعة بحرية وحاصرهم في مدينتهم وقطع عنهم المؤون والارزاق. وبعدها فكرّ في حيلة، وساق جيشه في وضح النهار متجهاً نحو [ايليا Elæa] متظاهر بالرحيل عنهم الأ انه عاد سِراً تحت جنح الظلام وربض في مكمن قريب من المدينة لا يأتي بحركة. فما لبث الميتيليينيون ان خرجوا من المدينة دون حذرٍ أو نظام وانقضوا على المعسكر الروماني المهجور لنهب ما فيه فباغتهم بالهجوم وأسر منهم عدداً كبيراً. وقتل خمسمائة ممن رفض القاء السلاح والاستسلام. وخرج بستة آلاف من الرقيق وبغنائم ثمينة جداً.

ولم يسهم [لوكوللوس] في ايّ من الحروب والفتن التي خلقها [سيللا] و[ماريوس] في ايطاليا. فقد شاءت له العناية الالهية البرّة به ان تبقيه منشغلاً في آسيا. على انه كان من حزب [سيللاً] وانصاره، متحمساً له أكثر من ايّ صديق آخر. وقد أهدى اليه سيللاً تعليقاته التي كتبها عن حياته تذكاراً وتأييداً لتلك المودّة كما اسلفنا، وزاد فاوصى عند موته أن يكون قيماً على ابنه القاصر، متخطياً [پومپي] بهذا التكريم. وكان هذا سبباً للتباغض والخلاف بين القائدين كما يبدو. فكلاهما شاب وكلاهما من طلابّ المجد والسلطان.

بُعيد وفاة [سيللاً] انتخب [لوكوللوس] قنصلاً، بزمالة [ماركوس كوتّا Marcus Cotta] في حدود الاولمپياد المائة والسادس والسبعين. ووضعت مسألة الحرب الميثريداتية على طاولة البحث والمناقشة. وكان من رأي [ماركوس كوتّا] انها لمّا تنته بعد، وان فترة الهدوء الحالية هي فترة هدنة واستعداد ليس الأ. ولما حان وقت أختيار حكام الاقاليم بالقرعة، رساعلى لوكوللوس حكم الغاليين الذين يسكنون الألب. وكان اقليماً هادئاً لا عمل يذكر فيه للقائد الطموح. على أن مضاضته من هذا التعيين، لم يكن شيئاً مذكوراً بالنسبة الى استيائه من النجاح الذي اصابه [پومپي] في اسپانيا. فلو انتهت الحرب الاسبانية بسرعة لكان من المحتمل ان ينتخب [پومپي] قائداً عاماً للقوات التي تواجه ميثريدات ولن يجد اي شخص غيره اية فرصة لمنافسته في هذا المنصب بعد الشهرة التي حازها في الميدان الإسباني؛ ولذلك

تحمس له لوكللوس عندما ارسل بطلب موضحاً انه سيظطر في حالة رفض طلبه، الى مغادرة كل من اسپانيا و[سرتوريوس] والمجيء بكلّ قواته الى ايطاليا. ولم يدخر [لوكوللوس] جهداً في السعي الى تحقيق سؤله لكيلا يبقى له حجّة في العودة الى الوطن طوال فترة قنصليته. فلو قُدر [لپومپي] أن يعود الى ايطاليا بجيشه فسيكون كل شيء ملكاً ليمينه ولن يجرؤ أحد على معارضته في اي رغبة.

وكان يوجد في ذلك الزمن زعيم من أقوى الزعماء الشعبيين نفوذاً يُدعى [كثيغوس Cethegus]، ينزله الجمهور منزلة عظيمة لمعرفته طرق ارضائه وادخال المسرة الى نفوسها الدهماء منه بالقاء الخطب واداء الادوار التمثيلية دائماً. ولم يكن بينه وبين [لوكوللوس] أية موده فذاك يبغضه، وهذا لا يخفي اشمئزازه من حياة الدعارة والفجور التي يحياها ذاك ولذلك كانت الحرب بينهما علنية لا تتستر تحت قناعٍ. ووجد الى جانب [كيثيغوس] زعيم شعبيّ آخر يُدعى [لوشيوس كوينتيوس] وضع نصب عينه حبك المؤمرات للاطاحة بالحكم الذي وضعه [سيللا] وخلق كل أسباب الفتن والقلاقل للوصول الى غرضه هذا، الاّ أن [لوكوللوس] تمكن بالتنبيه والارشاد على النطاق الشعبي العام، وباسداء النصح والتحذير بصورة خصوصية، من إحباط مسعاه وكبح جماحه، وبهذا حال دون شرّ عظيم قبل أن يُخرج شطئه بحكمته ويقظته.

وفي هذه الفترة بالذات ورد نبأ موت [اوكتاڤيوس] حاكم أقليم [كيليكيا]، وكان منصبه هذا مطمح انظار الكثيرين. فراح طلابه يتقربون من [كثيغوس] ويتزلفون اليه، لأنه خير عون يمكن أن يلتمسه الطامح منهم للظفر بالمنصب الشاغر. ولم يكن [لوكوللوس] يعلق أهمية كبيرة على [كيليكيا] نفسها إلاّ لأن فوزه بها سيحول دون تقدم اي شخص آخر عليه في الترشيح لمنصب القيادة العامة في الميدان الميثريداتي، بسبب مجاورته لأقيلم [كپادوكيا]. وهذا ما حمله على بذل اقصى المساعي والجهود لنيل حاكمية الأقليم ليجد نفسه منساقاً الى وسائل ليست نزيهة، ولا ممدوحة بقدر ما هي غير مجدية، خلافاً لما طبع عليه من خلق، ونزولاً الى حكم الحاجة.

وكان يعيش في روما امرأة تدعى [پريچيا Præcia] أشتهرت بذكائها وجمالها الخارق؛ وفيما سوى هذا لم تكن أكثر من عاهرة عادية قرنت الى سحر شخصيتها، صفة المرء الذي يتحرى خدمة اصدقائه بكلّ أخلاص ويتفانى في حبهم ويروج حاجاتهم ويحقق مطالبهم باستعمالها نفوذ من يرتاد مجلسها. فنالت سلطاناً كبيراً وآضت كلمتها مسموعة. واتفق أن [كثيفوس] وقع أسير فتنتها فهام بها حُبّا وكان اذ ذاك أشهر رجال روما سمعة وسلطاناً. فأصبح وهو لا يعطي لها أمراً وجعل كل السلطة تسير في ركابها اذ لم يكن يتقرر شيء من

أمور الدولة، وليس لكيثغوس كلمة فيه. ولم يكن يتصرف هو في شيء إلاّ و[لپريچيا] قول فيه.

كسب [لوكوللوس] هذه المرأة بالتقرب منها وبالهدايا (وانه لثمن عظيم يدفعه [لوكوللوس] لهذه المرأة البارزة القديرة، ليكونا شريكين في قضية واحدة!). فما لبث [كثيغوس] أن صار صديقاً له، يستخدم أقصى نفوذه ليضمن له منصب الحاكم في [كيليكيا].

بعد أن عين [لوكوللوس] في كيلكيا لم تعد به حاجة الى [كثيفوس] و[پريچيا] فقد تمّ بالاجماع اختياره لتولي القيادة العامة في الحرب ضد ميثريدات، ولا غرو فليس ثم من يدانيه مقدرتة في ادارتها ادارة ناجحة، وهذا [پومپي] ما زال مشتبكاً مع [سرتوريوس]، وذاك [ميتللوس] لم تعد سنّه الكبيرة تؤهله للخدمة وليس غيرهما من يصلح لمنافسة [لوكوللوس] في الكفاءة والأهلية القيادية. أمّا زميله [كوتّا] فقد تقررّ - بعد مناقشة طويلة في مجلس الشيوخ - ارساله على رأس اسطول لحماية الـ[پروپونطس Propotis] والدفاع عن [بيثينيا].

وخرج [لوكوللوس] من ايطاليا مقلعاً الى آسيا وقد زُودّ بفرقة تحت أمرته المباشرة. فبلغ مقره وتسلّم قيادة الوحدات المرابطة وكانت تتألف من رجال أقعدهم التحلل الخلقي. والهاهم السلب والنهب عن معاناة الضرب والطعان. والى جانبهم كان هنالك الجنود الفمبريون، لا يسلسون قيادهم لأحد ولا يخضعون لأي شكل من أشكال النظام والضبط العسكري. وهم الذين أغتالوا [فلاكوس] القنصل والجنرال زمن قيادة [فمبريا]، ثم غدروا [بفمبريا] انتصاراً [لسيللاّ]. لفيف من الفوضويين لا يقيمون وزناً لنظام، ولا يعرفون للقانون معنى، تمرسوا في القتال وخبروا ميادين الحرب وحلبوا أشطرها ليس الا. ادرك هؤلاء منذ البداية من أي معدن صُبّ قائدهم الجديد فأسلموا له القياد، وما مرت وجيزة حتى كبح جماح هؤلاء وعوّد أولئك على الطاعة والخضوع للضبط للعسكري، فاصبحوا جميعاً وهم أطوع له من بنانه بينما كانوا في السابق يُرغّبون في القتال ترغيباً، ولا يدخلون معركة بأمرٍ من أحدٍ وانما بمحض أختيارهم ووقت شاؤا.

يمكن اجمال الموقف الحربي عند العدوّ بالصورة الآتية:

انقض [ميثريدات] في مبدأ الأمر على الرومان وهو مفعم غروراً وتفاخراً كالسوفسطائيين، بجيش عرمرم ضعيف عقيم لا قدرة له على تحقيق اي شيء، وليس فيه غير روعة منظره فلقي هزيمة نكراء شنعاء ،لقن درساً قاسياً للمعارك القادمة، ووجد منها أن كثرة العدد لا تقرر

مصير حربٍ فعمد الى تقليص جيشه الى حدٍ مناسب نافع. وأستغنى عن ذلك الخليط الدائم الصخب والضجيج من القبائل البربرية المتعددة الألسن واللُغى، بحليهم الذهبية وجواهرهم التي كانت مصدر الاغراء العظيم للعدوّ وحافزاً له على الانتصار أكثر مما كانت عامل سلامة لأصحابها وزوّد افراد جيشه بسيوف عراض كسيوف الرومان، وتروس كبيرة وتخير من الخيل التي لا ميزة لها غير جمال المنظر. ودربّ مائة وعشرين ألفاً من المشاة على نظام الكراديس الرومانية (فلانكس)، وعززهم بستة عشر ألف فارسٍ، تساندهم وحدة آلية مكونّة من عربات حربية مسلحة بالأسنة لا تقل عن المائة. وانزل الى البحر اسطولاً لا تثقل سفنه المقاصير المذهبة والحمامات الباذخة والأثاث الناعم؛ بل شحنها سلاحاً ومقذوفات وغيرها من مستلزمات القتال، ثم انحدر بكلّ هذه القوة الى [بيثينيا]، فاستقبله أهلها بأكثر من السرور والترحاب ووجدت آسيا كلها تقريباً في عودته خلاصاً وبعثاً جديداً من البؤس الشديد الذي كانوا يقاسونه على يد المرابين الرومان وجباة الضرائب. فهؤلاء جردوا السكان من كل ما يملكون وسلبوا آخر لقمة من أفواههم، مثل غول الهاريي[1]. وكان [لوكوللوس] في حينه لا يجسر على كف اذاهم وقطع دابرهم. إلاّ انه استعمل معهم التهديد والوعيد على قدر امكانة ليجعلهم أقلّ شراً واشتطاطاً ليحول دون فتنة عامة كانت بوادرها ماثلة للعين في كل مكان. إلاّ انه طردهم من البلاد كافة فيما بعد، لما تمكن منه.

وفي وقت الذي كان [لوكوللوس] منصرفاً بكليته الى هذه الشؤون وجد [كوتّا] الظروف موآتية للعمل، فتأهب لمعركة مع [ميثريدات] ووردته اثناء ذلك انباءُ متواترة عن دخول [لوكوللوس]، فريجيا في طريقه الى مقابلة العدوّ. فتوهم بأن النصر بين يديه فعلاً، ولخوفه أن يشاركه زميله في موكب نصرٍ عجل الدخول في المعركة وحده. فلحقت به هزيمة بحرية وبريّة وخسر ستين سفينة بملاحيها واربعة آلاف من المشاة، وأرغم على التقهقر والاحتماء باسوار [خلقيدون] ليُحاصر فيها. وقعد ينتظر الغوث من [لوكوللوس]. وكان ثمّ من نصح هذا بالتخلي عن نجدة [كوتا] وتركه لمصيره، ومواصلة الزحف الى الأمام والتوغل في مملكة [ميثريدات] التي كانت سائبة لا جيش يحميها. ولم يقبل الجنود بالتوجه لفك الحصار عن [كوتا] لسخطهم عليه، واستنكارهم سوء تصرفه الذي ادّى به الى خسارة جيشه ولأن ذلك يعيقهم عن الفتوح التي تنتظرهم دونما قتال أو مشقة. إلاّ أن [لوكوللوس] ارتأئ خلاف ذلك. وقال في خطبة وجهها الى الجنود. انه يفضل انقاذ مواطن روماني واحدٍ على الفوز.

(١) «Harpy» غول خرافي في الميثولوجيا الاغريقية. له وجه امرأة وجناح طائر ومخالبه، يعيش على نهش لحوم البشر.

بعد هذا راح [لوكوللوس] يفكّر في الوضع الحربي مليّاً، فتوصل الى انه ما من قوة بشرية مهما اوتيت من مالٍ تستطيع القيام باعاشة هذا العدد الحاصب من مقاتلي [ميثريدات] زمناً طويلاً وهم في خطّ القتال يواجهون العدوّ. ثم أمر باحضار بعض الأسرى امامه وسأل أولهم كم عدد رفاقه في الوحدة التي ينتمي اليها. وكم كان لديهم من ارزاق قبل أسره، وبعد اجابته، أمرهُ ان يتأخر، والقى السؤال نفسه على أسير ثان وثالث... وبعدها أخذ يحسب بالتقريب كميات الارزاق التي تملكها قوات [ميثريدات] في ذلك الوقت، وقدّر بالنتيجة ان العدوّ سيكون بحاجة الى ارزاق بعد مرور ثلاثة ايام أو أربعةٍ، وهذا ما رفع من ثقته بعامل الزمن. واتخذ الاجراءات اللازمة لملء معسكره بمواد الاعاشة والاقوات وقنع بمراقبة عدوّه الجائع وهو ممتلىء البطن موفور الطعام.

ودفع الجوع [بميثريدات] الى مهاجمة الكيزيكينين Cyzicenians. فمزقهم شر ممزق وفقدوا ما لا يقل عن ثلاثة آلاف مواطن، وخسروا عشر سفن. وأغفل [ميثريدات] [لوكوللوس] متخذاً من الليل الحالك الماطر ستاراً للانسحاب من الميدان بعد العشاء مباشرة واتجه الى المدينة المدحورة فبلغها صباحاً وعسكر أمامها فوق جبل [ادراست Adraste] ولما ادرك [لوكوللوس] ما جرى، جَدّ في آثره، إلا انه حرص على الا يدركه بقواته وهي مختلة النظام وانما عسكر قرب ما يدعى «بالقرية الثراقية» وهو موضع ممتاز يشرف على كل المسالك والطرق التي لا ترد من سواها الارزاق الى معسكر ميثريدات. وبعد أن فكر في الموقف ملياً رأى ان الوقت قد حان لأطلاع جنوده على خطته، وعلى أثر اكمالهم تحصين المعسكر وسائر الأعمال الأخرى، أصدر أمراً بالاجتماع، وقال لهم بلهجة الواثق المتأكد انه سيضع بين ايديهم نصراً مؤزراً لا تسفك فيه قطرة دمٍ واحد، وان ذلك سيتحقق في غضون الأيام القلائل القادمة.

القى [ميثريدات] الحصار على مدينة الكيزيكنيين مستخدماً عشرة معسكراتٍ بريّة. واحتل بسفنه المضيق الذي يقع بين المدينة واليابسة فاتمّ تطويقها من كل جهةٍ. على انها كانت قد أستعدت للحصار المضروب ومواجهة اي هجوم وآلت على نفسها ألاّ تتخلى عن حلفائها الرومان. على أن القلق الشديد استبد بهم لجهلهم موقع جيش [لوكوللوس]. وانقطاع اخباره عنهم، في الوقت الذي كان على مرمى النظر منهم. إلاّ أن الميثريداتيين، أوهموهم بأن المعسكر الروماني الرابض فوق التلال هو أحد معسكراتهم وقالوا لهم:

- أترون أولئك؟ انهم احتياطيونا من الأرمن والميديين الذين ارسلهم [ديكران] نجدةً [لميثريدات]!

فطاش صوابهم، وفقدوا كلّ ايمان بخلاصهم، وايقنوا بالهلاك على يد هذا العدد الهائل من

المحاربين الذين يحيطون بهم، حتى لو تمكن [لوكوللوس] من شق طريقه اليهم.

واول من جاءهم بنبأ وصول [لوكوللوس]، هو [ديموناكس Demonax] الساعي الذي ارسله [ارخيلاوس] اليهم، إلاّ انهم لم يصدقوه، وظنوا الحكاية مخترعة من أساسها قصد مرسلها رفع معنوياتهم ليس غير. وأتفق في تلك الأثناء أن فتى أسيراً تمكن من الهروب ودخل المدينة فاحضروه وسألوه من مكان [لوكوللوس] فقهقهه ضاحكاً مما توهمه مزاحاً، لكن لما وجدهم جادّين في السؤال، مَدّ اصبعه مشيراً به الى المعسكر الروماني. فصدقوا قول الساعي وأشتدت عزماتهم وقوي ايمانهم. وكانت بحيرة [داسكيليتيس Dascylitis] المجاورة صالحة للملاحة بسفن صغيرة الحجوم فأختار [لوكوللوس] أكبرها وسحبها الى اليابسة وحملها على عربة وجاء بها الى البحر فأنزلها وملأها جنوداً وانطلقوا بها سِراً في دجنة الليل حتى وصلوا المدينة ودخلوها بأمان.

ويظهر ان الأرباب أعجبوا بولاء الكيزيكيني وصمودهم. نشأت ارادتهم أن يظهروا لهم بعض الدلائل السماوية على نجاتهم، لتقوية معنويات. ومن ذلك ما وقع في عيد [پروسپرين]. فقد ادركت الحاجة الى عجلٍ لتقديمه قرباناً. ولم يجدوا واحداً تحت متناول يدهم، فقاموا بعمل تمثال لعجل من العجين ووضعوه امام المذبح. إلاّ ان العجل الأصلي المخصص للذبيحة الذي كان في ذلك الوقت يرعى مع قطعانهم في الجانب الآخر من المضيق، انفصل على القطيع والقى بنفسه في البحر وسبح وحده الى المدينة مقدماً نفسه ذبيحة. كذلك ظهرت هذه الربّة ليلاً لأرسطاغوراس [Aristagoras] كاتب عدل المدينة وخاطبته بقولها:

- ها اني جئت وجلبت معي نافخ الناي الليبي. لأقيمه ضدّ نافخ البوق اليونطي. فحث مواطنيك على الثبات والصمود.

وفيما كان الكيزيكينيون حائرين في معنى هذه العبارة اذا بريح مفاجئة تهب على البحر وتؤدي الى هياج امواجه، وكان أول آثارها ان تحطمت آلات الحصار والثغر الملكية التي ركزت على أسوار المدينة وهي من مخترعات [نيقونيدس] الثسالي العجيبة. وأعقب ذلك أمور أخرى. فقد جاء في أعقاب تلك الريح، إعصار جنوبي خارق للعادة فحطم بوقت وجيز جداً كل المتاريس المقامة امام الأسوار وهوّت البرج الخشبي الذي بلغ ارتفاعه مائة كيوبت فسقط على الأرض منحطماً. وقيل أن [ايليوم منيرڤا Ilium Menerva] ظهرت لكثيرين في تلك الليلة، والعرق ينزل صدبيباً من جسمها وأرتهم ثوبها ممزقاً في أحد المواضع وخاطبتهم بقولها انها جاءت لتوّها من نجدة الكيزيكينيين. والسكان الى يومنا هذا يشيرون الى نصب قائم في المدينة نقشت عليه الحكاية مع بيان رسمي.

وظلّ [ميثريدات] زمناً لا يدري النقص الذي يعانيه معسكره في الارزاق غباوةً من ضباطه وإهمالاً لأن صمود الكيزيكينيين في وجهه كان يحتلّ كل تفكيره. ثم ما لبث غروره وعنجهيته ان ارغما في التراب عندما وجد جنوده يتضورون جوعاً ويضطرون الى أكل لحوم البشر. في حين ظلّ [لوكوللوس] رابضاً في مكانه لا يريد متابعة الحرب لمجرد الظهور؛ أو على سبيل التلهي كالتمثيل المسرحي. وانما «جعل مجلس الحرب في البطن» على مأثور القول. وبذل كل جهوده لقطع خطوط تموينهم وحبس الارزاق عن عدوه. ثم ان [ميثريدات] انتهز فرصة انشغال [لوكوللوس] في اقتحام أحدى القلاع وبعث الى [بيثينيا] بكلّ خيالته تقريباً وكل ما عنده من ثيران النقلة ومن اقعدته الحرب أو أعجزته من المشاة. ولما أخطر [لوكوللوس] بهذه الحركة قفل راجعاً الى معسكره والوقت ليل وخرج في الصباح الباكر غير عابي برداءة الطقس وزفيف الريح الشديد. جاداً في اثر الرتل بعشرة ألوية من المشاة وكل مالديه من الفرسان واستمر يقفو اثرهم تحت الثلوج المتساقطة وفي البرد القارس مما أدىّ الى عجز الكثير من الجنود عن السير، على أنه ادرك العدوّ قرب نهر [رنداقوس Rhyndacus] وأوقع بهم مقتلة عظيمة. حتى أنه لم يبق امرأة واحدة من مدينه [ابوللونيا] إلا خرجت بحثاً عن الأسلاب ونزع ما على القتلى. ولا ريب في ان عدد القتلى كان جد كبير، فضلاً عن اغتنام ستة آلاف رأس من الخيل وما لايحصى من حيوانات النقل وما لا يقل عن خمسة عشر ألف أسيراً. وكل هذا عاد به واستعرضه امام معسكر العدو. وهنا لا أستطيع كتم استغرابي من [سااللوست] الذي ذكر أن الرومان شاهدوا الجمال لأول مرة هنا. وبهذا لا يقرّ بأن أولئك الذين دحروا [انطيوخوس] تحت أمرة [سكيبيو] منذ زمن بعيد قد رأوا هذا الحيوان ولا أولئك الذين قاتلوا [ارخيلاوس] بالقرب من [اورخومينوس] ومن [خيرونيا] في زمن متأخر.

وعلى أثر هذه الهزيمة النكراء صحّ عزم [ميثريدات] على ترك ميدان القتال والفرار بجلده. فأرسل قائد أسطوله [ارسطونيقوس Aristonicus] الى بحر اليونان صرفاً لأنظار لوكوللوس عنه وتحويلاً لاهتمامه الى جهة أخرى، إلا أن خبر رحيل هذا القائد بلغه حال بدئه السفر فتربص به وقبض عليه فوجد في حوزته عشرة آلاف قطعة ذهبية كان قد زود بها لرشوة بعض رجال الجيش الروماني.

بعد ذلك توجه [ميثريدات] الى ساحل البحر وترك جيشه في عهدة ضباط من المشاة، فلم يمهلهم [لوكوللوس] وانقض عليهم عند نهر [غرانيقوس Granicus] وقتل عشرين ألفاً وأخذ عدداً كبيراً من الأسرى. وقيل ان المجموع الكليّ لقتلى ميثريدات من المحاربين، وخدم الجيش واتباعه خلال كل مراحل هذه الجملة، شارف الثلاثمائة الف نفس.

وفتحت مدينة [كيزيكوس] ابوابها بوجه [لوكوللوس] مرحبة مسرورة وأظهر له الأهالي من آيات الامتنان والاعتراف بالجميل ما يوازي مأثرته، ويجدر بها. وأمر بتجميع الاسطول هناك، ثم أنطلق له فزار سواحل [الهللسپونت]، ثم يمّم شطر [طروادة Troas] وحَلّ في معبد [ڤينُس] وهناك خيل له انه رأى تلك الربة تأتيه في الحلم وتخاطبه قائلة:

«أيها الأسد الهزبر أتنام والظباء منك قريبة؟»

فهبّ من نومه ونادى اتباعه والليل مخيم فحضروا وقصّ عليهم رؤياه. وعلى أثر ذلك دخل بعض الإيليين وأبلغوه بأن ثلاث عشرة بارجة من ذوات الطبقات الخمس شوهدت وهي تقلع من الميناء الأخائي متوجهة الى [لمنوس]. فنهض حالاً وانطلق في البحر يتعقبها وما لبث ان ادركها وأستولى عليها وقتل قائدها [ايسيدورو ں Isidorus]. ثم جَدّ في أثر عمارة بحرية أخرى فادركها وهي تدخل الميناء والملاحون يسحبون سفنها الى الساحل. إلاّ ان ذلك لم يمنعهم عن القتال وهم في داخلها. وكبدوا [لوكوللوس] خسائر ليست قليلة، لأنه سفنه لم تجد فسحة للدوران والمناورة فعجزت عن مسهم بأذى. زد على هذا أن سفن الرومان كانت طافية في حين سُحبت سفن العدو الى اليابسة وربضت على رمل الساحل آمنة. وبعد محاولات كثيرة يمّم [لوكوللوس] شطر موضع الرسى الصالح الوحيد في الجزيرة، وأنزل الى البرّ نخبةً منتقاة من جنوده، عاجلوا العدو بهجوم من خلف وقتلوا بعضهم وأجبروا البقية على قطع حبال سفنهم ودفعها الى الماء فراراً من العدوّ إلاّ أن حابلهم أختلط بنابلهم واصطدمت السفينة بالسفينة، حتى اصبحوا تحت رحمة اسطول [لوكوللوس] وصرع الكثير منهم في هذه المعركة. وكان بين الأسرى [ماريوس] الأعور الذين بعث به [سرتوريوس]. ومما يذكر أن [لوكوللوس] كان قد اصدر أوامر مشددة لجنوده بالابقاء على كل محارب من العدوّ ذي عين واحدة مهما كلفهم الأمر، يريد أخذ هذا الرجل حيّاً ويذيقيه ميتة الخزي والعار.

وبعد هذا أسرع يطارد [ميثريدات]. وكأن يأمل ان يجده في [بيثينيا] فلقي [ڤوكونيوس Voconius] عائداً يجرّ اذيال الخيبة، وكان [لوكوللوس] قد أرسل هذا القائد على رأس قسم من الاسطول، للحيلولة دون فرار [ميثريدات]، على أن يكون هدفه [نيقوديميا] ألاّ انه تأخر في [ساموثراس] متسكعاً لاهياً بالأعياد ومنشغلاً بتقبل الأسرار الدينية، فغفل عن [ميثريدات] وراحت الفرصة، اذ بادر الملك بالعبور بكلّ اسطوله فلم يجده [لوكوللوس] حيث أملّ. الا أن عاصفة هو جاء ادركته وهو متجه الى الپونطس فشتتت شمل اسطوله وأغرقت عدداً من سفنه في عرض البحر، والقى الموج بحطامها على الساحل المجاور، أمّا السفينة التجارية التي كانت تقلّه فقد شقّ على ربابنتها جرّها الى الساحل لضخامتها ولارتفاع

الامواج، ولازديادها ثقلاً بتسرب المياه الى قاعها حتى أشرفت على الغرق. فأنتقل منها الى سفينة قرصان ووضع نفسه تحت رحمتهم ومن العجيب انه تمكن من النجاة والوصول سالماً الى [هراقليا] في [البونطس].

ومع أن لهجة الفخر والاعتزاز بالنفس التي استخدمها [لوكوللوس] في مخاطبة مجلس الشيوخ كانت تنطوي على استهتار وتسرع، إلاّ انه لم ينجم عنها سوء مطلقاً. وملخص الحكاية ان المجلس قرر رصد ثلاثة آلاف تالنت له ليبني بها أسطولاً. فردّها اليهم قائلاً انه قادر على هزم [ميثريدات] بحراً بما هو متيسّر له من سفن الحلف ولا حاجة الى انفاق هذا المبلغ الطائل. وحقق قوله هذا بمساعدة الآلهة وعنايتها اذ قيل أن سخط [ديانا بريابوس Dai-na Priapus] هو الذي نكب رجال بونطس بالإعصار العظيم المدمرّ لأنهم نهبوا معبدها وقلعوا تمثالها من موضعه.

وتألب الناصحون على [لوكوللوس] بارجاء الحرب فترة من الزمن فلم يصغ اليهم وزحف عبر [بيثينيا وغلاطيا] نحو بلاد الملك نفسها. وكانت اقواته في مبدأ الأمر قليلة حتى أن الجيش استخدم ثلاثين ألف غلاطيّ يحمل كل منهم بوشلاً واحداً من القمح على ظهره ويسيرون في أعقابه إلاّ أن الزاد والمؤون توفرت بكثرة عندما مضى قدماً في زحفه مستولياً على كل ما صادفه. وبلغ الرخاء في الجيش حداً أن صار الثور الواحد يباع في المعسكر بدراخما لا غير، والعبد يُشرى بأربعة فقط. ولم تعد للأسلاب الأخرى قيمة، وكانوا يهملونها أو يخلفونها وراءهم. اذ لم يكونوا يعرفون كيف يتخلصون مما لديهم، بعد أن اتخموا بالمال والغنائم. إلاّ انهم توغلوا كثيراً بغزوات الخيالة حتى شارفوا [ثميسكيرا Themiscyra] وسهول [ثرمودون]؛ وقصروا فتوحهم على الأقاليم دون المدن. فبدأوا ينقمون على [لوكوللوس] ويتضايقون من أسلوبه هذا وقال:

- ما الذي يجعله يأخذ هذا العدد الكبير من المدن صلحاً، وكيف يقبل استسلامها ولايفتحها عنوة؟ وكلها غنيّ زاخر بالأسلاب والآن، هاكم كيف انه خلف [أميسوس Amisus] وراءه هي مدينة ثرية حافلة بكلّ ما هو ثمين، يسهل فتحها بعد حصار قصير. ان هذا الزحف لن يقودنا الا الى المجاهل الخلقيدية والطيبارينية، وكل هدفه قتال [ميثريدات].

لم يكن [لوكوللوس] آنذاك يفكر كثيراً بسوء العواقب وخطورة النتائج. ولذلك لم يعر اذناً صاغية لما قيل واستهان بالنصائح. وكان يردّ على من يلومه في تباطئه، واضاعته الوقت في انتصارات ثانوية تافهة وافساحه المجال لميثريدات لتعبئة جيش جديد بقول المعتذر لنفسه:

- ذلك هو جوهر خطتي. أن أربض ساكناً واتوسل بازجاء الوقت وتبديده، فأنا أريد ان تزداد قوته ويحشد جيشاً كبيراً لأن ذلك يغريه على الصمود في وجهنا والدخول معنا في معركة، لا أن يستمر في انسحابه. اما ترون المجاهل المترامية والبوادي القفراء التي تنداح أمامنا؟ القفقاس ليست بالبلاد البعيدة، وجبالها الشمّ العظيمة كفيلة بأخفاء عشرة آلاف ملك لا يريد الدخول في معركة. وليس بين [كابيرا Cabira] وأرمينيا الاّ مسيرة ايام قليلة وهناك يحكم [ديكران] ملك الملوك ويجمع بين يديه قوة وسلطاناً عظيمين مكّناه من ابقاء الفرثيين في عقر دارهم لا يجرأون على الخروج حدودهم الضيقة شبراً واحداً، ومن نقل مدنٍ أغريقية كاملة الى بلاد مادي. وفتح بلاد سورية وفلسطين. وقطع رقاب الملوك المنحدرين من سلالة [سلوقوس] الملكية وسبي زوجاتهم وبناتهم سبياً. هذا الملك هو ختن [ميثريدات] وقريبه ولا بدُ من أن يرحب به ويرفع سلاحه في وجهنا مناصرة له ودفاعاً عنه. وهكذا ترون: بينا نحن نحاول جهدنا القضاء على ميثريدات. سنخاطر بادخال [ديكران] ميدان الحرب الى صف عدونا، وقد سبق له ان حاول استنباط حجّة تبرر له بتّ ما بينه وبيننا من أسباب الصداقة. لكنه لم يجد مثلنا في الإخلاص، والحرص على العون عند الحاجة. فما الذي يجعلنا ندفع [ميثريدات] الى الاستعانة بهذا المورد العظيم القوى وهو الذي لم يهتد الى اية وسيلة مجدية في قتالنا، وهو الذي ما زال يستنكف عن طلب العون من [ديكران]؟ وكيف لا ينبغي لنا اتاحة الفرصة له حتى يحشد جيشاً جديداً ويستعيد جديداً ويستعيد الثقة بنفسه، وعندئذ نعود لقتال [الكولخيين Colchians] والطيبارينيين وما أكثر الهزائم التي الحقناها بهم - متحاشين الحرب مع الماديين والأرمن؟

تلك هي الأسباب التي جعلت [لوكوللوس] يعسكر امام [اميسوس] ويدير حركات الحصار ببطءٍ متعمد، وبعد أن انصرم من الشتاء أكثره؛ ترك الأمر بعهدة القائد [مورينا Murena] وخرج للقاء [ميثريدات] على موعدٍ في [كابيرا] وكان الملك قد أستعدّ لقتال الرومان باربعين ألف مقاتل واربعة عشر ألف فارس وضع كل ثقته فيهم. وعبر بجموعه نهر [ليكوس Ly-cus] وتحدّى الرومان ان ينزلوا لمقابلته في السهل. ثم اشتبكت خيّالة الطرفين ودارت الدائرة على الرومان. وحُمل الى [ميثريدات] أسير جريح يعاني آلاماً شديدة من رضوضه وهو روماني سَرّي ذو مكانة يدعى [پومپونيوس Pomponius] فسأله الملك «ايرضيه أن يكون صديقاً له، ان منحه حياته؟» فأجاب الأسير:

- أرضى إن صالحت الرومان، وإلاّ فأنا عدوّ لك!

فكانت دهشة [ميثريدات] عظيمة ولم يلحق به أذىً.

سيطر العدوّ بخيالته على كل السهل، وشاع في نفس [لوكوللوس] بعض الخوف والتردد من دخول منطقة الجبال الشاهقة الصعبة المرتقى ذات الغابات الكثيفة. إلاّ ان الحظّ حالفه ببعض الأغريق الذين كانوا قد هربوا ولجأوا الى مغارة في تلك الجبال منذ زمن. وعند القبض عليهم واحضارهم امامه تكفل كبيرهم ويُدعى [ارطميدوروس Artemidorus] بان يدله على مقر منيع لجيشه فيه حصن يشرف على [كابيرا] نفسها. فأسلم [لوكوللوس] أمره اليه واصدر أمره بالمسير ليلاً على نور المشاعل وتم له عبور الشعب الجبلي بكلّ امان وسيطر على الموضع المنشود وما ان اصبح الصباح حتى كان يُطلّ من فوق على اعدائه المعسكرين في السهل.

وبات في وضع ممتاز يسهل وعليه النزول لو شاء القتال. ويصعب قتاله فيه لو آثر القعود. على ان الطرفين رغبا عن القتال وفضّلا التريث. وقيل ان لفيفاً من اتباع الملك خرجوا للصيد وبيناهم يجدون في اثر وعلٍ خطر ببال بعض الرومان اعتراض سبيلهم فخرجوا عليهم وأشتبكوا معهم في قتال اجتذب المزيد من رجال الجمعين. واستظهر رجال الملك وأخذوا يتعقبون الرومان الفارين فأخذت رفاقهم في المعسكر العزّة، وهرعوا الى [لوكوللوس] يتوسلون به أن يقودهم خارج المعسكر ويطلق اشارة القتال، فلم يقبل وأمرهم بان يلبثوا في مواضعهم، مبرهناً لهم على أهميّة ضبط النفس وحضور بديهة القائد واستوقف أوائل الفارين وأمرهم بالرجوع الى المعركة والصمود فيها وتمكنوا بعد لأيٍ من دحر الأعداء وملاحقتهم حتى معسكرهم. وأوقع [لوكوللوس] العقاب المعتاد بالفارين اذ جعلهم يحفرون خندقاً ذا اثني عشر قدماً وهم مشتملون بعباءاتهم بينما وقف الآخرون يرقبونهم.

كان يوجد في معسكر [ميثريدات] شخص يدعى [اولطاق Olthacus] زعيم الداندارين وهم قوم من البرابرة يسكنون الى جوار بحيرة [ميوتيس]. برز هذا الرجل على اقرانه في القوة الجسدية والإقدام والحكمة وحسن الرأي وطلاوة الحديث وطيب المجلس. وكانت بينه وبين واحدٍ من زعماء قومه منافسه على جلائل الأعمال، لا يدع فرصة إلاّ اهتبلها في هذا المجال. أتى هذا الرجل [ميثريدات] ووعده بأنه سيحقق له أعظم خدمة يتصورها الا وهي قتل [لوكوللوس]. فأثنى عليه الملك وشجعه. وفي سبيل حبك خطته اصطنع الغضب وعمل على أن يُهان ويوصم بالعار ثم ركب حصانه متظاهراً بالخروج على الملك ولجأ الى [لوكوللوس] فاستقبله مرحبّاً. وأحتفى به فقد كان اسمه غير مجهول عند الجيش. ومهدت له رجاحة عقلةٍ وتفانيه سبيلاً الى [لوكوللوس] فصار بعد زمن وجيز واحداً من مستشاريه، وعضواً في مجلس حربه.

وفي يوم ما، خيل لهذا الداندارِي ان الفرصة موآتية لتنفيذ ما قدم لأجله، فأمر خدمه بأن يخرجوا بجواده الى ظاهر المعسكر وقصد هو خيمة الجنرال في ساعة الهاجرة وقد انصرف الجنود للراحة والقيلولة. ولم يكن يتوقع مطلقاً أن يمنع دخول مثله خيمة القائد وليس بينهما كلفةٌ ولاحجاب وخصوصاً عند تظاهره لقدومه في أمر من الخطورة بمكان. والحق يقال انه كان مصيباً في تقديراته وان الطريق الى ضحيته سيكون مفتوحاً في وجهه لولا النوم، الذي كان سبباً في هلاك كثير من القادة، فصار هنا سبباً لنجاة [لوكوللوس] وجد [اولطاق] الوصيف [منيديموس Menedemus] واقفاً بباب الخيمة وقال له ان الجنرال قد آوى الى فراشه متعباً بعد عمل كثيرٍ ومجهود مضنٍ. وليس من الممكن مواجهته. فلم ينصرف وزاد الحاحاً بقوله: «لا سبيل الاّ الدخول عليه لمحادثته في مسألة خطيرة للغاية. فعيل صبر [منيديموس] وأنتهزه غاضباً بقوله:

- ليس هناك أمر أهم من راحة [لوكوللوس] وسلامته.

ودفعه عنه بكلتا يديه. وهنا تسرّب الخوف الى قلب [اولطاق] وعجل في مغادرة المعسكر، وامتطى جواده ولم يوقفه الاّ في معسكر [ميثريدات] معلناً له فشله.

وهكذا ترى الأمر لا يختلف. فاللحظة الحرجة سواء في الأعمال الحربيّة، أو شؤون الحياة الطبيعية الأخرى - هي التي تقرّر النتائج حسنةً كانت أم سيئة.

وخرج [سورناتيوس Sornatius] مع عشرة من رفاقه للتفتيش عن علف. فطاردهم [ميناندر Menander] أحد ضباط [ميثريدات] فعمدوا لهم وأشتبكوا في معركة حادة وقتل الرومان عدداً لا يستهان به من العدو. ثم أرسل [ادريانوس Adrianus] ببعض الوحدات لجلب ارزاق تسدّ حاجة المعسكر الآنية مع بعض الاحتياطي. فوجدها [ميثريدات] فرصة طيبة ودفع اليهم بقائديه [منماخوس Menmachus] و[ميرو Myro] على رأس قوة كبيرة من الرجّالة والخيالة ونشب قتال بين الطرفين استظهر فيه الرومان وقيل أنهم ابادوا التجريدة بكاملها إلاّ رجلين اثنين. وكتم [ميثريدات] نبأ هذه الخسارة. وقلل من شأنها بقوله أنها اندحار موضعي زهيد سببه غشم الضباط. على ان [ادريانوس] المنتصر تعمد المرور امام معسكره بمظاهرة الفوز وغطرسته يسحب خلفه العربات الكثيرة الموقرة بالقمح، وما اليه من أسلاب وغنائم فحزّ ذلك في نفس [ميثريدات]، كما أثار سخط الجيش وأهاجه، فكان قرارهم ألاّ يصبروا أكثر مما صبروا، وانتهزوا فرصة قيام خدم الملك وحاشيته بارسال مقتناهم ومتاعهم خارج المعسكر بصورة سريّة وبهدؤ. كما منعوا الأخرين من احتذاء حذوهم. فثارت ثائرة الجنود وتجمعوا وأحتشدوا على ابواب المعسكر وأمسكوا بالحاشية وقتلوهم وأستولوا على أموالهم

وفقد الجنرال [دوريلاوس Dorylaus] حياته في هذا الهياج لا لشيء إلاّ لأنه كان يملك معطفاً أرجوانياً. ووطيء الكاهن [هرمز Hermæus] بالاقدام حتى الموت عند الابواب.

ولما وجد ميثريدات نفسه وحيداً من دون حرس أو حتى وصيفٍ واحدٍ، خرج من المعسكر يبحث عن حصان يمتطيه وسط الزحام فلمحه خصيه بطليموس وهو يشق طريقه بعناء شديد، فترجل عن حصانه وقدمه له. وكان الرومان قد أقتربوا كثيراً منه، إلاّ أنهم لم يدركوه وفشلهم هذا لا يعود الى سرعته وبطئهم بعد أن صاروا على قيد باع منه. إلاّ أن الطمع والتكالب الرخيص على الغنائم العسكرية تسببا في افلات غنيمةٍ ثمينة لطالما خاضوا في سبيلها المواقع الدموية وركبوا لأجل المخاطر الجسيمة. وادى هذا الى ان يخسر [لوكوللوس] ثمر انتصاره. كان الحصان الذي استقله الملك تحت رحمتهم وقد أدركوه ألاّ بغلاً يحمل امواله أعترض السبيل بالصدفة، أو ربما كان ظهور البغل من عمل الملك المتعمدّ. فتحول أهتمامهم اليه وانفكوا عن مطاردة الملك ووضعوا أيديهم على الذهب ثم راحوا يختصمون على توزيعه. هذا الضرر الفادح الذي اصاب لوكوللوس جراء طمعهم اشفعوه بآخر، عند قتلوا [كالليستراتوس] تابع الملك الموثوق ومستودع سرّه، لارتيابهم في إخفائه خمسمائة قطعة ذهبية في حزامه وكان [لوكوللوس] قد أصدر اوامر خاصة به تقضي ان يُحمل اليه سالماً. مع هذا كله فقد سمح لوكوللوس بنهب معسكر البرابرة.

ووجد في [كابيرا] وغيرها من القلاع التي أحتلها فيما بعد، كنوزاً من الأموال، كما وجد سجوناً خصوصية زُجّ فيها عدد كبير من الأغريق ومن أقرباء الملك. هؤلاء المساكين كانوا قد قطعوا منذ زمن بعيد كل أمل لهم في الحياة وأعتبروا أنفسهم في عداد الموتى، وبفضل [لوكوللوس] أطلق سراحهم وكتبت لهم حياة جديدة وميلاد ثان. وأصاب [نيسا Nyssa] أخت الملك الأسيرة المسترقة هذا الحظّ الطيب، خلافاً لتانك اللاتي كانت الظواهر تشير الى انهن أبعد الناس عن الخطر وأقصد بهذا زوجاته وأخواته اللاتي رُحِّلن الى [فرناقيا Pherna-cia] ليكن بعيدان عن الخطر فمتن شرّ ميتة. فعلى أثر هروب [ميثريدات] ارسل خصيّه [باخيدس Baechides] للقضاء عليهن جميعاً وكان بينهن أختان له [روشنه Roxana] و[ستتيرا Statira] وهما عانسان في حدود الأربعين وزوجان آيونيتان: [بيرينيس] الخيوسية، و[مونيمه Monime] الميليطية. وقد أشتهرت الثانية عند الاغريق كثيراً لأنها لم تستسلم للملك وظلت تصدّه عنها طويلاً، مع انه وهبها خمسة عشر الف قطعة ذهبية، حتى عقد زواجه عليها رسمياً وأرسل اليها تاج الملك، وعوملت معاملة الملكات. واناخ الهم والكآبة عليها وظلت تندب سوء حظها في جمالها الذي ابتلاها بحارس بدلاً من زوج وبحراسة

البرابرة الشديدة عوضاً عن رعاية البيت وحنانه. وبعد أن حملت بعيداً عن موطنه. كان الحلم بالمتع التي تمنتها لذتها الوحيدة، لحرمانها من كل ما هو حقيق ملموس وعندما أتاهم [باخيدس] وطلب منهن أن يتهيأن للموت وكن جميعاً يتوهمنه سهلاً لا ألم فيه - نزعت تاج الملك من رأسها وشدت خيطه الى رقبتها وعلقت نفسها فأنقطع. فصاحت:

- قبحت من تاج! بعجز عن مساعدتي حتى في هذا الأمر الصغير!

والقت به بعيداً وبصقت عليه وقدمت عنقها لباخيدس. وكانت [پيرينيس] قد أعدت جرعة سمّ لنفسها. ولكنها نزلت عن نصفها لأمها الحاضرة، بعد رجاءٍ فشربتاها وتغلب السمّ على البدن الأضعف ولم يكف القليل الذي أجترعته [پيرينيس] للقضاء عليها وظلّت روحها تحشرج في صدرها، فأستعجلها باخيداس بخنقها. وقيل أن أختاً للملك عانساً تجرعت السمّ وهي تشتم وتقذف باشد اللعنات هولاً، وامّا [ستتيرا] فلم يخرج من فمها لفظ نابٍ، أو كلمة لوم، وانمّا أخذت تثني على اخيها الذي لم ينسه الخطر المحدق به، ما يحيق بهن من خطر وهيّأ بكلّ عنايته أسباب خروجهن من هذا العالم قبل أن يلحقهن الخزي والعار.

وأسف [لوكوللوس] كثيراً لهذا العمل ولا غرو فهو معروف بانسانيته ورقة قلبه. على انه مضى قدماً في أعماله الحربية فأستولى على [تالورا Talaurs] ودخلها بعد مغادرة [ميثريدات] لها باربعة ايام ووصوله [ارمينيا] والتجائه الى ديكران. وبعدها التفت الى الخلديين والطيبارينيين الذين يقطنون ارمينيا السفلى فاخضعهم وأستولى على قلاعهم ومدنهم كافة. ثم اوفد [اپيوس] الى [ديكران] يطلب منه تسليم [ميثريدات] وتسلم شخصياً قيادة الهجوم على [اميسوس] التي ظلت صامدة بفضل [كاللیماخوس Callimachus] قائدها الذي ضايق الرومان كثيراً ببراعته في الميكانيكا ووقوفه التام على كل فنون الحصار وحيله، وقد دفع فيما بعد ثمناً غالياً لصموده. وما أن تسلم [لوكوللوس] القيادة حتى بدأ الفرق بين القائدين وظهرت عبقرية القائد الروماني واضحة فقد أمر بالهجوم العام في الساعة التي تعود أن يخلد الجنود الى الراحة ووفق في الاستيلاء على جانب من السور، وأرغم خصمه على ترك المدينة بعد أن اشعل النار فيها إما لحرمان الرومان في الغنائم، أو ستراً وحماية لأنسحابه، اذ لم يُلق أحدٌ بالاً على من خرج وركب السفن. وما أن خمدت النار بعض الشيء في معظم اقسام السور حتى تهيئا الجنود لنهب المدينة إلا أن [لوكوللوس] الذي حزّ في نفسه ما وقع للمدينة من خراب أمر بادخال جماعات اليها لأستخدامهم في مكافحة النيران كما حضّ جنوده على اخمادها، على انهم لم يلتفتوا اليه لانصرافهم الى افتراس الفريسة وشجر بينهم خلاف وراح بعضهم يضرب بعضاً وتقارعت السيوف وارتفع الصياح، حتى اضطر مرغماً الى السماح

لهم بالنهب، لعل ذلك يكون سبباً في نجاة المدينة من الدمار التام بالنار على اقلّ تقدير. ولكن ذلك لم يفد فقد أكمل النهب خرابها لأن الجنود كانوا يدخلون المنازل وبأيديهم المشاعل ويوقدون النار فيها. وعندما دخلها [لوكوللوس] في اليوم التالي لم يسعه حبس دموعه وقال لمن حوله من الاصدقاء: انه كثيراً ما حمد لسيللاً حسن حظّه؛ إلا انه لم يعجب له كما يعجب الآن. لأنه انقذ اثينا لما أراد ذلك. ثم استطر ويقول:

- إلاّ أن معاندة الحظّ وصلت بي حداً أن صرت مثل [موميوس]، عندما اردت تقليد عمل [سيللاّ].

على انه مع كل هذا استطاع انقاذ ما أمكنه، واتحدث رغبة العناية الآلهية مع رغبته فسقط المطر وعاون في اخمار النار. وقام في فترة وجوده باصلاح ما تيسرله من الابنيه وفتح ابواب المدينة لسكانها الهاربين والنازحين، وأسكن كثيراً من الاغريق الراغبين في الاستقرار هناك، وعمد الى توسيع رقعة المدينة باضافه ما مساحته مائة فرلنغ اليها.

هذه المدينة كانت من مستعمرات الآثينيين، عمروها عندما بلغت دولة آثينا عصرها الزاهر وأصبحت قوة بحرية يُعتدّ بها. ولجأ اليها كثير من الآثينيين في عهد [ارسطيون] الطاغية تخلصاً من استبداده وظلمه فأستقروا فيها ومنحوا حق المواطنة. وهكذا جعلهم تكد حظهم كالمستجير من الرمضاء بالنار. هربوا من ظلم موطنهم ليقعوا في شر أعظم باغترابهم.

مد [لوكوللوس] يد المعونة لمن بقي من هؤلاء وصرف لكل فردٍ منهم ثياباً كافية ومائتي دراخما وأعادهم الى وطنهم وفي هذه الحرب كان [تيرانيون Tyranion] النحوي من بين الأسرى، فطلبه [مورينا] من [لوكوللوس]، فدفع به اليه، فأعتقه هذا ملحقاً بفضل [لوكوللوس] إهانة لأن [لوكوللوس] كان يكره أن يجعل من شخصٍ ذي سمعة علمية كبيرة عبداً رقيقاً، ثم يعتقه لأن الحرية التي تمنح بشكل صوريّ هي تجريد حقيقي لحاله الحرية السابقة. ولم تكن هذه، المناسبة الوحيدة التي بدأ فيها أقلّ كرماً وشهامة من جنراله.

وانصرف [لوكوللوس] الى ادارة شؤون المدن الآسيوية والعناية لها، دون ان تعوقه حرب فنشر العدل واشاع حكم القانون بعد عهد طويل من الفوضى والتحكم والاضطهاد سادت تلك البقاع واسلمتها فريسة لصفوف من البلايا والنكبات يجلّ القلم عن وصفها ويقف العقل عن تصديقها. استعبدهم ونهبهم جباة الضرائب والمرابون حتى اضطر القوم الى بيع ابنائهم وهم في زهرة الصبا، وبناتهم وهم عذارى وان تبيع حكومات المدن بالمزاد العلني الاوقات المكرسة للآلهة والتماثيل والصور الدينية، وبالأخير اضطروا الى وضع أنفسهم تحت تصرف دائنيهم

عبيداً ارقاء، ولم يتمّ ذلك الاّ بعد أن لاقوا الأهوال من التعذيب كالشد بالحبال والخيول والوقوف تحت اشعة الشمس المحرقة وقت الهاجرة، والالقاء في الجليد والطين ايام البرد الشديد حتى صاروا يعدون الرق نعمةً وبعثاً جديداً».

على أن [لوكوللوس] تمكن بوقت وجيز من القضاء على هذه الشرور والمظالم وتطهير المدن من آثارها. فقد أمر أولاً بأن لا تزيد الفائدة على الدين، أكثر من واحدٍ في المائة، وامر ثانياً، بالغاء الفائدة في حالة ما لو زادت عن الدين الأصلي. وامر ثالثاً، وهو أهم المراسيم طرّاً، بأن لا يزيد استيفاء الدائن من دائنه أكثر من ربع دخله كل صفقة. ومنع منعاً باتاً اضافة الدائن مبلغ الفائدة الى أصل الدين لغرض تقاضي ربح مركب. وكان من أثر هذه الاجراءات انه لم تمرّ اربعة أعوام إلاّ وتم دفع كل الديون وعادت الأراضي المرتهنة الى أهلها الأصلاء. وكان الدين الذي فرضه سيللا غرامة على آسيا وقدره عشرون ألف تالنت قد أعطي بالالتزام في ايامه، وبلغ ما استوفاه الجباة من المكلفين به ضعف هذه الغرامة التي أصبحت مائة وعشرين ألف تالنت بتراكم الفائدة المركبة. ولهذا ثار سخطهم على [لوكوللوس] في روما وأخذوا يكيلون السباب له علناً ويشكون الظلم الذي الحقته مراسيمه بهم، وتمكنوا بأموالهم من اثارة خواطر عدد من زعماء مجلس الشيوخ ضده، ولا غرو فقد تمتع هإلاء بحول وطوْل ونفوذٍ كبير. لأنه كثيراً من رجال السياسة مدينون لهم. إلاّ أن محبة المدن التي فرج [لوكوللوس] عن ضيقتها وكربها فضلاً عن الاقاليم الأخرى التي غبطتها على حسن خطها بمثل هذا الحاكم الرؤوف، ردت كيد هؤلاء الى نحورهم مباءت مساعي أولئك بالفشل.

وانطلق [ابيوس كلوديوس] - وهو أخ لزوج [لوكوللوس] في رحلته موفداً الى [ديكران] وقادة ادلاء الملك في طريق منحرفٍ وعرٍ، طويلٍ يمرّ في القسم الشمالي من البلاد إلاّ ان معتوقه السوّري الذي كان يرافقه دلّه على أقصر الطرق، فحاد عن الطريق الأولى الطويلة واستغنى عن ادلائه البرابرة مودعاً. وما هي أيام قليلة حتى عبر نهر الفرات وبلغ [انطاكية دافني Antioch upon Daphne] وكان من المقرر ان يمكث فيها انتظاراً [لديكران]، بعد فراغه من مهاجمة بعض المدن الفينيقية. وتمكن هذا السفير خلال، اقامته من كسب كثير من الزعماء الذين لم يخضعوا لملك ارمينيا إلاّ رهبة واضطراراً، وكان بين هؤلاء [زاربيان: Zar-bienus] ملك [الگوردينيين Gordyenians]. وارسلته أيضاً عدة مدن خاضعة مقهورة خلسةً، فوعدها بمعونة [لوكوللوس] واوصاها أن تركن الى الهدوء ولا تأتي باية حركة. وكان الحكم الأرمني يمتاز بالظلم والقسوة، ولاسيما حكم الملك الحالي الذي ما كان الأغريق يطيقونه، وزادته انتصاراته غطرسة وعتوا فتوهم بأن كل ما يملك الناس من الثمين الغالي مال

خاصٌ به بل ما خُلق إلألهُ. وكانت بدايته بدايةً مجهولة تافهة، ثم لمع نجمه وسماً باخضاعه عدداً كبيراً من الشعوب وكسره شوكة الفرثيين كسرةً لم يبتلوا بمثلها. وملأ أرض العراق (ما بين النهرين) بالاغريق الذين نقلهم من [كيليكيا وكپادوكيا] باعداد كبيرة، وحضّر العرب الرحل ساكني الخيام حين هجرهم من موطنهم واسكّنهم قريباً منه ليؤمن استمرار التبادل التجاري وازدهاره على ايديهم. وكان يقوم على خدمته عدة ملوك، إلاّ انه اعتاد ان يصحب معه اربعة فقط، مكلفين بواجبات الخدمة والحراسة تراهم يسيرون الى جانبي حصانه وهم في جلابيب عادية ويقفون بين يديه بايدٍ مكتوفة ورؤوس خافظة وهو جالس على العرش ينطق باوامره ومراسيمه. وكانت هيئتهم هذه لاتدل على عبودية اعتيادية وانما على أناس ودعوا الحرية وداعاً ابديّاً وأعدّوا جسومهم لتلقي العقاب أكثر مما اعدوها لخدمة أسيادهم.

على أن [اپيوس] لم يفاجأ أو يباغت بهذا العرض المسرحيّ كمّا أذن له بمقابلة الملك. وقال له أن جاء يطلب منه تسليم [ميثريدات] ليسير في ركاب [لوكوللوس] اثناء الاحتفال بموكب نصره. فإن أبى ذلك فإنه ينذره بالحرب. ومع انّ [ديكران] حاول استقباله، بمظاهر اللطف والابتسامات المغتصبة إلاّ انه لم يخف استياءه عن الحاشية لجرأة الفتى في كلامه اذ لم يقدم أحدٌ ممن مثل بين يديه بمثل ما أقدم آپيوس ولم ينطلق لسان في وجهه بهذه الحرية طوال الاعوام الخمسة والعشرين من حكمه أو من استبداده.

على أية حال فقد ردّ [ديكران] طلب [اپيوس] ورفض تسليم [ميثريدات] وقال انه سيدافع عن حماه اذا هاجمه الرومان وأبدى سخطه من [لوكوللوس] لأنه وجه خطابه اليه بلقب ملك، لا بملك الملوك. ولذلك قابله بالمثل ولم يطلق عليه لقب «الامبراطور». ثم انه ارسل [لآپيوس] هدايا نفيسة فأبى قبولها، ولما وردت اليه مضاعفةً أختار منها كأساً وأعاد البقية حتى لا يفسر رفضه بالغيظ ثم شدّ الرحال فوراً الى قائده.

قبل هذه الاحداث كان بين [ديكران] و[ميثريدات] جفوة مع انه من أقرب أقربائه. فلم يتنازل بلقاء أو كلام معه حتى بعد خروجه من مملكته العظيمة ولجوئه اليه مهيض الجناح، فقد ابت على [ديكران] غطرسته وكبرياؤه وأحتقاره للملك المقهور الا ابعاده الى منطقة قصية موبوءة بالمرض حافلة بالمستنقعات وجعله فيها أشبه بالسجين. إلاّ أنه بعث يستقدمه بكثير من التجلة والابهة بعد مغادرة السفير الروماني. وعقد معه اجتماعاً خاصاً في القصر. تمت خلالها تسوية كل الخلافات وازالة الاحقاد وانثنى كل واحد منهما لمعاقبة رجال خاصته الذين كانوا السبب في تعقيد الأمور ما بينهما ومنهم [مطرودوروس Metrodorus] السكيپسسي Scepsis، وهو رجل قوي العارضة موفور العلم مقرب جداً من [ميثريدات] حتى انه كان

يعرف بلقب «والد الملك». أوفده سيده الى [ديكران] مرةً، ليطلب منه العون على الرومان فسأله [ديكران].

- بمَ تنصحني يا مطرودوروس في هذه القضية؟

فرد قائلاً: اني كسفير انصحك بالمعونة. وكصديق لك احذرك منها.

ولايعلم أكان يدفعه الى هذا القول إخلاصه لديكران أو قلة حرصه على مصلحة [ميثريدات].

هذا الحديث نقله [ديكران] لميثريدات في اجتماعهما وأكده ولم ينصرف ظنه الى ان الأذى سيلحق [بمطرودوروس] من هذا سيكون جسيماً لا يُصحّح. إلاّ انه قُتل فوراً فأسف ديكران على ما بدأ منه أسفاً شديداً وان لم يكن السبب الجوهري في موته، إلاّ انه أطلق والحق يقال حقد ميثريدات من عقاله على مطرودوروس. فقد كان يكرهه سِراً كما اتضح من فحص الاوراق خزانته عندما أستولى عليها اذ وجد بينهما أمر مخطوط يقضي بموت [مطرودوروس]. وقام [ديكران] بدفنه دفنةً مهيبة ولم يبخل بشيء من النفقات على جثمانه الذي غدر به وهو حيّ. ومات في بلاط [ديكران] الخطيب [امفيقراطس Amphicrates] (أن لم نذكره لشيء، فلأجل آثينا)؛ قيل انه ترك بلاده هارباً الى [سلوقية Seluecia] الواقعة على نهر دجلة. فطلب منه ان يُعلّم المنطق للأهالي فأجاب بكل عجرفة. إن الصحفة أصغر كثيراً من أن تحتوي على دولفين. وقصد بها [كليوپاطرا] بنت [ميثريدات] وزوج [ديكران] إلاّ انه اتهم هناك بارتكاب مخالفات. فمنع من التعامل التجاري مع بني قومه فأنهى حياته بالاضراب عن الطعام حتى الموت. وقامت [كليوپاطرا] بدفنه دفنة كريمة، قرب [صافا Sa-pha] وهو موضع معروف في تلكم البلاد.

ولم ينس [لوكوللوس] أسباب المرح واللهو عندما وطد السلم الدائم في آسيا وثبت حكم القانون ثانية. ففي غضون الفترة التي قضاها في [إفسس]. أنعم على المدن بالالعاب الرياضية وأحتفالات النصر، والعاب المصارعة، والمبارزة المنفردة للمصارعين. وانشأوا هم بالمقابلة العاباً أخرى أطلقوا عليها اسم «الالعاب اللوكولسية» تكريماً له، وبهذا أظهروا حبهم الذي كان أعزّ الى قلبه من كل شرف ناله. ولكن عندما وصل [ابيوس] وأعلمه ان الحرب مع ديكران واقعة لا محالة وان عليه أن يتهيأ له. رحل الى الپونطس فوراً وعبّأ جيشه. والقى الحصار على [سينوپ Sinope] أو بكلمة أخرى الكيليكيين الذين يقفون الى جانب الملك، هؤلاء امتنعوا في المدينة ثم قتلوا عدداً من سكانها وأشعلوا فيها النيران وحاولوا الفرار وقتل

منهم ثمانية الآف لم يتسع الوقت لهم للفرار. واعاد الى سكانها كل أموالهم ومُقتناهم وأهتم اهتماماً خاصاً بإعمار المدينة وخيرها. وكان قد دفعه الى ذلك الرؤيا التالية: رأى فيما يرى النائم شخصاً تقدم منه وقال له:

- تقدم يا لوكوللوس الى الامام قليلاً لأن [اوتوليقوس آت لمقابلتك].

وعندما استيقظ، أُشكل عليه تفسير الحلم. وفي اليوم نفسه استولى على المدينة، وأخذ يطارد الكيليكيين المتجهين الى البحر فرأى تمثالاً ملقى على الساحل كان الكيليكيون قد حملوه طول هذه المسافة ولم يتسع وقتهم لنقله الى السفينة. وتبين أنه أحد روائع النحات [سثينس Sthenis] وأعلمه أحدهم انه يمثل [اوتوليقوس] باني مدينة [سينوپ]. وهو على ما قيل ابن [دياماخوس Deimachus] واحد أولئك الذين كانوا ضمن الحملة العسكرية التي خرج بها [هرقل] من ثساليا لمحاربة الأمازونات. وعند عودته برفقة [ديموليون Demoleon] و[فلوغيوس Phlogius] غرقت سفينتهم بالقرب من [خرسونيزوس] في موضع يُدعى [پيداليوم Pedalium] ولكنه نجا هو ورفيقاه مع اسلحتهما واقبلا على الى [سينوپ] وأنتزعوها من ايدي السيريين Syrians هناك. وهؤلاء يزعمون انهم انحدروا كما جاء في الاساطير - من [سيروس Syrus] ابن [اپوللو] و[سينوپ] بنت [آسپوس Aspus] وما ان سمع [لوكوللوس] بهذا حتى تذكر تنبيه [سيللا] الذي نصح في مذكراته بالاّ يستهين المرء قط بالدلائل والاشارات التي ترد في الاحلام فليس مثلها مؤكد وجدير بالاهتمام.

ووردته الانباء يتقدم قوات [ميثريدات] و[ديكران] نحو [لاكوانيا] و[كيليكيا] يريدان سبقه الى دخول آسيا. فأخذته الحيرة كثيراً من موقف [ديكران] ولم يدر سبباً وجيهاً لامتناع الملك الأرمني عن مساعدة [ميثريدات] قي الماضي عندما كان هذا الأخير قوياً وجيشه في عزّة. فماذا كان يمنعه آنذاك عن المشاركة في قتال الرومان لو كانت نيته قتالهم، بدلاً من ترك جيش [ميثريدات] وحده يتلقى الهزائم ويُمزق شر ممزق. وها هو الآن يبادئ بالحرب عندما باتت فرص النصر فيها ضئيلة. فيُلقي بمصيره كلّ مع من كبا به الحظّ وهوى الى الحضيض؟!!

وفيما كانت هذه الهواجس تتقاذفه ارسل اليه [ماكار Machares] ابن [ميثريدات] وحاكم منطقة البوسفور تاجاً تزيد قيمته على ألف قطعة ذهبية مبدياً رغبته في أن يعتبر صديقاً للرومان وحليفاً. وهنا أفرخ روع لوكوللوس وايقن بأنها بداية النهاية لهذه الحرب. فترك [صورناتيوس Sornatius] نائبه على رأس ستة آلاف راجل، وأقل قليلاً من ثلاثة الآف فارس. وأنطلق لقيادة الجبهة الثانية بسائر جيشه. ولا شكّ في أن حركته هذه عابها التسرّع الشديد والاستعجال الخاطيء فقد توغل في بلادٍ تعودت شعوبها الحرب ونشأت

عليها، وملكت ألوفاً مؤلفة من قوات الخيالة. وهي بعد بلاد مترامية الأطراف تكثر فيها المجاهل، وتعترض سبلها شبكة من الأنهار العميقة المجرى والجبال التي تكسرها الثلوج على مدار السنة. فانفرط عقد النظام بين الوحدات وكثر عصيان الجنود للأوامر، وتفشّى فيهم التذمر وكرهوا السير وراء [لوكوللوس]. وأخذ زعماء الشعب في روما يهاجمونه ويوجهون اليه أقسى النقد وينعتونه بالمغرور الأناني الذي لا هَمّ له إلاّ اثارة الحروب ضدّ مصلحة الجمهورية اباء منه ونفرة من حياة السلم طوال فترة وظيفته، ليستمر في جمع المال والإثراء على حساب الأخطار التي يتعرض لها الوطن. وقد حقق هؤلاء الرجال ما ارادوه في النهاية. إلاّ ان [لوكوللوس] لم يهتم بهم في حينه ومضى قدماً في حملته حتى وصل نهر الفرات بعد مسيرة طويلة. فوجد مياهه كثيرة الارتفاع خطرة العبور بسبب الفيضان الشتوي. واورثه خوفه من التأخير قلقاً شديداً، كما جوبه بضرورة توفير زوراق لعمل جسرٍ يعبر عليه. إلاّ ان الماء بدأ يتراجع عند المساء واستمر يتناقص منسوبه باطراد طوال الليل. وفي اليوم التالي وجد ماء النهر قد انحسر كثيراً عن الضفتين. حتى تبين الأهالي في وسط مجراه الجزيرات والماء هادىء فيما بينها. فكانت الدهشة عظيمة لأن ظهور الجزرات أمر نادرٌ جداً. وفسرت هذه الظاهرة بأن النهر تراجع امام [لوكوللوس] خاضعاً طائعاً وانعم عليه بعبور سهل سريع، اذ ما لبث أن استفاد من الفرصة فأنتقل بجميع قواته الى الضفة الأخرى. ولقي فور عبوره، ببشير سعدٍ اذ رأى العجول المقدسة المخصصة لقرابين [ديانا الفُرس] وهي ترعى الكلأ. والبرابرة الساكنون فيما يلي الضفة الشرقية يعبدون هذه الربّة دون غيرها من الآلهة ويخصونها بذبائح من العجول ليس إلاّ. وجرت العادة ان يترك لهذه العجول حبلها على غاربها تتجول وترعى الكلأ دون ان يعترض سبيلها أحدٌ بعد وسمها بشعار الربّة الذي يمثل مشعلاً. ولذلك كان يصعب قنص أحدها عندما يقتضي الأمر تقديم ذبيحة. إلا ان واحداً منها أقترب من الصخرة المقدسة للربة من تلقاء نفسه على أثر عبور الجيش الروماني نهر الفرات. ووقف عليها، ثم أمال بعنقه كما تميل أعناق العجول المقربة بعد ربطها بالحبال واجبارها على الركوع، كأنه يعرض نفسه على [لوكوللوس] ليضحي به. وقربّ أيضاً ثوراً لنهر الفرات لسلامة عبوره منه ولبث هناك طوال اليوم. إلاّ انه سار في اليوم التالي والايام التي عقبته في اراضي [صوفين] ولم يتعرض لساكنها بايّ سوءٍ فكانوا يتقاطرون لتحيته، وللترحيب بجيشه. وبدت رغبة من جنوده في نهب حصنٍ كان مظهره يدل على امتلائه بالمؤون والارزاق. فرد عليهم وهو يشير الى مدينة [طوروس Taurus] البعيدة:

- ذلكم هو الحصن الذي يتحتم علينا اقتحامه.

ثم استطرد يقول: الراحة تنتظر أولئك الذين ينتصرون هناك!

ثم غذ في السير وعبر دجلة متوغلاً في بلاد الأرمن.

وكان الموت جزاء أول رسول أبلغ [ديكران] بنبأ دخول [لوكوللوس]. فقد ثار غضبه وأمر بضرب عنقه جزاء جهوده! ولذلك لم يجرأ أحد على ايصال معلومات أخرى له عن تحركات [لوكوللوس] وظلّ لا يدري شيئاً عن تطور الحرب المستعرة حواليه، ولا يعير أذناً إلاّ لمادحيه ومتملقيه. فقد كانوا يتزلفون اليه قائلين مثلاً: ان [لوكوللوس] سيثبت نفسه قائداً عظيماً اذا ما غامر بانتظاره (يقصدون ديكران) في إفسُّس ولم يسابق الريح في فراره من آسيا بمجرد ان تبدو له طلائع الألوف المؤلفة الزاحفة عليه.

كان [ديكران] يمتاز بجسم قوي لا تؤثر فيه الخمر مهما عبَّ منها. وبعقل راكزٍ رصين يصمد امام أي عارضٍ مهما بلغ من الشدة وأوّل من جرؤ على قول الحقيقة له، كان [ميثرو بارزان Methro Barzanes] نديمه وأقرب مقربيه. وكل ما لقي من شكرٍ على صراحته، ارساله فوراً على رأس ثلاثة آلاف فارسٍ وجيش لجب من المشاة لقتال لوكوللوس وزوّد بأمرٍ جازمٍ: ان يأتي به حياً بعد سحق جيشه سحقاً، وكان بعض جنود [لوكوللوس] منصرفين الى نصب خيامهم بينما أخذ الوحدات الآخر ترد اليهم تباعاً عندما أعطى الكشافة الرومان اشارة اقتراب العدوّ. فجزع [لوكوللوس] لئلا يُداهم بالهجوم ورجاله مشتتون لا يجمعهم نظام المعركة، واضطر الى البقاء حيث تنصب الخيام وأرسل قائد الفرقة (ليگات Legat) سكستيليوس بألف وستمائه فارس، وبمثلهم من صنفي المشاة الخفيفة والثقيلة. بأمرِ التقدم من العدوّ فحسب، والانتظار متى يرده نبأ أكمال اقامة المعسكر. ولم يكن في نية هذا القائد أن يخل بالأمر الموجه له إلاّ ان [ميثرو بارزان] حمل عليه حملةً شعواء فأرغمه على القتال. فكانت النتيجة أن قتل [ميثرو بارزان] والسلاح في يده، وابيد كل جنوده إلاّ قلة من الرجال لا يعتد بها.

بعد هذا، غادر [ديكران] مدينة [ديكرانوكرتا Tigranocerta] التي شيدّها هو. متجهاً الى [طوروس]. وهناك أمر بأن يتجمع كل جيوشه حوله. ولكن [لوكوللوس] لم يتح له الوقت ليلم شعثه، وأرسل [مورينا] لمهاجمة القوات القادمة الى [ديكران] والقضاء عليها. وبعث أيضاً [سكستيليوس] لتشتيت شمكل جموع كثيرة من الأعراب كانت في طريقها الى الملك. فانقض عليهم وهم في مضاربهم واباد معظمهم. واسعد الحظّ [مورينا] عندما كان يطارد [ديكران] وباغته في شعب جبلي ضيق وعر واجبره على الهروب تاركاً كل أمتعته واثقاله وفتك بكثير من الأرمن وأسر أكثر.

بعد هذا النجاح الذي اصابه [لوكوللوس]، زحف بجيشه على [ديكرانوكرتا] وربض امامها والقى عليها الحصار. وكان يوجد في هذه المدينة كثير من الاغريق الذين جيء بهم سبباً من [كيليكيا]، وكثير مثلهم من الأقوام البرابرة كالأديابينيين Adiabenians والآشوريين، والگوردينيين والكبدوكيين الذين دُمرت مدنهم وأجبروا على سكناها، وكانت مدينة عنية جميلة المنظر يهتم كل ساكن فيها من العامة أو الخاصّة كما يهتم الملك بتجميلها وتوسيعها. وهذا ما حدا بـ[لوكوللوس] الى تشديد الحصار عليها متوقعاً ان [ديكران] سيفقد رشده، وسينفذ صبره فيقدم في ساعة غضب على مهاجمته وهو ما كان يريده. ولم يكن في حسابه مخطئاً فقد أخذ [ديكران] يتأهب لذلك. وحاول [ميثريدات] جهده ليثينه عن هذا بالرُسل والخطابات. وأشتد في تحذيره من القيام باي هجوم عام. ونصحه بدل هذا أن تعمل خيالته على قطع خطوط تموين العدو ومنع وصول الارزاق اليهم. ولم يدخر [تاكسيل Taxiles]. جهداً في نصحه بالتخليّ عن نيته، ويتحاشى سلاح الرومان، وكان هذا قد أرسل مبعوثاً من لدن [ميثريدات] للاقامة مع جيش ديكران.

ولم يكن من الهيّن أو السلامة أن يقحم المرء نفسه في مثل هذه الأمور ومع هذا فقد عمل [ديكران] برأيه في مبدأ الأمر ولكنه أطرح الحذر جانباً عندما وصلته القوات الارمنية والگوردينية بكامل وحداتها وعدّتها. والتحقت به جيوش المارين والاديابينيين كل تحت قيادة ملكه، ثم انضمت اليه الجموع الكبيرة من العرب قادمةً من البحر فيما وراء بلاد بابل. وجاءه الالبانيون Albanians وجيرانهم [الايبريون Ibriens] من بحر قزوين فضلاً عن عدد لايُستهان به من المحاربين المرتزقة الذين يسكنون احراراً حول نهر [اراكس Araxes] ولا يدينون بطاعة لملك. قسم التحق تطوعاً، وقسم بأجرٍ. وكانت مآدب الملك واجتماعاته لا تردد غير صدى الآمال، والفخر والوعيد البربريّ. وباتت حياة [تاكسيل] في خطرٍ لأنه كان ينصح بارجاء الحرب وعُدّ رأي [ميثريدات] تثبيطاً لديكران عن نصر مجيدٍ محقق، بدافع الحسد والغيرة. وهكذا لم يجد [ديكران] بعد هذا اي موجب للتأخر انتظاراً له، لئلا يشاركه ثمار نصره. وتقدم بسائر جيوشه وهو ينعي سوء حظه لاصدقائه - على ما قيل - يأنه سيواجه [لوكوللوس] بمفرده، لا كل قادة الرومان مجتمعين! ولم تكن ثقته هذه مبعثها التسرع أو النزق ورهن اشارته هذا العدد الكبير من الشعوب والملوك وعشرات الألوف من المشاة والخيالة المزودين بأحسن السلاح. عشرون ألفاً من رماة القسيّ والنبّالة. وخمسة وخمسون ألف فارس منهم سبعة عشر ألفاً بدروع كاملة ومائة وخمسون ألفاً من المشاة ذوي الاسلحة الثقيلة تنتظمهم ألوية وكراديس [فلانكس]، وكتائب مختلفة من سلاح الهندسة، لتمهيد الطرق.

ومدّ الجسور وتصريف الماء ونزحها، وقطع الاشجار والقيام بكلّ الخدمات الضرورية. عددهم يبلغ خمسة وثلاثين ألفاً، وضعوا جميعاً في مؤخرة الجيش زيادة في تقويته وفي منظر جبروته ومهابته. تلك هي الارقام التي بعث بها لوكوللوس لمجلس الشيوخ.

وما ان عبر [طوروس] وظهرت للمدينة قواته والرومان يهاجمونها - حتى راح أهلها المحصورون يحيونها بالهتاف والصيّاح وتهديد الرومان من أعلى السور بالأرمن الزاحفين عليهم. وفي مجلس الحرب الذي عقده [لوكوللوس] لمدارسة الموقف نصحة فريق بفك الحصار وتوجيه كل قواته الى [ديكران] ورأى فريق آخر أن رفع الحصار ليس بالعمل السليم حين يوجد وراءه العدو بجيوشه الجرارة. فقال هو انه لا يجد ايّاً من الفريقين مصيباً هدفه. وان كان لكلّ سببه الوجيه الصائب من وجهة نظره الخاصة وهو لهذا سيأخذ بالرأي الوسط ويقسمّ جيشه قسمين. الأول ويبلغ ستة آلاف راجل ترك بقيادة [مورينا] ليستمر في الحصار وتسلم هو قيادة القسم الثاني وقوامه اربعة وعشرون فوجاً مبلغ مجموعها عشرة آلاف محاربٍ تقريباً. يساندهم أصناف الخيالة كلها والرماة والنبالة وهؤلاء يقاربون الألف. واستدار بها نحو [ديكران]. وبدت هذه الوحدات للعدو الرابض على ضفة النهر يغطي السهل الرحيب، شرذمة صغيرة لايُعتد بها، ولذلك تعالت اصوات السخرية والهزء بهم، وراح بعضهم يتراهن على الأسلاب وتدافع الملوك والقادة بالمناكب وكل يريد أن يتولى قتال [لوكوللوس] بمفرده. وما على [ديكران] إلاّ أن يجلس ويرقب. وشاءت فكاهة هذا الملك ان تنطلق من عقالها بهذه المناسبة فردد القول المأثور مشيراً الى ضآلة عددهم:

«هم أكثر بكثير من ان يصلحوا لسفارة، وأقلّ بكثير من أن يكونوا جنوداً».

وواصل العدو سخريته وازدراءه حتى أصبح الصباح. فأخرج [لوكوللوس] جيشه للقتال بكامل سلاحه. ووقفت صفوف جيوش البرابرة على طول الضفة الشرقية من النهر. وكان فيه هنا منعطف يميل به نحو الغرب فيسهل منه عبوره كثيراً. وبدأ [لوكوللوس] لديكران وهو يحرك قطعاته سريعاً كأنه يسابق الريح طائراً. فاستدعى [تاكسيل] وسأله بلهجة هازئة:

- أترى الرومان الذين لايقهرون! كيف أنهم يطيرون طيراناً؟

فأجابه [تاكسيل]: أتمنى من كل قلبي أيها الملك أن يسعدك الحظّ بفرصة كهذه التي تتوهمها وهي بعيدة الاحتمال. إلاّ أن الرومان أعتادوا في مسيرات عساكرهم الاّ يرتدوا خير ثيابهم ولا يستخدمونا تروساً صقيلةً لامعة، ولا يكشفون عن خوذهم المعدنية أمّا وانت تراهم الآن وقد ازاحوا عن سلاحهم ودروعهم أغطيتها الجلدية، فهو دليل على

استعدادهم للقتال، واستعدادهم للالتحام بعدوّهم.

وكان [لوكوللوس] يقوم بحركة استدارة جانبيّة وقت هذه المحادثة. وسرعان ما ظهر أوّل نسر ثم لاحت طلائع الالوية المتعاقبة بنظام الصولة مرتبةً حسب السرايا والفصائل وهنا ندت من فم [ديكران] صيحة الرجل المستنقيظ من نوبة سكر بانتفاضة عنيفة، وردد مرتين أو ثلاثاً:

- ها! انهم يُطبقون علينا.

وبكثير من الفوضى والاضطراب والصعوبة تم اعداد صفوف الجيش للمعركة. واحتفظ ديكران لنفسه بالقلب. وتولى الملك الاديابيني الجناح الأيسر، والملك الماديّ الجناح الأيمن، وامام هذا النجاح اصطف معضم الخيانة المدرّعة، وتقدم بعض الضباط من [لوكوللوس] وهو يهم بعبور النهر ينصحونه بالإمساك عن القتال في هذا اليوم بالذات، لأنه أحد الأيام النحسة التي يطلق عليها اسم «الأيام السود» ففيها تمّ القضاء على جيش روماني في اشتباك مع الكيمبرين تحت قيادة [كيپيو Cæpio]. فأجابهم لوكوللوس بالرد الشهير:

«اذن فلأجعلنه يوم سعدٍ للرومان».

وهذا يوافق اليوم الذي يسبق اليوم الخامس أو بداية الاسبوع الثاني من شهر تشرين الأول.

وطلب من جنوده التحلي بالشجاعة وعبر النهر خوضاً وكان في طليعة الهجوم على العدوّ مرتدياً درعاً ذا حراشف فولاذية صقيلة ومعطفاً مزركش الأهداف وسيفه منتضى اشارةً لجنوده الى وجوب الالتحام يداً بيدٍ مع عدوّ تركزت مهارته في القتال البعيد المدى. ولذلك كانت سرعة الرومان عاملاً رئيساً في تقصير مدى تعرضهم لسهام الرماة وخروجهم عن دائرتها ثم وقع نظره على الخيالة المدرعة وقد انتظمت في صفوف متوالية على حافة الجبل وكانت زهرة الجيش وعماده. ثم تبين فيما يلي رأس الجبل سهلاً رحيباً أجرد يبلغ طوله اربعة [فرلنغات] تقريباً، ووجد أن لا صعوبة هناك في ارتقائه فأمر خيالته التراقيةوالغلاطية بأن يحملوا على جناح الخيالة، ويكفوا عنهم اذى رماحهم بسيوفهم. وكان الرمح وسيلة الدفاع الوحيدة لهولاء الخيالة المدرعين بدروع ثقيلة ولا يملكون غيرها لمضايقة مهاجمهم بسبب ثقل دروعهم وعدم قابلية الحركة فيها حتى لكأنهم بُنوا فيها بناءً.

ثم تقدم [لوكوللوس] على رأس فوجين نحو الجبل وتبعه الجنود بكلّ نشاط وحماسة وهم يرون قائدهم في الطليعة يصعد الجبل راجلاً. وما ان بلغ القمة حتى وقف في بقعة عارية وصاح:

- انتصرنا! انتصرنا أيها الزملاء الجنود!

وبعد هتافه هذا حمل على الخيالة المدرعة محذراً رجاله من قذفها بالحراب، حاثاً اياهم على التقدم منها والتلاحم معها وان يوجهوا طعنات سيوفهم الى الافخاذ والكواحل فهي الاجزاء الوحيدة التي لاتكسوها دروع عند هؤلاء الفرسان إلاّ أن حاجتهم الى الاشتباك انتفت لأن العدوّ لم يشأ انتظار الهجمة بل أطلق سيقانه للريح وهو يصيح صيحات داوية ويثير ضجة كبيرة. وبانكفائهم الى الوراء سقطوا على صفوف المشاة الكثيفة قبل ان تتاح لها فرصة القتال، فما وسعها الاّ الفرار قبل أن تسفك قطرة دم واحدة أو يصاب أحد بجرح. إلاّ ان المقتلة العظمى جرت اثناء الهزيمة أو بالأحرى اثناءً محاولة التي تعذرت عليهم بسبب عمق الصفوف وتزاحم بعضها على بعض فحصروا حصراً. وكان أول الهاربين [ديكران] وقلة من رجاله، وقد لمح ابنه وهو في موقف عسير فنزع تاجه وأعطاه أياه وهو يبكي طالباً منه أن يحتال على الهروب بكيفيةٍ ما. إلاّ ان الفتى لم يجرأ على لبسه وسلمه الى أحد اتباعه الموثوقين وأمره أن يحتفظ به وديعة. وتشاء الصدق ان يقع هذا الرجل أسيراً ويؤتي به وبالوديعة الى [لوكوللوس] هكذا وقع تاج ديكران غنيمةً بيد الرومان. وقيل أن العدو خسر حوالي مائة الفٍ من المشاة. ولم ينبح من خيالته إلاّ شرذام. وخسر الرومان خمسة من القتلى، وجرح منهم مائة. ونوه [انطيوخوس] الفيلسوف بهذه الموقعة في كتابه «عن الارباب» بقوله: «إن الشمس لم تشرف على شبيه بهذه الموقعة» ويقول [سترابو] وهو فيلسوف آخر - في مجموعته التاريخية: إن الرومان لم يسعهم إلاالخجل، والهزء بانفسهم لارتدائهم الدروع في قتال مثل هؤلاء العبيد الذين تدعو حالتهم الى الشفقة والرثاء فعلاً» ويقول [ليڤي] ايضاً ان الرومان لم يحاربوا عدواً بقوة غير متكافئة كقوتهم هذه، لأن نسبة المنتصرين الى نسبة المغلوبين كانت واحداً مقابل عشرين. وكان أعظم الثناء الذي ناله [لوكوللوس] من أقدر القواد الرومان واوفرهم حكمة وخبرةً قولهم انه غلب ملكين عظيمين قويين بحركتين سوقيتين متناقضتين: العجلة والتريث!! فقد حطم قوة [ميثريدات] المتعاظمة بالثانية وسحق قوات [ديكران] بالأولى وكان بهذا مثلاً نادراً للقائد الذي استخدم عامل التأخر لتحقيق الانتصارات العسكرية، واستخدم عامل السرعة لتحقيق السلامة والأمن.

ولهذا رأينا [ميثريدات] غير مستعجل في القدوم الى المعركة لأنه كان يتصور ان [لوكوللوس] سيلتزم جانب الحذر والتريث كما هو شأنه قبلاً فابطأ في سيره وتأخر على [ديكران]، وأحسّ بالأمر الجلل عندما أخذ يلاقي في طريقه شراذم من الأرمن هاربة وهم في اسوأ حال من الهلع والمرارة. ولما زاد من يلقاه من الرجال الجرحى المجردين عن الاسلحة وأكدوا

له نبأ الهزيمة أقفل راجعاً وراء [ديكران] فوجده في حالة يرثى لها من الهمّ والذلة، وقد فارقته صلافته وغطرسته وانقلب وديعاً متواضعاً. وما وقع نظر [مشريدات] عليه حتى ترجلّ وتقدم منه يعزيه على ما حل به من نكبه وعرض عليه حرسه الخاصّ وراح يبث فيه الأمل بالمستقبل. حتى انعش روحه وأحيا فيه موات الأمل. وشرعا معاً يعبئان قوات جديدة.

وفي مدينة [ديكرانوكرتا] أنفصل الاغريق عن باقي سكانها من البرابرة وأخذوا يبذلون الجهود لتسهيل تسليمها الى [لوكوللوس]. فشن عليها هجوماً كاسحاً وأفتحتها عنوةً ووضع يده على بيت مالها، وأطلق العنان لجنوده يعيثون فيها نهباً ومما وجدوه من الأموال ثمانية آلاف تالنت من المسكوكات النقدية، توزعوها فيما بينهم، علاوة على اعطائه كل جنديً ثمانمائة دراخماً من الغنائم. وعلم بوجود كثير من الموسيقيين في المدينة كان [ديكران] قد دعاهم من كل صوب لأحياء حفلة افتتاح الملعب الذي اتمّ بناءه فوقعوا أسرى في ايدي الرومان. فاستخدمهم [لوكوللوس] لاحياء الالعاب التي اقامها بمناسبة نصره، وفي حفلاته العامّة ثم أنه أعاد الاغريق الى أوطانهم بعد تزويدهم بنفقات الطريق. وردّ البرابرة الذين ارغموا على سكنى المدينة الى ديارهم. فأخلى المدينة من السكان تماماً وبهذا عمر وأهل كثيراً من المدن باعادة أهاليها اليها فحظي [لوكوللوس] باعزازها وحبّها وعده سكانها مؤسساً لها وحامياً. وكان في انتظاره نجاح أكثر من هذا، وكل نجاح جدير به فعلاً ما دامت رغبته الشخصية أن يتأتي الثناء من أعمال العدل والرأفة أكثر مما يتأتي من مآثر الحرب. ففي هذه الأخيرة يعود بعض فضلها الى الجنود، وأكثر الفضل فيها يعود للحظّ، أمّا الأولى فهي دلائل أكيدة على روح سمحة كريمة، ولاشك في أن طبعه هذا كان أكبر عونٍ له على قهر البرابرة دعك من السلاح. فملوك العرب قصدوه طائعين وعرضوا عليه بلادهم وما يملكونه. وأعلن [الصوفينيون] خضوعهم له أيضاً. وبلغت معاملته [الگوردينيين] حداً من اللطف، ودواً معه لو تركوا بلادهم وتبعوه هم وأولادهم وزوجاتهم. واليك ما فعل معهم: عيل صبر [زاربين Zar-beinus] ملك الگوردينيين من قسوة [ديكران] واضطهاده، ففاوض [آپيوس] سراً في الدخول بحلفٍ مع الرومان. إلاّ ان أمره أنكشف فقتله [ديكران] هو وزوجه وأولاده قبيل دخول الرومان ارمينيا. ولم ينس [لوكوللوس] حليفه واتى الگوردينيين، واقام تشييعاً فخماً لجثمان [زاربين] تكريماً وأحياءً لذكراه، وزين المحرقة بالاوشحة الملكية والذهب وبشيء من غنائم حرب [ديكران] وقام هو نفسه باشعالِ النار فيها وسكب العطور مع اصدقاء الميت واقربائه. مطلقاً عليه صديق الرومان وحليفهم وأمر أيضاً ببناء ضريح فخم له. وعُرض عليه في قصر زاربين كنز عظيم من الذهب والفضة وما لايقل عن ثلاثة ملايين مكيال من القمح فزود بها

الجنود وصرفها عليها. وهكذا شاع عن [لوكوللوس] انه ينفق على الحرب مما يربحه منها، ولا يتسلّم دراخما واحدة من الخزانة العامة لهذا الغرض.

وبعد هذا قدمت سفارة من ملك البارثيين تعرض عليه التحالف والصداقة فوافق [لوكوللوس] في الحال، وبعث بوفد مماثل للملك البارثي. وما لبث اعضاء الوفد هناك ان وقفوا على اللعبة المزدوجة التي يلعبها الملك. فقد كان ثم مفاوضات سرية بينه وبين [ديكران] في الوقت نفسه ترمي الى عقد تحالف معه شريطة ان تطلق يده في بلاد ما بين النهرين. فما أن أنهي الأمر الى [لوكوللوس] الاّ وقرر أن يدع النزال مع [ديكران وميثريدات] الى حين بوصفهما خصمين مغلوبين. ويجسّ قوة البارثيين بحملة عليهم قد تنيله مجداً عظيماً. وبذلك يكون قد سحق ثلاثة ملوك في حرب واحدة متلاحمة الحلقات. وقهر ثلاث أعظم ممالك ذلك العهد طراً، كما لو كان بطلاً من أبطال العاب الرياضة. فبعث الى [پونطس] يطلب من [مورناتيوس] وزملائه سوق الجيش والالتحاق به في حملته من [گوردين Gordyene] ولكن الجنود هناك كانوا قد شقوا عصا الطاعة وتمردوا على أوامر قوادهم ولم تفلح فيهم اية وسيلة من وسائل الإقناع أو الإرغام وارتفعت اصوات الاحتجاج قائلة انهم ملوا البقاء حيث هم وما من قوة في الأرض تقنعهم وانهم سيغادرون [پونطس] نفسها فكيف يطلب منهم الرحيل الى الحرب. ولم يكن الضرر الذي احدثته انباء التمرد في جنود [لوكوللوس] بالقليل فهؤلاء ابطرهم الغنى وكثرة الغنائم وانمى في النفوس الشوق الى الراحة والترف. فحمدوا موقف أخوانهم المتمردين وقالوا أنهم لرجال حقاً وسيسيرون على هديهم ويحتذون حذوهم. لأنهم يستحقون التسريح من الخدمة العسكرية بعد المآثر الحربية التي حققوها، ليخلدوا الى الهدوء والراحة.

كل هذا وأسوء منه، حمل [لوكوللوس] على العدول عن غزو بلاد البارثيين، وانثنى الى [ديكران] والصيف في آخره، ولما أجتاز [طوروس] وشاهد أخضرار الحقول المنداحة امامه أدركه خوف من برودة مناخ هذا الأقليم إلاّ انه على كلّ حالٍ مضى في سبيله متوغلاً ووفق مرتين أو ثلاثاً الى الحاق الهزيمة بالأرمن الذين تجرأوا على اعتراض سبيل زحفه، ونهب قراهم وأحرقها واستولى على المؤون التي كانت تجمع لديكران. وبهذا أمّن حاجته، وجرد عدوّه من ارزاقه، إلاّ ان مساعيه فشلت في جرّ ديكران الى المعركة باستفزازه وارغامه عن طريق حفر خنادق حول معسكره وبناء استحكامات وحرق الأرض المحيطة به. ولم يفلح في اخراجه من مكمنه بعد الاندحارات التي اصابته على يده. ولما يئس من ذلك، لجأ الى وسيلة أخرى فقاد جيشه نحو [ارطاشاتا Artaxata] عاصمة [ديكران] التي تضمّ اولاده الصغار وزوجاته،

مقدّراً أن عاطفته ستدفعه الى اطراح جانب الحذر والخروج للقائه فوراً.

يروى أن [هنيبعل] القرطاجني لجأ الى [ارطاشاز Artaxas] ملك ارمينيا بعد الهزيمة التي لحقت بانطيوخوس فافاده بكثير من النصائح والمقترحات، ومنها استرعاء انتباهه الى مناعة الموقع الطبيعي وجماله وكان في ذلك الوقت أرضاً براحاً مهملة لا يقوم عليها شيء، فقام [هنيبعل] بعمل مخطط لمدينة تبنى فيها واتى [بارطاشاز] اليه لمشاهدته فأعجب بالفكرة ووقعت لديه موقعاً حسناً وأبدى رغبته في ان يشرف هو على هندستها. فنهض بالعبء وبنى مدينة واسعة فخمة أطلق عليها اسم الملك، واتخذت عاصمة لأرمينيا.

وكان [لوكوللوس] مصيباً في حدسه، فلم يصبر [ديكران] على تقدمه منها وداهمه بجيشه حتى ادركه في اليوم الرابع وضرب خيامه مقابل الرومان وليس بين الفريقين الاّ نهر [أرسانياس Arsanias] الذي كان على [لوكوللوس] ان يعبره ليبلغ العاصمة. وقرب [لوكوللوس] للآلهة تقريب من خرج منصوراً من المعركة ثم عبر الماء وقسم جيشه قسمين، زحف بالقسم الأول وقوامه إثنا عشر لواء [كوهورت] وثبت القسم الثاني في المؤخرة ليحول دون حركة التفاف قد يقوم بها العدوّ.

واخرج [ديكران] عليهم تجريدة من صفوة وحدات الخياله يتقدمها الرماة المارديون Mardi-ans بقسيهم، والايبريون برماحهم الطويلة التي مهروا في استخدامها مهارة لا تُجارى وكان [ديكران] يضع في هؤلاء الثقة التي لا يضعها في وحدة أخرى من الجنود الأجانب. الاّ انهم خيبوا ظنه ولم يحققوا شيئاً يذكر فمع انهم دخلوا المعركة مع الرومان الخيالة عن بعد، فقد عجلوا الفرار عندما داهمتهم المشاة وأحدثت في صفوفهم كسرات فأخذوا يهربون من الجناحين وأسرعت الخيالة الى ملاحقتهم. إلاّ ان القلق ظلّ مستولياً على [لوكوللوس] رغم ذلك؛ عندما رأى الخيالة المحيطة [بديكران] تتقدم منه بعزم وثبات أمر خيالته بالكفّ عن مطاردة المنهزمين والعودة الى ميدان القتال وحمل وهو في الطليعة بخيرة رجاله على الساترابينيين Satrapenians المتقدمين، الا انهم فروا من امامه قبل ان يصلهم وأطلقوا سيقانهم للريح دون اشتباك وقد تملكهم الرعب. وكان أخزى فرار لحق بالملوك الثلاثة، هو فرار [ميثريدات] الملك البونطسي. فقد افزعته صيحة الحرب الرومانية ففرّ قبل المعركة. وأمتدت المطاردة مسافة شاسعة، واستمر الرومان طوال الليل يقتّلون في العدو المنهزم ويأسرون منه ويغتنمون الأموال ويكدسون الأسلاب حتى كلّوا وادركهم الإعياء. ويقول ليفي أن عدد من قتل وأسر في أوّل معركة وإن كان أكثر من هذه. إلاّ أن قتلى المعركة الأخيرة وأسراها كانوا من ابرز الاشخاص وارفعهم منازل.

وغَرَّ [لوكوللوس] هذا النصر وملأه تيها وعجباً. فعزم على التوغل في داخلية البلاد واتمام فتوحه وسحق مقاومة البرابرة سحقاً تاماً. إلاّ ان الشتاء ادركه قبل تساوي الليل والنهار الخريفي خلافاً لما توقع، وباغته بعواصفه وثلوجه وصقيعه الأبيض وجليده. ولم تعد المياه تصلح لشرب الخيل من فرط برودتها حتى في أصفى الايام. وصعب عليها السير في الأرض المكسوة بالجمد لتكسره وجرح كواحلها. وكان الضباب يلفّ معظم البلاد ذات المسالك الوعرة والغابات الكثيفة، والمطر يكاد لا ينقطع. فهم أبداً مبللون، والثلج لا يرحمهم في سيرهم نهاراً يسقط غزيزاً عليهم ولا يجدون ليلاً ارضاً يستلقون فوقها إلاّ وهي ندية رطبة. وما مرت ايام قليلة عليهم بعد المعركة وهم في هذه الحال، حتى سرت الثورة في نفوسهم. ورفضوا السير وراءه. بدأوا أولاً يتوسلون به ويستوطنون بالتريبيونات عنده ثم تجمعوا واشتد صخبهم وضجيجهم ولم ينقطع صدوره من خيامهم طول الليل. وهكذا أصبح الجيش في حالة عصيان. ولم يسقط في يد [لوكوللوس] بل راح يطيب خواطرهم ويرجو منهم بحرارة التذرع بالصبر والتجلد حتى يتم الاستيلاء على «قرطاجنة الأرمنية وتخريب ما شيده عدوّهم الأكبر» (يقصد هنيبعل) فاصموا آذانهم عنه فلم ير بداً من العودة بهم. وكان انسحابه عبر [طوروس] الكثيرة الثمر والمشمسة، ومدنتها العظيمة [نصيبين Nisibis] المأهولة بالبرابرة يطلق عليها الاغريق اسم «انطاكية ميگدونيا». وكان حاكمها [غوراس Guras] أخو [ديكران] يتولى الدفاع عنها، مدعماً بمهارة المهندس الميكانيّ [كاللیماخوس]، وهو عين الشخص الذي لقي منه الرومان عنتاً في حصار [اميسوس]. على ان [لوكوللوس] القى عليها حصاراً شديداً وفتحها عنوة. واحسن معاملة [غوراس] الذي استسلم له. إلاّ أن [كاللیماخوس] لم يحظ منه بالتفات مع انه تبرع له بالكشف عن كنوز مخفية. وأمر بأن يبقى مكبلاً بالسلاسل وان يعاقب على اشعاله النار في مدينة [اميسوس]. وخيب أمله في الود والعطف اللذين طالما أظهرهما [لوكوللوس] للاغريق.

للمرء أن يتصور أن آلهة الحظّ خصّت [لوكوللوس] بعطفها وقاتلت في صفّه حتى هذه اللحظة، ثم ازورت عنه وتركته؛ واذا بالمشقة والصعاب تكتنف كل عمل يقدم عليه، مثلما تتخلى الريح المواتية عن السفينة فجأةً.

وهنا والحق يقال - ظهر منه الخلق والصبر اللذان لا يتحلى بهما إلاّ القائد المحنكّ العبقريّ. إلا أنه لم ينل مجداً يوازى مجهوداته، ولم يضف شيئاً من الشهرة الى ما كسبه سابقاً. والواقع ان نجاحاته التالية المتواضعة، وأخفاقه التام مع جنوده كادا يؤولان به الى فقدان كل ما ناله من شهرة، وقد كان هو مساهماً في اسبابها لأنفته الشديدة من التودد الى جمهرة

الجنود وأعتقاده الراسخ بأن ايّ تزلف أو تنازل لهم قد يؤدي الى ثلم سلطته، والانكى من كل هذا انه كان بطبعه مترفعاً على الناس. قليل الامتزاج بضباطه الأقدمين الذين عينوا معه. محتقراً سائر الضباط، لا يؤمن بمقدرتهم بالنسبة اليه. ولقد قيل لنا إن هذه الهنات الخلقية أجتمعت في شخصه مع سجاياه الممتازة الأخرى فهو كبير النفس، نبيلها، خطيب مفوّه ومستشار حكيم سواء في الفوروم أم في المعسكر.

يقول [ساللوست] أنّ الجنود كانوا برمين به منذ بداية الحرب، لأنهم أرغموا على قضاء شتائين كاملين في جبهتي قتال [كزيكوس] أولاً و[اميسوس] ثانياً. وزاد حنقهم عليه قضاؤهم فصول الشتاء الأخرى في بلاد العدوّ أو معسكرين في خيمهم المنصوبة في العراء بين حلفائهم. ولن يتفق [للوكوللوس] ولو مرة واحدة أن رابط بجيشه في مدينة أغريقية حليفة وعُزز سخط الجنود خارج الوطن بتحامل [التريبيونات] عليه في روما واتهامه باطالة أمد الحرب طمعاً في الثروة وفي تأسيس إمبراطورية تحت حكمه المباشر تضم كيليكا وآسيا وبيثينيا وبافلاغونيا Paphlagonia، وبونطس وارمينيا، حتى نهر فاسيس تقريباً، ولقد قام مؤخراً بنهب مدينة الملك ديكران، حتى لكأنما كان مطلوباً منه غصب اموال الملوك لا كسر شوكتهم، هذا ما يذكره [لوشيوسكوينتيوس] من انتقادات قيلت بحق [لوكوللوس]، وهو البريتور الذي أقترح على الشعب أرسال خلف [للوكوللوس] في حكم الأقليم فوافقوا، كما صوتوا ايضاً على تسريح عدد كبير من الجنود الذين يخدمون تحت امرته.

الى جانب كل ما نال [لوكوللوس] من اذىً على يد مبغضيه وأعدائه، فان التحامل الاعظم عليه جاء من [پوبليوس كلوديوس Publius Clodius] وهو انسان في منتهى الوقاحة والغلاظة وشقيق زوج لوكولوس المتهمة بسوء سيرتها وبوجود علاقة جنسية آثمة بينها وبين هذا الشقيق. وكان [كلوديوس] يعمل في جيش زوج أخته بمنصب لايتسم بالأهمية خلافاً لما يتوقع منه فقد تقدمه كثير من زملائه في المناصب وبقي هو في درجته ولولا سوء سمعته لكان آمراً على الكلّ. بدأ هذا الرجل يدسّ السائس على صهره فاتصل سِراً بالقطعات الفمبرية وأثارها بمعسول الكلام والوعود البراقة، وكانت هذه القطعات قد تعودت منذ عهد طويل تزلف الرؤساء لها وتملقهمّ. وفيها من اغراه [فمبريوس] بقتل قائدها [فلاكوس] وتنصيبه قائداً. فأصاخوا السمع للكلوديوس. ولقبوه بصديق العسكر لفرط ما أظهره من اهتمام بهم. ولإصراره على وضع نهاية للحرب ومشاقها وقتال الشعوب وغزوها والضرب في آفاق الدنيا، حتى يقضوا نحبهم، وكل مكافأتهم على مجهودهم هو حراسة عربات وقوافل جمال [لوكوللوس] الموقرة بالذهب والاواني الثمينة. بعكس جنود پومپي الذين يعيشون

عيشة المواطنين الحضريين في بلادهم، آمنين مستقرين مع زوجاتهم وأولادهم في المدن والمزارع الكثيرة. انهم يتمتعون بكلّ هذا بعد مجهود بسيط بذلوه في إخضاع منفيي اسپانيا، واخماد ثورة العبيد الآبقين في ايطاليا. لا بعد كسر شوكة [ميثريدات وديكران] وارغامهما على الفرار والتحصن في المجاهل الصحراوية. ولو قضى الواجب علينا ان تستمر في القتال، أفلا يجمل بنا أن ندخر ما تبقى فينا من قوى وانفاس لخدمة جنرال مثل [پومپي] يعتبر ثراء جنوده أعظم نصر له وأشرف مجد يناله؟».

تمّ اشاعة روح التمرد والفساد في جيش [لوكوللوس] بهذه الوسائل. فأعلن جنوده رفض الزحف على [ديكران] أو [ميثريدات]. وكان ثانيهما قد عاد الى پونطس من ارمينيا وراح يستعيد اراضي مملكته تباعاً ولكنه لم يتعرض للجيش الروماني بل ظلّ ساكناً في گوردين متعللاً بحلول موسم الشتاء، منتظراً في كل ساعة قدوم [پومپي] أو أي جنرال آخر لتسلّم القيادة من [لوكوللوس].

وظلّ الجيش عاصياً على أوامره حتى وردت ابناء انتصار [ميثريدات] على القائد الروماني [فابيوس]، وزحفه لقتال [صورناتيوس وترياريوس: Triarius] وإذ ذاك غيروا موقفهم خجلاً واحساساً بالعار وأعلنوا طاعتهم لأوامر لوكوللوس. واستعجل [ترياريوس] قتال [ميثريدات] قبل وصول لوكوللوس لنجدته رغم قربه منه، مدفوعاً بالطمع في نصرٍ منفردٍ لا يشاركه فيه أحد، فساءت عقباه وهزم شر هزينة وخسر معركة عظيمة كلفته على ما قيل سبعة آلاف قتيل روماني من الجنود، ومائة وخمسين سنتوريونا (ضابط: قائد مائة) واربعة وعشرين تريبيوناً. وأستولى العدو المنتصر على معسكره. ولما ادركه لوكوللوس بعد أيام قليلة، اضطر الى اخفائه عن أعين الجنود الحانقين. وابى [ميثريدات] الدخول مع لوكوللوس في معركة منتظراً قدوم [ديكران] الذي كان يزحف بقوات ضخمة. فقرر [لوكوللوس] أن يتوجه الى [ديكران] ويشتبك معه قبل انضمام قواته الى ميثريدات، إلاّ أن المتمردين الفمبريين خرجوا عن الرتل اثناء المسيرة قائلين انهم مسرحون من الخدمة بموجب المرسوم النافذ وليس [للوكولوس] اية سلطة قيادية عليهم بعد اسناد حاكمية الاقليم الى شخص آخر.

لم يبق شيء يحط بكرامة [لوكوللوس] وعزة نفسه الا تعرض له واحتمله. فقد راح يتنقل واحداً واحداً يتوسل بهم، ويدخل في خيامهم غادياً رائحاً ذليلاً كسيراً والدموع تجول في عينيه، يمسك بايديهم كالضارع الراجي فلا يلتفتون اليه ولا يجيبون على تحيته. بل كانوا يلقون امامه أكياس نقودهم فارغةً. ويقولون له أن يخرج وحده لقتال العدوّ لأنه الوحيد الذي يملك مصلحة فيها. وطالت محاولاته وبذل الجنود الآخرون جهوداً مضنية مع زملائهم المتمردين

حتى أقنعوهم، فقبلوا البقاء تحت قيادته الى نهاية الصيف. على أن يكونوا بعده أحراراً إن لم يتعرض لهم العدوّ بقتال خلال تلك الفترة. وقبل لوكوللوس بشرطهم مرغماً. والاّ كان مضطراً الى الجلاء عن كل اراضي البرابرة. ابقاهم تحت قيادته الاّ ان تحاشى فرض أوامره عليهم بالقوة ولم يقدهم الى ميدان القتال وقنع ببقائهم في جيشه، يرى [ديكران] وهو يجتاح [كپادوكيا] و[ميثريدات] يعاود انتصاراته وهو الذي كان قبل فترة وجيزة قد أبلغ مجلس الشيوخ بأنه قضى تماماً على ميثريدات ولم تعد تقوم له قائمة!

وفي هذا الوقت العصيب، يجري ارسال مفوضين الى الپونطس لتسوية الأمور، كأن كل شيء تحت سيطرته التامة، والأحوال مستقرة، فاذا بهم يجدونه فاقد الحول والطول، لا سلطان له إلاّ على نفسه، هدفاً لازدراء جنوده واهاناتهم. فقد خرقوا بصفاقتهم كل الحدود، حتى أنهم لبسوا دروعهم وانتضوا سيوفهم في آخر يوم من الموعد الذي ضربوه. وخرجوا يتحدون العدو الذي لا وجود له. لانسحابه ورحيله منذ وقت بعيد. ثم غادروا المعسكر معربدين هاتفين ملوحين بسيوفهم معلنين انتهاء الفترة التي حددوها للبقاء في جيش [لوكوللوس]. واما بقية الوحدات فقد اصدر لها [پومپي] أمراً خطيّا بالانضمام اليه لأنه عُين بدله جنرالاً لادارة دفة الحرب ضد [ديكران وميثريدات]. وقد أفلح في الوصول الى المنصب بفضل الشعب وتملقه لزعمائه مع أن مجلس الشيوخ وطبقة الاشراف كانوا يرون [لوكوللوس] موضع ظلم واهانة بتعيين رئيس له ووارثٍ لموكب ظفره لا لمنصبه، وانه في الواقع لم يعزل من وظيفته بل جرد من مجده الذي استحقه على قيادةٍ أرغم الآن على تسليمها لغيره.

ثم ان الأمر كان أكثر من مجرد قضية شفقة أو سخط بالنسبة للموجودين، اذ لم يعد [لوكوللوس] سيّد الثواب والعقاب والآمر الناهي في القيادة، ومنع پومپي ان يراجع في اي أمرٍ وحرم تنفيذ أو اطاعة كل ما يصدر منه حتى بموافقة المفوضين العشرة. وأخذ يصدر بيانات وأوامر مبطلة لما اتخذه سلفه فكانت واجبة التنفيذ لصدورها من مرجع رسمي أعلى وأكبر سلطاناً واستحسن اصدقاء الطرفين الجمع بين القائدين. وتمت المقابلة في قرية من قرى [غلاطيه] فتبادلا التحية بمودة، وهنأ أحدهم الآخر على انتصاراته وكان [لوكوللوس] أكبر سنّا من [پومپي] إلاّ أن [پومپي] كان يفوقه شهرة وامتيازاً بقياداته العديدة التي تولاها، وبموكبي نصره، على أن كلاهما كانا يتمتعان بامتياز شعار العصيّ المكللة بالغار، يحمل أمامها دليلاً على انتصاراتهما وكان الغار في شعار [پومپي] قد أدركه الذبول بسبب سيره في مناخ حَارّ جاف. فقدم حرس [لوكوللوس] من اللكتور كمية من الغار الأخضر اليافع للكتور پومپي. فعد اصدقاء بومپي هذه البادرة يمن وخير. والواقع ان تصرفات [لوكوللوس]

هذه اضفت شرفاً على قيادة پومپي، على أن المقابلة لم تؤد بهما الى اي اتفاق ودّي وافترقا وهما أقل عطفاً مما التقيا. ومضى [پومپي] في اجراءات ابطال كل مراسيم لوكوللوس وسحب كل القطعات التي بقيت تحت أمرته ولم يترك له غير ألفٍ وستمائة جندي تقريبا ليقودهم في موكب ظفره القادم حتى هؤلاء لم يجدوا اي رغبةٍ تدفعهم للرحيل الى الوطن معه.

لقد كان [لوكوللوس] يفتقر الى تلك الصفة الرئيسة اللازمة للقائد، إمّا لسوء حظه أو لطبع فيه. ولو أنها كانت من ضمن فضائله الأخرى وفي مقدمتها مثابرته وحكمته وحزمه وعدالته، لما ظلت حدود الامبراطورية الرومانية قاصرة على نهر الفرات، بل كانت ستمتد الى أقصى نهاية آسيا والبحر الهركاني Hurcanian. حيث الشعوب هناك قد انهكتها فتوحات [ديكران]. وسلطات الپارثيين وقتذاك لم يبلغ الأوج الذي بلغه في عهد [كراسوس] بعدئذ. ولم تبرز مملكتهم بعدُ كقوةٍ يخشى جانبها. اذ كانت على عهد [لوكوللوس] منهكة بالحروب على الحدود والفتن الداخلية حتى عجزت عن صدّ عدوان الأرمن. والذي اراه أن [لوكوللوس] بتدخل من المشيئة الالهية طبعاً، قد الحق بروما والحالة هذه - ضرراً أكثر مما حققه لها من فوائد. لأن انصاب النصر التي اقامها في ارمينيا على الحدود الپارثية وفتحه [ديكرانوكرتا] و[نصيبين]، والثروة الطائلة التي جاء بها من تلك الاصقاع الى روما، فضلاً عن تاج ديكران الذي عرضه في موكب ظفره، كل هذا عمل على زيادة غرور [كراسوس] وتوهمه بأن البرابرة ليسوا الاّ غنائم وأسلاباً معروضة لمن ينهب، حتى اذا وقع في ايدي الرماة الپارثيين، تأكد في الحال ان انتصارات[لوكوللوس] لم تكن بالسهولة التي تخيلها، ولم تأته بسبب جبن اعدائه وجهلهم فنون الحرب، بل ثمرة بسالته ودرايته. وسنعود الى هذا الموضوع فيما بعد.

عند عودة [لوكوللوس] الى روما، وجد أخاه [ماركوس] ضحية تهمة رفعها ضده [كايوس ومميوس] عن تصرفاته التي أتاها بأمر من [سيللاّ] عندما كان [كويستوراً] له. ولما صدر الحكم ببراءته تحول [مميوس] الى [لوكوللوس] وراح يحرضّ الشعب عليه، ويدفعهم الى حرمانه موكب الظفر لاستئثاره بالغنائم لنفسه واطالته امد الحرب. وفي هذه المعركة السياسيّة الهامة نزل الاشراف وسراة القوم الى الشارع وأختلطوا بعامة الشعب وقبائله باذلين أعظم الجهود في سبيل [لوكوللوس] الى ان نجحوا بشق الأنفس في حمل الناس على التصويت له بموكب الظفر. ولم يكن الموكب فخماً ولا طويلاً الى حَدّ الملل، نسبة الى المستعرضات والمواكب التي سارت خلاله. فقد كان أهم ما فيه كميات هائلة من الأسلحة والآليات والاجهزة الميكانية الحربية الملكية. زين بها ملعب [فلامينئوس] فيما بعد، وهو منظر طريق لقي أعجاباً لا يستهان به. وحفّ بالموكب عدد من الخيالة ذات الدروع الثقيلة، وعشر عجلات مدرعة

ومسلحة بالاسنّه. وسار ستون صديقاً وضابطاً اسيراً من جيش الملك ومائة وعشر سفن حربية من ذوات الجؤجو النحاسي نقلت وجُرت جراً في الموكب. وشاهد المتفرجون صورة من الذهب الخالص [لميثريدات] يبلغ ارتفاعها ست أقدام، وترساً ومكفتاً بالاحجار الكريمة وعشرين جوالق مملوءة بالاواني الفضية واثنين وثلاثين خرجاً مملوءة بالكؤوس الذهبية والدروع والنقد حملت كلها على عواتق الرجال. فضلاً عن ثمانية بغال تنوء بحمل مسكوكات فضية، يبلغ عددها مليونين وسبعمائة الف قطعة تقريباً. وتلتها الواح حفرت عليها ارقام تبين مقدار المال الذي دفعه [لپومپي] للانفاق على حرب القراصنة. والمبالغ التي زود بها الخزانة العامة وما دفع لكلّ جندي من الغنائم وهو تسعمائة وخمسون دراخماً. وبعد ختام الموكب اقام المآدب الفخمة لأهل المدينة وما يجاورها من «القرى Vici».

بعد أن أطلق [لوكوللوس] زوجته [كلوديا] الفاجرة المهتوكة العرض، تزوج [سرڤيليا Ser-vilia] أخت [كاتو]، فلم يكن زواجه هذا بأفضل من سابقه لأن عروسه الثانية كانت تملك كل رذائل [كلوديا] إلاّ علاقتها الآثمة باخوتها. وغض [لوكوللوس] الطرف عنها حينا اكراماً لأخيها، ولكنه لم يطق فجورها ودعرها فطلقها. وكان مجلس الشيوخ ينتظر منه عظائم الأمور، وأملّ ان يجد فيه خصماً [لپومپي] يحدّ من طغيانه وعتوه. وتوقع ان يبرز زعيماً لطبقة الاشراف بما يملكه من مقام ومجدٍ مؤثل، فاذا به يعلن أعتزاله السياسة والحياة العامة ولعله وجد الدولة تجتاز مرحلة عسيرة والفساد مستشرٍ فيها. أو ربّما لأن ما بلغه من رفعةٍ لم يبق له ما يطمع فيه. أضف الى ذلك حنينه الشديد الى الحياة الهادئة الناعمة بعد الأهوال والمشاق التي عاناها فأنتهت به الى نهاية لا يمكن وصفها بالسعيدة. هناك من الناس من حمد فيه أعتزاله وأختيار هذا النمط من العيش قائلين انه تحاشى الصخرة التي تحطم عليها [ماريوس] قبله فلم يكتف بالامجاد الخالدة التي نالها من انتصاراته. على الكمبريين، ولم ينسحب بها وطمع في المزيد متزعماً حزباً سياسياً مضاداً للشباب الروماني، وهو في شهوة لا ترتوى الى السلطان والسؤدد غير مبال بتقدمه في السن، فورط نفسه في أعمالٍ دنيئة، أوقعته في مهالك بائسة. وكذلك قيل عن [شيشرون]: لو انه أعتزل الحياة السياسية بعد مؤآمرة [كاتيلين Catiline] لعاش عمراً مديداً. وقيل الشيء نفسه عن [سكيپيو] بعد فتوحاته القرطاجنة والنوميدية. لو تقاعد قانعاً بما حصل عليه من مجدٍ. والامر منطقي فاداره الشؤون العامة كغيرها من الأعمال - لها رجالها وساستها وشروطها المثلى. وهؤلاء ايضاً كالمصارعين يُصرعون حتماً عندما يوليّ شبابهم وتنهد قواهم. على ان [كراسوس] و[پومپي] سخرا من [لوكوللوس] عندما وجداه ينصرف الى الحياة الناعمة، كأن حياة الترف واللذة لا

تناسب سنّه قدر ما تناسبه شؤون الحكم والسياسة أو قيادة الجيش في ميادين القتال.

ولا غرو فقد كانت حياة [لوكوللوس] أشبه «بالكوميديا القديمة» تبدأ بمشاهد سياسية وحربية وتنقلب في فصولها الأخيرة الى مشاهدة الولائم ومجالس الشراب واطايب الآكال والقصف والغناء والمنادمة. ولن أحاول ايجاد اسماءٍ أفخم واليق لتلك الصروح الشامخة والاروقة ذات الأعمدة الفخمة والحمامات الرائعة التي بناها [لوكوللوس] ولن أقلل من شأن الرسوم والتماثيل التي جمعها باهتمام الى جانب مختلف التحف ببذله المال الطائل في سبيلها وصرفه عليها كل ما كسبه من الحرب. الى يومنا هذا يضرب المثل «بحدائق لوكوللوس» وتعدّ أجمل واروع ما يملكه الامبراطور رغم تطور الأذواق وتقدم الفن. ووقع نظر [توبيرو Tubero] الفيلسوف الرواقي على صروحه في نابلي حيث جعل من الجبل طنفاً بحفره انفاقاً واسعة تحته فآض كالصخرة العظيمة المعلقة. وجلب اليها ماء البحر فغدت قنوات وبحيرات للاسماك تحيط ببيته من كل جهة، وبنى مقاصير لهو في وسط الماء، فما وسع توبيرو الاّ أن يخلع عليه اسم «احشويرش في طيلسانه». وبنى أجمل المغاني في [توسكولوم Tusculum] وقصوراً ذات ابراج عالية وبلكونات واسعة مفتوحة للنوم في العراء ذات اروقة للنزهة. وقد زاره [پومپي] ذات مرة ولامه لبنائه بيتاً قد يكون مريحاً في الصيف لكنه لا يصلح للسكنى شتاءً فاجابه باسماً:

- ايخيل لك اني أقل تحفظاً من الرهو واللقلق، لا أغير مسكني بتغير الفصول؟

وكان ثم [پريتور] يقوم بتهيئة حفلة تمثيل للجمهور باذلاً كثيراً من الجهود ومنفقاً المال الطائل. واحتاج الى عددٍ من الاوشحة الارجوانية لممثلي الجوقة. فطلبها من [لوكوللوس] على سبيل الإعارة. فاجابه هذا انه سيذهب الى منزلة وينظر فان وجد شيئاً فطلبه محقق. وعاد اليه في اليوم التالي وسأله كم عدد ما يريد منها فقال يكفي مائة. فعرض عليه [لوكوللوس] مائتين. وعلق الشاعر [هوراس Horace] على هذا قائلاً:

«يكون المنزل فقيراً عندما لا تزيد النفائس غير المنظورة فيه، عن النفائس المنظورة».

وفاقت مآدب [لوكوللوس] اليومية كل الحدود المتعارف عليها في البذخ والإسراف فكانت أغطية موائده من الأرجوان النفيس وصحاف الطعام مكفتة بالجواهر الكريمة. ولا تخلو الوليمة قط من الرقص والعزف. هذا فضلاً عن كثرة الاصناف وجودة طهيها مما يدير رأس الرجل العادي ويملأه حسداً.

وكانت مقولة بليغةً تلك التي خطرت ببال [پومپي] في وقت مرضه، فقد وصف له طبيبه طير الدُّج. فقال خدمه ان هذا الطائر لا وجود له في الصيف إلاّ عند لوكوللوس الذي يقوم بتربيته وتسمينه في اقنانه. فأبى أن يبعث بطلبه وقال لطبيبه:

- أترى پومپي سيموت اذن لو لم يكن [لوكوللوس] ابيقوري المذهب؟ ثم أمر بتهيئة ما يتسيّر في السوق.

وكان [كاتو] صديقه الصدوق ونسيبه يكره عاداته وأسلوب حياته هذا. حتى انه لما فرغ احر الشباب من القاء خطبة في مجلس الشيوخ بمدح الزهد والتقشف نهض كاتو وعقب قائلاً:

- حتى م؟ تريد الاستمرار في جمع المال مثل [كراسوس] والعيش مثل [لوكوللوس] والكلام مثل [كاتو]؟

على أن ثم من يقول أن قائل هذه العبارة شخصٌ آخر غير [كاتو].

وواضح من الحكايات المدونة عنه أنه كان يعتزّ بطريقة عيشه ويفخر بها فضلاً عن متعته فيها. اذ قيل انه أدب عدة ولائم لبعض الأغريق القادمين الى روما، أستمرت اياماً متوالية، حتى أخجل أدبهم الاغريقي الصميم فابوا حضورها معتذرين بما تكلفه من مبالغ جسيمة يومياً وهو لا يقيمها الاّ على شرفهم. فاجابهم باسماً:

- بعض هذا عُمل لأجلكم يا اصدقائي الأغريق. على ان أكثره عُمل لأجل [لوكوللوس].

ومرة تناول عشاءه وحيداً ولم يهيأ له غير قائمة طعام واحدة متواضعة فأستدعى وصيفه وأخذ يؤنبه. فاعتذر منه بقوله: انه قدر عدم وجود حاجة الى اصناف كثيرة، لانه لم يدع أحداً. فردّ لوكوللوس قائلاً:

- ماذا تقول؟ الا تدري اذن انّ [لوكوللوس] يتناول اليوم عشاءه مع [لوكوللوس]؟

وذاع هذا القول في المدينة وكثر التعليق عليه.

ولقيه [شيشرون] و[پومپي] ذات يوم وهو يسير الهوينا في الفورم وكان أولهما من أعزّ اصدقائه ومحبيه. اما الثاني فمع بقاء بعض برود بينهما منذ تنازعهما على القيادة في الحرب إلاّ انهما ظلاّ يتزاوران، وظل حبل المودة بينهما موصولاً، فحياه [شيشرون] وسأله اليس في رأيه ان هذا اليوم ملائم لطلب فضل منه. فقال [لوكوللوس]: ملائم جداً. وطلب منه ان يفصح فقال [شيشرون].

- نريد ان نتناول معك هذا اليوم العشاء الذي يُعد لك وحدك

فبوغت [لوكوللوس] - وسأله مهلة يومٍ واحد فرفضا ولم يدعاه يكلم خدامه في الأمر لئلاً يزودهم باوامر في اعداد طعام أضافي. إلاّ انهما سمحا له بقول عبارة واحدة لهم أمامها وهي «انه سيتعشى هذا اليوم في [اپوللو] ».

(واپوللو هو اسم قاعة من أحسن قاعات الطعام لديه). وبهذه التورية استظهر على ضيفيه، وأفلت من طوقهما. فلكلّ قاعة طعام من قاعاته على ما يبدو، مخصصاتها المحدودة من نفقات العشاء بدرجة كذا، وما يلحق بالعشاء من وسائل التسلية. فلما ادرك الخدم اين سيكون عشاء سيدهم، علموا ايضاً كم يجب ان ينفقوا عليه وباي شكلٍ وما هي الاصناف. وكان محدداً للعشاء في غرفة اپوللو ما مقداره خمسون الف دراخما صرف فعلاً برمته في ذلك اليوم. وكانت دهشة [پومپي] و[شيشرون] بسرعة أعداد هذا العشاء أكثر بكثير من دهشتهم لفخامته ونفاسته. والمرء لايسعه الاّ القول أموال لوكوللوس جاءت من أسلاب البرابرة ومن هنا كان بطره واستهانته في تبذيرها.

ومما يستحق الثناء والذكر الحسن فيه تأسيسه مكتبة عامة. جمع فيها عدداً كبيراً من أنفس المخطوطات واعلاها قدرها، وكانت الجهة التي اوفقها عليها مما يعد اسمى من عملية تأسيسها فقد جعلها حرة للمطالعين مفتوحة الأبواب لطلاب العلم بلا استثناء والحق بها غرفاً للمطالعة ومماشي حولها. وكان من دواعي سرور معشر الاغريق أن يتركوا أعمالهم ويهوعوا الى تلك المكتبة التي باتت في نظرهم مقر آلهة الفنون [ميوزات] فتراهم يسيرون متحدثين معاً في الأروقة بناقش بعضهم بعضاً.

وكان هو نفسه يقضي فيها ساعات كثيرة يجادل العلماء وهو يمشي ويبذل نصحه لمن يطلب من رجال السياسة. حتى صار بيته أشبه بپريتانيوم أغريقي لمن يزور روما. وعرف بتعلقه الشديد بكلّ مذاهب الفلسفية واطلاعه العميق على سائر اتجاهاتها. إلاّ انه اختار لنفسه المذهب الأكاديمي منذ البدء. ولا أقصد الحديث منه الذي ازدهر مؤخراً بجهود [فيلو] وتعاليم [كارنياديس Carneades]. بل القديم منه الذي مثله ورعاه [انطيوخوس العسقلاني] وهو رجل وافر العلم والفصاحة - تمكن [لوكوللوس] بعد الجهد الجهيد من اتخاذه صديقين عزيزين. وأطلقه على اتباع [فيلو] ومعتنقي مذهبه ومنهم [شيشرون] نفسه الذي كتب رسالة رائعة في الدفاع عن مذهبه، ضمنّها حواراً في تحبيذ الادراك اجراه على لسان [لوكوللوس] واجرى الحوار المقابل عن لسانه. وجعل عنوان كتابه هذا [لوكوللوس] لأنهما كانا صديقان عزيزان كما اسلفنا، فضلاً عن انتمائها الى معسكر سياسيّ واحدٍ. ولنستدرك القول هنا بأن لوكوللوس لم يعتزل العمل السياسي تماماً وانما تخلّى عن اطلاب المجد من خلاله، وتحاشى

التناحر الخطر الذي ينقلب في احيان كثيرة الى فتن يبدر فيها القانون وينفرط عقد النظام. ويكون هدفها الفوز بالسلطة السياسية فحسب. وكل هذا تركه [لكراسوس وكاتو] عندما اضطر مجلس الشيوخ الى ابرازهما زعيمين سياسيين خوفاً من تنامي شوكة [پومپي] بعد ان رفض [لوكوللوس] تلك الزعامة كما أسلفنا. إلاّ انه كان يختلف أحياناً الى الفورم نزولاً عند رغبة اصدقائه ويأتي الى مجلس الشيوخ عندما يستدعى الأمر الوقوف في وجه [پومپي] والحدّ من كبريائه وطغيانه. فنجح في ابطال تسويته بعد فتوحاته وقهره الملوك. وابطل بمساعدة [كاتو] مشروعه الرامي الى توزيع الاراضي على جنوده، فما كان من [پومپي] إلاّ وانحاز الى محور «كراسوس - قيصر» أو موآمرتها بعبارة أخرى.

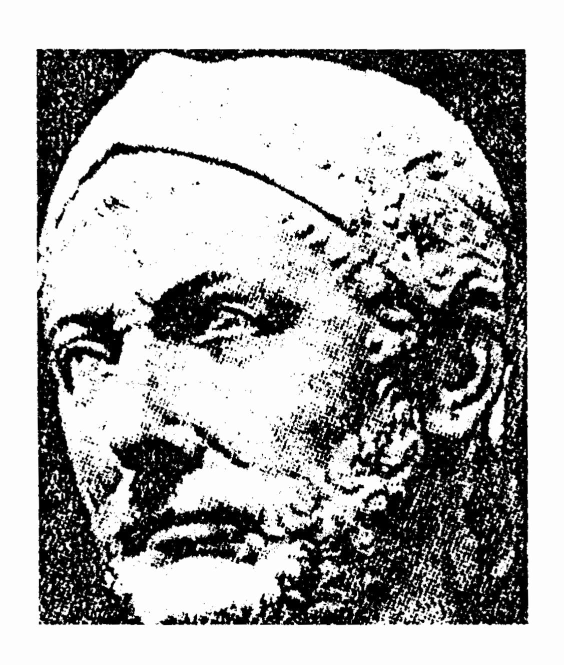
وملأ البومپي المدينة بالرجال المسلحين واستحصل بالقوة مصادقة على مراسيمه وطرد [كاتو ولوكوللوس] من الفورم، فاشتد حنق الأشراف عليه. وعمد حزب [پومپي] الى دفع شخص يدعى [ڤيتيوس Vettius] ليتهمها بأنهما فاوضاه على محاولة أغتيال [پومپي]. ووقف في المجلس يعدد اسماء المتهمين. وقبل أن يسمع منه الشعب اسم [لوكوللوس] بوصفه الرجل الذي اغراه على قتل [پومپي] بالمال فقد الناس اهتمامهم به ولم يصغ أحد اليه؛ واتضح لهم فوراً أنه مدفوع ومزوّر اتهامات لا أساس لها. وانكشفت معالم الدسيسة بعد أيامٍ عندما طُرحت جثته خارج السجن الذي كان فيه. ومع ما قيل بأن موته كان طبيعياً فان ما شوهد على جثته من آثار ضرب رعلى عنقه من أثر حبل الخنق اثبت ان من اغراه على التزوير هم الذين قتلوه، خشية الفضيحة. هذا الأمور حملت لوكوللوس على ان يزداد نأيا عن السياسة.

وحرّم على نفسه التدخل في الشؤون العامّة بتاتاً، عندما نفي شيشرون من المدينة، وطرد [كاتو] الى قبرص. وقيل أنه خولط في عقله قبل وفاته بتأثير تقدمه في السن الاّ ان [كورنيليوس نپوس] ينكر اي تأثير للسن أو للمرض على الانحلال العقلي التدريجي الذي اصابه. ويقول أن ذلك نجم عن جرعة أعطاها له [كاللیثینس] معتوقة وكان يقصد بها أن يزداد به حبّاً كما هو المفروض فيها الاّ ان مردودها كان مضاداً فشلت عقله. واضطر أخوه الى القيام بشؤونه.

وكان موته اشبه بموت عظيمٍ من العظماء وهو في أوج مجده العسكري وسلطانه السياسيّ. اذ وقع نبأه وقعاً شديداً على الجمهور فتقاطروا اليه وارادوا حمل جثمانه بالقوة أثناء نقله الى الساحة العامة مرفوعاً على أعناق فتيان من أكبر الأُسر - لدفنه في «حقل مارس» جنب سيللاً.

وكانت فكرة آنية لم يسبقها أعداد ، ولم يتوقعها أحدٌ، لذلك صعب تذليل العقبات التي تكتنفها في الحال. وبذل أخوه جهوداً كبيرة في اقناعهم بالعدول عما أعتزموه حتى اجازوا له دفنه في ضيعته التوسكولانية كما أوصى هو بذلك.

ولم يطل العمر بأخيه بعده. ولم يفصلهما الموت وقتاً طويلاً فلحق به وهكذا كانا قريبين أحدهما من الآخر في الموت والحياة والعمر والشهرة، وغيرها من النواحي الأخرى فضلاً عن محبتهما الأخوية التي ضربت بها الامثال.



هنيبعل



مقارنة بين لوكوللوس بكيمون

قد يحمد المرء نهاية [لوكوللوس] التي كانت مخجلة الى الحدّ الذي اسلمته الى الموت قبل اندلاع الثورة الكبرى بفعل الحروب الأهلية، مما كان القدر قد ادخره للجمهورية آنذاك. وبذلك ختم على حياته في عهد جمهورية حُرة وان كانت ممزقة بالفتن والاضطرابات. فهو [وكيمون] يتفقان في الظروف والمصير اكثر من اي شيء آخر. فقد ادرك [كيمون] أجله قبل أن تدب الفوضى في بلاد الأغريق، وفي اثناء ما كانت تستمتع بأعلى حالات الرفاء والرخاء. ومع انه لم يستدع الى الوطن وهو يقود جيشه في ميدان القتال ولم يزايله عقله أو يلطخ مجد حروبه ووقائعه وفتوحاته باقامة المآدب ومجالس اللهو والفجور. فالظاهر ان هدفهما ونهايتهما كانا هذا وقديماً قال افلاطون محتقراً [اورفيوس Orpheus] «لقد جعل الفجور المستديم من الآن فصاعداً، مكافأة لمن يعيش هنا حياة صالحة».

ولا شك في ان الراحة والهدوء ودراسة العلوم الفلسفية والأدبية هي أفضل حل واليق الهوايات والتتبعات للرجل المتقاعد عن القيادة والحكم ذي السنّ المتقدمة. إلا أن الانحراف بالأعمال الجليلة الى نواحي اللذة واللهو وجعلها هدفاً نهائياً وخاتمة للوقائع الحربية ومناصب القيادات العسكرية، وأحياء أعياد [فينوس]، كل ذلك أمور لا تليق بالفلسفة الأكاديمية الشريفة ولا بتلميذ لـ[كزينوقراطس]، بل برجل ابيقوري النزعة. واليك نقطة تناقض عجيبة فيما بينهما، لم تكن صبوة [كيمون] محمودة وانما حفلت بالهفوات والسقطات الخلقية، امّا [لوكوللوس] فكانت نشأته صارمة، وخلقه مستقيماً منزهاً عن كل ما يشين، ولا مندوحة لنا هنا في اعطاء قصب السبق والفضل لمن غيره دهره الى الأحسن، فهذا دليل على الطبع الأقوم حيث تتخلى الرذيلة عن مكانها للفضيلة. وقد كان ثراؤهما فاحشاً، إلاّ ان كل واحدٍ منهما نهج سبيلاً مختلفاً في استعماله. وهنا لاوجه للمقارنة بين الجدار الجنوبي من الاكروپوليس الذي بناه [كيمون] وبين القاعات الفخمة والمقاصير المطلة على البحر التي بناها [لوكوللوس] في نابلي، باموال البرابرة. ولا مجال للمقارنة ايضاً بين مائدة [كيمون] الشعبية المجانية،

وبين مائدة [لوكوللوس] الشرقية الفخمة، كان اولهما يستضيف يومياً كثيراً من المدعوين ويطمعهم طعاماً لا يكلفه كثيراً من المال. في حين كان ثانيهما يمدّ سماطاً مرتفع، التكاليف لرجال كلّ همهّم اللذة والشهوة. الاّ اذا كانت طبيعة العهدين المتباعدين وطراز الحياة فيهما سبباً في التغيير وفي الفرق. فمن يجزم ان [كيمون] ما كان ليعيش حياة أكثر ترفاً وبذخاً من حياة لوكوللوس لوا انه اعتزل القيادة والحياة العامّة في سنه المتقدمة واثر حياة الهدوء والانعزال، وهو المعروف بشدة تعلقه بالخمرة والعشرة والمتهم بالضعف ازاء الجنس الآخر كما أسلفنا ؟

ان المتع التي ينالها المرء من انتصار في معركة، أو مجهود تكلل بالنجاح، لا يترك زماناً ولا مكاناً للمتع الحسيّة الدنيا وتدفع ابطال الرجال ومغاويرهم الى نسيان الأخيرة. ولو ان [لوكوللوس] قضى نحبه في ميدان القتال وهو على رأس قطعاته لتقاصر الحسد والافتراء عن النيل منه ومن سمعته قلامة ظفر. وفي هذا ختام الكلام عن حياتيهما الخاصة.

واضح أن كلاهما كان جندياً ممتازاً وعبقرياً في ميداني البحر والبرّ. وكما جرت العادة في خلع لقب «الفائز واكثر!» على أولئك الابطال الرياضيين الفائزين بأكاليل الغار في لعبتي المصارعة والپانكراتيوم[1] خلال يوم واحدٍ فإن [كيمون] خلع على بلاد الاغريق نصراً بحرياً ونصراً برياً في يوم واحدٍ. ولذلك كان له ان يفخر بتفوق معين وميزة على سائر القادة. أن [لوكوللوس] تسلم القيادة العامة بأمر من حكومته. في حين جاء [كيمون] بالقيادة العامة الى حكومته وضمّ الى أملاكها اراضي عدو كان يحكم كل الحلفاء الاغريق قبل هذا. فامّر [كيمون] بلاده على دول الحلف بعد ان كانت مجرد تابع. وجعلها تقهر اعداءها، وترغم الفرس على ترك سيادة البحر لها، وأجبر اللقيديميين على النزول عن القيادة العامة لأثينا.

واذا كان أهم شرط في الجنرال هو أن يحتفظ بثقة جنوده، فلا يخرجوا عن طاعته، فان [لوكوللوس] أصبح موضع ازدراء بينما ظلّ [كيمون] موضع أجلالهم العظيم واجلال الجنود الآخرين الأجانب. اولهما تخلىّ عنه جنوده، وثانيهما انحاز الى صفه جنود حلفائه. لوكوللوس عاد الى وطنه بدون القوات التي قادها عند خروجه. وأرسل [كيمون] الى الخارج كعضو في الحلف مع غيره من الاعضاء، فعادٍ الى وطنه بسلطان يفوق الكلّ بعد أن حقق لمدينته ثلاثاً من أصعب الخدمات: رآسة الحلف الأغريقي، وتثبيت قواعد السلم مع العدو، وعقد ميثاق صداقة مع لقيديمون.

---

(١) Pancratium: لعبة رياضية أغريقية هي مزيج من الملاكمة والمصارعة.

كان كلا الرجلين يهدفان الى تدمير ممالك عظيمة الشأن واخضاع آسيا، وكلاهما فشل في مسعاه هذا؛ [كيمون] عانده حظّ بسيط فأخفق اذ ادركه الاجل المحتوم وهو في أوج انتصاراته ولم يمهله لتحقيق هدفه. امّا [لوكوللوس] فليس ثم من يبرئه من سوء التصرف مع جنوده، ولا يكون شفيعاً له في ذلك جهله بما يشكو منه جيشه ويتذمر، أو امتناعه قصداً عن ازالة اسباب ذلك التذمر. وهذا ما حملهم على كرهه كرهاً قتالاً. ولكن ألم يكن ما عاناه [كيمون] شبيهاً بهذا؟ فقد قاضاه مواطنوه وقدموه للمحاكمة ولم يتركوه حتى نفوه «كي لا يسمعوه مدة عشر سنوات» هلى حَدّ قول افلاطون! ذلك ان ذوي العقول النبيلة السامية، يندر ان يرتاح لهم السوقة أو يطمئنوا اليهم. لأن الشدة التي يستخدمها الاولون لتقويم اعوجاج الأخيرين تحدث فيهم عين الألم الذي تحدثه أربطة المجبر عند قيامه باعادة العظام المخلوعة الى مواضعها الاصلية وربما خرج كل من [لوكوللوس وكيمون] بدرجة واحدة متساوية تقريباً من البراءة، هنا.

وفي سعة ميادين الحرب فاق [لوكوللوس] [كيمون] كثيراً فقد كان أول روماني يجتاز بجيشه [طوروس] ويعبر نهر دجلة ويتسولي على العواصم الملكية في آسيا ويحرقها على مشهد من ملكها وهي [ديكرانوكرتا، وكابيرا، ونصيبين وسينوپ] ويخضع الأقاليم الشمالية حتى [فاسيس]، والاقاليم الشرقية حتى [ميديا]. ويدخل الجنوب وسواحل البحر الأحمر تحت نفوذه بولاء ملوك العرب وعرض طاعتهم له، وحطم شوكة الملوك وقضى على سلطانهم، ولم يفلتوا شخصياً من قبضته إلاّ بما يشبه المعجزة، وهم كالحيوانات الوحشية الفازعة يفرون الى الصحاري، ويلوذون بالغابات الكثيفة التي يتعذر اختراقها. وان نحن انعمنا النظر في هذا التفوق، نجد الفرس بعد فترة وجيزة يبرزون للأغريق شاكي السلاح كان [كيمون] لم يصبهم بضررٍ كبير، فيسحقوا ويشتتوا قوات الاغريق الضخمة في مصر. إلاّ ان [ديكران وميثريدات] لم يستطيعا النهوض على قدميهما بعد ضربة [لوكوللوس] القاضية. [ميثريدات] الذي أعجزته الحروب المتوالية وانهكته المعارك الماضية لم يعد يجسر على الخروج من معسكره لمناجزة [پومپي]، وفرّ الى [بوسپوروس Bosporus] وفيها قضى نحبه. و[ديكران] ألقى بنفسه وهو أعزل مجرد عن كلِ قوة تحت رحمة [پومپي] ونزع تاجه وطرحه عند قدميه مهنئاً اياه بفتوح ليست له في الحقيقة بل هي من عمل [لوكوللوس] من كل وجهٍ. وقد اهتز سروراً عند تسلمه شعارات التجلة والتعظيم، لأنه كان لايبدو قد عمل على اغتصابها من قبل! ولا شك في ان القائد الذي تنسب اليه المأثرة العظمى هو كذلك المصارع الذي يترك لمن سيخلفه في النزال، خصمه وهو على شفا الهزيمة. هذا فضلاً عن ان [كيمون]

تسلّم القيادة العامة... وقد انهارت قوة الملك، وأصبحت معنويات الفرس في الدرك الأسفل بسبب هزائمهم الفظيعة واندحاراتهم المتوالية على يد [تمستوكلس] و[پاوسانياس] و[ليونتخيداس] ولهذا لم يجد صعوبة في التغلبّ على «اجسام» رجال ذلت نفوسهم وتحطمت. على ان [ديكران] كان ملكاً منتصراً عند مقابلته [لوكوللوس] لأول مرة، اذ لم يكن قدمني بهزيمة واحدة في كل المعارك العديدة التي خاضها قبل ذلك. وليس ثم مجال للمقارنة بين عدد من قارعه [لوكوللوس] وبين عدد من هزمه [كيمون] وان نحن نظرنا الى كل هذه الأمور من وجهها الصحيح لصعب علينا ان تصدر حكماً عادلاً. فيظهر أن الآلهة حابت كليهما وخدمتهما، فأشارت على احدهما بما يعمل، وأنذرت الثاني بما يجب أن يتحاشى، ولهذا يمكن القول انه كليهما حظي «باصوات الآلهة» المقترعة على نبالة شخصيتيهما وقدسيتهما هذا إن جاز لنا التعبير.

نيكياس

NICIAS

470 — 413



في رأيي ان [كراسوس] هو اصلح من يوضع مقابل [نيقياس] وان أفضل ما يمكن هو مقارنة النكبة البارثية، بالنكبة الصقلية. وهنا يجمل بي ان أقف لاستميح القاريء عفواً مع بالغ الاحترام، اذا ظنّ باني أريد مطاولة [ثوكيديدس] في سرد أمور عبرّ عنها هو باسلوب بلغ من الطلاوة والدقة والبلاغة ما أعجز كل تقليد، بل ما أعجزه هو نفسه عن الايتان بمثله. كذلك ارجو من القاريء أن يجنبني الاتهام بارتكابي هفوة مماثلة مع [طيماؤوس] الذي كان يأمل في التفوق الفني على [ثوكيديدس] بمؤلفه التاريخي، واظهار [فيليستوس Philistus] كاتباً تافهاً مبتدئاً باندفاعه الشديد في وصف كل المعارك البرية والملاحم البحرية والخطب العامة وتدوين ما كان أكثرها نجاحاً. دون أن يستحق حتى مقارنته...

«بذلك الذي يريد ان يسابق
بقدميه، العجلات الليدية»

على حَدّ قول [پندار]. فاذا به ينكشف عن كاتب شبه أميّ صبياني الاسلوب أو بعبارة [ديفيلوس Diphilus]

«هو بالنكتة سمين
مطليّ طلاءً مفرطاً بالسمن الصقليّ!»

وكثيراً ما تراه يهبط الى مستوى [كزينارخوس Xenarchus] فيقول لنا انه يرى من الشؤم على الآثينيين الاّ يرغب جنرالهم الذي سجل لنفسه نصراً سابقاً، في قيادة الحملة، وان التشويه الذي حصل لوجه [هرماي Hermæ] هو نذير آلهيّ بأنهم سيعانون الأمرين في حربهم هذه، على يد [هرموقراطس Hermocrates] ابن [هرمون Hermon] أضف الى هذا كلّه: كيف يُعقل ان يساعد هرقل السيراقوسيين إكراماً لخاطر [پروسپرين] وهو الذي أخذ [كربيروس Cerberus] بمسعى منها، وكيف يُعقل أن يكون غاضباً من الآثينيين لحمايتهم الإغيستيين Egesteans أحفاد الطرواديين الذين دمرّ مدينتهم للأذى الذي لحق به من ملكهم [لاوميدون Laomedon]. ومهما يكن فقد يؤخذ كل هذا مجرد امثلة على ذوقه السليم الذي يعزيه يتقويم عبارات [فيليستوس] والإساءة الى [افلاطون وارسطو]، ان المنافسة والمباراة

في مسائل الأسلوب مع الآخرين هو في رأيي الحذلقة والصّغار بعينهما، وقد يتخطيان الى مرتبه الهراء والثرثرة عندما تستهدفان مؤلفات ممتازة يتعذر مضاهاتها أو محاكاتها. ولما كان ما اورده [ثوكيديدس] و[فيليستوس] عن وقائع حياة [نيقياس] مما لا يصّح أغفاله لأنهما اهتما اهتماماً خاصاً بتصوير مزاجه وأخلاقه في الازمات العظيمة العديدة التي مَرّ بها، فاني سأمر بها مروراً سريعاً مقتضباً لئلا اتهم بالاهمال. ولكنيّ سأحمل جهدي في اثبات كل الروايات المجهولة من الناس عنه، وجمعها من مظانّها واستخلاصها من كتابات غيري من المؤلفين، ولم اشتات منها في المخطوطات والسجلات القديمة، مغفلاً منها ما انتفت الفائدة منه. ومثبتاً كل ما يعين القاريء على فهم نفسيته وعقليته.

وأبدأ أولاً بما قال عنه [ارسطوطاليس]، قال: هناك مواطنون صلحاء ثلاثة تقدموا الجميع بتعلقهم المتوارث بالشعب، ومحبتهم له، وهم [نيقياس] ابن [نيقيراطس Neceratus] و[ثوكيديدس] ابن [ميليسياس Melesias] و[ثيرامينس Theramenes] ابن [هاغنون Hagnon] والأخير منهم أقلهم مقاماً. لأنه أجنبيّ من [كيوس Ceos] ولأن في أسنانه جسراً صناعياً نشأ عن قلع لبعضها، ولطبعه المتقلب الذي جعله ينحاز مرةً الى هذه الفئة ومرة الى تلك في عالم السياسة، حتى أشتهر بلقب «الخُفّ».

وكان مجيء [ثوكيديدس] أسبق على الاثنين. وبرز ممثلاً لمصالح طبقة النبلاء، ومعارضاً عنيفاً للاجراءات التي كان [پيركلس] يتقرب بها من الشعب.

وكان [نيقياس] فتى في ريعان الصبا اثناء حكم [پيركلس] ولم يكن مغمور الأسم مع ذلك، حتى صار زميلاً له في القيادة العليا. وتولى القيادة بمفرده أكثر من مرة. إلا ان وفاة [پيركلس] رفعته فجأة الى المقام الأعلى بفضل ومسعى زعماء القوم وأغنيائهم الذين كان تفضيلهم له بالمنصب الأكبر يرمي الى جعله متراساً واقياً لهم من غائلة [كليون] وصلافته. وقد ساهم [كليون] من حيث لا يدري في تقدمه، اذ مع انه نال نفوذاً عظيماً لما بذل من جهود في:

«ارضاء الشيوخ والعجزة الذين وضعوا
فيه ثقتهم لغرض مُخصصات عيش لهم»

حتى هؤلاء الذين أصلح من شأنهم تقرباً اليهم واستجداء لعطفهم، تبينوا فيه صلافةً وجشعاً وعجرفةً، فأنقلبوا عنه الى [نيقياس]. فمهابة هذا لم تكن من النوع الذي يتميز بالصرامة والميل الى الإساءة، وانما كانت مُلطفة بالحذر الشديد والاحترام الذي يظهره صاحبها للناس؛ فيكسب قلوبهم باظهار الخوف منهم. ولما كان حيّياً بطبعه. لا خير فيه محارباً وقائداً

فإن حسن طالعه سَدّ مسدّ شجاعته وعوض عن البسالة، وعمل على ستر جبنه عن أعين الناس. فقد أفلح دوماً في كل قيادة عسكرية تقلّدها. أمّا جبنه في السياسة وخوفه المتناهي من معارضيه ومتهميه، فقد عُدّ من خير صفات المواطن في جمهورية حرة. وكسب نفوذاً ليس بالقليل جراء ثقة الناس به واخلاصهم له. فالجمهور يخشى من يحتقره، إلاّ انه يرفع من شأن الذي يُظهِر خشية منه. ان المديح الاكبر الذي يمكن ان يقدمه الحكام لشعوبهم هو ألاّ يزدرون ويستهينون بها.

و[پيركلس] الذي حكم الجمهورية بالفضيلة المطلقة، وبقوة الحقيقة والبرهان، لم يكن في حاجةٍ الى المخاتلة والاغراء مع الشعب. و[نيقياس] الذي كانت تعوزه هذه الوسائل، لجأ الى ثروته الطائلة لكسب الشعبيّة والمنزلة. وكان ينقصه نكتة [كليون] الرشيقة ومقدرته على تسلية الآثينيين بالملح الجريئة، معوّض وهذا بالتقرب اليهم عن طريق اقامة الحفلات العامة وعرض التمثيليات والالعاب الرياضية، وما الى ذلك من المهرجانات الشعبية حتى بلغ بها حداً من الروعة والبذخ ما لم يسبقه فيهما أحد لا في عصره ولا فيما خلا من العصور. فمن أوقافه الدينية ما زال يوجد الى يومنا هذا تمثال [منيرڤا] الصغير في القلعة وقد نُزع عنه كساؤه الذهبيّ. وهناك ايضاً المزار الذي اهداه الى معبد باخوس. وموضعه الآن تحت الطبلات المثلثة القوائم قدمّه أولئك الذين فازوا بجائزة المسرحيات والتمثيليات ولم يفشل [نيقياس] في أية مباراة دخلها من هذا القبيل. وبهذه المناسبة أورد هنا حكاية عنه: قيل أنه ظهر في احد تمثيلياته عبدٌ له متقمصاً دور [باخوس] وكان بهي الطلعة ممشوق القامة أمرد لا يوجد في ذقنه شعره واحدة. وعندما تجليّ سرور الآثينيين بمنظره وطال تصفيتهم وهتاف استحسانهم، نهض [نيقياس] من مجلسه وقال ان ورعه وتقواه لا يسمحان له بابقاء عبدٍ كُرس شخصه لتمثيل دور آله، في حالة الرّق، وأعتق الشاب حالاً.

وكانت تمثيلياته في [ديلوس] من أشرف وأفخم ما سُجّل من أعمال العبادة وروي انه كان يتوقع في احدى هذه المناسبات وصول جوقات الترتيل التي بعثت بها المدن للقيام بفرائضها. فكان وصولها على غير موعدٍ وبصورة مفاجئة، واستقبلتها حشود من الناس وهي تنادي وتطالب بالغناء فوراً، فاضطر أفراد الجوقات ازاء هذا الإلحاح الى تغيير ثيابهم ووضع أكاليلهم بعجلة شديدة واضطراب عظيم في نظامهم وهم ينزلون الى البرّ. وكان المفروض ان تنقل هذه الجوقات الى ديلوس، فأنزلها [نيقياس] في [رينيا Bhenea] مع القرابين والملحقات والبطانة، ثم مدّ بينها وبين ديلوس جسراً أعدّه لهذا الغرض وحمله من اثينا، وهو ذو صنعة جيدة جداً يبهر العين باناقته وزخرفته وكثرة الوانه وتذهيبه وأكاليل زهره وابسطته.

وتناسب طوله مع القناة الضيقة التي تفصل ما بين الموضعين. واتمّ تركيبه ليلاً، حتى اذا أقبل الصباح خرج في مقدمة الجوقات الغنائية والمواكب الدينية. وعبر الجسر وسط التراتيل والأدعية. وبعد ان فرغ من التقدمات والألعاب والمآدب، قام بنصب نخلةٍ نحاسيّة في المعبد، هديةً للربّ، وابتاع قطعة أرض بعشرة آلاف دراخما وأوقفها على المعبد، شريطة ان يصرف الدبلوماسيون ريعها على القرابين والولائم، مع الدعوات بالخير لـ[نيقياس] من الآلهة. ونقش هذا كله على عمود رخامي في [ديلوس] ليكون وثيقةً على اوقافه تلك. وقد قلعت الريح النخلة النحاسية فيما بعد، فسقطت على التماثيل العظيمة التي قدمها رجال [نخسوس] ثم تحطمت على الارض.

لاشك في ان مُعظم ما ذكرناه، هو من باطل الأمور، وعبثها، ومجرد رغبة من فاعلها في كسب التقدير والشعبية. وقد ينصرف ذهن المرء الى اعتبارها اثراً من آثار التقوى والورع بدليل أخلاقه الأخرى، فقد كان من أولئك الذين يشعرون بمخافة عظيمة من القوى الربّانية. وذكر [باسيفون Pasiphon] في «محاوراته» أنه كان يقرّب للآلهة يومياً. وان لديه في المنزل كاهناً عرافاً دائمياً قيل انه كان يستخير له في مستقبل الجمهورية، على أن أغلب كهانته كانت لمصلحة نيقياس الخاصة وشؤون حياته، ولاسيما حول مناجم العديدة الغنية جداً في [لاوريوم Laurium] فقد كان يتملكه الخوف من الاستمرار في الاستخراج منها. وملك عدداً ضخماً من الرقيق، والقسم الرئيس من ثروته هو الفضة، ولذلك راينا كثيراً من الطفيليين يحومون حوله ويستجدونه فينالون منه ما يبتغون، لأن عطاءه للقادرين على اذاه لم يكن بأقلّ من عطائه لمن يستحق. وبمختصر القول كان جزعه وخوفه مورداً للاوغاد والسفلة؛ وإنسانيته مورداً للصالحين والطيبين ويشهد بذلك مؤلفات كُتاب الكوميديات. فنجد [تيلقليدس Tileclides] مثلاً ينوّه به عند كلامه عن أحد الفُتّان المعروفين:

أعطى [خاريقلس Charicles] پاوناً لرجلٍ
مما لا يجمل ان يذكر عنه؛ هو انه خرج الى هذه
الدنيا من بطن كيس نقود.
وأعطاه [نيقياس] اربعة پاونات أيضاً،
واني أعرف سبب اعطائه معرفة جيدة!...
على ان [نيقياس] رجل ذو حيثية ولذلك فلن أقول شيئا.

ونوه به [يوپوليس] في مؤلفه [ماريكاس Maricas] في معرض مهاجمة أحد الدساسين لرجل ساذج فقير صالح:

«منذ متى التقيت بنيقياس؟ فأنا الآن لا اراه في الشارع. ان الرجل قد لقيه وهو لاينكر، ومن الواضح انهما مشتركان في دسيسة. كونوا ايها المواطنون على ثقة، بان [نيقياس] سيفتضح امره وهو متلبس. وأعدكم لهذا! مُتلبس أيها الحمقى! ومن الخطأ التوهم بامكان فضح رجل بهذه الدرجة من الصلاح، أو وجود رغبةٍ لأحدٍ في ذلك.

وفي مؤلفه الموسوم «ارسطوفانس»، يجعل [كليون] يتوعده:

«سأرتفع بصوتي على كل الخطباء وأُسلم نيقياس الى الذهول».

واشار [فرنيخوس Phrunichus] الى استعداد نفسه الجزوعة وميوعتها للاخافة والإرهاب بالبيتين التاليين:

«كان رجلاً شريفاً وهو ما لا انكره -
مثل نيقياس يسير في الطريق حَبْواً على ركبتيه!»

وكان شديد الحذر من الدساسين، متحفظاً غاية التحفظ من مثيري الفتن، ولذلك تجنب تناول طعامه مع الناس. ولم يسمح لنفسه بالاسترسال في الحديث، والتبسط في الكلام مع اصدقائه. وحرم على نفسه أمثال هذه المتع والتسليات. وأعتاد في عهد حكمه البقاء في محل عمله حتى الليل، وكان أول القادمين الى مجلس المستشارين وآخر الخارجين منه. ولم تكن مواجهته بالأمر الهين ولا مكالمته بالشيء السهل الاّ في حالة تصريف شؤون الدولة، والاّ فأنه يدخل بيته ويغلق بابه فاذا طرقه أحدهم خرج عليه أحد اصحابه ممن في الدار ووجه اليه كلاماً حسناً يتضمن رجاء نيقياس بقبول اعتذاره عن استقبال الطارق لانهماكه في شوؤن الدولة والواجبات العامة التي تحتجزه وتستأثر بوقته. و[هيرو Hiero] هو الشخص المكلف عادة بهذه الردود والاعتذار، وهو ممن نشأ وربي بين أسرة [نيقياس] وتلقى ثقافته في الأدب والموسيقى على يد صاحبه، وكان يدعى بأنه ابن [ديونيسيوس] الملقب [خالقوس Chal-cus]، الذي ما زالت اشعاره تتناقلها الالسنة الى يومنا هذا، كما كان يتزعم المهاجرين الاغريقيين الذين نزحوا الى ايطاليا وأسسوا مدينة [ثوري] فيها.

وكان [هيرو] همزة الوصل بين [نيقياس وعرافّه الكاهن ينقل الخصوصيات منه ويعيد جوابها اليه، وكان مذياعاً بين الناس عن الحياة الحافلة بالكدح والضنك التي يحياها نيقياس في سبيل الجمهورية فيقول مثلاً:

-تعترض سبيل افكاره أمور الدولة اينما وجد؛ أكان في الحمام امّ على مائدة الطعام. يهمل

شؤونه الخاصة لحرصه الشديد على المصلحة العامة، ومن النادر أن يأوى الى فراشه قبل أن يكون النُوّام قد استوفوا هزيمهم الأول، لذلك رقّ جسمه ونحل واصدقاؤه لايرون منه البشاشة ومظاهر الودّ المألوفة، لذلك كان يخسرهم ويخسر معهم ماله في خدمة الدولة. في حين يكسب الآخرون بخطبهم العامة اصدقاءً، ويجمعون ثروات، ويسايرون الخلق ويجعلون الحكم ملهاة لهم ومتعة».

هذا القول عن حياة [نيقياس] لم يتعدّ الواقع ولذلك كان أحق الناس واجدرهم بكلمات [اغا ممنون] القائل:

«نحن نعيش حياة الحكام ذات العظمة الفارغة.
ونقدم للجماهير خدمة العبيد الارثاء».

ولاحظ أن جماهير الشعب تستخدم مواهب ذوي المنزلة الرفيعة. والفصاحة وقوة العارضة كلمّا وجدت الى ذلك سبيلاً الا أنها كانت في الوقت نفسه تحقد عليهم لقابلياتهم ومواهبهم وتنظر اليهم بحذرٍ وتوجسٍ مستمرين، وتنتهز كل فرصة لاذلالهم وجرح كبريائهم ونحت أثلتهم. كما يبدو ذلك واضحاً في ادانتها [پيركلس]، ونفيها [دامون]، وريبتها في [انتيفون Antiphon] الرأمنوسي Ramnusian وخصوصاً في مأساة [پاخيس Paches] الذي فتح [لسپوس] فبعد أن دافع عن نفسه امام مجلس القضاء الذي حاكمه، وقدم حساباً عن مسلكه وأعماله، جرّد سيفه عن غمده وغيبّه في صدره.

كل هذا حمل [نيقياس] على قبول الاضطلاع بالمشاريع الصعبة، أو الأعمال التي يقتضي لها وقت طويل. فإن تسلّم القيادة العسكرية فأنه لا يقدم على حركة الاّ وهي مضمونة النتيجة، فاذا نجح فيها - وغالباً ما يفعل - فلا يعزو نجاحه الى حنكته أو شجاعته، وانما يشكر الحظّ على ما حباه. ويعيد الفضل في المجد الذي ناله الى العناية الالهية، كل ذلك اجتناباً منه للحسد والغيرة. واعماله نفسها خير شاهد، ففي عصره نزلت على آثينا عدة مصائب عظيمة، لم يرد في اي منها ذكر لاسمه بوصفه أحد المسببين لها وممن له ضلع فيها.

وهزم الخلقيديون الآثينيين في ثراقيا عندما كان [كاللِيداس] و[گزينفون] قائدين عامين. وكان [ديوستينس] قائدهم العام عندما اندحروا في [ايتوليا]. وفي [دليوم] فقدوا ألف مواطن آثيني في معركة قادها [هيبوقريطس]. وحُمل [پيركلس] أكبر المسؤولية في انتشار الطاعون، لأنه أمر باغلاق المدينة لأجل الحرب. فانحصرت حشود الناس في الداخل وكثير منهم لجأ الى المدينة من الريف، فساعدوا على نشر العدوى لتغييرهم محلات سكناهم وسبل العيش التي اعتادوها. وخرج [نيقياس] معانى سليماً من كل هذا محققاً لوطنه عدداً من

المآثر الطيبة، كاستيلاته على [كِثرا Cythera] وهي جزيرة ذات موقع ممتاز من الناحية العسكرية ضد اللاقونيين أهلة بالمستعمرين اللقيديميين. وأستولى على كثير من المناطق المتمردة في تراقيا وحالف عدداً منها وتمكن من حصر الميغاريين بين اسوار مدينتهم، وأستولى على جزيرة [مينوا Minoa]، وبعدها بقليل زحف منها على [نيسيا Nisœa] واحتلها. ثم انحدر الى الحدود الكورنثية وخاض معركة ناجحة صُرع فيها عددٌ كبير من الكورنثيين وبينهم قائدهم [ليكوفرون Luycophron]. واتفق أن جثتين من حبثث قتلاهُ نُسيتا في ميدان القتال وأغفل امرهما عند نقل جثث القتلى. وعندما علم بذلك أوقف سير الأسطول وارسل منادياً الى العدو للسماح له بنقل الجثتين، أقدم على هذا وهو يعلم أن القاعدة والتقليد يقضيان على الفريق الذي يطلب هدنة لنقل قتلاه، بالتنازل عن كل ادعاء له بالنصر ولا يجوز له والحال هذه ان يقيم نصباً لأحياء ذكر نصر، لأنّ النصر لسيِّد الميدان وليس بسيد الميدان من يطلب السماح بنقل موتاه كأنه يفتقر الى القوة لأخذها عُنوةً. وهكذا فضل [نيقياس] التخلي عن نصره ومجده لكيلا يدع جثتين من جثث مواطنيه في العراء لا يضمهما قبر. وراح يصول ويجول على طول سواحل [لاقونيا] ويوقع الهزائم بكلّ من يتعرض له من اللقيديميين، وأستولى على [ثيريا Thyrea] التي كان يحتلها قوم [الايجينيتان Aeginetan] وحمل اسراهم الى آثينا.

ولما قام [ديموستينس] بتحصين [پيلوس Pylos] زحف عليها البيلوپونيسيون بقوات بحرية وبرية ودرات رحى القتال، ثم انهم تركوا حوالي اربعمائة محارب سپارطيّ على ساحل الجزيرة [سفاكتيريا Sphacteria]. وطمع الآثينيون في أسر هؤلاء، فقد كان اسرهم والحق يقال من انفس ما يؤمل من الغنائم. إلا ان الحصار صعب عليهم في المواضع التي شحت بالماء وعانوا الأمرين في نقل الضروريات بحراً في وقت الصيف، وكبدهم كثيراً من النفقات. أما في الشتاء فقد كان محفوفاً بالمخاطر مشكوكاً في نجاحه، أو هو مستحيلٌ عملاً كانت الدلائل تشير الى شؤمٍ، فبدأ القلق يغزو نفوسهم وندموا على رفضهم سفارة اللقيديميين التي وفدت عليهم للمفاوضة في عقد معاهدة سلمٍ، واسفوا لقبولهم اقتراح [كليون] في رفض التفاوض إحراجاً [لنيقياس] ونكاية به، لأنه كان خصماً له، من جهةٍ ولرغبة نيقياس في قبول عرض اللقيديميين السلمّي.

فبعد أن طال أمد الحصار، ووردت الأنباء عن الصعوبات التي ينكبدها جيشهم، حنقوا على [كليون] وأشتدوا في نقده، فألقى باللوم كله على [نيقياس] واتهمه بالتخاذل والجبن وبفشله في القضاء على مقاومة المحصورين. وقال:

- لو كنت جنرالاً لما تركتهم يصمدون طويلاً.

وعند ذلك توجه الآثينيون اليه بالسؤال الطبيعي:

- ان كان الأمر كما تقول فلم لا تقود حملة عسكرية ضدهم؟

ونهض [نيقياس] من مجلسه وأعلن تنازله لـ[كليون] عن القيادة في پيلوس، وطلب منه أن يأخذ ما يشاء من قوة، ويقوم بخير خدمة للجمهورية. فحاول [كليون] في مبدأ الأمر ان يسحب قوله وقد غلاه الارتباك للجواب الذي باغته به [نيقياس] من حيث لا يتوقع. إلاّ ان الآثينيين أصروا وأشتد [نيقياس] في تأنيبه حتى استفزه واشعل نار اطماعه، فقبل على عاتقه المهمة وأضاف يقول أنه سينجز ما تعهد به خلال عشرين يوماً من أقلاعه الى ميدان القتال. فإما سيقضي على العدو قضاء تاماً في مكمنه، أو سيأتي بافراده احياء الى آثينا. وكان والآثينيون أكثر استعداداً للضحك من هذا القول، منهم أيماناً بجدية قائله فقد تعودوا الهزل من كليون كثيراً، وكانت مبالغاته وشحطاته الجريئة تطربهم وتلذّ لهم كثيراً. ويذكر من هذا القبيل أن اجتماعاً جماهيرياً عقد في آثينا وراح المجتمعون ينتظرون مقدم [كليون] فتأخر برهة طويلة، ثم دخل عليهم وقد ضفر أكليلاً من الزهر على رأسه ورجا منهم تأجيل الاجتماع الى اليوم التالي معتذراً بقوله:

- اني لست فارغاً لكم في هذا اليوم فقد قربتُ للآلهة، واستضفت بعض الأغراب في بيتي.

فنهض الآثينيون وهم يضحكون وارفض الإجتماع.

على أية حال، حالف الحظّ [كليون] في تلك الحملة فقد قادها بزمالة [ديموستينس] الى سبيل النجاح وجاء الى آثينا بكل السپارطيين الذين لم يصرعوا في ميدان القتال - أحياءً أسرى في غضون الأيام العشرين التي حددها، والحق عاراً كبيراً [بنيقياس]: الذي ضيع من يده فرصة مجيدة ومأثرة بطولية، ودفع بها الى خصومه غنيمة باردة، فكان عمله أشنع من عمل المحارب الذي يلقي بترسه جانباً. لقد تخلى من تلقاء نفسه عن واجبه جبناً وفرقاً وبعبارة أخرى أعطى صوته ضدّ نفسه في التخلّي عن قيادته. فأرتكب عملاً شائناً مخزياً لا أكثر منه خزناً. وقد نظم [ارسطوفانس] ابياتاً ساخرة بهذه المناسبة في كتابه عن «الطيور»:

الحق يقال - ان الوقت غير مناسب للقول:

إفعل فعل [نيقياس]، وانسحب الى مخدعك!

وعرّض به أيضاً في رسالته «عن الفلاحين»:

«إني لأودّ البقاء في بلدي وازرع ارضي. وماذا بعد؟ ما الذي يمنعك من ذلك؟ أنت يا ابن الوطن؟ لمن سأدفع ألف دراخما، ليدعني أتخلى عن منصبي واترك

المدينة. قدكَ! وكن قانعاً. فان [نيقياس] دفع ألفي دراخما ليتخلى عن منصبه!».

والى جانب العار الذي لحقه فقد كان الضرر الذي سببه نزوله عن هذا القدر الكبير من السمعة والسلطة لكليون مما يصعب تقديره. فقد سكر [كليون] بنصره وراح يختال تيها وعجباً وتمادى في جرأته وقلة حيائه حتى أصبح لا يحتمل، وادى ذلك الى نتائج سيئة كثيرة، منها قدر كاف سببه هو، فقد حطّم التقليد والأصول المتبع في القاء الخطب العامة، وكان أول من عمد الى قطع الاسترسال فيها بالصراخ ونداء التعجب، وفتح الجبة وضرب الفخذين والركض على المنصة جيئة وذهاباً اثناء الالقاء. وكل هذه الطواريء الجديدة كان لها اثرها الفوضوي السيّ اذ حطت من منازل رجال الدولة وصار يُنظر اليهم باستهانة.

سبق لالكيبياديس أن برز في أثينا شخصية قوية وزعيماً شعبياً يُعتد به، ليس بأسلوب [كليون] العنيف الصاخب، بل شبيهاً ببلاد مصر فقد قيل عنها بسبب خصوبة تربتها:

إنها تغلّ غلة عظيمة كثيرة. من الاعشاب التي تنفع في معالجة المرضى والتي يستخرج منها نقيع السمّ القاتل.

وهكذا كان معدن طبع الكيبياديس غزيراً كثيراً من المادتين مما نجم عنه أخطر التعقيد، وكثير من المشاكل. فبعد أن تخلّص [نيقياس] من كليون أخذ يعمل جاهداً لاصلاح الحال وايجاد حالة من الاستقرار والدعة للمواطنين، حتى اذا اوصل الوضع الى ما يبشر بالأمل قام [الكيبياديس] باحباط كل ما سعى اليه، ونقض كل ما بناه واعاد حالة الغليان والاضطراب من جديد مدفوعاً باطماعه، وطموحه الشديد الى المجد. فقذف بكل شيء في اتون حربٍ زبون لم يخض الآثينيون اسوء منها. واليك ما حصل:

وقف [كليون] و[براسيداس] موقف المعارض من السلم وعُدا الشخصين الرئيسين اللذين حالا دون الاستقرار المنشود ولا عجب فقد كانت الحرب تطلق قابليات اولهما وتخفي نذالة ثانيهما؛ تمنح الأول ميداناً لانجاز أعمال بطولية، وتزود الثاني بفرص لأرتكاب الفضائح والخيانات. فلما صُرع هذان بالقرب من [امفيپوليس]، ولما كان [نيقياس] يعرف رغبة السپارطيين في السلم منذ أمدٍ بعيدٍ. ويدرك ان الآثينيين فقدوا كل ثقة بجدوى الحرب. وان الفريقين قد استنفدا قواهما في هذا الصراع المرير، وسقطت اذرعتهم منهوكة من فرط الارهاق، لم يجد انسب من هذا الوقت لبذل جهوده في سبيل احلال الصداقة بين الدولتين وانقاذ الدويلات الاغريقية الأخرى من بلاياها وارزائها. وهذا ما يثبت دعائم نجاحه السياسي

ويرفع من شأن أسمه على مَدّ العصور وتعاقب الزمن. وقد وجد سراة القوم وكبار السّن، وأصحاب الأراضي والمزارعين، يميلون عموماً الى حياة السلم. أضف الى هذا أن منطقه وحواره خفف من غلواء الكبيرين وهدأ من أندفاعهم الى الحرب، ولذلك راح ينمي الرغبة نفسها في اللقيديميين ويحضّهم على النزوع الى السلم. فوثقوا به لما بدالهم فيه من نزاهة واعتدال في دعوته، وزاد من جنوحهم اليه العطف الذي ابداه لأسرى [پيليوس]. والعناية التي شملهم بها طوال اقامتهم في الأسر وتخفيفه وطأة السجن عنهم.

وكان الآثينيون قبل هذا قد عقدوا مع اللقيديميين هدنة أمدها سنة واحدة نعم الطرفان خلالها بالاستقرار وتذوقوا خلاوة السلم الذي اتاح لهم الاجتماع والمخالطة، ووصل ما أنقطع من حبال الودّ ووشائج القربى بين الأصدقاء والمعارف، دون عقبة أو حائل. ولهذا صبا الجميع الى وضع حَدّ نهائي للنزاع الحربي وسفك الدماء، واصغوا مستبشرين الى الاجواق وهي ترتل اغاني السلام كقولها:

« سأترك رمحي جانباً لينسج العنكبوت عليه خيوطه »

وأستذكروا بغبطة وحنين القول الشهير المأثور «في السلم يستيقظ النائمون على صياح الديك لا على نفير البوق». ولذلك اوقروا اذانهم عن تحذير أولئك الذين كانوا يدافعون عن حتمية الحرب بقولهم: ان الاقدار قضت ان تكون هذه الحرب على ثلاث مراحل، كل مرحلة تدوم تسع سنين، وزادوا في اللوم والتعنيف وانتقاد من يدعو للسلم.

وبعد أن نوقش الموضوع من شتىّ جوانبه، تّم الاجماع على سياسة السلم فعقد الصلح، وخيل لمعظم أفراد الشعب انه سيضع نهاية لكلّ مصائبهم. وصار اسم [نيقياس] على كل شفة ولسان، ووصف بأنه الرجل الذي آثرته الآلهة باعظم الحبّ. وانه لورعه وتقواه، أختير لتسمية وتحقيق أعظم النعم وابدعها. وأعتبروا السلم من عمله، كما أعتبروا الحرب من عمل [پيركلس] فقد اثبتت الوقائع انه سبب الأغريق عدة نكبات قاصمة. في حين أخذ نيقياس بيدهم الى حياة الهدوء ونسيان الماضي بمصائبه التي تولى فريقٌ انزالها بفريق، فعادوا الآن الى حضيرة الأخوة والصداقة. ولهذا أشتهر هذا السلم في التاريخ باسم «سلم نيقياس» وعرف به الى يومنا هذا.

وكانت شروط الصلح تقضي بأن يعيد كل فريق، الحاميات والحصون والمدن التي استولى عليها من الآخر، وان يتبادلا أسرى الحرب، على ان يتقررّ البادي بالتسليم على أساس القرعة. ويحدثنا [ثيوفراستس] أن [نيقياس] ضمن وقوع القرعة على اللقيديميين ليعيدوا ما بأيديهم، عن طريق دفعه مبلغ من المال، فأبدى الكورنثيون والبويوسيون استنكارهم لما حصل،

وارتفعت شكواهم وجأروا بالاتهامات. ونبشت الاحقاد وثارت النفوس حتى بدت الحرب على الابواب. فأسرع [نيقياس] يتدارك الأمر مقنعاً مواطنيه الآثينين واصدقاءه اللقيديميين بان يعقدوا معاهدة حلف هجومي دفاعيّ، غير معاهدة السلم الأخرى، توثيقا لهذه ودعماً لها، ولتكون كلتا المدينتين المتحالفتين قوة «مرهوبة الجانب تفرض السلم على الآخرين الذين لم يكونوا طرفاً، وكذلك لتزداد صلتهما وثوقاً، وفيما كانت هذه الأمور قيد البحث والنظر، ظهرت العقبة الكؤود بشخص [الكيبيادس] أعدى اعداء الهدوء والاستقرار. أساء اليه اللقديميون بالتفاتهم الى [نيقياس] وأجلالهم له في حين تجاهلوه وأحتقروه واستصغروا شأنه من الأول الى الأخير. ولا عجب أن راح يبث الدعوة ضدّ السلام، ومع انه فشل في الماضي وراحت مجهوداته المبذولة عبثاً. فقد وجد فرصته الآن في تظلم الآثينيين من اللقيديميين، وسوء معاملتهم واستغلال صدق نيتهم باقامتهم وحدة سياسية مع البويوسيين خارج نطاق حلفهم، وتمسكهم بمدينة [پاناكتوم Panactum] التي كان يجب اعادتها الى آثينا بكامل حصونها وأسوارها، مع مدينة [امفيپوليس] بمقتضى المعاهدة. وقد خدمته هذه الحجج وعززت دعوته بين الناس وأشغلهم بها. ثم انه طلب من الآرغوسيين ان يبعثوا بوفدٍ الى بلاده، لعقد تحالف وساندهم كثيراً. وفي تلك الاثناء قدم وفد لقيديمون وهو مزود بصلاحيات مطلقة. وبدأ للجميع على أثر المقابلة التمهيدية التي تمت بينه وبين مجلس الشورى ان كل شيء سيتمّ على ما يرام وستوقع المعاهدة بشروط كانت موضع رضى الجميع. وخشي الكيبيادس أن يلقى الوفد النجاح عينه عند مثوله في الجمعية العامة فيضيع منه كل شيء، فعمد الى حيلة تحقق له مآربه واتصل بالوفد مؤكداً لهم حسن نيته ومتعهداً لهم بالمعاونة في مهمتهم شريطة الاّ يذكروا امام الجمعية العامة انهم مزودون بصلاحيات مطلقة قائلاً ان هذا هو السبيل الوحيدة لنيل ما جأوا لأجله فقنعوا باقواله وأوقعهم في شركه المتقن وأبعدهم عن [نيقياس] حين نهض وسألهم السؤال المتفق عليه: هل هم مزودون بصلاحيات مطلقة لتسوية كل الأمور؟ فأنكروا حسب اتفاقهم معه، وهنا ظهر [الكيبياديس] على حقيقته وأسفر عن وجهه الآخر خلافاً لما توقعوا وللعهد الذي قطعه لهم. دعا المجلس الى ان يكون على بينة من أمره وطلب من الشعب ان يكون حذراً فلا يضع ثقته ولا يتعامل مع هؤلاء الكاذبين الذين يزعمون شيئاً مرةً، ليعدلوا عنه الى نقيضه مرةً في الموضوع الواحد! وبطبيعة الحال صعق الوفد الصلاحية بغدر الكيبياديس بهم، ولم يكن [نيقياس] بأقل ذهولاً منهم ولم يدر ماذا يقول والى اين يتوجه. ولم يكن من الجمعية العامة إلاّ أن بعثت في الحال بطلب الارغوسيين لعقد حلف معهم. وشاءت الصدف ان تحصل هزة ارضية فارفضت الجمعية قبل التوصل الى قرارٍ نهائي. وفي

اليوم التالي أجتمع المواطنون ثانية، وبعد مناقشات وخطب كثيرة تمكن من حمل مواطنيه بعد لأي على تأجيل عقد الحلف مع الآرغوسيين، وصوتوا على ارساله مبعوثاً الى اللقيديمين. فسافر وهو على ثقة بأن الأمور ستسير على ما يرام.

وأستقبل عند وصوله سپارطا استقبالاً طيّباً. ورحبّوا به كما يرحبون بواحدٍ منهم. على أنه لم يحقق شيئاً. وخيّب مساعيه الحزب الذي كان يمالىء البويوسيين ويحبذ الحلف معهم. فعاد الى وطنه كاسف البال، مجللاً بالعار، وسقط اسمه من افواه الناس وامتلأت نفسه خوفاً من الآثينيين الذين سخطوا عليه وراحوا يسلقونه بألسن حدادٍ قائلين انه جعلهم يتنازلون عن كذا وكذا من الأسرى جيء بهم من [پيلوس] وكلهم ينتمون الى أعرق الأسر السپارطية ولهم علاقات صداقة وقرابة باعيان الدولة هناك وذوي السلطان. ولولا هذه الحملة النكراء التي هبت عليه من فورة العاطفة الشعبية، لما كان لالكيبيادس اي أمل في انتخابه جنرالاً، ولما عقد الحلف مع الارغوسيين، ثم مع المانتينيين والإليائيين الذي فسخوا حلفهم مع اللقيديميين وانضموا الى الحلف الآثينيين - الارغوسي. وجرد هذا الحلف حملة من المغامرين القراصنة على لاقونيا ليحدثوا ما يمكنهم من التخريب والغارات، وهكذا عادت رحى الحرب تدور من جديد.

وراحت العداوة بين [نيقياس] و[الكيبياديس] تتعاظم وتشتد وكان الوضع قد أصبح مهيئاً لأصدار قرار بالنفي أو ما يسمى بالابعاد دون محاكمة حيث يدعى الشعب في وقت مخصوص ليثبت على قحف من الآجر اسماء المشتبه به او بشروته. ولذلك استولى الخوف على العدوين المتنافسين. فعلى أغلب الإحتمال كان الإبعاد سينزل باحدهما. وبما ان الشعب كان ينفر من حياة [الكيبيادبس] ويتخوف من اندفاعاته وجسارته كما بيّنا تفصيلاً في سيرة حياته في عين كانت ثروة [نيقياس] تثير حسدهم، وأخذوهم عليه أسلوب حياته الشاذ ولاسيما انعزاليته وانفراده باحوال معينة لا تشبه ما أعتاده المواطنون، ولا سائر البشر. وحتقوا عليه لوقوفه معارضاً رغباتهم عدة مرات، وارغامهم على عمل ما لا يتفق واهوائهم وان كان فيه فائدة لهم، فكرهوه لكلّ ذلك.

وكان الأمر بجوهره وبعبارة مختصرة، صراعاً بين الشباب التائقين الى خوض غمرات الحرب. وبين كبار السنّ ومحبي السلم الأستقرار. ولذلك وقف الأولون ضد [نيقياس]، ووقفت البقية ضد [الكيبياديس] في قضية النفي. ولكن...

«في الصراع السياسيّ، ترى الانذال يبلغون الشهرة»

فلما انشعبت المدينة الى حزبين متناحرين انفسح المجال الواسع لاحطّ الناس واسواهم خلقاً

وأشدهم استهتاراً. وخير مثال لهؤلاء [هيپروبولوس] من آل [پيريثودي Perithoedoe] وهو شخص لم يجتري على أية سلطة، وانما ارتفع الى السلطة بالجرأة والصفاقة. وباكرام حبته به المدينة، ليصبح فضيحتها الشائنة كان [هيبروبولوس] يرى نفسه آنذاك ابعد الناس عن التعرض للنفي، فهو وأمثاله أصلح لمشنقة العبيد، ولذلك طفق يحسب حساب المستقبل على ضوء صدور قرار النفي بحق أحد المرشحين له. وقدر أن الباقي منهما لن يكون عقبة كبيرة امامه، وسيسهل عليه مناجزته. ولذلك لم يكتم فرحه بالانقسام السياسيّ، ولم يقتصد من جهده في اثارة الناس ضدهما على السوا. وما أن إنتبه [نيقياس والكيبياديس] الى سوء تدبيره، حتى تألبا عليه بكلّ ما يملكان من وسائل للايقاع به في الفخ ووحداً عملهما سِراً، ونجحا في الخلاص من النفي وحصره بهيپربولوس. فكان والحق يقال نكتةً اثارت ضحك الجمهور في مبدئها ثم ما لبثوا ان تبينوا عنصر الإهانة فيها. اذ كان من العار أن تمتهن هذه العقوبة الخطيرة بتطبيقها على انسان وضيع مثله؛ ولا غرو فللعقوبة وقارها وهيبتها، و«النفي دون محاكمة» تأديبٌ انما وجدُ لعظام الناس من أمثال [ثوكيديدس] و[اريستيدس]، فهي اذن لإمثال [هيپروبولوس] شرف وتكريم لا عقوبة وتأديب، فتحت له باب الفجر والتباهي لأنه ذاق جزاء نذالته كما ذاق خير الرجال. وما أحسن قول الشاعر الهزلي أفلاطون في ذلك:

«من ينكر ان الرجل يستحق هذا المصير؟
حقاً! ولكن المصير لا يستحق هذا الرجل.
وليس لامثاله من العبيد الذين وسموا بميسم الرق
وضعت آثينا قحف الآجر في ايدينا!»

إن هذه العقوبة في الواقع لم تفرض على أحدٍ بعد أن فرضت على [هيپربولوس] وبهذا كان خاتمة المنفيين بدون محاكمة. أمّا الأول فهو [هيپارخوس] [الخولارجي Cholargia] الذي كان من أقرباء الطاغية.

ليس في الإمكان اصدار حكم ثابت على مصائر البشر ونحن مهما قلبنا وجوه الراي واعجلنا الفكر لايمكن الوصول الى نتيجة أكيدة، وليس لنا الآ ان نحدس ونضرب الاخماس في الأسداس.

وفي مسألة [نيقياس]، قد نتساءل لو أنه سار في نزاعه مع الكيبيادس الى نهاية الشوط مخاطراً بحريته، فلا يخلو الأمر من حالتين أنّا أن ينجح بابعاد منافسه عن المدينة وبذلك يضمن بقاءه آمناً مطمئناً. وأمّا أن يتغلّب خصمه فينفيه، وهنا يكون نيقياس قد خلص من نكبات هائلة كانت مدخرة له، وحافظ على سمعة القائد المحنك والاداري الذي لا يرقى اليه

أحد. ولا يفوتني هنا أن أورد ما ذكره [ثيوفراستوس] بأن الخصم الذي وقف في وجه [الكيبيادس] وناصبه العداء بعد نفي [هيپربولوس] لم يكن [نيقياس] بل [فاياكس] على أن معظم الكتاب يخالفونه في هذا.

اقترح وفدا الايجستان والليوتينيين على الآثينيين عند وصولهم، تجريد حملة عسكرية على صقلية. فهبّ [نيقياس] يعارض الفكرة ويخطيء [الكيبيادس] الذي كان متحمساً لها. الاّ ان أطماع هذا الأخير ومساعيه الكبرى التي بذلها لاجتذاب الجمهور، غلبت [نيقياس]. فقد تمكن من حرف آراء الجمهور وافسادها بالخطب والمُنى قبل أن يعقد الاجتماع العام. وأصبحت لتجد الشبان في ملاعبهم والرجال في محلات أعمالهم والناس المتسكحين جلوساً على مقاعدهم يرسمون الخرائط لصقلية ويعملون مخططات للبحار والمواني‌ء، والسواحل وتضاريسها، ويثبتون موقعها من أفريقيا ويصرحون بان هذه الجزيرة لن تكون خاتمة مطافهم ونهاية حربهم بل نقطة انطلاقهم وفاتحة اعمالهم العسكرية التوسعية وقاعدة أمتداد الى القرطاجنيين والاستيلاء على افريقيا والبحار حتى «اعمدة هرقل» وهكذا اندفع الناس بحمىّ الحرب ولم يجد [نيقياس] المعارض إلاّ قلة من مناحرين لا نفوذ لهم كثير، فالاغنياء سكتوا على مضضٍ لئلا بوصموا بالبخل وعدم الرغبة في المساهمة بالنفقة العامة واثمان السفن، وتظاهروا بالرضا مخفين ميولهم الحقيقية. ومع ذلك كله لم يتسرب اليأس الى قلب [نيقياس] وظل يدافع عن وجهة نظره حتى بعد أعلان الآثينيين الحرب وتعيينه مع [الكيبيادس] و[لاماخوس] قائداً للحملة. ولما عقد الاجتماع العام ثانية، نهض يحتج على القرار المتخذ ويحاول أن يثنيهم عن عزمهم بوضعه اللوم على [الكيبيادس] واتهامه بالدعوة الى عملٍ عسكري يورط الدولة في مغامرة خارجية تحف بها الأخطار والمصاعب لا يدفعه الى ذلك غير طموح فيه وكسب شخصيّ له. إلاّ أن كلامه لقي آذاناً صماء ولم يجد نفعاً.

كان الآثينيون يتوسمون في تجارب نيقياس وخبرته كل خيرٍ ووجدوا أن حذره مع شجاعة الكيبيادس، وطيبة لاماخوس تؤلف خير ثالوث للقيادة وتضمن سلامة الحملة. ولهذا نسبوه لتولي القيادة، إلاّ أنه ظلّ معارضاً في الحرب. ونهض [ديموستينس] وهو من الزعماء الشعبيين الذين أيدوا الحملة وبشروا بها ودعوا لها، قائلاً أنه سيُسكت فم [نيقياس] ويقفل عليه باب الاعتذارات والتعلأت، ثم وضع في التصويت إقتراحاً يقضي بمنح الجنرالات سلطة مطلقة داخل الوطن وخارجه ليكونوا أحراراً في اتخاذ ما يرونه من اجراءات واصدار ما يرونه مناسباً من الأوامر، فقبل اقتراحه هذا.

ومع هذا كله فقد قيل لنا أن الكهنة عارضوا في الحملة بكلّ قواهم. ولكن [الكيبيادس]

كان لديه كهنته العرافون الذين أعلنوا مستندين الى بعض النبوءات القديمة: «بأن الآثينيين سيصيبون شهرة عظيمة في صقلية». كما رجع رُسله من معبد [جويتر آمون] بنبوءة تقول: «ان الآثينيين سيأخذون السيراقوسيين كافةً!». أمّا أولئك الذين تبينوا دلائل شؤم فقد أخفوا ما عرفوه عن الناس لئلا يتهموا بالتكهن بالسوء. ولم يردعهم عمّا أعتزموه الاشارات الجلية الواضحة. ومنها حادثة تماثيل [هرمي] التي شاهت وجوهها في ليلة واحدة إلاّ تمثالاً واحداً يطلق عليه [هرميس] الاندوكيديسي الذي اقامته قبيلة [ابجيوس]، والمنصوب مقابل منزل اندوكيدس مباشرة. ومنها ما أرتكب من إثم على مذبح الآلهة الاثني عشر، فقد قفز شخص من مكانه فجأة ودار على نفسه ثم ضرب نفسه بحجر ومنها انه كان يوجد في دلفي صورة من الذهب للربة [منيرڤا] قائمة على نخلةٍ من النّحاس. عملها الآثينيون من غنائم الميديين واهدوها الى الربّة، تجمع على هذه الصورة سرب من الغربان وظلّ يحوّم حولها أياماً. وراحت اسرابها تنقر في الثمار الذهبيّة التي كانت معلقة في اغصان النخلة النخلة حتى فصلتها واسقطتها؛ على أن الآثينيين كذبوا هذه القصة وقالوا انها من مبتدعات الدلفيين ونسج خيالهم، بعد أن رشاهم رجال سيراقوسة بالمال. وطلبت أحدى النبوءات، منهم أن يستقدموا من [كلازوميني Clazomenæ] كاهنة مينرڤا ولما أحضرت وجدوا انها تدعى [هسيكيا Hesy-chia] ومعناه «الهادئة»، ففسروا ذلك بأن المشيئة الآلهية تنصح المدينة بالهدوء. ولا ندري والحالة هذه، هل ان [ميتون Meton] المنجم خاف هذه النبوءات أم أنه شكّ في نجاح الحملة لسببٍ طبيعي لا يتعلق بالآلهة (كان قد عُين في احداى قياداتها)، ولهذا أظهر الجنون وأحرق منزله. وقال آخرون انه لم يتصنع الجنون وانما أشعل النار في منزله ليلاً بكامل بصيرته، وفي الصباح حضر الى الجمعيّة العامة وعليه مظاهر الأسى الشديد ورجا من الشعب أن يُعفى ابنه من الخدمة العسكرية ويبقيه في الوطن بسبب النكبة التي حلت به. وكان هذا الأبن على وشك الرحيل الى صقلية برتبة قبطان لأحدى السفن. وامّا الجنيّ الملازم لسقراط الفيلسوف فقد أعلم صاحبه بالطريقة التي يناجيه بها أن الحملة ستؤدي الى دمار الجمهورية. فأبلغ سقراط اصدقاءه وتلاميذه بذلك، فنقلوا قوله الى طائفة من الجمهور. وسرى القلق في النفوس لأن موعد أقلاع الاسطول وافق الأيام التي كانت تحي خلالها ذكرى موت [ادونيس]. وراحت تظهر للعيان في كل مكان صور للموتى وهو يعيشون بالحداد والعويل وبالنساء المشيعات يضربن صدورهن وأشتدّ قلق من يقيمون لهذه الظواهر وزناً، وخافوا لئلاً يكون مصير كل هذه الاستعدادت الحربيّة الضخمة الزوال والدمار في وقت قصير وبصورة مفاجئة قبل أن تحقق شيئاً.

أثبت [نيقياس] انه رجل فاضلٌ صلب الرأي، بمعارضته الاجماع العام على الحملة، ولم تثنه عن رأيه لا الآمال العراض، ولا الشرف الرفيع الذي اسبغ عليه بتسليمه القيادة العليا. ولما لم تفلح مجهوداته في حرف الشعب عن الحرب، ولا اعتذاره عن قبول القيادة (بلغ من اصرار الشعب على تكليفه بها، انهم حملوه قسراً ووضعوه في مقر القيادة خلافاً لرغبته). وجد أن الظرف لم يعد يتسع لتردده وحذره المأثورين، وانه لا يجمل به أن يكون كالطفل الذي يتلفت الى الوراء والسفينة تبتعد به وهو يظلّ يبدي ويعيد شاكياً أهمال نصيحته وكيف أنها لم ترفض رفضاً منطقياً، أو تدحض بمناقشات سديدة، وانما بسوء التقدير وبدافع العاطفة، فيكون بشكواه هذه عاملاً في خفض معنويات زملائه القوّاد، وفلّ غراب أقدامهم، وافساد حماسة الرجال الى القتال. وكان من شأن تقديراته الصائبة هذه أن تحتم عليه التعجيل في الانقضاض على العدوّ، وانهاء المسألة بوضع مصير الحملة في كفّ الحظّ، عن طريق خوض معركة حاسمة. إلا أن ما جرى فعلاً كان خلاف هذا. فعندما أشار [لاماخوس] بالتوجه رأساً الى [سيراقوسيا] بحراً والاشتباك بالعدوّ حالاً تحت اسوار المدينة، ولما نصح الكيبيادیس بضمان صداقة المدن الأخرى أولاً ثم الهجوم على [سيراقوسة]، جوبها بمعارضة [نيقياس] الذي أصرّ على أن يظلّ الاسطول جائلاً بهدوء حول الجزيرة بقصد استعراض قوته الحربية ثم بعد انزاله نجدات صغيرة من الرجال للايجستينيين يعود الى آثينا، فدب الخور في نفوس الرجال وهبطت معنوياتهم الى الحضيض. وبعد ذلك بفترةٍ من الزمن طلب من [الكيبيادیس] العودة لحضور محاكمته في آثينا فأصبح هو الجنرال الوحيد وان كان الآخر زميلاً له فبالإسم فقط. وواصل تسكعه وتجواله وتقليب وجوه الرأي دون الإرساء على قرار حتى قضى على آمال الرجال! لعقم وتبدد الرعب والهلع الذي خلقه في نفوس العدو عند أول اقتراب قواته ولم يعد فيها ذرة من خوف.

كان الكيبيادیس قد خرج قبل رحيله، بعمارة تتألف من ستين سفينة قاصداً [سيراقوسة]. خمسون منها انتظمت بصفٍ واحدٍ خارج الميناء بينما تقدمت العشر الباقية للاستكشاف ونادى المنادي من ظهر احداهما طالباً من المواطنين الليونتين العودة الى بلدهم. وبعد قليل أسرت هذه السفن الكشافة غاليوناً من سفن العدوّ، وعند تفتيشه عثروا على الواح من الآجر نقش عليها اسم كل رجال سيراقوسة مرتبةً حسبَ قبائلهم. وكانت هذه السفينة تقصد المدينة قادمة من معبد [جوبتر اولمبيوس]، حاملة هذه الالواح التي تمّ جلبها للتدقيق وأستخراج اسماء الشبان اللائقين للخدمة العسكرية لغرض تجنيدهم فحملها الآثينيون الى ضباطهم فظهرت فيها حشود كبيرة من الاسماء كما بينا. وتشاءم منها الكهنة ولم يجدوا لها تفسيراً

موافقاً، وخافوا ان يكون الاستيلاء على هذه الاسماء هو النجاح الوحيد المقدّر للحملة، تحقيقاً للنبوءة القائلة: «ان الآثينيين سيأخذون السيراقوسيين».

على أن هناك من يقول ان هذه الحادثة وقعت للآثينيين في عصر غير ذلك العصر ويربطونها بحادثة قتل [ديون] بيد [كاللبيوس الآثيني، واستيلائه على مقاليد الحكم في سيراقوسة.

وآلت القيادة كلها الى [نيقياس] بعد رحيل الكيبيادس كما اسلفنا، والواقع هو أن [لاماخوس] الزميل الثاني كان من الشجعان المعدودين، ومن الرجال الذين اشتهروا بالنزاهة والاستقامة، لا يتردد في خوض غمرات القتال بنفسه غير هياب ولا وجل. الاّ انه كان معدماً لا يملك شروى نقير حتى أعتاد كلما عين جنرالاً، أن يثبت في حساب مصروفاته من الأموال العامة مبلغاً زهيداً من المال بثمن ثيابه وحذائه. وبخلافه كان [نيقياس] ثرياً ذا منزلة سامية، دعك من سجاياه الأخرى. ولذلك كان الاهتمام العام منصباً عليه. وفي هذا الصدد يروى أن مجلس القادة كان مجتمعاً مرةً للمشاورة في الشؤون العامة. فطلب نيقياس من الشاعر [سوفوكليس] أن يكون البادىء بالادلاء برأيه لأنه أقدم اعضاء المجلس فأجاب قائلاً:

- اني أكبر الاعضاء سنّاً، ولكنك أقدمهم.

وكان الأمر كذلك مع [لاماخوس] فهو أفهم منه في الأمور العسكرية، واقدر على الضرب والطعان، إلاّ انه كان في الواقع مجرد تابع مرؤوس لا يحلّ ولا يربط. أما نيقياس. فقد ظلّ متمادياً في التأجيل، واجتناب المغامرة ولم يفسح المجال لعمل قواته بدورانه الدائم حول الجزيرة بعيداً عن نطاق الخطر وهكذا أعاد الى العدوّ الثقة في نفسه. ولم يكتف بهذا بل جعل نفسه موضع هزء واحتقار عندما هاجر حصن [هبلا Hybla] الصغير وانسحب عنه قبل الاستيلاء عليه. وأخيراً عاد الى [كاتانا Catana] دون ان يحقق شيئاً خلا تخريبه [هيكارا Hyccara] وهي بُليدة يسكنها البرابرة، ذكرت عنها الرواية أنها موطن [لاياس Lais] العاهرة الشهيرة التي كانت قد بيعت وهي صبية ضمن من بيع من اسراها ثم حملت معهم الى البلوبونيس. وبانقضاء الصيف، وردت أنباء لـ[نيقياس] عن ارتفاع معنويات السيراقويسين، ودعوة الثقة التامة الى نفوسهم مما قد يدفعهم الى المبادأة بالقتال. وبالفعل كثرت مناوشاتهم وتحرشاتهم حتى وصلت ابواب معسكره نفسه وكان المهاجمون السيراقوسيون يسخرون بجنوده ويعيرونهم قائلين: هل جاؤا للسكنى في الجزيرة مع الكاتانيين، أم لإعادة الليونتينيين الى مدينتهم؟!

أخيراً وبعد كثير من الإحجام والتردد قرر [نيقياس] ان يقلع بالاسطول الى [سيراقوسة] واراد ان يختار لمعسكره موضعاً مأموناً لايطاله العدوّ فجاء باحد الاشخاص وامره ان يخرج

من كاتانا قاصداً السيراقوسيين، ويعلمهم بأن في إمكانهم الاستيلاء على معسكر الآثينيين هناك وان يغنموا سلاحهم اذا ما هجموا على كاتانا بكلّ قواتهم لأنها دون حماية. وقال لهم أن معظم الآثينيين الموجودين في المدينة هم أصدقاء لهم وقد اتفقوا فيما بينهم على ان يحتلوا ابواب المدينة حالما تلوح لهم طلائع القوات السيراقوسية، وان يشعلوا النار في رصيف الميناء. وأكدّ لهم ان المؤآمرة واسعة نضّم عدداً كبيراً من الاهلين. وهم لا ينتظرون الاّ قدومهم.

كان هذا أفضل ما عمله [نيقياس] طوال قيادته الحملة فقد تمكن بهذه الحيلة من أخراج كل قوات العدو من سيراقوسة وأخلاها من المحاربين وانطلق هو من [كاتانا] بكلّ قواته ودخل الميناء بكل اطمئنان وأختار موضعاً مناسباً لمعسكره لا ينال منه العدوّ بوسائله ومعداته التي يتفوقون بها عليه في حين كان يأمل بوسائله ومعداته الخاصة، مواصلة الحرب دون عائق أو نكسة.

وما أن عاد السيراقوسيون من [كاتانا] وانتظموا بصف المعركة امام ابواب المدينة حتى حمل عليهم وهزمهم إلاّ أنه لم يصبهم بخسارة تذكر لأن خيالتهم عاقته عن المطاردة. وخطته في كسر الجسور وقطعها زودت [هِرموقريطس Herocrates] اثناء تشجيعه السيراقوسيين بفرصة القول إن [نيقياس] غبيّ سخيف لأن كل هدفه كما يبدو هو تحاشي القتال، كأن القتال ليس الغرض الذي جاء لأجله! ومع هذا كله فإن نجاحه أقلق السيراقوسيين وافزعهم واضطرهم الى اضافة ثلاثة جنرالات الى مجلس القيادة الذي كان يتألف من خمسة عشر جنرالاً. والى تزويد هذا المجلس بسلطة مطلقة بعد اداء القسم.

وكان معبد [جوپتر أولمپيوس] قريباً من معسكر الآثينيين فتاقوا الى الاستيلاء عليه والانتفاع بكنوزه الثمينة من الفضة والذهب والتحف الأخرى الموقوفة عليه، إلاّ ان [نيقياس] ردّهم عن قصدهم تاركاً الفرصة تفلت من يده ومفسحاً للسيراقوسيين سبيل الدخول اليه واحتلاله. وكان مدفوعاً الى ذلك بخوفه من يقتسم جنوده كنوز المعبد كما يقتسمون الغنائم مما لا يفيد المصلحة العامة في شيء، فظلاً عن ارتكاب اثم ديني باعتدائهم على ذخائر مقدسة.

كذلك لايستثمر [نيقياس] نصره أبداً مع أخباره أشتهرت وذاعت في كل مكان، وانما أقلع الى [ناكسوس] بعدها بايام قليلة، ليقضي فيها شتاءه منفقاً على اعاشة جيشه الكبير مبالغ طائلة. وأستولى عليه ما يشبه السبات هناك فلم تبدر منه حركة، إلاّ اضطراره الى عملية قمع بسيطة ضد المواطنين الصقليين الذين تحرشوا به. وعادت معنويات السيراقوسيين الى الارتفاع ثانيةً وشنوا غارات متواصلة على [كاتانا] وعاثوا في انحائها فساداً وأشعلوا النار في معسكر الآثينيين. فارتفعت الاصوات ملقيةً كل اللوم عليه لإنه لم يستغلّ الزمن الصالح

للقتال وترك الفرصة تضيع من يده، بطول التأمل وتقليب وجوه الرأي، والافراط في الحذر والتردد.

عندما يحين دور الجد والعمل يكون الرجل فوق كل انتقادٍ، فهو في وقت الأزمات فعّال نشيط لا عيب فيه. ومنقصته تبدو عند اتخاذ القرار فهو كثير التردد والتذبذب لا يستقر على حال. ولما عاد بالجيش الى سيراقوسة بلغت تدابير منه وسرعته حداً من الدقة عظيماً بحيث لم يعرف أحد بقدومه الاّ بعد ان رست سفنه على الساحل في [ثابسوس Thapsus] ونزل رجاله الى البرّ، ولم يستفق العدو من غفلته إلا وجيش الآثينيين منقضّ على مدينة [إيبپولي Epipolæ]، بحركة مباغتة هزم بها نخبة من المقاتلين أرسلت للدفاع عنها، وأستولى على ثلاثمائة أسير وهزم خيالة العدوّ التي أشتهرت بمناعتها وصعوبة دحرها. إلاّ أن أكثر ما ادهش السيراقوسيين أصلاً وبدأ خارقاً للعادة عند الاغريق هو قيامه في فترة وجيزة ببناء الجدار الحاجز حول [سيراقوسة] المدينة التي لا تقل سعة عن آثينا، في حين امتازت بارضها الوعرة المتعادية، وبقربها من البحر وبوجود المستنقعات حولها. مع هذا كله أحاطها بجدار دائري رجل سقيم البدن لا تسمح له علته بالاشراف على هذا العمل الجبان وان كان ثم ما يوجب الانتقاد في هذا العمل فهو الحجر الذي استخدم لبنائه اذ انه كان السبب في بقاء الجدار ناقصاً، وليس مصممه وصانعه. واني والحق يقال بدأب هذا الجنرال، وبشجاعة الجنود فيما توصلوا اليه.

بعد أن حَلّت النكبة بهم كتب [يوريپيديس] في رثائهم وتعداد مآثرهم قال:

«استظهروا على السيراقوسيين بثمانية انتصارات
لما كانت الآلهة واقفة على الحياد بينهما»

والواقع انها كانت أكثر من ثمانية انتصارات بكثير، حازوها تباعاً حتى تخلّت عنهم الآلهة وتدخل القدر لإيقاف مسيرة اثينا نحو العظمة والسؤدد، وتلك هي حقيقة ثابتة لا مراء فيها.

ولم يغب [نيقياس] عن معظم المعارك، ولم يعقده مرضه وما يكبد جسمه من عناءٍ. ولكن العلة أشتدت عليه مرة والقته انتكاسة طريح فراشة في المعسكر وليس معه إلاّ بضعة أنفار من الخدم يقومون على العناية به. فناب عنه [لاماخوس] في القيادة وخرج لقتال السيراقوسيين اثناء مدّهم جداراً عرضانياً ثانياً يقطع جدار الآثينيين ويحبط مسعاهم في تطويق المدينة الكامل. وبعد أن دارت الدائرة على السيراقوسيين أخذ المنتصرون يطاردون المنهزمين بحالة من الفوض والتفكك والاستعجال، وانفرد لاماخوس مع ثلةٍ عن رجاله وجابه خيالة العدو التي أطبقت عليه من حيث لا يحتسب. وكان يتقدمها [قليقريطس Calicrates]

وهو بطل صنديد خبير بفنون القتال، فتحدى [لاماخوس] في مبارزة فردية، فلم يتحرج هذا عن نزاله والتحما وكان اول من أصيب، إلاّ أنه كال لخصمه طعنة نجلاء مماثلة فوراً فسقط كلاهما ميتينّ، مأخذ السيراقوسيون سلاحه وجثته وأسرعوا بهما الى جدار الآثينيين حيث قصّر [نيقياس] وهو على فراش مرضه ليس معه جندي واحد. وما أن ادرك القضية حتى ترك فراشه وطلب من الخدم ان يسرعوا باشعال النار في كلّ الاخشاب والادوات والمعدات المستعملة في بناء الجدار التي كانت مكدسة هناك ولو لم يقدم على هذا لما أمكنه من ردّ السيراقوسيين على أعقابهم. وبهذا سلمت حياته وسلم الجدار وكل اموال الحملة. لقد خاف السيراقوسيون تلك النار العظيمة التي تتأجج في وسطهم قرب الجدار فتراجعوا حالاً.

وبات [نيقياس] جنرال الحملة الوحيد، وكانت الدلائل تشير الى ان كثيراً من الأمور الحسنة سيتمّ على يده. فقد بعثت اليه مدن الجزيرة تعرض التحالف، وجاءته سفن عديدة من كل مكان وهي موقرة بالقمح. وعندما يوآتي المرء الحظ تجدّ كل شخص يسعى الى التقرب منه والتودد اليه، ولذلك وردته مقترحات للاستسلام من بعض السيراقوسيين الذين فقدوا أملهم في امكان الدفاع عن المدينة. حتى أن [غيليپوس Gylippus] الذي كان في طريقه الى الجزيرة من لقيديمون على رأس نجدة عسكرية للسيراقوسيين أبلغ اثناء رحلته بخبر بناء الجدار حول المدينة وبيأس المحصورين. فحكم حالاً بأن صقلية ضائعة لا محالة وذكر انه لا يمضي في سيره لنجدتهم وانما لمساعدة الايطاليين على حماية مدنهم ان أمكن. فقد انتشرت الانباء المتواترة لتؤكد بأن الآثينيين مستظهرون ولا شيء يقف الآن في وجههم وان لديهم جنرالاً لا يُغلب حظّه ولا تُنافسُ عبقريته.

وأظهر [نيقياس] بعد هذا كثيراً من الإقدام وهو في أوج نجاحه خلافاً لما طبع عليه، ولاسيما عندما وردته ابناء سرية عن السيراقوسيين تشرح ما يعانونه، حتى بات يعتقد ان استسلام المدينة أمر مفروغ منه وما هي الاّ ايام معدودة حتى يفاوضوه على شروط التسليم لذلك لم يبد منه اي اهتمام بدنوه ولم يتخذ أي اجراء لمراقبة حركاته ونزل [غيليپوس] البرّ بقارب طويل دون علم نيقياس. وأختار لأنزال قواته ابعد ما يمكن من سيراقوسة وتمكن باهمال نيقياس واستهانته من تحشيد قوة كبيرة خلاف ما اتى به. ولم يكن السيراقوسيون أكثر علماً بقدومه من [نيقياس]، ولم يتوقعوا مجيئه. ولذلك عقدوا في المدينة اجتماعاً عاماً تداولوا فيه حول شروط التسليم التي سيفاوضون [نيقياس] بشأنها، وأسرع بعضهم اليه وكل أعتقادهم أن التعجيل بابلاغه النبأ سيحمله على ايقاف العمل بالجدار واكمال تطويق المدينة، اذ لم يعد منه الاّ جانب قليل. كانت مواد بنائه قد هيئت وجلبت الى الموقع.

وفي هذه الفترة الحرجة والخطر الماثل وصل من كورنث [گونگيلوس Gongylus] قادماً على ظهر غاليون، (بارجة) فأجتمع حوله السيراقوسيون يتسقطون منه الانباء، فأبلغهم بأن [غيليپوس] يسرع اليهم وان سفناً أخرى قادمة لنجدتهم. وقيل أنهم لم يصدقوه. حتى جاءهم بريدٌ سريعٌ من [غيليپوس] يطلب منهم الخروج للقائه فارتفعت معنوياتهم وأشتدت عزماتهم وأحتقبوا اسلحتهم. ثم سار [غيليپوس] الى الآثينيين حتى بلغ معسكرهم ونظم صفوفه للمعركة كذلك أخرج [نيقياس] رجاله للقتال. ولما أقترب وبات على مرأى من الآثينيين أخرج من صفوفه منادياً بهم، ليعرض شروطه، وهي انه لن يتعرض لهم بسوء اذا آثروا الانسحاب من صقلية. فلم يرد [نيقياس] بأي جواب الاّ ان جنوده راحوا يتساءلون ساخرين متضاحكين: ابعباءة خشنة وعكاز لاقوني ترتفع آمال السيراقوسيين وتلتمع، ولا يعودون يحسبون للآثينيين أي حساب وهم عين الذين قادوا ثلاثمائة أسير سپارطي مكبلين بالسلاسل ليس فيهم ادنى قدراً من [غيليپوس] ولا أصغر منزلة، ولا أقصر شعراً! ويذكر [طيماؤوس] أيضاً أن [غيليپوس] لم يحظ بأي تقدير من السيراقوسيين أنفسهم ولم يكترثوا به وراحوا يهزأون بعكازه وشعره الطويل اول ما وقع نظرهم عليه. ثم انهم وجدوا أنفسهم هلى حقٍ في انتقاصه لما أظهر بعدئذ من حقارة وحطة وطمع، ويضيف هذا الكاتب قائلاً: ان ظهور [غيليپوس] أحدث في مبدأ الأمر رغبة في الخدمة العسكرية فتقاطر اليه الرجال مثلما يحصل عند ظهور غراب في الجوّ. وهذا هو أصّح القولين لأنهم وجدوا في العكاز والعباءة شعار سپارطا وسلطانها وعلى هذا الأساس تجمعوا حوله. ولم يكن [ثوكيديدس] الوحيد بين الكتاب في تأكيده بأن المجهود كان مجهود [غيليپوس] وحده. فقد أيده [فيلستوس] وهو مواطن سيراقوسي وشاهد عيان لتلكم الاحداث.

على أن كفة الآثينيين رجحت في اول اشتباك وقتلوا فئة من السيراقوسيين، فيهم [گونگيلوس] الكورنثي الذي اوردنا خبره. إلاّ أن [غيليپوس] أثبت في اليوم التالي كفاءة القائد المحنك ذي الخبر والتجارب. فقد هزم الآثينيين بلجوء الى خطة جديدة مستخدماً قواته وخيالته دون زيادة ودون تغيير في مواقع المعركة فانهزم الآثينيون واحتموا بمعسكرهم. وجمع [غيليپوس] السيراقوسيين وأطلقهم في اكمال بناء جدارهم العرضاني بالمواد الانشائية والحجارة التي امنّها الآثينيون لجدارهم فقطعوه قطعاً وكسروا خط سيره الدائري وأحبطوا كل نوايا أعداءهم، الذين اسقط في يدهم تماماً حتى لو ضمنوا النصر في ميدان القتال. وأشتدت عزائم السيراقوسيين بعد هذا فبادروا الى غاليوناتهم وركبوها وجردوا خيالتهم واتباعهم من حولهم وانقضوا على الآثينيين فأسروا عدداً لا يستهان به منهم. وطفق [غيليپوس] يطوف

المدن وليُعزي أهلها بالانضمام اليه. فلم يردوا طلبه وبذلوا له كل مساعدة.

هذه التطورات ارغمت [نيقياس] على العودة الى طبعه الأول. وتسرب الى نفسه اليأس من الحملة فكتب الى أولي الأمر في اثينا يخيرهم بين ارسال جيش جديد أو أن يسحبوا جيشهم المرابط في صقلية. وهو في كلتا الحالتين مصرّ على اعفائه من القيادة لأشتداد وطأة المرض عليه. وكان الآثينيون قبل ذلك قد أتخذوا قراراً بارسال جيش جديد، إلاّ أن الحسد من [نيقياس] ومن انتصاراته ومحالفته الحظ له في مبدأ الأمر ادت كلها الى تأخير ارساله. على أن النكسات الأخيرة قضت على التردد وكان ثم إجماع بوجوب ارسال التعزيزات ومهدوا للأمر ان بعثوا [يوريميدون Eurymedon] مزودا بالمال فوصل في متنصف الشتاء ليعلن عن انتخاب كل من [يوثيديموس Euthydemus] و[ميناندر Menander] وهما من ضباط الحملة المرابطة تحت امرة نيقياس - قائدين مزاملين له. وكان من المقرر ان تصل النجدة بقيادة [ديموستينس] في الربيع. وفي تلك الاثناء فوجيء نيقياس بهجوم جريء من البر والبحر. وساءت أحواله في البحر أولاً، لكنه أفلح في طرد اسطول العدو المهاجم وأغراق عدد كبير من غاليوناته إلاّ أنه لم يستطيع تأمين قطعات كافية في البرّ لحماية [پليميريوم Plemmyrium] فلم تصمد لهجوم مباغت قام به [غيليپوس] وأستولى عليها عنوة ووضع يده على مخازن الاسطول، وعلى مبلغ كبير من المال كان نيقياس قد اودعه هناك وقتل عدد كبيراً من الآثينيين وأخذ مثلهم أسرى. على أن أهمّ نصر [لغيليپوس] كان قطعه خطّ تموين الحملة، الذي أمنّه [نيقياس] ووقاه من كل خطر بحيازته قاعدة [پليميريوم]، والآن وبعد خروجها من يده بات تموينه في غاية الصعوبة معرضاً باستمرار لهجوم العدوّ الذي كان يترصده بسفنه المراقبة تحت حصن المدينة مباشرة. زد على ذلك ان السيراقوسيين ادركوا الآن أسطولهم لم يهزم بفعل الخصم وتفوقه عليهم وانما بسبب الفوضى التي سادتهم اثناء مطاردتهم إيّاه. فراحت الأيدي تعمل متكاتفة لمحاولة بحرية جديدة قد يكون نصيبها من النجاح أكثر من سابقتها.

وكان [نيقياس] يتطيرّ من أي قتال بحري ويُروغ منه وقال لرجاله انه الحماقة بعينها أن يقدموا على الاشتباك مع العدو بعدد ضئيل من السفن السيئة الإستعداد، وديموستينس قادم اليهم باسطول ضخم وقوات جديدة يتوقع وصولها في اية لحظة.

ولكن [ميناندر] و[يوثيديموس] القائدين الجديدين كانا يتحرقان رغبةً الى أفتتاح منصبيهما بنصر مؤثل قبل وصول ديموستينس ليثبتا تفوقهما، تدفعها عاطفة غلابة الى المجد والشهرة. فعارضا رأي نيقياس بقولهما أن شرّف المدينة - على حَدّ تعبيرهما - سيلطخ ويمرغ

في الوحل ولن تقوم له قائمة ان هم رفضوا تحدي السيراقوسيين للقتال. وبهذا ارغما [نيقياس] على خوض معركة خاسرة وهزموا هزيمة شنعاء وفقدوا كثيراً من الرجال. وكان الفضل في نصر السيراقوسيين يعود الى ستراتيجية القائد البحري [ارسطون] الكورنثي التي وصفها ثوكيديدس في رسالته «عشاء الرجال». وهذا أسلم [نيقياس] الى حزن عميق اذ بعد أن عانى ما عانى من وجوده قائداً وحيداً للحملة، يجد الآن نفسه في مأزقٍ انكى بفعل زميليه.

وفي تلك الآثناء لاحت طلائع اسطول [ديموستينس] خارج الميناء فطارت نفس العدو شعاعاً وتناهبته الهواجس فقد تألفت الحملة الجديدة من ثلاثة وسبعين غاليوناً وخمسة آلاف مقاتل كاملي العُدّة وما لا يقل عن ثلاثة آلاف من النبالّة والرّماحة وقاذقي المجانيق. وكان منظرهم مهيباً بلمعان دروعهم وخفق اعلامهم ونافخي الناي وضاربي الدمام لتوقيت التجذيف مما خارت له عزائم العدو وعاد القلق العظيم يتملكه بطبيعة الحال، وان المرء لا يسعه الاّ ان يستنتج بأنهم باتوا لا يتبينون لهم مخرجاً وان الاعتقاد العام كان ان تضحياتهم لا تجدي ومجهوداتهم لا تغني.

ولم يطل فرح [نيقياس] بالحملة الجديدة. فقد جوبه في أول اجتماع له مع [ديموستينس] برغبة هذا في اشتباك فوري وباتخاذ اسرع ما يمكن من الاستعداد للاستيلاء على [سيراقوسة] فإن لم يتقرر ذلك فالعودة الى الوطن خير لهم وأجدى. تهيب [نيقياس] جسارته وتهوره وذهل لها، فأخذ يرجوه الاّ يقدم على عملٍ ينطوي على التسرع والاندفاع، فإن في التأخر دماراً للعدو الذي نضبت موارده ولم يعد لديه مال لمواصلة الحرب، وان الوقت لن يطول بحلفائهم حتى ينفضوا من حولهم. ومتى ما أرغمتم الحاجة سيجدهم آتين اليه سعياً وراء الصلح كما فعلوا قبلاً. والحقيقة هي انه كان بين السيراقوسيين من يراسله سِراً ويلح عليه بالبقاء الآن الشعب في المدينة قد انهكته الحرب ولم يعد له قبل بالصبر على استمرارها، كما ضاق [لغيليپوس] ذرعاً وصعب عليهم أحتماله، وان أقلّ ضنك يهدد عيشهم وحاجتهم سيحملهم على النزول عن كل شيء.

أجل، كان [نيقياس] ينظر الى الاقتراح نظرةً قاتمة. ولما لم يكن يرغب في التصريح عما بنفسه فقد جعل زملاءه يتصورون أن الجبن هو الذي يدفعه الى هذه الأقوال. فعلقوا قائلين ان القصّة تتكرر ثانية؛ التردد والاحجام واعمال الفكر وكل ما كان عاملاً في ضياع فرصة الهجوم الفوري على العدوّ، مما أدّى الى ان تبدو قوة آثينا الحربية أثراً من آثار الماضي. فلا تعود تثير في النفوس اي مهابة أو خوفٍ. ولذلك أخذوا برأي [ديموستينس] وارغموا

[نيقياس] بعد جهدٍ كبير على الموافقة. فتسلم [ديموستينس] قيادة القوات البرية وقام بهجوم ليلي على [ايپپولي] فجندل عدداً من رجال العدوّ قبل أن يحسوا بوجوده. أما من انتبه اليه وصمد في وجهه فقد اندحر. ولم يقنع [ديموستينس] بهذا الانتصار واندفع الى امام حتى التقى بالبويوسيين فهجموا على المنتصرين في المقدمة وهم يصيحون ضحية عظيمة وأشتبكوا رمحاً لرمح. فوقعت مقتلة كبيرة من الآثينيين في الميدان وسرعان ما سرت موجة رعبٍ واضطراب الى الوحدات المنتصرة من الوحدات المقهورة ووقع النازلون من السفن على رفاقهم الهاربين يحسبونهم عدواً مطارداً وأعتركوا فيما بينهم؛ ووقع بعضهم على بعض وعمت الفوضى وأختلط حابلهم بنابلهم وأعجزهم الخوف والحيرة عن التأكد من هويات ما يعنّ لهم من أشخاصٍ لأن الليل لم يكن حالكاً، ولا فيه نور ثابت كاف فقد كان القمر يسير الى الأفول فينشر ضوءه القاتم ظلالاً على الاسلحة والاجسام المتحركة الى امام وخلف ويرسل ومضات ضعفة لا يرى فيها الشيء واضحاً فيتوهم المرء بالصديق عدواً، ويعميه الخوف عن التثبت. وهكذا أختلط الأمر على الآثينيين وارتبكوا تماماً وقنطوا. ومما زاد في الطين بلّة ان القمر كان وراء أظهرهم فكانت ظلالهم تقع عليهم فتخفي عن الناظر عددهم وتطمس على بريق سلاحهم ودروعهم. في حين كان انعكاس أشعته على دروع العدوّ يظهرهم أكثر عدداً وأحسن عدة مما هم في الواقع. ثم أشتد الضغط عليهم من كل جهةٍ فتراجعوا، وما ان بدأوا في التراجع حتى تحولوا الى الهزيمة وكان في ذلك دمارهم فأباد العدو قسماً منهم وهلك قسم بعثاره وسقوط على الصخور أما من تفرق في أرجاء الميدان، فقد طلعت عليهم الخيالة صباح اليوم التالي وراحت تتلقطهم وتذبحهم ذبحاً. وبلغ عدد القتلى ألفين ولم ينج بسلاحه الاّ فئة ضئيلة.

ولام [نيقياس] زميله [ديموستينس] واتهمّه بأنه مسبب هذه الفاجعة التي لم يستبعد وقوعها مطلقاً. وبعد أن اعتذر عنه لما مضى منه، أشار بالانسحاب العام من الجزيرة باسرع ما يمكن لأنهم لا ينتظرون مقدم تعزيزات أخرى، وليس في الامكان التغلّب على العدو بالقوات الحالية، وعلى فرض المستحيل بأن قواتهم المرابطة ما تزال قادرة على تحقيق سلامتها من العدوّ، فان الظروف الآنية وتملي عليهم ان يتخلوا عن التشبث بموقع «مريض» فيه خطورة كبيرة على اي جيش. فضلاً عن كونه لايلائم صحة الجنود فهم الآن في أوّل الخريف، والمرض قد تفشى في المعسكر وكثير من الجنود طريحو الفراش وكلهم يائسون قانطون.

كانت فكرة الهزيمة والعودة الى الوطن تورث [نيقياس] آلاماً شديدة، واذا كان يخشى السراقوسيين فهو أكثر خوفاً من الآثينيين أنفسهم من اتهامهم ومن الحكم والعقاب. وعتب مستدركاً أنه لا يخاف أن يلحقه ضرّ هناك، وان لم يكن من ذلك بدّ فهو يفضل الموت بيد

العدوّ على الموت بيد مواطني مدينته. وهو في هذا على غير رأي [ليو] البيزنطي الذي قال لبني قومه:

- أفضّل الموت بيدكم على الموت معكم.

واستحسن ان تتم المداولة في أختيار المكان والجهة التي سينقلون اليها معسكرهم على مهلهم. ولم يعترض عليه [ديموستينس] بعد أن ثبت فساد رأيه فيما أقدم عليه. وراح الظنّ بفريقٍ أن [نيقياس] له اسبابه في الأمل وفي توقع الفرج، وانه يعتمد على بعض الثاكيدات من أهالي المدينة فيحمله على المعارضة في الانسحاب. ولذلك سكتوا وعملوا برأيه. على أن السيراقوسيين بدأت تردهم تعزيزات جديدة من الجنود، وازداد المرض تفشياً في معسكره، فعدل عن البقاء ووافق على الانسحاب وامر الجنود بالتأهب لركوب السفن.

ولم ينتبه العدوّ لهم حتى أكملوا الإستعداد لأنه لم يتوقع ذلك منهم. وفي الليلة التي قررت موعداً للحركة حصل خسوف ارتعب له نيقياس وخافه جنوده خوفاً عظيماً وطاش صوابهم منه لقلة تجاربهم وتمسكهم بالخرافات والاوهام.

لقد بات الناس حتى البسطاء منهم يعلمون اليوم أن ظاهرة عتمة الشمس في نهاية الشهر انما هي من تأثير القمر. أمّا في موضوع خسوف القمر فكان يصعب عليهم التعليل، كيف يتم ذلك؟ كيف يفقد القمر المضيء نوره فجأة ويخرج منه اثناء ذلك ألوان مختلفة؟ فيتخذون منه دليل شؤمٍ، وإشارة سماوية الى نكبات ومصائب شداد. وكان [اناكساغوراس] أوّل الكتاب وأوضحهم بياناً في شرحه كيفية استمداد القمر نوره، والعلّة في اختفائه وكانت اراؤه واستنتاجاته في هذا الصدد قليلة الإنتشار بين الناس، تكتم وكأنها من الأسرار المقصورة على نفر قليل ويتم تداولها بمنتهى الحذر والتكتم، حتى الى عهدٍ قريب. ولم يكن الناس آنذاك يتسامحون في أمر الفلاسفة الطبيعيين أو النظريين كما سموّهم ولا يطيقون منهم تعاليلهم التي أسلفناها، لأنها تقللّ من شأن القوى السماوية. وتنتقص من فعاليتها في اللامعقولات والقوى اللامحسوسة التي تعمل بالضرورة من دون تدخل العناية الآلهية أو ارادة البشر الحرة. ولهذا نُفي [بروطاغوراس Protagoras] وألقي [اناكساغوراس] في السجن وصعب على [بيركلس] أطلاق سراحه. ومع ان سقراط لم يهتم قط بهذا الفرع من العلم، فقد قضي عليه بالموت لتعاطيه بالفلسفة. ولم تمح وصمة العار التي ألصقت بهذه الافكار والنظريات إلاّ عندما أشتهر أفلاطون ولمع كوكب حياته، باخضاعه الضرورات الطبيعية الى مبادئ آلهية أجل وأسمى، فارس قواعد هذه العلوم وجعل لها مقاماً بين الناس. ولذلك لم يفزع [ديون] صديقه من الخسوف الذي حدث ساعة اقلاعه بحملته العسكرية على [ديونيسيوس]، من

ميناء [زاكيتوس Zacythus]، وانما مضى قدماً ونزل سيراقوسة وأخرج منها الطاغية.

وفي ذلك الحين لم يكن عند [نيقياس] عرّاف ماهر، فمستشاره [تيليبيدس Tilibides] الذي لازمه طويلاً، وأستخدمه لتقويم كثير من الاوهام التي كانت تخالجه، لم يمضَ على وفاته الكثير، ومن الناحية الأخرى فمن رأي [فيلوخورس] أن خسوف القمر لا يقوم نذير شؤم بالنسبة الى الاشخاص الذين صَحّ عزمهم على الفرار، وانما هو بالعكس طالع يُمنٍ وبشير توفيق. لأن الأمور التي يقدم عليها البشر وهو في حالة خوف تتسم بالتخفي. والنور هو عدو التخفيّ. وليس بالشيء الاعتياديّ ان تلاحظ اشارات في الشمس أو القمر لأكثر من ثلاثة أيام متوالية، على حد ما ذكره [اوتوقليدس] في «تعليقاته». ومهما يكن فقد أقنعهم [نيقياس] بانتظار دورة قمرية كاملة أو يكون البدر التالي موعد الانسحاب كأنه لم ير القمر بعد خروجه من دائرة الخسوف منيراً تاماً، وتخلص من حجب الأرض له عن نور الشمس!

وبدأ [نيقياس] في تلك الأيام وكأنه خالي البال مما يدعو الى الإهتمام بانصرافه انصرافاً تاماً الى قرابينه الى ان داهمه العدوّ بكل قواته المحشودة فحاصر القلاع والمعسكر بمشاته، وطوق الميناء بقوسٍ من سفنه وشارك في هذا الحصار البحري كل صبيان المدينة واحداثها فقد ركبوا زوارق صيدهم وتقدموا من الآثينيين بها يتحدونهم ويشتمونهم ويهينونهم. ومن بين هؤلاء الفتى [هراقليدس] الذي تقدم عن رفاقه مسافة بعيده فتعقبته سفينة آثينية وكادت تدركه. فأنطلق في اثره عمه [بولليخوس] حمايةً له، وبهذا نشبت معركة في منتهى الشدة والعنف أنتصر بها السيراقوسيون، وقتل فيها [يورميدون] مع كثير من الآثينيين، وبعدها لم يصبروا على البقاء وأطلقت حناجرهم صيحة واحدة في وجوه ضباطهم وآمريهم، بطلب العودة الى الوطن براً لأن السيراقوسيين عجلوا بعد انتصارهم في أغلاق مدخل الميناء ووضع الموانع منه. ورفض [نيقياس] فكرة الانسحاب براً لأن ذلك سيرغمه على تركه عدداً كبيراً من سفن النقل والبوارج الحربية يقارب المائتين وليس ثم بعداً هذا من عارٍ وشنار. فأصعد الى السفن خيرة مشاته ومعظم رماحته القادرين على القتال فملأوا مائة وعشرة غاليونا. اما السفن الباقية فكان يعوزها المجاذيف. ووزع بقية الجيش على طول الساحل، متخلياً عن المعسكر الرئيس والاستحكامات المجاورة لمعبد [هرقل]. فأسرع السيراقوسيون اليه كهنةً وضباطاً لتقديم القرابين المعتادة التي حرموا من تقديمها زمناً طويلاً، ثم أوسقوا سفنهم وتنبأ العرافون من اشارات الذبائح بالنصر والمجد للسيراقوسيين على ألاّ يكونوا البادئين بالحرب، بل ان يبقوا ملتزمين خطة الدفاع لأن [هرقل] لم يغلب كل خصومه إلاّ بالدفاع عن نفسه. فأنطلق السيراقوسيون بعزم وثقة جديدين. وكانت معركتهم التالية أشدّ وأعنف معركة بحرية خاضوها

على الاطلاق. اثارت حماسة المتفرجين واهتمامهم أكثر من المشاركين فيها فقد كانوا قادرين على مشاهدة كل مراحل المعركة بتقلباتها الفجائية وتبدل حظوظها ومفاجآتها غير المتوقعة السريعة. وكانت خسارة الآثينيين من سوء استخدام أسلحتهم ومعداتهم لا تقل عن الخسارة التي أوقعها بهم عدوهم. فقد جابهوا سفناً خفيفة سريعة الحركة رشيقة قادرة على الهجوم من كلّ ناحية في حين كانت سفنهم الثقيلة أصلاً، موقرةً بالحمل بطيئة الحركة وكانوا معرضين الى وابل من الحجارة يمطرهم بها العدو من كل مكان دون وزن أو اعتبارٍ لشيء، ولم يكن لديهم ما يردون به عليهم غير الحراب والنبال التي يصعب توجيهها الى اهدافها المنشورة بسبب حركة الماء فيطيش معظمها ولا تبلغ قصدها. هذا الاسلوب في الحرب تعلمه السيراقوسيون من القبطان الكورنثي [ارسطون] الذي خرّ صريعاً في هذه المعركة وهو يقاتل قتال الأبطال وفي اللحظة التي تبين النصر للسيراقوسيين.

بعد إصابة الآثينيين بخسارة بالغة في السفن، وفي الرجال. بات طريق الفرار البحري متعذراً. وكان انسحابهم براً محفوفاً باشدّ الأخطار. وشلت الحيرة فكرهم فلم يحاولوا منع العدوّ من سحب سفنهم وراءه تحت سمعهم وبصرهم. ولم يحاولوا طلب هدنة لدفن قتلاهم، فقد بدأ ان ترك الجثث بلا دفن أهون وأجدى من ترك مرضاهم وجرحاهم والانسحاب بدونهم. على ان أشقى الفئتين لو علموا - هم أولئك الذين كانوا سيكابدون كثيراً من الآلام ليصلوا الى النهاية عينها.

وتهيأوا للانسحاب في تلك الليلة. وادرك [غيليپوس] واصدقاؤه نيتهم إلاّ إنه وجد السيراقوسيين منشغلين في قرابينهم وكأنهم بمناسبة يوم النصر الذي كان يوم عيد أيضاً. فأسقط في يده ولم يفلح في اثارة اهتمامهم بقتال الآثينيين لا بالحث ولا بالرجاء. على ان [هرموقريطس] لجأ الى حيلة من أختراعه للايقاع بنيقياس بمبادرة خاصة منه. فبعث بفئة من رفاقه اليه ليزعموا له انهم موفدون من أولئك الذين يحرصون على الصلة السرية التي كانت بينهم، وان صنائعه هؤلاء ينصحونه بألاّ يخرج في تلك الليلة لأن السيراقوسيين بثوا الارصاد ووضعوا الكمائن والموانع في المسالك. فأبتلع [نيقياس] الطعم وانطلت عليه الحيلة ولم يبرح معسكره. ولم يطل به الأمر حتى واجه ما كان يخشى وقوعه لما خيل اليه ان الفرص كلها ضاعت عليه فقد سبقه السيراقوسيون الى احتلال المنعطفات والشعب والمضائق في الصباح الباكر. وكسروا الجسور وبثوا خيالتهم في السهول والأراضي المكشوفة ولم يبقوا جزءً من المنطقة يمكن ان يتسلل منه الآثينيون دون قتال إلا مسكوه. وظل الآثينيون طوال ذلك اليوم الثالث كأنهم لا يتركون بلاد عدوّهم بل بلادهم خرجوا وهم باكون نادبون والالم يعتصر قلوبهم

لاضطرارهم الى ترك أصدقائهم ورفاقهم الذين أعجزهم مرضهم وسوء حالهم عن السير معهم ولم يكن عندهم القوت الضروري الذي يقيهم الجوع. إلاّ أنهم كانوا يدركون على كل حال ان ما يعانونه الآن لايُقاس بما ينتظرهم من مصائب. وكان [نيقياس] أبعث صورة للرثاء من الصور الأليمة والمناظر المحزنة التي حفل بها المعسكر قبيل الرحيل. فقد بدأ بهيئة تستدر منتهى الشفقة وهو يرزح تحت وطأة المرضى، وقد نحل جسمه ورقّ عظيمة لحاجته الى الجدار الأدنى من مقومات التغذية. في حين كان وضعه الصحيّ يتطلب غذاءً أكثر من المعتاد. وكان يغالب العلّة ويعمل ويتحمل من الاعباء ما ينوء به كثير من الاصحاء وليس من شك في ان الجهد الذي يبذله لم يكن لنفسه ولا بدافع الحرص على حياته، وانما لتشبثه بالأمل تشبث الغريق وبدافع الاهتمام بمن هم تحت امرته. وانتشر البكاء والصراخ بين الجنود حزناً أو خوفاً. أمّا هو، فان غالبته العاطفة حينا وابكته، فأنما كان يبكي قهراً لتفكيره بعار الحملة الراهن؛ وبما كان يتوقع لها من مجدٍ وصيتٍ. وأقترن منظر شخصه المحزن بتذكر الجنود محاولاته الصادقة في حمل الآثينيين على صرف النظر عن الحملة ومعارضته الشديدة لها. الأمر الذي زاد من شعور الاشفاق عليه؛ وعدم استحقاقه الآلام التي يعاينها الآن.

لم يكن للجنود اي أمل في التوجه بمصائرهم الى الآلهة، بعد ان شاهدوا بأمّ أعينهم كيف تخلت عن نصرة قائدهم الورع البالغ التقى الذي لم يأل جهداً في اظهار أجلاله لها بعبادتها ودوام التقريب لها وغير ذلك من أعمال البرّ، فلا يجد الآن من الحظوة عندها أكثر مما يجده أحط وأحقر جندي في جيشه.

وكان [نيقياس] خلال هذه الفترة العصيبة يجاهد بصوته وتحمله واساريره ليبدو بمظهر المستقوي على نكبته، الصامد لسوء طالعه. لقد ظلّ ثمانية ايام بلياليها وهو عرضة لسهام العدوّ وحرابه غير مبالٍ بجراحه، محافظاً على تكتل قواته ونظامها الذي لم تتسرب اليه الفوضى الا بعد أسر [ديموستينس]. فقد كان هذا يقود كتيبة في أشتباك مع العدوّ مما جعله يتخلف عن بقية الرتل. ولم ير نفسه واصحابه الا وهم مطوقون، بالقرب من منزل ريفي يملكه [پوليزيلوس]. ولما أيقن بالمصير انتضى سيفه وطعن نفسه يريد القضاء على حياته فأحدث جرحاً لا غير، وأسرع اليه السيراقوسيون وقبضوا عليه ثم انصرفوا بغنيتهم. ولما علم [نيقياس] أرسل رعيلاً من الخيالة لاستكشاف الموقف فعاد اليه مؤكداً اندحار كتيبة [ديموستينس] وأسره فبعث يستعطف [غيليپوس] في هدنة للخروج في صقلية مبدياً موافقته على ابقاء رهائن عنده لضمان دفع المبالغ التي انفقتها السيراقوسيون على حربهم.

إلاّ أن السيراقوسيين لم يعودوا الآن مستعدين لمنحه شروط الصلح التي عرضوها عليه قبلاً

وانما راحوا يهددون الآثينيين بالويل ويتوعدونهم بسوء المصير، ويمطرونهم بالسباب والاهانات. وأخذوا يصبوّن عليهم مقذوفهم من السلاح بكلّ حنق وغيظٍ. ونضبت موارد الآثينيين تماماً، ولكن نيقياس] لم يتوقف وواصل السُّرى آناء الليل دون ان ينال منه العدوّ مأرباً. وفي اليوم التالي شق طريقه تحت وابل من حرابهم ومقذوفاتهم حتى بلغ نهر [اسيناروس Asinarus] فأعترضتهم قوات العدو ودفعت بهم الى المجرى. وآثر بعضهم الموت في سبيل ارواء عطشه فالقوا بأنفسهم في الماء فأنقض عليهم العدوّ وهم يشربون وصرعهم. ثم بدأت أفظع مقتلة وأقساها في الآثينيين. وحاول [نيقياس] ايقافها فاسرع الى [غيليپوس] وألقى بنفسه امامه وقال مسترحماً:

- دع الى نصرك سبيلاً للرحمة يا [غليپوس]، لهؤلاء الآثينيين لا لنفسي التي حكم عليها القدر أن تبلغ بالمجد الذي نلته فيما مضى الى هذه الخاتمة الأليمة. وانت تعلم حق العلم ان فرص الحرب مشاعة وان الآثينيين كانوا دائماً معتدلين في استغلال تلك الفرص وقد أظهروا لكم خصوصاً كل تسامح ولطف في ايام عزهم وجبروتهم.

فلان قلب [غيليپوس] بهذا القول وبمنظر [نيقياس] الأليم وادركه الأسف. فقد كان يعلم ان [نيقياس] بذل أطيب المساعي للقيديميين في قضية المفاوضات حول المعاهدة الأخيرة. كما كان يقدّر الشرف والشهرة العريضة التي سينالها بأخذه القادة العامين الآثينيين أحياءً. فأخذ بيد [نيقياس] وانهضه باحترامٍ وأخذ يهون عليه ويطيب خاطره وأصدر أمراً لرجاله برفع سيوفهم عن رقاب الآثينيين الاّ أن أمره لم ينقل بسرعة ولذلك زاد القتلى عدداً عن الأسرى بكثير. ونجا كثير من الآثينيين بجهود الجنود الخاصة اذ هربوهم من البلاد سراً. وجمع الأسرى معاً وعُلقت أسلحتهم واسلابهم على باسقات الشجر بامتداد النهر. ودخل المنتصرون مدينتهم وقد ضفروا أكاليل الزهر على رؤوسهم وخيولهم مزدانة بأجمل الحلل والزينة. يرون وراءهم خيول العدو مقصوصة الأعراف والأذناب، لابدع فقد نالوا أعظم وأكمل نصر، في اروع صراع دار بين أغريق وأغريقٍ بوفيه لغوا من الشجاعة وشدّة المراس ما ليس بعده زيادة لمستزيد.

وعقدت الجمعية العامة في [سيراقوسة] إجتماعاً جماهيرياً حضره مندوبون عن حلفائهم. وأفتتح [يورقليس Eurycles] أحد الزعماء الشعبيين الجلسة باقتراح اعتبار اليوم الذي أسر فيه [نيقياس] يوم عطلة. من الآن وعلى مَرّ الزمن، تحيي ذكراه بنحر الاضاحي، والامتناع عن مزاولة الأعمال الاعتيادية، وان يطلق عليه اسم [العيد الآسيناري] نسبة الى النهر الذي دارت على ضفافه المعركة وكان يوافق السادس والعشرين من شهر [كارنيوس Carneus] وهو [ميتاجيتنييون Metagitnion] عند الآثينيين. واقترح ان يباع بيع الرقيق خدام الآثينيين

واتباعهم وحلفاؤهم الذين وقعوا أسرى، وان يحتفظوا بالمحاربين واحتياطيهم من الصقليين لاستخدامهم في أعمال المقالع، باستثناء من كان برتبة قائد. واقترح أن يقضى بحكم الموت على هؤلاء. فوافقت الجمعية على اقتراحه. وعندما أعترض [هرموقريطس] بقوله: أن حسن استغلال النصر، خير من الحصول عليه السيراقوسيون بكلمات نابية فظة، وهم ثملون بحظهم، السعيد. والواقع انهم كانوا في اثناء الحرب يتضايقون جداً من مسلكه الفظ وتعاليه اللقيديموني؛ زد على هذا أنهم - على ما يحدثنا به [طيماؤوس]. قد كشفوا في طباعه لؤماً وخسّةً وجشعاً؛ ولعل هذه الرذائل انحدرت اليه من ابيه [كلياندريدس Cleandrides] الذي حكم عليه بجريمة الرشوة ونفي من البلاد. ومما يجدر بالذكر أن [غيليپوس] هو عين ذلك الشخص الذي ارسله [ليساندر] الى سپارطا حاملاً ألف تالنت لايداعها الخزانة العامة، فأختلس منها ثلاثين، وأخفاها تحت آجرّفي منزله. فأفتضح أمره وهرب من البلاد مشيعاً بالخزي. وقد اتينا الى تفصيل ذلك في سيرة حياة [ليساندر]. ويقول [طيماؤوس] ان [نيقياس] و[ديموستينس] لم تختتم حياتاهما بالشكل الذي وصفه كل من [توكيديدس] و[فيليستوس]، أي على أثر قرار بقتلهما اصدره السيراقوسيون. ولكنهما تركا ليضعا حداً لحياتيهما بمساعدة بعض الحرس القائم على حفظهما وأغضائهم عنهما على أثر رسالةٍ بعث بها اليهما [هرموقريطس] خلال انعقاد جلسة الجمعية العمومية للبت في مصيرهما.

ونقلت جثتاهما الى باب السور والقيتا هناك ليشهدهما الجمهور وقد طرق سمعي أن مجنّاً محلى النقوش وبرصائع متعاشقة من الذهب والارجوان ذا صنعة لطيفة بديعة موجود الى يومنا هذا في احد معابد [سيراقوسة]، يقال انه [لنيقياس]. وهلك معظم الآثينيين الذين سيقوا للعمل في المقالع، من سوء التغذية والاسقام. اذ لم يكن يعطى لهم أكثر من كيلة نصف لترٍ من الشعير، وربع لترٍ من الماء يومياً. وهرب عدد كبير منهم سراً وبيع بعضهم عبيداً على أساس كونهم من خدم المعسكر، وقد وسمت جباهم بصورة حصان، وجرى هذا لبعض الآثينيين المحاربين زيادة على العبودية. على أن حسن سلوكهم ورجاحة عقولهم أكسبهم احترام اسيادهم فضنّوا بهم وابقوهم معهم. ونجا عدد بفضل أشعار [يوريپيدس] التي كانت تحظى على ما يبدو بمنزلة سامية في قلوب الصقليين ولا تضاهيها فيه اية مستعمرة اغريقية خارج بلاد اليونان ولم يكن لسرورهم حدٌ عندما يقعون على مسافرٍ يحفظ شيئاً من قصائد هذا الشاعر فيبادرون الى سماعها فيه بكلّ لذة واستمتاع وقيل ان كثيراً من الأسرى الذين عادوا الى آثينا سالمين قصدوا منزل [يوريپيدس] حال وصولهم ليقدموا شكرهم له وليرووا له كيف ان بعضهم نال حريته وأعتق لأنهم علموا ما تذكروا من أشعاره للمعجبين. وظفر

الهاربون من المعركة الضاربون في القفار بما يقيهم الجوع من اللحم والشراب لانشادهم بعض قصائده الغنائية. ولا تعجب لهذا ، أذ روي ان سفينة لـ[كاونوس Caunus] هربت الى ميناء من موانيهم أطلاباً للحماية فطاردها القرصان ومنعت من دخول الميناء وطلب منها العودة الى البحر. وفي أثناء ذلك سأل أحد رجال الميناء ملاحيها ان كانوا يحفظون شيئاً من أشعار [يوربيدس] فلما أجابوا بالايجاب، سمح لهم ولسفينتهم بدخول الميناء.

قيل أن الآثينيين لم يصدقوا بما حدث وكذبوا آذانهم وسمعوا بنكبة جيشهم تلك، عندما نقل أول خبر عنها واحد من الأغراب دخل ميناء [پيروس] وجلس في دكان حلاق وبدأ يتحدث عما جرى في صقلية كأن السامعين على علمٍ سابق بالحقيقة. وما وعى الحلاق أقواله حتى أسرع يعدو بأقصى ما تسمح به ساقاه في شوارع المدينة قبل أن يعرف أحد بالنبأ وقابل الاراخنة وانهى اليهم بالنبأ. ثم وقف في الساحة العامة وأعلن الحقيقة للناس. مما أدّى بطبيعة الحال الى فزع عامٍ وألم عميق في كل مكان. ودعا الاراخنة الى عقد اجتماع عامٍ، واحضر الرجل الغريب صاحب النبأ واستجوب عن مصدر معلوماته، ولما لم يقدم لهم جواباً وضياً، عُدّ مذيعاً لإخبار مفرضة من شأنها أقلات الراحة العامّة. وأمر به فشدّ على عجلة دارت به مدة طويلة، الى ان حضر سعادة بريدٍ، وأخذوا يحدثون الجمهور بتفاصيل النكبة وتفاصيلها.

لقد كان من الصعوبة بمكان ان يصدق الناس بأن [نيقياس] وقع ضحية النكبة التي كثيراً مما تنبأ بها.

كراسوس

CRASSUS

(Marcus Licinius)

115 ـ 53



إن [ماركوس كراسوس] الذي كان ابوه قد تولى منصب [چنصور] مرةً ومُنح شرف موكب النصر مرةً - نشأ مع اخويه في منزل صغير. وربى معهما وقد تزوج هذان الأخوان وابواهما في قيد الحياة، وكانت الأسرة كلها تأكل على مائدة واحدة. ولعل هذا سبب من اسباب تطبعه على الاعتدال والزهد لا يقل أهمية عن الاسباب الأخرى. وعندما وفاة أحد أخويه تزوج ارملته ومنها رزق باولاده. ولم يفقه أحد من الرومان في الحياة الزوجية المثالية التي عاشها. وإن حام شكّ بعد تقدمه في السّن، حول وجود علاقة صميمة بينه وبين عذراء من عذارى القستالات تدعى [ليشينيا Licinia] فإنها بُرئت من هذه التهمة التي قام برفعها [پلوطينوس -Ploti nus] ضدّها. كانت [ليشينيا] هذه تملك عقاراً ثميناً جداً في ضواحي المدينة وقع في نفس [كراسوس] ورغب في شرائه بثمن متهاودٍ. ولهذا زاد التفاته اليها وتضاعف اهتمامه بها وكثر تردده عليها فأنطلقت الالسنة تتساءل عن كنه علاقتهما، مما أدى الى الفضيحة. واذا جاز لنا القول، فان جشعه هو الذي عاون في براءة ساحتيهما. إلاّ انه لم ينفك بعد الفضيحة عن مراجعتها حتى فاز بالعقار.

وتعود الناس القول عنه ان رذيلة واحدة فيه كانت تغلب على فضائله العديدة، الا وهي الجشع، وكانت عيبه الوحيد في الواقع ولم يبد انه تخلّق بغيرها، إلاّ انها كانت جدّ بارزة، فطغت على حسناته وسجاياه. ومن الأدلة على جشعه أملاكه الواسعة، وطرقه في جمعها. ففي أوّل الأمر لم تكن ملكيته تزيد عن ثلاثمائة تالنت. وبالتالي نجد في سرى حياته السياسيّة انه أوقف العشر مما يملكه كافةً على [هرقل] واقام للجمهور مآدب عامة، ووزع من حر ماله على كل مواطن في روما قمحاً سد حاجته اليه مدة ثلاثة أشهر. ومع كل هذا فقد وجد عند قيامه بجرد ثروته وتصفية حساباته مثل خروجه لقتال الپارثيين، انه يملك سبعة آلاف ومائة تالنت، جاء معظمه - ان جاز ان تكون الحقيقة فضيحة - من النار والنهب. فقد حقق استفادته من النكبات العامة والبلايا التي حلت بالوطن فمثلاً لما قبض [سيللا] على زمام الأمور في المدينة وعرض للبيع العلني ما صادره من أموال أولئك الذين فرض عليهم عقوبة أهدار الحقوق المدنية، وأعتبرها أو سمّاها غنائم وأسلاباً، ولرغبته في أن ينشرك معه

بهذه الجريمة أكبر عدد من الشخصيات الرومانية البارزة، لم يتعفف [كراسوس] عن قبول مال منهم أو أخذ مال لهم. ولدى ملاحظته كثرة ما تعرض من منازل المدينة للحريق. وللانهدام بسبب ارتفاعها وتقارب بعضها من بعض، أنصرف الى شراء عبيد مهروا في العمارة والبناء، حتى اذا جمع منهم ما يربو على خمسمائة، طفق يشتري تلك البيوت التي أتت عليها النيران، والبيوت المجاورة الآيلة الى السقوط أو المتقوضة، بأثمان زهيدة لا تذكر من مالكين كانوا يرغبون في التخلص منها كيفما كان. حتى جاء زمن كان يملك معظم أحياء روما. ومع امتلاكه هذا القدر الكبير من البنائين العبيد فإنه لم يشيد صرحاً واحداً خلاف منزله الخاص. وكان لايفتأ يردد قوله: ان أولئك الذين استولت عليهم الرغبة في البناء، لن يلبثوا أن يدمروا أنفسهم، من غير مساعدة الاعداء وكانت مناجم الفضة الكثيرة التي يملكها والمساحات الشاسعة من الأراضي الفنية بخصوبتها. والفلاحون الذين يعلمون فيها، لا شيء يذكر اذا قورن بما يملك من العبيد، فقد جمع منهم اصنافاً مختلفة تفوق الحصر، وكان بينم المعلمون الممتازون، وصاغة الفضة والنساّخون، وخدم المائدة، ووكلاء المال، والحساّبون. وكان يهتم شخصيّاً بتوجيههم ويشرف بنفسه على تعلمهم، بل كان يعلمهم بنفسه، لأنه يعتبر العناية بالخدم من واجبات المولى الأساسية فهم في نظرة وفي الواقع الآلات الحية لادارة البيت. واعتاد القول ان واجب الخدم أن يعنوا بكلّ شيء، ولا يتركوا لمولاهم الاّ واجب العناية بهم. ففي الاشياء الجامدة يكون الاقتصاد عبارة عن كسب المال لاغير. أما ممارسة شؤون الاقتصاد في البشر الحي فهو سياسة. إلاّ أنه يجانب الصواب حين يقول:

- لا يُعدّ المرء غنيّاً إلاّ اذا اتسعت ثروته للانفاق على اعاشة جيشٍ مرابط.

وخطأهُ في هذا القول متأت من تلك الحقيقة التى أجاد [ارخيداموس] في التعبير عنها ولله درّه اذ يقول: «ان الحرب لا تغذى بمبلغ محدود ثابت، ولذلك لا محلّ لتقدير مبلغ الثروة التى تكفيها». ولاشكّ ان نفقاتها اكثر بكثير مما قدره لها [ماريوس] الذي وزع على كل مقاتل في جيشه اربعة عشر [ايكراً] من الأرض الزراعية ولم يلبث أن سمع بأن بعضهم يريد المزيد فقال - معاذ الله أن يفكر ايّ روماني بأن هذا قليل. فهو يكفي لحياة طيبة ويقيه الحاجة.

على أن [كراسوس] كان مضيافاً للأغراب كثير البذل لهم، وباب بيته مفتوح أبداً. يسلف اصدقاءه المال من دون فائدة، على أنه كان لا يتخلف قط عن مطالبتهم به عندما يحين الأجل المضروب للوفاء به. لذلك كثيراً ما عد هذا الفضل منه اسوء عملاً من استيفائه الفائدة. وكانت ولائمه في معظم الأحوال بسيطة مما تعودّه المواطنون قائدهم وعاميهّم. إلاّ أن حسن الذوق فيها وروح الضيافة السمحاء تجعلها أطيب مجلساً واوقع في النفس من أفخم الولائم.

ومن ناحية ثقافته الخاصة، فقد كان جُلّ اهتمامه منصباً على فن الخطابة. وكل علم آخر يصلح استخدامه لفائدته بين الجمهور من الناس ولمع نجمه بين أعاظم خطباء روما. وفاق بمثابرته وجده خير الخطباء الموهوبين. اذا لم يكن يرى موقفاً أحطّ وادعى الى الإحتقار من صعوده المنبر وهو غير مستعدّ له. ولطالما أخذ على عاتقه الدفاع عن قضايا نكص عنها [قيصر] و[شيشرون] و[پومپي]، فنجح فيها وبلغ الغاية منها. وهذا ما حببه الى الناس بصورة خاصة. فقد وقعوا فيه على المثابرة والعناية والإستعداد للمساعدة، واغاثة المواطنين بلا استثناء. زد على هذا أن الناس كانوا يسرون كثيراً بسلامه وتحيته الخالية من التكلف. اذ لم يحصل أن التقى بمواطن رفيع أو وضيع، ولم يردّ على تحيته بالإسم. وكان يُعدّ من ثقات التاريخ والعارفين به، كما ضرب بسهم وافرٍ من فلسفة [ارسطوطاليس] ومثقفه فيها [اسكندر]، رجُل كان شكل علاقته [بكراسوس] أكبر دليل على سماحة طبعه وسمّو خلقه فقد صعب القول في أنه كان عند ملازمته له أكثر فقراً مما كان قبل دخوله خدمته. وتعود [كراسوس] أن يأخذه في كل سفرة يقوم بها، ويسلمه عباءة قبل الرحيل، ليسترجعها منه عقب الأوبة عظيم الصبر، فقير الى درجة الخصاصة، شديد الاحتمال للفقر في حين لا نرى الفلسفة التي يعتنقها تعتبر الفقر من الفضائل، أو الشروط المذهبية لها، على أننا سنعود الى هذا الموضوع فيما بعد.

ما أن وثب [سينّا] و[ماريوس] الى دست الحكم حتى تبين انهما ابعد الناس عن التفكير في المصلحة العامة، وانهما ما جاء إلاّ للقضاء على الاشراف واستئصال شافتهم فوقعا قتلاً وذبحاً بكلّ من تمكنوا منه وراحٍ والد [كراسوس] وأخوه ضحية المذبحة وكان هو اذ ذاك فتىً يافعاً، فأسرع يبتعد عن مكامن الخطر وأخفى نفسه، ثم علم ان الطاغيتين يجدان في البحث عنه ويبثان حوله الارصاد والعيون بلا هوادة، فلم ير بدأ من الفرار الى اسپانيا مع اصدقاء ثلاثة وخدم عشرة. وكان يعرف البلاد لمكوثه فيها زمناً أيام تقلد ابيه وظيفة الحاكم لها، ومع أنه كان يعتمد على حسن لقاء اصدقائه الكثيرين هناك، إلاّ انه وجد الناس وجلين، هلعين يخيم على نفوسهم كابوس اضطهاد [ماريوس] حتى لكأنه ماثل بشخصه أمام أعينهم، يراقب حركاتهم. فلم يتجرأ على كشف هويته لأحد، وأخفى نفسه وصحبه في مغارة واسعة تقع على جرف بحري، يملكها صديقه [ڤيبيوس پاشيانوس Vibius Pacianus] ثم بعث اليه ببعض خدمه ليجسّ نبضه ويتثبت من نواياه ويسأله مؤناً لأن زاده بدأ ينفد. وكان سرور [ڤيبيوس] عظيماً بوصوله. وسأل عن مكمنه وعدد مرافقيه. ولم يذهب اليه بنفسه وانما أستدعى وكيل ادارة منزله وأمره بتهيئة وجبة طعام وافرة من اللحم وأن يحملها، ويتركها

بالقرب من الصخرة الفلانية ويعود ادراجه دون أن يستسلم للفضول وحب الاستطلاع، ووعده بالعتق ان هو انجز ما أمره به وتوعده بالقتل إن سمح لنفسه بالفضول والتدخل. وكانت المغارة قريبة من البحر وثم فتحة ضيقة جداً لا تلفت النظر في الجرف تفضي اليها. واذا دخلتها واجهك سقف عالٍ الى درجة تثير العجب، ورأيت أمامك حجرات واسعة متعاقبة واحدتها تفضي الى الأخرى وهكذا. ولم يكن يعوزها الماء والنور. فالأوّل يأتي من نبع لطيف عذب غير ينحدر من صلب الجرف الصخري. والثاني ينفذ من فتحات وشقوق طبيعية، في امكنة مناسبة كأنها صنعت عمداً، تسمح بدخول الضياء طول النهار. وكان سمك الصخرة ينقى الهواء في الداخل ويصفيه وينقل ما يثقله من رطوبة وندى الى النبع.

وأستمرّ الوكيل يأتيهم بالطعام والضروريات طوال بقائهم دون ان يراهم أو يدرك شيئاً من الحقيقة في حين كانوا يرونه من الداخل ويرصدون مقدمه في المواعيد المعتادة. على أن الطعام المرسل اليهم لم يكن يقصد منه سدّ الرمق فحسب وانما أمتاز بالوفرة والنفاسة للتهوين من حالتهم والترفيه عنهم. وكان [پاشيانوس] يريد أن يوفر لصديقه كلّ ما تسمح به الظروف من الرعاية والعطف، واعطاء فتوته ويفاعته حقها الواجب بارضائها بعض الشيء وعلى قدر الامكان. فقد رأى أن الاقتصار في العطاء على سدّ الحاجة قد يبدو على أغلب الظنّ من قبيل الواجب المفروض الذي لا يُدفع، لا متأتي من روح الصداقة الصميمة الخالصة، فعمد مَرّةً الى أخذ خادمتين معه وسار بهما وأراهما موضع المغارة وأمرهما أن تلجاها دون محاولة التخفي. وتملك كراسوس ورفاقه خوف شديد عند دخولهما وتوهموا الفضيحة والخيانة فطلبوا منهما ان تكشفا عن هويتهما وعن غرضهما. فأجابتا طبق التعليمات التي تلقيتاها قائلتين: أنهما جاءتا للقيام على خدمة سيدهما المتخفي في هذه المغارة. وادرك [كراسوس] عنصر المزاح في الحادثة، وعدها دليلاً على أخلاص [ڤيبيوس] له. فقبلهما وابقاهما طوال وجوده هناك. وكان يستخدمهما واسطة اتصال مع [ڤيبيوس]، لنقل الانباء وتبادلها وأعلامه بما يحتاجونه، ويقول [فينيستللاً Fenestella] أنه لقي أحدى هاتين الخادمتين وقد بلغت من العمر عتياً، وكثيراً ما سمعها تتحدث عن ذلك العهد وتردد قصتها مع [كراسوس] بسرور ولذة.

ظلّ [كراسوس] متخفياً في المغارة ثمانية أشهر. وبعدها ورده نبأ موت [سينّا] فخرج من مكمنه الى الناس، فألتف حوله عدد كبير منهم. فأختار جماعة منهم يبلغ عددها ألفين وخمسمائة، ساروا في ركابه ولازموه في كل زيارة من زياراته للمدن الاسپانية. ويقول أحدهم أنه حاصر بهذه القوة مدينة [مالقة]، وكراسوس ينكر هذا الخبر انكاراً تاماً. ويكذب باستمرار كل من يردده. ثم انه جمع عدداً من السفن واقلع برجاله الى افريقيا. وانضمّ الى [ميتللوس

پيوس] وهو رجل بارز الشخصيّة، رفيع المقام تلتف حوله قوات كبيرة، إلاّ ان صحبتهما لم تدم لخلاف نشب بينهما فانفصل عنه وانحاز الى [سيللا] ونال عنده منزلة رفيعة.

كان [سيللاّ] بعد نزوله البرّ الايطالي مهتماً بايجاد وظائف واسناد مناصب للشبان اللامعين الذين رافقوه فأوكل لبعضهم المهام الخطيرة هنا، وبعث بعضهم بمأموريات هناك. وأوكل [لكراسوس] مهمّة الذهاب الى [المارسيين] وتجنيد رجالٍ منهم فطلب [كراسوس] حرساً لأن طريقه سيكون في اراضٍ يحتلها العدوّ، فثار غضب سيللاً وردّ بحدة:

- قد أعطيك حرساً لأبيك وأخيك وأصدقائك وبني قومك الذين أريد ان أثار لقتلتهم الوحشية الظالمة!

فأنصرف [كراسوس] من لدنه متألماً وأنطلق لمهمته، وشق طريقه في أرض العدو بجرأة، وجند من المارسيين قوات كبيرة. وشارك مشاركة فعلية في كلّ حروب سيللا وأمتازت خدمته بالتفاني والبطولات. ويقولون ان التنافس والتكالب بينه وبين [پومپي] على المجد والشهرة، بدأ في ذلك الحين وتطور في تلك الاحداث. كان [پومپي] أصغر سناً من [كراسوس]. وسمعته من جهة ابيه لا تعادل سمعة ذاك. لأن المواطنين كانوا يكرهون أباه كرهاً لم يؤثر عنهم لشخص آخر، ولا يحترمونه قط. إلاّ أن نجم [پومپي] لمع وسطع في تلك الحروب. وفرض عظمته واحترامه باعماله المجيدة. حتى ان [سيللاّ] كان يقف احتراماً له ويحسر عن رأسه كلما دخل عليه، وهو احترام قل أن أظهره لمن يكبرونه سنّا، ويساوونه مقاماً. وكان يحيّه أبداً يلقب «امبراطور Imperator»[1] وكان هذا يثير غيظ [كراسوس] ويؤلمه، وان كان لا يحق له أن يفضله أو يتقدم عليه باي وجه من وجوه العدالة. لأنه يجمع الى نقص خبرته، رذيلتيه الملازمتين: الحرص والجشع اللتين تطفئان لمعان مآثره كلها ولقد قيل والعهدة على الراوي انه استحوذ على كل الغنائم لنفسه ومنفعته عندما استولى على [توديرتيا Tuder-tia] مدينة الاومبريين فأحدث استياءً عاماً ادى الى رفع الشكوى منه الى [سيللا] إلاّ ان مأثرته العظمى كانت أمام ابواب [روما] في آخر معركة من سلسلة معارك [سيللاّ] وأعظمها شأناً. فقد بدأت الدائرة تدور على [سيللا] عندما اتكفأ بعض افواجه متراجعاً وتمزقت أفواج أخرى. فرجح [كراسوس] الكفة بالنصرّ الذي حازه في الميمنة التي كان يقودها. ولا حق العدوّ حتى ارخى الليل سدوله وعندها بعث ينبئ [سيللاّ] بانتصاره، طالباً ارسال الارزاق الى جنوده. على انه خسر سمعته هذه في عهد الطغيان واصدار أحكام إهدار الحقوق المدنية ومصادرة الأموال، بسبب عقده صفقات شراء ضخمة باثمان جدّ زهيدة على الأموال

---

(١) بالأصل هو لقب القائد المظفر في الحرب. يحيّيه به الجنود الرومان ويضيفونه لقباً الى اسمه.

المصادرة. ولطلبه مكافآت وامتيازات مالية. بل قيل انه فتك بفرد من أسرة [البروتيين] اهدرت حقوقه المدنية لمنفعة خاصة ابتغاها، ودون علم من [سيللا]، فلم يعد هذا يأتمنه على أي أمر من الأمور العامة. ولم يكن يفوقه احد مكراً وحيلةً في جذب الناس اليه بالملق والمديح كذلك كان أسرع الناس تأثراً بهما وابتلاعاً لهما، وهذا ما لوحظ فيه بنوع خاص، ففي حين كان أكثر العالمين جشعاً، تراه يكره من هم مثله ويقسو في انتقادهم.

وضايقه [پومپي] في ما بلغ من نجاح مستمر حتى انه منح موكب نصر قبل أن يكون أهلاً للعضوية في مجلس الشيوخ. ولقبه الأهالي [ماغنوس Magnus] اي العظيم. فاذا سمع [كراسوس] شخصاً يقول:

- ها هو «پومپي ماغنوس» قادم!

ابتسم وقال: كم هو كبير؟

ولما يئس من الوصول الى مجده في ميدان الحرب، ولىّ وجه شطر السياسة، فانقادت اليه بمجدها وسلطانها وظلّ يصعد مراقيها حتى بلغ مستوى [پومپي]، متقرباً للناس بالفعل الحميد، والتوكل عنهم في قضاياهم وتسليف المال لهم والتوسط في حاجاتهم عند الناس الآخرين معتمداً على جاهه... ومما هو عجيب في هذه المنافسة أن اسم [پومپي] وسمعته إنما تبلغ ذروتها في المدينة عندما يكون غائباً بسبب ما يحققه في ميدان الحرب ويرتفع اسم [كراسوس] عليه عند وجوده في المدينة، فيحتل المرتبة الثانية عند الناس لغطرسة فيه وعجرفة، وإعراض عن الاجتماعات، وندرة ظهوره في [الفوروم] واحجامه عن مساعدة الناس الاّ في القليل النادر، فاذا فعل فليس برغبة وانما كالمضطر والمستثقل، حتى لا يستنفد رصيده من الجاه ويستعمله لمصلحة نفسه عند الحاجة. بينما كان [كراسوس] ذلك الصديق المستعدّ للمعونة دائماً وقت الضيق، والمتهيءّ للخدمة ببابه المفتوح لذوي الحاجة ابداً والممتلئة يداه من قضايا الناس وتكاليفهم، وهكذا يغلب لطفه وسماحته، أنفة [پومپي] وسلوكه الرسميّ. وهما يقفان على مستوى واحد في جمال تقاطيع الوجه والوقار وذلاقة اللسان. والحق يقال أن هذه المنافسة لم تبلغ بكراسوس مرتبة الغلّ وسوء النيّة والحقد. فمع حنقه لارتفاع منزلة [پومپي] و[قيصر] على منزلته إلاّ انه لم يمازج هذا الحنق اي حقد او روح عدوان، وان كان [قيصر] قد قال لما أسره القرصان في آسيا:

- كم سيكون سرورك عظيماً يا كراسوس عندما تسمع نبأ وقوعي في الأسر!

وعاشا بعد ذلك اصدقاء على وئام وصفاء. ولما كان [قيصر] يزمع الرحيل بمنصب [پريتور]

الى أسپانيا، وهو خالي الوفاض، ادركه دائنوه والقوا الحجز على أمتعته واثقاله، فأنبرى [كراسوس] لانتشاله من ايديهم ووضع نفسه كفيلاً ضامناً لدينه البالغ ثمانمائة وثلاثين تالنتاً.

كانت روما بصورة عامة منقسمة الى ثلاث شيع كبيرة، شيع [پومپي، وقيصر وكراسوس]، اما [كاتو] فكانت شهرته تزيد على نفوذه، وهو موضع أعجاب، أكثر منه متبوعاً ذا أنصار. وكان حزب [پومپي] الأكثر رزانة ووقاراً، وحزب [قيصر] الطموح هم ذوو الرؤوس الحارة، النشطون. وكان حزب [كراسوس] بتوسط الآثينين ويستفيد منهما ويبدل موقفه حسب ما تمليه الظروف ولم يكن بالصديق الذي يركن اليه ولا بالعدوّ الذي يخشى شره. فمن السهل عليه ان يتحلل من اصدقائه، ومن السهل عليه أن يتناسى عداوته حيث يجد منفعته. فتراه ازاء عين الناس، وفي عين المواقف، ومناصراً مرةً، ومعارضاً مرةً؛ وكان محبوباً للغاية، كذلك كان مصدر خوف مساوٍ. وقد سئل [سيكينيوس Sicinius] أكبر مثير متاعبٍ لرجال الدولة والحكام في عصره ما الذي يجعله يتحاشى [كراسوس] ويتركه لشأنه فأجابه:

- آوه! ان في قرنيه قشّاً!

مشيراً بهذا الى عادة شدّ بعض الدريس اليابس في قرنيّ الثور النطاح حتى يبتعد الناس عن طريقه.

إن ثورة المصارعين والخراب الذي احدثته في ايطاليا، مما يعرف عموماً بـ« حروب سپارتاكوس Spartacus » بدأت بالصورة الآتية:

كان [لنتولوس باتياتوس Lentulus Batiatus] مدرب المصارعين، يملك عدداً كبيراً منهم في مدينة [كاپوا Capua] ومعظمهم من الغاليين والثراقيين، وكان لقسوةٍ في طبعه يحفظهم فيما يشبه السجن الإنفرادي دون ذنب أو جريرة ارتكبوها، ويخرجهم لقتال بعضهم بعضاً كسباً للمال. فأتفق مائتان منهم على خطة للفرار، ولما علموا أن أمرهم انكشف عجل ثمانية وسبعون منهم بتنفيذ الخطّة قبل أن يتسنى لسيدهم اتخاذ التدابير. فأقتحموا المطابخ وأستولوا على كل ساطور وسفوّد وجدوه، وانطلقوا الى خارج المدينة، ووقعوا وهم في الطريق على عدة عربات محملة باسلحة للمصارعين تقصد المدينة، فأستولوا عليها وتسلحوا بها. ولجأوا الى موضع منيع صالح للدفاع، وهناك انتخبوا زعماء ثلاثة من بينهم وأمرّوا عليهم [سپارتاكوس] قائداً، وهو ثراقيّ من أحدى قبائلها البدوية، جمع الى بسالته وقوة مراسه فهماً وادراكاً ورقة ولطفاً لا توجد عادة في أمثاله فكان أقرب الى الاغريق منه الى بني جلدته لما بيع لأول مَرّة في روما. قيل أن أفعى سعت اليه وهو نائم فتكورت فوق وجهه، وفسرت

زوجه التي رافقته في ثورته وفراره، وكانت من مثيل العرافات اللاتي تعتريهن نوبات انجذابٍ - بأن هذه الحادثة تشير الى حيازة زوجها سلطاناً عظيماً ومجداً كبيراً إلاّ أن نهايته لن تكون سعيدة.

وكان أوّل عملٍ حربي لهم، انهم تغلبوا على الحملة العسكرية التي خرجت من [كاپوا] لاخضاعهم، واستولوا منها على كمية من الاسلحة النظامية التي يتعملها الجيش الروماني، فأستبدلوا بها أسلحتهم البربرية، التي كانوا بنفرون منها.

وجردت حملة أخرى بقيادة [كلوديوس] البريتور، قوامها ثلاثة آلاف مقاتل، فحاصرهم سپارتكوس في جبلٍ عاصٍ لاذوا به، لا منفذ فيه غير شعب ضيق عسيرٍ أغلقه [كلوديوس] بوضعه حرساً عليه وكانت سفوح الجبل منحدرات شبه عمودية يتعذر النزول منها على أن الكروم البرية كانت تغطي قمته، فعمد المحاصرون الى قطع أغصانٍ منه ونسجوا منها. سلالم طويلة قوية تصل بهم الى اسفل، وهبطوا بها دون حادث الا واحداً القى اليهم بكلّ أسلحتهم ثم التحق بهم. ولم يفطن الرومان اليهم حتى داهموهم من الخلف وانقضوا عليهم وهم غافلون وأستولوا على معسكرهم. هذا الانتصار حمل عدداً من الرعاة وسوّاق الماشية الشجعان الأقوياء على العصيان وانضموا اليهم. فزودوا بعضهم بشكة سلاح كاملة، وسلحوا الآخرين بسلاح خفيف، وأستخدموا طائفة لواجبات الكشافة.

وتوجه اليهم [پوبليوس ڤارنيوس] البريتور. فانقضوا على مساعده [نيوريوس] وهو على رأس الفين من الجنود والحقوا به هزيمة شنعاء، فعززت قوات [پوبليوس]، بجيش كبير يقوده [كوسينيوس Cossinius] ليكون هو بمثابة مستشارٍ وجيشه بمثابة احتياطي. وكاد [سپارتاكوس] يلقي القبض عليه اثناء ما كان يستحم في [ساليني Salinae] لكنه افلت منه في آخر لحظة بصعوبة كبيرة. ولم يخرج [سپارتاكوس] من العملية خالي الوفاض على كل حال فقد وضع يده على اثقال جيشه وارزاقه كلها، ثم أنطلق يجدّ في اثره مطارداً واوقع بقواته قتلاً وذبحاً، وأقتحم عليه معسكره وأحتله وقتله فيه. ثم حصلت عدة اشتباكات ثانوية بينه وبين البريتور. ظفر في أحدها بحصانه الخاص وحرسه الخاص [اللكتور]، وشاع أمره وبات اسمه يلقي الرعب في القلوب. إلاّ ان ذلك لم يسلمه الى الغرور والطيش فقد ادرك بثاقب فكره وبعد نظره ان قوته مهما بلغت لن تعدل قوات الامبراطورية، فاستدار بجيشه نحو جبال الألب يريد اجتيازها حتى يعود كل رجل من رجاله الى وطنه، بعضهم الى ثراقيا، وبعض الى البلاد الغال... إلاّ ان النصر أسكرهم. وعددهم ملأهم ثقة بأنفسهم. فلم يوافقوا على رأيه وعصوه وراحوا يضربون في ارجاء ايطاليا ينهبون ويخربون ويعثيون فيها فساداً.

فلم تعد المسألة بالنسبة الى مجلس الشيوخ مسألة كرامة مُهانة، وتحقير اصابه به الثوار والثورة، وانما أخذ ينظر اليها نظرة حافلة بالقلق، ويراها خطباً جللاً قد يؤدي الى كارثة. ولذلك قرر ا .سال القنصلين معاً لمعاجة الموقف وهو قرار لا يتخذ إلاّ في حالات الخطر الشديد، أو في حربٍ عظيمة عسيرة.

انقض القنصل [جيلليوس Gellius] فجأة على جماعة من الجرمان كانوا قد انفصلوا عن جيش [سپارتاكوس] اعتداداً بأنفسهم واستهانة بعدوهم. وراحوا يتجولون في البلاد على رسلهم، فمزقهم شرّ ممزقٍ. ولم يكن حظّ زميله [لنتولوس Lentulus] مثل حظه، فقد ساق جيشه الجرار على [سپارتاكوس] وضيق عليه الخناق فأستدار هذا نحوه وباداه الهجوم وألحق بكبار ضباطه هزيمة نكراء، وأستولى على اثقال جيشه كلها. واستأنف سعيه نحو جبال الآلب. فأعترضه [كاسيوس Cassius] الذي كان پريتوراً على ذلك الجزء من بلاد الغاليين الواقع حول نهر الپو وهاجمه بعشرة آلاف جندي فكسره [سپارتاكوس] كسرة عظيمة حتى انه لقي صعوبة كبيرة في انقاذ نفسه، بعد ان خسر عدداً كبيراً من رجاله.

ولما بلغت انباء هذه الهزائم مجلس الشيوخ، ثار سخطاً على القنصلين. واصدر لهما أمراً بعدم التدخل في الأمر، وعين [كراسوس] جنرال حربٍ، وولاّه القيادة العامة. وتطوع كثير من الأشراف لمرافقته الى الحرب، بعضهم رعاية للصداقة التي تربطهم به وبعضهم أطلاباً للمجد والشهرة.

اتخذ [كراسوس] لجيشه مواقع على حدود [پيكينوم Picenum] متوقعاً قدوم [سپارتاكوس] من هذا السبيل. وجرد فرقتين بقيادة مساعده [موميوس] للقيام بحركة التفاف واسعة الغرض منها رصد تحركات العدوّ ومراقبته، وأوصاه بتحاشي الاشتباك معه في معركة، أو مناوشته. إلاّ ان [موميوس] ألقى بالأمر والتحذير جانباً وأشتبك مع [سپارتاكوس] في اول فرصة عَنّت له. فاندحر ووقع عدد كبير من القتلى في صفوفه. وتعذر على البقية النجاة بجلدهم الاّ بالقاء اسلحتهم. ونال [موميوس] من رئيسه تأنيباً شديداً. ثم صرف لرجاله اسلحة جديدة عوض تلك التي تركوها وجعلهم يؤمنون ضماناً مالياً على اسلحتهم الجديدة لئلا تحدثهم أنفسهم بالتخلي عنها؛ وبعد هذا جاء بالخمسمائة الذين كانوا أول الهاربين الى عشراتٍ، وأجرى القرعة بين كل عشرة فأخرج واحداً نفذ به حكم الموت، وبذلك أحيا العقوبة الرومانية القديمة التي تعرف «بالتعشير»، وفيها يلقى المحكوم الواناً من الخزي والعار؛ وما يحفّ بها من اجراءات رهيبة قبل تنفيذ الحكم فيه أمام الجيش كله، وعلى مرآى من أفراده الذين يؤمرون بالتجمع لهذا الغرض.

بعد أن قام [كراسوس] بهذه الاجراءات التأديبية. ساق العسكر نحو العدوّ، إلاّ ان [سپارتاكوس] تراجع عبر [لوثانيا] متجها الى البحر وفي المضايق تمت مفاوضة بينه وبين قرصان يملك سفناً، لنقل الفين من رجاله الى صقلية، وفي نيته بعث الحياة مجدداً في حرب العبيد الصقليّة، التي خبت نارها مؤخراً، وكانت بحاجة الى وقود قليل ليس إلاّ لاذكائها ثانيةً. لكن القرصان نكلوا عن الاتفاق بعد أخذ العهد منهم وأقلعوا. فلم يسعه الاّ الابتعاد عن البحر واتخاذ مواضع لجيشه في شبه جزيرة [ريجيوم]، فسعى اليه [كراسوس] سعياً حثيثاً وما أن استطلع الموقع حتى أوحى اليه بفكرةٍ. وهي بناء جدار مستعرضٍ يسدّ عنق البرزخ، ويمنع خصمه من القيام بغاراته الخاطفة وعمليات السلب ويضع في ايدي جنوده ما يشغلهم ويسدّ أوقات فراغهم. واتم انجاز هذا العمل العظيم الشاق في وقت قصير لم يتوقعه أحدٌ: حفر اولاً خندقاً من البحر الى البحر على طول عنق الأراضي فكان طوله ثلاثمائة فرلنغ وعرضه خمس عشرة قدماً، ومثله عمقاً. وبعد ذلك بنى جداراً عجيباً بمكانته وارتفاعه يشرف مباشرة على الخندق ويمتد على طوله. واستهان [سپارتاكوس] بالعمل كله وأستخف به في مبدأ الأمر، ثم ادرك خطره عندما بدأت اقواته تتضاءل. ووجد الجدار يقف في وجهه سداً منيعاً لما قرر خرق الحصار المضروب عليه، اذ لم يعد ما يربطه بفائدة في شبه الجزيرة. وفي ليلة عاصفة ثلجية، ملأ جزءً من الخندق بالتراب واغصان الشجر وأفلح في امرار ثلث جيشه من فوق الجدار.

كان [كراسوس] يخشى ان يزحف [سپارتاكوس] الى روما مباشرة ولكن سرعان ما أفرخ روعه عندما لاحظ عدداً كبيراً من رجاله يتمردون عليه وينفصلون عنه متخذين لهم معسكراً خاصاً على ضفاف البحيرة اللوقانية. والشيء بالشيء يذكر ان هذه البحيرة على ما يقال تتغير في فتراتٍ فيكون ماؤها عذباً في احيان - نقول انقض [كراسوس] على هؤلاء وأجلاهم من البحيرة إلاّ انه عجز عن متابعة الفتك فيهم لأن [سپارتاكوس] برز له فجأة فأوقف الهزيمة. وهنا أخذ النوم يخالط [كراسوس] لكتابته الى مجلس الشيوخ بطلب سحب [لوكوللوس] من ثراقيا، واستقدام [پومپي] من اسپانيا. ولم يسعه بعد ان لاحت له بشائر النصر الاّ ان يسعى بكلّ ما في طوقه لانهاء الحرب قبل مجيئها؛ ليقينه ان الشرف في الحرب سيكون من نصيب القادم لنجدته. ولذلك قرر اولاً ان ينقضّ على الوحدات المتمردة المعسكرة وحدها وكانت بقيادة [كايوس كونيشيوس Caius Connicius] و[كاستوس Cadtos] فوجه اليهما مبدئياً ستة آلاف مقاتل لضمان بعض التفوق. وامرهم بتغطية خوذهم زيادة في التكتمّ. الاّ ان امرأتين كانتا تقرّبان نيابة عن الاعداء كشفتا الأمر. وكادت هذه القوة تقع في

خطب جسيم لو لم يبرز [كراسوس] فجأة، فنشبت معركة دموية لا مثيل لها. وسقط من العدوّ اثنا عشر الفاً وثلاثمائة كلهم اصيبوا في صدورهم، إلاّ اثنين كانت جراحهم من الخلف. مات هؤلاء وهم صامدون يقاتلون ببسالة ولا ينثنون عن صفوفهم. وبعد هذه النكبة التي مني بها سپارتاكوس انسحب الى [جبال پيتيليا Petelia]. فلاحقه [سكروفا Scrofa] الكويستور، و[كوينتيوس] أحد ضباط [كراسوس] فاستدار اليهما وحمل عليهما فسحقهما سحقاً وولياً الأدبار، وحمل الكويستور الجريح خارج ميدان المعركة بصعوبة كبيرة جداً. وكان في هذا النصر دمار [سپارتاكوس] فقد ارتفعت به معنويات العبيد الذين عادوا يرون في اجتناب القتال جبنا، وفي اطاعة آمرهم استخذاءً. فاستلوا سيوفهم وهم في المسيرة وجاؤا الى ضباطهم وسيوفهم مشرعة وارغموهم على العودة بهم الى [لوقانيا] لقتال الرومان، وكان هذا امنية [كراسوس] ولاسيما بعد أن وردته الانباء بوصول [پومپي] وتحركه الى ميدان القتال. وبحديث الناس عن شرف هذه الحرب الذي بات له وحده لأنه سينزل الى ساحة الوغى ويرغم على القتال وبهذا يضع نهاية للحرب. لهذا كان [كراسوس] يتحرق شوقاً لخوض المعركة الفاصلة. فتقدم من العدو وعسكر على مسافة قريبة منه وشرع في مدّ الاستحكامات خطوطاً متوازية الاّ ان العبيد عاجلوه بهجوم واشتبكوا مع الطلائع ثم أخذت النجدات تصل كلا الجانبين، حتى وجد [سپارتاكوس] نفسه مرغماً على المعركة وان لا قبل له بتفاديها، فوضع كل جيشه على خطّ القتال ولما جيء اليه بحصانه انتضى سيفه وقتله قائلاً:

- إن انتصرت فسيكون لي غنيمة كبيرة من خيول العدوّ كلها، أفضل من هذا الحصان. وان غُلبت فما حاجتي به.

وسعى بنفسه الى [كراسوس] يشق طريقه في زخم من السلاح المتشابك والجرحى فلم يقف عليه، إلاّ انه فتك بقائدي مائة حملا عليه في آن واحدٍ. وتلفت فلم يجد أحداً من رجاله حوله. فلم يهن ووقف صامداً يقاتل الاعداء الذين التفوا حوله وابدى بسالة عجيبة، حتى مزّق تمزيقاً.

فضلاً عن موآتاة الحظّ [لكراسوس]، فانه أعطى منصب الجنرال حقّه وزاد على ذلك الشجاعة الشخصية وتعريض نفسه للخطر، ومع هذا كله فإن [پومپي] خرج من هذه الحرب بالجانب الأوفى من المجد، فقد لقي في طريقه وحدات هاربة كثيرة فقضى عليها تباعاً. وكتب الى مجلس الشيوخ يقول: «إن [كراسوس] هزم جيش العبيد في معركة فاصلة، اما انا فقد وضعت نهاية لحربهم».

ومنح پومپي شرف موكب نصر مبجّل لانتصاره على [سرتوريوس] في اسپانيا. في حين لم يكن [كراسوس] يطمع بأكثر من موكب نصر اعتيادي، بطابعه الرسمي المعروف. وكان

الاعتقاد السائد في الواقع ان قبوله اي شرف أقل من هذا، سيبدو ضعةً منه واستخذاء. ونقصد بذلك التشريف الذي يدعى بـ«الاستقبال الشعبي» Ovation ويتضمن مسيرة بمواكب على الاقدام. وكنّا قد فصلنا في حياة [مارچللوس] الفرق بين «موكب النصر» و«الاستقبال الشعبيّ». وفي أصل اسم الأخير منهما.

كان [كراسوس] يأمل في ان يزامل [پومپي] في منصب القنصل الذي دعي الأخير اليه، لكنه لم يتدن الى طلب معونته في ذلك، وسكت فأسرع [پومپي] ينتهز فرصته لتزكيته والدعوة لترشيحه باندفاع وحماسة، برغبته منه في ان يكون صاحب فضل ومنة عليه. حتى انه قال في خطبة عامةٍ له ان امتنانه منهم لأنتخابهم [كراسوس] لن يكون أقل من امتنانه لأنتخابهم اياه. لكن ما ان انتخبا معاً وتسلماً مقاليد الحكم حتى انبتت حبال الودّ فيما بينهما وقضيا مدة حكمهما كلها مختلفين في كل شأنٍ، وليس بينهما غير الشحناء والتناحر والمهاترة ولم ينجزا شيئاً يستحق الذكر، خلا ان [كراسوس] قدم اعظم قرابين عُرفت لهرقل، وأدب مآدب عامّة مدّ فيها عشرة آلاف خوان ووزع على كل مواطن كمية من القمح تكفيه ثلاثة أشهر وشاءت الصدف يوماً انهما كان يخطبان في الجمهور قبيل ختام فترة قنصليتهما. فنهض ريفيّ بسيط من طبقة الفرسان يدعى [اوناطيوس اوريليوس Onatius Aurilius] وأعتلى المنبر، ليقص رؤيا رآها في نومه فقال:

حضرني جوپتر، وأمرني بأن ابلغكم بأن الواجب يحتم عليكم ألاّ تدعوا قنصليكما يسلمان منصبيهما إلا وهما صديقان متصافيان.

فصاح الجمهور معلناً رغبته في مصالحتهما. وبقي [پومپي] جامداً في موضعه لا ينطق بشيء. فكان [كراسوس] أول من مَدّ يده اليه وهو يقول:

- اي بني قومي! حين أكون البادي في عرض الصداقة والصفاء على [پومپي] الرجل الذي لقيتموه انتم أنفسكم بالعظيم، قبل أن يكون رجلاً ثريّاً ومنحتوه موكب نصر قبل ان يسمح له القانون بالجلوس في مجلس الشيوخ، فلا اراني قمت بعملٍ يحط من قدري أو يذلّ من عزة نفس.

وكان هذا أهم حدث ذكر عن فترة قنصلية [كراسوس] الاّ أن فترة قيامه بواجبات [الچنصور] كانت خاملة بائرة لم تتميز بعمل ما، فلم يقم باجراء تطهير في اعضاء مجلس الشيوخ ولم يعد النظر في قوائم طبقة الفرسان، أو يأمر باحصاءٍ عام للنفوس. مع ان زميله في الوظيفة [لوطاطيوس كاثولوس Lutatius Catalus] كان رجلاً لا يتمنى المرء خيراً منه

طيباً وسماحة وتعاوناً. وقيل ان المعارضة الوحيدة التي لقيها [كراسوس] من هذا الرجل الكريم هي عندما اراد اتخاذ اجراء فيه من القسوة والظلم ما فيه ضدّ مصر، وهو اخضاعها للجزية الرومانية. فقد وقف هذا الزميل ضدّه وابى موافقته عليه، وحسماً للخلاف اتفقا حبيّاً على اعتزال المنصب معاً.

ولم يكن [كراسوس] بعيداً عن شبهة المساهمة في المؤآمرة الكاتالينية الكبرى التي كادت تطوّح بالحكومة. فقد برز أحدهم وأعلن اسمه بين اسماء المساهمين فيها، فلم يصدقه أحد ولم يلق اليه بالاً. إلاّ أن شيشرون في احدى مقولاته اتهم بها كلا من [كراسوس] و[قيصر] اتهاماً صريحاً. ولكن هذه المقولة لم تنشر إلاّ بعد موتهما، كذلك ذكر في خطبةٍ له اثناء توليه القنصلية ان [كراسوس] كان قد جاءه ليلاً برسالة تتعلق بمؤآمرة [كاتالين] وكل تفاصيلها، فكرهه [كراسوس] لهذا التصريح. وكفّ [پوبليوس] أذى محتملاً، كان سيلحق [شيشرون] من ابيه، لأنه عرف بحبّه الفلسفة والبلاغة وبملازمته لشيشرون حتى انه ليس الجداد وخصّ الشبان الآخرين على تقليده في هذا، عندما اتهم شيشرون. وظل يسعى حتى صالحهما.

عاد [قيصر] من مقر قيادته وكلّ همه ان يفوز بالمنصب القنصلي ولما وجد الجلاف مستحكماً بين [كراسوس وپومپي] لم يشأ الاساءة الى احدهما بانحيازه الى الآخر، وكان يائساً من نجاحه ان لم يلق عضداً من أحدهما فترك كل شيء جانباً ليعمل جاهداً في مصالحتهما كانت حجتّه عندهما انهما بهذا الخلاف يضعفان مركزيهما، وهذا يؤدي الى تقوية مركز الشيشرونيين والكاتوليين والكاتويين وهي احزاب لا يُعتد بقوتها قط، لو انهما وحدا قوتيهما وعملاً معاً بين جمهور الشعب، وفق سياسة واحدة، وبجبهة موحدة، ولم يأل جهداً حتى وفق، لاحلال الصلح بينهما وألف من أتباع ثلاثتهم قوة لا يقف امامها شيء حقاً، استظهرت على الحكومة بسلطتيها: مجلس الشيوخ، والعامة، و[قيصر] في الحقيقة لم يزد من قوة [كراسوس وپومپي] ونفوذهما بهذا العمل، وإنما جعل نفسه أقوى منهما بواسطتهما. فقد تمّ انتخابه قنصلاً بما يشبه الاجماع وبشتىّ مظاهر الإكرام والاستبشار بفضل حزبي هذين الزعيمين السياسيين، وأعطى قيصر للمنصب حقه وصرف شؤونه بجدارة وحنكة، ولم يطل به الأمر حتى اسندوا اليه قيادة جيش، وحاكمية الاقليم الغاليّ. ولم يكن يساور [كراسوس وپومپي] أي شك في انهما بعد وضع [قيصر] في «الحصن» وزرعه في مقر قيادته الخاصّة، بأنهما سيتوزعان السلطات الباقية. وكان رغبة [پومپي] الشديدة في الحكم تحدوه الى هذا التدابير، أما [كراسوس]، فالى جانب مرض الجشع السابق فيه، كان قد انمى ميلاً وهواية الى جمع طائفة من انصاب ومواكب النصر لينافس بها مآثر قيصر وامجاده، ولم يقنع بما دونه

فيها، وأن كان يفوقه فيما عداها. وظلّ متحرقاً ملهوفاً لا يجد طعماً للراحة حتى انتهت به الى اشنع هزيمة، وبالبلاد الى نكبةٍ عظيمة.

لما قصد قيصر [لوكّا Lucca] قادماً من بلاد الغال خرج عدد كبير من روما وذهبوا اليها ليكونوا في استقباله، وهناك عقد معه [پومپي وكراسوس] عدة اجتماعات، توصلوا بها الى قرار يقضي باستمرارهم في الخطوات التي رسموها لحصر جميع شؤون الحكم وأمور الدولة في ايديهم. واتفقوا فيما بينهم على ان يبقى قيصر على رأس جيشه وفي أقليمه. وأن يحصل كل من [كراسوس] و[پومپي] على قيادة جيش جديد وحاكمية أقليم من الاقاليم، ولم تكن امامهم لتحقيق بغيتهم هذه - إلاّ سبيل واحدة هي حصول الأخيرين على منصب القنصلية ثانية، عن طريق ترشيح نفسيهما للدورة القادمة، وان يقوم [قيصر] بالكتابة الى اصدقائه للسعي والدعوة لهما، ان ويرسل جنوده للاقتراع عليهما في موعد الانتخاب.

إلا أن الشك في نواياهما بدأ يتسرب الى النفوس على أثر عودتهما، وسرعان ما سرت الإشاعة القائلة أنّ اجتماع الزعماء الثلاثة في [لوكّا] ليس من ورائه ألاّ الشرّ. ونهض [مارچللينوس Marcellinus] و[دوميتيوس] في جلسةٍ لمجلس الشيوخ ليسألا [پومپي]

- هل في نيتك ان ترشح نفسك لمنصب القنصل.

فأجاب: قد افعل وقد لا أفعل.

فكررا عليه السؤال، فردّ قائلاً: اني سأطلب المنصب من المواطن الصالح لا الطالح.

فبدا بجوابه مفرطاً في التعالي والأنفة فضلاً عما فيه من التعريض الوقح. اما [كراسوس] فقد كان ردّه على السؤال نفسه فيه ادب وتواضع اذ قال:

- اني لراغب فيه، ان كانت رغبتي متفقة والصالح العام. فان لم تكن فأشهدوا اني ناكص عنه.

شجع هذا القول لفيفاً، فتقدموا لترشيح أنفسهم، ومنهم [دوميتيوس] نفسه حتى اذا اعلن كراسوس وپومپي ترشيحهما شاع الخوف في نفوس الآخرين وانسحبوا ولم يبق في الميدان غير [دوميتيوس] بتشجيع من [كاتو] الذي كان قريباً له وصديقاً. فلم يأل جهداً في تقوية عزائمه وحثه على الاستمرار في الدعوة لنفسه قائلاً:

- انك في ترشيحك، كمن يدافع عن حرية المواطنين، فهذان الرجلان لا ينشدان القنصلية لذاتها بل الحكم المطلق المتستّر بها وما وراء هذه الوظيفة من اغتصابٍ للاقاليم والجيوش.

هذا ما كان [كاتو] يعتقده، ويتكلم به. وقد ارغم [دوميتيوس] بالشدة والزجر على الظهور في [الفوروم] فانحاز الى جانبه كثيرون والواقع هو ان الجمهور لم يكن بعيداً عما يجري من أحداث يراقبها ويرصد تطوراتها بدهشة وتتردد اسئلة كثيرة على السنته، كقولهم: «لماذا يسعى [كراسوس وپومپي] الى القنصلية مرة ثانية؟ لماذا رشحا نفسيهما لها معاً، ولم يرشح واحدٌ منهما مع ثالث؟ وها ان لدينا رجالاً مناسبين لتولي منصب القنصل المزامل لهذا المرشح أو ذاك!».

وانطلق اتباع [پومپي] بعد ان شعروا بما يجري، منها انهم ترصدوا [دوميتيوس] في أحدى الليالي وهو قادم الى الفورم مع اتباعه فادركوه عند تباشير الصبح وقتلوا حامل مشعله، واصابوا عدداً من اصحابه بجراح ومنهم [كاتو]، واوقعوا بهم ضرباً ودفعاً ومنعوهم من دخول الفورم، ثم ادخلوهم بيتاً من البيوت، وطوقوه برجال مسلحين، وأعلنوا [پومپي وكراسوس] قنصلين، وطردوا [كاتو] من الفورم، وفتكوا بواحدٍ حاول مقاومتهم.

بعد أن استتب لهما الأمر اصدرا مرسوماً يقضي بتثبيت [قيصر] في قيادته وتحديدها خمس سنوات أخرى. وعهدا لنفسيهما بأقليمي سورية واسپانيا وقيادة جيشيهما. وبسحب القرعة بينهما وقعت سورية [لكراسوس] واسپانيا [لپومپي] وهو ما أرضى الأطراف المعنية عموماً. فالجمهور كان يكره ابتعاد [پومپي] عن العاصمة وپومپي كان شديد الكلف بزوجه لا يطيق عنها بعدا، ولهذا كان سروره عظيماً لبقائه في روما. على أن [كراسوس] كاد يطير فرحاً بحسن حظه الذي عده أعظم توفيق في حياته، ولم تسعه الدنيا فرحاً، واستخفه الطرب وفارقه وقاره وكان يلزمه قدر كبير من العزم وضبط النفس ليحافظ على اتزانه امام الناس والاغراب. على انه كان يخلع العذار امام اصدقائه المقربين، فينطلق على رسله ويزل لسانه بكلام صبيانيّ عابث لا يليق بسنّه مناقض لطباعه وأخلاقه المأثورة، فقد عرف بزهده في الادعاء والفخر وكرهه الاختيال على الناس، وها هو الآن منتفخ يتهاً وقد صعدت حرارة النشوة الى رأسه بشكل غريب، لا يرى حداً يقف دونه حسن حظّه فيما سيفتح عليه من أمجادٍ وانتصارات في سورية وبلاد فارس، وسرح به خياله الى الحَدّ الذي جعله ينظر الى فتوحات [لوكوللوس] في بلاد [ديكران] وانتصارات [پومپي] على [ميثريدات] نظرته الى لعب أطفال نسبةً الى ما سيحققه هو. وطارت به الآمال لتعبر معه بلاد بختيريا Bactria والهند، حتى اقاصي البحر المحيط. لقد باتت رغبته هذه معلومة للجميع، وان لم يصدر مرسوم جمهوري باسناد ذلك المنصب اليه لغرض القيام بحملة على الپارثيين. وكتب اليه [قيصر] من بلاد الغال بشجعه ويثني على ما اعتزمه من حرب.

وحاول [آيتيوس Ateius] مفوض الشعب الحيلولة دون رحيله كما أبدى كثيرون مخاوفهم وقلقهم، وجأروا بالشكوى من رجلٍ واحدٍ يريد شنّ حربٍ على شعب صديق تربطه بالرومان خير العلاقات، لم يأت بأي عملٍ ضارٍ بمصالحهم، لمجرد رغبةٍ ساورته؛ وادرك [كراسوس] صعوبة خروجه من المدينة، فطلب من [پومپي] الوقوف الى جانبه ومرافقته في خروجه، ذلك لأن اسم زميله كان كبيراً عند العامة والبسطاء، فتهيّأ عدد كبير للتدخل، واثاروا ضجة وتظاهرة حتى اذا ظهر [پومپي] بطلعته الوضاحة وهو يبش ويهش هدأت سورة الجمهور واخلوا السبيل [لكراسوس]، إلاّ [ايتيوس] لحق به واستوقفه وطفق يحذره وينذره، ويناشده بحسن القول أن ينثني عن رحلته. ولما لم يجد منه استجابةً أمر الضابط مرافقه بالقاء القبض عليه وتوقيفه، إلاّ ان زملاءه التريبيونات لم يصادقوا على قراره، فأضطر الى اطلاق سراح سجينه [كراسوس]؛ وفي سورة من غضبه هرع الى باب المدينة قبل وصول [كراسوس]. وعمد الى مبخرةٍ فأوقد فيها جمراتٍ وضع عليها بخوراً وصبّ فوقها خمر تقدمة وراح يجمجم ويصبّ اللعنات الرهيبة والدعوات المخيفة ويدعو آلهة غريبة الأسماء مرعبتها ترى العقيدة الدينية الرومانية في هذه الطقوس القديمة قوة هائلة مدمرة لا يتخلص أحد من أثرها. ومن النادر ان سلم صاحب اللعان نفسه، أو هنيئ بحياته ولذلك لم تكن تستخدم إلاّ في المناسبات الخطيرة والأحوال النادرة. ولهذا هوجم [آفييوس] في حينها وانتقد للجوئه الى هذا الاجراء الخطر لأن المدينة التي اراد لها الخير به ستكون اول ضحيةٍ لهذه اللعنات ورد فعلها السيء الفائق للطبيعة.

وصل [كراسوس] مدينة [برنديسيوم]. ومع ان البحر كان في أقصى هياجه الاّ انه لم يطق صبراً ولم ينتظر وركب السفن المهيأة لجيشه وفقد عدداً كبيراً منها. ومرّ بكيليكيا حيث التقى بملكها [ديوتاروس Deiotarus] الذي لم تمنعه شيخوخته من الفانية من الانصراف الى بناء مدينة جديدة. فقال له [كراسوس] متندراً:

- لقد شرع جلالتك بالبناء في الساعة الثانية عشرة!

فأجابه [ديوتاروس]

- كذلك انت أيها الجنرال فأنت تقوم بحملتك الپارثية وقد تقدم بك الزمن.

وكان [كراسوس] آنذاك، في الستين في عمره، إلاّ أن مظهره يدل على سنّ أكثر من الحقيقة.

وبدت له الأمور عند وصوله على أحسن ما يرام. ولم يجد اي عناء أو عقبة، فقد مَدّ على

نهر الفرات جسراً بدون صعوبة تذكر وعبر جيشه منه بسلام، واستسلمت له مدن كثيرة في بلاد ما بين النهرين بدون مقاومة، إلاّ مدينة واحدة كان يحكمها طاغية مستبد يدعى [ابوللونيوس] فقد لقي مائة من رجاله حتوفهم امامها فزحف عليها بقواته وفتحها عنوة ونهب ما فيها وباع سكانها في اسواق العبيد. وهذه المدينة يسميها الاغريق [زينودوثيا Zenodotia]، ولما سقطت في يد [كراسوس] سمح لجنوده بأن يحيوه بلقب «امبراطور»، وهذا ولد شعوراً بالخيبة المقبلة. فقد ترجم الجنود عمله، بعمل اليائس من تحقيقه مأثرة أجلّ منها وادعى الى الفخر، فعمد الى تضخيم نجاحه الصغير باضافة اللقب الذي يمنح للأبطال عادة، الى اسمه.

ووضع [كراسوس] في مدنه المفتوحة حاميات بلغ مجموعها سبعة آلاف من المشاة والفاً من الخيالة ثم كرّ راجعاً لقضاء شتائه في سوريا، منتظراً مقدم ابنه من لدن [قيصر] في بلاد الغال بما ناله من مكافآت واوسمة على شجاعته، مع الف من الفرسان الغاليين المنتخبين. ويبدو لنا هنا أن [كراسوس] ارتكب في رجوعه اول اخطائه وأكبرها - باستثناء خطأ قيامه بالحملة نفسها - اذ كان يجمل به الاستمرار في زحفه والاستيلاء على مدينتي بابل وسلوقية، اللتين كانتا في نزاع دائم مع البارثيين. فبدلاً من سبق عدوه اليهما، منحه وقتاً كافياً للاستعداد والتهيؤ له. هذا فضلاً عن قضائه جل وقته في سورية، بوظيفة المرابي والصرّاف لا بمنصب الجنرال. لم يكن مهتماً باحصاء ما لديه من سلاح، او بتدريب جنوده وتثقيفهم في فنون القتال وتعويدهم على النظام العسكري، بل في حساب اتاوات المدن وضرائبها مبدداً ايامه في وزنها بالقبان، وتدقيق محتويات كنوز معبد [هيراپوليس Hierapolis]. واصدار الأوامر الى بعض المدن والممالك بارسال عدد معين من المجندين، ثم الغاؤه اياها بعد دفع مبالغ من المال بدلاً نقدياً! وبهذا ضيع هيبته وفقد منزلته. وصادفه هنا أول نذير شؤم من لدن الربة التي يسميها بعضهم [ڤينُس]، وبعضهم [جونو] وبعضهم [الطبيعة] أو [المصدر] الذي تأتي منه الرطوبة وهي العنصر الأول في كل الأشياء، ونطفتها التي تمنح البشر معرفتهم الأولى بكل ما هو خيرّ وصالح... ففي اثناء خروج [كراسوس] وابنه من معبد هذه الربّة، عثر الأخير فسقط عليه ابوه.

وبينما كان [كراسوس] يريد الخروج بجيشه من مقراته الشتوية وفد عليه رسل من [ارشاك Arsaces] حاملين اليه الرسالة المقتضبة الآتية:

«إن كان هذا الجيش قد أرسل بارادة الرومان ورغبتهم، فإني سأثيرها حرباً شعواء لا تبقي ولاتذر. وان كان [كراسوس] على ما فهمت - يعزو تخومي دون علم بلاده وخلافاً لرغبتها

سعياً وراء الغنم الشخصي، فإنني انا الملك سأكون أرحم به وأشفق على شيخوخته وخرفه، وسأعيد أولئك الجنود أسراه أكثر مما هم حراسٌ امناء له، الى اوطانهم سالمين».

فردّ [كراسوس] على الوفد بعجرفة قائلاً: إنه سيجيب عن هذه الرسالة في [سلوقيا]. فضحك [ڤاغسيس Vagises] أكبرهم سِنّاً وبسط راحة يده وقال:

- نموّ الشعر هنا أصعب من وقوع نظرك على [سلوقية].

وقفلوا راجعين الى ملكهم، فقال له [هيرودس Herodes]

إنها الحرب إذن!

وتمكن عدد من افراد الحاميات الرومانية في بلاد ما بين النهرين من الهروب معرضين أنفسهم لأعظم الأخطار. وكان المستخلص من أقوالهم إن الخطر يستدعي التأمل ولا يحتمل الاستهانة، واستشهدوا بما رأته أعينهم من كثرة عدد المحاربين عند العدو، ومن اساليب القتال التي يتبعونها. ولما كانت المبالغة في طبع الانسان فقد هوّلوا الأمر وجعلوا الأشياء تبدو على غير حقيقتها. فقالوا لا يخلص من يدهم هاربٌ إن كانوا هم الطاردين، ولا يدركهم مطارد انه كانوا هم الهاربين. وذكروا شكلاً عجيباً من الحراب يستخدمونه سريع المروق مثل لمح البصر، ينفذ في اي شيءٍ قبل أن يشاهد قاذفه. ودروعهم قوية يرتد عنها كل سلاح. فخارت عزائم الجنود كافةً. وكانوا قبلها يظنون أن الپارثيين في مستوى الأرمن والكبدوكيين الذين ادرك [لوكوللوس] الملل من غنائمهم واسلابهم حتى بات مقتنعاً ان الصعوبة الوحيدة في حربهم هي مشقه السيّر وراءهم، ومتاعب مطاردة رجال يجبنون عن مقابلته في قتال وجهاً لوجهٍ، ولذلك لم يدخل جنود [كراسوس] في حسابهم اي معركةٍ ينازلون بها عدوهم الجديد، فكانت خيبتهم مما سمعوا كبيرةً. وعلى ضوء هذه المعلومات نصح بعض الضباط أن يقف [كراسوس] زحفه في الوقت الحاضر وان يعاد النظر في أمر الحملة أساساً.

وكان أكثر من ألحّ عليهم منهم [كاسيوس] الكويستور. وأسرّ اليه العرافون ايضاً بأنهم ما فتئوا يجدون في الاضاحي اشارات لا تبشر بخير، وعلاقات سيئة. فلم يعرهم اذناً صاغية ولم يلتفت الى ناصحيه الآخرين، إلاّ من أشار عليه بالتقدم. ولم يوافقه الملك الأرمني [ارطباز] والّح عليه بأن لا يقوم بغزو الپارثيين من جهة الفرات، بل عن طريق بلاده ارمينيا اذ انه سيؤمن له قدر ما يحتاج جنوده من ارزاق ومؤن، على حسابه الخاص. وسيكون زحفه فضلاً عن ذلك مأموناً في جبال ارمينيا وهضابها التي لا تتمكن خيالة العدوّ من النفوذ فيها والخيالة عند الپارثيين هي كل قوتهم. فشكره [كراسوس] ببرود على كل ما اظهره من

استعداد للبذل والخدمة وانهى اليه بقراره النهائي في الزحف من جهة بلاد «ما بين النهرين»، لأنه ترك فيها حاميات كبيرة من جنود روما الشجعان. فقفل الملك الأرمني راجعاً. وكان قد جاء لمعونة [كراسوس] ومعه ستة آلاف من الخياله، قيل انها حرسه الخاص وحاشيته. وكان قد وعد بعشرة آلاف فارس أخرى وثلاثين ألف راجل يقوم هو باعاشتهم.

وفيما كان [كراسوس] يشرف على عبور جيشه النهر بالقرب من [زويخمه Zeugma] تجاوبت السماء بصدى رعدٍ قاصف ولمع البرق في وجوه الجنود، وفي اثناء العاصفة هبّ إعصار شديد فوق الجسر فكسره وحُمل قسم منه مع تيار وسقطت صاعقتان على الموقع الذي اختاره معسكراً لجنوده. وجمح أحد خيوله ذات العدة الفاخرة وجَرّ سائسه الى الماء واغرقه. كذلك قيل أن حامل اللواء الأول ذهب ليرفعه، فخيل له أن نسره يدير رأسه الى الخلف. وبعد ان تمّ عبور الجسر وزعت الجراية على الجنود وبدئ بالملح والعدس وهما عند الرومان الطعام الذي يقدم للموتى وفي الجنائز. وفيما كان [كراسوس] يخطب بالجنود زل لسانه بعبارة تشاءم منها الجميع، فقد قال:

- سأذهب لاكسر الجسر حتى لا يرجع أحدٌ منكم.

ولم يستدرك زلة لسانه بعد أن أحسّ بها ولم يصححها أو يشرح قصده منها عناداً ومكابرة منه ليس إلاّ في حين كان يرى علائم التوجس والبغتة مرتسمة على وجوه رجاله الشديدي التطيّر. وفي آخر قربان عام، قدم له الكاهن أحشاء الضحية فانزلقت من يده، ورأى القلق والوجوم يرتسمان على وجوه الواقفين معه فضحك وقال:

- انظروا! ما معنى أن يُمسي المرء شيخاً عجوزاً. على اني سأشدّ على سيفي قبضة محكمة.

وسار بجيشه رتلاً على محاذاة النهر وكان يتألف من سبع فرق مشاةٍ، وما في حدود اربعة آلاف فارس ومثله من المشاة الخفيفة. وعاد اليه الكشافة من استطلاعهم ليخبروه بأنهم لم يشاهدوا أنسيّاً، على أنهم تبينوا آثار اقدام خيل كثيرة عائدة القهقرى بعجلةٍ شديدة. فأنتعشت نفس [كراسوس] بالآمال العراض، وانقلب الرومان الى الاستهانة بالپارثيين، وعادوا يصنفونهم مع من لا يجرأون على الاشتباك يداً بيدٍ. إلا أن [كاسيوس] فاتحه بالموضوع مجدداً، ونصحه باراحة الجيش في أحدى المدن المحصنة والبقاء فيها حتى تتوفر لديهم معلومات حقيقية كافية عن العدو. وإلاّ فليتوجه بخيله ورجله الى [سلوقيه] على الأقل ولا يحيد عن خطّ النهر مهما كلفه الأمر لأن فيه استمرار تموينهم عن طريق الاطواف والقوارب التي ستتبع الجيش دائماً، فضلاً عن انه يجعلهم بمنجاة من التطويق، فإن خاضوا

قتالاً مع العدوّ فلا شك في أن مواقعهم لن تكون أسوٰ من مواقعه.

وفيما كان [كراسوس] يفكر في الأمر ويقلبه من شتى وجوهه من غير ان يُرسي على قرارٍ نهائي، أقبل على معسكره شيخ قبيلة من العرب البدو يدعى [أريامنوس Ariaminus]، رجل ماكرٌ عظيم الحيلة، هو من بين المصائب التي اجتمعت لدمار الرومان، أعظمها وافتكها. عرف بعض جنود [پومپي] القدماء عرف هذا الشيخ القبلي وتذكروا انه حظي ببعض عطف من قائدهم، فأعتبروه من اصدقاء الرومان. إلاّ انه في الحقيقة كان عميلاً لقواد الملك وصنيعةً ارسلوها الى [كراسوس] لحرفه عن خطّ النهر. والتلال على قدر الامكان وتوجيهه الى السهل المنبسط الواسع ليتمكنوا في الإحاطة به، اذ كانوا لا يكرهون شيئاً قدر ما يكرهون اضطرارهم مقابلة الرومان وجهاً لوجه.

جاء الشيخ العربي [كراسوس] وطفق بلسانه الطليّ المقنع يمتدح [پومپي] ويثني عليه، ويشيد بعطفه عليه واحسانه. مبدياً اعجابه بقوات [كراسوس] ولكنه تظاهر بالعجب من تلكؤه، وافراطه في الاستعداد والحذر، كأنه لا يريد استخدام مشاته - في مقدمة الاصناف الأخرى - ضدّ رجال كانوا قد قرروا منذ زمن النزوح من بلادهم الى بلاد الصقالبة والهيركيين فراراً منه، ومهم أغلى مقتناهم ومواشيهم وختم قوله بما يلي:

- فان كان القتال ما تروم، فعليك أن تستعجل الأمر قبل أن يستعيد الملك ثقته بنفسه ويحشد قواته. وانت ترى الآن [سورينا Surena] و[سيللاك Sillaces] امامك، يريدان ان يصرفا نظرك عن الملك ويشغلاك بمطاردتهما ليكون سيدهما في مأمن منك.

ولم يكن في أقواله هذه شيء من الصدق، لأن [هيرودس] كان قد قسم جيشه الى قسمين، أحدهما قادة بنفسه الى ارمينيا واجتاحها منتقماً لنفسه من [ارطافازديس Artavasdes]. وأرسل القسم الثاني بقيادة [سورينا] لمواجهة خطر الرومان الذي لم يكن في الحقيقة موضع استهانة من الملك على ما زعم بعضهم. فلا وجه لاي احتمال في أنه كان يستصغر شأن [كراسوس] أحد أعاظم الرومان في عصره، فيتركه [لسوريون] ويتوجه لقتال ملك ارمينيا وغزوه بلاده. بل على أغلب الاحتمالات، إنه كان مدرباً جسامة الخطر الروماني ولذلك كان قصده أن يتربص بالاحداث ويجس نبضها، فرأى ان يكون [سورين] أوّل بحسيّ لعدن العدوّ وأوّل متعرض لمخاطر معركة معه، ومحاولة جرّه الى الداخل. و[سورين] هذا لم يكن رجلاً عادياً لا يؤبه به، فهو ثاني رجل في المملكة اي بعد الملك في الثروة والأصل والشهرة؛ أمّا في الشجاعة والاقدام فهو الاوّل وأمّا في الصورة وحسن القدّ فماله قرين. كان قطار رحلاته يتألف من الف جمل تحمل امتعته واثقاله، ومائتي عجلة تركب بها محظياته، والف رجل في

كامل عدتهم وسلاحهم بمثابة حرسٍ شخصي له، واضعافهم من ذوي الأسلحة الخفيفة. وكان فرسانه وراكبو الخيل من خدمٍ وحاشيةٍ واتباع يبلغون عشرة آلاف. اختصت اسرته منذ زمن بعيد بشرف وضع افرادها التاج على رأس الملك عند تنصيبه. وكان الشخص الذي عاد بالملك (الحالي من منفاه بعد طرده. وهو الذي استولى على [سلوقيا] المدينة العظيمة وكان أول من تسلق السّور وردّ المدافعين الى الخلف بيديه ومع انه كان في حدود الثلاثين من العمر يومئذ، فقد أشتهر بالذكاء ورجاحة العقل وبهاتين المزيتين فقط هزم [كراسوس] الذي وقع فريسةً سهلة لمكره بسبب ثقته الساذجة العمياء اولاً، ولتوالي الرزايا والنكبات عليه ثانياً.

وحاز الشيخ العربي ثقة [كراسوس] فآمن بكذبه وأبعده عن النهر وأدخله السهل الوسيع المترامي الذي كان أوّل الأمر متطامناً طيب السيرّ، ثم أصبح متعباً لعمق رماله وخلوه من الشجر والماء وسعته التي لا يحدّها بصرٌ، ولم يكن العطش وصعوبة السير العاملان الوحيدان في انهاك قواهم، فقد اصطلحت عليهم الكآبة والوجوم لرتابة منظر الصحراء فلا غصن صغير هناك ولا مجرى ماء او كثيب أو عُشب أخضر وانما بحر خضم من الرمال يكتنفهم بامواجه المتلاطمة. واخذ الشك في الخيانة يساورهم، وبعدها وردت الرسل من [ارطاڤازديس] لتنبئه بأن [هيرودس] غزا بلاده وشنّ عليه هجوماً عنيفاً، ولهذا فهو يعتذر عن ارسال اية نجدة، وانه ينصح [كراسوس] والحالة هذه، بأن يبدل خطّ سيره ويتجه الى ارمينيا لتوحيد قواتهما وانزال ضربة مزدوجة [بهيرودوس] وان لم يشأ ذلك فليعسكر في موضع منيع يتعذر على الخيالة ارتياده، ولا يحيد قطّ عن منطقة الجبال. وثار غضب [كراسوس] منه حتى انه لم يكتب له رداً وانما قال لرسله: انه في الوقت الحاضر لا يجد متسعاً للتفكير في أمر قومهم الأرمن، على أنه سيأتيهم في وقت آخر وينتقم لنفسه من غدر ملكهم. وارتفعت اصوات [كاسيوس] وصحبه بالشكوى من الحالة ثانيةً. ثم سكتوا على مضض بعد ان لاحظوا ان شكواهم تغيظ [كراسوس] فحسب ولا تجدى فيه. ألاّ انهم كانوا يسلقون العربيّ بالسنة حادة في السرّ، فيقولون:

- أي شيطان خبيث جاء بك الى معسكرنا يا أسوء الرجال نقيبة؟ واي سحر استخدمت مع [كراسوس] أو جرعة جرعته لتقوده الى صحراء قفر واسعة، وتضعه في مفازات ومسالك هي أصلح لرئيس عصابة لصوص من الأعراب، مما هي لجنرال عسكر روماني؟

أمّا العربي فقد أخذ يستخدم حيلته في حث الجنود وتشجيعهم على الصبر والتحمل قليلاً بلهجة رقيقة لينة، وظلّ لهم مازحاً:

- ماذا دهاكم؟ واين تظنون أنفسكم؟ هذه ليست [كامپانيا] حيث تجدون في كل خطوة

تخطوها الينابيع واوراق الشجر والحمامات، والحانات، وبيوت اللذة. ألا فأعلموا انكم تسيرون الآن في تخوم آشور وجزيرة العرب.

فهّداهم وسّرى عنهم كما يُسرى عن الأطفال، وارتحل عن المعسكر قبيل افتضاح أمره، بعلم من [كراسوس] الذي رخصه بذلك عندما أقنعه بالذهاب للاحتيال على العدوّ بحيلة تسلمه الى الفوضى واضطراب الأحوال.

وروي ان [كراسوس] خرج من خيمته صباح ذلك اليوم وعليه رداء أسود، لا الرداء الارجواني الذي يرتديه قادة الرومان عادةً، وما ان انتبه الى الخطأ حتى أسرع الى استبداله. ولقي حاملو الألوية مشقة كبيرة في رفع النسور عن ركائزها، حتى بدت وكأنها ملتحمة بها فضحك [كراسوس] واحتث سيرهم. مجبراً مشاته على تعقيب الخيالة خطوة خطوة. وعادت فئة قليلة من الكشافة لتخبره بأنهم الناجون فقط من ايدي العدو الذي أقترب منهم كثيراً بجميع قواته وكله عزم على خوض معركة معهم. فضجّ الرومان بالصياح، وعلت البغتة [كراسوس]، وأسقط في يديه عندما بدء بتنظيم صفوف جيشه كما يجب بسبب العجلة. أخذ أولاً بنصح [كاسيوس] ففتح خطوطه الى اقصاها لتشغل أوسع مساحة ممكنة لكيلا يتعرضوا للتطويق، ووزع الخيالة على الاجنحة. إلاّ أنه غير رأيه فيما بعد ونظم جيشه في مربع واقام على كل ضلع جبهة صدامٍ واحدتها تتألف من أثني عشر فوجاً، وخصص لكل منها كتائب خيالة ووضعها بشكل لا تحرم منها اية جبهة محتاجة، ولتكون على اثم الاستعداد للنجدة في اي موضع يتطلبها. واوكل لكاسيوس قيادة جناحٍ، وولى ابنه قيادة الجناح الآخر، وأحتفظ هو بالقلب، وعلى هذا النظام سار الجيش حتى بلغ نهيراً يدعى [باليسوس Balisus] لا أهمية له بذاته إلاّ انه كان كالرحمة الهابطة على الجنود بعد أن عانوا ما عانوا من القيظ والعطش طوال مسيرتهم. واجمع رأي كل امراء الوحدات على القضاء الليلة هناك لجمع المعلومات قدر الامكان عن جيش العدوّ وتكوين فكرة عن عدده وتشكيلاته وتنظيمه، حتى اذا بدت تباشير الصبح زحفوا عليه. فلم يوافق [كراسوس] متأثراً باندفاع ولده، وتحمست الخيالة التي ترافقه فقد أشتد الحاحهم عليه بالسير بهم للقتال قائلين أنهم عقدوا العزم على القتال حتى وان لجاؤا الى تناول طعامهم وشرابهم في اثناء المعركة وقوفاً. فأندفع الى الأمام ولم يعسكر، ولم يقم باتخاذ الاجراءات التعبوية وفق الأصول. وتأمين احتياطات السلامة كما يجب، وكان سيره اهطاعاً، ليس نيته وقفات استراحة، حتى بدا وكأنه لا يذهب الى معركة بل يستعجل في الابتعاد عنها. ولم يكن منظر قوات العدو عندما بدا لهم، بالمهيب المخيف لا عدداً ولا عُدة اي ليس كما توقعوا؛ والواقع ان [سورين] تعمّد اخفاء قواته الرئيسة وراء الحظّ الأول من

مـقـاتليـه، وأمـرهم بتـغطيـة دروعـهم البـراقـة بكسـوات جلدية. ولما تقـدم الرومـان وأعطى [كراسـوس] اشارة الـهجوم، أهتـز الميـدان بهدير صـوت مُرعب وهتـاف هائل، فـالپـارثـيون يحمسون القطعات المهاجمة بقرعات الدُهل الراعدة اذ يرنّ صداها من مختلف الاماكن دفعة واحدةً. هذا النوع من الطبـول يصدر صوتاً مـهلكاً اشبه بزئير الوحوش المختلط بهزيم الرعد، وهم لا يستخدمون الأبواق والنايات. ولا شكّ في أنهم لاحظوا في الواقع ان حاسة السمع في الانسـان هي التي تؤدي الى أحداث أكثـر الاضطراب والفـزع دون سـائر الحواس الأخرى، وان المشاعر التي تثيرها هذه الحاسة، هي أقوى المشاعر واسرعـها في التغلب على العقل واضاعة الرشد.

بعد أن زرع الپـارثيـون بضجيـجهم الرعب الكافي في قلوب الرومـان، رفعـوا الأغطيـة عن دروعهم فبدت تسطع وتلمع كالبرق فـوق صدورهم وفي خوذهم المصنوعة من الفـولاذ المارجيني Margian الصقـيل وخيولهم ذات الاحزمة النحاسـية والفولاذية. وبدأ [سـورين] أهيب وأجمل من كل رجالهم، إلاّ أن نعومـة نظراته، ونسويّة ثيابه لم تكن تدل على رجولة تتفق مع شهرته، والمركز الذي يحتله في جيـشه. فقد كان وجهـه مصبـوغاً مجملاً، وشعـره مفروق الناصـية على الطريقة الميديّة، في حين بدا مظهر المقاتلين الپارثيين، أكثر رهبة بشعورهم الكثة المجدولة في كتلة واحدةٍ مكورةً فوق جباهم على الطريقة الصقلبية.

كانت خطة الپارثيين هي ان يدفعوا برماحهم المشرعة صفوف الرومان الاولى نحو الخلف. إلا انهم بعد ان تبينوا عُقم محاولتهم لعمق الجبهة الرومانية وثبات الجنود الشديد، أنسحبوا عنهم وتراجعوا متظاهرين بالفوضى وتشتيت الشمل ليطمعوا فيهم اعداءهم فيلاحقوهم، وهكذا كان فـقـد كروا علـيـهم راجـعين وطوقـوا المربّع الرومـانـي قـبل أن ينتـبـهـوا الى الحركـة، فـمـا وسع [كراسوس] إلاّ ان يأمر مشاته الخفيفة بالصولة على الپارثيين. ولم يبتعدوا كثيراً إلاّ وجوبهوا برشقات شديدة من النبـال سقطت عليـهم كالمطر الـوابل فسارعـوا بالتراجع مـستترين بالمشاة الثقيلة ومـختلطين بهم فكانـت أولى ظواهر الخلل والفزع في صفوف الرومـان. وأدركوا عندما خبروا قوة سهام الپـارثيين ومتانتـها اذ كانت تخرق دروعهم وتمرّ من كل انواع التروس صلبـها ولينّهـا. واتخذ الپـارثيون مـواقـعهم على مـسافـة من الرومـان وراحوا يفـوّقون سـهامـهم من كل الجهات لا يقصدون هدفاً ولا يركزون في نقطة لأن الأسلوب المنظمّ الذي يلجأ اليـه الرومان في هذه المعركة جعلهم كتلة وهدفاً كبيراً لا يطيش المقذوف عليهم ولا يقع في الأرض. وكان العدو يرسل السهام من قسيٍّ شديدة العود قوية الشدّ فتندفع كالبرق وادرك الرومان وضعهم السيء من البدايـة، فإن هم ظلوا يتبـعون الأسلوب المنظم فـسيـقع منهم جرحى كثـيرون. وان هم حاولوا

الهجوم فإن ما سيصيبون به عدوّهم لن يزيد عمّا سيصيبهم، ولن تقلّ خسائرهم عن الأول لأن البارثيين لا يتوقفون عن قذف رماحهم حتى اثناء فرارهم. وهو فن في القتال برعوا فيه وليس من يفوقهم به من الشعوب غير الصقالبة. والواقع أنها عملية ذكيّة منهم: يجتنبون عار الفرار، ويعملون لانقاذ أنفسهم في الوقت نفسه.

وكان كل ما يريح الرومان هو أملهم بأن يلجأ عدوّهم بعد استنفاد ما لديه من نبال - إمّا الى أخلاء الميدان والانسحاب وإمّا ام يكروا عليهم. وخاب فألهم عندما رأوا جمالاً كثيرة مثقلة باحمال النبال يتزودون منها كلما فرغ ما لديهم، فينسحب خطّ للتمون ليحتل خطّ آخر مكانه وهكذا، حتى خيل لكراسوس ان القتال سيدوم الى ما لا نهاية فوهت عزائمه. وارسل يأمر ابنه بأن يحمل عليهم قبل أن يكملوا عمـ ـة التطويق، لأن أكثر تقدم العدوّ كان من ناحيته. وكل الدلائل تشير الى ان خيالته تحاول الالتفاف على المؤخرة. فبرز الفتى بألف وثلاثمائة فارس، الفٌ منها كانت بعثة قيصر، وخمسمائة من القواسين تسند ثمانية افواج من المشاة مسلحة تسليحاً كاملاً الى جانب منه. وكرّ بهذه القوة على البارثيين، فداروا على أعقابهم وولوا هاربين، ولا يعرف أكان فرارهم لوجودهم في بقعة موحلة على زعم بعضهم، أم لأنهم ارادوا استدراج [كراسوس] الأبن الى أبعد مسافة ممكنة عن أبيه. وعندها صاح قائلاً: أنهم غير قادرين على الصمود! ثم جَدّ في تعقيبهم مع [سنصورينوس Sensorinus] و[ميگاباخوس Megabachus] وكلاهما من العسكريين المعدودين. أولهما في شجاعته واقدامه، وثانيهما في انحداره من أسرة مشيخية عريقة، ولامتيازه بالخطابة. وهما صديقان [لكراسوس] وفي مثل سنّه تقريباً. واندفعت الخيالة الى الأمام وتأخرت عنها المشاة قليلاً والكل منتعش بالأمل والاستبشار، فقد عدوا أنفسهم منتصرين، وانهم يطاردون الآن العدوّ، فقد دار عليهم الهاربون يساندهم وحدات جديدة كثيرة العدد لم تواجههم من قبل. فتوقفوا، ولم يعد لديهم ادنى شكّ في أن العدوّ سيكرّ عليهم مستهيناً بقتلهم. وخاب فألهم عندما وضع العدوّ رماحته بمواجهة الرومان في جبهة، وأطلق البقية الأعنّة لخيولهم تروح وتغدو في ساحة المعركة عدواً فتثير التراب حتى ارتفع الغبار الكثيف وأعجز الرومان عن الرؤية والتحدث وتزاحم بعضهم على بعضٍ في كتلة بشرية وقع عليها العدو طعناً وقتلاً. ولم يكن موتهم سريعاً سهلاً، وانما رافقته آلام فظيعة وتشنجات مريرة.

فقد كانت الرماح المغروزة في أجسامهم تجعلهم يتلوون عذاباً فيكسرونها في فتحة الجرح ثم يحاولون نزعها نتشتبك اسنتها المنشعبة بالعروق والأعصاب فتمزق أحشاءهم تمزيقاً وتجرعهم غصصاً من الآلام لا طاقة للبشر بها. وقد مات كثير منهم على هذه الصورة الشنعاء، وأما

من عاش بعدها فقد أصبح عاجزاً طول حياته. ولما حثهم [پوبليوس كراسوس] على مهاجمة الرمّاحة، رفعوا له ايديهم وهي مدقوقةٌ بمساميرٍ في تروسهم، وكشفوا عن اقدامهم وهي مثبتة في باطن الأرض فعلوا ذلك حتى لا يستطيعوا فراراً ولا تقدماً، فما كان منه إلاّ وكَرّ على العدوّ بخيالته كرة جريئة بلغت به الى مسافة قريبة منهم. ولم يكن عددهم كافياً لا للدفاع ولا للهجوم ولم يكونوا يستطيعون شيئاً بحرابهم الصغيرة ازاء تروس مصنوعة من الحديد والجلد الغليظ غير المدبوغ. وكانت اجسام خيالته الغالية بكسوتها الخفيفة مكشوفة تماماً لأسنة العدوّ الماضية المتينة، وأكبر اعتماده عليهم والحق يقال انهم يخيبوا ظنه فقد زتوا بالعجب العجاب وحققوا المعجز من البطولات. كانوا يقبضون على الرماح المقنطرة المسدّدة الى صدورهم ويضطرعون عليها اصحابها حتى يقلعوهم قلعاً عن سروجهم ويسقطوهم فلا يستطيعون حركة أو قياماً لثقل دروعهم. وأحياناً كانوا يترجلون عن خيولهم ويزحفون حتى يصبحوا تحت خيول العدو فيبقروا بطونها فيهيجاً الألم وتقذف براكبيها وتدوس اصحابها واعداءها بسنابكها دون تفريق. وكان أشدّ ما يعذب هؤلاء الغاليين القيظ والجفاف، لأن أجسامهم غير متعودة عليهما. ونفقت معظم خيولهم لوثوبها على الرماح المشرعة حتى ارغموا على الارتداد بقائدهم [پوبليوس] وهو مصاب بجرح بليغ، وأمتزجوا بصفوف المشاة. ووقعت عينهم على كثيب رمليّ فسعوا اليه وأحتلوه وشدّوا خيولهم بعضها الى بعضٍ ووضعوها في الوسط ثم عملوا من تروسهم جداراً متوهمين ان ذلك قد يقيهم صولة البرابرة بعض الشيء، فكانوا في ظنهم مخطئين. في السهل، كانت جبهة خطوطهم تحمي الى حدٍ ما، أولئك الذين هم في المؤخرة، اما الآن وهم فوق الكثيب فقد آضوا مكشوفين تماماً لأن تحدّر الأرض جعل أحدهم يعلو الآخر بلا سترٍ ولا وقاءٍ، فلم يعد لديهم من حيلة إلاّ ان يندبوا مصيرهم التاعس، وينعوا ميتتهم التي لا فائدة منها وكان يصحب [پوبليوس] اغريقيان من سكنه مدينة [حرّان Carrhæ] القريبة. هما [نيقوماخوس وهيرنيموس]، فألحّا عليه بالانسحاب والاحتماء في [إخني Ichnæ] وهي بلدة أهلها اصدقاء للرومان لا تبعد عنهم كثيراً، فأجابها بقوله:

- ليس من ميتة أفظع من الموت خوفاً من ترك [پوبليوس] اصدقاءه الذين يموتون لأجله.

وطلب منهما ان يهتما بنجاتهما، وعانقهما وصرفهما عنه. وكانت ذراعه عاجزة لإصابتها بطعنة رمحٍ، ففتح جنبه لحامل سلاحه وأمره بأن يطعنه طعنةً نجلاء. وقيل أن [سنسورينوس] لحق بع على هذه الصورة، اما [ميگاباخوس] فقد نحج نفسه، كما فعل كذلك كل رجل ذي شأنٍ منهم.

وحمل البارثيون على من تبقى بالأسنة المشرعة فقضوا عليهم في ملحمةٍ مريعة، ولم يزد ما أخذوا من الأسرى عن خمسمائة. واحتزوا رأس [پوبليوس] وركبوا به متجهين الى معسكر [كراسوس].

في امكاننا أجمال موقف [كراسوس] يومذاك بما يلي:

بعد أن أمر ابنه بالصولة على العدوّ بفترةٍ، ورده نبأ هزيمة العدوّ من ميدانالقتال، وان المطاردة ابعدت الشقة ما بينه وبين ابنه. ثم لاحظ تم ضغط العدو عليه خفّ كثيراً ولم يعد كما كان، (ولا عجب فقد تحول القسم الأكبر منه الى [پوبليوس] للانقضاض عليه من حيث لا يحتسب) فتنفس [كراسوس] الصعداء وعادت اليه روحه وانتعشت آماله قليلاً، وعمل على ثقل مواقع جيشه الى أرض فيها انحدار بسيط ينتظر عودة ابنه من الطراد. ما أن أحسّ [پوبليوس] بالخطر حتى أخذ يتابع ارسال السعاة الى ابيه، أولهم أعترض العدو سبيله وفتك به. أمّا الأخير الذي خلص منهم بمعجزة، فقد جاءه بنبأ نهاية [پوبليوس]. إن لم يُنجد بسرعةٍ. فأظلمت الدنيا في وجهه، واطار الألم رشده ولم يعد يدري اي سبيل يسلك مَرّةً يغلبه الخوف على الجيش كله، ومرّةً تدفعه الرغبة الى معونة ابنه؛ وأخيراً قرر التحرك اليه وفي تلك اللحظة بدت طلائع العدوّ بعجيجها وضجيجها الذي فاق ما بدر منها قبلاً، وبهدير طبولها يقرع آذان الرومان فيصكتها صكاً ويطير صوابهم، وقد باتوا وهم في خوف من هجوم جديد. اما أولئك الذين جاؤا برأس [پوبليوس] فقد رفعوه على سنان رمح وأقتربوا به من مواقع الرومان الى مسافة تستمح لهم باستقراء ملامحه، ثم أنهم راحوا يتساءلون هازئين: عن مكان ابويه؛ ومن هي اسرته، اذ يستحيل أن يكون محارب شجاع باسل مثل، ابنا لجبان رعديد مثل [كراسوس]. وروع الرومان هذا المشهد، أكثر من أي شيء، ولم يثر غضبهم ونقتمهم كما هو متوقع، بل اشاع فيهم الهلع، لكن قيل ان [كراسوس] كان جلداً متمالك النفس امام مصيبته بشكل أثار الدهشة، فقد سار بين صفوف الجند وهو يصيح بهم:

- تلك يا بني قومي مصيبتي لا مصيبة احد غيري، أما حظوظ روما وامجادها فستبقى سالمة غير ملوثة ما دمتم في سلام وإن وجد بينكم من آلمته فجيعتي بفقد خير ابنائي، فليظهر مدى ألمه بالثأر له من العدوّ. هيّا فانتزعوا منهم فرحتهم، وانتقموا من قسوتهم ولا تأسفوا على ما فات فمن يغامر في شرف مروم وأمر عظيم لابدّ أن يكابد ويعاني. ان [لوكوللوس] لم يهزم خصمه إلاّ بعد أن سألت الدماء انهاراً.

وهذا [سكيپيو] لم يغلب عدوه [انطيوخوس] إلاّ كذلك؛ أجدادنا خسروا ألف سفينة على سواحل صقلية ولا اذكر عدد من فقدوه من القادة ورؤوساء العسكر في بَرّ ايطاليا، وكل هذه

الخسائر لم تحل دون طردهم غزاتهم واجلائهم عن ديارهم. وروما لم تبلغ عظمتها هذه، بمخالفة الحظّ فحسب بل بالجدّ والمثابرة والعزيمة وقت الخطر».

ولم يجد [كراسوس] من جنوده منتبها الى خطبته الحماسية إلاّ القليل فقد كان معظمهم ساهماً واجما. وعندما أمرهم باطلاق صيحة الحرب فاخرجوها ضعيفة مرتجفة لم يبق لديه شكّ في القنوط المستولي عليهم. وكانت صيحة العدوّ قوية ثابتةً. ولمّا جَدّ الجدّ بدأ الاحتياطي والمستجدّ والمراسلة في جيش البارثيين يفوقون سهامهم على الرومان وخيولهم تجري بهم طوالاً وعرضاً. أما فرسان الخطوط المتقدمة فقد أخذوا يدفعونهم بالأسنة من كل جهة ليحصروهم في بقعة ضيقة وليجعلوهم كتلة متراحمة. ودفع بعض الرومان الخوف من الموت بسهام البارثيين الى الهجوم عليهم فلم يحققوا ما يستحق ذكره لهم، وانما قضي عليهم في الحال، لأن الرمح البارثي المتين الغليظ يفتح جراحاً واسعة يتعذر علاجها وكثيراً ما تخترق الطعنة جسدين.

ادرك الليل المتحاربين وهما في قتال دمويّ مرير، ففرقهما. وراح البارثيون يتنادون متفاخرين بانهم سيتكرمون على كراسوس بليلة واحدة ليبكي فيها أبنه ويلبس الحداد عليه، إلاّ اذا اهداه عقله الى حَلٍّ أفضل، وهو أن يتوجه الى [ارشاك] بقدميه، لا أن يقاد اليه قوداً. الى هذا الحَدّ بلغت نشوة النصر بالبارثيين القريبين منهم، أما هم فقد مرت عليهم ليلة من أشقى الليلات. وبلغ بهم القنوط حداً لم يهتموا معه بدفن موتاهم ولا بمعالجة جراحهم، ولابأنين محتضريهم. وراح كل فرد منهم يندب سوء حظه، وبؤس مصيره. ولم يكن خلاصهم سهلاً بانتظارهم الصبح، لأن الجرحى سيحولون دون الشيء الثاني. إن أخذوهم فسيكون انسحابهم بطيئاً يسهل للعدو تعقيبهم وادراكهم، وإن تركوهم فستنبه صيحات استغاثتهم وتوسلاتهم العدوّ؛ على ان رغبة الجميع كانت متفقة على مقابلة [كراسوس] وسماع رأيه، وان شعروا بأنه علة كل ما أصابهم. فما كان منه إلاّ ولفّ عباءته حول جسمه وتوارى مخيفاً نفسه عنهم؛ مثل لتقلبات الحظّ بالنسبة للرجل العادي، وللطموح والتهّور عند العاقل المفكرّ، فهذا الرجل لم يقنعه أن يكون فوق الملايين، وانّما ساءه أن يكون أدنى مركزاً من شخصين فقط، فهبط الى أسفل السافلين واصبح فهو أدنى الجميع.

وجاءه كلّ من [اوكتافيوس] ضابط ركنه، و[كاسيوس] الكويستور لتعزيته، ولما وجدوه مشتت العقل شارد الذهن لا تجديه موآساة قاما بجمع التريبيونات والنقباء (قادة المائة) للمداولة في الموقف. واستقر رأي الجميع على ان الانسحاب هو خير ما يمكن عمله. فصدرت الاوامر بالتهيؤ للرحيل ولم ينفخ في البوق حرصاً على الكتمان. وتم الاستعداد في مبدأ الأمر بكلّ سكون، ولما ادرك الجرحى انهم سيبقون ضربت الفوضى اطنابها وساد الهرج والمرج وعلا

الصياح والندب في كل المعسكر، فأستولى الفزع والخوف على المنسحبين حتى لكان العدوّ في أعقابهم، مما الجاءهم الى تغيير اتجاه سيرهم بين آن وآخر أو التوقف بانتظام، ثم اجراء تعديل عليها أو الاخلال بها. أحياناً يحملون الجرحى الذين لحقوا بهم، وأحياناً يلقونهم، ويبتعدون عنهم فضاع منهم وقت كثير. على أن [اغناطيوس Egnatius] أنفصل عم الرتل بثلاثمائة فارس وانطلق نحو مدينة [حران] فوصلها دون حادث في منتصف الليل ووقف تحت السور ونادى الحرس باللغة اللاتينية وما أن سمعوه حتى طلب منهم أن يبلغوا حاكمهم [كوپونيوس Coponius] بأن [كراسوس] خاض معركة عظيمة جداً مع الپارثيين وبختام عبارته الوى عنان جواده وأنطلق وكتيبته باقصى سرعة نحو [زويخمة] دون أن يصرح باسمه. وبهذا أنقذ نفسه وانقذ رجاله، لكنه خسر اسمه وسمعته لتخليه عن قائده. على كلٍ، كانت رسالته لكوپونيوس نات فائدة [لكراسوس] فقد أحدثت عجلتها واضطراب ناقلها شكاً في نفسه وتحسس ان الأمور ليست على ما يرام فأصدر أمراً انذارياً للحامية وطلب منهم احتقاب سلاحهم. وما ان أبلغ بمقدم كراسوس حتى خرج للقائه وأدخله المدينة هو وجيشه.

ولم يشأ الپارثيون تعقيب الرومان المرتدين ليلاً مع أنهم انتبهوا الى رحيلهم. وما ان بدت تباشير الصبح حتى انقضوا على المختلفين في المعسكر وأعملوا السيف في رقابهم فقضوا على اربعة آلاف رجلٍ تقريباً، وتمكنت خيالتهم الخفيفة من النقاط عدد كبير في الطريق. وكان [ڤارغينتيوس Vargintinus] أحد الضباط الرومانيين قد انفصل باربعة افواج عن بقية الرتل المنسحب اثناء الليل بسبب انحرافه عن الطريق فأحاط الپارثيون بهذه القوة التي تجمعت للدفاع فوق تل صغير وذبحوها عن بكرة ابيها باستثناء عشرين رجلاً شقوا طريقهم في زخم القتال بسيوفهم المشرعة دون مبالاة بما يصيبهم فأعجب الپارثيون بشجاعتهم الخارقة وفتحوا لهم صفوفهم من اليمين واليسار وتركوهم يمرون دون تعرض ليبلغوا [حران] سالمين.

وأبلغ [سورين] بنبأ نجاة [كراسوس] وكبار ضباطه وأن الواصلين الى [حران] هم فلول من الجنود العاديين الذين لا يستحقون عناء التعقيب، وكان طبعاً نبأ غير صحيح، على أنه اراد أن يتأكد من صحّة الخبر مدفوعاً بخيبة المؤلمة في احتمال خسارته تاج نصره ومجده، حتى يتخذ قراره بالقاء الحصار على [حران] أو ملاحقة كراسوس حيثما اتجه، فبعث باحد مترجميه الى المدينة وطلب من أسفل السور باللاتينية إن يُستدعى كراسوس أو [كاسيوس] لأن القائد [صوران] يرغب في التفاوض على الصلح، فأسرع [كراسوس] يوافق على الاقتراح. وبعد ذلك بقليل قدم لنيف من العرب كانوا يعرفون [كراسوس] و[كاسيوس] بالوجه معرفة جيدة لطول ترددهم على المعسكر الروماني قبل المعركة. فتوضحوا كراسوس من فوق السور وتأكدوا

من هويتـه، وانشأوا يقولون له ان [صوران] يرغب في الصلح وأنه سمنحهم أماناً بـالعودة الى أوطانهم شـريطة أن يعـقد مع سـيده الملك معـاهدة صداقـة ويجلو عن بلاده مـا بين النهـرين ويسحب كل حامياته من مدنها، وفي رأية أنها شروط حسنة بجمل بكراسوس قبولها قبل أن يفدح الخطب وتصل الأمور الى نـهايتـها العضوي. فرضي [كراسوس] وطلب تحديد مكانه وزمانٍ للاجتمـاع، وعاد العرب الى [صوران] مزودين بهذه الرسالة، فلم يكن سروره بها قليلاً اذ أكدت له وجود [كراسوس] في المدينة.

وفي اليـوم التـالـي خرج بجيشـه، وأخذ يوجه الإهانات وهجر القـول الى الرومـان، وأمرهم بعجرفةٍ ان يسلموا له كراسوس و[كاسيوس] مشـدودي الوثائق أن أملوا منه الرحمة واضطراب الرومـان كثيراً عندمـا أنكشفت لهم الخديعة، وآلمهم مـا سمعوه من شتـائم وإهانات وسخرية. وطلبوا من [كراسـوس] ان يسـقط من حسـابه تلك الآمـال الخلابّة الفـارغة بقرب وصول نجدة عسكرية من ارمينيـا وان الأفضل من انتظارها هو الخروج للبحث عنها ولقائـها. كان من المقرر ان تكون خطّة خـروجهم من المدينة فـي طيّ الكتـمـان وتبـقى سراً حتى يكونـوا في الطريق، لا يعرف بها أحد من أهل المدينة قطّ. إلاّ ان [كراسوس] أسرّ بهـا الى [اندروماخوس] وهو رجل لا يفوقـه أحدٌ في الغدر، ووصلت ثقتـه به حداً أن أختاره دليـلاً في مسيـرتهم. ولا شكّ في ان البـارثيين كـانـوا يطلعون بفضله على مـراحل الخطّة ودقـائقـهـا ومـا أتخـذ من قـرارات وتدابير لتنفيـذها. ولما كـان يصعب عليـهم القتـال الليلي كمـا أسلفنا ولأن [كراسوس] أختـار الظلام للسير، فقد اوصي [اندرومـاخوس] بقيادة الرتل الروماني في مسالك ملتوية متشابكة لتبديد الوقت ولكيـلا يبتـعـد بهم كـثيـراً عـن مطارديهم، ثم بلغ ارضـاً مـوحلة كـثيـرة المستنقـعـات والسـواقي فـزاد عناء الرومـان وحـاروا في كـثـرة المنعطفات والاستـدارات وشكوا فـي نوايا [اندرومـاخوس] حتى قـرروا إلاّ يتبـعـوا ارشـاداتـه، وأخيـراً لم يسع [كـاسيـوس] الاّ العـودة. وهناك نصحـه ادلاء عرب بالتـريث حتى يخرج القمـر من برج العـقـرب فردّ عليـهم قـائلاً: «إن أخوف ما أخافه هو برج القوس Sagittarius[٢].»

قال هذا وخرج بخمسمائة فارسٍ الى سورية. وسلك آخرون بمعونـة ادلاء أمناء طريقاً محاذية لجبال [سينّاكا Sinnaea] وبلغوا مـواضع مأمونة في صباح اليوم التـالي وكانوا خمسة آلاف بقيـادة [امكتاڤيـوس] المعروف ببسالته. ولم يكن [كراسوس] موفـقاً مثـله فقد ادركـه الصبح وهو يعـمل بوحي [اندرومـاخوس]. تضرب القـوات المتبـقيـة معـه في البطائح والأرض الوعـرة على غـيـر هدى. وهي بمجـموعـهـا لا تزيـد عن اربعـة افـواج وقليـل من الخيـالة وخـمـسـة من

(٢) برج العقرب هو الثامن من ابراج قبة الفلك وبرج القواس هو تاسعها [م. ت].

اللكتور، أضرّ بهم السير وانهكهم حتى ما عادوا يفطنون الى أنهم لا يبعدون عن اوكتاڤيوس غير ميل ونصف ميل. ولما فطنوا لم ينضموا اليه وقرروا الاحتماء نبلّ آخر بينما كاد العدو يطبق عليهم ولم يكن في هذا التلّ ميزة دفاعية، أو صلاح لحركات الخيالية، وكان يقع تحت قدمات جبال [سيناكا] يحتد عبر السهل ليتصل بسلسلتها الطويلة. ولاحظ [أوكتاڤيوس] الخطر المحدق [بكراسوس] فأتجه نحوه بقواته متباطئة أولاً، ثم دبّ فيه النشاط وأسرع وارتفعت الحمية في نفوس رجاله فأخذوا يعنفون بعضهم بعضاً ويعيره بالانحطاط والدناءة لتخليه عن قائده، وبهذه الروح سحروا على الپارثيين وأجلوهم عن التلّ وأحاطوا [بكراسوس] يحمونه بتروسهم ويقولون بكبرياء وزهو: «لن ندع سهماً بارثياً واحداً ينوس جنرالنا مادام فينا نفس يتردد».

ولاحظ [صوران] ان جنوده زاهدون عن تعريض نفسهم وأدرك أيضاً أن الرومان قد ينجمون في الفرار الى الجبال أن أطالوا أمد المعركة حتى الليل، فيغلق من يده نهائياً. ولجأ الى مكره المأثور بأن عمد الى أطلاق سراح لفيف من الأسرى الرومان ووضع في طريق خروجهم من المعسكر جماعة من رجاله على قيد مسمع منهم ولقنهم أحاديث معينة يتكلمون بها ليسمعها الأسرى. وطفق هؤلاء البرابرة يتحدثون عن عدم رغبة الملك في مواصلة الحرب الى نهايتها ضد الرومان، وعن حبّه للصلح والتفاهم كما يدل موقفه من [كراسوس] عموماً. وقالوا ان البرابرة امتنعوا عن القتال لهذا السبب، وان [صوران] تقدم الهونيا بنفسه مع كبار ضباطه وحَلّ وتر قوسه. ورفع يديه الى أعلى يدعو [كراسوس] الى الاتفاق والصلح ويقول ان الملك الذي اراد أختبار شجاعة جنوده وصلابتهم، يريد الآن وبعد تأكده منها - أن يضع نهاية للقتال ويرغب في الصداقة والوئام بقبوله الهدنة. وسماحه لهم بالانسحاب من دون تعرضٍ...

هذه الأقوال المعزوة الى [صوران] نقلوها الى رفاقهم فأستقبلوها بسرور ولهفة. ولكن [كراسوس] الذي ذاق ما يكفي من غدر [صوران] ونكثه بالعهد، عجز عن ايجاد سبب وجيه لهذا التحول المفاجيء في سلوك العدوّ، ولم يؤمن بما قالوا وانما طلب ان يُمهل للتفكير في الأمر فضجّ الجنود بالصراخ وطلبوا منه ان يدخل المفاوضات في الحال. واراحوا يلومونه ويتطاولون عليه قائلين: انه لظلم عظيم ان يأتي بهم لقتال رجال هذا سلاحهم رجال لا يجرأ هو على الوقوف في وجههم عندما يكونون بدون سلاح!

وحاول في مبدأ الأمر أقناعهم بالحسنى واللين، وطالبهم بالتحلي بالصبر والنتظار حتى الليل واذ ذاك سيتمكنون من الجبال ومفازاتها التي تعجز الخيل عنها ويخرجون عن دائرة الخطر ومد يده مشيراً الى طريق الجبال راجياً منهم ان لا يتركوا سبيل خلاصهم الذي بات

أقرب اليهم من حبل الوريد. فلم يسمعوه وراحوا يقرعون ترساً بترسٍ بشكلٍ تهديديّ، معلنين تمردهم، غُلب على امره وارغم ارغاماً على الذهاب لمفاوضة العدوّ. ولم يأت باية حركة أو ينطق بحرف حتى حان الوداع فاستدار الى الضباط وقال:

- اشهد علي أنت يا أوكتافيوس وانت يا پطرونيوس بأني ما ذهبت إلاّ مضطراً مرغماً واني لا أستطيع الاّ وأحسّ بوقع الاهانات والتطاول عليّ. قولوا اللناس كافة عندما تكتب لكم النجاة أن كراسوس كان هلاكه بمكر اعدائه أكثر مما كان بعصيان ابناء قومه عليه.

على ان [اوكتافيوس] و[پطرونيوس] لم يتركاه وانما هبطا التل أمّا بخصوص حرس اللكتور الخمسة فقد طلب [كراسوس] منهم أن يتركوه ويعودوا. وكان أول من لقبه اغريقيان من المولدين فترجلا عن جواديهما قفزاً وادياً له تحية الإجلال وطلباً منه باللغة الاغريقية، ان يرسل امامه رجالاً للتحقق من قدوم [صوران] بنفسه اليه بحاشية لا تحمل سلاحاً غير سيوف الزينة، فأجاب بقوله

- لو كنت مهتماً بحياتي أقل اهتمام لما أتمنت عليها ايدي هؤلاء وانما أرسلت الأخوين [روسكيوس Roscius] للتفاهم على الشروط وعدد المفاوضين.

ما لبث [صوران] أن أمر بالقبض على هذين فوراً. وتقدم يحفّ به كبار ضباطه على صهوات الخيل حتى أصبح امام كراسوس فحياه وقال له:

- ايجوز لجنرال روماني أن يسير على قدميه، وانا راكب تحفّ بي حاشيتي؟

فأجاب [كراسوس] ليس هناك خطأ من أية جهةٍ لأن لقاءهما تمّ كلّ بحسب عادة بلاده وتقاليدها. وقال [صوران]: إن عهد صفاء يحلّ من هذه الساعة بين الملك سيده وبين الرومان وانه يريد من كراسوس ان يمضي معه الى النهر للتوقيع على الاتفاق... واضاف يقول:

- هذا، لأن ذاكرتكم أيها الرومان ضعيفة، اذ سرعان ما تنسرن العهود والمواثيق.

ثم مدّ يده اليه مصافحاً. وأصدر [كراسوس] أمراً بقيادة جوادٍ من خيوله فأعترض [صوران] قائلاً:

- لا داعي لذلك، فالملك سيدي يهديك هذا الحصان.

وأمر فسيق حصان ذو لجام ذهبي، وأمر السائس باعانة كراسوس على امتطائه رغم تمنعه، وبعد أن أستوى على السرج وجه أحد السياسي الذين كانوا يجرون الى جنبه ضربة اليه ليحتث من سرعته، فأسرع [اوكتافيوس] وقبض على الزمام وهرع [پطرونيوس] وبقية الضباط الحاضرين يحاولون ايقاف الحصان وأمسكوا بتلابيب أولئك الذين كانوا يحتثون

الحصان على الجري من الجانبين وتدافعوا معهم وأختلط الحابل بالنابل وقامت ضجة من جراء السحب والدفع انقلبت الى حزبٍ وقتال فجردّ أوكتافيوس سيفه وفتك بپارثي فقنعه واحد ومنهم واحد بالسيف وقتله. وكان [پطرونيوس] أعزل، إلاّ ان ضربةً هون على درع صدره فسقطا عن ظهر جواده على الأرض ،لم يصب بسوءٍ وقتل [كراسوس] بيد پارثي يدعى [پوماشاثرا Pomaxathres] ويقول آخرون أن اياد كثيرة تعاونت على قتله. وقيل ان [پوماشاثرا] احتز رأسه وقطع يمناه بعد أن صُرِع. وكل هذا حدس في حدسٍ وظلت الحقيقة يحيط بها الغموض لأن القريبين من الحادثة لك يكونوا في وضع يسمح لهم بملاحظة التفاصيل والدقائق وكانوا بين قتيل وهو يدافع عن كراسوس، وبين مسرعٍ في الفرار الى رفاقه فوق التل.

بعد هذا تقدم البارثيون من مواقع الرومان قائلين: ان [كراسوس] نال ما يستحقه من قصاص، وان [صوران] يطلب من البقية الباقية النزول ولهم الأمان. فنزل بعضهم واستسلم وتشتت شمل الآخرين في ساعات الليل، ولم يبلغ الوطن منهم الاّ النزر اليسير، ووقع العرب الرحل على طوائف منهم هامت على وجهها في الصحراء ففتكوا بها وكان التقدير العمومي لخسائر الحملة، عشرين ألف قتيل وعشرة آلاف أسير.

وأرسل [صوران] رأس [كراسوس] ويده الى الملك [هيرودس] في ارمينيا. إلاّ انه بث سعاته ورسل أخباره ينشرون في البلاد بأنه سيأتي بكراسوس حيّاً الى [سلوقيةّ] ويسير به في موكب مسخرة وتهريج، (سمّاه موكب ظفرٍ استهزاء وتهكماً]. وكان بين الأسرى رجل يدعى [كايوس پاشيانوس Caius Paccianus] عجيب الشبه [بكراسوس]، فجاء به والبسه ثياب النساء البارثيات، وأمره بالاّ يجيب الاّ اذا نودي بكراسوس او امبراطور، وساروا به وهو على متن حصان يتقدمه جوق من البوقيين والكتور وهم راكبون جمالاً وقد عُلقت حرر في نهاية حزم عصيّهم. وركزت رؤوس قتلى حديثاً فوق شغرات نؤوسهم وهي تقطر دماً. وسارت خلف هذا الموكب مغنيات سلوقيات ينشدن قصائد تهكم وسخرٍ بخنوثة [كراسوس] وجبنه ولم يبق أحد في المدينة الاّ وشاهد هذا الموكب. ثم ان [صوران] جمع مجلس الشيوخ السلوقي ووضع أمامهم عدداً من الكتب النادرة التي كان الاعتقاد قد ساد بأنها فقدت، وهي من مؤلفات [اريستيدس] وبينها مؤلفه [ميليسياكا Milesiaca]. ولم يقم اي شكّ في أصالتها، فقد وجدت في أمتعة [روستيوس Rustius]، وهذا ما زوّد [صوران] بمصدر جيد لتهكمه على الرومان وتعليقاته الساخرة المهينة كقوله: انهم لا يستطيعون حتى زمن الحرب، نسيان أمثال هذه الكتابات ومطالعتها. على أن أهل [سلوقية] كانوا على حقٍ في اطراء الحكمة

والمغزى المستخلص من اسطورة «الجراب» لصاحبها [إيسوب]. فقد لاحظوا أن قائدهم [صوران] يضع امامه جراباً مملوءاً بمتفرقات من الحكايات الميليسيية. بينما كان يسير خلفه مجتمع دعارة پارثي كامل بكلّ ترفه وبذخه، ممثلاً في قطار العربات الملأى بمخطياته.

وأنطلقت السنة الناس تلدغ كالافاعي والثعابين فقالوا كل ما برز للعين في مقدمة المركب كان مرعباً مخيفاً برماحه ونباله وفرسانه، وكل ما انتهى اليه الموكب فبنساء فاجرات، وصحون رقص، وآلات طرب وموسيقي، وعيدان، وفجور ما بعد متنصف الليل واني في الواقع لا أجد عذراً [لروستيوس] في انشغاله بهذه الكتب وهو في ساحة الحرب. إلاّ ان الپارثيين بسخريتهم من الحكايات الميليسية، نسوا أن كثيراً من أفراد الأسرة الارشاقية التي تحكمهم قد خرجوا من ارحام مخطيات [آيونيات وميليسيات]!

كان الملك [هيرودوس] وقتذاك قد توصل الى صلحٍ مع الملك الأرمني. وزوج ابنه [پاكوروس Pacorus] من اخت ملك الأرمن. وكانت المآدب والولائم التي اقيمت بهذه المناسبة أفخم من ان توصف. وتخلّل ذلك تمثيل أغريقي والقاء مختلف المقطوعات الشعرية الأغريقية امام الملكين. [فهيرودوس] لم يكن يجهل تلك اللغة ولا آدابها، وارطاڤازديس كان متبحراً فيها بحيث ألف بها في التاريخ والخطب، وله عدة تراجيديات. وما زال قسم من مؤلفاته موجوداً الى يومنا هذا.

لما جيء برأس [كراسوس] كانت الموائد قد رفعت لتوها وبدأ ممثل تراجيدي من [تراليس Tralles] يدعى [جاسون] في انشاد المشهد الخاص بـ[آغاڤه Agave] من مرسحية الـ[باخيّات Bacchae] ليوريپيدس والإطراء ينثال عليه، والاستحسان يرتفع من حوله. ودخل [سيللاك] القاعة وسجد للملك، ثم القى برأس [كراسوس] في وسط الحفل. فأستقبله الپارثيون بفرح وهتاف، وجلس [سيللاك] بأمر من الملك بينما نزع جاسون ثياب دور [بنثيوس Pentheus] الذي كان يتقمصه ودفع بها لأحدى راقصات الجوق وتناول رأس [كراسوس] بيديه وراح يمثل دور [پاخانتيه Bacchantes] وهي في حالة وجدٍ وانجذاب، ثم أنشد المقطوعة التالية بصوت مؤثر عاطفي يأخذ بمجامع القلب:

اليوم اصطدنا طريدة جبّارة...

وعدنا من الجبل بقنيصة كريمة.

فطار الحُضّار فرحاً وهللوا له، ولكن لما بلغ من غنائيته هذين البيتين:

اي يدٍ محظوظة ذبحت هذه الضحية الممجدة؟

اني أدّعي بهذا الشرف لشجاعتي!

نهض من الحاضرين [پوماشاترا] وتقدم يريد أخذ الرأس قائلاً:

- انه من حقي لا لأحد غيري.

فامتلأ الملك سروراً وعلى عادة البارثيين فرق تالنتاً واحداً على الرسل ولم يستثن [جاسون] من هذه الهدية.

تلك هي الهزليات التي مثلت في أعقاب مأساة حملة [كراسوس] على ما قيل لنا. فكانت أشبه بالمقطوعات الختامية للتراجيديات. على أن العدالة الالهية لم تتأخر في انزال العقاب [بهيرودس] لقسوته وبـ[صوران] لنكثه بعهوده فقد نقم عليه الملك بعد قليل وغار منه لتعاظم سلطانه ففتك به. وسقط الملك نفسه فريسة مرضٍ عضال بعد فقده ابنه [پاكوروس] في معركة مع الرومان، وتحولت علته الى داء الاستسقاء. فأعطاه ابنه الآخر [فرهاد Phraates] جرعة من منقوع خانق الذهب [سم الاكونيت] ليخمد انفاسه، إلا أن السمّ أفلح في ازالة المرض عنه وشفى به فجأة. فاضطر [فرهاد] الى اختصار السبيل بخنقه.

أوجه المقارنة بين كراسوس ونيقياس

في مجال المقارنة ما بين هذين الرجلين. قد يجمل بنا أن نبتديء بمضاهاة غنى الواحد بالآخر، وهنا يجب علينا الأقرار بأن [نيقياس] حصل على ثروته بطرق أكثر نزاهة من [كراسوس]. إن المرء لا يسعه الإقرار بشرعية جمع الثروة من أعمال الناجم بحدّ ذاتها، فأغلب الجهد فيها يقع على كاهل البرابرة والمجرمين المحكومين، وبعضهم يكدح فيها وهو مكبلٌ بالسلاسل، ويدفعون حياتهم ثمناً لهذا وهم يكدحون في باطن الأرض والمناطق الموبؤة التي تزخر بالأمراض. ولكن لوقارنا هذا بما جمع [كراسوس] من مصادرات [سيللا] واغتصابه وما حصل عليه من صفقات المنازل التي أتت عليها النيران، نجد [نيقياس] انزه في جمع الثروة من كراسوس بما لا يقاس. لقد استخدم كراسوس اساليب انماء ثروته علناً وأعتبرها من قبيل الحرفة، كما يحترف الآخرون الزراعة مثلاً، ولم يتعفف عن الربا والفائدة، أمّا الوسائل الأخرى التي كان يوصم بها فينكرها عندما يجابه بها كبيع صوته في مجلس الشيوخ لمن يدفع الثمن الأعلى، والإضرار باصدقائه وملاحقة النساء والتغاضي عن المجرمين في سبيل المال، فمثل هذا لم يؤثر عن [نيقياس] قط لا صدقاً ولا كذباً، حتى انه لم يخطر بالبال اتهامه بشيء من هذا. وانما كان الناس يسخرون منه لأنه يدفع مالاً لأولئك المبتزين الذين اتخذوا عادة ثلب الناس ونهش اعراضهم حرفة لهم، جبناً منه ليس إلاّ. وهو أمر ان لم يكن يليق [بأريستيدس وبيركلس] مثلاً، فانه ضروري لمن تنقصه الثقة بالنفس. وقد أقّر [ليكورغوس] الخطيب الجماهيري بهذا اقراراً صريحاً عندما أتهم بأنه أشترى وثائق وادلّة قانونية فقال: إنه مسرور جداً لاتهامه بالعطاء لا بالأخذ بعد أن خدمهم وادار شؤونهم العامة هذه المدة الطويلة.

ويمتاز [نيقياس] على [كراسوس] باختياره وجوه للإنفاق أصلح وأجدى من الناحية العامة. فقد كان يتفاخر ويعتزّ بما يوقف من أموال ويهدى للمعابد، وبالاشراف على الالعاب الرياضية وتنظيمها وتأمين الفرق التمثيلية واجواقها، وتزيين المواكب الدينية العامة، في حين كانت

وجوه انفاق [كراسوس] منصرفة الى اقامة الولائم ثم توفير الطعام لعشرات الألوف، وهذا أكثر بكثير مما ملكه [نيقياس] وانفقه في شتىّ الوجوه، طوال حياته. ومن هذا لا يملك المرء إلاّ ان يعجب عن قصورهما في ادراك هذه الحقيقة وهي أن الرذيلة عقبة ونقيض للعادة، ومن أمثال ذلك كسب الاموال بالسحت والحرام وتبذيرها بهذا السفه والطرق السيئة. ولنكتف هنا بهذا القدر من الحديث عن ثروتيهما.

أمّا عن تصريفهما الشؤون العامة فأنا لا أجد في تصرفات [نيقياس] مما يوآخذ عليه من الغش أو الظلم أو المحاباة، بل كان ضحيّة حيل [الكيبياديس] والا عيبه. وهو والحق يقال دقيق نزيه في تعامله مع الشعب. أمّا [كراسوس] فقد كان أكثر اللوم ينصبّ عليه بسبب سرعة تقلبه في صداقاته وعدواته، واشتهاره بقلّة الاخلاص، وبوسائله الدنيئة المنحطة. التي لا يعتبرها عيباً. فهو مثلاً لا ينكر انه المستأجر رجالاً للاعتداء على [دوميتيوس] و[كاتو] لأجل فوزه بالمنصب القنصلي. وكيف انه في الاجتماع العام الذي عقد لاجل اسناد حاكميات الأقاليم تسبب في قتل اربعة اشخاص وجرح الكثيرين، بل وجّه بيده لكمة [للوشيوس اناليوس Lucius Analius] عضو الشيوخ لمقاطعته الكلام، فترك المضروب القاعة والدم يسيل من وجهه، وقد أغفلت ذكر هذا في سيرة حياته. وان نحن وجهنا اللوم لكراسوس، بسبب استبداده وعنفه في أساليبه، فيجب أن نوجّه مثله من اللوم الى [نيقياس] لجبنه وتردده اللذين جعلاً منه رجلاً إمعّة يطيع احطّ الناس ويخضع لهم. وكان [كراسوس] من هذه الجهة أكثر أنفةً وأعظم منه شعوراً بالكرامة وعزة النفس، فلا يتدنى لأمثال [كليون، أو هيپربوليس]، فيعمل على محاكاة مآثر قيصر، ويطمح الى أمثال مواكب نصر [پومپي] الثلاثة، فلا تراه ناكصاً محجماً، بل كان يهاجم بكلّ جرأة وصالحهما المشتركة، فينال منصب [السنصور] متفوقاً حتى على [پومپي]. وعلى رجل السياسة ألاّ ينظر الى الشيء بالنسبة الى عواقبه ومخاطره، بل بقدر ما هو نبيل القصد وهذه هي العظمة التي تجعله يتغلب على الغيرة ويقهر الحسد. اما اذا كان [كنيقياس] ينشد على الدوام الأمان والهدوء، ويمتلئ خوفاً من [الكيبياديس] كلما ارتقى المنبر ويخشى اللقيديميين وهم في [پيلوس]، ويفرق من [پرديكاس Perdicas] في تراقيا، فما عليه الاّ ان ينتهز لنفسه أول فرصة لأعتزال السياسة والجلوس خارج ضجّة الحكم، «لينسج من خموله أكليل غاره» على حدّ قول أحد السفسطائيين. إن رغبته في السلام وانهاء الحرب كانت في الواقع مطمحاً آلهيّاً قدسيّاً، يسمو به جداً على [كراسوس] ويبتعد عن مجال المقارنة، وان كان هذا الأخير قد وسع أملاك الامبراطورية الرومانية الى بحر قزوين والمحيط الهندي.

وفي الدولة التي تتسمَ ببعض اتجاه نحو الفضائل، ينبغي للرجل القويّ الاّ يفسح مجالاً للمكروهين، ولا أن يعرض الحكم على من يعجز عنه، ولا أن يضع ثقة عاليةً في من تعوزه النزاهة السياسية، إلاّ ان [نيقياس] بانكماشه وجبنه افسح سبيلاً [لكليون] وهو شخص لا ميزة فيه إلاّ قوة صنجرته وصفاقة وجهه، ورفعه الى قيادة الجيش. والحقيقة هي اني لا أريد هنا أن أمتدح [كراسوس] القائد المندفع للحرب ذلك الاندفاع الذي غلب عليه الحذر والفطانة في حروب [سپارتاكوس]، وان كان هذا الاندفاع بداعي الكرامة والحرص على السمعة لئلاً يحرمه قدوم [پومپي] أمجاد تلك الحرب. كما فعل [موميوس] بمتيللوس عند الاستيلاء على [كورنث]. إلاّ ان تصرف [نيقياس] لا ينفع فيه عذر، فهو لم يقتصر على التنازل عن مجرد فرصة في الحصول على السمعة والتكريم، بل حمد وشكر خلاصه من المهمة وترك جمهوريته للمقادير أعتقاداً منه أن الحملة ستكون محفوفة بالأخطار. وفي الوقت الذي رأينا كيف تقدم [تمستوكلس] للاضطلاع بالقيادة، خشية أن يستولى عليها شخص حقير غير كفء، فرشح نفسه للزعامة عندما تأزم الوضع وحزبت الأمور غير هيابٍ ولا وجل، مدفوعاً برغبته الى خدمة بلاده، نجد [نيقياس] يشغل نفسه بصغائر الحملات العسكرية وتوافهها كحملته ضد [مينوا Minoa] و[كيثيرا] والميليين Melians التعساء، فاذا آل الأمر الى حَدّ الاشتباك باللقيديميين، رأيته ينضو عنه بُزة الجنرال ويسلمها لغباء [كليون] وطيشه مع الاسطول والسلاح والجنود والقيادة والادارة حيث يتطلب منتهى البراعة والخبرة. أقول أن سلوكاً كهذا لا يمكن ان يوصف بقلة الاكتراث الفظيع بالسمعة مثلما يوصف باهمال مصالح الوطن والاستهتار بحفظ كيانه. وعلى هذا عندما اتفق أنه أجبر على الحرب الصقليّة كرهاً عنه، وحمل الى القيادة حملاً، أعتقد الناس عامةً ان ايمانه بصعوبة الحملة لم يكن ايماناً صادقاً وانما تغطية لحبّه الراحة، وجبنه وتخوفه من أن تفشل مدينته في فتح صقلية. واذا نظرنا الى الأمر من وجهة نظرٍ أخرى فبإمكاننا أعتبارها أعظم دليل على استقامة ونزاهة فيه فقد كان على الدوام يعارض في الحرب ويمجّ القيادة العسكرية، وبنو قومه لا ينفكون عن اسناده اليه لأنه في نظرهم أفضل وأقدر وجنرالاتهم. واما [كراسوس] في طموحه الدائم الى القيادة، فلم يدع اليها الاّ عند الضرورة الملّحة في حرب العبيد. لأن پومپي وميتللوس، والأخوين لوكوللوس كانوا غائبين عن البلاد، في حين كان آنذاك قد بلغ اوج الشهرة والصيت. حتى أولئك الذين كان رأيهم عالياً فيه الظاهر أنهم نظروا اليه تلك النظرة التي ينطبق عليها قول الشاعر الكوميدي:

«بطلٌ في كل مكان، إلاّ في ساحة الوغي».

على كلّ حال كان الرومان لا يمكلون دفعاً لميله الشديد الى القيادة وحبه للظهور. لقد ارسل الآثينيون [نيقياس] الى الحرب ضدّ رغبته، وقاد [كراسوس] الرومان الى الحرب ضد رغبتهم فجلب المصائب لروما. وجلبت آثينا المصائب لنيقياس، وهذا على أية حال مدعاة لمديح نيقياس أكثر من أن يكون مدعاة لتخطئة [كراسوس]، فتجاربه وصواب احكامه في الشؤون الحربية ابتعدت به عن الانحراف وراء الآمال الخادعة التي تبناها بنو قومه، وجعلته يأبى الايمان بفكرة امكان فتح صقلية. أمّا [كراسوس] فقد أخطأ في ظنّه ان حربه مع الپارثيين ستكون حرباً سهلةً، وكان الشوق والرغبة تدفعه وهو يرى [قيصراً] يخضع بلاد الغال والجرمان وبريطانيا - الى اكمال فتوحات [پومپي ولوكوللوس] بالتقدم من ناحية الشرق حتى المحيط الهندي، ويفتح آسيا كلها. و[پومپي ولوكوللوس] هما من اصلب الرجال عزماً وأعزهم جانباً وأكثرهم كفاءة؛ وافكارهما عين أفكار [كراسوس] وأهدافهما أهدافه.

لما عين [پومپي] لهذه القيادة قبل [كراسوس] وقف اعضاء مجلس الشيوخ معارضين. ولما هزم [قيصر] ثلاثمائة ألفٍ من حجافل الجرمان. كان أقتراح [كاتو] أن يُسلّم هذا القائد المنتصر الى عدوه المهزوم ليوقع به عقوبة النكث بالعهد، في الوقت الذي كان الشعب يردّ على [كاتو] بأظهار أقصى درجة من الفرح، وأعلن عيداً رسمياً امده خمسة عشر يوماً أحتفاء بالنصر! فماذا سيكون شعور الشعب وكم ستطول أعياده لو بعث لهم [كراسوس] من بابل انباءً عن انتصاراتٍ وزحفٍ الى الامام أدّى الى اخضاعه بلاد مادي وفارس، والهيركيين، ومدينة [سوسه] وبلاد بختيريا، وضمها الى الممتلكات الرومانية؟

يقول [يوريبدس] ان لم يكن من عمل السوء بُدّ، وان عافت انفسنا الرضا بالسلام وعجزت عن فعل الخير، فلنتحاش ان تؤدي تصرفاتنا الى نتائج مؤسفة مثل تدمير [منده Mende] أو [سكانديا Scandia]، أو الفتك بالمنفيين [الايجنتان] وهم في مخابئهم التي لجأوا اليها هرباً كالطيور الوجلة المطاردة بعد أرغامهم على ترك ديارهم أرغاماً؛ بل دع تلك الأعمال تنصرف الى أطلاب ما يكون جزاؤه على قدر مشقته، وان لا نبتعد كثيراً عن جادة العدل، ولا نعتبر هذه الفضيلة من الصغائر والتوافه فنزل عنها لقاء ثمن صغير تافه.

هذا وان الذين يمتدحون غزوات الاسكندر المقدوني، ويعيبون غزوات [كراسوس] انما يحكمون على الأعمال بخواتمها ونتائجها، وهو حكم لا أبالك - ظالم أهوج يجافي العدل والانصاف.

ولقد أظهر [نيقياس] في الخدمة الفعلية الكثير مما يستأهل عنه الثناء العاطر، فياما دحر العدوّ في ميادين القتال وياما كاد يستولي على صقلية. وعلينا أن نقرّ في هذا الباب أنه

ليس من الصواب تحميله كل الملام في هذه النكبة وأن كان جانب منها يُعزى الى علّته ومرضه والى الحسد الذي كان ابناء بلده يحملونه له. أمّا [كراسوس] فقد بلغت أخطاؤه حداً انه لن يفسح للحظّ سبيلاً ليحابيه بشيء فلا عجب أن نرى رقاعته توقعه فريسة سهلة للپارثيين، على ان العجب الوحيد فيها ان توقع بروما نكبةً وهي التي ظلّ حسن الحظّ يواكبها حتى تعودته ولو نظر المرء الى خلق [كراسوس] نظرة فاحص دقيق لوجده كم كان قليل الايمان بالعرافة والنبوءات. وبما ان نهايته ونهاية [نيقياس] كانتا متشابهتين فمن العسير ان نصل الى نتيجة مقنعة. ومع هذا فان خطأ الافراط في الحذر الذي يدعمه رأي قديم ورأي عام لهو مما يستحق الصفح والإغضاء، لا كالارادة الواحدة الشخصية المندفعة اندفاعاً أهوج.

ومع هذا فقد كانت ميتة [كراسوس] أشرف واسمى من ميتة قرينه، فإنه لم يستسلم ولم يقيد نفسه بعهدٍ ولم يؤخذ بخداعٍ وانما راح ضحيةً لتوسلات اصدقائه، ولغدر أعدائه، في حين زاد [نيقياس] من عار موته بتذلله وخنوعه الذي دفعه اليه أمل في نجاةٍ مخجلةٍ ذليلة يحفّ بها العار.

١٩٦٨/٨/٥

سرتوریوس

SERTORIUS
(Quintus)

123 – 72

ليس مما يدعو الى العجب الشديد أننا نجد في مسرى حقبة من الزمن طويلة وفي اثناء سلوك الحظّ سبله المختلفة هنا وهناك - وقوع صُدف عفوية كثيرة جداً تجلّ عن الحصر. واذا ما كانت العوامل العديدة المتنوعة التي تؤدي الى هذه الصُدف مما لا نهاية له. فقد يكون أسهل على الحظّ بما يملكه وسائل لا تحصى أن يأتي بمثل هذه النتائج المتشابهة. هذا واذا كانت الأحداث والوقائع محددة بعدد معين من المقدمات والتوطئات فكثيراً ما تظهر النتائج متشابهة بحكم الضرورة، وعلى نفس الوتيرة والتوالي.

وثم من يجد متعة خاصة في جمع هذه الوقائع وتصنيفها في مجموعات على أساس التشابه مما قرأوه وسمعوه وقصدهم من ذلك أظهارها وكأن قوى مفكرة عاقلة اعدتها وخططت لها. فهم يذكرون مثلاً شخصيتين بارزتين كلاهما اسمها [آتيس Attis] الاول سوري والثاني اركادي وكلاهما فتك به خزير وحشي، كذلك يقدمان شخصين باسم [آكتيوس Actæon] أولهما نهشته كلابه نهشاً وثانيهما قطعه عشاقه اشلاء، ويتحدثون عن عظيمين باسم [سكيپيو] أحدهما هزم القرطاجينين في ميدان القتال والآخر قضى عليهم قضاء مبرماً. ويقولون ان أول أحتلال لطروادة الذي تم على يد هرقل كان سببه الخيل التي وعده بها [لاوميدون]، وان آغاممنون الذي كان ثاني محتل لها، دخلها بحيلة الحصان الخشبي الكبير المعروفة. وان [خاريديموس Charidemus] استولى عليها بانتهازه صدفة سقوط حصان من الأعلى في المدخل فاعاق الطروادين عن سَدّ بابه في وجه العدوّ المهاجم بالوقت المناسب، وهم يتحدثون أيضاً عن مدينتي [ايوس Ios] و[ازمير Smyrnie] الأولى جاء اسمها من زهرة البنفسج، والثانية من نبتة المرّ، وقيل ان هوميروس الشاعر ولد في الأولى، وتوفي في الثانية. ولنا أن نسير على هذا المنوال من تصنيف الحوادث والاتفاقات لنذكر أن أعظم القادة وأكثرهم اقداماً وبراعة في تنظيم الخطط كان في عيونهم عوار مثل [هنيبعل] و[فيليپوس] و[انتيغونس] و[سرتوريوس] الذي سنأتي فيما يلي الى سرد وقائعه الحربية وأعماله، انه ذلك الذي يحق لنا القول عنه بأنه كان أكثر نزاهة من [فيلپوس] وأشد أخلاصاً للصديق من [انتيغونس]، وأرحم باعدائه من [هنيبعل]. واما في اصالة الرأي وسرعة الخاطر فليس فيهم

من يباريه إلاّ انه كان انكدهم حظاً. ومع انه ظلّ يجد في الهة الحظّ ادباراً ومعاندة يفوقان ما لقيه من أعدائه الظاهرين فقد بقي صامداً لا تلين قناته يواجه براعة [ميتللوس] العسكرية [يومبي] وحسن حظّ [سيللا]، وقوى الشعب الروماني التي اجتمعت عليه وهو الرجل الغريب في بلد اجنبيّ لا قوة له إلاّ ما تهيأ من محاربي البرابرة. وربما كان [يومينوس الكارديّ] خير قرين له بين قادة الاغريق العسكريين فكلاهما خلق للحرب والقيادة ورسم الخطط وكلاهما نفي من بلده، وقاد رجالاً من الأجانب، كذلك كان نكد خطهما متساوياً وقد بلغ في أواخر أيامها حداً من القسوة انهما قتلا غدراً بأيدي من هم تحت أمرتهم، ومن كانوا عوناً لهم في التغلب على خصومهما.

انحدر [كوينتوس سرتوريوس] من أسرة نبيلة، وكان مولده في مدينة نورسيا في بلاد السابين وتوفي ابوه وهو صغير فقامت امه [ريا Rhea] على تربيته تربية عالية محتشمة. ويظهر انه كان يجلّها ويحبّها حباً لا مزيد عليه. وقد اولى بعض اهتمام الى مدارسة الخطابة والمرافعات القضائية ونال بفصاحته بعض السمعة والنفوذ في أوساط روما.

وفي مبدأ حياته العمليّة خدم تحت إمرة [كيپيو Cæpio] حينما غزا [الكيمبري] و[التيوتون] بلاد [الغال]. وكان الرومان يعانون الهزائم ولا يحرزون اي نجاح. فأصيب في أحدى معركها بجراح في عدة انحاء من جسمه وفقد جواده، لكنه عبر مع ذلك نهر الرون سباحةً وهو مشتمل بزرده وشكة سلاحه ومجنّه وقاوم التيار العنيف ونجا، فقد كان يتمتع بجسم قويّ، عجمت المشاق عوده.

وفي المرة الثانية لتدفق [الكيمبري] و[التيوتون] بجموعهم الغفيرة التي تقدر بمبلغ مئات الالوف، مهددين كل شيء بالموت والدمار الشامل. لم يكن مما يحبب للجندي الروماني الخدمة والبقاء في سلك الجيش واطاعة القائد، شيء. وفي هذا الظرف الدقيق ايام كان [ماريوس] قائداً للجيش، قبل [سرتوريوس] أن يقوم بمهمة الجاسوس في معسكر الاعداء. وتزيّا بزيّ [كليتيّ] وحفظ شيئاً عن تعابير لغتهم، مما هو ضروري لتبادل الحديث الاعتيادي. والقى بنفسه بين البرابرة. وبعد أن تزود من الأشخاص فيها بالمعلومات المطلوبة عن أحوالهم. قفل عائداً الى [ماريوس] لينال من يديه جزاء الشجاعة. وقدّم بعد ذلك كثيراً من الأدلة على بسالته وحسن سلوكه فما تلا في هذه الحرب. وتدرجّ في مناصب الشرف والثقة تحت امرة قائده حتى نهاية حرظوب [الكيمبري] و[التيوتون]. حيث أرسل بعدها الى اسپانيا بمنصب قائد الف تحت أمرة [ديديوس Didius] القائد الروماني. فأمضى شتاءه في بلاد [الكلتيبيريين Celtiberians] داخل عاصمتهم [كاستولو Castalo] وقد أفسدت الملذات

الجنود هناك، وتمردوا على الأوامر، وعكفوا على الشراب وهكذا حتى أصبحوا موضع أحتقار الأهالي وأشمئزازهم، حتى انهم طلبوا من جيرانهم الأقربين [الجيرسيونيين Gerisœnians] العون. فجاءهم هؤلاء ليلاً وانقضوا على الرومان وهم نيام وأوقصوا بهم مقتلة عظيمة. وتمكن [سرتوريوس] بقلّة من الجنود من ترك المدينة. وما لبث ان نظم صفوف بقية الهاربين وتقدم من الأسوار ودار بها حتى وجد الباب السري الذي دخل منه [الجيريسونيون] مفتوحاً. فلم يدع لهم أية فرصة ووضع حارساً عليه. ثم سيطر على أحياء المدينة وذبح كل قادر على حمل السلاح من القاطنين. وأمر جنوده فنزعوا أسلحتهم وثيابهم العسكرية وارتدوا ازياء البرابرة. ثم قادهم الى المدينة التي فأجاءه رجالها ليلاً وذبحوا جنوده الرومان. فخدع أهاليها بمظهر الزيّ والسلاح اللذين البسهما جنوده. ووجد ابوابها مفتوحة فدخلها وأخذ عدداً كبيراً من الأسرى الذين خرجوا الاستقباله وهم يحسبونهم رفاقهم وأهل مدينتهم عادوا من حملة ناجحة. فذبح الرومان معظمهم في مدخل المدينة. أما من سَلّم نفسه في الداخل فقد بيع في سوق العبيد.

هذا العمل سبب في اشتهار أمر [سرتوريوس] وعلّو صيته في طول أسپانيا وعرضها. حتى اذا عاد الى روما، ما لبث ان عُين بوظيفة [كويستور] في بلاد الغال الجنوبية [Cisalpine] وكانت ظروف تعيينه موآتيةً جداً لبلاده اذ كانت الحرب [المارسية Marsian] على الأبواب وطلب من [سرتوريوس] تعبيئة وسوق الجنود وتوفير السلاح. فأنجز ما أنيط به بغيرة وكفاءة وسرعة تختلف تماماً عن ضعف وتقاعس الضباط الآخرين الذين يعادلونه سنّاً. حتى نال شهرة من ستكون حياته وقفاً على الحرب والنضال. ومع وصوله الى منصب القائد، فانه لم يترك جانباً واجب الجندي وحقق المعجزات بيديه، ولم يكن يضن بمهجته، بل كان يعرض وجوده وكيانه دونما تحفظ أو احجام في كل قتال ناشب ففقد بسبب ذلك أحدى باصرتيه. وكان على الدوام يرى شرفاً له أن يتحلّى بأوسمته وشاراته ودلائل بسالته في حين يترك الآخرون جانباً تقلّد سلاسلهم الذهبية وحرابهم وتيجانهم ولا يحملون دائماً البراهين على بسالتهم. وكانت حجته في ذلك ان من رأى عثرات حظّه وسوء طالعه يجب أن يرى في الوقت نفسه دليل مؤهلاته ونجاحه ولم يكن الجمهور يبخل عليه بالاحترام الذي يستحقه فيستقبله كلما دخل الملعب بالحفاوة وهتاف الإعجاب، وهو شرف قلما كان يسبغه الشعب على ذوى المناصب الرفيعة والشهرة المستفيضة المتواترة. ومع شعبيته هذه فقد فشل عندما رشح نفسه لمنصب [تريبيون الشعب]. أخطأه التوفيق لأن حزب [سيللاّ] كان يعمل ضدّه، ويظهر أن هذا هو السبب الرئيس للعداوة التي ظهرت بعدئذ فيما بينهما.

بعد أن أستظهر [سيللاّ] على [ماريوس] وحمله على الفرار الى افريقيا، وبعد أن ترك [سيللا] ايطاليا ليقود الحملة العسكرية على [ميثيرداتس]. وبقاء القنصلين [اوكتافيوس] و[سنّا]، ورغبة [سنّا] في القيام بثورة جديدة على حكم [اوكتافيوس] المحافظ على سياسة [سيللاّ]. ومحاولته اعادة حكم [ماريوس]، أختار [سرتوريوس] الانضمام الى حزب [سنا] لأسباب أخصها أنه لم يجد في [اوكتافيوس] الكفاءة والاهليّة للحكم، وان كان من الجهة الأخرى يشك في كل من هو صديق [لماريوس]. وبنتيجة هذا الحلف نشبت المعركة الكبرى في [الفورم] بين القنصلين، وأستظهر [اوكتافيوس]. وخسر [سنّا] و[سرتوريوس] فيها ما لايقلّ عن عشرة آلاف رجل، فتركا المدينة. وحققا السيطرة على معظم الجنود المتفرقين في انحاء ايطاليا، وتمكنا في وقت قصير من تحشيد قوة ضدّ [اوكتافيوس]، تكفي لمجابهته في معركة ثانية وفي اثناء ذلك أقلع [ماريوس] من افريقيا الى ايطاليا ووضع نفسه تحت أمرة [سينّا] كجندي بسيط يأتمر بأوامره ويطيعه بوصفه قائداً وقنصلاً.

وكانت الغالبية تحبذ الأسراع في قبول عرض [ماريوس] إلاّ أن [سرتوريوس] عارض في الأمر معارضة صريحة، مدفوعاً أمّا لخوفه من هبوط منزلته عند [سينّا] بعد مجيء شخص يفوقه شهرة عسكرية وامّا لخشيته من العنف الذي أتسم به [ماريوس]، وما ستولده روحه الانتقامية وحقده المتأصل المفرط من المآسي والفوضى بعد تحقق النصر لهم. والحّ في ذلك على [سينّا] بقوله: ها أن النصر مستتب لنا، مضمون، ولم يتبق غير القليل ولو قبلنا عرض [ماريوس] لحرمنا ثمار النصر ومجد الحرب. وليس هناك من هو أصعب تعاملاً، وأقل أهلية بالثقة [كماريوس] فأجاب [سينّا] بأن [سرتوريوس] مصيب في حكمه، إلاّ انه يشعر بالحيرة والخجل تجاهه ولا يدري كيف يبعده، وبأية وسيلة يرفض عروضه بعد ان ارسل هو نفسه بطلبه، ورغب منه أن يشارك في حظوظه. فأسرع [سرتوريوس] يجيب بقوله: كنتُ أظنّ ان [ماريوس] جاء الى ايطاليا من تلقاء نفسه. وعلى هذا الأساس يناقشه فيما هو يجب أن يقبل او لا يقبل الرجل الذي دعاه بنفسه. بل يتحتم عليه أن يكرم وفادته ويستخدمه. فان الكلمة التي خرجت من فمه لا تدع اي مجال للنقاش. وهكذا تمت دعوة [ماريوس]. وقسمت القوات الى جيوش ثلاثة بقيادة [سينّا] و[ماريوس] و[سرتوريوس] وتم لهم النصر. إلاّ ان الجنود الذين كانوا تحت أمرة [سينا] و[ماريوس] طفقوا يرتكبون كل أنواع المظالم ويأخذون بكل ضروب القسوة، حتى جعلوا الرومانيين يرون في ويلات الحرب عهداً ذهبياً ونعمة بمقارنتها بما ذاقوه على يد هؤلاء بعد انتهائها. وبعكس ذلك فقد أُثر عن [سرتوريوس] بأنه لم يقتل شخصاً واحداً وهو في سورة من الغضب. أو شفاء لغلٍّ أو أخذاً بثأر. ولم يلحق الذّل

والعار بمن استظهر عليه. بل كان يتميزّ غيظاً، ويتلظى حنقاً من أعمال [ماريوس]، كما كان يرجو [سيناً] بالحاحٍ وبالسّر، إن يعتدل في استخدام سلطاته.

وبلغ السيل الزبى بالفظائع التي أقدم عليها جنود [ماريوس]. فهؤلاء كانوا من العبيد الذين حررّهم عند نزوله برٌ ايطاليا، ليزيد بهم عدد جيشه. لم يكتف بجعلهم أخواناً له في الحرب مساوين للجنود الآخرين، بل نصبهم حرساً شخصياً له وأطلقهم يعيثون فساداً ويرتكبون المحرمات والكبائر ويزدادون عتواً وغياً بتسامحه وتغاضيه عما يرتكبونه، أو بالقائه الأوامر عليهم، فخرقوا كلّ قانون واقترفوا على انواع الجرائم: قتلوا اسيادهم، واغتصبوا زوجاتهم واعتدوا على أطفالهم. فلم يستطع [سرتوريوس] صبراً عليهم، فباغتهم بجنوده وهم نائمون في معسكراتهم وجزرهم طعناً بالرماح والسيوف وكانوا يعدون أربعة آلاف.

ثم توفي [ماريوس]، واغتيل [سينّا] بعده بقليل. ونصب [ماريوس] الأصغر نفسه قنصلاً خلافاً لرغبة [سرتوريوس]، وضدّ أحكام القانون. وفشل [كاربو Carbo] و[نوربانوس Nor-banus] و[سكيپيو] في حربهم مع [سيللاّ] الذي راح يزحف نحو روما. وضاع الشيء الكثير بجبن وأهمال القادة، كما ضاع الأكثر منه بخيانة حزبهم. وعمّ الاضطراب كل شيء لافتقار كبار القادة الى البصيرة في حسن تصريف الأمور. فوجد [سرتوريوس] ان وجوده لا معنى له ولا فائدة فيه. ثم أدركه اليأس التام أخيراً عندما ضرب [سيللاّ] معسكره بالقرب من معسكر [سكيپيو] متظاهراً له بالصداقة، وجاعلاً آماله تتركز في السلام، فأفسد بذلك جيشه عليه، ولم يفلح [سرتوريوس] في تنبيه [سكيپيو] الى ما بُيت له مع أنه انذره. فترك روما وأسرع الى اسپانيا ليسيطر عليها ويؤمن لاصدقائه ملجأ ومهرباً مما كان ينتظرهم في الوطن. فصادفه في رحلته طقس رديء، ولقي مشاق ومقاعب في قطعه بلاداً جبليّة كان سكانها يستوقفونه ويطلبون منه مالاً وأتاوات أجر مروره، وفيذعن لهم صاغراً حتى نفذ صبر رفاقه وسخطوا عليه، لأنه كان يدفع - وهو [الپروقنصل] الروماني أتاوة، لشراذم من البرابرة الحقراء. إلاّ أنه لم يلق بالاً على سخطهم وخفف وقع الأمر عليهم قائلاً «إن ما يرونه من مظاهر المسكنة والذلة، انما هو لشراء الوقت، فالوقت هو أثمن شيء عند من يسعون في اطلاب العظائم» وهكذا اسكت البرابرة بماله وغذّ السير حتى بلغ اسپانيا وبسط عليها سلطانه وكانت بلاداً زاهرة، عامرة بالسكان يكثر بينهم القادرون على حمل السلاح. على أنهم كانوا يكرهون سيادة روما بسبب اطماع ومظالم الحكام الذين ترسلهم اليهم بين الفينة والفينة. ومهما يكن فقد تمكن [سرتوريوس] بوقت وجيز من نيل محبّة أشرافهم بالامتزاج بهم. وظفر

بثقة الشعب، واحترامه، عندما عمد الى تخفيض الضرائب عنهم. ألاّ أن ما قرب قلوبهم منه هو اعفاؤهم من واجب استضافة جنود الرومان، واخراجه وحدات جيشه من المدن واسكانهم في معسكرات شتوية ضربت في ضواحي المدن وقد بدأ بنفسه قبل الآخرين فضرب ضيمته خارج الأسوار. ألاّ انه لم يشأ أن يضع كلّ اعتماده في حسن نية السكان، فسلّح كل الرومان الذين بلغوا سنّ الخدمة العسكرية. من المقيمين في تلك البلاد، وقام ببناء السفن وصنع كلّ آلات الحرب والقتال. فأمن لنفسه بهذا طاعة المدن التامة. وبدأ انساناً رفيقاً حسن الشمائل في كل ما يتعلق بأمور السلم. وجباراً قويّ الشكيمة تجاه اعدائه بفضل استعداده الحربي.

وما أن وردته الأنباء بأن [سيللا] أصبح سيد روما المطلق وان الحزب الذي كان يمالئ [ماريوس] الاصغر و[كاربو] قد لفظ انفاسه الأخيرة. حتى ايقن بأن قوة ستجرد عليه.

فأرسل [يوليوس ساليناتور Juluis Salinator] على رأس جيش قوامه ستة آلاف مقاتل كاملي السلاح لتحصين ممرّات جبال البرانس والدفاع عنها. فوجد [كايوس آنيوس] وهو القائد الذي ارسله [سيللا] بعد قليل، أن [يوليوس] صعب المنال. فعسكر على مسافة قصيرة من سفوح الجبال، وهو في حيرة من أمره. إلاّ أن رجلاً يدعى [كالپورنيوس ويلقب لاناريوس:Calpurins, Lanarius] أغتال [پوليوس] وعلى أثر ذلك انسحب جنوده من مرتفعات الجبال فتقدم [كايوس آنيوس] بجيشه اللجب ودحَر كلّ من حاول الصمود امامه أو اعاقة زحفه. ولم يكن [لسرتوريوس] قبَل بدخول معركة معه لأنه لم يكن يملك القوة الكافية فأنسحب الى [قرطاجنة الجديدة] بثلاثة آلاف رجلٍ وركب السفن مقلعاً نحو افريقيا. وبوصوله ساحل [موريتانيا] نزل رجاله الى الساحل ليستجموا ويصيبوا بعض راحة فأنقض عليهم أهل البلاد وهم ملقون جانب الحذر وفتكوا بعدد كبير منهم. فأرغمته هذه النكبة الجديدة على الابحار عائداً الى اسپانيا، إلاّ أنه أصيب ثانية باندحار. وانضم اليه عدد من السفن الخاصة ببعض الكيليكيين فأتجهوا معاً صوب جزيرة [پيتايوسا Pityussa] ونزلوا برّها وتغلبوا على حاميتها النى وضعها [آنيوس]. إلاّ ان [آنيوس] أسرع اليهم باسطول يضمّ عدداً كبيراً من السفن من خمسة آلاف جندي فأستعد [سرتوريوس] لقتاله مع أن سفنه لم تكن سفن قتال بل معدّة بشكل يضمن السرعة، والخفّة. وهبت اثناء ذلك ريح غربية عاصفةً، أهاجت البحر وأصعدت امواجه فدفعت بعدد كبير من سفنه الى اليابسه وتحطمت على الساحل فلم يعد يستطع بسفنه القليلة الخروج الى عرض البحر بسبب أشتداد النوء. كما منع من النزول الى البرّ بسبب رجحان حملة اعدائه فأخذ يهيم على وجهه في البحر عشرة أيامٍ متوالية يتقاذفه الموج الصاخب وتعبث به الريح المعاكسة. ولم ينج الاّ بصعوبة. وانتظر حتى هدأ البحر، فتوجه

الى بعض الجزر القفراء الخالية من الماء التي تكثر في تلك البحار. وبعد قضائه ليلةً هناك ركب البحر ثانية وعَبَر مضايق [قادس] وأنطلق في رحاب البحر المترامي مخلفاً الساحل اليوناني عن يمينه. ثم عاد وأرسى في موضع قريب من أعلى فم نهر [بايتس Baetis]. حيث يصبّ في المحيط الأطلسي، ويمنح اسمه لهذا الجزء من اسپانيا. ولقي [سرتوريوس] هنا، بحارين وصلوا مؤخراً من جزيرتين في المحيط الأطلسي لا يفرق بينهما الاّ برزخ ضيق، ولا تبعدان عن الساحل الافريقي باكثر من عشرة آلاف [فُرلُنغ] وعلم منهم أن الجزيرتين تسميان [بالبركة Blest]. وان المطر هناك قليلٌ وان هطل، فبزّخات معتدلة. ألاّ انهما تنعمان في معظم الوقت بانسام عليلة يصحبها ندىً قليل، وهذا ما يجعل تربة الجزيرتين خصبةً صالحة للزراعة والحراثة. أضف الى هذا أنه يزيد من غنى الجزيرتين بالفاكهة والثمار. فيخرج منهما مقادير عظيمة من الثمر اللذيذ تكفي لسدّ حاجة سكانها الذين يستمتعون بكلّ هذا الخير دون أن يبذلوا فيه عملاً أو جهداً. وفصول السنة فيهما معتدلة والانتقال الفصلي يكون لطيفاً رائعاً حيث يظلّ الجوّ رائقاً منعشاً. لأن الرياح الشمالية والشرقية التي تهب من سواحل افريقيا واوروپا تتبددّ في الفضاء الواسع فتفقد كلّ شدتها قبل وصولها الجزيرتين. وأمّا الرياح الرخيّة التي تهبّ من الجنوب والغرب فتحمل اليهما أحياناً زخات كبيرة لطيفة تحمله اليهما من البحار، ألاّ أنها في أغلب الأوقات تأتي بالرطوبة مع الصحو، فتبردّ التربة وتخصبها. ولذلك شاع وثبت الاعتقاد بأن هاتين الجزيرتين هما منتجع اصحاب البركة والنعمة، وانهما بالذات [الحقول الليسية Lysian] التي أطنب [هوميروس] في وصفها.

ما أن اسمع [سرتوريوس] هذا الوصف حتى تعلّق بهما وأستولت عليه رغبة شديدة في الإقلاع اليهما. والعيش فيهما بهدوءٍ وسلام، آمناً من الاضطهاد بعيداً عن الحروب التي لا تنتهي إلاّ ان القراصنة الكيليكيين الذين أدركوا رغبته، ولم يكن منهاجهم السلام والاستقرار وأنّما كان هدفهم الأسلاب والغنائم والغنى، ما لبثوا أن تخلّو عنه وأبحروا الى افريقيا لمعاونة [أسكالس Ascalis] ابن [إفثا Iphtha] على أعتلائه عرش مملكة [موريتانيا]. إلاّ أن رحيلهم المفاجيء لم يفتّ في عضد [سرتوريوس]، وقرّر مساعدة أعداء [اسكالس]. وكان يرمي بمغامرته الجديدة الى أن يفتح لجنوده أبواباً جديدة من الآمال وميراناً لنشاط جديد، وبذلك يتمّ له الابقاء على وحدتهم وتماسكهم. وكان وصوله [موريتانيا] مصدر رضا كثير من المغارب. ولم يضيع وقتاً دخل المعركة فور وصوله وهزم [اسكالس] ثم حاصره. وكذلك فعل بـ[باجيانوس Paccianus] الذي ارسله [سيللاّ] مع نجدات قوية لرفع الحصار، فقد فتك به [سرتوريوس] في ساحة القتال، وأستولى على كل قواته، ثم أحتل مدينة [تنگيس Tangis]

التي كان [اسكالس] وأخوته قد احتموا بها. كان الأفارقة يقولون أن [انتيوس Antius] مدفون في هذه المدينة. وكان [سرتوريوس] يشكّ في صحة الراوية، بسبب حجم [انتيوس] الهائل. ولكي يبدل شكه يقيناً، أمر بفتح القبر. فوجد جسده مسجى فعلاً، وكما قيل بطول ستين كيوبيت. فكانت دهشته عظيمة جداً وقربّ القرابين، وزاد في تكريم ذكرى [انتيوس].

يقول الأفارقة ان زوج [انتيوس] المسماة [تانگا Tanga] ساكنت [هرقل] بعد موت زوجها، فاستولدها ابناً اسمه [سوفاكس Sophax] الذي ملك البلاد وأطلق اسم أمّه على هذه المدينة. وكان ابنه [ديودورس Diodorus] من أعاظم الفاتحين، أخضع لسلطانه القسم الاكبر من القبائل الليبيّة. وتمكن بجيش من اليونانيين أن يقضي على مستعمرات الأولبيين Olbi-ans] و[الميسينيين Myceneans] التي أنشأها هرقل هنا. واني ما ذكرت هذا استطراداً هنا الاّ تخليداً لذكرى [يوبا Joba] الملك، الذي يعتبر أعظم الباحثين في التاريخ، فقد قيل ان اجداده انحدروا من سلالة [ديودورس وسوفاكس].

ما أن استتب الأمر [لسرتوريوس] في البلاد وصار سيدّها المطلق حتى تفرغ لتصريف شؤون الحكم بمنتهى العدالة بين أولئك الذين وضعوا أنفسهم تحت رحمته وسلموا اليه مقدراتهم. فاعاد اليهم املاكهم المغصوبة وردّ اليهم مدنهم وأطلق يد حكامهم في تدبير شؤونهم. ولم يقبل منهم من الرسوم والضرائب الاّ ما كانوا هم يدفعونه طواعية وعن طيب خاطر. وفيما كان يقلّب وجوه الفكر في اي سبيل يوجه قواته العسكرية، جاءه سفراء [لوزيتانيا Lusitania]، يعرضون عليه قيادة شعبهم. إذ كان الخوف مستولياً عليهم من سلطان روما، ووجدوا من الضروري أن يومِرّوا عليهم قائداً مهاب الجانب محنكاً خبيراً في فنون الحرب. وكانوا على ثقة تامّة ببسالته وشمائله مما سمعوه من كل الذين عرفوه. لذلك أقبلوا وكلهم رغبة في وضع مقدراتهم بين يديه. والحق يقال ان [سرتوريوس] كان كما ذكروا عنه، رجلاً ذا خلقٍ لا يعرف للخوف وللذة معنى. كما كان في المحن والخطوب جَلداً جميع القلب، ولم يكن يغرّه النجاح أو يفقده الموازنة. ولم يعرف عصره قائداً اشجع منه ولا أكثر اقداماً في ساحة النزال، وفي كل ما تقتضيه فنون الحرب من الكتمان والابداع في رسم الخطط، واتقان المباغتة، حين يكون الهدف، موقعاً مستحكماً يجب احتلاله أو ممراً يجب الاسراع في الاستيلاء عليه. وامّا عن حيلة وكره بعدوّه، فليس ثم من كان يضاهيه في الحنكة والدهاء.

وأمّا بخصوص منح الجوائز، والتكريم لمن يقوم بجلائل الأعمال في الحرب فلم يكن أحدٌ يبذه في السخاء والعطاء. كما لم يكن أحدٌ يبذه في بُعده عن الاعتدال، وافراطه المشتط في انزال

العقاب. والحق يقال أن هذا الوجه من الشدة والقسوة الذي ظهر به في ايامه الأخيرة، على الرهائن الاسپانيين، قد يستخلص منه، في الظاهر، أن رحمته لمن تكن خلقاً فيه وطبعاً، بل مظهراً يرتديه كما يرتدي ثوباً فيستخدمها بحسابٍ دقيق حسبما تمليه المناسبة والضرورة. وفي رأيي ان الفضائل الخالصة من الشوائب التي تصدر عن العقل واصالة الرأي لا يمكن ان تمنى قط بانحراف أو يطرأ عليها تغيير الى العكس باية محنةٍ أو خطبٍ. على اني اميل للقول بأن من الممكن في الوقت نفسه ان يطرأ بعض الانحراف والتغير على الفضائل الطبيعيّة عندما تتوالى عليها الرزايا والمحن بغير حقّ أو عدل وبسبب معاندة الحظّ، فتضل اتجاهها كما حصل حسب ظنيّ [لسرتوريوس]. فعندما خانه الحظ وأخطأه النجاح نفد صبره بتكالب المصائب عليه وأوقع بأولئك الذين اساؤا اليه.

بعث [اللوزيتانيون] يستدعون [سرتوريوس] فغادر افريقيا اليهم. وأعطي سلطة قائدٍ مطلقة. ودبرّ شؤونهم كلّها بأحسن وجه... وأخضع كلّ ما جاورهم من الاقاليم الاسپانية. ودخل طاعته أختياراً معظم القبائل، وكان يحدوهم في ذلك ما أشتهر به من الرافة والبسالة. والى حَدّ ما، كان سبب ذلك الولاء يعود الى سعة حيلة وحبكها فيهم وأختراعاته الماكرة التي كانت ذا أثر كبير في خضوعهم لنفوذه وسهولة تأثيره. ولم تكن حيلة الظبيّة هي الحيلة الوحيدة او الأقل شأناً. خرج [اسپانوس Aspanus] وهو مواطن من ابناء تلك الجهات يصطاد مع رفاقٍ له. وأتفق أن وقع على ظبية وصغيرة لها ولدتها حديثاً. فأنفصل عن رفاقه وأخذ يطاردهما ثم أهمل الأم ولحق بوليدها فأمسك به. وكان سروره عظيماً به لأن لون جلده أبيض حليبي، مما يندر بين الظباء. وكان مقر [سرتوريوس] في ذلك الحين على مقربةٍ بين السكان أنه يسرّ كثيراً بما يقدم له من هدايا الأرض، ثماراً كانت أم طيراً أم لحم طرائد، وانه كان ينفح اصحاب الهدايا بعطايا سخية. لذلك قصده هذا المواطن وأهدى له الظبية الصغيرة. فسرٌ [سرتوريوس] وأعجب بها حالما وقع عليها نظره. وتولى ترتيبها مضارت أليفة طيعة بمرور الزمن، وصارت تسجيب لندائه، وتتبعه اينما ذهب وتحتمل غوغاء المعسكر وضجيجه. ولما كان يعلم أن الناس الذين لم يأخذوا بأسباب المدينة يميلون بطبعهم الى الأوهان والشعبذات فقد أحال ظبيته الصغيرة تدريجاً الى مخلوقٍ فائق للطبيعة في نظرهم، وزعم أنها هبة الآلهة ديانا له. وانها تفضي اليه بكثير من الأسرار. وأخذ يعزو اليها كثيراً من نسيج مكره. فمثلاً اذا أتفق وورده نبأ خاص بأن الاعداء اغاروا على منطقة من المناطق التي تقع تحت حكمه، أو اذا أبلغ سِراً بثورة في أحدى المدن، كتم البلاغ ثم زعم أن الظبية قد أبلغته ذلك في نومه أوامرته أن يضع قواته على اهبة الاستعداد. واذا انهي اليه أن أجد قواده قد أحرز انتصاراً، أخفى السُعاة

الذين حملوا له النباء ثم جاء بالظبية متوجةً بالزهر، استعداداً للفرحة بالانباء السارة المتوقعة، وشجع الأهلين على إظهار سرورهم وحثهم على تقريب القرابين للانباء المفرحة التي ستأتيهم عن الانتصار العظيم!

بهذه الأساليب، زاد خضوعهم له وأسلس قيادهم، حتى بلغ الأمر بهم أن أعتقدوا بأن أميرهم هذا ليس شخصاً أجنبياً، وانما هو آله متقمص. وبرهنت الوقائع التالية على ان سلطانه كان يتعاظم باطراد خلافاً لكلّ ما هو محتمل أو متصور. فبألفين وستمائة من الرجال الذي كان يسميّهم رومانيين تشريفاً لهم فحسب، وبسبعمائة أفريقيممن نزل معه برًّ لوزيتانيا. وأربعة آلاف من رماة القسي اللوزيتانيين وسبعمائة من خيالتهم خاض حروباً ضدّ اربعة من القادة الرومان يقودون مائة وعشرين ألفاً من المشاة، وستة آلاف من الخيالة، والفين من الرماة وحملة المقاليع، يقف الى جانبهم ورهن اشارتهم عددٌ لا يحصى من المدن. مقابل عشرين مدينة له في مبدأ الأمر. ومن هذه البداية الهزيلة الضعيفة وصل الى حكم شعوب عظيمة، وأحتل عدداً كبيراً من المدن. وممن أشتبك معه من هؤلاء القواد الرومان [كوتا Cotta] الذي اذاقه مرارة الهزيمة في معركة بحرية داخل برزخ على مقربة من بلدة [مللاريا Mellaria]. ودحر فوفيديوس Fufidius حاكم [باتيكا Bætica] وفتك بالفين من جنوده الرومان، على مقربة من ضفاف نهر [باتيس]. وكانت هزيمة [لوشيوس دوميتيوس Lucuis] (پروقنصل) الأقليم الآخر من اسپانيا، على يد أحد معاوني [سرتوريوس]. وفتك بـ[ثوراتيوس Thoratuis] وهو قائد آخر ارسله [ميتللوس] لقتاله بقوات كبيرة. أما [ميتللوس] هذا الذي كان يعد أعظم جنرالات الرومان، واعلاهم منزلة وثقة، فقد أوقع به سلسلة من الاندحارات وصلت به حالة من البؤس والضيق الى الحدّ الذي الجأ [لوشيوس مانليوس] الى ان يخف نجدته من [غاليا الناربونية].

وأرسل [پومپي] العظيم من روما نفسها على جناح السرعة، بقوات ضخمة. وحار [ميتللوس] في أمره، ولم يدر اي سبيل يسلك في الحرب مع هذا القائد المقدام المتيقظ الذي ما كان يكّف عن التعرض به والاشتباك معه، وان لم يفلح مع كل هذا في جرّه الى معركة فاصلة. اذ أنه كان بالخفة وسرعة الانتقال التي يتميز بها الاسپان يستطيع أن ينقض انقضاضاً مفاجئاً وان يكيف نفسه لكلّ احتمال أو ظروف طارئة. كانت تجارب [ميتللوس] مقصورة على المعارك الأصولية التي تشترك فيها فرق من الجنود النظاميين، بكامل التجهيزات ومعبأة على أسلوب الفلانكس الكثيف الواقف. وكان تدرّبه على مهاجمة وكسر اي عدوّ يلتحم به التحام اليد باليد، مما يثير الاعجاب حقاً الاّ انه كان يعجز عن صعود

الجبال، لا يعرف اسلوب المناوشة المستمرة والهجمات السريعة من الجبليين الذين يمتازون بالخفة الفائقة. كما انه لن يتعود الجوع والعطش مثلهم أو التعرض لتقلبات الريح والمناخ من دون نومٍ أو غطاءٍ. زد على هذا أنّ السنّ تقدمت به، كما ان كثرة المعارك التي خاضها والأخطار التي جابهها في حياته، جعلته أكثر ميلاً الى حياة الراحة والترف وقلت قابليته على مناجزة [سرتوريوس] الذي كان وقتئذ في عنفوان قوته، وفعاليته، بجسمه الذي لم يخلق لغير القتال. كان قوياً نشطاً قابلاً متكيفاً، مستعداً دائماً لاحتمال اشق الأعمال وأطول الأسفار ولقضاء عدة ليالٍ متتالية دون ان يغمض له جفن، وكان يكتفي بأقل الطعام، ويقنع بأحقره وافقره. ولم يؤثر عنه قطّ الاكثار من الخمر وان كان في أحفل الاوقات بالراحة. وما كان يفضل له من فراغ، يقضيه في الصيد أو ركوب الخيل، وهذا ما جعله على وقوفٍ تامٍ بكلّ ممرٍ صالح للانسحاب عندما يتطلب الأمر ذلك، أو للمباغتة أن حكمت الظروف عليه بالانقضاض على العدو، أو أقتضى الأمر قطع خطّ الرجعة عليه اثناء تقهقره. وكان على معرفة تامة بالامكنة التي يستطيع أن يلوذ بها والامكنة التي لا يستطيع. ولهذا شرب [ميتللوس] كأس الهزيمة المرّ حتى الثمالة، مع انه كان يريد أن يدخل في معركة مع [ميتللوس]، وجنى [سرتوريوس] ثمار الفاتح المنتصر مع انه كان يرفض دخول المعركة. كان يحول بينهم وبين جمع الارزاق من السكان، ويقطع عنهم موارد المياه. واذا تقدموا غاب عن انظارهم. واذا وقفوا في اي موضع وعسكروا تعرض لهم باستمرار وناوشهم وازعجهم. واذا حاصروا مدينة برز لهم فجأة وضرب عليهم طوقاً من الحصار وقطع عنهم الضروريات واحرج موقفهم. وبهذه الوسائل انهك [سرتوريوس] الجيش الروماني. حتى اذا بلغ الأمر بهم منتهاه، برز بشخصه متحدياً [ميتللوس] في نزال فرديّ الأمر الذي رحبّ به الجيش الروماني، وأعلنوا عن موافقهم بهتافهم أن العرض عادل وليس فيه ما يشين فهنا يقاتل الروماني رومانياً والجنرال جنرالاً، وعندما رفض [ميتللوس] التحدي انحوا عليه باللائمة وعيروه. كان [ميتللوس] محقاً في ازدرائه وترفعه عن قبول هذا التحدي. فالجنرال يجب ان يموت مثل الجنرال لا مثل مبارزٍ في حلبة نزال، على حدّ قول [ثيوفراستس] غير انه لما أدرك أن مدينة [لانكوبريتي Langob-ritæ] التي تقدم أجّل المعونة [لسرتوريوس] يمكن الاستيلاء عليها بسهولة نظراً لشح الماء فيها حيث لم يكن يوجد داخل اسوارها غير بئرٍ واحدةٍ وان باستطاعة القوة المحاصرة السيطرة على الينابيع والعيون في الضواحي. فزحف اليها وهو متوقع الاستيلاء عليها في ظرف يومين لنضوب الماء تماماً. وأصدر أمراً لجنوده بالا يتزودوا من الاقوات إلاّ ما يكفيهم خمسة أيام. على ان [سرتوريوس] قررّ أن يرسل نجدة سريعة من الماء، فأمر بالفين من القرب فملئت ماءً.

وعرض قدراً كبيراً من المال لمن يحمل قربة واحدة. فتعهد بالأمر عدد كبير من الاسپان والمغاربة فاختار منهم اقواهم وأسرعهم سيراً وبعث بهم عبر الجبال، وأمرهم أن يجيئوا بعد ايصال الماء ومعهم كلّ شخص من أهالي المدينة قليل الجدوى والنفع في الدفاع. حتى يوفر الماء للمدافعين. وما أن بلغ اسماع [ميتللوس] هذا التدبير، حتى استولى عليه القلق حيث ان جيشه استهلك معظم ما تزود به من ارزاق. إلاّ أنه أرسل [اكوينوس Aguinus] مع ستة آلاف جندي لجلب المزيد من الارزاق. فعلم [سرتوريوس] بذلك فبادر بنصب كمين مرسلاً ثلاثة آلاف رجل للتمركز في مجرى ماء تحفّ به غابة كثيفة، وفي أثناء عودة [اكوينوس] قام هؤلاء بمهاجمة مؤخرته، في حين هاجمه [سرتوريوس] من الأمام فدمرّ قسماً وأسر الباقي. ولم يفلت غير [اكوينوس] بعد أن فقد عدته وحصانه. فلم يسع [ميتللوس] الاّ أن يفك الحصار وانسحب مقهوراً مشيعاً بضحك الاسپان وسخريتهم، في حين علت منزلة [سرتوريوس] في نظرهم وازدادوا به أعجاباً وأكباراً. ونال عندهم أعظم الشرف بإحلاله روح النظام والضبط بينهم، اذ بدّل من أساليب قتالهم العنيف الأهوج وعلمهم على استخدام الأسلحة الرومانية، ولقنهم طرق المحافظة على الصفوف مرصوصةً سليمة وتلقي كلمات السرّ والإشارات. واعدّ بذلك جيشاً نظامياً حسن الضبط محكم الربط من شراذم غير متجانسة من اللصوص وقطاع الطرق. ولم يكن ليبخل عليهم بالذهب والفضة لطلاء وتزيين خوذهم، كما أشار عليهم بنقش التهاويل والزخارف على تروسهم. وعودّهم لبس المعاطف والصدارى المزركشة والمحزمة والمنقوشة بالزهر وكسب قلوبهم جميعاً يبذله المال في هذه الأغراض ومساهمته معهم في كل هذا تجديد على أن الشيء الذي أفعمهم غبطة أكثر من أي أمرٍ آخر هو عنايته باولادهم. فقد استقدم كل اولاد اشرافهم وأسرهم العريقة من قبائلهم وجمعهم في مدينة [اوسكا Osca] العظيمة وعيّن معلمين لتلقينهم العلوم اليونانية والرومانية. وصرح قائلاً بأنهم سيكونون عند بلوغهم مبلغ الرجال جديرين بمشاركته في ممارسة السلطة وتصريف شؤون الحكم مع أنه في الواقع جعلهم رهائن تحت يده. إلاّ أن آباءهم كانوا في منتهى السعادة برؤية أولادهم يقصدون المدارس يرمياً في نظام بديع ولباسٍ فاخر واردية موشاة بالارجوان و[سرتوريوس] يدفع ثمن الدروس. ويوزع لجوائز على المتفوقين منهم ويمنحهم قلائد ذهبية يطوقون بها اعناقهم وهي ما يطلق عليه الرومان [بوللي Bullæ].

من تقاليد اسپانيا أنه عندما يقتل قائد في معركةٍ، يواصل حرسه الشخصي القتال حتى يقتلوا معه، ويسميه السكان بالذبيحة، أو تقريب الخمر للآلهة. وندر بين القادة من كان كثير الحراس والخدم. إلاّ ان [سرتوريوس] كان يملك الآلاف من الحراس والحشم يقدمون أنفسهم له

قرباناً، ناذرين ان تُسفك دماؤهم مع دمه. حتى قيل أنه لما اندحر جيشه بالقرب من احد المدن الاسپانية وأطبق عليه العدوّ، لم يهتم الاسپان بخلاص أنفسهم وانما قرروا عن آخرهم ان يفدوا حياة [سرتوريوس] فرفعوه على أكتافهم وراح الواحد منهم يدفع به الى الآخر فيتلقفه ويدفع به الى الثالث حتى بلغوا به المدينة. ولما أمنوا على حياته، راح كل فرد منهم يهتّم بحياته وسلامته. ولم يكن الاسپان وحدهم في التسابق الى خدمته، فالجنود الرومان الذين جاؤا معه من ايطاليا - كانوا يتلهفون للعمل تحت أمرته. ولما قدم الى اسپانيا [پرپنا ڤنتو Perpenna Vento] وكان منتمياً الى حزب [سرتوريوس]، حاملاً مبالغ كبيرة من المال مع عدد كبير من الجنود، آثر أن يحارب [ميتللوس] لحسابه الخاص فعارضه جنوده في ذلك وأكثروا من مديح [سرتوريوس] الأمر الذي أخجل [پرپنا] وساءه، فقد كان مزهوا مختالاً بعراقة اسرته وبغناه. ولما انبيء فيما بعد بأن [پومپي] عبر البرانس وهو يتقدم. وشاع ذلك بين جنوده احتقبوا سلاحهم ورفعوا لواءهم وطلبوا من [پرپنا] أن يأخذهم الى [سرتوريوس] وهددوه في حالة رفضه أن يقصدوا معسكره بدونه ويضعوا أنفسهم تحت تصرفه. لأنه قائد كفوء قادر على الدفاع عن نفسه وعمن يكون في خدمته. وهكذا اضطر [پرپنا] الى الاذعان والنزول عند رغبتهم. فزاد بهم جيش [سرتوريوس] ثلاثاً وخمسين كتيبة.

وكثر عدد جيشه عندما وحدت المدن الواقعة على الساحل الأدنى من نهر [ابرو Ebro] قواها وانضوت تحت لوائه. فتدفقت اليه القوات من كل ناحية. وأخذ الحاحهم على [سورتوريوس] يزداد في مباشرة الهجوم على العدوّ، ونفد صبرهم من التأخير. ولم يكونوا يعرفون معنى الخضوع للنظام لما اتسموا به من التهوّر والعنف. وهو ما كان يزعج [سرتوريوس] كثيراً. فحاول أولاً كبح جماحهم بالمنطق والنصح السديد. ولكنه عدل بعد أن ركبهم العناد واشتط بهم التهور واباح لهم الالتحام بالعدوّ التحاماً يكون فيه الفشل من نصيبهم الى الحَدّ الذي لا ينقلب بهم الى هزيمة نكراء. ليكون ذلك درساً لهم يعلمهم به كيف يصيرون في المستقبل طائعين. وفعلاً حصل ما توقع وأصيبوا بكسرةٍ فسارع الى انقاذهم وسحبهم بسلامٍ الى معسكره. وبعد بضعة أيام اراد أن يحي فيهم شجاعتهم ويعيد اليهم معنوياتهم فأمر فأجتمع الجنود وجاء بحصانين الى ساحة التجمع - احدهما هزيل نحيل والثاني قويّ متين الهيكل ذو ذيل غزير الشعر طويل جداً. وجاء برجل قوي البنية طويل القامة فأوقفه بالقُرب من الحصان الهزيل. وجاء بشخصٍ نحيل معروق العظم زريّ الهيئة فأوقفه عند الحصان الفتى القويّ، وأعطى اشارةً، فأمسك الرجل القوي بذيل الحصان الهزيل بجمع يديه وصار يسحبه اليه بكلّ قوته كأنما يريد أن يقلعه من جذره. وفي الوقت نفسه طفق

الرجل الضعيف يستلّ شعرةً اثر شعرة من ذيل الحصان القويّ. وعبثاً جاهد الرجل القوي وسط ضحك الحاضرين الى أن ادركه اليأس، فأقلع عن المحاولة وارتد خائباً. في حين لم يُبق الرجل النحيل الواهن خلال فترة قصيرة من الوقت وبمجهودٍ قليل، شعرةً واحدةً في ذيل الحصان القوي. بعد هذا وقف [سرتوريوس] وخاطب جيشه قائلاً «ها انكم رأيتم ايها الجنود الأخوان، بأن المثابرة والدأب هما أجدى من العنف وان هناك اموراً كثيرةً لا يتمّ التغلب عليها وهي مجتمعة معاً. إلا أنها تستسلم عندما تعالج شيئاً فشيئاً. إن المثابرة والاجتهاد لا يمكن ان يقف امامهما شيء. وبامكانهما في الوقت المناسب تدمير وابادة أعظم قوةٍ مهما بلغت. والزمن هو صديقٌ حميم، وعون لمن يستخدم عقله وبصيرته في ترقب الفرصة. وهو أيضاً عدوّ لا يرحم لذوي اللجاجة، الندفعين بطيش وتهور». وبترديده أمثال هذه العبارات وممارسته لفنون الحيل التخفيف من شراسة هذا الشعب البربري، وتدريبه على ارتقاب الفرص وانتظارها.

ومن بين مآثره الرائعة ليس ثم ما أثار العجب قدر ما أثارته تلك العملية التي دبّرها ضدّ [الجاراكسيتانيين Characitanians] وهؤلاء كانوا قبيلة تسكن فيما وراء نهر [التاگوس Tagus] لا تقطن المدن ولا القرى وانما تعيش في جبل شاهقٍ مترامٍ، داخل كهوف ومغارات صخرية، فتحاتها متجهة الى الشمال. وكانت تربة الأرض في السهل المجاور، تشبه الطين الفاتح الهشّ الذي يسهل سحقه الى دقيق الرّمل. وهو ليس بدرجة من الصلابة بحيث يتحمّل وطأة اي شخص. وان أنت لمسته أقلّ لمسةٍ انتشر في الهواء كالغبار أو الرّماء. واذا هددت القبيلة بجربٍ قادمة لجأت الى كهوفها حاملةً معها غنائمها وفرائسها ومتكث فيها آمنة ساكنة لا تخشى هجوماً. وكان [سرتوريوس] قد ابتعد عن [ميتللوس] بمسافة كبيرة وضرب خيام معسكره بالقرب من هذا الجبل. فراح رجال القبيلة هؤلاء يعيرونّه ويحقرونّه معتقدين انه ما أنسحب الى مناطقهم إلاّ لهزيمةٍ لحقت به على يد الرومان. وسواء في ذلك أكان قراره بمحاربتهم متأتياً عن غيظه منهم وحفيظته عليهم أم بسبب كرهه ان يظن به الناس الضعف والفرار من وجه الاعداء، فقد خرج في الصباح الباكر راكباً لاستطلاع الموقع والأرض. وتجول مهدداً مضطرباً، ولك يجد ثم طريقاً للوصول الى معاقلهم، لكنه لاحظ انّ الريح تثير الغبار وترفعه الى فوق نحو كهوف [الجاراستيانيين]، التي كانت منافذها، كما قلتُ متجهة الى الشمال وكانت ريح الشمال التي يسميها بعضهم [كاسياس Casias] أكثر الريح هبوباً في تلك الاصقاع. وهي تأتي من الجواء المشبعة بالرطوبة أو الجبال المغطاة بالثلوج. وهي تشتد وتزداد في هذا الوقت وفي قيظ الصيف، بدوبان الثلوج في المناطق الشمالية، فتدفع أنساماً لطيفة منعشة تبرد وتنعش [الجاراسيتانيين] وما شيتهم طوال النهار. درس [سرتوريوس]

دراسة تأملٍ، النتائج التي هدته اليها معلومات السكان، أو توصلت اليها خبرته الخاصّة، ثم أمر جنوده بجرف مقدارٍ كبير من الاتربة الدقيقة الذرات وتكديسه أكداساً في تلٍ واحدٍ مقابل المرتفعات التي يقطنها هؤلاء البرابرة. فتصوروا ان كل هذه الاستعدادات ترمي الى اقامة تلّ عظيم يشرف على معاقلهم ويسهل منه الظفر بهم. فلم يسعهم الاّ السخرية والازدراء. إلاّ أن [سرتوريوس] واصل عمله حتى ادرك الليل فعاد بجنوده الى المعسكر.

وفي اليوم التالي هبت في مبدأ الأمر نسمات رخيّة، فحركت اجزاء التراب ونشرته في الفضاء كما تنتشر العصافة امام الريح. لكن ما أن ارتفعت الشمس في مدارها حتى غطت ريح الشمال القوية، كل المرتفعات بعاصفة غبارٍ، ثم اقبل الجنود وراحوا يحركون التلّ ويقلبون ترابه ويكسرون القطع المتماسكة اجزاءً، في حين أخذت الخيالة تمرّ عليها وتسحقه بسنابك خيلها جيئة وذهاباً وتثير سحباً من الغبار في الجوّ. فأندفع بمساعدة الريح كل التراب المكدس محمولاً الى مساكن [الچاراسيتانيين] المفتوحة المنافذ الى الشمال ولم يكن ثم اي منصرفٍ للغبار الصاعد ولم يكن متنفس لهم خلا الفضاء الذي كانت الريح المسماة [كاسياس] تندفع اليه. فما عتمت أن أعمت عيونهم وملأت رئاتهم حتى كادت تخنقهم وهم يجاهدون في استنشاق هذا الهواء المشبع بالغبار والمكثف بدقائق الطين وعجزوا عن الصمود أكثر من يومين بعد أن لم يبق شيء إلاّ حاولوه. واستسلموا في اليوم الثالث. في الواقع أن [سرتوريوس] لم تعظم دولته كثيراً باخضاعهم، قدر ما زادت هذه المأثره من شهرته. فقد برهن أنه استطاع أن يفتح اقطاراً بالحيلة والدهاء. اقطار لا يقوى على فتحها السلاح. أما حول تعامله مع [ميتللوس]، فشائع القول انه مدين بكل ما حققه من نصر عليه، الى شيخوخته، وتباطؤه وكلاهما لا يصلحان لمواجهة خصم [كسرتوريوس] ذي أقدام ونشاط، يقود جيشاً خفيف الحركة، اشبه شيء بعصابة قطاع طرق منه بجيش نظامي، لكن عندما عبر [پومپي] جبال [البرانس]، أيضاً، وضرب [سرتوريوس] معسكره بالقرب منه ولم يفلت اية فرصة للتعرض له أو قبول الدخول في اية معركة تتيح للبراعة العسكرية فرصة وضعها موضع اختبار، ورجحت كفته في مجال هذه المباراة سواء أفي أحباط خطط عدوة أو استنباط الخطط المضادة، طار صيته وذاعت شهرته حتى بلغت روما نفسها. وعرف بكونه أعظم القادة المتمرسين من طبقته. ولم تكن شهرة [پومپي] بالقليلة هي الأخرى فقد سبق له أن نال أعظم التشريف مراراً كثيرة للمآثر التي حققها في حروب [سيللاّ] حتى أنه خلع عليه لقب [ماگنوس] اي العظيم. ولقب [بالأكبر] وارتفعت به همته الى ان منح شرف موكب الظفر قبل أن تنمو لحيته. كان [سرتوريوس] مهدداً بثورة عددٍ كبير من المدن التي يحكمها، والانتقاض عليه والانضمام الى

بومبي الاّ انها عدلت عن ذلك عندما حققّ من بين ما حقق من عظائم الأمور - ذلك النصر الجليل بالقرب من مدينة [لاورون Lauron] خلافاً لما كان يتوقعه الجميع.

كان [سرتوريوس] قد ضرب الحصار على [لاورون]، فزحف [بومبي] بكلّ جيشه لانقاذها. وكان بالقرب من هذه المدينة مرتفع استراتيجي هام تسابق الطرفان الى احتلاله، إلاّ ان [سرتوريوس] كان الأسبق اليه فأحتله. وأقبل [بومبي] متأخراً فوضع قواته في خطّ القتال عند سفوح هذا المرتفع، غير آسفٍ على ما حصل، ومُقدراً بأنه جعل عدوّه الآن محصوراً بين حامية المدينة وبين جيشه. ثم بعث برسولٍ الى أهالي [لاورون] يقوي من عزائمهم ويشجعهم على الخروج الى اسوارهم، ليشاهدوا كيف أن من يحاصرهم قد أنقلب محصوراً. وضحك [سرتوريوس] حين ادرك خطة [بومبي] وقال: «سألقن الآن تلميذ سيللا (هكذا كان يسمي [بومبي] استخفافاً به) درساً بليغاً. فمن واجب الجنرال أن ينظر خلفه مثلما ينظر امامه» مشيراً الى ستة آلاف مقاتل كان قد تركهم في المعسكر الذي زحف منه عند استيلائه على المرتفع. حتى اذا خطر ببال بومبي الهجوم عليه فسينقض هؤلاء لآلاف الستة على ساقته، وأكتشف [بومبي] الأمر متأخراً، فلم يجرأ على الدخول في معركةٍ خوفاً من تطويقه. كما أن الخجل استولى عليه لتركه اصدقاءه وحلفاءه في محنتهم الشديدة، ورغماً على البقاء حيث هو لا يستطيع حراكاً سيللا يشاهدهم والدمار يحدق بهم أمام عينيه. فقد يئس المحصورون من النجدة. فأستلموا [لسرتوريوس] الذي أبقى عليهم، ومنحهم حرياتهم. إلاّ انه أحرق مدينتهم ليس بدافع الغيظ أو بعامل القسوة، اذ ان [سرتوريوس] كان من بين القادة أقلّهم انسياقاً مع العاطفة، بل كان يرمي الى جرّ المزيد من الخزي والعار على المعجبين [ببومبي]، وكذلك حتى ينتشر بين الاسپان أنّ [بومبي] مع أنه كان قريباً من النيران التي أحرقت مدينة حلفائه بحيث لفحته بحرارتها الاّ انه لم يجرأ على القيام باية محاولةٍ لمنع ذلك.

على أية حالٍ، عاني [سرتوريوس] كثيراً من الخسائر في حروبه إلاّ انه كان يخرج منها سليماً بعيداً عن الهزيمة هو ومن تبعه وكان مصدر هذه الخسائر وسببها القادة الآخرون الذين يعملون تحت أمرته. وكان أكثر الاعجاب به، متأتياً من مقدرته على سدّ النقص في جيشه وتغطية خسائره واستعادة النصر من يد العدوّ أكثر مما كان قادة الرومان يستطيعونه. كما كان الأمر في معركة [سوكرا Sucra] ضدّ [بومبي] وفي المعركة التي جرت بالقرب من [توريّتا Tuttia] بينه وبين [بومبي وميتللوس] معاً. ولقد قيل أن المعركة التي جرت بالقرب من [سوكر] كانت بسبب تسرع [بومبي] فقد دخلها قبل مجيء [ميتللوس] لئلا يشاركه هذا ثمار نصرها، وكان [سرتوريوس] يريد الالتحام مع [بومبي] قبل وصول [ميتللوس]. لقد

عوق [سرتوريوس] موعد المعركة حتى المساء، مدركاً ان ظلام الليل لن يكون في صالح اعدائه، ان كانوا هم المطاردين، أو كانوا هم الهاربين لأنهم غرباء عن البلاد لايعرفون طبيعة ارضها.

لما بدأ القتال لم يكن موضع قيادة [سرتوريوس] مقابل [پومپي] وانما كان ازاء [افرانيوس Afranius] الذي انيطت به قيادة الجناح الأيسر الروماني، في حين كان [سرتوريوس] يقود جناح جيشه الأيمن. لكن، ما أن علم أن جناحه الأيسر أخذ يرتد تحت وطأة هجمات [پومپي]، حتى أسرع لإيداع قيادة جناحه الى آخرين وخفّ لإنجاد من تحرج موقفهم فأعاد تحشيد من هرب وبث الشجاعة في الآخرين الذين ما زالوا يقاتلون في صفوف متراصة وكرّ على العدوّ الذي يطارده مجدداً القتال العنيف حتى ألحق الهزيمة الكبرى بعدوّه. وكادت حياة [پومپي] نفسه تتعرض لخطرٍ جسيم. فبعد أن جُرح وفقد جواده، جاءه الخلاص على غير انتظار حيث ان افارقة [سرتوريوس] الذين غنموا حصان پومپي ذا السرج المكفّت بالذهب، راحوا يختصمون عليه فيما بينهم وانشغلوا بذلك عن المطاردة، وصرفوا اهتمامهم الى تقسيم الاسلاب.

كما ان [افرانيوس] انتهز فرصة مغادرة [سرتوريوس] جناحه الأيمن الى القسم الآخر من جيشه، فتمكن من التغلّب على كل من أعترض سبيله وراح يطارد المنهزمين حتى معسكرهم فدخله معهم وعكف على استلاب الغنائم حتى جَنّ الليل، وهو لا يدري شيئاً عن هزيمة قائده [پومپي]، ولا يستطيع أن يمنع جنوده عن السلب. وهكذا فاجاه [سرتوريوس] وهو عائد بعد نصره، وانقضَّ عليه وعلى رجاله الذين سادتهم الفوضى واطرحوا جانب الحذر، ففتك بهم فتكته البكر. وفي صباح اليوم التالي خرج الى ساحة القتال بجيشه هو في كامل استعداده وسلاحه وطلب القتال. لكنه تبين أن ميتللوس قد أقترب كثيراً فعدل ورجع الى معسكره وهو يقول «لو لم تُقبل هذه العجوز، لكنت الهبت ظهر الصبيّ بالسياط وأرسلته الى روما».

واستبد به القلق عندما افتقد ظبيته فلم يجدها، وبحث عنها دون جدوى. وفيما كان على هذه الصورة من الحيرة والعجز عن القيام بتدبير حيلة لطيفة ليبث بها الشجاعة في البرابرة ويقوى من عزائمهم وقتما كان في امسّ الحاجة الى ذلك، أتفق لبعض الرجال المتجولين، أن عثروا على تلك الظبية، وعرفوها من لونها، فأخذوها اليه فوعدهم بهبات وعطاياه جسيمة اذا كتموا خبرها ولم يعلموا أحداً بالأمر. ثم عجل فأخفاها، وبعد ايام قلائل ظهر للناس والبشر يطفح من وجهه وقال لرؤوساء البلاد، أن الآلهة قد اعلمته في الحلم بأن حادثاً سعيداً سيكون في انتظاره. ثم اتخذ معقده، وطفق يفصل في المظلمات المقدمة اليه. وفي اثناء ذلك أطلق الخدم الظبية التي كانوا قد جاؤا بها الى مكان قريب من مجلس [سرتوريوس] فما أن تبينته

حتى أقبلت عليه تتوثب فرحة مسرورة، الى أن بلغت قدميه واستقرّ رأسها على ركبتيه، وراحت تلعق كما كانت تفعل من قبل. فأخذ [سرتوريوس] يلاعبها ويداعبها كالسابق وبذلك الحنان، واغرورقت عيناه بالدمع، فأمتلأ الحاضرون دهشةً وعجبا. ورافقوه حتى بيته وهم يهتفون فرحين جذلين وينظرون اليه كما ينظرون الى شخص يفوق مستوى البشر، ذي حظوة كبيرة عند الآلهة. وشاع فيهم الأمل وعادت اليهم شجاعتهم بهذا الحدث العجيب.

لما بلغ [سرتوريوس] باعدائه الى آخر درجة من الإنهاك والجوع لشحّ الارزاق والاقوات، لم ير الاّ أن يدخل معهم في معركةٍ في السهول القريبة من [ساگونتوم Saguntum] ليمنعهم من نهب البلاد. فقاتل الجيشان قتالاً مجيداً رائعاً. وسقط [مميوس Mommius] أحسن قواد جيش [پومپي] قتيلاً في زخم المعركة. وسحق [سرتوريوس] كل من أعترض سبيله مندفعاً الى الأمام نحو [ميتللوس] وهو يجزر في العدوّ جزراً.

وكان هذا القائد العجوز يبلو بلاءً حسناً، يفوق ما يمكن توقعه ممن هم في سنّه. وأصيب بجرح من سنان رمح، وهو ما أخجل وأخزى كل من شهد الحادث أو سمع به من الجنود بتركهم قائدهم في محنةٍ. إلاّ أن عاطفة الانتقام والحنق اثارتهم ضد العدوّ فتحوطوا [ميتللوس] وغطوه بتروسهم ثم أبعدوه عن مكامن الخطر وراحوا يصدون هجمات الإسپان ببسالة. فأخذ النصر ينتقل الى جانبهم. ولم ير [سرتوريوس] مندوحة من الانسحاب الى مدينة منيعة في الجبال. ليضمن موقعاً محصناً وليسهل عليه تعبئة قوات جديدة. ومع أن إحتمال معاناته حصاراً طويل الأمد، كان أبعد من أن يفكر منه، إلاّ انه شرع في ترميم الأسوار وتحكيم الأبواب. وهكذا أوهم اعداءه الذين تعقبوه ثم اتخذوا مواقعهم قبالة المدينة، مؤملين الاستيلاء عليها بالأقل من المقاومة ضاربين صفحاً في الوقت نفسه عن فكرة مطاردة الأسپان. وبذلك أفسحوا المجال لتعبئة قوات جديدة تحت أمرة [سرتوريوس]. فقد أوفد القادة، كلّ الى مدينته لهذه الغاية وأوصاهم ان يبلغوه حالما تبلغ قواتهم ما فيه الكفاية. فما أن ورده النبأ حتى اندفع من المدينة بقواته وشق طريقه عنوة من بين صفوف العدوّ، وانضّم اليهم مع جيشه بكلّ سهولة. وبالتحاق هذه النجدات الكبيرة به. لم يلبث ان انقضّ على الرومان ثانية بهجمات خاطفة، وباشتباكات مقلقة من كل جانب وبنصب الكمائن وبايقاعهم في الأشراك واصطيادهم، مكّنه هذا من قطع كلّ الموارد عنهم بَرّاً، كما مكنّه بسفن القرصنة من ارعاب الساحل كله، ومنع ايصال المؤون اليهم عن طريق البحر. وبهذا أرغم قواد الرومان على التشتت، والانفصال. فأقفل [ميتللوس] عائداً الى بلاد الغاليين. وأمضى [پومپي] شتاءه عند [الفاكيّ Vaccaens] وهو في حالة يرثى لها، اذ كان في أمسّ الحاجة الى المال، ولذلك

كتب الى مجلس الشيوخ يطلب العون العاجل، والاّ كان مضطراً الى الانسحاب بجيشه، فقد انفق كل أمواله الخاصة في سبيل الدفاع عن ايطاليا. وهكذا كانت حنكة [سرتوريوس] ودهاؤهالسبب في أيصال أعظم وأمنع قادة العصر، الى هذا الدرك من الذلّ والبؤس. وشاع الرأي في روماأن [سرتوريوس] سيسبق [پومپي] الى روما.

ومما يدلّ على الخوف الذي أستولى على [ميتللوس]، ودرجة تقدير خطورة [سرتوريوس] عنده، أنه أذاع أعلاناً رسمياً تعهد فيه أن يمنح مائة [تالنت] من الذهب وعشرين ألف ايكر من الأرض الزراعية، لايّ روماني يغتاله، واذا كان القاتل من المنفيين، فسيلغي أمر نفيه وبعيده الى الوطن. وهكذا رأيناه يحاول شراء حياة خصمه بأخسّ طرق التآمر بعد أن يئس من التغلب عليه في حربٍ علنية. ومرّةً، عندما نال نصراً عليه في أحد المعارك استخفه الطرب واخرجه عن طوره، واسكره حسن طالعه. فأمر بأن ينادى به [امبراطوراً] على الصعيد الرسمي، وجعل كل مدينة زارها تستقبله بالاضحيات والقرابين وقيل انه سمح لنفسه أن يضع أكاليل الغار على جبينه، واقام الحفلات الفخمة وجلس فيها يشرب الخمر وهو متوشح بثياب النصر، في حين كانت صور وتهاويل مواكب النصر تتوالى امامه بطريقة ميكانية حيث تتابع صور غير حقيقية لتيجان وغنائم وتذكارات حربية من الذهب. واجواق من الفتيات والفتيان يرقصون امامه وينشدون له أناشيد الفرح والنصر. الحق يقال انه بهذا، جعل نفسه مهزاة واضحوكة لتماديه في المباهاة، وافراطه بالسرور والإغراق في أوهام النصر. وكل ما في الأمر هو أنه تعقب رجلاً منسحباً على أختياره لا مجبرا. وانه تغلّب مرة واحدة فقط على من كان يسميّه بعبد [سيللاّ] الآبق، ويصف قواته بأنها بقايا جيش [كاربو Carbo] المهزوم.

وفي اثناء ذلك كان [سرتوريوس] ينكشف عن اسمى الخلق. فقد جمع كل أعضاء مجلس الشيوخ الروماني الذين نزحوا من روما. وآثروا البقاء معه. وعمل منهم مجلس شيوخ وأختار من بينهم [پريتورين] و[كويستورين]. وجمل حكمه بتطبيق الشريعة الرومانية. وتبنى اجهزتها الحكومية. ومع أنه استخدم أسلحة الاسپان وانفق أموالهم واستعان بمدنهم إلاّ انه لم يودع اليهم اية سلطةٍ حقيقية ولو اسمياً، بل عين ضباطاً وقادة رومانيين عليهم قائلاً أن غايته هو اعادة حريات الرومان لا استعداء الاسپان عليهم. فقد كان يحبّ بلاده حبّاً جماً وتتملكه رغبة قوية جداً للعودة اليها. على أنه كان يظهر صلابة وتجلداً عندما يعانده الحظ، لا تعد لها صلابة. ويبدو لاعدائه في تلك الحالة ابعد من الحيرة والقنوط والكآبة. ولما كان في أوج سلطانه وأعظم نفوذه كتب لكلّ من [پومپي] و[ميتللوس] مبدياً استعداده لالقاء السلاح والعيش عيشة المواطن العاديّ بعيداً عن الأمور العامة شريطة ان يسمح له بالعودة الى

الوطن، قائلاً أنه ليفضل العيش في روما كأصغر مواطن على أن يعيش بعيداً عنها وان اجتمع له ملك جميع المدن الأخرى. ويعتقد أن حبه لوطنه كان مبعثه بدرجة غير قليلة، تعلقه الشديد بامّه التي ربته وانشأته بعد وفاة ابيه فتمركز فيه كل عاطفتها. وبعد ذلك بعث اصدقاؤه يستقدمونه الى اسپانيا ليكون قائداً لهم. وفيما هو كذلك اذ سمع بنبأ وفاة امه. فكاد يقضي حزناً وبقي سبعة أيامٍ كاملة منزوياً في خيمته لا يكلم أحداً بكلمة واحدة، ولا يسمح لأقرب اصدقائه بالدخول عليه. وعندما أقبل رؤوساء الجيش والقادة ورجال الدولة الى خيمته عانوا جهداً كبيراً في أقناعه بالخروج والتحدث الى جنوده ومزاولة أعماله وشؤونه التي كانت من أفضل ما يمكن. ولذلك فان رأي الكثيرين عنه يقطع بخلقه الرفيق الحاني وبنفسه الملائ بالعاطفة وميله الأصيل الى الهدوء والمسالمة وما قبوله قيادة القوات العسكرية الا شيء يخالف طبعه، لم يلجأ اليه الا مجبراً بعد أن عجز عن البقاء آمناً مستقراً بوسيلةٍ أخرى، فقد دفعه اعداؤه دفعاً للاحتكام الى السلاح وتبنيّ الحروب كأمر لابدّ منه لحماية شخصه. ومفاوضاته مع [مثيريداتس] الملك، تقوم هي الأخرى على رجاحة عقله وعظمته. عندما تمكن [مثيريداتس] من محو كل آثار الهزيمة التي الحقها به [سيللاّ] بدأ كالمصارع الجبار مستوياً على قدميه مستعداً لجولة أخرى. وكان يعمل جاهداً لاعادة بسط سلطانه على آسيا. وفي ذلك الحين كانت الاقطار تلهج باسم [سرتوريوس]. وحملت ابناء انتصاراته جماعات التجار الذين عادوا من اوروپا الشرقية مع السلع، الى مملكة [پونطس] فملأوها باقاصيصهم عن المآثر الحربية التي حققها. وبلغت الملك فزاد الشوق به الى ارسال سفارة اليه. أو ربما شجعه الى هذا ملق المتملقين إذ أخذوا يقارنون [مثيريداتس] بـ[پيروس] و[سرتوريوس] بـ[هنيبعل]. وأستخلصوا من هذا أن الرومان سيسقط في يدهم عندما تنقض عليهم قوات كهذه بقيادة اثنين [كسرتوريوس ومثيريداتس] في آن واحدٍ. جيش على رأسه أشجع قائدٍ من قواد العصر، وجيش على رأسه أعظم ملك في الوجود.

وبناء على هذا بعث [مثيريداتس] بسفرائه الى سرتوريوس في اسپانيا ومعهم رسائل وتعليمات، وخولهم أن يتعهدوا [لسرتوريوس] بارسال السفن والأموال له في سبيل الحرب شريطة أن يؤيد مطالبه في آسيا، ويسمح له بحق السيطرة على كل ما تنازل عنه للرومان بموجب المعاهدة التي عقدها مع [سيللاّ]. فجمع [سرتوريوس] المجلس الذي أطلق عليه (مجلس الشيوخ). بكامل اعضائه. وشاورهم في الأمر فوافقوا مغتبطين على عروض [مثيريداتس] وأعلنوا عن رغبتهم في الحال بقبول شروطه مقدرين ان ما يريده منهم لا يعدو الأسم الأجوف. والحقّ في بسط نفوذه على بلادٍ لا يملكون القدرة على التنازل عنها، كل ذلك

مقابل امدادهم بما هم في أمس الحاجة اليه. إلاّ أن [سرتوريوس] خالفهم في الرأي ولم يوافقهم في تعاليلهم، قائلاً: لا اعتراض لديه على ممارسة [مثيريداتس] سلطانه على [بيثينا] و[كبادوكيا] وهما بلدان يعودان له، ولا علاقة لروما بهما. إلاّ انه لا يوافق على أن يملك [مثيريداتس] أقاليم تعود الى الرومان شرعاً ويحقّ صريح، كان هذا الملك قد استولى عليها سابقاً ثم خسرها بحربه مع [فمبريا]، ونزل عنها بموجب معاهدة الصلح التي عقدها مع [سيللاّ]. وهو يرى ان واجبه بسط نفوذ الرومان وتوسيعه بفتوحه الحربية، لا تقليص مساحة الممتلكات الرومانية على حساب زيادة نفوذ الملك. وانه كرجل شريف النوايا لن يقدم على بذل أي مساع لانقاذ حياته بالموافقة على شروط غير مشرفة، وإن كان يجني ثمار النصر بلا تردد اذا جاءه النصر بطريق شريفة.

ولما نقل هذا القول [لمثيريداتس] ادركه العجب وقال لخلصائه: «لو قدرّ [لسرتوريوس] أن يجلس على معقد الحكم في [البللاتيوم] بروما فماذا سيضطرنا الى عمله. وها هوذا الآن وهو في سواحل الأطلسي، يضع لمملكتنا حدوداً في الشرق ويتوعدنا بالحرب اذا حاولنا استرجاع آسيا؟». على ان المعاهدة الموثقة بالاقسام عقدت فيما بينهما أخيراً ومجمل شروطها أن تطلق يد [مثيريداتس] في [كباردكيا] و[بيثينا] وان يرسل اليه [سرتوريوس] جنوداً وجنرالاً لقيادة جيشه ويتعهد ميثيريداتس مقابل ذلك أن يزوده بأربعين سفينة وبمبلغ [٣٠٠٠] تالنت من المال. وتم اختيار [ماركوس ماريوس] قائداً لآسيا وهو عضو مجلس الشيوخ كان قد ترك روما وانضم الى [سرتوريوس]. وكان هذا القائد يمارس سلطة القائد الروماني ويحتفظ بمظاهر سلطانه، فيدخل في المقدمة المدن التي يفتحها [مثيريداتس] في آسيا يتقدمه شعار الحكم الروماني وهو الفأس والعصّي. ويتبعه [مثيريداتس] مطيعاً أوامره ومنح بعض هذه المدن حريتها، وأعفى بعضها من دفع الضرائب مؤكداً بذلك أن هذه الامتيازات إنّما منحت لها بفضل [سرتوريوس]. وبهذا أخذت آسيا التي عانت الكثير من ظلّم وتحكم جباة الضرائب، واضطهاد الجنود وطمعهم واستعلائهم، أخذت تنهض من كبوتها وهي عامرة بالايمان والأمل بتغيير جديد في أسلوب الحكم.

على ان الشيوخ الذين التفوا حول [سرتوريوس] في اسپانيا، واشراف روما الآخرين ما لبثوا عندما شعروا بالقوة الكافية لمواجهة اعدائهم الرومان. أن أطرحوا جانب الحذر، بدافع الغيرة من سطوة [سرتوريوس] والحسد له. وكان في مقدمة هؤلاء [پرپّنا]. الذي طغى عليه اعتزازه بنبل أصله، وأستولت عليه الرغبة الجامحة في القيادة، حتى أعمت بصيرته. فأخذ يذيع سراً أقوالاً ماكرة خبيثة بين معارفه ويحرضهم على [سرتوريوس]. كأن يقول «اية روح

شريرة تدفع بنا الى الأسفل نحن الذين ابينا العيش بهذه الصورة في بلادنا بهدوء وسلام، لأننا أنفنا من اطاعة اوامر [سيللاّ] حاكم البرّ والبحر. نأتي هنا ونتعرض للهلاك على أمل التمتع بحريتنا، لنجعل من أنفسنا بملء اختيارنا، عبيداً بل حرساً وخدّاما حقراء [لسرتوريوس] المنفيّ الذي زاد في عارنا وخزينا بمنحنا اسماً يجعلنا موضع سخرية كل سامع سَمّانا أعضاء مجلس الشيوخ في حين كلفنا بأشق الأعمال، وارغمنا على الخضوع لمشيئته الغطريسة، واهاناته، كالاسپان واللوزيتانيين سواء بسواء».

بهذا التحريض، استمال الشيوخ. ومع أن أغلبيتهم لم تكن في مقدورها أن تعلنها ثورة عليه خوفاً من بطشه ألاّ انها وافقت على إفساد اموره والعمل على تقويض حكمه بصورة خفيّة. فأثاروا اللوزيتانيين والاسپان، وأخرجوهم عن طورهم بانزال العقوبات القاسية بهم، وبأثقال كواهلهم بالضرائب، زاعمين لهم، بأنهم انما يأتمرون بأوامر [سرتوريوس] حرفيا، وبهذه الوسائل خلقوا متاعب عظيمة، ودفعوا مدنا عديدة الى الثورة. وأولئك الذين كان [سرتوريوس] يرسلهم اليها لاصلاح ذات البين ولازالة اسباب الشكوى، يزيدون في الطين بلّة ويكثرون من اعدائه ويعودون والناس قد تضاعف سخطهم وزادت ثورتهم وقيداً. وفي وسط هذا الاضطراب كان [سرتوريوس] المعروف بلين الجانب يزداد حنقاً حتى انساه رقته وتسامحه المأثورين، وبلغ به الأمر حداً أن أمر بالقاء القبض على ابناء الاسپان الذين جاء بهم لتلقي العلوم في مدينة [اوسكا] وبقلب اعماه الغيظ والغلظة المتناهية امر بقتل بعضهم وببيع آخرين رقيقاً.

واتسعت دائرة المتآمرين عليه وزاد عدد المنتظمين فيها وانفرد [پرپنّا] بقائد من قواد الجيش يدعى [مانليوس] كان وقتئذ مغرماً بفتى من الفتيان يريد وصاله فكشف له عن اسرار المؤامرة تقرباً منه وخطوة، ورغبةً في الاستشار به هو وحده دون غيره، لأنه كما قال له انك ستكون بعد ايامٍ قليلة رجلاً خطيراً ذا مركز عظيم وسلطان. الاّ ان الشاب كان يخصّ بميله [اوفيديوس] فأسرع اليه وكشف له عن حقيقة المؤامرة كلّها. فأثار بذلك دهشته وانذهاله، اذ انه كان واحداً من المؤتمرين، لكنه يجهل حتى تلك اللحظة بأن [لمانليوس] ضلعاً فيها أو صلة بأي شكل من الاشكال. لكن لما أخذ الفتي يذكر له اسماء [پرپنا] و[گاراكينيوس Graci-nus] وغيرهما، ممن كان يعلم جيداً أنهم شركاؤه في التآمر، ومن الرؤوس التي تحالفت بالايمان والعهود. استبدّ به الخوف وجن رعباً الاّ انه تظاهر بالاستخفاف وعدم التصديق وطلب منه أن لا يصدق ما قاله [مانليوس] ولا يضع اية ثقة فيه، لأنه رجل مهذار كثير التباهي... ثم أسرع فأتصل بـ[پرپنا] ونبهه الى الخطر المحدق بهم والى قصر الوقت. وطلب منه البدء

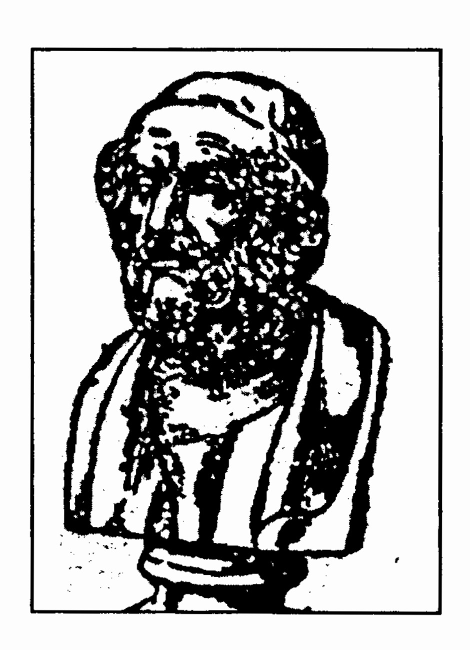
بتنفيذ المخطط في الحال. وبعد اقرار الخطة. جاؤوا بأحد السعاة وزوّدوه برسائل مزيفة حوت انباء عن نصرٍ موهوم حققه أحد قواد سرتوريوس، وعن مقتلةٍ عظيمة أوقعها باعدائه، فبعثوا بها اليه، وكان سرور [سرتوريوس] بذلك عظيماً وقرب قرابين الشكر لهذا النجاح الكبير. وبهذه المناسبة دعاه [پرپنا] ورفاقه المتآمرون الى مأدبة عشاءً. فبادر اليها مسروراً. وكان النظام والأدب عادة يسودان كلّ مجلسٍ أو دعوة يحضرها [سرتوريوس]، فهو لم يكن يصبر على سماع أو رؤية ما يخالف قواعد السلوك والادب أو ما يتسم بالتسفّل وسوء الخلق. ولذلك اعتاد عشراؤه وملازموه ان يتحاشوا كل ما لا يستقيم مع قواعد الأدب اثناء وجوده وان لا يبدر منهم ما يخلّ بالهدوء والسكينة. وفي هذه الحفلة بالذات تعمّد المتآمرون أثارة الضجّة لتنفيذ مآربهم فتظاهروا بالسكر وراحوا يعربدون ويثيرون ضجة قبيحة ويرتكبون كثيراً من الحماقات يريدون بها استفزازه فعمد [سرتوريوس] الى تغيير وشكل اضطجاعه وأنقلب على جنبه الآخر واولاهم ظهره كمن يريد أن لا يسمعهم ولا يشاهدهم إمّا منزعجاً من سوء سلوكهم وامّا مدركاً حالة التبلد العقلي التي ظهرت من سقط الكلام والفظاظة غير الاعتيادية واطراح جانب الأدب. وعندئذ رفع [پرپّنا] كأساً ممتلئة بالخمر الى فمه وافلتها من يده فسقطت على الأرض وأحدثت رنينا وكانت الاشارة المتفق عليها فيما بين المتآمرين. فنهض [انطونيوس] الذي كان مجلسه مجاوراً للمؤتمر به وطعنه بسيفه. واراد [سرتوريوس] بعد اصابته ان ينقلب محاولاً النهوض فألقى [انطونيوس] على صدره وأمسك بكلتا يديه فشله عن الحركة فتكاثر عليه الباقون واثخنوه طعناً أجهزوا عليه دون أن يتحيوا له فرصة الدفاع عن نفسه.

وما ذاع نبأ قتله، حتى بادر معظم الاسپان الى ترك جانب المتآمرين وبعثوا الى [پومپي] و[ميتللوس] يطلبون الدخالة والاستسلام. وحاول [پرپنا] القتال ببقية الموالين، ألاّ أنه لم يفلح في استخدام أسلحة [سرتوريوس] وقواته الحربيّة، الاّ بما كساه خزياً وعاراً. وبما أوضح للجميع بأنه لا يدري من فنون القيادة العسكرية أكثر من معرفته كيف يطيع. وعند التحامه في معركته الأولى مع [پومپي] انكسر شرّ كسرة ووقع أسيراً. الاّ انه لم يحتمل كبوته هذه باي مظهر الرجولة والشجاعة. وعرض على [پومپي] تزلفاً وتقرباً رسائل كانت في حيازته بعث بها الى [سرتوريوس] نخبة من روما ذوو مراتب قنصلية مدونة بخط ايديهم يطلبون فيها من [سرتوريوس] القدوم الى ايطاليا. كما عرض على [پومپي] ايضاً قائمة باسماء عدد كبير كانوا يريدون قلب نظام الحكم السائد في روما واقامة دولة جديدة. إلاّ ان [پومپي] في هذه المناسبة كان ابعد من ان يتصرف تصرف الشاب الغرير الأهوج غير المتبصر بالعواقب.

بل كـان تـصـرفـه تصـرف رجل ناضج راجح العـقـل، سـويّ الحكم، فـقـذف بكل مـدوّنات [سرتوريوس] مع الرسائل في النار دون أن يقرأ حرفاً منها أو يدع غيره يطلع عليها وبذلك حررّ روما من مخاوف عظيمة وانقذها من أخطار الانقلاب. وأمر ان يقتل [پرپنا] فوراً لئلا يكون بقاؤه قيد الحياة سبباً في انكشاف تلك الاسماء واثارة المزيد في المتاعب. واندلاع ثورات أخرى.

أمّا عن بقية المؤتمرين بـ[سرتوريوس] مع [پرپنّا] فبعضهم قبض عليه وقتل بأمرٍ من [پومپي] وبعضهم هرب الى افريقيا فوقع في أيدي المغاربة الذين قضوا عليه طعناً بالحراب وفي زمن قصير جداً تمّ القضاء عليهم جميعاً عدا [اوفيديوس] منافس [هانليوس] الذي أختبأ وتوارى عن الأنظار ولم يجدّ أحد في طلبه وتوفي في ارذل العمر فقيراً مبغضاً من الجميع في احدى القرى الاسپانية.

١٩٦٩/٨/٢٧



هوميروس



360 _ 316



يحدثنا [دوريس Doris]، بأن [يومينيس] الكاردي Cardia، كان ابناً لسائق عجلة فقير الحال من الخرسونيز التراقيّة. إلاّ أنه نال تعليماً واسعاً في ميدان العلم والجندية، ويقول أن [فيلپّس] لما كان في [كارديا] كان يتسلّى يوماً بمشاهدة نزال مصارعة وغير ذلك من العاب الفتوة هناك. فوجد [يومينيس] من بينهم يبز اقرانه ويحرز السبق عليهم، فسرّ به واستخدمه. ولكن الاقرب الى الاحتمال هو أن [فيلپس] ما قدّم [يومينيس] إلاّ بسبب الصداقة التي كانت بينه وبين ابيه الذي كان كثيراً ما ينزل عنده ضيفاً. وآثره [الاسكندر] بعد موت ابيه [فيلپس] بعطفه فعينه كاتم سرّه الأول. إلا أن حظوته عنده كانت تعدل حظوة أقرب خلصائه. فقد أشتهر أمر اخلاصه ورجاحة عقله. فسلّم جيشاً قاد به حملة على الهند. ونجح في استخلاف [برديكاس Perdiccas] الذي كان بدوره خلفاً لـ[هيفاسيتون Hephæston] بعد وفاته.

وضحك المقدونيون من [نيوپطليموس Neoptolemus] قائد حرس [الاسكندر] الخاص، عندما وقف قائلاً بعد وفاة الاسكندر، أنه تبع قائده حاملاً ترسه ورمحه، في حين لم يتبعه [يومينيس] بغير القلم والقرطاس. ضحكوا لأنهم كانوا على معرفة تامة بأن الملك المتوفى الى جانب المكارم التي اسبغها عليه شرفه ورفع منزلته باستحداث نوع من المصاهرة معه. ذلك أن زوج الاسكندر الأولى التي استولدها ابنه [هرقليس] كانت [بارسنه Barsine] بنت [آرطباز] وعند توزيع النساء الفارسيات على قواده، أعطي [اپامه Apame] احدى شقيقاتها [لبطليموس]، واعطى الثانية واسمها [بارسنه] أيضاً - [ليومينيس].

على انه كثيراً ما كان يُغضب [الاسكندر]، ويضع نفسه في مواقف خطرة بسبب [هيفاستيون]. فمثلاً كان المسكن الذي اتخذه [ديومينيس] قد قررّ [هيفاستيون] أن يكون لـ[يويوس Euius] النافخ بالمزمار. فحنق [يومينيس] و[منتور Mentor] ورفعا الأمر الى الاسكندر وراحا يحتجان بشدّة قائلين: لو أنهما ألقيا سلاحهما جانباً واحترفا مهنة النفخ بالناي أو تمثيل التراجيديات، لكان افضل لهما واجدى. وهكذا حتى لم يسع الاسكندر إلاّ ان يلتزم جانبهما ويعنف [هيفاستيون]، ثم ما لبث ان بدّل رأيه وحنق على [يومينيس]، معتبراً

الحرية التي سمح بها لنفسه امامه من قبيل الاهانة، لا من قبيل الشكوى على [هيفاستيون].

وفي مناسبة أخرى، تقررّ أن يرسل [نيارخوس Nearchus] على رأس اسطول الى بحر الجنوب. وكانت خزانة الاسكندر خاوية فعزم على الاستدانة من اصدقائه، وقرر أن يكون سهم [يومينيس] ثلاثمائة تالنت. إلا أن [يومينيس] لم يبعث اليه بغير مائة محتجاً بضيق ذات اليد وبصعوبة جمع هذا المقدار من امنائه. فلم يعتب عليه الاسكندر، ولم يتسلّم المال. لكنه أمر سراً باحراق خيمته، يريد بهذا أن تفتضح كذبته حالما تنقل امواله خارج الخيمة عند شبوب النار. الاّ ان النار أتت على الخيمة كلها قبل أن يتم اخراج ما بداخلها. واذ ذاك ندم الاسكندر على ما فرط منه، فقد احترقت كل المخطوطات منها. إما الذهب والفضة التي اذابتها حرارة النار فقد جمعت فيما بعد ووجد أنها تزيد عن ألف تالنت. إلاّ ان الاسكندرلم يأخذ منها شيئاً، وكتب الى الولاة والقواد بأن يرسلوا نسخاً أخرى من المخطوطات التي أحترقت وأمر أن تسلّم كلها لـ[يومينيس].

ونشب خلاف آخر بينه وبين [هيفاستيون] بسبب هدية. فتبادلا الكثير من الكلام الجارح. ومع هذا كله فقد بقي [يومينيس] محتفظاً بمركزه وحظوته. ثم ان [هيفاستيون] ما لبث أن قضى نحبه. وأشتدّ الحزن بالملك عليه حتى راحت به الظنون الى أن كل من عاداه وخالفه أيام كان حياً، هو الآن فغبط سعيد بموته. فأظهر في سلوكه معهم ولاسيما [يومينيس] كثيراً من الجفاء والغلظة، وطالما لامه ووبخه على مشاحناته واعتداءاته عليه. الاّ انه وهو رجل البلاط الحكيم الماكر افاد مما كان يوجه اليه من التهم ظلماً، بأن راح يضرب على الوتر العاطفي عند الملك بتمجيد وتقديس ذكرى صديقه، مقترحاً مختلف الطرق لأكرام ذكراه.

وعلى أثر وفاة الاسكندر، نشب الخلاف بين جنود [الفلانكس] وبين ضباطه من أصحابه. ولكن [يومينيس] وقف محايداً بين الفريقين بحكم وظيفته مع انه كان يميل الى الطرف الثاني، فقد رأى بثاقب نظره انه ليس من المستحب أن يتدخل وهو الأجنبي عنهم - في نزاع داخلي بين المقدونيين. ولما ترك بقية اصدقاء الاسكندر مدينة [بابل] تخلّف هو فيها. وبذل جهوداً كثيرة في تهدئة الجنود المشاة وأقناعهم بتسوية الخلاف. ولما حَلّ التفاهم بين القادة، وخرجوا من مرحلة الفوضى الأولى شرعوا يتقاسمون القيادات والاقاليم. فأقطعوا [يومينيس] [كبدوكيا] و[باڤلاگونيا Paphlaginia] وكل الساحل الذي هو على البحر البونطي، حتى [ترابزون] التي لم تكن وقتذاك ضمن املاك المقدونيين. لأن الملك [آرياراثس Ariarathes] كان يحتلها. ولذلك قام كل من [ليوناتس Leonattus] و[انتيگونس Antigonus] بالزحف عليها بجيش لجب، وأحتلالها لتمكين [يومينيس] منها.

على أن [انتيگونس] الذي كانت الآمال والأطماع الخاصة تملك عليه مذاهبه، وتجعله يحتقر الجميع، لم يلق بالاً الى رسائل [پرديكّاس. كما أن [ليوناتوس] ساق جيشه نحو [فريجيا] حفظاً لمصالح [يومينيس]. لكن [هيكاتاوس Hecataeus] طاغية الكاردين، زاره وزيّن له أن يقوم بنجدة [انتيپاتر] والمقدونيين الذين كانوا قد حوصروا في [لاميا Lamia] فقررّ أن يأخذ برأيه ويقوم بهذه الحملة ودعا [يومينيس] الى المساهمة فيها. وحاول مصالحته مع هيكاتاوس اذ كان يوجد بينهما ثأر مورووث ناشيء عن خلافات سياسية. وعرف عن [يومينيس] أيضاً، بأنه نددّ أكثر من مرة [بهيكاتاوس] وطغيانه. وحث الاسكندر على تحرير الكاردين من ربقته لذلك نجده الآن يرفض المساهمة في الحملة المقترحة. وزعم أنه يخشى أن يقع في يد [انتيباتر] فيقتله لأنه يحقد عليه، ولأنه يريد أن يؤدي خدمة [لهيكاتاوس]. وكان [ليوناتوس] عظيم الثقة [بيوفينيس] فلم يتردد من الافضاء اليه بتفاصيل خطته التي اضمرها، وهي التظاهر منه بالعمل على مساعدة [انتيپاطر] في حين أنه يعمل في الحقيقة على اخضاع مقدونيا كلها لسلطانه، ثم انه عرض عليه رسائل وردته من [كليوباطرا] تدعوه فيها الى [پيللا Pilla] وتعده بالزواج منه. إلاّ أن [يومينيس] أسرع متسللاً تحت جنح الليل منه، إما خوفاً من [انتيپاطر]، أو لأنه كان يعرف [ليوناتوس] رجلاً عنيفاً صلب الرأي يخشى جانبه. وكان معه كل اتباعه وهم ثلاثمائة من الفرسان ومائتان من الخدم والابقاع المسلحين، ونقل كل ما يملك وهو حوالي خمسة آلاف تالنت من الفضة، ولجأ الى [پيرديكاس] وأفضى اليه بما يبيته [ليوناتوس] فركن اليه وأصبح مستشاره. وبعد فترة وجيزة زحف [پرديكاس] بجيش جرار ليعيد [يومينيس] الى كبدوكيا. وقف الى أسر [آرياراش] واخضاع كل البلاد واعلان [يومينيس] حاكماً عليها. فقام هذا بتوزيع المدن الكبرى على اصدقائه ونصب امراء حاميات وقضاة وجباة وغيرهم من الموظفين بمطلق رأيه دون تدخل من [پرديكاس] على أن [يومينيس] ظلّ في طاعته وخدمته إحتراماً له ورغبة منه في أن يكون قريباً من الأسرة الملكية.

إلاّ أن [پرديكّاس] الذي كان يجد في نفسه القدرة الكافية على بلوغ مآربه الأخرى دون عون من أحد، وان البلاد التي خلفها قد تكون بحاجة الى حاكم نشطٍ مخلص، ما لبث بعد دخوله كيليكيا، أن عزل [يومينيس] متعللاً بضرورة إرساله الى مقرّ قيادته، وفي الحقيقة لأجل الاستيلاء على ارمينيا التي كانت على الحدود تعمها الفوضى والقلاقل بسبب دسائس [نيوبطليموس]. وكان [يومينيس] رجلاً معتداً بنفسه وبكرامته فأبى إلاّ أن يجهد نفسه ويسعى دون مساعدة أحدٍ الى احلال نوع من التوازن العدديّ والجيش مع المشاة المقدونيين

الذين وجدهم رجالاً شديدي التشبث والاعتداد برأيهم، فعمد الى تعبئة قوة من الخيّالة باعفائه من الضرائب والأتاوات كل البالغين من سكان البلاد القادرين على ركوب الخيل. وابتاع عدداً من الخيل وفرقه على أخلص اتباعه. مثيراً روح الإقدام في جنوده المستجدين بالهدايا والجوائز. مهيئاً أجسامهم للخدمة العسكرية بالمسيرات المتواصلة والتدريب العسكري الشاق وكان المقدونيون بين معجب وبين مسرور برؤيتهم نجاحه في تعبئة ما لايقل عن [٦٣٠٠] من الخيالة في وقت قصير جداً.

وبعد أن أتمّ [كراتيرس Crateres] و[انتيباطر] أخضاع بلاد اليونان، زحفا نحو آسيا وفي نيتهما القضاء على سلطان [پرديكاس] كذلك أشيع أنهما يعتزمان غزو [كبدوكيا] وأن [پرديكاس] أعتزم من جانبه قتال [بطليموس]. فنصب [يومينيس] قائداً عاماً لكلّ قواته في ارمينيا وكبدوكيا، وكتب بهذا الصدد رسائل يطلب من [الكيتاس Alcetas] و[نيوپطليموس] أن يتلقيا اوامرهما [يومينيس]. وان يكون هو مطلق الصلاحية في تصريف كل أمور وأصدار ما يراه مناسباً من القرارات فأعلن [الكتياس] بأنه لن يمتثل لأمره، لأن المقدونيين حسب قوله يخجلهم قتال [انتيپاطر] وأنهم شديدو التعلق [بكراتيرس] وهم على اتمّ أستعداد لقبوله قائداً لهم. اما [نيوپطليموس] فقد أضمر الخيانة. الاّ ان أمره أفتضح. فرفض الطاعة، ووضع جنوده في حالة التهيوء والدفاع. وهنا استفاد [يومينيس] لأول مرة من حكمته وسعة حيلته. فبعد أن حلّت الهزيمة بمشاته كرّ على [نيوپطليموس] بفرسانه فهزمه وأستولى على كلّ اثقاله ثم انقضّ على [الفلانكس] بكلّ قواته وقد أختلت صفوفه وعمّته الفوضى اثناء الهزيمة، فأرغم الجنود على القاء السلاح واداء اليمين بالخدمة تحت امرته. وتمكن [نيوپطليموس] من جمع الشرذام المبعثرة المنهزمة، وهرب لاجئاً الى [كراتيرس] و[انتيپاطر]. وبعث هذان الى [يومينيس] بسفارة تدعوه الى التحالف معهما. مقابل تثبيته في ملكه ومنحه قيادة اضافية عسكرية واضافة أقاليم جديدة الى حكمه، وأمتياز صداقة خصمه فأجابهما بقوله «انه لا يستطيع أن يتصالح بهذه السرعة مع عدوه القديم [انتيپاطر]، لاسيما وهو يستخدم اصدقاءه كأعداء. إلاّ انه مستعد لاجراء صلح بين [كرايترس] و[پرديكّاس] على شروط عادلة منصفة. والاّ فسيقاوم كلّ ظلم أو تعدّ يتعرض له حتى النفس الأخير مفضلاً ان يخسر حياته ولا يخلّ بكلمته التي قطعها على نفسه. وترك هذا الرد [انتيپاطر] يفكر تفكيراً مليّاً ويوازن الأمر، وما أن وصل [نيوپطليموس] لاجئاً بعد الهزيمة التي حاقت به وقصّ عليهما نكبته والنحس الذي صادف جيشه، ألحف عليهما في أن يمداه بالعون ويزحفان معاً أن أمكن، أو ليكن الزاحف منهما [كراتيرس] الذي طالما أحبه

المقدونيون وتعلقوا به. وقال انه واثق بأنهم سينضمون اليه بكلّ أسلحتهم بمجرد أن يتبينوا خوذته، أو يسمعوا صوته. وكان [نيوبطليموس] محقاً في تقديره، [فكراتيرس] يتمتع بشهرة داوية بين المقدونيين والجنود متعلقون به تعلقاً عظيماً منذ وفاة الاسكندر. وكلهم يذكر كيف كان يستهدف الى سخط الاسكندر في محاولته ايقاف اندفاعه عن اتباع العادات الفارسية. ويذكرون كيف ظلّ متمسكاً بتقاليد بلاده عندما أخذ الاهمال يعتورها، بانغماس مواطنيه في اسباب الترف واستيلاء الغرور عليهم. فقبل [كراتيروس] باقتراح [نيوبطليموس] وأرسل [انتيپاطر] الى كيليكيا. وزحف هو مع [نيوبطليموس] بقطعات كبيرة من الجيش على [يومينيس] أملاً في ان يباغته من حيث لايدري، أو أن يجد جيشه وقد عمه الاضطراب وسادته الفوضى بسبب ما عقب نصرهم من احتفال وعربدة وسكر. إلاّ أن توقع [يومينيس] زحفه. وقيامه بالاستعدادات الضرورية لمواجهته لهو دليل على تحرزّه ويقظته وليس دليلاً على حكمة فائقة. لكن الأمر يختلف حين نجده قد أفلح في أخفاء سوء وضعه عن اعدائه وعن رجاله الذين سيحاربون أولئك الاعداء. اذ انه قادهم شخصياً لمقارعة [كراتيرس]، دون أن يعرّفهم بالهوية الحقيقية للقائد الذي يقود جيش العدوّ وهذا بحدّ ذاته دليل على موهبة الحنكة وقابلية التوجيه العجيبة عند الجنرال. لقد اذاع بين قواته أن [نيوبطليموس] و[پيگريس] يزحفان بعدد من الكبدوكيين والفلاگونيين الخيالة. أما هو فقد قررّ المواجهة والتقدم وفي ليلتها ادركته سنة من النوم فرأى حلماً عجيباً. اذ خيل له أنه شاهد «اسكندرين» اثنين! وقد استعدا للاشتباك في معركة، كل «اسكندر»، يقود عدداً كبيراً من فرق [الفلانكس]، أحدهما تعاونه [منيرڤا]، وثانيهما تعاونه [سيرس] وبعد معركة حامية أنكسر الاسكندر الذي كانت [منيرڤا] الى جانبه. فقامت [سيرس] بجمع سنابل القمح ونسجتها أكليلاً للمنتصر.

وقد ترجم [يومينيس] هذه الرؤيا فوراً بأنها بشير نجاحه وتغلبه على خصمه. فهو يقاتل الآن على بلاد مخصبة وفي هذه الوقت بالذات كانت السنابل تغطيها. والحقول مزروعة قمحاً وزرعها كثيف آخذٌ بعضه بحجز بعض حتى لتبدو بمنظرها الجميل وكأن السلام الطويل الأمد يبسط عليها ظلّه. وقويت عزيمته وأشتدت عندما عَلِم بأن كلمة السرّ التي اتخذها عدوه هي [منيرڤا والاسكندر]، فبادر لاتخاذ [سيريس والاسكندر] كلمة سرٍ له. وأمر جنوده أن يضفروا أكاليل من السنابل وان يزينوا أسلحتهم بسيقان القمح. ووجد نفسه تحت اغراء شديد للافضاء الى قواده وضباطه باسم القائد الذي سيشتبكون مع جيشه وأن لا يبقي في صدره سِراً كان يستأثر به وحده. إلا أنه تغلب على هذا الاغراء، وأرسى على رأيه الأول بابقاء

الحقيقة مكتومة، وان يخاطر بفشل القرار الذي أتخذه.

وقبل أن يبدأ المعركة. حملته قلة وثوقه باشتباك جنوده المقدونيين مع [كراتيروس] الى جعل فرقتين من الخيّالة الاجنبية بمواجهته، تحت قيادة [فارنابازوس Pharnabazus] ابن [ارطباز] و[فيونكس Phoenix] [التندوسي Tenados]. وأمرهما بالهجوم على العدوّ حال مشاهدته دون أعطائه مجالاً للكلام أو بالانسحاب، أو انتظار مناد أو بوقيّ من جانب العدو لأنه كان في أشدّ الخوف من وحداته المقدونية، يخشى أن تترك صفوفه وتنحاز الى جيش [كراتيروس] حال مشاهدته. ثم انه وضع نفسه على رأس ثلاثمائة من خيرة فرسانه وتقدم لقيادة الجناح الأيمن بمواجهة [نيوبطليموس]. وبعد أجتيازه مرتفعاً صغيراً أنكشفوا للعدوّ وشوهدوا يتقدمون بسرعة تزيد عن المعتاد مما أسلم [كراتيرس] الى الذهول. وأخذ ينحى باللائمة على [نيوبطليموس] ويقرعه لأنه خدعه ومنّاه بانتقاض المقدونيين على [يومينيس]. ثم انثنى الى رجالهم وحثهم على التمسك بالشجاعة وتقدم مهاجماً.

وكان الاشتباك الأول في نهاية الشدّة، فتكسرت الرماح في فترة وجيزة، والتحم الجمعان بالسيوف المشرعة. وقام [كراتيرس] بما يشرّفه في عين الاسكندر حقاً، ففتك بالكثير من الاعداء، وصدّ العديد من الهجمات. الاّ أن جندياً ثراقيّاً، اصابه بجرح في جنبه، فهوى الى الحضيض عن صهوة حصانه ومَرّ به الكثيرون وهو ساقط دون أن يتبينوا هويته حتى عرفه [جورجياس Gorgias] أحد نقباء [يومينيس] فترجل ووقف على رأسه قائماً بحراسته وهو مستلقٍ على الأرض بجرحه البليغ يحتضر ببطء.

وفي الوقت نفسه أشتبكت قوات [نيوبطليموس ويومينيس] وأخذ كل منهما يبحث عن الآخر ودماؤه تغلي في عروقه يريد ان يطفيء جذوة انتقامه التي بعثتها تلك العداوة المتأصلة فيما بينها. إلا أنهما لم يلتقيا في الجولتين الأوليين. وفي الجولة الثالثة، وقع نظر أحدهما على الآخر فجردا سيفيهما وهجما في الحال وهما يطلقان صراخاً عالياً، واصطدم جواد الواحد بجواد الآخر كما تصطدم سفينتان فأفلتا الزمام وتماسكاً ونزع كل واحد خوذة عدوه ودروع الاكتاف وفيما كانا متلاحمين، أنسلّ حصانهما من تحتهما فسقطا معاً على الأرض وهما متلازمان متصارعان. واراد [نيوبطليموس] أن يسبق الى النهوض فاصابه [يومينيس] بطعنة في مأبضه، وسبق الجريح الى النهوض على قدميه. وتحامل [نيوبطليموس] مستنداً بثقله على ركبة واحدة، لتعطل ساقه الأخرى. وكان وهو في وضعه الأدنى، يقاتل بشجاعة إلاّ أن ضرباته لم تكن قتالة. ثم هوت ضربة على عنقه فسقط على أثرها بدون حراك. واجتاحت [يومينيس] سورة من البغض المتأصل. فراح يحقّره، وينزع عنه سلاحه، غير منتبه الى أن

سيف خصمه ما زال في يده، وبه تمكن من توجيه طعنة ليومينيس أصابته بجرحٍ في أسفل درع خصره. في مفصل الفخذ. وكانت ضربة ضعيفة تفتقر الى القوة، أخافت [يومينيس] أكثر مما آذته. وبعد أن اتمّ نزع اسلابه من الجثة. وركب حصانه مع أنه يشكو الارهاق للجراح التي اصابته في فخذيه وذراعيه، وأسرع يخبّ به نحو الجناح الأيسر من جيشه وكان يظنه مشتبكاً في المعركة. وهنالك سمع بموت [كراتيرس] فهرع الى حيث كان سجى، فوجد رمقاً من حياة فيه. فترجل عن حصانه دونا منه واجهش بالبكاء واضعاً يده اليمنى على صدره وهو ينثر اللعنات على [نيوبطليموس] ويندد بما فعله نادباً سوء حظّ [كراتيرس] وسوء حظّه الذي أرغمه على قتال صديق قديم وأخٍ عزيزٍ لم يأت أمراً اداً، ولم يصادف شراً.

نال [يومينيس] نصره هذا، بعد عشرة أيام من نصره الأول، وأشتهر به وعظم صيته لبراعته وشجاعته في تحقيقه إلاّ أنه غداً من الجهة الأخرى محسوداً من جنوده أنفسهم ومن أعدائه. ونالته الألسن بالقول: كيف، وهو الاجنبي الغريب، يستخدم سلاح مقدونيا وقواتها للقضاء على أشجع وأقرب الرجال الى قلوبهم؟ ولو أن أنباء هذه الهزيمة وصلت [پرديكّاس] في الوقت المناسب لجعلت منه بلا ريب أعظم رجال مقدونيا. إلاّ أنه اغتيل في مصر، على أثر تمردٍ قبل وصول انباء المعركة بيومين. وهنا حلف المقدونيون وهم في سورة غضبهم أن يقضوا على [يومينيس] وخولوا كلاً من [انتيگونس] و[انتيپاطر] بأن يشنّا الحرب عليه.

وفي أثناء مرور [يومينيس] بجبل ايدا [Ida] وجد اسطبلاً ملكياً عامراً بالخيل فأخذ منه ما يسرّت له الفرصة. وبعث بتقرير عن ذلك للمشرفين عليه. ولقد قيل أن عمل [يومينيس] جعل [انتيپاطر] يغرق في الضحك ويعقب عليه بقوله «إن هذا العمل الصادر من [يومينيس] جديرٌ بالثناء حقاً. حيث يجد نفسه ملزماً بأن يقدّم لهم [أو بالأحرى يأخذ منهم ان صح القول] حساباً دقيقاً في كل ما يتعلق بالأمور الإدارية.

وكان [يومينيس] قد قررّ أن تكون معركته مع خصمه في سهول [ليديا Lydia] بالقرب من [سادريس] لأن قوته الرئيسة تكمن في صنف الخيالة، كذلك كان يريد أن يُظهر [لكليوپاطرا] مدى قوته إلاّ انه بعد أن أرسلت اليه [كليوپاطرا] برجاءٍ خاص، سار نحو [فريجيا] العليا وأمضى شتاءه في [كيلانيا Celaenæ]. ممثلاً لها حيث انها كانت تخشى اثارة استياء [انتيپاطر]. وعندما نازعه [الكيتاس] و[پوليمون Polemon] و[دوقيموس Docimus] على من يكون القائد العام، أجابهم قائلاً: «كلكم يعلم القول المأثور القديم: المدمّر لا يتقيد بالشكليات». وكان قد وعد جنوده بدفع مرتباتهم في غضون أيام ثلاثة، ولما عجز باع منهم المزارع والقلاع في الاقاليم ومعها الرجال وسائر الحيوانات التي كانت تزخر

بهم. وكل من أشترى من النقباء والضباط صار له حق استخدام آلات الحصار والثغر التي يملكها [يومينيس] للوصول الى ما اشتراه بالقوة وتوزيع الاسلاب ما بين رجال وحدته نسبة الى متأخر رواتب كلّ منهم. وبهذا عادت شعبية [يومينيس] بين الجنود وزادوا تعلقاً به، حتى انه عندما قذف العدوّ الى المعسكر برسائل تعد بمنح جائزة قدرها مائة تالنت الى جانب انعامات أخرى لكلّ من يغتال [ديومينيس]، سخط المقدونيون واستنكروا الأمر بشدة وتعاهدوا فيما بينهم على أن يقوم من تلك الساعة الف من خيرة رجالهم بحراسة شخصه بالتناوب ليلاً ونهاراً دونما انقطاع. وجرى تطبيق هذا العهد عن طيبة خاطرٍ. وتقبلوا من [يومينيس] راضين ممتنين ذلك الانعام الذي أعتاد الملوك خلعه على مقربيهم وخلصائهم. وهكذا كان ينعم بالقلانس الارجوانية والمعاطف وتلك عند المقدونيين أعظم شارات التكريم التي يمنحها الملك.

عندما يغدق الحظ نعمه ويوآتي صغار العقول، تراه يرفعهم ويظهرهم بمظهر العظمة والسؤدد. فينظرون وهم في موضعهم الاعلى نظرة استصغار وأحتقار الى العالم. أما كبار العقول وشرفائها ذوو النفوس الأبيّة الكريمة فأنهم يرفعون من أنفسهم، ويظهرون في أعلى واسمى مظهر عندما تحزب الأمور وتتحرج. وتتوالى المصائب والمحن كما كانت الحال عند [يومينيس] لما هزم امام [انتيكونس] و[أوركيني] في كبدوكيا بخيانة أحد رجاله، فلم يمنح وهو في فراره فرصة النجاة للخائن وانما قبض عليه وشنقه. كما أنه سلك في هزيمته سبيلاً مخالفة لاتجاه مطارديه ثم عاد متسللاً بالقرب منهم في غفلةٍ حتى وجد نفسه في موضع المعركة التي خسرها. فضرب منها معسكره. وجمع جثث قتلى المعركة وأحرقها بان كدس فوقها أكداساً من الشبابيك والأبواب الخشبية التي جمعها من القرى المجاورة ثم أهال على القبور كميات كبيرة من التراب. وبعد قليل عاد [انتيكونس] الى عين الموقع. فأخذ منه العجب مأخذه لشجاعته وعزيمته القوية. وبعد ذلك وقع على أثقال [انتيكونس] وكان من السهولة له بمكان أن يأخذ كثيراً من الأسرى، أحراراً وعبيداً ويستولى على كنوز طائلة جمعت من غنائم الحروب العديدة. إلاّ أنهم خشي أن يثقل رجاله بهذه الأسلاب الكثيرة فتعيقهم عن مناورات الانسحاب السريع، وتزيد من ميلهم الى الراحة، فلا يعودون يحتملون المسيرات الطويلة ولا الانتظار الطويل الذي هو أهم عوامل الهزيمة. اذ كان يتوقع أن يفلح في ارهاق [انتيكونس] بتعقيبه عن طريق أخرى، بل وجد بعد التفكير المليّ، بأنه من الصعب جداً أن يحول بين المقدونيين وبين السلب، والغنيمة قريبة منهم سهلة المتناول. فلذلك اصدر أمراً لجنوده بالاستراحة واراحة خيلهم، ومن ثمّ يهاجمون. ثم بادر في الوقت نفسه الى الاتصال سرِاً

[بميناندر Menander] آمر الاثقال مبدياً اخلاصه له ومحبته، ومذكراً ايام صداقتهما الماضية وتعاطفهما وناصحاً له بأن يترك موقعه الحالي في السهل ويتخذ لنفسه موقعاً منيعاً على سفوح الجبال المجاورة بحيث لا تستطيع الخيالة الإحاطة به. وبهذه الرسالة ادرك [ميناندر] الخطر الذي يتهدده فأسرع برفع اثقاله ورحل. وعندها بادر [يومينيس] الى ارسال كشافته لاستطلاع مواقع العدوّ وأمور رجاله أن يحملوا سلاحهم ويسرجوا خيولهم، لأجل خوض المعركة في الحال. إلاّ أن كشافته رجعوا ليبلغوه بأن [ميناندر] قد أحتلّ مواقع منيعة يصعب أقتحامها ولا يمكن الوصول اليه منها. فتظاهر بالأسف والخيبة وأنسحب برجاله الى ناحية أخرى.

ويقال أن [ميناندر] عندما قصّ على [انتيكونس] ما فعله [يومينيس]، طفق المقدونيون يلهجون [بيومينيس] ويغلقون على عمله أطيب الثناء، ويعزونه عمله هذا الى طبعه السمح وأخلاقه العالية، حيث كان في مقدوره أن يجعل أولادهم عبيداً وأن يهتك حرمات نسائهم، لكنه أبى وعفا عنهم جميعاً. فردّ [انتيكونس] على هذا بقوله «يؤسفني القول أيها الأخوان بأن [يومينيس] لم يكن دافعه الى هذا اهتمامه بمصالحنا. وانما كان مهتماً بنفسه لأنه لم يشأ أن يثقله هذا الحمل الكبير من السلاسل طالما كانت نيته الفرار».

ومن ذلك اليوم و[يومينيس] لا تستقر به أرض. فهو دائم التنقل والانسحاب من يوم ليوم، لا يفتأ يحبذ لرجاله ترك خدمته. إمّا بدافع من العطف عليهم أو لأنه لم يكن يرغب في قيادة جماعة أقلّ جداً من ان يصلحوا لخوض معركة، وأكثر جداً من أن يتسللوا دون ان يشعر بهم أحد. ثم انه لجأ الى [نورا Nora] وهو موضع على تخوم [لاقونيا وكپادوكيا] مع خمسمائة من الخيالة ومائتين من الرجالة المسلحين تسليحاً ثقيلاً، وهنا أيضاً سرّح من خدمته عدداً آخر من رجاله بسبب خوفه من مشاق ومصاعب قد تجابهه هناك. وأجاز لهم الرحيل بعد معانقة حارة وابداء كل مظاهر العطف. وعندما وصل [انتيكونس] هذه القلعة، أبدى رغبته في مقابلة [يومينيس] قبل ضرب حصاره عليها. فأجاب [يومينيس] على عرضه بقوله: «انتيكونس لديه عددٌ كبيرٌ من الاصدقاء يصلحون ليحلوا في القيادة محلّه. إلاّ أن من أدافع أنا عنهم ليس لديهم بديل عني اذا وقعت ضحية غدر، فاذا وجد [انتيكونس] ضرورة لمقابلتي فعليه أن يبعث أولاً برهائن.» ولما أشار [انتيكونس] الى ان يكون [يومينيس] البادىء بتقديم نفسه اليه باعتباره رئيساً له. أجاب يقول: «مادمت قادراً على امتشاق سيف فلست ارى رجلاً أعظم منيّ».

أخيراً عندما بعث [انتيكونس] بابن أخيه [پطليموس] رهينةً الى القلعة، كما أشترط

[يومينيس]، خرج هذا اليه وأعتنقا عناقاً شديداً فيه الكثير من الحنان والمودّة كما كانا يفعلان في السابق. وجرى بينهما حديث طويل لم ينوه [يومينيس] خلاله، بشيء عن موضوع اعطائه الأمان والعفو، بل طلب تثبيته في مناصبه، ووظائفه العديدة، ودفع تعويض له عما قام به من خدمات، فإدهش كل من كان حاضراً بشجاعته وثبات جنانه. وتقاطر جمّ غفير من المقدونيين لمشاهدته ودراسته عن كثب. اذ منذ مقتل [كراتيرس]، واسمه هو الأكثر ترداداً على ألسنة الجيش. إلاّ أن [انتيگونس] كان يخشى أعتداءً قد يقع عليه فأمر أن يبتعد الجنود عنهما بمسافة وراح ينتهر أولئك الذين أخذوا يتزاحمون ويقذفهم بالحجارة. وأخيراً أحاط [يومينيس] بذراعيه وأبتعد به مع حرسه عن الجنود. وبصعوبة كبيرة نجح في اعادته الى القلعة سالماً.

وبعد أن شيدّ [انتيگونس] جداراً حول [نورا] وترك قوة كافية لتنهض باعباء الحصار، قفل راجعاً بالبقية من جيشه. وهكذا وجد [يومينيس] نفسه مطوقاً بعاني حصاراً شديداً محكماً إلاّ أنه كان لا يفتقر الى الماء والقمح والملح. وهو كل ما لديه للقوات ولشهي الطعام. ومع هذا فقد كانت مائدته مصدر سرور لاصدقائه وكان يدعوهم مراراً بالتناوب ويمزج دعوته هذه بالرقة والودّ وحسن المجالسة. وهو ذو طلعة وضاحّة مستبشرة لاتبدو شبيهة بسحنة جندي قديم بلته التجارب والخطوب. كان ذا وجهٍ موردٍ ناعم، وجسم رشيق دقيق التكوين حتى لكأن أعضاءه نحتت نحتاً بيد فنان، بادق النسب والتناسق. ولم يكن خطيباً لَسِناً، إلاّ أنه كان محدثاً طلياً آسراً قوي الحجّة كما تدل عليه رسائله.

وكان أعظم ما يشغل بال المحصورين، وهو ضيق الفسحة التي يعيشون فيها. فمقراتهم كانت متقاربة جداً. والموقع كُلّه لا يعدو محيطه [فرلنغين] إثنين. فكانوا هم وخيولهم يأكلون فحسب ولا يقومون بأية تمارين رياضية. وفكر [يومينيس] بوسيلة، تقضي على حياة الخمول والكسل من جهة، وتجعلهم في حالة ملائمة للفرار عندما يتطلب الأمر ذلك، من جهة أخرى، فخصص قاعة طولها (٢١) قدماً وهي أوسع قاعات الحصن. ليسير على أرضها الرجال جيئة وذهاباً فيبدأون ببطء ثم ينتقلون الى السرعة تدريجاً. أمّا العلاج الذي ابتكره لتدريب الخيل، فهو أنه عمد الى ربطها بالحبال الغليظة الى السقف من اعناقها، ثم رفعها برفق بواسطة بكرات حتى جعلها تمسّ الأرض بخلفيتيها فقط. وتكاد لا تمسها بأماميتيها. وبعد ذلك يقوم سائسوها باحتثائها بالصياح والسوط حتى تُستنفر فتقفز وترفس بخلفيتيها وتحرك اجسامها وتضرب الأرض بسنابكها في الوقت نفسه بمحاولة لايجاد موطيء ثابتٍ لأماميتيها وهكذا تشيع الحركة في الجسم كله، حتى يعلو الزبد اشداقها وتنضح عرقاً. فكان هذا تدريباً ممتازاً

لأجل القوة والسرعة وبعد أن يتمّ ذلك تُطعم شعيراً مطحوناً طحناً خشناً ليحسن هضمه ولترحض بسرعة.

وأستمر الحصار زمناً طويلاً. ثم علم [انتيگونس] بأن [انتيباطرا] قد قضى نحبه. وأن الأمور قد ساءت كثيراً في مقدونيا، بالخلاف الذي نشب بين [كساندر Cassander] و[پوليسپيرخون Polysperchon] وهو الخلاف الذي علق عليه آمالاً شخصية ليست بالقليلة. ولأجل تحقيق أمانيه وأنتهاز فرصته في أن يكون سيدّ الكلّ، وتوخياً لإحكام خطته الموضوعة فكرّ في أن يجتمع [بيومينيس] ليستطلع رأيه ويستمد عونه. فبعث اليه بـ[هيرونيموس Hironymus] لإقناعه بذلك، مقترحاً عليه اداء يمين معينة بصيغة محددة، فعدّل فيها [يومينيس] وتقدم بنفسه الى المقدونيين الذين يحاصرونه وجعلهم حكاماً في أيّ شكل من صيغة اليمين أقرب الى العدل؟ وكان [انتيگونس] في مستهل صيغة يمينه قد أغفل ذكر الملوك، إلاّ بشكل عرضي، وهو مخالف لما تقتضيه الاصول والمراسيم، في حين كان المتن كلّه يتعلق بشخصه. إلاّ أن [يومينيس] بدل من مستهله وافتتحه [باولمپياس Oleympias] والملوك. بدأ يمينه بأن يكون مخلصاً لهم. ومن ثم [لانتيگونس] وادخل فيه ما يشير الى أن يكون للجانبين عين الاصدقاء وعين الأعداء - أي أولمپياس والملوك مع انتيگونس.

فوجد المقدونيون تعديل [يومينيس] لليمين أقرب للصواب. فحلفوا [يومينيس] بها ورفعوا الحصار عنه. ثم أرسلوا الى [انتيگونس] يطلبون منه أن يحلف اليمين بالصيغة المعدلة.

وفي أثناء ذلك بادل الرهائن الكيدوكيين الذين كانوا في [نورا] بخيول حربية وحيوانات اثقال مع اصدقاء أولئك الرهائن واقربائهم. ثم اعاد جمع كل الجنود المسرحين الذين تفرقوا في ارجاء البلاد بعد فراره. وتمكن من تعبئة كتيبة خيالة يقارب عددها الألف. وأفلح بعضهم في الافلات من [انتيگونس] الذي كان يخشاه رغم ما أظهره له. وكانت لديه اسبابه الوجيهة لأن [انتيگونس] أمر بقطع الطريق عليه واعادة الحصار. وعنف المقدونيين تعنيفاً قاسياً بسبب موافقتهم على التعديل الذي أدخله [يومينيس] في اليمين.

وفيما كان [يومينيس] يجدّ في فراره من امام [انتيگونس] تسلّم رسائل من المقدونيين الساكنين مقدونيا من اعداء [انتيگونس] ومضمري الشرّ والوقيعة له، كذلك تسلّم رسالة من [اولمپياس] يطلب حضوره ليعهد اليه بحماية الصبي ابن الاسكندر الذي كانت حياته مهددوة بالخطر. وتسلم رسائل أخرى من [پولسپيرخون] والملك [فيليب] يأمرانه بشنّ حرب على [انتيگونس] ويقران له بالقيادة العامة على كلّ الوحدات العسكرية في [كپدوكيا] ويمنحانه

صلاحية سحب خمسمائة تالنت من خزائن [گويدا Quida] تعويضاً خاصاً له عما خسره. وجباية كل مايراه ضرورياً من الضرائب لادامة الحرب. كما كتبا أيضاً بعين آلمال الى كلّ من [انتيجينس Antigenes] و[تيوتاموس Teutamus] زعيميّ [الآرگيراسپيدين Argyras-pids] فقدما فرائض الاحترام ودلائل المحبة له حالما تسلما هذه الأوامر إلاّ انهما كانا بدون شك يضمران الحسد والغيرة منه ويكرهان أفساح اي موضع له بينهما. إلاّ أن كثيراً من هذا الصدود زال عندما رفض [يومينيس] قبول المال الممنوح له، رفضاً جعله يبدو كأنه ليس في حاجةٍ اليه، إلاّ أن طموحهما وغيرتهما فكانا مما يعجز عن ازالته، كما لم يكن هو راغباً في الاستسلام له ولذلك تفتقت حيلته عن طريقة يضمن التغلب على تلك الميول بالشعبذة والأيهام. فزعم لهما أن الاسكندر ظهر له في المنام. وجاء به الى سرادقٍ ملكي حافل بالثمين من الأثاث. يقوم في وسطه عرش. وقال له. ان جلس ثلاثتهم هنا للمداولة والمشاورة، فسيكون رابعهم، ويكلل بالنجاح كل القرارات والأعمال التي سيقومون بها وسيقرنها الى اسمه. فأسرع [انتيجينس] و[تيوتاموس] الى تصديقه. لأن رغبتهما في المجيء الى [يومينيس] للمشاورة كانت قليلة، كرغبة [يومينيس] في ان يُرى منتظراً عند ابواب الآخرين. وبناء على ذلك اقاما سرادقاً ملكياً ونصبا فيه عرشاً سموه بعرش الاسكندر. وهناك كانوا يجتمعون للمشاورة في الأمور العامة.

ثم أنهم توغلوا في احشاء آسيا. وفي زحفهم هذا التقوا بـ[پيوكاتس Peucetes] وكان طيب العلاقة معهم ومع كلّ [ساتراب] آخر ممن انضم اليهم بقواته. الامر الذي شجع المقدونيين كثيراً باعداد القوات التي ضموها اليهم، وبمظهرهم الفخم. ولكن الغطرسة وحبّ التحكم وعوامل الترف ما لبثت أن تملكت المقدونيين أنفسهم وباتوا يتصورون أنفسهم امراء وملوكاً عظاماً، وراحوا يتيهون عجباً وأختيالاً بتملق البرابرة لهم وتسابقهم الى نيل رضاهم. وما أن أجتمعت هذه المتناقضات كلها فيهم، حتى وجدوا أنفسهم يخاصمون بعضهم بعضاً ويريد الواحد منهم ان يسيطر على الآخر ويتحكم به، في حين انهم كانوا يتصاغرون للمقدونيين ويداهنونهم بلا حدود ويغدقون عليهم المال بلا حساب ليصرفوها على الولائم والقرابين حتى استحال المعسكر في فترة قصيرة من الزمن الى موضع فسق ودعارة وميدان المتع الملذات، وتحول افراد الجيش الى مجموع ناخبين كما هو في النظام الديمقراطي، لأنتخاب هذا او ذاك من القواد. وعندما ادرك [يومينيس] بأن أحدهم يحتقر الآخر، وان الجميع يخافه ويلتمس فرصة للفتك به، عمد الى التظاهر بالحاجة الى المال واستدان مقداراً من التالنتات ممن كانوا أشدّ الحاقدين عليه، ليجعلهم معتمدين عليه في سدادالدين فيدفعوا عنه الشرّ،

وليصرفوا نظرهم عن اغتياله هم أنفسهم خوفاً من ضياع ديونهم! وهكذا صارت ديون اعدائه ضماناً لشخصه، تسلّم المال فأشترى معه الأمان. بينما جرت العادة أن يبتاع المرء سلامته بالمال.

والمقدونيون أنفسهم، فقد استسلموا هم أيضاً الى عوامل الانحلال والتفسخ بسبب الهدوء وزوال خطر الحرب. وكانوا يعرضون الولاء لكلّ من يتحفهم بالهدايا، من أولئك الذين يحفّ بهم حرس خاص، ويحاولون الظهور بمظهر القواد العامين. حتى أنقض عليهم [انتيگونس] بخيله ورجله وأستدعت الحال الى أختيار قائد عام حقيقي. فتوجهت انظارهم جميعاً الى [يومينيس]؛ الجنود العاديون منهم، فضلاً عن أولئك الذين بدوا في زمن السلم والراحة في أعلى درجات العظمة والسؤدد، هؤلاء ايضاً سلموا له بالزعامة، واتخذوا بكلّ هدوء وطاعة المواضع التي عينها لهم، ولم يعترض أحد منهم. ولما حاول [انتيگونس] عبور نهر [پاسيتاگرس Pasitigris] لم يفطن الى ذلك جميع الذين عينوا لحراسة مواضع العبور، إلاّ [يومينيس] وحده. فقد التقى به وأشتبك معه وفتك بالعديد من رجاله وملأ بجثثهم النهر. وأخذ اربعة آلاف أسير.

على أن الحادثة الأجدر بالذكر عن رأي المقدونيين الحقيقي فيه، وثقتهم بأنه الوحيد بين القادة الذي خبر القتال وعرف قيادة الجيوش، هي الحادثة التي سنوردها الآن. كان الآخرون. لا هَمّ لهم الاّ اقامة المآدب الولائم الفاخرة والحفلات. فمثلاً [پيوكسكتس] أقام مأدبة فخمة في بلاد الفرس وأعطى كل جندي في الجيش شاة لينحرها قرباناً. وكان على ثقة بانه كسب الجيش كله الى صفه ولن يفلت منصب القائد العام منه. وبعد ايام قليلة على هذا وكان الجيش في حالة المسيرة، سقط [يومينيس] مريضاً. فحمل على محفّة، بعيداً عن الجيش بمسافة، حتى تؤمن راحته ويبتعد عن الازعاج. وما ان سار الجيش قليلاً حتى ظهرت لهم قوات العدوّ بصورة غير متوقعة بعد ان عبر التلال التي تفصل فيما بينهما وانحدر الى السّهل. وما أن شوهدت الدروع الذهبية تسطع بنور الشمس وهي تنحدر انحداراً بنظام تام، والفيلة بابراجها على عواتقها، والرجال بثيابهم الارجوانية، كما هي العادة عندما يعتزمون الدخول في معركة، حتى توقفت مقدمة الجيش عن السير. وبعثت تطلب حضور [يومينيس] قائلة انها لن تتقدم خطوةً واحدة إلاّ بأمره وقيادته. وعمد بقية الجنود الى غرس رماحهم في الأرض واذاعوا كلمة الوقوف فيما بينهم، وطلبوا من ضباطهم أن لا يبرزوا للمعركة أو ان يشتبكوا مع العدوّ أو يستعرضوا للقتال بدون [يومينيس]. ولما بلغت الانباء [يومينيس] انثنى الى حملة محفته وأخذ يحثثهم للأسراع به الى الجيش وازاح الستائر من الجانبين ومدّ يده اليمنى مسروراً، فما

أن رآه الجنود حتى أطلقوا حناجرهم بتحيته على الطريقة المقدونية ورفعوا تروسهم الى الأعلى وأخذوا يضربونها برماحهم. وأطلقوا صيحة عظيمة يستفزون بها العدوّ للتقدم منهم. فها أن قائدهم حاضر بينهم.

كان [انتيگونس] قد علم من بعض الأسرى الذين وقعوا في يده بأن صحّة [يومينيس] ليست على ما يرام. وتوهم عندما رآه محمولاً على محفّة ان النصر سهل، وان سحق جيشه أكيد. ولذلك عمل اقصى جهده للأسراع نحوه والالتحام به. ولمّا أصبح على مسافة يتمكن منها التأمل بنظام جيش خصمه والتحام صفوفه ومبلغ استعداده لخوض المعركة، لم يسعه الاّ العجب وتوقف برهة. وأخيراً شاهد المحفّة وهي تنتقل من جناح الى جناح فالتفت الى اصدقائه وهو يضحك ضحكة عالية بمرحه المأثور: «تلك الحفة هناك! انها كما يبدو لي الشيء الوحيد الذي يدعونا الى المعركة!» قال هذا واسرع يصدر أمراً بالتقهقر والانسحاب العام واقام له معسكراً، فلم يلبث جنود الجانب الآخر ان عادوا الى حياتهم الماضية وأعمالهم الأولى ليجعلوا أنفسهم موضع تملق واستجداء عطفٍ من جانب قوادهم. واتخذوا مقراتهم الشتوية قريباً من بلاد [الگابيني Gabeni] وبصورة متباعدة. حتى ان معسكر الجبهة الأمامية كان يبعد تقريباً بالف فرلنغ عن المؤخرة وما علم [انتيگونس] بذلك حتى زحف نحوهم سالكاً أصعب الطرق، خلال أرض قاحلة لا ماء فيها، وعرة شاقة إلا انها قصيرة. يريد بذلك مباغتتهم وهم متفرقون في مقراتهم الشتوية، لا يستطيعون التجمع في الوقت المناسب والالتحاق بضباطهم. ولما كان على جيش [انتيگونس] اجتياز أرض قفرٍ تهّب فيها الرياح الشديدة، وتملأ جوّها العواصف الثلجية فقد تأخر زحفه كثيراً. وتوالت المصاعب والأهوال عليه ولم يكن لرجاله من أسباب اتقاء هذه العوامل القاسية، غير ايقاد نيران عظيمة. وهذا ما مكن خصمه من الانتباه الى زحفه اذ ان البرابرة الذين كانوا يعيشون في الجبال المشرفة على الصحراء ادركتهم الدهشة لكثرة النيران فأركبوا سعاة جمالاً عربية أسرعت بهم الى [پيوككتس] لأبلاغه الخبر. فأدركه العجب هو الآخر حتى كاد يخرج عن طوره، والتفت فوجد رجاله لا يقلون فوضى وفسُوقاً عن غيرهم فأعتزم الفرار وجمع ما استطاع جمعه من الرجال وهو في طريقه ناجياً. فاستوقفه [يومينيس] وازال عنه الخوف والقلق وعاهده على أن يوقف زحف العدوّ. وأكد له بأنه سيؤخره عن موعد وصوله المتوقع بما لا يقلّ عن ثلاثة أيام وبعد أن أقنعهم بهذا أسرع حالاً بايفاد مراسلين عدائين لكلّ ضباط الجيش لاستنفار الرجال واخراجهم من مقراتهم الشتوية وتهيئتهم للقتال بأسرع ما يمكن. وركب هو وطائفة من أعوانه مستطلعاً وأختار أرضاً مرتفعةً تقع ضمن مدى الرؤية عبر الصحراء، فأحتلها واتخذ فيها مواضع، وأمر باشعال عدة نيران فوقها كما

هي العادة في معسكرات الجيش. ولما تصاعدت السنة النيران من فوق المرتفعات، أمتلأ [انتيگونس] حنقاً وأخذ يحرق الإرم قهراً ويأساً، ظانّا بأن اعداءه قد أنتبهوا الى زحفه منذ وقت بعيد وتأهبوا له. لذلك وخوفاً من اضطراره الى خوض معركة فورية مع رجال استجموا وقضوا شتاءهم في أحسن حالٍ، عمد الى الانحراف عن الطريق الأقصر. وسار سيراً بطيئاً في طريق أخرى خلال المدن والقرى لإراحة رجاله. إلاّ أنه لم يصطدم بمفارز للعدوّ خلال ذلك، وهو من الأمور المعتادة عندما يدنو الجيشان أحدهما من الآخر. وبعد أن أكد له السكان المحليون بأن لا جيش ثمة، وانما مجرد نيران توقد باستمرار في تلك المنطقة، أستخلص بأنه قد استدرج وخدع بحيلة [يومينيس] فتقدم والانزعاج مستولٍ عليه، ليخوض معركته مع العدو.

وفي اثناء تردد [انتيگونس] أكمل [يومينيس] تحشيد القسم الأعظم من قواته وانخرطت تحت لوائه مكبرة منه حكمته وبعد نظره، وأعلنته قائداً أوحد للجيش كله بلا منازع. فثارت ثائرة [تيوتاموس] و[آنتيجينس] زعيمي [الأرگيرايراسپيديين] وأعتبرا أختياره اهانة عظيمة، وجرحاً لمشاعرهما فلجأ الى الائتمار به، وجمعا معظم الضباط والساترابين في مجلس بحثوا خلاله في كيفية القضاء عليه، وتحديد وقت لذلك. ثم اتفقوا بالاجماع على ان يستفيدوا من قيادته للمعركة القادمة، وبعدها يغتنمون فرصة للفتك به. الاّ أن [يوداموس Eudamus] قائد الفيلة، و[فاديموس Phædiamus] أسرّا [ليومينيس] بتفاصيل خطة المتآمرين، لا حرصاً عليه، ولا لإخلاصٍ فيهما له وانما خوفاً على ديونهما في ذمته. فشكرهما [يومينيس] واثنى عليهما، ثم انسحب الى خيمته وتوجه الى اصدقائه بالكلام قائلاً: «إني أعيش بين قطيع من الوحوش الضارية». ثم كتب وصيته، ومزق رسائله لئلا ينال مراسلوه أذي أو يُسئلوا عما تحويه اوراقه السرّية، بعد موته.

بعد أن وضع الأمور في نصابها على هذه الشاكلة قررّ أن يتعمد خسران المعركة، ويدفع النصر الى يد خصمه، أو أن يفرّ هارباً عبر ميديا وارمينية واستحواذ [كپدوكيا]، وبقي متردداً بين القرارين طوال وجوده بين اصدقائه. وقلبّ الأمر في رأسه تقليباً طويلاً طبقاً لما املاه عليه تقلّب حظوظه، من شتى الجوانب. وأخيراً نظم رجاله للمعركة، وتنقل بين اليونانيين والبرابرة مشجعاً مستنهضاً الهمم. وردّ [الفلانكس] والآركيراسپيديون، التشجيع بمثله ورجوه أن يكون مطمئناً ثبت الجنان، واثقاً بأن العدو لن يكون قادراً على الصمود أمامهم، فقد كانوا والحق يقال من جنود [فيليبس] و[الاسكندر] القدماء. رجال مجربون خاضوا العديد من الحروب. وافنوا حياتهم في التدريب العسكري ولم يعرفوا هزيمة ولا تقهقراً، معظمهم اناف على السبعين من العمر، وليس فيهم من هو أقلّ من الستين. كمّا كرٌ هؤلاء الجنود المتمرسون

على رجال [انتيگونس] وهم يصيحون «أيها الأوغاد أنتم تحاربون آباءكم». وأنقضوا عليهم كالأسود فهزموا الفلانكس، برمتّه بلمحة عينٍ. اذ لم يكن هناك من يقوى على الصمود أمامهم. وفتكوا بالجزء الأكبر منهم.

غير أن النصر الذي أخطأ مشاة [انتيگونس]، عُقد لخيالته فقد تمكنت من الاستيلاء على كل اثقال جيش [يومينيس] بخيانة [پيوككتس] الذي بلغت دناءته حداً أنه أهمل المعسكر وتركه غنيمة بيد العدوّ. في حين استخدم [انتيگونس] عقله استخداماً راجحاً. وتمالك اعصابه امام الخطر. وقد ساعدته طبيعة الأرض فضلاً عن ذلك. فالساحة التي جرت فيها معركة كانت سهلاً رحيباً تربته لا هي رخوة ولا هي صلبة، بل مكسوة برمل دقيق هشّ كرمال الساحل يثيره وطء الاقدام الكثيرة وسنابك الخيل العديدة فيرتفع في الجوّ غباراً أبيض دقيقاً مثل غمامة كلسيّة فيظلم الجوّ ولا يسع الرفيق أن يرى رفيقه ولو كان قريباً منه. وهذا ما سهل لانتيگونس الاستيلاء على الاثقال.

بعد انتهاء المعركة. بعث [تيوتاموس] الى [انتيگونس] رسالة يطلب غيها اعادة الاثقال. فأجابه [انتيگونس] أنه لان يكتفي باعادة الاثقال الى قومه [الارگيراسپيدين] وانما سيقدم اليهم خدمات وعطايا أخرى اذا سلّموا له [يومينيس]. وبوصول هذا الجواب أتخذ [الارگيراسپيدين] قرارهم الاثيم بتسليمه حيّاً الى يد اعدائه. وجاؤوه يقدمون له فروض الولاء والطاعة دون أن يداخله شك في نواياهم. وراحوا يتحينون فرصتهم. وطفق بعضهم يندب خسارة الاثقال وبعضهم يشجعونه ويمدحونه كأنه هو المنتصر. وبعضهم يلقى اللوم على القادة الآخرين. ثم انقضوا عليه جميعاً وقبضوا على سيفه، واوثقوا كتافهُ وراءه بحزامه. ولمّا ارسل [انتيگونس]، [نيقانور Nicanor] لتسلّمه، رجا منه [يومينيس] أن يقتاده خلال المقدونيين وان يسمح له بمخاطبتهم، ولن يطلب منهم شيئاً، بل سيقدم لهم النصح بما فيه فائدتهم، ولا أكثر. فساد صمت تام عندما انتصب فوق نشز من الأرض. ورفع يديه المقيدتين وقال:

«يا أحقر المقدونيين. ايمكن أن يرغب أنتيگونس بتذكار حربي أعظم من هذا الذي نصبتموه له، بتسليمكم اليه جنرالكم وهو أسير؟ أما تخجلون من أنفسكم عندما اتاكم النصر، ان تختاروا الهزيمة والخذلان بدلاً منه، بسبب أمتعتكم لا غير كأن الانتصار بالثروة لا بالسلاح؛ لا بل أنكم سلمتم قائدكم لأجل استعادة أمتعتكم. واما انا فلا اراني مهزوماً وان كنتُ أسيراً. لقد انتصرت على اعدائي. إلاّ ان رفاقي الجنود غدروا بي. وامّا أنتم، فاستحلفكم بجوپتر حامي السلاح،

وبكلّ الآلهة المنتقمة من الخيانة، ان تقتلوني هنا بأيديكم، فالأمر سواء لأن العمل عملكم لو قُتلتُ هناك. ان [انتيگونس] لن يشكو من فعلكم فهو لا يريد [يومينيس] حَيّاً بل ميتاً. وان ابيتم علي هذا، فأطلقوا لي يداً واحدة لأنها كافية لاتمام العمل. وان لم تستأمنوني على سيف، فاقذفوت بي موثقاً، تحت اقدام الوحوش الضاربية. وان فعلتم فانا على استعداد لأن أصفح عن جريمة قتلي، وأعدكم أعدل الجنود لجنرالكم وأكثرهم حُبّاً به.

وفيما كان [يومينيس] يلقى خطابه أخذت الدموع تنهمر من أعين الجنود حزناً. إلاّ ان [الارگيراسپيدين] أخذوا يصيحون ويطلبون اقتياده، وعدم الاهتمام بمثل هذه التفاهات فليس بالأمر العظيم أن يلقى هذا الطاعون [الخيرسونيزي] حتفه، بعد أن دوخ المقدونيين وأهلكهم في آلاف من المعارك. ومن المؤلم جداً للنخبة من جنود [فيلبس] و[الاسكندر] ان يحرموا بالمكر والختل، ثمار تلك الخدمة الطويلة وأن يضطروا وهم في نهاية العمر الى استجداء الخبز، وترك نسائهم ثلاث ليالٍ بأيدي أعدائهم؛ ثم أنهم دفعوه بخشونة وسرعة. ولخوف [انتيگونس] من التجمهر، اذ لم يعد هناك أحد في المعسكر، أرسل عشرة من اضخم فيلته، مع ثلة مختلطة من حملة الحراب الميديين والپارثيين، ليدفعوا عنه الجمهور المتكالب. ولم يكن [انتيگونس] يقوى على مشاهدة [يومينيس] امامه بهذه الحالة نظراً لعلاقتهما المتينة وصداقتهما الحميمة السالفة. ولكنه أجاب أولئك الذين أحضروا [يومينيس] وسألوا كيف يحفظونه - أجابهم بقوله: «كما يحفظ أسدٌ أو فيل» ثم ما لبثت العاطفة أن أستولت عليه فأمر أن تكسر اثقل الاغلال عنه، وان يسمح لأحد خدمه بالعناية به ودهن جسمه بالزيت، وأن يسمح لمن يشاء من أصدقائه بزيارته، وان يؤتى اليه بما يريد. وظلّ زمناً وهو يقلبُ الفكر في تقرير مصيره. ومال حيناً الى نصح ووعود صاحب كريت [نيارخوس Nearchos] وابنه [ديمتريوس Demetrius]. وكانا شديدي الاهتمام بأمر المحافظة على حياة [يومينيس]. في حين أن سائر الآخرين كانوا يريدون القضاء عليه فوراً. وقيل أن [يومينيس] سأل [انومارخوس Onomarchos] القائم على حراسته: ماذا ينتظر [انتيگونس] بعد أن ظفر بعدوه، إمّا يقضي عليه، أو أن يتكرم عليه باخلاء سبيله. فأجابه [انومارخوس] مستخفاً: إن ساحة القتال هي أصلح من هذا المكان لإظهار ازدرائه بالموت. فردّ عليه [يومينيس] بقوله. «وربّك اني أظهرت هذا هناك، وسل ان شئت أولئك الذين نازلوني. إلا اني ما كنت اجرأ على أن انازل رجلاً كان رئيساً لي» فرد عليه [انومارخوس] قائلاً: «اذن فقد وجدت الآن مثل هذا الرجل فلماذا لا تخضع لرغبته هادئاً؟»

ولما قررّ [انتيگونس] أهلاك [يومينيس] أمر ان يمنع عنه الطعام وفي غضون يومين أو ثلاثة سيقترب من النهاية. إلا ان المعسكر هاج دماج سخطاً وثارت ثائرته فأسرع الى ارسال جلاد فقضى عليه، وسلم جثته لأصدقائه وسمح لهم باحراقها، وجمع رمادها ووضعه في آنية من الفضة، وارسلها الى زوجه وأولاده.

بعد أن قضي على [يومينيس]. لم تعهد العناية الآلهية الى رجل آخر بعقاب القادة والجنود الذين خانوه وسلموه. إلاّ أنّ [انتيگونس] نفسه، الذي اشمأز من [الأرگيراسپيديين] أو غيرهم من الأوغاد الأشرار المتجردين من الانسانية، ما لبث أن أسلمهم الى [سيبيرتيوس Si-byrtius] حاكم [أرخوسيا Archosia] وأمره أن يدمرهم ويبيدهم بكل الوسائل، بحيث لا تكتحل عين اي رجل منهم بمرآى مقدونيا أو بمنظر بحر اليونان.

١٩٦٩/٨/٣٠

أوجه المقارنة بين سرتوريوس ويومينيس

هذا هو أجدر وأهم ما وصل الى علمنا من أخبار [يومينيس] و[سرتوريوس] وبمقارنة سيرتيهما يمكننا ملاحظة أوجه التشابه التالية: كلاهما كان أجنبياً غريباً مبعداً. وكلاهما توصل الى قيادة جيوش عظيمة. ودفعا الى ساحة القتال عسكراً متمرساً في النزال مؤلفاً من أمم وشعوبٍ مختلفة. كان هذا غريباً بالنسبة الى [سرتوريوس] فهو زعيم حزبه الأكبر، الذي كان رهن اشارته، بوصفه شخصاً تجمعت فيه أعظم المؤهلات ونال أكبر الصيت والشهرة، في حين كان [يومينيس] يقف بمواجهة عدد كبير من منافسيه على مركزه، ولم يتفوق عليهم إلاّ باعماله المجيدة. لقد تبع الرجال اولهما، بدافع الاخلاص، ومجرد الرغبة في أن يكون لهم شرف قيادته بينما خضعوا للثاني سعياً وراء ضمان سلامتهم لأنهم عاجزون عن قيادة أنفسهم. وأضحى أولهما وهو مواطن روماني، قائداً للاسپان واللوزيتانيين، وهما شعبان ظلاّ سنوات عديدة خاضعين لحكم روما.

وكان الثاني [خرسونيزياً]، أصبح قائداً عاماً للمقدونيين الذين ظهروا في حينه أعظم فاتحين عرفتهم البشرية، اذ أخضعوا العالم بأسره. اما [سرتوريوس] الذي كان يتمتع بمركز رفيعٍ، لخدماته الحربية السابقة. ولكفاءته التي ابداها في مجلس الشيوخ فقد تدرجت به المناصب الى جنرال. في حين أن [يومينيس] نال هذا المنصب بفضل وظيفته الكتابية. أو مركز السكرتير الذي كان موضع احتقار. وخلافاً لحقيقة كونه قد ارتفع الى منصب القيادة من مرتبة حقيرة. فهنالك أيضاً المتاعب العقبات الكثيرة التي رافقته اثناء تدرجه في السلطة. ولم يكن مصدرَ تلك العقبات خصومُه العلنيون، بل من أناس آخرين كثيرين كانوا يأتمرون به سراً. ويختلف الأمر جداً بالنسبة الى [سرتوريوس] فلم يبرز له معارض أو منافس من حزبه، إلاّ في أواخر حياته، وكانت تلك المعارضة سرية، ولم يأتمر به من معارضيه الاّ القليل النزر. ان [سرتوريوس] وضع حداً للمخاطر التي اعترضته بالانتصارات العديدة التي نالها في ساحات القتال. في حين ان انتصارات [يومينيس] كانت مبدأ المحن والمصائب التي اصابته

جراء دسائس أولئك الذين كانوا يحقدون عليه.

وكانت أعمالهما الحربية متساوية في الدرجة، متناسبة إلاّ أن الاتجاه يختلف. [فيومينيس] كان بطبعه مغرماً بالحرب والنضال، إلاّ أن [سرتوريوس] كان متعلقاً بالسلام والحياة الهادئة المستقرة. وفي الوقت الذي كان بمقدور [يومينيس] أن يعيش آمناً مكرماً معززاً لو أنسحب عن طريق الآخرين، نجده يشتبك في نزاع خطرٍ مع أعظم زعماء المقدونيين. إلاّ أن [سرتوريوس] الذي لم يكن يرغب في اجهاد نفسه وزجها في خلافات سياسية، اضطر الى ذلك حفظاً لحياته، وأرغم ارغاماً على شنّ حربٍ ضد أولئك الذين لم يكن يريدون ان يعيش في دعةٍ وسلام. ولو أقنع [يومينيس] نفسه بقبول المقام الثاني فأن [انتيكونس] الذي سيرتاح من منافسته له على المقام الأول، كان سيرعاه ويقربه منه كثيراً. في حين أن اصدقاء [پومپي] ما كانوا ليسمحوا [لسرتوريوس] حتى بالعيش في هدوء. خاض الأول منهما الحروب لمنفعه خاصة، ولرغبة طاغية فيه الى القيادة، اما الثاني فقد اكره اكراهاً على تسلم القيادة دفاعاً عن نفسه في حربٍ شُنت عليه. ومما لا شكّ فيه أن [يومينيس] كان شخصاً مغرماً بالحروب ففضل طموحه الشهواني على سلامته. أمّا سرتوريوس فقد كان محارباً حقيقياً يعنى بأمر سلامته حبّا بانتصار قواته.

أمّا عن كيفية هلاكهما فقد تمّ لأحدهما دون أن يتوقعها مطلقاً، أمّا الآخر فكان يحسب حسابها يومياً. الأمر الذي يفصح عن طبع ونفس شريفة في الأول، لا تشك بنوايا اصدقائها. كما يفصح في الثاني عن ضعف ارادة، وتردد جعله يعدل عما أعتزمه من الفرار فقبض عليه. وموت [سرتوريوس] لم يلطخ الشرف الذي ناله في حياته، فقد فعل به رفاقه ما عجز اعداؤه عن فعله. و[يومينيس] الذي لم يفلح في انقاذ نفسه قبل أسره، كان يرغب في أن يعيش حياة الأسر، فلم يستطيع الحيلولة دون مصيره المحتوم، ولم يكن يتوقعه في الوقت نفسه.

ولذلك لم يواجهه بشجاعة أو بشرف. فالرجاء والتذلل منه جعل عدوّه الذي لم يكن لديه سلطان إلاّ على جسده، سيداً متحكماً في جسده وروحه.



AGESILAUS

394 – 362

بعد ان ملك [ارخيداموس Archidamus] أبن [زيوكسيداموس Zeuxidamus] على اللقيديميين ملكاً مجيداً، مات تاركاً ابنين: أكبرهما [أغيس Agis] الذي استولده من [لامپيدو Lampido] وهي سيدة من الأشراف، و[آغسيلاوس] الذي يصغر أخاه كثيراً، أستولده من [يوپوليا Eupolia] بنت [ميليسپيداس Melesippidas]. وآل العرش شرعاً [لآغيس]، وكان المستقبل على أغلب الاحتمال يشير الى أن [اغيسيلاوس] لن يكون أكثر من انسانٍ بسيطٍ. ولن يكون له ايّ شأن في الحياة، ولذلك نشأ وربي على نظام البلاد السائد، وهو نظام صارمٍ شاق هدفه تدريب الشبان على الخضوع والطاعة للكبار. وهذا ما حدا [بسيمونيدس] الى وصف سپارطا بأنها «مدجّنة الرجال» كما أثروا عنه. بسبب هذا الوصف أن السپارطيين بزواّ الشعوب جميعاً في تدريب أولادهم على اطاعة القوانين وتعويدهم الصبّر، والطاعة التي يتوصلون اليها بالشدة في تثقيفهم، وتدريبهم منذ نعومة أظفارهم، كالخيل التي لا يتوصل المرء الى تذليلها إلاّ عندما تكون أمهاراً. هذا وبما أن دستور البلاد لا يفرض على ولاة عهد المملكة هذا النظام الصارم فقد شاء حسن حظّ [اغيسيلاوس] أن يكون الأخ الأصغر، فنشأ على ذلك وربي على الطاعة وضبط النفس، فكان أجدر وأنسب لممارسة الحكم عندما آل الملك اليه. وظهر أقرب الى قلوب الناس والعامة، من سائر ملوك سپارطا. لأن نشأته الأولى أضافت الى فضائله الملكيّة مشاعر المواطن الانسانية، وخصاله الرقيقة.

وكان قد ضمّ منذ حداثته الى ما دعي بالمجموعات، أو الصفوف فأجتذب انظار [ليساندر] فخَصّه باعجابه، ولاسيّما بسبب حبّه للنظام واطاعته الأوامر. فإلى جانب روحه العالية التي فاقت كل ما لدى اقرانه والى جانب اندفاعه وحماسته التي كانت تنقذه من كل خطب أو محنة وتنصره على كل معارضة،كان رقيق الخلق لين العريكة يحترم السلطة ولا يندفع وراء عاطفة مفاجئة أو يطيع الحوافز الغزيزية في أعماله ويخضع لكلّ أمرٍ وهو أكثر تألماً لأقل استفزاز أو اهانة، من الأرهاق بأيّ مشقة أو تعب.

كانت أحدى ساقيه أقصر من الأخرى. إلاّ ان هذه العاهة قلما لوحظت في شبابه، لجمال عامٍ فيه. وأسلوبه السمح في احتماله هذا النقص قضى قضاءً تاماً على كل الآثار التي تخلفها

فقد كان أوّل من يؤلف النكات والفكاهات على نفسه. والواقع هو أن سموّ روحه، واندفاعه في أطلاب المعالي زاد وضوحاً وجلاء بوجود هذه العاهة. لأنه لم يدع لنقصه هذا فرصة، لينال من عزيمته، أو لمنعه من الاقدام على جلائل الأعمال والإتيان بضروب الشجاعة والبسالة. ونحن اليوم لا نجدُ له صورة أو تمثالاً لأنه أبى أن يُعمل له ذلك في حياته، وأوصى بذلك قبل مماته. وقيل أنه كان قصيراً، ضئيل القدّ. إلاّ ان طيب مزاجه وحضور نكتته ومرحه الدائم. وخفة روحه التي ما عرفت العبوس أو التجهم أو الغطرسة، جعلت شخصيتهُ حتى في شيخوخته من أحب الشخصيات. وبدت أجمل بكثير من ارشق الشباب أكثرهم فتنة وجمالاً. وقد كتب [ثيوفراستوس] يقول بأن مجلس [الايغور] فرضوا على [آرخيداموس] غرامة لأنه تزوج بأمرأة صغيرة العمر وعللوا ذلك «بأنها ستأتي لنا بنسل من الملوك الصغار بدلاً من كبار الملوك» على حدّ قولهم.

وفي عهد حكم أخيه الأكبر [آغيس] حَلّ [سپارطا]، القائد [الكيبياديس] قادماً من صقلية بعد أن أبعد منفياً عن آثينا. ولم يمكث قليلاً إلاّ وانتشر الشكّ حول وجود علاقة جنسية بينه وبين [تيميا] زوج [آغيس] الملك حتى أن الأخير ابى الاعتراف ببنوّة طفل لها قائلاً انه ابن [الكيبياديس] وليس ابنه». ولم تكن [تيميا] اذا صدقنا ما قال [دوريس] المؤرخ، بالمهتمة. فقد كانت السباقة الى الهمس بذلك في آذان الوصيفات الهيلوتيات بقولها أن الاسم الحقيقي لطفلها هو [الكيبياديس] وليس [ليوتيخيدس] وكان المعتقد آنذاك أن [الكيبياديس] لم يرتبط معها بهذه العلاقة لحبٍّ وغرام نشأ بينهما بل بدافع طموح فيه الى أن يكون ملوك السپارطيين من صلبه. ولقد ذاعت أخبار هذه العلاقة وشاعت بين الناس، بحيث لم ير [الكيبياديس] بُداً من مغادرة [سپارطة]، ولم يمنح الابن [ليوتيخيدس] المنزلة المقررة والاكرام الواجب للابن الشرعي. ولم يعترف [آغيس] ببنوته، الى أن حضرته الوفاة وراح [ليوتيخيدس] يبكي متوسلاً ضارعاً وآغيس مسجى على فراشه طالباً منه الاعتراف به ابناً ففعل ذلك امام عددٍ من الشهود، الا ان هذا الاعتراف المتأخر لم يفده في ادعائه العرش، ولاسيما بعد أن أخذ [ليساندر] يعمل لأجل استخلاف [آغيس] بأخيه [اغيسيلاوس معللاً دعوته، بأن [ليوتيخيدس] ابن سفاح، وهذا ما لا يؤهله الى استخلاف أبيه. وكان تأثير [ليساندر] عظيماً بعد أن طبق ذكره العالم باستيلائه على آثينا من البحر، وبعد أن برز كأعظم شخصيّة واقواها في [سپارطا]. كذلك كان مواطنون سپارطيون كثيرون يفضلون [آغيسيلاوس]، ويشايعونه بحماسةٍ، يدفعهم الى ذلك ما تحقق لهم من كفاءته ومؤهلاته التي رأوها بأنفسهم أيام كان يثقف وينشأ بينهم. وكان يوجد في [سپارطا] آنذاك شخص

يدعى [ديوپيثوس Diopithis]، على معرفة ووقوف تأميّن بالنبوءات القديمة. وكان على اطلاعٍ عظيم بمسائل الدين والوحي. فزعم أن نصب ملك أعرج على [اللقيديميين] أمرٌ مخالف للدين مستشهداً في قوله هذا بالنبوءة التالية:

يا سپارطا العظيمة السليمة من كل عيب كوني على حذر من الملكيّة العرجاء،
والاّ فسينجم عن ذلك فتنة طويلة غير منتظرة وعواصف مهلكة من الحروب.

إلاّ أن [ليساندر] لم تكن تعوزه الحيلة. وقال مفسراً لمضمونها، اذا كان السپارطيون خائفين من هذه النبوءة حَقاً، فعليهم أن يحذروا من نصب [ليوتيخيدس] ملكاً. لأن الآلهة أبعد عن الاهتمام بقدمٍ عرجاء في ملك، بل هي تقصد بالنبوءة نقاء الأسرة الهرقليّة، فدخول بذرة غير شرعية فيها، يجعل مُلكها أعرج فعلاً. كذلك زعم [آغيسيلاوس] بأن نغولة [ليوتيخيدس] أنما كانت بشهادة الآله [نبتون] الذي أحدث زلزالاً عنيفاً قذف [بآغيس] من فوق فراش الزوجية، فأنقطع منذ ذلك الحين عن اتيان زوجه [تيميا] وبعد عشرة أشهر من ذلك وُلد [ليوتيخيدس].

وبالنظر الى هذه الاسباب والعوامل أختير [آغيسيلاوس] ملكاً. وسرعان ما أستولى هذا على جميع املاك أخيه المتوفى فضلاً عن العرش. ونبذ [ليوتيخيدس] نبذاً تاماً لكونه ابن زنا. وتوجه باهتمامه ورعايته الى اقربائه من جهة امه، وكانوا أناساً ذوي جاه ومقام إلاّ أنهم في غاية من الفقر. فنزل لهم عن نصف الأموال التي ورثها من أخيه، ونال جراء ذلك سمعة وثقة كبيرة، بدلاً من الحسد والضغينة اللتين تأتيان عادة مع الميراث. ويحدثنا [گزنيفون] بأنه نال حظوة كبيرة وسلطة عظيمة بين المواطنين بحيث لم يكن ثم مَرَدّ لأمره، عن طريق اذعانه الى الشعب، أو بكلمة أخرى بترك الشعب يملي عليه رغباته. ويقول معقباً، أن قصد [آغيسيلاوس] بهذا هو أن يستحوذ على سلطة [الايغور]، و[المشايخ]، بالصورة التالية:

كان لهؤلاء في ذلك الحين السلطة العليا في الدولة، فالايغور هم الحكام الذين ينتخبون سنوياً، والمشايخ يظلون مدى الحياة يمارسون وظائفهم. وهذا النظام كان سائداً منذ أيام [ليكورغوس] كما سبق لنا ذكره، ويقصد به الحَدّ من سلطات الملوك. لذلك كانت الخصومات والمنافسة مستمرة بين هؤلاء وبين الملوك بتعاقب الأجيال. إلاّ أن [آغيسيلاوس] أتخذ سبيلاً للتعامل معهم يختلف عن غيره، فبدلاً من الاختصام والتنافس راح يخطب ودّهم. ويسارع في استشارتهم كلما اراد ان يقدم على عملٍ. وكان يتظاهر ابداً بالاستعداد للتوجه اليهم بل الجري، وراء يريدونه. فاذا كان جالساً على عرشه يفصل في المظلمات ودخل عليه الايغور، فإنه يهبّ واقفاً أحتراماً لهم. واذا انتخب أحد المشايخ للمنصب، اهداه معطفاً وثوراً. وهكذا

فحين يتظاهر بالرغبة في تقوية سلطاتهم ويظهر لهم كل التجلّة والاكرام، تجده يعمل سراً بتقوية سلطته وتوسيع صلاحيات الملك بمختلف التجاوزات على صلاحياتهم مما لا تدعهم صداقتهم له على الاعتراض.

وسلوكه ازاء سائر المواطنين لم يكن فيه مطعنٌ قط. وهو في خصوماته أقل لوماً مما هو في صداقاته. ففي عداواته يأنف أن يأخذ عدوّه على حين غرّة وفي غفلةٍ منه. وفي صداقاته لا يقف عند حَدٍّ في مساعدة صديقه حتى في الأمور التي لا تقرّها قواعد العدالة. واذا ما أقدم خصمٌ له على أمر يستحق التمجيد والثناء، فانه يترفع عن التقليل من شأن ذلك العمل. لكنه لا يعرف قط كيف يلوم اصدقاءه عندما يقدمون على السيء من الأعمال، بل ينحاز الى جانبهم ويدافع عنهم ويساعدهم في سوء أعمالهم ويرى من واجبات الصداقة، أن تكون أعمال الاصدقاء جديرة بالأطراء ومهما كانت سبلها. واذا أخطأ عدوّ له في أمر، كان أوّل من يرثي له ويسرع الى الاغضاء عنه وبهذا تمكن من نيل محبة المواطنين والفوز بقلوبهم حتى أصبحت شعبيته موضع شكّ [الايغور] ففرضوا عليه غرامة بزعمهم «انه يكسب المواطنين لنفسه، في حين أنهم ملك عام للدولة!» فمن رأي الفلاسفة أنكّ لو تمكنت من ازالة روح المنافسة والمباراة من الكون فان كل الإجرام السماوية ستقف جامدةً وتفقد الحركة، وعملية الخلقِ مجردة عن التساوق والتناسق المتناظرين في الأشياء جميعاً. ولهذا يبدو أن صاحب الشريعة السپارطية قد أقّر لمقومات جمهوريته بمبدأ المباراة والمنافسة كالتنافس على الفضيلة وكرم الخلق مثلاً. ورغب بصورة لا لبُس فيها باحلال نوع من المنافسة والتنازع ما بين المواطنين الفضلاء. وأعتبر البقاء على المؤهلات غير الفعالة والمثمرة، أو التواكل، نوعاً زائفاً من التناظر. ويرى بعضهم أن [هوميروس] كان يقصد هذا عندما جعل [آغاممنون] عظيم الفرح بالخصام الذي نشب بين [اوليسيس] و[آخيل]، ملتذاً «بالكلمات الجارحة» التي تُبودلت، الأمر الذي ما كان ليحدث له، لو لم يجد في الأختلاف والتخاصم بين شرفاء الرجال، مصلحة عامة كبيرة. على أن هذا المبدأ يجب أن يجري على اطلاقه ودون تحديده، فلو تفاقم الخصام وأشتدّت نار المنافسة لانقلبت خطراً عظيماً على الدول والممالك ولنجم عنها آثار وخيمة جداً.

وفي مفتتح عهد [آغيسيلاوس] وردت انباء من آسيا تشير بأن الملك الفارسي يقوم باستعداد بحريّ عظيم، وهدفه انتزاع التفوق البحريّ من أيدي السپارطيين. وتحمس [ليساندر] لفكرة انتهاز هذه الفرصة للزحف في آسيا ومساندة اصدقائه الذين كان قد نصبهم حكاماً واسياداً على المدن هناك، فأساوا السياسة والحكم وتمادوا في طغيانهم مما دعا الى طرد بعضهم وقتل آخرين منهم. وأفلح في اقناع [آغيسيلاوس] بأن يتولى قيادة الحملة فيحبط

بذلك خطط البرابرة الرامية الى نقل الحرب الى اراضي اليونان، لذلك قاتلهم في عقر دارهم.
وكتب أيضاً الى اصدقائه في آسيا لإرسال وفود الى سپارطة يطلبون ان يكون [اغيسيلاوس] قائداً عاماً لهم. ودخل [اغيسيلاوس] الى الجمعية العامة مبدياً موافقته شريطة انه يزودّ بثلاثين قائداً ومستشاراً سپارطياً يرافقونه ويكونون تحت امرته، مع [٢٠٠٠] من صفوة رجال الهيلوت الذين منحوا الحقوق المدينة والاقتراع ومن الأحلاف ما يبلغ عدده ستة آلاف. فنال ما اشترطه بمعاونة [ليساندر] وتأثير نفوذه. وتمّ اختيار ليساندر فوراً رئيساً لهؤلاء الثلاثين لا بفضل سلطته وشهرته، بل بسبب صداقته [لأغيسيلاوس] الذي عَدّ أختيار [ليساندر] له في هذه المهمة فضلاً أكبر من مساعدته في تبوء العرش.

وبينما كانت وحدات الجيش تحتشد في قاعدة [گيراستوس Geræstus] المختارة لهذا الغرض. ارتاىٰ [اغيسيلاوس] أن يرحل مع بعض اصدقائه الى [آوليس Aulis]. وهناك رأى فيما يرى النائم، رجلاً يدنو منه ويتحدث اليه بما يلي:

«عليك يا ملك اللقيديميين أن تعرف عن نفسك هذا، انه ليس ثم الا جنرال رئيس بين الأغريق كلهم، وهو [آغاممنون] وبما انك الآن خليفته في هذا المنصب نفسه، وفي قيادة الرجال أنفسهم، وما دمت تعلنها حرباً على الاعداء ذاتهم وتبدأ حملتك من البقعة ذاتها، فعليك ان تقرّب ما قربه [آغاممنون] بالضبط، قبل رفعه مراسيه».

وهنا تذكر [آغيسيلاوس] حالاً أن القربان الذي قربّه [آغاممنون] كان ابنته لأنّ النبوءة التي نزلت عليه أمرته بذلك. لكنه لم يقلق، ولم ينشغل باله، وأسرع حال استيقاظه ينبئ اصدقاءه بما رأى معلّقاً عليه بقوله انه سيسترضي الآلهة بقرابين لا يسع أية آلهة غيرها إلاّ الرضا بها. وانه لن يتأثر الخطى العمياء التي سلكها سلفه. ثم أنه أمر أن يؤتى بظبية. وأن نتوج بالاكليل وطلب من ساحره القيام بمراسيم التقريب ولم يكن الشخص الذي تعودّ البويوسيون ان يعهدوا لامثاله بمثل هذه المهمة، فساءهم الأمر وأسخطهم جداً، وبعثوا بضباط الى [اغيسيلاوس] لمنعه من التضحية بصورة مخالفة لشريعة البلاد. وعلى أثر أبلاغ الرسالة اليه تقدموا من المذبح رأساً ورفعوا عنه اشلاء الظبية وقذفوا بها بعيداً. فشاع الغضب الشديد في نفس [اغيسيلاوس] وأقلع تواً بسفنه دون أن يقوم بتقريب قرابين أخرى. وقد أستولى عليه التخاذل لهذا الفأل السيء متوقعاً حملة فاشلة تاماً، ورحلة مشؤومة.

وبوصوله [أفسوس] تهولّ ما رآه من هيبة [ليساندر] ونفوذه والإجلال الذي يحبوه به الناس. مما لم يطق صبراً عليه. فقد كانت المظالم والشكاوى كلها ترفع له. وذوو الحاجات كلهم يتجمعون على بابه ويقتفون خطاه اينما سار، كأنما لا شيء يعود [لآغيسيلاوس] غير

صفة القائد، التي هي مجرد أمرٍ شكليّ. أما السلطان الفعلي والأمر والنهي فهو بيد [ليساندر]. في الواقع لم يكن بين القادة والمستشارين الذين ارسلوا الى آسيا من يدانيه جبروتاً وسطوة. ولم يكن فيهم من يفوقه في مكافأة اصدقائه، وفي صرامته ازاء أعدائه. هذا التصرف الذي مارسه الآن، خلف أشدّ الانطباع في نفوس الناس، لاسيّما عند مقارنتهم سلوك [اغيسيلاوس] الرقيق البسيط المحبب بمظهر الصرامة والسيادة والعبارات المقتضبة التي ما زالت بارزة في طباع [ليساندر]. انجرفوا انجرافاً عاماً بهذا المظهر المهيب وانحازوا الى صاحب تلك المعاملة، ولم يظهروا [لاغيسيلاوس] إهتماماً كبيراً. ذلك التصرف اغاظ أولاً، القواد السپارطيين الذين ساءهم ان يظهروا بمظهر الخدام لليساندرأكثر من ظهورهم بمظهر المستشارين [لآغيسيلاوس]، وأخيراً بدأ [اغيسيلاوس] نفسه يدرك بأن طغيان شخصية [ليساندر] ستحرمهُ أي صيتٍ أو شهرةٍ قد يأتيا من عمل عظيم. ومع أن [اغيسيلاوس] بعيد عن الحسد بطبعه، لا يستاء من الوان التكريم والحفاوة التي ينالها الرجال الآخرون، إلاّ أنه ضنين بالمعالي، حريص على امجاده. ولذلك نراه يلجأ الى الوسيلة التالية:

بدأ أولاً في معارضة كلّ اقتراح يبديه [ليساندر]. ونبذ كا ما يحبذه ويزينه له بصورة خاصة ليأخذ بضده من المقترحات وبعد هذا عمد الى من يراجعه في مطلب، فمن كان ذا صلةٍ [بلساندر] خاب في مسعاه لا محالة. واتبع الأسلوب نفسه في الدعاوى القضائية. فكلّ من كان [ليساندر] يقف ضدّه، ويتكلم بالسوء عنه ربح قضيته بالتأكيد، وكل من كان يأتي [ليساندر] متوسلاً في قضية متشفعاً. فليكن سعيد الحظّ ان خرج سالماً بجلده دون ان تلحقه خسارة.

وكانت هذه الأمور تجرى وفق مخطط مرسوم وبنية مقصودة، لا بصورة عفوية، وما لبث [ليساندر] أن أحسّ بها، فلم يتردد في مصارحة اصدقائه بأن الأذى الذي يلحقهم انما هو بسببه. وطلب منهم الانصراف الى الملك لأنهم أقوى عليه بدون وجوده، مما لو كان هو. ويظهر انه كان يقصد باقواله هذه، إثارة شعور من الاستياء عليه لكن [اغيسيلاوس] تمادى، ووجه إهانة صريحة له، بأن عينه بمنصب «مقطع اللحم» وكان يقول للملأ ساخراً «فليذهبوا الآن ويقدموا فروض التجلّة والولاء لمقطع اللحم على مائدتي!». ولما نفد صبر [ليساندر] وضاق صدره بالاهانات، شكا الأمر بالأخير الى [اغيسيلاوس] وقال له: «انك تجيد اذلال اصدقائك» فأجابه [اغيسيلاوس] قائلاً:

- اني أجيد فعلاً اذلال أولئك الذين يزعمون لأنفسهم سلطاناً أكثر مني.

فقال [ليساندر]:

- ربما كان الأفضل أن تنطق أنت به، مما لو أنطقه أنا: واني لا ارغب إلاّ في أن تسند اليّ منصباً في مكان أخدمك فيه آمناً من التعرض لسخطك.

فبعث به [اغيسيلاوس] الى [اللهيللسپونت] حيث عقد اتفاقاً مع [سپثيرداتس Spithri-dates] الفارسي حاكم أقليم [فارنبازوس Pharnabazus] لمساعدة اليونان بمائتين من الخيالة ومبالغ كبيرة من المال. ولم تخمد سورة غضبه وبدأ ينفذ منذ ذلك الحين وما تلاه، خطة تقضي بانتزاع المملكة من الأسرتين اللتين تحكمانها وجعل نظام الحكم فيها انتخابياً. وقد قيل انه كان بسبب هذا النزاع سيثير ضجة عظيمة في سپارطا لو لم يوافه الأجل في الحرب [البويوتية]. وهذا هو شأن النفوس الطمّاحة في الجمهوريات. اذا تخطت حدودها، كانت زعيمةً بالحاق الضرر، أكثر من جلب المنفعة. ومع ان كبرياء [ليساندر] وعجرفته كانتا أعظم مما يطيقه بشر وابعد عن أية مناسبة أو معقول، [فاغيسيلاوس] كان في مقدوره بلا شكّ، ان يلجأ الى وسيلة أخرى لتقويمه أقل اذلالاً وايلاماً لرجل ذي شهرة طائره ومآثر عظيمة. والحقيقة هي أن الاندفاع العاطفي أعماهما فما عاد الأول يعترف رئيسه بسلطةٍ، وما عاد الثاني يحتمل نقائص صديقه.

في مبدأ الأمر كان [تيسافيرنس] الذي يخشى ان [اغيسيلاوس] قد فاوضه حول اعطاء الحريات للمدن اليونانية، واتفقا على الأمر، ولكنه ما أن وجد أن قوات كافية قد أجتمعت له حتى قررّ اللجوء الى القتال، وهو الأمر الذي كان يريده [اغيسيلاوس]، حيث أن الآمال التي عقدت على هذه الحملة كانت عظيمة. وكان يرى مما لا يشرفه أن لا يقوم بعمل ذي شأن لأجل اليونانيين وهو على رأس السپارطيين الذين كانوا آنذاك سادة البَرّ والبحر، وهذا [گزينفون] بمحاربيه العشرة آلاف يتوغل في قلب آسيا حتى يبلغ البحر، ويوقع بالقوات الفارسية الهزائم متى وكيف شاء. لذلك ولكيما يقتص لنفسه من [تيسافيزنس]، ويقابل نكثه بالعهد، بحيلةٍ لا غبار عليها، تظاهر بالزحف على [كاريا] مستدرجاً خصمه [تيسافيرنس] حتى اذا تم له ذلك أقفل راجعاً فجأة وانقض على [فريجيا] فدوّخها وأستولى على كثير من مدنها ووضع يده على غنائم كثيرة، وبذلك لقنّ حلفاءه بأن مخالفة العهود المقطوعة، هو استصغار للآلهة، وامّا ايقاع العدوّ في شرك اثناء الحرب فهو عمل عادل، بل مأثرة مجيدة، فضلاً عن كونه مصلحةً ومدعاة للارتياح.

وكان من جهة يشكو نقصاً في خيالته، ويشعر ببعض التثبيط وخور العزيمة لشواهد النحس التي تجلّت في قرابينه من جهة أخرى، فأنسحب الى [افسوس] وهناك تمكن من تعبئة أعداد كبيرة من الخيالة. بارغام الاغنياء الكارهين مهنة الحرب على تقديم بديلين عنهم. لكلّ واحدٍ

فارس مسلّح مع جواد. وكان كثير من الناس يرغبون في تقديم هذا البديل للتخلص من الخدمة. ولذلك فسرعان ما تعزز جيشه بقوات من الخيالة غلبت عليهم الشجاعة والبسالة، فمن عجز عن القتال أستأجر شخصاً يميل اليه، ووضعه بين الخيالة. ومما يشبه هذا ما فعله [آغاممنون] بقبوله مهراً أصيلاً مقابل تسريح أحد الأغنياء الرعاديد من الجيش.

وعرض بأمرٍ من [اغيسيلاوس] أسرى الحملة الفريجية للبيع بالمزاد العلني. فنزعت ثيابهم عنهم أولاً وشرع ببيعهم وهم عراه وتهافت الشارون على الثياب الاّ أن الأسرى أنفسهم كان الاقبال عليهم ضعيفاً لهزالهم ونحافتهم وبياض إهابهم ورقته، بسبب قلة التمارين الرياضية وعدم التعرض للطبيعة. مما دعت الى العزوف عنهم وأحتقارهم لعدم صلاحهم للعمل. وكان [اغيسيلاوس] واقفاً في السوق فالتفت الى من حوله من الاغريق الاتباع وقال لهم «هؤلاء الرجال الذين تقاتلونهم. وهذه الثياب والاشياء هي ما تغتنمونه من هذه الحرب».

وبدنو موسم الشتاء بث [اغيسيلاوس] الشائعة، بأنه يعتزم غزوة [ليديا]. هذا التصريح عَدّة [تيسافيرنس] ضرباً من الخداع، ولم يصدقه هذه المرة بعد أن جازت عليه الحيلة الأولى، متوقعاً انه سيختار [كاريا] لأنها بلاد وعرة المسالك غير صالحة للخيل بسبب النقص الذي يشكو [آغيسيلاوس] فيها. ولهذا بنى تقدمه على هذه الغروض، لكنه سرعان ما تبين ان [اغيسيلاوس] كان صادقاً في قوله، حين دخل بلاد [سارديس]، فسارع للحاق به بأقصى ما يمكنه. وأدركت خيالته التي أجهدها الطراد - ساقة جيش [اغيسيلاوس] وهي متفرقة مشتتة منهمكة في السلب والنهب فقضى عليهم. وفي عين الوقت تبين [اغيسيلاوس] أن خيالة خصمه قد تجاوزت مشاته كثيراً وانفصلت عنه. وكان جيشه مجتمعاً موحد الصفوف برمته، فقرر أن يشتبك حالاً في معركة معهم. خرج بمشاته الخفيفة، حملة التروس مع الخيالة وأمرهم بالتقدم السريع ودخول المعركة. في حين عبّأ مشاته الثقيلة في المؤخرة وكان النصّر الذي ناله موازيا للدقة التي رسم بها خطته. فقد لاذ البرابرة باذيال الفرار فلاحقهم اليونانيون وجدوا في أثرهم حتى أستولوا على معسكرهم ووضعوا السيف في رقاب العديد منهم. كان لهذا النصر آثار عظيمة جداً لم تقتصر على نهب البلاد الفارسية على هواهم وبقدر ما شاؤوا. بل لدفع [تيسافيرنس] ثمناً غالياً عن سائر الظلم والقسوة التي اذاقها للأغريق، لعدائه الشديد لهم. فقد أرسل ملك الفرس سفيره [تيثراوستس Tithraustes] الذي قطع رأسه. وانثنى حالاً يفاوض [اغيسيلاوس] بخصوص عودته الى اليونان، كما بعث وفداً لهذه الغاية. فوضه بان يعرض مبلغاً كبيراً من المال عليه. فأجاب [اغيسيلاوس] الوفد بقوله أنه غير مخول بابرام صلح، وأن اللقيديميين هم اصحاب الكلمة فيه. أمّا عن المال فهو يفضل ان يراه في أيدي

رجاله على ان يكون بيده. والاغريق لا يرون من الكرامة في شيء أن يتسلموا رشاوى من اعدائهم، وانما بأخذ الغنائم الحربية، ومع كلّه فإكراماً لـ[تيتراستس] ولروح العدالة التي رافقته في معاملته [تيسافيرنس]عدوّ الاغريق الأكبر، سيقوم برفع مقره الى [فريجيا]. ويقبل بثلاثين تالنتاً تسديداً لنفقاته. وفيما هو ماض في سيره، جاءته [عصا] من حكومة سپارطا وفيها أمر يقضي بتعيينه أميرالاً للأسطول، اضافة الى قيادته العامّة لقوات البر. وهو شرف لم يخلع على أحدٍ من ملوك سپارطا قبله. ولهذا يكون [اغيسيلاوس] بلا منازع أعظم وأشهر رجال عصره وصح ما قاله عنه [ثيومپويوس] انه زاد بفضائله ومؤهلاته مجداً على ما حبته به سلطته ونفوذه. غير انه ارتكب خطأ بتفضيل [پيساندر Pisander] بين كثيرين من حوله أكثر منه خبرةً وأكبر سنّاً لقيادة الأسطول. وهو في هذا التعيين لم يتوخ المصلحة العامة بقدر ما توخى ارضاء قريب له وهي زوجته التي كان [پيساندر] شقيقها.

بعد نقل معسكره الى الاقليم الذي يحكمه [فارنبازوس] أمن نقص الارزاق بتوفر مقادير كبيرة منها. فضلاً عن تمكنه من جمع مبالغ كبيرة من المال. ثم زحف نحو تخوم [پافلاغونيا]، فأنضم اليه [كوتيس Cotys] ملكها ودخل معه بمحض رغبته في حلف مدفوعاً بفكرته الحسنة عن شرف [اغيسيلاوس] وشهامته. ومنذ أن ترك [سبيثريداتس] الملك [فارنبازوس] وهو الى جانب [اغيسيلاوس] لا ينفصل عنه ويتبعه في المعسكر متأثراً خطاه اينما ذهب. وكان [لسپيثريداتس Spithridates] هذا، صبيٌ في مقتبل الصبا وريعانه في غاية الجمال يدعى [ميغاباتس Megabates] عَلِق [اغيسيلاوس] به. كما كان له ابنة فاتنة جداً، في سنّ الزواج، عقد لها [اغيسيلاوس] على الملك [كوتيس] وأخذ منه مقابل ذلك الف رأس من الخيل، والفين من المشاة الخفيفة. وعاد الى [فريجيا] وأخذ يدوخ بلاد [فارنبازوس] ويعيث فيها سلباً. ولم يكن صاحبها يجتريء على مقابلته في ساحة القتال، كذلك كان ضعيف الثقة بحاميات مدنه، فجمع كل ماله قيمة من أمواله وأخذ يتنقل هنا وهناك بجيش خفيف الحركة متوخياً الابتعاد عن خطّ سير [اغيسيلاوس] الى أن وفق [سبيثرايداتس] بالتعاون مع [هيرپيداتس Hierpidates] الاسپارطي، الى الاستيلاء على معسكره وكل امواله. وابدى [هيرپيداتس] نهاية في الشدة والصرامة اثناء التحقيق والتدقيق عن الغنائم التي أخذها الجنود البرابرة لأنفسهم وأرغمهم على ردّها مع كثير من القسوة والشدة، فاستاء [سپيريداتس] منه واغاظته طريقته، فأنقلب الى الجانب الآخر، وذهب مع [الپافلاغونيين] الى [ساردیس]. فاورث [اغيسيلاوس] حزناً عظيماً. لأنه فقد به صديقاً وقائداً مقداماً كما فقد جزءً كبيراً من الجيش معه. زد على هذا أن أصل الموضوع كان تلك الخسّة المتجلية

بالشهوة الدنيئة الى المال. وهو ما كان [اغيسيلاوس] يحرص دائماً أن يبعد شرفه وشرف بلاده عن التدنس به وفضلاً عن الاسباب العامة فهناك سببه الخاص. لأن تعلقه الشديد بابن [سپيثريداتس] كان قد ملك عليه مذاهبه، وان حاول الظهور بمظهر المسيطر على ارادته، لاسيما في محضرٍ من الفتى نفسه ومجاهدته لأخفاء كل ما ينم عن عاطفته. حتى انه عندما تقدم منه الفتى يوماً لتقبيله. اشاح عنه [اغيسيلاوس] ولوى عنقه فخجل الفتى وارتد الى الوراء مرتبكاً. وعمد بعد ذلك الى أن يكون أكثر تحفظاً في تحيته له ويحرص أن تفصل بينهما مسافة. وما لبث [اغيسيلاوس] أن ادركه الندم على بروده. وغيرّ من رأيه وتظاهر بالعجب من صدود الفتى وعدم التسليم عليه بالحرارة السابقة، والاسلوب الخالي من الرسميات. فقال المقربون منه «لقد كان الخطأ خطأك، لأنك لم تسمح للفتى بتقبيلك، واشحت عنه بوجهك منزعجاً. ولو كانت لديك الشجاعة في تركه يفعل ذلك لجاءك مَرّةً أخرى» فأطال [اغيسيلاوس] الصمت ثم قال:

- لا حاجة بكم الى دفعه على عمل ذلك. وارى من الأفضل أن أكون سيدّ نفسي في رفضي، من أن اتصور كل ما يقع نظري عليه وقد انقلب الى ذهب ابريز.

وهكذا، تراه ينزل عن قدر نفسه أمام [ميگاباتس]. ويهفو اليه بعنفٍ عندما يكون بعيداً عنه، بحيث لا يملك المرء نفسه من التساؤل، ترى لو عاد الفتى اليه ثانية، هل ستعينه الشجاعة التي كان يبديها أم ستخذله اذا أمتحن بموقف رفض آخر؟

وبعد هذا، قام [فارنبازوس] ينشد فرصة للمفاوضة مع [اغيسيلاوس]. فتوسط بها [ايللوفانوس Appolophanus] صاحب [كايزيكس Cyzicus] وحقق لهما اجتماعاً. وكان [اغيسيلاوس] الاسبق في الحضور فانطرح على الغشب تحت شجرةٍ منتظراً قدوم [فارنبازوس]. وما لبث ان جاء هذا ومعه المطارح الجلدية الناعمة والسجاجيد المطرزة الوثيرة. فلما شاهد حال [اغيسيلاوس] ادركه الخجل من نعومته وترفه ولم يستخدم تلك المفارش وانما استلقى الى جانبه على العشب دون اهتمام بما يصيب ثيابه الفاخرة الجميلة الصبغ. وكان [لفارنبازوس] الكثير من اسباب الشكوى، فبعد تبادل عبارات الترحيب والمجاملات الرقيقة، راح يذكّر [اغيسيلاوس] بخدماته الجليلة التي اداها لقومه اللقيديميين في حروب [اتيكا] فكوفيء عنها باسوء جزاءٍ، وهو اجتياح بلاده ونهبها على أيدي أولئك الذين يدينون له بالكثير. فأطرق السپارطيون الحاضرون برؤوسهم خجلاً مدركين مبلغ ما ألحقوه من أذى بحليفهم السابق. إلاّ أن [اغيسيلاوس] أجابه قائلاً:

- يا فارنبازوس، عندما نكون نحن اصدقاء مع سيدك الملك فأننا نسلك سلوك الاعداء.

وبالنسبة اليك فالواجب يقضي علينا أن نعتبرك جزءً من ملكه، ونعاملك بمقتضى ذلك، ونحن لا نقصد من هذا الحاق اذى بك بل به عن طريقك. ومع هذا كله فلك انت وحدك ان تختار بين أن تكون صديقاً للاغريق اوعدّواً للملك وإذ ذاك لك أن تعدّ هذا الجيش جيشك، وهذا الاسطول رهن اشارتك، يدافعان عنك وعن بلادك وحرياتك التي هي أشرف ما يطمح اليه الناس اسمى هدف لهم.

فردّ [فارنبازوس] مفصحاً عن حقيقة ما يجول في ذهنه قوله:

- اذا بعث الملك حكماً آخر في مكاني فسانحاز الى جانبكم، وهذا عهدٌ مني. أما وهو يضع الآن ثقته بي في حكم هذه البلاد، فلا يسعني إلاّ ان ابقى مخلصاً له ولن ادّخر أي مجهود في مقاومتكم.

فلم يسع [اغيسيلاوس] الاّ الإعجاب بجوابه. فنهض ومدّ يده اليه مصافحاً وقال له:

- إني لأفضّل أن يكون شخص بمثل شجاعتك، صديقاً لي لا عدواً.

وغادر [فارنبازوس] الاجتماع الاّ أن ابنه تخلّف، وأسرع متوهجا نحو [اغيسيلاوس] هاشاً باشاً. وابتدره قائلاً:

- اغيسيلاوس! أنت الآن ضيفي.

ثم قدم له حربةً كانت في يده فتقبلها [اغيسيلاوس] وهو متأثر بالانعطاف والحفاوة التي ابداها له الشاب، وأخذ يتلفت فيما حوله ليجد شيئاً مما لدى بطانته، يناسب الهدية. فحانت منه التفاتة الى جواد يركبه كاتم سرّه [ايداوس Idaeus] وكان عليه أغطية وسروج في غاية الجمال والزركشة فنزعه وقدمه للفتى ولم يقف عطفه عليه عند هذا، وانما استمر يحبوه به، عندما طرده أخوته من وطنه وعاش منفياً في [البيلوپونيز] فقد خصّه بالرعاية والاهتمام الشديدين، بل وتنازل حتى الى ابداء المساعدة له في بعض الأمور الغرامية. وكانت تربطه رابطة صداقة بشانٍ آثيني المولد نشأ رياضياً. وكان هذا الرياضي ضعيف الأمل بقبوله في قائمة المتبارين بمناسبة الالعاب الاولمپية. بسبب ضخامة جرمه، ومظهره القوي التام النضوج، فتوجى الصديق الفارسي، الى [اغيسيلاوس] يلتمسه العون، فلبى [اغيسيلاوس] مطلبه وخف الى مساعدته وحقق له رغبته بصعوبةٍ غير قليلة، وهذا هو طبع [اغيسيلاوس] كان في كل الأمور منصفاً عادلاً للغاية، إلاّ فيما يتعلق بالصداقة، وبالصديق، وهو في هذا القول: «ان تزمّتك والتزامك جانب العدالة في قضية صديق، ما هو الاّ ادعاء مبطّن خادع به لرفض طلبه».

وهنالك قول مأثور كُتب الى [ايدريوس Idrieus] أمير [كاريا Caria]، يعزى الى [اغيسيلاوس]، وهذا هو:

«اذا كان [نيقياس بريئاً، فأغفر له. وان كان مجرماً فأغفر له إكراماً لي. ومهما يكن فعليك أن تغفر له».

تلك كانت عادة طبعه في معاملته لأصدقائه. إلا أن هذه القاعدة كان لها استثناءاتها. فهو أحياناً يقدم مصالحه على مصالح صديقه. كما فعل مرّة عندما خلّفَ وراءه صديقاً مريضاً ورفع معسكره مسرعاً. فناداه صديقه هذا صارخاً طالباً مساعدته لكنه اداره له ظهره مبتعداً وهو يقول:

- ليس من السهل أن يكون حكيماً وعطوفاً في آن واحدٍ.

وهذه الحكاية اوردها [هيرونيموس] الفيلسوف.

ومضت سنة أخرى على الحرب وشهرة [اغيسيلاوس] تزداد وصيته يعلو. حتى ان الملك الفارسي فرض أن يبلّغ يومياً بالمعلومات المتوفرة عن مآثره العديدة، والمكانة العظيمة التي يمتاز بها عند العالم بسبب نبل طباعه وبساطة عيشه وأعتداله في الأمور. ولقد أعتاد كلما أعتزم سفرةً، أن يتوجه الى أحد المعابد فيقيم فيه حيناً ليجعل الآلهة شهوداً على اخص أعماله، مما لا يسمح غيره أن يطلع عليه الناس.

وفي جيش الكثير العدد كجيشه، قلما تجد جندياً عادياً فراشه أكثر خشونة من فراش [اغيسيلاوس]. وبلغ به عدم الاهتمام بتقلبات درجات الحرارة والبرودة أن بات كلّ الفصول سواء لديه طبيعية لا يشكو منها الآلهة التي ارسلتها. وكانت الغبطة تشيع في الاغريق القاطنين آسيا وهم يرون سادة الفرس العظام. وحكامهم يرتجفون فرقاً امامه بكل كبريائهم وجبروتهم وترفهم الذي يحف بهم. وهم يركعون أمام رجل مشتمل بمعطف رثّ تكاد خيوطه تنسلّ منه. وبكلمة واحدة تخرج من فمه يغير من أحوالهم ومصائرهم ويقضي أو يرجيء في رغباتهم. وهذا ما يذكر الكثيرين منّا بأبيات [تيموثيوس Timotheus] القائل:

«مارس هو الطاغية. إلاّ ان الاغريق الذهبية لا تخاف»

وبدأت أقاليم كثيرة من آسيا تنتقض وتثور على حكم الفرس. واشاع [اغيسيلاوس] النظام في المدن واعاد حكم الدستور الصحيح في الادارات والحكومات، دون ان يقتضيه ذلك سفك دماءٍ أو عمليات نفي لرجال الحكم البائد. ثم أخذ يستعدّ الى نقل الحرب بعيداً في قلب بلاد الفرس، ويهاجم ملكهم في عاصمتيه [سوسه] و[اكبتانا] لأنه لم يكن راغباً في ترك

ذلك الملك جالساً على كرسيّة يلعب لعبة الحكم فيما بين صراعات الأغريق. ويدفع الرشاوى لزعماء دهَمْائهم. إلاّ أن فكرته العظيمة هذه اعترضتها الأنباء السيئة التي وردته من سپارطة. فقد بعثوا يطلبون عودته الى الوطن لعون بلاده التي كانت قد أشتبكت آنذاك في حرب زبون:

لنفسها خلقت بلاد اليونانيين تلك الضجة البربرية

والحقت بنفسها هزيمة، لم يستطع الآخرون الحاق مثلها بها.

ما الذي يقال عن تلك النزاعات والخصومات الدموية، وعن ذلك التحزب والتكتل الاغريقي الهادف الى خرابهم. الموقف لمسيرة الحظ الكبرى وهي في أوجها؟ ما الذي يقال أبلغ من هذين البيتين؟ في ارتداد السلاح على أعقابه، بعد أن وجه الى البرابرة، ليعود فيستعمل فيما بين رافعيه لخراب اليونانيين بحربٍ كانت قد أبتعدت عنهم كثيراً؟ إني لاتفق مطلقاً مع [ديماراتوس Demaratus] الكورنثي، القائلِ أن هؤلاء الاغريق الذين لم يعيشوا ليروا الاسكندر جالساً على عرش [داريوس] فقدوا لذة عظيمة. وكان الأحرى بهم أن يذرفوا الدمع عندما يفكرون بأنهم تركوا ذلك المجد للاسكندر والمقدونيين. في حين كانوا ينهكون قوادهم الكبار في ضربهم الواحد بالآخر في ساحات قتال [ليوكترا] و[وكورونيا] و[كورنث] و[اركاديا].

لم يكن ثم أسمى وأشرف من موقف [اغيسيلاوس] بهذه المناسبة. وليس هناك سلوك أكرم وارفع من قضية الطاعة الفورية والاحترام العادل للأوامر. فهنيبعل الذي تحرج موقفه في ايطاليا حتى كاد يقذف منها لم يسعه اطاعة الأمر عندما أستدعي للدفاع عن بلاده. والاسكندر راح يتفكه على المعركة التي نشبت بين [آغيس] و[أنيتباطر]. بقوله ضاحكاً:

- أنظروا! نحن هنا في آسيا نلحق الهزائم بداريوس. بينما يبدو ان هناك معركة في اركاديا نشبت بين الفئران!

وهكذا أسعد سپارطا أن ترى [اغيسيلاوس] بعدله وأعتداله يحترم شرائع بلاده فيسرع اليها فور وصول الأمر، وهو في أوج سعده وعنفوان قولته وأقرب الى النصر العظيم المجيد من حبل الوريد، ينبذ كل شيء ويرحل «دون تحقيق اهدافه» تاركاً اللوعة والأسف في قلوب حلفائه الآسيويين ومبرهناً بالمثل الذي ضربه من نفسه على فساد قول [ديموستراتوس De-mostratus] ابن [فاياكس Phæax]: «اللقيديميون هم خير الجميع في المسائل العامة، والآثينيون هم خير الجميع في المسائل الخاصة».

فقد أعطى [اغيسيلاوس] دليلاً من نفسه، بأنه ملك وقائد ممتازاً، كما أظهر انه صديق ممتاز وعشير لا أحبّ من مجلسه.

نقش على العملة النقدية الفارسية صورة رامي سهام. وعلّق [اغيسيلاوس] قائلاً: «ان ألفاً من رماة السهام الفرس أخرجوني من آسيا» يعني بذلك، الأموال التي دفعت رشاوى للديماگوگيين مثيري الشغب، والخطباء الجماهيريين في [ثيبه] و[آثينا]، فأثاروا هاتين الدولتين على [سپارطا].

وبعد أن عبر [اغيسيلاوس] الهلليسپونت، سار براً خلال ثراكيا دون أن يطلب أو يسأل الأذن له بالمرور في اي مكان اجتازه، خلا انه كان يرسل سعاته الى الاقاليم والدولة التي يمرّ بها ويسألها هل تريد أن يمرّ لصديقٍ أم كعدوّ؟ وأستقبله الجميع كصديق ولم يحجموا عن مساعدته في رحلته خلا الـ[ترياليانيين Trallians]. الذين دفع لهم [زركسيس Xerxes] مالاً على ما أشيع، اذ انهم طلبوا منه الثمن. وهو كما قيل مائة تالنت فضة، ومائة امرأة. وسأل [اغيسيلاوس] ساخراً، كيف لايراهم مستعدين لاستقبال هذه الرشوة؟ ثم تقدم داخل بلادهم فوجدهم مستعدين لقتاله بكامل سلاحهم فقاتلهم، وفتك بعدد كبير منهم. وبعث برسل الى ملك مقدونيا بطلب المرور. فأجاب هذا أنه يحتاج الى وقت للمداولة واتخاذ قرار. فعقب [اغيسيلاوس] على هذا بقوله «فيتداول ما شاء، أمّا نحن فسنتقدم اثناء ذلك، واعترت المقدونيين الدهشة والرهبة لما أظهره السپارطي من صلابة وعزيمة وأعطى الملك الأوامر بتركه يمرّ مرور الصديق سلباً، لأن أهلها كانوا حلفاء للعدو. وارسل الى عاصمتها [لاريّسا] كل من [كزينوقلس Xenocles] و[سكيشس Scythes] لأجل التفاوض في الصلح. فقبض عليهما اللاريسيون وزجوّهما في السجن، وثار الغضب بالاسپارطيين، وأشاروا عليه بالقاء الحصار حول المدينة. فأجابهما يقول أن كل واحدٍ من الرسولين أكبر قيمة في نظره من كلّ بلاد [تساليا] ومن ثم فأنه اتفق على شروط صلح معهم واستنقذ رجليه حالما وضع الاتفاق موضع تنفيذ. ولا داعي لدهشتنا من القول الذي نطق به [اغيسيلاوس] عندما وردته انباء من سپارطا، تقول ان عدداً من عظام القواد قد اشتبكوا في معركة بالقرب من [كورنث] وأن عدد القتلى بين الأغريق كثير، وان اللقيديميين فازوا بنصرٍ ساحق وبقليل من الخسائر، لم يبد عليه علامة من علامات السرور، بل أطلق حسرةً طويلة وهتف قائلاً:

- أسفي عليك يا بلاد الأغريق كم أضعت من الصناديد الشجعان! لو أنهم ادخروا ليوم الكريهة لفتحوا كل بلاد الفرس.

وأزعجه [الفارساليون Pharsalians] باشتداد ضغطهم على جيشه ووضع الكمائن في

خطّ سيره، فما كان منه إلاّ وأنطلق على رأس خمسمائة فارس وقاتلهم حتى سيره، فما كان منه إلاّ وأنطلق على رأس خمسمائة فارس وقاتلهم حتى هزمهم. واقام نصباً تذكارياً لنصره تحت جبل [نارثاكيوس Narthacius]. معتزاً بما حققه بهذا العدد القليل من الخيالة التي أوقعت بحجافل من المحاربين المتمرسين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أبرع من أمتطى صهوات الخيل في اليونان وفي هذا الموضع لقيه [دفريداس Diphridas] الايغور، وسلم له رسالة من سپارطه تأمره بغزو [بويوسيا] فوراً ومع انه كان يفضل ان يفعل ذلك في وقت آخر وبقوات أكثر مما لديه، الاّ انه أطاع حكام بلاده وخطب في جنوده قائلاً:

- لقد حان ذلك اليوم الذي وجب عليكم أن تنجزوا فيه المهمة التي جئتم من آسيا في سبيلها.

ثم استقدم لمساعدته في هجومه، فرقتين من الجيش كانتا معسكرتين بالقرب من كورنث. ودعا اللقيديميون في الوطن ببيان عام، كل مطوّع يرغب في الخدمة العسكرية تحت أمرة الملك على سبيل التكريم له، وأظهاراً لما يكنونه من تعلق. فهرع كل شباب المدينة الى التطوع، فأختاروا خمسين من اقواهم وارسلوهم اليه.

وأستولى [اغيسيلاوس] على [ثرموپيلي] وعبر بدون عائق بلاد [فوكيس Phocis] وما أن دخل بويوسيا وضرب معسكره بالقرب من [خيرونيا] حتى أنكسفت الشمس وتلا ذلك ورود انباء عن هزيمة [پيساندر] الاميرال السپارطي ومقتله في [كيندوس Cindos] على يد [فارنبازوس] و[كونون Conon]. فأورثه ذلك ألماً عظيماً عاماً وخاصاً. ولئلا تؤثر هذه الانباء على معنويات جيشه الذي يستعد للدخول في المعركة فتؤدي الى تخادلهم ونكستهم، أمر الرسل القادمين بأن يشيعوا نبأ انتصار السپارطيين وقام هو نفسه بوضع الاكاليل على رأسه وأحتفل بتقريب قربان للانباء السارة، وارسل اجزاء من الاضاحي الى اصدقائه.

وعندما وصل قريباً من [كورنيا Cornea] وشوهد العدو بالعين المجردة، صف جيشه للقتال وسلم قيادة الجناح الأيمن. وتسلم الثيبيون قيادة ميمنتهم، تاركين ميسرته [للآرگفيين Argives] وقال [گزينفون] الذي شارك في القتال، الى جانب [اغيسيلاوس]، انها كانت أشدّ معركة رأتها عينه واصعبها. ولم تكن كذلك في مبدئها لأن الثيبيين الحقوا الهزيمة بالأرخومنيين، كذلك تغلّب [اغيسيلاوس على الآركيڤيين، وسمع الفريقان بهزيمة ميسرتيهما فخفا معاً الى نجدتهما. ولو قنع [آغيسيلاوس] بالتريث قليلاً، ولم يهاجم هجوماً جبهياً وتعرض لجناح العدو او مؤخرته لربح المعركة حالاً وبصورة أكيدة، إلا أنه كان مهتاجاً، مأخوذاً بحمى القتال فلم يترقب فرصته وانما انقض فوراً متوهماً بانه سيدفعهم امامه دفعاً، إلاّ ان شجاعة الثيبيين لم تكن بأقل منه، فحمي وطيس القتال وثار النقع شديداً لاسيما في الموضع

الذي كان يقاتل فيه [اغيسيلاوس]. وأبلى حرسه الخمسون المتطوعون خير بلاء في ذلك اليوم فأنقذوا حياته من موت محتم وقاتلوا دونه بشجاعة لا مثيل لها ووقفوا بينه وبين الخطر سداً باجسامهم الاّ أن بعض اسنة العدوّ وسيوفه اصابته بعدة جراح تحت دروعه، وتمكنوا بكلّ صعوبة من انقاذه الى خارج ساحة القتال بتأليفهم سواراً حوله، وقد قتلوا كثيراً من الاعداء وسقط منهم الكثير أيضاً.

أخيراً بعد أن صعب عليهم أختراق جبهة الثيبيين، عمد اللقيديميون الى فتح جبهتهم، وتركوا العدو يدخل منها وهي من الفنون الحربية التي كانوا في مبدأ الأمر يحتقرون اللجوء اليها. وأخذوا في الوقت نفسه يراقبون سلوك العدوّ بعد أختراقه الصفوف. فقد ظنوا أنهم انتصروا واطرحوا جانب الحذر وأعتبروا أنفسهم قد خرجوا من منطقة الخطر. وهنا انقض عليهم السپارطيون وهم هكذا. لكنهم لم يهزموا مع ذلك وانما اتجهوا نحو [هيلكون] والفخر بما انجزوه يعمر صدورهم متبجحين بأنهم لم يهزموا باعتبارهم جزءً من الجيش.

ولم يقبل [اغيسيلاوس] الذي اثخنته الجراح أن يؤخذ الى خيمته قبل أن يُدار به في ساحة المعركة ليشاهد قتلاهم ينقلون داخل معسكرهم. وأطلق سراح كل من لجأ من الاعداء بحرم الهيكل. اذ كان يوجد بالقرب من ساحة المعركة معبد [منيرڤا الايتونية] وامامه نصب اقامه البويوسيون تذكاراً للنصر الذي بقيادة [سپارتون Sparton] على الآثينيين بقيادة [تولميدس Tolmides] الذي سقط قتيلاً هناك.

وفي ساعة مبكرة من اليوم التالي اراد ان يجسّ الشجاعة الثيبية، ويتأكد مما اذا كان لديهم اية نية في جولة ثانية. فأمر جنوده بوضع الاكاليل على رؤوسهم والنفخ بناياتهم ورفع نصباً حربياً، أمام وجوههم. الا انهم بدل من قبولهم التحدي للقتال. أرسلوا اليه يطلبون السماح لهم بدفن قتلاهم، فلبيّ طلبهم. وبعد أن تمكن من أسباب النصر. قصد الى [دلفي] لمشاهدة الالعاب [الپيثية] التي كانت تجري آنذاك. ومد يد المعونة فيها مقدماً عشر الغنائم التي جاء بها من آسيا، وبلغ مائة تالنت. وبعد ذلك عاد الى بلاده حيث ما لبثت تصرفاته وأخلاقه أن أكسبته محبة السپارطيين. وجعلته موضع أعجابهم. فقد عاد الى الوطن بعد بقائه زمنا طويلاً في بلاد الأجانب عين ذلك الرجل الذي خرج منه. مخالفاً بذلك غيره من القادة المغتربين. فلم يتخلق باخلاق تلك البلاد ولم يقتبس عاداتهم بالقدر الذي يُنسيه عادات قومه أو يحمله على نبذها أو أحتقارها. وانما بقي أميناً محترماً كل تقاليد اسپارطه وآداب سلوكها ولم يبدل لا في طعامه ولا استحمامه ولا في ازياء امرأته، حتى لكأن رحلته لم تتعد نهر [يوروتاس]. وكذلك كان شأن أهل بيته واثاثه وسلاحه، لا بل حتى ابواب منزله التي

كانت بدرجة من القدم بحيث تذكر الرأي بأبواب [اريسطوديموس Aristodemus]. ويقول [كزينفون] ان [كناثروم Canathrum] ابنته لم تكن افخم من أية واحدة أخرى والكناثرومة كما تدعى، هي كرسيّ أو مركبة من الخشب على شكل غرفين[1] أو تنين. يحمل فوقه الاطفال والعذارى الصغيرات في اثناء الاحتفالات والمسيرات الدينية ولم يكتم [ديكيارخوس Di-caearchus] بعض سخط لأننا نجهل -كما يقول- اسم بنت اغيسيلاوس، واسم أم [إپامنداس]. على أننا وجدنا بانفسنا في سجلات [لاقونيا] اسم امرأته وهو [كليورا Cleo-ra] واسم بنتيه [يوپوليا Eupolia] و[پروليتا Prolyta]. وبامكان اي شخص ان يشاهد اليوم حربة [اغيسيلاوس] محفوظةً في سپارطا لا فرق بينها وبين حربة اي مقاتل بسيط.

لاحظ [اغيسيلاوس] عند السپارطيين هواية شائعة تافهة وهي احتفاظيهم بخيول سباقٍ لأدخالها الالعاب الاولمپية. وكانت هذه الهواية موضع تنابز وتفاخر ودليلاً على علو المقام بين السپارطيين. اما [اغيسيلاوس] فقد عدها مظهراً من مظاهر الثروة البذخ لا لأي سجيةٍ أو فضيلة حقيقية ولأجل أن يوضح رأيه هذا للاغريق أقنع أخته [كانيسكا Cynisca] بأن تبعث بمركبتها الى حلبة السباق. وقرب منه [كزينفون] الفيلسوف وابقاه عنده وبالغ في اكرامه، مقترحاً أن يبعث بطلب اولاده ليدرسوا ويثقفوا في اسپارطا حيث ينالون خير تهذيب، ويتدربون على الطاعة وعلى الأمر. ووجد عند وفاة [ليساندر] حزباً كبيراً كان قد شكله واقام بنيانه ليعارض به عند عودته من آسيا. فارتائ أن يكشف للملأ حقيقة حزب ليساندر، واي نوع من الناس كان في حياته. واعتمد في ذلك على خطبةٍ كان قد وجدها في مخلفاته من الاوراق من تأليف [كليون الهاليكارناسي]. إلاّ ان [ليساندر] القاها كأنها من تأليفه في أحد الاجتماعات العامة لحمل الشعب على احراء تعديلات واصلاحات في الحكومة. فعزم أغيسيلاوس على نشرها بمثابة دليل على آحابيله ومؤآمراته. إلاّ أن أحد المشايخ دققها فوجدها بليغة فصيحة فنصحه أن يأمر بفتح قبر [ليساندر] ويدفن هذه الخطبة معه. واشار عليه بعدُ نظر أن يعمل بهذه النصيحة ويكتم موضوعها الى الأبد. ومنذ ذلك الوقت ابى ان يوجه اية اهانة لخصم من خصومه تهدف الى فضيحته. وانما كان ينتهز الفرص في اختيار كبار الخصوم فيرسلهم بعيداً في مهامٍ خارجية الى بلاد أجنبية. متوسلاً بذلك للكشف عن جشع وانانية كثيرين منهم وهم في مسلك الوظيفة. فاذا اثار غيره قضية او تهمة ضد واحدٍ منهم وجيء به الى التحقيق، قام يسعى لانقاذه من ورطته ليكون أسير فضله. وبهذا الاسلوب كان يجعل من أعدائه اصدقاء. فلم يبق له عدواً بمرور الزمن.

---

(١) حيوان خرافي نصفه نسر ونصفه أسد.

كان [آغـيـپـوليس Agisipolis] شريكه في العرش يشكو عـيـباً في مـيلاده، فـهـو ابن لسپارطي حكم بالنفي خارج البلاد. وكان فضلاً عـن ذلك شاباً غير طموح، قليل الفعالية والتدخل في الشؤون العامة، فسعى [اغيسيلاوس] لكسبه الى جانبه وجعله طوع بنانه. وكانت تقاليد سپارطة تقضي أن يتناول الملكان وجبات طعامهما طالما هما في المدينة.

فاهتبلها [اغيسيلاوس] فرصةً للتقرب من شريكه. ووجده مثله يهفوا الى تكوين علاقات حب مع الشباب. فكان يحادثه كثيراً في هذه الشؤون ويشاركه فيها ويساعده ويجعل من نفسه موضع سِرّه. ومثل هذه الروابط في [سپارطة] لا جناح فيها، بل هي الروابط الشريفة التي تتصل بالمشاعر الحيوية والتواضع والفضيلة والمنافسة النبيلة، مما ذكرناه تفصيلاً في سيرة [ليكورغوس].

وسهل على [اغيسيلاوس] بعد توطيد سلطانه في المدينة أن يعمل على انتخاب أخيه غير الشقيق [تيليوتياس Teleutias اميراً على الاسطول. وبعد هذا وجه جملة على الكورنثيين واستولى على الاسوار الطويلة من البرّ، بمساعده أخيه من البحر، وفاجأ الآرگيڤيين الذين كانوا يسيطرون على [كورنث] وهم في وسط الاحتفال بالعيد [الاستمي] فلاذوا بالفرار وما كادوا يبدأون في تقريب الضحايا، تاركين وراءهم كل ما هيأوه للعيد من طعام. فرغب الكورنثيون المنفيون الذين كانوا يعملون في الجيش السپارطي منه أن يواصل اغيسلاوس الاحتفال، ويترأس مراسيمه فأبى، إلاّ انه سمح لهم بمواصلته إن شاؤا. وبقي هو أثناء ذلك قائماً على حراستهم.

وبعد أن ترك [اغيسيلاوس] الموضع واستأنف سيره عاد الآرگيڤيون لاقامة الالعاب ثانيةً. ففاز فيها بعض من كان قد فاز في المرة الأول، وخسر آخرون جوائزهم التي ربحوها في السباق الأول. فعلّق [اغيسيلاوس] على ذلك موضحاً للناس بأن الآرگيڤيين يجب أن يعترفوا بجبنهم صاغرين. فهم يضعون أعظم قيمة على ترأوس هذه الالعاب، لكنهم لا يجرأون على القتال في سبيل تلك المكانة.

وكان يرى شخصياً ان الاحتفاظ بالمكانة الوسطى في مثل هذه المناسبات هو خير الأمور. فكان يكتفي بمد يد المساعدة للالعاب الرياضية، ولفنون الرقص الشائعة في بلاده. وكان يظهر الشوق والحماسة لحضور تمارين الفتيان أو الفتيات. إلاّ أنه لم يكن يبدي اي اهتمام، بما اعتاد غيره من الرجال الاهتمام به. فمرة صادف أنّ الممثل التراجيدي [كالليپيدس] الذي دوى اسمه في بلاد الأغريق، وكان موضع محبتهم، أن التقى [باغيسيلاوس] فحياه، ولما لم يجد منه التفاتاً، أنضمّ الى السائرين في ركابه واثقاً من نفسه متوقعاً أن يلقى من

[اغيسيلاوس] بعض احتفاء، ولما أعياه ذلك وخاب تقدم منه وبادره بجرأة يسأله هللاً يتذكره فأخذ اغيسيلاوس يصعّد فيه نظره ثم اجابه قائلاً:

- أما أنت [كاللييپيدس Callippides] المشخصاتي؟

ومرةً دُعي لسماع رجل يحاكي صوت تغريد العندليب محاكاة عجيبة. فرفض الدعوة قائلاً: «لقد سمعت العندليب بالذات».

وكان [منگراتس Menecrates] الطبيب قد حقق شفاء عجيباً من بعض الأمراض المستعصية فسمي على سبيل الملق والمداهنة «بجوبيتر». وكان من السخف والفجاجة انه قبل لنفسه هذا اللقب. فكتب مرةً رسالة الى [اغيسيلاوس] وبدأها بالشكل الآتي: «من [چوپيتر منگراتس] الى [اغيسيلاوس] الملك، تحية». فرد عليه [اغيسيلاوس] بما يلي:

«من اغيسيلاوس، الى منگراتس، متمنياً الصحة وسلامة العقل».

ومرة، عندما كان [اغيسيلاوس] في الأراضي الكورنثية، ولم يمرّ وقت طويل على ضبطه [هيرايوم Heræum] خرج يراقب جنوده وهم منهمكون في نقل الأسرى والغنائم، وفيما هو كذلك اذ حضر وفد سفراء من ثيبة اليه، لمفاوضته في الصلح ولما كان يبغض تلك المدينة بغضاً شديداً، ولاعتقاده آنذاك أن ما يفيد في أمورهم هو أظهار الاحتقار لهم، تظاهر بأنه لا يراهم ولا يسمع كلامهم. وكأن الأقدار ارادت معاقبته على تعمده الجبروت وتظاهره بالغطرسة، فقد وردت الرسل اليه قبيل مغادرة الوفد، تحمل نبأ إبادة فرقة كاملة [سپارطية] على يد [ايفقراطس Iphicrates]. وكانت نكبة لم ير مثلها السپارطيون منذ سنوات عديدة سلفت. ومما زاد في الطين بلة ان هذه الفرقة كانت تضم نخبة الرجال اللقيديميين بأكمل سلاحٍ، وان الذين قضوا عليها رماة مرتزقة لا غير. ما أن سمع [اغيسيلاوس] بالنبأ حتى هبّ من معقده وهم بالاسراع لنجدتهم فقيل له أن الأمر قد قضي ولا فائدة من ذلك. فقفل راجعاً الى [الهيرايوم] وبعث بطلب سفراء [ثيبة] لاجراء المفاوضات فأتفق هؤلاء فيما بينهم على أن يردوا الأهانة التي الحقها بهم بمثلها ولم ينطقوا بكلمة واحدةٍ عن الصلح. وانما طلبوا منه أن يأذن لهم العودة الى كورنث، فكان لطلبهم هذا وقع شديد عليه، وأجابهم بازدراء: إن كانوا يحنون الى العودة لمشاهدة مبلغ الغرور الذي وصل باصدقائهم للنصر الذي حققوه، فعليهم أن يفعلوا ذلك غداً، اذ انه سيؤمن لهم عودتهم بسلام.

وفي صباح اليوم التالي أخذ معه السفراء وتقدم بجيشه متوغلاً في الأراضي الكورنثية، حتى بلغ ابواب المدينة. فتوقف وأشار للسفراء ان يروا بأم أعينهم كيف يحجم الكورنثيون عن

الخروج منها لقتاله، وكيف يعجزون عن حماية أنفسهم ثم سرحهم.

وبعد هذا جمع فلول الفرقة الممزقة، وسار بها الى بلاده، وكان يضرب خيامه بعد حلول الظلام، ويرفعها قبيل الفجر لمنع مزيد من العار عليهم قد يصيبهم من هجمات أعدائهم الاركاديين، بعد الهزيمة الشنعاء التي لحقت بهم.

وطلب منه الأخائيون بعد هذا، أن يشاركهم في الزحف على [أقارنانيا Acarnania]. ففعل واصاب غنائم كثيرة والحق بالاقارنانيين الهزائم. وحاول الأخائيون اقناعه في ابقاء مقره هناك اثناء فصل الشتاء، لمنع الاقارنيين من بذر قمحهم، فخالف رأيهم، معللاً ذلك بأن هؤلاء اذا بذروا قمحهم في الشتاء فأنهم سيكونون في الصيف أحرص على ما زرعوه وأشدّ خوفاً من الحرب مما لو بقيت حقولهم بوراً. ودللت الوقائع على صحة رأيه. فقد سارع [الأقارنانيون] الى عقد الصلح مع الأخائيون عندما بدأ هؤلاء حملتهم الثانية في الصيف.

ولما تحققت [لكونون] و[فارنبازوس] السيادة البحرية بالاسطول الفارسي، لم يكتفوا بتدويخ سأحل لاقونيا، بل أعادوا بناء اسوار آثينا على نفقة [فارنبازوس] فوجد اللقيديميون ان التفاوض في الصلح مع ملك الفرس هو أسلم السبل. وتحقيقاً لهذا المطلب بعثوا بـ[انتالقيداس Antalcidas] الى [طيريبازوس Tiribazus]. فغدروا بعملهم هذا، غدراً خسيساً دنيئاً بالاغريق الساكنين آسيا، الذين لم يقم [اغيسيلاوس] بشن حروبه إلاّ لأجلهم. ولم يكن [لاغيسيلاوس] اي ذنب في هذا العمل الوضيع. فكلّه كان من تدبير [انطالقيداس] الدّ اعدائه. اذ ابدى تحمساً لعقد الصلح بأي ثمن أو شروط لعلمه الأكيد بأن الحرب سترفع من شأن خصمه [اغيسيلاوس] وتقوي نفوذه. على انه لمّا قيل [لاغيسيلاوس] يوماً على سبيل اللوم، بأن اللقيديميين استسلموا للميديين، أجابهم بقوله: «كلاً بل الميديون هم الذين استسلموا للقديميين». ولما رفض الأغريق الموافقة على المعاهدة المعقودة، هددهم بالحرب الا اذا انفذوا شروط ملك الفرس، وكان يرمي من هذا، الى اضعاف [الثيبيين]. فمن شروط الصلح ان تبقى بلاد [بويوسيا] مستقلة وقد ظهر هذا الشعور فيه ضدّ [الثيبيين] أوضح من هذا عندما عمد [فيوبيداس Phœbidas] والسلم ضارب اطنابه، بوضع يده على [كادميا Cad-mea] بصورة لا يمكن تبريرها. مما اثار حنق كلّ بلاد الاغريق ولم يرض اللقيديميون عنه أيضاً ولاسيما من كان عدواً [لاغيسيلاوس] فإنهم طلبوا فتح تحقيق في الموضوع لمعرفة الآمر والمنظم لذلك، فجرى ذلك ونقلوا الشكّ فيه حتى عتبة داره، ولكنه راح يدافع عن [فيوبيداس] دفاعاً حاراً لا يلين، قائلاً بأن المنفعة المتأتية من عمله هي التي يجب ان توضح موضع الموازنة قبل كل شيء، فاذا كان المتوخى فيه مصلحة الجمهورية فلا يهم اذا كان قد

عمله بأمر أو من تلقاء نفسه. وكان هذا مما يوجب التساؤل ويلفت النظر في [اغيسيلاوس]. لأن احاديثه الاعتيادية كانت تفصح دائماً عن حرصه على اجراء العدالة والدفاع عنها واعتبارها أمّ الفضائل، فتراه يقول مثلاً لا نفع في الشجاعة بدون عدالة. ويقول ايضاً اذا عمت العدالة العالم لا تعود هناك حاجة الى الشجاعة. وعندما كان يقال له: أي ملك عظيم يريدها على هذا الشكل، يرد قائلاً:

- وكيف يكون أعظم منيّ إلا اذا كان أعدل؟

وهكذا، يتخذ باصالة منه ونبل فيه، العدالة لا القوة معياراً للعظمة الملكية. ولهذا كتب اليه ملك الفرس عند عقد الصلح، يرغب في انشاء صداقة خاصة ورابطة ضيافة، فرفض [اغيسيلاوس] بقوله: إن في الصداقة العامة الكفاية، فطالما هي مستمرة لا حاجة تدعو الى التآخي والصداقة الخاصة. إلاّ انه لم يكن أميناً على هذا المبدأ طوال حياته. بل كان يجانبه أحياناً بدافع طموحه، وأحياناً بسبب اعتزازه الشخصي بنفسه. فتراه ينجرف مع عاطفته بعيداً، ولاسيما في قضيته هذه مع [الثيبيين]، فانه لم يكتف بانقاذ، [فيوبيداس] بل أقنع اللقيديميين أن يحملوا الوزر عنه، وان يستعيد [كادميا] ويضع فيها حامية، وان يودع شؤون حكم [الثيبين] الى يد كل من [ارخياس Archias] و[ليونتيداس Leontidas] اللذين كانا مسؤولين عن تسليم القلعة خيانة لبلادهما.

كل هذا أثار الشكّ القوي في أن ما فعله [فيوبيداس] كان بأمر من [اغيسيلاوس]، لأنه أيده فيما قام به، ولأنه عندما طرد الثيبيون الحامية فيما بعد وتحرروا، اتهمهم بقتل [ارخياس] و[ليونتيداس] اللذين كانا في الواقع طاغيتين، وهما بالاسم يتوليان منصب [پوليمارخ]. فأعلن الحرب على [ثيبة] وبعث [كليومبروتوس Cleombrotus] الذي كان انذاك شريكه في الملك ليقوم عنه بالمهمة. فقد توفي [اغيسيلاوس] واستخلفه [كليومبروتوس]. وقد أعتذر [اغيسيلاوس] عن قيادة الحملة بسبب تقدمه في السن ومضي اربعين سنة على حمله السلاح. والقانون الاسپارطي يعفي امثاله من الخدمة العسكرية على ان السبب الحقيقي لاعتذاره، هو قيامه قبل فترة قصيرة بشن حرب على الطغاة الى جانب [الفلياسيين Phliasians] فكيف يسعه أن يقاتل الآن [الثيبيين] دفاعاً عن الطغاة؟

كان [سفودرياس Sphodrias] اللقيديموني حاكماً لـ[ثيسپاي Thispiæ]، وهو من الحزب المعارض لـ[اغيسيلاوس]، وكان رجلاً جريئاً مغامراً، غلبت ثقته بنفسه على حكمته. اثار ما فعله [فيوبيداس] عاطفة الطموح فيه واستفزه الى القيام بمأثرة عظيمة يشتهر بها، كما توهم أن استيلاء [فيوبيداس] على [كادميا] قد جعله شهيراً. وأختار [پيروس] مجالاً لشهرته

وأعتزم الاستيلاء عليها بصورة مباغتة، لقطع الآثينيين عن البحر فتطير شهرته ويسبق [فيوبيداس]. وقيل أيضاً أن [پيوليداس] و[ميلون Melon] أكبر قائدين في [بويوسيا] هما اللذان زينّا له الأمر، بأن بعثا سراً اليه ببعض الرجال، تظاهروا له بأنهم من الفئة التي تمالىء السپارطيين فراحوا يثنون عليه ثناء مستفيضاً حتى أنتفخت اوداجه فخراً بنفسه. وقالوا له انه الوحيد في العالم المناسب لمثل هذا العمل العظيم. فلم يعد يستطيع صبراً واستعجل في تنفيذ عملية لا تقلّ خزياً وعاراً عن عملية [كادميا]، لكنها تقل عنها نجاحاً وشجاعة. فقد طلع الفجر عليه وهو ما يزال في السهل [الثرياسي Thriasian] في حين كان من خطته ان تتم عملية الاستيلاء اثناء الليل. وقيل ان عزائم الجنود وهت ودبّ التخاذل في نفوسهم عندما رأت عيونهم اشعة الشمس تنعكس من هياكل [ايليوسيس] عندما بزغت. وهو نفسه بعد أن ضاعت من يده فرصة الظلام زايلته شجاعته واحجم عن مواصلة العملية وأخذ بدل ذلك يعيث سلباً ونهباً، ثم عاد الى [ثيسباي] فاشلاً يجرر اذيال العار. وعلى أثر ذلك أوفدت آثينا الى سپارطة بعثة لتقديم الشكوى عن خرق معاهدة السلم. ولم تكن الشكوى ضرورية، لأن قضاة سپارطة سبقوهم باحالة [سنودرياس] الى التحقيق. ولم يجرؤ [يفودرياس] على البقاء في المدينة حتى صدور الحكم عليه، ولم يكن يتوقع أقل من الموت، فقد أجمع أهل المدينة ضده بسبب العار الذي البسهم ولأجل ظهورهم امام الآثينين بمظهر المغدور مثلهم لا بمظهر شركاءٍ للفاعل.

وكان [لسفودرياس] هذا، ابن في غاية الملاحة يدعى [كليونيموس Cleonymus]، تربطه [بأرخيداموس] ابن [اغيسيلاوس] رابطة محبة شديدة. فوجد [ارخيداموس] نفسه ملتزماً تجاه صديقه بدفع الخطر الذي يتعرض له والده. إلاّ أنه لم يجرؤ على اي عملٍ مكشوف في هذا السبيل لأن [سفودرياس] كان من ألدّ اعداء ابيه [اغيسيلاوس]. غير أن [كليونيموس] أخذ يتوسل به باكياً، لمعرفته بأن [اغيسيلاوس] هو اعدى اعداء أبيه. وظلّ الفتى [ارخيداموس] يومين أو ثلاثة يتعقب اباه مضطرباً خائفاً من مفاتحته بأمر التدخل لمصلحة والد صديقه. وكان [اغيسيلاوس] على معرفة تامة بما بين ابنه وكليونيموس من علاقة ولكنه لم يحل دون ذلك لأن مخايل الذكاء والشهرة كانت تبدو على [كليونيموس] منذ حداثته وكان الناس يتوسمون فيه الخير والمستقبل العظيم. وأخيراً لما أقترب يوم صدور الحكم، لمّ الفتى اطراف شجاعته وفاتح اباه برجاء كليمونيموس في التدخل لمصلحة ابيه، فلم يظفر [ارخيداموس] بجواب مشجع من ابيه اذ اجابه بكلّ برود: انه سيفكر بعمل ما يمليه عليه الشرف والأمانة، ثم صرفه واحسّ [ارخيداموس] بالخجل من صديقه لخيبة مسعاه، وأمتنع عن

اللقاء به وتحاشى رؤيته وكانا يلتقيان عادة عدة مرات في اليوم الواحد، وهذا ما جعل اصدقاء [سنودوياس] يظنون بأن قضيته مبتوت فيها ولا مجال لانقاذه منها، حتى كشف [اتيموكلس Etymocles] أحد اصدقاء [اغيسيلاوس] عما يراه في القضية، وقال ان الملك كره العملية بالذات، إلاّ انه يعتبر [سفودرياس] رجلاً مقداماً لا غنى للجمهورية عنه في هذا الوقت. وحقيقة الأمر هي أن [اغيسيلاوس] لجأ الى الضرب على هذه النغمة بخصوص القضية رغبةً منه في ارضاء ولده. وحينئذ ادرك [كليمونيوس] ان صديقه [ارخيداموس] لم يخذله وانما صدق في بذل كل ما ملك من جهود لدى ابيه وهذا ما جّرأ اصدقاء [سفودرياس] على المضيّ قدماً في الدفاع عنه.

والواقع ان [اغيسيلاوس] كان شديد الحب لأولاده، والحكاية التالية تعزى اليه: عندما كان اولاده صغاراً، أعتاد اغيسيلاوس أن يعمل من عصا، ما يشبه الحصان فيركبها معهم ويلاعبهم بها. ومرة فأجاه صديق وهو يقوم معهم باللعب عليها، فطلب منه [اغيسيلاوس] أن لا يذكر ما رأى حتى يصبح أباً هو نفسه.

وعلى أثر ذلك بريء [سفودرياس]، فأشهر الآثينيون السلاح على السپارطيين، وسقط [اغيسيلاوس] من أعين الشعب لأنه انحرف عن سبيل العدالة ارضاءً لأهواء فتىً وجعل المدينة شريكة في جرائم انسان عادي سبب عمله الذي يتعذر تبريره أعني القضاء على عهد السلام في اليونان. كذلك وجد شريكه [كليومبروتوس] قليل الميل الى متابعة الحرب في [ثيبه]، فرأى من الضروري أن يطرح جانباً امتيازات سنه المتقدمة التي تعلل بها سابقاً وان يقود الجيش بنفسه الى [بيوسيا] وتقلّب حظه بين النجاح والفشل. فكان النصر يحالفه أحياناً، ويجانبه حتى أصيب بجرح في معركة من المعارك. فقام [انتالقيداس] يعيره قائلاً، أن الثيبيين قد أحسنوا دفع ثمن الدروس التي لقنها لهم في فنون القتال. والحق يقال أنهم لم يبلغوا من قبل ما بلغوه من شدة المراس، والبراعة لأنهم تلقوا التدريب بكثرة الحملات التي جردها عليهم اللقيديميون. وكان [ليكورغوس] السالف بعيد النظر بصيراً بالعواقب بقوانينه التي حظر فيها على مواطنيه اللقيديميين من شنّ أكثر من حربٍ على شعبٍ واحدٍ، ففي هذا ما يجنبهم تلقين أعدائهم فنون القتال بدوام الحروب.

والى جانب هذا تعاظم استياء حلفاء [سپارطة] من [اغيسيلاوس] لأنهم لم يجدوا في هذه الحرب سبباً وجيهاً أو مبررات عادلة، وانما شنت لمجرد الكره الخاص الذي يسرّه للثيبيين. وجأروا بالشكوى لتعريض جنودهم الى الاخطار والمشاق من سنة الى أخرى، ومن بلاد الى بلاد نزولاً عند ارادة افرادٍ معدودين، وهم يؤلفون معظم الجيش. وقيل لنا أن [اغيسيلاوس]

أعتمد حيلة لا سكات المعترضين والساخطين، برهن فيها لحلفائه أنهم ليسوا معظم افراد الجيش فقد اصدر أمراً بأن يجتمع الحلفاء كلهم ويجلسوا مختلطين، في ناحية. وأن يجتمع اللقيديميون كلهم ويجلسوا في ناحية وبعد ذلك أطلق منادياً بين الصفوف ينادي قائلاً من كان بينكم خراف فليخرج من الجمعين، ثم نادى بخروج الحدادين، ثم البنائين ثم النجارين وهكذا استمر في اخراج كل صاحب صنعة حتى لم يبق أحد في صفوف الحلفاء الاّ خرج، في حين لم يخرج من اللقيديميين رجلٌ واحدٌ. لأن القانون عندهم يخطر عليهم أن يمتهنوا صنعة يدوية. وهنا ضحك [اغيسيلاوس] وقال:

- أترون يا اصدقائي كم ارسلنا الى الحرب من الجنود وكم ارسلتم؟

ولما عاد بجيشه من [بويوسيا] عن طريق [ميغارا] وفي اثناء صعوده [الاكروپوليس] الى مجلس القضاة. فوجيء بالم شديد وتشنج في ساقه السليمة، وظهر عليها انتفاخ والتهاب شديدان فعالجه طبيب سيراقوزي، وفصده فيما يلي الكاحل حتى تداعت روحه وأغمى عليه بسبب النزف الذي لم يفلح في وقفه الاّ بصعوبة شديده. وحمل [اغيسيلاوس] الى بلده وهو في أشد حالات الضعف ولم يستعد القوة الكافية لنزوله ساحة القتال الاّ بعد فترة طويلة.

وفي تلك الأثناء ساءت حال السپارطيين وأصيبوا بنكسات شديدة في البحر والبر. وأشدّها كانت نكسة [تيجيريا Tegyrae] حيث اوقع بهم الثيبيون هزيمة نكراء، وكانت أول معركة فاصلة يخسرونها.

إلاّ ان الأغريق جميعاً كانوا يتوقون الى السلام العام. فجاءت وفودهم الى [سپارطه] للمداولة فيه. ومن بين من قدم [اپامنناداس] الثيبي الذي كان آنذاك شهيراً بعلمه وفلسفته، ولم يشتهر بعد بكفاءاته الحربية القيادية. وجد هذا الرجل كل الوفود تتودد [لاغيسيلاوس] وتتسابق الى نيل رضاه. فترفع عن ذلك وظلّ وحده يحافظ على كرامة السفير. والقى خطبة جديرة باخلاقه وعزة نفسه لا بالنيابة عن الثيبيين وحدهم بوصفه ممثلهم بل عن كل الاغريق، قال فيها ان [سپارطه] وحدها ازدادت عظمة بالحرب على حساب مصائب جيرانها وشقائهم. وطلب عقد معاهدة سلام بشروط عادلة متساوية، فمثل هذا السلم هو الكفيل بالبقاء ولا يمكن ان يتمّ بغير ذلك. وأدرك [اغيسيلاوس] أن الاغريق كلهم يحبذون ما قال لما ظهر من السرور والانشراح عليهم، فبادر يسأل [اپامنناداس]: أيظن من العدالة والمساواة ان تتمتع المدن البويوسية باستقلالها؟ فاجابه [اپامنناداس] فوراً ومن دون تردد: أيرى من العدل والانصاف ان تتمتع المدن اللاقونية باستقلالها أيضاً؟ فهب [اغيسيلاوس] من مقعده وطلب منه الأجابة الجازمة عن السؤال «هل يجب أن تمنح [بويوسيا] الاستقلال أم لا؟»

فردّ [اپامنناداس] عليه مكرراً عين سؤاله: «هل تتمتع لاقونيا بالاستقلال أم لا؟ وهنا بلغ الحنق باغيسيلاوس حداً حمله على شطب [الثيبيين] من بين دول العصبة وأعلن الحرب فوراً، متخذاً مما جرى ذريعةً. واما بقية الاغريق فقد عقد معهم صلحاً وودّعهم بقوله التالي

- ما يمكن تقويمه بالسلام، يجب تقويمه. وما لا يمكن تقويمه بالسلم فالحرب تتولى اصلاحه. ومن الصعوبة بمكان أن يتوصل المرء الى حَلّ جميع المشاكل بالتفاوض.

وبناء على ذلك بعث مجلس [الايغور] بالاوامر الى [كليومبروتوس] وكان في [فوكيس]، للزحف فوراً على [بويوسيا]. وفي الوقت نفسه بعثوا يطلبون العون من حلفائهم الاّ أن هؤلاء الحلفاء بدا عليهم التردد في استعداداتهم، وكشفوا عن عدم رغبة في القتال. لكنهم من الجهة الأخرى كانوا يخشون صولة السپارطيين كثيراً فلا يجرأون قط على رفض مطالبهم ومع ظهور كثير من الخوراق والعلامات المنذر بالشر المستطير مما اتيتُ الى ذكره في سيرة [اپامنناداس]، ومع أن [پروثاوس Prothaus] اللاقوني بذل قصاراه لتفاديها، إلاّ ان [اغيسيلاوس] أصرّ على المضيّ قدماً في مشروعه فنجح في مسعاه وأعلنت الحرب. وكان يحسب أن طبيعة الاحداث الراهنة ستكون موآتية جداً لتحقيق غايته واطفاء جذوة انتقامه، فبقية الأغريق كلهم احرار، و[الثيبيون] وحدهم خارج معاهدة السلام. لكن الوقائع برهنت فيما بعد أن العاطفة لا العقل هي التي دفعت الى الحرب. فقد تمّ توقيع معاهدة السلام في الرابع عشر من شهر [سكيروفوريون Scirophorion]، وأصيب اللقيديميون بانكسارهم الأعظم في الخامس من شهر [هيكاتومبايون] اي بعد عشرين يوماً فحسب. وقتل في معركة ليوكترا هذه ألف سپارطي كما سقط ملكهم [كليومبروتوس] وملكان يحيطان به، وهم من أشجع من أنجبتهم سپارطه ونخص منهم بالذكر [كليونيموس] الفتى الجميل، ابن [سفودرياس] الذي سقط مثخنا بجراحه ثلاث مرات تحت قدمي الملك ونهض ثلاث مرات حتى قتل.

وقعت هذه الضربة غير المنتظرة وقعاً شديداً للغاية على اللقيديميين ورفعت الثيبيين وبنت مجدهم الذي فاق اي مجد نالته اي جمهورية من الجمهوريات الاغريقية في مضمار حروبها الأهلية فيما بينها. على أن سلوك السپارطيين وهم مغلوبون كان سلوكاً رائعاً يدعو الى الفخر والاعجاب حقاً، ولا يقل باية حال عن الثيبيين أنفسهم. ومثلما قال [گزينفون]، لو سقط اثناء حديث الناس الطيبيين حتى مجلس لهوهم أو شربهم عدد من الأقوال الطيبة الباقية، فليس ثم أجدر منها بأن تسجل. وهذا هو اطراد عمل العقول السليمة، كما يبدو في أقوال وأعمال الشجعان عندما يكبو بهم الحظ وتلحقهم المصائب. وقد أتفق للسپارطيين انهم كانوا يحتفلون بعيد ديني كان قد امه اناس كثيرون من دول اجنبية وكانت المدينة تزخر بهم عندما

وردت انباء اندحار [ليوكترا]. وكان وقت عرض [الجمنوباديا Gymnobdiae] قد حَلَّ وشرع الاولاد يؤدون رقصاتهم على الملعب لما جاء السعاة من [ليوكترا]. ومع ادراك [الايغور] بأن هذه الهزيمة اصابت مكانة سپارطه بالدمار التام، وان مركزهم الأول بين دول الاغريق قد ضاع منهم الى الأبد، فإنهم أمروا باستمرار الرقص وعدم الغاء اي مشهد من شاهد الاحتفال بالعيد. على أنهم بعثوا بصورة سريّة لكل اسرة مفجوعة باسماء ما خسرته من أفرادها. وواصلوا الاحتفالات العامة. وفي صباح اليوم التالي بعد أن علم الجميع بما حصل، ومن قتل ومن نجا. خرج اباء القتلى واقرباؤهم الى الساحة العامة وعليهم علائم السرور يقرئ بعضهم بعضاً التحايا ويتبادلون التهانيء الرقيقة، في حين أخفى أباء الجنود الناجين، أنفسهم في منازلهم بين النساء. فاذا الجأت أحدهم ضرورة الى الخروج، رأيته يسير كئيباً حزيناً لا يرفع ابصاره عن الأرض. وبزت النسوة رجالهن في هذا، فمن ثكلت ابنها أظهرت الفرح وقامت ضاحكة الثغر تزور صاحبتها الثاكلة الأخرى. ثم انهن اجتمعن في المعابد اجتماعات الافراح. أما الامهات اللاتى كن ينتظرن عودة اولادهم فقد لفهّن سكوت مطبق وظهرت عليهن امارات الأسى.

إلاّ أن السپارطيين بصورة عامة لم يكونوا ليخفوا قلقهم بعد أن بدأ الآن حلفاءهم ينفضون عنهم، وبات من المتوقع أن يزحف [ايپامنداس] بثقة المنتصر، على [الپلوپونيس] بجيش غازٍ. وعادوا يفكرون بعرج [اغيسيلاوس]، وتسرّب اليأس اليهم، كأن رفضهم تمليك ذي الرجل السليمة وتفضيلهم الملك الأعرج خلافاً لما انذرتهم به النبوءة بصورة خاصة وهو علّة المصائب التي تكالبت عليهم. إلاّ أن أحترامهم لمؤهلات [اغيسيلاوس] وسمعته وضعت حداً لهذا التذمر الشعبي وتخطوه بأن اودعوا فيه ثقتهم اثناء هذه المحنة، وأعتبروه الوحيد القادر على تحقيق الشفاء للسقم العام، والوسيط الزعيم بالتغلّب على كل مشاكلهم في الحرب أو في السلم.

ومن أعظم المشاكل التي كانت تواجههم آنذاك، مشكلة الفارين [هكذا كانوا يسمونهم انذاك] وهم الذين تركوا ساحة القتال. كان عدد هؤلاء كبيراً، وفيهم من أهل النفوذ والمكانة عدد لا يستهان به. فخيف ان يثيروا فتنة في الجمهورية، للحيلولة دون تطبيق أحكام القانون الخاص بمعاقبة الجبنا، عليهم. وكان هذا القانون في غاية من الصرامة، لا تقتصر أحكامه على تجريد الفارين من كل أمتيازاتهم، وانما تتعداه الى عقوبات أخرى. منها أنه كانت مصاهرتهم عاراً. ومنها أن يكون الحق لكلّ مواطن بضرب اي واحد منهم حين يلقاه في الطريق، ولا يحق للمضروب أن يعترضه أو يقاوم ضربه. كما يفرض عليهم ان لا يغتسلوا وأن يلبسوا الخلق من

الثياب المرقعة برقع متعددة الالوان وأن يحلقوا نصف لحاهم ويرسلوا الشعر على وجنة واحدة. لذلك بات من المتوقع أن يخلّق تنفيذ أحكام هذا القانون آثاراً في غاية الخطورة نظراً لكثرة عدد المأخوذين به وسموّ مركزهم. فضلاً عن حاجة الجمهورية الماسة الى الجنود في ذلك الوقت العصيب. ولذلك تم اختيار [اغيسيلاوس] لما يشبه وظيفة المشترع الحديد بهذه المناسبة فلم يصدر قانوناً جديداً وانما دخل الجمعية العمومية من غير أن يعمد الى اضافة أو تنزيل أو تغيير شيء في القانون القديم وتوجه اليها قائلاً:

- يجب أن يستسلم القانون للنوم في هذا اليوم. وأعتباراً من يوم غد يجرى تطبيقه بكلّ شدة وصرامة.

وهكذا صان القانون من التعديل، كما صان الموظفين من التشهير. ولأجل أن يعيد الثقة الى نفوس الشباب ويخفف من يأسهم قام بغزوة [لأركاديا] مجتنباً بكلّ حذر اي اشتباك في قتال. وقاصراً غزوته على نهب البلاد، واحتلال بلدة صغيرة [للمانتيفائيين Mantinæns]، وبهذا أحيا الأمل في قلوب الجماهير، وأقنعهم أنهم ليسوا مغلوبين في كل مكان. وما لبث أن انقض [ايپامنداس] على لاقونيا بجيش يبلغ تعداده اربعين ألفاً عدا المشاة ذوي الاسلحة الخفيفة، وآخرين غيرهم لحقوا بالجيش لغرض السلب والنهب حتى باتوا يزيدون عن سبعين ألفاً.

ستمائة سنة مرت على أحتلال الدوريين Dorians للاقونيا ولم يروا خلال هذه المدة الطويلة عدواً يدخل اراضيهم. ولم يجرأ أحد على غزوهم. إلاّ ان الثيبيين دخلوها الآن وأخذوا يحرقون ويسلبون في تلك الأراضي المحرمة التي يمسها أحد من قبل، دون أن يلاقوا أية مقاومة. ووصلوا نهر [يوروتاس]، وبلغوا ضواحي [سپارطة] لأن اغيسيلاوس لم يسمح لقومه باعتراض ما سماه [ثيومپوپوس] بالسيل الحربي الجارف. وانما قصر اهتمامه على تحصين الاجزاء الرئيسة من المدينة. ووضع الحرس في الاماكن الملائمة، صابراً في اثناء ذلك على سخرية الثيبيين الذين أخذوا يقذفونه وينعتونه بمثير الحرب وموقدها وعلة كل المصائب التي تعانيها بلاده وتحدوه إن كان قادراً على الدفاع عنها، ولم يكن هذا كل شيء، ففي الداخل كان يعاني متاعب مماثلة، من اضطراب المدينة وانفراط عقد النظام فيها والضجة والصرخات التي يأتيها العجز وكبار السنّ معلنين سخطهم لحالتهم المؤسفة وزادت النساء في الطين بلة بصيحات الرعب والهلع التي كن يطلقنها وقد كدن يخرجن عن وعيهن. أضف الى هذا كله التأثير الذي يحدثه نيران العدوّ في ساحة القتال واحساسه بانهيار صرح مجده وتردي سمعته. فقد جلس على عرش سپارطة وهي في أوج عظمتها وازدهارها، وها هو الآن يراها تسقط من

عليائها وتنزل من قدرها وسمعتها الى الدرك الأسفل، وتفقد كل الشعارات السامية التي حملتها نبراساً مما أعتاد هو نفسه التغني والتمثل به، كقوله «إن نساء سپارطة لم يشاهدن قط نيراناً لعدوٍ» وكما أثر عن انتالقيداس انه كان مرّه يجادل أحد الآثينيين في اي الشعبين أكثر بسالة فتبّجح الآثيني بقوله أن قومه كثيراً ما طردوا الاسپارطيين من حوض نهر [كيفيس Cephisus]. فردّ عليه [انتالقيداس] قائلاً «أصبت. لكننا لم نُسعد بفرصةٍ واحدة لطردكم من نهر [يوروتاس]ومرّة كان مواطن [سپارطي] من العامة البسطاء برفقة [آرگيڤي] فأخذ هذا يفخر بالعدد الكبير من السپارطيين الذين دفنوا في حقول [آرغوس]، فردّ عليه الاسپارطي قائلاً «ولا أحد منكم مدفون في بلاد لاقونيا». على أن الوضع قد تغيرّ الآن، حتى أن [انتالقيداس] الذي كان وقتذاك واحداً من [الايفور] هربّ اولاده سِراً الى جزيرة [كثيرا Cythera] لفرط خوفه.

ولما باشر العدوّ بعبور النهر، لمهاجمة المدينة ترك [اغيسيلاوس] ضواحيها منسحباً الى قلاعها ومرتفعاتها، وصادف أن فاض نهر [يوروتاس] وارتفعت مناسيبه ارتفاعاً عظيماً لكثرة ما سقط في الثلوج مما جعل العبور في غاية الصعوبة على الثيبيين، لا بسبب عمق مياهه وحدها بل لموجة البرد القارس بصورة خاصة. وشوهد اثناء ذلك [اپامنداس] يتقدم الفلانكس، فنبّه [اغيسيلاوس] فنظر اليه ملياً ولم يفه الاّ بهذه العبارة «يا له من رجلٍ مقدام!». وبعد أن بلغ [اپامنداس] مشارف المدينة وحاول أن يقدم على عملٍ ما يؤهله الى اقامة نصب تذكاري له هناك، عجز عن حمل [اغيسيلاوس] على الخروج اليه من مواقعه المحصنة، فأضطر الى العودة من حيث أتى، مجتاحاً البلاد وهو في طريقه.

وفي تلك الأثناء، تمكنت شراذم من أحّط المواطنين الذين كانوا يحملون حقداً طويل الأمد، من السيطرة على جزءٍ منيع في المدينة يعرف باسم [ايسوريون Isorion] حيث يقوم معبد ديانا، فأحتلوه وحصنوه وكان عددهم حوالى مائتين. ورغب السپارطيون أن ينقضوا عليهم فوراً إلاّ أن [اغيسيلاوس] الذي كان لا يدري مدى ما ستصل اليه الفتنة من الاتساع، طلب منهم ان يتذرعوا بالصبر. ثم قصد الثائرين بنفسه مرتدياً ثياباً عادية وليس معه إلاّ خادم واحد. وعندما دنا منهم ناداهم قائلاً: «انكم أخطأتهم في تنفيذ الأوامر الملقاة عليكم، وهذا الموضع ليس بالموضع الصحيح.» وأخذ يوزع تعليماته فأشار أن يذهب فريق منهم الى هنا، وفريق الى هناك، ودلهم على موضع آخر من المدينة وثالث وهكذا، فسرهم موقفه وظنوا ان الشك لم يساور أحد بعد في خيانتهم وتوجهوا حالاً الى المناطق التي دلهم عليها [اغيسيلاوس]. فأسرع هذا يضع في المراكز التي تركوها وحدة من حرسه. وبادر الى القبض

على خمسة عشر من رؤوس الثائرين وأعدمهم الحياة ليلاً. إلاّ أن مؤامرة أخرى أخطر من هذه بكثير قام بها بعض السپارطيين وخططوا لأجل القيام بثورة وكانوا يجتمعون سراً في بيوت اعضائها. فتم أكتشافها وكان المدبرون لها أناساً من الخطر جداً توجيه الاتهام اليهم بصورة علنية وفق احكام القانون كذلك كان من الخطورة بمكان التغاضي عنهم. فتشاور [اغيسيلاوس] مع سائر القضاة [الايفور] وأتفق الجميع على قتلهم في السرِّ دون اللجوء الى اجراءات المحاكمات، وكان عملاً لم يحصل لأي مواطن مولود في [سپارطة] من قبل.

في هذا الوقت أيضا، فرّ الى صفوف العدو كثير من [الهيلوت] وسكان الريف، المنخرطين في صفوف الجيش السپارطي فكان سبباً لانتشار حالة الرعب العظيم في المدينة. فأمر [اغيسيلاوس] بعض ضباطه أن يقوموا قبيل فجر كل يوم باجراء تفتيش على مضاجع الجنود، وحيثما وجدوا جندياً هارباً أخفوا أسلحته عن العين حتى لا يبدو عدد الهاربين كثيراً.

والمؤرخون على خلاف في الاسباب التي دعت الى رحيل الثيبيين عن [سپارطة] فبعضهم يقول أن الشتاء اضطرهم فضلاً عن تسريح الجنود [الاركاديين] الذي جعل من الضروري للبقية ان تنسحب. وآخرون يقولون ان الثيبيين مكثوا في البلاد ثلاثة أشهر حتى جعلوها قاعاً صفصفاً وبلقعاً يباباً.

إلاّ أن [ثيومپوپوس] ينفرد عن غيره من المراجع بالقول: ان القادة البويوسيين قرروا الانسحاب. وفيما هم يهمون بذلك أقبل عليهم [فريخسوس Phrixus] السپارطي مبعوثاً عن [اغيسيلاوس] وعرض عليهم باسمه عشرة تالنتات لقاء رحيلهم، فقبلوا ودفع لهم المال عن عمل سبق لهم أن قرروا القيام به. ولست ادري كيف انفرد هذا المؤرخ بسرد هذه الواقعة وحده دون غيره. على أن المؤرخين كافةً يتفقون على ما يأتي: إن خلاص [سپارطه] من الدمار كان بفضل حكمة [اغيسيلاوس] الذي نبذ وراءه في هذه المحنة العصيبة كل طمع له بالشهرة والعظمة وقرر أن يلعب لعبة الحذر والتوجس. إلاّ ان كل شجاعة وحكمة فيه، لم تكن بكافية لإعادة مجد سپارطة وسؤددها الغابر. وهي في ذلك لا تختلف عن أجسام البشر التي تعودت لفترة طويلة من الزمن نظام تغذية دقيقاً معّينا فاي اختلال جوهري واحدٍ في هذا النظام يكون قاتلاً عادة وهكذا كان الأمر بسپارطه، فان ضربة واحدة هدمت صرح استقرار الدولة الطويل برمته. وليس من حقنا أن نعجب لهذا. فان [اغيسيلاوس] اتبع لتحقيق السلام والتوافق في الحياة الصالحة للمواطنين. سياسة فصّلت وهندست بصورة لامطعن فيها. وكان سبب سقوطهم هو أمتلاكهم اراضي اجنبية عنهم، وممارستهم سلطاناً وابتعادهم عن مبادئ العدالة وهي برأي [ليكورغوس] أمور غير مستحبة، ولا تصلح لأي دولة سعيدة ذات حكم فاضل.

وتقدمت السنّ باغيسيلاوس، وشاخ، فترك جانباً كل ما يمت الى الحياة العسكرية بأي صلة. إلاّ أن ابنه [ارخيداموس] تمكن بالتعاون مع [ديونيسيوس] صاحب صقلية، من ايقاع هزيمة نكراء بالاركاديين في معركة عرفت باسم «المعركة التي لم تذرف فيها دمعة» فقد ذبح من العدو عدد كبير، دون أن يقتل سپارطي واحد. على ان هذا النصر كشف ضعف [سپارطة] وقتذاك أكثر مما كشفه أي شيء آخر. فقد كان النصر عند السپارطيين يُعدّ من الأمور الاعتيادية البسيطة، حتى انهم ما كانوا يقربون للآلهة أكثر من ديك واحد لقاء أعظم فوز يحرزونه ولا ترى الجنود يتبجحون ولا يظهر على المواطنين فرح عظيم. ففي النصر العظيم الذي حازوه في [مانتينيا] مما اسهب [ثيوكديدس] في وصفه، لم ينل الرسول الذي جاء بنبأه مكافأة، غير قطعة لحم بعث بها الايفور اليه من المائدة الجماعية. وفي هذا النصر الأخير، كادوا يخرجون عن طورهم عند ورود نبأه. وخرج [اغيسيلاوس] يشارك في الموكب الديني ودموع الفرح تجول في عينيه للقاء ابنه وعناقه. وحضر معه كل القضاة والموظفين العموميين. وخرج الشيوخ والنساء حتى نهر [يوروتاس] رافعين ايدي الشكر للآلهة. لأن سپارطة غسلت عنها العار والمذلة وعادت ثانية لترى نور النهار فقد قيل لنا أن رجال [سپارطة] كانوا لا يجسرون حتى على النظر في أوجه نسوانهم خجلاً لما لحق بهم من العار.

وعندما أقدم [ايپامنداس] على تحديد أعمار [مسينين Messene] ودعا سكانها المشردين في اطراف المعمورة الى العودة لسكناها. عجز السپارطيون عن احباط عمله اذ لم يكونوا في وضع يستطيعون معه مواجهتهم في ساحة القتال إلاّ أن [السپارطيين] حفظوا على [اغيسيلاوس] حين رأوا مساحة من الأرض مساوية لمساحة بلادهم من أخصب بلاد اليونان كانوا قد تمتعوا بخيراتها زمناً طويلاً، تنتزع منهم قهراً في عهده، لأنه نقضى العهد مع الثيبيين وابى إلا حربهم عندما عرضوا عليه السلم مفضلاً ذلك على التخلي عنها، مع انها كانت قد نزعت منه قسراً في الواقع، إن المحافظة على الشرف والكرامة كلفتاه غالياً. اذ لم يمرّ طويل زمن حتى كاد يغلب بحيلة كانت ستكلفه ضياع [سپارطه]. فقد عاد أهل [مانتينيا] يشقون عصا الطاعة على الثيبيين وينحازون الى السپارطيين. وعلم [ايپامنداس] أن [اغيسيلاوس] سائر الى معونتهم بجيش جرار، فترك مواضعه في [تيجيا] وتسلل سراً تحت جنح الظلام قريباً من [اغيسيلاوس] دون أن يحسّ به [المانتينيون] فتوجها نحو [سپارطة] ولم يكن بينه وبين الاستيلاء عليها وهي خالية، لا حامية فيها الاّ خطوة واحدة.

يقول [كاللستينس] أن [يوثينس Euthynus] التسپي، أبلغ [اغيسيلاوس] بالأمر، إلاّ

أن [گزينفون] يقول أن المخبر هو كريتي. فما كان من اغيسيلاوس إلاّ وأسرع فوراً بارسال فارس خيّال الى [لقيديمون] لانذارهم وابلاغهم بأنه قد خفّ الى نجدتهم، وبعد وصوله المدينة بوقت وجيز عبر الثيبيون نهر [يوروتاس] وقاموا بهجوم على المدينة فتصدى لهم [اغيسيلاوس] بجرأة عظيمة باذلاً جهداً يفوق ما ينتظر من شيخوخته. اذ انه لم يعد الآن يقاتل بذلك الحذر والمكر اللذين طالما أحسن استخدامها، وانما وضع كلّ أمله في هجوم يائس لم يكن قط اسلوبه عادةً. إلاّ انه نجح فيه نجاحاً ناهراً وانقذ المدينة من يد [ايپامنداس] التي كانت تطبق عليها وارغمه على الانسحاب. واقام نصباً تذكارياً، وامكنه عند ذلك ان يعلن بمحضر من زوجات السپارطيين واولادهم أن اللقيديميين قد دفعوا بشرفٍ ونبلٍ، دينهم لبلادهم. ولاسيما ابنه [ارخيداموس] الذي ارتفع مقامه في ذلك اليوم بالشجاعة التي ابداها وبمرونة جسمه اذ كان يمرق بسرعة خاطفة مجتازاً الأرقة الضيقة للوصول الى كلّ موضع من المدينة يحف به الخطر مدافعاً بشدة وليس معه الاّ القليل من الرجال.

على أن [ايسيداس Isidad] ابن [فيوبيداس] كان في رأيي محط أعجاب العدوّ فضلاً عن الصديق. كان فتىً رائع الجمال ممشوق القوام في عنفوان شبابه وريعانه، حيث بلغ أوكاد مبلغ الرجال. قاتل دون أن يكون عليه درع أو ثياب تقريباً فقد كان يدهن جسمه بالزيت عندما نودي للقتال. فلم يتريث وهو يكاد يكون عارياً، بل أختطفت يده رمحا وانتضت يده الأخرى سيفاً وانطلق يشق طريقاً له بين المقاتلين الى الاعداء وهو يطاعن كل من يصادفه منهم ولم يصب بخدش، سواء أعزي هذا الأمر الى العناية الالهية التي كلأته بنوع خاص فكافأته على ما ابداه من شجاعة بحمايته بمعجزة من لدنها، أو لأن شكله الرائع الجميل، بزيّه غير الاعتيادي الذي أوهم الاعداء به فظنوه مخلوقاً من غير البشر. وانعم عليه الايفور باكليل غارٍ ما أن قلدوه اياه حتى فرضوا عليه غرامة قدرها الف دراخماً لخروجه الى المعركة من دون دروع.

بعد أيام قليلة على هذا القتال، وقعت معركة أخرى بالقرب من [مانتينيا]. كسر فيها [ايپامنداس] طلائع اللقيديميين، وجد في مطاردتهم فتربص به [انتيگراتس] اللاقوني واصابه بطعنة رمح على حَدّ قول [ديوستوريدس]، الاّ أن السپارطيين الى يومنا هذا يسمون نسل [انتيكراتس] بالسيافين لأن الطعنة كانت بالسيف لا بالرمح.

لقد بلغ خوف السپارطيين من [اپامنداس] مبلغاً عظيماً في حياته، بحيث كان قاتله موضع اعجاب الجميع وعنقاهم، وقد انثالت عليه ضروب التكريم وأمطر بالهبات. وصدر مرسوم باعفائه واعفاء نسله من الضرائب، وهذا الامتياز يتمتع به في يومنا هذا، المدعو

[كالليكراتس Callicrates] أحد أحفاده.

بعد سقوط [اپامنناداس] قتيلاً. عقد صلح عام ثانية، إلاّ أن حزب [اغيسيلاوس] استثنى منه [المسينيين] بحجة انهم لا يملكون مدينة خاصّة بهم. ولم يدعوهم يؤدون يمين العصبة. ولما قررّ بقية الاغريق قبولهم في العصبة، خرج اللقيديميون منها وأوصلوا الحرب وحدهم مستهدفين أخضاع المسينيين. وأظهرت هذه المناسبة [اغيسيلاوس] انساناً صلب الرأي عنيداً لا يرتوي من الحرب. أقدم على فعلته هذه لينسف السلام العام ويمدّ من أجل الحرب وهو خالي الوفاض لا يملك من المال ما يكفي للانفاق عليها، حتى انه اضطر الى الاستدانة من اصدقائه، وجمع المال بالتبرعات والاكتتاب ملاقياً في ذلك مصاعب عظيمة. وفي الوقت الذي كانت بلاده أحوج الى الاستقرار والراحة أكثر من اي شيء آخر. كلّ ذلك لاسترجاع بلدة [مسيني] الفقيرة الصغيرة لا غير بعد أن فقد تلك الامبراطورية الواسعة الارجاء في البر والبحر، التي كانت بيد الاسپارطيين في بداية ملكه.

وكان اسوء ما لحق سمعته، هو وضع نفسه في خدمة [تاخوس Tachos] المصري. اذ لم يكن يليق قط برجل في مثل مركزه الرفيع، ينظر اليه كأول قائد في كل بلاد الأغريق بشهرته التي طبقت الآفاق، ان ينزل الى مستوى المحارب الاجير عند بربريّ مصري ثائر (لم يكن تاخوس أكثر من هذا). وأن يرضى بمنزلة قائدٍ لوحدات من المرتزقة المأجورين. حتى قيل عنه: لو انه اضطلع مثلاً بمهمة تحرير الاغريق من نير الفرس مرة أخرى وهو في عمره هذا الذي زاد عن الثمانين وجسده الذي ابلته الشيخوخة واوهنته الجراح، لما خلص من النقد واللوم. لأنك ان اردت أن يكون عملك شريف المنحى فمن الضروري ان يناسب سنك ويتفق مع كل الظروف الخاصّة الأخرى. لأن الظرف والميزان الصائب هو الذي يمنح العمل صفته الحقيقية ويجعله صالحاً أو طالحاً. الاّ أن [اغيسيلاوس] لم يكن يلقى بالاً على مقولات الناس، ولا يرى في اية خدمة عامة مهما كانت، ما يخل بالشرف والكرامة. وهو يعتقد أن النقيصة الكبرى هي أن يجلس المرء خاملاً عاطلاً في عقر داره لا يفعل شيئاً غير انتظاره الموت يأتي ليقبض روحه. لذلك نجده ينفق ما تسلم من [تاخوس] على تجنيد الرجال للحملة ليعبئهم في سفنه مبحراً الى مصر، بصحبة ثلاثين من المستشارين السپارطيين، مثلما فعل عند مباشرته الحملة في آسيا.

وما أن بلغ مصر، حتى خفّ عظماء المملكة وقوادها لاستقباله وتهنئة عند نزوله البر. فقد انعشت سمعته الداوية امال تلك البلاد، وتقاطرت الجماهير الغفيرة لالقاء نظرةٍ عليه، لكنهم لم يشاهدوا الأمير ذا الجلال الذي صوره لهم خيالهم، وانما قابلهم شيخ ضئيل الجسم ذو مظهر زريّ، يستلقي على العشب بكلّ بساطة ويرتدي ثياباً خشنة مهلهلة فطفقوا يضحكون عليه

ولم يتمالكوا من الهزء به وهتفوا قائلين: لقد صدق به المثل السائر العتيق «تمخض الجبل فولد فأراً» وكانوا أكثر دهشة لما ظنوه حمقاً منه، عندما قدمت اليه الهدايا من مختلف انواع الارزاق أختار منها العجول والأوز والذرة، وردّ الحلوى، والمسكرات والعطور. فالحوا عليه في قبولها، فأخذها ودفع بها الى [الهيلوت] الذين كانوا في جيشه. الا انه كما قال [ثيوفراستوس] أغرم بالقلائد التي كانوا يضعونها من البردي لبساطتها. وطلب واحدة من الملك عند عودته. وصحبها معه.

وخاب امله في تولى القيادة العامة عند لقائه بتاخوس فقد أحتفظ هذا بالمنصب لنفسه، جاعلاً [اغيسيلاوس] قائداً للمرتزقة فحسب و[خبرياس Chabrias] الآثيني قائداً للاسطول. فكان اول الاسباب التي اثارت سخطه، وقد تبعته اسباب أخرى. اذ كان مرغماً على الخضوع يوماً بعد آخر لمجرفة المصريّ وغطرسته. وأرغم بالأخير على أن يقف بخدمته في فينيقيا بشكل يحط من قدره وشخصيته. وتجمل [اغيسيلاوس] وتحمل صابراً حتى سنحت فرصته لإظهار مشاعره، بما فعله [نقتنابس Nectanabis] ابن عم [تاخوس] وكان يقود وحدة كبيرة من الجنود تحت امرته. فقد فرّ الى مصر حيث أعلنه المصريون ملكاً بعد فترة وجيزة فكتب الى [اغيسيلاوس] يدعوه الى صفّه، وبعث بدعوة مثلها الى [خبرياس] موعد اياهما بهبات وعطايا جسيمة. وداخل [تاخوس] الشك فيما يحصل، فذهب بنفسه الى [اغيسيلاوس] و[خبرياس] بكلّ تواضع وأخذ يتوسل اليهما أن يبقيا صديقين له. فحبذ [خبرياس] ذلك وراح يبذل ما أمكنه من جهود بالاقناع ورقيق الكلام، ليظل [اغيسيلاوس] معه. فأجابه هذا بالجواب المقتضب الآتي:

- انت يا خبرياس، جئت الى هنا متطوعاً ولست مجبراً على البقاء أو العودة فالأمر متروك لك. الاّ أني خادم لسپارطة. عينتُ لأقود المصريين ولذلك لايمكنني الحرب ضد من بعثت اليه كصديق. إلاّ اذا وردني امر بذلك من بلدي.

ثم انه ارسل رسلاً الى سپارطة بعد أن زودهم بمعلومات كافية عن الوضع، ضمنها شكوكه من تاخوس، وثقته بـ[نكتنابس] كذلك ارسل المصريان كلّ من لدنه وفداً الى اللقيديميين أحدهما يطلب الاستمرار في تطبيق اتفاقية التحالف المعقود سابقاً، والآخر يقدم عروضاً في منتهى السخاء مقابل فسخ الحلف الحالي وعقد آخر جديد. واستمع السپارطيون الى الوفدين. وأعطيا جواباً علنياً مفاده أنهم يودعون الأمر كله الى [اغيسيلاوس] وارسلوا قرارهم السرّي اليه يطلبون منه أن يقدم على كل ما يراه في مصلحة الجمهورية. وما أن بلغه القرار حتى ترك جانب [تاخوس] وانحاز الى خصمه ومعه كلّ مرتزقته. وبذلك ستر مسلكاً تحوم حوله الشبه

بادعاء ظاهري معقول وهو العمل لمصلحة بلاده. ولو جرد هذا الفعل من مظهره التنكري لما بدا في الواقع إلاّ خيانة قذرة. الاّ ان اللقيديميين الذي جعلوا العمل لخدمة بلادهم مبدأهم الأول لا يعرفون مقياساً لما هو عادل أو غير عادل خلافاً لهذا المبدأ.

بعد مغادرة المرتزقة جيش [تاخوس] فرّ هارباً، وعلى أثر ذلك اقيم في مكانه ملك جديد لأقليم المنديسيين Mendesian فتقدم هذا لقتال [نكتنابس] بجيش يبلغ تعداده مائة الف. وقد علق [نكتنابس] على هذا الجيش في حديث له مع [اغيسيلاوس] مبدياً استهانته بهم بقوله انهم جنود مستجدون لا خبرة سابقة لهم في الحرب وان كانوا كثيري العدد فمعظمهم من الصناع وارباب الحرف لم ينشأوا نشأة عسكرية.

فأجاب [اغيسيلاوس] بقوله انه لا يخشى عددهم بل يخشى جهلهم القتال، لأنه لا يدع له فرصة في استخدام المناورة والحيلة معهم، فهذا لا ينفع الاّ ازاء رجال يخامرهم الشك يعّرضون انفسهم لخصمهم بمحاولاتهم الدفاعية، لكونهم يتوقعون الهجوم. أمّا من لايخامره الشك والتوجس لأي امر، فهو قلما يمنح فرصة لعدوه، كالمصارع فانه لا ينال فتيلاً ممن يقف امامه جامداً لا يأتي بحركة. ولم يكن (المنديسي) بحاجة الى استقراء تدابير [اغيسيلاوس] الى الحَدّ الذي أصبح [نكتنابس] كثيراً الشك. لكن [اغيسيلاوس] عاد يشير عليه بالاشتباك مع العدوّ في الحال. قائلاً: من الحماقة ارجاء المعركة والركون الى عامل الوقت في حربٍ مع رجال لا خبرة لهم في خوض المعارك يمنحهم تفوقهم العددي قابلية تطويقه وقطع خطوط مواصلات جيشه بحفر الخنادق، ويحرزون عليهم قصب السبق في كلّ الأمور المفيدة لادارة الحرب، فكان هذا مما زاد من مخاوف [نكتنابس] وشكوكه، وأختار سبيلاً يخالف رأي [اغيسيلاوس] تماماً، اذ انسحب الى مدينة كبيرة منيعة الحصون. وقد الم [اغيسيلاوس] أن يكون موضع شكٍ الى هذه الدرجة وامتلأ حنقاً، إلاّ أنه خجل من الانحياز مرة أخرى الى الطرف الآخر، أو العودة الى وطنه دون أن يحقق هدفاً. واضطر الى اللحاق [بنكتنابس] الى داخل المدينة.

وبلغ العدوّ ضواحي المدينة، وشرع بتنظيم خطوطه حولها ويحفر الخنادق وعند ذاك قررّ المصري دخول المعركة خوفاً من ضرب الحصار حوله. وكان هذا ما يتمناه الأغريق، لأن نقص الارزاق في المدينة بات ملحوظاً. ولكن [اغيسيلاوس] عارض في الأمر، فزاد شكّ المصريين فيه، وأخذوا ينعتونه بخائن الملك. إلاّ أن [اغيسيلاوس] تحمل ذلك الملام بصبر، لأنه كان من صميم قلبه راضياً عن هذا التحول، وقد أسرّ في نفسه خطةً أعدها للإيقاع بالعدوّ ونفذها فيما بعد.

كان العدوّ منشغلاً بحفر خندقٍ عميق وبناء جدارٍ مرتفع، متوخياً بذلك ضرب الحصار على

قوات المدينة لتجويعها. وبعد أن اتمّ العدوّ الدوران بالخندق حول المدينة الاّ مسافة قصيرة لالتقاء الرأسين استعّد [اغيسيلاوس] برجاله ليلاً وألبسهم كامل سلاحهم وأقبل على الملك المصري وقال له:

- ايها الشاب، هذه هي فرصتك الوحيدة لانقاذ نفسك. وهي فرصة لم ابح بها لأحد لئلا تنكشف وتحبط. إن العدو بعمله، وبمجهود من رجاله قد زوّدنا بما يكفل نجاحنا. فها هو قد بنى جداراً يحول بينه وبين الإحاطة بنا بمجموعه الغفيرة في حين أنَ الثغرة التي بقيت ناقصة في سوار الخندق ستكفينا لشنّ هجومنا عليهم من خلالها. فكن رجلاً واتبع المثل الذي سيضربه لك الأغريق، فبقتالك بشجاعة ستحقق الخلاص لنفسك ولرجالك. فان جبهة العدو لن تقوى على الصمود أمان هجماتنا، كما أننا آمنون من خطر مؤخرته بسبب الجدار الذي شيدوه بأنفسهم.

فلم يتمالك [نكتنابس] من الإعجاب بدهاء [اغيسيلاوس] وحنكته ووضعه نفسه في الحال وسط مقاتلي الاغريق، ودخل المعركة معهم. فأوقعوا الهزيمة بالعدوّ في أول هجمة. فعادت ثقة الملك [اغيسيلاوس] وراح يكرر الخطّة مرةً أخرى كما يعمد اليه المصارعون من الحيل: يتظاهر أحياناً بالانسحاب، ويهجم أحياناً على الأجنحة حتى جرّهم الى موضع بين خندقين عميقتين جداً ممتلئين بالماء. وما أن أحتواهم الموضع حتى هاجمهم جاعلاً جبهة قتاله مساوية لعرض الفسحة التي هي بين الخندقين وبهذا أمن تماماً خطر الإحاطة بهم لكونهم محصورين من الجهتين ولم يبدوا مقاومة كبيرة، وسقط منهم الكثير ولاذ الباقون بالفرار وتفرقوا أيدي سبأ.

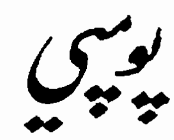
وهكذا تم توطيد دعائم حكم [نكتنابس]. وعزم على [اغيسيلاوس] بكلّ رغبة ومحبة أن يقضي شتاءه في مصر لكن [اغيسيلاوس] استعجل العودة للمشاركة في حروب بلاده اذ كان يعلم انها بحاجة الى المال وانها مضطرة لأستئجار مرتزقة، في حين يقاتل رجالها في الخارج. فودعّه الملك توديعاً حافلاً بالاكرام والتبجيل. ومما قدم له من هدايا مائتا تالنتٍ من الفضة تداركاً لمصاريف الحرب.إلاّ أن سفنه عجزت عن مغادرة الساحل بسبب هياج البحر، وأخذت تجري بمحاذاة الساحل الافريقي حتى بلغت بقعة خالية من البشر تدعى «مرفأ فيبلاوس». وفيما كانت سفنه تهّم بالرسو، وافاه الأجل. وكان له من العمر اربعة وثمانون عاماً، منها (٤١) حكم خلالها لقيديمون، وقضى ثلاثين منها وهو أعظم وأقوى رجل في كل بلاد الاغريق. بل كان يعتبر بصورة ما قائدها الأكبر وملكها. الى أن هزم في معركة [ليوكترا].

كان من عادة السپارطيين. أن يدفنوا مواطنيهم العاديين حيثما يوافيهم الأجل مهما كانت البلاد. إلاّ أنهم كانوا يحملون جثمان ملوكهم الذين يموتون في دار الغربة الى الوطن. ولما كان

جنود [اغيسيلاوس] يعوزهم العسل، فقد حنطوا جثمانه بالشمع وهكذا نقلوه الى لقيديمون.

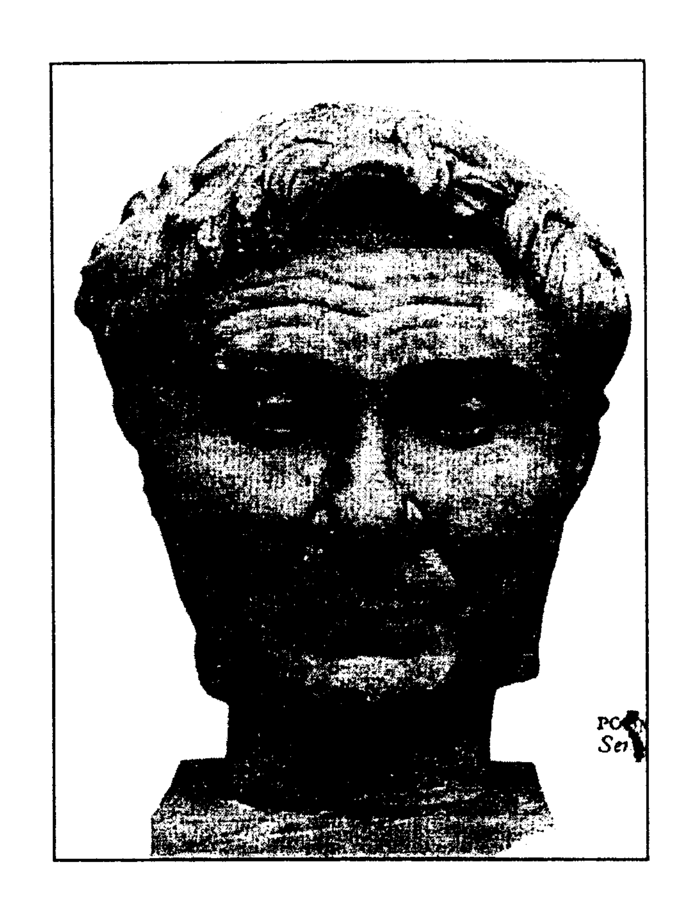
وخلفه في العرش ابنه [ارخيداموس] وتعاقب نسله ملوكاً حتى [آغيس] وهو الخامس من نسله، قتل على يد [ليونيداس] اثناء محاولته اعادة سلطة [سپارطا] القديمة.

١٩٦٩/٩/١١



POMPEY
(Gnaeus Pompius Magnus)

106 – 48



پومپي

يبدو أن أهل روما خصّوا [يومبي] منذ نعومة اظفاره بتلك المحبة التي عبّر عنها [برميثيوس] لهرقل في مأساة [اسخيلوس] واصفاً اياه بصاحب الفضل في نجاته بالبيت الآتي:

«آه يا مولاي القاسي، ما أعزّ ابنك على قلبي انه النسل الكريم لعدوي! »

من ناحية لم يعبّر الرومان عن كراهيتهم لأيّ جنرال من جنرالاتهم بالعنف والشدة اللتين عبر عن كراهيتهم [لسترابو Strabo] والد [يومبي]. والحق يقال أنهم كانوا يتهيبون سلطانه وقوته العسكرية في حال حياته، لأنه كان محارباً صنديداً. ولكنهم أحتقروا اسمه وذكراه بعد أن مات - غاية الاحتقار. وكانت صاعقة قد انقضت عليه فقتلته، فجروا جثمانه من النعش جراً عند تشييع جنازته وسحلوه.

ومن الناحية الثانية لم يضاهِ أحدٌ من الرومان [يومبي] في حبّ الخير للشعب والتعلق به، خلال كلّ تقلبات الحظ ولا كانَ أحد في ذلك أسبق منه في أول ظهوره أو في ارتفاعه المطرد مع ازدهاره، أو أكثر صدقاً في اثناء محِنَه. وكان سبب كراهيتهم [سترابو] الأكبر هو جشعه الذي لم يعرف حداً.

واما بالنسبة الى [يومبي] فكان ثم أسباب كثيرة لمحبة الرومان له، منها أخلاقه وألمعتيه ومآثره الحربية ورجاحة عقله وطلاقة لسانه وطلاوة حديثه وطيب مجلسه، وكان أرق الناس عندما يسأل فضلاً وألطفهم اذ وهب شيئاً. فان أعطى لا يفخر، وان أخذ فبكرامة ووقار.

وكان جمال صورته في شبابه شفيعه. ويظهر أن هذه الصفة سبقت طلاوة لسانه الى القلوب. فكانت تهفو اليه وتقع في حبّه قبل أن ينبس بنبت شفة. ولوحظ في جمال صورته حتى في عزّ شبابه مزيج من الهيبة والرقة. ولما بلغ عنفوان الرجولة ونهاية نضوجها. باتت مهابة أخلاقه وجلالها طابعه المميز. وكان شعر رأسه متموجاً أو مرتفعاً بعض الشيء حتى ليبدو بحركة عينيه الفاترتين أشبه وجهاً بتماثيل الملك [الاسكندر] ولعل كثرة الحديث حول هذا الشبه كان أكثر من الشبه في الواقع. ولصق هذا اللقب به في عهد الشباب. ولم يبد منه نفرةً، حتى بات

بعضهم يلقبه به سخرية واستهزاء. ولما كان [لوشيوس فيلپوس Lucius Philippus] يبث له الدعوة السياسية، لم يتحرج قط في القول «لن يعجب الناس اذا أحبّ فيلپسّ الاسكندر»!

وذكروا عن [فلورا Flora] العاهرة، أنها وقد تقدمت بها السن - كانت تصيب غاية السرور واللذة من التحدث عن علاقتها الأولى [بپومپي]. وكانت قد تعودت القول انها لم تفترق عنه مرة واحدةٍ بعد وصالٍ الاّ نالهُ منها غصّة وتسترسل قائلة أن [جمينيوس Cemin-ius] وهو من خلصاء [پومپي] علق بحبها وأشتد الحاحاً في مراودتها، فرفضت بقولها له «مهما كانت ميولها، فإنها لا تستطيع ارضاء رغبته بسبب پومپي» فتقدم راجياً [پومپي] فلم يبد اية ممانعة من ان تقضى صديقه لبانته منها، ومنذ ذلك الحين قطع ما بينهما ولم يكلمها قط رغم انه كان شديد الكلف بها كما يبدو. ولم يبد من [فلورا] نفسها الطيش المتوقع من أمثالها. وانما اعتلت صحتها فترة من الزمن بسبب الحزن والرغبة. وقيل لنا أيضاً أن [فلورا] كانت ذات جمال أخاذ اشتهرت به حتى أن [كايسللوس ميتللوس Caecillus Mettelus]، عندما زين هيكل [كاستور] و[پوللوكس] بالتصاوير والتماثيل، كانت تماثيل هذه الغانية وتصاويرها الفريدة الجمال من جملة ما اضافه الى الهيكل.

ولم يكن سلوكه امرأة عبده المحررّ [ديمتريوس] بالسلوك الذي يتفق مع خلقه الاعتيادي، فلا عدل فيه ولا كرم (كان هذا الخادم مقرباً اليه جداً في حياته حتى انه أوصى له باربعة آلاف تالنت) ولعله خشي أن يتعرض للاستهجان والتأنيب العام بانه وقع في حبها لفتنتها التي لا تقاوم ولئلا يشتهر أمره معها فيصبح مضغة في الأفواه. وعلى أية حال فمع ما كان يبدو عليه من الحذر والاحتراس، لم يفلح في أجتناب اقاويل الناس وافتراءات الاعداء عليه حتى في المسائل التي لا تجافي طبع الانسان. وقد اتهموه بالنسوة المتزوجات. وقالوا بأنه قد تستر على أمور كثيرة، وأختلس من الأموال العامة ليرضي اسرافهنّ.

وأمّا عن بساطته ومتانة خلقه، مما يتعلق بخصوص الاكل والشرب فتروى حكاية مؤداها أنه أعتلّ وكانت معدته تتقيأ اللحوم المعروفة فوصف له طبيبه لحم طائر السماني. ولم يكن لهذا الصنف وجود في السوق، لأن موسمه لم يحلّ. فقيل له أن [لوكولّوس] يربيها وهي متوفرة لديه على مدار السنة. فقال:

- اذن فقد كان [پومپي] سيموت لولا ترف [لوكولّوس]؟

ثم انه لم يعمل بوصفة الطبيب. وعالج نفسه بنوع آخر من اللحم متوفر، إلاّ ان ذلك كان في زمن متأخر.

وكان وهو فتى، في حملةٍ عسكرية يقودها أبوه ضدّ [سنّا] وكان رفيقه وصاحبه في الخيمة شخص يدعي [لوشيوس ترنتيوس Lucius Terentius]. استدرجه [سنّا] الى الخيانة وأتفق معه على الفتك بزميله [پومپي]. كما أتفق مع آخرين على اشعال النار في خيمة الجنرال. وقد وقف [پومپي] على الدسيسة وقت العشاء. فلم يظهر عليه شيء من القلق. وانما شرب أكثر من عادته وأظهر [لترنتيوس] كثيراً من الانعطاف والتودد. ثم تظاهر بالذهاب الى فراشه لكنه انسلّ الى الخارج سِراً وقام بوضع ديدبان على خيمة ابيه وركن هو ينتظر بهدوءٍ. وعندما ظنّ [ترنتيوس] أن الساعة المناسبة قد ازفت، نهض مجرداً سيفه وأهوى بعدة طعنات على فراش [پومپي] اخترقته فظن انه قضى عليه. وفي الحال قامت ضجة هائلة في المعسكر، متأتية من بغض الجنود للجنرال. كما ظهرت بوادر تمرد عامٍ في الجيش حيث مزق الجنود الخيام وجردوا أسلحتهم. وكان الجنرال قابعاً في خيمته لايجرؤ على الخروج بسبب التمرد. إلاّ أن [پومپي] توسطهم وأخذ يرجوهم بأعين دامعة، ثم قذف بنفسه منبطحاً ووجهه في التراب، امام مدخل المعسكر. وظلّ معرضاً لوطء أقدامهم يبكي متوسلاً بمن يريد ترك المعسكر أن يدوسوه ان شاؤا الخروج. فلم يروا بداً من العودة الى اماكنهم. وأعلن الجميع عدا ثمانمائة منهم، ندمهم خجلاً او لغلبة العاطفة عليهم وتصالحوا مع الجنرال.

ما أن وسّد [سترابو] التراب حتى رفعت دعوى على [پومپي] بصفته وارثا لتركة أبيه، بزعم ان اباه كان قد أختلس أموالاً من الخزينة العامة. إلاّ ان [پومپي] تعقب القضية بجدٍ متوصل وتمّ تعيين المختلسين الرئيسين واتهم أحدهم [اسكندر] وهو عبد من عبيد ابيه المحررين. وأثبت للقضاة بأنه المختلس الحقيقي، إلاّ انه اتهم شخصياً بأن في حوزته عُدد صيدٍ وبعض كتبٍ كانت من جملة غنائم [أسكلوم Asculum] فأقر بأنها لديه، وقد نسيها مدعياً انه تسلمها من أبيه عند احتلاله [اسكلوم] كما أدعى أيضاً أن فقدها عند عودة [سنّا] الى روما وأقتحام حرسه البيت ونهبه. والقى في هذه الدعوى عدة مرافعات تمهيدية قوية ضدّ من أتهمه، أظهر فيها حنكة ومقدرة لا تناسب سنه. ونال سمعة وتقديراً حتى أنّ [انتستيوس An-tistius] البريتور والقاضي في الدعوى، مال اليه كثيراً وعرض أن يزوجه ابنته باتصاله باصدقاء له حول الموضوع، فقبل [پومپي] مصاهرته وعقد العقد سِراً. على أن السرّ لم يبق مكتوماً بصورة مطلقة عن الناس. بل كان مما يمكن التوصل اليه والتحسس به من التفضيل الذي خصه به [انتستيوس] بصدد الدعوى. وأخيراً عندما نطق [انتستيوس] بقرار البراءة الذي اصدره الحكام، صاح الناس، كمن ينتظرون اشارة فأعطيت لهم تلك الصيحة التي تستخدم تطبيقاً للعادة القديمة في الزواج: «تالاسيو!».

يقال أن الأصل في هذه العادة هو ما جرى بين الرومان والسابين. فقد أقبلت فتيات السابين الى روما لمشاهدة الألعاب والتمثيل فيها، فأنتهز اشجع رجال الرومان الفرصة وقاموا يخطفهن واتخذوهنّ زوجاتٍ. واتفق أن بعض رعاة المواشي والماعز من الطبقة الدنيا خطفوا فتاةً جميلة الوجه طويلة القامة. وخوفاً من أن يعترضهم رجال أعلى منهم مركزاً ويأخذوها منهم طفقوا يصيحون وهم يركضون «الى تالاسيو» ذلك لأن [تالاسيوس] كان رجلاً معروفاً ومحبوباً بين الرومان، فكان كل من سمع هتافهم يصفق مغتبطاً ويشاركهم في الهتاف مستحسناً نصيب الرجل مهنئاً. وقيل ان هذه الصدفة أعقبت زواجاً سعيداً [لتالاسيوس] فقد استخدم في يوم الزفاف. وأصبح تقليداً. وهذه الرواية هي أوثق الروايات عن مصدر التقليد المعروف.

وبعد مرور ايام قلائل عن صدور القرار، تزوج پومپي [انتيستيا].

ثم ان پومپي، قصد معسكر [سنّا] فوجد الأقاويل والشائعات تدور حول اسمه. فبدأ الخوف يتملكه. وأسرع ينسحب سراً من المعسكر، فأولد اختفاؤه المفاجيء شكوكاً عظيمة حول مصيره. وسرت اشاعات وهمسات في المعسكر تفيد بأن [سينّا] أغتال الشاب. وقد اجتمع هذا مع سائر الأسباب الأخرى التي حفظها الرجال على [سنّا] فقرروا مهاجمته وقتله، فحاول الفرار، الاّ أن سنتوريوناً لحق به مجرداً سيفه حتى ادركه. فجثا [سنّا] على قدميه مستعطفاً وعرض على قاتله الخاتم الذي يختم به أوراقه الرسمية وكان كبير القيمة - ليفتدي به نفسه إلاّ أن السنتوريون اسكته بوقاحة، بقوله:

- اني لم أجيء لاختم اتفاقاً، بل لانتقم من طاغية عاصٍ خبيث.

وقضى على [سنّا] في الحال.

وبقتله على هذه الصورة، خلفه [كاربو] في القيادة وهو طاغية آخر يفوقه شراسة، واستهتاراً وأخذ يمارس عن أساليب سلفه. وفي الوقت نفسه كان [سيلّلا] يتقدم منه، وسط استبشار أغلبية الشعب وفرحهم. وكانوا في محنتهم يبحثون عن سلوى وان كانت لا تزيد عن استبدال سيدٌ بآخر. وقد بلغ الاضطهاد والجور والمآسي بأهل المدينة الى حَدّ اليأس المطلق من نيل الحرية وبات الناس يتوقون الى أخف انواع العبودية ان لم يكن من العبودية بدّ. وكان [پومپي] آنذاك في [پشنيوم Picenum] من أعمال ايطاليا، يقضي وقتاً في الاستجمام واللهو ومباهج الحياة اذ كان يملك ضياعاً ومزارع في الريف هناك. وقد دفعه الى البقاء حبّه لذلك الاقليم وتعلق سكانه به ذلك التعلق الذي كان فيهم عاطفة موروثة. حيث طفقوا

يظهرون له اسمى مشاعر العطف والوداد. ولقد رأى اشراف الناس وأخيارهم في المدينة، يتركون منازلهم وأملاكهم، ويتسابقون الى معسكر [سيللا] كأنما يتسابقون الى الملجأ الأمين، فتملكته الرغبة في فعل فعلهم، ولكن ليس كمستجير أو لاجيء طريد لا شيء لديه يقدمه، بل كصديق ومعين وبهيئة تكسب له التقدير والمكانة، واعتزم ان يسير اليه على رأس وحدة من الجنود. وفاتح أهل [پشنيوم] بالأمر وتداول معهم وطلب المعونة منهم على تحقيق ما اعتزمه. فسارعوا الى تأييد فكرته بكل طيب خاطر. واعادوا رسل [كاربو] اليهم خائبين وكانت حماستهم لقراره شديدة بحيث ان رجلاً يدعى [ڤنديوس Vindius] أنبرى يسخر [بپومپي] قائلاً انه خرج تواً من الصف في المدرسة ليضع نفسه على رأس الجماهير. فحنقوا عليه حتى انهم انقضوا عليه وقتلوه.

ووجد [پومپي] منذ تلك اللحظة الرغبة في الحكم والسلطان تتملكه وتأخذ عليه المذاهب وهو بعد فتى لم يتخط الثالثة والعشرين. ولذلك بادر الى تقليد نفسه السلطة الكاملة دون ان يستمدها من أحد أو من اي واجب كُلف به. فأمر بانشاء محكمة في ساحة [اوكسيموم Auxi-mum] وهي مدينة مكتظة بالسكان ثم طرد اخوين من رؤوساء المدينة ينتميان الى اسرة [ڤنتديوس Ventidius] كان يعملان ضده لمصلحة [كاربو] واستصدر بحقهما قراراً عاماً بمغادرة المدينة. وبعد هذا شرع في تجنيد المتطوعين وأخذ يصدر ويوزع الواجبات لقواد المائة وغيرهم من الضباط على حسب النظام العسكري وانضباطه. وقام بجولة في كلّ مدن الاقليم الأخرى وهو على هذه الصورة. ففرّ من أمام وجهه كلّ الموالين [لكاربو] وخضع الباقون لأوامره. وما مرّ وقت وجيز الاّ وأصبح جيشه مؤلفاً من فرق ثلاث كاملة العدّة والعدد. وتزود بكل ما يحتاج من الارزاق ومواد الاعاشة وبحيوانات الحمل والعجلات وغير ذلك من مهمات الحرب، وأنطلق بعدته هذه قاصداً [سيللا]، لا كالمستعجل الوجل أو المتلصص الذي يخشى أن ينكشف أمره، بل كان يسير بمراحل قصيرة، ويتوقف كثيراً في الطريق، ليحطمّ ثقة العدوّ بنفسه، ويشيع القلق فيه. وكان يعمل على فصل كلّ جزء من ايطاليا يمرّ به، عن ادارة [كاربو] وحكمه.

وهاجمه دفعةً ثلاثة قواد للعدوّ وهم [كارينّا Carinna] و[كليوليوس Clœlius] و[بروتوس Brutus] وواجهوه بقواتهم، لا بصفوف المعركة تماماً ولا متكتلين معاً. بل عسكروا بجيوشهم الثلاثة، على هيئة دائرة حول [پومپي] يريدون الاحاطة به والتغلب عليه بالحصار. إلاّ أن [پومپي] لم يداخله القلق من تلك المناورة. بل جمع جنوده كتلة واحدة. ووضع الخيالة في المقدمة وقادها بنفسه، موجها كلّ هجومه على قوات [بروتوس] فلمّا كرّت

عليه خيالة [الكلتيين]، التحم بشخصه مع ابرزهم وكان أضخم الجميع، في قتال فردي، وارداه بطعنة من رمحه، فلما شاهد الباقون ما حَلّ برئيسهم الووا اعنة خيلهم وارتدوا على الاعقاب هاربين وبذلك اوقعوا الخلل في صفوف مشاتهم وسببوا هزيمة عامة. وعلى اثر ذلك دبّ الخلاف بين القادة الثلاثة، وسلك كل منهم طريقاً مختلفة، كما شاء له حظه. وعندئذ أخذت المدن المجاورة تستسلم [لبومبي] ظانة ان العدوّ قد تملكه الخوف فتشتت شمله.

وتصدى له بعد هؤلاء، [سكيپيو] فاراد، قتاله ولم ينل منه مأرباً لأن جنوده انضموا الى [پومپي] ما أن اصبحوا على رمية رمح من قواته، ووجد [سيكپيو] نجاته بالفرار. ثم أرسل [كاربو] لقتاله قوات من الخيالة فهاجمها [پومپي] بالقرب من نهر [آرسيس Arsis] بعين الجسارة والشجاعة السالفتين فدحرهم وأجبرهم في اثناء مطاردتهم على دخول منطقةٍ وعرةٍ يصعب ارتيادها على الخيل، فلما وجدوا سبل النجاة مسدودة امامهم استسلموا له بكامل خيلهم وأسلحتهم وأعلنوا ولاءهم له.

ولم يكن [سيللاً] حتى ذلك الحين يعرف شيئاً عما يحصل [لپومپي]. فلما وردته الانباء الأولى عن وقائعه وحركاته، داخله القلق الشديد عليه، وخشي أن يقطع قواد العدوّ عليه خطّ الرجعة، وهم قادة متمرسون ذوو خبرة عظيمة في فنون القتال. ولذلك أسرع بالتقدم نحوه لمعاونته. ولما بلغ [پومپي] نبأ توجه [سيللا] أصدر اوامره للضباط وامراء الوحدات بتنظيم صفوف الجيش ووضعه في حالة الاستعراض، ليبدو في ابدع صورة وأجمل منظر امام القائد العام. وكان يتوقع أن ينال تكريماً عظيماً منه، إلاّ أن ما ناله كان فوق ما توقعه اذ ما أن شاهده [سيللا] يتقدم منه بهذه الصورة من التنظيم ورجاله كلهم شباب في عنفوان صباهم وقوتهم ومعنوياتهم العالية وروحهم المتوثبة المعتزة بالانتصارات، حتى ترجل عن حصانه. ولأنه كان الأسبق فقد حيّاه رجال پومپي بالتحية الواجبة لمقامه، ولقبوه [بالامبراطور] فرد التحية لپومپي بمثلها وبلقب الامبراطور أيضاً، وهو ما أثار الدهشة، فما من أحدٍ كان يتوقع أن [سيللا] سيخلع هذا اللقب على شاب صغير السنّ، لم ينل بعد منصب العضوية في مجلس الشيوخ. وهو لقب كان موضع منافسة بين أسرتي [سكيپيو] و[ماريي Marii] والواقع ان كل تصرفات [سيللا] معه كانت منسجمة مع أول مقابلة لهما. فكلما دخل عليه پومپي أظهر له التفاتاً واحتراماً جديداً، أمّا بالقيام له. أو حسر ردائه عن رأسه، أو ما أشبه. مما ندر أن قابل به اي شخص آخر، من ذوي المراكز العليا والمقامات الخطيرة. وكان حوله الكثير منهم. إلاّ أن الخيلاء والزهو لم يداخلا [پومپي] لما خصّه به [سيللا]، وظهر ذلك جلياً عندما قرر [سيللاً] ارساله بحملةٍ عسكرية كاملة الى بلاد الغال. وهو الاقليم الذي كان

يعتقد أن [ميتللوس] قائد الجيش فيه، لم يحقق شيئاً جديراً بما هو تحت امرته من قوات ضخمة. فأشار [پومپي] بانه ليس من العدالة ولا من شرف الناس أن ينتزع أقليماً من يد من هو أقدم منه عسكرياً وأعلى كعباً وصيتاً وان الأمر منوط [بميتللوس] على كل حال؛ فان رغب واستحسن خدمته. فهو على اتم الاستعداد للانضمام اليه ومعاونته في الحرب. وسُرّ [ميتللوس] بجوابه لمّا بلغه وكتب اليه رسالة يدعوه، وما أن استقر المقام [بپومپي] هناك حتى انقض على الغاليين فحقق المعجزات والمآثر العسكرية لنفسه واوقد مَرّة أخرى نار الأقدام واذكى روح القتال في [ميتللوس] تلك الروح التي كادت تخمد منه بعامل السنّ. مثله في ذلك مثل النحاس الذائب كما يقولون، عندما يسكب فوق النحاس البارد الصلب، فان يحلّه ويذيبه بأسرع مما تذيبه النار.

ويمكن تمثيل [پومپي] هنا بالمصارع الشهير، الذي يفوز بكلّ الجوائز في النزالات، فليس من العادة أن تدخل في قائمة انتصاراته الأخيرة، تلك الانتصارات التي حققها في صباه عندما كان في اولّ سلم الشهرة، وانتصارات پومپي في ايام شبابه وان كانت عظيمة بحدّ ذاتها، الاّ انها طمست وتضاءلت امام العديد من مآثره التي حققها في فتوحاته وحروبه المتأخرة، ولذلك سأمر بها مَرّ الكرام واضرب صفحاً عن ايراد تفاصيلها خوفاً من تبديد وقتنا في حوادث شبابه الأقل أهمية، واضطراري الى اغفال أعظم المآثر واسمى العظائم التي تكشف بصورة أوضح عن حقيقه شخصه.

وبعد أن دانت ايطاليا جميعها [لسيللاّ] وخضعت لحكمه وأُعلِن دكتاتوراً، راح يكافئ الموالين والمخلصين له بالثروة والمناصب الرفيعة في الدولة، وتحقيق اي رغبة أو طلب يطلبونه بلا تحديد أو حساب. إلاّ [پومپي] فقد خصّه بمعاملة فريدة كان شديد الاعجاب ببسالته وخلقه، وكان يؤمل أن يكون دعامة لحكمه وسنداً قوياً له. فعمد الى وسيلة تجعله مرتبطاً به بنوع من القرابة والتحالف. وعاونته زوجه [ميتيلا] فيما أعتزمه، وقام كلاهما باقناع [پومپي] بتطليق زوجه [انتستيا] واتخاذ [اميليا] زوجةً، واميليا هذه، هي ابنة امرأة [سيللا] ولدت لها من [سكاوروس Scaurus] زوجها الأسبق. وكانت هذه الأبنة متزوجة في عين الوقت من رجل آخر تعيش معه وهي حبلى منه. إن هذا الاسلوب التحكمي القاسي في الزيجة كان يتفق تماماً وعصر [سيللاّ] إلاّ انه كان بعيداً عن طبع [پومپي] وأخلاقه. لقد انتزعوا اميليا وهي حبلى من احضان رجل آخر، ودفعوا بها اليه. وطلقت [انتيستيا] بأسلوب مهين يجافي قواعد الشرف، ولم يمضِ على فجيعتها بموت أبيها طويل زمن (لأن اباها انتيستيوس، كان قد قتل في مجلس الشيوخ بسبب الشك في موالاته لسيللا، وهو الشك

المتأتي من وجود ختنه [پومپي] الى جانبه) وأقدمت أمها على قتل نفسها بعد ما نزلت هذه الرزايا والمصائب بها، وختاماً لهذه المأساة الكبرى. وقعت نكبة أخرى جديدة كأن النكبات الأخرى لم تكن كافية. فقد قضت [اميليا] نحبها وهي تضع وليدها، ولم تكد بعدُ تستقر في بيت [پومپي].

وفي حدود ذلك الزمن، وردت الى [سيللاً] انباء عن قيام [پرپينا] بتحصين مواقعه في جزيرة صقلية، تلك الجزيرة التي باتت ملجأ ووعاءً يجتمع فيه كلّ بقايا الحزب المناوئ له، وابلغ أيضاً ان [كاربو] يمخر عباب تلك البحار باسطوله مهدداً، وان [دوميتيوس Domitius] قد انقض على افريقيا، وان كثيراً من الاشراف المغتربين، الذي نجوا من العقوبات التي تفرضها حالة الحرمان من الحقوق المدنية يتقاطرون يومياً على تلك الاقاليم. فأرسل [پومپي] عليهم مزوّداً بقوات كبيرة.

وما أن نزل برّ صقلية حتى لاذ [پرپينا] بالفرار تاركاً الجزيرة برمتها له. وكانت معاملة [پومپي] لسائر المدن المنكوبة معاملة طيبة مفعمة بالانسانية. الا أنه استثنى [المامرتينيين Mamertines] في [مسيّنا]. فلما أحتج هؤلاء على احكامه واقضيته مستندين الى امتيازاتهم واعفاءاتهم بموجب ميثاق قديم ومرسوم رومانيّ غابر، أجابهم بكلّ حدة.

- كفاكم ثرثرة وتمشدقاً بالمراسيم والشرائع امامنا نحن الذين احتقبنا السيوف واحتكمنا اليها.

والمظنون انه أظهر [لكاربو] روحاً لاجل الاقتصاص منه عن جرائمه. فاذا كانت الضرورة تقضي بالفتك به، ومثل هذه الضرورة متوفرة هنا، فمن الواجب أن يتمّ ذلك حال وقوعه في الأسر، واذ ذاك يُعزى قتله الى الشخص الذي قبض عليه وحده. لكن [پومپي] عمد الى خلاف ذلك، فقد أمر بأن يخضروه امامه هذا الرجل الذي تولى منصب القنصلية في روما مرات ثلاث، فجيء به وهو يرسف في الاغلال واوقفه في موضع الاتهام. في حين جلس هو على مقعد القضاء وأخذ ينظر في قضيته بمقتض الشكليات والاجراءات القانونية مثيراً سخط ومشاعر كل الحاضرين. ثم أمر بعد ذلك أن يؤخذ ويُقتل. وقيل والشيء بالشيء يذكر - عن [كاربو] أنه لما سيق الى موضع التنفيذ ورأى السيف مجرداً لقطع رأسه. لم يستطع تمالك نفسه لألم أحسّ به في مثانته أو لعدم مقدرة اعصابه على السيطرة على عملها فطلب ان يسمح له الجلاد بمهلة وبموضع مناسب ليتبول.

وأكثر من هذا، ما يحدثنا به [كايوس أوپيوس Caius Oppius] أحد اصدقاء [قيصر] قال هذا أن [پومپي] كان من منتهى القسوة في معاملته [كوينتوس ڤاليريوس Quintus

Valerius] وهو رجل مشهور بعلمه وادبه. فلما جيء به امامه أخذه وسار به مبتعداً ودخل معه في محاورة والقى عليه عدة أسئلة وسمع اجوبتها. ثم أمر ضباطه أن يأخذه ويقتلوه. إلاّ انه يجب أن لا نسرع في تصديق كل ما يرويه [اوپيوس] لاسيما بعد أن أخذ على نفسه رواية كل ما يتعلق باصدقاء قيصر وخصومه، ومن الموكد ان [پومپي] كان مضطراً بحكم الضرورة الى استعمال القسوة والصرامة ضدّ الكثير من أعداء [سيللا] وعلى الأقل بالنسبة الى البارزين منهم، أو أولئك الذين اشتهر أمر القبض عليهم أو أسرهم فلم يعد لديه مجال للاغضاء عنهم. اما الآخرون فقد كان معهم في نهاية التسامح الذي يقوى عليه، ولذلك دبّر أمر اخفاء بعضهم. وتدخل شخصياً في تهريب بعضهم الآخر. وفي قضية أهل [هيميريا Himeræa] قرر [پومپي] انزال أشد العقاب بمدينتهم لمعاونتهم ومساعدتهم العدوّ، ولتحريضهم الآخرين على العصيان وانبرى زعيمهم [سثينس Sthenis] يطلب الكلام ولما سمح له قال ان ما يعتزمه [پومپي] الآن لا يتفق مطلقاً مع مبادئ العدالة ذلك لأنه سيتخطى المجرمين ويقضي على أرواح الابرياء فطلب منه [پومپي] تعيين المجرمين الذين يستحقون العقاب فأجاب [سثينس] بأنه هو وحده المسؤول عن اشراك بني قومه عن طريق اقناعهم بعمل ما عملوه، كما أجبر اعداءه على فعل ذلك بالقوة. فلم يسع [پومپي] إلاّ الاعجاب بصراحته وروحه النبيلة وغفر له جريمته وعفا عن كلّ أهل [هيميريا]. ولما علم أيضاً أن جنوده لا يخضعون للنظام في اثناء مسيراتهم وانهم يرتكبون أعمال العنف في الطريق، أمر أن يختم على سيف كل واحدٍ في غمده ومن جرده عرض نفسه لاشدّ العقاب.

وفيما كان [پومپي] منصرفاً الى ادارة شؤون الحكم في صقلية، تسلم مرسوماً صادراً من مجلس الشيوخ، وأمراً من [سيللا]، يتضمنان واجب الابحار في الحال الى افريقيا بكلّ قواته لقتال [دوميتيوس]، ذلك لأنه كان قد عبأ جيشاً لجباً، يفوق الجيش الذي عبأه [ماريوس] منذ فترة ليست بالطويلة وعبر به من افريقيا الى ايطاليا واشعل نار فتنة في روما واصبح طاغيةً بعد ان كان منفياً خارجاً على القانون. استعد [پومپي] لكل شيء باسرع ما يمكن وترك زوج أخته [ميميوس Memmius] حاكماً على صقلية، مُقلعاً بمائتين وعشرين بارجة وثمانمائة سفينة أخرى محملة بالارزاق والمؤن والعتاد، والأموال وآلات الحصار. وأرسى بجزءٍ من اسطوله في مرفأ [اوتيكا Utica] وبجزئه الآخر في [قرطاجنة] وما ان تمّ انزاله حتى تمرّد على خصمه سبعة آلاف جندي وانضمّوا اليه وكانت قواته التي انزلها تتألف من سبع فرق كاملة العدة والعدد. وهنا يروون حادثة طريفة وقعت له حال نزوله.

قالو ان جنوداً له، وقعوا بمحض الصدفة على كنز مطمور فأصابوا منه مالاً كثيراً. ولما سمع

بقية رفاقهم ظنوا أن الموضع الذي نزلوا فيه حافلٌ بالذهب والفضة التي دفنت فيه منذ القديم، عندما تكالبت المحن والخطوب على القرطاجيين. فانفرط عقد النظام في جيش [پومپي] وانهمك افراده جميعاً في الحفر أياماً عديدة سعياً وراء الكنوز والذهب. وراح [پومپي] يسير غدوة وراوحاً بينهم لا يفعل شيئاً إلاّ ان يضحك على الآلاف من الرجال تحفر الأرض وتقلب التربة. بدون كلل أو ملل، ولم يعتم هؤلاء أن أدركهم الملل والسأم، وعادوا الى جادة الصواب وأتوا جنرالهم طالبين منه التقدم بهم حيث شاء، معترفين له بأنهم نالوا جزاء حمقهم هذا.

كان [دوميتيوس] خلال هذه الفترة قد تهيأ وأعد جيشه للقتال بمواجهة [پومپي]. وكان يوجد بين الجيشين مجرى ماءٍ صعب العبور، كما هبت في اثناء ذلك عاصفة هو جاء ما طرة منذ الفجر، مما لم يترك احتمالاً كبيراً في وقوع اشتباك على ما بدا [لدومتيوس]، فما كان منه إلاّ أن ضمّ قواته، وأمرها بالانسحاب الى المعسكر. إلاّ أن [پومپي] الذي كان يقظاً منتبهاً يرصد كل حركة من العدو، انتفع بهذه الفرصة، وأمر بالزحف الى الامام، وعبر النهر السريع المجرى وانقض حالاً على معسكرات عدوه. فدبت الفوضى فيها ونجم اضطراب، وباءت اي محاولة في المقاومة بالفشل لأن صفوف العدو كانت متباعدة، ولم يتمّ التعاون بين وحداته وكانت الريح تصفع اوجههم بالمطر الغزير، ولم تكن حال الرومان وسط هذه العاصفة بأحسن من حال عدوهم فقد تعذر عليهم المكن تميز أحدهم للآخر. حتى أن [پومپي] لم يعد مكشوفاً لرجاله وكاد هذا يكلفه حياته، فقد طلب أحد رجاله منه اعطاءه كلمة سرّ المعركة فتباطأ قليلاً في الجواب فكان بينه وبين الموت لحظة.

أصيب العدوّ بهزيمة شنعاء وقتل منه خلق كثير وقيل انه لم ينج غير ثلاثة آلاف من أصل عشرين ألفاً. وحيا الجيش [پومپي] بلقب الامبراطور، ولكنه أبى ذلك منهم وردّه عليهم قائلاً: انه لا يستطيع قبوله مطلقاً ومعسكر العدو ما زال قائماً. فان شاؤا أن يجعلوه قمينا بهذا الشرف فعليهم أولاً أن يزيلوا . فما سمع الجنود بذلك حتى انقضوا على الاستحكامات والمعاقل بهجوم صاعق. وقاتل [پومپي] في هذه المعركة حاسر الرأس دون خوذة، ليكون ظاهراً بشخصه لرجاله، تفادياً لخطأ آخر قد يتكرر ويكلفه حياته. وتم الاستيلاء على المعسكر عنوةً. وكان بين الذين سقطوا في المعركة من العدو [دوميتيوس] بالذات.

بعد هذا الاندحار راحت مدن تلك البلاد تسقط تباعاً بيد [پومپي]، وكان بعضها يستسلم دون حرب، وبعضها يؤخذ بالقوة. ووقع في الأسر [إيارباس Iarbas] الملك، وهو حليف ونصير [الدوميتيوس]، وأعطيت مملكته [لهيمپسال Hiempsal]. ولم يسع [پومپي] أن يخلد الى الراحة في هذا الموضع. كما أنه كان يريد استغلال صعود نجمه وحسن حظّه واندفاع

جيشه، فدخل [نوميديا] وسار متوغلاً عدة أيام في قلب البلاد وأخضع كل بلد دخله فابتعث مجدداً في شعوب البرابرة هيبة روما وسلطانها الذي كادت تنطمس معالمه. ويؤثر عنه قوله بهذه المناسبة: «حتى وحوش افريقيا وضواريها لن تترك آمنة الاّ بعد أن تذوق طعم شجاعة الرومان وانتصارتهم. لذلك قضى بضعة ايام في صيد الأسود والفيلة وقيل انه تمكن بفترة من الزمن لا تزيد عن اربعين يوماً، من ايقاع الهزيمة التامة بالعدوّ واخضاع افريقيا وتوطيد أمور الممالك واستثباب عروش ملوكها في سائر تلك البلاد. وهو لم يتجاوز الرابعة والعشرين من العمر.

ولما عاد الى مدينة [اوتيكا] سُلِّمت اليه رسائل واوامر من [سيللا] يطلب منه تسريح كل وحدات جيشه خلا فرقة واحدة. ثم ينتظر قدوم جنرال آخر يخلفه في الحكم. وقد آلمه ذلك كثيراً، إلاّ انه لم يفصح عن ألمه وابقاه سِراً في نفسه. ولكن الجيش استنكر الأمر بصورة علنية ولما أخذ [پومپي] يرجوهم العودة الى الوطن قبله. راحوا يكيلون الشتائم [لسيللاّ] وصرحوا على رؤوس الاشهاد بأنهم اتفقوا على ان يبقوا معه ولا يتركوه، وأنهم لا يرون من السلامة في شيء ان يثق بطاغية متحكم. حاول [پومپي] في باديء الأمر تهدئتهم وتسكين ثائرهم بلطيف الكلام فلم تجد محاولاته نفعاً فترك المنبر وعاد الى خيمته، والدموع تجول في عينه. فلحق به الجنود وامسكوا به واعادوه الى المنبر رغم انفه. ثم جلسوه على منصه الحكم وصرفوا القسم الأعظم من يومهم بالمناقشة وتبادل الرأي. هم يلحّ عليهم بوجوب التمسك بالنظام والطاعة ويحذرهم من أخطار العصيان. ولمّا أشتدوا في الحاحهم. وأصرّوا على موقفهم حلف أن يبخع نفسه اذا حاولوا ارغامه. وبهذه الوسيلة استطاع أوكاد، اقناع الجيش وتهدئته. على أن الانباء الأولية التي بلغت [سيللاّ] كانت تشير الى أنّ [پومپي] قد شقّ عليه عصا الطاعة وأعلن تمرده، فزاد قلقه وانفرد باحد اصدقائه قائلاً:

- هكذا إذن سيقدرّ عليّ أن أقاتل أطفالاً في شيخوختي!

مشيراً في الوقت نفسه الى [ماريوس] الذي كان قد أورثه كثيراً من الهمّ وانشغال البال، وهدّده بكيانه وهو بعد فتىً شاب مثل [پومپي]. لكن الانباء الصحيحة وصلته بعدئذ. ووجد المدينة كلهّا قد استعدت لاستقبال [پومپي] بكلّ مظاهر التقدير والحبّ. فقرّر هو أن يسبقهم جميعاً في التكريم فخرج في طليعتهم والتقى به وعانقه بكلّ حفاوة ورحب به مخاطباً اياه بلقب [ماگنوس] اي العظيم. وطلب من المستقبلين ان ينعتوه بهذا اللقب. ويقول آخرون أن هذا اللقب خلعه الجيش عليه بتصويت علنيّ حماسيّ في افريقيا. إلاّ انه لصق به رسمياً بمصادقة [سيللاّ] عليه. ومما هو مؤكد ان [پومپي] نفسه كان آخر من خطر بباله استخدام هذا

اللقب لنفسه. فلم يذيل رسائله واوامره باسم [پومپيوس ماگنوس] بعد مرور زمن طويل عليه، عندما أُرسل بمنصب [پروقنصل] لقتال [سرتوريوس] في اسپانيا. إلاّ أن شيوع استعماله بين الشعب كان السبب في ازالة عوامل الحسد والغيرة فيه. والمرء هنا، لا يسعهُ إلاّ ان يشعر بالاحترام للرومان القدماء والاعجاب بهم فهم لم يكتفوا بمكافأة الانتصارات وادارة الحروب بنجاح بمثل هذه الالقاب العالية. وانما كافأوا بها أصحاب المواهب والخدمات الجليلة من رجال الحكم المدنيين البارزين وثمّ شخصان منحهما الشعب لقب [ماكسيموس] أو الأعظم، أولهما [ڤاليريوس] الذي حقق الصلح والسلام ما بين الشيوخ والعامة. وثانيهما [فابيوس روللوس Fabius Rullus] الذي اخرج من مجلس الشيوخ، ابناء العبيد المحررين الذين ما قبلوا اعضاءً فيه الاّ لغناهم.

وطلب [پومپي] أن يمنح شرف الدخول في موكب نصر، فعارض [سيللاّ] في الأمر محتجاً بأن القانون لا يسمح بمنح هذا الشرف لغير القناصل والپريتورين. ولذلك فان [سكيپيو] الاب الذي اخضع القرطاجنيين في اسپانيا بعد معارك وحروب أشدّ عنفاً وأخطر أثراً. لم يتقدم بمثل هذا الطلب لأنه لم يتسنم منصب قنصل او پريتور. وقال لو أن [پومپي] الذي لم يكد يكمل نموّ لحيته، ولم يبلغ بعد السن القانونية التي تؤهله الى عضوية مجلس الشيوخ، سيدخل المدينة في موكب نصرٍ فان الألسنة الحسودة ستتطاول لتنال من سمعة حكمه هو، ومن شرف [پومپي] كذلك. واضاف يقول أيضاً [لپومپي] انه اذا بقي مصراً على طلبه، فمعنى ذلك انه يريد النيل من سلطته ويقصد اذلاله. فلم يتزحزح [پومپي] وتشبث بمطلبه وانثنى الى [سيللا] يذكره بأن أولئك الذين يعبدون الشمس الطالعة هم أكثر ممن يعبدون الشمس الغاربة، يريد بذلك ان سلطانه يتعاظم في حين ان سلطان [سيللاّ] آخذ في الأفول، ولم يلتقط سمع [سيللاّ] هذه العبارة مضبوطة. لكنه لحظ نوعاً من البهتة والبغتة ترتسم على أوجه ونظرات من كان قد سمعها. فسأله عَمّا قاله. ولما نقلت له الجملة. صُعق من جرأة [پومپي]، وصاح مرتين:

- دعوه يدخل في موكب نصر، دعوه يدخل في موكب نصر.

وقيل أن [پومپي] عندما جوبه باستنكار واستهجان، أراد أن يزيد من حنق أولئك المنكرين المستهجنين. فرتب ان يكون موكب نصره مؤلفاً من عجلةٍ تجرها اربعة فيلة (اذ كان قد جاء بعددٍ منها. غنمها من ملوك افريقيا) ولكن لما كانت ابواب المدينة ضيقة، فقد اضطر الى العدول عن تدبيره، والاكتفاء بالخيول. ولما بدأ جنوده يثيرون الضجة ويعملون على عرقلة الموكب بسبب خيبتهم في نيل ما توقعوه من مكافآت. لم يكترث بهم، كشأنه في كل ما

سبق، وصارحهم القول بأن يفضل أن يضيع من يديه موكب النصر، على أن يخطب ودّهم يتملقهم، الأمر الذي حدا [بسرفيليوس Servilius] وهو شخصية بارزة، وممن كان في مقدمة المعارضين في موكب نصر [پومپي]، الى القول: «الآن ادركت بأن [پومپي] عظيم حقاً ومستحق موكب نصر.» وواضحٌ ايضاً أنه كان يسهل عليه الفوز بعضوية مجلس الشيوخ لو رشح نفسه، إلاّ أنه لم يطلب، بل كان كما يبدو يطمح الى مراتب الشرف غير العادية. اذ ليس ثم غرابة في أن يتخذ مقعداً في مجلس الشيوخ قبل ان يحين الأجل. ولكن دخوله في موكب نصر قبل ان يصل الى عضوية مجلس الشيوخ هو نهاية المجد في الحقيقة.

زد على هذا، أن الحظوة التي نالها عند الشعب ليست بالقليلة عندما تبوأ مكانه مرّة أخرى بين فرسان الرومان بعد موكب نصره، فقد سُرت بهذا كثيراً في حين تزايد سخط [سيللاً] وكرهه حين كان يتابع الخطوات السريعة الى السؤدد والمجد التي يخطوها [پومپي] إلاّ انه كان يخجل من العمل على ايقافه واعتراض سبيله، لذلك ظلّ ساكتاً، لكن لمّا نجح [پومپي] في ايصال [ليپيدوس Lepidus] الى منصب القنصلية بالدعاية له واستخدام نفوذه عند الشعب لترويج قضية مرشحه هذا، خلافاً لرغبة [سيللاً] فلم يسعه الاحتمال أكثر من هذا. وشاهده قادماً يتخطر في ابهاء الفورم ووراءه رتل طويل من الأشياع بادره قائلاً:

- الا أيها الفتى، اني أراك فرحاً بما حزته من النصر، إن ايصالك [ليپيدوس] الى القنصلية، وهو أحطّ البشر، أليس هو عملاً كريماً منك حين فضلته على [كاتولوس Catulus] خير الناس واجدرهم به في المدينة؟ وكل ذلك تمّ بفضل قوة تأثيرك على الجمهور. أما وقد حصل، فيحسن بك منذ الآن فصاعداً أن تكون يقظاً، وأن تأخذ الحذر لنفسك وتهتّم بمصالحك، فقد جعلت عدوك أقوى منك.

إلاّ أن ما كشف عن كره [سيللاً] له بصورة تامة، هو وصيته الأخيرة. فقد منح كلّ من أختصّ به ووالاه نصيباً من أمواله، وعين بعضهم اوصياء على ابنه، إلاّ أنه تخطّى [پومپي] ولم يذكره بشيء. ومع هذا فقد تحمل [پومپي] الأمر برحابة صدرٍ، وتسامح حتى أنه حال دون رغبة [ليپيدوس] في حرمان جثمان [سيللا] من التكريم بدفنه في مقبرة العظماء [كامپوس ماريتوس Campus Martius] وتشييعه رسمياً. وابى الاّ أن يقام مأتم وطني رسمي بكل ما يتضمنه من مراسيم وتكريم.

ولم يمرّ طويل وقت على وفاة [سيللاً] حتى تحققت نبوءته. اذ طالب [ليپيدوس] بكلّ ما كان لمنصبه من سلطات وصلاحيات. واصرّ على أن يكون خليفةً له. وفزع الى السلاح مرة أخرى في سبيل غايته، وجمّع من حوله كل ما تبقى من الفئات الخطرة القديمة التي افلتت من

بطش [سيللاً] وكان يزامله في منصب القنصلية [كاتولوس] الذي التفّ حوله الجانب الأكثر حصانة ولاسلم اتجاهاً من مجلس الشيوخ والعامة. فقد بؤاته حكمته وعدالته ارفع مكانة من الاحترام بين الرومان. وكانت مواهبه وكفاءاته في حقل السياسة والشؤون المدينة أكثر ظهوراً في الأمور العسكرية، وحيث كانت الحاجة تتطلب مواهب [پومپي] العسكرية، لم يتردد طويلاً بين الفريقين، وانضّم الى فريق الاشراف بزعامة [كاتولوس] فعين فوراً جنرالاً للجيش، وأمر بقتال [ليپيدوس] وكان هذا قد دوّخ جزءً كبيراً من ايطاليا وسيطر على بلاد الغال جنوب الألب بفضل جيشٍ كان تحت أمرة [بروتوس]. لكن [پومپي] تمكن من اخضاع كل حامياته بسهولة اثناء زحفه. إلاّ مدينة [موتينا Mutina] الغاليّة، فقد استعصت عليه في الحصار الذي ضربه حولها، وأضطر الى البقاء هناك وقتاً طويلاً بمواجهة [بروتوس]. فأنتهز [ليپيدوس] الفرصة وزحف بجموع غفيرة على روما بأقصى سرعة، فبلغها وعسكر امامها وملأ قلوب سكانها رُعباً. إلاّ أن قلق السكان سرعان ما تلاشى بوصول رسائل من [پومپي]. يبشرهم فيها بأنه انهى الحرب بدون قتال وانه سيعود. وحثهم على الوقوف بوجه مطلب [ليپيدوس] في منصب القنصلية. وكان [بروتوس] إمّا قد خان جيشه، وامّا أن جيشه تمرد عليه وخذله، فأثر الاستسلام [لپومپي]. فأمر أن يؤخذ بحراسة كوكبة من الخيالة الى بلدة صغيرة تقع على نهر [البو Po] حيث نفد [جيمينيوس Geminius] أمر [پومپي] فيه وقتله في اليوم التالي لوصوله. وقد آوخذ [پومپي] على فعلته هذه، لأنه كتب الى مجلس الشيوخ في المبدأ بأن [برتوس] استسلم له طائعاً مختاراً. وبعد ان فتك به بعث برسائل أخرى تتضمن اتهامات له. والشيء بالشيء يذكر أن [بروتوس] هذا هو والد [بروتوس] الذي قتل [قيصر] بالتعاون مع [كاسيوس] ولم يبرز [بروتوس] الابن في الحياة العامة وفي الحرب، ولم يشتهر حتى في موته مثله في ذلك مثل [ابيه].

بعد أن تمّ طرد [ليپيدوس] من ايطاليا، هرب الى جزيرة [سردينيا] حيث أعتلت صحته ومات كمداً، لا لنكد حظه في حياته العامة، بل بسبب أكتشافه رسالة اثبتت له أن زوجه لم تكن مخلصةً له.

ولم يبق في الميدان غير [سرتوريوس] يحتل اسپانيا برمتها ويهددّ روما بما وصل اليه من منعةٍ وجبروتٍ. وكان يختلف أختلافاً بينا عن [ليپيدوس]. ولهذا نظر اليه وكأنه المرض الأخير الذي تجمعن كل شرور الحروب الأهلية المبعثرة. لقد وُفق [پومپي] حتى ذلك الحين الى القضاء على القادة الصغار برمتهم. و[سرتوريوس] الآن يناجز الجنرال [ميتللوس پيوس] وهو جندي محنك كفوء ورجل طائر الصيت. وان كان يبدو وقتئذ بطيئاً في نيل الانتصارات

واستعادة المجد القديم الأسعد عن طريق الحرب بسبب تقدمه في السنّ. وكان [سرتوريوس] يمتاز عليه بالسرعة، وهي الميزة التي تمكنه من انتزاع حظوظ الحرب ببراعته في الكرّ والفرّ والتحليق والانقضاض المباغت على غير انتظار، مثل رئيس عصابة قطاع طرق لا كقائد جيش. فتراه ابداً يقلق راحة الجنرال الشيخ بنصب الكمائن له، والتعرض له بمناوشات خفيفة لا يدري كيف يتفاداها لاعتياده الحرب النظامية، وقتال الصفوف المتراصة. في معركة اصولية بجنود كاملي العدّة والسلاح. وكان [پومپي] الذي أبقى جيشه في حالة التهيؤ والاستعداد، متوقعاً أن يُطلب منه نجدة [ميتللوس] ولم يعمل بأمر [كاتالوس] الذي اراد فيه تسريحه. وتوسل [پومپي] بمختلف التعلات والحيل لابقائه بسلاحه، قريباً من المدينة. الى أن ازف الوقت الذي وجد فيه مجلس الشيوخ ان الضرورة تقضي بارساله الى اسپانيا بناء على اقتراح تقدم به [لوشيوس فيليپوس]. وقيل ان أحد اعضاء المجلس نهض للرد على اقتراح [لوشيوس] معبراً عن استغرابه بتساؤله عما اذا كان قصد [فيليپوس] طلب ارسال [پومپي] الى اسپانيا بمنصب [پروقنصل]؟ فأجابه [فيليپوس] كلاً بل بمنصب عدة پروقناصل. حتى لكأن القنصلين الحاكمين في تلك السنة لا فائدة ترجى منهما في رأيه!

ولما وصل [پومپي] اسپانيا، ارتفعت معنويات الجنود وامتلأت صدورهم آمالاً كما هي العادة عند مجيء كل قائد جديد شهير وبدأت تلك الشعوب التي لم يكن تحالفها وثيقاً مع [سرتوريوس]، بالتملص والتمرد عليه. وقام [سرتوريوس] بحملة خطابية ضدّ [پومپي] حفلت بالسخرية منه وبالغرور والتيه، كأن قال مستهزأ انه لا يحتاج لتأديب هذا الصبي الى أكثر من مقرعة وكرباج لو لم يكن يخشى تلك المرأة العجوز - يقصد [ميتيللوس]. على انه في الواقع كان يخشى جانب [پومپي] ويحذر منه، كما بدا من سلوكه في تلك الحرب. اذ لوحظ في هذا الصدد أنه ازداد حذراً وحيطة اضعاف ما كان قبل مجيء [سرتوريوس]. مما لا مشاحة فيه أن [ميتيللوس] قد افرط في الترف والعيش الرغد حتى لم يبق زيادة لمستزيد، فاستسلم للهّو واللذائذ وأنقلب فجأة من رجل معتدل الرغبات مقّل في الشهوات، الى انسان ناعم ولوع بالابهة، لا يشبع من اطايب الحياة. وكان [پومپي] بعكسه تماماً فقد بدأ مثالاً للتقشف والعزوف عن اللهو وكانت الفضيلة طبعاً فيه، لذلك لا يتطلب ممارستها منه جهداً كبيراً وتمريناً لأنه يميل الى الاعتدال ويجانب التطرف في متعه، وهذا الاختلاف الكبير بين الرجلين، هو الذي بنى سمعة [پومپي] وأكسبه الثقة العظمى. وكانت مطالع الوقعات الحربية متراوحة بين الجانبين مرةً لهذا ومرةً لذاك. ولم يتأثر [پومپي] قدر ما تأثر من استيلاء [سرتوريوس] على مدينة [لاورون] فقد ظنّ انه طوق خصمه تماماً تطويقاً محكماً وأخذ يفخر

علنا وجهراً بنوع ما، قائلاً أنه القى الحصار فاذا به يجد نفسه فجأةً وعلى غير انتظار مطوقاً من كل جهة لا يجرؤ على الحركة خطوةً واحدةً خارج معسكره وهكذا اضطر الى البقاء فيه قعيداً. بينما اتمّ [سرتوريوس] الاستيلاء على المدينة واحرقها أمام سمعه وبصره. إلاّ أنه تمكن فيما بعد، من الحاق هزيمة نكراء بكل من [پرپينا] و[هرينّيوس Herennius] وهما قائدان كانا من أولئك اللاجئين الذين هربوا من ايطاليا وانضموا الى [سرتوريوس]، وقد اصبحا مساعدين له وقد قتل في هذه المعركة التي جرت بالقرب من [ڤالنتيا Valentia] عشرة آلاف من جيش [سرتوريوس].

بعد أن ارتفعت معنويات [پومپي] بهذه النتيجة، وأمتلأ ثقة بالنصر، سارع بأقصى ما أمكنه للاشتباك مع [سرتوريوس] بالذات حتى لا يتدخل [ميتللوس] في المعركة وينال نصيباً من شرف النصر. وفي ساعةٍ متأخرةٍ من النهار، وعند مغرب الشمس. التحما في القتال بالقرب من نهر [سوكرو] وكلاهما يخشى قدوم [ميتيللوس]. فپومپي يريد أن يكون منفرداً في القتال وسرتوريوس، لا يرغب في مواجهة جيشين. ولم تكن النتيجة حاسمة. فقد تغلب جناح كل جيش على الجناح الذين يواجهه من الجيش الآخر. غير أن [سرتوريوس] كان له شرف التبريز على خصمه في القيادة، اذ انه صمد في مواضعه وهزم فرقةً كاملةً كانت تهاجمه، في حين ان پومپي كاد يقع هو نفسه أسيراً، اذ انه تعرض لهجمة مقاتل شديد اليأس كان يقاتله راجلاً، (كان پومپي راكباً) وفيما كانا مشتبكين بقتال فرديّ أخذت ضربات سيفيهما تقع على اليدين دون ان ينال واحدهما من الآخر. فقد أصيب [پومپي] بجرح طفيف في يده لا غير في حين انه قطع يد خصمه ومهما يكن من امرٍ فالذي حصل، هو أن الكثير من الرجال بدأوا يسقطون من حوله. وأصيبت قواته في هذا الوضع بالهزيمة، غير أنه تمكن من النجاة بصورة غير متوقعة بأن تخلى عن حصانه ودفع به الى صفوف الاعداء. ولما كانت عُدة الحصان ذهبيّة، وعليه سرجٌ في غاية النفاسة. فقد راح الجنود يتنازعون فيما بينهم عليه. وبينما كانوا منشغلين في توزيع الغنيمة الثمينة، أفلت من قبضتهم.

وفي اولى ساعات الفجر التالي. أخرج كل منهما جيشه ووصعة في خط المعركة. مدعياً النصر لنفسه. الاّ أن [ميتيللوس] ظهر على رأس جيشه. فما لبث [سرتوريوس] أن تلاشى كان الأرض ابتلعته فقد فرق وحدات جيشه وانسحب بغاية السرعة. اذ كانت هذه ستراتيجية وطريقته في تحشيد جيوشه ثم تسريحها. فيُرى مرة متجولاً هنا وهناك وحيداً ليس معه تابع، ويرى مرة أخرى يزحف الى المعركة ويزجّ في ساحتها ما لايقل عن مائة وخمسين الف محارب، وما هي غمضة عين حتى يختفى كما يختفي مسيل ماءٍ في الشتاء.

وسار [پومپي] بعد المعركة للقاء [ميتيللوس] والترحيب به. ولما دنا أحدهما من الآخر، أمر [پومپي] حرسه الخاص بخفض فوؤسهم تكريماً [لميتيللوس] بوصفه رئيسه وأقدم منه. إلاّ ان [ميتيللوس] ابى ذلك. وابدى لپومپي كل لطف، وكان سلوكه بصورة عامة نحوه، في غاية من الرقة والمجاملة. ولم يطلب لنفسه امتيازاً واحتراماً بسبب منصبه القنصليّ أو لكونه القائد الأقدم، إلاّ شيئاً واحداً. وهو أن كلمة السرِّ يجب أن تخرج منه للمعسكرين عندما يضرب كل منهما معسكره. وقد فعلا ذلك وضرب كل منهما خيامه على حدة بسبب تهديد العدوّ الذي كان يتخذ في تحركاته كل شكلٍ متصور. ولا يستقر في مكان فهو دائب الحركة يبدو في امكنة مختلفة في آن واحدٍ تقريباً ويعمد الى الحيل البارعة والمناورات بحيث منعهما عن السلب واجتياح البلاد، وحقق سيطرته التامة على البحار. وتمكن من طردهم خارج كل الاقاليم الاسپانية الداخلة ضمن نفوذه وسلطانه، وارغمهما بسبب شحّ الارزاق الضرورية على الانسحاب الى مناطق غريبة عنهما.

بعد ان استخدم [پومپي] الجزء الأكبر من وارداته الخاصة وانفقها على الحرب. ارسل الى مجلس الشيوخ يطلب اموالاً ويزيد قائلاً أنه سيضطر الى سحب كل جيشه من اسپانيا والعودة به الى ايطاليا في حالة عدم تحقيق طلبه. وكان [لوكوللوس] في ذلك الحين قنصلاً وهو على خلافٍ مع [پومپي]، إلاّ أنه سارع بتأمين وصول الارزاق اليه. لأنه كان هو نفسه مرشحاً لتولي القيادة في الشرق بمواجهة [ميثريداتس] وكان يخشى ان يتذرع [پومپي] بحجة نضوب ارزاقه للعودة الى روما، والمطالبة بالقيادة الشرقية التي كان كثير الرغبة فيها، ولطالما اعرب عن رأيه في ترك [سرتوريوس] وشأنه وشن الحرب على [ميثريداتس] وهي حرب تشير كل البوادر الى انها أعلى شرفاً واقل خطراً. وفي اثناء ذلك أغتيل [سرتوريوس] بمؤامرة دبرها بعض اتباعه المقربين. وتسلّم [پرپينا] زعيمهم، القيادة العامة وحاول مواصلة الحركات العسكرية التي بدأها [سرتوريوس] وكان تحت تصرفه عين القوات وعين الوسائل الاّ أنه كان يفتقر الى براعته وحنكته. ولذلك زحف [پومپي] نحوه مباشرة وكان هذا يعاني اضطراباً في أموره ويخبط خبط عشواء. فوضع له طعماً لاستدراجه، بان أرسل قطعة من الجيش تتألف من عشر كتائب الى ارضٍ سهلةٍ وأمرهم بأن يتقدموا ويتأخروا ويعرضوا أنفسهم لأعين العدو، ويكشفوا عن ضعفهم، وهكذا ابتلع [پرپينا] الطعم، وما أن تحول نحو هذه الفريسة وجدّ في مطاردتها حتى لاح له [پومپي] فجأة، بكلّ قواته وأشتبك معه في معركة عقد له فيها لواء نصر حاسم. وقتل معظم ضباط [پرپينا] في ساحة المعركة ووقع هو في الاسر، فجيء به الى [پومپي] فأمر به فقتل في الحال. و[پومپي] لا يوأخذ على هذا بالجحود

كما لايمكن أن يقع مرة ثانية في غفلة. اذ سبق أن جرى له ذلك في صقلية وتعرض للاتهام من قبل بعض الفئات. على انه كان يهتدي في الحقيقة بسياسةٍ حصيفة، وكان يعمل وفق رأي مدروس يستهدف سلامة بلاده، [فيرپينا] الذي كان يحتفظ بكل اوراق [سرتوريوس] عرض ان يدفع الى [پومپي] بعدد من رسائل أعاظم رجال روما، ممن كانوا قد كتبوا الى [سرتوريوس] يدعونه الى ايطاليا لرغبتهم في أحداث تغيير وانقلاب في الحكم. لئلا يكون انفضاح هذه الرسائل سبباً في نشوب حروب أشدّ ضراوة من تلك التي خُتمت الآن. وجد من الأفضل أن يقتل [پرپينا] ويحرق الرسائل دون أن يقرأها فيدفن السرّ معه.

وبقي [پومپي] في اسپانيا بعد انتهاء الحرب، الوقت الذي كان ضرورياً لازالة آثار الفوضى والاضطراب في الاقليم وتوطيد الحكومة على أساس من الاستقرار والطمأنينة واخماد الفتن العنيفة والقلاقل، فقفل راجعاً الى ايطاليا بكلّ جيشه. وشاءت الصدف ان يصلها وقت كانت البلاد في أوج القلق من حروب العبيد التي بلغت ذروتها. وبوصوله قرر [كراسوس] القائد الذي كان يدير تلك الحرب أن يطوّح بنفسه في معركة محفوفة بالمخاطر غامضة النتائج. وامكنه أن يحرز نجاحاً عظيماً وفتك بأثني عشر ألفاً وثلاثمائة متمرد في ساحة القتال. إلاّ أنه لم يكن على قدر كبير من السرعة للاستئثار بكلّ الشرف. فان الحظ أدخّر [لپومپي] نصيباً من شرف النصر في هذه الحروب فقد وقع في يده الخمسة آلاف منهم الذين نجوا في المعركة، فأبادهم عن بكرة أبيهم. وسارع يكتب الى مجلس الشيوخ قائلاً: «ان [كراسسّوس] هزم العبيد في المعركة، أمّا هو فقد استأصل حرب العبيد من جذورها». وقد رحبت روما بهذه المقولة. وكان من المحبب ان تسمع ومن المحبب أن تقال. والمسألة كلها كانت متوقعة من الحبّ الذي يكنّه الشعب له والنظرة التقديرية التي ينظره بها. على انه ما كان أحد يستطيع أن يعزو شرف الغلبة في الحرب الاسپانية الى اي احدٍ آخر غيره ولو على سبيل المزاح. ومع هذا كله، فهذا التقدير الكبير وتلك الرغبة الشديدة في عودته الى الوطن، كانت مشوبةً ببعض القلق والشك منه لأنه لم يقم بتسريح جيشه ولأن ذلك قد يحمله الى سلوك سبيله نحو السلطة العليا والكرسي الذي كان يحتله [سيللا] بالقوة، وعن طريق السلاح. لذلك فان العدد الذي خرج الى ظاهر المدينة لاستقباله وتهنئته على العودة بدافع الحبّ الخالص له، كان مساوياً للعدد الذي خرج لاستقباله بدافع الخوف والرهبة. لكن [پومپي] ازال أسباب القلق والشك باعلانه فور وصوله، بأنه لن يبقي على الجيش وسيسرّحه بعد دخوله في موكب نصر. ولم يبق لأولئك الذين يبغضونه ويحسدونه من أسباب شكوى بعد هذا، سوى قولهم أنه يرمي من وراء ذلك الى كسب الحظوة والشعبية لدى الجماهير والنزول الى رغائب العامة أكثر

من كسبه جانب الاشراف. وانه اعاد أحياء مناصب تريبيونات الشعب، التي الغاها [سيللا] متوخياً رضا العامة عليه. وهذا هو الواقع فعلاً، فلم يكن ثم شيء أحبّ الى أهالي روما وأرغب أكثر من أعادة هذا المنصب وقد عَدّ [پومپي] نفسه محظوظاً للغاية لوجود هذه الفرصة للتقرب به من العامة، بعد ان ادركته الحيرة واليأس من الوصول الى وسيلة كفيلة بالتعبير عن امتنانه لما حباه به الشعب والخيبة لئلا يسبقه أحد آخر الى هذه المكرمة.

ومع منحه موكب نصرٍ ثانٍ وانتخابه قنصلاً. وما الى ذلك من الدلائل على سلطته ومجده، فليس بين هذه الدلائل ما بلغ شاؤ دليل آخر، وهو تقدّمه على [كراسوس] نفسه الذي كان أغنى من كل رجال الحكم في عهده، بل أعظمهم مقاماً وافصحهم لساناً واقواهم عارضة، قليل الاحتفال [بپومپي] نفسه، وبكلّ الرجال البارزين الأدنى منه. هذا الرجل لم يتجاسر على الظهور مرشحاً لمنصب القنصل قبل مفاتحة [پومپي] ومشاورته في الأمر، ولم يسع [پومپي] إلاّ ان يهتبل الفرصة والترحيب بالطلب لأنه كان يصبو منذ أمدٍ بعيد أن يَمنّ على [كراسوس] بفضل، وبمسعى من مساعي الصداقة. وأخذ يعمل لترويج ترشيح [كراسوس] ويحث الشعب على انتخابه بجمية واخلاص قائلاً للناخبين أن فضلهم عليه اذا انتخبوا [كراسوس] زميلاً له لن يقلّ باية حال عن فضلهم عليه عندما أختاروه هو نفسه قنصلاً. وهكذا أصبحا قنصلين، إلا انهما كانا دائماً على طرفي نقيض يعارض أحدهما الآخر بعد كل ما جرى من تعاون اثناء الترشيح. وكانت [لكراسوس] اليد الطولي والأمر النافذ في مجلس الشيوخ. في حين ان سلطان [پومپي] لم يكن بأقل منه عند العامة. لأنه هو الذي أعاد اليهم منصب [التريبيون] وسمح باعادة جهاز القضاء المدني الى ايدي الفرسان الرومان كما كان بيدهم في السابق، بسنّه قانوناً جديداً، ثم اتحفهم هو نفسه بمشهدٍ من أعظم المشاهد تعبيراً عن الامتنان حين ظهر علناً أمام الحكام ملتمساً الأمر بتسريحه من الخدمة العسكرية اذ ان هناك عادة قديمة عند الرومان وهي أنه عندما يكمل الفرسان الرومان المدة المقررة للخدمة العسكرية ينبغي لهم أن يقودوا خيولهم الى الساحة العامة، امام موظفين عموميين كل منهما برتبة [سنصور]. ويقدموا لهما تقريراً باسماء القادة والجنرالات الذين خدموا تحت أمرتهم. واسماء البلدان التي خدموا فيها، والمعارك التي خاضوها. ثم يتم تسريح كل شخص إمّا تسريحاً مشرفاً وإمّا تسريحاً مشيناً حسبما تستأهل خدمته وكان كل من السنصور [جيليوس Geli-us] والنسطور [لونتولوس Luntulus] يتصدران مجلس الحكم يفحصان قضايا الفرسان الذين كانوا يمرون في صفٍ متتابع امامهما حين شوهد [پومپي] يقبل الى الفورم وعليه كل شارات القنصل ورتبه، إلاّ أنه كان يقود حصانه بيده. وعندما بلغ منصة الحكم طلب من حرسه

[اللكتور] أن يتنحى عن الطريق، ثم قاد حصانه اليهما وكان الجمهور طوال ذلك المشهد مصاباً بذهولٍ تام. يسوده صمت مطبق. وكذلك كان السنصوران أيضاً، ينظران الى المشهد بمزيج من الاجلال والامتنان. وبدأ السنصور الأقدم باستجواب پومپي قائلاً:

- پومپيوس ماگنوس! أطلب أن تجيبني عما اذا كنت قد اكملت مدة الخدمة العسكرية في ميادين الحرب، بحسب ما يفرضه عليك القانون.

فأجاب [پومپي] بصوت مرتفع:

- أجل أكملتها وقد خدمتها كلها تحت بوصفي جنرالاً.

وما أن سمع الجمهور جوابه حتى أطلق صيحة عظيمة، وأخذت هتافات السرور يتصاعد داوية حتى أصبح من المتعذر اسكاتها ونهض [السنصوران] من مجلس الحكم ورافقاه الى منزله ارضاءً للجماهير الذين تبعوهم، وهم يصفقون ويهتفون.

وشارفت مدة [پومپي] في القنصلية على الانتهاء الاّ أن خلافاته مع [كراسوس] كانت في ازدياد. واذ ذاك قام المدعو [كايوس اوريليوس] وهو فارس ظلّ معتزلاً عزوفاً عن السياسة والحكم طوال حياته وأعتلى المنبر وتوجه بالخطاب الى المجتمعين قائلاً: ان [جوپتر] قد ظهر له في الحلم وأمره أن يطلب من القنصلين بأن لا يخليا منصبيهما إلاّ بعد ان يتصافيا. وعلى اثر قوله هذا، لم يبدر شيء من [پومپي] وظلّ صامتاً، الاّ ان [كراسوس] قبض على يد پومپي وتكلم بالآتي:

- ما اراني أيها الأخوة المواطنون، سأفعل شيئاً دنيئاً أو سأقدم على عملٍ لا يشرفني، ان كنت البادئ في المصالحة مع [پومپي] الذي كان من دواعي سروركم أن تشرفوه بلقب «الأعظم» ولم تكد تنبت شعرة واحدة في وجهه، ومنحتموه شرف موكبين من مواكب النصر قبل ان يحرز مقعداً في مجلس الشيوخ.

وبهذا تصالحا وتصافيا، ثم نزلا عن منصبيهما. وعاد [كراسوس] يواصل أسلوب الحياة الذي أعتاده من الأول. أمّا [پومپي فلأسباب تخرج عن حدود المناقشة عموماً، امسك عن الظهور الى جهة دون أخرى، وأخذ ينسحب شيئاً فشيئاً من الفورم وكان يحتجب تماماً عن البروز الى الجمهور، وان فعل ذلك في مناسبات نادرة فبرفقة بطانة كثيرة العدد تسير وراءه. كما لم يكن من السهل مقابلته أو زيارته بدون أن يرى محاطاً بالعديد من الناس. وكان يُسرّ كثيراً اذا ظهر أمام الجموع من الناس كتلةً واحدة، كانه يريد بهذه الوسيلة الابقاء على هيبته ومكانته أو كأنما يريد أن تظلّ نفسه حريصة في المحافظة على جلاله من أن تتماسّ مع

احاديث العامة ومناقشاتهم. ولا شك في أن الحياة المكتسبة برداء السلم، لكفيلة بطمس شهرة المرء الذي بنى شهرته وعظمته بالسلاح. وهؤلاء عادة يجدون صعوبة كبيرة في تكييف انفسهم الى جوّ الحياة المدينة المشبع بالسلْم والدعة والمساواة المدنية. انهم بطبيعة الحال يتوقعون أن يعاملوا في المدينة معاملة السادة الاوائل كما أعتادوا أن يُعاملوا في معسكراتهم. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فان أولئك الذين لم يبرزوا في الحرب ولم يكونوا فيها شيئاً مذكوراً، لايحتملون قط المنافسة في الحياة المدنية ويعملون جادين على أن يتولوا فيها زمام الأمور. ومهما يكن من أمرٍ، فعندما ينقلب المحارب ذو الانتصارات الرائعة والوقائع العظيمة الى رجل مدنيّ ويدخل الفورم لممارسة السياسة والقانون فان زملاءه المدنيين هناك سيحاولون بأقصى ما في طوقهم تجميده، حجبه عن الانظار. أمّا لو أنسحب من الحياة المدنية وتقاعد فلن يتعرضوا لشرفه العسكري ولن ينالوا من مقامه بحسدهم. وقد برهنت الأحداث على صحة هذا القول بعد زمن يسير.

بدأت شوكة القراصنة في [كيليكيا] أولاً بدايةً ضعيفة بحيث لم يشعر بها أحدٌ، إلاّ ان الروح والحياة والقوة لبثت أن سرت فيها اثناء حروب [ميثيريداتس] فقد أجروا أنفسهم له والتحقوا بخدمته. وقويت شوكتهم بحروب الرومان الأهلية. اذ انشغل هؤلاء بالتطاحن فيما بينهم حتى على أبواب روما نفسها، وتركت البحار دون حراسة فأخذ هؤلاء القراصنة يزحفون اليها ويسيطرون عليها دون يعترض سبيلهم أحد بالتدريج حتى دانت لهم. وراحوا يستولون على السفن ويقبضون على التجار ويسلبونهم في عرض البحر. وعادوا في جسارتهم فاغاروا على الجزر والموانيء والثغور فاغروا بمشاركتهم اناساً أشتهروا بالغنى والنبل والكفاءات العظيمة. حتى لكأن التبريز في هذه المهنة هو مما يليق ويجمل بالانسان السعي له. وانشاؤا لأنفسهم عدداً كبيراً الاوكار والمستودعات، أو ما يسمى بموانيء القراصنة، الى ابراج مراقبة، وفنائر على طول السواحل، لاستقبال الاساطيل وتزويدها بأبرع البحارة، وأكثر الملاحين خبرة واطلاعاً. بناء اسرع السفن واخفها جرماً مما يصلح لأعمالهم. ولم يكن استحفال أمرهم وتعاظم خطرهم بأكثر اثارة للسخط والكراهية، من اغترارهم بقوتهم، فقد كانت خيلاؤهم ومباهاتهم أدعى لبعضهم من الخوف منهم، فقد أثبتوا في مقدمة سفنهم صواري مطلية بالذهب ورفعوا عليها قلوعاً من نسيج الارجوان وصفحوا مجاذيفها برقائق الفضة. حتى لكأن مصدر لذتهم ولهوهم هو التمادي في الظلم وارتكاب الآثام. وكان ديدنهم اقامة حفلات الغناء والرقص والولائم، والقصف على طول الساحل. وكانوا يأسرون القادة، ويفرضون الأتاوات على المدن، فيلحقون بشرف السيادة الرومانية العار، ويمرغون سمعتها في التراب. وقُدّر ما

يملك هؤلاء القراصنته من السفن بألف، كما بلغ عدد ما سيطروا عليه من المدن اربعمائة تقريباً. ولطالما ارتكبوا فيها المحرمات، ودنسوا معابد الآلهة، وأثروا من كنوزها، وأكثرها مما لم يجرؤ أحدٌ على تدنيسها من قبل كما فعلوا في معابد [كلاروس Glaros] ، و[ديديما Did-yma] ، و[ساموثراقيا Samothrace] ، ومعبد [الأرض] في [هرميون Hermione] ، ومعبد [ايسكولابيوس Aesculapius] في [ابيداورس Epidaurus] ومعابد [نبتون] في [المضايق Isthmus] وفي [تيناروس Tænarus] وفي [كالاوريا Calauria] ومعابد [ابوللو] في [اكستيوم Actium] و[ليوكاس Leucas] ومعابد [جونو] في [ساموس] و[ارغوس] و[لاچينيوم Lacinium] . وكانوا هم أنفسهم يقربون قرابين غريبة في [اوليمپس] ، ويؤدون طقوساً غامضة معينة أو مراسيم دينية سريّة، مما لايزال اصحاب دين [ميثرا Mithras] يتبعونه الى يومنا هذا، وقد أخذوه عنهم بدون شك.

والى جانب هذا الجبروت والطغيان الذي مارسوه في البحار، كانوا لا يتورعون عن تحقير الرومان واذلالهم في البرّ. فقد يتوغلون داخل البلاد ويهددون الطرق العامة، فينهبون الرومان ويدمرون بيوتهم الريفية. ومرّة القوا القبض على الپريتورين الرومانيين [سكستيليوس Sex-tilius] و[بللينوس Bellinus] وكلاهما متوشح بالرداء الأرجواني واخذوهما مع ضباطهما وليكتورهما كما خطفوا أيضاً بنت [انطونيوس] الذي منح شرف موكب نصر، اثناء خروجها في رحلة الى الريف، ولم يطلق سراحها إلاّ بفدية كبيرة. وأعظم اهانة أعتادوا أن يوجهوها الى الرومان عندما يعلن الأسير بأنه مواطن روماني، فينظاهرون بالوهشة الكاذبة ويفتعلون الخوف والرهبة ويضربون ايديهم على أفخاذهم، يركعون تحت قدمي الأسير متوسلين بكل ذلة وخضوع ان يتكرم بالصفح عنهم.

وما ان يرى هؤلاء الأسرى المساكين هذا التذلّل والخضوع المزيف حتى يتوهموا بأنه حقيقي، ويشرع بعضهم بوضع حذاء روماني في قدم الأسير، ويكسوه رداءً رومانياً، حتى لا يخطئوا في هويته! كما يزعمون له. وبعد كل هذه الأبهة الزائفة، وعندما يستوفون حظهم من السخرية به والتمويه عليه، ينزلون سلماً من سفينتهم وهي في عرض البحر ثم يقولون للأسير: انه الآن مطلق السراح وله أن يذهب حيثما شاء ويتمنون له سفرة سعيدة. فاذا قاومهم أمسكوا به وقذفوا به قسراً الى امواج البحر فيغرق. وهكذا اتسعت سلطة القراصنة فشملت كل البحر الابيض المتوسط ولم يعد ثم مجال للملاحة والتجارة. وهذا مما الجأ الرومان كافة الى ارسال [پومپي] في مهمة تطهير البحار منهم وإعادة سلطتهم عليها بعد أن ضاقت بهم الحال وبارت تجارتهم وكسدت اسواقهم، وأصبحوا على شفا المجاعة والقحط كافةً. وأقترح [گابينيوس

Gabinius] وهو من اصدقاء [پومپي] سن قانون يخول به السلطان المطلق على البحار كأمير الاسطول، والحاكم المطلق المتفرد على الناس جميعاً بعبارة صريحة ونص واضح المدلول حيث جاء فيه أنه يعطى الحكم المطلق على كل البحار التي هي ضمن أعمدة هرقل. (جبل طارق) وكل الاراضي التي تقع على سواحلها الى عمق اربعمائة فرلنغ الى الداخل. وبذلك لا يعود في الامبراطورية الرومانية، ما هو خارج عن دائرة حكم [پومپي] الاّ القليل. في حين كانت أعظم الممالك وأشهر الملوك ضمن تلك الحدود وخول بموجب هذا القانون حق اختيار خمسة عشر مساعداً من أعضاء مجلس الشيوخ وان يسند الى كلٍ منهم الحكم في الاقليم الذي يخصصّه له. كما خوّل أن يسحب من الخزانة العامة ويجبى من الأراضي الزراعية الخاضعة للضريبة اي مبلغ يشاء. وأعطي مائتا سفينة حربية، مع صلاحية تجنيد واستخدام ايّ عدد من الجنود والبحارة يراه مناسباً ولما قرئت هذه اللائحة ايدها العامة تأييداً مطلقاً. إلا أن الاشراف والوجهاء وذوى المراكز في الدولة من أعضاء مجلس الشيوخ وجدوا في القانون صلاحيات واسعة خليقة باثارة مخاوفهم، لو غضضا الطرف عن شعور الحسد منها. وقرّ رأيهم على أن هذه السلطة التي لا حدود لها، خطرةٌ جداً. واتفقت كلمتهم جميعاً على معارضة اللائحة وصوتوا كلهم ضدّها، باستثناء قيصر الذي أقرّها وأعطى صوته للقانون المقترح لا لأجل ان يحسن في عين [پومپي] بل لأجل نيل الخطوة عند العامة الذين طالما خطب ودّهم في السرّ، مؤملاً أن يستأثر به لنفسه. وندد باقي الاعضاء [بپومپي] وهاجموه هجوم عنيفاً. حتى أن أحد القناصل وجه اليه الكلام قائلاً: إن كنت تطمح الى مركز روملوس، فإنك لملاق مصيره على أغلب الاحتمال.» فهم به الشعب وكاد يمزقه ارباً لأقواله هذه. إلا أن الجمهور سكت واصغى احتراماً عندما نهض [كاتولوس] للكلام ضدّ اللائحة. وبعد أن افاض في مدح [پومپي] مستخدماً انبل عبارة والطفها، راح ينصح العامة نصحاً لطيفاً بأن تعفي [پومپي] عن هذه المهمة، وان لا يعرضوا رجلاً في مثل كفاءته للاخطار والحروب وختم كلامه قائلاً: «فمن اين ستأتون عندئذ [بپومپي] آخر، ومن سيكون في عونكم اذا خسرتموه؟» فصرخوا جميعاً بصوت واحدٍ «أنت!» فكفّ [كاتولوس] عن الكلام عندما وجد كلامه لايجدي نفعاً. وحاول [روسكيوس Roscius] الكلام الاّ أن الضجة أكتنفته ولم يلق لكلامه اذناً صاغية، فأخذ يعمل باصابعه حركات في الهواء تفيد عبارة «ليس هو وحده» وأنمّا قد يوجد هناك پومپي ثان، أو زميل آخر له يشاركه السلطة، ويقال أن الجمهور أطلق صيحة عظيمة عند هذا، بحيث أن غراباً كان يطير فوق الساحة العامة هوى في الحال بين الجموع كأنما أصيب بصاعقة ومن هنا يبدو ان سبب سقوط الطيور اثناء تحليقها، ليس مبعثه انشقاق، أو صدع

في الهواء يحدث فراغاً، بل هو صدمة ذبذبات الصوت اذا خرج بعنف ومن جماعة كبيرة، فانه يحدث نوعاً من العصف والهزيم يرتفع في طبقات الهواء العليا.

وانفض الاجتماع في ذلك اليوم دون ان يسفر عن نتيجة وعندما ازف يوم الاقتراع على القانون ترك [پومپي] روما خلسةً الى الريف. وبسماعه أن اللائحة صدقت وفازت قفل عائداً الى المدينة تجنباً للغيرة التي يثيرها تجمهر الناس لاستقباله مهنئين. وفي صبيحة اليوم التالي لقدومه، خرج وقدم القرابين للآلهة، وحفر اجتماعاً. وهنا عالج المسألة ببراعة وحنكة، حتى حملهم على توسيع سلطته باضافة الكثير على ما خولوه من قبل. فضاعفوا تقريباً مقدار التجهيزات والمعدات المقررة له، وبذلك تمّ امداده بخمسمائة سفينة وأبلغ الجيش الى مائة وعشرين ألفاً من الرّجالة وخمسة آلاف من الخيالة. وأبلغ عدد مساعديه العسكريين الى اربعة وعشرين جنرالاً سابقاً من أعضاء مجلس الشيوخ الحاليين، وزيدوا [كويستورين] أثنين. وقد شاءت الصدف ان يطرأ انخفاض كبير الى اسعار الحاجات الضرورية. مما جعل الجمهور المستبشر يقول أن مجرد اسم [پومپي] كفل وضع نهاية للحرب. ومهما يكن من أمر فانه باشر فوراً بتنفيذ ما أوكل به فقسم البحار كلها ومناطق البحر المتوسط كافة الى ثلاثة عشر قسماً وخصص لكلّ قسم قوة من جيشه تحت قيادة واحد من ضباطه المساعدين وهكذا أنتشرت قطعاته في كلّ جزء وأكمل تطويق القراصنة في كلّ موضع وبدأوا يقعون في ايديه أفواجاً وزرافات فيأتي بهم الى الموانيء. على أن بعضهم أفلت من قبضة في الوقت المناسب ونجا من مطاردته الشاملة، وقصدت جماعات منهم [كيليكيا] حيث أخفوا أنفسهم كما يخفي النحل نفسه في خلاياه. فأنطلق [پومپي] بشخصه نحوهم بافضل ستين بارجة عنده حال اتمامه تطهير وتمشيط كل البحار القريبة من روما والبحر التيراني [Tyrrhenian](١) والبحر الافريقي وكل مياه سردينيا وكورسكا وصقلية. كل هذا انجزه في اربعين يوماً، بفضل همته التي لا تعرف الكلل وبمثابرة مساعديه.

ولقي [پومپي] عراقيل في روما بسبب خبث نوايا القنصل [پيزو Piso] وسوء طويته. فقد عوق أعماله بحبس الارزاق عنه وتسريح بحارته. فلم يكن منه الاّ ان كرّ عائداً باسطوله، وارسى في [برنديزيوم] ثم نزل هو نفسه البرّ وتوجه الى روما باقرب الطرق البرية: توسكاني. وما أن انتشر نبأ قدومه بين الأهالي، حتى خرجوا بجموع غفيرة لاستقباله في الطريق، كأنهم لم يودّعوه قبل ايام قلائل وكان سبب ثورة فرحهم الرئيس، هو التحول المفاجيء غير المنتظر في أسعار المواد المعاشية، فقد باتت وفيرةً بصورة لا مثيل لها، وبهذا استهدف القنصل

(١) هو جزء من البحر الابيض المتوسط يقع بين ساحل ايطاليا الغربي وسردينيا وكورسيكا وصقلية [م].

[پيزو] الى خطر تنحيته من منصبه القنصلي وكان [گابينيوس] قد أعدّ لائحة قانونٍ لخلعه الاّ ان [پومپي] حال دون ذلك فبلغ بذلك من حسن التصرف وبعد النظر الغاية القصوى، كما كان ديدنه في معالجة مختلف الشؤون الأخرى. وبعد أن اطمأن الى كل شيء، وازال كل عقبة، قفل راجعاً الى [برنديزيوم] ومنها أقلع لمطاردة بقية القراصنة. ولم يشأ أن يمر بمدينة آثينا دون الوقوف فيها لتحية الآلهة مع ان كثيراً من الصعاب أكتنفته وارغمته وهو في عجلة من أمره أن يمرّ بالعديد من المدن ولا يرسي فيها. فنزل برّها وضحّى للآلهة ثم خطب في الجمهور المحتشد عند عودته الى المدينة. وقرأ على مدخلها كتابتين منقوشتين:

الأولى من الداخل وهذه هي: «ان تواضعك يزيد من ألوهتيك».

والثانية من الخارج وهي: «نستودعك الله نحن الذين رحبنا بمقدمك»

وعامل [پومپي] فريقاً من القراصنة معاملة رحيمة، وهم أولئك الذين ظلوا هائمين جماعاتٍ وشراذم في ارجاء البحار. فقد عرضوا ان يستسلموا له ويقبلوا بحكمه، فأستولى على سفنهم وقبض على اشخاصهم فقط ووقف عند هذا الحدّ ولم يتخذ بحقهم اجراءات قاسية أخرى. ما لبثت هذه المعاملة الرفيقة أن أغرت رفاقهم الآخرين الذين كانوا تحت طائلة تعقيب قواده، فأتوه طائعين مستسلمين مع زوجاتهم وأطفالهم ووضعوا أنفسهم في حماه، فلم يبخل عليهم بالعفو. وجعل بابه مفتوحاً لكلّ من يقبل اليه، ومتوخياً أكتشاف أولئك الذين هربوا من امامه وخرجوا عن دائرة يد عدالته مدركاً بانهم ما فعلوا ذلك إلاّ لأنّ جرائمهم مما لايمكن الاغضاء عنه. وانتقل الجزء الاعظم والأكثر خطراً منهم، بأهلهم وأموالهم وذويهم ممن لا يصلح للحرب الى قلاع وحصون منيعة ومعاقل عاصية قريبة من جبال طوروس. واما هم انفسهم فقد ملأوا سفنهم بالمقاتلين واقلعوا الى [قوراقيسيوم Coracesium] في [كليكيا] حيث تصدوا [لپومپي] وخاضوا معه معركة وهناك اصيبوا باندحارهم النهائي وانسحبوا الى البرّ حيث حوصروا، وضيق عليهم الخناق فلم يروا بُداً من طلب الخضوع والطاعة بواسطة رسل بعثوا بهم اليه. ووضعوا انفسهم تحت رحمته مع مدنهم وحصونهم وقلاعهم، تلك التي كانوا قد بذلوا أقصى جهودهم في تحكيمها بحيث صارت أمنع من عقاب الجوّ، واصعب اقتحاماً.

وبهذا انتهت الحرب وتلاشت كُلّ قوة للقراصنة في كلّ طرف من أطراف البحر خلال فترة ثلاثة أشهر فحسب تمكن فيها من أسر عدد عظيم من السفن بينهما تسعون بارجة حربية كل منها ذات قيدوم من النحاس الأصفر، ووقع في يده من أسرى الحرب ما لايقل عن عشرين ألفاً. وبخصوص معالجة أمر هؤلاء الأسرى، فانه لم يفكر قطّ بقتلهم وهي عقوبة رادعة خطيرة. إلاّ أنه عمد الى اجراءٍ آخر لا يقل أثراً ونجاعة أعني تشتيت شملهم في البلاد وخوفاً

من احتمال اعادة لم شعثهم ورجوع سلطتهم لكثرة عددهم ولخبرتهم في فنون القتال ولفقرهم فقد وازن قضيتهم على أساس ان الانسان لم يولد مخلوقاً متوحشاً غير مدني بطبعه، انمّا يجعل من نفسه ما هو منطور عليه، لا بممارسة أعمال الشر وهو من الجهة الأخرى حضري ويمكن نقله من حالة البداوة والخشونة الى حالة المدنيّة والرقة بتغيير مسكنه مثلاً أو مهنته أو طراز حياته. كالضواري التي خلقت وحشية، انها لتنقلب أليفةً مدجنة بالمعاملة الرقيقة وبتربيتها في البيوت. وعلى هذا الأساس واهتداءً بهذه الفكرة، قرر [پومپي] تطوير حياة هؤلاء ينقلها من البحر الى البرّ وافسح لهم المجال لتذوق حياة طاهرة نزيهة عن طريق العيش في المدن واستثمار الأرض بزراعتها. فأسكن طائفة منهم في مدن الكليكيين الصغيرة، نصف المأهولة وكان هؤلاء يرغبون في مساكنتهم للاستعانة بهم على توسيع تخومهم وأسكن قسماً آخر منهم في مدينة [الصوليين Solians] احتاجها [ديكران] ملك الأرمن مؤخراً، ثم عاد اليها سكانها. على ان معظم القراصنة استواطن [ديما Dyma] المدينة الآخائية وكانت نصف مأهولة. وتمّ تمليكهم مساحات شاسعة من الأرض الخصبة.

على أن هذه الأعمال والاجراءات لم تمرّ دون اثارة حسد واحقاد اعدائه؛ وكان الأسلوب الذي اتبعه حيال [ميتيللوس] قد وضعه موضع نقدٍ شديدٍ حتى من جانب ابرز اصدقائه وكان [ميتيللوس] هذا من أسرة زميل [پومپي] في اسبانيا ارسل الى جزيرة كريت بمنصب [پريتور] قبل دخول هذا الاقليم البحري ضمن [پومپي] وكانت [كريت] أنذاك وكر القراصنة الثاني بعد [كيليكا] وكان [ميتيللوس] قد حاصر جماعاتٍ ومنهم في معاقلهم وباشر باخضاعهم واستئصال شأفتهم. فبعث المحصورون من بينهم رُسلاً الى [پومپي] يعرضون الاستسلام والخضوع ويطلبون مقدمه الى الجزيرة، قائلين انها جزءٌ من منطقة نفوذه لوقوعها برمتها ضمن المسافة التي حددت لممارسة نشاطه. فما تسلّم عروضهم حتى بعث يطلب من [ميتيللوس] وقف الحرب. وبعث برسائل أخرى مماثلة الى المدن يطلب فيها أن لا تتصل [بميتيللوس] ولا تعترف بسلطانه. ثم ارسل [لوشيوس اوكتاڤيوس] أحد مساعديه وهو برتبة جنرال الى الجزيرة فدخل الاستحكامات المطوقةوأخذ يقاتل دفاعاً عن القراصنة. فجعل نفسه في موضع استنكار وبغض فضلاً عن صيرورته موضع سخرية، لأنه استخدم اسمه بمثابة حارسٍ وحام لوكر لصوصٍ لايعرفون ديناً ولا قانوناً. واتخذ من سمعته ونفوذه ستار حماية لهم، كلّ ذلك لشعوره بالغيرة والحسد من [ميتيللوس] ليس إلاّ. إن [آخيل] في رأي الأغلبية لم يتصرف تصرف الرجال وانمّا تصرف الصبيان المفتونين بالمجد لمّا منع باشارة منه، بقية الأغريق من توجيه ضرباتهم الى [هكتور Hector]:

«لئلا تقوم يدٌ أخرى غير يده بتوجيه الضربة. فيخسر هو شرف النصر الأوليّ».

وكذلك كانت الحال [بپومپي] فقد وصل الأمر به الى حَدّ حماية اعداء الأمم كافةً، لا لشيء الاّ ليحرم [پريتوراً] رومانياً شرف موكب نصرٍ بعد ما بذل من جهود وقاسى من متاعب. لكن عزيمة [ميتيللوس] لم تثبط وواصل الحرب ضدّ القراصنة واخرجهم من معاقلهم وانزل بهم العقاب، وطرد [اكتاڤيوس] طرداً مشيناً، فخرج مشيعاً باستنكار كل المعسكر.

وبوصول انباء انتهاء حرب القراصنة، الى روما، وان [پومپي] لا عمل لديه وانه ينفق اوقاته في زيارات المدن قام [مانليوس] وهو مفوض [تريبيون] الشعب يقترح اصدار قانون يقضي بتسليم [پومپي] كل القوات التي هي تحت امرة [لوكولوّس] وكل الاقاليم التي هي تحت حكمه مع [بيثينيا] التي كانت تحت قيادة [كلابريو Clabrio] وان يؤمر بشنّ الحرب فوراً على الملكين [ميثيريداتس] و[ديكران] والاحتفاظ في الوقت عينه بالقوات البحرية الموضوعة تحت تصرفه، وابقاء سيادته على البحار كالسابق. وكل هذا كان يعني بالفعل نصبه ملكاً مطلقاً على الامبراطورية الرومانية. إذ أن الأقاليم التي كانت خارجة عن نطاق حكمه بموجب القانون الأول مثل [فريجيا] و[لاقونيا] و[غلاطيا] و[كبادوكيا] و[كيليكيا]و[كلوخيس] العليا باتت كلها خاضعة له مع جميع القوات والوحدات العسكرية بأمرة [لوكولوس] التي حققت الغلبة على [ميثريداتس] و[ديكران]. ومع أن [لوكولوس] باستخلافه بشخص آخر قد حرم من امجاد الاعمال والمآثر التي قام بها لأجل أن يضيف هذا الشخص الى موكب نصره شرفاً له اخر لا لأجل ان يدفع مخاطر حرب، فان ذلك لم يكن موضع اهتمام الفئة الارستوقراطية وان صعب عليها الاقرار بالظلم وانكار فضل [لوكولوس] إلاّ أن الهمّ الأعظم الذي استولى عليهم هو خوفهم ان تتحول السلطة بيد [پومپي] الى طغيان صريح، فراح يحث بعضهم بعضاً ويشجعه سِراً لرص الصفوف وحشد القوى والوقوف موقف المعارض من هذا القانون. وأن لايقبلوا تجريدهم من حرياتهم وهم ساكتون. ولكن ما أن ازف يوم الاقتراع على القانون حتى زايلتهم الشجاعة خوفاً من الشعب وسكتوا جميعاً باستثناء [كاتولوس] الذي ندّد بالقانون وبالذي أقترحه، بكلّ جرأة ولما لم يجد أذناً صاغية من العامة، استدار نحو مجلس الشيوخ وصاح باعضائه طالباً منهم ان يبحثوا لهم في أحد الجبال عن ملجأ مثلما فعل أسلافهم من قبل وان يعتصموا بالصخور، لعلهم يحافظون هناك على حريتهم. وقيل أنّ اللائحة أبرمت قانوناً باقتراع عامٍ لكلّ القبائل. فجعل [پومپي] وهو غائب، سيدّ البلاد وأمتد سلطانه تقريباً على كل ما احرزه [سيللا] بقوّة السلاح، وبعد أن أستولى على العاصمة نفسها عنوةً.

وقيل أن [پومپي] عندما انبأته الرسائل بالمصادقة على القانون لم تظهر عليه أية علامة من علامات السرور في مجلس اصدقائه الذين أقبلوا ليزفوا اليه التهاني وليباركوا له ما نال من شرف بل بدا مقطب الأسارير، وضرب فخذه بيده قائلاً بلهجة المتعب من الحكم والضجر من اعبائه: «واحسرتاه! سلسلة من المتاعب فوق متاعبٍ لا تنتهي. وان لم يتسنَّ لي انهاء خدماتي العسكرية والتخلصّ من هذه العظمة التي تثير حولي الحسد لأعيش في بيتي الريفي من امرأتي، لكان خيراً لي أن أبقى رجلاً مغموراً» إلاّ أن هذا القول والادعاء لم يكن يُنظر اليه نظرةً جديّة، واصدقاؤه أنفسهم كانوا ينزلونه هذه المنزلة لأنهم على يقين بأن شعلة عداوته [للوكولوس] أوقدت في تلك الساعة بالذات نار ميله الى التحكم وصبوته الى المجد وهذا ما أشعره بفرح غير عادي.

وبدت هذه الحقيقة سافرة بعد قليل، من أعماله التي حسرت عنه القناع عما يبطنه تماماً. فقد أسرع بتوجيه الأوامر الى كل الانحاء، يأمر بها الجنود بالانضواء تحت لوائه. ويدعو كل الملوك التابعين والأمراء ضمن دائرة حكمه الى الحضور، وبمختصر القول، ما أن وطئت قدماه أقاليم [لوكولوس] حتى تناول بالتغيير كلّ ما قام به سلفه هنا أو أنشأه. فألغى وخفض العقوبات، وجردَ أناساً من عطاياهم. واخذ يتصرف في كل شيء، وهي يرمي بصورة صريحة لا لبس فيها أن يفهم المعجبين بلوكولوس أن دولة هذا الحاكم قد دالت.

ونوقش [پومپي] من جانب اصدقائه فارتوئ أن يعقد اجتماع بين القائدين، وتمّ اللقاء في اراضي [غلاطيا] ولما كان كلاهما جنرالاً شهيراً مظفراً، فقد كان [لكتور] كل واحدٍ منهما يحمل حزمة العصيّ أمامهما وهي مزدانه باعضان من شجر الغار. وكان [لوكولوس] قد مَرّ بارض تكسوها الاشجار المخضوضرة والغابات الوارفة، في حين كانت مسيرة [پومپي] في منطقةٍ قاحلة يسودها برد زمهرير. ولما وجد رجال لكتور [لوكولوس] أغصان الغار التي تزين حزم لكتور [پومپي] قد ذبلت وجف عودها، أعطوهم شيئاً مما كان عندهم منه، وزينوا وتوجوا حزمهم بالغار الغضّ. فعُدَّ هذا دليل شؤم أو بدا وكأن [پومپي] جاء لينتزع ثمرة انتصارات [لوكولوس] والشرف الذي ناله منها. وكان [للوكولوس] بحكم نظام القناصل الأسبقية عليه، في القدم والسنّ، إلاّ ان موكبي النصر اللذين منحا [لپومپي] جعلاه أعظم مقاماً من [لوكولوس]. وبدأ الحديث في مقابلتهما هذه بداية وديّة مشبعةً بالرزانة والوقار، وأنطلق كل واحد منهما يشيد بمآثر صاحبه، ويزجي اليه التهانيء على ما اصابه من نجاح وتوفيق ولكن ما أن دخلا في بحث ما جاء لأجله وعقدا عليه مؤتمرهما حتى تبين تعذر وصولهما الى اي اتفاق أو شروط مناسبة. وبلغ بهما الأمر الى حدّ تبادل جارح القول: [پومپي] يتهم

[لوكولوس] بالجشع، و[لوكولوس] يتهم [پومپي] بالطموح واشتبكا في جدال عنيف حتى صعب على اصدقائهما التفريق فيما بينهما.

ومكث [لوكولوس] في [غلاطيا] وباشر في توزيع الأراضي التي غنمها بفتوحاته ومنح العطايا والهبات لمن شاء. وعسكر [پومپي] في موضع لايبعد عنه كثيراً. وراح يبعث بأوامر الحظر والمنع، ونقض كل قرار يصدره [لوكولوس]. وسحب منه كل جنوده ما خلا الفاً وستمائة لم يجد فيهم نفعاً له لميلهم الى التمرد والشغب وعدم خضوعهم لنظام، ولمعرفته أنهم يكنّون البغض [للوكولوس] وزاد على هذه الاجراءات والأعمال خطباً ساخرة به، تتضمن الانتقاص الصريح من أمجاده ومآثره كقوله ان معارك [لوكولوس] ما هي إلاّ مشاهد مرسحيّة وصور تافهة تحفّ بها الأبهة الملكية في حين أن الحرب الفعلية ضدّ جيش حقيقي يهزم في قتالٍ عنيف، انمّا هو حق محفوظ له دون غيره، بعد أن تهيأ [ميثريداتس] واستعد بدروعه وسيوفه وخيالته. فيجيب [لوكولوس] على سبيل المقابلة، بأن [پومپي] انما جاء ليشن حرباً على صورةٍ أو شبح للحرب. وهذا هو شأنه أبداً كالطير الجارح الكسلان الذي ينقض على الرّمة بعد أن يكون غيره قد قتلها، وهكذا يعمد الى تمزيق رفات الحرب ارباً ارباً، وبهذه الصورة عزا لنفسه كل الانتصارات على [سرتوريوس] و[ليپيدوس] وعلى المتمردين بقيادة [سپارتكوس]. فالانتصار الأخير حققه [كراسوس] فعلاً. والثاني انتزعه من [كاتولوس] والأول هو من حق [ميتيللوس]. فليس من العجيب ان يقوم مثل هذا الشخص الذي توسل بكلّ ضروب الحيل ليحرز شرف النصر على شراذم من العبيد الهاربين، بانتزاع امجاده وشرف نيله انتصارات الحرب الپونطية والارمنية.

بعد هذا رحل [لوكولوس]. وقام [پومپي] باستنفار اسطوله ونشره في المياه الواقعة ما بين [فينيقيا] والبوسفور. ثم زحف بجيشه على [ميثريداتس] الذي كان قد عبأ [فلانكس] مكوّناً من ثلاثين ألف راجل والفين من الخيالة الاّ انه لم يجرأ على منازلته. وكان قد عسكر فوق جبل منيع تصعب مهاجمته. إلاّ انه لم يلبث فيه كثيراً وتركه لانعدام الماء فيه. فأحتله [پومپي] حالاً. ولاحظ أن النبات فيه يانع نامٍ، كما وجد فيه كثيراً من الوديان فاستنتج بأن أرضاً كهذه لايمكن أن تخلو من مياه جوفية، فأمر رجاله بحفر آبار في كل ركن منها. وما هي فترة وجيزةً حتى كان المعسكر يستمتع بماءٍ غزير. ولم يسعه الاّ الاستغراب من جهل [ميثيريداتس] بهذا طوال الفترة التي قضاها معسكراً. ثم ما لبث أن جَدّ في اثره وادركه في معسكره الثاني، فتقدم منه بصفوف متراصة وضرب حوله نطاقاً إلاّ ان [ميثيريداتس] نجح بعد اربعين يوماً من الحصار في التسلل والنجاة بأفضل وحدات جيشه بعد أن فتك بكلّ

المرضى والعاجزين منهم. فلاحقه [پومپي] وادركه بعد قليل بالقرب من ضفاف نهر الفرات. فعسكر بالقرب منه إلاّ انه خشي أن يعبر الفرات ويفلت منه هذه المرة أيضاً.

فاعدّ جيشه للهجوم عليه في متنصّف الليل، وقيل أن [ميثيريداتس] في ذلك الوقت بالذات رأى رؤيا شبيهة بما كان سيحصل فعلاً فقد رأى فيما يرى النائم، أنه راكب سفينة في بحر المضايق [Euxine] وكانت الريح رخاء والبوسفور على مدى الرؤية وهو يتحدث الى رفاق السفينه مسروراً، كالذي يشعر بالسعادة خلاصه من خطرٍ وبالفرح، لسلامته ونجاته. ثم يرى نفسه فجأةً وحيداً ليس معه أحدٌ وهو فوق لوح محطّم من الواح السفينة يتقاذفه الموج تحت رحمة البحر. وفيما كان كذلك يعاني هذا الكابوس المفزع أقبل عليه اصدقاؤه وايقظوه ولابلاغه باقتراب [پومپي] الذي كان في الواقع بدرجة من القرب بحيث أن القتال كان سيدور لأجل الاستيلاء على المعسكر نفسه. فقام القواد باخراج وحداتهم ووضعوها صفوفاً في خط القتال. ولما وجد پومپي مبلغ استعدادهم، وحسن تهيؤهم، داخله الشكّ في قراره وبدأ يتساءل في نفسه هل من الإصابة ان يخاطر في القتال ليلاً. وكان رأيه أن يبقي الطوق المضروب حولهم لتأمين عدم فرارهم، ثم الاشتباك معهم في اليوم التالي لاحرازه التفوق العددي عليهم. إلاّ ان الضباط المتقدمين في السنّ خالفوه في الرأي وتمكنوا باللجاجة والتشجيع من استحصال موافقته على شنّ الهجوم فوراً. وكان القمر الذي يكاد يأفل ينشر نوراً كافياً لتمييز الاجسام. والليل ليس بحالك السواد. ولم يكن هذا في مصلحة جيش الملك بطبيعة الحال. لأن الرومان كانوا يواجهونهم والقمر وراءهم، اذ لم يكن بينه وبين المحاق الاّ قليل من الوقت، فصار نوره يلقي ظلالاً مديدةً امام اجسام الرومان حتى تكاد تبلغ صفوف العدو الذي اصيب بخداع البصر، فلن يعد في وسعه تقدير المسافات تقديراً دقيقاً وتصور المهاجمين قريبين منه فراح يقذف الرماح على الظلال دون أن يصيب هدفاً أو ينال مأرباً. وما أن ادرك الرومان حقيقة الأمر حتى انقضوا عليهم وهم يعدون عدواً بصيحة راعدة. فأوقعوا الرعب في البرابرة، ووهت عزائمهم ولم يسعهم تحمل الهجوم فداروا على أعقابهم منهزمين فأوقع منهم مذبحة عظيمة وقتل منهم ما يربو على عشرة آلاف وأستولى على المعسكر.

أمّا [ميثيريداتس] فقد قاد في أول المعركة ثمانمائة من الخيالة وهجم مخترقاً صفوف الجيش الروماني وهكذا نجا. إلاّ أن هؤلاء ما لبثوا أن تفرقوا عنه، قسم توجه في طريق، وقسم سلك آخر، ولم يبق معه غير ثلاثة اشخاص من بينهم مخيته [هپسيكراتيا Hypsicratia] وهي فتاة لها شجاعة الرجال واقدامهم. ولذلك سماها الملك [هپسيكراتوس] بالمذكر، وكانت تلبس لباس الفرسان وتركب الخيل. وقد صبحت الملك في كلّ تنقلاته وهو فارٌ دون ان يعتبرها

كلل ولا تردد حتى في أطول الرحلات واشقها، ولم تكن تتعب من خدمة الملك بنفسها. والاعتناء بجواده كذلك. وبلغت بهم خاتمة المطاف [اينورا Inora] وهي قلعة من قلاع الملك جمع فيها كلّ ذهبه وكنوزه. فأخرج أنفس الكسوة وفرقها على من ظلوا معه. كما دفع الى كل واحدٍ من اصدقائه بمقدارٍ من السمّ الزعاف، يتناولونه عندما تتعذر عليهم النجاة من يد العدو. واتصل من هناك بـ: [تيكران] وطلب اللجوء اليه فأباه عليه وأعلن عن مكافأة قدرها مائة تالنت لكل من يقبض عليه. فيممّ [ميثريداتس] جهة اعالي الفرات وسار بمحاذاته وفرّ الى داخل بلاد [كلوخيس]. وشنّ [پومپي] في الوقت ذاته حملةً على ارمينيا، بدعوةٍ من [تيكران] الابن الذي شق عصا الطاعة على أبيه الملك. واجتمع [بپومپي] في موضع ما بالقرب من نهر [آراكس] الذي ينبع قريباً من أعالي الفرات، الاّ انه يميل عنه شرقاً وينحرف في مجراه حتى يصب في بحر قزوين. فزحف كلاهما معاً وتوغلا في البلاد وأخذت المدن تسقط في يديهما وتقدم لهما الطاعة تباعاً. الاّ ان [تيكران] الملك الذي كان قد عانى الكثير من حروبه مع [لوكولوس] ولسبق علمه بأن [پومپي] شخص رحيم ذو طبع رقيق، أفسح صدره للعسكر الروماني وسمح لهم بدخول قصوره الملكية وأخذ معه اصدقاءه وذويه وشخص بهم الى [پومپي] ليسلّم نفسه اليه وبلغ الخنادق الرومانية وهو على صهوة حصانه فاعترضه ليكتوران من حرس پومپي وأمراه بالترجل والسير على قدميه، فالتقليد يحظر على اي كان الدخول المعسكر الروماني راكباً. فلبىّ تيكران طائعاً ولم يكتف بالنزول عن حصانه، بل تخلّى عن سيفه أيضاً. وختم هذا التصاغر بنزع قلنسوته الملكية حال مثوله امام [پومپي] ولما هم بالقائها تحت قدميه، لا بل عندما اراد هو نفسه أن يخرّ جاثياً تحت قدميه مستعطفاً، منعه پومپي، وأخذ بيده وأجلسه الى جانبه، بينما وقف [تيكران] الأبن الى الجانب الآخر. وقال له أنه يجب أن يتحملّ كل الخسائر التي أوقعها به [لوكولوس] فهو المسؤول عنها. وعليه وحده تقع تبعة تجريده من سورية وفينيقية وكيليكيا وغلاطيا. و[سوفيني Sophene]. إلاّ ان كل ما أحتفظ به خلاف هذه الأقطار حتى الساعة، فهو ملك جلال له، من حقه التصرف به كما يشاء وبكل أمان. ولكن عليه أن يدفع ستة آلاف تالنت، كغرامةٍ أو كقصاصٍ لقاء الأضرار التي الحقها بالرومان، وأن ينزل لابنه عن بلاد [سوفينه] ليملك عليها مستقلاً، فسرّ الملك كثيراً بهذه الشروط وعقد الصلح، وبلغ به الفرح منتهاه عندما حيّاه الرومان تحية الملوك وهزته الأريحية فأمر بأن يدفع لكلّ جندي نصف مينا من الفضة، ولكل سنتوريون عشراً، ولكل تريبيون تالنتاً واحداً. ولم يسرّ الابن بهذا الاتفاق، ولما دعي للعشاء أجاب رسول [پومپي] بقوله. انه ليس بحاجة الى أن ينعم عليه پومپي بهذا الشرف، وسيجد رومانياً آخر غيره

ليتناول معه العشاء. فلم يكن من [پومپي] الاّ ان وضعه تحت الاعتقال محتفظاً به لموكب النصر. ولم يمرّ طويل وقت الاّ وارسل [فراهاط] ملك الپارثيين يطلب من [پومپي] ردّ الفتى [تيكران] اليه، لأنه ختنه. واعلمه بأن نهر الفرات سيكون خط الحدود بين امبراطوريتيهما. فأجابه [پومپي] يقول: امّا بخصوص [تيكران] فوالده أقرب وأحق من حميّه بطلب رده، واما بخصوص الحدود فسيرى أن تكون وفقاً لمبادئ الحقّ والعدالة. ثم انه ترك ارمينيا بعهدة [افرانيوس] وخرج هو لتعقيب [ميثيريداتس] واضطر ان يخترق عدداً من الشعوب والأمم التي كانت تسكن منطقة جبال القفقاس وابرز تلك الشعوب اثنان: [الألبان Albanians] و[الايبريون Iberiaus]. وكانت بلاد الشعب الأخير تمتد حتى الجبال [الموسخيّة Moschian] والبحر الپونطي. في حين كانت بلاد الألبان تمتد شرقاً حتى قزوين وسمح هؤلاء الألبان لپومپي بالمرور عبر اراضيهم بناء على طلبه في مبدأ الأمر، فلمّا ادرك الرومان الشتاء وهم في تلك البلاد وبينما كانوا منهمكين في الاحتفال بأعياد [زُحل] حشد هؤلاء قوة لا تقلّ عن اربعين الف مقاتل وعبروا نهر [قيرنوس Cyrnus] الذي ينبع من جبال [ايبريا] ويرفد فيه نهر آراكس فور صدوره من ارمينيا، ليصبّ بعدئذ في بحر قزوين باثني عشر فمٍ (يقول آخرون أن [أراكس] لايصبّ فيه وانما يجريان متحاذيين ويصبان في البحر نفسه متجاورين)، وبعد عبورهم باغتوا الرومان، وكان بامكان [پومپي] أن يعترض سبيلهم ويحول دون عبورهم، لكنه أثر عدم التدخل، وتركهم يجتازون النهر بأمان ثم تحول عليهم بعسكره وفتك بعدد كبير منهم في ساحة القتال وكسرهم شرّ كسرة وعندئذ بعث ملكهم وفداً اليه يعلن خضوعه فعفا عنه رجاء وتوسلات، وعقد معه معاهدةً. ثم استدار فوراً نحو [الايبريين] وهم لايقلون عدداً عن الألبان لكنهم يفوقونهم قوةً وبأساً، كما كانوا يرغبون جداً في ارضاء [ميثيريداتس] وطرد [پومپي].

لم يكن هؤلاء الايبريون يدينون بالطاعة الى [الماديين] أو الى الفرس، ونجحوا أيضاً في المحافظة على استقلالهم من الحكم المقدوني، وهذا يعود الى سرعة [الاسكندر] الخاطفة في اجتيازه [هركانيا Hercania]. على أن [پومپي] اتم اخضاع هؤلاء أيضاً بعد معركة طاحنة قتل فيها تسعة آلاف منهم، وأخذ أكثر من عشرة آلاف أسير. وعبر من هذه البلاد الى [كلوخيس] حتى التقى [بسرڤيليوس Serviluis] على نهر [فاسيس Phasis] قادماً اليه بالأسطول الذي كان يحرس به البحر الپونطي.

كان تعقيب [ميثيريداتس] الذي قذف بنفسه في أعماق قبائل البوسفور وسواحل البحر [المايوتي Mæotian]، يضع امامه صعاباً جمةً هائلة. ولقد وردته انباء ثورةٍ قام بها

الألبانيون ثانية. وهذا ما حمله على ان يكرّ راجعاً وهو في أشدّ حالات الغيظ والعزم على كسر شوكتهم، وانثنى يعبر نهر [قيرنوس] مرة أخرى مستهدفاً لمخاطر عظيمة وعقبات جسيمة. وكان هذا الشعب البربري قد تولى تحصين مسافة عظيمة من ضفته الأخرى بالاوتاد الخشبية ونبات الشوك فأجتازها، ليعاني مسيرةً شاقة بمروره في أرض وعرةٍ قاحلة لا ماء فيها، لكنه أحتال على ذلك بأن ملأ عشرةً آلاف قربة بالماء. واقترب من العدو ليجده مستعداً لخوض المعركة وقد اصطف عسكره بالقرب من نهر [أباس Abas] وكان عددهم ستين ألفاً من الخيالة واثني عشر ألفاً من الرجالة، الاّ أن سلاحهم لم يكن جيداً على العموم، ومعظمهم عراة لايكسو جسمهم غير جلود الوحوش الضارية. وكان قائدهم أخو الملك ويدعى [كوسيس Co-sis] الذي أخذ يجدّ في طلب [پومپي] عند بدء المعركة حتى انفرد به وبادره بطعنة رمح موجهة الى مفصل دروع صدره وفي عين الوقت اصابه [پومپي] بطعنة رمح أخترقت جسمه فارداه قتلاً. وقيل والعهدة على الراوي أن الامازونات كن يقاتلن متطوعاتٍ في صفوف البرابرة وقد انحدرن اليهم قادمات من الجبال المجاورة لنهر [ثيرمودون Thermodon]. اذ ان الرومان الذين أخذوا بعد انتهاء المعركة يجمعون الاسلاب والغنائم عن ساحتها - وجدوا عدداً من التروس المدورة، والاحذية الامازونية. الاّ انهم لم يعثروا من بين القتلى على جثة امرأة واحدة . والامازونات يعشن في انحاء من جبال القفقاس التي تنحدر سفوحها حتى بحر [هركانيا] وليست تجاور الالبانيين مباشرة، وانما يكون بينهما شِعْباً [گيلي Galæ] و[ليغيس Leges]. وهن يعاشرن هذه الشعوب شهرين فقط من كل عام بالقرب من نهر [تيرمودون] ثم ينقلبن الى ديارهن ويبقين وحيدات بقية العام.

وأستولت على [پومپي] بعد هذه المعركة، رغبة شديدة في التقدم نحو بحر [هركانيا وقزوين] لكنه اضطر الى الارتداد عنه بعد أن أصبح فهو على مسافة ثلاثة ايام منه، بسبب وجود كثير من الافاعي السامة . وانسحب الى ارمينيا السفلى. وفي اثناء وجوده هناك بعث ملكا [الايليميين Elymæns] و[الماديين] بسفراء اليه. فأستقبلهم لقتال ملك الپارثيين الذي قام بعدّة غارات على [گوردايني Gordyene]، وسلب رعايا [ليكران] فأوقع به في معركة طاحنة ثم عقب فلوله تعقيباً لاهوادة فيه حتى اقليم أربيل Arbela.

ولم يحتفظ [پومپي] لنفسه بأية مخظية من مخظيات الملك [ميثريداتس] اللاتي جيء بهنّ من بنات او زوجات الأمراء والقادة الكبار، ما خلا [ستراتونيكي Stratonice] التي كانت تتمتع عنده باوسع السلطان والسطوة، ولهذا اودع لديها أفضل قلعة من قلاعه واحفلها بالكنوز، فهي كما قيل ابنة مغن شيخ رقيق الحال اتفق انها كانت تغني في مأدبةٍ أمام

[ميثريداتس] فوقعت من نفسه موقعاً حسناً، فأدخلها حريمه وصرف والدها الشيخ دون ان يوجه اليه كلمة طيبة واحدة فخرج بائساً مغموماً، لكنه استيقظ في اليوم التالي بحالٍ مختلفةٍ، فقد وجد امامه فوائد فرشت عليها افخر الاغطية وفوقها صحاف من الذهب والفضة، كما شاهد أفواجاً من الخدم والاتباع والوصائف والحجاب يتقدمون اليه بأنفس الثياب ووجد حصاناً امام عتبة الدار عليه ابدع سرج وانفس الاغطية بالاختصار وحفّ به من المظاهر ما يحف عادة بكل مقربي الملك وذوو الحظوة لديه فلم تصدق عيناه وظنها لعبة زائفة يراد بها التفكه عليه والاستهزاء به وتحقيره. فقام يريد الهرب الاّ ان الخدم والحجاب امسكوا بتلابيبه وتكاثروا عليه حتى ابقوه وأقنعوه بأن الملك قد أنعم عليه في الواقع بهذه الدار وبما فيها، وكانت من املاك رجل توفي مؤخراً، وافهموه أن ما يراه الآن ما هو إلاّ مقدمة العطايا والانعامات، وان ما سيُخلع عليه أكثر بكثير. فأقتنع وصدّقهم بعد لايء. وارتدى الأرجوان وركب حصانه وخرج الى احياء المدينة وهو لايفتأ يردد صارخاً «كل هذا من مالي وحلالي!» وردّ على أولئك الذين سخروا منه قائلاً: «ليس هو العجيب ما يرونه من أمره، ولكن العجيب هو أنه لم يقذف من يلقاه بالحجارة.» فقد كاد يجنُّ فرحاً في الواقع. وهذا هو أصل [ستراتونيكي] ومنبتها. وقد جاءت الى [پومپي] وعرضت عليه أن تسلّمه القلعة، وقدمت له كثيراً من الهدايا الغالية الثمن فلم يقبل منها الاّ ما وجده صالحاً ليزين به معابد الآلهة. وليضفي به على موكب نصره المزيد من الروعة والفخامة، وترك الباقي لها تتمتع به وتتصرف كما تشاء.

وكان هذا شأنه بالهدايا التي قدمها له ملك [ايبريا]. فقد ارسل اليه هذه الملك سريراً ومنضدةً وعرشاً كلها من الذهب. وطلب منه قبولها الاّ ان [پومپي] أرسلها الى بيت المال لتكون من الأموال العامة ولتنفق في سبيل الجمهورية.

وفي حصنٍ آخر من حصون [ميثريداتس] وجد [پومپي] مخطوطات سريّة بقلم [ميثريداتس] فقرأها ملتذاً مستمتعاً وكانت تتضمن الكثير مما أوضح له حقيقه شخصه. فمن الأمور الكثيرة التي حوتها مذكراته، ما يوضح بأنه فتك بابنه [آريارتس] بدس السمّ له. كذلك فتك بـ[ألكيوس Alcæus] الساردسي Sardis لأنه احزر قصب السبق عليه في مباراة طردٍ للخيل. وقرأ فيها أيضاً تفسيرات واحكامٍ لرؤى واحلام شاهدها هو بنفسه او رآها بعض مخطياته. وكان ثم أيضاً مجموعة من الرسائل الغرامية الداعرة كتبتها اليه مخطيته وكتبها اليها. كذلك عثر على رسالة موجهة اليه من [روتيليوس Rutilius] يغريه فيها بقتل الرومان كافةً في آسيا، كما حدثنا [تيوفانس]، على أن الاغلبية تميل الى الاعتقاد بأن هذا هو دَسّ

من [تيوفانس] وأختراع خبيث منه. ذلك لأنه كما يرجح - كان يبغض [روتيليوس]، للفرق الكبير بين أخلاقهما. ومن يدري فلعله اراد بهذا الدسّ ارضاء [پومپي] الذي كتب [روتيليوس] عن ابيه قادحاً واصفاً اياه بأنه أحقر الأحياء وانذلهم.

وترك [پومپي] هذه الأرجاء وجاء الى مدينة [أميسوس Amisus]. وهناك أقدم على فعلٍ يمكننا القول بأنه كان بمثابة عقابٍ ذاتي اوقعه بنفسه. وكان الدافع اليه اندفاعه الشديد نحو الشهرة والمجد. ففي حين رأيناه يشتط في عيب [لوكولوس] وينتقده أشد انتقاد بقوله: «انه كان منصرفاً الى اصدار المراسيم وتوزيع الجوائز والعطايا، كما أعتاده الفاتحون عند ختام كل حرب من الحروب، في الوقت الذي كانت الحرب قائمة فعلاً» نراه الآن يُقدم على ما انتقده في غيره، فقد استقرت مملكة [ميثريداتس] في البوسفور وبات حكمه هناك وطيد الاركان. وتحت أمرته جيش جرار. أما هو فقد انصرف الى تنظيم أمور الأقاليم وتوزيع المكافأت، وجمع حوله بطانة كبيرة من كبار القواد والأمراء وما لا يقلّ عن أثني عشر ملكاً، كأن الحرب انتهت وعُفي عنها. ولكي يرضي هؤلاء الملوك لم يخاطب ملك الپارثيين بلقب «ملك الملوك» في رسالة خطّية بعث بها اليه كما جرت العادة بمخاطبة هذا الملك.

وتملكته فضلاً عن ذلك رغبة شديدةٌ وميلٌ لايقاوم للاستيلاء على سورية والوصول الى سواحل البحر الأحمر عبر جزيرة العرب، وبذلك تمتدّ فتوحاته الى كلّ طرف من اطراف الأرض حتى البحر المحيط الذي يدور بالمعمورة. ففي افريقيا كان أول روماني بلغت انتصاراته حتى الاوقيانوس، وفي اسپانيا جعل المحيط الاطلسي حدوداً للامبراطورية. وفي مطاردته الأخيرة [للألبانيين] لم يبق بينه وبين بحر [هركانيا] إلاّ مسافة بسيطة، وبناء على ذلك فقد رفع اطناب معسكره وسار بجيشه تنفيذاً لخطته في جعل البحر الأحمر ضمن نطاق حملاته، بعد أن وجد من الصعوبة بمكان اللحاق بميثريداتس وتعقيبه بجيشه. وكيف كان هذا الملك خصماً عنيداً في الفرار أكثر منه في ساحة القتال. على انه صرح قائلاً: انه سيترك امام [ميثريداتس] خصماً أشدّ وانكى منه، وهو المجاعة والقحط، يقصد بهذا أنه وضع قطعاً من اسطوله في فم البوسفور وجعله يلقي مراسيه فيه لالقاء القبض على التجار القاصدين تلك البلاد ببضائعهم. وفرض عقوبة الموت على كل من يحاول نقل الارزاق الى هناك.

وسار متقدماً بالقسم الأعظم من قواته. وعثر وهو في زحفه على عدد من الجثث ملقاة على الأرض، وكانت جثث الجنود الذين قتلوا مع [ترياريوس Tiarius] في معركته السيئة الحظّ مع [ميثريداتس]. فدفنها دفنةً لائقة وبالمراسيم الواجبة ويظنّ ان اهمال [لوكولوس] القيام بهذا العمل، كان أهم سبب من اسباب بغض الناس له وفقدانه محبة جنوده وتمكنت وحدات

جيش [پومپي] التي هي بأمرة [أفرانيوس] من اخضاع العرب القاطنين حوالي جبل [أمانوس Amanus] اما هو فدخل البلاد السورية. فلم يجد أميراً شرعياً يحكم فيها وانما كان عرشها خالياً فجعلها أقليماً من الاقاليم الرومانية. كذلك اتمّ فتح بلاد اليهودية وأسر ملكهم [أرسطوبولس Arisrobolus] واعاد بناء بعض المدن وحرّر مدناً أخرى وعاقب الطغاة الذين استعبدوها. وانفق معظم الوقت الذي قضاه في تلك الربوع يفضّ نزاعات الملوك والدول، وكان يعهد بهذه المهمة الى معتمديه واصدقائه حيثما لايستطيع الحضور في التحكيم بنفسه. مثال ذلك النزاع الذي نشب بين البارثيين والأرمن حول بعض الاصقاع، فقد أحيل الموضوع اليه ليكون حكماً. فعهد به الى ثلاثة من المحكمين لسماع القضية بدلاً عنه وفض النزاع بقرار منهم. وهكذا كانت دائرة سطوته واسعةً، ولم تكن عدالته ورحمته بأقلّ صيتاً من نفوذه وسلطته. إلاّ أن تلكما العدالة والرحمة كانتا في الواقع ستاراً لما لا يُعد أو يحصى من الاخطاء التي ارتكبها اصدقاؤه والمقربون منه أو لم يكن من عادته ايقاف المخطئين عند حدٍ أو انزالِ القصاص بهم. وكان دائماً يتخذ مع المتصلين به اسلوباً خاصاً يجعلهم به ساكتين صابرين على أعمال الاستغلال والاضطهاد التي يقوم بها الآخرون.

وكان بين خلصائه من يدعى [ديمتريوس]، يتمتع لديه بأكبر المكانة وأوسع النفوذ، وكان عبداً محرراً وشاباً حسن الادراك إلاّ انه وقح صفيق للوجه وهو في مركزه الذي حباه به الحظّ. وتروى عنه الحكاية الآتية: «كان الفيلسوف [كاتو] قد طبقت شهرته الآفاق وذاع صيته وهو بعد في غضارة شبابه لما أمتاز به من العقل النبيل. قام هذا الفيلسوف برحلة الى مدينة انطاكية ترويحاً للنفس ووصلها في وقت لم يكن [پومپي] هناك. وأشتاق للاطلاع على معالم المدينة فسار اليها ماشياً كعادته في حين امتطى اصحابه ظهور الخيل برفقته. فشاهد عند ابواب المدينة عصبة من الناس يرتدون حللاً بيضاء، وكان الشبان منهم على جانب من الطريق، والفتيان على الجانب الآخر. وظنّ أنهم يريدون الاحتفاء به بصورة غير رسمية فاستاء كثيراً لأنه كان زاهداً في مثل هذه التظاهرات كارهاً لها الاطلاق. ومهما يكن فقد استسلم للأمر الواقع وطلب من اصحابه الترجل والسير معه. وما ان اقتربوا من وفد الأستقبال حتى برز قائدهم وهو يحمل قلادة وعصا وتقدم من [كاتو] ورفاقه مستفسراً عن [ديمتريوس] اين خلّفوه ومتى سيجيء؟ فقهقه رفاقه ضاحكين الا ان [كاتو] لم يقل غير هذا «وأسفي على المدينة البائسة» ومضى يغذ السير من دون أن ينبس بكلمة أخرى. وعلى اية حال فإن تغاضي [پومپي] عن [ديمتريوس] جعل من هذا الأخير أخطر مصدرٍ من مصادر البغض والنفرة. بسبب صبر پومپي على وقاحته وصفاقته، وشدّة خيلائه. ويروي الناس على سبيل المقارنة،

كيف كان [پومپي] شديد الاحترام لضيوفه، وكيف يكون في غاية اللطف في استقبال اصدقائه عند دعوتهم الى مأدبة، وكيف يظلّ قائماً حتى يكتمل عقدهم ولا يأخذ معقده الاّ بعد جلوسهم جميعاً، في حين يكون ديمتريوس منبطحاً على سريره غير مكترثٍ بأحدٍ وقد غطى رأسه بجبّته حتى تتدلى حواشيها وتخفيه. ورأى كيف أنه ابتاع قبل عودته الى ايطاليا منزلاً ريفياً جميلاً بالقرب من روما تزينه ابدع المماشي وساحات الرياضية والملاعب واجمل الحدائق والرياض أطلق عليه اسمه [ديمتريوس]، في حين كان [پومپي] سيده مكتفياً حتى ما بعد موكب نصره الثالث بمنزل اعتيادي بسيط. صحيحٌ انه عندما قام بتشييد ملعبه الشهير الفخم لأهالي روما، بنى لصقه ما يشبه الملحق واتخذه لنفسه بيتاً وكان افخم بكثير من منزله السابق، الاّ انه لم يصل به الى الفخامة ما يمكن ان يثير به حسد الناس وتقولاتهم، لأن الشخص الذي امتلكه بعد [پومپي] لم يسعه الاّ الاستغراب والتساؤل عن الموضع الذي اعتاد [پومپي] تناول طعامه فيه من المنزل. وهذا هو مخلص للروايةالتي وصلتنا.

لما أخذ القلق العظيم يساور ملك العرب في [البتراء Petra] (وكان حتى تلك الساعة يستخف بشوكة روما) سارع بارسال رسائل الى پومپي، يعده فيها باطاعة اوامره والبقاء رهن اشارته وتنفيذ كل طلباته. ومع أن [پومپي] كان واثقاً بأن هذا الملك سيبقى على وعده ويحافظ عليه، الا أنه مضى في عزمه وتقدم نحو [البتراء] ولم يخلص عمله هذا من انتقاد الكثيرين، فقد وجدوا أنه لايعدو شكلاً من أشكال التهرب عن الواجب الصائب وهو مطاردة [مثيريداتس] خصم روما العتيق اللدود الذي راح الآن يشعل نيران حربٍ أخرى ويستعد لخوضها وانه كما اوردت الانباء ينوي قيادة جيشه عبر [سكيثيا وپايونيا Pæonia] الى قلب ايطاليا. ولما كان [پومپي] قد توصل الى الاعتقاد بأنه لأسهل عليه تدمير قوات [ميثريداتس] في معركةٍ، من النجاح في القبض عليه في اثناء فراره من وجهه، ولهذا لم يشأ انهاك قواته في مطاردة لا طائل تحتها، بل رأى ان يصرف وقته في مقارعة عدوّ آخر تزجيةً لوقت فراغه بنوع ما من العمل ولكن الحظّ جاءه بالخبر اليقين المنشود، من حيث لايدري، فبينما كان على مسافة قريبة من [البتراء] ضارباً خيامه معسكراً للاستراحة. يقوم باجراء بعض التمارين على ظهر جواده خارج المعسكر، اذ أقبل السعاة ينبهون الأرض بخيولهم قادمين من [الپونطس] يحملون البشائر والانباء السارة ذلك لأنهم كانوا قد رفعوا على رؤوس رماحهم تيجاناً من اغصان الغار وهو اشارة الانباء كما جرت العادة عليه. فما أن تبين الجنود العلامة حتى أخذوا يتقاطرون حيث كان [پومپي] واحاطوا به ولم يكن يبدو عليه ايّ اهتمام بالأمر غير الاهتمام بانهاء تمارينه. فبدأ ضجيجهم يتعالى واصواتهم تجأر، فترجلّ

وتسلم الرسائل وسار قاصداً المعسكر وهم وراءه. ولم يكن هناك رابية عسكريّة، حيث جرت العادة في كلّ معسكر أن يعمل بدل المنصّة المعهودة، مرتفعٌ يتألف من طبقات سميكة من التربة المعشوشبة يُكدس بعضها فوق بعضٍ. فدفعتهم اللهفة لسماع الانباء الى جلب سروج الخيل وتكديسها. حتى اذا تمّ ذلك صعد عليها [پومپي] وأبلغهم بنبأ موت [ميثيريداتس] وقرأ عليهم كيف انه وضع حداً لحياته بعد أن ثار عليه ابنه [فرناكيس Pharnaces] وكيف أن [فرناكيس] هذا قد تسلم مقاليد الحكم واستتب له الأمر فوضع الأمور كلها في نصابها لمصلحته ولمصلحة الرومان - كما تدل عليه الرسائل الواردة. فغمر الفرح الجنود، وراحوا يعبرون عنه كالعادة ينحر الذبائح وتقديم القرابين للآلهة واقامة المهرجانات، حتى لكأن الآلاف المؤلفة من الأعداء قد هلكوا بموت [ميثيريداتس].

وبهذه الخاتمة غير المتوقعة الخالية من العناء وصفت نهاية للحرب في الشرق فلم يعد [لپومپي] ما يفعله وأسرع بالرحيل عن بلاد العرب ومرّ بالاقاليم الوسطى مروراً خاطفاً حتى بلغ مدينة [اميسوس Amisus] وكان ينتظره فيها كثير من الهدايا التي ارسلها اليه [فرناكيس] بينها عدد من جثث الأسرة الملكية. فضلاً عن جثة [ميثيريداتس] نفسه وكان يصعب تبين ملامح وجهه لأن الأطباء الذين تولوا تحنيطه لم يجففوا مخّه. إلاّ أن أولئك الذين غلبهم الفضول لرؤيته عرفوه من ندوب جسمه. إلاّ أن [پومپي] كره التطلع اليه، وسارع بارسال جثمانه الى مدينة [سينوب Sinope] تحاشياً لسخط الآلهة. وكانت دهشته لنفاسة ثيابه لاتقلّ عن دهشته من فخامة شكة سلاحه. إلاّ أن سيفه الذي بلغت قيمته اربعمائة تالنت، سرقه [پوبليوس Publius] وباعه من [آرياراتس Ariarathes]. وتاجه الذي كان يعتبر آية من آيات الدقة في الصناعة، فإن [گايوس Gaius] الذي هو أخ [ميثيريداتس] بالرضاعة دفع به سراً الى [فاوستوس Faustus] ابن [سيللاّ] بناء على طلبه. وكل هذا كان مجهولاً عند [پومپي] الاّ ان [فرناكيس] لم يتردد في انزال العقاب الصارم بالمختلس عندما انكشف له الأمر.

بعد أن وطدّ [پومپي] شؤون الحكم في هذا الاقليم وأرسى قواعد الادارة فيه، شرع برحلة العودة الى الوطن بكثير من الابهة والفخفخة والعديد من المهرجانات والولائم التي كانت تقام على شرفه في الطريق. وعند وصوله مدينة [ميتلين Mitylene] منح أهلها الحرية بتوسطٍ من [ثيوفانس]. كما حضر فيها مباراة بين الشعراء جرت العادة باقامتها دورياً. ولم يكن للمبتارين من موضوع يطرقونه ولا وترٍ يضربون عليه غير اعمال [پومپي] ومآثره. وأعجب كثيراً بالملعب الذي جرت فيه المباراة وأمر بعمل انموذج مصغر له وفي نيته تشييد مثيلٍ له في

روما على أن يكون أوسعَ وأفخمَ منظراً. وبوصوله الى [رودس] حضر دروس كلّ الفلاسفة، ومنح كا واحدٍ منهم تالنتاً من الذهب. وقد قام [پوسيدونيوس Posidonius] بنشر مناظرة له مع [هرماگوراس Hermagoras] النحوي في موضوع «الاستنباط» بصورة عامة، تمت امام [پومپي] هناك. وفي اثينا أبدى للفلاسفة أيضاً كلّ كرمٍ وحفاوة فمنح المدينة خمسين تالنتاً تصرفها في ترميمها وتجميلها. والقصد من كل هذا، أنه كان يريد أن يرافق دخوله ايطاليا دويٌ فيه من الجلال والروعة ما لم يتح لايّ إنسان قبله، وكان يتوقع أن يجد في اسرته من الشوق لرؤيته قادماً الى ارض الوطن قدر ما كان يحسّ به هو نفسه. إلاّ أن الارادة التي تعلو على ارادة البشر والتي كان من طبعها ومن مهامهّا انها لا تترك الخير مهما عظم شأنه الاّ وتشوبه بشيء من الشرور. وقد كانت ارادة الحظّ هذه لمدة من الزمن منشغلةً في بيته تُهيء له استقبالاً أليماً فزوجه [موشيا Mucia] دنّست فراشه اثناء غيبته. وكان وهو على بعدٍ من البلاد يأبى أن يصدق تلك الانباء. لكنه أصبح أكثر انطلاقاً وحرية في التفكير عندما دنا من البرّ ايطالي، فأخذ يكثر التأمل والتمعن في التهمة، ثم ما لبث أن بعث اليها بكتاب طلاقٍ فحسب، ولم يعط فيما بعد أي سببٍ لاتخاذه هذه الخطوة لا بالقول ولا بالكتابة، على أن هذا السبب مذكور في رسائل [شيشرون].

انتشر في الخارج مختلف ألوان الشائعات حول [پومپي] وسبقته الى روما وثارت الخواطر وهاجت النفوس وازداد القلق بما شاعٍ من أنه زاحف بجيشه على المدينة رأساً، وانه سيدخلها عنوةً ويجعل من نفسه الحاكم الأوحد. وعمد [كراسوس] الى الخروج من المدينة مع أولاده وكل أمواله إمّا لأنه كان خائفاً فعلاً مما سيحدث وإما اراد التظاهر بالخوف ليقوي التهمة وليعطي للشائعات وزنا فيستفز سخط الشعب على [پومپي] وهذا هو اصوب الاحتمالين، إلاّ ان [پومپي] أمر بتجمع عام لجنود الجيش حالما وطئت قدميه ارض ايطاليا. وبعد أن ألقى فيهم خطبة مناسبة وتبادل معهم عبارات الوداع الرقيقة أمرهم بالرحيل كل واحدٍ منهم الى بلده أو مسقط رأسه موصياً اياهم أن لا يتأخروا عن الاجتماع ثانية للسير في موكب نصره.

وهكذا اتمّ تسريح جيشه، وبعد انتشر الخبر وتنفس الناس الصعداء، كان ردّ الفعل عجيباً مدهشاً. فقد خفت المدن الى استقبال [پومپي الاكبر] وهو يمرّ بالارياف أعزل لايحمل سلاحاً، مع بطانة صغيرة من أخلص اصدقائه ليس غير، كأنه عائد من سفرة ترويح عن النفس لا من حروب وفتوح، وراح أهالي تلك المدن يتجمعون زرافات ووحداناً لاظهار مدى تعلقهم به وللسير في ركابه نحو روما. حتى بلغ عددهم اضعاف الجيش الذي سرحه فلو كان ينوي القيام بأية حركة سياسية أو تنفيذ مؤامرة على الحكومة، لحققها بسهولة دونما حاجةٍ الى جيش.

كانت الشرائع الرومانية لا تسمح للقائد بدخول المدينة قبل أن يتمّ مراسيم موكب نصره. فأرسل [پومپي] يطلب من مجلس الشيوخ ان يمنّ عليه بفضلٍ، وهو تأجيل موعد انتخاب القنصلين الحاكمين للسنة القادمة، ليكون قادراً على الحضور بسبب رغبته في تقدم التأييد [لپيزو] أحد المرشحين. فعارض [كاتو] في الطلب ورفض رفضاً قاطعاً، فلم يسع [پومپي] الاّ الاعجاب بحرية القول التي أمتاز بها [كاتو] وبجرأته وحده على استعمالها محافظةً على الشريعة وقواعد العدالة ولهذا تملكته رغبة عظيمة من ان يكسبه الى جانبه ويشترى صداقته بأي ثمن. وكان [لكاتو] بنتا أخت، فطلب [پومپي] واحدة لنفسه وطلب الأخرى لابنه. إلاّ ان هذه الخطبة لم تقع في نفس [كاتو] موقعاً حسناً، وعَدّه مخططاً ماكراً يرمي الى تشويه سمعته واخلاصه وطريقة لرشوته باتحاد عائلي يربطه اليه. وأبى متعرضاً للوم امرأته وأخته واستيائهما لرفضه مصاهرة [پومپي] الأكبر، وبعد هذا بقليل رغب [پومپي] في ترشيح [افرانيوس] للمنصب القنصلي، وتحقيقاً لغايته هذه وزع مبالغ من المال على القبائل شراءً لأصواتها، وكان الناس يجيئون حدائقه لتسلمها. فاثار عمله هذا كثيراً من الاستنكار لجعله المنصب القنصلي سلعة يتاجربه. ولأنه يريد شراء منصب كان هو قد حصل عليه كأسمى وأثمن مكافأة له على مؤهلاته الى شخص لايستطيع الحصول عليه بكفاءته. وعندئذ رجع [كاتو] يذكر أخته وامرأته بقوله «أرايتما ؟ لو اننا عقدنا اواصر القربى مع [پومپي] لكنّا اليوم نعتبر شركاء له في هذا العار» فلم يسعهما الاّ الأقرار بسلامة رأيه ورجاحة حكمه على حكمهما.

ولم يزد الوقت الذي استغرقه موكب [پومپي] على يومين إلاّ انهما ضاقاً تماماً عما هُيِءَ للاحتفال، بحيث أن ما أرجيء كان يعادل ما عرض، وهو ما كان يكفي لتهيئة وتزيين موكبٍ ثانٍ كان ثم أولاً الواح نقشت عليها اسماء واوصاف الشعوب التي تغلّب عليها وهي البونطس، وارمينيا وكبدوكيا، وفلاگونيا وميديا وكلوخيس والايبريون، والألبان، وسورية وكيليكا وبلاد ما بين النهرين. فضلاً عن فينيقيا، وفلسطين وبلاد اليهودية وبلاد العرب وكل رؤوساء القراصنة الذين أخضعهم في البرّ والبحر. كما ظهر في تلك الالواح ثبتٌ بالاستيلاء على ما لايقل عن ألف موقعٍ محصنٍ وما لاينقص كثيراً عن تسعمائة مدينة. في كلّ البلاد الوارد ذكرها، مع ثمانمائة سفينة من سفن القراصنة. وجاء ثبت ببناء تسع وثلاثين مدينة. وكتب على الالواح أيضاً قوائم بكلّ ما جبي من الضرائب في كل انحاء الامبراطورية، فظهر منها أن الواردات كانت قبل هذه الفتوحات لاتزيد عن خمسين مليوناً، في حين انها زادت بعد فتوحاته حتى بلغت خمسة وثمانين مليوناً. وان ما حمله معه للخزينة العامة من النقد والذهب والفضة والحلى بلغ عشرين ألف تالنت. وهذا هو المتبقى مما وزع على الجنود. وكان سهم

[پومپي] من كل هذا مائة وخمسين درهماً فقط وهو أقل ما نال أصغر جنديّ. أما عن أسرى الحرب الذين عرضهم في الموكب، فقد شوهد الى جانب زعماء، القراصنة، ابن [ديكران] ملك ارمينيا مع زوجه وابنته. و[زوسيما Zosima] زوج الملك ديكران نفسه. [وارستوبولس] ملك اليهودية، واخت ميثريداتس الملك، مع ابنائها الخمسة. وبعض النسوة السكيثيات. ورهائن من الألبانيين والايبريين ورهائن من ملك [كومّاجيني Commagene] فضلاً عما لا يحصى من الانصاب التذكارية الحربية لكلّ معركة انتصر فيها، إما بشخصه أو باحدِ قواده. الاّ ان اعظم ما ميزّ موكب نصره، وجعله متفرداً به عن اي روماني آخر فهو كون موكب نصره الثالث منح له عن انتصاراته في الطرف الثالث من المعمورة أعني أنه بزّ اقرانه بأن كان موكب نصره الأول عن افريقيا والثاني عن اوروپا والثالث عن آسيا. فبدأ في هذه المواكب الثلاثة وكأنه يقود العالم كله أسيراً الى روما.

وبخصوص عمره بعد فتوحاته هذه، فان أولئك الذين يريدون ان يجعلوا منه صنواً للاسكندر الكبير، لايقرون بأنه بلغ الرابعة والثلاثين. في حين كان آنذاك يشارف على الأربعين. وكان من الخير له اذ ذاك لو انتهت حياته هنا، وهو ما يزال يتمتع بيمن طالع الاسكندر. ذلك لأن حياته التي عقبت ذلك إما كانت مصدر ترف ورفاهٍ له وهو ما جعله مكروهاً مبغضاً، وإمّا جلبت مصائب أعظم مما كان يمكن معالجتها. فالمكانة العظيمة التي حصل عليها بمؤهلاته في نفوس الرومان، لم يستخدمها إلاّ في مناصرة شرور الآخرين فضيع مجده وانقص من مقامه بزيادته من مقامات الآخرين. حتى آل الأمر به في الأخير الى السقوط بقوى وعظمة شخصية. والمسألة بينه وبين [قيصر] كانت أشبه بالحصن الأمنع أو القلعة العظمى في المدينة، فهي تبدي عين الصمود والمدافعة بعد استيلاء العدوّ فيها. وكذلك كانت حالة [قيصر] فبعد أن عظم شأنه وقوى مركزه بمساعدة [پومپي] الى الحدّ الذي بات معه يتحدى بلاده، سارع أخيراً الى تحطيم وازالة تلك القوة التي ساندته في وجه الآخرين واليك فيما يأتي تفصيلاً لما جرى من الأحداث.

عاد [لوكولوس] من آسيا مقهوراً جراء المعاملة المهنية التي لقيها على يد [پومپي] فهرع مجلس الشيوخ الى استقباله بحفاوة عظيمة نكاية بـ[پومپي] وزادت تلك الحفاوة والمنزلة بعد عودة [پومپي] الى الوطن. ارادوا وضع حَدٍّ لطموحه فدفعوه الى تولى مقاليد الحكم حتى آلت همته الى الفتور، وعدم الاهتمام بادارة دفة الحكم بانغماسه الشديد بمتع الحياة واستسلامه للراحة، واستمتاعه بحظه العظيم من الدنيا. على أنه بدأ خصماً [لپومپي] فترةً من الزمن وهاجمه هجوماً عنيفاً بحيث نجح في تطبيق كل الاجراءات والاوامر التي اصدرها في حينه

وعمل [پومپي] على الغائها. ثم اصبحت له الكلمة النافذة في مجلس الشيوخ بمساندة [كاتو].

وخابت آمال [پومپي] في مجلس الشيوخ. ويئس منه فالتجأ الى تريبونات الشعب لحمايته وعمل على تقوية صلاته بهم. وأختص من بينهم [كلوديوس] أحقر الانذال في الدنيا، وأقل من عليها حياءً، وأكثرهم شراً. وراح يصحبه في جولاته ويقدمه للناس ويحركه كما يشاء كالعوبة في يده ويسير به في الساحة العامة بين الجماهير جيئة وذهاباً كيما يستمدّ منه التأييد المعنوي لتلك الخطب التي كان يلقيها، والقوانين التي يبشر بها، تزلفاً للشعب وتوصلاً للحظوة بتأييده. أخيراً طلب من [پومپي] على سبيل المكافأة - كان ما قدمه اليه خدمة عظيمة لا عاراً الصقه به - أن ينبذ صديقه شيشرون (وقد فعل) وهو ذلك الصديق الذي طوق عنقه بأعظم الخدمات في شتى المناسبات الوطنية، وتفصيل ذلك انه لما حاق الخطر بشيشرون وسأل پومپي العون رفض حتى مقابلته، وأغلق باب منزله في وجه من جاء ليتشفع فيه، وتسلل من الباب الخلفي الى الخارج. فأضطر شيشرون الى الرحيل عن روما سراً خوفاً من نتيجة المحاكمة.

وفي غضون ذلك، عاد [قيصر] بعد انهاء حملته العسكرية وأخذ يتبع سياسة بلغت به الحظوة في اعين الجماهير، وزادت كثيراً من نفوذه في المستقبل كما برهنت على انها سياسة مدمرة لكلّ من [پومپي] والجمهورية. فقد اقدم على ترشيح نفسه للمنصب القنصلي لأول مرة. ولمعرفته التامة بما بين [پومپي] و[كراسوس] من عداء ولأنه كان على ادراك تام بأن انضمامه الى احدهما سيجعل من الثاني عدواً له فقد جاهد بشتى الوسائل لاصلاح ذات البين فيما بينهما. وهو هدف نبيل بحدّ ذاته لو كان رائده فيه المصلحة العامة كانه وهو القائم به، كان اشبه بالمؤآمرة الماكرة الشريرة. فقد كان على علم تام بأن الاحزاب المتنازعة والفئات السياسية المتخاصمة في الجمهورية هي أشبه بركابٍ في قارب وضيفتها تحقيق التوازن في حركات القوى غير الثابتة والمتقلبة بفعل الامواج. فلو اتحدث تلك الاحزاب وانحازت كلها الى طرفٍ من القارب فانها ستحدث هزة تكون نتيجتها المحتومة اختلال توازن القارب وجرّ الجميع الى اعماق اللّجة. لذلك كان [كاتو] حكيماً في قوله للذين حمّلوا كل مصائب ونكبات روما عاتق النزاع بين [پومپي] وقيصر: انهم مخطئون بان يعزوا الى هذا الجرم كل ما حصل. فصداقتهما لا عداوتهما واتفاقهما لا اختلافهما هو الذي اصاب الجمهورية باوّل الضربات واعظمها.

وهكذا انتخب [قيصر] قنصلاً نشرع في الحال بالتزلف الى الكادحين والفقراء وخطب ودّهم بسنّ وتنفيذ تلك القوانين المتعلقة باستغلال اراضي المستعمرات ، وتوزيع الاراضي الزراعية عليهم، وهكذا انزل جلال منصبه القنصلي ليجعله اشبه شيء بمنصب التريبون. وعندما عارضه زميله في الحكم [بيبولوس Bibolus] وتحفز [كاتو] لعضد هذا ومساندته، دفع قيصر بـ[پومپي] الى المنصّة وطلب منه امام مـلأ من الناس الادلاء برأيه حول القوانين المقترحة فسارع [پومپي] باظهار رضاه عنها وموافقته عليها فقال [قيصر]:

- اذن فأنت مستعد للوقوف بجانب الشعب، اذا ما عمد أي شخص الى مقاومة تنفيذ هذه القوانين بالعنف؟

فأجاب [پومپي] يقول:

- اي نعم اني سأكون مستعداً، أما بالنسبة الى اولئك الذين يهددون بالاحتكام الى السيف، فسأتصدى لهم بالسيف والترس.

لم يؤثر عن [پومپي] قطّ أنه تفوه أو اقدم على شيء شبيه بهذا قبل ذلك اليوم. ولا ما يدانيه في التحدي والصلافة. مما دعا مشايعيه الى بذل الجهود العظيمة في الاعتذار عما بدا منه فقالوا: انها زلة لسان وعثرة غير مقصودة». إلاّ ان تصرفاته التالية دلت بوضوح أنه وضع نفسه في خدمة [قيصر] بصورة كليّة. فقد اقدم على غير انتظار وخلافاً لكل متوقع، على الزواج من [يوليا] بنت قيصر، وكانت مخطوبةً لغيره؛ وعلى اهبة الزواج من خطيبها [كيپيو] في غضون ايامٍ قلائل. ولأجل تهدئة غضب [كيپيو Cipio] عمد [پومپي] الى اعطائه ابنته التي كانت مخطوبة من قبل لابن [سيللا] المدعو [فاوستوس Faustus]. وتزوج [قيصر] في الوقت ذاته [كالفورنيا Calphornia] بنت [پيسو Piso].

وبعد هذا مـلأ [پومپي] مدينة روما بالجنود وفرض كل شيء اراده بالقوة. وفيما كان [بيبولس] القنصل متوجهاً الى الفورم برفقة [لوكولوس] و[كاتو] انقض بعضهم فجأة عليهم وكسروا حزم عصيّ الحرس الخاص وصبّوا على رأس [بيبولوس] اناءً مملوءً بالغائط وجرحوا اثنين من تريبونات الشعب كانا في معيتهما، جراحاً بليغة في اثناء الاشتباك. وهكذا نظف الفورم من خصومهما كافة. وتمكنا من فرض لائحة قانون تقسيم الاراضي وشرعوها. ولم يقف الأمر بهما عند هذا الحدّ فبعد ان ابتلعت جماهير الشعب هذا الطعم، وبات الجميع قاطبةً رهن اشارتهما لم تعد تسأل أو تستفسر عن اي امرٍ أو اجراءٍ وكانت تعطي اصواتها بالموافقة على كل مشروعات القوانين التي يقترحانها دون الاعتراض بكلمةٍ واحدةٍ. وهكذا ثبتا كلّ المراسيم

والاجراءات التي اصدرها [پومپي] وكانت موضع معارضة [لوكولوس] وقررّ الشعب تسليم حكم اقليم الغال جنوب الألب وشماله مع [الليريكوم Illyricum] لمدة خمس سنوات. كذلك أُمِرَ على جيش قوامه اربع فرقٍ كاملة العدد والعدة، ثم نصب للسنة التالية القنصلين [پيزو] حمو [قيصر] و[گابينيوس] أعظم متملقي پومپي وأكثرهم تزلفاً اليه.

وعلى أثر هذه الاجراءات، حبس [بيبولوس] نفسه في منزله ولم يظهر في الحياة العامة طوال ثمانية اشهر متوالية مع أنه كان قنصلاً. وإنما كان يرسل بيانات حافلة بالنقد الحاد والاتهامات ضدهما. و[كاتو] الذي ظهر أن اقواله كانت بمنزلة النبوءات والوحي المنزل، لم يفعل شيئاً في مجلس الشيوخ غير التكهن بما سيحلّ بالجمهورية وبـ[پومپي] من كوارث ومصائب أمّا [لوكولوس] فاعتزل الحياة العامة لتقدمه في السنّ وتقاعد مستسلماً لدواعي الراحة، الأمر الذي اتاح [لپومپي] فرصة القول ان متاعب الترف ما كانت أكثر ملاءمة لشيخ، من متاعب الحكم. والواقع ان هذا القول كان يعكس وضعه الشخصي، اذ لم يمرّ وقت طويل بعد هذا حتى ترك له شدّة تعلقه بزوجته الفتيّة، الحريّة لتُسلمه هو أيضاً الى حياة التخنث فقد أوقف عليها كل وقته، ولازمها الى المغاني الريفية والى الحدائق غير ملقٍ بالاً البتة على ما يحصل في [الفورم] الى الحَدّ الذي حمل[كلوديوس] الذي كان آنذاك تريبون الشعب، على ارتكاب أشد اعمال التهور والطيش. فبعد أن نفي [شيشرون]، وأرسل [كاتو] الى قبرص بمهمةٍ عسكرية تخلصاً منه، وخرج قيصر في حملته الى بلاد الغال، ما لبث ان وجد هذا [التريبون] أن الجمهور ينظر اليه كزعيم يستطيع ان يحقق كل رغباتهم. فحاول مباشرةً ابطال بعض مراسيم [پومپي]. وبدأ بان اخرج من السجن الملك الأسير [ديكران] وضمّه اليه وجعله أحد المقربين، ثم اتخذ اجراءات ضدّ عددٍ من اصدقاء [پومپي] هادفاً في ذلك الى توسيع سلطانه. ثم وفي مناسبة من المناسبات، كان [پومپي] حاضراً في مرافعة قضائية. فوقف [كلوديوس] في موضع يعلو على الآخرين وحوله جمع من رعاع القوم واوباشهم وراح يلقي على الجمهور أسئلة كالآتي:

- من هو الجنرال الذي انغمس في الملذات؟
- من هو ذلك الرجل الذي عشق رجلاً آخر؟
- من هو ذلك يحكّ رأسه بأصبع واحدة؟

وباشارة منه اذ يهزّ معطفه، يردّ الرعاع والسوقة على كلّ سؤال من هذه الأسئلة، كجوقٍ يرتلّ ترتيلاً مع المنشد. بصيحة عظيمة «پومپي، پومپي».

لم يكن هذا بالشيء الهين على [پومپي] الذي لم يتعود مطلقاً سماع اي تجريح بشخصه. كما كان أيضاً يفتقر الى التجربة في مواجهة مثل هذه الأمور. وقد تعاظم غضبه وحنقه عندما وجد مجلس الشيوخ ينضم الى هذه المظاهرة الدنيئة، وعدّها جزاءً عادلاً نزل به، لغدره [بشيشرون]. ولكن الأمر تفاقم وبلغ حَدّ القتال ووقوع اصابات في الفورم. وقبض على أحد عبيد [كلوديوس] وهو يزحف نحو پومپي متسللاً من بين الجمهور وبيده سيف مسلول. فأتخذ [پومپي] من ذلك حجّةً لاحتجابه في بيته، أو لربما اتخذها ذريعة للاحتجاب والتخلص من اهانات [كلوديوس] وبذاءة اقواله، فلم يظهر قطّ في الفوروم طوال بقاء [كلوديوس] في منصبه. ولازم منزله وقضى وقته في التشاور مع الموالين والاصدقاء حول ايجاد افضل الوسائل لتهدئة سخط الاشراف واعضاء مجلس الشيوخ عليه. ومن المقترحات التي بحثت اقتراح تقدم به [كولليو Culleo] بطلاق [يوليا] وفصم عرى صداقته مع [قيصر] استجلاباً لرضا مجلس الشيوخ، فلم يوافق عليه. واقترح آخرون استدعاء [شيشرون] من منفاه، وهو رجل كان على الدوام خصماً عنيداً لـ[كلوديوس] وموضع اعزاز واحترام مجلس الشيوخ. وسهل على الناصحين اقناعه بهذا، فاستدعى أخاً [لشيشرون] الى الفورم وارسل بمعينه ثلّة قويّةً لتقديم طلب الغاء حكم النفي عن أخيه. فحصل اشتباك عنيف قتل فيه عددٌ وجرح كثيرون، وتمّ له التغلّب على [كلوديوس]. وما ان عاد [شيشرون] الى داره بعد صدور المرسوم حتى خفّ باذلاً كل جهوده لإحلال الصلح بين [پومپي] ومجلس الشيوخ. وساند القانون الخاص باستيراد القمح وتمّ تشريعه وبذلك جعل [پومپي] السيدّ المهمين على كل ممتلكات الرومان بَرّاً وبحراً ووضع تحت سيطرته المباشرة جميع الموانيء والاسواق والمستودعات. وبمختصر القول كل مجال نشاط التجار والزراع. وهذا ما حمل [كلوديوس] على انتقاد القانون بقوله انه لم يُسنّ بداعي قلّة القمح بل ان ندرة القمح أفتعلت افتعالاً لأجل سنّ قانون يؤدي الى بعث الحياة في سلطان [پومپي] بعد أن تسربّ اليه الضعف والانحلال. ولكي يستعيد منصبه الامپراطوري من جديد. واعتبره آخرون خدعة سياسية احتالها القنصل [سبنثو] الذي كان من خططه ضمان المزيد من السلطة [لپومپي] وبذلك يؤمن لنفسه التعيين بمنصب قائد للحملة المزمع ارسالها لنجدة [پطليموس] الملك. على أن [كانيديوس Canidi-us] التريبون أقترح قانوناً آخراً يتمّ بموجبه ايفاد [پومپي] سفيراً دون جيش، بلا أكثر من [لكتورين] ليتوسط في حَلّ النزاع الناشب بين الملك [بطليموس] وأهالي الاسكندرية من رعاياه، الاّ ان [پومپي] لم يقبل، مع ان مجلس الشيوخ وضعه في قالب مقبول ظاهراً. وطرحه بشكل معقول، يتضمن ان المجلس ان يقررّ ذلك فلغاية وحيدة هي تحاشي تعريض [پومپي]

الى الأخطار، ألاّ انه عثر على رقاع مكتوبة - القيت هنا وهناك في الفورم وبالقرب من قاعة اجتماع مجلس الشيوخ اورد كاتبوها تعليقات ساخرة حول هذا القانون المقترح. كقولهم: كم سيكون [بطليموس] شاكراً لو عينوا [پومپي] جنرالاً تحت أمرته!، حتى [ديكران] الملك الأسير فقد قال مؤكداً أن [بطليموس] ترك مصر لا مضطراً ولا مكرهاً وانما نزولاً عند مشورة [ثيوفانس] ليس إلاّ، وكان هذا عند الادلاء بنصحه يرمي الى اتاحة الفرصة [لپومپي] كي يحصل على قيادة جديدة وبجمع المزيد من المال. إلاّ ان افتقار [ثيوفانس] الى الاخلاص لا يذهب به بعيداً الى الحدّ الذي يجعل هذه الحكاية معقولة. بقدر ما كان خلق [پومپي] بعيداً عنها. اذ كان طبعه ينفر من كل عملٍ دنيء خداع. مما يجعل الحكاية بعيدة عن الحقيقة رغم ما عرف عن [پومپي] من الطموح الى المجد.

وهكذا عيّن [پومپي] مديراً عمومياً للاعاشة والارزاق واتّسع سلطانه ليشمل كل تجارة الحبوب، وبعث بنواب له ووكلاء الى اطراف المعمورة. وقصد بشخصه كلاً من صقلية وسردينية وافريقية وجمع كميّات هائلة من الحبوب. وفيما هو يهمّ بالابحار عائداً الى ارض الوطن، هبت على البحر عاصفة هو جاء كاسحة وشك قباطنة السفن في السلامة، فما كان من [پومپي] إلاّ وتقدمهم الى السفينه فصعد اليها وطلب من البحارة رفع المرساة قائلاً بصوتٍ جمهوري، «لما كانت الضرورة تقتضي الابحار فلات ثم ضرورة للحياة» وبهذه الروح الوثابة والاقدام وبعد ان حالفه اليمن والتوفيق، أكمل رحلته الى الوطن بسلام وملأ الأسواق بالقمح، والبحر بالسفن ونجم عن توفير الارزاق بمقادير عظيمة، احتياطيّ كاف لا لمدينة [روما] وحدها بل للمدن الأخرى التي كان فيض الزرع يتمدّ اليها من كل طرف مثلما تتدفق مياه الينبوع الى كل جهة.

في تلك الاثناء، تعاظمت قوة [قيصر] واشتهر أمره بحروبه الظافرة في بلاد الغال. وفي الوقت الذي بدا بعيداً عن [روما] منشغلاً في قتال [البلجيك] و[السيوڤيين Suevians] و[البريطون، كان في الواقع يعمل في السرِّ وبغاية الدهاء بين الجماهير على مناهضة نفوذ [پومپي] في كلّ القضايا السياسية الهامة. وكان يتمتع بثقة جيشه الذي التفّ حوله كأنما هو جسدٌ له ودان له بالولاء المطلق واو كأنه لم يكن يستخدمه لأغراض الحرب وتحقيق الانتصارات على البرابرة، أو كأن قتاله مع البرابرة ليس غير تمارين رياضية وسباقات خيل وطراد. فقد بذل كل جهدٍ فيه وافنى اوقاته في تدريبه وضبطه فجعله مصدر رهبةٍ، لايمكن ان يقهر. هذا من جهةٍ، ومن جهة أخرى كسب عطف الشعب يتوزيع الذهب والفضة التي اغتنمها مع الأسلاب والكنوز الأخرى عليه ومَدّ يد العوف المالي «للايديل والپريتورين والقناصل» وسَدّ

حاجات زوجاتهم من النفقات. وبهذا تمكن من شراء ما يفوق الحصر من الاصدقاء والموالين. حتى انه لما اجتاز الألب عائداً، واتخذ مقره الشتويّ في مدينة [لوكّا] تقاطر عليه ما لايحصيه العَدّ من الناس رجالاً ونساءً يتزاحمون ويتدافعون بالمناكب ليحضوا بالتقرب منه،ومن بين مستقبليه هؤلاء مائتا عضوٍ من مجلس الشيوخ، بينهم [پومپي] نفسه و[كراسوس]. وشوهد أمام بابه مرة واحدة ما لا يقل عن مائة وعشرين لكيتوراً يحملون الفؤوس اشارة واضحة الى من وجد في مجلسه ممن يحملون رتبة [پرو قنصل] و[پريتور]. ولم يترك مستقبليه يعودون خالي الوفاض بل ودعهم وهم مثقلون بالأموال مفعمون بالآمال. ثم انه عقد مع [پومپي] و[كراسوس] اتفاقاً خاصاً على أن يقوما بترشيح نفسيهما للمنصب القنصلي للدورة القادمة. ووعدهما بارسال عددٍ من جنوده وقت الاقتراع لمنح اصواتهم لهما حتى اذا تمّ انتخابهما، وجب عليهما ان يستخدما نفوذهما ليفوزا بقيادة بعض الفرق الرومانية والاقاليم. ومقابل هذا يثبت [قيصر] في قيادته الحالية لمدة خمس سنوات أخرى.

ولما أفتضح أمر هذه الصفقة وعرفه عموم الناس، سبب سخطاً عظيماً بين كبار الرومانيين في المدينة. ونهض [مارچللينوس] في اجتماع عام طالباً من [پومپي] و[كراسوس] الجواب عما اذا كانا قد قررا حقاً التقدم للمنصب القنصلي وراح الجمهور يسانده في ذلك بالحاح فتكلم [پومپي] اولاً وقال من المحتمل ان يرشح نفسه وقد لا يرشح وكان [كراسوس] أكثر ليناً واقل صلافةً من زميله فقد ردّ يقول: انه سيفعل ما يراه أكثر تمشياً ومصلحة الجمهورية، ولكن [مارچللينوس] أشتد في هجومه على [پومپي] وصارحه بالرأي الذي استقرّ عليه الجميع في شخصه. وكان يتكلم بشيء غير قليل من الحرارة فردّ عليه [پومپي] قائلاً: أن [مارچللينوس] هو أبعد الناس عن الانصاف. لظهوره الآن بمظهر ناكر الجميل، بعد الذي صنعه له فجعله خطيباً وهو الأبكم العيّ، وارتفع به من حالة البؤس والجوع الذي كاد يميته، الى حالة التخمة والشبع، حتى انه ما عاد قادراً على ضبط نفسه.

ومهما يكن من أمرٍ، فقد سحب معظم المرشحين للمنصب القنصلي ترشيحهم. إلاّ ان [كاتو] شجع [لوشيوس دوميتيوس] واقنعه بابقاء ترشيحه قائلاً: ان القضية الآن ليست قضية منافسة على المنصب بل الحريّة لإنقاذها من الطغاة الغاصبين. فخشي انصار [پومپي] ان يؤدي اصرار [كاتو] العنيد، الى تأليب كل اعضاء مجلس الشيوخ، وبالتالي الى استمالة كل العناصر الطيبة من طبقة العامة وجرّها وراءه. فقرروا مقاومة [دوميتيوس] بدون ابطاء وعزموا على منعه من دخول [الفورم] وتحقيقاً لغرضهم هذا بعثوا بشرذمة من المسلحين الى الفورم واصطدموا باتباع [دوميتيوس] وهو يريد الدخول فقتلوا حامل مشعله الذي كان

يتقدمه منيراً له الطريق وهزموا الباقين وآخرهم [كاتو] نفسه الذي اصيب بجرح في ذراعه اليمنى اثناء ما كان يدافع عن [دوميتيوس]. بهذا الوسائل، رالأفاعيل تمكنا من الفوز بالمنصب القنصلي. ولم تكن تصرفاتهم اللاّحقة بالتي تقلّ عن هذا. ومن أبرزها، هو انه لما اتفقت كلمة الشعب على اختيار [كاتو] لمنصب البريتور وهمّ الناخبون بالإدلاء باصواتهم له، عمد [پومپي] الى فضّ الإجتماع متذرعاً بحدوث اشارة سماوية تنذر بالنحس، وبعدها نجح في شراء القبائل بالمال، فانتخبوا [ڤاتينيوس Vatinius] بريتوراً بدلاً من [كاتو].

وتقدم القنصلان الجديدان ايفاءً منهما بتعهدهما لقيصر بعدة قوانين اقترحها [تريبنيوس Trebinius] التريبون تضمنت تجديد فترة حكم [قيصر] على اقليمه لمدة خمس سنوات أخرى، كما عهد الى [كراسوس] بحكم سورية وقيادة الجيش في الحرب مع الفرثيين. وانيط [بپومپي] حكم كلّ افريقيا مع اقليمي اسپانيا، وسلموه قيادة اربع فرقٍ عسكرية، ما لبث ان اعار اثنتين منها [لقيصر] بناء على طلبٍ منه، لاستخدامها حروب الغاليين.

وما ان انتهت مدة قنصلية [كراسوس] حتى رحل الى اقليمه [سورية] في حين تلكأ [پومپي] فترةً من الزمن في [روما] لافتتاح ملعبه، وقدم فيه للجمهور كل ضروب الالعاب والتمثيل بضمنها التمارين الرياضية والموسيقى. وكان ثم مشاهد صيد الحيوانات الضارية ومصارعتها، حتى قيل انه قتل خلال ذلك خمسمائة أسدٍ وكان اغرب ما فيها وأكثره هولاً قتال الفيلة. قتال بهذه الحفلات شهرةً وعظم قدرة عند الشعب. إلاّ انه من الجهة الثانية خلق له من الحساد ما لايقلّ عن المحبين بتسليم حكم الاقاليم المناطة به وقيادة فرقة التي أُمِرَ عليها الى اصدقائه ومساعديه في حين كان يتنقل هنا وهناك، ويقضي كل اوقاته مع امرأته في مغانيه التي لايخلو منها مكان في ايطاليا. والأمر سواء، أكان شديد الحب لها، أو كانت هي شديدة التعلق به، فتحاشى ايلامها بالرحيل عنها. فالمسألة واحدة من هذه الأمور كما أشيع. وكان الحبّ الذي خصت به هذه الزوج الفتيّة بعلها الكبير السنّ موضع الملاحظة العامة، وقد عزي كما يبدو الى اخلاص [پومپي] للحياة الزوجية ورصانة اخلاقه التي كانت تمتاز بقدر كبير من الدماثة واللطف في الروابط الخاصّة، كذلك كان هو بصورة خاصةً محبوباً عند النساء، ويمكن ان يتخذ عن [فلورا] العاهرة خير دليل على ذلك.

واتفق انه ثار نزاع دمويّ في الجمعية العامة اثناء عملية انتخاب [الايديل] واقتتل الجمهور فيما بينه فسقط بعض ممن كان يحيط بـ[پومپي]. ولما وجد ثيابه ملطخة بالدماء، أمر ان يؤتي لهم بثياب أخرى. إلاّ ان الخدم الذين عادوا ثيابهم الملطخة اثاروا جلبة وضوضاء بركضهم في ارجاء المنزل وصادف ان رأت السيدة الشابة التي كانت وقتئذ حاملاً، تلك الثياب

الدامية ففقدت وعيها ولم تعد الى الحياة إلاّ بعد لايء، وادركها المخاض في غمرة رعبها ولشدّة وقع الصدمة فاجهظت.

ولم يكن أحد يستطيع لومه بسبب شدة تعلقه بهذه الزوج الوفيّة حتى أولئك الذين وقفوا ضدّه بسبب صداقته [لقيصر]. وقد حملت ثانية ووضعت بنتاً وقضت نحبها وهي في فترة النفاس ولم تعمر البنت بعدها غير ايامٍ قلائل فماتت. وكان [پومپي] قد هيّأ كل شيء لدفن جثمانها في منزله. إلاّ ان الجمهور استولى عليه عنوةً وقام بالمراسيم الدينية المقتضية لها في ساحة [مارس] تعبيراً عن شدّة تعلقه بالسيدة الصغيرة. وتفضيلهم لها على [پومپي] و[قيصر]. ومع هذا فان الجمهور على ما بدا، كأن وقتذاك يخصّ [قيصر] بنصيبٍ من التكريم في غيابه أوفر مما كان يخصّ به [پومپي] وهو حاضر.

وعلى حين غرّة أخذت المدينة تغلي، وتفور فوراناً كما يقال - باقتراب هبوب العاصفة وساد الهرج والمرج في كل مكان وشاع القلق في النفوس، وذاعت الاحاديث التي تفوح منها رائحة التفرقة والشنآن. فقد وضع موت [كراسوس] نهاية لعلاقة كانت حتى تلك الساعة قناعاً زائفاً أكثر من كونها وسيلةً طغيان واطماع الرجلين [پومپي وقيصر]. اذ ما مر طويل زمنٍ على ذاك الإتفاق الثلاثي، حتى جاءت الرسل من بلاد فارس تنعي [كراسوس]. فازيل بهذا الموت حاجزٌ آخر من شأنه ان يمنع نشوب الحرب الأهلية، لأن [قيصر] و[پومپي] كانا شديدي الحذر من [كراسوس]، وكانت رهبتهما منه تشدانهما بعضاً الى بعض نوعاً ما وتجعلهما ضمن حدود التصرفات المعقولة، طالما كان في الحياة. والآن وبعد أن هصرت آلهة الحرب هذا النصير الذي كان من الممكن أن يهبّ أقليمه لمقارعة الغالب والثأر للمغلوب، فلك أن تنشد قائلاً مع الشاعر الساخر:

المحاربون ينتظرون البدء بالقتال.

وكل منهم قد عفر يديه بالتراب ودهن بالزيت جسده.

لقد بلغ الحظّ من التفاهة امام الطبع البشري وبلغ من عجزه عن ارضاء عقل الطمّاع، أنّ امبراطورية مترامية الأطراف عظيمة السلطان تقف عاجزةً عن ارضاء واشباع اطماع رجلين فقط، ومع انهما قرآ وادركا جيداً:

إن الآلهة عندما قسّمت هذا الكون الفسيح بين ثلاثة: السماء والبحر وجهنم،
جلس كل واحدٍ منهما على عرشه قانعاً كل آله منهم يتمتع بملكه دون منافسةٍ.
فانهما وجدا الامبراطورية الرومانية أضيق من ان تحتويهما معاً... وهما اثنان فقط!

مَرّةً، ذكر [پومپي] في احدى خطبه الشعبية، انه كان دائماً يتسلّم السلطة دون ان يتوقع وجوب ذلك وانه كان كذلك يتخلّى عنها قبل أن يتوقع الناس تخليه عنها. ولاشك أن تسريح كل جنوده يدلّ على صحة قوله. ومع ذلك عندما وجد أن [قيصراً] لايريد تسريح قواته. حاول بكلّ ما في طاقته تقوية نفسه والاستظهار عليه بتولي المناصب والقيادات في روما، ولم يبد خلاف هذا اية رغبةٍ في اجراء ايّ تغيير. ولم يكن يظهر عليه أنه يشكّ فيه، بل كان بالأحرى يحتقره ويزدريه. وعندما تبين كيف كانوا يفرقون المناصب الحكوميّة ويعنيون خلافاً لرغبته تماماً بسبب الرشاوى التي كانت تعطى للناخبين، ترك للأمور الحبل على الغارب، وأرخى العنان للمدينة لتسير امورها بدون حكومة. واذ ذاك أخذ الحديث يدور حول وجوب تعيين دكتاتور. وكان أوّل الداعين الى ذلك [لوكولس] احد تريبونات الشعب فقد راح يحثّهم على نصب [پومپي] دكتاتوراً. إلاّ ان هذا التريبيون كاد يُعزل من منصبه للمعارضة التي لقيها اقتراحه من [كاتو]. امّا [پومپي] فقد ابذى اصدقاء كثيرون له يعتذرون عن هذا الاقتراح قائلين انه كان زاهداً بهذا المنصب ولم يكن ليريده قطّ - ولما القى [كاتو] خطبة ثناءٍ على [پومپي] وحثّ على التمسك بقضية الأمن والنظام في الجمهورية، انتاب [پومپي] الخجل من موقفه ورضخ. وبناء على ذلك انتخب كل من [دوميتيوس] و[ميسالا Messala] قنصلين لتلك الفترة. إلاّ ان الفوضى ما لبث أن عمت بعد ذلك بوقت وجيز، وحُلّ ما يدعى بالفراغ في الحكم. فزاد الكلام حول ضرورة تعيين دكتاتور وغدا أقوى كثيراً من السابق. وفكّر انصار [كاتو] بحلّ آخر بخصوص [پومپي] خلاف حَلّ تعينيه دكتاتوراً، ووجدوا الحكمة نقضي ابعاده عن السلطة المطلقة المستبدة بمنحه منصباً يتضمن سلطة واسعة إلاّ انها مقيدة باحكام القانون ان [بيبولوس] الذي كان خصماً [لپومپي] كان الأسبق باعطاء صوته في مجلس الشيوخ على أساس تعيين [پومپي] قنصلاً أوحد، وقال في تبرير اقتراحه: ان الجمهورية ستواجه في هذه الحالة امرين لا ثالث لهما، فإما ستزول الفوضى والاضطراب وإما ستخفّ وطأة عبوديتها باختيارها الأجدر والأفضل.

وعدت هذه الفكرة غريبة جداً من رجل [كبيبولوس]. لذلك كان الجميع يتوقعون معارضة [كاتو] لها عندما نهض للكلام. ولما ران السكون قال: انه لم يكن ليرغب لنفسه أن تتقدم بهذا الاقتراح. ولكن مادام صدر من آخر غيره فمن الواجب الأخذ به. واستتلى يقول ان كل شكل من اشكال الحكم. أفضل من عدم وجود حكم. وانه لا يرى شخصاً أكثر لياقة من [پومپي] ليتولاه في مثل هذا الظرف العصيب والفوضى السائدة. فتمت الموافقة على الاقتراح بالإجماع وصدر مرسوم يقضي بأن ينصب [پومپي] قنصلاً أوحد. بقيد واحد وهو ان

له الحق في اختيار من يشاء ليحكم معه كقنصل ثانٍ اذا وجد ضرورة لذلك. على أنه لايستطيع استخدام هذا الحق إلاّ بعد مرور شهرين من قنصليته.

وبهذا أعلن [پومپي] قنصلاً أوحد من قبل [سولپيشيوس] الوصي على هذا المنصب الشاغر. وعندها ابدى امتنانه العميق [لكاتو] مصرحاً بأنه مدين له شخصياً وراجياً منه ان يمحضه النصيحة في شؤون الحكم فاجابه [كاتو] قائلا:

- لا داعي هناك لشكرى لان كل ما فعلته انّما لمصلحة الجمهورية لا لمصلحتك الشخصيّة. ألاّ اني سأكون مستعداً على الدوام لتقديم نصح شخصيّ اذا طلبت منيّ ذلك. فإن لم تطلب، فإني لن اتردد أو أتاخر عن التصريح بما اراه حقاً...

كذا كان سلوك كاتو في جميع الظروف والمناسبات



وعند عودة [پومپي] الى المدينة تزوج من [كرونيليا] بنت [ميتللوس سكيپيو] ولم تكن باكراً، بل كانت ارملة [پوبليوس] ابن [كراسوس] الذي توفي حديثاً في بلاد الفرس. وقد جمعت هذه السيدة الصغيرة الى شبابها وجمالها صفات أخرى، فقد امتازت بعلو الثقافة واجادة العزف عن العود، ألمّت بالهندسة. وأعتادت ارتياد دروس الفسلفة واستيعابها. وكل هذا كان قميتاً بأن تتحلى به الفتيات الطموحات العاطلات عن الجمال، بدرجات متفاوتة. كما يلاحظ المرء أحياناً في سلوكهن هذا السبيل من التتبعات. ولم يكن ثمّ ما يشين أسرة ابيها ولا ما يشوب سمعته فضلاً عن ذلك. الاّ أن الفارق الجسيم بين عمريهما لم يقع موقع رضى واستحسان من الجميع. وكانت [كورنيليا] من هذه الناحية أنسب للزواج من ابن [پومپي] ورأى اصحاب الحَلّ والعقد الأوفر عقلاً أن فيه اهانة موجهةً للجمهورية بعد أن شاهدوا ذلك الذي او دعوا اليه وحده مصائرهم ومستقبلهم المدلّهم، منتظرين منه ما ينتظرونه من طبيب يقوم بشفاء هذه المضاعفات والنكسات، وهو يتنقل من مكان الى آخر متوجاً بالزهر، يحي مآدب عرسه دون ان يفكر بأن القنصلية التي عهدت اليه، ما أعطيت له خلافاً للقواعد القانونية، لو كانت حالة البلاد مستقرة مزدهرة. ومهما يكن من أمرٍ فانه بدأ بعد ذلك يهتمّ في امور اخرى فراح يتعقب قضايا اولئك الذين وصلوا الى مناصبهم عن طريق الرشاوى والتقرب بالعطايا وأصدر مراسيم تقضي بمحاكمتهم وأصول المرافعات التي تتبع فيها ونظم ذلك بكلّ عدل ورزانة فاعاد بذلك الى قاعات المحاكمة الهدوء والنظام. وكان يحضر تلك المحاكمات بنفسه مصحوباً بعدد من الجند.

ولكن لما اتهم [سكيپيو] حميّه، استقدم الى داره القضاة الثلاثمائة والستين وطلب منهم ان يكونوا الى جانبه.

وعندما شاهد المشتكي [سكيپيو] المتهم، قادماً الى المحكمة برفقة قضاته لم يسعه إلاّ ان يسحب شكواه، واتهاماته له، الأمر الذي اثار الأقاويل الكثيرة على سلوك [پومپي] والانكى من هذا كله بمالا يقاس ما أقدم عليه في قضية [پلانكوس Plancus]. فقد أقبل الى المحكمة بنفسه حيث يحاكم هذا الشخص وقام خطيباً يمدح المهتم ويطري اعماله في الوقت الذي كان هو نفسه قد اصدر قانوناً منع بموجبه القاء كلمات المديح والاطراء بحق المتهمين اثناء محاكمتهم؛ الأمر الذي حدا بـ[كاتو] الذي كان واحداً من القضاة آنذاك - الى أن يضع اصبعيه في أذنيه قائلاً ان ضميره يأبى عليه الاصغاء الى اطراء ممنوع بحكم القانون. فعُزل [كاتو] ونحي عند مجلس القضاء في هذه الدعوى قبيل صدور الحكم. الاّ ان بقية القضاة ادانوا [پلانكوس] مع هذا وهو ما الحق [پومپي] العار. وبعد ذلك بفترة وجيزة، وقف [هيپسيوس Hypaseus] وهو من القناصل السابقين ينتظر بباب [پومپي] عودته من الحمام لتناول العشاء، وكان متهماً بقضية. فما أن رآه مقبلاً حتى خسرّ جاثياً على قدميه متوسلاً به ليتشفع له في مسألته. إلاّ أنه اجتازه وتركه جاثياً باحتقار قائلاً له «أنك بهذا أفسدت عليّ عشائي ليس إلاّ».

لقد عُدّ هذا التحيز وتلك المحاباة من [پومپي] نقصاً كبيراً فيه وحُمّل بسببه انتقاد الكثيرين. ومهما يكن من امر فإن تصريفه للشؤون العامة الأخرى كان متسماً بطابع الحكمة والتعقل. فقد أرسى قواعد الحكم على أفضل النظم. واختار حميّه زميلاً له في القنصلية للأشهر الخمسة الأخيرة من فترته. وبقيت الأقاليم التي انيط به حكمها لأربع سنوات تالية، مع تفويضه بحق سحب ألف [تالنت] سنوياً من الخزانة العامة لدفع مرتبات جيشه.

كل هذا أفسح المجال لبعض اصدقاء [قيصر] بأن يطالبوا لصاحبهم ببعض الاهتمام والرعاية أيضاً. قالوا انه هو الآخر قد أدى خدمات جليلة في ميادين الحرب وخاض غمار معارك عديدة في سبيل الامبراطورية وزعموا انه يستحق على أقل تقدير المنصب القنصلي لفترةٍ ثانية. أو أن تجدد له فترة حاكميته على اقليمه لتتسنّى له فرصة الحكم والاستمتاع في وقت السلم بما احرزه في الحرب. وليس من العدل في شيء أن يأتي خَلَفهُ ليجني ثمار مجهوداته واتعابه وليسلبه مجد أعماله، وقد نجم عن هذه الاحاديث مناقشات ومداولات. وحمل [پومپي] على عاتقه مهمة ترويج الدعوة [لقيصر] بدافع العطف كابتاً اي شعور حسدٍ يحمله له. فأخذ يردد قائلاً انه تسلّم من [قيصر] رسائل يعبر له فيها عن رغبته بالاستقالة

من القيـادة ويطلب تعيين خلفٍ له. وانه ليس من العدل في شيء انه تلبى هذه الرغبة فيه، بل من الحق ان يسمح له بترشيح نفسه للمنصب القنصلي ولو كان غائباً. إلاّ أن أنصار [كاتو] عارضوا في هذا قائلين: إن كان [قيصر] يريد تقديراً من المواطنين على اعماله، فينبغي له أن يتخلّى عن جيشه ويأتي الى روما كأي شخصٍ اعتيـادي لترشيح نفسه. فلم يردُّ [پومپي] على هذا القول، وتركه يمرّ دون تعليق، كأنما اسقط في يده، وخذل اقتراحه. مما زاد في شكوك اولئك الذين كانوا يعتقدون بأنه يضطغن [لقيصر]، كما أنه أسرع في الوقت نفسه يستقدم الفرقتين اللتين كان قد اعارهما له متعللاً بالحرب الدائرة في بلاد فارس. ومع ان [قيصراً] كان على علم تامٍ بالدافع الذي حمل [پومپي] على استردادهما فلم يتلكأ واعادهما الى الوطن مثقلين بالعطايا والهبات السخية.

في حدود هذا الزمان أبلّ [پومپي] من مرضٍ خطير فوجيء به وهو في [ناپلي]. وباقتراح تقدم به [پراكساگوراس Praxagoras]، قام أهالي المدينة كلهم بتقديم الضحايا ورفع صلوات الشكر للآلهة على سلامته، واحتذت البلدان المجاورة حذو ناپلي وقامت ايطاليا كلّها تقرب الى الآلهة بهذه المناسبة فلم تبق مدينة صغيرة كانت أم كبيرة الاّ واحتفلت بذلك ولعدّة ايام.

وتقاطرت جموع غفيرة جداً لزياراته من جميع الأطراف حتى لم يكن ثم مكان لاستيعابها وأكتظت القُرى والثغور بل امتلأت الطرق الخارجية بالناس وكلهم يحتفل ويقرّب للآلهة وقصده كثير منهم وقد توجوا رؤوسهم بأكاليل الزهر وحملوا المشاعل وراجوا ينثرون عليه الورد وباقات الزهر اثناء مروره. وهكذا كانت مناسبة شفائه واستقباله واحدة من أبدع وافخم ما يمكن للمرء أن يتخيله. على ان هذا الأمر بالذات أعتبر سبباً ليس بالصغير الشأن من الأسباب التي أدت الى وقوع الحرب الأهلية، ذلك لأن [پومپي] الذي تغلب على نفسه الشعورُ بالعظمة والسؤود، واعماه عن تلمس الاعتبارات الأخرى الأكثر ثباتاً، ورجاحة، فقد توازنه بمظاهر التمجيد الفخمة والفرح العام، واطرح ذلك العقل الذي كان حتى تلك الساعة يهديه الى أسلم استعمال لحظّه الحسن. واستسلم لتلك الثقة المفرطة بنفسه واستخف بسطوة [قيصر] حتى لم يعد يفكر بمدى قوة السلاح ولا بأخذ الحذر لنفسه وتوهم أن بامكانه أن يعتقله متى ما شاء ويقذف به من حالقٍ بأسهل مما كان قد رفعه. فضلاً عن هذا فإن [آپيوس] قائد الفرقتين اللتين اعادتهما [قيصر] الى [پومپي] من بلاد الغال، راح يكلّم [پومپي] مستهيناً باعمال قيصر هناك مزدرياً كل ما حققه ونشر أخباراً شائنة وفضائح حوله وكان لايفتأ يردد على مسامع [پومپي] متملقاً بأنه لايدري كم هو قويّ حسن السمعة وسيفلح

بذلك مهما كانت القوات التي يستخدمها ضدّ قوات [قيصر] وان بغض الجنود [لقيصر] يعادله حبهم له بحيث لن يترددوا في الإنضمام اليه ساعة يبرز لهم شخصه. وهكذا انتفخت اوداج [پومپي] بما سمعه من اطراء ومداهنة وادّى به ذلك الى اطراح جانب الحذر واللامبالاة وراح يضحك مستخفاً بأولئك الذين أخذوا يبدون تخوفهم من الحرب وقال بعضهم متسائلاً.

- اي قوى ستقف في وجه [قيصر] لو شاء ان يزحف على روما؟

فاجابه [پومپ] مبتسماً مطيباً الخواطر:

- انعموا مالاً. ففي الوقت الذي اخبط بقدمي على أيه أرض من ايطاليا نستخرج فوراً قوات كافية من الخيالة والرجالة!

***

وكان [قيصر] من الجهة الأخرى يزيد من نشاطه وعنف اجراءاته فهو على الدوام قريب من الأرض الايطالية، ولذلك عمد الى ارسال جنوده باستمرار الى المدينة ليحضروا الانتخابات ويدلوا باصواتهم كما انه نجح في افساد ضمائر عددٍ كبير من القضاة، ووضع اسماءهم في قوائم من يدفع لهم، ومن بين أولئك [پاولوس] القنصل الذي اشتراه وضمه الى حزبه، برشوة قدرها ألف وخمسمائة تالنت، و[كيوريو Curio] تريبون الشعب الذي قام عنه بايفاء كل ديونه المتكاثرة عليه. و[مارك انطوني Marc Antony] الذي أصبح مرتبطاً به بعين الارتباطات التي شدت اليه الآخرين، بسبب صداقته [لكيوريو]. ومن الوقائع المرويّة الثابتة أن [سنتريوناً] من جيش [قيصر] وقف عند باب قاعة مجلس الشيوخ منتظراً تجديد عقد خدمته سنة اضافية. وعندما سمع أن طلبه هذا قد رفض مد يده الى سيفه وضرب كفّها عليه قائلاً:

- هذا هو الذي سيجددها سنة أخرى.

والواقع ان كلّ أعمال [قيصر] ونشاطه كان يشير الى نواياه ويفصح عن اغراضه. على أن مقترحات [كيوريو] وطلباته لمصالح [قيصر] كانت تبدو في مظهرها شعبية، تتوخى المنفعة العامة. فمما أقترحه هو ان يؤخذ بأحد أمرين: إما ان يطلب كذلك من [پومپي] التخلّي عن قيادة جيشه. وامّا ان يبقى [لقيصر] ايضاً جيشه. اذ لو عاد كلاهما مواطنين عاديين فسيرضخان لهذا التدبير العادل البسيط. ولو أحتفظ كل منهما بسلطته الحالية فسيكون كل واحدٍ منهما نداً للآخر وسيقنعان كلّ بما في يده. لأن ما يُضعف أحدهما يقويّ الآخر وبذلك تطغى تلك السلطة التي كان يخشى منها في السابق. وكان كل ما أجاب [مارچللوس] عليه

في هذا الصدد قوله أن [قيصر] لصّ، ويجب أن يعلن بأنه عدوّ للدولة إن لم يسرّح جيشه. ومهما يكن من أمرٍ فقد نجح [كيوريو] في مسعاه بمساندة كل من [انطوني] و[بيزو] ووضع اقتراحه موضع تصويت في مجلس الشيوخ. وطلب من أولئك الذين يرون وجوب قيام [قيصر] بالتخلي عن جيشه وبقاء [پومپي] على رأس جيشه الانسحاب، فانسحبت الأغلبية. لكن لما طلب انسحاب اولئك الذين يرون وجوب قيام كليهما بتسريح جيشيهما التخليّ عن القيادة لم يصوت لـ[پومپي] غير اثنين وعشرين امّا الأغلبية فقد وقفوا الى جانب [كيوريو] وهنا قفز على قدميه فخوراً بنصره ونزل الى المدينة بين الجماهير في موكب نصرٍ، فاستقبلته بأعظم مظاهر الفرح مصفقةً مهللة وتوجته بالغار والازهار ولم يكن [پومپي] اثناء ذلك ذلك كله موجوداً. اذ يقضي القانون ان يمنع القواد المتسلمون قيادات عسكرية الدخول الى المدينة. الاّ ان [مارچللوس] نهض من مقعده. وقال وهو يهم بالخروج «انه لم يجلس هنا لسماع الخطب في حين تعبر عشر فرق جبال الألب زاحفةً نحو المدينة. وانه بمقتضى السلطة التي يملكها سيقوم بارسال أحد ما للتصدي لها دفاعاً عن سلامة البلاد.

وعلى أثر ذلك خيّم الوجوم على المدينة وارتدت الحداد كأن نكبة عامة وقعت عليها. وخرج [مارچللوس] يرافقه اعضاء مجلس الشيوخ بموكب مهيب الى الفورم لمقابلة [پومپي] ووجه اليه العبارات الآتية:

- اني اعطيك يا پومپي الأمر بالدفاع عن بلادك، ولك ان تستخدم الجنود الذين هم الآن تحت امراتك وان تجند ما تنستبهُ.

وأعقبه [لنتللوس] القنصل المنتخب للفترة القادمة بنفس المآل. على ان [أنطوني] خلافاً لأمر مجلس الشيوخ خرج الى الجمهور وتلا في اجتماع عام رسالة وردت من [قيصر] تتضمن عروضاً معقولة في ظاهرها، من شأنها اجتذاب البسطاء من الناس، كاقتراحه ان يتنازل هو و[پومپي] عن السلطة ويسرّحا جيشيهما ويخضعا لحكم الشعب، ويقدما امامه حساباً عن أعماله. وقد ادّى هذا الى خيبة [پومپي] عندما بدأ في التجنيد فقد لبىَّ الدعوة نفر قليل بدون رغبة. أما البقية فلم يلبوا الدعوة التي وجهت اليهم بالأسماء. وطالبت أغلبية الشعب بالسلام. ولم يجمع [لنتلوس] مجلس الشيوخ مع انه أخذ يمارس الآن سلطاته القنصلية. إلاّ أن [شيشرون] الذي عاد مؤخراً من [كيليكيا] حاول جهده اجراء الصلح مقترحاً أن ينزل [قيصر] عن أقليم الغال، ويتخلى عن قيادة الجيش المرابط فيه ويحتفظ بفرقتين فقط مع احتفاظه بحكم اقليم [ايلليركوم] وان يقدم على ترشيح نفسه للمنصب القنصلي مرة ثانية. ولم يعجب [پومپي] الاقتراح. أما اصدقاء [قيصر] فقد رضوا بأن يتخلى صاحبهم عن واحدٍ

من الاثنين. إلاّ أنّ [لنتلّوس] ظلّ معارضاً. وانشأ [كاتو] يهتف صائحاً ان [پومپي] ليرتكب زلةً كبيرة، اذ سمح لنفسه أن يكون مخدوعاً للمرة الثانية. وهكذا فشلت محاولة الصلح.

وفي عين الوقت وردت ابناء مفادها أن [قيصر] قد استولى على [أريمنيوم Ariminum] وهي مدينة ايطالية كبيرة، وانه يزحف رأساً الى روما بكلّ ما لديه من قوات. الا ان الجزء الثاني من النبأ لم يكن له أساس من الصحة. اذ لم يكن معه في ذلك الوقت أكثر من ثلاثمائة من الخيالة، وخمسة آلاف من الرّجالة. ولم يكن يريد أن يتعوق زحفه بانتظاره وحدات جيشه كلها التي كانت معسكرة وراء جبال الألب مفضلاً مفاجأة اعدائه وهم في حالة الاضطراب والفوضى، غير متوقعين مداهمته، على اعطائهم وقتاً كافياً لمنازلته وهم مستعدون. وعلى ما نعتقد أن توقفه برهة عند بلوغه ضفاف نهر [روبيكون Rubicon] الذي يفصل ما بين اقليمه وايطاليا – كان سببه تقليب رأيه في الأمر الجلل الذي يهّم بالاقدام عليه وانعام النظر فيه. كأولئك الرجال الذين يقذفون بأنفسهم دون تردد من شفا جرف الى هاوية لاقرار لها. أغمض بصيرته، واطرّح جانباً كل فكرةً عن الخطر الذي قد يحدق به، وسمعه من كان قريباً منه يقول باليونانية:

- Amerriphtho Kubos. لقد رمي النرد!

ثم سار في طليعة جيشه نحو روما.

ولما بلغت الانباء أهلها هاج هائجهم وضجّ ضجيجهم بشكل لم تره المدينة من قبل، وهرع اعضاء مجلس الشيوخ جميعاً الى [پومپي] فوراً ولحق بهم الحكام. وسأله [توللوس Tullus] عن فرقه وقادته. فصمت پومپي بعض الوقت ثم اجابه بشيء من التردد أن لديه تلكما الفرقتين اللتين اعادهما اليه [قيصر] وهما مهيئتان. كما انه قادر على تجريد ما يناهز الثلاثين ألفاً ممن دعوا للخدمة. فصاح تللوس:

- آه لك يا پومپي، لقد غششتنا.

وأقترح ارسال وفد مفاوض الى [قيصر]. أمّا [فافيونيوس Favonuis] وهو انسان قويم الخلق إلاّ انه كان يحسب ان كلامه اللاذع القاسي مطابقاً لصراحة كلام [كاتو]، فقد طلب من [پومپي] أن يضرب الأرض بقدمه لتخرج منها القوات التي وعدهم بها من قبل. ولكن [پومپي] احتمل وهو كاظمٌ هذا المزاح الذي لم يكن في محله. وعندما ذكرّه [كاتو] بما كان قدّ تنبأ به حول [قيصر] منذ البداية، لم يفتح من جواب على [پومپي] الاّ قوله: ان [كاتو]

قد نطق بوحيّ النبوّة فعلاً، لكن [پومپي] تصرف بمثابة صديق. واقترح [كاتو] بعد هذا، أن ينصب [پومپي] جنرالاً، وان يمنح صلاحيات وسلطات مطلقة قائلاً ان اولئك الذين يرتكبون أكبر الشرور هم ادرى من غيرهم بكيفية ازالتها. ثم انه غادر المدينة متوجهاً رأساً الى صقلية وهي الأقليم الذي كان قد أنيط به حكمه. كذلك رحل كل الشيوخ الآخرين، الى مناطق وظائفهم.

وهكذا أمست ايطاليا في حالة حرب. وحار الناس فيما يختارون عمله؟ فمن كان «لا يسكن المدينة هرع اليها من كل صوب محتمياً بها. ومن كان من قاطنيها صار يشاهد الفوضى والاضطراب اللذين ساداهما، ويرقب انفراط حبل الأمن والنظام وشق عصا الطاعة على الرؤوساء وعصيان الأوامر وهو ما كان أعظم وأخطر مما يتمكن الحكام من معالجته، فأخذوا يتركون المدينة بأسرع مما يدخلها القادمون، واستحال تبديد مخاوفهم وقلقهم، بحيث أنهم ما كانوا ليَدعوا [پومپي] يتبع ما يوحيه اليه ضميره وراح كلٌّ من جانبه يلّح ويلحف عليه لتنفيذ ما يراه مناسباً وصحيحاً وان كان منشأ رأيه الشكّ أو الخوف أو الحزن. أو أي عاطفة أخرى أدنى قدراً من هذه. فكان يتخذ قرارين مختلفين في يومٍ واحد.

وتعذر أيضاً الحصول على انباء صحيحة عن حركات العدوّ. وكان كل من سمع بالصدفة اشاعة طائرة، ينقلها ويتداولها باعتبارها حقيقة ثابتة. ويستنكر من [پومپي] عدم الأخذ بها على علاّتها أخيراً بعد أن رأى [پومپي] مبلغ الفوضى التي تعّم روما، أعتزم في نفسه ان يضع حداً لها برحيله عنها. فأمر أن يلحق به اعضاء مجلس الشيوخ كلهم، وأعلن بأنه يعتبر كل متخلف منهم متواطئاً مع [قيصر] وصنيعة له. وعند الغسق - قبيل مغرب الشمس خرج من المدينة وخلفها وراءه وتبعه القنصلان فوراً دون ان يسمح لهما الاستعجال بالتقريب الى الآلهة كما هي العادة قبل كل حرب. ولكن [پومپي] حاز الشرف بين الجميع اذ ظلّ وسط هذه المحن والشدائد محنفظاً بقلوب الرجال وثقتهم. ومع أن الكثير انتقدوه على سوء ادارته دفة الحرب، الاّ انه لم يكن ثم رجل واحد كره القائد. وعلينا هنا التمييز بين أولئك الذين خرجوا من روما لأنهم لايستطيعون التخليّ عن [پومپي]، وبين أولئك الذي هربوا منها حُبّاً في حرياتهم.

بعد مرور ايام قلائل على خروج [پومپي]، دخل قيصر روما وبسط نفوذه عليها وعامل الجميع بقدر كبير من اللطف وهدأ روعهم وازال مخاوفهم باستثناء [ميتللوس] احد التريبونات الذي رفض ان يمكّن [قيصر] من أموال الدولة، فهدده [قيصر] بالموت، وزاد على تهديده هذا عبارات اشدّ وقعاً. كان اسهل عليه ان يفعلها من أن يقولها. وطرد [ميتللوس]

وأخذ ما يحتاجه لتصريف أموره. وأنطلق لتعقيب [پومپي] باذلاً قصاراه لطرده بأسرع ما يمكن من ايطاليا قبل ان يلحق به جيشه المرابط في اسبانيا.

على ان [پومپي] وصل [برنديزيوم] وكان تحت تصرفه عدد كبير من السفن منها. فطلب من القنصلين الاقلاع فوراً. ونقل معهما ثلاثين كتيبة من المشاة على ان يلحق بهم فيما بعد - الى [ديراكيوم Dyrrhachium]. كما بعث حميّه [سكيپيو] وابنه [كينوس Cnaeus] الى سورية لاعداد اسطول. ووضع أخفّ مشاته حرساً على الأسوار واصدر الأوامر المشددة بأن لايغادر أهل المدينة منازلهم. وأخذ يحفر الخنادق ويقيم الموانع ويدق الاوتاد المدببة والعوارض في كل طرق المدينة باستثناء طريقين اثنين كانا يؤديان الى ساحل البحر. وبهذا تمكن في ظرف ثلاثة أيام من اخلاء بقية جيشه بسهولة. ثم اعطى فجأة اشارته للجنود القائمين على حراسه الأسوار بالانسحاب فأنسحبوا بسلام الى السفن المعدة لهم فركبوها وأقلعت بهم.

وفطن [قيصر] اثناء ذلك الى رحيلهم حين وجد الاسوار خاليةً، فأسرع وراءهم. ولكنه لم يصب من عجلته غير الوقوع في فخاخ الخنادق، والموانع. إلاّ ان [البرنديزيين] أوضحوا له الخطأ الذي كاد يقع فيه، وارشدوه الى الطرق السليمة. فارتد على اعقابه ودار بالمدينة دورة منطلقاً نحو المرفأ، ليجد السفن قد اقلعت براكبيها تمخر عباب البحر. خلا اثنتين وقعتا بيده، ولم يكن فيهما غير القليل من الجنود.

اجمعت الأكثرية بأن انسحاب[پومپي] من ايطاليا كان عملاً من أفضل انجازاته العسكرية. إلا ان [قيصر] بالذات لم يتمالك نفسه من العجب لپومپي، في تركه ايطاليا، وكان يحتمي خلف اسوار مدينة محصنة منيعة، وينتظر قدوم قواته في اسپانيا، فضلاً عن كونه يسيطر سيطرة تامة على البحار جميعها. واتهمه [شيشرون] بان آثر أن يفعل فعل [ثيموستوكلس] لا فعل [پريكلس] في ظروف هي أقرب شبهها بظروف [پريكلس] منها الى ظروف [ثيموستوكليس]. وعلى اية حال، فيبدو واضحاً من تصرفات [قيصر] انه كان كثيراً الخوف من عامل التأخير، وانه كان يتلهف للاشتباك [بپومپي]. بدليل أنه اسرع يرسل [نوميريوس Numerius] صديق [پومپي] سفيراً الى [بريندزيوم] حال وقوعه في اسره، وحمله عروضاً للسلم والصلح بشروط كريمة عادلة. إلاّ ان [نوميريوس] لم يعد اليه وابحر مع [پومپي].

بعد أن تمت [لقيصر] السيادة على كل ايطاليا في طرف ستين يوماً دون اراقة قطرة دم واحدة. استولت عليه رغبة شديدة في تعقيب [پومپي] دون ريث. الا ان السفن كانت تنقصه فاضطر الى تغيير اتجاهه وزحف على اسپانيا متوخياً استحالة قوات [پومپي] الى جانبه وضمها الى جيشه.

في الوقت عينه تمكن [پومپي] من حشد جيش جرار، براً وبحراً. وأمّا عن اسطوله فلم يكن بمقدور أحدٍ أن يتصدى له. فقد تألف من خمسمائة بارجةٍ مع لايحصى من السفن الخفيفة المرافقة لها. ومع قوم الليبورنيين[٢] Liburnians وآخرون غيرهم.

وامّا عن القوات البريّة فكانت خيالته تُعدّ سبعة آلافٍ وهي زهرة خيّالة روما وايطاليا من افرادها ذوي الثروة والجاه والروح المتوثبة. إلاّ ان مشاته كانت مزيجاً من جنودٍ غير مجربين سحبوا من مختلف الأنحاء وجمعوا اشتاتاً غير متجانسة، فكان يتولى أمر تدريبهم والاشراف على تمارينهم بالقرب من بيرويا Beræa حيث عسكر جيشه. ولم يتقاعس هو نفسه على المشاركة في تلك التمارين وكان يمارسها كأنه في ميعة صباه وهو تصرف رفع كثيراً من معنويات جنوده اذ لم يكن تشجيعاً هيّنا أن يروا [پومپي] الأكبر البالغ من العمر ثمانية وخمسين عاماً، لابساً درعه وشكة سلاحه بين المشاة مرّة. وممتطيا حصانه تارةً أخرى ممتشقاً سيفه بسهولة وبطريقة نظامية تامة ومغمداً اياه بنفس السهولة. ولم يكن قذفه الرمح يدل على براعته وخفته فحسب بل على اتقانه اصابة الهدف المتميز بالقوة والنشاط والقذفات البعيدة. ولم يكن يطاوله في هذا إلاّ قليل من الشباب. وأقبل عليه عدة ملوك وامراءٍ في مختلف الشؤون. وتحوطته بطانة عظيمة من المواطنين الرومان الذين يحملون رتب القضاة، حتى تألف منهم مجلس شيوخ كاملٍ. وترك [لابينوس] صديقه القديم قيصر الذي خدمه طوال فترة حروبه في بلاد الغال وانضم اليه. كما لحق به ايضاً [بروتس] ابن [بروتس] الذي كان قد حكم [پومپي] عليه بالموت معلنا ولاءه له بوصفه مدافعاً عن حريته نفسه، وكان رجلاً عالي الهمة، لم يتبادل منذ يوم مقتل ابيه كلمة واحدة مع [پومپي] ولم يقرءه تحية معتبراً اياه قاتلاً فعلياً لأبيه. وكذلك التحق به [شيشرون] وان كان قد كتب ونصح الآخرين بخلاف ذلك، ثم بدل رأيه خجلاً من ان يبقى في غير عداد أولئك الذين يخاطرون بحياتهم ومستقبلهم للمحافظة على بلادهم. وانضم اليه وهو في بلاد مقدونيا [تديوس سكستيوس Tidius Sextius] وهو رجل ذو ساق واحدة بلغ من العمر عتياً، فكان ذلك مدعاة للتندر والضحك من منظره. إلاّ ان پومپي نهض وهرع للقائه حالما وقع نظره عليه، واحتفى به. عندما يفضل المرء وهو في هذا العمر والعجز الجسماني ان يكون مع [پومپي] بمواجهة الأخطار على البقاء آمناً في بيته فهذه شهادة بحق [پومپي] ليست بالتي يمكن أغفالها.

واجتمع مجلس الشيوخ واصدر بناء على اقتراح [كاتو]، مرسوماً يقضي بأن لايقتل ايّ روماني إلاّ في ساحة المعركة وان لاتنهب او تسلب اية مدينة كانت خاضعة للحكم

(٢) من الشعوب الكرواتية. [المترجم]

الامبراطوري الروماني. وهو قرار زاد من سمعة حزب [پومپي] ورفع من مقامه، حتى انّ أولئك الذين لم يهتموا بالحرب لبعد ديارهم عنها، أو اعتبروا غير قادرين على ابداء المساعدة، ما لبثوا ان انحازوا الى جانبه باخلاص ورغبة. وساندوا بكلّ ما يملكون من فصاحة اللسان الفضيّة العادلة أو الصالحة كما أطلقوا عليها. واعتبروا مناهضي [پومپي] اعداء للآلهة. ورجالاً لايريدون [لپومپي] اي نصر.

ولم ينفرد [پومپي] بسماحته ورحمته. [فقيصر] نفسه أظهر سماحة ورحمة لاتقلان عَمّا أظهره الأول عند استيلائه وتغلبه على كل قوات [پومپي] في اسبانيا. فقد قبل استسلامهم بشروط سهلة للغاية وترك القادة أحراراً وضمّ الجنود منها الى جيشه ودفع لهم اجورهم. ثم انثنى عائداً فعبر الألب وأسرع في مسيرة خاطفة قطع بها برّ ايطاليا طولياً حتى بلغ [برنديزيوم] في حدود الانقلاب الشتوي. ثم عبر البحرين هناك ونزل ميناء [اوريكوم] وارسل [يوبيوس Jubius وهو من اخلص اصدقاء [پومپي] وكان اسيراً عنده يطلب فيها أن يعقدا جلسةً يتداولان فيها أمر الصلح. وان يسرّحا جيشيهما خلال ثلاثة ايام ويجددا صداقتهما القديمة ويوثقانها باغلظ الأيمان. ثم يعودان معاً الى ايطاليا. إلاّ ان [پومپي] ظنّ هذه الدعوة حيلة جديدة، لذلك انحدر بغاية السرعة الى ساحل البحر واحتل كل القلاع والاماكن المحصنة المناسبة للتعسكر، ولأجل أن يؤمن سلامة قواته البريّة ايضاً لأنها كانت مثل سائر الموانيء والثغور صالحة لاستقبال كل ما يأتي بحراً، فكانت كل ريح موآتية له مهما كان اتجاهها، تزوده اما بالارزاق أو الرجال أو المال. في حين كان [قيصر] محصوراً من جهتي البحر والبرّ حتى انه لم ير مناصاً من طلب القتال. فكان يستفزّ العدو يومياً ويغير عليه وهو في قلاعه فيكتب له النصر في معظم الاشتباكات الخفيفة. ولم يصبّ الاّ مرة واحدة بنكسة خطيرة كاد يخسر بسببها كل جيشه تقريباً. في هذه المعركة أظهر [پومپي] شجاعة فائقة وهزم كل القوة التي جردها العدوّ لها وفتك في ميدان القتال بألفين. لكنه إمّا عجز أو خاف التقدم الى الأمام يشق طريقه بالقوة الى معسكر العدو الذي كان يسرع للاحتماء به وهنا قال قيصر عبارته المأثورة -

- في هذا اليوم كان النصر للعدو، لو وجد فيه شخص واحدٌ يُحرزه!

واشتدت معنويات جنود [پومپي] وتضاعفت شجاعتهم. حتى اصبحوا وهم مشوقين الى تقرير مصير النزاع بمعركة حاسمة.

إلاّ أن پومپي الذي كان يتخذ لقب «الفاتح» عندما يكتب للملوك البعيدين والقريبين والدول المتحالفة معه، خشي المخاطرة بالنجاح في معركةٍ واحدة مؤثراً التأخير. وانهاك قوى

العدو ورجاله الذين لم يغلبوا بالسلاح من قبل، بنقص الارزاق. ان جنود [قيصر] اعتادوا منذ زمن بعيد على القتال والنصر معاً في حين ان أعمارهم المتقدمة التي جعلتهم سريعي الاجهاد في مشاقّ الحروب التالية كالمسيرات الطويلة والنزوح عن المعسكرات الكثيرة وحفر الخنادق وبناء الاستحكامات. وهذا ما جعلهم تواقين الى الاشتباك مع العدو والمغامرة في معركة فاصلة بأسرع ما يمكن.

تمكن [پومپي] من تهدئة جائش جنوده واقناعهم بعدم الدخول في معركة حتى تلك اللحظة إلاّ انه بات متعذراً عليه اطفاء جذوة تعطشهم للقتال بعد اضطرار [قيصر] بسبب نقص الارزاق الى تقويض معسكره والانتقال الى «تسالي» عبر [اثامانيا] فهتف جميع جنود پومپي] بصوت واحدٍ جهوري أن قيصر فَرّ هارباً وارتائ بعضهم ومطاردته والضغط عليه وفضلّ بعضهم العودة الى ايطاليا واقترح بعضهم الآخر ارسال خدمهم واصدقائهم الى روما قبل وصولهم اليها. لاستئجار بيوت قرب الفورم حتى يكونوا اكثر استعداد لترشيح انفسهم هناك وابحر عددٌ منهم من تلقاء أنفسهم حالاً الى [ليسپوس] ليحمل الى [كورنيليا] - وكان قد جاء بها [پومپي] الى هناك لتكون في مأمن - الابناء الساردة بانتهاء الحرب. ودعي الشيوخ الى الاجتماع ووضع الأمر موضع المناقشة فكان من رأي [افرانيوس] انه يجب استعادة ايطاليا اولاً لأنها الجائزة العظمى وتاج الحرب كلها. فمن كان سيّداً لايطاليا سهلت عليه السيطرة على اقاليم صقلية، وسردينيا، وكورسيكا واسپانيا وبلاد الغال. واضاف يقول متسائلاً ترى ما هو أهمّ وأخطر شيء بالنسبة لپومپي غير موطنه ومسقط رأسه القريب الذي يمدّ اليه يده طالباً المعونة ومما لايستقيم مع شرفه بالتأكيد أن يتركه هكذا معّرضاً لكلّ التحقير وتحت عبودية العبيد انفسهم ومتملقي الطاغية.

إلاّ ان [پومپي] كان يرى خلاف ذلك. ففي عرفه انه ليس من الشرف في شيء ان يعمد الى الفرار ثانيةً من أمام [قيصر] وان يطارد عندما منحه الحظّ افضلية المطاردة كما انه ليس من العدل فعلاً أمام الآلهة. ان يترك [سكيپيو] ورجالاً كثيرين أخر من ذوي المراتب القنصلية، مشتتين في انحاء بلاد [الاغريق وتسالي] عرضةً للوقوع في يديّ قيصر مع مبالغ طائلة من المال وما لايحصى من القوات العسكرية. واما عن اهتمامه بمدينة روما، فهذا يبدو جدّ واضحٍ من نقله مسارح الحرب الى مسافة بعيدةٍ عنها وتركها خالية البال، من اي شعور بويلات الحرب والآمها، بله سماع اصوات شرورها. منتظرةً فحسب وبكلّ طمأنينة عودة المنتصر من أحدهما اليها.

بعد اتخاذه هذا القرار شرع في مطاردة [قيصر] معتزماً بينه وبين نفسه ان لايدخل معه في

معركة بل يحاصره ويضيق عليه الخناق ويتعقبه عن كثبٍ ويقطع الطريق عليه ما اوتى ذلك.
وكان ثمّ اسباب أخرى تحمله على الاستمرار في تنفيذ قراره هذا، من أخصّها قول تداوله الرومان الذين يخدمون في صنف الخيـاله بلغه، وهو أن الضرورة توجب تحقيق الغلبة على [قيصر] بأسرع ما يمكن، وبعدها يزاح [پومپي].

وقال بعضهم ان عدم اناطة [پومپي] اي عملٍ ذي أهمية بـ[كاتو] خلال الحرب كلها، كان هذا سببه. أمّا الآن وبعد مباشرته بمطاردة [قيصر] فقد ترك [كاتو] للاشراف على حراسة اثقاله من جهة البحر خوفاً من قيام [كاتو] بارغامه على التخلي عن سلطته عندما يتمّ قهر قيصر.

وفي الوقت الذي كان [پومپي] برصد حركات العدو بمثل هذا البطء والتراخي، أخذ يتعرض من جميع الجهات الى الانتقاد العلني والاتهام بأنه انما يستخدم قيادته للتغلب على [قيصر] بل لقهر بلاده وتحقيق الغلبة على مجلس الشيوخ حتى يظلّ دائماً ممارساً سلطانه. ومبقياً على سلطات حرسه واتباعه الذين يدعون بأنهم يحكمون العالم! ودأب [دوميتيوس آنيوباوبوس Domitius Aenobarbus] على تسمية پومپي بـ« [آغاممنون] ملك الملوك» مشيراً عليه حساده ومبغضيه ولم يكن الأذى الذي لحقه من فاڤونيوس Favonius] بمزاحه الفجّ، بأقلٍ من الأذى الذي لحقه من أولئك الذين كانوا يهاجمونه علناً. مثال ذلك عندما قال معرضا [بپومپي]

- يا خير الاصحاب! اياكم أن تتوقعوا قطف التين من [توسكولوم Tusculum] في هذه السنة.

الا ان [لوشيوس افرانيوس] الذي كان يرزح تحت تهمة الخيانة جراء خسرانه الجيش في اسپانيا صرح علناً عندما وجد [پومپي] يتعمد التهرب من الاشتباك:

- لايسعني إلاّ التساؤل معجباً لماذا يحجم اولئك الذين جعلوا اتهامه ديدناً، عن الذهاب هم بأنفسهم وقتال ذلك المتاجر ببلادهم واقاليمهم؟

بهذه الاقوال وبكثير من امثالها اثاروا [پومپي] الذي لم يكن في استطاعته احتمال اللوم أو مقاومة أمل اصدقائه فيه . حتى ارغموه على العدول عن رايه ونبذ قراره الحكيم، لاتباع أمالهم الكاذبة ورغباتهم الطائشة وهو ضعف منه يستحق اللوم عليه ملاّح اية سفينة فكيف بقائد وسيّدٍ مطاع يملك مثل هذا الجيش الجرار، وتخضع له هذه الشعوب العديدة. إن لومه ليبلغن اضعافاً مضاعفة وهو وان كان قد أطرى ومدح اولئك الأطباء الذين لايستجيبون الى

رغبات مرضاهم المتقلبة ولايصفون لهم ما يشتهونه من أكال، تراه الآن ولا حيلة له الا الرضوخ لنزوات سقم اعوانه وناصحيه بضرورة الحرب، غير مستخدم شيئاً من الصرامة لأجل شفائهم. والواقع هو انه ما كان أحد ليجرؤ على القول بأن هؤلاء الناس لم يكونوا مرضى ولم يكن شفاؤهم متطلباً، اذ تراهم يسيرون في ارجاء المعسكر غدوة ورواحاً، يرشحون أنفسهم: هذا لمنصب القنصل وذاك لمنصب البريتور. في حين كنت ترى [سبنثر] و[سكيبيو] و[دوميتيوس] يعملون على كسب الموالين وتأليف الاحزاب ويختصمون فيما بينهم على شخص من سيخلف [قيصر] في منصب الكاهن الأعلى. آخذين الأمور كلها باستخفاف واستهانة كأن الحرب التي سيخوضونها ليست مع [قيصر] وجيشه المغوار الذي دوّخ ألف مدينة وأخضع أكثر من ثلاثمائة شعب وخاض ما يفوق الحصر من المعارك مع الجرمان والغاليين وخرج من جميعها منتصراً واخذ مليوناً من الأسرى وقتل ما يساوي ذلك في ميادين المعارك الحاسمة، بل مع [ديكران] ملك الأرمن أو مع واحدٍ من صغار الملوك النبطيين!

وتمادوا في رجائهم والحاحهم وصخبهم. وعند بلوغهم سهل [تسالي] اشتد ضغطهم والحافهم على [پومپي] حتى ارغموه على عقد مجلس حربٍ. وهنا نهض قائد الخيالة [لابينوس La-bienus] أولاً، وأقسم بأنه يترك ميدان المعركة إلاّ بعد أن يهزم العدو. وحلف البقية على ذلك أيضاً وفي تلك الليلة رأى [پومپي] في الحلم، حشوداً من الناس تستقبله بالهتافات العظيمة وهو يدخل الملعب. وانه قام بنفسه بتزيين هيكل [ڤينوس] المنتصرة بكثيرٍ من اسلاب الحرب. وقد شجعه هذا الحلم من ناحيةٍ، وثبط همته من ناحية أخرى. فقد خشي ان تلك العطايا والزينة المقدمة [لڤينوس] ستكون من الاسلاب التي سيحصل عليها قيصر منه. ذلك لأنّ اسرة [قيصر] انحدرت على ما يؤثر، من نسل تلك الآلهة. كما أنه استيقظ من هذا الحلم على أثر ضجة عالية دوت في كل المعسكر نشأت عن بعض المخاوف المرعبة ونداءات استغاثة مجهولة المصدر. كذلك ظهر نورٌ ساطعٌ فوق معسكر [قيصر] ساعة تجديد الحراس والخفراء فجراً اثناء ماكان الكلّ نائماً، ومنه انتقلت كرة ملتهبة نارية الى معسكر [پومپي]؛ ويقول [قيصر] في هذا. انه رأى تلك الكرة بعينه عندما كان يقوم بدوريته الاعتيادية في ارجاء معسكره.

اعتزم [قيصر] رفع معسكره عند الصباح الباكر والانتقال الى [سكوتوسّا Scotussa] وبينما كان جنوده منشغلين في تقويض خيامهم وارسال ماشيتهم وخدمهم بالاثقال والمهمات، أقبلت كشافة من عملية استطلاع لتنبيء بأنها لاحظت حركة اسلحة هنا وهناك في معسكر العدو وسمعت ضجة وهرجلة أقدام تغدو وتروح كأن الرجال يتهيأون للمعركة. وما لبث أن

أقبلت كشافة أخرى لتنبيء بأن صفوف جيش العدو الأولى قد وضعت في نسق المعركة وهنا توجه [قيصر] الى جنوده قائلاً: ان اليوم المنشود قد حَلّ أخيراً. وهم الآن سينازلون رجالاً، ولن ينازلوا الجوع والطوى كما كانوا » ثم اصدر على الفور الأمر برفع المعطف الأحمر امام خيمته وهي اشارة المعركة عند الرومان. وما أن شاهدها الجنود حتى خرجوا من خيامهم وهرعوا الى اسلحتهم وهم يصرخون فرحين جذلين. وظهر الضباط ايضاً في الحال ورتبوا سراياهم بنسق المعركة واتخذ كل مقاتل موضعه دون ضجّةٍ أو ارتباك. بل بهدوءٍ والنظام كأنما يدخلون في حلبة رقصٍ.

وقاد [پومپي] بنفسه الجناح الأيمن من جيشه بمواجهة [انطوني]، كما وضع حميّه [سكيپيو] في القلب بمواجهة [لوشيوس كالڤينوس] وأمّا الميسرة فقد أمر عليها [لوشيوس دوميتيوس] تدعمها كتلة عظيمة من الخيالة هي تقريباً كل ما لديه منها. أملاً بسحق [قيصر] وابادة الفرقة العاشرة التي اشتهرت بكونها أقوى فرقة عدة وعدداً. وكان [قيصر] عادة يقاتل بشخصه في صفوفها.

وعندما لاحظ [قيصر] أن مسيرة العدو قد عززت ودعمت بهذا الاحتياط الضخم من الخيالة ادركه القلق لمهابة المنظر وأرسل يستقدم قطعةً عسكرية من احتياطيه تتألف من ستّ كتائب فوضعها في موخرة الفرقة العاشرة وأمرها أن لاتأتي بحركة لئلا ينتبه العدوّ اليها، حتى تبدأ خيالة العدو بالهجوم والتقدم، فعندئذ عليها أن تسرع بأقصى ما يمكن للتقدم الى الأمام والوصول الى الصفوف الأول، على أن يكون تقدمها هذا بشكل تسلّل من سائر القطعات ومن خلال الصفوف المتقدمة، وان لايقذفوا رماحهم على العدو وهم بعيدون كما هي عادة الجنود الشجعان. حيث يواصلون التقدم ليلتحموا بقتال الأيدي وبسيوفهم حالاً. بل عليهم ان يسددوها الى الاقسام العليا، الى اوجه الاعداء وأعينهم، «لأن هؤلاء الراقصين البارعين الصغار لن يستطيعوا تحمل بريق الفولاذ الصقيل يبهر اعينهم ويهدد وجوههم الجميلة بالتشوية بل سيفرون حرصاً عليها » على حَدّ قوله.

كانت تلك خطة قيصر في ذلك الوقت وكان على ضوء ذلك يوجه الأوامر الى جنوده، وفي اثناء ذلك راح [پومپي] يستعرض مواقع الجيشين ممتطياً جواده ولاحظ الانتظام التام الذي يسود صفوف جيش خصمه وهي تنتظر بكلّ هدوء ورباطة جأش اشارة المعركة. كما لاحظ كم كان القلق ونفاد الصبر يسود رجاله وهم لايستقرون في صفوفهم يتحركون الى الامام والخلف دون اكتراث بالنظام لافتقارهم الى المران والتجربة. فادركه الخوف الشديد من أن تتحطم صفوفهم في اول هجمة. وسارع يعطي أمراً بتوقف الطلائع عن التقدم واستقبال كرّة العدوّ

بصفوف منضمّة متكتلة. وقد انتقد [قيصر] هذه الخطة انتقاداً شديداً بقوله:

- إنها سلبت الضربات كثيراً من قوتها. ولولا ذلك لكانت ستتمّ بقفزةٍ، كما انها فضلاً عن ذلك افقدت الرجال قوة الاندفاع تلك التي تتملك الجنود المهاجمين في لحظة التحامهم بالعدوّ وتملأوهم بالحماسة والحافز العزيزي أكثر مما تملأوهم بأي شيء آخر فالصيحات والزعقات والخطى السريعة تزيدهم ضراوة وعنفاً. كلّ هذا جردتهم منه أوامر [پومپي] فقد أوقفتهم عن تقدمهم وبردّت حرارتهم.

كان جيش [قيصر] يتألف من اثنين وعشرين ألف مقاتل في حين كان جيش [پومپي] يربو على ضعف هذا العدد. ولما أعطيت اشارة بدء القتال من الجانبين وراحت الأبواق تصدح بنفير الهجوم، انشغل معظم الرجال كلّ بأمره. ولم يكن يشاهد خارج ساحة المعركة غير قليل من صفوة اشراف روما وبعض الاغريق، يقفون بعيداً كمتفرجين لم يتمالك هؤلاء أنفسهم وهم يشاهدون الجيشين مستعدين للاشتباك، إلاّ ان يفكروا في انفسهم متسائلين: «الى اي دركٍ ونهاية بلغت الأطماع والطموح الشخصي بالامبراطورية. ان الاسلحة التي تشتبك الآن هي اسلحة واحدة والجموع المصطفة للقتال هي ابناء لوطن الواحد تربطهم اواصر القربى. وكلهم يحارب تحت ألوية واحدةٍ. زهرة رجال المدينة الواحدة وقوتها تصطدم هنا بعضها ببعض لتقدم البرهان الساطع على العمى والجنون اللذين تبتلى بهما الطبيعة البشرية عندما تجتاح العاصفة النفوس لو كانت رغبتهما قاصرة على الحكم فحسب والتمتع في ظروف السلم بما كسباه في الحرب، فإن أعظم وأفضل جزءٍ من العالم كان تحت سيطرتهما براً أو بحراً. لكن ان كان طموحهما يشكو الظمأ، فمن السهل ارواؤه بانتصارات أخرى ومكاسب وانصاب ظفرٍ. إن الحروب البارثية والجرمانية كانت ستقدم من هذه المادة ما يكفي لاشباع أعظم شهوةٍ الى الجاه والرفعة. زد على هذا فان بلاد الصيثيين لم تفتح بعد وكذلك قل عن بلاد الهند. ان طموحهما في احتلال هذين البلادين يمكن طلاؤه بالحجة الكاذبة: العمل على ادخال المدنية لتلك الشعوب البربرية! أية خيالة حيثية، أو سهام پارثية أو ثروات هندية يمكنها مقاومة سبعين ألف جندي روماني مسلحين بأفضل سلاح وتحت قيادة جنرالين مثل [پومپي] و[قيصر]، سمعت تلك الشعوب باسميهما قبل سماعها باسم الرومان وذاعت قصص شجاعتهما وقهرهما شعوباً بعيدة بدائية وحشية بربرية. بأوسع من قصص الرومان أنفسهم.

انهما اليوم يلتقيان كخصمين. بعد أن فشلت الجهود في اقناعهما بأن يرحما بلادهما ويبقيا عليها بل حتى ان يحترما امجادهما أو ان يدركهما الخوف من خسران الاسم الذي ما زالا يحملانه حتى ذلك اليوم. وهو انهما لم يقهرا قطّ، أمّا عن روابطهما القديمة الخاصّة ومحاسن

[يوليا] والزواج الذي شدّ فيما بينهما اواصر القربى، فهذه كلها بات ينظر اليها الآن كحيل سياسية أو مجرد ضمانات لاتفاق جرى ابرامه ليخدم اغراضاً ما مناسبة للظروف وليس عهوداً ومواثيق لاي صداقة.

ما غطيت سهول [فرساليا] بالرجال والخيل والدروع وارتفعت اشارة البدء بالمعركة من الجهتين حتى كان [كايوس كراسيانوس Caius Crassianus] وهو سنتوريون يقود سرية مؤلفة من مائة وعشرين مقاتلاً، اول من تقدم للهجوم من صفوف جيش قيصر، ليحل نفسه من عهدٍ قطعه لقيصر. لقد كان أول رجل رآه [قيصر] يخرج من المعسكر صبيحة ذلك اليوم فسأله [قيصر] بعد أن أقرأه التحية:

- ما رأيك بالمعركة القادمة.

فأجاب بصوت مرتفع وهو يبسط يده اليمنى:

- سيكون النصر حليفك اي [قيصر] ستنتصر انتصاراً مجيداً وساكون أنا في هذا اليوم موضع ثنائك حياً بقيتُ أم ميتاً.

كنت وتحقيقاً لعهده هذا خف مسرعاً الى الصفوف الأمامية. فتبعه الكثير فقذف بنفسه في وسط العدوّ، وجرى الالتحام بالسيوف فأوقعوا بالعدو مقتلة عظيمة. وفيما هو يندفع الى قلب العدو بزخمٍ شديد يحطمّ صفوف طلائعهم، اعترضه احد جنود [پومپي] وسدد الى فمه طعنة نجلاء اخترقت رقبته حتى خرجت ذبابة السيف من قذاله. وبمقتل [كراسانيوس] تعادلت كفّة المعركة واستمرت غامضة النتيجة في ذلك الجزء من الساحة.

حتى تلك اللحظة لم يبدأ [پومپي] القتال من ناحية الميمنة، بل بقي متربصاً مستنظراً ما ستحققه له خيالته على الميسرة. كانت كتائب الخيالة قد انتظمت وفي نيتها الكرّ على جناح قيصر وليّه وارغام خيالته القليلة العدد التي وضعها في المقدمته على الانكفاء نحو فوج المشاة. الاّ أن [قيصر] أعطى الاشارة فانسحبت مشاةٍ اضافية وضعت في المؤخرة كاحتياطٍ لتغطية الجناح فخرجت الآن الى الأمام بعددها البالغ ثلاثة آلاف رجلٍ، لمواجهة العدوّ. وعندما أقتربت من خيالته وأصبحت على تماس بها وجهت رماحها الى فوق حسب الأوامر المبلغة لها فاصابوا الفرسان الراكبين في وجوههم. ولما لم يكن لهؤلاء الخيالة خبرة بايّ فن من فنون القتال. وبخاصةٍ لما لم يكونوا يفهمون او يتوقعون مثل هذا الاسلوب في القتال. فقد اعوزتهم الشجاعة وعجزوا عن تلقي هذه الضربات على اوجههم فاداروا اقفيتهم وغطوا أعينهم بايديهم ولاذوا بالفرار يلاحقهم العار. على ان مشاة [قيصر] لم يتعقبوهم وانما تحركوا نحو

مشاة العدوّ وهاجموا الجناح الذي تركته هزيمة الخيالة مكشوفاً لهم فآض معرضاً للانثناء والهجوم عليه من الخلف. وهكذا حف الخطر بالجناح من قبل هؤلاء المشاة، ومن هجوم جبهي قامت به الفرقة العاشرة، فعجز عن الصمود والمقاومة مدةً أطول بعد ان وجدوا أنفسهم مطوقين ومحاصرين، على عين خطتهم المبيتة التي خيل لهم بأنها ستنجح مع العدوّ. فلحقت بهم الهزيمة كسابقيهم ولاذوا بالفرار. وادرك [پومپي] من مثار الغبّار وتصاعده، مصير خيالته. وهنا يصعب جداً على المرء أن يحزر ما كان يجول في رأسه من افكار وماذا كان يعتزم. على انه بدأ كذلك الشخص الذي لثقله الهم وشتت القلق ذهنه وبدون ان يفكر أو يتذكر بأنه پومپي الأكبر، أنسحب الى داخل معسكره ببطءٍ دون ان ينطق بحرف. فكان لأي راءٍ ممن ينطبق عليه محتوى الابيات التالية:

«على ان الآله من عليائه أصاب [أجاكس] بالخوف فوقف المقدام [اجاكس] هناك مصعوقاً ثم أردف ترسه القوي ذا الطبقات السبع وراء ظهره. وحدق وهو يرتجف ذهولاً في ارجاء ساحة المعركة».

بهذه الحالة والوضع دخل [پومپي] خيمته وجلس دون ان ينس بحرف، حتى اندفع بعض رجال العدو الى داخل المعسكر مختلطين برجاله الفارين الى الداخل وعندئذ فتح فمه بعبارة واحدة لا غير:

- أحتى في داخل المعسكر نفسه؟

ولم يزد على ذلك. وانما نهض وارتدى ثياباً تناسب حظّه العاثر، وترك المعسكر سرّاً.

في اثناء ذلك كانت بقية الجيش قد منيت بالهزيمة، وحصلت مقتلة عظيمة في المعسكر بين الخدم وحارسي الخيم. واما من الجنود فلم يقتل غير ستة آلاف حسب قول [آسينيوس پوليو Asinius Pollio] الذي كان يقاتل شخصياً في هذه المعركة الى جانب [قيصر] وعندما أحتل جنود [قيصر] المعسكر شاهدوا انفسهم امام حمق العدو وتصرفاته العابثة. فقد وجدوا كل خيمه وسرادقاته ترفل في أجمل زينةٍ وانفسها من أكاليل الزهر والآس ومن السجاجيد المطرزة والستائر المنقوشة والموائد المنصوبة وقد حفلت باكواب الراح والى جانبها قصاع كبيرة مملوءة خمراً. كان كلّ شيء مُعداً ومنتظماً بشكلٍ لايسع المرء الا ان يظنها لأناس قربوا قرابينهم وهم يريدون الاحتفال بالعيد وليس جنوداً حملوا اسلحتهم وخرجوا للمعركة واثقين الى حَدّ الايمان بانتصارهم، في صباح هذا اليوم.

بعد أن ابتعد [پومپي] عن معسكره مسافةً مناسبة، ترجل وتخلّى عن حصانه. ولم يكن

معه غير حاشية صغيرة. ولما تأكد أن لا أحد يتعقبه راح يسير على هونه وقد استغرق في تلك الافكار التي تستحوذ عادة على من هم في حالته. كان قد تعود طوال اربعة وثلاثين عاماً على الفتوح والنصر، وها هو الآن في شيخوخته يلقن لأول مرة درساً في الهزيمة والفرار، ولم تكن بالنكبة الصغيرة الهينة أن يخسر في ساعةٍ واحدة ما انالته اياه الحروب والمعارك الدموية العديدة، من مجدٍ وسلطان. قبل برهة وجيزة كان يكتنفه جيش جرار من المشاة وعدد عظيم من الكتائب ويدعمه اسطول ضخم لا يغلب. اما الآن فهو طريد يهرب من وجه عدوه بحالة يرثى لها وليس معه الاّ نفر ضئيل من الاتباع. حتى ان اعداءه الذين قاتلوا ما كان بوسعهم تمييزه.

بعد ان أجتاز مدينة [لاريسا Larissa] عن مبعدة، وبلغ [تمپه Tempe] شعر بظمأ شديدٍ فجثا على الأرض وشرب من ماء النهر ثم نهض وعبر ممر [تمپه] وسار حتى بلغ ساحل البحر. وهنا دخل كوخاً صغيراً لاحد صيادي السمك حيث استراح بقية الليل. وفي فجر اليوم التالي استقلّ قارباً نهرياً دون أن يأخذ معه ممن تبعه، غير الأحرار منهم، وصرف خدمه ونصحهم بأن يذهبوا الى [قيصر] دون وجلٍ. وفيما كان يجذف بقاربه غدوةً ورواحاً بمحاذاة الشاطيء لمح صدفةً، سفينة تجارية راسية الاّ انها كانت معدّة للابحار وكان قبطانها مواطناً رومانياً يدعى [بيتيشيوس Peticius]. لم يكن على معرفة جيدة [ببومپي] إلاّ أنه كان يستطيع تمييزه بالوجه. اتفق [لپيتيشيوس] هذا انه رأي حلماً في الليلة السابقة، ظهر فيه [پومپي] بشكل يختلف كثيراً عما عهده. رآه بحالة ذليلة يرثى لها واخذ يكلمه وهو بهذه الحالة. ثم انه قصّ حلمه على كل من كان في السفينة كعادة كل امرءٍ في وقت راحة وليس لديه ما يعلمه وبخاصة حلماً غريباً كهذا. فلم يلبث أن أقبل عليه أحد البحارة ليخبره بأن قارباً نهرياً بمجاذيف يغادر الشاطيء وان بعض الرجال فيه طفقوا يهزون معاطفهم ويرفعون ايديهم باشارة من يريد ركوب السفينة. فراح [پيتيشيوس] يتفحص القادمين بامعان ووقع نظره على [پومپي] فعرفه بالهيئة التي ظهرت له في الحلم. فضرب جبهته بكفّه وأمر البحارة بانزال قارب السفينة وأخذ يلوح له بيده ويناديه باسمه وقد ميزه، وادرك ما حَلّ به من الزيّ الذي يرتديه. ثم اصعده على ظهر سفينة دون ترتيب لمكالمة أو الرجاء منه. وأفسح لعددٍ مناسب من اتباعه مكاناً معه في السفينة. وكان مع [پومپي] فردان من أسرة [لنتولي Lentuli]، وفاڤونيوس. وبعد برهة قليلة من الزمن شوهد [ديوراتوس Deioratius] الملك وهو مسرع اليهم من الشاطيء فتوقفوا وأخذوه معهم. وهيأ لهم قبطان السفينة عشاء مما تيسّر من ارزاق السفينة. وراح [پومپي] يحلّ سيور حذائه بنفسه لعدم وجود من يقوم في خدمته. فلحظ [فاڤونيوس] ذلك منه فأسرع اليه وقام بحلها عنه وعاونه في مسح جسده بالزيت. وظلّ بعد

ذلك يواصل خدمته في كل شيء كالخادم، وبضمن ذلك غسل رجليه واعداد عشائه. ان من شاهد ذلك التفاني والاحترام الذي لايشوبه شائبة ما من التكلف لايسعه الاّ ان يذكر قول القائل: قسماً بالله! كل ما يفعله أولئك الذين تحلوا بالنُبل، هو لائق وجميل.

ومَرّ [پومـپي] وهو على ظهر سفينته بمدينة [امفيبوليس Amphipolis] ومنها الى [ميتيلين Mitylene] معتزماً أن يأخذ [كورنيليا] امرأته وابنه، وما أن بلغ ذلك المرفأ في الجزيرة حتى بعث برسول وحمله الأخبار التي ما كانت [كورنيليا] تتوقعها. فقد دأبت آمالها في الارتفاع بالرسائل والكتب السابقة التي كان زوجها يبعث بها للتسرية عنها فصارت تؤمن ايماناً جازماً بأن الحرب قد انتهت في [ديراكيوم Derrhachium] وانه لم يعد [لپومپي] ما يفعله غير تعقيب [قيصر] المندحر. هكذا وجدها الرسول فلم يقوا على تحيتها أو التحدث اليها. وافصحت لها دموعه لا كلماته عن سوء حظها العظيم. ثم طلب منها ان تسرع ان شاءت لقاء [پومپي] على ظهر سفينة واحدة لايملكها وما ان وعت السيدة الصغيرة ذلك حتى سقطت مغشياً عليها، وظلّت فاقدة الوعي معقولة اللسان مدة طويلة. ولما ثاب اليها الرشد وعادت الى وعيها بعد لايء وادركت أن الوقت ليس وقت ندبٍ وبكاء، انطلقت خارج المدينة راكضة نحو الساحل فاستقبلها [پومپي] واحتضنها وهي تكاد تتهاوى على الارض فاسندها بذراعيه فتهفت قائلة:

- انه حظيّ العاثر يا سيدي، لاحظك. أن اراك هكذا لاتملك غير سفينة صغيرة واحدة، انت الذي كنت قبل زواجك بي تخرج الى البحر وتجوب هذه المياه بأسطول تعداده خمسمائة بارجة! أكان ينبغي لك أن تأتي لترى تلك التي جلبت عليك المصائب بسوء حظها وروحها الشرير، ولاتتركها لمصيرها؟ لكم كنت سعيدة لو لفظتُ انفاسي الأخيرة قبل ان يردني نعي [پوبليوس] زوج شبابي من بلاد فارس وكم كان من الحكمة لو نفذت قراري في اللحاق به. إلاّ اني أُدخرت لمصيبة، هي دمار [پومپي] الأكبر.

كان هذا ما أثر عن أقوال كورنيليا [لپومپي] واليك ما ذكر عن جوابه لها:

- لم يكن لديك يا كورنيليا غير فترة واحدة من حسن الحظّ، الذي ربما اعطاك آمالاً كاذبة بملازمته لي مدةً اطول من المعتاد. ونحن الذين ولدنا وقد كتب علينا الفناء، يجدر بنا تحمل هذه الاحداث، وتجربة الحظّ مرة أخرى. فاحتمال استعادتنا ما فقدناه ورجوعنا الى ما كنا عليه ليس بأقل احتمالاً ابداً من سقوطنا من ذلك الارتفاع الى هذا الدرك.

وارسلت [كورنيليا] تستقدم خدمها ومتاعها من المدينة وخرج سكان [ميتيلين] يحيون

[پومپي] ويدعونه الى مدينتهم. فأبى ذلك ونصحهم بطاعة المنتصر، وبأن لايخشوا اذى من [قيصر] لأنه رجل بالغ الطيبة واسع الرحمة. ثم التفت الى [قراتيپوس Cratippus] الفيلسوف الذي كان بين من خرج لتحيته وشرع يوجه بعض الملام للعناية الالهية في محاورة مقتضبة حول ذلك. الاّ ان [قراتيپوّس] راغ عن الحوار بكلّ تواضع، وراح يبث فيه الشجاعة لا غير. حتى لايبدو قاسياً أو نابياً. اذ كان بوسعه آنذاك أن يلقي بدوره على [پومپي] سؤالاً فيه دفاع عن تصرفات العناية الالهية. كان باستطاعته ان يثبت ضرورة تحول الامبراطورية الرومانية الى النظام الملكي بسبب سوء الحكم وفساد الدولة. وكان بامكانه ان يتساءل قائلاً:

- كيف يا [پومپي]؟ وبأي دليل أو ضمان يمكننا أن نتأكد بأنك ستستخدم حظك اذا واتاك بأفضل مما سيستخدمه قيصر لو حالفك النصر؟ علينا أن نترك العناية الالهية لحالهاوعملها كما كانت أبداً ودوماً.

أخذ [پومپي] زوجه واصدقاءه الى السفينة واقلع ولم يقف في مرفأ اويرسي الاّ عندما تعوزه الارزاق والماء النقي. ولذلك كانت مدينة [أتاليا Attalia] في [پامفيليا Pamphylia] أول مدينة دخلها. وهناك لحقت به بوراج حربية من [كيليكيا] مع وحدة صغيرة من الجنود. وانضم اليه حوالي ستين شيخاً من اشراف روما. ثم وردته الابناء بسلامة اسطوله، وبان [كاتو] قد اعاد تنظيم عدد لايستهان به من وحدات الجيش بعد الهزيمة وانه يعبر بهم البحر الى برّ افريقيا. فبدأ يشكو ويلوم نفسه أمام اصدقائه، لأنه نزل عن قراره وسمح لنفسه بأن يرغم على الدخول في معركة برية دون استخدام قواته الأخرى التي ما كان يفوقها شيء. كما انه لم يضع اسطوله في مواقع قريبة من المعركة بحيث يستطيع انزال نجدات منها الى البرّ استدراكاً لفشله وبهذا يكون مرة أخرى على رأس قوة كافية لمقابلة العدو في ظروف متكافئة.

وان شئنا قول الحقيقة فان [پومپي] لم يقع في خطأ وقصر نظر خلال حروبه كلها كما وقع هنا. وان [قيصر] لم يستخدم ستراتيجاً ماكراً كما استخدم هنا، بجرّه القتال الى هذه المسافة البعيدة عن القوات البحرية.

كان على [پومپي] الآن ان يتخذ قراراً، وان يرسم خطّة لنفسه تتفق مع امكاناته. فبعث بوكلائه الى المدن المجاورة وابحر بنفسه يجول في المدن الأخرى مناشداً المعونة بالمال والرجال لسفنه. إلاّ انه خشي أن يؤدي تقدم العدو السريع الى احباط كل مساعيه، فبدأ يفكر في ملجأ أمين يمنحه الوقت الكافي. وعقد مجلساً للتشاور في الأمر. واجمعت الآراء على أنه ما كان يوجد في ذلك الوقت اقليم روماني أمين ومضمون تماماً. واما بخصوص الممالك الاجنبية فقد كان رأى [پومپي] ان بلاد فارس هي الأصلح، لقبولهم والدفاع عنهم وهم في حالتهم

الحاضرة من الضعف. كما انها أفضل البلاد الأخرى بمقدرتها على تزويدهم بمهمات جديدة وتعزيزهم بقوات كبيرة وارتاى آخرون اللجوء الى الملك [يوبا Juba] في افريقيا، إلاّ أنّ [ثيوفانس] الليسبي، كان يرى من الخطل والجنون أغفال اللجوء الى مصر وهي لا تبعد عنهم أكثر من ثلاثة ايام بحراً. وقال انه لخير [لپومپي] أن يفيد من [پطليموس] وهو بعد ص بيّ يافع. مدين له بالصداقة والافضال التي اغدقها على ابيه. واستفظع أن يضع [پومپي] نفسه تحت رحمة البارثيين، ويثق بمثل هذا الشعب الذي لايفوقه شعب آخر في العالم خيانةً وغدساً، مفضلاً اياه على تجربته لرحمة الرومان ولعلاقات القربى الخاصّة. وهو الذي لو رضي بالمنزل الثانية فلربما حاز المنزلة الأولى واصبح زعيماً للبقية، أن يذهب الى [ارشاق Arsaces] لاجئاً ويضع نفسه تحت رحمته، في حين لم يقبل [كراسوس] اثناء حياته ان يذعن له؟ كيف يرضى بتعريض امرأته الصغيرة المنحدرة من أسرة [سكيپيوس Scipios] الى نزوات شعبٍ بربري لايحكم الاّ بشهوته وغلظته ويقيس عظمته بمقدرته على الاهانات والأذى. انها لم تتعرض لأي اذى ومهانة حتى الآن، وهذا حق، ولكن اليس من المحتمل ان تتعرض لذلك ان وقعت في ايدي من يقدر على فعله؟

قيل أن هذه المحاجّة الأخيرة وحدها هي التي حملت [پومپي] على نبذ فكرة اللجوء الى البارثيين والتوجه الى الفرات. هذا اذا سلّمنا بأن العناية الالهية لم تتدخل في الموضوع وانما كان القرار بتأثير من مشاورته ليس إلاّ.

ما أن اتخذ هذا القرار باللجوء الى مصر حتى انطلق من قبرص على ظهر بارجة [سلوقية] ومعه كورنيليا. في حين ابحر بقية اتباعه بعضهم بسفن حربية وبعضهم بسفن تجارية تواكب سفينته وتجري على مقربة منها. ولم يقع له حادث في الطريق. وعندما علم ان [پطليموس] الملك قد أقبل بجيشه الى مدينة [پيلوسيوم Pelusius] لقتال أخته، انحرف اليه وارسل رسولاً يعمله بوصوله ويطلب منه الحماية. كان [بطليموس] صبيّاً يافعاً لاقبل له بمعالجة القضية. وكان [پوثينوس Pothinus] يتولى الادارة كلّها. فدعا مجلس شورى من العظماء والرؤوساء الكبار هم في الحقيقة أعظم من شاء هو أن يرفعهم الى تلك المراكز.

وأمر كل واحدٍ منهم بأن يعرض رأيه حول قبول دخالة [پومپي] وانه الحق يقال لأمر يورث الأسى ويحزّ في النفس، ان يترك مصير [پومپي] الأكبر في يد [وثينوس] الخصيّ و[ثيودوروس] الخيوسيّ معلّم البلاغة المأجور و[أخيلاس Achillas] المصري. هؤلاء مع بقية الحجاب والخدم الوضعاء الذين تألف منهم المجلس، كانوا الرؤوساء، وزعماء القوم! و[پومپي] الذي وجد طلب الأمان من [قيصر] اهانة لشرفه، يضطر الآن وهو يلقى المرسى على مبعدة من

الساحل، الى انتظار قرار هذه العصبة!

الظاهر أن الآراء كانت متنافرة جدا. فكان رأي بعضهم أن يؤمر بالعودة من حيث أتى. وحبذ بعضهم قبوله والترحيب به. الاّ ان [ثيودوروس] حُبّاً في استعراض بلاغته وفصاحة راح يوضح المسألة بقوله:

- ان المرء لايمكن أن يأمن على نفسه باتخاذ اي من هذين القرارين، فلو نحن قبلناه بين ظهرانينا، فمن المؤكدان [قيصر] سيكون في صف اعدائنا. كما سيكون [پومپي] سيداً علينا. واذا صرفناه ولم نقبله فسنكون موضع سخطه الدائم بطردنا أياه طرداً خالياً من الكياسة في الوقت الذي سنجلب علينا غضب [قيصر] لتركه يفلت منا سالماً. فأفضل وسيلة للتخلص من المأزق والحالة هذه، هو أن نقبل وفادته، ثم نضع حداً لحياته. وبذلك سنفوز بالمخطوة عند [قيصر] ولن يكون ثم أيّ موجب للخوف من [پومپي] بعد القضاء عليه [وقيل انه ختم كلامه بالقول] «...لأن الميت لايعضُّ»!

وبالموافقة الى هذا الرأي، انيط تنفيذه باخيلاوس فأنطلق متوجهاً الى سفينة [پومپي] مع شركاء منهم [سمپتيميوس] وهو روماني كان يشغل منصب قائدٍ بأمرة [پومپي]، و[سالڤيوس] وهو ضابط آخر برتبة سنتوريون. يرافقهم ثلاثة أو اربعة من الخدم. وفي اثناء ذلك انتقل الاشراف والوجهاء الذين رافقوا [پومپي] من سفنهم الى سفينةٍ ليقفوا بالتدريج على نتائج مساعيهم. لكنهم بدأوا يشكون في الأمر من برودة الاستقبال ووضاعته، وبعد أن رأوا الطريقة التي استقبلوا بها ولم يكن ظاهرها كريماً أو مشرفاً أو بحسب ما كان [ثيوفانس] يأمل يتوقع [اذ لم يتقدم لاستقبال الوفد الاّ قلة من الرجال في قوارب صيدٍ] وانذروا [پومپي] بوجوب الاقلاع الى عرض البحر وهو ما يزال بعيداً عن متناول ايديهم. وفي تلك الاثناء دنا قارب المصريين ونهض [سپتيميسيوس] اولاً وحيّاً [پومپي] باللغة اللاتينية وبلقب الامبراطور. ثم اعقبه [اخيلاوس] وحياه باللغة الاغريقية طالباً منه ان ينزل الى قاربه معللاً طلبه، بأن الساحل ضحل جداً وان بارجة كبارجته تنوء بما تحمل قد يسوخ قاعها في الرمل. وشوهد في الوقت نفسه عدد من بوارج الملك ترفع رجالها الى ظهرها كما شاهدوا الساحل كله مكتظاً بالجنود فلو عدلوا عن رأيهم وهموا بالفرار لاستحال عليهم ذلك، كما أن أيّ شكّ يظهرونه، كان سيعطي القتلة حجة للاقدام على فعلتهم النكراء. وودّع [پومپي] زوجه [كورنيليا] وكانت تندب موته قبل أن يأتيه، وطلب من سنتورين في معيته ومن خادم معتوق يدعى [فيليب] وعبد اسمه [سكيثس Scuthes] أن يسبقاه الى النزول الي قارب الصيد القادم وفي الوقت الذي كان بعض نوتية اخيلاوس يمدون ايديهم اليه لمساعدته ادار

رأسه الى امرأته وابنه مردداً حكمة الشاعر سوفوكليس:

من يدخل باب طاغية مرةً صار عبداً وان كان من قبل حراً

تلك كانت آخر كلمات سمعها منه اصدقاؤه. ثم استقل القارب ولحظ أن مرافقته لم يوجهوا اليه كلمه لطفٍ وترحاب طوال المسافة الكبيرة التي كانت تفصل بين بارجته وبين الساحل منظر الى [سبتيميسيوس] ملياً وقال

- ما اراني مخطئاً في الظنّ بأنك كنت زميلاً من زملاء الجندية.

فلم يجبه بشيء، وانما أحنى رأسه، ولم يبد منه شيء من المجاملة أكثر من هذا. وواصلوا السير صامتين، ثم تناول [پومپي] كتيباً فيه خطاب باللغة الاغريقية أعده لقراءته امام [بطليموس] الملك، فانشغل باستذكاره. وعند الاقتراب من الساحل لم تعد [كورنيليا] تطيق صبراً هي واتباعه وانتعشت آمالهم وتوثبت قلوبهم فرحاً عندما رأوا أخيراً عدداً من رجال الحاشية الملكية تتقدم للترحيب به بمظهر يدل على التشريف والحفاوة... وفي الوقت نفسه مد [پومپي] يده ليعين [فيليب] الخادم على النهوض فسدد [سپتيميسيوس] اليه طعنة من الخلف وعاجله [اخيلاوس وسالڤيوس] بطعنتين من سيفيهما. فرفع [پومپي] رداءه بكلتا يديه وغطى به وجهه ولم يقل شيئاً ولم يأت بحركة، متحملاً الطعنات التي وجهت اليه بصمت ما خلا انة قصيرة. وهكذا انتهت حياته في اليوم التالي لذكرى ميلاده وله من العمر تسعة وخمسون عاماً.

وشاهدت [كورنيليا] ومرافقوها ما حصل، فأطلقت صرخة عالية سمعت من الساحل. ورفعت المراسي بسرعةٍ ونشرت القلوع، وساعدت ريح قوية هبت من الساحل انطلاقَهم الى عرض البحر، وكان المصريون يودون اللحاق بهم لكنهم ادركوا عقم المحاولة فعدلوا. وانشغلوا باحتزاز رأس [پومپي] ورموا بالجثة من القارب الى الساحل عارياً. ليشاهده كل من يدفعه الفضول لرؤية هذا المشهد الأليم وبقي [فيليب] بالقرب منه مراقباً، حتى شبعت اعين المتفرجين. فتقدم وغسل الجثمان بماء البحر اذ لم يكن ثم ماء آخر ثم لفه بقميص له وكفنه ثم بحث بين الرمال فوجد بضعة الواح خشبية متأكلة لقارب صيد، لم تكن كثيرة الاّ انها كانت كافية لاعداد محرقة جنائزية للجسد العاري الذي كان ناقصاً. وفيما كان [فيليب] منهمكا في جمع وتكديس هذه الالواح القديمة وترتيبها، دنا منه مواطن روماني متقدم في السن، كان في شبابه قد خاض عدة حروب تحت امرة [پومپي] وابتدره متسائلاً:

- ما اسم الرجل الذي يعدّ جنازة پومپي الأكبر؟

فرد عليه [فيليب] بأنه معتوق له. فقال الروماني:

- اذن، فلن تستأثر بهذا الشرف وحدك. ارجوك منك أن تسمح لي بمشاركتك في هذه الخدمة الطاهرة، كي لايلحقني الندم التام على تغربي في بلاد اجنبية. بل سيتاح لي على سبيل تعويضي عن كثير من الرزايا والمحن، سعادة لمس جسد [پومپي] بيدي، والقيام بالواجب الأخير لأعظم قائد بين الرومان.

على هذه الشاكلة تمت مراسيم احراق جثمان [پومپي]. وفي اليوم التالي وصل [لوشيوس لنتولوس] قادماً من قبرص دون ان يدري ما حصل. وبلغ الساحل نفسه. وعندما شاهد المحرقة وفيليب واقفاً بالقرب منها هتف قائلاً قبل ان يراه أحدٌ.

- من هو هذا الذي القي حتفه هنا؟

واردف متنهداً بعد فترة صمت قصيرة.

- ربما كنت انت يا [پومپيوس ماگنوس]!

ثم نزل الى الساحل فقبض عليه في الحال وقتل.

تلك كانت نهاية [پومپي].

بعد زمن قصير، وصل قيصر الى تلك البلاد التي دنس ثراها بهذا العمل الدنيء. وعندما مثل امامه الرسول المصري الذي حمل له رأس [پومپي] ابتعد عنه متقززاً مشمئزاً كأنه يبتعد عن قاتل سفاك. ولما سلّموه ختم [پومپي] الذي كان قد حفر عليه رسم اسدٍ يحمل بمخلبه سيفاً، طفق يبكي وأمر [باخيلاوس وبثينوس] فقتلا. اما [بطليموس] الملك، فبعد ان هزم في معركة على ضفاف النيل هرب الى جهة مجهولة ولم يسمع عنه شيء بعدها. وهرب [ثيودوروس] استاذ البيان من مصر. واخطأته عدالة [قيصر] الاّ انه عاش في المنفى طريداً منبوذاً تتقاذمه الآفاق محتقراً مبغضاً من جميع الناس، الى ان عثر عليه [ماركوس بروتوس] بعد قتلة [قيصر] فاذاقته أشنع ميتة في اقليمه بآسيا. ونقل الريفي القريب من [ألبا].

أوجه المقارنة بين پومپي وآغيسيلاوس

بعد أن اجملنا تاريخ حياتي [آغيسيلاوس] و[پومپي] وجب علينا ان نقوم بمقارنتهما. ولأجل ذلك ينبغي لنا أن نلقي نظرةً خاطفة ثم نجمع معاً نقاط الخلاف الأساسية فيما بينهما وهي الآتية: اولاً، بلغ [پومپي] ما بلغه من الرفعة والمجد بأرفع الوسائل واشرفها. وكان مديناً بارتفاعه لمجهوداته الخاصّة وللعون الكبير الهام الذي دعم به سوللاً، فأنقذ به ايطاليا من طغاتها. في حين نرى [اغيسيلاوس] قد ظفر بالملك على ما يبدو - بطريقة لاتخلو من انتقاص للآلهة واستحقار للناس فبالنسبة للناس، أحتقرهم باستحصاله قراراً يقضي بكون [ليوتيخيدس] ابناً غير شرعي لأخيه، في حين انّ أخاه كان قد اعترف جهراً وعلى ملأ من الاشهاد ببنوته. واما بالنسبة للآلهة فقد انتقصهم حين دسّ عبارة من عنده في نصّ النبوّة، وبقصد التخلص من أثرها في العرج الذي يشكو منه.

والاختلاف الثاني. هو ان [پومپي] ظلّ أبداً يوقرّ سوللاً ويحترمه في اثناء حياته ولم ينقطع عن ذلك بعد موته. فقد فرض فرضاً ان يدفن جثمانه دفنة مشرفة رغم معارضة [ليپيدوس]. وأعطى بنته زوجاً [لفاوستوس] ابن [سوللاً]. فيما وجدنا [اغيسيلآوس] يتخلص بأتفه الحجج والمزاعم من [ليساندر] تخلصاً يستبان فيه التحقير والتأنيب. ونستدرك فنقول أن [سوللاً] كان مديناً [لپومپي] بأكثر مما كان [پومپي] مديناً لسوللاً في الواقع. في حين أن كل الفضل في نصب [اغيسيلاوس] ملكاً على سپارطا وقائداً عاماً للاغريق جميعاً كان يعود الى [ليساندر] وحده.

والاختلاف الجوهري الثالث. هو ان [پومپي] قام بانتهاك حرمة العدالة والحق في سائر ادوار حياته السياسية، ترويجاً لمصالح اقربائه وآخرين وبمساعٍ منهم وكان لمعظم اخطائه بعض صلة [بقيصر] في زوجه و[سكيپيو] حميّه فضلاً عما هو متعلق بشخصه إلاّ ان [اغيسيلاوس] رغبةً منه في ارضاء عاطفة حبّ ابنه، انقذ حياة [سفوردياس] باستخدام بعض

العنف وكان يستحق الموت للجرم الذي ارتكبه بحقّ الآثينيين. وعندما عكرّ [فيوبيداس] علاقات السلم مع [ثيبه] بسوء قصدٍ وبشكل غادر واضح مالأه وشجعه على عمله بحماسةٍ حُبًا بالعملية الظالمة نفسها. وبمختصر القول فإن الأذى الذي قيل أن [پومپي] قد أصاب به روما، بتحقيقه رغبات اصدقائه أو باهمال منه، يمكن القول أن [اغيسيلاوس] قد جرّه على سپارطة بسبب عناده وسوء طويته حينما اشعل نار الحرب [البويوسية]. زد على هذا، اذا وجب علينا أن نعزو ايّ جانبٍ من هذه الرزايا بخصوص [پومپي] الى نكد حظ شخصيّ. فمن المؤكد أن ليس ثم اي مبرر ليتوقع الرومان أمراً كهذا . في حين ان [اغيسيلاوس] لم يتح للقيديميين فرصة اجتناب ما توقعوه وما انذروا به وهو التحرز من «الملك الأعرج». اذ لو تعرض [ليوتخيدس] للاتهام عشرة آلاف مرة بأنه أجنبيّ دعيّ. فان نسل [الپوريپونتداي Eurypontidae] باق، وبامكانه ان يمنح سپارطا ملكا شرعياً سليم الساقين لو لم يزيف [ليساندر] ويطلي بانسجام المنطوق الأصلي للنبوءة ترويجاً لدعوى [اغيسيلاوس] بالعرش.

ويصعب علينا أن نجد مساوياً وقريناً لتلك المغالطة الكبرى والحيلة الماكرة التي استنبطها [اغيسيلاوس] أمام الحيرة العظمى التي استولت على الناس، بخصوص المعاملة التي يجب أن تفرض على جبناء موقعة[ليوكترا]. فقد أعلن بعد تلك الهزيمة المشؤومة بأن القوانين يجب ان تنام في هذا اليوم، وكان [پومپي] بعكس ذلك لايجد اي بأس في ابطال أو خرق القوانين التي وضعها هو نفسه ارضاءً لصديق من اصدقائه، حتى لكأنه يريد أظهار متانة صداقته وعظمة قوته في آن واحد. في حين حكمت الضرورة على [اغيسيلاوس] كما يبدو، بالاختيار بين نقض القانون واتلاف المواطنين فعمد الى استنباط حيلة بها أبقى على تلك القوانين وعطلّ سريانها على المواطنين في عين الوقت وارانـي مضطراً الى الإشادة هنا بالعمل الجليل الفاضل الذي ينطوي على طاعة للقانون لا تضاهي عندما أوقف الحرب في آسيا فور وصول الـ[سكيتالا] اليه، وقفل راجعاً الى بلاده. ولم يكن مثل [پومپي] الذي حافظ على مصالح بلاده بمجهودات حافظت في الوقت نفسه على مصلحته الخاصه ومقامه ليس إلاً. فقد ظلّ [اغيسيلاوس] أميناً على مصلحة بلاده ولأجلها عاف كثيراً من السلطان والمجد مما لم ينله أحدٌ قبله أو بعده خلا الاسكندر الكبير.

علينا الآن أن ننتقل الى وجه آخر من المقارنة. لو جمعنا حملات [پومپي] العسكرية ووقائعه الحربيّة المشهورة وعدد انتصارات وعظمة البلاد التي اخضعها لحكمه والمعارك الفائقة العدّ التي كسبتها. فأنا مقتنع بأن [گزينفون] نفسه لن يضع انتصارات [اغيسيلاوس] في ميزان متكافيء معها. على أن [لگزينفون] ما يبرر منح [اغيسيلاوس] علاوة هي بمثابة

مكافأة له على تبريزه وامتيازه في أمور أخرى ليست ذات طابع حربي، مما يعطيه الحق في ان يتكلم ويكتب في تفضيل بطله وترجيحه على صنوه قدر ما يشاء. وفي اعتقادي أنا أن هناك فرقاً كبيراً بين الرجلين في تسامحهما واعتدالهما ازاء الاعداء، ففي الوقت الذي حاول [اغيسيلاوس] استعباد أهل [مثيبة] واستئصال شافة [المسينيين] [الاخيدون كانوا حلفاء بلاده القدماء، والأولى هي مسقط رأس اسرته المالكة، كان يفقد سپارطا نفسها كما كاد يفقد في الواقع حكمه على الاغريق. بينما ترى [پومپي] يقدم مدناً برمتها لأولئك القراصنة الذي ارادوا تغيير اسلوب حياتهم. كان بامكانه ايضاً ان يسوق [ديكران] ملك الأرمن أسيراً في موكب ظفره. لكنه اختار ان يجعله حليفاً للرومان بقوله «أن يوماً واحداً، هو أقلّ قيمة من مستقبل الزمن».

اما اذا كان التفوق بخصوص منصب القائد وفضائله، يجب ان يتحددّ بأعظم واهم عمل ومأثرة من أعمال الحرب ومآثرها عند القائد. فان ارتفاع [اغيسيلاوس] على [پومپي] في هذه الحالة لن يكون بالقليل. لأن [اغيسيلاوس] لم يترك وراءه مدينته وهي في حالة حصارٍ، يطبق عليها جيش قوامه سبعون ألفاً وليس في داخلها الاّ عدد قليل من المدافعين وهم الجنود المندحرون الذين تخلفوا من موقعة [ليوكترا]. لكن [پومپي] ترك مدينة روما خائفاً من زحف [قيصر] في الوقت الذي لم يكن [قيصر] قد أحتل من ايطاليا غير مدينة واحدة بثلّة من الجنود لاتزيد عن خمسة آلاف وثلاثمائة رجل، إمّا جبنا منه أمام هذه القلّة، واما على أقلّ تقدير بسبب اعتقاد خاطيء زائف عن وجود جنودٍأكثر من هذا. غادرها مع زوجه واولاده تاركاً بقية المواطنين وليس من يدافع عنهم، فرّ هارباً في حين كان عليه امّا أن يقاتل دفاعاً عن بلاده حتى يقهر، وامّا ان يرضخ لشروط فاتح هو ابن بلده وقريبه. غير انه سلّم السلطة كلها لعين الشخص الذي رفض أن يمدد له حكمه، وأبى بشكلٍ قاطع انه يسمح له بفترة ثانية كما تخلى عن المدينة حتى قال [ميتيلوس] وسائر الآخرين بأنهم أصبحوا لا أكثر من أسرى له.

ان مهام الجنرال الاساسيّة هي ارغام العدوّ على القتال عندما يجد نفسه الأقوى، واجتناب زجّ قواته في معركة عندما يجد نفسه الاضعف وهذه الميزة كانت بارزة في [اغيسيلاوس] على الدوام، وبها بقي لا يغلب. في حين كان [قيصر] الجانب الأضعف عند اشتباكه مع [پومپي]. فتحامى الخطر بنجاح. وكانت قوته ترتكن على الجيش البري لذلك دفعه الى تقرير مصير المعركة بتلك القوات فتمكن من وضع يده على كل ارزاق عدوّه وامواله، وسيطرته على البحر أيضاً وكلها كانت في يد عدوّه مرهي كفيلة بتحقيق النصر دون قتال بحدّ ذاتها. فما

يزعمون أنه اعذار [لپومپي] ودليل البراءة له، هو لجنرالٍ في مثل سنة ومقامه، عارٌ لايفوقه عارٌ، اذ لو سلمنا جدلاً بأن الصخب والضجيج والصياح قد تفقد قائد صغير الشأن مضاء عزمه وحضور بديهته، فيغدو مستضعفاً ويطير صوابه، وهو أمرٌ ليس بالعجيب، وليس بالخطأ الذي لا يغتفر، الاّ ان ما لايمكن التسامح فيه مطلقاً. وما لايمكن احتماله، هو خور عزيمة قائد مثل [پومپي] الأكبر، كان الرومان يعدون معسكره ملاذهم ووطنهم، وكانت ضيته مجلس شيوخ، مسمياً القناصل والپرايتورين وكل الحكام الآخرين الذين كانوا يديرون دفة الحكومة في روما باسماء ليست أفضل من ثوار أو خونة. وكانوا يعلمون حق العلم أنهم لم يمارسوا القتال الاّ تحت امرته، ذلك الذي خاض كلّ حروبه بنفسه وبأمرة نفسه دون أن يشاركه أحدٌ في القيادة العليا، رأيته عند أقلّ استفزاز، كأن يسخر به [فاڤونيوس] و[ديميتيوس]، وخوفاً من أن يلحق باسمه اسم [أغا ممنون] تضعو نفسه امام تأثير هذين الاثنين فترغماه على المخاطر بكلّ الامبراطورية وبحرية روما، في رمية نردٍ واحدة. لو كان يخشى على سمعته الحاضرة بهذه الدرجة، افما كان الأحرى به ان يحمي روما ولا يتركها وراءه؟ وعندما أعلن فضلاً عن ذلك - بأن انسحابه من ايطاليا انما هو مناورة على أسلوب [تمستوكليس] فانه لم يخجل من تأخره الحذر في القتال قبل نشوب معركة [ثسالي]. إن ارادة السماء لم تعين السهول القرسالية ساحة ومرسحاً يتقرر فوقها النزاع على امبراطورية روما، كما لم يطلب متحدٍ للنزال حضوره الى تلك البقعة بالذات. معلناً بأنه إمّا أن يختار خوض المعركة وإمّا ان ينزل عما بين يديه للتحديّ! هناك ميادين أخرى كثيرة، آلاف من المدن، بل رقعة الأرض كلها كانت تحت تصرفه وموضع اختياره، بحكم الافضلية التي أمنها له اسطوله وتفوقه البحري، لو اتبع خطى [ماكسيموس] و[ماريوس] و[لوكولوس]، بل حتى [اغيسيلاوس] نفسه الذي وقع تحت ضغط والحاح لا يقلّ عما تعرض له [پومپي] عندما كان محاصراً داخل [سپارطا] حين راح الثيبيون يستفزونه ويتحدونه ان استطاع الخروج للقتال دفاعاً عن اراضي [سپارطا]، كذلك كابد [اغيسيلاوس] في مصر العديد من الاتهامات والاهانات ووقع تحت شكّ عظيم من الملك المصري لأنه أشار عليه بأن يتحاشى القتال، متبعاً دائماً قراره الذي صمم عليه بعد التأمل الناضج. فحافظ على سلامة المصريين ضدّ ارادتهم! وانقذ سپارطا بعمله هذا من سقوطٍ محتمٍ وانتشلها من وضع يائس، فضلاً عن اقامة انصاب نصر في المدينة تخليداً لانتصاره على الثيبيين باتاحة الفرصة لبني قومه في تحقيق الغلبة عليهم لا بقيادتهم الى خارج الأسوار كما حاول عدوّه ارغامه لتدميرهم. ففاز [اغيسيلاوس] في الأخير بالثناء من عين أولئك الذين حاولوا ارغامه على القتال، بعد أن تبينوا كيف انقذهم. اما [پومپي] الذي كان الآخرون سبباً

في خطأه، فقد كان هدف اتهام أولئك الذين ضللته مشورتهم. الحق يقال أن فريقا يزعم بأن حميّه [سكيپيو] هو الذي خدعه. فقد أعتزم هذا أن يخفى الجانب الأكبر من الكنوز التي جلبها ختنه [پومپي] من آسيا ليستأثر بها لنفسه، فألح عليه بالاستعجال في دخول المعركة متعللاً بشحّ المال وقرب نفاده. مع هذا، فلو سلمنا جدلاً بأن [پومپي] كان ضحية خداع. فإن اي شخصٍ في موضعه كان ينبغي عليه الاّ يتصرف هكذا، ما كان يجب عليه أن يسمح لهذه الخدعة التافهة بان تسبب مخاطرته بتلك الامبراطورية الجبارة.

من هذا كله نستطيع ان نكون لنا فكرة عن كلّ من [پومپي] و[اغيسيلاوس] بمقارنة سلوكهما ومآثرهما الحربية.

أمّا بخصوص رحلة كلّ منهما الى البلاد المصرية. فان [پومپي] الجيء الى التوجه نحوها فراراً، أما الثاني فقد قصدها جندياً مرتزقاً ولم تلجئه الضرورة، ولا اسباب مشرفة. فقد جند نفسه لخدمة شعب بربري لقاء أجرٍ أراد أن يستخدمه فيما بعد لشنّ حرب على الأغريق. ومن الجهة الأخرى فإن ما نتهم به المصريين باسم [پومپي] فقد وثق بهم پومپي فغدروا به وقتلوه. امّا [اغيسيلاوس]. فقد وثق بهم [پومپي] ثقتهم ثم تخلى عنهم وتحول الى معاونة الاعداء الذين كان قد جاؤوا به خصومهم لمساعدتهم في قهرهم.

١٩٧٠/٣/٢٢

كان هذا القنصل بلا جدال أعدل الرومان وأشدهم استقامة مخفط للمنصب القنصلي كرامته وشرفه وابتعد به عن المصانعة والامتهان وقصره ضمن أضيق حدود قوانين الشريعة الأولى وقواعد الصرف القديم كانما هي حقائق رياضية ثابتة لا يمكن تحويرها. ومع هذا فأنا لا ادري حقاً كيف أبتلي ببعض الضعف من ناحية ميله الى الأخذ بأقوال قارئي الحظ والعرافين أكثر من نصح الرجال المترسين في الشؤون العسكرية والسياسية. وكانت نهايته أنه جُر جَراً من منبر الخطابة قبيل دخول [ماريوس] المدينة وقتل بيد أولئك الذين أرسلهم قبله. وورد في الأخبار انه وجد في طيات ثوبه عند قتله رقعة عليها كتابة كلدانية. ومما لا يمكن تفسيره والحق يقال، أن ينجح أحد جنرالين شهيرين وهو [ماريوس] في استخلاص الصائب من النبوءات. بينما يلحق الخراب بثانيهما وهو [اوكتافيوس] لخيبته فيها.

بعد أن آلت الأمور الى هذا الحدّ، اجتمع الشيوخ وقرروا ارسال وفدٍ الى [چينّا] و[ماريوس] يرجو منهما دخول المدينة دخولاً سلمياً والعفو العام عن سائر المواطنين. وأستقبل [سينّا] الوفد بحكم منصبه القنصلي وهو جالس على كرسي [الكورول] وكان ردّه على الوفد لطيفاً. أمّا [ماريوس] فقد ظلّ واقفاً الى جواره ولم يقل شيئاً، انمّا أظهر امارات كافية على نيته في اغراق المدينة بالدماء، بانقلاب سحنته وصرامة نظراته. وما ان نهض الوفد وتوجه الى المدينة حتى دخلها [سينا] وحرسه لكن [ماريوس] توقف لدى ابوابها وارسل يقول مخفياً حقده: انه شخص منفي أبعد عن موطنه بحكم قانوني. فاذا وجد ان حضوره ضروري فينبغي ابطال القرار الذي قضى بنفيه، بقرار آخر جديد. وقد اراد بهذا الظهور بمظهر المتزمت الحريص على حرفية القانون، وبأنه يعود الى المدينة وقد تحرر من الجور والخوف. فأجتمع الجمهور للتصويت وقبل أن يتم أخذ أصوات ثلاث قبائل أو اربع. أسقط [ماريوس] قناع ادعائه الكاذب ونبذ تزمته القانوني الزائف حول قرار نفيه ودخل المدينة بنخبة من حرس خاص أطلق عليه الحرس الباردايي Bardyaei الفه من العبيد الذين التحقوا به. فباشروا بقتل المواطنين بناءً على أوامر كان سيدهم يلقيها اليهم لفظاً أو بايماءة من الرأس.

وأقبل على [ماريوس] السناتور [أناخاريوس Anacharius] وهو [بريتور] سابق، والقى بالتحية على الظافر فلم يرد عليه فهجم عليه الحرس بسيوف مشهرة وفتكوا به أمام رئيسهم. وبعدها أصبح عدم الرد على التحية الاشارة المتعارف عليها. فإن لم يلتفت ماريوس اليهم أو يردّ عليهم قتلوه. حتى شاع القلق والرعب في نفوس اصدقائه وكان الخوف على أرواحهم يتملكهم كلما واجهوه أو حدثوه.

بعد أن ذبح هذا الحرس عدداً كبيراً. بَشِم [چينا] وزاد نفوراً وملالاً من القتل. إلاّ ان


الدار العربية للموسوعات

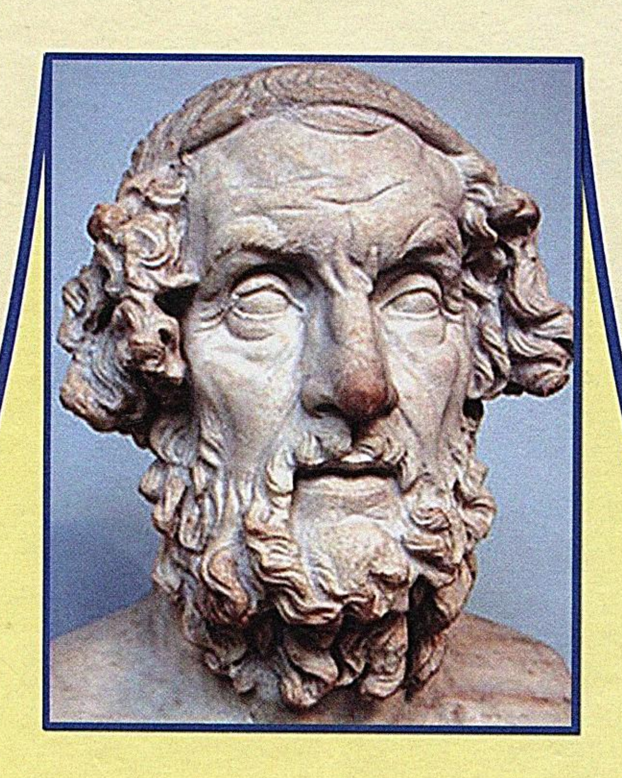

الدار العربية للموسوعات

علي مولا

تاريخ أباطرة وفلاسفة الاغريق

بلوتارك «فلوطرخوس»

تاريخ
أباطرة وفلاسفة الإغريق



المجلد الثالث

علي مولا

الدار العربية للموسوعات


الدار العربية للموسوعات


الدار العربية للموسوعات

تاريخ
أباطِرَة وفَلاسِفَة الإغريق

تاريخ
أباطرة وفلاسفة الإغريق

بلوتارك «فلوطرخوس»

ترجمة

جرجيس فتح الله

المجلد الثالث

الدار العربية للموسوعات

الطبعة الأولى

٢٠١٠م - ١٤٣٠هـ



الحازمية - مفرق جسر الباشا - سنتر عكاوي - ط1 - بيروت - لبنان
ص.ب: 511 الحازمية - هاتف: 952594 5 00961 - فاكس: 459982 5 00961
هاتف نقال: 388363 3 00961 - 525066 3 00961 - بيروت - لبنان
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

مؤسسها ومديرها العام: خالد العاني



356_323



ما صحت نيتي على كتابة سيرة حياة الملك الاسكندر و[قيصر] الذي انتصر على [پومپي] وجدت أن وقائعهما المجيدة تشمل فضاءً واسعاً، ان لم ابادر معتذراً الى تنبيه قارئي بأني سأفضل الاختصار على الاسهاب في كلّ واقعة او حادثة خاصّة، فسأقع تحت طائلة الانتقاد والمؤآخذة. وليكن معلوماً أيضاً بأن هدفي ليس تدوين التاريخ بل كتابة السيرّ. واعظم المآثر واجلها شأناً لا تزودنا دائماً بأوضح المعلومات عن الفضائل والرذائل البشرية. فأحياناً تجد في احدوثة صغيرة قليلة الأهمية، كعبارة أو نكتة من النكات خير دليل على الاخلاق والميول لا تعدله أعظم وقائع الحصار المشهورة واشدّ المعارك هولاً، واضخم التجريدات العسكرية وما الى ذلك. لقد كان رسامو الصور دوماً، ادق في رسم خطوط الوجه وملامحه، من رسم سائر الاجزاء الأخرى من الجسم، لأن خلق المرء يبدو على اساريره. لذلك ارجو أن يسمح لي بصرف جُلّ اهتمامي الى ما تستدل به على النفوس من علامات واشارات. وفي الوقت الذي سأعمل جهدي في رسم صور حياتهم بواسطة ذلك، تاركاً أموراً تبدو أكثر أهمية، ومسقطاً عن بحثي سرد معارك حربية عظيمة، تاركاً معالجتها لغيري.

اتفق الكتاب جميعاً على أن الاسكندر انحدر من ناحية ابيه من [هركليس] عن [كارانوس Caranus] ومن ناحية أمّه من [اياكوس Æacus] عن [نيوپطليموس] وقد كان ابوه فيليب يقطن [ساموثراكي] وهو شاب يافع، عندما وقع في حُب [اوليپياس Olympias] التي كان قد كرس معها دينياً في احتفالات البلاد، ومات عنها ابوها وامّها بعد ذلك بوقتٍ وجيز. فتزوجها بموافقة أخيها [اريمباس Arymbas]. وفي الليلة السابقة لزفافهما حلمت بأن صاعقة انقضت على جسدها فأشعلت ناراً عظيمة تفرقت السنتها فيما حواليها ثم خمدت وبعد مرور زمن على الزواج رأى[فيليب] في الحلم بأنه ختم على جسد امرأته بختم خيل له أن النقش المحفور عليه يمثل صورة أسدٍ. وقد فسر بعض العرافين هذا الحلم بأنه تحذير [لفيليب] ليشتد في مراقبة زوجه. إلاّ أن [اريستاندر Aristander] [التلمسوسي Telmessus] أكد أن حلمه يعني بأن الملكة قد حبلت بجنين ذكر سيكون في مستقبل الأيام قوياً شجاعاً كالأسد الضرغام. وقد توصل الى تفسيره هذا بعد أن تبين وجه استحالة ختم شيء فارغ.

فضلاً عن هذا، فقد شوهدت مرة أفعى مستلقية في الفراش مع [اوليمپياس] وهي نائمة. فكان هذا أهم عاملٍ في خمود عاطفة فيليب نحوها. وسواء في ذلك أكان مأتى برود عاطفته خوفه منها بوصفها ساحرةً، أو ظنّه بأن لها علاقة باحد الآلهة فعد نفسه غير مرغوبٍ فيه، فإن رغبته في مكالمتها قلت.

وقال آخرون بأن النساء في بلادها كن شديدات التمسك بممارسة الطقوس الأورفيّه Ar-phic[1] المتعصبة، وعبادة [باخوس] المتطرفة (ولهذا السبب سُمّين [كلودونس Clodones] و[ميمالونس Mimalones] مقلدات في أمور كثيرة ما تمارسه النساء (الايدونيات Edoni-ans) والثراقيّات قريباً من جبل [هايموس Haemus]. ومن هذا يبدو أن كلمة [ترسكووين Threskeuein] قد اشتقت فصارت تعبيراً يطلق على السطحي والغريب جداً من العبادات. ان [اوليمپياس] التي كانت شديدة التمسك بهذه الطقوس والعبادات المتعصبة الجنونية. كانت تمارس الرقص الذي هو جر[illegible] تلك الطقوس، بعد أن [illegible] أفاعي عظيمة مدجنة على جسدها كما تفرضه تلك العبادات، فتخلف في الناظر أثراً مرعباً متوحشا. كانت تلك الافاعي تلتفّ أحياناً حول الرماح المقدّسة، وأكاليل الرؤوس فلا يقوى الرجال على ادامة النظر خوفاً.

بعد هذا الحلم، بعث [فيليب] بـ[خيارون Chaeron] الميغاپوليسي، ليستشير عرافة اپوللو في دلفي. فورد الأمر بأن يقدم قرباناً، وان يخص من الآن فصاعداً، الاله [أمّون] من بين سائر الآلهة باكبر التعظيم والتكريم. وأُنذر بأنه سيفقد يوماً ما تلك العين التي خيل له بأنه أختلس النظر بها من شقّ الباب فرأى الإله وهو على شكل حيّة مع زوجته. ويقول [ايراتستينوس Eratosthemos] بأن [اوليمپياس] عندما رافقت الاسكندر وهو في طريقه للانضمام الى الجيش والمشاركة في اول قتال له، كشفت له عن سرّ ولادته وطلبت منه أن يتحلّى بالشجاعة والإقدام الجديرين بأصله الآلهي. ويؤكد آخرون أيضاً أنها نفت نفياً قاطعاً اي ادعاءٍ من هذا القبيل وكانت تردد دائماً قولها شاكية:

- متى يكفّ الاسكندر عن الافتراء علي عند [جونو]؟

ولد الاسكندر في السادس من شهر [هيكاتومبيوس] الشهر الذي يسميه المقدونيون [لوس Lous]. وهو يتفق واليوم الذي احترق هيكل [ديانا] في [أفسس]. وهي مناسبة تافهة

---

(١) نسبة الى [اورفيوس] الذي ورد ذكره في اسطورة أغريقية تقول أنه كان موسيقياً لحق بامرأته [يوريديس] الى عالم الأموات. وقد سحر [پلوتر] بالحانه فأجاز له اخراج امرأته من ذلك العالم شريطة ان لاينظر خلفه عند خروجه الاّ انه فعل ذلك في آخر لحظة ففقدها.

يجعلها [هيگسياس Hegesias] المغنيزي سبباً لوقف النار وانطفائها، اذ يقول ان النار شبت في المعبد فاحترق، اثناء غياب سيدته التي ذهبت لمساعدة [اوليمپياس] اثناء المخاض بالاسكندر. ان العرافين الشرقيين الذين صادف وجودهم في أفسس اثناء الحريق، اتفقوا كلهم بأن خراب الهيكل ما هو الاّ مقدمة لمصيبة اخرى فأخذوا يتراكضون في انحاء المدينة وهم يلطمون ويصرخون قائلين ان أمراً جللاً سيتمخض به هذا اليوم وسيكون فيه القضاء والدمار لآسيا كُلِّها.

ما أن استولى [فيليب] على [پوتيديا Potidæa] حتى تسلم رسائل ثلاثاً في آن واحدٍ. الأولى تعلمه بأن [پارمينيو Parmenio] قد هزم الالليريين في معركة عظيمة. والثانية تنبئه بأن حصانه قد خرج فائزاً في سباق الالعاب الأولمپية. والثالثة تبشره بولادة الاسكندر. فكان اغتباطه عظيماً بطبيعة الحال. وقد زاد في سروره أن العرافين أكدوا له بان ابناً صادفت ولادته مثل هذه البشائر الثلاثة بلا شكّ هو جبار لا يغلب.

إن اقرب التماثيل شبها بالاسكندر هي بلا جدال، التماثيل التي صنعها له [ليسيپوّس Ly-sippus] بأذنٍ خاصٍ منه. وإن تلك المميزات غير المألوفة حاول كثيرٌ من خلفائه واصدقائه محاكاتها فيما بعد. مثل ميلان رأسه قليلاً الى جانبٍ من جهة كتفه اليسرى. وعينه الناعسة مما بلغ النحّات في تصويره غاية الدقة والاتقان. إلاّ أن [أپيلليس Apelles] الذي صوره ممسكاً بيده صاعقةً، جعل بشرته أكثر اسمراراً ودكنةً مما هي في الواقع، اذ كان أشقر أبيض البشرة مع شيء من الحمرة في الوجه والصدر منه. ويحدثنا [ارسطوكزينس] في مذكراته بأن أطيب ريح كانت تفوح من جلده وأن انفاسه وجسده كانت معطرة بصورة طبيعية حتى أنها كانت تعطر الثياب التي تلي بشرته. ولعلّ سبب ذلك يعود الى مزاجه الحار الناريّ. فالرائحة الزكية على قول [ثيوفراستوس] تتأتى من تآلف الاخلاط الاربعة[٢] الرطبة مع الحرارة. وهذا هو السبب في أنّ تلك الاجراء التي هي أكثر جفافاً وتعرضاً لحرارة الشمس من العالم تنتج أحسن التوابل وأكثرها، لأن حرارة الشمس تستنزف كل الرطبة الخارجية التي تكسو سطح الاجسام تلك الرطوبة التي من شأنها أن تحدث الفساد والعفونة. ان هذا التركيب الحارّ قد يكون السبب في ادمان الاسكندر شرب الخمر، وفي سرعة غضبه. أما اعتداله فيما يتعلق بملذات الجسد فقد وضح فيه منذ نعومة اظفاره. فقد كان يصعب جداً اثارته من هذه الناحية، وظلّ يمارسها أبداً بكثير من الاعتدال. امّا في الأمور الأخرى فقد كان شديد التطرف والحرارة. لقد أظهر في حبه المجد، وفي جدّه ومتابعته له جلداً وثباتاً تمازجه روح عالية وشهامة أكبر

(٢) في الطب القديم: الاخلاط الاربعة هي الدم والبلغم والسوداء والصفراء.

بكثير من عُمره. فلم يتطلبها أو يؤثرها في كل مناسبةٍ تتفق له كما كان يفعل ابوه [فيليب].
(كان ينتهز كل فرصة لإظهار فصاحة لسانه الى حدّ الحذلقة، وكان يعمد الى أن نقش صور عجلات سباقه في الالعاب الاولمپية على سكتّه)، فعندما سأله أحد اصحابه هل سيدخل في سباق الالعاب الاولمپية بوصفه عداءً سريعاً، أجابه بقوله انه سيفعل ذلك لو كان المتسابقون معه ملوكاً مثله. والواقع انه كان يبدو عموماً عديم الاكتراث بالرياضيين المحترفين ان لم يكن يكرههم وكثيراً ما كان يضع جوائز لا ليتنافس عليها الممثلون والموسيقيون والزمارون واللاعبون على القيثار وحدهم، بل لشعراء الحماسة ايضاً. وكان يهوى كل انواع الصيد، والمبارزة بالعصي إلاّ أنه لم يكن يشجع اي نزال ملاكمة أو مصارعة حُرّة.

وكان وهو في مطلع شبابه يستقبل السفراء القادمين من ملك الفرس في غياب ابيه. ويدخل معهم في مناقشات كثيرة فينال احترامهم بدماثته وطيب مجلسه، وكانوا يعجبون كثيراً بأسئلته التي تسمو عن الفهاهة والصبيانية. فمثلاً يستفسر منهم عن احوال الطرق وطبيعة المسالك الى داخل آسيا، وعن عادات ملكهم وكيف يواجه اعداءه في الحرب وكم هي القوات التي يستطيع زجّها في ساحة القتال. فيمتلئون اعجاباً بع فيعدّون كفاءة فيليب المشهورة التي طبقت شهرتها الآفاق لا شيء بالمقارنة الى النضوج المبكر بدأ في ابنه في المبدأ، وفي شرف الأغراض التي يتوخاها.

وبدل أن يداخل الاسكندر الابتهاج عند سماعه نبأ استيلاء ابيه على مدينة هامّة او نال نصراً مؤزراً، تراه يشكو لرفاقه قائلاً أن أباه سيستولي على كلّ شيء ولن يترك لهم وله أية فرصة لتحقيق مأثرة عظيمة أو عملٍ مجيد. ولأنه كان أكثر ميلاً للمجد والعمل من الثروة والمسرات، تراه يعتبر ما سيرثه من ابيه تافه القيمة ومانعاً يعيقه عن اطلاب المجد في المستقبل. وكان يفضل أن يرث مملكةً يسوها الفوضى وتتجاذبها الحروب لتتيح له أكبر الفرص في اظهار شجاعته واستخداماً، ولتكون ميداناً فسيحاً لمآثر وعظائم الأعمال، على أن يجلس على عرش مملكة وطيدة الأركان مزدهرة، فيرثِ حياةً هادئة خالية من النشاط، يحفّ بها الترف والثروة.

ولقد أنيط أمر تعليمه كما هو مفروض، بكثير من الخدم والمدربين والمعلمين، في مقدمتهم [ليونيداس] وهو من اقرب اقرباء [اوليمپياس]. رجل صارم الخلق لم يرفض هو نفسه عنواناً لمنصبٍ كان في الواقع مشرفاً ورفيعاً، إلا أن وقاره ومهابته ودرجة قرابته على العموم أكسبته لقب الأب التربوي للاسكندر من دون سائر الآخرين. إلاّ أن [ليسيماخوس] [الاكرناني Acr-nanian] هو الذي أحتل الصدارة في تهذيبه، فقد رسم ووضع منهاج تعليمه، ومع أنه لم

يتميز بميزة خاصة تؤهله لهذا المركز، إلاّ أن ميله الى تلقيب نفسه بـ[فيونكس] وتسميته الاسكندر بـ[آخيل] واطلاقه اسم [پليوس Pelleus] على [فيليب]، كانت سبباً في الحظوة التي نالها ليلي [ليونيداس] في هذا المنصب.

أقبل [فيلونيكوس Philonicum] التسالي على فيليب وساومه على شراء الحصان المسمى [بوكيفالوس Bucephalus] بمبلغ ثلاثة عشر تالنتاً فأُخِذ الى ميدان الطرد لتجربته، فتبين بأنه شرسٌ للغاية، جموح لا يسلس قياده، نفور لا يتحمل صوت اي خادم من خدم [فيليب] فأبى شراءه وفيما كانوا يخرجونه قال الاسكندر الذي كان بين الواقفين:

- أسفاً على هذا الحصان الممتاز. لقد خسروه لأن الجرأة والبراعة في ترويضه تنقصهم.

في مبدأ الأمر لم يأبه [فيليب] بملاحظة ابنه، ولكنه أصاخ سمعه عندما راح الاسكندر يردد ذلك مرات، وهو متميز غيظاً فابتدره قائلاً:

- أتنتقد اولئك الذين يكبرونك سِناً، كأنك أفهم منهم، وكأنك أقدر على ترويضه؟

فأجابه الاسكندر بقوله: اي نعم، ان بوسعي معالجة أمر هذا الجواد بشكل يفضل عن الآخرين.

قال [فيليب]: فان عجزت عن ذلك. فما هي الغرامة التي تدفعها جزاء تهورك واندفاعك؟

أجاب الاسكندر: اني أدفع ثمن الجواد برمته.

فضحك كل الحاضرين. وتمّ الرهان بين الأب والأبن. واعيد الحصان فأسرع اليه الاسكندر وامسك بلجامه وادار رأسه باتجاه الشمس اذ لاحظ - كما يظهر - أن الحيوان مضطرب وجل من حركة ظِلّه. وبعد ذلك تركه يسير الى أمامٍ قليلاً وهو ممسك بالإعنة، يرتب على جسمه رتبات رفيقة هينة كلما وجد امارات القلق والجموح تراوده. ثم ترك معطفه الخارجي يسقط عنه بهدوء وبقفزة واحدة رشيقة اعتلى ظهره وشدّ ساقيه شداً محكماً عليه وما أن أستقرّ على صهوته حتى راح يجذب الأعنة اليه رويداً رويداً حتى شكمه دون أن يحتاج الى ضربه أو حثه. وعندما تبين له أن كل أثر للهياج قد زال منه، وان قلقه مدَ قضي عليه أطلق له العنان فجرى بأقصى ما وسعه، وهو يحثه بين الفينة والفينة بصوت آمرٍ ويحثه همزاً بكعب قدمه. وكان [فيليب] واصحابه ينظرون الى النتيجة بقلقٍ صامتين، حتى اذا رأووه يستدير عند نهاية الميدان ويعود ادراجه فرحاً ظافراً لما حققه، أنطلقت الحناجر تهتف استحساناً وتصرخ اعجاباً. وقيل أن أباه بكى فرحاً وعانقه بعد ان ترجل. وابتدره وهو في نشوة جبوره:

- مرحى لك عن مملكة جديرة بك ولائقة.

بعد هذه الحادثة، اقتنع [فيليب] بأن خلق ابنه ومعدنه يستوجب أن يستخدم من العقل والمنطق، لا القوة والإكراه، فكان دائماً يقدّم اسلوب الإقناع على اسلوب الارغام والأمر. كذلك تبين له أن تهذيب وتعليم هذا الابن الشاب أصعب وأهمّ من أن يناط بمعلمين للموسيقي والشعر والمألوف من العلوم المدرسية عاديين، وانما يقتضي له «اللجام والمقود معاً».

على حَدّ قول [سوفوكليس] أرسل يتقدم [ارسطاطاليس] اثقف واشهر فلاسفة عصره. واغدق عليه العطايا بسخاءٍ يوازي ويناسب العناية التي بذلها في مهمة تعليم ابنه. فمن ذلك أنه اعاد الحياة الى [ستاگرا Stagira] مسقط رأس الفيلسوف وكان قد دكّها قبل زمن قصير واعاد اليها كل سكانها الذين كان قد نفاهم اوباعهم عبيداً. وخصص هيكل [الحوريات Nympha] المجاور لمدينة [ميزا Mieza] ليكون محلاً للدراسة والتدريب. والناس في يومنا هذا يدلونك على مقاعد [ارسطاطاليس] الحجرية التي كان يجلس عليها، والممرات الظليلة التي كان يرتادها.

وقد يخيل للمرء أن الاسكندر أخذ عن هذا الفيلسوف مبادءه في الأخلاق والسياسة فضلاً عن جانبٍ من تلك النظريات الاكثر عمقاً وغموضاً، التي يدعي أولئك الفلاسفة (كما تدل الاسماء التي يطلقونها عليها) بأنهم يدخرونها للحوار الشفوي للمبتدئين، ولايسمحون لسواد الناس بالتصرف عليها بنشرها كتابةً. وعندما كان الاسكندر في آسيا سمع أن [ارسطاطاليس] نشر رسائل من هذا النوع فكتب اليه رسالته التالية مستخدماً ابسط لغة فلسفية:

«من الاسكندر الى ارسطاطاليس، تحيةً. لقد أسأت صنعاً في نشرك كتبك حول المبادئ الشفوية. ماذا بقي لنا بعد هذا لنمتاز به عن الآخرين في هذه الأمور التي تثقفنا بهذا بصورة خصوصية، عندما صارت متاحةً للجميع؟ وانا اوكد لكِ من جهتي، بأني افضل أن أمتاز عن الآخرين في معرفة ما هو رفيع سام، على أن أكون في طليعة الاخرين في توسيع سلطاني وآفاق حكمي. والسلام».

ويتكلم ارسطاطاليس عن هذه المباديء مخففاً من شدة شغف الاسكندر بالمحافظة على تلكم المبادئ فيقول:

إنها منشورة وغير منشورة في الوقت نفسه. وان تحرينا الواقع فكتبه عن الميتافيزيقا كتبت بأسلوب تبدو فيه وهي معدومة الفائدة للتعليم الاعتيادي كما تبدو مفيدة كمذكرات لأولئك الذين ضربوا بسهم وافرٍ في هذه العلوم.

مما لاشك فيه ايضاً ان الاسكندر مدين أيضاً لارسطاطاليس بميوله، لا في العلوم الطبية النظرية وحدها، بل في الطبّ التطبيقي العملّي. وكنت تجده - عندما يصاب صديق له بداء - ينظم له الحمية، ويصف له الدواء الأصلح كما تجد ذلك واضحاً في رسائله. وكان بطبعه من أعظم محبّي كل انواع المطالعات والبحوث العلمية ويحدثنا [اونيسقريطوس Onesicritus] بأن الاسكندر كان يحتفظ دائماً بالنسخة التي صححها ارسطو من الياذة [هوميرس] المعرفة «بالنسخة المعلبة» تحت وسادة سريره مع خنجره. وهو يصفها قائلاً: إنه يعدها كنزاً مغنياً سهل الحمل والنقل - جمعت كلّ الفضائل العسكرية ومعارفها. وكان وطابه خالياً من الكتب وهو في آسيا الشمالية فأمر [هارپالوس Harpalus] بارسال طائفة منها اليه. فزوده بتاريخ [فيلستوس Philistus] وبعدد جدّ كبير من تمثيليات [يوريپدس]، و[سوفوكليس] و[اسخيلوس] وببعض الملاحم الشعرية الحماسية من نظم [تيلستس Telestes] و[فيلوكزينيس Philoxenus]. وقد ظل زمناً مولعاً شغوفاً بارسطاطاليس وانزله منزلة لا تقل عن ابيه في نفسه كما كان يصرح هو نفسه. معللاً ذلك بأن احدهما منحه الحياة، وثانيهما علمه كيف يعيش أفضل حياةٍ إلاّ ان علاقتهما الصميمة وتوادّهما العميق اخذاً يفتران فيما بعد، بسبب شكّ ساور الاسكندر فيه ولم يكن هذا الشكّ من الخطورة بحيث يدفعه الى اذيته. وعلى أية حال فقد خبت نار تلك العاطفة حتى ادت الى القطيعة. على أن توقانه الشديد وشغفه بالعلم ظلاً في نموّ مطردٍ بعد أن رسخت جذورها فيه، ولم تخب شرارتهما مطلقاً. ويدل على هذا تكريمه [لاناكسارخوس]، واعطاؤه هدية مالية [لكزينوقريطس] قدرها خمسون تالنتاً. وعنايته الخاصة واكرامه لكلّ من [داندامیس Dandamis] و[كالانوس Cal-anus].

عندما جرّد [فيليب] حملته على [البيزنطيين] عين الاسكندر نائبه في مقدونيا وهو لم يتجاوز الستة عشر ربيعاً وفوض اليه ختمه. فلم يركن الاسكندر الى العطالة وجرد حملة على [الميدي Maedi] الثائرين وأخضعهم. واستولى على مدينتهم الكبرى عنوةً وطرد سكانها البرابرة، واسكن في محلهم مستعمرين من عدة قوميات. واعاد تسمية المدينة باسمه: [اسكندروپوليس]. وفي موقعة [خيرونيا] التي خاضها أبوه ضدّ الأغريق، قيل أنه كان أول جندي في الجيش هجم علي «العصبة الثيبية المقدسة». وعلى ما أذكر أن شجرة بلوط بالقرب من نهر [كفيسبوس] يطلق الناس عليها اسم «بلوطة الاسكندر»، كانت قد أضلت خيمته التي ضربت تحتها في حينه. ويرى المشاهد على مسافة منها قبور المقدونيين الذين خروا صرعى في تلك المعركة. هذه البسالة التي ابداها الاسكندر وهو في مقتبل عمره زادت من

محبّة [فيليب] له. فلم يكن يُسره شيء قدر سماعه رعاياه يمدحون قائدهم «فيليب» وينادون ابنه الاسكندر ملكهم.

إلاّ أن الشقاق الذي حصل في الأسرة، وسببه الرئيس تعود زيجات فيليب وارتباطاته بالمصاهرة اثارت انواع الخلافات والأحقاد فيما بينهما، اتباعاً للقول المأثور: ان المشاكل التي تبدأ في حجرات النساء تنتهي بالانتشار الى سائر انحاء المملكة. وقد زاد من هذه الخلافات حدة «الطبع الحاد العنيد الذي تمتاز به [أوليمپياس] وكانت امرأة شديدة الغيرة والحقد. فقد أخذت تدفع بابنها [الاسكندر] وتحرضه ضد ابيه. والحادثة التالية تعتبر في مقدمة الاسباب التي أدت الى القطيعة.

وقع [فيليب] في حُبّ [كليوپاترا] وكانت أصغر منه بكثير، فتزوجها. وفي ليلة العرس راح عمّها [اتالوس] في مجلس الشراب يبتهل الى الآلهة حتى تمن على المقدونيين بوارث شرعي لمملكتهم، ثمرةً من أحشاء بنت أخيه. فتميّز الاسكندر غيظاً وتناول قدحاً وقذف به [اتالوس] فشج رأسه وهو يصيح به محتدياً:

- أأنا نغل اذن؟ تبّاً لك ايها النذل.

وعندها نهض [فيليب] ليتخذ جانب [اتالوس] وكاد يفتك بابنه لو لم يعمل حسن الصدف عمله فقد شاء ان يعثر فيسقط على الأرض، اما بكثرة ما عبَّ من الخمر واما للعجلة المتأتية من هياجه. فوقف الاسكندر يسخر منه بشكل مهين قائلاً - انظروا الى الرجل الذي يستعد للعبور من اوروپا الى آسيا كيف هوى على الأرض عندما اراد الانتقال من مقعدٍ الى آخر؟

بعد هذه الفضيحة انفصل الاسكندر هو وامّه عن [فيليب] ورحلا عنه. فأستقرت هي في [ايپيروس] وانسحب هو الى [الليريا].

في ذلك الزمان، أقبل [ديماراتوس] الكورنثي على [فيليب] زائراً. وكان صديقاً للأسرة جدّ مقرب له حرية مطلقة في قول ما يريد دون أن يخشى بأساً. وبعد التمهيد والعناق والسلام والتحايا، بادره [فيليب] سائلاً:

- ما حال الاغريق؟ أهم على صفاء ووئام بعضهم مع بعض؟

فأجاب [ديماراتوس] بقوله: لا أرى من حقك أن تهتمّ باحوال الاغريق مطلقاً. وقد ورطت بيتك في هذه المآسي والخصومات.

فوقع كلامه هذا في نفس [فيليب] وادرك أصالة اللوم الذي تضمنه فأرسل فوراً يستدعي ابنه وتوسّط [ديماراتوس] فنجح في اقناع الابن بالعودة الى ابيه، إلاّ أن هذا الصلح لم يدم

طويلاً فقد بدأ الخصام ثانية، عندما أرسل [بكسودورروس Pixodorus] نائب ملك [كاريا Caria] رسوله [ارستوقريطس] للتوسط في عقد زواج ابنته الكبرى على [اريديوس Ar-rhidæus] ابن فيليب مؤملاً أن يضمن من هذه المصاهرة، معونة الملك المقدوني وقت الضرورة. فبادرت أم الاسكندر وبعض المتظاهرين بالصداقة يملأون رأس الاسكندر بحكايات وتخرصات تدور كلها حول هذا.

ان [فيليب] بهذه المصاهرة الممتازة والتحالف الهام، انما يرمي الى تمهيد الطريق لاستخلاف [اريديوس] على عرشه وحرمان بكره. ودفع به الخوف من ذلك الى ان بعث بـ[تيسّالوس Thessalus] التراجيدي الى [كاريا] لتشويه سمعة [پكودورروس] وتحقير [اريديوس] كلاهما بوصفهما ابني سفاحٍ وبأحمقين. كما خوله أن يحاول أقناع الاول منهما بقبوله زوجاً لابنته. فتّم له ما اراد لأن العرض الثاني. كان أفضل بكثير من الاول وما ان علم [فيليب] بما يجري حتى قصد مسكن ابنه الاسكندر يرافقه [فيلوطاس ابن ارمينو] من أخلص اصدقاء قائلاً ابنه وعشرائه، وهناك اشتد في توبيخه وتقريعه، وقسا في تعنيفه قائلاً:

- ان حطة الخلق بلغت به غاية التدني، فهو والحالة هذه غير جدير بالسلطة التي سيخلفها له طالما رغب في مصاهرة [كاريّ] وضيع المنبت، لايزيد عن عبد لأمير بربري. حتى هذا لم يطفيء سورة غضب فيليب، فكتب يأمر القورنثيين بأن يرسلوا اليه[ثيسالوس] مصفداً بالاغلال، وامر بنفي [هاريالوس] و[ينارخوس] و[بطليموس] و[ايريجيوس Erigyuis] اصفياء الاسكندر وعشرائه، إلاّ ان هذا اعادهم فيما بعد ورفعهم الى اعلى المناصب واكرمهم غاية الاكرام.

وبعد هذا بقليل وقع على پاوسانياس Pausanias اعتداءُ لتحريض اتاليوس [وكليوباطرة] ولما وجد نفسه عاجزاً عن الانتصاف لنفسه من ذلك العار الذي أصابه على يد فيليب، أخذ يتربص به حتى تمكن منه وقتله. وقد حُمّلت [اوليمپياس] معظم وزر هذه الجريمة اذ اشيع انها حرضتّ وأستفزت في نفس الفتى الغاضب روح الانتقام. وقد حام شيء من الشكّ حتى على الاسكندر نفسه، اذ قيل أنه عندما أقبل عليه [پاوسانياس] شاكيا مالحقه من غدرٍ، ردد على مسامعه مقطعاً من مسرحية [ميديا Medæ] ليورپيدس: «على الزوج، وعلى الأب، وعلى العروس»

وعلى أية حال فإن الاسكندر بذل الجهود لاكتشاف شركاء القاتل في مؤامراته وعاقبهم بصرامة؛ وكان شديد الغضب من أمّه لأنها عاملت [كليوپاطرا] زوج ابيه معاملة قاسية لا انسانية في اثناء غيابه.

كان للاسكندر من العمر عشرون سنةً عندما قتل أبوه وخلفه في حكم المملكة التي كانت تكتنفها المخاطر العظيمة وتمزّقها الفوضى ومكائد الاعداء الحاقدين. ومن ذلك أن الشعوب البربرية التي كانت تحادّ مقدونيا ابت ان يحكمها إلاّ أميرٌ من امرائها. ومع ان [فيليب] حقق انتصاراته الحاسمة على الاغريق إلاّ أن الوقت لم يتسع له لإكمال فتوحه وتعويد تلك الشعوب طاعته والخضوع لسطانه، ولهذا نزل تلك الشعوب وهي في حالٍ لاتوصف من الفوضى والغليان، وكانت تلك الفترة بالنسبة للمقدونيين أحرج فترةٍ. وودّ بعضهم لو تمكنوا من اقناع الاسكندر بالتخلي عن فكرة ابقاء الاغريق تحت سلطانه، ونصحوه باتباع سياسة اللين والرقة لكسب ولاء العشائر التي كانت تنوي الثورة عليه. واشاروا عليه بتجربة اسلوب العفو والغفران لوقف اولى بوادر الثورة. لكنه رفض تلك النصائح بوصفها من دلائل الاستخذاء والضعف. وكان يرى خلاف ذلك أنه من بعد النظر والحكمة تثبيت سلطانه بالعزم والصرامة والمثابرة لأنها خير من الاذعان والاستكانة لأنهما يشجعان الجميع على الانتقاض والثورة. وبتطبيق فكرته هذه تمكن من القضاء على ثورة البرابرة. وبددّ كل فكرة قد تراودهم بشنّ حرب، فقد قاد حملة مفاجئة على بلادهم وصل بها الى ضفاف الدانوب واوقع هزيمة نكراء بـ[سيمروس Symrus] ملك التريباليين Triballians في معركة فاصلة. ولما وردته انباء قيام [الثيبيين] بثورة عليه زحف عليهم باتفاق مع الآثينيين. من وضيق [ترموبيلي] قائلاً قولته المأثورة:

- لقد سماني [ديموستينس] «طفلاً» عندما كنت في «الليريا» وفي بلاد «تريباليا» وسماني «شاباً» عندما كنت في «تساليا». ولكني سأبدو له رجلاً عند وصولي اسوار آثينا!

وصل الاسكندر الى [ثيبه] واراد إظهار مبلغ رغبته في الصفح عن أهاليها وقبول دخالتهم بعدما فعلوا. ولم يطلب منهم غير [فيونيكس Phoenex] و[پروثيتوس Prothytes] وهما الرجلان اللذان تزعما العصيان. وأعلن ايضاً العفو العام عن كل ينضم اليه، الاّ ان الثيبيين ردوا على بيانه هذا بيان آخر طالبوه فيه بتسليم كلٍ من [فيلوطاس] و[انيتباطر]، وأعلنوا من جانبهم الدعوة لكلّ من يؤيد حرية اليونان وأستقلاله بأن ينضم اليهم، وهنا لم يسع الاسكندر الاّ أن يمارس معهم أمر وأقسى جانبٍ من الحرب. والواقع ان [الثيبيين] دافعوا عن أنفسهم دفاعاً مستميتاً وابلوا أحسن البلاء. لكن عندما كرت عليهم الحامية المقدونية من القلعة وجدوا أنفسهم مطوقين من كل جهة بحيث ان القسم الاعظم منهم خرصريعاً في ساحة القتال. وتم فتح المدينة عنوة ونهبت ثم دكت دكاً. وكان الاسكندر بهذا يريد ان يضرب مثلاً لارهاب بقية شعوب الاغريق وارغامهم على الوضوح لحكمه بمثل هذا العقاب الصارم كما كان

يريد ايضاً شفاء غليل حلفائه الفينقيين و[البلاتانيين Plataens] من أعدائهم المقهورين. وهكذا لم يبق من سكانها البالغ تعدادهم ثلاثين ألفاً، غير الكهنة ونفر قليل ظلوا على صداقتهم وعلاقتهم مع المقدونيين، وأسرة الشاعر [پندار] وأولئك الذين عرفوا بمعارضتهم الحرب اثناء التصويت العام عليها. وهكذا بيع جميع السكان في سوق العبيد وقضي على ستة آلاف بحدّ السيف.

ومن البلايا الأخرى التي انصبت على المدينة، هو ان بعض الجنود الثراقيين اقتحموا بيت واحدة من عقائل المدينة وعرفت بالخلق العالي وكرامة المحتد، تدعى [تيموكليا Timoclea] وبعد أن أغتصبها قائد الجنود، طلب منها ارضاءً لجشعه بعد ارضاء شهوته، أن تدلّه على مكان مالٍ مخفي فأسرعت تقول انها تعلم بوجود مالٍ وطلبت منه أن يتبعها الى الحديقة حيث ارشدته الى بئر وقالت له أنها قد ألقت في اعماقه بأثمن ما في حوزتها عندما هوجمت المدينة. فانحنى الثراقي الجشع ليتفحص الموضع الذي توهم وجود الكنز منه فتقدمت منه ودفعته الى اعماق البئر ثم راحت تقذف باحجار كبيرة فوقه حتى قضت عليه. فقادها الجنود وهي موثقة الى الاسكندر. وسرعان ما اثبتت له شجاعتها وثبات قدمها في سيرها بأنها امرأة ذات منزلة وعقل راجح لايسمح بايّ امارة للخوف أو الاندهاش. وسألها الملك عمن تكون فأجابته قائلة:

- أنا أخت [ثايجنيس Theagenes] الذي خاض غمار معركة خيرونيا مع ابيك [فيليب] وخرّ صريعاً في سبيل حرية بلاد الأغريق.

فكان عجب الاسكندر شديداً مما قالته وما فعلته، فلم يسعه الاّ أن يمنحها هي واولادها الحرية، والأمان بالتوجه أنىّ شاءت.

ثم انه قبل ندامة الآثينيين، وبالغ في اكرامهم مع انهم ساهموا مساهمة كبيرة في نكبة [ثيبا]. وعلى سبيل التفكير والتعبير عن أسفهم لما وقع الغوا الاحتفالات بعيد الأسرار. وأكرموا وفادة أولئك الذين سلمت ارواحهم. وعاملوهم أفضل معاملة انسانية ولسنا اندري أكان الاسكندر كذلك الأسد الذي خمدت سورة غضبه بعد أن ارتوت نفسه، أو أنه أراد أن يبدو رفيقاً رحيماً بعد أن خرب هذا المثل المتناهي في الصرامة. وعلى ايه حال فقد كان تبدله هذا من حسن حظّ الآثينيين. ولم يكتف بالصفح عن زلاتهم الماضية، بل توجه اليهم ناصحاً بأن يعالجوا شؤونهم بالحكمة واليقظة متذكراً بأنه ان أخفق في اعماله، فان الآثينيين على أغلب الاحتمال سيكونون بمثابة الوسطاء للاغريق، ومن الثابت كذلك انه ندم كثيراً على ما فرط منه من قسوة بحق الثيبيين. وكان لأسفه هذا أثره الشديد على خلقه، فقد بات أقل شدة

وصرامة من الآخرين. ألصقت به أيضاً تهمة قتل [كليتوس Clitus] ، في مجلس شراب. كما أن اباء المقدونيين اطاعة امره بالزحف لقتال الهنود ، وتهديد مشاريعه بالفشل، ومجده بالزوال كان من اثر سخط وانتقام [باخوس] حامي [ثيبة]. وقد لوحظ انه كان يغضيّ الطرف عن ايّ [ثيبي] نجا من الموت، ويحقق له كل سؤله ونبيله مطلوبة ولايردّ لهم طلباً مهما كان.

بعد هذا كله أجتمع الأغريق في [الاسموس] وعلنوا اعتزامهم الانضمام الى الاسكندر في حربه مع الفرس كما أمروه قائداً عاماً لهم. وأقبل عليه اثناء وجوده هناك، عدد كبير من عظماء الكهنة والفلاسفة وتقاطروا من شتى الارجاء لزيارته وتهنئته بمنصب القائد العام. إلاّ أن [ديوجينس] السينوبي الذي كان يقطن في [كورنث] لن يأبه به ولم يحتف بمقدمه خلافاً لما كان الاسكندر يتوقعه. ولم يتحرك قيداغلةٍ من ضاحية [كرانيوس] حيث وجده الاسكندر مستلقياً في اشعة الشمس. وعندما وجد هذا الفيلسوف الحشد العظيم بالقرب منه رفع نفسه قليلاً وتنازل بالنظر الى الاسكندر فسأله هذا بلطفٍ عما اذا كان يريد يحقق له حاجةً فأجابه الفيلسوف قائلاً:

- أجل لي حاجة لدي، انك تحجب الشمس عنيّ فأريدك أن تتنحّى قليلاً.

فأصيب الاسكندر بصدمة وذهل من هذا الطلب ولم يسعه الاّ الاعجاب بعظمة هذا الرجل الذي لم يلحظ حتى وجوده، وما كان منه إلاّ أن التفت الى ابتاعه وهو عائد وكانوا يتضاحكون من نكد مزاح الفيلسوف، وقال لهم: «لو لم أكن الاسكندر لأخترت أن أكون [ديوجينس]. ثم أنه قصد [دلفي] لاستخارة [ابوللو] حول نجاح الحرب التي باشرها. واتفق انه وصل في احد الأيام المحرقة، التي لم يكن من المناسب ان نتنبأ العرّافة فيها فأرسل يطلب من الكاهنة مباشرة المراسيم المعتادة فرفضة معتذرة بالمخطور الشرعيّ، فذهب اليها هو بنفسه وراح يجذبها بقوة الى الهيكل وهي تنازعه حتى ادركها التعب وغلبها اصراره فقالت:

- إنك لاتُغلب يا بنيّ.

فتمسك [الاسكندر] بقولها وصرح بأنه ظفر بالجواب الذي جاء [دلفي] لأجله ولم تعد به حاجة الى استخارة الإله.

ومن بين الخوارق التي صاحبت مسيرة جيشه، أن صورة [اورفيوس] في [ليبثرا Libethra] التي كانت قد نحتت من خشب السرو، بدت وهي تتصبب عرقاً غزيراً، وهذا مما اولد القلق الشديد في نفوس الكثيرين. إلاّ أن [اريستاندر] قال له ان هذه ليست مطلقاً دليل شؤم وانما تشير الى أنه سيحقق اعمالاً عظيمة وامجاداً بحيث يتغنى بها الشعراء وينشدها الموسيقيون

في العصور القادمة وهم مجهدون ينضح العرق من جسومهم اثناء قيامهم بوصف تلك المآثر والاحتفال بذكراها.

واختلف الناس في تقدير عدد جيشه فأولئك الذين مالوا الى التقليل منه قالوا انه كان يتألف من ثلاثين ألفاً من الرّجالة واربعة آلاف من الخيالة. امّا أولئك الذين بالغوا في رفع عدده فقد قالوا أنه كان في حدود اربعة وثلاثين ألفاً من الرجالة وثلاثة آلاف خيّال. ويقول [ارسطوبولس] ان الاسكندر لم يكن لديه مالٌ لدفع مرتبات جنوده أكثر من سبعين تالنتاً. ولم يكن لديه من الارزاق ما يكفيهم لأكثر من ثلاثين يوماً، لو أننا صدقنا أقوال [دوريس]. لكن [ارسطوقريطس] يحدثنا بأن الاسكندر كان مديناً بمئتي تالنت. ومهما بدت مقدمات تلك الفتوحات العظيمة صغيرة محدودة غير متكافئة مع الاستعدادات، فالواقع هو ان الاسكندر لم يخرج بجيشه للقتال الاّ بعد أن تأكد بنفسه أن اصدقاءه الذين رافقوه، قد طمنت كل حاجة لهم واستجيبت مطالبهم. وفي هذا السبيل منح لبعضهم مزارع ولآخرين أقطع قرى أو غلات قرى أو عوائد مرفأ بلدةً وهكذا حتى أنه أقطع ومنح وأوقف كل الأملاك العائدة للتاج المقدوني مما دفع [پيرديكاس] للقول:

- ماذا ستبقى اذن لنفسك؟

فأجابه الاسكندر: آمالي.

فردّ [پيرديكاس] عليه بقوله: اذن سيكون جنودك شركاء لك في ذلك.

ورفض أن يقبل ضيعة أقطعها له الاسكندر. وتبعه في ذلك اصدقاء آخرون في رفضه. اما أولئك الذين كانوا راغبين في عطائه فقد كان معهم سخياً، بقدر ما استنفذ كل الأملاك التي ورثها في مقدونياً. فقد ذهب معظمها في هذا السبيل.

بهذه العزيمة الثابتة وبتلك الفكرة الرضية عبر الاسكندر [المضايق] وفي [طرواده] ضحى [لمنيرڤا] واكرم ذكرى الابطال الذين ثوت رفاتهم هناك، بسكب قرابين الخمر في احتفال رسمي وخصّ قدم [آخيل] بالاكرام فدهن شاهده بالزيت وطوفّ هو واصدقاؤه حول القبر راكضين وهم عراة وضفر أكاليل الزهر عليه وصرح قائلاً: إن ساكن القبر يعتبر من أسعد الناس لأنه كان يملك صديقاً بمثل هذا الاخلاص في حياته، ولأنه بعد مماته قيض له شاعر بمثل هذه الشهرة لتمجيد اعماله. وفيما كان يجول متفرجاً على الآثار والمرابع التاريخيه في تلك المواضع قيل له أن بامكانه ن يرى قيثارة [پاريس Paris] لو رغب. فأجاب انه لايعتبرها مما يستحق المشاهدة. لكنه سيكون مسروراً لو شاهد قيثار [اخيل] التي كان يعزف عليه اثناء

تغنيه بالاعمال العظيمة التي انجزها صناديد الرجال.

وفي الوقت نفسه كان قادة جيوش [داريوس] قد حشدوا قوات ضخمة وعسكروا على الضفة الشرقية لنهر [غرانيقوس Granicus] وكان من الضروري والحالة هذه القتال على تخوم آسيا لأجل اقتحامها والنفوذ الى اراضيها. وكان عمق النهر وعدم استواء الضفة المقابلة وصعوبة ارتقاء مرتفعاتها من الاسباب التي تجعل الاستيلاء عليها مستحيلاً الاّ باستخدام القوة الرئيسة من الجيش، وها ما ادى الى احجام معظم ذوي الرأي عن القتال، فقال فريق أن الوقت غير ملائم للاشتباك مع العدوّ لأن ملوك مقدونيا لم يتعودوا الشروع في حملاتهم العسكرية خلال شهر [دياسيوس Daesius] الاّ ان الاسكندر تخطى هذه الاعراف وتجاهلها بقوله:

- يمكنكم أن تطلقوا على هذا الشهر اسم [ارتيموسيوس الثاني Artemosius].

ونصحه [پارمينيو] بأن لايحاول أمراً في ذلك اليوم بالذات لأن النهار قد تقدم فرد عليه بقوله:

- اني سألحق العار [بالهللسپونت] ان خفتُ من نهر [غرانيقوس].

وهكذا تفادى الحديث الكثير وتمكن من الاستيلاء على النهر فوراً بثلاثة عشر رعيلاً من الخيالة. اذ تقدم نحوه مواجهاً وابلاً من الرماح المقذوفة عليه من الجهة المقابلة المرتفعة الشديدة الانحدار التي كانت تعجّ بقوات لا تخص من خيالة العدوّ ورجالته. ولم يبال بعوائق الأرض وسرعة تيار النهر ولذلك غلب على القتال الحماسة والاستمانة والاستبسال، أكثر مما بدأ فيه من الخدمة والمهارة، وتشبث بكلّ عنادٍ لأجل الاستيلاء على نقطة عبورٍ. وأخيراً تمكن بعد لايٍءٍ من شق طريقه الى أعالي الضفاف وكانت موحله زلقةً للغاية. واضطر أن يخوض فوراً معركة اليد باليد مع العدو امتازت بالاضطراب الشديد وفقدان النظام. قبل أن ينجح في تنظيم صفوف رجاله الذين كانوا مستمرين في عبور النهر وكان العدوّ يكر عليه بهجمات متتالية وهو يطلق صيحات الحرب داويةً تشق عنان السماء ثم تهجم الخيالة على الخيالة بالرماح المشرعة. وبعد أن تتكسر تلك الرماح ولايعود فيها نفع يلجأ المقاتلون الى السيوف. وكان الاسكندر يسهل تمييزه بترسه ونجمتين كبيرتين من الريش الأبيض على جانبي خوذته. ولقد هوجم شخصه من كل جانب الاّ انه لم يصب بجرح، وان كان قد ثقب درعه من أحد المفاصل بطعنة رمح. وكرّ عليه القائدان [ريوساكيس Rhaesaces] و[سپيثريداتس Spith-ridates] معاً. فحاد عن ثانيهما ووجه الى اولهما طعنةً نجلاء بلغت من القوة ان رمحه

انكسر في يده بسبب مناعة درعه وجودته. ولذلك لم يعد للاسكندر إلاّ سيفه فجرده لمواجهة سپيثريداتس الذي شدّ عليه من جانب اثناء ما كان منشغلاً مع الأول. فأنهض نفسه فوق سرج حصانه وأهوى على خوذته بفأسه الحربية مودعاً في ضربته كل ما فيه من قوة فأطاحت بعرف الخوذة وضبّة من ضبتي الريش، ولم ينقذه من الهلاك الاّ صلابة تلك الخوذة فقد مست شفرة الفأس شعر رأسه عندما فلقتها. وفيما كان مهاجمه يهّم بتكرار الضربة تصدى له [كليتوس] المعروف بـ[كليتوس الأسود] واخترق جسمه بطعنة نجلاء من رمحه. وفي الوقت نفسه تمكن الاسكندر من غريمه الآخر [روساكيس] وارداه قتيلاً بسيفه وفيما كانت الخيالة مشتبكةً في قتال خطير، اتمّ الفلانكس المقدوني عبور النهر وتقدمت المشاة من كل جهة للمشاركة في المعركة. إلاّ ان العدوّ الذي لم يتمكن من صدّ أول كرة إلاّ بشق الأنفس، ما لبث أن زحزح عن مواقعه ثم انكفأ على أعقابه لا يلوي، باستثناء المرتزقة الأغريق الذين صمدوا في رابيةٍ فقد رغبوا في التسليم، إلاّ أن الاسكندر غلبت عليه عاطفة الحنق وترك التروى جانباً، فرفض طلبهم وكرّ عليهم بنفسه أولاً فقتل تحته حصانه (حصان آخر غير بوكيفالس المار ذكره) ولقد كلفه عناده واصراره على ابادة هؤلاء المقاتلين المجرمين اليائسين ارواح عددٍ من رجاله يفوق ما كلفه كل القتال الذي جرى قبل ذلك، دعك من الجرحى. وفقد الفرس في هذه الوقعة عشرين ألف راجل والفين وخمسمائة من الخيالة. ومن جانب الاسكندر يقول [ارسطوبولس] انه لم يفقد أكثر من ثلاثة واربعين، تسعة منهم مشاة. وأمر الاسكندر تخليداً لهم، بنصب عدد من التماثيل النحاسية من صنع المثال [ليسيپوس]. ولأجل اشراك الاغريق في شرف النصر الذي حازه، ارسل اليهم جانباً من الأسلاب، وخصّ الاثينيين بثلاثمائة درع تعش عليها العبارة التالية:

«إن الاسكندر ابن فيليب والاغريق ما عدا اللقيديمين هم الذين غنموا هذا من البرابرة سكان آسيا»

وأرسل لأمّه على سبيل الهدية كل الصحاف والحلل الارجوانية وما جرى مجراها، التي غنمها من الفرس، ولم يستبق لنفسه الاّ مقداراً ضئيلاً.

سرعان ما احدثت هذه المعركة تغييّرات عظيمة لصالح الاسكندر فقد استسلمت له [ساردیس] تلك القلعة العظيمة التي ارتكزت فيها قوة البرابرة وسيطروا منها على سائر الأقاليم البحرية، اضافة الى كثير من المواقع الهامة الأخرى. باستثناء [هاليكارناسوس] و[ميليتس] فقد امتنعتا عليه فأستولى عليهما عنوة مع كل البلاد التي تتاخمهما. وبعد هذا ادركه قليل من التردد بخصوص خططه المقبلة، فكان أحياناً يرى ألاحرى أن يتعقب

[داريوس] بأسرع ما يمكن ويغامر بكلّ شيء في معركة. وكان يرى آناً ان يعمل على اخضاع السواحل ولايتعقب العدوّ حتى يوطّد سلطانه فيها ويؤمن لنفسه الارزاق والموارد من تلكم الاقاليم. وفي اثناء ما كان يقلب وجوه الرأي هكذا، اتفق ان غدير ماءٍ بالقرب من مدينة [كسانتوس] في [ليكيا] فاضت مياهه على الجانبين بشكل آنيّ تلقائي وطرحت على الضفة صحفة من النحاس نقش حول حوافّها كتابة قديمة تفيد، بأن الزمن سيأتي حين يقوم الأغريق بالقضاء على امبراطورية الفرس. فشجعته هذه المصدفة الغريبة وباشر باخضاع الاجزاء الساحليّة من [كيلكيا] و[فينقيا] وزحف بجيشه على طول ساحل البحر في [پامفيليا] بسلسلةٍ من الحملات العسكرية دفعت كثيراً من المؤرخين الى وصفها وتعظيم شأنها بأبلغ عبارات الاعجاب والاطراء وانزلوها منزلة المعجزات او المآثر الفائقة للعادة وعزوها الى خطوته لدى العناية الالهية وكمثل لذلك ليس أبلغ من تلك الأمواج التي تقبل من صدر البحر صاخبة متلاطمة فلا تخلّف غير ساحل ضيق، ما تلبث ان تنكشف عن الجرف المتكسر في اي وقت وتنسحب على حين غرّة لتؤمن له طريق مرور! ولقد أشار [ميناندر] في أحدى كوميدياته الى هذه المعجزة فقال:

> أنال الاسكندر حظوة الهيبة أكثر من هذا؟ أهناك حظوة اعظم من أن ألقى على باب داري من اتمنى رؤيته من الناس؟ وان أطلب عبوراً من خلال البحر، فلا اشك بان البحر لن يفسح طريقاً اكراماً اليّ.

على ان الاسكندر نفسه في رسائله لايذكر شيئاً غير اعتيادي عند سرده هذه الوقائع، بل يقول انه سار من [فاسليس Phaselis] وأخترق ما يطلقون عليه [السلالم] وفي فاسليس مكث قليلاً وعثر على تمثال [ثيودكتس Theodectes] وكان مواطناً من أهل المدينة توفي منذ زمن. فبادر الى نصب التمثال في الساحة العامة. وبعد أن تعشى وشرب مقداراً غير قليل من الخمر، خرج ورقص حول التمثال وتوجه بقلائد الزهر. وهكذا أكرم برياضته هذه ذكرى فيلسوف كان قد استمتع بمحاوراته عندما كان متتلمذاً على ارسطو.

وبعد ذلك اخضع الاسكندر [البيسيدين Pisidans] الذين انقضوا عليه ثم قهر الفريجيين وفي عاصمتهم [گورديوم Gordium] التي قيل انها كانت عاصمة ميداس الغابر، وجد العجلة الشهيرة التي كانت تشد بحبالٍ مصنوعة من لحاء شجرة القرانيا. وكانت التقاليد المتناقلة عن المدينة تقول ان من يقوى على حلها يدين له العالم بالطاعة. ويقصّ معظم الكتاب الحكاية التالية حول هذه العجلة: وجد الاسكندر نفسه عاجزاً عن حلّ عقدة الحبال لأن النهايتين عقدتا بطريقة سرية واخفيتا تماماً فلم يكن منه الاّ وقطعها بحدّ سيفه. على ان

[ارسطوبولس] يحدثنا بقوله أنه حلّها سهل عليه بقلعه المسمار من المحور الذي ربط به النير، ثم انه قام بفكّ النير نفسه من تحت.

وتقدم زاحفاً الى [پاومفلاگونيا Pamphlagonia] وكبادوكيا وسرعان ما أخضع هذين البلدين. ثم سمع بموت [ممنون Memnon] خير قواد [داريوس] على ساحل البحر. ولو عاش هذا القائد لكان كما يقدرون قميناً بوضع كثير من العراقيل والمصاعب في طريق تقدم جيش الاسكندر. ان هذا الحدث شجعه على نقل الحرب الى اقاليم آسيا العليا.

كان داريوس في اثناء ذلك يتقدم بجيوشه من [سوسه] وهو عظيم الثقة، لا بعدد مقاتليه الذين بلغوا ستمائة الف، بل كذلك بحلم له فسّره المشعبذون الفرس مجاملة له وتملقاً تفسيراً طيباً أكثر مما فسروه وفقاً للطواريء الطبيعية. حلم داريوس بانه رأى الفلانكس المقدوني وقد التهمته النيران كما رأى خصمه الاسكندر وهو يقوم على خدمته مرتدياً عين الثوب الذي كان هو نفسه يرتديه عندما كان واحداً من سعاة الملك الذي سبقه على العرش، ورآه بعد ذلك يتوجه الى هيكل [بيلوس Belus] ثم ما لبث ان توارى عن ابصاره. كان يجب ان يفهم الحلم بأنه دليل من السماء على الاعمال العظيمة التي قدر للمقدونيين اصطناعها. وان يرى فيه نذيراً يعلمه بأن الاسكندر - سيرتفع مثلما ارتفع هو من مركز ساع بسيط الى عرش ملك وسيغدو سيداً لآسيا، وانه لن يعيش طويلاً بعد فتوحاته تلك، وسينهي حياته بالسؤدد والمجد. وزادت ثقة داريوس بنفسه لأن الاسكندر تسكع طويلاً في كيليكيا، الأمر الذي عزاه الى جبن فيه واحجام، على ان الحقيقة هي غير ذلك فقد اعاقه المرض الذي عزاه بعضهم الى الارهاق، وعزاه آخرون الى سباحته في نهر [قدنوس Cydinus] الذي كانت مياهه في منتهى البرودة. على أية حالٍ سقط الاسكندر مريضاً ولم يقدم اي طبيب من اطبائه على معالجته بالدواء فقد خيل لهم ان داءه عياء ولا امل في شفائه، وادركهم رعب وفرّق من شك المقدونيين فيهم وما سينتظرهم منهم ان هم اخفقوا في شفائه. حتى قرر فيليب الاركارناني Acarnian أن يستخدم آخر مجهود منه بعد أن تبين خطورة حالته، معتمداً على عرى الصداقة الوثيقة المشهورة التي تشدّ فيما بينهما. مفضلاً المخاطرة بسمعته وحياته على ان يترك صديقه يموت دون علاج. وبادر الى ممارسة طبّه فيه بثقة نفس وشجعه على تناول الدواء من دون تردد ان اراد الاسكندر الشفاء العاجل ومواصلة الحرب. وفي عين هذا الوقت ارسل بارمينو Parmino الذي كان في المعسكر رسالة الى الاسكندر يطلب منه ان يحذر من فيليب الطبيب لأنه هو الشخص الذي. ارشاه (داريوس) بمبلغ كبير من المال ووعده بتزويجه بنته ان هو افلح في قتله بعد أن قرأ الاسكندر الكتاب وضعه تحت المخدة دون أن يريه لأحدٍ من اصدقائه حتى المقربين.

واقبل فيليب الطبيب حاملاً جرعة الدواء فتناوله الاسكندر منه بثقةٍ واستبشار لا نهاية لهما، وبادر الى اعطائه رسالة بارمينو وطلب منه قراءتها. انه والحق يقال لموقف يستحق المشاهدة. ترى الاسكندر يتناول جرعة الدواء وترى فيليب يقرأ الكتاب ثم تراهما يلتفت أحدهما الى الآخر ويتبادلان النظرات بمشاعر مختلفة، ذلك لأن نظرات الاسكندر كانت نظرات الاستبشار والصراحة التي يريد بها اظهار مدى عطفه على الطبيب ومبلغ ثقته فيه، أما نظرات الآخر فقد كانت تعتبر بمجموعها عن الدهشة والخوف من التهمة وكان فيها ضراعة الى الآلهة واستنجاد بها لتشهد على براءته مما الصق به. فكان حينا يرفع يديه الى السماوات، وكان حينا يرمي بنفسه الى الارض بالقرب من فراش المريض مناشداً اليه ان يلقى جانباً بكلّ خوف قد يساوره، وان يتابع تطبيق تعليمات دون تردد.

وكان أول تأثير للدواء من القوة بحيث دفع كل قوى الاسكندر البشرية الى الاحشاء الباطنية على حَدّ ما يعبرون عنه - فقد نطق وراح في غشية وتلاشى بنصه وفقد شعوره. ومهما يكن من أمرٍ فإن صحته وقواه ما لبثت أن عادتا كالسابق بفضل عناية فيليب. وظهر للملأ من المقدونيين سليماً معافى وكانوا في خوف مستمر وفي حالٍ من الأسى، فسكن قلقهم.

في ذلك الزمان كان في جيش داريوس لاجيء مقدوني يدعى آمينتاس Amyntas، على معرفة تامة باخلاق الاسكندر، ما ان ادرك نية داريوس في مباغتة الاسكندر بالهجوم من ناحية المضايق والشعب الجبلية حتى راح يلحّ في نصحه بألاّ يفعل، وبان يظلّ في السهول المترامية الفسيحة والأرض المنفتحة. لأن افضلية الجيش اللجب الكثير العدد هو في احراز الميدان الفسيح الكافي عند اشتباكه في قتال مع عدوّ أصغر منه عدداً. فلم ترق لداريوس الفكرة وقال لامينتاس: «أخشى ان يلوذ العدوّ بالفرار وينجو الاسكندر من يدي.» فأجاب امينتاس:

- لا مبرر ثم لهذا الخوف. كن متأكداً أنه ينوي خلاف ما تعتقده، لن يتحاشاك بل سيسرع اليك ويعمل جهده لملاقاتك، ومن المتحمل انه يزحف عليك الآن.

وهكذا ذهبت نصيحة امينتاس ادراج الرياح. فقد أمر داريوس فرفع معسكره فوراً وزحف داخل كليكيا. وفي الوقت نفسه تقدم الاسكندر الى سورية ودخلها لملاقاته. وفقد كلاهما أثر بعضهما بعضاً ليلاً وانكفآ على عقبيهما. وقد سرّ الاسكندر بهذا الحدث سروراً عظيماً وبذل جهده لأجل أن يحصل الاشتباك في الشعب. وبذل داريوس جهده للعودة الى مواضعه السابقة وسحب جيشه من هذه المواقع غير الملائمة. فقد بدأ يدرك خطأه في اختياره ميداناً للقتال هذه

الأراضي البعيدة جداً، حيث هناك البحر والجبال ونهر بيناروس Pinarus الذي يجرى في وسطها. وهذه الموانع قد تضطره الى تجزئه قواته، وتجعل خيالته غير نافعة تقريباً. مواضع سيكون من شأنها أن تزيد من مناعة عدوه وتغطى ضعفه وتحميه ليس الاّ. وما كان «الحظّ» بقادرٍ على أن يوآتي الاسكندر أكثر من هذا ولا أكثر رعاية له في جعلها لمنفعة. فهو أقل من خصمه عدداً الى الحدّ الذي لم يكن ليسمح لنفسه بالتعرض لخطر التطويق. ولذلك فانه مدّ ميمنته مداً أبعد بكثير مما مد العدوّ من ميسرته وقاتل بشخصه في هذا الموقع متصدراً الصفوف الأولى واوقع الهزيمة بالبرابرة واصيب بجرح في فخذه بيد [داريوس] على ما يدعيه [خارس Chares] اذ انهما اشتبكا معاً الاّ ان الاسكندر. في الرواية التي حكاها [لأنتيباطر] عن المعركة ايدّ اصابته بجرح غير خطرٍ في فخذه الاّ أنه لم يتثبت من هوية الشخص الذي جرحه.

لم يكن يعوز الاسكندر لإكمال نصره الذي هزم فيه أكثر من مائة وعشرة آلاف من جنود عدوه، غير أسر [داريوس] الذي أفلح في النجاة بالفرار، بشقّ الأنفس. ولم يطارده الاسكندر بل قنع بالعودة بعد ان غنم منه عجلته وقوسه، فوجد رجاله ينهبون معسكر البرابرة، وكان يحوى الكثير جداً، من النفائس مع انهم تركوا معظم الاثقال في دمشق محاولة منهم التخفيف من احمالهم. وابقوا من النهب خيمة [داريوس] لتكون من نصب (الاسكندر) وكانت مكتظة بالاثاث الفاخر وبمقادير كبيرة من الذهب والفضة. نزع الاسكندر شكة سلاحه وقصد الحمام وهو يقول:

- ألا فانزل عن اجسامنا مشاق الحرب في حمام داريوس.

فردّ عليه أحد اتباعه: ليس الأمر كما تقول، فالحمام هو حمام الاسكندر، لأن ما ملكه المغلوب، يجب أن يدعى ملكاً للغالب.

ووقعت انظاره على اوعية الاستحمام وقدور الماء وصناديق الادهان والاحواض وكلها من الذهب العجيب الصياغة. وشمّ الروائح الزاكية التي كان ريحها يضوع في جوانب الحمام بصورة جذابة. ومن هناك دخل مقصورة واسعة جداً مرتفعة السقف حيث الطنافس والمقاعد والموائد بالغة الفخامة وكأنها مهيئة لأقامة مأدبة. فالتفت الى المتحلقين به وقال:

- تلك هي مظاهر الملكية على ما يبدو.

وفيما كان يهم العشاء، أبلغ ان أم داريوس وزوجه وبنته الباكرتين اللاتي كن بين الأسرى، قد غشيهن كرب عظيم وحزن أليم لما شاهدن عجلته الحربية وقوسه فتوهمن أنه قتل. فظلّ

برهة ساكتاً وقد غلب تأثير حزنهن فيه على تأثير نصره. وأرسل اليهن [ليوناتس Leuna-tus] يعلمهن بان داريوس مازال حياً ولا حاجة تدعو الى الخوف من أي أذى يلحقه الاسكندر بهنّ، لأنه لم يشنّ الحرب على وليهّن إلاّ لغرض فتح الامصار. وأمر أن يعطين كل ما اعتدن الاستمتاع به عند داريوس. ولم يسع السيدات الأسيرات الاّ أن يرحبّن بهذه الرسالة أجمل ترحيب لاسيما بعد اقترانها باعمال أخرى عنها انسانية وكرماً. فقد يستخدمن لهذه المناسبة لا تقل ما اخترن من الثياب والاشياء الأخرى التي يجدنها مناسبة للمقام والظرف من بين الغنائم. ولم يعمد الى انقاص عددٍ من بطانتهن وخدمهن ولا من تقليل الاحترام الذي كن يتمتعن به.

وزاد في النفقات التي كانت تجرى لهن سابقاً. على أن أشرف وأنبل تصرف خليق بالملوك، قام به تجاههن، هو أنه عامل تانك السيدات العظيمات حسب مقتضى مقامهن وأخلاقهن. فمنع ان يسمعن أو نيلن أو يجابهن بأي شيء غير لائق. فبدأ لهن وكأنهن لا يعشن في معسكر عدوٍ بل في هيكل أو في هجرات مقدسة مخصصة للعذاري حيث يستمتعن بخلواتهن المصانة المحرمة. وكانت زوج داريوس تعد اجمل اميرات زمانها كما كان زوجها أطول واجمل رجال زمانه، ولم تكن بنتاهما بأقل من والديهما أوصافاً وميزات.

إلاّ أن الاسكندر الذي وجد الأليق بالملوك ان يشكموا أنفسهم من ان يدلوا اعداءهم، لم يحاول مطلقاً مطارحة اية واحدة منها الحبّ. بل لم يعمد الى الاجتماع باية امرأة قبل الزواج خلا [بارسينة Barsina] ارملة [ممنون Memnon] التي أخذت أسيرة في دمشق. كانت [بارسينة] هذه قد ضربت بسهم وافرٍ في العلوم الاغريقية. وعرفت بلين العريكة ولطف الخلق، وبأنها سليلة الملوك حيث انه اباها كان [ارطباز]. وقد زاد من رغبته فيها تشيع توسط وتشجيع [پارمينو] على حدّ ما يخبرنا به [ارسطبوليس] فقد كانت بارزة الشخصية لطيفة المعشر حقاً. ولم يظهر اهتماماً قطّ ببقية الأسيرات الفارسيات، مع جمالهن الباهر، ورشاقتهن واستواء اعضائهن وتناسقها، أكثر من قوله مازحاً: ان الفارسيات هن قذى للعين فظيع، مقارناً ذلك بمظهر جمال خلقه وفرط ضبط نفسه. وقد أمر بأخذهن بعيداً عنه كما ترفع من امامه الكثير من التماثيل والصورة الجامدة الخالية من الحياة.

عندما كتب اليه قائده [فيلوكزينوس Philoxenus] على جميع الساحل يستمزج رأيه في الموافقة على ان يشتري له ولدين صغيرين في نهاية الحسن والظرف يريد صاحبهما المدعو [ثيودوروس] بيعهما. شعر الاسكندر بوقع الاهانة، الى درجة أنه راح يردد بين اصدقائه متسائلاً:

- اي خسة ودناءة وجد [فيلوكزينوس] فيّ، ليقدم لي مثل هذا العرض الحقير.

ثم بادر الى كتابة ردّ شديد قال فيه: «الا فليذهب ثيودوروس وبضاعته الى سقر مشيعاً بتمنياتي الطيبة».

ولم يكن مع [هاغنون] بأقل من ذلك صرامة. فقد بعث اليه يقول انه سيبتاع له شاباً كورنثياً اسمه كروبيلوس Crobulos] ويقدمه هدية. وسمع بأن دامون [Damon] وطيموثيوس [Timotheus] وهما جنديان من جنود بارمينيو المقدونيين قد اعتديا على زوجات بعض الاجانب المرتزقة في جيشه، فكتب الى بارمينيو يطلب منه بشكل لا مردّ له، ان ينفذ فيهما حكم الموت ان وجدهما مذنبين كما ينفذ الحكم في اي حيوانين مفترسين لم يخلقا الاّ لإثارة المتاعب والفوضى للبشرية. واضاف يقول في رسالته هذه. بأنه لم يكن قطّ ليرى أو ليريد ان يرى زوج داريوس كلاً، ولا ان يسمح لأي احد ان يتكلم عن جمالها بمحضر منه. كان يريد القول ان النوم والعمل الجنسي يجعلانه يشعر بأنه بشر فانٍ قبل كل شيء، مثلما لو قيل ان التعب واللذة يصدران عن حيوانية وضعف في الطبيعة البشرية.

كان في طعامه وشرابه معتدلاً كما يبدو مما قاله لآدا Ada التي اتخذها أما قانونية له، ثم جعلها فيما بعد ملكةً على [كاريا Caria] ومما يذكر عنها - بعد اسقاط الكثير - ان الحنان كان يدفعها الى ان ترسل له يومياً الكثير من اصناف الطعام النادرة، ومن الحلوى وتبعث اليه بطهاة وحلواتية ممن تجد فيهم البراعة والتفنن في الصناعة، فيرفض ما ترسله قائلاً ان مدربّه الخاص [ليونيداس] يقدم له خير ما يصبو اليه، وهو مسيرة ليليّة تهيئواً للفطور، وفطور بسيط جداً ليخلق فيه شهيّة للعشاء. ويضيف قائلاً ان [ليونيداس] تعود فتح الصناديق والخزائن والقماطر وتفتيش الأثاث في غرفته ليتثبت من ان امه لم تترك له شيئاً فيه طابع الرقة والخنوثة. وكان أقل حبّاً بالخمر مما عُرف عنه. والعلّة التي دفعت الناس الى الاعتقاد بأنه أليف الخمر، هو انه كان وقت فراغه يؤثر الجلوس الطويل على مائدة الشراب ومبادلة الاحاديث، وكان يطيل الكلام كثيراً خلال شربه كأساً واحدة.

وبعكس ما اعتاده القادة الآخرون، لم تكن الخمر أو النوم أو اللهو او مطارحة الحبّ أو أي عارضٍ آخر ليؤخره عن عملٍ عندما يتطلب منه ذلك. وليس ثم دليل أقوى من تحقيقه هذه المآثر العظيمة والكثيرة في مثل هذا الزمن القصير. لقد اعتاد في الاوقات الاعتيادية الاستيقاظ مبكرا والتضحية للآلهة. ثم يتناول الفطور، ويقضي بقية النهار في الصيد والقنص، أو في كتابة المذكرات أو اصدار القرارات في الأمور العسكرية أو في المطالعة وتراه في التجريدات الحربية التي تتسم بطابع العجلة والسرعة لايني يتدرب على الرمي أو ان

يركب عجلة ويترجل منها وهي تجري باقصى سرعتها، ويخبرنا في يومياته انه كان أحياناً يصطاد الثعالب أو الطيور لأجل التريض فحسب. وبعد عودته مساء يغتسل ويدهن جسمه ثم يدعو جنازيه ورؤساء طهاته ليتأكد من ان عشاءه جاهز ولا يتناوله الا بعد ان ينصرم جانب من المساء ويسود الظلام وكان كثير الحفاوة والاهتمام بضيوفه ويوجب ان يخدم كل من يتكئ معه مثلما يخدم هو، وان يتلقى الرعاية والاحترام اللذين يقدمان له. وكما ذكرنا آنفا كان غرامه بالنقاش والحديث يجعلانه مجالساً مطيلاً في مجلس الشراب. وكان ثم هنة واحدة تشوب مجلسه، وهو انسياقه في مجال الغلو والادعاء والمباهاة الحربية، مما يتيح للمتزلفين فرصة عظيمة لامتطائه والتأثير عليه، وهذا ما يجعل اصدقاءه المخلصين في نهاية الضجر والضيق، ولولا ذلك لكان مجلسه لايضاهيه مجلس اي ملك من الملوك مهما ارتفع شأنه. كان اصدقاؤه يجدون من الحطة والدناءة ان يتسابقوا الى التزلف اليه، الا انهم كانوا مع ذلك يجدون من الخطر أن يمسكوا عن التزلف، وبين الخطر والعار تجدهم في أصعب موقف حول سلوكهم.

بعد أن يرفَضّ المجلس، يجد الاسكندر طريقه الى الحمام حيث يغتسل ثم يؤوب الى فراشه ولا يستيقظ حتى الظهيرة، وقد ينام النهار بطوله.

كان قليل الطعام بعيداً عن النهم. فان ارسلت اليه سمكة مثلاً أو فاكهة نادرة، فرقها على اصحابه، وفي أغلب الأحيان تراه لايحتفظ بشيء ما منها لنفسه. ومع ذلك فان مصاريف سماطه كانت تزداد بارتفاع شأنه وسطوح نجمه حتى بلغ ما يصرف عليه يومياً عشرة آلاف دراخما. ووقفت عند هذا الحَدّ ولم تزد النفقات. ولم يقبل أن تزيد نفقة اية مأدبة يقيمها له الآخرون عن هذا الحدّ.

بعد فوزه في موقعة [ايسوس]، أرسل الى دمشق من نفذ اوامره بوضع اليد على كل ما يعود للفرس من أموال واثقال وزوجات واولاد. وفاز الخيالة التساليون بأعظم الانصبة متفقة مع شجاعتهم. وحصلت بقية الجيش على نصيب وافر من الاسلاب ايضاً مما اغناهم جميعاً، واتيح للمقدونيين بذلك اول قصة لهم لتذوق الترف الفارسي، ومعاشرة النساء الفارسيات، والاستمتاع بلذة العيش البربري مما شجعهم وبث منهم روح الحماسة للمضي في نهجهم السرعة التي يعود بها الكلب السلاقي وراء رائحة القتيصة.

قبل ان يستأنف الاسكندر زحفه وجد من الضروري ان يتأكد من سلامة الساحل. فضم حكام جزيرة قبرص الى اتباعه واستسلمت له بلاد الفنيقيين كلها ما عدا صور، فالقى الحصار عليها سبعة اشهر وبنى تلولاً ترابية ونصب آلات الحصار والهدم الى جانب محاصرتها بمائتي بارجة من جهة البحر. وفي اثناء ذلك حلم بأنه رأى [هرقل] فوق الأسوار ماداً اليه يديه

يستدعيه، كما تخيل كثير من أهالي صور انهم رأوا في نومهم [ابوللو] الذي اخبرهم بانه ليس براضٍ عن أعمالهم وانه لم يلبث ان يترك جانبهم وينحاز الى الاسكندر. وعندئذ ما كان منهم الاّ ان قبضوا عليه بشخص تمثاله، كان الآلهة جندي هارب من الخدمة، وربطوه بالحبال وسمروه في القاعدة. وأخذوا يلقون عليه الملام لمشايعته الاسكندر. ورأى الاسكندر في المنام - بمناسبة أخرى انه شاهد عن كثب مسخاً (ساتيراً) يسخر به فهم بامساكه فهرب وافلت ولم يتمكن منه الاّ بعد مطاردة طويلة ومناورات عديدة. وفصل المشعبذون لفظة [ساتيروس] الى كلمتين وهم بصدد تفسير الحلم وأكدوا له، أن [صور] ستسقط بين يديه. ويعرض أهالي المدينة الى يومنا هذا على الزائر، نبع ماءٍ قائلين ان الاسكندر نام قربه عندما رأى الساتيروس في منامه.

وفيما كان معظم الجيش أمام صور، قام الاسكندر بشن حربٍ على العرب الساكنين جبال [آنتي لبنان] وتعرضت حياته لخطر أكيد، عندما قام بانقاذ معلمه [ليسيماخوس] الذي شاء وأصرّ أن يصحبه في حملته هذه قائلاً: انه ليس باكبر عمراً ولا بأقلّ شجاعة من [فيونكس] وصيّ [آخيل] فعندما تركوا خيولهم، بدأ يتوقلون الجبال مشياً على الاقدام فسبقتهم بقية القطعات واضحت المسافة بين الصنفين كبيرة. وأقبل الليل وكان العدو قريباً. واضطر الاسكندر الى التخلف في المؤخرة وقتاً لبث روح الشجاعة في جنود المتعبين والمتقدمين في السن، ومديد العون للمتسكعين، وهكذا وقبل أن يفطن الى تأزم الوضع، وجد نفسه بعيداً عن بقية القطعات مع عدد قليل من الاتباع. واضطر الى قضاء ليلة شديدة البرد ،والعتمة، وفي موضع غير مريح مطلقاً. وشاهد وهو على هذه الحال نيراناً عديدة كبيرة للعدوّ منتشرة في رقعة واسعة من الأرض. فوضع ثقته في خفة حركة جسمه، وبطول معاناته المشاق والمصاعب، مستهدفاً زرع الثقة في جنوده ومعاونتهم في المآزق والشدائد، واتجه رأساً الى اقرب نارٍ واردى بخنجره اثنين من البرابرة كانا جالسين يصطليان حوله واختطف مشعلاً ملتهباً وعاد به الى رجاله فاوقد به ناراً عظيمة أوقعت الرعب في قلوب العدو وهرب معظمهم اما الذين ثبتوا للقتال فهم فقد هزموا، وأمن الرجال من هجوم مباغت طوال الليل، هذا ما كتبه [خاريس] حول الموضوع.

ونعود الى حصار صور. لقد كانت نتيجته كما يلي: شاء الاسكندر ان يريح جيشه بعد الارهاق الذي اصابه جراء الهجمات السابقة. وقاد بجزءٍ يسير منه، هجوماً على الاسوار قاصداً اشغال العدو بصورة متواصلة وعدم ترك مجال للراحة له. واتفق ان [اريستاندر] المشعبذ بعد ان ضحى وفحص احشاء الاضحية، أكد للواقفين قربه بان المدينة ستفتح ابوابها

للغازي في غضون هذا الشهر. فكان ثم ضحك وشيء من التعليقات الساخرة بين الجنود لأن يوم النبوءة كان آخر يوم في الشهر! ورأه الملك حائراً، وكان معتاداً أنْ يخّف لنجدة النبوءات فأسرع يصدر أمراً بأن لا يعتبروا هذا اليوم الثلاثين من الشهر بل الثالث والعشرين. وامر بنفخ الابواق وهجم على الاسوار هجمة صادقة شديدة والهب زخم الهجوم وحماسته بقية قواته فتركت معسكرها وهي غير قادرة على ضبط نفسها عن التقدم لدعم الهجوم الشديد الذي اجبر الصوريين على التراجع. وتم الاستيلاء على المدينة في اليوم نفسه. وكانت [غزة] المدينة الثانية التي القى الاسكندر الحصار عليها. وهي واحدة من اكبر مدن سورية. فحصلت له اثناء الحصار الحادثة التالية. بينما كان طير يحلق فوقه، سقطت منه قطعة تراب فوقعت على كتفه، ثم حط الطائر على آلة من آلات الحصار فاشتبكت اطرافه حالاً في الشبكة المصنوعة من أوتار شدت لحماية الحبال التي تعمل بها تلك الآلات. وكان هذا طبق ما تنبأ به [اريستاندر] وملخص نبوءته هو ان الاسكندر سيصاب بجرح، وان المدينة ستسقط.

ومن هناك بعث بجزء كبير على اصدقائه دون استثناء ومنهم ليونيداس معلمه، الذي اصابه مازنته خمسمائة تالنتٍ من البخور، ومازنته مائة تالنت من المرّ، تذكيراً له بالآمال التي عقد عليه واشاد بها مرّة اثناء ما كان الاسكندر صبياً. اذ يقال ان ليونيداس كان يقف قريباً منه اثناء قيامه بالتضحية مرة، فرآه يتناول ملء كفيه من البخور ويقذف بها الى النار فقال له، قمين بك أن تكون اشد حرصاً في تقدماتك وان لا تكون كثير بالبذل الى ان تغدو وسيد تلك البلاد التي ترد منها هذه التوابل واللبان الزاكي الرائحة، فتذكر الاسكندر هذا وكتب اليه يقول:

«لقد بعثنا اليك بالكثير من المرّ والبخور، لكيلا تكون في المستقبل بخيلاً على الآلهة»

ومن بين الكنوز وغير ذلك من الاسلاب التي غنمها في داريوس، وجد صندوقاً ثميناً جداً اختص به لغرابته وندرته. وسأل من كان يحيط به عن أفضل شيء يودع فيه فأدلى كل برأي، ولكنه قال انه سيضع فيه الياذة هوميرس. لقد ايد هذه الحكاية ورواه ثقات. واذا كان أولئك الكتاب الاسكندرانيون المعتمدون على [هيراقليدس] صادقين فيما يروون فان هوميرس لم يكن مزاملاً كسلان للاسكندر أو محدثاً لا فائدة فيه. فحينما اصبح سيد [مصر] فكر في استحداث مستعمرة اغريقية، وقرر بناء مدينة واسعة الارجاء كثيرة السكان يطلق عليها اسمه. فقاس الأرض وحددها بمشورة افضل المعماريين، ثم اتفق في ليلة ما، ان رأى في نومه رؤيا عجيبة، رآى رجلاً هرماً اشيب الشعر ذا سيماء مهيبة يقف جنبه وينشد هذه الأبيات:

هناك جزيرة تدعى فاروس Pharos حيث زمجرة الموج عالية صاخبة على الساحل المصري.

ونهض الاسكندر في الحال وذهب الى فاروس، وكانت في ذلك الزمن تقع فوق الفم القينوبي Conobie من نهر النيل بشيء قليل، وان كانت اليوم قد اتصلت بالأرض الرئيسة بلسان ارضي. وما ان شاهد حالة الموضع ومناسبته، وهو عنق طويلة من الأرض تمتد كالبرزخ بين البحيرات الواسعة، مياة ضحلة من جانب والبحر من جانب وهو في نهايتها، يصلح لميناء واسع حتى قال:

- كان هوميروس الى جانب عبقرياته الأخرى مهندساً معمارياً مجيداً.

ثم امر ان يخطط تصميم المدينة بشكل يلاتم هيئة الموقع ولافتقاره الى الطباشير لأن التربة كانت سوداء، فقد تعوض عله بدقيق القمح، مثباً قطعة أرض وسطية على هيئة منقلة [نصف دائرة] وأخذ يرسم في داخل هذا النصف خطوطاً مستقيمة متساوية من كل نهاية، وهكذا اعطاها هيئة شبيهة بالمعطف، او القلنسوة، وفيما هو يمتع نفسه بتصميمه هذا، خرج فجأة من أعماق النهر والبحيرة عدد لايحصى من الطيور الكبيرة المختلفة انواعها، وانتشر مثل سحابة سوداء افترست كلّ الدقيق الذي استعمل لرسم خطوط المدينة. واضطرب على هذا النذير حتى الاسكندر نفسه، الى ان اعاد الكهنة العّرافون الى نفسه الاطمئنان، اذ قالوا ان ذلك لاشارة بان المدينة التي يزمع بناءها ستكون ذات خير عميم، فضلاً عن كونها ستطعم وتعين كثيراً من المدن. فأمر العمال بمباشرة البناء، بينما ذهب هو لزيارة معبد آمون.

وكانت رحلة طويلة شاقة، وخطرة من جهتين: فلو انهم فقدوا مختزنهم من الماء لأن الحصول عليه كان متعذراً عدة ايام، ولو هبت ريح الجنوب العنيفة عليهم وهم في رحلتهم يجوسون الصحراء الواسعة برمالها السميكة، كما جرى عندما قاد (قمبيز) جيشه في هذا الطريق تدفع الرمال أكداساً وأكواماً وترفع الصحراء كلها الى الأعلى مثل بحر، فتسفيه عليهم حتى ابتلعت منهم خمسين الفاً وقضت عليهم. لقد وزنت كل هذه المصاعب وشرحت له، الا ان الاسكندر لم يكن ممن اولئك الذين ينثنون عما اعتزموه بسهولة، لأن الحظ حتى ذلك الزمن كان الى جانبه في كل ما يعتزمه مما جعله رجلاً قوي الارادة ثابت العزم في كل ارائه، واقدامه كان يدفع نوعاً من العاطفة فيه لاقتحام الصعاب والتغلب عليها، كأن لم يكن يكفيه ان يكون منتصراً دائماً في ميدان القتال، بل يريد ان تخضع لارادته البلاد والفصول والطبيعة. وفي رحلته كانت الراحة والرعاية التي اسبغتها عليه الآلهة وهو في مأزقه أكثر ظهوراً واثباتاً من النبوءات التي ابلغ بها فيما بعد والتي كانت على اية حال قد انهيت اليه فيما بعد،

والتي كانت على اية حالٍ قد ثمنت وقدرت أكثر بسبب هذه الظواهر التي تلتها فأولاً ان الامطار الغزيرة التي سقطت صانتهم من خشية الهلاك عطشاً وبللت جفاف الرمال المحرقة، فأضت رطبة متماسكة صالحة للسير، ونقت الجوّ وطهرته. فضلاً عن ذلك، عندما كانوا يسيرون على غير هدى متحيرين بين الشمال وبين اليمين لايدرون وجهتهم الصحيحة لافتقارهم الى علامات واضحة ترشد الادلاء، فاضطربت احكامهم وضلوا سواء السبيل، اذ بهم فجأة يهتدون اليها بسرب من الغربان كانت تطير امامهم وهم يسيرون، تنتظرهم عندما يقفون او يتباطؤن في سيرهم. وأعظم الخوارق التي صادفتهم على ما يخبرنا كالليستينس [Callisthenes] هو ان هذه الغربان. عندما تضل سريّة سبيلها وتنقطع عن القسم الاكبر من الجيش ليلاً، تثير ضجة وتنعق نعيقاً عالياً الى ان تعود الوحدة الضالة وتنضم الى البقية.

وبعد أن قطع الاسكندر تلك المجاهل، بلغ موضعاً حيث رحبّ به الكاهن الاكبر عند اول السلام، ترحيباً صادراً عن ابيه [آمون] وسأله هل بقي أحدٌ من قتلة ابيه [فيليب] بمنجى من العقاب بعد، طلب أن يكون لهجة كلامه عن ابيه أكثر احتراماً لأن أباه لم يكن من البشر الفاني، فغير الاسكندر من لهجته وطلب منه ان يعرفه اذا كان قد بقي واجد من أولئك الذين قتلوا [فيليب] دون عقاب حتى الآن وبخصوص السلطة هل ان سيادة العالم قد حفظت له؟

فأجاب الآله قائلاً: انه سيملك العالم وان مقتل فيليب قد تم أخذ ثأره كاملاً. ففرح الاسكندر بذلك فرحاً عظيماً دفعه الى تقديم اعطيات فاخرة جداً [لجوپتر] ومنح الكهنة هدايا ثمينة. هذا ما كتبه معظم الكتاب عن النبوءات. إلاّ ان الاسكندر بعث رسالة الى والدته قال فيها: انه كان ثم اجوبة سرية من الآله سيكشفها لها وحدها عند عودته. ويقول آخرون ان الكاهن رغب في مخاطبته بالاغريقية عن طريق المجاملة والحفاوة ولما اراد أن يقول [يابايديون Paidion] زل به اللسان وعوضاً عن لفظه حرف النون لفظ حرف السين فقال «ياپايديوس»، وكانت عثرة لسان سرّ لها الاسكندر كثيراً. وشاع القول ان النبوءة هي التي قصدت دعوته بهذا.

من بين الحكم المأثورة، قول للفيلسوف [بسامون Psammon] الذي سمع الاسكندر في مصر عنه ووثق به: ان كلّ الناس مسيرون بامر الله، ذلك لأن كل ما هو رأس، وكل آمر ناهٍ هو آلهي. الاّ ان ما فاه به الاسكندر حول الموضوع نفسه كان أقرب الى قول الفيلسوف. قال: ان الله هو أب كلنا بدون أستثناء. لكنه بصورة خاصة أبو خيرنا، وهو أفضلنا.

وكان يعامل البرابرة بترفع وانفه، أما الاغريق فيظهر لهم اللطف، والاعتدال وباقل ما يمكن من التظاهر بالالوهية خلاً مرة واحدة، عند الكتابة الى الآثينيين حول [ساموس] فقد قال لهم

بانه لن يمنحهم تلك المدينة المجيدة الحرة «انكم حزتموها بفضلٍ من ذلك الذي كان يدعى بسيدي وابي». يقصد فيليب. ومهما يكن فبعد أن جرحه السهم وشعر بالألم الشديد التفت الى من كان معه وقال لهم:

- هذا يا صدقاني هو دم حقيقي يجري مني وليس [ايخور Ichor][٣] الذي اعتادت الآلهة سفكه.

وفي مرة أخرى أرعدت الدنيا إرعاداً عظيماً، حتى دب الخوف في قلب كل انسان فسأله [اناكسارخوس] المتصوف، هل يمكنه بوصفه ابناً لجوبيتر ان يفعل شيئاً كهذا؟ فأجاب الاسكندر ضاحكاً:

- كلاً، لا رغبة في أن ابدو جباراً في اعين اصدقائي. كما ستجدوني، باستصغاركم مائدتي لوجود السمك فيها، وليس رؤوس حكام الأقاليم.

في الواقع انه روى ما عُدّ حادثاً حقيقياً، أن [اناكسارخوس] عندما رأى هدية تتألف من اسماك صغيرة الحجم ارسلها الملك [هيفاستيون Hephastion] استخدم هذا التعبير بشكل من اشكال السخر والتنكيت والاستخفاف بأولئك الذين يتكبدون العناء الكبير ويركبون المخاطر والاهوال في سبيل الفاخر من الاشياء التي لاتمنحهم من المسرة والسعادة اكثر مما احرزه الآخرون منهما. ومما بينت حول هذا الموضوع يبدو ان الاسكندر لم يكن من الغباء بحيث يتوهم، ولا من التيه والمكابرة بحيث يظن نفسه إلهاً حقيقياً وانما كان يستخدم هذا الادعاء بالالوهية كوسيلة للاحتفاظ بعامل التفوق والسيادة على الآخرين ليس إلاً.

على اثر عودة الاسكندر الى فينيقيا من مصر، ضحى للآلهة، ونظم مواكب دينية عديدة مضيفاً اليها مشاهد من الرقص الغنائي وتراجيديات تستهوى اللب بفخامة اخراجها وروعته فضلاً عن المنافسة الشديدة بين من تولى عرضها واخراجها. كان ملوك قبرص العارضين بعين الطويقة التي اعتادها اولئك الذين يتم اختيارهم بالاقتراع بين القبائل وهكذا اشتد التنافس فيما بينهم الى اقصى درجة احدهم يريد سبق الآخر، ويذكر بصورة خاصة [نيكوكريون Nicor-eon] ملك سلاميس، و[پاسكريتوس Pasicrotes] السولي Soli اللذين قاما بتهيئة الجوق ودفع مصاريف اشهر الممثلين وهما [اثينودوروس Athenodorus] [وثيسالوس Thessal-us] فقد مثل الأول لأجل پاسكيرتوس، والثاني لأجل نيكوكريون. وغلبّ الاسكندر

(٣) في الاساطير اليونانية ان الايخور هو السائل الاثيري الذي يجرى في عروق الآلهة بديلاً عن الدم البشري.

ثيسالوس، ولم يظهر تفضيله الاّ بعد أن أعلن عن فوز اثينودوروس بأغلبية اصوات المحكمين فقال وهو يغادر المحل - المحكمون يستحقون التهنئة لقرارهم. الاّ اني لأفضل ان اتنازل مختاراً عن جزءٍ من مملكتي على مشاهدة تيسالوس مغلوباً.

ومهما يكن فان الاسكندر دفع لاثينودوروس مبلغاً كافياً من المال عندما علم ان الاثينيين فرضوا عليه غرامة لغيابه في اعياد [باخوس] لتسديدها بعد ان رفضوا استجابة طلب الغائها بكتاب توسط بعث به اليهم. ومرة اتفق ان [ليكون Lycon] السكرافياني Scraphia] لقي استحساناً عظيماً في تمثيله وسأل الاسكندر في شعر القاه ضمن دوره الهزلي - هبته قدرها عشرة تالنتات، ضحك الاسكندر وأمر له بها.

وكتب اليه [داريوس] رسالة وارسل اصدقاء له للقيام بدور الوساطة في قبول ألف تالنت فدية للاسرى ومبادلة الصداقة بالصداقة وضم كل البلاد التي هي في هذه الجهة من نهر الفرات في حلف معه، واعطائه احدى بناته زوجة فعرض الاسكندر هذه الشروط على اعوانه وخلصائه . وعندما قال له پارمينيو انه ليقبل بها لو كان في محله، اجاب:

- كذلك انا، لو كنت پارمينيو.

وكان جوابه على مقترحات داريوس هذه هو انه لو جاء عارضاً الخضوع والاستسلام فسيعامله بأكبر عطف وحفاوة وان لم يفعل فأنه اي الاسكندر مصرّ على ان يطارده ويجدّ في طلبه.

على ان وفاة زوج داريوس في الأسر اثناء وضعها جعله يندم ويأسف على جزءٍ من ردّه على الأقل. وبدأ كاسف البال متألماً لأن الحادث حرمه من فرصة لاظهار لطفه وطيب نفسه اللذين ظهراً جلياً بالتشييع العظيم الفخم الذي أمر به للمتوفاة.

كان ثم شخص من بين الخصيان الذين أخذوا أسرى مع النساء في خدمة الملكة يدعى [تيريوس Tireus]. هذا الخادم تمكن من ترك المعسكر والهروب على ظهر جواد الى داريوس ليخبره بوفاة زوجه ومثل امامه وما أن اسمعه القصة حتى ضرب داريوس رأسه بيده وانفجر باكياً نادباً وصاح:

- وا اسفا! ما أعظم النكبة التي مني بها الفرس. الا يكفي أن تقع زوج ملكهم واخته اسيرة لتدفن الأولى دفنة حقيرة كما يدفن رعاع القوم ونكراتهم؟

فقال له الخادم:

- أما عن موضوع جنازتها ايها الملك، وعن الاحترام والتكريم اللذين لقيتهما ، فليس ثم ما

يدعوك الى ندب سوء حظ بلادك، فعلى مدى معرفتي، لم تكن الملكة زوجك ولا ولدك في حاجة الى شيء وهم في حياتهم السالفة السعيدة معك، غير نور وجهك الذي لا أشك في ان الاله [اهورمزدا] سيعيده الى مجده السالف. واني اوكد لك بأنها حظيت بعد موتها بكل ما هو جدير بمقامها من مظاهر التكريم فضلاً عن انها أكرمت ايضاً بدموع اعدائك انفسهم. فان الاسكندر ان كنت لاتدري، رقيق القلب بعد النصر قدر ما هو مخيف في ميدان القتال.

وزاد داريوس حزناً وأسى بعد هذا الكلمة الى الحد الذي وصلا به الى اعظم الشك في اقوال الخادم فأخذه الى ناحية قصية من خيمته بعيداً عن الفضوليين وشرع يستجوبه بقوله:

- لعلك تخليت انت ايضاً عني كما تخلى عين حسن حظي واصبحت مقدونياً في سِرك. أما إنْ كنت باقياً على ولائك لسيدك داريوس فإني آمرك بان تصارحني، وأستحلفك بحرمة نور [ميثرا] وبحرمة هذه اليد اليمنى التي يمدها اليك ملك. ان تصارحني القول هل أقلل من بكائي وحزني على سوء مصير [ستاتيرا] ام تراني اصبت بعارٍ وحزن بسببها اثناء حياتها يزيد عما مما اصابني الآن؟ هل لا كنت شقياً بأقل العار لو اني لقيت عدواً أكثر قسوة من الاسكندر وأقل منه انسانية؟ اني لأعجب كيف يمكن لشابٍ مثله ان يحيط زوج خصمه بهذه الرعاية السامية ويضعها في هذا المقام العظيم لو لم يدفعه دافع من شأنه ان يصيبني بالعار؟

فألقى تيريوس بنفسه عند قدميه وشرع يتوسل به أن لا يخطيء بحق الاسكندر، ولا بحق زوجه واخته الى هذا الحدّ، بابدائه مثل هذه الشكوك التي من شأنها أن تحرمه من أعظم عزاءٍ تبقى له وهو في محنته الراهنة. اعتقاد يجب أن يتغلب عليه بفضل رجل رفعته فضائله الى ما فوق الطبيعة البشرية، وان عليه ان ينظر الى الاسكندر نظرة مختلفة، وان يحمل نفسه على حبه والاعجاب به بعد ان قدم كل الدلائل على احترامه لعقائل القرس قدر ما أظهره من الدلائل على شجاعته بين الرجال. وأكدّ الخادم كل ما قاله في السابق ووثقه بأغلظ الايمان واهولها. وراح يطنب ويسهب في وصف سماحة الاسكندر واعتداله وعظمته في مناسبات أخرى. واذ بداريوس يتركه فجأة ويقصد الزاوية الأخرى من الخيمة حيث كانت الحاشية والاتباع، ورفع يده الى السماء ونطق بالدعاء التالي:

- يا آلهة اسرتي ومملكتي! لو شئتم فإني اضرع اليكم جميعاً بان تعيدوا مجد بلاد الفرس الآفل وان اترك الدنيا وهي بعين الازدهار والعظمة التي وجدتها بها حين تسلمتُ الملك. وان تمنحوني الفرصة على ردّ جميل الاسكندر ورعايته رداً مناسباً لائقاً لقاء ما اظهره

من طيبة وانا في محنتي، لاعزّ الناس اليّ. امّا اذا حكم القدر، وحلّ الوقت الذي سيتخلى اسرة ملوك الفرس عن الحكم لفترة من الزمن، وان كان دمارنا هو الدّينْ الذي يجب دفعه الى الغضب الالهي وصروف الدهر واهوائه. فأنى اضرع اليكم ان تقضوا بألاّ يجلس على عرش كورش رجل آخر غير الاسكندر.

تلكم هي الحكاية التي اوردها معظم المؤرخين في هذا الصدد، ولنعد الى الاسكندر. فبعد ان اخضع آسيا برمتها الواقعة على الجانب الغربي من الفرات تقدم نحو داريوس الذي كان يزحف نحوه على رأس مليون مقاتل. وفي اثناء تقدمه وقعت حادثة سخيفة. وهي ان الخدم الذين لحقوا بالمعسكر عمدوا على سبيل التسلية والمزاح الى ان يجعلوا من انفسهم فريقين اطلقوا على قائد الفريق الأول اسم الاسكندر وعلى الفريق الثاني اسم داريوس. وراحوا في مبدأ الأمر يضرب احدهم الآخر بقطع الطين، ثم انقلبت الحال وانتقلوا الى التلاحم بالأيدي، وبالأخير بعد ان حمي وطيس المعركة الزائفة، تطور الأمر الى قتال جديّ بالحجارة والهراوات، ولم يتم التفريق فيما بينهما الاّ بعد الجهد الجهيد. وابلغ الاسكندر بالاخير رئيسي الفريقين بأن يقررا نتيجة معركة فريقيهما بمبارزة فردية يخوضاتها. وقام هو نفسه بتسليح الرئيس الذي اتخذ اسمه. في حين قام فيلوطاس بنفس العمل لقائد الفريق الذي اتخذ اسم داريوس وخرج الجيش كله لمشاهدة هذا النزال والكلّ يريدان يستخلص فألاً لنجاتهم المقبل. وبعد أن تقابل الخصمان وحمى وطيس النزال بينهما، ما لبث ان استظهر ذلك الذي يحمل فريقه اسم الاسكندر، فمنحه مكافأة، اثنتي عشرة ضيعةِ مع امتياز ارتدائه الثياب الفارسية. هذا ما حدثنا به [ايراتستينوس].

على أن أعظم المعارك التي خاضها الاسكندر ضدّ [داريوس] لم تكن في مدينة [اربيلا] مثلما ادعى معظم الكتاب. بل في [گوگميلا Gaugamela] وهذه الكلمة في لغتهم معناها «مناخ الجمل» وقد سمي الوضع بهذا الأسم لحادثة وقعت فيه، وهو ان احد ملوك الفرس القدماء نجا من مطاردة اعدائه على ظهر جمل سريع. فأعترافاً بفضل هذا الحيوان اسكنه هنا واوقف قرى وريع مسقفات للعناية به. وقد اتفق انه في هذا الشهر المسمّى [بويدروميون Boëdromion]، بمبدء عيد الاسرار على وجه التقريب في اثينا، ان حدث خسوف. وبعد الليلة الحادية عشرة من هذا الخسوف اصبح الجيشان على مرأى احدهما من الآخر. وابقى داريوس رجاله شاكي السلاح وفي حال تأهب واستعرضهم على ضوء المشاعل في حين قضى الاسكندر تلك الليلة امام خيمته مجتمعاًبعرافه [اريستاندر] مباشرين طقوساً سرية معينة ومضحيان لاله الخوف. في حين كان جنوده يغطون في نومهم. وشاهد أقدم قواده ولاسيما

[پارمينو] السهل جميعه ما بين جبلي [نيفاتس Niphates] و[گورديان Gordyaean] وهما يشعان بالنيران العظيمة التي أوقدها البرابرة، وسمعوا الاصوات والاصداء المضطربة الآتية من معسكرهم مثل بحر هدير خضم آتٍ من بعيد، فادركهم الذهول والعجب عند التفكير بهذا الحشد العظيم وبعد مداولة فيما بينهم توصلوا الى ان الاشتباك بالعدو المتفوق عليهم تفوقاً ساحقاً لهو أمر عسير محفوف بالمخاطر. والتقوا بالملك وهو راجع بعد تقديمه القرابين وراحوا يلحون عليه بأن يهاجم داريوس ليلاً، قائلين ربما حجب الظلام اخطار المعركة فرد عليهم بجوابه المشهور:

- إنّي لا أسرق النصر!

قول حسبه بعضهم في حينه، قولاً صبيانياً ينطوي على تسرّع وعدم شعور بالمسؤولية، حتى لكأن صاحبه يلعب بالخطر لعباً الاّ فريقاً اتخذه دليلاً على ثقة الاسكندر بالوضع الراهن. واصابته في حسابه، وفسروا قراره بأنه في حالة هزيمة داريوس، لايبقى له فرصة أخرى لتجربة حظّه ثانية، الحظّ الذي افترض انه يقف الى جانبه بأن يعزو هزيمته الى عامل الليل الذي كان ضده كما عزاها من قبل عندما هزم في الجبال والشعّاب الضيقة والبحر.

ففي الوقت الذي كان يوجد تحت تصرفه هذا القدر العظيم من القوات، والممالك الواسعة، ولايشكو نقصاً لا في الرجال ولا في السلاح يتعلل به لرفض الاشتباك، لايكون سبب الاحجام غير الافتقار الى الشجاعة وفقدان المعنويات والايقان بالهزيمة مسبقاً.

بعد أن أجاب الاسكندر قواده بهذا الجواب انصرفوا عنه فاضطجع في خيمته ونام بقية الليل نوماً اهدأ واعمق من المعتاد الأمر الذي عجب له القادة حين اقبلوا عليه صباح اليوم الباكر وهم يريدون منه اعطاء الأمر بافطار الجنود ولم يسمح لهم الوقت بالانتظار فتقدم پارمينيو من سريره وناداه باسمه مرتين او ثلاثاً حتى استيقظ وسأله كيف امكنه أن ينام هذا النوم العميق كأنه نوم غبّ نصرٍ، في حين انه مزمع ان يخوض اعظم معركة له؟ فأجاب الاسكندر باسماً:

- أوَلسنا كذلك في الواقع؟ لاسيما بعد ان تخلصنا من متاعب مطاردة داريوس في بلاد واسعة جرداء مؤملين عبثاً أن يقاتلنا؟

بدت عظمته للعيان لا قبيل المعركة فقط بل عندما بلغ الخطر اقصاه. وظهر مقدار ضبط النفس المتناسب مع بعد النظر والثقة. فلقد ظلت المعركة مدة طويلة غامضة، لا ترجح كفة جانب على آخر واشتد هجوم خيالة البختيارية Bacrtia على الميسرة التي كانت بأمرة

پارمينيو الى الحدّ الذي دبّ الخلل في صفوفها فاضطر الى التقهقر قليلاً وفي الوقت عينه ارسل [مازيوس Mazaeus] وحدة للالتفاف ومباغتة القائمين على حراسة الاثقال من الخلف مما أقلق [پارمينيو] فأرسل سعاة الى الاسكندر يعلمه بالخطر الذي يهدد الاثقال في المؤخرة، وانها مهددة بالضياع اذا انقذها بنجدات قوية يتم سحبها من الجبهة الامامية. وصلت الاسكندر هذه الرسالة وهو يعطي اشارة الهجوم لاعوانه القريبين منه. فأمر السعاة بالعودة حالاً الى پارمينيو والقول له لاشكّ انه فقد رجاحة عقله وهي في وسط قلقه. كيف ينسى بأن انتصار الجيش يجعله سيداً لاثقال العدو وان هزيمته تحتم عليه فحسب القتال ببسالة والموت بشرف لا الاهتمام بما يمتلك من مال أو عبيد. قال هذا واعتمد بلامته وتقلد بقية سلاحة قبل خروجه من الخيمة وهو بجملته زرد صقلي الصنع وحزام جلدي مشدود حوله شداً وفوق ذلك صدار كتاني مقصب ثمين كانت من الاسلاب التي غنمها في موقعه ايسوس. واللامة التي هي من صنع ثيوفيلي وان كانت من الحديد فهي مصبوبة ومطروقة طرقاً جيداً بحيث بريقها لم يكن باقل من بريق الفضة. واكمل شكة سلاحه بواقية عنق من المعدن نفسه مكفتة بالاحجار الكريمة. وكان سيفه الذي يحمله عادة في القتال، هدية ملك الكتيانيين ويمتاز بخفته العجيبة، ومعدنه الرائع. والحزام الذي يتمنطق به في كل المعارك، كان من ابدع ما اخرجته يد الصناع، ويستظهر على كل قطع سلاحه الأخرى، هو من عمل [هيلقون Helicon] السالف ذكره قدمه الروديون Rodians دليلاً على الاحترام الذي يكنونه له.

ترك حصانه المفضل [بوكيفالس] اثناء تفتيشه الصفوف وتنظيمها والانتقال بينهما لأعطاء الاوامر وتعيين الاتجاهات واستعراض الرجال، فهذا الجواد كان متقدماً في السن. على انه ارسل في طلبه عند بدء الهجوم وامتطاه حين بدأ القتال.

في هذا اليوم المشهود القى اطول خطبة له في الثساليين وغيرهم من الاغريق، فردوا عليه بصياح وهتاف عظيميين. طالبين ان يتقدمهم الى الأمام ضدّ البرابرة وعندها نقل رمحه الى يسراه ورفع يمناه الى السماء راجياً من الآلهة على قول [كاالليتسنيس] «ان كنت ابن جوپتر حقاً، فمن الواجب ان تساعد الاغريق وتشد ازرهم». في الوقت نفسه تقدم العراف [اريستاندر] راكباً مشتملاً بعبادة بيضاء وعلى رأسه تاج ذهبي. واظهر للجنود صقراً اطلقه فحلق فوق الاسكندر واتجه نحو العدو فدبت في الناظرين حماسة عظيمة وبعد استنهاض هم بعضهم بعضاً وتشجيعهم هجمت الخيالة باقصى السرعة وتبعها فلانكس المشاة جميعه كتلة متراصة واحدة. لكن البرابرة - انكفأوا الى الخلف قبل الاشتباك بين الصفوف الأمامية فجدّ الاسكندر في اثرهم ودفع بأولئك المنهزمين من امامه الى وسط المعركة حيث كان داريوس،

ولمحه الاسكندر من بعيد على رأس الصفوف الأمامية يحيط به حرسه الخاص، وكان رجلاً فارع الطول وسيماً، يقود عجلة فخمة يحميها عدد كبير من أفضل الفرسان من كل جانب وهم في ابدع نظام واتم الاستعداد لاستقبال هجمة العدو. إلاّ ان تقدم الاسكندر كان مخيفاً ساحقاً بحيث اجر المتقهقرين على الارتماء فوق اولئك الذين ظلوا ثابتين في مواضعهم وهكذا هزمهم وفرّقهم شذر مذر. وحاولت قلة الصمود وهي نخبة من اشجعهم فقتلوا عن آخرهم بمشهد من ملكهم. كانوا يتساقطون أكداساً واحدهم فوق الآخر وهم يحاولون اثناء احتضارهم الامساك بالخيل المتقدمة لوقفها. واتضح لداريوس بان كل شيء قد ضاع وان اولئك الذين وضعوا في الصفوف الامامية لحمايته قد انكسروا ودفعوا الى الخلف عليه. ووجد ان الاستدارة متعذرة ولم تتخلص عجلته الاّ بعد الجهد الجهيد لأن عجلاتها اشتبكت وتعثرت بجثث القتلى التي كانت مكدسة أكداساً شيء فوق شيء فأوقفت الخيل بل غطيتها فأجعلت وانكفأت الى الخلف وجمحت ما سقط في يد سائق العجلة ولم يعد بواسطة السيطرة عليها واهتبل قرصته وهو في هذا المأزق، بترك عجلته واسلحته وامتطاء مهرة أخذت من فلوها (على ما قيل) وبهذه الوسيلة نجا، على ان النجاة كانت بعيدة عن متناول يده لو لم يرسل پارمينيو سعاة آخرين الى الاسكندر يطلب انجاده ضد اعداد كبيرة من الاعداء الذين ما زالوا صامدين في مواضعهم. في الواقع ان [پارمينيو] كان في هذه المعركة هدفاً لانتقاد الجميع فقد بدأ متراخياً لا خير فيه ربما لأن كبر السن احدث اثره في اقدامه واشجاعه، او كان - على حدّ قول [كاللتسينوس] يكره في سره تنامي عظمة الاسكندر ويحسده عليها ان الاسكندر لم يدركه اقل السخط لاستدعائه، واضطراره الى التخلي عن استكمال نصره، الاّ ان اخفى السبب الحقيقي عن رجاله وأمر بضرب بوق الوقوف، كأنما تأخر الوقت بهم لمتابعة النصر هو السبب، واتجه الى ناحية الخطر من المعركة ولكنه ابلغ بنبأ هزيمة العدو وهو في طريقه.

اما وقد انتهت المعركة بهذه النتيجة فقد بدأ وكأنها وضعت نهاية محتومة لامبراطورية الفرس. وقام الاسكندر الذي أعلن ملكاً على آسيا بتقدم شكره للآلهة بقرابين فخمة وأغدق على اصدقائه واعوانه المكافآت المالية ومنحهم الاراضي وامرّهم على الممالك والاقاليم. ودفعته رغبته الى كسب احترام الاغريق وثقتهم الى الكتابة اليهم بعهد قطعه على نفسه وهو قيامه بالغاء كل حكومات الطغاة والمستبدين ويمنيهم بالعيش في ظلّ الحرية وبحماية قوانينهم، وذكر بصورة خاصة [البلاتيان Platians]. ووعدهم بأن يبنى مدينتهم لأن مواطنيهم كانوا في غابر من الزمن قد سمحوا أن يجعلوا من بلدهم مركزاً لادارة الحرب عندما نشب القتال مع البرابرة دفاعاً عن حريتهم المشتركة. وبعث ايضاً بجزءٍ من الغنائم الى ايطاليا

[للكروتونياتيين Crotoniats] تكريماً لشجاعة وحمية مواطنهم [فايالوس Phayllus] المصارع الذي انضم الى الاسطول في سلاميس ليكون له سهم في المخاطر والاهوال بسفنه التي سيرها على حسابه الخاص ومشاركته في الحروب الميدية في الوقت الذي تنكرت لأصلها المستعمرات الاغريقية الأخرى في ايطاليا وتخلت عن بلاد اليونان. كان الاسكندر شديد التعلق بكل انواع الفضائل، وكان ايضاً يهتم كثيراً بحفظ ذكرى الاعمال والمآثر الجديرة بالثناء التي يقوم بها الغير.

ومن هناك زحف الى بلاد البابليين ودخلها وسرعان ما دانت له بالولاء. وفي [اكبتانا] ادركه شديد العجب لمنظر النار الدائمة الصادرة من نبع مثل نبع ماءٍ لاينقطع مجراه ينبط من باطن الأرض. ومسيل النفط وهو لايبعد كثيراً عن تلك البقعة، يتدفق بكمية كبيرة جداً حتى انه يؤلف ما يشبه البحيرة. ان هذا النفط وهو من بعض النواحي يماثل الزفت سريع الاتقاد بحيث تراه يتقد بملامسة الضوء قبل وصول اللهب اليه. وكثيراً ما يشعل الهواء المتوسط ايضاً. ولكي يظهر البرابرة قوته وطبيعة عمله فقد رشوا الشارع المؤدي الى مسكن الملك بقليل من قطراته وعندما حل المساء وقفوا عند احدى نهايتي الخط وبيدهم المشاعل ثم قربوها من النفط المرشوش وما أن تسلمت النار حتى كان الخط كله ناراً من طرف الى طرف في ومضة عين، وبدأ الشارع وكأن النيران قد التهمته. وكان ثم شخصٍ يدعى اثينوفانس Athen-ophanes وهو مواطن آثيني يقف بخدمة الملك وانتهاز المناسبات لتسليته عند اغتساله، ويدهن جسمه بالزيت، الاسكندر من طلب هذا الرجل أن يجرى تجربة على استفانوس بالنفط، وهو شاب قبيح الطلعة وجهه يضحك الثكلى بارع في الغناء. كان يقف منتظراً في مواضع الاستحمام عنده، قائلاً:

- لو انها (اي النار) اشتعلت فيه بدون ان تطفأ فلابدّ وانها ذات قوة لاتقهر.

نبادر الشاب يعطي موافقته على التجربة فزهن جسمه بالنفط وما ان فرك جلده حتى اشتعلت النار فيه فأستولى القلق والاضطراب الشديد على الاسكندر، ولولا جمع قريب من الناس بادروا بالماء وصبوها عليه لحسن الحظ لانتهت حياته واتت عليه النيران على ان جسمه أصيب بحروق كثيرة ومرت مدة طويلة حتى اندملت وتماثل للشفاء. وهكذا فانه لم يكن خالياً من العذر المقبول اجتهاد القائلين ان النفط هو العقار الذي ذكرت التراجيديات بانّ [ميديا Medea] وهنت به التاج والخمار اللذين اعطتهما لابنة [كريون Creon] فلا الاشياء بذات نفسها ولا النار نفسها بقادرة على الانتقاد ذاتياً، وانما يتم ذلك بنقعها بالنفط فلا ترى نفسها الاّ وهي تنجذب الى النار وتشتعل دون وسيط عند يتفق وان يقرب منها لهب. ان

اشعاع وفيض وانبثاق اللهب من بعيد لا أثر له على بعض الاجسام أكثر من اعطائها حرارة أو ضوء. ولكن في بعضها الآخر حيث تصادف جفافاً فيه تيار هوائي، وكذلك رطوبة غنية كافية فانها تتجمع الى نفسها وما تلبث أن تلتهب وتحدث التحول المنشود وعلى اية حالٍ فان طريق استخراج النفط يطلق عنان الفكر في دروب مختلفة من الآراء. هل ان هذه المادة السائلة التي تغذي اللهب، تصدر من التربة التي هي زيتية القوم ومولدة للنار، مثل اقليم بابل حيث الأرض على درجة حرارة عالية جداً بحيث ان حبّ الشعير في اغلب الاحيان تقفز احياناً عن قشرة سنبلتها وتنقذف الى الخارج، وكان اللهيب العنيف قد جعل الأرض تخفق خفقاناً. عندما تصل درجة الحرارة اقصاها هناك يعمد الناس الى النوم على جربان مملوءة ماءً. ان [هرپالوس Harpalus] الذي تركه الاسكندر حاكماً لهذه البلاد، وكان ولوعاً بتزيين حدائق القصر ومما شبه بانبتة اغريقية نجح في استنبات كل ما غرسه عدا اللبلاب الذي لم تكن التربة تتحمله بل نقلته فوراً لانه من النبتات التي تحب التربة الباردة ومزاج هذه الأرض الحارة النارية لم يناسبها. [ان امثال هذه الاستطرادات التي اوردها قد يكون القارىء النافد الصبر أكثر ميلاً الى غفرانها لو بقيت مقصورة ضمن دائرة معتدلة].

عند الاستيلاء على [سوسه] وجد الاسكندر في القصر الملكي اربعين ألف تالنت نقداً مسكوكاً الى جانب ما يقصر عنه الكلام وما يتعذر تحديد مقداره من الاثاث والكنوز من بين ذلك ما تبلغ قيمته خمسة آلاف تالنت من الارجوان الهرميوني ظل مكنوناً هناك زهاء مائه وتسعين عاماً وما زال محافظاً على لونه جديداً قشيباً، ويقال أن السبب في ذلك يعود الى استعمالهم العسل في صبغ الأرجوان كما يستعملون الزيت الأبيض وكلاهما يحافظان على تألق القماش ومرونته بعد مرور هذه الحقبة من الزمن. ويحدثنا [دينون Dinon] ايضاً ان ملوك الفرس كانوا يجلبون ماءً من نهري النيل والدانوب ويختزنونه عندهم استشهاداً بعظمه سلطانهم وسعة امبراطوريتهم.

كان دخوله بلاد الفرس من اراض وعرة جداً يسهر عليها انبل الفرس، وقد لجأ اليها داريوس نفسه. على ان الصدف هدت الاسكندر الى دليل تتفق اوصافه تماماً مع ما تنبأت به [پيثيا] في طفولة الاسكندر، وهي ان [ليقوسيّاً] سيقوده الى بلاد فارس. وبمعونة شخصٍ ابوه ليقي وامه فارسية يتكلم اللغتين، دخل البلاد بطريق غير مباشرة ولكن دون كثير من اللف والدوران. وفي هذا الموضع وضع السيف في رقاب كثير من الأسرى، كما اقرّ هو نفسه بذلك اعني انه امر بقتلهم معتقداً ان في ذلك مصلحة. وادعى أن الأموال المنقولة والنفائس هناك وضع يده على ما يربو عن عشرة آلاف زوج من البغال وخمسة آلاف جمل اخذها عنوة. ووجد

تمثالاً كبيراً لزركسيس ملقى باهمال بسبب ما عم من الفوضى والاضطراب اللذين اثارهما الجم الغفير من الجنود المتدافعين نحو القصر، فوقف ساكناً وبادره بالكلام كما لو كان بشراً حياً:

- أتتوقع ان نمرّ بك مروراً عابراً وانت ملقى على الأرض لأنك غزوت يوماً ما بلاد اليونان؟ ام ترانا نقيمك على قاعدتك مقدرين عظمة عقلك ومضائلك الأخرى؟

وبعد ان فكر ملياً مقلباً الأمر من شتى وجوهه، واصل سيره دون أن يعره أكثر من ذلك اهتماماً. واتخذ من هذا الموضع مقراً شتوياً له ومكث اربعة أشهر لاراحة جنوده. ومما أثر عنه انه عندما جلس لأول مرة على عرش ملوك الفرس تحت مظلّة من ذهب، ما كان من [ديماراتوس Demaratus] الكورنثي وهو أحد أقرب خلصائه وواحداً من اصدقاء ابيه إلاّ ان انفجر باكياً بكاء الرجال المتقدمين بالعمر، وراح يندب سوء حظ أولئك الاغريق الذين حرمهم الموت من لذة رؤية الاسكندر جالساً على عرش [داريوس].

وقرر أن يبدأ زحفه على داريوس وقبل أن يباشر ذلك راح يسليّ نفسه وقواده بحفلات شرب وغير ذلك من وسائل قضاء الوقت وانغمسوا في ذلك الى الحدّ الذي سمح فيه لكلّ خطية بان الجلوس الى جنب صاحبها وتساقيه. وكانت تاييس Thais الآثينية مخطية بطليموس ملك مصر المقبل أشهرهن. هذه المرأة نطقت بقول موجه الى الاسكندر يمتاز بالبراعة من جهة، وبالفكاهة وسرعة البديهة من جهة أخرى اثناء ما كانت كؤوس الراح تترع وتدار فلعبت الخمر برأسها الى الحدّ الذي فاهت بكلام لايمكن اعتباره غير جدير بطبائع موطنها وكان ارفع بكثير من مكانتها وصفتها. قالت:

- ان قيامي اليوم بالخدمة. وبإمكاني أن أشتم ملوك الفرس في قصرهم، فيه بعض تعويض عما كابدته من المتاعب والمشاق بمتابعة الجيش في تنقلاته في ارجاء آسيا. لكن قد يزيد في سروري كثيراً لو يسمح لي - على سبيل العبث والتسلية لا غير في ان اشعل النار بيدي في قصر [زركسيس] الذي احال مدينة آثينا الى رماد، والاسكندر ينظر الى المشهد.

وهكذا سيسجل للاجيال القادمة بان المرأة التي تبعثه قد ثأرت من الفرس للمآسي والاهانات التي تلقاها الأغريق منهم، وهو انتقام أشدّ وانكى من اي انتقام ناله القواد العسكريون منهم بحراً أو براً.

وأستقبلت كلماتها بارتياح عام وغمغمه استحسان دليلاً على تشجيع المحتفلين وتحبيذهم حتى ان الملك نفسه لم يسعه غير الموافقة مع الإجماع فنهض من مجلسه وعلى رأسه أكليل

الزهر وبيده مشغل متقد، وسار على رأس الجمع وهم في أثره محدثين ضوضاء وضجة والكل يرقص ويهتف فينادي بأعلى صوته فترجع اجواء القصر اصداءها. وبمشاهدة المقدونيين الموكب استخفهم الطرب وراحوا يتراكضون هنا وهناك وبأيديهم المشاعل وكانوا يتوقعون حرق وتدمير القصر الملكي متخذين من شوق الاسكندر الى الوطن وعزوفه عن السكنى بين البرابرة دليلاً.

هذا ما سجله بعض الكتاب حول الحادث في حين ذكر آخرون ان مباشرة الحريق كان متعمداً وليس عفوياً. إلاّ ان الفريقين يتفقان بان ندم الاسكندر كان سريعاً آنياً فاصدر امره باخماد النار فوراً.

كان الاسكندر بطبيعة حاله جواداً معطاء. يزداد سخاء كلما سما به حظه. وكان يقرن هباته بضروب لطيفة من المجاملة وحسن التصرف واللباقة وهي امور ضرورية جداً لتجعل اية منحة فضلاً مشكوراً لا تعويضاً وسأورد بعض الأمثلة على ذلك:

فتك اريسطون قائد الپايونيين [Paeonians] بمقاتل من الاعداء وحمل رأسه الى الاسكندر قائلاً ان هدية كهذه تعوض في عرف بلاده بكوبٍ من الذهب الخالص فرد الاسكندر باسماً:

- بكوب خالٍ من الخمر. ولكني اشرب نخبك بهذا الكوب الذي اقدمه اليك مترعاً!

من مناسبة ثانية كان أحد الجنود يسوق بغلاً محملاً باموال تعود للملك فادرك الحيوان النصب. فبادر الجندي الى نقل الحمل الى عاتقه وسار يستاق البغل المتعب خلفه فشاهده الملك ينوء تحت ثقل ما يحمل فسأله عما حدا به الى ذلك فاجابه وهو يهم بانزال حمله من فرط التعب، فقال له الاسكندر:

- لاتهن الآن وتماسك وأكمل رحلتك وخذ ما تحمله الى خيمتك فهو ملك حلال لك.

وكانت نفرته وانزعاجه من رافضي هباته أكثر ممن يستجدونها منه ولذلك كتب الى فوكيون Phocion يقول «اني ان اعتبرك في عداد اصدقائي ان ظللت ترفض قبول عطاياي.

ولسيراپيون وهو أحد الشبان الذين كان يلاعبهم بالكرة لم يعط شيئاً لانه لم يطلب منه، وفي يوم ما جاء دور الشاب في قذف الكرة فراح يتوجه بقذفاته الى اللاعبين الآخرين متجاهلاً الاسكندر فسأله هذا عما يحدوه الى هذا فاجاب الشاب قائلاً:

- لأنك لم تطلب مني.

فسرّته الاجابة وانبسطت يده له غاية الانبساط.

وكان ثم آخرٌ اسمه [پروتياس Proteas] وهو رجل لطيف خفيف الظلّ ضاحك الثغر مزاح

شريب خمر، كان قد اغضبه يوماً لسبب ما. فدفع اليه باصدقاء متوسطاً مستشفعاً طالباً عفوه وهو باكٍ حتى نجحت المساعي وصرح الاسكندر ان قلبه قد صفا له وانه عاد الى وده. فقال پروپتاس

- لايسعني تصديق ذلك ما لم تعطني جهداً.

ففهم الملك قصده وامر فوراً بمنحه خمسة تالنتات.

وتبدو روعة اخلاقه وسموه في اغناء اتباعه والواقفين على خدمته من رسالة كتبتها له [اولمپياس] اوصته فيها بان يقبض يده قليلاً في مكافأة المحيطين به معللة ذلك بقولها:

- انك الآن تساويهم بالملوك، فتمنحهم السلطة، وتتيح لهم الفرصة في أن يجمعوا حواليهم حاشية من الاصدقاء ويختصون بهم في حين ينفض من حولك الاصدقاء.

وكثيراً ما كانت تكتب اليه حول ذلك، ولكنه لم يكشف عن محتويات تلك الرسالة الى أحدٍ خلا رسالة واحدة فضها وهيفايستيون Hephaestion واقف معه فأجاز له مطالعتها معه كما تقضي به العادة. وبعد ان فرغ هيفايسيتون من القراءة اسرع الاسكندر فخلع خاتمه ووضع ختمه على شفتي صديقه!

كان [لمازيوس Mazaeus] أكبر الاشخاص مقاماً في بلاط داريوس ابن قُلد وظيفة حاكم اقليم. فجعله الاسكندر حاكماً على اقليم آخر أفضل من الأول. فرفض ذلك على كلٍ تواضعاً منه وقال له انه بدل [داريوس] واحد، يخلق عدة نسخ من الاسكندر. ومنح [پارمينيو] ونزل [بغواس Bagoas] فوجد المالك الجديد فيه مستودعاً من الثياب والحلل ما تربو قيمته عن ألف تالنت. وكتب الى [انتيباطر] يأمره أن يتخذ لنفسه حرساً خاصاً دائمياً للمحافظة على حياته من المتآمرين، وارسل الى امه الكثير من الهدايا الا انه لم يمنحها اي مجالٍ للتدخل في أمور السياسة والحرب ولا أن تستخدم ميلها الى التدخل، ولا أن تتبع فضولها. وعندما نشب الخلاف بينهما بهذا الخصوص تحمل حدة طبعها بكل صبرٍ واناة، بل ارتفع حلمه معها الى الحَدّ الذي قال بعد أن قرأ رسالة اتهام لانتيباطر طويلة ضدها حررها له [انتيباطر].

- ان انتيباطر لايدرى ان دمعةً واحدة تذرفها عين ام تمحي الف رسالة كهذه.

لكن عندما تبين ان اخلصاءه غرقوا في اسباب الترف وتمادوا في الاسراف والبذخ، حتى ان هاكنون Hagnon التاياني خصف احذيته بمسامير من الفضة، و[ليوناتسي] ارسل العدد العديد من الجمال لحمل التراب الدقيق من مصر، وفرشه على أرض المصارعة. وان [فيلوطاس] اصبح لديه من شباك الصيد ما يبلغ طوله مائة فرلنك، وان الكثيرين يستخدمون

ارهاناً واطياباً غالية الثمن بدل الزيت الاعتيادي عند الاستحمام، وانهم يصحبون الخدم والحشم حيثما انتقلوا وسافروا لتدليكم والقيام عليهم في حجراتهم - عندما تبين كل ذلك بدأ يعنفهم بلحجة رقيقة معتدلة فيقول لهم مثلاً:

- اني لأعجب منكم، انتم الذين خاضوا غمار المعارك والنزال الفردي الكثير، كيف لم تعلّمكم التجارب بأن المرهقين من عمل اليوم ينامون أهنأ النوم وأعمقه، لا كأولئك الذين يعمل الآخرون من أجلهم. كيف عميت بصيرتكم عن الرؤية، فما عدتم تقارنون طراز العيش الفارسي بطرز عيشتكم، أن أبغض شيء وأحقره هو ان يكون المرء شهوانياً على ان أنبل حالة من حالات البشر وأسماها هي في أن يعاني الألم ويتمرس في الآفات.

وناقشهم أيضاً في ادعاء المرء بانه جندي ولكنه لا يعني بحصانه أو ينظف شكة سلاحه ويصقلها دوماً لتكون دائماً في حالة جيدة، ان الجندي هو ذلك الذي يهتم بالدرجة الأولى في ان تكون يديه نافعتين لأقرب الاشياء اليه وهو جسده وكيانه. وقال أخيراً:

- أبحاجة انتم الى ان تتعلموا بأن نهاية انتصاراتنا وكمالها، يتحقق في اجتناب رذائل ونقائص من استظهرنا عليهم؟

ولدعم حجته بالبرهان الحسيّ. انصرف الى العيد والقنص انصرافاً مضاعفاً، وخرج كثيراً في تجريدات عسكرية مهتبلاً كل الفرص لتعريض نفسه للمشاق والاخطار حتى اتفق ان اللقيديميين الذين كانوا قد وفدوا عليه في سفارة، حضروا منازلة بينه وبين أسدٍ ضخم فتمكن منه وصرعه فقالوا انه قاتل الحيوان الضاري ببسالة فأي الاثنين يجب ان يكون الملك؟ وقام [كراتيروس Craterus] بعمل نقش بارز لهذه المنازلة ظهر فيه الاسد والكلاب والملك وهو يصارع الوحش وهو نفسه قادم لمعونته - وكان النقش على النحاس بتماثيل بعضها من صنع [ليسبوس Lysippus] وبعضها من صنع [ليوخارس Leochares] ووضع هذا يعرض نفسه للمهالك والاخطار قاصداً تعويد نفسه عليها وحث غيره على الاعمال النبيلة والاقدام.

إلاّ ان اتباعه الذين اغتنوا واتربوا وادركتهم الخيلاء بسبب ذلك، مالوا الى الانغماس في الملذات والفوا حياة الخمول والكسل، بدأوا يضيقون ذرعاً بالمسيرات والحملات العسكرية وتمادوا الى الحد الذي امسكوا عن الحديث الطيب عنه وراحوا يغتابونه. في بادئ الأمر تحمل منهم ذلك متحلياً بالصبر الجميل وقال:

- تلك هي العادة، مهما أحسن الملوك عملاً فان ألسنة السوء تنالهم بالقدح.

ومع ذلك لك يكف عن عطفه عليهم فينتهز أقل مناسبة لابدائه لهم، ان دلائل رقته

واحترامه لهم لاتحصى. سمع مرة ان [پيوكستس Peucistes] قد عضّه دبٌ فكتب اليه يقول:

- اني لا أقبل ان اسمع من الآخرين هذا النبأ، بل اريد أن تخبرني به انت، لكن مادام الأمر قد حصل فدعني اعرف كيف انت وان كان قد تنكر لك ايّ صاحب من اصحابك ساعة الخطر حتى انزل به العقاب.

وارسل الى [هيفاسيتون] الذي كان قد سافر لمهمةٍ - رسالة يذكره فيها كيف ان رمح [پيردكّاس Perdeccas] اخترق فخذي كراتيروس بمحض الصدفة اثناء ما كان يصارعان نمساً ضارياً على سبيل التسلية. وعند شفاء [پيوكستس] من مرض ألم به ارسل كتاب شكر لطبيبه [الكسيپوس Alexippus] وعندما لازم كراتيروس الفراش مرة، رأى حلماً في نومه فقام على اثره بتقديم القرابين لأجل شفائه وطلب منه ان يفعل المثل. وكتب ايضاً الى پاوسانياس Pausanias الطبيب الذي كان يهم بتطهير احشاء [كرايتروس] بالخربق، شعوراً منه بالقلق الشديد عليه من ناحية وتذكرة له في ان يكون حذراً باستعماله هذا العقار السّام من جهة أخرى.

وكان رفيقاً وغيوراً على سمعة اصدقائه الى الحدّ الذي عمد فيه الى ايداع كل من [ايفيالتس Ephialtes] و[كيسوّس Cissus] السجن لانهما كانا أول من اخبراه عن هرب [هارپالوس Harpalus] من خدمته؛ خشية أن تكون تهمة مزيفة. وعندما اعاد العجزة وكبيري السنّ الى الوطن، عمد [يوريلوخوس Eurylochus] وهو مواطن ايجي، الى تسجيل اسمه في قائمة العاجزين في حين كانت صحته على ما يرام. ولما افتضح أمره، اعترف بانه يحبّ فتاة اسمها [تيليسپّا Telesippa] وقد اراد ان يلحق بها الى الساحل. فاستخبر الاسكندر عن وليّ أمر الفتاة فتيل له انها محظيّة حرة بالولادة فقال [ليوريلوخوس] الجندي.

- سأعينك في حبّك هذا. إن امكن الفوز بمعشوقتك بالهدايا أم بالوساطة ولكن علينا الا نستخدم وسائل أخرى لأنها حُرة.

انه لمن الغريب حقاً ان يتعنّى الاسكندر كتابة الرسائل وتوجيهها في قضايا بسيطة تافهة خدمةً لاصدقائه. ككتابته رسالة حول البحث عن فتىً مفقود يعود [السلوقس] هرب الى كيليكيا وتوجيهه رسالة شكر وتقدير الى [پيوكستس] لقبضه على [نيقون] خادم [كراتيروس]. وكتابته رسالة [لميگابيزوس Megabyzus] حول عبد لجأ الى معبدٍ لائذاً. فصدر تعليمات تقضي بعدم التعرض له طالما هو في الداخل. ولكن ان استطاع سيده حمله

على الخروج بوسائل مشروعة فلا بأس من القبض عليه.

وقد أثروا عنه انه لما جلس مجلس القضاء للمرة الأولى في قضايا تتضمن احكام موت وضع يداً على أذن عندما أخذ المدعي يعرض دعواه، لابقائها حرة غير منحازة لمسماع المدعى عليه. لكنه فقد عطفه ورقته هذه عندما كثر عرضى القضايا الجنائية عليه وكان معظم التهم صحيحاً ولها كانت احكامه خاطئة ظالمة أحياناً. واخذ يميل الى تصديق الزائف من التهم ايضاً. ولاسيما عندما يتعرض احد لشخصه بالغيبة. فانه ينسى نفسه، ويغدو قاسياً لايعرف للرحمة معني. مفضلاً مجده وشهرته على حياته ومملكته.

كما قلنا سابقاً، انطلق الاسكندر وراء [داريوس] متوقعاً ارغامه على الدخول في معركة أخرى. وسمع ان [بسوس] تمكن من القبض عليه وحبسه وما ان سمع بذلك حتى بادر باعادة التساليين الى ديارهم ومنحهم هبة قدرها ألفا تالنت، علاوة على ما يستحقونه من اعطيات. وتعب جنوده من مطاردته داريوس [قطع في احد عشر يوماً، ثلاثة آلاف وثلاثمائة فرلنگ] وغدا معظمهم على اتم الاستعداد للانثناء عنه بسبب قلة الماء. وبينما هم في محنتهم هذه، اتفق ان وحدة من المقدونيين الذين جاؤا بماءٍ في جربان على بغالهم من نهر صادفوه، انهم وصلوا حوالي الظهر الى الموضع الذي عسكر فيه الاسكندر فوجدوه يكاد يموت عطشاً فبادروا الى ملء لامة وتقديمها له. فسألهم لمن يحملون الماء فقالوا لأولادهم. واضافوا قائلين أن ما يهمهم حياته فحسب فلو سلمت لكان فيها الكفاية ولو هلكوا هم جميعاً، اذ سيكونون قادرين على تعويض الخسارة. فتناول اللامة وتلفت فرآى اعناق القريبين منه تمتدّ متلهفة للماء، فاعاد الوعاء شاكراً دون ان يشرب قطرةً واحدة وقال:

- إن أصبتُ أنا وحدي من مائكم. فستنهار معنويات الباقين.

ما ان تبين الجنود عظمة تصرفه حتى أخذت الحماسة مأخذها منهم فهتفوا هتاف رجل واحدٍ وطلبوا منه ان يتقدمهم وبدأوا يسوطون خيولهم. وقالوا: مادام ملكنا بهذه الصفة، فنحن نتحدى التعب والعطش. واننا لنعد انفسنا كائنات لا تقلّ كثيراً عن مستوى الآلهة الخالدين. لكن ومع هذه الرغبة والاستبشار فان الذي قدروا على متابعة الزحف على ما قيل لم يكن يزيد عن ستين فارساً، هجموا على معسكر الاعداء في غفلة منهم ووضعوا ايديهم على كميات لا تقدر من الذهب والفضة وكانت مبعثرة هنا وهناك ومروا بحسد كبير من العجلات ممتلئة بالنساء ومتفرقة في رقعة واسعة وليس فيها سائقون. وجدوا في ادراك اول الهاربين املاً في العثور على داريوس معهم. وقد عثروا عليه فعلاً بعد كثير من الجهد. وكان ملقى في عجلةٍ مثخناً بالجراح على شفا الموت. فطلب من آسريه مشربة ماء. وعندما نال قليلاً من

الماء البارد قال لساقيه [پوليستراتوس Polystratus] انه بلغ آخر درجة من الشقاء وسوء الحظ عند قبوله هذه الحسنة وعجزه عن ردّها واضاف:

- لكن الاسكندر الذي ارجو من الآلهة ان تكافئه لعطفه على أمي وزوجي واولادي، سيشكرك دون شكّ لانسانيتك معي. فقل لي عنيّ اني امدّ اليه يدي اليمنى دليلاً على شكري وتقديري.

وقبض على يد [پوليستراتوس] ولفظ آخر انفاسه.

وظهر الحزن العميق على الاسكندر عند وصوله اليه، ونزع معطفه والقاه على جسده. وبعد مرور فترة من الزمن أسر [بيسوّس] فأمر به ان يمزق شلوا على الوجه التالي: شدوه الى شجرتين متقابلتين بعد ان احنوا جذعيهما وضموهما الى بعض بقوة عظيمة ثم أطلقوهما فعادتا الى وضعهما وقد نالت كل واحدة منهما للجزءً من الجسد المشدود اليها. واسجي جسد داريوس في نعش مكشوف وأرسل الى امه بابهّة تليق بمقامه. وجعل اخاه [اكساثريس Exathres] واحداً من اخلص اصدقائه واقربهم. وزحف بزهرة جيشه نحو [هرقانياً Hyrcania] فوجد امامه ساحلاً واسعاً وبحراً مفتوحاً لا تقل سعته عن بحر قزوين Euxaine ماؤه اعذب من المياه الأخرى. الاّ انه لم يتحقق منه. وبدا له ان كل الاحتمالات تشير الى كونه ذراعاً صادراً من بحيرة ميوتس Moeatis. على ان علماء الطبيعة قبله كانوا أخبر منه فقد توصلوا الى الحقيقة قبل حملته بعدة سنين فاثبتوا انه من الجلبحان الاربعة التي تدخل الى القارة من البحر الرئيس عند هذا الخليج الذي لايعرف بغير اسم (قزوين) ويقع في اقصى الشمال كالبحر الهرقاني، التقى البرابرة بنفر كانوا يقودون جواده الخاص [بوكيفالوس] فأخذوهم اسرى ووضعوا ايديهم على الحصان فاستشاط غضباً وارسل اليهم منادياً يهددهم ويطلب اعادته أو سيضع السيف في رقابهم جميعاً رجالاً ونساءً وأطفالاً دون ان تداخله فيهم اية رحمة. على انه عاملهم معاملة لطيفة عندما أعلنوا الطاعة وسلموا له مدنهم وزاد في لطفه بان افتدى حصانه ممن نهبه.

ومن هنا زحف الى پارثيا. ووجد نفسه هناك عاطلاً لا عمل لديه فاشغل نفسه بأمور ثيابه كلبسه الزيّ البربري. ولعله اقدم على ذلك للتقرب من قلوبهم وليسهل مهمة تحضيرهم. اذ ليس ثم ما يجذب قلوب الناس كتبني عاداتهم وكالتخلق بطباعهم او ربما كانت منه اول محاولة يستنتج منها مدى استعداد المقدومين لعبادة شخصه كما يعبد البرابرة ملوكهم بتعويدهم شيئاً فشيئاً على التغيير الطاريء في حكمه واسلوب حياته وغير ذلك من الأمور. وعلى اية حالٍ فانه لم يتخذ الزي الميدي لباساً فقد كان بنظر مواطنيه اجنبياً تماماً وغير

اختار الطريق الوسط بين الزي الفارسي والمقدوني واهتم بحيث لا تكون زاهية صارخة الالوان كالأولى ولا فخمة فاخرة كالثانية. وكان في مبدأ الأمر لايرتدي زيه الجديد هذا الاّ عند اجتماعه بالبرابرة أو عندما يكون في خلوة بين اتباعه واعوانه الاقربين. الا انه ظهر بها فيما بعد وكان منظره بها يحزن المقدونيين الاّ انهم كانوا يسكتون عنها ويتجاوزون بسبب فضائله وحسن اخلاقه الى الحدّ الذي يشعرون معه بأن من العدالة أن يترك وشأنه يرضي اهواءه وميله الى المجد والظهور، بعدما عرض نفسه الى المخاطر والأهوال. ومن العوارض الخطيرة التي أصيب بها مؤخراً ان سهماً أخترق ساقه فغتت عظم القصبة واخرجت منها شظايا. كذلك اصيب في مؤخر عنقه بضربة حجرٍ عنيفة جداً اضعفت باصرتيه وغداً ضعيف الرؤية مدة طويلة. ولم يمنعه كلّ ذلك من تعريض نفسه للمزيد من الأخطار باستهتار عجيب فقد عبر نهر [اوركزارتس Orexartes] الذي حسبه نهو [تانايس] وهزم الصيثيين وطاردهم زهاء مائة فرلنگ وهو يعاني طوال ذلك من الاسهال الشديد.

ويؤكد الكثيرون انه في هذه البلاد حظي بزيارة الامازونات هذا ما يزعمه [كليتارخوس Clitarchus] و[پوليكلتيوس Polyiclitus] و[اونيسكريتوس Onesicritus] و[انتيگينس Antigenes] و[استر Ister] الاّ ان كلاً من [ارسطبولس] و[خاريس] اللذين اشغلا وظيفة المبلغين عن الالتماسات والعرائض، و[بطليموس] و[انتقليدس Anticlidis] و[فيلون] و[تيبان Theban] و[فيليب] التيانجيلي Theangela، و[هيكاتيوس Hecatæus] الارترياني Eretrian و[فيلبب] الخلقيدوني، و[دوريس] الساميانى Samian، يقولون ان الحكاية كلها هي من نسج الخيال. والواقع ان الاسكندر نفسه يؤيد ادأي الاخير اذ انه يقصّ في رسالة موجهة الى انتيباطر تفاصيل ما حصل خلال الحملة. فيخبره ان ملك الصيثيين عرض ابنته عليه زوجاً. ولا يذكر شيئاً عن التقائه بالامازونات وبعد عدة سنين كان [اونيسكرتريس] يقرأ هذه الحكاية في كتابه الرابع الى ليسيماخوس الذي كان ملكاً آنذاك فضحك ليسيماخوس ضحكة هادئة وعقب قائلاً:

- اين كنت في ذلك الوقت يا ترى؟

ولو سلمنا جدلاً بصحة الحكاية فايه فائدة في ذلك للاسكندر ومن المؤكد انه بعد ان ادركه الملل من متابعة الحرب، ترك القسم الاكبر في مقراته بهرقانيه، وأحتفظ بنخبة من الرجال يبلغ عددهم عشرين ألفاً من الرجالة، وثلاثة آلاف من الخيالة، وتوجه اليهم بهذه الخطبة:

- انكم حتى هذه الساعة لم تروا البرابرة الاّ في احلامكم. فان كنتم تعلون انفسكم بالعودة

دون ان تفعلوا شيئاً بعد أكثر من ارهاصكم اسيا دون الاستيلاء عليها، فإن اعداءكم سينقضون عليكم كما ينقضون على نساءٍ. اني لن استبقي احداً رغم أنفه، وبامكانكم ان تذهبوا حيث شئتم، فليس لي غير رفع صوتي بالاحتجاج على المقدونيين والرثاء لهم، لأني تركت وحدي مع حفنة من الاتباع والمقطوعين، وانا في سُبيلي ان أجعل منهم سادة الدنيا.

ذلك هو طبق ما دونه [انتيپاطر] حرفاً بحرفٍ. واضاف يقول انه حين خاطبهم بهذا الكلام صاحوا قائلين: سنتبعك حيثما شئت ان تقودنا. وبعد نجاحه هذا لم يكن من الصعب ان يستميل القسم الاكبر الذين انضموا الى النخبة. والآن ايضاً روض نفسه على العيش كالمواطنين المحليين وحاول تقريبهم الى مدينة المقدونيين قدر الامكان، (وهو منشغل في حملة كانت ستقذف به الى مسافة بعيدة) مفكراً بدراية وبعد نظر، انه زيادة في الحكمة هو الاعتماد على حسن النية المتأتية من الاختلاط والامتزاج منهما الوسيلتان الفعالتان للتوصل الى الهدوء والاستقرار، دون اللجوء وسيلتي الى القوة والاكراه، ولذلك اختار ثلاثين ألفاً من الصبيان واسلمهم الى مربين لتعليمهم لسان الأغريق وتدريبهم على استعمال السلاح على اصول الضبط والربط المقدونيين. واما عن زواجه بروكسانا Roxana التي سحرته بفتوتها وجمالها في حفلة شرب. حيث وقع نظره عليها لأول مرة وهي ترقص، فكانت مسألة حبّ لا غير. ومع هذا فقد بدت القضية وكأنها جزء من الخطة التي يتولى امر تحقيقها. اذ انه لما يرضي الشعب المغلوب ان يختار الغالب زوجه منهم فيشعرهم باشدّ الميل له. فالحب وهو العاطفة الوحيدة التي تمكنت منه واستقوت عليه وهو ارق الناس والطفهم جعلته يتحمل بالصبر والتأني حتى يحصل على روكسانا بطريق شرعية شريفة.

وتبين ان هيفاسيتون كان أكثر اصدقائه وخلصائه موافقة له على تصرفاته واسرعهم الى محاكاته في تغيير زيه في حين بقي [كراتيروس] اميناً على عادات بلاده وتقاليدها. فعمد الاسكندر الى استخدام اولهما عند تعامله مع الفرس، والاعتماد على الثاني عند تعامله مع الاغريق والمقدونيين. وكان على العموم يظهر لهيفاستيون أكثر الحب والإعزاز ويظهر لكراتيروس اكثر الاحترام والاكبار. لأن هيفاستيون (كما يقول) هو صديق الاسكندر، في حين ان كراتيروس هو صديق الملك ولذلك حقد احدهما على الآخر وكان الخلاف ينشب فيما بينهما فترة وفترة حتى بلغ الخلاف بها حداً في الهند ان هما بالاشتباك بالسلاح وقد اشهراه وكادا يلتحمان وانحاز الى كل واحد اصدقاؤه يشجعه ويدفعه للنزال فأسرع الاسكندر يحتث مطيته اليهما وراح يعنف [هيفاستيون] علانيةً ووصفه بالرقاعة والجنون. ونسيانه بأنه لم يكن شيئاً

مذكوراً لولا فضله، ووبخ [كراتيروس] في السرّ، ثم أجبرهما على المصالحة مقسماً بالآله آمون وبقية الآلهة انه يحبهما حباً لا يعدله حبه للبقية ولكن إنْ علم انهما عادا الى الخلاف والتنابز فسيقتلهما أو سيقتل المعتدي منهما على الاقل. وتحاشى احدهما اثارة الآخر او ازعاجه باقول أو الفعل حتى على سبيل المزاح.

ولم يكن أحدٌ يداني [فيلوطاس] ابن [پارمينيو] في مكانته السامية عند المقدونيين فالى جانب شجاعته ومقدرته على احتمال متاعب الحرب ومشاقها، كان يأتي بعد الاسكندر في السخاء وبسط اليد، والتعلق باصدقائه. سأله أحدهم مالاً فأمر وكيله بان يعطيه. فأخبره بأنه لايوجد فقال:

- اما عندم صحفة او ثياب لي؟ اذهب معها واعطه.

الاّ انه بلغ حدّ الافراط في غطرسته وكبريائه وتظاهره بالفن الى حدّ الادعاء الكاذب، غير اللائق بالانسان السويّ. كان يبدو كل مظاهر الترفع والانفة غير مفلح في اظهار رقة العظيمة وجمالها بهذا التعاظم المغلوط الزائف نال القدر الكبير من الحسد والحفائظ. وكان [پارمينيو] ينذره أحياناً بقوله:

- من الافضل يا بني ان لا يكون البشر متعاظماً الى هذا الحدّ.

رفع أمره الى الاسكندر منذ زمن والصقت به التهم وبصورة خاصة عند هزيمة داريوس في كيليكيا، والاستيلاء في دمشق على كميات هائلة من الغنائم. وكان من بين الأسرى الذين جيء بهم الى المعسكر، [انتيگون] اليدنية [Pydna] الفائقة الجمال التي وقعت من نصيب [فيلوطاس]. فجعلها مخطية له، وفي يوم ما قال لها وهو في مجلس شراب. أن كل الأعمال العظيمة انما حققها هو وابوه، وبها نال ذاك الصبي الاسكندر المجد وجنى الفائدة الى جانب لقب الملك. ولم نستطع كتم ذلك فاقضت بما سمعت الى احد معارفها، وكما جرت العادة نقله هذا الى ثالث حتى وصلت الحكاية اذن [كراتيروس] الذي أخذ المرأة الى الاسكندر سراً. وبعد ان سمع منها ما جاءت للاقضاء به أمرها بالاستمرار في الانصات الى ما يتفوه به فيلوطاس ونقله اليه.

هكذا سقط [فيلوطاس] في الفخ بغفلة منه. كان يطلق لنفسه العنان ارضاء لنوبة غضبٍ تجتاحه، وانسياقاً بحبه للزهو والخيلاء، فينطق بالعبارات الحمقاء الطائشة ضدّ الملك في محضر من [انتيگون] فما تلبث انه تبلغ الاسكندر ومع أنه بدأ مقتنعاً بهذه الدلائل القوية الاّ انه لم يأبه بها ولم يتخذ اي اجراء سواء في ذلك بسبب وثوقه من حب پارمينيو واخلاصه او

خوفاً من نفوذهما وعلو شأنهما في الجيش. ولكن من حدود هذا الزمن بدأ شخص من [خلاسترا Chalastra] يدعى [لمنوس Limnus] بالتآمر على حياة الاسكندر، وافضى بنيته هذه الى شاب كان مولعاً به اسمه [نيقوماخس] لعله ينضم اليه فرفض نيقوماخس وكشف الأمر لاخيه [بالينوس Balinus] الذي بادر فوراً بالطلب من [فيلوطاس] ان يأخذهما الى الاسكندر فلديهما شيء بالغ الأهمية يريدان ان يغضيا به اليه فلم يعرهما اذناً صاغية والحا عليه مرة أخرى دون جدوى فقصداً غيره وتمكنا عن طريقه من الوصول الى الاسكندر. فكشفا له بمؤامرة [لمنوس] وأظهرا بسياق ذلك اهمال [فيلوطاس] وكيف انه رفض ايصالهما اليه مرتين. وهناك استنشاط الاسكندر غضباً وزاد انزعاجاً لما علم ان [لمنوس] دافع عن نفسه وقتل بيد الجندي الذي ارسل لاعتقاله لأنه فقد بموته الوسيلة الوحيدة للكشف عن خيوط الدسيسة. وما ان أخذ استياؤه من [فيلوطاس] يبدو حتى هبّ اعداء هذا الشاب وراحوا يسلقونه بالسنة حداد قائلين ان الملك سهل الاستغفال اذ كيف يتصور ان شخصاً تافهاً لا وزن له [كلمنوس] يقدم بنفسه وبتدبيره الخاص على مثل هذه العملية الضخمة؟ وان اقرب الاحتمالات، هو أنه لايزيد عن اداة يحركها لولب كبير. وانه يجب ان يحقق مع كل من له مصلحة في التآمر على حياة الاسكندر تحقيقاً دقيقاً وهكذا ملأوا اسماع الملك بمثل هذا الدسّ ثم شرعوا يظهرون الف سبب وسبب للشك في [فيلوطاس] حتى نجحوا في حمل الملك على اعتقاله وتسليمه للتعذيب فجرى ذلك امام كبار الضباط، وجلس الاسكندر نفسه وراء ستارة يتسمع الى ما يجرى. واصغى الى اللهجة الذليلة والخنوع اللذين كان [فيلوطاس] يتوجه بهما الى [هيفاستيون] وقيل انه هتف من مجلسة:

- ما أجبنك وأخسّ نفسك يا فيلوطاس ومع ذلك تجد في نفسك القدرة على المشاركة في مثل هذه المؤآمرة الخطيرة.

وبعد موته أرسل الى ميديا يأمر بقتل ابيه [پارمينيو] ذلك القائد التي اتى بضروب من الشجاعة والاقدام تحت أمرة [فيليب] وكان الرجل الوحيد من اصدقائه القدامى ومستشاريه الذين شجعوا الاسكندر على غزو آسيا. كان لپارمينيو ثلاثة ابناء في الجيش. فقدمتهم اثنين قبلاً وها هو الآن يموت من ثالثهم.

هذه التصرفات جعلت الاسكندر مصدر رعب كثير من اصدقائه، ولاسيما [انتيپاطر] الذي أخذ يجمع من حوله الانصار ويقوى نفسه بارسال موفدين الى [الياتوليين Aetolions] في السرّ، توخياً لعقد حلف معهم، وكانوا ممن يهاب الاسكندر، لأنهم دمروا مدينة [أونيادي Oe-niade]. وعندما اخبر الاسكندر بذلك قال هازئاً ليسوا بحاجة الى الثأر لحرب والدهم،

فسأتولى عنهم انا شخصياً انزال العقاب بالياتوليين. ولم يمر طويل زمن على هذا، حتى كانت مأساة كليتوس المؤلمة وهي حادثة قد تبدو لمن سمع منها طرفا بسيطاً، أقسى وابعد عن الانسانية من حادثة [فيلوطاس]، اما لو تدبرناها بظروفها ودرسناها بدوافعها الآنية ووزنا العلة والمعلول، فسنجد انها كانت مجرد سوء طالع صادفه الملك الذي، أفسح غضبه الناري وافراطه في الشرب، المجال لظهور الروح الشرير في كليتوس.

جاءت الاسكندر من ساحل البحر فاكهة يونانية على سبيل الهدية فأعجب بجمالها وطراوتها فبعث يستدعي كليتوس ليراها وليقاسمه اياها. كان كليتوس وقتئذ، يضحي للآلهة، فترك قربانه فوراً واقبل متبوعاً بثلاث شياه كان قد صبَّ عليها الخمر تمهيداً لتضحيتها. وعندما انبيء الاسكندر بهذا سأل عرافيه [اريستاندر] و[كليوماتس Cleo-mantes] اللقيذيمي عما يعني هذا فأكدا له انه فال سيء. فامرهما ان يعجلا بتقديم قرابين لاجل سلامة [كليتوس] فقد رأى فضلاً عن ذلك حلماً غريباً قبل ثلاثة ايام عن كليتوس. لأه في ثياب الحداد جالساً مع ابناء [پارمينيو] المائتين. وعلى كل فان [كليتوس] لم يمكث لانهاء تضحية، وانما اقبل رأساً لتناول العشاء مع الملك الذي قام بالتضحية لكلّ من [كاستور وپوللوكس] وعندما افرطا في الشرب باشر بعض الجالسين بغناء اشعار المدعو [پرانيخوس Pranichus] أو [پيريون Pierion] على حَدّ زعم آخرين. نظمت تلك القصائد بهجاء وتحقير أولئك الضباط الذين هزمهم البرابرة مؤخراً. فجرحت مشاعر اكبر الحاضرين سناً ووبخوا الناظم ومنشدي قصائده توبيخاً شديداً في حين كان الاسكندر والشباب الآخرون المحيطون به في اقصى درجة من الاستمتاع بها وشجعوا المنشدين على الاستمرار، الى ان خرج [كليتوس] عن طوره ولم يقو على ضبط نفسه وكان قد شرب كثيراً، وهو بالاصل ذو مزاج حاد عنيد لايسلس له قياد. نهض وقال:

- ليس من اللائق فضح المقدونيين امام البرابرة واعدائهم، اذ مع شقائهم بهزيمتهم فما اكثر الرجال الذين يفضلون الهازئين بهم.

فعقب الاسكندر قائلاً: ان كليتوس انما يدافع عن نفسه بهذه الاقوال، مسمياً الجبن سوء حظ.

فعاد كليتوس يصيح قائلاً: هذا الشيء الذي أخترت تسميته بالجبن، انقذ حياة ابن الآلهة عند هروبه وحسام [سپيثريداتس Spithridates] يتعقبه، وكانت نجاته على حساب الدم المقدوني، بهذه الجراح ارتفعت الى هذا المقام الذي مكنّك من بنوتك لفيليب وتسمية نفسك بابن [أمون].

فصاح الاسكندر فهو في أشدّ حالات الغضب: أيها الحقير، اتظن بأنك ستظلّ تنطق بهذه الأمور في كل مكان عني، وتحرض المقدونيين على العصيان، وانت في منجى من العقاب؟

فأجاب [كليتوس]: لقد نلنا من العقاب ما نستحق، اذا كان هذا ما نكافأته عن جهودنا وتعبنا. ما اسعد أولئك الذين ماتوا لكي لايروا اليوم مواطنيهم يجلدون بسياط ميديّة. ويضطرون الى الرجاء من الفرس للسماح لهم بمقابلة الملك.

وراح يتكلم على هذه الشاكلة دون ضابط اورادع فأنهض أقرب الرجال من الاسكندر وراحوا يشتمونه وعمل كبار السنّ كل ما في وسعهم لتسكين الهياج. والتفت الاسكندر الى كل من [كزينودوخوس Xenodochus] [البارديPardion] و[اريتميوس Aretemius] [الكولوفوني Colophonian] وسألهما: الا يعتقدان ان الاغريق اذا قورنوا بالمقدونيين، قد تصرفوا ككثير من انصاف الآلهة تجاه هؤلاء الأخيرين؟ لكن [كليتوس] مع هذا لم تهدأ ثائرته، وسأل الاسكندر: ألديه ما يضيفه الى اقواله السابقة، والاّ لماذا يدعو الى طعامه رجالاً أحراراً بالولادة اعتاد أن ينطقوا بما يجول في رؤوسهم دون قيد ولا خوف، خير له ان يعيش ويتحدث الى البرابرة والعبيد فلا مانع لدى هؤلاء من الركوع لزناره، وجلبابه الفارسيين.

بهذا استفزّ الاسكندر الى الحدّ الذي عجز هذا عن ضبط نفسه وكظم غيظه فتناول تفاحة من فوق المائدة وقذف بها كليتوس فاصابته ثم دار ببصره يريد سيفه. إلاّ ان [اريستوفانس] احد افراد حرسه الخاص، كان قد ابعد عنه سلاحه وقام اليه آخرون وأخذوا يتوسلون به عبثاً، فقد انفلت منهم وصاح بصوت عالٍ منادياً حرسه باللغة المقدونية، وتلك اشارة أكيدة بانه يعاني اعظم الاضطراب. وأمر نافخ بوقه بالنفخ مسدداً اليه لكمة بقبضة يده، فلم يطعه فوراً وتلكأ (وقد نال هذا الرجال شكره وتقديره فيما بعد لعصيانه أمراً كاد يوقع فتنة في صفوف الجيش) وتكبد اصدقاء كليتوس كثيراً من العناء باخراجه من القاعة وهو ما زال مصراً على موقفه وعناده. فقد عاد ثانية من باب آخر وهو ينشد شعر [يوريبدس] عن لسان اندروماك بثقة نفس واستهتار في اليونان، واأسفي الى اي درك شيء ترددت الاحوال!

وعندها أختطف الاسكندر رمحاً من احد من أحد الجنود واعترض كليتوس وهو يتقدم حتى اصبح امام الستارة المرخاة على الباب ودفن الرمح في جسمه فسقط على الأرض في الحال ولم تصدر منه غير صرخة وأنة. وتلاشى غضب الملك وعاد الى حالته الطبيعية في الحال، ولما شاهد اصدقاءه حوله يخيم عليهم الوجوم والصمت العميق نزع الرمح من الجسد الهامد وهم بدفنه في عنقه ركاد ينجح لو لم يقبض الحرس على يديه، وينقلوه رغم انفه الى غرفته الخاصّة

حيث ظلّ يبكي طوال الليل والنهار الذي تلاه بكاءً مراً ولما انهكه الندب والعويل انطرح بدون كلام خلا تنهدات عميقة.

وخشي اصدقاؤه من ضررٍ يلحق صحته فاقتحموا الغرفة عليه الى انه لم يلتفت الى اقوالهم ولم يعبأ بوجودهم. حتى تمكن اريستاندر من تحويل اهتمامه الى الرؤيا التي يشاهدها عن [كليتوس] والظاهرة العجيبة التي تلتها. يريد ان كل ما حصل كان مكتوباً ومسطراً في لوح القدر ولا مرد له. وعندها بدأ حزنه يخفّ وجاؤوه [بكاللستينوس] الفيلسوف صديق [ارسطو] المقرب واناكسارخوس الابديري. واستخدم اولهما لغة الاخلاق ووسائل تسكين رقيقة مؤملاً أن يجد سبيله الى الكلام العقول. والنجاح في السيطرة على العاطفة. الاّ ان اناكسارخوس الذي كان لا يحيد مطلقاً عن طريقته في الفلسفة، مع اشتهاره باحتقار معاصريه والتقليل من شأنه صاح فور وصوله:

- اهذا هو ذاك الاسكندر الذي تنظر اليه الدنيا كلها.

مستلقٍ هنا يبكي كالعبد خوفاً من لوم الناس ولانتقادهم. وهو قانونهم وميزان العدالة لهم، ان استعمل الحق الذي منحتها له فتوحاته بوصفه السيد الأعلى والحاكم على الجميع، يجب ان لا يكون ضحية للرأي الخطل. الا تدري ان [جوبتر] يرسم بيدين: ألواحدة منهما تحمل العدل والثانية ترفع القانون تعبيراً عن قانونية وعدالة اعمال الفاتح كلها.

بهذه وامثالها من الافكار تمكن [اناكسارخوس] ان يهدىء الملك ويزيل عنه الألم. على انه أفسد خلقه من ناحية أخرى فقد زادته تهور واجتراء على القانون. ولم يتوان هذا الفيلسوف بمثل هذا الكلام عن التقرب منه والتسلل الى قلبه وجعل صحبة كاللستينوس (وهي صحبة لم تكن قط بالشيء المرغوب فيه) ثقيلة مكروهة بسبب تزمته.

واتفق ان هذين الفيلسوفين التقيا في حفلة دارت المناقشة منها الى موضوع المناخ ودرجه حرارة الجوّ، فأنضم [كاللستينوس] الى القائلين بان تلك البلاد ابرد جواً من بلاد اليونان، وشتاؤها اقسى من شتائه. ولم يقبل [اناكسارخوس] بهذا القول مطلقاً وناقشه بشيء من الحدة. فقال [كاللستينوس]:

- بالتأكيد، ليس بوسعك الاّ الاقرار بان هذه البلاد أشدّ برداً من بلاد اليونان. فهناك اعتدت ان لاتلبس غير عباءة منسلة الخيوط لتدري عنك اقسى شتاء، وهنا ترتدي ثلاث عباءات سميكة واحدة فوق الأخرى!

هذه المزحة ازعجت [اناكسارخوس] وغيره من ادعياء المعرفة. ولم يستطع جماعة المتملقين

ان يتحملوا رؤية كاللستينوس موضع الاعجاب الشديد ومؤيداً من الشبان والشيوخ على حد سواء بسبب حياته المثالية واتزانه وقناعته بحاله. وتأكيده انه ما قام بزيارة الاسكندر الاّ ليتوسط لاعادة مواطنيه المنفيين وبناء المدينة وتأهيلها من جديد. مفضلاً عن الحسد الذي تسببه له سمعته الحميدة فان تصرفاته الشخصيّة تفسح السبيل لسيء النية للاضرار به. كان يرفض في معظم الاوقات حضور الحفلات العامة واذا حضر احدها أفسد المجلس بتعاليه وحمته الذي يدل على عدم موافقته على ما يسمح ويرى. وقال الاسكندر يقصده:

هذا الادعاء الكاذب بالحكمة... اني امقته حين يعمى المرء عن رؤية مصلحته

كان في حفلة عشاء اقامها الملك. والمدعوون كثيرون. فطلب منه عند وصول الكأس اليه ان يرتجل خطبة في تقريظ المقدونيين ففعل وبلغ الذروة في بلاغته وحسن تعبيره. حتى ان الحاضرين نهضوا جميعاً لتحيته والتصفيق له والقاء اكاليل الزهر عليه. الاّ الاسكندر فقد انشد ابيات [يوربيدس]:

لست بمستغربٍ لانك اجدت القول الى هذا الحدّ فليس اسهل على المرء ان يكون بليغاً في المواضيع السهلة

وعقبها بقوله: لذلك، فان انت أظهرت قوة عارضتك بمصارحة مقدونيّي باخطائهم وتعداد نقائصهم فلعلهم يتلاقونها عندما تذكر لهم.

فاطاعه [كاللستينوس] في الحال وبادر الى نقض كل ما قاله فيم منداً بهم دون ضابط. وختم اقواله بهذا:

- أن السبب الرئيس في نجاح [فيليب] واتساع سلطانه هو تفرق الاغريق.

ودعم قوله هذا بالبيت الآتي:

في المنافسة السلميّة يشتهر حتى الانذال

وهو ما جرح مشاعر المقدونيين الى الحدّ الذي اصبح ممقوتاً منهم وقال الاسكندر انه عوضاً عن اظهار قوة عارضته فيما تكلم، أظهر سوء نيته فحسب. ويؤكد لنا [هرميپوس Hermip-pus] ان المدعو [ستروبوس Stroebus] (خادم لكاللستينوس كان يقرأ له) انهى بكلّ هذه التفاصيل الى ارسطو فيما بعد وانه عندما ادرك ان كره له الملك يزداد رددّ هذه الابيات مرتين او ثلاثاً قبل سفره:

ادرك الموت أخيراً [باتروكلس] العظيم ايضاً

وان كان ارفع منك فضائل بكثير

ولم يكن اعتباطاً منه ان يصف شخص [كاللستينوس] بقوله انه خطيب مصقع ولكنه خطل الرأي، ومن المؤكد انه وضع الفيلسوف في مكانه الصحيح عند رفضه عبادة الاسكندر. والكلام علانية ضدّ ذلك الرجل الذي لم يكن يجرأ أعظم المقدونيين وأعلاهم مكانةً على الشكوى من تصرفاته الاّ في السرّ. انه انقذ الاغريق والاسكندر نفسه من أكبر العار عندما ابطل ممارسة هذه العبادة الاّ انه دمّر نفسه لأنه لم يكن لبقاً وآثر استخدام اسلوبٍ خشنٍ فظ كأنه يريد ارغام الملك على ذلك. في حين كان ينبغي له ان يسلك سبيل العقل والمحاجّة. ويكتب [خاريس] و[ميتلين] ان الاسكندر في مجلس شراب له، قدم كأسه الى احد اصدقائه بعد ان شرب منها فما ان تسلمها هذا حتى نهض متوجهاً الى مذبح في البيت. وبعد ان شرب سجد الاسكندر اولاً ثم قبله وعادً الى مجلسه مع الباقين الذي أخذوا يقومون بالعمل نفسه تباعاً الى أن جاءت نوبة [كاللستينوس] الذي تناول الكأس وشرب في حين كان الاسكندر غافلاً عنه، منشغلاً بمحادثة هيفاستيون. ثم تقدم يريد تقبيله فتدخل [ديمتريوس] الملقب [فيدون] قائلاً:

- مولاي! لاتدعه بقبلك فهو الوحيد بيننا الذي رفض عبادتك. فرفض الملك القبلة. وكان كل ما أظهره كاللستينوس من اهتمام هو قوله بصوت مرتفع:

- فأنا اذن أعود ناقصاً عن الآخرين قبلة.

ان الاستياء الذي احدثه بهذا العمل رفع من قدر تصريح هيفاستيون الذي قال انه رجع عن تعهده في ان لايقدم للملك نفس العبارة التي يقدمها الآخرون بعد ان تعهد ان يفعل ذلك مخلصاً.

ولأجل أن يكمل دماره تقدم عدد من الرجال كليسماخوس و[هاگنون Hagnon] يؤكدون ان هذا الفيلسوف السوفسطائي يتجول في كل مكان متباهياً بوقوفه في وجه السلطة المستبدة وان الشباب جميعاً يتبعونه ويكرمونه بوصفه الوحيد بين الألاف المؤلفة الذي ملك من الشجاعة ما حافظ به على حريته. ولذلك فحينما أكتشفت مؤامرة [هرمولاوس Hermo-laus] سهل تصديق التهم التي الصقها به خصومه ولاسيما عندما سأله الشاب عن الوسيلة التي تمكنه من أن يصير اشهر رجل على وجه البسيطة؟

فأجابه ان أضمن واسرع سبيل الى ذلك هو القضاء على ذلك الذي سبق له فحاز هذه الصفة. ولأجل حثه على تنفيذ العمل اوصاه بالاّ تروعه اريكة الذهب وان يتذكر بان الاسكندر هو انسان ضعيف عرضة للموت مثل سائر الناس. على ان شركاء [هيرلاوموس] لم يذكروا ان

[كاللستينوس] كان بين المساهمين في المؤامرة لا من قريبٍ ولا من بعيد. والاسكندر نفسه في رسائله التي كتبها بعدها مباشرة لكل من [كراتيروس] و[اتالّوس] و[الكتياس Alcetas يذكر ان الشبان الذي عذبوا، اقروا بأنهم انضموا الى المؤامرة من تلقاء انفسهم، دون دفع أو تحريضٍ من أحدٍ. وليس ثم مذنب غيرهم. ومع هذا ففي رسالة كتبها [لانتيپاطر] نجده يتهم [كاللستينوس] حين يقول:

- تولى المقدونيون رجم الشبان حتى الموت. أما السوفسطائي (يقصد كاللستينوس] فانا مزمع معاقبته ايضاً مع أولئك الذين بعثوا به اليّ وأولئك الذين آووا في مدنهم كل من تآمر على حياتي.

وفي العبارة الأخيرة اشارة لا لبس فيها الى (ارسطو) الذي كان (كاللستينوس) قد ربي في بيته لقرابة بينهما. فهو ابن بنت [هيرو Hero] أخت ارسطو. واختلفت الرواة في اسباب موت الفيلسوف. فقال بعضهم أنه شنق بأمر من الاسكندر. وقال آخرون انه مات في السجن بمرض ألمّ به على ان [خاريس] يكتب بهذا الصدد انه ابقي مكبلاً بالاغلال سبعة أشهرٍ بعد القاء القبض عليه تمهيداً لمحاكمة أما مجلس قضاء كامل وبحضور [ارسطو]. فافرط في البدانه، واصيب بمرض طفيليّ مات به هناك وقت أصيب الاسكندر بجرحه الخطير في اقليم [مالي اوكسيدراكي Malli Oxydracae] بالهند. وسنأتي الى تفصيل ذلك في موضعه المناسب.

ولأجل ان نواصل السرد بالترتيب الزمني نقول، ان ديماراتوس الكورنثي الذي غدا شيخاً في اراذل العمر - كان في حدود ذلك الزمن قد بذل اقصى الجهود ليحظى برؤية الاسكندر ولما نال بقية ابتداره قائلاً: أنه ليأسف لسوء حظّ أولئك الاغريق الذين ماتوا قبل ان يروا الاسكندر جالساً على عرش [داريوس] ولم يتمتع [ديماراتوس] بالنعم التي حباه بها الى الملك فسرعان ما ركبه المرض وتوفي فشيع تشييعاً فخماً ورفع له الجيش نصباً تذكارياً من التراب ارتفاعه ثمانون كيوبتيا ومحيطه في غاية السعة. ونقل رماده في عجلة فخمة تجرها اربعة جياد حتى الساحل.

وقرّ عزم الاسكندر على الشروع في حملته الهندية. وكان يدري ان جنوده قد اتخموا بالغنائم واثقلوا بها وانها تعرقل المسير. فعمد في فجر يوم الحركة وفور تحميل العربات اثقال الجيش، الى اشعال النار في سهمه من الغنائم ثم احراق ما يعود منها لأصدقائه ثم أمر باحراق ما يعود منها الى افراد الجيش الباقين. وهو عمل يبدو عند التفكير بالاقدام عليه أكثر خطورة واصعب اجراءً مما بدأ عند تنفيذه.

فلم يشك منه غير قلةٍ. وأطلق معظم الجنود كأن وحياً نزل عليهم - هتاف الموافقة وصيحات القتال وتزودوا بما هو ضروري فقط وأحرقوا واتلفوا كل ما هو كماليّ. فكان منظراً فريداً ضاعف من حماسة الاسكندر ومن عزمه على المضيّ في الخطة التي رسمها. في الحقيقة أنه غدا في تلك الأيام صارماً قاسياً الى ابعد الحدود. عنيداً لا ينثني في انزال العقاب بمن يقدم على اي خطأ مهما صغر. فقتل [ميناندز] احد اصدقائه لأنه أخلى قلعة كان قد استأمنه عليها. وقتل برميه سهم من يده[اورسوداتس Orsodates] أحد البرابرة عندما شق عليه عصا الطاعة.

وفي ذلك الزمن اتفق أن نعجةً ولدت ولدت حملاً بهيئة ولون قلنسوة على الرأس وبخصيتين على كل جانبٍ. النبوءة التي تطيرّ منها الاسكندر الى الحدّ الذي أمر كهنة البابليين يتطهيره (كانت عادته ان يأخذ هؤلاء الكهنة معه لمثل هذه الاغراض) وقال لاصدقائه ان اهتمامه بالموضوع لايعود الى شخصيه بل بهم فهو يخشى أن تعمد القوى السماوية الى نقل امبراطوريته بعد موته الى شخص عاجزٍ فاسدٍ، لكن سرعان ما تبدد خوفه هذا بأمر عجيب حصل بعدها بوقت قصير. اعتبره بشير خير. وتفصيله أن [پروكسينس Proxinus] المقدوني الذي كان رئيس المشرفين على بيت الملك، كان يحفر في الارض قرب نهر [اموداريا Oxus] لاقامة الفسطاط الملك. فاذا به يكتشف نبعاً يخرج منه سائل ثخين زيتيّ القوام، بعد أن أزيل ما يعلوه أخذ يجري زيتاً نقياً لايختلف عن الزيت العادي مذاقاً ورائحة. ونعومة وصفاءً في بلاد لاينمو فيها شجر الزيتون على الاطلاق. ولقد قيل والشيء بالشيء يذكر أن مياه نهر [اموداريا] بدرجة من النعومة والرقة لاتعد لها مياه اي نهر آخر، ويذكر انه يترك لمعةً على بشرة من يستحم به. وايا كان السبب فمن المؤكد أن الاسكندر سُرّ بهذا الاتفاق غاية السرور، كما يتضح ذلك من رسائله الى [انتيپاطر] فقد وصف الحدث بأنه أروع من كل البشائر والفأل الحسن التي خصّه الله بها. ثم ان العرافين فسروا له الأمر بقولهم ان يشير الى المجد الذي سيناله من حملته العسكرية ومكانها في التاريخ. على انها ستحفل بالمشاق والصعاب. فالزيت على حدّ تفسيرهم هو هبة آلهية للبشر ينعش اجسادهم من متاعبها ويرطب امزجتهم.

ولم يكونوا في حكمهم هذا مخطئين فقد تعرض الاسكندر لكثير من المخاطر في المعارك التي خاضها واصيب بجراح بليغة جداً. على ان اعظم خسارة حاقت بجشيه انما كانت بسبب فساد الهواء وشح الارزاق. وكان الاسكندر كالعهد به دوماً يقدم على الخطر فيركبه ويجتازه بعزمه ومتانة خلقه مهما عانته. فهو يرى الاّ شيء مستحيل امام الشجاعة الحقة ولا شيء ثابت أو مضمون امام الجبن وخور العزيمة. ويقال انه في حصار [سيسميثريتس Sisimithres]

الذي صمد كالصخرة المنيعة في وجهه حتى ادركه اليأس من التغلب عليه يدب في جنوده سأل [اوكسيارتس Oxyertes] هل ان [سيسيمثراتيس] هو رجل شجاع فأكد له بأنه أجبن الأحيار طراً فقال الاسكندر:

- اذن قل لي ان الموضع يسهل اقتحامه مادام المدافع عنه ضعيفاً.

وشدّ الخناق على [سيسيمثريتس] وفي وقت وجيز تمّ له الاستيلاء على الموقع. وفي هجوم شنه على موقع منيع مثله بقسم من جنوده المقدونيين، نادى سَميّاً له بين افراد الجيش قائلاً لا سبيل لك الأ البلاء الحسن والاقدام ان لم يكن لشيء فللاسم الذي تتسمىّ به فقاتل الشاب ببسالة حتى قتل. وقد آلمه ذلك جداً . وفي مناسبة أخرى، لاحظ ان جنوده يتباطؤن في سيرهم، ويتقاعسون عن حصار موقع يدعى [نيسا Nysa] بسبب النهر العميق الذي يصعدهم عن المدينة فتقدم الاسكندر حتى الضفاف وقال:

- ما أشقاني من رجل لأني لم اتعلم السباحة!

وحيل بينه وبين محاولته العبور على ترسه بكل صعوبة. وبعد نهاية هذا الهجوم أقبل عليه سفراء المدن العديدة التي القى عليها الحصار يعلنون الطاعة ويرغبون في الصلح، وعجبوا حين راؤه بكامل شكة سلاحه ودروعه وليس ثم خادم أو حارس يقف بين يديه، أخيراً جيء له بوسادة فأجلس عليها [اكوبيس Acophis] أكبرهم سناً. فذهل الشيخ لهذا التصرف النبيل والحفاوة وسأله: ماذا ينبغي لمواطنيه ان يعملوا ليستحقوا صداقته؟ فأجاب الاسكندر:

- أريدهم ان يختاروك حاكماً عليهم وان يرسلوا مائة من وجهائهم واعلاهم مقاماً لابقيهم رهائن عندي.

فضحك [اكوفيس] وقال:

- سيكون حكمي لهم اسهل بكثير لو ارسلت لك مثل هذا العدد من اردئهم لا من افاضلهم!

من المعروف ان رقعة الارض التي أمتد اليها حكم الملك [تاكسيلس Taxiles] تساوى مساحة ارض مصر، وهي كثيرة المراعي حسنتها. يخرج منها أفضل الفاكهة. وقد اشتهر ملكها هذا بالحكمة فقد كان كلامه للاسكندر عند اول لقاء ما يأتي:

- اي غاية نتوخىْ من قتال بعضنا بعضاً، إن لم يكن غرضك من القدوم الينا سرقة مائنا أو طعامنا الضروري، وهما الشيئان الوحيدان اللذان يدفعان عقلاء الرجال الى القتال في سبيلها.

واما بخصوص متاع الدنيا الاخرى كما يعتبر في اعين الناس، فان كنت احرز الأكثر منه فها

أنا على استعداد لمقاسمتك ايّاه. ما تعطيني منه شاكراً.

وكان سرور الاسكندر بهذا القول عظيماً بحيث وثب عليه وعانقه قائلاً:

- اتعتقد أن كلماتك الرقيقة ومسلكك الحميد، لن تلقى صنوها، أستبقى دون مقابل؟ كلاً انك لن تهرب مني. وسأنافسك وادخل معك في معركة لاتستطيع ان تهزمني فيها مهما بلغت من اللطف والكرم.

وبعد ان قبل بعض الهدايا منه، اتحفه بهدايا اثمن وأعلى قيمةً. وزاد عليها فمنحه ألفي تالنت من النقود المصكوكة. فأثار بذلك استياء اصدقائه القدماء، ولكنه كسب بها قلوب البرابرة.

لقد تولى الدفاع عن المدن الهندية افضل المقاتلين الهنود وقالوا قتالاً شديداً واظهروا من الشجاعة الاقدام ما اتعب الاسكندر ووضعه في مواقف خطيرة، وبالأخير عند استسلامهم وفتح مدنهم أعمل السيف في رقابهم جميعاً اثناء انسحابهم فلم ينج منهم أحد. وكان هذا حنثاً بالعهد الذي قطعه لهم وسجل له لطخة سوداء في حين مآثره الحربية التي كانت تمتاز بالنبل والعدالة وبها اصبح ملكاً. ولم يكن أقل غيظاً من الفلاسفة الهنود الذين نددوا تنديداً بمن حالفه من امراء الهند، ودعوا الشعوب غير المغلوبة الى مقاومته. فأعتقل عدداً منهم وقتلهم.

ويورد الاسكندر تفاصيل حربه مع [پورس Porus] في رسائله الخاصّة. يقول ان نهر [هيداسپيس Hydaspes] كان بفصل ما بين الجيشين، وعلى احدى ضفافه كان پورس قد جرّد فيالقه وهيأها ووجهها نحو الضفة المقابلة للحيلولة دون عبور العدو. اما الاسكندر فقد أمر بمواصلة احداث الضوضاء والضجة في معسكره لتبديد مخاوف البرابرة من هجوم مباغت عليهم. ثم انتهز فرصة في يوم مظلم مليء بالعواصف فسار مستتراً مسافةً عن الموضع الذي عسكر فيه العدو وعبر النهر الى جزيرة صغيرة بجزء من رجالته ونخبة من خيالته. وهبت اشدّ واعنف عاصفةً مطرية مصحوبة ببروق وزوابع رعدية. وسقط امامه بعض رجاله مصعوقين. ثم ترك الجزيرة مباشراً العبور الى ضفة العدو. وكان النهر بعد العاصفة قد فاض وزادت سرعة جريانه بحيث احدث له ثغرة في الضفاف تدفق منها ماؤه واغرق مساحات شاسعة من الأرض ولذلك عجز عن تثبيت اقدامه بعد عبوره، لأن الأرض غدت موحلة زلقة معرضة لقوة التيار من الجهتين في هذا الموقف يؤثر عنه انه قال:

- أيها الآثينيون! انكم لن تصدقوا الحديث عن الأخطار التي اتعرض لها لاستحق رضاكم.

هذه الرواية اوردها [ارنسكريتُس] على كل حالٍ. ويتابع الاسكندر وصفه ليقول: هنا ترك الرجال قواربهم وعبروا الفتحة بسلاحهم وكان الماء يغطيهم حتى الصدور. وزحف بخياله حوالي عشرين فرلنگ تاركاً المشاة خلفه، معتداً أن العدو لو هاجمه بخيالته فسيكون متفوقاً عليهم، واذا هاجمه بمشاته فان جنوده المشاة سيدركونه في الوقت المناسب لاسناده وكان مصيباً في تقديره فقد هاجمه العدو بألفٍ من الخيالة وستين عجلة حربية مجهزة بالسلاح تعرضت له قبل ان يتعرض له القسم الأكبر، فأستولى عن جميع العجلات، وفتك باربعمائة من الخيالة في الموقع نفسه، وقد قدر [پورس] في الوقت نفسه ان الاسكندر عبر النهر بشخصه فتقدم بكامل جيشه عدا وحدةٍ تركها لمشاغلة المقدونيين الذين لم يعبروا وايهامهم في حالة اقدامهم على العبور، وخشي الاسكندر من تفوق خصمه العدوى. فلأجل ان يتحاشى صدمة فيلتهم، قسمّ قواته، وهاجم ميسرتهم بنفسه، وأمر [كوينوس Coenus] بالهجوم على ميمنتهم ففعل بنجاح كبير. وبهذه الخطة انكسر الجناحان، فأنكفأ العدو على اعقابه في القلب وتحاشدت جموعه حول فيلته. وهناك لمّ العدو شعثه وبدأوا قتال اليد باليد، ولم تتم هزيمتهم الكاملة الاّ في الساعة الثامنة نهاراً. هذا الوصف تركه لنا الفاتح نفسه في رسائله الخاصة.

ويكاد جميع المؤرخين يتفقون على القول بأن [پوروس] كان رجلاً فارع الطول يبلغ طوله اربع كيوبتات وسپانا واحداً. وانه حين يعلو ظهر فيله، يبدو جسمه متناسباً مع هيكل الفيل. حتى لكأنه ممتط جواداً. مع ان فيله الخاص كان من اضخم الفيلة. قدم هذا الحيوان اثناء المعركة العديد من الدلائل على حكمته وذكائه، ولاسيما رعايته للملك الذي كان يدافع عنه بكلّ شجاعة طالما هو قادر على مواصلة القتال فتراه يدفع الى الوراء بهيكله أولئك الذين يطبقون عليه. ولما ادرك ان سيده عجز عن القتال لكثرة الجراح التي اصابته من الرماح. حال دون سقوطه عن ظهره بركوعه بكلّ لطف ونزع الرماح من جسمه بخرطومه. ولما وقع (پوروس في الأسر، سأله الاسكندر ماذا توقع ان تكون معاملته أجاب:

- كملك.

كانت الجملة المقتضبة جامعة وقد كررها عند القى عليه السؤال نفسه ولم يكتف الاسكندر بابقائه على عرشه في مملكته لكن تحت سلطانه بل ضم الى حكمه اقاليم مختلف القنابلّ المجاورة التي تم اخضاعها. اقاليم قيل انها تأوي خمسة عشر شعباً وخمسة آلاف بلدة عامرة فضلاً عما لايحصى من القرى. وعين [فيليب] احد اصدقائه حاكماً لمملكة أخرى تبلغ مساحتها ثلاثة اضعاف الأولى.

بعيد معركة المراجع - نفق جواد الاسكندر المسمى بوكيفالس كم يذكر معظم المراجع متأثراً

من جراحة. او كما يقول [اونيسكريتوس] بسبب الارهاق وكبر السن فقد بلغ الثلاثين. وتألم الاسكندر لموته كألمه لموت رفيق قديم او صديق مقرب. وبنى مدينة سماها [بوكيفاليا] تخليداً له، على ضفة نهر هيداسپس. وقيل أيضاً بنى مدينة أخرى وسماها باسم كلب اثير على قلبه اسمه [پريتاس: Peritas] كان قد رباه بنفسه. يؤكد [سوتيون Sotion] بانه سمع هذا من [پوتامون Potamon] و[ليسبون Lesbon] لكن هذه المعركة الأخيرة مع [پوروس] فلت من غراب شجاعة المقدونيين وجلدهم، وحالت دون تقدم آخر لهم داخل الهند. فقد وجدوا من الصعوبة بمكان ان يدحروا عدواً لم يستخدم في المعركة أكثر من عشرين ألفاً من المشاة والفين من الخيالة. فحكموا أن لديهم سبباً وجيهاً في معارضة قرار الملك الذي كان يقضي بعبور نهر [الگانج] فقد قيل لهم انه عرضه اثنان وثلاثمون فرلنگ وعمقه مائة فاتوم[٤] وان لجيشاً لجباً يحمي ضفيته. وقيل لهم ان ملوك [القندريتان Gandasitan] و[الپريزيان Praesian] ينتظرونهم هناك بحشد من العجلات الحربية يبلغ ثمانية آلاف، فضلاً عن ستة آلاف فيل مقاتل. ولم يكن بالخبر الكاذب أو المبالغ فيه اذيع لتخويفهم. [فاندروكوتوس -Androcot tus] الذي ما عاد اليوم يحكم تلك الاقاليم، أهدى فوراً سلوقوس خمسمائة فيل، واخضع الهند بجيش قوامه ستمائة ألف. غضب الاسكندر، وتألم في باديء الأمر لتردد جنوده فحبس نفسه في خيمته والقى بنفسه على الأرض وصاح قائلاً:

- ان لم تعبروا الگانج فاني لست مديناً لكم، ولا بالشكر عن اي شيء عملتموه. ان الانسحاب الآن يعني الاعتراف الصريح بانكساري وخذلاني.

إلاّ ان الحجج الدامغة ووسائل الاقناع المنطقية التي حاولها معه اصدقاؤه وصيحات جنوده الذين كانوا يتجمعون امام مدخل الخيمة بهيئة المتضرعين المستوكفين - نجحت أخيراً في حمله على التفكير بالعودة على أنه لم يتمالك نفسه من ان يترك خلفه عدداً من انصاب النصر الزائفة تخليداً لحملته، وتضخيما لمجده، فخلّف صور اسلحة أكبر حجماً مما يستخدم عادةً. ومعالف للخيول بلجم وشكائم أكبر من العادية اقامها في عدة مواضع، كما بنى ايضاً مذابح للالهة ظلّ يحترمها ملوك [الپريزيان] الى يومنا هذا حين عبورهم النهر، ويقربون الاضاحي عليها بالطريقة الاغريقية.

كان [اندروكوتس] صبياً انذاك حين وقعت عينه على الاسكندر وكثير ما قيل فيما بعد انه سُمع وهو يقول:

- لم يخطيء الاسكندر في جعل نفسه سيداً على كل هذه البلاد الاّ بقدر يسير. فملكها الذي

(٤) قامة. مقياس للاعماق مقداره ست اقدام.

كان يحكم إذذاك، عرف بحياته الفاسدة ووضاعة المنبت. وكان مبغظاً محتقراً.

وهزّ الشوق الاسكندر لرؤية البحر المحيط. فأمر ببناء اطواف وقوارب مقطورة وزوارق كبيرة، يرسلها تجوب الانهار على هدفه وتمضية لوقت فراغه. على ان ملاحته لم تخل من فائدة. فقد كان ينزل الضفاف بين الفينة والفينة فيستولى على مدن محصنة وعلى الأراضي الواقعة فيما يلي ضفتيها. وتعرضت حياته الى اعظم الخطر عند حصاره عاصمة [الماليين Mallians] الذين اشتهروا بانهم اشجع شعوب الهند. فبعد ان دحر المدافعين بامطارهم بوابل من السهام، تقدم الجميع وأعتلى السور بسلم الا ان السلم انكسر بعد وصوله مباشرة وتركه وحيداً معرضاً للمقذوف من الرماح التي كان يوجهها اليه البرابرة من اسفل السور. وتحاشاها بخير ما امكنه ثم قفز الى الاسفل ليجد نفسه وسط اعدائه، وشاءت الصدف ان يهبط على رجليه. وان يوهم بريق سلاحه وقعقعتها البرابرة بانهم يرون اشعة ضوئية أو شبحاً ساطع النور يتراقص امام جسده. فأخافهم فتفرقوا من حوله وهربوا. حتى اذا التفتوا ووجدوه وحيداً الاً من حارسين له. كّروا عليه والتحموا معه، وحاول بعضهم تسديد طعنة اليه من خلال مفاصل دروعه بسيوفهم ورماحهم. ورشقه احدهم بسهم صائب من مسافة قريبة، فوجد له منفذاً واستقر في ضلع ما تحت الصدر. كانت اصابته شديدة بحيث اجبرته على التراجع واسناد ركبته الى الارض، واسرع الرامي نحوه وسيفه مشرع يريد القضاء عليه وكاد أن يفعل لولا تدخل [بيوكستس] و[لمينوس Limnaeus] وكان كلاهما جريحين مثله. لمينوس كان جرحه قتالاً اما پيوكستس فقد ثبت في موضعه بينما وُفّق الاسكندر في قتل البربري. على ان الخطرّ ظلّ يحوم حوله، فالى جانب الجراح الكثيرة التي اصيب بها. نزلت على عنقه ضربة دبوّس ثقيل فأضطر الى اسناد ظهره الى الحائط وظلّ مواجهاً للعدوّ وبهذا الموقف الحرج شق المقدونيون لهم طريقاً الى الداخل والتفوا حوله، ورافعوه الى أعلى السور وقد بدأ يفقد وعيه، ولم يعد يحسّ بما يجرى حوله. ثم حُمل الى خيمته، وانتشر خبر موته في المعسكر كله. وامكنهم بعد لأي وبعد كثير من الآلام فصل قصبة الرمح الخشبية بالمنشار، وتكبدوا نفس العناء في نزع درعه، وبعدها بدأوا بقطع النصل وكان بعرض ثلاثة اصابع وطول اربعة. وهو نافذ في العظم لصيق به وراح في غيبوبة الاحتضار اثناء العملية، لكنه رجع الى وعيه بعد اخراجه. ومع ان كل خطر زال عنه فقد بقي اياماً الدقيقة الصارمة حتى اذا سمع يوماً هتاف المقدونيين خارج خيمته وقد برح بهم الشوق الى رؤيته، أشتمل بجبتّه وخرج اليهم. وبعد ان ضحى للآلهة ركب السفينة وانطلق لاخضاع البلاد الواقعة على الضفاف وعدد لايستهان به من كبيرات المدن.

في اثناء هذه الرحلة قبض على عشرة من فلاسفة الهند وكانوا أكثر زملائهم نشاطاً في تحريض [سبّاس Sabbas] على الثورة فاذاقوا المقدونيين الأمرين جراء ذلك. هؤلاء الذين يطلق عليهم اسم السوفسطائيين التجريديين Gymno Sophist] عرفوا بسرعة البديهة واحكام الاجابة. فقام الاسكندر بالتحقيق من هذا بتوجيه اصعب الاسئلة اليهم . واندرهم بانه سيقتل من لا تتفق اجابته مع السؤال، وجعل اكبرهم سناً حكماً في ذلك. سُئل اولهم:

- ايهما أكثر عدداً في رأيك، الاحياء من البشر ام الأموات؟

فأجاب: الاحياء. لأن الموت ما عاد لهم وجود مطلقاً.

وطلب من الثاني ان يعلمه أيهما مصدر اكبر الوحوش، ألبر أم البحر؟ فأجابه:

- البرّ لأن البحر جزءٌ من البرّ.

كان سؤاله للثالث: اي من الحيوانات اشدّ ذكاءً؟

فأجاب: تلك التي لم يعرفها الانسان بعد.

وطلب من الرابع أن يخبره بالوسيلة التي استخدمها لاقناع [سپاس] بالثورة عليه.

فأجابه: قلت له عليك ان تختار بين العيش وبين الموت ميتةً شريفة.

وسأل الخامس: أيهما أقدم النهار والليل؟

فأجاب الفيلسوف: النهار أقدم، بنهارٍ واحدٍ على الأقل.

وادرك ان الاسكندر لم يقنع بإجابته فاسترسل: عليك ان لاتستغرب. فالأسئلة الغريبة تلقى اجوبة غريبة مثلها.

ثم توجه الى السادس منهم بالسؤال التالي: ماذا يفعل المرء ليكون محبوباً غاية الحب؟

فأجاب: ان يكون عظيم السلطان، دون ان يجعل نفسه مصدر خوف.

وسأل السابع: كيف يغدو المرء آلهاً؟

فأجاب: بإتيانه اعمالاً تقصر عنها طاقة البشر السويّ.

وسأل الثامن: أيهما أقوى؟ ألموت أم الحياة؟

فأجاب: الحياة أقوى من الموت لأنها تتغلب على الكثير من الرزايا والبلايا.

وسأل الأخير: كم يناسب المرء أن يعيش من السنين في رأيك؛

فأجابه: حتى يبدو له الموت أطيب من الحياة.

ومن ثم التفت الاسكندر الى العاشر الذي جعله حكماً وطلب منه أن يصدر قراراً. فقال:

- كل ما يمكنني الحكم به، هو أن كلّ اجابة كانت أسوء من الأخرى. فقال الملك:

- اذن فستكون اول من يموت لأعطائك مثل هذا الحكم. فردّ الفيلسوف قائلاً:

- قولك هذا ليس بصحيح، والأجدر أن تقول كاذباً: ان ذلك الذي كان اسوء الجميع اجابة يجب ان يكون اول الموت.

بعد هذا حملهم الهدايا الكثيرة وأطلقهم.

على انه بعث [اونيسكراتس] أحد تلاميذ (ديوجينس) الساخر الى فريق الفلاسفة الذين تمتعوا بأعظم السمعة وطلقوا الحياة العامة، طالباً قدومهم. وقيل ان [كلانوس Calanus] أمر الاسكندر بكلّ فظاظة وصلافة، أن ينضو عنه ثيابه ويصغي لأقواله وهو عارٍ والاّ فانه لن ينبس امامه ببنت شفة وان كان من نسل جوپتر نفسه. الاّ ان [داندامس Dandamis] كان لطيفاً فاسمعه الرسول طرفاً من محاورات سقراط وفيثاغوراس وديوجينس، فقال الفيلسوف الهندي، انه يراهم رجالاً ذوي مواهب عظيمة، ولا يجدّ علةً في آرائهم سوى احترامهم الفائق الحدّ لقوانين بلادهم وعرفها. ويقول آخرون ان [داندامس] سأله لماذا تكبد الاسكندر عناء مثل هذه الرحلة الطويلة الى بلاده. ومهما يكن فقد تمكن [تاكسيلس] من اقناع [كالانوس] بأن يبقى عند الاسكندر. و[كالانوس] ليس اسمه الحقيقي وانما هو [سفينس]. وقد غلب عليه اللقب الأول لكثرة ترويده لفظة [كاله] وهي شكل من أشكال التحية باللسان الهندي. كان يلقيها على كل من يصادفه. فلقبه الاغريق بـ[كالانوس] وقيل انه أوضح للاسكندر المقصود بالحكم بالتجربة التالية.

جاء بجلد متغضن غير مدبوغ وبسطه على الأرض وطيء حافته فأرتفع في موضع. وهكذا كلما وطيء جزءً، ارتفع جزءٌ. ثم وضع قدمه فوق مركز القطعة فاستقرت القطعة على الأرض دون ان يرتفع منها شيء. وقد قصد من هذا أنه يجب ان يسكن في وسط امبراطوريته وان لا يقضي وقتاً طويلاً في حدودها.

أمتدت رحلاته النهرية سبعة أشهر. وعندما بلغ البحر أبحر الى جزيرة سماها [سكليستوس Scillestus] وسماها آخرون [پسلتُيس Psiltucis] وفيها ضحّى للآلهة وادى ما تيسر له من المراسيم الدينية، بسبب طبيعة البر وساحله خير المإمونة. وبعد أن التمس من الآلهة بان لاتدع رجلاً غيره يتعدى حدود مملكته التي فتحها بجيشه. أمر اسطوله بالعودة. وعين نيارخوس اميرالاً، [واونسكريتوس] رئيس الملاحة. ومخر العباب وساحل الهند عن يمينه أما هو فعاد

عن طريق البرّ ماراً ببلاد [اوريتيس Orites] وعانى مشقة كبيرة من جيش قوامه مائة وعشرون ألفاً من الرجال ،خمسة عشر الفاً من الخيالة، لم يعد من الهند الاّ الربع وقد فقده بسبب الأمراض وسوء الطعام والحرارة المحرقة. وبالأخص الجوع. كانت مسيرتهم عبر أراضي بور سكانها فقراء يعيشون عيشة ضنك ولا يملكون الاّ النزر اليسير من الاغنام بالتي هي من اردأ الانواع. ولحمها عفن غير صحي لأنها تقتات على السمك البحري.

بعد ستين يوماً من السير في بلغ الاسكندر [گدروسيا Gedrisia] حيث وجد الوفير من كل شيء هيأه له ملوك البلاد وحكام الاقاليم المجاورة حال سماعهم بمقدمه. فاراح جيشه هنا ثم واصل السير في [كرمان] وهو يأدب ويحتفل طول الطريق زهاء سبعة ايام متواصلة. وشاركه اصدقاؤه فراحوا هم أيضاً يقيمون المآدب والحفلات ويقصفون ويشربون اناء الليل واطراف النهار، فوق منصّةٍ نصبت على صقالة ضخمة تجرها ثمانية من الخيل جراً بطيئاً، ويسير خلفها عدد كبيرٌ من العجلات غطي بعضها بالارجوان والمظلات المطرزة وبعضها زين بالاغصان الخضراء التي كانت تستبدل باستمرار قبل ان تذوى وفيها بقية اصدقائه وقواده يشربون تتوج هاماتهم أكاليل الزهر. فما عدت ترى اثراً لدرع او ترسا او خوذة او رمح. بل تجد بدل الدرع الكأس والطاس واوعية الشراب [التركلينية Thericlan] التي كانوا يغطسونها طول الطريق في الجرار الكبيرة والقصاع ثم يسرب بعضهم نخب صحة الآخر، بعض راكب وبعض راجل والجو كله ترجع اصداء المزمار والسرناي والأغاني وأوتار القيثار. والنسوة يرقصن كأنهن في صلاة لباخوس. هذه المسيرة المضطربة والفوضى الى جانب الشراب وكل ما نتصوره من المزاح واللعب والعربدة الباخوسيّة. كأن الأله نفسه قد حضر لتصدر الاحتفال وتشجيعه.

وفور وصول الاسكندر القصر الملكي في [گدروسيا] أراح نفسه وأمر بالمآدب والحفلات لجيشه. وفي يومٍ ما بعد أن شرب كمية كبيرة من الخمر - قيل أنه خرج لرؤية مسابقة في الرقص نال [باغواس Bagoas] فيها المرتبة الأولى فأجتاز المرسح وهو في ثياب الرقص وجلس الى جانب الملك مما سرّ له المقدونيون حتى بدأوا يهتفون ويصيحون طالبين منه معانقة [باغواس] ولم يتوقفوا عن التصفيق والهتاف حتى أحاط الاسكندر عنقه بذراعيه وقبله.

هنا جاءه اميراله [نيارخوس] واشاع السرور في نفسه عندما قصّ عليه رحلته البحرية. حتى انه قرر أكمال رحلته بحراً حتى فم الفرات باسطول كبير يدور به حول جزيرة العرب وافريقيا ثم يدخل به البحر المتوسط في اعمدة هرقل. ولأجل ذلك أمر ببناء مختلف انواع السفن في [تباسقوس] وجمع كميات كبيرة من الارزاق والبحارة والملاحين من كل مكان. لكن

انباء المصاعب التي عاناها في حملته الهندية والمخاطر التي تعرض لها شخصياً على يد [الماليين] والخسائر الفادحة التي فيما بها جيشه والشك العام بخصوص سلامته فسح المجال للثورة بين كثيرٍ من الشعوب المغلوبة ولأعمال الظلم الفادح والاستغلال. والاهانات التي كان حكام الاقاليم والقادة يصبونها على رؤوسهم لذلك فقد بدأ التململ بذر قرنه وروح الثورة تستفز بين كثير من الشعوب المقهورة. وبدا الميل العام الى التغيير واضحاً حتى في الوطن نفسه فقد ألبّت (اولمبياس) و(كليوباطرا) حزباً ضدّ (انتيپاطر) وقسمتا رقعة حكمه فيما بينهما. فحازت الأولى (اپيروس) و استأثرت الثانية بمقدونيا. وعندما ابلغ الاسكندر بذلك قال ان أمه أختارت أحسن الاقليمين لأن المقدونيين لا يحتملون قط حكم امرأة، وعلى أثر ذلك ارسل نيارخوس ثانية الى الاسطول وأمره بشنّ الحرب على بلاد الساحل. وكان في اثناء مسيرته البريّة، ينزل العقوبات بالقادة والحكام الذين أساؤا التصرف ولاسيّما اوكسيارتس Oxyartus احد ابناء (اپوليتس Abuletes)، فقد قتله بطعنة رمح وعندما قدم له هذا ثلاثة آلاف تالنت من النقد المصكوك بدلاً من الارزاق التي كان ينتظرها منه. القاها الى الخيول وقال:

- اي نفع ترى في هذه الارزاق.

ثم اودعه السجن.

بلغ الاسكندر بلاد فارس، فوزع النقود على النساء جرياً على عادة ملوكهنّ عند قدومهم هذه البلاد في زيارة. اذ يمنحون كل انثى بالغ قطعة واحدة من الذهب. وبسبب هذه العادة قيل ان بعض هؤلاء الملوك ما كان يزور هذه البلاد الآلماماً بسبب هذه العادة. وكان [اوخوس Ock-us] احد ملوكهم بخيلاً طماعاً فلم يزر مسقط رأسه طوال فترة حاكمه لئلا يضطر الى تطبيق هذه العادة.

ووجد الاسكندر قبر [كورش] مفتوحاً ومسروقاً فأمر بقتل الفاعل [پوليماخوس Polyma-chus] وكان مواطناً مقدونياً من [پللا Pella]، له مكانته وشهرته. وبعد أن قرأ النقش على الضريح أمر بأن تنقش الكتبة التالية في الاسفل، باللغة اليونانية:

«ايها الانسان كائناً من كنت، ومهما كان موطنك (لأني اعرف من اين جئت)، . أقول لك أنا كورش مؤسس امبراطورية الفرس، لاتحسدني على هذا القطعة الصغيرة من الأرض التي تغطي جسدي».

وقد هزت هذه العبارة مشاعر الاسكندر ومست اوتار قلبه وملأته بالقلق والكآبة والأيمان ابعد ارستقرارية في احوال البشر. وكان الفيلسوف [كالانوس] يشكو إذذاك من مرض في

المثانة شعر به لفترة قصيرة من الزمن فرجا الملك أن تقام له محرقة فأقبل حيث نصبت وهو ممطٍ حصاناً وبعد ان تلا صلاة ورش نفسه بالماء وقطع خصلةً من شعره وقذفه الى النار قبل صعوده اليها، عانق المقدونيين الموجودين عناق الوداع الأخير واستأذنهم، وطلب منهم ان يقضوا ذلك اليوم في لهو وانشراح وأن يسودهم روح الالفة والمحبة لملكهم الذي لايشك في انه سيلقاه ثانية وبعد زمن قصير.

في بابل! وبعد أن فرغ من قوله استلقى فوق المحرقة وغطّى وجهه ولم يأت بحركةٍ عندما اقترب اللهب منه وظلّ ساكناً حتى خرجت روحه، وضحياً بنفسه على عادة فلاسفة هذه البلاد القديمة. وقد أقدم هندي آخر على هذا العمل بعدها بسنوات عديدة، في اثينا حيث جلبه القيصر معه. وما زال الناس حتى يومنا هذا يشيرون لها «نصب الهندي» هناك.

بعد عودة الاسكندر من المحرقة دعا عدواً كبيراً من اصدقائه وكبار ضباطه للعشاء واقترح مباراة في شراب الخمر يقدم فيها للفائز تاجُ فشرب [پروماخوس Promachus] اثني عشر غالوناً من الخمر وربح الجائزة. وكانت تالنتاً واحداً. لكنه مات بها بعد ثلاثة ايام. ولحق به على ما يقول (خاريس] - احد واربعون بسبب افراطهم في الشرب. وحَلّ بردٌ شديد جداً بعدها بقليل.

في سوسه تزوج [الاسكندر] من [ستاتيرا Statira] بنت [داريوس] وأحتفل كذلك بزواج اصدقائه، مانحاً انبل السيدات الفارسيات، لأفضل المستحقين منهم. وجعل ذلك مناسبة لتكريم المقدونيين الآخرين الذين سبقوا اقرانهم في الزواج. ذكر ان عدد المدعويين الذين حضروا هذه الوليمة كان زهاء تسعة آلاف. أعطى لكلّ واحد منهم كأس ذهب للقرابين. وبتجاوزنا المناسبات الآخرى التي أظهر فيها اعماله العجيبة، نذكر انه دفع ديون افراد جيشه التي بلغت تسعة آلاف تالنت وثمانمائة وسبعين. من جيبه الخاص. الأ ان [انتيگينس] الذي فقد أحدى عينيه لم يكن مديناً لأحد لكنه سجل نفسه في قائمتهم وأتى بشخصٍ زعم ان دائنه وانه امده بالمال من المصرف، فتسلم المال. ومالبثت حيلته ان انكشفت فتميز الاسكندر غيظاً وطرده من البلاد وجرده من رتبة القيادة مع انه كان جندياً ممتازاً وشجاعته لا تنكر. ففي زمن شبابه كان تحت امرة [فيليب] في حصار [پيرنتوس Perinthus] فاصابه سهم منجنيق في عينه، فأبى أن ينزع ولم يترك ميدان القتال حتى صدّ هجوم العدو وارغمه على التراجع والدخول الى المدينة. لذلك لم يكن في وسعه تحمل الذل والعار باي قدرٍ من الصبر، وكان متوقعاً ان الحزن واليأس سيدفعانه الى قتل نفسه. فخشي الملك هذه العاقبة ولك يكتف بالعفو عنه وانما تركه يستمتع بالمال الذي عاد اليه من حيلته.

وشاع السرور العظيم في نفسه للتقدم الذي اخمده الصبيان الثلاثون الفاً الذين تركهم وراءه بين ايدي المدربين والمعلمين فقد اشتدت سواعدهم وحسنت وجوههم، وصاروا يؤدون تمارينهم ببراعة وضفة مدهشتين. فاغتم المقدونيين للاهتمام الذين ابداه الملك بهم وخافوا ان يصبحوا لديه ثانويين. وعندما شرع في اعادة الزمن والعجزة والمشوهين من الجنود الى الوطن بحراً.

احتجوا قائلين: ان هذه المعاملة خلت من العدالة، والتقدير فبعد أن نالت منهم الخدمة العسكرية ما نالت في تلك الظروف الصعبة ها انهم يعاملون بزراية واحتقار فينتقلون الى الوطن ليعيشوا بين اقربائهم واصدقائهم عيشة اسوء مما كانوا يعيشونها قبل مغادرتهم اياه. لذلك فخير له ان يستغني عنهم جميعاً وان يعتبر مواطنيه المقدونيين سقط متاع لا يرجى منهم نفع بعد أن اصبح لديه عدد كاف من الراقصين الصبيان، بامكانه ان شاء أن يقودهم لفتح الدنيا.

فوتخهم أشدّ توبيخ ثم طردهم من حضرته وأسلم واجب الحراسة للفرس واختار منهم الحجاب والحرس. وتلاشت معنويات المقدونيين عندما وجدوا انفسهم متبوذين مجللين بالعار، وملكهم يصاحب هؤلاء الرجال. وبلغت الغيرة والحقد بهم حَدّ الخبال. ثم ادركهم الندم وقصدوا خيمة الاسكندر عزلاً وليس عليهم غير ثيابهم الداخلية يبكون ويصرخون طالبين منه ان يعاملهم المعاملة التي تستحقها وضاعتهم وجحودهم، فلم يفدهم ذلك. على ان غضبه انفثأ بعض الشيء. لكنه ابى استقبالهم فلم يتفرقوا وظلوا حيث هم يومين وليلتين كوامل يتباكون ويتنادبون ويتوسلون به ان تداخله الرحمة منهم وفي اليوم الثالث خرج اليهم وتبين حالة الذلّ فيهم فبكى ملياً ثم شرع يلومهم برقة، وبعدها أخذ يحادثهم بلطف. ثم انه سرّح من لم يعد صالحاً للخدمة مزوراً بعطايا كثيرة. وموصياً انتياطر ان يكرم مثواهم عند عودتهم الى الوطن فيخصص لهم أحسن المقاعد وأقربها عند حضورهم الاحتفالات العامة والمسارح وان يتوجوا بأكاليل الزهر وغير ذلك من ضروب التكريم. وأمر ان يصرف للصبيان الذين فقد آباءهم في الحرب رواتب آبائهم بانتظام.

بعد وصوله [اكبتانا] وانجازه الاعمال العاجلة انصرف الى تسلية نفسه باقامة الحفلات العامة وضروب النشاط الفني وحشد لذلك ثلاثة آلاف فنان وممثل استقدمهم من اليونان ولكن منهاجه هذا قطع فجأة بمرض [هيفاستيون] بالحمى كان [هيفاستيون] جندياً وشاباً فلم يسعه تقييد نفسه باصول العلاج والحمية. وانتهز فرصة ذهاب طبيبه [گلاوكوس Glaucus] الى المرسح فأكل دجاجة وشرب مقداراً كبيراً من الخمر فتفاقم المرض وساءت حالته وتوفي بعد قليل. وبلغ الحزن بالاسكندر مبلغاً عظيماً حتى خرج به عن طوره. واظهاراً لمدى حزنه أمر

بقطع اعراف وذيول كل خيله وبغاله وبهدم اسوار كل المدن المجاورة وصلب الطبيب المسكين ومنع النفخ بالناي والضرب على أية آلة طرب في المعسكر لفترة طويلة الى ان جاءته نبرءة عراف آمون التي فرضت عليه اكرام [هيفاستيون] والتضحية له كما يضحى للابطال، وترائ له ايضاً ان الحرب قد تصرف عنه احزانه فأنطلق الى قنص الرجال ومطاردتهم واوقع [بالكوسينين Cossaeans] وافناهم بحدّ السيف وسميت وقعته معهم «بالتضحية لخيال هيفاسيتون واعتزم ان ينفق على بناء ضريحه ونصبه التذكاري عشرة آلاف تالنت. وقرر ان تكون روعة التصميم وجمال الصنع مما يزيد عن نفقات وأختار من بين النحاتين [ستاسكراتيس Stasicrates] لأنه كان يخرج دائماً بشيء جديد غير مسبوق في تصاميمه. التقيا مرة فقال النحات له: ان جبل آتوس في تراقيا هو أصلح كل الجبال التي عرفها لنحته وتهذيبه ليكون على شكل انسان فان اعجبه المشروع فبامكانه ان يجعل من هذا الجبل اجمل وابقى تمثال بشر في العالم، يمسك بيده اليمنى مدينة نفوسها عشرة آلاف ويخرج من يسراه نهر غزير المياه ليصب في البحر. وقد رفض الاسكندر مشروعه، الاّ انه صار يصرف جل اوقاته مع النحاتين والصناع لاستنباط تصاميم وابنية أكثر فخامة وروعة.

وكان في طريقه الى بابل عندما وصل [نيارخوس] مصب نهر الفرات، فانبأه بأن بعض العرافين الكلدانيين الذين التقى بهم حذروه من ذهاب الاسكندر الى بابل. إلاّ انه لم يأبه واستمر حتى اذا بلغ اسوار المدينة شاهداً اعداداً كبيرة من الغربان يقاتل أحدها الآخر في الجوّ، وسقط بعضها بالقرب منه. واسرّ اليه احدهم ان [ابوللودوروس Appollodorus] حاكم بابل قدم قرباناً ليعرف ما سيكون مصير الاسكندر. فارسل يستقدم الكاهن [فيتاغوراس] فأكد له صحة الخبر فسأله: باية حال وجد الأضحية؟ فقال كانت شحمة الكبد معيبة فقال الاسكندر:

- بشير خير عظيم دون شك!

ولم يتعرض للعراف بسوء، الاّ ان الاسف ادركه لأنه أهمل تحذير [يفارخوس] وانفق جل وقته خارج المدينة، ينقل سرادقه من موضع الى آخر، ويمخر عباب الفرات جيئة وذهاباً. وصارت تقلقه ظاهر طبيعية أخرى منها ان حماراً مروضاً هجم على أكبر واجمل أسوده فقتله برفسه من رجله. ونزع ثيابه ذات يوم ليدهن جسمه وكان يلعب بالكرة ولما راحوا لجلب ثيابه لمح الشبان اللاعبون رجلاً مرتدياً ثياب الملك وتاجه على رأس يجلس ساكناً على عرشه. فتقدموا منه وسألوه عمن يكون فظلّ برهة لايجيب ثم افاق من استغراقه وقال انه اسمه [ديونيسيوس] وانه من [مسينيا] وقد جيء به من الساحل لجريمة اتهم بها وله في السجن مدة طويلة، حتى ظهر له [سيرابيس] وحرره من اغلاله وقاده الى هذا المكان وامره أن يشتمل

براد ء الملك ويعتمر بتاجه ويجلس حيث وجدوه ولا يتفوه بكلمة. عندما سمع الاسكندر بهذا، أمر به فقتل بعد استشارة العرافين.

وعلته الكآبة وفقد ثقته بحماية الآلهة ومعنويتها وزاد شكه في اصدقائه وكان أعظم مخاوفه متأتيةً من [انتيپاطر] واولاده وأحدهم [ايولاوس Iolaus] هو رئيس سقاته والآخر [كساندر] كان قد ربي تربيةً اغريقية صرفة. رأى لأول مرة البرابرة يقدمون فروض العبادة للملك فلم يتمالك نفسه من الضحك عليهم بصوت مسموع فأغضب الاسكندر الذي امسك به من شعره بكلتا يديه وأخذ يضرب الحائط برأسه. وفي مناسبة أخرى قال [كساندر] شيئاً في معرض الدفاع عن [انتيپاطر] في وجه متهميه فقاطعه الاسكندر قائلاً:

- ما هذا الذي تقوله؟ أو تظن الناس يتكبدون عناء مثل هذه الرحلة الافتراء على ابيك. ان لم يصبوا باذىً؟

فأجابه [كساندر]: ان سفرهم الطويل الذي ابعدهم عن دليل الاثبات، لهو شهادة بزيف التهم.

فابتسم الاسكندر وقال: ذلكم هو شيء من سوفسطائية ارسطو فهو قول يصلح لطرفي في القضية.

ثم اضاف يقول: سأنزل بك وبوالدك اشد العقاب اذا ثبت ارتكابكما أقل الظلم بحق الشاكين.

أحدث هذا التهديد أثراً من الرعب في كساندر لم يقو الزمن على ازالته. فبعد مرور سنين عديدة وصيرورته ملكاً على مقدونيا وسيّد اليونان كان يتمشى يوماً في دلفي ويتأمل التماثيل فيه وما ان وقعت عيناه على تمثال الاسكندر حتى استبد به القلق الشديد وراح جسمه يرتجف من اعلى الى اسفل وزاغت عيناه ودارت به الأرض. ولم يعد الى وضعه الطبيعي الاّ بعد زمنٍ.

ما أن ركبت الاسكندر المخاوف من سلطان ما وراء الطبيعة حتى غمّ على عقله وأصبح ينزعج لاتفه الحوادث اذ كان يرى فيه نذيراً أو بشيراً. وأكتظ بلاطه بالعرافين والكهان الذين لم يعد لديهم عمل غير التضحية والتطهير وكشف المستقبل. ما اقبح الشّك والاستخفاف بالقوى الالهية. وما اقبح الايمان بالخرافات فهو كالماء المنخفض المستوى، يندفع ولايقف في جريانه ليملأ العفو بالمخاوف التافهة والحماقات. تلك كانت حالة الاسكندر. لكن اجوبة معينة وردته من العرّاف بخصوص [هيفاستيون]. نبذ احزانه جانباً وعاد الى معاقرة الخمر وتقديم الاضاحي. بعد أن انتهى من مأدبته الفخمة التي ادبها [لينارخوس] واستحم كعادته قبل ان يأوي الى فراشه خرج ليتعشى مع [ميديوس Mesius] بناء على الحاحه في الرجاء واستمر

يشرب الراح لديه حتى اليوم التالي واصيب بالحمى التي لازمته حتى وفاته. ولم يسكن سببها شربه من وعاء هرقل كما كتب بعضهم، ولم يشعر بأي ألم فجائي في ظهرة كما لو كان قد أصيب بطعنة رمح فكل هذا في مستنبطات بعض المؤلفين الذين توهموا أن الواجب يقضي عليهم حشر عظيم الاحداث في العضل الأخير من عمر الاسكندر، محركاً للعواطف مأساوياً. ويحدثنا [ارسطوبولس] ان سعار الحمى زاد في عطشه فشرب غالوناً من الخمر وراح على اثرها يهذي وتوفي في الثالث عشر من شهر [دايسيوس Daesius].

الاّ ان المدونات التي وصلتنا تفصل الأمر بالشكل التالي:

في الثامن عشر من الشهر، نام في حمامه بسبب الحمّى. وفي اليوم التالي استحّم ونقل الى غرفته الخاصّة وقضى وقته يلاعب [ميديوس] الشطرنج. وعند المساء استحّم ثانية وصحا واكل ما رغب في آكله ولازمته الحمّى طوال الليل. وفي العشرين أكمل التضحيات المعتادة واستحّم واستلقى في الحمام مستمعاً الى تقرير [نيارخوس] عن رحلته وعن ارصاده في البحر الأعظم، وقضى اليوم الحادي والعشرين كذلك، وكانت حرارته في صعود. وتألم كثيراً اثناء الليل. وفي اليوم التالي بلغت الحمّى اوجها فرفع ونقل الى سريره والقريب من الحمام الكبير، واجتمع بكبار ضباطه وتداول معهم حول انتقاء رجال ملائمين لملء الشواغر في الجيش. وساءت حاله جداً في اليوم التالي (الرابع والعشرين) ونقل من سريره للمشاركة في التضحية، واصدر أمراً بان يبقى جنرالاته في حالة انذار في البلاط. وان يقوم صغار الضباط بالخفارة خارج القصر، وفي اليوم الخامس والعشرين نقل الى قصره على الضفة الأخرى من النهر، ولم ينم الاّ يسيراً. على ان حرارته بقيت كما هي. وعندما دخل قواده الى غرفته وجدوه هامداً لايقوى على الكلام. وظلّ كذلك طول اليوم التالي. وظن المقدونيون انه قضى نحبه فأندفعوا بصياح عظيم الى مداخل القصر، وهددوا اصدقاءه حتى اضطر هؤلاء الى اخلاء الطريق لهم وادخلوها جميعاً وهم عزل حتى فراشه. وفي اليوم نفسه ارسل [پيتون Python] وسلوقوس الى هيكل [سيراپيس] للاستفسار عما اذا كان يجب ان ينقل الاسكندر اليه. فأجابهم بالنفي. وفي مساء الثامن والعشرين لفظ آخر أنفاسه. معظم هذه الرواية منقولة حرفاً بحرف من اليوميات.

في حينه لم يقم اي شك حول تسميمه ولكن قبل بعد ستّ سنين واستناداً الى بعض الاشاعات ان [اولمپياس] قتلت كثيرين وذرت رماد بقايا [ايولاووس] الذي كان قدمات، كأنها تنفذ فيه حكم الموت. لكن اولئك الذين يؤكدون بأن ارسطو نصح [انتيپاطر] بأن يقدم على دسّ السمّ، وان السمّ جيء به عن طريقه، يوردون اسم [هاگنوتيميوس -Hagnothemi

us] مرجعاً لهم، ويقولون انه سمع [انتيگونس] الملك يرويها ويضيف السمّ بأنه كان سائلاً بارداً كالثلج استقطر من صخرة في ناحية [نوناكريس Nonacris] وجمع كما تجمع قطرات الندى الرقيق القوام وحفظ في حافر جحشٍ لكونه شديد البرودة يخترق كل اناءٍ يحتويه غير هذا. ومهما يكن فالغالبية ترى انها حكاية موضوعة. ان الجسد بقي طرياً نقيّ البشرة طوال فترة النزاع الذي نشب بين ضباطه واستمر عدة أيام. ولم يظهر عليه اي اثرٍ للتفسح والفساد مثلاً مع انه ظل مسجى في موضع صغير شديد الحرارة والرطوبة. هذا يقوم دليلاً لايستهان به على كذب الرواية.

كانت [روكسانا] حاملاً. ولهذا السبب حباها المقدونيون بالتكريم وكانت تغار من [ستاتيرا] فبعثت تستقدمها برسالة مزيفة من الاسكندر كأنه ما يزال حيّاً وعندما وقعت في قبضتها قتلتها هي وأختها والقت بجثتيهما في بئر واهالوا التراب عليهما. وكان [پرديكاس] يعينها في ذلك. وقد مارس سلطاناً عظيماً بعد موت الاسكندر ملقباً نفسه بـ[اريدايوس Arrhidaeus]. ولم يكن في حياته غير حارس شخصي اما [اريدايوس] ابن فيليب من امرأة خاملة النشأة اسمها [فيلينّا Philinna] فقد كان ضعيف العقل، لا بسبب عاهة في عقله أو بدنه (بالعكس فقد تميز في طفولته بالخلقة السليمة، والعقل السويّ) بل بسبب حالة مرضية على اثر تناوله ادوية كانت [اولمپياس] تسقيها له فاتلفت صحته وعقله.

١٩٧١/١٢/٢٢



كلوديوس

(حوالي ٤١ ق.م)

يوليوس قيصر

CAESAR

(Gaius Julius)

101 ـ 44



قيصر

قيصر

بعد ان استتب الأمر لـ(سيللاً) رغب في حمل قيصر على طلاق زوجه [كورنيليا] بنت [چنّا Cinna] آخر حاكم مطلق على جميع الامبراطورية الرومانية. لكنه عجز عن تحقيق ذلك سواء باستخدام الوعد أو الوعيد نقنع من ذلك بمصادرة مهرها.

وأصل العداء بين (سيللا) و(قيصر) هو قرابة أخيرهما لـ(ماريوس). فـ(ماريوس) الأب كان بعلاً لـ(يوليا) عمة (قيصر) وقد انجبت له (ماريوس الأصغر) الذي هو والحالة هذه ابن عمته. في مبدء الأمر أغفل (سيللا) قيصراً وتجاوزه من العديد الذين فتك بهم بسبب المشاغل والاهتمامات الأخرى التي الهته عنه لكن (قيصر) بقي يلفت الانظار بنشاطه. اذ قدم نفسه للشعب مرشحاً لرتبة الكهانة، مع صغر سنه. فلم يقدم (سيللا) على معارضته بصورة مكشوفة وأنما عمد الى اتخاذ تدابير لإسقاطه. ثم شاور اعوانه في القضاء عليه. فالحّوا عليه بالعدول عن ذلك قائلين، ان قتل صبيٍّ ليس شيئاً مهماً» فقال ماريوس:

- ان الذين لايرون في الفتى (قيصر) أكثر من (ماريوس واحد، هم جهلة لايعرفون شيئاً).

ولما بلغ ذلك (قيصر) سارع الى الاختفاء متحاشياً الظهور برحيله الى اراضي (السبين) حيث مكث فيها مدة طويلة.

كان اثناءها يغيّر مخبأة كثيراً، حتى وقع في احدى الليالي - اثناء انتقاله من بيت الى آخر بسبب سوء صحته - في ايدي جنود [سيللا] الذين كانوا يقومون بالتفتيش في تلك الانحاء للقبض على من أفلت من المذبحة، وأفلح [قيصر] مع الضابط [كورنيليوس] فأخلى سبيله برشوة قدرها تالنتات، وركب البحر متجهاً نحو [بيثينيا] وبعد مكوثه هناك ضيفاً على الملك [نيقوميدس]، عاد ادراجه إلاّ ان القرصان اعترضه في البحر قرب جزيرة [فارماكوزا Pharmacosa] وكان هؤلاء في تلك الفترة قد دوخوا البحار في كل مكان بأساطيل كثيرة من السفن الكبيرة وما لايحصى من السفن الصغيرة.

ضحك [قيصر] من القرصان عندما حدوداً فديته بعشرين تالنتاً وهزء بهم قائلاً انهم لم يقدروا قيمة اسيرهم تقديراً صائباً وتعهد لهم من تلقاء نفسه ان يرفع الفدية الى الخمسين وارسل في الحال بعضهم الى عدة اماكن لجمع مال الفدية. وترك بين يدي جماعة من القرصان الكيليكيّن، احطّ خلق الله، وأكثرهم تعطشاً للدم، وليس معه غير ضَلٍ واحدٍ وخادمين. وكان يحتقر آسريه ولا يأبه بهم حتى انه كان وقت نومه يرسل اليهم أمرأبالاً يحدثوا صوتاً. وظل يسرح ويمرح بينهم زهاء ثمانية وثلاثين يوماً، ويروح عن نفسه بمشاركتهم في العابهم وتمارينهم كأنهم ليسوا اسريه بل حراساً له. وكان ينظم القصائد ويكتب الخطب ويسمعهم اياها. ويصيح في وجه من لايبدي اعجابه بها بأنه جاهل بربريّ، وكثيراً ما كان يهددهم بالشنق على سبيل المزاح، ـــــ كثيراً ويعزون انطلاقاته هذه في الحديث الى نوع من السذاجة والجرأة الصبيانية. ووردت فديته من [ميليتس Miletus] فدفعها وأطلق سراحه فشرع فوراً في اعداد بعض السفن في ميناء [ميلتيس] وأنطلق يطارد القرصان وباغتهم مع سفنهم وهم بعدُ في الجزيرة واسر معظمهم وأستولى على اموالهم واودع الأسرى سجن [برغاموس] وراجع [جونيوس Junius] الذي كان وقتذاك حاكم آسيا، لتحديد عقوبتهم بمقتضى صلاحيته باعتباره [بريتورا] ولطمع [جونيوس] بالمال (وكان كبيراً) أخذ يماطل في تقرير مصير السجناء، فما كان من قيصر الأ وعاد الى [برغاموس] وأمر باخراج القرصان من السجن وصلهم - عقربة طالما كان يهددهم بها لما كان أسيراً عندهم فلا يحلمون بأنه كان جاداً.

في الوقت نفسه بدأ سلطان [سللاً] ينتابه الضعف فنصحه اصدقاؤه بالعودة الى روما. الأ انه سافر الى [رودوس] وانتمى الى مدرسة [ابوللونيوس] ابن [مولون Molon] معلم البلاغة والبيان الشهير. وكان رجلاً معروفاً بالعلم والفضل ومن تلاميذه [شيشرون].

قيل ان [قيصر] خلق ليكون رجل دولة وخطيباً في الوقت نفسه، فقد زودته الطبيعة بكلّ مقوماتهم وحكمت عليه ان يتكبد العناء ويركب الصعاب في صقل مواهبه فيحوز المرتبة الثانية بلا شكّ في الخطابة. ولكن هدفه لم يكن هذا بل اختار الكفاح لأجل ان يكون الأول بين رجال الحرب والسياسة. فلم يرتفع الى مقام البلاغة التي كانت سترفعه الطبيعة اليها.

واستأثرت باهتمامه تلك الحملات والخطط التي ربح بها الامبراطورية فيما بعد. فتجده في جوابه على رسالة التقريظ التي كتبها [شيشرون] بحق [كاتو]، يطلب من قارئه ان لا يقارن كتابة الجندي البسيطة ببلاغة الخطيب الذي زاد على موهبته الجميلة، انه اوقف حياته كلها على دراستها وصقلها.

عند عودة [قيصر] الى روما، إتهّم [دولابللاً Dolabella] بسوء الادارة. واقبلت وفود من

مدن اغريقية عديدة لتعزيز اتهامه لكن [دولابللا] بُريء. وقابل [قيصر] هذه المساندة التي نالها من الاغريق بمساندتهم في اتهامهم [پوبليوس انطونيوس] بفساد الادارة امام [ماركوس لوكولووس] پريتور مقدونياً. ونجح في هذه القضية نجاحاً الجأ المتهم الى استيناف حكمه امام تريبونات روما زاعماً انه لايمكن ان ينال محاكمة عادلة في اليونان وفي مرافعته بروما نال قيصر ببلاغته وقوة عارضة تقديراً كبيراً ومكانة سامية. ولم يكن نصره هذا باقل اثراً من انعطاف قلوب الجماهير نحوه، بسبب دماثته ولطف حديثه الذي كان يستبطن اللباقة وحسن التقديرات لمشاعر الآخرين مما لايتوقع صدوره من شخص في مثل عمره. وكان بيته مفتوحة في وجوه قصاده، لا ينقطع فيه المآدب والحفلات. ويتجلى فيه طراز الحياة العالي التي يحياها. كل ذلك ساهم بالتدريج في خلق نفوذه السياسي وازدياده. واستخف خصومه بتنامي سلطانه في مبدأ الأمر مقدرين أنه ما يلبث أن سلبث أن يتلاشى عندما يخلو وفاضه من المال، في حين كان آنذاك يزداد قدراً ومكانة عند العامة، حتى ثبت نفوذه ولم يعد في الامكان ازاحته. فمال بصورة مكشوفة الى تغيير نظام الحكم كله وجاء ادراكهم متأخراً بأن ليس ثم بداية تعدّ تافهة عندما يقبل بها الهِمّة والدأب المتواصل الى اعلى درجة. وان الاستهانة بالخطر في البداية ستعجله في النهاية ما حقاً تتعذر مقاومته. وكان [شيشرون] اول من داخله الشك في غايته وهدفه وهو الاستيلاء على السلطة وتبين مزاج قيصر التآمري من خلال تفكره برقة الحاشية ولين العريكة مثله مثل الملاّح الذي يتوقع هبوب العاصفة عندما يكون البحر في اهدأ واصفى حالاته. ولقد قال في هذا:

- لقد تحسست بطموحه الى السلطان المطلق في كل ما أقدم عليه من أعمال. لكنني عندما أرى شعره مصفقاً بعناية كبيرة، وعندما اتابعه وهو يسويّ خصلاته باصبع واحدةٍ، لايسعني الخيل بأن في رأس هذا الرجل افكاراً ستؤدي الى تقويض نظام الحكم الروماني.

وسنعود الى ذلك بمزيد من التفصيل فيما بعد.

وكان فوزه بمنصب التريبون العسكري في عملية الاقتراح، اول دليل على تعلق الناس به. وقد جاء اسمه بين الفائزين قبل اسم [كايوس پوبليوس] نفسه. وثم دليل آخر على تعلق الجمهور به اقوى من هذا انه ألقى خطبة ممتازةً في تأبين عمته [جوليا] امرأة ماريوس من الفوروم] وبلغ من الجرأة في تشييع جنازتها أن جلب صور ماريوس وابرزها للملأ. أمر لم يقدم أحدٌ عليه منذ أن تفرد [سللاّ] بالسلطة واعلانه ان اعضاء حزب ماريوس هم اعداء الدولة. فبدأ بعض الحاضرين يستنكر ذلك ويؤلب الخواطر ضده فرد الجمهور عليهم بصيحات تشجيع

مدوية وتصفيق ينم عجبه وسروره لاخراجه امجاد [ماريوس] من القبر بعد ان طردت هذه الفترة الطويلة.

جرت العارة في روما أن تلقى خطب تأبين في اجنازات النساء الشهرات المتقدمات في السن. ولم تكن ثم سابقة في تأبين امرأة صغيرة السن حتى بدأها [قيصر] بتأبين امرأته الراحلة وهذا ما زاد في شعبيته ايضاً. فلقد اجتذب مشاعر العامة اليه بأظهاره محبته لها بهذه الطريقة، وراح الناس ينظرونه رجلاً عامر القلب بالحنان والرقة. وبعد ان وارى زوجه التراب رحل الى اسپانيا بمنصب [كويستور] تحت أمرة بزيتور اسمه [ڤيتوس Vetus] ظل يذكره بالخير ويعزه الى الأخير.

وعندما تقلّد هو منصب البريتور، بادر الى ترفيع ابن رئيسه السابق الى نفس الوطنية التي كان يتقلدها عند ابيه. وبعد ختام مدته في اسپانيا عقد قرانه على [پومپيا] زوجه الثالثة وكان له من [كورنيليا] زوجه الأولى، بنت اعطاها لـ[پومپي الاكبر]. وقد اثر عنه التبذير الشديد وسعة الانفاق، حتى بلغت ديونه الفاً وثلاثمائة تالنت. وكان من رأي الكثيرين أن الانفاق الكثير سعياً وراء كسب حبّ الناس، ما هو الاّ استبدال الثابت الجيد، بما قد لايكون أكثر من بديل غير مؤكد. والواقع انه كان يبتاع بالثمن الزهيد، ما لايمكن تحديد قيمته. وعين مشرفاً عاماً على طريق [آپيا Appia] فلم يقف في صرفه عليه عند المبالغ المخصصة له من الخزينة العامة بل انفق عليه من جيبه الخاص مبلغاً كبيراً. وفي اثناء توليه منصب [الايديل] جلب عدداً كبيراً من المصارعين واتحف الجمهور بثلاثمائة وعشرين مبارزة. وامّا اغراقه ولحاجته في اقامة الحفلات والمهرجانات العامة وتمثيل المسرحيات فقد طمس به كلّ ما عمله اسلافه في هذا المجال. وكان تعلّق الناس به لايمكن وصفه الاّ بشدة رغبتهم وتسابقهم في اقتراح المناصب والانعامات الجديدة له.

كان في روما آنذاك حزبان سياسيان: حزب [لسللاّ] وهو الحزب القوي المسيطر، وحزب [لماريوس] الراحل وهو في أشدّ حالات الضعف والإنهيار. فاعتزم قيصر احياء هذا الحزب، واتخاذه حزباً له. وانتهز فرصة اعجاب الناس به، وسمعته الصاعدة بالحفلات التي يقيمها بصفته [ايديلا] فأمر - تحقيقاً لمطلبه هذا - أن تنقل خفيةً صور [ماريوس] وتماثيل النصر وهي حاملة تذكارات الحرب، فتم نقلها ليلاً ونصبت في الكاپيتول. وشاهد بعضهم في صبيحة اليوم التالي هذه التماثيل ـــ وهي تتوهج وتختال بجمالها وبالكتابات التي خلدت انتصارات [ماريوس] على الكمبري. فأدركهم العجب لجرأة من نصبها. ولم يكن من الصعب التكهن بهويته. وانتشر النار في الهشيم وقامت الضجة الكبرى وجرت الاجتماعات العامة،

واحتج بعضهم قائلاً انها محاولة مكشوفة لقلب نظام الحكم، باحياء امجاد طوتها قوانين مجلس الشيوخ ومراسيمه. وان قيصر، ما أقدم عليها إلاّ يجسّ نبض الشعب وليتأكد من مدى استعداده، بعد اعداده لهذه النهاية وترويضه ترويضاً كافياً لاطاعة نزواته، وأن يتقبل بهدوءٍ ما يطلع به عليهم قيصر من مخططاتٍ. ودبت الشجاعة من الجهة الثانية بمشايعي ماريوس واعضاء حزبه. وكان عجيباً حقاً أن يجد لماريوس مثل هذا العدد الهائل من الاتباع، بعد أن اخرجهم هذا العمل من مكامنهم فقد تدفقوا حشوداً الى الكاپيتول هاتفين، وصار بعضهم يصرخ كالمجانين عند رؤيته صور [ماريوس]. وارتفع قدر قيصر كثيراً لأنه كان القريب الوحيد الجدير بانتمائه لماريوس من بين اقربائه الآخرين. وعلى أثر هذه الفعلة، اجتمع مجلس الشيوخ ونهض [كاتالوس لوتاتيوس Catalus Lutatius] وهو من أكبر الرومان قدراً وهاجم قيصر، وختم خطبته قائلاً:

- ان قيصر لايحفر الغاماً لنسف الجمهورية، وانما ينصب آلات هدمٍ لتقويض صرحها، ولما اعتذر قيصر وارض مجلس الشيوخ راح اشدّ المعجبين به يشجعونه ويقوون من عزيمته ونصحوه بالاّ ينكص على أعقابه ولا يتراجع عما انتواه بتأثير من الغير. مادام واثقاً انه سيتظهر على الجميع بعد زمن يسير بفضل منزلته الشعبية. فيكون الرجل الأول في الجمهورية.

في ذلك الزمان توفي [ميتللوس] الكاهن الأكبر وتنافس على المنصب الشاغر كلّ من [كاتالوس] و[ايساوريكوس Isauricus] وكلاهما من ذوي المكانة الرفيعة، والنفوذ الكبير في مجلس الشيوخ. إلاّ ان قيصر لم يتركهما في الميدان وحيدين وتقدم الى الشعب مرشحاً نفسه للمنصب وبدت الآراء والاحزاب في الظاهر منقسمة بصورة متساوية على المرشحين لا ترجح الواحد منهم على الآخر، وكان [كاتالوس] أكثرهم تخوفاً من النتيجة. ففي حالة فشله ستكون خسارته في مكانته وسمعته أكثر من المرشحين الآخرين فبعث لقيصر، يريد شراءه، وعرض عليه مبلغاً كبيراً من المال فكان جواب قيصر:

- اني على استعداد لاستدانة مبلغ أكبر مما عرضته، حتى اواصل معركة الانتخاب.

وفي اليوم المعين للاقتراع قال لأمه التي رافقته باكيةً حتى باب الدار:

- يا ام! هذا اليوم سيراني أحد رجلين، امّا منفيٌّ، واما كاهن اعظم.

وخاض معركة انتخابية حامية، وبفرز الأصوات فاز قيصر، فأحدث فوزه موجة قلق في نفوس الاشراف واعضاء مجلس الشيوخ وخافوا أن يدفع العامة الى كل نوع من انواع

الاعتداء، والشرّ. وانحنى [كاتالوس] و[پيزو] باللائمة على [شيشرون] لأنه اتاح له فرصة النجاة في مؤامرة [كاتيلين] بعد ان اتاح هو نفسه للحكومة اعظم الفرص لادانة قيصر. وتفصيل الأمر هو أن [كاتيلين] لم يكن ينوي من مؤامرة احداث انقلاب كامل في الوضع السياسي فحسب، بل كان يرمي فضلاً عن ذلك الى بسط سلطانه المطلق على الامبراطورية ويقضي على الجميع. وقد هرب قبل ان تتجمع الادلة الكافية ضده، وقبل انكشاف اهدافه النهائية انكشافاً تاماً. على انه ترك [لنتولوس] و[گثيگوس Cethegus] في المدينة لينوبا عنه في العمل. ولم يكن ثم ما يعززّ الشكّ في انهما حظياً بتشجيع قيصر ومعاونته من طرف خفيّ. وكل ما في الأمر أن مجلس الشيوخ ادان هذين الشخصين بالاجماع. ثم طلب [شيشرون] من اعضاء المجلس أن يحددوا شكل العقوبة، فارتأى الاعضاء الذين ادلوا باصواتهم قبل قيصر أن تفرض عليهما عقوبة الموت، وحان دور قيصر فألقى خطبة معدّة، جاء فيها: انه ليرى من الظلم ان تنتزع حياة شخصين كريمي المحتد لهما هذه المكانة الرفيعة قبل ان يحاكما محاكمة عادلة. وهو أمر غير مسبوق الاّ اذا كانت هناك ضرورة ملحّة. وهو يقترح أن يحتجزا في أية مدينة ايطالية يختارها [شيشرون] حتى تتم هزيمة [كاتيلين] وعندئذ سيتاح للمجلس في الظروف السليمة أن يقررّ بأناة وروية ما هو مناسب بحقهما.

وكانت عباراته تحمل كثيراً من المعاني الانسانية، وزاد من وقعها في نفوس سامعيها صياغتها البليغة، فتبنى رأيه هذا كل من تلاه، وخف الذين سبقوه الى العدول عن رأيهم الأول والموافقة على اقتراحه، ثم جاء دور [كاتالوس] و[كاتو]، للكلام فعارضا الرأي وسفهاه بشدة. وأثار [كاتو] في خطابه الشكّ حول [قيصر] نفسه والح في وجوب تسليم المجرمين الى نطع الجلاد الحاحاً شديداً. وبينما كان قيصر يهمّ بالخروج من مجلس الشيوخ، لحق به جمّ غفير من الشبان القائمين على حراسة [شيشرون] انذاك، وجردوا سيوفهم وأطبقوا عليه، الاّ ان [كيوريو Curio] ألقى رداءه فوقه وقاده بعيداً عنهم – على ما قيل، وشيشرون نفسه عندما التفت اليه الشباب ينتظرون قضاءه في قيصر، ابدى لهم اشارة الكفّ عنه، إمّا لخوفه من العامّة، واما لأنه كان يجد في القتل عملاً غير شرعي. ان صحّ هذا فلا يسعني الاّ العجب لاغفال شيشرون ذكر الحادث في كتابه عن قنصليته. وعلى اية حال فقد تعرض الى اللوم فيما بعد، لأنه لم يستفد من تلك الفرصة الذهبيّة ويتخلص من قيصر وتركها تفلت من يده خوفاً من العامة المتعلقين بقيصر والمنحازين اليه انحيازاً ظاهراً.

وبعد زمن نهض في المجلس يريد تبرئة نفسه من الشكوك التي تحوم حوله، فارتفع الضجيج ودوت صيحات الاستنكار ضده ودامت الجلسة اكثر من المعتاد بسبب ذلك، واحتشد الجمهور

في الخارج ثم صعدوا الى دار المجلس بحشود عظيمة واحدقوا به وصاحوا يريدون [قيصر] ويطلبون اسقاط التهم عنه. وخشى [كاتو] من ثورة تسري بين الفقراء من المواطنين اول موقد للهب بين الشعب - كما خشى أن يضعوا كل آمالهم في قيصر. فأقنع مجلس الشيوخ بالاقتراع على منحهم علاوة شهرية من القمح. وكان وجهاً من وجوه الصرف وضع الخزينة في حالة عجز كبير، قدره سبعة ملايين وخمسمائة الف درهم سنوياً. الا ان نجاحه في ازالة خطر الثورة، كان عظيماً. واضعف نفوذ [قيصر] الى درجة كبيرة، وكان في ذلك الحين يوشك ان يتسلم منصب [البريتور] ليغدو أكثر منعة وقوة بحكم منصبه.

على أن فترة [بريتوريته] انقضت دون ان يحدث ما يكدر، خلا ما لقيه من سوء حظّ في اموره العائلية، وكان [بوبليوس كلوديوس] من طبقة الاشراف مشهوراً بغناه، وذلاقة لسانه على انه سبق أشهر فسّاق زمانه بتهتكه وخلاعته. وقد وقع في غرام [بومبيا] زوج قيصر ولم يجد منها صدوداً. وفرضت رقابة شديدة على مثواها. ولازمتها والدة قيصر [اوريليا] وهي امرأة صارمة، ولم تفارقها لحظة واحدة مما جعل اي وصال بين الآثنين يتسم بالخطورة والصعوبة. وكان الرومان يتعبدون لآلهة انثى يطلقون عليها اسم [بونا Bona] وهي التي يسميها الاغريق [غينياكيا Gynaecea]. والفريجيون الذين ينادونها باسم غريب، يدعون انها امّ [ميداس] ويقول الرومان انها واحدة من الـ[درايد Drydes] تزوجت [فاونس Fau-nus] ويؤكد الأغريق بأنها والدة [باخوس] الذي يحب الا ينطق باسمها. ولهذا السبب فان النسوة اللاتي يحتفلن بعيدها، يعمدن الى تغطية الخيم باعضان الكرم. وتمشياً مع الخرافة، توضع حية مقدسة الى جانب صورة الآلاهة. ويحظر على الرجل ان يكون قريباً او أن يكون في البيت عندما تقام الشعائر الدينية بهذه المناسبة. فالنسوة وحدهن يقمن بها ويقال ان المراسيم لا تختلف عن تلك التي تقام في عيد [اورفيوس Orpheus]. بحلول يوم العيد يترك الزوج الذي يكون إما قنصلاً أو بريتورا. بيته مع كل الذكور الموجودين فيه، فتنوب الزوج منابه في الاشراف عليه. وتقام المراسيم ليلاً، ويتلهى النسوة فيما بينهم باللعب عند توليهن الخفارة وتصدح انغام الموسيقى في ارجاء الدار دون انقطاع. واراد [كلوديوس] ان ينتهز فرصة احتفال [بومبيا] بهذا العيد، فخيل له ان يستطيع الدخول الى دارها دون ان يفتضح أمره، فتنكر بثياب مغنية وتزين بحليّها وحللها فبدأ وكأنه فتاة لأن لحيته لم تنبت بعد واقبل ليجد الأبواب مفتوحة وخادم بومبيا بانتظاره، فأدخلته في الحال. وأسرعت لابلاغ سيدتها، لكنها تأخرت، فداخله القلق، وترك موضعه وأخذ يتجول في الدار من غرفة متحاشياً النور، والتقت به أمة [اوروليا] ودعته للعزف معها، جرياً على عادة النسوة.

فأبى فدفعته امامها وسألته عن يكون ومن اين جاء. فقال انه ينتظر [أبرا Abra] خادم [پومپيا]. وهو اسمها الحقيق ففضحه صوته الخشن فصرخت الخادم وهربت حيث النساء مجتمعات واخبرتهن بوجود رجل في الدار. فأخذ الرعب مأخذه من سائرهن وغطت [اوريليا] الاشياء المقدسة واوقفت الطقوس والمراسيم وأمرت باغلاق الابواب وانطلقت دون نورٍ تبحث عن [كلوديوس] الذي كان قد التجأ الى غرفة خادم [پومپيا] وكبسته هناك. وتعرفت عليه النسوة ودفعنه خارج الدار. ثم ادلين بالحكاية الى ازواجهن. وفي الصباح تبين ان الخبر منتشر في ارجاء المدينة، والناس كلهم يتحدثون بمحاولة [كلوديوس] السافلة ويطالبون بانزال العقاب به لانه مجرم تجاه الاشخاص الذين تلم شرفهم وتجاه الرأي العام والآلهة جميعاً. فرفع أحد التريبونات الشكوى ضده واتهمه بتدنيس الشعائر الدينية.

واتفقت كلمة طائفة من الشيوخ عليه، وادلوا بشهادات ضده واتهموه بعدد من الجرائم المخزية. منها مواقعة أخته، التي هي زوج [لوكوللوس]. الاّ ان الجمهور وقف ضدّ هذا الاتهام وادفعوا عن [كلوديوس]. مما كان له لاثره الكبير في نفوس القضاة، فقد ذعروا وخافوا سوء العاقبة ان هم جرحوا مشاعر العامة. وأسرع [قيصر] فطلق [پومپيا] لكنه دعي كشاهد اثبات ضد [كلوديوس] فقال أنه لايتهمه بشيء. وبدا هذا تناقضاً منه وسأله رافع الشكوى:

- اذن ما الذي دعاك الى طلاق زوجك؟

فأجاب قيصر: لا اريد أن تكون زوجي أكثر من مظنونة.

قال بعضهم ان جواب قيصر كان واقع ما يشعر به فعلاً، وقال آخرون انما اجاب بذلك ارضاء للعامة الذين عقدوا النية على انقاذ [كلوديوس] وعلى اية حال فقد برىء. لأن القضاة اعطى رأيه مكتوباً بشكل يتعذر قرأته، وقد تعمدوا ذلك حتى يكونوا بمأمن من العامة، ولكي لا يصيبهم عار أمام الاشراف باخلائهم سبيله.

وعين حاكماً لاقليم [اسپانيا] بمقتضى منصب [الپريتور] الذي يتقلده. إلاّ ان اوضاعه المالية كانت في غاية الارتباك مع دائنيه الذين تكالبوا عليه قبيل سفره وهم يلحون ويلحفون، فلم ير بداً من مراجعة [كراسوس] أغنى اغنياء روما وكان هذا بحاجة الى عزم [قيصر] الفتي لإسناد المعارضة التي يتزعمها [كراسوس] ضدّ [پومپي] فتعهد له بارضاء أكثر الدائنين الحافاً، وسداد جميع الديون التي لم تعد تحتمل التأجيل ودفع عنه مبلغاً قدره ثمانمائة وثلاثون تالنتاً، ولم يبق عائق امام سفر [قيصر] فأنطلق الى اسپانيا مجتازاً الالب. ومرّ بقرية بربرية صغيرة فيها قلة من الناس الفقراء الذين لا يملكون من حطام الدنيا شيئاً. وأخذ

ضباطه يمزحون فيما بينهم بقولهم «ايوجد هنا مُنافسة على الاصوات الانتخابية؟ أو نزاع حول المنصب الأول؟ أو ثأرات بين كبار القوم؟».

وأجاب قيصر على هذا وهو في غاية الجدّ.

- انا شخصياً أفضل أن أكون الرجل الأول بين هؤلاء القوم على أن أكون الرجل الثاني في روما.

وقيل انه كان يقضي اوقات فراغه في اسپانيا بمطالعة تاريخ الاسكندر، وفي احدى المرات دمعت عيونه وبكى بعد فراغه من قراءة جزء فعجب اصحابه وسألوه عما ابكاه فقال:

- اما ترونه سبباً وجيهاً للبكاء عندما افكر بأن الاسكندر اخضع مثل هذا العدد من الشعوب والأمم وهو في مثل عمري في حين اني لم أنجز عملاً مذكوراً حتى الآن؟

وأظهر نشاطاً جماً حال مباشرته حكم اسپانيا. فاضاف عشر كتائب جديدة الى العشرين الموجودة. وزحف بها على [الكالايچي Calaici] و[اللوزيتاني Lusetani] واخضعهما، ثم تقدم حتى بلغ المحيط، باسطاً سلطان روما على تلك القبائل التي لم تدخل في طاعتها من قبل. وكان نجاحه العسكري الطيب يوازى نجاحه في المسائل المدنية. فقد اهتم باحلال المودة والتفاهم بين عدة دول اقليمية تابعة وازال الخلافات المحتدمة بين الدائن والمدينين فأصدر قراراً يقضى بأن يتسلم الدائن ثلثي دخل المدين السنوي وترك المدين حر التصرف في الثلث الآخر حتى يتم تسديد الدين كله. كل هذا جعله لا يترك اقليميه الا وقد خلف وراءه اسماً طيباً وسمعة حسنة. وقد اغتنى وأغنى جنوده فكافأوه بأن خلعوا عليه لقب [امبراطور].

يقضي القانون الروماني على القائد المنتصر المطالب بموكب نصر أن يبقى خارج اسوار المدينة منتظراً الموافقة. ويقضي قانون آخر بأن على من يرشح نفسه للمنصب القنصلي أن يحضر بشخصه محّل الاقتراع. وكان قيصر قد بلغ مشارف روما اثناء موعد الانتخاب القنصلي فوقع بين نارين وتحيّر بين القانونين. وبعث يطلب من مجلس الشيوخ أن يسمح له بانابة اصحابه في ترشيح نفسه للمنصب القنصلي لاضطراره الى البقاء خارج روما. في باديء الأمر عارض [كاتو] الطلب وكان القانون في جانبه. ولكن عندما تبين ان أغلبية المجلس تؤيد ترشيح [قيصر] دون اعتبار لصراحة القانون. حاول جهده لكسب الوقت وراح يبدد اليوم بالكلام والخطب، ففضل قيصر ان يصرف النظر عن موكب النصر وأن يتابع ترشيحه للقنصلية فدخل المدينة معلناً عن ترشيحه لنفسه، ومستعيناً بحيلة انطلت على الجميع خلا [كاتو]. فقد

نجح مسعاه في مصالحة [كراسوس] مع [پومپي] وكانا أقوى شخصيتين في روما، وبينهما خلاف شديد نجح قيصر في ازالته. فقوّى نفسه بقوتيهما المتحدتين. واحدث انقلاباً في الحكم تحت ستار العمل الطيب.

اذ لم يكن الخلاف بين [قيصر] و[پومپي] سبب تسعير نار الحرب الاهلية. بل بالأحرى اتحادهما وتأمرهما من المبدأ على تدمير الارستوقراطية ولهذا نشب النزاع فيما بينهما بعدئذ. و[كاتو] الذي تنبأ أكثر من مرة بما ستكون عاقبة هذا التحالف، بدا وقتئذ رجلاً مناكداً فضولياً. ولكنه خرج بالأخير قنصلاً حكيماً بعيد النظر، الاّ انه فاشل.

وهكذا تضاعف دعم [قيصر] بنفوذي [كراسوس] و[پومپي] فتسنم منصب القنصلية مع [كالپورينوس بيبولوس Calpurinius Bibulus] وحال مباشرته مهام منصبه أصدر لوائح ومراسيم لا تصدر عادة من القنصل بل من اشدّ التريبونات جراءة، منها اقتراحه اقامة مستعمرات [مستوطنات] وتقسيم الاراضي، ارضاء للعامة ليس الاّ. وعارض اللائحة أفضل الشيوخ وأكثرهم شرفاً. فاهتبل [قيصر] الفرصة التي كان ينتظرها منذ وقت الطويل. وتسلح بهذه الذريعة الخادعة واحتج بأعلى صوته قائلاً:

«انه ليكره ان يرغم على طلب العون من الشعب، وان سلوك المجلس القاسي المهين لم يبق له غير سبيل واحدة وهي ان يوقف نفسه على رعاية مصلحة العامة وتبنيّ مشاكلهم».

واسرع بالخروج من المجلس وتقدم من الجمهور وهو بين [كراسوس] و[پومپي] وسألهم «اتوافقون على اللوائح التي اقترحتها» فأجابوا «أننا موافقون» وعندئذ طلب منهم أن يساندوه ضد أولئك الذين هددوه بسيوفهم. فردوا قائلين انهم معه. واردف [پومپي] قائلاً: انه سيلقى سيوفهم بسيف وترسٍ أيضاً. وامتعض الاشراف من هذا القول امتعاضاً شديداً. اذ لم يكن يليق بوقاره، ولا بالتوقير الواجب لمجلس الشيوخ. وكان بالأحرى أشبه بحماسة صبي أو هذيان مجنون. لكنه وقع موقعاً حسناً لدى العامة.

وحكم [قيصر] قبضته على [پومپي] بتزويجه ابنته [جوليا] التي كان معقوداً عليها [لسرڤيليوس كيپيو Servilius Caepio]. وارضى هذا الخطيب بأن أعطاه ابنة [پومپي] التي كانت بدورها مخطوبة [لفاوستوس Faustus] ابن [سللاً] وقد فترةٍ تزوج قيصر [كالپورنيا Calpurnia] بنت [پيزو Piso] وظفر لأبيها بمنصب القنصل للسنة التالية. فتعالى صوت [كاتو] بالاحتجاج والسخط وقال بكثير من الحرارة.

- انه لما لايمكن التسامح فيه قط أن تُستقْحب الحكومة عن طريق الزواج، وان يدفع الفاعلون

أحدهما الآخر الى قيادات الجيوش وحكم الاقاليم وغير ذلك من المناصب الكبيرة عن طريق النساء.

ولزم [بيبولوس] زميل قيصر في القنصلية، داره يعّد ما بقى له في ايام قنصليته، بعد أن عجز عن معارضة قراراته ومراسيمه الا اذا شاء ان يقتل في الفورم. وحذا [كاتو] حذوه للسبب عينه. وبعد تمام زواج [پومپي] بادر الى ملء الفورم بالجنود. واعان الجمهور في ابرام القوانين الجديدة. وامن لقيصر حكم كل بلاد الغال أعني الجزء الواقع جنوب جبال الألب والقسم الذي يقع ما وراءها، الى جانب [ايلليريكوم]، وأمره على خمس فرقٍ لمدة خمس سنوات. وبدر من [كاتو] بعض المحاولات لاحباط هذا الاجراءات فاعتقله [قيصر] واقتاده الى السجن بنفسه، وكان يتوقع منه أن يراجع التريبونات متظلماً. لكنه وجد [كاتو] يسير معه الى السجن طائعاً دون ان ينبس بحرف وان الاستهجان لم يقتصر على الاشراف بل تعداه الى العامّة. اذ راحوا يتبعون خطى [كاتو] صامتين مكتئبين اجلالاً لمقام السجين وأكباراً لفضائله وتمنىّ [قيصر] في تلك الساعة ان يخفّ أحد التريبونات لنزع [كاتو] من يده. ومنذ ذلك الحين لم يعد يحضر المجلس الاّ قلة من الشيوخ. واضرب عنه الباقون وقد امتلأت أنفسهم قرفاً واشمئزازاً من الوضع. وانتهز [كونسيديوس Considius] وهو شيخ عجوز في آخر العمر، فرصة يوماً ما فقال لقيصر:

- ان الشيوخ لايحضرون المجلس خوفاً من جنودك.

فسأله قيصر: ولم لا تلازم بيتك انت ايضاً؟ مدفوعاً بذات الخوف؟

فأجابه كونسيديوس: ان عمري يعصمني من الخوف. والقليل الباقي منه لا يستأهل الكثير من الحذر.

وأكبر الفضائح التي وقعت في فترة قنصليته، هي معاونته لكلوديوس في حصوله على منصب [التريبيون]، وهو عين كلوديوس الذي حاول النيل من عفة زوجه فأقتحم بيته ودنس العبادات السرية. لقد عاونه لكي يضمن سقوط [شيشرون] فلم يغادر قيصر المدينة لقيادة جيشه الاّ بعد أن نغلّب على [شيشرون] وطرده من ايطاليا.

نقف عند هذا الحدّ في تتبعنا مساعي القيصر واعماله قبل نشوب الحروب الغالية. فها هو ذا الآن يعود الى سلوك السبيل الذي اختطه لنفسه. ليبدأ الحياةً جديدة ويباشر أعمالاً جديدة. لقد برز في هذه الحروب والحملات العديدة التي اخضع بها الغاليين، جندياً وقائداً لايقلّ باي حال عن أعظم من ظهر من القادة، وأكثر من قادوا الجيوش استدراراً للإعجاب. فان نحن

قارناه بالقواد الذين انجبتهم أمر آل فابي وآل ميتيلي وآل سكيپيو. او بأولئك الذين عاصرهم أو سبقوه بقليل مثل سللاً وماريوس ولوكولوس الاول والثاني او حتى [پومپي] الذي ارتفعت به امجاده الى السماكين لما ابداه من براعة في حروبه، فسنجد ان قيصر فاقتهم جميعاً. وقد جاء تفوقه هذا من عدة جهات. منها وعورة الأرض التي كانت ميداناً لحروبه، ومنها مساحة الاراضي التي استولى عليها. وعدد العدو الذي دحره وقوته، وشراسة القبائل واساليبها الغادرة. تلك الطبيعة التي تمكن بلطفه وملكاته من التغلّب عليها واسترضائها. ومنها انسانيته ورأفته بالعدو المغلوب. ويقول آخرون ان تفوقه على القادة الذين سبقوه، انما يعود الى عطفه على جنوده وعطاياه ومكافأته لهم. والجميع يتفقون بأن تفوقه العتيد متأت من عدد المعارك التي خاضها وكثرة الاعداء الذين أهلكهم. فقد خاض حرباً متواصلة في بلاد الغال دامت عشر سنوات كوامل وفتح عنوة ما يربو عن ثمانمائة مدينة وقوض ثلاثمائه حكومة ومن الملايين الثلاثة من المقاتلين الذين قاتلهم عن مرات. اهلك مليوناً وأسر مثل هذا العدو.

كان قيصر عطوفاً رقيقاً حسن النية تجاه جنوده وكان بارعاً في اظهار طبعه هذا باسداء كل خدمة يريدونها. حتى ان الرجال العاديين يبدون تحت امرته من الاقدام والاستماتة مما لايمكن الوقوف في وجهه أو التغلّب عليه. ولاسيما عند تعنّ لهم الإخطار وتحدق بهم، وكمثل على ذلك [اچيليوس Acilius] الذي بترت يده اليمنى ضربة سيف اثناء القتال البحري قرب [مارسيليا] فلم يلق ترسه وبقي في يده اليمنى يضرب به وجوه الاعداء المهاجمين، حتى دفع بهم الى الوراء واستولى على سفينتهم، وثم [كاسيوس سكيڤا Cassius Scæva] الذي رشق بسهم فاصاب أحدى عينيه في اثناء القتال بالقرب من [داركيوم] ثم اصيبت ذراعه بطعنه رمح، ثم اصيب فخذه بطعنه أخرى ورشقت درقته بمائة وثلاثين رمحاً خفيفاً فنادى العدوّ كأنه يريد أن يستسلم. ولما تقدم منه اثنان قطع كتف احدهما بضربة من سيفه وأهوى بضربة على وجه الآخر فاجبره على الانسحاب. حتى كتبت له النجاة عندما خفّ اليه اصحابه. وفي ايطاليا وجد بعض ضباط الطليعة المتقدمة من جيشه، أنفسهم في مستنقع كثير المياه، وفيما هم يفكرون بطريقة للخروج هاجمهم العدو، فقذف جندي بسيط نفسه في وسطهم - والقيصر واقف ينظر الى المشهد. وأبدى ضروباً عجيبة من الشجاعة حتى تيسر له انقاذ الضباط وهزم البرابرة. وعصي هذه الجندي في الطين بالأخير، وبعد كثير من الجهد خرج سابحاً آناً وخائضاً آناً، ولكنه فقد ترسه. وكان قيصر وضباطه يتابعونه بانظارهم موجبين. ثم توجهوا للقائه مبتهجين. لكن الجندي الذي كان شديد الحزن لفقدانه ترسه، القى بنفسه عند قدمي قيصر طالباً المغفرة لهذه الهفوة. ومرة أخرى استولى [سكيپيو] في افريقيا على سفينة كان

فيها [خرانيوس پترو Garnius Petro] المعين حديثاً بمنصب [كويستور] فوزع [سكيپيو] ركاب السفينة على جنوده كغنائم حرب، ولكنه وجد من حسن الذوق ان يعتق الكويستور ويهبه حياته لكن هذا قال

- ليس من المعتاد أن يتقبل جنود قيصر الرحمة، بل أن يمنحوها وانتضى سيفه وسقط عليه فمات.

ونفح في جنود روح التفوق، وتشربوا حبّه للمجد. وبتوزيعه المال والعطايا عليهم دون حساب برهن لهم انه لايكدس الثروة التي غنمها لنفسه ولا لأجل ان يمتع بها شخصه، بل أن ما كسبه هو ملك عام مخصص لمكافأة وتشجيع البسالة والاقدام وانه يعتبر زيادةً في غناه، كل المنح التي اعطاها للمستحقين منها جنوده. زد على ذلك أنه ما كان ليتردد قط في تعريض نفسه لشتّى الأخطار من غير تعلل أو احجام أو شعور بالتعب ولم يكن جنوده يستغربون منه استهانته بالخطر لأنهم كانوا على ادراك تام بمدى حبه للشهرة الاّ ان مصدر عجبهم كان همته التي لا تتناسب مطلقاً مع قابليته الجسدية وتكوينه الطبيعي فقد كان هزيلاً ابيض البشرة ناعمها. يشكو من الصرع لعلّةٍ في رأسه، قيل انها اصابته في [قرطبة] لكنه لم يتخذ من نحوله ورقة بدنه سبباً للخلود الى الراحة وترف العيش. ولكنه اتخذ من الحرب علاجاً للانحراف صحته. وكافح داءه المزمن وحصن جسمه ضد كل انتكاسة بسفرات طويلة شاقة. وطعامٍ خشن ونوم في العراء وتمارين مجهدة مستمرة. وكان عادة ينام إمّا في عربة أو فوق محمل يسيران به وهو يتعقب العدوّ. وكان ينقل على هذه الشاكلة الى القلاع والحاميات والمعسكرات ومعه خادم واحدٌ يدون ما يمليه عليه وعربته تسير به بينما كان يقف وراءه جندي بيده سيف مجرد. وكان يسوق عربته بسرعة لا تصدق. حتى انه بلغ نهر الرون في ثمانية ايام عند رحيله عن روما لأول مرة. وبرع في ركوب الخيل منذ طفولته وكان من اهون الأمور عنده أن يعلو ظهر حصانه ويداه معقودتان وراء ظهره مطلقاً لمركوبه العنان بأقصى سرعته. واتاحت له الحرب ترويض نفسه على املاء رسالة وهو على ظهر جواده، وان يصدر اوامره الى كاتبين يدونان ملاحظات عنها في الوقت نفسه. ويقول [اوپيوس Oppius] بل كان يملي اوامره على أكثر من اثنين أحياناً.

والمعتقد انه اول من استنبط وسائل الاتصال الجفرية باصحابه واعوانه، اذ كان زخم العمل او سعة المدينة لا يدعان له وقتاً للمداولة حول الأمور الملحة العاجلة. ومن الحكاية التالية يظهر كم كان قليل الاهتمام بطعامه. دعاه [ڤاليريوس ليو Valerius Leo] الى العشاء في [ميلان] وعند جلوس المدعوين. وضع امام قيصر طبق فيه هليون، صب عليه سائل حلو المذاق

بدل الزيت، فأكل منه قيصر دون ان تبدو علائم قرفٍ أو تردد وعنف اصحابه لأنهم عابوا الطعام بقوله:

- حسبكم ان لا تأكلوا ما لا تحبون أكله. لكن من يصم الآخرين بسوء التربية وقلة الذوق، يبرهن على أنه يفتقر اليهما بالأحرى.

والجأته العاصفة يوماً وهو في الطريق الى كوخٍ صغير لم يجد فيه غير غرفة واحدة لا تتسع لأكثر من شخصٍ واحدٍ فالتفت الى مرافقية وقال لهم:

- ان مواضع الشرف يجب ان تخصص لعظماء الرجال، ووسائل الراحة الضرورية يجب ان تعطى للاضعف.

وأمر أن يؤخذ [اربيوس] الى الغرفة لأنه كان مريضاً أما هو وبقية اصحابه فقد باتوا ليلتهم في العراء تحت سقيفة عند الباب.

كان اول اشتباكه في بلاد الغال مع الهلفيتيين Helvetian والتيكوريني Tigurini، هؤلاء احرقوا مدنهم الاثنتي عشرة وقراهم الاربعمائة، وتقدموا من خلال ذلك الجزء الغاليّ الذي يدخل في الاقليم الروماني، مثلما فعل الكمبري والتيوتون من قبلهم، ولم يكونوا بأقل من اسلافهم هؤلاء شجاعة، ولا عدداً فهم يبلغون ثلاثمائة الف بينهم مائة وتسعون الفاً من المقاتلين واشتبك معهم [لابينوس Labienus] ولكن تحت اشراف وتوجيه قيصر، فهزمهم قرب نهر [آرار Arar] وباغت الهلفيتون قيصر من حيث لا يتوقع وهجموا عليه وهو يقود قطعات جيشه نحو مدينة صديقة. على انه نجح في الانسحاب الى موقع منيع وبعد ان نظم صفوفه واستعرض رجاله، جيء له بجواده فقال:

- عندما أكسب المعركة، سأستخدم جوادي لمطاردة العدو أما الآن فلنتعرض للعدوّ راجلين.

وهاجمهم راجلاً وبعد معركة عنيفة طويلة الأمد، دارت الدائرة على الجيش الرئيس وطردهم من ساحة القتال. ولكن اصعب صفحة في هذه المعركة هي القتال عند موقع العجلات وأمام المتاريس فقد صمد العدوّ في القتال وشاركت النسوة والاطفال في الدفاع الى ان مُزقوا ارباً. ولم تنته المعركة الا عند متنصف الليل. وتوجّها بعملٍ مجيد يفوق نصره فيها. فقد جمع كل البزابرة الناجين وكانوا يزيدون على مائة الف واجبرهم على العودة الى مواطنهم التي تركوها ومدنهم التي احرقوها. فعل ذلك خوفاً من ان يقدم الجرمان على احتلالها واستيطانها بعد خلوها من سكانها.

وكانت حربه الثانية حرب الدفاع عن الغاليين الذين يهددهم الجرمان. وقبلها كان قيصر قد

بذل جهده في روما على أن يعترفوا بملكهم [اريوفستوس Ariovistus] حليفاً. إلاّ ان جيرتهم ما كانت تطاق بالنسبة الى الشعوب الخاضعة للرومان. وكان محتملاً ان ينتهزوا اول فرصة تعنّ لهم ليتحللوا من التسوية التي تمتّ، وليزحفوا على بلاد الغال. ووجد قيصر ضباطه يحجمون من التعرض للعدو، ولاسيما الشبان الاشراف الذين انضووا الى قيادته أملاً في اتخاذ الحرب وسيلة من وسائل الترويح والتسلية والربح المالي الماريّ، فجمعهم، نصحهم بأن يعودوا الى الوطن، وبان لايتعرضوا لمخاطر معركة لا يرغبون فيها ما داموا خائري العزيمة، مفتقرين الى مقومات الرجولة. وقال انه سيزحف على البرابرة بالفرقة التاسعة لانه لا يتوقع ان يجد في عدوّه قوة المرأس التي كانت عند الكمبري وانهم لن يجدوا فيه جنرالاً اقل حنكة من [ماريوس] فانابت الفرقة التاسعة وفداً ليقدم له الشكر والتقدير لحسن ظنه فيهم وانابت الفرق الأخرى باللوم والتقريع على ضباطها. وتبعه الجيش كله بحماسة في سيرة امتدت عدة ايام حتى عسكر على بعد مائتي فرلنگ من العدوّ. وخان [اريوفستوس] بعض شجاعته عند اقتراب العدوّ. اذ لم يكن يتوقع من الرومان مهاجمة الجرمان. ولم يكن يفكر بأنهم سمينبرون للدفاع عن رعاياهم على ابعد الاحتمالات. ولذلك زادت دهشته من تصرف [قيصر] وسادت جيشه حالة من الرعب زاد منها نبوءات عرافاتهم اللاتى كنّ يصدرن نبوءاتهن بعد مراقبة تيارات النهر واستقراء الاشارات من اصوات الغدران ومنعطفاتها. فقد انذرتهم بالا يشتبكوا في قتال مع العدوّ قبل ظهور الهلال الجديد. وكان [قيصر] قد علم بذلك، ورأى الجرمان قاعدين لا يأتون بحركة تنمّ عن نية قتال ففكر بان الظرف مناسب له وهم تحت تأثير تلك المخاوف والمحاذير. ووجد من خطل الرأي ان يظل هو قابعاً في معسكره ينتظر ساعة هجومهم فتقدم من تحكيماتهم ومرتفعاتهم المنيعة حيث عسكروا، فاثارهم عمله واستفزهم ولم يتمالكوا أنفسهم فانحدروا اليه بعنفٍ وضراوة. فهزمهم ونال نصراً كاملاً وانشأ يطاردهم الى مسافة اربعمائة فرلنگ حتى بلغ ضفاف [الراين] وكان الطريق كله مفروشاً بالغنائم وجثث القتلى. ولقى [اريوفستوس] الأمرين في عبوره النهر بفلول صغيرة من جيشه. وقيل ان قتلاه بلغوا ثمانين ألفاً.

بعد هذه المعركة ترك قيصر، جيشه في مقراته الشتوية ببلاد [سيكواني Sequani] وقصد الجزء الواقع على نهر [يو] من بلاد الغال، ويقع ضمن حدود حكمه، لأن نهر [روبيكون] يفصل بلاد الغال التي هي في الجهة الجنوبية، عن باقي ايطاليا، وكان سبب قدومه، الاشراف من موضعه على شؤون معينة في روما، فأستقر هناك وعمل على كسب ودّ الناس وكانت جماعات كثيرة تتقاطر اليه باستمرار، فيقضي حاجاتهم ولا يرد منهم سائل. ولم يُصرف واحدُ

من حضرته الاّ وعهدُ بالعون في اليد، وأمل بأكثر منه في الغد. ولم يتبين [پومپي] خلال فترة حروب قيصر الغاليّة، كيف يستخدم هذا سلاح روما لتحقيق انتصاراته من جهة. وكيف يعمل على خطب ودّ الرومان ويضمن ولاءهم له، بالثروة التي يغنمها من تلك الانتصارات.

ولم يطل المقام بقيصر فقد وردت الانباء تقول ان [البلجي] وهم أقوى المغاليين سكنة الجزء الثالث من البلاد - قد شقوا عصا الطاعة وأعلنوا الثورة وحشدوا الآلاف المؤلفة من المقاتلين - فأنطلق نحوهم بجيش لجب وأطبق عليهم وهزم أكبر وحداتهم وأكثرها تراصاً. كان عددهم كبيراً الاّ ان اسلوب دفاعهم اتسم بالضعف وقد سهل على مشاة الرومان عبور المستنقعات والانهار العميقة اكداسُ الجثث التي تركها العدو وممن ثار عليه، من جميع القبائل التي تسكن ساحل الاطلنطي، لكنها استسلمت دون قتال فساق جيشه نحو [النرڤي Nervii] اشرس واشدّ القبائل عتواً في تلك الانحاء. وبلادهم تغطيها الغابات تماماً، فوضعوا اولادهم ومقتناهم في احشاء تلك الغابات بعيداً عن متناول العدوّ، وباغتوا [قيصر] بستين الفاً وهو غير مستعد لهم اثناء ما كان يضرب خيامه فهزموا خيالته وطوقوا فرقتيه السابعة والثامنة عشرة وقتلوا جميع ضباطهما ولو لم يختطف قيصر ترساً ويشق لنفسه طريقاً بين رجاله انفسهم للوصول الى البرابرة، ولولا انحدار الفرقة العاشرة من رؤوس التلال عند ادراكها الخطر فتخترق صفوف العدو لانقاذه، لما سلم ذلك اليوم روماني واحدُ الاّ ان المثل الذي ضربه لهم قيصر من جرأته خاضوا المعركة بما يفوق الطاقة البشرية من الشجاعة - على حدّ ما مأثور القول لكنهم لم يستطيعوا رغم هذا زحزحة العدوّ من ميدان المعركة، بل اعملوا فيهم تقتيلاً وتمزيقاً وأولئك يقاتلون فتاع دفاع. وذكر انه لم يبق من الستين الفاً الذين دخلوا المعركة غير خمسمائة ومن اربعمائة من شيوخهم، غير ثلاثة.

عندما أبلغ مجلس الشيوخ الروماني بهذه الانتصارات اقترعوا على ان تقام الاعياد العامة لمدة خمسة عشر يوماً مستمرة وان تنحر خلالها القرابين مع التشديد على تطبيق ذلك بدقة، وكانت فترة عيْد رسمي لم يتح اطول منها لأي نصر روماني سابق. لقد كان ثم شعور عظيم بالخطر الذي يهدد روما جراء عصيان وثورة هذا العدد الكبير من الشعوب والأمم دفعةً واحدة. وأعطى تعلق الجمهور بقيصر، هذا النصر رونقاً وجمالاً آخر بسبب النجاح الذي حققه.

وعاد الى مشتاه على نهر [پو] بعد توطيد الأمن وتثبيت الوضع في بلاد الغال وقضى الفصل كله يتابع الاحداث في روما وهو في مكمنه. وطلب جميع المرشحين للمناصب العامة معاونته فمدهم بالمال لتخريب الذمم وشراء الاصوات. وبعد فوزهم ليكونوا ادوات طيعة له يفعلون ما يشاء لهم لأجل زيادة نفوذه. والانكى من هذا كله أن ابرز وأقوى الشخصيات في

روما راحت تنقاد له وترحل اليه زائرة في [ليوكا Lueca] وعلى رأسهم [پومپي] و[كراسوس] و[اپيوس]، وحاكم سردينيا، ونيپوس Nepus پروقنصل اسپانيا. ووجد في وقت واحدٍ ومحل واحدٍ مائة وعشرون ليكتوراً، وأكثر من مائتي شيخ. وبنتيجة المداولة التي جرت في مقره، رسم أن يتولى [پومپي] و[كراسوس] منصب القنصل للمرة الثانية للسنة القادمة وان يصرف لقيصر مبلغ آخر من المال، وان تجدد قيادته خمس سنوات آخر. ولا يسع اي عاقل أن يقرّبانه من السفاهة والاسراف العظيم أن يقدم اولئك الذين منحهم قيصر الاموال الطائلة - على اقناع مجلس الشيوخ بمنحه مالاً أكثر هو غني عنه. وفي الواقع أن الموافقة على ذلك تمت جبراً عنهم وبعد احتجاج وتذمرٍ، لا بالاقناع ولم يكن [كاتو] هناك. فقد ازاحوه في الوقت المناسب بارساله الى قبرص. إلاّ ان [فاڤونيوس Favonius] المقلّد المتحمس [لكاتو] ترك المجلس بعد ان يئس من جرّ المجلس الى معارضة القرار، وخرج يخطب في الناس بأعلى صوته منددا بتلك الاجراءات الشاذة، فلم يصغ اليه احد. بعضهم ازدراه احتراماً [لكراسوس] و[پومپي] والاغلبية استخفت به ارضاء لقيصر الذي كان معقد آمالهم.

بعد ذلك عاد [قيصر] الى قواته المعسكرة في بلاد الغال. فوجد الحرب قائمة. إذ عبر مؤخراً شعبان من الشعوب الجرمانية نهر الراين. احدهما يعرف بـ[اوسيپس Usipes] والآخر [تنتريتاي Tenteritæ] وذكر [قيصر] في تعليقاته عن حربه مع هؤلاء. فقال ان البرابرة ارسلوا سفراء لعقد معاهدة معه ولكنهم هاجموا جيشه والمفاوضات قائمة وتغلب ثمانمائة منهم على خمسة آلاف من خيالته فهزموهم، ثم عادوا يرسلون وفداً ثانياً يريدون تكرار الخدعة فقبض قيصر على مندوبيهم وسجنهم وساق جيشه عليهم. فقد وجد من السذاجة أن يركن الى عهد يقطعه هؤلاء بعد نقضهم المعاهدة الأولى - الاّ ان [تانوسيوس Tanusius] يقول: عندما أعلن مجلس الشيوخ اعياد النصر وامر بنحر الذبائح. صرح [كاتو] بأنه يرى وجوب تسليم قيصر الى البرابرة وبذلك يكفرّ عن جريمة نقض العهد التي تقع على عاتق الدولة بنقلها الى المسبب المسؤول. وكان من مجموع الذين عبروا الراين اربعمائة ألف تم القضاء عليهم الاّ فلولا قليلة نجت ولاذت بحمى [السوگمبري Sugambri] وهو شعب جرماني. واخضع قيصر هذا الاقليم ليبدأ منه غزو الجرمان طامعاً في الوقت نفسه بأن يكون اول قائد روماني يعبر الراين على رأس جيشه. فقام بانشاء جسرٍ فوقه رغم كونه عريضاً جداً، وتياره في البقعة التي اختارها كان عنيفاً دفاقاً تنحدر مياهه حاملة جذوع الاشجار وغيرها من الاخشاب فتصطدم بأسس الجسر وتهزه هزاً. فما كان منه الاّ ودقّ دعامات خشبية ضخمة في اعماق النهر قبل الجسر بمسافة لايقاف وحبس هذه الكتل الطافية المنحدرة مع التيار وبهذه الوسيلة ألجم المجرى

وأكمل الجسر، كذلك الذي لا يصدق من رآه انه مجهود عشرة ايام لا غير. ومرّ الجيش فوقه بدون عائق. ففر [السيوڤي Suevi] من امامه وهم أشدّ المقاتلين الجرمان تهوراً واقداماً - حاملين معهم كل مقتناهم ولاذوا باكثف الوديان شجراً. فأحرق بلادهم وساعد الموالين للحكم الروماني ثم قفل راجعاً الى بلاد الغال. ولم يمكث في جرمانيا غير ثمانية عشر يوماً.

على ان غزوة بريطانيا كان اعظم دليل على شجاعته. وبذلك يكون اول من انزل اسطولاً في المحيط الغربي واول من مخر عباب الاطلنطي بجيش. لقد غزا جزيرة جعلتها المعلومات القليلة عنها امر وجودها موضع اخذ وردّ بين المؤرخين. وكان الكثيرون يتساءلون اهي مجرد اسم وخيال ام هي حقيقة. ويمكن القول أنه وسع رقعه الامبراطورية وجعلها تمتد الى ما وراء حدود العالم المعروف. لقد عبر اليها مرتين. واتخذ لصوره الساحل المقابل لها من بلاد الغال. وفي المعارك العديدة التي خاضها مع أهل الجزيرة، كانت الخسارة التي انزلها أكثر من الخدمة التي اسداها لنفسه، فسكان الجزيرة في حال يرثى لها من الفقر. ولا يملكون ما يصلح للسلب والغنيمة. وهكذا وجد نفسه عاجزاً عن وضع خاتمة لهذه الحرب تتفق واهدافه. أكتفى باخذ رهائن من ملكها وفرض جزية عليه وغادر الجزيرة. ووجد عند وصوله بلاد الغال كانت تنتظره رسائل عديدة من أصحابه معدة لارسالها اليه عبر البحر. وعلم منها بوفاة ابنته وهي تضع مولودها من [پومپي]. فكان حزنه وحزن پومپي عليها بالغاً ولم يكن اشياعهما باقل حزناً واضطراباً فقد شعروا ان في موتها القضاء على حلفٍ أبقى الامبراطورية الرومانية العليلة حتى تلك الساعة في حالة من السلام والهدوء.

وحمل الجمهور نعش [يوليا] رغم معارضة التريبونات. الى حقل مارس. وهناك اقيمت مراسيم التشييع وفي ارضه دفنت.

تضخم جيش [قيصر] الى درجة كبيرة. حتى اضطر الى توزيعه على عدة معسكرات ومقرات شتوية. سافر هو الى ايطاليا كعادته. وفي اثناء غيابه اجتاحت بلاد الغال ثورة عامة، وزحفت من سائر الارجاء جيوش كثيرة على المقرات الرومانية وحاولت الاستيلاء على القلاع التي اعتصموا فيها، وتمكنت اقوى وأكبر مجموعة من المغيرين بقيادة [ابريوريكس Abriorix] من القضاء على [كوتا Cotta] و[تيتوريوس Titorius] مع كل رجالهما وحاصرت قوات من المحاربين الاشداء تناهز ستين الفاً. الفرقة التي يقودها [شيشرو] وكادوا يقتحمون معسكرها عنوة، ولم يبق جندي روماني فيها الأ وهو جريح منهوك القوى الى حد العجز. لقد ظلوا يدافعون عنها دفاع المستميت وكان [قيصر] بعيداً عنهم بمسافة طويلة، على انه أسرع بجمع سبعة الآف جندي وخف لنجدة المحصورين وعلم الاعداء بقدومه، فخفوا

لاعتراض سبيله وهم على ثقة من سهولة قهر هذه الحفنة من الرجال واراد قيصر أن يضاعف ثقتهم هذه فأوهمهم بأنه يتحاشى القتال وهو في الوقت نفسه يواصل سيره، حتى وجد موضعاً يصلح لاشتباك قليل من الرجال مع العديد منهم فضرب معسكره فيه واصدر امراً قاطعاً لجنوده بعدم التعرض للعدو. وامرهم باقامة متاريس أعلى من المعتاد. وتقوية الابواب. وتلك مظاهر ضعف قصدوا بها استهانة العدد بهم. ولحق بهم العدو وهو على أتم الاطمئنان وبدون نظامٍ فباشروا هجومهم فخرج اليهم [قيصر] وهزمهم بعد ان الحق بهم خسارة جسيمة. واطفأت هذه المعركة معظم الثورة في تلك الاقسام من بلاد الغال. وقام [قيصر] خلال فصل الشتاء بزيارة كلّ جزءٍ من البلاد، متخذاً الاحتياطات لاحباط المكائد بكثير من الحزم واليقظة. ووردته ثلاث فرق لتسد مسدّ ما فقده اثنتان منها زوده بها [پومپي] من الجيش الذي يقوده، والثالثة تم تشكيلها في بلاد الغال التي تقع على [الپو]. ولكن ما مرّ حين من الوقت الاّ واخرجت بذور الحرب شطئها – تلك البذور التي زرعت خفية منذ زمن طويل فأنتشرت على يد أقوى واشجع رجال تلك الشعوب المحاربة، واسفرت عن نفسها فاذابها اخطر واعظم ما شاهدته تلك الاصقاع من حروب سواء بعدد الرجال الذين شاركوا منها وكلهم في شرخ الشباب وباحسن العدة والسلاح والمال الذي جمع لضمان مواصلة الحرب أو بمناعة المدن، او بوعورة البلاد التي جرت المعارك على ادعها. كان الوقت شتاء والانهار متجمدة، والغابات مغطاة بالثلوج والماء يسيح فوق الأراضي المنخفضة ويخفى معالم الطرق في بعض المواقع تحت طبقة كثيفة من الثلج وفي مواقع أخرى جعلت المستنقعات الفارقة بالماء والمجاري العديدة، كل سبيل ضائعاً أو غير واضح. بدا [قيصر] امام كل هذه العقبات حائراً، فمن المتعذر وغير العملي ان يحاول الانقضاض على العصاة في مثل هذه الظروف. لقد ثارت عدة قبائل بصورة جماعية بزعامة قبيلتي [ارڤرني Arverni وكارنوتيني Carnutini] وكان القائد الأعلى لهذا الاتحاد [ڤرجنتوريكس Vergentorix] الذي قتل الغاليون اباه لشكهم في انه كان يطمح الى السلطة المطلقة.

قسم هذا القائد الغاليّ جيشه الى عدة وحدات ونصب عليها القواد والآمرين واجتذب الى صفه كل ما جاوره من البلدان الى الاقاليم التي تتاخم نهر [آرار] وكانت قد بلغته انباء المعارضة التي يلقاها [قيصر] في روما فرأى ان يزجّ كل بلاد الغال في هذه الحرب. ولو تأخر في تنفيذ خطته هذه قليلاً وباشرها عند انشغال [قيصر] بالحرب الاهليّة لكانت ايطاليا ستتعرض الى عين الخطر الذي جاءها من غارة الكمبري الكاسحة. لكن قيصر الذي فاق الرجال جميعاً بموهبته حسن استخدام كل ما يمت الى الحرب بصلة ولاسيما اختياره وقت

المعركة المناسب. قفل عائداً من حيث أتى حال علمه بنبأ الثورة. فبرهن للبرابرة أن جيشاً يتقدم نحوهم في هذا الفصل القاسي وبمثل هذه السرعة، هو جيش لا يقهر. لم يكونوا ليتوقعوا ان يصل اليهم ساعٍ او عداء برسالة منه، وها هوذا الآن بلحمه ودمه مع كامل جيشه يدوخ بلادهم ويدمّر قلاعهم ويخضع مدنهم ويبسط حمايته على الموالين له. وانداحت الثورة حتى شملت [الايدوي Edui] الذين كانوا يعتبرون أنفسهم حتى ساعة الثورة اخواناً للرومان فانضموا الى العصاة، مما اضرُ كثيراً بمعنويات جنوده. فتحرك نحوهم واجتاز بلاد [ليگونيس Ligones] قاصداً الوصول الى حدود [سيكواني] حلفائه الذين كانوا اشبه بحصن أو سدّ يحمى ايطاليا من قبائل الغال الأخرى. وهنا أطبق عليه العدو وطوقه بالالوف المؤلفة. ولم يكن هو الآخر بالراغب عن القتال. وبعد معركة طاحنة ووقوع كثير من القتلى فاز بالنصر الكامل. وان اصيب في بدء المعركة ببعض النكسات على ما يبدو. ويريك [الأروڤيني Aruvi-ni] سيفاً قصيراً معلقاً في الهيكل، يزعمون أنه أُخذ من قيصر. وقد رآه قيصر فيما بعد فأبتسم وعندما أشار اصحابه عليه برفعه لم يقبل فقد اعتبره مكرساً للآلهة.

بعد هذه الهزيمة هرب عدد كبير من البرابرة مع ملكهم الى مدينة تسمّى [أليسيا Alesia] فألقى قيصر عليها الحصار وكان ارتفاع اسوارها وعدد الرجال المدافعين عنها كبيراً حتى بدا وكأن اقتحامها متعذر. ثم جوبه خارج اسوارها بخطر لم يتصوره. فقد جمع الغاليون من كل قبيلة نخبة من رجالها زودهم بأحسن السلاح وتقدموا لرفع الحصار عن المدينة وكان عددهم ثلاثمائة الف والمدافعون داخل المدينة لا يقلون عن مائة وسبعين ألفاً. وهكذا وجد [قيصر] نفسه محصوراً بين الجيشين فاضطر الى حماية نفسه بجدارين اقامها بمواجهة المدينة وبمواجهة الجيش المنقذ، مدركاً ان اتحاد القوتين معناه دماره التام. ان الخطر الذي احدق فيه امام [آليسيا] رفع من صيته، وشهرته من وجوه عدة واتاح له فرصة ضرب امثلة عملية لبسالته وبراعته القيادية. فرصة لم تتحها له أية حرب أخرى. ان المرء ليعجب حقاً كيف اشتبك وتغلب على هذه الألوف العديدة من الرجال خارج المدينة دون ان ينتبه له المدافعون عنها، بل والانكى من هذا أن الرومان الذين كانوا يحرسون جدارهم المقابل للمدينة ظلّوا يجهلون ما حصل ولم يدروا بالنصر الذي احرزوه حتى سمعوا صيحات الرجال وولولة النساء في المدينة، وفي تلك اللحظة بدأوا يرون اخوانهم من بعيد وهم يعودون الى معسكرهم محملين باكداس من التروس المكفتة بالذهب والفضة، ومثلها من الدروع الملطخة بالدماء فضلاً عن الكؤوس والخيام المصنوعة على الطرز الغالي. بهذه السرعة المذهلة انحلّ هذا الجيش العرموم وتلاشى مثل حلم أو خيال. وقتل معظم رجاله في ميدان القتال امّا المدافعون عن [اليسيا] فلم يروا

بدأ من الاستسلام لقيصر بعد معاناتهم الأمرين. ولبس [ڤرچنتوريكي] اللولب المحرك لكل هذه الحروب خير ما لديه من دروع وتقلد أحسن السلاح وزين حصانه وخرج من باب المدينة متجهاً نحو قيصر. وكان هذا جالساً فترجل بالقرب منه ونزع درعه واقتعد الأرض عند قدميه صامتاً حتى اقتيد واحتفظ به الموكب النصر.

كان [قيصر] قد قرر منذ أمد بعيد اسقاط [پومپي] كما كان [پومپي] قد أعتزم ان يفعل المثل بقيصر. ذلك لأن الخوف من [كراسوس] الذي كان عامل الصفاء والتهادن فيما بينهما لم يعد له وجود بعد ان قتل هذا في بلاد الپارثيين.

فلم يكن لمن يريد ان يجعل نفسه سيد روما بلا منازع - إلاّ ان يتغلب على منافسه فحسب. وكانت الضمانة الوحيدة لبقاء الواحد هو ان يسبق الآخر في ازاحة ذلك الذي يخشاه، ولم يكن [پومپي] يشعر بتلك المخاوف اذ ظلّ حتى الزمن القريب يستهين بقيصر ويستصغره لاعتقاده أنه قادر على التطويح به بالسهولة التي رفعه. إلاّ ان [قيصر] الذي لم يحد عن خطته الاولى ضد منافسه، انسحب الى خلوه كالمصارع الحاذق، ليعد نفسه للنزال جاعلاً الحروب الغالية ميدان تمرينه. فحقق التقدم المنشود في قابلياته العسكرية كما ضاعف مجده باعماله العظيمة حتى عد صنو [پومپي] عند المقارنة ولم تعنّ له فرصة الاّ انتهزها، سواء اتلك التي يتيحها له [پومپي] أو التي تتحفه بها احداث الزمان. أو فساد الحكم في روما، فقد بلغت الحالة حداً صرت معه تجد كل المرشحين لمناصب الدولة بدون استثناء ينفقون الاموال الطائلة لرشوة الناس علانية وبدون حياء. فيأخذ الناخبون ما قسم لهم. ولا يكتفون باسناد راشيهم عن طريق اعطائه اصواتهم بل يدعمونه باقواسهم وسيوفهم ومقاليعهم اذا اقتضى الأمر. وهكذا فبعد أن لطخوا ميادين الاقتراع عدة مرات بدماء الناخبين. تركوا المدينة دون حكومة، لتهتز كسفينة دون ملاح يقبض على سكانها ويديره ومن كان يملك شيئاً من العقل تراه شاكراً حامداً لو أنتهى عهد الفوضى الجاهلية العاصف بما لا اسوء من الحكم الملكي المطلق. وبلغت الجرأة ببعضهم على التصريح بأن العلاج الناجع للحكم هو النظام الملكي. وان عليهم ان يتقبلوا هذا العلاج من يد ارق وارحم الاطباء يقصدون [پومپي]، الذي تظاهر بالرفض لكنه بذل في الواقع اقصى الجهود حتى ينصب دكتاتوراً. وادرك [كاتو] ما يجول في رأسه فأقنع مجلس الشيوخ باعلانه قنصلاً أوحد، فلعلّ عرض نوع من الملكية المقيدة بالقانون يصرف نظره عن اطلاب الدكتاتورية. وزادوا على ذلك فصوتوا على استمراره في حكم اقليميه اسپانيا وافريقيا، فحكمهما عنه نواب له. واقترعوا ايضاً على الاستمرار في الانفاق على جيوشه من الخزينة العامة وخصصوا له ألف تالنت سنوياً.

فما كان من [قيصر] الأ وطلب من مجلس الشيوخ منصب القنصلية مع تمديد حاكميته على الاقاليم الغاليّة ولم يتدخل [بومبي] في الطلب باديء ذي بدء. إلاّ ان [مارجللوس] و[لنتولوس] عارضاً في الطلب وكان من أشد مبغضي [قيصر] لا يتورعان عن اللائق وغير اللائق اذا كان في ذلك اهانته وتحقيره فقد ألغيا امتياز المواطنة الرومانية الممنوح لأهالي [كوميوم الجديدة Comun] وهي مستوطنة اسسها قيصر في بلاد الغال وأمر [مارجللوس] الذي كان وقتئذ بمنصب القنصل أن يحضروا أحد شيوخ تلك المستوطنة اثناء وجوده في روما فجُلد. وقال له انه أحدث فيه العلامة كدليل على انه ليس مواطناً رومانياً. وأشار عليه ان يكشف عن آثار الجلد لقيصر عند عودته.

وبعد انتهاء مدة قنصلية [مارجللوس] بدأ قيصر يمطر هداياه على كل ذوى الوظائف العامة، من الغنائم الحربية. وانقذ [كيوريو] التريبيون من ديونه الكثيرة واعطى [پاولوس] الذي كان قنصلاً ألفاً وخمسمائة تالنت فبنى بها دار القضاء الفخمة الملاصقة للفورم، وحلت محلّ الصرح المشهور باسم [فولڤيان Fulvian] فادرك القلق بومبي من هذه التمهيدات وبادر الى اتخاذ الخطوات الضرورية بصورة مكشوفة، بنفسه أو عن طريق اصحابه، لاختيار خلف لقيصر وارسل يطلب منه اعادة الجنود الذي استعارهم منه لمواصلة الحرب في بلاد الغال. فلبى [قيصر] طلبه ومنح كل جندي هبة قدرها مائتان وخمسون درهماً. ولم يكن ما اشاعه الضابط الذي اعاد بالجنود الى [پومپي] بالمنصف أو الجميل، وأخذ يتزلف الى [پومپي] باختراع الاكاذيب كقوله ان جيش [قيصر] يكن له الحب والتقدير وهو طوع بنانه، وان كانت اموره في روما ليست على ما يرام بفعل بعض الحسّاد وحالة الحكومة التاعسة، فحسب الجنود ان يصلوا الى ايطاليا - انهم سيعلنون ولاءهم له في الحال ان قيصر ارهقهم بحملاته المتعددة فأصبح وضعهم لا يطاق كما انهم يتوجسون خيفة من طموح قيصر الى حَدّ تهيئة نفسه للعرش الملكي.

فأختال [پومپي] بنفسه زهواً وترك جانباً استعداداته العسكرية اطمئناناً منه الى هذه الانباء المكذوبة، وبدأ وكأنه لا يحسّ ولا يخشى خطراً. واقتصر في محاربته على الخطب واصوات الناخبين وهو ما لم يكن يهتم به [قيصراً]. واثر عن ضابط له ارسله الى روما. انه وقف امام مجلس الشيوخ يوماً. وعندما ذكروا امامه ان الشيوخ لن يمددوا حكم قيصر. ضرب غمد سيفه بيده وقال:

- هذا سيمدده.

على ان المطاليب التي عرضها قيصر كانت معقولة، تنوح منها رائحة الاعتدال واللطف فقد

اقترح أن يضع سلاحه جانباً وان يحذو [پومپي]حذوه فيعودا مواطنين عاديين ويرجع كلاهما الشعب لأصدار حكمه فيهما وقال انه أولئك الذين اقترحوا ان ينزعوا سلاحه وان يثبتوا [پومپي] في سلطاته التي يتقلدها الآن، انما يثبتون شخصاً واحداً في سلطة لا حدود لها، تلك السلطة التي اتهموا الشخص الآخر بأنه يريدها لنفسه.

وعندما وضع [كيوريو] باسم قيصر هذه المقترحات امام الشعب ارتفع له الهتاف عالياً ورمى بعضهم قلائد الزهر اليه وشيعوه متوجاً بالزهر كما يشيعون المصارعين الفائزين وابرز [انطوني] وكان آنذاك تريبونا رسالة من قيصر بهذا المآل وتلاها وعارضها القنصلان بشدّة. إلاّ ان [سكيپيو] حمو [پومپي] أقترح على الشيوخ ما يلي:

«ان لم يضع قيصر سلاحه في غضون فترة زمنية محددة، فانه يعتبر عدواً لروما»

ووضع القنصلان الاقتراحين التاليين في المناقشة:

«هل يسرّح [پومپي] جنوده؟» ثم «هل يسرح [قيصر] جنوده؟»

لم توافق على المقترح الأول غير قلة فسقط. ولكن حصل شبه اجماع على المقترح الثاني. على ان [انطوني] قابل ذلك باقتراح آخر وهو: «ان يتخلى كلاهما عن منصبيهما». فوافق الجميع عليه الاّ فئة قليلة.

وبدا [سكيپيو] عنيفاً للغاية. بينما تعالى صوت القنصل [لنتولوس] يقول:

- انكم لستم بحاجة الى الاقتراع حول لص، وانما بحاجة الى سلاح.

ونأجل الاجتماع في ذلك اليوم. وظهر الشيوخ في ثياب حداد اشارة الى ما يشعرون به من حزن بسبب تفرق كلمتهم.

ووردت رسائل أخرى من [قيصر] أكثر اعتدالاً وتنازلاً. اقترح فيها ان يستعفي من كل منصبٍ ويحتفظ ببلاد الغال التي هي داخل جبال الألب، مع [ايلليريكوم] وفرقتين عسكريتين الى أن يحين موعد الانتخابات القنصلية فعندئذ يرشح نفسه. وحاول شيشرون جهده (وكان قد عاد من صقلية) اصلاح ذات البين والإنة قناة [پومپي] وكان هذا يميل الى الموافقة على مقترحات [قيصر] خلا طلبه قيادة فرقتين. أخيراً استخدم [شيشرون] وسائل اقناعه مع اصحاب قيصر، ليقبل بحكم الاقليمين مع الاحتفاظ بستة آلاف جندي فقط، لكي تتم تسوية النزاع، ومال [پومپي] الى الموافقة الاّ ان [لنتولوس] القنصل رفض الاصغاء الى هذه التسوية وطرد [انطوني] و[كيوريو] من القاعة مشيعين بالاهانات. فزود [قيصر] بالذرائع

الكافية والمقبولة ليطلع على جنوده فوراً فيثيرهم ويهيج مشاعرهم. فهاهما شخصان حسنا السمعه سمعة وصاحباً نفوذٍ اضطراً الى الهروب بعربة اجرة وثياب العبيد تنكراً بها حتى خرجا من روما.

لم يكن في حوزة قيصر آنذاك، غير ثلاثمائة من الخيالة وخمسة آلاف من المشاة. لأن القسم الاكبر من جيشه قد تخلف وراءه شمال الألب. وكان من المقرر أن يأتي به ضباط تلقوا منه تعليمات خاصّة بهذا الشأن. وقد وجد ان الخطوة العملية الاولى التي سيخطوها نحو هدفه المرسوم لا تتطلب منه قوات كثيره. وان ما يحتاجه هو المفاجأة لتصيب جرأته اعداءه بالذهول. وانه من الافضل له بث الذعر في نفوسهم باقدامه على عملٍ لا يتوقعونه، لا محاولة التغلب عليهم بشكل اعتيادي، فان الاستعداد لذلك سيوقظهم من سباتهم. فأمر قواده وضباطه سباتهم. فأمر قواده وضباطه أن يتوجهوا الى [ارمنيوم Arminum] بسيوفهم فقط وبلا سلاح آخر. وان يحتلوها بأقل ما يمكن من الضجة وسفك الدماء. وارمنيوم، مدينة (غالية) كبيرة. اناب [هورتنيوس Hortenius] عنه في هذه العملية وقضى يومه مختلطاً مع الناس متسكعاً أو متفرجاً على المصارعين وهم يقومون بتمارينهم. وقبل ان يجن الليل بقليل أختلى بنفسه وبعدها عاد الى المجلس في القاعة وتحدث مع مدعويه للعشاء، وعندما انتشر الظلام ترك المائدة معتذراً من المدعويين. وطلب منهم ان يبقوا حتى يعود (كان قبل قيامه قد نبه قلةً من اصحابه بان يتبعوه متسللين واحداً بعد الآخر وان يسلكوا طرقاً مختلفة وركب هو عربة أجرة مضت به في الطريقٍ سافةً، وبعدها الوى عنان جيادها الى ارمنيوم. وبوصوله الى نهر (روبيكون) الذي يفصل جزئي بلاد الغال الألپية عن الايطاليا. توقف وراحت به الهواجس والافكار شتى المذاهب. ها هو الآن يركب الخطر الفعلي ويبدأ طريقاً لايمكن النكوص عنه. وزاد اضطرابه وهو يفكر في عواقب المغامرة التي سيقدم عليها وفي نتائجها الخطرة. تثبت من الطريق ثم تريث وأخذت الآراء المختلفة تصطرع في نفسه. مرة يقرر كذا، ومرة يقرر كذا، دون ان ينطق لسانه بكلمة. كان يصاب بالجورد عندما تصل به الحيرة وتقلّب الغايات حدهما الاقصى. ثم طفق يبحث الامر مع اصدقائه، ومنهم [اسنيوس پوليو Asinius Pollio] وتساءل كم سيجر عبوره النهر من مصائب على البشر. واي آثارٍ ونتائج له سيتحملها الاجيال القادمة؟

أخيراً نفض عن رأسه هذه الأفكار، وهو منفعل، واستسلم للقدر مستخدماً المثل الذي تجده متحيراً على شفتي أولئك الذين يستعدون لقذف أنفسهم في مغامرة خطيرة جريئة: «لقد القي الزّهر».

وبهذه العبارة توجه الى النهر وعبره وأسرع الى [ارمنيوم] فبلغها قبل ان يطلع النهار ودخلها. وقيل انه حلم في الليلة السابقة لدخولها، حلماً دنساً، فقد رأى نفسه وهو يواقع امّه.

بعد استيلائه على [ارمنيوم] فتحت الابواب على آخر مصاريعها كما يقول المثل - لاستقبال الحرب في كل بقعة وزاوية من الارض والماء. وديست حدود الاقاليم مثلما ديست حدود القوانين والشرائع وما كان لأحد أن يتصور فرار الرجال والنساء في ايطاليا من مدينة الى أخرى مذعورين كما حدث في الأزمان الغابرة، وتسود الفوضى التامة البلاد حتى لكأن المدينة تترك موقعها لتلوذ بالمدينة الأخرى. وتدفقت سيول اللاجئين على روما فأصبحت تموج بهم. وعجز القضاء والحكام عن القيام بواجباتهم وتمشية امور الدولة ولم تفد بلاغة أفصح الخطباء في تهدئة الحال. كانت المدينة اشبه بحطام سفينة بائسة الحظّ، حطمها عنف العاصفة. وثارت الخواطر في الناس وتضاربت الآراء وانكشفت خفايا الضمائر عن النزوات المتطرفة. فلم يعد التائقون الى اي محاولة تغيير يخفون مشاعرهم ان هم تلاقوا في هذه المدينة الكبيرة، بافراد الحزب المناوئ القلق الحزين فيثيرون الجدال والشحناء بالافصاح عن ثقتهم التامة بنتائج الاحداث الجارية. وزاد [پومپي] اضطراباً على اضطرابٍ وقلقاً على قلق من الحاح الآخرين وثرثرتهم. بعضهم يقول له انه يستأهل كل ما يعانيه الآن، لأنه سلح قيصر ضد الحكومة وضدّ نفسه وآخرون يلومونه لأنه تغاضى عن لنتولوس عند اهانته [قيصر] بعد أن عرض هذا التنازلات الكثيرة وتقدم بالمقترحات المعتدلة لحسم النزاع وانهاء الخلاف. وطلب منه [فاڤونيوس] ان يدق الأرض بقدمه! (مذكراً اياه بزهوه في مجلس الشيوخ، حين طلب فهم أن لا يشغلوا بالهم بالاستعداد للحرب لانه قادر بخبطة واحدة من قدمه، ان يملأ ايطاليا كلها بالجنود). والواقع ان [پومپي] كان انذاك يملك من الجنود ما يزيد عن قوات [قيصر] الاّ أن التقارير الكاذبة والانذارات المبالغ فيها حالت بينه وبين عمل ما يريد، فقد انبيء بان العدو سيداهمه وشيكاً بعد ان سحق كل مقاومة اعترضته، فوهى عزمه وترك نفسه تنساق وراء الصيحة العامة واصدر بياناً أعلن فيه ان المدينة في حالة فوضى شاملة. ثم غادرها بعد أن امر الشيوخ بتركها واللحاق به. وبان لايبقى أحدٌ ممن لا يفضل الاستبداد على الوطن والحرية.

وفرّ القنصلان بسرعة، من غير أن يقدما القرابين المعتادة في مثل هذه الظروف، واقتفى اثرهما معظم الشيوخ، حملوا معهم اموالهم ومقتناهم وخفوا مسرعين الى ترك المدينة، مثل سارق جاره. وجرّ التيارَ العام عددٌ من مساندي قيصر، فنبذوا جانباً مشاعرهم الخاصّة وسط الذعر الشامل وهربوا مع الهاربين. انه لمما يثير الحزن ان ترى تلك المدينة وقد عمتها الفوضى وسادها الاضطراب مثل السفينة التي اسقط في يد صخرة ملاحيها فتركوها تسير على هواها

لتصطدم كما شاء لها القدر باية صخرة تعرضها. مع هذا كلّه ورغم الحالة المؤلمة كنت ترى الناس الهاربين لايفرقون بين مسقط رأسهم المتروك ومنفاهم الذي اجبروا عليه، فهربوا من روما كأنهم يهربون من معسكر [لقيصر] كلّ ذلك ثقةً منهم [بپومپي] واكراماً له حتى ان [لابينوس Labinus] الذي كان من أخلص اصدقاء قيصر واحد قواده الكبار الذين حاربوا معه بتفانٍ في بلاد الغال فقد تخلّى عنه والتحق [بپومپي]. وبادر قيصر فالقى الحصار على [كورفينيوم Corfineuim] التي كانت تحميها ثلاثون كتيبة بأمرة [دوميتيوس]. هذا القائد ادركه اليأس من جدوى الصمود والاحتفاظ بمدينته فطلب من طبيب في حاشيته ان يسقيه سُمّاً، فناوله جرعة وكان يؤمل ان يقضي بها على نفسه. وما ان استقرت الجرعة في جوفه حتى أقبل من يخبره مؤكداً ان [قيصر] اظهر منتهى الرحمة وصفح من كل الأسرى الذين وقعوا في يده، فطفق القائد يندب سوء حظه ويلوم تسرعه في قراره فطيب الطبيب خاطره قائلاً انه اعطاه عقاراً منوماً ولم يعطه سُمّا. فكان فرحه عظيماً وهب من سريره وقصد قيصر واعطاه عهد الاخلاص. على انه انحاز الى جانب [پومپي] فيما بعد. ان هذه الانباء هدات من روع الباقين في روما وجعلتهم يعدلون عن تركها، واعاد اليها بعض من غادرها.

وضم قيصر الى جيشه جنود [دوميتيوس] وكان هذا ديدنه في كل مدينة يفتحها، فتزيد قواته على حساب قوات [پومپي] حتى اذا شعر بأنه يمتلك القوة الكافية للتعرض؛ تقدم يريد [پومپي] فلم يشأ هذا، وانسحب الى [بروندیزیوم] بعد أن ارسل القنصلين مع عدد من الجنود قبله الى [ديراكيوم] وركب [پومپي] متن البحر عندما علم باقتراب قيصر كما ورد ذلك في سيرته مفصلاً. ولو كان قيصر يملك سفناً لما تردد في ملاحقته، الاّ أنه قفل راجعاً الى روما وقد اصبح سيد ايطاليا بلا منازع ومن دون ان يريق قطرة دمٍ في غضون ستين يوماً فقط، فوجد المدينة هادئة خلافاً لما توقع. وكان فيها عدد كبير من الشيوخ فواجههم بكلّ احترام وخاطبهم باللهجة اللائقة. وطلب منهم أن يبعثوا باقتراحه التالي الى [پومپي] انه يرضى بأية شروط معقولة لحسم النزاع واجراء الصلح. فلم يشاؤا ذلك اما خوفاً من [پومپي] الذي تخلوا عنه، واما لأنهم لايعتقدون بأن [قيصر] جاء في عروضه، وانما قصد ان يظهر امامهم شخصاً معتدلاً معقولاً.

وحاول [ميتيللوس] التريبون منعه من سحب المال من الخزينة العامة، مستنداً الى نصوص القوانين التي تمنع ذلك فقال قيصر:

- للقانون زمان وللسلاح زمان. إن كنتُ لا أعجبك فأنصرف من هنا، الحرب لاتسمح بحرية الكلام فان وضعت سلاحي جانباً وحققت السلم فتعال واخطب ما شاءت لك الخطابة.

واردف يقول: واسمع هذا منيّ، أنك تريد أن تحدّ من حقيّ المشروع. وانت في الواقع وكلّ من وقف ضدي وهم الآن في قبضتي، قد يعاملون المعاملة التي ارتأيها انا.

ثم توجه الى الخزينة يريد فتحها. فلم يجد مفاتيحها فاستقدم الحدادين وامرهم بكسر الاقفال. فعاد [ميتيللوس] يعارض في ذلك وراح بعضهم يشجعه. فارتفع صوت القيصر منذراً ومهدداً اياه بالموت أن بدر منه ما يزعجه وقال: - واسمع منيّ. لعلك لاتعلم ايها الشاب ان القول لأكره عندي من الفعل.

فما كان من [ميتيللوس] الاّ وان انسحب خوفاً. وراح بعد ذلك ينفذ كلّ اوامر قيصر في تأمين نفقات الحرب.

وزحف نحو اسپانيا، عازماً قبل كل شيء على سحق [افرانيوس Afranius] و[ڤارو Var-ro] نائبي [پومپي]. وكان يرمي من ذلك الى الاستيلاء على الجيوش التي يقودانها وانتزاع الاقاليم التي يحكمانها. وبذلك يكون في وضع جدّ ملائم لمنازلة [پومپي] دون ان يخشى عدواً خلفه. في هذه الحملة تعرض شخص [قيصر] الى مخاطر كثيرة بسبب الكمائن التي نصبت له. كما تعرض جيشه للجوع بسبب نقص الافوات لكنه ظلّ يتعقب عدوه ويستفزه للقتال، ويحاصر استحكاماته ويدك قلاعه حتى وفق أخيراً الى الاستيلاء على المعسكرات وعلى الجيش ولم يسلم غير القادة الذين فروا والتحقوا [بپومپي].

وعند عودته الى روما نصحه حميّه [پيزو] بارسال وفد الي [پومپي] للمفاوضة في الصلح. الاّ ان [ايساوريكوس Isauricus] ثناه عن ذلك أختار لأجل ان ينال لديه حظوة. وبعد هذا اعلنه مجلس الشيوخ دكتاتوراً ومنحه الصلاحيات اللازمة لممارسة هذا المنصب. فدعا المبعدين الى العودة، وردّ حقوق المواطنة الى اولاد اولئك الذين وقعوا تحت طائلة [سيللاّ] وخفف عن كاهل المثقلين بالديون باصداره قانوناً يخصم به جزء من الفوائد لمتراكمة، واصدر قوانين أخرى بمثل هذه الروح السمحاء ولم تكن بالكثيرة، ثم استقال من منصب الدكتاتور بعد احد عشر يوماً من توليه وأكتفى باعلان نفسه قنصلاً مع [سرڤيليوس اساوريكوس] ثم ترك روما الى ميدان القتال. واغذ السير، تاركاً جيشه وراءه. مصطحباً ستمائه فارس منتخبين وخمس فرقٍ فقط وبهذه القوة الصغيرة ابحر في اوائل شهر كانون الثاني (الذي يوافق تقريباً الشهر الاثيني المسمى پوسيديون) وبعد اجتيازه البحر الآيوني استولى على [اوريكوم Oricum وپوللونيا Apollonia] ثم ارسل سفنه الى [برندبزيوم] لتنقل بقية جيشه المتخلف في المسيرة ان رجال هذا الجيش لم تعد في اجسامهم حيوية الشباب واندفاعه. كما ان الملل قد شاع في نفوسهم من الحروب المتواصلة، فلم يسعهم وهم في سيرهم

الاّ ان يشكوا من الحال ومن قيصر فيقولون:

- اين؟ ومتى سيدعنا [قيصر] هذا نعيش في دعة وسلام؟ انه لينقلنا من موضع ال موضع، ويستخدمنا كأننا غير قابلين للعطب والتلف، وهو لايملك شعوراً بالارهاق والتعب. ان حديدنا نفسه قد فسد من كثرة الضرب والقراع الا فليداخلنا بعض الرفق بدروعنا وصفائحنا التي كادت تبلى من كثرة الاستعمال. وجراحنا ولا نذكر غيرها يجب ان تحمله على التفكير بان من يقودهم هم كائنات حية لا فرق بينهم وبين سائر البشر في تعرضهم الألم واحساسهم بالغنى. ان الآلهة نفسها لا تقوى على ايقاف فصل الشتاء، ولا ان تمنع هبوب العواصف في اوقاتها المقررة. ومع هذا فهو يدفعنا دفعاً الى الأمام كأننا لا نتعقب العدوّ بل نفرّ من وجهه!

بهذا كانوا يتحدثون وهم يسيرون متثاقلين نحو [برنديزيوم] حتى اذا بلغوها ووجدوا [قيصر] قد سبقهم الى الابحار انقلبت مشاعرهم رأساً على عقب وراحوا يلومون انفسهم قائلين انهم خانوا جنرالهم. وعاقبوا ضباطهم لتباطئهم في السي، وصعدوا الى المرتفعات المشرفة على البحر باتجاه [ايبروس] وطفقوا يراقبون ظهور السفن التي ستقلهم الى قيصر - بعين لا تطرف.

في تلك الاثناء كان [قيصر] قد اختار [ابوللونيّا] مقراً له، الا] انه لم يكن قادراً على التعرض للعدو لافتقاره الى القوات الكافة. وزاد قلقه لتأخر وصول قواته الأخرى من [برنديزيوم] وادركته الحيرة وبات متوتر الاعصاب. أخيراً اقدم على مغامرة جنونية. فإستقلّ البحر وحده دون ان يعلم احداً. ونزل قارباً ذا اثني عشر مجذافاً متوجهاً الى [پرنديزيوم] كان البحر انذاك مشحوناً باسطول العدو الضخم ولكنه صعد القارب متنكراً بزيّ العبيد والقى بنفسه في مقره، نكرةً من النكرات. وكان نهر [اينوس Anius] هو وسطة الوصول بهم الى عرض البحر. وفي تلك البقعة بالذات كانت تهب عادةً ريح خفيفة كل صباح من اليابسة الى البحر فتجعل مصب النهر هادئاً خالياً من التيارات، بدفعها الامواج الى الامام. الا ان ريحاً قوية هبت من البحر في تلك الليلة فشلت عمل الريح الخفيفة المتجهة الى البحر. فزادت مقاومة الامواج البحرية عند مصب النهر وهاج هائجها واخذ تيارها الشديد يدفع ماء النهر من حيث اتى بعنفٍ وضراوة اعجزا القبطان عن الخروج به الى عرض البحر. ولم يجد سبيلاً غير الرجوع. فأمر بحارته بالاستدارة والعودة. فما كان من قيصر الا وكشف عن هويته ممسكاً بيد القبطان المشدوه وقائلاً:

- إمض في طريقك يا صاح ولا تخش شيئاً، فأنت تُقّل قيصر ومستقبله.

لم يعد البحارة يكترثون بالعاصفة بعد سماعهم هذا القول. وانحنوا على مجاذيفهم يضربون بها باقصى قوةٍ. وبذلوا كلّ ما في طوقهم للوصول الى البحر. حتى اعياهم الأمر ودخل القارب كثير من الماء وادرك [قيصر] ما يحدق به من خطر وهو في مصب النهر، فسمح للقبطان بالعودة كارهاً. وعند نزوله اليابسة استقبلته جموع من جنوده باللوم والتأنيب. وكانوا ساخطين منه لقلة ايمانه بمقدرتهم، ولشعوره بالضعف عن نيل نصرٍ بهم وحدهم. فأزعج نفسه وعرض حياته للتهلكة بسبب الغائبين، كأنه فقد الثقة بالحاضرين.

وبعد هذا بقليل وصل [انطوني] بالقوات من [برنديزيوم] فشجع ذلك قيصر على منازلة [پومپي] وان كان هذا قد أختار لقواته أفضل المواقع على منازلة [پومپي] وان كان هذا قد أختار لقواته أفضل المواقع، ومورده من الأقوات والمهمات لاينقطع براً أو بحراً على السواء. أما [قيصر] فكان يشكو في البداية قلة الارزاق وكان في النهاية يفتقر الى الحد الأدنى من الضرورات. وكادت المجاعة تتفشى في الجيش حتى اضطر جنوده الى الحفر عن نوع من الجذور تنمو هناك فينقعوها بالحليب لتكون مستساغة. وكانوا أحياناً يعملون منها خبزهم، ويتقدمون الى ربايا العدوّ الامامية ويقذفون الى جنوده ببعض من هذه الأرغفة وهم يقولون «طالما تنتج الارض مثل هذه الجذور فلن نرفع الحصار عنكم». وكان پومپي شديد الحرص على ان لا تصل هذه الارغفة والكلام التي يرافقها، الى جنوده كانت معنوياتهم قد هبطت وارتخت مفاصلهم للرهبة التي داخلتهم من شراسة اعدائهم واعتيادهم الخشونة وصاروا ينظرون اليهم نظرتهم الى ضوار.

واستمرت المناوشات على مشارف واستحكامات [پومپي] الامامية وكان النصر فيها جميعاً لقيصر، عدا واحدة. فقد أجبر العدو رجاله على الفرار بشكل هدد معسكره كله، حتى كاد يفقده. فقد صال عليهم [پومپي] صولة قوية فلم يصمد امامه رجل واحدٌ وملئت الخنادق بالقتلى وسقط العديد على متاريسهم واستحكاماتهم بعد ان دفعهم العدوّ اليها. واعترض قيصر طريق فرارهم وحاول ارجاعهم الى ميدان القتال فلم يفلح وعندما ذهب ليمسك بالالوية رماها حاملوها على الأرض فغنم العدو اثنين وثلاثين لواءً، ولم ينج قيصر الاّ باعجوبة. فقد تشبث باحد الجنود، وكان ضخم الجثة متين الالواح وأخذ يعدو معه ويصيح به ان يقف ويصمد فشهر سيفه وقد أمتلأ خوفاً من الخطر الذي يلاحقه كأنه يهم يطعن قيصر، الاّ ان حامل درعه اهوى على يده بضربة فقطعها. وبلغت حالة قيصر درجة لا توصف. لكن [پومپي] اما زيادةً في الحذر، أو لسوء حظٍ، لم يبادر الى انزال الضربة القاضية بعد نجاحه العظيم وانما تراجع، بعد ان تعقب العدوّ المندحر الى معسكره. وقال قيصر وهو يتابع انسحاب [پومپي] بانظاره:

- كان النصر اليوم حليف العدو لوحظوا بجنرال يعرف كيف يناله.

وانسحب الى خيمته واستلقى على فراشه يريد النوم فعزّ عليه وقضى ليلة ليلاء لم يقض مثلها من قبل، تتناهبه الأفكار وتتقاذفه الهواجس. ويقلب وجوه الرأى في حاله، الى ان انتهى أخيراً الى نتيجة واحدة، وهي انه لم يحسن ادارة دفة الحرب. ها هنا امامه بلاد خصبة وجميع مدن مقدونيا وتساليأ الغنية فلم يعرها بالاً ولم يجرّ الحرب الى تلك الأصقاع، بعد ان جثم قرب الساحل حيث يتمتع اعداؤه بافضلية اسطول قوّي. انه والحالة هذه محاصر بافتقاره الى المهمات والاقوات، وليس محاصراً الآخرين بالسلاح.

في خضم محنته هذا اهتدى الى الحلّ المنشود. فرفع معسكره صباح اليوم التالي وسار معتزماً مهاجمة [سكيپيو] الذي كان معسكراً في مقدونيا، وبذلك سيحقق احد أمرين أمّا أن يرغم [پومپي] على السير نحو بلادٍ بعيدة عن ساحل البحر فيفقد ميزته الحالية ويصعب عليه امداد قواته بالارزاق عن طريق البحر. وإما ان يتسنى له التغلب على [سكيپيو] ان آثر [پومپي] البقاء حيث هو.

ان رفع [قيصر] معسكره والابتعاد عن جيش [پومپي] جعلهم يستنجون بأنه ينهزم من امامه. فقوى ذلك من عزماتهم والهب حماستهم لتعقيبه، الاّ ان [پومپي] كان يخشى المجازفة في معركة يتوقف عليها الكثير. ولكونه كان حسن التجهيز وافر القوت مهما امتد به الزمن، فقد ارتأت خطّة انهاك الجيش قيصر واضعاف معنوياته التي لم يكن يقدر انها يستصمد طويلاً، صحيح ان قيصر يملك خيرة الرجال، مقاتلون حنكتهم الحرب وعجمت عودهم وشجاعتهم لايقف امامها شيء في اية معركة. الاّ ان مسيراتهم الطويلة العديدة، وسهرهم في الحراسة، هدّ من قواهم وارهقهم، وهم ما عادوا فتياناً، ولم ولم تعد اجسامهم تتحمل الجهد، وتبعاً لذلك لم تعد شجاعتهم تغني. فضلاً عن ذلك فقد تفشى فيهم - على ما قيل - مرض سارٍ بسبب طعامهم غير الصحي، وأكثر من ذلك أن قيصر كان خالي الوفاض لا مال لديه ولا اقوات. ولهذا قدّر [پومپي] ان قيصر سينتهي امره وتذهب ريحه بوقت قصير. فلم يشأ تعقيبه والتعرض له. لم يؤيده أو يشكره على هذا القرار غير [كاتو] فقد شاع السرور في نفسه لقرار فيه اقتصاد لارواح مواطنيه. عندما شاهد جثث القتلى الذي سقطوا من جيش قيصر في آخر معركة وكان عددهم الفاً واحدة ادار ظهره وغطى وجهه واجهش بالبكاء. لكن الجميع راحوا يلومون [پومپي] لتردده في قطف ثمرة نصره واحجامه عن القتال. وحاولوا غمز قناته واخراجه عن طوره بالتشبيهات والالقاب. فأطلقوا عليه اسم [أغا ممنون] ولقبوه [بملك الملوك] كأنما يريد الاستمساك بسلطاته الملكية الحالية، بل مستمتع برؤية هذا العدد الكبير

من القادة رهن اشارته، وتحت امرته، وامام خيمته. وشكا [فامثونيوس] (وهو الرجل الذي يقلد كاتو في الصراحة) شكوى مرة من هذا القرار، وقال انه سيحرم من أكل تين [توسكولوم Tusculum] هذه السنة أيضاً، لأن [پومپي] مغرم بالقيادة العامة. وأما [افرانيوس] الذي كان قد عاد مؤخراً من اسپانيا، فبسبب الهزيمة الشنعاء التي مني بها هناك، ولكونه كان موضع شكٍ في أنه أخذ من [قيصر] رشوة ليسلمه جيشه، فقد اراد تبديد هذا الشكّ بتساؤله: «لا أدري لماذا لاتحاربون شاري الأقاليم هذا؟».

هذه الأقوال ارغمت [پومپي] على المعركة، فأنطلق جاداً في اثر القيصر، وكان هذا لا يقوم من عقبة الاّ ليسقط في أخرى. ففي سيرته هذه لم يمرّ ببلد قابل بتموينه، بعد ان هوت سمعته الى الحضيض بسبب الهزيمة الأخيرة. على ان بعض التحسن طرأ عليه عند وصوله [گومفي Gomphi] المدينة التسالية. فقد وجد ارزاقاً كافية لجيشه، فضلاً عن كماليات أخرى. مثل الخمر فقد وجدوا كميات كبيرة منها. فشربوا حتى ارتووا، وسرت حميّاها في جسومهم فراحوا يلهون ويعبثون ويعربدون على الطريقة الباقوسية وهم سائرون. وشفوا من امراضهم وارتاحت ابدانهم وشغروا كأنهم خلقوا من جديد.

لما وصل الجيشان [فرساليا Pharsalia] وعسكرا عادت خطة [پومپي] الأصلية تداعب فكره، وصمم على تحاشي الاشتباك بعد حصول بعض الخوارق، وبسبب رؤيا رآها. إلاّ أن اتباعه كانوا على درجة من الثقة بالنجاح حتى ان الخلاف نشب بين [دوميتيوس، وسپنثر، وسكيپيو] على من يخلُف [قيصر] في القيادة منهم. وبعث كثيرون الى روما لاكتراء بيوت ملائمة لسكن القناصل والپريتورين يدفعهم ايمان قوى بأن هذه المناصب ستسند اليهم بعد انتهاء المعركة.

كان صنف الخيالة بصورة خاصة مصراً على القتال. فالفرسان مجهزون بأحسن السلاح وأفضل الخيل، يختالون بجمال منظرهم ويعتدون بشجاعتهم، ويعتمدون فضلاً عن ذلك على تفوقهم العددي، خمسة آلاف مقابل الفٍ واحدة هي كل ما يملك [قيصر]. وكان الفرق بين مشاة الجيشين كبيراً أيضاً فجيش [پومپي] يبلغ ٤٥ ألفاً في حين ان جيش قيصر لا يزيد عن ٢٢ الفاً.

جمع قيصر جنوده وخطب فيهم قائلاً:

- ان كورفينيوس Carfinius قادم بفرقتين للانضمام الينا. وهناك خمس عشرة كتيبة تحت امرة [كالينوس] معسكرة في ميغارا واثينا. هل تفضلون التريث حتى تلتحق بنا هذه القطعات ام ان نجازف بدخول المعركة؟

فهتف الجميع بما يفيد انهم يرفضون التريث. وطلبوا منه الاسراع جهده للتعرض للعدو وارغامه على المعركة. فضحى لتطهير جيشه، وبعد فحص الاضحية الأولى قال له الكاهن انه سيدخل معركة فاصلة خلال ثلاثة ايام. فسأله [قيصر] هل وجد في الاحشاء بشير خير؟ فأجاب الكاهن:

- هذا ما عليك ان تجيب انت عنه. لأن الآلهة تشير الى قرب حصول تغيير عظيم في مجرى الأمور. فان كنت تجد نفسك الآن حسن الحال فعليك ان تستعد لسوء حظٍ. وان كنت الآن سيء الحال فلك ان تأمل حسن الحظ.

في الليلة السابقة للمعركة، عندما كان [قيصر] يقوم بدورة منتصف الليل في المعسكر، شوهد نور في السماء باهر، خرج منه لهب وبدأ وكأن يمرق فوق معسكر قيصر ثم يسقط في معسكر [پومپي]. وتبين جنود المناوبة الذين جاؤوا صباحاً لتسلم الحراسة من خفراء الليل - موجة من الفوضى والقلق ناجمة عن الخوف تجتاح جنود العدو. ومهما يكن فان قيصراً لم يكن ليتوقع ان تنشب المعركة في ذلك اليوم بالذات. فقوض معسكره وامر بالسير نحو [سكوتوزا Scotosa] وعلى أثر رفع المضارب هرع كشافته اليه قائلين ان العدو يستعدّ للمعركة، فطار فرحاً بالنبأ. وبعد ان صلّى للآلهة: نظم جيشه في نسق المواجهة وقسمه الى ثلاثة اقسام: القلب، اناط قيادته بـ[دوميتيوس كالڤينوس Domituis Calvunus]. وامرّ [انطوني] على الميسرة، واحتفظ هو بالميمنة معتزماً دخول المعركة وهو على رأس الفرقة العاشرة. لكن ما تبين أن خيالة العدوّ تتخذ مواضعها قبالته بمظهرها البديع وعددها الكبير، حتى اصدر أوامره سراً بأن تتقدم ستّ كتائب من احتياط المؤخرة وتوم اليه خلف قطعاته. وافهمها واجبها الذي ستنجزه عندما تبدأ خيالة العدو هجمتها. ووضع [پومپي] نفسه في الميمنة واناط الميسرة [بدرميتيوس]. وأمّر حميّه [سكيپيو] على القلب وجمع ثقل الخيالة كلها في ميسرته بقصد تطويق ميمنة العدو وسحق هذا الجناح الذي يقوده [قيصر]. وكان الاعتقاد يسود جيش [پومپي] بأنه لم يخلق بعد ذلك [القلانكس] الذي يستطيع الصمود امام الهجمة الكاسحة الطريقة. ولا شك انه سيتكسرّ ويمزق فلولاً عندما تصكه قوة من الخيالة بهذه الضخامة. وعندما كملت استعدادات الجانبين واعطيت اشارة الهجوم. كان مشاة [پومپي] في المقدمة فأمرهم بالثبات في مواضعهم وتلقي الهجمة الأولى بهدوءٍ ومن غير ان يحدثوا خللاً في صفوفهم، الى ان يصبح العدو فهو على رميه رمح.

يلوم قيصر[پومپي] لاتخاذه هذه الخطة. فيقول، بدأ لي [پومپي] وكأنه لايدري كيف أن مُستهلّ الهجمة الأولى يكون على شكل اندفاع عظيم ويتم بهرولةٍ، يعطيان زخماً وقوة

لضربات الجنود. ويلهبان نفوس الرجال بنار الحماسة التي يجعلها الاصطدام الفعلي ناراً متقدة.»

وقد لاحظ [قيصر] عند تحريكه الجنود الى الامام أحد امراء سراياه، وهو عسكري مجرب مقدام يحث جنوده ويحمسهم على بذل كل ما في طوقهم. فناداه قيصر باسمه:

- كايوس كراسينيوس Caius Crasinius! أي آمال لنا، واي دافع للتشجيع؟

فبسط [كراسينيوس] يده ورفعها عالياً وصاح بصوت جهوري:

- سنفوز بنصرٍ باهرٍ، وسأستحق اليوم ثناءك، حياً كنت أم ميتاً.

قال هذا واندفع الى الامام وكان اول رجل يشتبك مع العدو، فتبعه جنوده المائة والعشرون. فأخترق بهم الصفوف الأولى وظلّ يضغط على العدو ويعمل فيه تقتيلاً حتى أخترق فمه حد سيف بلغ من القوة ان خرجت ذبابته من قذاله.

وفيما كانت معركة المشاة الرئيسة محتدمة. تقدمت خيالة [پومپي] بكل ثقةٍ من الميمنة. ونشرت صفوفها الى مسافة واسعة جداً تريد الاحاطة واكمال عملية التطويق. ولكن كتائب قيصر الكامنة اندفعت اليهم وهاجمتهم قبل الالتحام. وامسكوا عن قذفها بالرماح عن بعدٍ ولم يوجهوا طعناتهم الى الأرجل والافخاذ كما جرت العادة في قتال الخيالة عند الاشتباك القريب وانما سددوا الأسنة الى وجوه الراكبين المتقدمين كما أوصاهم قيصر، متوقعاً أن أولئك السادة الشبان الذين لم يدخلوا معركة من قبل ولم يعرفوا للجراح طعماً، وانما جاؤوا بشعورهم الطويلة وهم في زهرة اعمارهم واوج وسامتهم، لايهتمون بالخطر الآني ولا بالعار القادم،وصدق وصّح ما توقع. فالوا ليكونوا في نجوة من طعنات الرماح، التي لم يطيقوا حتى التطلع اليها وداروا على أعقابهم وغطوا اوجههم وقاية لها. وما ان عمتهم الفوضى المحتومة، حتى انكفاؤا على أعقابهم هاربين فأتلف عملهم هذا كلّ شيء. اذ اسرع المنتصرون الى الاحاطة بالمشاة ووقعوا على المؤخرة فمزقوها اربا. وعندما تطلع [پومپي] وهو على رأس الجناح الآخر، وشاهد خيالته مكسورة مدحورة فارقته ثقته بنفسه، ونسي أنه [پومپي الأكبر]، ووجد نفسه رجلاً جردته الآلهة من ملكاته العقلية، فأنسحب الى خيمته دون ان يلفظ كلمةً. وجلس فيها ينتظر النتيجة. حتى دارت الدائرة على الجيش كله وظهرت طلائع العدوّ عند العوارض والمتاريس المثبتة امام المعسكر والتحمت مع المدافعين عنها. واذ ذاك آفاق من ذهوله وقيل انه نطق بالجملة التالية:

- ماذا؟ افي المعسكر أيضاً؟

ونزع ثيات القائد المميزة له، وارتدى الثوب المناسب للفرار، وخرج من المعسكر متسللاً. وقد اتينا الى ما صادفه من أمور والى كيفية التجائه الى مصر، ومصرعه هناك.

عندما دخل [قيصر] معسكر [پومپي] ورأى جثث بعض خصومه على الارض وشاهد بعضهم الآخر يعاني سكرات الموت قال متنهداً:

- هذا ما كتب لهم في لوح القدر، لقد ألجاؤني الى هذه الضرورة. أنا [كايوس قيصر] بعد نجاحي في الحروب العديدة التي خضتها، أأدان ان لم اسرّح جيشي؟

يقول [پوليو Polio] هذه العبارة نطقها قيصر باللاتينية. الاّ انه دونها بقلمه فيما بعد باليونانية واضاف اليها قوله:

«معظم من قتل عند الاستيلاء على المعسكر كانوا خدماً، ولم يسقط في القتلى أكثر من ستة آلاف».

والحق معظم المشاة الأسرى بفرقه، وعفا عن كثير من الشخصيات البارزة ومنهم [بروتوس] أحد الشركاء في مؤامرة اغتياله لم يظهر أثر [لبروتوس] فور انتهاء المعركة الأمر الذي قلق له [قيصر] وكانت فرحته أعظم من قلقه عندما رآه يدنو منه حياً سليماً.

سبق هذا النصر عدد من الخوارق تكهنت. وابرزها كما قيل لنا - المعجزة التي حصلت [في تراليس Tralles]. كان ثم تمثال لقيصر مستقر على ارض صلبة، كما ان مادة التمثال كانت من أقوى واصلب المرمر، الاّ ان نخلةً نبتت عند قاعدة التمثال. وفي مدينة [پادوا] كان شخص يدعى [كايوس كورنيلوس] عرف بالعرافة الجيدة. وهو صديق للمؤرخ [ليڤي] وابن مدينته. اتفق لهذا العراف أنه كان يقوم بشعبذات معينة فاذا به - على ما يخبرنا ليڤي - يحدد ساعة المعركة. قائلاً للذين كانوا يراقبونه «الآن بدأت المعركة وتلاحمت الايدي» ثم نظر مرة ثانيةً في الاشارات وقفز كأن وحياً هبط عليه وصاح «قيصر! انت منصور».

واصيب الحاضرون بدهشة عظيمة. إلاّ انه نزع أكليل الزهر الذي كان يحيط برأسه وحلف انه لن يضعه ثانية حتى يتبين صحة نبواته ويؤكد [ليڤي] بصورة قاطعة ان ما يريده هو الحقيقة بعينها.

وخلد [قيصر] نصره هذا باعطاء التساليين حريتهم ثم جدّ في اثر [پومپي] وعند عبوره الى آسيا، حرر الكنيديين Cnidians ومنحهم حق الاقتراع وحول ثلث جزيتهم عن كاهلهم الى أهالي أقليم آسيا كل ذلك في سبيل اكرام ذكرى [ثيومپوپوس] مؤلف مجموعة اساطير. وبوصوله الاسكندرية انهي اليه نبأ مصرع [پومپي]. لكنه لم ينظر الى [ثيودوتس] الذي قدم

له رأس الصريع، وانما قبل ان يأخذ ختمه وهو يبكي. وبادر باطلاق سراح كل من أعتقله ملك مصر اثناء ما كانوا يهيمون على وجوههم في تلك الانحاء، وقربهم منه. وفي رسالة بعث بها الى اصدقائه بروما صرح لهم ان أكبر فرحة اتاحها له انتصاره، هي استطاعته انقاذ مياة مواطنيه الذين حاربوا ضده.

واما عن الحرب في مصر، فبعضهم يقول انها لم تكن مشرفة لسمعة [قيصر] ولم تكن ضرورية، وانما كانت بسبب غرامه بكليوپاترا فحسب ويلوم آخرون وزراء الملك ولاسيّما الخصي [بوثينيوس Pothinus] وزيره الأول. وهو الذي قتل [پومپي] ونفى [كليوپاترا]. فقد راح هذا يتآمر على قيصر سِراً (فاتخذ قيصر لنفسه الحيطة بقضاء لياليه ساهراً، مدعياً انه يشرب الخمر) ولم يكن [قيصر] يطيقه للاهانات الولية والفعلية التي لا يفتأ يوجهها اليه. كان يكيل لجنود [قيصر] قمحاً عفناً فاسداً، ويقول لهم:

- عليكم ان تقنعوا به لأنكم تأكلون على حساب الآخرين.

وأمر أن يؤتي طعام [قيصر] باطباق من الخشب والفخار، متعللاً بأن [قيصر] نهب كل الاواني الذهبية والفضية تحت زعم المطالبة بالمتآخر من الدين. (ان والد الملك الحالي كان مديناً لقيصر بمليون وسبعمائة وخمسين الف قطعة نقدٍ فخصم منها قيصر منها لاولاده سبعماءة وخمسين ألفاً ورأى من حقه المطالبة ببقية الدين وقتذاك لسدّ نفقات جيشه). وقال له [بوثينوس] حريّ به ان يبارح الآن مصر ويهتم بأمور أكثر خطورة من البقاء هنا، ويستسلم ماله فيما بعد مع الشكر. فأجابه قيصر: أنه لا يرغب ان يتخذ المصريين ناصحين ومستشارين له. وبادر حالاً الى استقدام كليوپاترا من منفاها. فاستقلت قارباً صغيراً وليس معها غير [پللودوروس الصقلي محل ثقتها. وارسى بها القارب في عتمة الليل بالقرب من القصر. وادركتها الحيرة ولم تدر كيف تدخل القصر خلسة، حتى اهتدت الى حيلة، فلفت نفسها بلحاف وقام ابللودوروس بربطه عليها بالحبال وحملها على ظهره كالصرة وادخل بها القصر حتى جناح [قيصر]. في البدء كان قيصر مأخوذاً بحضور ذهن كليوپاترا وذكائها المفرط. وبالأخير افتتن بصحبتها الى الحدّ الذي أجبر اخاها على مصالحتها في مشاركته بالحكم. واقيم حفل كبير بمناسبة الصلح. وفي اثناء هذا الحفل أكتشف حلاق قيصر المؤامرة التي حيكت لاغتياله. كان هذا الحلاق فضولياً مغرماً بتقضي الاحاديث. جعله جبنه المفرط يدس أنفه ويتتبع كلّ محادثة. وكانت المؤامرة بتدبير [اخيلاس] قائد قوات الملك. وپوثينوس الخصي. فبادر قيصر حال علمه بوضع حرس في القاعة وقتل [پوثينوس] لكن اخيلاس أفلت ولجأ الى الجيش واثار حرباً على [قيصر]؛ حرب اتعبته واورثته كثيراً من الصداع، صعب

عليه ادارتها بالفئة القليلة من الجنود الذين جاء بهم، مقابل قوات كبيرة جداً. ومما لاقاه من صعاب، قلة الماء، فقد حول خصمه مجرى الاقنية عنه. ومنها انه اضطر الى احراق سفنه كلها لما حاول خصمه قطع خطوط مواصلاته البحرية فتحاشى ذلك بهذه الخسارة ولكن اللهيب امتد الى الارصفة ثم الى المكتبة العظيمة فالتهمها. وفي اثناء معركةٍ بالقرب من [فاروس] قفز من حاجز المرفأ الى قارب صغير لمعونة جنودٍ له وقعوا في مأزق. فشد عليه المصريون من جميع الجهات فقذف بنفسه الى البحر ونجا سابحاً بعد لأي. ويروى انه كان يمسك بعدد من الرقوق المخطوطة وكانت هدفاً تسدد اليه الرماح المقذوفة بلا انقطاع. فكان يضطر من البلل ان يبقي يده مرفوعة بينما يستعمل اليد الأخرى فقط للسباحة. وقد غرق قاربه أيضاً.

بالأخير انضم الملك الى [اخيلاس] الاّ ان [قيصراً] هاجمهما وحقق الغلبة عليهما وسقط عدد كبير من القتلى في تلك المعركة ولم ير الملك بعدها فترك [قيصر] كليوپاترا ملكة على مصر وولدت له بعد قليل ابناً سماه الاسكندرانيون [قيصاريون]. ورحل هو الى سوريا ومنها الى آسيا. وهناك انبيء ان [فارناكيس Pharnacis] ابن ميثريداتس قد تغلّب على [دوميتيوس] الذي هرب الى البونتس بحفنة من الرجال، وان [فارناكيس] يستغلّ نصره هذا بكلّ ما فيه من نشاط وعزم، فقد اخضع [بيثينيا] و[كبدوكيا] وهو في سبيله للاستيلاء على ارمينيا السفلي، وارسل ايضاً يدعو جميع الملوك والحكام للثورة على الرومان، فأسرع [قيصر] في اثره بثلاث فرق ونازله بالقرب من [زيلا Zela] وطرده من البونتس، وهزم جيشه هزيمة تامةً. روى [قيصر] لصديقه [امانتيوس Amantius] تفاصيل هذه الحرب بعد رجوعه الى روما واستخدم ثلاث كلمات للتعبير عن السرعة والحزم التي اخذها به فقال (جئت. رأيت، انتصرت!) ولهذا الكلمات في اللاتينية قافيه واحدة فيكون وقعها على الاذن موسيقياً فضلاً عن ايجازها البليغ.

وركب البحر الى ايطاليا. ودخل روما في نهاية السنة، ولذلك حدد انتخابه دكتاتوراً. وهو منصب لم يستقم لغيره سنة كاملة وانتخب [قنصلاً] للسنة الثانية. واخذت السنة السوء تناله بعد حادثة عصيان بعض الجنود ومثلهم البريتوريينْ [كوسكونيوس Cosconis، وگالبا Gal-ba. ولم يكن عقابه لهما أكثر من تأنيب ناداهم فيه (بالمواطنين) بدلاً من مناداتهم «باخواني الجنود». ومنح كلّ واحدٍ منهم الف درهم. فضلاً عن قطعة أرض في ناحيةٍ من ايطاليا. كذلك اخذ الناس يغتابونه لإسراف [دولابلاً] وفجور ·[انطوني] وتبذير [كورفينيوس] الذي هدم دار [پومپي] ليبني مكانه داراً أفضل منه، فكان البناء الثاني ادنى مستوى من الأول كل هذه الأمور اثارت استياء الرومان وسخطهم. لكن قيصراً لم يكن بالذي يجهل أخلاق

اصحابه، ولا بالأعمى عن تصرفاتهم ولم يكن ليقرها لولا انه كان مضطراً الى استخدام هؤلاء لاجل تسيير دفة الحكم بالشكل الذي يرتضيه.

بعد معركة فرساليا هرب [كاتو] و[سكيپيو] الى افريقيا، وحشدا هناك قوات كبيرة بمساعدة (جوبا) الملك. فقرر [قيصر] قتالهم وعبر الخليج الى صقلية في حدود انقلاب الشتاء. ولأجل ان يزيل من رؤوس ضباطه اي املٍ بالتريث والبقاء، عسكر على ساحل البحر. وما ان هبت ريح موآتية حتى ركب هذه القوة في سواحل افريقيا وكرّ راجعاً خفية وقد ساورته المخاوف على القسم الاكبر لكن مخاوفه زالت عندما التقى به في عرض البحر فقادهم بنفسه الى المعسكر. وانبيء ان الاعداء يستخدمون على نطاق واسع تلك النبؤة الغابرة القائلة «بأن اسرة سكيپيو ستكون ابداً منصورةً في افريقيا.» وكان يوجد في جيشه شخص خامل الشأن وضيع الشخصية من أسرة [افريقيا] اسمه [سكيپيو ساللوتير Sallutio] فجاء به ووضعه على رأس جيشه [يصعب القول: هل اراد قيصر بذلك السخرية من سكيپيو الذي كان يقود جيش العدو، ام انه كان جاداً مؤمناً بالنبوءة يسعى لان تكون في صالحه؟) وهكذا بدأ الرجل الخامل الشأن كالجنرال في كل المعارك العديدة التي خاضها قيصر الى النهاية.

كان [قيصر] مفتقراً الى الاقوات لاطعام جنوده وعلف حيواناته، حتى اضطر الى اطعام خيله الاعشاب البحرية بعد غسلها غسلاً تاماً لازالة الملح منها، وخلطها بقليل من العشب الأخضر ليكون مذاقاً مستساغاً.

كان النوميديون بكثرة عددهم واصالة خيولهم سادة الميدان بلا جدال. فاينما ذهب [قيصر] تعقبوه وادركوه وبسطوا سيطرتهم على الارض. ومرة كانت خيالة قيصر في غفلة. لم يكن لديهم واجب يشغلهم فوقفوا يستمتعون بمشاهدة احد الافارقة وهو يرقص رقصاً عجيباً وينفخ في المزمار في الوقت نفسه وفيما هم منصرفون اليه وكلهم راجلون وقد اسلموا اعنة خيولهم الى بعض الصبيان، احدق العدو بهم من كل جانب فقتل بعضهم وتعقب الفارين حتى معسكرهم فكرّ عليهم ولو لم يخف قيصر و[اسينيوس پوليو] لمعونتهم ووقف فرارهم لانتهت الحرب.

وفي اشتباك آخر أيضاً كان العدو مستظهراً فأمسك قيصر بعنق أحد حملة الأعلام وهو ممعن في الهرب والوى وجهه نحو العدو بقوة وقال:

- انظر! هذا هو سبيلك الى العدوّ.

انتفخ [سكيپيو] زهواً بهذا النصر. وراودته فكرة الاشتباك في معركة فاصلة. فترك

[افرانيوس] و[جوبا] كلاً مع قطعاته المنفصلة والمتقاربة في عين الوقت وتقدم بنفسه نحو [تابسوس Thapsus] وهناك شرع يقيم معسكراً مستحكماً على بحيرة يتخذها محوراً للعمليات الحربية، وملاذاً يلجأون اليه في عين الوقت. وفيما كان [سكيپيو] منهمكاً في اعداد معسكره سار اليه [قيصر] بسرعة لاتصدق فأجتاز غابات كثيفة واراضي لم يسبق لاحدٍ ان أجتازها لصعوبتها، وحاصراً قسماً من جيش العدو وهاجم القسم الثاني هجوماً جبهياً فهزمه. ولم يتريث بل واصل استغلال حسن حظّه واجتاح في هجوم آخر معسكر [افرانيوس] ونهب معسكر النوميديين. واعتبر [جوبا] نفسه سعيداً لأنه نجح في الفرار، وهكذا بساعات قلائل من يومٍ واحدٍ تمكن قيصر من الاستيلاء على ثلاثة معسكرات وقتل خمسين الفاً، ولم يخسر غير خمسين رجلاً.

تلك هي تفاصيل هذه الحرب كما رويت، ويقول بعضهم ان قيصر لم يكن موجوداً اثناء المعركة. فقد فاجأته احدى النوبات الاعتيادية من الصرع وهو يشرف على تنظيم صفوفه وشعر بقدومها وقبل ان تتمكن منه وتفقده وعيه، وفيما كانت اوصاله تهتز وترتعش، انسحب الى القلعة المجاورة ورقد.

وقبض على عدد عن كانوا حائزين مناصب القنصلية والپريتورية فقتلهم. أما بعضهم فقد سبقوه وبخعوا انفسهم.

واضطلع [كاتو] بمهمة الدفاع عن [اؤتيكا Utica] فلم يكن في المعركة، وكانت رغبة [قيصر] في أخذه حيّاً هي التي دفعته الى الزحف على المدينة. وفيما هو جادٌ بسيره. اتاه من يخبره بأن [كاتو] بخع نفسه. فتألم كثيراً. ولم يتفق على سبب ألمه ولكن من المؤكد انه نطق بالعبارة الآتية عندما بلغه النبأ:

- اي [كاتو] اني حقدى عليك لموتك كان يساوي حقدك علي لو منحتني شرف انقاذ حياتك.

غير ان الرسالة التي كتبها [ضد كاتو] بعد ذلك، ليس فيها دليل على عطفه، ولا يظهر فيها ميل الى مصافاته والعفو عنه. كيف يكون متسامحاً معه وهو حيٌّ، في حين يظهر حقداً واضحاً عليه وهو ميت؟ لكن بوسع المرء ان يستنبح ما يستنبح من عفوه عن [شيشرون] و[بروتوس] وكثير غيرهم ممن عادوه وحاربوه. لم يكتب قيصر رسالته هذه بسبب عدائه [لكاتو] بل دفاعاً عن نفسه وتبريراً لأعماله. كان شيشرون قد كتب رسالة ثناء بحق كاتو وجعل اسمه عنواناً لها. وكان مقدراً لهذه الرسالة المدونة بيد استاذ عظيم في موضوع ممتاز - ان تتداولها كل الأيدي وهذا ما اثار [قيصر] الذي اعتبر اطراء خصومه شيئاً اشبه بالذم له.

ولذلك نراه يجمع في رسالته [ضد كاتو] كل ما قيل في ثلمه وانتقاص من قدره. ولكلّ من الرسالتين معجبون كما لكلّ من شخصيتي [قيصر] و[كاتو].

عند عودة [قيصر] الى روما لم ينس ان يقدم للناس تفاصيل رائعة الانتصاراته. ومما قاله لهم انه اخضع بلاداً تدر عليهم سنوياً مائتي الف بوشل[٥] يوناني قمحاً، وثلاثة ملايين پاوند من الزيت. واجيز بالسير في ثلاثة مواكب نصر: لمصر، وللپونتس ولأفريقيا، ولم يكن الموكب الثالث تخليداً لنصره على [سكيپيو] بل على [جوبا] الملك كما أعلن عن ذلك وقد شوهد في هذا الموكب وجوبا الصغير.

وكان أسعد اسير حظاً. فقد بلغ هذا البربري النوميدي مصاف اعاظم مؤرخي الأغريق.

وبعد هذا وزع [قيصر] العطايا والمكافآت على جنوده ونظم للجمهور الحفلات والمسارح. ودعا أهالي روما كلهم الى وليمة جماعية واحدة، فنصب اثنان وعشرون متكأ ومائدة. وأمر بعرض للمصارعين والمعارك البحرية، تكريماً لابنته يوليا. مع أنها ماتت منذ زمن. وأجرى احصاءً عاماً لأهالي روما بعد هذه الاحتفالات فظهر أن السكان نقصوا الى مائة وخمسين الفاً بعد ان كانوا ثلاثمائة وعشرين، وهي الخسارة التي انزلتها الحرب الاهلية بها. ولا نذكر ما حَلّ ببقية ايطاليا والاقاليم الأخرى.

انتخب [قيصر] قنصلاً للمرة الرابعة وخرج الى اسپانيا لقتال ابني [پومپي] وكانا صغيري السن. الاّ انهما جمعا حولهما جيشاً لجباً واظهرا من الحذق والشجاعة ما اهلهما لقيادته. واحس [قيصر] انه مقدم على مجازفة كبيرة. وجرت الوقعة الكبرى قرب مدينة [موندا] ولاحظ قيصر أن جنوده يعانون ضغطاً شديداً وان مقاومتهم تضعف.

فأسرع الى الامام يشق الصفوف وصاح بين الجنود:

- الا تخجلون من تسليمي الى صبيين؟

بعد اهوال من القتال واستماته تمكن من دحر العدوّ وقتل ثلاثين الفاً منه، بخسارة الف من جنوده. وعند عودته من المعركة قال لأصحابه:

- قاتلت كثيراً لأجل احراز النصر. ولم اقاتل لانقذ نفسي الاّ في هذه المرة.

انتصر في عيد باخوس. وهو يوافق يوم اعلان [پومپي]الحرب عليه قبل اربع سنوات، ونجا من الموت أصغر ابني [پومپي] الاّ ان [ديديوس Didius] جاء برأس أكبرهما بعد مضي ايام وبهذه المعركة كانت خاتمة حروب [قيصر].

---

(٥) مكيال للحبوب يساوي ٨ غالونات أو ٢/١ ٣٢ ليتراً.

كان استياء الرومان من موكب نصره بهذا المناسبة، لا يُحدّ ولا يوصف وقالوا انه لم يتغلب على قادة اجانب أو على ملوك البرابرة. وانما قضى على اولاد واسرة رجل من أعظم الرومان. وان كان الخطّ قد خانه. ولذلك لم يكن من المستساغ أو اللائق ان يحتفل [قيصر] بمصائب بلاده، ويعلن الافراح في امور لا مجال له في تقديم اي اعتذار عنها سواء للآلهة ام للبشر، عدا قوله انها كانت لضرورة ملجئة. ثم انه ظلّ ساكتاً عن أعماله الحربية هناك حتى عودته فلم يبعث الى الوطن برسالة أو بنبأ عن نصرٍ حازه. بل بدا خجله من ذلك أكثر من توقعه مجداً منه.

نزل مواطنو [قيصر] عن الكلّ له. وقبلوا باليسير الممنوح لهم، مؤملين ان حكومة الفرد ستفسح لهم مجالاً لالتقاط انفاسهم بعد كثير من الحروب الاهلية والمصائب الوطنية. فنصبوه دكتاتوراً مدى الحياة. وهذا في الواقع حكم الطغاة والاستبداد الصريح الذي لا مواربة فيه، لم يكن مطلقاً بل كان دائمياً ايضاً. وتقدم شيشرون پاول المقترحات الى المجلس لتكريم قيصر. ولم يكن فيها اسراف وانما كانت تناسب اي انسان معتدل الا ان الآخرين تسابقوا على الاكثر وارتفعوا الى حَدّ جعل من [قيصر] شخصاً بغيضاً لدى أكثر الناس اعتدالاً، وابعدهم عن الاكثراث بمثل هذه الامور. ويعتقد ان لاعدائه سهماً في ذلك بقدر ما لمتملقيه لأن هذا يخدم اغراضهم ويهيء لهم الذرائع للعمل عنده، ولتبرير اية محاولة ترمي الى اسقاطه. اذ لم يكن لديهم بعد ان وضعت الحرب اوزارها ما يتهمونه به فقد بنوا هيكلاً لآلهة الرفق [كليمنسي] اعترافاً بامتنانهم له لأنه استغلّ نصره للرحمة والعفو، فلم يكتف بالعفو عن العديد ممن حاربوه، بل منح طائفة منهم ارفع المناصب وخلع عليهم. ونخصّ بالذكر [بروتوس] و[كاسيوس] وكلاهما كان پريتوراً. كذلك اعاد تماثيل پومپي الى مكانها وكانت قد رفعت. فعقب شيشرون هذا العمل بقوله: «انه ركّز تماثيله بنصب تماثيل [پومپي]، وعندما نصحه اصحابه باتخاذ حرس شخصي بنفسه وعرض العديد منهم أنفسهم لذلك، رفض رفضاً باتاً وقال:

- انه لخير للمرء ان يموت مرةً من ان يحيا في خوفٍ مستديم منه.

وعَدّ حب الجمهور وتعلقه به، افضل واضمن من ايّ حرسٍ واقام للمرة الثانية مهرجانات عامة لتسلية وامر بتوزيع القمح، وكافأ افراد جيشه بتأسيس المستوطنات لهم في عدة مناطق من جملتها مستوطنتا قرطاجنة وكورنث اللتان دمرتا في وقت سابق فاعادهما الى سابق عهديهما واعمرهما بالمستوطنين.

وكثرت عهوده ووعوده للاشراف وعلية القوم، بالمناصب القنصلية والپريتورية في المستقبل

وارضى فريقاً بوظائف ومناصب ولم يئد لأحدٍ املاً، بما كان يبديه من اهتمام مفرطٍ في أن يظهر للملأ حاكماً عدلاً لايضمر غير حسن النيّة. فمثلاً عند موت [مكسيموس] القنصل قبل انتهاء فترته بيوم واحدٍ بادر الى نصب [كانينيوس رڤيليوس Caninius Revilius] قنصلاً لليوم الواحد المتبقى. واخذ الناس يتقاطرون لتهنئة القنصل الجديد فقال شيشرون.

- فلنسرع لئلا تنتهي فترته قبل وصولنا اليه!

ولد قيصر لعظائم الأمور، ولم يكن ليستقرّ له قرار في اطلاب المجد، ولم تُغره الأعمال العظيمة التي انجزها بالجلوس وقطف ثمار اتعابه. بل كانت محرضة له ومشجعة على المضيّ في هذا السبيل، ومثيرة في نفسه افكاراً ومشاريع لأعمال اعظم منها ورغبة في امجاد جديدة كأن الحاضر بالنسبة اليه منته وهو يتطلع الى الآتي. في الواقع كان ثم صراع عنيف بينه وبين نفسه، وكأنه شخصان مختلفان. فتراه يعمل الفكر للتفوق على ما مضى بما هو آت. ولهذا قرر ان يشنّ حرباً على البارثيين ثم التوجه الى [هرقانيا] بعد اخضاعهم. ومن هرقانيا الى بحر قزوين وجبال القفقاس ثم يسير بمحاذاة البحر الأسود ويدخل بلاد الصيتين ويجتاح كل البلاد المتأخمة لجرمانيا ويدوخ جرمانيا نفسها ثم يعود الى ايطاليا ماراً ببلاد الغال. وبعد اكماله دائرةً لامبراطوريته وجعل حدودها الماء من كل الجهات وفيما بدأت الاستعدادات لذلك، اقترح أن يحفر البرزخ الذي تقوم عليه [كورنث] وعين [آنينوس Anienus] للاشراف على العمل. وفكر ايضاً في تغيير مجرى اليتبر، وتحويله بقناة عميقة مباشرة من روما الى (چرچيي Circeii) ثم الى البحر بالقرب من [تاراكينا Tarracina] ليكون سبيلاً سهلاً مأموناً لكل التجار المتعاملين مع روما. واعتزم ايضاً تجفيف كل المستنقعات القريبة من [پومنتيوم Pomentium] و[سيتيا Setia] واستصلاح اراض واسعة للزراعة بعد استخلاصها من المياه. واقترح عمل تلال كبيرة في اقرب ساحل بحري الى روما ليمنع طغيان مياه البحر على اليابسة ثمة. وتنظيف الساحل قرب [اوستيا Ostia] من كل الصخور والرمال الضحضاحة التي تجعل رسو السفن هناك غير مأمون وانشاء مرافيء وموانيء صالحة لاستقبال العدد الكبير من السفن.

هذه المشاريع تم تخطيطها واقرارها الاّ انها لم تنفذ، غير ان اصلاحه التقويم السنوي لتصحيح الخلل في الوقت وقد اتمّه بشكل علمي دقيق بارع. فبرهن على فائدته العظمى. منذ العهود الغابرة كان الرومان بحاجةٍ الى مبدأ معين وقاعدة ثابتة تحكم تتابع الأشهر ضمن السنة دون زيادة او نقصان حتى لا تتحول اعيادهم وايام قرابينهم بالتدريج حتى تقع بالأخير في الفصول التي لاتستقيم مطلقاً مع طبيعة تلك الاعياد. ولم يكن لدى الناس حتى ذلك

الحين قاعدة لحساب السنة الشمسية ولم يكن يعرف حساب الوقت غير الكهنة، وهم كما شاءت اهواؤهم وامزجتهم يدخلون الناس دون سابق انذار في الشهر الكبيس الذي يسمونه [مركيدونيوس Mercedonius] و[نوما] هو الذي ادخل هذا الشهر في السنة. الاّ ان محاولته لم تكن ناجحة لاصلاح الأخطاء الناجمة عن متعاقب الدورات السنوية كما بينا ذلك في سيرته. ولذلك استدعى [قيصر]، خير فلاسفة وحاسبي عصره لتسوية المشكلة. واستخرج من النظام الذي قدم اليه، قاعدة جديدة أكثر دقة لاصلاح التقويم. فثبت الرومان عليه حتى يومنا هذا وظهر انهم انجح اي شعب آخر في تحاشي الاغلاط الناجمة عن عدم انتظام الدورة السنوية. هذا العمل الجليل اغاظ ايضاً أولئك الذين ينظرون الى انجازاته نظرة سوداء. ويشعرون بالضيق والحرج من سلطته. اتفق مرة أن أحد اصدقاء شيشرون قال:

- ستشرق ليرا Lyra[٦] صباح اليوم التالي.

فردّ شيشرون: أجل ستشرق، حسب احكام المرسوم!

كأنّ المسألة إرغام قانوني.

الاّ أن السخط الأعظم الذي انصبّ عليه من الجمهور، هو رغبته في الملكية، كان هذا فاتحة انفصام العلاقة الطيبة بينه وبين العامة. وكان فضلاً عن هذا ذريعة معقولة لأعدائه في السرّ، زعم الذين ارادوه ملكاً أن كتب [السيبيل Siyle] تنبأت بأن الرومان لن يستظهروا على البارثيين الاّ عندما يكون ملك على رأسهم وليس قبل ذلك باي حالٍ. وفي ذات يوم بينما كان [قيصر] نازلاً من [ألبا] الى روما تجرأ بعضهم فحياه بتحية الملوك. ولحظ أن الناس المتجمهرين لم يرقهم الأمر فأظهر الامتعاض من التحية. وقال أن اسمه [قيصر]. وليس [ملكاً]. وعندها ساد سكون عام ومرّ بين الناس دون أن تظهر عليه علائم الارتياح أو الرضا. ومرة أخرى عندما اغرقه المجلس بضروب من التكريم والامتيازات اتفق ان تسلم قرارهم بذلك وهو جالس على كرسي الخطابة [روسترا Rostra] حيث كان القناصل والپريتوريين وكل اعضاء مجلس الشيوخ واقفين اجلالاً له. فلم ينهض لهم وعاملهم كأنهم من عامة الناس. ثم قال: ان ما خلعوه عليه من تكريم وامتياز يحتاج بالأحرى الى حماية لا الى زيادة. هذا الموقف جرح مشاعر الشيوخ والعامة معاً. فالاخيرون عدواً اهانة المجلس، اهانة تسرى على جميع الشعب. ولم يستأذن بالانصراف، بل تفرق الحضور وكلهم المٌ وادرك [قيصر] هفوته فآب الى منزله واستلقى كاشفاً عن رقبته وخاطب اصحابه قائلاً:

- اني مستعد لتقديم هذه لكلّ من يريد ان يسدد لها طعنة.

---

(٦) كوكبة القيثارة. النسر الواقع.

واعتذر عن خشونته بالمرض زاعماً ان المصابين يفقدون حضور ذهنهم ان هم تكلموا طويلاً في حالة الوقوف. فيصابون بدوار ثم بتشنج ثم يفقدون الوعي تماماً. على ان الواقع لم يكن كذلك، فقد كان يهمّ بالوقوف احتراماً للمجلس عندما انحنى اليه [كورنيليوس بالبوس] احد اصحابه بل أحد المتزلفين وهمس في اذنه:

- الا تتذكر أنّك [قيصر] وانك لا تأخذ الاّ ما يستحقه مقامك؟

واتاح فرصة أخرى للحاقدين باهانته التريبيونات. كان يحتفل حينذاك بعيد [لوبركاليا] وهو عيد الرعاة بالاصل كما يقول بعض الكتاب وله بعض صلة (بليقية الاركادية) وفيه ترى الفتيان الاشراف والحكام يركضون في شوارع المدينة ذهاباً واياباً وقد نضوا عنهم الجزء الأعلى من ارديتهم يضربون كل من صادفوه بسوطٍ من الجلد على سبيل التفكهة والمزاح. وتعترض نساء كثيرات من ذوي الوجاهة والمقام سبيلهم وهن رافعات الاكف لتلقي ضربة السوط كما يفعل معلم المدرسة بتلاميذه عقاباً. معتقدات ان ذلك يسهل للحامل وضع وليدها ويجعل العاقر ولوداً. وجلس قيصر على كرسي من الذهب متوشحاً برداء النصر في الروسترا، يرقب الاحتفال. وكان [انطوني] القنصل اذ ذاك، أحد الراكضين فعند وصوله الفورم افسح الناس له، فصعد وقدم لقيصر تاجاً مزداناً بالغار، وندّ من بين الجمهور هتاف ضعيف، من قلةٍ كانت قد جمعت لهذا الغرض. وعندما رفض قيصر التاج تعالى الهتاف مجلجلاً عاماً. وقدم اليه ثانية فلقي العمل هتافاً اضعف من الأول، وعاد الى رفضه فارتفع الهتاف يشق عنان السماء. فايقن قيصر أن اللعبة مقضيّ عليها ونهض وأمر ان يؤخذ التاج الى الكابيتول، ثم بدت تماثيل [قيصر] وعلى رؤوسها التاج الملكي. فذهب التريبيونان الشعبيان [فلاڤيوس Flavius] و[مارولوس Marullus] حيث تقوم التماثيل وانتزعوا التيجان عن هاماتها واعتقلا اول من حيّا [قيصر] بالملكية واودعاهم السجن، فسار الجمهور خلفهما مشيعاً بهتاف الاستحسان والتشجيع وأطلقوا عليهما لقب [بروتوس] لأن [بروتوس] كان أول من انهى التعاقب الملكي في الدولة الرومانية ونقل السلطة الى مجلس الشيوخ والعامة بعد ان كانت مركزة في يد شخص واحد فاغتاظ [قيصر] وعزل التريبيون، واستهان بمشاعر الاهالي باصراره على اتهامهما - ولقب الرجلين أكثر من مرة بـ[بروتي Bruti] و[كيوماي Cumaei].

هذا ما جعل الجمهور يتطلع بانظاره الى [ماركوس بروتوس] سليل بروتوس الاول من جهة ابيه على ارجح الاقوال، وسليل الاسرة النبيلة المشهورة [سرڤيلي] من جهة امه، وابن اخت [كاتو] ختنه. الاّ ان الامتيازات والمناصب التي خلعها عليه قيصر اخمدت فيه اية فكرة قد

تساوره في الاطاحة بحكومة الفرد. عفا عنه [قيصر] في فرساليا بعد هزيمة [پومپي] وسعى هو بعد ذلك الى نيل العفو عن كثير من اصحابه، كما كان موضع ثقة قيصر الخاصّة، وكان يتقلد في ذلك الحين ارفع پريتورية. ورسم له قيصر ان يتسنم منصب القنصلية بعد اربع سنوات مقدماً اياه على [كاسيوس] منافسه فيها. وعندما سئل [قيصر] عن هذا التفضيل قال:

- كاسيوس أحقّ بها، لكنني لا استطيع اغفال [بروتوس].

ولم يضع لمن اغتاب [بروتوس] بعد ان قطعت مؤامرة اغتياله شوطاً بل وضع يده على جسمه وقال للنمام:

- بروتوس سينتظر جلدي هذا.

يعني انه جدير بتسلم الحكم لما يتحلّى به من خلق. لكنه لن يكون سافلاً ولا ناكر جميل الى الحدّ الذي يعمد لأخذه غصباً. ولم يجرأ على مفاتحة [بروتوس] بالمؤامرة أحد ممن كانوا يطمحون الى التغيير وينظرون اليه بوصفه الشخص الوحيد - او الانسب على الأقل - بتحقق هذا التغيير. على انهم كانوا يأتون ليلاً فيصفون على كرسيه الذي اعتاد الجلوس عليه عند فضّ الدعاوى والنظر في الظلامات - اوراقاً فيها مثل هذه العبارات:

«انت نائم يا بروتوس». «لم تعد بروتوس بعد».

وعندما أحسّ [كاسيوس] أن الطموح بدأ يتمخض فيه، سارع في اذكائه. وكان كاسيوس يحقد على [قيصر] حقداً شخصياً لأسبابٍ كثيرة سنأتي الى ذكرها في سيرة [بروتوس].

ولم يكن [قيصر يخلو من شك في نوايا [كاسيوس] فلقد قال مرة لاصحابه:

- ما رأيكم فيما يهدف اليه كاسيوس؟ اني لا أحبه، انه يبدو شديد الشحوب.

ولما قيل له ان [انطوني] و[دولاّبلاّ] شريكان في المؤامرة اجاب:

- اني لا أخشى مثل هذين المبدنيين المترفين. لكن أخشى اولاء الرجلين الضعيفين الشاحبي الوجه.

يعني كاسيوس وبروتوس.

ومهما يكن من أمرٍ فالقدر - كما تدل الظواهر، هو محتوم أكثر مما هو غير متوقع، ولقد قيل ان خوارق عديدة وظواهر طبيعية لوحظت قبل تنفيذ المؤامرة. ونحن لا نرى ما يستأهل الذكر في انوار اضاءت السماء واصوات سمعت في الليل وطيور حطت في الفورم. فهناك مثلاً ما اورده الفيلسوف [سترابو] حول مشاهدة عدد من الرجال بدوا وكأنهم سخنوا بالنار

يجادلون بعضهم بعضاً. وخروج حزمة نار من يد خادمٍ لأحد الجنود، حتى خيل للحاضرين انها احترقت في حين ظلت سليمة لم يلحقها ضرر. وهناك معجزة أخرى رواها كثيرون وهي ان عرافاً طلب من قيصر ان يحذر خطراً عظيماً سيتعرض له بعد متنصف آذار Ides[٧]. وعند حلول ذلك اليوم لقي قيصر العراف بالصدفة اثناء ما هو داخل مجلس الشيوخ فطفق يمازحه قائلاً:

- لقد حَلّ متنصف آذار.

فأجابه العراف بهدوء: أجل حلّ ولكنه لم ينته بعد.

وفي اليوم الذي سبق اغتياله تعشى مع [ماركوس ليپيدرس] وفيما هو يوقع بعض الرسائل جرياً على عادته، اثيرت وهو متكيء على المائدة - مناقشة حول أفضل ميتة فأسرع يجيب قبل ان يسبقه أحد:

- موت الفجأة.

ثم انه عاد الى منزله واستلقى على الفراش الى جانب زوجه، فاذا بجميع ابواب الدار ونوافذها تنفتح معاً على مصاريعها فأجفل للصوت وبهره الضوء الذي نفذ الى الغرفة. وجلس على سريره. وفي نور القمر وجد كالپورنيا مستغرقة في نومٍ عميق الاّ انه سمعها تهمس في حلمها بكلمات غير مفهومة وتصعد انينا وآهات. لقد كانت تحلم بانها تبكي فوق جثة زوجها وهو مثخن بالجراح يلفظ انفاسه بين ذراعيها. ويقول آخرون ان الحلم الذي رأته غير هذا. بل رأت البرج الذي قرر الشيوخ بناءه في سطح دار [قيصر] بمثابة زخرف وكدليل على الرفعة والسؤدد، قد تداعى وخرّ وكان هذا سبب بكائها وانينها، على ما يخبرنا ليڤي. واستقيظت صباحاً وتوسلت بقيصر الاّ يخرج من الدار ان امكن وان يؤجل اجتماع المجلس الى موعدٍ آخر. وان استهان بالرؤيا فحبذوا لو استخار طالعه بتقديم القرابين واداء بعض الفرائض الأخرى. ولم يكن هو نفسه يخلو من الشكوك والمخاوف. كما انه لم يعرف من زوجه كالپورنيا شدة ايمانها بالخرافات كغيرها من النسوة. وها هو يراها وقد استحوذ عليها القلق الشديد.

قال الكهنة انهم نحروا عدداً من الأضاحي فوجدوها منحوسة. فقررّ ان يبعث انطوني لفضّ المجلس.

وكان ثم شخص يدعي [ديتيموس بروتوس Decimus Brutus] ويلقب [البينوس] وهو

(٧) في التقويم الروماني كلمة Ides تشير الى الخامس عشر من آذار او من تشرين الثاني من الايام السبعة التي تليه.

أحد من وثق بهم قيصر وأتمنهم بحيث جعله وريثه الثاني. لكنه كان من الشركاء في المؤآمرة. فخشي ان تأجل الاجتماع ان ينكشف السرّ. فأخذ يندد ويسخر بالعرانين ويلوم [قيصر] لأنه سيقيم الحجة على نفسه بأهانة المجلس لأنهم لم يجتمعوا الاّ بدعوة منه. وقال انهم على استعداد للتصويت بالاجماع على المناداة به ملكاً لكلّ الامبراطورية خارج ايطاليا. وسيضعون على رأسه تاج الملك. فلو أرسل من يطلب منهم التفرق في الوقت الحاضر ثم الاجتماع بعد أن يتفق لكالپورنيا أن ترى حلماً أفضل مما رأت أمس. فماذا سيقول خصومه؟ وكيف السبيل لاصحابه الى الصبر وكظم الغيظ ان سمعوا تهم الطغيان والتحكم تكال له؟ ومع هذا اذا اصرّ ان هذا اليوم يوم نحس فحريّ به ان يذهب هو بنفسه الى المجلس ويطلب التأجيل. قال هذا وأمسك بيد قيصر وساربه. ولم يمض بعيداً عن المنزل حتى تعقبه خادم من الخدم فعجز عن اللحاق به، بسبب الازدحام فقصد منزله وطلب من كالپورنيا متضرعاً ان تحميه في الدار حتى عودة [قيصر] لأن لديه اموراً في غاية من الاهمية يريد أن يكشفها له.

وكان ثمّ معلم اليوناني اسمه [ارتيمودوروس الكنيدي Artimodorus]. افسحت له صناعته المجال للتصرف بيروتس فتم له الاطلاع على السرّ. جلب هذا المعلم لقيصر اسماء الرؤوس التي ينبغي له اجتثاثها مكتوبة على ورقة صغيرة. وكان يعلم أن [قيصر] اعتاد ان يسلم الاوراق التي تقدم له الى احد الخدم القريبين منه فاقترب منه غاية ما امكنه وقال له وهو يناوله الورقة.

- اقرأ هذه يا قيصر. على انفراد وبسرعة. لأنها تتضمن أمراً خطيراً يخصّك بالذات.

تسلم قيصر الورقة وحاول قرأتها عدة مرات فأخفق بسبب تزاحم الناس لمكالمته. فابقاها في يده وحدها حتى دخل المجلس ويقول آخرون ان معطي الورقة هو شخص آخر، وان ارتيمودوروس لم يستطيع الوصول اليه وبقي بعيداً عنه بسبب الازدحام.

ربما جرت هذه الاحداث بمحض الصدف والاتفاق. الاّ ان الموضع الذي قدّر ان يكون محلّ التنفيذ حيث كان المجلس سيعقد جلسته يومذاك، هو واحدٌ من الصروح التي بناها [پومپي] واوقفها مع مرسحه للنفع العام، الامر الذي يوضح ان هناك موجهاً للاحداث من قوى ما وراء الطبيعة، يفرض وقوعه في زمان ومكان معينين.

قيل ان [كاسيوس] وجه نظره الى تمثال [پومپي] مستمداً منه المعونة في سِرّه. مع انه من معتنقي المبدأ الابيقوري.

الاّ ان رهبة الموقف وعظم المطر افقداه توازنه العقلي وملأه في تلك الخطة بنوع من الوحي.

اما [انطوني] القوي العضل الذي لم يكن يفارق قيصر. فقد ابقاه [بروتوس البينوس] خارج المجلس وشاغله بحديث طويل اخترعه لهذا الغرض. ودخل قيصر فنهض اعضاء المجلس احتراماً له. وتقدم بعض المتآمرين فوقفوا خلف كرسيه، وآخرون وقفوا امامه متظاهرين بمساندة [تيلليوس كمبر Tillius Cimber] الذي يتشفع لأخيه المنفي. وأخذوا يتبعونه وهو سائر الى مقعده بكلمات التوسط والاسترحام حتى اذا جلس رفض الاستجابة الى الرجاء فالحوا عليه فبدأ يعنفهم بشدة لكثرة لجاجتهم. وعندها مسك [تلليوس] رداءه بكلتا يديه وجذبه الى تحت فكشف عن عنقه وتلك هي الاشارة المتفق عليها بين المتآمرين. واصابه [كاسكا Casca] باول طعنة من خنجره ولم تكن قتّالة ولا بليغة، لأن الضارب كان شديد الاضطراب شأن كلّ بادىء بعملٍ جريء مثل هذا. فاستدار قيصر حالاً وامسك بالخنجر ولم يفلته وصاح الضارب والمضروب معاً. قال قيصر باللاتينية

- كاسكا أيها الخسيس ماذا يعني هذا؟

وقال كاسكا بالاغريقية مستنجداً باخيه:

- عونك يا أخ!

في المبدأ اصيب كل من لا علم له بالمؤامرة بما يشبه الذهول والوجوم وبلغ الرعب بهم الحدّ الذي شلّ حركتهم فلم يقدموا على الفرار ولم يجرأوا على مساعدة قيصر. ولم ينطقوا بكلمة. اما الذين كانوا متهيئين لها فقد شدّوا الخناق عليه من كل صوب بخناجرهم المجردة. فكان يتلقى طعنةً اني توجّه ورآى سيوفهم مسددة الى وجهه وعينيه وحوصر كالوحش الضاري المكافح. كان الاتفاق فيما بينهم أن يشارك كل واحدٍ منهم بطعنة ويلطخوا انفسهم بدمه. ولهذا سدّد بروتوس طعنه الى ما فوق الفخذ ويقول بعضهم ان [قيصر] قاوم الجميع محركاً جسمه لتحاشي الطعنات وهو يصرخ مستنجداً الى ان رأى سيف [بروتوس] مسلولاً، فحينذاك غطى وجهه بطرف ردائه وكف عن الحركة وسقط على الارض عند قاعدة تمثال [پومپي]. ولايعلم أكان هذا مجرد صدفة ام ان قاتليه تعمدوا دفعه الى تلك الجهة؟ فتلطخ التمثال بدمه. وهكذا بدا وكأن [پومپي] نفسه قد تزعم عملية الانتقام من خصمه فسقط تحت قدميه ولفظ آخر انفاسه وهو مثخن بالجراح. أصيب على ما قيل بثلاث وعشرين طعنة وجرح عدد من المتآمرين بأسلحة اخوانهم عند تسديدهم الضربات الى الشخص واحد.

بعد ان تم القضاء على [قيصر] وقف [بروتوس] خطيباً يشرح الاسباب التي حملتهم على قتله. لكن مجلس الشيوخ كان عازفاً عن سماعه وتسابق اعضاؤه الى الفرار فملأوا الناس

رعباً وقلقاً فأغلقت طائفة بيوتهم عليهم وترك آخرون حوانيتهم واماكن عملهم وصار الجميع يتراكضون في الشوارع، بعض قاصداً موضع الجريمة. وبعض عائد من موضع الجريمة. وأفلت [انطوني] و[ليپيدوس] اصدق اصدقاء قيصر. واختفيا في دار أحد الاصدقاء. وخرج بروتوس وشركاؤه ونفوسهم مازالت متوقدة بحرارة الموقف. وتركوا المجلس كتلةً واحدة وقصدوا الكاپيتول والسيوف مشرعة في ايديهم، لا كمن يفكر بالفرار ولكن بثقةٍ واعتزاز.

وكانوا ينادون في الناس اثناء سيرهم ان يستمتعوا بالحرية. ودعوا كل من صادفوه من علية القوم للانضمام اليهم. فالتحق بهم عدد منهم وسار مع موكبهم كما لو كان شريكاً في المؤامرة، وبمقدوره الادعاء بنصيب من شرف هذا العمل. اليك مثلاً [كايوس اكتافيوس Gaius Octavins] و[لنتولوس سبنثر] اللذين جوزيا شرّ جزاءٍ على حماقتهما هذه. فقد قبض عليهما [انطوني] و[قيصر الاصغر] فضاع منهما الشرف المنشود، مع حياتيهما. اذ لم يكن أحد ليشكّ في أنهما بريئان حتى أولئك الذين تولوا انزال العقوبة بهما فقد كانوا متأكدين ان لا دخل لهما فيها، وانما انزل بهما العقاب لما انطوى عملهما عليه من سوء نيةٍ. وفي اليوم التالي نزل [بروتوس] وبقية المتآمرين من [الكاپتول] والقوا خطباً في الجمهور. فأصغى الناس اليها دون ان يظهر عليهم سخط أو رضا. لكن ضمتهم لوضح بأنهم يأسفون لما حَلّ بقيصر، ويحترمون [بروتوس].

واصدر المجلس قرار العفو العام واسدال الستار عما جرى واتخذ التدابير لمصالحة الفئات المتخاصمة. وتقرر ان يعبد [قيصر] كأحد الآلهة. وبعدم الغاء أو نقض اي قانون سُن أو عمل جرى ايام حكمه ثم منحوا [بروتوس] وصحبه مناصب مختلفة وقيادات خارج ايطاليا حتى ظنّ الناس جميعاً انه الأمور استقرت بشكل ليس أحسن منه.

لكن عندما فضت وصية قيصر ووجد أنه ترك ميراثاً لايستهان به لكل مواطن روماني، وعندما حمل جثمانه الى الميدان الكبير مثخناً بالجراح. لم يسع الجمهور المحافظة على الهدوء واسرع المحتشدون بجمع الواح المصاطب وقضبان الخشب والموائد وكدسوها ثم رفعوا الجثمان الى الكومة واشعلوا النار فيهما. وسحب بعضهم ملتهبة وهرعوا لاحراق بيوت المتآمرين. وآخرون أخذوا يطوفون بها ارجاء المدينة لعلهم يعثرون على أحد القتلة ليمزقوه ارباً فلم يجدوا أحداً لأن أولئك اتخذوا التدابير للمحافظة على ارواحهم.

كان ثم صديق [للقيصر] اسمه [سِنا] رأى في تلك الليلة التي تلقت المؤآمرة حلماً غريباً. خيل له ان [قيصر] دعاه الى العشاء وعند اعتذاره عن الذهاب امسك [قيصر] بيده وسحبه ولكنه تراجع. عندما سمع هذا الرجل ان جثمان قيصر يحرق في الميدان توجه الى الموضع

احتراماً لذاكره. وان كان الحلم قد ملأه بالمخاوف والهواجس ومع انه كان مصاباً بالحمّى وسأل عنه أحد المتجمهرين فأجاب شخص قريب منه انه [سنّا] وانتشر بين الناس بلمح البصر انه احد المتآمرين. (كان ثم [سنّا] آخر بين المتآمرين في الواقع) فامسكوا به حالاً ومزقوه ارباً.

وشاع الرعب في نفس [كاسيوس] و[بروتوس] بسبب هذه الحادثة. وغادرا ايطاليا خلال ايامٍ قلائل. وقد ذكرنا تفاصيل اعمالهما وما صادفاه وكيفية موتهما في سيرة [بروتوس].

مات [قيصر] وله من العمر ستّ وخمسون سنة. اي بعد موت [پومپي] باربع سنوات. ولم يجن غير الشهرة الفارغة والمجد المثير للحسد، من تلك الامبراطورية التي جمع اطرافها، والسلطة التي ظلّ يطلبها طول حياته، بركوب الأخطار والأهوال. الاّ ان الجنيّ الحارس الذي ظلّ ملازماً له طوال حياته. لازمه بعد مماته منتقماً له من قتلته، متصيداً كل ضالع في المؤآمرة براً وبحراً فلم يدع أحداً منهم حياً سواء في ذلك أولئك الذين انفذوا الامر فعلاً أم الذين كان لهم نصيب التحريض والحضّ الكلامي.

ومما يخرج عن دائرة الصدفة والاتفاق ما وقع [لكاسيوس] فقد بخع نفسه بعين الخنجر الذي استخدمه لقتل [قيصر] بعد هزيمة [فيليپاي] وابرز الظواهر السماوية التي وقعت في هذه المناسبة هو ظهور مذنب ساطع في كبد السماء طوال الليالي السبع التي عقبت مصرع [قيصر]، وبعدها اختفى. ومنها اظلام الشمس التي استمر قرصها شاحباً مغبراً طوال تلك السنة، فلا يبدو بريقها الخاطف عند بزوغها ولا تعطى حرارة قوية كالعادة. ولذلك اصبح الجوّ رطباً معكراً لحاجته الى اشعة أقوى تتكفل بتبديده وتنقيته. ولم تينع اثمار ذلك الموسم بالشكل المعتاد لعين السبب وبدأت الفاكهة تذوى وتتساقط لقلة الحرارة، قبل وصولها مرحلة التكوين. والاهم من هذا كلّه الطيف الذي ظهر لبروتوس وهو دليل على ان الآلهة لم تكن راضية عن مقتل قيصر. واليك الرواية:

كان [بروتوس] ينوي الانتقال بجيشه من [ابيدوس] الى القارة وقد استلقى ليلةً في خيمة كما هي عادته ولم ينم وانما راح يفكر في شؤونه وفي المتوقع من الاحداث. وقد اثر عنه انه أقل الناس نوماً. وان لديه مقاومة طبيعية له وقدرة على السهر والعمل المتواصل دون شعوره بالحاجة الى الراحة. وخيل له وهو مستلق انه سمع صوتاً عند باب الخيمة فأرسل نظره مستطلعاً على ضوء مصباحه الذي كاد ينطفيء. فشاهد هيئة مخيفة شبيهة برجل لكن بقامة غير اعتيادية وملامح قاسية ادركه بعض خوف اولاً. ولكن الطيف لم يفعل شيئاً ولم يتكلم وانما وقف صامتاً بالقرب من سريره. فسأله [بروتوس] عمن يكون فأجاب الطيف:

- انا الجنيّ الشرير [يا بروتوس]، وستلقاني في [فيليپاي] فأجاب بروتوس بكل شجاعة:
- حسن، سألقاك هناك.

وغاب الطيف الطيف فجأة. وعندما حان الوقت صف جيشه قرب [فيليپاي] مقابل جيش [انطوني] و[قيصر الصغير] ودارت الدائرة على خصومه اولاً وهزم العدوّ ونهب معسكر قيصر. وفي الليلة التي سبقت المعركة الثانية، ظهر له الطيف ثانية ولم يكلمه. فادرك في الحال ان نهايته دنت. وعرّض نفسه لكل انواع المخاطر في المعركة فلم يقتل. ولما رأى رجاله يولون الادبارمقهورين صعد صخرة وجرد سيفه وسدده الى صدره العاري وبمعونة احد اصدقائه بخع نفسه.

١٩٧٢/١/١





فوكيون
PHOCION
402 – 318

بلغ [ديماديس Demades] الخطيب في اثينا أوج سلطاته بين الاثينين باعتباره مستشاراً للدولة في شؤون العلاقة مع انتيباطر والمقدونيين. وكانت الضرورة تلجئة الى كتابة وقول ما هو دون سمعة المدينة ومطانتها. وكان يعتذر لنفسه قائلاً: انه يدير دفة حطام سفينة لا غير. ولو طبق هذا القول السليط الوقح على فترة حكم [فوكيون] لكان اقرب الى الحقيقة. فديماديس في الواقع، كان حطام بلاده لا غير، يحيا حياةً فاسدة، ويحكم حكماً فاسداً، حتى قال عنه [انتيباطر]:

- بعد ان طعن ديماديس في السنّ، صار أشبه بالأضحية. اتت النار عليها ولم تبق منها غير الكرش واللسان.

ويخلاف ذلك، فوكيون، فقد كان الفضيلة مجسمة. لكن عاديات الزمن العاثر حققت الغلبة لنفسها عليه في مباراة غير متكافئة. فخمل ذكره وضاع في زوايا النسيان بسبب سوء حظّ اليونان. ولن نسمح لأنفسنا بان نوافق [سوفوكلس] في اغراقه باستصغار قوة الفضيلة حين يقول:

عندما يعثر الحظ. يتخلّى العقل عنّا ايضاً، ويذهب الى حيث لا عودة.

ومع هذا فان الصراعات بين افاضل الرجال وسوء الحظّ يمكن ان تحصل في الواقع. فبدلاً من التكريم والامتنان اللذين يستحقانه جزاءً. تحدهم يقاتلون في أغلب الاحيان بسوء الظنّ والنتقاص لاضعاف ايمان الآخرين بفضائلهم.

ومما هو معروف سائد أن الهيئات الشعبية هي أكثر الجهات اهانة بالطيب من الرجال وازدراءً لهم عندما يبطر الشعب بالرخاء وينتفخ زهوا بالنجاح. وكثيراً ما يحصل العكس ايضاً فالنوائب والنكبات العامة تحّط وتفسد عقول وامزجة الرجال، حتى تصل بهم الى المشاكسة والحدّة فيصعب جداً توجيه كلمة طيبة اليهم أو أظهار عاطفة صادقة نحوهم، فأنهم يشعرون وكأنهم يهانون، ومن يحاجّم في اخطائهم يعتبرونه متشفياً بسوء حظوظهم. ويؤولون اي نقاش يجرى معهم بانه استهزاء واحتقار لهم. ان العسل يوجد في مواضع عسيرة المنال

تصيب طالبها بخدوش وجروح. واكثر النصائح اتزاناً واوفرها حكمة هي عند العقول المريضة مغيظة مستنفزة الاّ اذا تم عرضها وتقديمها بممهدات ملطفة رقيقة الحاشية.

والشاعر يتناول بالوصف موضوعات مقبولة بصورة عامة، بكلمة معبّرة، ذات وقع لطيف مستحبّ فلا يغيظ ولا تستفزّ. ان العيون المقروحة تتطلب المحل المعتم لكي لا تقع الا على الألوان الغامقة، لأنها لا تتحمل الضوء الساطع، كذلك السياسته ففي الوقت العصيب، وفي ايام الذلّ والضنك، تسود الناس حساسيّة عالية ومرارة، وبقابلية تحمّل ضعيفة، تجد كل نصيحة خالصة صريحة مهما كان الموقف يتطلبها - تحتاج الى هذه الحيطة. وعندما تكون آثار الخطأ غير قابلة للاصلاح، يكون تصريف الشؤون العامة عملاً مزعجاً محفوفاً بالاخطار مهما بلغت اليد الممسكة باعنتها من الحذق والمهارة. ويبتلع الدمار التام والانهار العام أولئك الذين يسايرون الشعب ويتطرفون له اما أولئك الذين يحاولون قيادة الشعب الى السبيل القويمة فأنهم يهلكون في أوّل المحاولة.

ويحدثنا الفلكيون بأن حركة الشمس ليست على تمام اتساق مع حركة الفلك بصورة عامة، كما هي ليست معاكسة له أو متقاطعة معه، ولكنها تتخذ مساراً مائلاً وتتعقب خطاً قوسياً غريباً فتنساب بهدوءٍ وليونة لتوزع ضياءها وحرارتها اثناء دورتها السنوية ذات الفصول المختلفة المنقسمة قسمةً عادلة على الأرض، وهذا ما يحدث في عالم السياسة فان كانت حركة الحاكمين معاكسة ومضادة لامزجة المحكومين وميولهم، فان هؤلاء سيضيقون بها ويعتبرونها قسوةً من حكامهم واستبداد. ومن الناحية الأخرى فان التغاضي الكثير والتشجيع - كما يحصل في أغلب الاحيان - يزيد في اخطاء المحكومين وزيغهم فيكون مليئاً بالخطر ذا عواقب وخيمة. إن السياسي الحقيقي هو الذي ينجح في ارضاء شعبه بحيث يتيح له المجال للشعور بالمصلحة العامة والثبات عليها، فعندما يكون التنازل الشعبي استجابة للطاعة الاختيارية المستمدة من ذلك الشعور، عندئذ تجد المحكومين أكثر استعداداً للخدمة والطاعة - كالعبيد يمكن ارشادهم وحكمهم بالشكل الذي يصونهم ويصون مصالحهم شريطة ان لايزجروا أو يضطهدوا أو يعاملوا بقسوة.

وعلينا الأقرار انه بقدر مما هو جميلٌ حسن أن يطرأ بعض التعديل على الملاينة والمسايرة للمحافظة على سلطة الحكومة فهو صعب عسير المنال. لكن ان أمكن الوصول الى هذا المزيج المفيد فان التعاضد والتوافق يكونان في أحسن حالهما. ولنعلم بأن الله نفسه يحكم العالم لا بالقوة التي لا تطاولها قوة، بل بالحكمة والعقل المقنع وبالغايات الخالدة.

إن [كاتو] الأصغر، هو مثل شبيه بالمترجَم له. لم تكن أخلاقه مقبولة، ولم يكن طبعه

مرضياً من الناس وقليلٌ من أحبّه. أنظر كيف تصرّف في انتخابات القتصلية. وبهذا يقول شيشرون:

- خسر المنصب لأنه كان يتصرف وكأنه أحد مواطني «جمهورية افلاطون» غير مدرك انه كان يعمل بين حثالات نسل [رومولوس].

ويلاحظ الشيء نفسه في الفاكهة الناضجة قبل اوانها. اننا نستمتع بالنظر اليها والاعجاب بها أكثر من استمتاعنا باكلها. فكانت فضائله واخلاقه ذات الطابع القديم البعيدة عن روح العصر تعيش بين العادات الفاسدة التي حملها الترف والعطن الى ذلك العصر. فبدت رائعة غريبة في ذلك الجوّ وكانت اسمى وأجود من ان تلائم متطلبات العصر أو ان تتفق مع روح الزمن واتجاهاته. ومع هذا فان ظروفه تولى ادارة الدفة وقد بدأت السفينة تميل الى الغرق. كان عصر [كاتو] في الواقع مضطرباً تعصف به الأهواء من كل جانب ومع ذلك تمكن من مديده لمساعدة الملاحين (ولم يسمح له بأن يكون واحداً منهم)، لذلك فاللوم لايقع عليه بل عليهم على أن شجاعته ومتانة خلقه، أحبطت على الحظّ محاولته في تدمير الجمهورية رغم كلّ ما حدث. ولم تقع الواقعة أخيراً الاّ بعد فترة طويلة وبعد التدرج البطيء وبذل الجهود، في حين كان [كاتو] على قاب قوسين من النجاح.

ومن المناسب كثيراً ان نجري مقارنته بـ[فوكيون] لا لمجرد التشابه في الخصائص العامة. كقولنا انهما شخصان طيبان وسياسيان عظيمان. مما لاشكّ فيه ان ثم فروقاً كبيرة بين الاخلاق ذات المنحى الواحد كالفرق مثلاً بين شجاعة [الكيبيادس] و[ايبامنداس] وبين حذر [تمستوكليس] و[اريستيدس] وبين عدالة [نوما] و[اغيسلاوس]. الاّ ان أخلاق هؤلاء الرجال مجتمعاً تتّسم بعين الطابع العام واللون والصفات بحيث لايمكن تمييز الفرق وان تأملنا ادق نقاط الاختلاف فيما بينهما. فالمزيج متحقق بعين النسب بتأكدنا من شمولها على عين العناصر المكونة لها: ابتداء من الرفق وانتهاء بالتزمت لا بأقدام في موقف والاحجام في موقف بالدفاع المتطرف عن مصالح الشعب والاهمال التام لأنفسهم بالاقدام بميلهم المقيم الى كل الاعمال السامية بغاية من اللطف وحرصهم على مجانبة كل ما هو تافه حقير. لذلك يلزمنا منطق سليم مقارن. وعقل حصيف نافذ لاستخلاص الفوارق بين [كاتو] و[فوكيون].

أما عن اصل [كاتو] فمما لاينكر انه كان أصلاً عريقاً لامعاً كما سنفصله فيما بعد. ولم يكن اصل [فوكيون] وضيعاً او خاملاً. ولو كان ابن خراط كما أدعى [ايدومينوس Idomon-eus] لكان [گلاوكيپوس Glaucippus] ابن [هيپيريدس Hyperides] قد اتخذ الزعم للحطّ من شأنه، وهو الذي جمع آلاف العيوب والنقائص عنه. كذلك لم يكن بمقدور [فوكيون]

وابوه بهذه الحال من الضيق المالي ان ينال مثل ما نال من التربية والتهذيب العالي في صدر شبابه فقد تتلمذ على [افلاطون] ثم على [كزينوقراطس] في الاكاديمي وأوقف نفسه منذ البداية على ممارسة أشرف الأعمال، ومتابعة أعلى الدراسات. وكانت ملامح وجهه في غاية الهدوء وقل ان رآه آثيني يضحك اويبكي. ويقول [دوريس] انه نادراً ما عرف عنه ارتياده الحمامات العامة، أو شوهدت يده خارج معطفه عند ارتدائه معطفاً. واذا كان خارج اسوار المدينة أو مخيم تبدى مدى احتماله قسوة الجوّ في انه لا يرتدي الاّ الخفيف من الثياب ولايمشي الاّ حافي القدمين، إلاّ عندما يكون البرد على اشده. واذ ذاك يقول الجنود مازحين حين يرون فوكيون مرتدياً معطفه:

- لاشكّ ان شتاء هذه السنة سيكون قاسياً.

كانت قسمات وجهه صارمة قاسية منفرة، في حين لم يضارعه أحد في طيبة قلبه. ولا يرى برفقةٍ احد الاّ اذا كان من اصدقائه الخلص القلائل. أبدى [خاريس] ملحوظة على قطوبه وجهامته فأضحك بها الاثينيين، فقال [فوكيون]:

- إن جهامتي لم تورث أحداً منكم الحزن. الاّ ان فكاهات هؤلاء الرجال، أورثتكم من الآلام ما فيه الكفاية.

هكذا كانت أحاديث [فوكيون] دوماً، ملأى بالتوجيه الأدبي، مفعمة بالحكم الجميلة، والاقوال البليغة. لاتسمح بأي مجال للتزويق والتنميق في اطار ايجازها الجافّ الهادف، يقول [زينو]: على الفيلسوف الاّ يتكلم الاّ عندما يشبع كلماته بالمعاني، وكذلك هي اقوال [فوكيون] فقد حفلت بأعظم المعاني والمفاهيم المؤداة باقصر الجمل واوجزها. وربما كان [پوليوكتس Polyeuctus] السفتيوني Sphettion] يقصد هذا بقوله: ان [ديموستينس] كان في الواقع أعظم خطباء زمانه. الاّ ان [فوكيون] كان اقوى متكلم». كانت خطبه اشبه بقطعة النقدِ الصغيرة ذات القيمة العالية، لا يمكن تقديرها بحجمها بل بقدر ما تحويه من القيمة الحقيقية.

شوهد مرة على ما يقال وهو يمشي منشغل البال خلف الملعب بعد ان أمتلأ المسرح بالنظارة. فأنتبه اليه صديق فابتدره يسأل:

- اراك يا فوكيون منشغل البال.

فأجابه فوكيون: أجل. انا افكر في اختصار ما سأقوله الآثينيين.

وديموستينس نفسه الذي كان يحطّ من شأن كل خطباء زمانه ما ان يقوم [فوكيون] للكلام

حتى يهمس في اذان القريبين منه: اليكم سكين تقليم عصرنا.

وعلى أكثر تقدير لا يعود هذا الى بلاغة [فوكيون] قدر ما يعود الى قوة تأثير شخصيته. فايماءة، ولا نقول كلمة، تصدر من شخص رفيع المكانة لهي أقوى وقعاً من ألف محاورة أو عبارة مدروسة يلقيها الآخرون.

والتحق [بخبرياس Chabrias] الجنرال، وهو بعد فتى يافع وأخذ عنه الكثير في الفنّ العسكري، وأكتسب ذاك منه ما ساعده على اصلاح طبعه المتلقّب غير المتوازن فقد كان [خبرياس] عسكرياً مقداماً صوّالاً ينسى حاله عندما يحمى وطيس المعركة فلا يرى نفسه الاّ وهو يتقدم الصفّ الأول، الأمر الذي كلّفه حياته بالأخير عند جزيرة [خيوس] فقد دفع بسفينة الى الامام حتى ارتطمت باليابسة.

لكن [فوكيون] فضلاً عن شجاعته - كان هادىء النفس متأنياً صبوراً. لديه من البراعة ما يكّفه من دفع القائد الى القتال عندما يأنس منه المماطلة والتسويف ولديه من الحذق ما يستطيع في ظرف آخر من تهدئه انفعاله ووقف اندفاعه الجائح الذي لا مبرر له. لذلك مال اليه [خبرياس] الرقيق الحاشية الطيب القلب وآثره بحبه واسند اليه القيادات واتاح له فرص العمل وافسح له المجال والوسائل ليجعل اسمه علماً في بلاد الاغريق. وساعده في العمليات الكبيرة، لاسيما القتال البحري في [نخسوس] الذي رفع صيت [فوكيون] الى الأوج. فقد اناط به قيادة قطع المسيرة وأحتدمت المعركة في هذا الجناح بالذات وتركز ثقلها عليه فقهد مصيرها بنصر سريع، وكانت تلك اول معركة بحرية ناجحة خاضتها المدينة بقواتها الخاصة بعد أن نفضت عنها سيطرة المحتل. فاستطارت شهرة [خبرياس] بها وعدّ [فوكيون] بسببها من القادة المجيدين. واتفق ان النصر وقع في يوم الاحتفال بعيد (الأسرار الكبرى) ولذلك جعل [خبرياس] عادته لتخليد ذكر اليوم المجيد بتوزيع الخمر مجاناً على الآثينيين في السادس عشر من شهر [بيودروميون] سنوياً.

أمر [خبرياس] [فوكيون] بالابحار الى سكان الجزر ومطالبتهم بسهمهم من مهمات الحرب ونفقاتها وزوده بعشرين سفينة لحراسته. فقال له فوكيون:

- ان كنت تريدني الذهاب اليهم كاعداء فهذه القوة لايؤبه بها. وان كنت تعتبرهم اصدقاء وحلفاء فتكفيني سفينة واحدة.

وأقلع بسفينة فحسب فزار المدن وكان لقاؤه بالحكام لقاء صداقته واخوة وعاد بعدد من السفن، أرسلها الحلفاء الى آثينا لنقل المهمات وأمتدت آثار صداقته [لخبرياس] الى ابنه بعد

وفاة هذا الجنرال. فضلاً عن سائر اقربائه. فقد حاول [فوكيون] جهده ان ينفعه ويرعاه، وكان شاباً غبياً عنيداً لايسلس قياده، لم يأل فوكيون جهداً في اصلاحه وتقويمه وتغطية هفواته وزلاته. ومرة بدأ له هذا الفتى مزعجاً وقحاً في المعسكر بطرحه اسئلة سخيفة وبمقاطعة فوكيون واقحام ارائه الفجة ومقترحاته في كيفية وضع الخطط الحربية فضاق به ولم يتمالك نفسه من القول:

- اي خيرياس! خبرياس، اترى الى اي حَدّ بلغ تمسكي بصداقتك واظهاري الامتنان من جميلك باحتمالي ابنك هذا ؟

لاحظ فوكيون عند تصريفه الشؤون المدنية العامة، ان الادارة الداخلية كانت تتبع سياسة المحاباة باقتسام المغانم ما بين اعضائها وابتلاعها. فمثلاً اصبحت الأراضي نهباً مقسماً بين العسكريين والخطباء. لا يتدخل احدى الفئتين لصالح طرف ثالث مدعٍ. كان الخطباء يتكلمون في الاجتماعات العامة، ويحصون الاصوات ويهيئون القرارات والمقترحات، من امثال [يوبولوس Eubulus] و[ارسطوفون Aristophon] و[ديموستينس] و[ليكورغوس] و[هيپريدس] وكلهم يحصلون على ما يريدون وهم في مأمن من معارضة العسكريين امثال [ديوپيتس Diopethus] و[مينيتوس] و[ليوستينس Leosthenes] و[خاريس] فهؤلاء يجمعون ثرواتهم من الحروب والقيادات التي يتولونها. فلا يلقون اي اعتراض من الفئة الأولى. واراد [فوكيون] من جهته، العودة الى النظام القديم في توزيع الأراضي وكان كاملاً محكماً بحد ذاته، وأكثر انسجاماً وتوافقاً مع المصالح العام. منذ ايام [پيركليس] و[اريستيديس] و[صولون]. وهكذا ظهر الساسة بالمظهر الذي ينطبق عليه قول [ارخيلوخس Archiloches]:

- إن اصحاب [مارس] و[الميوزات] الذين أعدوا للفن والسلاح، مالوا معاً الى بعضهم بعضاً.

ولم يفته ان الآلهة الفضلى للمدينة، انما هي حامية الحكمتين: الفنيّة والعسكرية في آن واحدٍ.

بهذه الأفكار، وفي الوقت الذي كان ينصح وطنه بالاخلاد الى الهدوء والتمسك باهداب السلم والابتعاد عن الحرب. تراه قد تقلّد منصب القائد الأعلى مرات تزيد عما تقلده اي سياسيّ آخر عاصره أو سبقه. مع انه لم يشجع ايفاداته حملة عسكرية ولم يساهم في تأليف واحدة، في الوقت الذي لم يرفض او يتعذر، عندما ينتخب للقيادة العامة بالاقتراع. لقد بات

مؤكداً انه انتخب قائداً عاماً خمساً واربعين مرة. ولم يؤثر عنه انه حضر بشخصه مرة واحدة في اي انتخاب منها. وانما كان يستدعى بعد فوزه من خارج الجمعية ليتقلدها. وكانت الدهشة دائماً تستولى على أولئك الذين لم يتوقعوا أن يضع الشعب ثقته في فوكيون لأنه كان ابعد الناس عن محاولة كسب عطف الجمهور والتزلف اليه. بل كان في خلافٍ دائم معه، لا يألو جهداً في كبح جماحه والحد من اندفاعه.

يعمد الأمراء والعظماء الى دعوة بطانتهم من المتملقين والمتزلفين عندما يبسطون مائدة طعامهم. والمثل نفسه ينطبق على الآثينيين. فعند المناسبات التافهة تراهم يدعون متكلميهم الفصحاء ذوي العبارات المتأنقة الطلية لتسلية أنفسهم والترويح عنها. فاذا جَدّ الجدّ. وتأزم الموقف رأيتهم حذرين هادئين، قادرين على اختيار الأعقل والأرزن لتولي مهام الدولة، مهما كان موقفه صارماً عنا مشاعرهم ونزواتهم، وهذا ما لم يحاول فوكيون نكرانه، عندما تليت النبوءة الواردة من (دلفي) وقد جاء فيها: «ان الآثينيين كلهم على رأي واحد. ولا يتوقع الا مخالف فرد يتقدم الى الامام غير هياب ولا وجل ويقول لهم: لستم بحاجة الى النظر أبعد مني. انه الرجل المنشو. لا رجل الاّ هو، ذلك الذي لم يرضه اي شيء فعلوه».

ومرة أعطى رأيه للمجتمعين في قضية فقوبل بهتاف الاستحسان بالاجماع فالتفت الى بعض اصدقائه غير مصدق وسأله:

- أقلت شيئاً سخيفاً دون انتباه؟

وفي مناسبة اجتماع عام احتفالاً بالعيد، طلب منه ان يتبرع بشيء كسائر المتبرعين. وأشتدّ الحاح الناس. فأشار عليهم أن يتوجهوا الى الاغنياء، لأنه يخجل ان يقدم تبرعاً «هنا» في حين يرى نفسه مضطراً الى الوفاء بدين عليه «هناك» واستدار وأدماً بأصبعه الى [كالليكلس Callicles] المرابي. الا ان الجمهور لم يدعه وازداد لجاجة وصخبا، فأسمعه الحكاية الآتية:

خرج امرء جبان الى الحرب، فسمع الغربان تنعق فوق رأسه وهو سائر. فألقى بسلاحه وقرر الرّيث. الاّ انه بدل رأيه حالاًورفع سلاحه مستأنفاً سيره، وسمع النعيق مرة أخرى فتوقف ثانيةً وخاطب الغربان قائلاً:

- انعقي حتى تنفلقي. فلن أكون لك طعاماً.

والحّ الآثينيون بان يشتبك مع العدو وكان الظرف غير موآتٍ فرفض رفضاً قاطعاً، فوصموه بالجبن وخور النفس. فقال لهم :

- في هذه الساعة فقط اعملوا ما شئتم ولن أكون شجاعاً أو اعملوا ما سأعمل ولن تكونوا

جبناء. ونحن على كلّ حال نعرف انفسنا معرفة جيدة.

ومرةً أشتد سخط الأهالي عليه في ظرفٍ خطير للغاية. وطالبوه بتقديم حساب دقيق في وجوه صرف الأموال العامة وغيرها. فقال لهم:

- عليكم يا اصدقائي الاعزاء، ان تتأكدوا أولاً من سلامتكم.

وبعد حربٍ كان الآثينيون خلالها طيعين ليّني العريكة حتى تم عقد معاهدة سلم واذابهم يعودون كما كانوا من الضخب والشغب والاعتداد بالنفس. وانحوا باللوم على فوكيون، واتهموه بأنه كان سبب فشلهم في القتال. فكان جوابه الوحيد على زعمهم قوله:

- انتم سعداء الحظّ يا اصدقائي لأن لديكم قائداً يعرفكم حق المعرفة. ولو هذا لذهبت ريحكم منذ زمن بعيد.

ووقع نزاع حدود بينهم وبين البويوثيين. فأتفق مع هؤلاء على التسوية بالمفاوضة فاذابهم يلجأون الى الاشتباك والعراك فقال لهم:

- الاجدى لكم أن تواصلوا القتال بالسلاح الذي امتزتهم به وهو: السنتكم، لا بأسلحة الحرب التي لا تتقنونها.

ومرة كان يخطب فيهم، وهم لا يريدون الاصغاء اليه ولا يدعونه مستمراً فقال لهم:

- قد تحملوني على تنفيذ ما هو ضد رغباتي. لكنكم لن ترغموني على قول ما لا اؤمن به.

وكان [ديموستينس] من الخطباء الذين دأبوا على معارضته. وقد انذره مرة بقوله:

- في يوم ما، سيفتك الآثينيون بك يا فوكيون، عندما يجتاحهم الغضب.

فأجاب فوكيون:

- وسيفتكون بك انت عندما يرتد اليهم صوابهم.

ومرة راح [پوليؤكتوس] السيفتي يحرض الناس على قتال [فيليب] وكان اليوم قائضاً وهو شحيم لحيم فأخذ يلهث وانبهرت انفاسه بالحرّ الشديد فكان يتناول ماء بين آونة وأخرى فقال [فوكيون] مشيراً اليه.

- دونكم الرجل الذي يصلح لقيادتنا في الحرب! ماذا سيكون من أمره بعد ان يشدّدرعه ويحمل ترسه لمقارعة العدو؟ وها هو امامكم يلقي عليكم الخطب المنمقة. وقد كاد يلفظ انفاسه الاخيرة من فرط الاعياء.

ولما شرع [ليكورغوس] في الجمعية العمومية يبدي ملاحظاته العديدة العديدة حول سلوكه،

ويؤنبه بصورة خاصة على نصيحته بتسليم المواطنين العشرة الذين طلبهم الاسكندر من الآثينيين أجاب فوكيون بقوله:

- كنت قد ادليت بنصيحة أنفع وأضمن ولم يؤخذ بها.

وكان ثم شخص يدعى [ارخيبيادس Archibiades] ويلقب بـ(اللقيديموني) أعتاد ارسال لحية ضخمة والخروج بمعطف مهلهل قديم، وبسيماء صارمة جداً. ومرة تعرض [فوكيون] للهجوم في الجمعية. فاستنجد فوكيون بالرجل وندبه لمعونته وشهادة بحقّه. ونهض هذا وشرع يتكلّم بما يفيد الموافقة على اقوال خصوم [فوكيون] واضعاً يده على لحيته، فقال فوكيون:

- ايه يا ارخيبيادس. لقد ازف الوقت لحلاقتك.

كان [ارسطوجيتيون Aristogition] المدعى العام، رجل حربٍ مخيف ضمن نطاق جلسات الجمعية العامة، همّه اثارة شعور الأهالي وتحريضهم على القتال. فلما ازف يوم السوق وتجنيد الصالحين للقتال أقبل وهو يقزل متوكئاً على عكاز وساقه مربوطة بلفاف. وتبينه [فوكيون] من بعيد. وما ان دنا حتى صاح [فوكيون] بالكاتب.

- أخرج [ارسطو جيتون] أيضاً. بوصفه أقزل ولا نفع يرجى منه.

لذلك كان من أغرب الأمور انّ شخصاً كفوكيون صارماً جافي الطبع في كل المناسبات يشتهر بلقب «فوكيون الطيب». ومع ذلك فليس من الصعب في رأيي ان تكون امزجة الرجال كالخمر - طيبة وحريفة عند المذاق في الوقت نفسه. ككثير من الاطعمة الحلوة عندما يذوقها المرء لأول مرة، يجدها بعد التكرار كريهة مجّة ضارة. وقد روي ان [هيپريدس] قال للناس مرةً:

- لا تسألوا انفسكم يا رجال اثينا: أأنا مقذع الهجاء لاذع اللسان أم لا؟ بل سلوها أأنا مأجور لأكون كذلك أم لا؟

كأن الطمع هو العامل الوحيد الذي يجعل المزاج الحاد كريهاً ممقوتاً بل كأنه محظور على الناس ان يعرضوا أنفسهم للسخط العام باستخدامهم سلطاتهم ونفوذهم للتمادي في اظهار طباعهم الشخصية كالكبرياء، والغضب والاضطغان. و[فوكيون] لم يسمح لنفسه مطلقاً باستخدام شعور عدائه أو كرهه للإضرار باي مواطن في الواقع لم يكن يعتبر أحداً عدواً له الا عندما لايجد من سبيل له غير مهاجمة المعارضين في الاجراءات المفيدة للصالح العام بكلّ عنف وبدون رحمة. في مثل هذه المعارك تجده والحق يقال خصماً عنيداً صلفاً غير مهادن. أما في حالاته الاعتيادية فهو مهذّب لطيف، متواضع للجميع دون استثناء. حتى أنه كان يحدب

على خصومه السياسيين وينشد صداقتهم ويهتم بهم ان وقعوا في محنة، ويتبنى قضايا من هم في أشدّ الخلاف معه. ويحميهم أن كانوا بحاجة الى حماية. وقد لامه اصحابه مرةً لدفاعه عن رجل دي أخلاق مشبوهة. فقال ان البريء ليس بحاجة الى من يدافع عنه.

الحّ [ارسطوجيتيون] المتملق الذليل السالف الذكر، بطلب التحدث الى [فوكيون]. وكان قد القي في السجن بعد صدور حكم عليه. فحاول اصدقاؤه ان يثنوه عن الزيارة فقال:

- كلاً واسمحوا لي من فضلكم. فايّ مكان اختاره لزيارة ارسطوجيتيون خير من هذا المكان!

وكان حلفاء اثينا واهل الجزر يحذرون ويتوجسون شراً من كلّ اميرالٍ يرسل اليهم فيضعون المتاريس على المداخل. ويسدون موانيهم في وجهه ويجمعون مواشيهم وعبيدهم ونساءهم واطفالهم ويغلقون دونهم ابواب قلاعهم. خلا [فوكيون] فما أن يعلموا بقدومه حتى يخرجوا بزوارقهم ومراكبهم الخاصّة للقاءه والترحيب به رافعين الأعلام وضافرين أكاليل الزهر. فسيتَقلبونه عند نزوله البرّ بكل مظاهر الفرح والغبطة.

توغل [فيليب] الملك في [يوبيا Eubaea] وتقل جيوشه من مقدونيا وارسلها لاخضاع المدن مستميلاً الطغاة الذين يحكمونها. فاستجار [پلوتارخ] الأرتيري بالآثينيين وطلب منهم العون على انقاذ جزيرته التي كادت تقع في ايدي المقدونيين. فأرسل [فوكيون] اليها على رأس شرذمةٍ من الرجال. لعلّ اليوبيين يلتفون حولها فتكون نواة لجيش يدافع عن الجزيرة. لكنه وجد الجزيرة في حالٍ يرثى لها من الفوضى. لقد قام عملاء فيليب وصنائعه بالمهمة خير قيام فسلموا اليه البلاد كلها، وشعر [فوكيون] وكأن الأرض التي يسير عليها ملغمة. وأحدق به خطر عظيم فما كان منه محافظة على نفسه الاّ ان يختار نشزاً صغيراً من الأرض يفصله مجرى ماء عميق عن السهول المنبسطة المحيطة بتاميني Tamynae. فحوط النشز وحكمه ووضع فيه الصفوة المختارة من جنود، وأمر ضباطه بالاّ يعترض سبيل أولئك الثرثارين والفوضويين الأشرار من السكان ان هم خرجوا من المعسكر وعادوا من حيث أتوا. وحجته في ذلك انهم سيكونون عالةً لا يرجى منها نفع ولايمكن السيطرة عليهم وسيصبحون فضلاً عن ذلك عقبة فعلية. وانهم بادراكهم عجزهم عن القيام بالواجب المفروض عليهم سيكونون أقل استعداداً لاساءة تصوير عملهم وسيكذبون أو سيحرضون الغوغاء عليهم عند العودة. ولما أقترب العدو حذرّ [فوكيون] رجاله من الاشتباك حتى يفرغ من تقدمة القرابين. وقد تأخر كثيراً فيه أمّا بصعوبة نشأت اثناء اجراء المراسيم الدينية، وامّا كان يتعمد ذلك ليغري العدو بالتقدم أكثر مما فعل. لكن پلوتارخ صاحب الجزيرة فسرّ تلكؤه، بالجبن وخور العزيمة، وهاجم العدو بمرتزقته. فسلم يسع خيالة فوكيون الاّ وان تندفع من المعسكر، بنظام مختل وفوضى لا

مثيل لها؛ وصلت الهزيمة باول المهاجمين، وسرت الهزيمه الى البقية. وهرب [پلوتارخ] لايلوى، وتقدم بعض وحدات من العدو تريد الاستيلاء على المعسكر متوهمة أن نصرهم كان تاماً، في تلك الساعة كان [فوكيون] قد فرغ من تقديم القربان فاندفع الآثينيون من المعسكر والقوا بأنفسهم على العدو وهزموه وفتكوا بالقسم الاكبر منه امام الخندق اثناء محاولته الفرار. وبعدها أمر [فوكيون] مشاته بالمزيد من اليقظة في مراقبة حركات العدو وبعد ان أكمل تنظيم صفوف الناجين من الهزيمة الأولى ندب نخبة من خيرة رجاله واشتبك مع العدو في معركة دموية حامية ابدى فيها الجميع بسالة واقداماً لا مزيد عليهما. وحاز شرف ذلك اليوم [تاللوس Thallus] ابن [كينياس Cineas] و[گلاوكس Glaucus] اليوليميدي Poly-medes] اللذين كانا يقتتلان الى جنب القائد العام. وقام كليومانس بدور ممتاز في المعركة فبعد ان أصلح من وضع الخيالة وردّ اليها معنوياتها راح يستنهف همم الفرسان ويشجعهم بصيحاته الحماسية، ثم قادها لمساعدة قائده الذي كان يعاني ضيقاً شديداً فعزز النصر الذي نالته المشاة وثبته. وطرد [فوكيون] [پلوتارخ] من الجزيرة وأحتل قلعة [زاريترا Zaretra] الهامة جداً لموقعها كما يقال في مخصرة الجزيرة. لأن البحر يحتضنها من الجانبين في مكان تضيق الجزيرة كضيق الخصر في الجسم.

وأطلق [فوكيون] سراح كلّ الأغريق الذين وقعوا في اسره، خوفاً من السنة خطباء اثينا التي قد تحمل الأهالي على ارتكاب عملٍ من اعمال القسوة والعنف في فورة من الغضب. وبعد ان أنجز واجبه هذا من كلّ الوجوه أقلع الى الوطن. وكان للخلفاء أقوى سبب لأسف الآثينيين على حرمانهم تجاربه وشجاعته فان [مولوس Molossus] الذي خلفه في القيادة لم ينجح الاّ بافلاته حياً من ايدي العدوّ. وتقدم [فيليب] ورأسه مفعم بالخطط والآمال الجسام فتوغلت قواته في الهللسپونت واحتل الخرسونيز، وپيرينثوين Preinthus] ثم حاصر بيزنطة، فجردّ الآثينيون قوة لنجدة البيزنطيين. وعمل الساسة الخطباء اقصى جهدهم لأنتخاب [خاريس] قائداً عاماً، فلم تحقق قيادته شيئاً جديراً بالقوات التي وضعت تحت امرته. كانت المدن تهتزّ رعباً منه وتأبى استقبال سفنه. جابياً الأموال من الحلفاء ومحتقراً من الاعداء.

وبلغ السخط بالاهالي مبلغه - وأثار الخطباء غضبه فأظهر ندمه على ارسال النجدة الى البيزنطيين. نهض فوكيون قائلاً:

- ليس حرياً بكم أن تحنقوا على الحلفاء لفقدانهم الثقة بكم. بل عليكم ان تحنقوا على قوادكم لأنهم ليسوا أهلاً للثقة. انهم يضعونكم موضع الشكّ حتى لدى أولئك الذين يعجزون عن الصمود الاّ بمعونتكم.

وكان وقع هذا الكلام شديداً على الجمعية العامة فعدلت عن قرارها الأول وأمرته في الحال أن يؤلف قوة أخرى ويقلع الى نجدة حلفائهم في الهللسپونت. فكان هذا التعيين أكبر عاملٍ في انقاذ بيزنطه من يد الغازي. اذ كان اسم [فوكيون] علماً وسمعته داوية. وكان في مدينة بيزنطة رجل عرف واشتهر عند البيزنطيين بفضائله يدعى [ليون]هو أحد رفاق [فوكيون] في الاكاديمي منذ ايام التلمذة. فضمن هذا الرجل سلوك [فوكيون] امام المدينة ففتح أهاليها ابوابها لاستقباله ولم يسمحوا رغم ممانعته بان يعسكر خارجها، بل دعوه هو ووحدات جيشه الى الداخل واقاموا لهم المآدب وأظهروا من الثقة به والاعتماد عليه ما تجلى واضحاً في المقابلة اللطيفة السليمة. ولذلك تفانى الآثينيون في الدفاع عنهم واظهروا اشدّ الحماسة في قتال عدوهم ليستعيدوا الثقة المفقودة. واندحر فيليب الملك في الهيللسپونت وتدنت سمعته الى الحضيض - وهو الرجل الذي ظلّ يعتقد به الى يومنا هذا بأنه لايغلب واستولى [فوكيون] على عدد من سفنه وأحتل بعض المواقع التي كان قد حصنها ووضع فيها حاميات. وقام بعدة غارات وتوغل في البلاد ونهب واجتاح، حتى اصابة العدو بجرح فاقلع عائداً الى الوطن.

في ذلك الوقت طلب الميغاريوّن سراً مساعدة من الآثينيين ولخشية [فوكيون] في انكشاف الأمر للبويوثيين فيحبطوا المسعى بعمل مسبق، دعا الجمعيّة العامة في فجر يومه وعرض مطلب الميغاريين للتصويت، فنال التأييد وما أن ظهرت النتيجة حتى نفخ [فوكيون] في نفير الحرب وقاد الآثينيين رأساً من محل الاجتماع الى حيث تسلحوا واستعدوا للسير. فاستقبلهم الميغاريون بفرح عظيم وباشر [فوكيون] بتحصين [نيسيا Nisaea] وبنى جدارين جديدين طويلين يمتدان من المدينة الى الميناء، فربط المدينة بالبحر، ولم يعد لها ما تقلق لأجله او تخشى هجوم للاعداء من اليابسة فوضعت ثقتها التامة بالآثينيين.

وباتت الحرب مع [فيليب] أمراً لامناص منه، ونصب الآثينيون قادة عسكريين آخرين بغياب [فوكيون]. فرآى هذا عند عودته من الجزر أن ينصح مواطنيه بخلاف ما استقر رأيهم عليه وقال لهم:

- ما دام فيليب قد اظهر نواياه السليمة. وبما أن الخطر الذي يتعرضون له، كبير، فالأحرى بهم أن يعقدوا معه معاهدة صلح.

وكان من معارضي فكرته هذه شخص ممن تعودوا الاختلاف الى سوح المحاكم، وكيل اتهامٍ أو ما أشبه فقد انبرى له وسأله:

- أتسعى الى اقناع الآثينيين بالجنوح للسلم وها ان السلاح الآن بأيديهم؟ فقال:

- أجل. وان كنت أعلمُ بأني سأكون آمراً عليك عند نشوب الحرب وانك ستكون آمراً عليّ في

زمن السلم.

ولم يكتب لمسعاه النجاح. فقد استظهر عليه رأي [ديموستينس] الذي نصحهم بالحرب، على ان يكون القتال أبعد ما يمكن عن المدينة. ورأى ان يخوضوا المعركة في [آتيكا].

فقال [فوكيون] متوجهاً الى الآثينيين.

- أيها الاصدقاء الطيبين. حري بنا ان لا نتساءل أين سنقاتل بل كيف سنكسب، فالنصر هو الوسيلة الوحيدة لابعاد الحرب عنا. ولو هزمنا فإن الحرب ستغزونا في عقر دارنا وبأسرع مما تتصورون.

وحلت بهم الهزيمة، واراد الغوغائيون ومثيرو الفتن أن يدفعوا [خاريديموس Charidemus] الى المنصّة لتنصيبه قائداً. فتملك الخوف المواطنين الشرفاء وراحوا يتوسلون الى الأهالي بدموعهم أن يلقوا مقاليد الأمور الى [فوكيون] وبمعاونة المجلس الاريوباغي نجحوا في مسعاهم وتولى [فوكيون] السلطة. وكان من رأيه عموماً، ان يقبل الآثينيون بالشروط العادلة التي يضعها فيليب. لكن [ديماديس] آقترح ان المدينة يجب ان تحصل على عين شروط السلم التي نالتها سائر الدول الاغريقية. فعارض [فوكيون] في ذلك، وقال:

- يجب ان نعرف أولاً تفاصيل تلك الشروط التي فرضها فيليب عليها.

فلم يعمل بنصيحته، وفشل تحت ضغط قصر الوقت. لكن ما لبث الآثينيون أن أدركهم الندم عندما وجدوا من بين الشروط التي فرضت عليهم، تزويد [فيليب] بالخيل والسفن، فقال [فوكيون]:

- خوفي من هذا، هو الذي دفعني للمعارضة. ومادام الأمر قد وقع، فعلينا أن نخلص في تطبيق تلك الشروط وان لايهن عزمنا. كان اجدادنا آمرين وكانوا مأمورين، وبانجازهم واجباتهم كحاكمين ومحكومين، انقذوا بلادهم مع بقية بلاد اليونان.

ولما انتشر نبأ وفاة [فيليب] عارض [فوكيون] في اقامة تظاهرة فرح عامة قائلاً:

- من الخسّة والدناءة ان يظهر المرء أي نوع من التشفي في مثل هذه المناسبة. واعلموا ان الجيش الذي حاربكم في خيرونيا، لم ينقص الا رجلاً واحداً.

وعندما وجه [ديموستينس] مطاعنه في الاسكندر، وكان هذا يزحف لمهاجمة [ثيبه] تمثل [فوكيون] ببيتين لهوميروس:

يا قاصر العقل، لماذا اردفت ضربتك بأخرى
فأثرت بهذا، غضبه الجائح؟

ثم قال متسائلاً: لماذا تزيد من ايقاد نار شوقه الى المجد؟ لماذا تجهد نفسك في تعريض المدينة
الى حريق رهيب أخذ الآن يدنو منها؟ نحن الذين قبلنا على انفسنا مسؤولية انقاذ ابناء وطننا لن نرضى بدمارهم مهما ارادوا هم ذلك!

وبعد أن استسلمت [ثيبه] وطلب الاسكندر تسليم كلّ من [ديموستينس وليكورغُس، وهيپريدس، وخاريديموس] اتجهت الانظار الى [فوكيون] ونادوه باسمه طالبين ان يعطي رأيه. فنهض وعرض لهم واحداً من أخلص واحبّ اصدقائه اليه وقال:

- انتم الذين بلغتم بالامور الى هذه الخاتمة لا غيركم. أما أنا فلو طلب منيّ الآن تسليم صديقي هذا [فيكوكس] لما ترددت في ذلك. ولو كان في مقدوري التضحية بحياتي وبمستقبلي في سبيل سلامة الوطن فياما اسعد حظيّ. واضاف يقول:

- انه ليدمي قلبي ان أرى هؤلاء الذين لجاؤا الينا هاربين من ضرائب [ثيبه]. ومع هذا يكفي بلاد الاغريق حزنها هلى [ثيبه]. ومع الأفضل لمصلحة الجميع ان نخفف من غضب الفاتح ونتوسط للاثنين، لا ان نجازف بمعركة أخرى.

فوافق الآثينيون. وقيل ان الاسكندر رفض اول طلب للمفاوضه وقذف بالكتاب بعيداً بكلّ احتقار وادار ظهره لاعضاء الوفد فخرجوا وهم يرتجفون رعباً. لكنه قبل الطلب الثاني من يد [فوكيون] بعد ان أعلمه المقدونيين بمكانته الكبيرة عند والده. ولم يكتف بالسماح بمقابلته والاصغاء الى عروضه وطلباته، وانما رجاه ان ينصحه فقال له: «إن كنت تجنح للسلم فعليك أن تبرم معاهدة صلح وسلام حالاً. وإن كنت تنشد المجد والسؤدد فعليك ان تباشر الحرب ضدّ البرابرة لا ضدّ الاغريق».

وساير مشاعر الاسكندر وغذى طموحه بمختلف الآراء والنصائح المختارة بدقة فتمكن من استمالته والتخفيف من غلوائه. حتى انه طلب من الآثينين أن لاينسوا مركزهم الرفيع. لأن السيادة الأولى ستنتقل اليهم اذا ما ناله مكروه. وظهر [لفوكيون] احتراماً كبيراً ورفع من شأنه بانعامات حظي بها أحدٌ من اصحابه الملازمين له واتخذه صديقاً واحتفى به ضيقاً عزيزاً، لا كعضو في وفد مفاوضة. ويحدثنا [دوريس] انه لما قويت شوكة الاسكندر ولقب بالكبير بعد انتصاره على [داريوس] أهمل كتابة عبارة «تحياتي...» عند تصديره رسائله. ولكنه كان يثبتها في رسائله الى كلّ من [فوكيون] و[انتيپاطر]. وقد ذكر خاريس ذلك ايضاً.

أمّا التكريم الذي حباه به الاسكندر، فمن المعروف عنه انه ارسل له مرة مائة تالنت. ولم وصلت الهدية الى آثينا، سأل [فوكيون] حاملها. «لماذا أختص هو وحده من دون سائر

الآثينيين بهذه الهدية الكبيرة؟» فقيل له أن الاسكندر يعتبره الشخص الوحيد الشريف العظيم القدر. فقال:

- اذن فليسمح لي ان ابقى كذلك. وان أظلّ معروفاً بمثل هذه السمعة.

وتبعه الرسل الى داره. وشاهدوا بأعينهم حياة الكفاف البسيطة التي يحياها، كانت امرأته تعجن الخبز بيديها. وكان هو يستقي الماء ليغسل به قدميه. فعادوا يلحون عليه بقبول الهدية. واستنكروا ان يعيش صديق الاسكندر بهذه الحالة من الفقر والإملاق، فلفت [فوكيون] انظارهم الى فقير عجوز يمرّ بهم وهو مشتمل بعباءة قذرة قديمة. وسألهم هل وجدوه في حالة أدنى من حالة هذا الرجل الفقير؟

فوجوه الاّ يلجأ الى مثل هذه المقارنة فقال:

- مع هذا فان الرجل قانع بالأقل مما لديّ. ومختصر القول ان انا لن استعمل هذه النقود فايّ جدوى لي من احرازها؟ وان استعملتها فسوف أكسب سمعة سيئة لي وللاسكندر عند ابناء وطني.

فعادت الهدية الثمينة الى مرسلها، لتبرهن للأغريق بهذا المثل الفريد، ان القادر على منح مثل هذه العطية. ليس أغنى من ذلك القادر على رفضها.

واستاء الاسكندر وكتب له يقول أنه لايمكن أن يجلّ الاصدقاء الذين يرفضون منّتَه وتكريمه. ولم ينفع هذا القول في [فوكيون] ولم يغره بقبول المال، الاّ انه رجا من الاسكندر قبول شفاعته في الصّوفي [اخيكراتيدس Echecratides] وفي [اثينودوريس الامبري Imbri] وكذلك في ديماراتوس، وسپارتون Sparton الروديسيين الذين كانوا قد سجنهم لبعض تهم في ساردِيس. فلبى اسكندر طلبه على الفور وأخلي سبيلهم. وبعدها، عندما بعث الاسكندر بـ[كراتيروس] الى مقدونيا أمره ان يعرض على [فوكيون] أربع مدن آسيوية وهي [كيوس Cius] و[ايليا Elæa] جرجيستوس Gergithus وميلاسا Mylassa يتخير منها واحدة ليحكمها. وان يلحّ في ذلك الحاحاً شديداً ويقول له انه سيحنق عليه أن رفض. لكن [فوكيون] أصرّ على موقفه ولم ينجح معه المسعى، وبعد قليل توفي الاسكندر.

ما زال منزل [فوكيون] قائماً حتى يومنا هذا في ميليتا. لا زخرف فيه غير بعض الصفائح النحاسية الصغيرة، وهو بصورة عامة بسيط عادي. ولا يعرف عن زوجتي [فوكيون] الا القليل. ومن هذا القليل ان الأولى هي أخت [كيفيسودوتس Cephisodotus] النحات. والثانية عرفت بالفضيلة وبساطة العيش واشتهرت بهما كشهرة أمانة زوجها. حدث مرة أن

الجمهور كان يشاهد تراجيديا جديدة. وقبل ان يدخل الممثل المرسح لتمثيل دور الملكة، طلب تزويده بعدد من النساء الحسنات الشياب ليظهرهن معه كبطانة وخدمٍ وغضب عندما لم يحب طلبه واضرب عن التمثيل وابقى المشاهدين في الانتظار حتى أقبل ميلانتيوس Melantius المشرف على الجوق ودفعه نحو المرسح وهو يقول:

- عجباً لك! الا تدري ان زوج فوكيون نفسها، لا تجد بين يديها أكثر من خادم واحدة؟ وانت تريد أن تظهر بمظهر فخم لتملأ رؤوس نسائنا بالتيه والغرور؟

نطق بهذه العبارة بصوت جهوري سمعه كل من كان قريباً.

وأقبلت امرأة من أيونيا لزيارة زوج فوكيون وحلت ضيفة وطفقت تريها حليها النفيسة من الذهب المكفت بالجواهر، وعصائبها وقلائدها وغير ذلك فقالت امرأة [فوكيون].

- اما انا فزوجي هو [فوكيون] وهو كل ما املكه من الحلي فهذه عشرون عاماً وهو قائد اثينا العام.

واراد ابنه [فوكس Phocus] الإسهام في الالعاب اثناء العيد الكبير المخصص [لمنيرڤا] فاذن له بالمشاركة في سباق القفز شريطة ان لايجعل الفوز هدفه، بل التدريب على ضبط النفس والنظام اللذين يميزان تلك الالعاب. وكان الفتى مولعاً الى حدٍ ما بالخمر لايرعى في حياته نظاماً معيناً.

فعند فوزه في السباق، تنافس الكثيرون على شرف صحبته ودعوته للمآدب والاحتفالات بمناسبة الفوز. ورفض [فوكيون] كل الدعوات الا واحدة. وعند وصوله شاهد الاستعداد الباذخ والمظاهر الفخمة، حتى ان الماء الذي يقدم لغسل الاقدام مزج بالخمر والتوابل. فأنب ولده وتساءل لماذا سمح لصديقه بان يلطخ شرف نصره بمثل هذه المظاهر؟ ولأجل أن ينتزع ابنه من اسر هذه العادات وينقذه من تلك العشرة، ارسله الى لقيديمون وضمه الى الشبان الذين كانوا يتلقون تدريبهم وفق في النظام السپارطي. فأغاظ الآثينيين بعمله هذا. واعتبروه استهانة بجدوى التهذيب في بلاده وراح [ديماديس] يندد به علناً بقوله:

- ما رأيك يا فوكيون لو نصحنا الآثينيين بتبنيّ النظم السپارطية؟

أن شئت فانا على استعداد لتقديم مشروع قرارٍ بهذا المآل وان أعمل على ترويجها والموافقة عليها. فأجاب فوكيون:

- صدقت يا صاح. بهذا العطر القوي الذي يفوح منك. وذاك المعطف الفاخر على كتفيك، فأنت أصلح من يتكلم في تقريض ليكورغوس والاشادة بالطعام السپارطي.

وعندما كتب الاسكندر بطلب امداد من السفن وعارض الخطباء العموميون في ارساله. طلب فوكيون سماع رأيه في الجمعية وقال:

- أيها السادة اني أريد ان اراكم أحد اثنين. إمّا منتصرون وإمّا اصدقاء للمنتصرين.

وعنفّ [بيثياس Pytheas] الذي كان وقتذاك يخطو اول عتبة في الخطابه وتوجيه الكلام للجمعية عاتبه لما كان قد اظهره من الاعتزاز بالنفس والغرور:

- ان العبد الفتى الذي اشترته المدينة أمس فقط، يجب ان يتحلّى بقسط من الأدب ما يمسك به لسانه.

ولما شق [هرپالوس] عصا الطاعة على الاسكندر وهرب من آسيا حاملاً معه مبالغ طائلة من المال، استقرّ في آتيكا. وتسابق رجال الجمعية العامة العاديون الى صرّة نقوده فوزع عليهم مبالغ بسيطة لتكون بمثابة طعم. لكنه عرض على [فوكيون] مالا يقل عن سبعمائة تالنت، وكل ما يريد من منافع، ان يكون تحت تصرفه وان يأتمر بأمره. فأجاب [فوكيون] بكلّ حدة وصرامة: «سيندم هرپالوس ان لم يقلع فوراً عن مجهوداته في افساد المدينة واغوائها بالمال» فأسكته واوقفه عن عمله. ثم ان أمر هرپالوس عُرض أمام الجمعية وراح الآثينيون يتشاورون حوله. فوجد ان من أخذ منه مالاً كان اشد المهاجمين له. فأخذوا يؤلبون ضده ويبالغون في شجب اعماله. ويلحون في اتهامه، يريدون بذلك دفع الريبة عن أنفسهم، وتغطية علاقتهم به. اما [فوكيون] الذي أبى يتسلم منه شيئاً. فقد أهتم بسلامته الشخصية بقدر ما سمحت له المصلحة العامة، وهذا ما شجع [هرپالوس] على بذل جهود أخرى لشرائه. لكنه أقتنع بالأخير أن [فوكيون] أشبه بقلعة منيعة لايمكن لوسائل الاعزاء ان تجد فيها منفذاً من اية جهة. فعمد الى التقرب من ختنه [خاريكلس Charicles] وأختصه بالصداقة ووضع فيه ثقته التامة. وكان يطلب معونته على الدوام. فبات ختن [فوكيون] موضع شكّ. فمثلاً ماتت [بيتونيكا Pythonice] مخطية هرپالوس وام ابنه وكان كثير الحبّ لها. فعزم ان يبني لها ضريحاً فخماً واناط بصديقه [خاريكلس] مهمة الإشراف على العمل، مهمّة لا تشرف صاحبها، وزاد من حطّة شأنها التمثال (وهي المنحوتة التي ركبت بعد إكمال الضريح). هذا النصب يرى اليوم في [هرميوم Hermeum] وانت خارج من آثينا الى [اليوسيس Eleu-sis]. وليس في مظهره ما يدلّ على ان ثلاثين تالنتاً انفقت عليه. وهو على ما قيل الأجر الذي طلبه [خاريكلس] من [هرپالوس] لقاء اتعابه. وبعد موته من الرعاية. لكن [خاريكليس] حوسب على علاقته بهرپالوس. فطلب حماية حميّه، والتقدم للدفاع عنه في ساحة القضاء. فرفض فوكيون ذلك وقال له:

- لم اخترك لابنتي زوجاً إلاّ لتبتغي اشرف الغايات.

كان [اسكليپيادس Asclepiades] ابن [هيپارخوس] أول من حمل نبأ وفاة الاسكندر الى آثينا. فكذبه [ديماديس] وطلب من سامعيه الاّ يصدقوه. اذ لو كان الأمر صحيحاً فان العالم كله سينتن بجثته قبل موته! وعندما رأى [فوكيون] حماسة الآثينيين للثورة الفورية اخذ يبذل قصارى جهده لتهدئتهم وكبح حجامهم واندفع عدد منهم الى المنبر للتحريض على الثورة هاتفين بأن النبأ صحيح وان الاسكندر قد مات. فقال فوكيون:

- إن هو اليوم ميت، فسيكون كذلك غداً. وكذلك سيكون بعد غدٍ فلا حاجة بكم والحالة هذه الى اتخاذ قرار عاجل. تأكدوا أولاً.

قبل ان يقلع [ليوسثينس Leosthenes] الى الحرب في لاميا Lamia بعد معارضة فوكيون الشديدة. اراد أن يضحك الناس عليه فسأله هازئاً:

- ماذا كسبت الدولة من بقائك هذه السنوات الطوال قائداً عاماً؟

فأجاب فوكيون: ليس بالقليل أن يتيح للمواطنين الدفن في قبورهم الخاصة.

واستمرّ [ليوسثينس] يخطب في الجمعية العامة متباهياً مختالاً. فقال فوكيون له:

- خطبك ايها الشاب شبيهة بشجر السرو. فهي مهيبة ممشوقة القامة، لكنها عقيمة لا تثمر.

وعندما هاجمه [هيپيريدس] آنذاك. وسأله الم يحن الوقت بنصح الآثينيين بشن الحرب، أجاب فوكيون:

- سأنصح بهما عندما أرى الشبان لايتهربون من الخدمة في الجيش. والاغنياء ولا يترددون في التبرع باموالهم. والخطباء يكفّون عن سرقة بيت المال.

وتعاظم الاعجاب بالقوات التي عبأها [ليوسثينس] والاستعداد الحربي الذي اتخذه فسئل فوكيون عن رأيه بالمجندين الجدد فأجاب:

- في المدى القصير مناسبون جداً. لكني أخشى السباق الطويل. لو طال امد الحرب فان المدينة لا تملك مالاً ولاسفنا ولا جنوداً غير ما ترون الآن.

وبرهنت الاحداث على صدق قوله: في البدء جرى كلّ شيء على ما يرام وراحت بشائر الخير تترى، ونال [ليوسثينس] شهرة عظيمة بانتصاره على [البويوتيين] ومطاردته [انتيپاطر] وارغامه على الاحتماء باسوار [لاميا Lamia] وطار الآثينيون فرحاً بالانتصارات الأدلى، فعيدوا وأحتفلوا وقدموا القرابين الرسمية للآلهة. وخيل لبعضهمان [فوكيون] مقتنع الآن

بخطئه في الحساب فسألوه: أما كان يتمنّى أن يكون صاحب هذه الانتصارات؟ فأجاب:

- أجل، وبكلّ سرور. لكن مع رأيي السابق.

وعندما بدأ السعاة يقبلون واحدهم إثر الآخر مؤكدين تلك الانتصارات ومبالغين فيها قال:

- ترى متى سيصل آخرهم؟

وبعد ذلك بقليل قتل [ليوسثينس]. وكان ثم من يخشى ان يضع [فوكيون] حَدّاً للحرب لو سلّموه القيادة، فأتفقوا على شخص مغمور نكرة في الجمعية، لينهض ويدعى بأنه صديق قديم لفوكيون وموضع ثقته، ثم يتوجه الى المجتمعين ويناشدهم بان يعفوا [فوكيون] من هذا الواجب وان يدخروا الرجل الذي لايضاهيه أحد، لعمل آخر أخطر وأهم من هذا العمل. وان يسندوا قيادة الجيش لـ[انتيفيلس Antiphilus]. فوقع كلامه موقعاً حسناً وارضى به الجمعية لكن [فوكيون] اوضح المسألة لهم بقوله:

- اني في الواقع لا ارتبط باي رباط من الصداقة مع هذا الرجل كما أنه لايوجد بيني وبينه اي نوع من الالفة والمودة. ومع ذلك فاسمح لي يا سيدي ان اضعك في عداد اصدقائي وطالبي الخير لي. فان نصيحتك كانت لفائدتي حقاً.

وعندما تحمس الآثينيون لتجريد حملة على البويوثيين، انبرى لمعارضتها في مبدأ الأمر فحذره اصحابه من كون الناس سيفتكون به ان ظلّ يخالفهم في الرّاي، فقال:

- سيكون هذا ظلماً وتعدياً منهم، ان قدمت لهم خالص النصح.

والاّ فمن حقهم ان يفعلوا بي ما يشاؤون.

وظلّوا يصرخون ويلحون ليقودهم الى الحرب. فأمر المنادي أن يعلن بيانه الذي جاء فيه «على كل اثيني لم يبلغ الستين ان يتزود بما يكفيه من الزاد لستة ايام ويتبعني رأساً من هنا». فأحدث بيانه ضجة، واجفل كبار السنّ واحتجوا عليه فسألهم.

- ما الذي يدفعكم الى الاحتجاج؟ أنا الآن في الثمانين من العمر، على اتم استعداد لقيادتكم.

هذه المحاولة نجحت في تهدئتهم الى حين.

ولكن ما أن بدء [ميقيون Micion] بقواته الكبيرة من المقدونيين والمرتزقة، يجتاح الساحل، ثم يحتل [رامنوس Rhamnus] ويتوغل في البلاد المجاورة حتى زحف عليه [فوكيون] وانشأ مختلف الاشخاص المدنيين يتدخلون في اجراءاته بالاشارة عليه ان يحتل

مرتفع كذا وتلّ كذا، وان يضع الخيـاله في هذه الجهـة وتلك ويهاجم العدو من تلك النقطة او تانك فعيل صبره وقال:

- رحماك يا هرقل! ما أكثر ما عندنا من القادة. وما أقل ما لدينا من الجنود!

ثم وضع جيـشه في نسق المعـركة. ورأى جندياً يتـقدم الآخـرين في الصف يريد ان يظهـر شجاعته. ثم رآه يتراجع الى مكانه في الصفّ عندما بدأ تقدم العدوّ وقد تملكه خوف شديد ضاح فوكيون مؤنباً:

- أيها الشاب! يجب أن تخجل من نفسك مرتين في هذا اليوم. فأولاً تركت محلك الذي أخترته لك. وثانياً تركت المحل الذي اخترته لنفسك.

ومهما يكن فقد وفق [فوكيون] الى هزم جيش عدوه هزيمة تامة وقتل [ميقيون] مع كثيرين في ميدان المعركة نفسها. كذلك أحرز للجيش الأغريقي نصراً آخر في تساليا بعد وصول [ليوناتس] على رأس المقدونيين من آسيا للانضمام الى [انتيپاطر] فقد قاتلهم وتغلّب عليهم وقتل [ليوناتس] في ساحة المعركة. وكان [انتفيلين] يقود مشاته و[مينون] التسالي يقود خيالته. لكن لم يمرّ فترة طويلة الاّ وعبر [كراتيروس] المضيق من آسيا بقوات جرارة وخاض معركة ضارية انكسر فيها الاغريق إلاّ انه لم يلحق بهم هزيمة تامة ولم يصبهم بخسارة كبيرة. لكن ما الحيلة وكيف تكون نهاية الصراع عندما يفتقر الجيش الى الضبط والربط؟ الجنود لايطيعون ضباطهم. والقواد شبان نزقون كثيرو التبسط مع الجنود. و[انتيپاطر] ناشط في مفاوضة ومغازلة المدن الأغريقية كلاً على انفراد. كانت النتيجة، انحلال الجيش الأغريقي وتسليم البلاد للفاتح تسليماً مخجلاً.

عندما وردت الانباء بزحف انتيـپاطر الخاطف على اثينا بكلّ ما لديه من قوات، هرب [ديموستينس وهيپريدس] من المدينة. أمّا [ديمادس] الذي كان قد عجز عن تأدية أي قسط من الغرامات التي فرضتها عليه سلطة المدينة لأنه أدين سبع مرات لتقديمه لوائح ومراسيم مخالفة للقوانين وكان قد حرم حق الاقتراع ولم يعد صوته يسمع في الجمعية العامة، فقد أهتبل فرصة الحصانة من تنفيذ العقوبة ليقدم اقتراحاً بارسال سفراء مطلقي الصلاحية الى [انتيپاطر] ومفاوضته في صلح. الاّ ان الأهالي ما عادوا يثقون به. فأتجهوا الى [فوكيون] بوصفه موضع ثقتهم الوحيد فقال لهم:

- لو ان نصائحي السابقة لقيت منكم آذاناً صاغية، لما آل بنا الأمر الى مناقشة وضعنا الحاضر مطلقاً.

ومهما يكن فقد أخذت الاصوات وصودق على قرار المفاوضة. فأنيب مع فوكيون آخرين لمواجهة انتيپاطر الذي كان قد عسكر في الأراضي [الثيبية] وكان ينوى تقويضه والزحف على آتيكا. وكان أول طلب [لفوكيون] هو ان يعقد الصلح بدون أن يتحرك [انتيپاطر] من معسكره. فقال [كراتيروس]: ليس من العدل ان نكون عبئاً ثقيلاً على بلاد اصدقائنا وحلفائنا ببقائنا فيها، بينما يكون الأحرى بنا استخدام ارض العدو لتزويد الجيش بالمؤن والارزاق.» لكن [انتيپاطر] أمسك بيد [فوكيون] وقال:

- يجب أن نخصّ [فوكيون] بهذا الفضل.

واما بخصوص الموفدين الآخرين فقد أوعز اليهم بالعودة، كلّ الى مدينته بعد احاطتهم علماً، بأنه لايسعه الاّ ان يعرض عليهم عين الشروط التي عرضها عليه [ليوسثينس] عندما كان يحاصره في [لاميا]، وهي الاستسلام دون قيد أو شرط.

وعاد [فوكيون] ونقل لمواطنيه هذا الجواب فلم يسعهم الاّ النزول عند حكم الضرورة وقبلوا ولم يكن لديهم الخيار في الأحسن وعاد [فوكيون] الى [ثيبه] ثانية مع مندوبين آخرين، بينهم [كزينوقراطس] الفيلسوف الذي ذاعت شهرته في كل مكان لما يتمتع به من فضائل وحكمة، وقد قدر أن كل من يقع نظره عليه سيمتلئ أعجاباً به واحتراماً له. ويزيل من قلبه الكبرياء والقسوة والغضب. لكن النتيجة كانت عكس ما توقع فقد بدأ [انتيپاطر] خالياً من الكياسة مجرداً عن العاطفة كارهاً لأي شيء حسن. حَيّا كل فردٍ، خلا [كزينوقراطس] فقد أهمله وتظاهر بأنه لم يلحظ وجوده. وقيل لنا ان [كزينوقراطس] علل هذا التجاهل بأن [انتيپاطر] عندما قرر ان ينزل ذلك العقاب القاسي بآثينا انما فعل حسناً بخجله منه وعدم النظر اليه. عندما شرع في الكلام لم يصغ اليه وظلّ يقاطعه بخشونة وغلاظة حتى اضطر أخيراً الى الصمت. وعندما انهى اليه [فوكيون] الفرض من الايفاد، اجابه باقتضاب أنه يعقد معاهدة صلح مع الآثينيين بشروط غير قابلة للتبديل وهي: انه يسلم له [ديموستينس وهيپريدس] ولهم ان يحتفظوا بشكل حكومتهم القديم شريطة ان لا يكون حق الاقتراع الا لمن ملك عقاراً وان يقبلوا بوضع حامية في [مونيخيا Munychia] وان يدفعوا مبلغاً من المال لسدّ نفقات الحرب.

كانت الشروط ملائمة مقبولة نظراً للظرف. وقبلها اعضاء الوفد خلا [كزينوقراطس] الذي قال: «اذا أعتبر [انتيپاطر] الآثينيين عبيداً فان معاملته هذه لهم طيبة كريمة. وان عدّهم احراراً، فان شروطة قاسية.» وتلاه [فوكيون] والحّ على رفع شرط وضع الحامية. واستخدم الكثير من الحجج والبراهين فأجابه [انتيپاطر]:

- نحن يا فوكيون مستعدون لتلبية اي طلب لايكون سبباً في دمارك ودمارنا.

واورد آخرون رواية مختلفة للمقابله، قالوا ان [انتيپاطر] سأل [فوكيون]:

- فلنقرض اني عدلت عن ارسال الحامية الى آثينا فهل انت على استعداد لضمان ايفاء المدينة بشروط المعاهدة وهل تتعهد بأن أهاليها لن يثوروا عليّ؟

وتردد [فوكيون] وابطأ في الاجابة، فأنبرى «كالليميدون كرابوس Callimedon the Car-abus» وهو مولى من الموالى، سريع الغضب، وعدوّ لدود لكلّ المدن الحرة. وصاح قائلاً:

- واذا استمر هكذا ينطق بالتافه من الكلام، استرضى يا [انتيپاطر] ان تستغفل فتصدق به وتعدل عن ما انتويته؟

ورضخ الآثينيون وقبلوا بالاحتلال، و[بمينللوس Menyllus] حاكماً وكان رجلاً منصفاً عادلاً ومن معارف [فوكيون].

لكن هذا الاجراء بدأ عملاً تعسفياً استبدادياً للغاية بل استعراضاً حاقداً مهيناً، للقوة والجبروت. أكثر مما ينطوي عليه احتلال قلعة من أهمية عسكرية. ومما زاد في حنق الآثينيين واستيائهم، أختيار الظرف لدخول الحامية فقد دخلت في العشرين من شهر [بيودرميون] اي يوم العيد الكبير، حيث يحمل الآثينيون [اياخوس Iachus] ويسيرون به بموكب ديني حافل من المدينة الى [البوسيس]. فكان انتهاكاً صارخاً لحرمة المراسيم الدينية راح كثيرون يستذكرون به مناسبات معينة قديمة وحديثة للتدخل الالهي.

ففي سالف الزمان الذي شهد اسع عهودهم وأكبر انتصاراتهم كانت الاشكال والاصوات التي ترى وتسمع في المواكب الدينية ضماناً لهم اذ أنها تلقي الرعب والهلع في انفس اعدائهم. وها ان الآلهة الآن في موعد الاحتفال بعيدها، تقف بنفسها لتشهد اقسى موقف من مواقف الظلم التي ابتلي بها الأغريق، وابعثها على الأسى. لقد دنس أقدس ايامهم، وغدا أعظم ذكرى لهم تاريخاً لأفظع نكبة حلت بهم. قبل سنوات قليلة، اصغوا الى تحذير في نبوءة جاءتهم من [دودونا Dodona] اوصتهم إن يشددوا الحراسة على مرتفعات [ديانا] لئلا يستولي عليها اغراب مستطرقون. وفي حدود ذلك الزمن تقريباً، كانوا يهمون بصبغ الشرائط والاكاليل التي تزين عربات الموكب ومحفاته فتسلموا بدلاً من لون الارجوان المقرر، لوناً اصفر باهتاً وليكون النذير أقوى دلالةً. حافظت الاشياء المصبوغة للاستعمال الديني - على الوانها الأصيلة. وبينما كان أحد المرشحين للتكريس الديني، يغسل خنزيراً صغيراً في مرفأ [كانثاروس Cantharus] وثب عليه قرش وانشب انيابه فيه فقطع الاجزاء السفلى حتى بطنه

وابتلعها، وتلك علامة واضحة اراد الآله أن يعلمهم بها انهم سيفقدونالجزء الأدنى من المدينة مع ساحل البحر ولن يتبقى لهم غير الجزء الأعلى.

كانت شخصية [مينيلوس] ضماناً كافياً لحسن سلوك افراد الحامية إلاّ ان عوامل أخرى برزت فابقت حالة التوتر على وضعها بل زادتها حدة. فأولئك الذين حرمتهم شروط انتيپاطر من حق الاقتراع لأنهم فقراء معدمون، بلغوا اثني عشر الفاً. ومن بقي في المدينة شعر بالظلم والمذلة. اما الذين تركوا بيوتهم وهاجروا الى تراقيا حيث اعطاهم [انتيپاطر] مدينه ومساحات من الأراضي للسكني والفلاحة فقد عدوا أنفسهم في مرتبة المستوطنين العبيد أو المنفيين. زد على هذا موت [ديموستينس] في [كالاوريا Calauria] وموت [هيپريدس] في [كليوني Cleonae] كما ورد ذكره في محلّ آخر. لذلك بدأ الناس يترحمون على [فيليب] والاسكندر ويتمنون لو عادت تلك الأيام. وكان حال المدينة أشبه بما حصل عقب مقتل [انتيگونس] فقد عاث القتلة في البلاد فساداً وملأوها ظلماً واضطهاداً. وشوهد مواطن فريجي يواصل الحفر في الحقول فسئل عمّ يبحث فقال:

- اني انقّب عن حسرة عميقة! أفتش عن انتيگونس!

هكذا كانوا يقولون مذكرو تلك الايام. كانوا يستعيدون ذكريات الوقائع التي خاضوها مع أولئك الملوك، فيجدونهم الآن كرماء غفارين مهما بلغ غضبهم من العنف. وها هو ذا اليوم [انتيپاطر] بتواضعه المزيف ومظهره الذي لا يفترق به عن مظهر الرجل العادي، وطعامه البسيط، يسترحبه الحقيقي للسلطة المطلقة، وطغيانه وقسوته وتنكيله بمن وقع تحت سلطانه.

مع ذلك كله فقد أفلح [فوكيون] معه في سعيه لاعادة الكثيرين من منافيهم. ونجحت شفاعته أيضاً في المطرودين. فحال دون قذفهم كالآخرين، وراء نهر تيناروس Taenarus وجبال [كيراونيا Ceraunia] فمكثوا في بلاد الاغريق واستقروا في الپيلوپونيس. ومنهم [اغنونيدس Agnonidus المتزلف، ولم يكن أقلّ انكباباً ومواظبة على تدبير الأمور داخل المدينة ملتزماً بالعدالة والمساواة مفضلاً للخدمة العامة والاقضية بين الناس كل من عرف بحسن التهذيب وعلو المقام. اما الثرثارون الفضوليون مثيرو الشغب الذين وجه اليهم ضربة قاتله بعزلهم من الوظائف ومنعهم من المشاركة في المناقشات العامة فقد نصحهم بملازمة بيوتهم وفلاحة اراضيهم. ولاحظ ان [كزينوقراطس] يدفع ضريبة الغريب لأنه لم يكن مواطناً اثينيا فعرض عليه مواطنة الشرف فأبى الفيلسوف قائلاً انه لايستطيع قبول اعفاء عن حالة كان قد ارسل سفيراً للانتقاص منها واستظهارها.

ورغب [مينيللوس] ان يقبل منه [فوكيون] مبلغاً من المال على سبيل الهدية فشكره وقال:

- ليس [مينيللوس] بأعظم من الاسكندر، وليست حالتي اليوم اشدّ عسراً مما كانت عندما رفضت قبول هدية الاسكندر، لأقبلها منك الآن.

والحّ عليه بأن يسمح لابنه [فوكس] بقبولها. فقال:

- ان كان ابني من ذوي العقول السليمة، فسيرى ان ميراثه كافٍ. وان لم يكن كذلك فكلّ الموارد لن تكفيه.

لكن جوابه [لانتيپاطر] كان حازماً، حاداً. فقد حاول هذا تكليفه بعمل شيء لايشرفه فكان جوابه:

- لا يمكن لانتيپاطر ان يتخذني صديقاً ومتزلفاً في آن واحدٍ .

في الواقع ان [انتيپاطر] كان لايفتأ يردد القول بأن لديه في آثينا صديقين: فوكيون وديمادس. الأول لايَريد منه ايه منة أو عطية. والثاني لايمكن اشباع نهمه. وليس بعجيب ان يرى [فوكيون] الفقر فضيلة عاشها حتى غدا عجوزاً بعد ان تولى عدة مرات منصب القائد الأعلى، وصادق الملوك والأمراء، في حين كان [ديماديس] يجد أعظم متعة في انفاق ثروته، وان كان في وجوه تخالف العرف والقانون مخالفة صريحة. ومن ذلك انه كان ثم قانون يمنع ممارسة الاجنبي لفن الرقص في اي جوق. ويعاقب مؤجره وعارضه بغرامة قدرها ألف درهم. فبلغ الزهو بديماديس ان عرضوا جوقاً كاملاً من الرواقص الاجانب ودفع عن رأس من الرؤوس المائه الف درهم. دفعها في المسرسع عداً ونقداً. وعندما زوج ابنه [ديمياس Demaes] قال له بذاك الغرور والخيلاء:

- عندما تزوجت امك يا بنيّ. كان زواجي من البساطة بحيث لم يشعر به جيراني الملاصقون. وها ان الملوك والأمراء يقدمون الهدايا في حفلات زواجك.

وظلت الحامية في [مونيخيا] مصدراً للالم الغيظ. وباعثاً للغيظ الكظيم. ولم يكف الآثينيون من الالحاح على [فوكيون] بمفاتحة انتيپاطر واقناعه بسحبها، لكنه كان يرفض التدخل ولعله يئس من تحقيق ذلك. أو ربما وجد في بقائها ضمانة لهدوء الأهالي واستقرار الشؤون العامة وانتظامها للرهبة التي يشيعها وجودها. لذلك أكتفى من [انتيپاطر] بحصوله على مهلة في دفع الجزية المفروضة على المدينة. فعامة الأهالي واتجهوا الى [ديماديس] فأسرع بقبول مهمة الوساطة وسافر الى مقدونيا مصطحباً ابنه. وشاءت القوى الالهية أنه وصل حين سقط [انتيپاطر] مريضاً. وغدا [كساندر] وكيلاً له وتشاء الصدف ان يعثر هذا على رسالة

سبق لديماديس ان وجهها الى [انتيگونس] في آسيا، يزين له القدوم وامتلاك بلاد الاغريق ومقدوني... المعلقة الآن بخيط بالٍ قديم (هازئاً بانتيپاطر). فما ان رآه قادماً حتى أمسك بابنه وقتله قريباً منه حتى ان دمه لطخ كل جسمه وثيابه وانثنى على الاب يشتمه ويصفه بلاذع القول ويؤنبه على خيانته ونكرانه الجميل، ثم الحقه بابنه.

قضى [انتيپاطر] نحبه بعد تسميته [پوليسپيرخون Polysperchon] قائداً عاماً، وكساندر قائداً للخيالة. فباشر كساندر في الحال العمل لنفسه بجدٌ. وأرسل [نيقانور Nican-or] خلفاً لميتيللوس في قيادة الحامية، وأمره بان يتسلم [مونيخيا] قبل أن يشيع نبأ وفاة [انتيپاطر]، ففعل وبعد ايام بلغ النبأ أهالي آثينا فأتهموا [فوكيون] بسبق العلم به. والعمل على كتمه عنهم بكل الوسائل لرعايه اصداقه تربط ما بينه وبين [نيقانور] القائد الجديد، فلم يحفل بتخرصاتهم، ولم يعرها اهتماماً وراح يزور القائد بانتظام ويتداول معه في الشؤون العامة ففاز بتحويل عطفه الى الاثينيين وضمن لهم حسن نيته. وحمله على قبول ترؤسه للالعاب وبما ينطوى عليه ذلك من متاعب له وانفاق المال.

ومنح [پوليسپيرخون] صلاحيات الملك، فلأجل ان يحبط تدابير [كساندر] تمهيداً لازاحته بعث بكتاب الى الآثينيين باسم ملكه. يعلن فيه عن اعادة نظام الحكم الديمقراطي في آثينا، وان الآثينيين جميعاً هم احرارٌ في ادارة جمهوريتهم حسب شرائعهم الاولى. وكانت الغاية من هذا، القضاء على نفوذ فوكيون كما ستكشف عنه الوقائع. فپوليسپيرخون كان يخطط للاستيلاء على المدينة، وهو أمر محال طالما يتمتع [فوكيون] بالثقة. فليس ثم طريقة فعاله لازاحته والقضاء عليه الأ بملء المدينة مرة أخرى بالناس الذين لايملكون حق الاقتراع. وأطلاق ألسنة الغوغائيين والمدعين العامين.

وأخذت المدينة تغلي كالمرجل بهذا الوعد. وحاول [نيقانور] التحدث اليهم في اجتماع لمجلسهم في [پيريوس] وأقبل وحده موكلاً امر سلامته الشخصية [بفوكيون]. وعندما حاول [دركيللوس Dercyllus] قائد الحرس القبض عليه بايعازٍ مسبق، أفلت [نيقانور] فاجياً بجلده، ولم يقم شك في انه لن يضيع لحظةً واحدة من العمل للانتقام بسبب ما لحقه من أهانةٍ. وعوقب [فوكيون] لأنه أخلى له السبيل ولم يحتجزه. فقال يدافع عن نفسه انه كبير الثقة بنيقانور لايتوقع منه القيام بايّ عملٍ تهدد سلامة المدينة، واذا ظهر الأمر خلاف ذلك فانه يتعهد أمامهم بان يقتبل الضرر على نفسه، ولا يفعله هو وواصل حديثه الذي كان فعلاً ينم عن شرف نفسٍ وعقلٍ رفيع. على أن صاحب السلطة العليا والقائد العام الذي يجازف بسلامة وطنه، يصعب تبرئته من تهمة اخلاله باقدس واجب من واجبات العدل والانصاف، ذلك

الواجب الذي يحتمه عليه منصبه. وليس يجدي القول انه كان يخشى توريط المدينة في حرب، اذا ما القى القبض على [نيقانور]. وليس يجدى قولنا انه لم يمسكه لأنه كان يأمل منه مبادلته الثقة والتعامل الشريف، لقد كانت ثقة [فوكيون] في حسن نية وفي شرف كلمته كبيراً بحيث أعماه عن الاجراءات التي اتخذها هذا القائد - تلك الاجراءات البعيدة جداً عن حسن النية كالاستعداد للهجوم على [پيريوس]، وارساله الجنود الى سلاميس واتصاله بمختلف سكان [پيريوس] لاستمالتهم واجتذابهم الى صفه. والانكى من ذلك كله، أنه لم يكن بالامكان اقناع [فوكيون] بانه مخطئ في وضع ثقته الصمياء وظلّ يركب متن الشطط. حتى عندما سمى [فيلوميدس اللامپري Philomedes Lampra] ففاز من الجمعية بقرار يقضي على كل الآثينيين يحمل السلاح والتأهب للسير وراء [فوكيون] قائدهم. ظلّ قاعداً لايعمل شيئاً. حتى قاد [نيقانور] جنوده فعلاً الى خارج مونيخيا وحفر الخنادق وحكم مواضعه حول [پيريوس]. وعندما أطلق [فوكيون] الآثينيين أخيراً، راحوا يهتفون ضده ويهزأون بأوامره.

كان الاسكندر بن [پوليسپيرخون] على مسافة قريبة جداً من آثينا وتحت أمرته قوات كبيرة، فأعلن عن استعداده لنجدتهم ضدّ [نيقانور] على أن نيته الحقيقية المضمرة هي مباغتة المدينة واحتلالها وهي في حالة الفوضى وأهلها منقسمون على أنفسهم. وكان قد افسح اليها كل من طُرِد منها، وانضم الى العائدين خليط من الاجانب وحشود من الاشخاص الذين حرموا حق التصويت. من هذا الخليط انبثقت جمعية عامة لاتعرف نظاماً ولا قانوناً - ما لبثت ان جردت [فوكيون] من كلّ سلطاته وعينت في محلة قادة آخرين. ولم لم تحكم الصدفة بان يلمح الآثينيون من فوق الأسوار اجتماعاً ثنائياً بين الاسكندر و[نيقانور] لوقعت المدينة في الشرك المنصوب. لقد تكررت المقابلات بين القائدين على هذه الشاكلة فلم تبق اي مجال للشكّ. وانبرى [اغنونيدس] يهاجم [فوكيون] ويتهمه بالخيانة. وشعر كالليميدون وخاريكلس بهبوب الإعصار فهربا من المدينة خوفاً على حياتهما. وخرج [فوكيون] مع ثلة من اصحابه يقصدون [پوليسپيرخون] وأخذ معه [صولون] البلاتي Platæa، و[دينارخوس Dinar-chus] الكورنثي صديقاً پوليسپيرخون الحميمين وموضع ثقته. لكن الوفد تأخر أياماً في [ايلاتي Elatae] لمرضى ألمّ بدينارخوس. وفي اثناء ذلك اصدر الآثينيون بتحريض من اغنونيدس واقتراح من [ارخستراتس Archestratus] قراراً يقضي بارسال وفد الى پوليسپيرخون لتوجيه الاتهام الى [فوكيون] ووصل الوفدان في وقت واحد وكان [پوليسپيرخون] قد خرج مع الملك الى الريف وتوقفا عند قرية من اعمال فوكيس Phocis تدعى فاريچي Pharygal] وكان يعرف انذاك باسم [اكروريوم Acrurium]. هناك نصب

[پوليسپيرخون] سرادقاً مذهباً واجلس الملك وحاشيته فيه. وأمر فوراً بالقبض على دينارخوس وتعذيبه ثم قتله. وبعد نفاذ ذلك سمح بادخال الآثينيين الذين ملاؤوا السرادق ضجيجاً ولغطاً: فريق يتهم فريقاً، وينتقصه وتعالت الضوضاء، وتمكن اغنونيدس من التقدم الى الأمام، راجياً ان يوضع الجميع في قفص ويرسلوا الى آثينا ليقرر أهاليها ما يرون في شأنهم. فلم يتمالك الملك من الابتسام. ويظهر ان الحاشية وكانت من المقدونيين والاجانب، استمتعت بهذه الضجة والثرثرة فراح افرادها يحرضون اعضاء الوفد ويشجعونهم من طرف خفي للمضي في عرض قضيتهم. لكن استقبال الوفد وسماعه جرى بشكل مهين لا يتفق والأصول. اذ كثرت مقاطعة پوليسپيرخون [لفوكيون] فنفد صبره وضرب الأرض بعصاه وكفّ عن الكلام. وعندما قال [هيگمون Hegemon] ان الپوليسپيرخون نفسه يشهد على شدّة تعلقه بالشعب، صرخ پوليسپيرخون بحدة:

كفّ عن شتمي واهانتي امام الملك.

وهبّ الملك واقفاً يهم بان يقضى على المتكلم بطعنة من رمحه الاّ ان [پوليسپيرخون] حال دون ذلك، فانفرط عقد الاجتماع. وقبض على [فوكيون] وصحبه. اما اصدقاؤه الذين لم يكونوا على قوته منه فقد أخفوا وجوههم وهربوا عندما ابصروا ما حَلّ به وقام [كليتوس] بنقل المقبوض عليهم الى آثينا ليحاكموا. الاّ ان الحكم في الحقيقة يقال مؤلمة مثيرة للمشاعر. فقد وضعوا في عربات مرت خلال الكيراميكوس Ciramicus الى موضع المحاكمة مباشرة وظلوا في حراسة كليتوس، حتى بدأ اجتماع الجمعية العامة، وقد فتحت الابواب لكلّ قادم أجنبياً كان ام عبداً، وقبل حتى أولئك الذين صدرت عليهم احكام الحرمان من حق التصويت، وشاركت النساء ايضاً ولم يمنع أحد من اعتلاء منبر الخطابة.

وبعد تلاوة كتاب الملك وقد جاء فيه انه مقتنع بخيانة هؤلاء الرجال. لكن لما كانوا مواطنين مدينة حرة، فلا يسعه الاّ ان يؤمن لهم حق المحاكمة والحكم بموجب الشرائع التي تسير عليها. وعلى اثر ذلك جلب [كليتوس] المتهمين ولم يحتمل المواطنون الشرفاء هول الموقف فغطوا وجوههم وانحنوا الى امام لأخفاء دموعهم ووجد احدهم الشجاعته الكافية ليقول: مادام الملك احال هذه القضية الخطيرة الى الشعب ليحكم فيها. فمن الافضل ان ينسحب كل اجنبي وكل من هو في حالة العبودية. ففقد صبر الجمهور واخذ يصيح: «هؤلاء هم أوليقارشيون. اعداء حرية الشعب. انهم يستحقون الرجم» وبعد هذا لم يجرؤ أحد على التفوه بكلمة دفاعٍ عن [فوكيون] ولم يكن هو ايضاً قادماً على اسماع صوته بعد ان سأل:

- اتريدون قتلنا بصورة شرعية أم بشكل يخالف الشرع؟

فأجاب بعضهم: بل بموجب الشرع.

فقال [فوكيون]: كيف تتوقعون ننال محاكمة عادلة؟

فاصمّوا آذانهم، وعافوا سماعه فتقدم بضع خطوات وقال: أنا شخصياً أقر بذنبي. وأعلن أن سياستي العامة تستحق حكم الموت. لكن لماذا يا رجال آثينا تقتلون هؤلاء، وهم ابرياء لم يرتكبوا ذنباً؟

فصاح الرعاع: هم اصدقاؤه، وفي هذا الكفاية.

عندئذ انسحب [فوكيون] وظلّ ساكتاً الى النهاية.

وقرأ [اغنونيدس] مشروع القرار. وهو على الشعب أن يقرر برفع الايدي هل هم مجرمون ام لا. واذا وجدوهم كذلك فيجب عليهم فرض عقوبة الموت. بعد تلاوة المشروع. اقترح بعضهم اضافة فقرة أخرى تتضمن تعذيب [فوكيون] قبل تنفيذ الحكم. وان تجلب المخلعة[1] مع الجلادين. لكن [اغنونيدس] لاحظ ان [كليتوس] لايرغب في ذلك، وانه هو نفسه كان يجد ذلك عملاً وحشياً فقال:

- يا رجال آثينا! عندما نلقي القبض على ذاك العبد [كاالليميدون] فسنضعه على المخلّعة. إلاّ اني لن أقدم هذا الاقتراح في قضية [فوكيون].

وعقب أحد المواطنين على هذا بقوله: لو أننا عذبنا [فوكيون] فماذا ترى سنفعل بك؟

وتمت الموافقة على المشروع وطلب من الحاضرين رفع الأيدي فلم يبق أحد في مجلسه بل نهضوا جميعاً. وكان بعضهم قد ضفر اكاليل الزهر - وحكموا على جميع المتهمين بالموت.

الى جانب [فوكيون] حكم كل من نيكوكلس، وثديبوس Thudippus وهيگمون، وپيثوكلس Pythocles من الحاضرين وديمتريوس الغاليري وكاالليميدون وخاريكلس وآخرين من الغائبين.

وبعد ان تفرقت الجمعية، نقل المحكومون السجن وسار خلفهم اصحابهم واقرباؤهم يبكون ويولون ويتشبثون بهم وبدأ [فوكيون] مثلما كان يبدو عند عودته الى منزله من الجمعية تحفّ به الحاشية والأتباع بوصفه قائداً عاماً، ولاحظ الناس بدهشه هدوءه وكبرياءه. وأقبل اعداؤه من الجانبين يهينونه ويشتمونه. وتقدم أحدهم وبصق في وجهه. فالتفت فوكيون الى الضباط وقال: عليكم ان تضعوا حَدّاً لهذه البذاءة والحطة.

---

(١) المخلعة Rack آله تعذيب قديمة تشبه الدولاب يشد عليها الجسم وتمط بها أعضاؤه حتى تتخلع.

وبوصولهم السجن أطلق [ثديبوس] العنان لعواطفه عند رؤيته الجلاد وهو يمزج السمّ ويعدّه. وراح يندب حاله ويندد بالحكم القاسي الذي حكم به ظلماً، وهو الموت مع [فوكيون] فقال له فوكيون:

- الا يرضيك ان تموت مع [فوكيون] ؟

وسأله أحد اصحابه الواقفين ألديه أقوال يريد ابلاغها الى ابنه فأجاب فوكيون:

- أجل حبّذا لو تفضلت. قل له أن لايحقد على الآثينيين.

ورجا فيه [نيكوكلس] اعزّ وأخلص اصدقائه ان يسمح له بشرب السمّ قبله. فقال [فوكيون]:

- انت يا صديقي، تسألني شيئاً أكره اعطاءه، ويحزنني أمره. لكن ولأنني ما كنت في سائر حياتي بدرجة من الانانية أن رفضتُ لك طلباً، فعليّ ان ارضيك بهذا ايضاً.

وتناولوا السمّ جميعهم حتى لم يعد منه بقية ولم يكن كافياً لأحداث الموت. فرفض الجلاد ان يعد مقداراً آخر إلاّ اذا دفع له المحكومون اثني عشر درهماً ثمناً للجرعة الاضافية. وحصل بعض التأخير ومضى الوقت. فنادى [فوكيون] احد اصدقائه قائلاً:

- ان المرء في آثينا لايستطيع أن يموت قبل ان يدفع أجرة ذلك وطلبت منه دفع المبلغ اللازم.

في الثالث عشر من شهر [مونيخيون Munychion] من كل سنة اعتادت المدينة ان تحتفل بموكب ديني تكريماً لجوبيتر. وكان الفرسان يمرون مع الموكب فبلغوا السجن وقذف بعضهم باكاليل الزهر. وبكى آخرون. وتوقف بعضهم وأخذوا يذرفون الدمع حزناً وقال أولئك الذين لم تتلوث عقولهم تماماً بالحقد والضغينة. وأولئك الذين احتفظوا ببقية من الانسانية أن تنفيذ الحكم في هذا اليوم هو مروق وخروج عن المبادئ الدينية، لقد كان أقل الواجب يفرض أن لاينفذوا الحكم في ذلك اليوم بالذات. لتبقى المدينة طاهرة بريئة من حكم موت وتنفيذه علناً في يوم عيد ديني.

وكأن الفوز بحياة [فوكيون] لم يكف خصومه. فاوغلوا في حقدهم وتمادوا بمنعهم من دفنه في اي مكان من البلاد. ولم يكن بمقدور اثنين ان يرفع محرقة لاحراق الجثة. ولا ان يجرأ واحد من اصحابه على المغامرة بهذا الشأن. وكان ثم شخص يدعى [كونوبيون Conopion] وهو ممن أمتهن العمل. فأخذ الجثة ونقلها الى ما وراء [اليوسيس] وجمع حطباً مما وراء حدود ميغارا وانجز العمل وكانت زوج [فوكيون] وخدمها حاضرات فشاركن في المراسيم واقمن ثم قبراً خالياً وسكبت الخمر القربانية حسب الأصول ثم جمعت العظام في ذيل ثوبها وعادت بها

ليلاً وحفرت حفرة بالقرب من المدفأة في المنزل ورارتها وهي تقول:

- أيتها المدفأة المباركة، ها اني اودع اليك بقايا رجل طيب باسلٍ. متوسلة اليك ان تحمي وتحفظي هذه البقايا حتى يضمها قبر ابائه عندما يعود الآثينيون الى صوابهم.

وهكذا كان. مما مرت فترة من الزمن قصيرة، حتى ادرك الآثينيون من تجاربهم الاليمة أنهم حرموا انفسهم من حاكم ممتاز وحام للعدل وكابحٍ للطيش والجموح لا نضير له. فرسموا ان يصنع له تمثال من نحاس. وان تدفن عظامه باحتفال رسمي على نفقة الدولة.

واما بخصوص اغنونيدس ومتهميه الآخرين، فقد قبضوا عليهم ونفذوا فيهم حكم الموت. وهرب كل من ابيتورس وديموقيليس من المدينة خوفاً. فتعقبهما ابنه واصاب ثار ءه من كليهما. ولقد قيل لنا ان ابنه كان بصورة عامة شخصاً عادياً. مرة وقع في حب عاهرة كان يحتفظ بها تاجر بالعواهر. وسمع ثيودورس الملحد يناقش في [ليقيوم] فيقول: ان كان شراؤك حرية صديق ذكرٍ عملاً حسناً فلماذا لايكون حسناً ايضاً شراؤك حرية صديق انثى؟ واذا كانت هذه المنّة لسيدٍ فلماذا لاتكون ايضاً لمخطيّة؟

فلقي هذا المنطق صَدى لعاطفة حبه لتلك الأمَة، وأسرع فأشترى حريتها.

ان الميتة التي ذاتها [فوكيون] احيث في اذهان الاغريق ذكر ميتة سقراط[٢]. فالقضيتان متشابهتان. وكلاهما راح ضحية خطأ المدينة المؤسف وحظها العاثر.

١٩٧٢/١/٩

(٢) من المفيد ان نذكر هنا ان السَمّ الذي استعمل لتنفيذ الحكم في هاتين الضحيتين الشهيرتين، هو العصير المستحلب من نبات الشوكران Water Hemloek.

كاتو الأصغر

CATO

(The Younger)

95 _ 46



لمعت شهرة اسرة [كاتو] لأول مرة على عهد والد جدّ كاتو الاصغر. الذي كان علماً من اعلام الرومان بفضائله وأعماله العظام كما اوردنا في سيرته.

فقد [كاتو] ابويه هو واخوه [كيپيو Caepio] واخته [پورشيا] وأخت لأم وهي [سرڤيليا Servilia] ، فكفلهم خالهم [ليڤيوس دروسوس Livius Drusus] وكان وقتئذ شخصية كبيرة النفوذ في الدولة. شهيراً بمناقبه وسمو اخلاقه. وقيل عن [كاتو] ان طباعه لم تتغير منذ نعومه اظفاره حتى نهاية حياته. ففي تصرفاته واقواله وملامح وجهه كان ثم صلابة وثبات لا تحركهما اية عاطفة. ولوحظ فيه من ثبات العزم ما ينوء به عمره. ان سار قدما وراء شيء فليس هناك قوة تثنيه عنه. وكان خشنا فظاً مع متملقيه وقاسياً الى أقصى حَدّ مع الذين يتوعدونه. يصعب جداً حمله على الضحك ونادراً ما انبسطت اساريره ولو بابتسامةٍ ولم تكن اثارة غضبه بالأمر السهل. اما اذا هاج هائجه فمن العسير جداً تهدئته.

ظهر عليه الغباء وبطء الفهم عندما بديء بتعليمه. الاّ انه ما يتلقى شيئاً حتى يثبت في ذاكرته القوية. وهذا في الواقع هو سبيل الطبع الاعتيادي. فالناس من ذوي العبقريات المرهفة يمكن تذكيرهم باسرع من لمح البصر، اما من يتلقى الافكار بصعوبة فذاكرتهم اقوى لأن الجديد الذي يتلقونه يحترق في ادمغتهم وينطبع كالوشم. ولعل السبب في صعوبة تعليمه يعود الى طبعه العنيد وتعذرّ اقناعه. فلأجل ان يتعلم المرء يجب ان يكون طائعاً. ويأتي الاقناع بصورة اسرع للأقل جلدا على مقاومته لذلك تجد الشبات اسهل اقناعاً من الرجال الذين يزيدونهم سناً. وتجد المرضى اسهل انقياداً من الاصحاء. وعلى الاجمال عندما يتوفر ادنى الشك والعناد فان اقتبال الجديد أسهل. ومع هذا فقد قيل ان [كاتو] كان اطوع التلاميذ لمعلمه ينفذ كل ما يأمره به لكن بعد السؤال عن السبب والبحث في الداعي اليه. وكان معلمه من اثقف الناس، فهو أكثر استعداداً لتعليم تلاميذه منه الى ضربهم وكان اسمه [ساريپدون -Sarpe don].

في اثناء طفولة [كاتو] تقدم حلفاء للرومان بطلب اعتبارهم مواطنين رومانيين احراراً ونزل

احد مندوبهم [پومپيديوس سيلو Pompaedius Silo] ضيفاً على صديقه [دروسوس].

ومضت على هذا الجندي الشجاع الذائع الصيت ايام في منزل دروسوس كسب به حبّ الاطفال وتعلقهم. وسألهم ذات يوم:

- حسناً يا أولادي! ألا تتقدمون برجاء لخالكم حتى يساعدنا في مهمتنا ؟

فأسرع [كيپيو] بالموافقة باسماً. الاّ ان [كاتو] ظلّ ساكتاً وانما راح يحدج الاغراب بقسوة وعين لاتطرف. فقال [پومپيديوس]

- وانت يا سيدي الصغير ما رأيك؟ ألا تتدخل الى جانب اخيك وتتوسط لأجلنا عند خالك؟

وظلّ [كاتو] صامتاً لايجيب. وبدأ بسكوته هذا وصرامة وجهه أنه لايوافق. وعلى سبيل الدعابة رفعه [پومپيدوس] وتقدم به من النافذة وحمله كأنما يريد القاءه وطلب منه ان يوافق والاّ قذف به من حالق. قال هذا بلهجة وعيد واخرج جسم الطفل من النافذة وراح يهزّه هزّاً شديداً. وبعد ان عانى [كاتو] ذلك فترة دون ان يبدو عليه خوف أو وجل، انزله [پومپيدوس] وهمس لاحد اصحابه قائلاً:

- رحم الله روما لأنه ما زال بعد صبياً. لو كان هذا رجلاً فلا اضننا سنحصل من الأهالي على صوتٍ واحدٍ.

وفي مرة أخرى، بمناسبة عيد ميلاد احد اقربائه دعي الي العشاء مع عدد من الأطفال. وانتقل بعض الاحداث صغارهم وكبارهم الى موضع آخر من الدار ليلعبوا معاً لعبة المحاكمة. فشكلوا محكمة ووقف أحدهم متهماً الآخر. وجاء آخر ليقود المحكوم الى السجن. وكان بين اللاعبين طفل في غاية الجمال، اوثقه صبيّ آخر وحمله الى السجن فصاح مستنجداً بكاتو الذي ألمّ بالموقف بلحظةٍ واسرع الى الباب ونحّى الواقفين على حراسة الباب واخرج الطفل. ثم ترك الحفلة الى داره غاضباً ومعه عدد من لداته.

مالبث [كاتو] أن أصبح شهيراً بين الصبيان. وعندما اعتزم [سللاّ] أحياء السباق الديني المعروف باسم [طروادة] وهو سباق الفرسان الفتيان. جمع ابناء الأسر العريقة ونصب قائدين من بيتهم. فقبل الفتيان اولهما بسبب امّه، فقد كان ابن ميتيلا عقيلة سللا. اما الثاني وهو [سكستوس] ابن اخ [پومپي] فقد رفضوا ان يكون قائداً او مدرباً. فسألهم [سللا] من نحتارون؟ فصاحوا بصوت واحدٍ [كاتو]. وتنازل [سكتسوس] بطيبة خاطرٍ عن هذا الشرف له، متنعاً بأنه أجدر به.

كان [سللا] بوصفه صديقاً للأسرة يرسل احياناً بطلب [كاتو] واخيه لرؤيتهما والتحدث

اليهما، وهي التفاتة قلما حظي بها احد، لاسيما بعد ان استتب له الأمر واصبح صاحب الأمر والنهي المطلق. وحرص [سارپيدون] على مرافقة [كاتو] لفائدة يتوخاها وشرف يناله فضلاً عن سلامة تلميذه وكانت دار سللا تبدو وكأنها موضع تنفيذ احكام الموت لكثرة السجناء الذين يساقون منها الى السجن والمعذبين والمقبوض عليهم. وكان [لكاتو] من العمر اذ ذاك اربع عشرة سنة يرى بأم عينه رؤوس الشخصيات المعروفة تجلب الى الدار ويسمع الحسرات الخفيّة التي يطلقها الحاضرون، فسأل معلمه:

- لماذا لايقدم أحد على قتل هذا الرجل؟

فأجابه المعلم: لأنهم يا فتاي يخافونه أكثر مما يكرهونه.

فقال [كاتو]: لماذا لاتعطيني اذن سيفاً لاطعنه به واحرّر بلادي من هذه العبودية.

ولحظ [سارپيدون] سحنة [كاتو] تتغير من فرط الحنق، وعضلات وجهه تتصلب عزماً وتصميماً، فانتبه اليه وضاعف رقابته عن منذ ذلك الحين لئلا يقدم على محاولة طائشة.

وفي صباه كانوا يسألونه عمن يختصه بأعظم الحب فيجيب:

«أخي» فيسألونه ومن يليه» فيجيب «أخي» ويظلّ جوابه كذلك للمرة الثالثة والرابعة وهلم جراً حتى يتعب السائل ويتخلّى عنه.

وزاد هذا الحب الأخوى واشتد كلما تقدم [كاتو] في السن حتى اذا ناهز العشرين ما عدت تراه يتعشى ولايخرج الى ظاهر المدينة ولا الى الفوروم الاّ بصحبة [كيپيو]. لكن عندما بدأ هذا الأخ يستعمل الادهان الثمينة ويتطيب بالعطور النفيسة أبى [كاتو] ان يحذو حذوه لأنه كان متمسكاً بحياة التعشف معزماً بالبساطة العيش. ويسمع [كيپيو] أحياناً كلمات الاعجاب باعتداله وضبط نفسه. فيقرّ بأنه قد يكون كذلك اذا ما قورن بغيره... و«لكن عندما اقارن نفسي بكاتو أجدني أكاد لا أختلف عن [سيپيوس Sippius]. وهذا فتى كان يضرب به المثل السيء لحياة الترف والخنوثة التي يحياها.

وعين [كاتو] كاهناً لاپولو. فأنتقل الى منزلٍ خاصٍ به. وتسلم حصته من ميراث ابويه، وكان يبلغ مائه وعشرين تالنتاً. وزاد من تقشفه وبساطته، وتعرف بالفيلسوف الرواقي [انتيپاطر الصوري] وتوثقت علاقتهما وانصرف بكليته الى الدراسة والتعمق في العلوم الخلقية والسياسية. ومع انه كان يميل - ان صح القول - الى السعى نحو كل فضيلة بنوع من الوحي الاّ ان فضيلتي الاستقامة والنزاهة كانتا تستأثران باهتمامه فصيلتان تخلق بهما دون انحراف او هوادة. ولم يسمح ان تتغلب عليهما الرحمة او العطف. ودرس ايضاً من الكلام

والمناقشة الجماهيرية، معتقداً بان الفلسفة السياسية هي كالمدينة الواسعة يجب ان يتوفر لسلامتها عنصراً الحرب والعسكرية. الاّ انه لن يتمرن على الخطابة والمناقشه امام ملاءٍ ولم يسمع عنه ان يتحدث في المجالس الخاصة باللهجة الخطابية. وكان يقول لمن يعيب عليه صمته ونزر كلامه:

- أجل اني لكذلك أومل ان لايمتد ذلك بي. سابدأ في الكلام عندما اجد لديّ منه مالا يكون الأفضل له أن يكتم ولا يقال.

إن قاعة [پورشيا] الكبرى، كما تدعى، بناها [كاتو] الاكبر عندما كان [ايديلاً] واوقفها للنفع العام، وفيها كان تريبونات الشعب يمارسون واجباتهم. وقد وجد ان اسطوناً من اساطينها يعترض ترتيب مقاعد التريبونات. حين جلوسهم لسماع المظلمات. فثار نقاش حولها: هل ترفع من البناية، أو تنقل الى موضع آخر منها؟ هذه المناسبة حملت [كاتو] على دخول الفوروم وهو كاره، فقد عارض التريبونات ونال من الاعجاب شيئاً غير قليل لما ابداه من اقدام ومقدرة خطابية. لم يكن في خطبته شيء من نزق الشباب وطيشه، كما كانت خالية من التكلف والعبارات المنمقة، فقد عمد الى الصراحة، وحشد فيها المعاني ورصّها رصاً خشناً لايخلو من نوع من الروعة والجمال. واسترعى الاهتمام وظهرت شخصية الخطيب المفوّه فيه حين وجد الناس في لغته الصارمة مهيجاً لمشاعر الطرب الطبيعية والاهتمام التلقائي. كان صوته ذا صدى عميق يسمعه الجمّ الغفير دون عناء. وكانت فيه مقدرة على الاحتمال عجيبة، فلا يعتريها وهن وكثيراً ما خطب يوماً كاملاً دون توقف.

بعد ان ادى واجبه في هذه المسألة، عاد الى الدرس والاعتكاف عن الناس. وباشر رياضة شاقة عنيفة لتقوية جسمه. وعودّ نفسه على السير حاسر الرأس في أشدّ الايام حرارة وبرداً. وعاف الركوب باته، وما كان يرى الا وهو ماشٍ. واذا خرج في سفرة مع اصحابه سار وحده تاركاً الاخرين راكبين، الاّ انه كان يلحق بهم واحداً تلو الآخر متحدثاً معهم طول الطريق. وكان يثير الاعجاب بصبره على المرضى، وبالشدة التي يأخذ بها نفسه في العلاج والحمية عند توعك مزاجه. واذا داهمته البرداء اعتكف وابى مواجهة احدٍ حتى تفارقه الحمى وتنصرف عنه اول نوبةٍ لها. وعند العشاء بين الاصحاب عندما يلقى النرد لاختيار صحفة الطعام ويخسر، فيتقدم له الجماعة الحاضرة الطعام الذي يفضله رغم خسارته، فانه يأبى «رافضاً ان يجادل في حكم ڤينوس» على حدّ قوله. ولم يكن يشرب الاّ مرة واحدة في اليوم، بعدِ العشاء ثم ينصرف لطيته، لكن تعاطيه الخمر زاد بمرور الايام حتى بلغ الأمر به ان كان أحياناً يصل الغبوق بالصبوح. وفسر اصحابه هذا الادمان بقولهم ان شؤون الدولة والمشاغل العامة، كانت تستغرق

منه كل وقته، وبما انه شغوف بالمعرفة والتتبع فقد أعتاد قضاء الليل بطوله في محادثة الفلاسفة وشرب الخمر. ولذا قال المدعو [مميوس Memius] في ملأ من الناس أن [كاتو] يبدد ليالي كاملة في معاقرة الخمر. فردّ عليه شيشرون بقوله:

- وعليك ان تضيف: وهو ينفق نهارات كاملة في لقب القمار! وبمختصر القول، كان [كاتو] يجد الفساد في عادات الزمن واخلاقه وان اصلاح الأمر في الزم الضرورات، وهو لذلك يجد نفسه مجبراً على مخالفة ما جرى عليه العرف، اظهار لفساده. فمثلاً وجد ان الارجوان الفاتح هو موضة العصر. فأختار منه الغامق الشبيه بالأسود وكان يخرج أغلب الأحيان بعد تناول فطوره دون حذاء وشملة. انه لم يكن يبغي من هذه المخالفة، اطلاب شهرة زائعة او الفات النظر اليه. بل لكي يعود نفسه على عدم الخجل الاّ مما يستحق الخجل. وان يحتقر كل انواع الصغائر والمخازي.

ورث من أحد ابناء عمومته عقاراً فباعه بمائة تالنت وجعلها نقوداً تحت متناول يده. لتكون رهن مشيئة المستينين من أصدقائه، دون فائدة. وقد وضع مرة املاكه وعبيده رهناً للخزانته العامة في سبيل بعضهم.

ولما بلغ سن الحلم - والزواج وهو لايعرف امرأة قط. عقد له على [ليپيدا Liepida] المعقود لها قبله على [ميتللوس سكيپيو]. لكن العقد الأخير فسخ لانسحاب الخطيب بملء رغبته فبقيت [ليپيدا] حرة، لكن ما لبث [سكيپيو] ان ندم على ما فرط منه وحاول كل ما وسعه ليعيدها قبل تمام زواج [كاتو] فتكلل سعيه بالنجاح. فاستشاط [كاتو] غضباً وكان اول ما خطر بباله مراجعة القضاء الاّ ان اصدقاءه نصحوه بالاّ يفعل. وعلى كل حال فقد دفعته العاطفة وتهور الشباب الى كتابة عدد من القصائد في هجاء [سكيپيو] والنيل منه على اسلوب [ارخيلوخوس] الملاذع الساخر الاّ انه كانت خالية من بذاءة ذلك الشاعر وفحشه. وبعد ذلك تزوج [آتيليا Atilia] بنت [سورانوس Soranus] فكانت أول امرأة عرفها الاّ انها لم تظل الوحيدة. وهو بذلك أقلّ حظاً من [ليليوس Laelius] صاحب [سكيپيو] الذي لم يعرف طوال عمره المديد غير امرأة واحدة كانت زوجته الوحيدة.

في حرب العبيد التي عُرفت باسم زعيمهم [سپارتكوس] كان [غيلليوس Gellius] جنرالاً. وقد تطوع [كاتو] فيها بسبب اخيه الذي كان وقتذاك تريبيوناً عسكرياً. لم يجد [كاتو] فيها، فرصة لاظهار نبوغ أو شجاعة بسبب اخطاء القائد العام في ادارة دفة الحرب. الاّ انه رغم هذا ومع الفوضى والاضطراب اللذين سادا الجيش - أبدى تمسكه الشديد بالضبط والربط، وتجلت فيه آيات من البأس والاقدام بقدر ما تطلبه الموقف فضلاً عن كثير من التروي

والحكمة. فبدأ وهو قرين [لكاتو] جدّه الأعلى وعرض عليه [خيلليوس] مكافآت عظيمة وهم بتقليده ارفع درجات الشرف العسكري الاّ انه أبى قبول ذلك معتذراً بانه لم يقم بشيء يستحق هذا. وبدأ برفضه هذا شخصاً شاذاً غريب الطباع. ودليل آخر على تمسكه بالقانون - انه قد صدر قانون يمنع المرشحين انفسهم لأي منصب بألاّ يستعينوا اثناء الاقتراع بملقنين يزودونهم باسماء الناخبين. وكان [كاتو] الوحيد بين المرشحين لمنصب التريبيون الذي طبق القانون. وقاسى الكثير ليستظهر اسماء من يجب عليه الاتصال بهم من الناخبين لتحيتهم. ان الذين اثنوا على موقفه هذا، لم يكن ثناؤهم يخلو من الغيرة والحسد. فبقدر ما كانوا يقدرون نبل عمله، كانوا يضيقون ذرعاً بالصعوبة التي يجدونها في احتذاء حذوه.

على اثر انتخابه [تريبيوناً] ارسل الى مقدونيا ليلتحق بجيش الجنرال [روبريوس Ru-bruis] وقيل ان زوجه ركبها الهمّ عند رحيله وانشأت تبكي. فقال لها احد اصحابه المدعو [موناتيوس Munatius] يخفف من حزنها ويطمئنها:

- لا تقلقي يا آتيليا، فسأقوم انا نفس على حراسته وهذا عهد مني لك.

فأجاب [كاتو]: بكلّ سرور.

وبعد رحلة يومٍ كامل توقفاً، وقال له [كاتو] بعد ان تناولا عشاءهما:

- عليك الآن ان تفي بعهدك لأتيليا. فلا تتركني ليلاً أو نهاراً.

وأمر ان يفرش في حجرته سريران لينام موناتيوس على أحدهما وبقيا كذلك وتعود [كاتو] ان يتخذ من الموضوع مزحة. فكان يتأكد من وجوده هناك على الدوام. وقد رافقه في رحلته خمسة عشر عبداً ورجلان من الاحرار واربعة من اصحابه، كلهم كانوا يسافرون على صهوات الخيل الاّ [كاتو] فقد ظلّ كعادته يستخدم قدميه، لا يتأخر عنهم قط ويحادثهم جميعاً كلّ بدوره اثناء السير.

وبوصوله معسكر الجيش سلّمه الجنرال قيادة أحدى الفرق ولم يجد في هذا اي شرف كبير، ولا بالأمر الجدير بالقائد. ولأجل ان يثبت اقدامه الفريد في بابه. قرر ان يجعل من جنود فرقته شيئاً اشبه به. لا بارخائه الشكيمة، واستصغار هيبة المنصب بل بمزج العقل بالسلطة. وكان يعمد الى تدريب وارشاد جنوده فرادى واحاداً، ويكافيء ويعاقب حسبما يستحق كل منهم.

واصبح جنود على درجة عالية من الانضباط بحيث صعب القول اهم مسالمون أكثر مما هم محاربون ام بالعكس. أهم أكثرهم اقداماً أم أكثرهم احجاماً؟ لقد كانوا على حدّ سواء مصدر خوف للعدو ومعين لطفٍ للحلفاء. يحجمون عن الدنايا لقدمون على المعالي ونال ما في ذلك

من معنى. وعلا قدره عند الجميع واحبه الجنود، لمساهمته شخصياً بكل ما كان يأمر به. وكان في كسائه وطعامه وحله وترحاله اقرب مظهراً الى الجندي البسيط منه الى قائد فرقةٍ وسبق القادة العظام في تسامي خلقه وحكمته وبات موضع الاعجاب العام دون ان يدري. ذلك ان حب الفضيلة الحقيقي، انما هو جعله الودّ والاحترام اللذين بحسّ المرء لمن يتولى تلقيتها للآخرين أولئك الذين يثنون على اطايب الرجال وهم لايشعرون بحبّ لهم، انما يحترمون سمعتهم لكنهم في الواقع لايعجبون باخلاقهم ولا يحاكونها.

في ذلك الحين كان يعيش في [برغاموس]، الفيلسوف الرواقي الشهير [اثينودورس] الملقب [كورديليو Cordylio] وقد بلغ من العمر عتباً. وكان دائم الرفض لكلّ صلة صداقة أو تعارف يطمح اليها الامراء والعظماء، ولم يكن [كاتو] يجهل ذلك، الاّ انه لم ييأس. ووجد ان استحالته وخطب ودّه لا يتمان بالكتابة اليه او ارسال الرسل. وقرر ان يسير اليه بنفسه. وكان القانون يمنحه حق التمتع باجازة شهرين فأنطلق الى آسيا. واضعاً ثقته في أخلاقه وشخصيته معتقداً أنها لن تخيبه. والتقى به وتحدث معه حتى نجح في اقناعه بخطل قراره بالاعتكاف عن الناس، وعاد به الى المعسكر فرحاً مزهواً بنصره، كأنه انجز عملاً بطولياً يفوق اعمال [پومپي ولوكوللوس] اللذين راحاً آنذاك يدوخان بجيوشها البلاد المترامية ويخضعان الممالك العظيمة.

وفي فترة خدمة [كاتو] العسكرية ورده نبأ مرض أخيه وهو في[انيوس Aenus] التراقية متجهاً الى اسيا. ولم يثنه هياج البحر وعدم عثوره على سفينة مناسبة. بل استقل مركباً تجارياً صغيراً مع اثنين من اصدقائه وثلاثة من الخدم، وأقلع من [سالونيكي -Thessaloni ca] واشرف على الغرق ولم ينج الاّ بعد لأي. ولما وصل [انيوس] وجد أخاه جثه هامدة. ويعتقد أن [كاتو] بدأ في هذا الموقف أخاً محبّاً أكثر منه فيلسوفاً. متضّلا عن الحزن العظيم الذي استولى عليه ووقوعه على الجثمان الهامد شماً وتقبيلاً وعناقاً، لم يبخل باي مالٍ على جنازته وأسرف الى حَدّ السفه بالعطور الثمينة والأقمشة الفاخرة الملحقات التي أحرقت مع الجثمان والضريح المرمري الثاسي Thasian الذي كلفه وحده ثمانية تالنتات - اقامة في ساحة انيوس العامة، هناك فريق عاب عليه ذلك قائلاً انه لايتفق ووقاره المعروف واعتداله، هؤلاء الذين جعلوا همهم ابداء الاعتراضات التافهة لأقل مطعن، غاب عنهم أن [كاتو] كان ممتلئاً بالحنان الطبيعي والحبّ الاخوي مع ثبات جنانه وقلة استجابته النفسية للفرح والخوف والحبّ الجامح.

وبالمناسبة بعث كثير من الامراء وكبار القوم في تلك البلاد والمدن بالهدايا الثمينة تكريماً

لأخيه الراحل. فلم يأخذ مالاً ورده، مكتفياً بالعطور والتزيينات التي لم يقبلها الاّ بعد دفعه ثمنها. ثم انه قسم الميراث بينه وبين بنت [كيپيو] ولم يطالب بنفقات الجنازة من اصل التركة، مع هذا كله، فهناك بعض من يؤكد أنه وضع رماد جثمان أخيه في منخلٍ ليخرج الذهب الذائب بعد احتراق الجسم. ان مخترع هذه الاكذوبة قد يرجو الغفران لقلمه قدر ما يرجو خلاص سيفه من اي اتهام او انتقاد.

انهى [كاتو] خدمته العسكرية. وكان توديعه حافلاً بالعواطف الجائشة لقد شيعه الجنود بالدعوات وحسن الثناء، بله بالدموع والعناق. وفرشوا اورديتهم عند موطيء قدميه، وراحوا يلثمون يديه اثناء مروره بهم، وهذا شرف لا يقلده الرومان الاّ للقلة من الجنرالات والقواد الأعلين. وكان قد قرر بعد تركه الجيش وقبل الاستقرار في روما والعمل في الحقل السياسي - أن يقوم برحلة في آسيا لدراسة عادات وأخلاق وقدرة كلّ أقليم. كما كان أيضاً يكره رفض دعوة [ديوتارس Diotarus] ملك غلاطية، الذي كان بينه وبين ابيه صداقة متينة، وقد تشوق [كاتو] فعلاً لزيارته. واتبع في رحلته هذه النظام التالي: في الصباح الباكر بعث بخبازه وطاهيه الى الموضع الذي يكون قد قرر البيتوتة فيه، فيدخلان المدينة بكل بهدوء واحتشاك. وان لم يتفق لهما صديق او واحد من معارف [كاتو] أو أسرته. فأنها يستدركان حاجته من الطعام في احد الفنادق. ولا يقلقان راحة أحدٍ. فان لم يوجد فندق، راجعا الحكام وطلبا المعونة في ايجاد منزل لسيدهما. ويقبلان دون اعتراض اي مسكن يخصص لهما. ولايخرجان قطّ عن جادة الأدب أمام الحكام ولا يحدثان ضبحّة أو يلجأ الى تهديد. وكثيراً ما وجد انفسيهما ضائعين لا يكترث بهما احدٌ ويصل [كاتو] فلا يجد شيئاً مهيئاً. ولا يحسن وجوده من الوضع، ويقل الاحتفال به عندما يُرى جالساً فوق متاعه لايتكلم فيحسبونه نكرةٍ من النكرات يخاف أن يصدر أمراً لئلا يلقى ما يكره. وكان أحياناً يستدعى بعض الأهالي وينتمى بهم جانباً ليهمس في آذانهم:

- أيها الحمقى تخلوا عن هذا الطبع واقرؤا ضيوفكم، فليسوا كلهم مثل [كاتو]. كونوا لطفاء وبذلك تكسرون من حدّ القوة. هناك الكثير ممن لايريدون الاّ ذريعة ليستلبوا منكم ما يمكن ان تعطوه بشيء من التردد.

ووقعت له حادثة طريفة اثناء مروره بالبلاد السورية - كان يريد الدخول الى انطاكية فشاهد حشوداً من الناس خارج اسوار المدينة وقد انتظموا صفوفاً على جانبي الطريق: شبان بمعاطف طويلة في جانب، وصبيان بحلل قشبية في جانبٍ وثم آخرون وهم الكهان والقضاة باردية بيضاء واكاليل من الزهر. وحسب [كاتو] ان هذا الاحتفال انما اقيم له تكريماً. فتملكه غضب

شديد على خدمه الذين سبقوه الى المدينة معتقداً انهم اذاعوا نبأ قدومه، وطلب من اصحابه واتباعه ان يترجلوا وسار معهم. ولم يكد يدنو من باب المدينة حتى تقدم منه رجل كبير السن بيده قضيب وأكليل، ربما كان رئيس الاحتفال، وابتدر [كاتو] دون تحية قائلاً له اين تركت [ديمتريوس] ومتى سيصل؟ كان ديمتريوس هذا، خادماً [لپومپي]. وبما ان عيون العالمين كلها كانت شاخصة الى [پومپي] فمن البديهي ان الخادم ايضاً سيتمتع بالتكريم بعد أن علم انه يتمتع بخطوة ونفوذ لدى سيده. وهنا انفجر خدم [كاتو] مقهقهين ولم يتمالكوا أنفسهم من القهقهة وهم يجوسون بين الجمع الحاشد. وعرا [كاتو] نوع من الخجل والأسف وقال:

- ما اشقاك أيتها المدينة!

ولم يزد. على انه كان يضحك كلما عنت له، او ذكّره بها أحدٌ.

ولم يعتم [پومپي] أن جعل الناس يخجلون من جهلهم وحمتهم وعدم اكتراثهم [بكاتو]، بما اظهره له عندما زاره في [افسس] ذهب كاتو لزيارة الرجل الذي يكبره سناً، والقائد العام لأعظم الجيوش، ذاك الذي طبقت شهرته الآفاق. فابى [پومپي] الاّ ان يستقبله واقفاً. وتقدم منه مرحباً اعترافاً منه بكبر مقامه. ومد يده مصافحاً وعانقه بكثير من العطف والرقة واطنب في مدح مناقبه بحضوره وزاد في مدحه بغيابه. وبدأ الناس جميعاً يظهرون الاحترام [لكاتو] ويكتشفون فيه الطبع الدمث العجيب، وسموّ الروح وتلك هي عين الطبع التي كانوا يعيبونه عليها من قبل. ان مجاملة [پومپي] بدت وكأنها صادرة من شخص يجلّه أكثر مما يحبّه، وانطباع العموم هو أنه احاط [كاتو] باعجابه حينما كان معه. الاّ أنه لم يكن آسفاً على رحيله. فقد اعتاد [پومپي] الالحاح على زائريه الشبان بملازمته لكنه لم يعرض على [كاتو] البقاء بل أسرع بالسماح له بالرحيل، كأنما كان سلطانه مهدداً بوجوده. مع هذا فقد كان [كاتو] الوحيد بين الراحلين الى روما الذي اوصاه [پومپي] بالولاده وزوجه، وكانت الأخرة في الواقع قريبة لكاتو.

وبعد هذه المقابلة تنافست المدن في تكريمها لكاتو. وكانت الواحدة تلو الأخرى تستقبله بالحفلات والمآدب المقامة على شرف مقدمه. فطلب من اصحابه ان يشتدوا عليه في الرقابة وان يعنوا بأمره لئلا يأتي اليوم الذي يصدق فيه قول [كيوريو]. وكان هذا صديقاً حميماً له يكره فيه تزمته ونقشفه. وقد سأله يوماً عند انتهاء خدمته في الجيش. هل اعتزم زيارة آسيا؟ فأجابه [كاتو]:

- طبعاً. بكلّ تأكيد.

فقال [كيوريو]: نعم ما تفعل. فستعود بمزاج أطيب وخلق ألطف. وبشاشة أكثر.

تلك هي العبارات التي استخدمها على وجه التقريب.

وبلغ [ديوتارس] من العمر عتيّاً. فأرسل يستقدم [كاتو] ليعهد اليه برعاية اطفاله واسرته. وحمل اليه فور وصوله الهدايا من كل نوعٍ راجياً منه قبولها. واستاء [كاتو] لكثرة الحاحه. ولم يبق الاّ ليلة واحدة. ورحل في الصباح الباكر. وبعد أن قطع مسيرة يومٍ، نزل في [بسينوس Pessinus] ليجد في انتظاره كمية أكبر من الهدايا مع رسالة من [ديوتارس] يستخلفه بان يقبل ما ارسل اليه أو على الأقل ان يسمح لاصدقائه بها لأنهم يستحقون بعض المكافأة منه في حين ان امكاناته لاتسمح له بذلك. الاّ ان [كاتو] أصرّ على رفضها وان وجد بعض اصدقائه الراغبين فيها يهمون بالتظلم من تزمته. فأسرع يقول، ان الفساد لايحتاج الى ستارٍ أو ذريعة. وان على اصحابه ان يقاسموه ما يحرزه بشرف وبحقّ. ثم انه اعاد الهدايا الى [ديوتارس].

وعندما استقل سفينة مقلعة الى [برنديزيون] حاول اصحابه اقناعه بوضع رماد اخيه في سفينة أخرى فأبى قائلاً: انه يفضل مفارقة الحياة على مفارقة الرماد. وهكذا اقلع وقيل لنا ان الاقدار حكمت ان تكون سفرته حافلة بالاخطار الجسام في حين لم تصادف السفن التي ابحرت معه اية متاعب ووصلت بسلام.

وفي روما قضى جلّ اوقاته ملازماً داره أو مجالساً اثينودورس او في الفوروم معقباً قضايا اصحابه. وكان الوقت قد ازف ليتقدم مرشحاً لمنصب [الكويستور] الاّ انه تريث ولم يتقدم الاّ بعد ان درس القوانين المتعلقة بتلك الوظيفة. وبعد الافادة من المجربين فيها حتى بلغ الغاية في تفهمه واجباته وصلاحياته. هذا الاطلاع الواسع ساعده على القيام باصلاحات هامة واجراءات تغيرات كبيرة بين الموظفين ورؤوساء الاقسام في بيت المال عندما تولى المنصب. نظراً لما لهولاء الموظفين من الخدمة الطويلة والمران والمعرفة التامة بالسجلات العامة والقوانين فقد كانوا موضع الاعتماد التام من كل الرؤوساء الجهلة الذين يتعاقبون سنة بعد سنة ويأتون دون خبرة سابقة ولا مؤهلات كافية ليتلمذوا على مرؤوسيهم. فلا يجدون بداً من القاء زمام الأمور اليهم. فباتوا هم امناء الخزينة الفعليين ولم يفسحوا اي مجال لرؤوسائهم لممارسة صلاحياتهم حتى جاء [كاتو] وهو على اتم استعداد، فتولى الأمور بنفسه متسلحاً لا بلقب الكويستور وحده بل بالاطلاع الواسع والمعرفة التامة. وبهذا انزل الموظفين من عليائهم

فأصبحوا وكأنهم مجرد خدمٍ وسعاة. وكشف عن سوآتهم وفرط جهلهم وفضح اعمالهم المشينة وكشف عن حيلهم. كان هؤلاء يتسمون بالجراءة والصفافة فراحوا يتزلفون الى زملائه ويتقربون منهم. لتنظيم كتلة مناوئة له. إلاّ انه اسرع فأدان رئيسهم بجريمة خيانة الأمانة، حول ميراث وصيّاً عليه، وطرده من وظيفته ثم احال موظفاً آخر الى المحاكمة بتهمة النصب والاحتيال. فأنتدب المتهم [لوطاطيوس كاتالوس] للدفاع عنه. وكان [لوطاطيوس] يمارس منصب [الچنصور] وهو رجل متمكن في عمله، ذو مزايا خلقه نادرة، ويعتبر اعقل من هم في سنه، واعلاهم سمعة. كذلك كان صديقاً حميماً [لكاتو] كثير الثناء على بساطة عيشه وتواضعه. أدرك [لوطاطيوس] انه لم يفلح في تبرئة موكله اذا واجه محكمة عادلة، فتقدم برجائه الى [كاتو] لاسقاط التهمة. فاستنكر [كاتو] ذلك منه ولكن [لوطاطيوس] لم ينثن ثم زاد في الحاحه فقال له [كاتو]

- من المخجل يا كاتالوس ان يتعرض [الچنصور] الى عار الطرد من قبل ضباطناوهو صاحب الكلمة المطلقة على ارواحنا جميعاً.

وبدا [كاتالوس] بعد هذه العبارة وكأنه يهمّ بقولٍ، لكنه آثر الصمت اما حياءً واما غيظاً. ثم سار لطيته وهو مكسور الخاطر. على ان التهمة لم تثبت. اذ كانت اصوات القضاء الذين حكموا ببراءته أقل بصوت واحدٍ من عدد الاصوات التي حكمت بإدانته، فلم يكن من محاميه [كاتالوس] الاّ وارسل يستقدم [ماركوس لوليوس Marcus Lollius] القاضي، أحد زملاء [كاتو] وكان مريضاً فجيء محمولاً على كرسي وصوت للبراءة. إلا أن [كاتو] أبى استخدام الرجل المظنون في اي عملٍ ولم يكترث للصوت الذي كان السبب في خلاصه. ولم يدفع له مرتباً. وبهذا فرض على الموظفين سلطانه وضمن احترام اوامره واستخدم السجلات بالشكل الذي وجده ملائماً للمصلحة العامة. فرفع من سمعة الخزينة وجاوز به سمعة مجلس الشيوخ. وانتشر بين الناس هذا القول، ان [كاتو] رفع من شأن منصب الكويستور فجعله مساوياً لمنصب القنصل.

وجد [كاتو] بعد التدقيق ان كثيراً من الناس مدينون للدولة بديون قديمة، ووجد ان بيت المال نفسه مدين لعدد من الاشخاص وكان مبدئه حماية الناس من الاعتداء ومنعهم من الاعتداء في الوقت نفسه. ولهذا راح يتعقب المدينين ويستحصل منهم ديون الخزينة دون ان تأخذه فيهم رحمه او هوادة. كما دفع من مال الخزينة ديون الناس على آخرها. فلهج الناس بمديحه وحبّه وزاد أكبارهم له واعجابهم به، اذ شاهدوا بأم أعينهم كيف كان يجلب أولئك الذين ظنوا انهم فازوا بغنيمة غير قابلة الردّ فيرغمهم على اعادتها. وكيف كان بدفع حقوق

أولئك الذين ادركهم اليأس من وصول ديونهم اليهم. كانت ترد الخزينة صكوك دفع مزيفة واوامر صرف كاذبة من مجلس الشيوخ لمصلحة بعض الاشخاص من ذوي الحظوة والجاه، فتقبل وتصرف لهم المبالغ. ولم يكن [كاتو] بالذي يسكت عن هذا. وفي قضية معينة عندما شكّ في صحة مصادقة مجلس الشيوخ على اذن بالدفع رفض شهادة عدد كبير من الشهود الذين جيء بهم ولم يعترف بصحة الأذن حتى جاء القناصل بأنفسهم وايدّوا الأمر بعد ان حلفوا اليمين امامه!

وكان [سللاً] في زمانه قد أتخذ عدداً كبيراً من الوكلاء والمعتمدين لممارسة الاعمال اللاقانونية التي سادت فترة حكمه، وكان قد دفع لكلّ منهم اثني عشر الف درهم مكافأة على اغتيالهم الخصوم وقتلهم. هؤلاء المناكيد الاشرار كانوا موضع المقت الشديد من الناس، ظلوا يسرحون ويرحون ولايجرأ احد على النيل فيهم. وباشر [كاتو] باستدعائهم واحداً بعد آخر ومحاسبتهم على المبالغ التي قبضوها دون وجه حقٍ، وأعتبرهم واضعي اليد على اموال تخصّ الدولة، وبذلك استحصل منهم كل ما قبضوه ولم يصرفهم بعد التأنيب والتعنيف انما احالهم الى المحاكم متهمين بجرائم القتل التي ارتكبوها. وكانت الاجراءات التي اتخذها بحقهم دليلاً يثبت ادانتهم، وحكماً تمهيدياً. لذلك سهلت ادانتهم واستوفوا حظهم من العقاب. وساد فرح عام وخيل للناس ان الطغيان القديم قد استوصلت شافته، وان [سللاً] نفسه يساق الى المحكمة لينال ما اقترفت يداه - على حَدّ قولهم.

كانت استمرارية [كاتو] ومعين نشاطه الذي لاينضب سبباً آخر لميل الجمهور اليه. فهو يأتي دائرته قبل كل أحد ويكون آخر الخارجين منها. ولم يغب عن اي اجتماع جماهيري مطلقاً. ولم يخطئ جلسةً واحدة لمجلس الشيوخ. فقد كان رقيباً لاتغمض له عين على أولئك الشيوخ الذين لايبخلون باصواتهم على هذا او ذاك، لالغاء ديون مستحقة عليه للدولة. أو لشطب رسوم في ذمته، يفعلون ذلك لمنفعتهم الخاصة، أو لافتقارهم الى الشعور بمسؤولياتهم. ومجمل القول انه حفظ بيت المال. وصانه من الجواسيس بعد ان ملأه بالمال. وقدم بذلك اكبر دليل على ان الدولة يمكن ان تكون غنية دون ان تحتاج الى ارهاق المواطنين بالجباية. في مبدأ الأمر اثارت اجراءاته مشاعر الكره والسخط في نفوس بعض زملائه. لكنهم اصبحوا بالتالي راضين عنه كل الرضا. فقد كان مستعداً لتحمل المسؤولية وكل التبعات والانتقادات عندما يرفض هؤلاء الزملاء مساعدة اصدقائهم في اغتراف اموال الدولة أو يأبون اصدار قرارات لاتتفق مع مبادئ الشرف عند مراجعة حساباتهم. فان أشتد عليهم ضغط ذوي الحاجات اسرعوا فوراً الى القاء اللوم على [كاتو] بقولهم انه لايستطيعون عمل شيء دون موافقته. وشيعه جميع حاشد من الناس

الى منزله في آخر يوم له من وظيفته، تكريماً له واعترافاً بفضله. وبينما هو في طريقه، أخبره أحدهم انه عدداً من اصحاب [مارچللوس] هم الآن في بيت المال يستخدمون نفوذهم وكل ما لديهم من حظوة ووجاهة ليحملوا زميله هذا على الغاء دين وشطبه من السجلات العامة بعد اعتباره منحةً، كان [مارچللوس] صديقاً لكاتو منذ الطفولة وهو أحد خيرة زملائه في بيت المال طالما كان [كاتو] بجانبه. لكن وهو وحيد، ضعيف الارادة لا يصمد امام رجاء ذوي الحاجات نزّاع الى ارضاء كل من يقصده. فما كان من [كاتو] الا وعاد ادراجه ودخل بيت المال ليجد [مارچللوس] يهّم بتلبية الرجاء وتسجيل الدين منحةً، فأمسك بالسجل وشطب القرار و[مارچللوس] واقف لاينطق بكلمة - بعد أن قام [كاتو] بواجبه صحب [مارچللوس] الى منزله، ولم يعتب عليه لا في حينه ولا بعده وظلّ مقيماً على صداقته ومحبته. ولم ينفك [كاتو] عن مراقبة سير الامور في الخزينة بعد اعتزاله الخدمة. وكلف خدمه بمتابعة تسجيل تفاصيل الخرج. وكان يحتفظ لنفسه بدفاتر خاصة تتضمن حسابات الدخل منذ ايام [سللاّ] حتى انهاء خدمته، ابتاعها بخمسة تالنتات.

وكان اول القادمين الى مجلس الشيوخ وآخر المغادرين. وكان أغلب الأحيان يجلس على مقعده ويفتح كتابه وينشغل بالقراءة ناشراً رداءه امام كتابه ريثما ينتظم المجلس ويكمل نصابه بمجيء الاعضاء متباطئين. ولم يؤثر عنه خروجه من المدينة قط اثناء دورات المجلس. وقد وجد [پومپي] وانصاره انهم لايستطيعون اغراء او ارغامه على السير في ركابهم والموافقة على مقترحاتهم الجائرة فحاولوا ابعاده عن الاجتماعات بأن أشغلوه بتعقيب مصالح اصحابه، والدفاع عن قضاياهم والفصل في خلافاتهم وغير ذلك. لكنه سرعان ما أكتشف حيلتهم، فاحبطها باعلانه لاصدقائه ومعارفه بأنه لن يتولى متابعة اية قضية خاصة لاي منهم طالما كان المجلس في دور الانعقاد فهو لم يدخل الحياة السياسية جراً لمغنم او دفعاً لمغرم أو أبتغاء لمجدٍ أو ارضاء لهواية، أو على سبيل الصدف، بل لأنه العمل الاصلح والاشراف للرجل الأمن المخلص. فهو والحالة هذه مسوق الى التمسك والمواظبة على واجباته العامة، مثل مثابرة النحلة على خليتها. وهذا ما حدا به الى استخدام معارفه واصدقائه وكل المتصلين به في كل مكان من الجمهورية - لتزويده بالتقارير والبيانات والاحكام وكل الاجراءات الهامة التي تحصل في الاقاليم، ومرة نهض [كلوديوس] الخطيب المهيج، وأخذ يوجه الطعون والاتهامات الى بعض الكهنة والكاهنات. ومنهم [فابيا Fabia] أخت ترنتيا Terentia زوج شيشرون التي وقعت جراء ذلك في خطرٍ عظيم. فتدخل [كاتو] في الأمر بجراءته المعهودة، وجعل [كلوديوس] يبدو انساناً متهتلكاً فاجراً حتى اضطره الى مغادرة المدينة. وقدم [شيشرون] اليه ليشكره على موقفه هذا فأجابه:

- عليك ان تتوجه بشكرك الى الجمهورية.

الجمهورية التي اوقف نفسه لها. وبهذا كسب سمعة عجيبة حتى ضرب به المثل، ومن ذلك ان محامياً في قضية ليس فيها عير شاهدٍ واحدٍ، كان من جمله ما قال في دفاعه مخاطباً القضاة: عليهم ان لايعولوا على شهادة شاهدٍ واحد وان كان [كاتو] نفسه!

ومما جرى على السنة الناس عندما يريد احد ان يؤكد حدوث شيء غير محتمل الحدوث، ان يقولوا: انهم لن يصدقوا حتى وان جاء [كاتو] مؤيداً ومصدقاً.

وذات يوم طفق احد الخلعاء المشهورين ببذخهم وفجورهم يتكلم في المجلس حول ضبط اهواء النفس والتقشف فهب [انيوس Anæus] من مجلسه وصاح:

- من يستطيع احتمال ذلك منك؟ انت يا سيدي تقيم المآدب مثل [كراسوس]، وتبني الصروح مثل [لوكوللوس] ثم تتكلم مثل [كاتو]!

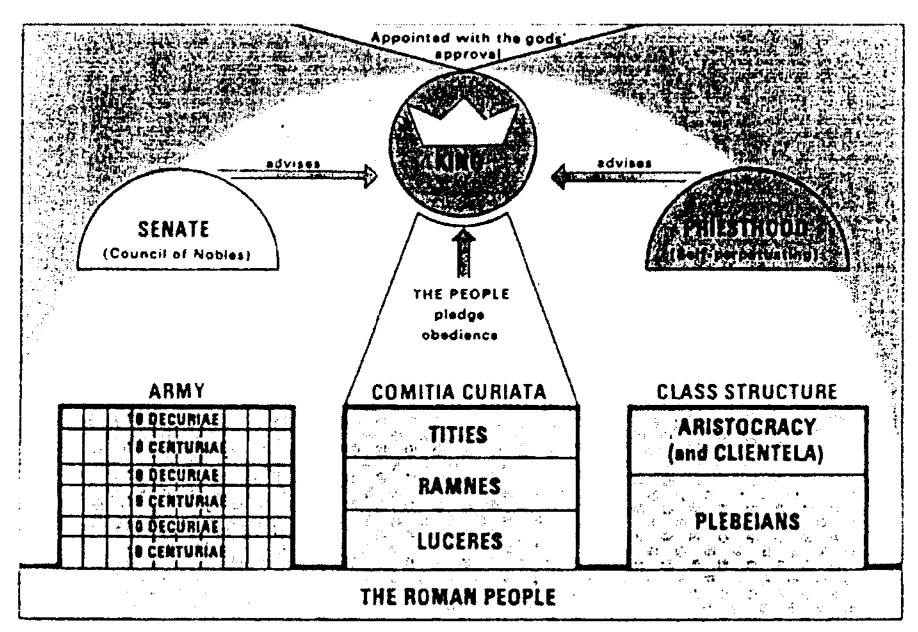
وأطلق الناس على الفاسدين الحلفاء الذين يضفون على حديثهم طابع التزمت والوقار - اسم [كاتو] استهزاء بهم!

زين له اصدقاؤه ببادئ الأمر التقدم للفوز بمنصب تريبون الشعب فلم يجد في نفسه الرغبة بادىء الامر- متعللاً بأن السلطة التي يتمتع بها صاحب هذا اللقب عظيمة الى الحَدّ الذي يجب الاّ تستخدم الا كآخر دواء عند الضرورات القصوى. ثم أنه قرر السفر الى مغناه الريفي خارج روما حيث لديه ضيعة هناك ليقضي فترة الاجازة بين كتبه واصدقائه الفلاسفه وبينما هم في طريقهم اعترضهم كثير من الخيالة والعربات والخدم وسألوا فقيل ان [ميتيللوس نيپوس Metellus Nepos] يقصد روما لترشيح نفسه لمنصب التريبيون فوقف [كاتو] صامتاً برهة. ثم أمر بالعودة الى روما. فعجب اصحابه من قراره وسألوه عما حدا به الى تغيير رأيه فجأة فقال:

- انكم لاتعلمون كم ينطوي عليه جنون ميتيللوس من خطر. انه الآن يدخل روما مسلحاً بنفوذ [پومپي] وعونه، وسينقض كالبرق الخاطف على الدولة وينشر الفوضى والاضطراب. لم يعد الوقت وقت نزهة واسترخاء، وعلينا ان نعود لنحول بين هذا الرجل وبين مأربه أو ان نموت بشجاعة دفاعاً عن حرياتنا.

ولم يبق في مغناه الريفي الا قليلاً وعاد الى روما مساءً وفي صباح اليوم التالي توجه الى الفوروم ورشح نفسه لمنصب التريبيون مقابل [ميتيللو].

ان واجبات هذا المنصب في الحقيقة هي واجبات رقابة، لا تنفيذ اعمال معينة. فللتريبيون



Constitution of the monarchy

دستور الملكية

الحق في ابطال كل اجراء حكومي أوامر صادر من مرجع رسمي بمجرد عدم موافقته. وان كان قد حصل اجماع عليه وفي هذا تكمن اهمية المنصب. ولم يكن [لكاتو] في مبدأ كثير من الأنصار، ولكن ما ان عرفت نواياه حتى تقدم كل الناس الطيبين وذوي المقام في المدينة، مشجعين مساعدين. ليس لأنه طالب فضلٍ منهم. بل لأنه هو المتفضل على بلاده وسكانها الطيبين بمقبوله الترشيح لمنصب رفض الترشيح له عدة مرات حين كان ملك يمينه. لكنه الآن رضي بركوب الخطر في سبيله لعلمه أن حريات الشعب تستهدف لخطر أكيد، ونظام حكمهم مهددٌ بشرٍّ مستطير. وقيل ان الحشود التي تجمعت حوله كانت من الكثرة بحيث اشتد ضغطها عليه وكادت تزهق انفاسه ولم يكن قادر على السير حظوة واحدة. أخيراً فاز بالمنصب مع [ميتيللوس] وآخرين.

وجد [كاتو] بعد مباشرته وظيفته، ان انتخاب القناصل أصبح سلعة تباع وتشرى. فانحى على الاهالي باللوم وانبهم تأنيباً شديداً وفي نهاية خطبته هدد بأنه سيسوق الى القضاء كل من يعطي مالاً لهذا الغرض، ونفذ قوله هذا، الاّ في قضية [سيلانوس] للقرابة التي تصل فيما بينهما، فهو زوج اخته [سرفيليا]. ولم يحله الى المحاكمة وانما اتهم زميله في القنصلية [لوشيوس مورينا Lacius Morena] باستعماله وسائل غير شريفة لانتخابه قنصلاً. وكان

ثم قانون يسمح لكلّ متهم بانتداب شخص تكون مهمته مراقبة المدعي. ليكون المتهم على علم بالوسائل التي يتبعها هذا الأخير في تهيئة مواد الإتهام. وأخذ الشخص الذي عينه [مورينا] لمراقبة [كاتو] يتبعه كالظلّ انى توجه ويراقبه مراقبة الصقر. الاّ انه لم يجده موضع شبهةٍ في التجائه الى اساليب غير شريفة. وانما كان يجمع مواد اتهامه بشكل صريح قانوني. فأعجب هذا الرقيب يسمو بروح [كاتو] ووثق ثقةً مطلقة بنزاهته. فكان يسأله عندما يلقاه في الفوروم هل ينوى القيام بعمل هول التهمة في ذلك اليوم؟ فاذا اجابه [كاتو] بالنفي تركه معتمداً على كلمته. وأوكل [مورينا] زميله في القنصلية [شيشرون] للدفاع عنه. فأنتهز هذا الفرصة ليتضرف ويتفكه عند تطرقه الى [كاتو] وعلاقاته بالفلاسفة الرواقيين، و«متناقضاتهم» كما كانت تعرف آنذاك - فأثار الضحك الشديد بين القضاة، ولم يسع [كاتو] الاّ ان يلتفت الى الحاضرين ويقول باسماً:

- أترون ايها الاصدقاء كم هم ظريف قنصلنا هذا؟

وبرئت ساحة [مورينا]. واثبت فيما بعد انه انسان نبيل وممن لايفتقر الى الشعور الحيّ، ولايحمل حقداً او موجدة. فقد ظلّ رغم ما حصل - يستشير [كاتو] في الأمور الخطيرة طوال مدة قنصليته. وظلّ يحترمه ويقدره. وكان لسلوك [كاتو] أيضاً تأثير على هذه العلاقة. فمع انه صارم مرعبٌ لا تأخذه في الحق هوادة، يوم يكون في المجلس أو المحاكم. الاّ ان كان لطيفاً انساني المعاملة مع الناس جميعاً.

وقبل انتخابه تريبيوناً، اسدى الى شيشرون خدمة كبيرة ايام كان هذا قنصلاً. وبالتعاون معه عل حل مشاكل عامة كثيرة واهمها طّراً مجهوداته العظيمة في خنق موآمرة [كاتالين]، التي كانت تدين نجاعتها الناجحة الى [كاتو]. كان [كاتالين] كما ذكرنا قد دبرّ انقلاباً هائلاً ضد الدولة، بتحريضه على العصيان واثارته حرباً أهلية ضروساً. الا ان شيشرون كشف المؤامرة وادانه وارغمه على الفرار.

لكن لنتولوس وكاثيگا وآخرين بقوا في المدينة للسير قدما في الموآمرة، واتهموا [كاتالين] بالجبن والتردد في التنفيذ. وواصلوا العمل الإشعال النار في المدينة وبث الفوضى، تمهيداً لاسقاط الحكومة. وتحريض كل الشعوب الرومانية على الثورة. واثارة حروب خارجية في الاقاليم. فوفق [شيشرون] على الخطة [كما سنورد ذلك في سيرته) ورفع الأمر الى مجلس الشيوخ. فتكلم [سيلانوس] اولاً، واقترح فرض اقصى عقوبة على المتآمرين. ووافق على اقتراحه هذا كل الشيوخ الذين تلوه حتى جاء دور [قيصر] للكلام، وكان خطيباً مفوهاً، كان قيصر يري أن كلّ خلل يصيب الدولة هو في مصلحته، ومن شأنه ان يخدم غاياته ولذلك لم

يكن اطفاء الفتنة بل اشعالها. ولهذا القى خطبة رقيقة ملأى بالرحمة. ونفى ان يكون للمجلس الصلاحية للحكم على المتآمرين بالموت. ورأى أن يساقوا الى المحاكم. مقترحاً بقاءهم في السجن. ومالت أكثرية المجلس تقريباً الى رأيه خوفاً من غضبة الشعب، حتى ان [سيلاتوس] نفسه تراجع عن موقفه وسحب اقتراحه الأول بقوله انه لم يكن يقصد عقوبة الموت عندما مطالبته بانزال اقصى العقوبة، وانما يقصد السجن لأن هذا أقصى ما يمكن ان يحكم به على روماني. فتحول الاتجاه العام الى فرض عقوبة أخفّ من الموت الى ان حان دور [كاتو] للكلام، فبدء وبكثير من الحماسة يؤنب [سيلانوس] على تردده في الرأي وهاجم [قيصر] الذي يريد القضاء على الجمهورية بالكلمات الرقيقة والخطب الشعبية. ويعمل جاهداً على القاء الخوف في قلوب اعضاء المجلس. في حين يجب هو نفسه ان يخاف ويشكر الله على نجاته من العقاب والتهام . انه يجرأ علنا وبكلّ صفاقة على حماية اعداء الدولة في حين لايجد ذرة من العطف في ضميره على اوطانه التي كادت صروح امجادهم تتهدم بفعل المخربين مع هذا كلّه يجد في نفسه الجرأة على طلب الرأفة بأولئك الذين كان الافضل لهم ان لا يولدوا. ان موتهم سينقذ الجمهورية من الدماء ومن الخراب...

هذه هي الخطبة الوحيدة التي حفظت من بين سائر خطب [كاتو] فقد قيل لنا ان [شيشرون] وضع كتاباً حاذقين سريعين في عدة اماكن من قاعة المجلس. وكان هو قد علمهم اسلوب الاختزال برسم اشكالٍ ذات خطوط قليلة بدلاً من الكلمات الكثيرة. حيّ ذلك اليوم لم تكن كتابة الاختزال معروفة، فهي والحالة هذه التجربة الأولى في هذا الفن.

نجح [كاتو] في مسعاه وحوّل المجلس ثانيةً الى رأيه الأول وصدر القرار بتنفيذ حكم الموت بالمتآمرين.

ان كل صغير من الأمور يفيدنا في اعطاء صورة كاملة عن خلق [كاتو] وابراز اتجاهاته العقلية. ومن ذلك ما نقل لنا انه بينما كان هو وقيصر في اشد حالات الهياج والحماسة وانظار المجلس شاخصة اليهما. سلم أحدهم ورقة صغيرة لـ[قيصر] وشك [كاتو] في مضمونها. وصاح أن هذا عمل يثير الريبة واصرّ على ان هناك فتنة تدبرّ في الخفاء وطلب قراءة الورقة علناً. فما كان من [قيصر] الاّ وناوله الورقة. فوجدها [كاتو] رسالة غرامٍ من [سرڤيليا] اخته الى قيصر الذي كان قد اغواها وافسدها. فقذف بها اليه وهو يقول:

- خذها، خذها أيّها السكّير!

ثم واصل المناقشة كأن شيئاً لم يحدث.

في الواقع يبدو ان [كاتو] كان سيء الحظّ من ناحية النساء فهذه المرأة السيئة اشتهرت بسوء السمعة لعلاقتها [بقيصر] وسرڤيليا الأخرى اخته الثانية، كانت اسوء من الأولى سيرة وهي بعد امرأة [لوكوللوس] احد عظماء الرومان. وام ابنه وقد اضطر الى تطليقها فيما بعد. والانكى من هذا كله ان زوج [كاتو] نفسها لم تكن خالية من المطاعن والقالة السيئة. فبعد ان ولدت له [آتيليا] ولدين، اضطر الى طلاقها لسوء سلوكها، ثم تزوج [مارشيا Marcia] بنت [فيليپس] وكانت امرأة متينة الخلق حميدة السيرة. الاّ انها كانت سبباً ومادة لتعليقات وروايات عديدة، ولما كانت حياة [كاتو اشبه بفصل دراميّ. فهذا المشهد الذي نورده، ملئ بالغموض والمعاني الغريبة المحيرة.

والرواية هي [تراسيا Thrasea] الذي اسندها الى [موناتيوس] واعجبوا به اختص بنخبة اعلى مقاماً وابرز قدراً. ومن هؤلاء [كونيتوس هورتنسيوس Quintus Hortensius] وهو الرجل رفيع الخلق، جليل القدر، لا مطعن فيه. علق هذا الرجل بحبّ [كاتو] ولكنه لم يكتف منه بالصداقة والتآلف. بل كان يطمح الى ايجاد صلة قربى بين البيتين والأسرتين، فراح يعمل لاقناع [كاتو] بالزواج من ابنته [پورشيا] التي هي زوجة [بيپلوس] وام ابنيه! معتبراً اياها ارضاً مخصبةً لا مانع من تثمر لكاتو أيضاً وعلل اقتراحه قائلاً: مع أن العرض قد يبدو غريباً لعقول الرجال الاّ انه صحيح بحكم الطبيعة. فمن الخير والمصلحة العامة ان لا تبقى المرأة عقيمة رحمها. وكذلك لايجدر بها ان تزيد من أعباء رجل واحد، فتفقره بان تحمل له عدداً كبيراً من الاولاد. فضلاً عن ان الفضائل تنمو وتزدهر بارتباط نسب الأمر الراقية، وتنتشر بزيادة انسالها. وستتماسك الجمهورية ويصلب عودها بامثال هذه وابط. اما اذا ابى [بيبلوس] مفارقة زوجته مفارقة القطيعة فبامكان [كاتو] اعادتها اليه حالما تلد له. وبهذه الوسيلة يتم الاتحاد بين الأسرتين!

فاجابه [كاتو] انه في الحقيقة يودّ [هورتنسيوس] كثيراً ويتمنى من صميم قلبه أن تتم صلة القربى بين البيتين، لكنه يستغرب منه اقتراحه بتزويجه ابنته وهي الآن متزوجة من آخر. فنقل [هورتنسيوس] الموضوع الى ناحية أخرى وطلب منه ان يتنازل له عن زوجته [مارشيا] لأنها شابة ولود، وانها قد ولدت له كثيراً من الذرية، لم يقدم [هورتنسيوس] على الطلب لاعتقاده بان [كاتو] قليل الاهتمام [بمارشيا] اذ كانت في تلك الساعة حاملاً . وادرك [كاتو] اخلاص صديقه وكان مقتنعاً بان ليس هناك سوء قصد في الأمر. فلم يرفض رجاءه وانما اشترط موافقة والد [مارشيا] فأرسل يستدعي [فيليپوس] فجاء ليجد الموافقة قد تمت فلم يسعه الاّ الرضا. وتم زواج [هورتنسيوس] بحضور [كاتو] الذي ساعد في اتمامه. وقع

هذا في وقتٍ متأخرٍ. ولكني ما ذكرته هنا الاّ اكمالاً لسياق حديثي عن النساء.

ونفذ حكم الموت بـ[لنتلوس] وشركائه المتآمرين. لكن قيصر الذي وجد نفسه هدفاً للانتقاد وموضع الشك والاتهام في مجلس الشيوخ اضطر الى الالتجاء للشعب واخذ يثير احط العناصر واكثرها فساداً. وادرك [كاتو] عاقبة ذلك، فأقنع المجلس بكسب جماهير الفقراء والمعدمين ، عن طريق توزيع القمح عليهم دون مقابل. وهو ما كلّف الخزينة اثني عشر الفاً وخمسمائة تالنت. هذا العمل الانساني المتسم بطابع الرحمة. ابعد الخطر مؤقتاً الاّ ان [ميتيللوس] بعد مباشرته مهام [التريبيون] بدأ يعقد اجتماعات جماهيرية صاخبة، وهيّأ قراراً يقضي باستدعاء [پومپي] الاكبر الى ايطاليا فوراً على رأس كل قواته للمحافظة على المدينة من عواقب مؤامرة [كاتالين]. كان هذا ذريعة مقبولة في ظاهرها، الاّ ان النيّة التي كانت تكمن وراء ذلك هو وضع كلّ شيء في يد [پومپي] ومنحه السلطة المطلقة فالتام مجلس الشيوخ لمناقشة الأمر. الاّ ان [كاتو] لم يعمد الى مهاجمة [ميتيللوس] كعادته، وانمّا وضع نصائحه في الطف عبارة ممكنة. ثم انتقل الى الرجاء وشرع يثني على أسرة [ميتيللوس] ويرفع من قدرها لأنها كانت تنحاز دائماً الى جانب الاشراف، وكان تأثير هذا بميتيللوس خلافاً لما أمله [كاتو] فقد زاد بذاءة، وتحقيراً [لكاتو] معتقداً بانه خائف منه واطلق لوعيده العنان دون ضابط ورقيب وبوقاحة لا مثيل لها وهدد بأنه سيعمل ما يراه مناسباً رغم انف مجلس الشيوخ.

وهنا غير [كاتو] من لهجته وصوته وموقفه. والقى خطبة عنيفة حادة ختمها بقوله: ان [پومپي] لن يدخل المدينة مسلحاً. وانا في قيد الحياة.

ووجد المجلس ان الخطيبين يركبان متن الشطط وانهما فقدا السيطرة على حواسهما. فاقتراح [ميتيللوس] هو ثورة عمياء وهيجان سببه ذلك الاضطراب العام الذي آل بكلّ شيء الى الفوضى والخراب. ومزايا [كاتو] بدت لهم آنذاك، شيئاً اشبه بالجهاد الروحي في قضية شريفة عادلة.

وأقبل يوم اقتراع الشعب على القرار. وسبق [ميتيللوس] الى احتلال الفورم بالمسلحين والمصارعين والعبيد والاجانب، كل هؤلاء كانوا يأملون فصول تغيير سياسيّ لمصلحتهم، فأنتصروا الپومپي. ولم يكن عددهم بالقليل. وهم فضلاً عن ذلك كانوا يتمتعون بدعم قيصر [الپريتور] آنذاك. ومع أن علية القوم وعقلاءهم لم يكونوا أقل شعوراً بالذلّ من [كاتو] فقد بدا وكأنهم مستعدون للمعاناة معه أكثر منهم استعداداً لمعاونته. واستولى على اسرة [كاتو] خوف وقلق عظيمين على مصيره، ولم يتبلغ بعض اصدقائه بكسرة خبز أو بشربةٍ ماء طوال

تلك الليلة حيرةً وقلقاً. وشرعت زوجه واخواته يبكين ويندبنه اما هو قد ظلّ راسخ العزم، رابط الجأش ولم تزايله ثقته بنفسه. وشرع يعزّي ويسلّي ويشجع باحاديثه وكلماته ثم انسحب بعد العشاء في موعده الاعتيادي ونام نوماً عميقاً. ايقظه منه صباح اليوم التالي زميله الشيخ [مونيشيوس ترموس Municious Thermus] وما ان استوى على قدميه وفرك عينيه حتى انطلقا معاً الى الفوروم وليس معهما الأ قلة. الأ انهما التقيا بكثير من الناس الذين اوصوهما بالتزام جانب الحذر. ولما رأى [كاتو] معبد [كاستور وپوللوكس] مطوقاً بالجنو. ودرجاته محروسة بالمصارعين. وميتيللوس وقيصر على رأس الدرج متجاورين، التفت الى انصاره قائلاً:

- تأملوا هذا الجبان الطائش! لقد جرد لواء كاملاً من الجنود على رجل اعزل لا يحمل قطعة سلاح.

وتقدم مع [ترموس] فأفسح حرس المدخل السبيل لهما فقط ومنعوا الآخرين من المرور. الأ ان [كاتو] قبض على يد [موناتيوس] واستله من الجمهور وجره معه. ثم توجه الثلاثة رأساً الى [ميتيللوس] و[قيصر] وجلس بينهما ليمنعهما من مسارة احدهما الآخر. فاصابهما بالذهول. وتطلع الحزب المناصر [لكاتو] الى ملامحه معجبين بروحه العالية وبسالته فاقتربوا واخذوا ينادونه مشجعين وطفق يحمّس احدهما الآخر ويحثه على التكاتف والتعاضد، لا يفرطون بحريتهم ولا بالمدافع عنها.

وتناول الكاتب المرسوم لتلاوته الأ ان [كاتو] منعه. فأخذه منه [ميتيللوس] وهم بقراءته الا ان [كاتو] انتزعه من يده. ولما كان [ميتيللوس] قد حفظه من ظهر قلب فقد انشأ يتلوه استظهاراً فكمّ [ترموس] فمه براحة يده واسكته. وادرك [ميتيللوس] ان خصومهم مصرون على الوقوف في وجههم وان الشعب احجم ومال الى الكفّه الراجحة. فأرسل يستقدم من منزله بعض الرجال المسلحين فأقبلوا واندفعوا يطلقون صرخات مرعبه ناشرين الخوف في القلوب. فتفرق انصار [كاتو]، الذي بقي ساكتاً بينما أخذ انصار خصومه يرجمونه بالحجارة ويقذفونه بالعصي من فوق. حتى خفّ اليه [مورينا] (وهو القنصل الذي احاله كاتو للمحاكمة) وغطاه بردائه وصاح يأمر المعتدين بالكف عن رمي الحجارة. ومجمل القول انه اقنعه بالعودة وسحبه بالقوة الى هيكل [كاستور وپوللوكس]. ولما وجد [ميتيللوس] المكان خالياً. وان مناوئيه قد لاذوا بالفرار وتركوا الفورم. خيل له ان نصره اصبح سهلاً ووشيكاً فأمر الجنود بالانسحاب من مواقعهم وشرع في اجراءات التصديق على المرسوم حسب الاصول المتبعة. الأ أن الحزب المناويء ما لبث ان استفاق من الصدمة فلم شعثه وعاد شديد البأس يطلق افراده صيحات

شديدة، فتملك اتباع [ميتيللوس] الخوف، وظنوا ان خصومهم اتحدوا بجماعة من المسلحين ففروا وتركوا الساحة خاليةً ولما استتب الامر لهؤلاء عاد [كاتو] فرفع من المعنويات وانشأ يمدح موقف الشعب ويثني على قراره، حتى أخذت الاغلبية تنادي بتنحية [ميتيللوس] عن منصبه. واجتمع مجلس الشيوخ واصدر قراراً ثانياً بدعم [كاتو] ورفض مشروع [ميتللوس] معللا الرفض بانه قد يكون سبباً في اشارة فتنة تؤدي الى حرب أهلية في المدينة».

على ان [ميتيللوس] لم ييأس وظلّ سادراً في غلوائه. ووجد مشايعيه يحجمون خوفاً من [كاتو]، وكانوا يجدون فيه خصماً لايغلب. فترك المجلس الى الفوروم وجمع الناس وخطب فيهم خطبة ضد [كاتو]. وهتف بأعلى صوته ان أرغم على الفرار امام من طغيانه وجبروته ومن المؤآمرة التي حيكت ضدّ [پومپي] وانه لن يمر على المدينة طويل زمن حتى يدركها الندم لاستهانتها برجل عظيم مثله. وقال انه سيرحل الآن الى آسيا (معتزماً اخبار پومپي بكلّ ما لحق شخصه من اهانات وتحقير). الخ...

وعظم قدر [كاتو] كثيراً لأنه انقذ الحكم من تريبيونية [ميتيللوس] الخطرة. وتغلب بشخص هذا، الى حَدّ ما على [پومپي]. وزاد قدره ارتفاعاً عندما اعترض سبيل الاجراءات الرادعة التي قرر المجلس اتخاذها بحق [ميتيللوس] وعارض في قرار عزله من الوظيفة حتى جعلهم يعدولون عن رأيهم. وأكبر فيه العامة هذا العمل الدال على نبله وانسانيته، لأنه لم يطأ عدوّه بعد ان تمكن فيه. وقدر العقلاء فيه بعد النظر والدهاء السياسي بتحاشيه اغضاب [پومپي].

بعد ذلك بفترة عاد لوكوللوس من الحرب الآسيوية، بعد ان جرده [پومپي] من شرف انهائها وبذلك سلبه مجد الحرب كلها كما بدا واضحاً لكلّ منصف. وكاد [لوكوللوس] يخسر ايضاً موكب النصر، لأن [كايوس موميوس] أخذ يشهر به امام الشعب ويهددّ بسوقه الى القضاء، كل ذلك حباً بپومپي لا بغضة [بلوكوللوس]. لكن [كاتو] وهو اخ [سرڤيليا] زوج [لوكوللوس]، انبرى لـ[موميوس] واوقفه مقتنعاً بانه يظلم لوكوللوس، ويتهمه زوراً، فعرض نفسه لكثير من الشتائم والتعليقات البذيئة وكاد يطرد من منصبه بدعوى اساءته استخدام صلاحياته وتجاوزه حدودها، على انه استظهر بالأخير وارغم [موميوس] على سحب اتهامه، وترك ميدان المعركة. فأمن بذلك موكب النصر [للوكوللوس]. وبقي هذا لصيقاً بكاتو فقد كان يعدّ صداقته حاجزاً دفاعياً له من نفوذ [پومپي] وحارساً يقظاً.

كذلك عاد [پومپي] من الحرب يجرّ اذيال المجد، ويتمتع يعطف الشعب الذي ظهر جلياً في استقباله الرائع له، حتى خيل له أنه لن يرفض له طلباً. وبعث الى المجلس يرجو تأجيل الجلسة

المخصصة لانتخاب القنصل حتى يتسنى له الحضور ومعاونة [بيزو] المرشح. ومالت الأغلبية الى اجابة الطلب غير ان [كاتو] استعمل حقه في الاعتراض، لا لاعتقاده بأن في التأجيل خطورة، بل لأنه يريد يقطع السبيل بصورة آنية، على آمال [پومپي]. ويحبط خططه ويحول دون فرض سلطانه على المجلس. ولم يكن هذا بالهيّن على [پومپي] الذي ادرك ان أكثر مشاريعه ستلقى الفشل الذريع ان لم يضمن انحياز [كاتو] الى صفّه. فأرسل وراء موناتيوس صديقه الحميم.

كان لـ[كاتو] ابنتا أخٍ في سن الزواج، فعرض لموناتيوس ان يتزوج هو الكبرى منهما. وان يزوج ابنه بالصغرى (ذكر بعضهم انهما بنتا [كاتو وليس اخيه] فعرض موناتيوس الأمر على [كاتو] بمحضر من امرأته واخواته، فطرن فرحاً بمصاهرة هذا الشخص العظيم. إلاّ أن [كاتو] اتخذ قراره فوراً دون أن يحتاج الى كثير من التفكير والتردي واجاب بقوله:

- عد من حيث جئت يا موناتيوس، عد وقل لپومپي، أن [كاتو] لايمكن التغلّب عليه من جهة مخدع النساء. اني في الحقيقة ممتنّ جداً لهذا الشرف الذي اسبغه عليّ واني اعده بصداقة أمتن وابقى من اي علاقة قربى طالما استقامت اعماله وخلصت نيته. الاّ اني لن اقدم لمجد [پومپي] رهائن على حساب سلامة الوطن.

وسخطت النسوة لهذا الجواب. وبدأ في اعين اصدقائه غطريساً فظا. الاّ ان الايام ايدت صحة رأيه. حين اخذ پومپي يسعى للفوز بمنصب القنصل لأحد اصدقائه. وراح يشترى اصوات الناخبين، وأشتهر أمره. وعلم الخاص والعام بنبأ تلك الرشوة التي دفعها للناخبين في حدائق منزله. فتوجه الى النسوة وذكرهن بعرض [پومپي] وكيف ان سمعتهن كانت ستتلوث بهذه الأعمال المنافية للشرف لو صاهرنه، فاعترفن بخطأهن وباصابته. ولكن لو أخذنا القضية بمفردها وتتبعنا آثارها، لما وسعنا الاّ لوم [كاتو] على رفضه هذا الحلف الذي اصبح من نصيب قيصر، بتلك المصاهرة التي وحدت قوتيهما وقضت على الجمهورية بالزوال، وكادت تقضي ايضاً على الامبراطورية. ما كان هذا ليحدث مطلقاً لو سمح [كاتو] لنفسه بالتجاوز عن اخطاء پومپي الصغيرة. ولو لم يكن شديد التخوف من هفواته. لم يقف [كاتو] لحظة ليفكر كيف اضطر [پومپي] الى ان يمنح رجلاً آخر الفرصة لارتكاب اعظم الأخطاء!

أمور وقعت فيما بعد على كل حال، في ذلك كان قد نشب خلاف عظيم بين [پومپي] و[لوكوللوس] حول فرض تطبيق المراسيم والاوامر التي يصدرانها بخصوص الپونتس. ووقف [كاتو] الى جانب المظلوم وكان [لوكوللوس]. ووجد [پومپي] انه الاضعف في المجلس فالتجأ الى العامة، ولأجل حصوله على اصوات كافية من الناخبين اقترح سن قانون يقضي

بتـوزيع الأراضي على الجنود. فـعـارض [كـاتـو] ورفض القـانون، فـانحـاز [پومـپي] الى [كلوديوس] اعنف الخطباء الديماگوگيين في ذلك الوقت، كذلك خطب ودّ [قيـصر] فبادله الودّ. وكان [كاتو] السبب في هذا ايضاً. فقد عاد [قيصر] من اسپانيا. ورغب في ترشيح نفسه للقنصلية دون ان يكون ذلك حائلاً بينه وبين موكب نصره. لأن القانون يحتم على المرشح لمنصب القنصل ان يحضر محل الاقتراع. ويحتم على من يطلب لنفسه موكب نصر ان يبقى خارج الاسوار حتى يبت في طلبه. فعرض [قيصر] على المجلس ان يأذن لاصحابه بالنيابة عنه في الترشيح وان يشرفوا على عملية الانتخاب بغيابه وكان كثير من اعضاء المجلس يميلون الى تحقيق طلبه. لكن [كاتو] عارض في الطلب. ولما تبين ان الأكثرية ستحصل بالقبول اذا جرى التصويت. لجأ الى التأخير بوقوفه خطيباً يوماً كاملاً. فلم يجد [قيصر] مندوحة من التخلّي عن موكب نصره والدخول الى المدينة قبل موعد الاقتراع. واتصل [بپومپي] وعقد الحلف ثم تقدم مرشحاً لمنصب القنصل ففاز به. وتزوج [پومپي] ابنته [يوليا] فكمل الحلف ضد الجمهورية.

واقترح [قيصر] سن قانون يقضي بتوزيع الاراضي على الفقراء وحضر [پومپي] وساند الاقتراح. وانحاز [لوكوللوس] و[شيشرون] وانصارهما الى القنصل الآخر [بيبولوس] ليصبحوا كتلة معارضة للقانون المقترح. وكان [كاتو] في طليعة هذه الكتلة، فقد رأى ان حلف [پومپي - قيصر] ينطوي على أعظم الخطر. وان القانون المقترح وان كان سيعود بالنفع على الأهالي، الاّ أن مقترحيه لايريدون منه الاّ التقرب من الشعب وينتظرون ان يكافأوا عليه ببقته، وهذا ما يخشاه [كاتو]. فتمكن من حمل المجلس على رفض القانون وشايعه آخرون ممن لم يكونوا شيوخاً. وقد آلمهم أن يلجأ [قيصر] الى هذا الأسلوب غير الجدير [بالقنصل] في التودد الى الأهالي، وتملقهم بهذا الشكل المخلّ بمبادئ الشرف، مما لايقدم عليه الاّ [تريبيون] متهورٌ غير شاعر بالمسؤولية.

وجد [قيصر] واشياعه انهم عاجزون عن امرار القانون بالشكل الأصولي ولجأوا الى الارهاب والقوة. فألقوا محتويات وعاءٍ من القاذورات على [بيبولوس] وهو متوجه الى الفورم ثم هجموا على الحرس اللكتوري الذي يرافقه وكسروا عصيهم. وقذفوا بعدة رماح فأصيب بعض الناس بجراح. ولاذ معارضو القانون بالفرار من الفورم. واسرع الشيوخ بالخروج، وكان [كاتو] آخر الخارجين يمشي ببطء ويتلفت بين آونة وأخرى متوعداً بالويل والثبور.

وتمّ [القيصر] ما اراد، ولكنه لم يكتف وانما استحصل قراراً يحتم على كل شيخ ان يقسم يمين التأييد للقانون الجديد، والدفاع عنه ضد كل محاولة لتعديله او تغييره. وفرضت اشدّ

العقوبات على من يرفض اداء القسم، ولم يجد الاعضاء مناصاً وحلفوا اليمين متذكرين [ميتيللوس] في العهود الماضية، اذ رفض أن يحلف اليمين في قضية كهذه، فأرغم على ترك ايطاليا. وأبى [كاتو] ان يفعل ذلك. رغم بكاء زوجه واولاده وتوسلهم، والحاح اصدقائه وأسرهم، الى ان تمكن [شيشرون] من اقناعه بالنقاش والمنطق قال له: ربما كان موقفك غير صحيح بوصفك رجلاً عادياً، تعارض ما قرره الشعب بشبه اجماع. ثم ان الأمر نفذ ولات حين مناص. ومن الحماقة والجنون ان تعرض نفسك للخطر وامامك فرص عظيمة لخدمة بلادك. انه لمن الخطل ان يتذرع المرء بهذه الحجة ليترك الجمهورية في محنتها، الجمهورية التي فعل لأجلها الشيء الكثير. ان يدعها تقع فريسة في ايدي أولئك الذين عقدوا الخناصر على تدميرتها ليس الا. كأنما يسرك ان تنفذ نفسك من اخطار الدفاع عنها، وختم كلامه بقوله:

- ان [كاتو] ليس بحاجة الى روما، الا ان روما بحاجة الى [كاتو] وكلّ اصدقائه.

وفي مقدمتهم شيشرون يقصد نفسه، اذ انه كان وقتئذ هدف [كلوديوس] حين توعده بان بنقضّ عليه حالما يتقدم مرشحاً لمنصب [التريبيون]، قيل ان [كاتو] قنع ولان جانبه بهذه الحجج، وذهب الى المجلس كارهاً لحلف اليمين وكان آخر من أداها قبل [فاڤونيوس] احد اصدقائه الخلصّ.

وسكر قيصر بخمرة نجاحه، فأقترح قانوناً آخر لتقسيم كل أراضي [كامپانيا] تقريباً - على المواطنين الفقراء والمحتاجين، ولم يجرأ أحد على معارضته غير [كاتو] فصعد قيصر اليه وجرّه من مقعده وقاده الى السجن، فلم يحجم [كاتو] عن استعمال حقه في الكلام وواصل الكلام في معارضة القانون وهو في طريقه الى السجن وطفق ينصح المواطنين بعزل كل المشترعين الذين يقترحون مثله من القوانين وسار خلفه اعضاء المجلس ونخبة من ابرز المواطنين مكتئبين محزونين معبرين عن ألمهم وسخطهم بالسكوت ولم يفت قيصر مبلغ سخط الاهالي. الاّ ان العناد وبالمكابرة جعلاه يمضي في انفاذ ما قرره متوقعاً ان يفوز في هذا النزال باقل ضعف واستخذاء يظهره له [كاتو] أو باستئنافه القرار. فخاب فأله ولم يبد من سجينه أي شيء يدل على ضعف فادركه الخجل من فعلته، ومن رأي الشعب فيها. فأرسل يستقدم تريبيوناً وطلب منه التدخل في قضية [كاتو] واطلاق سراحه.

مهما يكن فان [قيصر] نال عطف الشعب وولائه بتلك القوانين والاجراءات. فعين حاكماً لأيلليريكوم وكل بلاد الغال وسلم قيادة جيش يتألف من أربع فرق لمدة خمس سنوات. وظلّ [كاتو] يصيح بهم قائلاً انهم ينصبون طاغيةً باصواتهم الانتخابية. ونصب [پوبليوس كلوديوس Publius Clodius] وهو پاتريشي تريبيوناً للشعب خلافاً للقانون لأنه وعدهم بعمل

كل ما يحسن في عيونهم شريطة ان يرسل [شيشرون] الى المنفى. وأختاروا لمنصب القنصلية كلاً من س[كالپورنيوس پيزو] حميّ [قيصر] و[آولوس غابينيوس Aulius Gabinius] أحدى دُمى [پومپي] كما ذكر لنا أولئك الذين يعرفون سيرته واخلاقه. واستتبق لها الأمور، واخضعا جانباً من المدينة بالخوف. وكسبوا ولاء الجزء الآخر بالهبات والعطايا على انهما بعثا في خوف من [كاتو] يتذكران خانقين التعب والمجهود اللذين بذلاه للتغلّب عليه. والعار والخجل اللذين لحقهما عندما اضطرا أخيراً الى استعمال الشدّة معه. وبئس [كلوديوس] من ابعاد [شيشرون] عن ايطاليا بوجود [كاتو] فيها. فعمد الى تدبير حيلةٍ. فأرسل يدعو [كاتو] لمقابلته فور مباشرته وظيفته. قال له انه يعتبر [كاتو] أكثر الرومان امانة ونزاهة وهو مستعد ليبرهن على صدق اعتقاده هذا...» فقد طلب كثيرون أرسالهم الى قبرص في المهمة المتعلقة [ببطليموس] وتشبثوا بالوساطات. واعتقد انك الوحيد لها».

فصاح [كاتو] مستنكراً. وقال انها خطة حيكت لابعاده، ان ما يعرض تكريماً بل اهانة.

فأجاب [كلوديوس] بكبرياء وفظاظة:

- ان لم تعتبرها فضلاً وتكريماً فستذهب وان لم يكن ذهابك بملء أختيارك.

وقصد [كلوديوس] الجمعية العامة من فوره واستحصل امراً بارسال [كاتو] الى قبرص في مهمة [بطليموس]. ولم يخصصوا له سفينة، ولا جندياً ولا خادماً. خلا اثنين من امناء السرّ، احدهما لصّ ووغد، والآخر من بطانة [كلوديوس]، وكأن مهمة قبرص لم تكن كافية فقد أمر أيضاً بتسوية مشاكل اللاجئين في بيزنطيه، اذ كان [كلوديوس] مصمماً على ابقائه بعيداً طالما هو يتولى وظيفة الپريتور.

ونصح [كاتو] شيشرون قبل رحيله الجبري، وذكره بأنه سيكون الهدف الثاني. وعليه ان لايبدي اي مقاومة والاّ سحقوه أو وقعت البلاد في اتون حرب اهلية وفوضى عامة. وعليه ان يتربص بالأيام لينقذ البلاد مرة أخرى.

وارسل قبله الى قبرص صديقه [كانيديوس Canidius] لعله يقنع بطليموس بالطاعة دون اللجوء الى القوة. فان فعل ذلك فلا حاجة له بالمال أو الجاه لأن الرومان سيقلدونه كهانة الآلهة [پافوس Paphis]. امّا هو فقد بقي في [رودوس] للاشراف على بعض التدابير. منظراً الجواب من قبرص.

في الوقت ذاته كان [بطليموس] ملك مصر قد أقلع من الاسكندرية متوجهاً الى روما لخلاف نشأ بينه وبين رعاياه ، أملاً في ان يقنع [پومپي] و[قيصر] بارسال قوات تعيده اليه

عرشه. ورغب وهو في طريقه الى روما بمقابلة [كاتو] وارسل من ينبئه بوصوله متوقعاً من [كاتو] أن يأتي اليه، وكان هذا قد تناول دواء مطهراً للاحشاء عندما ابلغه الرسول برسالة بطليموس. فأجاب انه يفضل لو قدم بطليموس اليه ان وجد ذلك ممكناً. وأقبل الملك فلم يخرج [كاتو] لاستقباله، ولم ينهض للترحيب به عند دخوله بل اقرأه التحية كما يحيّ الرجل العادي واشار عليه بالجلوس فعلا بطليموس شيء من الارتباك وعجب من السلوك الصارم المتعالي ان يصدر من شخص مظهره يدل على بساطته وتقشف متناهيين، ولم يكن أقل عجباً عندما بدأ يحدثه عما يشغل باله من امور. فقد راعته حكمته وحصافته وتبسطه في الحديث انتقد [كاتو] مشاريعه وقال انه سيخسر كثيراً من مقامه ومن راحته وسعادته. اي اذلال ومتاعب سيواجه، كم سيضطر الى الرشوة ارضاء لجشع الزعماء الذين سيقابلهم في روما. أولئك الذين لايشبعون ولو انقلبت ارض مصر كلها الى فضّة ثم نصحه بالعودة الى دياره ومصالحة رعاياه وعرض عليه ان يرافقه اليها ويعاونه في تسوية الخلاف، وبهذا النصائح الخالصة بدأ بطليموس وكأنه يستيقظ من نوبة جنون أو اغماءة وتبينت له الحقيقة. وادرك صواب ما قاله [كاتو] وقرر ان يأخذ بنصيحة. الاّ ان اصدقاءه عادوا فاقنعوه بمواصلة السفر الى روما والمضي في مشروعة. وهناك وجد نفسه مضطراً الى الانتظار بباب احد الحكام. فراح يلوم نفسه وحماقته في رفضه نصيحة رجل فاضل حكيم، بل نبؤة آله كما بدت له آنذاك.

من حسن حظ [كاتو] ان بطليموس الآخر في قبرص، آثر ان ينهي حياته بيده فشرب سُمّا، وقد ذكر له ان خلف اموالاً طائلة. فقرر [كاتو] ان يتجه اولاً الى [بيزنيطوم] فأرسل الى قبرص ابن اخته [بروتوس] لأن ثقته [بكانيديوس] لم تكن مطلقة وبعد ان صالح اللاجئين مع أهالي [بيزنطيوم] ترك المدينة هادئة مستقرة واقلع الى قبرص، وهناك وجد كنوزاً ملكيّة من صحاف، وموائد واحجار كريمة وارجوان، وكان يتحتم ان يجعل منها نقداً. فصمم ان يتولى الأمر بكلّ دقة وانتظام وان يبيع المخلفات بأعلى سعر ممكن. لذلك كان يحضر بنفسه صفقات البيع ويدقق حساباتها. ولم يكن يثق باسعار السوق. وكان يشك في الجميع على السواء من ضباط ومنادين ومشترين. وبأصدقائه أنفسهم وبمختصر القول كان يختلط بالمشترين ويحثهم على رفع الثمن. وبهذا الشكل باع أغلب الاشياء.

أساء [كاتو] بعدم ثقته هذه، الى معظم اصدقائه، ولاسيما [موناتيوس] اقربهم اليه وأخلصهم له. وكادت القطيعة التامة تتم بينهما. وهذا ما زوّد [قيصر] باقوى واشد نقدٍ لكاتو في الكتاب الذي صنفه عنه. على ان [موناتيوس] نفسه يحدثنا بأن اصل الخصام لم يكن بسبب قلة ثقة [كاتو] بل باهمال الأخير، وبغيرة [موناتيوس] نفسه من [كانيديوس]،

وقد ألفَّ موناتيوس أيضاً كتاباً حول [كاتو] وهو الذي كان مرجع [ثراسيا] الأساسي. يقول [موناتيوس]. انه لحق بكاتو في قبرص. فوجد ان المنزل الذي خصص له في نهاية الحقارة فقصد منزل [كاتو] فمنع من الدخول بحجة ان [كاتو] يعقد اجتماعاً خاصاً مع [كانيديوس]. فشكا الأمر الى [كاتو] بأسلوب مهذب رقيق للغاية. الاّ ان الجواب (حسب رواية ثيوفراستس) كان في غاية الخشونة والفظاظة. قال له:

- كثيراً ما يؤدي الحبّ الشديد الى الكره... ولأنك تجني حبّاً زائداً على الحد، فقد خيل لك أنك لاتحظى الاّ بالقليل من الالتفات والتكريم. فيثور بك الغضب فجأة. وأني ما استخدمت [كانيديوس] الاّ لاخلاصه وتفانيه. لقد كان معي منذ البدء ووجدته أهلاً للثقة.

كان هذا الحديث الخاص الذي جرى بينهما. الاّ ان [كاتو] افضى به لكانيديوس، ولما علم [موناتيوس] اضرب عن العشاء معه. ومرة ارسل [كاتو] يستدعيه لأخذ رأيه في شأن من الشؤون فرفض القدوم فهدده [كاتو] بوضع الحجز على امواله ومتاعه وهو اجراء يتخذ عادة بحق من يعصي الأوامر الرسمية. الاّ ان موناتيوس لم يعبأ وشدّ الرحال الى روما. وبقيت الجفوة قائمة بينهما لكن [مارشيا] عملت على الجمع بينهما عند عودة زوجها الى روما (وهي ما تزال حليلته بعد). وتمّ لها ذلك في دعوة عشاء أقامها رجل يدعى [باركا Barco]. وجاء [كاتو] بالأخير فوجد القوم مستلقين على ارائكهم فسأل عن مجلسه فأجاب [باركا] «أجلس حيث يطيب لك» فدار بانظاره فيما حوله. وقال انه سيجلس بالقرب من [موناتيوس] وتوجه الى ناحية. ولكنه لم يظهر له اي اشارة عطف أو مجاملة، طوال جلوسها على المائدة. وبمناسبة أخرى كتب [كاتو] بمسعى من مارشيا الى [موناتيوس] قائلاً انه يرغب في التحدث اليه. فجاء [موناتيوس] صباحاً. واستبقته [مارشيا] حتى انصراف الجماعة ثم دخل [كاتو] وطوق عنقه بذراعيه وقبله بكلّ مودة، وهكذا تم الصلح بينهما. لقد اسهبت في التفاصيل لأعتقادي ان اخلاق الرجال وامزجتهم أسهل انكشافاً في مثل هذه الأمور البسيطة منها في الاعمال العظيمة.

جمع [كاتو] ما يناهز سبعة آلاف تالنت من الفضة، وادركه القلق على مصيرها عند نقلها في رحلة بحرية بعيدة المسافة. فأمر بصنع عدد كبير من الصناديق الحديدية يتسع كل منها لتالنتين اثنين وخمسمائة درهم، وربط كل صندوق بحبل طويل وشدّ الى نهاية الحبل الأخرى قطعة من الفلين. حتى اذا ما عرفت السفينة امكن أكتشاف مواضع الصناديق في البحر حين تطفو الفلينه على السطح، ووصلت النقود بسلام الاّ القليل. وكان [كاتو] قد نظم سجلين بكلّ الحسابات المتعلقة بمهمته . ولكن لم يسلم أحد منهما، فقد عهد بالأول الى معتوقه

[فيلارگيروس Philargyrus] الذي ابحر من [چنكرى Cenchreae] وفقد هو والسفينة والحمولة. اما الثاني فقد كان معه حتى بلغوا [كورچيرا Corcyra] فنزلوا ونصبوا خيامهم في الساحة العامة. وشعر البحارة بالبرد القارس في الليل فأوقدوا نيراناً عظيمة، سرى بعضها الى الخيام فاحترقت وضاع فيها السجل. وقد آلمه ضياع السجل وازعجه كثيراً. لأنه اراد أن يكون نموذجاً يحتذيه الآخرون لا دليلاً على امانته ونزاهته ضد قالة السوء ولكم افواه الاعداء فقد جلب معه عدداً من وكلاء اعمال بطليموس ليشهدوا عند الحاجة على امانته.

وسرعان ما وصلت الانباء الى روما بقدومه عن طريق النهر فخرج كل الحكام ومجلس الشيوخ بكامل اعضائه مع حشود من الاهالي لاستقباله. وأمتلأت ضفتا التيبر بالناس. فكان دخوله لايقل ردعة عن موكب نصر، لما حفل به من تكريم ومظاهر رسمية. الاّ ان وجه الغرابة يكمن في سلوك [كاتو] هنا، فهو لم ينزل في سفينة عندما لاح له القناصل والپريتورون. ولم يتوقف لتحيتهم بل واصل التجذيف صاعدا الى صدر النهر مستقلاً بارجة ملكية ذات ستّ طبقات من المجاذيف. ولم يترجل حتى بلغت به الرصيف. وعد تصرفه هذا شاذا غير لائق. وكبرياء وصلافة ليست في محلهما. واصاب الناس الذهول وهم يتابعون قافلة الاموال الطويلة تقطع الشوارع. واجتمع مجلس الشيوخ وأعلنوا بعبارات التكريم منحه منصب بريتور شرف فوق العادة. ومنح امتياز ارتداء ثوب ذي حاشية ارجوانية في المناسبات العامة. فأعتذر [كاتو] عن قبول كل هذا التكريم وتوجه برجاء واحدٍ الى المجلس وهو اعطاء الحرية لـ[نيقياس] وكيل اموال [بطليموس] للاخلاص والتفاني اللذين ابداهما في هذه المهمة.

تولىّ [فيلپس] والد [مارشيا] مهام القنصلية في تلك السنة. وبهذه الصورة قبضت يد [كاتو] على زمام السلطة وكان احترام القنصل الآخر له أكثر أثراً من اعتزاز [فيليپوس] به بسبب القربى. وعاد [شيشرون] من المنفى الذي ارسله اليه [كلوديوس] وما لبث ان استعاد نفوذه ومكانته في قلوب الشعب. وقصد الكاپتول اثناء غياب [كلوديوس] وانتزع بالقوة الوثائق الخاصة بتعينيه تريبيونا، فرفع [كلوديوس] شكوى من شيشرون امام مجلس الشيوخ واجتمع المجلس ليسمع شيشرون يطعن بحجة انتخاب كلوديوس بقوله: انه لم يكن تريبيوناً شرعياً قط وكل ما قام به من أعمال فهو باطل لا قيمة قانونية له فأنبرى [كاتو] يقاطعه ثم نهض ليردَّ عليه بقوله:

- في الواقع اني لا ازكي ولا اقرّ ابداً الاجراءات التي قام بها [كلوديوس]: ولكن ما ارتوئ التحقيق من صحة الاجراءات التي تمت اثناء توليه المنصب فعليكم ايضاً ان تحققوا في صحة وشرعية اجراءاتي في قبرص، فما دام القائم بها لا يملك السلطة شرعية فان البعثة

ليست شرعية بالاحرى. وفي رأيي ان انتخاب [كلوديوس] تريبيونا تم بشكل قانوني لا غبار عليه. فهو پليبي بحكم القانون اذ تبنته اسرة پليبيه، وان كان پاتريشيا بالولادة، فان اساء استخدام وظيفته فليستدع ليقدم الحساب، ان سلطة الحكم لا تتأثر باخطاء الحاكم.

استاء [شيشرون] من اقوال [كاتو] وانقطعت حبال المودّة بينهما فترةً طويلة، الاّ انهما تصالحا فيما بعد.

تم الاتفاق بين [پومپي] و[كراسوس] من جهة وبين قيصر من جهة أخرى. فأجتاز هذا الألب. وفي مقابلةٍ تعاهداً على خطة يتّم بموجبها ترشيح اولهما وثانيهما لمنصب القنصلية للمرة الثانية، وعند فوزهما يصدران مرسوماً بتحديد فترة حكم قيصر خمس سنوات أُخر. وان يفتنما لأنفسهما حكم اكبر الاقاليم الرومانية مع الجيوش والاموال اللازمة. كانت مؤامرة صريحة للقضاء على نظام الحكومة المقرر وتوزيع الامبراطورية بعد تقطيع اوصالها. وكان عدد من الشخصيات الرفيعة قد قرر الترشيح للمنصب القنصلي لتلك السنة، الاّ انهم بادروا الى الانسحاب عندما تقدم منافساهما العظيمان. ولكن [لوشيوس دوميتيوس] زوج [پورشيا] اخت [كاتو] لم ينسحب وبقي بتحريض وتشجيع [كاتو] . فقد حثه على الصمود قائلاً ان الغرض ليس منصب القنصل وانما انقاذ حرية روما. في الوقت نفسه، اجتمعت كلمة العقلاء النيرين على الحيلولة دون عملية توحيد القوى بين پومپي بوكراسوس فلو تم ذلك لجاوزت في طغيانها كل حدٍ وباتت مصدر خطر عظيم على الدولة، فمن الضروري ان لا يفوز واحد منهما بالقنصلية ولهذا السبب بادروا الى مساندة (دوميتيوس) وتشجيعه لمواصلة العمل مؤكدين له ان كثيرين ممن يخشون مساندته بصورة علنية، سيقومون بدعمه سراً. وخاف اشياع [پومپي] ذلك فكمنوا [لديمتيوس] وهو ماض الى الساحة قبيل ان يؤذن الفجر وطرحوا حامل المشعل الذي كان يسير امامه - ارضاً ثم اجهزوا عليه وجرحوا عدداً آخر من الاتباع وهرب البقية. الاّ [كاتو] الذي امسك [بدميتيوس] وابقاه مع انه اصيب هو الآخر بجرح في ذراعه. وطفق يصيح بالآخرين ان يصمدوا ويدافعوا عن حرياتهم ضد الطغاة حتى النفس الأخير. وقال أن الطغاة اسفروا عن وجههم الحقيقي وكشفوا عن شكل العدالة التي سيمارسون بها سلطانهم السلطان الذين يسعون اليه بهذه الطرق العنيفة الشاذة. الاّ ان [دوميتيوس] لم يسعه مواجهة الخطر فأنسحب بالأخير الى بيته، وترك الميدان خالياً [لپومپي وكراسوس] فأعلن فوزهما في الانتخاب.

لم يتطرق اليأس الى [كاتو] رغم ذلك وعزم ان يتقدم لمنصب البريتور، فسيعنيه ذلك على

مقارعتهما الى حَدٍّ ما لا كرجل عادي بدون سلطة ينازل أكبر الحكام سلطة. وهذا أخشى ما كان يخشاه الحليفان اذ ادركا ان منصب [الپريتور] في يد [كاتو] معادل لمنصب القنصل في يد غيره. فدعيا المجلس في دورة استثنائية دون ان يبلغا الدعوة الى عدد كبير من الشيوخ، وحملاه على اصدار مرسوم يقضي على الپريتور المنتخب ان يباشر بوظيفة فوراً دون الانتظار لفترة التمحيص التي فرضها القانون. وهي فترة من الوقت يقضيها الپريتور الجديد منتظراً طعون الانتخاب التي قد تقدم ضده او توجيه تهمة شراء الاصوات اليه. وبهذا المرسوم انفسح المجال لهما لشراء اصوات الناخبين دون خوف من أن يتهم مرشحوهم. ثم دفعوا باصدقائهما للترشيح ضد [كاتو] وفرقا الاموال والرشاوى واخذ يراقبان الناخبين عند الادلاء باصواتهم. على ان سمعة [كاتو] ومكانته حققت له اوّل الفوز ونصرته على كل هذه الحيل والدسائس فقد ادرك الشعب بصورة عامة انه لمن المخجل أن تفرق الأموال وتدفع الاثمان لأجل هزيمة [كاتو] في حين يجب على الشعب ان يدفع المال له ليغريه بقبول المنصب. لذلك فقد اعطته القبيلة الأولى كل أصواتها. ووقع [پومپي] في مأزق، فأسرع ليطلق كذبة محبوكة الاطراف بصيحة:

- انها تُرعِد.

وارفض الاجتماع الانتخابي حالاً ذلك الرومان من الناحية الدينية يعتبرون الرعود فألاً سيئاً، فاذا حدث ذلك اوقفوا أعمالهم مهما كانت وارجاؤا البت فيها. وراح خصوم [كاتو] قبل الاجتماع الانتخابي الثاني ينشرون المزيد من الرشاوي يمنة ويسرة ويفسدون الضمائر ويخرجون بالقوة خيرة الناخبين من مكان الاقتراع. وبهذه الوسائل أمنوا لـ[ڤاتينيوس Vatun-ius] الفوز بالمنصب الپريتورى بدلاً من [كاتو]، وقيل ان الذين باعوا اصواتهم من ڤاتينيوس، اسرعوا بالخروج من الميدان كأن واحداً يطاردهم. وبقي آخرون يتبادلون فيما بينهم عبارات الدهشة والاستنكار. وواصل أحد من مفوضي الشعب الاجتماع الجماهيري. فوقف [كاتو] كأنما هبط عليه وحي من السماء، ومتنبئاً لهم بكل ما سيحل بالبلاء، من نوائب. وحثهم حتى التزام جانب الحذر من [پومپي وكراسوس] لأنهما سيكونان أصل البلاء. وانهما دبرا كل هذه الخطط ولذلك خشيا من فوز [كاتو]. وبعد ان انتهى من خطابه شيعه الى منزله عدد من الناس يزيد على عدد كل الناخبين الذين صوتوا للپريتورين الجدد.

واقترح [كايوس تريبونيوس Caius Trebonius] ذلك القانون الذي اسند حكم الاقاليم للقناصل. على ان يستأثر پومپي بأقليمي اسپانيا وافريقيا. وكراسوس بمصر وسوريا، وان يخولا مطلق الصلاحيات لشنّ الحرب وادامتها براً وبحراً حيثما وجدا ذلك مناسباً. ووضع المشروع قيد البحث ويئس المعارضون من رفضه ولم يبد من أحدٍ قول او فعل لمناهضته. وقبل

أن تؤخذ الأصوات صعد [كاتو] منبر الخطابة طالباً الكلام فسمح له بساعتين بعد كثير من الجدال. وانقضى الوقت المحدد وهو ينذر ويشرح وينبيئ بأكثر ما كان سيقع. ولم يسمح له بتحديد الوقت الاّ انه استمر يتكلم غير عابيء. فصعد اليه ضابط صف وانزله، الاّ انه لم يتوقف وعلا صوته ووجد كثيراً من الآذان تصغي اليه وتشاركه الرأي. فما كان من ضابط الصف الاّ وامسك به واخرجه من الفورم بالقوة. لكنه عاد بعد ان تركه واعتلى المنبر ثانية واستنجد بالشعب ودعاه للوقوف في صفه ولما تكرر ذلك منه مرات، احتدم [تريبونيوس] غيظاً وأمر بسوقه الى السجن الاّ ان الجمهور سار خلفه ويعضون الى خطبته التي ارتجلها لهم. وساور [تريبونيوس] الخوف وأمر باخلاء سبيله، وانقضى اليوم ولم يتوصل المجلس الى رأي حول القانون بسبب [كاتو]. ولكن التهديد والارهاب الذي استعمل ضد المواطنين في الايام التالية. فضلاً عن الهبات والوعود فرقت الجموع المشايعة [لكاتو] واحضر اكويليوس Aquilius التريبيون وثلة من الجند داخل بناية المجلس. وأخرج [كاتو] من المجلس وهو يصيح:

- انها تُرعد!

وجرح كثير من الناس وسقط بعض القتلى. أخيراً ابرموا القانون بالقوة، وبلغ السخط حداً بالناس حتى انهم قرروا تحطيم تماثيل [پومپي] وكادوا يفعلون لو لم يخف اليهم [كاتو] ويثنيهم عن عزمهم.

واقترح قانون آخر يتعلق بالاقاليم التي سيحكمها قيصر وبالفرق العسكرية التي ستخصص له. في هذه المرة لم يتوجه [كاتو] الى الشعب. وانما استنجد [بپومپي] نفسه قال له:

- الاّ تدري بأنك اليوم ترفع قيصراً على كتفيك. ولن يلبث أن يغدو ثقيلاً ينوء به ظهرك، وأخيراً انك لن تستطيع القاءه ولن تستطيع ابقاءه. وستطوح به وبنفسك معه كيان الجمهورية. وعندئذ ستتذكر نصيحة [كاتو]. انها ليست نافعة لك فحسب بل هي صحيحة نزيهة بحد ذاتها.

وكثيراً ما كان ينذر [پومپي] بامثال هذه النذُر فلا يعبأ بها ولا يرتدع ولا يشك في انقلاب [قيصر] عليه، معتمداً على قوته وحسن حظّه.

ونصب [كاتو] بريتوراً في العام التالي، ويبدو انه لم يرفع من شأن منصبه باستقامته ونزاهته الفريدتين، قدر ما انتقصه وحطّه بسلوكه الغريب. فكثيراً ما كان يأتي الى مجلس القضاء حافياً ويتصدر معقد القضاء دون ثياب داخلية تستر عورته. فيصدر الاحكام بهذه

الهيئة الزّرية في القضايا الكبرى، وضدّ شخصيات بارزة. قيل ايضاً انه كان يشرب الخمر بعد تناوله الفطور مباشرة وبعدها يقصد محل عمله، وهذا تلفيق وكذب صراح. كان الفساد في ذلك الحين قد استشرى بين الناس، وضربت الذمم بالرشاوى التي يدفعها ذور الحاجات لنيل المناصب. ومعظم الناس كان يرتزق على بيع صوته للمرشحين. وكان [كاتو] شديداً في استئصال جذور هذا الفساد من ارض الجمهورية. فأفلح مع مجلس الشيوخ في استصدار مرسوم يحتم على من انتخبوا لأشغال المناصب العامة ان يراجعوا المحكمة دون حاجة الى إتهام. لتقديم بيان موثق باليمين عن سلوكهم في اثناء الانتخاب. وكان هذا الاجراء شيئاً بغيضاً للمرشحين والمنتخبين. وهو كذلك خطب فادح بالنسبة الى بائعي الاصوات. فأجتمع جمهور كبير من الناس واعترضوا سبيل [كاتو] وهو متجه الى المحكمة وأخذ يشتمونه بأصوات عالية. ويقذفونه بالحجارة. وهرب كل من كان متسكعاً بالقرب من دار المحاكم. وارغم [كاتو] على أن يتدافع بالمناكب ويشق طريقه شقاً متحاشياً بشق النفس الحجارة المنثالة عليه، حتى تمكن من الوصول الى المنصة. فانتصب واقفاً بطلعته المكفهرة التي لايلوح فيها اثر للخوف والرهبة. فسيطر على الجمهور في الحال واسكت الصراخ. ثم توجه اليهم بكلمة تناسب المقام فارهفت الآذان الى ما يقول. وبذلك أخمد الفتنة بصورة تامة. ولما اثنى مجلس الشيوخ على موقفه وحسن تصرفه علق بقوله:

- لكني لا اثني عليكم لترككم بريتوركم في مأزق دون ان تسعفوه.

واحتار المرشحون في أمرهم. فكل واحدٍ منهم يخشى ان يدفع مالاً للناخبين بنفسه. ويخشى في عين الوقت ان يقدم منافسه على الدفع... اخيراً اتفق المرشحون على ان يضع كل واحد منهم ضماناً قدره مائة وخمسة وعشرون ألف درهم، ثم يدخلون جميعاً في المعركة الانتخابية بكل نزاهة واستقامة. فاذا وجدوا واحداً منهم يلجأ الى طريق ملتوية فان يفقد المبلغ الذي وضعه. وبعد ان تمّ الاتفاق اختاروا [كاتو] اميناً على المال. وحكماً في الموضوع. فلم يأخذ المال وانما أكتفى من كل واحدٍ بكفيل ضامن وفي يوم الاقتراع حضر [كاتو] ووقف الى جانب [التريبيون] المشرف على جمع الاصوات. وراح يرقب بكلّ دقة عملية الاقتراع لا تفوته منها شاردة او واردة. فكشف عن مخالفة واحدة. وأمر المخالف بتأدية المبلغ المقرر للباقين، ولهج الجميع بالثناء على [كاتو] ولكنهم ترفعوا عن اخذ مبلغ الضمان مكتفين بالفضيحة التي كانت عقاباً كافياً للمخالف. وزاد حاسدو [كاتو] حنقاً قدر ما زادت سمعته ارتفاعاً. وسخط كثيرون عليه، لأنه اصبح يمارس فعلاً كل سلطات مجلس الشيوخ ومجلس القضاء الأعلى فضلاً عن سلطة الحكام. ليس هناك فضيلة كفضيلة العدالة يجرّ تقديرها وتزكيتها، على

صاحبها كثيراً من البلايا والمكاره. انها تتطلب من قوة الارادة والسلطة على جماهير الشعب، مالا يتطلب غيرها من الفضائل. ذلك لأن الجمهور لايقدر الا ذوي البأس وذوي الحكمة. في حين يحبون الاستقامة والنزاهة في الرجال فيضعون فيهم ثقتهم وايمانهم المطلقين. انهم يخافون الجرأة، ولا يثقون بالدهاء والذكاء. اضعف الى هذا انهم ينظرون الى الطبع والمزاج لا الى الارادة الطيبة والنية الخالصة في ممارسة تلك الفضائل. ويعتبرون البسالة قوة طبيعية من قوى العقل ويعدون الحكمة حدّة ورهافة جسمانية. لذلك يكون بمقدر الانسان ان يغدو عادلاً لو ملك الارادة، ويستتبع ذلك ان الظلم يعتبر أحط ما في الأخلاق لأنه اصعبها اغتفاراً وتبريراً.

لهذا كان [كاتو] موضع كره العظماء من الرجال. لأنهم يرون أنفسهم مهانين ومنتقدين فضائله. [فيومبي] مثلاً كان ينظر الى ارتفاع مكانة [كاتو] بمثابة دمار لنفوذه. لذلك دأب على اطلاق ألسنة السوء عليه للنيل منه وتجريحه. ومن بين هؤلاء [كلوديوس] المفتن الذي انظم الآن الى [پومپي] وانشأ يذيع بأن [كاتو] خصّ نفسه بجزء كبير من اموال [قبرص]، وهو يكره [پومپي] لأنه رفض الاقتران بابنته. فكان جواب [كاتو]: انه لم يزود برجل او حصان او سفينة. ومع ذلك فقد جلب لهم من قبرص وحدها ما يزيد عن كل ما حصل عليه [پومپي] من اموال بعد الحروب العديدة والانتصارات على العالم الذي نهبه نهباً. وانه لم ينشد مصاهرة [پومپي] مطلقاً لا لكونه غير مستحق مصاهرته، بل لاختلافهما الشديد في آرائهما حول سياسة الجمهورية...» لأني تنازلت عن حكم الاقاليم التي وضعت تحت تصرفي عند اعتزالي پريتوريتي، اما [پومپي] فقد استبقى لنفسه عدة اقاليم ومنح عدداً منهما للآخرين. وقد ارسل الآن لقيصر قوات قوامها ستة آلاف جندي لتعزيز جيشه في بلاد الغال، لم يطلبها قيصر من الشعب، ولم يستحصل [پومپي] على موافقة الشعب بارسالها؛ رجال وخيل وسلاح على قدر ما يتصور المرء، باتت فهي هدايا يتبادلها الرجال العاديون، و[پومپي] القائد العام والجنرال، يهدي الجيوش والاقاليم لاصحابه في حين يقعد هنا ليشرف على المعارك الانتخابية ويثير الغوغاء اثناء عملية الاقتراع. اننا لنرى بكلّ وضوح كيف يعمل لـ(الفوضى)، للوصول الى (الملكية[1]).

كان هذا جوابه لپومپي.

من بين اصدقاء [كاتو] والمعجبين به شخص اسمه [فافونيوس] وهو لكاتو مثلما كان [ابوللودورس الفاليري] [لسقراط] في الأيام الخوالي. كانت كلمات [كاتو] تسلمه الى حالة

---

(١) يوجد هنا مقابلة بديعية «باللغة اللاتينية بين كلمتي [Anarchy = فوضى] وبين [Monarchy = الملكية المطلقة].

من الوجد والحبور وتفعل في عقله فعل الخمر القوية فتسكره الى حدّ النشوة. رشح نفسه لمنصب [آلايديل] وكاد يفشل الاّ ان [كاتو] الذي حضر لمعاونته لاحظ ان الاصوات المعطاة مكتوبة بخط يدٍ واحدة فكشف الغش والتلاعب. وارجع التريبيون المشرف. فقرر هذا الغاء الانتخاب. وفاز [فاڤونيوس] في الانتخاب التالي. ونشط [كاتو] لمعاونته في مهام وظيفته. واهتم عنه بالاشراف على التمثيليات التي كانت تعرض على المرسح ويمنح الممثلين تيجاناً من اغصان الزيتون البري لا من الذهب. كالتي تمنح للفائزين في الالعاب الاولمپية.

واعتاض عن هذا بالهدايا الثمينة التي تمنح عادة للمتفوقين، بالبنجر، والفجل والخس والكمثرى بالنسبة للاغريق. وجرار خزفية مملوءة بالخمر، وتيناً، ولحم خنزير وقثاء وحزماً من عصيّ خشبية صغيرة بالنسبة للرومان منهم. فسخر بعضهم من بُخل [كاتو] وأكبر آخرون هذا التبسط الخلقي الرقيق، من رجل عرف بالتزمت والتقشف ومجمل القول كان [فاڤونيوس] يختلط بالجمهو، ويجلس مع المشاهدين ويصفق ويهتف [لكاتو] مع المصفقين والهاتفين ويطلب منه ان يغرق المتفوقين بالعطايا والمكافآت ويحث الناس على تكريمهم. كان [فاڤونيوس] قد سلم كل سلطاته لكاتو. وفي الوقت نفسه كان زميله فضلوا ارتياد مرسح فاڤونيوس، وعرضه حيث كانوا يهتفون لها استحساباً وينسجمون فيها بكلّ جوارحهم ويستمتعون بجوّها المسلي. ويكبرون صاحبها الرجل البسيط الذي يختلط بهم كأي انسان عادي. أما [كاتو] المشرف على العرض المسرحي فقد كان يفعل ذلك عن عمدٍ استهجاناً واستنكاراً للنفقات الطائلة التي يتكبدها الآخرون. وليلقي عليهم درساً في ان التسلية يجب ان تطلب لنفسها ولشرح الصدور بصورة ادبية مهذبة لا بل للاستعداد العظيم والتظاهر بالفخفخة وصرف الاموال الطائلة والاهتمام المستمر بالأشياءوالتفاصيل التافهة.

وتقدم [سكيپيو] و[هپسيوس Hypsaeus] و[ميلو Milo] مرشحين للمنصب القنصلي، ولم يكفهم استخدام ذلك الاسلوب اللاشرعي الذي اصبح معترفاً به من بذل الرشاوى وافساد الضمائر وشراء الاصوات. بل لجأوا الى السلاح والقتل ايضاً. ودلّت الظواهر على تصميمهم التام للوصول بطيشهم وتهورهم الى حَدّ اثارة حرب أهلية. لذلك اقترح في المجلس تخويل [پومپي] صلاحية الاشراف على الانتخابات العامة. فعارض [كاتو] في مبدأ الأمر محتجاً بقوله «ليس على القوانين ان تطلب الحماية من [پومپي] بل على [پومپي] ان يطلب ذلك من القوانين». على ان الفوضى طالت. واصبح الفورم، فهو محاصر بثلاثة جيوش، وليس في الافق بادرة لإحتمال وضع حدٍ لتلك الفوضى. أخيراً وافق [كاتو] على ان يسلم المجلس جميع الصلاحيات [لپومپي] «فهذا خير من السقوط فريسة لآخر المصائب مادام استخدام التدبير

اللاقانوني الأخف ضرورياً كعلاج لدفع الأعظم، بل خير للمجلس ان يقيم نظاماً ملكياً، من ان يعاني انقلاباً عنيفاً سينتهي شاء ام ابى الى عين النتيجة.».

وبناء على ذلك تقدم [بيبولس] صديق [كاتو] باقتراح نصب [پومپي] قنصلاً أوحد. فإما سيعيد كيان الحكومة الشرعية، وإما سيخدمون بشخصه سيداً هو خير الأسياد!

نهض [كاتو] وايدّ الاقتراح لدهشة الجميع، وقال قوله المشهور:

«اي شكل من الحكومة هو خير من لا حكومة».

واضاف يقول: لايشك في ان [پومپي] سيحسن التصرف وسيرعى مصالح الجمهورية التي اوكلت اليه. وعلى اثر ذلك أعلن [پومپي] قنصلاً أوحد. واسرع يدعو [كاتو] لمقابلته في الضواحي وهناك حيّاه بحرارة وعانقه بشدة وشكره على الشرف الذي اسبغه عليه. وطلب منه ان لايبخل عليه بالنصيحة والمعونة فأجابه [كاتو]:

- ان ما تكلمت به في المناسبات الماضية لم يكن لبغضة احملها لك. وما فعلت لاجلك اليوم لم يكن لحبّ اكنّه لك، وكل ما فعلت انما كان لمصلحة الجمهورية. ولن اتقاعس عن اسداء النصح لك في السرّ ان طلبت ذلك. وسأبدي رأيي الصريح في العلن وان لم تطلب مني.

وفعل مثلما قال. فعندما سنّ [پومپي] قوانين صارمة تتضمن الحبس والغرامات الكبيرة لأولئك الذين افسدوا ذمم الشعب بالعطايا والهبات، نصحه [كاتو] بالعدول عن ذلك لأن ما فات فات، وعليه الاهتمام بما هوآت. اذ لو تعقب الجرائم الماضية فلن يقف عند حَدّ. وان فرض عقوبات جديدة فليس من العدالة ان يعاقب الناس بموجب قانون لم يكن له وجود حين ارتكبت تلك الجرائم ليقال انهم خالفوا احكامه. فلم يأخذ برأيه. وعندما أحيل الى المحاكمة اناس بارزون فيهم اقرباء [لپومپي] ظهر عليه التراخي وعدم الميل الى محاكمتهم. فلامه [كاتو] لوماً شديداً والحّ عليه بأن يستمر في الاجراءات القضائية بحقهم.

وسن [پومپي] قانوناً آخر ألغي بموجبه عادة كتابة خطب التزكية بحق المتهمين وارسالها الى المحكمة. مع هذا فقد ربح هو نفسه خطبه بتزكية [موناتيوس بلانكوس Munatius Plancus] وبعثها وقضية المتهم قيد المرافعة.وكان [كاتو] أحد القضاة فما كان منه الاّ ووضع كفيّه فوق اذنيه وابى سماعها عند تلاوتها فأعترض عليه [پلانكوس] وطلب تنحيته قبل صدور القراءة على أنه أدين مع ذلك.

في الواقع كان [كاتو] مصدر حيرة بل مشكلة عظيمة لكلّ المتهمين مهما كانت تهمهم. فهم من جهة يخشون ان يكونوا من بين القضاة الذين يحاكمونهم، ومن جهة أخرى لايجسرون

على طلب تنحيته فكثير منهم حكموا لأنهم رفضوه قاضياً لهم، وبذلك ظهروا بمظهر غير الواثق من براءتهم . وكانت سُبّة يلقيها العدوّ في وجه عدوه حين يدكره بأنه لم يقبل [بكاتو] قاضياً له.

في ذلك الوقت كان قيصر يتربص بقواته في بلاد الغال، رابضاً بسلاحه على اتم الأهبة ، مستخدماً في الوقت عينه هباته وعطاياه لتعزيز نفوذه في روما. فبدأت تحذيرات [كاتو] تنزع [پومپي] من احضان التهاون الآمن لتسلمه الى علائم أكيدة للخطر المائل. لكن [كاتو] رآه بطيئاً متردداً كارهاً اتخاذ اية تدابير وقائية ضد [قيصر] فقرر ترشيح نفسه للقنصلية، فمن طريقها يرغم [قيصر]: اما على القاء سلاحه واما على الكشف عن نواياه الحقيقية. وكان موقف منافسي [كاتو] جيداً. فأحدهما: [سولپيشيوس Sulpicius] كان مدينا لكاتو ولسمعته ونفوذ بالكثير. وقد اعتبرت منافسته نوعاً من نكران الجميل، وظاهرة غير مستحبة. لكن [كاتو] لم يجد فيها معرّة. وقال:

- انه ليس بالأمر المستغرب ان لايخلي رجل لآخر السبيل في ما يعدّه خير غاية وأنبلها.

وكان [كاتو] قد حمل المجلس على اصدار مرسوم يحتم على المتقدمين للمناصب والوظائف العامة ان يتولوا بث الدعوة الانتخابية بأنفسهم دون الاستعانة بالوسطاء. ومنعوا ان يصحبوا أحداً من هؤلاء في جولاتهم الانتخابية لتزكيتهم عند الناخبين وجمع الاصوات لهم، فكثر خصومه بين الناس، لأنه ضيع عليهم وسيلة ارتزاق هامّة من جهة وافقدهم فرصة التفضل بالمنّة على الاشخاص الذين يتوسطون للمرشحين، فيخسرون بذلك المال والمكانة. ثم ان [كاتو] لم يكن يتقن أساليب المعارك الانتخابية فهو أكثر حرصاً على وقار حياته، وهيبته من الوظيفة. واتبع وسائله الخاصة في الدعوة لنفسه وابى الاستعانة بأصدقائه لترويج قضية وكسب الجماهير الى صفه، وبذلك فشل.

في مثل هذه الاحوال لايكون الشعور بمرارة الفشل والاستكانة قاصراً على الفاشلين ولكنه يتعداهم الى الاصدقاء والأقربين فتجدهم اياماً وكأنهم في حدادٍ وكآبة. ولم يبد على [كاتو] اي تأثير بالنتيجة. فقد دهن جسمه بالزيت، ولعب الكرة في الساحة. وبعد تنازله فطوره قصد الفورم كعادته حافياً ومن دون وشاح وسار مع معارفه وتحدث اليهم. وتعرض للوم شيشرون الذي قال:

- عندما تتطلب الضرورة قنصلاً مثلك، لاتحاول ان تبذل أقل المجهود ولا تتنازل الى مجاملة الناس. لقد فعلت كذلك عندما اهملت ترشيح نفسك للپريتورية ثانية.

فأجاب [كاتو]: انه لم يخسر البريتورية اول الأمر بأصوات الناخبين بل بالعنف وافساد الضمائر وهما الوسيلتان اللتان لجأ اليهما خصومه اما في الانتخابات القنصلية فما كان يوجد مثل هذا التدخل المنافي للاخلاق. فأتضح له ان الشعب غير معجب بمسلكه، وليس يجمل بالرجل المستقيم ان يغير مسلكه لأجل الفوز بالقنصلية. والرجل العاقل لايحاول الحصول مرة ثانية على ما فشل في نيله، وهو معرض لعين التحامل.

كان [قيصر] في ذلك الوقت يقاتل عدداً كبيراً من الشعوب الهمجية المحاربة، ويلاقي الأمرين في اخضاعها. وقيل انه انقضّ على الجرمان في وقت الهدنة وأهلك منهم ثلاثمائة ألفٍ. فأقترح بعض اصدقاء [قيصر] بهذه المناسبة ان يعلن المجلس عيد شكرٍ للآلهة. فردّ [كاتو] يشجب الاقتراح. ويقول كان من الواجب أن يسلموا [قيصر] الى الجرمان لنقضه الهدنة. وبذلك يكفر عن ذنبه ويرد اللعنة عن روما واضاف يقول:

- مع هذا، علينا ان نتوجه بالشكر للآلهة لأنها انقذت الجمهورية ولم تصبّ جام سخطها على الجيش للحماقة التي ابداها قائده.

وعلى أثر ذلك وجه [قيصر] كتاباً الى مجلس الشيوخ قرئت علناً وكانت حافلة بالتهم والسب المقذع بكاتو، وبعد تلاوتها نهض دون ان يظهر عليه اي تأثر أو اهتمام. وراح بتكلم بصوت هادئ خالٍ من الحرارة، كأنه يتحدث في أمرٍ عادي. فجعل اتهامات قيصر له تبدو مجرد شتائم رخيصة وسباب عادي، او بدت شيئاً اشبه بمزاح ودعابة تافهة. ثم انتقل بعدها الى فضح نوايا قيصر السياسية وشرح ما بيته وما عمل في سبيله (كأنه أحد شركائه في التآمر لا خصمه المقيم) وختم كلامه بالقول:

- لاتتوهموا ان ابناء البريطون والغال هم مصدر الخطر. وعليكم ان تخشوا شرّ [قيصر] بالاحرى ان كنتم عقلاء.

هذه الخطبة ايقظت المجلس من سباتٍ وأثارته الى الحدّ الذي ندم معه اصدقاء [قيصر] على تلاوتهم كتابه. فقد زودوا [كاتو] بفرصته الثمينة لقول كثير مما يجب قوله، ولايضاح الحقائق الدافعة حول [قيصر]، ومع هذا لم يقرر المجلس شيئاً. وانما اتجه الميل الى ارسال خلفٍ له. وهنا طلب اشياع قيصر ان يجرد [پومپي] ايضاً عن حكم اقاليمه وان يسرح جيشه والاّ فلا سبيل لقيصر غير الاحتفاظ بالاثنين ايضاً. فصاح [كاتو] «ها ان ما تنبأت به يحقق الآن، لقد اصبح واضحاً لكم انه يستخدم قواته لارغامكم على اصدار القرار الذي يريده، انه حول جيوشه التي حصل عليها بالحيلة نحو الدولة.»

لم يكن [لكاتو] نفوذ كبير خارج المجلس. فقد هيء الشعب لتعظيم قيصر. وكان المجلس يخشى الشعب رغم قناعتهم بصحة رأي [كاتو].

وانقلب الوضع عندما وردت انباء احتلال قيصر مدينة [ارمينيوم] وزحفه نحو روما. فقد شخصت الانظار كلها الى [كاتو] حتى [پومپي] نفسه، وكذلك الجمهور، لأنه الرجل الوحيد الذي تكهن بما سيحدث، والاول الذي كشف عن نوايا قيصر الحقيقية. وعلق على هذا بقوله:

- لو صدقتموني، ولو أخذتم بنصحي لما آل الأمر بكم الى الخوف من رجل واحدٍ، ولا لوضع كل آمالكم في رجل واحد.

وأقرّ [پومپي] بأن [كاتو] نطق بكلام الانبياء. بينما تصرف هو تصرف الاصدقاء فجاوز به الحدود. ونصح [كاتو] المجلس بأن يضع كل السلطة في يد [پومپي]...

- لأن خير من يطفئ لهيب الشرور هم أولئك الذين يتمكنون من احداث اعظمها.

تبين [لپومپي] أنه لايملك القوات الكافية. وما يستطيع تعبئته ليس بالكفاءة والتدريب المطلوبين، فترك المدينة. وقرر [كاتو] اللحاق به في المنفى فبعث بابنه الاوسط الى [موناتيوس] وكان صديقه هذا في بلاد [بروتيوم Brutium] وقتذاك. وصحب ابنه الأكبر، فقد عاد فعقد ثانية على [مارشيا] التي اصبحت بعد وفاة هورتنسيوس أرملة غنية. فقد ترك لها بعلها كلّ ما يملك واتخذ [قيصر] هذه الحادثة فيما بعد، دليلاً على جشعه، وارتزاقه من وراء الزواج اذ قال:

- لو كان [كاتو] بحاجة الى حليلةٍ فلماذا طلقها؟ ولو لم يكن بحاجة فلماذا تزوجها ثانية، اللهم اذا كان قد اعطاها لهورتنسيوس بمثابة طعم، اعاره اياها وهي صغيرة، ليستردها فيما بعد وهي غنية.

ان الردّ على هذا يذكرنا بقول [يوريپيدس]:

عند الكلام عن الأسرار - فان أعظم الأسرار غموضاً هو بالتأكيد - الجبن في هرقل.

فالشبيه باسنادك الجبن الى هرقل، هو اسنادك الجشع الى كاتو، والسؤال الواجب هنا هو: هل أحسن [كاتو] عملاً بالزواج؟

في هذا أخذ وردّ، فما أن عقد على [مارشيا] حتى عهد اليها ببيته وبناته ولحق [بپومپي] وقيل انه لم يقص شعر رأسه، ولم يحلق لحيته، ولم يضع على رأسه أكليلاً منذ ذلك اليوم. وغدا كئيباً ساهماً كثير التفكير في النوائب التي حلت ببلاده. بقي كذلك حتى النهاية. دون

ان يفرح لنجاح يصيب حزبه أو لفشل يمنى به عدوه.

وأسند اليه حكم صقلية. فأقلع الى [سيراقوزه] وهناك علم ان [آسينيوس پوليو Asinius Pollio] قد وصل الى [مسينيا] مع قوات للعدوّ. فأرسل [كاتو] يسأله عن الغرض من قدومه. وطلب من [پوليو] بدوره ان يشرح له سبب هذه الاضطرابات العنيفة، فأبلغه ان [پومپي] جلا عن ايطاليا، وضرب مخيمه في [ديراكيوم]. فأنشأ [پوليو] يبدى عجبه من غرابه وغموض الاحكام الآلهية في احوال البشر وقال:

- كان [پومپي] ناجحاً ومظفراً على الدوام في اعماله التي لم تكن تنطوي على حكمة أو اخلاص للوطن. وها هو الآن مهتم بالحفاظ على كيان بلاده والدفاع حريتها، فاذا به سيء الحظّ على طول الخط.

وقال [كاتو] بخصوص [آسينيوس] أنه قادر على طرده من صقلية لو شاء، لكن لما كانت قواته ستعززّ بنجده كبيره، فهو لا يرى موجباً لاقحام الجزيرة في حرب. وان عليه ان يتوجه بنصحه للسيراقوزيين، بأن ينضموا الى الفريق الغالب وان يعملوا لأجل لسلامهم. ثم انه ترك الجزيرة متجهاً الى معسكر پومپي.

نصح [پومپي] بتأخير القتال، اذ كان لايفتأ يأمل في اصلاح الأمور، وكان يكره أن يشتبك الغريمان في قتال لأن الخاسر هو البلاد، وسيكون عاملاً من عوامل خرابها أيا كان المنتصر في المعركة. واقنع [پومپي] ومجلس الشورى باصدار مرسوم يمنع بموجبه نهب اي مدينة خاضعة للشعب الروماني. وقتل اي مواطن روماني الاّ في ساحة المعركة اثناء القتال. وبهذا كسب شرفاً كبيراً وتسبب في التحاق الكثير [بپومپي] الى آسيا لمساعدة القائمين على التجنيد وتهيئة السفن. وصحب اخته [سرڤيليا] وطفلها من [لوكوللوس]، فمنذ ترملها وهي تعيش في كنف أخياها. وقد حسن سلوكها وطابت سمعتها اذ وضعت نفسها في رعايته، وتبعته في كل تنقلاته وقاسمته شظف العيش الذي عرف به. على ان [قيصر] لم يكف عن التعريض به عن طريقها.

وبدا ان ضباط [پومپي] في آسيا ما كانوا في حاجة كبيرة الى [كاتو] فقفل راجعاً الاّ انه حقق وهو في طريقه انضمام أهالي [رودس] الى القضية. وترك أخته وطفلها هناك وانضم الى [پومپي] الذي تمكن من جمع قوات ضخمة في البرّ والبحر. وكشف عن نواياه الحقيقية بعملٍ لايعدله عمل آخر. كان قد اعتزم ان يسلم [كاتو] قيادة الاسطول الذي يتألف من خمسمائة بارجة قتال وعدد كبير جداً من السفن الخفيفة وسفن الاستطلاع والقوارب المكشوفة. الاّ انه

اعـاد النظر في قراره، أو لعل ذلك كان بتـأثير من اصدقـائه. فقد تبين لـه ان هدف [كاتو] الوحيد هو تحرير البلاد من سلطان كل غاضبٍ. فان هو عقد له اللواء على كل هذه القوات العظيمة، فسيعمد فور القضاء على [قيصر] الى حمل [پومپي] على القاء سلاحه وخضوعه لقوانين الجمهورية. ولذلك عدل عن رأيه وعين [بيبولوس] قائداً للاسطول مع انه كان قد نوه [لكاتو] بعزمه الأول. لم يكن لديه عن سبب او دليل يحمله على الافتراض بأن حماسة [كاتو] للقضية قد ضعفت باي شكلٍ من الاشكال. فقبيل خوض احدى المعارك في (ديراكيوم) خطب پومپي في جنوده على ما قيل - ثم طلب من ضباطه ان يحذوا حذوه، فتعاقبوا واصغى الرجال اليهم ببرود وصمتٍ حتى تقدم [كاتو] بالأخير. وبلغةٍ فلسفية تناسب المقام تكلم عن الحرية والرجولة والموت والذكر الحسن. القى خطابه بشكل عاطفي طبيعي قوي لاتعمل فيه وختمه طالباً العون من الآلهة موجها اليها خطابه كأنها موجودة معهم، لتنظر نحوهم وترعاهم وهم يقاتلون في سبيل بلادهم. فأطلق الجيش كله صيحة راعدة وتملكتهم الحماسة وهاجت انفسهم فقادهم ضباطهم يحدوهم الأمل والثقة لمواجهة الخطر. وهزم جيش [قيصر] ولاذ بالفرار. الاّ ان حظّ [كاتو] الكريم استخذى لحذر پومپي وتذبذبه فجعل نصره ناقصاً. على اننا اوردنا ذلك في سيرة [پومپي].

وفي الوقت الذي استبد الفرح بالجميع وبالغوا في تقدير نجاحهم كان [كاتو] وحده يندب حظّ بلاده. ويلعن ذلك الطموح القتال الذي دفع بهذا العدد الكبير من الرومان الى قتل بعضهم بعضاً.

وتعقب [پومپي] قيصراً الى تساليا. تاركاً في [ديراكيوم] مقداراً من الذخيرة والمال والمؤونة وكثيراً من خدم بيته واقربائه ووضع الجميع بعهدة [كاتو] وسلمه قيادة خمس عشرة كتيبة فقط. كانت ثقته به كبيرة. لكنه يخشاه، فهو يدري تماماً ان [كاتو] هو آخر من يتركه ان غُلب. اما اذا انتصر فلن يدعه يستخدم نصره على هواه. وبقي مع [كاتو] في [ديراكيوم] كثرة من اشراف روما ووجهائها، وعندما تسربت ابناء هزيمة [فرساليا] قرر كاتو ان يعيد الموجودين معه في [دراكيوم] الى ايطاليا في حالة موت پومپي ثم يبتعد هو عن طغيان [قيصر] الى ابعد مسافة ممكنه ويعيش في المنفى. اما اذا نجا فانه سيعمل على تجميع الجيش له. وبهذا القرار رحل الى [كورچيرا] حيث الاسطول رأسٍ واراد هناك ان ينزل [لشيشرون) عن القيادة بوصفه قنصلاً، وهو بريتور، فرفض شيشرون وأعلن اعتزامه العودة الى ايطاليا فأحتد عليه ابن [پومپي] وهم وهو في سورة من الغضب بمعاقبة كل من يزمع العودة. وبدأ بشيشرون فألقى القبض عليه. الاّ ان [كاتو] انفرد به وثناه عن عزمه وبهذا انقذ حياة

شيشرون فعلاً وانقذ آخرين من التنكيل وسوء المعاملة ورجحّ [كاتو] ان [پومپي] الأكبر هرب الى مصر افريقيا. فأصعد كل الرجال ظهر السفن واقلع يريد اللحاق به . وقبل ذلك خيرّ أولئك الذين فقدوا حماستهم في الاستمرار بالقتال، وصرفهم. وبنزولهم ساحل افريقيا التقوا بـ[سكستوس] ابن [پومپي] الاوسط فانباءهم بمقتل ابيه في مصر. فاستبد بهم الحزن، وقالوا انهم لن يتبعوا بعد [پومپي] قائداً غير [كاتو]. فملكته العاطفة ازاء هذه الشهادة المخلصة التي قدمها جمهور من الشرفاء، ولم يسعه تركهم في بلاد بعيدة غريبة يجابهون المصاعب، الا اذا قبل العار على نفسه. وهكذا تولى القيادة وسار الى مدينة [كيرينه Cyrene] فأستقبله سكانها دون تردد مع انهم أغلقوا ابوابها بوجه [لابينيوس] قبل مدة قليل. وهناك علم ان [سكيپيو] حميّ [پومپي] قد اتفق مع الملك [جوبا Juba] وان [آتيوس ڤاروس At-tius Varus] الذي نصبه [پومپي] حاكماً لأفريقيا، قد التحق بهما مع قواته . فقرر [كاتو] ان يسير اليهم براً إذ كان الوقت شتاء. وجمع عدداً من الحمير لحمل الماء. وكدس مقادير كبيرة من الزاد والمؤون، وعدداً من العربات. وأخذ معه ايضاً عدداً من أولئك الذين يطلق عليهم اسم [پسيللي Psylli] وهم يبرئون الملدوغ بسمّ الأفعى عن طريق مصّ السمّ بافواههم كما امتازوا أيضاً بعملية سحر يستطيعون بها تنويم الافاعي وشلّ حركتها .

وساروا سبعة ايام متواصلة و[كاتو] كالعهد به دوماً يسير على قدميه متقدماً جنوده ولا يستعين بعربة او حصان. منذ معركة فرساليا وهو يتعمد الجلوس الى المائدة ولايستلقي. وهو مظهر آخر من مظاهر حداده، اذ لم يعد يستلقي الاّ في وقت النوم.

ومَرّ الشتاء عليهم في افريقيا وسحب [كاتو] جيشه الذي كان يناهز العشرة آلاف. وساءت احوال [سكيپيو] و[مكروس] للغاية نتيجة لخلافاتها وشجارهما وخنوعهما وتزلفهما للملك [جوبا] الذي لا تطاق صلافته ولايحتمل زهوه بقوته وغناه. ففي اول مرة اجتمع به [كاتو] للمداولة، أمر بوضع كرسيه الخاص في الوسط بينه وبين سكيپيو. ولم يفت [كاتو] ذلك فنقل كرسيه الى جهة [سكيپيو] ومنحه شرف الجلوس في الوسط مع انهما خصمان، حيث سبق له ونشر عنه بعض الفضائح كتابةً. هناك أناس يعدون أمثال هذه المبادرة من التوافه، فينتقدون [كاتو] لأنه حريص عليها. فمرة كان يتمشى في صقلية مع [فيلوستراتوس Philostratus]. فأفسح له ليحتل المكان الأوسط اظهاراً لمبلغ احترامه الفلاسفة، ولاشك في انه حطم كبرياء [جوبا] الذي كان يعامل [سكيپيو] و[ڤاروس] معاملة زوج من حكام الاقاليم عنده، ونجح على اثر ذلك في احلال الوئام بينهما. وأخلى سكيپيو وڤاروس الميدان له ليترأس قيادة الجيش العامة بعد أن تحققوا من رغبة الجنود. لكنه أبى قائلاً انه لايريد الخروج عن القوانين

التي يدافع عن حرمتها. فهو حائز درجة البريتور ولذلك لاحق له في القيادة بوجود البروقنصل (كان سكيبيو قد أختير بروقنصلاً) أضف الى هذا ان الناس يتيمنون بوجود سكيبيو على رأس الجيش في افريقيا، فالأسم وحده يبث في نفس الجنود نسائم الأمل ويغريهم بالنجاح.

فأضطلع [سكيبيو] بالقيادة، وبتحريض من [جوبا] قررّ فوراً وضع السيف في رقاب أهالي [اوتيكا Vtica] جميعاً. وان يدك المدينة حتى يسويها بالقاع لأنها- حسبما زعما - قد انحازت الى [قيصر]. فلم يوافق [كاتو] وراح يستصرخ الآلهة، ويستنكر ويحتجّ امام مجلس الحرب. وبصعوبة عظيمة انقذ أهالي المدينة المساكين من المصير القاسي الذي كان ينتظرهم، وانيط به حكم المدينة باقتراح سكيبيو وطلب الأهالي، خوفاً من وقوعها في يد [قيصر] لأنها كانت موقفاً عظيم المناعة ذات فائدة كبيرة لكلّ من الخصمين المتحاربين. فزادها [كاتو] مناعة بتحكيمها واختزان المؤون فيها. فقد جلب كميات كبيرة من القمح. واصلح الأسوار، وبنى الابراج وحفر خنادق عميقة وزرع حقولاً من الموانع والأسيجة حولها. ووضع شبان المدينة في هذه الاستحكامات بعد تجريدهم من السلاح وابقى الأهالي فيها ويرحلهم ووفرّ الأمن لهم وحرص أن لايقع اعتداء او اهانة عليهم من الرومان. وراح يبعث فيها بكميات من السلاح والمال والمؤونة الى معسكر الجيش. ومجمل القول انه جعلها قاعدة تموينه الرئيسة.

ونصح [كاتو] و[سكيبيو]، كما نصح [پومپي] من قبله بأن لايتعجل المعركة قطّ وبأي شكل كان، مع رجل حلب من القتال اشطره وعجم عوده. واشار عليه ان يستخدم خطة التأخير، لأن الزمن سيخضد بالتدريج من شوكة الأزمة وعنفها والعجالة هي القوة التي يعتمدها الغاضب. الا ان [سكيپيو] أهمل النصيحة عجباً واستكباراً وكتب له رسالة يصمه فيها بالجبن. ويقول له: حسبه ان يقعد آمناً مطمئناً خلف الاسوار ولايمنع غيره من استخدام اصالة تفكيره بجراءة لاهتبال الفرصة المؤاتية. فرد [كاتو] عليه بقوله: أنه سيقلع الى ايطاليا بالمشاة والخيالة التي انزلها في افريقيا، وهناك سيعمل على مشاغلة [قيصر] لابعاده عنهم. فسخر [سكيپيو] بهذا الاقتراح كذلك. فأسف [كاتو] على نزوله [لسكيپيو] عن القيادة، مدركاً انه لن يدير الحرب بتعقل وحكمة، وان هو نجح خلافاً لكل ما تدل عليه الظواهر، فأنه سيسيئ استخدام هذا النجاح في الوطن، بقدر ما اساء القيادة هنا، لقد اقتنع [كاتو] وأعلم اعوانه بقناعته هذه. قال لهم ان أمله بهؤلاء القادة كاد يتلاشى. ان لديهم الشيء الكثير من الجسارة ولكنهم يفتقرون الى الأقل من الحصافة. مع هذا فان تحقق ما ليس في الحسبان، وهزم

[قيصر] فهو شخصياً لن يعود الى روما بل سيبتعد من قسوة [سكيپيو] وبربريته التي ظهرت بتوعده الكثيرين باسوء المصير.

حصل ما توقعه [كاتو] بأسرع ما كان ينتظر. ففي ساعة متأخرة من الليل وصله رسول من المعسكر بعد قطعه مسافة ثلاثة ايّام لينبئه بنشوب معركة عظيمة قرب ثايسوس وضياع كلّ شيء. واحتلال قيصر المعسكرات وهروب [سكيپيو] و[جوبا] مع فئات قليلة وتشتيت الجيش. وصلت هذه الانباء ليلاً، والبلاد في حالة حرب، فاقلقت أهالي المدينة واستبد بهم الرعب حتى كادوا يفقدون صوابهم. وصعبت السيطرة عليهم وارادوا الخروج. الاّ ان [كاتو] برز اليهم في هذه الوقت العصيب. وواجههم بكلمات تهدئة مشجعة حتى قبض على ناصية الحال وسيطر على الموقف واسكن روعهم وبدو خوفهم قال لهم: من المحتمل جداً ان الأمور لم تسأ الى الحد الذي يتصورون وربما بالغت الانباء في وصف الحالة وساد الهدوء بصورة مؤقتة. وفي صباح اليوم التالي استدعى الثلاثمائة الذين جعلهم مجلس شورى له، وهم مواطنون رومانيون سكنوا افريقيا لممارسة الاعمال التجارية والصرافة. وكان ثم معه عدد من اعضاء مجلس الشيوخ واولادهم. وعقد الاجتماع في هيكل [چوپتر]. وفيما هم يكتملون، كان [كاتو] يتمشى بهدوء تام مستغرقاً بمطالعة كتاب كأن لم يحصل شيء جديد وكان الكتاب سجلاً بحساب التجهيزات التي اعداها للحرب من أسلحة ودروع وقمح وذخيرة وجنود.

عندما كمل عقدهم توجه الى الثلاثمائة أولاً، فأشاد بشجاعتهم واخلاصهم واثنى على خدماتهم الجليلة التي قدموها لوطنهم من اشخاصهم واموالهم ونصائحهم. ورجاهم أن لايتفرقوا مهما كانت الظروف، وان لايتوهموا بأن الفرد يسلم بتركه رفاقه، وانما العكس هو الصحيح، ان ظلوا متعاضدين متكاتفين فلن يدعوا لقيصر سبباً للازدراء بهم لو وقفوا ضده، كما سيكون أكثر استعداداً للعفو عنهم أن أعلنوا ولاءهم له. فهو لذلك ينصحهم بالتشاور فيما بينهم، وسيحترم اي قرار يتخذونه. فإن فضلوا الاستكانة لحكم الاقدار فسيعزو قرارهم وانقلابهم عليه الى حكم الضرورة. واذا قرروا الثبات معه في وجه الخطر دفاعاً عن الحرية فلن يكتفي بمدح شجاعتهم بل سيكون معجباً بها وقائداً ورفيقاً حتى يحققوا أقصى ما يمكن من السعادة لبلادهم التي هي ليست اوتيكا ولا [ادرُمنتوم Adrumentum] وانما روما. فبعظمتها المأثورة، كثيراً ما خرجت سالمةً من شر النكبات والخطوب. هذا فضلاً عن تمتعهم بكثير من اسباب السلامة. وفي مقدمتها انهم يحاربون شخصاً ترغمه مشاغله على الانتقال من موضع الى آخر. فقد رفعت اسپانيا علم الثورة بقيادة [پومپي] الأصغر. وروما نفسها مثل الحصان الجموح تأبى ان تسرج، انها والحالة هذه على أهبة الانتفاضة، حالما يطرأ على

الوضع اي تغيير. وأما عنهم، فليس باللائق بهم أن ينكصوا على أعقابهم في مواجهة الخطر. وعليهم ان يتخذوا من خصمهم عبرةً ومثالاً فهو يعرض للخطر لتحقيق شر النوايا وابعدها عن الحق ومع هذا فلاأمل له بنهاية سعيدة كما هم يأملون. فبصرف النظر عن تقلبات الحرب ومفاجآتها، عليهم أن يطمئنوا من النتيجة فوزهم بأسعد حياة ان هم نجحوا واستظهروا، وعليهم ان يدركوا بأنهم سيموتون أشرف ميتة ان هم اخفقوا. ومهما يكن من أمر، فعلهم ان يتبادلوا وجهات النظر فيما بينهم ويصلوا الى قرار، وسيشاركهم في الدعوة الى الآلهة لتبارك قرارهم الحاضر، تعويضاً عن شجاعتهم الماضية وخلوص نياتهم.

بثت اقوال [كاتو] في نفوس الكثير فيهم روح الاقدام وحركت مشاعرهم، وهزت اريحيتهم، حتى انهم نسوا الأخطار المحدقة بهم ورجوا منه أن يكون قائدهم الأوحد الذي يتحدى الاقدار ولايعرف للهزيمة معنى، وعرضوا انفسهم وسلاحهم واموالهم ليفعل بها ما يشاء. وقالوا انهم يفضلون ان يلاقوا حتوفهم باتباعهم نصحه، على أن تسلم لهم ارواحهم بغدرهم بشخص يتحلّى بمثل هذا الخلق العظيم. واقترح أحد الحاضرين اصدار قرار بتحرير العبيد. فلم يقبل [كاتو] لأن ذلك لايستقيم مع روح العدالة أو حكم القانون. امّا اذا اقدم المالك بملء اختياره على ذلك فانه سيرحّب بضم كل لائق للخدمة من العبيد المحررين الى قواته. ووعد كثيرون بتنفيذ ذلك فدون الاسماء في السجل. وفي تلك الساعة وصلته رسائل من [جوبا] و[سكيپيو]. كان [جوبا] قد اعتصم بالجبال مع بعض رجاله منتظراً ما يقرره [كاتو] وهو ينوى انتظاره هناك اذا فضل مغادرة [اوتيكا]. أو ان يسير اليه لنجدته اذا ما حوصرت المدينة. وكان [سكيپيو] قد أصعد ما لديه من قوات الى السفن في موضع لايبعد كثيراً عن [اوتيكا] منتظراً الجواب من [كاتو] حول بعض المسائل. وارتاىٔ [كاتو] ان يؤخرّ الرسل والردود الى أن يتخذ الثلاثمائة قراراً. اما الشيوخ الذين كانوا معه فقد اظهروا نخوة وشهامة عظيمتين، واعتقوا عبيدهم في الحال وسلّحوهم ولكن الحماسة التي بثها [كاتو] في نفوس الثلاثمائة لم تلبث طويلاً وأخذت تتهافت بعد ان تركهم. ولا غرابة، فهؤلاء رجال تجارة ومال، ومعظم ثرواتهم في عبيدهم. وهناك اشياء ومواد تتقبل الحرارة بسرعة وتفقدها بسرعة عندما ترفع النار عنها، هكذا التهبت نفوس هؤلاء وارتفعت حرارة دمائهم بوجود [كاتو]، لكن ما ان أخذوا يقلبون وجوه الرأي فيما بينهم بغيابه حتى تغلب خوفهم من قيصر، على احترامهم [لكاتو] الفاضل وراحوا يتساءلون قائلين:

- من تكون نحن؟ ومن هو ذلك الذي نأبى الخضوع له؟ الا يمارس [قيصر] الآن كل سلطان روما ونفوذها؟ من منا سكيپيو، او كاتو او پومپي؟ في هذه الساحة عندما يفسح الناس

للخوف سبيلاً للتسلل الى كراماتهم وشرفهم، اينبغي لنا ان نقاتل في سبيل حرية روما. فنعلن ونحن في [اوتيكا] الحرب على [قيصر] ذلك الذين لم يستطع [كاتو] و[پومپي الأكبر] ان ينالا منه فتيلاً فهربا من ايطاليا؟ انحرر العبيد، انطلقهم ضد [قيصر] وهو المتحكم في حرياتنا؟ كلا، ولنعرف أنفسنا جيداً نحن المساكين، ما علينا الاّ ان نوالي المنتصر ونرسل وفداً يطلب لنا الرحمة والغفران منه.

كان هذا رأي أكثرهم اعتدالاً الاّ ان الأغلبية ارتأت القاء القبض على الشيوخ والاحتفاظ بهم لقيصر تهدئة لغضبه. وكان [كاتو] يتوقع انقلابهم عليه لكنه لم يبدُ مهتماً. وكتب لجوبا وسكيپيو، يشير عليهم بان يظلوا بعيدين عن [اوتيكا] لأنه لايثق بالثلاثمائة.

واتجهت نحو اوتيكا قوة كبيرة من الخيالة كانت قد نجت من المعركة الأخيرة. وأرسلت قبل وصولها بثلاثة رسل الى [كاتو] يحمل كل واحد منهم رسالة مختلفة عن رسالة صاحبه. كانت فئة من هذه القوة ترى ان تلتحق بجوبا، وفئة تريد الانضمام الى [كاتو] وفئة تخشى دخول [اوتيكا] بعدما اصغى [كاتو] الى الرسل. امر [ماركوس ربيريوس Marcus Rubri-us] بالذهاب الى الثلاثمائة لاستطلاع أمرهم وتدوين اسماء الذين أختاروا تحرير عبيدهم - سراً دون علمٍ منهم. ثم أخذ يرجوهم بالاّ يتركوا هذا العدد الكبير من الشيوخ الرومان هنا. وان لايختاروا [جوبا] قائداً، قبل [كاتو] بل ان يفكروا بالسلامة الجماعية وان يدخلوا المدينة المنيعة الكثيرة المؤن. فالقمح فيها يكفيهم عدة سنين، كذلك توسل الشيوخ بهم للبقاء. وعاد الضباط الى جنودهم للمشاورة. وجلس [كاتو] والشيوخ على قدمات الأسوار ينتظرون القرار. وفي عين الوقت أقبل [روبيريوس] مسرعاً وعليه علائم الاضطراب العظيم. وقال أن الثلاثمائة قد اشغلوا نار الفتنة في المدينة وهم يحرضون الأهالي على الثورة واحداث الشغب، فخيم اليأس على الحاضرين وأخذوا يبكون حالهم. وحاول [كاتو] التسرية عنهم. وبعث الى الثلاثمائة يطلب منهم ان يتذرعوا بالصبر، وعاد الضباط اليه بطلبات غير معقولة قالوا انهم لايرغبون في الخدمة تحت أمرة [جوبا] للأجر الذي يدفعه لهم. وانهم لايرهبون قيصر اذا ما التحقوا [بكاتو] لكنهم يخشون ان يحصروا داخل المدينة بين الاوتيكيين وهم مطبوعون على الخيانة والغدر، ومن دم قرطاجنيّ. هم الآن هادئون مسالمون ولكنهم سيتآمرون بلاشك ويخونون الرومان حال اقتراب [قيصر]. وان كان [كاتو] يرجو ان يلتحقوا به ويعملوا تحت امرته، فما عليه الاّ ان يخرج من المدينة، أو ان يقضي على الاوتيكيين. حتى يخلو الموضع من العدو والبرابرة. ووجد [كاتو] في مقترحاتهم قسوة وبربرية لايطيقها. فأجابهم بلطف انه سيشاور الثلاثمائة بالأمر. وعاد الى المدينة فوجد الرجال لايختلقون اعذارا، ولايتظاهرون

بالمسكنة والذلة كما كانوا يفعلون سابقاً احتراماً له. بل أخذوا يصرحون على رؤوس الاشهاد بأنهم عازفون عن قتال [قيصر]، انهم عاجزون ضعفاء ولا أحد يرغمهم على مالا قبل لهم به. وأطلق بعضهم آراء حول القبض على الشيوخ وتسليمهم لقيصر. وتغافل [كاتو] وكأنه لايسمع، وكان في الواقع نقبل السمع نوعاً ما. وفي عين الوقت أقبل أحدهم ليخبره بأن قوة الخيالة قد رحلت. فخوفاً من أقدام الثلاثمائة على اتخاذ قرار ضدّ الشيوخ خرج حالاً مع عدد من اصدقائه فوجد الخيالة قد ابتعدت مسافة، فأمر بالخيل وانطلق وراءهم مسرعاً. وعندما راؤه قادماً كثيراً واستقبلوه بكل مودة وطلبوا منه انقاذ نفسه معهم. قيل ان [كاتو] بكى في تلك اللحظة وأخذ يستعطفهم لأجل الشيوخ ومد اليهم يديه ضارعاً، والوى عنان بعض خيولهم، وامسك باسلحة راكبيها الى أن أفلح في تحريك عواطفهم ونجح في حملهم على البقاء يوماً واحداً فقط لتأمين اخراج الشيوخ وتسفيرهم. فعادوا ووزعهم على المواقع. بعضهم اناط به حراسة المداخل. وبعضهم او كل اليه احتلال الحصن وهكذا... فبدأ الخوف يتسرب الى قلوب الثلاثمائة، لئلا يلقوا الجزاء على تغلّب رأيهم فبعثوا يطلبون مقابلة [كاتو]. الاّ ان الشيوخ أحاطوا به وحالوا بينه وبين الذهاب اليهم قائلين انهم لن يأمنوا على حاميهم ومنقذهم من الوقوع في ايدي خونة غدارين.

لم يظهرّ سموّ خلق [كاتو] كما ظهر الآن. كل طبقة من الناس في اوتيكا تبينت بأسف وأعجاب خلوّ ما يفعله من أية دوافع خاصّة أو مصلحة شخصية. هذا الذي قررّ ان يضع حَداً لحياته. لا يبذل اعظم المجهودات ويشقى ويكدح الاّ في سبيل الآخرين، يضمن حياة الآخرين ثم يقوم بانهاء حياته. اذ كان من السهل عليهم ان يتبينوا انه قرر الموت ولو لم يفصح عن نيته.

بعد ان هدأ من روع الشيوخ، ووافق على مقابلة الثلاثمائة فشكروه بحرارة وطلبوا منه ان يستخدمهم ويثقُ بهم. ومع انه لا وجه شبه بينهم وبين [كاتو] ولايستطيعون التحليق الى عظمة فكره فهم يريدون منه أن يرحم ضعفهم. وقالوا ايضاً: انهم قرروا ان يتصلوا [بقيصر] ويرجوا منه قبل كل شيء العفو عن [كاتو] فان اخفقوا في مسعاهم فسيرفضون عفوه عنهم. وسيقاتلون دفاعاً عنه مادام فيهم نفس يتردد. فشكر لهم [كاتو] حسن نواياهم ونصحهم بتأمين سلامتهم بأسرع ما يمكن. وان لايتشفعوا له بتاتاً فالمغلوبون يتوسلون، والمخطئون يطلبون الصفح، أما هو فما اعترف بالهزيمة طوال حياته، بل كان يحرز نصره كلما وجد ذلك مناسباً. ولقد هزم قيصر في كل نزالٍ يتعلق بمبادئ الحق والعدالة [فقيصر] المغلوب وليس هو. لقد ادين وحكم بجريمة نواياه السيئة ضدّ بلاده، ظلّ يعمل لها دون انقطاع، وظلّ ينكرها

باستمرار. وبعد ذلك خرج، وعندما انبئ بتقدم [قيصر] على رأس جيشه قال:

- آه، انه يتوقع ان يجدنا رجالاً شجعاناً.

ثم قصد الشيوخ والحّ عليهم بالاّ يتأخروا عن الرحيل وان يستعجلوا ما دامت الخيالة في المدينة. وأمر باغلاق جميع الأبواب الاّ باباً واحداً يواجه البحر وخصص ما لديه من السفن للراحلين وزود بالمال والقوت من هو في حاجةٍ، وتم ذلك بغاية من الضبط والدقة والتأهب لقمح كل شغبٍ، وعدم الاعتداء على الأهالي.

ووصل [ماركوس اوكتاڤيوس Marcus Octavius] على رأس فرقتين من العسكر وضرب معسكره بالقرب من [اوتيكا] وارسل يسأل [كاتو] عن رأيه في أسناد القيادة العامة فلم يجبه [كاتو] وانما قال لاصدقائه:

- ايحق لنا بعد هذا ان نعجب لما أصابنا من الفشل، حينما يظلّ حبنا بالمناصب باقياً ونحن نشرف على الدمار التام.

في الوقت نفسه، انبيء بالخيالة تتأهب للرحيل وانها تنهب مقتنيات الأهالي فهرع [كاتو] اليهم وانتزع ما في يد اول من صادفه والقى الآخرون عنهم ما نهبوه وخرجوا صامتين خجلين. ثم جمع كل أهالي [اوتيكا] موصياً خيراً بالثلاثمائة راجياً منهم الاّ يثيروا حقد قيصر عليهم بل عليهم ان يتدبروا أمر سلامتهم جميعاً. وبعد هذا ذهب الى الميناء لرؤية الراحلين. وعانق اصدقاءه ومعارفه وودعهم. ولم يشر على ابنه بالرحيل ولم يجد من المناسب اقناعه بترك ابيه. الاّ ان هناك شخصاً يُدعى [ستاتيليوس Statyllius] وهو شاب في زهرة العمر ذو روح وثابة، شديد الولوع بالاقتداء [بكاتو] والتشبه باخلاقه. طلب منه ان يرحل لأنه عدوّ لدود لقيصر، فلم يفلح معه، فالتفت الى [ابوللونيدس] الفيلسوف الرواقي وديمتريوس الفيلسوف المشائي Peripatatie. وقال لهما:

- تقع عليكما مهمة اطفاء حمّى روح هذا الشاب وتعريفه بالصالح له.

وامضى الليل ومعظم النهار في ترحيل اصدقائه وقضاء حاجات المراجعين له.

عُين [لوشيوس Lucius Caesor] احد اقرباء [قيصر] مندوباً لمفاوضة الثلاثمائة. فجاء الى [كاتو] وطلب منه ان يلقى خطبة بالثلاثمائة لأقناعهم وأضاف يقول:

- واما عنك، فسيشرفني ان الثم ايديّ قيصر واخرّ على قدميه مستشفعاً لك.

فلم يسمح له [كاتو] ان يقدم على عملٍ كهذا باية حالٍ واجابه:

- لو شئت المحافظة على حياتي بفضل من [قيصر] لذهبت اليه انا بنفسي. الاّ اني لا اريد ان أكون مديناً بفضل لطاغيةٍ جراء أعماله طغياته. ان انقاذه ارواح أولئك الذين لاحق له في حكمهم، كأنه سيدهم الشرعي، هو محض اغتصاب... ولكن دعنا نبحث اذا اسمحت في خير ما يمكن قوله عن الثلاثمائة.

وتحادثا فترة من الوقت وعندما ازمع [لوشيوس] الرحيل اوصاه [كاتو] بابنه وببقية اصدقائه وشدّ على يديه مودعاً. ثم عاد الى منزله ودعا ابنه واصدقاؤه فتحدثوا في مختلف المواضيع. وحظر على ابنه العمل السياسي، لأنه متعذر الآن بالشكل الصحيح اللائق، وبغير هذا الشكل يكون مخلاً بالشرف. وعند المساء دخل الحمام وفيما هو يغتسل تذكر [ستاتيلليوس] فنادى بصوت مرتفع:

- ابوللونيوس! هل روضت روح [ستاتيلليوس] الجموح. هل ذهب دون ان يودعنا؟

فأجاب [ابوللونيوس]:

- كلاً. لقد تكلمت معه كثيراً فلم أفلح. انه مصمم، ويقول انه قررّ الاقتداء بك.

وقيل لنا - ان كاتو ابتسم وأجاب:

- هذا ما سيثبته عما قريب.

بعد خروجه من الحمام ذهب للعشاء برفقة عدد كبير من اصحابه فجلس الى المائدة منتصباً كما أعتاد منذ معركة [فرساليا] فقد حرم على نفسه الاستلقاء على ظهره الاّ عندما ينام، ونعشى معه جميع اصحابه وكل حكام [اوتيكا].

وتسببت الخمر في اثارة احاديث ممتعة. فبحثت قضايا فلسفية عديدة، وامتد بهم الحوار الى عقائد الرواقيين الغريبة المسماة بالمتناقضات وتركز في هذا مبدأ: ان الرجل الصالح هو حرّ وحده. وكل الاشرار هم عبيد. وانبرى الفيلسوف المشائي يعارض القول كما هو متوقع. فأنقضّ عليه [كاتو] وناقشه بحرارة. وارتفع صوته بعض الشيء وحاول باسهاب وكان اثباته النقطة، مشفوعاً بحماسةٍ، ادرك الجميع منها انه قررّ وضع حدٍ لحياته واطلاق روحه من جسده. فران سكون عميق وغشيت الكآبة الجميع. ولتبديد اي شكّ في نيته عمد الى قلب المناقشة متحولاً الى موضوع آخر فراح يتكلم عن امور الساعة، مبدياً قلقه على من هم الآن في عرض البحر، وايضاً على الآخرين المسافرين براً مجتازين صحراء قاحلة ما حلة.

وعندما تفرقت الجماعة، راح يتمشى مع اصدقائه كما هي عادته بعد العشاء. واصدر الأوامر الضرورية الى ضباط الخفر ثم دلف الى هجرته، وهناك عانق ابنه وكل صديق له

وبحرارة أكثر من المعتاد، مما جددّ شكهم في نيته على الموت. وبعدها صرفهم واستلقى وتناول كتاب محاورة افلاطون [حول الروح] وبعد ان قرأ أكثر من نصف الكتاب. رفع نظره فلم يجد سيفه (كان ابنه قد أخذه عند تناول العشاء) فنادى خادمه وسأله عمن أخذ السيف، ولما يجب الخادم استأنف القراءة. وبعد قليل طلب السيف بلهجة تعمد فيها الاّ يبدو ملحفاً أو مستعجلاً، بل يريد ان يعرف اين هو فحسب. وانتظر برهة انهى خلالها قراءة الكتاب فلم يجلب له السيف. فنادى خدامه وطلب احضار السيف بصوت أعلى من الأول، وسددّ الى فم احدهم لكمة قوية رضّت يده وزاد غضبه وأخذ يصيح ان ابنه وخدمه غدروا به واسلموه الى العدو وهو اعزل. فأسرع ابنه واصدقاؤه الى الغرفة مهرولين وسقطوا على قدميه واخذوا يبكون ويضرعون اليه. فرفع نفسه عن الفراش ونظر نظرة صاعقة وقال:

- متى؟ بل كيف اصبحت سليب العقل، مريض الرأي بحيث لايحاول أحدٌ محاجّتي بالعقل والبرهان، أو ان يبين لي ما هو الأحسن ان كان يراني طائشاً؟ ايحتتم أن اجرّد من السلاح، وأمنع عن استخدام عقلي؟ وانت أيها الشاب لماذا لاتربط يدي ابيك وراء ظهره. حتى اذا جاء قيصر وجده عاجزاً عن الدفاع؟ ليس السيف ضرورياً ان شئت القضاء على حياتي. وما عليّ الا ان احبس انفاسي برهة من الزمن. أو أن اشبحّ رأسي في الجدار.

بعد هذا، خرج ابنه وهو يبكي وتبعه الباقون عدا ديمتريوس وابوللوينوس وكان أكثر هدوءاً في حديثه معهما اذ قال متسائلاً:

- وانتما؟ أتريان ايضاً ان تبقيا رجلاً في مثل سني حيّاً بالقوة وتجلسان تنظران اليّ صامتين؟ أم هل تدليان بجمع تثبت لي ان طلب [كاتو] السلامة من العدوّ عندما تغلق امامه الابواب الأخرى، هو خليق به، وليس من الحطة في شيء؟ ان كان الأمر كذلك، فبرهنا اننا بفضل قيصر ومساعدته سنكون أحكم عقلاً وأكثر امتناناً له من ابقائه على حياتنا فحسب برفضنا كلّ المبادئ التي تشربتها ارواحنا. أقول هذا لا لأني صممت على الفناء والعدم بالنسبة لذاتي، لكني سأنفذ ما أراه مناسباً من القرارات، بعد ان أجعل ذلك في حدود سلطاني، ولن امتنع عن اتخاذ كما مشاورين بالرجوع الى كل المبادئ التي تبشر به فلسفاتكما، واني لفاعلٌ، وفي الوقت نفسه ارجو ان لاتزعجا نفسيكما واذهبا قولا لابني بأنه لن يرغم اباه على مالا يستطيع اقناعه به.

فلم يردا عليه بشيء بل خرجا باكيين. وجاءه صبي بسيفه، فاستله من الغُمد ونظر اليه. وفحص ذبابته فوجدها جيدة، فقال:

- والآن. انا سيّد نفسي.

والقى بالسيف جانباً وتناول كتابه ثانية فأنهاه مرة أخرى على ما قيل. وبعدها نام نوماً عميقاً وسمع شخيرة في الخارج. وفي حدود نصف الليل نادى اثنين من معتوقيه: [كلينشس Cleanthes] وطبيبه و[بوتاس Butas] الذي كان يستخدمه في الاعمال المختلفة، فأرسل ثانيهما الى الميناء ليتأكد من ابحار كل اصدقائه. ومد يده الى طبيبه ليعالجها بعد ان انتفخت من اثر اللكمة. فشاع الفرح في نفوس الجميع اذ خيل لهم انه عدل عن الموت.

عاد [بوتاس] بعد فترة وانبأه برحيل الجميع ما عدا [كراسوس] الذي تأخر لعملٍ. الاّ أنه يهّم الآن بالابحار. وقال ايضاً ان الريح عاليةً والبحر هائج جداً. وصدرت من [كاتو] حسرة أليمة تفجعاً على المبحرين. وبعث [ببوتاس] مرة أخرى ليرى هل عاد أحدٌ منهم ليأخذ شيئاً كان قد نسيه؟ وطلب منه ان يأتيه بالخبر.

وبدأت الطيور تصدح باغاريدها. فأخذته سنة من النوم. أخيراً أقبل [بوتاس] واخبره ان كل شيء هادىء في الميناء. فأستلقى [كاتو] كأنه يريد استئناف غفوته، وطلب منه ان يغلق الباب بعد خروجه. لكن ما ان خرج هذا حتى تناول سيفه ودفنه في صدره. الاّ أنه لم يقو على تسديد طعنة نجلاء لورم يده، فلم يمت في الحال. وسقط عن السرير وهو يتخبط وهوت معه منضدة حسابية صغيرة كانت قريبةً منه فصدر دويّ صاح له الخدم واسرع ابنه والخدم الى غرفته في الحال. فوجدوه يتشحط بدمه وقد خرج جزءُ كبير من احشائه وهو ما زال حياً يتطلع اليهم. وقفوا وقد أخذت منهم الرهبة مأخذها. وتقدم منه الطبيب وهم بدفع امعائه الى الداخل وكانت سالمة لم يمزقها حَدّ السيف، وحاول خياطة الجرح. الا ان [كاتو] الذي استرد وعيه وفهم نية الطبيب دفعه الى الوراء وبتر امعاءه بيده وفتح الجرح فلفظ انفاسه الأخيرة.

وفي وقت أقل مما يصل خبر الموت الى اسرةٍ مفجوعة. كان الثلاثمائة، يقفون ببابه. وبعد قليل اجتمعت حشود أهالي [اوتيكا] وعلا الصراخ والعويل. كان فتقدهم حقاً، وكان حاميهم. الرجال الحرّ الوحيد الذي لم يذق طعم الهزيمة.

في هذه الساعة بلغتهم انباء اقتراب [قيصر] فلم يصرفهم عن اداء التكريم [لكاتو] خوفهم من الخطر الماثل ولا الرّغبة في تملّق الفاتح ولا التنابز والخلف فيما بينهم. واخرجوا جثمانه بموكب مهيب وشيعوه تشييعاً فخماً ودفنوه على ساحل البحر حيث يقوم الآن تمثاله وهو قابضٌ على سيف. وبعد ذلك عادوا ليفكروا بسلامتهم وسلامة مدينتهم.

أبلغ [قيصر] بأن [كاتو] بقي في [اوتيكا] دون شعور بقلق ولم يحاول الفرار. وانه أخلى

من معه من الرومان وبقي مع ابنه وعدد من اصحابه فوقع في حيرة وأعمل الفكر ليتحسّس نوايا [كاتو]. وكان عظيم التقدير لكفاءاته فقرر الزحف عليه بكلّ جيشه . وعندما سمع بموته - قيل انه نطق بهذه العبارة:

- اي كاتو! اني أنكر عليك موتك. مثلما أنكرت عليّ حفظ حياتك!

والحق يقال لو ان [كاتو] تحمل مِنّة قيصر والابقاء على حياته لما كان في ذلك منقصة له، ولا ثلم لشرفه كما هو يرفع من مجد قيصر. ونحن بطبيعة الحال لانستطيع التكهن بما كان سيحصل، لكننا نخمن ان جاز لنا - من طبع قيصر الرؤوف.

مات كاتو وله ثمان واربعون سنة من العمر، ولم يتعرض [قيصر] لابنه بسوء. ولكن قيل لنا ان هذا الابن شبّ عاطلاً متسكعاً. وعرف باسرافه في معاشرة النساء، مكث في كبكدوكيا ضيفاً على [مارافاداتس Maraphadates] أحد اعضاء الأسرة المالكة، وزوجه الفائقة الجمال - فأطال المكث في المنزل أكثر مما ينبغي. وجعل نفسه موضوعاً لمختلف القصائد نورد منها الأمثلة التالية:

غداً - وهو اليوم الثالث عشر.

سيرحل [كاتو] على أغلب الظن.

و

پورشيوس[٢] ومارفاداتس صديقان حميمان

و«روح» واحد تكفيهما على ما يقال.

و«روح» هو اسم زوج [مارفاداتس]. و

الكلّ يعترف بعظمة [كاتو]

انه ليحمل «روحا» ملكية بالتأكيد!

لكن كلّ هذه الوصمات مسحت تماماً ببسالة ميتته. ففي معركة [فيليپاي] قاتل في سبيل حرية بلاده ضدّ [قيصر وانطوني]. وعندما انكسر الصفّ. أبت نفسه الفرار والنجاة. واستنكف ان يبقى اسمه مجهولاً من العدوّ. فأظهر نفسه وكشف عن هويته في الجبهة الأمامية. وراح يحمس] الآخرين ويحثهم على القتال. حتى سقط قتيلاً، تاركاً اعداءه ممتلئين اعجاباً ببسالته. ولم تكن بنت [كاتو] بأقل أنفة وشرفاً من باقي افراد أسرتها. تزوجت

(١) اسم [كاتو] الابن.

[بروتوس] قاتل [قيصر]. وكانت مطلعة على المؤآمرة ضدّه وانهت حياتها بالشكل الذي يليق باخلاقها واسرتها. وهو ما سيرد تفصيله في حياة [بروتوس].

اما [ستاتيلوس] الذي أصرّ على الاقتداء باعمال [كاتو] فقد حال الفيلسوفان بينه وبين القضاء على حياته في حينه وبعدها انضمّ الى بروتوس وكان له نعم الصديق المخلص النافع. وخرّ صريعاً في معركة فيليپاي!

١٩٧٢/١/١٩



أپولو


آغيس
AGIS
224 – 241

زعم السذج والبسطاء ان أسطورة [آكسيون] التي عانقت السحابة بدلاً من [جونو] فولدت السناطير - هي اسطورة اخترعت اختراعاً لتمثيل حالة الطموح في البشر. أولئك الذين انشغلت عقولهم باطلاب المجد وهو محض صورة من صور الفضيلة، فلم يحققوا اثراً أصيلاً ولا منتظماً، بل حصلوا على نتائج مشوهة غير طبيعية (كما هو متوقع من مثل هذا الاتصال الآلهي). وبركضهم وراء عواطفهم وتنافسهم وبانسياقهم بحوافزهم الآنية لهم اشبه بأولئك الرعاة في تراجيديا سوفوكليس القائلين:

اننا نتبع هذه السائمة، مع انها تحمل اسيادها الشرعيين وهي تقودنا، مع انها بكماء.

في الواقع هذا هو الوضع الحقيقي الذي تجد عليه المشتغلين في الشؤون العامة. ففي جريهم وراء القاب فارغة: كقادة وحكام... يرتضون لأنفسهم منزلة العبيد، والاتباع لأهواء الناس ونزواتهم، وهم في ذلك مثل رقباء السفينة، يقفون في قيدومها ويمتد نظرهم ابعد من الملاحين المسكين بالدّفة. الا انهم لايسعهم الاّ ردّ انظارهم الى اولئك الملاحين واطاعة اوامرهم. هؤلاء الرجال يوجههم هتاف الجماهير وتصفيقهم - ان جاز لي القول - وان كانوا يسمون حكاماً هم في الحقيقة مجرد اتباع للجمهور. الرجل الذي كمل عقله، وسمت فضائله لا حاجة له بالمجد والشهرة الاّ بقدر ما يعبدان طريقه ويمهدانه للثقة الكبيرة التي يوفرانها له. وليس ثم محذور في ان يسمح للشاب وهو الراغب في الشهرة - ان يفخر باعماله الطيبة بعض الفخر. اذ ان فضائله (على حدّ قول ثيوفراستوس) التي ما زالت بعد غضّة الإهاب، لم تخرج من شطئها، تتوقد الى الثناء و تتقوى به فتتنفد جذورها الى الأعماق. لكن عندما يغلب الافراط على هذه العاطفة، فانها تغدو خطرة جداً عند كل البشر. وهي مخربّة ومرة عند الحكام. فالنفوذ العظيم والسلطان الواسع ينقل المرء الى حالة من حالات الجنون فلا يعود يفكر بالصالح المجيد، ولكنه يعد كل عمل صالحاً طالما هو مجيد. وكما أجاب [فوكيون]، الملك [انتياطر] الذي طلب منه الاقدام من عملٍ لايشرفه:

- لا أستطيع ان أكون متزلفاً لك وصديقاً في آن واحدٍ.

كذلك على أولئك الحكام والساسة ان يجيبوا الناس:

- لا أستطيع أن أحكم واطيعكم في آن واحدٍ.

وما يحصل للدولة ان جرى الأمر خلاف ذلك، مثله مثل ما حصل لتلك الأفعى التي تقول الاسطورة عنها أن ذيلها تمرّد على رأسها وشكا من انه يلقى عنتاً كبيراً بارغامه على ان يظل تابعاً للرأس. وطلب أن يحل محل الرأس في القيادة، فتم له ذلك. فما لبث ان لحق به كثير من الأذى فقد سار على غير هدى وشجّ الرأس واصابه بجراح كثيرة. فقد عاكس الطبيعة، واصبح الرأس يتبع دليلاً أعمى أصمّ. كذلك نجد عاقبة الكثيرين الذين يستلمون لميول الجماهير الطائشة غير الهادفة او الموحّدة. انهم لايستطيعون ان يتوقفوا من جهة، ولايستطيعون انقاذ أنفسهم من المصير المحزن المحتوم.

هذا ما عنّ لنا ذكره عن ذلك المجد الذي يعتمد على هتاف الجمهور نجد آثاره المؤسفة في مصيري [كايوس وطيبريوس گراخوس Caius, Teberais Graechus] الأخوين النبيليّ الخلق اللذين صقلت طباعهما السمحاء بأحسن التربية والتهذيب وتسنما الحكم يحدوها أشرف النوايا واجدرها بالثناء، مع هذا فقد ذهبت ريحهما، لا أقول بعامل الرغبة الجامحة في المجد، بل بعامل الخوف من العار الأكثر أغتفاراً من الأول. فلأنهما كانا محبوبين لدى الشعب وموضع ثقته، وجد في العار عليهما ان لايدفعا الثمن كاملاً. لقد حاولا باصلاحاتهما القانونية الجديدة ان يتفوقا على كل ما حازاه من شرف ومجد، فحققا ذلك بينهما المزيد من الشرف والشهرة، فاتقدت حماستهما وحماسة الشعب وأخذ الجانبان يتنافسان في الامجاد والمصالح. فوصلا بالأخير الى سبيل مغلق، بحيث اصبح الاصطدام فيما بينهما، حماقة، والتراجع عاراً وهذا ما سينتج القاريء مما سأقصه. واني سأقارنهما الآن باثنين من القادة اللقيديميين الشعبيين هما الملكان آغيس وكليونيتس فلأنهما كانا أيضاً من المغرمين باثارة الجماهير، يجاهدان لاعادة نظام الحكم والحياة النبيل الذي ضاع في زوايا النسيان منذ امد بعيد فكرهما الأغنياء والمتنفذون الذين صعب عليهم ان يجردوا من استمتاعهم الأناني الذي اعتادوه. لم يكن هذا الملكان أخوين لحماً ودماً، كزميليهما الرومانيين. لكن يلاحظ فيهما لون من التشابه الأخوي في أعمالهما ومقاصدهما التي تبدت في تمهيدات ومناسبات سأفصلّها الآن:

عندما عاد حبّ الذهب والفضة يتملك نفوس سكان الجمهورية اللقيديمية ساد البخل والحرص وحطة النفس في جمع المال. والترف والاسراف والخنوثة في انفاقه. فهوت سپارطة من المكانة العالية التي كانت تحتلها. واوذيت سمعتها وفضائلها. واستمرت احوالها في تدهور حتى ايام

[آغيس وليونيداس] الملكان اللذان حكماً اللقيديمين في وقت واحد.

انحدر [آغيس] من أسرة [يوريپون Eurypon] الملكية وهو ابن [ايوداميداس Eudami-das] سادس جيل منحدر من صلب [اغيسلاوس] صاحب الحملة العسكرية على آسيا، الذي كان أعظم رجال زمانه بين الأغريق. خلف آغيسيلاوس ابناً يدعي [ارخيداموس] الذي قتله الماسبيون Masspains في [ماندونيوم Mandonium] بايطاليا. فخلفه ابنه البكر [آغيس] ولما قتل هذا بيد [انتيپاطر] قرب ميغالوپوليس دون ان يعقب؛ خلفه اخوه [يوداميداس] واعقبه ابنه [ارخيداموس]، والذي اعقبه [يوداميداس] ثالث وهو والد آغيس الذي نترجم له سيرته الآن.

و[ليونيداس] ابن [كليونيموس Cleonymus] كان من الأسرة الملكية الثانية [آغيادي Agiadæ] وهو الثامن المنحدر من صلب [پاوسانياس] الذي قهر [ماردونيوس Mardon-ius] في معركة [پلاتيا Plataea]. وأعقب [پارسانياس] ابنه [بليتسوناكس واعقبه پاوسانياس ثانٍ، نُفي وعاش عيش النكرات المقمورين في [تيگيا Tegea] ونصب بدلاً عنه ابنه [اغيسيپوليس Agesipolis] ومات هذا دون عقبٍ فخلفه أخ له اصغر منه يدعي [كليومبروتوس] وترك هذا ابنين أكبرهما أغيسيپوليس] الذي لم يلبث طويلاً على العرش وتوفي دون عقبٍ فخلفه اخوه الأصغر [كليومينس] الذي رزق بابنين هما: [اكروتاتوس Acrotatus] وكليومنيوس. أولهما توفي قبل ابيه. الا انه خلف ابناً يدعى [آريوس Areus] الذي خلف جده في الحكم، وقتل في كورنث، فترك العرش لابنه [اكروتاتس] الذي هزم وقتل بالقرب من ميغالوپوليس في معركة مع طاغيتها [ارسطوديموس Aristodemus] وترك امرأة حبلى. فنصب [ليونيداس] ابن [كليونيموس] المذكور آنفاً، وصياً. ولما مات الملك الصغير قبل ان يبلغ اشدّه، فقد خلفه على العرش.

لم يكن [ليونيداس] بالملك الصالح لشعبه قطّ. فمع الانحطاط الخلقي والاجتماعي الذي ساد اسپارطه آنذاك، وجد فيه صدود عن العادات والشرائع القديمة يزيد كثيراً عما لدى غيره. ولاغرو فقد عاش ردحاً طويلاً من الزمن بين سادة الفرس العظام، وكان من حاشية الملك [سلوقوس]، فركب متن الشطط والطيش، وعمد الى تبني تلك العظمة والفخفخة التي تعيشها تلك القصور الملكية في النظام الاجتماعي الأغريقي، واتخذ عين الأساليب في الحكم. وكان [آغيس] زميله في الملك - على درجة عظيمة من سمو الفكر وجمال الطبع لم يتفوق بها على [ليونيداس] وحده بل على كلّ الملوك الذين سبقوه منذ عهد [آغيسلاوس] الأكبر. لقد مترفاً منعماً في احضان امّه [آغيسيستراتا Agisistrata] وجدّته [ارخيداميا Ar-

chidamia] وكانتـا اغنى اغنياء اللقيديميين. وقبل ان يبلغ [آغيس] العشرين من عمره، نبذ كل المتع الدنيوية، وابتعد بأقصى ما يمكنه عن الملذات والمظاهر الفخمة التي تبدو مناسبة لجماله. وراح يختال معتزاً بالمعطف الاسپارطي الخشن، ويتبع النظم اللاقونية القديمة في طعامه واغتساله وتمارينه. وكثيراً ما كان يردد: انه لايريد ان يجعل من الملك غاية، بل وسيلة تمكنه من احلال النظم والأساليب الاجتماعية التي كانت تسود البلاد في الماضي.

قد يصحّ ان يؤرخ اللقيديميون بداية انحطاطهم وتحللهم الخلقي بعد فتحهم آثينا مباشرة، وعلى أثر تدفق الذهب والفضة الذي أعقب ذلك. مع هذا فان عدد البيوت التي اثبتها ليكورغوس مازالت على حاله. كذلك القانون الذي أوجب على المورث ان يختلف لابنه كل ما لديه من مالٍ وارضٍ. وكان هذا يحقق نوعاً من الضبط والعدالة يسند الدولة الى حَدّ ما، وهي متخبطة في أمورها الأخرى. لكن [ايپيتاديوس Epitadaus] الايغور ذا النفوذ الكبير والطبع العنيف والروح الحاقدة، اراد ان يشفي غليله من ابنه العاق الذي كان مختلفاً معه فأقترح قانوناً، يمنح الجميع حرية التصرف بأراضيهم عن طريق الهبة، في حال حياتهم او بالوصية بعد موتهم دون اعتبارٍ للوارث فتمت الموافقة عليه بدافع الانانية. وقدر لهذا القانون ان يلحق الدمار بأفضل دول الكومنويلث نظاماً. اذ عمد الاغنياء بدون تحرج الى التصرف بعقارهم دون اعتبارٍ لورثتهم الشرعيين.

وبهذا تركزت الثروة في يد القلة وباتت الأغلبية معدمة لاتملك شيئاً. وأهملت المقاصيد النبيلة ولم يعد لها مكان في المجتمع الجديد. وساد الدولة حطة وغلب على شؤونها عقد الاغنياء وحسدهم، ولم يعد باقيا من الاسر السپارطية الأصلية أكثر من سبعمائة منها مائة فقط تملك الأراضي. والباقية فقدت الأرض والمنزلة الاجتماعية وغلب شعور العجز والعزوف عن الدفاع عند البلاد ضد اعدائها الخارجين وراح الجميع ينتظر بفروغ صبر بارقة تشير الى انقلاب او ثورة داخلية.

وجد [آغيس] ان اشرف ما ينبغي عمله هو اشاعة المساواة في البلاد وزيادة نفوسها بالتوطين. وكان في الواقع مصيباً في حدسه، فبدأ يستطلع آراء مواطنيه في ذلك. فوجد اللهفة والرغبة عن الشباب فوقما كان يتوقع، كانوا متحمسين الى مباراته في ميدان الخير والصلاح وفي سبيل الحرية كانوا على اتم الاستعداد لنبذ ما تخلقوا به وعاش فيه أكثر من استعداد المصارع لنزع ثيابه، أمّا كبارِ السنّ الذينَ تعودوا الترف وسائر الرذائل، وكانوا أكثر من غيرهم تشبثاً بتلك الحياة فقد كان مجرد اسم [ليكورغوس] يسلمهم الى القلق والخوف، مثلهم في ذلك مثل العبد الآبق الذي يقاد الى مولاه. لم يسع هؤلاء ان يسمعوا [آغيس]

منتقداً الحالة المؤسفة التي آلت اليها سپارطة ومتمنياً ان يستعيد مجدها السالف. ولكن [ليساندر] ابن [ليبيس LIBYS] و[ماندروكليداس Manrroclidas] ابن [اكفانس Ec-phanes] و[آغيسيلاوس] لك يكتفوا بالموافقة وانما شجعوا ومدوا له يد العون. كان [ليساندر] حائزا ثقة شعبية تامة وله نفوذه الكبير على الناس، ويعد [ماندروكليداس] أكفأ الاغريق في الادارة والتنظيم الى جانب الحذق والدهاء والجرأة والإقدام وآغيسيلاوس خال الملك، هو خطيب منوه، إلاّ انه جشع شهواني لا تأثير للمصلحة العامة على ضميره، ويظهر ان الفضل لحمله على هذا التشيع يعود الى ابنه [هيپوميدون Hippomedon] الذي أهلته بسالته وأعماله الفريدة، لاحتلال مكانة رفيعة، وكسب نفوذ كبير لدى شبان [سپارطه]. اما الدوافع الحقيقية التي حملت آغيسيلاوس على ممالأة آغيس فهي انه كان غارقاً في الديون، يأمل باصلاحات آغيس ان يتخلص منها.

وبعد ان ضمّ آغيس خاله الى صفه، دفعه الى كسب امّه، وكان لها اصدقاء وأشياع كثيرون، فضلاً عن مدينيها ومساهمتها الكبيرة في الشؤون العامة. غير أنها احجمت عندما فوتحت. واشتدت في نصح ابنها بالعدول عن هذا القصد العسير الذي لايرجى منه نفع، الاّ ان [آغيسيلاوس] زاد في مجهوده لاقناعها بأن المشروع ليس بالصعوبة التي تتخيلها. وانه اذا تحقق سيعزز مركز الأسرة على اية حال. وتوسل ابنها الملك بها ورجاها الاّ تقف عقبة ضدّ آماله وامجاده بسبب المال. وقال انه يعجز عن مساواة الملوك الآخرين في الغنى، لأن اتباع الولاة وخدمهم، ومدبري بيوت [سلوقوس وبطليموس] أكثر غنى من كل ملوك سپارطة مجتمعين. فاذا استطاع التفوق على ترفهم وغناهم بالبساطة والخلق الرصين واحتقار الغنى والملذات، ولو استطاع ان يشيع المساواة بين السپارطيين فيكون ملكاً عظيماً. وظلّ يضرب على هذا الوتر حتى راقت الفكرة للام والجدة وانتهى الأمر بهما الى التحمس لها والثناء على طموح الشاب النبيل. ولم تكتفيا بالموافقة بل أخذتا تدفعانه. ولم تقتصر جهودها على مفاتحة كل المرتبطين بهما وحثهم على مساندته، وانما توجهتا بالدعوة الى النساء، ليعلمهن ان الزوجات اللقيديميات يمارسن نفوذاً كبيراً على ازواجهن دوماً، فقد تعود هؤلاء أن يسارنهم بكل أمور الدولة الهامة، بصراحة تزيد عن صراحتهن عندما يحدثنهم عن أمورهنّ الخاصّة. كان هذا في الواقع اهم عقبة تواجه مشروعه فمعظم الأموال في سپارطة هي بيد النساء. واصلاحاته تجردهم لا في التوافه الماديّة وجدها وهي في عرفهن مصدر سعادتهن الرئيس، بل لمعرفتهم التامة بأن غناهنّ هو العامل الأساس لقوتهم ومكانتهن.

فهؤلاء الذين يريدون ابقاء ما كان على ما كان انحازوا الى ليونيداس واخذوا يدفعونه الى

ابداء المزيد من المعارضة قائلين ان واجبه وهو الاكبر سناً والأوفر تجربة، أحباط مشاريع هذا الشاب المندفع الأهوج. وكان ليونيداس بالأصل على خلاف شديد مع [آغيس] كتمه ولم يشأ اظهاره خوفاً من صولة الشعب الذي كان يصبو الى التغيير ويدعو اليه بصراحة. لكنه كان يعمل في السرّ بكل وسيلة لاحباط المشروع واضعاف الثقة بجدواه. وتحريض الحكام على الوقوف ضدّه. وكان لايترك مناسبة تفوقه الاّ وسفهه بمكرٍ ودهاءٍ كقوله مثلاً: «ان آغيس يقترح توزيع اراضي الاغنياء على الفقراء ثمناً لاغتصابه الحكم المطلق. وان الغرض من اجراءات الغاء الديون وتوزيع الأراضي ليس تزويد سپارطة بالمزيد من المواطنين وانما لشراء حرس خاصٍ للطاغية.

على كلّ لم يعر [آغيس] اهتماماً بكلّ هذه التخرصات، وعمل على انتخاب ليساندر ايغوراً. ثم اهتبل اول فرصة عن طريقه لتقديم مشروعه الاصلاحي Rhetra الى المجلس. وأهم مواده هي:

تلغى جميع الديون. كل الأراضي الزراعية توزع بمساحات متساوية فتلك التي تقع بين مجرى النهر قرب [پللينه Pellene] وبين جبل [تايگيتس Taygetus] حتى بلدتي (ماليا Malea) و(سيلاسيا Sellasia) تقسم الى اربعة آلاف وخمسمائة قطعة، أما بقية الأراضي فتقسم الى خمسة عشر الف قطعة، وهذه الأخيرة توزع على سكان الريف القادرين على الخدمة العسكرية في سلك المسلحين تسليحاً ثقيلاً. أما القطع من الصنف الأول فتوزع على المواطنين المولودين من ابوين سپارطيين، على ان يكون العدد شاملاً سكان الريف أو الاجانب الذين نشأوا نشأة صحيحة. اقوياء الاجسام وفي سن الخدمة العسكرية. ويقسم هؤلاء الى خمس عشرة كتيبة: بعضها يتألف من اربعمائة مقاتل وبعضها من مائتين. ويكون طعامهم وتدريبهم وفق المبادئ التي رسمتها شرائع ليكورغوس.»

قدم هذا المشروع «المجلس الكبار». فجوبه بمعارضة. فبادر ليساندر الى عقد جمعية الشعب الكبرى. وخطب فيها هو وماندروكليداس واغيسيلاوس. فأثاروا حماسة الجمهور. قالوا: انه لما يورث الأسى ان توضع عظمة سپارطه موضع اهمال وزراية ارضاءً لفئة قليلة من الاغنياء الذين لايرضون بأقل من استعبادهم. والاستبداد في امورهم. وعليهم ان يتذكروا النبوءات الغابرة التي كانت سباقةً بتحذيرهم من التعلق بالمال، لأنه الخطر الأعظم على سپارطه، والسبب المحتمل لخرابها. فيضاف اليها تلك النبوءات التي وردت مؤخراً من [پاسيفاي Pasiphae] (وهو هيكل شهير، ومهبط وحي يقع في [تالامي Thalamae]).

وعلى حدّ قول بعضهم ان [پاسيفاي] هي احدى بنات [أطلس] التي ولدت لجوپتر ابنه

[آمون]. ويرى آخرون انها [كساندرا] بنت الملك [پريام Priam] الذي ادركه الأجل في هذا الموضع فسمي پاسيفاي لأنه «كاشف» النبوءات «الجميع». ويقول [فيلارخوس Phylar-chus] بل هي [دافني Daphne] بنت [آمـــيكلاس Amuclas]. هربت من [اپوللو] فمسخها شجرة غارٍ. وشرفها الآله بنعمة التنبؤ أمرتهم بالعودة الى ما كانوا عليه من المساواة وفق النظام الذي ابتدعه ليكورغوس لهم.

بعد ان انتهى الخطباء الثلاثة، نهض آغيس وبعد كلمات قلائل قال: انه سيقوم بخير ما يسعه للأسهام في تطبيق الشريعة الجديدة التي انما وضعت لصالحهم. فاولاً سيوزع فيما بينهم كل الاراضي التي ورثها - وكانت ذات مساحات واسعة من الاراضي الصالحة للرعي والزراعة - وسيقدم لبيت المال العام ستمائة تالنت من النقد المصكوك. وانّ امّه وجدته واصحابه واقرباءه وهم أغنى اللقيديمين مستعدون للاقتداء به.

وامتلأ الناس أعجاباً بكرم الشاب. وغمرتهم فرحة عظيمة. منها أن ملكاً جديراً باسپارطه يقوم بينهم بعد ثلاثمائة من السنين المجدبة. وزاد ليونيداس مقتاً ومعارضةً، لادراكه بانه سيكون هو واصدقاؤه، مرغمين على التخلي عن اموالهم في حين سينفرد [آغيس] بكلّ الفضل والمجد المتأتي معه. فنهض وسأل [آغيس] امام الجموع الحاشدة.

- ألم يكن [ليكورغوس] في رأيك - رجلاً حكيماً محباً لبلاده؟

أجاب [آغيس] «بلى». فتساءل [ليونيداس] بقوله:

- ومتى ألغى ليكورغوس الديون، ومتى منح الأجانب امتياز المواطنة، وهو الذي رأى ان سلامة الجمهورية لا تتحقق الا بتطهير المدينة من الأغراب بين الفينة والفينة.

فأجاب [آغيس]:

- لست أعجب ان اظهر [ليونيداس] قلة معرفة بليكورغوس وشرائعه فقد نشأ متزوج في الخارج واصبح والداً هناك. واتخذ زوجه من البلاط الفارسي. ان ليكورغوس اذهب الديون والقروض معاً بالغائه النقود كوسيلةٍ للتعامل. الحق يقال انه اعترض على وجود الاغراب عن عادات البلاد واخلاقها، لا لأنهم يضمرون سوءً بل لئلا تتسرب عدوى حبّ المال الى انماط معيشتهم فتتلحق بالاخلاق الرقيقة وتتقلب في احضان الترف. فمن المعروف جيداً انه رحبَّ ببقاء كل من [ترپاندر Terpander] و[طاليس Tales] و[فريكيديس Phercydes] وكلهم أجانب، مدركاً بأن فلسفتهم واشعارهم تنحو منحاه الفكري. وانت الذي تعودت مديح [اكپرپس Ecprepes] الذي قطع بفأسه وترين من

الاوتار التسعة في آله طرب الموسيقي [فرينيس Phrynis] ، ايام كان ايغوراً. وكذلك بمدحك عمل أولئك الذين احتذوا خدوه فيما بعد، فقطعوا اوتار قيثار [طيموثيوس Tio-motheus] فبأي وجه تلومنا على رغبتنا في وضع حَدّ نهائي للترف والإسراف والفخفخة في الجمهورية ؟ اتظنّ ان اهتمام هؤلاء الرجال كان منحصراً باوتار تلك العيدان بالذات، ام أنهم ينوون شيئاً أكبر واهم من ذلك؟ انهم يريدون ان يكبحوا في الموسيقي نفس الاغراق والتطرف الذي يسود حياتنا الحاضرة ووضعنا الاجتماعي. فقد دبت الفوضى فيهما واتلفت كل انسجام وتوافق في مدينتنا.

ومنذ تلك الساعة انحاز سواد الشعب الى [آغيس] ، وانحاز الاغنياء الى صفّ [ليونيداس]. وأخذت الدهماء تضغط على [آغيس] ضغطاً شديداً بان يمضي قدماً في اهدافه. وبعد الرجاء والالحاف تمكن من اقناع مجلس الكبار الذي تتضمن صلاحياته اعداد القوانين التي يؤخذ فيها رأي الشعب بالاقتراع العام. ولما رفض المشروع بصوتٍ واحدٍ، عزم [ليساندر] ان ينتصف لذلك من [ليدانيداس]. فقدم بحكم منصبه تقريراً عنه بناه على مبدأين قديمين: الاولّ يقضي بمنع اي شخصٍ منحدر من نسل هرقل ان ينسل اولاداً من امرأة أجنبي. والثاني يعتبر من الجرائم الكبرى، تركُ اللقيديمي وطنه والعيش بين الأجانب. وأوكل ليساندر بعضهم لتنظيم الاتهام بينما خرج هو وزملاؤه «لمراقبة الاشارة». وتلك تقليد يمارسونه بالشكل الآتي:

يختار الايغور في كلّ سنةٍ تاسعة، ليلةً تنيرها النجوم، لا تشد بها غيمة ولا يضيئها قمر، فيجلس الجميع معاً هادئين صامتين لاهمَّ لهم الاّ مراقبة السماء. فان شاهدوا شهاباً يخرّ، أعلنوا فوراً ان ملكهم قد ارتكب جرماً بحق احد الآلهة، فيعزلونه ويمنع عن ممارسة سلطاته حتى تحلّه من هذا القيد بنوءة مصدرها [دلفي] أو [اولمپيا].

وعاد [ليساندر] وأكد للشعب انه رأى شهاباً يخرّ من السماء. فطلب من [ليونيداس] في الوقت عينه، ان يتقدم دفاعاً عن نفسه. واحضر الشهود فشهدوا بأنه تزوج امرأة آسيوية، اعطاها اياها اعوان الملك [سلوقوس]، وقد ولدت له ولدين الاّ أنها لم تكن تطيقه حتى انه اضطر الى الفرار منها، وعلى هذا الأساس عاد الى [سپارطة] ولما مات سلفه دون عقب، تولى الحكم.

لم يكتف [ليساندر] بهذا وانما دفع [كليومبروتوس] الى المطالبة بالعرش. وكان من اعضاء الأسرة المالكة وختن [ليونيداس] ايضاً، وادرك [ليونيداس] الخوف من سوء العقبى فهرب والتجأ الى هيكل [منيرڤا ذات البيت النحاسي] تصحبه ابنته زوج [كليومبروتس] التي

قررت هجر زوجها واللحاق بأبيها وهو في محنته. طلب [ليونيداس] مرة أخرى فتمرد على الدعوة فعزلوه ونصبوا [كليومبروتوس] في محلّه.

بعد هذا التغيير انتهت فترة [ليساندر] فاعتزل منصبه وانتخبت دفعة جديدة من الايغورين الذين اسرعوا فأكدوا لليونيداس سلامته. واستدعوا كُلاً من [ليساندر وماندروكليداس] ليبررا عملهما في الغاء الديون ومباشرتهما تقسيما جديداً للأراضي. وشعرا بالخطر ماثلاً فالتجأ الى الملكين، وبينا لهما ان مصلحتهما وسلامتهما تتوقفان على اتفاقهما في اصدار القرارات، فتلك هي السبيل الوحيدة لتحدي الايغورين. لأن سلطة هؤلاء في الواقع تبدأ عندما يدبّ الخلاف بين الملكين فيصدران قرارات منفردة غير متوافقة. فاذ ذاك يباشر الايغور صلاحياتهم بترجيح كفة من يرونه اصلح الرأيين، اما اذا اتفق رأي الملكين في قضية، فلا أحد يجرؤ على مقاومة سلطتهما. فالمجلس الذي تتطلب وظيفته منه ان يقف حكماً بين الرأيين المختلفين لايحق له بالتدخل عند صدور رأي واحدٍ. بعد هذا خرج الملكان مع صدقانهما الى الساحة العامة وانتزعا الايغور من مقاعدهم، ونصبا اشخاصاً جدداً في محلهم. وكان من بينهم [آغيسيلاوس]. ثم سلحوا سرية من الشبان وأطلقوا عدداً كبيراً من السجناء، ودبّ الخوف في نفوس اشياع الحزب المعارض وقلقوا لمصيرهم. ولكن لم تسفك قطرة دم واحدة. بالعكس، عندما ادرك [آغيس] أن [آغيسيلاوس] أمر ثلةً من الجند بنصب كمين [لليونيداس] وقتله اثناء هروبه الى [تيغيا] ارسل تواً بعض اتباعه لحمايته وحراسته حتى وصوله المدينة بسلام. الى هنا سار كل شيء على ما يرام ولم يجرأ أحد على المعارضة. لكن هذه البداية الطيبة نسفت نسفاً لضعف نفسٍ بدر من شخصٍ واحدٍ فأنهدم المشروع وقضي على أنبل واصدق الغايات في سپارطة بسبب حبّ المال. قلنا أن [آغيسيلاوس] كان غارقاً في الدين، الاّ أنه كان يملك أكبر وافضل العقار. ففي الوقت الذي انحاز متحمساً مسروراً الى محبّذي المشروع الذي يضمن له الخلاص من ديونه، كره التخلّي عن ارضه. ولذلك عمل على اقناع [آغيس] بتأجيل الشق الثاني من القانون، اذ لو نفذ الشقان معاً فان التغيير العظيم المفاجيء قد ينجم عنه ثورة لاتبقى ولاتذر. لكن لو بديء بالغاء الديون اولاً فسيكون من السهولة بمكان حمل الأغنياء على التخلي عن اراضيهم. ونجح أيضاً في حمل [ليساندر] على اعتناق فكرته، وخدعه بمكره كما خدع آغيس فأمر كل دائن باحضار سنداته ووثائقه التي تدعى [كلاريا Claria] عند اللقيديمين، الى الساحة العامة، وكدست كلّها واشعلت النار فيها. ولم يكن بالمستغرب ان تجد الاغنياء المرابين يرمقون المشهد بقلوب اثقلها الألم، على أن آغيسيلاوس قال هازئاً، بأن عينيه لم تقعا على لهيب أنقى واسطع من هذا اللهيب.

وزاد الشعب لجاجةً والحف في اجراء توزيع فوري للاراضي، فأمر الملكان باجراء ذلك، إلاّ ان [آغيسيلاوس] أخذ يتعلل بهذه العقبة او تلك وأخرّ تنفيذ القانون الى أن نجم ما دعا [آغيس] الى الخروج للحرب. فقد استنجد [الآخائيون] باسپارطة بمقتضى معاهدة التحالف الدفاعية المعقودة بينهما. لتوقعهم المستمر محاولة من [الايتوليين] لدخول [الپيليپونيسيس من اراضي [ميغارا] وكانوا قد ارسلوا جنرالهم [اراتوس] لتعبئة القوات والحيلولة دون الهجوم وكتب [اراتوس] الى ايغور سپارطة فأصدر هؤلاء امراً يقضي باسراع [آغيس] لمعاونته بالاحتياطي اللقيديمي وسرّ [آغيس] سروراً لامزيد عليه للاقدام والحماسة اللذين ابداهما افراد حملته. كان معظمهم شباباً فقراء، تخلصوا من ديونهم وتحرروا وكانوا يأملون ان يحصلوا جميعاً على قطع اراضٍ عند عودتهم. ولذلك ساروا خلف ملكهم بشوق وحمية. وكان أهالي المدن التي يمرون فيها لايتمالكون انفسهم من الاعجاب بسيرهم من اول نهاية [الپيليپونيس] الى آخر نهاية، دون ان يختل نظامهم، أو تبدر منهم ضوضاء او حتى صوت ان جاز لنا القول. فتذكر الأغريق بهم، الجيش اللاقوني العتيد، من الايام الغابرة الذي كان يضرب بتواضعه وبساطته المثل تحت أمرته قادته العظام: آغيسيلاوس، او ليساندر، أو ليونيداس فلاغرو ان كان آغيس موضع اعجاب وتقدير، فهو قائد هذا الجيش وربما اصغر رجل فيه، يأخذ نفسه بالحزم والتقشف ولايحجم عن أي عملٍ، ولايفترق بأية ميزة من الغنى أو العظمة ان كان في سلاحه أو ثيابه أو تصرفاته - عن افقر جندي في جيشه، الاّ ان الاغنياء راحوا ينظرون الى هذا التحول الجديد نظرة قلق وقعتٍ، ولم يستبعدوا من ذهنهم فكرة انتشار هذا النظام الجديد، الذي سيحدث عند دخوله بلادهم تغييراً عظيماً في أحوالهم.

انضم جيش [آغيس] الى قوات [اراتوس] في مدينة [كورنث]. ودار نقاش حول الخطة، هل يتم الاشتباك بالعدوّ الآن، أم بفضل التريث؟ وهنا أيضاً ابدى [آغيس] جراءة وحصافة عظيمين، خاليين من الضرور او التهور اذ قال أنه يفضلّ أن يشتبك قواتهما مع العدو، فهذه هذا لوسيلة الوحيدة لمنعه من اجتياز مداخل [الپيلوپونيسس]، الاّ أنه يستطيع اوامر [اراتوس] لا لكونه القائد الأكبر سناً والاكثر تجربةً، بل لأنه جنرال [الاخائيين] الذين لايملك هو حق قيادتهم، لأنه جاء لنجدتهم فحسب، أقول هذا ولا أغفل رواية [باتون Baton] السينوبي الذي زعم ان [اراتوس] كان يحبذ القتال، لكن آغيس عارض في الأمر، مؤكداً ان ما اوردته هو الصحيح، ورواية [باتون] لقراره اذ قال: انه اتخذ القرار لحلول موسم الحصاد. فوجد الأفضل ان يدع العدوّ يمرّ من ان يجازف بكلّ شيء في معركةٍ واحدة. فردّ قوات الحلف شاكراً. وعاد [آغيس] بمجد ليس بالقليل فوجد الفوضى عامة، والثورة المعاكسة الجديدة

وشيكة، بسبب سوء ادارة [آغيسيلاوس]. فقد تحرر هذا من الخوف الذي كان يكبح جماحه الى حدٍّ ما بعد تخلصّه من ديونه ولم يعد يتعفف عن ممارسة اي نوع من الضغط والارهاب ان وجد فيه مغنماً. ومما اقدم عليه انه جبى ضريبة الشهر الثالث عشر في حين ان دورة العام كانت دورة بسيطة لاتستدعي زيادة الشهر الكبيس. لهذا ولغيره من الاسباب ولخوفه ممن لحقه اذى منه ولمعرفته بمدى كره الشعب له، ورأى الاّ معدى له من احاطة نفس بحرسٍ شاكي السلاح يلازمه في دار الحكم دوماً، وطغى وبغىّ وتجبرّ حتى بلغ الحدّ الذي تطاول معه على الملكين فجاهر بتحقير اولهما، اما اذا أظهر قليلاً من احترام للآخر فهو يعود الى صلة القرابة التي تربطه به لا الى الاحترام والخضوع الواجبين لسلطة الملك. ثم انه أعلن عن استمراره في اشغال منصب الايغور عاماً آخر. فزاد اعداؤه قلقاً لذلك، ولم يضيعوا وقتاً في حبك موآمرةٍ تستهدف القضاء عليه، واستقدموا [ليونيداس] من [تيغا] علناً واعادوا نصبه ملكاً برضا الشعب نفسه الذي كان ساخطاً لأنه انخدع بوعد توزيع الأراضي. وكاد [آغيسيلاوس] يلقى حتفه في تلك الفتنة لولا ان خفّ اليه ابنه [هيپوميدون Hippomedon] الذي ينزله الشعب منزلة حُبّ وتقدير فأنقذه من أيديهم ورحّله سراً. وهرب الملكان ايضاً، ولجأ [آغيس] الى هيكل [منيرڤا ذات البيت النحاسي]، واستجار [كليومبروتوس] بهيكل [نپتون]. وكان [ليونيداس] أشد حنقاً على ختنه هذا، منه على [آغيس]، فترك الأخير لشأنه وقصد حَرَم كليومبروتوس بثلة من الجنود وأخذ يعنفه بشدة وغضبٍ - على ما قدمت يداه، وهو زوج بنته، من التآمر عليه مع اعدائه واغتصاب عرشه وارغامه على ترك بلاده.

كانت [خيلونيس Chilonis] زوج [كليومبروتوس] قد آثرت العيش مع ابيها في منفاه بعد ان أغتصب زوجها الملك منه، فتركت الزوج واوقفت نفسها على العناية بأبيها والتسرية عنه في محنته، وفي اثناء فترة لجوئه الى المعبد في سپارطة بقيت معه في حمى الآلهة، وهربت معه نادبة سوء حظّه، ساخطة على [كليومبروتوس]. فلما قلب الحظّ لزوجها ظهر مجنّه، أنقلبت هي الأخرى على ابيها ولحقت بزوجها. فكانت تشاهد جالسة معه في حَرَم المعبد وقد لفت ذراعيها حول عنقه وطفلاها الى جانبها فأمتلأ الناس اعجاباً بحنان هذه الشابة ووفائها. وقالت لابيها مشيرةً الى شعرها وثوبها المهملين.

- اني لم أبلغ الى هذه الحال التي تراني فيها يا أبت بسبب ما يعاني [كليومبروتوس] من شقاء. فحزني وحدادي أصبحا عادةً في منذ أمد بعيد. لقد عانيتهما لأسري عنك في منفاك. والآن وقد عدت الى بلادك والى ملكك، أُكتب علي ان أبقى شقية حزينة؟ لعلك تريدني ان ارتدي الثياب الملكية وأسعد معك بعد ان تقتل بين ذراعيّ الرجل الذي قبلته

لي زوجاً. فإما أن يهدأ غضبك على [كليومبروتوس] بدموعي ودموع طفلي. واما ان يقاسي عقاباً يفوق ذلك العقاب الذي فرضته على اخطائه. سيراني - تلك التي أخلص لها الودّ - اموت امامه الآن. لأي غاية أعيش، وكيف سأظهر بين السپارطيات؟ كيف سيستقبلون المرأة التي عجزت عن الانة قلب أبيها أو زوجها؟ يبدو اني ولدت لا شارك. في سوء حظين، حظ الزوجة وحظّ البنت وهما أقرب الناس اليّ. وامّا عن [كليومبروتوس] فقد ابديت عجزي التام عن الاعتذار النبيل بسبب غلطته، عندما تركته ولحقتُ بك. الاّ أنك انت تعطيه الآن أفضل عذر لزلته، حينما يرى المعالم انك تقتل زوج ابنتك بسبب مملكة - ولا تراعي لها حرمة».

انهت [خيلونيس] كلامها الحزين واسندت وجهها الى رأس زوجها راحت تقلّب عينيها الدامعتين المتقرحتين في الناس الشاخصين أمامها. فمست عاطفة البنوة شغاف قلب [ليونيداس] وانسحب برهةً للتشاور مع صدقائه، ثم عاد بعدها وطلب من [كليومبروتوس] ترك الحَرَم ومغادرة البلاد، على أن تبقى [خيلونيس] الى جانبه اذ ليس من العدل ان تترك أباً بلغ من حبه لها أن قبل شفاعتها في زوجها وابقى على حياته. لكن ما قاله لم يقنعها. فنهضت وحملت أحد طفليها وأعطت الثاني زوجها ثم تلت صلاةً على مذبح الآلهة. وخرجت في اثر ابيها. مجمل القول: لو لم يَعِمِ الطموح عيني كليومبروتس لاختار بدون شكّ ان ينفى مع هذه المرأة الوفية على الملك بدونها.

بهذا تم خلع [كليومبروتوس] وازاحته، وبعده باشر [ليونيداس] بعزل جماعة الايغور واختيار آخرين. ثم بدأ يفكر في القضاء على [آغيس]، فحاول اولاً اقناعه بوسائل شريفة بان يترك الحَرَم المقدس، ويشاركه في الملك، قائلاً ان الشعب سريع الصفح عن زلاّت الشباب الطامح الى المجد، المخذوع باحابيل [اغيسيلاوس]، الاّ انه وجد [آغيس] شديد الارتياب، لاتنجح معه اية محاولة في اخراجه من (حَرَمَه) فنبذ هذه الفكرة على ان ما تعذر تحقيقه بشعبذة عدوٌ، تمّ انجازه بخيانة صديق كان [امفاريس Amphares] و[داموخاريس Damo-chares] و[اركيسيلاوس Arcesilaus] يختلفون الى زيارة [آغيس] وكان عظيم الثقة باخلاصهم حتى انه بعد فترة من الزمن وافق على مصاحبتهم الى الحمامات قريبة من الهيكل فيرافقونه عند عودته، هؤلاء الثلاثة كانوا من اعزّ صدقانه وكان اولهم [امفاريس] قد استعار من [اغيسيستراتا] ام آغيس عدداً كبيراً من الصحاف والاواني الثمينة وغيرها من ادوات المنزل وكان يأمل ان يتملكها ان افلح في القضاء على الأم والحاق الاسرة كاها بها، فهو

والحالة هذا اكثرُ الثلاثة تقبلا لاغراء [ليونيداس] واسرعهم لخدمة اغراضه. وبوصفه واحداً من الايغور فقد بذل مجهودات كثيرة مع زملائه لينقلوا على [آغيس]. وقد وجد الثلاثة ان [آغيس] لايترك حَرَمه، الاّ عند ذهابه الى الحمام. فقرروا ان يقبضوا عليه خلال هذه الفسحة من الزمن. وفي يوم ما التقوه وهو عائد، فحيوّه كما كانوا يفعلون عادة، وتبادلوا الاحاديث اللطيفة وهم سائرون وتراشقوا بالنكات والفكاهات كما تفعل ثلة من الشبان الخِلان حتى بلغ السير بهم منعطف الطريق المؤدية الى السجن. فما كان من [امغاريس] الاّ ان وضع يده على آغيس وقال: مستخدماً صلاحية الايغور:

- عليك ان تتبعني يا آغيس، لتمثل امام الايغور الآخرين وتجيب عمّا قدمت يداك من مخالفات.

في الوقت نفسه شدّ [داموخاريس] طرف معطف [آغيس] حول عنقه وجرّه به وكان عملاقاً شديد القوة، بينما سعى الآخران وراءهما، يحثثان [آغيس] ولم يكن أحد من اصدقاء [آغيس] قريباً بله لم يكن ثم انسان. فسهل عليهم ايداعه السجن. وكان [ليونيداس] قد حضر قبلهم ومعه سرية من الجند. وزعت على كل الطرق والأزقة القريبة. وجاء جماعة الايغور ومعهم أكبر عدد من [الكبار] الذين يثقون بهم فقد رغبوا في يبدو على موآمرتهم مسحة من العدالة. وطلبوا من [آغيس] تقديم حساب عن أعماله فأبتسم لنفاقهم هذا وريائهم ولم يجب بحرف فقال له [امغاريس]:

- من الأجدى بك ان تبكي فقد آن اوان القصاص على غرورك واعتدادك بنفسك.

وانبرى [ايغور] آخر محاولاً ان يبدو أكثر رأفةً وعرض عليه سؤال من يريد ان يتلمس له عذراً. قال:

- لعلك أرغمت من قبل آغيسيلاوس وليساندر؟

فأجاب آغيس: انه لم يقع تأثير احدٍ. ولم يكن قصده مما عمل غير الاقتداء بليكورغوس، وممارسة الحكم الصالح بتطبيق شرائعه. فسأله الايغور:

- ألست نادماً على الأقل ولما بدر منك من نزقٍ وخَرَق فأجاب [آغيس]:

- لست استسيغ الندم قطّ على قصد مجيد نبيل عادل كمقصدي، مع اني متأكد بأن الموت في انتظاري.

فصدروا عليه حكمهم بالموت، وامروا الحرس باقتياده الى [الديخاس Dechas]وهو موضع في السجن يتم فيه تنفيذ حكم الموت شنقاً بالمجرمين. وعندما امتنع الضباط من وضع ايديهم

عليه وابى الجنود المرتزقة ذلك بدورهم، معتقدين أن التطاول على ملك هو عمل دنيء يخالف المبادئ الشرعية أخذ [ديموخاريس] يتوعد ويشتم. ثم دفع [آغيس] بيده الى الغرفة.

في اثناء ذلك عَمَّ المدينة نبأ أعتقال الملك. فتجمعت فصائل من المواطنين وهرعوا الى السجن وبأيديهم المشاعل والمصابيح ووقفوا عند الابواب تتوسطهم أم [آغيس] وجدته وانطلقت الاصوات عالية تطالب باخراج الملك اليهم، وبالسماح له بالدفاع عن نفسه امام الشعب في محاكمة علنية. الاّ أن هذه الضجة عجلت بموته بدلاً من أن تحول دونه. فقد تملك الخوف خصومه من تفاقم الأمر، ومن احتمال انتزاعه من أيديهم اثناء الليل. والتفت [آغيس] الذي كان على شفا الموت - فرآى أحد الضباط يبكي حظّه بكاءً مراً فقال له:

- لا تبكيني أيها الخِلّ انا الذي سأموت بريئاً، بفعلة نكراء أقدم عليها شرّ الناس. فحالتي هي أفضل من حالتهم بكثير.

ثم أسلم عنقه للمشنقه دون ان يبدو عليه أثر للخوف والارتباك. وبعد ان أسلم الروح، خرج [أمغاريس] من باب السجن فوجد اغيسيتراتا فأقبلت عليه، مؤقتة بأنه مازال ذلك الصديق الصدوق لابنها، وخرت على قدميه ضارعةً، فأنهضها برفق وأكد لها بالاّ داعي لقلقها على ابنها، وان شاءت فلا مانع ثم يحول دون دخولها لرؤيته. فطلبت ذلك لأمها ايضاً فأجاب بالا مانع ايضاً. وما ان دخلتا حتى امر باغلاق باب السجن. وسبقت اليه [ارخيداميا] وكانت عجوزاً دردبيسا، عاشت حياتها كلها متمتعة بالاحترام ورفقه المقام بين قومها. وما أن قدرّ [امغاريس] أنها قضت، حتى أشار الى [اغيسيتراتا] بالدخول ان شاءت. فطالعها جسد ابنها مسجى على البلاط، وامها تتدلي مشنوقة. فكان اول ما صنعت انها مدت بدها لمساعدة المنفذين على انزال جثة امها، ثم غطت وجهها واسحبتها الى جانب جثة ابنها قائلة وهي تعانقه وتلثم وجنتيه:

- آه يا بني. ان شفقتك العظيمة وطيبة قلبك الفائقة هي التي جلبت لنا ولك الدمار.

كان [امغاريس] واقفاً يرقبها من خلف الباب فانفجر غاضباً وصاح:

- مادمت تقرين اعمال ابنك فمن الاجدر ان تقاسيمه مصيره فنهضت ومدت عنقها وهي تقول:

- آمل ان يكون هذا الفداء لصالح سپارطة.

وعرضت الجثث الثلاث للملأ. وتبدت الحقائق وهتك السرِّ، ولم يكن ثمّ خوف على درجة من القوة بحيث يمنع الناس من الاعراب عن فرط تقززهم واشمئزازهم والتصريح بكرههم

لليونيداس وامغاريس محور المؤآمرة. كان عملاً وحشياً لم تشهد سپارطة مثله منذ ان سكن [الدوريون Dorians] ارض الپيلوونيس. وقال السپارطيون أن الاعداء أنفسهم يتحرجون من سفك دم ملك لقيديمي، فينكصوا عنهم ويتحاشوهم في اثناء المعارك، يدفعهم الى ذلك شعور الاحترام والتوقير. ونحن في الواقع نجد انه لم يقتل من ملوكهم في سوح المعارك الكثيرة التي خاضتها سپارطة مع سواهم من الاغريق منذ تأريخها الأول حتى عصر فيليب المقدوني غير [كليومبروتوس] الآخر الذي قتل بطعنة رمح في موقعة [ليوكترا]. واني لا أجهل تأكيد المسينيين بأن [ثيومپوپوس Theompopus] قتل بيد قائدهم [ارسطو مينوس Aristo-menes] الاّ ان اللقيديمين ينكرون ذلك قائلين: بل جرح فحسب.

لكن تلك هي مشيئة الاقدار. ومما لاريب فيه ان [اغيس] هو أول ملك ينفذ فيه الايغور حكم الموت في لقيديمون لمحاولته تطبيق شريعة نبيلة بذاتها قمينة بمواطنيه قتل في زمنٍ كانت احظاء البشر تقابل عادة بالسماحة والغفران السريع. فان كان [آغيس] مخطئاً حقاً فان لوم خصومه له كان يجب ان يكون أقل من لوم اصحابه؛ بسبب ذلك الطبع السمح النبيل والشعور المرهف الذي دفعه الى انقاذ حياة قاتله [ليونيداس]. وبسبب ايمانه ايضاً بطيبة الناس الآخرين.

١٩٧٢/١/٢٣



« منيرفا »

کلیومینس

CLEOMENES

235 – 222

تلك هي حكاية سقوط [آغيس]

كان أخوه [ارخيداموس] أسرع من [ليونيداس] فأنقذ حياته بالفرار في اللحظة المناسبة. ألاّ انه ترك وراءه [آغياتيس] زوجه مع طفلها. فأجبرها [ليونيداس على ترك دارها وارغمها على الزواج من ابنه [كليومينس] وكان في ذلك الوقت اصغر من ان يصلح للزواج، اذ كان لايريد أن يحظى بها آخر، لأنها ورثت اموالاً وضياعاً واسعة من ابيها [غيليپوس Gpli-pus]. وكانت اجمل نساء بلاد الأغريق وأكثرهن جاذبية وفتوةً واعلاهن خلقاً. لذلك قالوا انها بذلت جهداً كبيراً لتفادي هذا الزواج الاجباري. فابغضت ليونيداس بعد اتمام العقد، وأظهرت للزوج الجديد الفتيّ لطفاً وامانةً. وما ان عرفها حتى علق بها وهام بها حباً. واشربته نفس العطف الدائم الذي كانت تكنّه [لآغيس] فأخذ يكثر من السؤال والاستفسار عما وقع له، ويصغي بانتباه شديد الى مأساته وغاياته واهدافه. وشبّ الفتى بروح سمحاء وخلق رضيّ. وبدا كآغيس في اعتداله وقصده عن المتع. الاّ انه لم يكن بمثل نبله وشكه وحذره. كان ثم شيء من الحرارة والاندفاع ينخسانه نخساً دائماً، وكان ثم عنف ونفاذ صبرٍ في شوقه الى كل ما يراه عادلاً وحسناً. ومن رأيه ان اخلاص الرجال وولاءهم بملء اختيارهم هو خير ضابطٍ لهم. لكنه كان يرى ان سحق منادمتهم وارغامهم على سلوك السبيل الفضلى. هي من الشجاعة على جانب كبير ومما يستحق التقدير.

طباعه هذه، جعلته كارهاً لنظام الحكم في المدينة. فالمواطنون سادرون في لهوهم وعبثهم الخامل المكسال. والملك في شغلٍ شاغل عن تبعات الحكم، تاركاً للأمور حبلها على غاربها، متمنياً الاّ يقلق راحته أحد بواجب او يشغله عن ملذاته واستمتاعه بغناء عملٌ جُدّي. وتطرق الاهمال الى المصالح العامة وراح كل مواطن يجرى وراء منافعه الخاصّة. وبعد قتل [آغيس] بات التلفظ بكلمات «التمارين، وتدريب الشبان، والضبط» وما شاكل، من الخطورة بمكان. وأما الحديث عن التقشف وترويض النفس على الاعتدال، وعن المساواة والتحمل فكان اشبه بارتكابك جريمة الخيانة العظمى ضدّ الدولة.

ولقد قيل ان [كليومينس] تلقى الفلسفة في صبا. من [سفيروس Sphærus] [البوريستنيني Borystenite] الذي أجتاز البحر الى سپارطة وقضى ثم ردحاً من الزمن معانياً المشقة في تعليم الفتى وتهذيبه. وهو أحد اوائل تلاميذ [زينو] [الكيتي Citiean]. والأرجح انه أعجب برجولة كليومينس فالهب طموحه. ويروى عن [ليونيداس] الأول، انه سئل عن رأيه في شعر [تيرتيوس Tyrtaeus] فأجاب:

- انه يصلح لشحذ شجاعة الشبان.

ذلك لأنه اشعاره تملأ نفوس بحرارة النار الآلهية فتراهم يندفعون غير مبالين بأي خطر. كذلك الفلسفة الرواقية، فهي مهيج شديد للطبع الناري القوي. فاذا مازجّها الهدوء والرقة اصابت غاية النجاح في هداية المرء الى الصالح والطيب من الأعمال.

خلف [كليومينس] اباه [ليونيداس] بعد وفاته. فوجد الفجور والتحلل مستولين على نفوس المواطنين عموماً: فالأغنياء لايكترثون بالمصلحة العامة، وهم عنها في شغل بمصالحهم الخاصة ولذاذاتهم. والفقراء قد ركبهم الشقاء، قابعون في بيوتهم وقد فقدوا الروح القتالية وعافوا التمارين والانظمة السپارطية عماد حياتهم الاجتماعية، والملك، لايملك من الملك غير اسمه والايغور قد حصروا السلطة كلها في ايديهم. فعزم ان يغير هذه الحال تغييراً تاماً. واختلى بصديقه الخليل [كزيناريس Xenares] (عاطفة صداقة بهذه يعبر عنها السپارطيون بكلمة ملهم، أو الحَالّ فيه) وكاشفه بعزمه وأخذ يستوضح منه عن آغيس. ويسأل اي نوع هو بين الملوك؟ وبأي الوسائل توسل، وبماذا استعان للبدء في تنفيذ اهدافه ومراميه؟ في اول الأمر بادر [كزيناريس] الى تلبية طلب صديقه بسرور، وقص عليه قصة آغيس بتفاصيلها وعواقبها وظروفها. ولما وجد [كليومينس] شديد التأثر بما يسمع، مرهفاً سمعه الى حديثه عن نظام الحكم الجديد الذي ابتدعه آغيس، ملحاً عليه باعادة الكلام؛ أخذ يؤنبه تأنيباً شديداً ووصمه بالجنون. ثم ازورّ عنه واجتواه، لكنه لم يخبر أحداً بسبب الجفوة وكان يقول فحسب:

- سلوا كليومينس فهو أعرف بالسبب.

وأعتقد [كليومينس] ان الجميع على شاكلة [كزينارس] في صدودهم عن اهدافه، فسكت ولم يبح بسرّه لأحد. وانما بدأ ينظم خططه ويتدارس مشاريعه في نفسه وقد استقّر رأيه بأن الانقلاب الذي اعتزمه هو أسهل تنفيذاً عندما تكون المدينة في حالة حرب منه عندما تكون في حالة سلم. فعمل على استحداث خلاف بين الدول الاغريقية وبين الآخائيين الذين زودوا تلك الدول بالمبررات الكافية للشكوى. كان [اراتوس] وهو أعظم الرجال قوة وشوكة بين كل

الاخائيين، يريد ان يوحدّ كل بلاد [البلوپونيسيس] وقد نذر لهذا الغرض حياته السياسية الطويلة، والقيادات العديدة التي تولاها. اذ وجد ان الوحدة السياسية هي انجع وسيلة للم شعثهم وجعلهم قوة يعتد بها امام اعدائهم. وقد اتفقت كلمتهم تقريباً على تحقيق تلك الوحدة خلا اللقيديميين والاليائيين والقسم الذي يعتمد المصالح السپارطية من الاركاديين فهؤلاء لم يتفقوا. وما ان قضى [ليونيداس] نحبه، حتى شرع [اراتوس] بمهاجمة الاركاديين وراح يعيث نهباً وسلباً في بلادهم، ولاسيما الجزء الذي يتاخم [آخائيا]. كان يحاول بهذا، جسّ نبض السپارطيين مستهيناً [بكليومينس] لكونه شاباً يافعاً ليس له حظّ من التجارب لا في السياسة ولا في الحرب.

أرسل الايغور [كليومينس] لمفاجأة الآثينيين قرب [بلبينا Balbina] وهو شعب جبلي يشرف على مداخل [لاقونيا] وكانت ملكيته آنذاك موضع نزاع بينهم وبين [الميغالوپوليتيين] فأحتله [كليومينس] واقام عليه التحكيمات. فلم يبد من [اراتوس] مايدل على استيائه لكنّه زحف ليلاً لمباغتة [تيغيا] و[ارخومينوس Orchomenus] الاّ ان خطته هذه أصيبت بالاخفاق لجبنٍ واحجام ساور أولئك الذين تفاهم معهم على تسليم المدينتين له غدراً، وانسحب معتقداً ان عمليته هذه مرت دون أن يكشفها أحدٌ الاّ ان [كليومينس] كتب اليه رسالة يسخر فيها منه متسائلاً الى اين يريد السرُى ليلاً؟ وطالبا ان يعلمه بوصفه صديقاً له! فأجاب [اراتوس] انه عزم ان يتوجه اليه ويقاتله بعد ان سمع عن نيته في تحكيم ممر [بلبينا]. فردّ [كليومينس] بقوله: لا اعتراض له على ذلك لكنه يرجو منه الاجابة ان سمح له بالسؤال - لماذا كان يحمل معه المشاعل والسلالم؟

فضحك [اراتوس] للنكة وسأل عن الشاب أي نوع من الشباب هو؟ فأجاب [داموقراطس Damocrates] وهو سپارطي منفيّ:

- إن كنت قد اعتزمت شيئاً ضد اللقيديميين فأسرع به، قبل ان يستنسر البُغاث وتطول نخالبه.

بعد هذا مباشرة، عسكر [كليومينس] في اركاديا بقليل من الخيالة وثلاثمائة من الرجالة. وهنام تسلم من الايغور أمراً بالعودة، خشية ان يشتبك في قتالٍ وفي اثناء رجوعه استولى [اراتوس] على [كافياي Caphyae]. فأمروه بالعودة من حيث اتى وفي طريقه استولى على [ميثيديوم Methydium] واجتاح بلاد [الارگيف] فأنبرى له الاخائيون بعشرين ألفاً من الرجالة والفٍ من الخيالة يقودهم [ارسطوماخوس Aristomachus] فالتقاهم كليومينس في [باللانتيوم Pallantium] وأخذ يتعرض لهم. واوقعت جسارته الخوف في قلب [اراتوس] فمنع جنراله من الاشتباك معه واشار عليه بالتقهقر متعرضاً لوابل من تقريع الآخائيين وشماتة

السپارطيين الذين لم تزد قواتهم عن خمسة الآف . وشدد هذا النجاح من عزيمة [كليومينس] ، وراح يتكلم بين مواطنيه بجرأة مذكراً اياهم بمقولةٍ لأحد الأولين وعقب عليها: «من العبث الآن أن لايسأل السپارطيون كم كان عدد اعدائهم بل اين هم؟». ثم سار بعد هذا النجدة الاليائيين الذين كانوا يتعرضون لهجمات الآخائيين، فأنقضّ عليهم وهم يتراجعون بالقرب من [ليقيوم Lycaeum] واوقع الهزيمة الشنعاء بكامل جيشهم وأخذ عدداً كبيراً من الأسرى، وخلف كثيراً من قتلاهم في ميدان القتال، حتى انتشر بين الاغريق ان [اراتوس] بين القتلى. لكن [اراتوس] استثمر الشائعة على خير وجه فزحف بعد الهزيمة مباشرة الى [مانيتنيا] واستولى عليها بسرعة خاطفة قبل ان يشعر أحد بما حصل. ووضع فيها حامية. فأنحطت معنويات اللقيديمين كثيراً بهذا الخذلان. وعارضوا في قرار [كليومينس] بمواصلة الحرب. فلم يكن منه الاّ أن أستدعى [ارخيداموس] شقيق [آغيس] من [مسينيه Messene] ليتبوأ العرش معه باعتباره من اعضاء الاسرة المالكة الثانية، وقصده من هذا اضعاف سلطة الايغور بملء الشاغر في العرش واكمال سلطة الملك، فأستولى الخوف على أولئك الذين شاركوا في القضاء على [آغيس] ، لئلا يطلب منهم تقديم الحساب على فعلتهم بعد قدوم [ارخيداموس]. وخرجوا بصورة مكتومة لاستقباله عند دخوله المدينة ورافقوه مع المرافقين الى داره، وهناك قتلوه. ولم يتأكد - على رأي [فيلارخوس] أن [كليومينس] كان ضدّ هذه الفعلة. ام انه تركه سائباً بين ايديهم. ام أن صحبه أقنعوه باطلاق يدهم فيه، وعلى اية حال فأعظم الذنب يقع عليهم لأنهم أرغموه على الموافقة.

وبقي مصراً على أجراء تغيير في النظام السياسي، وعمد الى رشوة الايغور ليرسلوه على رأس حملة عسكرية. كما فاز بودّ الكثيرين بمساعي امه [كراتيسيكليا Cratesiclea] التي لم تبخل بجهد في سبيل تحقيق مطامح ابنها. ومع انها كانت عزوفاً عن الزواج، لكنها في سبيله قبلت الزواج باحد أكبر شخصيات المدينة غنى ونفوذاً.

وخرج كليومينس يقود جيشاً اسپارطياً فأستولى على [ليوكترا] وهو موضع من بلاد [ميغالوپوليس] فأسرع الآخائيون لصده بقوات كبيرة تحت أمرة [اراتوس] فأشتبك الجيشان تحت اسوار المدينة نفسها، فأندحر قسم من جيش [كليومينس] وأمر [اراتوس] الآخائيين بان يقفوا عند مجرى النهر العميق ولايعبروه وبذلك تتوقف المطاردة. الاّ ان هذه الأوامر اغاظت [ليدياداس Lydiadas] الميغالوپوليتي، قائد الخيالة، فعصيها وحث خيالته فعبرت النهر معقبة العدوّ المنهزم، ودخلت ارضاً يملأوها الكرم والسواقي والأخاديد فدبت الفوضى في صفوفها واضطر الى التقهقر دون انتظام. وكان [كليومينس] يتابع الموقف فوجده قد انقلب

لصالحه واصدر أمره الى التارنتيين والكريتيين بالكرّة عليهم فهزموهم بعد دفاع مجيد وقتل قائدهم. فأرتفعت معنويات اللقيديميين وأشتدت عزائمهم وانقضوا على الآخائيين وطلقين صرخة عظيمة فهزموا الجيش بكامله. وكان عدد القتلى ما عدا جثة القائد [ليدياداس] فقد أمر باحضارها ولفّها بثوب ارجواني وتوج هامتها وأرسلها مع حرس خاص حتى ابواب ميغالوپوليس.

تلك هي نهاية [ليدياداس] الذي تنازل عن سلطات الطاغية بملء أختياره وأعاد للمواطنين حرياتهم وضمّ مدينته الى وحدة الحلف الآخائي.

تاه [كليومينس] عجباً بنفسه لنجاحه هذا، ومال الى الظن بأنه سيصبح اشدّ خصوم الآخائيين خطراً وبأساً لو أجتمعت السلطة كلها في يده. فمال الى زوج امه [ماغستونيس] واقنعه بان مصلحة الدولة تستوجب تصفية سلطات الايغور، وجمع الاموال الخاصّة كلها في بيت مال مشترك عامٍ. وبذلك تعود سپارطة الى سابق عهدها من المنعة وتعمها المساواة وتتبؤا مجدداً مكانتها الأولى في قيادة بلاد الاغريق كلها. فراقت الفكرة لماغستونيس] وحصل على تأييد اثنين أو ثلاثة من صحبه.

في حدود تلك الايام كان أحد الايغور نائماً في هيكل [پاسيفلي] فرآى حلماً غريباً جداً. خيل له انه شاهد اربع كراس ترفع من الموضع المخصص لجلوس الايغور عندما يباشرون اقضيتهم، وان شخصاً واحداً جلس في محلهم. وفيما هو متعجب سمع صوتاً من داخل الهيكل يقول:

- هذا هو الحلّ الأفضل لسپارطة.

وقص حلمه على [كليومينس] فأضطرب في مبدء الأمر وخشي ان الايغور يستخدم قضبه هذه طعماً لاستدراجه ومعرفة نواياه بعد ان ساوره الشكّ فيها. لكنه ما لبث ان تأكد بأن محدثه سليم النية وانه لم يجانب الحقيقة فيما قاله فأشتدت عزماته ثانية. وخرج للحرب مصحوباً بمن اعتقد انهم أشدّ المعارضين له. فأستولى على [هيريا Heræa] و[آلسيا Alsæa] وهما مدينتان تنتميان للعصبة (الآخائية) وزود [اورخومينوس] المعسكر امام [مانتينيا] بالارزاق. وانطلق في مسيرات طويلات صعداً ونزلاً حتى القى الرعب في قلوب معارضيه اللقيديميين الذين أخرجهم معه، وطلبوا منه ان يتركهم في [اركاديا] ففعل أما هو فكرّ راجعاً الى [سپارطة] على رأس المرتزقة من جيشه وانهى بسرّه لأولئك الذين تأكد من صلاحهم لاغراضه وسار سيراً بطيئاً لمداهمة الايغور وهم يتناولون عشاءهم.

ولما اصبح على مسافة قصيرة من المدينة بعث [يوركليداس Eurclidas] الى قاعة المائدة العامة حيث يتناول الايغور عشاءهم. بحجة نقل رسائل منه عن الجيش اليهم. ثم لحق به [تيريكون Therycion] و[فيوبس Phoebis] وهما من اتراب [كليومينس] وقد ربيا سوية (يسمونهم موثاكيس Mothaces) مزودين بعدد قليل من الجنود. وبينما كان [يوريكليداس] يسلم الرسالة للايغور، أقتحم الآخران القاعة وبيديهما السيوف مشرعة وانقضّ الجميع على الايغور وقتلوهم: أولهم [آغيليوس Agylæus] هوت عليه ضربة سيف فسقط لاحراك به كأنه ميت. الاّ انه تحامل على نفسه بعد قليل وجرّ جسمه جراً حتى خرج من الغرفة وزحف دون ان يفطن اليه أحد متجهاً الى بناية صغيرة مخصصة لآله (الخوف) وهي في العادة مغلقة، لكن المقادير شاءت ان تكون مفتوحة وقتذاك. فولج وأغلق الباب وراءه وأستلقى منتبهاً.

قضي على الايغور الاربعة الباقين، واشفعوا بعشرة آخر أقبلوا لنجدة زملائهم. ومن لم يأت بعمل أو حركة تجاوزه القتلة ولم يعترضوا سبيل من فرّ من المدينة. وتركوا [آغيليوس] وشأنه عندما غادر المعبد في اليوم التالي.

فضلاً عن تخصيص [اللقيديميين] أماكن مقدسة (للخوف) فأنهم اقاموا بنايات مماثلة لـ(الموت) و(الضحك) وغير ذلك من العوارض والعواطف البشرية. وعبادتهم للخوف، تختلف عن عبادتهم لقوى ما فوق الطبيعة التي يرهبونها لكونها قادرة على الحاق الأذى بهم. يعبدون «الخوف» لاعتقادهم بأنه الضمان الرئيس لبقاء دولتهم (ومرجعي في هذا ارسطو). فقبل أن يتسلم الايغور الجرد الحكم يصدرون بياناً للشعب، يعدون فيه بأنهم سيحلقون شواربهم وسيخضعون لأحكام القانون. وسوف لايجعلون القوانين شديد الوطأة على الناس. يرددون هذه العهود التافهة ليعودوا شبانهم على الطاعة حتى في أصغر الأمور. وأميلُ الى الظنّ بأن الاقدمين لم يدركوا ان الشجاعة التي هي عدم الخوف في عرفهم، هي في الحقيقة الخوف الذي يحذر اللوم والعار. ان الذين يظهرون أعظم الجبن ازاء القانون هم أجل الناس على اعدائهم. وأولئك الذين اقلّ من غيرهم خوفاً عند الخطر هم أكثر الناس خوفاً من التأنيب المستحق. ولله درّ القائل:

- مازال الاحترام واجباً للخوف.

وقول هوميرس: ستكون يا ابت العزيز مخوفاً ومحترماً.

وقوله ايضاً: بخوفٍ صامت يتحملون الإضطهاد

وفي الناس عموماً استعداد كبير لاحترام كل من يرهبونه لذلك شيد اللقيديميون معبداً للخوف لصق دار الايغور [سيسيتيوم Sysissitium] ورفعوا مقام هذه السلطة حتى ضاهت سلطة الملك.

وفي اليوم التالي للمذبحة، اصدر [كليومينس] قراراً بنفي ثمانين مواطناً، رأى ابعادهم عن سپارطة ضرورياً. كذلك رفع مقاعد الايغور كلها، خلا مقعداً واحداً يجلس هو عليه لاجراء المقابلات الرسمية ولانفاذ الأحكام. ودعا المواطنين كلهم الى اجتماعٍ عامٍ. وخطب فيهم معتذراً عما قام به من تدابير بقوله:

- قضت شريعة [ليكورغوس] ان يحكم [مجلس الكبار] الى جانب الملك. وقد بقي هذا النظام معمولاً به مدة طويلة. ولم تدع الحاجة الى اتخاذ اي هيئة حاكمة أخرى، وفي اثناء الحرب الطويلة مع المسينيين، كان الملوك الذين هم قادة الجيش لايجدون وقتاً كافياً لنشر العدل بين المواطنين وتصريف شؤونهم لغيابهم. فكانوا يختارون اصدقاء لهم فينيبونهم للفصل في قضايا المواطنين وتسوية مشاكلهم، وأطلق على هؤلاء النواب اسم [الايغور] وكانوا في مبدء الأمر يعتبرون أنفسهم خدماً للملوك لا أكثر، لكنهم بدءوا بالتدريج يغتصبون السلطة، حتى تكونت منهم هيئة حاكمة أخرى متمايزة والدليل على هذا، ذلك التقليد الذي مازال يتبعه الملك. فعندما يرسل الايغور يطلب حضوره، يمتنع عن الدعوة الأولى، وكذلك يفعل عندما يدعى ثانية. ولايتوجه اليهم الاّ عند الدعوة الثالثة. وكان [استيروپوس Asteropus] اول من رفع الايغور الى أعلى درجة من المكانة واحرز لهم السلطة العليا، وعاش سنوات عديدة بعد ذلك. الاّ انهم كانوا طوال وجوده يعملون ضمن نطاق صلاحيتهم ولايخرجون عنها وكانت مجاراتهم ومماشاتهم أفضل من الخلاف معهم اجتناباً للفتنة. لكن الخضوع لدعيٍّ، حديث عهد بالسلطة لايتورع عن تغيير نظام الدولة أمرٌ يصعب احتماله. فقد اصبح الايغور ينفى ملوكاً، ويقتل آخرين دون ان يسمع لهم دفاع، ويتوعد بالويل أولئك الذين يطمحون الى اشاعة أفضل وأقدس نظام حكم شاهدته [سپارطة]. ولو كان في وسعي تحرير لقيديمون من ربقتهم بدون سفك دماء لفعلتُ، ولو تمكنتُ من انقاذ بلادي من تلك الاوبئة الوافدة: الترف، والديون والبذخ، والربا؛ ومن أقدم شريّن على الأراض: الغنى الفاحش والفقر المرقع لعددت نفسي اسعد ملوك الدنيا بنجاحي، الشبيه بنجاح الطبيب النطاسي عند قضائي على امراض بلادي دون احداث الآم. لكن الضرورة الجأتني الى الاقتداء بليكورغوس في اجراءاتي. لم يكن ليكورغوس حين قام بانقلابه، ملكاً أو حاكماً، بل

كان رجلاً عادياً عندما وجّه ضربته الى الملكية المطلقة. فقد دخل الساحة العامة شاكي السلاح. ففرّ الملك [خاريللوس Charillus] خائفاً والتجأ الى الهيكل، وكان انساناً صالحاً عاقلاً محباً لوطنه، فسارع بقبول اصلاحات [ليكورغوس] واقرّ التغيير الثوريّ في نظام الحكم. ان عمل [ليكورغوس] يقدم لنا الدليل الدامغ على صعوبة الانقلاب بدون استعمال القوة واشاعة الخوف. وكان باستعمالهما معتدلاً مقصداً، لم يفعل شيئاً أكثر من ازاحته أولئك الذين وقفوا عقبة في طريق سپارطة الى السعادة والأمان.

وقال لبقية الشعب:

- أصبحت الأراضي جميعها ملكاً مشاعاً فيما بينكم، وستبرأ ذمم المدينين من ديونهم كلها. ويجرى الفحص على كل فرد لايملك حق المواطنة، فالأشجع سيصبح سپارطياً حُراً، يستخدم سلاحه للمحافظة على المدينة. وبهذا لن تشكو لاقونيا بعد الآن قلة المدافعين عنها، ولن تترك نهباً مقسماً بين الايتوليين والأليريين.

بعد هذا أعلن هو وزوج امه [ميغستونس] وصدقانه تنازلهم عن كل املاكهم لبيت المال العام، وأقتدى به جميع المواطنين. وقسمت الأرضون وجعل لكل من نفاه حصة في التقسيم ذلك لأنه وعد باعادتهم جميعاً حالما تستقر الأمور، وتهدأ. وأكمل ما نقص من عدد المواطنين بأفضل سكان الريف، وخير من توسّم فيه الكفاءة. وبذلك جنّد اربعة آلاف مقاتل صنديد. ونبذ الحربة سلاحاً. وعلمهم استعمال ما يدعى [ساريسا Sarissa] بكلتا اليدين، واستبدل قبضة الترس الاعتيادية بسير. ثم بدأ بمشاوراته حول وضع منهاج لتهذيب الشبان وتمرينهم او «انضباطهم» كما يطلقون عليه. فتولى معظم التفاصيل المدعو [سفارس Sphares] الذي كان موجوداً في سپارطة وقتئذ. وما هي الأ فترة وجيزة حتى عادت معاهد الرياضة البدنية والموائد الاشتراكية الى سابق عهدها الزاهر، ونظامها المتقن الغابر. وعاد معظم الناس بملء أختيارهم خلا فئة قليلة بحكم الضرورة - الى ممارسة الحياة اللاقونية الأولى السمحاء. وتحاشياً من يعود اسم الملك ليثير الحسد في النفوس، بادر الى اشراك أخيه [يوكليداس Eu-clidas] في العرش. وهي المرة الأولى التي يحكم في سپارطة ملكان من أسرة واحدة.

وعلم ان [اراتوس] ومن ورائه [الاخائيون] توهم بأنه انقلابه هذا اشغله واورثه كثيراً من المتاعب والمشاكل، ولم يترك له مجالاً للمجازفة بالخروج من سپارطة المتقلبة على رمضاء هذا الانقلاب العظيم. فوجد [كليومينس] من المفيد والرائع حقاً.

ان يذيق اعداءه طعم إقدام جنوده وتفانيهم. فغزا بلاد [ميغالوپوليس] واجتاحها اجتياحاً.

وشملت عملياته الحربية مساحة واسعة منها وتوغل بعيداً فيها، وفاز بكثير من الغنائم. ثم احتجز جوقاً من الممثلين كان في طريقه الى [مسينيه] وبنى مرسحاً في بلاد العدوّ ووضع جائزة تعادل اربعين مينا. وجلس يشاهد العرض المرسحي طوال اليوم، ليس لأنه بحاجة الى التسلية أو لكونه يحبّ التمثيل بل لاظهار مدى استهانته باعدائه. فبهذا يبرهن على مدى تفوقه ان جيشه وحده دون سائر الجيوش الملكية الاغريقية لم يزود بممثلين او دجالين او راقصين. او مغنيات، فقد خلا من كل شكل للدعارة والفجور ومظاهر الترف. الشباب من الجنود يقضون معظم الوقت في التدريب، والكبار منهم يشرفون على تدريبهم وتلقينهم دروساً في «الانضباط». وفيما عدا ذلك يَتَسلون بتبادل الملح والفكاهات المحليّة، ويتراشقون بتلك الاجوبة اللاقونية المحكمة السريعة، وكنا قد لحظنا النتائج الباهرة التي اسفرت عنها هذه الاساليب، عندما تصدينا لسيرة ليكورغوس.

وجعل [كليومينس] من نفسه قدوةً. فقد كان نموذجاً حياً للبساطة امام كل ذي عينين. فلم يسمح لنفسه بمستوى عيشٍ أعلى او أفخم من مستوى عيش مواطنيه. وهذا ما حقق له المكانة الفضلى عند الاغريق. ان الناس الذي يخدمون الملوك لايعجبون بغناهم واثاثهم الثمين وعدد الخدم والعبيد الذين يحفون بهم قدر ما يكرهون غطرستهم وكبريائهم وصعوبة الوصول اليهم، واجوبتهم المتكبرة للسائلين. وهذا مالا تجده عند [كليومينس] فهو ملك في الواقع، يحمل اللقب الملكي الاّ ان زائره لايرى ارجواناً ولا حللاً ملكية مقصبة ولا محفات ولا ارائك يتقلب عليها مريحاً جسمه. وسائله لايرى الباب مغلقاً بوجهه ولايتسلم رداً على طلبه بعد صعوبات وتأخير لكثرة السعاة والحجاب، ولايحظى بالاجابة عن طريق المذكرات، فكليومينس، ينهض ويتقدم باي ثوبٍ يتفق انه ارتداه في ذلك اليوم - فيستقبل ذوي الحاجات والزائرين، ويكلمهم بدون كلفة أو تحفظ. وبذلك يجتذبهم ويفوز بمحبتهم؛ مصرحاً بأنه الوحيد الذي هو ابن هرقل الحقيقي. ويتناول وجبات طعامه العامة في غرفة عادية قليلة الأثاث على الاسلوب اللاقوني. فاذا استضاف اجانب او سفراء اضاف الى الاثاث اريكتين. ويأمر خدمه بأن يجعلوا طعامه أرقى من المعتاد بشيء قليل، وليس معنى هذا أن تضاف الى اصنافه الحلوى والمقبلات، واطايب المأكول. بل تبدل الصحاف، بأخرى أكبر منها. وتزاد كمية الخمر. وقد أنب صاحباً له لأنه دعا بعض الاغراب الى طعام لايزيد عن الخبز الشعير والشوربا ء السودا ء. وهو الطعام الذي يتناولونه عادة، في موائدهم الاشتراكية المسماة [فيديتيا Phiditia]. وعتب عليه بقوله: في مثل هذه المناسبات، عندما يدعى اغراب الى الطعام، ليس من المستحسن أن يكون المرء لاقونياً بكل معنى الكلمة.

وبعد أن ترفع المائدة، يؤتى بمحمل عليه وعاء نحاسي مليء بالخمر ويؤتي بجرتين فضيتين تتسع الواحدة منهما لحوالي ليترٍ واحدٍ من الخمر، ويؤتى بعدد من الاقداح الفضية. وتترك الحرية لمن يريد ان يشرب ومن لايريد، ولايلحّ على الضيوف قطّ. ولايوجد موسيقي. [فكليومينس] يقوم بتسلية الضيوف بالقاء الاسئلة حينا، وبرواية الحكايات حينا. ولم يكن حديثه بالرزين كثيراً ولا بالجديّ المملّ ولا بالخشن ولا بالفكاهة المعيبة.

وكان يمقت استخدام الجوائز والعطايا وسائل للايقاع بالرجال كما يفعل الملوك الآخرون. فهو يعتبرها اساليب زائفة متجردة عن الشرف. وبدأ له أن الانبل والاجدر بالملوك لكسب محبة المقربين منهم هي تبادل الاحاديث الرقيقة والمحاورات الممتعة؛ مادام الفارق الوحيد بين الصديق والمرتزق هو كسبنا الأول بالحديث المخلص وشرف الخلق. وكسبنا الثاني بقوة المال.

كان [المانتينيون] اول من طلب معونة [كليومينس] فدخل مدينتهم ليلاً وتعاون الطرفان على طرد الحامية الآخائية ووضعت المدينة تحت الحماية اللقيديمية. فأعيد نظام الحكم السابق وشرع في تطبيق قوانينهم الأولى. وفي اليوم التالي زحف على [تيغيا]، ثم أخترق اركاديا بحركة دائرية وانقضى فجأة على [فيري Pherae] في آخائيا، وقصده من ذلك ارغام [اراتوس] على التعرض له، والاّ انحطت سمعته لأن احجامه سيدفع [كليومينس] الى التوغل في البلاد.

كانت القيادة الآخائية في تلك الفترة بيد [هيبرباتاس Hyperbatas] إلاّ أن [اراتوس] كان صاحب السلطة الأصيلة الحقة. فتقدموا بكلّ قواتهم وعسكروا في (ديمي Dymae) بالقرب من [هيكاتومبيوم Hecatombaeum] فأقبل [كليومينس] ووجد أن ضرب مخيمه ما بين [ديمي] المدينة العدوة وبين معسكر الآخائيين، ينطوي على محاذير. فما كان منه الاّ وتعرض للآخائيين بكلّ جسارة وارغمهم على دخول المعركة وهزم [فلانكسهم] وقتل عدداً كبيراً منهم واخذ أسرى كثيرين ومن ثم زحف على [لانغون Langon] وطرد منها الحامية الأخائية وردّ المدينة للاليائيين حلفائه.

ولما تحرج وضع الآخائيين وساء، طلبوا من [اراتوس] والحوا وتوسلوا بأن يتولى القيادة، وكان قد رسم ان يتولى سنةً ويعتزلها سنةً، فأبى وكان في ابائه مخطئاً. فعندما يشتد هبوب العاصفة لايجمل بالملاح ان يستنكف عن الدفّه، ويسلمها الى شخصٍ آخر.

في مبدء الأمر أقترح [كليومينس] للصلح، شروطاً بسيطة معتدلة وارسل سفراءه للآخائيين. ثم أعقبهم بآخرين مطالباً لنفسه القيادة العليا للعصبة، أما في الأمور الأخرى فقد أظهر استعداد للمافقة على شروط سهلة، وعلى اعادة الاسرى اليهم وارجاع اراضيهم. وكان

الآخائيـون راغبين في الصلح على اساس هذه الشروط، ودعوا [كليـومـينس] للحضـور في [ليرنا Lerna] حيث سيعقد اجتمـاع لبحث الأمر. الاّ أن اسراع [كليومـينس] في السـير وشربه الماء في اوقات غيـر مناسبة جعله يتقيأ مقداراً من الدم، وبحّ صوته ولم يعد يقوى على الكلام. فـتوقف وبعث للآخائيين بأهم الأسـرى، وارجأ الاجـتمـاع الى أمدٍ وقـفل عـائداً الى لقيديمون.

هذا التـأخير غيـر المتوقع اديّ الى خراب الأغريق ودمارهم وقد بدأوا او كـادوا ينهضون من كبوتـهم ويتخلصون من المحن والارزاء التي اخنت عليـهم. فبدأوا يبدون بعض الكفاءة والمقدرة في استخـلاص بلادهم من نير المقدونيين وعسـفهم. فقد جاهد [اراتوس] اولاً، لإحباط الاتفاق بين [كليومـينس] والآخائيين (اما خشيـة منه أو عدم ثقـةٍ به أو حسداً من النجاح غيـر المتوقع الذي اصابه الملك الفتى او ربما وجد مما يحطّ من قـدره ان يخلفه في كل مجده وسطوته فـتى غضّ الأهاب، وهو الذي تولـى القيـادة العليـا لمدة ثلاثة وثلاثين عـامـاً، لم ينازعـه فـيـهـا أحد، ليـأتي كليـومـينس بعـدها فـيـرأس تلك الحكومـة التي تعب في بنائها ووضـع أسسـهـا هذه السنوات الطوال). فلم يصغ الأخائيون اليـه، خوفاً مـن اقدام [كليومينس] واقتناعـاً منهم بأن الشـروط التي عـرضـها المقدونيـون معـقـولة جداً، وكلهـا ترمي الى اعـادة [الپيلوپونيس] الى وضعهـا الاعتيـادي الاول. فـضـاقت السبل في وجه [اراتوس] ووجد مرجعه الأخير في عـملٍ لايليق صـدوره من اي اغـريقي. عـمل يحطّ من شرفـه كـثيـراً وينتقص من شجاعـتـه ومـآثره الجسام. فقد دعا [انتيغونس] المقدوني الى بلاده ومـلأ [الپيلوپونيس] بالمقدونيين. وهو الذي طرد حاميتهم من كورنث، ثم أخرجهم من البلاد في ايام شبابه. بل وأكثر من هذا فقد أثر عنه شكه العظيم وخلافه المستحكم مع سائر الملوك، وفي مقدمتهم [انتيغونس] نفسه، الذي أسند اليـه آلافاً من المثـالب والنقائص في تعليقـاته التي تركها بعد مـوته. لقد كـان [اراتوس] لائم الحديث عن الاهوال التي قـاساها والمخاطر والخسـائر الجسـام التـي تعـرض لهـا حتى تسنّى له تحـرير اثينا من حـاميـتـها المقـدونيـة وها هو الآن يأتي بنفـس الرجال وهم شـاكـو السلاح الى موطنه، بل الى منزله، بـل الى جناح نسائه فيـه. لأنه لايتحمل فـرداً من اسرة (هرقل) هو ملك سپـارطة الذي حقق انقلاباً اصلاحياً عظيماً في حكومة بلاده، وانقذها من التوافق الفـوضوي، ان جاز لنا القول، واعاد تطبيق الأنظمة الدورية Doric البسيطة، ونظام الحكم الذي كان يسود سپـارطة فـي عـهـد [ليكورغـوس]. فـهـو يسـتكثـر عليـه رئاسـة [التـريتيـان Tritaeans] و[السيكيـونيان Sicyinians] وفي الوقت الذي اسـتـأصل الغنى وأصلح أمر الـفـقيـر (وهذه تهمـة (اراتوس الفضلى لكيـومنيس) كان هو يتـرفع عن تناول خبز الشـعيـر وارتداء المعطف

الخشن، يعمد الآن الى ان يعنو طائعاً ومعه أخائياً بشكل مهين للتاج المقدوني وارجوانه واوامره التعسفية، وحكام اقاليمه. وبالغ في تكريم [انتيغونس] لكي ينأى عن كليومينس ويزيل اي شك في انه تحت امرته - فقدم قرابين باسم [انتيغونيا] مشتقاً من [انتيغونس] وانشد التراتيل الدينية وعلى رأسه أكليل الزهر، ممجداً مسبحاً بحمد مقدوني مهزول مصدور. أكتب هذا ولست انوى به النيل من [اراتوس] قطّ. فهذا الرجل اثبت في وقائع كثيرة صدق حبه للاغريق، الى جانب عظمته. وما ذكرت هذا الاّ اشفاقاً مني على الضعف البشري الذي يستولى على نفوس رفيعة، متمسكة باهداب الفضيلة في شتىّ صورها واشكالها، فيتعذر على اصحاب تلك النفوس ان يبقوا شرفهم غير مثلوم وان يحتفظوا بامجادهم الغابرة. بهفوة واحدة من هفوات الغيرة والحسد.

واجتمع الآخائيون في مؤتمر ثانٍ بـ[ارغوس] واقبل [كليومينس] من [تيغيا]. وكان الأمل كبيراً بتسوية جميع اسباب الخلاف. لكن [اراتوس] كان بالمرصاد، فقد اتفق هو [وانتيغونس] سلفاً على الشروط التي سيتمّ بها التحالف. وخوفاً من ان يأتي [كليومينس] ويجردهما من كلّ شيء، إمّا بالاتفاق التام، وامّا بارغام المؤتمر على الموافقة، فقد اقترحا ان يوضع بيد [كليومينس] ثلاثمائة من الرهائن لكي يدخل المدينة وحده. اذ يأتي بجيشه الى ساحة التدريب المسماة كلارابيون Cyllarabium، والواقعة في ظاهر المدينة، فيفاوض من هناك.

وأبلغ [كليومينس] بهذا فقال لهم انهم يسيئون معاملته، اذ كان عليهم أن يعلموه بنيتهم هذه من الأول. وها هم بعد أن قرع بابهم يظهرون ارتيابهم به ويسدون بابهم في وجهه، وكتب رسالةً الى الآخائيين في هذا الصدد، كان معظم ما فيها تهم موجهة [لاراتوس]. أما [اراتوس] فقد وقف في الاجتماع يشنّ عليه هجوماً عنيفاً. فأسرع [كليومينس] يرتحل عنهم. وارسل برقيا الى آرغوس [ايكيوم Aegium - في تعليقات اراتوس] يعلنهم بالحرب، لكيلا لايدع لهم وقتاً كافياً للتأهب والدفاع. ونجحت حركة مماثلة له بين الآخائيين انفسهم، وتهيأت المدن للثورة بلهفٍ لأن العامة من الناس كانوا ينتظرون من رآسة [كليومينس] توزيعاً للاراضي وتخلصاً من الديون. وكان رؤساء القوم في كثير من المدن لايطيقون [اراتوس] وبعضهم سخط عليه ونقم، لجلبه المقدونيين الى [البيلوبونيسس]. هذا التنابز والخلاف شجع [كليومينس] على غزو آخيا. فأستولى اولاً على [پلليني Pellene] بهجوم مباغت وطرد منها الحامية الآخائية، ثم ضمّ اليه [فينيوس Pheneus] و[پنتلليوم Pentelleum]. وشكّ الأخائيون بخيانة مبيتة لهم في كل من [كورنث] و[سيكيون Sicyon] فأرسلوا خيالتهم

ومرتزقتهم من ارغوس] وجعلوها عيوناً عليهما. وخرجوا الى ارغوس للاحتفال بالالعاب [النيمية Nemean] وعلم [كليومينس] بخروجهم، وكان يأمل بأنه سينشر رعباً شديداً ويحدث في صفوفهم اضطراباً واسع النطاق لو تقدم ليلاً وداهم المدينة وهي ساهية عنه لاهية بالالعاب وبما لايحصى من المشاهدين، فزحف بجيشه حتى اسوارها. ثم انقضت على الحيّ الذي يسمى [آسپس Aspis] ويقع الى شمال الملعب. وهو جيدّ التحصين يصعب التعرض له، بله الاستيلاء عليه، فكان الرعب الذي احدثه عظيماً. وبهت الجميع فلم يبد احد اية مقاومة. الاّ انه رضي منهم بشروط سهلة هي موافقهم على ابقاء حامية في المدينة، وتسليمه عشرين رهينة من مواطني المدينة. ومساعدة اللقيديمين والتسليم له بالقيادة العليا.

هذه المآثرة الحربية رفعت من شهرة كليومينس ووسعت نفوذه ودعمته. ظلت [ارغوس] ممتنعة عن كل ملوك سپارطة الاقدمين فمع محاولاتهم المتكررة لم يفلحوا في ضمها بشكل دائمي. و[پيروس] القائد المحنك الأكثر تجارباً من اي قائد آخر، دخل المدينة عنوة ليقتل داخلها وليموت معه جزء كبير من جيشه. لذلك كان الإعجاب عاماً ببراعة [كليومينس]. فأولئك الذين كانوا يسخرون منه لتقليده [صولون] و[ليكورغوس] في تحريره الناس من الديون واشاعة المساواة في الملكية بين المواطنين، اسرعوا الآن يقرون بأن نجاحه هذا، ما هو الاّ ثمرة الاصلاحات التي اجراها في سپارطة. لقد كان السپارطيون قبل ذلك اعجز عن المحافظة على مدينتهم، لضعفهم الشديد نسبة الى اقرانهم. فقد غزا الايتوليون (لاقونيا) واستاقوا منها خمسين ألفاً من العبيد؛ ويذكرون ان أحد السپارطيين الشيوخ قال بهذه المناسبة: انهم (اي الغزاة) خدموا لاقونيا بتخفيف العبء عنها. مع هذا فبمجرد عودتهم الى تقاليدهم الأولى، وممارستهم الانضباط في زمن قصير جداً راحوا يضربون الأمثلة الفريدة في الشجاعة والطاعة. كأنهم يعملون تحت سمع وبصر [ليكورغوس] نفسه. فرفعوا سپارطة من الحضيض ليضعوها في المحل الأول، دولة قائدة في بلاد الاغريق. واستعادوا كل [الپيلوپونيسس].

بعد الاستيلاء على [آرغوس] اسرعت [كليوني Cleonæ] و[فليوس Phluis] باعلان انضمامها الى [كليومينس] وكان [اراتوس] في كورنث، يتعقب من قيل انهم موالون لسپارطة، فأقلقه نبأ هذه الانتصارات، مدركاً ان [كورنث] نفسها تميل الى [كليومينس] وتريد التخلص من الآخائيين. فدعا المواطنين الى الاجتماع في قاعة المجلس. وتسلل هو دون ان يلحظه احد، وخرج فامتطى جواده الذي كان قد هيء له وفرّ الى [سيكيون]. فخفّ الكورنثيون الى [ارغوس] كأنهم على جناح طائر، أو كما يصف اراتوس ذلك: «كانوا يتسابقون على اولوية الوصول الى كليومينس» حتى أن خيولهم نفقت تحتهم! وغضب

[كليـومـينس] على الكورنثـيين لأنهم لم يحولـوا دون هروبه. ويضـيف [اراتوس] قـوله: ان [ميغستـونس] جاءه مُوفداً من [كليومينس] يطلب منه تسليم قلعة [كورنث] التي كانت تحتلها حامية آخائية. وعرض عليه مبلغاً كبيراً من المال، فأجابه أن زمام الأمور قد افلت من يده وانه الآن تحت رحمة الأهالي. هذا ما خطتـه يد [اراتوس]. على ان [كليـومـينس] سار اليها من [ارغوس] وفي طريقه اخضع الطرويزنيين Troyzenians والإپداوريين والهرميونيين Hermionians]. واذ بلغ [كـورنث] شرع بحـصـار القلعـة من جـمـيع الجـهـات بعـد ان ابى الآخائيون تسليمها. ودعا اليه اصحاب [اراتوس] وبطانة بيته، فوضع منزله وماله ونشبه في عهدتهم امناءً عليه. وبعث [تريتيمالليوس Tritymallus] المسيني اليه، بعروض صلح، وهي أن تشترك في حماية القلعة حاميتان سپارطية واخائية بعددٍ مساوٍ من الجنود. وان يعطى ضعف المرتب الذي خصصه له بطليموس الملك. فرفض [اراتوس] وأرسل [ابنه مع رهائن أخر الى انتيغونس، وراح يسعى لاقناع الكورنثيين باصدار قرار بتسليم القلعة [لانتيغونس]. فما كان من [كليومينس] الاّ واغار على بلاد السيكيونيين. وحمل الكورنثيين على اصدار قرار بمصادرة اموال [اراتوس] للمدينة.

كان [انتيـغونس] في الوقت عينه يجتاز [گيرانيا Geranea] بجيش جرار. ففضل [كليومينس] ان يحصّن ويعزّز مواقعه في جبل يدعى [اونيا Onea] لا في البرزخ، وأن ينهك الجيش المقدوني بحرب المواقع والنقاط المستحكمة، لا ان يجازف بمعركة فاصلة يلعب فيها الفلانكس المقدوني المحكم دوراً حاسماً. واسرع بتنفيذ خططه، مخيباً آمال [انتيغونس] تماماً فقد قدم وليس معه مؤن كافية لحرب الإنهاك التي فرضها عليه [كليومينس] كملك لم يكن من السهل عليه ان يشق طريقه من الممر عنوة وكليومينس يسيطر عليه. وحاول المرور ليلاً عبر [ليكيوم Lechaeum] لكنه أخفق وخسر عدداً من رجاله. وارتفعت معنويات جيش [كليومينس] وبلغ اعتزازه بهذا النصر الى الحد الذي جعلهم يذهبون الى العشاء في حالة مرحٍ صبياني. وركبت [انتيغونس] الكآبة. والجأه موقفه العسير الى محاولات يائسة لم تجده فتيلاً. وكان في سبيل اتخاذ خطة الزحف باتجاه رَعَن[1] [هيريوم Heraeium] ومنها ينقل جيشه الى [سيكيون] بالزوارق. هي عملية

تتطلب وقتاً طويلاً، وكثيراً من المهمات والاستعداد. الاّ ان اصدقاء لاراتوس وصلوا مساء من [ارغوس] عن طريق البحر واشاروا عليه بالعودة لأن [الارگيڤيين] شقوا عصا الطاعة على [كليومينس] و[ارسطوطل Aristotle] يتزعم الفتنة وهو الذي فجر الثورة، اذ سهل

(١) الرَّعَن هو قمة الجبل الداخلة في البحر.

عليه اقناع الأهالي الذين كانوا بصورة عامة ساخطين على [كليومينس] لأنه لم يبرّ بوعده فيلغي ديونهم وعلى هذا، سار [اراتوس] على رأس ألف وخمسمائة مقاتل من جيش [انتيغونس] وابحر بهم الى [ابيداوروس]. الاّ [ارسطوطل] لم يشأ الانتظار واخرج الأهلين وبدأ بالتعرض لحامية القلعة، وأقبل [تيموكزينوس Timoxinus] بالآخائيين من [سيكيون] لنجدته.

وسمع [كليومينس] بالفتنة في حدود الهزيع الثاني من الليل، فأستدعى [ميفستونس] وامره غاضباً بأن يذهب الى [ارغوس] لتسوية الأمور، فهو الذي تعهد بولاء الارغوسيين وهو الذي أقنعه بالا ينفي المشتبه بهم. واعطاه ألفين من الجنود وبقي هو يرصد [انتيغونس] ويشجع الكورنثيين. بقوله ان الاضطراب في [ارغوس] ليس بالذي يؤبه به، وانما هو فتنة أثارتها شرذمة لاقيمة لها. لكن [ميفستونس] قتل فور دخوله [ارغوس] وتعذر صمود الحامية فراحت تبعث بالرسول تلو الرسول طالبةً نجدةً. ولخوف كليومينس من ان يعمد العدوّ بعد احتلاله ارغوس، الى سدّ الممرات والتوغل في لاقونيا آمناً وحصار سپارطة وهي بدون حماية، أجلى عن [كورنث] فخسر المدينة حالاً لأن [انتيغونس] دخل في اعقابه ووضع الحاميات فيها. وانحرف [كليومينس] عن استقامة سيره وهاجم [ارغوس] ليأخذها بالمفاجأة، ثم جمع قواته الزاحفة فأقتحم بها الاسپيس Aspis، واتصل بالحامية التي بقيت صامدة في الداخل ازاء الآخائيين وتسلق الاسوار في جوانب من المدينة واستولى عليها وامر رماته الكريتيين فطهروا شوارعها من المقاومين. الاّ انه شاهد [انتيغونس] ينحدر بفلانكسه من الجبل نحو السهل، كما دخلت خيالته المدينة من جميع الجهات، فوجد ان المحافظة على مواقعه في المدينة غير ممكن، فجمع رجاله وانسحب بسلام متقهقراً تحت السور.

احرز [كليومينس] في وقت جد قصير سلطاناً عظيماً. في سفرة واحدة (ان صحّ القول) نصب نفسه سيداً على الپيلوپونيس. وبوقت يساويه في القصر، أضاع الكلّ فبعض حلفائه تخلى عنه وبعد فترة وضع بعضهم مدنهم تحت حماية [انتيغونس] وهكذا خابت آماله وفشلت مساعيه. وراح يقود شراذم من قواته عائداً. وفي الطريق لقيه رسل في لقيديمون وهو في تيغيا، حاملين له نبأ أعظم نكبة وأشدها ايلاماً. هو نبأ وفاة زوجه التي كان يحبّها أشدّ الحب، ولايطيق عنها بعداً، اد ما كان يتردد وهو في انجح حملاته وقمة انتصاره أن يترك جيشه ويعود الى سپارطة لزيارة [آغياستيس].

كان حزنه عليها عظيماً ورزؤه بفقدها كان قميناً بأي شابٍ فاضل اجمل وأفضل زوج. الا انه لم يدع عاطفته تصيبه بالعار، ولا لضعفه يفسد رجاحة عقله. فتجلد ولم يخنه صوته ولا

تقاطيع وجهه، ولم يطرأ على عاداته خلل. واستمر يصدر الاوامر الضرورية لضباطه، ويتخذ التدابير اللازمة للدفاع عن [تيغيا]. وفي صباح اليوم التالي وصل سپارطه. وندب هو وامّه وطفلاه خسارتهم ومصيبتهم. ثم أنهى الحداد وباشر فوراً بتصريف شؤون الدولة.

ووعده [بطليموس] ملك مصر بالمساعدة. الاّ انه اشترط عليه ارسال امه وطفليه ليبقوا عنده بمثابة رهائن. فظل فترة طويلة يخجل من مفاتحة امّه. وكثيراً ما قصدها لهذا الغرض فما يهم بالحديث الاّ ويرتج عليه فيتردد ثم يعدل. واخذت الشكوك تساورها من سلوكه هذا وسألت صدقانه عما اذا كان قد كتم عنها شيئاً يخشى مفاتحها به؟ أخيراً لم يسعه أخفاء الأمر عنها، فصارحها فقهقهت ضاحكة وقالت:

- أهذا ما كنت تحاول مصارحتي به ثم تحجم؟ هيا عجل وضعني على ظهر السفينة. ابعث بهذه الرّمة الى حيث تؤدي اعظم خدمةٍ لسپارطة، قبل أن تتلفها عاديات السنين وتستهلك كل منفعة منها.

وتمت كل التدابير للرحلة، وسافروا براً حتى [تيناروس والجيش كله تحت امرهم وبحراستهم. وعندما تهيأت [كراتيسيكليا] لركوب السفينة. انتحت بابنها جانباً ثم قادته الى هيكل [نبتون] وهناك أكبت عليه تعانقه قائلة:-

- امضِ في سبيلك يا ملك سپارطة. وان خرجنا الآن فلا تدع احداً يرانا باكيين. ولاتظهر اي ضعفٍ عاطفي غير لائق باسپارطه. فهذا هو أساس قوتنا. اما بخصوص النجاح والفشل فقل لن يصيبنا الاّ ما قدرته لنا الآلهة.

وتجلدت وتصبرت، وخرجت بحالة اعتيادية فركبت السفينة مع حفيديها وامرت القبطان بالاقلاع حالاً. ولما وصلت مصر وعلمت ان [بطليموس] يزن مقترحات وعروض سلم من انتيغونس وان [كليومينس] قد دعاه الآخائيون والحوا عليه بعقد اتفاق فأبى لأنه كان يخاف عليها من بطليموس ان تمّ ذلك بدون رضاه. فكتبت اليه تنصحه بان يفعل ما هو لائق بسپارطه نافع لها، وان لايخشى بطليموس بسبب عجوزٍ وطفلين كذلك كانت اصالة خلتها وهي في وسط محنتها وسوء حظها.

بعد استيلاء [انتيغونس] على [تيغيا] واجتياح [اورخوبينس] و[مانتينيا] وجد [كليومينس] نفسه محصوراً في حدود لاقونيا الضيقة. فعمد الى سَدّ حاجته من المال بأن سمح لكل فردٍ من [الهيلوت] بان يفتدي حريته بخمسة پاونات آتيكية فجمع بذلك خمسمائة تالنت. وسلّح ألفين من المقاتلين تسليحاً مقدونياً فتم له وحدة مقاتلة خليقة بمقارعة

[ليوكاسپيدس Leucaspides] قائد [انتيغونس]. ووضع خطة رائعة غير مسبوقة: كانت [ميغالوپوليس] في ذلك الحين كمدينةٍ قائمة بذاتها لاتقل مناعة وعظمة عن سپارطة نفسها. اضف الى هذا ان قوات [انتيغونس] والآخائيين قد عسكرت بالقرب منها. وكان الميغالوپوتيون ذوي اليد الطولى في استدعاء [انتيغونس] لمعونة الآخائيين. وكانت خطة كليومينس تعتمد على «خطف» المدينة (ليس ثم كلمة أخرى أنسب من هذه لوصف عملية حربية تمت بمثل تلك السرعة والفجأة) فأمر رجاله بأن يتزود كل منهم بمؤونة خمسة أيام وسار بهم نحو [سيلاسيا] كأنه يعتزم اجتياح بلاد [الارگيف] إلا انه انحدر من هناك الى تخوم [ميغالوپوليس]. وبعد ان اراح جنوده عند [رويتيوم Rhoeteum] انحرف فجأة الى طريق [هيليكوس Helicus] وتقدم من المدينة رأساً. ولما اصبح على مسافة قصيرة منها أرسل [پانتيوس Panteus] على رأس لوائين للانقضاض على جانب من الاسوار يقع بين برجين، علم انه أقل الاجزاء حمايةً في اسوار المدينة، ثم تقدم خلفه ببقية جيشه، سائراً على هونه. ولم يكتف [پانتيوس] باكمال مهمته على خير وجه، وانما وجد جزءً كبيراً من السور بدون حماية. فباشر في الحال بهدم اقسامٍ منه، وثغره عدة ثغرات في أماكن أخرى وقتل كل مدافعٍ تصدى له. وفيما هو منهمك بذلك. وصل [كليومينس] ودخل المدينة بجنوده قبل ان يشعر الميغالوپوتيون بالمباغتة ولما علموا بما اصابهم ترك فريق منهم المدينة حاملاً ما استطاع حمله من متاعٍ. وحمل فريق سلاحه وخرجوا لقتال المهاجمين ومع انهم لم يستطيعوا ردّهم على الأعقاب، الاّ ان دفاعهم اتاح للمواطنين الفرصة والوقت للجلاء عن المدينة بسلامٍ. ولذلك لم يكن في المدينة أكثر من ألف نسمة عند تمام احتلالها. اما البقية فقد هربت بالزوجات والاطفال الى [مسينيه] ونجا كذلك جلّ الذين قاتلوا العدوّ وحاولوا صدّه. ووقع منهم أسرى قليلون، ومن بينهم [ليساندريداس Lysanderidas] و[ثياريداس Thearidas] وهما من ذوي المقام الكبير والنفوذ عند الميغالوپوليتيين، ولذلك احضرهما الجند امام [كليومينس] حال وقوعهما في الأسر. وما أن وقع نظر [ليساندريداس] على الملك من مبعدةٍ حتى صاح قائلاً:

- والآن يا ملك سپارطة لقد بات في مدى سلطانك أن تشترى اعظم المجد بقيامك باعظم وانبل عمل ملكيّ اقدمت عليه حتى اليوم.

فأدرك [كليومينس] ما يقصده واجابه: ماذا تقصد [يا ليساندريداس]؟ من المؤكد انك لاتنصحني باعادة مدينتكم اليكم ثانيةً؟

فقال [ليساندريداس]: بل هذا ما اقصده. وانصحك بالاّ تعمل يد الخراب في مدينة باسلة كهذه المدينة، بل ان تملأها باصدقاء مخلصين اوفياء وحلفاء لك، بان تعيد البلد الى

الميغالوپوتيين. ويأن تصير منقذاً لهذا الحشود الكبيرة من الناس.

ففكر [كليومينس] برهة ثم قال: انه لمن الصعوبة بمكان الايمان بهذه الأمور الى حدٍ كبير، لكن فلتفسح المنفعة مكانها للمجد.

ثم ارسل هذين الأسيرين الى [مسينيه] مع رسول من قبله يدعو [الميغالوپوليتيين] الى مدينتهم. ان هم قطعوا روابطهم مع الآخائيين وانقلبوا حلفاء له. ولكن [فيلوپومين] لم يقبل ان ينقضوا حلفهم مع الآخائيين رغم بساطة الشروط وكرامتها وانسانيتها. وراح يتهم [كليومينس] امام الأهالي واظهر نواياه بشكل معكوس. قائلاً انه لايريد اعادة المدينة اليهم، بل الاستيلاء على أهاليها ايضاً. ثم أجبر [ثياريداس وليساندريداس] على مغادرة [مسينيه].

(فيلوپومين هذا، اصبح فيما بعد زعيم الآخائيين، ونال أعظم شهرة ومكانة بين الاغريق وقد تقدم ذلك في سيرته).

عندما سمع [كليومينس] بما جرى في [مسينيه] ساوره غضبٌ شديد. وكان قبل ذلك قد شدد بعدم نهب المدينة واتخذ التدابير الوقائية لذلك - فأمر في سورة غضبه هذا ونفاد صبره، بتجريد المدينة من كل ما هو نفيس فيها وارسل الصور والتماثيل الى سپارطة وهدم جزءً كبيراً منها ثم انسحب خشية اطباق [انتيغونس] و[الآخائيين] عليه. لكنهم لم يأتوا بحركة. اذ كانوا وقتئذ يحضرون مجلس حربٍ في [ايگيوم Aegium]. هناك اعتلى [اراتوس] منبر الخطابة وبكى ملياً ساتراً وجهه بطرف ردائه، فران الذهول على المجتمعين وعلتهم البغتة، ثم صاحوا وطالبوه بالكلام فقال:

- [ميغالوپوليس] دمرّها كليومينس!

وسكت. فأنفرط عقد المجتمعين فوراً. وذهل الآخائيون لعظم الخسارة وفجائيتها. واعتزم [انتيغونس] ارسال نجدات عاجله، ولما رأى البطء الشديد في عملية التجمع من المقرات الشتوية. اصدر اوامره بالبقاء حيث هي. وسار بنفسه الى [ارغوس] تحرسه ثلة من الجنود.

ومع ان العملية التالية التي اقدم عليها [كليومينس] بدت مغامرة جنونية يائسة، ؤلا انها في رأي [پوليبيوس] عملية ذات تصميم ناضج وتنفيذ متقن تنطوي على بعد نظر كبير. فبعد ان تأكد [كليومينس] ان المقدونيين متفرقون في مقراتهم الشتوية وان انتيغونس مع اصحاب له وقليل من المرتزقة يُشتّي في [ارغوس]، أغار على بلاد [الارگيف] مؤملاً ان يدفع الخوف من العار [انتيغونس] الى الاشتباك معه في ظروف غير متكافئة. فان أبى

القتال فستهبط مكانته عند الآخائيين الى الحضيض. وهذا ما كان، فان السلب والنهب والذي عمله في بلاد الارگيف، اثار غيظهم وألمهم فتجمعوا حشوداً كبيرة أمام باب الملك واخذوا يصيحون به قائلين: عليه آن يقاتل أو ان ينزل لغيره عن القيادة اشجع منه وأكثر أقداماً. الاّ ان انتيغونس وهو القائد المحنك. عدّ المجازفة الحمقاء بمصير جيشه، وتركه مواقعه الآمنة، أكبر عاراً من تأنيب الناس وسخريتهم به. فلم يعرهم أذناً صاغية، وأصرّ على عدم الاشتباك بمعركة مع [كليومينس]. وفي اثناء ذلك بلغ جيش عدوه اسوار المدينة وهو يعيث في الانحاء سلباً ونهباً دون ان يلقى مقاومة ما، مجرعاً خصمه الإهانة تلو الاهانة، ثم انسحب.

بعد فترة أبلغ [كليومينس] ان انتيغونس ينوي التقدم نحو [تيغيا] ومنها يشرع في غزو لاقونيا، فأسرع يقود جنوده متحامياً الطريق حتى ظهر امام ارغوس عند تباشير الفجر. وعمد الى تخريب الحقول المحيطة بها. ولم يجتث سنابل القمح كما يفعلون عادة بمناجل الحصاد والسكاكين وانما كان يدق السنابل دقاً بهراوات خشبيّة ضخمة كالسيوف العريضة وهو سائر غير متوقف احتقاراً واستخفافاً مقصوداً، دون ان يتكبد في ذلك جهداً أو يضيع وقتا. وهكذا اتلف حاصلهم. الاّ انه اعترض محاولة جنوده اشعال النار في [كللابارس Cyllabaris] وهو ملعب رياضي، كأنه شعر بأن الخراب الذي احدثه في ميغالوپوليس كان لغلبة العاطفة على الحكمة. وسبقه [انتيغونس] الى [ارغوس] واحتل الجبال والشعب ووضع فيها ربايا. فلم يأبه [كليومينس] ولم يكترث وارسل رسولاً يطلب مفاتيح هيكل [جونو] كأنما يريد تقديم القرابين فيه ثم يعود من حيث اتى!

بهذا المزاح الاليم الشامت الموجه [لانتيغونس] ضحى للآلهة تحت جدران الهيكل المغلق ثم توجه الى [فيلوس] ومنها الى [اوليغيرتس Oligyrtis] حيث طرد محتليها. ثم سار نزلاً الى [اورخومينوس] ودخلها.

هذه العمليات فضلاً عن انها شدت من عزائم المواطنين - جعلته يبدو امام اعدائه رجلاً جديراً بالقيادة العليا، قادراً على اصطناع العظائم. فبقوات مدينته فقط، نازل المقدونيين ذوي القوات الجبارة فدوخهم وقاتل كل الپيلوپونيسّ ومن وراءهم اموالهم وكنوزهم تدعمهم. وحافظ على لاقونيا من غوائل السلب فضلاً عن اجتياحه بلاد العدوّ واستيلائه على العديد من المدن الهامة وهذا كله دليل على عبقرية قيادية فذة وبراعة غير عادية.

ان اول القائلين بأن المال هو عَصَب الأمور، يبدو انه كان يقصد الحرب خاصّة. ولما اقترع الآثينيون على وجوب انزال سفنهم وتجهيزها للحرب وعجزوا عن ايجاد المال اللازم قال [ديماديس]:

- المطلوب، الخباز اولاً، ومن ثم الملاّح.

وارخيداموس الغابر - في بداية حرب [اليبلوپونيس] عندما اجمعت كلمة الحلف على تحديد حصّة كل حليف في النفقات، قيل انه اجاب:

- ان الحرب لايمكن ان تعتدّ بكذا ايام.

كان [انتيغونس] كالمصارعين الذين اكملوا تدريبهم واعدوا اجسامهم اعداداً صحيحاً، فراحو ينهكون قوى أخف منازليهم وابرعهم مناورةً. فقد دخل الحرب بموارد عظيمة. واتعب [كليومينس] الذي صعب على املاقه تأمين المال الكافي لدفع اجور مرتزقته. او لتدبير قوات مواطنيه. أما في ما عدا هذا، فان عامل الزمن كان الى جانبه. فالاحوال لم تكن على مايرام في مقدونيا، وقد اجتاحها البرابرة وتوغلوا فيها وهو غائب عنها. وفي عين الوقت دخلها جيش جرار للالليرين، فبعث المقدونيون يستعجلون بالعودة، وكادت الرسائل تصله قبيل المعركة، ولو وصلته لأسرع بالعودة تاركاً الآخائيين يتدبرون امرهم الاّ ان الحظّ الذي أُغرِم بتقرير نتائج الاحداث العظيمة في دقيقة واحدة. ابدى في هذا الحدث دقة زمنية رائعة. فبعد ختام معركة [سيلاسيا] مباشرة، تلك المعركة التي خسر فيها كليومينس جيشه ومدينته - وصل السعاة وطلبوا مقابلة انتيغونس. وهو ما جعل سوء طالع [كليومينس] أكثر استدراراً للشفقة والعطف. فلو انه استمر يتقهقر ولو انه تحاشى الدخول في المعركة يومين آخرين لما عادت الحاجة تدعوه الى المجازفة اذ بعد رحيل المقدونيين سيكون بمقدوره ان يفرض ما يشاء من الشروط على الآخائيين. الاّ انه اضطر كما اسلفنا الى وضع آخر امله في سلاحه، لافتقاره الى المال، وارغم على زجّ العشرين الفاً (حب رواية [پوليبيوس]) يقابل ثلاثين ألفاً، وقد اثبت نفسه قائداً رائعاً في هذه الوقعة العصيبة. وأظهر مواطنوه شجاعة فائقة، وحارب مرتزقته حرباً بطولية. الاّ انه غُلب بعامل الاختلاف في أساليب التعبئة، وانحطم تحت ثقل [الفلانكس بسلاحه الثقيل. ويؤيد [فيلارخوس] كذلك ان السبب في هزيمة [كليومينس] هي خيانة بعض المبطانة والمقربين منه.

أمر [انتيغونس] بتقدم الالليرين والاركارنانيين على محور شبه دائري فوق طريق خفيّة، ثم تطويق الجناح الذي يقوده [يوكليداس] أخ [كليومينس]، ثم جرّ بقية قواته الى المعركة. وكان كليومينس قد صعد ربوة منبسطة لمراقبة تنفيذ اوامره. ولما لم يشاهد أثراً ما للقطعات الالليرية والاكارنانية بدأ الشك يساوره بان [انتيغونس] قد أرسلها للقيام بشيء شبيه بما فصلناه فأستدعى [داموتيلس Damoteles] قائد الوحدات التي انيطت بها واجبات نصب الكمائن. وطلب منه ان يتعصّى بانظاره وضع المؤخرة وان ينعم النظر فيما وراء الجبهة فهناك

شيء ما قد يكتشفه. إلاّ ان داموتيلس (وقيل ان انتيغونس اشتراه) اطمأنه بألا شيء يخشى منه، وعليه الاّ يقلق فالمؤخرة على مايرام، والواجب عليه الآن هو ان يحصر اهتمامه بالجبهة الأمامية وبالذين سيقاتلونه منها. فاطمأن [كليومينس] وتقدم متعرضاً للعدوّ. وهجم السپارطيون هجمة عنيفة زحزت الفلانكس المقدوني من مكانه واجبرته على التقهقر وبعجلة أختراق ناجحة مرت قطعاته بين قوات [انتيغونس] وتغلغلت الى مسافة نصف ميل. الاّ أنه اوقف العملية عند ادراكه الخطر الذي بات يتعرض له الجناح الملتفّ بقيادة أخيه وناداه قائلاً:

- لقد ضعت يا أخي العزيز، لقد ضعت انك لمثل باسلٌ لشبابنا السپارطي، ولحن لأناشيد نسائنا.

وتمزق جناح [يوكليداس] وتشتت قواته بدداً. وانقضّ عليه المنتصرون من هذا الجانب المكشوف وسرعان مادبت الفوضى في جنوده وعجز عن مواصلة القتال فهرب. وقيل انه لم يسلم من السپارطيين الستة آلاف غير مائتين وسقط كثير من المرتزقة.

عندما دخل [كليومينس] سپارطة نصح من استقبله أن يخرجوا للقاء [انتيغونس]. واما عن شخصه فسيختار ما هو أصلح لسپارطه موتاً أكان أم حياة. ورأى النسوة يفزعن لاستقبال من نجا معه، ويتناولن منهن اسلحتهم ويسقيهن. فدلف الى منزله وتقدمت منه خادم وهي امرأة حرة كان قد جاء بها من [ميغالوپوليس] بعد وفاة زوجه وهمت بخدمته جرياً على العادة. فرفض ان يشرب شيئاً مع انه كان يشكو عطشاً شديداً. وأبى الجلوس مع أنه كاد يسقط أعياءً. واستقرت ذراعه وهو مازال لابساً دروعه - فوق عمود. واسند جبينه الى مرفقه واراح جسمه قليلاً. ثم بدأ يقلب الفكر في السبل التي يتعين عليه الأخذ بها. ثم انه توجه مع بعض اصحابه الى [گيتيوم Gythium] فوجد السفن التي اوصى عليها مهيأة، فركبوها.

واستولى [انتيغونس] على سپارطة. واحسن معاملة اللقيديميين ولم تتعرض مكانة المدينة لإهانة او تجريح بأي شكلٍ من الأشكال وسمح للاهلين بممارسة قوانينهم ونظام حكمهم. وبعد ان قدم قرابينه رحل عنهم في اليوم الثالث لدخوله، لأنه سمع بنشوب حرب طاحنة في مقدونيا، وعلم ان البرابرة يجتاحون بلاده. فضلاً عن اشتداد وطأة العلة عليه فقد انقلبت الى سلّ والتهاب في قصبات التنفس. مع ذلك لم يهن وظلّ مثابراً وتمكن من العودة وانقاذ بلاده، والموت ميتة مجيدة مشرفة وسط الهزيمة الشنعاء والمقتلة الكبرى التي اوقعها بالبرابرة. ويذكر [فيلارخوس] وهو من الأمور المحتملة جداً. ان أحد اوعيته الدموية انفجر لشدة الصيحات التي اطلقها في ميدان القتال. وقد قرأنا في المدرسة، انه صاح من فرط فرحه بعد أن تمكن من النصر:

- يا لك من يوم مبين!

فنفث مقداراً من الدم، وركبته الحمّى ولم تفارقه حتى فارقته روحه. هذا ما يتعلق [بانتيغونس].

ابحر [كليومينس] من [كيثيرا Cythera] الى جزيرة أخرى تدعى [ايگياليا Aegialia]. وكان يهم بالاقلاع منها الى [كيرينه Cyrene] حين انتحى به صاحبه [ثيريكيون Thery-cion] جانباً. وكان رجلاً نبيل النفس في كل المواقف. جريء اللسان، مرحاً. فقال له:

- مولاي. ألموت في ساحة الوغى وهو أشرف الموت، ضاع منا. ومع اننا جميعاً نعلم أن [انتيغونس] لن يطأ ملك سپارطة وهو حيّ. والآن فهذا الطريق الذي لايحط من الشرف والكرامة، مفتوح امامنا. فلماذا نهرب من شرٍّ قريبٍ لنلجأ الى الشرّ البعيد؟ ان لم يكن مما يخلّ بشرف نسل هرقل ن يخضع لخلفاء فيليب والاسكندر، فسنقتصد رحلة طويلة بتسليم انفسنا [لانتيغونس] فربما كان أفضل بكثير من [بطليموس] مثلما كان المقدونيون أفضل بكثير من المصريين، ولو وجدنا الخضوع للذين غلبونا عاراً فلأي سبب نختار من لم يغلبنا سيداً؟ ألأننا نريد الاعتراف برئيسين بدلاً من رئيس واحدٍ؟ فنهرب من وجه [انتيغونس] لنتزلف الى [بطليموس]؟ ام انك تلجأ الى مصر بسبب والدتك؟ سيكون في الواقع منظراً جميلاً ممتعاً حين تعرض ابنها لأنظار نساء [بطليموس]، لابوصفه اميراً، بل عبداً منفياً. أو لسنا بعد سادة سيوفنا؟ وفي الوقت الذي ماتزال لاقونيا على قيد النظر منا، الا يجمل بنا ان نحرر انفسنا من هذا الشقاء المخزي، ونبريء أنفسنا امام أولئك الذين سقطوا في [سيلاّسيا] صرعى، اعلاءً لشرف سپارطة ودفاعاً عنها؟ أم قضي علينا ان نقعد في مصر متكسعين نتسقط ابناء سپارطة ونتساءل عمن شاءت ارادة [انتيغونس] ان تنصبه حاكماً للقيديميين؟

هذا ما قاله [ثيريكيون] وهذا هو جواب [كليومينس] عليه:

- باطلابك الموت أيها الجبان - وهو اسهل وادنى ملاذٍ - تتصور انك ستبدو بطلاً مغواراً، إن هذا النوع من الفرار، هو اشدّ خزياً من الفرار الأُول. رجال افضل منا بكثير، خفضوا جناح الذل لأعدائهم بعد ان عاندهم الحظ، او وقف شعوبهم ضدهم. لكن من يستسلم ويسقط تحت عبء الضنى والقنوط وتحت وطأه خطل رأي الرجال وسوء نصيحتهم انما ينزل عن نصره ، بسبب جبنه وخنوثته. فالموت الاختياري يجب استبعاده كوسيلة للخلاص من العمل، وان اخترته فكعمل مثاليّ قائم بذاته. ومن العار ان تموت او ان

نحيا لأنفسنا فحسب. ان الموت الذي تدعوني اليه الآن انّما يطلب لخلاصنا من شقائنا الحاضر، وليس فيه نبلٌ ولا جدوى واری انه يجدر بنا نحن الاثنين بأن لاندع لليأس من حال بلادنا ، سبيلاً لأنفسنا. وعندما نفقد الأمل تماماً، فلا بأس ان يختار كل واحد أسرع ميتة يراها.

لم يجبه [تيريكيون]. لكن ما ان حانت له فرصة الوقوف في أحد السواحل، حتى نزل وبخع نفسه.

أقلع [كليومينس] من [ايگياليا] وأرسى في ليبيا. وكان سفره الى بلاد الملك محفوفاً بالاكرام والرعاية الى ان بلغ الاسكندرية. ولم تزد مقابلته الأولى للملك على عبارات المجاملة المعتادة، ولم يلق أكثر من الحفاوة الرسمية، لكن الأمور تغيرت فيما بعد. فقد تبين له بعد تجربته ان [كليومينس] رجل عميق الحس راجح العقل، يخالط اسلوب حديثه اللاقوني البسيط، نبل ورقة محببة. وانه لم يفعل شيئاً غير جدير باصله العريق ولم يحن هامته لتصاريف الحظّ. وبدا له أخلص مستشارٍ من بين أولئك الذين كان يتزلف والتحبب شغلهم الشاغل. فأدركه الخجل وندم لإهماله هذا الرجل الكريم، وانبه ضميره لأنه تسبب في ان يحرز [انتيغونس] هذه الشهرة العظيمة على حسابه. فأنقلب سلوكه تجاهه، وأظهر له كثيراً من المودة والانعطاف ووعده بأن يجهزه بسفن ويمده بالمال للعودة الى بلاد الاغريق وتبوء عرش مملكته، وخصص له مرتباً سنوياً قدره اربعة وعشرون تالنتاً. كان [كليومينس] ينفق القليل منه على نفسه واصحابه لما طبعوا عليه من الاكتفاء بالحد الأدنى من وسائل العيش. اما الباقي فكان يستخدمه لستر خلّة المحتاجين من لاجيء الاغريق الى مصر. الاّ ان [بطليموس] العجوز توفي قبل ان يخرج وعده [لكليومينس] الى حيز التنفيذ. وكان خلفه ملكاً متحللاً، شهوانياً، زير نساءٍ واقعاً تحت تأثير خمره وحريمه. فأهمل شأن [كليومينس] بسبب انشغاله بملذاته ونسائه، وكان أحفل ساعاته بالعمل وأكثرها جدية هي مساهمته في الاحتفالات الدينية المقامة في قصره. فتراه ينقر الدف ويشارك في المراسيم حين تولى عنه تصريف شؤون الدولة الهامة حظيته [اغاثوكليا Agathoclea] وأمّها والقوّاد [اونانتس Oenanthes]. في مبدء الأمر كان يبدو ان هؤلاء في حاجة الى [كليومينس]. لأن بطليموس الراحل كان يخشى أخاه [ماغاس Magas] الذي تبوأ مكانة كبيرة في قلوب الجنود بمساعي أمّه، فأفسحَ [لكليومينس] بين مجلس شوراه الخاص واطلعه على خطة ترمي الى قتل أخيه. الاّ ان [كليومينس] عارض الجميع بقوله: يجب ان يكون للملك اخوة كثيرون على قدر المستطاع. فلهذا اثر كبير على امنه واستقرار احواله.

فردّ [سوسيبيوس Sosibius] بأنهم لا يأمنون من اخلاص الجنود المرتزقة مادام [ماغاس] حياً. فقال [كليومينس] لا حاجة بهم الى القلق من هذه الجهة. ففي المرتزقة أكر من ثلاثة آلاف [پيلوپونيسيسي] وهم اصحابه وبامكانه ان يقودهم في اي وقت يشاء بايماءة منه. بعد هذا الحديث بدأ لهم [كليومينس] شخصاً لا مطعن في اخلاصه، يستطيع أن يستخدم نفوذه الكبير لمصلحتهم الاّ ان الضعف الذي كان يشكو منه بطليموس الأبن، أثر على مخاوفه وزاد فيها. وعندما تفتقد الحكمة وسداد الرأي. ينزل الشعور بالأمن الى وهدة الشك العام وعدم الثقة. وهذا ما جعل كليومينس موضع ريبةٍ عند رجال الحاشية بوصفه صاحب نفوذٍ عظيم لدى المرتزقة. واصبحت هذه المقولة على كل شفة ولسان في القصر «ان كليومينس في البلاط اشبه باسدٍ بين النعاج». هكذا كان يبدو في البلاط حقاً: يراقب بهدوءٍ ويتابع ببصرته النافذة كل ما يجري.

ونبذ كل فكرة بطلب سفن وجنود من الملك، على ان الانباء وصلته بموت [انتيغونس] وبأن الآخائيين مشتبكون في حربٍ مع الايتوليين وان احوال [الپيلوپونيسيس] قد بلغت حداً كبيراً من الفوضى والانحطاط: وهي تتطلب بل ترغب في الاستعانة به. فطلب الأذن بالرحيل مع اصحابه فحسب. فلم ينل بغيته ولم يُتح له المجال ليكلم الملك بهذا، لأن الأخير منصرف بكلتيه الى نسائه وقد أغلق بابه بوجه كل أحدٍ منفقاً اوقاته في احياء الحفلات الباخوسية، واقامة مجالس الشراب. وفكّر [سوسيبيوس] الوزير الأول – بأن احتجاز [كليومينس] ضد رغبته سخيفة ويجعل منه انساناً مشاكساً. كما ان المحذور من السماح له بالعودة قائم. فهو رجل مقدام ذكيّ اريب، مطلع على علل المملكة ومواطن الضعف فيها. ولم تكن الهدايا والعطايا لترضيه وتسكن من ثورته، انه كالثور المقدس [آپيس] ففيما هو يعيش منعماً بكل ما يمكن توفيره له من راحةٍ ورزق وفير وعلى مايبدو فيه من الرضا والسعادة، تراه يحنّ ابداً الى العيش على ما تجرد به الطبيعة، وان يطلق سراحه ليمرح ويرعى بحرية متجولاً على رساله في الحقول بعيداً عن مضايقات الكهنة ورعايتهم. كذلك كان امر [كليومينس] ان عاد يطيق مجاملات البلاط ودعواتهم الرقيقة. وظلّ مقيد الدار كأخيل:

«... مُضنى ... بعيداً، يتمنى القتال، وصيحة الحرب.»

ظلّت احواله هكذا حتى قدم [نيكاغوراس Nicagoras] الى الاسكندرية. وكان هذا يكن له أشدّ البغض، إلا ان يتظاهر بصداقته. وسبب ذلك انه كان قد باع من [كليومينس] عقاراً جيد الغلّة، ولم يقبض ثمنه، ربما لأن [كليومينس] كان يشكو ضيق ذات اليد، وربما لانهماكه في حروبه وما شاكل ذلك من المشاغل فلم يتيسّر له الوفاء. ولمحه [كليومينس] وهو ينزل

البرّ، يتنزه على الرصيف فأقبل عليه وحياه بمودةٍ وسأله عما أتى به الى مصر؟ فشكر له [نيكاغوراس] تحيته وقال انه قدم ليعرض على الملك صفقة من الخيول الحربية الممتازة. فقال [كليومينس] باسماً:

- وددت له عرضت عليه صفقة من الغلمان والمغنيات الصغيرات فهذا هو ما يهتم به الملك في الوقت الحاضر.

فضحك [نيكاغوراس] مستغرباً من هذا، ومضى لطيته، وبعد ايامٍ قصد [كليومينس] وذكره بالعقار الذي اتباعه، وطالبه بالثمن معتذراً بأنه ما كان ليزعجه لو انه اصاب من بضاعته الربح الذي أمله.

فأجاب [كليومينس] بانه لم يفضل لديه شيء مما أجري عليه. فتركه [نيكارغوراس] غاضباً وقصد [سوسيبيوس] وقصّ عليه مزاح [كليومينس] وسخريته بالملك. فسرّ الوزير بمعلوماته. الاّ انه كان يحتاج الى سبب أكثر اثارة لحقد الملك عليه. فأقنع [نيكاغوراس]. ان يترك لدية رسالة تدين [كليومينس]. وتدل بانه يضمر خطة للانقضاض على جزيرة [كيرين] حالما يتوفر له الجند والسفن. فكتب [نيكاغوراس] الرسالة المطلوبة وغادر مصر. وبعد اربعة ايامٍ عرض [سوسيبيوس] الرسالة على الملك زاعماً انها وصلته الساعة. فثار بها غضب الشاب وملكه الخوف. وتم الاتفاق ان يدعى [كليومينس] الى منزل واسعٍ فاذا دخلها لايخرج منها وان يعامل بالشكل اللائق الذي اعتاده دون نقصان.

هذا الاجراء آلم [كليومينس] كثيراً. فركبه وزاد في الطين بلة حادثة أخرى فيها قرأ السلام على آماله. وودع آخر رجاء له. كان بطليموس ابن خريسيوماس Chryseumas احد المقربين الى الملك، ولطالما أظهر المودة واللطف لكليومينس حتى توثقت عرى الصداقة فيما بينهما وارتفعت الكلفة فكانا يتحدثان في الشؤون العامة دون تحفظ او وجل. طلبه كليومينس فجاءه وكلمه بما طيب خاطره، وهدّأ من روعه وبدد شكوكه واعتذر عن سلوك الملك حياله. ولكنه وهو في طريقه الى الخارج انثنى الى الحراس يعنفهم لإهمالهم في مراقبة [كليومينس]:

«... هذا الوحش الضاري العظيم الشديد الشراسة...».

ولم يدر ان [كليومينس] كان خلفه وقد سمع كل ما تفوه به.

اسرع [كليومينس] الى رفاقه وأخبرهم بما سمع ورأى وعندئذ نبذوا آمالهم السالفة وعزموا على اتخاذ العنف وسيلةً، وقرروا الانتقام من [بطليموس] لخسته ودناءته وان يغسلوا الاهانة

ويموتوا الميتة الجديرة بالسپارطيين. لا ان يظلوا ساكتين حتى يذبحوا كالاضاحي المسمّنة لقد كان من المؤلم والمخزي [لكليومينس] الذي ترفع عن مفاوضته [انتيغونس] المحارب المقدام ورجل الأفعال الجسام - ان ينتظر فرصته لمفاتحة ملك مخنث بأمره، حتى يلقى دُفّه جانباً، ويرفض طلبه ثم يقتله.

وتم الاتفاق على الخطّة. وصادف ان [بطليموس] ازمع السفر الى [كنوپوس Canopus] وقتذاك. فأشاع اصحاب [كليومينس] بان الملك قد ردّ اليه حريته، ولما كانت العادة تقضي ان يرسل الملك هدايا ومطاعم لمن يطلقه من اساره، فقد هيأ ذوو كليومينس كلّ ذلك وارسلوه الى محتجزهم ملقين في روع الحرس بأن ما ارسلوه هو من الملك. فقرب [كليومينس] للالهة، ودفع بجزءٍ كبير مما جيء به، الى الحرس. ووضع أكليل زهر في رأسه وأخذ يلهو ويقصف مع خلاّنه، متظاهراً بالفرح والغبطة. وقيل انه بدأ في تنفيذ خطته قبل التوقيت الذي قرره لها، بعد ان علم ان خادماً مطلعاً على سرّ الخطة قد خرج لزيارة معشوقته وهذا ما جعله يعجّل بها خشيه انكشافها. فما ان نشر البدر ضياءه والحراس في نومٍ عميق من تأثير الخمر. حتى بادر فارتدى زرده، وفتح كمّه الأيمن لتكون ذراعه أكثر حرية وامتشق سيفه واندفع الى الامام مع اصحابه وهم بنفس الهيئة وكان عددهم جميعاً ثلاثة عشر. بينهم [هيپتياس Hippitas] الأعرج الذي لحق بهم رغم عرجه - في الهجوم الأول، ولما ادرك ان بطئهم كان بسببه طلب منهم ان يقضوا عليه وان لايتلفوا عملهم بانتظار شخص قاصرٍ لافائدة منه. واتفق ان اسكندرانياً كان ماراً على ظهر حصانه فأنزلوه وراكبوا [هيپيتاس] عليه واندفعوا يطوفون في الشوارع منادين بالحرية للشعب. ولم يكن لدى الاسكندرانيين من الشجاعة الاّ بمقدار الاعجاب [بكليومينوس] ومدح جسارته، ولم يجد احد منهم في نفسه الجرأة للانضمام اليه ومساعدته. وانقضّ ثلاثة منهم على [بطليموس] بن [خريسوماس] وهو في طريقه الى القصر فذبحوه. وتقدم نحوهم [بطليموس] آخر، هو الضابط المكلف بأمن المدينة، وكان راكباً عجلةً فهجموا عليه وفرقوا حراسه واتباعه وجذبوه من فوق العجلة وقتلوه. ثم اتجهوا نحو القلعة يريدون كسر ابواب السجن واطلاق سراح من فيه علّهم يستفيدون من بعضهم. الاّ ان الحراس كانوا يقظين لهم فأحكموا سدّ المدخل. ولما اخفقوا في محاولتهم هذه، أخذوا يتجولون في المدينة على غير هدىً ولم ينضم اليهم أحدٌ وكان الناس يهربون من امامهم ويختفون حال اقترابهم. وادرك [كليومينس] اليأس من اي نجاح وقال لرفاقه:

- لا عجب ان يحكم النساء والرجال، فهم يخافون الحرية.

واوصاهم ان يموتوا بتلك الشجاعة الجديرة باتباعه وبمآثرهم في المعارك السابقة التي

خاضوها. ثم هوى كل واحدٍ منهم على حَدّ سيفه. وكان أولهم [هيپيتاس] فقد قضى عليه أحد رفاقه الشبان. وبقي [پانتيوس] وهو القائد الذي ارسله كليومينس لمباغتة [ميغالوپوليس] وكان شاباً جميلاً للغاية. ومن أشدّ المتمسكين بالانضباط السپارطي، وهو أعز اصدقاء كليومينس. لما رآه مع البقية صرعى استلّ خنجره وراح يتنقل فيما بينهم وهم صرعى ويخز كل واحدٍ منهم بذبابه خنجره ليتأكد من موته على الطريقة السپارطية. وانتهى الى جسد [كليومينس] فوخز كاحل ساقه فأنقلب هذا ما ظهره، فانحنى پانتيوس وقبلّه وجلس بالقرب منه حتى أسلم روحه، فغطى جثته، ثم قتل نفسه.

هكذا قضى [كليومينس] نحبه بعد الحياة التي قصصنا حوادثها، وبعد ان حكم سپارطة ستة عشر عاماً. وانتشر خبر مصرع الثلاثة عشر في طول المدينة وعرضها. ولم تقو [كراتيسيكليا] على تحمل هول الصدمة وطحنها الأسى وان كانت معروفة بقوة العزيمة، فعانقت طفلي [كليومينس] وانحرطت في بكاء وعويل ولم يكن أحد يتوقع ان طفله الاكبر ذو روح وثابة مثله. فقد نقذف بنفسه من أعلى السطح وسقط مهشماً مرضوضاً ولكنه لم يمت، فحمل وهو يصيح مستنكراً منعهم له من قتل نفسه. وما ان أبلغ [بطليموس] الملك بتفاصيل الحادث حتى أمر بسلخ [كليومينس] وتعليقه، وبقتل ابنيه وامّه وسائر النسوة اللاتي جئن مع اللاجئين السپارطيين هؤلاء.

وكان بينهن زوج [پانتيوس] وهي فتاة جميلة نبيلة التقاطيع لم يمر كثير على زواجها وقد مرت بها هذه المصائب وهي في اوج حبها. منعها ابواها من الإبحار مع [پانتيوس] على أثرتمام الزواج، فأبت ورغبت اللحاق به فحبساها في البيت رغم انفها. لكنها تمكنت بعد ايام قليلة من الحصول على حصان وشيء من المال وهربت ليلاً وانطلقت تسابق الريح حتى بلغت [تيناروس] ومنها ابحرت الى مصر وانضمت الى زوجها وتحملت معه بطيب خاطر حياة المنفى. مدت يدها الى [كراتيسيلكيا] لتعينها وهي سائرة بين الجنود الى ساحة الموت. ررفعت ثوبها وشجعتها. ولم يكن يبدو عليها اي رهبة من الموت، وكان طلبها الوحيد ان تموت قبل الطفلين. وعندما بلغن محل التنفيذ بدئ بقتل الطفلين امام عيني [كراتيسيكليا] ثم حان دورها فقالت قبل ان يجرى فيها حكم [بطليموس]:

- وآهٍ لكما أيها الطفلان! الى اين تراكما ذاهبان؟

الاّ ان زوج [بانتيوس] وكانت امرأة ذات قوةٍ لمت حولها اطراف ثوبها وبهدوء تامٍ وصمت راحت تعنى بجثث القتيلات. واسجتهن على الأرض بشكل مقبول على قدر ما يسمح به الظرف واحدة بعد الأخرى. وبعد ان تم بالتنفيذ في جميعهن حان دورها، فأعادت تنظيم ثوبها

وجمعته الى جسدها ولم تقبل بان يتقدم أحد منها او يكون شاهد عيان لموتها ماعدا الجلاّد. وانتظرت الضربة بشجاعة. ولم توصِ بان يرعاها أحد أو يقوم بربطها بعد موتها. وهكذا بدا حياءُ عقلها في موتها، اذ جعلته حارساً على جسمها. وكذلك كانت دائماً في حياتها، فأظهرت في عصر انحلال السپارطيين بان النسوة منافسات متفوقات على الرجال وضربت مثلاً في الشجاعة فاق تحديات الحظّ.

بعد ايام قليلة لاحظ المتفرجون على جثة [كليومينس] المعلقة حية كبيرة ملتفة حول رأسه تغطي وجهه وتمنع اقتراب الطيور الجارحة منه. وهذا ما ملأ الملك بالوساوس المخفية فأمر النسوة بمباشرة مختلف الكفارات، كأن شخصاً غير عادي، أو مخلوقاً محبوباً من الآلهة قد قتل. واحيا الاسكندرانيون مآتم دينية في الموضع ومنحوه لقب البطل وابن الآلهة. الى ان أقنعهم الفلاسفة بخطلهم. بقولهم كما ان الثيران تنسل النحل، والخيول تستولد الزنابير والحشرات تخرج من رمم الحمير الميتة، كذلك عصير واخلاط[٢] مخّ الانسان فانه يتخثر فتتولد منه الافاعي. وقد لحظ القدماء ذلك. فجعلوا الحية رمزاً للبطل - دون سائر المخلوقات الأخرى.

١٩٧٢/١/٢٧

(٢) الاخلاط الاربعة هي عند القدماء: الدم والبلغم والصفراء والسوداء وقد زعم اطباؤهم انها تقرر صحة الانسان وسقمه ومزاجه.

طيبريوس گراخوس

GRACCHUS

(Tiberius Sempronius)

162 _ 133

بعد أن فرغنا من عرض السيرتين الأوليين، نبدأ الآن في استعراض حياتي اثنين من الرومان - لم يكن سوء الحظّ الذي لقياه بأقل من سوء حظّ قرينيها [آغيس] و[كليومينس]. [طيبريوس وكايوس] ابنان شقيقان [لطيبريوس غراكوس] الذي تولى مرةً منصب الـ[چنصور] ومرتين منصب [القنصل]، ونال موكبي نصر. ولكن شهرته وسمعته تعود بالاغلب الى فضائله ومكارم خلقه لا الى امجاده والمناصب التي تقلدها. ولهذا، أقدم بعد موت [سكيپيو] قاهر [هنيبعل] على خطبة بنته [كورنيليا] ولم يكن ثم صداقة أو علاقة بينه وبين [سكيپيو] وربما كان ثم جفوة. وتروى عنه حكاية مؤداها انه وجد يوماً في غرفة نومه حيتين فاستشار العرافين في هذه الخارقة. فمنعوه من قتل الاثنتين أو تخلية سبيلهما. وقالوا ان قتل الذكر سيؤدي الى موت [طيبريوس] وان قتل الأنثى سيؤدي الى موت [كورنيليا]. وكان [طيبريوس] شديد الحبّ لزوجه وفكر ان الموت اقرب اليه منها لكونه كبير السنّ. وهي مازالت صغيرة فعمد الى قتل الذكر، وترك الأنثى لشأنها وتوفي بعد حين تاركاً اثني عشر ولداً من [كورنيليا].

واضطلعت [كورنيليا] بتدبير شؤون المنزل وتربية اولادها فكانت خير ربة بيت، وأعظم الامهات محبة، وأكثر الارامل وفاء ونبلاً. حتى بدا [طيبريوس] على جانب عظيم من الرجاحة عند اختيار الموت في سبيل هذه المرأة، التي بلغ وفاؤها أن عرض عليها [بطليموس] الملك تاجه فابت الاقتران به وفضلت عيشة الترمّل وبقيت هكذا الى الأخير. وشكلت اولادها الاّ ابنة واحدة، زوجتها من [سكيپيو] الأصغر، وابنين هما [طيبريوس] و[كايوس] وهما موضوع دراستنا هذه.

كانت العناية التي بذلتها الأم في تثقيفهما عالية حتى بدأ وكأنهم مدينان بفضائلهما الى ذلك أكثر مما هما مدينان لمبنتهما، ولمواجهة الطبيعية. فهما بين رومان عصرهما في المقدمة. اقرب المثال وبالاختلاف الملاحظ في هذين الشابين النبيلين. هو التماثيل والصور التي نحتت للالهيْن [كاستور وپوللوكس] فمع تشابههما، فهناك فروق، تبدو في كل منهما. أولهما كان يهوى حلبة الملاكمة، وثانيهما كان مجلياً في ميادين السباق. فالتشابه العام بين الأخوين

[غراكوس] قويّ من ناحية الخلق. كلاهما عرفا بثبات العزيمة وضبط النفس والسخاء الفصاحة والذكاء. الاّ ان نشاطهما وشكل معالجتهما للمسائل العامة تختلف فيما بينهما أختلافاً كبيراً وليس من قبيل الشذوذ عن الموضوع ان نبدأ بتعيين وجوه الاختلاف هذه:

فمن ملامح طيبريوس، وتعابيرها، ومن ايماءاته وحركاته؛ يظهر انه رقيق الحاشية، هادئ الطبع، في حين يظهر كايوس عنيفاً في غاية الجدّ. وينعكس هذا في خطبهما الجماهيرية السياسية. فالأول ذو اسلوب رزينٍ منظمٍ، يقف على المنبر فلا يتحرك حتى ينهى خطابه، والثاني تراه لا يستقرّ في مكان فيسير ويتنقل جيئة وذهاباً، ويجتذب عباءته حتى تنحسر عن كتفيه، وهو اول روماني يلجأ الى مثل هذا الأسلوب. كما قيل ان [كليون Cleon] كان اول خطيب من الآثينيين نزع عباءته وضرب فخده عند توجهه بالخطاب الى الجمهور. كانت خطب [كايوس] عاطفية عنيفة، صريحة الى أقصى حَدّ. اما خطب [طيبريوس] فكانت منطقية مقنعة رقيقة تثير الرثاء، واسلوبه نقيّ لاشائبة في فصاحته. اما اسلوب [كايوس] فهو حماسيّ فخم. ويمكن قول هذا عن عيشهما ومأكلهما، [فطيبريوس] بسيط العيش زاهدٌ ، و[كايوس] لو قورن بغيره - معتدل متزمت. الا أنهما نقيضان في حبّ الاشياء النادرة والأزياء الجديدة، كما يبدو من اتهامات [دروسوس Drusus] لكايوس: فقد روى انه اتباع درلفينات فضيّة بألف ومائة وخمسين درهماً للپاون الواحد وزناً. والعزق يبدو أيضاً في مزاجيهما. فأولهما أنيس متزن. والثاني خشن عاطفي تستاقه العاطفة وهو في أوج خطبته فتنسيه نفسه ويفقد سيطرته على صوته وتتغير نبراته الاعتيادية، وينحدر الى البذاءة والنبوّ، فيتلف خطبته. ولمعالجة هذا الاندفاع عمد الى استخدام خادم حاذقٍ اسمه [ليشينيوس] كان يقف خلفه عندما يخطب. وبيده مزمارٌ خاص لتنظيم طبقات الصوت ونبراته، فكلما شعر بتغير نبرة سيده وتبين حدّة الغضب فيه نفح بمزماره نغمة هادئة، ما يسمعها [كايوس] حتى يوقف اندفاعه العاطفي فيأخذ صوته بالانخفاض، وترتخي اعصابه ليعود الى حالة الطبيعية.

تلك هي وجوه الخلاف بين الاخوين، الا أنهما كانا صنوين في الشجاعة والاقدام الذي اظهراه في الحروب. وفي عدالتهما وعنايتهما بمصالح الشعب وفي تفانيهما باعمالهما وواجبات مناصيهما. ويضبط النفس في ما يتصل بملذاتهما.

وكان [طيبريوس] يكبر أخاه بتسع سنوات. فبعدت الشقة بين جهمودهما العامّة، بالعامل الزمني، فكان هذا احد الأسباب الرئيسة التي أودت بمشاريعهما وخططهما السياسية. اذ تعذر توحيد تلك المجهودات والمشاريع ولولا ذلك، لكانت القوة المتولدة من تكاتفهما في وقت واحد كفيلة بالتغلب على اية عقبة وسحق كل مقاومة، وبعد هذا كله علينا أن نقص سيرة كل

من هذين الاخوين على انفراد ولنبدأ بأكبرهما.

ما أن بلغ [طيبريوس] مرحلة الرجولة، حتى كانت سمعته طائرة وصيته ذائعاً. حتى انه قُبل في هيئة الكهنة المتنبئين، بالاكثر لفضائله المتكاملة، لا لعراقة نسبه. وقد تأيد هذا بما أقدم عليه [آپيوس كلوديوس Appius Claudius] رئيس مجلس الشيوخ الروماني وقتذاك، و(القنصل) و(الچنصور) قبلها. وهو رجلٌ راجح لايجهل قدر نفسه ولامكانته الرفيعة. هذا الشخص وجد في احتفال ديني عام للكهنة العرافين فتوجه الى [طيبريوس] بخير العبارات وألطفها وعرض عليه بصراحة، يد ابنته فبادر [طيبريوس] الى القبول بكلّ سرور، فتم العقد. وعاد [آپيوس] الى منزلة. ونادى زوجه بصوت عالٍ ورجله فوق العتبة، وقال:

- يا انتستيا! لقد أخترت زوجاً لابنتي واتممت العقد.

فأجابت وهي مشدوهة: ولم هذه العجلة؟ وما معنى هذه السرعة، الا اذا كنت قد عقدت لها على طيبريوس غراكوّس؟

لست أجهل ان بعضهم يعزو الحكاية الى كلّ من [طيبريوس] رأس أسرة غراكّي Gracchi و[سكيپيو افريقانوس] الاّ ان معظمهم يرويها كما اثبتناها. ويكتب [پوليبيوس] أن أقرب اقرباء [كورنيليا] بعد وفاة ابيها [سكيپيو] فضلّ [طيبريوس] الأبن على كلّ الخاطبين الآخرين. فزوجها له. وان اباها لم يعقد لها على أحد ولم يعد بها شخصاً.

ولذلك ترى [طيبريوس] الشاب يخدم في افريقيا تحت أمرة [سكيپيو] الأصغر زوج أخته، فيساكنه الخيمة. وسرعان ما تعلم كيف يقدر روح قائده النبيلة حق قدرها. فقد كانت صالحة جداً لاثارة دوافع قوية للمنافسة على الفضائل، والرغبة في اقامة الدليل على الكفاءة. ولم يمرّ عليه طويل زمن حتى فاق شبان الجيش كلهم في ميزتي الطاعة والإقدام. وكان أول من تسلق اسوار العدوّ على ما ذكره [فانيوس Fannius] الذي يشاركه في العمل وكانت المحبة والمودّ تكتد فانه من كل جانب طوال وجوده في الجيش حتى أسف الجميع عند رحيله، وتمنوا رجوعه.

ولما عين كويستوراً - بعد هذه الحملة - شاء سوء طالعه أن يلحق بأمرة [كايوس مانشينوس Caius Mancinus] القنصل في الحرب الدائرة ضد [النومانتيين Numan-tines]. كان هذا الجنرال حسن الخلق لا مطعن فيه. لكن لازمه سوء حظٌ لم يلازم مثله اي قائد روماني آخر، فلم يتغير مسلك [طيبريوس] ازاءه مطلقاً بسبب النكبات العظيمة التي لقيها قائده والاخفاق الشنيع الذي مني به. وكان أكثر الاعجاب [بطبريوس] متأتياً من احترامه العظيم لقائده فضلاً عن رجاحة عقله وشجاعته، وهذا ما كان بارزاً فيه كل البروز

ومدعى للتقدير. والجنرال نفسه كان ينسى جلال منصبه وهيبته عندما تحزب به الأمور وتكتنفه الخطوب. فبعد ان لم يحالفه التوفيق في عدد من الوقعات الهامّة، حاول ترك معسكره والانسحاب ليلاً، فعلم النومانتيون بذلك وترصدوا له واسرعوا باحتلال معسكره وبتعقيب القسم المنسحب من قواته وقتلوا من حرس مؤخرته خلقاً كثيراً، وشرعوا يتعرضون للقسم الاكبر من كل صوب، حتى ارغموه على الالتجاء الى ارض صعبة لايستطيع منها نجاة، واسقط في يد [مانشنينوس] وادركه اليأس من شق طريقه بالقوة. فأرسل بطلب الهدنة والصلح. الاّ ان النومانتيين رفضوا التفاوض الاّ مع طيبريوس، لعدم ثقتهم بغيره لا لمتانة خلق الشاب وسمعته الداوية بين الجنود، بل اكراماً لذكرى ابيه الذي أخضع بالقوة قبائل عظيمة من الاسبان عندما كان يدير دفة الحرب ضدهم، لكنه صالح النومانتيين ونجح في اقناع الرومان باحترام ذلك الصلح، وعدم الإخلال بشروط مطلقاً.

فأوفد [طيبريوس] الى العدوّ وتم الاتفاق على شروط الجانبين وبهذه الوسيلة انقذ عشرين ألفاً من المواطنين الرومان خلافاً للخدم والاتباع في المعسكر، كانوا سيهلكون لا محالة. على أن [النومانتيين أحتفظوا بكل ما وجدوه من أموال في المعسكر، ومما نهبوا، سجلات [طيبريوس] المالية وفيها دون كل ما اجراه من معاملات صرف وانفاق خلال توليه منصب [الكويستور]. وكان شديد القلق عليها، عظيم الأمل في استعادتها. ولذلك ما أن واصل الجيش سيره حتى قفل راجعاً الى [نومانتيا] ومعه ثلاثة او أربعة من اصحابه لا غير. ورجا الضباط النومانتيين اعادة السجلات، قائلاً انه سيتعرض الى تهم يلصقها به اعداؤه حين يعجز عن تقديم حساباته حول ما دخل ذمته من اموال وسرّ النومانتيون به وحمدوا الفرصة التي اتاحها لهم لخدمته ودعوه الى دخول المدينة ولما تردّد أقبلوا عليه وامسكوا يده راجين ان لاينظر اليهم بعد اليوم نظرته الى عدو، وان يثق بصداقتهم فيعاملهم على هذا الاساس. ورأى [طيبريوس] انه يفعل حسناً لو وافق على الدعوة فقد كان شديد الرغبة في استعادة سجلاته، عظيم الخوف من الاساءة الى مشاعرهم باظهار الريبة والشك فدخل مدينتهم وقدقوا طعاماً له وبكثير من الالحاح والرجاء جلس واكل ومن ثم أعادوا اليه سجلاته، وخيروه في استعادة ما شاء من الأسلاب الباقية، فأبى ان يمدّ يده في شيء منها خلا شيئاً قليلاً من البخور الذي يستعمل في القرابين العامة. ثم انه ودعهم شاكراً بعبارة جميلة ورحل.

ووجد عند عودته الى روما ان معاملاته المالية باتت هدفاً للطعون والاتهام. فكان اجراءً شائناً من الرومان لم يسبق بمثيل له. الاّ ان ذوى الجنود واصحابهم وهم يؤلفون فئات كبيرة من الناس كانوا يعتبرون [طيبريوس] منقذاً لعدد كبير من الرومان ويتسبون للقائد كل ما وقع

من أخطاء. فأقبلوا على [طيبريوس] يشدون أزره. وطالب المندرون والمتهمون أن يقتدى باسلافهم في معاقبة المسؤولين الرومان الذين يخرقون معاهدات روما مع جيرانهم. فيجردوا القواد بله كل الكويستورين والتريبيون الذين ساهموا بشكلٍ ما، وسلموهم الى السامنيت Samnites مثلاً، وجعلوهم يتحملون تبعات الحنث بالعهد والاخلال بشروط الصلح. لكن الشعب في هذه المرج ابدى تعلقاً غير عادي [بطيبريوس] ولطفاً به. وقد صوت فعلاً على تجريد القائد من رتبته وتكبيله بالاغلال وتسليمه للنومانتيين، لكنهم حبا [بيطيبريوس] اعفوا كل الضباط الآخرين معه وربما كان لتدخل [سكيپيو] أعظم الرومان واقواهم نفوذاً اثر في انقاذه، وان كان قد انتقد لأنه لم يتدخل لحماية [منشينوس]. ولم يهتم هو نفسه بالمحافظة على شروط السلام التي توصل اليها قريبه وصديقه [طيبريوس] مع النومانتيين. ولنا ان تعترض بأن اختلافهما وجفوتهما يعودان بالدرجة الأولى الى طموح كل منهما، والى تأثير الأصحاب والناصحين، الذين كانوا كثيري الالحاح على [طيبريوس] في ابداء المزيد من الاندفاع. على ان هذا الخلف لم يصل الى حَدّ القطيعة ولم يكن بالغ السو. ولا أعتقد أن [طيبريوس] كان سيلقى ما لقي من نوائب لو اهتم [سكيپيو] بمعاونته وجعل من نفسه ظهيراً له. على انه كان بعيداً منه، يقاتل في [نومانتيا] عندما برز [طيبريوس] في روما لأول مرةٍ سياسياً مشترعاً في المناسبة التالية:

كان الرومان عندما يستولون بالفتح على اراضٍ من جيرانهم، يبيعون قسماً منها بالمزاد العلني. ويحتفظون بالباقي للدولة، (اراض اميريّة). ويعهد بهذه الاراضي الى المواطنين الفقراء والمعوزين ببدل ايجار رمزيّ بسيط يدفعه المستغلّ الى الخزينة العامة. ولكن الاغنياء اخذوا يعرضون بدلات ايجارٍ مرتفعة. فيطرد الناس الأفقر منهم ويجردون من اراضيهم، ولهذا صدر مرسوم يحددّ المساحة التي يمكن للفرد استغلالها بما لايزيد عن خمسمائة فدان (ايكر) فوضع حداً لجشع الاغنياء الى حين، وكان عوناً كبيراً للفقراء الذين تمكنوا من الاحتفاظ بقطع اراضيهم المستأجرة من الدولة. إلاّ أن الاغنياء مالبثوا ان أهتدوا الى طريقة للاحتيال على القانون، لاستعادة الاراضي والتصرف بأكثر من المساحات المقررة. تحت اسماء اشخاص آخرين، وكفوا عن الإدعاء بها علناً وكأنها لاتعود لهم. لم يعد الفقراء الذين جردوا من أراضيهم بهذا الشكل، يبدون اي استعداد كالسابق للانخراط في صفوف الجيش والخروج الى الحرب. كما أهملوا تربية اولادهم. وبعد زمن قصير هبط عدد الرومانيين الأحرار في سائر ايطاليا ولم يعهد فيها من إلاّ نسبة قليلة، تدفقت الى محلات العمل والصنائع المكتظة بالعبيد الأجانب. كما استخدم الاغنياء بعضهم في اراضيهم المغصوبة بمثابة فلاحين أجراء.

وأخذ [كايوس ليليوس Caius Lalius] وهو صديق مقرب لسكيپيو - على عاتقه اصلاح الحال وازالة الحيف لكنه لقي معارضة شديدة من ذوي الحول والطول فخاف الفتنة ونكص على أعقابه. فلقب «بالحكيم» و«البعيد النظر» وكلتا اللفظتين تؤديان الى معنى الكلمة اللاتينية [ساپيان Sapiens]

الاّ ان [طيبريوس] الذي انتخب تريبونا للشعب اضطلع عنه بهذه المهمة دونما تردد، بتشجيع [ديوفانس] الفصيح، و[بلوسيوس Blossius] الفيلسوف كما شاع في حينه. كان [ديوفانس] قد لجأ الى روما من [ميتلين]، والثاني ايطالي جاء من مدينة [كوما Cuma] بعد ان تلقى دراسته هناك على [انتيپاطر الطرسوسي] الذي شرفه بالأخير باهدائه بعض مقالاته الفلسفية.

وعزا بعضهم الى [كورنيليا] أم [طيبريوس] المساهمة في تشجيعه فقد كانت تشكو لولديها دائماً بأن الرومان يفضلون مناداتها «بابنة سكيپيو» على مناداتها «بأمّ الغراكيين» ويزعم آخرون ان [سپريوس پوستمليوس Spurius Postumius] كان السبب الرئيس في ذلك. وهو رجل في مثل عمر [طيبريوس] ومنافس له في الشهرة بوصفه خطيباً جماهيرياً. فقد وجد [طيبريوس] عند عودته من الحرب ان تربه هذا قد سبقه كثيراً في مضمار الصيت والشهرة وان الاهتمام قد زاد بأمره. فقرر أن يبرز عليه بتبنيّ قضية عامة جماهيرية عسيرة المنال ذات آثارٍ خطيرة جداً. على ان شقيقه [كايوس] ذكر فيما خلّف من كتابات. ان [طيبريوس] عند رحيله الى [نومانتيا] مجتازاً [توسكانيا] ارتاع لرؤيته الريف الايطالي يكاد يكون بلقعاً مقفرا من البشر، ولم يجد مزراعين أو رعاة من طبقة الأحرار، ومعظمه مسكون بالبرابرة والعبيد المستوردين، فكان هذا اول حافز له على اتباع السبيل السياسي الذي ادّى به وباسرته الى الدمار. ومن المؤكد ايضاً أن الجماهير نفسها أثارت حميته وشددت عزماته ودفعته الى الدعوة بالرقاع والكتابات على الجدران والأنصاب والشرفات وفيها تشجيع وحث شخصيّ له على الأخذ بيد المواطنين الفقراء وانصافهم باعادة اراضيهم اليهم.

على انه لم يضع مشروع قانونه العتيد الاّ بعد مشاورة واسناد من المواطنين الذين تمتعوا بأعظم المكانة والنفوذ والسمعة عند الناس، منهم [كراسوس] عظيم الكهنة. و[موشيوس سكيڤولا Mucius Scoevola] المحامي الذي كان قنصلاً في ذلك الحين. و[كلوديوس آپيوس] حموه. ولم يسبق ان بدا قانون كهذا في اعتداله ورحمته، لاسيما وانه شرع للوقوف في وجه الظلم والجشع، فأولئك الذين ينبغي ان ينزل بهم عقاب شديد لخروجهم على احكام القوانين السابقة، أو أن ينزلوا على الأقل عن اداعاءاتهم في تلك الأراضي التي اغتصبوها

فملكوها بدون وجه حق، سيكون لهم بموجب قانون [طيبريوس] المقترح حق التعويض النقدي لقاء التخلي عن ادعاءاتهم غير المشروعة عند النزول عن الأراضي المضبوطة واعادتها الى مستغليها الشرعيين المحتاجين. لقد صيغ قانون الاصلاح هذا بكثير من الحذر والنعومة متغاضياً عن كلّ الصفقات المشبوهة السابقة، وحمد الناس له الاحتياط لمنع وقوع أي ظلمٍ في المستقبل. ومع هذا يرضى عنه رجال المال وكبار الاقطاعيين لجشعهم المفرط، وكرهوا واضعه حقداً عليه ولروح التخريب فحاولوا تضليل الناس واغواءهم وقالوا أن [طيبريوس] يهدف بمشروعه الى اعادة تقسيم الأراضي وقلب الحكومة، ونشر الفوضى في كل مكان.

لكن مساعيهم خابت. فقد عرف من [طيبريوس] تبنيه القضايا العادلة الشريفة، كما كان يملك من قوة العارضة والبيان ما يكفي ليجعل مشروعاً أقل وجاهة من هذا يبدو مقبولاً معقولاً. ولذلك ما كان بذلك الخصم السهل أو بالذي يؤمن جانباً. وقد اعتلى منبر الخطابة يوماً والجموع المحتشدة تحيط بالمنصة وشرع يتكلم دفاعاً عن الفقراء فقال:

- لكل وحشٍ ضارٍ في ايطاليا عرينه ومغناه الخاص يستجم فيه وملجأه الأمين يقيل اليه. اما أولئك الذين يحملون السلاح ويعرضون حياتهم للردى في سبيل سلامة بلادهم، فليس لديهم ما يتمتعون به غير الهواء والضياء. ولأنهم لايملكون بيوتاً أو مواطن خاصة، تراهم مكرهين على الانتقال من موضع الى آخر مع اولادهم ونسائهم.

واستتلى يقول:

- يرتكب القادة خطأ مضحكاً عندما يحمسون الجندي البسيط، ويدفعونه وهم على رأس الجيش للحرب في سبيل «مذابح قرابينهم وانصابهم المقدسة». في حين لايوجد أحد من بين هذه الجموع الرومانية، فن يملك مذبحاً أو نصباً، بل بيتاً. أو مأوى ورثوه من اسلافهم لكي يدافعوا عنه. أنهم في الواقع يقاتلون ويقتلون، لكن ليحافظوا على غنى الآخرين وترفهم يشار الى هؤلاء المساكين بأنهم سادة الدنيا لكنهم في الواقع لايملكون قدماً واحدة من الأرض.

خطبةٌ كهذه يلقيها شخص صادق الشعور، قوى الروح، على مستمعين متعاطفين متحمسين، لاتجد امامها خصوماً قادرين على تنفيذها ومعارضته هجمها في تلك الساعة. لذلك امسك المعارضون عن المناظرة والمناقشة، وقصدوا [ماركوس اوكتافيوس] التريبيون زميل [طيبريوس] وكان هذا شاباً رصين الخلق معتدل المزاج صديقاً عزيزاً [لطيبريوس] ولهذا أبى في مبدء الأمر ان يقود المعارضة ضده. ولكن قاصديه الحوا كثيراً وكانوا من وجهاء القوم

وممن لايرد لهم طلب، فقبل بعد الجهد الجهيد. واضطلع بمهمة الحيلولة دون إقرار للقانون الجديد. وكانت القاعدة ان لكل [تريبيون] الحق في ايقاف تشريع اي قانون. ولايملك زملاؤه حيلة تجاه ذلك لأن الإجماع وشرط واجب وان عارض واحد، لايسن القانون ولاينفذ. فأنزعج [طيبريوس] لهذا العمل، وبادر في الحال الى نبذ مشروع قانونه المعتدل. مقدماً مشروعاً آخر أشدّ وطأة من سالفه على المذنبين فهو والحالة هذه أكثر استساغة وقبولاً عند العامة. وبمقتضى هذا المشروع الجديد قانونه المعتدل. وبمقتض هذا المشروع الجديد يجب على المعتدين ان يتنازلوا في الحال عن كل الأراضي التي يتصرفون بها خلافاً لاحكام القوانين السالفة دون تعويض وعلى اثر ذلك بدأت مشادة يومية بينه وبين [اوكتافيوس] كانت الخطب سلاحها. الاّ انهما لم ينزلا الى التراشق بالتهم الشخصية ولم يسمع ان لسانيهما عثر بكلمة نابية تحطّ من قدرهما وهما في حمى العاطفة منساقين. ان الطبع النبيل وثمرة التهذيب الرفيع لايتبدى.

«... في المجون الباخوسيّ والعربدة»

فحسب، بل في الخصومات السياسية والتنافس. حيث يكون العقل ضابطاً وعليه رقيباً. وعلم ان [اوكتافيوس] كان ايضاً مما خرقوا احكام القانون السابق وهو يحتفظ بمساحات كبيرة من الأراضي الاميرية فطلب منه الكف عن معارضته وعرض في سبيل المصلحة العامة ان يدفع عن اوكتافيوس بدل حصصه. من جيبه الخاص، وان كان ما يملكه ليس بالكثير. ولما رفض اوكتافيوس عرضه اصدار بيان يمنع فيه كل شخص يشغل وظيفة ذات طابع تضائي، من ممارسة وظيفته حتى يبرم او يرفض القانون المقترح، بالاقتراع العام ثم انه وضع الختم على ابواب هيكل [زُحَل] فلم يعد امناء الخزينة يستطيعون اخراج مال او ادخاله. وهددّ بفرض غرامة كبيرة على كلّ [بريتور] يحاول تحدي اوامره، فتوقف كلّ ذوى المناصب عن ممارسة شؤون وظائفهم لئلا يقعوا تحت طائلة العقوبة. وعلى الأثر لبس الاغنياء الملاكون واصحاب الأراضي الكبار ثياب الحداد، وخرجوا الى المحلات العامة يروحون ويغدون باسارير كالحة واوجه تعلوها الكآبة. ثم عقدوا الخناصر على مؤامرة للقضاء على [طيبريوس] وهيأوا القتلة. فلم يفته ما دبروه ودأب على حمل عصاً في داخلها نصلٌ كتلك التي يستخدمها اللصوص وتسمى باللاتينية (دولو Dolo].

وحَلّ اليوم المضروب أجلاً لادلاء الشعب باصواته في القانون، الاّ أن الاغنياء ضبطوا الاواني الخاصّة بالاقتراع وذهبوا بها. فعمت الفوضى، الاّ ان حزب [طيبريوس] بدأ كافياً لردّ الحزب المناوي وتكتل الاشياع حوله وقوى عزمه على المضي في هدفه حتى النهاية. وعندئذ القى [مانليوس Manlius] و[فولفيوس Fulvius] القنصلان بنفسيهما امام [طيبريوس].

وأخذا بيده يتوسلان اليه والدموع تنحدر من اعينهما - بان يعدل عن قراره. وكان [طيبريوس] يشعر بمغبة الفوضى والاضطراب القائم، ويحترم هذين الرجلين الفاضلين فطلب منهما ان يشيرا عليه بما يصنع فأقرا بأنهما غير صالحين لابداء رأي في مثل هذا الأمر الجلل. الاّ انهما الحّا عليه بأن يترك لمجلس الشيوخ مهمة الفصل في الموضوع. لكن لما أجتمع مجلس الشيوخ، ظهر عجزه هو الآخر عن التوصل الى نتيجة، بسبب تغلّب حزب الاغنياء فوجد نفسه مضطراً الى اتخاذ سبيل مجافٍ لحكم القانون ولروح العدالة، بأن اقترح عزل [اوكتافيوس] من منصبه. اذ كان من المستحيل ان يجد سبيلاً لابرام القانون بالتصويت، الاّ بعد ازاحة التريبيون المعارض.

في مبدء الأمر أخذ يرجوه بارق وأعذب خطاب. وامسك بيديه وراح يتوسل به قائلاً:

- الآن، وبمحضر من الشعب كله، يمكنك ان تنتهز الفرصة لتمنّ عليه وتتفضل بهذا الطلب، وهو بحدّذاته مطلب عادل معقول. انه لتعويض تافه عن الأخطار والمصاعب الكثيرة التي تحملها المواطنون لأجل المصلحة العامة.

الاّ ان [اوكتافيوس] ظلّ مصراً على موقفه ولم يتزحزح عنه قيد شعرة وعندها توجه [طيبريوس] الى الشعب بقوله:

- لما كان كلانا يشغل منصباً واحداً ذا سلطة متساوية، فمن العسير تسوية الخلاف بين وجهات نظرينا في موضوع خطير كهذا بغير حرب أهلية. وفي رأيي ان العلاج الوحيد الذي لامناص من الاخذ به، هل تنحية أحدنا من منصبه هذا.

وطلب من [اوكتافيوس] ان يدعو المواطنين لاصدار حكمهم عليه اولاً، وأكد له انه سينزل عن سلطاته كلها بطيبة خاطر ان شاء الشعب ذلك. فرفض [اوكتافيوس]. فقال [طيبريوس] انه سيقوم هو نفسه باستطلاع رأي الجمهور في تنحية [اوكتافيوس] ان لم يغير رأيه بعد مناقشة مستفيضة. ثم أجل الاجتماع الى اليوم التالي.

ولما اجتمع الناس ثانيةً، جلس [طيبريوس] على كرسي وظيفته وحاول للمرة الثانية اقناع [اوكتافيوس]. فلم ينل منه فتيلاً فوضع مصيره بيد الشعب طالباً منه ان يقترعوا عليه في الحال - وعندما ادلى سبع عشرة قبيلة من اصل خمس ثلاثين بأصواتهم ضدّ [اوكتافيوس] ولم يتبق الاّ صوت قبيلة واحدة لتتم تنحيته عن منصبه. أوقف [طيبريوس] عملية الاقتراع، وجدد رجاءه واهوى عليه عناقاً وتقبيلاً أمام الجماهير المتحشدة متوسلاً باخلاص وحرارة ان يعدل عن رأيه، قائلاً انه لايريد أن يكون سبباً في الحاق العار بأحدٍ، أو يوصم بتهمة تدبير

وتنفيذ عملٍ كريه كهذا. ويقال ان [اوكتافيوس] ظهر عليه بعض التردد ولين الجانب وبدا متأثراً بهذا الرجاء الحار فامتلأت عيناه بالدموع وظلّ صامتاً برهةً من الزمن. الاّ انه ارسل نظره الى حيث يقف الاغنياء والاقطاعيون كتلة متراصة واحدةً. وبدأ نهباً موزعاً بين الخجل، وبين تحقير نفسه لديهم. فالتفت الى [طيبريوس] ودعاه الى استخدام اي اجراء ضده مهما كان صارماً وعلى هذا حصلت الأغلبية بطرده من منصبه. فأمر [طيبريوس] أحد خدامه المعوقين يطرد [اوكتافيوس] من الروسترا، بدلاً من استخدام ضباط الأمن الأمر الذي اضفى على العملية لوناً جديداً من الأسى. فجرّ [اوكتافيوس] الى الخارج بهذا الاسلوب الشائن، وهجم عليه الجمهور، فخفّ الاغنياء لمعونته، وبشيء من الصعوبة رفع [اوكتافيوس] رفعاً واخراج من بين الحشود الهائلة. الاّ ان خادماً مخلصاً ثبت نفسه امامه سداً ليفسح له مجال الفرار بدرء مهاجميه ففقئت عيناه، الأمر الذي اورث [طيبريوس] كثيراً من الحزن. وخف مسرعاً وقد ادرك انها بوادر فتنة وعمل على تهدئة الهياج.

بعد هذا صدق قانون الاراضي الجديد ووضع موضع التنفيذ . وانتخب مفوضون ثلاثة لمسح الأراضي والإشراف على التقسيم بصورة عادلة. وهؤلاء هم [طيبريوس] نفسه، و[كلوديوس آپيوس] حموه، [كايوس غراكوس] أخوه، الذي كان وقتذاك بعيداً عن روما، في الجيش بأمرة [سكيپيو افريقانوس] امام [نومانتيا]. وتمّ تصريف كل هذه الأمور المتعلقة بتطبيق القانون بمعرفة [طيبريوس] دون عقبه، اذ لم يجرء أحدٌ على الوقوف في وجهه بعد ان وضع في محل [اوكتافيوس] المعزول شخصاً لايمتاز بشيءٍ اسمه [موشيوس] وهو من الموالين له.

وحزّ في أنفس كبار القوم أن توجه اليهم مثل هذه الأهانة. وخافوا ان تتعاظم شوكة [طيبريوس] وتزداد شعبيته فلا يقف عن حدٍ. فراحوا ينتهزون كل فرصة لإهانته والتشهير به في مجلس الشيوخ. فعندما طلب تخصيص خيمةٍ له على حساب الخزينة جرياً على عادة من يقوم بخدمة عامة كي يستخدمها في عملية تقسيم الاراضي، رفض طلبه رفضاً قاطعاً. مع أن مثل هذا الطلب يجاب بصورة عامة لمكلفين بواجبات أقل أهميّة بكثير من هذا الواجب كما ان العلاوة التي خصصت لنفقاته اليومية لم تزد عن تسع اوبولات. وكان [پوبليوس ناسيكا Publius Nasica] الرأس المدبر لهذه الاهانات. لقد حقد هذا الشخص حقداً مكشوفاً على [طيبريوس] فهو اقطاعي كبير ضبط مساحات كبيرة من الأراضي الاميرية، وارغم على التنازل عنها، ولذلك لم تكن ضغينته باليسيرة. أما الشعب فقد أخذ هياجه يتصاعد حتى بلغ درجة خطيرة تكشف عنها الحادثة التالية: توفي احد اصحاب [طيبريوس] بموت الفجاءة. ولوحظ ان بقعاً خبيثة انتشرت على جسمه، فأسرع الجمهور الى جنازته بضجيج وعجيج وهم

يصرخون بأن الرجل مات مسموماً وحملوا النعش على اكتافهم ووقفوا على حراسته اثناء رفعه الى المحرقة. كان في الواقع بعض ما يبرر شكوكهم في وجود دسيسة لأن الجثة انفجرت وخرج منها مقدار كبير من الاخلاط الفاسدة اخمدت النار، تحاولوا ايقاد المحرقة عبثاً، ولم يروا بداً من نقل الجثمان الى موضع آخر. وبعد لأي تمكنوا من إشعال النار فيها.

وعمد [طيبريوس] الى مضاعفة هياج الجمهور، بان ارتدى ثياب الحداد ودفع باولاده الى الناس طالباً منهم ان يتكفلوا باعالتهم مع والدتهم، ليظهر بمظهر اليائس من حياته.

وفي حدود ذلك الزمن ادرك الأجل الملك [أتالوس] الملقب [فيلوميتر Philometer]، وحمل [يوديموس Eudemus] البرغامومي وصية الأخيرة الى روما، وفيها جعل أهالي روما كلهم ورثته الشرعيين . واراد [طيبريوس] ان يُسَّر الشعب فأقترح فوراً أن يصدر مرسوم بتوزيع تركة [اتالوس] على فقراء المواطنين المستحقين قطعاً من الأراضي الاميرية، فما يصيبهم سيعينهم فعلاً على شراء الحيوانات وفلاحة اراضيهم. اما بخصوص المدن التي تقع ضمن حدود مملكة المتوفى، فقد افتى بأن مجلس الشيوخ لايحق له التصرف بها وانما هذا من حق الشعب وهو الوارث، ولذلك فانه سيسأل الشعب عما يرتأيه بشأنها. فكانت اهانة للمجلس لم يسبق ان واجه مثلها من قبل. واذ ذاك نهض [پومپيوس Pompeius] وقال: انه جار ملاصق [لطيبريوس] وبذلك سنحت له الفرصة ليعلم بأن [يوديموس البرغامومي] أهدى [طيبريوس] تاجاً ملكياً ورداء ارجوان، على أساس انه سيصبح ملكاً لروما بعد مرور وقت قصير. ووبّخه [كونتيوس ميتيللوس Quintus Metillus] أيضاً بقوله: عندما كان والده (اي والد طيبريوس) چنصوراً كان الرومان يسارعون الى اطفاء النور كلما رأوه يمرّ في الطريق عائداً الى داره لتناول العشاء، لئلا يشاهدهم غارقين في حفلات الشرب والقصف واللهو في وقت غير مناسبٍ. في حين يرى اليوم احطّ الدهماء والسوقة يطوفون ليلاً بأيديهم المشاعل ويمشون وراء [طيبريوس] حتى يبلغوا به منزله؛ اما [تيطس آنيوس Titus Annius] وهو شخص لايتمتع بسمعة طيبة جداً. لا من ناحية الخلف ولا من ناحية العدل. لكنه اشتهر بالبراعة في القاء الأسئلة والحذق في الاجابة. انبرى هذا يتحدى [طيبريوس] برهاناً على ان يثبت بأنه عزل حاكماً هو بحكم القانون شخصية مصونة قدسيّة. وتعالت الضجّة وغادر [طيبريوس] القاعة على جناح السرعة ودعا الشعب الى اجتماع عام ثم طلب [آنيوس] وباشر في توجيه التهم اليه. لكن آنيوس وهو المتكلم البارع الذي لايتحصن وراء سمعة أو مكانة [كطيبريوس] لجأ الى حماية نفسه بالسلاح الذي اتقنه. فطلب ان يؤذن له بالقاء سؤال أو اثنين على [طيبريوس] قبل الدخول في الموضوع الرئيس. فأعطي له ذلك وساد الصمت

فطرح آنيوس] سؤاله كالآتي:

- إن كنت تنوي قذفي والتشهير بي. وأردتُ مراجعة تريبيون من زملائك للانتصاف لي. فيأتي هذا المعونتي. افيثور ثائرك لهذا السبب وتحكم بعزله؟

قيل ان [طيبريوس] ارتبك وانعقل لسانه فبقي صامتاً يبحث عبثاً عن اجابة، مع انه عُرف بسرعة البديهة وحضور الذهن في اوقات أخرى. فعمد الى فض الاجتماع. الاّ انه بدأ يدرك ان الطريق التي اتبعها مع [اوكتافيوس] قد خلقت رد فعلٍ حتمي بين جماهير الشعب فضلاً عن طبقة الأشراف اذ بدأ وكأن حرمة منصب التريبيون قد انتهكت، وقد بقيت حتى ذلك اليوم مصونة مقدسة ابداً. فتوجه الى الجمهور في خطبة يريد بها تبرير عمله، أرى من المناسب أن اجتزيء منها بعض الفقرات لتقوم دليلاً ولتكوّن فكرةً عن قوة حجته ومقدرته الخطابية في اقناع مستمعيه قال:

- ان تريبيون الشعب يتمتع بشخصيّة قدسيّة فعلاً. ومن الضروري ان تكون تلك الشخصية مصونة محصنّة. لأن صاحبها وقفُ على الشعب مكرس لحراسته وحمايته بوجه من الوجوه. لكن ان انحطّ وتردّى الى الحد الذي يضطهد للشعب وتقليصّ سلطته ويصادر حقّه في الاقتراع، فأفعاله هذه تجرده من شرف الحصانة والصيانة، لإهماله الواجب الذي تسبب في اضفاء هذا الشرف عليه، ونجلات هذا يتوجب علينا ويتحتمّ ان ندع التريبيون يفعل ما يشاء، فلا نعترض سبيله، وإن شرع بتدمير الكابيتول او اشعال النار في دار السلاح ان التريبيون الذي يأتي بمثل هذه الأفعال هو تريبيون سيء. ومن يعتدى منهم على سلطة الشعب لايعود تريبيون قط. أو ليس من السهل ادراك مغزى اعطاء التريبون سلطة حبس القنصل، في حين ان الشعب لايملك سلطة تجريده من صلاحياته عند استعماله هذا الحق الذي تسلمه منهم ليلحق الضرر بهم؟ ذلك لأن التريبيونات فضلاً عن القناصل لم يبلغوا مناصبهم الاّ بأصوات الشعب. إن الحكومات الملكية التي تجمع في يديها كل السلطات دون منازعٍ، قد ارتفعت فوق هذا، الى مرتبة التقديس بأعظم الفرائض الدينية شأناً، وأكثرها حرمة ولكن جماهير الشعب دون التفاتٍ الى كل هذا خلعوا [تاركوين] عندما ضل سبيل الرشاد ولجريمة شخصٍ واحدٍ انقرضت الأبد تلك الحكومة الرومانية الغابرة التي بنيت عليها روما. ما أعظم قداسة وحرمة في روما من العذارى الفستالات! اللاتي انيط بهن وحدهن آمر المحافظة على النار الأزلية؟ مع هذا كله، فلو زلت واحدة منهن عن السبيل القويم، لوئدت حيةً. ان القداسة التي منحت لهن من أجل الآلهة، تستردّ عندما يخطئن امام الآلهة. كذلك الأمر مع التريبيون، فهو يفقد

حصانته التي يتمتع بها من أجل الشعب عندما يرتكب عملاً ضد الشعب. عندما يهاجم اسس تلك السلطة التي استمد منها سلطانه. اننا لانعترف بالتريبيون، تريبيوناً شرعياً الاّ عندما ينتخب بأغلبية الأصوات. أفليس أكثر من هذا شرعيةً ان يتمّ عزل نفس هذا الشخص باجماع الاصوات على تنحيته؟ ليس ثم أقدس من التقدمات والنذور الدينية ومع هذا لايمنع الجمهور من استعمالها، ولايحال دون رفعها ونقلها حيث اريد لها ان تكون، ووظيفة [التريبيون] أيضاً، كأية تقدمه أو عطية مقدسة. للشعب حقٌ شرعي في نقلها من يد شخصٍ الى يد آخر. بل وليس في الامكان ان ننزل هذه السلطة بهذه المنزلة من الصيانة والثبات حين نجد الكثيرين ممن تولاها يتنازلون عنها بملء اختيارهم ويطلبون اعفاءهم منها.

هذه أهم الحجج التي وردت في دفاع [طيبريوس]، الاّ ان اصدقاءه خوفاً من الخطر الذي يتهدده، وبسبب المؤآمرة التي تتجمع خيوطها حوله. فارتاؤا ان اسلم الطرق هو التقدم لمنصب التريبيون للعام القابل. وعلى هذا الاساس بدأ يعمل لضمان مساندة الشعب له باصدار قوانين جديدة. فأقترح مراسيم لتقليل سنوات الخدمة العسكرية، وشرع حق استيناف احكام القضاة امام الشعب، وضم الى اعضاء مجلس الشيوخ الذين كانوا مخولين اذ ذاك صلاحية القضاء، عدداً مساوياً من المواطنين من طبقة الفرسان، محاولة منه تقليص نفوذ المجلس بدافع من العاطفة والتحزب للشعب، لا لأسباب معقولة أو لأجل المصلحة العامة والمساواة. وعندما بدأ النقاش حول هذه المراسيم، وجد ان المعارضة هي الأقوى. كما ان الشعب لم يوحدّ كلمته ويقف كتلة قراصة بعد. فأراد كسب الوقت بالقاء الخطب الاتهامية لبعض زملائهم الحكام ثم ارجأ الاجتماع الى اليوم التالي:

ونزل [طيبريوس] الى ميدان المدينة الكبير مختلطاً بالشعب بكل تواضع وقال لهم بعينين دامعتين: ان لديه اسباباً وجيهة للشك في ان خصومه سيحاولون اقتحام بيته وقتله في تلك الليلة. ففعل كلامه فعله القويّ في الجماهير، حتى جاء عدد منهم وضرب خياماً حول منزله. وسهروا ساعات الليل في حراسته وعند تباشر الصبح اقبل أحد العرافين الذين يكشفون عن نتائج الأعمال وعواقب الأمور ان كان خيراً أم شراً. باسقراء نقر الدجاج الحبّ الذي يلقى اليها. وبذل العراف جهوداً هائلة لاخراج الدجاج من قنه فلم يخرج الاّ واحدة رفت بجناحها الأيسر، ومدت رجلها، ثم دلفت الى قنّها دون ان تلتقط شيئاً من الحبّ. وهذا ما ذكّر [طيبريوس] بحادثة سابقة أخرى تطيّر منها. فقد كان لديه خوذة حربية ثمينة جداً رافقته في سائر المعارك التي خاضها. تسللت اليها حيّتان ووضعتا بيضهما فيها ثم فقستاها صلالاً. ان

استذكاره هذه الحادثة زاد من غمه وقلقه. وعلى اية حال فقد توجه الى [الكاپيتول] حال علمه بتحشد الجمهور هناك. الاّ ان قدمه عثرت بالعتبه عند خروجه من الدار. وكانت بدرجة من الشدة ان كسرت له ظفر ابهامه فانبجس الدم من حذائه، ولم يسر قليلاً حتى شاهد غرابين يقتتلان فوق منزل يقع على يساره. وكان يحيط به عدد من الناس. فدفع احد الغرابين بقدمه حجراً نافراً من البناء فسقط تحت قدمه تماماً. وادرك اقوى اصحابه جناناً بأن هذه انذار له بالوقوف. الا أن [بلوسيوس] الكوميّ الذي كان بين الحاضرين اشار بانه سيكون من المخجل والمخزي [لطيبريوس] ابن [غراكوس]، وحفيد [سكيپيو افريقانوس] وحامي حمى الشعب الروماني ان يرفض دعوة الشعب، خوفاً من طير لا عقل له. ولن يكتفي خصومه باتخاذ ذلك مادة للسخر منه، بل سيزعمون للشعب بأنها دليل على الطبع التحكمي الاستبدادي المستهين برغبة الجمهور. وفي الوقت عينه اقبل عدد من السعاة الى اصدقائه يشددون على حضوره الى الكاپتول قائلين ان كل شيء يسير على مايرام هناك. وفي الواقع كان اول دخول [طيبريوس] نصراً من جميع الوجوه. فما أن ظهر حتى رحب به الشعب بهتاف داوٍ، وكانوا يرددون الشعارات التي تدل على مبلغ سرورهم اثناء اتجاهه الى معقده، وتحلقوه ولم يدعوا احداً يدنو منه الاّ المعروف من اصحابه. وباشر [موشيوس] بوضع المسألة في التصويت ثانية، لكن الهرج والفوضى التي كانت تثيرها جماعات ممن وقفت بعيداً عن نطاق الاجتماع حالت دون المضيّ في الاجراءات وفق الاسلوب المعتاد، فلم يتوصل الى شيء. ونشب عراك من اتباع الحزب المعارض المتدافعين الى الأمام والمحاولين شق طريقهم الى الداخل ليتدسوا في الصنوف.

وفيما كانت الحالة على هذه الصورة من الاضطراب. وقف الشيخ [فلاڤيوس فلاكوس Fla-veius Flaccus] في موضع ظاهر [لطيبريوس] ولكن بعيد يتعذر اسماعه ما يريد قوله له. فأخذ يشير اليه بحركات من يده يقصد افهامه بان لديه ما يريد قوله له وهو بالغ الأهمية. ففهم وببعض الصعوبة وصل فلاڤيوس واسره بان طبقة الاغنياء توصلوا الى قرار نهائي في مجلس الشيوخ، بعد أن وجدوا بأنهم لن يفلحوا في ضمّ القنصل الى معسكرهم. وهو ان يعمدوا الى اغتياله وقد سلحوا عدداً من خدمهم واتباعهم لتنفيذ هذا العمل. فأبلغ [طيبريوس] اتباعه واصحابه. فما كان منهم الاّ زموا ارديتهم على اجسامهم وكسروا رماح الضباط التي كان يستخدمها هؤلاء لابعاد الجمهور وتفريقه، وجعلوها قطعاً وتوزعوها لمقاومة الهجوم بها. وعجب الناس البعيدون واخذوا يتساءلون عمّا يجري وكان [طيبريوس] يعلم ان صوته لا يصل اليهم. فرفع يديه فوق رأسه يريد ان يصور لهم بحركاته الخطر العظيم الذي يتعرض له ولاحظ خصومه هذه الحركة فأسرعوا في الحال الى مجلس الشيوخ وأعلنوا ان

[طيبريوس] يطلب من الشعب تاجاً، مفسرين مسّ رأسه بيده بهذا التفسير فخلق النبأ ضجة واضطراباً عاماً بين الشيوخ. وأسرع (ناسيكا) يطالب القنصل بعقاب الطاغية والدفاع عن الحكومة، فأجاب القنصل بهدوء انه لن يكون البادىء باستخدام العنف،. وفي الوقت الذي لايود ان ينفذ حكم الموت بأي رومانيّ حرّ قبل صدور الحكم الشرعي عليه كذلك لن يسمح بتنفيذ عمل [لطيبريوس] ارغم عليه الشعب أو أختاره، عن طريق استفتاء غير قانوني. الاّ ان (ناسيكا) قال وهو ينهض:

- مادام القنصل لايراعي سلامة الجمهورية، فليتبعني كل من يريد الدفاع عن حرمة القانون.

ثم وضع طرف عباءته فوق رأسه واسرع الى [الكابتول] وحذا من تبعه حذوه ولفوا عباءاتهم على سواعدهم وشقوا طريقهم وراءه. ولما كانوا من ذوي السلطة والمقام في المدينة فقد تهيبت العامة اعتراض سبيلهم بل اسرعت في افساح السبيل لهم فأخذ الواحد منهم يسقط على الآخر من فرط العجلة. واما اتباعهم الذي جروا وراءهم فقد استعدوا بالهراوات والقضبان التي جاؤوا بها من بيوتهم، وجعلوا قوائم بعض المصاطب والمقاعد، ورفع قطعاً من تلك التي تكسرت بسبب تدافع الجمهور اثناء فرار السريع، واتجهوا نحو [طيبريوس] وهم يكيلون الضربات لكل من يقف في طريقهم ويوقعونه ارضاً فتفرق الناس وحاول [طيبريوس] الخلاص فأخذ يعدو وفيما هو كذلك اذا مسك احدهم بذيل ردائه فاوقعه الاّ انه خلع الرداء واستانف فراره بثيابه الداخلية الاّ انه عثر وسقط فوق الساقطين المرضوضين. وفيما هو يحاول النهوض، شوهد [پوبليوس ساتوريوس Publius Satureius] التريبيون يهوى علي رأسه باول ضربة قتالة في قائمة كرسيّ. ونسب [لوشيوس روفوس Lucius Rufus] الضربة الثانية لنفسه. كأنه أقدم على مأثرة تدعو الى الفخر. وقتل في هذه الفتنة ما يزيد عن ثلاثمائة بالعصي والقضبان، والهراوات ولم يقتل أحد بسلاح حديدي.

تلك على ما قيل - اول فتنة بين الرومان تنتهي بسفك الدماء منذ اسقاط الحكم الملكي، فكلّ الخصومات - وما كانت بالصغيرة أو بالتافهة - تحلّ بالتصافي - بتنازل فريق لفريق: مجلس الشيوخ يتنازل خوفاً من العامة، والعامة تتنازل توقيراً للمجلس وكان من المحتمل حقاً ان يتوصل الى اقناع [طيبريوس] بالتنازل عن طريق محاجته محاجة منطقية. ومن المؤكد انه سيخضع دون حاجة للاعتداء عليه ولا اللجوء الى عنف وسفك الدماء، اذ لم يكن لديه من المشايعين اذ ذاك - مايزيد ثلاثة آلاف. والواضح الذي لايقبل نقاشاً ان مقتله لم يكن بنت ساعته. فالحقد والحنق الذي حفظهما الاغنياء له كأنا مسؤولين عن المأساة، أكثر مما كان للاسباب التي يدّعوها هم، وكدليل على هذا، نشير الى الوحشية والاهانة اللاانسانية التي

عوملت بها جثته. فلم يسمحوا لأخيه رغم رجاءاته الحارة - بدفنها ليلاً، بل القوها في النهر مع الجثث الأخرى. ولم يقف حقدهم عند هذا الحدّ، فقد ابعدوا اصحابه عن ايطاليا دون اللجوء الى الاجراءات القانونية المعتادة وقتلوا كل من وقع بايديهم، وبينهم [ديوفانس] الخطيب. وقتل [كايوس ڤيلليوس Caius Villius] قتلة شنعاء فقد وضع في برميل مليء بالافاعي والحيات وجيء بـ[بلوسيوس الكوفي] الى القناصل واستجوب حول ما وقع فأعترف بصراحة انه انفذ كل ما طلبه [طيبريوس] منه دون تردد فصاح [ناسيكا]:

- فلو طلب منك [طيبريوس] اشعال النار في الكابتول. اتفعل؟

فأجاب اولاً: ان [طيبريوس] لن يطلب منه شيئاً مثل هذا فكرر آخرون نفس السؤال عليه فقال:

- لو كان [طيبريوس] قد أمر به لفعلته، فانه لم يأمر بشيء ان لم يكن في مصلحة الشعب.

وأطلق [بلوسيوس]. فرحل الى [ارسطونيقوس Aristonicus] في آسيا وعندما سقط هذا، بخع بلوسيوس نفسه.

لم يعارض مجلس الشيوخ في قانون تقسيم الأراضي الاميرية، تهدئة من تأثرة العامة هذه الأحداث وسمح باختياره مفوض آخر في محل [طيبريوس] فأختاروا [پوبليوس كراسوس] من اقرباء القتيل، اذ ان [كايوس غراكوس] هو ختنه. الاّ ان [كورنيليوس نيپوس Cornilius Nepos] يقول ان بنت [كراسوس] لم تتزوج [كايوس] بل [بروتوس] الذي نال موكبي نصره لتغلبه على اللوزيتانيين. الاّ ان معظم الكتاب يتفقون معنا فيما ذكرناه.

ومهما يكن فقد أظهر الشعب دلائل سخطٍ واضحة لمقتل [طيبريوس]. وتبين انه كان يتحين الفرصة للانتقام وسبق ان هدُدّ [ناسيكا] بالاحالة الى القضاء، وخشي عليه المجلس فعينه سفيراً وارسله الى آسيا ولم يكن ثم ما يستدعى ذلك. ولم يخف الشعب حنقه على هذا الرجل فقد كان يهان ويحقرّ كلما لوحظ سائراً في شارع فينادى القاتل والطاغية والرجل الذي لوث أقدس واطهر بقعةٍ في روما بدم حاكم مصون. فرحل [ناسيكا] من ايطاليا رغم انه كان ملزماً بالبقاء بحكم وظيفته: (عظيم الكهنة) لترؤس القرابين الرسمية الهامة. فراح يطوف في البلاد على غير هدى لايستقرّ به مقام. ومات بعد قليل في موضع لايبعد كثيراً عن [برغاموس]. وليس بالأمر العجيب أن يبغض الناس [ناسيكا] الى هذا الحدّ. [فسكيپيو افريقانوس] الذي يكنّ له الرومان أعمق الحبّ والولاء، باستحقاقه، كاد يتعرض لسخط الشعب ايضاً لأنه أنشد بيتاً لهوميروس عندما أبلغ بمقتل [طيبريوس] وهو في نومانتيا اذ قال:

«وكذلك سيهلك كا من يفعل مثل هذا».

وقد سأله كلّ من [كايوس] و[فلوثيوس] في مجتمع حافل عن رأيه في مقتل [طيبريوس] فكان رأيه يخالف رأي الشعب فيما أقدم عليه [طيبريوس]. ولهذا السبب راح الناس يقاطعون خطبته كلما صعد المنبر وهو مالم يقدموا عليه من قبل. فراح يطعن في الرأي العام بدوره... على أننا اوردنا هذه التفاصيل في سيرته.

١٩٧٢/١/٣١



کایوس گراخوس

CAIUS GRACCHUS

154 _ 121



في مبدء الأمر تحاشى [كايوس غراكوس] الدخول في الحياة العامة اتوارى عن الانظار، وراح يعيش في منزله عيشة هادئة، ولعله قصد بهذا ان يزيد من كراهة الشعب لاعداء أخيه، اذ انه كان يخاف دسيسة من هؤلاء الاعداء. على اية حال ظلّ على هذه الحال، لا كأنه مضطرٌ الى ان يقضي حياته منسياً، بل انه القدر الذي حكم عليه بالحياة الخاملة غير المثمرة، وتمادى بعضهم في تحري اسباب اختياره العزلة. فقال أنه أبغض أساليب أخيه وعزف عن الترويج لها واحيائها في الخواطر بصورة مطلقة، ومهما يكن من أمر، فان لصغر سنه اذ ذاك - تأثيراً في هذا. اذ كان يبلغ من العمر واحداً وعشرين عاماً حين لم يرد عمر [طيبريوس] عن الثلاثين عندما أعتبط.

بعد مرور حين من الوقت أطلق لميوله متنفساً وأرخى لها بعض العنان بكلّ هدوء، وبدت بضيقه ذرعاً من الكسل والخمول وحياة البيت ميوله تلك لم تكن ترضى له بحياة الأكل والشرب وكسب المال، فأخذ يبذل الجهود الكبيرة في دراسة البيان والفصاحة، لتكون له بمثابة اجنحةٍ توصله الى الحياة العامة. وكان واضحاً انه لاينوى فضاء عمره في زوايا النسيان فعندما جرت محاكمة صديقه [ڤيتيوس Vettius] تولى الدفاع عنه. فنقل المستمعين الى حالة من الوجد والذهول وجنوا فرحاً ان وجدوه سيد البيان وامام الفصاحة حتى بدا غيره من الخطباء مجرد اطفال امامه. فراح الحسد والخوف يعملان عملهما في نفوس ذوي النفوذ والوجاهة، وصاروا يتحدثون فيما بينهم عن وجوب الحيلولة دون وصول [كايوس] الى منصب [التريبيون].

وما مرت فترة قصيرة حتى انتخب [كايوس]، كويستوراً، وكان ملزماً بالعمل تحت أمرة القنصل [اوريستس Orestes] في سردينيا ومع ان هذا التعيين كان مبعث سرور لاعدائه، الا انه لم يكن كارهاله. فهو مقاتل بطبعه وقد تدرب على صناعة الحرب كتدربه على الادعاء والمرافعة في المحاكم. اضف الى هذا انه كان يخشى كثيراً العمل في الحقل السياسي، وان ظهوره للناس في الروسترا لم يكن ليسعه التخلص منه بناء على الحاح الناس واصدقائه الا بقيامه بهذه الرحلة. لذلك كان راضياً ائم الرضا بهذه الفرصة فرصة ابتعاده عن مركز الاغراء.

وبصرف النظر عن شيوع الرأي القائل بأن [كايوس] يفوق أخاه [طيبريوس] في ديماغوغيته المسيطرة، وطموحه الى الزعامة الشعبية، فمن المؤكد انه حمل حملاً على دخول. ويحدثنا شيشرون الخطيب انه عندما طلق الحياة السياسية وآثر ان يحيا حياة هادئة ظهر له أخوهُ في الحلم وناداه باسمه وقال له:

- لماذا تتلكأ يا كايوس؟ لا مهرب لك ابداً. لقد كتبت لكلينا حياة واحدة وميتة واحدة، نقضيّ الأولى ونلاقي الثانية في خدمة الشعب.

وما ان استقر المقام [بكايوس] في سردينيا حتى أخذ يقدم ادلّة لمواهبة العالمية صارت مثالاً يحتذى. ففاق كل اترابه الشبان في الحرب مع الاعداء. وكان عادلاً مقسطا لمرؤوسيه، وطائعاً محترماً لضابطه الأعلى. كذلك كان حسن خلقه وبساطته ومثابرته فقد تفوق بهذا على كل من يكبرونه عمراً بكثير. واتفق أن حَلّ في سردينيا شتاء قارس البرد شديد الوطأة. حتى اضطر القائد الى ان يفرض على عدد من المدن واجب تجهيز جنوده بالملابس الضرورية. فأعترضت المدن الى روما وطلبت اعفاءها من هذا العبء فوجد مجلس الشيوخ الطلب وجيهاً وأمر القائد بأن يجد حَلاآخر لمشكلة البسة الجيش، وفيما هو في حيرته لايدري ماذا يصغ وحالة الجنود تترددى. جاءه [كايوس] بالحلّ المنشود اد انطلق هذا الشاب يتنقل من مدينة الى أخرى مناشداً متوسلاً مستخدماً ارق تعابير الاقناع، حتى تكللت مساعيه بالنجاح وأقبلت الأهالي بمحظى اختيارها على التبرع بالثياب للجيش، وأعلمت روما بمساعيه فأثارت حسداً في نفوس اعضاء المجلس وبدت لهم مقدمةً لما ينتظر منه كزعيم شعبي في المستقبل. والانكى من هذا ان وفداً من السفراء ارسله [ميشپسا Micipsa] الملك من افريقيا الى روما، ليعلم المجلس بأن مولاهم الملك تقديراً [لكايوس غراكوس] واحتراماً له، قد أرسل كميات كبيرة من القمح الى القائد في سردينيا. فعد المجلس هذا العمل اهانة كبيرة له وطردوا السفراء من القاعة واصدروا امراً باستبدال قطعات الجيش هناك بأخرى جديدة على ان يبقى[اوريتيس] في القيادة، وهذا ما يفرض بقاء كويستوره [كايوس] معه. فلما رأى كيف تجرى الأمور واي منحى شاذ تتخذ ثاربه الغضب وابحر الى روما، فاستهجن اعداؤه ظهوره غير المتوقع في روما، كما لامه الناس، اذ لم يكن من اللائق أن يترك [كويستور] مقرّ عمله قبل ان يتركه قائده. وعلى كل خال فقد وجهت اليه اتهامات بهذا المال واستدعي للمثول امام [الچنصورين] فطلب ان يسمح له بتبرير عمله وقام بذلك خير مقام، وبدأ شخصاً مظلوماً، لحق به اكبر حيفٍ، قال انه خدم في الجيش اثنتي عشرة سنة في حين لم يخدم امثاله أكثر من عشرٍ. وانه ظلّ [كويستوراً] بأمرة القائد ثلاث سنوات في حين لايجوز قانوناً ان يبقى أكثر من سنةٍ واحدة.

وانه كان الوحيد الذي خرج الى الحرب وصرته ملأى، وعاد وهو لايملك شروى نقير. في حين ان الآخرين. بعد ان شربوا الخمر التي حملوها معهم، عادوا وقد ملأوا جرارها الفارغة بالذهب والفضة من الحروب.

ووجهوا اليه بعد ذلك اتهامات أخرى، منها اثارة الفتنة بين الحلفاء، ومشاركته في مؤآمرة تمّ اكتشافها عند [فريگللي Fregellae]، وما ان بدد الشكوك التي تحوم حوله، وبرأ نفسه من كل تهمة حتى تقدم مرشحاً نفسه لمنصب [التريبيون] ومع ان كل الشخصيات البارزة كانت تقف له ضد اي مرشح، فقد تقاطر عدد لايحصى من الناس، من كل الانحاء ايطاليا للتصويت له فضاقت المدينة بهم على رحبها. وعزت محلات المبيت. ولما كان (الحقل) لايتسع للجمعية العامة فقد تسلقت فئات من الناخبين اطناف البيوت وصعدوا السطوح. ومع شتىً الضغوط التي مارستها طبقة الأشراف على العامة لاسقاط [كايوس] وتحقيق رغائبها في المرشحين فقد فاز [كايوس]، ولكن ليس بأكثر الاصوات بين الفائزين كما كان متوقعاً بل جاء ترتيبه الرابع، وعندما باشر مهام وظيفته ظهر حالاً من هو [التريبيون] الأول الحقيقي. كان أقوى زملائه لساناً. والعاطفة التي كانت تتدفق حين يرثي اخاه جعلته اجرأهم في الكلام. لقد اعتاد في كل مناسبة تذكير الشعب بما وقع في تلك الفتنة. فيروح يعرض لهم أمثلة من أسلافهم، كيف أعلنوا الحرب على الفالسكان Faliscans لأنهم أهانوا بالقول، تريبيون الشعب [غينوشيوس Genocius] وقذفوه ببذيء الكلام. كيف حكموا بالموت على [كايوس ڤيتوريوس Caius Viturius] لأنه رفض الخضوع والتنازل للتريبيون في الفورم...

- في حين أن هؤلاء الرجال - بمحضر منكم جميعاً قتلوا [طيبريوس] بالهراوات وجروا جثته الذبيحة في وسط المدينة، ثم القوها في النهر. ولم ينج من هذا الحقد اصحابه فقد امسكوا بكل من طالته ايديهم وقتلوهم فوراً دون محاكمة، دون اعتبارٍ للتقليد العادل القديم الذي ظلّ نافذ المفعول في مدينتنا: عندما يتهم شخص بجناية خطير، ولايحضر شخصياً الى المحكمة. يرسل القضاة بوقياً الى منزله صباحاً فيدعوه بنفير بوقه الى المثول امام القضاة. وبدون اتخاذ هذا الاجراء لايمكن ان يباشر القضاة التصويت على الحكم. الى هذه الدرجة من الحرص والحذر كان اسلافنا قد بلغوا في الأمور المتعلقة بالموت والحياة.

بعد أن تأكد من مقدرة خطبه العاطفية على تحريك عواطف الجمهور (كان صوته أقوى وأعلى من سائر خطباء عصره). اقترح سنّ قانونين جديدين: اولهما، ان كلّ من طرد وظيفة عامة أخرى والثاني: ان اي حكم بالنفي يصدر حاكم على روماني، دون أن يتيح له محاكمة

شرعية، فللشعب الحق في اتخاذ مايراه مناسباً من عقاب بحق هذا الحاكم.

وكان واضحاً ان المقصود باول القانونين هو [ماركوس اوكتافيوس] الذي عزله الشعب من منصب التريبيون باقتراح [طيبريوس] أما القانون الثاني فقد كان يمسّ [پوپيليوس Popili-us] الذي نفى كل اصحاب [طيبريوس] اثناء توليه منصب [البريتور]. ولما لم يكن هذا راغباً في تعريض نفسه للمحاكمة فقد هرب من ايطاليا.

وقد سحب [كايوس] القانون الأول برجاء من والدته [كورنيليا] فكان لهذه البادرة وقع جميل عند الشعب وسرّ بها كثيراً، فطالما انزلوا [كونيليا] منزله رفيعة وخصوها بأعظم الاحترام بسبب ولديها بالأحرى لا بسبب ابيها. ولقد اقاموا لها فيما بعد تمثالاً من النحاس تكريماً لها ونقشوا عليه هذه العبارة «كورنيليا والدة الغراكيين». ولدينا فقرات من خطبه كان يستخدم فيها اسمها بقوة حجة وبيان كثيرة، وبحياءٍ قليلٍ اثناء مهاجمته الخصوم، كأن يقول:

- كيف تتجرأ على الطعن في سمعة كورنيليا ام طيبريوس (ولأن الشخص الذي صدرت منه المطاعن عن يشتبه في ان شذوذه الجنسيّ انثوي الصبغة فهو يستطرد).
- بأي وجه يمكنك ان تقارن [كورنيليا] بشخصك انت؟ هل ولدت بقدر ما ولدت في ابناء؟ ومع هذا فكلّ روما تعلم انها تأبى مبادلة الرجال الحديث مدة اطول مما تستغرقه انت!

هذه التعابير اللاذعة كانت تتخلل لغته. وهنالك مالايحصى من أمثال هذه العبارة يمكن الاستشهاد بها مما خلف من كتابات.

ومن بين القوانين التي اقترحها الآن مستهدفاً رضا الشعب واضعاف سلطة الشيوخ: القانون الخاص بالاراضي الاميرية التي كان قد قرر توزيعها على المواطنين الفقراء والقانون الذي يتعلق بالجنود العاديين وكسوتهم على حساب الدولة دون خصم التكاليف من اجورهم وتحديد سنّ الانخراط في سلك الجيش بما لايقل عن سبع عشرة سنة كاملة. وقانون ثالث حول منح حق الانتخاب والتصويت كل الايطاليين بصورة مطلقة مثلما يتمتع بذلك أهالي روما. وقانون رابع يتعلق باسعار القمح ووجوب بيعه من الفقراء بأقل مما كان يباع منهم في السابق. وقانون خامس بتنظيم المحاكم ومجالس القضاء، وتقليص سلطة اعضاء مجلس الشيوخ الى حدٌ كبير. فإلى ذلك الحين كان اعضاء مجلس الشيوخ يجلسون وحدهم للقضاء في سائر الدعاوى. لذلك كانوا يلقون الرعب في نفوس طبقتي الفرسان الرومان والعوام. فأقترح [كايوس] في قانونه ضمّ ثلاثمائة مواطن عادي من طبقة الفرسان الى مجلس الشيوخ (وهم ثلاثمائة كذلك) وان تمنح سلطة القضاء للستمائة معاً على حدّ سواء.

وفيما هو يناقش ويحاور ويبسط وجهة نظره للفوز بالمصادقة على هذا القانون، لوحظ ان سلوكه كان يكشف من نواحٍ كثيرةٍ عن صدق واخلاص غير عاديين. وفي الوقت الذي كان الزعماء الشعبيون الآخرون حتى ذلك الحين يديرون رؤوسهم اثناء خطبهم نحو مجلس الشيوخ [الوضع يدعى كوميتيوم Comitium] تراه الوحيد الذي خالف القاعدة في خطبه العامة. فقد ادار رأسه الى الجهة المعاكسة - للشعب وظلّ مقيماً على ذلك. انها اشارة الى نوع من الانقلاب في مفهوم الدولة، وتحول من الاتجاه الارستقراطي الى المنحى الديمقراطي. ان عمله هذا اشارة للخطباء الجماهيرين بالتوجه الى الشعب لا الى مجلس الشيوخ بعد ان صادقت الجمعية العامة على هذا القانون، خوّل [كايوس] الصلاحيات اللازمة لانتقاء الفرسان الذين سيشاركون الشيوخ في السلطة القضائية، وبهذا صار يتمتع بسلطة تشبه سلطات الملك. ونزل مجلس الشيوخ نفسه الى حدّ قبول مشورته في الأمور الخطيرة. فلم يستغل [كايوس] هذه الخطوة باقتراحات ونصائح تحطّ من قدر المجلس. مثال ذلك قراره بخصوص القمح الذي ارسله المتعهد [فابيوس Fabius] من اسبانيا. فقد كان مقسطاً فيه محافظاً على شرف روما وسمعتها. اذ أقنع المجلس ببيع القمح واعادة بدل المبيع الى عين الاقاليم التي استورد منها، مع توجيهه اللوم [لفابيوس] لأن عمله هذا جعل الدولة الرومانية تبدو مكروهة ممقوته. وهذا ما أضفى عليه لوناً من الاحترام الفائق للعادة، ونشر اسمه في الاقاليم. واقترح اتخاذ بعض الاجراءات حول تأسيس مستوطنات رومانية في عدة مدن، وشق طرق جديدة، وبناء مستودعات عامة لخزن القمح. وكان يقوم هو شخصياً بالإشراف على هذه الاشغال العامة وادارتها، ويبادر دون تردد الى اصدار الاوامر الضرورية لتنفيذ هذه المشاريع الكبيرة المختلفة بدقة واندفاع كأنه لايشرف على جميعها في آن واحد بل على مشروع واحد فقط. واشتدّ العجب بالجميع - حتى الكارهين له والخائفين منه - للكفاءة والمقدرة التي يبديها في انجاز ما تعهد بانجازه، واما بخصوص افراد الشعب فقد كان الفرح يغمرهم حين يرونه محاطاً بافواج من المقاولين والصناع والفعلة ونواب الشعب، وضباط الجيش والجنود والخبراء. وكان يعامل الجميع ببساطة وصراحة دون الاخلال بمركزه، ولطفه. وهكذا سخر طبعه لتلبية حاجات ومطالب كل مراجع. فصار الناس ينظرون الى كلّ من وصفه بالغطرسة والعنف، والخيلاء، نظرتهم الى الغمازين اللمازين الحاسدين. وكانت زعامته الشعبية اظهر في حديثه الاعتيادية واعماله، منها في خطبه الجماهيرية.

واولى أكثر العناية بشق الطرق واوقف عليها اعظم مجهوداته. فأهتم بان تكون لطيفة المنظر مريحة، وشقت عبر الحقول الزراعية بخطّ مستقيم تماماً، تحت اشرافه المباشر. ورصف

قسمٌ منها بالحجر المهندم وقسم آخر رصف بكتل صلبة من الصخر. فاذا اعترضه وادٍ أو مجرى ينهر عميق. بادر اما بردمه أو باقامه جسر فوقه على مستوى واحدٍ من النهايتين فيبدو للرأي منتظماً مستوياً ليس به نبوّ. وامر بتقسيم كل طريق الى اميال (كل ميلٍ واحد يساوي أقل قليلاً من ثمانية فرلنكات). واقام اعمدة حجرية لتعيين المسافات من موضع الى موضع، كذلك ركز حجارة على مسافات متقاربة من جانبين الطريق لمساعدة المسافرين على اعتلاء ظهور خيولهم دون حاجة الى سائس.

لهذه الأسباب أكبره الناس. وبدأوا يتلهفون ليظهروا مدى تعلقهم به وامتنانهم منه. وفي يومٍ ما ذكر اثناء خطابه بانه يرجو المنّ عليه بفضل واحدٍ لا غير، ولو فعلوا لكان هذا أكبر تقدير منهم يطمح فيه. وان يفعلوا فلن يعتب عليهم. هذا القول حمل الناس على الظنّ بأنه يرنو الى المنصب القنصلي والتريبيون. وعندما أزف يوم الانتخاب القنصلي، وتوافد الناخبون وهم يضربون اخماساً باسداس، ظهر [كايوس] في (الحقل) بصحبة [كايوس فانيوس] المرشح القنصلية. وشرع يروج له الدعوة مع اصحابه فكان لهذا تأثيره المؤكد في فوز [فانيوس]. وانتخب [كايوس] تريبيوناً للمرة الثانية. دون ان يتقدم للترشيح، او يبث الدعوة لنفسه، بل تمّ انتخابه بمبادرة تلقائية من الشعب. لكن سرعان ما ادرك ان مجلس الشيوخ عدوه اللدود وان [فانيوس] ليس من الأصدقاء المتفانين الذين يمكن الاعتماد عليهم اعتماداً تاماً عندما تحزب الأمور. فراح يتودد للشعب ثانية بقوانين جديدة. فأقترح أن ترحل مستوطنة من الرومان لإشغال مدينة [تارنتوم] و[كاپوا]. واقترح المساواه اللاتين في حقوقه المواطنة مع الرومان وتمتعهم بنفس الامتيازات المقصورة على الأخيرين. الا ان المجلس تهول تعاظم قوته وزيادة خطره عليهم، فأتخذ سبيلاً جديدة غير مسبوقة، لأجل تجريده من محبة الشعب، وذلك بتمثيلهم دور الديماغوغي مقابله، عن طريق الإغراق في منح الامتيازات للشعب خلافاً لمفاهيم النضج السياسيّ:

كان [ليڤيوس دروسوس Livius Drusus] التريبيون زميلاً [لكايوس] وهو شخص ينحدر من اسرة طيبة، جيد الثقافة والتهذيب، لا يقل مستوى باي حالٍ، عمن نال بقوة لسانه وغناه اعظم الشرف والتكريم فأصبحوا اقوى رجال ذلك العصر نفوذاً وسلطاناً. الى هذا الشخص لجأ اعضاء مجلس الشيوخ لاستعماله في انجاح خطتهم، وطفقوا يحثونه ويشجعونه على مهاجمة [كايوس] والانضمام الىٰ حلفهم ضدهم والمشاركة في السبيل الذي اعتزموا المضي فيه الى النهاية. لا باستخدام القوة او مناهضة الجماهير بشكلٍ سافرٍ، بل بالمداهنة والتقرب منها عن طريق ارضائها ومنحها امتيازات لاتتوقعها. ولولا الغرض الذي تستدطنه هذه السياسة

لشعروا بأن في مقاومة تلك المطاليب والامتيازات أكبر شرفٍ لهم وان حصدوا منها نقمة الشعب وكرهه:

فقبل [ليفيوس] ان يخدم اغراض مجلس الشيوخ، وان يضع سلطته تحت تصرفهم. وراح يقترح مشاريع قوانين لم تكن في الواقع بذات نفع أو تكريم للشعب. وكل همّه ان يستبق [كايوس] الى قلوب افراده والفوز بثقتهم بارضائهم (وبدا الأمر كلّه اشبه بتمثيلية هزليةّ) والتزلف الذليل اليهم وتقديم الترضيات المختلفة. حتى بدأ للجميع ان مجلس الشيوخ لم يكن مناهضاً أو مستاءً من اجراءات [كايوس] بل كان همّه الوحيد القضاء المبرم عليه، أو اضعاف الثقة به وتجريده من شعبيته على الاقل ان لم يكن الغرض الأول ميسوراً.

فعندما أقترح [كايوس] انشاء مستوطنتين رومانيتين فحسب واوصى بانتقاء اعضائهما من الطبقة الراقية. اتهموه باهانة عامة الشعب. في حين ابدوا رضاهم على اقتراح [دروسوس] بانشاء اثنتي عشرة مستوطنة كل واحدة منها تتألف من ثلاثة آلاف مواطن يتمّ اختيارهم من افقر الناس وأكثرهم حاجة. وعندما وزع [كايوس] الأراضي الاميرية على المواطنين الفقراء وفرضت ايجارات زهيدة جداً يدفعونها للخزينة اظهر المجلس الغيظ لصرامته. كأن ارضاءهم للشعب خالص لوجه الله، ولذلك اثنوا على [ليفيوس] لأنه اقترح اعفاءهم من بدل الايجار الزهيد هذا، وسخطوا على [كايوس] لأنه منح اللاتينين حقوقاً مساوية لحقوق الرومان في التصويت على انتخاب الحكام. وعندما اقترح [ليفيوس] ان يحظر على قائد المائة الروماني فرض عقوبة الجلد على الجندي اللاتيني. أسرعوا فصادقوا على قراره. ودأب [ليفيوس] على القول في كل خطبه، بأنه لن يقترح من القوانين الاّ تلك التي يحبذها مجلس الشيوخ الذي يحرص على المصلحة العامة حرصاً شديداً ويهمه رفاء الشعب وسعادته. في الواقع ان هذه النقطة هي الوحيدة التي اديّ بها [ليفيوس] خدمة صادقة، من دون سائر اعماله، فقد قربت ما بين الشعب ومجلس الشيوخ، وخلقت المزيد من الثقة، فقد كان ينقم على زعماء المجلس ويشك في نواياهم تجاهه. فجاء [ليفيوس] ليزيل تلك الريب، ويخفف من شدّة ذلك العداء، بفنّه الذي لم يفعل شيئاً لمصلحة الشعب ومنفعته دون توجيهات المجلس ومصادقتهم!

الاّ ان العامل الاكبر الذي دفع الشعب الى ايلاء [دروسوس] الثقة التامة والعطف الشديد. هو انه لم يقترح قانوناً ينطوي على منفعة خاصة له. فقد اناط الاشراف على عملية الاستيطان بمفوضين لم يكن هو واحداً منهم. ولم يهتم بموضوع توزيع الاموال. في حين كان [كايوس] يتولى دائماً المهمة الرئيسة من اي مشروع هام.

واقترح [روبريوس] احد تريبيونات الشعب اعادة تأهيل قرطاجنة التي هدمها [سكيپيو] وسواها بالقاع، وعهد الى [كايوس] بالمهّمة، فابحر الى افريقيا. فأنتهز [دروسوس] الفرصة التي اتيحت له بغيابه للمزيد من التقرب الى الجمهور وكان نجاحه يعزى بصورة رئيسه الى ادانته [فلوڤيوس] احد اصدقاء [كايوس] المقربين المعين معه في مشروع توزيع الاراضي. كان [فلوڤيوس] مشاكساً مشاغباً مكروهاً من مجلس الشيوخ الى اقصى حدٍ. وكان ايضاً يشك في انه عمل على تأجيج الخلاف بين المواطنين الرومان وحلفائهم. وانه يحرضّ الايطاليين من طرفٍ خفيّ على الثورة. الاّ انه لم يتوفر دليل ملموس على حقيقة هذه التهم، أكثر من الشكّ وبسبب طبعه المتقلّب واتجاهاته العنيفة. وكانت علاقة [كايوس] به السبب الرئيس لدماره، فقد اصابه رشاش من النقمة التي صبت على رأس [فلوڤيوس]. وعند وفاة [سكيپيو افريقانوس] الفجائية. من دون معرفة سبب هذه الميتة غير المتوقعة سوى آثار لبعض الرضوض والكدمات شوهدت في الجثة مما يدل على اعتداء وعنف استخدم قبل الوفاة، كما ذكرنا في سيرته، حامت الشكوك. حول [فلوڤيوس] لأنه كان عدوه اللدود. وفي يوم موته بالذات كان قد تهجم في خطبة القاها على الشعب. ولم يكن [كايوس] نفسه بعيداً عن الظنون. ومهما يكن من أمر بان هذا الاعتداء الاثيم الذي ارتكب بحق اعظم وارفع الناس قدراً عند الرومان لم ينتصف له، ولم يجر تحقيق شامل دقيق فيه، لأن الشعب منع وعارض في اي تحقيق قضائي. خوفاً من ان ينال [كايوس] ضرّ من اعدائه ان بوشر بالاجراءات ان هذا وقع قبل الحوادث التي فسروها الآن:

وفي افريقيا حيث انهمك [كايوس] في بعث قرطاجنة واحيائها تلك المدينة التي عرفت فيما بعد باسم [يونونيا Junonia]، ذكر ان عدداً من نُذُر السوء قد ارسلته الآلهة، ومن بينها هبوط عصفة ريح هوجاء على أول شعار روماني كان حامله يشدّ عليه بكلتا يديه فأنكسرت قناته، وهبت عاصفة شديدة أخرى بصورة مفاجئة فحملت الاضاحي التي كانت مكدسة فوق المذابح وقذفت بها الى خارج الحدود التي رسمت للمدينة. ومنها ان الذئاب هجمت ونهبت كلّ الاشارات التي وضعت لتعيين خطط المدينة. ولم يأبه [كايوس] لهذا كلّه، وواصل عمله واصدار اوامره بالتنفيذ حتى أكمل عمله كله في سبعين يوماً، وقفل راجعاً الى روما. اذ علم كيف استهدف [فولڤيوس] لاتهام [دروسوس] مدركاً ان الوضع لايسمح له بالغياب عن روما. ذلك لأن [لوشيوس اوپيميوس Lucius Opimius] كان يسير الى المنصب القنصلي بطريق ممهد بعد ان جمع حوله العديد من الاتباع والاشياع. و[لوشيوس] هذا من طبقة الاشراف، يتمتع بنفوذ غير قليل في مجلس الشيوخ كان في الماضي قد رشح نفسه الاّ

انه فشل لتدخل [كايوس] لصالح [فانيوس] فأنتخب هذا قنصلاً في حينه. وقد ساد اعتقاد جازم ان [لوشيوس]، سيعمل للقضاء على [كايوس] قضاءً مبرماً إن فاز من الانتخابات. وكان نفوذ [كايوس] في افول واضمحلال. ولم يعد الشعب مستعداً للتصفيق له اعجاباً باعماله كما كان يفعل سابقاً. لأنه وجد كثيرين ممن لايفق تهم اختراع وسائل جديدة يومياً لارضائه. ولايقف المجلس عائقاً بل يسارع فوراً للمصادقة عليها.

بعد عودته الى روما انتقل من منزله في [جبيل پالاتين Palatine] ليعيش قريباً في الساحة العمومية محاولة منه ان يبعث الحياة في شعبية هذه الاحياء التي يقطنها الدهماء والمعدمون من المواطنين. وتقدم ببقية قوانينه الى الشعب معتزماً ان ينال المصادقة عليها بالاستفتاء العام. فأجتمعت لمساندته هائلة من جميع البلاد، الاّ ان المجلس اقنع [فانيوس] القنصل باصدار بيان فيه يأمر كل مواطن غير مولود في روما ان يغادرها. ثم اذيع بيان ثانٍ غريب في بابه: يقضي بمنع اي فردٍ من الحلفاء والموالين من القدوم الى روما في تلك الفترة بالذات. فبادر [كايوس] الى اذاعة بيان مضاد، مندداً باجراءات القنصل، ومعلناً للحلفاء والموالين بأنه سيساندهم ويحميهم اذا بقوا في روما ولم يبرحوا. على انه لم يحفظ الوعد الذي قطعه لهم. فقد شاهد بنفسه احد اصحابه الخلصاء بين حراس [فانيوس] يقودونه الى السجن فتشاغل عنه ومر به دون ان يحرك ساكناً. اما لأنه كان خائفاً من وضع نفوذه المتهافت على المحكّ. وإما لأنه (كما ذكر هو نفسه) كان يتحاشى منح اعدائه تلك الفرصة التي يصبون اليها كثيراً. وهي الوصول بالخلاف الى العنف والقتال الفعلي. في اثناء ذلك حصل خلاف بينه وبين زملائه التريبيونات حول المسألة التالية: كان مقرراً أن تعرض مشاهد نزال للمصارعين في حفلٍ عام فوق الساحة العمومية. فنصب معظم الحكام مقاصير حول الملعب بنية الاستفادة من تأجيرها. فأمرهم [كايوس] بهدمها حتى يتاح للفقراء مشاهدة العرض مجاناً. فلم يمتثل احد منهم، فجمع عدداً من الفعلة كان يعملون عنده. وباشر بهدم المقاصير في الليلة السابقة على العرض، وما أقبل الصبح حتى كانت الساحة خاليةً منها. واتيح المجال للعامة للاستمتاع بمناظر النزال في هذا وجد العامة ان [كايوس] قام بعمل رجولي. الاّ انه اسخط زملاءه التريبيون كثيراً فقد وجدوا في عمله هذا مظهراً من مظاهر العنف والتدخل الصلف.

وكان هذا على ما يعتقد السبب الأساس في عدم انتخابه تريبيوناً ثالث مرة. لا لأنه لم يحز أغلبية الأصوات، بل لأن زملاءه اجمعوا على الانتقام منه فعمدوا الى كتابة تقرير غير صحيح عن نتائج الانتخاب. وهذا الأمر موضع خلاف على كل حال، لكن ما هو مؤكد، هو الحنق

الشديد الذي استولى عليه بسبب فشله وكان صلفاً جداً تجاه بعض خصومه الذين اظهروا سرورهم لسقوطه فقد ردّ عليه بقوله: ان كلّ هذا مرح تهكمي مزيف، فقلما عرفوا الى اي زاوية مظلمة من النسيان والخموله قذفت بهم مآثره واعماله!.

وما ان انتخب [اوپيميوس] قنصلاً حتى تمّ الغاء عددٍ من قوانين [كايوس]، وتمادى خصومه ففتحوا تحقيقاً في اجراءات التي قام بها في [قرطاجنة] ولم يدخروا شيئاً لإثارته وازعاجه لعلّ ثورته العاطفيّة تمكنهم من ذريعة مقبولة للحكم عليه بالموت؟

في مبدء الأمر، احتمل (كايوس) هذه الاجراءات بصبر. ولما شجعه اتباعه واثاروه ولاسيما (فولڤيوس)، قرر أن يتزعم فريقاً من الاشياع والموالين، وينزل الى مقاومة القنصل بالقوة. وقيل انه امّه انضمت الى العصيان وساعدته بأن استقدمت سراً الى روما جماعات من الاغراب بحجة مجيئهم للبحث عن عمل كحصّادين اذ كان في رسائلها اليه إشارة لهذا. على ان آخرين اكدوا بصورة خاصة جداً، ان (كورنيليا) على الأقل لم توافق على ما عمله ابنها.

وحلّ اليوم الذي تقررّ ان يلغي فيه (اوپيميوس) قوانين (كايوس). وتقابل الحزبان في الصباح الباكر امام الكاپتول وبعد أن انجز القنصْل المراسيم المعتادة في تقريب القرابين جاء احد خدم القنصل ويدعى (كوينتوس انتيلليوس Quintus Antillius) وحمل احشاء الاضحية وسار بها الى الخارج ومرّ بـ(فولڤيوس) واصحابه الواقفين فقال لهم:

- انتم ايها المواطنون المشاغبون. افسحوا السبيل للرجل الأمين!

وقيل انه أشفع هذا الاستفزاز بمدّ ذراعه العارية نحوهم هزوءً بهم واستصغاراً. فانقضوا عليه وقتلوه باقلام stiles(*) قوية مما يستخدم عادة في الكتابة. وقيل انهم صنعوها لاستخدامها بمثابة سلاح بهذه المناسبة. هذه الجناية احدثت استياءً عاماً مفاجئاً وخلفت في رؤوس كل حزب أثراً مختلفاً. أمّا (كايوس) فقد احزنه الأمر كثيراً وانحى باللوم الشديد على اتباعه لأن عملهم هذا زود خصومهم بالذريعة المقبولة التي كانوا يتمنونها منذ زمن بعيد ليبرروا حملتهم عليهم. واهتبل (اوپيميوس) الفرصة التي واتته من حيث لا ينتظر وظهر عليه الفرح الغامر وبدأ يحرض الشعب على الانتقام. إلاّ ان زخةً قوية من المطر الهاطل حالت دون المضيّ في ذلك وانفرط عقد المجتمعين.

وفي صباح اليوم الباكر دعا القنصل مجلس الشيوخ الى الاجتماع وكان النقاش دائراً في الداخل، عندما وُضع جثمان (انتيلليوس) في نعش وجيء به الى الساحة العمومية وعرض

(*) كانت الاقلام تصنع من حديد او اي معدن وهي دقيقة مرهفة الحدّ.

على مـلأ من الناس امام مجلس الشيوخ تماماً. ورافق ذلك صراخٌ وعـويل شديدين فـاظهـر (اوپيـميـوس) دهشتـه داخل المجلس (مع انه كان قد احيط علما بهذا التدبيـر) وراح يتسا ءل عن سبب الضجة وخرج اعضاء المجلس جميعاً لاستطلاع الأمر ودنوا من النعش حتى وقفوا بالقرب منه ولم يسع الشعب ان يخفي اشمئزازه وبغضته بالمجلس حين تذكروا كيف انهم لم يكتفوا باغتيـال (طيبريوس غراكوس) اثناء ما كان يقوم بواجبات وظيفته في الكاپتول، بل قذفوا بجثته الشوهاء في مياه النهر، ومع هذا يجدون في انفسهم الجرأة والصفاقة بحضورهم وتفجعهم العلني في الفورم، وتكريمهم وتشريفهم جثة خادم عـاديّ فـأجور (وان كـان مـوته عدوانا سافراً فأنه على كل حال كـان المتسبب فـيما حل به الى درجة كبيرة). يريدون بهذه الوسيلة الكيد للمدافع والحامي الوحيد المتبقّى للشعب، ثم القضاء عليه.

بعد برهة من الزمن عاد الشيوخ من حيث أتوا، وصوتوا حالاً على تزويد (اوپيـميـوس) القنصل بسلطات استثنائية، لحماية كيان الجمهورية، ووضع حدٍ نهائي للطغاة كلهم. وبعد ان تمّ هذا، أمر (اوپيـميـوس) الشيـوخ بـان يتسلحوا، وامر الفرسان الرومان بأن يـكونوا على استعداد صباح اليوم الباكر وأن يجلب كل واحدٍ منهم معه خادمين بكامل سلاحهما. وقام (فـولڤيـوس) من جهتـه بالتـأهب وجمع الجمهور حوله في تلك الاثناء كـان (كايوس) قد ترك الساحة العمومية وسار عائداً الى منزله، الاّ انه وقف امام تمثال ابيه وشخص اليه ملياً بابصار لاتريم، وظلّ برهةً في استغراق عميقٍ ثم تنهد وسار عنه والدموع تسيل على خديه. فتـأثر بذلك كل من رآه واخذوا ينحون باللائمة على انفسهم لخذ لانهم رجلاً فاضلاً وتركهم اياه، وشدوا الرجال الى منزله وقاموا حراساً عليه طول الليل باعين يقظه وهدوءٍ تام، يتبادلون النوبة في ما بينهم، ويقومون بضروب من الكهانة عما سيأتي به الغدّ، وعن نتيجة هذا النزاع، كما جرت العادة في النكبات العامّة. كانت حراستهم تختلف عن حراسة (فولڤيوس) فقد قضى حراسه الليل كله في السكر والعربدة والهتاف. وكان (فولڤيـوس) اوّل من سكر فراح يهذي في كلامه ويقدم على تصرفات لاتليق بسنه ومقامه.

ولما تبين الخيط الابيض من الخيط الأسود ايقظوا (فولڤيوس) وهو بعد غير مستفيق من تأثير الخمر، وتسلحوا بقطع السلاح التي غنمها (فولڤيوس) من حروبه في بلاد الغال وتغلبه عليهم اثناء فترة قنصليته وكانت معلقة على جدران منزله، ثم شقوا طريقهم نحو جُبيل (آڤنتين) بصياح وجلبة، مهددين متوعدين.

لم يفلح أحدٌ في حمل (كايوس) على التسلح واشتمل بمعطفه كأنه يريد الذهاب الى اجتماع عام، بفارق بسيطٍ وهو اخفاؤه خنجراً قصيراً في طيات ثوبه. وفيما هو يهم بالخروج ادركته

امرأته عند الباب وامسكته بيدٍ بينما كانت تمسك طفله الصغير بيدها الأخرى واخذت تتوسل به بالكلام الآتي:

- أسفاً يا كايوس! اني لا افارقك الآن لتذهب وتخطب في الناس، لا بوصفك تريبيونا ولا مشترعاً، ولست اودعك لتذهب الى حرب مشرفة قد تلاقي فيها ذلك المصير الذي حتم علينا ان نلقاه عاجلاً ام آجلاً، فيكون له بعض الاثر الملطف لإحزاني وهو أن حدادي عليك سيكون موضع احترام وتكريم. انت تذهب الآن لتكشف صدرك لقتلة (طيبريوس) غير حامل سلاحاً. مفضلا أن تتقبل اعظم الظلم على انه ترتكب اقلّ الظلم. الاّ ان موتك في هذا الوقت لن يكون بذي نفع للمصلحة العامة، فالتخرب سائدٌ والبطش والسلاح هما مقاييس اليوم الوحيدة للعدالة. لو ان اخاك سقط قتيلاً امام (نومانتيا) لكان العدو قد اسرع بتسليم ما تبقى من ..... لكن، ذلكم هو حظي العاثر، ربما كنت تلك الضارعة المسكينة للفيضان او الامواج، لعلها تعيد اليّ بقاياك. اية ثقة يمكن ان نضعها في القوانين او الآلهة، عندما كفت يدها عن (طيبريوس).

كانت (لوچينيا) منشغلة بشكواها وندبها حين اخذ (كايوس) يتملص تدريجاً من عناقها حتى افلتها بلطف وصمت. وسار عنها برفقة اصحابه فحاولت التشبث بطرف ردائه، لكنها سقطت على التراب وتمددت وبقيت حينا لا تبدر منها حركة، حتى ظن الخدم انها فارقت الحياة، فحملوها وذهبوا بها الى اخيها (كراسوس).

واجتمع الخلق كتلة متراصة، واخذ (فولڤيوس) بنصيحة (كايوس) فأرسل هذا ابنه الأصغر الى الساحة العمومية حاملاً عصا الرسول، وكان شاباً في غاية الوسامة. بدأ بلهجة متواضعة مستكينة والدموع تجول في عينيه، وبخجل لايشينه - بدأ يعرض مقترحات للمصالحة بحضور القنصل وكل الشيوخ. ومالت الأغلبية الساحقه من المجتمع الى قبول المقترحات. إلاّ ان (اوپيميوس) ردّ قائلاً انه ليس من اللائق بهم ارسال الرسل للتفاوض مع مجلس الشيوخ على شروط للاستسلام. وخير لهم ان يستسلموا دون قيد او شرط، كالمواطنين المخلصين وان يحاولوا نيل العفو بالطاعة والخضوع. وأمر الشاب بالا يعود اليه الا اذا وافقوا على هذا الشرط. ويقال ان (كايوس) كان شديد الرغبة في ان يذهب لتبرئة نفسه امام المجلس. الاّ ان كلمة اصدقائه اجمعت على خلاف ذلك. وارسل (فولڤيوس) ابنه مرةً اخرى لتسوية الأمر، الاّ أن (اوپيميوس) الذي كان قد قررّ خوض المعركة مهما كان. أمر الابن فقبض عليه واودع السجن. ثم حمل على الفريق الذي يقوده (فولڤيوس) بكتيبة من مشاته ووحدة من الرماة الكريتين، هؤلاء الرماة احدثوا من الاصابات المميتة والجروح الخطيرة في الناس، ما ادىّ الى

هزيمة وفرارٍ سريعين. ولجأ (فولڤيوس) الى حمام عمومية غير معروفة، لكن سرعان ما اكتشف مخبأه هذا فقتل وقتل معه ابنه الاكبر. ولم يؤثر عن (كايوس) انه شارك في القتال أو اشتبك مع اي شخصٍ فقد انسحب الى هيكل (ديانا) مشمئزاً للغاية من اعمال العنف التي تقع. وهناك حاول انهاء حياته الاّ أن اصدقاءه حالوا دون ذلك، وانتزع (پومپينيوس) و (ليشينيوس) سيفه منه، واخذا يلحان عليه بشدة ان يهرب. ويقال انه ركع للالهة ورفع يديه الى الاعلى داعياً على الشعب الروماني، بالبقاء دوما في حالة الذل والعبودية، عقاباً له على نكرانه وخيانته. اذ ما اذيع بيان العفو العام، حتى تخلت عنه الأغلبية العظمى وتنكرت له.

حاول (كايوس) النجاة، الاّ ان اعداءه كانوا يجدون في أثره ولا ينثنون عنه وتبعوه حتى الجسر الخشبي وهنا افلت منهم بشق الأنفس وعرض عليه اخلص صاحبين باقيين معه ان ينجو بنفسه ويدعهما هناك يحميان إنسحابه بتعويق المطاردين حتى يقضى عليهما. ولم يتبق معه غير (فيلوقراطس Philocrates) خادمه. وكان وهو يسرع على ظهر حصانه، يسمع كلمات التشجيع والدعاء بالنجاح من الناس، كما يفعل عابرو السبيل حين يصادفون المتسابقين في العدو. ولكن لم يتقدم احد منهم لمعاونته، ولم يعطه أحدٌ حصانا مع طلبه ذلك. وتوفر له وقت كافٍ للاختفاء في بستان صغير مكرس (نلفيوري Furies) وهناك قام خادمه بقتله، ثم ألحق نفسه به حالاً نهوت جثته فوق جثة سيده. ويحلف بعضهم بأن الاعداء ادركوهما وهما حيّان وكان (فيلوقراطس) يحتضن سيده بقوة بحيث عجزوا عن توجيه طعنة لكايوس قبل قتل الخادم.

وقيل ايضا، عندما احتز احد المطاردين رأس (كايوس) وسار به، لقيه (سپتيموليوس Septimuleius) وهو صاحب (لاوپيميوس) فانتزعه منه قسراً لأنهم اعلنوا قبل بدء المعركة عن مكافأة ذلك لكلّ من يأتي برأس (كايوس) او (فولڤيوس) تعادل زِنة الرأس ذهباً. فرفع (سپتيموليوس) الرأس على سنان رمحه واقبل على (اوپيموس) وقدم له الرأس فجيء بالميزان في الحال ووجد انه يزن سبعة عشر پاوندا. فقدم (سپتيموليوس) دليلاً على عنائه، فضلاً عن تقديمه دليلاً على وحشيته، اذ انه افرغ الدماغ من تحف الرأس وملأه رصاصاً! وجاء آخرون برأس (فولڤيوس) ايضاً إلاّ انهم كانوا من احطّ البشر وحثالات المجتمع فطردهم ولم ينلهم الجائزة. والقيت جثتا الرجلين مع جثث القتلى الآخرين وقد بلغت ثلاثة آلاف - في مياه النهر وصودرت املاكهم ومنعت اراملهم من الحداد عليهم. وخصوا (لوچينيا) زوج (كايوس) بمعاملة فظّة فقد جردوها من صداقها، واضافوا الى لا انسانيتهم جريمة وحشية أخرى بقتلهم ابن (فولڤيوس) الاصغر. وحيده لم يكن رفع السلاح في وجههم ولا لأنه كان موجوداً في اثناء

المعركة – بل لمجرد ارساله لعرض شروط الصلح ولاجله سجن اولاً ثم قُتل.

ولم يحنق الشعب على أحد قدر حنقه على (أوبيميوس) لبنائه هيكل (النصر Cancord) تخليداً لنجاحه في ذلك الوقت. كأنه يقصد الفخر بالمجد والنصر الذي حازه، بقتله هذا العدد الكبير من ابناء جلدته. وقد اتخذ احدهم الليل ستراً، فاضاف الى المكتبة المنقوشة على البناية. هذا البيت:

بالحماقة والتنابز، بني هيكل الكونكورد

مع هذا كله، فقد كان (اوبيميوس) هذا، اوّل محاولي اغتصاب السلطة، والظهور بمظهر الدكتاتور وهو قنصل. فقضى بالموت على ثلاثة آلاف مواطن بدون محاكمة، الى جانب (كايوس غراكوس) الذي فاق كل معاصريه في الفضيلة والشرف. و (فولفيوس فلاكوس) القنصل السابق الذي منح موكب نصر.

(اوبيميوس) هذا وجد فيما بعد بأنه لايستطيع كفّ يده عن السرقة. وعندما ارسل سفيراً الى (يوغورثا Jururtha) ملك النوميديين ظهر فساده بقبوله العطايا والهبات. وعند عودته أدين وشهر به، فخسر كل كرامته ومكانته وادركه الهرم وهو مكتئف ببعض الشعب الجبلية وتحقيره له. كان الشعب في حينه مروعاً جزعاً مهيض الجناح ولكنه لم يلبث الاّ وعاد يتبين الحقائق، فاظهر بجلاءٍ مدى اجلاله واحترامه ذكرى (الأخوين غراكوس) بصنع تماثيل لهما ونصبهما في الميادين العامة. وبتقديس الموضعين اللذين سقطا على اديمهما. وبجلب اولى ثمار الارض اليهما حسب مواسم السنة كأنها من قبيل التقدمات. واخذ الناس يتقاطرون اليهما للتبرك والعبادة يومياً، كأنهما هيكل آلهة.

وأثر عن والدتهما (كورنيليا) انها تحملت مصيبتها بفقد ابنيها بروح عالية وشجاعة. وعند الاشارة الى الموضعين المقدسين اللذين صرعا فوقهما قالت: ان جسديهما الهامدين يستحقان هذين الضريحين. وقد انتقلت فيما بعد من مثواها وسكنت والقرب من موضع يدعى (ميسينوم Misenum) ولم يطرأ اي تغيير على طرز حياتها. وكانت محاطة بطائفة كبيرة من الاصدقاء. ودأبت على استضافة الاجانب في بيتها وتكريمهم ولازمها عدد من العلماء ورجال الاغريق ولم يبق أمير اجنبي الاّ ووصلته بالهدايا فقابلها بالمثل. وكان المهتمون بالحديث معها، يبدو عليهم الانتباه الشديد عندما تندفع مسرورة الى تسليتهم بذكرياتها عن ابيها (سكيبيو افريقانوس) وعاداته واسلوب عيشه. على انه اعجب واروع ما كان فيها هو الاصغاء اليها حين تتحدث عن ولديها، دون ان تذرف دمعاً او يتملكها الاسى تقصّ

التفاصيل الوافية عن اعمالهما ومصيرهما الأليم كأنها تقصّ حكاية عن بعض الابطال الغابرين. وهذا ما اوهم بعضهم أن تقدمها في السنّ، وعظم مصائبها قتل فيها مشاعرها وعواطفها لكن من يظن هذا صحيحاً، كان يفعل عن المقدار العظيم من ضبط النفس ونبل الطبع الذي يجب ان يتوفر للمرء حتى يتغلب على المصائب. ومع ان الخط كثيراً ما يكون اكثر نجاحاً في استظهاره على قوى الفضيلة اثناء عملها على اجتناب ...... فليس بامكاننا عند ابتلائنا بالمصائب - الاّ ان نحتملها بالصبر الجميل.

١٩٧٢/٢/٢



(سوفوكل)

المقارنة بين طيبريوس وكايوس ولديْ غْراكوس

بآغيس وكليومينس

بعد ان سردنا قصص سير هؤلاء الأربعة كلاً على حدة، بقي علينا ان نعرض لمقارنة احدهم بالآخر.

فاما عن الأخوين (غراكي) فاشدّ المنتقصين لهما والدّ اعدائهما لاينكرون بأن فضائلهما الموهوبة - بعد ان صقلها العلم والتهذيب فاقت كلّ ما لوحظ عند الرومان الآخرين المعاصرين. وقد يجوز لنا الافتراض أن المواهب الطبيعية عند (آغيس) و(كليومينس) كانت اقوى واظهر. فمع افتقارهما الى وسائل الثقافة والتهذيب الجيدة، ومع نشوئها على تلك العادات والتقاليد واساليب العيش التي ظلت مدة طويلة تفسد الآخرين. فقد انتصبا مثلين رائعين للتقشف والاعتدال امام شعبهما. اضف الى هذا ان الاخوين (غراكي) اللذين عاشاً في زمن بلغت فيه روما اوجها من شرف الاعمال والفضائل، كانا سيجللان بالعار فعلاً لو لم يخلفا للجيل التالي، التراث النبيل لفضائل اسلافهما. اما الاثنان الآخران فقد كانا ابنين لوالدين جبلت اخلاقهما من طينة أخرى وقد وجدا بلادهما في حالة انحطاطٍ وتفسخ اجتماعي. وكل هذا لم يخمد فيهما حماستهما المتأججة وشوقهما الى كل ما هو شريفٌ وعادل.

إنه امانة الرومانيين وترفعهما عن المادة ينظر اليه بصورة أساسية على هذا النحو: في ادارتهما المرافق العامة وفي قيامهما بواجبات وظيفتيهما، لم يُظنّ عليهما في ربح غير مشروع. في حين كان يحق لآغيس أن يشعر بالاهانة لو مدح بهذا الشكل الرخيص فقيل عنه بأنه لم يغصب لنفسه شيئاً بدون وجه حق، وهو الذي وزع على ابناء وطنه ثروته الخاصة التي كان الجزء النقدي منها فقط يبلغ ستمائة تالنت. إن الغصب والابتزاز قد يبدوان له جريمة غريبة وهو الذي يعد حيازتك اموالاً تزيد على اموال جارك مظهراً من مظاهر الجشع وإن كنت جمعتها باساليب عادلة وطرق مستقيمة.

ونشاطهما السياسي في ثورتيهما على النظام والدولة يختلف تمام الاختلاف في خطر شأنها ومداها واهدافها. بالغايات الاساسية التي كان الشابان الرومانيان يرميان اليها هي توطين الأهالي في المدن واصلاح الطرق الخارجية. واجرأ مشروع اشتهر به (طيبريوس) بالاخص، هو استرجاع الاراضي الاميرية. ونال (كايوس) اطيب سمعةٍ، باضافته ثلاثمائة عضوٍ من طبقة الفرسان الرومان الى مثل عددهم من اعضاء مجلس الشيوخ لاجل ممارسة السلطة القضائية التي كان ينفرد بها الشيوخ. أما التغيير الذي احدثه كلٌ من (آغيس وكليومينس) فقد كان ذا طابع آخر، فهما لم يعمدا إلى ازالة جانبٍ من المساوئ، ولا الي علاجٍ حالات بسيطة من المرض، وهو أمر ستبدو نتيجته - على حد قول افلاطون كنتيجة قطع أحد رؤوس (الهيدرا)، فهذا هو الوسيلة الوحيدة لزيادة عددِ رؤوسها! لكنهما اختطا اصلاحاً جذرياً شاملاً كان مقدراً له ان يحرر البلاد من كل ما ابتليت به - او بالاحرى (إنْ شئنا ان تكون اكثر صدقاً) انهما ازالا حالة اجتماعية طارئة كانت علة البلايا. فاعاد الى مدينتهما سالف نظامها الصالح.

ومهما يكن فعلينا الاقرار بميزة للغراكيين. وهي أن مشاريعهما الاصلاحية كلها، كانت تلقى دائماً معارضة من ذوي السلطة والنفوذ الأعظم. ومن جهة الآخرين، فإن تلك الخطوات التي اقدم عليها آغيس اولاً، ثم اكملها (كليومينس) من بعده، حظيت بمساندة السابقة العظيمة المجيدة المتمثلة في القوانين العتيقة وآيتهما البساطة والمساواة، انحدرت اليهما من (ليكورغوس) الذي استوحاها بدوره من الالة پوللو. ومن نافلة القول ايضاً ان مجهودات الأخوين (غراكي) لم تضف الى امجاد روما المؤثلة مجداً جديداً. في حين وجد الاغريق فجأة مدينة سپارطة تعود الى سالف مجدها وسابق عهدها بفضل (كليومينس) فتمارس السلطة العليا على سائر (الپيلوپونيسس) وتزاحم في القيادة العليا اعظم واقوى امراء ذلك العصر. وهو نهضة كان مقدراً لها تحرير بلاد الاغريق من الخطرين الدلليري والغالي، واعادتها الى حالتها الأولى من العز والمنعة والاستقرار تحت حكم ابناء هرقل.

ومن ظروف موتهم يمكننا أن نستدل على اختلاف في الوان شجاعتهم. فالاخوان (غراكي) اللذان قاوما ابناء وطنهما. قتلا وهما يحاولان الفرار. وآغيس استسلم لمصيره بمحض اختياره، مفضلا ذلك على ان لا تهدر حياة مواطن واحدٍ من اخوانه المواطنين. اما (كليومينس) الذي عومل معاملة مهينة ظالمة فقد بذل جهداً للثأر لنفسه فلما اخفق لم يتردد قط في انهاء حياته بيده.

ولا مناص من القول ان (آغيس) لم يقم بمأثرة عظيمة جديرة بقائدٍ نابغ فقد حال دون ذلك موته في سن مبكرة. واما عن بطولات (كليومينس) فمن العدل ان نقرن بها اعمال

(طيبريوس) الحربية، اذ كان اول من حاول صعود اسوار (قرطاجنة) ولم يكن هذا بالقليل التافه. ولنا ان نضيف الى هذا اتفاقية السلم التي عقدها مع النومانتيين فانقذ بها عشرين ألف روماني من خطر التطويق والابادة. و(كايوس) نفسه، فقد ابدى شجاعته الفائقة في بلده فضلاً عن حروب سردينيا. فهذه الأعمال المبكرة المجيدة، كانت دليلاً قوياً على أنهما كانا سيتفوقان ويبزّان خيرة قادة الرومان لو امتد بهما الأجل.

وفي المجال السياسي المدنيّ، بدا (آغيس) ضعيفا مفتقراً الى الصلابة والعزم. فقد سمح لنفسه أن يقع في شباك مكر (اغيسيلاوس) وخيب امال المواطنين في انجاز مشروع توزيع الأراضي، وعلى العموم ترك كل الخطط والاهداف التي رسمها بتأن وروّية واعلنها للشعب. تركها غير منجزة بسبب افتقار الشاب اليافع الى قوة الارادة. واماً عن (كليومينس) فقد رافق ثورته كثير من العنف والاندفاع، وقتل دون وجه حقٍ، جماعة الايغور وكان تفوقه عليهم بالقوة والسلاح اكبر ضمان له للتغلب على حزبه، أو لنفيهم خارج المدينة بكلّ سهولة كما فعل بالآخرين. إن استعمالك المبضع - الاّ في حالات الضرورة القصوى - ليس بالجراحة الجيدة ولا بالسياسة الرشيدة. وانما هي في كلا المجالين جهلٌ وحمق. وهو في المجال الثاني ظلم، بل وحشيه وتجرد من الشعور الانساني. وفي هذا الصدد لا نجد (الغراكييّن) السباقين الى سفك دماء اخوانهما ولقد قيل عن (كايوس) انه اجتنب كل شكل من اشكال المقاومة حتى عندما هددت حياته، وظهرت بطولته واضحة امام العدوّ الاجنبي. امّا في الثورة فلم يكن فعالاً قط، وهذا ما حمله على الخروج من داره وهو اعزل، ثم انسحابه عند بدء القتال. وفي كل الاحوال كان يحرص على أن لا يلحق بالاخرين ضررٌ منه، اكثر من اهتمامه باستنقاذ نفسه وابعادها عن الضرر. ومن فرار الآخوين (غراكي) نفسه، يجب ان لا نتخذه دليلاً على خور النفس، بل انه نعدّه انسحاباً مشرفاً وتحاشياً مما قد ينجم عنه خطر للآخرين فلو مكث كل واحد منهما في موضعه لواجها احد احتمالين، اما الاستسلام لمهاجميهم، واما قتالهم دفاعاً عن النفس.

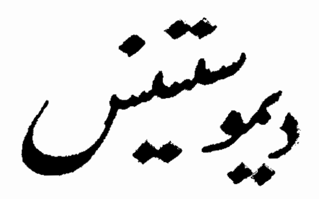
واعظم هفوة يمكن ان تعزى الى (طيبريوس) هو قيامه بعزل زميله التريبيون، وترشيح نفسه لمنصب التريبيون مرة ثانية. امّا عن مقتل (انتيلليوس) فقد عزي الى (كايوس) زوراً وبهتانا. اذ تمّ ذلك دون معرفته نأسف غاية الأسف. وكان (كليومينس) بعكس ذلك (ولا نشير الى مقتله الايغور) فقد حررّ جميع العبيد، وحكم متفرداً، اذ كان زميله، شريكاً في المظاهر لا غير وهو اخوه (يوكليداس) من اسرته نفسها كان قد اقنع (ارخيداموس) الوريث الشرعي للملك ومن الفرع الآخر للاسرة، فجازف هذا بالعودة من (مسينيه) الى بلده لكنه قتل. ولما لم يقم (كليومينس) بعمل ما للثأر له، فقد قوي الشك في ان له يداً في الحادث.

و(ليكورغوس) ذاك الذي زعم (كليومينس) بأنه يقتدي به، نزل عن الملك بمحض اختياره لابن اخيه (خاريللوس)، ثم اسرع بالرحيل عن سپارطة وظلّ بعيداً عنها مدة طويلة لئلا يحصل للشاب حادث مفاجيء فيقال ان لخاله ضلعاً فيه، ولم تعد الاّ بعد ان رزق (خاريللوس) بابن يرث ملكه من بعده. على اننا في الواقع لايمكننا ان نجد اغريقيا آخر غير (كليومينس) جدير بان يقارن (بليكورغوس) وواضح بما فيه الكفاية انك واجدُ في الاجراءات العامة التي اقدم عليها (كليومينس) قدراً كبيراً من التهور واهدارٍ لحرمة القانون. فعلى اولئك الذين يميلون الى لوم تصرفات هولاء، ان يلاحظوا بان الأغريقيينْ منهما، كانا ثائرين منذ حداثتهما، يطمحان الى السلطة المطلقة والطغيان، ويشغفان بالنضال والتنافس. وان (طيبريوس) و(كايوس) فُطرا على الجري وراء المجد والشهرة. واكثر من هذا لايمكن لاعدائهم ان يجدوا فيهما. لكن ما أن يبدأ النضال ضد خصومهما حتى تطغى حماستهما وعواطفهما على طبيعتهما الهادئة - فتجرفهما - كالريح النكباء - وتدفعهما الى الاتيان بالاعمال المتهورة الطائشة.

أي مشروع أعدل وأشرف من اولّ غاية عملا لها، لو لم تتصدى لهم قوة الاغنياء وحزبهم - بالعمل على الغاء القانون، والهائهما بهذا التناحر القتال اولهما لاجل المحافظة على نفسه، والثاني انتقاماً لموت أخيه الذي قتل ظلماً وبدون مبرر شرعي.

ومما بيناه يمكنك انت بنفسك أن تصل الى الفروق التي لو فصلنا فيها كلاً على حدة لامكنني أن اوكد لك بان (طيبريوس) كان اعلاهم فضيلة. والشاب (آغيس) اقلهم خطأ، وفي القتال والجرأة هناك شقة بعيدة تفصل ما بين كليومينس وكايوس.

١٩٧٢/٢/٢



DEMOSTHENES

384 – 322



ديموستينس

لست أدري أيهما: أهو (سوسيوس Sosius) الذي نظم قصيدة في مدح (الكيبيادس) بمناسبة فوزه سباق العجلات في الالعاب الاولمپية، أم هو (يورپيدس)، أم هو شاعر آخر؟ في هذه القصيدة يعلمنا الشاعر ان اول شرط لسعادة المرء هو ولادته «في مدينة ذائعة الصيت». لكن من يطمح الى السعادة الحقّة التي تعتمد بالدرجة الاولى على المزاج والسجايا العقلية، لا يشترط - في رأيي - أن يأتي من مدينة شهيرة، وليس بعيب أن تكون مسقط رأسه بلاد متأخرة او مجهولة، كما لا يكون عقبة له كونه ولد لأم ليست بذات وسامة أو جمال. ومن السخف حقاً أن نعتقد بأن (إيوليس Tulis) وهو جزء صغير من (خيوس Ceos) (وهي ليست بالجزيرة الكبيرة)، (وايجينا Aegina) التي شبهها احد الاثنين مرةً - بالقذى الصغير في مرفأ (پيريوس) الذي يجب ازالته، ان ينبغ منهما ممثلون بارعون وشعراء معلقون ومع ذلك تعجزان عن الإتيان بانسانٍ عادل عالي الخلق، حكيم، واسع الفكر. ان الصناعات والفنون الأخرى التي تبتغي المجد والغنى غاية لها، هي فريسة سهلة للذبول والغمور في بلدان فقيرة أخنى عليها الدهر. لكن الفضيلة خلاف ذلك فهي كالنبتة القوية الأيدّة، تمد جذورها وتنمو في اي مكان تصادف طبعاً اصيلاً وعقلاً مثابراً كدوداً. ومن ناحيتي انا فالانصاف يقضي عليّ بالقول: اني لا أريد ان تعزى مسؤولية اي نقص لدى في عمل اتيته، أو حكم صحيح ابديته، الى ضعة موطني وخمول شأنه.

والأمر خلاف ذلك إن كان في نية احدهم تدوين تاريخٍ يقتضي جمع حوادثه من مصادر توصل اليها بالملاحظة والتتبع. ومن قراءة آثار لا يسهل العثور عليها في اي مكان كان، ولم تكتب بلغته، وكثير منها اجنبيّ، متفرق موزع على أيادٍ أخرى. فمن ألزم الضرورات لهذا المؤرخ أن يقطن مدينة زاهرة عامرة، سوق الفنون فيها رائجة حُرّة، حيث يكون تحت متناول يده العديد من المراجع في كل علمٍ وفنٍ. وحيث يتيسر له جمع المعلومات من الذاكرة والصدور، والاستيضاح عن تلك التفاصيل التي اغفلتها اقلام من سبقه، فحفظت في صدور الناس حفظاً اميناً. وبذلك يسلم عمله من الهفوات ويسد النقص من نواح كثيرة حتى في أدق التفاصيل التي يمكن الاستغناء عنها.

وامّا عن نفسي. فانا اعيش في بُليدة لا ارغب في الرحيل عنها، لئلا تقل نفوساً! ولما كنت في روما وفي انحاء أخرى من ايطاليا لم يتسنّ لي الفراغ الكافي لمدارسة لغة الرومان والتمرن عليها بسبب انشغالي في الشؤون العامة، وبالتلاميذ الذين يأتوني لتلقي دروس الفلسفة، فقد تأخر بي زمني كثيراً ولما بدأت في اراذل عمري اقرأ للكتاب اللاتين وقع لي ما كان يبدو غريباً وقوعه، لكنه حصل لي فعلاً ولا أبالغ. فقد كنت اتوصل الى مهم الاشياء احيانا لا لمعرفتي بمعاني الكلمات فحسب بل بتجاري الخاصّة للاشياء. ولا اشك في أنه مجهود رائع لطيف أن تتوصل الى تذوق جمال ورشاقة النطق باللسان الروماني ومنهم مختلف استعارات الكلمات ووصلها وادغامها وغير ذلك من اساليب البديع التي هي سِرّ جمال الكلام، الاّ ان هذا يتطلب مقداراً من التمرين والدراسة ليس بالقليل، وليس بالسهل نيله، فهو انسب واجدر بمن يملك فراغاً ووقتاً كافيا للدرس.

وفي كتابي الخامس الخاص بالسير المقارنة، أتيت الى سيرتي (ديموستينس) و(شيشرون)، وان مقارنتي لمزاجهما الطبيعي وطباعمها ستعتمد على اعمالهما وحياتيهما كسياسيين. ولن ازعم لنفسي نقداً لهما عن طريق مضاهاة خطبهما، لأصدر بعدها حكمي على من هو الأكثر سحراً والأخطب. فنحن هنا اشبه بما يقول (آيون Ion): «كسمكة فوق ارض يابسة»

وهو مَثَل ربما اغفلته ذاكرة (كيسيليوس Caecilius) عندما يستخدم عبقريته الجريئة دوماً، في محاولة للمقارنة بين (ديموستينس) و(شيشرون). واذا كان من السهل الواضح لكلّ انسان ان «يعرف نفسه»، ما أخذ المبدأ مأخذ نبوّة.

والظاهر أن العناية الآلهية قد شاءت في البدء، أن تطلق (ديموستينس وشيشرون) في سبيل واحدة. فاحدثت بينهما كثيراً من المشابه في اخلاقهما وطباعهما وشغفها بالشهرة وذيوع الصيت، وحبهما بالحرية في الحياة المدينة. وافتقارهما الى الشجاعة في الحرب، وعندما تحزب الأمور. كما انها زادت في الوقت نفسه كثيراً من المشابه العرضية الحادثة، ففي اعتقادي ان من الصعوبة بمكان ان نجد خطيبين بدأ بداية متواضعة خاملة، ليغدوا فيما بعد بهذه الدرجة من القوة والعظمة. ويندر أن يصادف خطيبين نازلا الملوك والطغاة، وان كلاهما شكل ابنته، وطردا من بلديهما ثم عادا مكرمين ثم هربا ثانيةً، وتمكن منهما اعداؤهما واخيرا انتهت حياتهما بيد ابناء وطنيهما. فلو افترضنا وجود امتحانٍ مهارةٍ للحظ والطبيعة (كما يحدث احيانا عند اهل الفن) لكان من الصعب علينا ان نحكم بالنجاح الاخر لاحدهما عندما قضيا بأن يكون المترجم لهما شبيهين في امزجتهما وطباعهما. أو... لعل كل هذا من قبيل الصدف المعارضة في الحياة؟

سنتكلم في البدء عن اولهما:

كان (ديموستينس) والد (ديموستينس) رجلاً من أفاضل المواطنين، حسن السمعة كما يحدثنا (ثيومپوپوس Theompopus)، عرف (بالصّيقل) لأنه كان صاحب معمل كبير لصنع السيوف يشتغل فيه عمال مهرة. واماً ما يقوله (إسخينس Aesechines) الخطيب بان امهً كانت بنتاً لأم بربريةٍ ولأب يدعى (غيلون Gylon) فرّ من بلاده لاتهامه بالخيانة، فلا استطيع الجزم بصحة هذا الزعم او فساده، بالافتراء على الأم وقذفها. غير أن المؤكد هو وفاة ابيه عن حال معاشية طيبة، ولابنه من العمر سبع سنوات. وقدرت قيمة ما يملك من عقار بحوالي خمسة عشر تالنتاً خلفها (لديموستينس) الاّ ان الاوصياء عليه اساؤا الأمانة فاختلسوا جانباً من التركة واهملوا العناية بالمتبقي. حتى انهم احتالوا على اساتذته وانكروا اجورهم، ولهذا لم ينل الصبي الثقافة التي كان مقدراً له ان ينالها زد على ذلك انه كان رقيق البنية عليلاً فجنبته امه الإجهاد ولم يتشدد عليه اساتذته بالواجبات والدروس. وكان ضئيل الجسم واهنه من البداية ولهذا لُقب بـ(باتالوس Batalus) وقيل ان الصبيان هم الذين خلعوا عليه هذا الاسم تندراً على شكله. وقال آخرون ان (باتالوس) هو نافخ مزمارٍ نحيل الجسم، كتب (انتيپاطر) مسرحية هزلية سخراً منه. ونوه آخرون بأن (باتالوس) هو شاعر كان ينظم قصائد ماجنة خليعه واغاني خمريّة. ويبدو أن ثم عضوا من اعضاء الجسم لايليق بنا ذكره هنا. كان آثينيو ذلك الزمان يسمونه (باتالوس).

اماً اللقب الثاني الذي لصق (بديموستينس) وهو (ارغاس) فلانه كان شرساً حقوداً. لأن (ارغاس) هو من اسماء الأفعى الشعرية. او ربما لطريقته الممجوجة في الكلام، لأن (ارغاس) اسم لشاعر كان ينظم قصائد بذيئه ينبو عنها الذوق. وبهذا الكفاية من الأمر على حَدّ قول (افلاطون).

وكان المنبّه الأول لميله الشديد الى الخطابة على ما يقال، هو الحادث التالي:

كان مقرراً أن يتقدم (كالليستراتوس) الخطيب للدفاع عن (اوروپوس Oropus) في محاكمة علنية. وكان ينتظر من تلك القضية اعظم النتائج، فضلاً عن مقدرة الخطيب الذي كان اذ ذاك في اوج شهرته، وخطورة القضية التي سيترافع فيها وسمع (ديموستينس) معلميه واساتذته يتواعدون على حضور الجلسة وتمكن بعد الحاح شديد من اقناع معلمه باخذه الى المحكمة، وكان لهذا المعلم معرفة بالحجّاب فأمن لتلميذه معقداً مستوراً لايُرى منه وفاز (كالليستراتوس) فوزاً مبيناً واثار الاعجاب الشديد. وبدأ الصبي بالتفكير في مجده بنوع من الحسد، ولاحظ كيف كان الخطيب موضع حفاوة الجميع، وكيف رافقته حشود من الناس

الى منزله تكريماً وتبركاً. واكثر ما اثار عجبه من الخطيب قوة عارضته التي بدت وكأنها تخضع كل شيء لارادتها، وتفوز بكل ما تريده. ومنذ تلك الساعة ودع (ديموستينس) كل انواع الدراسات التي يتلقاها وبدأ يتمرن على الخطابة، ويبذل كل جهوده في معاناتها، معداً نفسه لهذا الفن. واتخذ من (ايسيوس Isaeus) مدرباً ومرشداً له في فن الكلام، مع ان (ايسوقراطس Isocrates) كان وقتذاك يلقي دروساً في الخطابة. وقال بعضهم أنه لم يقصده لأنه كان يتيما يشق عليه دفع الأجور التي حددها (ايسوقراطس) بعشرة مينات. أو لعله فضل اسلوب (ايسيوس) لأنه اكثر واقعية، واقوى تأثيراً من الناحية العملية. ويذكر (هرميپوّس Hermippus) وقوفه على مذكراتٍ لكاتب مجهول، ورد فيها ان (ديموستينس) كان تلميذاً لافلاطون، اخذ عنه الكثير من تلك الفصاحة التي عرف بها فيما بعد. وينوه (هرميپوس) هذا، بـ(كتسيپوس Ctesibuis) الذي ينقل عن (كالياس Callias) السيراقوسي وآخرين، بأن (ديموستينس) حصل بصورة سرية على معلومات عن مبادئ (ايسوقراطس) و(الكيداماس Alcidamas) فتدارسها واتقنها اتقاناً تاماً.

وما أن بلغ مبلغ الرجال حتى بدأ بمراجعة المحاكم لمقاضاة اوصيائه وكتابة الخطب ضدهم. ولجأ هؤلاء في الوقت نفسه الى مختلف الحيل والوسائل لفتح دعاوٍ جديدة ضده. ومع انه كما يقول عنه (ثوكيديدس) - درس صناعته هذه في خضم الأهوال والمخاطر فقد نجح في ربح دعواه على خصومه بمجهوداته الخاصّة، الاّ انه لم يتمكن من استرداد تركة ابيه خلا النزر اليسير منها. ولم يفز من تلك المعركة القضائية بغير جانب من الثقة بمقدرته على الكلام، والتمرس الوافي فيه. ولما تذوق طعم السلطان والوجاهة المتأتيتين من الترافع القضائي قررّ أن يخوض غمار السياسة ويتفرغ للشؤون العامة.

قيل عن (لاميدون Laomedon) الأرخوميني أنه اعتاد بناء على نصيحة طبيبه - أن يعدو مسافات طويلة ليرد عنه غائلة مرض طحاله، وبعد التدريب المتواصل والجهد الشاق. اشتدّ عوده وصلب، وشارك في العاب الغار الكبرى، ليغدو من خيرة العدائين للمسافات الطويلة، وهذا ما اتفق (لديمستينس) تماماً، فقد توسّل بالخطابة في مبدء الأمر لاستعادة املاكه المغتصبة. فقويت عارضته، وقدر له اخيراً أن يكون المجلّي والسبّاق في الحياة العامة على كلّ الخطباء المتبارين امام الجمعية العامّة، كما فعل (لاوميدون) في الألعاب الرياضية الكبرى. الاّ أنه مني بخذلان مبين في اول خطاب توجه به الى الجماهير التي سخرت منه وعابت عليه اسلوبه الغريب غير المهذب المرهق بالجمل الطويلة، والمشوه بكثرةٍ من المصطلحات المتبذلة اللفظية الى حدّ الاغراق الكريه المجوج. اضف الى هذا أنه كان يشكو على ما يبدو

- ضعفاً في صوته. وكان في نطقه ارتباك وابهام، يمازجه قصر نَفَسٍ كان يلجئه احيانا الى تقطيع الجمل او وصلها دون مراعاة للسباق واصول الوقف. وبهذا يشكل على السامع فهم ما كان يقوله. فترك الجمعية العامة وقد تثبطت همته وفقد ثقته بنفسه، وفيما هو يسير متثاقلا على غير هدى على رصيف ميناء (پيريوس) التقى به (يونومُس Iunomus) الثْرياسي Thri-asion. وكان هذا قد بلغ من العمر اراذله. فأنشأ يؤنبه وينتقده بقوله: أن اسلوبه في الالقاء يشبه كثيراً اسلوب (پركليس) وانه لم يبلغ بعد المستوى المطلوب من الخطيب الجماهيري بسبب جبنه وخور نفسه، امام صياح الجمهور وعدم صموده، وقلة احتفاله بتهيئة جسمه وتنشيطه، بل اهماله وتركه اياه فريسة للوهن والذبول.

وفي مرة أخرى، عافت الجماهير سماعه وتولّت عنه. فعاد الى بيته كئيبا وقد نال منه الفشل، مغطياً رأسه بملفع وقيل أن (ساتيروس Satyrus) الممثل الساخر الذي كان على معرفة وثيقه به، تعقبه حتى ادركه واخذ يطارحه الحديث فانشأ (ديموستينس) يشكو شكوى مرة من تنكر الجمهور له وهو اكثر المترافعين مثابرةً وجداً. وصارحهُ بأنه كاد يستنفذ كل جهده وقواه في هذا السبيل دون أن يجد له منفذاً إلى قلوب الجمهور الذي يسمع البحارة والأميين والسكارى ويدعهم يصولون ويجولون فوق المنبر، اما هو فلا يلقي غير الازورار والاحتقار. فقال (ساتيروس):

- إنت محق في قولك يا (ديموستينس). خير اني سأعالج علقك بسرعةٍ لو تلوث علي الآن فقراتٍ من (يورپيدس) او (سوفوكليس).

فتلا (ديموستينس) قطعةً، وعقبه (ساتيروس) فتلا القطعة نفسها باسلوب القائه الخاص فكساها ثوباً قشيبا أخاذاً بما رافقها من ايماءات ووقفات. وبدت (الديموستينس) شيئاً يختلف تماماً عما تلاه. وبهذا اقتنع بمدى اعتماد الأسلوب الكتابي على اللفظ الجميل المتأنق. وادرك أنه من العبث والفهاهة ان يمرن المرء نفسه على الخطابة باهماله حسن الالقاء والنطق. وبادر فابتنى لنفسه غرفة للدراسة تحت الأرض (مازالت الى يومنا هذا باقية)، وظلّ يختلف اليها يومياً لصياغة اسلوبه، وتدريب صوته وتهذيب القائه. ولطالما حبس نفسه فيها شهرين او ثلاثة، دون ان يبارحها، كابحاً فيه رغبة الخروج منها، بحلق نصف رأسه ليمنعه الخجل عن الظهور كلما راوده الحنين إلى رؤية الناس وكثيراً ما كانت تشتد به الرغبة الى ذلك. ولم يكتف بهذا بل جعل من حياته ومعاملاته واحاديثه الاعتيادية مع الناس وسيلة مكملة للدراسة، واتخذ من تلك المناسبات، والمناقشات مادةً للمقارنة والتدقيق. فما يفارق اصحابه حتى يهبط الى غرفة الدراسة ويبدأ في استعادة كل ما مرّ به بترتيب، ويفحص حججه

وذرائعه وردوده للناس. وكان يستعرض تفاصيل خطبه مع نفسه ويقسمها اجزاءً وفترات، كما يستعيد الى ذهنه ما تبادله من اقوال مع الناس فيصحح فيه ويغير ويعيد صياغته بعدة اشكال. لذلك اعتبر مدينا بقدرته الخطابية الى المثابرة والجدّ الدؤبين لا الى عبقرية طبيعية عظيمة. واما عن الظنّ بانه لم يكن يسرع الى الكلام حسب مقتضى الحال الاّ نادراً، ولا يسرع الى المنبر الاّ بعد الالحاح والطلب منه عند التئام الجمعيّة. فلم يكن ينهض الاّ وهو مستعد ومتفهم للموضوع. لذلك اعتاد كثير من الخطباء الجماهيرين أن يعيروه، ويتندروا عليه بهذا. ومرة هزأ منه (پثياس Pythias) بقوله ان مناقشاته وخطبه يفوح منها رائحة المسرجة، فرد عليه (ديموستينس) بالجواب القاطع التالي:

- في الواقع (يابثياس) أن مِسرجتي ومسرجتك تختلفان في النظر الى الاشياء وفهمها.

على أن (ديموستينس) لا يحاول ان ينكر هذا الواقع على الآخرين، بل يقر بصراحة بأنه كما انه لا يُعدّ خطبته كلها من الفها الى يأئها، فهو كذلك لا يتكلم على البديهة مطلقاً من غير استعداد. ويؤكد ان الإستعداد وسبق التفكير هو عمل تنطوي على الاخلاص للجمهور. ففي التأني والرويّة نوع من الاحترام لهم، بينما الاستهالة وقلة الاهتمام بكيفية تلقي المستمعين اقواله يفصح عن شيء من الطبع الاوليغارشي، وهو سبيل كل من يفضل وسيلة الارغام على الأقناع.

واما عن افتقاره الى الشجاعة والعزم في الارتجال والكلام على البديهة فقد اتخذت دليلاً آخر على نقصه. وذكروا أن (ديماديس) كان كثيراً ما ينهض من مجلسه عندما يصاب لسانه بعيّ او يرتج عليه القول، فيقيله من عثاره. ولم يلاحظ أنه فعل ذلك لديماديس وقد يقال: اذن كيف يُفسّر رأي (اسخينوس) فيه عندما يشيد معجباً بجرأته الكلامية؟ وكيف امكن (ديموستينس) ان يقف وحده لمقارعة (پيثون Python) البيزنطي، عندما راح هذا يندد بالآثينيين ويهاجمهم هجوماً عنيفاً بكلّ اعتداد وسيل دفاقٍ من الكلمات؟ وعندما كتب (لامارخوس Lamarchus الميريني Myrinaen) تقريظاً وثناء لفيليب والاسكندر، ضمنه الكثير من اللوم والقدح بالثيبيين والاولنثيين Olynthians والقى ذلك على جموع الحاضرين في الألعاب الاولمپية، كيف اتفق ان نهض (ديموستنيس) وبدأ بخطابٍ اعاد فيه للاذهان تلك الفوائد التي جناها الاغريق من الثيبين والخلقيديين تاريخاً، وحكومةً، وذكرّ الحاضرين بالبلايا والنوائب التي جرّها المتزلفون للمقدونيين على تلك البلاد، وبهذا حوّل عواطف السامعين فانقلبوا على ذلك السوفطائي، الذي لم يسعه الاّ ان يتسلل سراً من الاجتماع خوفاً من ضجيج السخط الذي ثار ضده.

ويبدو ان (ديموستينس) كان يرى ان ثم جوانب في خلق (پركليس) لا تتفق ومشاربه. الاّ أنه تأثر خطاه وسار على نهجه في تحفظه وثبات سلوكه، وإبائه الكلام على البديهة مهما كانت الأسباب. الاّ أنه لم يأنف من مجدٍ تتيحه له مناسبةٌ آنية، مثلما كان يحذر كثيراً من تعريض ملكته الى رحمة الفرص. والخطب التي القاها عفو الخاطر تنطوي على ثقةٍ بالنفس وجرأة تزيد كثيراً عن تلك الخطب التي اعدّها كتابة، لو آمنّا باقوال (ايراتُستينس) و(ديمتريوس) الفاليري والكوميديين عنه: يقول (ايراتستينس): كثيراً ما كان (ديموستينس) ينتقل الى حالةٍ من الوجد والجذب. ويقول (ديمتريوس) انه اعتاد النطق بهذا القسم الايقاعي المشهور الجميل الوقع على الجمهور.

«قسماً بالارض، بالينابيع، بالانهار، بالغدران».

كأنه في حالة الوحي، او خروج عن الوعي. واطلق عليه احد الكوميديين اسم «روپوپرپرثراس Rhopopurperthras» وسخر منه كوميديّ آخر لاستعماله الطِباق اللفظي ببيت من الشعر:

«وما اخذ أعاد ؟" جملةٌ يسرّ لها خيال ديموستينس نفسه»

هذا، الاّ اذا قصد (انتيفانس Antiphanes) بها، التندر ايضاً على خطبة (لديموستينس) القاها في (هالونيسوس Halonesus) نصح بها الآثينيين بالاّ «يأخذوا» يديّ فيليبس، بل ان «يعيدوها». ومهما يكن من امرٍ فالكلّ أجمعَ على أن (ديماديس) خطيب لايجارى ولا يماري فيه احد وانه لايحتاج الى اكثر من استخدام مواهبه الطبيعية لتبرز بديهته على كل مجهود (ديموستينس) في مدارسة خطبته واعدادها قبل القائها. ونقل لنا (ارسطون) الخياني Chian رأيا ليثوفراستس بخطباء آثينا المعاصرين عندما سئل: في اي صنفٍ يضع (ديموستينس) فأجاب:

- أنه جدير بمدينة آثينا.

ثم سئل عن رأيه بديماديس فقال:

- أعلى منه.

وذكر هذا الفيلسوف أن (پوليئكتوس Polyeuctus) الشقيتي احد ساسة ذلك العصر اعتاد القول: «ان (ديموستينس) هو اعظم الخطباء طُرّاً، (وفوكيون) أكفاؤهم لأنه يعبرّ عن اكثر ما يمكن من المعاني بأقل ما يمكن من الكلمات». والحق يقال أن هذا صحيح، فقد روي عن ديموستينس انه كان يقول لمن حواليه، كلما وقف (فوكيون) للردّ عليه:

- ها قد اقبلت السكين على خطبتي.

وليس واضحاً هل كان قوله هذا يعبر عن شعوره بالخوف على تأثير كلامه، ام على حياته وسمعته. والمفهوم العام من القول على كلّ هو ان كلمة واحدة من رجل ثقةٍ او ايماءة يأتيها قد تنقل السامعين الى آلاف من المراحل بعيداً.

وروى (ديمتريوس الفاليري) عن (ديموستينس) وقد غدا شيخاً هماً أنه شرح له الاسلوب الذي اتبعه لاصلاح العيوب التي خلقتها الطبيعة فيه بقوله أنه تغلّب على عِيّه وتلجلجه بوضعه حصاة في فمه اثناء الكلام فاستقام لسانه. وانه ضبط نبرات صوته بترديد الخطب والقصائد الشعرية عندما تنبهر انفاسه ويلهث في اثناء عدوه او صعوده مرتقى حاداً. وكان عنده في المنزل مرآة كبيرة يقف امامها عند مباشرته تمارينه.

وقيل أن احدهم جاء اليه مرةً يطلب منه النصح والإرشاد ليكون خطيباً وقص عليه كيف هوجم وضُرب، فقال ديموستنيس:

- من المؤكد انه لايمكن أن يحصل لك شيء كهذا.

فرفع القادم صوته وصاح مستنكراً:

- ما هذا يا ديموستينس؟ اتقول انه لم يحصل لي شيء كهذا؟

فرد ديموستينس:

- آه، ها انا الآن اسمع صوت شخصٍ أهين وضرب حقاً!

وكان يهتم كثيراً بالنبرة والاسلوب ويعلق عليهما الاهمية القصوى في كسب ثقة المستمعين وايمانهم. وكان الاسلوب الذي يعتمده يبعث في نفوس سواد الجمهور سروراً عجيباً. أماً عند: الفئة المثقفة امثال (ديمتريوس الفاليري) فهو اسلوب رخيص، متبذل، مخنث. وذكر (هرميبوس) عن (ايسيون Aesion) انه سئل عن رأيه في الخطباء الاوائل وفي الخطباء المعاصرين فأجاب: من الرائع المعجب حقاً أن يتأمل المرء رباطة الجأش والاسلوب الرفيع اللذين يتوجهون به الى الناس. على أن خطب (ديموستينس) تبدو لقارئها اقوى بناءً واشد تأثيراً ولا جدال قطّ في ان خطبه المكتوبة تتميز بالاسلوب الصارم القاسي، وتراه في ردوده، وتعقيباته المرسلة على البديهة، يسمح لنفسه بالدعابة والسخرية. فعندما قال له ديماديس:

- اي ديموستينس! علّمْني، كي تعلِم الخنزيرة مينرفا.

ردّ عليه فوراً:

- اهي (مينرڤا) التي وجدت مؤخراً وهي تتقاطى الفحش والدعارة في كولليتس؟

وعندما حاول لصّ، اشتهر بلقب «النحاسي» انتقاده لاستيقاظه في ساعة متآخرة، وكتابته على ضوء الشموع. قال (ديموستينس):

- اني لأعلم جيداً بأنك تفضل ان تكون كل الشموع مطفأة، ولست بمستغرب يا اهل أثينا من كثرة السرقات في البلد مادام لدينا لصوص من نحاس وجدران من طين!

ان لدينا الكثير من هذه الامثلة يصح اثباتها هنا، الاّ اننا سنمسك عن هذا في الوقت الحاضر ونواصل وصف شخصيته وتحديد ابعادها على ضوء اعماله وحياته السياسية.

كان اول دخوله الحياة العامة، ابان حروب (فوكيون) كما يؤكد هو نفسه وكما يستبان من خطبه الفيلپيّة، فمنها ما القاه بعد نهاية تلك الحروب. واولها يشير الى احداثها الأخيرة. ومن المؤكد انه رفع الدعوى على (ميدياس) عندما كان له اثنتان وثلاثون سنة من العمر. ولم يكن اذ ذاك شديد الاهتمام بالشهرة السياسية. هذا وما حمله في رأيي - على سحب اتهامه (لميدياس) وقبوله مبلغاً من المال على سبيل التعويض لأنه...

«لم يكن بذلك الرجل السهل اللين الجانب»

بل صارم الطبع، حريص على الانتصاف لنفسه. وعلى اية حال فقد وجد (ديموستينس) ان في مقارعة (ميدياس) صعوبة ينوء بها. وهذا رجل قوي عزيز الجانب، سواء من ناحية المال او المنطق أو الجاه ولذلك استجاب (ديموستينس) لرجاء من توسط في الأمر. ولو وجد املاً او احتمالاً في تحقيق النصر عليه، فلا اظن الآلاف الثلاثة من الدراهم التي قبضها تعويضاً، كانت تكفي لفلّ غراب حقده واطفاء جذوته.

ان الهدف الذي اختاره لنفسه في سياسة الجمهورية، كان شريفاً وعادلاً، فقد دافع عن الكيان الإغريقي في وجه (فيليب) وهذا السلوك الممتاز حقق له الشهرة، واثار الاهتمام في كلّ صقع بما ابداه من البلاغة والشجاعة الأدبية، وغطت شهرته والاعجاب به كل بلاد الاغريق، وتودد اليه ملك الفرس، وكان (فيليب) نفسه يقدره ويفضله على سائر الخطباء الآخرين. حتى اعداؤه، فقد اضطروا الى الاقرار بأنه رجل ذو خطرٍ عليهم، ومن الواجب ان يتخلصوا منه، ولذلك تجد (إسخينس) و(هيپريدس) يُقران له بهذه المنزلة في حين ما انفكا عن انتقاصه والافتراء عليه. ولذلك تراني حائراً في ايجاد سبب مقبول لمقولة (ثيومپوپوس) عنه حين وصف اخلاقه بالميوعة وسرعة التقلب وعدم الثبات على نهج واحدٍ مدة طويلة، سواء بصلته مع الناس، أو باتباعه نفس الغايات. بينما كان العكس هو الأظهر على طبعه. فقد

ظلّ متمسكا بالرأي والاتجاه السياسي الذي اختطه لنفسه منذ البداية حتى النهاية ولم يحد عنه حتى انه آثر ترك الحياة على انكار مبادئه. ولم يسمع عنه اعتذارٌ أو تبرير لانتقاله من معسكر سياسيّ الى معسكرٍ آخر مثل (ديماديس) الذي كان يتجج بقوله أنه كثيراً ما تكلم ضد نفسه، لكنه لم يتكلم قطّ ضدّ المدينة، ولم يكن مثل (ميلانوپوس Melanopos) خصم (كاالليستراتوس) المأثور، فلأنه كان كثير الارتشاء، تراه لايتورع عن القول للناس:

- هذا الرجل هو خصمي فعلاً، لكن علينا ان نواليه ونطيعه لخير بلادنا.

ولم يكن ايضاً مثل (نيقوديمس Nicodemus) المسيني الذي ظهر منحازاً الى (كساندر) في مبدء الأمر، ثم تركه وانضم الى صفّ (ديمتريوس)، وفسّر انقلابه هذا بقوله ان العملين ليس فيهما اي تناقض ذاتي اذ من الحكمة دائماً أن يُساير الفاتح. وليس ثم ما يمكن قوله بحق (ديموستينس) مما يجري هذا المجرى فلم يكن ممن ينكص على عقبيه او يراوغ لا قولاً ولا عملاً. ولو لم ينطلق من هذا المنطق في نشاطه السياسيّ من البداية حتى النهاية لوجدنا حتما اختلافاً مهما كان قليلاً. وقد ذكر (پانيتيوس Panaetius) الفيلسوف ان معظم خطبه كانما كتبت للتدليل على هذه النتيجة وهي ان كل ما هو صالح ونبيل يجب ان يطلب لذاته فحسب. ودليل ذلك خطبته عن «التاج» وخطبته «ضد اريستوقراطس» وخطبته «في سبيل الحصانات»، وخطب «الفيليپيات»، كان في كل هذه الخطب يدعو ابناء وطنه بأن يطلبوا لا ما يبدو لهم اجلب للسرور والراحة والفائدة بل كان يستصرخهم مراراً وتكراراً بان يؤثروا بالدرجة الأولى كل ما يستقيم مع الشرف والعدل، قبل أن يفكروا في أمنهم وسلامتهم. فلا ظل (ديموستينس) عفّ اليد ولو كانت شجاعته في الدعوة الى الحرب توازي سموّ مبادئه وخطبه، فهو يستأهل أن يوضع لا في عداد (ميوروكليس Moeroclis) و(پوليئكتوس) و(هيپريدس)، بل في مصاف الطبقة الأولى من الخطباء امثال (كيمون) و(ثوكيديدس) و(پيركليس).

من المؤكد ان (فوكيون) المعاصر له نال صيتاً بفضل شجاعته وامانته لايقل عن صيت (إفيالتس Ephialtes) و(اريستيديس) و(كيمون). وان كانت حكومة آثينا قد حبته باقلّ الرضي وعدته من الحزب المتعاون مع المقدونيين. الاّ ان (ديموستينس) الذي لم يكن اهلا للاعتماد عليه في السلاح على حدّ قول (ديمتريوس) ولا كان محصّنا تماماً من الرشوة أنىّ جاءت امتنع عن قبول هدايا فيليب والمقدونيين بصورة قاطعة. الاّ انه انكشف وهوجم عندما تغلب عليه الاصفر الرنان الذي جاءه من سوسه واكبتانا)، ولهذا اعتبرا الأقدر على تزكية فضائل الزمن الغابر، منه على الاقتداء بها والسير على نهجها. ومع هذا كله فقد ارتفعت

حياته الخاصة عن حياة كل الخطباء الذين عاصروه خلا حياة (فوكيون). لم يواجه احد منهم الجمهور بمثل الجراءة والصراحة التي واجهه بها وكان يهاجم الاخطاء، ويعارض في نزوات الشعب واندفاعاته الطائشة كما يبدو من خطبه، وكتب (ثيومپوپوس) يقول: أن الآثينيين اختاروا (ديموستينس) ليقوم بتوجيه الاتهام الى شخصٍ معين فرفض ذلك فهبّ الجميع صارخين وتعالى ضجيج السخط عليه فنهض وخاطبهم بقوله:

- يا رجال آثينا! سأكون رهن امركم دائماً كناصحٍ ومشاورٍ شئتم ذلك ام ابيتم. أما ان اكون مدّعياً كاذباً، او متملقاً ذليلاً، فهذا ما لن اكونه ابداً مهما حاولتم.

وكان موقفه من قضية انتيفون Antiphon موقفاً ارستقراطيا بحتاً. فبعد ان برىء الرجل امام الجمعية العامة، اقتيد الى المحكمة الاريوباغية، فحكمته وادانته وانفذت فيه الحكم بتهمة تعهده لفيليب باحراق دار السلاح، ولم تعبأ باستياء عامة الشعب. واتهم (ديموستينس) ايضاً الكاهنة (ثيوريس Theoris) بأنها لقنت وحرضت العبيد على خداع وغش اسيادهم الى جانب تهم أخرى، فحكم عليها بالموت ونفذ فيها.

وقيل ان (ديموستينس) هو كاتب الخطبة التي استعان بها (ابوللودورس) على مباشرة الدعوى ضد (تيموثيوس Timotheus) الجنرال الآثيني، بخصوص دين عليه. كذلك عزيت اليه الخطبتان ضد (فورميون Phormion) و(ستفانوس Stephanus) وفي القضية الأخيرة الاعتقاد أن مسلكه كان بعيداً عن قواعد الشرف ذلك لأن الخطبة التي رد بها فورميون على (ابوللودورس) كانت ايضاً من بنات افكاره، ومثله في هذا مثل ذلك الذي زودّ خصمين بالسلاح، من دكان اسلحة واحد، ليطعن احدهما الآخر!

ومن خطبه الموجهة الى الجمعيات العامة، خطبه ضد (اندرويتون Androtion) وخطبه ضدّ (ثيموقراطس Timocrates) وارستوقراطس وكلها كتبت ليلقيها آخرون قبل أن يبرز في ميدان السياسة، ويبدو انه ادعاها عندما كان له من العمر سبعة وعشرون او ثمانية وعشرون عاماً.

واما خطبته ضدّ (ارسطوغيتون Aristogiton)، وخطبه تلك «حول الحصانات» فقد القاها هو بنفسه بطلب من (قطيپوس Ctesippus) ابن (خبرياس) كما يقول هو نفسه، الاّ ان بعضهم يقول انه ما فعل هذا الاّ تقرباً لقلب امّ الفتى، على انه في الواقع لم يتزوجها؛ وكانت زوجه ساموسيّة الموطن كما اورد (ديمتريوس المغنيزي) في كتابه الموسوم «الاشخاص المتطابقة اسماؤهم». وهناك خطبته ضدّ (اسخينس) الذي اساء التصرف في سفارةٍ، لا يعلم هوأ ألقيت

ام بقيت حبراً على ورقٍ. على أن (ايدومينيوس Idomeneus) يقول أن (اسخينس) نجا من الإدانة بثلاثين صوتاً. ويبدو أن لا صحة لهذا القول، على قدر ما يمكن استخلاصه من خطبتيهما «في التاج»، اذ لم يأت اي منهما الى ذكر المسألة بوصفها قضية وصلت مرحلة التهمة والمرافعة، لا صراحة ولا ضمناً... لكن فلنكتف بهذا القدر ولنوع لغيرنا أمر البتّ في هذا التباين.

كان واضحاً حتى في فترة السلم، السبيل الذي قصد (ديموستينس) توجيه سياسة الجمهورية اليه، فقد دأب على انتقاد كل ما يصدر من الملك المقدوني، وكان يجد في كل تصرف من تصرفاته عيباً، ويهتبل كل مناسبة وفرصة لإثارة اهالي اثينا وتهييجهم عليه ولذلك لم يتردد ذكره في بلاط (فيليب) كثيراً ولا كان يمدح بما يستحق. ولقد كان واحداً من اعضاء السفارة العشرة الذين ارسلوا الى مقدونيا ومع ان الجميع خطوا بالالتفات، الاّ أن اكبر الاهتمام كان منصبا على الخطبة التي القاها فقد خطيت بالجواب المفصّل الدقيق. الاّ ان (فيليب) فيما عدا ذلك لم يحتف به كما احتفى بالاخرين ولم يبد له اللطف والمجاملة اللتين ابداهما لحزب (اسخينس وفيلوقراطس) ولما مدح الآخرون مقدرة (فيليب) في الخطابة واطنبوا في وصف جمال شخصه وطيب مجلسه في حفلة شراب لم يتمالك (ديموستينس) من ايراد اعتراض تافه على هذا المديح بقوله: ان الصفة الأولى هي أجدر بالخطيب، والثانية قمينة بامرأة والثالثة هي من خصائص الاسفنج، وليس في اية واحدة منها ما يصلح لاسنادها الى امير.

لكن الاحداث آلت الى الحرب بالأخير (ففيليب) لم يكن ليصبر على حياة السلم، وآلاثينيون انساقوا بتأثير (ديموستينس)، فقد حرضهم على فيليب عندما اخضع (ايوبيا) بخيانة من طغاتها. وصوت الآثينيون باقتراح منه على مرسوم اعلان الحرب، وعبروا البحر وطردوا المقدونيين من تلك الجزيرة. ومما دفع الى تأجيج اوار تلك الحرب، هو انتصار آثينا للبيزنطيين، والپرنثيين Perinthions عند تعرضهم لهجمات المقدونيين. فأقنع (ديموستينس) الجمهور الآثنيين بنبذ خصوماتهم مع هاتين المدينتين، ونسيان الاساءات التي ارتكبتاها في اثناء حروب الحلف، فارسلت النجدات العسكرية التي انقذتهما وعززت دفاعهما. وبعد هذا بفترة قصيرة قام بمهمة السفير المتجوّل في مختلف دول اليونان، وكان يحثهم على مقاومة (فيليب) وقتاله. وافلح في انشاء جبهة متحدة من هذه الدول باستثناء القلة منها. وتالف الى جانب القوات التي عبأها المواطنون انفسهم - جيش للحلف يتألف من خمسة عشر الفاً من المشاة وألفين من الخيالة. ودفعت تلك الدول بطيبة خاطر الأموال للازمة لتجنيد المرتزقة وعلى

ما يذكره (ثيومبوبس) أن قولة (كروبيلوس Crobylus) المشهورة كانت في مناسبة طلب الحلفاء تعيين مقدار مساهمتهم المالية وتحديدها بصورة دقيقة فقد نهض هذا الخطيب وقال:

- إن الحرب لايمكن أن تُطعم بكذا وكذا، في اليوم الواحد.

بعد أن حملت كل بلاد الاغريق السلاح، واخذت الآمال العراض تداعب شعوبها، واتحد الايوبيون، والآخائيون والقورنثيون والميغاريون و(الليوكاديون Leucadians) و(الكوركيريون Corcyraean) اهالي ومدناً، في عصبة مؤتلفة واحدة، بقيت اشق المهمات في عهدة ديموستينس، وكان قد ارجيء البتّ فيها، وهي ضمّ الثيبيين الى هذه العصبة. كانت بلادهم متآخمة لآتيكا، وكان لديهم قوات كبيرة مهيّأة للقتال، وهم في ذلك الوقت أفضل محاربي الاغريق، ولم يكن بالهيّن حملهم على مناصبة فيليب العداء، اذ لم يمرّ وقت طويل على الجميل الذي صنعه معهم في اثناء حروب فوكيون. ومما عقدّ الأمر كثيراً أن أسباباً للنزاع والخلاف بين مدينة ثيبة وآثينا كانت تنجم وتتجدد باستمرار وتشتد وتتفاقم بخصومات تافهة تنشأ بسبب حدودهما الواحدة.

الاّ ان فيليب الذي علا نجمه وسطع وزاده غروراً نجاحُه في امفيسّا Amphissa، سرعان ما انقض على ايلاطيا Elatea فجأة، واستولى على (فوكيس) واصاب الآثينيين بذعرٍ شديدٍ. ولم يجرأ احد من الخطباء على اعتلاء المنبر ومواجهة الجمهور وفقد الجميع مقدرة الكلام وركبتهم الحيرة امام جمعية ذاهلة صامتة. في هذا الظرف العصيب برز (ديموستينس) وحده، والقى اليه بنصيحته، وهي التحالف مع ثيبة، ولجأ الى شتى الوسائل والاساليب لبث روح الاقدام في الآثينيين، ورفع معنوياتهم بالآمال المشرقة، فاخذوا برأيه وبعثوا به مع آخرين في سفارةٍ الى ثيبة، وبادر فيليب ايضاً بارسال وفدٍ حسب ما يذكر (مارسياس Marsyas) لإحباط مساعي (ديموستينس)، وكان وفده يتألف من (اميتاس Amytas) و(كليارخوس Clearchus) المقدونيين، و(دخوس Doachus) التسّالي، وثراسيديوس Thrasydoeus. كان الثيبيون أعرف من غيرهم بمصلحتهم في تلك الساعة، وأخبر بما يوأئمهم، الاّ ان فظائع الحرب واهوالها كانت شاخصة امام اعينهم جميعاً. وخسائرهم الفادحة في الحروب الفوكونية، مازالت ماثلة للاذهان. الاّ ان قوة عارضة الخطيب وسلطان تأثيره كان كما يقول (ثيومبوبوس) عاتياً في اذكاء نار شجاعتهم واشعال لهيب حماستهم، حتى انهم تركوا جانباً كل حذرٍ أو خوف، وعافوا كل عهدٍ مقطوعٍ بنوع من الهام ربانيّ، ليختاروا سبيل الشرف الذي دعتهم اليه كلمات الخطيب. ان هذا النجاح الذي حققه ديموستينس، بلغ حداً من المجد والآثار الجسيمة، الجأ معه (فيليب) الى ارسال وفدٍ للمعارضة في صلح. الاّ ان كل بلاد الاغريق هبت

دفعة واحدة بسلاحها للنجدة ووضع القادة العامون انفسهم تحت تصرف (ديموستنيس) لتلقي الاوامر منه، لافي اتيكا وحدها بل في (بويوتيا) ايضاً. وكان تأثير لسانه على جمعيات ثيبة العامة لايقل عن تأثيره في الآثينيين. فدانت لسلطانه المطلق جمعيتا المدينتين، واحاطتاه بودّهما. وكان يجانب الطرق الملتوية في ادارتهما، ولا يدافع امامهما الاّ عن قضية عادلة كما اقرّ بذلك (ثيومپوپوس) نفسه. ولم يكن هذا على جدارته والمعيته بالكثير.

على أن الآلهة قدرت على مايبدو من مجرى الاحداث، فترة من الزمن تفقد فيه بلاد الاغريق حريتها. فكان الحظّ العاثر يقف لها بالمرصاد فيصيبها بالفشل ويحبط مساعيها بصورة متوالية، وتواترت النبوءات والاشارات العلوية لتأكيد ذلك. منها النبوءة الكئيبة التي نزلت على الكاهنة الثيبية. وهي نبوءة قديمة تضمنتها مجموعة القصائد السيبيلية Sibyl.

> المعركة في ثِرمُودون ستكون مأمونةً عن بعد واني لأرغب في مشاهدتها من مسافةٍ، مثل نسرٍ مراقب وهو يطير في الفضاء سيبكي المغلوب هناك، وسيهلك الغالب

ويقال ان (ثِرموُدون Thermodon) هو غدير صغير هنا في بلدنا (خيرونيا) وهو يجرى الي (كيفيسوس Cephisus) على اننا لم نقع على نهيرٍ بهذا الإسم يجرى في تلك الانحاء في يومنا هذا، وليس لنا الاّ أن نخمن بأن مسيل الماء المعروف اليوم باسم (هَيْمون Hae-mon) الذي يمرّ محاذيا هيكل (هرقليس) حيث عسكر الاغريق، هو (ثرمودون) المقصود. اذ انه اصطبغ بعد هذه المعركة بالدماء، وامتلأ بجثث القتلى، ولأجل هذا تغييرّ اسمه واطلق عليه الاسم المعروف به اليوم - كما نظن. على أن (درويس) يقول بأن (ثرمودون) ليس نهيراً. وان هذا الاسم يتعلق بحدث معين، وهو ان بعض الجنود عندما شرعوا بضرب خيامهم وحفر الخنادق حولها، عثروا على تمثال حجري صغير، دلت الكتابة المنقوشة فيه، انه تمثال (ثرمودون) يمثله حاملاً امازونةً جريحة بين ذراعيه. وهناك بنوءة أخرى عن الموضع تتداولها الألسن وهي:

> ايها الغراب، لا تتردد في حضور ورؤية المعركة التي ستقع في (ثرمودون) فستكون لك مأدبة كبيرة من لحوم الرجال هناك.

وليس من السهل ان نقررّ أي زعمٍ من هذه المزاعم هو الصحيح، على اية حال. اماّ عن (ديموستينس) فقد قيل أنه كان يثق بقوات الاغريق ومقدرتها ثقة لاحدّ لها. وقد اثاره ما وجده من علامات اليأس والعزم في هذا العدد الكبير من المقاتلين الشجعان المستعدين لقراع

العدو مما لا يتصور معه انهم قد يعيرون اذنا صاغية للنبوءات او انهم يهتموا بالعرافات، حتى قال انه يشكّ في الكاهنة، ويميل الى الاعتقاد بأن بعضهم اغراها لتتكلم في صالح (فيليب). واخذ يذكر الثيبيين بـ(إيامنونداس)، ويذكر الاثينيين بـ(پركليس) قائلاً انهما كانا يتخذان قراراتهما بتحكيم عقلهما فيهما. وينظران الى النبوءات وامثالها بوصفها اعذاراً يتعلل بها الجبناء. الى هذه المرحلة كان (ديموستينس) جريئاً أيّداً. الاّ انه لم يجنى أيّة مأثرة في القتال الفعلي، ولم يطابق بلاؤه في ساحة الوغى، تجليّه في منبر الخطيب، فقد فرّ من الميدان، وترك موضعه بشكل مخز والقى باسلحته جانباً، دون أن يحسّ بالعار الذي اصاب الكتبة المنقوشة على ترسه بأحرف من ذهب «مع حظ سعيد»، وهذا ما يذكره لنا (پيثياس Pythias) ما ان لاحت بتاشير النصر (لفيليب) حتى ركبته فرحة طاغية، واستخفه طرب عظيم فخرج بعد ان عبّ مقداراً كبيراً من الخجر - لمشاهدة القتلى، واخذ يردد آخر بيان حربي صدر بناءً على اقتراح من (ديموستينس):

«اقتراح من ديموستينس ابن ديموستينس».

وراح يقطعه تقطيعاً ايقاعياً ويشد على موضع الوقفات فيه. وبعد ان عاد لنفسه واخذ يفكر بالخطر العظيم الذي كان يتعرض اليه قبل قليل، ادركته ارتجافة تهيبّ من تلك القوة والكفاءة الهائلة في كلام خطيبٍ مما دفعه الى المجازفة بحياته وبمملكته، بمعركة تتقرر نتيجتها بسويعات. لقد انداحت شهرة ديموستينس وانتشرت حتى بلغت بلاط الغرس، وارسل الملك رسائل الى عُمّاله آمراً اياهم بان لا ينجلوا على (ديموستينس) بالمال وأن ينجزوا اية خدمة يطلبها بوصفه الوحيد في كل بلاد الاغريق، الذي تمكن من إلهاء فيليب، وإشغال قواته العسكرية في ميادين قريبة منه اعني في النزاعات اليونانية. لقد انكشف هذا (للاسكندر) فيما بعد، من رسائل لديموستينس وجدها في (ساردبس) ومن اوراق عثر عليها لضباط فرس، وفيها ثبتٌ بالمبالغ الطائلة التي ارسلت اليه.

بعد الفشل الذي مني به الأغريق، اخذ الحزب الآخر المعارض في الجمهورية، يعمل على الايقاع (بديموستينس) واتخذوا من ذلك فرصة ليلفقوا عدة تهم عليه، والصاق بعض الجرائم به. ولم يكتف عامة الشعب بتبرئته من كل ما عُزي اليه، بل ظلّ يخصّه بالمنزلة الأولى من الاحترام، ولم ينفكوا عن دعوته للمشاركة في تصريف الشؤون العامة، ثقةً منهم بحسن نيته واخلاصه. وقد تجلى ذلك عندما جيء بعظام قتلى (خيرونيا) الى الوطن لدفنها باحتفال رسميّ، فقد اختاروه لالقاء خطبة التأبين، ولم يظهروا وهم تحت تأثير المصائب اي خلق وضيع او معاملة دنيئة. وهذا ما سجلّه لنا (تيوپوپوس) باسلوبه المغرق في المبالغة، وكان العكس هو

الصحيح فبالاحترام والتكريم اللذين خصّوا به ناصحهم الأمين، برهنوا على عدم استنائهم من نصائحه واقتراحاته.

القى (ديموستينس) الخطبة التأبينيه، الاّ انه أبى أن تكون البيانات اللاحقة لها، صادرة باسمه، بل وكل اصدقاءه بها واحداً بعد الآخر، متعللاً بأن اسمه يجلب النحس والشؤم. وظلّ هكذا فترةً، حتى ارتفعت معنوياته وشجعّه موت (فيليب) الذي لم يعش كثيراً عقب انتصاره في (خيرونيا) وهذا ما اشير اليه في البيت الأخير من النبؤة على ما يبدو لي:

«سيبكي المغلوب هناك، وسيهلك الغالب».

أعلم (ديموستينس) سراً، بنبأموت (فيليب) قبل انتشاره، فوجد في ذلك فرصته ليستهوي الناس، ويبث في انفسهم الشجاعة، ويحي الأمل الباسم بالمستقبل. فاقبل على الجمعية العامة بوجه طافح بالبشر وباسارير باشة ورغم لهم انه رأى حُلماً ينبئ عن حظ عظيم مقبل على آثينا. وبعد هذا بقليل قدم الرسل بنبأموت (فيليب) وما أن انتشر ذلك في اوساط الشعب حتى خرجوا الى الهياكل لتقديم القرابين، واصدروا قراراً بتقديم «تاج» الى پاوسانياس. وخرج اليهم (ديموستينس) وعليه حلة فاخرة وقد اعتمر باكليلٍ من الغار، مع انه لم يزل في حداد على ابنته التي لم يمض مع وفاتها غير سبعة أيام، حسب قول (اسخينس) الذي انتقده على هذا التصرف، وهاجمه ووصفه بالانسان الذي تجرد عن عاطفة الحب الأبوي. كان الأحرى (باسخينس) لو عمد (ديموستينس) الى الظهور بغير هذا المظهر. أن يفضح ضعفه ويعيب عليه افتقاره الى رباطة الجأش وقوة الارادة، وهو أقرب الى الخلق الانثوي؛ إن كان يعتبر البكاء والعويل، الدليلين الوحيدين على رقة الطبع ورهافة الحسّ. او كان يدين اولئك الذين يتحملون تلك المصائب بالمزيد من الحلم والتصبر، وبالاقل من العاطفة. واما من جهتي فلا يسعني القول بأن مسلك الأثينين في تلك المناسبة كان شريفاً لائقاً. فإن ضفر الاكاليل على رؤوسهم وتقديم القرابين للآلهة لموت أمير لم يلقوا منه الاّ اطيب المعاملة والطفها واقربها الى الانسانية، مات وهو في أوج انتصاراته وعظمة نجاحه وهم يعانون مرارة الهزيمة والفشل. لقد اثاروا بعملهم هذا نقمة الحظّ عليهم فضلا عما ينطوي من الخسة والدناءة بذات نفسه. فبعد أن جعلوه مواطن شرفٍ آثيني، وبالغوا في اكرامه وبتجيله حياً، رأيتهم يخرقون كل حدود السرور والتشفي ويشتمونه عندما يسقط قتيلاً بيد شخصٍ آخر لايمت اليهم بصلةٍ وينشدون أناشيد النصر والظفر كأن بسالتهم هي التي قضت على حياته. في الوقت نفسه ينبغي لي أن اشيد بموقف (ديموستينس) الذي ترك البكاء والدموع واحزان الأسرة، للنساء حين وجد ان واجبه يقضي عليه برعاية مصالح الجمهورية وفي رأيي انه واجب بنيل للنفس الجريئة

الصالحة للحكم، وقوفها الثابت الدائم لحماية المصلحة العامة تاركاً الاحزان الخاصة والمتاعب الشخصية تجد تعويضها فيما ينعم به الشعب من خير. كان واجباً عليه أن يحافظ على وقاره ومكانته اكثر بكثيرٍ من الممثلين حين يمثلون اداور الملوك والطغاة على المرسح، تراهم لايعرفون عن احاسيسهم الخاصّة عندما ينخرطون في بكاءٍ، أو عندما يضحكون. بل يقومون بتمثيل الدور حسب مقتض الحال. اضف الى هذا ان واجبنا تجاه الجار الذي حلت به مصيبة لايقتصر على مواساته وانما ان نقدم له كل ما يسري عنه قولاً وعملاً وتحويل افكاره الى المواضيع المسلية. مثلما نشير على الناس الذين يشكون الماً في اعينهم بأن يتحاشوا النظر الى الالوان الساطعة المؤدية، والتحول الى اللون الاخضر او الى مزيج من الالوان الخفيفة الهادئة. ولهذا ففي حالة (ديموستينس) يجب علينا أن نلجأ الى وسائل تعزية للمصيبة التي ابتلي بها. أفضل واجدى، وليس مثل نهوض بلاده من كبوتها وعودتها الى الازدهار وسيلة افضل، بادخالنا المناسبات العامة والخاصة في الحساب - إنه جاز لنا القول. فاليسر الذي يصيب الدولة يطمس المصائب التي تحلّ بالمرء ويخفيها. لقد لجأت الى التفصيل اولاً لأني اعرف بان كثيراً من القراء قد أثرت فيهم نفسيه (اسخينس) فبلغت بهم حَداً من الرهافة والرقة مما لايليق بالرجال.

ولأعد الى حكايتي: نفخت جهود (ديموستينس) روح الحياة مجدداً في المدن الاغريقية فعادت الى الائتلاف في عصبةٍ. وامد الثيبين بالسلاح فانقضوا على الحامية المقدونية المعسكرة بين ظهرانيهم وفتكوا بالخلق الكثير منها. واستعد الاثينيون بقواتهم لنجدتهم. واصبح لديموستينس القول الفصل في الجمعية العامة. ووجه الرسائل الى القواد الفرس المؤتمرين بأمر ملك الفرس في آسيا، يحثهم على شن حربٍ ضد الملك المقدوني، ناعتاً اياه بالطفل، وبالأبله. لكن، ما ان استتب الأمر للاسكندر في بلاده، وزحف على رأس جيشه نحو (بويوتيا)، حتى هبطت معنويات الآثينيين وخانتهم الشجاعة. وخنق صوت (ديموستينس) وتركوا الثيبيين يقاتلون الاسكندر وحدهم فخسروا مدينتهم، وعَمّ اهل آثينا الحزن والقلق الشديد. وقرروا ارسال وفد مفاوض الى الاسكندر، وكان ديموستينس عضواً فيه. الاّ ان الخوف من غضب الملك تملكه وهو في الطريق، فكرّ على اعقابه راجعاً من (كيثيرون Cithaeron) متخليا عن المهمة. وفي الوقت عينه ارسل الاسكندر الى آثينا طالباً تسليم عشرة من خطبائهم اليه على حدّ قول (ايدمينيوس ودوريس)، لكن معظم المؤرخين يقولون ان الاسكندر طلب الثمانية التالية اسماؤهم فحسب: (ديموستينس) و(پوليئكتوس) و(افيالتس) و(ليكورغوس) و(ماوركليس) و(ديمون) و(كاللستينس) و(خاريديموس). وبهذه المناسبة قام

(ديموستينس) ليقص عليهم حكاية الغنم التي سلّمت كلابها الى الذئاب مشبها نفسه واعضاء الوفد الآخرين الذين اوقفوا انفسهم على سلامة مواطنيهم، بالكلاب التي تحمي القطيع والمقدوني بكبير الذئاب... وقال مستطرداً:

- وكما نرى تجار القمح يبيعون محصولهم بعرض عينة او نموذج منه، في صحفة يطوفون بها على الشارين، كذلك انتم بتسليمكم ايانا ونحن فئة قليلة من الجمع الكثير، تسلمون انفسكم جميعاً وانتم لاتدرون.

نجد الحكاية مدونة هكذا في تاريخ (ارسطوپولس) الكساندري راح الآثينيون يتداولون فيما بينهم، جائرين لايدرون ماذا يصنعون. ثم اتفق (ديماديس) مع الذين طلب الاسكندر تسلميهم اليه على ان يدفعوا له خمسة تالنتات لقاء ذهابه بدلاً عنهم للتشفع لهم عند الملك. وسواء في ذلك أكان يعتمد على صداقته للملك والمكانة التي يتمتع بها لدية، او انه كان يأمل في ان يجد سورة غضبه قد انفثأت، مثل أسدٍ مفترس، شبع من القتل حتى أتخُم، فمن المؤكد انه ذهب ونجح في نيل العفو عن الرجال، واجراء صلح بين الملك والمدينة.

وبهذا اصبح (لديماديس) اليد الطولي عند ذهاب الى الاسكندر وعلت كلمة اشياعه، واهمل (ديموستينس) اهمالاً تاماً وأفل نجمه. لكن الحركة ربت فيه عندما قام (آغيس) السپارطي بثورته، فقد حاول (ديموستينس) اجراء حركة لمصالحة، الاّ انه سرعان ما عاد لينطوي على نفسه ثانيةً بعد فترة قصيرة، اذ لم يشأ الاثينيون ان يتدخلوا في أمر هذا الثورة.

وقتل (آغيس) وغلب اللقيديميون على آمرهم. وفي هذه الفترة قدم للمحاكمة (قطيسفون Ctesiphon) بالتهمة المتعلقة «بالتاج» وكانت الإجراءات القانونية قد بدأت في هذه القضية قبل معركة (خيرونيا) بقليل في وقت ارخونية (خيروندااس Choerondos). الاّ أنها لم تعقب وتجال الى المحاكمة الاّ بعد عشر سنوات في وقت ارخونية (ارسطوفون). لم تنل قضيةٌ من الشهرة ما نالته هذه القضية سواء بسبب ما كان يتمتع به خطباؤها من صيتٍ ذائع، او بسبب الشجاعة الفريدة التي ابداها القضاة الذين ابو اصدار حكم ضد (ديموستينس)، مع أنَّ متهميه في ذلك الوقت بالذات كانوا في اوج سلطانهم ونفوذهم الذي تدعمه قوة مقدونيا. فبرأوه بتكريم وإجلال. حتى أن (اسخينس) لم يحصل على خمس اصواتهم، فلم ير بداً من مغادرة المدينة بسرعة، منفقاً بقية حياته في تعليم البلاغة في جزيرة (رودس) وفي القارة الاسيوية بأيونيا.

بعد هذا بزمن قصير هرب (هرپالوس) من الاسكندر وغادر آسيا لاجئاً الى اثينا. ولم يكن

يجهل مقدار الذنوب التي ارتكبها، وكان سببها تعلقه بالترف والبذخ؛ فادركه خوف شديد من الملك الذي اصبح الآن مصدر رهبة حتى لصفوة اصدقائه، وجاء الى الاثينيين واضعاً امواله وسفنه ونفسه تحت تصرفهم. وسرعان ما امتدت ايدي خطباء المدينة اليه وشخصت ابصارهم الى امواله وخفوا الى معونته وحملوا اهالي آثينا على اجارته واعطائه حق اللجوء. وفي مبدء الأمر نصحهم (ديموستينس) بطرده من البلاد، وبالحذر من توريط مدينتهم في حرب بلا مبرر او ضرورة. وبعد ايام قليلة كانوا يقومون بجرد الاموال التي جاء بها (هرپالوس) ولاحظ هذا إعجاب (ديموستينس) الشديد وفرحة بكأسٍ من صنع فارسيّ. وراقبه وهو يتأمل بلهفةٍ نقوشه وتهاويله. فطلب منه أن يزنه بيد ويقدر كمية الذهب فيه، فذهل (ديموستينس) من ثقله وسأله:

- كم يبلغ وزنه؟

فأجابه (هرپالوس):

- «اليك... سيصل» مع عشرين تالنتا.

وما ان جنّ الليل حتى وصله الكأس مع ذلك القدر من التالنتات. ويبدو أن (هرپالوس) كان عجيباً في استقراء امارات الجشع فيه من انقلاب سحنته ومن انظاره وحركات عينيه. ولم يقو (ديموستينس) على مقاومة الاغراء وادخل الهدية الى حصن بيته كحامية شاكية السلاح، ومن بعدها استسلم لهرپالوس واصبح طوع امره. ففي اليوم التالي، اقبل على الجمعية العامة وقد احاط عنقه بحرمةٍ من صوفٍ. فلما طلبوا منه الكلام، راح يلوح بيديه مشيراً الى انه فقد قدرته على النطق. الاّ ان الاذكياء واصحاب النكتة، اتخذوا من الأمر مادة للمزاح والتندر فقالوا «لاشكّ ان الخطيب قد أصيب الليلة الفائته بالتهاب اللوزتين الفضيّ! وليس غير.» ولم يلبث الناس ان علموا بالرشوة فثار بهم الغضب، واوقفوه عن الكلام ولم يسمحوا له بالاعتذار لنفسه بل امروه بالنزول عن المنبر وهم ضاجّون صاخبون.

ونهض رجل وصاح:

- مذا دهاكم يا رجال آثينا؟ اما تريدون أن تستمعوا الى حامل الكأس؟

وأخيراً طردوا (هرپالوس) من المدينة. وخوفاً من أن يطلب منهم تقديم حساب عن الاموال التي ابتزها الخطباء منه، فقد اجروا تفتيشاً دقيقاً في منازلهم، ولم يستثنوا من هذا الاجراء غير (كالليكلس Callicles) ابن (اريينّداس Arrhenidas) الذي كان قد تزوج حديثا، فاستثنوا داره من التفتيش حرمةً لعروسه التي كانت منه على ما يذكر (ثيومپوپوس).

وعارض (ديموستينس) في التحقيقات، واقترح اصدار قرار يقضي بإحالة الأمر الى المحكمة الاريوباغيـة، وانزال العقاب باولئك الذين تدينهم المحكمة. على انه كان من الاوائل الذين ادانتهم تلك المحكمة عندما مثل امامها متهماً فغرم خمسين تالنتاً ووضع في السجن، فضاقت نفسه به ولم يحتمله امّا خجلاً من الجريمة واما بسبب ضعف بنيته، فهرب بمساعدة وتدبير بعض المواطنين واهمال بعضهم. ومن القليل الذي روي لنا، انه لم يبتعد كثيراً عن المدينة حتى شعر بأن ثمّ من يتعقبه وتبين أن فيهم خصوماً له، فحاول الاختفاء الاّ انهم نادوه باسمه ودنوا منه ورجوه قبول شيء في المال يستعين به على رحلته، واكدوا له أنهم ما تعقبوه الاّ لهذا الغرض وطفقوا يشجعونه ويشددون عزائمه للوقوف بجلد امام سوء حظّه، فانشأ يندب نفسه ويبكي بحرقة وقال:

- لكن أني لي ان احتمل ثقل كل هذه النوائب. وها اني اغادر مدينة لي فيها خصوم من امثالكم في حين لن يكون من السهل قط ان اجد اصدقاء لي في اية مدينة الجأ اليها؟

ولم يظهر جلداً وصبرا على حياة المنفى، وقضى جل اوقاته في (إيجينا Aegina) و(ترويزين Troezen)، ينظر دوماً بعينين دامعتين الى بلاد (اتيكا). وقد تخلف في المدونات بعض اقوال له لا تشبه كثيراً تلك العواطف الفنية الدافعة المفعمة بالجراءة التي اعتاد القاءها عندما كان يهيمن على الجمهورية. قيل أنه رفع كلتا يديه نحو الاكربوليس وهو يغادر المدينة، وقال:

- ايتها السيدة (مينرڤا) كيف تطيقين وجود ثلاثة وحوش ضارية لايسلس قيادها: البوم، والثعبان، والشعب الآثيني؟

وكان يثبط همم الشباب الذين يأتون لزيارته والتحدث اليه، ويحذرهم من اخطار السياسة ومعالجة شؤون الدولة بقوله:

- لو خيرت من البدء، بين سبيلين، احدهما يؤدي الى منبر الخطابة والجمعية العامة، والآخر يؤدي الى الدمار المباشر، ولو قيض لي التكهن بالنوائب الكثيرة التي تنتظر العاملين في الحقل السياسي، من المخاوف والحسد، والافتراء، والتناحر، لاخترت بدون شكّ، السبيل المؤديه الى موتي مباشرةً.

وحَلّ اجل الاسكندر عندما كان (ديموستينس) في المنفى كما ذكرنا. فرفع الاغريق السلاح ثانيةً، وقد شجعتهم محاولات (ليوسثينس) الباسلة، الذي كان انذاك يبني حول (انتيباطر) المحاصَر في (لاميا). وعلى اثر ذلك هرب من اثينا الخطيبان (بيثياس) و(كاللميدون -Cal

limedon) الملقب بالسلطعون وانحازا الى جانب (انتيباطر) وراحا يتنقلان في مختلف انحاء بلاد اليونان برفقة سفرائه لاقناع الاغريق بالاخلاد الى السكينة وعدم الانحياز الى جانب الاثينيين. لكن (ديموستينس) التحق بالسفراء القادمين من آثينا وبذل قصاراه، واسدى كل ما امكنه من العون لاقناع المدن الاغريقية بالهجوم معاً على المقدونيين وطردهم من بلاد الاغريق. ويقول (فيلارخوس) ان مناظرة وقعت في (اركاديا) بين (بيثياس) و(ديموستينس) انجرّت بالاخير الى مهاترة صريحة. فقد كان الاول داعية مقدونيا والثاني داعية اغريقياً. قال (بيثياس):

- لما كنا نفترض دائماً وجود مرض ما في الاسرة التي تشرب حليب الحمير، فان المدينة التي تأتيها سفارة من آثينا، لابدّ وان تكون مصابة بوعكة مرضية!

فاسرع (ديموستينس) يردّ على هذه المقارنة بقوله:

- يؤتى تحليب الحمير ويستعمل لحفظ الصحة، وقد جاء الآثينيون لاجل شفاء المرض باعطائهم العلاج الشافي.

سُرّ الآثينيون بسلوك (ديموستينس) حتى انهم الغوا قرار نفيه وارسلوا يطلبون اليه العودة، وحمل هذا القرار اليه ابن عمه (ديمون Demon) الباياني Paeanian وبعثوا له بسفينةٍ اقلته من منفاه (ايفينا) الى (پيريوس) حيث خرج المواطنون جميعاً لاستقباله باعظم الفرح. ولم يتخلف عن هذه المناسبة كاهنهم وارخونهم. ويقول ديمتريوس المغنيزي، ان ديموستينس رفع يديه نحو السماء وبارك ذلك اليوم الذي شهد عودته السعيدة قائلاً انه اشرف بكثير من يوم عودة (الكيبادس) ذلك لأن ابناء وطنه دعوه من تلقاء انفسهم، لا بأمرٍ فرض عليهم بالقوة. وبقي موضوع الغرامة المالية معلقاً. اذ لم يكن القانون يسمح باعفائه منها بقرار شعبي. على انهم وجدوا مخرجاً بالاحتيال على القانون. فقد جرت العادة لديهم ان يخضعوا قدراً من الفضّه لاولئك الذين يقرر تعيينهم لتزيين وترتيب مذبح التضحية الخاصّ (بجوبترسوتر) فاناطوا به هذه المهمة وخصصوا له خمسين تالنتاً لقاء هذه الخدمة وهو مقدار الغرامة التي حكم بها.

على انه لم يتمتع وقتاً طويلاً بالعيش في بلاده، فقد مينت بعد قليل بالفشل التام كلّ محاولات الاغريق. فمعركة كرانون Cranon التي جرت في (ميتاغيتنيون Metagitnion) في شهر (بيودروميون) ادت الى دخول الحامية المقدونية (مونيخيا) وبعدها بشهرٍ، وهو شهر (پيانپسيون Pyanpsion) قضى (ديموستينس) نحبه على الوجه التالي:

عندما وردت الأبناء بزحف (انتيباطر وكراتيروس) على آثينا. انتهز (ديموستينس) ورفاقه

فرصتهم للهرب من المدنية سراً. على ان حكماً بالموت اصدره الشعب عليهم باقتراح من (ديماديس)، فتفرق الهاربون آحاداً، واصبح كل واحد منهم في موضع وارسل (انتيباطر) جنوده الى كل ناحية للقبض عليهم بأمرة (ارخياس Archias) الذي غلب عليه لقب «صياد المنفيين» منذ ذلك الحين، وكان «ثوري Thurian» المولد، وقيل انه احترف التمثيل التراجيدي في اول حياته، وذكروا ان (بولص) الايفيني أبرع ممثلي زمانه كان تلميذه. الاّ ان (هرميپوس) يعتبر (ارخياس) من تلاميذ (لاكريطس Lacritus) الخطيب ويقول (ديمتريوس) انه امض بعض الوقت مع (انكسيمنس).

عثر (ارخياس) في (ايغينا) على كلّ من هيريدس الخطيب و(اريطونيقوس Aritonicus) المراثوني، و(هيميريوس Himeroeus) شقيق ديمتريوس الفاليري، فاخرجهم من هيكل (ايقوس Aecus) بالقوة اذ كانوا قد لاذوا به، وارسلهم الى (انتيباطر) الذي كان في (كليوني Cleonae). وهناك قتلهم. وقيل انه قطع لسان (هيپريدس). وسمع ارخياس ان (ديموستينس) قد لاذ بحرم هيكل (نبتون) في (كالاوريا Calauria) فعبر اليها في مركب خفيف. وحاول فور نزوله اليابسة بوحدةٍ من الرمّاحة الشراقيين، وحاول اقناع (ديموستينس) بمرافقته الى انتيباطر وكان يعتقد أنه لن يلقى معاملة قاسية. الاّ ان (ديموستينس) كان قد رأى الليلة السابقة حلماً غريباً. فقد خيل له أن رحل في سباق تمثيل تراجيدي مع (ارخياس) لاحراز قصب السبق. ومع ان تمثيله الجيد حاز رضا المتفرجين التام، فقد خسر بسبب سوء الاعداد المسرحي، وأثاثه الحقير.

بينما كان ارخياس يتحدث اليه بكلّ لطفٍ وهو جالس لا يأتي بحركة ولا يغير من جلسته شاخص اليه بعين لاتريم، انتفض فجأة وقال:

- اي (ارخياس) أني أقلّ تأثراً بوعودك الآن، من تأثري بتمثيلك في الماضي.

فداخل الغيظ (ارخياس) واخذ يهدده فقال (ديموستينس):

- انت الآن تنطق بنبوءة مقدونية أصيلة، وقبل ذلك كنت تمثل دوراً. فامهلني قليلاً لاكتب كلمة او اثنتين لأهلي. قال هذا ودخل حرم الهيكل وتناول رقاً كأنما يهمّ بالكتابة. ووضع القصبة في فمه وقضمها كما هي عادته عندما تتناهبه الأفكار او عند الكتابة. ابقى القصبة في فمه برهة، ثم اطرق وغطّى رأسه. وخيل للجنود الواقفين بالباب بأن جلده خانه وان الخوف من الموت قد دبّ في اوصاله. فراحوا يسخرون منه ويلقبونه بالانثى، والجبان، وبالقلب الجازع. واقترب منه (ارخياس) وطلب منه القيام مردداً ما قاله،

وواعداً مرة أخرى بالسعي لمصالحته مع (انتيباطر). لكن (ديموستينس) الذي شعر بأن مفعول قد سَرى في احشائه كشف عن وجهه وشخص بابصاره الى (ارخياس) وقال:

- الآن يمكنك متى شئت، ان تبدأ بتمثيل دور (كريون Creon) في التراجيديا، وتقذف بجسدي هذا في العراء دون دفن. ولكني يا (نبتون) الرحيم سأنهض الان وفي جسدي بقية من روح لاترك هذا الموضع المقدس، مع ان (انتيباطر) ومقدونييه، لم يبقوا شيئاً من هيكلك الاّ وهو مدنّس.

بعد هذا طلب أن يسنده أحدٌ لأنه بدأ يرتعش ويهتزّ اثناء سيره، وسقط عند مروره بالهيكل واخرج تنهيدة ثم اسلم الروح.

يقول (ارسطون) انه تناول السم من القصبة كما أوضحنا. الاّ ان (پاپّوس Pappus) وهو مؤرخ غبر (هرميپوس) على تاريخه - يذكر أنه عندما سقط بالقرب من المذبح، وجد في لفافة اوراقه التصدير التالي لرسالةٍ شرع في كتابتها:

«من ديموستينس الى انتيباطر...»

وعندما اثار موته الفجائي دهشةً كبيرة، ذكر التراقيون الذين كانوا يحرسون الباب بأنه تناول السمَّ من صرة قماش بيده، ووضعه في فمه، وقد ظنوا انه ابتلع ذهباً. الأ أن التحقيق الذي اجراه جماعة (ارخياس) مع الخادم التي كانت تعني بشؤونه، اكد بأنه كان يحمل هذه الصرّة منذ مدة طويلة كتعويذةٍ. ويقول ايراتوستينس ايضاً أنه كان يحتفظ بالسّم في خاتم مجوف. وان الخاتم المقصود، هو حلية كان يلبسها في ذراعه. وهنالك روايات مختلفة أخرى اوردها كتاب عديدون تطرقوا الى الموضوع ذاته، على اننا لا نرى ثم حاجة للبحث في مناقضاتهم، خلا اني لا استطيع اغفال ما اورده (ديموخاريس Demochares) قريب ديموستينس، الذي يرى أنه لم يلق ميتته السهلة السريعة تلك بفضل السمّ، بل بنعمة فريدة وعناية فائقة خصته بها الآلهة، فأنقذته من وحشية المقدونيين.

توفي ديموستينس في السادس عشر من شهر (پايانپسيون) وهو اليوم الأحفل بالأسى والمراسيم الدينية من امساكية الـ(الثسموفوريا Thesmophoria) التي تحييها النسوة بالصيام في معبد الآلهة. وبعد موته مباشرة اغدق عليه الآثينيون من التكريم والاجلال ماهو اهل له. فقد نصبوا تمثاله النحاسّي واصدروا مرسوماً يقضي بأن ينزل في كنف (الپريتانيوم Prytaneum) اكبر اسرته سِنا. ونقش على قاعدة تمثاله، الكتابة المشهورة التالية:

«لو كنتُ قوياً قدر ما كنت حكيماً للاغريق لما تمكن "المقدوني" من التغلب

عليهم»

ولذلك فمن السخف حقاً أن نصدق ما روى بعضهم أن ناظم هذين البيتين هو ديموستينس، نظمهما في (كالاوْريا) قبيل تناوله السُم.

قبل عودة (ديموستينس) الى آثينا بفترة قصيره وقعت على ما قيل - الحادثة التالية:

استدعي جندي للمثول أمام ضابطه الأمر، كي يجيب عن تهمةٍ. فوضع هذا، تلك القطعة الذهبية الصغيرة التي ماتزال بين يدي تمثال (ديموستينس) وكانت الاصابع متشابكةً واحدتهما بالأخرى وبالقرب منها نبتت شجيرة دلب سقط منها عدد كبير من الاوراق واستقرّ حول قطعة الذهب فاخفاها لوقت طويل اما بفعل الريح التي دفعت بها الى هذا المكان بمحض الصدفة او أن الجندي نفسه عمد الى وضعها. وبالأخير عاد الجندي ليجد قطعته الذهبية في مكانها وقد ذاع نبأ هذه الحادثة وانتشر في الخارج وصار عقلاء المدينة وحكماؤها يجادل بعضهم بعضاً فيها متخذين منها مادة للطعن بنزاهة ديموستينس، في عدد من المقطوعات الشعرية الحكمية التي الفّوها.

واماً عن (ديماديس) فإنه لم يتمتع طويلاً بالنعم التي اغدقت عليه فقد لاحقه الانتقام الالهي لموت (ديموستينس) الى مقدونيا، حيث ذاق طعم الموت على يد اولئك الذين تزلف منهم بوضاعةٍ وكانوا قد ملّوه واجتووه. على ان الجرم الذي اجترحه كان واضحاً يتعذر نكرانه. فقد ضبط بعض رسائله التي كان يحث بها (پردكاس) على مهاجمة المقدونيين وانقاذ الاغريق قائلاً ان المقدونيين يتعلقون بخيط رثٌ قديم لا غير، ويقصد به (انتيباطر). وقد واجهه (دينارخوس الكورنثي) بذلك. وحمي غضب كساندر فذبح ابنه على صدره اولاً، ثم أمر بقتله. فتعلم من شقائه ونهايته السيئة درسه وهو ان الخونة الذين يبيعون بلادهم، انما يبيعون أنفسهم اولاً. وتلك نهاية طالما تنبأ له بها (ديموستينس) فلم يلق عليها باله.

بهذا يا (سوسيوس) تتمّ لك سيرة (ديموستينس) اقتبستها من الروايات التي قرأناها او سمعناها عنه.

١٩٧٢/٢/٥

شیشرون

CICERO

(Marcus Tulius)

B.C 108 – 43



شيشرون

أجمع الكلّ على أن (هلڤيا Helvia) والدة شيشرون كانت كريمة المحتد، رخية العيش. لكن لم يعرف عن ابيه الاّ عكس ذلك وبعضهم يجعله ابن قَصّار ورث الصنعة عن ابيه، في حين نجد آخرين يصعدون بنسب اسرته الى (تُللوس آتيوس Tullus Attuis) ملك الڤولسكان Vol-scan الشهير الذي شن حروباً على الرومان لم تخل من المجد. ويبدو على كلٍ، أن اول من نجم من هذا البيت متخذاً لقب (شيشرون)، لابد وانه كان ذا شأنٍ بحيث ان أعقابه لم يكتفوا بالتسمي به، بل تمسكوا بالتسمية واعتزوا وإن كانت لفظة عيبٍ بلغة السوقة. فاللاتين يطلقون كلمة «چيچر Cicer» على نبات البيقية[1]. والحزُّ او الثقب في ارنبة انفه الذي يشبه فتحة في جذع ذلك النبات، اعطته لقب شيشرو.

وشيشرون الذي اكتب الآن سيرته، قيل أنه انتهر بشيء من الشدة بعض اصدقائه عندما اشاروا عليه بنبذ الأسم او تغييره عندما تقدم للوظيفة العامة ودخل المعترك السياسي. وقال معقباً: انه سيبذل جهده ليجعل اسم (شيشرون) أشهر وأعلى مجداً من اسمي (سكاوري Scauri) و(كاتولي Catuli). وعندما كان كويستوراً في صقلية اراد ان يقدم صحفة فضية الى الآلهة. فأمر الصائغ أن ينقش اسميه الأولين عليها وهما «ماركوس» و«تلليوس» وقال له ممازحاً له أن ليفتش بدلاً من الاسم الثالث صورة نبات البيقية. هذا ما ذكروا لنا عن اسمه وفصله.

واما عن ميلاده فقد روي أن امّه ولدته دون ألم او مخاض في غرة الشهر الثالث من التقويم الجديد وهو عين اليوم الذي يدعو فيه الحكام الرومان للامبراطور ويقربون له. وقيل ايضاً ان رؤيا ظهرت لمرضعة تنبيء بأن الطفل الذي تتولى ارضاعه سيغدو فيما بعد عظيم نفع لحكومات روما. وقد ايدّ شيشرون عملاً هذه التكهنات التي تؤخذ بصورة عامة مأخذ الاوهام والاحاديث الفارغة وجعلها نبؤات حقيقية. اذ ما أن بلغ سن الدارسة حتى برز صبياً ذكيا موهوباً وارتفع مقامه بين اترابه واعجبوا به، حتى أن اباءهم كانوا يختلفون الى المدرسة ليتأملوا عن كثب سرعة استيعابه وحضور بديهته التي اشتهر بها بين زملائه وكان اقلّ هؤلاء

---

(١) نبات تعلف به الحيوانات وهو اشبه ما نطلق عليه «الجتّ».

الاباء تهذيباً يستاؤن من اولادهم ان يروهم يستقبلون شيشرون باحترام ويوسعون له موضع الصدارة بينهم. وكان - وفق ما تمناه افلاطون من الميل الى الفلسفة، والتعلق بالدرس، والشوق لتلقي كل نوع من انواع المعرفة والثقافة. واظهر كذلك ميلاً غريباً لنظم الشعر، ولديه قصائد متداولة حتى يومنا هذا نظمها في صباه على البحر الرباعي تدعى (بونطيوس غلاوكوس Pontius Glaucus). ثم عندما نزع بصورة خاصة الى الدراسة والتتبع اشتهر بأنه افضل خطيب فضلا عن كونه أحسن شاعرٍ في روما. ومازال اسلوبه البياني موضع اعجابٍ ومحاكاة بصرف النظر عن الاساليب المستحدثة الكثيرة التي سادت العصر منذ ايامه، الاّ ان قصائده فقدت شهرتها وطواها النسيان. وما اكثر الشعراء المجيدين الذين جاؤا بعده.

بعد ان انهى دراساته الأولية، دخل طالباً مستمعاً لفيلو Philo الاكاديمي الذي أحبه الرومان واعجبوا به لبلاغته ولسمو اخلاقه، وانزلوه منزلة فاقت منازل كل تلاميذ (كليتوماخوس Cli-tomochus) وكذلك لازم آل موچي Macii وكانوا ساسةً بارزين، وزعماء في مجلس الشيوخ واخذ عنهم علوم القانون. وخدم ردحاً قليلاً من الزمن في الجيش تحت امرة (سُلّلا) اثناء الحرب المارسية. لكن ادرك بان الجمهورية تنقسم الى شيع واحزاب. ووجد الامور فيها تنحو منحى الاستبداد، وتتجه الى الملكية المطلقة، فآثر الانسحاب ليحيا حياة عزلة وتأمل ومناظرة مع جهابذة الاغريق. واوقف نفسه على الدراسة، حتى استتب الأمر لـ(سلّلا) ونعمت الجمهورية بنوع من الاستقرار.

في ذلك الحين تقدم معتوق (سللا) المدعو (خريسوغُونس Chrysogonus) بادعاءٍ في ضيعة تعود لشخص قيل أنه قتل عندما صدر قرار اهدار الحقوق عليه، وقال انه اشتراها بألفيْ درهم. فرفع (روسكيوس Roscius) ابن القتيل ووارثه الدعوى عليه موضحاً ان قيمة الضيعة مأتان وخمسون تالنتاً، فثار غضب (سللا) لان هذا يضع تصرفاته موضع طعن وامر باجراء التعقيبات القضائية ضد (روسكيوس) بتهمة قتله اباه. وجمع (خريسوغونس) الادلة ضدّه. ولم يجرء احدٌ من المحامين على مساعدة المتهم واعتذروا عن الوكالة خوفاً من قسوة (سللا) فوجد الشاب نفسه وحيداً لا نصير له، فسعى الى (شيشرون) مستجيراً. واخذ اصدقاء شيشرون يشجعونه على هذا بقولهم: ليس من المحتمل أن تعن له فرصة لتقديم نفسه الى الحياة العامة اشرف واجلّ من هذه الفرصة. فقبل الدفاع عنه وربح القضية فنال منها شهرة كبيرة. الاّ ان الخوف من (سللا) استولى عليه فرحل الى اليونان ذاعما انه يفعل ذلك بسبب احتلال صحته. في الواقع كان ضعيف البنية هزيلاً رقيق المعدة الى حد لم يكن يقوى على تناول طعامٍ عادي خلا الحمية الدقيقة التي لا تحوي من القوت الاّ النزر التافه وهذا ايضاً، ما

كان ليقوى على تناوله الاّ في ساع متأخرٍ من الليل. وكان صوته حسنا جهورياً، لكنه على قدر عظيم من الخشونة وعدم التهذيب حتى انه يرتفع عند الحِدّة والحماسة الى الحدّ الذي كان يخشى منه على صحته.

وارتحل الى آثينا واستمع الى (انطيوخوس) العسقلاني، وسحر بسلاسة الإداء وأناقته، ولم تستهوه المبتدعات التي ادخلها هذا الفيلسوف على المبادىء، ذلك لأن (انطيوخوس) هذا، كان قد ابتعد وقتذاك عن الاكاديمي الجديدة كما يسمونها وقطع علاقته بمذهب (كارنيادس Carneades)، وسواء في ذلك إأستهواه منطق الفة المظاهر والحواس، او دفعه كما يقول بعضهم شعور المنافسة والمعارضة لأتباع (كليتوماخوس وفيلو) وتغيير افكاره واعتناق المذهب الرواقي في معظم شؤون الحياة. على أن (شيشرون) كان اكثر ميلاً الى مبادىء الاكاديمي الحديثة وكان يعتنق مذهبها وقد عاهد نفسه على ان ينسحب من مزاولة المحاماة والعمل السياسيّ ويقضي حياته في هدوء تتبعات فلسفية اذا منيت حياته العامة في الجمهورية بالاخفاق.

لكن بعد ان بلغه نبأ موت (سللا). وبعد أن صح بدنه واشتد عوده بالتمارين الرياضية، وسيطر على نبرات صوته فبات رخيما يشنف الآذان، منسجما مع صحته العامة، راح اصدقاؤه في روما يلحون برسائلهم ليعود. ولاسيما (انطيوخوس) الذي كان لايفتأ يحثه على العودة الى المعترك السياسيّ. وهكذا تهيأ ثانية لاستخدام البلاغة التي هي آلة الخطيب، وعبأ كل كفاءته السياسية للعمل، وانشا يثابر على التمارين الخطابية وشدّ الرحال الى اشهر بُلغاء عصره. رحل عن اثينا الى آسيا وررودس وناظر من الاساتذة الآسيويين (كزينوكلس Xeno-cles) من (ادراميتيوم Adramyttium) و(مينيپوس Menippus) الكاري Caria، وديونيسيوس المغنيزي. وفي (رودس) درس الخطابة على (اپوللونيوس) ابن (مولون)، والفلسفة على (پوسيدونيوس Posidonius). وقد قيل لنا ان (اپوللونيوس) الذي لم يكن يفقه اللاتينية، طلب من شيشرون ان يخطب باللغة اليونانية فوافق مسروراً، مؤمنا بأنها خير طريقة لتنبيهه الى اخطائه. وبعد ان انتهى من الالقاء تملك العجب السامعين وارحوا يتنافسون على اسبقية مدحه وتقريظه. إلاّ ان (اپوللونيوس) الذي لم يبدر منه اشارة تدل على مأثرة او حماسة أثناء اصغائه اليه، بقي ساكتاً ساهماً فترة طويلة بعد نهاية الخطبة دون أن تصدر عنه ملاحظة. وعندما ادرك قلق شيشرون من الموقف بادره قائلاً:

- لك ثنائي واعجابي يا شيشرون، وللبلاد الاغريقية رثائي ومواساتي حيث ان هذه الفنون وتلك الفصاحة وهي الامجاد الوحيدة المتخلفة لها، ستنتقل عن طريقك الى روما.

وعندما قرر (شيشرون) العودة الى معترك السياسة وهو مليء الوطاب بالآمال. فوجيء بنبوءةٍ هبطت بمعنوياته الى حدٍ كبير. فقد استخار آلهة دلفي في الطريق الذي يسلكه لتحقيق اكبر المجد. فكان جواب العرافة الپيثية بأن يجعل من جنيّه، لا رأي الناس فيه، دليل حياته. لذلك كانت حياته في روما متسمة بالحذر. وتأخر كثيراً في التقدم الى الوظائف العامة، ولذلك فلّ حظّه من الشهرة في ذلك الحين. لقد عرفته طبقة الجهلة والدهماء في روما باسمي (الاغريقي) و(طالب العلم). لكن لما قررّ أن يطلب الشهرة والمكانة، برغبة ابيه واقربائه، انصرف جاداً الى المحاماة ولم يكن تقدمه الى الصفوف الأولى ونبوؤه المحل الأرفع لا بطيئاً ولا رفيقاً، بل سطع نجمه وتألق فوراً وبز كلّ المحامين الممارسين الى مسافة بعيدة. في الأول كان مثل (ديموستينس) ضعيف الالقاء على ما روي ولذلك كان شديد الاهتمام بالنصائح والارشاد التي يوجهها اليه (روسكيوس Roscius) الكوميدي، و(ايسُوپ Aesop) التراجيدي. ورووا عن ايسوب هذا انه كان مرّة يمثل دور (اتريوس Atreus) على المرسح. وفيما كان يلقي المقطع المتعلق بموضوع الانتقام من (ثياستيس Thyestes) ان هاجت روحه بالدور ونسي نفسه في حماسة تمثيله واهوى بصولجانه على رأس احد الخدم اثناء مروره عبر المرسح، بضربه بلغت من الشدّة انها جندلته ميتاً على خشبة المرسح. كذلك آض القاء شيشرون فيما بعد، فقد ساهمت بلاغته بالكثير للوصول بخطبه الى درجة الاقناع. واعتاد السخر بالمتكلمين ذوي الاصوات العالية بقوله انهم يصرخون لانهم لايعرفون كيف يتكلمون، كالعرج الذين يركبون الخيل لأنهم لا يقوون على السير. ووجد حضور بديهته، والقاءه التهكمي المطرز عموما بظريف الاقوال وبارع الردود، مما يناسب جداً المحامي المترافع، حيث يتجذب السامعين الى درجة كبيرة. على أن افراطه في استخدامها آلم الكثيرين، ولذلك وصف بحبّ المشاكسة وبسوء الطبع.

عين شيشرون (كويستوراً) في زمن القحط وندرة القمح وكانت صقلية مقرّ وظيفته. وفي بادئ الأمر نقم عليه الناس لارغامهم على تصدير قمحهم الى روما. الاّ ان الامر تغيرّ بهم بعد ان جربوه وتاكدوا من حرصه وعنايته وعدالته وشفقته. فاحاطوه باكبارٍ واحترامٍ لم يحيطوا بهما اي حاكم سبقه. وصادف ان بعض الشبان الرومان من اسرٍ شريفة، اتهموا بحرف النظام العسكري وبسوء السلوك اثناء الخدمة فاضطلع بمهمة الدفاع عنهم وبرّأهم باذلاً اعظم الجهد، مما اورثه ثقة عالية بنفسه، وفسر اعتداده واعتزازه بكلّ الاعمال التي انجزها عند عودته الى روما. وقد وقعتُ له وهو في الطريق قصة مضحكة طريقة قصها علينا هو بنفسه قال: انه التقى في (كامپانيا) بمواطن كبير المقام كان يعده من اصدقائه. فسأله عن رأي الرومان في

مـجـهـوداته، ومـا هي اقوالـهم عنه، كـأن المدينة لا شـغل لهـا الاّ مناقلة اخـبـاره والمداولة في انجازاته. فسأله ذلك الصديق بدوره.

- وفي اي بلدٍ كنت يا شيشرون؟

هذا الجواب حطم معنوياته العالية واصابه بالخيبـة التامة حيناً من الزمن وبه فتح عينيه على الحقيقة المرّة، وهي ان انباء اعماله غرقت في خضم مدينة روما كأنها غـاصت في لجة بحرٍ دون ان تخلف أثراً ايجابيـا يذكر في شهرته. وتبين لنفسه فيما بعد، ان المجد الذي يسعى اليه هو شيء غير محدود، لا نهاية في اطلابه ولا مدى. وبذلك خفف كثيـراً من غلواء طموحه. الاّ انه ظلّ دومـاً يسرّ وينبسط حين يسمع ثناءً او مديحاً لشخصه وبقي الى الاخيـر مغرماً بالمجد والسؤدد، هذا العقبة كثيراً ما وقفت في سبيل متابعته لأحكم قراراته وابعدها نظراً.

وعندما ابتدأ يعالج الشؤون العامة بجدٍ. وجد من السخف والغباء ان يعرف الحرفيون اسماء ومواضع وفائدة الأواني والادوات التي يستخدمونها في حرفهم في حين يهمل رجال السياسة معرفة الناس والاشخاص، وهم ادواتهم التي يصرفون بهما الشؤون العامة. ولذلك سعى الى تلافي هذا النقص ولم تعد معرفتـه بالناس قاصرة على الاسماء بل تعدتها الى الامكنة التي يعيش فـيـها كل شخص بارز من المواطنين، ومـاذا يملك من عقـار، ومن هم الاصـدقـاء الذين يعتمد عليهم، ومن هم جيرانه. فغدا قادراً - عند سلوكه سبيل في ايطاليا - على تسمية عقار ومقرات اصدقائه ومعارفه والاشارة الى مواقعها. وكان يملك ضيعة صغيرة جداً تدر عليه مـا يكفي لسدّ خلته وتغطيه نفقاته فحسب، ولهذا كـان غريباً منه أن يأبى تقاضي اجورٍ او قـبـول هدايا من مـوكليـه. وكذا فـعل حين قـام بالادعـاد ضـدّ (ڤـيـريس Veres). وكـان هذا (پريتـوراً) في صقلية فاتهمه الصقليون بكثير من الاعمال الاجرامية اثناء وجودة ثمّ. ونجح (شيشرون) في ادانته لا بكلامه، بل بامتناعه عن الكلام إن جاز لنا القول ذلك ان البريتورين الذين كانوا يساندون (ڤيريس) ويمالئونه دفعوا بالمحاكمة الى الخلف بعدة تأجيلات الى ان حلّ اليوم الذي ما عاد يوجد بعد وقتٌ كاف لسماع دفاع المحامين. فتقدم (شيشرون) ليقول انه لا حاجة ثم يدعو الى القاء الخطب، فاستمع الى الشهود وعرضت الادلة وبادر يطلب من القضاة اصدار الحكم. ومع هذا فقد سجلت لشيشرون عدة عبارات طريفة لبقة بالمناسبة. كان ثم شخص يدعى (كيچيليوس Caeciluis) وهو عبد معتوق، قيل أنه يمارس الطقوس اليهودية، لم يدخله الصقليون في عداد المدعين، فاضطلع هو بنفسه الادعاء ضدّ (ڤيريس)، وهنا تساءل شيشرون.

- ما علاقة اليهودي بـ«الخنزير؟» (بالرومانية: كلمة Verres تعني الخنزير البرّي).

ولما بدأ (ڤيريس) يعيب على شيشرون حياة الخنوثة التي يحياها ردّ عليه بقوله:

- عليك ان تستخدم هذه اللغة في البيت مع اولادك! (وكان لڤيريس ابن سلك سبل الغواية فساءت سمعته)

لم يجرأ (هورتنسيوس) الخطيب على القيام بمهمة الدفاع عن (ڤيريس) مباشرةً، الأ أنه اقنع بالحضور عنه عند فرض الغرامة عليه، وأهدي لقاء ذلك، تمثالاً عاجياً لأبي الهول. فعندما عرضّ به شيشرون في احدى فقرات خطبه بصورة غامضة ملتوية وعقب (هورتنسيوس) قائلاً انه ليس بارعاً في حلّ الالغاز و الأحاجي بادره شيشرون بالقول:

- كلاً لست بارعاً مع أن في بيتك ابا الهول!

وصدر الحكم على (ڤيريس). ولان (شيشرون) حددّ مبلغ الغرامة بسبعمائة وخمسين ألفاً. فقد اكتنفته الريب وشك في انه قبل رشوةً لتخفيض مبلغ الغرامة. الاّ ان الصقليين تدليلاً على امتنانهم واعترافهم بجميله قصدوه بكلّ ما يخطر بالبال من الهدايا وهو في منصب (ايديل) فلم يقبل لنفسه شيئا وانما استغلّ كرمهم هذا لتخفيض السعر الرسمي لمواد المعيشة.

وكان يملك مربّعاً في غاية الجمال في (آرپي Arpi) كذلك كان يملك مزرعة بالقرب من ناپولي واخرى قريبة من (پومپي) وليس منهما ما ارتفعت قيمته. وبلغ صداق زوجه (ترنتيا Terentia) مائة الف. وكانت حصته من الميراث تسعين الفاً، وبهذا كان يعيش عيشة طيبة، الا انها ليست باذخة، بصحبة علماء الاغريق والرومان الذين يلازمونه وندر بل لم يجلس قطّ للعشاء قبل غروب الشمس. ولم يكن ذلك بسبب اعماله ومشاغله بقدر ما كان ذلك بسبب ضعف بنيته ومعدته. وكان من نواحٍ أخرى يهتم بجسده لذلك خصص مواعيد معينة للعناية به بالتدليك والسير على القدم. فبنى تكويناً قوياً صحيحاً في انسب وقت، قادراً على تحمل كثير من المشاق والتعب. ووهب اخاه دار ابيه وسكن هو نفسه في المرتفع البالاتيني حتى لا يتعب قصّاده وزواره بالسير الطويل. ولم يكن عدد قاصديه وزائريه للسلام عليه وتقديم فروض الاكرام له باقلّ من قصاد (كراسوس) لاجل غناه او (پومپي) لما يتمتع به من مكانة ونفوذ بين الجنود. كان هذان اشهر واقوى رجلين في روما انذاك. وقد عملت مجهودات (شيشرون) السياسية، الشيء الكثير لتوطيد سلطان (پومپي) ومكانته في الدولة.

تقدم عدد كبير من المرشحين معه الى منصب (البريتور)، فسبقهم اليه وتولى الفصل في القضايا بعدل ونزاهة. وقد روي ان (ليچينيوس ماچر Licinius Macer) صاحب النفوذ الكبير في المدينة واحد اعوان (كراسوس). اتهم امامه بقضية ابتزاز وكان واثقاً من تأثير

نفوذه الشخصي ومن مساعي اصدقائه الفعالة. وبينما كان القضاة يتداولون في الحكم، ذهب (ليچينيوس) الى بيته فقصّ شعره ولبس رداءً نظيفاً، كما يفعل الواثق من البراءة، ثم انطلق الى الفورم، وفيما هو في طريقه التقى (بكراسوس) عند باب القاعة، فأخبره هذا أن الحكم قد صدر بادانته بالاجماع. فرجع الى منزله واستقلى على فراشه واسلم الروح. اعتبر هذا الحكم تشريفاً لشيشرون اذا أظهر فيه دقّة ادارته للقضاء والمحاكم

وثم حادثة اخرى تتعلق بالمدعو (ڤاتينيوس Vatinius) وهو رجل غليظ الطبع تغلب عليه الوقاحة ولا يتورع عن شتم القضاة واهانتهم. وكان يشكو اوراماً في رقبته حين تقدم من مجلس قضاء (شيشرون) بمطلبٍ فاستمهله (شيشرون) للنظر فيه فعقب ڤاتينيوس قائلاً:

- لو كنتُ انا نفسي پريتوراً لفرغت الآن من البت فيه دون حاجة الى مهلة.

فاستدار اليه (شيشرون) بسرعه واجاب:

- لكنك ترى اني لااملك رقبة مثل رقبتك.

ولما بقي من فترة وظيفته يومان او ثلاثة، اقتيد (مانيليوس Manilius) امامه متهماً في قضية اختلاس. وكان المتهم يتمتع لدى الشعب بمكانةٍ، ورأيهم فيه حسن وكان الرأي الشائع انه ما اتهم بهذا، الاّ بسبب (پومپي) التي تربطه به صداقة وثيقة. فطلب مهلةً امداً قبل المرافعة فلم يسمح له شيشرون باكثر من يوم واحدٍ اعني اليوم التالي فحسب فثارت خواطر الدهماء وسخطوا اذ جرت العادة انه يسمح (الپريتورون) للمتهمين بعشرة ايام على الاقل فاستدعى تريبونو الشعب (شيشرون) ليمثل امام عامة الشعب متهماً بخرق هذا العرف القضائي. فطلب الكلام وقال: انه ظل دائماً يعامل المتهمين معاملة انسانية وبالمساواة بقدر ما يسمح به القانون لذلك وجد من الصعب عليه ان يحرم (مانيليوس) من حقه هذا وقد اضطر اضطراراً الى تعيين هذا اليوم لانه الوحيد الذي بقي له من فترة حكمه. وانه ليس من مصلحة اولئك الذين يرغبون في مساعدة (مانيليوس) ان يدفعوا بقضيته الى پريتور آخر ليصدر فيها حكماً. فاحدث باقواله هذه انقلاباً عجيباً في افكار الجمهور واتنوا عليه كثيراً. ورغبوا منه أن يضطلع شخصياً بمهمة الدفاع عن (مانيليوس) فقبل ذلك بطيبة خاطر، واكراما لپومپي بالدرجة الاولى، وكان هذا غائباً. وهكذا عاد يتخذ مكانه عند الشعب. والقى دفاعاً يتضمن طعناً صريحاً بالحزب (الاوليغارشي) وباولئك الذين يحسدون (پومپي) وينقمون عليه.

وكان تفضيله الوصول الى المنصب القنصلي عن طريق طبقة الاشراف، لا يقل عن تفضيله ذلك عن طريق العامة لخير البلاد ومصلحتها. ولهذا نجد الجانبين يتحدان للسعي له بالمنصب للاسباب التالية:

انه الانقلاب الذي احدثه (سُلّلا) في نظام الحكم كان يبدو في عهده، نظاماً أخرقٍ لاطعم له. وبمرور الزمن وبالاعتياد عليه اصبح في نظر الشعب نوعاً من الاستقرار المقبول. الاّ أن بعضهم حاول احداث تغيير شامل في الوضع السياسي من القاعدة الى القمة يحدوهم في هذا منافع خاصّة، لا دوافع عامة نبيلة. وكان (پومپي) في تلك الفترة منشغلاً بحروبه مع ملكي الپونطس والامن ولذلك لم تعد القوات المرابطة في روما بكافية لقمع اية محاولة للثورة. كان يتزعم هؤلاء الانقلابيين رجل جرئ متهور متقلب الاهواء يدعى (لوچيوس كاتيلينه Lucius Catiline) بارتكابه جنايات كثيرة، منها افتضاضه بكارة بنته، وقتله اخاه وبسبب خوفه من تبعات جريمته الاخيرة واتخاذ الاجراءات القانونية بحقه، اقنع (سللا) بان يضع اسم اخيه القتيل في قائمة الذين سينفذ فيهم حكم الموت بسبب اهدار حقوقهم المدينة كأنه مازال بعد حياً. اختارت حثالة المجتمع ومتهتكوه هذا الرجل زعيماً. وتعاهدوا فيما بينهم بمختلف الاقسام المغلظة. منها انهم ضحوا برجلٍ واكلوا لحمه. وعمد هذا المتآمر الى افساد عدد كبير من شبان المدينة بتيسير سبل الغواية لهم من شرابٍ ونساء، وكان ينفق على فجورهم بسخاءٍ وبدون حساب. أضف الى هذا أن مقاطعة (إتروريا Etruria) كانت قد حرضت الى حَدّ اعلان الثورة. كذلك كانت الحال في بلاد الغال الجنوبية اولالپية على ان روما نفسها كانت تعيش تحت خطر انقلاب حكومي عنيف بسبب التفاوت في توزيع الثروة والاراضي. فالطبقة العليا التي كان افرادها يمتازون باطيب الخلق املقت لاسرافها وانفاتها المتواصل على الحفلات العامة والاستعراضات الشعبية، ولطموحها الى المناصب الرفيعة وبنائها الصروح الفخمة. حتى تركزت ثروات المدنية في ايدي اناس منحطين خلقاً، وضيعين منبتاً. لذلك لم يكن يحتاج الى اكثر من فتيلٍ صغير لتحقيق الانفجار العام وكان في مقدور اي انسان جريء اسقاط جمهورية مريضة واهنة.

وعلى اية حال كان (كاتيلينه) بحاجة الى منصب عظيم النفوذ لدعم خطته وتنفيذها فتقدم مرشحاً نفسه للمنصب القنصلي وكان عظيم الامل بالفوز، مؤملاً أن يكون زميله في المنصب (كايوس انطونيوس Cauis Antonius) وهو رجل لا يحلّ ولا يربط ولا يمكن الركون اليه لا في قضية حسنة ولا في قضية سيئة. الاّ انه يصلح مرقاة لاغنى عنها للسلطة وكانت الاغلبية الساحقة من خيار المواطنين توجس خيفة من هذا، لذلك كلفت (شيشرون) بالتقدم الى المنصب القنصلي واسرع عامة الشعب يؤيدون هذا الترشيح، فخسر (كاتيلينه) وانتخب (شيشرون) و(كايوس انطونيوس) وكان شيشرون الوحيد بين المرشحين الذي لم ينحدر من ابٍ حائز الدرجة الكويستورية، او من طبقة الشيوخ.

ومع ان خطط (كاتيلينه) لم تنكشف بعد للناس، الاّ انه وقعت اضطرابات كبيرة فورتولي (شيشرون) مهام منصبه فقد كان من جهةٍ اولئك الذين جردتهم قوانين (سيللاّ) من حق الاشتغال في الوظائف العامة، وهؤلاء لم يكونوا ليشكوا ضعفاً في قوتهم، ولاقلة في عددهم، وقد تقدموا من الشعب مرشحين لمختلف الوظائف وراحوا يغازلونه ويتقربون منه استجلاباً لعطفه ويتحدثون اليه بالواقعي الحقيقي عن طغيان (سيللا) واستبداده. مختارين وقتاً غير مناسبٍ لاشاعة البلبلة والاضطراب في اصول الحكم. ومن جهة ثانية كان تقديم تريبوني الشعب مقترحات قوانين تؤيد هذا المنحى وتاليفهم لجنة من عشرة اشخاص زودوا بصلاحيات غير محدودة يمارسونها بوصفهم محكمة عليا، مخولين بموجبها حق بيع الاراضي الاميرية في كل من ايطاليا وسوريا والبلدان التي فتحها (پومپي). وحق محاكمة ونفي من شاؤا محاكمته او ابعاده. وحق تأسيس المستوطنات، وسحب الاموال من الخزانة العامة وجباية ودفع ما يراى الجنود ضرورياً. واعلن عدد من الاشراف مساندتهم لهذا القانون وفي مقدمتهم (كايوس انطونيوس) القنصل زميل (شيشرون) الذي كان يأمل أن يختار عضوا في اللجنة العشرية. على أن خوف طبقة الاشراف الاعظم منه هو اعتقادهم بانه شريك في مؤآمرة (كاتيلينه) وانه يناصرها بسبب الديون الثقيلة التي يرزح تحتها.

في مبدء الأمر حاول (شيشرون) ايجاد علاج ناجح لهذا الخطر المتفاقم. فاستصدر مرسوماً يقضي باناطة حكم اقليم مقدونيا بزميله، ورفض في الوقت عينه حاكمية بلاد الغال التي عرضت عليه فنال بهذا الفضل ثقة زميله واصبح له اطوع من البنان وبدا مستعداً لنصرته ومساندته في كل ما يعمله لمصلحة البلاد مثل اللاّعب المأجور. وبترديض زميله هكذا صار بوسعه تحدي المتآمرين بكثير من الجرأة. وتقدم الى المنصة فالقى في مجلس الشيوخ خطاباً ضد قانون «المفوضين السامين العشرة». وكمٌ افواه من اقترحه. وألجمهم فلم يجدوا ما يردون به على حججه. وكرروا محاولتهم لسبق تدبير، فدعوا القنصلين للمثول امام الجمعية العامة. ولم يكن (شيشرون) خائفاً من شيء فخرج الى الجمعية اولاً وطلب من اعضاء مجلس الشيوخ ان يتبعوه. ولم يقتصر نجاحه على ابطال الاقتراح، بل حقق بالخطاب الذي القاه نصراً ساحقا على التريبونين حتى نبذوا كل فكرة حول تحقيق مشاريعهم الأخرى.

ولا جدال في ان (شيشرون) كان الرجل الأوحد الذي ارتفع على الكلّ، وجعل الرومان يشعرون بعظمة ما يعد فيه سحر البلاغة على العمل الصالح. ومقدار مناعة العدالة عندما تجد لها اللسان الجيدّ المعبر. وما هو ضروري لمن يتوخى الدقة في سياسة الجمهورية، أن يقدم في عمله النزيه المستقيم، على ما هو اقرب الى هوى الشعب. وأن يفضل في كلامه

استخلاص الصالح المفيد من كل ما قد ينجم عنه ظلم وتعدٍ، وقد وقعت حادثة اثناء قنصليته يمكن ان تقوم برهانا على مدى تأثير الكلام ومفعوله، كان فرسان روما في الماضي يمتزجون بعامة الشعب في المراسح ويختارون مقاعدهم بين صفوفهم كيفما اتفق لهم، وكان (ماركوس اوتو) اول من ميزهم عن المواطنين في عهد بريتوريته. فخصص لهم جناحاً مناسباً اصبحوا يشغلونه بوصفه موضعاً خاصاً لهم في المرسح. أحدث هذا التصرف استياء عند العامة، وأشعرهم بالإهانة. وعندما ظهر (اوتو) في المرسح راحوا يهسهسون له ازدراءً، اما الفرسان فاستقبلوه بالتصفيق. وكررت العامة هسيسها وتمادت فيه، وواصل الفرسان التصفيق، ثم استدار هذا الفريق على ذاك واخذا يتبادلان الشتائم والكلمات المقذعة، فعمت الفوضى المرسح وأعلم (شيشرون) بالأمر فخف مسرعاً ودعا الشعب الى الاجتماع في هيكل (بللونا Bello-na) وطفق يشتد في تعنيفهم وتأنيبهم، وما لبثوا ان عادوا الى المرسح ليستقبلوا (اوتو) بهتاف عظيم نافسوا فيه الفرسان وتباروا معهم على اظهار اكثر التعظيم والاحترام له.

في مبدء الأمر روعَ المتآمرون الكاتيليون وثبطت بهم الهمم لكن سرعان ما دبت الشجاعة في اوصالهم فلموا شعثهم وعبأوا قواهم واخذ بعضهم يشدد عزائم بعض في وضح النهار لتنفيذ المخطط قبل عودة (پومپي) الذي قيل انه يتجه الآن الى روما على رأس قواته. وكان جنود (سللا) القدماء عمود الحركة الفقري، واداتها الرئيسة في يد (كاتيلينه). كان قد تمّ تسريحهم جميعاً اينما كانوا في ايطاليا. الأ ان القسم الاكبر منهم وهو الاكثر شراسة كان منتشراً بين مدن (اتروريا) تراودهم احلام سلب ونهبٍ جديدة لثروات ايطاليا المكنوزة. وكان يتزعمهم (مانليوس Manlius) الذي أبلى بلاءً حسنا في الحروب تحت امرة (سللا) فاصبح لذلك من المشاهير وانضم هذا الى كاتيلين وجاء الى روما لمساعدته باصوات الجنود اثناء الانتخابات ذلك ان كاتيلين اقدم للمرة الثانية على ترشيح نفسه للمنصب القنصلي واعتزم قتل (شيشرون) عندما يحمى وطيس الانتخاب. ويبدو ايضاً ان القوى الالهية اطلقت النذر عن الاحداث الاتية، فأرسلت زلازل وصواعق، واظهرت علامات غريبة، ولم تكن الدلائل البشرية بل كانت كافية جالبة القناعة على انها لم تبلغ حداً يمكن معه اداته (كاتيلينه) ذي الحول والطول، والمنتمي الى طبقة الاشراف. ولهذا ارجأ (شيشرون) موعد الانتخاب، واستدعى (كاتيلينه) الى مجلس الشيوخ واستجوبه حول التهم المنسوبة اليه، وكان هذا يعتقد أن عدداً كبيراً من الشيوخ يوافقونه على رغبته في التغيير. واراد أن يقدم لسائر التآمرين نموذجاً لاتجاهاته وطبيعته فرد على سؤال شيشرون بجواب صلفٍ اذ قال:

- اي ضرر هناك، حين ارى جسمين اولهما هزيل سقيم يعلوه رأس وثانيهما شديد قوي لكن

بدون رأس، فاقوم انا بوضع رأس لهذا الجسم المحتاج الى رأس بعد قطعه من الجسم الأول؟

هذا الايضاح ذو الدلالة الكافية الذي القي في مجلس الشيوخ اثار المزيد من المخاوف في نفس شيشرون. فلبس درعاً. وما عاد يخرج من منزله الاّ وهو برفقة جمع من المواطنين الشرفاء، وقصد «السهل» مع جماعة من الشبان للاجتماع - وبحركة مقصودة منه ترك رداءه ينحسر قليلاً عن كتفيه ليبين الدرع من تحته منبها الحاضرين الى الخطر الذي يتهدده. فهاج هائجهم واحاطوا به لحمايته. وفشل (كاتيلينه) في الانتخابات العامة ثانية وانتخب سيلانوس Silanus ومورينا Murina للمنصب القنصلي وبعد فترة قصيرة، تجمع الجنود الموالون لكاتيلينه في (اتروريا) وبدأوا يشكلون الوحدات والسرايا، ذلك لاقتراب اليوم الذي حُدد لتنفيذ المؤامرة. وفي حدود متنصف الليل قصد منزل (شيشرون) بعض كبار الشخصيات الرومانية وذوي النفوذ فيها من امثال (ماركوس كراسوس، وماركوس مارچللوس، وسكيپيو ميتيللوس) فطرقوا بابه ونادوا البواب لايقاظه واعلامه بحضورهم. وكان الدافع الذي حملهم الى المجيء هو ان بواب دار (كراسوس) جلب لسيده بعد العشاء عدة رسائل حملها له شخص مجهول، بعض هذه الرسائل موجه الى اشخاص آخرين غير كراسوس الاّ ان فيها رسالة مغفلة عن التوقيع موجهة الى كراسوس نفسه وقد علم كراسوس من فحوى هذه الرسالة أن كاتبها ينبه بأن (كاتيلينه) يدبّر مذبحة عظيمة وينصحه بمغادرة المدينة ولم يفضّ كراسوس الرسائل الأخرى وانما جاء بها الى (شيشرون) متخوفاً من الخطر الجاثم، وقاصداً تبديد الشكّ الذي يحوم حوله بسبب صداقته (لكاتيلينه). ففكر شيشرون في الأمر ملياً، ودعا المجلس في صباح اليوم الباكر للاجتماع، ودخل القاعة حاملاً تلك الرسائل ووزعها على من ارسلت اليهم طالباً منهم قراءتها علناً. وكانت كلها تروى التفاصيل عن المؤآمرة. ونهض (كوينتوس اريوس Quintus Arrius) وهو بمنصب (پريتور) وادلى بتفاصيل عن تجمع الجنود في اتروريا وانتظامها في وحدات وسرايا. وقال ان (مانليوس) يتحرك بقوة كبيرة من الجنود ما بين تلك المدن منتظراً الانباء من روما فاصدر مجلس الشيوخ مرسوماً يقضي بوضع السلطة كلها في يد القنصلين وبأن يأخذا على عاتقهما ادارة دفة الأمور جميعها وطلب منها أن يبذلا كل مجهوداتهما لانقاذ الدولة. لم يكن هذا التخويل بالشيء العادي، والمجلس لا يقدم على هذه الخطوة عادة الاّ عندما يحدق الخطر بالحكومة.

بعد ان تزود شيشرون بهذه السلطة خولّ (كوينتوس ميتيلليوس) كل الصلاحيات المطلقة فيما يتعلق بالخارج واحتفظ لنفسه بالصلاحيات ضمن مدينة روما وكبر حجم الجمع الذي كان

يقوم على حراسته يوميا عند تركه داره حتى أن الجزء الاكبر من الساحة العامة كان يغصّ به عند وصوله. ونفد صبر (كاتيلينه)، وادركه النفور من تأخير وارجاءٍ آخر وقرر أن يهتك حجاب السرية والكتمان بالذهاب الى (مانليوس). وأمر (مارچيوس) و(كثيگوس) بالخروج مسلحين بالسيف الى منزل (شيشرون) في صباح اليوم الباكر كأنهما جاءا للسلام عليه فينقضا عليه ويذبحاه. وجاءت تلك السيدة النبيلة (فولڤيا Fulvia) الى (شيشرون) ليلاً لتكشف له الأمر وتطلب منه ان يحاذر (مارچيوس وكثيگوس). على انهما اقبلا في اول الصبح فلم يسمح لهما بالدخول فاخذا يصيحان ويخبطان واحدثا ضجة امام الباب مما اثار مزيداً من الشك. وخرج شيشرون ودعا المجلس الى اجتماع طارئ في هيكل (چوبتر ستاتور) الذي يقع في نهاية الشارع المقدس وانت قاصد (الپالاتين) واقبل (كاتيلينه) والآخرون، كانما يريد القاء دفاع عن نفسه فلم يعره احدُ التفاتاً وعاف الشيوخ الجلوس بالقرب منه وتركوا مقاعدهم القريبة من المقعد الذي اختاره. ولما بدأ في الكلام قاطعوه بالصراخ. واخيراً نهض شيشرون وطلب منه مغادرة المدينة، فمادام واحد يحكم الجمهورية بالكلام والآخر يحكمها بالسلاح فالضرورة تقضي باقامة جدار فيما بينهما. واسرع (كاتيلينه) بالخروج من روما بثلاثمائة مسلح متخذا لنفسه شعار الحكم: الفأس والعصي، والشعار العسكري - والتحق بمانليوس وهناك اجتمع حولهم عشرون الفاً فزحفا بهم الى عدد من المدن محاولين اقناع اهاليها بالثورة أو ارغامهم عليها. وهكذا انقلب الأمر الى حربٍ صريحة، فأرسل (انطونيوس) لقتاله.

كان الانصار الذين بقوا في المدينة بقيادة (كورنيليوس لنتولوس) الذي يلقب بـ(سورا Swra) وهو شريف الاصل الأ انه فاسق منحط يعيش لملذاته فحسب، طرد من مجلس الشيوخ لخلاعته. وهو الآن في منصب الپريتور للمرة الثانية. الأمر الذي يقضي به العرف على كل من يرغب في استعادته عضويته في مجلس الشيوخ. ولقب (سورا) لصق به على ما قيل في المناسبة التالية: كان كويستوراً في ايام (سللا) فبددَ واختلس مبالغ كبيرة من اموال الدولة. فاخذت (سللا) سورة من الغضب واستدعاه طالبا منه تقديم الحساب امام مجلس الشيوخ، فمثل امامهم واجاب ببرود عظيم وبعدم اكتراث ان ليس لديه حساب يقدمه لهم، لكن لهم «أن يأخذوا هذه» وامسك بربلة سامة كما يفعل الصبيان عندما يخطئ احدهم هدفه في لعبة الكرة. فلصق به اسم (سورا) وهي كلمة رومانية تطلق على عضلة الساق. وحوكم مرة بتهمةٍ، رشوة بعض القضاة وبرئ باكثرية صوتين لا غير فراح يشكو تبديده المال بدون جدوى، حيث انه دفع لقاضيين في حين ان قاضياً واحداً كان يكفي لتبرئته. تلك هي اخلاق

الرجل الذي وقع الآن تحت تأثير (كاتيلينه) وتضليل النبوءات الكاذبة وعرافة قراء البخت الذين ملأوا بالآمال الكاذبة مقتبسين له ابيات شعرٍ زائفة ونبوءات لاسند لها، حتى بلغ الأمر بهم ان راحوا يدعمون اقوالهم بالنبوءة الواردة في كتب «السيبيل» القائلة بوجود ثلاثة باسم (كورنيلوس) حكمت الاقدار بأن يتولوا الملك على روما، صدقت النبوءة في اثنين منهم وهما (چنّا وسلّلا) وان الخطّ الالهي يتقدم الآن بالهدية الملكية لثالثهم وهو (كورنيلوس لنتولوس)، فعليه والحالة هذه ان يقبل التاج مهما كلفه الأمر وان لا يضيع الفرصة بالتأخير كما فعل (كاتيلينه). ولذلك كانت خطة (لنتولوس) عظيمة الخطر فقد قرر القضاء بحد السيف على كل اعضاء مجلس الشيوخ وكل من وقف في سبيله من المواطنين الآخرين وان يشعل النار في المدينة، ولا يستثنى احد من المذبحة، خلا اولاد (پومپي) فقد اعتزم القاء القبض عليهم وابقاءهم رهائن لضمان الاتفاق مع ابيهم، حيث انتشرت اشاعة قوية مؤداها ان هذا القائد هو الآن في طريقه الى الوطن عائداً من حملته العسكرية الكبرى. كانت الليلة المتفق عليها للتنفيذ هي «ليلة زحل Saturnalia» وجيء بالسيوف والكتان والكبريت واخفيت في دار (كثيگوس) وهيء مائه رجل، وقسمت المدينة الى عدة قطاعات وحدد لكلّ رجل قطاعه المناسب كي يشعلوا النار دفعة واحدة عند اعطاء الاشارة، فنشب الحرائق في وقت واحد وتمسي المدينة وهي كتلة من نار. وعين آخرون لوقف جريان الماء في القنوات وقتل كل من يحاول نقل الماء منها لاطفاء الحرائق. وفيما كانت هذه الخطط في دور الاعداد. اتفق ان كان في روما وقتئذ سفيران من (اللوبروغيسيين Allobroges) وهو شعب كان انذاك تحت الحكم الروماني في حالة يرثى لها من البؤس وعدم الاستقرار. فكرّ (لنتولوس) وانصاره أن يستفيدوا من هذين السفيرين لحث الغاليين وتحريضهم على التمرد، ودفعوا اليهما برسائل لحملها الى حكامهما وبرسائل أخرى لنقلها الى (كاتيلينه) تعهدوا للغاليين في رسائلهم الأولى باعطائهم الحرية، وفي الرسائل الثانية طلبوا من (كاتيلينه) اصدار امرٍ بتحرير العبيد قاطبة الزحف بهم الى روما. وارفقوا بالمسيرين المذكورين (تبطس) (الكروتوني Croton) للوصول بهما الى (كاتيلينه) ودفعوا اليه برسائل أخرى له. كل هذه المداولات التي اجراها اناس متهورون في مجالس شرابٍ ونساءٍ وصلت الى علم (شيشرون) الذي كان يراقب الأمور بدأب متزن وروية وباعظم الذكاء والحكمة اذ كان يعتمد على عدد من الوكلاء في الخارج يرصدون كل حركة ويعقبون كل ما يجري كما كانوا على اتصال تام بالكثيرين الذين تظاهروا بالاشتراك بالمؤامرة. لذلك كان على علمٍ بكل الحديث الذي جرى بينهم وبين الاجنبيين فدبر لهم كمينا ليلياً وقبض على الرسول الكروتوني ومعه الرسائل، وكان السفيران الغاليان على اتصالٍ سري بشيشرون يعملان معه بالاتفاق.

في صبيحة اليوم التالي دعا شيشرون المجلس للانعقاد في هيكل (الكونكورد) وهناك قرأ الرسائل واستجوب المخبرين وزاد (يونيوس سيلانوس Junius Silanus) قائلاً ان عدة اشخاص سمعوا (كثيگوس) يعد بقتل ثلاثة قناصل واربعة پريتورين وعقبه (پيزو) وهو قنصل سابق ليشهد بعدة امورٍ من هذا النوع. فأرسل (كايوس سولپيميوس Caius Sulpici-us) احد الپريتورين الى منزل (كثيگوس) لاجراء التفتيش فعثر فيه على كمية من الحراب والدروع ومقدار من السيوف والخناجر شحذت نصالها مؤخراً. واخيراً قرر المجلس العفو عن الكروتوني لادلائه باعتراف كامل. وادين (لنتولوس) وعزل من منصب الپريتور الذي كان يشغله، فخلع ثوبه الموش بالارجوان في المجلس وارتدى ثوباً آخر اكثر لياقة بظرفه الحالي، وعهد به وبشركائه الحاضرين الى الپريتورين لوضعهم تحت الحجز القضائي الحر.

واقبل الليل وكانت جموع العامة في الخارج تنتظر، فخرج اليهم (شيشرون) واخبرهم بما تمّ، ثم ذهب الى منزل صديق وجارٍ له ملاصق، بحراسة الجمهور، لأن داره كانت مشغولة بالنساء بسبب قيامهن بالطقوس الدينية السرية والعبادة للالاهة التي يسميها الرومان (الصالحة)، والاغريق (المرأة الربة)، فتقدم اليها القرابين سنوياً في دار القنصل، بوساطة أمه او زوجه وبحضور العذارى الڤستالات.

دخل (شيشرون) منزل صديقه سراً وجلس وراح يقلب وجهات النظر في كيفية معاملة هؤلاء الرجال. كان متردداً خائفاً بعض الشيء من انزال العقوبة الرادعة الوحيدة بمرتكبي تلك الجرائم الشنعاء. فضلاً عن ما طبع عليه من رحمة، وخشية الظن بانه صارم في ممارسة سلطته، قاسٍ في معاملة اناس هم من اشرف الناس مبيناً واقواهم علاقات في المدينة. ولو أنه عاملهم برفقٍ ولين لعرض نفسه الى خطر كبير في المستقبل. فلو حكم عليهم بما هو اخف من عقوبة الموت لاضطغنوا عليه وما غفروا ولا سامحوا، بل سيزيد على خبثهم سعاراً من الحقد جديداً، وسيندفعون الى ارتكاب كل جريرة متصورة. في حين سيظن بأنه وصل الى احط درجات الجبن وانه فقد رجولته – ولم تكن العامة ترتفع بشجاعته الى مستوى عالٍ اذ لم يشتهر بها عندهم.

وفيما كان شيشرون يضرب اخماساً باسداس حول السبيل الاقوام الذي يسلكه. حصلت معجزة للنسوة اثناء تقديهن القربان. فمن المذبح حيث بدت النار وكأنها خامدة تماماً، خرج لهب ساطع شديد من رماد الخشب المحترق. فساد الرعب النسوة، الاّ ان الڤستالات نادين (ترنتيا) زوج شيشرون وطلبن منها ان تسرع الى زوجها وتطلب منه تنفيذ ما استقر عليه رأيه لمصلحة بلاده. لأن الإلاهة ارسلت نوراً عظيماً لتزيد من سلامته وعزته، فأسرعت (ترنتيا) اليه، ولم تكن مطبعها رقيقة القلب ولا بالجزوع وانما امرأة جميعة الفراد (تفضل ان تحشر

نفسها في شؤون زوجها العامة على مسارته بامورها العائلية، كما يقول عنها شيشرون نفسه)، وانبأته بالمعجزة وراحت تحرضه على المتآمرين، وايدها في ذلك شقيقه (كونيتوس)، و(پوبليوس نيگيديوس Publius Nigidius) احد اصدقائه المتفلسفين الذي شيشرون كان يعتمد كثيراً على ارائه في اهم امور الدولة واخطرها.

في اليوم التالي ثارت المناقشة في المجلس حول العقوبة التي ينبغي انزالها بهؤلاء. وكان (سيلانوس) اول من ادلى برأيه فرأى ان يرسلوا الى السجن جميعاً حيث تطبق عليهم اشدّ عقوبةٍ واتفق معه كل من عقبه حتى حان دور (كايوس قيصر) الذي اصبح فيما بعد دكتاتوراً. وكان وقتذاك شاباً في مطلع حياته السياسية، إلاّ انه كان قد اختط لنفسه منذ البداية اهدافاً تمكنه من تغيير الدولة الرومانية وقلبها الى ملكية. ولم يكن هذا واضحاً لأعين الآخرين في حينه، إلاّ ان شيشرون وجد اسباباً تدعو الى الشكّ القوي في نياته دون ان تتوفر له الادلة الكافية. في الواقع هناك بعض من يقول ان أمره افتضح وكان هلاكه على قاب قوسين. ويرى آخرون ان شيشرون تعمد التغاضي عن الأدلة المتضافرة عليه خوفاً من اصدقائه ومن نفوذه المتعاظم اذ كان واضحاً لكل امرء أن قيصر لواتهم مع المتآمرين لكان احتمال نجاتهم معه اكثر من احتمال عقابه.

عندما حان دور (قيصر) للادلاء برأيه نهض واقترح بأن يعدل المجلس عن فكرة الحكم عليهم بالموت، ووافق على مصادرة املاكهم واحتجازهم في مدنٍ بايطاليا يعينها شيشرون، يبقون فيها حتى يتمّ القاء القبض على (كاتيلينه). وبما ان هذا الحكم كان أخف الأحكام المقترحة ولأن مقترحه كان اقوى الخطباء فقد انزله شيشرون منزلة من الاهتمام ليست بالقليلة، فنهض ورجح كفة الميزان الأخرى بانحيازه الى جانب الاقتراح لأول مرة، والى جانب اقتراح قيصر مرة أخرى. وقد وجد اصدقاء شيشرون في انتقال شيشرون بين الاقتراحين امراً حسنا لأنه سينال اقلّ اللوم ان لم يقض على المتآمرين بالموت. ولذلك لم يختاروا حكم الموت وما لبث (سيلانوس) ان عدل عن رأيه وسحب اقتراحه قائلاً انه لم يقصد الحكم بالموت بل قصد اقصى العقوبة. وهي الحبس للشيخ الروماني وكان (كاتالوس لوطاطيوس Catalus Lutatius) اول المتكلمين بشجب اقتراح قيصر وعقبه (كاتو) واشار بحماسة شديدة الى الشكّ القوي الذي يحوم حول (قيصر) نفسه وملأ الشيوخ غيظاً وعزماً فصوتوا بالاغلبية على مرسوم يقضي بتنفيذ حكم الموت بالمتآمرين. إلاّ ان قيصر عاد الآن يعارض في قرار المصادرة، وقال انه لا يرى من العدالة في شيء، أن يفيد من اقسى الحكم اولئك الذين اخف جزءٍ مما اقترحه هو عن حكم. وعندما عارضه الكثيرون استنجد بالتريبونين فاسقط في يد هؤلاء ايضاً. الى ان رضخ شيشرون ووافق فالغي هذا الجزء من العقوبة.

بعد هذا خرج شيشرون مع اعضاء المجلس لمواجهة المتآمرين ولم يكونوا في موضع واحدٍ، اذ كانوا موزعين على البريتورين وكان (لنتولوس) المحجوز في البالاتين اول من اخذ. جاء به عن طريق الشارع المقدس الى وسط الساحة العامة تحيط به حلقة من المواطنين البارزين لحمايته. وارتعد الناس لما يفعله وكانوا يمرون به صامتين لاسيما الشبان منهم حتى جعلهم الخوف والرهبة أشبه بمن يتقبل مراسيم التكريس للاسرار المقدسة العتيقة. ذات القوى الضخمة. ثم اجتاز الساحة العامة حتى وصل السجن. وسلم (لنتولوس) للضابط الآمر وأمره بتنفيذ حكم الموت. ثم اشفعه بـ(كثيگوس) والباقين اذ كان يأتي بهم واحداً بعد الآخر ويسلمهم للمكلفين بتنفيذ الحكم. وشاهد عدداً كبيراً من الضالعين في المؤآمرة مازالوا واقفين في الساحة العامة على شكل جماعات وكتل جاهلين بما حدث ومنتظرين موعدهم الليلي متوهمين بان زعماءهم مازالوا احياء او من المحتمل أنهم انقذوا. وعندئذٍ صاح (شيشرون) بصوت جهوري:

- إنهم لأحياء يرزقون! (وهذا التعبير يستخدمه الرومان للإشارة الى الموتى تطيراً واجتنابا للشؤم).

وعندما ترك الساحة العامة قاصداً منزله، كان الليل قد جَنَّ، ولم يعد الناس يسيرون في ركابه بنظام وصمت وانما راحوا يستقبلونه بالهتاف والتهليل وهو يمرّ بهم، ويحيونه بوصفه منقذاً ودعامةً للبلاد، وسطعت الانوار باهرة في الشوارع من المصابيح والمشاعل المعلقة على ابواب المنازل. وخرجت النسوة الى إسطح بيوتهن يحملن الضياء تكريماً له ولمشاهدته عائداً الى بيته تحف به بطانة رائعة من ابرز واشرف المواطنين، ومن بينهم الكثير الذين خاضوا حروباً عظيمة ونالوا امتياز مواكب النصر واضافوا مساحات الى الامبراطورية الرومانية براً وبحراً. واقرّ هؤلاء فيما بينهم اثناء سيرهم أن الشعب الروماني المدين لعدد من القادة والضباط العظام بهذا العصر الذهبي عصر الغنائم والثروة والعزة والمتعة. يجب ان يكون مدينا (لشيشرون) وحده بسلامة كل هذا، بانقاذهم من الخطر الاعظم الذي حوّم فوق رؤوسهم. ان احباط المؤامرة ومعاقبة المتآمرين ليس بالشيء الفريد في بابه. الاّ أن سحق اكبر الرؤوس المتآمرة باقل ما يمكن من الاضطراب والفوض هو المعجزة الكبرى فاغلبية الذين التفوا حول (كاتيلينه) انفضوا من حوله حال سماعهم بالمصير الذي آل اليه (لنتولوس وكثيگوس) وهاجم (شيشرون) الفلول الباقية من اتباعه وتم القضاء غليها وعليه.

على ان هناك ّمن يفتري على شيشرون وينتقص اعماله هذه وعلى رأسهم اولئك الذين خلفوه في دست الحكم مباشرة كـ(قيصر) الذي كان واحداً من البريتورين، والتريبيونين:

متيللوس (وبستيا Bestia). هؤلاء تسلموا مناصبهم قبل ان تنتهي فترة قنصلية (شيشرون) بأيام قلائل. فلم يسمحوا له بالتوجه بخطبة عمومية بهذه المناسبة. وانما القوا المقاعد امام الروسترا ومنعوه من الكلام قائلين:

- لك ان شئت، أن تحلف يميناً بين الانسحاب من المنصب القنصلي ثم تنزل الى تحت ثانية.

فرضي (شيشرون) وتقدم لتأدية اليمين، فران صمت عام، وتلا قسمه ولكن ليس بالطريقة المألوفة، بل بشكل جديد غريب. اذ ذكر فيه انه انقذ بلاده وحفظ الامبراطورية. وايد الشعب هذا القسم باقسامهم. ونفذ صبر قيصر والتريبيونين منه واقترحوا اصدار مرسوم باستدعاء (پومپي) الى روما على رأس جيشه كيما يضع حداً لاستعلاء (شيشرون). وكان من حسن حظ شيشرون والجمهورية، ولفائدتهما الكبرى ان (كاتو) في ذلك الحين كان متقلداً منصب (التريبيون). ومع أن سلطته مساوية لسلطة زملائه الآخرين، إلاّ انه كان يفوقهم سمعةً ومكانةً، ويملك القوة لمعارضة ارادتهم. فكان يسهل عليه إحباطها. وفي خطاب جماهيري له، اغدق على فترة قنصلية (شيشرون) آيات المديح والثناء وانزلها منازل التعظيم والتكريم، حتى اعلن الشعب رسمياً منحه لقب «ابي البلاد» فكان اول من حصل على هذا اللقب، حينما اقترحه (كاتو) في خطبته.

وبات يتمتع باعظم سلطان في المدينة، إلاّ أن ذلك خلق له كثيراً من الحسّاد، كما انه اسخط العدد الكبير لا لسوء اعماله بل لدوام الاعتداد بنفسه والتمجيد لذاته. لا يجتمع مجلس شيوخ ولا جمعية عامة ولا مجلس قضاء الاّ وتجده يتكلم عن (كاتيلينه ولنتولوس). وفي الواقع انه ملأ كتبه ومدوناته بمدح شخصه الى الحَدّ الذي أحال اسلوبه الرائع الخلاّب، كلاماً مملاً مقرفاً في اذن السامع. وكان طبعه الأناني مثل المرض المزمن فيه. ولكن مع عزامه المفرط بتمجيد نفسه فقد كان بعيداً كل البعد عن حسد الآخرين، والعكس هو الصحيح، فلطالما اغرق واطنب في الثناء على الاقدمين والمعاصرين كما شهدت بذلك كتاباته، ويذكر الآن بعض اقوال له مأثورة، منها رأيه في ارسطو قال عنه: «انه نهر من عسجد» وقال في محاورات افلاطون «لو أن جوبتر تكلمّ، فستكون لغته لغة تلك المحاورات» واعتاد القول عن (ثيوفراستس) «إنه ترفي الشخصي» وعندما سئل اي خطبة من خطب ديموستينس احبّ اليه، اجاب «اطولها». على ان بعض مقلدي ديموستينس المتأثرين به، شكوا من عبارات وردت في احدى رسائله قوله «ان ديموستينس كان أحيانا يردح في اغفاءة اثناء القائه» ونسوا المدح الذي كان يغرقه به والتكريم الذي خصّه به، حين سمّى ادق خطبه واحكمها، تلك التي كتبها ضدّ (انطوني) بـ(الفيليپيات) واما عن مشاهير فلاسفة عصره وخطبائه، فليس فيهم الاّ وقد

زاد مديحه له من مكانته او شهرته، سواء بكتابته او باحاديثه عنهم. فقد نال من (قيصر) عند توليه السلطة، الجنسية الرومانية (لقراطيبوس Cratippus) الفيلسوف المشائي (الأرسطي)، واصدر مرسوماً حمل المجلس الاريوباغى على طلب بقائه في آثينا لتعليم الشباب فيها، وليبقى وجوده شرفاً تتمتع به المدينة ومازال ثم رسائل منه الى (هيرودس Herodus)، واخرى لابنه يوصى فيها بأخذ الفلسفة عن هذا الفيلسوف. ولديه رسالة يؤنب فيها (گورجياس Gorgias) البليغ لأنه اغرى ابنه بالشراب والترف وحظر عليه صحبته. هذه الرسالة ورسالة أخرى وجهها الى (پيلوپس Pelops) البيزنطي هما الرسالتان الوحيدتان من بين الرسائل اليونانية التي كتبها في ساعة غيظ على ما يبدو. كان في الأولى محقاً بمهاجمة (گورجياس) إن صدق ما أثر عنه من فجور وتهتك. اما الثانية فقد كانت شكوى وتعنيفاً دنيئاً، لأن پيلوپس لم يهتم باستصدار مرسوم تكريم له من البيزنطيين.

واليك صورة أخرى لاعتداده بنفسه واعزامه بالثناء، تبدو احيانا ملفقةً للنظر بخروجها عن اللياقة ونبذها الوقار جانباً: القاها دفاعاً عن (موناتيوس) فانقذه من الإدانة. فأسرع المبرأ باتهام صديقه (سابينوس Sabinus) في الحال فثار غضب شيشرون وقال في فورة من الحنق.

- اتظن انك برئت لأنك تستحق البراءة يا موناتيوس، أو الستُ انا الذي سوّدت القضية بحيث عجزت المحكمة عن رؤية جريمتك؟

والقى من الروسترا تقريظاً بحق (ماركوس كراسوس) نال كثيراً من الاستحسان. وبعدها بايام قليلة راح يقدح في الذات نفسها علناً. فقصده (كراسوس) معاتباً بقوله:

- الم تمدحني انت بنفسك قبل يومين من هذا الموضع بالذات؟

فاجاب شيشرون:

- اجل كنت امرّن بلاغتي بخطبةٍ في موضوع سيّء.

وكان (كراسوس) قد قال في احدى المناسبات بأنه لم يوجد من اسرته من أناف على الستين، وما لبث أن رجع عن ذلك وتساءل مستنكراً:

- لا ادري ماالذي حملني على هذا القول.

فاجاب (شيشرون):

- لكي تفوز بعطف الجمهور. فانت تعرف كم يطربهم سماع ذلك!

وعندما ابدى (كراسوس) اعجابه بالحكمة الرواقية «الرجل الصالح هو غنيّ دائماً» قال شيشرون:

- ألا تعني «ان كل الاشياء هي ملك للعاقل؟» (كان كراسوس معروفاً بالجشع)

وكان لكراسوس هذا ابن له شبه عجيب برجل يدعى (اكسيوس Axius) حتى ان الشك كان يحوم حول عفة الأم. القى هذا الابن خطبة ناجحة في مجلس الشيوخ، فسئل شيشرون عن رأيه فيها فاجاب باليونانية

- اكسيوس كراسّو Axius Crassow

وفيما كان (كراسوس) يتهيأ للرحيل الى سوريا، كره أن يترك (شيشرون) خصما. فسلمّ عليه ذات يوم وقال له انه سيزوره تلك الليلة ويتعشى عنده، فأحسن شيشرون استقباله واحتفى به. وبعد ايام قليلة توسط احد معارف شيشرون (ڤاتينيوس Vatinius) وانهى اليه رغبته في التصافي والصداقة وقد كان بينهما جفوة وقطيعة انذاك فاجاب شيشرون:

- ماذا؟ ايريد ڤاتينيوس ايضاً أن يتعشى عندي؟

ذلك هو اسلوب معاملته لكراسوس.

وعندما كان ڤاتينيوس يترافع امامه في قضيته، وهو يشكو من اورام في رقبته، لقبّه «بالخطيب المتورّم». واخبره احدهم مرةً بأن (ڤانتينيوس) هذا قد قضى نحبه، ثم جاء من ابلغه توا بأنه مازال حياً يرزق فقال:

- الا فليهلك الوغد، فان انباءه ليست بصحيحة!

وتقدم (قيصر) بمشروع قانون لتوزيع اراضي كامپانيا على الجنود معارض فيه كثير من الشيوخ ومن بينهم (لوچيوس غيلليوس Lucius Gellius) وهو من اكبر الشيوخ سنا في المجلس فقد صرح ان القانون المقترح لن يمرّ من المجلس مادام هو حياً فقال شيشرون:

- فلنؤجله اذن، ان غيليوس لا يطلب منا الانتظار طويلاً.

وكان ثم شخصٌ يدعي (اوكتاڤيوس) يعتقد انه اغريقي الأصل. شكا هذا من انه لا يسمع شيشرون عندما كان هذا يترافع فقال معقباً:

- مع ان في اذنيك ثقوباً!

وقال له (ميتيللوس نيپوس Metellus Nepus) بكرة بأن ما احدثه من دمارٍ كشاهدٍ، اكثر مما انقذ كحاكم فعقب شيشرون على هذا بقوله:

- اقرّ بأني املك من الصدق اكثر مما املك من الفصاحة.

وكان جوابه لشاب شك في انه أعطى والده كعكعة مسمومة وكان يتبجح دائماً بأنه ينوي ان يؤلف رسالة قدحٍ بحق شيشرون.

- هذا خير من كعكعتك.

واوكل (پوبليوس سكستيوس Publius Sextius) شيشرون للدفاع عنه مع محامين آخرين في قضية. الاّ انه كان يرغب في يتولى هو قول كل شيء دفاعاً عن نفسه ولم يكن يفسح مجالاً لأحدٍ من محاميه بالكلام عنه. وعندما كان ينتظر قرار البراءة من القضاة المجتمعين للمداولة صاح به شيشرون قائلاً:

- عجلّ (يا سكستيوس) عجل واستغلّ وقتك، فغداً ستضحى نكرة من النكرات!

وطلب (پوبليوس كوتّا Publius Cotta) للشهادة في احدى القضايا وكان يريد ان يلقي في روع الناس بأنه محام مع جهله وبعده عن العلم والثقافة وعندما قال في شهادته انه لا يعرف شيئاً عن المسألة قال شيشرون:

- لعلك حسبتَ اننا نسألك عن نقطة قانونية!

ووقع نزاع بينه وبين (ميتيللوس نيپوس) فأخذ خصمه هذا يردد عدة مرات.

- ومن كان ابوك يا شيشرون؟

فاجاب:

-.لقد جَعَلتْ امُّك الجوابَ على مثل هذا السؤال فيما يتعلق بك انت، اكثر صعوبة! (كانت امّ نيپوس سيئة السمعة)

وكان ابن (نيپوس) هذا متقلب الاهواء، غير مستقّر على رأي فمرةً تخلىّ فجأة عن منصب التريبيون وابحر الى سورية ملتحقاً بپومپي، ولم يستقرّ به المقام هناك، بل عاد حالاً بدون سبب كما رحل بدون سبب واقام لمعلمه فيلاغروس Philagrus خبارةً تزيد عما يناسب مقامه وما يحتمّ عليه الواجب ثم بنى نصباً حجرياً فوق قبره، فيه تمثال غراب. فقال له شيشرون

- ذلك مناسبٌ حقاً، مادام لم يعلمك الكلام، بل على الطيران هنا وهناك!

وعندما افتتح (ماركوس اپيوس) دفاعه امام احد المجالس القضائية قائلا ان صديقه طلب منه المثابرة والبلاغة والاخلاص في قضيته، قال شيشرون:

- وكيف طاوعك قلبك أن تهمل كل طلبٍ من طلباته؟

قد يبدو استعمال هذه النكتة الحادة ضد الخصوم والاعداء في المرافعات القضائية من قبيل

البلاغة المسموح بها. على انه آثار كثيراً من الشعور بالسخط والاستياء لحضور بديهته في مهاجمة اي شخصٍ على سبيل التفكهة لا غير. ودونك قليلاً من الحكايات المماثلة:

كان (الماركوس اكوينيوس Marcus Aquinius ختنان مبعدان في احد المنافي. ولذلك لقبه بالملك إدراستوس Adrastus).

وكان (لوچيوس كوتا) مغرما بشرب الخمر من دون اعتدال وكان (چنصوراً) ايام تقدم شيشرون مرشحاً نفسه للمنصب القنصلي. وفي اثناء اجراء الانتخابات عطش شيشرون فطلب ماء وفيما هو يتناوله واصحابه يحيطون به، قال لهم:

- انتم محقون في تخوفكم. فقد يغضب الچنصور منيّ لشربي الماء القراح.

وفي احد الأيام، لقي (ڤوكونيوس Voconius) مع بناته الثلاث القبيحات، فتمثل بالبيت:

«لقد أنسل جيلاً دون اذن من اپوللو!».

وقرأ (ماركوس غيليوس) عدة رسائل في مجلس الشيوخ بصوتٍ حادٍ ثاقب جداً - وكان المعروف عنه انه ابن عَبْد سابق - فقال شيشرون معلقاً:

- لا عجب، فقد انحدر من صلبِ مُنادين.

كان (فارستوس سللاّ) ابناً لسللا الدكتاتور الذي عمد الى اهدار الحقوق المدنية لكثير من المواطنين وادانتهم وقتلهم. بددّ هذا الابن ثروته، وغرق في الديون حتى لجأ اخر الأمر الى نشر بيانات بيع املاك للتسديد، فقال له شيشرون انه يحبّ هذه البيانات اكثر مما يجب بيانات ابيه.

بهذه العادة كان يبدو مكروها لكثير من الناس وتآمر عليه حزب (كلوديوس) بالشكل التالي:

كان (كلوديوس) ينحدر من اسرة نبيلة؛ وهو شاب في زهرة العمر، ذو نفس وثابة وارادة قوية. وقع في هوى امرأة (قيصر) ودخل سراً منزلها متنكراً بزيّ فتاة عازفة. وكانت النسوة آنذاك منشغلات بتقدمة قرابينهن واداء طقوسهن التي لا يسمح للرجال بحضورها، فلم يكن احد من الرجال موجوداً. ولما كان (كلوديوس) أمرد لم يطر شاربه فقد توقع الاجتماع بـ(پومپيا) دون ان يفطن اليه النسوة المجتمعات. ولكنه دخل البيت الكبير في الليل فضل سبيله بين المماشي، ولقيته وصيفة (اوريليا) ام (قيصر) وهو يمشي على غير هدى فاستوقفته وسألته عن اسمه فاضطر الى الجواب وقال انه يبحث عن (ابرا) احدى وصائف (پومپيا) ففضحه صوته الغليظ وصرخت الوصيفة مستنجدة بالنساء فقمن باغلاق الابواب واخذن

يفتشن كل موضع من الدار حتى وجدن (كلوديوس) مختبئا في غرفة الوصيفة التي ادخلته الدار. ولما انطلقت الشائعات الكثيرة عن هذه الحادثة عمد (قيصر) الى تطليق زوجه ورفعت دعوى عامة على (كلوديوس) لتدنيسه الشعائر الدينية.

في ذلك الوقت كان (شيشرون) على صلة ودّ وصداقة بـ(كلوديوس) وقد كان له عوناً وسنداً وتميزّ بعنفه وحماسته في مناصرته. وركز دفاعه في المحكمة، بنفي وجوده في روما يوم الحادث وقال انه كان بعيداً عنها في الريف، لكن (شيشرون) تقدم للشهادة، فشهد بأن (كلوديوس) جاء الى بيته زائراً في ذلك اليوم بالذات وحادثه في شؤون مختلفة. وكانت شهادته صحيحة، لكن المظنون أن الدافع الذي حفزه للشهادة لم يكن مجرد استجلاء حقيقة، قدر ما كان يقصد منها مهادنة زوجه (ترتنيا) وارضاءها. فقد كانت تحقد على كلوديوس بسبب (اخته) كلوديا التي حاولت التزوج من (شيشرون) على ما قيل - واتخذت (تللوس Tullus) احد اخلص اصدقائه وسيطاً في ذلك الامر وثارت شكوك (ترنتيا) بكثرة زياراته لكلوديا التي كانت جارة لهما، وغاظها الاهتمام الكثير الذي يحيطها به. وكانت ترنتيا عصبية حادة المزاج. ولدالتها وسلطانها على زوجها فقد دفعته الى الشهادة نكاية (بكلوديوس). وتقدم فضلاً عن شيشرون عدد كبير من افاضل المواطنين واكثرهم استقامة للشهادة عليه بحلفه يمينا كاذبة، وباعمال الفوض، والرشوة، واغتصاب الحرائر. واثبت (لوكوللوس) عن طريق خادمات منزله، بأن المتهم واقع اخته الصغرى وهي زوج لوكوللوس. وساد الاعتقاد بأنه اقدم على الفعل نفسه مع اختيه الأخريين ترتيا Tertia التي تزوجها (مارچيوس ريكس Marcius Rex) وكلوديا التي بنى بها (ميتيللوس چيلير Metellus Celes) وكانت تلقب كوادرنتيا Quadrantia. لأن أحد عشاقها خدعها باعطائها صرّة تحوي نقوداً نحاسية صغيرة القيمة بدلاً من الفضّة، ويطلق على أصغر مسكوكة نحاسية «كوادرانت». وعن طريق سيرة هذه الأخت بصورة خاصة تكالبت المطاعن باخلاق كلوديوس. الاّ ان كل ذلك لم يجد فتيلاً فقد اتفقت كلمة العامة ضد الشهود ومحركي الاتهام ومن والاهم. فدب الخوف في نفوس القضاة ووضعت حراسة عليهم لدرء اي اعتداء او تحرش بهم. وكتب معظمهم رأيه على اللوح بشكل غامض يتعذر منهم المقصود منه. وعلى أية حال وجدت الأغلبية انه غير مذنب. وذكر أن الرشوة كانت ذات اثرٍ فعال في الحكم وعلق (كاتالوس) على ذلك بقوله للقضاة: .

- كنتم مصيبين جداً بطلبكم حرساً. كيما تحولوا دون عملية سلب نقودكم.

وعندما عاتبه (كلوديوس) قائلاً ان القضاة لم يقتنعوا بصحة شهادته، اجاب:

- أجل، لقد صدقني خمسة وعشرون فادانوك اما الثلاثون الآخرون فلم يصدقوك، لأنهم لم يخلوا سبيلك الاّ بعد أن تسلموا مالك.

ومع ان (قيصر) دعي للشهادة، فانه لم يدل بشيء ضده، وقال انه لا يعتقد بارتكاب زوجه فعل الزنى وهو ما طلقها الاّ لأنه لا يكفي لبيت (قيصر) أن يكون طاهراً من الرجّس، بل منزهاً عن الشائعات ايضاً.

بعد ان سلم جلد (كلوديوس) من هذا المأزق، ونال منصب (التريبيون) بادر الى مهاجمة (شيشرون) مؤلباً عليه الناس كافة، ووصمه بكلّ ما يسيء الى سمعته، وكان قد كسب ثقة العامة بقوانين شعبية، وافلح في استصدار مراسيم بتقليد كل قنصل حاكمية اقليم فكانت (مقدونيا) من نصيب (پيسو Piso) وسورية من نصيب (گابينيوس Gabinius) والف لنفسه حزباً قوياً من المواطنين المعوزين لمساندة اجراءاته. ولم يكن يُرى الاّ وحوله جماعة من الصبية المسُلحين. في ذلك الحين كان ثلاثه يتمتعون باكبر السلطان في روما: (كراسوس) خصم شيشرون علناً و(پومپي) صديق كليهما دونما تفضيل. و(قيصر) الذي يتهيأ للرحيل الى بلاد الغال على رأس جيش. قصد (شيشرون) ثالثهم وطلب منه ان يقبله مساعداً في حكم الاقليم الذي عين له، فلم يبد قيصر تمنعاً وادرك (كلوديوس) ان شيشرون سيفلت من يده ويمتنع عن سلطته التريبيونية بهذه الوسيلة، فراح يشيع بين الناس انه يميل الى المصالحة والتصافي، ويعزو ما حصل بينهما من عداء الى (ترنتيا) واخذ يذكره بالخير والطيب دوماً، ويتوجه اليه بارق العبارات كأنه افرغ من قلبه الحقد والضغن ويتوجه بالعتب عليه بلهجة ودودة رقيقة، فبدء بهذه المظاهر المصطنعة فخدع شيشرون حتى حمله على الاعتذار (لقيصر) عن قبول الوظيفة، وعاد الى معترك الحياة السياسية ثانية، فاحنق (قيصر) عليه، ولأجل ذلك انحاز الى جانب (كلوديوس) ضدّه، وعمل على قطع كلّ الاسباب ما بينه وبين (پومپي). واعلن أيضاً في الجمعية العامة بأنه لا يعتقد ان (كثيگوس ولنتولوس) يستحقان الموت قانوناً وعدلاً اذ لم تجر محاكمتهما. وكان هذا الاتهام الذي وجه الى (شيشرون) واستدعي للجواب عنه. فابدل ثوبه واهمل هيئة وخرج اشعث الشعر مسترسله يستجدي عطف الشعب، كايّ متهم. الاّ ان (كلوديوس) كان يعترضه في كل منعطف وخلفه عصابة من المشاكسين الوقحين يسخرون منه ويعيرونه برثاثة ثيابه وذلته. وكثيراً ما قطعوا عليه ضراعاته الى الناس بقذفه بالحجارة والاقذار.

بادرت طبقة الفرسان الرومان برمتها الى تغيير ثيابها تضامناً معه في اول الأمر، وكان يسير خلفه ما لايقل عن عشرين الفاً من الشباب بشعرهم الا شعث المسترسل، ضارعين معه

الى الشعب واجتمع مجلس الشيوخ واصدر امراً بأن يغير كل افراد الشعب ثيابهم كما هي العادة في مناسبات الحداد الرسمية. والحزن العام الا ان القنصلين عارضا في القرار وطوق (كلوديوس) مجلس الشيوخ برجاله المسلحين فخرج عدد كبير من الشيوخ وهم يصيحون ويمزقون ثيابهم الاّ ان منظرهم هذا لم يثر الخجل او الشفقة. وكان على شيشرون بعد هذا، أن يختار بين الفرار او تحكيم السيف بينه وبين كلوديوس، ورجا من (پومپي) ان يخفّ لنصرته وكان (پومپي) قد تعمّد الابتعاد وسافر الى بيته الريفي في مرتفعات (ألبان Alban) ومكث هناك. وارسل (شيشرون) اولاً ختنه (پيزو) للتوسط اليه ثم قصده هو بالذات، ولما ابلغ (پومپي) بقدومه توارى وتسلل من باب آخر متحاشياً مقابلته. لخجله، واستذكاره الصراعات العديدة التي خاضها (شيشرون) في سبيله والفوائد التي جناها من سياسته، الاّ انه اصبح الآن ختن (قيصر) وهذا ما منعه عن نصرته. ولما وجد شيشرون ان (پومپي) تخلىّ عنه وتركه وحيداً بلا نصير، التجأ الى القنصلين، فاغلظ (غابينيوس) له القول كالعادة، الاّ ان (بيزو) كان اكثر لطفاً ومجاملة ونصحه بالرضوخ للأمر الواقع وارخاء العبان لإعصار (كلوديوس) حينا من الزمن، وأن يركن الى الهدؤ انتطاراً لتبدل الحال فيكون منقذاً لوطنه من اخطار هذه الاضطرابات والفوضى التي ينشرها (كلوديوس) كما أنقذه في الماضي، بعد هذا انقلب الى اصدقائه يطلب رأيهم. فنصحه (لوكوللوس) بالبقاء وقال انه واثق بفوزه اخيراً. واشار عليه آخرون بالفرار، مؤكدين أن الشعب لن يلبث ان يفتقده عندما يبشم من جنون (كلوديوس) وهياجه، فوافق على الرأي الثاني وبادر اولاً فحمل تمثالاً لمينرڤا كان في داره منذ زمن طويل بموضع تكريم، الى الكاپتول واوقفه عليه بعد ان نقش عليه العبارة التالية:

«الى مينرڤا شفيعة روما».

وزوده اصدقاؤه برافقين فترك المدينة في حدود متنصف الليل وسافر براً عبر لاقونيا قاصداً صقلية. وما ان انتشر نبأ فراره، حتى اقترح (كلوديوس) على الشعب مرسوما يقضي بنفيه. واصدر هو امراً شخصياً حرم عليه فيه «الماء والنار». وحظر على اي شخصٍ ضمن مسافة خمسمائة ميل في ايطاليا أن يأويه في داره. الاّ ان معظم الناس لم يأبهوا لهذا البيان احتراماً (لشيشرون) وبذلوا له كل رعاية ورافقوه في طريقه. الاّ شخصاً واحداً يدعى (ڤيبيوس Vibi-us) وهو صقلي كان شيشرون قد شمله بالالطاف الكثيرة منها انه عينه رئيساً لمهندسي الدولة ايام كان قنصلاً. فقد ابى على شيشرون دخول بيته عند وصوله هيپّونيوم Hipponium وهي مدينة لوقانية تعرف اليوم باسم (ڤيبو Vibo). وارسل من يعلمه بأنه سيخصص له مسكنا في الريف. وامّا (كايوس ڤرجيلوس Caius Vergelius) پريتور صقلية، الذي كانت

تربط فيما بينهما اوثق علاقات الصداقة فقد كتب اليه، يزين له العدول عن النزول الى صقلية، ازاء هذا كله لم يسع (شيشرون) الاّ ان يتوجه الى (برنديزيوم) وهو مثقل بالهم، خائر العزيمة. واقلع في ريح موآتية ما لبثت أن انقلبت الى اعصار عات مضادٍ يهبّ من جهة البحر، فدفع بالسفينه من حيث اتت وقذف بها الى ساحل ايطاليا في اليوم الثاني. ثم انه اقلع مرةً ثانيةً ووصل (دراكيوم) وعند نزوله اليابسة وقع زلزال وهزّة بحرية في الوقت عينه كما قيل، وتلك ظواهر فسرّها السحرة بأن نفيه لن يطول كثيراً، وما حصل هو بشائر التغيير. وقصده الكثير احتفاء به. وتنافست مدن الاغريق على تكريمه. الاّ انه بقي مع ذلك حزين النفس منكسر الخاطر كعاشق ولهان تنكرّ له الحظ، وكثيراً ما كان يرنو الى جهة ايطاليا متشوقاً. في الواقع لم يتصور أحد أن تبلغ الذلة والشعور بالمهانة ما بلغت بهذا الرجل الذي اوقف جانباً كبيراً من حياته على الدرس والعلم. لقد اعتاد الطلب من اصدقائه بأن يلقبوه بالخطيب، بله بالفيلسوف فقد كانت الفلسفة عليه غالبة، ولم يتخذ البلاغة الاّ مرقاة الى العمل السياسي. على أن للرأي العام قوى عظيمة في ازالة صبغة الفلسفة من نفوس الرجال تلك التي خلفها الدرس والعقل كما يقال. وبقوة الاعتياد والتماس الدائم بامكانه أن يطبع نزعات الدهماء ومشاعرهم في نفوس الساسة. الا اذا كان المرء شديد الحذر منتبها الى انه عند التصدي لشيء عام، فعليه ان يهتم للمشاكل نفسها لا للعواطف الناشئة عنها.

بعد أن نجح (كلوديوس) في ابعاد شيشرون بهذه الشكل. انقض على مغانيه وحقوله ثم منزله في المدينة واعمل فيها حرقاً وتدميراً وبنى على ارض المنزل هيكلاً لربّة الحرية. وعرض بقية املاكه للبيع بالمزاد العلني يومياً فلم يتقدم لها شارٍ. بهذه الوسائل وطد سلطانه وهابه الاشراف وتعلقت به العامة بعد أن فتح لهم ابواب التسيبً والوقاحة على مصاريعها وجرأهم على النظام العام. أخيراً راح يجرب سلطانه ضدّ (پومپي) فهاجم بعض اجراءاته التي اقدم عليها في البلاد المفتوحة. فلم يسع (پومپي) الاّ الشعور بثقل العار لجبنه وراح يلوم نفسه على التخلي عن (شيشرون) وتبدلت افكاره فجأة فأخذ يعمل جاهداً مع اصدقائه لاعادة (شيشرون). ولما عارض (كلوديوس) في ذلك اتخذ مجلس الشيوخ قراراً بالتصويت، بقضي بالامتناع عن مصادقة اي اجراء رسمي او الأمر بتنفيذه الاّ بعد عودة (شيشرون) لكن الشحناء والنزاع على هذا الأمر تفاقم عندما تولى (لنتولوس) المنصب القنصلي، فحصل اشتباك نجم عنه اصابة التريبيونات بجراح في الفورم، وترك (كوينتوس) شقيق (شيشرون) ملقى بين القتلى دون ان يفطن احد الى انه بين القتال. وبدأ التغيير يظهر في عواطف الشعب وكان (آنيوس ميلو Annius Milo) احد تريبيوناته اول من ملك الشجاعة لاستدعاء

(كلوديوس) الى المحاكمة عن اعمال العنف التي اقترفها. وتحزب عدد كبير من عامة سكان المدن المجاورة الى (پومپي) وشدوا ازره عندما ذهبوا معه فطردوا (كلوديوس) من الفورم واستدعي الشعب ليدلي باصواته حول عودة (شيشرون) وقيل إن الشعب قر على امر يجمع كما اجمع هذه المرة. ورغب المجلس ايضاً في منافسة الشعب بعواطفه فبعث برسائل شكر الى تلك المدن التي استضافت المنفيَّ واحتفت به ايام ابعاده. واصدر مرسوماً يقضي باعادة بناء داره ومرابعه الريفية التي دمرها (كلوديوس) على نفقة الدولة.

هكذا عاد شيشرون بعد ستة عشر شهراً من نفيه، وعمت المدن الفرحة وبلغت لهفة الناس لرؤيته حداً كبيراً، حتى ان ما قيل على سبيل الفخر ان ايطاليا عادت به الى روما محمولاً على اكتافها هو قول لا يوازي الحقيقة. وكراسوس نفسه الذي عرف بعداوة له قبل نفيه، خرج لاستقباله بملء الرغبة وتصالحا. لأنه «اراد أن يفرح ابنه (پوبليوس) احد المعجبين المغالين بشيشرون» على حَدّ قوله!

ولم يلبث (شيشرون) في روما الاّ قليلاً وانتهز فرصة غياب (كلوديوس) فقصد الكاپتول مع جمع كبير، ومزق وكسر الالواح التريبيونة التي سجلت عليها انجازات (كلوديوس). وعندما وجه اليه هذا استجواباً عن الدافع الذي حمله على هذا العمل اجاب (شيشرون) انه فاز بمنصب (التريبيون) خلافاً للقانون لكونه پاتريشيا، فكل ما انجزه والحالة هذه، باطلٌ لا قيمة له. وقد ساء ذلك (كاتو) وعارض (شيشرون) لاحّبا بكلوديوس الذي لم تكن تصرفاته موضع رضاه، بل محتجاً بأن تصويت المجلس على عدم قانونية تلك الانظمة والاوامر والمراسيم ومن ضمنها تعيينه هو نفسه لمهمتي قبرص وبيزنطيوم، يتسم بطابع النزق والطيش فضلا عن مجافاته للقانون. وهذا ما احدث الجفوة بين (كاتو) و(شيشرون). لم تبلغ مبلغ العداء السافر وانما شاب صداقتهما برود كبير.

بعد هذا قام (ميلو) بقتل (كلوديوس) فاحيل الى القضاء فوكل (شيشرون) للدفاع عنه، وخشي مجلس الشيوخ أن استنطاق شخصٍ ذي جرأة ومكانة مثل (ميلو) قد ينجم عنه اضطراب في حبل الأمن. فاناط بـ(پومپي) أمر الاشراف على النظام في المدينة اثناء هذه المحاكمة والمحاكمات الأخرى وأن يتولى الاشراف على الانضباط في دور القضاء ايضاً، فعمد (پومپي) ليلاً الى احتلال المرتفعات فيما حولها، وضرب نطاقاً من الجنود حول الفورم وخاف (ميلو) من تأثير هذا المشهد غير المألوف على شيشرون فيضطرب ويسيء الدفاع عنه. لذلك اقنعه بأن يأتي الى الفورم محمولاً في محفة وان يبقى فيها حتى تنتظم الجلسة ويكمل نصاب القضاة وتمتليء القاعة. ويبدو من هذا أن (شيشرون) كان يفتقر الى الشجاعة الأدبية فضلاً

عن الشجاعة الحربية. فبدأ دفاعه بشيء من التردد والتلعثم. ولازمته الرعشة في البداية. وفي كثير من خطبه لا تتركه الرجفة الا نادراً، حتى عندما يدخل في صلب الموضوع ويبلغ جوهر خطابه فمثلاً دفاعه عن (لوچينيوس مورنيا) في قضيته اتهمه بها كاتو كان محامي خصمه (هورتنسيوس) قد دبج خطبةً نالت استحساناً عظيماً. وكان شيشرون قد امضى الليلة مؤرقاً يتناهبه قلق الطموح الى التغلب عليه. فانهدت قواه بفعل الأرق، ولم تعدّ خطبته من المستوى الذي اثر عنه. فبعد ان هبط من المحفّة لمباشرة قضية (ميلو) لاحت منه التفاتة الى (پومپي) وهو يحتل مواضعه بعسكره فوق المرتفعات وخطف انظاره بريق الاسلحة اينما التفت حواليه في الفورم. فاعتراه الخوف، وارتج عليه في الأول، لأن جسمه كان يرتعش، ولسانه يتلجلج. في حين كان (ميلو) المتهم، ثبت الجنان رابط الجأش في كل تصرفاته. فقد أنف من ارسال شعره، او ارتداء ثياب الحداد، على نحو ما يفعل المتهمون، وكان هذا السبب الرئيس لادانته على ما يبدو. واما عن (شيشرون) فقد قيل أنه ما اظهر من الخوف والحرص على نفسه، كان اكثر مما اظهر من قلق وحرص على صديقه.

وعين (شيشرون) كاهنا من المرتبة التي يطلق عليها الرومان اسم (اوگور Augur) مخلفاً (كراسوس) الأصغر الذي قضى نحبه في بلاد الپارثيين. وعين بالقرعة حاكماً لاقليم (كيليكيا) وابحر متجها الى مقر حكمه على رأس اثني عشر الف راجلٍ والفين وستمائة من الفرسان وكان قد زوّد باوامر تقضي باخضاع كبدوكيا لملكها (آريوبارزانيس Ariobar-zanes) وقد انجز المهمة على افضل ما يمكن دون اللجوء الى استعمال السلاح. وادرك بان الكيليكين يبيتون ثورةً على اثر الفشل الذي مني به الرومان في بلاد الپارثيين، وبعدما حصل في سورية من الاضطرابات والمشاكل. فعمد الى تهدئتهم وكسب ودهم واخلاصهم باتباعه اللين والعدل. ورفض الهدايا التي كان يقدمها له الملوك. والغى الضرائب والرسوم التي تجبى من الأهلين عن الملاهي والحفلات العامة وكان يستقبل في داره يومياً رجال العلم والثقافة اللامعين في الاقليم ويبالغ في اكرامهم، ولكن بصورة خلت من مظاهر البذخ والترف. ولم يكن يقف حارس امام بابه، ولم يقصده أحد ويراه متكئاً على سريره. اذ كان يستيقظ عند الفجر ويقف امام باب منزله، او يتمشى الى جواره، مستقبلاً كل قادم للسلام عليه والسؤال عنه، وقيل انه لم يأمر قط بجلد أحدٍ من مرؤوسيه بالعصي او بنزع ردائه، ولم يتلفظ قط بكلمة بذيئة في سورة من غضب او انفعال ولم يوقع عقوبة تجرح كرامةً او تصيب عزة النفس. ووجد أن اموالاً طائلة قد اختلست من الخزينة العامة فاهتمّ بان تستعيد المدن استقرارها المالي وفي الوقت نفسه لم يوقع عقوبة باولئك الذين سددوا ماختلسوه وانما تركهم يحتفظون بحقوق

المواطنة. واشتبك ايضاً في حروبٍ وهزم قطاع الطرق الذين كانوا يعيشون سلباً ونهباً في جبل (أمانوس) فحيّاه جيشه بلقب (امبراطور) وكتب الى (كوچيليوس Coecilius)[٢] الخطيب الذي طلب منه عدداً من فهود كيليكا لعرضها في ملعب روما. وفي نوبة من نوبات تمجيد النفس لما حققه كتب يقول أنه لافهود بعد في كيليكيا فقد هربت جميعها الى كاريا سخطاً واستياء لانها أمست المخلوقات الوحيدة التي تهاجم في حين ان الجميع ينعم بالسلام والاستقرار.

وعند مغادرته الأقليم توقف في (رودس) وكان جدّ سعيد لقضاء بعض الوقت في آثينا، حيث كان يحتفظ لها باجمل الذكريات للأيام التي قضاها هناك في الماضي. والتقى البارزين في كل فرع من فروع العلم والثقافة واستقبل اصدقاءه ورفاقه القدامى. وبعد ان قوبل في اليونان بما يستحق من التكريم قفل الى روما فوجدها على حدّ قولنا - في اولى مراحل الحميّ التي تمخضت بالحرب الأهلية.

وفي مجلس الشيوخ عندما هَمّ الاعضاء الاصدقاء بالتصويت على منحه موكب نصر، قال انه يفضل ان يمشي وراء عجلة نصر (قيصر) لو أن المسائل سويت بصورة مرضية. وكتب في السر عدة رسائل الى (قيصر) ناصحاً وقابل (پومپي) شخصياً عدة مرات باذلاً جهده لتهدئة الطرفين، ومناشداً كليهما تحكيم العقل. لكن الشق اتسع ولم يعد بالامكان معالجة الأمر وتقدم قيصر من روما وپومپي لا يجرأ على البقاء فيها، بل تركها مع كثير من افاضل المواطنين. الاّ ان (شيشرون) لم يغادرها. وكان المقول عنه انه من اشياع (قيصر) على انه في الحقيقة كان مذبذباً موزع الرأي لايدري الى اي طرف ينحاز فقد كتب في رسائله يقول:

«الى اي طرف ينبغي لي أن اتوجه؟ لپومپي اسبابه العادلة المشرفة لشنّ الحرب. الاّ ان قيصر هو احسن تصرفاً في ادارته واقدر على وقاية نفسه واصدقائه. لهذا فانا اعلم ممن سأهرب والى من يجب أهرب» لكن عندما اشار اليه تريبانيوس Terbanius احد اصدقاء (قيصر) بقوله أن (قيصر) يرى أن ينحاز الى صفه ويشاركه في مستقبله وهو افضل السبل له، لكن اذا وجد سنه لا تسمح له بمعاناة المتاعب فبامكانه الرحيل الى بلاد اليونان والعيش هناك بهدوء بعيداً عن الفريقين المختصمين. وادرك (شيشرون) العجب من (قيصر) لأنه لم يكتب له شخصياً.

وردّ بغضب قائلاً: انه لن يقدم على عملٍ يشين ماضيه. وهذا ما يمكن استنتاجه من رسائله؛

---

(٢) في نسخة أخرى Caelius.

وما ان زحف (قيصر) على اسپانيا حتى ابحر للانضمام الى معسكر (پومپي) ورحبّ به الجميع خلا (كاتو) الذي انتحى به جانباً واخذ يؤنبه على مجيئه قائلاً انه ارتكب خطأ كبيراً في الانضمام الى (پومپي). وقال عن نفسه: اما انا فمرتبط بكلمة شرف أن لا اتخلى عن الخط السياسي العام الذي سرت عليه منذ البداية، الاّ انك قد تكون اكثر فائدة لبلادك واصدقائك لو بقيت في الوطن، دون ان تنحاز الى فريق، وأن تكيف نفسك للاحداث عندما تعرف ماذا ستكون النتيجة.

امّا الآن فقد جعلت نفسك عدواً لقيصر دون ضرورة ولا سبب وجيه، وجئت هناك للتعرف الى هذه الاخطار العظيمة التي تهددنا جميعاً.»

اقلقت هذه العبارات واثرت على عقله، كما احزنه ايضاً ان (پومپي) لم يعتمد عليه في مهمات كبيرة، وهو الملوم بهذا لأنه ما انفك يعلن عن اسفه لمجيئه، وينتقص من تدابير (پومپي) العسكرية وينتقد خططه من وراء ظهره دائماً. ولم يكن يتورع عن القاء النوادر والملح سخرية من رفاقه في السلاح. ومع انه كان في الواقع يتجول في انحاء المعسكر بوجه عبوس وملامح كئيبة الاّ انه كان يحاول دوماً التسرية عن الآخرين ودفعهم الى الضحك بنكاته رغم انفهم. والأمر يستأهل منا ايراد بعض الامثلة:

فضّل (دوميتيوس) للقيادة شخصاً غير عسكري، وبررّ تفضيله بأنه انسان متواضع، واسع الفهم والبصيرة. فقال شيشرون:

- فلم لا تعينّه معلماً لأولادك اذن؟[٣]

وسمع مدحاً بـ(بثيوفانس) اللسبي رئيس سلاح الهندسة في الجيش، للطريقة الفذة التي اتبعها في تعزيتهم على خسارة اسطولهم فقال:

- انها لرحمة في الواقع أن يكون في القيادة اغريقي!

وعندما كان (قيصر) يتابع نجاحاً اثر نجاح وقد كاد ان يطوق پومپي كان (لنتولوس) يذيع ابناء تفيد بأن اصدقاء (قيصر) قد هبطت معنوياتهم وثبطت هممهم فقال شيشرون معقباً:

- ذلك لأنهم لايتمنون الخير لقيصر ولايريدون ان ينتصر.

وقال للمدعو (مارچيوس) الذي قدم مؤخراً من ايطاليا واخبرهم بانتشار اشاعة قوية في روما، تقول ان پومپي قد ضرب عليه الحصار:

- ولهذا ركبت البحر الى هنا انك تشاهد الأمر بأم عينك!

---

(٣) في نسخة: «لماذا لا تعينه معلماً؟»

وراح (ننيوس Nnius) يشجعهم بعد احدى الهزائم ويطلب منهم ان لا يقطنوا ولا يفقدوا الأمل فما زال في معسكر پومپي نسور سبعة. فقال شيشرون:

- نصيحة ممتازة! لو كنّا نحارب الزّاغ ليس إلاّ.

وظلّ يشددً (لابينوس Labienus) على اهمية بعض النبؤات التي اشارت الى ان (پومپي) سينتصر فقال شيشرون

- بالضبط فانها نعم الستراتيجية تلك التي ادت بنا الى خسارتنا معسكرنا الآن.

بعد معركة (فرساليا) التي لم يحضرها (شيشرون) لوعكة ألمت به وماتلاها من فرار (پومپي)، بقي تحت امرة (كاتو) قوات كبيرة واسطول ضخم في (دراكيوم) فرغب في تسليم القيادة لشيشرون بمقتض القانون وبحسب الاقدمية في المنصب القنصلي ولما رفض ذلك وابى مشاركتهم في تصميمهم على مواصلة الحرب، تعرضت حياته الى خطر عظيم وكاد يقتل ووصمه پومپي الأبن واصدقاؤه بالخيانة وجردوا سيوفهم وسدودها الى صدره، فتدخل (كاتو) وانقذه بشق الانفس، ثم اخرجه من المعسكر. فاستقل البحر ووصل الى (برنديزيوم) وتأخر فيها بعض الوقت وتنظراً (قيصر) الذي كانت مشاغله في آسيا وقصر قد أخرته. ولما انبئ بأنه وصل (تارنتوم) وانه منطلق الى برنديزيوم براً، أسرع اليه، ولم يكن فاقد الأمل كليةً بالنتيجة، الاّ انه كان يشعر بالخجل لاضطراره الى جسّ ردود فعلٍ عدوٍ وفاتح امام عدد كبيرٍ من الشهود. ولم يكن في الواقع حاجة به البتة ليقول او يفعل اي شيء غير لائق به ولمحه قيصر مقبلاً يتقدم الجماعة بمسافةٍ، فنزل لاستقباله حالاً، وحيّاه وافسح له وهما سائران يتحدثان لوحدهما - مسافة فرلنگ واحدٍ. ومنذ ذلك الحين وهو يعامله باكرام واحترام حتى انه لما كتب (شيشرون) خطبه في مدح (كاتو) انتهز (قيصر) مناسبة الردّ عليه. ليمدح حياة شيشرون وبلاغته مقارنا اياه ببركليس و(ثيرامينس Theranenes) وكان عنوان رسالة الأول (كاتو) وعنوان رسالة الثاني (ضدّ كاتو).

وروي كذلك، إن (كوينتوس ليگاريوس Quintus Ligarius) احيل الى المحاكمة لأنه رفع السلاح ضدّ (قيصر) فقبل شيشرون مهمة الدفاع عنه. فقال (قيصر) لاصدقائه

- ولم لا نسمع خطبة لشيشرون بعد مرور هذا الوقت الطويل؟ واما عن (ليگاريوس) فكلنا يعلم منذ زمن طويل انه مجرمٌ وعدو.

ولكن لما بدأ (شيشرون) يتكلم بدت كلماته مثيرة للعواطف بصورة لا تصدق. وما ان مضى في دفاعه شرطاً متنقلاً من عاطفة الى أخرى بلغة ساحرة آسرة حتى اخذت آلوان

(قيصر) تفرّ وتقبل وكان واضحا أن كلّ عاطفة فيه قد تحركت وجاشت به. وأخيراً عندما تطرق الخطيب الى معركة فرساليا[٤] وصل تأثره منتهاه، وراح جسده يتهزّ وسقطت بعض الاوراق من يده. وهكذا غلب على أمره وبرأ (ليگاريوس).

ومنذئذ انقلبت الجمهورية الى حكم الفرد المطلق، انسحب (شيشرون) من الحياة العامة وطلق السياسة وراح يمضي اوقات فراغه في تعليم الفلسفة لقصّاوه من الشبان. وكانوا كلهم يتحدرون من ارقى واشرف الأسر الرومانية وهو مدين بصورة رئيسة لهذه العلاقة الحميمة في عودته الى معترك الحياة السياسة واستعادته نفوذه العظيم في روما، وانشغل ايضاً في كتابه وترجمة المحاورات الفلسفية، ونحت تعابير ومصطلحات لاتينية لمختلف الكلمات المستخدمة في المنطق والعلوم الطبيعية. ويقولون بأنه كان اولّ من أوجد الاسماء اللاتينية لهذه التعابير:

Phantastia, Syncatathesis, eporhe, Catalepsis, atamon, ameres, Kenon.

وسلسلة في اللسان اللاتيني اماً بطريق الاستعارة، او بايجاد مصطلحات جديدة مقاربة لها. وعلى سبيل التسلية عالج ايضاً نظم القريض، وقيل انه اذا عكف عليه، خرج في اليوم التالي وقد نظم خمسمائة سطر في ليلة واحدة. وقضى الشطر الاكبر من حياته في مفناه الريفي بـ(توسكولوم Tusculum) وكتب لاصدقائه قائلاً انه يحيا حياة (ليرتس Laertes) إما على سبيل المزاح كما هي عادته، أو تعبيراً عن طموحه ورغبته في المساهمة بالشؤون العامة التي جعلته غير راض عن الاوضاع السائدة وقتذاك. وقلما كان يأتي الى روما؛ واذ غشيها فللتسليم على (قيصر)، وكان على رأس من اعتاد أن يقترحوا ضروب التكريم له، ويحاولون دائماً اختراع تعابير مديح له نفسه او لأعماله فمثلاً هناك تعليق له على تماثيل (پومپي) فقد تمّ رفعها ونقلها من مواضعها، الاّ ان قيصر أمر باعادتها إلى امكنتها؛ وعندما اقيمت قال شيشرون: ان (قيصر) بعلمه الكريم لم ينصب تماثيل (پومپي) فحسب وانما ثبت تماثيله نفسه تثبيتاً راسخاً.

وقيل أنه فكر في كتابة تاريخ بلاده؛ مضيفاً اليه جزءً كبيراً من تاريخ الاغريق ومضمنا اياه كل الحكايات والأساطير الغابرة التي وقف عليها وتولى جمعها. الاّ أن مختلف الاحداث العامة والخاصّة المؤسفة والمصائب التي كان معظمها من عمله ونتيجة اخطائه، حالت بينه وبين تحقيق هذه الأمنية. فبالدرجة الأولى طلق زوجه (ترنتيا)، متعللاً بأنها اهملته اثناء الحرب، وتركته يسافر وهو خالي الوفاض لا يملك ما يقيم به اوده في رحلته، وزعم انه لم يجد لديها عطفاً وحنانا عند عودته الى ايطاليا اذ انها لم تلحق به في (برنديزيوم) طول بقائه.

---

(٤) فرسالوس أيضاً بالرومانية.

وانها لم تهيء لبنتهما الصغيرة التي قطعت هذه الرحلة الطويلة اليه، مايليق بمثيلاتها من رفقةٍ ومالٍ كاف لنفقات السفر، فضلاً عن كونها خلفت له منزلاً خالياً عاريا عن الأثاث وورطته في ديون كبيرة. وهذه بالتاكيد اكثر الاسباب وجاهة للطلاق. لكن (ترنتيا) التي تنكر كل هذه المزاعم تتمسك باقوى دفاعٍ زوّدها به هو نفسه. اذ لم يمرّ وقت طويل على طلاقها، حتى تزوج باكراً صغيرة السن وقع اسير جمالها وهذا ما جعل حجتّها اقرب الى التصديق، وعلى أن عتيقه (تيرو Tiro) يقول أنه اقدم على هذه الزيجة ليتخلص من ديونه، لأن الفتاة كانت في غاية الغنى. وكان (شيشرون) قد نصّب قيماً على اموالها ووصياً عليها. ولما كان مدينا بمبالغ طائلة فقد نصحه اصدقاؤه واقرباؤه بالزواج منها بغض النظر عن الفارق الكبير بين عمريهما، واستخدام مالها لايفاء دائنيه حقوقهم.

ونوه (انطوني) بهذه الزيجة في ردّه على «فيليپياته» ووجه اليه التأنيب الشديد عائباً عليه طلاقه امرأة عاشت معه حتى مرحلة الشيخوخة، واضاف بعض اللمحات الساخرة الطريقة حول مزاج شيشرون البيتي، وعقم تصرفاته وبعدها عن طباع المحارب. وبعد فترة قصيرة من زواجه توفيت بنته و(توليا) زوج (لنتولوس) وهي على فراش الوضع، وكانت من قبل زوجاً لـ(پيزو) الذي مات وتركها فترملّت. فتقاطر الفلاسفة وذوو العلم من كل صوب لتعزيته، وكان حزنه عليها شديداً جداً، حتى انه طلق زوجه الجديدة لأنها اظهرت السرور لموتها.

هذا ما كانت عليه احوال (شيشرون) المنزلية آنذاك. لم يشارك (شيشرون) في التكتل الذي كان يتخذ شكله ضدّ (قيصر) مع انه كان من اقرب اصدقاء (بروتوس) وموضع سرّه، واحد الذين يشكون بألمٍ ماآلت اليه الاحوال السياسية، ويرغبون في عودة نظام الحكم السالف. الاّ ان المتآمرين كان يتخوفون من جبنه، ويحسبون حساب شيخوخته والشيخوخة تجعل اجرأ الناس، جباناً هياباً.

وبعد ان نفذ (بروتوس) و(كاسيوس) والباقون خطتهم، تجمع أصدقاء (قيصر) ضدهم وخيف من حرب اهلية ثانية تبتلى بها روما. وفي هذه اللحظة الحرجة دعا (انطوني) وكان قنصلاً - مجلس الشيوخ للانعقاد والقى كلمةً قصيرة حول اجلال الوئام والتصافي واجراء المصالحة الوطنية، وتبعه (شيشرون) بخطبةٍ مطولة تناسب المقام، وحمل المجلس على احتذاء حذو الآثينيين بالتصويت على قانون العفو العام عن كل من ساهم في قتل (قيصر) وان يعطى كلا من (بروتوس وكاسيوس) حكم اقليم. ولكن لم ينفذ ايّ من هذين القرارين. ذلك لأن الجمهور كان يعطف على (قيصر) على كل حالٍ فعندما شاهد الجمهور جثته محمولة خلال (الفوروم) وعندما انشأ (انطوني) يعرض ثيابه الدامية التي مزقتها طعنات السيوف اجتاحته

سورة من الغضب وهاج هائجه، وانطلقوا في اثر القتله وتوجهوا الى منازلهم وبايديهم المشاعل لاحراقها الاّ ان المتآمرين انذروا بما ينتظرهم فاستبقوا الخطر وبادروا الى ترك المدينة حفظاً لحياتهم.

وبرز (انطوني) فجأة كالنجم الثاقب. واصبح سيد الموقف الذي لا يقف امامه شيء. وبات القلق يغزو نفوس الجميع - من ان يعمد الى التفرد بالحكم المطلق. وكان شيشرون اكثر الناس توجساً من هذا. و(انطوني) كان من الجهة الثانية يحذر من عودة نفوذ شيشرون وتعاظمه ومن العلاقة الحميمة التي تربطه (ببروتوس) لذلك صار يتضايق من وجوده في المدينة. اضف الى هذا، التحاسد الذي نشأ بينهما من تنافر طبيعي في اخلاقهما. وخاف (شيشرون) سوء العاقبة وفكر في النزوح الى سورية معاوناً (لدولابللا) الاّ ان القنصلين المنتخبين (هرتيوس Hertius) و(پانسا Pansa) اللذين كانا سيخلفان (انطوني) رجياه بالبقاء وتعهدا بسحق نفود خصمه ان بقي في روما ظهيراً لهما. وكانا شخصين طيبين وصديقين له، فصدقهما الى الحدّ الذي قرر البقاء ولم يكن واثقاً منهما كل الثقة. وذهب دولابللا وحده. واتفق مع القنصلين ان يقضي الصيف في آثينا وان يغد عندما يتوليا سلطانهما القنصلية. فسافر وحده الاّ ان بعض التأخير طرأ على رحلته وكما يحدث غالباً فقد وردت انباء جديدة له من روما؛ فقد قيل ان هناك تغييراً عجيباً طرأ على سلوك (انطوني)، وان كلّ اعماله وسياسته تبدو وكأنها تتجه الى ارضاء مجلس الشيوخ، وان كلّ ما يلزم في الوقت الحاضر هو عودته لتستقيم الأوضاع على افضل الاسس من الاستقرار. فلام نفسه لافراطه في الحذر وقفل راجعاً الى روما، ولم يخب ظنه في اولى توقعاته؛ فقد اجتمعت حشود هائلة من الناس لاستقباله حتى ان التحايا وخطب الترحيب في ابواب المدينة وفي اثناء دخوله اليها استغرقت يوماً كاملاً تقريباً.

في صباح اليوم التالي دعا (انطوني) المجلس للانعقاد، وطلب حضور (شيشرون) الاّ انه اعتذر بوعكة مرضية الزمته الفراش، ولم يحضر. على ان سبب تخلفه الحقيقي عن الحضور هو الخوف على ما يبدو من دسيسةٍ دبرت له إما لشك ساوره، او لمعلومات وصلته وهو في طريقه الى روما. فاظهر (أنطوني) استياءً عظيماً وشعر بالاهانة وتوعده بارسال جنود لجلبه بالقوة او لاحراق بيته، الاّ ان اناساً كثيرين توسطوا في الأمر ورجوه ان لا يفعل شيئاً من هذا القبيل فقنع بقبول ضمانات من (شيشرون) على حسن سلوكه. وبعد هذا كان يتجاهل احدهما الأخر عندما يلتقيان. وبقي كلاهما على هذه الحال يحاذر أحدها من الآخر حتى جاء (قيصر) الأصغر من (ابولونيا Apollonia) وهو اول ورثة (قيصر). فبدأ النزاع بينه وبين (انطوني حول خمسة وعشرين مليون درهم كان انطوني قد احتجزها من التركة.

ونتيجة لهذا قدم (فيلپس Philippus) زوج ام (قيصر) الشاب ومارچللوس زوج اخته مع الشاب نفسه الى (شيشرون) واتفقوا معه على ان يضع بلاغته ونفوذه السياسي عند المجلس وعامة الشعب تحت تصرفهما، وان يتولى (قيصر) الشاب امر الدفاع عن شيشرون بنفوذه المالي، وبما هو تحت امرته من القوات الكبيرة التي خدمت تحت لواء (قيصر) الاكبر. وكان من المعتقد بوجود سبب آخر اقوى من هذه الأسباب، حمل (شيشرون) على قبول صداقة (قيصر)؟ في ايام حياة (پومپي) و(قيصر) يبدو ان شيشرون رأى حلماً مؤداه أنه كان يدعو بعض ابناء الشيوخ لدخول الكاپتول لأن (چوبتر) كان يريد أن يختار واحداً منهم لحكم روما. وجاء المواطنون مسرعين بكلّ شوقٍ ووقفوا حول الهيكل، والفتيان جالسون في اوشحتهم الموشاة بالارجوان وكأن الطير على رؤوسهم، ثم فتحت الأبواب فجأة واصطف الفتية واحداً بعد الآخر، وطفقوا يمرون امام الاله بكلّ انتظام وهو يستعرضهم ويتفحصهم، ثم انه اخذ يصرفهم تباعاً وكلهم أسف، حتى وصل (قيصر) الفتى امام الربّ، فمدّ اليه چوبتر يده وقال:

- ايها الرومان، عندما يصبح هذا الفتى سيد روما؛ سيوضع حدٌ نهائي للحرب الأهلية.

قيل ان (شيشرون) رأى هذا الحلم ومنه كون لنفسه صورة واضحة المعالم لملامح الشاب، بقيت منطبعة في ذهنه وان كان يجهل شخصياً. وفي اليوم الذي تلا ليله الحلم، التقى وهو في طريقه الى (مخيم مارتيوس Campus Martius) بالفتيان وهم عائدون من العابهم الجمنازيّة، يتقدم الفتى الذي رآه في الحلم فادركه العجب وسأله عن اصله وفصله فبتين له انه (قيصر) الشاب، الذي لم يكن ابوه (اوكتافيوس) معروفاً، وان امّه هي (آتيا Attia) بنت اخت قيصر. ولهذا السبب تبناه (قيصر) الذي لم يعقب، وجعله في وصيته وارثاً لاملاكه ومنزله. ومنذ ذلك الحين كان شيشرون - على ما قيل - يراقب الشاب بكل اهتمام كلما صادفه، وكان الفتى يقلل اهتمام شيشرون بلطف ويرحب بعطفه. وقد شاء آله الحظّ ان يولد الفتى عندما كان شيشرون قنصلاً.

ومع أن هذه الأسباب هي التي أثرت عن نشوء العلاقة بين الرجلين. الاّ أن الدافع الحقيقي الذي جعل شيشرون ظهيرا للفتى هو اولاً بغضه لانطوني. وثانياً طبعه الذي كان يدفعه دوماً الى الشهرة والبروز. فتصور بأنه يضيف قوة (قيصر) الى نفوذه السياسي. والفتى كان يجسّم له هذه الفكرة الى الحدّ الذي صار يناديه «بيابت» وهو ما اغضب (بروتوس) الى حد كبير فكتب في رسائله الى (اتيكوس Atticus) مهاجماً شيشرون بقوله: «من الجليّ ان توده الى قيصر خوفاً من انطوني، لم يكن يستهدف به حرية بلاده وانما كان يخطب ودّ طاغية، ليكون عطوفاً على شخصه ليس الاّ». ومع هذا، فان (بروتوس) احتضن ابن (شيشرون) الذي كان

يدرس الفلسفة في آثينا، وسلمّه قيادة عسكرية واستخدمه في عدد من المهمات الناجحة.

في تلك الفترة بلغت سطوة (شيشرون) أوجها في المدينة. فكان يعمل ما يشاء وما يهوى، استظهر وتغلب على (انطوني) وطرده، وارسل القنصلين (هرتيوس) و(پانسا) على رأس جيش للقضاء عليه. كذلك حمل المجلس على أن يسمح (القيصر) بالحرس اللكتوري، وشعار البريتور بوصفه يحارب دفاعاً عن بلاده. وبعد أن هزم (انطوني) في معركة سقط فيها القنصلان قتيلين، اتحد الجيشان تحت راية (قيصر). فخاف المجلس من العاقبة وتهوّل حظه العجيب، وحاولوا بالجوائز وضروب التكريم سحب الجيش منه وتحديد سلطانه متعللين بأن الجيش لم يعد وجوده ضرورياً بعد دحر انطوني. وهذا ما كان يخشاه (قيصر) فارسل بعض اصدقائه الى (شيشرون) سِراً ليرجوه ويقنعوه بالسعي للفوز بالمنصب القنصلي لهما معاً. وقال انه لن يزاحمه في السلطة العليا، وسيدعه يتصرف بشؤون الدولة كما يشاء، فحسبه الأسم والشهرة لا غير. وقد اعترف (قيصر) نفسه في ما بعد أنه استخدم حبّ شيشرون للسلطة بدافع الضرورة الملحّة لأنه كان يخشى أن تسرح جنوده او ان يجد نفسه معزولاً. فوعده بالمساعدة والمساندة في الانتخاب واقنعه بالترشيح للمنصب القنصلي.

وهنا استسلم شيشرون بالتأكيد؛ لكلمات شاب خادعة وهو في عمره المتقدم، وسمح لنفسه أن يسقط في الفخ. فساعد (قيصر) في الانتخابات. وكسب له رضا مجلس الشيوخ. ولاجل هذا لامه اصدقاؤه في حينه، ثم سرعان ما ادرك هو بأنه الحق الدمار بنفسه، وخان بلاده في حريتها. اذ ما ان استتب الأمر للفتى وتولى وظيفة القنصل حتى ودّع شيشرون وداعاً أخيراً وتصالح مع (انطوني) و(ليپيدوس Lepidus) ووحدوا قواهم وقسموا الحكومة فيما بينهم كأنها قطعة أرض. ثم نظموا قائمة بمائتي شخص قرروا القضاء عليهم بالموت. الاّ أن معظم الخلاف الذي ساد مناقشاتهم كان موضوع شيشرون، فانطوني يأبى كل اتفاقٍ الاّ اذا ادرج اسم شيشرون في رأس القائمة. و(ليپيدوس) متفق مع انطوني في هذا. وقيصر يعارض الاثنين. وقيل أن قيصر ظلّ يومين كاملين وهو مصر على استنقاذ شيشرون الاّ أنه استسلم في اليوم الثالث وتخلى عنه وكانت مواد اتفاقهما هي الآتية:

يتخلى قيصر عن (شيشرون)، ويتخلى (ليپيدوس) عن أخيه (پاولوس) ويتخلى انطوني عن خاله (لوچيوس قيصر). وهكذا تخلى الثلاثة عن كل مشاعر واعتبارات انسانية مفسحين المجال لاحقادهم ومطامعهم وبذلك برهنوا ان ليس ثم حيوان اشد وحشية من فصيلة البشر عندما تتسلح عواطفه بالقوة. لقد توصل الثلاثة الى هذا الاتفاق بعد اجتماع دام ثلاثة ايام كاملة في بقعة قريبة من بلدة (بونونيا) يحيط بها النهر ولا تبعد كثيراً عن المعسكر.

كان (شيشرون) اثناء هذا كله، في مفناه الريفي قرب (تسكولوم) وكان معه اخوه وهناك سمعوا ببيان اهدار الحقوق. فقررا الرحيل الى (استورا Astura) وهي مربع ليشيشرون على ساحل البحر، ومن هناك يركبان سفينة تقلهما الى مقدونيا حيث (بروتوس) معسكر هناك بقوات كبيرة كما تواترت الانباء عنه. فانطلقا معاً، كلٌ في محفّة وقد اثقل الحزن قلبيهما. وكثيراً ما كان يقفان وتوضع المحفةّ الى جانب المحفة ويعزي احدهما الآخر ويهون عليه.

وكان (كوينتوس) اكثرهما هَمّا وترحاً. وبدء يفكر في بؤسه وقال أنه لم يتزود بشيء من المال، ولم يكن عند (شيشرون) ايضاً ما يكفي لنفقات الرحلة. فارتأى (كوينتوس) أن يواصل شيشرون هروبه وان يعجل هو بالانضمام اليه بعد أن يتزود من منزله بما هو ضروري. ذلك هو السبيل الذي اتفقا عليه، فاعتنقاً وافترقا وهما يبكيان.

لم تمرّ ايام قلائل على هذا حتى وقع (كوينتوس) ضحية غدر خدمه، فقد افشوا سِرّه لمطارديه فادركوه وقتلوه مع ابنه الصغير. على ان (شيشرون) بلغ (استورا) فوجدت سفينته فصعد اليها في الحال، ومخرت به العباب بريح طيبة حتى (چيركسيوم). ومن هناك اراد الملاحون الاقلاع رأساً الاّ ان شيشرون فضل النزول منها اما خوفاً من هياج البحر او لأنه لم يفقد تماماً ثقته بقيصر وعاد متجها صوب روما وقطع حوالي مائة فرلنگ، ثم ادركه الخوف ثانية فغير رأيه وقفل راجعا الى البحر. وقضى ليله على الساحل تتناهبه المخاوف والافكار السوداء؛ فمرة يقرر التسلل سراً الى بيت (قيصر) نفسه على حجرة المذبح المنزلي، ليجلب لعنة السماء عليه. الاّ ان الخوف من التعذيب، جعله يعدل عن هذه الخطة. وهكذا بعد أن قلب في رأسه مختلف المشاريع المضطربة، والاراء المتناقضة، أمر خدمه بالذهاب به الى (كايتيا Caietia)(٥) وهنا كان لديه عقار ومنزل لطيف جداً للاصطياف عندما تكون الريح الإتسية Etisian على أرقها. يوجد في هذا الموضع مزار لاپوللو لا يبعد كثيرا عن ساحل البحر ومنه هبّ سرب من الغربان محلقاً في الفضاء بضجة عظيمة، واتجه الى سفينة (شيشرون) وهي في طريقها الى اليابسة. فحط على خشبة الصاري، فريق منه ينعق وفريق ينقر رؤوس الحبال، فتطير الجميع من هذا، ونزل شيشرون الى اليابسة ثانية ودخل منزله واستلقى على فراشه ليصيب بعض راحةٍ ويهدئ من خواطره واستقر عدد من الغربان على النافذه واخذت تنعق نعيقاً مقبضاً للصدر. وحطّ غراب منها على الفراش حيث شيشرون مستلق تحت الاغطية. وراح ينقرها ويسحبها حتى ازاح الغطاء عن وجهه. وعندما رأى الخدم هذا، اخذوا يلومون انفسهم لوقوفهم موقف المتفرج منتظرين قتل سيدهم لا يفعلون شيئاً

---

(٥) في نسخة: كاپتيي Capitae.

للدفاع عنه. في حين هذه المخلوقات الحيوانية اقبلت لمساعدته والعناية به في بؤسه وسوء حظه. فاقبلوا عليه يتوسلون به حينا، ويرغمونه حينا، حتى حملوه بالمحفة الى ساحل البحر.

في تلك الاثناء ادركهم القتلة. ويقدمهم (هرنيوس Hernnius) قائد المائة، و(پوپيلليوس Popillius) وهو ضابط في الجيش كان شيشرون قد تولى الدفاع عنه عندما حوكم بتهمة قتله أباه. بلغوا المنزل فوجدوا ابوابه مقفلة. فكسروها ودخلوا وكان معهما مساعدون ولم يعثروا عليه، وانكر الموجودون في المنزل معرفتهم بمكانه وقيل لنا أن شاباً كان شيشرون قد لقنه العلوم العقلية والفنون يدعى (فيلولوگس Philologus)، وهو عتيق اخيه (كونتيوس)، بادر متطوعاً الى اخبار الضباط بأن المحفة تأخذ الآن سبيلها الى ساحل البحر خلال المماشي الضيقة الظليلة، فاخذ الضابط قبضةً من الرجال واسرع ينتظره في الموضوع الذي يخرج طريق من الغابة. ولمح (شيشرون) مطارده (هرنيوس) يعدو في المماشي. فأمر خدمه بانزال المحفة، وربت بيسراه على ذقنه واراحه عليها كما اعتاد ان يفعل وتطلع الى قاتليه بنظرةٍ ثابتة. وكان الغبار يعلوه، وقد ظهر الاهمال على شعر رأسه ولحيته، وبدا التعب والارهاق على وجهه. وحجب الواقفون وجوههم عندما تولى (هرنيوس) قتله بعد ان اخرج له عنقه من المحفة. وكان له من العمر اربعة وستون سنة. قطع (هرنيوس) رأسه، وبتوصية خاصّة من (انطوني) قطع ايضاً يديه اللتين دونتا الفيليپيات (اختار شيشرون هذا الاسم للخطب والمقالات التي كتبها ضدّ (انطوني) وظلت تعرف بهذا الاسم حتى يومنا هذا).

عندما جيء باعضاء شيشرون المبتورة الى روما كان (انطوني) في اجتماع معقودٍ لتنظيم انتخابٍ. فلما سمع بالنبأ وتطلع الى منظر الاطراف صاح:

– والآن فلنضع حداً «لاهدار الحقوق»

وأمر بأن يثبت الرأس واليدان من الروسترا. فوق كبش السفينة وهو موضع الخطابة في الفورم. وكان منظراً استنكره الرومان واشمأزوا منه. وبدا لهم وكأنهم يرون هناك لا وجه شيشرون بل صورة لنفس (انطوني) ومع هذا كله فقد اظهر (انطوني) لمحه واحدة من الشعور الطيب حين دفع بالواشي (فيلولوگس) الى ايدي پومپونيا Pomponia امرأة (كوينتوس). وما أصبح تحت رحمتها حتى راحت تنزل به انواعا من اهول العقوبات. منها أنها جعلته بقطع من لحمه اجزاءً اجزاء ويشويها ويأكلها. هذا ما رواه لنا بعض الكتاب الاّ ان (تيرو Tiro) عتيق شيشرون لم يأت الى ذكر شيء من غدر (فيلولوگس).

بعد مرور زمن طويل، كان (قيصر) يزور أحد ابناء بنته، فوجده يمسك بكتابٍ من كتب

شيشرون، حاول اخفاءه تحت طيات ثوبه خوفاً من جده، فلحظ (قيصر) ذلك وتناول الكتاب منه واخذ يقلب اوراقه وهو واقف، ثم اعاده اليه قائلاً:

- هذا يا صغيري، رجل عالمٌ ومحبٌ لوطنه.

هذه الرواية حكيت لي والعهدة على الراوي.

وبعد ذلك بقليل قضى (قيصر) على انطوني، وكان قنصلاً. وجعل ابن (شيشرون) زميلاً له في المنصب القنصلي، وفي عهد هذه القنصلية اصدر مجلس الشيوخ قراراً بانزال تماثيل انطوني كلها، ومحا كل آثار التكريم والتعظيم التي حبي بها ومنع ان يطلق اسم (ماركوس) على ابناء الاسرة التي ينتمي اليها. وبهذه الوسيلة اوكلت العناية الآلهية إلى اسرة شيشرون، باعمال القصاص الأخيرة من (انطوني).

١٩٧٢/٢/٨

المقارنة بين ديموستينس وشيشرون

دونا ما تيسرت لنا معرفته من سيرتي (ديموستينس) و(شيشرون) بظروفهما القمينة جداً بالتأمل. وان نحن تركنا جانب المقارنة الدقيقة ما بين مقدرتهما الخطابية، فيبدو لي ان هناك الكثير الذي يجب ان يقال في مجال المقارنة العامة.

فلأجل ان يتمكن ديموستينس من ناصية الكلام استخدم كل قواه، أطبيعية كانت ام مكتسبة، وسخرها جميعاً لهذه الغاية حتى سبق بقوة عارضته واندفاعه وتأثيره، كل معامريه سواء من جهة الموضوعات السياسية او القضائية التي طرقها، او من جهة العظمة والسمّو اللذين فاق بهما كل الخطباء المادحين والمؤبنين وفاق بالدقة والشمول العلمي كل بلغاء زمانه ومنطقييهم. وكان (شيشرون) عالي الكعب في الثقافة، بانكبابه المثابر على الدراسة. وبذلك بزّ الجميع في سائر فروع العلم وترك عدداً لا يحص من الرسائل الفلسفية بقلمه على المبادئ الاكاديمية. واننا لنراه في الواقع يحاول دائماً حتى في خطبه السياسية والقضائية ان يكشف عن طول باعه في العلوم وسعه اطلاعه. كانت خطب (ديموستينس) خالية من عنصر الفكاهة، صُيغت كلها صياغة جدية لغرض التأثير الحقيقي، لا يشم منها ريح المصباح كما يقول (پيثياس) هازلاً بل ريح الجد واصالة الرأى والاخلاص الهاديء المتزن، والصرامة وكل ما يعبرّ عن مزاجه الطبيعي. في حين كان تعلق (شيشرون) بالنكته وولعه بالسخرية، كثيراً ما ينحدر به الى الاسفاف والبذاءة وكان حبّه في اتخاذ المناظرات الجدية في القضايا القانونية مادة للهزل، وولعه بارجاء الملاحظات الظريفة لمنفعة موكليه، يجعله غير حافلٍ قطٍ بكلّ ما يمتّ الى الكرامة والحشمة. فمثلاً قوله في معرض الدفاع عن (گيليوس Caelius) «انه لم يقدم على عمل سخيف، الى حد اغراقه وافراطه في اللذائذ والمسرات، انه لمن الجنون ان لا يستمتع بالاشياء التي يملكها، لاسيما وان معظم الفلاسفة الكبار اكدوا بان الملذات هي في رأس قائمة الاعمال الصالحة!».

وروي لنا ايضاً انه لما قَبِل (شيشرون) وكان فضلاً، مهمة الدفاع عن (مورينا) ضدّ المتهم

(كاتو) اورد مجموعة من الفكاهات (اغاظةً لكاتو) على «المتناقضات» السخيفة المعزوّة للمدرسة الرواقية، فسرت القهقهات من الجمهور الى القضاة.

فعقب كاتو قائلاً لمن حوله بابتسامة هادئة:

- ايها الاصدقاء، اي قنصل مضحك عندنا ؟

الحق يقال ان شيشرون كان يمتاز بطبع مرح فكاهي جداً. وكان يبدو باسم الثغر ابلج الوجه دائماً، في حين كان ديموستينس يبدو شديد الانشغال والتفكير قلق الخاطر، وهو مظهر ظلّ يلازمه الاّ فيما ندر، ولذلك عدة اعداؤه جلفاً فظاً، كما اقر هو بذلك. ويتضح من مدوناتهما العديدة أن (ديموستنيس) لم يمدح نفسه الاّ باعتدال ومن غير نبوّ، عندما تدعو الحاجة الى ذلك، او ان كان في ذلك فائدة هامة. وهو في المناسبات الاخرى متواضع مقتصد في الثناء على نفسه. الاّ أن اختيال (شيشرون) بنفسه الذي لا يعرف حدوداً - في خطبه ورسائله - تدفعه الى الشهوة العلامة للبروز والمعالي. فتراه يهتف دائماً بوجوب نزول السلاح عن مكانته للوشاح، وتنحية اكليل غار الجندي ليحل اللسان محله. ولم يقتصر على تعظيم اعماله ومنجزاته، بل هداها الى خطبه تلك التي القاها، وتلك التي كتبها ونشرها. فيخيل اليك انه دخل مباراة خطابية للصبيان حول من هو أفضل لساناً. مع الخطيبين (ايسوقراطس، وانكسيمنيس) لا بالذي اضطلع بمهمة قيادة البلاد الرومانية ورعاية مصالحها،

«ان الجندي الكامل السلاح والعدّة يرعب الخصم»

من الضروري حقاً للزعيم السياسي ان يكون خطيبا متمكناً. لكن من الخسة ان يستمتع المرء ويتمطق بتمجيد قوة بيانه. ومن هذه الناحية كان (ديموستينس) سامي الفكر وقوراً بصورة غير اعتيادية. كذلك كان يعد مقدرته الكلامية، مسأله تمرين يعتمد النجاح فيه كثيراً على سلامة قلب المستمعين وطيبتهم. وهو يعدّ المختالين بانفسهم اناساً تافهين منحطي الخلق.

كان كلاهما يملك المقدرة على استمالة جماهير الشعب بنفس المستوى. فكانت الجيوش والمعسكرات اطوع اليهما من البنات وكان قادتها في حاجة دائمة اليهما. مثل (خاريس Charis) و(ديوبيثس Diopithes) و(ليوستينس) بالنسبة الى (ديموستينس). و(پومپي) و(قيصر) الاصغر، بالنسبة الى شيشرون وهذا الاخير يقربه في مذكراته الموجهة الى (اغريبّا Agrippa) وميكيناس Maecenas على أن ما قيل، وظنّ بوجوب اثبات مزاج الرجال وطباعهم في تجربتها بامكنه السلطة والحكم، حيث تتحرك كلّ عاطفة فيهم وينكشف كل نقاط الضعف، فهذا مما لم يتح لديموستينس، ولم يكن في وضع يمكنه قط من تقديم مثل هذا

البرهان عن نفسه اذ لم يقبل منصباً خطيراً ولم يضطلع بمسؤولية سياسية ذات تبعات ولم يتقدم جيشا لقتال (فيليب) من بين تلك الجيوش التي عبأتها قوة عارضة وذربة لسانه. اما (شيشرون) فقد ارسل الى صقلية بمنصب (كويستور) وارسل الى كيليكيار وكبدوكيا بمنصب (پروقنصل) في زمن كان حبّ المال قد ملك على الناس مذاهبهم، والقادة والحكام الذين يعينون خارج البلاد، ينهبون ويسلبون بالقوة الغاشمة مع انهم يعتبرون السرقة جريمة. وبلغ الأمر حداً ان قبول الرشوة ما عاد يعتبر معرةً ومن يقدم عليها باعتدال وشيء من التعفف يخطى بالتقدير والاعجاب. الاّ ان (شيشرون) قدم اعظم البراهين على احتقاره الغنى، وعلى انه انسان طيب القلب عفّ الضمير في ذلك العصر. وفي روما عندما عند انتخب قنصلاً، ولكنه اعطي فعلاً صلاحيه الدكتاتور المطلق للقضاء على (كاتيلينه) ورفاقه المؤتمرين، حقق مقولة افلاطون المأثورة:

«ان محن الدول ونوائبها تأتي الى نهايتها عندما يشاء الحظّ ان تجتمع السلطة العليا والعدل والحكمة في واحدٍ».

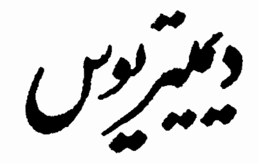
وقيل في لوم (ديموستينس) أن بلاغته استخدمت للارتزاق، وانه كتب سراً خطباً (لفورميون Phormion) و(اپللودورس) وهما خصمان في قضية واحدة. واتهم بقبول المال من ملك الفرس. وانه ادين لأخذه رشوةً من (هرپالوس). فلو سلمنا جدلاً بكذب كل من روى عنه هذه الحكايات وهم ليسوا بقلةٍ فإن ديموستينس مع هذا، لم يكن متعففاً عن قبول الهدايا التي تقدم اليه عرفاناً بجميله او تكريماً له من اشخاص ذوي مقامٍ ملكيّ. ومن كان من مقرضي المال بالربا البحري الفاحش، لا يقدم هذا الأمر من حقيقه الحكم عليه ولا يؤخر. على اننا نعلم بان شيشرون رفض عدة هدايا من الصقليين ايام كان كويستوراً. وابى قبولها من ملك كبدوكيا عندما كان پروقنصل. ونرفع عنها من اصدقائه في روما عندما كان منفياً رغم الالحاح الشديد وقد اتينا الى ذكر هذا في سيرته.

زد على ذلك أن نفي (ديموستينس) كان معرّةً، بسبب ادانته بجريمة الرشوة. اما نفي شيشرون فقد كان مشرفاً له لأنه انقذ بلاده من شرذمة اوغادٍ. فعندما هرب ديموستينس من بلاده لم يهتم احد بالأمر. اما نفي (شيشرون) فقد حمل اعضاء مجلس الشيوخ على لبس الحداد ورفضوا اصدار اي قانون قبل صدور قانون بالغاء الحكم على شيشرون. ومهما يكن فقد قضى فترة نفيه في مقدونيا متعطلاً خاملاً. الاّ ان نفي ديموستينس كان بحدّ ذاته جزءً كبيراً من الخدمات التي قدمها لوطنه فقد راح يجوب مدن الاغريق طولاً وعرضاً وانضم الى الاغريق وراح يطرد سفراء مقدونيا مبرهنا على أنه مواطن افضل بكثير من (ثيموستوكلس

والكيباديس) عندما كانا يمران في مثل ظرفه هذا. وصمد الى الأخير في مقارعته (انتيباطر) والمقدونيين. في حين نجد (ليليوس Laelius) يؤنب (شيشرون) في مجلس الشيوخ لجلوسه صامتاً عندما تقدم الشاب الأمرد (قيصر) طالبا الأذن للتقدم الى المنصب القنصلي خلافاً لاحكام القانون. واتهمه (برتوس) في رسائله بأنه ادار ورعى أعظم واشد طغيان من ذلك الذي ازالوه

واخيراً فان مقتل (شيشرون) يثير في انفسنا الشفقة والرثاء. شيخ هرم يحمله خدامه وهو بحاله يرثى لها فيسيروا به جيئة وذهابا يهرب ويختبئ من موت هو في الواقع قريبٌ منه إن تقيدنا بعامل السِنّ وحكم الطبيعة. مع هذا كله يقتل.

ومع ان ديموستينس بدا في اول الأمر ذليلاً متوسلاً الاّ ان استعداده للموت واحتفاظه بالسمّ يستدعي منا الاعجاب. بل يزيد اعجابنا به استخدامه له عندما عجز هيكل الرب الذي لاذبه عن حمايته فلجأ الى مذبحٍ اعظم ان جاز لنا القول، وحررّ نفسه من الجنود والسلاح هازئا بقسوة (انتيباطر).



DEMETRIUS

(Poliocretes)

337 – 283

وجد العباقرة منذ زمن بعيد أن ثم تجاوباً بين المبادىء وبين حواس الجسم واوّل منبه لهم الى ذلك حسب اعتقادي، هو ملاحظتهم شكل اختبارنا للاضداد في مبادئنا وفي حواسنا. ما ان يتمّ التوصل الى حكم معين عليها، حتى يتقرر استخدامها بناء على قيدين: اولاً ان حواسنا لا تقرر انتقاء الأسود بدلاً من الابيض، او تفضيل الحلو على الحامض، او اللين والمطاوع على القاسي والمقاوم من الاشياء. كلّ ما على الحواس من وظيفة هي ان تتسلّم الانطباعات كما يحصل عادة وتنبئ العقل عن الانطباعات كما تسلمتها. وثانياً ان المبادىء التي يبدعها العقل لانتخاب المناسب والحصول عليه، ورفض غير المناسب والتخلص منه، يكمن تأثيرها الحقيقي في اعتبار الأول من الاشياء على ان تهتم ايضاً بالثاني منه بشكل عرضي طارىء، لا لشيء الاّ لمجرد رفضها له. فلأجل أن يحفظ الطب الصحة، يجب ان يشخص المرض. ولاجل أن يتولد التوافق في اللحن الموسيقي يجب التحقق من وجود النشاز

ولما كانت السجايا العليا الثلاثة: الاعتدال، الحكمة، العدل، اعمال اختيار وفروض. فانها لا تمارس فحسب على ما هو عادل صالح، بل على ما هو شرير وغير عادل، وضالّ. وهي لا تطري البراءة الصرفة (والسذاجة والجهل بما تجب معرفته هو الاسم الاقرب لها) لمجرد انها لا تجد ما تفخر به غير عدم تجربتها للشرّ. فقد اعتاد السپارطيون الأقدمون في اعيادهم ان يرغموا (الهيلوت) على شرب مقدار كبير من الخمر القراح، ثم يعرضونهم على موائد شبانهم العامة، ليتفهموا معنى السكر وعواقبه. مع اني لا ارى ذلك يتفق مع المبادىء الانسانية والعدالة: ان تصلح اخلاق امرءٍ بافساد اخلاق الآخر، فإن لنا ان نتعظ ونفيد من اولئك الذين اطلقوا العنان لطيشهم وتهورهم فجعلوا من انفسهم وهم في اعلى مقامٍ مثلاً صارخاً من امثلة سوء التطرف. ولن اكون راكباً متن الشطط ان قدمت زوجاً او زوجين من الامثلة فلعلها تروح عن انفس قرائي، او لعلهم سيجدون فيها لحنا يختلف عن لحن المقام الاصلي الذي أنشده. اني لست متاكداً من هٰذا على كل حال، ولكني اضع امامي (إسمينياس Ismenias) الثيبي الذي اعتاد ان يشير الى تلاميذه الغازفين بالمزمار، المجيدين منهم والمسئين بقوله.

- ستعزفون مثل هذا.

او

- ستعزفون مثل ذاك.

او كما اعتاد (انتيغينيداس Antigenidas) قوله:

«يكون الشبان اكثر التذاذاً بسماع جيد العزف إن أسمعوا قبله عزفاً رديئاً».

وذلك يبدو لي باننا سنكون على اكثر الاحتمال اشدّ اقبالاً وحماسة للقراءة والملاحظة والاقتداء بخير السير، ان احطنا علما بالرديء منها، والأجدر بالنقد.

ولذلك فالكتاب التالي يتضمن سيرتي (ديمتريوس پوليورغيستس Demetrius Polior-cestes). وانطونيوس القنصل الثالث. وهما شخصان لا يصدق في غيرهما عبارة كتلك التي قالها افلاطون: «الطباع العظيمة تولد اعظم القبائح كما تولد اعظم الفضائل». فكلاهما كان شبقاً للنساء، مسرفاً في تعاطي الخمر، مولعاً بالحرب، جواداً سخياً، متلافاً مترفاً، مستبداً عنيداً. وقد طابقت خطوطهما اخلاقهما، فحياتاهما كانت سلسلة متصلة من الانتصارات العظيمة والانكسارات الكبيرة. من الارباح الفخمة الى الخسارات الموجعة الى السقوط الفجائي الى النهوض غير المنتظر، ليس هذا وحده فقد تشابه موتهما. مات (ديمتريوس) وهو قيد الأسر الفعلي لدى اعدائه، ومات (انطوني) وهو على وشك الوقوع اسيراً في يد اعدائه. ولد (لانتيغونس) من زوجه (ستراتونيكي Stratonice) ابنة (كورّيئوس Corrhoeus) صبيان. اطلق على الأول منهما اسم عمّه (ديمتريوس) واعطى الثاني اسم جدّه (فيليب). ومات (فيليب) وهو صغير. هذا أبسط التفصيل واقصره. لكن بعضهم روى ان (ديمتريوس) لم يكن ابنا لانتيغونس، بل لأخيه، وان اباه توفي وهو صغير، فتزوج (انتغيونس) بارملة فعد ابن اخيه ولداً له.

لم يكن (ديمتريوس) بطول ابيه العملاق، وان كان يعدُّ من الطوال. الاّ أن وجهه كان يتمتع بوسامة فريدة في بابها، ويمتاز بتعابير وملامح اعجزت كل المصورين والنحاتين عن محاكاتها او الوصول الى شبه مقبول بها، كانت ملامحه تجمع بين القوة واللين، والرزانة، والبشر الطفولي. وكان ثم نظرة معينة تنم عن البطولة وملامح العظمة الملكية يشق نقلها تماماً. ولم تكن اخلاقه تكذب، فليس ثم من كان يدانيه في مقدرته على اشاعة حبةّ والرهبة منه. وكان الطف الندماء وارقهم حاشيةً واكثر الامراء ظرفاً وبذخاً في مجالس الخمر والمآدب اليومية. ولم يكن يدانيه احد في القتال جلداً وصبراً وحمية واقداماً. وكان يبدو ان (باخوس) قدوته. فهذا الرب الذي حذق فن الحرب، اتقن صناعة السلام في مسراته وافراحه بعد الحرب.

كان شديد الحب والتعلق بابيه (انتيغونس) ويدل على حنانه ورفقه بامّه الاهتمام المضاعف الذي كان يخصها به مما يوضح بأن ذلك لم يكن بدافع الواجب او الخوف بل الى الميل المجرد وهو اقوى من دافع الواجب بكثير. روي انه عاد من الصيد مرة فدخل على جناح والده رأساً وكان يتحدث الى بعض السفراء. فارتقى الدرج اليه وقبله، وجلس الى جانب ممسكا بحرابه كما جاء. وصرف (انتيغونس) السفراء بعد ان قضى حاجتهم وفيما هم خارجون ناداهم بصوت عال قائلاً:

- واذكروا ايضاً بأنها هذه هي طريقة حياتنا نحن الاثنين معاً.

كأنما يريد أن يلمح لهم بأن علاقته مع ابنه ليست بالدليل البسيط على قوة حكمه واستقراره. وان وجود هذا الانسجام والتفاهم بينهما مما يعزز هذا السلطان. انّ السلطة شيء مُوحش انطوائي فيها قدر عظيم من الحسد والريبة والتوجس. ولقد جعل اول واعظم خلفٍ للاسكندر من عدم خوفه من ابنه سجيّة تستحق الاعجاب والاكبار. ولم يحكم بيت من بين كل خلفاء الاسكندر كبيت انتيغونس الذي خلص وحده من مثل هذه الجرائم اجيالاً عديدة. ولنأت بالتفاصيل. كان (فيليب) الوحيد من هذه الاسرة الذي قتل ولده. في حين قدمت كل الأسر الأخرى امثالاً كثيرة عن اباء يفتكون بابنائهم، وازواج يقضون على نسائهم، واولاد يقتلون امهاتهم، امافتك الاخوة بالاخوة فهو من قبيل المسلّمات الحسابية شائع مقبول، لكونه اول ضمانٍ لسلامة الملك.

ولنذكر هنا مثلاً مقتبسا من مطلع حياة (ديمتريوس) يوضح عطفه الانساني، وهو حادث وقع له مع مثيريدات ابن آريوبارزانس وهو في مثل سنه يشاطره العيش منظما الى حاشية الملك. لم تشب سلوك الفتى شائبة، ولم يصدر منه ما يستوجب التوجس، الاّ انه مع هذا وقع تحت شك (انتيغونس) بسبب حلم رآه: خيل له انه في حقل واسع مونق، زرع فيه بذوراً ذهبية اخرجت شطئها حالاً. وما هي لحظة إلاّ اختفى القمح ولم ير غير الجذامة وفيما هو واقف وقد علاه الغضب والحنق سمع اصواتاً تقول: (ميثريدات حصد القمح الذهبي وحمله الى البونطس). فقلق الملك لهذا الحكم، وربط ابنه بقسم على عدم افشاء السر، ثم قص عليه ما رآى واضاف يقول انه اعتزم الاستعجال في التخلص من (ميثريدات) والقضاء عليه. فكان حزن (ديمتريوس) عظيماً. ولما جاء الفتى كعادته لتمضية بعض الوقت معه. قرر تحذيره ولئلا يحنث بقسمه لم يتفوه بكلمة، الاّ انه سحبه شيئاً فشيئا عن الجماعة حتى انفرد به فامسك برمحه وخط بسنانه أمامه كلمتي، ميثريدات! اهرب! » ولم يفتح فمه. فادرك الفتى الاشارة وهرب الى كبدوكيا ليلاً، وسرعان ما تحقق حلم انتيغونس عنه فقد استولى ميثريدات على

اراضٍ واسعة خصبة وخرج منه خطّ ملوك (اليونطس) الذي خضع جيله الثامن للرومان. يصلح هنا مثلا لطيبة قلب (ديمتريوس) وحبه العدل. وهما جزء من طبعه.

ويخبرنا (امبدوكلس Empedocles) انما تخرج المنازعات والحروب من عاطفتي الحب والبغض كما هي سنة الكون في عناصر الطبيعة. ولاسيما ان كان التماس أقرب، والنزاع الطويل الأمد بين خلفاء الاسكندر انما تأججت ناره وتفاقم أمره في مناسبات خاصة بتعارض المصالح ومجاورة الحدود، كما هي الحال في نزاع (انتيغونس) و(بطليموس). فقد وردت انباء لانتيغونس تشير بان (بطليموس) عبر البحر من قبرص وغزا سورية وانه يجتاحها ويعيث فيها سلبا ويخضع مدنها لطاعته. فأرسل (ديمتريوس) وكان له من العمر اذ ذاك اثنان وعشرون عاماً ليكون ذلك اول اختبار له كقائدٍ مطلق الصلاحية في معركة كبيرة. اما هو فمكث في (فريجيا)، ولم يجد اندفاع الشباب امام التجربة والمران. فقد زحف على خصم تلقى تدريبه في مدرسة الاسكندر وعجم عوده مختلف الوقائع والمعارك. واصيب (ديمتريوس) بهزيمة نكراء بالقرب من (غزة) واسر من جيشه ثمانية الآف وخسر خمسة الآف قتيل. ووقعت خيمته وامواله ايضاً وكل مقتناه الخاص واثاثه غنيمة في ايدي العدو. على ان (بطليموس) اعاد هذه المنهوبات مع الاسرى من اصدقائه وحملهم رسالة مهذبة رقيقة قال فيها انهم لا يحاربون الاّ وراء المجد والشرف. وقبل (ديمتريوس) الهدية وانشأ يضرع للالهة بالا تبقيه مدينا (لبطليموس) وان تمنحه الفرصة السريعة ليرد له الجميل واحتمل نكبته بصبر وجلد كقائد عتيق كثير التجارب خبير بتقلبات الخطّ لاكصبي غلب على امره في محاولة له. وانهمك في جمع فلول جيشه وملأ مستودعاته بالذخيرة. واهتم بولاء المدن له، وعكف على تدريب جنوده المستجدين.

وبلغت (انتيغونس) انباء المعركة، فقال ان بطليموس انما هزم صِبيْة وعليه الآن مواجهة الرجال. الاّ انه لم يشأ كسر معنويات ابنه ولم يخب رجاءه فترك له القيادة في النزال التالي.

ولم يمض على هذا طويل زمن بعد ان تسلم (كيلليس Cilles) نائب بطليموس قيادة جيش جرار، وكان ينظر الى (ديمتريوس) بوصفه خصماً مغلوباً في معركة سابقه ولهذا صور خياله أنه سيفر من سورية هارباً قبل ان تتاح له رؤيته. لكنه سرعان ما وجد نفسه مخطئا فقد انحدر اليه (ديمتريوس) من حيث لا يتوقعه وباغته وباغت جيشه فأسره مع سبعة الآف من جنوده، وغنم اكداساً عظيمة من الاسلاب والاموال. ولم يكن فرحه بالنصر، بسبب الغنائم التي سيحتفظ بها قدر ما كان فرحه بسبب الغنائم التي سيعيدها. وكان شكرهُ للمجد والثروة التي حازها، اقلّ لها بالذات، من الفرصة التي اتاحتها له ليفي بها كرم عدوه. الاّ انه لم يستأثر

بقراره وانما كتب الى ابيه. فاذن له بأن يعمل ما يشاء. فبادر باعادة (كيلليس) الى بطليموس مع اعوانه محملين بالهدايا. كان من نتائج هذه الهزيمة ان جلا (بطليموس) عن سورية وجاءت بانتيغونس من (كلاينوي Celaenoe) لجني ثمار النصر ولرؤية الأبن الذي كسبها.

بعد هذا مباشرة، ارسل ديمتريوس لاخضاع العرب النبطيين. وهناك دخل منطقة قاحلة لا ماء فيها فاحدق به خطر عظيم. إلاّ انه اذهل البرابرة بعزمه وثباته، وعاد بعد أن غنم منهم الكثير، ومن بين اسلابه سبعمائة جملٍ.

كان (انتيغونس) قبل زمن قد طرد (سلوقوس) من بابل إلاّ انه هذا استعاد ملكه بمجهوده وثبت قواعد حكمه. وخرج بعدها بقوات جرارة لاخضاع القبائل المتاخمة للهند والاقاليم المجاورة لبلاد القفقاس، فخيل (لديمتريوس) أنه ترك بلاده ما بين النهرين وليس فيها الحماية الكافية. فاسرع يعبر الفرات بجيشه متجها نحو بابل دون ان يتوقعه احدٌ وافلح في احتلال احدى قلعتيها وطرد منها حامية (سلوقوس) ووضع فيها سبعة الآف من جنوده. وبعد أن سمح لجنود بالافادة من غنى البلاد، وحملهم ما وسعهم حمله من الغنائم، انسحب نحو البحر تاركا (سلوقوس) الذي بات الآن أمنع جانباً، واكثر امنا في ملكه مما كان بالأول اذ بدا (ديمتريوس) بانسحابه وكأنه يتنازل عن كل ادعاء له في بلادٍ عاملها معاملة عدوّ. على أن سرعة حركته الانسحابية انقذت (هليقارناسوس) من يد (بطليموس) الذي كان يحاصرها. ان المجد الذي ناله الأب والأبن من هذا العمل اولد فيهما رغبة عجيبة لتحرير بلاد الاغريق التي اوصلها (كساندر) و(بطليموس) الى العبودية. هذه الحرب لم تضاهها اية حرب اخرى اوقدها اي ملك من الملوك بنبل مقصدها وعدالة غاياتها. فالثروات التي غنماها من البرابرة من اخضاع البرابرة بمساندة الاغريق، انفقاها على بلادهم التي تمّ تحريرها. ابتغاء للشهرة والسمعة الحميدة ليس الاّ. وفي اثناء القرار لبدء المحاولة اشار احد اصدقاء (انتيغونس) بأنه في حالة استيلائهم على اثينا فيجب الاحتفاظ بها فهي مفتاح بلاد الاغريق، فمن هذا الممر يمكنهم النزول من السفن ودخول البلاد وقتما شاؤا. إلاّ أن (انتيغونس) لم يأخذ بهذه النصيحة. اذ لم يكن ليريد ممراً اضمن واقوى من حسن نية الأهالي فمن اثينا منارة العالم ستنتشر انباء معاملتهم هذه بسرعة، فلا يعود يجهلها أحد. وعلى هذا الأساس ابحر (ديمتريوس) الى اثينا باسطول يتألف من مائتين وخمسين سفينة ومبلغ من المال قدره خمسة آلاف تالنت. وكان (ديمتريوس) الفاليري يحكم المدينة باسم (كسّاندر) على رأس حامية معسكرة في ميناء (مونيخيا) وببراعة منه واكبها حسن الحظ، ظهرت طلائعه امام (پيريوس) في السادس والعشرين من شهر (ثارجيليون Thargelion) قبل ان يسمع احدٌ عنه شيء. في

الواقع توهم الناس لأول وهلة انهـا سفن بطليمـوس وبدأت الاستـعدادات لاستـقبالـهـا. ولما اكتشف القادة خطأهم بـالاخيـر. اسرعوا الى الداخـل وعمت الفوضى واختلط الحابل بالنابل، وشرعـوا يحـاولون التـأهب لمواجهـة القـوات الغـازية. وجد (ديمتريوس) مـداخل الميناء من دون دفـاع منفذ الى الداخل فـوراً. ولمـا اكتشفت هويتـه كان قـد تمركز في الميناء آمنـاً امـام اعين الجميع. واصـدرت سفينة اشـارات توضح عن رغبتـه في مـقابلة سلام فـسمح له بذلك، فـأمر منادياً ذا صوت جهوري بأن يعلن ان مجيئه الى هنا كان بأمرٍ من ابيه. ولا غرض له الاّ دعوته الى الالهة بتحقيق امنيته وهي اعادة الحرية للآثنيين وطرد الحامية المقدونية. وممارسة شرائعهم ودستور بلادهم القديم.

وما سمع الناس هذا حتى القـوا بتروسهم ارضـاً واخذوا يصـفقون وطلبوا منه بهتـافات داوية ان ينزل الى البرّ. ونادوه بالمنقذ وبحامي الحمى. واسقط في يد الفـاليري واتباعـه ولم يسعـهم الاّ استقبـال الغازي اصـادقـاً كـان في وعده أم كـاذباً. وارسلوا وفـداً يرجـون منه بسط حمـايتـه عليـهم. فـاحسن (ديمتريوس) استـقبـالهم واعـادهم برفقـة (اريستـيـديموس المليطي Aristode-mus) احد اصحـاب ابيـه. وبات الفـاليـري يخشى ابناء وطنه اكثر من خشيتـه العدوّ بعد ان تغيرت يد الحاكم. الاّ ان (ديمتريوس) منحـه الحماية. واحترامـا لفضـائله وسمعتـه بعث به الى ثيبـه مزوداً بكتاب أمـان على ان يكون له الخيار في الذهاب منها الى حيث يشـاء. وصرح بأن قدمه لن تطأ ارض مدينة اثينا رغم شوقه ولهفته، حتى يتم طرد الحامية المقدونيـة منها ويتم تحريرها، ثم قطع كل صلة بقلعة (مونيخيا) بخندق وتحكيمات. وابحر لمهاجمة (ميغارا) حيث يوجد ثم حامية (لكسّاندر) ايضاً. ولما علم بأن (كراتيسيپوبس Cratesipobis) زوج اسكندر ابن پولسـپريـخون التي اشـتـهـرت بجمـالهـا شـديدة الشـوق لرؤيتـه، تخلف عن جنوده قـرب (مـيـغـارا) وانطلق بشـرذمـة من الاتبـاع ذوي السـلاح الخـفـيف الى (پطرا Patrae) مـحل سكناها. وترك اتباعـه هؤلاء وضرب خيمـته منفرداً بعيداً عن اعين الرقباء لتقوم المرأة بزيارته من غير ان تقع عليها عين. وعلم بعض الاعداء بمكانه فهاجموه فاضطر الى التنكر بمعطف رث والنجاة بجلده، ولم يكن بينه وبين عار الاسر الاّ خطوة؛ كلها بسبب عاطفته الهوجاء وبطبيعة الحال سلبت منه خيمته وامواله.

واستسلمت (ميـغـارا) وكـان الجنود يقومـون بنهـبـهـا لولا تدخل الآثينيين الآني. وتم طرد الحاميـة واستعادت المدينة حريتهـا. ولم يمنعه انشغاله تذكر (ستيپلو Stiplo) الفيلسوف الذي اشتهر بايثاره حيـاة العزلة وكـان يعـيش في هذه المدينة. فـبعث بطلبـه وسـأله هل اغتـصب منه احدٌ شيئاً؟ فاجاب:

- كلاً، لم الق اي انسان يستلب المعرفة.

خلت المدينة من الخدم تقريباً فقد تسلل معظمهم من المدينة وفرّ ولما جدد (ديمتريوس) ترحيبه بـ(ستيپلو) واستاذن هذا، قال

- اني يا (ستيپلو) اترك مدينتكم هذه وهي مدينة للاحرار.

فاجاب (ستيپلو):

- بالتاكيد. اذ لم يعد بين ظهرانيا خادم واحدٌ.

وعاد من (ميغارا) ليشد الحصار على (مونيخيا). ولم تمر ايامٌ حتى فتحها بهجوم صاعق. وأمر بهدم اسوارها وتحصيناتها. وبهذا حقق امنيته. ودخل الاحياء العليا من اثينا بناء على دعوة الاهالي الملحة وهناك استقدم المواطنين جميعاً واعلن لهم العودة الى تطبيق دستورهم القديم وبشرهم بأنهم سيتسلّمون من ابيه مائه وخمسين ألف مكيال من القمح ومقداراً من الاخشاب يكفي لبناء مائه سفينة، وهي هدية منه اليهم. وهكذا اعاد (انتيغونس) الى الآثينين نظام حكمهم الديمقراطي بعد خمس عشرة سنة اي منذ حرب (لاميا) ومعركة (كرانون). خلال هذه الفترة كانت السلطة اسميا تمارس اوليغارشياً، اما فعلياً فكان يهيمن عليها رجل واحدٌ هو (ديمتريوس) الفاليري الذي عرف بجبروته.

الاّ ان التكريم الذي اغرق الاثينيون (ديمتريوس) به أثار استياء واشمئزازاً. كانوا اول من خلع على (انتيغونس) و(ديمتريوس) لقب الملك. وقد بقيا الى ذلك الحين يجعلان من رفضهما التاج دليلاً على زهدهما وتواضعهما فهو الشرف الوحيد الذي ظل موقوفا على نسل فيليب والاسكندر لايشاركهما فيه احدٌ. وخلع الاثينيون عليهما لقبين آخرين، هما «المخلّصان» و«الربّان الحارسان» وتثبيتاً لهذا التزلف صوتوا على قرارٍ يقضي بتغيير تقويم المدينة. وابطل حساب السنين، اعتباراً من الأرخون الحولي واعطي هذا الشرف لكاهن «الربين الحارسين» الذي يتم اختياره سنوياً. فتحمل كل المعاملات الرسمية والوثائق والمستندات تاريخه وتذيل باسمه. وقرروا ايضاً نسج صورتي الأب والابن مع زمرة الآلهة في نقوش الرداء الأعظم. وقد سوا البقعة التي كانت اول ما وطيء ديمتريوس عند نزوله من عجلته. وبنوا هيكلاً فوقها باسم «هيكل نسل ديمتريوس». واستحدثوا قبيلتين جديدتين اسموهما «انتيغونيد» و«ديمترياد» تيمناً باسميهما واختاروا لمجلس الشورى الذي يضمّ خمسمائة عضو خمسين عضوا لكلّ من القبيلتين الجديدتين فاصبح اعضاؤه ستمائة. الا ان اكثر الاقتراحات نزقاً هو ذلك الذي تقدم به (ستراتوكليس Stratocles) امام المخترعين لهذه الاساليب العجيبة المنتقاة من التكريم. فقد

اقترح ان يمنح اعضاء اي وفد ترسله المدينة الى احدهما - عين اللقب الذي يخلع على الوفود المرسلة الى (دلفي) او (اولمپيا) لتقديم القرابين الرسمية نيابة عن الحكومات بمناسبة الاعياد الاغريقية الكبرى.

(ستراتوكليس) هذا، كان شخصاً خليع العذار، متهتكاً لاخير فيه من اية ناحية نظرت اليه. وكان يبدو وقد جعل همّه أن تستجلب له رقاعته وصفاقته محبة الجمهور المأثورة لـ(كليون Cleon). قدمت له محظيته (فيلاكيون) يوماً صحفة فيها مخّ ولحم رقبة لعشائه فقال:

- آه اذن فأنا ساتعشى من الاشياء التي نلعب بها نحن الساسة كما نلعب بالكرة!

ومرة أخرى عندما مُني الاثينيون بهزيمتهم البحرية قرب (أمورغوس Amorgos) اسرع الى منزله قبل وصول النبأ الى المدينة، وضفر على رأسه اكليلا، واقبل راكباً الى الجيراميكوس Ceramicus معلنا بأنهم نالوا نصراً، واقترح ان يصوتوا على قرار باقامة عيد شكر للآلهة وتوزيع اللحم على الاهلين حسب القبائل. وعقب هذا مباشرة وصلت فلول المعركة مع حطامها. فاستنكر الناس علمه هذا فما كان منه الاّ ان خرج اليهم بصفاقة وجهه العجيبة متسائلاً:

- اي ضرر يتأتى من استمتاعكم بيومي فرح وبهجة؟

هكذا كان (ستراتوكليس) ومما زاد في الطين بلة كما يقول(ارسطوفانس) انه وجد من فاق (ستراتوكليس) تفاهة باقتراحه اصدار مرسوم كالآتي:

«كلما شرف (ديمتريوس) المدينة بزيارة، فعليهم أن يقيموا له من الافراح والمهرجانات ما اعتادوا اقامته لكل من الربين (سيرس Ceres) وباخوس. ومن فاق غيره من البذخ والانفاق على استقباله يدفع له من بيت المال مبلغ ليعمل به تقدمات مقدسة».

ثم غيروا اسم الشهر المعروف بـ(مونيخيون) وجعلوه (ديمتريون) كما اسموا اليوم المنفرد الواقع بين نهاية الشهر القديم وبداية الشهر الجديد بنفس الاسم. وغيروا عيد باخوس المسمى (ديونيسيا) الى (ديمتريا) اي عيد ديمتريوس. كل هذا التغيير كان موضع استياء الارباب، فالرداء المقدس الذي نسجت فيه صورتا انتيغونس وديمتريوس الى جنب صورتي (جوپتر ومينرڤا) تعرض لريح شديدة اثناء ما كان محمولاً في الموكب المار خلال الجيراميكوس، فانشق من الاعلى الى الاسفل ونبت الشوكران وهو نبات نادر، في كل مكان حتى في خلوات الريف بكميات كبيرة جداً، ونما واستطال حول الهياكل التي شيدت للربين الجديدين. والغوا

المواكب الدينية في يوم عيد باخوس، لنزول صقيع عنيف قاسٍ غير متوقع، قتل الكروم واشجار التين ودمرّ غلة القمح وهو في سنابله. فما كان من (فيليپيدس Philippides) خصم (ستراتوكليس) إلاّ وهجاه في كوميدياه بالابيات التالية:

لمن أرسل الصقيع الذي قتل كرومكم؟

ولآثام من إنشق الرداء المقدس؟

من منح البشر التكريم الذي لا يمنح لغير الارباب؟

انه الآن عدو الشعب. وليس المرسح المسكين!

كان (فيليپيدس) اخلص اصدقاء (ليسيماخوس) الملك الذي شمل الآثينيين بمختلف الوان العطف اكراما لصديقه هذا. لقد بلغت محبّة ليسيماخوس به حداً انه كان يرى من قبيل الفأل الحسن لقاء (فيليپيدس) قبل قيامه بحملة عسكرية او مباشرته مشروعاً. على العموم كان الرجل محترماً لاخلاقه ولبساطة فيه وعدم فضول ولبعده عن شمائل البلاط الملكي من اعتداد بالنفس والتوسط لقضاء الحاجات. ومرة عندما اخذ (ليسيماخوس) يلح عليه بتسمية هدية يقدمها له اظهاراً لمحبته، اجاب:

- اي شيء تريد، خلا اسرار دولتك.

ان هذا الممثل المسرحي يستاهل على ما اعتقد موضعاً من حديثنا قدر ما يستأهله الخطيب الجماهيري.

الاّ ان الحماقة التي فاقت كل حماقات التملق والزلفى السابقة هو اقتراح تقدم به (دروموكليدس Dromoclides) (السفيتي Sphettus) الذي اوصى الجمعية اثناء مناقشتها حول الطلب من عرافة (دلفي) أن ترشدهم الى اقوم السبل لتكريس بعض الدروع، بأن يطلبوا النبوءة بالاحرى من (ديمتريوس)! وها اني اثبت صيغة الاقتراح حرفيا كما ورد في النص المقرر:

«ليكن خيراً وسعداً. ان اهل آثينا، رسموا بأن يختار شخص لائق من بين المواطنين الآثينين. يكون مندوباً عنهم ويرسل الى (المخلصّ) وبعد ان يقدم القربان كما يجب، ليستفسر من (المخلص) باي شكل ديني صحيح قويم، يسره أن يرتأئ في قرب وقت ممكن، تكريس الدروع؟ وسيعمل اهل اثينا بحسب الجواب»

بهذه الرقاعة، اكملوا افساد عقلٍ، لم يكن قبلاً من السلامة والمناعة كما ينبغي ان يكونه.

وتزوج (ديمتـريوس) في فـتـرة الهـدؤ والتـعطل بـ(يوريدكي Eurydice) وهي من نسل (ميلتيادس) الغابر. وكانت قبله زوج (اوفيلتاس Opheltas) حاكم (كيرين Cyrene) ولما توفي عنها عادت الى اثينا. وقد عَدّ الآثينيون هذا الزواج تقديراً لهم وتشريفاً للمدينة. الاّ ان (ديمتريوس) لم يكن يتقيد في مثل هذه الأمور بايّ مبدءٍ فقد جمع عدة زوجات في وقتٍ واحدٍ الاّ ان (فيلا Phila) بنت انتيباطر وزوج (كرايتروس) الرجل الوحيد بين كل خلفاء الاسكندر الذي ترك في قلوب المقدونيين اعمق مشاعر الحبّ، ظلّت تحتفظ بالمقام الأول بين زوجاته. ولقد ارغمه ابوه على البناء بها بصرف النظر عن فارق العمر للاسباب التي ذكرناها. فقد كان ديمتريوس صبياً يافعاً وهي اكبر منه بكثير، ولذلك ابدى بعض التمنع، فاسرّ انتيغونس في اذنه مقطعاً من قصيدة ليوريبيدس، مستبدلا كلمة (يفيد) بكلمة (يتزوج):

طبيعي كان أم غير طبيعي، على المرء ان (يتزوج) طالما كان في ذلك نفع.

ومع هذا فان الاحترام الذي يكنّه لـ(فيلا) او غيرها مهما بلغ، لم يكن يمنعه من معاشرة المحظيات وبنات الهوى، لينال في هذا المجال اسوء سمعةٍ نالها امير معاصر.

ارسل ابوه، يامره بالتوجه لقتال (بطليموس) في قبرص ولم يكن له بد من الامتثال لأمره فترك بلاد اليونان آسفاً. الاّ انه أتى وهو في طريقه بعمل اكثر نبلاً ومجداً فقد بعث الى (كليونيدس Cleonides) قائد (بطليموس) المشرف على حاميتي (سيكيون) و(كورنث) يعرض عليه مالاً، لقاء خروج الحاميتين من تلكما المدينتين. فلما رفض اقلع الى قبرص فوراً بقوات اضافية وانقض على (مينيلاوس) شقيق (بطليموس) وهزمه. فاقبل (بطليموس) بنفسه يقود قوات برية وبحرية متفوقة ولم يتعرض احدهما للآخر وقتاً طويلاً خلا انهما كانا يتبادلان التحديات والتهديدات، والاعتزاز بالقوة. فقد نصح (بطليموس) (ديمتريوس) بالانسحاب قبل أن تصل كل قواته إن كان يهمه ان لايداس تحت الاقدام! وعرض (ديمتريوس) على (بطليموس) أن ينسحب بأمان إن وافق على سحب حاميته من (سيكيون) و(كورنث). وكان جميع الامراء والملوك المعاصرين يتطلعون في الواقع الى نتيجة هذا النزاع المجهول بلهفة وترقب اذ من الواضح ان غنيمة الغالب لن تكون قاصرة على قبرص او على سورية، بل هي السيادة المطلقة.

كان مع (بطليموس) مائة وخمسون بارجة، أمر (مينيلاوس) بالخروج بها من ميناء (سلاميس)، والمعركة في اوج احتدامها، والهجوم بستين منها على مؤخرة (ديمتريوس). فعمد هذا الى الحيلولة دون خروجها من الميناء بسدّ مدخل الميناء الضيق بوضع عشرة من بوارجه في فم المدخل. ثم نظم قواته البرية في صفوف المعركة ونشرها على طول الأرض الداخلة في

البحر، وتعرض للعدوّ بمائة وثمانين بارجة وكان هجومه عنيفاً كاسحاً حقق به الغلبة على (بطليموس) وهزمه هزيمة ساحقة، فهرب هذا بكلّ ما تبقى من اسطوله وكان ثماني سفن لا غير. وتم أسر سبعين سفينة مع رجالها وغرق الباقي في المعركة، وسقط في يد (ديمتريوس) اعداد هائلة من الخدم والاتباع والاسلحة والاموال والآت الحرب. جمعت كلها وجيء بها الى المعسكر. وكان من بين الاسرى (لاميا Lamia) التي ذاع صيتها في نفخها بالمزمار ونجمها كمحظية. لقد عملت (بديمتريوس) ما يشبه السحر مع ان جمالها الفتيّ كان في افول، ومع انه كان يصغرها بكثير. وبلغ به التعلق حتى بدا «وكأن كل النساء عاشقات ديمتريوس، وهو لا يعشق غير (لاميا)».

بعد هذا النصر الحاسم، زحف على (سلاميس) ولم يكن (مينيلاوس) في وضع يمكنه من المقاومة فاستسلم هو نفسه مع كل اسطوله، والف ومائة من الخيالة واثني عشر الفاً من الرجالة مع المدينة. ومما زاد في نصره جلالاً ومجداً هو معاملته الانسانية الكريمة للمغلوبين فبعد ان شيع القتلى الى مثواهم بمظاهر التكريم، منح الحرية للاحياء. ولم ينس الآثينيين وارسل اليهم من العدة والسلاح ما يكفي لتسليح الف ومائتي رجل تسليحاً كاملاً، هديةً دون مقابل.

وارسل اريسطوديموس المليطي أبرع المتزلفين في البلاط، لينهي هذه الانباء السعيدة الى (انتيغونس). وعزم الرسول على ما يتراءى - أن يجعل الترحيب به فخماً عظيم الوقع. فعندما اقتربت سفينة من البرّ اوصى بان تلقى المراسي بعيداً عن الساحل وامر ببقاء نوتية السفينة فيها ومنعهم من النزول، ثم استقل زورقاً واتجه وحده الى الساحل قاصداً الملك.

كان (انتيغونس) بلا ريب قلقاً متوتر الاعصاب تتناهبه تلك الهواجس التي تعتري عادة كل من اضطلع بكفاحٍ مجهول النتائج، محفوف بالمخاطر الجسام وقيل له ان (اريسطوديموس) مقبل اليه بمفرده، فزاد هذا من اضطرابه. ولم يمسك نفسه عن الخروج الى لقائه الاّ بشق الأنفس، وطفق يرسل الرسول تلو الرسول، والصديق في اثر الصديق لاستطلاع الانباء. الاّ ان (اريسطوديموس) ظلّ يسير على هونه بوقارٍ ورزانة لا يفصح وجهه عن شيء، ولا يرد على الاسئلة الموجهة اليه، وانما يظل سائراً بهدوء. فلم يطق (انتيغونس) صبراً ونهض لاستقباله في المداخل فرآه مقبلاً يتبعه خلق كثير وكلهم قلق، يهرولون خلفه. ولما صار على قيد سمع (انتيغونس) بسط يديه وهتف بصوت عالٍ:

- تحية اليك ايها الملك انتيغونس! لقد هزمنا [بطليموس] بحراً واستولينا على قبرص وأخذنا ستة عشر الفاً وثمانمائة أسير فردّ عليه [انتيغونس]:

- مرحباً بقدومك يا ارسطوديموس. لقد اخترت ان تعذبنا مدة طويلة ونحن بانتظار انبائك السعيدة، ولذلك عليك أن تنتظر ايضاً وقتاً ملياً، لمكافأتك!

وعندها اسرع الجمهور المحتشد فنادى [بانتغونس وديمتريوس] ملكين لأول مرة ووضع اصحابهما التاج على مفرق انتيغونس، وارسل هو تاجاً لابنه مع رسالة يخاطبه فيها بلقب ديمتريوس الملك ولما وصلت الانباء الى مصر، بادر اصدقاء [بطليموس] الى المناداة به ملكاً ايضاً تبديداً لآثار الهزيمة الأخيرة وعلى سبيل المقابلة. فأسرع بقية خلفاء الاسكندر يحذون حذوهم ولبس [ليسيماخوس] التاج، و[سلوقوس] الذي كان البرابرة يتوجهون اليه بهذا الاسم من قبل، أخذ الآن يستخدمه في المناسبات الرسمية محتذيا حذو الأغريق. وظلّ [كساندر] يكتب عنوانه الاعتيادي في رسائله، إلاّ ان الناس منحوه اللقب الملكي في مخاطباتهم ورسائلهم. والقضية بعد، هي ليست قضية اضافة صفة او ادخال بدعة جديدة لا غير. فمشاعر البشر المعبرة عن أنفسهم هي التي تتمخض، وتشتد احاسيسهم رفاهة وتتسلل روح العظمة والغطرسة في احاديثهم وحياتهم فتتغير كما يتغير الممثل التراجيدي على المرسح بمجرد تغيير ثوبه، واذ ذاك يسرى التغيير على خطواته وصوته، وجلسته واسلوبه في مخاطبة زميله الممثل الآخر، كذلك الحال بهؤلاء فبعد ان ينضوا عنهم ذلك الثوب المتواضع الذين كانوا يخفون تحته سطوتهم وجبروتهم تمويها، تزداد عقوباتهم عنفاً، وكأن الزي كان يجعلهم ارق وأرافُ برعاياهم.

ان صوت متزلف واحد، قد يقلب الدنيا رأساً على عقب.

انتشى [انتيغونس] بنصر قواته في قبرص منتهى النشوة. واعتزم ان يستغلّ حظه فيقود جيشه شخصياً ضد [بطليموس] براً، في حين يسانده [ديمتريوس] من جهة البحر باسطول عظيم. لقد عرفت النتيجة من حلم رآه [ميديوس Medius] صديق [انتيغونس]. فقد رأى انتيغونس وكل جيشه يهرولان وكأنهما في سباق وقد ابدى صديقه في الشوط الأول قوة وسرعة عظيمتين ثم أخذت خطواته تتثاقل بالتدريج حتى تخلف عن الركب لاهثاً مبهور الانفاس يجرّ قدميه كلاً واعياءً.

واعترضت [انتيغونس] مصاعب كبيرة في البرّ. وهبت عاصفة شديدة على ديمتريوس في البحر، دفعته الى ساحل خطرٍ غير صالح للرسو. وافقدته عدداً كبيراً من سفنه. وهكذا عادت الحملة دون ان تحقق شيئاً. وكان [انتيغونس] قد شارف على الثمانين ولم يعد قادراً على تحمل مشاق الحروب البرية ومسيراتها الطويلة ولعل ذلك متأت من ضخامته لا من ضعف قوته. مهما يكن فقد سلم شؤون الملك الى ابنه، وكان يبدو ان حظوظه وخبراته كافية للنهوض

باعباء الحكم ولم يكن ترفه وفجوره واسرافه بالحائل دون قيامه بما اوكله اليه. ففي وقت السِلْم كان يسرّي عن نفسه بالملذات وينغمس فيها حتى يجاوز كل الحدود دون ان يتعفف عن شيء. اما زمن الحرب فتجده رائقاً صاحياً، رزيناً الى ابعد الحدود. ويحكى عنه انه بعد ان بسطت عليه [لاميا] سلطانها بشكل لم يعد سراً - عاد الى بلاده، وما رأى ابيه الشيخ حتى ارتمى عليه وأخذ يقبله بحرارة غير اعتيادية فقال ابوه متعجباً:

- ماذا؟ العلك حسبتني [لاميا].

ومرة بعد ايام متواصلة من اللهو وتعاطي الخمر، اعتذر لغيابه بقوله انه كان يشكو اسهالاً شديداً. فقال ابوه:

- هذا ما بلغني. أكانت من اثر الخمر التاسيّة Thasian ام من الخمر الخيانية Chain؟

وانبيء انتيغونس مرةً بأن ابنه مريض، فذهب ليعوده وقبل ان يلج الباب مرت به فتاة جميلة جداً. فدخل وجلس قرب فراشه وجسّ نبضه فقال [ديمتريوس]:

- ألان غادرتني الحمّى.

فردّ [انتيغونس] فوراً

- اي نعم، لقد لقيتها عند الباب خارجةً!

ان مآثر [ديمتريوس] العظيمة جعلت اباه يعامله بمثل هذا التساهل.

لقد كان الصيثيون في مجالس شرابهم يُرنّون قسيهم، ليبقوا شجاعتهم يقظةً صاحية وسط الخيال والنشوة. الاّ ان [ديمتريوس] كان يستسلم استسلاماً تاماً للملذات، ويهب نفسه للعمل الجديّ ولايدع التفكير في احدهما يحول دون اطلاب الآخر، وعندما يدعو داعي الحرب تراه يظهر من المقدرة والحنكة مالا يَدانيه فيهما احد. والواقع ان كفاءته تجلت في التأهب للحرب أكثر مما تجلت في ادارة دفتها. كان يرى وجوب التحوط، للمستقبل ويفكر بانه لايستطيع ان يؤمن كلّ ما يحتاجه لكلّ مناسبة محتملة، ولم يكن لذته تعرف حداً في اجراء اختبارات على تحسينات آلات الحصار والسفن. ولم يبدد عبقريته ومواهبه في الميكانيكا، على اختراع اللعب والمتبكرات التافهة، كالتصوير والخراطة والنفخ بالمزمار، وهي من الهوايات التي ينشغل بها الملوك. فايروپوس Aeropus ملك مقدونيا كان يقضي جلّ اوقاته في صنع المناضد والمصابيح الصغيرة، و[اتالوس فيلوميتور Attolus philometor] كانت هوايته استخلاص السموم من نبات البنج Henbane، والخربق Hellebori والشوكران Hemlock والاكونيط Qconite و Doryenium. ويتولى استنبات كل هذه الحشائش في حدائقه الملكية ويجمع بنفسه ثمرها

وطلعها وبزرها في مواسمها المخصوصة ويستحلب منها السّم. اما ملوك الفرس فكانوا شديدي الاعتزاز بشحذ وصقل اسنّة رماحهم وسهامهم بأنفسهم. الاّ ان [ديمتريوس] كان ملكاً بحقٍ من هذه الناحية فقد قام بدور الصانع الذي يأتي بافخم واروع الاشياء، فما ابتكروا كان فيه طابع الأصالة والابداع والغرض السامي. ولم يكن يقف عند حد تصميمها ودفع الاموال لعملها بل كان يستخدم يده عند حد تصميمها ودفع الاموال لعملها بل كان يستخدم يده ويساهم بصنعها. امور يرتجف الاصدقاء لعظمتها، ويسحر الاعداء بجمالها. وعبارتنا هذه ليست جميلة الوقع على السمع قدر ما هي صادقة الدلالة، والناس الذين كانوا سيلاقون الأمرين من تلك الآلات، لم يتمالكوا انفسهم من الاسراع الى رؤيتها بعين الدهشة: بوراج ذات خمس اوست طبقات من المجاذيف تمرّ بالسواحل فيأتي سكان المدن المحاصرة ويحتلون اسوارهم ليشاهدوا «قانصات المدن» الشهيرة. حتى ان ليسيماخوس الدّ اعداء ديمتريوس من الملوك، لما قدم لفك الحصار عن [سولي Soli] في كيليكيا، ارسل اولاً يطلب السماح له بمشاهدة سفن عدوه وآلات حصاره. وبعد ان اشبع رغبته اعرب عن اعجابه بها وانصرف.

ورجا منه الرودسيون الذين عقدوا الصلح معه بعد حصار طويل، ان يسمح لهم ببعض آلاته، ليحتفظوا بها على سبيل الذكرى. وتخليداً لقوته ولمقاومتهم البطولية في الوقت نفسه.

نجم الخلاف بينه وبين الرودسيين بسبب حلفهم مع [بطليموس] وفي الحصار الذي القاه عليهم، ركز اكبر واضخم آلاته مقابل اسوارهم. وهي عبارة عن قاعدة تامة التربيع طول ضلعها اربعة وعشرون كوبيتا[1]. ويقلّ طول الضلع كلما ارتفعت الآلة الى القمّة، وهي مقسمة من الداخل الى طوابق او غرف تملأ بالجنود. وفي كل طابق نوافد وكوى بمواجهة العدو لرمي انواع القذائف. ويحتل كل غرفة صنف من المقاتلين. واعجب صفاتها انها مع كبر حجمها لا تميل ولا تنقلب ولا تتوقف بل تجري على قاعدتها بتوازن تام وبضجّة عالية وقوة حركية عظيمة فتذهل عقول مشاهديها وتسحرهم.

وكان [ديمتريوس] مستمراً في حصاره عندما جيء اليه بدرعين حديديين من قبرص، لاتريد زنة الواحد منهما عن اربعين باونداً ورغب صانعهما [زويلوس Zoilus] امتحان درجة صلابتهما العالية وطلب ان يسدّد الى احدهما قذيفة منجذيق ترمى من احدى الآت الحصار من مسافة لاتزيد عن ستٍ وعشرين خطوة وعندما جرى الاختبار وجد ان سنان القذيفة سقط على الدرع بكلّ دقة الاّ انه لم يخلف غير خدش بسيط كالاثر الذي يخلفه القلم او المنقاش، فأخذه ديمتريوس لنفسه. وقدم الثاني الى [الكيموس Alcimus] الايبروتي Epirot. افضل عسكري

(١) حوالي ٣٦ قدماً.

واقواهم بين ضباطه، وهو الوحيد الذي كان يلبس درعاً يبلغ ثقله تالنتين. وكان غيره يكتفي بدرع ثقله تالنت واحد. لقد هوى صريعاً في هذا الحصار اثناء معركة بالقرب من الملعب.

دافع اهل رودس دفاع الابطال وباستماتة. ووجد ديمتريوس انه لايحقق تقدماً ملحوظاً، ولم تكن مواصلته الحرب الاّ بدافع من عاطفةٍ وعنادٍ! او ربما بسبب ما أقدم عليه الرودسيون حين استولوا على سفينة له فيها ثياب واثاث ورسائل من زوجه [فيلا]. فأرسلوها كلها الى عدوه [بطليموس]، ولم يكن فعلهم نبيلاً كالآثينيين الذين القوا القبض على ساعٍ ارسله [فيليب] الملك وهو عدوهم. ففضوا كلّ الرسائل التي كان يحملها، الاّ رسالة موجهة الى الملكة [اولمپيا]. فقد اعادوها باختامها سليمة. فكان استفزازاً شديداً [لديمتريوس]. الاّ انه أبى ان يثأر عندما تمكنّ واصبح انتصافه لنفسه داني القطوف: فقد كان [پروتوگينس Protogenes] الكاوني Caunian يرسم لهم صورة تمثل قصّة اياليسوس Ialysus. وبقي له الشيء القليل لاكمالها عندما وقعت في يد [ديمتريوس] في احدى الضواحي. فأرسل الرودسيون اليه منادياً يرجونه الابقاء على هذا الأثر الفني وعدم اتلافه فأجابهم: انه ليفضل احراق صورة ابيه على اتلاف هذه القطعة الفنية التي كلفتهم كثيراً من الجهود. وقيل ان الفنان انفق سبع سنين من عمره في رسمها، ويروون لنا ان اپللس Apelles ذهل وعقلت الدهشة لسانه عندما شاهدوها لأول مرة. وبعد ان تمالك نفسه قال:

- جهد عظيم! ونجاح مدهش.

ثم عقب على هذا بقوله: ومع هذا فليس فيها تلك الردعة التي رفعت رسومه الخصوصية الى عنان السماء ان جاز القول. حملت هذه الصورة الى روما مع الاسلاب الأخرى وتلفت بالحريق.

بينما كان الرودسيون يدافعون عن مدينتهم دفاع المستميت، لم يأسف [ديمتريوس] حينما وجد ذريعةً يتوسل بها الى رفع الحصار ووجد ضالته هذه بالسفراء الذين قدموا من اثينا، فتوسطوا في الصلح وتمّ ذلك بان يتعهد [الرودسيون] بمساعدة انتيغونس وديمتريوس ضدّ اعدائهما جميعاً، باستثناء [بطليموس].

وطلب الآثينيون مساعدته لفك حصار [كساندر] الذي القاه على مدينتهم. فتوجه اليها باسطول يتألف من ثلاثمائة وثلاثين قطعة بحرية وعددٍ كبيرٍ من الجنود. ولم يكتف بطرد [كساندر] من اتيكا، وانما تعقبه حتى [ثرموپيلي] وهزمه واصبح سيد هراقليا التي خضعت له مختارة. كما انضمت اليه وحدة تتألف من ستة آلاف مقدوني. وبعد ان حررّ كل الاغريق

في الجزء الأدنى من ثرموبيلي كرّ راجعاً وعقد حلفاً مع البويوثيين، واستولى على [كنخراي Cenchreae] واخضع قلعتي [فيله Phyle] و[باناكتوم Panactum] وكان فيهما حاميتان لـ[كساندر]، واعادهما الى آثينا. فتحفزت المدينة لردّ هذا الجميل. كأنما لم تملّ من اغراقه بالتكريم والشرف؛ وكأنهم لم يستنفدوا طاقاتهم في اختراع الطريف منها. لقد اتضح انهم ما زالوا يمتلكون المبدع المستحدث من افانين الملق والزلفى. عمدوا الآن الى اخلاء الهيكل الخلفي من [البارثنون] واعدوه لسكناه. فأستقرّ هناك تحت السقف الذي يظلّ مضيفته [منيرفا]. وكان هذا قصدهم الضمني وهو مشاطرته السكنى ربّةً باكراً! عندما أسكن اخوه [فيليب] في بيت تشغله ثلاث فتيات. لم يقل [انتيغونس] له شيئاً، وانما أرسل وكيله وامره بأن يجد لابنه -وبمحضر منه- منزلاً أقل اكتظاظاً الشاغلين من هذا المنزل. وكان أقل ما يجب على ديمتريوس عمله هو اظهار الاحترام اللائق باخته الكبرى - الربّة منيرفا، وهذا ما يستخلص من تقدير المدينة له بانزاله في بيتها. إلاّ انه ملأ الموضع بالنجاسات حتى بدا أقل دنساً عندما اقتصرت خلاعته على معاشرة النساء المبتذلات مثل [خريس Chryids] و[لاميا] و[ديمو Demo] و[انتيكيرا Anticyra].

ان اسم المدينة الطاهر يمنعنا من ايراد بعض الحكايات الصريحة ولنذكر فحسب فضيلة الفتى [اموكليس] الملقب بالجميل وما كان له مع ديمتريوس؛ اراد ان يتخلص من ملاحقاته، فكان يتجنب كل محلٍّ قد يكون فيه. أخيراً لحقه ديمتريوس الى غرفة حمام خاصة، ووجد الفتى نفسه وحيداً بلا ناصر أو مجير، فرفع غطاء القدر وقذف بنفسه في مائه الفائر ليموت ميتة أليمة قبل ان يحين أجله؟ الاّ انها ميتة جديرة بالبلد وبالجمال اللذين سبباها ولم يكن [كليانيتوس Cleanetus] ابن [كليوميدون Cleomedom] مثل هذا الفتى، فقد نال من [ديمتريوس] رسالة توصية بابيه موجهة للآثينيين، وكان الأب قد غرم خمسين تالنتاً. فالحق العار بنفسه واوقع المدينة في ورطة. لم يسع الآثينيين الاّ الغاء الغرامة احتراماً للرسالة، على انهم اصدروا بياناً يحرمون فيه على اي مواطن جلب رسائل توصية من ديمتريوس في المستقبل. ولما علموا بأن [ديمتريوس] استناء جداً من هذا القرار وعده تحقيراً واستصغاراً لشأنه. لم يكتفوا بابطاله وانما نفذوا حكم الموت ببعض الناصحين به والمقترحين له، ونفوا الآخرين، خوفاً ورهبةً. ثم تمادوا في الاعتذار، فاصدروا مرسوماً يقضي بصحّة وسلامة كلّ ما يأمر به [ديمتريوس] الملك في المستقبل، سواء ازاء الأرباب او ازاء البشر. ولما قال احد المواطنين: «لابدّ ان يكون [ستراتوكليس] مجنوناً لاستخدامه مثل هذه العبارات» عقب عليه [ديموخارس] و[ليوكونوي Leoconoe] قائلين: «من الغرابة ان لايكون مجنوناً». ولقد

كوفي ء [ستراتوكليس] خير مكافأة على زلفاه. اما دايموخاريس فقد نفي تنكيلاً به لمقولته السالفة. وتلك كانت تصرفات الآثينين بعد تحررهم من نير الحامية الاجنبية واستعادتهم ما سمي بحريتهم.

بعد هذا زحف [ديمتريوس] بقواته على [الپيلوپونيسس] فلم يلق مقاومة وفرّ اعداؤه من امامه وتركوا المدن تنضم تحت لوائه. وقبل حلف سائر [اكتيه Acte] [كذلك كان اسمها] وسائر اركاديا ما عدا [مانتينيا. واتباع حرية [ارغوس وكورنث وسيكيون] بدفعه لحامياتها مائة تالنت لقاء تركها. وترأس الالعاب في ارغوس خلال عيد [يونو] التي صادف ايام وجوده، وشارك في احياء الاحتفال مع الاغريق الذين اجتمع شملهم هناك. كما احتفل بزواجه من [دايداميا Deidamia] بنت [اياكيديس Aeacides] ملك المولوسيين [Molossians واخت [پيروس]. وقال لأهالي [سيكيون]، انهم وضعوا مدينتهم خارج مدينتهم! واقنعهم بالانتقال حيث يعيشون من يومها. وبذلك اعطى مدينتهم موقعاً جديداً فضلاً عن اسمٍ جديد، اذ اطلق عليها [ديمترياس] مشتقاً من اسمه.

والتأمت جمعيّة عمومية للاغريق في المضائق. وهناك نادى به حشد عظيم من المندوبين قائداً للاغريق، كما كان الشأن مع [فيليب والاسكندر] من الاوائل. ولم يكن يخفي رغبته في التفوق عليهما، وهو في اوج عظمته وسلطانه. والواقع هو انه سبق الاسكندر من ناحية واحدة. فالاسكندر لم يأب على الملوك القابهم، في حين لم يتخذ لنفسه لقب ملك الملوك، مع ان عدداً كبيراً منهم كانوا مدينين له باللقب والسلطة معاً. اما [ديمتريوس] فقد اعتاد السخر من أولئك الذين منحوا لقب الملكية لغير ابيه ولغيره. وكان السرور يشيع في اعطافه عندما يشرب اتباعه اولاً نخب صحته وصحة ابيه بوصفهما ملكين ويواصلون الانخاب فيشربون في صحة سلوقوس بوصفه قائد الفيلة، وفي صحة بطليموس بوصفه امير البحر الاعلى، وفي صحة ليسيماخوس بلقب امين الخزانة، و[اناثوكليس] بلقب حاكم صقلية. ويضحك هؤلاء الملوك عندما تروى لهم قصص هذا الزهو الفارغ الاّ [ليسيماخوس] الذي يبدي امتعاضاً لاعتباره خصياً لا غير. فمن هؤلاء عادةً يختار صاحب منصب امين الخزانة. وكان العداء بينه وبين [ليسيماخوس] اشدّ من عدائه لغيره. ومرة قال ليسيماخوس ساخراً من حبّه للاميا.

- اني لم ارمن قبل عاهراً تمثل دور الملكة.

فرد [ديمتريوس] بقوله «ان مخطيته لاتقل اخلاصاً واستقامة عن [پنلوپ Penelope] امرأة [ليسيماخوس].

ونستأنف حديثنا فنقول: كان ديمتريوس على وشك العودة الى آثينا فكتب رسالة الى اهلها

يعلمهم برغبته في ان يسمح له في الحال بالوقوف على مراسيم التكريس «للأسرار» وانه يريد اكمال مراحل المراسيم من الأول الى الأخير دفعةً واحدة وهو مخالف للمباديء المتبعة وامر لم يسمع به من قبل لاي احدٍ. فالمرحلة الأولى تجرى مراسيمها في شهر [بويدروميون] ولايقبل المكرسون نهائياً حتى يكلموا سنة واحدة بعد اقتبال مراسيم المرحلة الأولى. لكن طوي هذا كله بعد قراءة رسالة [ديمتريوس] في الجمعية العامة ولم يجد احد في نفسه الشجاعة للمعارضة غير [پيثودورس Pythodorus] حامل المشعل ولم يؤبه باعتراضه، فقد نطّ [ستراتوكليس] لغوره مقترحاً بالتصويت على تحويل الشهر الحالي [مونيخبون] الى شهر [انيتسيتريون] فجرى ذلك وغُيرّ وهكذا اقتبل [ديمتريوس] الاسرار الأولى. وجرى تصويت آخر فانقلب الشهر [مونيخيون] نفسه الى شهر [بويدروميون] فأقيمت مراسيم الاسرار العليا وقبل [ديمتريوس]. هذه الاجراءات اتاحت للكوميدي [فيليپيدس] فرصة جديدة لإعمال فكاهته البارعة في [ستراتوكليس]:

ان خوفه المتملق...

جعل السنة كلها تُحشر في شهر واحد!

وقال عن التصويت الذي جرى حول اسكان [ديمتريوس] في البارثنون

ذاك الذي يقلب الهياكل الى حانة متبذلة

ويجعل منزل العذراء بيتاً للخنا

ومن بين الأعمال السيئة الاثيمة التي اقترفها خلال هذه الزيارة عملٌ جرح مشاعر الآثينيين بصورة خاصّة. فقد اصدر أمراً بجمع مائتين وخمسين تالنتاً من الأهالي فوراً. فجبيت من الشعب بمنتهى الغشم والقسوة. وقدموا له المال الذي عانوا في جمعه مالا يخطر بالبال. فأمر بأن يوزع على [لاميا] وبقية نسائه ليبتعن به صابوناً، كان ما قدموا اتفه من ان يخصص لغير هذا الغرض. وكان العار الذي اصابهم جراه اشدّ وقعاً ومرارة مما عانوا بجمعه من خسارة وأختلف الرواة في الحكاية في الواقع، فبعضهم يقول ان الحادث وقع للتساليين لا للاثينيين. ومهما كان من امرٍ، فان [لاميا] هي الأخرى قامت بجباية مقدار كبير من المال للانفاق على مأدبة اقامتها للملك، فأشتهرت مأدبتها الى الحدّ الذي اتى الى وصفها لينكيوس Lyn-ceus]. واضفى على [لاميا] بهذه المناسبة اسم [هيليپوليس Helepolis] الحقيقية. ولقب [ديموخارس] بصولي Soli، [ديمتريوس] بـ[ميثوس Mythus] لأن لأسطورة [لاميا] ها الخاصة وميثوسها الخاص.

الحق يقال ان أهواء هذه المرأة والبذخ الذي عاشت فيه جلبا عليه حسد كل نسائه وغيرتهن فضلاً عن عداء اصدقائه.

فمثلاً: كشف [ليسيماخوس] مرة لبعض السفراء الذين ارسلهم ديمتريوس عن ندوب في فخذيه وذراعيه بفعل براثن اسدٍ كان الاسكندر قد اطلقه عليه. وبعد ان اصغى هؤلاء السفراء الى تفاصيل معركته مع هذا الوحش الضاري ابتسموا وقالوا ان لملكهم ايضاً ندوباً في جسمه، وانه ليستطيع ان يعرض في عنقه آثار براثن [لاميا] وهي حيوان ليست بأقل خطراً من الأسد. ومما يورث اكبر العجب انه كان يصدّ عن [ميلا] بسبب تقدمها في العمر، في حين كان عبداً ذليلاً [للاميا] التي مر عهد شبابها منذ زمن طويل. وفي احدى الأمسيات عند العشاء كانت تعزف لحناً على المزمار سأل [ديمتريوس] مخطيته [ديمو] التي يلقبها الرجال بـ[جنون] ما رأيها في لاميا؟ فأجابت: اراها امرأة عجوزاً.

وجيء ببعض الحلوى فسألها الملك ثانية:

- انظري الى الهدايا التي جاءتني من [لاميا]؟

فقالت [ديمو]:

- سترسل أمي العجوز أكثر من هذا، لو اتخذتها لك عشيقة.

ورويت قصة أخرى عن انتقاد [لاميا] للحكم الشهير الذي اصدره القاضي [بوخوريس Bocchoris]. حاول شاب مصري، لمدةٍ طويلة وصال العاهرة [تونيس Tonis] وعرض عليها مبلغاً من الذهب اجراً لمعاشرتها وقبل ان يتم ذلك. حلم بأنه امتلكها واطفأ شوقه بالخيال ولم يعد يشعر برغبةٍ في الوصال الفعلي فأقامت عليه [تونيس] الدعوى بالمبلغ المتفق عليه. وعندما سمع القاضي الادعاء، امر المدعي عليه باحضار المبلغ الى المحكمة كاملاً في وعاءٍ وان يحركه يميناً وشمالاً امام انظار [تونيس] ويعطيها خياله. فطعنت [لاميا] في صحة الحكم قائلة: من المحتمل ان تكون رغبة الشاب قد اشبعت في الحلم، لكن رغبة العاهرة [تونيس] بالمال لايمكن اشباعها بخيال ذلك المال. والى هنا نكتفي بالحديث عن لاميا. لننتقل بالقصة الآن من مرحلتها الهزلية الى خاتمتها المأساوية، بتعقيب اعمال وتقلبات خطوط ممثلي اداورها.

اجتمع الملوك في عصبة، ووحدوا قواتهم لمهاجمة [انتيغونس] فترك [ديمتريوس] بلاد الاغريق، وتوجه الى والده، فوجده عالي الهمّة ثابت العزم على اتم استعداد لدخول المعركة مما لايتفق مع تقدمه في السن فشجعه ذلك كثيراً. ولكن كان معقولاً لو رضي [انتيغونس]

بالتنازل عن البسيط، او اظهر اعتدالاً قليلاً في رغبته بالسيادة المطلقة اذن لاحتفظ لنفسه بالمقام الأول بين الملوك حتى موته، ولاحتفظ بها لخلفه ايضاً. الاّ انه كان عنيفاً متجبراً غطريساً لايمكن احتمال كلماته المهينة واجراءاته من قبل ملوك شبان اقوياء الجوانب. وبهذا استفزهم وحملهم على التحالف ضده. وعندما انبيء بالحلف المتكون ضده لم يتورع من القول:

- ان هذا السرب من الطير لايلبث ان يتفرق بضربة حجر واحدة وبصرخةٍ لا غير.

ونزل ساحة القتال على رأس ما يزيد عن سبعين الفاً من المشاة وعشرة آلاف من الخيالة، وخمسة وسبعين فيلاً. امّا اعداؤه فقد حشدوا اربعة وستين الفاً من المشاة. وعشرة آلاف وخمسمائة خيّال، وما يناهر الاربعمائة من الفيلة ومائة وعشرين عجلة حربية. ولما اقترب الجمعان، لوحظ ثم تغيير لا في هدف [انتيغونس] بل في مشاعره السابقة للمعركة وتوجساته. فقد بدأ خلافاً لما كان يبدو في معاركة السابقة مهموماً صامتاً منطوياً على نفسه، وكان في العادة يبدو واثقاً في نفسه، رابط الجأش جهوري الصوت، ساخراً هازئاً، وكثيراً ما كان يعرب عن استخفافه وعن ثبت جنانه بالمزاح وارسال الفكاهات. وانضم [ديمتريوس] الى الجيش، فأسرع [انتيغونس] يعلنه خليفةً له. واصابت الجميع الدهشة اذ راؤه يختلي بابنه في الخيمة ويتباحثان منفردين وهو من أغرب الأمور اذ لم يؤثر عنه قبلاً ان عقد مؤتمراً خاصاً مع [ديمتريوس] بل كان ينفرد برأيه دائماً ويقرر خططه وحده ثم يصدر اوامره تبعاً لذلك. ومرة حين كان [ديمتريوس] صبيّاً وسأله متى يبدأ الجيش بالحركة، ردّ عليه بحدةٍ.

- انت من دون سائر الجيش، تخشى ان لاتسمع نفير البوق؟

واثرت بعض الظواهر الطبيعية على معنوياته. كان [ديمتريوس قد رأى في حلمه الاسكندر بكامل سلاحه. ظهر له وطلب منه ان يعلمه بكلمة السرّ التي ستعطي ايذانا بالمعركة، فقال [ديمتريوس] انه يعتزم ان تكون «چوبتر والنصر» فقال الاسكندر:

- اذن فسأذهب الى عدوك، وانتظر منه استقبالي.

وفي صباح يوم المعركة بينما كانت القطعات تتخذ مواضعها عثر انتيغونس بباب خيمته وهو خارج فسقط على الارض واصيب بأذى شديد. ولما زال ألم قدميه، رفع يديه الى السماء ودعا الآلهة ان تمنحه النصر او الموت قبل ان يشعر بالهزيمة. وعندما التحم الجيشان هجم [ديمتريوس] على [انطيوخوس] ابن سلوقوس وكان يقود افضل قطعات الخيالة فهزمه هزيمة نكراء وانطلق يطارده بفورة النجاح وحماسته وابتعد مسافة كبيرة طيشاً منه وتهوراً وبذلك تسبب في خسارة المعركة كلّها. اذ بعد ان ادرك خطأه وقرر الرجوع لمساندة المشاة لم يجد ذلك

ممكنا لان العدوّ قطع خطّ الرجعة بفيلقه. ومن الجهة الثانية لاحظ [سلوقوس] ان القسم الأكبر من مشاة [انتيغونس] ترك مكشوفاً لخيالته، فلم يهجم، بل قام بعدة مناورات تغطية وتظاهر بالهجوم وهكذا ابقاهم في انذار وتحفز وصار يكرّ ويفرّ ويتقدم ويتأخر كانه يهمّ بالاشتباك معطياً الفرصة للجنود الذين يريدون التخلي عن انتيغونس والانضمام اليه، وقد فعل ذلك عدد كبير منهم ولاذت البقية بالفرار. الاّ ان [انتيغونس] ظلّ ثابتاً في موضعه. وعندما تقدمت منه قوات ضخمة وانقضت عليه وصاح احد القريبين منه:

- مولاي انهم يهاجمونك.

لم يجب بغير هذا:

- وماذا في وسعهم ان يعملوا سوى هذا؟ ان [ديمتريوس] سيخفّ لنجدتي.

وظل صامداً يراوده الأمل حتى الأخير، وهو يتطلع الى كل الجهات منتظراً وصول ابنه حتى جُندل مثخنا بطعنات الرماح وهرب اصحابه ومن والاه الاّ [ثوراكس Thorax] اللاريسي فقد بقي يحرس الجثمان.

بعد انتهاء المعركة أخذ الملوك الغالبون يقطعون أوصال الامبراطورية الواسعة التي كانت ملكاً لديمتريوس وانتيغونس. كما يقطعون الجثة، فيلحقون اجزاءها باملاكهم. وفرّ [ديمتريوس] بخمسة آلاف من المشاة واربعة آلاف من الخيالة الى [إفسس] باسرع ما امكنه وكان الاعتقاد السائد انه سيضع يده على كنوز الهيكل، ليُنفق منها على حاجاته ولكنه عمل عكس هذا، فقد اسرع بالرحيل خوفاً من محاولة كهذه يقوم بها جنوده، وابحر الى بلاد الاغريق. ووضع امله الوحيد في الآثينيين الذين استأمنهم على جزءٍ من اسطوله وامواله وزوجه [لايداميا] ولم يساوره اي شكّ في اخلاصهم له، وايجاد كنف من حماهم في محنته. ولما وصل الى الكيكلاديس Cyclades، التقى بوفد آثيني، راح يرجوه ان لايستمر في التقدم نحو المدينة لأن الأهالي صوتوا على عدم السماح لايّ ملك كان بولوج السور. وقالوا انهم رحّلوا [ديداميا] بما يليق من اكرام ولياقة الى [ميغارا] فاجتاحه الغضب. وفارقه صبره ورباطة جأشه. وكان قد ضبط نفسه حتى الآن فلم يبدر منه ما يحط من قدره أو يشين كبريائه. ولكنه لم يتحمل خيبة ظنه بالآثينيين وان يجد تلك الصداقة التي آمن بها واعتمد عليها زائفة فارغة عند الامتحان. فكانت صدمة عظيمة له وغصّه اليمة. والحق ان المبالغة في اظهار التكريم السطحي هو اضعف دليلٍ على الحبّ الحقيقي من الشعب الى اي ملك او أميرٍ. تلك المظاهر تفقد قيمتها كدلائل على المحبة عندما نتذكر بانها انما تنشأ من عامل الخوف. ان

المحبة تستمد قوتها ودوامها من المشاعر الخالصة والاختيار الخُلقي. ولهذا صوت الآثينيون على القرارات الأخيرة كما صوتوا على القرارات الأولى، بنفس الاستعداد والاستعجال. ان ذوي البصائر، والحكماء لاينظرون باعتبار الى التماثيل والرسوم والتكريم الالهي وغيره مما يقدم لهم، قدر ما ينظرون الى اعمالهم وسلوكهم. فمنه يحكمون على امكان الوثوق بالمظاهر كدليل على الولاء الأصيل الحقيقي، او نبذهم باعتبارها مظهراً لولاءٍ قسريّ. والواقع ان الشعب نفسه لايسعه الأ ان يقرف ويشمئز من هواة الاطراء الذين يقبلون عليه بنهم وغطرسة دون احترام لحرية ارادة المعطي.

وديمتريوس الذي اعتقد انه عومل معاملة مهينة لم يكن في وضع يستطيع معه الانتقام. فأرسل عتاباً رقيقاً اعرب فيه عن امله بان يسمح له باسطوله وبينه سفن ذات ثلاث عشرة طبقة. فسلمت له السفن فأقلع بها الى المضايق. فوجد اموره هناك على اسوء حال: فحاميته قد طردت وهناك انسحاب عام وانضمام الى صفّ العدو، وبهذا غدا [پيروس] مطلق اليد في بلاد اليونان. فولى وجهه نحو [الخرسونيز] واجتاح اراضي [ليسيماخوس] واصلح احوال جنوده بالغنائم التي وضع يده عليها فأرتفعت معنوياتهم واشتدت سواعدهم. ولكن لم يهتم احد من الأمراء باعتراضه ومناجزته في هذا الجزء من العالم. [فليسيماخوس] لم يكن محبوباً في تلك الانحاء وانما كان يخشى بأسه فحسب. ولكن ما مَرَّ زمن قصير حتى ارسل [سلوقوس] يخطب ستراتونيكي بنت [ديمتريوس] من زوجه [فيلا].

كان [سلوقوس] قد انجب من [اپاما Apama] الفارسية ابنه [انطيوخوس]. على انه كان قد بسط ملكه على رقع واسعة، لاكثر من خلفٍ واحدٍ. كما انه لجأ الى مصاهرة [ديمتريوس] لأن ليسيماخوس كان في ذلك الحين قد تزوج احدى بنات بطليموس وزوج ابنه من بنته الأخرى. وعد [ديمتريوس] هذا العرض حظاً سعيداً غير متوقع، فأقلع فوراً مع ابنته وجميع اسطوله الى سورية وارسى في الساحل عدة مرات. فنزل في كيليكيا في الجزء الذي كان من سهم [پليستارخوس Plistarchus] اخ كساندر من عملية اقتسام املاك [انتيغونس] بعد هزيمته. فعد پليستارخوس عمل [ديمتريوس] اعتداء على حقوقه ولم يكن آسفاً على هذا الاعتداء المزعوم فقد اهتبلها فرصة للاحتجاج على [سلوقوس] لدخوله في مفاوضات مع [ديمتريوس] عدوهم المشترك دون مشاورة الملوك الآخرين. وابلغ [ديمتريوس] بذلك. وانتهز فرصته فأنقض على مدينة [كونيده Quinda] دون انذار ونهب منها الفاً ومائتي تالنت كانت مودعة في خزائنها. واسرع يلوذ بسفينه ورفع قلوعه ورحل. وفي [روسوس Rhosus] اجتمعت به زوجه [فيلا] وتلاقى مع [سلوقوس] وسرعان ما تمّ الاتفاق الصريح بينهما

وتبادلا الثقة بصفاء نفسٍ بعيداً عن الشكوك. وأولم [سلوقوس] لديمتريوس في خيمته بالمعسكر، وبادله [ديمتريوس] الحفاوة فاقام له وليمة في السفينة ذات الطوابق الثلاث عشر. وتلتها لقاءات وحفلات ترفيه ومؤتمرات وزيارات طويلة لتبادل الآراء العامة دون بطانة ولا حرس مدجج بالسلاح. ثم استأذن [سلوقوس] فرحل وحمل [ستراتونيكي] الى انطاكية بموكب فخم. وانقضّ [ديمتريوس] على [كيليكيا] فأستولى عليها. وارسل [فيلا] الى اخيها [كساندر] للاجابة على شكوى [پلستارخوس]. وانضمت اليه [دايداميا] زوجه قادمة من بلاد اليونان بحراً الاّ انها ابتليت بمرض لم يمهلها كثيراً فقضت نحبها وعلى اثر موتها تمّ الصلح بين [ديمتريوس] و[بطليموس] بتوسط من سلوقوس، واتفق بموجبه على ان يتزوج [ديمتريوس] بـ[بتليمياس] بنت [بطليموس]. الى هذا الحد كان مسلك [سلوقوس] حكيماً وانجازاته طيبة لامطعن فيها. الاّ انه ما لبث ان طلب من [ديمتريوس] النزول له عن اقليم [كيليكيا] لقاء مبلغٍ من المال. فلما رفض طلبه، عاد يفاوضه بحدة في التنازل له عن [صور وصيدا] وهو ما بدا وجهاً من وجوه التحكم الغشوم. بل هو في الواقع عمل شائن ممن يملك تلك الممالك الشاسعة والاقاليم المترامية بين الهند والبحر السوري، فيشعر بمسيس حاجة الى مدينتين فقط؛ دون ان يعبأ بازعاج قريبه الذي عانى الكثير من المحن والارزاء وسوء الحظّ. انه بمختصر القول يبرز حكمة افلاطون: «الطريق الاكيدة الوحيدة التي تؤدي بك الى الغنى الحقيقي هي ان لاتزيد في مالك، بل ان تقلل من رغباتك» فمن لايشبع من التملك يظلّ يؤكد انه مايزال محتاجاً. وهو لاشك فقير في وسط غناه وبحبوحته.

الاّ ان [ديمتريوس] الذي لم تخنه شجاعته ارسل رداً جازماً قال انه لن يدفع اي ثمن لحسن نية ختنٍ له مثل سلوقوس ولو خسر عشرة الاف معركة كمعركة [اپسوس Ipsus] ثم عزز هاتين المدينتين بحاميات كافية لتقوى على الدفاع في حالة هجوم [سلوقوس]. وفي ذات الوقت علم ان [لاخاريس Lachares] انتهز فرصة نزاعه ففرض حكمه على الآثينيين غصباً. فرأى انه لو باغت المدينة لنجح في الاستيلاء عليها بسهولة ولهذا اجتاز البحر بسلام على رأس اسطول كبير. الاّ ان العواصف الشديدة داهمته وهي مار بساحل [آتيكا] فخسر معظم سفنه ومن فيها من رجال. اما هو فنجا. وراح يشن حروباً صغيرة بنطاق ضيق على الآثينيين. ولما عجز عن تحقيق بغيته أرسل يأمر ببناء اسطول جديد وزحف بمالديه من جنود على الپيلوپونيسس، وحاصر مدينة [مسينا]. وافلت من الموت باعجوبة في اثناء هجوم. اذ اصابت وجهه قذيفة منجنيق اخترق سنانها خدّه ونفذ الى فمه على انه شفي بالأخير، وعادت الى ملكه مدن عديدة كانت قد تمردت عليه. ثم شنّ غارة على آتيكا، فأستولى على

[اليوسس Eleusis] ورامنوس Rhamnus، واجتاح البلاد المجاورة لهما، وسقطت في يده سفينة موقرة بالقمح متوجهة الى آثينا فأمر بربانها ومدير شحنتها بان يشنقا ليلقى الرعب في نفوس الاخرين فلا يجرؤ احد على تموين المدينة بالارزاق. فضايقة منه للآثينيين. وبلغ الأمر بالسكان أن ضاقت بهم السبل واصبح البوشل من الملح يباع باربعين درهماً. والپك[٢] من القمح بثلاثمائة درهم. وارسل [بطليموس] مائة وخمسين سفينه لانجادهم فاقتربت حتى صارت على مرمى النظر من [ايجينيا Aeginae] الاّ ان هذا الأمل القصير الأمد مالبث ان ضاع بوصول ثلاثمائة سفينة لتعزيز اسطول [ديمتريوس] من قبرص والپيلوپونيسس وغيرهما. فلاذ اسطول [بطليموس] بالفرار، وهرب الطاغية [لاخاريس] من اثينا وتركهم لمصيرهم المحتوم.

ان الآثينيين الذين كانوا قد فرضوا عقوبة الموت على كل من يقترح ابرام معاهدة أو اتفاق مع [ديمتريوس]، سارعوا الآن يفتحون اقرب الابواب اليه لاخراج وفدٍ لا أملاً من رحمته في فيل شروط حسنة، بل نزولاً عند احكام الضرورة واجتناباً للموت جوعاً. فمن المآسي المريعة قيل ان ابا وابنه كانا جالسين معاً في غرفةٍ وقد ودعا كل أمل ببلغةٍ من العيش واذ بفأر ميت يسقط من السقف، فهجما عليه كل يريده لنفسه تتماسكاً وتضارباً. وروى المجاعة ايضاً أن [الفيلسوف أبيقور] لم ينقذ حياته وحياة تلاميذه الاّ بكمية صغيرة من حبوب الفاصوليا، كان يوزعها عليهم بالعدد يومياً.

كذا كانت حال المدينة عندما دخلها [ديمتريوس]. فبادر يصدر بياناً دعا فيه جميع الأهالي الى الاجتماع في الملعب. ولما انتظم عقدهم أمر جنوده أن يقفوا صفوفاً بظهر الملعب، واحتله بحرسه، ثم دخل من ممرّ الممثلين وقد وصل الرعب بالأهالي غابته القصوى. فبددت كلماته الأولى كل خوفٍ. اذ راح يؤنبهم بلهجة رقيقة، لطيفة خالية من الصرامة، معلناً رضاه عنهم. وزاد على ذلك بتقدم هدية لهم تتألف من مائة الف بوشل من القمح وعين للوظائف العامة اناساً يرضاهم الأهالي.

ولما رأى الخطيب [دروموكليس] مبلغ حيرة اخوانه المواطنين في ايجاد وسيلة للتعبير عن مدى شكرهم بالهتاف او بالكلام، ومبلغ استعدادهم للقيام بايّ شيء في هذا الصدد، خلافاً للامتنان القولي والردّ الرسمي من قبل الخطباء. نهض مقترحاً اصدار مرسوم بتسليم كلّ من قلعتي [پيروس] و[مونيخيا] الى الملك ديمتريوس. فتم ذلك. وبادر ديمتريوس دون توصية من أحدٍ بوضع حامية ثالثة في مسيوم Meseum احتياطاً لأيّ تمرد للأهالي قد يشغله عن خططه

---

(٢) الپك Peck هو ربع البوشل.

الأخرى وبعد استتباب الأمر في اثينا بدأ يتهيأ للهجوم على [لقيديمون] فعلم بذلك ملكها [ارخيداموس] وخرج اليه. الاّ انه انهزم في معركة جرت قرب [مانتينيا] فدخل ديمتريوس [لاقونيا] مُني [ارخيداموس] بهزيمة أخرى قرب [سپارطا] وقتل مائتين من اللقيديمين وأخذ خمسمائة اسير ولم يعد بامكان هذه المدينة التي لم يستول عليها احد من قبل ان تصمد امامه. ولكن من المؤكد الثابت انه كان ملكاً عجيباً لم يخلق مثله لعب الحظّ معه لعبات خاطفة فلم تقم حياة او سيرة مملوءة بهذا القدر من التقلبات السريعة كقصة حياته. فمن صغائر الأمور الى عظائمها، ومن الرفعة الى الذلة، ومن الضعف التام الى نهاية السلطان والقوة! حتى ليقال انه اعتاد مناجاة الحظّ بكلمات [اسخيلوس] كلمّا عضّه الحظّ العاثر بناب:

«انت الذي رفعنا وانت الذي وضعتنا ثانيةً!»

وفي هذه اللحظة عندما بدأ كل شيء متفقاً وامانيه في الملك والسلطة وردت انباء تفيد بان [كيسيماخوس] استولى على جميع ما تحت يده من مدن في آسيا وان [بطليموس] قد اخضع كل [قبرص] عدا سلاميس وان امّه واولاده في سلاميس، محصورون ومع هذا كله، فكالمرأة التي وصفها ارخسيلوخوس Archilochus

تعرض الماء في احدى كفيّها الخادعتين

في حين تتوهج النار في كفّها الأخرى

صدّه الحظّ عن [سپارطا] بهذه الانباء القاضية لكنه في اللحظة عينها فتح له باب خلاص جديد عجيب: فقد توفي [كساندر] ملك مقدونيا. ولم يعش خلفه وابنه الاكبر [فيليب] طويلاً بعد وفاة والده. فأختلف اخواه فيما بينهما حول وراثة العرش. وعمد اكبرهما [انتيباطر] الى قتل امّه [تسالونيكا] فطلب الأخ الاصغر معونة [پيروس] من [اپيريوس] ومعونة [ديمتريوس] من [الپيلوپونيسس] فسبق [پيروس] في الوصول واقتطع جزءً كبيراً من مقدونيا وضمه اليه تعويضاً عن مساعدته تلك. مما حدا بالكساندر الى القلق والاعتقاد بأنه استقدم جاراً خطراً، وانه قد لايتعرض الى مثل هذا الخطر من [ديمتريوس] الذي بدأ أقوى من حليفه، وافضل سمعة. فأسرع يلتقي به في [ديوم Dium] حيث وصلها [ديمتريوس] عندما تسلم رسالة الشاب، وبعد ان سلم عليه واعرب عن شكره لتلبيته دعوته وانه ما عاد بعدُ يرى ضرورة حضور حليفه الأول، دعاه الى العشاء، والواقع ان العاهلين لم يلتقيا بقلبين خاليين من الشك فقد كان احدهما يتوجس شراً من الآخر. وفيما كان [ديمتريوس] يسير الى الوليمة المعدة له اسرّ احدهم في اذنه بأنه سيقتل غيلة في مجلس الشراب. فلم يظهر قلقاً. الاّ انه

تباطأ في سيره وارسل امراً لكبار ضباط جيشه بوضع الجنود تحت الانذار وجعلهم متأهبين بكامل سلاحهم وامر بطانته وكانت تفوق بطانة الكساندر بكثير، ان تتولى حراسته في غرفة الطعام وان لايتحركوا من مواضعهم حتى ينهض. فغلب خدم [الكساندر] على امرهم وجبنوا عن القيام بعملية الاغتيال المدبرة، اذ لم يتح لهم [ديمتريوس] الفرصة بتدابيره وتقصر امد زيارته وزعمه لألكساندر ان صحته السيئة في الاونة الاخيرة لاتسمح له بتعاطي الخمر وترك المأدبة مستعجلاً وفي اليوم الثاني بدأ يستعد للرحيل زاعماً لألكساندر ان الانباء التي وردته تستدعى منه العودة، واعتذر عن رحيله الفجائي معرباً عن أمله بلقياه حالما تسمح له اعماله. وسرّ الكساندر لا برحيله وحده، بل لأن ذلك تم بمحض رغبته ومن دون احراج وعرض عليه فرافقه حتى [تسالي]. وعند بلوغهما [لاريسا] تبودلت الدعوات فيما بينهما وجرت فيها احاديث صريحة فيها حسن نية ظاهرة يفوح منها ريح مؤامرة جديدة على [ديمتريوس] إلاّ ان الوضع انقلب واصبح المتآمر تحت رحمة الضحية: لم يشأ [الكساندر] ان يتخذ لنفسه اي احتياطات لئلا يوجس ديمتريوس منها خيفة فيبادر الى اتخاذ احتياطات مقابلة، وكان ان وقع ضحية غدره. فقد قبل دعوة [ديمتريوس] وجاء الى مقرّه وفيما هما يتناولان عشاءهما نهض [ديمتريوس] من مجلسه وسار، فقام الكساندر ولحق به متجهاً صوب الباب.

وفيما [ديمتريوس] يجتاز التفت الى حرسه وقال:

- أقتلوا من يتبعني.

وأستأنف سيرة. فوثبوا على [الكساندر] وقضوا عليه وعلى كل اصدقائه الذين حاولوا انقاذه. وقال احدهم قبل موته:

- سبقتنا بيومٍ واحدٍ.

وتلا ذلك بطبيعة الحال، ليلة حفلت بالفوضى والاضطراب. وظلّ القلق مستحوذ على نفوس المقدونيين حتى الصباح خوفاً من [ديمتريوس] لكن لم تظهر منهم بادرة عنف. ووصلتهم منه رسالة يطلب فيها مقابلة لشرح الاسباب التي دعته الى هذا العمل، فأفرخ روعهم، وعادت ثقتهم بأنفسهم وتهيأوا لاستقباله استقبالاً حسناً، ولم يكن بحاجة الى الإطالة وكثرة الكلام. وسرعان ما حملهم بغضهم لانتيباطر، قاتل امّه، وفقدان أخيه وهو أفضل منه، على المناداة بـ[ديمتريوس] ملكاً لمقدونيا. وأسرعوا الى بلادهم في ركابه. ولم يأسف المواطنون المقدونيون للتغيير، فهم يذكرون جيداً أعمال [كساندر] السيئة وغدره بأسرة الاسكندر ولايغتفرون. وكان من فائدة [ديمتريوس] ان يذكروا له الأفعال الجميلة والحكم الرفيق البسيط الذي مارسه

عليهم حموه [انتيباطر] الأول والد [فيلا] لاسيما وان ابنه منها اصبح الآن فتىً منخرطاً في الجيش وهو ولي عهد ابيه بلا جدال.

الى جانب هذا الحظّ، ورده نبأ قيام [بطليموس] باخلاء سبيل والدته واولاده وصرفهم بالهدايا والهبات الكثيرة، وان بنته [ستراتونيكي] زوج سلوقوس، اصبحت الآن زوجاً لانطيوخوس ابنه، وقد نودي بها ملكة على آسيا الشرقية.

يبدو ان [انطيوخوس] هام حباً بالملكة الصغيرة [ستراتونيكي] التي انجبت لسلوقوس ابناً. فقاوم [انطيوخوس] تلك العاطفة مقاومة شديدة، وبالأخير وجد ان حبه هذا غير شرعي مطلقاً، وانه مرض فيه لايرجى شفاؤه، ولا تقدر قواه الفعلية على اخماد جذوته فأستقرّ رأيه على الموت. ولجأ الى قتل نفسه قتلاً بطيئاً. فأهمل شأنه وامتنع عن تناول الطعام وتصنع المرضى. وسرعان ما ادرك طبيبه [ايراسيستراتوس Erasistratus] ان علّته في الحب لكن صعب عليه معرفة من وقع في حبها. فلازم غرفته لا يبارحها مراقباً تقلّب مريضه وانفعالات وجهه عندما قيام جميلات البلاط بزيارة الأمير العليل. فلم يجد اي أثر يتخلف على اساريره دليلاً على ما يبطن من عاطفة، على كثرة النساء اللاتي أختلفن اليه. الاّ انه لاحظ الأعراض المعهودة، كلما دخلت ستراتيونيكي اليه وحدها او برفقة [سلوقوس]. تلك الأعراض التي وصفتها [سافو Sappho] وهي رعشة صوته واحمرار وجهه واستراق النظرات وزيغانها، وعَرَق مفاجيء ينضحُ من سائر جسمه، ومسارعة خفقان قلبه، واضطرابه وعجزه عن ضبط طغيان عاطفته، وامتقاع وجهه بعد احمرار، ثم الاغماء وفقدان الوعي.

فكر [ايراسيستراتوس] بالأمر ملياً ودرس الأعراض، وأخذ يقلب الاحتمالات من شتىّ الوجوه. فأستقرّ على ان من يحبها لو كانت غير [ستراتونيكي] لما بدأ منه هذا الإصرار العجيب على الموت، ولا البوح يسره وشعر بالصعوبة التي تكتنف حَلّ مشكلٍ كهذا وابلاغ [سلوقوس] بالحقيقة. الاّ انه اعتمد شدّة تعلق الاب بالفتى وحنانه العظيم. وأخيراً سنحت له فرصة واعلمه بأن مرض ابنه هو الحبّ. حبّ يستحيل ان يبرأ منه او يعالج به. فكان عجب الملك شديداً وسأله:

- ولماذا يتعذر شفاؤه منه؟

فقال [ايراسيستراتوس]: في الواقع انه يحبّ امرأتي!

فقال [سلوقوس]: كيف؟ وهل يرفض صديقنا [ايراسيستراتوس] ان يمنح امرأته لابني وولي عهدي الوحيد، وهو السبيل الوحيد لانقاذ حياته؟

فأجاب الطبيب: اولست اباه؟ اتفعل فعلي لو كان من يحبّه ستراتونيكي؟

فقال [سلوقوس]: ثق أيها الصديق، اني لأرجو من السماء أن تيسرّ لي اي وسيلة كانت انسيّة ام ربانية، لتتحول عاطفته الى هذه الجهة؛ اني لأسر لا بالتنازل عن [ستراتونيكي] وحدها بل عن امبراطوريتي. ان كان في ذلك امل في انقاذ [انطيوخوس].

قال [سلوقوس] هذا بعاطفة حافلة بالصدق وكانت دموعه تنهمر اثناء الحديث. وعندئذ امسك [ايراسيستراتوس] بيده وقال:

- أنت الآن لست بحاجة الى [ايراسيستراتوس]. فأنت الزوج وانت الأب، وانت الملك. فأنت اذن الطبيب المناسب لاسرتك!

فبادر [سلوقوس] الى دعوة الشعب وصارحهم باعتزامه تنصيب ابنه ملكاً وستراتيونيكي ملكة على كلّ الاقاليم الواقعة في شرق آسي. وان يجمع بين الاثنين برباط الزواج. وقال انه يملك السلطة الكافية على ابنه حسب اعتقاده فهو لذلك لايتوقع منه اعراضاً وصدوداً عن اوامره هذه. واما بخصوص [ستراتونيكي] فهو يأمل ان يوفق اصدقاؤه في اقناعها. واذا اظهرت تردداً وتمنعاً. فليفهموها بأن هذا في الواقع اعلاء لشأنها وتكريم لمنزلتها. وهي أمور لا غبار عليها مادام قرر الملك انها ضرورية للصالح العام.

وبهذه الوسيلة تم زواج [انطيوخوس] بستراتونيكي، على ما روي لنا الرواة.

ولنعد الى [ديمتريوس] بعد ان تربع على عرش مقدونيا. فقد انقضّ على تساليا وأخذها. كما ضبط القسم الاكبر من [البيلوپونيسس] ومن الجهة الغربية من البوغاز. استولى على ميغارا وآثينا. ثم زحف على البويوثيين وعولج الأمر اولاً بالتفاهم. الاّ ان [كلونيموس Cle-onymus] السپارطي انجدهم بجيشه ودخل [ثيبه] وجرّ أهم على المقاومة [پيسيس Pisis] التسپي وهو اقواهم نفوذاً فنبذوا اتفاقهم جانباً. لكن ما أن دنا [ديمتريوس] من الأسوار بآلات حصاره حتى دبّ الخوف في قلب [كليونيموس] وانسحب في موهن من الليل. ولما وجد البويوثيون انفسهم وحيدين في الميدان، اعلنوا خضوعهم فوضع [ديمتريوس] حامية في مدينتهم وفرض عليهم غرامة كبيرة، ونصب [هيرونيموس Heironymus] المؤرخ حاكماً وقائداً عسكرياً في المدينة. ولم ينل [پيسيس] باذى وانما توجه اليه بالكلام الرقيق وجامله وعينه رئيساً لقضاة تسپيا Thesipiae.

وبعد قليل، وقع [ليسيماخوس] في اسار [درومیخيتس Dromichaetes] فأهتبل

[ديمتريوس] فرصته واستولى على [تراقيا] التي بقيت دون ملك يحكمها. الاّ ان البويوثيين تمردوا عليه من جديد، ووردت انباء باطلاق [ليسيماخوس] من الأسر. فعاد [ديمتريوس] ادراجه غاضباً ليجد ان ابنه [انتيغونس] قد سبقه الى سحق البويوثيين في معركة طاحنة فباشر هو حصار ثيبة. وفي اثناء ذلك علم ان [پيروس] شنّ الغارة على تساليا وانه وصل حتى مشارف [ثرموبيلي] فاوكل لانتيغونس تشديد الحصار وزحف ببقية الجيش لمهاجمة المغير، الاّ ان [پيروس] اسرع بالانسحاب. فترك [ديمتريوس] عشرة الآف من المشاة والفاً من الخيالة في تساليا وعاد لمواصلة حصار [ثيبة]. وجاء بـ«قانصة المدن» الشهيرة لدعم هجومه. وكانت حركة هذه البارجة في غاية البطء والصعوبة لضخامة جرمها وثقل هيكلها ولم تتقدم أكثر من فرلنگين اثنين في غضون شهرين. وكان الاهالي في الوقت ذاته يستميتون في الدفاع. حتى ليبلغ جنون العناد [بديمتريوس] الى حد ارسال جنوده في مهمات خطرة جداً دون ضرورة او ثمرة. وكان ابنه [انتيغونس] يرقب بعين الأسى هلاك الكثير من الجنود في مثل هذه الهجمات فناشد اباه قائلاً:

- لماذا نحن نواصل تعريض حياة الرجال للهلاك في حين لا ضرورة ثم لذلك؟

فقاطعه [ديمتريوس] وقال له بحدّة:

- وانت يا سيدي الفاضل! لماذا يؤلمك الأمر، أياتي الموتى اليك يطلبون الارزاق اليومية؟

على ان الجنود لم يكونوا ليرفضوا له امراً اذ يجدونه قليل الاحتفال بسلامته لايقيم لحياته وزناً قدر ما يقيم لحياتهم ويهتم بهم، ويعرض نفسه لاعظم الأخطار دون تداخله شفقة بحاله. وقد اصيب عنقه بطعنة حربةٍ حتى خيف على حياته. الاّ انه واصل الحصار مع ذلك. حتى فتح المدينة ودخلها واهلها يرتجفون خوفاً وهلعاً متوقعين منه كل قسوةٍ يمكن ان يستخدمها الفاتح الغاضب. الاّ انه أكتفى بارسال ثلاثة عشر شخصاً الى الآخرة. ونفى عدداً قليلاً وعفا عن الجميع: هكذا حوصرت ثيبه مرتين وفتحت مرتين في فاصل قصير من الزمن - تلك المدينة التي لم يمض على اعادة بنائها عشر سنوات كاملة.

بعد هذا حّل موعد الاحتفال بعيد [ابوللو] البيثني. وكان الاتيوليون قد سدوا كل المنافذ الى دلفي - فأحيا [ديمتريوس] العيد والالعاب معاً في اثينا. متعللاً بأن يكون هذا الاكرام في اثينا لأن ابوللو هو الآله الشفيع للشعب الآثيني، ومؤسس امتهم على ما يعرف.

ثم عاد [ديمتريوس] الى مقدونيا. وكان ينفر من الهدوء والاستقرار بطبعه ويدرك ان المقدونيين هم اطوع الشعوب واسهلهم انقياداً عندما تشغلهم مشاغل القتال والحملات

العسكرية، وهم ابعد عن الاستقرار واقرب الى التمرد والتململ في اوقات السلم والبطالة. فزحف بهم على الايتوليين المتمردين وبعد ان عاث في بلادهم سلباً وغصباً، ترك [پنتاوخوس Pantauchus] مع جانب من جيشه لأكمال الفتوح وزحف بالبقية لمطاردة [پيروس] الذي كان هو الآخر ينشد لقاءه. الاّ ان الصدف حكمت بان يسلك كل منهما طريقاً مختلفاً فلم يتلاقيا. لكن عندما دخل [ديمتريوس] ايپروس واجتاح كل ما صادف امامه كان پيروس يباغت [بنتاوخوس] ويلتحم مع في معركة اليد باليد وجرح القائدان. الاّ ان الغلبة كتبت [لپيروس] ووقع في يده خمسة آلاف اسير وسقط كثير من القتلى في ميدان القتال. ان اسوء ما في الأمر هو ان [پيروس] كان يثير في النفوس من الاعجاب اكثر مما يثيره من العداء. وبسالته الفائقة ومساهمته في القتال شخصياً، رفعت اسمه ومكانته لدى المقدونيين فأخذوا يمجدونه ويلهجون باسمه قائلين انه الملك الوحيد القريب الشبه بالاسكندر. فالملوك الآخرون ولاسيما [ديمتريوس] لم يحاولوا احتذاء حذوه بالافعال بل كانوا اشبه بالممثلين على المرسح، يحاكون عظمته وجلال مظهره لا غير. والواقع ان [ديمتريوس] كان مجرد ابهة فارغة ولعبة مزخرفة بارديته وتيجانه وارجوانه المطرز بالذهب وقلانسه بذوائبها الغليظة واحذيته المصنوعة من أفخم اللباد الارجواني المطرز بالذهب. ولنخصّ رداء واحداً بالوصف: انه نسيج فنيّ رائع اطول من ان يتسع لنول الحائك عند نسجه. نقشت عليه صورة الكون والاجرام السماوية لم يكمل نسجه لأن النكبات داهمته فأشغلته عنه، ولم يقدم احدٌ من خلفائه على ارتدائه مع ان سلالته لم تخل من المتفجرفين المتغطرسين.

لم تكن هذه الآبهة المرسحية وحدها سبب اشمئزاز المقدونيين وقرفهم. بل كان ايضاً بذخه وترف عيشه بل صعوبة الوصول اليه والتحدث معه. فهو مترفع محتجب لايرى اذا كان في حالته الاعتيادية واذا سمح بمقابلة فهو عنيف لايطاق كريهُ الاستقبال. فمع انه كان يهتم بأمور الآثينيين أكثر من سائر الاغريق، فقد ترك وفداً لهم، عامين كاملين ينتظر الحصول على اذن بمواجهته. وارسل اللقيديميون موفداً واحداً في سفارة، فعدها إهانةً وسأل غاضباً. احقّ ان اللقيديميين لم يرسلوا غير سفير واحدٍ. فأتاه الجواب دراكاً:

- أجل سفير واحدٌ لملك واحد!

وفي حالة من حالة الصفاء وطيب المزاج، خرج مرةً راكباً جواده فلحقه عدد من الناس وقدموا اليه مظلمات مكتوبة في رقاع فتناولها منهم جميعاً بكلّ لطفٍ ووضعها في جيبه، فعمت الناس الفرحة واخذوا يتابعونه في السير حتى اذا وصل الجسر الممتد فوق نهر [اكسوز Axius] نفض جيب معطفه فتساقطا كل الرقاع في النهر. هذه الفعلة اثارت اشد السخط

والحنق في نفوس المقدونيين وشعروا بأنهم لايحكمون بل يهانون. وتذكروا ما شهده بعضهم في الأيام الخوالي. وتسامع آخرون ما حكي عن بساطة الملك [فيليب] وسجاياه السمحاء اللطيفة.

في يوم ما اعترضت امرأة عجوز سبيله عدة مرات وهو سائر والحت عليه بأن يصغي اليها فلما اجابها بأن لا وقت لديه صاحت به:

- ان كان الأمر كذلك، فلا وقت لديك لتكون ملكاً.

اصابه هذا التوبيخ في الصميم. ففكر ملياً وعاد الى بيته، ونبذ جانباً كل ما يشغله واوقف نفسه اياماً عديدة على سماع شكاوى كل قاصد، مبتدئاً بالعجز.

ان نشر العدل هو اول ما يجب ان يهتم به الملوك في الواقع. ويقول [طيموثيوس]: «ان مارس هو الطاغية»، لكن «القانون هو ملك الجميع». كما يقول پندار. وهوميروس، لم يقل ان الملوك يتسلمون منه مبادئ العدل ليحفظوها ويطبقوها. وجوپتر، لم يمنح لقب «الصديق الاعز، والتلميذ» لأشد الملوك مراساً في القتال، ولا لأكثرهم ظلماً ونعطشاً للقتل. بل لأعدلهم وأكثرهم انصافاً. وكان [ديمتريوس] يُسرّ بتلك الالقاب التي يمجها ذوق رأس الالهة وينبو عنه. امّا الاسماء الطيبة التي تخلعها الآلهة فهي امثال «المدافع» و«الساهر». وأما هو فقد عرف بلقب «محاصر المدن» لقد اعطى الصدارة في موضع - لو لم يكن جاهلاً قدر ما هو قوى - لعلم انه صدارة الرذيلة. وقد أختلط الشرف بالجريمة بعمله هذا.

كان [ديمتريوس] طريح الفراش يعاني مرضاً خطيراً في پللاً Pella بينما راح [پيروس] يبتلع مقدونيا متقدماً حتى مدينة [اديسا Edessa]. ولكنه اسرع بطرده بعد ان تماثل للشفاء، ثم عقد معه صلحاً اذ لم يكن يريد اشغال نفسه بسلسلة من الحروب المحلية مع احد جيرانه بينما ركز افكاره في هدف آخر؛ الا وهو محاولة استعادة امبراطورية ابيه. وكان استعداده يناسب آماله العريضة ومشروعه الجسيم. فقد باشر بتجنيد ثمانية وتسعين الفاً من المشاة وزهاء اثني عشر الفاً من الخيالة، وبدأ في بناء عمارة بحرية تتألف من خمسمائة سفينة. بعضها بناه في اثينا، وبعضه في كورنث. وجزء في خلقيس وبالقرب من [پللا] وكنت تراه كثير الحركة والتنقل بين هذه الاحواض لاصدار اوامره والاشراف على التصاميم وكان الذهول يرتسم على الوجوه عندما يتأمل المشاهد الكثيرة والضخامة فالى ذلك الحين لم يكن معروفاً في عالم السفن، بارجة ذات خمس عشرة طبقة او ست عشرة. لقد بنى [بطليموس] فيما بعد سفينة ذات اربعين طبقة طولها مائتان وثمانون كيوبيتا. وارتفاعها

حتى قمّه مؤخرتها. ثمانية واربعون كيوبيتا. فيها اربعمائة نوتي، واربعة آلاف جذاف وتتسع لثلاثة آلاف جندي تقريباً للحرب على ظهرها على ان هذه السفينة كانت للاستعراض والمظهر لا تستخدم في الحرب. وهي اشبه شيء بصرحٍ مشمخرّ ثابت البنيان على ساحل البحر لايمكن تحريكها الاّ بعد الجهد الجهيد وتعريضها للمخاطر، اما سفن [ديمتريوس] هذه فقد صممت للقتال فضلاً عن الاستعراض. ومنظرها لايقلّ باي حالٍ عن فائدتها وهي تثير الاعجاب حقاً بسرعتها ومتانتها مثلما يثيره جرمها.

هذه الاستعدادات الهائلة لحملة آسيا التي لم يجر مثلها منذ غزوة الاسكندر لها، قربت ما بين [سلوقوس] و[بطليموس] و[ليسيماخوس] فعقدوا حلفاً دفاعياً. كما بعثوا بسفرائهم الى [پيروس] ليحملوا على القيام بعملية مشاغلة حربية عن طريق مهاجمة مقدونيا. ولم يكن هذا بحاجة الى كثير تفكير بقيمة معاهدةٍ يعقدها [ديمتريوس]، فهي لديه مجرد وسيلة من الوسائل التي تساعده على اختيار عدوّه ومهاجمته. فبادر [پيروس] الى قبول عرضهم وكان [ديمتريوس] في متنصف مرحلة الاستعداد. فما وجد نفسه الاّ والقتال يكتنفه من جميع الجهات. [بطليموس] يغزو بلاد اليونان باسطول جبار. وليسيماخوس يدخل مقدونيا من جهة تراقيا وپيروس يقتحم حدودها من جهةٍ [ايپيرون] فيجتاح هذان الأخيران بلاده وبعيثان فيها سلباً وتدميراً. ترك [ديمتريوس] ابنه للاهتمام بمصير بلاد اليونان وتقدم لانقاذ مقدونيا واختار [ليسيماخوس]. وبلغه وهو في تقدمه ان [پيروس] استولى على [بيرويا Beroea] فسرى النبأ الى الجنود بسرعةٍ وقضى على النظام وفقد السيطرة وامتلأ جو المعسكر بالبكاء والعويل وصيحات الغضب والقدح في [ديمتريوس] وصب اللعنات والشتائم عليه. وأعلنوا انهم لن يبقوا بل سيذهبون لانقاذ بلدهم واصدقائهم وذويهم. وكانت نيتهم الحقيقية، الانتقاض على [ديمتريوس] والانضمام الى [ليسيماخوس]. فرأى [ديمتريوس] ان افضل ما يمكن عمله هو ابعادهم قدر المستطاع عن ليسيماخوس لأنه ابن بلدهم وفي جيشه كثيرون يعطفون عليه ويحبونه، قادم جديد واجنبي عنهم يصعب تفضيله لذاته. غير انه وجد نفسه على خطأ مبين في تقديره هذا. فما ان اصبح قريباً من [پيروس] وضرب خيامه امامه، حتى سرت نفحة اعجاب كامن ببسالته واقدامه. وكان الجنود يتناقلون خلفاً عن سلفٍ القول المأثور بان خير الملوك هو اشجع الجنود. ولطالما تحدثت الالسن عن معاملته الكريمة لأسراه وعدالته، ولا نطيل فقد كان جنود [ديمتريوس] يريدون استبداله، ووجدوا في [پيروس] خير بديل. وفي مبدء الأمر خرجت شراذم المؤخرة عليه، وما مرّ زمن حتى أعلن الجيش برمته عصياناً وبرز عدد منه الى ديمتريوس، وابلغوه بصراحة أن يعجل في الرحيل ان كان يقيم وزناً لحياته. لأنهم قرروا

بالاّ يجازفوا بارواحهم بعد اليوم ليؤمنوا له عيشه الباذخ وليمتعوه بالملذات. لاشك انه كلام معقول صحيح اذا قورن بما سمعه من قبل. فلم ير بداً من الانسحاب الى خيمته وابدل ثيابه الملكية كما يفعل المثلون بثياب عادية، وتسلل خارج المعسكر، وما ان غاب خياله عن النظر حتى شرع الجنود يختصمون ويفتك بعضهم ببعض لحيازة اسلاب خيمته. الاّ ان [پيروس] وصل فوراً ووضع يده على المعسكر ولم يقع حادث مؤسف خلال ذلك. ثم عمد الى اقتسام مقدونيا مع [ليسيماخوس] بعد ان ملك عليها [ديمتريوس] سبع سنين متواصلة.

وذهب [ديمتريوس] الى [كساندريا Cassandria] بعد ان فقد كل شيء. وادرك [فيلا] حزن عظيم ولم تتحمل رؤية زوجها في هذه الحالة المرزية من سوء الطالع لايّعدو وشخصاً عادياً منفياً عن بلاده. فرفضت ان تتعلق بأملٍ آخر. وقررت ترك حال لاثبات له ولا استقرار الاّ في الكوارث والنوائب. فشربت سماً وماتت. وشد [ديمتريوس] الرحال الى بلاد اليونان وهو مصرّ على التعلق بالحطام. وهناك جمع اصدقاءه وضباطه حوله. يقدم لنا [فيبلاوس] في مسرحية [سوفوكلس] صورة عن تقلب احواله فيقول:

... امـــا انا فـــقـــد وجـــدت مـــصـــيـــري، وأاســـفي -
يـدور فـــــوق عـــــجلة الآلـهـــــة الـســـــريعـــــة.
فـــيظل في تقلّب وتحـــوّل، مـــثل اشكال القـــمـــر الجـــمـــيـل
لايســـتـــمـــر ليلتين على حـــالةٍ. بل يـبـــدو اولاً في الظلّ
هلالاً ثم يكبــــر ويزداد جـــمـــالاً حـــتـى يكتـــمـل بدراً
ثم يتناقص شكله الكامل ويتــضاءل حـتى يختـفي تمامـاً.

يصدق هذا التشبيه على [ديمتريوس]. فترى خطه في ارتفاع، واذ به يتضاءل ويتناقص، ثم يزيد ليحطّ فجأةً وهكذا، في طور ضموره وخمول شأنه يسطع ضوءه مرة أخرى وتبدأ وسائل القوة تقبل عليه شيئاً فشيئاً فتحيي في نفسه الأمل ثانيةً ظهر في مبدء الأمر في ثياب رجل بسيط يطوف في المدن عاطلاً عن مظاهر الملك. ولقيه احدهم في [ثيبه] فتذكر به قصيدة ليوريپيدس بلغ فيها كبد الحقيقة اذ قال فيها:

ذليل امـام البـشـر، منبـوذ من القـوى الالـهـيـة
قادم الى دركه Dirce والى جهة اسمينوس Ismenus

وسرعان ما أخذت آماله تنتعش وتسلك سبيلها الملكيّ. اذ راح يجمع حوله اطار مملكةٍ. وأهدى الى الثيبيين دستورهم السابق. اما الآثينيون فقد نبذوه وعزلوا [دفيلوس Diohilus] كاهن «الربين الحارسين» في تلك السنة واعادوا الأرخون كالسابق وارجعوا السنة الى ما كانت

عليه. ولما سمعوا ان [ديمتريوس] لم يعد ضعيفاً كما ظنوا. ارسلوا الى [پيروس] في مقدونيا يلتمسون حماية منه. وعندها ثار غضب [ديمتريوس] وزحف على آثينا والقى حصاراً محكماً حولها. فضاق الأمر بهم وارسلوا اليه [قراطس Crates] الفيلسوف وهو رجل ذو نفوذ وسمعة فنجحت وساطته بحكمته وحسن تصرفه واقنع [ديمتريوس] برفع الحصار. ثم انه جمع كل سفنه واصعد اليها أحد عشر الف راجل مع الخيالة واقلع بها الى آسيا وهدفه انتزاع اقليمي [كاريا] و[ليديا] من قبضة [ليسيماخوس]. ووصل الى [ميليتوس] فالتقى هناك - [يوريديكي Euridice] شقيقة [فيلا] وكان معها بنتها [بطليمياس] التي ولدت لها من الملك [بطليموس] وهي خطيبة [ديمتريوس] كما ذكرنا، فتزوج منها هناك. وشرع في تنفيذ خططه وواتاه الحظّ في اول الأمر، حتى ان مدنا عديدة شقت عصا الطاعة وانضمت اليه. كما انه نجح في الاستيلاء على المدن التي امتنعت عليه لاسيما [سارديس]. والتحق به ايضاً عدد من قواد [ليسيماخوس] بجنودهم واموالهم. الاّ انه انسحب الى [فريجيا] عازماً التوجه الى [ارمينيا] عند وصول اغاثوكليس ابن ليسيماخوس على رأس جيش. وكان يرى ان تثبيت قدمه في ارمينيا يتيح له الفرصة لاطلاق لهيب الثورة في ميديا وبذلك يتمركز في شرق آسيا، حيث يسهل على قائدٍ هاربٍ مثله ان يجد له مائة طريقة وطريقة للروغان والهرب. على ان [اغاثوكليس] جَدّ في اثره دون أن يمنحه راحة. ووقعت عدة اشتباكات صغيرة كانت الغلبة فيها [لديمتريوس]. لكن مضايقة اغاثوكليس اشتدت. حتى ازهق انفاسه بغاراته المستمرة عليه واظهر رجاله مللهم ونفورهم من اهدافه وهي كما تصوروها: الابتعاد بهم مسافة كثيرة في مجاهل ارمينيا وميديا. وتفشت المجاعة فيما بينهم واخطاؤا في عبور نهر [ليكوس Ly-cus] ففقدوا بسبب ذلك عدداً كبيراً منهم اذ جرفهم التيار واغرقهم. على ان روح الدعابة لم تفارقهم، فقد عمد احدهم الى تثبيت رقعة على باب خيمة [ديمتريوس] كتب فيها بيتين لاوديپ Oedipus. اجرى فيهما بعض التغيير:

«يا ابن الشيخ الأعمى انتيغونس الى اية بلادٍ جئت بنا ؟

وبدأ الطاعون يفتك بهم فضلاً عن الجوع، وهو مالا مناص منه عندما تلجيء الضرورات الجيوش الى الاعتياض عن جراياتها المعتادة بما يتيسر لها من قوت. وبهذا الوباء فقد ثمانية آلاف من رجاله، فأنسحب بالبقية الى [طرسوس]. ولما كانت هذه المدينة من املاك [سلوقوس] فقد حرص ان يجنبها السلب والنهب متوخياً ان لايلحقه اي ضررٍ. وكان يصعب عليه ضبط اندفاع جنوده وهم في اشدّ حالات الضيق. فقد عمد]اغاثوكليس] الى شَدّ منافذ جبل [طرسوس] وضيقا الخناق عليه. فلم ير بداً من الكتابة الى [سلوقوس]. وبدأ رسالته

بالتظلم من سوء حظّه، ثم انتقل الى الرجاء والتوسل، وتحريك عاطفة الحنان على قريب له ابتلى بالارزاء والمحن حتى رقّ له اعداؤه واشفقوا عليه. فأثرت رسالته في نفس [سلوقوس] واصدرا اوامره الى حكام تلك الاقاليم باكرام وفادة [ديمتريوس] وتزويده بما يتفق ومقامه الملكي. وبما يكفي جنوده من الارزاق. الاّ ان [باتروكليس] وهو رجل محترم الرأي عند [سلوقوس] وصديق مخلص وموضع ثقة كبيرة اشار عليه قائلاً: ان نفقات اعاشة هذا العدد من الجنود لبس من الاهمية بشي. ولكن من خطل السياسة ان يبقى ديمتريوس في بلاده. فهو من دون سائر ملوك عصره، عنيف، مغرم بالمخاطرات جرئ في اطلاب المغامرات. وهو الآن يعاني وضعاً يغرى أكثر الناس اعتدالاً ودماثة بمحاولات جنونية يائسة. اثارت هذه النصيحة هواجس [سلوقوس] فتحرك بجيش جرار نحو [كيليكيا] فغلبت الدهشة على [ديمتريوس] من التغير الفجائي وتدبر امر سلامته بالانسحاب الى أشدّ المواضع وعوثة ومناعة من جبل طرسوس. وارسل من مربضه هذا رسلاً الى سلوقوس يرجوه السماح له بالبقاء مع جيشه في محلّ ما بين قبائل البرابرة المستقلة. وبذلك يتسنّى له ان يجعل من نفسه ملكاً صغيراً، وان يختم حياته هناك بعيداً عن المشاكل والمتاعب والتنقل. اما اذا رفض طلبه هذا، فليقدم على الأقل قوتاً لجنوده اثناء الشتاء وان لايعرّضه وهو في وضعه المحزن هذا الى شماتة اعدائه وحقدهم.

الاّ ان حسد [سلوقوس] وهواجسه جعلته يتبين في كل ما كتبه سوء النية. فأجاب انه يسمح له بالبقاء شهرين في [كاتاونيا Cataonia] ولا أكثر من هذا على ان يرسل اليه فوراً كبار اصدقائه لابقائهم رهائن لديه حتى رحيله. ثم عمد في الوقت نفسه الى تحصين كل الممرات المؤدية الى سورية. فوجد [ديمتريوس] نفسه اشبه بالوحش الضاري في الشرك، مطوقاً من كل الجهات والجأه يأسه هذا الى الدفاع المستميت عن نفسه فأخذ يشنّ الغارات على البلاد واستظهر على [سلوقوس] في عدة هجمات شنها هذا عليه. ونذكر عنها تعرضه لهجوم العجلات ذات الأسنة المنجلية. فتحاشى الهجوم وراغ منه ثم كرّ على المهاجمين فهزمهم. ودفع بالجنود الذين وضعوا لحراسة الممرات الى الوراء وسيطر على الطرق المؤدية الى سورية. فأرتفعت معنوياته كما دبت في نفوس جنوده الحماسة فقرر الاندفاع الى الأمام دون تردد والدخول في معركة فاصلة مع [سلوقوس] يتقرّر فيها كلّ شيء. وكان [سلوقوس] في واقع الأمر يعاني القلق والهّم. فهو من جهة يكره ان يأتيه اي عون من [ليسيماخوس] لأنه يخشاه ولايثق به. وهو من جهةٍ يحجم عن الدخول في معركة مع [ديمتريوس] لأنه يعرف مدى بأسه. وتقلبات حظّه العجيبة التي طالما ارتفعت به فجأة في أسفل سافلٍ الى أعلى عليّ.

وتقدم [سلوقوس] منه وضرب مخيمه على مقربة، ثم حرّك [ديمتريوس] جنوده يبغي مباغتة ليلاً وظلّ [سلوقوس] الى آخر لحظة يجهل كلّ شيء وآوى الى فراشه حين أقبل احد الهاربين واعلمه باستعداد العدوّ، ولم يجد لنفسه الوقت الكافي ليهبّ من فراشه وهو في اشدّ حالات الانزعاج، لينذر رجاله وكان يصدر الاوامر لضباطه ويوصيهم باليقظة والحذر لأنهم سيجابهون وحشاً ضارياً رهيباً وهو يحشر رجليه في حذائه. واستنتج [ديمتريوس] من الضوضاء القائمة في معسكر العدو ان الأمر المبيت لم يعد سراً وان خطته انكشفت فسحب جنوده بسرعة. وفي صباح اليوم التالي كان [سلوقوس] يضغط عليه ضغطاً شديداً. وأمرّ احد ضباطه على الجناح الايسر ودحر القوات التي تواجهه. وترجل [سلوقوس] ونزع خوذته وتناول ترساً وتقدم عن صفوف الجنود المرتزقة الامامية وكشف لهم عن شخصه وطلب منهم ان يتبعوه ويتركوا ديمتريوس قائلاً «انما لأجل سلامتهم، امتنع عن المعركة هذه المدة الطويلة. فحيوا [سلوقوس] تحية الملك وانفصلوا عن [ديمتريوس] وانضموا الى سلوقوس اليه دون ان يرفع احد منهم يده بضربة.

وهنا إدرك [ديمتريوس] انه وصل الى نهاية لعبة الحظّ، ولم يعد بعد أمل في انقلاب. فهرب الى شعاب جبال امانوس وقذف نفسه مع شرذمة من الاصدقاء والاتباع في احشاء غابة كثيفة وظلّ هناك ينتظر الليل وكل قصده ان ينجو بجلده بالتوجه نحو [كاونس Caunus] ان تيسّر له ذلك. فقد كان يأمل ان يجد سفنه متاهبة لنقله، لكنه وجد بعد سؤال الربابنة انهم لايملكون اقواتاً ولو ليوم واحدٍ فبدأ يفكر في وسيلة أخرى للنجاة. وفيما هو يقلب وجوه الرأي، وصل صديقه [سوسيگينس Sosigenes] ومعه اربعمائة قطعة من الذهب وبهذا الفرج راوده الأمل بالوصول الى الساحل وما ان بدأ الظلام يسدل استاره حتى انطلق نحو الشعاب. الاّ ان ألسنة النيران المشبوبة انذرته باحتلال العدو لها فودّع كلّ امل له بهذا السبيل وانسحب الى مقرّه في الغابة ببعض رجاله. فقد هرب بعضهم ولم تبق في الباقين رغبة في ملازمته. وتجرأ احدهم على القول: بأن الأفضل له تسليم نفسه [لسلوقوس] فسمعه [ديمتريوس] فاستل حسامه وكاد يطعنه الاّ ان اصدقاءه حالوا دون ذلك. وراحوا يبذلون الجهود لاقناعه بهذا الحلّ حتى رضخ وارسل الى سلوقوس يعرض عليه الاستسلام دون قيد او شرط.

عندما ابلغ [سلوقوس] بهذا قال: ليس حسن حظّ [ديمتريوس] الذي هداه الى طريق نجاته هذا، بل حسن حظه بالأحرى. فقد اتيح له ان يضيف الى سمعته مظهراً من مظاهر وأفته وكرمه. وبادر في الحال الى اصدار الأمر لضباط اعاشته ومديري شؤونه الخاصة باعداد سرادق ملكي وكل ما يليق باستقبال فخمٍ مع ضروب التسليات وكان بين حاشية [سلوقوس] شخص

يدعى [ايللونيدس] وهو من اصدقاء [ديمتريوس] المقربين في الماضي. فكان والحالة هذه اصلح من يرسل من لدن الملك لاستقبال [ديمتريوس] كي يزداد اطمئناناً ويجيء وهو متأكد من استقباله كصديق وقريب ولما انتشر نبأ تلك الوفادة أسرع الحجاب والسعاة والضباط، (في مبدء الأمر قلة منهم، ثم كلهم تقريباً) الى [ديمتريوس] يتسابقون في تقديم الاحترام له. وقد زين لهم خيالهم ان [ديمتريوس] سيتبؤ المكانة الأولى عند الملك. واحدثت هذه الضجة اثرها الفوري وانقلبت العاطفة الصادقة الى حسدٍ وشكّ وتيسّر للخبثاء وسيىء السريرة ان يلمحوا بسهولة بأن انسانية سلوقوس هذه لاتنطوى على ايةً حكمةٍ، وسيكون اول ظهور لديمتريوس سبباً في هيجان خطيرٍ في الجيش. ولهذا فبينما كان [ايللونيدس] ومعه الجمّ الغفير يشرح لديمتريوس وهو في غاية البهجة نوايا [سلوقوس] الطيبة. وان عليه - بعد هذه الارزاء والمصائب ان ينسى هواجسه ويطرح اي شعور يخالجه بالمهانة لتسليمه وان يثق بالآمال الطيبة فيما كان [ديمتريوس] يصغي الى هذه الاقوال، واذا [بپاوسانياس] يصل على رأس ألف من الحرس مشاة وفرساناً فيحيطون به، وبعد ان فرقوا الناس المستقبلين اخذوه لا الى [سلوقوس] بل الى [الخرسونيز] في سورية ووضع هناك تحت حراسة قوية ووفروا له ما يكفي من الخدم واسباب العيش وسمح له بمسافة محددة للنزهة على ظهر الخيل او السير وخصص له غابة للصيد وسمح لاصدقائه ورفاقه في المنفى بزيارته. وكانت ترده من [سلوقوس] رسائل لطيفة من حين لآخر يطمئنه فيها ويشير الى قرب اخلاء سبيله، حال وحول [انطيوخوس] و[ستراتونيكي].

بعد ان ايقن [ديمتريوس] بحكم القدر. بعث برسائل الى اعوان ابنه والى قواده واصدقائه في آثينا وكورنث يوصيهم بالاّ يقيموا وزناً لاي رسالة تصلهم باسمه ولو كانت مختومة بختمه، وان يعتبروه في عداد الموتى. وان يحافظوا على سلامة المدن وكل ما بقى من املاكه، لابنه وخليفته [انتيغونس].

استقبل [انتيغونس] نبأ اسر ابيه بحزن عميق ولبس الحداد عليه وكتب رسائل لجميع الملوك ولسلوقوس نفسه مستعطفاً له راجياً، وعرض ان ينزل عن كل ما بقي من املاكه بل ان يضع نفسه رهينة في مكانه. وايده امراء ومدن كثيرة في ملك الشفاعة الاّ [ليسيماخوس] فقد عرض على [سلوقوس] مبلغاً كبيراً من المال لقاء قتله. لكن [سلوقوس] الذي لم يحاول قط اخفاء بغضه بليسيماخوس، صرحّ بأنه اكبر غول بربريّ، اذ يفكر في هذا العمل الوحشي. على انه ظلّ يرجيء ويسوّف. محتفظاً بالفضل [لانطيوخوس وستراتونيكي] على ما يقول.

تكررت ضربات الحظّ على [ديمتريوس] فتحملها حتى بات معتاداً وبدت له بمرور الزمن

محتملةً. في مبدأ امره عكف على ترويح نفسه بمختلف الاشكال. فيخرج للصيد ويركب الخيل... الاّ انه أهمل نفسه شيئاً فشيئاً وبعد فترة من الزمن عاف كلّ شيء وانصرف الى لعب النرد وشرب الخمر، وكان يقضي فيهما جلّ يومه. (الأمر سواء أإتخذها سبيلاً لنسيان واقعة الذي كان يعذب فكره وهو صاح فيغرقه في الخمر، أم أنه وجدها السعادة الحقيقية التي طالما صبا اليها وجن فكان من الغباء والحمق أن انصرف عنها تحت اغراء من الشهرة الزائلة والطموح التافه الذي لم يأته بغير الكوارث له وللآخرين ان ارفع درجات السعادة التي ظن ان السلاح والاساطيل والجيوش ستنيله اياها، توصل اليها الآن في الخمول والراحة.

والحقيقة هي ان كل غاية من الحروب وركوب الأخطار، والمتاعب التي يتعرض لها الامراء المنكودون هي عبث باطل. ان حماقتهم وبؤسهم لن يكونا قاصرين على جعلهم الترف والمتع غاية حياتهم بدلاً من الفضيلة والتسامي. بل على جهلهم اين يكمن ذلك الترف والمتع وظلّ [ديمتريوس] رهن الأسر في الخرسونيز، ثلاث سنين. وبعدها دهمه المرض بسبب الخمول والعزوف عن الرياضة والعكوف على الخمر وكثرة الاكل فمات من جراه وله من العمر اربع وخمسون سنة. ونالت الالسن من [سلوقوس] وادركه أسف شديد لضعفه امام شكوكه، وتماديه فيها. فلم يرق الى فعل [دروميخيتوس Dromichetes] البربري التراقي الذي اظهر من المعاملة الانسانية والاخلاق الملكية لأسيره [ليسيماخوس] مالم يظهره لأسيره وقريبه.

وثم فصل مرسحي درامي في مراسيم التشييع التي اجريت لجثمان [ديمتريوس]. فعندما علم ابنه [انتيغونس] بمجيء رفاته من سورية خرج للقائه بسائر اسطوله فسلم له في اناء ذهبي. فوضعه في أكبر سفينة قيادة. وكانت كل مدينة ترسي في هذه العمارة التجرية ترسل تاجاً ليزين به الإناء ويتوافد بعض المواطنين منها للمشاركة في المأتم ومراسيم الجناز ولما اقترب الاسطول في ميناء [كورنث] عرض الإناء وهو مغطى بالارجوان يعلوه التاج الملكي على سطح السفينة. واستقبله على اليابسه سرية من الشبان المدججين بالسلاح. وعزف [كزينوفانتس Xenophantes] اشهر موسيقيي زمانه على المزمار اثقل الحانه فنسق الجذافون ضربات مجاذيقهم على ايقاعه عند دخول السفينه المرفأ فبدأ وقعا يشبه ضرب الصدور في موكب التشييع، مع ضبط الردة والفواصل والايقاعات الموسيقية. واثار [انتيغونس] العواطف بثياب الحداد وبذرفه الدموع، وادمى قلوب المشيعين الذين احتشدوا على الساحل. وبعد ان قدمت التيجان والاكاليل وغير ذلك من مظاهر التكريم في كورنث، نقل الاناء الى [ديمترياس] وهي المدينة التي سميت باسمه وجمع سكانها من قرى [ايوكلس Ioclus].

لم يخلف [ديمتريوس] اولاداً من [فيلا] غير [ستراتونيكي] و[انتيغونس]، على انه رزق

بولدين من امٍّ الليرية، وكلاهما يحملان اسمه ولقب احمدهما بالنحيف. وله ولد ايضاً من [بطليمياس] وقد حكم [كيرينه]، ولد آخر من [ديداميا] اسمه الكساندر عاش ومات في مصر. وهناك قائل يزعم ان [يوريديكي] ولدت له ابنا يدعي [كورابوس Corrbus].

ظلت اسرته تعقب ملوكاً على مقدونيا حتى [پرسيوس Perseus] آخر السلالة. وبعده دخلت البلاد حكم الرومان.

والآن بعد ان أتينا الى ختام الدراما المقدونية، فلنهيء انفسنا للتأمل في الدراما الرومانية.

١٩٧٢/٢/١١



مارك انطوني

MARCUS ANTONIUS

(Mark Antony)

82 – 30



مـارك انـطـونـيـوس (انـطـونـي)*

جدّ انطوني كان محامياً شهيراً، قتله [ماريوس] لانحيازه في الحرب الاهلية الى [سيللاّ]. وابوه انطوني الذي لقبّ بالكريتي Creticus[1] لم يصبح شهيراً او بارزاً في الحياة العامة. الاّ انه عرف بالطيبة والصلاح ولاسيما بالجود والسخاء كما يمكن الحكم عليه من هذه الحادثة: لم يكن واسع الرزق كثير الغنى، ولذلك كانت زوجه تميل الى الحيلولة دون استرساله وتماديه في البذل دون حساب. قصده مرة صديق كان يشكو ضيقاً مالياً، ليستلف منه. ولم يكن لدية وقتئذ مالاً. فأمر احد خدمه ان يأتي اليه بماء في القصعة الفضية الفلانية. وعندما جيء اليه بما طلب، بلل وجهه كانه يهمّ بحلاقة لحيته ثم ارسل الخادم في مهمة أخرى وقدم لصديقه هذا القصعة ليتصرف بها بالشكلّ الذي يسدّ به خلته ويفرج عن ضيقه. ولما كثر البحث والسؤال عن مصيرها في المنزل. وركب امرأته حزن عظيم وكادت تأمر بتفتيش الخدم واستجوابهم واحداً واحداً، اعترف بما فعل وسأل العفو منها والمغفرة. وزوجه [يوليا] هي من اسرة [قيصر]؛ وهي أهل في ان تتبوّ مكانتها بين اشرف نساء زمانها محتداً واعلاهم خلقاً. فقد اشرفت هي على تربية انطوني، وعند وفاة ابيه تزوجت [لنتولوس كورنيليوس] الذي انفذ فيه شيشرون حكم الموت لأنه كان من اقطاب المؤآمرة الكاتيلينية ولعل هذا هو السبب الرئيس للحقد الذي حمله [انطوني] لشيشرون. يقول: حرم على الجثة ان تدفن حتى توسطت امّه بامرأة شيشرون، فسلمت لها. ان هذا على مايبدو خطأ جسيم اذ لم يمنع دفن احد ممن نفذ فيهم حكم الموت في فترة قنصلية شيشرون.

شبّ [انطوني] فتىً وسيماً للغاية. لكن سوء حظّه العظيم جعله يتعرف على [كيوريو]

(*) آثرنا ان نطلق عليه [انطوني] في هذا الكتاب، وهو الاسم الذي اختاره له كل المترجمين العرب، خشية ان يتوهم القارئ ان المقصود هو غيره.

(١) هذا اللقب اعطى له على سبيل السخر به. فقد عهدت اليه قيادة اسطول ضدّ القرصان. ففقد جزءً كبيراً منه في قتال بحري ضدّ الكريتين في العام ٧٤ ق.م. وتوفي بعد ذلك مباشرةً. تاركاً ابناءً ثلاثة. أكبرهم مارك انطوني.

ويوآخيه وكان هذا شاباً خليقاً مغرقاً في ملاذه. ولأجل ان يجعل من صديقه هذا اداة طيعة له قذف به الى حياة الخلاعة والتهتك ومعاقرة الخمر وقاده الى طريق البذخ والسفه حتى أثقل كاهله بالديون وهو في مطلع شبابه وبلغ ذلك الدين مائتين وخمسين تالنتاً، كفله به [كيوريو] وتناهى الأمر الى اسماع [كيوريو] الأب فطرد [انطوني] من منزله، فلصق [بكلوديوس] فترة قصيرة من الزمن، وهو غوغائي اسوء ديماغوغي زمانه سمعةً وشاركه في أعمال العنف والفوضى إلاّ ان السأم مالبث ان تملكه من تصرفاته الشائنة، ولعلمه بأن حزباً مناوئاً تألف ضده، بادر الى ترك ايطاليا وسافر متجولاً في بلاد اليونان وهناك درس الخطابة والفنون العسكرية، واتخذ ما كان يدعى في حينه «الاسلوب الآسيوي» في الكلام وتمكن منه، وكان هذا الاسلوب في اوج شيوعه وهو في الواقع يناسب كثيراً اسلوب حياة انطوني التي حفلت بالزهو الفارغ والتباهي والشراسة والطموح الطائش.

بعد ان مكث حيناً من الوقت في اليونان، دعاه [غابينيوس] الذي كان اذ ذاك قنصلاً - للعمل معه في حروبه السورية فرفض اول الامر لأنه لم يشأ الخدمة في الجيش كانسان عاديّ. الاّ انه تسلّم منه امراً بتعيينه ضابطاً في صنف الخيالة فرحل اليه. وكان اول معركة خاضها، ضدّ ارسطوبولوس Aristobulus[٢] الذي قاد ثورة اليهود. فكان اول رجل تسلق على الاستحكامات واجلى قوات هذا الثائر عنها. ثم هزم جيشاً له يفوقه عدداً بحفنة من الرجال ولم ينج من قوات خصمه الاّ القليل، فقد قضى عليهم جميعاً وأسر [ارسطوبولس] وابنه.

بعد ان وضعت هذه الحرب اوزارها اتصل [بطليموس اوليتس Ptolemy Auletes][٣] بـ[غابينيوس] وفاتحه في امر توحيد قواتهما وغزو مصر واعادته الى عرشه هناك. ووعده بدفع رشوة له قدرها عشرة آلاف تالنت. ووقف معظم الضباط ضدّ هذه العملية ولم يكن [غابينيوس] نفسه متحمساً لها كثيراً. الاّ انه كان واقعاً تحت اغراء العشرة آلاف. على ان [انطوني] الذي كان مدفوعاً بطموحه الى المعالي والى الشهرة والى ارضاء [بطليموس] القى بثقله الى جانبه واقنع [غابينيوس] بالمشروع. وكان الاجماع قد تمّ بان اخطر ما في العملية ليس القتال وانما اجتياز الصحراء الى [پلوسيوم Pelusium] فهي ارضٌ تغطيها رمال كثيفة،

---

(٢) كان ارسطوبولوس ملكاً وكاهناً اعلى لليهود. أسره پومپي في العام ٦٣ ق.م وارسله الى روما الاّ انه افلت من الأسر في العام ٥٧ ق.م.

(٣) هو والد كليوپاترا، اضطر الى الهرب الى [افسس] بسبب سخط المصريين عليه للضرائب الثقيلة التي فرضها. استخدم هذه الاموال المجباة لرشوة الموظفين الرومان حتى يعلنوه صديقاً للرومان وحليفاً. وقد اعيد الى العرش المصري في العام ٥٥ ق.م.

قاحلة لا ماء فيها حتى مستنقعات سربونيا Serbonia واكريگما Acregma[٤] ويسمي المصريون هذا الاقليم بثقب تنفس طيفون. ولكن من المحتمل ان المستنقع يحتوي بالاصل على ماء تركه البحر الاحمر عند انحساره او انه ترشح منه في نقطة حيث البرزخ يفصله عن البحر المتوسط عن البحر الاحمر عند انحساره او انه ترشح منه في نقطة حيث البرزخ يفصله عن البحر المتوسط في اضيق موضع منه. وصدر الأمر لانطوني بالتقدم على رأس الخيالة فلم يكتف بالسيطرة على البرزخ بل استولى ايضاً على مدينة [پلوسيوم] الكبيرة وأسر حاميتها. وبهذا أمن سلامة الطريق للقسم الرئيس من الجيش الروماني. ووضع أساساً للمعركة التي كان اي قائد يستطيع ان يودع ثقةً كبيرة بالنصر. وفي هذه المناسبة حتى العدوّ نفسه افاد من حبّ انطوني للمجد. اذ ما ان دخل [بطليموس] الملك [پلوسيوم] حتى همّ مدفوعاً بحقده على المصريين. بوضع السيف في رقاب الأهالي جميعاً فحال [انطوني] بينه وبين ذلك ومنع قيام المذبحة. وتلا ذلك سلسلة من المعارك الدامية، كان [انطوني] يثبت فيها دائماً بسالته وعبقريته القيادية. واشهر تلك المواقف، العملية التي قام فيها بحركة التفاف والاحاطة بالعدو، وضرب مؤخرته، فاتاح بذلك كسب الرومان المعركة، وكانوا يهاجمون من الأمام ومنح تكريماً وتقديراً مناسباً لكلّ المآثر، وقد ادهشت المصريين بصورة خاصّة انسانيته التي ابداها تجاه [ارخيلاوس][٥] المتوفى فمع ان [انطوني] كان ضيفه وصديقه الشخصي الاّ انه اضطر بحكم الظروف الى قتاله اثناء حياته. ولكن عندما قتل، حمل جثته ودفنها بتكريم ملكيّ. وبهذا خلف اسماً عظيماً له عند الاسكندرنيين في حين كان رفاقه في الجيش الروماني يعدونه جندياً لامعاً.

الى جانب سجاياه، كانت ملامحه تنمّ عن وقار نبيل، ملحيته نامية، يعلوها جبين عريض وبينهما انف معقوف، وتتحد هذه التقاطيع بصورة تنم عن الرجولة والجرأة، مما يذكر الناس بتقاطيع مختلف وجوه بان اسرة انطوني تنحدر من سلالة هرقل عن ابنه [انطون]. وكان يلذّ لانطوني ان يعزّز مظهره من صحة تلك الاسطورة. وكان أيضاً يعمد الى تجسيمها في الاذهان باختياره زيّه فكلما كان يبدو أمام حشد كبير من الناس، يعمد الى شد حزام جلبابه في اسفل

---

(٤) تقع پلوسيوم في اقصى شرق مصب النيل في الموضع التي تقوم عليه مدينة دمياط، وتيغون اخ ايزيس واوزوريس وهو الاله الشرير عند المصريين يعتقد انه مدفون تحت مستنقعات سربونيا التي تبدء بمسافة اميال قلائل من شرق پلوسيوم. وفي [الفردوس المفقود] لجون ملتون اشارة لهما كما ان هيرودوس يصفها ايضاً في [الكتاب الثالث ف ٥] من تاريخه.

(٥) كان ارخيلاوس ابن قائد لميثريداتس بالاسم نفسه، واستسلم لسللاّ. وتزوج الابن بـ[پيرينيكه Berenice] بنت [بطليموس اوليتس] التي اصبحت ملكة على مصر عندما طرد ابوها. واول مقابلة لانطوني مع كليوپاترا ربما حصلت اثناء هذه الزيارة للاسكندرية: وكان عمرها اذ ذاك ١٤ سنة.

بطنه عند أعلى الفخذين ويتمنطف بسيف عريض يتدلى الى جنبه ويشتمل بعباءة فضفاضة. والواقع ان هذه الصفات «الهرقليّة» هي التي كانت تصدّ عنه الناس المتنطعين اعني خيلاءه، وكلامه التهكمي، وشربه الخمر علنا، وجلوسه مع رجاله وهم يأكلون. او تناول طعامه واقفاً، من موائد الجنود العامة. مما جعل ذلك مصدر سرورٍ لجنوده، الى حدّ إنهم صاروا يحبونه حب عبادة وضعفه امام سحر الجنس اللطيف يظهر جانباً جذاباً من خلقه، حتى انه اكسبه عطف كثير من الناس. تراه كثيراً ما يساعد الآخرين في شؤونهم الغرامية. ويتقبل دائماً بطيبة نفسٍ وسماحة المزاح الذي ينصب عليه من الآخرين. والى جانب هذا فان سخاءه وبسطه اليد بالهدايا لاصدقائه وزوملائه الجنود وضعت اساساً مكيناً له عندما انطلق في درب السلطة. وقد دعمت هذه الصفات سلطانه عندما استطار ذكره وثبت امره، بل ورفعت من شأنه، حتى عندما أخذت حماقاته واخطاؤه العديدة تعمل على تقويضه. وينبغي لي ان اسجل هنا مثلاً واحداً لسخائه. اصدر امراً بدفع مائتين وخمسين الف درهم لاحد اصدقائه، وهو مبلغ يطلق عليه الرومان لفظة [ديچز Decies] فاستكثر وكيله المبلغ واصابه الذهول من ضخامته، ولأجل ان ينبه[انطوني] الى ضخامة الهدية كدس الفضّة امام انظار سيده. فمر بها [انطوني] وسأل عن المبلغ الذي يعدّ هذا الكدس فقال الوكيل: انه المبلغ الذي امر باهدائه لصديقه. ففطن الى ان الرجل يستكثر المبلغ فقال:

– ظننت ان [الديچيز] أكثر من هذا بكثير؛ ان هذا شيء تافه، من الاوفق ان تضاعفه.

هذه الحادثة جرت فيما بعد. اما عن الوقت الذي اتكلم الآن عنه فان الامور في روما آلت الى شفا الحرب الاهلية، وكان ان انشعب الرأي العام الروماني الى حزبين: حزب الشيوخ[٦] الذي اسلم قياده [لپومپي] اثناء وجوده في العاصمة وحزب العامة الذي كان يستمد قوته من [قيصر] الذي كان يقود جيشاً رومانياً في بلاد الغال. وعند هذه المرحلة غير [كيوريو] صديق الصبا حزبه واصبح واحداً من مشايعي [قيصر][٧]، واقنع [انطوني] بالانضمام اليه. وكانت القوة الخطابية التي يتمتع بها [كيوريو] السبب في سيطرته على الجماهير وبتفريقه بلا حساب المال الذي كان يمده به قيصر ضمن انتخاب [انطوني] لمنصب التريبيون، ثم لمنصب الاوگور[٨] واعني به الكاهن الذي ينحصر واجبه في مراقبة حركة الطير في المنصب حتى بدأ

(٦) اي حزبَ الاريستوقراطية التي يمثّلها اعضاء مجلس الشيوخ وطبقتهم.

(٧) ضم قيصر [كيوريو] الى حزبه، بايفاء جميع ديونه عنه.

(٨) سرد پلوتارخ للحوادث هنا، يشوبه غموض. فقد عاد [انطوني] من مصر في العام ٥٤ ق.م وزار [قيصر] في مقره الشتوي ببلاد الغاليين وكان في روما السنة التالية وفي ٥٢ ق.م انتخب كويستوراً ورحل الى بلاد الغال. وفي ٥٠ ق.م عاد الى روما وعين او كوراً وفي السنة التالية (٤٩ ق.م) انتخب تريبوناً.

يستخدم سلطاته وما ان صار في المنصب حتى بدأ يستخدم سلطاته لمنفعة أولئك الذين يعملون [لقيصر] وينفذون خططه. في اول الأمر وجد ان القنصل [مارچللوس] يقترح وضع جميع القوات العسكرية التي تمّ تجنيدها بأمرة پومپي، فضلاً عن تخويله صلاحية تجنيد وحدات جديدة فعارض انطوني هذا باصدار مشروع قرار يقضي بارسال الجنود الذين تمت تعبئتهم الى سورية لتعزيز جيش [بيبلوس Bibulus] الذي كان منشغلاً بحملته على الپارثيين. وان لايوضع المجندون الجدد تحت امرة [پومپي]. وفي مناسبة أخرى، عند رفض مجلس الشيوخ تسلّم رسائل قيصر وقراءتها في الجلسة. استخدم انطوني السلطات التي تخولها له وظيفته وقرأها علناً وبهذه الوسيلة ضم عدد كبيراً من الانصار الى حزب قيصر لأنه مكن الشعب من الحكم بتأثير هذه الرسائل، على ان مطالبه عادلة ومعقولة. وأخيراً عندما وضع امام المجلس سؤالان: هل يجب ان يسرح [پومپي] جيشه؟ و: هل يجب ان يسرح [قيصر] جيشه؟ انقسم الاعضاء فيما بينهم، وعندما صوتت اقلية صغيرة على السؤال الأول، وصوتت الاغلبية الساحقة على الثاني نهض [انطوني] وسأل سؤالاً ثالثاً: الا يرى المجلس ان يقوم كل من پومپي وقيصر بتسريح ما لديهما من جيوش؟ هذا الاقتراح قوبل بالاستحسان وحظي بالرضى فطلب انطوني وضعه في التصويت. لكن القنصلين عارضا في الاجراءات وعندئذ اخذ انصار قيصر يتقدمون باقتراحات جديدة كانوا يرونها معقولةً الاّ ان [كاتو] عارض فيها. ثم امر [لنتولوس] القنصل، بطرد [انطوني] من القاعة مستعملاً صلاحيته. فاجاب انطوني على هذا بالقاء خطاب عنيف هاجم فيه معارضيه بعد تركه المجلس. ثم تنكر بثياب عبدٍ وبرفقة [كوينتوس كاسيوس][(٩)] استأجر عربة وانطلقا للحاق [بقيصر]. وما ان وصلا حتى أبلغاه غاضبين بان الأمور في روما بلغت ادنى حالة من الفوضى، الى حدّ ان تريبيونات الشعب حرموا من حرية الكلام، وان كل من يرفع صوته في سبيل العدالة والمساواة يضطهد وتتعرض حياته للخطر. وعندها أمر [قيصر] بنقض معسكره وزحف مغيراً على ايطاليا. ولهذا السبب كتب شيشرون في [فيليپياته] بأن [انطوني] كان سبباً لقيام الحرب الاهلية، مثلما كانت هيلين السبب في حروب طروادة. الاّ ان هذا كذب واضحٌ. فقيصر لم يكن عاطفياً سريع التأثر، ولا بالذي ينبذ حساباته جانباً بعامل غضبٍ آنيّ. ان مجرد رؤيته [انطوني] و[كاسيوس] في ثياب رثة يدخلان معسكره في عربة اجرة لن يدفعه الى اثارة حرب على بلاده بوحي الساعة الاّ اذا كان قد خطط لهذا العمل منذ وقت طويل. بالعكس، كان [قيصر] ينلهف منذ أمدٍ بعيد الى المجاهرة بالعداء وهذه الحادثة زودته بالذريعة وبالحجة

---

(٩) هو اخ [كاسيوس] المتآمر على حياة [يوليوس قيصر].

المقبولة ليس الاّ. اما الغرض الحقيقي الذي دفعه الى اثارة حرب ضدّ البشرية. فهو نفسه الذي دفع الاسكندر وكورش من قبل - انه ظمأ لايطفأ الى التسلط والعظمة، والى ان يكون أعظم رجل في العالم. ومطمحه هذا لايمكن الوصول اليه الاّ باستظهاره على [پومپي].

وتقدم [قيصر] من روما واحتلها وطرد پومپي من ايطاليا وقرر اولاً مهاجمة قواته في اسپانيا. ثم عندما نظم أسطولاً في غيابه، ان يعبر البحر الى بلاد اليونان حيث عدوه كان قد ثبت اقدامه. وفي اثناء ذلك ترك حكم روما في يد [ليپيدس Lepidus] الذي كان پيريتوراً، في حين سلم قيادة الجيوش المرابطة في ايطاليا [لأنطوني] الذي كان واحداً من تريبيونات الشعب. ولم يعتم [انطوني] ان ظفر بقلوب جنوده بمشاركتهم في تدريبهم وقضاء جل وقته معهم، وتأمين الهدايا لهم كل ما عنت مناسبة، على ان بقية الشعب كان يراه من وجهة مختلفة، فهو أكسل من ان ينظر في شكاوى الناس، وأقل صبراً على سماع أولئك الذين يقصدونه مستعينين ومستجيرين. في حين ساءت سمعته بسبب وقائعه مع نساء وزوجات الآخرين. وبمختصر القول، ان نظام حكم [قيصر] الذي لم يبد عليه اي طابع استبدادٍ عند ادارة [قيصر] له بنفسه، جعله انصاره واصدقاؤه حكماً كريهاً لايطاق. ومن أو لئك [انطوني] صاحب أكبر السلطة، ولهذا كان يعتبر اسوء المخطئين.

ورغم كل هذا تجاهل قيصر كل التهم التي وجهت الى [انطوني] عند عودته من اسپانيا وكان حكمه عليه صحيحاً. من ناحية كونه قائداً محنكا للرجال اظهر نشاطاً وشجاعة في ادارة الحرب. وابحر [قيصر] من [برنديزيوم] بقوات صغيرة[١٠] فأجتاز البحر الآيوني وارجع سفن النقل، لانطوني وغابينيوس، يأمرهما بتعبيئة الجنود عليها على جناح السرعة واللحاق به في مقدونيا ورأى [غابينيوس] مخاطر في العبور بحراً، في فصل الشتاء وبدأ بسوق جيشه في الطريق البريّ صعداً. امّا [انطوني] الذي استولى عليه القلق المتزايد من موقف [قيصر] المحفوف بخطر تطويقه بقوات متفوقة، فقد تمكن من اجلاء [ليبو Libo] الذي كان قد ضرب الحصار على مرفأ [برنديزيوم] بمهاجمة بوارجه بزوارق خفيفة كثيرة العدد. ثم انزل قوة تعدادها عشرون الفٍ راجلٍ وثمانمائة خيّال وانطلق في عرض البحر وانكشف للعدو الذي راح يطارده، ولكنه نجا من قبضته بريح جنوبية قوية فجائية أحدثت هياجاً عظيماً في البحر فأبطات من سرعة السفن المطاردة في حين دفعت الريح سفن انطوني الى ساحل صخريّ وجُرُف ذات مياه عميقة حيث امل النجاة منها ضعيف. لكن ما عتمت الريح ان انقلبت الى جنوبية غربية وأخذت تهب من اليابسة الى البحر فبدأت سفن [انطوني] تتهادى على صفحة البحر

(١٠) كان ذلك في مطلع العام ٤٨ ق.م.

برقةٍ وآمان وانشأ يرقب الساحل الذي انتشر عليه حطام اسطول عدوه. فقد دفعت العاصفة بالسفن المطاردة الى الساحل الصخريّ فاصطدمت به وتحطم معظمها تحطيماً كاملاً ووقع عدد كبير من الرجل ومقدار كبير من الاموال في يد [انطوني]. ثمّ انع احتلّ مدينة [ليسّوس] وبث ثقة عظيمة في نفس قيصر بوسوله في احرج ساعة بهذه النجدة الكبيرة.

وتبع ذلك فترة طويلة من الاشتباك المستمر، وبرز انطوني في تلك المعارك كلها، بطلاً لايشق له غبارٌ. فأوقف مرتين هزيمة مني بها الجيش ثم عاد يقوده الى النصر في هجوم مدبر. ولا عجب والحالة هذه ان ارتفع قدره عند الجنود حتى اصبح يلي [قيصر] مقاماً وقد بدا رأي هذا العاهل فيه واضحاً في [فرساليا] خاتمة المعارك. استأثر هو بقيادة الميمنة، في حين اناط قيادة هجوم الميسرة بانطوني بوصفه اقدر ضابط في جيشه.

وبعد المعركة أعلن [قيصر] دكتاتوراً فأنطلق يعقب [پومپي] وارسل [انطوني] الى روما بمنصب قائدِ سلاح الفرسان وهو المنصب الذي يلي منصب الدكتاتور مباشرةً في المكانة الوظيفية وفي السلطان الفعلي عند وجود الدكتاتور. اما اذا غاب هذا فهو يمارس السلطة المطلقة وهو الحاكم المتفرد تقريباً وقد جرت السُّنة انه عند تعيين الدكتاتور يتوقف كل من يتمتع بسلطة حاكم عن ممارسة سلطته في روما، الاّ سلطة التريبيون فتبقى.

وكان [دولاّبللا] تريبيوناً في ذلك الحين، وهو شاب حديث العهد بالسياسة يحب الاصلاح. همّ باصدار مرسوم شامل جامع يقضي بالغاء الديون وفاتح [انطوني] بالأمر، وكان صديقه، وهو يعهد فيه تبنيه لكلّ مشروع فيه منفعة لسواد الشعب، ليسانده في غرضه هذا. الاّ ان [اسينيوس Asinius] و[تريبلليوس Trebelluis] نصحا [انطوني] بمعارضته، وكان في الوقت نفسه يشكّ في ان [دولابللا] قد أغوى زوجه، حتى بلغ الأمر به الى تطليقها، وكانت ابنةً لعمه [كايوس انطونيوس] زميل شيشرون في القنصليه، وجاهر [دولابللا] العداء. وفي الوقت نفسه عمد [دولابللا] الى الاعتصام بالفوروم واحتلاله بالقوة لاصدار مرسومه عن طريق جمعية الشعب. وما ان أصدر مجلس الشيوخ قراراً بتخويل [انطوني] استعمال القوة حتى زحف على الفورم وقتل عدداً من رجال [دولابللا] وفقد هو أيضاً عدداً من رجاله. فخسر بعمله هذا مكانته عند الشعب. في حين ان أسلوب حياته وسلوكه الشخصي، أكسبه أحتقار كل ذوى المبادئ والعقلاء، واصبح بغيضاً مكروهاً عندهم على حَدّ قول [شيشرون]. لقد اشمأزوا من معاقرته الخمر في غير اوقاتها. وافراطه في الإنفاق، وفضائحه الجنسيّة، ونومه طوال النهار على اثر فجوره الليلي، وقضاء ليلة في المراسح والمآدب أو حضور زواج ممثل كوميدي او مسخراتي او مهرج. او تجواله على غير هدى بسبب صداع افقده عقله. وقد

تنوقلت عنه الحكاية الآتية وهي انه حضر حفلة زواج الممثل الكوميدي [هيپياس Hippias] وظلّ يشرب ويأكل طوال الليل وكان عليه ان يخطب في الجمهور صباحاً في الفورم فتقدم من المنصة وهو ثملٌ يترنح. واخذ يفرغ ما في جوفه من قيء امام الجمع الحاشد، فأسرع احد اتباعه ونشر معطفه امامه ليفرغ فيها قيئه. وكان [لسرجيوس Sergius] المشخصّ اعظم دالةٍ عليه وكذلك [كيثيرس Cytheris] التي تنتمى الى عين الفن التمثيلي، فقد كان شديد التعلق بها، يصبحها معه عند زياراته المدن الايطالية، فيركبها في محفة، يرافقها اتباع وحاشية لاتقلّ عمن كان يحيط بامّه.

هناك الكثير غير هذا في سلوك [انطوني] اليوميّ مما سبب السخط الاستياء. فالناس مثلاً استنكروا رؤية اقداح الشرب الذهبية التي كانت ترسل قبله عند سفره خارج المدينة. كأنها جزءٌ من مهمات موكب ديني. ويتألمون لرؤية الفسطاط الذي ينصب له اثناء رحلاته والموائد الفخمة التي تمدّ في البساتين والخبائن أو على شواطئ الأنهار، والى عجلاته التي تجرها الأسود، والى عادته اسكان العاهرات وعازفات السامبوكا Sambuca[11] في بيوت الناس الفضلاء، وكان معظم الناس يستفظعون مقارنة ذلك بقيصر الذي يحارب خارج ايطاليا فينام في العراء متعرضاً للأخطار، ومعانيا التعب والارهاق وهو يخوض غمار المعارك الأخيرة من الحروب الاهلية في حين يستفيد انصاره من حملاته هذه ليغرقوا انفسهم في الترف ويوجهوا الإهانات لابناء بلدهم.

ويعتقد ان هذا السبيل في التصرف زادت في حدة الحرب الاهلية وشجعت الجنود على الاستباحة والنهب وغيرها من اعمال العنف. ولذلك بادر [قيصر] فور عودته الى العفو عن [دولابلا] ولم يختر [انطوني] زميلاً له عندما انتخب قنصلاً للمرة الثالثة، وانما اختار [ليپيدوس]. في هذا الزمن بالذات عرض منزل [پومپي] للبيع فابتاعه [انطوني] وعندما طلب منه تسديد الثمن غضب. يفسّر عدم مشاركته [قيصر] في الحرب الافريقية، بشعوره بالغبن لأنه لم يعوض بايّ شيء عن مآثرة السابقة. على ان [قيصر] مع هذا يبدو انه اصلح كثيراً من اعوجاجه وحماقاته بالتنبيه الى اغلاطه وعدم التغاضي عنها. وعلى اية حال اصلح أمره وقومّ سبل حياته ووجه افكاره الى الزواج، واختار [فولڤيا][12] ارملة [كلوديوس]

---

(١١) السامبوكا هو نوع من انواع القيثار.

(١٢) كان زوج فولڤيا الأول كلوديوس. وابنتها من هذا الزواج اصبحت اولى زوجات اوكتاڤيوس قيصر في ٤٣ ق.م. اما زوجها الثاني فهو [كيوريو] صديق [انطوني] الذي توفي في افريقيا في ٤٩ ق.م. وكان انطوني زوجها الثالث وقد ولدت له ولدين وتوفيت في ٣٩ ق.م.

الغوغائي. وهي امرأة لم تخلق للغزل والنسج وتدبير المنزل، ولم يكن في وسعها ان ترضى بسوس رجل لا طموح له سياسيّ. بل كان همها ان تحكم بعلاً يحكم وان تقود قائداً عاماً ولاشك في ان [كليوباطرا] كانت مدينة لها بالشكر الجزيل لأنها دربت انطوني على اطاعة سلطه زوجة. اذ لما جاء الوقت لتتسلمه، وجدته مروّضا طيعاً مدرباً على قبول سلطان المرأة. وكان يلجأ الى مختلف الحيل الصبيانية وصنوف المزاح ليفرح فولڤيا ويسرّي عنها. منها انه لما عاد [قيصر] من اسپانيا بعد انتصاره، كان انطوني من جملة المستقبلين اذ خرج للقائه، وكان ان انتشرت اشاعة مؤداها ان [قيصر] قد قتل وان العدوّ يهمّ بغزو ايطاليا. فعاد [انطوني] الى روما وتنكر بثياب عبد وقصد منزله وزعم انه يحمل لفولڤيا رسالة من [انطوني] وجيء به اليها وكان الوقت ليلاً وقد لفّ وجهه تماماً، وكانت تعاني قلقاً عظيماً. فسألته قبل ان تتسلم الرسالة هل انطوني حيّ؟ فسلمها الرسالة صامتاً وما ان فضتها وبدأت بقراءتها حتى وثب اليها وطوقها بذراعيه وانشأ يقبلها. لقد أخترت هذه الحكاية لتقوم مثلاً واحداً لحكايات له كثيرة معها.

عندما عاد قيصر من اسپانيا[١٣] خرج للقائه كل شخص ذي مقام ووجاهة في روما، وقطعوا رحلة ايام لاستقباله. وكان [انطوني] الشخص الوحيد الذي اختاره للتكريم فقد اركبه معه في عربته، وركب وراءهما [بروتوس الپينوس] و[اكتافيوس[١٤]] ابن بنت اخته الذي اتخذ لنفسه فيما بعد اسم [قيصر] وحكم روما سنيناً عديدة.

وعندما انتخب [قيصر] قنصلاً للمرة الخامسة بادر الى اختيار [انطوني] زميلاً له. وكان قد اعتزم الاستقالة من منصبه واناطته بـ[دولابللا]. وأعلن قراره هذا للمجلس.

الاّ ان [انطوني] عارض الأمر بشدة وأنحى على [دولابللا] بالسباب والكلام المقذع، فردّ عليه هذا بأكثر منه. الى ان بلغ الخجل [بقيصر] حداً انه ترك الفكرة جانباً بصورة مؤقتة؛ وقد اشمأز من تلاحي انصاره هذا. ثم واجه الشعب علناً ليعلن [دولابللاً] قنصلاً، فصاح [انطوني] ان الإشارات العلوية لا تنبئ بخير من وراء هذا[١٥]. فأضطر [قيصر] أخيراً الى التخلّي عن الفكرة. مما اغاظ [دولابللا] كثيراً. في الواقع يبدو أن [قيصراً] كان شديد القرف من دولابللا قَدَر ما كان شديد القرف من [انطوني]. وتقول رواية أنه عندما اتهم احدهم بالتآمر عليه قال [قيصر]:

(١٣) بعد النصر الذي حققه في موندا خريف العام ٤٥ ق.م.

(١٤) في نسخة درايدن التي راجعها ارثر، هيوكوف: يثبت اوكتافيان الاّ ان المتن هو الصحيح.

(١٥) كان انطوني [اوكوراً] فهو والحالة هذه ينبئ بمقتضى وظيفته.

- اني لست أخشى الرجال البطينين وانما أخشى الشاحبين الهضيمين

يقصد كلاً من برتوس وكاسيوس اللذين كانا سيتآمران عليه ويقتلانه.

وكان [انطوني] هو الذي زوّد المؤتمرين بغير قصدٍ منه، بالذرائع المعقولة للقيام بمؤامراتهم وكانت المناسبة: عيد ليكيا Lycaea الذي يسميّه الرومان [لوپركاليا]. وقد جلس [قيصر] مشتملاً برداء النصر في الروسترا في الفوروم يشهد العدائين وهم يرحون ويغدون. وقد جرت العادة أن يحتفل بالعيد بان يدهن عدد كبير من النبلاء الشبان ومتولي المناصب في الدولة جسومهم بالزيت ويمسكوا باسواطٍ من الجلد ذي الشعب ويهرولون في الطرقات فيضربون كل من يصادفونه على سبيل المزاح. وكان [انطوني] من بين هؤلاء العدائين، وعوضاً عن تطبيقه المراسيم التقليدية فقد ازوج اكليلي غارٍ حول تاجٍ واسرع نحو الروسترافرفعه رفاقه الى اعلى فوضع التاج على رأس [قيصر] يريد بهذه، الإشارة الى انه يستحق المناداة به ملكاً. ولكن قيصر تظاهر بالرفض، فشاع السرور في نفوس الشعب وأخذوا يصفقون. فحاول [انطوني] ثانيةً. فعاد قيصر يدفعه عنه جانباً. وظلت هذه التمثيلية تتكرر عدة مرات بقلةٍ من رفاق [انطوني] يشجعونه في محاولته ارغام [قيصر] على قبول التاج بينما كان سواد الشعب يحيّ كلّ رفضٍ بهتاف الاستحسان. والغرابة في الأمر ان هؤلاء الناس كانوا على استعداد للخضوع الى سلطة الملك وحكمه، في حين مايزالون يصدّون عن اللقب كأنه يعني القضاء على حريتهم.

وأخيراً نهض [قيصر] الذي اشتد غيظه مما حصل، وازاح رداءه عن عنقه وقال انه مستعد لتقبل اية طعنة يوجهها اليه اي شخص الآن. ووضع أكليل العار على هامة احد تماثيله، الاّ أن بعض التريبيونين الشعبيين رفعه، فتبعهم سواد الشعب الى منازلهم مشيعين بهتافات عالية استحساناً لعملهم، الاّ انهم طردوا من وظائفهم فيما بعدبأمرٍ من [قيصر].

هذه الحادثة شدت من عزيمة [بروتوس] و[كاسيوس] وشجعتها في موآمرتهما وعندما بدأ يستعرضان الاصدقاء الذين هم اهل للاعتماد على مساعدتهما، بحثا مسألة التحدث مع [انطوني]. وكان من رأي الجميع ان يفاتح بالأمر، الاّ [تريبونيوس] فقد عارض الفكرة. وذكر انه كان قد خرج هو وانطوني لاستقبال [قيصر] وركبا عربةً واحدة معاً، وفي اثناء تبادلهما الحديث أخذ يجسّ نبضه بحذرٍ وتوجس وفهم [انطوني] المراد الاّ انه لم يشجعه. كما بدا له. ولكنه في الوقت نفسه لم يبلغ [قيصر] بالحديث وحفظ سرّه بأمانة. وعندها اقترح المؤتمرون قتل [انطوني] مع [قيصر] الاّ ان [بروتوس] لم يوافق واصرّ قائلاً أن المهمة التي يضطلعون بها هي قتل رجلٍ في سبيل العدالة والقانون، ولذلك يجب أن يحافظ على نقاوتها وخلوها في

اي وصمة ظُلم. وكانت البقية تخشى قوة [انطوني] الجسمانية والنفوذ الذي يمارسه بمقتضى منصبه. فعين بعض المتآمرين لمهّمة مراقبته، حتى اذا دخل [قيصر] مجلس الشيوخ وازفت الساعة لتنفيذ عملية الاغتيال، اشغلوا [انطوني] في حديث حول أمرٍ عاجل وابقوه خارج القاعة.

ونفذت هذه الخطط كما قدّر لها وسقط [قيصر] متشحطاً بدمائه في قاعة المجلس. فأسرع [انطوني] يختفى متنكراً بزي عبدٍ. وعندما علن ان المتآمرين قد تجمعوا في الكاپتول فحسب، ولا نيّة سوء لديهم ضد اي شخصٍ آخر، خرج واقنعهم بمغادرة الكاپتول الى المدينة، وارسل ابنه رهينة عندهم. وتمادى حتى انه دعا [كاسيوس] الى العشاء في منزله، وفعل [لپيپدوس] الشيء نفسه مع [بروتوس] ثم دعا المجلس للاجتماع، وفي الجلسة اقترح اصدار قانون العفو العام، وتقليد كلّ بن [بروتوس] و[كاسيوس] وانصارهما حكم اقليم من الاقاليم الرومانية، فأيدها المجلس، وصوت ايضاً على أن لا يحدث اي تغيير في الاجراءات والاحكام التي اتخذها [قيصر] لذلك ارتفعت سمعة [انطوني] الى اسمى علاها عند خروجه من المجلس فقد ساد شعور عامٌ بأنه انقذ روما من حربٍ اهلية ونجح في حَلّ معضلةٍ صعبة جداً ومعقدة بطريقة حكيمة وببعد نظرٍ سياسيٍ لانظير له.

الاّ ان هذه الاجراءات المعتدلة سرعان ما اكتسحها المدّ الجماهيري والشعور العام الذي أصبح الآن يتجه نحو انطوني، وهذا ما اشاع فيه الأمل بانه سيكون سيد روما الأول لو أفلح في الاطاحة [ببروتوس]. وحدث انه عندما حمل جسد قيصر ليدفن القى [انطوني] التأبين التقليدي في الفورم. وعندما وجد أن خطابه قد احدث في الناس أثراً كأثر السِحر، بدأ يضمن تأبينه عبارات رثاءٍ واستنكارٍ لمصير [قيصر]. وأخيراً عندما شارفت خطبته على الختام. سحب ثوب الميت وعرضه على الناس وهو دام وقد مزقته الطعنات وواصفاً الفاعلين بالقتلة والاوغاد سفاكي الدماء. فأهاج الحاضرين وملاءهم سخطاً، حتى انهم كدّسوا المناضد والمقاعد بعضها بعضاً فوق بعض واحرقوا جثمان [قيصر] في الفورم، ثم التقط بعضهم اخشاباً مشتعلةً من المحرقة واسرعوا بها الى منازل المتآمرين يريدون اشعال النار فيها.

ولهذا ترك [بروتوس] واتباعه المدينة، والتفّ اصدقاء قيصر حول [انطوني]. وفي ذات الوقت اوكلت [كالپورنيا] زوج [قيصر] اليه حفظ الجزء الاكبر من ثروة [زوجها]، بنقله من بيتها ووضعه في يده وكان يبلغ اربعة آلاف تالنتٍ، كذلك وضع يده على اوراق [قيصر] وتتضمن مسودات ومذكرات لكثير من مشاريعه ومراسيمه فقام انطوني بتطبيق كثيرٍ من تلك الأوامر وعين بموجبها عدداً من الحكام والشيوخ بحسب رغباته. كما اعاد بعض المنفيين واطلق

سراح آخرين من السجن كأن كل هذه الاجراءات تمثل ارادة قيصر. وأطلق الرومان على كلّ المستفيدين من هذه الاجراءات اسم «الخارونيين»[١٦] تندراً ومزاحاً، اذ لو انهم طلبوا لاثبات قضيتهم، لكان عليهم أن يرجعوا الى اوراق الميت ليتخذوها كدليل. وبمختصر القول مارس [انطوني] في تلك الفترة حكماً اتوقراطياً بكلّ معنى الكلمة، فقد كان قنصلاً في تلك السنة. ثم عين اخويه بمنصبين رفيعين. فأصبح [گايوس Gaius] پريتوراً، و[لوچيوس Lucius] تريبيوناً للشعب.

كذا كان الموقف العام الذي وجده الفتى [اوكتاڤيوس] عند وصوله روما. وكان هذا كما ذكرت سابقاً ابن بنت اخت [قيصر] وقد جعله وارثاً له في تركته وكان يعيش في [ابوللونيا] عندما قتل خاله. فقام بزيارة [انطوني] حالاً بوصفه صديق الأسرة، ثم ذكره بالأموال التي اؤتمن عليها. ذلك لأن [اوكتاڤيوس] وكان ملزماً بموجب منطوق الوصيّة وبوصفه الوارث الشرعي، بأن يدفع خمسة وسبعين درهماً لكلّ مواطن روماني[١٧]. واستخف [انطوني] في مبدء الأمر [باوكتاڤيوس] وقال له انه مجرد صبيّ، مأفون. وانذره قائلاً ان شاباً مثله لايملك من الاصدقاء المتنفذين الا قلة، ولا من تجربة الحياة ما يؤبه به، سيجد قبوله ميراث قيصر واضطلاعه بتنفيذ شروط الوصية عملاً شاقاً ينوء به كاهله. الا ان [اوكتاڤيوس] لم يبد متأثراً قطّ بهذه النصيحة وواصل المطالبة بالمال في حين طفق انطوني يعمل كلّ ما في وسعه لإذلاله. فأولاً عارض في انتخابه لمنصب التريبيون. وعندما حاول تقديم كرسي ذهبي[١٨]، تكريماً [لقيصر] كما قررّ مجلس الشيوخ. هدد [انطوني] بايداعه السجن، ان لم يكف عن استجلاب عطف الشعب وتقربه منه. وهذا ما حدا [باوكتاڤيوس] الى الاستعانة بشيشرون والانضمام اليه والى كل اعداء [انطوني] اللدودين. وبمساعدتهم ضمن مساندة المجلس له. بينما تمكن هو بنفسه من كسب مودّة العامّة ونجح في جمع وتعبئة جنود [قيصر] القدماء من المستوطنات التي استقروا فيها. فاقضّ مضجع [انطوني] واقلقه بمناوراته هذه. والتقى به في

---

(١٦) يثبت پلوتارخ هنا الكلمة الاغريقية. وهي مشتقة من Charon علاج [هيداس] الاسطوري اما الكلمة اللاتينية المقابلة فهي اورچيني Oarcini مشتقةً من اوركس آله العالم السفلي.

(١٧) القانون الروماني لايلزم اوكتاڤيوس بقبول الميراث، على ان تركة [قيصر] كانت كبيرة جداً ولا خطر ثم في ميراث ديون عليها. والخطر بالاحرى متأتٍ من استيرات الثروة والسمعة السيئة المتعلقة باسم الميت نفسه وفي الصعوبات التي تكتنف ادارة المخلفات واستخلاصها ولاسيما تلك التي هي موضع نزاع. وقد ترك لاوكتاڤيوس ثلاثة ارباع التركة. والباقي اوصى به [كوينتوس پيديوس Quintus Pedius] وهو ابن بنت اخت ثانٍ لقيصر.

(١٨) تختلف ترجمة درايدن لهذه العبارة: فهو يفهمها هكذا «... عندما اراد ان يقدم كرسيّ ابيه والذهبي وقفاً كما رسم في الوصية...».

الكابتول وتبادلا الحديث ثم اصطلحا. وفي الليلة نفسها رأى [انطوني] حلماً غريباً تطيّر منه. خيل له ان صاعقةً انقضت على يده اليمنى. وبعد ايام قليلة ابلغ ان [قيصر] الصغير يتآمر على حياته. وحاول [اوكتافيوس] جهده لنفي هذه التهمة عنه الاّ انه لم يفلح في ازالة شك انطوني. فأخذ الخرق يتسع فيما بينهما وشبت نار العداء مستعرةً باشدّ من السابق. وهرع كلاهما يتنقلان في ارجاء ايطاليا يتنافسان في تقديم العطاءات والأجور المرتفعة لتجنيد المحاربين القدماء الذين كانوا قد استقروا في اراضيهم، ويتسابقان في ضمان ولاء الجنود الذين مازالوا في الخدمة.

في ذلك الحين كان شيشرون يمارس نفوذاً في روما لا يعدله نفوذ اي سياسيّ آخر، ولذلك اوقف مجهوداته لاثارة الرأي العام على انطوني حتى انه أقنع مجلس الشيوخ على اعلانه «عدواً للشعب». واودع (الفاچي) وغيرها من شعارات الپريتور الى [اوكتافيوس]، وارسل [هريتوس Hirtius] و[پاشا] القنصلين لطرد [انطوني] من ايطاليا. والتقى الجيشان في موتينا Mutina[١٩] وكان [قيصر] فيها يقاتل الى صفّ القنصلين فهزم [انطوني] الاّ ان [هريتوس وپاشا] قتلا في المعركة. وعانى جيش انطوني مشاقاً تجلّ عن الوصف في تقهقره واضرّ به الجوع ضرراً بليغاً. ولكن من صفات [انطوني] أن تبدو اعظم سجاياه في ساعات المحنة. والواقع انه لايكون اقرب الى رجل الفضيلة والصلاح الاّ عندما يبتلى بسوء الحظ وتنزل به المصائب الى الدرك الأسفل. من المعروف عادة ان مفهوم الفضيلة يكون أقرب الى الرجال عند معاناتهم المحن، ولكن من النادر عندهم ان يحتثوا الصفات التي يعجبون بها للعمل، وان يتخلصوا من الرذائل التي يستقبحونها. وبعكس ذلك نرى الكثيرين الذين يضعفون أمام النوائب، فتنهار عزائمهم وتخونهم قواهم الى الحدّ الذي يفقدون معه بصائرهم. وعلى اية حال فقد ضرب [انطوني] مثلاً رائعاً لجنوده. فمع حياة الترف والنعومة التي حفلت بها حياته، سهل عليه أن يشرب الماء الآسن ويأكل الثمار البرية وجذور النبات دون تحرج. وقيل لنا ان الجيش اضطر وهو يقطع جبال الألب الى التهام لحاء الشجر وحيوانات لم يذقها بشر من قبل.

كانوا يريدون الاتصال بالجيش الذي يقوده [ليپيدوس] فالمعتقد انه صديق لانطوني، وهو أحد الذين انتفعوا مثله بصداقة [قيصر] ولكن [انطوني] لم يجد دليلاً على الترحيب عندما وصل وضرب معسكره بالقرب منه. ولذلك قرر المجازفة بكلّ شيء في حركة واحدة جريئة. كان شعره طويلاً مشعثاً ولحيته مرسلة غير مشذبة مهملة منذ هزيمته، وقد اشتمل بمعطف قاتم.

(١٩) هي مدينة مودينا Modena الحالية.

فتقدم من آطام معسكر [ليپيدوس] وراح يكلّم الجنود وسرعان ما ادركت الشفقه الكثيرين منهم لهيئته المزرية ومست كلماته شغاف قلوبهم، فداخل [ليپيدوس] القلق وأمر بنفخ كل الابواق لكتم صوت انطوني. الاّ ان هذا زاد في عطف الجنود عليه فحسب. ثم البسوا كلاً من [ليليوس Laelius] و[كلوديوس] ثياب عاهرتين من العواهر اللاتي يتبعن الجيش وارسلوهما للمداولة معه سراً. وطلب هذان منه ان يتحلّى بالصبر والشجاعة وان يهاجم المعسكر في الحال وقالوا بان الكثيرين سيرحبون به، بل وهم مستعدون لقتل [ليپيدوس] لو شاء. فلم يقبل [انطوني] بمدّ يدهم عليه ولكنه شرع في اليوم الثاني بعبور النهر على رأس جيشه وكان اول من وضع قدمه في الماء وخاضه حتى الشاطيء المقابل حيث كان يشاهد جنود [ليپيدوس] يرحبون به بايدٍ ممدودة، ويقلعون الأطم المحيطة بمعسكرهم ليفسحوا له سبيل المرور. وما ان دخل المعسكر حتى كان السيدّ المطلق. وعامل [ليپيدوس] بغاية اللطف والاحترام وعانقه وناداه «بأبي» ومع انه كان مسيطراً تماماً على جيش منافسه الاّ انه اصرّ ان يحتفظ برتبة الجنرال ومظاهره. وحفز سلوكه هذا [موناتيوس پلانكوس] على ضم قواته اليه، وكان معسكراً على مقربة منه بوحدات عسكرية كبيرة العدد. وهكذا اجتمع اليه مع جيشه، قوة ضخمة فعاد الى اجتياز الألب نحو ايطاليا على رأس سبع عشرة فرقة من المشاة، وعشرة آلاف من الخيالة تحمي مؤخرته. فضلاً عن تركه ستّ فرق أخرى للمرابطة في بلاد الغاليين: هذه القوة كانت بقيادة ڤاريوس Varius أحد اصدقائه وندمائه في مجالس الشراب ويعرف بلقب [كوتيلون Cotylon][٢٠].

في هذا الزمن حصلت الجفوة بين [اوكتاڤيوس قيصر] وبين شيشرون الذي كان مصراً على عودة الحريات كما كانت في ظلّ الجمهورية السابقة. وارسل [اوكتاڤيوس] اصدقاءه الى [انطوني] يدعوه الى الاتفاق. واجتمع [انطوني] و[ليپيدوس] و[اوكتاڤيوس] في جزيرة صغيرة بوسط النهر[٢١] ودام اجتماعهما ثلاثة ايام. ولم يجدوا صعوبة في التفاهم على امور كثيرة جداً وقسموا حكم العالم فيما بينهما بالسهولة التي يتقسمون فيها ميراثاً من آبائهم. وكان أعظم ما واجههم من صعوبة هو الاتفاق على الاشخاص الذين سيتمّ القضاء عليهم. اذا كان كلّ واحدٍ منهم يطلب حقّه في التخلص من اعدائه الشخصيين وانقاذ اقربائه ومن يمت اليه بصلة الرحم والدم. وبالاخير تغلّب الحقد الذين يشعر به كل واحدٍ منهم، على الشعور بالكرامة والشرف تجاه اقربائهم بل ولائهم لاصدقائهم، فضحّى [اوكتاڤيوس] بشيشرون لأجل

(٢٠) مأخوذة من الميكال اليوناني المعروف باسم [كوتيلة Kotyle]. وهو جزءٌ من اربعة وعشرين جزءً من الغالون المعروف.

(٢١) بالقرب من مدينة بولونا الحالية، في العام ٤٣ ق.م.

[انطوني] ، في حين تخلّى [انطوني] بدوره عن [لوچيوس قيصر] خاله، واعطي [ليپيدوس] امتياز قتل اخيه [پاولوس Paulus]. وان قال بعضهم انه سَلّم هذا الاخ الى [انطوني واوكتاڤيوس] اللذين كانا يريدان قتله ومهما يكن من أمرٍ، فاني لا استطيع ان أعدّ شيئاً أكثر وحشية وهمجية من الإتجار بالدم. فبعد كل هذه الصفقات الدموية ومبادلة بموتٍ بموت، لا أعتبر جريمتهم في التخليّ عن أولئك، أقل من جريمتهم من قبضوا عليهم. لأن الاساءة التي اجترحوها بحق اصدقائهم هي اشنع الجريمتين. اذ انهم قتلوهم دون ان يشعروا بكرهٍ نحوهم.

واتماماً للصلح التفّ الجنود حولهم وطلبوا ان يعزز [اوكتاڤيوس] حلفه بزواجه من [كلوديا] بنت [فولڤيا] زوج [انطوني] من زوجها الأول فتمّ الاتفاق على هذا ايضاً، وبعدها انطلق «مثلث الحكم» الى اعلان اهدار الحقوق وقتل ثلاثمائة شخصٍ[٢٢] وكان شيشرون من قتلى الدفعة الأولى، وبعد ان قضي عليه أمر [انطوني] بان يحتزوا رأسه ويقطعوا يده اليمنى التي كتبت قدحاً بحقّه. وعندما جيء بهما اليه نظر اليهما نظرة انتصارٍ وتشفّ وارسل قهقهةً عالية. وبعد ان شفى غليل، امر بدقهما فوق الروسترا في الفورم. كانه نجح في توجيه اهانة واذلال الى الرجل الميت، في حين انه اظهر به مشهداً من اساءته استعمال سلطته، وغروره وخيلاءه في ساعة يمنه. وطورد دخاله [لوچيوس قيصر] ايضاً فوجد نفسه لاجئاً الى اخته أم [انطوني] فأقتحم القتلة دارها وشقوا طريقهم بالقوة. ليجدوا الأخت تسدّ باب الغرفة في اوجههم، وتمدّ يديها قائلة:

- لن تقتلوا [لوچيوس] قبل ان تقتلوني. انا الذي ولدت جنرالكم.

وبهذا العمل افلحت في انقاذ أخيها، وهرّبته.

وضاق الرومان ذرعاً بحكم الثلاثة. الاّ ان [انطوني] كان اكثرهم موضعاً للوم. فهو أكبر سنّاً [من قيصر]، وأكثر سلطاناً من [ليپيدوس] اضف الى هذا أنه عاد الى حياة التبذل والفجور الأولى، حالما استقر به المقام. كانت سمعة العامة سيئة بحد ذاتها الاّ أنه زاد في كره الناس له، بسكناه في منزل [پومپي] الاكبر. وهو رجل كان موضع الاعجاب والاكبار العظيمين لا لسمو خلقه ووقاره وحياته البسيطة المنتظمة الديمقراطية فحسب بل لنيله ثلاثة مواكب نصرٍ وكان يحزّ في نفوسهم ان تغلق ابواب هذا المنزل في أوجه القادة والقضاة والسفراء الذين يجدون انفسهم مطرودين منه بكلّ وقاحةٍ في حين تفتح مصاريعه للاعبين

---

(٢٢) يذكر ابيان Appian ان حوالي ثلاثمائة شيخ والفين من الفرسان فقدوا حياتهم وكما في مذابح سللاّ - لم يكن الفرض قاصراً على التخلص من المعارضين السياسيين بل لجمع المال. فكل من يصدر بحقه امر الاهدار - تصادر املاكه.

والمشعبذين والمتزلفين والطفيليين السكارى، ليتنزفوا الجزء الاكبر من الثروة التي جناها من ضحاياه بالعنف والقسوة. اذ لم يكتف ثلاثي الحكم بمصادرة اموال المهدورة دماءهم وانّما أخذوا يوجهون الاتهامات الزائفة الى اراملهم واقربائهم ويفرضون عليهم ضرائب وغرامات من كل نوع متصور. وعندما علموا ان مبالغ من المال لبعض الرومان والاجانب قد اودعت امانة عند العذارى الفستالات، ذهبوا اليهن وانتزعن تلك الاموال منهنَّ بالقوة. ولم يطل الأمر [باكتافيوس] ليدرك ان نهم انطوني الى المال لايعرف حداً. ولهذا طلب ان تقسم الاموال المصادرة بينهم بالتساوي، ثم قسما ايضاً قيادات الجيش وقادا قواتهما المشتركة الى مقدونيا لمهاجمة [بروتوس] و[كاسيوس] تاركين [ليبيدوس] في روما[٢٣].

واجتازا البحر، وبدآ في حملتهما العسكرية، وضربا معسكرهما امام العدو: وكان [انطوني] يواجه [كاسيوس]، و[اوكتافيوس] يواجه [بروتوس]. ولم يقم [اوكتافيوس] بعمل يذكر، وكان [انطوني] الذي تسلّم زمام المبادرة وحقق النصر في كل قتالٍ. وعلى اية حال أصيب [اوكتافيوس] في اول معركة بهزيمة ساحقة، واستولى العدوّ على معسكره وكاد يقع اسيراً فافلت في آخر لحظة، وان كتب في مذكراته بأنه انسحب قبل المعركة بسبب حلمٍ رآه احد اصدقائه. الاّ ان [انطوني] من الجهة الأخرى، هزم [كاسيوس]، وان ذكر بعضهم بانه لم يكن موجوداً بشخصه اثناء المعركة، وانه شارك فيها عندما بدأ رجاله بمطاردة العدوّ المنهزم. ولم يدر [كاسيوس] بانتصار [بروتوس] وأمر عبده العتيق [پنداروس Pindarus] بقتله. وبعد ايام قليلة خاض الفريقان معركة أخرى دارت فيها الدائرة على [بروتوس] فقتل نفسه. وكان [اوكتافيوس] طريح الفراش فاستأثر [انطوني] بثمار النصر كلها تقريباً، ووقف عند رأس [بروتوس] المنتحر واخذ يلومه لموت اخيه [كايوس] الذي قتل بأمر من [بروتوس] انتقاماً لشيشرون. ولكنه استدرك فقال ان أكبر اللوم في هذا يقع على عاتق [هورتنسيوس]. واصدر امره بأن يقتل فوق قبر اخيه والقى بمعطفه القرمزي الثمين على جثة [بروتوس] وأمر أحد عبيده العتقاء بدفنه. وعلم فيما بعد أن هذا الرجل الموكل احتفظ لنفسه بالمعطف مع جانبٍ كبيرٍ من المال الذي خصصه المصاريف الجنازة، فأمر به فقتل.

ونقل [اوكتافيوس] الى روما مريضاً، وكان الأمل بشفائه ضعيفاً وزحّف [انطوني] عبر بلاد اليونان على رأس جيشٍ لجب، لجباية الأموال من الاقاليم الشرقية. وكان ثلاثي الحكم قد وعدوا الجنود بأن يدفعوا لكلّ منهم بمكافأة قدرها خمسمائة درهم. وهكذا وجدوا أنفسهم مضطرين الى اتباع اجراءات اشد صرامة في فرض الضرائب وجباية الأتاوات. واظهر انطوني

---

(٢٣) حدث ذلك في صيف العام ٤٢ ق.م.

في معاملته للاغريق اعتدالاً ومجاملة على الأقل في مبدء الأمر، وقنع من ضروب التسلية، بحضور الالعاب والمراسيم الدينية وسماع مناظرات الفلاسفة والعلماء، واظهر رحمةً وتسامحاً في الاحكام القضائية، وكان يسرّه ان يلقب «بمحبّ الاغريق»، ويزداد غطبة اذ يلقب «بمحبّ اثينا» حيث امطر المدينة بالهدايا. ولكن عندما اراد أهالي [ميغارا] اطلاعه على شيء ينافس جمال اثينا ودعوه لرؤية مجلس شيوخهم اسرع بالذهاب وتأمله. ثم سألوه عن رأيه فيه فأجاب: أنه ليس واسعاً جداً بطبيعة الحال. ألاّ انه متقوض جداً!

وقام ايضاً بالكشف على هيكل [ابوللو البيثي] لأجل اكمال عمارته. على الأقل وعد مجلس الشيوخ المحلي بذلك.

وبعد هذا بقليل ترك [لوچيوس چنسورينوس Lucius Censorinus] حاكماً على بلاد الاغريق[٢٤] وعبر المضيق الى آسيا وشرع حالاً بنهب ثروات الأقليم. وكان الملوك الموالون يقفون ببابه والملكات يتنافس على تقديم انفس الهدايا له، ويتراهن على من ستكون صاحبه الحظوة في عينه يتمنّين بذل انفسهن وشرفهن له. وفي حين كان [اوكتافيوس] في روما يعمل ناصباً وينهك قواه في معترك التطاحن السياسي الحزبي وفي الحرب الأهلية. كان [انطوني] غارقاً في مسرات ونعم السلم وفي راحة دائمة، وما لبثت غرائزه ان أطلقت لنفسها العنان كما كانت في السابق فزحف عليه اشتات من الطفيليين وعازفي العود مثل اناكسانور Anoxen-or والنافخين بالمزمار مثل [كسانتوس Xanthus] والراقص [مترودورس Metrodorus]، ومجموعة كاملة من اللاعبين الآسيوين، سبقت اباحيتهم ومجونهم حتى أولئك الطفيليين الذين جاء بهم معه من ايطاليا. فأستولوا على منزله واصبحوا فيه الآمرين الناهين. وأخذ الناس يضيقون ذرعاً بتبديد الثروات على قبل هذه القبائح. اذ ان كل اقليم آسيا اصبح الآن يضوع بالفجور، مثل [ثيبة] في تراجيدي اوديب الملك Sedipus Tyronnes صرخات اليأس، مختلطة بأغاني المرح». وعند دخوله أفسس استقبلته النسوة بازياء باخوسية، والرجال والاحداث بازياء المسوخ، والربّ بان Pan. وساروا امامه بمواكب. وملئت المدينة بأكاليل اللبلاب وسيقان الثيرسوس Thyrsus! وكان الجوّ يردد صدى موسيقى القيثار والزّمار والناس يحيونه بوصفه [ديونيسيوس] المحسن وجالب المسرات هكذا كان يبدو لبعض الناس بلا ريب، لكنه كان في نظر اكثريتهم [ديونيسيوس] القاسي، وناهش اللحم[٢٥]. لأنه جرد

(٢٤) في العام ٤١ ق.م.

(٢٥) يعزى الى [ديونيسيوس] اسماء مختلفة وسجايا مختلفة. والعنصر البدائي الوحشي في طائفته، متوفر كما هو متوفر العنصر الطيب العاقل. ومن هنا جاءت مقابلة بلوتارخ هذه.

العديد من الأسر الشريفة من كل ما تملكه وليفرقه على المتزلفين والأوغاد. وفي احيان أخرى كان يسمح لبعضهم بسرقة الاموال من اصحابها الشرعيين وهم احياء بزعم انهم موتى. وفي مغنيزيا منح [انطوني] دار احد الناس لطاهٍ كان كل فضله انه عمل له عشاءً جيداً ولكن أخيراً عندما فرض اتاوة ثانية على المدن. جمع [هبرياس Hybreas] اطراف شجاعته وتكلم باسم كل الاقليم الآسيوي قائلاً:

- ان كان بوسعك جباية أتاوتين سنويتين في عامٍ واحدٍ فلاشك انك قادر على اعطائنا موسمي صيف وحصادين.

وصاغ افكاره باسلوب بليغ معبرٍ اعجب به [انطوني] ثم انه مضى يقول بلهجة عنيفة صريحة أن آسيا قد جمعت حتى الآن له: مائتي ألف تالنت... «فان لم تتسلّم هذه الأموال، فعليك ان تسأل جباتك الذين جمعوها، وان تسلمتها فعلاً وانفقتها؛ فنحن من الهالكين» احدثت هذه الكلمات اثراً عميقاً في [انطوني] اذ كان يجهل تماماً عظم المبالغ التي جمعت باسمه، لا لأنه من أولئك اللامبالين، بل لأن السذاجة بلغت به حَدّ الثقة المطلعة بمرؤسيه.

في الواقع كان [انطوني] ساذجاً بطبعه، بطيئاً في الوصول الى الحقيقة. ولكن ما ان يدرك خطأه حتى يملأ الندم جوانب نفسه ويغدو مستعداً للاقرار بخطئه ممن اصابهم به. وكلما وجب عليه ان ينزل عقوبةً او يصلح ظلماً فهو يقوم بها بشكلٍ واسعٍ ويتخطى حدود المعقول كثيراً في المكافآت التي يمنحها، اكثر من العقوبات التي يفرضها. واما عن نوع المزاح الغليظ الوقح الذي يحبّ ان يتبادله، فهو يحمل معه علاجه. اذ بامكان كل شخص ان يقابله بمزاح اغلظ واشدّ وقاحة. وهو يلتذّ بان يكون موضع سخرٍ وضحك قدر ما يلتذ بالضحك على الآخرين. وكثيراً ما اضرت به هذه الصفة اذ كان يتعذر عليه ان يعتقد بأن الغرض الحقيقي لأولئك الذين يمارسون حرياتهم معه ويبادلونه المزاح انما غرضهم التملق والتزلف اليه. انه لم يفهم قطّ بأن بعض الرجال يخرجون عن جادتهم فيعمدون الى اتخاذ اسلوب صريح واضح وسيتخدمونه مثل المستحلب الحريف لتغطية طعم المداهنة الكريه. امثال هؤلاء ينطلقون في ردودهم الجريئة وكلامهم الاعتد الى متعمدين وهم في مجالس الخمر حتى يظهروا بأن المصادقة الذليلة في الامور الهامة لا توحي بأنهم انما يعاشرون الرجل لأجل ان يدخلوا البهجة الى نفسه، بل ان ما يصادقون عليه انما هو رأيهم الحقيقي في حكمته السامية.

تلك هي طبيعة [انطوني]، ولهذا فان حبّه [لكليوباترا] التي دخلت الآن حياته، جاء اعظم خاتمةً لمصائبه. لقد اثار الى درجة الجنون كثيراً من النوازع التي كانت الى ذلك الحين مختفية او نائمة. وخنقت او افسدت كلّ السجايا التي ظلت تبدي حتى تلك الساعة مقاومةً للاغراء.

وتنطوي على عناصر الصلاح والخير. واليك قصّة ضياع قلبه فيها:

كان يتهيأ لحملته على البارثيين، فأرسل يطلب من [كليوباترا] مقابلته في [كيليكيا] لتجيب عن اتهامها بإرسال مساعدة مالية كبيرة [لكاسيوس] واسداء العون له في حربه ضدّ ثلاثي الحكم. وبهت رسوله [دليوس Dellius] بسحر [كليوباترا] ودهائها ما ان وقع نظره عليها. وبات مقتنعاً من ساعتها بان امرأة مثلها لن تخشى ان يصيبها اي اذىً من [انطوني] وانما الخوف سينشأ من النفوذ والتأثير الذي ستمارسه هي عليه. فقرر ان يقدم فروض التكريم للملكة المصرية ان يزين لها الذهاب الى كيليكيا وهي «في ابهى هيئة يؤهلها اليه فنّها» كما يعبر عنه هوميروس[٢٦] وان تطمئن من [انطوني] ألطف القادة وأكثرهم رجولة وتهذيباً. وتأثرت [كليوباترا] باقوال [دليوس]. فقد سبق لها ان أختبرت جاذبيتها وتأثير جمالها في [يوليوس قيصر] وفي [پومپي] الأصغر[٢٧]. وكانت تتوقع أسر [انطوني] بأسهل من السابقين لأن [قيصر] و[گنيوس پومپي Gnoeus Pompey] تعرفا عليها وهي فتاة غُرَّة لا تجربة لها في الحياة. اما الآن فستقابل [انطوني] وهي في سن ناضجة، المرأة فيه تكون في اوج فتنتها ورجاحة عقلها[٢٨] ولذلك تهيئات للسفر بكثير من الهدايا الغالية والأموال والفخفخة والزينات التي تتفق ومقامها الملكي واسرتها العريقة. الاّ ان أكبر اعتمادها كان على ملاحتها وفتونها والتأثير الساحر الذي ستخلفه.

تسلمت سلسلة من الرسائل من [انطوني] واصدقائه تدعوها لزيارته. الاّ انها استخفت بكل هذه الدعوات حتى انها عندما قدمت، بدت وكأنها ما جاءت الاّ استخفافاً بأوامره. وصلت تمخر مياه نهر قدنوس Cydnus في مركب حيزومه من ذهب، واشرعته من الارجوان منشورة في مهب الريح، ومجاذيفه الفضية تلطم الماء بشكلٍ رتيب على الحان المزمار والسرناي والقيثار. وأستلقت هي تحت سقيفة من نسيج مذهب مرتدية زيّ [ڤينوس] كما ترى في تماثيلها. يحفّ بها صبيان صغار ذوو وسامةٍ يرتدون زي [كيوبيد] كما يرى في صوره، وهم يهشون لها بمروحاتٍ. وكانت وصيفاتها يرتدين زيّ حوريات البحر Neriede, Grace بعضهن يدرن الدفة، وبعضهن يعالجن القلوع. وكانت البحور والعطور تتضوع صادرة من المركب الى الشاطيء فتنتشر مختلف الروائح الغالية الثمن. والحشود الهائلة من الناس على الجانبين، قسم رافق المركب من صدر النهر، وقسم اقبل من المدينة [طرسوس] مهرولاً والكلّ

(٢٦) المقتبس هو من الالياذة في [ج ١٦ ف ١٦٢] والوصف بالاصل لهيرا Hera التي تجملت لايقاع [زفس] في حبائلها.

(٢٧) هو ابن پومپي الاكبر.

(٢٨) في العام ٤١ ق.م كان لكليوپاترا من العمر ثمانية وعشرون عاماً.

يريد ان يشبع نظره من المشهد. وانفضّ الجمع تدريجياً من الساحة العامة حيث كان [انطوني] ينتظر [كليوپاترا] وهو جالس على كرسيه الرسمي، حتى ترك أخيراً وحده تماماً واقفر المكان. وانتشر القول ان [ڤينوس] جاءت لاحياء العيد مع [باخوس] لمصلحة آسيا.

ارسل [انطوني] الى كليوپاترا يدعوها الى عشاءٍ. إلاّ انها استحسنت ان يلبيّ هو دعوتها. فقبل ليظهر حسن نيته وكياسته فوجد ما هيّء له يجلّ عن كل وصفٍ. الاّ ان ما فاق كل تصوره هو العدد العائل من المصابيح، قيل انه انزلت فجأة من السقف وأخذت تلقي بانوارها الساطعة الى كل الجهات في وقتٍ واحدٍ وقد نظمت وجمعت بهيئات لطيفة ونسق بديع، بعضها في مربعات وبعضها في حلقات. وبدت بمنظر يسبي اللب، لايمكن ان ينظم مثله ليأسر النظر. وفي اليوم التالي، دعاها هو رداً لضيافتها. وكان يأمل ان يفوق مأدبتها بذخاً واسرافاً وفخامةً. لكنه فشل فشلاً ذريعاً وسَلّم بالهزيمة من كل ناحية، وجعل ذلك مادة للمزاح والتفكهة على سماجته وخرقه وافتقاره الى الظرف والذوق. ووجدت [كليوپاترا] ان مزاح انطوني هو من النوع الخشن الغليظ الذي هو أقرب الى العسكري منه الى رجل البلاط المهذب فجارته فيه ونزلت الميدان ونازلته دون تحفظ، ولم يكن جمال وجهها - كما روي لنا مما لايضاهيه جمال فيأسر المناظر حالاً. الاّ ان سحر وجودها لم يكن بالامكان مقاومته. وكان ثم جاذبية في شخصيتها وكلامها، مع قوةٍ غريبة في تلك الشخصية تلازم كل كلمة وكل حركة، فتوقع مجالسها مهما كان تحت تأثيرها التام. ان مجرد سماع صوتها كان اللذة بعينها وهو مثل آلة طرب متعددة الأوتار، بامكانها الانتقال عليها من جرْسٍ الى جرس، فهي عندما تواجه البرابرة يندر لها ان تحتاج الى مترجم، بل تتحدث اليهم بطلاقة ودون معاونة كالاحباش، والتروغلوريت Troglodyte والعبرانيين والعرب، والسوريين والمبدين والپارثيين. وقيل انها الممت بلغات شعوب كثيرة أخرى في الواقع مع ان اسلافها حكام مصر لم يتعبوا انفسهم حتى بتعلم اللغة المصرية، وان بعضهم نسي لهجته المقدونية.

وعلى اية حال نجحت [كليوپاترا] في اجتذاب [انطوني] تماماً، حتى انه قبل ان تأخذه معها الى الاسكندرية في الساعة التي كانت زوجه [فولڤيا] تدير دفة الحرب في ايطاليا ضدّ [اوكتاڤيوس قيصر] دفاعاً عن مصالح زوجها، وفي الوقت الذي كان الجيش الپارثي بقيادة [لابينوس Labienus] [٢٩] (الذي اختاره قواد الملك قائداً عاماً) يهددّ بالويل على حدود

(٢٩) لابينوس هذا، هو ابن [تيطس لابينوس] احد ضباط [قيصر] في حروب الغال [يذكره قيصر في مذكراته عن الحروب الغالية]، انضم الى پومپي وقتل في معركة موندا في ٤٥ ق.م. وارسل بروتوس وكاسيوس الابن بطلب معونة من اورودس Orades ملك الپارثيين وكان هناك عندما انهزم المتآمرون في معركة فيلپي. غزا لاپينوس سورية في ٤٠ ق.م. الاّ ان ڤنديتوس قائد انطوني طرده منها. ثم أسر في كيليكيا.

بلاد ما بين النهرين، ويهّم بغزو سورية. وفي الاسكندرية غرق هذا المحارب القديم في ضروب من المسرات والتسليات واللهو كشابٍ غرّ لايقيم للمستقبل وزناً واخذ يبددّ في اللهو الباطل ما وصفه انتيفون Antiphon «باغلى السلع طراً» الا وهو الوقت. وجمع [انطوني وكليوپاترا] حولهما نخبة من الاصدقاء اطلقا عليها اسم « » يولم كل واحدٍ منهم للآخرين يومياً، باسراف وبذخ بجلّ عن الوصف وقد اعتاد [فيلوطاس] وهو طبيب سكن [امفيسّا Amphissa] - ان يحدث جَدّي [لامپرياس Lamprias] عن ايام دراسته الطب في الاسكندرية[٣٠] فيقول له تعرف باحد طهاة الملكة. وقد زين له وهو بعد شاب يملأه حب الاستطلاع ان يأتي معه ليشاهد الاستعداد الفخم لوجبة العشاء ملكي، ودخل به الى المطبخ وبعد ان شاهد كثرة الاصناف وتنوعها. وراقب عملية شواء ثمانية خنازير بريّة، اعرب عن دهشته لعدد المدعوين الكثير، الذي يستلزم تلك الكمية من الطعام فقهقه الطاهي وبين له ان عهد المدعوين ليس كبيراً وهو لايتجاوز الاثني عشر نفراً. ولكن من الضروري ان يطهى كل شيء ويقدم بصورة متقنة وان التأثير كله قد يتلف ان حصل خلل في التوقيت لايتجاوز الدقيقة الواحدة. فقد يتفق ان يطلب [انطوني] العشاء فور مجيء الضيوف. او انه يطلب بعد قليل، ارجاءها ويأمر ان يؤتي له بكأس من الخمر، أو ربما يستغرق في حديث...

- لذلك فنحن لانهيء عشاءً واحداً، بل نستعد لعدد منها لأننا لانعرف اللحظة التي سيرسل بطلب العشاء بالضبط.

هذه هي الحكاية التي اعتاد [فيلوطاس] روايتها. كما انه روى حكاية أخرى، عن زمن لاحقٍ عندما كان ابن [انطوني] البكر من زوجه [فولڤيا] واحداً من مرضاه وهو طبيب في الاسكندرية. وقد اعتاد تناول العشاء عنده مع اصدقائه، عندما لايتعشي هذا الشاب مع ابيه. في احدى المناسبات، حضر العشاء، طبيب آخر واخذ يتكلم متفاخراً متباهياً فأزعج المدعوين، الى ان نجح [فيلوطاس] في اسكاته بالعبارة السوفسطائية التالية:

«في بعض حالات الحُمى، يجب على المريض ان يتناول الماء البارد. وكل امرءٍ محموم، هو في حالةٍ من حالات الحمى: لذلك فكلّ محموم يجب ان يتناول الماء البارد».

فارتج على الرجل وعجز ان يردّ بكلمةٍ امام هذا المنطق. وبلغ من سرور ابن [انطوني] ان هتف قائلاً:

- كل هذا لك يا فيلوطاس

(٣٠) كان في الاسكندرية انذاك مدرسة طبّ شهيرة.

واشار الى منضدةٍ صف عليها اقداح شرب واسعة. فشكره فيلوطاس وأظهر تقديره الاّ انه استأذن ليبدي شكه في ان فتىً صغيراً مثله، مخوّل بتقديم هدية كهذه. غالية الثمن ولكن لم يمرّ زمن حتى جاء اليه عبدٌ يحمل تلك الاقداح في كيسٍ وطلب منه ان يضع ختمه عليها. ولما ابعدها [فيلوطاس] عنه وادركه الخوف من قبولها، قال له الرسول:

- لا تكن غُراً احمق! ما الذي يدعوك الى التردد؟ الا تدري ان مهديك هو ابن [انطوني]. وان له الحق في ان يهديك كان هذه الاقداح الذهبية ان شاء؟ ولكن لو كنت في موضعك لقبلت مقايضتها بالنقد، فبعض هذه الاقداح قديمة وصياغتها نادرة، عالية القيمة. ومن المحتمل جداً ان يفتقدها والد الصبيّ.

ويقول جدي ان [فيلوطاس] كان مغرماً برواية قصص من هذا النوع في كل مناسبة تعنّ له.

يتحدث افلاطون عن اربعة انواعٍ من الملق الاّ ان لدى [كليوپاترا] الف نوع. ولا فرق لديها ان كان مزاج [انطوني] جاداً او مرحاً فبإمكانها ان تخترع دائماً وسيلة جديدة لتسحره وتسرّه لقد ملكت عليه مذاهبه واستأثرت باهتمامه ولم تدعه يغيب عن ناظرها لحظة في الليل والنهار. تلاعبه النرد، وتساقيه الخمر، وتخرج للصيد معه. وتراقبه وهو يجرب السلاح ويتمرن عليه. وفي الليل عندما يخطر بباله التجوال في المدينة ويقف عند ابواب ونوافذ المواطنين العاديين فيتندر عليهم ويساخرهم، ترتدي هي ثياب خادمة وتؤدي دورها في أية عملية حماقه ومجون تخطر ببال انطوني. اذ كان من عادته ان يخرج متنكراً بثياب عبدٍ. وفي مثل هذه الاحوال كان يخرج باهانات وشتائم. واحياناً كان ينال نصيباً كبيراً من الضرب قبل ان يعود الى القصر، وان كان لمعظم الأهالي فكرة مؤكدة عن هويته. والواقع ان التهريج والمجون كان من نقاط ضعف الاسكندرانيين. تلذهم المساهمة في مثل هذه المسليات باساليبهم المهذبة ورقتهم المرهفة. وقد احبوه شخصياً واعتادوا القول انه وضع قناعه التراجيدي للرومان. وحفظ قناعه الهزلي لهم.

سأبدد الوقت في وصف تفاصيل لهو [انطوني] الصبياني على اني سأروي واقعة واحدة تغني عن الجميع ويكون فيها فصل الخطاب. في ذات يومٍ خرج لصيد السمك فلم يفتح عليه بشيء. ومما زاد في انزعاجه وجود [كليوپاترا] فأمر بعض صيادي السمك بالغطس سراً وربط عدد من الاسماك التي صادوها في شصّه. ثم شرع يسحب صنارته مرتين وثلاثاً. وادركت [كليوپاترا] حقيقة الأمر. وتظاهرت بالاعجاب وهللت لنجاحه، الاّ انها اخبرت اصدقاءها بالحادث ودعتهم للمجيء والمشاهدة في اليوم التالي فركبت جماعة كبيرة قوارب الصيد وانطلقوا للصيد وما ان القى [انطوني] بصنارته، حتى امرت [كليوپاترا] احد عبيدها

بالغطس الى صنارته ليضع في الشصّ سمكة مقددة من اسماك البحر الأسود. وسحب [انطوني] خيط ضاناً انه اصطاد شيئاً وما ان خرج بالسمكة المملحة حتى ضج الحاضرون بالضحك كما كان متوقعاً واسرعت [كليوپاترا] تقول:

- دع صنارة السمك لنا ايها الامبراطور، نحن ملوك فاروس وتينوب الفقراء. فطرائدك هي المدن والممالك والقارات.

فيما هو غارق في هذه الحماقات وضروب العبث الصبياني وردته من روما رسالة تبئنه ان اخاه [لوچيوس] زوج و[فولڤيا] قد أختلفا فيما بينهما، ثم اتفقا على شن الحرب ضد [اوكتاڤيوس]، واصيبا بهزيمةٍ هربا على اثرها من ايطاليا. ووردته رسالة أخرى من سورية ابعث على القلق من الأولى. تنبئه بان [لابينوس] قد استولى على أسيا من الفرات وسورية حتى اقليم ليديا وايونيا غرباً. وعندها[٣١]، وكالنائم الذي اوقظ بخشونة من رقادٍ بعد ليلة عربدةٍ وخمر، انطلق لقتال الپارثيين وتقدم حتى [فينيقيا] وهنا تسلم رسالة من فولڤيا ملائ بالتفجع والبكاء على ما حَلّ بها من محن. فقرر اجراء تغيير في خطته، وألوي متجها الى ايطاليا بأسطوله المؤلف من مائتي سفينة. وفي طريقه التقط عدداً من انصاره الذين تركوا ايطاليا هاربين وعلم منهم ان [فولڤيا] كانت المسببة الأولى للحرب مع [اوكتاڤيوس] كانت امرأة عنيدة صلبة المكسر، يلذّ لها معالجة السياسة، فضلاً عن اعتقادها بان أسرع وسيلة لحمل [انطوني] على ترك [كليوپاترا] هو اثارة الخصومات والاضطرابات في ايطاليا. وتشاء الاقدار ان يعاجلها الأجل وهي في طريقها اليه فقد سقطت مريضة في [سيكيون] وهناك توفيت. وهذا ما قوى احتمال التفاهم مع [اوكتاڤيوس]. اذ ما أنْ وطأ [انطوني] ايطاليا، حتى اصبح واضحاً لديه ان [اوكتاڤيوس] لايعتزم تحميله مسؤولية الحرب، وفي الوقت نفسه كان [انطوني] مستعداً لالقاء التبعة على [فولڤيا] لكل الاتهامات التي قد تلصق به. ومهما يكن فعندما تمّ اوّل اللقاء بينهما[٣٢]، رفض اصدقاء الجانبين اضاعة الوقت في فحص اعتذارات [انطوني] ومبرراته. فقد انصب اهتمامهم في مصالحة الرجلين ثم بقسمة الامبراطورية. فجعلوا البحر الايوني حدوداً واناطوا حكم الاقاليم التي تقع الى شرقه بانطوني، والاقاليم التي تقع الى غربه [باوكتاڤيوس]. وانيط حكم اقليم افريقيا بـ[ليپيدوس] واتفق ايضاً على ان يتولى منصب القنصلية انصارهما كلاً بدوره لأنهما لم يكونا راغبين فيها.

---

(٣١) في مطلع العام ٤٠ ق.م.

(٣٢) تشرين الاول ٤٠ ق.م.

وعدت هذه الاجراءات مناسبة للطرفين، ولكن ارتوئ ان تشد برباط أوثق، وهيّا الحظّ لهذا فرصةً نادرة. كان [لاوكتافيوس قيصر] أخت غير شقيقة أكبر منه، هي بنت [امخوريا Am-choria]، اما هو فابن [آتيا Atia] وهي زوج ابيه الثانية. وكان [اوكتافيوس] شديد التعلق باخته، وكانت كما اشيع عنها، اعجوبة بين النساء. زوجها [كايوس مارچللوس] توفي منذ زمن قصير. وحين [انطوني] كان يعتبر أرمل بعد وفاة زوجه [فولڤيا]. ولم ينكر علاقته [بكليوپاترا]، الا انه انكر وجود رباط زوجي فيما بينهما، وفي هذا الأمر كان موزع الفكر بين حبّه للملكة المصرية، وبين الواقع المقبول. وفي الوقت نفسه كان الرومان جميعاً متفقين على شدّ هذا الرباط، وكانوا شديدي الأمل في ان اخت [اوكتاڤيوس] ان تزوجت [انطوني] وكسبت محبته - فامرأة مثلها لايتعذر عليها ذلك. لذكائها وقوة شخصيتها فضلاً عن جمالها. سيكون في هذا الاتحاد الخلاص، وسيأتي بالهدوء والاستقرار للامبراطورية الرومانية[٣٣]. وعندما اتفق الرجلان على الشروط، ذهبا الى روما واحتفلا بزواج [اوكتاڤيا]. ولم يكن القانون يسمح للمرأة بالزواج الأ بعد انقضاء عشرة اشهر على وفاة زوجها، الاّ ان مجلس الشيوخ اصدر في هذه القضية مرسوماً بالسماح قبل مضي المرة.

في ذلك الزمن كانت قوات [سكتوس پوپيوس] مسيطرةً على صقلية. وكان ايضاً يعيث سلباً في الساحل الايطالي وكان قادراً بمساعدة اسطول قرصان بأمرة [ميناس Menas] و[مينيقراطس Menecrates] على تهديد سلامة السفن في سائر منطقة البحر المتوسط على انه كان قد مدّ يد العون لأمّ [انطوني] عند هروبها من روما مع [فولڤيا] وكان يعتقد انه يخلص الودّ [لأنطوني]. ولذلك قرر ثلاثي الحكم مفاوضته. فأجتمعوا في ضواحي [ميسنيوم Misenum][٣٤]] عند اللسان الداخل في البحر، وكان اسطول [پومپي] راسياً على مقربة وجنود [انطوني واوكتاڤيوس] قد انتظموا صفوفاً على طوال الساحل واتفق على ان تطلق يد [سكستوس] في صقلية وسردينيا، ويتعهد مقابل ذلك بتطهير البحر من القراصنة، وارسال مقدار معين من الحبوب الى روما سنوياً.

وبعد هذا الاتفاق تبادلوا دعوات العشاء، واقترعوا فيما بينهم، فوقعت الدعوة الأولى على [سكتوس پومپي] فسأل انطوني اين ستكون الدعوة فأجاب [پومپي] مشيراً الى سفينة

---

(٣٣) هناك دليل على ان هذا الزواج، والامل في ان يثمر ولداً، هو الذي اوحى لڤرجيل بايكلوجه Ecloque الرابع المشهور. ببنوته حول مجيء طفلٍ الهي يكون عهده مفتح العصر الذهبي.

(٣٤) عقد هذا المؤتمر في ميسينيوم الواقعة في الراس الشمالي من خليج نابلي، وكان ذلك في ربيع ٣٩ ق.م. كان سكستوس الابن الاصغر لپومپي الاكبر وقد ساعدته سيطرته على البحر، في قطع امدادات القمح عن روما. وهذا ما سبب مجاعةً وعدداً في الفتن وحوادث الشغب في روما قمعت بصرامة شديدة.

القيادة وهي بارجة ذات ست طبقات:

- هناك! فهي المنزل الوحيد الذي ورثه [پومپي] عن ابيه.

قالها معرضاً بأنطوني الذي كان واضع اليد على منزل ابيه آنذاك.

وثبتت البارجة في مرساها ومدّ جسر اليها من الساحل لعبور المدعوين. واستقبلهم پومپي بغاية الحفاوة والتكريم وعندما بدأت الخمر تفعل فعلها في النفوس وتحرر المزاح من قيود الكلفة، وبدأت تلقى تعليقات جريئة حول غرام انطوني بكليوپاترا. همس [ميناس] رئيس القرصان في اذن [پومپي].

- أأقطع الأمراس، واجعلك سيداً لامبراطورية روما لا لصقلية وسردينيا فحسب؟

فأطرق پومپي ملياً ثم أجاب:

- ميناس! كان عليك ان تنفذ هذا دون اعلامي. اما الآن فعلينا الرضى بما قسم لنا. اني لن احنث بكلمتي.

وبعد ان حضر [پومپي] دعوتي [انطوني واوكتاڤيوس] أقلع الى صقلية.

بعد اقرار هذا الاتفاق، ارسل انطوني قائده [ڤنتيديوس Ventidius][٣٥] قبله الى آسيا لصدّ تقدم الپارثيين وفي الوقت نفسه مثل وظيفة الكاهن الأعلى Pontifex Maximus التي كان يشغلها [يوليوس قيصر] ترضيةً [لاوكتاڤيوس]. وكانا خلال وجودهما في روما معاً، يتبادلان المشورة فيما بينهما ويعملان بانسجام في تصريف شؤون الدولة ومعالجة الامور السياسية. وكان الغيظ يستولي على [انطوني] كلما وجد [اوكتاڤيوس] يغلبه في العاب الحظ وضروب التسلية الاخرى التي يتعاطياها معاً وكان يوجد لديه ساحر مصري حذق في النظر في الطوالع. لم يخف هذا الساحر عن [انطوني] (اما مدفوعاً بقول الحقيقة واما مدفوعاً بتوصية من كليوپاترا) بانه صاحب حظّ عظيم لامع، الاّ ان القدر حكم بأن يكسف هذا بحظ [اوكتاڤيوس] فهو والحالة هذه ينصحه بالابتعاد عن زميله الشاب ما استطاع سبيلاً. وانذر [انطوني] بقوله:

- ان روحك الحارسة، تفترق من روحه الحارسة. وان كانت روحك جسورة صلبة العدد بنفسها الاّ انها رعديدة جبانة عندما يقترب قيصر منها.

وقد ايدت الاحداث التالية نكهات هذا المصري. فقد روي لنا ان [اوكتاڤيوس] كان الغالب

(٣٥) كان ڤنتيديوس باسوس ممن يطلق عليهم الرومان (نوڤوس هومو) أي اول عضو في الأسرة يبرز فيها بعمل ويحقق لها الشهرة وقد ظهرت مواهبه القيادية بالاصل اثناء خدمته تحت امرة يوليوس قيصر.

كلما القى الاثنان بالنرد، سواء لتسلية او لتقرير شيءٍ من الاشياء. او كلما تراهنا على قتال الديكة والسماني خرج [انطوني] مغلوباً.

وعمل [انطوني] على اخفاء ضيقه من هذه الأمور الاّ انه أولى اقوال المصري كثيراً من الاهتمام. فأوكل امور بيته الى [اوكتافيوس] وغادر ايطاليا الى اليونان ترافقه [اوكتافيا] التي وضعت له طفلةً. وقضى شتاءه في اثينا. وهناك وصلته انباء انتصارات [فنتيديوس](٣٦) على الپارثيين. وكيف انه حقق النصر الساحق في معركة حاسمة قتل فيها [لابينوس]، و[فارناباط Pharnabates] اقدر قواد [هيروديس Hyrodes] فاحتفل بهذا النجاح باحياء الحفلات الكبرى للاغريق. وبالالعاب الرياضية في اثينا التي ترأسها بنفسه فترك في منزله شعارات المنصب التي ترفع امام الجنرال الروماني وظهر للناس مرتدياً ثوباً اعتيادياً ونعلاً ابيض وحاملاً عصًى [الجمناسارخ Gymnasiarck: اي رئيس الالعاب]. وتولى وظيفة الحَكَم في بعض المسابقات. يقبض على المصارعين الشبان من اعناقهم ويفرق فيما بينهم!

وعندما حان موعد ذهابه لحرب الپارثيين، قطع اكليلاً من شجرة الزيتون المقدسة في الاكربوليس. واطاعة لنبوءةٍ معينة. ملأ اناءً بماءٍ من نبع [كلپسيدرا Clepsydra] المقدس واخذه معه. وفي الوقت نفسه عاد [پاغوروس Pacorus] ابن الملك هيرودوس فاغار على سورية بجيش پارثي ضخم، فأشتبك معه [فنتيديوس] وهزمه في جندارُس Gindarus باقليم [جيرستيكا Cyrrhestica](٣٧) وافنى القسم الأعظم من قواته. وكان [باغوروس] من اوائل القتلى، كان هذا النصر احد المع الانتصارات العسكرية التي حققها الرومان في تاريخهم. فقد اخذوا بثأرهم كاملاً من النكبة التي اصابتهم على يد كراسوس واضطر الپارثيون بعد ان خسروا ثلاث معارك متوالية الى الانسحاب خلف حدود ميديا وما بين النهرين. وقرر [فينتدريوس] الاّ يتعقب المنهزم أكثر من هذا. ربما خوفاً من اثارة حسد [انطوني] لنجاحه. وبدلاً من ذلك هاجم القبائل التي تمردت على الحكم الروماني واخضعها، والقى الحصار على انطيوخوس الكوماجيني Commagene في مدينة ساموساتا Samosata. وعندما عرض

(٣٦) هزم فنتيديوس الپارثيين سنة ٣٩ ق.م في الداخل الكيليكية وجبل امانوس. وفي هذه الحروب تخلّى الپارثيون عن الهجمات البعيدة المسافة التي يقوم بها رماة السهام الخيالة وهي التي جعلتهم يربحون معركة الرها Carrhae ضد كراسوس – واعتمدوا على خيالتهم المصفحة دون ان يحققوا نجاحاً. عندها غزا انطوني الپارثيين كان هؤلاء قد ادركوا خطئهم وعادوا الى الاسلوبهم الأول.

(٣٧) كان ذلك في ٣٨ ق.م. وبحسب رواية [ديوكاسيوس Diocassius]، قتل باكوروس في التاسع من حزيران، وهو نفس اليوم الذي فقد فيه كراسوس حياته قبل خمس عشرة سنة.

انطيوخوس دفع الف تالنت لقاء العفو عنه وتعهده بالخضوع لأنطوني، اشار عليه ڤنتيديوس بان يقدم عرضه الى [انطوني] مباشرةً. وكان هذا الأخير قد اقترب من الجوار ورفض السماح [لڤينتيديوس] باجراء اي اتفاق مع انطيوخوس مباشرةً[٣٨]، كان متلهفاً الى مأثرة واحدة على الأقل تعزى اليه ولم يكن يرغب ان يعزى كل نجاح الى [ڤنتيديوس]. وطال الحصار امداً واستمات المحصورون في الدفاع بعد ان رفضت عروض الصلح التي قدموها، فأسقط في يد [انطوني]. وبات يشعر بالخزي والندم لرفضه العرض الاول وقنع أخيراً بعقد صلح مع [انطيوخوس] وقبول ثلاثمائة تالنت فقط وذهب الى سورية لتسوية بعض الامور الصغيرة ثم عاد الى اثينا. وفي عين الوقت اوفى [ڤنتيديوس] ما يستحقه من التكريم ومنازل الشرف وارسله الى الوطن لينال موكب نصره.

وكان [ڤنتيديوس] اولّ من نال موكب نصرٍ على الپارثيين. نشأ لاسرة مغمورة الاّ ان صداقته [لانطوني] فتحت امامه الفرص لتحقيق عظائم الأمور. وايد الرأي القائل بان انتصارات [انطوني واوكتاڤيوس قيصر] انما تعزى في الحقيقة الى قوادهما ومرؤوسيهما أكثر مما تعزى اليهما شخصياً. لاشك في ان [سوسيوس Sossius] وهو قائد آخر من قواد [انطوني]، نال انتصارات هامة[٣٩] في سورية، في حين لم يكتف [كانيديوس Canidius] بفتح بلاد الأرمن[٤٠] عندما تركه انطوني هناك، بل اخضع ايضاً ملوك الايبري والألباني[٤١] وتقدم حتى بلغ القفقاس. وبهذا عظمت شهرة انطوني العسكرية عند شعوب البرابرة.

وفي ذلك الحين عاودت الجفوة [انطوني] بسبب ما كان [اوكتاڤيوس] يذيعه عنه من التهم والوصمات، وابحر الى ايطاليا بثلاثمائة سفينة، فأغلق أهالي [برنديزيوم] ميناءهم في وجهه فدار باسطوله حول الساحل حتى بلغ [تارنتوم] وهنا نجحت [اوكتاڤيا] التي رافقته من بلاد اليونان، باقناعه بالسماح لها بزيارة أخيها. كانت قد ولدت لانطوني ابنتين وهي انذاك حُبلى. والتقت [باوكتاڤيوس] وهي في طريقها اليه وانتحت جانباً بصديقيه [اگريپا Agrippa] و[ميچنياس Maecenas] ونالت عطفهما، راحت تتوسل بأخيها باكية، مستخدمة كل عواطفها قائلة ان لايجعلاها اشقى النساء بعد ان كانت اسعدهن. قالت له ان كل الاعين في

---

(٣٨) توحي دلائل اخرى بان [ڤنتيديوس] قبل رشوةً من انطيوخوس، لكي لايشدد حصاره ويلقي بكامل ثقله. واضطر [انطوني] الى انهاء القضية بنفسه. سمح لڤينتديوس بالعودة الى روما للاحتفال بنصره، إلاّ انه اختفى من الحياة العامة بعدها مباشرةً ولم يسمع عنه شيء.

(٣٩) استولي على جزيرة وبلدة ارادوس Aradus في فينيقيا ٣٨ ق.م واستولى ايضاً على اورشليم.

(٤٠) في ٣٧ ق.م السنة التي سبقت غزو انطوني لبلاد الپارثيين وكان كانيديوس يقود حملة متقدمة على ارمينيا.

(٤١) قبيلتان تسكنان جنوب القفقاس.

الامبراطورية تشخص اليها الآن لأنها زوج لواحد من سيديها واخت للسيد الآخر...

- فان وقعت الطامة الكبرى ونشبت الحرب فيما بينكما. لايستطيع احد ان يتكهن من سيكون الغالب منكما. ولكن الأمر الذي لاشكّ فيه هو ان حظّي سيكون اشقى الخطوط.

تأثر [اوكتافيوس] بكلماتهما ايما تأثير وجاء الى تارنتون بنية احلال الاسلام. وهناك شهد الأهالي منظراً في غاية النبل[٤٢] راؤا جيشاً جراراً تنظم صفوفه على طول الساحل. واسطولاً جباراً في الميناء لايأتي حراكاً في حين يتبادل الاصدقاء من الجانبين التحيات وتعّم الجيش مظاهر البهجة والفرح. وسبق [انطوني] فدعا [قيصر] فقبل، وكان منه تنازلاً اكراماً لاخته. ثم تمّ الصلح بينهما، وبموجبه اعطى [اوكتافيوس] فرقتين من المشاة لاسناد [انطونيو] في حربه البارثية. وترك [انطوني] له مقابل هذا، مائة سفينة حربية. وافلحت [اوكتافيا] بالحصول لأخيها على عشرين سفينة خفيفة أخرى من زوجها مقابل اعطائه الفاً من المشاة. وافترقا وهما على خير ما يكون الاصدقاء، وباشر [اوكتافيوس] بقتال [پومپي][٤٣] والاستيلاء على صقلية، وترك [انطوني] زوجه وبناته مع اولاده من زوجه الأولى وابحر عائداً الى آسيا.

ولكن التأثير القتال، واعني به حبه [لكليوپاترا] الذي ظلّ مدة طويلة هاجعاً في قلبه، وبدا وكأنه طرد سحره، او على الأقل طواه النسيان بتغلب الحكمة والعقل، تجمعت قواه فجأةً وشبت ناره مرة أخرى، حينما كان يدنو من السواحل السوريّة. وأخيراً كان اشبه بالحصان الجامح المشاكس الذي يصفه افلاطون حين يقارن النفس البشرية بحصاني العجلة[٤٤]. كذلك انطوني فقد رمح عن عقله كل الاعتبارات السامية الشريفة لضبط النفس التي قد تكون منقذته، وارسل [فونتيوس كاپيتو Fonteius Capito] لمرافقة [كليوپاترا] الى سورية. وكانت الهدايا التي امطرها بها حين وصولها، لا بالتافهة ولا بالصغيرة، فقد اقطعها

(٤٢) جرى هذا الاجتماع في ربيع العام ٣٧ ق.م. فمن وجهة نظر انطوني كان هناك مسائل على جانب كبير من الاهمية تستدعي البتّ فيها فأولاً مع انه كان لكلّ منهما حق متساو لتجنيد الجنود في ايطاليا فقد وجد انطوني ان حقه لايحترم وكان يمنع من استعماله بمختلف الحجج. وثانياً كانت مدة حكم الثلاثي توشك على الانتهاء ومن الضروري تجديد سلطاته فبالاتفاق الذي تمّ هنا، تخلّى انطوني عن [سكستوس پومپيوس] وجهز اوكتافيوس بسفن لاستعمالها في الحرب ضده وبمقابل ذلك، لما كان حقه في التجنيد، لا قيمة له، فقد طلب جنوداً عوض ذلك. كما ان حكم الثلاثة مدد خمس سنوات أخرى.

(٤٣) في الواقع انه امضى بقية العام ٣٧ يستعد لهذه العملية. ودحر پومپيوس بالأخير وطرد من صقلية في خريف ٣٦ ق.م. وهرب الى آسيا وقبض عليه احد ضباط [انطوني] وقتله.

(٤٤) يقارن افلاطون في محاورة [فيدر Phædrus] النفس البشرية بعجلة مجنحة وسائقها العقل. وحصان ابيض يمثل الشرف والكرامة وآخر اسود يمثل الكبرياء والوقاحة.

فـيذيقيـا ، وسورية الكوليـة[٤٥] وقـبرص، وجزءً كبيـراً من كيليكيـا ، واقطعـها ذلك الجزء من اليـهـودية الذي بنبت البلسان، والجزء السـاحلي من بلاد العـرب النبطيّة الذي يمتد جنوباً على البحر الأحمر هدايا كثيرة اثارت الاستيا ء والسخط لدى الرومان. لقد منح انطوني في الماضي اشخاصاً عـادين حاكـميـات، ونصبهم ملوكـها على شعـوب عظيـمـة وجرد كثـراً من الحكام اقاليمهم وممالكهم كانتيغونس[٤٦] ملك اليهودية الذي أمر بقطع رأسه وكان اول ملك تنفذ به هذه العقوبة. الاّ ان الالم الذي شعر بـه الرومان لهذا التكريم لم يكن يعـدله ألم. وزادهم نقمة عليـه اعتـرافـه بابوة التـوأمين اللذين ولدا له منها وتسميتهما [الاسكندر] و[كليوپاترا] ثم لقبهـمـا بالشمس والقمر. مـهـمـا يكن بان [انطوني] بارع جداً في اكسـاء شرّ الاعـمـال أجمل مظهر واعتاد القول ان عظمة الامبراطورية الرومانية انما تتجلى في مقدرتها على اعطائها بالأحرى لا بأخذها وان نسلاً شريفاً يجب ان يمتدّ فرعـه الى عدة ملوك. وعلى اية حالٍ فان مبدأه كما يقـول - هو ان جده الأعلى كان من نسل [هرقل] الذي لم يقصر ذريته على رحمٍ واحدٍ. ولم يقم امامه عقبة قانونية كقانون صولون بخصوص تحديد النسل. ولم يخشَ مخصباً بنسل، بل ترك الطبيعة تعمل عملها فترك خلفه أساساً لكثيرٍ من الأسر.

بعد هذا بزمن غيـر طويل وثب [فرهاد] على ابيـه [هيـرود] فقتله، واستولى على مملكتـه البارثية، وهرب خلق كثير من بلاده، وفيهم المدعـو [مونيسس Momaeses] وهو رجل رفيع القـدر واسع النفـوذ لجـأ الى [انطوني]. وقـد خـيـل له ان حـالـة هذا الرجل تشبـه حـالـة [تيمستوكليس] ولما وجد ايضاً تناسقاً جذاباً بين ضخامة ثروته وكرمه وبين ضخامة ثروة ملوك الفرس وكرمهم فقد بادر الى اقطاعه المدن الثلاث: لاريسا Larissa واريتوسا Arethu-sa وهيـرابوليس Hierapolis التي كـانت تسـمـى سـابقـاً بامبيـچـة[٤٧] ومـهـمـا يكـن فـعندمـا استـدعى الملك البارثي [مونيسس] للعودة مرسلاً اليـه «يداً يمنى»[٤٨] كمـا يعبرون عنه. اهتبل [انطوني] الفرصة واعادهُ وكان في الحقيقة يريدان ان يخدع [فراهاد][٤٩] بالتظاهر

---

(٤٥) الاقليم المركزي لسورية الذي يمتد شرقاً من جبال لبنان ويشمل دمشق وحلب Palmyra.

(٤٦) في الواقع كان انتيغونس كاهن اليهود الاكبر، وهو غاصب وليس ملكاً، وصل الى السلطة بمساعدة البارثيين عند غزوهم سورية. نفذ فيه حكم الموت في العام ٣٧ ق.م. ونصب انطوني هيرودس حاكماً على اليهودية وهو من انصاره المخلصين. ويزعم ديوكاسيوس أن قتل انتيغونس كان بناء على رغبة هيرودس.

(٤٧) تلك عادة شرقية. ان يقطع لرجل بارز مدينة او اقليم برمته يحكمهما ويكون فيها رزقه. ومقابل ذلك يكون مديناً بالولاء للعرف الاقطاعي.

(٤٨) تعبير مشائع عند الفرس والبارثيين ليدل على عرض السلام والصداقة.

(٤٩) انطلت الخدعة على انطوني. اذ يبدو ان مونيسس لم يكن بحاجة الى الالتجاء بانطوني. وان غرضه هو التجسس على انطوني ومعرفة خططه وابلاغها لملكه.

بانه لاينوى قتاله وكان طلبه الوحيد فيه هو اعادة الاعلام الرومانية التي غنموها عند مقتل كراسوس، وارجاع الأسرى الباقين في قيد الحياة.

واعاد [انطوني] [كليوپاترا الى مصر وسار حالاً بجيشه عبر بلاد العرب وارمينيا الى موضع رتب فيه ان تلتقى قواته بقوات مختلف الملوك الأحلاف. وكان ثم عدد كبير منهم الاّ ان اقواهم واعظمهم سلطانا كان [أرتافازد Artavasd] ملك أرمينيا الذي امده بستة آلاف من الخيالة وسبعة آلاف من الرجالة. وهنا قام [انطوني] باستعراض قواته. وكان الرومان انفسهم يعدون ستين الفاً مع الخيالة التي كانت تعتبر رومانية في ذلك الوقت، وكان منها عشرة آلاف من الاسبان والكلتيين. وساهمت الشعوب الأخرى بما يناهز مجموعه ثلاثون الفاً بضمنها الخيالة والاصناف الخفيفة. مع هذا قيل لنا ان تحشيد القوة الهائل الذي ارعب حتى الهنود ما وراء يختيريا وجعل آسيا كلها ترتعد فرقاً كان لا نفع فيه لانطوني لتعلقه [بكليوپاترا] فلأجل ان يمضي معها فصل الشتاء عجل بالحرب قبل موعدها الصالح. وما اختطه ورسمه فيها كان يتسم بالطيش وقصر النظر، ويجانب السداد والاصالة، كأنه لم يعد مالكاً زمام عقله، وانما تحت تأثير عقارٍ او سحرٍ. فقد كان يبدو وكأنه عينيه تشخصان دوماً الى صورتها وافكاره مركزة في التعجيل بالعودة، لا الاسراع في قهر العدو.

في الدرجة الأولى كان أفضل ما يجب عمله قضاء الشتاء في ارمينيا لاراحة جنوده الذين انهكهم سير طوله ألف ميلٍ، وبعد ذلك يحتل [ميديا] في اسابيع الربيع الأولى. قبل أن يخرج الپارثيون من مقراتهم الشتوية. الاّ انه لم يجد لديه الصبر على الانتظار وزحف حالاً على اقليم [اتروپاتينه Atropatene] فاجتاحه ثانياً: كان شديد العجلة حتى انه ابى انتظار وصول الآليات الضرورية لعمليات الحصار، وكانت محملة على ثلاثمائة عربة. وفيها كبش لثغر الاسوار طوله ثمانون قدماً. ان عطبت اية آلة من هذه الآلات فلا يمكن مطلقاً التعويض عنها في الوقت المناسب، لأن اصقاع آسيا الشمالية خالية من اخشاب بمثل هذه الأطوال وشدّة المقاومة وعلى اية حال اصدر [انطوني] اوامره بان تتبعه في المؤخرة، لأنها تبطيء من سرعة تقدّمه. ولذلك افرز قطعة كبيرة من جيشه بقيادة [ستاسيانوس Statianus] لتقوم على حمايتها. والقى الحصار على [فرهاده Phraata] وهي مدينة كبيرة تسكن فيها زوجات ملك الميدين واولاده. الاّ ان الصعوبات التي أكتنفت حصاره كشفت له عن الخطأ الفادح الذي ارتكبه في تركه الآت حصاره. ولم ير بدا من التقدم بجيشه الى مسافة قريبة من الاسوار وبناء تلّ ترابي مقابلها، وكانت خسارته عظيمة جداً في الوقت والعمل. في الوقت نفسه انحدر [فراهاد] من الپارثيا بجيش لجبٍ وما ان تبين له ان مقطورات آلات الحصار قد تخلفت

عن سائر جيش العدّ حتى ارسل قوةً كبيرة من الخيالة لمهاجمتها فأخذت [ستاسيانوس] على حين غرة ولم يجد نفسه الاّ وهو مطوق[٥٠] وقتل هو والالاف العشرة التي وضعت تحت امرته، ووقع أسرى كثيرون منهم [پوليمون Polemon] احد ملوك الپونطس كما استولوا على آلات الحصار وحطموّها.

وبطبيعة الحال انخفضت معنويات جيش [انطوني] الى درجة كبيرة بهذه النكبة غير المتوقعة في بدء الحملة. ومما زاد الأمر سوءً» اعتقاد [ارطاڤاسديس] ملك الأرمن بأن الرومان لم يعد لهم أملٌ بالنجاح فأنسحب بقواته ورحل[٥١] مع انه كان المحرض الاول على بدء الحملة في ذلك الوقت من السنة. وتقدم الپارثيون الآن من الجيش الروماني الذي يحاصر المدينة واستخدموا افضل جنودهم للقيام باستعراض قوةٍ بكامل اسلاحهم وارسال التحديات والتهديدات للرومان. فلم يكن من انطوني الذي ادركه القلق على معنويات جنوده، لئلا يفقدوا روحهم الهجوميّة، ويدركهم اليأس ان ظلّوا عاطلين - الاّ ان خرج بعشر فرقٍ وثلاث كتائب من الحرس الپريتوري وكلّ خيالته، وأخذ يكتسح البلاد المجاوره ويعمل فيها سلباً ونهباً لاجتذاب العدوّ واغرائه بدخول معركة فاصلة. بعد ان تقدم مسيرة يومٍ واحدٍ لاحظ ان الپارثيين بدأوا يحيطون به وهم في انتظار فرصتهم للوثوب عليه اثناء زحفه. فرفع اشارة المعركة داخل معسكره. الاّ انه امر بتقويض الخيم كأنه ينوي الانسحاب لا القتال. ثم مَرّ من امام خطوط البرابرة الذين كانوا قد انتظموا على شكلٍ هلالي. الاّ انه اصدر اوامره بأن تقوم الخيالة بهجومها على العدو حال وصول الفرق الرومانية مسافة كافية لمهاجمة خطوطهم الأمامية. ولم يأت الپارثيون بحركةٍ حين أخذ الرومان بالحركة صفاً بعد صفٍ محافظين على مسافات بدقةٍ ونظام تامٍ وسكون ورماحهم مشرعة، وقد أخذ منهم العجب مأخذه. الاّ انهم صمدوا بشجاعة لخيالة الرومان عندما اعطيت اشارة الهجوم، وصدوا اندفاعهم وان كان الانقضاض عليهم سريعاً بحيث لم يمكنهم من استخدام قسيّهم. الاّ ان فرق المشاة دخلت المعركة بصيحة هائلة وبصليل اسلحتها المزعج مما أجفل خيولهم وجعلها ترتد الى الخلف، وانهزم الپارثيون قبل المشاة، وقبل ان ينال هؤلاء منهم مأرباً. فجدّ [انطوني] في مطاردتهم اذ كانت آماله كبيرة بانهاء الحرب او على اقل تقدير بربح المعركة فاصلة في هذه الوقعة.

---

(٥٠) هزم بعين الخطة التي طبقت على كراسوس، وهي جماعات من رماة السهام الخيالة تمدّ بدون انقطاع بحاجتها من السهام بواسطة حيوانات حمل، وتبقى على مرمى السهام من الفرق وتصبّ عليهم زخات مدمرة من السهام.

(٥١) في الحقيقة ان [ارطباسديس] ترك قوة [ستاسيانوس] فخيالته كانت تؤلف جزءً كبيراً من الحرس، فرحيله بها، اضعف القوة وكان السبب في القضاء على معدات الحصار.

وواصلت مشاته تعقيب العدو الى مسافة ستة أميال او اكثر، وقطعت خيالته في المطاردة مسافة عشرين ميلاً. وكانت حصيلة هذا الجهد كله ثلاثون أسيراً پارثيا وثمانين قتيلاً لا غير فشاعت الخيبة في الجيش وامتلأ الجنود قهراً. وكانت صدمة عظيمة لهم ان يوقعوا هذه الخسارة التافهة في العدو لينالوا النصر عليه، بمقارنتها بالهزيمة الساحقة التي لحقتهم باستيلاء العدو على معدات الحصار وفي اليوم التالي قوضوا معسكروا وعادوا الى قاعدتهم في [فرهاطه] وصادفوا وهم في طريقهم شراذم وزمراً من العدو أخذت تتكاثر وتتجمع كلما امعنوا في سيرهم، ثم ظهرت وحدات كاملة، انتظمت بالأخير جيشاً مستعداً للقتال أخذ يتحداهم ويطبق عليهم من كلّ الجهات، كأنه لم يعان هزيمةً. وضويق الرومان كثيراً وقاتلوا قتالاً مراً وهم يشقون طريقهم الى المخيم، وبعد هذا بفترة وجيزة خرج الميديون من المدينة وهاجموا التلّ الروماني وهزموا المدافعين عنه. وهذا ما اغضب [انطوني] فعمد الى تطبيق العقوبة بتقسيم الجنود الى مجموعات عشرية، ويختار بالقرعة واحد من كل عشرة فيقتل، وأمر البقية بان تصرف لهم جراياتهم مع الشعير بدلاً من القمح.

كانت الحرب منهكة للطرفين. وبدأ المستقبل باعثاً على القلق. وراح [انطوني] الآن يحسب حساب الجوع، اذ لم يعد الآن قادراً على كفاية حاجة الجنود من الطعام بعمليات نهب واجتياح الاّ بتضحية عدد كبير من القتلى والجرحى. وفي الوقت نفسه كان [افراهاط] يدرى ان جنوده لا قبل لهم بتحمل قسوة الشتاء ومتاعب الحرب فيه بالنوم في العراء اشهراً. وخشي ان يتخلى عنه رجاله ان صمد الرومان وظلوا في معسكرهم. فقد مضى الاعتدال الخريفي وهجمت الريح الباردة. ولذلك لجأ الى الحيلة التالية: اصدر امراً لرجاله الذي هم اعرف من غيرهم بالجنود الرومان ان لايضايقوهم اثناء قيامهم بجمع الارزاق ولايشتدوا في مهاجمتهم وان يفسحوا لهم المجال في ذلك. وان يتقربوا منهم بنية سلميّة ويمتدحوا شجاعتهم ويعلموهم بان الپارثيين يعدونهم جنوداً من الطبقة الأولى وان ملكهم لايسعه غير الاعجاب بهم. وبعدها يتقربون منهم مسافةً أخرى ويرخون أعنة خيلهم لتسير الهوينا معهم ويبدأون بلوم [انطوني] لأنه يأبى التوصل الى اتفاق مع ملكهم وانه لايمنحه اية فرصة للسلام بينما هو متلهف للوصول الى اتفاق، لانقاذ حياة هذا العدد الكبيرة من اشجع الرجال. بدلاً من هذا يصرّ [انطوني] على البقاء منتظراً قدوم اشرس عدوين: الجوع والبرد، مما لا قبل لهم بمقاومتهما، حتى وان رافقهما الپارثيون في طريقهم. ابلغ [انطوني] بهذه المحادثات من مختلف المصادر، ومع أن آماله كانت تدعوه الى فتح مفاوضات، الاّ انه لم يرسل الى الملك الپارثي رسلاً حتى تأكد من قائلي هذا الكلام بأن اقوالهم تلك انما تعبرّ عن رأي ملكهم. وعليه ان لايشكّ في

تلك العروض. فأرسل عدداً من رفاقه، مجدداً طلبه في اعادة الاعلام والأسرى الرومانيين لانه لم يكن يرغب ان يفترض الملك بأنه سيكون حامداً ربّه لو اتيح له الانسحاب بسلام لا غير. وكان جواب الملك: بأن موضوع اعلام كراسوس والأسرى الرومان ليس مهماً، ولكن لو انه سحب جيشه الآن فسيضمن له سبيلاً آمنة ولايتعرض له. وفي غضون ايام قلائل حَمّل [انطوني] اثقاله وشدّ رحاله وبدأ مسيرة العودة. وكان خطيباً مفوهاً يسهل عليه دائماً السيطرة على مستمعيه، وكان يعلم أكثر من اي رجل من معاصريه كيف يأتي بالكلمة المناسبة الكفيلة بتحريك مشاعر الجنود. الاّ ان الهَمّ والشعور بالعار الذي كان يتملكه ويمنعه عن القاء الخطبة التقليدية، تشجيعاً للجيش، حملاه على انابة [دوميتيوس آنيو باربوس Do-mitius Ahino Borbus] [٥٢] فيها. فاستاء بعض الجنود لهذا، وشعروا بأنه يحطّ من قدرهم، الاّ ان معظمهم ادركوا الحقيقة وتألموا جداً وشعروا بأن الواجب يقضي عليهم ان يظهروا المزيد من الاحترام والطاعة لقائدهم لهذا السبب قرر [انطوني] ان يسلك السبيل الذي جاء فيه. وهو يمرّ في ارض منبسطة خالية من الشجر. فجاءه رجلٌ من قبيلة [مارديا Mardian] الساكنة على الساحل الجنوبي من بحر قزوين. وكان خبيراً بالعادات الپارثية. وقد قدم البرهان على اخلاصه للرومان اثناء معركة العجلات والآت الحصار، وعرض على [انطوني] اقتراحه، وهو ان يسير بمحاذاة خطّ الجبال وأن يبقيها عن يمينه، وعليه بصورة خاصّة ان لايعرّض وحدات مشاته ذات السلاح الثقيل والتجهيزات الى هجمات الرماة الخيالة بالسير في أرضٍ براحٍ لاتؤمن حماية او غطاء. وقال ان هذا هو ما يتوقعه [افراهاط] بالضبط، عندما بذل وعوده الطيبة لاقناعه برفع الحصار. فاذا وافق [انطوني] على اقتراحه فيسرّه ان يكون دليلاً للجيش. يقوده في سبيل اقصر، تتوفر فيه الاقوات التي يحتاجها. ففكر [انطوني ملياً بما قاله الرجل القبليّ. لم يكن يريد ان يظن الپارثيون بأنه لايثق بهم بعد التهادن. الاّ انه كان يفضل شخصياً اقصر السبل، وما يمرّ منها ببقاع مأهوله فطلب من [الماردي] الميثاق على اخلاصه. فعرض ان يوثق كتافه بالسلاسل حتى يقود الجيش عبر ارمينيا، فتم ذلك وانطلق يعود الجيش يومين كاملين دون ان يواجه مقاومةً، وفي الوقت الذي صرف انطوني عن رأسه اية فكرة عن رؤية العدوّ ولهذا سمح للرتل بالسير على رسله دون التقيد بنظام السير. الاّ ان الماردّي لاحظ كسراً في ضفة النهر، وان الماء قد فاض منها وغمر الطريق الذي اتخذوه خطاً لسيرهم فأدرك انه من عمل الپارثيين، يقصدون به عرقلة سيرهم فأنذر [انطوني] بزيادة الحذر

(٥٢) هذا الضابط الذي لعب دوراً هاماً في مأساة شاكسپير. قاتل الى جانب بروتوس في فيليبي. ثم بعد ان قاد جزءً من الاسطول الجمهوري الى الادرياتيك. وانضم الى انطوني في ٤٠ ق.م. كان خصماً عنيداً لكليوپاترا ولنفوذها. وعاد مع انطوني وظلّ يلازم جانبه حتى موقعة اكسيوم حين تخلى عنه قبيل المعركة.

واليقظة لأن العدو لاشك قريب. وهكذا كان، فما أن وضع المشاة في حالة التعرض واخذ ينظم الرماة وقاذفي الرماح للعبور من الصفوف والتقدم الى جهة العدوّ حتى تدفقت جموع الپارثيين من كل صوب عليهم فنال الرومان من سهامهم عنتاً الاّ ان رماة الرماح اوقعوا فيهم ما يعادل ذلك من الخسائر واضطروهم الى الانكفاء على الاعقاب. الاّ أنهم كرّوا ثانية ليقوموا بهجوم آخر، استمر حتى تجمعت خيالة [الكلت] كتلةً واحدة وانقضوا عليهم فشتتوا شملهم فتلاشوا ولم ير لهم اثر طوال ذلك اليوم.

هذا الاشتباك لقن [انطوني] عدداً من الدروس في التعبئة، فلم يكتف بعد الآن بتغطية مؤخرته، بل بحماية جناحيه بوحدات قوية من رماة الرمح. ونظم شكل مسيرته بمربعات جوفاء واصدر الأوامر ايضاً للخيالة بأن عليها ان تهزم العدو عند الهجوم ولكن دون ان تقوم بمطاردته الى مسافات بعيدة وكان من نتيجة هذه التدابير أن الپارثيين منوا في الايام الاربعة التالية بخسائر أكثر بكثير من الخسائر التي اوقعوها بعدوهم. وخفت حرارتهم في الهجوم الى درجة ملحوظة. وبدأوا يفكرون في العودة الى ديارهم، محتجين بتقدم فصل الشتاء.

في اليوم الخامس جاء الى [انطوني] أحد ضباطه الأقدمين - [فلاڤيوس غالوّس Flavius Gallus] وهو رجل ذو شجاعة خارقة وقائد موهوب، واستأذن بأن تعود وحدة من الجنود الخفيفة في المؤخرة وبعض الخيالة من الطلائع، لأنه واثق بمقدرته في انجاز نجاح هام. فاذن له [انطوني]. وعندما هجم الپارثيون ردّهم [غالوس] على الأعقاب. الاّ أنه لم ينسحب تدريجياً ليحتذبهم الى الفرق كما جرى العمل حسب الخطّه المرسومة، بل ثبت في مواضعه واشتبك مع العدوّ في معركة سافرة. وادرك الضباط الذين يقودون المؤخرة انه وقع في خطر الانفصال عنهم، وأرسلوا عدائين اليه يأمرونه بالانسحاب الاّ انه رفض الانصياع اليهم، وقيل ان [تيتيوس] الكويستور تشبث بالويته وادارها الى الخلف كأنما يأمر الجنود بالانكفاء والعودة الى القسم الأكبر وراح يعنف [غالوس] لاسترخاصه ارواح هذا العدد الكبير من الشجعان. فردّ عليه [غالوّس] بنفس العنف والشدة وامر رجاله بالثبات فعاد [تيتيوس] وحده. ولكن فيما كان [غالوس] يتقدم الى الأمام، غفل عن ملاحظة قيام العدو بحركة تطويق من المؤنرة باعداد كبيرةٍ ولما رأى السهام تمطر عليه من كل جانب، ارسل يطلب نجدة وهنا ارتكب قادة المؤخرة ما يمكن اعتباره خطأً كبيراً. وكان بينهم [كانيديوس] وهو اقرب القواد الى [انطوني]، فبدلاً من مواجهة العدوّ بكلّ زخم وحداتهم انشأوا يرسلون تباعاً سرايا صغيرة، ما أن تندحر واحدة حتى يشفعوها بالأخرى، ولم يشعروا الاّ والجيش كلّه يكاد يمنى بهزيمة شنعاء من جراء اندحار هذه الوحدات، ولحسن الحظّ اسرع [انطوني] الى المؤخرة بمشاته

الثقيلة لوقف التقهقر وشقت فرقته الثالثة طريقها لمواجهة العدو ووقف اي مطاردة منه.

فقد الرومان مالا يقل عن ثلاثة آلافٍ من القتلى وخمسة آلافٍ من الجرحى ومن بينهم [غالوس] الذي اخترفت صدره اربعة سهام، مالبث ان توفي متأثراً بها. وأخذ [انطوني] ينتقل من خيمة الى خيمة لمواساة الجرحى والتخفيف عنهم إلماً وقهراً. وكانوا يشدون على يده الممدودة باوجه تطفح بالبشر، ويرجون منه ان يذهب ويهتم بمشاغله وهتفوا له باسم الامبراطور والجنرال. وقالوا له انهم بخير وسلامة مادام هو بخير وسلامة وعلى العموم يصحّ القول انه لن يذكر التاريخ قائداً بهذا العمر على رأس جيش يجمع كلّ هذه الميزات القتالية الممتازة، يتألف من جنود في مقتبل العمر والفتوة، قادرين على إيتان العجب سواء في مجال الشجاعة او التحمل والصبر. الاّ ان أعجب ما في الأمر هو طاعتهم لقائدهم واحترامهم له. وحسن النية التي يكنونه له، مع شعورهم بأنه يفضلون حسن ظنّ انطوني فيهم على حيواتهم وعلى سلامتهم - هذا الشعور الذي يشارك فيه الجميع: شهيرهم ومغمورهم، ضابطهم وجنديهم على حدٍ سواء. .بمختصر القول انه جيش لايقومة جنود روما القديمة انفسهم. وهناك اسباب عديدة خلقت مثل هذا التعلّق كما سبق لي ذكره، ومنها عراقة اصل [انطوني]، وقوة عارضته، وبساطته وسخاؤه الذي يصل به حدّ الاسراف، والاسلوب الخالي من الكلفة الذي يلازمه في اوقات لهوه وفي حياته الاجتماعية. وفي هذه المناسبة بالذات كان للحنان الذي عامل به رجاله واستعداده للمشاركة في الآمهم، والاهتمامه بتوفير حاجاتهم، التأثير العظيم في حمل الجرحى والمرضى منهم على ان يكونوا أكثر استعداداً لخدمتهم من اصحائهم واقويائهم.

وعلى اية حال شجع هذا النصر العدوّ الذي كان قبل يوم واحدٍ منهوك القوى يهّم بالتخلي عن القتال، وحفزه على البقاء طول الليل قريباً من الرومان استخفافاً بهم، متوقعين أن يتسنىّ لهم رشيكاً نهب الخيم الخالية والاثقال المتروكة لجيشٍ مندحر. وفي الصباح جمعوا جموعهم للهجوم بقوات تفوق الأمس عدداً حتى قيل انها كانت تضم مالايقل عن اربعين ألفاً من الخيالة. وارسل الملك حرسه الخاصّ أيضاً للمشاركة في ما توقع أن يكون نصراً أكيداً ذلك لأن الملك البارثي لم يحضر قطّ اي قتالٍ بشخصه. وقرر [انطوني] ان يخطب في الجنود. فأرسل يطلب ثياباً غامقة اذ كان يريد يجعل خطبته مثيرة للعاطفة ما وسعه ذلك. الاّ ان اصحابه عارضوا فكرته فبدا الجنرال بالارجوان وتكلم امام الجيش مادحاً الجنود الذين دحروا العدوّ ومؤنبا أولئك الذين فروا من امامه فأجاب الأولون مؤكدين الثقة التي وضعها فيهم، وأعتذر الاخيرون وابدوا استعدادهم لتقبل عقوبة التعشير أو أية عقوبة أخرى يختارها، لو أنه نسي عارهم، وكفّ عن ايلام نفسه بتذكره، فأجاب [انطوني] برفع كلتا يديه والدعاء من الآلهة،

قائلاً إن ادخرت له بعض جزاء لموازنة حسن حظه في الماضي، فليقع هذا عليه وحده ولتمنع السلامة والنصر لبقية الجيش.

وفي اليوم التالي قام الرومان بتغطية تقدمهم بشكل أفضل وأقوى تأثيراً وعندما هاجمهم البارثيون صدموا صدمةً شديدة. انقضوا وكأنهم لايتوقعون غير النهب والسلب من عدوهم، ولما استقبلهم الرومان بزخة من المقذوفات ووجدوهم على اتمّ النشاط والعزم والشوق الى المعركة. دبّ فيهم التخاذل والملل من القتال. على ان الرومان تلقوا منهم وابلاً من السهام وتعرضوا للهجوم عندما اضطرّ الرومان الى نزول منحدرٍ. وعندها انفتح حملة التروس الثقيلة على جبهة مقعرة ووضعوا وحدات المشاة الخفيفة في العمق وبرك الصف الأول منهم على ركبة واحدة ووضعوا تروسهم متراصة امامهم. ورفع الصف الثاني التروس فوق الصف الأول، وتوالت الصفوف على هذا المنوال. فبدأ منظرهم اشبه بالآجر المرصوف في سقوف البيوت، او بصفوف مقاعد الملعب المدرج. وكان دفاعاً فعالاً ضدّ رشقات السهام، فقد أخذت تنثال عليهم دون ان توقع فيهم خسارة. ولم يتصور البارثيون ركوع الرومان الاّ نتيجة الأرهاق الذي حَلّ بهم. فتركوا قسيهّم وأشرعوا حرابهم وهجموا هجمة صادقةً. فأنتفضَ الرومان واقفين والقوا بأنفسهم عليهم وهم يطلقون صيحة عظيمة، وفتكوا بالصفوف المتقدمة، وارغموا الباقين على الفرار. وشهدت الأيام التالية اشتباكات مماثلة ولذلك اصبحت عملية الانسحاب تجري على مراحل قصيرة.

وبدأ الجيش ايضاً يكابد الأمرين من نقص الغذاء، والجوع اذ لم يكونوا ليوفقوا حتى الى النزر اليسير، وهذا لايحصلون عليه الاّ بالقتال. اضف الى ذلك أنهم كانوا يفتقرون الى مطاحن ومخابز، فقد تركوا هذه العدد خلفهم. لأن حيوانات الاثقال لم يعد لها أثر فهي اما نفقت واما كانت تحمل الجرحى والمرضى. وشحت الارزاق حتى بيع الخيونكس الاتيكي[٥٣] من القمح بخمسين درهماً. وبيعت ارغفة الشعير بوزنها فضةً. فلم يعد للرومان حيلة الاّ باكل الخضروات والجذور، ولكنهم وجدوا ما يؤكل منها قليلاً. فأضطروا الى تجربة ما لم يذوقوه من قبل وبهذا السبيل أتوا الى نوع من الحشائش، تصيب أكلها بالجنون ثم تميته. ففقد آكلوها ذاكراتهم ودفعهم جنونهم الى نقل الحجارة من موضع الى موضع دون تعيين كأنما يقومون بعمل علي جانب عظيم من الأهمية، وكانت ارجاء المعسكر تعجّ برجالٍ يرفعون الحجارة من الأرض وينقلونها الى مكان آخر، ثم تأخذهم نوبة من القيء الأصفر ويسقطون موتى. وكانتا الخمر ترياق هذا الداء وهم لايملكون منها قطرةً. وفقد الرومان رجالاً كثيرين بهذه النازلة

(٥٣) «Cheouix» وهو مكيال يقارب البوشل.

وكانت البارثيون لاينفكون على التعرض لهم وهم بهذه الحالة. وكان [انطوني] على ما يذكر لاينفك يصيح:

- مرحى ايتها الآلاف العشرة!

مظهراً اعجابه بكزنيفون وجيشه الذي قطع مسافة أطول مما قطع جيشه، من [بابل] الى البحر ونجح في شق طريقه بوجه مقاومة اشدّ مما يلقاه.

وعجز البارثيون عن تمزيق الجيش الروماني وايقاع الخلل في صفوفه وبعد ان ارتدوا خاسئين في الاشتباكات العديدة، عادوا الى تمثيل دور الأخوة والصداقة مع افراد الفرق، عندما كانوا يخرجون من المعسكر بحثاً عن علف وطعام. ويقولون لهم مشيرين الى قسيّهم المعلقة على أكتافهم بأنهم عافوا القتال وسيعودون الى بلادهم. وكانت فئات قليلة من الميدين يواكبون الرومان مسيرة يوم أو يومين، دون أن يتعرضوا لهم، وكان غرضهم حماية القرى المجاورة ليس غير، مظاهر الصداقة هذه كانت ترافقها التحايا وحسن النوايا، وبهذا ارتفعت معنويات الرومان ثانيةً، وعندما وصلت [انطوني] هذه التقارير مال الى استخدام طريق السهل اذ قيل له ان الطريق الجبلية خالية من الماء. وفيما هو يتهيّأ لذلك اذ [بميثريدات] يصل المعسكر قادماً من جهة العدوّ، وهو ابن اخ [مونيسس] الذي كان قد التجأ الى [انطوني] فمنحه هذا ثلاث مدن. وطلب [ميثريدات] مترجماً يعرف البارثية أو السريانية، ليترجم له اقواله فأستقدم [انطوني] صديقاً له انطاكياً يدعي [الكساندر] ليقوم باستجوابه. فكشف [ميثريدات] عن هويته وقال ان عليهم ان يتوجهوا بالشكر الى [مونيسس] للمعلومات التي زوده بها لهم. ثم سأل [الكساندر] هلى يرى تلك السلسلة من الجبال الشاهقة؟ ولما اجاب هذا بالايجاب استطرد ميثريدات:

- هناك يكمن لكم الجيش البارثي. السهول العظيمة تمتد على طول قدمات السلسلة والبارثيون يتوقعون أنكم ستنخدعون بتقربهم منكم بحسن النوايا فتتركوا المسالك الجبلية وتسيروا باتجاه السهول لاشك انكم ستعطشون وتنهدّ قواكم بمروركم عبر الجبال. الاّ انكم معتادون معاناة هذه المشاق. اما اذا حاول [انطوني] السير عبر السهول، فسيلقى مصيراً شبيهاً بمصير [كراسوس].

ورحل الرجل بعد ان ادلى بمعلوماته هذه. واستبد القلق العظيم بانطوني لما سمع وجمع اصحابه. والدليل الماردي الذي كان رأيه طبق رأي [مثيريدات] وقال:

- ان مخاطر الطريق عبر السهول لا تقتصر على كمائن للعدو، فلو لم يكن أثر له، فان خَلْو

الطريق من معالم واضحة قد يفضي بهم الى التيه والضلال. وفي هذا ما فيه من ارهاق ونصب. اما طريق الجبال، فمع كونه وعراً فلا خطر فيه الاّ بقاؤكم دون ماء يوماً واحداً فحسب.

فأختار انطوني الطريق الثانية وبعد ان امر رجاله بان يتزودوا بالماء بدأ بالمسيرة ليلاً. ولكن معظمهم لم يكن يملك اوعيةً وبعضهم ملأوا حوذهم وحملوها، وعبأ بعضهم الماء بالقرب الجلدية.

وعلم البارثيون بمسيرة [انطوني] فوراً، فأسرعوا بتعقيبه ليلاً خلافاً لما اعتادوه وعندما اصبح الصباح هاجموا المؤخرة، التي كانت في أشدّ حالة من التعب والارهاق من فرط السير وحرمان النوم فقد قطعوا ٣٠ ميلاً اثناء الليل. ليجدوا العدو في اعقابهم، فطارت أنفسهم شعاعاً وخبا بصيص الأمل في نفوسهم اذ لم يكونوا يتصورون بأن العدوّ سيدركهم بهذه السرعة، ومما زاد في الطين بلة، ان العطش تفاقم واشتدّ بالقتال الدائم، فقد كانوا يسيرون ويقاتلون في الوقت ذاته محاولين صدّ العدو عنهم وأخيراً وصلت الطلائع الى نهر ماؤه صاف بارد الاّ انه مالح، وتأثيره سمّي يحدث آلاماً فورية في الامعاء وتشنجات ويزيد العطش. ومع تحذير الماردي فقد كان الجنود ينحون جانباً كل من يريد صدّهم عنه ويشربون من المجرى. وهرول [انطوني] الى الرتل المتقدم وراح يتوسل بهم ويرجو صبراً قليلاً قائلاً ان ثم نهراً ماؤه عذب على مسافة غير بعيدة، وان الجزء الباقي من الطريق وعر المرتقى لاتقوى خيالة العدو على سلوكه. ثم أمر بنفخ بوق التجمع والانسحاب لأن المؤخرة كانت مشتبكة في قتال مع العدو وامر بضرب الخيام، ليريح جنوده في ظلالها على الأقل. فشرع الرومان ينصبونها وواصل البارثيون خطتهم المعتادة فانسحبوا في الحال، وفي تلك الساعة أقبل عليهم [ميثريدات] ثانية وبعد ان ارسل [الكساندر] لمقابلته، نصحهم بأن لايطيلوا اقامتهم وان يصيبوا اقل ما يمكن من الراحة، ويستأنفوا السير باذلين جهدهم للوصول الى النهر التالي، لأن البارثيين لن يعبروه، لأنهم قرروا مطاردتهم حتى ضفته. فأبلغ [الكساندر] [انطوني] وعاد بالرسالة ثم عاد الى [ميثريدات] يحمل مقداراً من الصحاف والاواني الذهبية هدية، فخبأ هذا كل ما استطاع اخفاءه منها تحت ثيابه ورحل. وعمل انطوني بنصيحته فقوض خيامه قبل ساعة المساء وسار الجيش بكامله ولم يتعرض لهجوم. الا ان الرومان مضوا ليلةً ليلاء لم يمرّ عليهم مثلها، وكانوا هم مثيري فتنتها. فقد بدأ الجنود يقتلون ويسلبون من كانوا يظنون ان يخفى مالاً منهم. وسرقت الممتلكات الخاصّة من احمال الحيوانات، وأخيراً هوجم قطار اثقال [انطوني] وكسرت اقداحه ومناضده الغالية الثمن وتوزعها اللصوص فيما بينهم.

أحدث هذا العمل الفوضى الكاملة في الجيش وبدأ بعض الوحدات يفقد اتصاله مع القسم الأكبر ويبتعد عنه، وانتشرت الاشاعة بان العدوّ قد قام بهجوم ناجح اوقع بهم الهزيمة واحدث الخلل في تشكيلاتهم. وعندها استدعى [انطوني] أحد حرسه الشخصيين وهو معتوقة [رامنوس Rhamnus]، وحمله على ان يقسم له بأن يطعنه طعنة قاتلة وقتما يطلب منه ذلك ويحتزّ رأسه (لأنه قرر ان لايقع في يد البارثيين حيّاً، ولا أن تعرف هويته ميتاً). واخذ اصحابه من حوله يبكون الاّ ان [الماردي] بذل قصارى جهده ليرفع من معنويات سيدّه مؤكداً له ان النهر بات قريباً جداً فالرطوبة تشيع في النسيم الذي يهب عليهم من تلك الجهة وان الهواء البارد الذي يلفح وجوههم جعل تنفسهم اسهل من ذي قبل. وبين أيضاً بأن الوقت الذي امضوه في المسير يدلّ على ان النهر بات قريباً منهم لأن ساعات الليل كادت تمرّ. في الوقت نفسه وصله من أخبره بان الهرج والمرج الذي حصل كان سببه طمع وعنف فريق من الجنود(٥٤) فأعطى [انطوني] اشارة الوقوف وضرب الخيام لاعادة النظام الى الجيش بعد أن فقد الضبط والربط وعمت الفوضى فيه.

وطلع الصبح وعادت حالة من الهدوء والنظام تسودان الجيش حين بدأت سهام البارثيين تنثال على المؤخرة، فأعطيت اشارة القتال لوحدات المشاة الخفيفة واتخذت تشكيلة الدفاع التي سبق لها واتخذتها في الماضي اعنى حماية واحدهم الآخر بالتروس ونجحوا في صدّ مهاجميهم الذين لم يجرأوا على التقرب منهم مسافة أخرى، وسار الجيش مطبقاً هذه الخطّة حتى لاح لهم النهر، وعند وصولهم الضفة نشر [انطوني] خيالته بمواجهة العدوّ، وعبر الجرحى والمرضى اولاً، ومالبث الجنود الذين كانوا يقومون بواجب صدّ العدو، ان وجدوا لهم المجال فسيحاً للارتواء من ماء النهر، اذ ما وقعت أعين البارثيين على النهر حتى اعادوا قسيّهم الى جعبهم واشاروا للرومان بأنهم احرار في عبور النهر وهنأوهم على شجاعتهم وصبرهم. واتموا عملية العبور الى الضفة الأخرى دون تعرضٍ واراحوا أنفسهم ملياً ثم استأنفوا السير، وهم في شكٍّ من تأكيدات البارثيين. وبعد ستة ايامٍ من آخر معركة لهم بلغوا نهر أراكس الذي يفصل ميديا عن ارمينيا. وكان عبور هذا النهر السريع التيار والعميق المجرى مجازفةً عظيمة وسرت اشاعة بان العدوّ قد اعدّ لهم كميناً هناك وعلى اية حال عبروا الى الضفة الأخرى بأمان، وما ان وطئت اقدامهم ارمينيا حتى اخذوا يتعانقون ويقبلون الأرض فرحاً بنجاتهم حتى لكأنهم نوتية سفينة معطوبة نجوا من عاصفة بحرية هوجاء وبلغوا اليابسة. وانطلقوا يسيرون عبر

---

(٥٤) هذه الحادثة تبدو غير منسجمة تماماً مع اخلاص الجنود لانطوني. وربما كان السبب في نهب ممتلكاته هو شيوع خبر اليأس الذي استولى عليه، او نبأ موته الكاذب.

ارض غنية بالثمّر والقوت فأكلوا حتى اتخموا بعد ذلك الجوع والطوى، حتى وقعوا فريسة لمرضى الزحار والاستسقاء. واستعرض [انطوني] جيشه فوجد انه فقد عشرين ألف راجل واربعة آلاف خيّال. هلك أكثر من نصفهم بعامل المرض لا بسلاح العدوّ واستغرقت مسيرتهم من [افراهاطه] سبعة وعشرين يوماً، هزموا خلالها البارثيين في ثماني عشرة وقعة غير حاسمة او واقية لهم من الهجمات، اذ لم يكن في مقدورهم مطاردة عدوهم بصورة فعالة الى مسافة بعيدة. والمسؤول عن هذا كلّه هو [ارطباسديس] الأرمني(٥٥) الذي حرم [انطوني] من القوات الكفيلة بانهاء الحرب فلو ان الآلاف الستة عشر من الخيالة(٥٦) وكانت موجودة لاختلف الأمر. فسلاح هؤلاء شبيه بسلاح البارثيين وهم يتعودون اساليب قتالهم ولو كانوا هناك لمطاردة العدو بعد ان يصده الرومان لأستحال على البارثيين أن يجمعوا شتيتهم ويكرّوا عليهم بهجمة أخرى وأخرى كما جرى. ولذلك كان الجيش حاقداً على [ارطباسديس] وأصرّ على [انطوني] بالانتقام منه. الاّ انه آثر ان يسكت عنه، لأن جيشه كان قد بلغ حداً كبيراً من الضعف عدداً وارزاقاً، ووجد ايضاً من حسن السياسة ان لايضع اللوم على عاتقه ولايصمه بالخيانة واظهر له المودّة وحسن النوايا كان لم يحدث شيء بينهما. ولكن لما دخل ارمينيا مرة أخرى اثناء غزوته الثانية ارسل الى [ارطباسديس] عدة دعوات بوعود مغرية، حتى اقنعه بمقابلته، فقبض عليه وكبله بالأغلال وحمله الى الاسكندرية لعرضه في موكب نصره، وقد آلم الرومان بعمله هذا، فقد شعروا بأنه يحتفل بتقليد رسمي وطني عظيم المكانة في بلد غريب ولمنفعة المصريين وارضاء لكليوپاترا. على أن هذا وقع في زمن لاحق.

وغذّ [انطوني] السير، لأنّ فصل الشتاء حَلّ وكان قاسياً بعواصفه الثلجية المستمرة، وفقد ثمانية آلاف من رجاله خلال مسيرته ووصل هو نفسه الى ساحل البحر المتوسط بثلة من الحرس الى موضع يدعى القرية البيضاء، بين بيروت Berytus وصيدا Siddon منتظراً كليوپاترا، ولما استبطأها ركبه الهمّ والحّ في شرب الخمر. الاّ انه لم يكن يصبر على الجلوس الى المائدة، بل كان ينهض فجأة ويسرع الى الخارج يترقب قدومها. وأخيراً جاءت عن طريق البحر ومعها كميات كبيرة من الألبسة والأموال للجنود، وتقول احدى الروايات انها وزعت الألبسة فقط في حين ان [انطوني] وزّع باسمها المال من جيبه الخاص بوصفه هديةً منها.

في هذا الزمن(٥٧) وقع نزاعٌ بين ملك الميديين، وبين [افراهاط] البارثي. وقيل ان سببه خلاف على توزيع الأسلاب التي اغتنمت من الرومان الاّ انها اثارت شكوك الملك الميديّ الذي

---

(٥٥) قضت كليوپاترا على هذا الملك بالموت في ٣٠ ق.م بعد معركة اكسيوم مباشرة.

(٥٦) في موضع سابق من هذه السيرة يذكر بلوتارخ ان عدد الخيالة كان ستة آلاف. وهو أكثر احتمالاً.

(٥٧) في أواخر العام ٣٥ ق.م.

كان يخشى ضياع تاجه. ولهذا السبب طلب معونة [انطوني] وقدومه اليه ووعد من قبله بمساعدته على قهر الپارثيين. فوجدها [انطوني] فرصة ذهبية نادرة انعشت آماله، لاعتقاده انه ما فشل في فتح بلاد الپارثيين الاّ لأنه كان يفتقر الى اعداد كبيرة من الخيالة ورماة القسيّ وهما الصنفان اللذان سيكفيه ملك الميدين حاجته منهما وبصورةٍ يبدو قبولهما منّة وتفضلاً من [انطوني] على المهدي. فاستعدّ للزحف مرة ثانية نحو آسيا الشمالية عبر ارمينيا وهناك تنضّم اليه القوات الميدية عند نهر اراكس فيبدأ بالحرب.

في تلك الاثناء كانت [اوكتاڤيا] في روما شديدة الرغبة بالرحيل شرقاً للحاق بانطوني. وقد اجمعت الآراء أن [اوكتاڤيوس] سمح لها بذلك لا جبراً بخاطرها، بل ليتخذ من اساءة [انطوني] استقبالها، ذريعةً لإعلان الحرب عليه. وعندما وصلت [اوكتاڤيا] آثينا[٥٨] تسلمت رسائل من [انطوني] يعلمها بحملته الجديدة ويطلب منها انتظاره هناك. ومع ان اوكتاڤيا تألمت لهذا وادركت السبب الحقيقي لاعتذاراته. فقد كتبت اليه تستشيره فيما اذا كان يرغب ان ترسل اليه ما جلبته معها. لأنها حملت معها مقادير كبيرة من الألبسة العسكرية للجنود، وعدداً كبيراً من حيوانات الحمل واموالاً وهدايا لضباط [انطوني] واركان حربه الى جانب ألفين من الرجال المنتخبين المزودين بأفضل السلاح والدروع ليكونوا بمثابة حرس پريتوري[٥٩]. وارسلت [اوكتاڤيا]، احد اصحاب [انطوني] المدعو [نيكر Niger] لأبلاغه بكلّ هذا، وعندما ادّى الرسالة مدحها واثنى عليها، بما هي أهله حقاً.

وادركت [كليوپاترا] ان منافستها تنوي ان تتحداها من موضع قريبٍ وكانت تخشى أن تحقق [اوكتاڤيا] سيطرتها على [انطوني] بالاستعانة بسحر معاشرتها اليومية وحدبها الرفيق عليه، فلا يمكن اقتحام السبيل اليه بعدها لذلك تظاهرت بأن حبها لأنطوني يكاد يتلفها واتبعت نظام حمية صارماً ليبدو عليها النحول، فاذا دخل عليها شخصت اليه بعينين واجدتين لا تريمان واذا قام يريد الذهاب تصنعت الضعف وتظاهرت بالاغماء، وكانت في اثناء ذلك تبذل مجهوداً عظيماً لتمكنه من ملاحظتها وهي تبكي، فاذا التفت اليها وانتبه، اسرعت تجفف دموعها وادارت وجهها الى ناحية أخرى كأنها تريد اخفاء ذلك عنه. وظلت تمثل دورها طوال الوقت الذي كان يتهيأ في سورية للالتحاق بملك ميديا. وخف صنائع كليوپاترا ومتملقوها الى بذل الجهود مع [انطوني] فراحوا يلومونه على قسوته، وغلاظة قلبه، اذ كيف

---

(٥٨) في صيف العام ٣٥ ق.م.

(٥٩) في عهد الجمهورية الرومانية: القناصل هم قادة عامون للجيوش. والپريتورون جنرالات غالباً. ولذلك فإن الحرس الپريتوري هو بالاصل نخبة من صنفي الخيالة والمشاة، يقومون بمثابة حر شخصي للجنرال.

يطاوعه أن يعرض امرأة للتلف فيجفوها، وروحها متعلقة به وحده، صحيح ان [اوكتاڤيا] هي حليلته، ولكنه تزوجها لأسباب سياسية، ولأن مصلحة اخيها كانت تستلزم ذلك، فلديها والحالة هذه مقام الشرف. اما [كليوپاترا] الملكة التي تحكم شعوباً عديدة فقد قنعت بمقام الخليلة. وهي لا تنفر من وضعها هذا ولا تتأفف منه مادامت تراه وتستمتع بصحبته. لكن لو حرمت من هذا فلن تستطيع الحياة. وظلوا يضربون على هذا الوتر حتى الانوا قلبه وافقدوه كل صفات الرجولة، وبات يؤمن ايماناً تاماً بأنها ستموت ان تخلىّ عنها فعدل عن حملته الميدية وعاد الى الاسكندرية، منتظراً الصيف لمعاودتها مع ان الانباء كانت تشير الى الفوضى التي عمت بلاد الپارثيين والنزاع الداخلي الذي كاد يمزّقها. ومهما يكن فقد رحل الى تلك البلاد بعد فترةٍ من الزمن وعقد حلفاً مع ملك الميدين، وزوج ابنه الصغير من كليوپاترا ببنت الملك الميدي وهي طفلة بعد، ثم عاد الى مصر. الاّ ان افكاره الآن تحولت الى خطر الحرب الاهلية الوشيك بينه وبين [اوكتاڤيوس قيصر].

وجد [اوكتاڤيوس] برحيل أخته عن آثينا وعودتها الى روما، اهانة له. وعد [انطوني] مسؤولاً عن هذه المعاملة الغليظة. فأمرها بترك بيت الزوجية والعيش في محلّ آخر الاّ انها رفضت وطلبت منه أن يقلع عن التفكير في اثارة حرب مع [انطوني] ان كانت هي سبباً لها. الاّ اذا كان قد قرر ذلك لأسباب أخرى. وان يتغاضى عن سلوك [انطوني] إزاءها، اذ ليس مما يطاق أن يقال بأن اعظم امبراطورين في العالم اقحما الشعب الروماني في حربٍ أهلية، احدهما بسبب حبه لامرأة، والآخر بسبب حنقه على امرأة. ان مسلك [اوكتاڤيوس] برهن على اخلاصها في قولها فقد ظلّت في منزل [انطوني] كأنما هو موجود فيه، وتفرغت بتفانٍ وانكار ذات الى العناية بأولادها الذين يأتون الى روما بحاجةٍ، فتحقق لهم طلباتهم لدى [قيصر] الاّ ان سلوكها النبيل عمل على تحطيم سمعة [انطوني] دون ان تريد، فقد جعلته الاساءة التي ارتكبها بحقها، مكروهاً.

وزاد الحقد عليه بسبب توزيعه ميراثه في الاسكندرية[٦٠]. بين اولاده؛ واعتبر الرومان عمله وقاحة، وحركة مرسحية، يبدو انها دليل على كرهه لبلاده. على انه جمع خلقاً كثيراً في ساحة الالعاب الرياضية هناك. وجاء بتاجين من الذهب له ولكليوپاترا وضعهما على تخت من فضة مع تيجان أخرى لاولاده. فبدأ باعلان كليوپاترا ملكة لمصر، وقبرص وليبيا وسورية الكوليّة، ونادي بـ[قيصارزيون] زميلاً لها في الملك، والمعتقد ان هذا الشاب هو ابن [يوليوس قيصر] الذي ترك [كليوپاترا] حاملاً. ثم أعلن ابنيه منها ملكي ملوكٍ، واعطى [الكساندر]

---

(٦٠) لم يكن هذا الاعلان مجرد اشارة أو كلامٍ بل تسوية سياسية مدروسة عرفت بـ(تقسيمات الاسكندرية).

ارمينيا وميديا وپارثيا [بعد الاستيلاء عليها واعطى [پطليموس] فينيقيا وسورية وكيليكيا، وجيء بالكساندر امام الجموع المحتشدة وهو في ثياب ميدية أرمينية: القلنسوة ذات الرأس المنتصب. وجيء بـ[پطليموس] وهو بالحذاء والمعطف القصير والقبعة المقدونية وفوقها التاج. كان هذا ما يرتديه الملوك من خلفاء الاسكندر الكبير. وبعد ان عانق الاولاد ابويهما أعطي الأول منهما حرس شرفٍ ارمنيّ. واعطي الثاني حرس شرف مقدوني. وكانت كليوپاترا ترتدي زي الربة [ايزيس] وكانت تلقب بايزيس الجديدة.

ابلغ [اوكتاڤيوس قيصر] مجلس الشيوخ(٦١) بهذه الأعمال. وبتنديده المستمر العلني بـ[انطوني] نجح نجاحاً كبيراً في اثارة غضب الشعب الروماني ضدّه. وقام [انطوني] كذلك برفع عدد من الاتهامات المضادة على [اوكتاڤيوس] واهمها هي الآتية:

اولاً: عندما استولى [اوكتاڤيوس] على صقلية من [سكستوس پومپي] استأثر بها لنفسه ولم يعط له حصة منها.

ثانياً: بعد ان استعار عدداً من السفن لاستخدامها في هذه الحملة، ابقاها لديه ولم يعدها.

ثالثاً: بعد ان عزل [ليپيدوس] زميلهما الثالث، استأثر بجيشه واقاليمه التي كان يحكمها هذا القنصل مع عوائدها وضرائبها.

ورابعاً: وزع كل ما تيسر من اراضي ايطاليا تقريباً على جنوده لم يبق لجنود [انطوني] شيئاً.

وكان ردّ [اوكتاڤيوس] على هذه التهم: انه عزل [ليپيدوس] وصادر سلطاته لاساءته استعمالها وان ما استولى عليه في الحرب سيشرك [انطوني] به حالما يعطيه [انطوني] حصة من إرمينيا. وان جنوده لايحق لهم نصيب من اراضي ايطاليا ماداموا قد فتحوا بلاد الميديين والپارثيين وهي الاراضي التي اضافوها ببطولاتهم تحت قيادة جنرالهم - الى الامبراطورية الرومانية.

كان [انطوني] في أرمينيا عندما أعلم بردود [اوكتاڤيوس] قيصر. فوجّه في الحال [كانيديوس] على رأس ست عشرة فرقةٍ الى ساحل البحر. إلاّ انه ذهب الى [أفسس] برفقة [كليوپاترا] ليستقبل السفن نقلٍ وساهمت [كليوپاترا] بمائتين، مع عشرين الف تالنت وتقديم الارزاق والمؤن للجيش كله اثناء القتال. وبناء على نصيحة [دوميتيوس انيوباربوس] وعدد من اصدقائه، طلب [انطوني] من [كليوپاترا] ان تعود ادراجها الى مصر وتنظر نتيجة الحرب

(٦١) بلغ اوكتاڤيوس بالأمور غايتها، عندما طوق المجلس بالجنود مناسبة تقديمه اتهاماته ضد انطوني. وكان لهذا كثير من الانصار في روما حتى في ذلك الوقت وعندها ترك حوالي اربعمائة من اعضاء المجلس مع قنصليْ سنة ٣٢ روما والتحقوا به في الشرق.

الاّ انها كانت تخشى ان تنجح [اوكتافيا] في احلال صلح جديد بين الخصمين فرشت [كانيديوس] بمبلغ كبيرٍ من المال ليسعى لأجلها عند [انطوني]. فتوجه اليه هذا قائلاً: انه من الظلم ان تتحمل المرأة نفقات الحرب الطائلة هذه وتحرم من امتياز وجودها فيها كما انه ليس من الفطنة السياسية في شيء الاساءة الى المصريين وهم جزءٌ كبير من قواته البحرية. وهو كذلك لايجد الملوك الحلفاء الذين يعملون معه ارجح عقلاً واوفر ذكاءً منها. فقد حكمت مملكة عظيمة مدة طويلة من الزمن، وعايشته زمناً فنالت تجارب كثيرة في الشؤون الدولية. أثرت هذه الحجج في انطوني ورضخ لها. لأن القدر حكم بأن يحرز [اوكتافيوس قيصر] كل شيء، ولا مرد لحكم القدر. وبعد ان كمل تجمع الاساطيل ابحرا معاً الى [ساموس] وانصرفا الى اللهو(٦٢).

وصدر الأمر الى كل الملوك والافراد والحكام والشعوب والمدن من سورية حتى البحيرة الماريوتية Mareotic ومن ارمينيا حتى الليريا بأن يجلبوا أو يرسلوا ما يجب عليهم من معدات الحرب، كما صدر الأمر لجميع الممثلين بالحضور الى [ساموس] وفي الوقت الذي كانت الدنيا تخرج الزفرات وتذرف الدمع لما ستجره الحرب من ويلات، ظلّت هذه الجزيرة عدة ايام تتردد في اجوائها انغام المزامير والقيثارات، وامتلأت مراسحها بالمتفرجين، وانشغلت اجواق التمثيل، وارسلت كل مدينة ثوراً مساهمة منها في القرابين. واخذ كل ملك من الملوك المرافقين له ينافس صاحبة في اقامة المآدب على شرفه، وفي اهدائه انفس الهدايا. وبات الناس يتساءلون عن كيفية الاحتفال بالنصر المقبل مادام هذا شأن الاحتفال ببدء الحرب من بذخ واسراف في الانفاق.

بعد ختام هذه الاحتفالات رتب [انطوني] للممثلين الداريين ان يسكنوا على وجه الاستقرار في مدينة [برينه Priene] ثم أقلع الى آثينا، وسمح لنفسه أن يلهو بالمزيد من وسائل التسلية والمشاهد المرسحيّة. وشعرت [كليوپاترا] بالغيرة لضروب التكريم الذي نالته [اوكتافيا] هناك - فقد تعلق الآثينيون بها وانزلوها منزلة حب خاصّة - ولذلك حاولت كليوپاترا التقرب منهم وخطب ودّهم، وبالغت في انعامها عليهم فقابلوها بالمثل وافرطوا في التكريم الرسمي لها، وانتدبوا عدداً من المواطنين للقيام بمراسيم هذا التكريم وارسلوهم وفداً الى منزلها. ورافقهم [انطوني] بنفسه بوصفه مواطن شرف آثيني، ووقف امامها والقى الخطبة التقليدية بالنيابة عن المواطنين الآثينين وفي الوقت نفسه ارسل اناساً الى روما مزودين

---

(٦٢) من المحتمل ايضاً ان تكون هذه الاحتفالات قد اقيمت لمناسبات دينية وليس للهّو: فقد اقام الاسكندر الكبير حفلات مماثلة تكريماً لديونيسوس قبل عددٍ من حملاته.

بتعليمات تقضي بطرد [اوكتافيا] من منزله. وقيل لنا انها عندما تركته اخذت معها كلّ اولاده ما عدا [انتيللّوس Antyllus] ابنه البكر من زوجه [فولڤيا] الذي كان معه وانها ذرفت دموع الأسى، لأنها ستعدّ عند الرومان عاملاً من عوامل الحرب. الاّ ان هؤلاء كانوا يخصون [انطوني] بالمزيد من الرثاء، لاسيما أولئك الذين شاهدوا [كليوپاترا] وأكدوا انها لاتفضل [اوكتاڤيا] لا في شبابها ولا في جمالها.

وكان قلق [اوكتاڤيوس قيصر] عظيماً عند سمع بالسرعة التي استعدّ بها [انطوني] وعظمة تلك الاستعدادات، فقد كان يخشى ان يرغم على الاقلاع في ذلك الصيف[٦٣] لدخول معركة تقررّ مصير الحرب كلّها. وهو في ذلك الوقت يشكو نقصاً في التجهيزات، فضلاً عن الكره الشعبي الشديد الذي نجم عن فرضه ضرائب ثقيلة. فقد كان على من يتمتع بحقوق المواطنة الكاملة ان يدفع أكثر من ربع دخله، والمعتوق ثُمن أملاكه. فتعالت الضجة والصياح عليه من الطبقتين وتفشّت الاضطرابات في ايطاليا. ولهذا السبب عُد تأجيل [انطوني] حربه، خطأ من أعظم الاخطاء الستراتيجية لأنه اتاح الوقت الكافي [لاوكتاڤيوس] فأكمل استعداده. وعمل على تهدئة الخواطر الثائرة عليه. يضج الناس بالشكوى ويتمردون ساعة جباية المال منهم. فاذا دفعوها، هدأ ثائرهم وسكتوا. وخرجت [كليوپاترا] ايضاً عن جادة الصواب فاهانت [تيتيوس Titius] و[پلانكوس Plancus] القنصلين السابقين صديقي [انطوني] وكانا من أشدّ معارضي فكرة بقائها في غضون الحرب. فهربا والتحقا باوكتاڤيوس قيصر وانهيا اليه ببعض المعلومات عن محتوى وصية [انطوني] التي يعرفان تفاصيلها. وكانت هذه الوصية قد اودعت امانة عند العذارى الڤستالات[٦٤] وعندما ما طلبها اوكتاڤيوس منهن رفضن تسليمها وقلن: ان كان يرغب فيها فليأت وليأخذها بنفسه فلم يتوان. وقرأها، وعلم فيها فقرات تصلح لاساءة سمعة انطوني، ثم دعا مجلس الشيوخ للاجتماع وتلا تلك الفقرات علناً فأستنكر معظم الشيوخ عمل اوكتاڤيوس اذ وجدوا محاسبة المرء على ما يرغب في اجرائه بعد موته، اثناء ما هو في قيد الحياة، عملاً غريباً غير مسبوق ولايمكن التسامح فيه وشدّد [اوكتاڤيوس] النكير على [انطوني] لفقرة تتعلق بدفنه. فقد أوصى بأن يحمل جثمانه الى [كليوپاترا] في مصر بعد أن يشيع تشييعاً رسمياً في الفورم، وان حصل موته في روما. والى جانب هذا تقدم [كالڤيسيوس Calvisius] احد صنائع [اوكتاڤيوس] بعدد من التهم ضده تتعلق بسلوكه مع [كليوپاترا] فقال انه اهداها مكتبات

---

(٦٣) كان ذلك في ٣٢ ق.م.

(٦٤) يظهر ان هذا عادة عند الشخصيات الرومانية البارزة. الاّ ان عمل اوكتاڤيوس آثار استياء لأن وصيةً تودعُ لدى الڤستالات تعتبر مقدسة بنوع خاص. وكان بمقدور انطوني ان يغير من موادّها لو شاء.

في برغاموم تضمّ مائتي الف لفة رقّ. وفي مأدبة كبيرة ضمت عدداً كبيراً من المدعوين نهض وانحنى يدعك لها قدميها ايفاءً برهان أو عهدٍ مقطوع. وسمح لأهالي أفسس أن يحيوا [كليوپاترا] بوصفها ملكتهم وبمحضر منه. وفي عدد من المناسبات اثناء تصريفه الرسمي لشؤون والولاة، كان يتسلّم رسائل غرامٍ منها مكتوبة على الواحٍ من عقيق أو بلّور فيقرأها علنا. وفي احد المناسبات كان [فورنيوس Furnius] وهو من ابرز الشخصيات الرومانية، يترافع امامه في قضية، فمرت به كليوپاترا وهي في محفتها فقفز انطوني عن كرسية ونزل تاركاً المرافعة لمرافقتهما متعلقاً بمحفتها.

على اية حال اعتبر المجلس [كالڤيسيوس] مخترعاً لكلّ هذه الحكايات وفي الوقت نفسه قام انصار [انطوني] باستفتاءٍ شعبي ودافعوا عنه علناً امام الجمهور وارسلوا احدهم المدعو [غمينيوس Giminius] ليطلب من [انطوني] بأن لايظلّ ساكتاً في حين تجري محاولة ازاحته عن السلطة بالتصويت، ويعلن عدواً للشعب الروماني. ووصل اليونان، وسرعان ما اعتبرته [كليوپاترا] عيناً من عيون [اوكتاڤيوس]، وجعلت مجلسه على المائدة بين الناس العاديين او الأقل شأناً اذلالاً له، ووضعته هدفاً لمزاح ثقيل. وتحمل [غمينيوس] كل تلك الاهانات صبر وانتظر فرصة للكلام مع انطوني ولكنه عندما سئل عن الغرض من مجيئه في حفلة عشاءٍ، أجاب انه سيحتفظ برسالته لمناسبة أكثر جداً، الاّ ان لديه شيئاً واحداً يريد قوله اصاحيا كن أم ثملاً. وهو ان كل شيء سيسير على مايرام عند اعادة [كليوپاترا] الى مصر. ولما بان الغضب على [انطوني] قالت [كليوپاترا].

- أحسنت صنعاً يا [غمينيوس] لكشفك الحقيقة قبل وضعك على دولاب التعذيب!

ومهما يكن فقد نجح [غمينيوس] في العودة الى روما بعد ايام قليلة[٦٥] وأفلح طفيليو [كليوپاترا] في ابعاد اصدقاء كثيرين [لانطوني] عنه. هؤلاء لم يسعهم احتمال مزاح بطانتها السمج، ومزاحهم الغليظ، وممن تركه [ماركوس سيلانوس Marcus Silanus] و[دليوس Dellius] المؤرخ. ويقول [دليوس] هذا انه كان دائم الخوف على حياته، حتى أن [گلاوخوس Glauchus] اعلمه بما بيتت له [كليوپاترا]، بعد ان غضبت عليه لقوله: ان اصدقاء [انطوني] تقدم لهم خمر فجّة، في حين ان [سارفنتوس Sarmentus] وصيف [اوكتاڤيوس] (وهو احد وصفائه المقربين الذين يطلق الرومان عليهم اسم [دليچاي -Deli

(٦٥) بلغت القطيعه حداً انه ما عاد الصفاء بينه وبين اوكتاڤيا ممكناً والاحتمال الأقرب من هذا ان كليوپاترا خشيت ان يكون [غمينيوس]كاتيو باربوس] احد أولئك الذين ما فتئوا يلحون على انطوني بقطع صلاته مع كليوپاترا واعادة منصبه في الغرب، ان تمكنها من تهديد المواطنين الاحرار بالتعذيب هو آخر ما يمكن ان يتحمله اصحاب انطوني من استفزاز.

ciae] يشرب هناك خمر فاليرنيا Falernia. ما أن أكمل [اوكتافيوس قيصر] استعداده، حتى اصدر امراً باعلان الحرب على [كليوپاترا] وبتجريد انطوني من السلطة التي نزل لها عنها لامرأة وجعلها تمارسها في محله. وذكر [قيصر] ايضاً أن [انطوني] وقع أسيراً للخمر وانه لم يعد يتحمل مسؤولية أعماله. وان الرومان يخوضون هذا الحرب ضدّ [مارديان -Mardi an] الخصي، وكل من [پوثينوس Pothinus وايراس Iras] وصيفي [كليوپاترا] وشارميون Charmion، وصيفتها، لأنهم ذوو الحلّ والعقد الفعليون.

وهنا عليّ ان اذكر عدداً من العجائب التي قيل انها انذرت بوقوع الحرب. وقعت هزة ارضية فأبتلعت ارض مستعمرة [پيساروم Pisaurum] التي انشأ فيها انطوني مستوطنة رومانية على ساحل الادرياتي. واخذ العرق ينضح من احد تماثيل انطوني في [البا Alba] عدة ايام متواصلة ولم يتوقف النضح رغم تجفيفه عدة مرات. ولما كان [انطوني] في مدينة پاتراي [Patrae] وقعت صاعقة على هيكل هرقل وفي اثينا مزقت الريح الهوجاء صورة [باخوس] وقلعتها قلعاً من نقش «معركة العمالقة» والقتها فوق الملعب على ظهرها. وانطوني يزعم انه متصل نسباً بالربّ الأول ومتصل بالثاني نهجاً وخلقاً حتى انه لقبّ بـ[باخوس الصغير]. وعصفت الريح في اثينا بتمثالي [فومينوس Fumenes] و[أتالوس Attalus] الهائلين اللذين نقش عليهما اسم [انطوني] من بين سائر التماثيل الكثيرة الأخرى التي لم يصبها ضرر. وشوهدت علامة نحس سيئة جداً في سفينة القيادة الخاصّة [بكليوپاترا] فقد بنى بعض العصافير في مؤخرتها عشّاً فجاءت عصافير أخرى وطردت الأولى واتلفت عشها.

واجتمع لانطوني من السفن الحربية مالايقّل عن الخمسمائة، منها سفن ذات عدة طبقات قد تبلغ الثماني أو العشر وهي كثيرة الحلي والزخارف دقيقة الصنع كأنها صنعت لاستخدامها في موكب نصر واجتمع له مائة الفٍ من المشاة واثنا عشر الف خيال. ومن الملوك الموالين الذين رافقوه [برخوس Borchus] ملك ليبيا و[تاركونديموس Tarcondemus] ملك كيليكيا العليا وفيلادلفوس Philadephus ملك پافلاكونيا Paphlagonia وارخيلاوس ملك كبدوكيا و[ميثيريدات] ملك كرماجنيه. و[سادلاس Sadlas] ملك تراقيا. هؤلاء كانوا موجودين باشخاصهم؛ وارسل له كل من [پوليمون] ملك الپونطس ومالخوس Malchus ملك البلاد العربية، وهيرود Herod ملك اليهودية وامنتوس ملك لاقونيا وغلاطية قوات كبيرة، كما بعث اليه ملك الميدين ببعض الوحدات المقاتلة.

وحشد [اوكتافيوس قيصر] مقابل ذلك، مائتين وخمسين بارجة حربية. وثمانين ألفاً من المشاة وما يعادل خيالة [انطوني]. وكانت امبراطورية [انطوني] تمتد من الفرات وارمينيا،

حتى البحر الآيوني والليريا. وتبدأ امبراطورية [اوكتافيوس] من الليريا وتمتد غرباً الى المحيط، ثم تستمر على طول الساحل الصقليّ والتوسكاني وكان يسيطر ايضاً على كل الساحل الافريقي المواجه لايطاليا، وبلاد الغال واسپانيا حتى اعمدة هرقل. في حين كان [انطوني] يسيطر على الأقليم الذي يمتد من قيرينه Cyrne حتى ارمينيا.

وأمسى [انطوني] في هذه الآونة آلةً في يد [كليوپاترا] تسيره كما تشاء فمع ان تفوقه البريّ على عدوه كان واضحاً. فقد قرر نزولاً عند رغبة الخليلة أن يجعل البحر ميدان المعركة الفاصلة. لقد اصرّ على ذلك ارضاء لملكته لا غير، وان كان يدري مدى افتقاره الى البحارة حتى ان ولاته Tetrarch في بلاد اليونان كانوا يجندون لها، المسافرين، والمكارين، والحصادين والصبيان الذين لم يبلغوا سنّ الخدمة حتى جردوا البلاد من قابلياتها واستنفدوا طاقاتها. ومع هذا كله لم تبلغ سفنه المستوى القتالي المنشود. وظلت سيئة الادارة بصورة يرثى لها. وكانت أسطول [اوكتافيوس] بعكس ذلك، يشمل سفناً لم تبن للعرض والرؤية وانما للحرب والخدمة. فكانت سريعة خفيفة كاملة العدد والعدة سهلة التحريك. حشدها في [تارنتيوم وبرنديزيوم] وارسل يطلبُ من [انطوني] الخروج لقتاله ولايضيع وقتاً أكثر مما ضيّع وان يقبل عليه وسوف يضمن له المكلأت والموانـي حرة لاسطوله ولجيشه البري، لينزل منها ونصب خيامه، وقال انه سيحسب جيشه مسافة كافية في برّ ايطاليا مما يمكن خيالته من الحركة، فردّ انطوني على هذا التحدي بلهجة تعاظم مماثلة. وتحدى [اوكتافيوس] الى منازلته في معركة فرديّة وان كان أكبر منه سِنّاً. فان رفض اوكتافيوس هذا، فان انطوني يطلب منه ان يلتقيا في [فرساليا] حيث اشتبك [قيصر] بـ[پومپي] من قبل وعلى اية حال فبينما كان اسطول [انطوني] جاثماً في [أكسيوم] حيث تقوم اليوم مدينة [نيكولوپوليس]. تسلل [اوكتافيوس] اليه سِراً عبر البحر الآيوني. واحتل مدينة في ايپروس تدعى [تورنيه To-ryne] اي «المغرفة». وعندما شاع القلق في نفوس اصحاب انطوني لأن جيشهم لم يصل بعد، جعل كليوپاترا من ذلك مادة للسخر وتساءلت مازحةً:

- اي بأسٍ في ما لو نجح اوكتافيوس في الامساك بمغرفة؟

وبعد فترة قصيرة، انطلق العدوّ نحو اسطول [انطوني] في الفجر وكان يخشى ان تؤسر سفنه قبل ان يتمّ وصول جنوده اليها، ولذلك سلّح كُلّ بحارته وجذافيه وعرضهم على اسطحة السفن ايهاماً للعدوّ. ثم صفّ السفن بالقرب من فم خليج [أكسيوم] وجعل طبقات المجازيف ترتفع على الماء بمجاذيفها الموجهة الى العدوّ كأنها مستعدة للقتال فانطلت الخدعة على [اوكتافيوس] وانسحب واعتبر [انطوني] بارعاً، في اقامته آطاماً لقطع مجرى الماء عن

العدوّ حيث لايوجد كثير من الينابيع الصالحة للشرب في الانحاء المجاورة. وهذه ليست بالجيدة ايضاً.

وفي هذا الزمن كان [انطوني] كريماً جداً في معاملة [دوميتيوس اينوباربوس] خلافاً لرغبة [كليوپاترا] فقد فرّ هذا في زورقٍ صغير ولحق [بأوكتافيوس] وهو مريض بالحمى، ومع ان [انطوني] بات وهو في غاية من الحنق عليه الاّ انه بعث اليه بكلّ سلاحه وامواله وصدقانه وخدمه، وما لبث [دوميتيوس] أن مات هناك كأنه يريد ان يندم بعد ان أكتشفت خيانته وقلة اخلاصه. واختار بعض الملوك التابعين تغيير مواقفهم ايضاً فالتحق [باوكتافيوس] امينتاس Amyntas و[ديوتاروس Deiotarus]. زد على هذا فشل الاسطول في كلّ عملية يشارك فيها. اذ كان دائماً يأتي متأخراً فلا يأتي بفائدةٍ فأضطر [انطوني] الى ان يزيد من اهتمامه بجيشه البريّ وادرك [كانيديوس] الآن خطورة الموقف فغير رأيه في الأمر وعاد يقترح ترحيل [كليوپاترا] الى مصر، وانسحاب انطوني الى [تراقيا] او [مقدونيا] وان يعتمد على معركة بريّة فاصلة، ذلك لأن [ديقوس Dicoues] ملك الغيتيين Getae وعده بجيش قويّ. ولم يكن ثم ما يحط من قدره ان هو تخلّى عن السيادة البحرية لأوكتافيوس، طالما تدربت قواته هذه على الحرب البحرية بالأعمال العسكرية التي قام بها اثناء حملة صقلية، هذا فضلاً عن أنه يكون من الخطل ان لايستفيد من تفوقه العدديّ وحسن تجهيز فرقه، وهو المجرّب الخبير في الحروب البرية الذي لايدانيه قائد معاصر فيها. ومن السخف ان يبعثر قواته ويشتتها بحشرها على ظهور السفن فيضعف من قيمتها القتالية، مع كل هذه المجهودات التي بذلها [كانيديوس] فقد ظلّ [لكليوپاترا] القول الفصل. وكانت قد اعتزمت في سرّها على الفرار ولم يكن الهدف الذي توخته من تنظيمها قطعها البحرية هو ربح المعركة بل ضمان فرارها حين تدور الدائرة على انطوني. وحصل ايضاً انه كان ثم جداران طويلان يمتدان من المعسكر حتى مرسى السفن وقد اعتاد انطوني سلوك هذا الممر للوصول الى القاعدة البحرية وكان يروح ويغدو آمناً وليس في فكره اي تحسّب لخطرٍ. واعلم عبدُ [اوكتافيوس] بأن في الامكان أسر [انطوني] اثناء مروره، فأرسل دوريّة لتضع له كميناً. وكاد هؤلاء الجنود ينجزون مهمتهم الاّ انهم خرجوا من مكامنهم في اللحظة غير المناسبة وقبضوا على شخص كان يسبق [انطوني] فهرول [انطوني] ونجح في فراره.

عندما قرر نهائياً ان يخوض المعركة في البحر، اشعل النار في جميع السفن المصرية ما عدا ستين منها[٦٦] ثم عبّأ أكبر واقوى سفنه التي تتألف من ثلاث حتى عشر طبقاتٍ من

(٦٦) يظهر انه قام بهذا العمل خوفاً من هروبها اثناء المعركة. والثلاثون الباقية انما ابقيت لحراسة كليوپاترا.

المجاذيف وأقلع بها وعلى ظهرها عشرون الفاً من المشاة الثقيلة وألفان من رماة القسيّ. ومما ذكر لنا في هذه المناسبة بالذات ان قائد مائة من أحدى الفرق، كان قد خاض العديد من المعارك تحت امرة انطوني حتى أمتلأ جسمه بالندوب، صاح فجأة اثناء مرور [انطوني] :

- أيها الامبراطور. كيف يمكنك ان تفقد الثقة بهذا السيف وهذه الجراح وتضع كل آمالك في الخشب النخر؟ الأدع هؤلاء المصريين والفينيقيين يخوضون حربهم في البحر ودع لنا الأراضي فهناك نعرف كيف نقف صامدين قدماً الى قدمٍ فنهزم خصمنا او نموت دونه.

فلم يستطع [انطوني] الجواب. وكل ما فعله انه القى نظرة اليه واوما اليه بحركة من يده تشجيعاً له. ثم مظى لطيته. والواقع أنه لم يكن يملك كبير ثقة فيما استقرّ عليه. اذ لما اقترح ربابنة السفن ترك الاشرعة(٦٧) اصدر أمره بابقائها على ظهر السفن. معللاً ذلك بأنهم لن يدعوا فرداً واحداً من العدو يفلح في الفرار(٦٨).

في ذلك اليوم والايام الثلاثة التي تلته، كان البحر هائجاً حتى تعذر على الطرفين القيام، بأي عملية حربية. على ان البحر هدأ في اليوم الخامس وسكنت الريح والتقى الاسطولان وتولى [انطوني] و[پوبليكولا Publicola] قيادة الميمنة في حين تولى [كوليوس coelius] الميسرة. وتولى [ماركوس اوكتاڤيوس] و[ماركوس انستيوس Insteius] القلب. ووضع [اوكتاڤيوس قيصر] [اغريبّا] على الميسرة وتولى بنفسه الميمنة وتولى قيادة جيش انطوني [كانيديوس] في حين سلم [اوكتاڤيوس] قيادة جيشه الى [طوروس Taurus] الاّ ان كلا القائدين وضع جيشه في خطّ القتال دون ان تبدر منهما حركة. وراح [انطوني] ينتقل بقارب صغير من سفينة الى سفينة مشجعاً جنوده وطالبا منهم الثبات، والبلاء الحسن في هذه السفن الكبيرة، مثلما عهد منهم في البرّ. وامر الربابنة بمواجهة هجمة العدو وكانت سفنهم راسية وان يصمدوا في مواضعهم على فم الخليج الضيق الذي يصعب المرور منه. وقيل ان [اوكتاڤيوس قيصر] ترك خيمته والظلام مازال مرخيا سدوله وأنطلق لتفقد سفنه فمرّ برجل يسوق حماراً، فأستوقفه وسأله عن أسمه فأجاب الرجل وقد عرف مخاطبه:

- اسمي [مسعود] واسم حماري [فاتح].

وبعد المعركة، عندما اقام [اوكتاڤيوس] عند الساحل عدداً من مناقير السفن المأسورة

---

(٦٧) قيل ان انطوني كان يؤمل الإفادة من الرياح المقبلة لدفع سفن عدوه الى الساحل وعلى اية حال معلوم ان البوراج الحربية اثناء المعركة انما تعتمد على مجاذيفها عادة وليس على قلوعها. والواضح ان اوامره خلقت انطباعاً بأن نيته الحقيقية هي الفرار لا القتال، وقد عززّ هذا الانطباع. ان امواله ومقتنياته، كانت كلها محملة على ظهر السفن، في حين كان بمقدور الجيش البريّ المحافظة عليها من الضياع.

(٦٨) يزيد نشر القلوع من سرعة السفن عند المطاردة.

تزيينا للموضع وتخليداً للمعركة، نصب بينها تمثالاً برونزياً للسائق وحماره.

بعد ان انهى جولته التفقدية، توجه الى الجناح الأيمن بقاربٍ صغير. فوجد لعجبه الشديد ان العدوّ لاتبدر منه اية حركةٍ في المضيق كأن سفنه ملقيةٌ بمراسيها. وظلّ برهة وهو يظن ان الامر كذلك. وابقى سفنه بعيدة عن العدوّ بمسافة ميل واحد. ولكن ريحاً رخاء هبتّ من جهة البحر قبيل الظهر. وادرك رجال [انطوني] الملل من طول الانتظار ولما كانوا قد وثقوا بأن سفنهم لا تقهر بسبب ضخامتها وارتفاعها، أطلقوا حركة الميسرة فتقدمت للمعركة. فكان سرور [اوكتافيوس] عظيما وامر جذافي ميمنته بالتقهقر، ليغري العدوّ به ويخرجه من الخليج ومدخله الضيق. وكانت خطته تطويقهم باسرع القطع من اسطولة وقتالها من مسافة قريبة حيث كانت واثقاً بأن الافضلية ستكون الى صفّه على بوارج عدوه الكبيرة السيئة العُدة بحركتها البطيئة وعجزها عن المناورة.

عندما التقت خطوط القتال، لم تحاول السفن نطح احداها الأخرى او سحقها. لأن سفن [انطوني] كانت ثقيلة جداً، لاتستطيع ان تحقق السرعة الكفيلة بتوجيه صدمة ساحقة لجدران سفن العدوّ. ولأن اوكتافيوس من جهته، تحاشى ذلك عمداً، ولم يشأ ان يصادم سفن العدوّ بمناقير سفنه، فتلك كانت مصفحة بصفائح معدنية ضخمة واسنّة برونزية، ولم يحاول ايضاً عن ينطحها من جوانبها لأن هيكلها مبني بكتل مربعة ضخمة من الخشب الذي يشده الى بعضه احزمة حديدية، فتتكسر مناقير سفنه عليها بسهولة. ولهذا اصبح القتال أشبه بمعركة بريّة واتخذ سماته تقريباً أو بكلمة أدق هجوم على قلعةٍ محصنة فكنت ترى كل ثلاث أو اربع سفن لأوكتافيوس، تحوّم حول سفينة واحدة لانطوني. وجرى القتال بالتروس والحراب والقضبان والمقذوفات النارية، وكان رجال [انطوني] فضلاً عن ذلك يستخدمون مقذوفات المجانيق المثبتة على ابراجٍ خشبية. وبدأ [اغريبا] يمدّ جناحه الايسر متحامياً طريقه للالتفاف حول جناح العدوّ. واضطر [پوبليكولا] مواجهة لهذه الحركة - الى التقدم نحوه، والانفصال عن القلب الذي كانت الفوضى قد عمّته، وقد اشتبك معه فوراً [ارونتيوس Arruntius] قائد القلب في اسطول [اوكتافيوس]. في هذه اللحظة حينما كان الميزان معلقاً بين الطرفين شوهدت سفن كليوپاترا الستين تخرج عن خط القتال فجأة وتنشر قلوعها منطلقة في عرض البحر. كانت هذه السفن قد وضعت خلف السفن الثقيلة مباشرة ولهذا اختل نظام التشكيلة وعمتها الفوضى عندما راحت تتلمس سبيل انطلاقها وراقبها العدوّ بذهول وهي تنشر قلوعها وتتجه بمساعدة الريح نحو الپلوپونيسس. وهناك اوضح [انطوني] للعالم اجمع بأنه لايعمل بشعور القائد ولا بدوافع الرجل الشجاع، ولا بمقتضى عقلية الرجل السوي، بل برهن على حقيقة قول

قيل في معرض مزاح. ان روح العاشق الولهان تعيش في جسم آخر. وقد سمح لنفسه ان يجرّ جراً خلف امرأة كأنه اصبح جزءاً من لحمها وان عليه أن يذهب حيث شاءت له. ما ان رأى سفنها تنطلق، حتى إمّحى كل الاعتبارات الأخرى من ذهنه وتخلّى عن الرجال الذي يقاتلون ويموتون في سبيل قضيته وخانهم. صعد الى بارجة ذات ستّ طبقاتٍ مع كل من الكساس Alxas السوري، وسچليوس Scellius واسرع وراء تلك المرأة التي دمرّته، والتي ستقوم باكمال تدميره بعد فترة قليلة.

لما ادركت انه يسعى وراءها رفعت اشارة على سفينتها فأقترب منها انطوني واصعد الى ظهرها الاّ انه لم يحاول رؤيتها ولم تره هي بل ذهب الى قيدوم السفينة وجلس وحده لاينطق بكلمة واضعاً رأسه بين كفيه، وبعد قليل لاحت قطع من سفن [اوكتافيوس] الليبورنية الخفيفة Liburnian في الأفق تتعقبهم فأمر [انطوني] بان تستدير السفينة لمواجهتهم. فلما فعلت، نكصت المطاردة على اعقابها الاّ سفينة [يوركلس Eurycles] اللاقوني فقد اقترب بسفينته ووقف على سطحها واشرع رمحه كأنه يريد ان يقذف به [انطوني]. ووقف انطوني عند القيدروم وصاح:

- من هو هذا الذي يتعقب [انطوني].

- انا يوركليس بن لاخاريس. جئتك مسلحاً بحظوظ [قيصر] كي أثار لوالدي.

كان [لاخاريس] قد أدين بجريمة سرقة، واحتزّ رأسه بأمرٍ من [انطوني]، على ان [يوركلس] لم يهاجم سفينة انطوني بل توجه باقصى سرعة الى سفينة القيادة الأخرى حيث كان يوجد اثنتان - فنطحها وجعلها تدور على نفسها واستولى عليها وعلى سفينة أخرى كان فيها مقدار من الصحاف الثمينة وغيرها من الأموال. وما ان كرّ [يوركليس] راجعاً رغاب عن الانظار حتى عاد [انطوني] الى وضعه السابق من الوجوم والجلوس. وظل كذلك ثلاثة ايامٍ يأبى التحرك من موضعه، وهو امّا ممتليء غيظاً من كليوپاترا، او رغبةً منه في عدم توجبه اللوم اليها، أخيراً بلغوا [تيناروم][٦٩]، ونجحت وصيفات كليوپاترا في حملهما على محادثة بعضهما بعضاً ثم أكلاً معاً ورقدا. وبدا عدد من سفن النقل الثقيلة وفلول اتباعه يتواردون اليه عقب الهزيمة العامة. واعلموا بأن الاسطول قضي عليه قضاءً مبرماً. امّا القوات البّرية فأغلب ظنهم انها ما زالت صامدة في مواقعها. فأرسل اوامر الى [كانيديوس] يأمره بسحب الجيش الى آسيا عبر مقدونيا بأسرع ما يمكن. امّا هو فقررّ ان يترك [تيناروس] الى

---

(٦٩) هي رأس ماتابان الحالي. ويقع في أقصى جنوب الپلوپونيسمس.

افريقيا، وأهدى انصاره احدى سفن النقل بما فيها من اموال طائلة وآنية ذهبية وفضية تعود للملوك الحلفاء. ورغب منهم ان يقتسموها فيما بينهم ويستعينوا بها لتدبير أمر سلامتهم. فرفضوا هديته شاكرين وانخرطوا في بكاء فأخذ يطيب خواطرهم بأعذب الكلام وارق لهجة والحّ عليهم بقبول الهدية. أخيراً صرفهم بعد ان كتب الى [ثيوفيلس] وكيل امواله في كورنت، يطلب اليه ان يمنحهم ملجأ ويبقيهم مخفيين. الى أن تصلح امورهم مع [اوكتافيوس قيصر]. و[ثيوفيلس] هذا، هو ابن [هيپارخوس] صاحب أكبر نفوذ عند [انطوني]، ومع هذا فقد كان اول عتقاء [انطوني] الذين ينضمون الى [اوكتافيوس]. وقد استقر بعد ذلك في كورنث.

هذا ما آلت اليه احوال [انطوني]. ظلّ اسطوله في [اكسيوم] صامداً بوجه [اوكتافيوس] عدة ساعات ولم يستسلم رجاله الاّ بعد أن اعطبت سفنه عطباً شديداً بعاصفة. وكان ذلك في الساعة الرابعة بعد الظهر، وفقد الاسطول مالايقل عن خمسة آلاف قتيل وغريق، ووقعت ثلاثمائة سفينة في يد [اوكتافيوس] كما دون هو نفسه في مذكراته. ولم يعلم بفرار [انطوني] الى القليل من سفنه. ومن بلغه النبأ كذّبه ولم يعره اذناً صاغية. اذ لم يكن يصدق ان يتخلّى جنرال عن تسع عشرة فرقة، واثني عشر الف خيال لم تدخل معركة ولم تهزم. ومهما يكن فلانطوني تجارب عديدة مع تقلبات الحظّ وتحولاته المفاجئة كما ان مفاجآت القتال وتصاريفه قد عجمت عوده وبلته. وكان جنوده في شوقٍ لرؤيته، وكانوا على ثقة بأنه سيظهر لهم من جهة ما. حقاً هذا الاخلاص وتلك الشجاعة جعلاهم يصمدون سبعة ايام متوالية وهو غائب عنهم، متجاهلين كل تقرب منهم يأتيه [اوكتافيوس]. أخيراً عندما تبينوا ان [كانيديوس] وكيل انطوني في القيادة، هرب من المعسكر ليلاً وانهم اصبحوا دون أملٍ، ولا ارزاقٍ، ولا قيادة، انضموا الى الغالب. بعد هذا ابحر [اوكتافيوس] الى آثينا بحراً حيث قام بتنظيم شؤون الاغريق. ووزع ما تبقى من مخزون القمح الذي انتزعه انطوني من المدن بالاكراه وكاد يوردها موارد التلف. نهب اموالهم وغصب عبيدهم وصادر خيولهم وحيوانات اثقالهم و م يبق لهم شيئاً. لقد اعتاد [نيقارخوس] والد جديّ ان يروي كيف جند أهالي مدينتنا لأعمال السخرة فكان كل واحد منهم يحمل على عاتقه مقداراً معيناً من القمح الى الساحل قرب [انتيكيرا Anticyra]. يشرف عليهم مراقبون ويحتثونهم بالسوط. وبعد ان انجزوا نقلةً واحدةً وفيما هم يتهيأون لكيل النقلة الثانية ويضعون احمالهم تلك على عواتقهم، أقبل من ينبئهم بهزيمة [انطوني]. هكذا نجت [خيرونيا] فقد هرب جنوده ووكلاء اعاشته حال سماعهم بذلك وتركوا الأهالي يتقاسمون القمح فيما بينهم.

بوصول [انطوني] ساحل ليبيا، أرسل [كليوپاترا] لتسبقه الى مصر فغادرت [پاريتونيوم Paraetonium] [(٧٠)] وبقي هو وحيداً، يستمتع بكلّ ما توفره له الوحدة من هدوء. فيتجول على هواه مع صديقين احدهما [ارسطوقراطس] المنطبق اليوناني و[لوچيليوس] الروماني الذي ورد ذكره في موضع ما من سيرة [بروتوس]، وقصصنا كيف انه افسح [لبروتوس] مجالاً للهرب بعد معركة [فيليبي] عندما تثاقل في سيره حتى ادركه مطاردو پروتوس، وقبضوا عليه عندما انتحل شخصيته. وقد عفا عنه [انطوني] بعد ان مثل امامه. ولهذا ظلّ اميناً مخلصاً حتى الأخير. وعندما انضم كاربوس[(٧١)] وهو القائد الذي امرّه انطوني على جيش ليبيا - الى [اوكتاڤيوس]، حاول قتل نفسه الاّ ان صديقيه حالاً دون ذلك وعاد الى الاسكندرية فوجد [كليوپاترا] مهتمة بمشروع جريء غريب، فقد كانت تحاول ان ترفع سفنها من البحر الابيض الى اليابسة وتنقلها الى البحر الأحمر في موضع ينفصل فيه البحران ويعتبر الخطّ الفاصل بين آسيا وافريقيا، وهو يبلغ في اضيق موضع منه حوالي اربعين ميلاً[(٧٢)] وكانت خطتها ان تحملها بعدئذ بالاموال الكثيرة، مع حرس مرافق قوي. فتنزل السفن الى البحر الأحمر ثم تبحر وتستقر فيما وراء حدود مصر آمنة من الأخطار والحروب والأسر الاّ ان عرب مملكة بطرا اشعلوا النار في اول سفينة خرجت الى اليابسة[(٧٣)] ولما كان [انطوني] على ثقة بأن جيشه في [اكسيوم] مازال مخلصاً فقد تخلت [كليوپاترا] عن الفكرة. ووضعت جيشها في موقف الاستعداد لحماية مصر. وفي تلك الاثناء ترك [انطوني] المدينة والاصدقاء وذهب ليعيش وحده في جزيرة [فاروس][(٧٤)] حيث بنى له بيتاً على نتوء نافذ في البحر. وهناك حبس نفسه عن الناس جميعاً وقال انه يريد ان يعيش كما عاش [تيمون Timon] من قبل. فقضيته تشبه قضية ذاك الآثيني قوبل مثله بالأذى ونكران الجميل من أولئك الذين توهمهم اصدقاء، فابغض كل البشر وفقد ثقته فيهم.

كان تيمون هذا، مواطناً اثينياً عاش في ايام حروب الپلوپونيسس تقريباً وقد ورد ذكره في كوميديات [ارسطوفان] و[افلاطون][(٧٥)] ويصوره هذان الكوميديان رجلاً انطوائياً سوداوي

---

(٧٠) قرب مدينة السلوم الحالية.

(٧١) احد ضباط انطوني الذين حاربوا معه في معركة فيليپي.

(٧٢) حوالي سبعين ميلاً في الواقع.

(٧٣) هؤلاء هم رعية [ملكوس] النبطي. كان هذا الملك يحقد على كليوپاترا منذ ان أعطيت بلاده لها بموجب التسوية التى عملها انطوني في ٣٨ ق.م.

(٧٤) تقع هذه الجزيرة مقابل مدينة الاسكندرية، حيث اقيم عليها المنار الشهير، الذي يعد من عجائب الدنيا السبع.

(٧٥) هو الكاتب المرسحي الهزلي، وليس الفيلسوف المعروف.

المزاج كارهاً الناس ومع انه كان يضيق ذرعاً بالعشرة والصحبة ويتنجب البشر والاختلاط بهم، الاّ انه استمتع بصحبة [الكيبيادس] وكان آنذاك شاباً وقحاً ذا خلق نفور - وكان معتاداً معانقته وتقبيله بكلّ حب. ولما أعرب [ابيمانتس Apemantus] عن دهشته لهذه العواطف وسأله عن سببها، قال له [تيمون] انه يحبّ [الكيبيادس] لكونه يعلم بأنه سيكون سبباً لكثير من المحن والمصائب للآثينيين. وكان [ابيمانتس] هذا الشخص الوحيد الذي يسمح له أحياناً بزيارته فكلاهما من الطينة نفسها وقد حاول [ابيمانتس] أحياناً احتذاءه في طريقة عيشه. ومرة اثناء «عيد الابريقين»[٧٦] كما كان يطلق عليه، قال ابيمانتس:

- ما أبدع مجلسنا هذا يا تيمون؟

فأجابه:

- قد يكون مجلسنا طيباً لو لم تكن هنا.

ومرة نهض والجمعية العامة متقعدة في آثينا وصعد منصة الخطابة، وهذا بحد ذاته أمرٌ خارق للعادة، وبلغت الدهشة بالحاضرين حتى انهم سكتوا وكأن على رؤوسهم الطير وارهفوا آذانهم ليلتقطوا ما سيتفوه به. فأعلن [تيمون] قائلاً:

- يا رجال آثينا. ان لدي قطعة ارض صغيرة للبناء، تقوم عليها تينةٌ، وقد سبق لكثير من اخواني المواطنين أن شنقوا أنفسهم على فروعها، على أني انوي الآن بناء منزل في موقعها، فوجدت الأفضل ان أعلن للجميع ذلك النبأ. فان كان اي منكم يريد ان يشنق نفسه فليذهب وليفعل ذلك قبل ان اجتثها!

ولما حان اجله، دفن في هالي Halae على حافة البحر الاّ ان الجزء الامامي من الساحل انخسف وجرفه الماء ثم الجوانب فتعذر الوصول الى قبره. ويقرأ النقش المكتوب عليه هكذا.

هنا ارقد مدفوناً بعد أن انقطع خيط حياة شقية.

لاتسل عن اسمي: فليس عندي لك غير لعنتي.

هذان البيتان هما من نظمه على ما قيل. الاّ أن الصيغة المعروفة عموماً، هي من نظم [كالليماخوس Callimachus] واليك هي:

هنا يرقد تيمون، الذي ابغض البشرية: ولاتتوقف يا عابر السبيل؛ والعنيّ ان كانت تلك رغبتك، لمن سر في طريقك، فهذا كل ما ارجو منك هذا قليل من كثير من الحكايات التي انحدرت الينا عن [تيمون].

---

(٧٦) اليوم الثاني من عيد الخمر الذي يقام تكريماً [لديونيسوس] وهو يوم سكب الخمر قرباناً للموتى.

كان [كانيديوس] هو الذي أبلغ [انطوني] بانّ جيشه في [أكسيوم] قد تبخر وتلاشى بكامله. وعلم بعدها مباشرة أن [هيرود][٧٧] ملك اليهودية قد أعلن ولاءه [لاوكتافيوس] وأخذ معه عدداً من الفرق والكتائب، وان بقية حلفائه من الملوك قد تخلوا عنه ولم يبق لديه من السلطة شيء خارج مصر. الاّ ان امثال هذه الأنباء الآن لم يعدلها اي تأثير عليه وبدت عليه السعادة لتخلصه من رسيس الأمل، ومن القلق معاً. وترك منتجعه البحري الذي سماه [تيمونية Timoneum] واستقبلته [كليوپاترا] في قصرها وأقامت المدينة واقعدتها بالحفلات والمآدب المتواصلة ومجالس الشراب وتوزيع الهدايا باسراف. وثبت [قيصاريون] اين [قيصر] من [كليوپاترا] في قائمة الشباب Ephebes[٧٨] وخلع على [انتيللوس] ابنه من [فولڤيا] المعطف الرجالي Toga Virilis بدون حاشية الارجوان[٧٩]. واشغلت المآدب والحفلات التي اقيمت بهذه المناسبة، المدينة عدة أيام بطولها. وحلّ [انطوني وكليوپاترا] عصبة «العائشين الافذاذ» والفوا عصبة أخرى، مساوية للأولى على الأقل في اسرافها وبذخها وافراطها وسمّوها «اخويّة المتحدين في الموت». وانضم اليها اصحابهم بعلمٍ منهم بوجوب انهاء حياتهم معاً، فراحوا يقضون الايام بسلسلةٍ متتابعة من حفلات العشاء الفاخرة. وفي اثناء هذا جمعت [كليوپاترا] انواعاً عديدة من السموم القتالة، وكانت تجربها على المحكومين بالموت لترى ايهّا أقل آلاماً. ووجدت ان السموم ذات المفعول السريع تورث دائماً اشدّ الآلام وانكاها، وان أقلها ألماً هي ابطأها مفعولاً. وواصلت اختبارها، لاكتشاف الميزات السميّة لمختلف الحيوانات السامة، بحملها على مهاجمة بعضها بعضاً على مشهدٍ منها وكانت تقوم بتجاربها هذه يومياً تقريباً وبعد تجربتها كلّ المحتملات، وجدت ان لدغةً «الصلّ المصري asp» هي الوحيدة التي تحدث نعاساً ثقيلاً وسباتاً ثم خدراً تاماً. ولا يحدث السم تشنجات ولا تنهدات، بل قليل من العرق في الوجه، وتفقد الحواس قابلياتها بالتدريج حتى تتلاشى. والملدغون يقاومون كل محاولة لايقاظهم او انعاشهم. كما يفعل الناس عند استغراقهم في نوم طبيعي عميق.

وارسل كلاهما بعثة الى [اوكتاڤيوس] في آسيا، وطلبت كليوپاترا ان يرث اولادها عرش

---

(٧٧) كان هيرود الكبير حتى ذلك الحين نصيراً متحمساً لانطوني. وقد ارسل نجدات عسكرية الى [اكسيوم] الاّ انه لم يحضرها بنفسه.

(٧٨) عند الاغريق يدرج في هذه القائمة من يتراوح عمره بين السادسة عشرة والثامنة عشرة.

(٧٩) ثقف قيصاريون ثقافة اغريقية ولذلك ادرج في قائمة [الايفيبوس] وثقف انتيللوس ثقافة رومانية. والصبي الروماني يرتدي [المعطف الرجالي] في حدود الرابعة عشرة اشارة الى انه أصبح يتمتع بحقوقه القانونية كاملة. والى هذا التاريخ كان يلبس ما يسمى Toga Praetexta ذات الاهداب الارجوانية. هذان قتلهما اوكتاڤيوس، كما سيرد ذكره.

مص. وطلب [انطوني] ان يسمح له بالعيش في آثينا كشخص عاديّ. أن حظر عليه البقاء في مصر. ولما كان معظم اصدقائهما قد انفضوا من حولهما عادا يشكان في اخلاص القلة الباقية، فقد بعث لهذه المهمة معلم ابنائه المدعو [يوفرونيوس Euphronius]. والسبب في هذا هو العمل الذي اجترحه [الكساس] اللاوديكي Laodicea. كان [تيماجينس Tima-genes] هو الذي قدم هذا الرجل الى [انطوني] في روما، ومرت الايام به وهو يزداد اقتراباً من العاهل حتى بات يتمتع بأقوى نفوذ تمتع به اغريقي عنده. وكان ايضاً ممن استخدمتهم [كليوپاترا] للتأثير على [انطوني] ففعل ذلك بكلّ نجاح وأقنعه بنبذ كل الاعتبارات التي كانت قد تعيد علاقات الصفاء مع اوكتاڤيا. وقد ارسله انطوني الى [هيرود] ملك اليهودية املاً في اقناعه بالعدول عن اعلانه الولاء لاوكتاڤيوس، ولكن بعد ان مكث [الكساس] عند [هيرود] ردحاً من الزمن وخان سيده، وجد عنده الصفاقة الكافية للمثول بين يدي [اوكتاڤيوس قيصر] معتمداً على نفوذ [هيرود] لحمايته، الاّ ان هذا الملك عجز عن معونته، وقبض عليه وجيء به الى بلاده مصفداً بالأغلال ونفذ به حكم الموت بأمرٍ من [اوكتاڤيوس] تلك كانت العقوبة التي استوفاها [الكساس] جراء خيانته، في اثناء حياة [انطوني].

رفض [أوكتاڤيوس قيصر] مطلب [انطوني]. الاّ أنه كتب [لكليوپاترا] يطمئنها بنيل كل طلبٍ معقول تبديه، شريطة أن تقضي على حياة انطوني او ان تطرده من مصر. وفي الوقت ذاته أرسل اليها [تيرسوس Thyrcus] أحد عتقائه وهو من العلماء والاذكياء[80] وفكّر [اوكتاڤيوس] أن مواهبة وقابلياته في الاقناع ستؤدي الى نجاحه في ابلاغ رسالةٍ من جنرال شابٍ الى امرأة مدركة قدر جمالها، فخورة به الى اقصى حدٍ. وعند وصول المبعوث الموفد اليها، حظي هذا الرجل منها بمقابلة اطول من الآخرين. وبالتفاتٍ وتكريم اثاراً الشك في قلب [انطوني]. فأمسك بالرجل وجلده واعاده الى [اوكتاڤيوس] برسالة قال فيها:

- إن تطاول هذا الرجل ووقاحته، قد اغاظني في ظروفٍ من سوء الحظّ تجعل استفزازي من أسهل الأمور. فإن ساءك ما فعلت به فلديك معتوقي [هيپارخوس] رهينة. وبإمكانك شنقه أو جلده، وبذلك نخرج متعادلين.

بعد هذا حاولت [كليوپاترا] اصلاح غلطتها، باظهارها له اشدّ الحنان والرعاية والتفاني. واحيت عيد ميلادها بما يناسب حالتهما الحاضرة وسوء حظوظهما، الاّ أنها أحتفلت بعيد

(٨٠) ارسل انطوني وكليوپاترا عدداً من الرسل الى اوكتاڤيوس دون ان يحققا نجاحاً، ومنهم انتيللوس ابنه، ارسلاه مع مقدار كبيرٍ من المال فأحتفظ أوكتاڤيوس بالمال وصرف انتيللوس. ومن المحتمل ان تيرسوس ارسل ليبقي المفاوضات مستمرة ليحول بين كنوز البطالمة وبين التدمير. وكانت اموالاً طائلة، وأوكتاڤيوس في حاجة ماسة الى المال.

ميلاده باسراف وبذخ منقطعي النظير، حتى ان كثيراً من الفقراء الذين دعوا الى المشاركة فيه، خرجوا وهم اغنياء. وفي ذات الوقت كتب [اغريپا] لاوكتاڤيوس يرجوه العودة الى روما لأن وجوده فيها ضروري. ففعل، واجلت الحرب حتى انقضاء موسم الشتاء ومن ثم بدأ [اوكتاڤيوس] الحرب مجدداً فزحف على مصر وسورية، كما زحف قواده عليها من افريقيا. وما لبث ان أستولى على [پيلوسيوم] واشيع ان [سلوقوس] قائدها سلّمها الى [اوكتاڤيوس] بايعاز من كليوپاترا. ولاجل نفي الاشاعة دفعت الى يد [انطوني] باولاد القائد المستسلم وزوجه فقتلهم.

كانت [كليوپاترا] قبل هذا بزمنٍ قصير قد ابتنت لنفسها قرب معبد [ايزيس] عدداً من الاضرحة العالية والقبور الرائعة المنظر ونقلت اليها كلّ اموالها وكنوزها من الذهب والفضة، والزمرد اللؤلؤ والابنوس والعاج والقرفة وكمية كبرى من خشب النار ونسالة الكتان. وخشي [اوكتاڤيوس] ان تعمد كليوپاترا في نوبةٍ مفاجئةٍ من اليأس الى اشعال النار في هذه الكنوز، فكان حريصاً على مكاتبتها باستمرار ووعدها بالمعاملة الطيبة اثناء تقدمه من المدينة. ومهما يكن من أمرٍ فبعد ان عسكر بالقرب من هيپودروم[٨١] الاسكندرية، كرّ عليه [انطوني من الداخل بهجومٍ رائع فأرسل خيالته على اعقابها وطاردها حتى اضطرها الى الاحتماء بتحكيماتها، وعاد الى المدينة ظافراً، وقد انعش النصر روحه ودخل القصر وعانق [كليوپاترا] وهو مدجج بالسلاح. وقدم لها جندياً من رجاله أبلى أحسن البلاء في المعركة. فاهدته [كليوپاترا] درعاً وخوذة من الذهب اعترافاً بشجاعته فقبلها وفي الليلة نفسها هرب والتحق بقوات [اوكتاڤيوس].

وأرسل [انطوني] تحدياً آخر [لاوكتاڤيوس] يطلب منه نزالاً فردياً. فكان الجواب: على انطوني ان يجد لنفسه وسائل أخرى غير هذه الوسيلة لأنهاء حياته. وهذا ما جعل [انطوني] يفكر ان اشرف ميتة هي ان يسقط في ميدان القتال. وقرر الاشتباك مع العدو برّاً وبحراً في وقتٍ واحدٍ. وقيل انه طلب من الخادم اثناء العشاء ان تترع كأسه، وأن يزيد في العناية بخدمته عن العادة، فلا أحد يدري هل سيخدمه غداً، ام انه سيخدم سيّداً آخر، بينما يكون هو في عداد الموتى، مؤمياء او لاشيء. وعندما لحظ ان اصدقاءه يبكون لكلامه قال انه لم يأخذهم للقتال معه، لأنه لايتوقع ان يخرج من المعركة منتصراً أو سالماً، وانما هو يبغي منها موتاً كريماً فحسب. وتمضي الرواية فتقول: في تلك الليلة بالذات عند منتصّف الليل تقريباً عندما هجع الجميع، وغرقت المدينة في صمت موحش رهيبٍ توقعاً لما سيأتي به الغَد، سمعت

(٨١) هو رباط الخيل الكبير ويقع في ظاهر المدن الواسعة.

الحان موسيقي رائعة، بدت وكأنها خارجة من جوقةٍ تضرب على مختلف الآلات بمصاحبة ارخم الاصوات وأعذبها وسمع في الوقت نفسه صيحات ضجيجاً صادراً من جمّ غفيرٍ من الناس. أختلطت فيها الصرخات الباخوسيّة وبقفزات المسوخ المجذوبة، كأن موكباً مرحاً يترك المدينة وهو يغنيّ ويهتف. وبدأ الموكب وكأنه يسير في شارع وسط المدينة متجهاً الى الباب الخارجي المؤدي الى معسكر [انطوني] وفي هذه اللحظة ارتفعت الاصوات الى مُنتهاها ثم تلاشت. واستنتج أولئك الذين حاولوا تفسير هذه المعجزة بان الآلة [ديونيسوس] الذي أدعى[انطوني] بصلة قرابةٍ معه، واتخذ منه مثلاً يحتذى، قد تخلى عنه الآن(٨٢).

ما ان بدت تباشير الصبح، حتى وضع [انطوني] مشاته على التلال امام المدينة وراقب سفنه وهي تخرج لمواجهة العدوّ. ثم لما أنه ظلّ يعتقد بأن اسطوله هو الذي سيقرر نتيجة قتال اليوم. فقد بقي في موضعه منتظراً ما ستسفر عنه المعركة البحرية. ولكن ما ان اصبح اسطوله على مقربةٍ من سفن [اوكتافيوس] حتى رفع النوتيّه مجاذيفهم بالتحية، ولمّا قوبلوا بمثلها، انضموا الى [اوكتافيوس] برمتهم. وتقدم الاسطولان المتحدان نحو المدينة رأساً. وما ان شاهد [انطوني] هذا حتى وجد الخيالة تتخلّى عنه الى [اوكتافيوس]، وأخيراً عندما منيت مشاته بالهزيمة، انسحب الى المدينة وهو يصيح بنوبة غضب اجتاحته: ان [كليوپاترا] خانته وسلمته الى الرجل الذي قاتله لأجلها. فأدرك الرعب الملكة وخشيت من عمل يقدم عليه وهو في غمرة يأسه وحنقه، فهربت الى ضريحها وانزلت الابواب المعلّقة، المصفحة بالقضبان والمزاليج. ثم ارسلت تخبر [انطوني] بأنها باتت في عداد الموتى. فلم يداخله شكّ في ذلك، وانثنى يقول لنفسه:

- لماذا التأخير اذن يا انطوني؟ ان القدر قد انتزع منك العذر الوحيد الذي كان يجعلك ترغب في المزيد من الحياة.

ثم دخل غرفته. ونزع عنه دروعه وألقى بقطعها جانباً وهتف يقول:

- لم يؤلمني فقدك يا كليوپاترا، فعما قريب سأكون معك. الاّ ان الخجل يغمرني، حين أكون انا الامبراطور ذا الشهرة المعروفة أقل شجاعةً من امرأة في النهاية.

وكان [لأنطوني] خادم مخلص يدعى [ايروس Eros]، حمله منذ مدةٍ على ان يقسم له بأن يتولى القضاء عليه عندما تدعو الحاجة. فأمره ان بقي بوعده فانتضى [ايروس] وسيفه واشهره كأنه يريد طعن سيدهُ الاّ انه وجهه الى نفسه فجأةٍ، وعندما سقط عند قدمي سيده هتف انطوني:

---

(٨٢) هناك اسطورة مشهورة تقول ان الآلهة تتخلّى عن المدينة التي حان أجلها قبل سقوطها.

- أحسنت يا ايروس. لقد هديت سيدك الى ما ينبغي عمله، وان لم يطاوعك قلبك على ان تفعل ذلك بنفسك.

قال هذا واغمد سيفه في بطنه وسقط على الفراش. الاّ ان الجرح لم يقضِ عليه لساعته، وفجأة انقطع النزف وهو مستلق وعاد اليه وعيه واخذ يتوسل بالحاضرين ان يضعوا حداً لآلامه الاّ انهم هرولوا خارجاً وتركوه يتلوى من فرط العذاب ويصرح مستنجداً، حتى أقبل أمين سرّ [كليوپاترا]، المدعو [ديوميدس] لينقله الى ضريحها بناء على اوامر منها.

عندما علم انها حيّة أمر عبيده ان يعجلوا بدفعه وحمله على اذرعتهم حتى باب الضريح. لكن [كليوپاترا] لم تسمح بفتحه، وانما نظرت من كوة صغيرة مرتفعة، وادلت باوتار وحبال الى الأرض. فشد العبيد [انطوني] اليها، وراحت [كليوپاترا] وخادمتاها الوحيدتان الباقيتان معها، تسحبانه الى الأعلى. وذكر الحاضرون، انه لم يكن ثم منظر ادعى الى الأسى والرثاء مثل ذاك المنظر: [انطوني] وقد صبغته دماؤه، والروح تحشرج في صدره، يسحب الى الأعلى ماداً اليها يديه، ورافعا جسده بما بقي فيه من قوى!

لم يكن سحبه بالعمل السهل بالنسبة الى ثلاث نساء، كانت [كليوپاترا] تتشبث بالحبال بكلّ قواها وقد اسندت رأسها الى الأرض استجماعاً لقواها، الى ان أفلحت في جرّه والحاضرون يلقون اليها بكلمات التشجيع، ويشاركونها المجهود والقلق. بعد ان تم رفعه، القته على السرير ومزقت عن جسمها رداءها والقته عليه وأخذت تضرب صدرها حتى أدمته ولطخت وجهها بالدماء التي أخذت تسيل من جرحه وراحت تناديه وتندبه وتسميه مولاها وزوجها وامبراطورها. ونسيت شقاءها ومحنتها في تفجعها عليه. فأخذ [انطوني] بهديء من آلامها وطلب خمراً اما لعطش شعر به أو أملاً في ان يعجل به موته. بعد ان شربه طفق ينصحها بأن تعمل لأجل ضمان سلامتها شريطة ان لايمس ذلك بكرامتها وشرفها وأشار عليها بالاعتماد على [پروكوليوس Proculius] من دون سائر اصدقاء [اوكتاڤيوس]. وأخيراً رجا منها ان لاتتألم لسوء الحظ الذي لقيه والاحرى بها ان تفرح باستنكار الامجاد التي نالها وان تتذكر بأنه وصل الى أعلى درجة من الشهرة والسؤدد نالهما انسان ولذلك فليس عاراً عليه ان يموت رومانياً، غلبه روماني.

ما كاد [انطوني] يسلم روحه حتى وصل [پروكيوليوس] مرسلاً من لدن [اوكتاڤيوس قيصر]. بعد ان [طعن انطوني] نفسه وفي اثناء حمله الى كليوپاترا جريحاً، أختطف [درچيتايوس Dercetaeus] وهو احد افراد حرسه الشخصي، سيفه وأخفاه ثم تسلل من القصر واسرع الى [اوكتاڤيوس] وكان اول من ابلغه بنبأ موت [انطوني] وابرز له السيف

الملطخ بالدماء، وبعد ان سمع [اوكتافيوس] اقواله، انسحب الى خيمته وبكى. كان [انطوني] صهره، وكان فضلاً عن ذلك زميله في المنصب، وشريكه في كثير من الأعمال والمعارك. ثم جمع اصدقاءه وأخرج الرسائل التي تبادلاها واخذ يقرأها عليهم، ليسمعوا وليروا كيف كان اعتدال لهجته ولطفه، وكيف كان [انطوني] فظّا ساخراً في ردوده كلها. وبعد هذا بعث پروكيوليوس بأوامر تقضي أن يبذل كل مجهود ممكن ليقبض على [كليوپاترا] حيةً اذ كان يخشى - كما ذكرتُ - أن تحرق الملكة كنوزها. كما وجد أن حضورها في موكب نصره بروما، لن يكون شيئاً بسيطاً في اعلاء مجده. ورفضت [كليوپاترا] تسليم نفسها [لپركيوليوس] الاّ انها رضيت بالتحدث اليه عندما وقف امام احد ابواب الضريح على مستوى الأرض. كان هذا الباب منيعاً محكم الصنع ولكن الكلام عبره مسموعاً. وتحدثا فيما بينما وطلبت [كليوپاترا] أن يحتفظ اولادها بملك مصر. في حين أكد لها پروكيوليوس حسن نوايا [اوكتاڤيوس قيصر] وان لاتخشى منه شيئاً ولا تفقد الامل.

وكان [پروكيوليوس] اثناء ذلك يدرس الضريح دراسة دقيقة، وعندما عاد ابلغ [اوكتافيوس] بالنتيجة، أرسل غاللوس[٨٣]، في مقابلة أخرى لها. وسار هذا حتى وصل الى الباب واشغلها في الحديث في حين اسند [پروكيوليوس] سلمّاً الى الكوة التي كان انطوني قد أصعد منها. فارتقاه مع خادمين ونزلوا الى الضريح وتقدموا حيث كانت [كليوپاترا] واقفة وذهنها منصرف الى مخاطبة [غاللوس] ولمحتهم الوصيفة فصاحت بأعلى صوتها:

- ما اشقاك يا كليوپاترا! لقد امسكوا بك!

فدارت على نفسها واذا بها أمام [پروكيوليوس]. فاستلت خنجراً مما يستعمله اللصوص من حزامها وهمت باغماده في صدرها الاّ ان [پروكيوليوس] حال دون ذلك وكانت يداه اسرع منها فامسكها وهو يقول:

- انك يا كليوپاترا تظلمين نفسك وتظلمين [قيصر] لاتضيعي عليه فرصة اظهار كرمه تجاهك. انه الطف وارق القادة الاّ انك تتصرفين كأن امامك عدواً غاشماً لايحترم كلمة الشرف.

في الوقت نفسه انتزع منها الخنجر ونفض ثوبها لئلا تكون قد أخفت سما في طياته. وكذلك أرسل [اوكتافيوس] عتيقة [ايپافروديتس Epaphroditus] اليها واوصاه أن يتوخى تكريمها ومعاملتها باحترام، وان يتخذ أشد التدابير للمحافظة على حياتها.

(٨٣) روماني من طبقة الفرسان. كان قائداً للقوات التي زحفت على مصر من ليبيا. قلّد فيما بعد منصب حاكم مصر وكان صديقاً للشاعر ڤرجيل الذي قدم له الإكلوج القصيد العاشر Eclogue.

ودخل [اوكتافيوس] الاسكندرية وقد وضع يده بيد الفيلسوف [اريوس Areius] وسارا وهما يتحدثان. ليزيد في مقام الفيلسوف في أعين الاسكندرانيين ويجعله محترماً، للتكريم الفريد الذي خصه به هذا العاهل. وعندما دخل الملعب الرياضي الأهلي وصعد المنصة التي أقيمت له. وكان الرعب قد ملك على الناس مذاهبم وخروا على اوجههم امامه الاّ انه طلب منهم الوقوف وأعلن انه لاينوي وضع اللوم على مدينتهم أولاً لأن الاسكندر بانيها. وثانياً لأنه هو نفسه معجب بجمالها وسعتها. وثالثاً احتراماً منه لآريوس. وكان هذا تشريفاً خاصاً للفيلسوف. وبناء على رجائه اصدر [اوكتافيوس] العفو عن عددٍ من الاشخاص ومنهم [فيلوستراتوس Philostratus] وهو خطيب مرتجل، لايبزه احد من سوفسطائيي Saphist زمانه. ولسوء الحظّ ادعى زوراً انه فيلسوف أكاديميّ.

ولهذا السبب رفض [اوكتافيوس] الذي كان يشمئز من كل أسلوب حياته - ان يعفو عنه. فأرسل [فيلوستراتوس] لحيته البيضاء، وارتدى ثياباً سوداء وسار خلف [آريوس] وهو يردد بلا انقطاع البيت التالي:

على العاقل ان كان عاقلاً حقاً - ان ينقذ العاقل

ولما سمع [اوكتافيوس] ذلك صفح عنه، وان كان أكثر اهتماماً بتجنيب [آريوس] الإحراج، من تبديد مخاوف [فيلوستراتوس].

واما عن اولاد [انطوني]، فقد وشى بانتيللوس ابن فولفيا، معلمٌ له يدعى [ثيودورس] فقتل، وبينما كان الجنود يحتزون رأسه، أختلس هذا المعلم الواشي جوهرة ثمينة كانت تحيط بعنقه، واخفاها في جيبه ثم انكر ذلك ولكن سرقته كشفت وصُلب. ووضع اولاده من كليوپاترا هم وخدمهم تحت الحراسة. الاّ انهم عوملوا معاملة طيبة. على ان [قيصاريون] الذي قيل انه ابن [يوليوس قيصر] ارسلته امه مع أموالٍ كثيرة في رحلة الهند عن الطريق ايثيوبيا. ولم يمضِ كثيراً في سفرته فقد اقنعه معلمه رودون Rhodon، وهو على عين شاكلة ثيودورس، بأن [اوكتافيوس] سيجعله ملكاً على مصر وحمله على العودة وقيل ان [اوكتافيوس] كان يقلب وجوه النظر في الموقف الذي يحسن به اتخاذه ازاءه، حين أخذ [آريوس] يترنم بشعر اوديسيوس Odysseus المشهور من الالياذة محوّراً فيه بما يناسب المقام.

ليس اسوء من أن يوجد «قياصرة» كثيرون[٨٤]...

---

(٨٤) الالياذة ١١:٢٠٤. لما كان اديسيوس يحاول ان يحلّ النظام والتفاهم في الجيش الاغريقي قال:
ليس اسوء من ان يوجد حكامٌ كثيرون.

وبعد موت [كليوپاترا] عمل [اوكتافيوس] بنصيحة [آريوس]، فأهلكه واما عن [انطوني] فقد طلب عدد من الملوك والقادة (جسده) ليقوموا بمراسيم دفنه، الاّ انه لم يحرم [كليوپاترا] منه ودفنته هي دفنة ملكية امتازت بفخامتها وروعتها. وزوّدت بكلّ ما أقتضى لهذا الغرض. واصطلح عليها الحزن والألم الذي كابدته - اذ اصاب ثدييها ورم وكدمات من شدة اللَطم - تقبلت بكلّ سرور المرض الذي انتابها واتخذته ذريعة لرفض الطعام، ليريحها من عبء الحياة بدون اللجوء الى وسيلة أخرى. وكان أحد رجالها الموثوقين طبيباً يدعى [اولمپس Olympus] فأنهت اليه بعزمها هذا واعتمدت على مساعدته ومشورته لتحقيق وفاتها، وقد ايد ذلك في ما دونه من تاريخ لهذه الاحداث، نشره فيما بعد. في اثناء ذلك أخذ الشكّ يساور [اوكتافيوس] فراح يخيفها بمصير اولادها، وباستخدامه هذه الضغوط بنفس الطريقة التي يستخدم القائد آلات الحصار ارغمها على التخليّ عن قصدها وسحق مقاومتها، فعادت تسمح لجسمها بالمعالجة والغذاء كما رغب [اوكتافيوس].

وبعد ايامٍ، ذهب لزيارتها والتحدث معها وحاول اطمئنانها كانت قد عافت حياة الترف التي اعتادتها، وأختارت البساطة، فوجدها مستلقيه على حشيةٍ من القش وليس عليها غير رداء من الكتان، وما رأته حتى نهضت والقت بنفسها تحت قدميه كان شعرها اشعث وسحنتها منقلبة وعيناها غائرتين في مقليتهما، وصوتها راعش لا سبيل لها الى السيطرة عليه، وعلى صدرها آثار اللطم الشديد الذي احدثته يداها، وعلى العموم بدأ جسمها يكابد من الألم مالايقل عن الآلام التي اصابت روحها. ومع ذلك فإن سحرها، وثقتها الطائشة في جمالها، ظلت جذوتها متقدةً فيها. وكانا يشعان منها ويضيئان في تبدل سحنتها، وتقلب احوالها، رغم احوالها ورغم مظاهر الألم والأسى. وعلى اية حال بعد ان طلب منها [اوكتافيوس] ان تستلقي وجلس بالقرب منها، حاولت في مبدء الأمر تبرير مشاركتها في الحرب وعزت ذلك الى الضرورة والإرغام والخوف من [انطوني] وعندما كان [اوكتافيوس] يعارضها في كل نقطةٍ ويفحمها ويبطل حجتها، أسرعت بتغيير موقفها وبدأت لتضرع اليه وتطلب ان يرق لحالها بمختلف التوسلات والرجاء. كأنها لاتهتم بشيء غير سلامة حياتها. وأخيراً سلمته ورقةً، كتبت فيها تفاصيل كاملة عن أموالها ومقتناها، حسب زعمها. ولكن عندما اوضح [سلوقوس] أحد وكلائها بأنها لم تدرج في القائمة كل ما تملكه وانها أخفت عنه اشياءً، انتصبت على قدميها وامسكته من شعره وأخذ تلطمه على وجهه، فضحك [اوكتافيوس] للمشهد، وأخيراً هدأ من ثائرتها فقالت:

- أليس من المزعج جداً يا قيصر أن يتهمني واحدٌ من خدمي باخفاء بعض الحلي واللعب

النسوية في محضر منك عندما شرفتني بالزيارة والتبسط معي في الحديث وأنا في اتعس حال! اني لم احتفظ بها لنفسي الشقيّة بل لأقدمها هدايا صغيرة منيّ [لاوكتاڤيا] ولزوجك [ليڤيا]. فبشفاعتهما اؤمل أن أجدك أرحم وأكثر عطفاً عليّ.

وسرّ [اوكتاڤيوس] بكلامها هذا لأنه أكد له رغبتها في الحياة. فقال لها أنه سيقبل بكل شيء تسويّه على هذا الأساس وفق رغبتها. على ان أهم من كل هذا هو انه أعتزم معاملتها باكرام قد لاتتوقعه. ثم انصرف وهو واثق بأنه افلح في خداعها، لكنه كان في الواقع هو المخدوع.

كان من رفاق [اوكتاڤيوس]، شاب من طبقة الأشراف نبيل الخلق يدعى [كورنيليوس دوللابلا] (٨٥). يكّن لكليوپاترا حُبّاً، وقد اخضعته لسحرها. أفلح هذا الشاب في ابلاغها سراً - عند الحاحها عليه - بأن [اوكتاڤيوس] ازمع الرحيل الى سورية على رأس جيشه وقرر أن يرسلها هي واولادها الى روما قبله وسيتم ذلك في غضون ثلاثة ايام. وعند سمعت الملكة بهذا كان أول عمل لها ان طلبت من [اوكتاڤيوس] السماح لها بسكب القربان الأخير لأنطوني، وعندما اجيز لها ذلك امرت بحملها الى القبر ترافقها النسوة اللاتي اعتدن ان يكنّ معها. وهناك امسكت بالإناء الذي يحوي رماده وقالت:

- يا حبيبي انطوني. منذ مدة قصيرة دفنتك بيدي هاتين، وكانتا حرتين، امّا الآن وقد جئت لاسكب لك قرباناً، فانا اسيرة يحيط بي الحراس واراقب لئلا اشوه جسمي هذا بالضرب عليه أو حتى بالبكاء عليك. لقد اصبح جسم أمةٍ رقيقةٍ وهم يحرسونه ليكون زينة للنصر الذي حققوه عليك. والآن وبعد هذا لاتتوقع اي قربان يقدم لك، هذا آخر تكريم تأتي به لك كليوپاترا الأسيرة لأنها ستؤخذ عنك بعيداً. فمع انه لم يكن يفرقنا مفرق في حياتنا. لكن يبدو ان الموت سيرغمنا على تغيير مستقرنا انت الروماني المولد وجدت قبرك في مصر، وانا المصرية التاعسة سأحصل من بلادك على المقدار الذي يكفي لأثوي في ايطاليا. لقد خانتني آلهتي وخذلتني، فاذا وجدت اي عون أو حولٍ في آلهة روما، فكلّ رجائي منها ان لاتترك زوجك طالما هي صبية وان لايدعوها تسير في موكب نصر يجللك بالعار. أخفني ودعني وأدفن معك، فلقد ادركت الآن ان آلاف الاحزان التي كابدتها هي لاشيء امام الأيام القلائل التي عشتها بعيدة عنك.

بهذا ناجت [كليوپاترا] انطوني، وبكته. ثم توجت الاناء الذي يحوي رفاته باكليل زهر وقبلته. ثم أمرت بتهيئة حمامٍ، وبعد ان اغتسلت استلقت، وامرت بطعامٍ فاخرٍ. وجاءها قرويّ

(٨٥) هو ابن دوللابلا السياسي الذي ورد ذكره في سيرة يوليوس قيصر.

مصريٌ بسلةٍ صغيرة فاعترضه الحرس وسألوه عما تحويه فرفع القروي الاغصان التي تغطيها عن تين كبير الحجم آثار دهشتهم. فضحك القروي ودعاهم اليه، فأبوا الاّ ان شكهم زال فسمحوا له بأخذ الثمر الى الملكة.

بعد ان تناولت [كليوپاترا] طعامها كتبت رسالة [لأوكتافيوس] على لوحٍ ومهرتها بختمها وارسلتها اليه. وبعد هذا صرفت كل اتباعها الاّ وصيفتيها المخلصتين وأغلقت ابواب الضريح.

وفضّ [اوكتافيوس قيصر] اللوح وما أن قرأ رجاء [كليوپاترا] بأن تدفن مع [انطوني] حتى ادرك ما تنويه. واراد هو ان يذهب بنفسه لانقاذها الاّ انه ضبط ارادته وارسل رسلاً يستطلعون جلية الأمر. الاّ ان المأساة سبقتهم وكانت اسرع منهم. اندفع الرسل الى الداخل الضريح فوجدوا الحرس يجهلون كل شيء. وعندما فتحوا الأبواب وجدوا [كليوپاترا] مستلقية على سرير من الذهب وهي مرتدية ثيابها الملكية، وتحت قدميها [ايريس] احدى وصيفاتها تعالج سكرات الموت. و[شارميون] الوصيفة الثانية كانت تترنح ولاتقوى على رفع رأسها، منهمكة في اصلاح التاج الذي يحيط بجبين سيدتها. وعندها صاح احد الحراس غاضباً:

- شارميون أهذا عمل لائق؟

فأجابته: لائق، وجدير باميرة انحدرت من صلب هذا العدد الكبير من الملوك.

وما ان أكملت عبارتها حتى سقطت ميتة عند اقدام السرير.

واستناداً الى احدى الروايات أنّ الصلّ، حمل اليها مع التين وكان مخبأ تحت الاوراق في السلة. لأن كليوپاترا قد أعطت اوامر بأن يستقر الثعبان على جسمها قبل ان تعلم به ولكن عندما رفعت بعض التينات لمحته وقالت:

- اذن فهذا هو.

وتمضي الرواية فتقول، انها كشفت عن ذراعها ومدتها اليه فلدغها.

ويقول آخرون أنه كان محفوظاً في ابريق محكم السدّ. وان كليوپاترا، اهاجته بوخزه بدبوس ذهبيّ، شبّ عليها وانشب نابه في ذراعها. الاّ ان الحقيقة ظلّت سراً لايعلم به أحدٌ فهناك رواية أخرى تفيد انها أخفت سُمّاً في دبوس شعرٍ مجوفٍ أخفته بلفّ خصلات شعرها عليه. ومع هذا لم يعثر في جسمها على خدش او كدمة او بقعة أو اي اعراض للتسمم، ولم يشاهد الصلّ في الضريح، الا انه لوحظ شيء شبيه بمسحاله فوق الرمل القريب من الجهة المواجهة للبحر من الغرفة. ويقول بعض الناس ايضاً انه وجد أثر نابين مغروزين في ذراع كليوپاترا يكادان لايظهران للعين. ويبدو ان [اكتافيوس قيصر] نفسه أخذ بهذا التعليل، حيث سيّر في

موكب نصره تمثالاً لكليوپاترا وقد تعلق بها صلّ. تلك هي مختلف الروايات عن مصرعها.

كان غيظ [اكتاڤيوس] لموت [كليوپاترا] شديداً. ومع ذلك لم يسعه الاّ الاعجاب بنبل روحها. وامر بان تدفن الى جوار انطوني بكلّ مظاهر الملك وابهته كما شيعت وصيفتاها بكلّ اكرام. ماتت [كليوپاترا] ولها من العمر تسعة وثلاثون عاماً. وحكمت اثنتين وعشرين سنة، وشاركت انطوني امبراطوريته في اربعة عشر عاماً[٨٦] من هذه المدة. وكان [لانطوني] يوم موته ثلاث وخمسون سنة من العمر في رواية، وستّ خمسون في رواية أخرى[٨٧]. وحطمت تماثيله كلها. ولكن سمح بالابقاء على تماثيل كليوپاترا منصوبة لأن [ارخيبيوس Archibius] أحد اصدقائها دفع لاكتاڤيوس ألفي تالنت لانقاذها من مصير تماثيل [انطوني].

ترك [انطوني] سبعة اولاد. منهم بكره [انتيللوس] الذي قتله [اكتاڤيوس]. وأخذت [أوكتاڤيا] البقية الى منزلتها وربتهم مع اسرتها. ودبرت زواج بنت [كليوپاترا] التي سميت بنفس الأسم، بـ[جوبا] ملك النوميديين، اوسع حكام عصره فكراً ومواهب. ووصلت [انطوني] وهو احد اولاد [فولڤيا] باكتاڤيوس فبلغ ارفع منزلة عنده، ففي الوقت الذي كان [اغريپّا] يتمتع بمنزلة الشرف الأولى عنده واولاد [ليڤيا] بالمنزلة الثانية، كان [انطوني] الأبن يتمتع بالمنزلة الثالثة حسب التقدير العام ولم يكن هذا التقدير يتعدى الحقيقة.

كان لاوكتاڤيا من [مارچللوس] زوجها الأول، بنتان وابن واحدٌ اسمه [مارچللوس]. هذا الولد تبناه [اوكتاڤيوس] وزوجه بنته. كما زوجّت اوكتاڤيا احدى بناتها من [اغريپّا]. الاّ ان [مارچللوس] اعتبط عقب زواجه مباشرةً. وادركت الحيرة اكتاڤيوس فيمن يجعل له صهراً موثوقاً. فأشارت عليه اوكتاڤيا بأن يحمل [اغريپا] على تطليق ابنتها وان يتزوج بابنته [يوليا]. بالأول اقنعت [اكتاڤيوس]، وبعدها جملت [اغريپا] على الرضا بهذا التدبير فتم زواج [اغريپا] بـ[يوليا]، وزوجت بنتها المطلقة من [انطوني] الأبن.

اما ابنتا [اوكتاڤيا] من [انطوني]، فأولهما [أغريپينا]، تزوجت من [دوميسيوس آينو باربوس][٨٨]. وثانيتهما [انطونيا] التي اشتهرت بفرط جمالها وذكائها فقد تزوجت [دروسوس] الذي ملك فيما بعد. ومن اولاد [يرمانيكوس[حكم [كايوس] أفضل حكمٍ وقتل هو وزوجه وولده. وبعد ان حملت [اغريپينا] لزوجها وولدت له [لوچيوس دوميتيوس]،

---

(٨٦) يصعب جداً فهم الرقم. فالقابلة الشهيرة في تدنوس حصلت في ٤١ ق.م اي بعد عشرين سنوات من [اكسيوم] تقريباً.

(٨٧) ولد انطوني في ١٤ كانون الثاني عام ٨٢ أو ٨١ ق.م. ولذلك مات وهو في الثانية والخمسين أو الثالثة والخمسين.

(٨٨) ابن صديق [انطوني] الذي تخلّى عنه عشية معركة [اكسيوم].

تزوجت [كلوديوس قيصر] الذي تبنّى [لوچيوس] هذا وسمّاه [نيرون يرمانيكوس] فكان امبراطوراً في زماننا هذا. فقتل امّه، وكاد بجنونه وحمقه يصل بالامبراطورية الرومانية الى شفا الخراب. وهو السليل الخامس لأنطوني[٨٩].

١٩٧٢/٢/١٧



تمثال من المرمر لنيرون

(٨٩) وهكذا يستتر النزاع بين اوكتافيوس وانطوني بشكلٍ ما، الى نهاية حكم نيرون (٦٨م) عندما يحمى تماماً في سنة الاباطرة الاربعة، بيوت كل من يوليان وكلوديان وانطونيان.

أوجه المقارنة بين ديمتريوس وانطوني

كلاهما كان اروع مثل يضرب لتقلبات الحظّ. وعلينا الآن ان نجد سبيلنا الى الوسائل التي استخدماها للوصول الى السلطة. ورث [ديمتريوس] مملكة كان قد ثبت له اركانها [انتيغونس] أقوى خلفاء الاسكندر. فقد توغل بجيوشه في آسيا وأخضع معظم اجزائها قبل ان يبلغ ابنه ديمتريوس مبلغ الرجال. وكان والد [انطوني] رجلاً من الافاضل الاّ انه لم يكن محارباً ولا بوسعه ان يخلف لأبنه صيتاً ونفوذاً. الاّ ان ابنه لم يكن يعوزه الإقدام للوصول الى دست الحكم، فهو لم يبلغه بفضل ميلاده كما بلغه [اوكتاڤيوس]. لذلك يمكن القول انه اصبح وارث مجهوداته الخاصّة العظمي وهو مدين لها فحسب. ولما جرى اقتسام الامبراطورية استأثر بالجزء الأفضل. ودحر الپارثيين وهزم قبائل القفقاس البربرية حتى بلغ بحر قزوين ولم يكن بحاجة الى ان يحضر بنفسه بل عن طريق معاونته ونوابه، الأمور التي اساءت الى سمعته هي التي تشهد بعظمته.

في حين نرى [انتيغونس] يعتبر تزويج ابنه [ديمتريوس] بـ[فيلا] بنت [انتيپاطر] رغم انها تكبره بكثير، زواجاً فيه مصلحة كبيرة لنجله. و[انطوني] عَدّ زواجه من [كليوپاترا] منقصة وهي ملكة من اعظم الملوك سلطاناً وسؤدداً لايعلوها من ملوك عصرها الا ارشاق Arsaces وكان [انطوني] أعظم بكثير من ان يراه الآخرون. قمينا باشياء أعلى مما وقفت عندها رغباته.

وامّا بخصوص اهدافهما في حكم امبراطورية، واحقيتهما فيها، فليس ثم ما يبرر لنا ان ننحي باللائمة على [ديمتريوس] لرغبته في حكم شعب تعود حكم الملوك. واما [انطوني] فقد عمل على استعباد الشعب الروماني ولم يكد يتحرر من حكم [قيصر] الفردي، فأتبع طريقة شائنة وسلك سبل الطغاة، حتى وصم أعظم عملٍ شخصي له وهي انتصاره على [بروتوس وكاسيوس] بوصمة عار، لأنه خاضها مستهدفاً سحق حريات ابناء وطنه وبلاده. في حين ظلّ [ديمتريوس] حتى الأخير يدافع عن الحريات في بلاد الاغريق ويطرد الحاميات الاجنبية المحتلة

من مدنها. ولم يصده عن هذا معاندة الحظّ له، ووصوله الى الدرك الأسفل من البؤس. لم يكن كا: طربي الذي دأب على المفاخرة بأنه قضى في مقدونيا على أولئك الذين ارادوا اشاعة الحريات في روما.

أمّا السخاء الذي عرف به [انطوني] وعطاياه وهباته وهو اشهر ما فيه من فضائل، فان [ديمتريوس] بذّه فيها الى آخر حدّ. فما اعطاه هذا لاعدائه وخصومه، كان أكثر بكثير مما اعطاه ذاك لاصدقائه. وارتفع قدر [انطوني] عندما أمر بتكريم رفاق [بروتوس] الذي صرعوا اما [ديمتريوس] فكانت عادته ان يفعل هذا لجميع القتلى من اعدائه دون تفريق. بل رأيته كيف يعيد الأسرى الى [پطليموس] محملين بالمال والهدايا.

كلاهما كان يغرّه النجاح، ويخرجه عن طوره ويدفعه الى الارتماء في احضان الترف واللهو. ولكن هذا ليس بوسعنا ان نعزو لديمتريوس، تهاونه عندما يدعو الداعي الى العمل بسبب انشغاله في عبثه ومجونه، فالملذات عنده، خادمة للفائض من الوقت. ومحظيته [لاميا]، الشبيهة بلاميا بطلة الأسطورة. كانت لساعات نصف اليقظة، وشبه الإغفاء ان جاز لنا القول. ولم يكن رمحه مزداناً باللبلاب ولاخوذته عبقة برائحة العطور عندما يدعوه داع الجدّ ويناديه منادي القتال. انه لايخرج للحرب من مخادع الناس، بل تراه يخمد الصياح الباخوسي، ويضع حداً للفجور. ويغدو «كاهن مارس اللاكهنوتي» على حدّ تعبير [يوربيدس]. وبمختصر القول ان الملذات والاسراف في اللهو لم تسبب له كارثة. في حين كان [انطوني] اشبه بصورة هرقل - حيث تُرى [أومفاله Omphale] تتناول منه دبوّسه، وتحلّ له جلد حقويه - فكثيراً ما كانت [كليوپاترا] تتولى نزع سلاحه عنه، وتلهيه عن واجبه، فتفلت من يده فرصٌ كثيرة ومآثر ضخمة، يفضل عليها الذهاب الى [قينوب] و[تافوسيريس Tophosiris] ليعبثا ويلهوا ما شاء لهما العبث واللهو. أخيراً تراه يترك المعركة ويلحق بها ليرتمي في احضانها مثل [پاريس]، ولنستدرك هنا فنقول ان [پاريس] ذهب الى [هيلين] بعد ان خسر المعركة في حين ان [انطوني] ترك المعركة ليلحق بكليوپاترا، فضاع منه النصر.

لم يكن في ذلك الحين قانون يمنع [ديمتريوس] من الزواج بعدة نساءٍ فقد اصبح ذلك عادةً منذ عهد فيليب والاسكندر عند ملوك مقدونيا. وهو لم يفعل أكثر مما فعله [ليسيماخوس وبطليموس] اضف الى هذا انه عرف بحسن معاملته لكلٍّ من تزوجهن، بعكس [انطوني] فقد اقدم اولاً على عمل يأباه لنفسه اي روماني. اذ تزوج بامرأتين في آن واحدٍ، ثم طرد زوجه الرومانية ارضاء للاجنبية غير الشرعية. ولم يلحق تعدد الزوجات [بديمتريوس] اي ضررٍ في حين تسبب هذا دمار [انطوني]. الأ ان فسوق [انطوني] لايمكن ان يتهم بالدنس والعقوق

الديني الذي يتسم به فسق [ديمتريوس] فالمؤرخون يحدثونا ان الكلاب كانت قد ابعدت على [الاكربوليس] بسبب نجاساتها في حين رأى [البارثنون] نفسه [ديمتريوس] يعاشر الموسات ويضاجع العاهرات الاثينيات تحت سقفه. ويمكن ان نضيف الى هذه العيوب، القسوة التي تبدو في الظاهر بعيدة على دائرة الرغبات الحيوانية والشهوة. فقد تسبب [ديمتريوس] بازهاق او انه أزهق اجمل شباب الآثينيين وأكثرهم عفة وطهارة. هذا الشاب الذي لم يجد غير الموت سبيلاً للخلاص من فجوره الشرس وبمختصر القول: لقد عانى [انطوني] من فجوره. في حين ان الناس الآخرين عانوا من فجور [ديمتريوس].

وليس بالإمكان ان يوجه انتقاد الى [ديمتريوس] حول سلوكه العائلي. اما [انطوني] فقد سلمّ خاله للجلادين كيما يُسمح له بقتل [شيشرون] وتلك فعلة تنطوي بخدذاتها على وحشية وفظاظة لايمكن اغتفارها له، حتى اذا كان موت [شيشرون] ثمن حياة خال.

وامّا بخصوص نقض [انطوني] عهوده، فقد يبرر قبضه على [ارطاباز] تبريراً معقولاً لاينكره عليه أحدٌ. فهذا الملك كان البادىء بالتخلي عنه وخيانته في ميديا. أما قتل [ديمتريوس]، لإكساندر فقد زعم الكثيرون انه تلمس للفتك به ذرائع لا أساس لها. ولم يكن قتله انتصافاً منه لنفسه لما اصابه من اذي، وانما هو ثأر لشخص آخر لحقه من الأذى.

ان الانتصارات التي حققها [ديمتريوس] كانت بفعله، في حين ان أعظم واروع انتصارات [انطوني] حققها نوابه ومساعدوه في غيابه. واما عن نهايتهما فمسؤوليتهما فيها واحدة الاّ انها ليست متساويةً على اية حالٍ. فقد ترك [ديمتريوس] في الميدان وحيداً وثار عليه المقدونيون. اما انطوني فقد ترك الميدان وفرّ والرجال يقاتلون في سبيله باذلين ارواحهم. وكان الخطأ الذي ارتكبه اولهما، انه نفرّ منه جنوده ففقد حبهم. في حين ندين الآخر بتخليه عن الحبّ الشديد والاخلاص المتفاني وهما في حيازته. وموت كليهما لايثير عندنا اي اعجاب. الاّ ان موت [ديمتريوس] كان أحطّ وأخزى. فقد بقي في الأسر مختاراً. وشكر آسره لمده بثلاث سنين أخرى في حياته. وسمح لنفسه ان يروض مثل الوحش الكاسر، بالخمر والأكل. اما [انطوني] فقد قضى على حياته بأسلوب الجبان الرعديد الذي لايثير في النفس غير الرثاء على انه أقدم على ذلك في الوقت المناسب ليحول دون وقوع شخصه تحت رحمة العدوّ.




ديون
DION
409 _ 354



إن كـان - اي [سـوسـيـوس سـينيكو] مـا قـاله لنا سـيـمـونيـدس بأن طروادة لاتشكو من الكورنثيين

مساهمتـهم مع الآخائيين في حصارها، لأن الكورنثيين كانوا يقاتلون ايضاً في صفوف الطرواديين بشجاعة فـ(كلاوكـوس خرج من كورنث ايضاً)، فلنا ان نقول بكل اطمئنان ان الرومان والاغريق لايمكن أن يخاصما الأكاديمي. فكلّ امة منهما ممثلة فيها. كما تكشف عنه سيرتا بروتوس وديون التاليتين.

كان [ديون] أحد تلاميذ افلاطون. و[بروتوس] من معتنقي الافلاطونية والناشئين عليها. لقد نبغ كلاهما من ارومة هذه المدرسة، وسارا خفافاً على دربها ودرب الشرف والكرامة ولم يكن بعجيب وهما في سبيل اداء رسالتهما المتحدة المتشابهة. ان يؤكد صحة ما قاله معلمهما:

«ان الأعمال ذات الطابع العام لايمكن ان تحقق اهدافها الصحيحة والعظيمة والنبيلة الاّ اذا تعاونت القوة مع النجاح» وكما أكدّ مدرب المصارعة [هيپوماخوس Hippomachus] انه يسهل عليه تمييز تلاميذه من بعيد، وان كانوا يحملون اللحم من المجازر، فكذلك أولئك الذين نهلوا من الينبوع الثقافي نفسه تبدو مبادؤهم متطابقة وسلوكهم متشابهاً في أعمالهم كلها، وتخلق فيما بينهم انسجاماً وتوافقاً مستساغاً ولائقاً في الوقت نفسه.

ولنا ان نستنتج الشبه الشديد للرجلين من المصير الذي-آلا اليه، فقد جعلتهما الظروف شبيهين، اكثر مما جعلت اهدافهما متشابهة. إذ اخترمهما الموت وهما في عنفوان شبابهما ولم يتح لهما الوقت لانجاز تلك الاهداف خلال كثير من المصاعب والأهوال، واعجب ما في الأمر ان تدخلاً خارقاً للطبيعة انبأهما بقرب نهاية حياتهما، بظهور شبح غريب لهما. ومع انكار الكثير من الناس وجود شيء كهذا بقولهم:

لم ير انسان سويّ كامل الحواس شبحاً او رؤى فائقة للطبيعة، خلا الاطفال، والنساء المتعلقات بالأوهام والرجال الذين اثر المرضى في عقولهم أو جسومهم فتجسمت لهم الأخيلة،

وبالغوا في تصور الوهم حقيقةً واقعةً. في حين كانت الوساوس تعمل في انفسهم، بالتعاون مع جنيهّم الشرير الكامن. ومع هذا فلو صعب على فيلسوفين وعقلين نابهين [كديون وبروتوس] ان يضللهما الخيال، ويشتتهما الخوف المفاجيء وان يكونا عرضة للتأثر المفاجيء بالرؤى حتى انهما لايترددان في الحديث عنها لاصدقائهما، فكيف يتسنّى لنا التهرب من الاقرار برأي الاقدمين المسفّه تماماً: وهو ان الشرّ والارواح الضالّة تدفعها الغيرة من افاضل البشر، والرغبة في عرقلة طيّب عملهم الى اثارة شعور الخوف والهلع في نفوسهم، فتهزهم وتجعلهم يعثرون وتحول بينهم وبين الحصول على حال اسعد من حال تلك المخلوقات بعد الموت، بالمثابرة والاستقامة. على اني سأترك هذه الأمور لفرصة أخرى. وفي هذا الكتاب وهو الثاني عشر من سير عظماء الرجال ومقارنتها. سابدأ بسيرة أكبرهما سِناً.

بعد ان استتب الأمر [لديونيسيوس] الأول بادر حالاً الى الزواج من بنت [هيرموقراطس Hermocratis] السيراقوسي. وفي اثناء الفتنة التي اشتعل نارها قبل ان يستقرّ الحكم بيد العاهل الجديد، أعتدي على شرف هذه المرأة بشكل بربري مشين لم يسعها معه الاّ انهاء حياتها بيدها خجلاً وعاراً. وعندما ثبت حكم [ديونيسيوس] ثانيةً تزوج بامرأتين في آن واحدٍ. اولاهما [دوريس] اللوكرية Locri، وثانيتهما [ارسطوماخه Aristimache] الصقليّة بنت [هيپارنيوس Hipparinus] وهو رجل من افاضل السيراقوسيين. كان زميلاً [لديونيسيوس] عند اختياره لأول مرة جنرالاً مطلق الصلاحية لغرض ادارة الحرب. وقيل ان ديونيسيوس تزوج بامرأتيه في يومٍ واحدٍ، كان [السيراقوسين] في الواقع متشددين في تفضيل نسائهم على الأجنبيات، فكأن القدر اراد تعويض [دوريس] عن اصلها الاجنبي فجعلها امّا لأبن، ووارث للأسرة. في حين بقيت [ارسطوماخه] عاقراً مدة طويلة، في حين كان [ديونيسيوس] يرغب جداً في الانجاب منها. واتهم امّ [دوريس] بأنها سقت [ارسطوماخه] عقاراً منعها من الحمل، وامر بها فقتلت.

ووجد [ديون] شقيق [ارسطوماخه] حفاوة وتكريماً بسبب اخته. الاّ انه مواهبه وكفاءاته ما لبثت ان آمنت له محبة صهره، وقربته منه كثيراً، ومما شرفه به انه اصدر أمراً لمدير خزائنه بأن يعطي [ديون] اي مبلغ يطلبه على ان يخبره في اليوم نفسه كم دفع له وعرف [ديون] بالتعالي والخيلاء، ونبل الضمير والشجاعة الفائقة. الاّ ان هذه السجايا العالية زادت تهذيباً وتسامياً بعامل الحظّ السعيد الذي هدى [افلاطون] الى زيارة صقلية من تلقاء نفسه، من دون ان يدعوه احدٌ، او يتوقعه بشرٌ. قوة فائقة للطبيعة قضت ان يكون هذا الحدث عاملاً في استعادة صقلية حرياتها السليبة وقلب نظام الحكم المستبد. فقذفت بالفيلسوف من ايطاليا

الى سيراقوسة وربطت ما بينه وبين [ديون] بأواصر صداقة دائمة. كان [ديون] انذاك فتىً صغير السن، الاّ انه كان أسرع تعلماً واوسع استيعاباً واحضر بديهة واشوق الى الممارسة الفعلية لدروس الفضيلة من سائر التلاميذ الذين استمعوا لأفلاطون بشهادة الفيلسوف نفسه وبالبرهان الساطع الذي اثبتة افعاله. فمع انه نشأ في بيئة يسودها الطغيان، وآيته الذلة والخنوع، ومع تعوده حياةً هي من ناحية عبودية وذلّ، ومن ناحية ترف سجح، سعادة زائفة لشعب لايرى امامه سبيلاً أفضل من الإنغماس في الملذات واللهو. الاّ انه ذاق اول طعم للحكمة والفلسفة اللتين تتوخيان سيادة الفضيلة، فشبت النار في روحه شبوباً. واستنتج من حالته هذه، بسذاجة الشباب، ان التغيير نفسه قد يحصل لديونيسيوس فراح يعمل جهده لحمله على الاستماع الى [افلاطون] حتى نجح، وأخذ [ديونيسيوس] يحضر دروسه في اوقات فراغه، وكان موضوع الدراسة في ذلك الوقت. الفضيلة الانسانية. وكانوا يتناظرون بصورة خاصة حول ضبط النفس، وقد برهن [افلاطون] ان الطغاة هم أقلّ الناس حظّاً منه دون سائر الناس. ومنها انطلق لمعالجة موضوع العدالة. فأكد حالة السعادة التي يرفل فيها الحكم العادل. والبؤس الذي يعانيه الظالم. وهو الجدل الذي لقى اذنا صماء من [ديونيسيوس] على انه شعر بضعف حجته وبأنه مدان، وساءه كثيراً ان يجد بقية المستمعين ممتلئين اعجاباً بالمتكلّم، مأخوذين بقوة حجته. أخيراً ضاق ذرعه، وبلغت روحه التراقي فسأل الفيلسوف والغضب يعصف به:

- ما الذي جاء بك الى صقلية؟

فقال افلاطون: جئت ابحث عن رجل فاضل.

فقال ديونيسيوس: الظاهر ان جهودك ضاعت سدى.

وظنّ [ديون] أن هذا كلّ ما اراد [ديونيسيوس] قوله، ولن يخرج على الحدّ. وطلب [افلاطون] ان يتدبر امر رحيله فأصعده سفينة متوجهة الى اليونان كان فيها [پولليس Pol-lis] السپارطي، فأتصل [ديونيسيوس] بهذا الرجل سراً واتفق معه ان يفتك [بافلاطون] باية وسيلة يراها. وان عزّ عليه ذلك فأن يبيعه عبداً. ولم يكن هذا ليضر افلاطون طبعاً. اذ سيبقى ذلك الرجل العادل وسيتمتع بالسعادة المتأتية منه وان فقد حريته، وتمضي الرواية فتذكر ان [پوليّس] أقلع بافلاطون، حتى [ايجينا] وهناك باعه. وكان [الايجينيون] اذ ذاك في حربٍ مع آثينا وقد اصدروا مرسوماً يقضي بأن يعرض للبيع في سوق النخاسة، كلّ آثيني يقبض عليه في سواحلهم. على ان منزلة [ديون] عند [ديونيسيوس] لم تقلّ مع ذلك، بل ظلّ تقديره له كما كان واوكل به اخطر المهام وارسله الى قرطاجنة في سفارات هامّة، فطارت شهرته

وارتفعت سمعته. وكان العاهل المستبد، فضلاً عن ذلك يسمح له بحرية مطلقة في الكلام، بصراحة ودون رجلٍ. وكان في هذا المجال الوحيد بين اصدقائه. ومن ذلك انه أنبه في قضية [غيلون Gelon] الذي كان [ديونيسيوس] من حكمه ويقول عنه انه مضحكة صقلية، ولما أظهر السامعون اعجابهم بهذا التهرّب واستحسانهم له اجاب [ديون] بكثيرٍ من الحزم.

- على اية حال، انت الحاكم المطلق هنا، لأنك استؤمنت ووضعت به الثقة اكراماً لغيلون. ولكن من الآن فصاعداً لم تعد الثقة ممكنة باي رجلٍ اكراماً لك.

ذلك لأن [غيلون] مارس الحكم الملكي بشكل جعله يبدو افضل نظام حكم في حين جعله [ديونيسيوس] في نظر الناس اسوء حكم. انجبت دوريس لديونيسيوس ثلاثة اولاد وانجبت له [ارسطوماخه] اربعة منهم بنتان وهما [سوفروزينة Sophrosyne] و[أريته Areta]، فزوج [سوفروزينة] من ابنة اخيها [ديونيسيوس] وزوج الثانية اخاه الذي هو عمها - [ثياريدس] وتوفي هذا، تزوجها [ديون].

وسقط [ديونيسيوس] مريضاً وبعد فترة حضرته الوفاة، وحاول ديون جهده ان يكلمه بخصوص اولاده من [ارسطوماخه] الاّ ان اطباءه لم يسمحوا له. وكانوا بهذا يريدون نيل حظوة عند خليفته. قال [طيماؤس] ان ولي عهده سقاه جرعة منومة ارادها. فأحدثت غيبوبة لم يفق منها.

وفي مجلس الشورى الذي عقده [ديونيسيوس] الأبن من اصدقائه، أجاد [ديون] في شرح الوضع الراهن. وبدا الحاضرون كلهم امامه اطفال سياسةٍ، كما ظهروا في تصويتهم عبيداً أكثر منهم مستشارين فقد وافقوا على كل ما يبهج الشاب ويرضيه جبناً منهم ومكراً دون ان يكترثوا بما هو صالح له. واصابهم [ديون] برعبٍ شديد عندما ادلى بالاقتراح الخاص بكيفية اجتناب الخطر المحدق جراء حربٍ محتملة مع القرطاجيين. فقد وضع رأيه بالصورة التالية:

«ان شاء [ديونيسيوس] سلاماً فعليه ان يبحر فوراً الى افريقيا ويبرمه هناك بشروط شريفة. اما اذا فضل الحرب فعليه ان يبني ويجهز على حسابه الخاص خمسين سفينة حربية لهذا الغرض».

واعجب [ديونيسيوس] كثيراً بفكرته النيرة واشاعت الارتياح في نفسه. الاّ ان افراد البطانة اعتبروا رضاه هذا مضراً بهم وداخلهم الحسد من منزلته التي ستخفض من مكانتهم. فأخذوا منذ ذلك الحين يتحينون الفرص ليوقعوا بين [ديونيسيوس] وبينه عن طريق الإفتراء والتشهير به. فصوروا للعاهل بأنه يريد استخدام قوته في البحر والاستعانة بها لقلب نظام

الحكم ونقل السلطة الى اولاد اخته [ارسطوماخه]. على ان اظهر واقوى اسباب الجفاء والتباغض كانت تكمن في اختلاف امزجتهما، ومشاربهما من الاول كما كانت تعزى الى انطوائية [ديون] وتحفظه؛ مقابل الزلفى والوسائل الرخيصة التي استخدمها الآخرون منذ البداية لنيل رضى الأمير والتقرب منه وهو الشاب الذي فتح عينيه على الشهوات. وكانوا يسهلون له ملذاته، ويجتهدون في ايجاد علاقة غرامية جديدة له كل يومٍ واغرائهم اياه بمعاقرة الخمر ومجالسة النساء وغير ذلك من طرق الفساد، وبدأ الاستبداد للرغبة بهذه المظاهر - كالحديد الذي يلين في النار، ووجدوه أكثر اعتدالاً وسماحةً؛ واقل صرامة وشدةً، لقد فلّ من غُراب الطغيان تراخي العاهل وتفسحه لا رحمته وعدله. وكان هذا التفسخ يزداد ويتمكن منه يوماً بعد يوم فانكسرت «تلك السلاسل المتينة» التي جعلت الملكية محكمة الشدّ امينة، على حدّ تعبير ابيه. ورَوي انه بدأ مرة مجلس شراب يتخلله الفجور، فواصله تسعين يوماً دون انقطاع، فلم يعرض عليه أمرٌ أو قضية ولم يقابله بشر ولم يسمع اي حديث جدي في البلاط. ليس غير الشرب والغناء والرقص والخلاعة والمجون دون ضابط او رادع.

لا غرابة اذن أن مالت البطانة عن [ديون] وخصوه بجفوتهم لأنه لم يأخذ بسبيل الغواية ولم يعرف عبث الشباب وملاذه، وكانت سجاياه موضع افتراءاتهم. فينعتونها باسم اوآخر مقبول الظاهر من اسماء الرذائل. أسموا وقاره كبرياءً، ونعتوا صراحته بالعناد ونصائحه الجيدة بالتأنيب والتقريع. وانتقدوه لاحتقاره أولئك الذين ابى مشاركتهم موبقاتهم. ونقول للحقيقة والواقع ان ثمّ تزمتا وترفعاً وتحفظاً وانطوائية كانت تبدو لعشرائه وفي تعامله. مما جعل صحبته ثقيلةً بغيضة ليس عند الطاغية الشاب وحده ذلك الذي فسد سمعه بالملق والمداهنة، بل عند كثير من أصدق اصدقائه وان احبوا فيه استقامته وسمّو اخلاقه. لقد عابوا عليه سلوكه ومالوا الى الاعتقاد بأن اوثق الناس صلةً به، لاينالون منه ما يجب من الاحترام والاهتمام الذي يلازم رجال السياسة عادةً. وقد تطرق [افلاطون] نفسه الى هذا النقص عند كتابته اليه فيما بعد، فنصحه وكأنه نبيّ ان يجتنب بكلّ حذر ذلك الطبع المستبد الذي لايجد له رفيقاً الاّ العزلة والوحدانية.

ولقد اعتبر في هذا الوقت بالذات الدعامة الوحيدة الكفوءة لتثبيت الحكم المتداعي، وان الظروف هي التي جعلته شخصية هامة لهذا الغرض مع انه كان يعلم بأنه ليس مديناً بمركزه الرفيع الى فضل او منة بل الى ضرورةٍ ماسة ارغمت الطاغية على الاستعانة به. أفترض ان الجهل هو علة [ديونيسيوس] فبذل الجهد في اقناعه بالاجتهاد في دراسة العلوم العقلية، وان يسمعه شيئاً عن مبادىء الاخلاق والموازنة الفكرية في الأمور، وكان يأمل أن يتغلّب الشاب

على تخوفه من الحياة الفاضلة، وان يتعلم كيف يجد اللذة والسعادة في الأعمال الطيبة الجديرة بالثناء. لم يكن [ديونيسيوس] مجبولاً على الفساد، ولم يكن اسوء مثال للمستبد، فأبوه هو المسؤول عما آلت اليه حاله. لقد كان يخشى ان يتآمر عليه ان ازداد فهما لنفسه او اتصل بالحكماء والفلاسفة؛ فيزيحه ويقضي على سلطانه. ولذلك أبعده عن المعرفة وأغلق ابواب الحقيقة دونه فأفتقد العشرة الحسنة ولم يدر افضل الوسائل لقضاء اوقاته، فأخذ يتلهى بصنع عربات صغيرة، وكراس وشمعدانات ومناضد وما شابه ذلك في اشغال النجارة. كان [ديونيسيوس] الأب عظيم الشك فاقد الثقة دائم الحذر من الجميع، حتى انه ابى أن يقص شعره بآلةِ حلاق. بل كان يأمر أحد خدمه بازالة الجزء الأعلى منه، بحرقه بجمرة متقدة من الفحم ولم يكن يسمح بأن يدخل عليه ابنه او اخوه بثيابهما، بل كانا يخلعانها اسوةً بغيرهما من المتقابلين وينظرهما وهما عاريان ثم يرتديان ثياباً أخرى واذ ذاك يسمح بمقابلتهما. ومرة كان اخوه [لپتينس Leptones] يشرح له موقع موضع من المواضع وهيئته. فأختطف رمحاً من يد احد الحراس ليخط بسنانه رسماً توضيحياً. فغضب عليه [ديونيسيوس]. وامر بالحراس الذي نزل عن رمحه له، فقتل في الحال. وكان يقول:

- كلما كان اصدقائي عقلاء، كلما زاد شكي فيهم. فأنا أعلم يقيناً بأنهم لن يتحرجوا عن الطغيان، ولن يكونوا رعية لطاغية، لو كان الحلّ والعقد بيدهم.

وقتل [مارسياس Marsyas] وهو ضابط أناط به قيادة هامة، لأنه رأى في نومه انه تولى قتله، وعلل فعلته هذه بقوله:

- لو لم تداعبه الفكرة في يقظته لما تخيلها في نومه.

وكان على درجة كبيرة من الجبن، وكان عبداً شقيّاً لمخاوفه ومع هذا غضب من افلاطون، لأنه لم يعده أعظم الاحياء بسالةً واقداماً!

نعود فنقول، لما وجد [ديون] ان الأبن نشأ نشأة معيبة فاسدة لافتقاره الى التهذيب، أخذ يحثه على الدرس، وان يلح على [افلاطون] أعظم الفلاسفة طراً بزيارته في صقلية. وان يضع نفسه تحت تصرفه ويتتلمذه فلعل تعاليمه تقوّم طبعة وتهديه الى حقائق الفضائل، والاقتداء بحياة الأرباب و«بالأنسان الكامل» السنيّ وباطاعة أولئك الذين تحفظ رقابتهم نظام الكون الجميل. فباتباعه هذا النهج قد يحقق السعادة العظمى لنفسه ولرعاياه الذين سيندفعون الى اطاعته مختارين ممتنين لعدالته وسماحته، كما يطيعون آباءهم. اما الآن فهم مرغمون بحكم الضرورة على الخضوع له وهم حانقون متضجرون كما يخضعون لسيدٍ غاشم. انه لايعود

طاغيةً غاصباً بل ملكاً شرعياً محبوباً ليس القوة والخوف والاسطول البحري وجيش مستعد قوامه عشرة الاف من البرابرة المرتزقة السلاسل المتينية التي تحمي النظام الملكي وانما هي الحبّ، والتفاني، والاخلاص المتولدة من الرحمة والعدل. وهذه على كل حال اقوى واشد الروابط دواماً لدعم الحكم الطويل الأمد وان كانت أكثر مرونة من أغلال الصرامة والقسوة. أضف الى هذا انه لمن الخسّة والحطّة ان يعنى الحاكم بارتداء الفاخر من الثياب وترف العيش والاسراف، في حين لايبدي من العقل والحكمة ما يوازي ابسط العقول واشدها سذاجة بين رعاياه ولايزخرف قصر عقله الفاخر بما يناسب مقامه الملكي.

كثيراً ما تطرق [ديون] الى هذا الموضوع في احاديثه مع الملك مردداً بقدر ما تسنح له الفرص - بعض اقوال الفيلسوف، فأخذ شوق [ديونيسيوس] يزداد الى افلاطون وسماع محاوراته ولج به الصبر وراح يتبع الرسالة بالرسالة اليه في آثينا. فضلاً عن رجاء [ديون] وتدخل بعض الفلاسفة الفيثاغوريين من ايطاليا الذين بعثوا يلحون عليه بالمجيء للسيطرة على تلك الروح الشابة المطواعة لعلها تنصلح بتأثير مناظراته العقلية الصائبة، فتستقيم وتتهادى فوق بحار السلطة المطلقة والاستبداد. ولم يجد [افلاطون] بداً من النزول عند الحاحهم، «خجلاً» كما يذكر لنا أكثر من اي شعور آخر. ولئلا يبدو مجرد واعظ نظريّ لايغامر بالتطبيق العملي بمحض رغبته. فكان أمله ان يوفق في شفاء الرأس والدليل وبه قد يشفى كل ما تشكو منه الجزيرة.

لكن اعداء [ديون] داخلهم الخوف من انقلابٍ قد يحصل لديونيسيوس، فأقنعوه بدعوة [فلستوس Philistus] من منفاه بايطاليا، وكان هذا اخا معرفة، وعلمٍ، وتجارب عميقة في أحوال الطغاة وأخلاقهم، يصلح ان يكون نداً مقارعاً لافلاطون وفلسفته. كان من البداية اداة فعالة في تثبيت اقدام استبداد الفرد وظلّ مدة طويلة يتولى قيادة القلعة وقد شيع عنه في حينه انه كان على صلة حب بامّ ديونيسيوس الأول. ولم يكن هذا غافلاً عنها. وعمد [ليبتينس] اخ [ديونيسيوس] الى تزويجه بأحدى بنتي عشيقةٍ له كان قد اغواها، دون علمٍ من أخيه، فغضب هذا غضباً شديداً واودع عشيقة [ليبتينس] السجن ونفى [فيلستس] من صقلية. ففر هذا الساحل الادرياتي ونزل حمى بعض اصدقائه، ويرجح انه كتب هناك معظم اجزاء تاريخه وقت فراغه وبطالته، فقد ظل بعيداً عن صقلية طوال مدة حكم ديونيسيوس الأول، وكما ذكرنا نجح خصوم [ديون] في الغاء امر ابعاده عن الوطن لأنه أصلح الجميع لأغراضهم، فضلاً عن كونه من انصار الحكم الاستبدادي والمدافعين عنه. ولذلك صار يسعى الى دعمه في صقلية فور عودته. وواصل المفترون النحامون يصبون الاتهامات في اذن الملك

كقولهم ان [ديون] يراسل كلّ من [هيراقليدس وثيودوتّس] لقلب نظام الحكم. ولاشكّ أن [ديون] كان يأمل ان يخفف مقدم افلاطون صرامة الحكم واستبداد الطاغية وتحويل [ديونيسيوس] الى حاكمٍ عادلٍ قانوني، فان ظلّ معانداً معرضاً عن اجراء اي اصلاح، عَمَل على خلعه واحلال الحكم الجمهوري في المجتمع السيراقوزي. ولم يكن [ديون] بالأصل من محبذي الحكم الديمقراطي، الاّ انه كان يجده على اية حال افضل من حكم الفرد واستبداده حين يتعذر اقامة حكم ارستوقراطي جيد.

هذا هو الموقف عندما وصل افلاطون الى صقلية. وقد استقبل بمظاهر رائعة من التكريم والودّ. كانت بانتظاره على اليابسة عربة ملكية فاخرة، وقام [ديونيسيوس] نفسه بتقديم قرابين الشكر للآلهة، اعترافاً بجميلها وانعامها على حكمه بهذه السعادة.

وانتشعت آمال المواطنين وراحوا يتطلعون الى اصلاح عاجل عندما لاحظوا التواضع الذي أخذ يسود المآدب، والأحتشام الذي تسربل به البلاط. والانقلاب الخلقي الذي طرأ على [ديونيسيوس] وكيف صار يعاملهم برقة وانسانية، ويعالج شؤونهم بعدلٍ ولين، وكان ثمّ انصراف عام الى الفلسفة والحكمة. وذكر ان القصر كان يمور بالأغبرة لكثرة ما كان يؤمه من طلبة الرياضيات وانشغالهم بحل المسائل الحسابيّة.

وحَلّ موعد تقديم احد القرابين السيراقوسية. وجريا على العادة المتبعه أخذ الكاهن يدعو بطول العمر لحكم الطاغية، وبسلامة نظامه، فقيل ان [ديونيسيوس] الحاضر صاح به:

- كفاك صلاة ودعوات بدوام الشرّ.

استاء [فيليستس] وانصاره لهذا التحول. وقدروا ان خطر [افلاطون] عليهم يتعاظم. فبهذه المدة القصيرة استطاع ان يحدث تحولاً وتغييراً عميقاً في عقلية الفتى، فكيف به لو طال بقاؤه وامتدت محاوراته؟ ولاشكّ ان سلطانه عليه سيكون عظيماً. ولذلك وجب عليهم ان يتخلصوا من وجوده كيفما كان. فأنتقل جميعهم الى الافتراء العلني على [ديون] ونبذوا اسلوب الغمز واللمز فراحوا يشيعون للملأ أن الفتى مفتتن بسفسطة [افلاطون] وانه مسحور به. وسوف يحمل على اعتزال الحكم مختاراً ليحل [ديون] محلّه فيه وينتزع الملك لأولاد اخته [ارسطوماخه]. وتظاهر فريق منهم بالحرص على سلامة البلاد، فقالوا ان الآثينيين الذين جردوا على صقلية اسطولاً عظيماً وانزلوا اليها جيشاً برياً قوياً، فلم يفلحوا في الاستيلاء على سيراقوسة وهلكوا دونها، يحاولون اليوم عن طريق [سفسطائي] قلب نظام حكم [ديونيسيوس] ويهددون بتسريح حرسه البالغ عشرة آلاف من الرماحة، وتصفية اسطوله

البحري المؤلف من أربعمائة سفينة. والغاء كتائب الخيالة البالغة عشرة آلاف فارس واضعاف هذا العدد من المشاة، ويعزي بالبحث عن المجهول وعن السعادة الوهمية في المدارس، وكيفية العيش الهنيء بمزاولة حَلّ الرياضية. في حين سيكون التمتع بالسلطان المطلق والغنى والملذات من نصيب [ديون] واولاد أخته.

بهذا الاسلوب بدأت الشكوك تساور [ديونيسيوس] حول نوايا [ديون] واخذ يقابله بجفاءٍ واعراضٍ متزايدين بالتدريج. ثم ضبطت رسالة من [ديون] الى وفد القرطاجنيين القادم لأجل مفاوضات السلم، ينصحهم فيها بأن لايقابلوا [ديونيسيوس] حتى يتصلوا به. وبهذا لن يجيبوا في الوصول الى ما يريدونه. أطلع [ديونيسيوس] على الرسالة ورفع بها الى [فيليستوس] وتشاورا معاً فيما يجب عمله، ويخبرنا [طيماوس] أن العاهل تظاهر بالركون الى [ديون] وأظهر له الودّ والمصافاة ثم سار معه يوماً الى ساحل البحر حتى بلغا اسوار القلعة، وأخرج الرسالة وجابهه بها واتهمه بالتآمر عليه مع القرطاجنيين. ولم يسمح [الديون] بكلمة واحدة دفاعاً عن نفسه وانما نقله بالقوة الى سفينة كانت قد ارسيت هناك لهذا الغرض، وأمر البحارة بالاقلاع به وانزاله في ساحل ايطاليا.

وشاع أمر نفيه، وأعتبر عملاً قاسياً لامبرر له، وكان ثم بكاء ومناحة عند نساء بيت الطاغية نفسه. على ان السيراقوسيين قابلوا الأمر بجلد وشجاعة اذ كانوا يتوقعون من هذا اضطراباً وعصياناً بعد فقدان الثقة وضياع الأمل باصلاح الحال وكانوا يتطلعون الى ثورة وتغيير سياسيّ في نظام الحكم. ولم يخف ذلك على ديونيسيوس وهو يرى الخواطر ثائرة والنفوس هائجة فانتابه ذعر الشديد واخذ يهدئ روع النسوة واقرباء [ديون] الآخرين وانصاره، مؤكداً لهم بأنه لم ينفه وانما ابعده فترةً من الزمن خوفاً من نوبة غيظ تفاجئه يوماً بسبب عناد [ديون] وتمسكه برأيه فتدفعه الى عمل يأسف عليه. وقدم لاقربائه سفينتين وسمح لهم أن يرسلوا فيها كلّ ما شاؤا من متاع وخدم اليه في [البلوبونيسيس].

كان [ديون] في غاية من الثراء. وكان اثاث منزله يضاهي ما عند الملوك فخامة وابهة. فحزم اصدقاؤه تحفه واثاثه الثمينة، مع مقدار كبير من الهدايا الغالية التي بعثت بها النسوة والأنصار فظهر [ديون] بين الاغريق بمظهر الوجاهة والترف بقدر ما يتعلق الأمر بالغنى. ولعلهم حكموا من غنى المنفي على مدى السلطان الذي يتمتع بع الطاغية.

ونقل [ديونيسيوس] افلاطون الى القلعة ووضع عليه حرساً، تحت ستار التكريم والحفاوة. وكان يخشى ان يلحق بديون ويعلن للملأ ما لقي صديقه من سوء المعاملة. اضف الى هذا، ان عاملي الزمن والدراسة روّضا [ديونيسيوس] كما تروض الوحوش الضارية، فتنقلب أليفة -

فأصبح يلتذ بصحبة افلاطون ومناظراته، وبدء حبه يغزو قلبه، بشكل فيه اثرة، وتعلق أناني لايخلو من نوازع الاستبداد، اذ كان يتطلب من افلاطون بالمقابل ان يخصّه بحبه وحده دون الآخرين وان يكون به ألصق الناس. وابدى رغبته في ان يعهد اليه بادارة دفة الدولة العليا، شريطة أن ينزله المنزلة الأولى في قلبه. هذا الإفراط في العاطفة كان مصدر ضيق شديد لأفلاطون فقد صحبته نزوات من الغيرة العمياء، والوقاحة كان من قبيل العواطف الجامحة التي نراها عند العاشقين الوالهين، فكثيراً ما كان يغاضبه ويجفوه، ليعود حالاً نادماً مستغفراً مستوكفاً صداقته مرة أخرى. وكانت تدفعه رغبة جنونية في ان يُعد تلميذاً للفيلسوف هذا امام منتقديها ومسفهيها، الذين يصارحون بأنها ستكون سبباً لدماره.

ولكن الحرب نشبت في اثناء ذلك. فصرف [افلاطون] بعد ان تعهد له بالغاء قرار نفي [ديون] والسماح له بالعودة الى الوطن في الصيف القادم. وكان في وعده هذا كاذباً. لكنه ارسل لديون ربع املاكه. واعتذر من افلاطون عن اخلافه واقسم له ان سيستدعي [ديون] فور انتهاء الحرب. واعرب عن امله في ان يركن [ديون] الى الهدوء خلال هذه الفترة، وان لايثير الفتن ولايتكلم عنه بالسوء امام الاغريق. وهذا ما عمل [افلاطون] في سبيله، بابقاء [ديون] ملازماً له في الأكاديمي والهائه في المتابعات الفلسفية.

سكن [ديون] الحيَّ الأعلى من مدينة آثينا مع [كاللبيس Callipus] أحد اصدقائه. وابتاع بيتاً في الريف للراحة والاستجمام، وهبه لـ[سپيوسپوس Speusippus] اعزّ اصدقائه عند عودته الى صقلية. وقد فعل [ديون] ذلك نزولاً عند نصيحة [افلاطون] الذي كان يريد ان يلين طبعه الصارم بالعشرة الجميلة التي تتخللها فترات عفوية لمجلس الأنس والمرح المناسبين وكان [سپيوسپوس] مرحاً. فقد ذكره [تيمون] في كتاب سللي Silli بقوله «اشتهر بالفكاهة والمزاح». واتفق ان طُلب من [افلاطون] تنظيم جوق صبيان، فعهد بذلك الى [ديون] الذي أخذ الأمر على عاتقه ادارةً ونفقات. وبذلك اتاح له الفرصة للتفضل على الآثينيين، بمنةٍ مؤملاً بذلك ان يكسب لصديقه من العطف أكثر مما يؤمن من الثقة. وسافر [ديون] الى مدن أخرى وقابل فيها ارفع واشهر شخصيات الأغريق، وجالسهم في انسهم وراحتهم وايام اعيادهم، ولم يُعْزَ اليه في كل هذه المواجهات اي تصرف سوقي او خيلاء أو سفه، بل اظهر قدراً كبيراً من التواضع والسخاء والشجاعة والتذوق الرفيع للمناظرات الفلسفية والمناقشات العقلية، فظفر بمحبّة الجميع واعجابهم وكرمته مدن كثيرة. فاللقيديميون منحوه المواطنة السپارطية دون ان يعباؤا بسخط [ديونيسيوس] الذي كان في ذلك الحين يعاونهم في حربهم مع الآثيبيين.

ومما روي انه قصد مرة زيارة [پتويودورس Ptoedorus] الميغاري بدعوة منه وهو رجل غني

جداً وذو مكانه كما دل عليه ظاهر حاله. فوجد صعوبة في الوصول اليه بسبب حشود الناس المجتمعة امام بابه، ولضغط اعماله الكثيرة فالتفت الى اصدقائه وكان قد بدا عليهم الغيظ والضيق، وقال:

- كيف نلوم [پتويودورس] ونحن في سيراقوسة لا نفعل افضل من هذا ؟

ما مَرّ زمن يسير حتى قطع [ديونيسيوس] عن [ديون] ريع املاكه حسداً وغيرةً من المنزلة التي نالها عند الاغريق. ونصب حراسه القضائيين عليها. وحاول ان يتحاشى انتقاد الفلاسفة وفقدان ثقتهم بسبب تأثير [افلاطون] فراح يجمع في بلاطه عدداً كبيراً من رواد المعرفة المشهورين والحكماء، واراد ان يظهر طول باعه وتمرسه في صناعتهم تلك تحكيماً واقتداراً بمحاورتهم ومناظرتهم مستخدماً المبادىء التي تلقاها عن [افلاطون] بشكل مغلوط في أكثر الأحيان.

ثم حنَّ عليه، وخالطه ندمٌ لأنه لم يحسن الافادة منه عندما كانت معارفه مبذولة له. وأسف لأنه لم يهتم بدروسه الرائعة، وكما هو شأن المستبد الذي لايرد له حكم، العنيف في تحقيق نزواته وكل ما شاءت ارادته؛ وجد نفسه شديد الرغبة في مجيئه. فلم يترك باباً الاّ طرقه، ولا حجراً الاّ قلبها في هذا السبيل ثم ولى وجهه شطر [ارخيتاس Archytas] الفيثاغوري أحد معارفه الذي كان مديناً له بأولى علاقاته مع [افلاطون]، وطلب منه أن يضمن كلمته عند [افلاطون] وان يشجعه للقدوم الى صقلية ثانيةً. فبعث [ارخيتاس] اليه برسوله [ارخيديموس]، كما ارسل [ديونيسيوس] من جانبه عدداً من الاصدقاء والسفن لحمله على قبول دعوته. وكتب اليه مؤكداً انه لن يحقق [لديون] اي رجاءٍ أو طلبٍ ان لم يوافق على القدوم. اما اذا وافق وجاء فعلاً فان كل ما يطلبه [ديون] سيجاب، وتسلّم [ديون] من اخته وامرأته رسائل مفعمة بالضراعات والشفاعات، والالحاح عليه بالرجاء من افلاطون تلبية طلب [ديونيسيوس]، وبذلك يحول بينه وبين عمل سيء آخر. فلم يسع [افلاطون] الاّ ان يشدّ الرحيل للمرة الثالثة من مضيق [سكيللا Scylla] ولسان حاله يقول:

«ها أني اغامر مرّة أخرى في خليج

«خاريبيدس Charybdis العظيم الاخطار»

واورث مجيئه [ديونيسيوس] غبطة عظيمة ان يحقق [افلاطون] الغلبة على [فيليستس] وان تنتصر الفلسفة على نظام الإستبداد. وانضمت النساء الى حلقات دراسته. وعظمت دالته على [ديونيسيوس] الى درجة لم يحظ بها احد قبله. وكان يملك الحرية التامة في الدخول

عليه اني شاء دون ان يفتش. وقدم للفيلسوف مبلغاً كبيراً من المال فرفضه، وجدد عرضه عليه عدة مرات وكان افلاطون يرفض ابداً. فعلّق [ارسطوبوس] الكريني الذي كان موجوداً بقوله: ان [ديونيسيوس] في سلامة تامة من عواقب سخائه، فهو يعطي القليل للراغبين في الكثير. ويعطي الكثير لأفلاطون فلا يقبل شيئاً.

بعد ان فرغ الجميع من تبادل التحايا ومظاهر الترحيب، طفق افلاطون يتحدث في أمر [ديون]. فأسمعه معاذير مختلفة. ثم بدأ يشكو ويتذمر بصورة غير مباشرة. فلم تبد شكاواه ظاهرة للعيان في مبدء الأمر لأنه جهد في اخفائها. لكنه اخذ يعمل على نزع محبّه [افلاطون] لديون من قلبه، بمزيد التفاته اليه وشموله بمظاهر التكريم والتقدير. وظلّ [افلاطون] زمناً وهو يحاذر من استفزازه، لئلا يبدو كذبه ونقضه لعهده للملأ فتقع الواقعة. وحرص ان يكتم ما بنفسه من ألم وضيق. وتوهم الاثنان ان العيون غافلة عما يجرى. وأن الناس لايدرون الحقيقة. بينما كان الأمر خلاف ذلك كما تدل عليه الحكاية الآتية:

تنبأ [هيلكيون Helecone] [الكيزيكيني Cyzicenean]احد تلاميذ [افلاطون] بكسوفٍ فوقع في اليوم الذي حدده، فأعجب [ديونيسيوس] به وأمر له بتالنت من الفضة. فأتخذ [ارسطوبوس] من ذلك مادةً للفكاهة والمزاح مع الفلاسفة الأخرين قال:

- انه يستطيع ان يتنبأ هو أيضاً بشيء خارقٍ.

فطلبوا منه الإفصاح، فقال:

- اتنبأ انه لن يمرّ وقت طويل الاّ وينشب خلاف بين افلاطون وديونيسيوس.

ثم ان [الطاغية] باع املاك[ديون] وصادر اثمانها وضمها الى ملكه ونقل [افلاطون] من المنزل المخصص له في حدائق القصر الى موضع سكنى بين الحرس المرتزقة الذين ابغضوه من المبدء وكانوا يتحينون الفرص للخلاص منه لأنهم كانوا يعتقدون بأنه اشار على [ديونيسيوس] بالتنازل عن الحكم وتسريح الجنود.

لما ادرك [ارخيتاس] مدى الخطر الذي يتعرض اليه افلاطون اسرع بارسال سفينة مع رسلٍ الى [ديونيسيوس] يطلب منه السماح للفيلسوف بالعودة اليه، وذكره بأنه ضامن سلامته حسب الاتفاق الذي تمّ بينهما وعلى اساسه. جاء افلاطون الى صقلية. فأقام [ديونيسيوس] المآدب والحفلات التكريمية الباذخة لضيفه تخفيفاً لما يشعر به هنا نحوه من قرفٍ. الاّ انه لم يسع ان يكتم الخوف الذي يعتمل في نفسه فقال له يوماً:

- لاشك. أنك يا افلاطون ستنتقدني بين رفاقك الفلاسفة عند عودتك الى الوطن، وسوف

تحاسبني حساباً عسيراً على اخطائي الكثيرة.

فأجابه افلاطون باسماً:

- ثق ان الاكاديمي لن تفتقر الى مواضيع بحث لتتخد منك موضوعاً

وانصرف عنه أفلاطون، الاّ ان ما كتبه عنه لايتفق بالضبط مع هذه الرواية.

وصل السخط بديون غايته القصوى. ولم يلبث الاّ وجاهر بعدائه [لديونيسيوس] بعد ان سمع من افلاطون بما فعله لزوجه اذ كانت له مكاتبه سرية مع [ديونيسوس] وملخص الحكاية ان الطاغية طلب من الفيلسوف قبل عودته الأخيرة ان يسأل [ديون] هل يوافق ان تتزوج امرأته في صقلية من رجل آخر؟ وثم رواية أخرى لاندري مبلغ صدقها ولعلها من تصنيع اعداء [ديون]. تقول الرواية انه لم يكن مرتاحاً من زواجه بالاصل، وان حياته مع امرأته كانت تاعسة. فلما عاد افلاطون الى آثينا وفاتحه في أمر تسريح زوجه، كتب رسالة [لديونيسيوس] تعرض منها لمختلف الشؤون بأسلوب واضح صريح حتى اذا جاء الى هذه النقطة استخدم اسلوباً معمّى فيها غموض كان بينه وبين [ديونيسيوس] سبق اتفاق عليه واعلمه بهذا الاسلوب انه تحدث الى [ديون] حول الموضوع وقد ظهر له انه لايحبذ ذلك وسيستاء جداً ويعده اهانة موجهة الى شخصه ان قدر له التمام.

كان [ديونيسيوس] في ذلك الحين يمنيّ نفسه بالصلح والصفاء ولذلك لم يقدم على تزويج اخته، زوج ديون الاّ انه نفذ ما نواه بعد ان خابت آماله في الصلح؛ وتعقدت الأمور، وعاد [افلاطون] الى آثينا متبرماً، فرغم [آرتية] وهي كارهة على الزواج من [ثيموقراطس] أحد اصدقائه المقربين. بهذا العمل الشائن سفّ [ديونيسيوس] الى الدرك الأسفل حين يقارن في هذا المجال بموقف ابيه في قضية مشابهة. أظهر خلالها تساهلاً وعدلاً والحكاية هي: انضم [پولكزينوس Polexenus] زوج [تسته Theste] اخته الى معسكر اعدائه وفرّ هارباً من صقلية خوفاً على نفسه فأرسل [ديونيسيوس] الأب يستقدم [تسته] وراح بتهمها بسبق علمها بنية زوجها في الفرار، وكتمان الأمر عنه فأجابته تلك السيدة الجسورة، الشديدة الثقة بنفسها قائلة.

- أتضنني يا أخي زوجاً سيئة أو جبانةً الى الحدّ الذي امتنع منه عن مرافقة زوجي ومشاطرته مصيره لو أعلمني بنيته على الهروب؟ اني لا أعرف عن نيته هذه شيئاً، ولو علمت لفضلت ان أسمى بزوج المنفي پولكزينس، على ان اسمي باخت المستبد الطاغية [ديونيسيوس].

وقيل ان [ديونيسيوس] أعجب ايما اعجاب بجوابها الصريح وسرعة بديهيتها، كما أعجب السيراقوسيون بشجاعتها وامانتها حتى انها بقيت تحتل مكانتها الرفيعة ومقامها الملكي الى ما بعد القضاء على حكم الطغاة، وعند وفاتها صدر قرار شعبي يلزم كل مواطن بحضور مراسيم تشييعها الى المقر الأخير. هذه الحكاية تستاهل منا التسجيل هنا، وان كانت خارجة عن صدد البحث.

عندئذ اختمرت في ذهن [ديون] فكرة التأهب لغزو صقلية الاّ ان [افلاطون] لم يشأ التدخل في الأمر وظل بعيداً بسبب تقدم العمر به واكراماً لذكرى ما لقيه من الاحترام والحفاوة في صقلية من [ديونيسيوس]، على ان [سپيوسيپوس] وسائر اصدقائه شجعوه وساعدوه قائلين: ان صقلية تضرع اليه بذراعين ممدوتين الى السماء لانقاذها. وانها ستستقبله بذراعين مفتوحتين.

وكان [سپيوسيپوس] أكثر اتصالاً بالمواطنين من افلاطون عند وجوده في [سيراقوسه] وهو يعرف ميولهم الحقيقية وان كانوا يشكون منه ويحذرون - لما بدأعن صراحته التي جعلتهم يعتقدون انه عميل من عملاء الطاغية مدسوس عليهم لايقاعهم في شرك الاّ انهم وثقوا به وأطمأنوا اليه بمرور الزمن. وسادتهم فكرة واحدة وأمنيّة واحدة وهي ان يقبل [ديون] باعداد العدة لتحريرهم، وان كان لايملك اسطولاً أو خيلاً أو سلاحاً. وليستقل اية سفينة تعنّ له واضعاً اسمه ونفسه تحت تصرف الصقليين ضدّ [ديونيسيوس] هذا ما أكد له [سپيوسيپوس]. الاّ ان [ديون] أبقى الأمر في طيّ الكتمان واستخدم رفاقه في السرّ لتعبئة ما يمكن من الرجال، وخفّ لمعونته عدد كبير من الفلاسفة والساسة نذكر منهم [يوديموس Eu-demus] القبرصي، الذي وجّه ارسطاطاليس رسالته في النفس باسمه اثر وفاته. و[تيمونيدس Timonides] الليوكادي Leucadian. و[ملطاس Miltas] العرّاف الذي درس في الأكاديمي.

اما من منفيي [ديونيسيوس] القبرصيين الألف على الأقل، فلم ينضو اليه غير خمسة وعشرين. لقد آثر الآخرون البقاء في منفاهم للخوف الذي كانوا يشعرون به. وكان موضع التجمع في [زياكزنيثوس Zaecynthus]، فهناك عبئت قوة صغيرة لاتتجاوز ثمانمائة رجل امتازوا بخبراتهم الطويلة وتمرسهم بالآفات والخدمة العسكرية الشاقة فتدربت اجسامهم واشتد عودهم، وكان اقدامهم وخبرتهم العسكرية كافيين لرفع المعنويات، وحمل جنود العدو على الانضمام اليهم كما كان [ديون] يؤمل من الصقليين.

الاّ أن القلق وخور العزيمة دبّا في نفوس هؤلاء الرجال، ساعة علموا بأنهم سيقاتلون

[ديونيسيوس] فراحوا ينحون باللائمة على [ديون] ويتهمونه بالغش قائلين انه يندفع بيأسه وحنقه كالمجنون وانه سينتهي بهم الى دمارٍ محقق دون ان يتبصر بالعواقب. ولم يكن حنقهم على ضابطهم وآمريهم بأقل من هذا، لأنهم جندّوهم دون ان يصارحوهم بجليّة الأمر أو يعلموهم بالهدف. فخطب فيهم [ديون] موضحاً حالة الضعف التي يشكو منها المستبد، واضطراب الوضع الداخلي، وبين لهم انه لم يجندهم في الواقع، بل كان يرمي الى جعلهم ضباطهم للسيراقوسيين ولبقية الصقليين الذين يوالونه جميعاً وقد مضى وقت طويل على تأهبهم واستعدادهم للثورة، ثم تلاه [الكيمينس] الأخائى سليل البيت ذي المجد العريق، ذو الإسم الشهير والمكانة الرفيعة فخطب فيهم على الوتيرة نفسها - وكان احد رجال الحملة أيضاً - فطابت نفوسهم وهدأت.

رسم للبدء في الحملة متنصف الصيف، حيث الريح الاتيسية Etesian دائمة الهبوب في البحار، وكان القمر بدراً. فهيّأ [ديون] قرباناً فخماً [لاپوللو] وسار على رأس قوته بموكب مهيب الى المعبد وهم مدججون بالسلاح. وبعد تقديم الذبائح أو لم لهم وليمة عامرة في ساحة سباق زاكشيا وبسط لهم السماط فعرتهم الدهشة من كثرة ونفاسه صحاف الذهب والموائد المثقلة بالأطعمة، وهي لاتنمّ عن ثروة اعتيادية. ولذلك استنتجوا ان رجلاً كـ[ديون] تعدى مرحلة الشباب ويملك مثل هذه النفائس التي تؤمن له خفض العيش ورغده، لن يورط نفسه في مجازفة كهذه، الا اذا كان قوي الأمل بنجاحها. ولاشك انه متأكد بأن الموالين له في صقلية سيهبون لمساعدته.

وبعد ان سكب الخمر وتلى الدعاء المعتاد، دخل القمر في خسوف. ولم يفاجأ [ديون] به، لأنه كان خبيراً بدورات الخسوف والكسوف عليماً بعلة احتجاب القمر جراء توسط الأرض بينه وبين الشمس. وكان من الضروري شرح الظاهرة للجنود الذين اضطربوا وعلتهم البغتة، وملأتهم المخاوف وهبطت معنوياتهم فنهض العرّاف [ملطاس] في وسطهم ودعاهم الى الاطمئنان والاستبشار بالنجاح الباهر، لأن العناية الالهية استبقت الاحداث بهذه الظاهرة التي تدّل على ان عظمةً وسؤدداً سيبتعلهما الظلام وينخسفان. وفي وقتهم هذا ليس من يداني [ديونيسيوس] عظمةً وسؤدداً. وقال ان نزولهم في صقلية سيمحقه ويطفيء سناءه. واسهب [ملطاس] في شرح الدلائل لهذه الظاهرة.

وامّا عن خشرم النحلّ الذي استقر على مؤخرة سفينة [ديون] فقد أسّر اليه [ملطاس] بأنه يخشى ان نجاح العمل العظيم الذي هم في سبيله مؤقتاً. وان عمره لن يطول بل ستذوب آثاره وتضمحل بعد حين. وقيل ايضاً أنّ آيات عديدة تجلّت [الديونيسيوس] آنذاك، فقد انقضّ نسر

وخطف رمحاً من يد أحد حراسه وحلق به الى ارتفاع كبيرٍ ثم أفلته فسقط في مياه البحر. كما ان مياه الساحل التي تلتطم بأسس القلعة انقلبت الى مياه عذبة صالحة للشرب يوماً كاملاً بشهادة من شربوا منه. وولدت الخنازير خنانيصها كاملة الخلقة الاّ أنها تشير الى فتنة وعصيان وشيكين، لأن الرعية ما عادوا يعيرون آذاناً صاغيةً لأوامر الرؤساء. وفسروا عذوبة الماء. بأن حالة السيراقوسيين ستتبدل، وستنقلب تعاستهم الى سعادة وشقاؤهم الى هناء. امّا آية النسر الذي هو طير [چوپتر] والرمح الذي هو شعار سلطانه وهيمنته، فتدل على ان عظيم الآلهة قد حكم بانهاء الحكم الحاليّ.

حملت سفينتا نقلٍ، كل رجال [ديون] واقلعتا بحراسة سفينة أخرى متوسطة، ومركبين كلّ منهما ذو ثلاثين مجذافاً. وبخلاف الاسلحة التي كان يحملها الجنود جلب نحو الفين من التروس وكميات كبيرة جداً من رماح القذف، والحراب الثقيلة وارزاق كثيرة جداً مختلفة تأميناً لحاجتهم اثناء الرحلة. وكانت الخطّة أن لايقتربوا من اي شاطيء حتى يصلوا الى الهدف، وان لايستخدموا غير قوة الريح، ذلك لأن البلاد التي سيمرون بها كانت كلها معادية. وانبئوا بأن [فيليتس] كان في [اياپيجيا Iapygia] على رأس اسطولٍ، مهمته التفتيش عنهم. وطالت رحلتهم اثني عشر يوماً، وكانت الريح موآتية رخية وفي اليوم الثالث عشر بلغوا پاخينوس Pachynus] وهو رأس في الجزيرة وهنا نصحهم [پروتس Protus] الملاح بالنزول الى البرّ فوراً ومن دون اي تردد. فلو انهم جوبهوا بمقاومة فن اليابسة وارغموا على العودة دون الافادة من هذا اللسان البحريّ، فقد يمتد بقاؤهم في عرض البحر اياماً وليالي عديدة انتظاراً لريح الجنوب الصيفية. الاّ ان [ديون] لم يشأ النزول في بقعة قريبة جداً من عدوه. وكان يرغب في أن يبدأ حملته من مسافة أبعد من [پاخينوس] فواصل رحلته. انه لم يمض بعيداً حتى هبت ريح الشمال الزفون ودفعت بالسفن الى الساحل وظهرت [نجمة السّماك الرامح Arcturus] وهبت ريح هوجاء وهطلت الامطار مصحوبة برعود وبروق وغُمّ على عقول البحارة فلم يعرفوا اين يتوجهون، ووجدوا على حين بغتة ان الامواج تدفع بهم نحو [چرچينا Cercina] وهي جزيرة قريبة من الساحل الافريقي في أخطر جرفٍ منها. ولم ينجوا من الاصطدام بالصخور الاّ بعد اللتيا والتي وخلصت سفنهم من الدمار ببذل جهود جبارة في التجذيف ضد الريح التي كانت تدفعهم اليها حتى مرت العاصفة. وصادفوا سفينةً فسألوها عن الموضع الذي هم فيه وعلموا أنهم عند رؤوس سرتيس Syrtes العظيمة فعاد اليأس يتملكهم بحلول هدوءٍ فجائي واخذوا يروحون ويغدون في عرض البحر على غير هدىً حتى شعروا بنسيم رخيّ يهبّ من جهة اليابسة وكانوا يتوقعون كل شيء خلا ريح الجنوب هذه فلم

يصدقوا حظهم السعيد، وراحت الانسام تشتد تدريجياً حتى انقلبت ريحاً رخاءً فنشروا القلوع كلها وبعد الدعاء للآلهة انطلقوا في عرض البحر متجهين رأساً الى صقلية يسابقون الريح وفي اليوم الخامس بلغوا [مينوا Minoa] وهي جزيرة صقلية صغيرة تحت سيطرة القرطاجنيين شاءت الصدف ان يكون حاكمها [سينالوس Synalus] احد اصدقاء [ديون]، الاّ انه لم يعلم اول الأمر بأن السفن تعود لديون فحاول منع رجاله من النزول الى البرّ. الاّ انهم اندفعوا الى اليابسة بسيوفٍ مشهرة لكنهم لم يفتكوا بأحد لأن [ديون] منع ذلك مدفوعاً بصداقته للقرطاجنيين، ودفع بأولئك الذين تصدوا اليهم وارغمهم على التقهقر واخذ يتعقبهم عن كثب ويشد الكرّ عليهم حتى دخل البلدة معهم وأحتلها ولما التقى القائدان حيّا احدهما الآخر واعاد [ديون] البلدة التي احتلها الى [سينالوس] دون ان يضارّ احد في أهليها. هيّا [سينالوس] مقراً للجنود وزودّهم بالطعام ووفر لديون كل ما هو بحاجة اليه.

وارتفعت معنوياتهم كثيراً بالصدفة الغريبة التي حكمت ان يكون [ديونيسيوس] غائباً عن صقلية. ففي ذلك الوقت بالذات كان متجهاً الى ساحل ايطاليا على رأس ثمانين سفينة. وكان ديون يريد اراحة جنوده بعد عناء السفر، فعارضوه واصروا على ان يجنوا أكبر الفائدة من هذه الفرصة والحّوا عليه بالزحف على سيراقوسة دون تأخير. وهكذا كان. فتركوا اثقالهم وفائض سلاحهم امانةً عند [سينالوس] وساروا نحو [سيراقوسة] وكان اول من انضم اليه وهو في طريقه مائتان في الخيالة الجرجنتيين الذين كانوا قد اتخذوا مقرهم بالقرب من [اكنوموم Ecnomum]، وتبعهم [الغلوان Geloan]. على انّ الانباء ما لبث ان وصلت سيراقوسة. وكان اهم شخص منها انذآك [تيموقراطس] صديق [ديونيسيوس]. وهو الرجل الذي زوّجه من أخته بعد فصلها عن [ديون]. واتخذ هذا التدابير المكنة للحيلولة دون وفوع انفجار او فتنة داخل المدينة، حيث كانت الخواطر هائجة والنفوس تغلي كالمرجل الاّ أنهم لم يقدموا على عملٍ وظلوا ساكنين اذ لم يشاؤا وضع ثقة زائدةٍ فيما بلغهم من انباء. واتفق للرسول الذي حمل الخبر [لديونيسيوس] حادثة غريبة. فقد وصل الى ايطاليا، وفيما هو يجتاز ارض ريجيوم Rhegium مسرعاً اليه في كاولونيا Caulonia، التقى بصديق وهو يحمل الى منزله بعض اجزاء من جسم اضحية. فقدم له قطعة من اللحم فقبلها منه وواصل رحلته مستعجلاً وادركه التعب بعد ان قطع مسافة كبيرة خلال الليل فتوقف ليصيب شيئاً من الراحة واستلقى في غابة قريبة من الطريق. فاشتّم ذئب رائحة اللحم فنعقبها وكانت القطعة مربوطة بحقيبة الرسائل، فحمل اللحم والحقيبة معاً وبداخلها الرسائل الموجهة الى [ديونيسيوس]. ولما استيقظ الرسول افتقد الحقيبة وصار يبحث عنها هنا وهناك مدة طويلة، ولما يئس من العثور

عليها قررّ ان لايواصل رحلته الى الملك وأختفى عن الأنظار.

الاّ ان انباء الحرب في صقلية بلغت [ديونيسيوس] من مصادر أخرى لكن بعد مرور زمن طويل. وفي خلال ذلك واصل [ديون] زحفه فأنضم اليه الكامارينيون Camarineans وانتقضَ سكان الأرياف المحيطة بسيراقوسة والتحقوا به زرافات ووحداناً، ثم انه اتصّل بالليونتيين Leontnies ابلغ وأهالي كامپانيا الذين يحرسون الايپوپلي Epipolae مع [تيموقراطس] بنبأ كاذب تعمّد [ديون] اذاعته. ومؤداه أن الغزاة ينوون الهجوم على مدنهم أولاً، فتخلى هؤلاء عن [تيموقراطس] وهرعوا الى أهاليهم لحمايتهم. وبلغ ذلك [ديون] وكان متوقعاً ذلك، ومنتظراً بالقرب من [ماكري Macrœ] فرفع معسكره ليلاً وسار الى نهر [أماپس Amapus] الذي يبعد عن المدينة زهاء عشرة فرلنگات فتوقف وضحّى للآلهة على ضفة النهر وقدم نذوراً للشمس البازغة، وصرح السحَّرة ان الآلهة تعده بالنصر. وكان [ديون] يشارك في تقدمة القرابين وقد ضفر أكليلاً على رأسه، فأقتدى به الحاضرون ووضعوا الأكاليل على رؤوسهم وكان ثم خمسة الآف من الذين انضموا الى قوته اثناء زحفها، وقد سدّت حماستهم مسدّ النقص الذي يشكونه في السلاح. لقد سلحوا انفسهم بكلّ ما وقعت على ايديهم. وما ان كان [ديون] يأمر بالتقدم حتى رأيتهم يندفعون الى الامام بهتافٍ وصياحٍ، كأن [ديون] قد نال النصر التام، ويروحون يشجعون بعضاً بقرب فيلهم حريتهم.

واستقبله وجهاء القوم وافاضل المواطنين بثيابٍ بيض عند ابواب سيراقوسة، وانقضّ الأهلون على انصار [ديونيسيوس] ولاسيما أولئك الذين عرفوا باسم المخبرين والجواسيس وهم فئة من أحط البشر واشدهم خبثاً وشراً. وكانت مهمتهم ان يذرعوا المدينة طولاً وعرضاً ويندسوا بين الجماعات ثم يحيطون الطاغية علماً بكلّ ما يسمعونه من الناس من اقوال ويقدمون تقارير عن ميولهم واتجاهاتهم. فأنطلق الجمهور يفتش عنهم بالأول، واذاقوهم نكالاً واشبعوهم ضرباً حتى انتزعوا ارواحهم.

عجز [تيموقراطس] عن الوصول الى الحامية المتحصنة في القلعة فركب حصانه وهرب من المدينة فأشاع الخوف والفوضى في كل المناطق التي مرّ بها مبالغاً في تقدير قوة [ديون] ليقوم ذلك عذراً وجيهاً على تركه المدينة. وما لبث [ديون] ان وصل مشارف المدينة وشوهد من بعيد قادماً على رأس قواته وعليه أجمل وافخم شكة سلاحٍ يحفّ به أخوه [ميغاكليس Mega-cles] من جهة وكاليپوس Callippus صديقه الآثيني من جانب وعلى رؤوسهم الأكاليل وقام على حراسته مائة من جنود الحملة بينما قاد الضباط بقيتهم بأحسن نظامٍ. وخرج السيراقوسيون للترحيب بهم، كأنهم يستقبلون موكباً دينياً مقدساً، جاء لاحياء مناسبة التحرر

بعد ثمان واربعين سنة من كبت الحريات، والقضاء الحكم الديمقراطي.

دخل [ديون] من باب [مينيتيد Menitid] واسكت ضجيجَ الناس بصوت النفير ليعلن بيانه الأول الذي جاء فيه:

«ان [ديون] و[ميغاكليس] اللذين جاء لاسقاط الحكم الاستبدادي يعلنان للسيراقوسيين وكل أهالي صقلية الآخرين، بأنهم منذ هذه الساعة قد تحرروا من حكم الطاغية».

ورغب في ان يخطب في الجماهير، فسار خلال حَيّ [أخرادنيا Achradina]، والناس يجلبون الأضاحي للقرابين، وينصبون الموائد ويضعون عليها الأقداح، وكانت ابواب البيوت تفتح لنثر الأزهار منها عليه. وهي مزدانة بالزينات. والناس يهتفون بأسمه ويتسابقون في النذورله كما يعاملون إلهاً. في اسفل القلعة والپنتاپلا Pentapyla] اقام الطاغية. مزولة شمسية ضخمة عالية، فصعد [ديون] عليها وانشأ يخطب في الناس داعياً الى المحافظة على حرياتهم والدفاع عنها ضدّ اي غاصب. فحيّوه واعربوا عن امتنانهم بكل مظاهر السعادة والابتهاج ونصبوه عليها واخاه جنرالين ومنحوهما صلاحيات مطلقة. وبناء على رغبتهما ضمّوا اليهما عشرين زميلاً، نصفهم من المنفيين الذين جاؤا معه. واستبشر العرافون بآيةٍ وهي ان [ديونيسيوس] كان عند مخاطبته الجمهور يطأ نصباً من الأنصاب التي تعب [ديونيسيوس] في اقامتها. ولكن لما كان النصب مزولة شمسيّة وقت نصبه جنرالاً، فقد اعربوا عن قلق من امكان حصول تغيير في الانقلاب العظيم الذي حققه، واتفقوا على ان الحظّ لن يلبث ان يقلب ظهر المجنّ له.

بعد هذا، أحتل [الايپوپلي] وأطلق سراح من سجنه [ديونيسيوس] فيه. وبدأ ببناء أطم لحصار القلعة. وبعد سبعة ايام وصل [ديونيسيوس] بحراً ودخل القلعة. وفي الوقت نفسه وصلت العربات تحمل اسلحة [ديون] التي كان قد وضعها لدي [سينالوس] فوزعها على المواطنين وسلح البقية بما تيّسر له من مصادر أخرى وكان يبدو عليهم النشاط والحماسة والاستعداد لخوض غمار الحرب كأيّ محارب متمرس.

في مبدء الأمر ارسل [ديونيسيوس] رسلهُ سرّاً لمفاوضة [ديون] في الشروط التي يقترحها. فأجاب [ديون] ان اية مفاوضة يجب ان تجرى علانية وامام السيراقوسيين بوصفهم مواطنين احراراً وراحت الوفود تنتقل من معسكر لمقترحات مقبولة ووعود معسولة كتخفيض الضرائب والرسوم، والغاء كلّ الجبايات الحربية واعباء الحملات العسكرية. وهي امور اصبحوا هم ولاة

الأمر فيها لاتتم الاّ بموافقتهم ورضاهم ولايفرضها الاّ بعد المداولة معهم حولها. فضحك السيراقوسيون من هذه العروض، واجاب [ديون] وفد الطاغية بأنّ على سيدهم ان ينتزع من رأسه فكرة التفاوض معهم حول اي شرط خلا التنازل عن الحكم، فان رضخ واستعفى، فلن ينسى [ديون] صلة القرابة التي تربطها ولن يتماهل في مساعدته على نيل العفو له عما سلف منه، وتأمين كل ما هو معقول ومناسب. فتظاهر [ديونيسيوس] بالموافقة، وأرسل وكلاءه مرة أخرى يطلب حضور عدد من السيراقوسيين الى الحصن ليبحث معهم شخصياً في الشروط المناسبة للطرفين بعد المداولات الحسنة النية. فأنيب لذلك عدد من المواطنين بموافقة [ديون]، وخرجت شائعة من القلعة تفيد بانّ [ديونيسيوس] وافق على التنازل عن سلطاته مختاراً، مفضلاً ان يقوم بهذا العمل الطيب من تلقاء نفسه على أن يرغمه [ديون] عليه الاّ ان هذه الشائعة كانت مجرد حيلة لالهاء السيراقوسيين وصرف انظارهم، لأنه القى القبض على الوفد الذي ارسل للمفاوضة وزجهم في السجن.

وعند بزوغ فجر اليوم التالي. ارسل حاميته من الجنود المرتزقة الى خارج الأسوار للقيام بهجوم مباغت على استحكامات [ديون] بعد ان سقاهم كثيراً من الخمر في تلك الليلة وحمسّهم. كان الهجوم مفاجئاً غير متوقع، وأنطلق البرابرة بجرأة واستهتار وهم يصرخون صرخات منكرة الى هدم الأطم ثم كروا على السيراقوسيين كرةً بلغ من شدتها، انها زحزحتهم عن مواقعهم، ولم تنجدهم الاّ كتيبة واحدة من جنود [ديون] المأجورين عند علمهم بالهجوم. هذه النجدة لم تدر ماذا يجب عمله وكيف تستخدم قوتها بصورة فعالة لأن الضجيج الذي احدثه السيراقوسيون حال دون وصول اوامر الضباط اسماع الجنود لقد فرّ السيراقوسيون من وجه المهاجمين واندفعوا نحو النجدة المتقدمة ورموا انفسهم عليها فأختلت صفوفها وعمتها الفوضى. ووجد [ديون] ان ليس من مصيخ الى اوامره، فقرر ان يضرب لهم ومثلا عملياً لما ينبغي لهم عمله، فكرّ بهجمة على قلب العدوّ واصبح القتال فيما حوله عنيفاً دموياً، ولما كان شخصه معروفاً من الجانبين فقد أخذ الجميع الى الموضع الذي يقاتل فيه وهم يطلقون صرخات عظيمة. ومع ان سنّه المتقدمة لم تكن تؤهله لخوض مثل هذه المعركة الاّ ان ثباته وشجاعته عوّضا عن ذلك فقد ظلّ صامداً لكلّ من يهاجمه، وفي الوقت الذي بدء العدوّ ينكفيء على اعقابه، أصيبت يده بطعنة رمح، ومن توالي الطعنات والضربات أعطبت دروع صدره عطباً بالغاً رلم تعد تصلح لوقايته من المقذوف عليه، او من الضربات المسددة اليه، واخترق درعه عدد من الأسنة والحراب ولما تكسرت نصالها سقط على الأرض فحمله جنوده واخرجوه من ميدان القتال وكانت تواقة ناشطة والعدو قد انهكت قواه، وهو يفكر في النكوص على

أعقابه، فقد كان يأمل الاستيلاء على المدينة بهجومه الأول ففوجئوا بمقاتلين اشداء مجربين لايترحزحون عن مواضعهم، وهكذا تم تراجعهم الى الحصن، الاّ ان جنود الاغريق لن ينفكوا عنهم، وشدوا عليهم وضيقوا الخناق فأنقلب تقهقرهم هزيمة.

فقد [ديون] خمسة وسبعين من رجاله وسقط من العدو خلقٌ كثير. وكان نصراً فريداً من نوعه، الفضل فيه يعود الى الجنود الاجانب بالدرجة الأولى. فكافأهم [ديون] بمائة مينا. فردّ الجنود الهديّة، بتاج من الذهب.

ولم يتأخر [ديونيسيوس] عن اخراج رسول بحمل رسالة الى [ديون] من النسوة عياله، كتب على غلاف احدها:

«من هيپارينوس Hipparinus الى ابيه»، وهيپارينوس هو ابن ديون. على ان [طيماؤس] يذكران اسمه [اريتيوس Aretaeus] مشتق من اسم [آريته] أمّه. على اني ارجح الأخذ برواية [تيمونيدس] لأنه كان أحد جنود ابيه ومحل ثقته، وقرنت بقية الرسائل علناً، وكانت تتضمن رجاءات متواضعة وتشفعان من النساء. اما تلك التي وجهت اليه من ابنه، فان الرسل رفضوا ان تفضّ علناً الاّ ان [ديون] اصرّ واجبرهم، فكسرت اختامها. فوجد انها موجهة من [ديونيسيوس] يخاطب بها شخص [ديون] ظاهرياً. على انها في الواقع موجهة الى السيراقوسيين وقد صبغت بحيث تجعل ديون موضع شك من المواطنين كما حوت تبريراً معقولاً لنفسه واستعطافاً وذكره بالخدعات الجليلة التي قدمها ديون للحكومة المستبدة في الماضي. وختمت بتهديد يتناول اعز ذوي قربانه؛ اخته وزوجه وابنه، ان لم يوافق على مقترحاته. وتلا ذلك مطاليب مؤثرة عاطفية، تتعلق بالحرص على الحكم، وعدم وضع السلطة في ايدي اناس لم ينفكوا عن بغضه او نسيان احقادهم وخلافاتهم. واقترح ان يتبوء [ديون] العرش وبذلك يضمن سلامة اصدقائه واسرته.

واحدثت الرسالة أثرها في نفوس السيراقوسيين. ففي الوقت الذي كان ينبغي ان يزيد اعجابهم بشهامته ورباطة جأشه ازاء هذا التهديد، وبعد ان قدم أعزّ مصالحه على التفريط بالعدالة والفضيلة. رأوا فيها مصداقاً لهواجسهم وشكوكهم في احراج قد يقع على [ديون] لاقبل بمقاومته، فيخضع [الديونيسيوس]. ولذلك بدأوا يبحثون عن زعماء آخرين، فأستقبلوا بالمزيد من السرور نبأ قدوم [هيراقليدس] وهو احد الذين نفاهم [ديونيسيوس] جنديّ من اكفأ الجنود تولى قيادات هامة في اثناء حكم الطغاة، الاّ انه كان متقلباً في رأيه وعقيدته، لايمكن الاعتماد عليه في قيادة أمينة ان رسم له أن يعمل مع زميل. وكان ثم خلاف سابق بينه وبين [ديون] ايام وجودهما في [الپلوونيسس]. حيث قرر هو ان يهاجم [ديونيسيوس]

بالأسلحة التي تتوفر له وأقبل بسبع بوارج وثلاث سفن فوجد الطاغية محصوراً بين جدران القلعة والسيراقوسيون يختالون عجباً بالنصر الذي حققوه، فأخذ يتقرب اليهم بمختلف الوسائل ويخطب ودّهم لتكون له شعبية عندهم، وكان في الواقع يملك المؤهلات المطلوبة من روح جذابة الى قابلية استمالة الجمهور الذي يهوى ان يكون دوماً موضع تدليل واعزاز. إنّ تضايق الناس من ترفع [ديون] واستعلائه سهل لهيراقليدس السبيل الى قلوبهم، فقد كانوا ينظرون الى مسلك [ديون] نظرتهم الى من يريد الإستهانة بهم والاحتقار لهم. وقد جعلهم نجاحهم يطرحون جانب الحذر، كما وثقهم بأنّ من حقهم بأن يجدوا في زعمائهم تذللا وخضوعاً وتزلفاً، قبل أن يثبتوا أسس الحكم الديمقراطي.

ولذلك دعوا الى عقد جمعية عامة اعتباطية ينقصها النظام واختاروا [هيراقليدس] أميراً للماء. فتقدم [ديون] واوضح لهم أن وضع هذه الثقة في [هيراقليدس] لاتعني الا سحب ثقتهم منه لأنه لايعود بعدها قائداً عاماً لهم بعد تسليمهم القيادة البحرية الى شخصٍ آخر، فأبطلوا الأمر وألغوا التعيين خلافاً لرغبتهم. وعلى أثر ذلك دعا [ديون] [هيراقليدس] الى منزله وبين له بلطف انه لم يكن حكيماً فيما عمل، وليس من المصلحة ان ينازعه في أحدى شكليّات المناصب، في ظرف قد تسبب اية خطوة مغلوطة خراب كل شيء. ثم دعا الجمعية العامة وأعلن امامها تعيين [هيراقليدس] أميراً للماء وسعى لدى الجمعية لمنحه امتياز حرس خاص يرافقه، كما خُصص لنفسه بالذات. فلم يسع هيراقليدس إلاّ ان يعرب له عن أعظم احترامه وشكره لهذا الصنيع، واحاطه بالاجلال والتعظيم، ووضع نفسه رهن اشارته على أنه ظلّ وثيق الصلة بالمواطنين المشاكسين الذين لا يسلس قيادهم يعمل سِراً على إثارتهم بشكاواه، ويلعب بعقولهم، فيضع [ديون] في أشد حالات القلق والحيرة. فلو نصح بالسماح [للديونيسيوس] باخلاء القلعة وترك صقلية لعرض نفسه لتهمة حمايته والعمل على انقاذه. واذا واصل الحصار ليتحاشى السخط او زرع بذور الشك، فسيقولون انه يتعمد اطالة امد الحرب ليبقى متمتعاً بسلطة الجنرال ويبسط ظلّ الأرهاب على المواطنين.

كان ثم في المدينة شخص اسمه [سوسيس Sosis] عرف بسوء السمعة والحمق، والرقاعة. الاّ انه كان يتمتع عند الجمهور بشعبية لسبب وحيد وهو رغبتهم في ان يطلقوا الحريات الشعبية حرة من الضوابط القيود كحرية الكلام. هذا الرجل تنفيذاً لدسيسة مبيتة [الديون] وقف يوماً في أحد الاجتماعات وبعد ان استوفى حظّه من التهجم على المواطنين ووصفهم بالحمقى الذين لايرون ما آلت اليه حالهم وكيف انهم استبدلوا استبداد فاجراً ما جن بآخر يقظٍ ماكر، وبعد أن أعلن نفسه عدواً وخصماً [لديون] ترك الاجتماع.

وفي اليوم التالي شاهده الناس وهو يعدو في الشوارع، وهو شبه عارٍ وفي رأسه جرح قاطع يسيل الدم منه على وجهه كأنه يهرب من وجه مطارديه. وفي الساحة العامة تجمع الناس حوله وسألوه عما جرى له، فأخبرهم ان رجال [ديون] هاجموه يريدون قتله، وكشف لهم اثباتاً، عن الجراح التي أصيب بها رإسه، وانتصر له خلق كثير وتصاعدت هتافات معادية ضدّ [ديون] تندد به وباعماله الوحشية المستبدة، وتعيب عليه كمّه الأفواه وسفك الدماء والتهديد بالموت. وفيما كان الجمهور يتقاطر لعقد اجتماع عام في هذا الضجيج غير الاعتيادي، أقبل عليهم [ديون] وشرع يكشف لهم خيوط الدسيسة، فأخبرهم ان لـ[سوسيس] هذا أخاً هو أحد حرس [ديونيسيوس] وانه أطلق اخاه في المدينة لأثارة الشعب والهياج. فقد اسقط في يد الطّاغية ولم يعد يرى لنفسه مخرجاً الاّ اثارة الشغب وزرع الفتنة وبذر بذور التفرقة. وفحص الجراحيّون الجرح فوجدوا مسار القطع من الأسفل الى الأعلى، وانه سطحيّ غير نافذ، لأن الجراح التي تعملها السيوف تكون بسبب ثقل السلاح - عميقة نافذة في وسط القطع. وعلى مستوى واحدٍ من العمق في سائره. ووجدوا ايضاً انه ليس ثم قطع واحدٌ مستمر متأت من ضربة واحدة، بل عدة حزوز متأتية على أغلب الإحتمال من عدة محاولات على قدر احتمال المصاب بها. ثم جاء أناسٌ عرفوا بالصدق، وعرضوا في الاجتماع موسى وقالوا أنهم التقوا بسوسيس وهو يعدو في الشارع والدم ينزف منه فأخبرهم انه يفرّ من وجه جنود [ديون] الذين أطبقوا عليه وجرحوه قبل قليل. فأسرعوا لتعقيبهم فلم يجدوا احداً الا انهم عثروا على هذه الموسى مخبأة تحت صخرةٍ مجوفة كانت بالقرب من الموضع الذي أقبل منه الجريح.

ودارت الدائرة على [سوسيس] وبدأ انه سيلقى شرّ الجزاء على ما قدمت يده عندما تأيد كذبه بمجيء خدمه وادلائهم بشهاداتهم فقد ذكروا ان سيدهم ترك منزله بمفرده قبيل شروق الشمس وبيده موسى. ولهذا سحب المدعون على [الديون] اتهامهم، وصوتت الجمعية بفرض عقوبة الموت على [سوسيس] بالإجماع وايدّت موافقتها العّامة على جميع اجراءات [ديون]. على أنهم ظلوا يضمرون حسداً وعداء لجنوده. فالقتال بات الآن بحرياً. وقد أقبل [فيليستوس] من [ايابيكيا] لمساندة ديونيسيوس على رأس اسطول كبير، وبذلك رأوا ان لا حاجة بعد تدعو الى استخدام الجنود الغرباء وهم مقاتلو برٍّ ومسلحون تسليحاً يستقيم مع صنفهم. والسيراقوسيون رجال بحر وهم أعرف كيف يعالجون امورهم من هذه الناحية لأن قوتهم تكمن في سفنهم. وبالغوا في تقديرهم لأنفسهم بافراط، للتفوق الذي حققوه في اشتباكاتهم البحرية التالية من ذلك ان [فيليستوس] وقع في ايديهم اسيراً فاذاقوه اشدّ العذاب، لقد روى [ايفورس Ephorus] انه بخع نفسه عندما أسرت سفينته. الاّ ان

[تيمونيدس] الذي رافق [ديون] من أول الانزال، وكان شاهد عيان للاحداث التالية، كتب الى [سپيوسپوس] الفيلسوف يقص عليه الحادث بالشكل التالي:

جنحت سفينة [فيليستوس] فأخذ أسيراً وجرد من سلاحه، ثم نزع جوشنه. وتعرض وهو أعزل كبير السن الى كل انواع الاهانات ثم احتزوا رأسه، وسلموا جثته الى صبيان المدينة، وامروهم ان يجروّها جراً في شوارع اخردانيا ومن ثم يطرحونها في المقالع الحجرية. ويضيف [طيماؤس] قائلاً ان الصبيان زيادة في التحقير ربطوا جثته من رجله العرجاء وأخذوا يسحبونه في الشوارع، بينما اصطف أهل سيراقرسة على الجانبين يضحكون ويتندرون على مشهد الرجل المربوط المسحوب من رجله الذي قال يوماً لديونيسيوس:

- انك لن تهرب على متن حصان. بل ستنظر لتسحل سحلاً الى خارج المدينة وانت مربوط من كعبيك.

على ان [فيليستوس] انكر صدور هذا القول منه لديونيسيوس، وانما القائل كان شخصاً آخر غيره.

استفاد [طيماؤس] من هذه الفرصّة التي هيّأها له [فيليستوس] دون ان يدري، واستخدمها في دفاعه الحار الدائب عن حكم الشعب، وقدحه وانتقاده لحكم الطغاة، واتخذها سبيلاً لارواء غليله منه والتنفيس عن حقده في عين الوقت، انه لما يفتقر للمكابدين منه الأذى، ان يتمادوا في الانتصاف لأنفسهم حتى عند اهانتهم جسده الهامد، ولكن ليس ما يشرف اولئك الذين يكبتون التاريخ، ممن لم يصبهم بايّ اذى في حال حياته، أولئك الذين اعتمدوا كتبه مرجعاً لهم، ان ينزلوا الى لغة التشهير والبذاءة والتحقير، وتأنيبه على سوء حظّ قد يقع لأفاضل الناس.

ويبدو لنا [ايفورس] طرفاً نقيضاً، حين يبتعد كثيراً عن الحقائق في اطرائه [فيليستوس] ومدح سيرته. فمهما بذل من جهد وبراعة في اضفاء الدوافع النبيلة العادلة على أعمال الظلم والتصرفات القبيحة ومهما جهد في اختيار العبارات المحتشمة الشريفة، سيظلّ [ايفورس] هذا متهماً بكونه من أشدّ المتحمسين للطغيان، واعظم المغرمين بترف الطغاة وسلطانهم وغناهم والتقرب منهم.

ان من لايمدح [فيليستوس] لسوء تصرفه، ولا يذمّه لسوء حظّه، هو الذي يسلك اصلح السبل واقومها في رأيي.

بعد مقتل [فيليستوس] عرض [ديونيسيوس] على [ديون] ان يسلمه القلعة وكل ما فيها

من مؤون وسلاح وجنود مدفوعة لهم اجورهم لستة اشهر مقدماً، مقابل تأمين حياته والسماح له بالرحيل الى ايطاليا دون تعرض، ليعيش هناك معتمداً على ما تدرّه [گيارتا Gyarta] من غلّة. وهذه قطعة أرض ذات خصب وماء وثمار تعود ملكيتها الى [سيراقوسة] وتمتد من ساحل البحر حتى اواسط البلاد. فرفض [ديون] مقترحاته هذه، واشار عليه بمراجعة أهالي سيراقوسة، إلاّ ان هؤلاء طردوا سفراءه، وكان غرضهم القبض عليه حيّاً خلال وقتٍ قصير. فما كان منه الاّ ان ترك ابنه الأكبر [ابوللوقراطس] للدفاع عن القلعة واوقر سفنه بالنفيس من الأموال وبالرجال. وانتهز فرصة هبوب ريح موآتية وتسلل آمناً دون ان يفطن امير الماء [هيراقليدس] او اسطوله. فتصاعدت الاصوات بالاحتجاج واخذوا يندّدون [بهيراقليدس] ويتهمونه بالإهمال. فأستخدم [هيپو Hippo] أحد خطبائهم الجماهيريين فاندس هذا في الجمعية وقدم اقتراحاً حول اعادة تقسيم الاراضي قائلاً ان المبدء الأول للحريات هو تحقيق المساواة وان الفقر والاستبدادهما رفيقان لاينفصلان. ودعم [هيراقليدس] اقتراحه بخطبة. واستخدم الحزب المتحمس لهذا الرأي اداة للتغلب على [ديون] الذي كان يعارض في تقسيم الاراضي. ومجمل القول صادق الشعب بالتصويت على الاقتراح، كما صودق ايضاً على اقتراح يقضي بإيقاف صرف اجور الجنود الأجانب، وعلى اقتراح ثالث بوجوب اختيار قادة جدد للتخلص من سطوة [ديون]. كان الجمهور كما يقول المثل - يريد الوقوف حالاً على ساقيه بعد مرض الاستبداد الطويل الذي ابتلى به؛ وكانوا يريدون ممارسة حقوقهم كمواطنين أحرار، بأتخاذ الاجراءات والقرارات، وهم بعد في طور النقاهة، يتعثرون في خطواتهم ويركبون متن الشطط. فكرهوا [ديون] طبيبهم النطاسي وضاقوا به ذرعاً وهو يجاهد في حفظ المدينة ضمن إطار النظام والقانون.

في متنصف الصيف تقريباً التأمت الجمعية لأنتخاب القادة الجدد، فارعدت الدنيا، ووقعت آيات نحس أخرى دامت خمسة عشر يوماً متواصلة. فشتتت الناس ومنعت اجتماعاتهم بسبب الرهبة الدينية، ولم يتم انتخاب القواد. الاّ ان الغوغائيين ودعاة الشعب وجدوا لهم يوماً صاحياً فجمعوا انصارهم وباشروا عملية الانتخاب، وفي هذا الوقت بالذات، هاجت هائجة ثور حراثة بسبب عدم اعتياده ضجيج الناس وهرج الشارع، فأنفلت من نيره ومن سيطرة سائقه وأخذ يجرى كالمسعور في انحاء الملعب حيث الاجتماع معقود، يقفز ويثب ويطارد وينطح فأحدث من الفوضى والاضطراب مالايمكن وصفه، ثم ترك الملعب هائماً على وجهه في ذلك الجزء الذي أحتله العدو من المدينة بعد ذلك بقليل. ولكن السيراقوسيين، لم يكترثوا لهذه الظاهرة، وواصلوا عملية الانتخاب. فأختاروا خمسة وعشرين قائداً من بينهم هيراقليدس

واتصلوا سراً برجال [ديون] ووعدوهم بمنحهم حق المواطنة السيراقوسة مع الامتيازات التي يفرضها هذا الحق. ان هم تخلوا عن [ديون] ووافقوا على الدخول في خدمتهم. فلم يعبأ هؤلاء ولكي يبرهنوا على اخلاصهم له وعلى شجاعتهم. وضعوه في وسطهم وساروا به خارج المدينة وسيوفهم مسلولة دون ان يتعرضوا لأحدٍ باذىً. الاّ انهم كانوا يعاتبون الناس وهم سائرون على جحودهم ونكرانهم الجميل. ووجد الأهالي أن هؤلاء الجنود قلّة، وشجعهم عليهم انهم لم يقدموا على عملٍ عنيف، فأستهانوا بهم واعتقدوا ان تفوقهم العددي عليهم سيكفل التغلّب عليهم والفتك بهم الى آخر رجل قبل ان يفلحوا في الخروج من المدينة، فأنقضوا على مؤخرتهم.

فكانت احرج ساعة في حياة [ديون]. وجد نفسه بين نارين امّا ان يقاتل ابناء وطنه وإما ان يستسلم هو وجنوده المخلصين ليقطعوا ارباً ارباً. فحاول شتىّ وسائل الإقناع والضراعة ردّ السيراقوسيين عَمّا انتووه، ومدّ كلتا يديه الى القلعة التي يتحصن فيها اعداؤهم واشار الى الجنود الذين يحتلون الاسوار باعداد كبيرة وهم يراقبون ما يجرى في المدينة. ولما اسقط في يده ولم يجد وسيلة لاقناع المهاجمين، وان الكتلة البشرية الهائلة تبدو مندفعة كالبحر الهائج بتحريض واستفزاز الغوغائيين، أمر جنوده بالكرّ وما هي لحظة حتى هرب جميعاً وتفرقوا في منعطفات الشوارع. ولم يتعقبوهم بل سارع [ديون] فأمر جنوده بالاستدارة وخرج من المدينة قاصداً [ليونيتنيا].

النساء انفسهن أخذن يضحكن على القواد الجدد ويتندرن على الهزيمة التي اصابتهم. ولأجل ان يستعيد هؤلاء ما فقدوه من ثقة واحترام طلبوا من الأهالي حمل السلاح ثانية لتعقيب انسحاب [ديون]. وادركوه وهو يجتاز نهراً فجردوا عليه كوكبة من الخيالة الخفيفة راحت تناوش قوته. ففارق [ديون] هدوءه وليونته، وأختفى من اساريره ذلك الحنان الأبوي الذي كان يحفظه لمواطنيه وحل محله الحزم والعزم على ان يرد الصاع صاعاً فأمر رجاله بمواجهتهم ورصّ صفوفه في نسق الهجوم، وسرعان ما مُنوا بهزيمة اشنع من الأولى ففروا الى المدينة بعد ان فقدوا عدداً من الرجال.

واحتفى أهل ليونتيا بمقدم [ديون] واعطوا رجاله مالاً ومنحوهم حق المواطنة. وأرسلوا يطلبون من السيراقوسيين دفع ما بذمتهم للجنود، فرد هؤلاء بارسال وفدٍ اتهام لديون فعقد الليونتيون جمعيتهم وبحث الأمر ونوقش فظهر ان السيراقوسيين غير محقين في اتهامات وانهم الجانب المعتدي. فرفض هؤلاء تحكيم حلفائهم واتبعوا ما املاه عليهم غرورهم واعتزوا برأيهم واصروا على ان لايؤمّروا من القادة الا أولئك الذين يخافون الشعب ويطيعون اوامره

بدون مناقشة وفي تلك الاثناء جرد [ديونيسيوس] اسطولاً بقيادة [نپسيوس Nypsius] النابوليّ وحمله اقواتاً واجوراً للحامية. الاّ ان السيراقوسيين اعترضوه وتغلبوا عليه وغنموا منه اربع سفن فاسكرهم النصر، واساؤا التصرف، وانفرط عقد النظام بينهم فغرقوا في الشراب والأكل والعربدة والمجون حتى جاوزوا كل حَدّ، واهملوا أخطر شأنٍ من شؤونهم، حتى خسروا مدينتهم ساعة أن كانوا على ثقة بان القلعة أصبحت في حكم المستولى عليها، لقد راقب [نپسيوس] الفوضى وهي تجتاح المدينة، والأهالي وهم عاكفون على الخمر والغناء والعربدة يصلون الليل باطراف النهار، وقوادهم لايحركون ساكناً لوقف الفوضى، او انهم ما كانوا ليجرأوا على اصدار اوامر لرجال سكارى. فأهتبل فرصته وقاد هجوماً خارج القلعة فأكتسح استحكاماتهم وسحقها وأطلق العنان لجنوده البرابرة في المدينة، يعيشون فيها سلباً ونهباً، ويتصرفون بها كما يشاء لهم الهوى.

عندما ادرك السيراقوسيون مصيبتهم الى سببتها حماقتهم، كان التكفير عنها أو ملافاتها عن الصعوبة بمكان. فالمدينة في حالة اجتياح فعليّ، والعدو يعمل السيف في رقاب الرجال والاستحكامات تتساقط، والنساء يسبين سبياً ويحملن قسراً الى القلعة، والقواد المنتخبون انسحبوا من المسألة بعد أن تبينوا عجزهم عن تنظيم الأهالي وتعبئتهم بشكل مقبول لأغراض الدفاع والمقاومة. وفيما هم على هذه الحال، واخرادنيا تكاد تسقط في يد العدوّ، اتجهت الانظار كلها الى آخر امل لهم، ولكنهم لم يجرأوا على النطق باسمه خجلاً، وبعد ان نال من صفاقتهم ونكرانهم اسوء ما يمكن ان يناله بشر. الاّ ان للضرورة أحكاماً. وصاح صائح من بين جنود الاحتياط والخيالة:

- ابعثوا بطلب [ديون] ورجاله من ليونتيا!

ما ان طرح هذا الرأي وتردد اسم [ديون] حتى انطلقت صيحة فرح عامة وطالبوا باستدعائه والدموع في اعينهم، وتمنوا ان يعود لقيادتهم مرة أخرى، بحكمته واقدامه وراحوا يستعيدون في اذهانهم تلك الثقة التي بثها فيهم عندما قاد هجومهم على العدو وروحه الوثابة وشجاعته في اشدّ الأخطار. فأسرعوا يرسلون العسكريين [تيليسدس Telrsides] و[ارخونيدس Ar-chonides] والفارس [هيلأنيكوس Hellanicus] واربعة آخرين فأنطلقوا على صهوات الخيل ينهبون الطريق نهباً وبلغو ليونتيا مساءً، وما أن ترجلوا حتى القوا بأنفسهم تحت قدمي [ديون] وشرحوا له وهم يبكون حالة السيراقوسيين التاعسة، وبدأ عدد كبير من الليونتيين والپلوپونيسيين يتجمعون حولهم مستنتجين من لهجة حديثهم ولهفتهم بأن أمراً غير اعتيادي قد وقع.

وتقدم [ديون] الناس الى محلّ الاجتماع وكمل النصاب بوقت قصير، وأقبل ارخونيدس وهيلانيكوس والرسل الأخرون وقصوا عليهم باختصار ما حَلّ بالسيراقوسيين من محن وارزاء، وطلبوا من جنود [الپلوپونيسس] نسيان ما لقوه من اساءات ونكران والاسراع بمساعدة منكودي الحظ الذين جوزوا على ما فعلوا بأكثر مما كان المساء اليهم سيجازونهم. وبعد أن انتهوا من كلامهم سار صمت عميق ارجاء الملعب. ثم نهض [ديون] واقفاً وانشأ يتكلم، الاّ انه لم يكمل عبارته فقد خنقته العبرة، وارتج عليه، فساد الاضطراب جنوده، وأخذوا يشجعونه على الكلام، وبعد ان سيطر على عواطفه واصل قائلاً:

- يا رجال [الپلوپونيسس] ويا رجال الحلف. اني ما جمعتكم هنا، لتفكروا بمصالحكم انتم. اما انا فلا مصالح عندي ابحثها هنا، وسيراقوسة تسير الى الدمار. ومع اني لست متأكداً بأني سانجح في انقاذها، لكن سأسرع اليها، لأدفن على الأقل تحت انقاض بلدي. امّا اذا مالت قلوبكم الى مساعدتنا نحن اشقى الناس واشدهم نزقاً وطيشاً فسيكون لكم شرف المحافظة على هذه المدينة الشقية وان فشل السيراقوسيون في اثارة شفقتكم ونيل مساعدتكم فلا يسعني على كلٍ، الاّ ان أطلب من الآلهة مجازاتكم على افعالكم النبيلة المقدامة الماضية في سبيلهم وعن العطف الذي لقيه منكم [ديون] الذي لم يتخلّ عنكم عندما احدق بكم الضرّ واهنتم. ولم يتخل ايضاً عن ابناء وطنه عندما احدقت بهم الخطوب واكتنفتهم الشدائد.

وقبل ان ينهي كلامه هبّ الجنود. واظهروا استعدادهم للسير وراءه بهتافات دادية، وأخذ يتنادون الى السير فوراً لانقاذ المدينة. فعانقهم الرسل السيراقوسيون ودعوا بالبركة لديون وجنود الپلوپونيسيس وبعد ان هدأت الضجة اصدر [ديون] اوامره بعودة الجنود كلّ الى مقره والتهيؤ للمسير. فأنصرفوا ثم عادوا بعد فترة وهم بكامل سلاحهم الى موضع التجمّع وقد اعتزموا انقاذ المدينة في تلك الليلة بالذات.

وفي سيراقوس، واصل جنود [ديونيسيوس] نهب المدينة وتدميرها طوال النهار وارتكبوا كلما يخطر بالبال من المحرمات ولم يتعففوا. الاّ انهم انسحبوا الى القلعة عند حلول المساء، وقد فقدوا عدداً من رجالهم، الأمر الذي حمل زعماء المعارضة في المدينة على الظن بأن العدو نال كفايته، وانه لن يقوم بمحاولة مماثلة أخرى، فأقنعوا الأهالي برفض معونة [ديون] والحيلولة دون دخوله الى المدينة عند مجيئه، نصحوهم بعدم الانصياع اليه والخضوع له لأن ذلك ينتقص من شرفهم وشجاعتهم اللذين يحتمان عليهم انقاذ مدينتهم والدفاع عن حرياتهم ومقتناهم بأنفسهم. وبناء على هذا عاد الأهالي فأرسلوا وفداً آخر [لديون] يحظرون عليه التقدم. أمّا

العقلاء والفرسان فقد ارسلوا من جهتهم وفداً ثانياً يحثونه على الاسراع. فما كان من [ديون] الاّ ان تباطأ في سيره الاّ انه لم يتوقف، ووضعت المعارضة اثناء الليل حرساً على ابواب المدينة لمنعه من دخولها. الاّ أن [نپسوس] قام بهجوم آخر من القلعة بعدد من الرجال يفوق عدد رجال أمس وكان هؤلاء أكثر شراسة واعتداء من زملائهم. هدموا ما تبقى من الاستحكامات، وأنقضوا رامحاً ونابلاً ينهبون ويخربون. وكانت الخسارة في الارواح هذه المرة أكثر بكثير من الأول ولم يقصروا الضحايا على الرجال وانما تعدوها الى النساء والاطفال وكان مطلبهم الرئيس التدمير والتخريب وقتل كل من يقع بأيديهم، لا النهب أو السلب، ذلك لأن [ديونيسيوس] يئس من استعادة ملكه وزاد حقده على السيراقوسيين الى حد اعتزم معه ان يدفن سلطانه تحت انقاض مدينتهم. ولما كان يتوقع نجدة [ديون] لها، فقد قرّ رأيه على خطة لتدمير المدينة تدميراً كاملاً سريعاً، باحراقها وذرّ رمادها. ولذلك باشر الغزاة يقيمون الحرائق باستخدام كلّ نارٍ تقع في ايديهم من مشاعل ومصابيح ومسارج وسهام نارية يقذفونها من بعيد ودب الهلع في أهالي المدينة وراحوا يتراكضون على غير هدى، ان شبت النار في بيت وخرج اصحابها منها تتلقفهم سيوف المغيرين لتذبحهم ذبح النعاج. ومن يهرب من المذبحة الى البيوت، اضطرته النيران الى تركها لوقوع في ايدي الجلادين، واتت النيران على عدد كبير من المنازل، وهوى عدد منها على ساكنيها فدفنتهم تحت انقاضها.

هذه المصيبة الجديدة التي كانت من صنع يدهم. فتحت ابواب المدينة امام [ديون]. وكان كما ذكرنا قد ابطأ في سيره عندما انبيء بانسحاب العدوّ الى القلعة. الاّ ان ثلة من الفرسان أقبلت من المدينة صباح اليوم الباكر لتنهي اليه نبأ الهجوم الثاني. وفي اثناء ذلك جاءه فاراً بعض من عارض في دخوله، راجين منه ان يعجل في نجدتهم. واشتد الضغط عليه وارسل [هيراقليدس] أخاه، ثم عمه يثودوتس معلنين عجز المدينة عن المقاومة وان هيراقليدس قد جرح ومعظم المدينة بات اما خرائب أو لهباً. وكان [ديون] على مسافة ستين فرلنكاً من المدينة عندما وصلته هذه الانباء المحزنة فشرح لجنوده الموقف واستنهض وهم وطلب منهم ان يضربوا للرجولة مثلاً فأستأنف الجنود السير، ولم يكن سيراً بل هرولةً وكانوا مرهم في طريقهم يلتقون بالرسل تلو الرسل وكلهم يحث على الاستعجال، وتمكن ديون بفضل حماسة الجنود العجيبة وسرعتهم المذهلة من بلوغ المدينة بسرعة فدخل [الهيكاتومپيدون Hecatompedon] ودفع بالمشاة الخفيفة الى هجوم فوري على العدو فأرتفعت معنويات السيراقوسيين واذكت في نفوسهم نار الشجاعة وعمد [ديون] الى رصّ جنوده الكاملي السلاح رصّا محكماً ملحقاً بهم من تطوع من السيراقوسيين ونظم الكتائب على العمق، ووزع ضباطه بقيادات منفصلة

ليتمكن من الاشتباك على جبهات متعددة في وقت واحد وهي الخطة الفعالة المثلى لمواجهة العدوّ في هذا الموقف.

بعد ان أكمل استعداده وقدم النذور للآلهة. زحف على رأس رجاله للاشتباك مع العدوّ ولما شوهد في الشوارع ارتفعت هتافات التشجيع والتهاني وقدمت النذور وراحوا ينادون [ديون] بالمنقذ والربّ الحارس، ويلقبون جنوده بالاصدقاء والأخوة وابناء الوطن. وكان يبدو ان الجنود لايقيمون وزناً لسلامتهم قدر ما كانوا يهتمون بسلامة [ديون] وهو يسير في مقدمتهم مواجها الخطر يخوض الدن ويتخطى النيران ويطأ اكداساً من الجثث الملقاة في طريقه. في الواقع كان العدوّ في حالة تشيع الهلع في النفوس. فقد اسكرتهم خمرة النصر وجعلتهم في منتهى الشراسة وهم في مواقع جيدة متحصنون على طول الجدار المتهدم. مما جعل أمر الاشتباك بهم مجازفة. على أن ما أورث جنود [ديون] الانزعاج هو خوفهم من النيران المشبوبة التي جعلت سيرهم صعباً بطيئاً، لأن النار كانت تلتهم البيوت ولهيبها يواجههم من كل ناحية، وخطر سقوط المنازل عليهم محدق بهم، وهم يشقون طريقهم بين اكداس من الحطام المشتعل. وخلال سحب الدخان والرماد، وحاولوا جهدهم المحافظة على نظام تقدمهم وتراصّ صفوفهم. حتى اذا بلغوا مواقع العدوّ كان ميدان التعرضّ ضيقاً جداً، والأرض غير مستوية. لاتسمح الاّ بالاشتباك على نطاق ضيق محدود. ولم يطل الأمر بهم حتى كروا عليهم بهتاف التشجيع ومساندة السيراقوسيين وهزموهم. ونجا معظم من كان قريباً من مداخل العلقة، أما الفئات البعيدة فقد لوحقت وثم التقاط افرادها من مختلف الجهات. ووضع السيف في رقابهم. ولم تكن الحال تسمح للمواطنين بابداء السرور والاحتفال بالنصر وتبادل التهاني فقد انشغل الجميع باخماد النيران واستنقاذ ما بقي قائماً من المنازل وظلوا يعملون طوال الليل ولم يسيطروا على النار الاّ بشق الأنفس.

في اليوم التالي لم يجرأ أحدٌ من خطباء الجمهور على الظهور في المدينة فقد ادركوا مغبة عملهم وتبينوا جريمتهم بمجرد هروبهم انقاذاً لارواحهم. على ان [هيراقليدس] و[ثيودوتس] سلما نفسيهما [الديون] مقرين بانهما اساءا اليه وراجيين ان يكون ارحم بهما مما كان منصفين له. وقالا: كم سيكون جميلاً به وهو صاحب الفضل في كلّ هذه المآثر العظيمة، ان يهدىء من سورة غضبه، وأن يشمل بكرمه ناكري جميل يعترفان الآن امامه بهزيمة عداوتهما ومنافستهما الماضية له امام فضائله وقد نصحه اصدقاؤه رغم الخضوع الذي ابدياه - بالاّ يعفو عنهما وان يسلمهما الى جنوده لقتلهما وبذلك يقتلع من ارض الجمهورية، نبتة حبّ الظهور الشخص باطلاب الشعبية وهو مرض يساوى بخبثه وحظورته نوازع الطغيان والاستبداد بالضبط واخذ

[ديون] يهدئ من روعهما ويحاول كسب ودّهما فقال:

انه غيره من القادة تدربوا اكثر ما تدربوا على حمل السلاح وخوض غمار الحروب. اما هو فقد قضى جلّ وقته يدرس في الاكاديمي، كيفية التغلب على الغضب، والقضاء في ذاته على عاطفة الحسد وروح المنافسة. ولايكفي المرء ان يحقق ذلك ليعدّ براً عطوفاً باصدقائه، وبأولئك الذين يستحقون منه كل الخير. وانما يجب عليه ان يكون رفيقاً مستعداً للتصفح عن المخطئين الجانحين. وانه ليرغب في ان يُشهد عليه الملأ بأنه لايريد ان يظهر على [هيراقليدس] في مضمار الكفاءة وحسن التصرف، بل ان يستظهر عليه في مضمار الرحمة والعدل، فها هنا تكمن افضلية التفوق الحقيقي، في حين ان مجد النجاح في الحرب ليس ثابتاً ولا قطعياً. لأن الحظّ سيكون بلا شكّ، طرف المنازعة فيه ولايمكن لأي امرءٍ ادعاء حقٍ فيه. ماذا لو كان [هيراقليدس] غادراً خبيثاً حقيراً بطبعه؟ افعليه ان يشين من مناقبه هو بالاهتمام بتلك الطباع؟ ان القوانين والمباديء تقرّ بأن الاكثر عدلاً هو ان تنتصف لنفسك من اذى، لا ان تقترف الأذى. الا ان الواضح بان كلا العملين يصدران بالأصل من العيب والنقصان نفسهما. ان خباثة طبع البشر مع عسر علاجه، الاّ انه ليس من المناعة والاستحالة بمكان. اذ يمكن التغلب عليه بالعطف، ويمكن تبديله، بالعفو والمنّة المتكررة.

بعد هذا الكلام المنعم بالحجج عفا [ديون] عن [هيراقليدس وثيودوتس] واخلى سبيلهما. ثم قررّ مهاجمة القلعة بعد القاء الحصار عليها. فأمر كل سيراقوسيّ بقطع وتدٍ مساهمة منه في اقامة الاستحامات. وبعد هذا صرفهم ليصيبوا ما هم في حاجة اليه من الراحة والجمام، وابقى رجاله يعملون في اقامة الأطم طول الليل وعندما اصبح الصبح كان خطّ الأطم قد كمل بناؤه. وأصيب الأهالي والعدو على حدٍ سواء بالدهشة لانجاز هذا العمل الكبير خلال وقت قصير. وبعد ان تمّ دفن الموتى، وافتداء الفين من الأسرى تقريباً. دعا الجمعية العامة للانعقاد. وتقدم [هيراقليدس] مقترحاً. تعيين [ديون] قائداً عاماً مطلق الصلاحية براً وبحراً فأستحسن وجوه المواطنين وعقلاؤهم ذلك ودعوا الشعب الى التصويت عليه الاّ ان الرعاع من البحارة والشغيلة لم يقبلوا تنازل [هيراقليدس] عن القيادة البحرية، معتقدين انه اقرب من [ديون] شعوراً بالمواطنة، وأسرع الى تفهّم رغبات الشعب رغم رداءته. فنزل [ديون] الى حكمهم ووافق على استمرار [هيراقليدس] في قيادة الاسطول وعندما بدأ الضغط بخصوص مشروع اعادة تقسيم الأراضي والمنازل لم يكتف [ديون] بمعارضة الأمر وانما ابطل كلّ الاجراءات المتخذة في هذا الصدد، فجرح مشاعرهم وادى الى ان يرتفع رصيد [هيراقليدس] عندهم، فشجعه ذلك وقام وهو في [مسينا] يخطب في الجنود والبحارة. متهماً [ديون] بأنه

يعمل ليجعل من نفسه حاكماً مطلقاً. وكان في الوقت نفسه يفاوض [ديونيسيوس] سراً بوساطة [فاراكس pharax] السپارطي. عندما أحسّ الاشراف في سيراقوسة بما يجري كان الجيش قد أعلن التمرد. وأخذت المدينة تعاني ضيقاً شديداً وشحت الاقوات فيها، ولم يعد [ديون] يتبين السبيل الصحيحة التي يسلكها، اذ كان موضع لوم اصدقائه لأنه مكّن منه رجلاً فاسداً شريراً كثير الحسد هو [هيراقليدس].

كان [فاراكس] حينذاك قد عسكر بالقرب من [نياپوليس Neapolis] في اراضي [اغرغنتوم Agrigentum] فزحف على [ديون] بجنوده السيراقوسيين. على انه لم يكن ينوى الاشتباك معه حتى تواتيه الفرصة المناسبة. الاّ ان هيراقليدس وبحارته راحوا يندّدون بموقفه ويشيعون بأنه يؤخر القتال ليطيل من فترة قيادته. فلم يجدّ بدأ من القتال فغلب ولكن خسارته لم تبلغ الشيء الكثير. وجمع رجاله وهو ينوي خوض معركة ثانية ورصهم في نظام محكم وحثهم على استعادة سمعتهم في المعركة التالية وقبل ان يتعرض للعدو، ورده نبأ يقول ان [هيراقليدس] يتوجه باسطوله الى سيراقوسة قاصداً احتلالها، ومنع جيشه من الدخول اليها. فأختار جماعة من رجاله النشطين وركب ليلاً متوجها الى المدينة بأسرع ما أمكنه، وفي حدود الساعة التاسعة في صباح اليوم التالي كان عند ابوابها وقد قطع سبعمائة فرلنگا في تلك الليلة، وبذلك سبق [هيراقليدس] الذي حاول الوصول قبله لكنه جاء متأخراً، ولما علم بوجود [ديون] غير اتجاه سفنه وبقي في عرض البحر لا يأتي بعملٍ وهو حائر ماذا يصنع الى أن قيضت له الاقدار [غيسيلوس Gaesylus] السپارطي فقد اخبره هذا، انه قدم من [لقيديمون] لتوجيه الصقليين وقيادتهم، كما فعل [غيليپوس Gylippus] من قبل. فكان سرور [هيراقليدس] بلقياه عظيماً. وأمسكه وتشبث به كأنه تعويذه، واظهره لحلفاء سيراقوسة، وبعث بمنادٍ الى المدينة يدعوهم الى قبول هذا السپارطي جنرالاً لهم. فكان ردّ [ديون] ان لديهم من القادة ما يكفي. وان كانوا هم بحاجة الى سپارطي يقودهم. فبإمكان [ديون] أن يسدّها لأنه مواطن سپارطي هو الآخر. وعندما تبين [لغيسيلوس] هذا الأمر نزل عن ادعائه وابحر الى [ديون] وأجرى صلحاً بينه وبين [هيراقليدس] بعد أن أقسم هذا بأغلظ الأيمان على الاخلاص والولاء وتنفيذ كل ما يعهد اليه من واجبات. وتعهد [غيسيلوس] بأن يضمن سلوكه ازاء [ديون] وأن ينفذ به أيّ حكم اذا حنث بيمينه.

وبعد هذا وجد السيراقوسيون الاّ فائدة من الاسطول وانه يكلفهم اعباء مالية جسيمة. فعطلوه عن العمل، وتخلصوا بذلك من أهم اسباب الخلاف والنزاع بين القواد، والقوا بثقلهم في الحصار، فأكملوا بناء الأطم وبذلك عزلوا القلعة واخذوا يضيقون عليها الخناق.

ولما وجد المحصورون ان أملهم بالنجدة يكاد يكون مستحيلاً وان اقواتهم شحت وبدأ الجوع ينشب فيهم اظفاره، أعلنوا تمردهم وشقوا عصا الطاعة على ابن [ديونيسيوس] الذي ظلّ صامداً فترة تزيد على فترة صمود ابيه. فأضطر الى مفاوضة [ديون] حول تسليم القلعة بكل حاميتها ومستودعاتها ثم اوسق خمس سفنٍ واصعد اليها امه واخواته الالتحاف بابيه. واتخذ [ديون] التدابير ليقلع عنها بسلام. ولم يبق احد من أهل المدينة الا وخرج لمشاهدة السفن وهي تغادر القلعة. وكانت نغصة في قلوب أولئك الذين لم تسمح لهم ظروفهم بمشاهدة المنظر في ذلك اليوم السعيد الذي اشرقت فيه الشمس على سيراقوسة الحُرّة لأول مرة. يذكر تاريخ طرد [ديونيسيوس] الى يومنا هذا بوصفه أعظم واروع مثل لتصاريف الحظّ. وليس لنا الاّ ان نتخيل البهجة التي عمت أولئك الذين اسقطوا اعتى المستبدين واعظمهم جبروتاً سقوطاً لاقائمة بعده بوسائل محدودة وقوة ضعيفة تكاد لاتذكر.

بعد ان أقلع [ايللوقراطس] توجه [ديون] لوضع يده على القلعة ولم تستطع النسوة الباقيات فيها، الصبر بل اسرعن لاستقباله عند المدخل، وكانت [ارسطوماخه] تمسك بيد ابنه، و[آرتيه] تتبعها باكيةً وجلة لاتدري كيف تقابل زوجها وتكلمه، بعد ان ساكنت رجلاً آخر مساكنة الازواج. وعانق [ديون] أخته اولاً، ثم ابنه، وعندما قادت [ارسطوماخه] زوجه اليه ابتدرته قائلة:

- ان ابعادك يا أخي ديون اشقانا كلّنا. وعودتك ونصرك هذا ازالا كلّ احزاننا. الاّ احزان هذه البائسة المسكينة، احزان اضطررت ان احمل مثلها انا التاعسة وان كنت حية. ان الحظ القانا في حماك انت وحدك. فما هو قرارك في امر شقائها؟ بأي شكل ستحييك؟ كخالٍ لها ام كزوج؟

فأبكته بكلماتها، وأقبل على زوجه يعانقها عناقاً حاراً، وسلم اليها ابنه وطلب منها ان تقوده الى منزله الذي استمر على سكناه وكان فيه عند تسليمه القلعة للسيراقوسيين.لقد تمّ كل شيء وفق مرامه وتكللت مجهوداته بالنجاح، ولكنه لم يشأ أن يستمتع من حظّه المجيد، بفائدة او متعة، وأكتفى بارضاء اصدقائه ومكافأة حلفائه والانعام على رفاق الايام الخوالي في أثينا. وارضاء الجنود الذين خدموه بالهبات والتكريم الخاصّ. وتعدى حدود امكاناته في البذل والعطاء، وقنع لنفسه بالزهيد من اسباب العيش، وآثر الاعتدال في حياته، وآضق في الواقع محطّ اعجاب الناس جميعاً لا في صقلية وقرطاجنة وحدهما، بل في سائر بلاد الاغريق. وارتفع به المقام عندهم الى الأوج وعدوه اعظم رجال زمانه، واشهر قائدٍ سواء لبسالته أو للنجاح الذي حققه. وبقي [ديون] مع هذا كله بسيط العيش كأنه مازال يساكن

[افلاطون] في الاكاديمي وليس عائشاً بين ضباط مأجورين وجنود مرتزقه همهم الوحيد ان يأكلوا ويشربوا ملء بطونهم لقاء تعرضهم للأخطار والموت، وان يمتعوا انفسهم بالملذات كل يومٍ تعويضاً عن كدحهم واتعابهم ولذلك كان طعامه عادياً، وحياته اليومية خالية من الأبهة فلا حرس ثم ولا خدم. وكتب اليه [افلاطون] يقول: «ان اعين العالمين كلها شاخصة اليه» على أن عينه كانت في الواقع تشخص الى موضع واحد في الدنيا. الا وهو الاكاديمي منتظراً حكمها عليه. فراقبوه وقضاته هناك لايحفلون بالحظّ ولايهتمون بالشجاعة ولاتقدير عندهم للاعمال العظيمة. وكل ما يهتمون به أن يرقبوا الى اي حدّ يستطيع سلطانه استخدام الحكمة والاعتدال. وباي مستوى يستطيع ان يحافظ عليهما وهو يتمتع بالمجد والسؤدد ؟

انه والحق يقال، لم يكبت ميله الى العظمة، بل يتعمدها عند حديثه أو مخاطبته الجمهور ويصر على التمسك بهذا المظهر. في حين ان تنازلاً قليلاً ومجاملة رقيقة، كانا من ضروريات حالته الراهنة. وقد عابه [افلاطون] كما قلنا. وكتب اليه يقول «ان التشبث بالرأي يبقي الدار في وحدة موحشة». ومن نافلة القول ان مزاجه لم يكن باللين المطواع. كما انه كان يرمي من تشدده هذا الى الاخذ بيد السيراقوسيين نحو السبيل وانقاذهم من حالة الفجور والتهتك التي يعيشونها. وعاد [هيراقليدس] بتآمر ضده. استدعاه [ديون] ليكون واحداً من مستشاري الدولة، فرفض قائلاً: انه سيدلي برأيه كمواطن عادي في الجمعية العامة ولايريد أكثر من هذا. ثم شكا من [ديون] بأنه لم يهدم القلعة ولم يوافق على نبش الجمهور ضريح [ديونيسيوس] والقاء رفاته خارجاً بعد التشهير بها. ثم اتهمه بأنه طلب من [كورنث] مشاورين ومساعدين له على الإدارة. مهملاً ابناء وطنه ومحقراً من شأنهم. والواقع هو انه ارسل رسائل لبعض الكورنثيين يستقدمهم ليعاونوه على وضع دستور الدولة الذي كان ينوى اقراره. فقد أراد أن يقلّص من سلطة الشعب. ويقيد الديمقراطية التي كانت تمارس بدون حدودٍ، وهي كما وصفها افلاطون «بحكومة الساحة العامة» كما انتوى اقامة نظام حكم هو مزيج من النظامين الكريتي والسپارطي، أعنى انه يقف وسطاً بين النظام الجمهوري بالنظام الملكيّ، فيه يتولى الحكم هيئة ارستوقراطية تشمل سلطتها كل الأمور الخطيرة. ووجد ان الحكم الكورنثي بالأصل يتألف من هيئة عليا تشبه الاوليغارشية. وان عامة الشعب قليلة الاهتمام بالسياسة وأمور الحكم. وكان يدرك ان [هيراقليدس] سيكون اقوى خصومه معارضة له في هذا فضلاً عن كونه دساساً مشاغباً مفرقاً للصفوف. لذلك أفسح المجال لأولئك الذين سبق له فمنعهم عن قتله، فأقتحموا عليه بيته وقتلوه. وآثار مقتله سخطاً وحنقاً عظيمين عند الناس كافة. ولما اقام له [ديون] تشييعاً مهيباً وسار خلف نعشه كل جنوده وخطب فيهم بعد ذلك ادركوا انه

ليكون من رابع المستحيلات ان تتمتع المدينة بالاستقرار أو ان تتسع لوجود [ديون وهيراقليدس] يتنافسان على الحكم.

كان [لديون] صديق آثيني يدعى [كاليپوس Callipus] قال افلاطون عنه: انه كان على معرفة بسيطة به في مبدء الأمر ثمّ توثقت اواصر الصداقة بينهما لا بسبب من علاقة بالدراسات الفلسفية، وانما بمناسبة الاحتفال بعيد «الاسرار» وغير ذلك من المناسبات الاجتماعية. هذا الرجل رافقه فيما بعد في كلّ حروبه وحظى لديه بمكانة ونفوذٍ كبيرين، وكان في مقدمة من سار الى جانبه عند دخوله سيراقوسة وعلى رأسه أكليل. وقد ابلى أحسن البلاد في المعارك وبرّز بشجاعته. هذا الرجل وجد ان خيرة اصدقاء [ديون] قد هلكوا في الحروب، وان [هيراقليدس] طواه الردي. والشعب يحتاج الى قائد، والجنود يكنون له الحب. فبدات الآمال العراض تداعب مخيلته، كأيّ وغدٍ شرير همّه الغدر، في ان تكون له السلطة العليا في صقلية على حساب القضاء على صديقه والمحسن اليه. لقد قيل ايضاً أنّ العدوّ رشاه بعشرين تالنتاً لقاء فتكه بديون. فاعزى عدداً من الجنود وضمهم الى موآمرته، واستخدم الحيلة الشريرة التالية لإحكام خطته: اعتاد ان يخبر [ديون] يومياً، بكلّ ما سمع، او كل ما لفق عن لسان الجنود من اقوال ضدّه. فنال ثقته العمياء واعتمد عليه كليه، وسمح له ان يتكلم بحريّة ضدّه في كل المجلس لايقاع خصومه في الشرك والكشف عن العناصر الضارة التي تضمر له الشرّ. فاستعان [كاليپوس] بهذا على تأليف عصبة يتضم كل الساخطين الثائرين في المدينة بوقت وجيز وكلما انضمواحد الى العصبة المتآمرة اسرع كاليپوس يقول له انه سيخالطه ليحلّ عقده لسانه ويكشف عن سرِّه، فيطمئن [ديون] معتقداً بأن صديقه انما يفعل ذلك لمصلحته وتنفيذاً لتعليماته.

وفيما كانت المؤآمرة تنضج، رأى [ديون] رؤيا غريبة مخيفة. خيل اليه ان جالس ذات مساءٍ في جوسق ببيته وحيداً مستغرقاً في افكاره فسمع صوتاً مفاجئاً فالتفت فشاهد في نهاية صف الاعمدة وفي وضح النهار. امرأة فارعة الطول تشبه تانك الفيوري في التراجيديات بملامحها وزيها - ورأى بيدها مكنسة تكنس بها الارض فانتابه ذهول وهلع شديدين. وأرسل يستدعى عدداً من اصدقائه، وقصّ عليهم حلمه وناشدهم البقاء معه طول الليل لأنه كان في منتهى القلق والرعب، وهو يخشى أن يلوح له الشبح ثانيةً ان ظلّ وحيداً. الاّ ان الرؤى لم تعاوده غير انه فجع بعد ايام قلائل بمصيبه أليمة. فقد القى ابنه الوحيد بنفسه من سطح الدار فهشمت رقبته وكان شاباً يكاد يبلغ مبلغ الرجال، على اثر كدر وغيظ بسبب مسألة تافهة.

وفيما كان [ديون] في غمرة الحزن، دفع [كاالليپوس] بمؤآمرته الى حيزّ التنفيذ، فعمد الى نشر اشاعة بين السيراقوسيين، مؤداها ان [ديون] اعتزم ان يستدعي ابن [ديونيسيوس] ليجعله ولي عهده وخليفته بعد موت ابنه الوحيد. وفي هذا الوقت بالذات تسرب الشكّ في قلب [ديون] واخته وزوجه، من تصرفات [كاالليپوس] وبدأت المعلومات تردهم من كل صوب حول وجود المؤآمرة. وكان [ديون] في تلك الآونة يعاني اضطراباً نفسياً شديداً، قد يكون مرده تأنيب الضمير لقتل [هيراقليدس] وهو لاشك لطخة سوداء ووصمة عارٍ في حياته. وقد ركبه نوع من الملل والقنوط وصار يفضل الموت الف مرة على العيش في خوف دائم من اعدائه، بل في شكّ من اصدقائه. على ان [كاالليپوس] انتبه لفضول المرأتين الشديد، ولتساؤلاتهما العديدة للنفاذ الى اعماق المسألة فجاءهما باكياً ينكر التهمة بشدة وعرض عليهما اي دليل يقنعان به تأكيداً لاخلاصه فطلبتا منه ان يحلف «اليمين العظمى» وكانت تؤدى على النحو التالي: يدخل المحلف الى حرم هيكل [كيريس Ceres وپروسپرين Pros-perine] وبعد تأدية مراسيم مخصوصة يرتدي ثوب الربة الارجواني ويمسك بيده مشعلاً موقداً ويؤدي القسم. فنفذ [كاالليپوس] ما طلبا منه منكراً ما عزي اليه. وكان في الواقع لايقيم وزناً للآلهة، حتى انه انتظر الى ان حلّ عيد پروسپيرن التي حلف في هيكلها ليجعل منه موعداً لارتكاب جريمة القتل ولم تكن في الواقع ضرورة تدعوه للتشدد في اختيار اليوم. لأنه سيكون مجرماً في أي يومٍ من الايام، بعد ان قام بمراسيم كاهنها المكرس ليسفك دم احد عبادها.

وكان عدد المساهمين في المؤآمرة كبيراً. وديون في داره يجالس عدداً من اصدقائه في قاعة انتشرت فيها موائد الطعام. فطوق فريق من المؤتمرين الدار. وعمد فريق آخر الى احكام أغلاق الابواب والنوافذ، اما الفريق الذي وقع عليه تنفيذ جريمة القتل فكان من الزاكنيثيين، الذين ولجوا الدار دون معاطف ولا سيوف فأغلق الذين هم في الخارج الباب وراءهم ووقفوا حراساً عليها. وانقضّ القتلة في الداخل على [ديون] يريدون كتم انفاسه خنقاً، فلم يفلحوا فطلبوا من رفاقهم في الخارج سيفاً، ولكن لم يجرأ أحدٌ على فتح الباب وكان ثمّ عدد كبير من عشراء [ديون] في الغرفة الاّ ان كل واحد منهم صار يهتم بنجاته، متوهمين ان حياتهم ستكون بمأمنٍ ان هو فقد حياته فلم يقدم أحد على اغاثته وانتظر القتله مليّاً، حتى قذف اليهم [ليكون Lycon] السيراقوسي بسيف قصير من النافذة فتلقفه أحد الزاكنيثيين وذبحه مثل اضحية. فقد بقي طول هذا الوقت ينتفض بين ايديهم منتظراً الضربة القاتلة.

بعد هذا اودعت السجن كل من اخته وزوجه وكانت حاملاً وفي السجن وضعت السيدة

التاعسة وليدها فقامتا على حضانته بموافقة الحرس، أو بالأحرى قبلوا ذلك لأن [كالليپوس] بدأ يتورط بالمتاعب.

بعد ان قُتل [ديون] نبه صيت [كالليپوس] وأصبح الحاكم المطلق في سيراقوسة فكتب بذلك الى آثينا. تلك المدينة التي تأتي سؤوليتها في هذه الجريمة النكراء بعد مسؤولية الآلهة مباشرةً. والتي كان عليها أن تنظر اليه نظرة خوفٍ وعارٍ. ولقد اصاب كبد الحقيقة من قال عنها: ان ذوى الصلاح الذين تربيهم ليس أصلح منهم، والأشرار الذين تقذفهم ليس أشر منهم. كذلك البلاد نفسها فهي تنتج الذّ العسل وافتك سُمّ من الشوكران.

وعلى اية حال لم يقطع [كالليپوس] شوطاً طويلاً في تحّدي الحظّ. ولا في تغاضي الآلهة عن عزه ونعمائه كأنها تتستر عليه وتحميه وهو الذي اشترى الثروة والسلطة بارتكاب اشنع جريمة. فلم تمهله، وانالته القصاص الذي يستحقه. فقد خرج للاستيلاء على [كاتانا Catana] ففقد سيراقوسة. وذكروا انه قال بهذه المناسبة:

- فقدت المدينة، وربحت دمية!

ثم هاجم [مسينا] مهلك معظم رجاله ومن بينهم قتلة [ديون] ولما امتنعت كل مدن صقلية عن ايوائه وكلها تمتقه وتنفر منه، توجه الى [ريگيوم] في ايطاليا، وضاقت به السبل هناك ولم يجد ما ينفق على جنوده. ثم وثب عليه [ليپتينس Leptines] وپوليسيرخون فقتلاه، وشاءت الاقدار يكون موته بالسيف الذي استعمل بقتل [ديون] وقد عرف بقصره، كالسيوف السپارطية، وبصنعته الغريبة الدقيقة، وهكذا استوفي [كالليپوس] جزاء غدره.

عند اطلاق سراح [ارسطوماخه ورايته] من السجن اخذهما [هيكتيس Hicetes] احد اصدقاء [ديون] الى منزله. ويبدو انه ظلّ يعني بهما ويرعاهما كما يليق بالصديق المخلص الى ان زيّن له اعداء [ديون] التخلص منهما فجهز سفينه وزعم انه يريد ارسالهما الى البلوپونيسس] الا انه أمر البحارة بقتلهما والقائهما في البحر عند الابتعاد عن اليابسة. وروى آخرون انهما القيتا مع الوليد في البحر أحياءً، هذا الرجل لم ينج ايضاً من الجزاء العادل فقد قبض عليه [تيموليون] وقتله، وذبح السيراقوسيون بنته انتقاماً لـ[ديون] وكل هذا اسهبت في سرده في سيرة تيموليون.

١٩٧٢/٢/٢٢

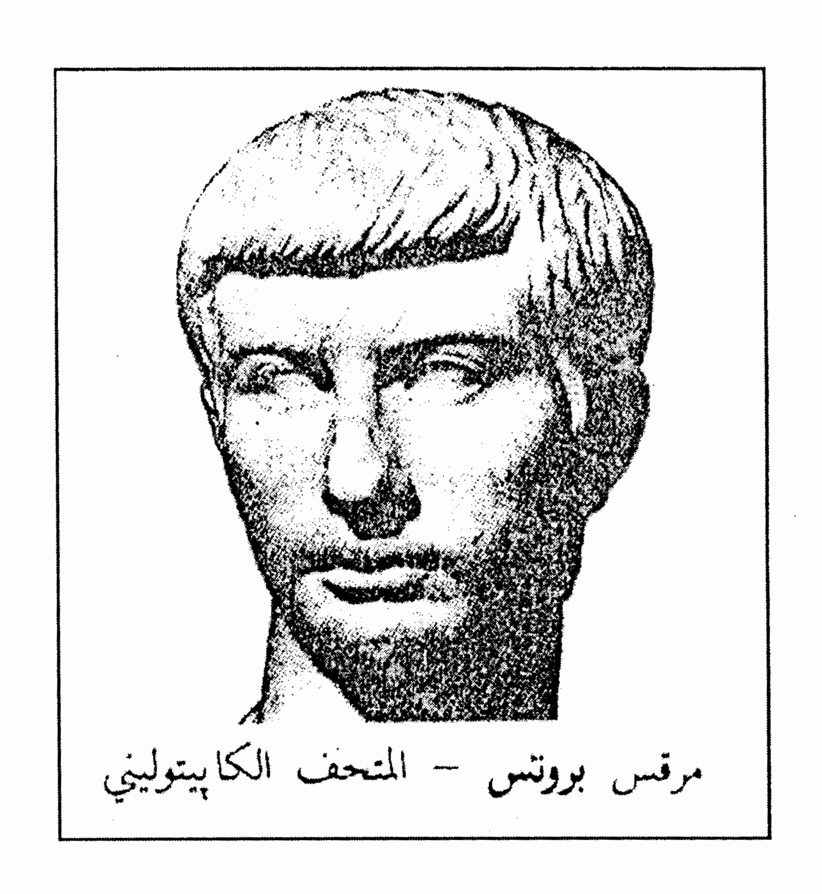


ماركوس بروتوس

BRUTUS

(Marcus Junius)

85 ـ 42



مرقس بروتس – المتحف الكاپيتوليني

انحدر [ماركوس بروتوس] من صلب [يونيوس بروتوس] الذي اقام له الرومان الاقدمون تمثالاً برونزياً في الكابتول ووضعوه بين تماثيل ملوكهم، يرى وهو قابضٌ على سيفٍ مسلول تخليداً لبسالته وثبات عزمه في طرد [آل تاركوين] والقضاء على النظام الملكي. الاّ ان بروتوس الأول هذا كان ذا طبع صارم كأنه قدّ من الحديد، لايلين كالسيف الفولاذي والرجل صلب بطبعه، لم تهذبه الدراسة والثقافة حتىّ أن حنقه على الطغاة بلغ به حداً ان قتل ولديه لأنهما تآمرا معهم. الاّ ان بروتوس الذي نسرد سيرته الآن اعتنى كثيراً بتهذيب غرائزه الطبيعية، عن طريق الثقافة والضبط العقلي الذي تعطيه الفلسفة، كما انه اجهد نفسه في تنشيط اهدأ وارزن جانبٍ من اخلاقه ودفعه الى العمل. وكانت النتيجة ان مزاجه أصبح متوافقاً تماماً مع حياة الفضيلة التي عاشها. ولذلك نجد حتى أولئك الذي حقدوا عليه بسبب مشاركته في المؤامرة ضد [يوليوس قيصر] كانوا على استعداد ليعزوا الفضل لـ[بروتوس] في كل جانبٍ طيب منها في حين حملوا [كاسيوس] صديقه العزيز وقريبه كل قبيح فيها، ولم يكن كاسيوس بالذي تنقصه الفضيلة ولا بذلك الذي يفتقر الى الخلق القويم.

وامّه [سرڤيليا] تنحدر من صلب سرڤيلوس اهالا servilius Ahala وهو الرجل الذي تصدى لـ[سپوريوس مايليوس Spurius Maelius] [١] عندما كان يحاول كسب مساندة الشعب ليجعل من نفسه طاغية. فوضع خنجراً تحت ابطه وذهب الى الفورم، وقصد [مايليوس] متظاهراً بالتحدث اليه، وعندما كان الرجل يميل برأسه اليه ليصغي الى مايقول انتهز فرصته وطعنة قاتلة. هذا هو المتفق عليه عموماً حول اسلافه من جهة الأمّ، واما عن اسرة ابيه فالناس الذين يحملون له أشدّ الكره وسوء النية بسبب قتل [قيصر] ينفون اية صلة نسب له مع [بروتوس] الذي طرد [التاركوينيين] لأنه بقي دون عقبٍ بعد قتله ابنيه. فهو بالنسبة اليهم انحدر من رجل عاميّ هو ابن وكيل بهذا الاسم ولم ترتفع مكانته في الوظائف العامّة الاّ في زمان متأخر. على ان [پوسيدونيوس] الفيلسوف يزعم ان الابنين الشابين

(١) كان سپوريوس مايليوس تاجر قمح غنياً، نظم مؤامرة انقلابية للاطاحة بالحكم الروماني في العام ٤٣٩ ق.م. انظر ليڤي ١٧:١٣.

[ليونيوس بروتوس] أعدما الحياة، كما ورد في التاريخ حقاً، الاّ ان ثم ابناً ثالثاً كان في حينه صبياً، فعاش ومنه نشط النسل الذي انحدر منه [ماركوس بروتوس]، وزاد على هذا قوله بأنه وجد عدد من مشاهير الرجال من هذه الأسرة، كانوا احياء في زمانه، وبعضهم ذوو ملامح تشبه ملامح تمثال [يونيوس بروتوس] شبها ملفتاً للنظر. ولنكتف بهذا القدر من الموضوع.

كانت [سرڤيليا] امّه، أختا [لكاتو] الفيلسوف. وهو الرجل الذي لم يعجب [بروتوس] باحدٍ قط من الرومان قدر ما أعجب به، وقد تزوج فيما بعد ببنته [پورشيا]. لم يبق في الواقع فيلسوف من فلاسفة اليونان الاّ وعرفه او قرأ له. الاّ أن أكثر ما أجتنذبه هو كتابات تلاميذ افلاطون، ولم يهتم اهتماماً كبيراً بنظريات الاكاديمي الوسيطة والحديثة[٢] كما أطلق عليهما، بل ركز دراسته بالقديمة. ولذلك كان دائم الإعجاب بانطيوخس العسقلاني الذي جعل من اخيه[ارسطون] عشيراً وخلاً وضمّه الى اهل بينه ليلازمه دائماً. وهذا رجل أقل مواهب في العلوم من كثير من الفلاسفة. الاّ أن متانة خلقه، وطيب معشره، فاقت معظمهم، وسادت أخبارهم وامّا عن [امپيلوس Empylus] الذي نوه [بروتوس] واصدقاؤه باسمه في رسائلهم بوصفه احد ضيوفه، فقد كان من البلغاء. كتب بحثاً قصيراً جيدّ السبك عن مصرع [قيصر] عنوانه [بروتوس].

واتقن بروتوس اللاتينية كخطيب وكمحام مترافع لكنه كان يعبرّ عن نفسه باليونانية بالأسلوب المختصر الواقعي. أو البلاغة الموجزة المعجزة. او ما يطلق عليه بالاسلوب اللاقوني في الحديث، وهو يعرض امثلة مدهشة من ذلك في رسائله. فمثلاً عندما خرج للحرب ضد [انطوني واوكتاڤيوس] كتب لأهالي پرغاموم ما يلي:

«سمعت انكم دفعتم مالاً لدولابللا؛ ان فعلتم ذلك طواعيةً فعليكم الاقرار بانكم اخطأتم بحقي. ولكن ان دفعتم مرغمين فبامكانكم البرهنة على ذلك بالدفع لي طواعية».

وفي مناسبة أخرى كتب لأهل ساموس:

«مقترحاتكم غامضة. مساعداتكم لا وجود لها، فماذا تعتقدون ان تكون نهاية ذلك؟

وفي رسالة أخرى كتب يقول:

---

(٢) اسس افلاطون الاكاديمي الأولى. اما الوسيطة فقد انشأها ارخيسلاوس Archesileus في اواسط القرن الثالث ق.م. واشهر فلاسفة الاكاديمي الحديثة (وتسمى الافلاطونية الحديثة) هما كليتوماخوس وكارنيادس Carneades اللذين عاشا في القرن الثاني ق.م. (انظر سيرة كاتو أيضاً).

«ان الكزانثيين Xanthians جعلوا بلادهم قبرهم لرفضهم عطفي. ولثقة الپاتاريان Pata-reans بي، استمتعوا بحرية كاملة في ادارة شؤونهم ولديكم الفرصة للاختيار بين حكمة الپاتاريان ومصير الكزانثيين» ذلكم هو الأسلوب الذي جعل رسائله خالدة.

صحب [بروتوس] خاله [كاتو] في مطلع شبابه عندما ارسل هذا في حملة ضد [پطليموس] فبعد ان بخع هذا الملك نفسه ارسل [كاتو] الذي أخرّته بعض الأمور في [رودس] أحد اصدقائه المدعو [كانيديوس] ليتوكل في أمر اموال الملك[٣].

ولما كان ضعيف الثقة بامانة [كانيديوس] فقد كتب لابن اخته يأمره بالاقلاع حالاً من بامفيليا Pamphilia الى قبرص، وكان بروتوس قد قصد هذه المدينة ليقضي دور النقاهة من مرض شديدٍ اصيب به. فأنطلق [بروتوس] الى قبرص امتثالاً لأمر خاله بكثير من التردد، أحتراماً منه [لكانيديوس] الذي رأى انه موضع شكٍّ ظالم، واعتقاداً منه أن هذه المهمة الصغيرة الشأن هي من حيث المبدأ أصغر جداً وأحقر من انا تناط بشابٍ مثله، اوقف نفسه على التتبعات العقلية والمسائل الفكرية. ومع ذلك فقد تولى المهمة بجدارة ونجح فيها الى الحدّ الذي استأهل به ثناء خاله العظيم، وبعد أن حول كل أموال الملك الى نقدٍ، نقل كلّ ما جمع بحراً الى روما معه.

عندما انشعبت الدولة الرومانية الى حزبين، ونشبت الحرب بين پومپي وقيصر، وعمت الفوضى الامبراطورية كلّها، كان المتوقع عن العموم ان [بروتوس] سينحاز الى جانب [قيصر]، لاسيما وان اباه أعدم الحياة بأمرٍ من [پومپي] قبل عدة سنوات[٤] الاّ ان [بروتوس] وضع المصلحة العامة فوق الولاء الخاصّ. ولما كان مقتنعاً بأن أسباب [پومپي] لخوض الحرب اكثر وجاهةً، فقد انضم الى حزبه. فعل ذلك مع انه كان بالأمس القريب يأبى ان يبادل [پومپي] كلمة واحدة حين يلتقيان اذ كان يجد من العار أن يحادث قاتل أبيه. الاّ انه عَدّ [پومپي] في المرحلة الحالية قائداً لبلاده ولذلك وضع نفسه تحت تصرفه وسافر الى [كيليكا] مبعوثاً [لسيستيوس Sestius] الذي عين حاكماً لهذا الأقليم، الاّ انه لم يجد فرصة ليقوم بعمل نابهٍ هناك. ولما كان كل من [قيصر] و[پومپي] يتخذان مواقعهما ويتهيئان لخوض المعركة الحاسمة التي سيقررّ فيها مصير الامبراطورية. رحل من تلقاء نفسه الى مقدونيا ليساهم في مخاطر القضية التي آمن بها. وقبل ان [پومپي] ادركته دهشة

(٣) كان هذا في ٥٧ ق.م ولبروتوس من العمر ٢٨ سنة. وپطليموس هذا هو اخ پطليموس اوليتس Auletes ابن كليوپاترا، وكان اذ ذاك ملك قبرص.

(٤) في ٧٧ ق.م كان والد بروتوس من انصار ماريوس. فغدر به پومپي وقتله بعد ان وافق على استسلامه.

عظيـمة سرّ سرورٌ بالغاً لمقدمـه حتى انه نهض مـن مجلسـه عند اقترابه وعانقـه بمحضـر من كل ضباطه كأن [بروتوس] رئيسه. وفي خلال هذه الحرب كان بروتوس يعكف على كتبه وتتبعاته الفلسفيـة عندما يترك مجلس پومـپي. ليس خلال الاسابيع التي سبـقت معركة فرساليا وحدها بل حـتى في الليـلة التي سـبـقت المعـركـة الكبـرى[٥] كـان الموسم صيـفاً والـقيـظ على اشـدّه والمعسكر قـريب مـن مـستنقعٍ، وقـد ابطأ الخـدم الذين جاؤا بخيـمتـه وهـو يكاد يـسقط اعـيـاء لافتـقاده الظلّ، ومع أن النهـار كاد يتنصف قـبل ان يدهن جسـمه ويتناول بلغـة من الطعام فـقد امضى الوقت حتى الليل وهو يكتب ملخصاً عن [پوليبيوس Polybius]. في حين كان رفاقه إمّا مستسلمين للنوم أو يفكرون بالمستقبل بخوفٍ وهلع.

قيل ان [قـيصر] كان شديد الاهتمام بسلامته. حـتى انه اصدر أمراً الى قـواده بألاّ يحاولوا قـتله في المعركة، بل ان تسلم حيـاته. فـان استـسلم فليـؤسر اما اذا ابدى مـقـاومة فليـفسح له مجال الهرب ولا يضايق. والاعـتقـاد السائد ان [قـيصر] فعل كلّ ذلك اكراماً لخاطر امّه، ويبدو ان [قيصر] كان على صلة غرامية بها ايام شبابه، وكانت هي مدلهة بحبه ولما كان [بروتوس] قد ولد في الفترة التي كان حبهما قد بلغ اوجه، فـقد ظلّ الشكّ ينخر قـلبه في ان بروتوس هو ابنه[٦] وروى أنه لما بوشر فـي مـجلس الشيـوخ بمناقـشـة التدابيـر التي يجب اتخـاذها لسـحق مؤامرة [كاتيلينه] التي كادت تعصف بالجمـهـورية. احتدمت المناقشة بين [كـاتـو] و[قـيصـر] وكـانا قـد وقـفـا جنبـاً الى جنب، وفي اثنا ء الجـدال سُلّمت لقـيـصـر رقـعـة جيء بهـا من الخـارج فأخذها وقرأها. وهنا صاح [كاتو] ان [قـيصر] يسلك سلوكاً شائناً بتسلمه رسائل من اعدا ء الدولة. فـأحدث قـوله ضـجّة كـبيـرة بين اعـضـا ء المجلس، وعـندها دفـع [قـيـصـر] بالرقـعـة الى [كاتـو] لقراءتهـا. فوجدهـا رسالة غـرام موجهـة اليه مـن اخته [سرڤـيليـا] فقذف بها اليـه وهو يقول:

- خذها ايها السكير.

ثم عاد الى المناقشة

كان غرام [سرڤيليا] بقيصر حديث العام والخاص.

بعد ان غلب [پومپي] على أمره في [فرساليا] هرب بحراً. ولكن معسكره حوصر، غير ان

---

(٥) في آب ٤٨ ق.م.

(٦) ان تواتر هذه الاسطورة فيه غرابة. ذلك لأن [قيصر] لم يتخط الخامسة عشرة عند ولادة بروتوس. ولكن لايستبعد قطّ ان يكون قد علق بحب سرڤيليا في زمن مؤامرة كاتيلينه التي جرت وقائعها بعد اثنين وعشرين سنة.

[بروتوس] تمكن من الانسلال من الباب الى المستنقع القريب الذي كان الماء والقصب يغمرانه وبعد السُّرى طول الليل بلغ [لاريسا] سالماً، ومنها كتب الى [قيصر] ففرح لسلامته وكتب اليه يطلب قدومه. ولم يكتف [قيصر] بالصفح عنه، وانما بالغ في اكرامه وجعله ضمن دائرة أعزّ خلصائه. وفي تلك الاثناء كان النقاش يدور حول الجهة التي هرب اليها [پومپي] وكان ثم اراء متضاربة كثيرة. فانفرد [قيصر] بـ[بروتوس] وخرجا في جولة قصيرة وسأله عن رأيه في الأمر. وقد استخلص من الآراء التي طرحها بروتوس بأن فكرته هي الأقرب الى الحقيقة، فنبذ جميع الآراء الأخرى وهرع نحو مصر. لكن پومپي وصل الى مصر كما ضمن بروتوس، ولقي فيها حتفه قبل ان يدركه [قيصر].

وفي تلك الاثناء نجح [بروتوس] في التخفيف من غضب [قيصر] على [كاسيوس]. كما انه اضطلع بمهمة الدفاع عن ملك الليبيين ومع انّ كثرة التهم وثقلها كانت اعظم مما يمكنه انقاذ موكله منها. فان طلبه الرحمة له كان مقنعاً شديد التأثير بحيث استطاع ان يستخلص له جزءً كبيراً من مملكته[٧]. ويروى ان [قيصر] قال لاصدقائه بعد ان سمع [بروتوس] يخطب في الجمهور لأول مرة:

- لا ادري ماذا يريد هذا الشاب. الاّ ان ما يريده، يريده بشده وبصورة عنيفة جداً.

لان استقامة خلقه، ولصعوبة اقناعه بالقيام بعمل لمجرد المنّة أو الفضل، ولكونه لايعمل الاّ بوحي من ضميره وبعد التروي والتحكيم العقلي، جعلت مجهوداته قوية ومؤثرة في اية قضية يتناولها. ولم يكن اي قدر من التزلف والمداهنة يقوى على حمله على تلبية طلب غير عادل. وهو يعتبر الاذعان للتوسطات الصفيقة التي يعتبرها بعض الناس طيبة قلب وحسن نية، من اشنع حالات الضعف البشري الذي يصيب الرجل العظيم. ويؤكد ان أولئك الذين لايمكنهم رفض طلب سائل، لابدّ وانهم من الفاسدين في شبابهم.

عندما كان [قيصر] يتهيّأ لحملته على [كاتو] و[سكيپيو] في افريقيا اختار [بروتوس] حاكماً لبلاد الغال الجنوبية. وكان ذلك لخير الاقليم العميم. ففي الوقت الذي كان سكان الاقاليم الأخرى يعانون الأمرين من ارهاب وجشع حكامهم، ويكابدون من الضغط والاضطهاد ما يجعلهم في حكم العبيد او اسرى الحرب نفس [بروتوس] عن كرب الغاليين وجعلهم مرتاحين لا من وضعهم الحاليّ، بل من مصائبهم السالفة. ولم يقنع بهذا، وانما جعل الأهالي يفكرون بمقدار الفضل العظيم الذي يدينون به [القيصر]. حتى ان هذا الدكتاتور كان بادى

---

(٧) هذا الاضطراب قد يبدو اما تصحيفاً في النص أو خطأ من پلوتارخ نفسه ففي ٤٧ ق.م دافع بروتوس في قضية ديوراتوس مالك الفلاطيين ولم ينجح.

السرور لرضا المدن عندما قام بجولة في ايطاليا برفقة [بروتوس] بعد عودته من حملة افريقيا. لم يكن [بروتوس] يهمل شيئاً فيه رفعة لمكانته ومعاملته كصديق عزيز.

في هذا الزمان شغر عدد من المناصب البريتورية. وكان المتوقع أن الكرسي البريتوري الأرفع والأهم، وهو بريتورية العاصمة سيناط امّا [ببروتوس] او [بكاسيوس]. وقيل حسب بعض الروايات ان هذا سبب بعض الجفاء وزاد من حدة خلاف سابق فيما بين الرجلين حول امور أخرى، مع انهما كانا مرتبطين بأوثق رابطة قرابة. فكاسيوس هو زوج [يونيا] أحدى شقيقات [بروتوس] وهناك آخرون يقولون ان هذه المنافسة كانت من تدبير [قيصر] فقد وعد كلاً منهما على حدة بالمساعدة حتى وجدا نفسيهما بهذا القدر من التشجيع الخفي المزدوج - ينافس بعضهما بعضاً. ولم يكن رصيد [بروتوس] يتعدى سمعته الطيبة واشتهارة بالاستقامة في اعماله، يضعها مقابل مآثر [كاسيوس] العديدة اللامعة اثناء حملة [كراسوس] على البارثيين. ومهما يكن من أمر فبعد ان أصغى [قيصر] الى ادعاءات الجانبين وبحث الأمر مع اصدقائه انتهى بالقول التالي:

- كاسيوس الأقوى حجحاً. ولكن علينا أن نقلّد [بروتوس] البريتورية الأولى.

وعين [كاسيوس] لبريتورية أخرى الاّ انه كان حانقاً لخسارته بريتورية المدينة أكثر منه شاكراً للمنصب الذي ناله. وكان هناك طرق أخرى شارك [بروتوس] فيها سلطة [قيصر] بقدر ما شاءت رغبته. ولو انه أختار ممارستها فعلاً لكان أكبر الرجال نفوذاً من بين انصار [قيصر] واوسعهم سلطاناً الاّ أن معاشرته لكاسيوس ابعدته عن [قيصر]. لم يتمّ الصلح شخصياً فيما بينهما بعد منافستهما، الاّ انه كان يعير اذناً صاغية لاصدقائه الذين كانوا لايكفون عن تحذيره من الوقوع تحت سحر [قيصر] ويغدو العوبةً في يده، وانما عليه ان يرفض التكريم الذي يسبغه عليه الدكتاتور لأنه لايرمي به الى مكافأة الفضيلة فيه، بل لاضعاف قوة غاياته، وتجريده من اعتزازه الروحي.

لم يكن [قيصر] من الجهة الأخرى على تمام الثقة به وكانت لديه شكوكه. والواقع انه لم يكن يفتقر الى من يخبر عنه ويتهمّه. ولكن عظم ثقته في متانة خلقه بقيت، الى جانب خوفه من سموه روح الشاب، وسمعته واصدقائه. وعندما قيل له ان [انطوني ودولابللا] يخططان لثورة، علق قائلاً:

- ليس مما يخيفني هذان المرجلا الشعر البطينان، وانما الشاحبان النحيفان الاعجفان.

يقصد [بروتوس وكاسيوس]. ومرة أخرى عندما راح مختلف الناس يتهمون [بروتوس]

ويحثون [قيصر] على مضاعفة الحذر، رفع يده ومسّ بها جسمه وقال متسائلاً:

- ماذا؟ الا تفكرون بأن بروتوس، لايصبر على هذا اللحم المسكين لينهي ايّامه؟

يقصد القول انه لايجد أحداً أجدر من [بروتوس] ليكون خليفة له في سلطته العظيمة هذه.

وعلى اية حال كان ثم شبه اجماع بأن [بروتوس] يستطيع بسهولة ان يكون الرجل الأول في روما لو صبر على وقته. وقنع بان يظل نائباً لـ[قيصر] منتظراً افول نجم سلطانه وتهافت ضياء مآثره الاّ ان [كاسيوس] بطبعه الضيف وبحقده على قيصر - الذي نجم عن عداء شخصي يحمله له بالأحرى لا عن كرهٍ عام غير شخصي للطغيان - الهب شعور [بروتوس] ودفع به الى الامام. قيل ان [بروتوس] كان خصماً للدكتاتورية، وان [كاسيوس] كان خصم دكتاتورٍ من بين الأمور الذي كان [كاسيوس] يأخذها على [قيصر]، هي مسألة نقل الأسود التي حصل عليها [كاسيوس] عندما كان يهّم بتولي منصب الايديل. تركت هذه الأسود في [ميغارا] وعندما أحتل [كالينُس Calenus][(٨)] أطلبها [قيصر] لنفسه وأخذها وقيل انها كانت سبباً في نكبة حلت بالميغاريين. ففي الساعة التي كان الفاتح يقتحم المدينة كسر الميغاريون اقفاصها وفكوا السلاسل التي كانت تقيدها، مؤملين أنها ستهاجم العدو عند دخوله، الاّ ان الوحوش استدارت على الميغاريين العزل واعملت فيهم تمزيقاً وهم يهرولون مرتعبين، وكان منظراً مؤلماً حتى للاعداء الفاتحين كان هذا على ما يقال - سبب حقد كاسيوس والدافع الأساس لحبك المؤامرة. الاّ ان التسليم بهذا هو افتئات على الوقائع. كان كاسيوس منذ نعومة اظفاره مطبوعاً بحقدٍ غريب على كلّ الطغاة الذين يريدون استعباد ابناء وطنهم. لقد كشف عن هذا عندما كان صبيّاً يغشى المدرسة التي يتعلم فيها [فاوستوس] ابن [سللا]. وعندما بدأ هذا الأين يفرض نفسه على الطلاب ويتباهى بسلطان ابيه المطلق. وثب عليه [كاسيوس] واشبعه ضرباً واراد وصيّ [فاوستوس] واهله أن يرفعوا الأمر الى القضاء. الاّ ان [پومپي] لم يسمح بذلك واستدعى الصبيين واستجوبهما عما حصل، وتمضى الرواية فتقول - أن [كاسيوس] قال:

- هيا يا فاوستاس؛ ان تجرأت فردد الكلام الذي قلته على مسامع پومپي فأثار غضبي وسأهشم اسنانك ثانيةً.

كذا كان طبع [كاسيوس]. اما في قضية [بروتوس] فلم يكن اندفاعه ناجماً عن مجرد اغراء اصدقائه الشخصيين ومجادلتهم، بل سلسلة طويلة من الايماءات، والرجاءات، والرسائل

---

(٨) احد ضباط قيصر الذي انيط به أمراً من جنود اليونان اثناء ما كان قيصر ينازل پومپي في ٤٨ ق.م.

المنفعلة التي كانت تحثه وتدفعه، فمثلاً وجدت كتابة على تمثال جدّه الأعلي [يونيوس بروتوس] الذي قضى على نظام الملكية:

«آه لو كنت معنا اليوم!»

«... لو كان هذا البروتوس حيّاً!»

وبدأت الرسائل تغطي مقعد [بروتوس] البريتوري الذي يجلس عليه، يوماً بعد يومٍ بالكتابات فوقه،

«بروتوس انت تغطّ في نومك»

«انت لست بروتوس حقيقياً».

كثير من هذه الاستنجازات النابعة عن الشعور العام، كان سببها اعمال متملقي [قيصر] والغارقين في نعمائه. الذين خرجوا عن كل الحدود في تكريمه وتعظيمه، فمن بين ضروب التشويق المقرف الذي اخترعوه له، انهم راحوا يضعون تيجاناً على هامات تماثيله ليلاً، مؤملين أن يقروا الشعب بمناداته ملكاً بدلاً من دكتاتور. الاّ ان هذه الجهودات جاءت بثمار معكوسة تماماً كما اتيت لشرحه في حياة [يوليوس قيصر].

وعندما أخذ [كاسيوس] يستمزج آراء اصحابه لتنظيم مؤامرة ضدّ [قيصر]. وافق الجميع شريطة أن يكون [بروتوس] زعيماً لهم. فهم يرون أن العدد، او الجرأة، او العزم الثابت ليست بالشروط الكافية. وما تحتاجه المؤامرة بالدرجة الأولى هو سمعة رجل كبروتوس فوجوده، سيكرّس الضحيّة كما يقول المثل ويؤكد عداله التضحية بمجرد مشاركته. فبدونه سيقدمون على القتل بايمان أقلّ، وسوف يثير المزيد من الشك في نياتهم بعد ذلك، لأن الناس سيقولون: لو كانت مقاصدهم نبيلة لما رفض بروتوس المشاركة فيها. ووجد كاسيوس هذه الحجج معقولة، فقصد [بروتوس] بزيارةٍ أولى بعد قطيعتهما التي اتيت الى ذكرها، ثم بعد أن تصافيا وتبادلا تحيات الودّ سأل [بروتوس] هل قرر حضور جلسة الشيوخ التي تقرّ موعدها في عيد اول آذار لأنه سمع بأن انصار قيصر سوف يقدمون اقتراحاً في تلك الجلسة للمناداة به ملكاً. وعندما أجاب [بروتوس] بأنه لن يحضر، واصل كاسيوس كلامه قائلاً:

- ماذا سنفعل اذن لو ارسلوا بطلبنا؟

فأجاب [بروتوس]:

- لو حصل هذا، فسيكون من واجبي ان ادافع عن بلادي واموت في سبيل حريتها ولا ابقى ساكتاً.

فشجعه هذا الكلام وسأله:

- ولكن اتظن انه يوجد روماني واحدٌ يدعك تضحي بحياتك على هذه الشاكلة اما تعرف شيئاً عن نفسك اي بروتوس؟ او تظنّ ان كل تلك الضراعات التي تجدها فوق مقعدك البريتوري هراءٌ كتبه النساجون والبقالون، لا ارفع رجال روما مقاماً؟ انهم يتطلبون من البريتورين الآخرين تسليات عامة ومهرجانات وحفلات مصارعة الاّ انهم يتطلعون اليك لتنفيذهم من الاستبداد. انهم ليطلبون ذلك منك كدين في عنقك لاجدادك وهم مستعدون لمعاناة كلّ شيء في سبيلك لو ظهرت لهم ذلك الرجل الذي يظنونه ويتوقعونه.

وختم كلامه بمعانقة [بروتوس] وتقبيله. وبعد ان تمّ الصلح بينهم قصد كل منهما اصدقاءه للمداولة في الأمر.

كان ثم رجل يدعى [غايوس ليغاريوس Gaius Ligarius] وشيَ به [لقيصر] بوصفه أحد انصار [پومپي] فعفا عنه منذ زمن قريب. لم يشعر هذا الرجل بايّ امتنان لهذا العمل الرحيم وكان ممتلئاً حقداً على تلك القوة التي عرضت حياته للخطر. فكره [قيصر] وكان واحداً من اقرب اصدقاء [بروتوس ومرة قصده في زيارة فوجده مريضاً، فقال:

- اي ليغاريوس، انك لم تختر الوقت المناسب الملازمة فراشك

ما أن فهم [ليغاريوس] عبارته حتى انهض جسمه مستنداً على مرفقه وشدّ على يد [بروتوس] وأجاب:

- كلا يا بروتوس؛ إن احتجت اليّ في اية قضيّة جديرة بك فأنا معافى.

ومنذ ذلك الحين اخذ [بروتوس وكاسيوس] يجسان نبض عددٍ من رجال روما البارزين الذين يثقان بهم. ولم يقتصرا على دائرة اصدقائهما بل اتصلا بكل من توسما فيه روح المغامرة والاقدام والاستهانة بالموت ولهذا السبب لم يكاشفا [شيشرون] بسرّهما وان كانا يثقان به ويعرفان مدى حبّه لهما. الاّ انهما خافا من جبنه الطبيعي الذي يمازجه الحذر المتأني من تصاريف الزمن والشيخوخة، وحرصه على الاستئصال أقلّ عنصرٍ من عناصر المجازفة في اي مخطط. مما يثلم من حدة عزمهما في ساعة تكون السرعة عاملاً جوهرياً. ومن بين اصدقاء بروتوس الآخرين الذين تخطاهما [ستاتيليوس Statilius] الابيقوري و[فافونيوس] احد المعجبين بكاتو. والسبب في ذلك انّه جسّ نبضهما قبل فترة قصيرة بطريقه التعميم الفلسفية اثناء مناقشةٍ، وقد اجاب [فافونيوس] ان الحرب الاهليّة هي شرّ من الملكية المستبدة. وكان رأي [ستاتيليوس] ان جرّ المتاعب للنفس وتعريضها للأخطار في سبيل الحمقى والاشرار

والنكرات لاتجمل برجل يملك أقل قدر من الفطنة والحصافة. على ان [لابيو Labeo] الذي كان حاضراً، سفّه هذين الرأيين. اما [بروتوس] فقد ظلّ ساكتاً طول الحوار، معتذراً بأنها مسألة معقدة ويصعب اعطاء رأي جازم فيها، الاّ انه انهى بالأمر الى [لابيو] فيما بعد فوجده متحمساً ووافق على الانضمام الى المؤامرة. وبعد هذا قرر أيضاً اشراك [بروتوس] الآخر، الذي يدعى [البينوس Albinus]. ولم يكن يمتاز بسمعة عظيمة من ناحية الجرأة او الاضطلاع بالمهمام الخطيرة. الاّ انه كان مهماً للمتآمرين بسبب العدد الكبير الذي كان يدربه من المصارعين في ذلك الوقت للحفلات العامة ولأنه كذلك موضع ثقة من [قيصر]. وعندما قام [كاسيوس ولابيو] بجس نبضه رفض أن يقطع عهداً في الحال الاّ أنه قابل [بروتوس] على انفراد وما ان اتضح له انه زعيم المؤامرة حتى أعلن انضمامه. وتم اجتذاب معظم البقية بسمعة [بروتوس] وكلهم كانوا من علية القوم ووجوهم. ومع ان المتآمرين لم يؤدوا قسماً ولم يتبادلوا عهداً مقدساً لضمان الولاء المتبادل. فقد نجحوا في ابقاء السرّ مكتوماً نجاحاً لم يصدق معه احد بوجود مؤامرة مع ظهور كثير من الخوارق والانذارات السماوية التي أخذت صورة نبوءات وآيات، واشارات نحسٍ في القرابين.

وبلغ [بروتوس] مرحلة شعر معها ان سلامة كثير من كبار الرومان اصلاً وعراقةً ومكانة وخلقاً تتوقف على سلوكه ولما كان يدرك جيداً الأخطار التي ينطوي عليه ذلك. حاول أقصى جهده أن يبقى خططه مدفونةً في صدره وأن يراقب افكاره الاّ انه ينقلب في بيته ولاسيما ليلاً غير الرجل الذي كان في الخارج. فاحيانا كانت اعاصير فكره تفزعه من نومه فيصحو مرعوباً. وفي احيان أخرى عندما يكون غارقاً في هواجسه وحساباته واجما امام الصعوبات التي تكتنفه، اتضح لامرأته وهي مضطجعه معه في الفراش بأن قلقاً غير عادي يخيّم على عقله ويضغطه ضغطاً شديداً، وانه يقلب في رأسه مشروعاً عسيراً معقداً.

ذكرت سابقاً أن [بورشيا] هي احدى بنات [كاتو]. وقد تزوجها ابن عمتها [بروتوس] وهي صغيرة جداً، مع انها كانت ثيباً، بعد موت زوجها الأول [بيبولوس][٩] الذي انجبت منه صبياً. وثمّ كتيب اسمه «مذكرات بروتوس» كتبه هذا الفتى وهو متوفر الآن.

كانت [بورشيا] شديدة الحبّ لزوجها. ولم تكن ذات خلق عاطفي فحسب وانما كانت تجمع الى حيويتها عقلاً راجحاً ونباهة. فلم تلّح على معرفة السرّ من زوجها حتى اخضعت نفسها للتجربة الآتية: صرفت خادماتها من غرفتها وأخذت مدية صغيرة مما يستخدمه الحلاقون لتقليم الأظافر وأحدثت في فخذها جرحاً عميقاً. وفقدت مقدار كبيراً من دمها وبعد ذلك

(٩) زوجها الأول هو ماركوس كالورنيوس بيبولوس، كان قنصلاً مع قيصر في ٥٩ ق.م.

شعرت بآلام شديدة واعترتها رجفة وحمّى عالية وعندما كان الألم يبرّح بها والاضطراب الشديد يعلو [بروتوس] لحالتها، قالت له:

- بروتوس، انا بنت [كاتو]، ولم يزوجوني بك لاقاسمك السكنى والفراش كمخطية لا غير، بل لاكون شريكة حقيقية في افراحك واتراحك. ليس لدي ما الومك عليه ولكن اي برهان تريد مني على حبيَ لك إن انت تأبي علي مشاطرتك في ذلك النوع من المحن الذي يستدعي رفيقاً أميناً تعتمد عليه، وتبقي آلامك ومعاناتك لنفسك وحدها؟ انا أعلم جيداً ان المرأة اضعف من أن تستأمن على أسرارٍ. ولكن من المؤكد يا بروتوس إن لنبل الأصل والثقافة وصحبة العلماء وافاضل الناس، بعض الأثر في تكوين اخلاقنا. ومن حقى أن أفخر بكوني بنت [كاتو] وزوج [بروتوس]. لم أكن أعلم قبلاً كيف تغني احدى هاتين النعمتين. الاّ أني الآن وضعت نفسي في التجربة فوجدت اني قادرة على قهر الألم.

ثم كشفت له عن الجرح الذي احدثته في ساقها وقصّت عليه الحكاية وشرحت له التجربة التي اقدمت عليها لمعرفة مدى قابليتها على الاحتمال. فعرته الدهشة ورفع يديه الى السماء شاكراً وداعيا الآلهة لمساعدته في ما هو مقدم عليه ليبرهن انه زوج جديرٌ بمثل هذه المرأة. ثم أهتم كثيراً بصحة زوجه حتى تماثلت الى الشفاء.

وأعلن عن افتتاح جلسة للشيوخ كان يتوقع من [قيصر] ان يحضرها. واتفق المؤتمرون ان يهتبلوا هذه الفرصة هذه المناسبة ستساعدهم على تعبئة قوتهم كاملةً دون اثارة الشبه. وفضلاً عن ذلك فسيكون كل شخصيات روما واشرافها مجتمعين في صعيد واحدٍ، وهم يأملون ان هؤلاء سيقبلون حالاً بعد ان يقضى الأمر، الى تبني فضية الحرية. اضف الى هذا أن الموضع الذي أختير للجلسة بدأ وكأن العناية الآلهية قد اختارته، لإتمام القصد. لقد كان رواقاً ترتفع فيه الأعمدة من تلك الاروقة المفتوحة الجوانب التي تلاصق الملعب وفيه رحبة واسعة اقيم عليها تمثال لبومبي ايام حكومة الجمهورية على نفقة الدولة. وعندما زين هذا القائد ذلك الحيّ من المدينة بالاروقة وبالملعب[١٠] الى هذه البناية دعي المجلس الى الاجتماع في منتصف آذار[١١] (والرومان يطلقون عليه (عيد مارس، وكان يبدو وكأن العناية الآلهية تقود [قيصر] الى الموضع ليلقى عقابه على موت [بومبي].

---

(١٠) هذه البناية الجميلة الكبيرة وهي اول مرسح ثابت بني في روما. تّم انواع من بنائها في ٥٥ ق.م. وتقع في كامپوس ماريتيوس Campus Martius في الشمال الغربي من المدينة.

(١١) باللاتينية يعرف بعيد مارس Idus Martiae.

ما ان انبلج الصباح حتى خرج [بروتوس] ومعه خنجر لاتعلم به غير زوجه. واجتمع بقية المؤتمرين في منزل [كاسيوس] ورافقوا ابنه الى الفورم لأنَّ الصبي كان سيجري في هذا اليوم مراسيم ارتدائه ثياب الرجال اي toga virilis كما يسميها الرومان ومن هناك اسرعوا جميعاً الى رواق [پومپي] وظلوا هناك بانتظار مقدم [قيصر] للمشاركة في جلسة المجلس. ولم يكن ليسع ايّ رجل على علم بالمؤامرة الاّ ان يندهش في تلك الساعة لما رآه فيهم من رباطة جأشٍ وهدوء وحضور ذهن. في ساعة اقتراب الأزمة من نهايتها. وكان كثيرون منهم حائزين على المنصب البريتوري ووظيفتهم تقضي عليهم بالنظر في قضايا اليوم. فأنصرفوا يصغون بصبرٍ الى الشكاوى المعروضة وينظرون في الخلافات كأن ليس لديهم شيء آخر يشغل بالهم، وكانوا يبذلون قصاراهم في صياغة احكامهم بدقةٍ في كلّ قضيّة وعندما رفض شخص من المتداعين قبول حكم [بروتوس] وبدأ يتحجّ بصوت مرتفع ويتظلم لقيصر، تطلع [بروتوس] بهدوء في وجوه المستمعين وقال:

- قيصر لايمنعني من الحكم بموجب منطوق القانون ولن يفعل ذلك قطّ في المستقبل.

وفي الوقت نفسه وقعت مفاجآت وحوادث غير منتظرة، أخلّت بهدؤهم واورثتهم بعض القلق. اولها تأخر (قيصر) عن الوصول بعد مرور وقت طويل وانقضاء الشطر الاكبر من النهار. فقد اعاقته زوجه ومنعه العرافون من الخروج لعيبٍ وجدوه في اضحيته. وثانيها ان رجلاً أقبل على [كاسكا Casca] أحد المؤتمرين وامسك بيده وقال:

- لقد اخفيت السرِّ عنّا يا كاسكا، الاّ ان [بروتوس] اخبرني بكلّ شيء.

وفيما وقف [كاسكا] جامداً صامتاً ابتسم الرجل واستطرد يقول:

- عليك ان تخبرني بالحقيقة يا صاح، كيف اصبحت موفور الغنى بهذه السرعة فأقدمت على ترشيح نفسك لمنصب المحتسب [ايديل]؟

كان [كاسكا] على وشك فضح السرِّ بسبب التباس فهمه لكلام الرجل لو لم يبادر هذا بالتفسير.

وفي ذلك الوقت قابل [پوپيليوس ليناس popilius Loenas] كلا من [بروتوس وكاسيوس] بحرارة أكثر من المعتاد ثم دنا منهما وهمس بصوت خافتٍ جداً:

- دعواتي لكما، وتمنياتي لمشروعكما النجاح. لكن كل ما تعملانه، استعجلا به، فكلّ الناس يتحدثون به الآن.

قال هذا وتركهما سائراً بعد ان اشاع الشك فيهما بافتضاح أمر المؤامرة.

وفي تلك اللحظة ايضاً قدم احد السعاة وهو يعدو من جهة منزل بروتوس، يحمل اليه نبأ مفاده ان زوجه [پورشيا] تعالج سكرات الموت، والحقيقة هي ان الاضطراب بلغ بها منتهاه في ارتقابها النتيجة حتى خرجت عن طورها وضاق بها المنزل على رحبه، ما تسمع صوتاً أو جلبة الاّ وتجفل وتهب من مجلسها واقفةً كأنها في حالة انجذاب وحارت قواها من فرط حركتها. اذ كانت تخرج وتسائل المارة عمّا يحدث في الفورم ثم تعود لترسل الساعي تلو الساعي. تسقطاً للأنباء، وتضاعفت مخاوفها وأخذت الشكوك تنهشها وتفريها، ولم تستطع الوصول الى مخدعها فقد اغمى عليها وراحت في غيبوبة وفرّت الوانها وفقدت النطق. فأطلقت نساؤها صرخة عظيمة وهرع الجيران الى منزل [بروتوس] ليستطلعوا الأمر وانتشر خبر وفاتها بسرعة وعلى نطاق واسع. على ان العناية التي بذلتها وصيفاتها اعادت اليها وعيها بعد قليل واستردت قواها وتأثر [بروتوس] تأثيراً عميقاً بالنبأ المفاجيء كما هو متوقع طبعاً الاّ انه لم ينس واجبه، ولم يفسح للقلق مجالاً ليجعل عقله منشغلاً في همومه الخاصّة.

وورد الخبر بأن [قيصر] في طريقه الى المجلس محمولاً في محفّة. لقد تطير من نُذر الشرّ التي ظهرت في قرابينه فقرر الا يبت في اية مسألة هامة يومها، وان يؤجلها الى وقت آخر معتذراً بالمرض. وما ان خرج من محفته حتى تقدم منه [پوپيليوس ليناس] الذي كان قبل قليل قد تمنى [لبروتوس] النجاح في غايته وشرع يحدثه ملياً. وظلّ [قيصر] واقفاً طوال المحادثة لاينم عليه شيء خلا اشارات الاهتمام، ولم يكن بوسع المؤتمرين - (هذا ما سأطلق عليهم الآن) سماع الأقوال الا ان استنتاجهم الطبيعي هو أن الحديث يدور حول مؤآمرتهم وان [ليناس] يقوم بانذار [قيصر] فوهت عزائمهم. وبدا من النظرات التي تبادلوها فيما بينهم انهم مجمعون على ان لاينتظروا القبض عليهم وان يقتلوا انفسهم بايديهم. وامتدت ايادي كاسيوس وبعض الآخرين الى اغماد سيوفهم المندسة تحت معاطفهم لتجريدها عندما لاحظ [بروتوس] ان تصرف [ليناس] كله يدل دلالة واضحة على انه يعرض طلبا، ولايقدم اتهاماً. فلم ينطق بحرفٍ لأنه كان محاطاً بالأغراب الذين لا شأن لهم بالمؤامرة. الاّ ان أظهر البشاشة والبشر. فأفرخ روع [كاسيوس] وصحبه. وبعد قليل لثم [ليناس] يد [قيصر] وانصرف. فبدأ واضحاً ان مقابلته [لقيصر] كانت تتعلق بمسألة خاصة تهمّ شخصه ولا احد غيره.

بعد ان دخل اعضاء المجلس قاعة المناقشات قبل [قيصر] تجمع المؤتمرون حول كرسيه كأن لديهم قضية يريدون عرضها عليه. وادار [كاسيوس] وجهه نحو تمثال [پومپي] - على ما قيل لنا - كأنه يستنجده العون ويسمع دعاءه. وفي الوقت نفسه راح [تريبونيوس] يشاغل [انطوني] بالحديث عند المدخل ويصرف اهتمامه ليبقيه خارجاً ووقف اعضاء المجلس تكريماً

لقيصر عند دخوله، وما ان جلس حتى كان المؤتمرون جميعاً يتحلقونه ثم دفعوا باحدهم وهو [تلليوس چمبر Tillius Cimber] ليعرض عليه قضية أخيه المنفي، وتدخل بقية المؤتمرين في الشفاعة له، وقبض (چمبر) على يد قيصر وقبل رأسه وصدره. بالأول رفض [قيصر] الرجاء. ولكن عندما وجد انهم لايدعونه يذهب حاول النهوض ودفعهم عنه بعنفٍ وعندها امسك [تلليوس چمبر] عباءته وسحبها عن كتفيه. بكلتا يديه في حين تقدم [كاسكا] الذي كان واقفاً خلفه مشهراً سيفه وكال له الطعنة الأولى فأحدث صرحاً بسيطاً في ذراعه. فأمتدت يد [قيصر] الى قبضة السيف وامسكها وصاح باللاتينية:

- كاسكا ايها الوغد! ماذا تفعل؟

في حين نادى [كاسكا] أخاه باليونانية طالباً المعونة. وعندها وجد [قيصر] نفسه يتلقى الطعنات من ايادٍ كثيرة. وفيما هو يتطلع حواليه ليجد له مخرجاً وخلاصاً من مهاجميه وقعت عينه على [بروتوس] مشهراً سيفه في وجهه فأفلت يد [كاسكا] التي كان ممسكاً بها وغطى وجهه بردائه وسلم جسمه لضربات القتلة فأطبق المؤتمرون عليه واعملوا فيه طعناً حتى صارت النصال تعترض النصال وأصيب بعضهم بجراح على يد الآخرين وأصيب [بروتوس] بجرح في يده في اثناء مساهمته بالعمل ولطخت الدماء جميعهم.

أخيراً بعد أن قتل [قيصر] تقدم [بروتوس] ووقف في وسط القاعة وحاول جهده تهدئة روع الاعضاء واقناعهم بالبقاء الاّ انهم تولوا عنه مذعورين وتدافعوا بكثير من الفوضى الى الابواب وتزاحموا بالمناكب ليستبقوا الخروج مع أنه لم يكن ثم من يطاردهم. فقد قطع المؤتمرون عهداً فيما بينهم بأن لايقتلوا أحداً غير [قيصر]. وان ينادوا امام جميع الشعب بالحريّة. عندما كانت المداولات تجري بين المؤتمرين حصل اجماع على ضرورة قتل [انطوني] ايضاً. اذ اعتبروه رجلاً يستخف بالقوانين ويفضل الحكم الاوتواطي المطلق وان لديه خطوة كبيرة من الجنود وسلطاناً عليهم بسبب مقدرته على الاختلاط بجنوده بكل بساطةٍ وكسب ولائهم وطاعتهم. وأخيراً طموحه ووقاحته الطبيعية تضاعف خطرهما لأنه ارتفع الى منصب القنصلية، وكان في ذلك الوقت زميلاً [لقيصر] في هذا المنصب. الاّ ان [بروتوس] عارض الاجماع. واصرّ بأن الواجب يقضي بالدرجة الأولى ان يعملوا وفق أضيق حدود العدالة، وكان من رأيه ان ينصلح حال [انطوني] وان التغيير قد يطرأ عليه فيما بعد. كان يتمسك بفكرته وهي: ما ان يزاح [قيصر] عن الطريق فان طبيعة [انطوني] السمحاء، وطموحه وحبّه للمجد، سوف تتجاوب مع المثل النبيل الذي ضربه المؤتمرون وانه سينضم اليهم لمساعدة بلادهم على الوصول الى الحرية. وبهذه الوسيلة انقذ [بروتوس] حياة انطوني فعلاً. الاّ ان الذعر الشامل

الذي عقب القتل جعل [انطوني] يخلع معطفه المشيخي. ويتنكر بثوب رجل من العامة ويهرب.

وقصد [بروتوس] ورفاقه الكابتول وأخذوا يلوحون بايديهم الدامية القابضة على سيوفهم المسلولة، للناس ويدعونهم للتمتع بحرياتهم. في مبدء الأمر ووجهوا بصيحات الخوف ليس الاّ وزاد الاضطراب العام بحرجلة الناس المرتعبين، عقب الاغتيال مباشرةً. ولما يعقب ذلك نهب او سفك دماء، فقد استجمع الشيوخ وكثير من الناس شجاعتهم وقصدوا الكاپتول لرؤية المؤتمرين وهناك أحتشد خلق كثير. فارتجل [بروتوس] خطبة تناسب الموقف وترضي الجمهور. وهتف له المستمعون عالياً وطلبوا منه النزول اليهم من الكاپتول فعادت الثقة بالنفس الى المؤتمرين وقصدوا الفورم. وساروا معاً الاّ ان [بروتوس] وجد نفسه محاطاً بأبرز رجال روما الذين رافقوه من الكاپتول بكل مظاهر الاجلال والتعظيم، حتى اصعدوه الى الروسترا. كان الجمهور الذي يواجهه يضم اناساً من مختلف الاتجاهات والعواطف وقد جاء متهيئاً الاحداث شغب. الاّ أن الرهبة سادته عند مشاهدة [بروتوس] وراح يترقب كلامه بصمت خاشع ونظام تام الشروع في خطابه اصغى اليه بانتباه. ولكن ما أن أخذ [جنا Cinna] مكانه وبدأ يتهجم على [قيصر] بدأ واضحاً ان عدداً كبيراً من المستمعين ساخطون على ما حصل وبدء غضب الجموع يتصاعد وأخذوا يهاجمون [جنّا] بعبارات مقذعة وبعنف حتى اضطر المؤتمرون الى العودة والاحتماء في الكاپتول. وهناك صرف [بروتوس] الرومانيين البارزين الذين رافقوهم اذ كان يخشى ان يحاصروا هناك ولم يجد من العدل ان يتعرض للخطر من لم يساهم معهم.

ومهما يكن من أمر فقد اجتمع مجلس الشيوخ في اليوم التالي في هيكل الربّة [تللوس Tellus] وتكلم [انطوني وپلانكوس وشيشرون] محبذين التآلف والاتفاق واجراء مصالحة عمامة وان يقوم المجلس باصدار قانون العفو العام. فصوت على الاقتراح وقُبل[١٢]. وبموجبه تقررّ ان لاتتخذ اية اجراءات ضدّ المؤتمرين فضلاً عن قيام القنصلين باقتراح تكريم مناسب لهم. ثم الفض الاجتماع. ثم بعد ان ارسل [انطوني] ابنه الى الكاپتول بمثابة رهينة، غادر بروتوس وصحبه البناية وتبادل الفريقان عبارات الودّ والتحيات بدون تحفظ. وعزم [انطوني] [كاسيوس] للعشاء واحتفى به. وفعل [ليپيدوس] المثل مع [بروتوس] وتبودلت الدعوات بين الطرفين وساهم اصدقاء الفريقين بذلك. ثم التأم مجلس الشيوخ في بكور اليوم التالي

(١٢) تلك كانت مساومة. فالمجلس الذي هو الآن السلطة الدستورية العليا كان ينتظر منه أن يعلن بان اغتيال رئيس الدولة هو عمل من اعمال الخيانة الاّ انه لم يفعل ولكنه صادق في هذه الجلسة على كل المراسيم التي اصدرها [قيصر] لأن وجود العدد الكبير من محاربيه القدماء في روما ارغمه على ذلك في الواقع.

وكان اول عملٍ له هو التصويت، على قرار بشكر [انطوني] لتفاديه حرباً أهلية. ثم قرضوا عمل [بروتوس] ورفاقه الحاضرين وبعدها شرعوا في توزيع حاكميات الاقاليم، فكانت [كريت] من نصيب [بروتوس]، وافريقيا لكاسيوس، وآسيا لتريبونيوس وبثيينا لچمبر، والغال الجنوبية لألپينوس بروتوس.

وأخيراً نوقشت قضية وصية [قيصر] وجنازته. وطلب [انطوني] وانصاره ان تقرأ الوصية علناً وان لايدفن الجثمان بصورة اعتيادية بل الاكرام والمراسيم التقليدية، والاّ انفجر سخط الجمهور مرة أخرى فعارض [كاسيوس] في هذه الطلبات بكلّ قوته الاّ ان [بروتوس] نزل عند الطلب ووافق. ويبدو انه كان مخطئاً في حكمه هذه ايضاً. ارتكب غلطته الأولى بابقائه على حياة [انطوني]، فتعرض بذلك لتهمة وضعه أمام المؤتمرين خصماً قوياً ليس ثم اخطر منه، وهذه غلطته الثانية. فبسماحه بتشييع جثمان [قيصر] بالشكل الذي اقترحه [انطوني] وقع في خطأ مميتٍ لايرجى اصلاحه. وكان اوّل آثاره انه عندما ظهر من وصيته [قيصر] انه وهب كل مواطن روماني خمسة وسبعين درهماً. وأوقف لمنفعتهم كل بساتينه فيما وراء نهر [التيبر] حيث يقوم هيكل آله الحظ اليوم، تصاعدت موجة عارمة من الحبّ له، وساد شعور قوي بعظم الخسارة فيه، ثم انه عندما جيء بالميت الى الفورم، القى [انطوني] خطبة التأبين التقليدية فوق جثمانه. وما ان وجد الجمهور المحتشد شديد التأثير باقواله حين غير من اتجاهه وانتقل الى المسائل العاطفية ورفع عباءة [قيصر] وقد جمدت عليها الدماء فنشرها لتراها العيون مشيراً الى كل خرقٍ فيها نفذت منه السيوف الى جسم القتيل وراح يحصى الطعنات. ففقد المستمعون كل سيطرة على أنفسهم فصاح بعضهم محرضاً على قتل القتلة. وعمد بعضهم الى تكديس المناضد والمقاعد التي جاؤا بها من الحوانيت المجاورة بعضها فوق بعض ليعملوا محرقةً كبيرة. مثلما حدث في الشعب الذي فقد فيه كلوديوس الغوغائي حياته(١٣). ثم رفعوا جثمان [قيصر] الى قمتها واشعلوا النار فيها، وفي الحقيقة كان اختيار هذه البقعة بالذات لاقامة المحرقة، موفقاً جداً لأنها محاطة بعدة هياكل ومحاريب واماكن مقدسة. ثم لما اخذ اللهب يتصاعد ويشتد اندفع الناس من كل جانبٍ وامسكوا بعيدان مشتعله وانبثوا في ارجاء المدينة يفتشون عن بيوت القتله لاشعال النار فيها.

وكان المؤتمرون قد اتخذوا احتياطاتهم فتحصنوا في داخل منازلهم واصبحوا قادرين على دفع الخطر. الأ انه كان يوجد رجل شاعرُ يدعى [جنا] لا علاقة له بالجريمة. وهو في الواقع صديق لقيصر راى في الحلم ان [قيصر] دعاه الى العشاء فلم يقبل الدعوة، الاّ ان [قيصر] الحّ عليه

---

(١٣) قتل كلوديوس ٥٢ ق.م في شجار نشب بينه وبين (ميلو) في الشارع وقاتله منافس غوغائي له.

وأخيراً أمسك بيده واخذه الى موضع وسيع مظلم، فتبع خطى مستضيفه متردداً والرعب يملأ جوانبه. وبعد ان غابت الرؤية عن مخيلته وجد نفسه فريسة لحمى ركبته طوال الليل. ولما اقبل الصبح ونقل جثمان قيصر لدفنه، شعر بالخجل لتخلفه عن المناسبة وخرج وانضم الى الجموع في الوقت الذي بلغ بهم الهياج منتهاه بخطبة [انطوني] وهناك وقعت اليه انظار الجمهور، لم يتثبتوا من هويته وانما توهموه [چنا] الذي وقف بالأسى يتهجم على [قيصر]. فوثبوا عليه ومزقوه ارباً.

هذه الواقعة زادت من قلق [بروتوس] بشكل لم يثره حدث آخر خلا انقلاب سلوك [انطوني] فترك المدينة هو وانصاره. في الاول قضوا بعض الوقت في [انسيوم Antium] على ان يعودوا الى روما بعد ان يسكن هياج الناس وتهدأ الخواطر وكانوا يتوقعون ان يحصل ذلك بشكل طبيعي وبعد فترة وجيزة ذلك لأن غوغاء المدينة عرفوا بسرعة التقليد وعدم الاستقرار. كما كانوا يعلمون ان مجلس الشيوخ يقف في صفهم. ومع انه أطلق سراح الذين فتكوا بـ[چنا] الاّ انه قام باجراءات تحقيق والقى القبض على أولئك الذين هاجموا منازل المؤتمرين. وفي هذه الفترة من الزمن أخذ الناس يضيقون ذرعاً بانطوني لأنه بات يمارس سلطات تكاد لاتختلف عن السلطة الدكتاتورية: وصبوا الى عودة [بروتوس] وكان متوقعاً ان يحضر بشخصه للاشراف على الالعاب الشعبية[14] لان تنظيمها يقع ضمن واجباته الاّ انه أكتشف مؤامرة لاغتياله يدبرها عدد من المحاربين القدماء الذين قاتلوا تحت إمرة [قيصر] فأقطعهم اراضي في المدن. وقد تسللوا الى المدينة بشراذم لتنفيذ المؤامرة فلم يجرأ على التوجه الى روما. واقيمت الالعاب بغيابه وانفق عليها بسخاء وكانت في غاية الفخامة. كان [بروتوس] مد ابتاع في ما مضى عدداً كبيراً من الوحوش المفترسة فأصدر اوامره باستخدامها كلها وعدم بيع قسم منها أو ادخاره، لتكون متعة الجمهور كاملة كذلك سافر الى [نابلي] وتعاقد مع عدد كبير من الممثلين واللاعبين والمغنين. وكتب لاصدقائه عن [كانوتيوس Ca-nutius]، الممثل الذائع الصيت في زمانه، لاقناعه بزيارة روما. اذ لم يكن يرغب في ارغام اي اغريقي على المجيء. كذلك كتب لشيشرون مشدداً عليه بحضور الالعاب.

بقيت الحالة على هذا المنوال في روما حتى مقدم الشاب [اوكتاڤيوس قيصر] فأحدث تغييراً كاملاً مفاجئاً في الوضع كله. كان ابن بنت أخت [يوليوس قيصر]، فتبناه وجعله وريثاً له بموجب وصية. كان وقت مقتل [قيصر) في ابوللونيا على الساحل الالليري يتابع دراسته.

---

(١٤) هنالك ما يسمى [بلودي ابوللينارس Ludi Apollinars] وتقام في تموز. وكان من واجب بروتوس بوصفه بريتور العاصمة Praetor Urbanus أن يرأسه. الاّ أن أخا [مارك انطوني] حضره بالنيابة عنه.

حيث اعتزم الانضمام الى الحملة التي تهيأ لها قيصر ضدّ الپارثيين الاّ انه اسرع الى روما عند سماعه بمقتله. واول عمل اقدم عليه للتقرب الى الشعب هو اتخاذ لقب [قيصر] وتوزيع ما خصصه الراحل في وصيته لكل مواطن روماني من مالٍ. وبهذه الوسيلة لم يقتصر نجاحه على تجريد [انطوني] من شعبيته ومكانته عند الجمهور، وانما افلح بالمال والهبات التي فرقها دون حساب على الجنود، في ضم اعداد كبيرة من حاربوا تحت امرة قيصر اليه. واقنع شيشرون بمساندته مدفوعاً بمقته الشديد لأنطوني. وهذا ما حمل [بروتوس] على تأنيبه تأنيباً قاسياً. ومما كتب له قوله:

- اراك يا شيشرون لا تصدّعن الطاغية، ولا انك تخشى ان يكون ذلك الطاغية هو الشخص الذي تكرهه. وعندما تبدي في خطبك واقوالك اعجابك بطيبة [اوكتاڤيوس] فرأيك هو في الحقيقة الثناء على نوع من الاستعباد ليس فيه الاّ.

واستطرد مذكراً اياه بقوله:

- الاّ ان اباءنا الأولين ما كانوا يطيقون حتى الطغاة اللطغاء. وامّا من ناحيتي فلم اقررّ بصورة نهائية ان أعلنها حرباً أم اجنح الى السلم الاّ أني مصمم على شيءٍ واحدٍ وهو ان لا أكون عبداً. واني لأعجب يا شيشرون كيف تخشى اخطار الحرب الأهلية بكل ارزائها ولاتخشى سلماً شائناً ذليلاً، وان تطلب امتياز اقامة اوكتاڤيوس في محلّ [انطوني] كمكافأة على التخلص من طغيان هذا الأخير.

تلك كانت لهجة بروتوس في أولى رسائله لشيشرون على ان الجمهورية الرومانية كانت قد انشعبت الى حزبين احدهما يساند [اوكتاڤيوس] والآخر يظاهر [انطوني] وراح الجنود يبيعون ولاءهم لمن يدفع لهم أكثر من غيره كأنهم في مزادٍ علني. وبدأت الاحداث تسلم [بروتوس] الى اليأس وقنط من تحقيق آماله. فقررّ مغادرة ايطاليا فمرّ بلوقانيا حتى بلغ ميناء [ڤيليا Velia] [(١٥)] واضطرت زوجه [پورشيا] الى العودة منها الى روما، وحاولت اخفاء احزانها

---

(١٥) ترك بروتوس وكاسيوس ايطاليا آخر الأمر في حزيران ٤٤ ق.م. الاّ ان بلوتارخ يستبق الاحداث في تحليله الوضع السياسي وتأثيره على حالة بروتوس العقلية، فان المؤتمرين تركوا ايطاليا لا كلاجئين سياسيين بل حكاماً وقادة بموجب مراسيم صدرت من مجلس الشيوخ بالتصويت، في هذا الوقت بقي شكل نظام الحكم الذي سيعقب العهد القيصري موضع اخذٍ وردٍ، فما زالت ميول الجيوش الرومانية في ايطاليا والاقاليم وولاؤها موضع شك. وكان ثم نزاع طويل يوشك أن يستعر اواره امام اوكتاڤيوس قبل أن يقوى على تحدي [انطوني]. لقد بلغت سلطة مجلس الشيوخ اوجها في نهاية العام ٤٤ ق.م بانتخاب القنصلين الجمهوريين هريتوس وپانسا. وكانت نقطة التحول في اوائل صيف ٤٣ ق.م عندما قتل هذان القنصلان في [موتينا] وما لبث الجيش القادم من اسپانيا بقيادة [ليپيدوس] ان انضم الى [انطوني] وهو حدث اخلّ تماماً بميزان القوى في ايطاليا وادى الى الاتحاد الثلاثي.

لفراق [بروتوس] الاّ أن منظر نقش في صورةٍ فضح أمرها واصاب محاولتها النبيلة بالاخفاق. كان موضوع الصورة مقتبساً من اسطورة اغريقية «هكتور يودع اندروماخه» والمنظر يمثلها وهي تتناول من ذراعيه طفلهما [استياناكس Astyanax] بينما تشخص بنظراتها الى زوجها. وجدت [پورشيا] وهي تنظر الى الصورة احزانها تمثل امامها فأنفجرت باكية، وادامت الذهاب الى النقش عدة مرات في اليوم والبكاء امامه. وبهذه المناسبة اقتبس [اچيليوس Acil-ius] أحد اصدقاء بروتوس ابيات هوميرس التي تخاطب [اندروماخه] زوجها هكتور بها[١٦]:

انت لي يا هكتور كلّ شيء.

رعيتني كأبٍ وكأمٍ

وكأخٍ وكزوج محبّ

فأبتسم بروتوس له وقال:

- لكني لن أجيب [پورشيا] بمثل ما أجاب هكتور[١٧]

اهتمي بنولك ومغزلك

وأصدري اوامرك لخادماتك

- ربما لأنها لاتملك القوة الكافية لاتيان الأعمال المنتظرة من الرجال الاّ ان لديها الروح الوثابة للنضال في سبيل بلادها، مثلما لدينا.

لقد اقتبسنا هذه الحكاية من كتاب [بيبولوس] ابن [پورشيا] عن بروتوس.

بعد ان ترك [بروتوس] ميناء [ڤيليا] ابحر الى آثينا فأستقبله الشعب بحماسة عظيمة وأحتفى به بمختلف مظاهر الاكرام الرسمية، فمكث هناك عند احد اصدقائه واستمع الى دروس [تيوميستس Theommestus] الاكاديمي و[قراطيپوس Cratippus] المشائي Peripalitie وبحث مسائل الفلسفة معهما وبدأ وكأنه لا شاغل له غير الدراسة الأدبية. الاّ انه كان طوال هذه الفترة يعدّ العدة للحرب سراً دون ان يدع للشكّ اليه سبيلاً. واعتزم ان يستميل قواد الجيش الروماني في مقدونيا، وارسل لهذه الغاية داعيته [هيروستراتوس Herostratus وفي الوقت نفسه أجتذب كلّ الشباب الرومان الذين يدرسون في آثينا ومنهم ابن [شيشرون] الذي كان دائم الثناء عليه بحرارة والقول:

---

(١٦) انظر الالياذة ٦: ٤٢٩ - ٤٢٠.

(١٧) انظر الالياذة ٦:٤٩١.

- سواء في ذلك أكنت في حلم أو في يقظة، لايسعني الاّ الاعجاب برجل له مثل هذه الروح العالية، وذاك الكره العظيم للاستبداد.

وبعد ذلك بدأ [بروتوس] يعمل جهاراً. ولما علم ان عدداً من السفن الرومانية المحملة بالمال قد ابحرت من آسيا وان قائدها انسان طيب، ومعروف لديه بالسمعة ذهب لمقابلته في [كاريستوس Carystus] وهي مدينة في [يوبيا]. وبعد ان تداول معه واقنعه بتسليم السفن له، اقام مأدبة كبيرة في ذلك اليوم الذي وافق عيد ميلاده. ثم بعد أن بدأوا بالشراب واقترحوا نخب «النصر لبروتوس والحرية لروما» رغب [بروتوس] في بث المزيد من الحماسة في المجتمعين فأمر بوعاء أكبر من الخمر. وفيما هو ممسك به ردد بدون مناسبة او سبب ظاهر - هذا البيت من هوميروس، وهو آخر كلمات نطق بها پاتروكليس المحتضر[١٨].

لقد عاكسني الحظّ اولاً وأدار لي وجهه

ثم تلاه اپوللو ابن ليتو Leto

وزاد بعض الكتاب شرحاً لهذا، انه عندما خرج [بروتوس] لخوض آخر معركة له في فيليپي كانت كلمة التيمن التي اختارها لجنوده هي «اپوللو» واستنتجوا ان النزوة المفاجئة التي دفعته الى ترديد هذا البيت، وانما نبعت من احساس مسبق بالهزيمة.

بعد هذا اعطاه [انتستيوس Antistius] نصف مليون دراخماً من الأموال التي كان يحملها الى ايطاليا، وبقية جيش [پومپي] الذي لم يزل يهيم على وجهه في انحاء تساليا انضم مسروراً تحت لوائه. وأخذ من [چنا] ايضاً خمسمائة خيّال كان هذا يريد ايصالها الى [دولابللا] في آسيا. بعد ذلك ابحر الى [ديمترياس] وهي ميناء تسالي حيث وضع يده على كميات كبيرة من الاسلحة والمعدات التي كان [يوليوس قيصر] قد أمر بجمعها لحملته البارثية وكانت على وشك ارسالها الى [انطوني]. وسلم اليه [هورتنسيوس] البريتور حاكم مقدونيا، الاقليم الذي يحكمه وأعلن الملوك والحكام المجاورين مساندتهم له وعرضوا عليه المعونة. ثم وردت انباء تشير الى ان [گايوس] اخ [مارك انطوني] قد خرج من ايطاليا وهو في طريقه للانضمام الى القوات التي يقودها [ڤاتينيوس Vatinius] في دراكنيوم واپوللونيا[١٩] وقرر [بروتوس] ان يعترض سبيله ويضع يده على جيشه قبل ان يتم تعزيزه.

---

(١٨) الالياذة ١٦:٨٤٩. هناك استعارة وتورية في اسم اپوللو هنا - فبالامكان أن يقصد به هنا «مدمّر» او مُخرب.

(١٩) في نسخة أخرى: دراكيوم وردت ايپدامنس Epidamnus. وكلتاهما ميناء في شمال غرب اليونان على بحر الادرياتيك.

فأنطلق حالاً بما تيسر له من قوة يقطع ارضاً وعرة، تهدده العواصف الثلجية، ويسبق قافلة ارزاقة بمسافة كبيرة توخياً للسرعة. وما ان وصل ضواحي [دراكيوم] بدأت عليه اعراض المرض الذي يسمونه بوليميا Boulimia ، وهو متأت من البرد والتعب يصيب معشر الانسان والحيوان على حدّ سواء لاسيما عندما يشقون طريقهم في الثلوج ويضعفهم الانهاك. وربما كان كانت علته ان الحرارة الطبيعية في الجسم عندما تجد نفسها متجمدة ومكثفة بالبرد الذي يحدق بها تستنفد بسرعة كل ما لديها من غذاء، أو لعل البخار الحاد الخبيث الذي يتصاعد من الثلج ينفذ الى الجسم ويقتل الحرارة التي تتولد من المسام. ذلك لأن عرق الجسم يتولد في الظاهر من تلك الحرارة الداخلية، فيقوم ردّ فعل معاكس بما يواجه من برد حال وصوله الجسم. ومهما يكن فقد بحثت هذا الموضوع بتفصيل في مكان آخر.

ووجد [بروتوس] نفسه خائر القوى مهدوداً. ولم يعد للجنود لقمة يتبلغون بها، ولذلك اضطرر خدمه الى السؤال من اعدائهم. واقتربوا من ابواب المدينة وطلبوا من الحرس شيئاً من الخبز. ولما سمع هؤلاء عرض [بروتوس]. اقبلوا اليه بمحض اختيارهم وجلبوا له طعاماً وشراباً وقد ردّ [بروتوس] الجميل عندما سقطت المدينة في يديه فقد اظهر ليس لهم وحدهم بل لسكان جميعاً اعظم ضروب العطف والرعاية.

عندما وصل [گايوس انطونيوس] ابوللونيا، أمر كل الجنود المعسكرين بالقرب من المدينة بالانضمام اليه. الاّ انهم انضموا الى [بروتوس] وفي الوقت نفسه اتضح له أن أهالي [ابوللونيا] هم مع [بروتوس] فترك المدينة وزحف على [بوثروتوم Buthrotum] (٢٠) فخسر في مبدء الأمر ثلاث كتائبَ مزقها [بروتوس] شرّ ممزق اثناء ما كان خصمه يواصل سيره. وأخيراً عندما اشتبك في معركة للاستيلاء على بعض التحصينات المحيطة بـ[بلليّس Byllis] واقتحامها وكان بروتوس قد سبقه لاحتلالها. اصيب بالاندحار على يد [شيشرون] الأبن الذي اناط به [بروتوس] القيادة. فكسب لقائده عدة معارك. وباغت [بروتوس] [گايوس] في ارض مستنقعات وقواته مبعثرة فوق مساحة واسعة الاّ انه لم يصدر اوامر بالهجوم، وانما احاط بجيش عدوه وحذر من التعرض لحياة الجنود اذ كان متأكداً بأنهم سيكونون في صفه بعد قليل، وهذا ما حصل فعلاً فقد استسلموا هم وجنرالهم وهكذا وجد [بروتوس] جيشاً عظيماً تحت امرته. وعامل [گايوس] معاملة كريمة تتفق والشرف العسكري. فقد سمح له بالاحتفاظ بشارات رتبته مدةً طويلة مع ان كثيراً من الشخصيات كتبوا له من روما يحثونه على قتله ومن بين هؤلاء شيشرون نفسه. ولكن عندما بدأ [گايوس] يفاوض ضباط [بروتوس] سراً

---

(٢٠) على ساحل الارض اليونانية مقابل كورفو Corfu.

محاولة منه اثارة عصيان، نقله بروتوس الى سفينة ووضعه تحت حراسة دقيقة. وعندما هرب الجنود الذين نجح [گايوس] في اقناعهم بالانتقاض على بروتوس ولجأوا الى [ابوللونيا] ودعوا [بروتوس] لزيارتهم، أجابهم ان هذا ليس بالتقليد الروماني الصحيح. وان عليهم ان يأتوا هم الى جنرالهم ويطلبوا منه الصفح وهذا ما فعلوه، فعفا عنهم.

وفيما هو يتهيأ للعبور الى آسيا وصلته انباء عن تطورات الموقف في روما. ففي خلال[٢١] تلك الفترة تمكن [اوكتافيوس قيصر] من الحصول على ثقة مجلس الشيوخ ومساندته ضدّ [انطوني] وانه طرد خصمه ومنافسه هذا من ايطاليا. فكان على [بروتوس] ان يخشى الآن [اوكتافيوس] اذ بدء يعمل على تعيينه قنصلاً خلافاً لاحكام القانون. وانه بحتفظ بجيوش اكثر مما تحتاجه الدولة، على انه رأى ان مجلس الشيوخ لايقره على هذه الاجراءات، وانه بدأ يتحول نحو بروتوس، ويصدر مراسيم باناطة قيادة الاقاليم العسكرية به، فاستبد القلق باوكتافيوس ولذلك ارسل يعرض على [انطوني] المصالحة وجاء بعين الوقت بجيشه واحاط روما[٢٢] ليعمل على تنصيبه قنصلاً بالتهديد مع انه لم يكمل العشرين من عمره كما ذكر هو نفسه في «تعليقاته». وكان احد اولى اعماله، اصدار الأمر بالتحقيق ورفع الدعوى العمومية على [بروتوس] ورفاقه المؤتمرين بتهمه انزال حكم الموت دون محاكمة باوّل رجل في الدولة يتولى اكبر منصب. وعين [لوچيوس كونيفيچيوس Lucius Cornificius] مدعياً عاماً على [بروتوس] وماركوس اگريبا Marcus Agrippa مدعياً عاماً على [كاسيوس]. ثم حكم المتهمون غياباً واضطر القضاة الى الادلاء باصوات الادانة اضطراراً. وقيل ان المنادي صعد الروسترا ونادى [بروتوس] لحضور المرافعة كما يحتم التقليد القضائي ندت من العامّة تنهيدة عميقة، واطرق النبلاء برؤسهم صامتين وشوهد [پوبليكوس سيليچيوس Publius Silicius] وهو ينفجر باكياً ولهذا السبب وضع اسمه في قائمة المستباحة دماؤهم بعد حينٍ. ثم ما عتم ان عقد الصلح بين [اوكتافيوس وانطوني وليپيدوس] والفوا الحكم الثلاثي[٢٣] وقسموا الأقاليم بينهم ووضعوا قائمة باستباحة دماء من ارتوئي القضاء عليهم وقد بلغ عددهم المائتين[٢٤] وكان شيشرون من ضمنهم.

---

(٢١) في أوائل ٤٣ ق.م.

(٢٢) في صيف ٤٣ ق.م.

(٢٣) في تشرين الأول ٤٣ ق.م.

(٢٤) هذا العدد قاصر على اعضاء مجلس الشيوخ الذين حكموا بالموت. وكان ثم ايضاً ما يناهز ثلاثة آلاف من طبقة الفرسان. كان عدد اعضاء المجلس يتفاوت كثيراً باختلاف العهود. فالى مبدأ القرن الاول قبل الميلاد كان اقل من مائتين. وزاد سللاً في عدده الى (٥٠٠) تقريباً، وضاعفه قيصر فأصبح الفاً. الا ان أغسطس انقصه الى (٦٠٠).

بلغت هذه الانبـاء [بروتوس] وهو في مـقـدونيـا، فـوجـد نفسـه مكرهاً على اصـدار أمـر [لهورتنسـيوس]، بقـتل [گـايوس انطونيـوس] عـقـاباً لقـتل [شـيـشـرون وبروتـوس البينوس] اولهما صديقه وثانيهما قريبه. ولهذا السبب أمر [انطوني] بأن يقتل [هورتنسيوس] فوق قبر [گـايوس] عندمـا ظفر به بعـد معركـة [فـيليـبي]. وقـد قال [بروتوس] أنه أكثر خجـلاً لموت شيشرون منه حزناً عليه، وانه ليلقى اللوم على اصدقائه في روما لما حصل. وقال ان ما جعلهم عبيداً ليس الطاغية المستبد، وانما أعـمالهم، ولقد سمحوا لانفسـهم ان ينظروا نظره استـسلام الى اعمال يجب أن لايتسامحوا حتى لمجرد سماعها.

عبر [بروتوس] الى القارة الآسيوية[٢٥] بجيشه وقد اصبح لجباً مرهوباً واصدر أمراً بوضع الاسطول على قدم الاستعداد في بثينيا وفي الميناء المجاور [چيزكوس Cyzicus] في حين قام بعدة جولات في داخلية البلاد لتفقد المدن وكسب ولائها والعمل على تدبير شؤونها ومقابله الحكام المحليين وارسل رسلاً الى [كاسيوس] في سورية يلتحق به متخلياً عن حملته المنتواة الى [مصر]. وذكره بأنهما لايتجولان في الامبراطورية لاقتطاع اجزاء منها لنفسيهما: بل ان غـايتـهـما هو تأليف جيش لاسقاط الطغاة وتحرير بلادهما. فـعليـهـما أن يضعـا نصب اعينهما هذا الهدف والاّ يبتعدا عن ايطاليـا، بل يجب ان يسرعا بالعودة الانقاذ ابناء وطنهما من الظلم.

واطاع [كاسيوس] أمر الدعوة ولما قـفل راجعاً، خفّ [بروتوس] اليـه وتقابلاً في [أزمير] وكانت اول لقيا لهما بعد ان افترقا في [پيريوس] باثينا. حين توجه [كاسيوس] الى سورية، وسار[بروتوس] الى مقدونيـا، وشعرا بارتيـاح وثقة عظيـمتين للقوات التي يقودها كل منهـما لقد خرجا من ايطاليا كأحقر المنفيين، بلا مـال ولا سلاح ولا سفينة واحدة مجهزة بمجاذيف ولا جندي تحت امرتهـما، فدار الزمان دورته القصيـرة، وهاهمـا يجتـمعـان الآن بعد اشهـر قليلة يقودان اسطولاً وجيشاً من الخيـالة والمشاة، ولديهـما مـال وفير. وفي حالة مـوآتية جداً لخوض المعركة في سبيل الامبراطورية الرومانية.

وكـان [كـاسـيـوس] يحـرص أن يكونـا مـتسـاويين مـقـامـاً، الاّ ان بروتوس كـان يستـبق نيـتـه بالذهاب لزيارته، اذ كان [كاسيـوس] أكبر منه سناً ولايستطيع تحمل درجة معينة من المشقة. كـان [كاسيـوس] يعرف بالكفـاءة العـسكرية، الاّ انه اشـتهـر ايضـاً بالطبع الحـادّ العنيف، وممن يحافظ على سلطتـه بما يشيعه من رهبة، وان كـان مع اصدقائه المقربين قـد يصل في مزاحه الى حدّ التـهـريج. الاّ ان مناقب [بروتوس] جعلتـه مـحـترمـاً عند الناس، مـحـبـوباً من الاصدقـاء.

(٢٥) في آخر صيف ٤٣ ق.م.

موضع اعجاب الأفاضل، غير مكروه من اعدائه انفسهم. وقد تميز بطبع رقيق فريد في بابه وسمت روحه العظيمة عن الشعور بالغضب او الفرح أو الطمع ثابت لايلين في تتبع اهدافه، ولاينكص عما يعتقده صواباً وشريفاً. ان اخلاصه التام لغاياته اكسبه الحب الاعظم والسمعة العليا. و[پومپي] الاكبر نفسه مثلاً ما كان يتوقع منه لو انتصر على [يوليوس قيصر] ان ينزل عن سلطانه الى حكم القانون وانما سيظل يتولى تصريف شؤون الحكم وفق هواه فلا يسرح جيشه اطاعة لحكم القانون، وانما كان سيهديء من روع الناس بأتخاذه لقب. قنصل او دكتاتور او اي عنوان سلطة أخر مقبول. ونعود الى [كاسيوس] لنقول لقد عرف بعواطفه الجائحة العنيفة التي لايمكن السيطرة عليها. كثيراً ما ادّى به جشعه وحبه للمال الى الزيغ على الصراط المستقيم ولذلك بدأ من الطبيعي ان غايته من القتال وتنقله في ارجاء الامبراطورية والمجازفة بحياته لم تكن لأجل حرية ابناء وطنه بل لتأمين مركز عظيم لنفسه. ان زعماء الجيل الذي سبق جيل [پومپي] و[كاسيوس] رجال امثال [چنّا] و[ماركوس] و[گاربو Carbo] كلهم اعتبروا بلادهم غنيمة حرب في انهم فعلوا كل شيء إلاّ التصريح – لأجل التوصل الى السلطة المطلقة.

والامر يختلف عند [بروتوس] فاعداؤه أنفسهم لم يتهموه بخيانته مباد ءه على هذه الشاكلة، في الواقع سمع كثيرون انطوني يقول ان [بروتوس] هو الوحيد من المؤتمرين الذي اندفع الى ذلك بشعور التسامي وبما اعتقده شرف القصد، في حين ائتمر الباقون جميعاً على [قيصر] لأنهم بكرهونه ويحسدونه. وواضح ايضاً من رسائل [بروتوس] بأنه وضع ثقته في نبل قضيته أكثر مما وضعها في قوة السلاح. فقبيل ازمة حظّه الختامية كتب الى [اتيكوس Atticus] يقول ان أموره على خير ما يرام، وبأحسن ما يمكن أن يأتي به الحظّ، اذ اما أن يحقق النّصر وبعيد الحرية الى الرومان واما ان يموت فيكون شخصه بمنجى من الاستعباد. وفي الوقت الذي باتت المسائل كلها قد سويت بشكل يبعث على الاطمئنان له ولاصدقائه، فهناك مسألة واحدة بقيت موضع شكّ. هل سيعيشون ويكونون احراراً، او سيموتوا ؟ واضاف يقول في الرسالة نفسها: ان [مارك انطوني] يدفع ثمناً عادلاً لحماقته، فبدلاً من أن يختار في هذه اللحظة ان يحتلّ مكانه في التاريخ الى جانب رجال من امثال [بروتوس وكاسيوس وكاتو] فضلّ أن يجعل نفسه مجرد تابع لاوكتاڤيوس وتنبأ بأنه ان لم يُهزمكم كلاهما معاً، فلن يطول بهما الزمن حتى يقتتلا فيما بينهما.

وقد دلّ على انه عراف ممتاز.

طلب [بروتوس] من [كاسيوس] جانباً من الأموال التي جمعها، معتذراً بأنه انفق كل ما

في حوزته على اعداد اسطول كاف لسيطرتهما على البحر المتوسط. الاّ ان اصدقاء [كاسيوس] عارضوا في ذلك قائلين: انه ليس من العدل في شيء ان يدفع لبروتوس تلك الأموال التي وفرّها بالتقتير وعلى حساب شعور السخط بين الجنود، يستعملها في دفع اجور جنوده وتنمية شعبيته بينهم. على ان [كاسيوس] لم يعر اقوالهم اهتماماً ودفع له ثلث ما لديه. وبعد هذا افترق الجيشان لينهض كل منهما بواجباته. فأستولى [كاسيوس] على [رودس] على انه عاملهم بقسوة لا داعي لها قط. وكان سلوكه هذا يناقض الجواب الذي ردّ به على المواطنين حينما أخذوا ينادونه بسيهدنا وملكنا عند دخوله مدينتهم فقد قال لهم:

- انا لست بسيدٍ ولا بملك الاّ اني عاقبت وقتلت الرجل الذي جمع في ذاته هاتين الصفتين.

ومن ناحية أخرى طلب بروتوس اموالاً وجنوداً من ليقيا Lycia(٢٦) فأجابه لاوقريطس Laucrates زعيمهم الديمقراطي، باقناع المدن على الثورة. وأحتل الأهالي مرتفعات معينة كانت تعترض خطّ سير [بروتوس] فأرسل باديء ذي بدءٍ قوة من الخيالة باغتت العدوّ اثناء تناولهم الطعام الفطور وقتلت منهم ستمائة. ثم استولى على معاقلهم وقراهم الاّ انه اخلي سبيل كل اسراهم بدون فدية يريد بذلك استمالة الأهالي برحمته وعدله. الاّ أن الليقيين ظلوا معاندين واختاروا مداواة حقدهم بجراحهم، واحتقار انسانية بروتوس وعطفه، حتى ارغم اصلب محاربيهم على اللجوء باسوار مدينة [كسانتوس Xanthus] فحاصرهم فيها. فحاول الأهالي النجاة بالسباحة تحت الماء في النهر الذي يجري بمحاذاة المدينة فكان يلتقطهم بالشباك التي نصبها في مجراه، لقد ربط بتلك الشباك اجراساً صغيرة ترنّ كلما سقط فيها سابح، بعد هذا حاول الكسانيتون القيام بهجوم خارج المدينة ليلاً واشعال النار في بعض الآت الحصار. الاّ ان الرومان فطنوا اليهم وارغموهم على العودة. وهبت ريح شديدة فوجهت النار الى استحكامات المدينة والى البيوت المجاورة لها وامتدت اليها حتى خشي بروتوس ان تأتي النار على المدينة كلها فأمر رجاله بالتعاون مع الاهلين على اخمادها.

لكن حالة رهيبة لاتوصف من اليأس تملكت الليقيين فجأة، حالة خير ما يمكن وصفها به هو الحنين الشديد للموت فقد أخذ كل حيّ في المدينة امرأة كانت ام طفلاً، حراً ام عبداً من كل عمرٍ وطبقة يقذفون من الاسوار بالصواريخ الرومانَ الذين خفوا لمعونتهم وهم يحاولون اخماد النيران في الوقت الذي أخذ آخرون يجمعون الحطب والخشب وكل مادة قابلة الإحتراق لنشر الحريق في سائر المدينة. ويزيدون من وقيدها بصبّ الزيت وكل سائلٍ ملتهب وكل ما من شأنه مضاعفة شدتها فسرت النار في جميع انحاء المدينة وتصاعد اللهب واصبحت كتلة واحدة من

(٢٦) أقليم في ساحل آسيا الصغرى الجنوبي، الى جوار [رودس].

نارٍ. فركب [بروتوس] والأسى يغمر جوانبه وطاف حول الأسوار واخذ يتوسل بالكزانيثيين بايدٍ ممدودة مناشداً اياهم ان ينقذوا ارواحهم ومدينتهم. فلم يصغ اليه بشرٌ وكان همّ الرجال والنساء ان يجدوا الوسائل السريعة لاهلاك انفسهم لا فرق في ذلك بين رجالهم ونسائهم واطفالهم واحداثم وهؤلاء الأخيرون كانوا يطلقون صرخات مرعبة وهم يقذفون بأنفسهم الى الأتون دعك ممن كانوا يلقون بأنفسهم من أعلى السور او يعرضوا اجسامهم لطعنات ابائهم متوسلين بهم ان يقضوا عليهم. بعد خراب المدينة الشامل وجدت جثة امرأة مشنوقة وعلى صدرها تتدلى جثه طفلها المشنوق ايضاً. وهي ما تزال ممسكة بالمشعل الذي احرقت به بيتها. كان المنظر أليماً يقطع نياط القلب. ولم يكن بروتوس يطيق رؤيته فقد انفجر باكياً وأعلن عن مكافأة لكلّ جندي ينقذ كزانثيا واحداً. وقيل انه لم يعثر على اكثر من مائة وخمسين من سائر السكان، تم انقاذهم من الموت رغم انفهم. وهكذا فقد اعاد التاريخ نفسه في هذه طبقاً لدورة خراب شامل مقدرة الأجل: فان اجداد هؤلاء الأقدمين، في ايام الامبراطورية البارثية[٢٧] اقدموا على احراق المدينة واهلاك انفسهم.

ما عتم [بروتوس] ان وجد نفسه بعد هذا، يواجه مقاومة شديدة مماثلة من مدينة [پاتارا Patara] فتردد في مهاجمتها، واستبدت به الحيرة فيما يصنع لأنه كان يخشى ان يصابوا بالأزمة التي أصيب بها الكزانثيون. ولما كان من بين اسراه بعض النسوة الپاتاريات فقد بادر باطلاق سراحهن بدون فدية وكن بنات وزوجات أعلى رجال المدينة مقاماً، فردين لذويهنّ ما لاقينه من حسن المعاملة وعظمن اخلاق [بروتوس] وعدالته ولطفه حتى اقنعهم بتسليم المدينة اليه، وبنتيجة ذلك حذا حذدهم كلّ سكان [ليقيا]، وأعلنوا خضوعهم لسلطته فوجدوا ان حسن معاملته وعطفه يفوقان كلّ ما توقعوه. اذ كان [كاسيوس] في حدود ذلك الزمن قد ارغم الرودسيين على تسليم كل ما لديهم من ذهبٍ وفضّة يملكونه وبهذا ابتز منهم ثمانمائة تالنت تقريباً، ولم يكتف بهذا بل فرض على السكان جميعاً غرامة قدرها خمسمائة تالنت. ولم يطلب بروتوس من اللقيين أكثر من خمسمائة وخمسين تالنت ثم أنطلق الى [ايونيا] دون ان يلحق بهم ضرراً باي شكل كان.

وقام [بروتوس بمآثر كثيرة أخرى وواكبت العدالة عقوباته ومكافآته ولكني سأذكر واحدة، كانت مصدر ارتياحه هو ارتياح ابرز الرومان في ذلك العصر. عندما نزل [پومپي] الأكبر لاجئاً في [پلوسيوم] بمصر بعد أن دالت دولته وتجرد من كل سلطانه بهزيمته امام [يوليوس قيصر]، تداول اوصياء الصبي (فرعون) مع اصدقائهم فانقسمت اراؤهم. فبعضهم ارتأى أن

---

(٢٧) يصف هيرودوتس خراب كزانتوس على يد الجنرال الفارسي هرباغوس Harpagus.

يمنحوا [پومپي] حقّ اللجوء. وبعضهم ارتأى ان يطرد من مصر. الاّ [ثيودوتس] الخيوسي Chios الذي كان قد استؤجر لتعليم الملك الصبي البلاغة والذي كان يُعَد راجح العقل لعدم وجود من يفضله. ولذلك كان عضواً في مجلس الشورى هذا فقد صَرّح قائلاً انّ الفريقين مخطئان، أولئك الذين يحبذون قبوله وأولئك الذين يرون اخراجه والموقف يتطلب موقفاً واحداً ليس الا وهو القبض عليه وقتله ودعم حجته هذه بالمثل التالي:

- الرجل الميّت لا بعض

فوافق المجلس على رأيه ووقع [پومپي الأكبر] ضحيةً حذلقة معلم بلاغة سوفسطائية. وكما أعتاد ثيودوتس هذا ان يتباهي، أو كمثل على تقلبات الحظ العجيبة غير المتوقعة. ولم يمرّ زمن طويل حتى وصل [قيصر] الى مصر ونال بعض القتلة جزاءهم العادل وذاقوا مرارة موتٍ استحقوه. على ان الحظّ مَدّ في حياة [ثيودوتس] قليلاً، ولكنه اسلمه الى حياة الفقر والذلة والتنقل. الاّ ان يد [بروتس] طالته اثناء ما كان يعبر اسبا فأمسك به وقتله. وكان موته أكثر ذكراً من اي حادث في حياته.

ودعا [بروتوس] زميله [كاسيوس] لينضم اليه في [سارديس]. وخرج لاستقباله وهو في طريقه له مع جماعة من اصحابه، واصطفت القوات المختلطة بهيئة الاستعراض وحيتهما بلقب [امبراطور] ولكن الخلاف الحادّ نشب بينهما، كما يحصل عادة في المشاريع العظيمة التي تضمّ عدداً كبيراً من القادة والأنصار. وتبودلت التهم فيما بينهما. ولذلك قررا قبل كل شيء ان يعقدا فيما بينهما اجتماعاً مغلقاً بمعزلٍ عن كلّ أحدٍ. فاوصدت الابواب دونهما وبدأ الرجلان يتلاومان ثم يتبادلان التهَم، وسرعان ما انتقلا الى الملاحاة والبكاء.

واستولت الدهشة على اصدقائهما في الخارج وهم يسمعون صياحهما وهياج عواطفهما وخافوا سوء العاقبة، الاّ انهم لم يجرأوا على دخول الغرفة لأن الأوامر كانت جازمة. الاّ ان [ماركوس فاڤونيوس] الذي كان من المعجبين [بكاتو] وممن يتعاطون الفلسفة بدافع من التعصب العاطفي لا من القناعة العقلية. حاول الدخول عليهما الاّ أن الخدم منعوه. الاّ انه كان شديد العناد ما أن يقرر شيئاً حتى يعمله ولايكون منعه عنه بالسهل فهو كما ذكرنا رجل مندفع بالعاطفة والتطرّف. ولم يكن ليعلق كبير اهمية على مركزه كعضو في مجلس الشيوخ الروماني. وباتخاذه سلوكاً معيناً يتميز باللامبالاة والسخرية. كان يزيل في الواقع الآثار التي تخلفها خشونته ويخفف من وقع كلماته الجارحة. ونجم عن ذلك ان الناس عدواً وقاحته مزاحاً.

وفي هذه المناسبة شقّ طريقه بالقوة بين الواقفين واقتحم الغرفة وانشأ يقتبس مقاطع من هوميروس، تلك التي استخدمها [نسطور Nestor] مع آخيل وآغا ممنون - ويلقيها بلهجة مسرحية:

فلتطيعا أحكامي، فأنا أكبر منكما

سِنّا واوفر منكما حكمة![٢٨]

واستمرّ في ذلك، فضحك [كاسيوس] الاّ ان [بروتوس] دفع به الى خارج الغرفة قائلاً له ان قد يدعي بفلسفة الكلبيين[٢٩].

الاّ ان كل ما لديه منها في الواقع، هو صفاقة الكلب. على ان هذه الحادثة احدثت اثرها وحسمت النزاع الى حين وافترقا حالاً ثم ان [كاسيوس] اقام مأدبة عشاء دعا اليها [بروتوس] اصدقاءه ضيوفاً. وفيما كان المدعوون يهمون بالجلوس على ارائكهم وصل [فافيوس] وقد أغتسل وشيكاً. فناداه [بروتوس] قائلاً انه ليس مدعواً، وأمر الخدم ان يجلسوه على اريكة في آخر الغرفة. الا ان [فافونيوس] اندفع الى امام وتقدم ليأخذ محله في احدى الارائك الوسطى[٣٠] واخذ المرح يتسرب تدريجياً الى النفوس بعد ان اديرت الرّاح، وأخذت النوادر والآراء الفلسفية تطرز الاحاديث وتضفي على الدعوة كثيراً من الظرف والامتاع.

في اليوم التالي ادان [بروتوس] علناً [لوچيوس بللا Lucius Pella] وحقرّه؛ وهو روماني يتولى منصب بريتور وصديق لبروتوس، الاّ ان أهالي سارديس اتهموه باختلاس الاموال العامة فحنق [كاسيوس] حنقاً شديداً. اذ قبل ايام قلائل لا غير، واجه اثنان من اصحابه تهمة مشابهة فلم يفعل شيئاً أكثر من تأنيبهما سِرّاً الاّ انه بَرأهما علناً وابقاهما في وظيفتيهما. ولذلك لام [بروتوس] على صرامته وتمسكه بحرفيّة القانون بكل تزمتٍ في حين تتطلب الظروف الحاضرة منهما كثيراً من اللباقة وحسن التصرف. فأجاب [بروتوس] مذكراً اياه بمنتصف آذار يوم قتلا [يوليوس قيصر] لا لانه كان ينهب الناس، بل لان سلطته شجعت بعضهم على النهب. واستطرد يقول:

- لو أننا نحاول ان نتلمس العذر في اهمالنا تطبيق العدالة، لكان من الأفضل أن نتغاضى عن اعمال اصدقاء قيصر، على ان نترك اصدقاءنا يخطئون. ففي هذه الحالة سنوصم بالجبن ولا اكثر. ولكننا الآن معرضون للاتهام بالجور والظلم بعد كل ما عانينا من تعب وتعرضنا له من اخطار.

---

(٢٨) الالياذة ١: ٢٥٩.

(٢٩) ان اتباع هذه فلسفة يعرفون بـ Cynics (اشباه الكلاب). لسلوكهم الفظ الذي يتعمدون الظهور به.

(٣٠) يضع الرومان ثلاث ارائك حول مائدة عشائهم، ويتركون الجانب الرابع مفتوحاً، والاريكة الوسطى تعتبر موضع الشرف.

تلك هي المباديء الذي وضعها [بروتوس] نصب عينيه. وعندما ازف وقت الرحيل عن آسيا الى بلاد اليونان قيل ان [بروتوس] رآى آيةً عجيبة: لقد كان نومه خفيفاً وقد تمكن بالتدريب وضبط النفس من تقليل اوقات نومه الى ساعات قليلة. ولم يكن ينام اثناء النهار ولم يكن يفعل ذلك ليلاً الاّ بعد أن ياؤى كل واحد الى فراشه ولايعود ثم من يتحدث اليه او حاجة تستدعي منه الحَلّ. في تلك الايام عندما بدأت الاعمال الحربيّة، ووقع ثقلها كلها على عاتقه وكانت الافكار عن المستقبل تزعج رأسه اعتاد أن ينام نومته الأولى ليلاً بعد العشاء. ثم يقضي بقية الليل في تصريف اعجل الشؤون وادعاها الى الاهتمام واستطاع ان ينتهي من ذلك في وقت قصير، فانه يقرأ حتى الهزيع الثالث، اي التبديل الثالث للحراسه عندما يمثل امامه التريبيونون وقواد المائة لتلقي الأوامر. وفي ليلة من الليالي قبل ان يعبر الجيش الى بلاد الاغريق كان جالساً بمفرده في خيمته التي يضيئها نور معتم وكان الوقت متأخراً والسكون يخيّم على المعسكر كلّه. وخيل له وهو في استغراق تأملي انه سمع من يدخل عليه فرفع بصره مستطلعاً فرأي شبحاً رهيباً غريباً لجسم غير انساني يقف الى جانبه فسأله بروتوس بما استجمع من شجاعة:

- من تكون بين الرجال او الآلهة وماذا تريد منيّ؟

فأجاب الطيف:

- اني جنيّك الشرير يا بروتوس: وستراني في فيليپي.

فقال [بروتوس] دون ان يفارقه ضبط نفسه:

- سألقاك هناك اذن.

وعند تلاشي الطيف، استدعى بروتوس خدمه، فأكدوا له انهم لم يسمعوا صوتاً ولم يروا احداً. فبقي ساهراً حتى الصباح حيث قصد [كاسيوس] حالاً واخبره بما رأى. وكان [كاسيوس] ابيقوريّ المذهب وكثيراً ما كان يناقش [بروتوس] في مثل هذه المسائل وكان رأيه في هذه المناسبة هو ما يلي:

- ان وجهة نظرنا يا بروتوس، هو ان ليس كل ما نراه وتدركه بحواسنا الجسميّة هو حقيقي وماديّ. فبالدرجة الأولى ان المدركات التي تأتينا عبر الحواس هي خادعة وغير مستقرة وبالدرجة الثانية ان ذكاءنا سريع في تغيير التجربة نفسها -تغييراً قد يكون وهماً كبيراً- الى اشكال وهيئات مختلفة. ان ما تسجله الحواس في الواقع، هو ما يسجله ضم الشمع، والروح الانسانية التي تتضمن خاصيّة الليونة. والمادة التي تعمل على الشمع،

تستطيع ان تكيّف موضوعات الحواس بالشكل الذي تريد. وبامكاننا نجد هذا يعمل في أحلامنا. حيث تقوم المخيلة بتغيير تجربة غير مادية تماماً الى كلّ شكل من اشكال العواطف والهيولات، ان طبيعة المخيلة ان تظلّ فعالة الى الأبد، وهذا العمل يعبرّ عن نفسه امّا بالتوهم واما بالفكر وفي قضيتنا هذه، كان الجسم مرهقاً بالعمل المتواصل فمن الطبيعي ان يؤثر ذلك على الذهن، فيجعله في تفزّع مستمر ووضع غير اعتيادي. انّا هذه الحالة تثير الذكاء وتشوهه معاً. اما بخصوص الأرواح فأنا لا أعتقد بوجودها او اذا كانت موجودة بحيث يمكنها ان تتخذ شكل انسان وتتحدث مثله او ان تمارس سلطاناً كفيلاً بالتأثير علينا. وامّا من جهتي فأني لأرجو ان تكون موجودة وان ما يقال عنها صحيح، فاذ ذاك لانكتفي بالاعتماد على جيشنا وخيالتنا واسطولنا بل ان نعتمد على الآلهة ايضاً مادمنا نتزعم قضيّة عادلة نبيلة مقدسة.

بهذا الحديث والبراهين استخدمها [كاسيوس] لاطمئنان [بروتوس]. وفي الوقت الذي باشرت القوات بصعود السفن لاجتياز المضائق الى بلاد الاغريق عبر المضائق حلق نسران وحطّا على اللوائين المتقدمين وحُملا وهما مستقران فوقهما خلال المسيرة. وكان الجنود يطعمونهما حتى وصل الجيش [فيليپي] الاّ انهما طارا قبل المعركة بيوم واحدٍ.

سبق [لبروتوس] ان أخضع مُعظم الشعوب التي كان الجيش يمرّ بها. وبلغ الآن الساحل التراقي وأخذ يتقدم بمحاذاته مستولياً نقطة تقع مقابل جزيرة [تاسوس Thasos] وجد [نربانوس Narbanus] معسكراً بجيشه في المضائق بالقرب من [سيمبولوم Symbolum] فطوقه وضيق عليه الخناق حتى اجبره على التقهقر واخلاء الميدان، في الواقع كاد ان يأسر كلّ جيشه، لأن زحف [اوكتاڤيوس قيصر] تعوّق بسبب مرضه، ولولا سرعة [انطونيو] في انجاده، تلك السرعة العجيبة التي اذهلت [بروتوس] لقضي على قواته ووصل [اوكتاڤيوس] بعد عشرة ايام وضرب معسكره مقابل بروتوس، في حين كان [كاسيوس] يواجه انطوني.

ان رقعة الأرض التي تفصل بين المعسكرين عرفت عند الرومان باسم سهول [فيليپي] ولقد كان اعظم جيشين رومانيين يواجه احدهما الآخر في معركة. كانت قوة [بروتوس] أقل عدداً بكثير من قوات [انطوني واوكتاڤيوس] ولكنها تتفوق بجودة سلاحها وتجهيزاتها مما جعلها تبدو منظراً رائعاً. فمعظم الدروع كانت مكفتةً بالذهب والفضة بسبب ما اغدقه عليهم بروتوس من سخائه.

لقد عودّ ضباطه على مستوى معيشةٍ معتدلٍ تشوبه الصرامة في النواحي الأخرى. الاّ انه أعتقد بان الثروة التي يحملها المرء بين يديه او يضعها على ظهره ترفع من معنوياته وتزيد

من اقدامه لاسيما الجنديّ الكفوء الطموح، اما أولئك الذين حصروا همهم بالريح فإنهم يقاتلون بأكثر ضراوة حرصاً منهم على تروسهم لأنها كلّ ما يملكونه.

واستعرض [اوكتافيوس قيصر] جنوده وقام بمراسيم الطهارة في استحكاماته ثم وزّع وجبة طعام صغيرة وخمسة دراخمات على كلّ جندي لأجل القيام بالتضحية المعتادة. واظهر [بروتوس] و[كاسيوس] استحقارهما لفقر عدوهما وخسّته، باجراء مراسيم الطهارة في ارض مكشوفة خارج الاستحكامات كما هي العادة ووزع عدداً كبيراً من الاضاحي لكلّ كتيبة. واعطى كل جندي خمسين دراخما. وبهذا رفعوا معنويات الجيش واخلاصه أكثر من فعل العدوّ بكثير. وفي الوقت عينه وقع [لكاسيوس] اثناء المراسيم حادث شؤم فقد جاءه [ليكتوره] بأكليل الزهر الذي كان سيضعه على رأسه مقلوباً. وفي مناسبة أخرى سبقت هذه كان ثم موكب لاحتفال ديني. حمل تمثال ذهبي لربّ النصر يعود لكاسيوس فسقط على الأرض عندما زلت قدم حامله. اضف الى هذا، أنّ عدداً كبيراً من الجوارح شوهدت تحوّم فوق المعسكر يومياً وشوهدت كذلك اسراب من النحل تتجمع في محلات معينة بين الخطوط، فعزلها السحرة بسياج لازالة روح التشاؤم والخوف الوهميّ بوسائلهم. فقد هبطت به معنويات الجنود كما بدأت تزعزع عقيدة [كاسيوس] الابيقورية. ولهذا السبب لم يشأ ان يضع مصيرهم في تجربة معركةٍ مع العدوّ وقتئذ وفضل الحالة اطالة امد الحرب لأنّ قوة حزبهما تكمن في مواردهما في حين كانا اضعف من خصمها نسبيًا في الرجال والسلاح. الاّ ان [بروتوس] كان يرغب في دخول المعركة الفاصلة بأسرع ما يمكن من الوقت فإمّا ينقذ بلاده من الإضطهاد ويعيد اليها حريتها. وإمّا ينهي شتاء أولئك الذين اثقلوا باعباء الحرب ونفقات وخدمات واتاوات وتطوّع فيها. واتفق في تلك الاثناء انّ خيالته الخفيفة انتصرت في بعض المعارك الثانوية التمهيدية. فشدت من عزيمته كما هرب بعض الجنود من معسكر [اوكتافيوس] والتحقوا به، وانتشرت اشاعات بأن مزيداً من هؤلاء سيلتحقون به. وقد اقنع هذا السبب كثيراً من اصدقاء [كاسيوس] في مجلس الحرب، على تبنى رأي [بروتوس] ومهما يكن فان [اتيلليوس] احد اصدقاء [بروتوس] عارض في خطته ونصح بتأجيل المعركة الى ما بعد انقضاء الشتاء فسأله ما الذي يجعله يعتقد انه سيكون أحسن حالاً وتوفيقاً بعد سنة؟ فأجاب:

- على الأقل أكون قد أطلت عمري سنةً واحدةً. ان لم يكن ثم أكثر من هذا.

لم يسرّ [كاسيوس] من هذا الجواب مطلقاً في حين جرح مشاعر بقية اعضاء مجلس الحرب، وأخيراً تقرّر الدخول في المعركة ثاني يوم.

وظهر [بروتوس] في عشاء تلك الليلة مفحماً بالثقة، وساهم في المناظرات الفلسفية مع

اصدقاءه ثم ذهب للنوم. اما [كاسيوس] فقد كان على خلاف ذلك. على حَدّ ما يذكر لنا [ميسالا Messala] فقد تناول عشاءه مع اخصّ خاصته وبدأ واجماً كثير التفكير خلافاً لعادته. وبعد ان فرغوا من العشاء ضغط على يد ميّسالا بحرارة وأخذ يكلمه باليونانية على عادته عندما يريد اظهار مودته فقال:

- أشهد عليّ يا ميّسالا، بأني ارغمت على هذا مثلما ارغم پومپي الاكبر من قبلي. لقد أجبرت على المغامرة بمصير بلادي بمعركة واحدة. لكن علينا نشدد من عزائمنا وأن ننظر الى الحظّ بعين غير واجفة ونحن ننتظر حكمه. فعلينا أن لايفقد ثقتنا به وان كان في رأينا.

خَطَلُ يقول ميّسالا: كانت هذه كلماته الأخيرة التي وجهها اليه وبعدها تعانق الرجلان. وكان [كاسيوس] قد دعا [ميّسالا] الى العشاء في اليوم التالي الذي يوافق عيد ميلاده.

وما ان اصبح الصبح حتى كانت شارة المعركة وهي الوشاح القرمزي قد رفعت امام معسكري [بروتوس] و[كاسيوس] وخرج الجنرالان والتقيا في الفسحة التي تفصل ما بين معسكريهما. وبهذه المناسبة وجه [كاسيوس] الى [بروتوس] الكلام التالي:

- الا فليكن هذا اليوم موعد النصر لنا يا بروتوس، وان نتقاسم ثمار نجاحنا حتى نهاية حياتنا ولما كان أعظم امنيات المرء هي ابعدها تحقيقاً. ولما كان من اضعف الاحتمالات ان نلقى بعضنا بعضاً ان دارت الدائرة علينا. فأجبني ماذا اعتزمت ان تفعل اذا خيرت بين امرين لا ثالث لهما: الهرب والموت.

فأجاب [بروتوس]:

- اي [كاسيوس] عندما كنت صغيراً غراً لا أعرف عن الدنيا الاّ قليلاً الجئت ولا ادري كيف، الى اعطاء أحكام متسرّعة عن الفلسفة. فانحيت باللوم على [كاتو] لأنه انتزع حياته بيده ولكوني توهمت بأن محاولة تحاشي الطريق الذي رسمته العناية الالهية للاشياء، وعدم القبول بكلّ ما يأتي به القدر دونما وجلٍ والهروب منه، انما هو مروق عن الدين وضعف لايليق بالرجل. لكني أرى الامور الآن وبالنظر الى واقع حظوظي - بمنظار مختلف. فإن لم تعط الآلهة حكمها لصالحنا، فليس لي رغبةٌ في تجربة آمال او خطط أخرى، وسأموت قانعاً بحكم مصيري. في متنصف آذار وهبتُ حياتي لبلادي ومنذ ذلك الحين وانا أعيش لأجلها حياة ثانية حُرةً مجيدةً.

فابتسم [كاسيوس] وعانق [بروتوس] وقال:

- والآن وبعد ان استقرّ عزمنا على هذا، فنكرّ على العدوّ: فإمّا تحقق لنا الغلبة، وإمّا لن يصيبنا خوفٌ من المنتصر.

ثم انثينا الى اصدقائهما وانشأ يبادلانهم الحديث حول اوامر القتال وخططه، وطلب [بروتوس] من [كاسيوس] ان يسمح له بقيادة الميمنة وان كان هذا من حق [كاسيوس] عادةً بسبب تقدمه عليه في السنّ والخبرة. ولم تقتصر موافقة [كاسيوس] على هذا، بل أمر [ميسّالا] الذي يقود خيرة الجنود في جيشه ان يتمركز بها على الجناح الأيمن. واسرع [بروتوس] بتحريك خيالته الممتازة التسليح ورصّ مشاته بنسق المعركة بنفس الفوريّة.

في الوقت نفسه كان جنود [انطوني] يعلمون على حفر خنادق من المستنقعات حيث يعسكرون، حتى السهل، ليقطعوا على [كاسيوس] طريق البحر. وكان جنود [اوكتاڤيوس] يتبعون في غياب قائدهم المريض. خطته في اتخاذ موقف الدفاع، إذ لم يتوقعوا ان يجازف العدوّ بمعركة فاصلة. بل افترضوا ان يقتصر تعرضه لهم على بعض الهجمات الموضعية والمناوشات لإقلاق الرجال الذين كانوا يحفرون الخنادق بالصياح وبقذفهم ببعض الحراب الخفيفة. وبما انهم لم يكونوا يراقبون القطعات وهي تتحرك وتتخذ مواقعها مقابلهم فقد ادركتهم الحيرة بالضجّة والصيحات المختلطة التي بدأت تتناهى اليهم من الخنادق. وفي تلك الاثناء اصدر [بروتوس] رسائله الى ضباطه بكلمة السرّ مكتوبة فيها في حين اخذ يستعرض خطوط الفرق المصطفة ويشجع الجنود في الواقع لم يسمع بكلمة السرّ وهي تنقل بين الصفوف الاّ قسمٌ قليلٌ ولكن الاغلبية الساحقة عملت بوحي من غزيرتها دون انتظار لكلمة السرّ، فقدوا بأنفسهم على العدوّ وهم يطلقون صيحة الحرب كرجلٍ واحد، وبذلك تباعدت الشقة فيما بينهم ومقدراً الاتصال. ودارت فرقة ميسّالا اولاً بجناح [اوكتاڤيوس قيصر] الأيسر وتبعتها الفرق الأخرى ثم مضت بعيداً في حركتها التطويقية واشتبكوا بخطوط العدوّ الحلفيّة لفترة قصيرة ولم يقتلوا منهم كثيراً. ثم انهم داروا بحركة التفاف حول الجناح كله واندفعوا الى داخل المعسكر. ولقد كتب [اوكتاڤيوس قيصر] في مذكراته كيف ان أحد اصدقائه المدعو [فاركوس ارتوريوس Marcus Artorius] رأى في الحلم كيف كان [اوكتاڤيوس] يحث على ترك فراشه والخروج من المعسكر. وقد أخذ بهذا النذير فأمر بان يحمل الى خارج المعسكرقبل مهاجمة المعسكره بفترة جدّ قصيرة. وانتشرت الاشاعة بانه قتل لأن الجنود خرقوا محفته الخالية بطعناتهم ورماحهم ومقذوفاتهم. وتم الاستيلاء على المعسكر وحصلت مذبحه عظيمة فيه فقتل الفان من اللقيديمين الذين التحقوا مؤخراً بقيصر، ولم ينج منهم رجل واحد.

اما بقية جيش [بروتوس] الذي لم يطوق العدوّ المقابل، واشتبك بالقسم الأكبر، فقد حقق

الغلبة عليه بسهولة، وابادت ثلاث فرقٍ عن بكرة ابيها في قتال اليد باليد، واندفعوا الى الامام ثملين بخمرة النصر ومعهم [بروتوس] نفسه واندفعوا الى المعسكر في اعقاب المنهزمين، إلاّ ان المتتصرين هنا ارتكبوا غلطةً فقد اسرع عدوّهم المتقهقر باهتبال الفرصة. كانت ميمنة [بروتوس] قد تحركت وأخذت بالمطاردة فأنفصلت عن القسم الرئيس تاركة القلب محتلاً ومكشوفاً. وهنا قام العدوّ بهجومه المعاكس. فصمد القلب ودافع دفاعاً مجيداً الاّ ان الميسرة التي احتلت صفوفها ودبت الفوضى في تشكيلاتها ولم تدر ما حدث في سائر ميادين القتال، حلت بها الهزيمة. ودفع بهم جنود اوكتافيوس الى معسكرهم والقوا الحصار عليه. وفي هذه الموقعة لم يتواجد اي قائدٍ من الجيشين، فقد ذكروا أن [انطوني] انسحب الى المستنقع لإجتناب عنف الهجمة الأولى. و[اوكتافيوس] لم يكن يعلم مكانه بعد ان نقل من معسكره. مع ان بعض الجنود لوحوا بسيوفهم الدامية [لبروتوس] زاعمين انهم قضوا عليه ووصفوا له شكله وقيافته وعمره. وفي تلك الاثناء تمكن قلب جيش [بروتوس] من المهاجمين ودحروهم واوقعوا بهم مقتلة عظيمة. وقد وضح تماماً ان [بروتوس] انتصر في هذا القطاع من الجبهة، مثلما اصيب [كاسيوس] بهزيمة ساحقة في القطاع الآخر، وسلم بالهزيمة الأمر الذي ادى الى خطأ مميت، لأن [بروتوس] لم يخفّ لنجدته ظانا انه قد انتصر مثله. كما ان [كاسيوس] لم يكن يتوقع نجدة [بروتوس] ظانّاً بأنه قد هزم مثله وقتل دون ان ينتظر نجدة منه. وعلى اية حال فان ميسّالا كان يرى [بروتوس] منتظراً بدليل اغتنامه ثلاثة نسور وعددٍ كبير من الالوية. من العدو في حين لم يغتنم خصمه شيئاً منه.

بعد ان نهب [بروتوس] معسكر [اوكتافيوس قيصر] وفيما هو عائد من المطاردة، ادهشه انه لم ير خيمة [كاسيوس] التي كانت أعلى من البقية، ولا الخيم الأخرى في اماكنها المعتادة اذ ان معظمها وقع في يد العدو فنصبها وقوضها عند هجومه على المعسكر. الاّ ان اتباعه الذين كانوا يتمتعون ببصرٍ حديد قالوا انهم يرون من بعيد دروعاً كثيرة وتروساً فضيةً وكثيراً من الخوذ تسطع وترسل شعاعاً في ما حول مخيم كاسيوس ومن عددها وشكلها لايظنون انها لأولئك الذين تركوا للقيام بحراسة المعسكر. وفي الوقت نفسه قالوا انهم لايرون العدد المتوقع من جثث القتلى حين تشتبك عدة فرقٍ وتمنى بالهزيمة كانت هذه الاشارة الأولى الى النكبة، فترك حرسه في معسكر العدوّ وصدر أمره بايقاف المطاردة ونظم قواته لنجدة كاسيوس.

وكان موقف كاسيوس كالآتي:

في مبدء الأمر استاء كثيراً من هجوم [بروتوس] الأول الذي جرى قبل انتظار كلمة السرّ، او الامر ببدء التعرض. ولم يُسرّ بل زاد حنقاً بعد نجاح هجومهم واندفاعهم الى النهب

والسلب في معسكر العدوّ دون ان يفكروا في تطويق العدو واكمال حركة الالتفاف. على أن خطته كانت مشوبة بالتردد وكثرة التحسّب والحذر، أكثر مما كانت حاسمة سريعة. ولذلك وجد نفسه مطوقاً بميمنة العدوّ، واستدارت خيالته فجأة واتجهت نحو البحر وعندما وجد مشاته تتقهقر ايضاً، حاول رصّ صفوفها واعادتها الى مواقعها، واختطف علماً من احد حملة الاعلام اثناء فراره وركزه في الأرض أمامه، وان كان حراسه الخاص بفنه قد أخذ يبدي علائم الوهن وخور النفس، أخيراً اضطر الى الانسحاب مع شرذمة من اتباعه الى تلّ صغير مشرف على السهل وكان كليل البصر فلم يتبين ان معسكره يتعرض للنهب. على ان الخيالة القليلين الذين كانوا معه تبينوا قطعات كبيرة من الخيالة تتجه الى مواقعهم وهي التي ارسلها [بروتوس] في الحقيقة الاّ ان [كاسيوس] حسبها ضيالة عدوة خرجت لمطاردته على انه ارسل [تتينيوس Titinius] لمعرفة هوية المتقدمين. ولما اقترب منهم وعرفوا به احد اعوان [كاسيوس] المخلصين، احاطوا به وراحوا يهتفون هتاف الفرح وترجلوا واخذوا يصافحونه ويعانقونه، ودارت به الخيالة يصيحون ويهتفون من فرط سرورهم. الاّ ان هذه المظاهر سببت اعظم النكبات. فقد اعتقد [كاسيوس] ان رسوله وقع في أسر العدّو فصاح قائلاً:

- اجبت الحياة وتعلقت بها كثيراً الى الحَدّ الذي صرت معه أشهد اصدقائي يعقون في الأسر امام عيني.

وعلى اثر ذلك انسحب الى خيمة خالية وليس معه غير عتيقه [پندارس Pindarus]. كان [كاسيوس] منذ نكبة الحملة الپارثية عندما خدم تحت امرة [كراسوس] قد درب هذا الرجل ليقوم بدوره في مثل هذه الحالة الاضطرارية. تمكن [كاسيوس] من الافلات اثناء تلك الحملة الاّ انه غطى رأسه بوشاحه وحسر عن عنقه ليتلقى الطعنة القاتلة. ووجد رأسه مفصولاً عن جسده فيما بعد. الاّ ان پنداروس لم ير بعد موت سيّده. ولذلك ظن بعضهم انه قتل [كاسيوس] دون انتظار امره.

ما لبثت جماعة [كاسيوس] ان تبينت هويّة الخيالة المتقدمة، وشاهدت [تيتينيوس] وهو مكلل الرأس بالزهر، يخب بحصانه متجهاً الى كاسيوس. لكنه ادرك موته من بكاء ورثاء اصحابه وما ان ادرك الخطأ الفادح الذي تسبب فيه واخذ ينحى على نفسه باللائمة لتأخره ثم استل سيفه وسقط عليه وبخع نفسه.

عندما تأكد [بروتوس] من هزيمة [كاسيوس] اسرع اليه على انه لم يبلغ بنبأ موته حتى اصبح قريباً من معسكره فوقف عند جثته وراح يندبه وسمّاه بآخر الرومان. قاصداً بهذا ان روما لن تنجب بعده رجلاً بمثل هذه الروح العالية. وكفن جسده وارسل الى [تاسوس] لدفنه

خوف ان يحدث تشييعه في المعسكر اضطراباً. ثم انه جمع الجنود وراح يعزيهم على مصابهم به واخذ يستنهض همهم ويرفع من معنوياتهم الهابطة. ووجد ان نهب المعسكر قد جردهم من ادنى ضروريات العيش فوعد كل واحدٍ منهم بألفي درهم تعويضاً عما فقدوه فاذهلتهم قيمة المكافأة وارتفعت معنوياتهم بكلماته وشيعوه بالهتافات. واصفين اياه بأنه احد جنرالات اربعة لم يغلبوا في المعركة. وقد ايدت الوقائع ان ثقته بالنصر كان لها كل مبرراتها فبفرق قليلة سحق كل مقاومةٍ واجهته وهزم عدوّه. ولو انه ركز كل قواته وزجّها في هجومه، ولو لم يتعدّ القسم الاكبر من قواته خطوط العدوّ وينهمكو اني سلب ممتلكاته، لكان من المؤكد تحقيقه هزيمة العدوّ الساحقة.

كانت خسائر [بروتوس] في هذه المعركة ثمانية آلاف قتيل بينهم المراسلة والخدم الذين يعرفون باسم Briges. ويقدر ميسالا خسارة [انطوني واوكتافيوس] بضعف هذا العدد، لذلك كانوا اكثر خوراً ووهناً حتى اقبل على [انطوني] أحد خدم [كاسيوس] واسمه [ديمتريوس] مساء ذلك اليوم ومعه السيف والثياب التي نزعها من جسد سيده. فرفع ذلك معنوياتهم الى حدٍ كبيرٍ حتى انهم اخرجوا القطعات في بكور اليوم التالي واتخذوا وضع القتال. وكان المعسكران اللذان صار الآن [بروتوس] يقودهما قد دبّ فيهما الاضطراب الشديد فمعسكره مكتظّ بالأسرى الأمر الذي كان يلجئه الى تخصيص حرس قويّ، في حين كان الضيق مستولياً على جنود [كاسيوس] لتبدل القائد. وكان الحسد والحقد يعمل في نفوسهم بسبب النصر الذي حازه رفاقهم في المعسكر الثاني. لذلك قرر [بروتوس] ابقاء جنوده تحت السلاح على ان لايجازف بمعركة. ووجد ان عدداً كبيراً من العبيد الذين أسرهم يتحركون حركات مريبة بين أسرى الحرب فأمر بقتلهم كما انه امر باطلاق سراح بعض الأسرى الأحرار مصرحاً ان العدد هو الذي حرمهم في الواقع من حريتهم فهم اسرى وعبيد تحت قيادته في حين انهم مواطنون رومانيون احرار عنده. ولما تبين ان اصدقاءه وضباطه يهمون بالانتقام منهم. انقذهم باخفائهم ثم عاونهم على الفرار.

وكان من بين الأسرى الممثل [ڤولمنيوس Volumnius] والمهرج [ساكيوليو Dacculio] وجد [بروتوس] انهما أقل شانا من يلحظ وجودهما الا ان اصدقاءه جاؤا بهما متذمرين وقالا انهما لم ينفكا عن ارسال النكات الوقحة والتعليقات السليطة في موقف لايحتمل الهزل والمزاح، وكان [لبروتوس] الكثير مما يشغله عن هذه الأمور فلم يقرر شيئاً بحقهما الاّ ان [ميسالا كورڤينوس] ارتأى ان يجلدا علناً فوق المرسح وان يرسلا عاريين الى قواد العدوّ بوصفهما خير رفاقٍ وندمان شراب لأولئك القادة. فضحك الحاضرون. الاّ ان [بوبليو كاسكا]

اول طاعني [يوليوس قيصر] قال:

- أترى من اللائق [يابروتوس] ان نحتفل بجنازة [كاسيوس] بالسخر والمزاح على هذه الشاكلة؟ الاّ اننا سنرى اي منزلة لكاسيوس عندك، من موقفك هنا. هل ستحمي هذين الرجلين اللذين حقراه واساءا الى ذكراه ام ستعاقبهما؟

فأخذت [بروتوس] سورة من الغضب وصاح قائلاً:

- اذن لماذا تسألني عن رأيي ياكاسكا بدلاً من ان تفعل انت نفسك ما تراه مناسباً؟

وقد عُدّ جواب [بروتوس] أذناً بقتل هذين التاعسين فاقفيدا الى حيث قتلا.

بعد هذا اصدر [بروتوس] امراً بدفع المكافأة التي وعد بها الجنود وبعد ان انبهم تأنيباً خفيفاً لأنهم لم ينتظروا كلمة السرّ وانما كرّوا على العدوّ في هجوم طائش دون امرٍ، وعدهم ان يستبيح لهم مدينتي [سالونيكي] و[ليقديمون] ليسلبوهما ان احسنوا القتال في المعركة التالية. كانت هذه التهمة الوحيدة التي لايمكن الدفاع عنه ازاها في سائر حياته. الحق يقال أن [انطوني] و[اوكتافيوس] ارتكبا من اعمال العنف والقسوة ما يفوق هذا بكثير في ابتزاز المكافآت لجنودهما وطرد الأهالي من اراضي أسلافهم في طول ايطاليا وعرضها لاغناء اتباعهما ومن والاهما بالمدن والمقاطعات التي لاحق لهم فيها. الاّ ان الفتح والسلطة العليا هما الهدفان اللذان كانا يتوخيانه من الحرب. في الوقت الذي كان [بروتوس] يتمتع بسمعة واشتهار في الفضيلة بين الناس، حتى انهم لايرونه قادراً على ان يغلب او ينقذ نفسه الاّ اذا استخدم وسائل شريفة عادلة، وقد اصبحت هذه الفكرة عنه أدعى الى الاهتمام بعد موت [كاسيوس] لأنه كان في الماضي يتهّم بحمل [بروتوس] على القيام بمختلف اعمال العنف. والقصة كلها اشبه بالسفينة التي حطمت العاصفة دفتها وهي في عرض البحر، يحاول الملاحون اصلاحها بوضع قطع من الخشب في محل القطع المحطمة، فلا يفلحون في اصلاح متقن وهم يجهدون انفسهم لتفادي الخطر، فينجزوا خير ما يمكنهم انجازه، كذلك [بروتوس] فبعد ان أصبح القائد الأوحد لمثل هذا الجيش العظيم في احرج ساعةٍ ولعدم وجود قائد آخر في مثل كفاءته تراه يضطر الى الاستعانة بالمرؤوسين الذين يملكهم والى تنسيق كثيرٍ من اعماله واقواله مع ما يرونه مقبولاً. وهذا ما جعله يقررّ ان يفعل كلّما يرونه ضرورياً الى اعادة روح جيش [كاسيوس] ومعنوياته لأن الجنود باتوا الآن متمردين يصعب ضبطهم وقيادتهم. ان افتقارهم الى قائد خاصّ جعلهم ثائرين في المعسكر، في حين جعلتهم هزيمتهم يخشون مواجهة العدوّ.

ولم يكن حال [اوكتافيوس قيصر] و[انطوني] بأحسن من تلك فقد بدأ يشكوان شحاً في الارزاق. ولأن معسكرهما قد ضرب في ارض منخفضة فقد ادركهما الخوف من الشتاء القاسي الذي سيعانونه وقد تجمعوا متزاحمين على حافّة المستنقع. وطغت امطار الخريف التي اخذت تنهمر بغزارةٍ بعد المعركة - على خيامهم فاغرقتها في الوحل والماء، فادركته حالة الانجماد مباشرة بسبب البرد الشديد. وبلغتهما في اثناء ذلك انباء النكبة البحرية التي اصابت سفنهما، فقد هاجم اسطول [بروتوس] وحطم عمارة كبيرة تحمل النجدات من ايطاليا الى [اوكتافيوس قيصر] واضطر النفر القليل الذي نجا من المقتلة، الى اكل قلوع السفن وحبال الأشرعة من فرط الجوع، ولما علما بهذا قرّ رأيهما على منازلة بروتوس، قبل ان يحاط علماً بانتصاره البحري هذا. وهكذا حصل القتال البريّ في اليوم الذي انتهت المعركة البحرية لصالح بروتوس. وشاء سوء الحظ ان يجهل بروتوس هذا بخطأ ارتكبه القواد البحريون فلم يبعثوا اليه بالانباء الاّ بعد عشرين يوماً، ولو انه ابلغ في حينه لما دخل المعركة الثانية، لأنه كان موفور الأقرات، حسن المواقع، ومعسكره جيد الحماية لايتعرض الى الطقس الشتوي، منيع تماماً من الناحية المواجهة للعدوّ. اضف الى هذا كله ان علمه بأنه مسيطر على البحر ونصره في المعركة الأولى كان سيملأوه ثقةً واعتداداً.

لكن ايام الجمهورية انصرمت على ما يبدو، ومن الضروري ان يحل حكم الرجل الفرد محلّها. لذلك فلأجل ان تزيح الآلهة الرجل الوحيد القادر على مقاومة السيد الذي قدر له ان يحكم الدنيا، حالت دون وصول انباء النجاح الذي احرزه [بروتوس] في الوقت المناسب. ففي الليلة التي سبقت المعركة الاخيرة لجأ هاربٌ من معسكر العدوّ يدعى [كلوديوس] وقال ان [اوكتافيوس قيصر] علم بهزيمته البحرية وهو لهذا يريد الدخول في معركة مستعجلة. فلم يصدق قصته أحدٌ ولذلك لم يسمح له حتى بمواجهة [بروتوس]. واحتقروه واهملوه بوصفه تاجر اشاعات إمّا سمع خبراً مكذوباً، أو انه اخترع هذه الحكاية لعله يجني من ورائهما نفعاً.

في تلك الليلة ظهر الطيف [لبروتوس] ثانية، بنفس هيئته السابقة الاّ انه غاب دون ان ينطق بحرف. ان الفيلسوف [پوبليوس ڤولمينوس Publius Volwmius] الذي خدم بروتوس في كل معاركة لا يذكر شيئاً عن هذه الآية الا انه يقول ان راية الجيش القائد كانت مغطاة باسراب النحل وان ذراع احد قواد المائة نضحت زيت وردٍ وظلّت تنضح رغم مسحها وازالة الزيت عنها مراراً. وذكر ايضاً ان نسرين اعتركا في الجوّ قبيل المعركة فوق الفُسحة التي تمتد ما بين المعسكرين وراح الجيشان يراقبانهما وقد خيم عليهما الصمت التام ولم يعد يسمع صوت في السهل. وأخيراً كفّ النسر الذي كان الى جهة [بروتوس] وحلق في الجوّ. وهناك

ايضاً حكاية الايتوپي المعروفة الذي لقي حامل اللواء عند مدخل المعسكر حال فتح بابه وكيف ان الجنود قطعوه اربا ارباً لأنهم اعتبروا ظهوره فألا سيئاً.

بعد ان وضع [بروتوس] جيشه في نسق المعركة بمواجهة العدوّ، أخرّ الاشتباك برهة من الوقت لانه شعر شكّ من بعض القطعات وسمع اتهامات بحق أخرى. كما لاحظ ايضاً ان الخيالة لاتبدي حماسة كبيرة لبدء المعركة وانها تنتظر ما سيفعله المشاة. ثم وبدون سابق انذار خرج من الصفوف جندي يدعى [كامولاتوس Camulatus]، وهو مثال العسكري الممتاز - كان [بروتوس] قد قلده شارات الشرف لشجاعته، وانضم الى صفوف العدوّ. الأمر الذي آلم [بروتوس] كثيراً ودفعه غيظه من جهة وخوفه من خيانة او هروبٍ على نطاق اوسع من هذا، امر بالهجوم وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر تقريباً او الشمس قد مالت الى الاصيل. ونجح الهجوم في قطاعه وتغلب حالاً على العدو ومضى في ضغطه مع ميسرته حتى زحزحه عن مواقعه وتقهقر وكرت خيالته ايضاً لمساندة المشاة المتقدمة وهجموا على العدو حالما تبينوا الفوضى التي تسوده. اما في الجناح الآخر، فقد كان منتشراً على جبهة واسعة ليحول دون تطويقه من قبل العدو الذي كان يفوقه عدداً وكانت النتيجة ان القلب أصبح ضعيفاً جداً فلم يفلحوا في صَدّ الهجوم وانكسرت صفوفه ولاذت بالفرار وما ان حقق العدوّ هذه الخطوة حتى التفّ حول مؤخرة بروتوس واجه [بروتوس] هذه الأزمة مواجهة القائد المحنك الموهوب، بكلّ كفاءاته الشخصية وبادارته الدقيقة المعركة. الاّ ان ما كان عاملاً على انتصاره في المعركة السالفة، كان سبباً لانكساره في هذه المعركة، فقد تمّ الاجهاز على كل قوات العدوّ في ميدان القتال في الجزء الذي تحققت هزيمته. الاّ ان قوات [كاسيوس] المندحرة لم يقتل منها الاّ افراد قليلون. لكن المنهزمين امروا بمعنوياتهم على القسم الاكبر من الجيش فثبطوا عزائمهم واشاعوا فيهم الفوضى. وهنا قتل [ماركس] ابن [كاتو] وهو يقاتل ويبدي من ضروب البسالة الواناً بين اشجع الفتيان الپاتريشيين، قاتل حتى خارت قواه وابى انه يستسلم او يهرب بل ظل مشهراً سيفه وهو يصرخ عالياً بانه ابن [ماركوس كاتو] وسقط ميتاً فوق اكداس من جثث الاعداء التي قتلها. وقتل ايضاً اشجع رجال الجيش ضحوا بانفسهم دفاعاً عن [بروتوس].

من بين اصدقاء [بروتوس] الخلص رجل تميز بشجاعة فريدة يدعى [لوچيليوس]. عندما رأى خيالة من البرابرة تجدّ في اثر [بروتوس] دون ان تلقى بالاً على شيء آخر، عزم ان يوقفها مجازفاً بحياته فتنكب الطريق ثم صاح يقول «انابروتوس». وصدقه البرابرة لأنه طلب منهم ان يذهبوا به الى [انطوني] لا غيره، كأنما يخشى ان يأخذوه الى [اوكتافيوس قيصر]. ففرحوا بما اقتنصوا وحمدوا حسن حظهم وجاؤا به ليلاً وارسلوا من يسبقهم الى [انطوني]

ليزفوا اليه النبأ، واستخفه الفرح فخرج لاستقبالهم ومعه كل من سمع بالنبأ وتجمعوا زرافات بعضهم يندب سوء حظه وبعضهم يندد بجبنه الذي يناقض كبرياءه وشعوره بالكرامة، وبعضهم يلومه لتعلقه الشديد بالحياة الذي ادّى به الى تسليم نفسه للبرابرة. واقترب الفرسان وظلّ [انطوني] جامداً في وقفته، يفكر بايّ شكل يقابل [بروتوس]، واذابه يسمع [لوچيليوس] الذي كان واقفاً امامه يقول بجرأة:

- لا أحد من العدوّ اسر بروتوس، ولا احد سيكون قادراً على اسره حيّاً يا انطوني، ان الحظ لم يسمح بهذا النصر على الفضيلة. عندما تعثر على [بروتوس] حيّاً كان او ميتاً فانه سيكون جديراً بنفسه. امّا انا فقد كان اقتيادي اليك بخدعة انطلت على جنودك واني لمستعد لأي عقابٍ ترتأيه بحقي.

وبهت الجميع لصراحة [لوچيليوس]. والتفت [انطوني] الى اسريه وقال:

- اعتقد ان الغضب يعصف بكم للخطأ الذي وقعتم فيه يا رفاقي، وانكم حانقون لأنكم ظهرتهم بمظهر الغباوة والحمق. لكن ثقوا انكم وضعتم يدكم على أسير يسوى اكثر من الرجل الذي انطلقتم للقبض عليه. خرجتم لاقتناص عدوّ، فجئتموني بصديق. اني وقسماً بالآلهة، ما كنت ادري كيف ساعامل [بروتوس] لو جئتم به اليّ حيّاً. لكن أعلم بانه خير لي ان اتخذ من رجل [كلوچيليوس] صديقاً لا عدّواً.

ثم انه عانق [لوچيليوس] وعهد به الى احد اصدقائه لرعايته ثم استخدمه ووجده صديقاً وفياً مقيماً على الصداقة.

في تلك الاثناء عبر [بروتوس] غديراً تظلّه الأشجار وتقوم على جانبيه ضفاف شديدة الانحدار. وادركه الليل فتوقف وجلس مع بعض الضباط والاصدقاء في موضعٍ منخفض من الأرض تستره صخره. ثم شخص بانظاره الى السماء التي طرزتها النجوم وترنمّ ببيتين يسجل احدهما [ڤرلنيوس][٣١].

تذكر يا زفس العظيم مسبّب كلّ هذه البلايا

ويقول انه نسي الآخر. وبعد قليل نطق باسماء اصدقائه الذين قتلوا في المعركة دفاعاً عنه، وأطلق تنهيدات عميقة عندما نطق باسمي [لاپيو] و[فلاڤيوس] اولهما رئيس اركانه وثانيهما قائد سلاح الهندسة. وهنا شعر احد اتباعه بالعطش وتبين ان [بروتوس] يشكو

(٣١) يوريپيس [ميديا] ٣٢٤. يعتبر آپيان Appeian ان بروتوس يتنزل اللعنة من [جوپتر] على انطوني باقتباسه هذا البيت الذي تعلن به بطلة المسرحيه زوجها ياسون Jason الغادر.

العطش ايضاً، فأخذ خوذة ونزل الى الغدير. وفجأة سمعوا ضجة من الجهة المقابلة، فخرج [ڤولمينوس] ليستطلع يرافقه [دردانوس Dardanus] حامل ترسه معه. ثم عادا بعد قليل وسألا عن الماء فأجاب [بروتوس]

- نفد كله.

ثم اضاف وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى

- إلاّ اننا سنأتيك بشيء منه.

وارسل الشخص الذي اتى بالماء اولاً. الاّ انه كاد يقع أسيراً فقد أصيب بجرح ولم ينج الاّ بصعوبة.

بقي [بروتوس] يعتقد انه لم يقتل الكثير من رجاله في المعركة، وعرض احد من اصدقائه واسمه [ستاتيليوس] ان يجد له طريقاً الى معسكر [بروتوس] باختراقه خطوط العدو اذ لم يكن ثم طريقاً آخر للوصول اليه، ويقوم بالاستطلاع، فاذا وجد كلّ شيء على مايرام فسيرفع مشعلاً ويعود. ووصل المعسكر بسلام ورفع المشغل ومَرّ زمن طويل ولم يعد الاّ ان [بروتوس] قال:

- ان كان [ستاتيليوس] حيّاً فسيعود.

لكن يبدو انه وقع في يد العدوّ عند عودته وقتل.

مضى من الليل اكثره. وفيما كان [بروتوس] مقتعداً الأرض مال الى خادمه [كليتوس Cleitus] وكلمه بصوت منخفض فلم يجبه الخادم بشيء وانما انفجر باكيا. وعندها اوما الى [دردانوس] حامل ترسه وانتحى به جانباً واخذ يكلمه، ثم التفت الى [ڤولمينوس] وخاطبه باليونانية مستذكراً السنوات التي قضياها معاً في دراسة الفلسفة ورجاه ان يمسك له بالسيف ويساعده على اغماده في احشائه. فرفض [ڤولمينوس] كما رفض الجميع. وقال احدهم بان لا سبب يدعوهم الى الانتظار وعليهم ان ينقذوا ارواحهم وعندها هب [بروتوس] واقفاً واجاب

- اجل علينا ان ننجو، وفي هذه المرّة ليس باقدامنا بل بايدينا. وبعد ان مدّ يده لكلّ منهم مصافحاً، ابتسم وقال انه معظم بسرور عظيم لانه لم يجد من اصدقائه خائناً. او متخاذلاً. وانا عن الحظّ، فانه لايلومه الاّ من اجل بلاده. وانه ليعتقد بان القدر كان ارحم به من المنتصرين لا في الماضي وحده بل في الحاضر، لأنه سيخلف ذكرى للفضيلة لايستطيع قاهروه بكلّ غناهم وسلاحهم ان يباروها. وستعلم الدنيا بأن الأشرار والظالمين الذي فتكوا بالصالحين العادلين، هم لايصلحون للحكم. ثم بعد ان حثهم على ان يتدبروا أمر سلامتهم تركهم وسار

بعيداً عنهم مع اثنين او ثلاثة من رفاقه ومنهم [ستراتو Strato] وهو احد اعز اصدقائه منذ ان كانا يدرسان البلاغة معاً. اوقف [ستراتو] الى جنبه. ثم امسك بسيفه المسلول من عنقه وبكلتا يديه القى بنفسه عليه فمات. وروى بعضهم ان [ستراتو] امسك بالسيف امامه واعانه بعد ان ادار رأسه الى ناحية أخرى، وان [بروتوس] القى عليه بنفسه بشدةٍ حتى انه اخترق صدره ومات لساعته.

ان [مسالا] الذي كان احد اصدقاء [بروتوس]، ثم تصالح مع [اوكتافيوس قيصر]، وجد له مناسبة بعد فترة من الوقت، ليقدم [ستراتو] الى السيد الجديد، ويقول وعيناه دامعتان:

- هذا يا قيصر الرجل الذي قام بآخر خدمةٍ لبروتوس صديقي العزيز.

فأحسن [اوكتافيوس] استقباله وضمه الى خدمته ووجده كالاغريق الذين يحفون به، شجاعاً في المعارك التي تلت ولاسيما في معركة [اكسيوم]. وتقضي الرواية الى القول ان [ميسالا] نفسه كان موضع ثناءٍ حارٍ من [اوكتافيوس] بقوله: في الوقت الذي كان اشدّ المقاتلين مراساً في معركة فيليپي الى جانب بروتوس، اثبت انه أخلص واصدق خلٍ له في معركة [اكسيوم]. فردّ [ميسالا] على هذا بقوله:

- لقد قاتلت يا قيصر الى جانب الأفضل والاكثر عدالة دائماً.

عندما عثر [انطوني] على جثة [بروتوس] امر ان تلف باثمن عباءة ارجوانية عنده. ولما علم بعدئذ ان لصاً اقدم على سرقته، قبض عليه وقتله. وارسل رماد [بروتوس] الى [سرفيليا] امه. وامّا عن [بورشيا] زوجه، فقد روى كلّ من [نيقولاوس Nicoloüs] الفيلسوف وفاليريوس ماكسيموس Valerius Moximus] انها تمنت الموت وحاولت انهاء حياتها الاّ ان صديقاتها حلن دون ذلك ولازمنها ملازمة الظلّ، ولم يدعنها تغيب عن انظارهن. الاّ انها استطاعت في غفلة منهن ان تختطف جمرة فحم من الموقد وتصنعها في فمها وتشد عليها بالنواجذ حتى اختنقت وماتت. الا انه يوجد لدينا الآن رسالة من بروتوس الى اصدقائه ويرثي فيها [بورشيا] ويتألم لمصيرها ويلومهم لأنهم اهملوها حتى انها فضلت الموت على الاستمرار في مرضها. ويبدو ان نيقولاوس قد أخطأ في حساب الزمن. فهذه الرسالة تعلمنا بان [پورشيا] كانت مريضة. كما تعلمنا عن حبها لزوجها. وعن كيفية موتها. لو كانت رسالة [بروتوس] صحيحة.

١٩٧٢/٢/٢٧

أوجه المقارنة بين ديون وبروتوس

هناك مواقف نبيلة لاتحصى في خلق هذين الرجلين. ومما يستحق الذكر منها بالدرجة الأولى هو وصولهما قمة المجد، بوسائل بسيطة محدودة تكاد لاتذكر. والارجحيّة تكون [لديون] اذا اخذنا بسبيل المضاهاة. فقد كان يجاهد وحيداً لا شريك له، كما كان [لبروتوس] شريكه [كاسيوس] فهذا وان لم يكن مساوياً له في السجايا والمناقب الا انه ساهم بقدر كبير في مجهودات الحرب بجرأته وخبرته ونشاطه. وهنا من يعزو اليه المجهود كله من بدايته الى نهايته، فيقولون ان [بروتوس] لم يشأ ان يتحرك. وان [كاسيوس] هو الذي دفعه ضد [قيصر] في حين كان [ديمون] صاحب الفكرة والمنظم. ولم يقتصر مجهوده على توفير السلاح والسفن والجنود، وانما على تعبئة الانصار والموالين ولم يعمد كبروتوس الى جمع الأموال وتجنيد الرجال بالحروب والقسر وانما انفق على الحرب من حُرّ ماله مستخدماً رزقه ومدار عيشه في منفاه اداة لتحرير بلاده. اضف الى هذا ان [بروتوس وكاسيوس] بعد هروبهما من روما لم يجدا الراحة والطمأنينة لانهما كانا قد حكما بالموت ولما لوحقا الجأتهما الضرورة الى رفع السلاح والمقامرة بحياتيهما دفاعاً عن نفسيهما اكثر منه دفاعاً عن بلادهما ونجد ديون من ناحية أخرى يتمتع برغد من العيش في منفاه، كما ينعم بالسلامة والراحة الأ انه خاض الأهوال وركب الشدائد انقاذاً لصقلية فحسب.

وعليك ان تلاحظ ايضاً ان تحرير الصقليين من نير [ديونيسيوس] وتحرير الرومان من حكم [قيصر] لم يكونا بمستوى واحد. فاولهما كان مستبداً لا شائبة في استبداده لم يكن لآثامه وشروره بحق الصقليين حَدّ. ومع ان سلطة [قيصر] المطلقة نكبت الناس في اولى مراحل تكوينها وابتلتهم بشتى المحن ولاسيما الذين وقفوا في وجهها، الأ انها خففت من غلوائها بعد ان ثبتت أسسها وحققت انتصارها ولم يعد باقياً منها غير اسمها ومظاهرها. واذا نظرنا الى العلل والادواء التي كان يشكو منها المجتمع والحكومة في تلك الفترة، فيمكن القول ان الحكم الفردي المطلق. كان هبة سماوية تدخلت كما يتدخل ارق الأطباء والطفهم في معالجة مرض عضال. ولذلك عمّ الأسى سواد الشعب بصورة لا شعورية عندما قتل [قيصر] وتعاظم

غضبه وسخطه على قاتليه. في حين كانت جريمة [ديون] الكبرى في اعين ابناء وطنه، هو انه ترك سبيل الفرار مفتوحة امام [ديونيسيوس] وانه حال دون تخريب ضريح والده المستبد الاول.

امّا في فنون الحرب وقيادة الجيوش فقد كان [ديون] مثال القائد المحنك، لايتمسك بالاوامر والخطط التي يرسمها وانما يظلّ يعيد فيها نظره ويحسّنها وفي حين كانت خطط الآخرين ونصائحهم تؤدي به الى اسوء العواقب رأيته دؤباً على تصحيحها وتقويم اعوجاجها. وكان [بروتوس] على ما يبدو متسرعاً في معركته الأخيرة التي قدر لها ان تكون المعركة الحاسمة التي يتوقف عليها كل شيء. ولما أخفق فيها لم يقم بما يحتمه عليه واجبه في تدبّر العلاج، بل ادركه اليأس التام وتخلّى عن كل شيء ولم يتحدّ سوء الحظ، ولو بالقدر الذي فعله [پومپي]، في حين كان جيشه سليماً تقريباً واسطوله يسيطر على البحار سيطرةً تامة. ان جريرة [بروتوس] الكبرى هي انه لم يتورع عن نقع يده بدم [قيصر] الذي انقذ حياته اولاً ثم قبل شفاعته في صدقانه كلّهم فعفا عنهم اكراماً له. مثل هذا لايمكن ان ينسب الى [ديون]. لقد كان من اسرة [ديونيسيوس] وكان صديقاً له. نفعه وخدمه خدمات جليلة. ولم يناصبه العداء الاّ بعد ان طرده من بلاده واساء الى زوجه وصادر املاكه، اذ ذاك اعلنها حرباً مشروعة عادلة صريحة.

ولنتحول الآن الى وجه مقارنة أخرى.

ان اعظم مجدٍ نالاه، نجم اصلاً عن بغضتهما الاستبداد والشرّ هذا البغض في [بروتوس] لم يكن مشوباً بعاطفة شخصية، اذ لم يكن بينه وبين [قيصر] خصومة او عداء. ولكنه عرض نفسه للأخطار توخياً لحرية بلاده. امّا [ديون] فما أعلن الحرب الا بعد ان جرحت مشاعره وهذا ما تجده في رسالة لافلاطون، يقول فيها لقد شنّ حرباً على [ديونيسيوس] لأنه طرد من البلاط ولم يتركه مختاراً. زد على هذا ان المصلحة العامة وصلت حبل بين [بروتوس] و[پومپي] وازالت العداء الذي كان اولهما يضمره للثاني، وجعلته في الوقت نفسه عدواً [لقيصر] ولذلك كان العدل هو معيار صداقات [بروتوس] وعداواته.

كان [ديون] مخلصاً في خدمة [ديونيسيوس] عند تمتعهم بالحظوة لديه ولما لم يعد موضع ثقةٍ منه، ثارت ثورته واحتكم الى السلاح. لذلك لم يثق احدٌ بان [ديون] سيبرّ بوعده، وكان سائر الناس يشكون في انه سيحلّ مَحّل [ديونيسيوس] في تفرده بالملك وطغيانه حال تغلبه عليه. ولم يكن اصدقاؤه انفسهم بمنجى عن هذه الشكوك، فقد توقعوا انه سيموّه استبداده باتخاذه عنواناً لحكمه لطيف الوقع لا يورث رهبة في النفس كلقب الطاغية. اما [بروتوس]

فاعداؤه انفسهم يقرون بان هدفه الأول والأخير كان اعادة نظام الحاكم الجمهوري السابق للشعب الروماني.

ولو طوينا كشحا عن كل ما اتينا لذكره آنفاً فان المؤامرة التي دبرت للقضاء على [ديونيسيوس] لم تكن بمستوى تلك التي نسجت ضد [يوليوس قيصر]. فلم يكن ثمّ قريب او صديق الا عاب على [ديونيسيوس] حياة الخمول واللهو التي يعيشها بين الخمر والنساء والقمار. في حين كان يحتاج الى بطولةٍ واباء وعزة لكل نفس تتبنى فكرة القضاء على [قيصر] الذي تشيع مواهبه وعبقريته الرهبة والجلال. لقد كان سلطانه وسعده بله اسمه فحسب يقض مضاجع ملوك البارثيين والهند.

ما وقعت انظار الصقليين على [ديون] الاّ واسرعوا ينضمون اليه بالالوف لمقارعة [ديونيسيوس] في حين استمد الاصدقاء قوةً من شهرة [قيصر] وصيته بعد مماته. ان اسمه وحده رفع من قدر ذلك الذي اتخذه لقباً لنفسه، فنقله من صبيّ غرّ غير معروف الى زعيم الرومان الأوحد بزمن قصيرٍ جداً. لقد استخدمه ضدّ خصومه كما تستخدم الرقية، حتى ضدّ [انطوني] بالذات. وان اعترض احدهم بقوله ان [ديون] عانى الكثير من المشاق والأخطار ليحقق نصره على الطاغية، وان [بروتوس] نال من [قيصر] مأربه وهو اعزل لايحميه احدٌ؛ فنحن نرى في ذلك تدبيراً دقيقاً وتنظيماً محكماً يتسم بالحذق ان تنال رجلاً جيد الحراسة منيع الجانب وهو اعزل ومن دون حماية. انه لم ينقض على [قيصر] ولم ينفرد به ولا ظفر به في قلة من اتباعه، وانما توصل الى ذلك بأناة واحكام خطةٍ اقتضته وضع الثقة التامة في عدد كبير من الرجال لم ينمّ عنه واحد منهم والامرسيان سواء اتمتع [بروتوس] بموهبة الفراسة وتقديم الرجال الافاضل. واما انه جعلهم كذلك بمجرد وضع ثقته فيهم والعكس يصدق على [ديون] فإما انه كان اخطل الحكم على الرجال باعتماده على اراذلهم وامّا انه جعلهم كذلك بمجرد وضع ثقته فيهم فأنقلب صالحهم طالحاً. كل افتراض من هذين يصلح ان يكونا موضع تفكير للمتأمل العاقل. ان افلاطون نفسه لم يشفق على [ديون] في حكمه اذ قال انه اساء اختيار اصدقائه، فقد خانوه وغدروا به.

زد على هذا انه لما قتل [ديون] لم يحرك احدٌ ساكناً للثأر له، في حين وجد [بروتوس] بين اعدائه زعيمهم [انطوني] يتكفل بتشييعه تشييعاً فخماً. واتخذ [اوكتافيوس قيصر] ايضاً التدابير اللائقة للمحافظة على جلال قدره. ففي [ميلان] الواقعة في بلاد الغال الألپيّة. اقيم تمثال من البرونز له. فلفتت نظر [اوكتافيوس] اليه دقة صنعه وقرب الشبه بينه وبين صاحبه، فتوقف. وبعد ان سمع اقوالاً كثيرة استدعى ولاة الأمر في المدينة فمثلوا بين يديه. فقال لهم:

- ان مدينتكم نقضت احكام المعاهدة. فهي تاؤي عدواً.

فانكر هؤلاء تلك التهمة بشدّة، واخذوا يتبادلون نظرات الحيرة، وقد غمض عليهم مراده. وهنا استدار [اوكتافيوس قيصر] نحو التمثال وقال مقطباً:

- اسمحوا لي! اليس هذا عدونا الذي ينتصب هنا ؟

فأضطربوا ولم يحضرهم جواب. ولكن [اوكتافيوس] عاجلهم بابتسامة واثنى على مواطنيهم الغاليين الذين اظهروا اخلاصهم لاصدقائهم حتى عندما تنزل بهم المصائب وامر بان يبقى التمثال كما كان.

أراتوس

ARATUS



اذكر يا پوليقراطس Polycrates ان خرسيپوس Chrysippus] الفيلسوف، كان قد اقتبس مثلاً من امثال القدماء السائرة بعد تحويره. واعتقد ان ما دفعه الى هذا هو ما توهم فيه من خشونة شديدة، فهذب فيه وجعله كالآتي:

«مَنْ مادح الآباء، غير اكرم الابناء؟».

الاّ ان [ديونيسيودورس Dionysudorus] الترويزيي اثبت خطأه في ذلك واعاد قراءته الاصلية الصحيحة هكذا:

«من مادح الاباء، غير أفسد الابناء؟»

ويشرح المقصود فيقول ان المراد منه هو كَمّ افواه اولئك الذين تجردوا عن كل المؤهلات، ومنعهم من الاحتماء بفضائل اسلافهم، واستعلائهم على غيرهم بمدح ابائهم. ولله در [پندار] الشاعر اذ يقول:

انه ذلك الذي يرث بحكم الطبيعة

روحاً نبيلةً عن اسلافه

هو الذي جعل حياتك نسخة صادقة من اصول اسرتك. اقول ان امثالك يغتبطون كثيرون عندما يُذكرون بأنبل واشرف اسلافهم عن طريق حديث الآخرين عنهم. او بحديثهم هم انفسهم. ان امثالك لايستغلون فوائد الثناء الذي يستحقه الآخرون لأنهم يفتقرون اليه لضعة شأنهم. الاّ انهم يضيفون مآثرهم الى مآثر اجدادهم فترتفع منزلتهم باعتبارهم اصلاً لاخلاقهم ولنسلهم. ولذلك ابعث اليك [ياپوليقراطس] بما كتبته من سيرة احد اجدادك الأعلين ومواطن من مواطنيك - وهو [اراتوس] الذي لا تقل انت عنه مكانةً وسلطاناً. لا لأنك بحاجة الى معلومات عنه وعن مآثره، بل ليكون ابناك [پوليقراطس وپيثوكلس] واقفين على مثل من تاريخ اجدادهما، قراءة وسماعاً. مثل يجدر بهما ان يحتذياه ويسيرا على نهجه. فمن الأثرة وحبّ النفس لا من حب الفضائل ان يتصور الأنسان بانه سبق الى الوصول الى الفضيلة والصلاح.

بدأت احوال مدنية [سيكيون Sicyon] تسوء وسادتها الفوضى عمّها والاضطراب منذ خروجها من يد الحكم الدوري Dorie الارستقراطي النزيه (دالت دولته واستظهر الغوغائيون بمنازعاتهم الشخصية فتعاقب على المدينة سلسلة من الفتن والثورات). وهكذا راحت تتنقل من يد مستبدٍ الى يد مستبدٍ آخر، حتى مقتل [كليون Cleon]. فأنتخب [تيموقليدس Tim-oclides] و[كلينياس Clinias] لحكمها. وهما رجلان حسنا السمعة رفيعا المقام بين المواطنين. فبدت احوال الجمهورية متجهة نحو الأمن والاستقرار. ثم توفي [تيموقليدس] ووثب [ابانتيداس Abantidas] ابن [پاسياس Paseas] على [كلينياس] فقتله فخلاله الجو واستبد بالحكم فأهلك عدداً من اقربائه واشياعه ونفى بعضهم. وهم ايضاً بقتل ابنه [اراتوس] الذي كان عند مقتل ابيه طفلاً لايتجاوز السابعة. الاّ ان الصبي خرج من وسط الفوضى التي سادت وقتذاكٍ وانضم الى الهاربين وراح يتجول في انحاء المدينة على غير هدى مرتعباً وجلاً شريداً، وتشاء الصدف ان دخل خلسة منزل اخت [ابانتيداس] التي هي زوج [پروفانتس Prophantus] أخ [كلينياس] واسمها [سوسو Soso]. عرفت هذه المرأة بطيبة القلب. وقد اعتقدت بأن العناية الآلهية هي التي قادت [اراتوس] الى بيتها، فعمدت الى اخفائه في منزلها. وعندما جنّ الليل بعثت به الى [ارغوس].

بهذا كتبت [الاراتوس] السلامة. وطوت نفسه من البداية الى النهاية على حقدٍ وكره جارف بالاستبداد والمستبدين كانا يشتدان بمرور الزمان. ونشأ بين اصدقاء ابيه ومعارفه في [ارغوس] وتلقى ثقافة حُرة وكان جسمه صحيحاً قوياً فاتخذ المصارعة هواية، وتدرب في غيرها حتى اتقن ممارسة الالعاب الخمس ونال بعض تيجان التفوق. وتماثيله في الواقع تبرز تكوينه الرياضي، ولم يكن استخدامه ادوات الرياضة لتخفي رجاحة عقله وجلال سيمائه. ولم يدرس فنيّ البلاغة والخطابة محتجاً بأنها لاتناسب رجل السياسة، الاّ انه كان اقوى عارضةً مما يظنه الكثيرون واذا حكمنا من التعليقات التي خلفها. وقد كتبت باسلوب مهملٍ غير منّمق مستعجل ولم ينتق تعابيره وانما استعمل اول ما خطر بباله منها.

وبعد مرور فترةٍ من الزمن وثب [دينياس Dinias] و[ارسطوطوليس Aristoteles] على [ابانتيداس] فقتلاه، وكان معتاداً الحضور في الساحة العامة لسماع مناقشاتهم ومشاركتهم فانتهزا فرصتهما ونفذا مؤامرتهما فيه هناك. فخلفه في الحكم والده [پاسياس]، ماعتم ان أغتيل بيد [نيكوكلس] الذي تفرد بالحكم ولقد قيل انه يشبه [پرياندر Periander] ابن [كپسيلوس Cypselus] شبها غريباً، كما قيل ان [اورونتس Orontes] الفارسي، يشبه [الكميون] ابن [امفياروس Amphiaraus]. وكالشبه بين [هكتور] وبين ذلك الشاب

اللقيديمي الذي تقاطر الناس لرؤيته ومزقوه ارباً وطئاً باقدامهم.

حكم [نيكوكلس] هذا، اربعة اشهر، وارتكب خلالها شتّى انواع الموبقات واقدم على المحرمات، وكاد يترك المدينة فريسة في ايدي الايتوليين. في ذلك الزمن بلغ [اراتوس] مبلغ الشباب، وكان موضع تقدير لعراقة اصله ولسجاياه العالية غير الاعتيادية لروحه الوثابة الصلبة. ولأصالة رأيه مما لايناسب سنه. فاتجهت انظار المنفيين اليه وبنوا الآمال عليه. ولم يكن [نيكوكلس] بغافل عنه فقد أخذ يتجسس عليه ويتابع حركاته وسكناته سراً لا خوفاً من محاولة جريئة واسعة النطاق يقوم بها للاطاحة بحكمه. وانما لشكوك ساورته بانه يراسل الملوك الذين كانت تربطهم بوالده روابط صداقة ومعرفة. في الواقع انتهج [اراتوس] هذا السبيل لكنه من [انتيغونس] إعراضاً وقلة اهتمام ومماطلة بعد العهد الذي قطعه له. كما اتضح له ان الآمال التي بناها على مصر ومساعدة بطليموس لايمكن ان تتحقق في المدى القصير. ولذلك قرر القضاء بنفسه على الطاغية.

واول من افضى اليه بسرّه، [ارسطوماخس] و[اقديلس Acdelus]. واولهما احدى منفيي [سيكيون] وثانيهما فيلسوف اركادي من [ميغالوپوليس]، رجل عملٍ وحميّة، وصديق [اركيسلاوس] الاكاديمي في اثينا. فحبذا له الفكرة وانضما اليه ثم اتصل بالمنفيين الآخرين فأنضم اليه نفر قليل منهم خجلوا من الظهور امامه بمظهر اليائس من النجاح. اما الاغلبية فقد حاولت ردّه عما اعتزمه ووصفوه بالمتهور القليل التجربة. والجريء الى حَدّ الطيش.

وفيما هو يعمل لا نشاء قاعدة انطلاق له في [سيكيونيا] يشنّ منها الحرب على الطاغية. وصل ارغوس اخُ لاحد المنفيين المدعو [كزينوقلس Xenocles] هارباً من السجن. فقام اخوه بتعريفه له. واصفاً له ذلك الجزء الذي تسلقه من السور، قائلاً انه بمستوى الأرض من الناحية المواجهة للمدينة كما انه يجاور ارضاً صخرية مرتفعة وانه يمكن الصعود اليه بالسلالم. فأسرع [اراتوس] بارسال [كزينوقلس] وتابعيه [سيوثاس Seuthas] و[تخنون Technon] لالقاء نظرةٍ على السوَر. فاذا كان تسلقه ممكناً جازف بالعملية وقامر بكل شيءٍ لانها افضل من الاشتباك في صراعٍ طويل الأمد بين انسان محدود الموارد وبين طاغية مستبدٍ. او شنّ حرب تتحكم منها القوة والعدّة، وعاد [كزينوقلس] ورفيقاه بعد ان قاسا ارتفاع الجدار فأفادا بأن تسلق هذا الجزء من السور ليس مستحيلاً ولا عسيراً. الا ان الاقتراب منه سراً فيه صعوبة كبيرة. لوجود مجموعة من الكلاب الصغيرة الجسم النبّاحة التي لا شبه بشراستها، يملكها بستاني منزله قريب من السور. فقرّ رأيه على الخطة في الحال.

ولم يكن تجميع السلاح والاستعداد للحملة ليثير تقولاً وشكوكاً في ذلك الزمن لأن قطع

الطرق، واعمال النهب الصغيرة كانت من الأمور اعتيادية تمارسها الجماعات بعضها ضد بعض في كل مكان. اما موضوع السلالم وادوات التسلقّ فقد قام [يوفرانور Euphranor] احد المنفيين وهو صانع ادوات، بعلمها على ملأى من الناس لان مهنته كانت ترتفع به عن المظنة. واما حاجته من الرجال فقد مدّه كلّ من اصدقائه في [اراغوس] بعشرةٍ من العدد القليل الذي يملكونه، وسلّح هو ثلاثين من اتباعه وخدمه واستأجر من [كزينوفيلوس Xenophilus] زعيم رؤساء قطاع الطرق عدداً قليلاً من الرجال، زاعماً له انه سيغزو بهم اراضي [سيكيون] لينهب خيول الطاغية الخاصة. وارسل معظم الرجال قبله شراذم قليلة العدد الى برج [وليغنوتس Pol-ygnotus] وامرهم بانتظاره هناك. وارسل ايضاً [كافيسياس] مع اربعةٍ بسلاحٍ خفيف لدخول منزل البستانيّ عند حلول الظلام بوصفهم مسافرين وان يحتالوا على المبيت فيه، وما ان يتمكنوا من البستاني حتى يتحجزوه هو وكلابه. اذ لم يكن ثم وسيلة لتأمين الطريق غير هذه. امّا ادوات التسلق فقد صنعت بشكل يمكن تفكيكها وتركيبها عند الحاجة. فوضعت في صناديق وارسلت مسبقاً في عرباتٍ. وفي اثناء ذلك ظهر بعض جواسيس [نيكوكلس] في ارغوس. وقيل ان مهمتهم هي مراقبة [اراتوس] خفيةً، فاحتال على خداعهم بان نزل في بكور اليوم التالي الى الساحة العامة واظهر نفسه لاكبر عدد من الناس وتحدث الى كثير من اصدقائه، ثم قصد الساحة الرياضية وهناك دهن جسمه بالزيت ودعا الى منازلة عدد من الشبان الذين اعتاد عشرتهم والشرب معهم. ثم ارسل خدمه الى السوق فاحدثوا ضجّة وجلبوا انتباه المارة بما حملوه من الاكاليل وابتاعوا من مشاعل وقصدوا المغنيات والراقصات اللاتي اعتدن احياء الليالي للاتفاق معهن، ولم يفت ذلك الجواسيس الذين كانوا، يراقبون كل شيء، وانطلت عليهم الخدعة وايقنوا ان [اراتوس] في شغل شاغل عن [نيكوكلس] بحفلاته فتضاحكوا وقالوا:

- لعمركم! أرايتم أجبن من [نيكوكلس]. ان يتم طاغية وسيداً لمثل هذه المدينة المنيعة، وآمراً مطاعاً لكلّ هذه القوات يخشى شاباً متهتكاً متلافاً ينفق القليل الذي يكاد لايكفيه ستر الخلّة في منفاه، على اللهو والمجون النهاري لا الليلي!

واقتنعوا بما رأوا واستنتجوا وعادوا الى بيوتهم.

الآ ان [اراتوس] خرج من منزله بعد تناول الفطور مباشرة واجتمع بجنوده في برج [پوليغنوتس] وسار بهم الى [نيميا Nenea]. وهناك فاتحهم ولأول مرة بما في نفسه وكشف لهم عن غايته الحقيقية وبذل لهم شتى الوعود وقطع لهم العهود بالعطاء الجمّ ثم تقدم من المدينة وابلغ كلمة السرِّ وهي «ابوللو الظافر» وحرص ان يستفيد من نور القمر وهو في سراه

فلا يغيب الاّ ويكون قد بلغ البستان المجاور للسور. وتمّ ذلك فعلاً. وكان في استقباله [كانيسياس] الذي اعلمه انه لم يستطع احتجاز الكلاب لأنها هربت قبل ان يتسنى القبض عليها. غير انه تمكن من البستاني وحبسه. وهنا ساد رجال الحملة القلق وهبطت معنويات غالبيتهم. فأخذ [اراتوس] يقوي عزائمهم. وتعهد بأن ينكص على الاعقاب ان اثارت الكلاب ضجةً. وارسل امامه حملة السلالم بقيادة [اقديلوس] و[مناسيتيوس Mnasitius] وسار في اثرهم متثاقلاً. وهنا بدأت الكلاب تنبح نباحاً شديداً وتتابع خطى [اقديلوس] وزملائه. على انهم بلغوا السور وثبتوا السلالم دون حادث او عقبة. ولما باشر اول الرجل بالتوقل، بدأ آمر الحرس القديم يقوم بجولته التفقدية الأخيرة وبيده الناقوس. تمهيداً للتبديل الصباحي. وسمع المهاجمون جلبة الحرس المقتربين بانوارهم فالتصقوا بالسلالم فلم ينتبه الهم أحد الاّ ان الخطر من افتضاح امرهم زاد بدنو الحرس الصباحي لتسلم الحراسة من البدل، على انه مَرّ بهم دون ان ينتبه اليهم. فأسرع [مناسيشيون] و[اقديلوس] الى اعتلاء السور، وسيطروا على المداخل والمخارج، وارسلوا [تنحنون] الى [اراتوس] يستعجلونه القدوم.

كانت المسافة قصيرة بين الروضة والسوّر والبرج الذي قام كلب ضخم على حراسته. لم يسمع الكلب وقع اقدامهم من بلقاء نفسه اما لأنه كان بليداً بطبعه او لانه بات تعباً في جولات النهار، لكن نباح كلاب البستاني ايقظه، فبدء يهرّ ثم ينبح رداً على الكلاب، بعدها اطلق نباحاً شديداً عند مرورهم به ثم تعالى النباح وتعاظم حتى ان الديدبان الذي كان بمواجهته، نادى وليّه ليتأكد من سبب نباحه المتواصل. وليستفسر منه عما اذا استجدّ شيء. فأجاب صاحب الكلب بالاّ شيء هناك. وان سبب نباح كلبه هو سقوط انوار الحرس عليه ورنين نواقيسهم. وشدد هذا من عزيمة جنود [اراتوس]. وقد ظنوا ان صاحب الكلب هو رفيق لهم يعرف مقدماً بخطتهم وانه يعمد الى تغطية عمليتهم. وراح الوهم بهم الى ان ثمة شركاء وانصاراً لهم من أهل المدينة. ولكنهم وجدوا صعوبة شديدة في تسلق السور فضلاً عن الوقت الطويل والجهد الذي تستلزمه. فقد أخذت السلالم تتأرجح بهم وتهتزّ. فلجأوا الى الرفق في معالجتها، وأخذوا يتسلقونها واحداً واحداً. كان الوقت يمضي سريعاً، لان الديكة بدأت تصيح واهل الريف الذي اعتادوا جلب سلعهم الى سوق المدينة، يوشكون ان يصلوا فعجل [اراتوس] بالصعود وكان قد سبقه الى اعتلاء السور اربعون فقط، ثم انتظر قليلاً حتى انضم الى الاربعين نفر آخر وبقي الآخرون خارج السور، لم ينتظر [اراتوس]، وتقدمهم الى قصر الطاغية ودار الحكومة حيث مهاجع الجنود المرتزقة. وهناك فاجأوهم بسرعة خاطفة فأسروهم جميعاً ولم يقتلوا منهم احداً. ثم اسرع ينبئ انصاره واصدقاءه في المدينة فخفوا اليه مسرعين من كل

صوب وبدأت خيوط الصبح تنفرط وامتلأ الملعب بالجمهور وقد ساده التوتر للانباء المتضاربة التي أخذت تطرق اسماعه، ولجهله بحقيقة ما يحدث. وبينما هم في هذه الحال تقدم منادٍ عمومي واعلن قائلاً: ان [اراتوس] ابن [كلينياس] قد دخل المدينة وهو يدعو المواطنين الى استعادة حريتهم.

وما ان تأكدوا ان الحلم البعيد الذي ساورهم قد تحقق، حتى اندفعوا زرافاتٍ ووحدانا الى منافذ قصر الطاغية لاشعال النار فيه وسرعان ما تصاعدت النيران الهائلة وسرت في ابهائه فأصبح شعلة واحدة من اللهب شوهدت من مدينة [كورنث] وراح اهلها يضربون اخماساً باسداس عما يجري في [سيكيون] وفكروا في ارسال نجدة. وهرب [نيكوكلس] سراً من المدينة بنفقٍ يمتد تحت الأرض. وتعاون رجال اراتوس مع اهل المدينة على اخماد النار وبهذه الوسيلة اقدموا على نهب كل ما في القصر ولم يعترض [اراتوس] على هذا بل زاد عليه بتوزيع ممتلكات الطاغية على الجميع ولم يفقد في هذه العملية الجريئة رجلاً واحداً وشاء الحظ كذلك الاّ تراق قطرة دمٍ من الأهلين.

اعاد [اراتوس] ثمانين منفياً كان [نيكوكلس] قد ابعدهم، وما لايقل عن خمسمائة آخرين نفاهم من سبقه من الطغاة فقضوا سنيناً طوالاً مبعدين عن اوطانهم، حتى امتد النفي ببعضهم الى خمسين عاماً، وعضهم الفقر بنابه. وأدقع بعضهم. ولهذا كانوا يريدون استعادة املاكهم ومنازلهم بكل سرعةٍ وهو ما آحرج موقف [اراتوس] كثيراً. فقد كثرت المنازعات وعمت الفوضى مدينة صارت المدن الاخرى تغبطها لزوال حكم الاستبداد وشروق شمس الحرية عليها. وهي في الوقت نفسه مطمح انظار [انتيغونس] فلم يجد مندوحة من ضمها الى الحلف الأخائي، وان كان اهلها دوريين أصلاً وبذلك اتخذوا المواطنة الآخائية وان لم يكن هؤلاء في ذلك الحين قوة يعتد بها او ذوي مكانة موموقة في بلاد الاغريق. كان معظمهم يعيش في بلدان صغيرة، ولاتتميز ارضهم بالخصوبة او السعة. ويكاد الساحل كله يكون خالياً من ميناء وهو جرف صخري برمّته. ومع ذلك كله فلطالما ضربوا بشجاعتهم الفائقة امثلة لسائر الاغريق عندما يتحدون وينتظمون تحت قيادة محنكة موجهة وقلما عد الاخائيون جزء من القوات اليونانية حتى جاء زمن لم تكن قواتهم تضاهى قوة مدينة اعتيادية الحجم الاّ ان حصافتهم وتماسكهم وتخلصهم من رذيلة التحاسد وحبك الدسائس واطاعة الفضلاء والاكارم منهم والتسليم بالقيادة مكنتهم من المحافظة على استقلالهم وحريتهم وهم محاطوان بمدن كبيرة وملوك يقودون جيوشاً قوية بل اهلتهم للقيام بدور المنقذ والمحرر لكثير من الاغريق.

وكان اراتوس مثلاً رائعاً لرجل الدولة. فقد تميز بعقل راجح وانكار للذات كما انه كان دوماً

يقدم المصلحة العامة على مصلحة الخاصة، ويجعل من الحيز العام مبدءً وشريعة في صداقاته وخصوماته ولذلك كان عدواً كريماً سمحاً اكثر منه صديقاً وفياً. يتكيف بحسب الظروف السياسية في هذا المجال وكان شديد الكره للطغاة والمستبدين ولذلك وضع نصب عينيه احلال التآلف بين شعوب الاغريق وتآخي مدنهم وتحرى الوصول الى الاجماع في التصويت على القرارات في الجمعيات العامة والمجالس المحلية.

وكان يشكو الضعف في السلاح والقلة في الرجال. لكنه كان يحقق بالسياسة والبراعة بالتعامل مع المدن والامراء ما يعز تحقيقه بالقوة والحرب. وقد نجح والحق يقال في كثير من الاعمال التي لم يكن لها اي حظّ من النجاح على ان ترك كبيراً من المشاكل السهلة كما يبدو - بدون حلٍ او معالجة لأنه كان ضعيف الثقة بنفسه. والذي يلاحظه المرء ان ثم حيوانات ضعيفة نهاراً لا تبدو قوتها الا في الليل، لرقة اخلاط أعينها التي لاتتحمل ضياء النهار، وشبيه بهذا نوعٌ من البراعة والحكمة البشرية، لايمكنها البروز والنجاح في العلانية. وانما تحقق غاياتها وتصل الى اهدافها في الخفاء والسريّة. وهو نقص عقليّ ان وجد في ذوى الكفاءة فسببه فقرهم في الفلسفة. عقلٌ كهذا هو أشبه بثمره فجة من ثمار الفضيلة لاتكشف عن نضوجٍ صحيح.

بعد ان دخلت [سيكيون] في اتحاد مع الأخائيين. تولى [اراتوس] قيادةً في صنف الخيالة فاحبّه ضباطه الآمرون لما تميز به من اطاعة للأوامر، فقد كان مستعداً كاي جنديٍ لتلقي اوامر الجنرال الآخائي وتنفيذها مثل اي مواطن [دايني Dynae او تريراي Triræa] مع انه ساهم بعدد كبير من الخيالة في قوات الحلف او اي مواطن من مواطني مدن اصغر من هاتين شأناً. واهداه الملك خمسة وعشرين تالنتاً. فوزعها على المحتاجين من مواطنيه واستخدمها لافتداء الأسرى منهم.

واصبح المنفيون العائدون معضلة. وقد صعب ارضاؤهم واسكانهم وظلّوا مصدر ازعاج لواضعي اليد على ممتلكاتهم. وباتت [سيكيون] على قاب قوسين من الفوضى والانقسام الداخلي. ولم يعد لاراتوس أملٌ الاّ بمساعدةٍ يتلقاها من [بطليموس] فقد رحل اليه يطلب المال منه، ليفض النزاعات المالية في داخل المدينة. وابحر من موثونه Mothone، فيما يلي [ماليا Malea] وهو طريق مباشرة لاوقف فيها. الاّ ان الملاح جوبه بريح قوية وامواج عالية مندفعة من البحر فلم يقو على توجيه سفينته في الطريق المنتوى وحاد عنه الى الساحل بعد معاناة كثيرٍ من الأهوال وجنح الى [اندارس Andras] وهي ارض عدوة من ضمن املاك [انتيغونس] كانت له فيها حامية عسكرية. فأضطر [اراتوس] الى ترك السفينة حال بلوغها

الساحل، ونفذ الى داخلية البلاد وليس معه غير تابع واحدٍ يدعى [تيمانثوس Timanthes]. فأخفيا نفسيهما في غابة كثيفة واستراحا ليلة واحدة. وبعد مرور حين من الوقت على رسو السفينة اقبل قائد الحامية وسأل عن [اراتوس] فضلله الخدم بقولهم انه قصد جزيرة [يوبيا Eubœa]. فأعتبر السفينة وحمولتها غنيمة شرعية واحتجز كل من كان على ظهرها. اما [اراتوس] فبعد ان قضى اياماً في ضيقٍ شديد ساقت اليه الصدف الطيبة سفينة رومانية ألقت مراسيها في البقعة التي استقرّ فيها. واتخذ منها موضع استكشاف فيختفي فيها احياناً ويخرج منها أحياناً. وكانت وجهة السفينة سورية. فاتفق مع الربان على انزاله في [كاريا] وصعد اليها ولكنه لاقى من المصاعب ما لايقل عن تلك التي لقيها في رحلته الأولى وبلغ مصر من [كاريا] وقابل الملك الذي كان يعطف عليه كثيراً ويخصّه بالتفاته، لان [اراتوس] الخبير في الفنون اليونانية سبق له اهداء الملك عدداً من المنحوتات والصور، وكان شديد التدقيق في انتقاء اروعها واغربها وارسالها اليه، لاسيما رسوم [بامفيلوس Pamphilus]، و[ميلانثوس Melantheus].

كانت اللوحات السيكيونية اشهر اللوحات واندرها، لأنها الرسوم الوحيدة التي لاتتغير الوانها مطلقاً. وابلليس [Applles] نفسه قصد المدينة بعد ان ذاع صيته واصبح من الاعلام. ودفع تالنتاً واحداً وهو رسم الدخول في عضوية جمعية الرسامين لا للاستفادة من خبرتهم وعلمهم وهو ما لايحتاجه، بل ليكون له شرف الانتماء الى نقابتهم لا غير. ولما حرّر [اراتوس] المدينة انزل كل رسوم الطغاة الاّ انه تردد كثيراً في انزال رسم [اريستراتوس Aris-tratus] الذي عاصر فيليب المقدوني. فهي من اعمال [ميلانثوس] وتلاميذه، وتمثله بالقرب من عجلة حربية وقد ركب فوقها تمثال للنصر. وكان [ابيللس] نفسه قد اشتغل فيها كما ذكر لنا [پولمين] الجغرافي. كانت لوحةً نفسية رائعة جداً فعزّ على [اراتوس] ان يتخلّى عنها، ورغب في ابقائها لقيمتها الفنية الاّ ان دافع الكره للطغاة تغلّب عليه فأمر بانزالها. الاّ ان [نياكلس Neacles] الرسام وهو من اصدقاء [اراتوس]، قيل انه توسل به وهو يبكي للابقاء عليها، ولما وجد مساعيه لاتؤدي الى شيء قال له:

– لا خير في ان تواصل نضالك ضدّ الطغاة. لكن فليكن نضالك هذا قاصراً عليهم. ودع العجلة وآله النصر على حوالهما وسأجد الوسائل الكفيلة بطمس معالم صورة اريستوترس في اللوحة.

فوافق [اراتوس] على ذلك، ومسح [نياكلس] صورة الطاغية من اللوحة ورسم في مكانها نخلة ولم يجرأ على اضافة شيء آخر من مخيلته. وقيل ان قدمي [اريستوتراتوس] في

الصورة ظلّت ظاهرة لأنها كانت مختفية وراء العجلة فغفل الرسام عن ازالتها.

لهذا السبب ارتفعت مكانة [اراتوس] عند الملك. وبعد ان ازداد هذا معرفةً به تضاعف حبّه له. واعطاه مائة وخمسين تالنتاً للتخفيف عن ضائقة المدينة، نقل منها اربعين معه، عند ابحاره الى [اليبلوبونيس] اما الباقي فقد قسمه الملك اجزاء وارسله تباعاً اليه في اوقات مختلفة.

انه لشيء رائع حقاً. لقد أمن [اراتوس] لابناء وطنه هذا المبلغ الكبير من المال لاصلاح حالهم. في حين كان جزء قليل منه يكفي لتخريب ذمة اي قائدٍ او زعيمٍ، ولتجعلهم على استعدادٍ للغدر بمواطنيهم خيانة بلادهم. ان ابدع ما في هذا العمل هو ان يستخدم هذا المال لاحلال الوئام والصفاء بين الأغنياء والفقراء وسيادة الاستقرار والطمأنينه ربوع البلاد.

أما الجانب العادل في خلقه وهو الذي أثار أعظم الاعجاب به، فقد تجلى عند اختياره حكماً مطلقاً مفوضاً بغضّ النزاعات على الاراضي التي تعود رقبتها للمنفيين العائدين، فقد ابى قبول هذه المسؤولية وحده وبادر الى ضمّ خمسة عشر مواطناً آخرين لهذا الغرض. وحقق النجاح في تسوية هذا النزاع المعقد واحلال الودّ والسلام بين مختلف طبقات السكان بعد كثير من المتاعب والمصاعب. وبلغ في اكرامه والثناء عليه، من سائر الأهالي، حتى ان المنفيين اقاموا له تمثالاً برنزياً نقشوا عليه هذه الابيات:

ان مشوراتك ومآثرك وبراعتك العسكرية

في سبيل الأغريق، تعدى صيتها اعمدة هرقل

ونحن يا [اراتوس] اهدينا صورتك؛ صورة

الذي انقذنا - الى آلالهة التي ارسلتك

لتنقذنا من المنفى، وتفيدنا الى موطننا

بفضائلك وعدلك اللذين ترفل [سيكيون]

بنصحهما الى يومنا هذا. مع الثروة التي يتمتع

بها الجميع على السواء، ومع القوانين التي يطيعها الجميع.

وقد أمن [اراتوس] من حسد ابناء جلدته بتحقيقه هذه الأمور. فقد شعروا بالمنافع التي حققها لهم، فحرصوا على وجوده الاّ ان [انتيغونس] الملك كان شديد القلق من نواياه. ولذلك فكرّ في ان يضمّه الى حلفه فان فشل عمد الى تشكيك [بطليموس] فيه. وفي غضون ذلك

اظهر له كثيراً من المودّة واخذ يتقرب منه. ولم يعبأ [اراتوس] كثيراً بما يفعله [انتيغونس] لأجله فمن ذلك انه قرب للآلهة في [كورنث] وارسل الى [اراتوس] جانباً من قرابينه. وانتهز العيد فصرح بين جميع كبير من المدعوين قائلاً:

- ظننت ان هذا الشاب [السيكيوتي] محب فحسب للحرية ولابناء وطنه. لكني صرت اعدّه الآن خبيراً باخلاق الملوك مقدراً افعالهم في الماضي. كان يتجاهلنا ويضع آماله في جهات بعيدة؛ معتمداً على ثروات مصر، بعد سماعه الكثير عن قصورها وفيلتها واساطيلها ولكنه وجد كل هذا مجرد ابهة فارغة، ومظاهر تمثيل كاذبة بعد ان رآها عن كثبٍ فعاد الينا، واما من ناحيتي فأنا ارحّب به من كلّ قلبي وانوي استخدامه في اعظم المهام واني لآمركم ان تعتبروه صديقاً وحليفاً.

التقط المبغض والنمامون هذه الاقوال وتسابقوا على ابلاغها لبطليموس، فكتبوا له الرسائل الطوال مسندين فيها الى [اراتوس] شتىً الاتهامات والافتراءات. فأرسل [بطليموس] يعاتبه ويؤنبه. ان كثيراً من الحسد والشكّ ونية السوء يتخلل علاقات الامراء والعظماء وصداقاتهم. لأنها اكثر الصداقات اطلاباً وتعرضاً للحسد.

في تلك الاثناء كان [اراتوس] قد انتخب جنرالاً للآخائيين لأول مرةٍ. فأجتاح اراضي [لوكريس Locres] و[كاليدون Calydon] وهما مما يلي أخائياً. ثم انجد البويوتيين بعشرة آلاف جندي. على انه لم يدركهم بنفسه الا بعد ان انتهت معركة خيرونيا بهزيمتهم امام الايتوليين وخسارتهم [ابيوقريطس Aboecritus] و[بويوتارخ Boeotarch] وألفاً من الرجال وبعد هذا بسنة واحدة وعلى اثر انتخابه جنرالاً للمرة الثانية قرر الاستيلاء على [قلعة كورنث Acrocorinthes] لا لكونها ذات اهميّة للسيكيونيين او الاخائيين بل لأنه وجدها فاتحة لتحرير كل اليونان من حكم الاستبداد الذي يجثم على كل شبرٍ فيها بمجرد طرده الحامية المقدونية منها. وواتى الحظّ [خارس] الآثيني في تحقيق النصر على قواد الملك بمعركةٍ. فكتب الى اهالي آثينا يقول «ان نصره هو توأم لنصر مراثون!» ولذلك فيجب ان يعدّ عمله هذا صنواً لعمل [بيلوبيداس] الثيبي وتراسيبولس Thrasybulus] الآثيني اللذين تمكنا من القضاء على الطاغيتين. على انه يتفوق عليهما من ناحية واحدة وهي ان معركته لم تكن مع اغريق وانما ضدّ سيطرة اجنبية. ان البرزخ الذي يرتفع بين البحار كالجرف الساحلي هو مفتاح كل بلاد اليونان الجنوبية تقف عقبةً كؤوداً وتقطع [البيلوبونيسس] تماماً عن اي تماس مع الاجزاء الباقية واذا ما عززت بحامية قوية فيصبح مرور السلاح والرجال والنقل البحري والبريّ من قبيل المستحيلات ومن يسيطر على تلك القلعة هو سيدّ البلاد كلّها. ولذلك لم يكن [فيليب]

الشـاب يمزح حين اطلق على [كـورنث] اسم «اغـلال اليونان». وكـان هذا الموقع والحـالة هذه، مطمح انظار الجميع، وقبلة المنافسة بين الملوك والطغاة. وفي مقدمتهم [انتيغونس] الذي كان امامها اشبه بالمحبّ المتيّم الواله. وانشغل ذهنه بخطط الاستيلاء عليها ولازمته فكرة المفاجأة لأنه كان يائساً من الاستيلاء عليها بهجومٍ عسكري ولذلك عمد كمل قيل الى دسّ السمّ لصاحبها [الكساندر] مخلفته زوجه نيقيا Nicaea في حكم تلك القلعة، فأسرع [انتيغونس] يتخذ ابنه [ديمتريوس] طعماً للوصول الى مرماه، فمناها بزواج ملكي فخم فحياة سعيدة مع ابنه الشاب فراق لها الأمر ووقع في نفسها موقعاً حسناً لاسيما وقد تعدّت سنّ الشباب ووافقت وتزوجته الاّ ان القلعة بقيت في يدها وظلت حاميتها القوية تحافظ عليها. وتظاهر [انتيغونس] بعدم الاهتمام واحتفل في [كورنث] بالزواج واقام للزوجين المآدب ومجالس اللهو كأنه خالي الذهن منصرف انصرافاً تاماً الى المرح واللهو لفترة من الزمن. وكانت ساعة الصفر هي بدء غناء [امبيوبيوس Amboebeus] على خشبة المرسح. وكان [انتيغونس] برفقة [نيقيا] وقد نقلت على كرسي ملكي مزيّن، وهي تكاد تطير فرحاً بما تلقى من حفاوة وتكريم، وليس عندها اية فكرة بما بيت للقلعة.

وما لبث [انتيغونس] حتى ودّع الموسيقى وحفلة الزواج وخف بأسرع ما يسمح له عمره الى حصن [كورنث] فوجد المداخل محكمة الإغلاق في وجهه. فدق بعصاه وامر بفتح الباب، فلم يسع الحراس الاّ ان يفعلوا ذلك وهم في حيرة من امرهم. وبهذه الطريقة استولى على الموقع. ولم يستطع كبح جماح عواطفه الجائشة بالفرح فقد نسي وقاره وتقدم عمره، ونسي طول معاناته تصاريف الدهر وتقلبات الحظّ. وخرج الى الشارعٍ مظهراً انبساطه، واخذ وهو واقف في الساحة العامة متوجاً باكاليل الزهر وبين يديه الضاربات والنافخات في الناي يدعو المارة الى مشاركته في افراحه. تلك هي طبيعة العاطفة النزقة الخالية من التحفظ تذهب العقل اكثر مما يذهبه الخوف والأسى.

هكذا استولى [انتيغونس] على قلعة كورنث ووضع فيها حامية من جنوده المؤتمنين وجعل [برسيوس Persæuse] الفيلسوف حاكماً مدنياً لها. وكان [اراتوس] قد حاول في زمن صاحبها [الكساندر] الاستيلاء عليها، ووضع خطة لذلك، الاّ انه عدل بعد ان تحالف [الكساندر] هذا مع الآخائيين. الاّ ان دخولها الآن في املاك [انتيغونس] دفعه الى تجديد المحاولة بخطة جديدة اليك هي:

كان يوجد في كورنث اخوة اربعة من السوريين، احدهم المدعو [ديوقليس] كان احد عساكر الحامية، اما الثلاثة الباقون فقد لجأوا الى [سيكيون] بعد ان سرقوا ذهباً من الملك. وكان ثم

صراف يتعامل [اراتوس] معه بحدود مهنته اسمه [ايغياس Aegias] قصدّه هؤلاء الاخوة فباعوا منه جزءً من الذهب المسروقّ. امّا الباقي فقد أخذ احد الاخوة الثلاثة وهو المدعو [ارغينوس Arginus] يصرفه بالمفرّق تباعاً الى الصراف [ايقياس] وبذلك اصبحا صديقين حميمين، ومرّة انجرّبهما الحديث الى قلعة كورنث فقال [ارغينيوس] انه لاحظ عند صعوده اليها لزيارة أخيه بأن هناك شقّاً جانبياً بوجه الصخرة يؤدي الى جزء من السور اقل ارتفاعاً من سائر الاجزاء الأخرى، فعقب [ايغياس] ممازحاً.

- اني لاعجب من فرط حكمتك! لقد اقتحمت خزائن الملك لأجل الحصول على مقدار ضئيل من الذهب. في حين انك تستطيع ان تكسب مالاً طائلاً لو شئت بعمل ساعةٍ واحدة لا اكثر. وتعلم ايضاً ان العقاب واحد على السرقة والخيانة العظمى وهو الموت.

فضحك [ارغينيوس] وقال له انه سيفاتح [ديوقلس] بالأمر (ذلك لأنه لم يكن يثق باخويه الآخرين ثقة تامة) وعاد بعد ايام قليلة واتفق مع [اراتوس] على اصطحابه الى ذلك الجزء من السور، حيث لايبلغ الارتفاع اكثر من خمس عشرة قدماً. وتعهد له ان يفعل كل ما يطلب منه بالتعاون مع اخيه [ديوغليس].

ووافق [اراتوس] على ان يدفع لهم ستين تالنتاً في حالة النجاح. امّا اذا فشلت العملية وخرج الفريقان سالمين فانه سيمنح كل واحدٍ منهم منزلاً وتالنتاً واحداً. ثم انه وضع الستين تالنتاً امانةً عند [ايغياس] لأمر [ارغينوس] وشريكيه. ولم يكن [اراتوس] يملك هذا المبلغ ولم يكن يريد ان يثير التساؤل بالاستقدانة من الآخرين فارتهن صحافه الثمينة وحليّ زوجه عند [ايغياس] مقابل هذا المبلغ. لقد بلغ من سمو الخلق والغيرة على اشرف المقاصد ان عمد الى الانفاق على المشروع من جيبه الخاص، فبذّ [فوكيون] و[ايپامينداس] اللذين سمع بأنهما افضل الاغريق واعدلهما لأنهما رفضا اعظم الهدايا ولم يخونا واجبهما لقاء المال. وبذلك تحمل عواقب المغامرة كلها لأجل الآخرين الذين ظلوا يجهلون أمرها. ولم يسع الجميع اخفاء اعجابهم بانكارْ الذات والسخاء بهذا المبلغ الكبير ثمناً لمجازفةٍ محفوفة بالأخطار، وبذل كل ما لديه لنيل فرصة التعرض للموت بالنزول بين الاعداء في دجنة الليل. غير طالبٍ مكافأة على ما بذل غير الأمل بالنجاح المشرف.

كانت المغامرة بحدّ ذاتها خطرة، ولكن خطرها تضاعف كثيراً بخطأ ارتكب من البداية. فقد ارسل [اراتوس] تابعه [تخنون] الى [ديوقليس] ليستطلعا السوّر معاً. وكان [تخنون] يجهل شكل [ديوقليس] الاّ ان [ارغينيوس] وصفه له وصفاً دقيقاً يتعذر معه ان يخطئه. ذكر له انه اجعد الشعر، اسمر اللون أملط. فذهب [تخنون] الى المكان المعين وظلّ ينتظر مقدم

[ديوقليس] و[ارغينيوس] في ظاهر المدينة امام موضع يقال له [اورنس Ornis] واتفق ان [ديونيسيوس] الأخ الاكبر مرّ به وهو واقف (ولم يكن يدري شيئاً عن المسألة انه كان يشبه اخاه ديوقليس شبهاً غريباً) فتطلع اليه [تخنون] فوجد الأوصاف منطبقة عليه تماماً فاستوقفه وسأله هل له معرفة بارغينيوس؟ فأجابه انه أخوه فأيقن [تخنون] انه يكلم [ديوقليس] لا غيره فلم يجد حاجة الى التأكد من اسمه او طلب دليل آخر ومدّ اليه يده مصافحاً وشرع يتحدث اليه ويطرح الأسئلة حول ما اتفق عليه مع [ارغينيوس]، وكان [ديونيسيوس] أشدّ مكراً من ان تفوته فرصة الافادة من الالتباس. فتظاهر بفهم ما يقول واتجها نحو المدينة وهما يتحدثان دون ان يخالج [تخنون] اي شك. ولما اصبحا قريبين من الباب هم [ديونيسيوس] بالقبض عليه الاّ ان الصدف حكمت بان يدركهما [ارغينيوس] فأنكشفت له الخدعة ولاح له الخطر فأشار على [تخنون] بالفرار ودار كلاهما على الاعقاب واطلقا ساقيهما للريح حتى وصلا الى [اراتوس] وقصّا عليه الأمر، فلم يخالجه اليأس، وانما ارسل [ارغينيوس] الى [ديونيسيوس] فوراً واغراه بمبلغ من المال لقاء سكوته كما نجح في جلبه الى [اراتوس] وما ان اصبح تحت رحمته حتى بادر الى شدّ وثاقه واحتجزاه في غرفة واقاما عليه حراسة قوية واخذا يستعدان للعملية الكبرى.

بعد ان تمّ كل شيء، أمر جنوده بان يظلوا شاكي السلاح طول الليل واختار منهم اربعمائة لايعلمون شيئاً عما هم مقدمون عليه الاّ قلة. وسار بهم حتى الأبواب القريبة من هيكل [جونو] وكان الوقت متنصف الصيف والقمر بدراً والليلة صافية الأديم لاتشوبها قطعة غيم وكان الخطر من بريق الصفائح والدروع في ضوء القمر، الذي سيجتذب انظار العدوّ ويكشف المهاجمين وما ان شارف الرتل الأول القلعة حتى زحف الضباب من البحر فغطاهم وغطى القلعة نفسها وما جاورها. فأفتقد المهاجمون الأرض ونزعوا احذيتهم لأن ذلك يخفف كثيراً من وقع اقدامهم ويثبتها اثناء التسلّق. واخذ [ارغينيوس] سبعة من الشبان تنكروا بزيّ المسافرين وبلغوا الباب دون ان يسترعي بهم الانتباه، وقتل الناطور والحراس بينما ثبتت السلالم على الأسوار. وعجل [اراتوس] باصعاد مائة من رجاله وامر الباقين بالتسلق ثم صعد هو وسحب سلالمه وسار مع رجاله في قلب المدينة قاصداً القلعة، وقد كاد يطير فرحاً لبقاء امره سراً ولفرط وثوقه الآن بالنجاح، وكانت المسافة بينه وبين القلعة واسعة عندما تبين اربعة من الخفراء الليليين قادمين وبأيديهم المصابيح لكنهم مروا بهم دون ان يفطنوا اليهم فقد كانوا يسبحون في ظل القمر لا في نوره. الاّ انهم توضحوهم عندما توجهوا نحوهم مباشرة، فأنسحب رجال [اراتوس] وتواروا خلف بعض الجدران في باحات البيوت وكمنوا للخفراء ثم وثبوا عليهم فقتلوا منهم ثلاثة وفرّ رابعهم وهو مصاب بجرح سيف في رأسه، يهتف ان العدوّ

قد دخل المدينة، فنفخ في الابواق وهبت المدينة من رقادها وعلا الضجيج وامتلأت الشوارع بالناس وهم يهرجلون واضيئت الأنوار في المدينة وفي القلعة. وسمعت جلبة واصوات مختلطة في كل الانحاء.

في الوقت نفسه كان [اراتوس] يعمل بهمّة على توقل الصخور المؤدية الى القلعة فعانى مشقة وابطأ وحاد عن الشقّ الصخريّ العميق الذي كانت تخفيه الاطناف من الجانبين وتتخلله المنعطفات والالتواءات الكثيرة وهو متجه الى القلعة، ولكن الغيوم انحسرت فجأة عن وجه البدر بقدرة قادرٍ فانارت للرجال أشقِ جزءٍ من الشعب وبلغ [اراتوس] الناحية المنشودة من السّور. حتى اذا تم ذلك زحفت الغيوم ثانية وحجبت نور القمر.

اما الثلاثمائة الذين تركهم [اراتوس] في معبد [جونو] خارج المدينة، فقد دخلوا المدينة بعد ان استيقظ الناس وانيرت الاضواء ولم يعلموا شيئاً عن وجهة [اراتوس] برجاله المائة ولم يعثروا لهم على اثر فانسلوا بهدوءٍ وتجمعوا كلهم تحت جرف صخري بارزٍ مستترين بظله الكثيف وظلوا هناك حائرين قلقين. وفي تلك الاثناء هوجم رتل [اراتوس] بالمقذوفات ونشب القتال بينهم وبين الحامية وتناهت اليهم الاصوات وضجة المعركة من فوق ولذلك كانت مختلطة غامضة صعب عليهم تعيين اتجاهها لان الصدى كان يصدر من كل جهة. وادركت المدافعين عن المدينة الحيرة ولم يدروا بالضبط مركز الهجوم. فساق [ارخيلاوس] جنوده نحو القلعة واخذوا يطلقون الصيحات الراعدة وينفخون في الابواق بشدّة، وقصدهم مباغتة رتل [اراتوس] من الخلف. ومروا بالثلاثمائة الكامنين، فخرج هؤلاء من وكامنهم وحملوا عليهم وقتلوا بعضهم فالقوا الرعب في نفوس البقية فهربوا، فطاردوهم حتى دحروهم وشُتتوا شملهم في ارجاء المدينة. وأقبل في اعقاب ذلك [ارغينوس] ليعلمهم بأن [اراتوس] مشتبك مع العدوّ في قتال عنيف فوق الاسوار، وان العدو يدافع دفاعاً عنيداً وان [اراتوس] في حاجة الى مدد سريع. فطلبوا منه ان يتقدمهم دون تأخير، وساروا مطلقين الصيحات العالية فسمعها رفاقهم وارتفعت بها معنوياتهم. وانعكس نور القمر على اسلحتهم الصقيلة وهم يسيرون في رتل طويل فبدوا للعدو اكثر من عددهم الحقيقي وضاعف الصدى من حجم صيحاتهم. وبمختصر القول انضم الرتل الى جماعة [اراتوس] ودفعوا بالعدو الى الوراء حتى تمّ لهم الاستيلاء على القلعة واسر الحامية. وانبلج الصبح عن نصرٍ كاملٍ لهم والقت الشمس باشعتها على اسياد القلعة الجدد. وفي تلك الاثناء وصل القسم الاكبر من جيش [اراتوس] قادماً من [سيكيون] واستقبلهم الكورنثيون بفرح عظيم عند مداخل المدينة وعاونهم في القاء القبض على اشياع الملك.

بعد ان وضع [اراتوس] الامور في نصابها هناك. نزل الى الملعب وكان ثم عدد لايحصى من الجمهور احتشد لسماع اقواله ولرؤيته.

فأنتظم الجنود الاخائيون في صفين متقابلين على طول ممشى المرسح وتقدم [اراتوس] وهو في شكة سلاحه ودروعه وقد بدت امارات الاجهاد والاعياء واضحة عليه وغلبت على البشر والفرح الذي كان يملأ قلبه. فأعتلى المرسح واطلق الجمهور هتافاً عظيماً مشفوعاً بالتهاني الحارة. امسك اراتوس رمحه بيده اليمنى واسند عليه جسمه مثنياً ركبته قليلاً وظلّ واقفاً بهذه الصورة فترة من الوقت وهو يستمع الى هتافاتهم وصيحانهم بصمت، ويصغي الى عبارات التعظيم والاعجاب بشجاعته وتوفيقه، حتى هدأت الضجّة وارهفت الآذان فأفتتح خطابه اليهم باسم الأخائيين حول عمليته الأخيرة، مزيناً لهم التحالف مع الاخائيين، ثم اعاد اليهم مفاتيح ابواب مدينتهم التي حرموا منها منذ عهد [فيليب] الملك. وأطلق سراح [ارخيلاوس] قائد حامية انتيغونس الذي وقع في اسره. واما [ثيوفراستس] الذي رفض ترك موقعه فقد أمر بقتله. وهرب [پيرسيوس] الى [Cenchreae] عند استسلام القلعة. وقيل انه كان يتحدث مع احدهم بعد مرور زمن على هذه المعركة - فقال محدثه في سياق الكلام: «ان العاقل وحده، هو القائد الحقيقي». فأجاب [پرسيوس].

- أجل، فليس هناك مبدء فلسفي يعجبني قدر ما يعجبني مبدء [زينو] هذا. الأ اني اهتديت الى رأي اصلح بفضل هذا الشاب السيكيوني.

هذا ما عزاه كثير من الكتاب الى [پرسيوس].

ثم سيطر [اراتوس] على معبد [جونو] وميناء [ليخيوم Lechaeum] وفي هذا الميناء استولى على خمس وعشرين سفينة من سفن الملك وخمسمائة حصان واربعمائة من السوريين الذين باعهم عبيداً. ووضع الحلف الاخائي حامية في قلعة [كورنث] قوامها اربعمائة جندي وخمسون كلباً مع خمسين مدرباً لها.

يعظم الرومان [فيلوپومين] ويسمونه بـ«آخر الأغريق». اعنى انه لم يقم بينهم رجل عظيم بعده. وانا اسميّ استيلاء [اراتوس] على قلعة [كورنث] بآخر مآثر الأغريق. فهذه العملية جديرة بان توضع في مصاف أعظم ما حققوه في ميادين الحرب والسياسة سواء بالجراءة التي اتسمت بها او بنتائجها واثارها: فما عتم الميغاريون ان ثاروا على [انتيغونس] وانضموا الى [اراتوس] ودخل [الروزينيون والاپيداريون] في الحلف الأخائي. واتيح له لأول مرة ان يدخل [آتيكا] ويبحر الى سلاميس ويجتاحها. ثم يوجه القوة العسكرية الآخائية الى كل مكان

كأنها طائر حبيس انطلق من سجنه يتنسمّ انسام الحرية. وبعث الى الآثينين كل حُرّ أسره دون طلب فديةٍ عنهم تمهيداً لسبيل انضمامهم الى الحلف. وأقنع [پطليموس] بمحالفة الأخائيين.

ومنح [اراتوس] امتيازاً لم يعط لغيره وهو الجمع بين القيادة العليا البحرية والبريّة. وعظم قدره لدى الحلف ومارس سلطاناً عظيماً. فكان ينتخب جنرالاً بين سنة وأخرى بصورة مستمرة لأن دستورهم لم يكن يسمح ببقاء الجنرال سنتين متتاليتين او اكثر. على انه كان هو القائد العام عملياً وسواء في ذلك اكان يتقلد المنصب أو لايتقلده، اذ كان في مشوراته وآرائه فصل الخطاب. لقد ادركوا ان أعزّ امانيه هي منعة الأخائيين واتساع نفوذهم. لقد وجد ان المدينة الواحدة، ضعيفة عادة، لاتقوى على حفظ كيانها ودرء الاخطار عن نفسها الاّ بالتحالف مع غيرها على المعونة المتبادلة في مجال المصلحة العامة اي كاعضا الجسم الحيّ الذي لايقوى على التنفس والعيش الاّ بالتعاون والنموّ الطبيعي. فاذا انفصلت الاعضاء بعضها عن بعض تحلّلت وفسدت كما يحلّ الدمار بالمدن عندما تنقسم على نفسها في حين انها تنمو وتزدهر وتنعم بالرفاء عندما تتحدّ وتتبادل المنافع مع الاقليم الأخائي الذي تحكم اراؤه الكلّ، كأنها اعضاء في جسم كبير.

لقد آلم [اراتوس] ان يرسف اهل [ارگيڤ] في اغلال العبودية، في حين تنعم المدن المجاورة بحرياتها وقوانينها الخاصّة فراح يتداول في أمر القضاء على طاغيتهم [ارسطوماخس]. وكان مشوقاً الى تسديد دينه لتلك المدينة التي آوته وهو طريد، وربته حتى استوى رجلاً. وذلك باعادة حريتها. وضمها الى الحلف الأخائي ولم يكن يعوزه الرجال الشجعان المستعدون لهذا العمل. وفي مقدمتهم المنجمان [ايسخيلوس Aeschylus] و[خاريمنيس Charimenes]. وكان هؤلاء الثائرون بحاجة الى الاسلحة، لأن الطاغية منع حمل السلاح داخل المدينة وفرض عقوبات شديدة على المخالفين. فاعدّ [اراتوس] مقداراً من السيوف القصيرة في مدينة [كورنث] واخفاها في سروج وبراذع خيول النقل التي تحمل السلع الاعتيادية الى [اراغوس]. الاّ ان [خاريمنيس] افضى بالأمر الى احد الاشخاص. الأمر الذي استاء له [ايسخيلوس] وجماعته، فقاطعوه وانصرفوا لاتمام العمل وحدهم. فثارت ثورة [خاريمنيس] وانطلق بسورة من غضبه فأخبر عنهم في الوقت الذي كانوا يهمون بالوثوب عن الطاغية في الساحة العامة. وافلح معظمهم في النجاة ولجأ الى كورنث. ولم تمرّ فترة من الزمن على هذا حتى وثب فريق من عبيد [ارسطوماخوس] عليه واغتالوه. فقبض [ارسطپوس Aristoppus] على ناصية الحكم وكان أكثر من سلفه طغياناً وشراً. فعبأ [اراتوس] ما امكنه من الآخائيين اللاتقين للخدمة واسرعوا لنجدة المدينة وهم واثقون من استعداد الأهالي للانضمام اليهم. ولكن

[اراتوس] كان مخطئاً في حسابه، فقد طال بهم حكم الاستبداد فتعودوه ورضوا به، ولم يتحرك احد منهم لنصرته فأضطر الى العودة معرّضاً الأخائيين الى تهمة ارتكاب اعمال عدوانية في وقت السلم. ورفعت عليهم القضية امام [المانيتينين] فلم يحضر [اراتوس] مجلس التحكيم، وفرض عليه تعويض [لارسطپوس] قدره ثلاثون[مينا]. وساور الطاغية خوف عظيم من [اراتوس] وازداد له بغضا وراح يعمل على اهلاكه، فوجد في شخص [انتيغونس] الملك ظهيراً. وباتت حياة [اراتوس] في خطر عظيم فقد انتشر المؤتمرون به يتحينون الفرصة لاغتياله الاّ ان اخلاص ابناء قومه بعامتهم واشرافهم وزعمائهم وحرصهم عليه وعلى سلامته، يسرّ له ان يتجنب مكائدهم ويقف على خططهم ويسمع باذان عديدة وينظر باعين كثيرة الى كل ما يقولون ويفصلون. ولايسعني هنا الاّ ان احيد قليلاً عن موضوع البحث لأصف حياة الطاغية، وحكمه الاستبدادي الكريه، وابين حقيقة الابهة والعظمة التي اشتهرت بها الحكومات المستبدة والحياة الخاصة التي كان ارسطپوس مضطراً اليها.

كان [انتيغونس] صديقه وحليفه، وكان لديه عدد كبير من الجنود فضلاً عن الحرس الشخصي. ولم يترك عدواً له في المدينة على قيد الحياة، ومع هذا كلّه كان مضطراً الى جعل ثكنة حرسه في رواق الاعمدة المحيط بمنزله. وكان يصرف جميع خدمه بعد انتهاء العشاء مباشرةً ويغلق الأبواب عليهم ويحكم رتاجها. ثم يصعد زحفاً على قدميه الى عليّة صغيرة مع مخطيته، ويدخلها من بابٍ في ارضيتها. وبعد ولوجهما يغلق هذا الباب ويضع الفراش فوقه وينام النوم المتوقع لمن هم في حالته هذه: نوم متقطع خفيف يكتنفه الخوف والهواجس ثم ان امّ مخطيته تقوم بسحب السلم من باب العلية بعد اغلاقه وتأخذه الى غرفةٍ وتقفل عليه بابها. وفي صباح اليوم التالي تأتي الأم بالسلّم وتثبته في موضعه وتنادي الطاغية الشجاع العظيم فينزل زاحفاً مثل حيوان يمشي على اربع وهو يخرج من حجره. تلك هي حياة [ارسطپوس]. اما [اراتوس] فلا يحيا بفضل القوة التي يمارسها ويديرها، وانما بقوة فضائله، وبسلطة القانون الذي منحه القيادة والأمر دون ان يخشى شيئاً، ينام ويصبح كغيره ويلبس ما يلبسه الآخرون مجرداً عن الابهة والفخفخة، وبقي ابدأعدواً لدوداً للطغاة، مدافعاً عن المصلحة العامة. تاركاً نسلاً شريفاً ابياً مازال يتمتع باحترام الاغريق حتى يومنا هذا. لاينكر ان بعض اولئك الذين سكنوا القلاع واتخذوا لأنفسهم حرساً واحتموا وراء المزاليج والابواب المحكمة واعتدوا بصنوف الاسلحة لحماية انفسهم، قد نجوا بارواحهم، لكنها نجاة شبيهة بنجاة الأرنب من قبضة الصيادين. افتلوا من الموت الا انهم عاشوا مشردين بلا اسرة او بيت يأويهم، وماتوا مجهولين لايعرف لهم قبر يزار وتذرف الدموع عليه.

نعود فنقول: قام [اراتوس] بعدة محاولات سرية وعلنية للقضاء على [ارسطپوس] اثناء عمله على تحرير [ارغوس] فكان نصيبها الفشل. ونذكر منها محاولته اقتحامها. فقد ركز السلالم وتسلق الاسوار بفئة قليلة من الجنود، وتمكن من قتل الخفراء الذين اعترضوا سبيله واحتل الاسوار كلها بعد الجهد الجهيد، الاّ ان نور النهار ادركه فحشد [ارسطپوس] كل قواته واطلقها عليه، وجلس الاهالي يرقبون القتال بهدوء تام كأنهم محكمون محايدون في مسابقة العاب وكأن القتال ليس في سبيل حريتهم بل حفلة العاب نيمية Nemea كان العرف قد منحهم امتياز توزيع الجوائز على الفائزين فيها. وقاتل [اراتوس] قتالاً شديداً واصيب فخذه بطعنة رمحٍ لكن ظل في مكانه صامداً يردّ هجمات العدو المتوالية حتى جنّ الليل فواصل القتال اثناءه حتى رجحت الكفة. ولم تعد تخالج الطاغية فكرة غير الهرب. وكان قد احتاط من قبل فحمل الى السفن القسم الاكبر من امواله. ولكن [اراتوس] كان يجهل الأمر. وكان يشعر بعطش قاتل، واعجزه جرحه عن مواصلة القتال، فلم يرد بدأ من الانسحاب بجنوده من المدينة، ثم انه انقض على [ارغوليس] ونهبها.

وفي معركة أخرى ضارية مع [ارسطپوس] بالقرب من نهر [خاريس] اتّهم بانه انسحب من القتال وبذلك فاته النصر وكان على قاب قوسين منه لأن قسماً من جيشه استظهر تماماً على العدو وانطلق يجدّ وراء المنهزمين وابتعد مسافة كبيرة، الاّ ان [اراتوس] كفّ عن القتال وتراجع الى معسكره بدون انتظام من دون ان يُضايق او يلقى عنتاً من العدو المواجه له، وانما لخوف شديد انتابه ولعدم ثقة بالنجاح. وعاد الجناح المنتصر من جيشه بعد ان أعمل فتكاً في المنهزمين. واظهروا حنقاً واستياء وقالوا:

- اننا قتلنا من العدو اكثر بكثير مما قتل منّاً. ومن حقنا ان نقيم نصباً تذكارياً لانتصارنا.

فامتلأ [اراتوس] خجلاً، واعتزم معاودة القتال في سبيل اقامة النصب. وفي اليوم التالي بكر في الخروج وصف جيشه للقتال الاّ انه تبين ان العدو قد عزز جيشه بوحدات جديدة وبدت معنوياته افضل من اليوم السابق. فلم يجرأ على القتال وانسحب وارسل يقترح هدنةً لدفن القتلى.

مع هذا كله فقد استطاع ازالة آثار هذه الغلطة الفادحة من الأذهان بدهائه السياسي، وحسن تصرفه مع الرجال والجنود. ثم انه ضمّ مدينة [كليوني Cleomæ] الى الحلف الأخائي. وأحيا الالعاب (النيمية) فيها باعتبارها احقّ تاريخياً بهذا الشرف، واكثر ملاءمةً. واقام [الارگيف] الالعاب نفسها في مدينتهم في الوقت نفسه. وتسبب هذا في اوّل خرقٍ لمبدأ الأمان والحصانة المتعارف عليه. والمسلم به لكلّ قادم للمسابقات على الجوائز. اذ اخذ

الأخائيون يقبضون على القادمين الى [ارغوس] لمشاهدة الالعاب، ويبيعونه عبداً. الى هذا الحدّ كان [اراتوس] قد بلغ في عدائه للطغاة.

ادرك [اراتوس] بعد قليلٍ، ان [ارسطپوس] يبيت [لـكليوني] شراً الاّ انه كان متردداً في تنفيذ محاولته خوفاً من وجوده في [كورنث] فتفتق ذهن [اراتوس] عن خطة بارعة، واعلن التعبئةً رسمياً وجمع جيشه وامر الجنود ان يتزودوا بارزاق تكفيهم عدة ايام، ثم تظاهر بالزحف عن [كنخريي] تاركاً [كليوني] دون حماية ليحمل [ارسطپوس] على الاتجاه اليها متوهماً ان [اراتوس] قد ابتعد مسافةً لاتمكنه من العودة لانقاذها. وهذا ما وقع فعلاً فقد خرج [ارسطپوس] من [ارغوس] يقصد [كليوني]. الا ان [اراتوس] اتجه الى [كورنث] فوصلها غسقاً ووضع ربايا على طول الطرق المؤدية الى كليوني، ثم زحف بالآخائيين لمفاجأة [ارسطپوس] فساروا باحسن نظام وبسرعة شديدة ولم يفطن الطاغية الى الامر ولم يشعر بتقدمهم او حتى بوصولهم [كليوني] وانتظامهم بنسق المعركة. حتى اذا انجلى الصبح، فتحت ابواب المدينة ونفخ في الابواق وانقض [اراتوس] على العدوّ وهو في عقلة بصياح عظيم وبشدةٍ فالحق بهم هزيمة سريعة وراح يجدّ في اثرهم معقباً طريقاً كان يعتقد ان [ارسطپوس] سيفضل سلوكه وهو يمتاز بكثير من المنعطفات. ولكن المطاردة انتهت في [ميكيني Myce-nae] اذ وثب [تراغيسكوس Tragiscus] الكريتي على [ارسطپوس] فقتله، كما ذكر لنا [ديناياس Dinias] وقتل من الجنود ألفاً وخمسمائة ومع ان [اراتوس] حقق نصراً بهذا دون ان يخسر جندياً واحداً فانه لم يفلح في الاستيلاء على [ارغوس] ولم يمكنهّا من حريتها لأن [اغياس Agias] و[ارسطوماخوس] الاصغر دخلا المدينة على رأس قوات الملك وقبضا على ناصية الحكم. على انه ابطل بنصره هذا مزاح وسخرية أولئك الذين دأبوا على الزلفى والتملق للطغاة بقولهم: ان الجنرال الأخائي يصاب عادةً باسهال عندما يترتب عليه خوض المعركة. وان نفير بوق الحرب يصيبه بدوارٍ وتهافتٍ. وانه بعد تنظيمه الصفوف واعطاء كلمة السرّ لبدء القتال، اعتاد ان يسأل اركانه وضباطه هل ان وجوده ضروري الآن بعد ان اصبحت المعركة محتومة؟ ثم يتركهم ويمضي فيجلس بعيداً وينتظر ما يسفر عنه القتال.

في الواقع كانت هذه الحكايات تجد لها صدى في النفوس بصورة عامة، ومال الفلاسفة ايضاً الى تصديقها حتى انهم عندما يأخذون بمناقشة احتمال حصول سرعة في دقات القلب، وتغيّر لون الوجه وانخفاض درجة حرارة الجسم عند الخطر بسبب الخوف أو اية علة عقلية، أخرى فانهم كانوا دائماً يضربون [باراتوس] مثلاً لذلك الجنرال المحنك البارع الذي تبدو عليه هذه الانعكاسات في وقت المعركة.

بعد ان تخلص [اراتوس] من [ارسطپوس] على هذه الشاكلة، شرع يفكر في كيفية التخلص من طاغية ميغالوپوليس المدعو [ليدياديس Lydiades]. كان هذا الرجل بطبعه طيّب الخلق، فيه نبل واستقامة لم يسلك هذا السبيل السيء في الحكم بالدوافع التي كانت لدى الطغاة الآخرين من جشع وتبذل وفجور وحب السيطرة وانما لأنه كان مشوقاً الى الشهرة والمجد، فانساقت عاطفته الفتية بمظاهر التكريم والاجلال الذي يؤدي له، وباستحسان افعاله والثناء على مظاهر استبداده. الاّ انه نبذ كلّ مظاهر السلطان بعد فترة قليلة من توليه الحكم المطلق وعزف عن الأبهة واعبائها. وآثر حياة الهدؤ والاستقرار، ودفعه خوفه من اراتوس، الى اختيار افضل السبيل. فأولاً تخلّص من عاملي الكره والخوف بالاستغناء عن الجنود والحرس. وثانياً بعث في طلب [اراتوس] وهناك تنازل عن الحكم لابناء قومه واعلن ضمّ مدينته الى الحلف الاخائي فاستحسن الاخائيون عمله النبيل وسارعوا بانتخابه جنرالاً لهم وهنا هزته الحمية فأعتزم ان ينجز من المآثر مما لم ينجزه [اراتوس] واقدم على خطوة لم تكن الضرورة تدعو اليها وأعلن الحرب على اللقيديميين الامر الذي لقي معارضةً شديدة من [اراتوس] حتى ظنّ انه يعارضه حسداً. واختير [ليديادس] جنرالاً مرة أخرى رغم انف [اراتوس] الذي كان يعارض في ذلك ويحاول اسناد المنصب الى آخر، لأنه كان ينتخب بين سنة وسنة كما اوردنا ذكره. ولكن [ليديادس] انتخب للمرة الثالثة اي صار يتداول المنصب مع [اراتوس]. ولما تمكن اعلن عداءه الصريح وكثرت اتهاماته له امام الاخائيين، ظلماً وتحاملاً، فما لبث هؤلاء ان ادركوا حقيقة أمره فلم يعيدوا انتخابه ونبذوه واحتقروه. وتبين الناس الفرق بين الحقيقي والمزيف من الفضائل؛ وتذكروا به قصّة [ايسوپ] عن الوقواق اذ سأل العصافير مَرّةً، لماذا تطير عنه وتتحاشاه دائماً. فأجابته: لأنها تخاف ان ينقلب يوماً ما صقراً. كذلك كان في طغيان [ليدياديس] شكّ في ان التغيير الذي طرأ عليه مؤقت.

ونال [اراتوس] مجداً مؤثلاً آخر في الحرب الايتولية. فقد قررّ الاخائيون الاغارة على الايتوليين من حدود [ميغارا]، وتقدم [اغيس] ملك اللقيديميين بجيشه لنصرتهم وتشجيعهم على الاستمرار في القتال. فاحجم [اراتوس] عن المعركة وتحمل بصبرٍ كثيراً من اللوم والسخرية وعُيرّ برخاوته وجبنه، ومع هذا كل لم يتزحزح عن قراره ولم يحمله على العدول عما وجده مصلحة عامة. فترك العدوّ يجتاز [غيرانيا Geranea] الى [الپيلوپونيسس] دون ان يتعرض له. وما ان وردت الانباء بأنهم انقضوا فجأة على [پيلليني Pellene] واخذوها حتى انقلب حال [اراتوس]، واصبح رجلاً آخر ولم يعد يطيق انتظاراً وتأخيراً في تعبئة كل قواته بل زحف على العدوّ بما كان لديه من العسكر وانقضّ عليهم وكان قد اختل نظامهم وتفشت

الفوضى في صفوفهم على اثر نجاحهم. اذ ما ان دخلوا المدينة حتى تفرقوا في احيائها ودخلوا المساكن وثار القتال والشجار فيما بينهم على الغنائم والأسلاب واخذ الضباط والقادة يجرون وراء النسوة والبنات ويضعن فوق رؤوسهن خوذهم الحربية. ليتبين كل واحد غنيمته فيما بعد ويمنع الآخرين من حيازتها. هكذا كانوا عندما بلغتهم الانباء بقرب انقضاض [اراتوس] عليهم. فسادهم الذعر وركبهم الهلع. وآضوا بمواجهة الخطر الماثل قبل السماع به وتلك هي عاقبة الفوضى. فاشتبكت طلائع منهم عند مداخل المدينة وضواحيها بالأخائيين فأنكسرت واندفعت لاتلوي الى الداخل لتبث الرعب في أولئك الذين كانوا يحاولون تنظيم صفوفهم لاسنادهم.

وقد اتفق في تلك الاثناء ان احدى الأسيرات وهي بنت وجيه من وجهاء المدينة يدعى [ايبغيتس Epigethes] تمتاز بالفتنة والجمال والقوام الفارع الأهيف؛ جاء بها قائد وحدةٍ من المقاتلين الى هيكل (ديانا) واجلسها هناك بعد ان ألبسها خوذته المريشة بوصفها غنيمته. لما سمعت الضجة نهضت واسرعت الى الخارج مستطلعةً ووقفت عند باب الهيكل تراقب سير القتال من الأعلى وعلى رأسها الخوذة المريشة، فبدت للناس مخلوقاً غير انسّي والقت المزيد من الرعب في قلوب الغزاة. فقد حسبوها الربّة متجليّةً فخانتهم الشجاعة واستسلموا. ويحدثنا البلينيون بان تمثال ديانا لايمسّ عادةً ولاينقل من موضعه، وان قضت الضرورة الماسة بذلك فتقوم الكاهنة برفعه، وفي اثناء ذلك يغضّ الحضور بابصارهم ويديرون وجوههم الى ناحية أخرى. لأنهم يعتقدون ان النظر اليه شؤم، وجالب للنحس، وانه يصيب الاشجار التي تعترض طريق مروره بالعقم فلا تعود تؤتي ثمراً. ويزعمون ان الكاهنة حملت هذا التمثال في ساعة المعركة تلك ورفعته امام وجوه الايتوليين الغزاة، فاطارت صوابهم واعمتهم. الاّ ان [اراتوس] لاينوه بشيء من هذا في تعليقاته. بل يقول انه هزم الايتوليين واختلط الحابل بالنابل في المدينة وجرى قتال الرجل للرجل حتى قتل سبعمائة منهم واجبر الباقون على ترك المدينة والفرار.

واشتهرت هذه المعركة وعدت من ابرز الوقائع وقام [تيمانتس Timanthus] برسم لوحة للمعركة ووفق في تصوير دقائقها وتفاصيلها فابدع واجاد.

وتألف اتحاد مناويء للحلف الأخائي يضمّ شعوباً وحكاماً كثيرين فاسرع [اراتوس] يفاوض [الايتوليين] المغلوبين ويعرض عليهم صداقته. وضمن مساعدة [پانتاليون Pantalion] ابرز شخص فيهم واعظمهم نفوذاً. ووفق الى الصلح ثم الى حلفٍ معهم غير انه اضرّ بسمعة الأخائيين وجلب لنفسه الخزي والعار بسبب رغبته في تحرير الآثينيين. فقد تجاهل الهدنة بينه

وبين المقدونيين وحاول الاستيلاء على [پيريوس]. غير انه ينكر ذلك في تعليقاته ويلوم [ارغينوس] مساعده في الاستيلاء على قلعة [كورنث]. فيقول انه هاجم [پيريوس] من تلقاء نفسه ودون امرٍ منه. فتقطعت حبال السلالم به وبرجاله ولوحق وتحرج مركزه، فاستجار باراتوس هاتفاً باسمه وكأنه موجود معهم فخدع اعداءه وبذلك كتبت له النجاة، لكن هذا العذر لايبدو معقولاً، او مقبولاً، فليس في وسع [ارغينوس] وهو انسان بسيط ومواطن سوري، ان يخطط من ذات نفسه لعملية عسكرية واسعة النطاق كهذه دون ان يكون [اراتوس] وراءه يهيء له الوسائل ويعيّن له الزمن. اضف الى هذا كله، ان محاولاته الاستيلاء على [پيريوس] لم تعد سراً ولم تقتصر على اثنتين او ثلاث بل كثرت وكان منها اشبه بالمحب المعنيد يكرر محاولات الوصال ولا يثنيه عن عزمه تكرار الفشل. بل كانت الخيبة حافزاً على القيام بتجربة جديدة وبالمزيد من الاقدام يشجعه في ذلك اقترابه من النجاح اكثر فأكثر بعد كل محاولة ومرة اضطر الى الفرار بمن معه من سهول تسالي، فأصيب بخلع في ساقه واضطر الى معاناة عدة عمليات جراحية بالمبضع ليستقيم أمره. وظلّ مدة طويلة عاجزاً عن السير وكان يحمل في محفة اثناء الحرب.

ووافي [انتيغونس] الأجل فخلفه في ملكه ابنه [ديمتريوس] وهنا زاد شوق [اراتوس] الى تحرير أثينا، وكان أيضاً يستهين بالمقدونيين على العموم ولا يأبه بقوتهم. على انه لاقى هزيمة بالقرب من [فيلاكيا Phylacia] على يد [بيش] أحد قواد [ديمتريوس] وعلى اثر الهزيمة انتشرت اشاعة قوية عن قتله او اسره. فأرسل [ديوغينس] حاكم [پيريوس] رسائل الى [كورنث] يأمر بها الآخائيين هناك باخلاء المدينة لأن «اراتوس قد قضى نحبه». وتشاء الصدف ان يكون [اراتوس] فيها عندما وصلت تلك الرسائل. فأعيد الرسل الى سيدهم بعد ان أُشبعوا هزؤاً وسخرية. والانكى من هذا كله ان [ديمتريوس] ارسل سفينه خاصّة لنقل [اراتوس] اليه مكبلاً بالاغلال! وخرق الآثينيون المتزلفون كل الحدود المعقولة عندما ورد نبأ موته وضفروا الاكاليل على رؤوسهم ابتهاجاً وتيمناً. وحمل [اراتوس] وهو في سورة من الغضب على [آتيكا] وتوغل فيها حتى بلغ [الاكاديمي] نفسها ولكنه توقف وهدأت نفسه ولم يقدم على عملٍ عدواني آخر. على ان الاثينيين ادركوا فيما بعد قيمة فضائله عندما حاولوا بعد موت [ديمتريوس] استعادة حريتهم واستنجدوا به. ولم تكن السنة سنة قيادته وكان طريح الفراش يشكو العلّة. فلم يخبي ظن المدينة به في وقت الضيق وامر بان يحمل في محفة وهو مريض ونجح في اقناع الحاكم [ديوغينيس] بتسليمه للآثينيين كلاً من [پيريوس ومونيخيا وسلاميس وسونيوم Sunium] لقاء مائة وخمسين تالنتاً تدفع له. وتبرع [اراتوس]

بعشرين منها. وعلى اثر ذلك انضمّ [الايجينون Aegintans والهرميونيون Hermionians] الى الأخائيين. ودخل القسم الأكبر من اركاديا في الحلف الأخائي. وتعاظمت قوة هذا الحلف مساعدة الايتوليين وبانشغال المقدونيين في حروبهم الداخلية، وفي قتالهم مع جيرانهم، حتى بلغت اوجها الاّ ان [اراتوس] لم يتخلّ عن فكرته الأولى وهي القضاء على الطغاة. وعيل صبره من بقاء الاستبداد يخيم على مدينة [ارغوس] القريبة. فأرسل يطلب الى [ارسطوماخوس] ظاغيتها باعادة الحرية اليها وضمها الى الحلف الأخائي مقتدياً [بليدياديس] وقال له ناصحاً:

- خير لك ان تختار لنفسك منصب جنرال الشعب عظيم، بكل ما يخلعه عليك من شرفٍ ومكانة، على ان تكون طاغية مستبد في مدينة واحدة، بكلّ ما يتضمن ذلك من بغضٍ واخطار.

فوقعت الرسالة، في نفسه موقعاً ايجابياً وطلب من [اراتوس] ان يبعث اليه بخمسين تالنتاً ليفي ما بذمته من اجر للجنود.

فشرع في جمعها. الاّ ان [ليدياديس] الذي كان جنرالاً للحلف في تلك السنة، اراد ان يعزى الفضل في هذا له مدفوعاً بشد طموحه. فأخذ يغتاب [اراتوس] ويشكك [ارسطوماخوس] فيه قائلاً انه عدوّ لدود للطغاة لايلين جانبه، واقنعه بان يوكل اليه أمر الاتفاق مع الأخائيين عنه ويترك وساطة [اراتوس]. الاّ ان الآخائيين اتوا بالبرهان الدافع على مبلغ حبهم لاراتوس ومكانته العظيمة عندهم وثقتهم به، عندما اندفع بسورة من غضبه يعارض في اقتراح ضمّ [ارسطوماخوس] الى الخلف فأسرعوا كلهم الى رفض الطلب، ولما هدأ واسترضي وحبذ الطلب صوتوا حالاً بقبول بارغوسيين والفلياسيين Phliosions في الاتحاد الآخائي. وانتخبوا [ارسطوماخوس] جنرالاً للمسنة التالية.

وبات [ارسطوماخوس] يتمتع بكثير من الثقة والتقدير لدى الآخائيين وهذا ما شجعهُ على فكرة غزو [لاقونيا] فأرسل يستقدم [اراتوس] من اثينا لهذا الغرض، فكتب اليه [اراتوس] محاولاً جهده ان يحمله على نبذ الفكرة فقد كان يخشى كثيراً دخول الآخائيين في نزاع مع [كليومينس] الذي كان شجاعاً سريع الصعود في مراقي السلطان والبأس. الاّ ان [ارسطوماخوس] قررّ المضيّ قدماً في حملته، فلم يسع [اراتوس] الاّ الرضوخ والمشاركة فيها. وكان هذا سبباً في ان يحول بين [ارسطوماخوس] وبين خوضة معركة مع [كليومينس] عندما واجههما هذا في [فاللانسيوم Phallantium]. فاستهدف الى اتهام ليدياديس ونشبت بينهما معركة انتخابية فاز فيها [اراتوس] بمنصب الجنرال برفع الأيدي للمرة الثانية عشرة.

في هذه السنة عانى [اراتوس] هزيمة [ليقيوم] على يد [كليومينس] فهرب وهام على وجهه ليلاً وظن انه قتل وانتشر هذا النبأ للمرة الثانية في طول اليونان وعرضها. واكده الناس، الاّ انه اعاد تنظيم قواته، ولم يخلد الى الهدوء ولكنه استخدم اشاعة موته بخير ما يمكن فقد انقضّ بدون سابق انذار على [المانتينيين] حلفاء [كليومينس] واحتل مدينتهم ووضع فيها حامية، ومنح حقوق المواطنة للاجانب فيها فأمن فوائد جمة للأخائيين المقهورين يصعب حصولهم عليها فيما لو كانوا هم المنتصرون. واغار اللقيديميون ثانية على اراضي [ميغالوپوليس] فتقدم اراتوس لنجدة المدينة. الاّ انه لم يتح [لكليومينس] فرصة جرّه الى القتال واستفزازه. كذلك لم يفلح [الميغالوپوليون] في جرّه الى المعركة مع الحاحهم الشديد عليه. لم يكن [اراتوس] مستعداً كلّ الاستعداد لخوض معركة فاصلة، فقواته اقل عدداً من قوات خصمه، كما انه كان يواجه خصماً جريئاً بشخص القائد الشاب. في حين كان هو قد تخطى حدود الاقدام وبلغ الطموح الذي يستوجب كبحه وعدم التفريط بالمجد الذي فاز به بالتزام حدود التأني والتبصرّ في حين كان [كليومينس] خصمه يريد الوصول اليه بالمزيد من الاقدام والاندفاع.

قامت المشاة الخفيفة بهجوم من المدينة فأجبروا [اللقيديميين] على التقهقر حتى معسكرهم. الاّ ان [اراتوس] لم يتقدم برجاله وانما ربض في مجرى ماءٍ جافٍ يعترض الطريق الى المعسكر. ومنع الجنود من العبور. فأشتد غيظ [ليدياديس] لما يحدث. وانهال على [اراتوس] لوماً وتقريعاً، وناشد الخيالة الانضمام الى المطاردين في المطارده لئلا يفلت النصر المحقق من ايديهم. وقال انه مقدم على المخاطرة بحياته في سبيل بلاده وان عليهم ان لايتخلوا عنه وعزز قواته بكثير من الكُماة الذين لبواّ نداءه ثم كرّ على ميمنة العدو وهزمها وراح يطاردها مطاردة عنيفة ملقياً بجانب الحذر تاركاً حماسته وامله بالمجد تعزيه بالتقدم في ارض وعرة تغطيها النباتات واشجار الفاكهة وتعترضها سواق عريضة. وهنا اصطدم بقوات [كليومينس] فخرّ صريعاً وهو يقاتل قتال المغاوير في اشرف معركة عند عتبة بلاده. وفزعت البقية الى الجزء الاكبر من الجيش فأوقعت الاضطراب والخلل في صفوف المشاة الثقيلة وادت الى هزيمة الجيش كله.

وجه اشد الاتهام الى [اراتوس] اذ شكّ في انه غدر [بليدياديس]. وارغمه الأخائيون المنسحبون على مرافقتهم الى ايغيوم وهو ساخطون عليه اشدّ السخط. وهناك عقدوا مجلس حرب وقرروا فيه ان لايمدوا [اراتوس] بعد الآن بمالٍ وان لايؤجر له جنوده، وفرضوا عليه ان يدفع من جيبه اجور جنوده ان رغب ان يشنّ حرباً.

هذه الاهانة اصابته بألمٍ شديد حتى فكر في اعادة اختتام المنصب والاستقالة من القيادة العامة. الاّ انه عاد فعدل عن رأيه ووجد الصبر أخلق به. وزحف في الحال مع الأخائيين الى [ارخومينس] واشتبك بمعركة ضد [ميغوستونس Megistonus] زوج أم [كليومينس] وانتصر عليه وقتل ثلاثمائة محارب ووقع [مغيستونس] في الأسر.

انتهت قيادة سلفه وقد جرت العادة ان يتسلم هو القيادة للسنة التالية، ولكنه رفض قبولها عندما دعي لتسلمها. فأنتخب [تيموكزينس Timoxenus] في محلّه. ولم يكن سبب رفضه حنقه على الأهلين كما زعموا، بل للظروف السيئة التي تمرّ بها احوال الأخائيين. [فكليومينس] فأعاد الآن يغزوهم غزوات بسيطة خفيفة الأثر كما كان يفعل قبلاً بوصفه قائداً مقيداً بأوامر سلطة مدينته. بل صار يغير عليهم بوصفه صاحب الأمر والنهي غير المسؤول امام احدٍ بعد ان فتك بالايغور، ووزع الأراضي، ومنح خلقاً كثيراً من الاجانب المقيمين حقوق المواطنة اللقيديميّة، وبهذا دخلت خصومته مع الأخائيين صفحة جديدة خطرة، بدأها بالمطالبة لنفسه بالقيادة العليا.

لامناص لنا هنا من توجيه اشدّ اللوم الى [اراتوس] فقد بدا كالربان الهيّاب المتردد في وقت هبوب العاصفة وهياج البحر لقد تخلى عن الدفّة في حين كان واجبه يقضي عليه بالتشبث بها شاء الركاب الخلاص ام أبوا. أمّا اذا كان يعتقد بان حالة الآخائيين لايرجى لها امل، فكان يجب عليه ان يسلّم الأمر الى [كليومينس] ولايدع [البيلوپونيسس] تقع مرة أخرى في يد الحاميات المقدونية الهمجية، وان يحتلّ قلعة كورنث الجنود اللاليريون والغاليون. زد على هذا ان أولئك الذين جعل همه التغلب عليهم وسحقهم بالقوة او بالسياسة واغرقهم بالاهانات والانتقادات في تعليقاته عاد ينصبهم حكاماً على المدن تحت راية العنوان الفخم «الحلف الأخائي». في حين ابى ذلك على [كليومينس] الذي كان طاغية مستبداً في الواقع الاّ انه منحدر من النسل الهيراقليدي العريق، وسپارطه موطنه حيث يحق لكل مواطن مهما خمل ذكره ان يتولى القيادة قبل ان يتولاها افضل المقدونيين، ان كان ثم من يقيم وزناً لشرف المحتد اليوناني. ثم ان [كليومينس] طالب بقيادة الآخائيين معتزماً ان يعطي شرف اللقب حقّه بردّ فضل حقيقي للمدن الاغريقية. في حين رفض [انتيغونس] قبول منصب الجنرال بصلاحيات مطلقة في البرّ والبحر، إلاّ اذا تمت الموافقة على اطلاق يده في قلعة كورنث. مثله في ذلك مثل صيّاد [ايسوبٓ]. انه لم يشأ ان يعتلي ظهور الأخائيين الذين انحنوا له وقدموا اقفيتهم للضرب بارسالهم السفراء اليه واصدار المراسيم الشعبية، فقد ابى الاّ ان يسرجهم ويشكمهم باخذ رهائن منهم ووضع حاميات في مدنهم!

استنفد [اراتوس] كل طاقاته في الكلام ليوضح الضرورة التي ألجاته الى ذلك. الاّ ان [پوليبيوس Polybius] يقول ان [اراتوس] كان قد اتصل سراً [بانتيغونس] قبل ان تلوح هذه الضرورة بوقت طويل، اذ كان يوجس خيفة من [كليومينس] ويخشى اندفاعه. وكان قد نجح كذلك في اقناع اهالي [ميغالوپولس] بالضغط على الأخائيين لالتماس العون من [انتيغونس] لأنهم أكثر تعرضاً لويلات الحرب من سواهم. وكان [كليومينس] لاينفك ينهب لادهم ويعيث فيها سلباً.

ويكتب [فيلارخوس Phylarchus] الشيء نفسه (وهو ليس بثقة لولا تأييد [پوليبيوس] لروايته - لأن الحماسة كانت تغلب عليه كلما اتى الى ذكر [كليومينس] بكلمةٍ، حتى لكأنه يترافع عنه في محكمة وليس يكتب تاريخاً فيهب في الدفاع عن هذا، ويسرف في قدح [اراتوس].

واستعاد [كليومينس] كانتينيا من يد الأخائيين، واصاب [اراتوس] بهزيمة نكراء بعد قتال شديد بالقرب من [هيكاتوبيوم] فعم السخط عليه حتى ان الآخائيين ارسلوا الى [كلومنيس] في الحال، يطلبون منه المجيء الى [ارغوس] لتسلّم قيادة الحلف العليا. وسمع [اراتوس] بقدومه وكان يخشى العاقبة فأرسل اليه يشير بأن لا يأتي ومعه اكثر من ثلاثمائة رجل كما يفعل الاصدقاء والحلفاء. وان شكّ في أمرٍ يبيت له فهو مستعد لوضع رهائن بين يديه. الاّ ان [كليومينس] عد هذا السلوك اهانةً وقفل راجعاً وارسل الى الآخائيين رسالة حفلت بالعتاب والاتهام [لاراتوس] وكتب [اراتوس] من جهته رسائل ضدّ [كليومينس] تضمنت اقبح الشتائم واقذع الاوصاف ولم تنج زوجتا المتقادحين ولازواجهما من تلك الاهانات المتبادلة. وعلى اثر ذلك ارسل [كليومينس] منادياً للآخائيين، باعلان الحرب. ولما فشل في الاستيلاء على [سيكيون] بسبب الخيانة وكان اقرب اليها من حبل الوريد - انسحب الى مسافة قصيرة وانقضّ على [پلليني] واستولى عليها عنوةً. وعجلّ بالاستيلاء على [پنتاليوم Pentollum] و[فينيوس Phenèus] واسرع الارغوسيون للانضمام اليه بملء رغبتهم ورضي [الفلياسيون] بحاميته في مدينتهم. وبمختصر القول لن يبق للآخائيين حليف من كلّ المنضمين اليهم مؤخراً واحدقت الفوضى والضجة باراتوس من كل جهة ورأى سائر الپيلوپونيسس يهزّ قبضة متوعداً، والمدن ثائرة عليه بتحريض المحرضين الذين بدأت اصواتهم ترتفع بالثورة. في الواقع لم يبق ارض لم تطأها الثورة. ولم يعد موضع واحدٌ فيه استقرار او رضا بالوضع الراهن. حتى ان السيكيونيين والكورنثيين اتصلوا سراً [بكليومينس]، بعد ان ضاقوا ذرعاً بالوضع السائد وحنواً الى الانفصال عن الحلف والاستقلال بأمورهم. وكان [اراتوس] يملك سلطة مطلقة في

فرض العقوبات الرادعة فنفذ احكام الموت بمن وقع بيده من السيكيونيين، وذهب الى [كورنث] وفرض ما ارتآه من العقوبات. فثارت الخواطر وتغيرت مشاعرهم على الآخائيين وملوا حكمهم. وأجتمعت جموعهم الزاخرة في هيكل [اپوللو] وارسلوا بطلب [اراتوس] وقد قرروا فيما بينهم ان يقبضوا عليه او يقتلوه قبل اعلان الثورة. فجاء يقود زمام حصانه وكأنه خالي البال لايشك في أمرٍ. فنهض عدد منهم وانهالوا عليه لوماً وصبوا عليه الاتهامات صبّاً؛ فلم يبد عليه اي تأثرٍ من الصراخ والزعيق في وجهه وقوفاً وان يجلسوا واشار الى الواقفين بالباب ان يدخلوا. وبعد ان سار الهدوء سار بكل ثبات الى الباب وخرج كأنه يريد ان يسلّم زمام حصانه لاحد الواقفين وبعد ان ابتعد عن الجمع بمسافة متحدثاً الى الكورنثيين الذين يلقاهم بشكل اعتيادي ومن غير اكتراث ويطلب فيهم التوجه الى هيكل [اپوللو] حتى بلغ القلعة دون ان يفطنوا الى قصده وهنا اعتلى صهوة حصانه واوصى [كليوپاطر Cleopater] آمر الحامية باليقظة والحذر والحرص على الواجب، ثم اطلق العنان له متجهاً الى سيكيون ومعه ثلاثون جندياً لا غير. تاركاً الباقين يتدبر كل منهم أمره. وبعد قليل ذاع خبر فراره، فأسرع الكورنثيون يجدون في اثره ولكنهم عجزوا عن اللحاق به. فبادروا الى استدعاء [كليومينس] ودفعوا اليه بمدينتهم. وقال [كليومينس] لهم ان أعظم غنيمة كان بامكانهم الفوز بها، هي [اراتوس] الذي تركوه ينجو بجلده وتقاطر اهالي (اكتي)(١) لموآزية ووضعوا مدنهم تحت تصرفه، فباشر ببناء الأطم وخطوط من المتاريس حول قلعة كورنث.

على ان [اراتوس] بلغ [سيكيون] بسلام فاجتمع حوله الآخائيون كافةً وصوتوا على انتخابه جنرالاً مطلق الصلاحية. فبادر الى حماية نفسه بحرس شخصيّ من مواطنيه.

ها قد مرّ على [اراتوس] ثلاثة وثلاثون عاماً وهو يعمل في الحياة العامة مع الآخائيين زعيماً اوحد لاينازعه احد في سلطانه، ولا في الثقة التي وضعت فيه. تراه الآن وحيداً منبوذاً من الجميع، لاحول له ولا طول، تتقاذفه الأهواء وتحدق به الأخطار في سفينة بلاده النخرة المتكسرة. رفض الايتوليون معاونته في وقت الضيق عندما اتجه اليهم والآثينيون الذين احبّوه واحترموه حيل بينهم وبين مساعدته بتدخل [يوقليدس وميكيون Micion] اللذين امتنعا عن تعزيز قواته. الا ان [كليومينس] ابى مصادرة ما كان يملكه من عقار وملك في كورنث. ولم يدع احداً يمد يده اليه بل استقدم اصدقاءه ووكلاءه وطلب منهم ان يأخذوا على أنفسهم مسؤولية الاشراف على امواله وان يقدموا له حساباً عنها. وارسل اليه في السرّ زوج امّه [فيغوستونس] و[تريپيلوس Tripylus] فعرضا عليه الكثير، ومنه مكافأة تقاعدية سنوية

(١) Acte: هو الاسم القديم لأتيكا. وتعني بالاغريقية «ارض الساحل».

قدرها اثنا عشر تالنتاً اي ضعف ما عرض عليه [پطليموس] لقاء سعيه له بانتخابه قائداً للأخائيين وان يشارك في السيطرة على قلعة كورنث. فكان جواب [اراتوس] ان الظروف ليست خاضعة لسلطانه، وانما هو الذي يخضع لسلطانها. وعَدّ [كليومينس] هذا الردّ مراوغة وتهرباً فغزا اراضي [سيكيون] ودمرّها تدميراً بالسيف والنار، ثم القى الحصار على المدينة طوال ثلاثة أشهر، صمد لها [اراتوس] بعزم لايلين، ونفسه تنازعه في دعوة [انتيغونس] لنجدته لقاء تنازله له عن قلعة كورنث، فهو الشرط الوحيد الذي يقبله هذا الملك.

واجتمع الأخائيون في [ايغيوم] وطلبوا حضور [اراتوس] وكان وصوله محفوفاً بأعظم الخطر، فقد ضرب [كليومينس] معسكره امام [سيكيون] تماماً ولابد من اختراقه لبلوغ المدينة والحّ عليه السيكيونيون ان يبقى حيث هو قائلين انهم لن يسمحوا له بتعريض نفسه للخطر الاكيد والعدو متربص بع على الأبواب والمداخل والتفت النسوة والاطفال حوله يتباكون ويتشبثون به كأبٍ ونصير، فطمأنهم وشجعهم على قدر ما امكنه واعتلى ظهر جواده مع عشرة من اصدقائه وابنه الذي كان وقتذاك فتىً يافعاً. اتجه الى الساحل فوجد سفناً راسيةً على مبعدة من اليابسة فصعد اليها وابحر متجهاً نحو [ايغيوم] لحضور الاجتماع. وتقرر هناك طلب معونة [انتيغونس] وتسليم قلعة كورنث له مقابل ذلك وارسل [اراتوس] ابنه وآخرين ليكونوا رهائن لدى الملك المقدوني. فثارت ثائرة الكورنثيين عليه حتى انهم نهبوا ممتلكاته وصادروا عقاره، وقدموا منزله هديةً لـ[كليومينس].

وكملت استعدادات جيش [انتيغونس] وبات متأهباً للقتال وكانت عدته عشرين الفاً من الرجاله والفاً وثلاثمائة فارس مقدوني. فخرج [اراتوس] واعضاء المجلس الى عرض البحر لاستقباله، فبلغ پيكي Pegæ دون ان يعلم به العدوّ. ولم يكن كبير الثقة بانتيغونس والمقدونيين وكان يدرك ان مجد هذا الملك قد بني على حساب الخسائر التي اوقعها بهم، كما لم يكن ناسياً ان شهرته السياسية الأولى بنيت على خصومته السابقة لانتيغونس. ولكن للظروف احكاماً، والحاجة القصوى، وتصلّب رأس وسيد كل من نسميهم حكاماً جعله يغامر بكل شيء.

لما انبيء [انتيغونس] بقدوم [اراتوس] وصحبه، خرج لاستقبالهم ونحيتهم بصورة اعتيادية، الا انه خصّ [اراتوس] بالتكريم من البداية، فقد وجده راجح العقل اهلاً للثقة. فقرّبه واجعله من جملة اخصّ عشرائه. وقد جمع [اراتوس] الى اصالة الرأي وجيد المشورة في المسائل العامة، طيب المعاشرة وحسن المجلس في اللقاءات الخاصة ومناسبات الأنس واللهو. وما ادرك الفتى انتيغونس هذه الخصال فيه وموافقها لمشاريه الملكية حتى القى اليه بثقله

واعتمده في أمور المقدونيين فضلاً عن امور الاخائيين وبهذا تحققت نبوءة الآله فيه بما كشف له في احدى قرابينه في الماضي. فقد روي انه كان قد ضحىّ من زمن بعيد فوجدوا في كبد الأضحية كيسين من الصفراء يغلفهما غشاء دهني واحد ففسر هذه الظاهرة كاهنٌ بقوله ان صداقة متينة العرى ستشتد ما بينه وبين الد اعدائه عما قريب، فأستخف بالتفسير ولم يأبه به لأنه كان قليل الأيمان بكلام المشعبذين والعرافين كبير الاعتماد على منطقه وتحليله العقلي للأمور.

بعد ان حالفهما التوفيق في الحروب التي خاضاها، واصبحت الأمور على ما يرام أقام [انتيغوس] مزدبة عظيمة في [كورنث] دعا اليها عدداً كبيراً من الضيوف ووضع مجلس [اراتوس] الى جانبه مباشرة ثم انه شعر بقشعريرة فطلب غطاءٍ وسأله الايشعر هو أيضاً بالبردِ فقال [اراتوس]:

- أجل فالدنيا باردة جداً.

فأشار عليه [انتيغونس] بان يقرب منه مقعده ولما اقبل الخدم بالغطاء القوه عليهما معاً، وعندها تذكر [اراتوس] الاضحية وقول العراف فأنشأ يضحك واخبر الملك بالقصّة. على ان هذا حدث بعد مرور زمن طويل مما نحن فيه. وهكذا تبادل الملك و[اراتوس] عهد الاخلاص في [پيغي] وزحفا على العدوّ واشتبكا معه في عدة وقعات عند مشارف المدينة. وكانت مواقع [كليومينس] منيعة والكورنثيون يدافعون عن مدينتهم دفاعاً مجيداً وفعلاً. وفي ذلك الوقت ارسل اليه صديقه ارسطوطيليس Aristoteles] الأرغوسي يخبره سِراً بانه سيحمل ابناء مدينته الارغوسيين على الثورة ان قدم اليها شخصياً مع وجدة عسكرية، فأطلع انتيغونس على ذلك واخذ معه الفاً وخمسمائة رجل وابحر في زوارق سارت به على محاذاة الساحل في الوغاز حتى [اپيداورس Epidaurus] الاّ ان الأرغوس لم يصبروا حتى وصوله وهبّوا ثائرين بصورة مفاجئة وانقضوا على جنود [كليومينس] فلاذ هؤلاء بالقلعة. وعلم [كليومينس] بما حصل وخشي ان يقطع عليه خطّ الرجعة باستيلاء خصمه على [ارغوس] فترك قلعة [كورنث] واسرع ليلاً لنجدة رجاله هناك. وسبق [اراتوس] في الوصول وقضى على الفتنة. ووصل اراتوس برجاله، ثم ما لبث ان زحف [انتيغونس] بجيشه، فأنسحب [كليومينس] الى [مانتينيا]. وهنا عادت كل المدن الى حظيرة الحلف الأخائي واحتل [انتيغونس] قلعة كورنث، وانتخب اهل ارغوس [اراتوس] جنرالاً، وحملهم على ان يقدموا كل يملكه الطغاة والخونة هدية لانتغونس.

وأمّا عن [ارسطوماخوس] الطاغية، فقدّ شدّ على المخلعة وعذبّ، ثم اغرق في البحر قرب

مدينة [كنجزبي]. وكان هذا العمل البربري سبباً في توجيه اشدّ الانتقاد [لاراتوس] لأنه وافق على قتل انسان بدون وجه حقٍ، قتل رجلاً خلافاً لاحكام القانون - كان صديقاً حميماً له. ولم يعرف عنه الاّ الطيب وكرم الأخلاق. نزل بمساعي [اراتوس] نفسها عن سلطاته الاستبدادية بملء اختياره عليه. فقالوا انه تنازل عن كورنث [لانتيغونس] بأسهل مما تتنازل عن قرية مقدونية في [اورخومنيس] بعد ان حاصروها هم وفتحوها. واتهموه بانه حملهم على اصدار قرارٍ يحرمّ عليهم الاتصال باي ملكٍ او مكاتبته الاّ بموافقة انتيغونس. وانه ارغمهم على تقديم مواد الاعاشة للجنود المقدونيين وصرف اجورهم. وانه اضطرهم الي اقامة القرابين وتنظيم المواكب والألعاب تكريماً لانتيغونس وان مواطنيه سبقوا الى استقبال هذا الملك ودعوه الى النزول ضيفاً في منزل [اراتوس] فاختطوا سنةً كريهة وارغموهم على تكرارها. كل هذه عدت اخطاءً ارتكبها [اراتوس] شخصيّاً؛ وكأنهم غفلوا عن الحقيقة المعروفة وهي انه من العسير كبح جماح سلطة الملك. فما ان وضعت الأعنة في يد [انتيغونس] حتى انطلق بقوة ذلك السلطان الملكي دون توقف. واصبح السيّد المطلق على الحرية التي لاتعود قطّ مأمونة العواقب عند استعماله لها.

في الواقع كان ثم الكثير مما يقلق بال [اراتوس]. كما ظهر من مسألة التماثيل. فقد اعاد [انتيغونس] اقامة تماثيل طغاة [ارغوس] وازال تماثيل كل فاتحي قلعة كورنث إلاّ تمثال [اراتوس]. ولم يستطع هذا ان يقنعه بخلافه رغم محاولته. ومما آلمه ايضاً معاملة الآخائيين للمانيتينين بعد استيلائه على مدينتهم بمساعدة [انتغونس] فقد اعملوا السيف في رقاب ابرز المواطنين وارفعهم مقاماً. واما الباقون فبعضهم بيع في سوق النخاسةِ، وبعضهم كبل بالاغلال وارسل الى مقدونيا ليكون رقيقاً واماء لزوجات المقدونيين واولادهم وجمعوا كل الأموال من المدينة المفتوحة فوزعوا ثلثها فيما بينهم ودفعوا بالثلثين الباقين الى المقدونيين ليتوزعوها فيما بينهم ايضاً. قد يمكن تبرير هذا العمل بمبدء المقابلة بالمثل؛ ولكن اليس من الهمجية ان يقوم اخوان مواطنون من شعب واحدٍ ودم واحدٍ بهذه الأعمال فيما بينهم وهم في فورة من الهياج والجنون؟ ان الضرورة على حد قول [سيمونيوس] تجعل هذا العمل مستطاباً ومغتفراً، اذ لا جناح في ان تتاح للعواطف الحانقة المكروب متنفس لشفاء غليلها. الاّ ان الدفاع عن سمعة [اراتوس] في الموقف التالي غير ممكن باي وجهٍ من الوجوه. لا من ناحية منطقية ولا بحكم الضرورة، فقد وهب [انتيغونس] المدينة للارغوسيين بعدما اقدم على تلك الأفعال، فقرر [اراتوس] بعد انتخابه مؤسساً جديداً لها ان يعيد تأهيلها فأصدر بحكم منصبه العسكري مرسوماً يقضي بابطال أطلاق الاسم القديم عليها، وسمّاها [انتيغونيا] وهو ما

يطلق عليها الآن. ولذلك يمكن القول بأنه كان السبب في طمس معالم الذكرى الغابرة لمانتينيا الجميلة وحملها الى يومنا هذا اسم مدمّرها وجزّار اهاليها.

تحققت هزيمة [كليومينس] التامة في معركة طاحنة بالقرب من [سيلاّسيا Sellasia] فترك سپارطة وهرب الى مصر. وبعد ان اظهر [انتيغونس] لاراتوس كل آيات الودّ والصداقة، بادر الى الانسحاب بجيشه الى [مقدونيا] وهناك اقعده المرض الشديد، فأرسل ابنه [فيليب] الى الپيلوپونيس وهو فتىً لم يطرّ شاربه واوصاه بان يعتمد كل الاعتماد على مشورة [اراتوس] وان لايتعامل مع المدن الاّ عن طريقه ولايتصل بالآخائيين الاّ بوساطته فأستقبله [اراتوس] ومحضه النصيحة واحسن توجيهه وقام على تهذيبه واعاده الى [مقدونيا] وهو يحمل له قدراً كبيراً من الحب والاحترام. وقلبه مفعم بالرغبة والطموح الى القيام بدورٍ نبيل في بلاد الاغريق.

لمّا قضى [انتيغونس] نحبه، حاول الايتوليون التدخل في شؤون [الپيلوپونيس] مستهينين بالأخائيين. لما رأوهم عليه من قلة الحيلة والاعتياد على الاعتماد على غيرهم للدفاع عنهم والاحتماء بقوة المقدونيين، واستسلامهم الى حياة الكسل والراحة. فاغاروا على اراضي [پاتري Patrae] و[ديمه Dyme] ونهبوها اثناء زحفهم، وغزت جحافلهم مسينه واعملت فيها تخريباً. فبلغ الغضب [باراتوس] اقصاه، ووجد [تيموكزينس] جنرال تلك السنة متردداً يضيع الوقت سدى. لأن مدته كانت توشك على الانتهاء وكان هو سيخلفه، فما كان منه الاّ واستبق الأجل المقرر بخمسة ايام، ليتمكن من نجدة المسينيين فحبذ الأخائيين الذين كانوا يكرهون الحرب ولايعرفون كيف يستخدمون السلاح فلحقت به الهزيمة في [كافيي Ca-phyae]. لقد باشر الحرب باندفاع وحماسة فأنتهى بنقيضهما اذ فترت حرارته وادركه الجزع وضيع كثيراً من الفرص المؤاتية التي كانت ستمكنه من خصومه. وتركهم يسرحون ويمرحون في [الپيلوپونيس] ويشيعون الفوضى فيها من اقصاها الى ادناها ويرتكبون كل انواع المحرمات والجرائم. وهكذا اسقط في يد [اراتوس] واضطر الى الاستنجاد بالمقدونيين ثانية، وبهذا دعي [فيليب] وجرّ جراً للتدخل في شؤون اليونان وكان الأمل فيه ان يظهر لطفاً وليناً واستعداداً للعمل وفقما يريدون بسبب حبه وثقته باراتوس.

لكن الملك كان واقعاً آنذاك تحت تأثير [اپلليس Apelles وميغالياس Megaleas] وغيرهما من رجال البلاط الذي اوغروا صدره على [اراتوس] وقضوا على مكانته لديه. فانحاز [فيليب] الى الحزب المناوئ له في آخائيا، وساند مرشحه [اپيراتوس Epiratus] لمنصب الجنرال، فكان بذلك موضع سخرية الآخائيين واحتقارهم، اضف الى هذا ان الأمور لم

تسر معه سيراً طيباً لافتقاره الى معونة [اراتوس]، وسرعان ما ادرك خطأه فصالح [اراتوس] واعتمد عليه اعتماداً مطلقاً، فاستقامت له الأمور، وحسنت احواله وعادت مكانته وسلطته الى سابق عهدها. وبذلك اثبت [اراتوس] انه خير قيم على الحكم الملكي كما كان خير قيم على الحكم الديمقراطي. فقد أخذت أعمال الملك وتصرفاته تنحو منحى عقلية [اراتوس] وطباعه، وتظهر طابعها الأصيل. مثال ذلك معاملته الرقيقة للقيديمين، بعد ان اثاروا سخطه وغضبه بتصرفاتهم. والعطف الذي ابداه لأهالي كريت (مما ادى الى خضوع الجزيرة كلها لحكمه في ايام قلائل). وحملته على الايتوليين والنصر الساحق الذي حققه. كل هذا رفع من مكانته وصيته، بفضل مشورة [اراتوس]. وهو مازاد من حسد اتباع الملك له. وقد وجدوا من المعتذر ان يتغلبوا عليه بحبك الدسائس من خلف الستار. فراحوا يوجهون اليه الإهانات، ويسيئون اليه علناً في مجالس شربهم ومآدبهم، بكل فظاظة وصفاقة. حتى انهم قذفوه مرة بالحجارة عندما خرج بعد العشاء قاصداً خيمته، فاستاء [فيليب] من هذا العمل وفرض على الفاعلين غرامة قدرها عشرون تالنتاً. فلم يكفوا وظلوا يثيرون الفتن ويعرقلون الأمور. فبطش بهم.

الا ان انتصاراته ودوام نجاحه وازدهار احواله أخذ يصيبه بالعجرفة والغرور، فبطر وبدأت الرغبات الجامحة تتفجر في رأسه وتخرج اشطاءها. واندفعت ميوله السيئة فكسرت كل الضوابط المصطنعة التي كانت تقيّدها وتحبسها. وما مرّ عليه زمن حتى تبدت طباعه الحقيقة ووضح خلقه الأصيل. وكان اولّ فعلة هو استغلال وجوده ضيفاً في بيت [اراتوس] الأبن، فأغوى امرأته واعتدى على شرفها سراً ولذلك ظل الأمر مستوراً مدة طويلة. ثم ازداد خشونة وتحكماً في معالجة شؤون الاغريق العامة. ونمتّ تصرفاته على انه يريد التخلص من رقابة [اراتوس] لينطلق على رسله دون ضابط. وقد تأيد ذلك [لاراتوس] في مسألة المسينيين. فقد ثارت الفتنة فيما بينهم وتأخر [اراتوس] قليلاً في السير بالنجدات اليهم، فسبقه فيليب الى المدينة بيوم واحدٍ واخذ يؤرث نار الشقاق بينهم بدلاً اخمادها. اذ سأل زعماء المسينيين الاشراف كلاً على حدة: هل ان قوانينهم تكفل لهم السيطرة على عامة الشعب؟ ثم انفرد بالزعماء الشعبيين وسألهم هل ينوون البقاء مكتوفي الايدي امام مضطهديهم فنفخ في الجهتين روح التحديّ والعداء، وحاول القواد القاء القبض على زعماء الشعب، فهاجم هؤلاء القواد على رأس الجمهور وقتلوا منهم زهاء مائتين. بعد ان ارتكب [فيليب] هذه الجريمة النكراء راح يعمل جهده لاخضاع المسينيين لمشيئته التامة وفي تلك الاثناء وصل [اراتوس] واظهر سخطه على هذا العمل لفيليب وللمسينيين أيضاً. كما انه اوعز الى ابنه بأن يؤنبه ويقرعه. ويبدو انه كان ثم علاقة حبّ بين هذا الشاب وبين [فيليب] وفي هذه المناسبة كان احد

تعابير اللوم والتأنيب التي وجهها اليه قوله انه ما عاد يبدو في عينه أجمل الرجال بل اقبحهم بعد هذا العمل المنكر. فلم يردّ عليه [فيليب] بكلمة واحدة وان بان عليه الغضب الشديد وبدا وكأنه يهمّ بالاجابة، وقاطعه عدة مرات بصيحات عالية اثناء ما كان يتكلم. امّا [اراتوس] الأب فقد ظلّ ساكناً كأن الامر لايعنيه في شيء. كسياسي مطبوع يمتاز بالمقدرة على كظم الغيظ وضبط النفس. ومدّ اليه يده وسار به الى خارج الملعب وقصدا معاً [الايثوماتس Ithomatas] للتقريب الى چوبتر والقاء نظرة على الموقع اذ كان منيعاً يشبه قلعة كورنث، يتعذر اقتحامه ان عزز بحامية، ويظلّ صامداً لأي هجوم من ايه ناحية. وبعد ان قرب [فيليب] وتسلّم احشاء الثور بيده من الكاهن، عرضها على [اراتوس] مرّة وعلى [ديمتريوس الغاري] مرة وسألهما ما الذي يجب عمله بخصوص القلعة حسبما استخلصا من دلائل في الاضحية؟

أيحتفظ بها أم يعيدها للمسينيين؟

فضحك [ديمتريوس] واجاب:

- ان كان صدرك يضمّ روح منجمٍ، فأعدها اليهم، وان كان يضم روح ملك فعليك ان تقبض على الثور من قرنيه معاً.

مشيراً الى [البيلوبونيس] التي ستكون طوع امره ان هو اضاف الى ملكه قلعة [ايثوماتاس] الى جانب قلعة كورنث. وظلّ [اراتوس] صامتاً برهة من الزمن، فالتفت اليه فيليب وسأله عن رأيه فقال:

- هناك جبال عديدة عظيمة في كريت. وفي [بويوسيا وفوكيس] صخور منيعة لاتعدّ. وثم قلاع وحصون مشهورة لاتحصى في داخلية [اكارنانيا] وعلى سواحلها. وكل سكان هذه الأمصار يطيعونك ويدينون بالولاء لك مع انك لم تستول عنوةً على اي موقع من هذه البلاد. ان اللصوص وحدهم يكمنون في الصخور والجرف. وامنع قلعة يحرزها الملك هي الثقة والولاء. فهذان فتحا لك البحر الكريتي، وهذان يجعلانك سيد [البلوبونيسس] وبمعونتهما - وانت بعد شاب ستكون قائداً للحصن الاول وسيداً للقلعة الثانية.

كان فيليب قد اعاد الاحشاء الى الكاهن واراتوس مسترسل في حديثه. وبعد هذا جذب يده قائلاً:

- تعال اذن ولنتبع هذا السبيل.

كأنما احسّ بان [اراتوس] ارغمه على التخلي عن المدينة.

ومنذ ذلك الحين اخذ [اراتوس] ينائ عن بلاط [فيليب] ويتهرب بالتدريج من صحبته. ولما تهيأ للزحف على [ابيروس] وطلب منه ان يرافقه اعتذر ولازم منزله خوفاً من ان يناله العار بمشاركته في اعماله. ولما لحقت به الهزيمة الشنعاء مع الرومان وخسر اسطوله، وبالفشل الذريع الذي لاقت خططه، عاد الى [الپيلوپونيسس] وحاول مرة أخرى ايقاع الخلاف بين المسينيين، فلم يفلح، فأعلنها حرباً عليهم وهاجمهم وراح يخرب بلادهم، فوقعت القطيعة التامة بينه وبين [اراتوس] وانكره صديقاً بعد ان اصبح على علم بما لحق ابنه من عار بسبب صلة فيليب بامرأته لقد تألم كثيراً ولكنه أبقى الأمر سِراً ولم يطلع عليه ابنه اذ لا فائدة في اعلامه بما ناله من ضرّ ان كان عاجزاً عن الثأر لنفسه. يقوم [فيليب] في الواقع مثلاً لأغرب واعظم تحوّل خُلقي. فبعد ان كان ملكاً لطيفاً. وشاباً عفاً محتشماً انقلب رجلاً فاسقاً وطاغية من اقسى الطغاة وأكثرهم استبداداً. وهذا في الحقيقة لايعد انقلاباً، بل انكشافاً لطبع أصيل عند سنوح الفرصة الملائمة للميول الشريرة التي كانت مقيدة بالخوف من الظهور وعمل النفاق على سترها مدة طويلة. ولذلك كان احترامه [لاراتوس] في مبدء الأمر ينطوي على كثير من الخوف والرهبة، وآية ذلك ما فعله به في الأخير. فقد مرّ رأيه على التخلص منه بقتله، اذ كان يشعر بان وجود هذا الرجل يحدّ من حريته وسلطانه. وانه لايستطيع ان يتصرف تصرف الملوك والطغاة طالما بقي [اراتوس] حياً. الا انه لم يكن يجرأ على الفتك به علنا. ولذلك أمر[توريون Taurion] احد ضباطه المقربين بأن يدس له سماً، بغيابه ان امكن. فتقرب [توريون] من [اراتوس] حتى نال ثقته. ودس له سماً لا يشبه سمومكمالقوية السريعة التأثير، بل من تلك التي تسبب في اول الامرحمى خفيفة، ثم سعالا جافا، ثم تحدث الموت بصورة بطيئة. وما ادرك [اراتوس] ما حل به. وكان من العبث ان يصرح بما حصل، فآثر احتمال الامر بصبر وصمت، وبدا وكأن ماألمّ به وعكة بسيطة اعتيادية. ولم يبدر منه شئ يدل على ما يكنه قلبه الا مرة واحدةً فقد بصق دماً بمحضر من صديق له كان يعوده. فلاحظ الصديق ذلك واستغرب وسأله عما به فقال [اراتوس]:

- هذا يا [كيفالون Cephalon] أجر محبة الملوك.

ووافاه الاجل في [ايغيوم] وهو في منصب الجنرال للمرة السابعة عشرة. ورغب الاخائيون بدفنه هناك وعمل موكب تشييع رسمي له وتخليده بنصب يليق بحياته الحافلة الا ان السيكيونيين احتجوا بشدة معتبرين دفنه في بقعة اخري غير موطنه كارثة وطنية. واقنعوا الاخائيين بأن يسلموه لهم. وكان ثم قانون قديم يمنع دفن اي شخصٍ داخل اسوار مدينة [سيكيون]. كذلك كان هناك ثم نفور قوي لبواعث دينية - من دفن الجثث في المدينة. لذلك

ارسلوا وفداً الى دلفي ليستخيروا الكاهنة البيثينية Pythoness فأجابتهم بما يلي:

سيكيون التي كثيرا ماانقذها

تقول «اين ستثوي رفاة اراتوس؟»

ان التربة التي لاتستقر عليه بلطف

والتربة التي تشعر تحته بضيق

ستكون ملعونة في الارض والبحر والسماء

ولما عاد الرسل بهذه النبوءة سُر الاخائيون بها كثيراً الا ان سرور السيكيونيين كان اعظم. فقد نزعوا الحداد و نبذوا مظاهره، وبدوا وكأنهم في عيد وفرح عام واسرعوا بنقل الجثمان من [ايغيوم] الى المدينة بما يشبه الموكب الديني وقد ضفروا اكاليل الزهر على رؤوسهم وانتظموا صفوفاً بثيابهم الناصعة البياض. وساروا بالغناء والرقص حتى بلغوا به موضعاً رحباً اختاروه ليكون مثوى اخيراً لمؤسس مدينتهم ومنقذها. وظل الموقع الى يومنا هذا يعرف بالاراتيوم نسبة الى اسمه. واليه كانوا يتقدمون سنوياً بقربانين اولهما في يوم ذكرى انقاذه المدينة من حكم الطاغية، ويتفق مع الخامس من شهر [ديسيوس Daesius] الذي يسميه الاثينيون [آنتستريون Anthesterion] ويطلقون على هذا القربان اسم [سوتيريا Soteria]. اما المناسبة الثانية ففي يوم ميلاده. ومازال هذان القربانان عالقين بالاذهان. ويقوم بمراسيم اولهما كاهن [جوبتر سوتر] ويقوم بمراسيم ثانيهما كاهن [اراتوس] بعد ان يحيط جبينه بعصابة بيضاء مشوبة باللون الارجواني. وتنشد الترانيم على نغم القيثار، ينشدها مغنو الاعياد الباخوسية. ويقود الموكب رئيس الالعاب ويسير وراءه الصبيان ثم الشباب ثم المستشارون وهم يتقلدون عقود الزهر، ويلحق بالركب سائر المواطنين وعامتهم. وقد دخلت مظاهر قليلة من هذه المراسيم في الطقوس الدينية وعدت جزءً لايتجزأ منه الآن ولايمكن اغفالها او الاستغناء عنها في الايام المخصوصة. الا ان القسم الرئيس منها بطل استعماله بتقادم الزمن وغير ذلك من الطوارئ.

ذلكم هو حديث التاريخ عن حياة وافعال [اراتوس] الاب. اما عن [اراتوس] الابن فقد عمد [فيليب] الشرير اللئيم بطبعه، المتطرف في استخدام سلطته، الى دسّ عقار سام له، لم يقتله بل افقده الرشد، فراح يقوم باعمال غريبة لاتمت الى العقل بصلة، ويشبع رغبات مخجلة ويتيه في بيداء النزوات. ومات وهو في عنفوان شبابه. وكان موته نعمة ونهاية لشقائه اكثر منه مصيبة له ولأهله. على ان فيليب دفع ثمناً غالياً لغدره باصدقائه طول حياته، فبعد ان

قـهـره الرومـان اضطر الى وضع نفسـه تحت حمـايتـهم فـجردوه مـن كل ممتلكاته وصـادروا سـفنه كلهـا عدا خـمسـاً منها. وفـرضوا عليـه غـرامةً قـدرها الف تالنت، وتسليم ابنه رهينةً. وتعطفـوا عليه فـسمحوا له بحكم [مـقدونيـا] وملحقاتهـا. فواصل قـتل انبل رعيتـه والفتـك بذوي قرباه فـملأ المـملكة ارهاباً وشـراً حتى مقـتـه الناس. ولم يبـتسم له الحظّ بعـد كل مـا حل به من مـحن وكوارث إلا في حالة واحدة، وهو انه اعقب ابنا عظيم المناقب رفيـع الاخلاق. لكنه حقد عليـه حسداً و غيرةً لما نال من الرومان من التكريم والتشريف فأمر بقتله. وترك مملكته لـ[برسيوس] ابنه من الخـيـاطة [غناثينيـون Gnathenion] وهو الذي قـاده [پاولوس امـيليـوس] اسيـراً في مـوكب نصره. وبه كـانت نهـاية سلالة [انتـيـغـونس] الملكـية. فـي حين ان نسل [اراتوس] ظل حتى يومنا هذا متواجداً في كل من [سيكيون] و[پلليني].

١٩٧٢/٣/٣

أرتحشستا

ARTAXERXES

465 _ 424



امتاز ارتحشتا الاول على جميع ملوك الفرس باللطف ونبل النفس. ولقب بذي اليد الطويلة لأن يمناه كانت اطول من يسراه. وهو ابن (احشويرش Xerxes]. اما ارتحششتا الثاني الذي اقصّ سيرته الآن، والمعروف «بالحسن الذاكرة» فهو حفيد ارتحششتا الاول، من بنته (باريساتس Parysatis] التي انجبت لداريوش اربعة ابناء بكرهم ارتحششتا وثانيهم (كورش] وثالثهم (اوستانس Ostanes] ورابعهم (اوكستاثرس Oxtathres]. وسمي بكورش تيمنا بكورش الاول الذي اشتق اسمه على ما يقال من الشمس واسمها باللغة الفارسية (كورش]. وكان اسم ارتحششتا بالاول [ارسيكاس Arsicas]. ويقول [دينون Di-non]، بل كان يدعي [اورسيس Oorses]. ولكن ليس من المحتمل ان ينسى [قطسياس Ctisias] اسم الملك الذي عاش معه كطبيب خاص في بلاطه له ولزوجه وامه واولاده (وان كان قد حشا كتبه بخليط متنافر من الاساطير الخرافية التي لايرضى بها العقل السليم ولا تستقيم مع المنطق).

اظهر الابن الثاني كورش، منذ حداثته صلابة، وروحاً وثابة، بعكس ارتحششتا الذي كان الين منه جانباً وارق روحاً في كل شيء. تزوج بنتاً جميلة فاضلة نزولاً عند رغبة ابويه. وابقاها في ذمته ضد رغبتهما ايضا! فقد قتل [داريوس] الملك، اخاها وهَم بقتلها كذلك. الا ان زوجها ارتحششتا القى بنفسه على قدمي امه باكياً متشفعاً واقنعها بعد لاي بان ان يعدل عن قتلها وعن فكرة فصلها عنه. على ان [كورش] كان الابن الاثير المدلل عند امه. ولذا كانت تفضله على سائر اخوته في تولي العرش بعد ابيه. فلما حضرت الوفاة زوجها استدعته من الساحل فأسرع الى البلاط ينهب الارض نهباً وكله امل بتوليه العرش بمساعيها. وكانت لدى [باريساتس] حجة قوية لتعزيز ادعائه بالعرش، استخدمها [احشويرش] في ما مضى لنفسه بناء على نصيحة [ديماراتوس]. والحجة ان [باريساتس] انجبت له بكره [ارتحششتا : ارسيكاس] عندما كان زوجها مواطناً عادياً، في حين انها انجبت له [كورش] عندما كان ملكاً. الا انها لم تفلح في مساعيها مع [داريوش] واعلن بكره ملكا فاتخذ له اسم [ارتحششتا] بدلاً من اسمه الاول. وظل [كورش] ساترابا على [ليديا] وقائداً لجيوش

الاقاليم الساحلية.

ومرّ الزمن على وفاة [داريوش] وحل موعد رحلة [ارتحششتا] الى [پاسارگادي Pasar-gadae] ليقوم كهنة الفرس باتمام مراسيم تنصيبه. كان ثمّ هيكل لربة محاربة يمكن تشبيهها بـ[مينرڤا]، تحتم التقاليد على الامير الملكي الذي سيتوج ملكاً ان يمر به بعد ان يخلع حلته الملوكية ويلبس الرداء الذي كان [كورش] الاول يرتديه قبل ان ينصب ملكاً. ويقضي العرف ايضاً ان يأكل سلةً من التين، وعصير شجر الصنوبر [ترپنتين Turpentine]، ثم يشرب كأسا من اللبن الرائب. هذا كل ما عرف عن المراسيم المتبعة، ولا احد يدري ان كان هناك المزيد الا من يُحضرها. وكان [ارتحششتا] يوشك على اقتبال تلك الطقوس حين اقبل عليه [تيسافرانس] مع احد الكهنة الذين علموا كورش في شبابه ولقنوه الآداب الفارسية والنظم المتبعة والفلسفة المجوسية. ولذلك كان متوقعاً منه ان لايسر ان ارتقى العرش شخص آخر غير تلميذه، فصدقه في اسناد اي تهمة لكورش ليس محل شك والحالة هذه. ذكر هذا الكاهن لارتحششتا، ان [كورش] كامن له داخل المعبد وانه سيثب عليه ويغتاله وقتما ينزع ثيابه. ويؤكد بعض الكتاب ان كورش قبض عليه بعد الاتهام مباشرة، بينما يزعم آخرون انه دخل المعبد وعثر عليه مترصداً بالقرب من الكاهن. فهرعت اليه امه قبل ان ينفذ فيه حكم الموت وشبكته بذراعيها وشدته اليها بجدائل شعرها والصقت عنقه بعنقها. وهكذا نجحت في انقاذ حياته بتوسلاتها وضراعتها الحارة، فعفا عنه وبعث به الى مركزه السابق، فسافر وهو حاقد ولم يذكر نجاته من الموت قدر ما كان يذكر القبض عليه. ان حقده هذا جعله اكثر تحرقاً وتطلعاً الى العرش.

قيل انه اعلن العصيان على اخيه لانه لم يسمح له بنفقات كافية لطعامه اليومي. ان هذا التعليل سخيف من اساسه. إذ لو سلمنا جدلاً بأن [ارتحششتا] كذا ممسكاً لايصرف له ما يكفيه فان امه كانت كفيلة بكل ما يحتاجه من اموالها الخاصة. على ان الالوف المؤلفة من الرجال الذين كان يجندهم وينفق عليهم [كما يذكر لنا گزينفون] هو دليل كاف على غناه. لم يكن [كورش] يجمع قواته في صعيد واحد. وانما يوزعهم في ثكنات عديدة لانه اراد ان يخفي نواياه. وبث وكلاءه في كل الاقاليم لتجنيد المرتزقة الاجانب متذرعاً بمزاعم شتّى. وكانت امه [پاريساتس] التي تعيش مع اخيه الملك - تسعى في الوقت ذاته لتبديد كل شك يساور الملك بخصوصه، كذلك حرص [كورش] على ان تكون رسائله اليه حافلة بعبارات الولاء والاخلاص وكان احياناً يطلب إنعاماً. واحياناً كان يبادل [تيسافرنس] الاتهام كأن حسده وغيرته مركزان في هذا الشخص فحسب. زد على هذا طول الأناة الذي يمتاز به طبع

الملك، مما كان يتوهمه الكثيرون رحمةً وتسامحاً. وهو في الواقع كان يبدو في بدء ملكه، شبيهاً بارتحشتا الاول في رقته ولطفه وانفتاحه على الناس وكرمه الشديد في عطائه وهباته. ولم يكن يلحظ في عقوباته اثر للتشفي او لذة انتقام وكان سرور من يقدم له هدية يفوق سرور اولئك الذين يتقبلون هداياه لكياسته ورقة اسلوبه في تقديمها. ولم يؤثر عنه انه تلقى هدية مهما صغرت قيمتها الا وتقبلها بحفاوة ولطف. ولنا مثل من ذلك الرجل [اومسيس] الذي قدم له رمانة كبيرة الجرم فقال المهدي له:

- قسماً بميثرا، لو وضع في رعاية هذا الرجل بلدة صغيرة، لجعلها مدينة عظيمة.

ومرة كان في جولة تفقدية في انحاء المملكة والناس يتبارون في تقديم الهدايا له. ووجد بعض الشغيلة الفقراء انه لا يملك ما يقدمه له. فهرع الى ضفة النهر واغترف بكفيه ماءً وقدمه له، فسرّ ارتحشتا بذلك سروراً عظيما وارسل اليه قدحاً ذهبياً والف داريي [darie]. وكان [اقليدس] اللقيدمي يذيع عنه بعض التعليقات السليطة الصريحة فأرسل اليه احد قواده ليبلغه بالآتي:

- انك مأذون بقول ما تريد لي. ولكن تذكر بأن لي ان اقول واعمل ما اريده لك.

وكان مرة في رحلة قنص فتقدم منه [تريبازوس Teribazus] واشار بأن رداءه الملكي قد تمزق. فسأله الملك عما يرى عمله في هذا الشأن فقال [تريبازوس]:

- إن سرَّك فلتستبدل بهذا الثوب آخر وتمنحه لي.

فعمل الملك بما قاله وعقب:

- اني اهبك الثوب ياتريبازوس. ولكني اطلب منك الاّ تلبسه.

الا ان تريبازوس لم يعبأ بهذا التنبيه، ولم يكن رجل سوء الا انه كان قليل التبصر خفيف العقل. فما ان وجد الحلة الممزقة بين يديه حتى سارع في ارتدائها وزاد عليها زينة الملك من القلائد والعقود الذهبية والحلي النسائية فذهل الجميع لأن العمل مما يخالف العرف والتقاليد. الا ان الملك ضحك وقال:

- اذنت لك ان تتزين بالحلي بوصفك امرأة. واذنت لك بارتداء الثوب الملكي بوصفك مهرجاً.

وكان التقليد لايسمح بجلوس احد على مائدة طعامه غير امه وزوجته الشرعية. وكانت الاولى ترتفع عنه في مجلسها اما الثانية فتليه. الا انه خرق العادة بدعوة أخيه [اوكساتريس داوستانس]. وكان احب منظر عند الفرس هو عربة امرأته [ستايزا] فقد كانت ترفع سجفها دائما لتسمح للمواطنين بالسلام عليها والاقتراب منها، وهذا ما اكسبها محبة الناس.

على ان المشاغبين والمتصيدين الذين لا صبر لهم على الاستقرار ولاهمّ لهم الا إثارة الفتن اخذوا يصرحون بأن الزمن بحاجة الى رجل مثل [كورش] لانه رجل مقدام ومقاتل ممتاز، يحب اصدقاءه ويخلص لهم. وان سعة رقعة الامبراطورية تتطلب حتماً اميراً مغامراً جريئاً. ولم يكن اعتماد [كورش] قاصراً على اتباعه في الاقاليم التي يحكمها دائماً كان يعتمد ايضاً على كثير من الموالين له في البلاد الشمالية القريبة من قاعدة الملك. ولذلك اعلن الحرب عليه، وكتب الى اللقيديميين يطلب منهم العون والرجال مؤكداً لهم انه سيعطي الراجل منهم حصاناً، والخيال منهم عربة. ومن ملك حقلا فسيعطيه قرية، ومن كان صاحب قرية فسيؤمره على مدينة. ومن تطوع في جيشه فسيدفع له اجره بالوزن لا بالعدد. وتكال [كورش] المديح لنفسه بلا حساب. فقالوا انه اشجع واكثر اقداماً واكثر وقوفاً على الفلسفة من اخيه، واعمق اطلاعاً في الدين المجوسي وان بوسعه ان يشرب ويتحمل مقداراً من الخمر اكثر مما يتحمله اخوه. واكّد [كورش] ان اخاه بلغ حداً كبيراً من الجبن وان ليس فيه الكثير من الرجولة ولايستطيع الجلوس على صهوة جواده في رحلة صيد، ولا على عرشه في ساعة الخطر.

بعد ان تلي كتاب [كورش] هذا على اللقيديميين. ارسلوا [القضيب] الى [كليارخوس] يأمرونه باطاعة اوامر [كورش] في كل شيء. وعلى الاثر زحف بجموعه الكثيفة من البرابرة لقتال اخيه. الا ان مرتزقة الاغريق لم يكونوا يزيدون عن ثلاثة عشر الفاً. واخفي عنهم السبب الحقيقي للحملة فكان يزعم مرة سبباً. ثم يزعم مرة سبباً آخر، الا ان الغرض الاصلي ما عتم ان انكشف واسرع [تيسافرنس] الى الملك ليطلعه على الامر شخصياً. فهاج البلاط وماج وانصبّ اللوم كله على ام الملك وحام الشك حول بطانتها ووجهت اليهم اصابع الاتهام وكانت [ستايترا] اكثرهم حزناً واشدّهم عتاباً ولوماً لام الملك فراحت تذكرها بتعهداتها وبتوسلاتها التي استخدمتها لانقاذ المتآمر على حياة اخيه «...كي يقذف بنا في أتون حربٍ ويثير المتاعب لأخيه». فزاد بغض الام [ستايترا]، وكانت حقوداً لايعرف قلبها معنى الصفح في سورة غضبها ومجال نقمتها. فبدأت تداعب فكرة القضاء على حياتها. وبما ان [دينون] يقول انها نفذت فعلتها هذه اثناء الحرب، وان [قطسياس] يقول ان ذلك تم بعد ان وضعت الحرب اوزارها، فسأمسك الآن عن سرد الحكاية وارجئها الى حين عملاً بزعم ثانيهما اذ ليس من المعقول ان يجهل التاريخ وكان موجوداً بشخصه هناك، وليس ثم من سبب يدفعه الى تحوير تاريخ الحادثة عمداً عند ايرادها. وان كان يحيد احياناً عن الحقائق ويسرح في اجواء الخيال.

كانت الانباء والاشاعات تهبط على [كورش] وهو يتقدم بجيشه حثيثاً، مصورة له حيرة الملك وعكوفه عن دراسة الموقف. وعدم توفر نية القتال الفوري لديه، بل الانتظار في عقر

داره حتى تتجمع قواته من كل ارجاء مملكته.

كان الملك قد حفر في السهل، خندقاً عظيماً عرضه ستون قدماً وطوله لايقل عن ثمانين ميلاً. ومع هذا فقد ترك [كورش] يجتازه دون ان يحرك ساكناً. ولم يعترض سبيله الى مدينة بابل. ويروى ان [تريبازوس] كان اول من وجد في نفسه الجرأة ليذكر الملك بواجبه في القتال، والمحافظة على ميديا وبابل وسوسة. واوضح له محاذير بقائه مختفياً في [پرسيس] في حين يبلغ جيشه اضعاف اضعاف ما لدى خصمه وان عدداً لايحصى من الحكام والقادة الذين يفضلون [كورش] في مجال السياسة والحرب، طوع امره. فقرر الملك القتال وخرج على رأس تسعمائة الف مقاتل مدرب، فدبَّ الرعب في قلوب العدو، وفوجيء وكان يزحف بثقة نفس واستهانة ومن دون نظام واسلحته في وضع لاتمكنه من استخدامها حالاً، حتى ان [كورش] عجز عن تنظيم صفوفهم في نسق المعركة بسبب الفوضى والضجيج. وكان جيش الملك يسير بصمت وهدوء وانتظام تام جعل الوحدات اليونانية تقف مشدوهة لحسن الضبط. فقد كانوا يتوقعون الجلبة والهرجلة والفوضى والفجوات الكبيرة بين السرايا والوحدات في مثل هذه الحشود الضخمة من الجنود. ووضع الملك الصفوة المختارة من عجلاتها امام فلانكسه الخاص المواجه للوحدات الاغريقية حتى يخترق صفوفهم بهجوم عنيف صاعق قبل ان يطبقوا عليه من الجانبين.

لقد تناول كثير من المؤرخين هذه المعركة بالوصف. ومنهم [گزينفون] الذي ابدع واجاد حتى انه حملنا على الاعتقاد بأننا نراها بأم اعيننا، لا كأنها حدث من احداث الماضي. ولقد كان من الدقة في ايراد التفاصيل ان قارئه لايسعه الا ان يشعر وكأنه يشارك في مراحل المعركة فعلاً ويكابد اهوالها بكل ما في ذلك من العواطف. لذلك كان من السخف ان احاول عرض وصف اوسع واكثر شمولاً وسأعمد الى ذكر كل ما يستحق التسجيل مما اغفله.

يطلق على اسم الموقع الذي التحم فيه الجيشان اسم [كوناكسا Cunaxa] ويبعد زهاد خمسمائة فرلنگ عن مدينة بابل. قبل بدء المعركة طلب [كليارخوس] من [كورش] ان يبقى في المؤخرة لئلا يعرض نفسه للخطر. وقيل ان جواب [كورش] كان كالآتي:

- ما هذا الذي تقترحه يا كليارخوس؟ اتريد مني انا الذي اطمع بالامبراطورية ان أعد غير جدير بها؟

واذا كان [كورش] قد ارتكب خطأً فاحشاً في اندفاعه الى قلب الخطر دون ان يقيم لسلامته وزنا، فإن خطأ [كليارخوس] لايقل عنه ان لم يكن افدح - عندما رفض توجيه الوحدات

الاغريقية الى القسم الرئيس من الجيش العدو حيث موقع الملك. فقد اسند ميمنته الى النهر خوفاً من حركة التفاف. وكان الاجدر به البقاء في موطنه وعدم الخروج للحرب، ان كان يريد لنفسه السلامة بالدرجة الاولى او ان ينام بهدوء وامان! وها هوذا بعد ان قطع مسافة عشرة آلاف فرلنگ من الساحل؛ مختاراً غير مجبر بقواته الشاكية السلاح لوضع [كورش] على العرش، تراه يعمل الفكر لانتقاء مواقع تساعده على دخول المعركة باطمئنان وراحة، لا على حماية من اجره للدفاع عنه والحالة هذه اشبه بذاك الذي دفعه الخوف من الخطر الحالي الى التخلي عن الهدف الحالي من القتال؛ فخان واجبه وضيع الغرض من حملته. لقد اتضح من اولى صفحات المعركة ان الوحدات التي التفت حول الملك كانت عاجزة عن صد هجوم اغريقي كاسح ولو فعلت تلك الوحدات ذلك لانهزم ارتخشتا او قتل وكتب النصر [لكورش]. فضلاً عن نجاته من الموت وظفره بالعرش.

ان حذر [كلياخورس] الذي اسفر عن خيبة [كورش] ثم هلاكه كان ادعى الى اللوم والنقد من تهور [كورش] واندفاعه. ولم يكن الملك نفسه ليختار او يتمنى موقعاً للاغريق يهاجمهم فيه باقل ما يمكن من المجازفة كذلك الموقع الذي اختاروه هم بعيداً عنه وعن مقاتليه. فقد كر الملك عليهم ولم يعلم باندحاره امامهم. وكذلك لم يعلم [كورش] بالنصر الذي ناله [كليارخوس] ولذلك لم يستفد منه ومات وهو يجهل الامر. وكان [كورش] يدرك جيداً ما يجب عمله فأمر [كليارخوس] ان يأخذ هو ورجاله موضع القلب. فأجابه [كليارخوس] انه لن يقوم الا بأفضل شيء، فأتلف بذلك كل شيء.

تمكن الاغريق من دحر البرابرة وهم جاثمون في مواضعهم حتى اثخنوا فيهم قتلا وطاردوهم بنجاح الى مسافة بعيدة. وكان [كورش] ممتطياً جواداً من الاصائل الا انه جامح لا يسلس قياده اسمه على قول قطسياس - [پاسكاس]، فتوجه اليه [ارطاكيرسيس Artagerses] قائد [القادوسيين Cadusians] وهو يعدو هذبا وصاح به:

- يا أظلم الناس واكثرهم حمقاً يا عار الاسم الشريف [كورش]، أجئت الى هنا تقود شرّ الاغريق في شرّ حملة، تسلب نفائس الفرس؛ معتزماً قتل سيدك واخيك، سيد عشرة آلاف عشرة آلاف خادم كلهم افضل منك؟ انك ستفقد رأسك هنا قبل ان يتسنى لك ان تصيب لمحة من وجه الملك.

قال هذا وسدد اليه طعنة رمح الا ان زرده القوي ردأ الطعنة فلم يصبه. ولكن شدة الطعنة جعلته يرتد الى الخلف. وعندما الوى [ارطاكيرسيس] عنان فرسه قذفه [كورش] بحربة فغاب نصلها في عنقه باعلى لوح الكتف. واتفق الجميع ان مقتل [ارطاكيرسيس] كان على يد

كورش. واما عن مصرعه هو نفسه، فلما كان [كزينفون] قد خصه بعبارات قليلة لاتفي الموضوع حقه فمن المناسب ان نورد هنا ما قاله كلّ من [دينون] و[قطسياس].

يؤكد [دينون] ان [كورش] كرّ على حرس ارتحشتا كرة عنيفة بعد قتله [ارطاكيرسيس] فجرح حصان الملك، وارغم على الرحيل وهنا اسرع [تيريبازوس] يرفعه على سرج حصان آخر وهو يقول له:

- اذكر ايها الملك هذا اليوم فهو ليس باليوم الذي يمكن ان ينسى.

وهمز [كورش] جواده وحمل على [ارتحشتا] فاسقطه ارضاً. فعصف الغضب بالملك عند الهجمة الثالثة وصاح ان الموت لاجدر به من هذا وحمل على [كورش] الذي كان يندفع بعنف وجنون بوجه السلاح الموجه اليه كالاعمى، فطعنه الملك برمحه وتوالت عليه الطعنات فخرّ صريعاً بيد الملك كما يقول فريقٌ، وبيد جندي من [كاريا Caria] كما يدعي الآخرون - الذين يزيدون قائلين بأن الملك كان قد كافأه على هذا بمنحه امتياز رفع ديك ذهبي على رمحه والسير به امام الصف الاول من الجيش في كل حملة. وسبب ذلك ان الفرس يلقبون رجال [كاريا] بالديكة لانهم يزينون خوذاتهم بالريش.

ودونك الآن رواية قطسياس بعد اختصارها وحذف بعض التفاصيل:

بعد ان خرّ [ارطاكيرسيس] صريعاً بيد [كورش] ادار جواده نحو الملك، وفعل هذا فعله واطبق احدهما على الآخر دون ان يتبادلا كلمة واحدة. الا ان [اريئوس Ariaews] تابع [كورش] فوّق رمحا نحو الملك فأخطأه، فقذف الملك اخاه برمح فلم يصبه بل اصاب [ساتيفرنس Satiphernes] وهو انسان نبيل ومخلص لكورش - فصرعه. وسدد [كورش] الى الملك فاخترق سنانه درعه ونفذ في صدره مقدار عقدتين، فهوى الملك على الارض لشدة الضربة. فتبدد شمل من كان يحف به وتفرقوا. ولكنه قام من سقطته وبقلة من رجاله [ومن بينهم قطسياس] شق طريقه الى نشز من الارض غير بعيد فجلس هناك ليصيب بعض الراحة. اما [كورش] الذي كان في قلب جيش العدو فقد جمح به حصانه وجرى به مسافة بعيدة ولم ينجح في كبحه. وانتشر الظلام ولم يعد من السهولة ان يتعرف عليه، كما ان اتباعه تعبوا في البحث عنه. واسكره النصر وملأه ثقة بنفسه فاندفع بين جنود الملك وهو يردد بالفارسية باعلى صوته:

- افسحو السبيل ايها الاوغاد، افسحوا.

فانشقت صفوفهم له والقوا بانفسهم تحت قدميه، الا ان قلنسوته سقطت عن هامته

وانكشف امره فلحق به شاب فارسي يدعى [ميثريداتس] واصابه بطعنة رمح في احدى صدغيه بالقرب من عينه من غير معرفة بهويته. فانبثق الدم الغزير من وجهه ودارت به الارض فسقط على الارض فغمي عليه وظل حصانه منطلقاً يجري على رسله في ميدان القتال. ولكن رفاق [ميثريداتس] اختطفوا غطاء سرجه الذي سقط عن الحصان وهو مضرج بالدماء. ولما اخذ [كورش] يعود الى صوابه حاول حفيدان له ان يركبه حصانا آخر لنقله الى موضع امين. فعجز عن الركوب وفضل السير فأسندوه وسار متحاملاً على نفسه وهو يشعر بدوار وضعفٍ شديدين. على انه كان واثقا بأنه انتصر. اذ كان يسمع وهو سائر - جماعات الفارين وهي تهتف باسمه وتحييه بتحية الملوك - مستعطفة مسترحمة. وفي تلك الاثناء التحق بركبه جماعة من [الكاونيين Caunians] وهم اناس فقراء معدمون انضموا الى جيش الملك خدماً واتباعاً في المعسكرات ليقوموا باحقر الاعمال - فساروا في ركاب [كورش] مع اتباعه بمحض الصدف معتقدين انهم من جنود الملك، ولكنهم مالبثوا ان تبينوا خطأهم من الصدار الاحمر الذي يلبسونه فوق دروعهم. لان اتباع الملك كانوا يلبسون الصدار الابيض، فأسرع واحد منهم يسدد طعنة رمح الى كورش من الخلف دون ان يعرف هويته، فأصابه بجرح تحت الركبة وفتح العرق فسقط كورش، وبسقطته اصطدم صدغه المجروح بصخرة فشجه فلفظ انفاسه.

تلك هي رواية [قطسياس] يسردها على مهل، ويتباطأ في احداث الموت فيها. حتى كانت اشبه بالسلاح ذي الحد المثلوم!

وفي اثناء مرور [ارطاسيراس Artasyras] وهو واحد من عيون الملك - بجثة [كورش] استرعى نظره الخصيان وهم يندبون ويعولون فسأل احد معارفه منهم:

- من هو هذا الذي تندبونه يا پارسيكاس؟

فأجابه:

- اما ترى يا ارطاسيراس؟ انه سيدنا [كورش].

فأدركه العجب، وعزى الخصي وطيب خاطره وطلب منه المحافظة على الجثة. واسرع وهو ينهب الارض نهباً الى ارتحششتا الذي كان قد قطع الامل تماما كما كان يشعر بآلام شديدة من الجرح الذي اصابه والعطش الشديد. وكادت الدنيا لاتسعه من الفرح وهو يبلغه بموت [كورش] فأسرع الملك الى الموقع حالا. ثم توقف وعدل عن رأيه وارسل عدداً من اتباعه لما سمع ان جنود الاغريق يكتسحون كل ما يعترض سبيلهم وهم في سورة المطاردة. فذهب

ثلاثون رجلاً وبأيديهم المشاعل ليتحققوا من الامر. وبدأ ارتحششتا وكأنه يلفظ انفاسه من حرقة العطش فأنطلق حاجبه [ساتي بارزانس Sati Barzanes] يبحث له عن شربة ماء اذ لم يكن في تلك الناحية شيء منه. ومصدر الماء بعيد بمسافة كبيرة عن معسكره. وبعد طويل بحث لقي احد الكاونيين الفقراء خدم المعسكر ومعه مقدار من الماء الآسن الموحل في جراب جلدي لاتزيد سمعته عن اربعة ليترات فأخذه منه وجاء به الى الملك. وبعد ان شربه كله سأله هل الماء طيب؟ فقال الملك:

- قسماً بالآلهة جميعاً لم اجد خمراً او ماءً الذ واصفى وانقى من هذا. وإن خاب سعيي في معرفة من اعطاك ايا ومكافأته، فأطلب من السماء ان تسعده في حياته وتجعله غنياً.

وعاد الرجال الثلاثون وسيماؤهم تطفح بالبشر والسعادة، يؤكدون له موت [كورش]. فارتفعت معنوياته ايضاً بتجمع الجنود حوله. ووصل الى حيث وضع جسد اخيه، وكانت التقاليد تقضي بفصل الرأس او اليد اليمنى. فأمر الملك ان يؤتى اليه بالرأس ولما جيء به امسكه من شعره الكثيف المسترسل وعرضه على الجميع وهو بين مصدق ومكذب يعتزم الفرار. فاعترتهم الدهشة وسارعوا باعلان ولائهم واجتمع في وقت يسير سبعون الفاً من الجنود حوله ودخلوا المعسكر معه.

يؤكد [قطسياس] انه خرج معه الى الحرب اربعمائة الف مقاتل. الا ان [دينون] و [كزينفون] يقولان ان جيشه كان اكثر عدداً من هذا بكثير، ولا يحسب فيه من لم يدخل المعركة. اما عدد القتلى بموجب الثبت الذي ارسل لارتحششتا فقد كان تسعة آلاف على حد قول [قطسياس]. لكن عدد القتلى الحقيقي لم يكن يقل عن عشرين ألفاً.

ويزعم [قطسياس] انه كان ضمن وفد ارسل الى الاغريق مع [فيلانوس Philanus] الزاكنثي وهو كذب صريح. فكزينفون يعلم جيداً ان [قطسياس] يسكن في البلاط وقد ذكره في اماكن كثيرة، من تعليقاته ولا ريب في انه اطلع على كتاباته. فلو انه كان من اعضاء الوفد ولو انه انتدب حقاً لنقل الرسالة الخطيرة مترجمةً لما اغفل كزينفون ذكره بالتأكيد منوها باسم [فيلانوس] وحده. ولكن يبدو ان [قطسياس] مبتلى بحب الظهور الى درجة الافراط، كما انه كثير التشيع والممالأة للقيديميين ولكلياخوس. ولذلك عمد الى حشر نفسه في حكاية السفارة، منتهزاً الفرصة هنا ليكيل المديح جزافاً [لكليارخوس] و[سبارطة].

بعد انتهاء المعركة بعث ارتحششتا بهدايا نفيسة لابن [ارطاكرسيس] الذي صرعه [كورش] وخلع مثلها من النعم والهبات على [قطسياس] والآخرين. وعثر على الكاوني

الذي سقاه الماء. فأنقذه من فقره ورفع من مكانته وجعله غنياً. واما عن العقوبات التي انزلها بالمتمردين فقد كان ثمّ انسجام وتوازن بينها وبين الجرائم التي ارتكبوها. فحكم على [ارباكس Arbaces] الميدي الذي انحاز الى [كورش] اثناء القتال ثم عاد الى صفوف الملك بعد مصرعه حكما يدل على فرط ما تحلى به من جبن وخنوثة، لا بوصفه خائنا ذا خطورة. فقد امر ان يركبوا على ظهره عاهرة من العواهر العاديات فيسير بها هكذا في الساحة يوماً كاملاً. وكان ثمّ آخر انضم الى العدو، ولكنه عاد واخذ يتبجح كذبا بانه قتل اثنين من العصاة. فامر ان يغرز في لسانه ثلاثة دبابيس. ولاجل ان يظهر ويثبت في اذهان الناس انه قتل [كورش] تم على يده، وليحملهم على الايمان بذلك. ارسل بهدايا فاخرة الى [ميثريدات] اول من اصابه بجرح وامر حاملي الهدايا اليه ان يقولوا له عند تقديمها «انه الملك قد شرفك واكرمك بهذه الهدايا لانك عثرت على غطاء سرج كورش وجئته به».

وطالب ذلك الكاري الذي قضى على [كورش] بعد اصابته بجرح في مأبضه، بالمكافأة، فبعث اليه بهدايا كثيرة وامر حامليها اليه ان يقولوا له: «ان الملك يهديك هذا مكافأة اخرى على الانباء السارة التي ابلغتها له. فإن اول مكافأة كانت لاول من حمل النبأ وهو [ارطاسيراس] وانت الذي أكدت له موت [كورش]».

وانسحب [ميثريدات] راضياً ولكنه كان حانقاً في سرِّه. الاّ ان الكاري السيء الحظ كان قاصر العقل، فقد تغلب عليه الضعف البشري وبهرته الهبات السنية التي بسطت امامه واغرته نفسه على المطالبة بالاكثر وطمع باشياء أخرى أرفع مما تناسب مقامه. فلم يتنازل بقبول الملك بوصفها مكافأة على ابلاغه نبأ مصرع [كورش] بل صاح مستنكراً واستشهد بالناس واحتج قائلاً انه هو وحده قاتل [كورش] وانه حرم من شرف العمل ظُلماً. ولما بلغ الملك ما قاله استشاط غضباً وامر في الحال بقطع رأسه الاّ ان امّ الملك الذي كانت موجودة اذ ذاك قالت له:

- أرجو ان لايعمد الملك الى التخلص من الكاري الحقير بهذه الطريقة السهلة. وليدفعه الي لاذيقه العقاب الذي يلاءهم لسانه الطويل.

فأسلمه الى [اريساتس] فأمرت الجلاّد بأن يشده الى دولاب المخلعة عشرة ايام ثم يقتلع عينيه ويصبّ نحاساً ذائباً في أذنيه حتى يموت.

وبعد فترة قصيرة قضي على [ميثريدات] باشنع ميتة لارتكابه الغلطة نفسها فقد دعي الى وليمة كان يحضرها عدد من خصيان الملك، ووالدته. فأقبل يختال في حلّة فاخرة وحلى

ذهبية مما اهداه الملك. ثم اديرت كؤوس الخمر وبدأ أقرب الخصيان واوسعهم نفوذاً في البلاط عند الملكة، يتحدث اليه قائلاً:

- ان هذا الرداء الفاخر الذي خلعه عليك الملك لايثمن يا ميثريدات وتلك القلائد والأساور نفيسة جداً، وسيفك هذا لا قرين له. لقد اصبحت فأنت قبلة الأنظار كأفةً بما حبيت من سعادة واقبال.

فردّ عليه وهو نشوان بفعل الخمر: ما قيمة هذه الاشياء يا [سپاراميزس Sparamizes]؟ حقاً اني برزت في يوم الامتحان ذاك. وبرهنت للملك بأني استحق انفس وأغلى من هذه الهدايا.

فابتسم [سپاراميزس] وقال: اني لا احسدك على نعمتك يا ميثريدات. ولكن لما كانت الخمر والصراحة تسيران جنباً الى جنب كما يقول الاغريق. فأسمعني ايها الصديق عن مأثرتك المجيدة وعملك الباسل في العثور على بعض الأغطية التي سقطت من ذلك الحصان وكيفية مجيئك بها الى الملك؟

سأله وهو يعلم الحقيقة. الاّ انه قصد ان يطلق لسانه امام الحاضرين بإثار كبريائه بعد ان حلّت الخمر عقدته واعجزته عن ضبط اقواله فلم يخف شيئاً وانشأ يقول: تحدث بما شئت حول اغطية السرج وغير ذلك من التوافه! اني اقول لك بصراحة، ان يدي هذه هي التي صرعت [كورش]. لم اقذف برمح طائش كما فعل [ارطاگيرسيس]، فقد كانت طعنة صادقة تلك التي سددتها اليه لم يكن بينها وبين عينه الاّ شعرة، فنفذت الى صدغه واسقطته ارضاً. ان طعنتي هي الطعنة القاتلة.

اطرق الحاضرون برؤوسهم وسكتوا وكأنهم على ثقة من نهاية ميثريدات ومن المصير الفاجع الذي ينتظره. وقال صاحب الدعوة: اي صديقي [ميثريدات] دعنا نأكل ونشرب الآن، ونحترم يُمن أميرنا وحسن حظّه، ولنمسك عن الخوض في حديث هو اخطر مما يناسبنا.

وانهي [سپاراميزس] الى [اريساتس] بما سمعه، فأطلعت عليه الملك الذي لم يخف غضبه الشديد. لأن ما قال [ميثريدات] هو تكذيب، واصبح اعظم مأثرة له واسنى موقف في انتصاره معرضا للضياع. فقد كان يريد ان يوهم الجميع فرساً واغريقاً بأن النزال الشخصي الذي وقع بينه وبين أخيه بقي كذلك حتى الأخير دون تدخل خارجي وانه كان ثم ضربات وطعنات متبادلة وان الضربة التي تلقاها جرحته، اما الضربة التي سددّها فقد ادت أمانت خصمه. ولذلك حكم على [ميثريدات] بالموت بطريقة الزورق المزدوج، ويتمّ هذا على النحو التالي:

يؤتى بزورقين متماثلين تماماً فيمدوا المحكوم في واحدٍ وهو مستلق على ظهره ثم يطبقون عليه الزورق الثاني بشكل يجعل رجليه ويديه ورأسه خارج هذه العلبة المحكمة، وبقية جسده داخلها، مثل السلحفاة. ويطعمونه وان رفض الاكل ارغموه على ذلك بوخز عينيه. وبعد ان يأكل يصبون في فمه مزيج الحليب والعسل ويرشون به وجهه ثم يبقون وجهه بمواجهة الشمس دائماً، فتزحف عليه جموع الذباب والهوام حتى تغطي وجهه وتخفيه، ويقذف بفضلات جسمه داخل الزورق المزدوج فتسعى الدواب والحشرات وكل انواع الدود الى تلك الفضلات المتفسخة المتعفنة وتجد سبيلها الى امعائه فتنهش جسمه وتتلفه. وعندما يزول الشك في موت المحكوم يرفع الزورق الاعلى ويتبين ان لحمه قد نهش نهشاً وحشود من الحشرات البشعة المنظر وهي مشغولة بالتهام ما تبقى منه وقد تكاثرت وتوالدت في الداخل.

بهذه الطريقة قضي على [ميثريدات] بعد سبعة عشر يوماً من العذاب الشديد.

اما [ماساباطس Masabates] خصي الملك الذي قطع يد [كورش] ورأسه فقد بقي الهدف الأخير لانتقام [پاريساتس] الاّ انه كان حذراً واعياً فلم يتح لها فرصة النيل منه. وأخيراً توصلت اليه بنصبها الفخ الآتي:

كانت امرأة ذكاء ودهاء وحذقٍ في مسائل كثيرة، وقد عرفت بكونها من أمهر لاعبي النرد. وكثيراً ما لاعبت به الملك قبل الحرب. بعد ان انتهت الحرب وصالحته، راحت تزامله في كلّ تسلياته، وعادت الى ملاعبته بالنرد كالسابق واصبحت موضع ثقته حتى في شؤون حبه وسعت جهدها الى ان لاتتركه منفرداً بزوجه [ستاتيرا] فقد كان بغضها لها لايعدله بغض، كما انها كانت تكره ان تنافسها امرأة في نفوذها عند الملك. وفي ذات يوم شعر [ارتحششتا] بحاجة الى ما يسليه ويروح عن نفسه، فزينت له امّه لعبة نردٍ معها وارهنت بألف [داركي] وتعمدت الخسارة ودفعت له الرهان بالذهب، ثم تظاهرت بأنها تأثرت من الخسارة وطلبت منه انه يتيح لها فرصة الثائر والحت ان يكون موضع الرهان خصياً فوافق، الاّ انهما اتفقا على ان يستثني كل واحد منهما خمسة من اعزّ خصيانه وان يختار من يريده من الباقين اذا ربح وبدأ اللعب فيما بينهما وبذلت أقصى جهدها واستخدمت كلّ حذقها وساعدها الحظ ففازت عليه. واسرعت تطلب منه [ماساباتس] الذي لم يكن بين الخمسة المستثنين فدفع به اليه، فأمرت فوراً - وقبل ان يشك الملك في الموضوع - بسلخه حَيّاً وتعليقه على ثلاثة اقطابٍ ونشر جلده على ثلاثة اقطابٍ أخرى. فسخط عليها الملك سخطاً شديداً وكان يجنّ غضباً عندما سمعها تضحك وتقول مازحةً:

- ما اسعدك واريح بالك، مادام ازعجك أمر خصيٍّ شائب وغدٌ الى هذه الدرجة، في حين اني فقدت الف [داركي] ولم اتأثر وبقيت ساكتة قانعة بخطيّ.

وانحى الملك باللائمة على نفسه لأنه خدع على هذه الشاكلة الاّ انه آثر السكوت واخفاء الأمر، بعكس [استاتيرا] التي اخذت تناصبها العداء منذ زمن - فقد زاد حنقها عليها بسبب هذه الفعلة التي خرقت بها كلّ مبادىء العدل والانسانية، وضحت بصديق الملك المخلص وخصيّه اكراماً لذكرى ابنها [كورش].

عذر [تيسافرنس] بـ[كليارخوس] والقواد الاغريق الآخرين بعد ان حلف لهم الايمان وتعهد بالاّ يمسّهم ضررٌ. اذ قبض عليهم وارسلهم مصفدين الى الملك. يقول [قطسياس] ان [كليارخوس] طلب منه مشطاً وانه سُرّ كثيراً عندما اجابه الى سؤله وقام له بهذه الخدمة. واهداه خاتماً على سبيل الذكرى وليكون عهداً لاقربائه واصدقائه في سپارطة. وكان نقش الخاتم يمثل رقصةً كارية Carya. ويحدثنا [قطيساس] ان زملاء [كليارخوس] الأسرى، كانوا يسرقون جزءً من علاوة الارزاق التي خُص بها ولايعطونه سوى القليل. فعالج [قطيساس] الأمر وحسّن من جرايته. وأمر ان توزع مخصصات الجنود والأسرى الباقين لوحدهم. وقال انه فعل ذلك بسعي وتدبير [پريساتس]. ويذكر [قطيساس] في هذا المجال أنها أمرته ان يضع في داخل قطعة من لحم الخنزير كانت ضمن طعام [كليارخوس] اليومي، سكيناً حتى لايكون مصيره رهناً بارادة الملك وقسوته ولكن قطيسياس احجم عن ذلك خوفاً واستجاب الملك لمساعي امّه ووعدها مقسماً بأن يبقي على حياة [كليارخوس] الاّ انه ما لبث ان قضى عليه رفاقه كافة بتحريض من ستاتيرا وابقى على [مينون] وحده. يقول [قطيسياس] ان [باريساتس] أخذت منذ ذلك اليوم تتربص [بستاتيرا] واعدت لها سُماً زعافاً. بقصد القول انها اكراماً لذكرى [كليارخوس] راحت تأتمر بحياة ملكة شرعية هي أم ولاة عهد الامبراطورية. ولكن هذا لايمكن ان يكون دافعاً يقبله المنطق والعقل. ومن الواضح ان هذا الجزء من رواية [قطسياس] ما هو الاّ تأبين وتشييع تكريمي لجنازة كليارخوس. لقد اراد منا ان نصدق بان جثته وحدها سلمت من تمزيق الكلاب ونهش الطيور عندما نفذ حكم الموت بكلّ قادة الحملة، اذهبت ريح شديدة فدفعت كميات كبيرة من التراب فوق الجثة فحجبتها عن الحيوانات. ثم سقطت فوق هذه التربة ثمرات، فأنبتت روضةً جميلة من الاشجار الضليلة. حتى ان الملك نفسه أيدي اسفه لما فعل، لأنه استنتج من ذلك انه قتل بشخص [كليارخوس] رجلاً خصته الآلهة بحبّها!

كانت [پاريساتس] منذ البداية تكره كنتّها وتضمر لها حسداً وغيرةً فقد وجدت ان

خطواتها عند زوجها [ارتحششتا] متأت من الحبّ والثقة؛ وهما اقوى عوامل الثبات فيها. في حين ان خطوتها عنده مبعثه احترامه وتقديره لها كأمٍ. فقرّ عزمها على السعيّ لاهلاكها، وهي على معرفة بأنها تقوم بأخطر مجازفةٍ متصورة. كان ثم من بين وصائفها امرأة تدعى [جيجيس Gigis] اختصتها باكبر الثقة، وهذه هي التي عاونتها في اعداد السمّ كما يروي لنا [دينون]. امّا [قطسياس] فيزعم انها كانت مطلعة على الموضوع لا أكثر، وقد تمّ خلافاً لرأيها. واتهم [قطسياس] [بيليتأرز Belitaras] بأنه الفاعل الأصلي. لكن [دينون] يذكران [ميلانتاس Melantas] هو الذي قام بدسّ السمّ بدأت المرأتان تتزاوران وتتناولان الطعام معاً كالسابق ومع ان حدّة التحاسد والتباغض قد خفت الى حَدّ ما فيما بينهما الاّ انهما ظلتا تتبادلان الحذر والخوف فلا تأكلان من صحاف مختلفة بل تتناولان الطعام من صحفةٍ واحدةٍ دائماً. وكان ثم طير صغير الجرم يكثر في بلاد فارس فقط، ولايوجد في احشائه غائط، بل هو كتلة من الشحم ولذلك اعتقدوا ان هذا الحيوان الصغير انما ـــــ بالهواء والندى وهم يسمونه [رينتاسس Rhyntaces]. يؤكد لنا [قطسياس] ان [پاريساتس] قطعت هذا الطائر الى نصفين بسكين لوثت احد وجهيها بنقيع السمّ فأكلت هي الجزء الذي لم يلوثه السمّ وقدمت [لستاتيرا] الجزء المسموم. الاّ ان [دينون] ينفي هذه الحكاية ويقول ان [ميلانتاس] هو الذي قطع الطير واعطى [ستاتيرا] القسم المسموم فأصيبت بتشنج وكابدت الآماً رهيبة وادركت وهي في نزعها الأخير بانها مسمومة ووجهت شك الملك الى امّه، وكان يعلم حق العلم من اية طينة جبلت ويعرف ما طبعت عليه نفسها الشريرة. فبادر فوراً باجراء التحقيق وقبض على كل وصائفها وخدام منزلها المكلفات بشؤون الطبخ واعداد المائدة وسلمهّن الى الجلادين لتعذيبهن. الاّ ان [پاريساتس] اخفت [جيجيس] وابقتها معها في الدار مدةً فأمرها بتسليمها الاّ انها امتنعت. واخيراً رغبت هذه الوصيفة في العودة الى بيتها وكان الوقت ليلاً. وعلم الملك فأرسل من كمن لها وقبض عليها وأمر بقتلها.

ان عقوبة الموت المفروضة على المجرمين تنفذ في بلاد فارس قانوناً على الشكل الآتي وصفه: هناك صخرة مسطحة يستقر عليها رأس المحكوم فيدق رأسه ويهشم بصخرة اخرى حتى يسحق الوجه والرأس الى شظايا وقد طبقت على [جيجيس] الاّ ان ارتحششتا لم يقل شيئاً لأمه ولم يلحق بها اذىً لكنه ابعدها الى مدينة بابل وهو ما لم تكن تكرهه. وحلف ان لايقرب تلك المدينة مادامت حية.

هذا ما كان من امر شؤون الملك المنزلية وآل بيته.

فشلت مساعي [ارتحششتا] وخابت محاولاته في أسر حملة الاغريق التي حاربت مع

كورش. ولم تكن رغبته في ذلك تقلّ عن رغبته في التغلب على [كورش] والمحافظة على عرشه. لقد كتبت النجاة لسائر جنود الحملة رغم انهم خسروا قوادهم وانتشروا في بلاد الاغريق يذيعون حقيقة أمر الملك الفارسي ويقولون انه غني جداً، لايلحقه بشر بترفه وكثرة نسائه، الاّ أن ما تبقى ان هو الى مظاهر جوفاء لاتخفي تحتها شيئاً. وعندما دبّت الحمية والشجاعة في نفوس الاغريق جميعاً واستهانوا بقوة البرابرة ولاسيّما اللقيديمين الذي خيل لهم ان الوقت قد حان لتحرير ابناء وطنهم المساكين من عبوديتهم للفرس في آسيا. وان يضعوا حداً للاضطهاد والمعاملة السيئة التي يلقونها. فجهزوا اولاً جيشاً، وسلموا قيادته الى [ثيمبروين Thimbroin]، ثم الى [ديركيلليداس Dercyllidas]. ولكنهم لم يحققوا شيئاً يذكر. وأخيراً سلموا القيادة لملكهم [اغيسيلاوس] الذي انزل قواته في آسيا واخذ النجاح تلو النجاح يحالفه اذ دحر تيسافرنس في معركة طاحنه واطلق الثورة في عدة مدن. وكان ارتحشتا يدرك سبيلاً غير الحرب لمعالجة ذلك. فعمد الى ارسال [تيموقراطس Timo-crates] الروديسي الى بلاد الأغريق بمقدار كبير من الذهب وأمره باغراء زعماء المدن وتوزيع هذه الأموال عليهم دون حسابٍ او تردد. وان يعمل على اثارة حرب اغريقية تكون سپارطة هدفاً لها. فأتبع [تيموقراطس] تعليماته فهبت أكثر المدن تناصب [سپارطة] العداء وعمت الفوضى كل [الپيلوپونيسس] واستدعى مجلس الايغور [اغيسيلاوس] من آسيا. وقد روى انه قال لاصدقائه وهو يتهيأ للعودة ان ارتحشتا قد طرده من آسيا «بثلاثين ألف رامٍ» يشير بذلك الى النقش الذي يرى على قطعة النقد الذهبية الفارسية فهو يمثل رامي قوسٍ.

وطهر [ارتحشتا] البحار من اللقيديميين وكان اسطوله معقود اللواء للاميرالين [كونون Conon] الآثيني، و[فارنا بازوس]. كان [كونون] بعد معركة [ايغوسپوتامي Aegospoto-mi] قد سكن قبرص. لا لأنه كان يحرص على سلامته، بل انتظاراً منه للاحداث. ولم يكن بأقل أملاً من أولئك الذين ينتظرون تغييراً في اتجاه الريح البحرية. وكان يدرك ان مؤهلاته وبراعته في حاجة الى القوة. وان قوة الملك تحتاج الى توجيه رجل ذكي. فأرسل اليه بتفاصيل خطةٍ قام باعدادها، واوصى الرسول بان يسلمها الى الملك يداً بيد ان أمكن، وان يستخدم لذلك وساطة [زينو] الكريتي أو [پوليقريطس Polycrites المندي Mandaen] (اولهما معلم رقص، وثانيهما طبيب] فلم يجدهما فأتصل بقطسياس الذي قيل انه تسلم رسالة [كونون] ودس فيها عبارة ترجو الملك «ان يبعث بقطسياس مع رده لانه سيكون ذا فائدة في الاقاليم الساحلية» الاّ ان قطسياس ينفى ما عزي اليه ويقول ان الملك انابه من تلقاء نفسه ليقوم بهذه المهمة. على اية حال استظهر [ارتحشتا] على اللقيديميين في معركة [كيندوس] البحرية

وكان [فارنابازوس وكونون] يقودان اسطوله. وهكذا قضى على سيادتهم البحرية وانحاز الاغريق كلهم الى جانبه وقيل أن عهد السلام الشهير الذي ابرم فيما بينهم المعروف «بسلم انتاقليداس» كان من اقتراحه. وانتاقليداس Antaclidas] هذا هو ابن ليون السپارطي. كان احد خاصة الملك وممن يعتمد عليهم. فاوض اللقيديين واقنعهم بعقد معاهدة يتنازلون فيها عن كل حق لهم في المدن الاغريقية الآسيوية وكل ما جاورها من الجزر للملك فلا يعارضون سلطته عليها. وبذلك احلّ السلم بين الاغريق، اذا كانت كلمة السلم النبيلة تصح لوصف عملٍ هو في الواقع عار على الاغريق وغدر بهم. انها في معاهدة اشنع واقبح من اية معاهدة يمليها غالب في الحرب على مغلوب. ومع ان [ارتحششتا] كان شديد المقت للسپارطيين ويعتبرهم اشدّ الشعوب صلافة ووقاحة، الاّ انه خصّ [انتاقليداس] بكثير من التكريم وقربّه اليه عندما زاره في بلاده. وبلغت حظوته عنده انه نقع قلادة زهرٍ في انفس واندر عطرٍ وبعث بها اليه بعد العشاء، وكانت التفاته أثارت الدهشة في انفس الجميع. في الواقع انه كان شخصاً جديراً بهذه المعاملة من ارتحششتا وباحرازه هذه الهدية النفيسة، بعد أمر مكر بـ[ليونيداس] و[كالليركراتيداس Callicratidas]، لمصلحة الفرس. فقد هتف واحدٌ منهم لا ادري ايهما - قائلاً:

- ما اتعس حظ اليونان، بعد ان اصبح السپارطيون ميديين!

فأجاب [اغيسيلاوس]:

- كلاّ، بل الميديين هم الذين اصبحوا سپارطيين.

ولم تغنِ دقة الجواب ولم تمسح عار النتيجة. فما لبث اللقيديميون ان فقدوا سيادتهم على اليونان بهزيمتهم في - [ليوكترا Leuctra] على انهم اضاعوا شرفهم قبلها بالمعاهدة التي ابرموها. وقد ظلّ انتاقليداس يتمتع بالحظوة لدى الملك فيدعوه بالصديق والضيف العزيز حتى معركة [ليوكترا] التي مرغت كبرياءهم في التراب واذلتهم، وجعلتهم في حاجة كبيرة الى المال وارسلوا [اغيسيلاوس] الى مصر، وانتاقليداس الى ارتحششتا ليطلبا مالاً يكفيهم ادنى حاجتهم. فاهين [انتاقليداس] واحتقر، ولم يبت طلبه فعاد الى بلاده خائباً ليكون موضع هزء واهانة خصومه. ودبّ في نفسه الخوف من صولة الايغور. فأعلن اضراباً عن الطعام حتى مات. وزار ايسمينياس Ismenias] الثيبي وپيلوپيداس اللذان انتصرا في موقعة [ليوكترا] البلاط الفارسي ولم يقدم ثانيهما على ما يحط من مكانته وسمعته خلال زيارته، امّا ايسمينياس، فقد طلب منه الانحناء الى الملك وفيما هو يفعل سقط خاتمه على الارض فانكب معفراً وجهه ليتناوله، فبدا وكأنه يقوم برفع فروض الولاء والطاعة. واظهر الملك رضاءً وسروراً

بالخدمة التي اداها له [تيماغوراس Timagoras] الذي ارسل له انباءً هامة بوساطة امين سرّه [بيلوريس Beluris] بعشرة آلاف (داركي). وعلم انه مريض وانه اشير عليه بشرب حليب البقر فاستاق اليه ثمانين بقرةً حلوباً وارسل اليه معها سريراً واثاثاً له وخدماً لنصب السرير وترتيبه لأن الاغريق لا معرفة لهم بمثل هذه الأمور ولايملكون الحذق الكافي لصنع مثل هذا الاثاث. وكذلك ارسل رجالاً لحمله الى ساحل البحر وهو مستلق عليه بسبب ضعف بنيته. وعلينا ان نذكر ايضاً الحفل الذي اقيم له في البلاط. كان من الفخامة والروعة بحيث دفع [اوستانس] اخ الملك الى التوجه اليه بالقول الآتي:

- لاتنس يا تيماغوراس Timagoras المائدة الفخمة التي جلست اليها هنا؛ انها لم تفرش لك عبثاً.

وهو لاشكّ تعريض بخيانته اكثر مما هو تذكير له بكرم الملك. والواقع ان الآثينيين حكموا على [تيماغوراس] بالموت لارتشائه.

وازاء الكثير من الاساءات والأذى الذي الحقه ارتحشَشتا بالاغريق فإنه ارضاهم في مسألة واحدة، وهي انقاذهم من طغيان [تيسافرنس] اخبث اعدائهم وابغضهم الى قلوبهم. فقد انفذ فيه حكم الموت. كانت [پاريساتس] قد شجعته على اتخاذ هذا القرار وأيدت التهم التي ادين بها. لأن الملك لم يبق مقيماً على خصامه معها. فقد انفثأ غضبه بعد وقت وجيز وصالحها وارسل يستقدمها اليه مستفيداً من ذكائها وشجاعتها وحسن مشورتها. ولم يعد بينه وبينها اي سبب للنفرة واخذا يتعاونان في شتى الامور ويتبادلان وجهات النظر دون شكوك. وعملت هي جهدها لارضاء الملك والترويح عنه بتيسير كلّ ما يشتهيه ويهفو اليه قلبه، ولم تعد تعيب عليه اي شيء يقدم عليه. وبهذا زاد نفوذها عنده وقوي وسلطانها عليه حتى صار يلبيّ كل ما تطلب منه. وادركت انه يهيم حبا [باتوسا] احدى ابنتيه. الأ انه كان يخفي عاطفته هذه ويقمعها خوفاً من امّه بالدرجة الأولى الا اذا صدقنا روايات بعض الكتاب - الذين يزعمون انه أطفأ نار رغبته منها سراً. ما ان شكت [پاريساتس] بحقيقة الأمر حتى اخذت تظهر للفتاة كثيراً من الودّ وراحت تبالغ في وصف فضائلها وسجاياها وجمالها له، ومجمل القول فانها راحت تزين له الاقتران بها واعلانها حليلةً شرعية، خلافاً للمبادئ الخلقية والقوانين المتعارف عليها بين الاغريق. لأن الملك عند الفرس هو مصدر القانون بارادة الآلهة، وهو القاضي الأعلى والحكم في ما هو خير وما هو شرّ. واكد بعض المؤرخين ومنهم هيراقليدس [الكومي Cuma] انه لم يكتف بالزواج من هذه الأبنة، بل تزوج ايضاً بنته الثانية [اميتريس Ameitris] التي سيرد ذكرها بين آن وآخر في السباق. الأ انه كان شديد التعلق باتوسا حتى

انه لم ينفر منها قط عندما اخذ الجُذام ينتشر في انحاء جسمها وانما راح يبتهل الى [جونو] لأجلها. والى هذه الربّه وحدها دون سواها كان يصلي ويقدم لها فرائض العبادة ببسط يديه على الارض. وحذا كل ساتراب حذوه وتنافسوا مع اصدقائه في رفع التقدمات اليها حتى اكتظ الطريق اليها بالنفائس والذهب والفضة والخيل والارجوان من الهدايا الى مسافة ستة عشر فرلنگ الممتدة ما بين معبدها والبلاط الملكي.

وارسل [فارنابازوس] و[ايفيقراطس Iphicrates] على رأس حملة الى مصرٍ ولكنه لم ينجح في حربه هذه بسبب الخلاف الذي نشب بين القائدين. وفي حملته على القادوسيين Ca-dusian تولى القيادة بنفسه واغار بثلاثمائة الف راجل وعشرة آلاف فارس على اراضيهم الجبلية التي يتعذر اقتحامها. الى جانب الضباب الكثيف الذي يخيم عليها دائماً وجدبها وقلة ثمارها فهي لاتغلّ اي نوع من الغلة كالقمح، ما عدا التفاح والكمثرى وغيرهما من انواع الفاكهة وعليها فقط يقتات هذا الشعب الجسور الذي رضع حبّ القتال والحرب منذ نعومة اظفاره. فاحدقت الاخطار بحملته، ووقع في ضيق شديد وعضهم الجوع بنابه اذ لم يكن ثم طعام يصلح لجنوده مما تنبت تلك الأرض ولم يجد وسيلة لنقل الارزاق من مكان آخر فعمدوا الى ذبح حيوانات اثقالهم. وبلغ ثمن رأس الحمار ستين دراخماً. واقفرت مائدة الملك مما يغري بالأكل. واستهلكت الخيول الاّ القليل. وهنا تفتق ذهن [تريبازوس] عن حيلة انقذ بها الملك وجيشه. كان حظّ تريبازوس عرضة للتغير المفاجيء عند الملك. فيبدو حيناً مقرباً منه حائزاً رضاه، ليجفوه وينفر منه بعدها فيهوى به جدّه الى الحضيض وهكذا أختلف نجمه بين صعود وافول بسبب بسالته وبسبب تهريجه والأعيبه. وكان في ذلك ألوقت في اسوء حالٍ من الاهمال والجفوة عندما تقدم باقتراحه: يحكم القادوسيين ملكان كل منهما يعسكر بقواته فوق مرتفع بعيد عن الآخر. مثل [تريبازوس] امام الملك وافضى اليه بخطته فوافق عليها. فأرسل ابنه الى احد الملكين وقصد الثاني منهما بنفسه وانطلت الخدعة التي عملاها. فقد اكدّ كل واحدٍ منهما الى هذين الملكين بان صاحبه قد اوفد سفيراً الى ارتحشستا بطلب عقد معاهدة صداقة وحلف لنفسه. فان كان حكيماً فعليه ان يسبق زميله ويتصل بالملك قبل ان يعقد هذا الحلف على حسابه. وانه [اي تريبازوس او ابنه] سيعاونه وسيسعى له في ذلك عند الملك. فصدق الملكان كذبة الأب والابن كل من تأمر الآخر. ولذلك بعث كل واحدٍ منهما بسفير، برفقة الرسولين المزعومين تريبازوس وابنه.

استغرقت هذه العملية وقتاً ولذلك شك في تريبازوس وابنه، وفوتح الملك بهذه الوساوس، وكان اليأس والندم من وثوقه به قد بدأ يتسرب اليه، فبدء يعير اذناً صاغية للواشين

الحاسدين. غير ان الأب والأبن عادا أخيراً، وكل منهما برفقه مندوب قادوسي. فأعلنت هدنة وسلام وعاد [تريبازوس] الى الوطن مع الملك وهو يختال بالحظوة التي نالها وبالمقام الذي ارتفع اليه عند الملك. لقد اثبت [ارتحشستا] بحملته الخطرة هذه، ان الجبن والخنوثة لايتأتيان من ترف العيش ونعومته كما يظن الكثيرون، بل من آثار الطبع الفاسد الوضيع الذي يحركه سوء الرأي وخطله. اذ بصرف النظر عما كان يرتديه الملك من نفيس الثياب والذهب والحلى الفاخرة مما لاتقلّ قيمته عن اثني عشر الف تالنت، لم يجد اي معرّة في مشاركة اصغر جنوده رتبةً تعبهم وكدحهم. فقد كنت تراه وقد شد كنانته الى جنبه وامسك بترسه يقود جيشه سائراً على قدميه تاركاً حصانه جانباً، يجوس المسالك الوعرة ويهبط الشعاب الحادة. وكان عمله هذا يشيع في نفوس الجنود الراحة ويشد من عزائمهم. في حين كان وجهه الباسم وقوته التي لايعتريها وهن تجعل لجنوده اجنحة وتخفف اعباء السير عنهم. وبلغ معدل ما كانوا يقطعونه في اليوم الواحد مائتي فرلنگ.

ووصل الجيش الى قصر من قصور الملك الريفية، امتاز بحدائقه الزهراء وجنانه البديعة النظام. وكان يقع وسط اقليم قاحلٍ ماحلٍ لاترى فيه نبتاً ولا شجراً وكان البرد شديداً لايحتمل فأطلق جنوده يحتطبون لأنفسهم ما شاؤا دون قيدٍ او شرط من اشجار الحدائق ولم يستثن حتى اشجار السرو والصنوبر الثمينة. وكانت اشجاراً ساقعة مهيبة فترددوا ونكصوا عنها، فما كان من الملك الا ان تناول فأساً واهوى بضرباته على اكبرها واجملها منظراً فحذا الجنود حذوه واشعلوا نيراناً عظيمة وقضوا ليلتهم في راحةٍ ودفء. على ان الملك مني بخسائر في اشجع رجاله لم تكن بالقليلة، كما فقد كل خيوله. واخذ يشكّ في ان فشله وسوء حظه افقده مكانته عند الشعب واشاع فيه الاحتقارله واوجس خيفة من نبلائه بصورة خاصة فأوقع بهم مذبحة. قتل بعضهم بدافع الخوف وبعضهم بسورة من غضب. ان الخوف في الواقع هو اشدّ حافزٍ للامراء الى البربرية وسفك الدماء. اما الثقة فتدفع الى الرحمة والعطف وصفاء القلب من الشك ولذلك نجد اشدّ الوحوش ضراوة اقلها الفة، واكثرها نفرة خوفاً واسرعها اثارة اما الحيوانات الراقية والاكثر نبلاً مما تجعلها شجاعتها موضع ثقة، فهي اكثرها تجاوباً للألفة والصداقة مع البشر.

بلغ ارتحشستا من العمر عتياً، ليجد ابنيه يتنافسان على عرش مملكته ولكلّ منهما حزبه المؤلف من اشراف مملكته ومقربيه. اما المحايدون العقلاء فكانوا يرون ان الحكمة والعرف يقضيان بتولي الابن الاكبر سناً وهو [داريوش] مثلما تسلم [ارتحشستا] نفسه الملك بوصفه الابن البكر. وكان الأخ الاصغر [اوخوس Ochus] العنيف الحادّ المزاج، مسنداً من عدد كبير

من رجال البلاط. الاّ ان امله الاكبر كان [باتوسا] اخته التي منّاها بالزواج وبجعلها شريكةً له في الملك ان هي استطاعت اقناع ابيه باعلانه وليّ عهده. في الواقع كان ثم اشاعات بوجود علاقةٍ صميمة فيما بين الاخت وأخيها وهو ما كان موضع جهلٍ من الملك. وكان [ارتحششتا] يريد اختيار الوقت المناسب ليقضي على أمل [اوخوس] في الملك، لئلا ينجم عن محاولته الشبيهة بمحاولة عمه - نزاع قد يؤدي الى الحربِ وخراب المملكة. وسنحت له الفرصة بعد قليل فبادر الى اعلان [داريوس] وليّاً للعهد وكان له من العمر خمسة وعشرون عاماً، وسمح له ان يعتمر بالقلنسوة الطويلة كما يسمونها وهي شعار الملك. وقد جرى العرف ان يطلب ولي العهد الجديد طلباً ممن أعلنه وريثاً لعرشه. وحتمّ التقليد ان يجاب طلبه هذا مهما كان شريطة ان يكون ضمن مقدرته ومجال سلطانه. وكان مطلب [داريوش]، [اسپاسيا Aspasia] وهي احبّ واثمن محظيات عمه كورش، وكانت في حينه من نساء الملك وهي فُوكيّة Phocae الولادة، آيونية الموطن ولدت لابوين حرّين ونالت تهذيباً حسناً. ويروى ان كورش كان جالساً للعشاء يوماً فجيء بها اليه لاول مرة مع فتيات آخر فأجلسن بالقرب منه فأنشأ يمازحهنّ ويعابثهن ويباسطهن الحديث ورفع الكلفة تماماً في مغازلته لهن. الاّ ان اسپاسيا لم تجاره في عبثه وظلت واقفة صامتة وابت التقدم من كورش عندما استدناها؛ فلما همّ حجابه باستخدام القوة صاحت بهم.

- من يضع يده على سيندم.

وبدت جافة خشنة الطبع سيئة السلوك الاّ ان تصرفها هذا احدث أطيب الاثر في نفس كورش فضحك وقال للرجل الذي اتى بالفتيات.

- بالتأكيد ان هذه الفتاة هي الوحيدة من كل من جئت به فهي تمتاز بخلق طاهر نبيل ولم يمر عليه زمن طويل حتى كان اهتمامه قاصراً عليها وزاد كلفه بها ـــ على سائر نسائه ولقبها بالعاقلة وكانت من بين الاسلاب عندما قتل لاشكّ ان الملك استاء كثيراً لطلب ابنه هذا. لأن حرص البرابرة على نسائهم وموضع متعتهم معروف. والموت هو عاقبة كل من تعرض لهن باي شكل من الاشكال، ولايقتصر التعرض على التقرب او لمس مخظية من محظيات الملك بل يعتبر من قبيل التعرض تقدم الركب او سبق العربات التي تقلهن اثناء رحلةٍ. ولذا ازعجه طلب [داريوس] كثيراً مع انه لم يستنكف عن الزواج ببنته [اتوسا] اطفاء لشهوته متحدياً كل النواميس، ومع انه كان يملك ثلاثمائة وستين مخظيّة كلهن آيات في الجمال. فأعتذر لابنه قائلاً ان من يطلبها ليست امةً بل حُرّة. وان من حقها ان تختار فان رضيت به فهي له والاّ فليس من حقّه ارغامها. قال هذا وارسل

يستدعي [اسپاسيا] التي لم تتردد في اختيار [داريوس] خلافاً لما توقعه الملك منها. فلم يسعه الاّ التخلي عنها تحت حكم التقليد المتبع. الا انه لم يصبر وانتزعها منه بعد زمن بحيلةٍ، بان كرّسها كاهنة لـ[ديانا اكبتانا] التي يسمونها [آيناتس Anaitis]. حتى تقضي بقية حياتها بعيدة عن الرجال وفي حالة العفّة التامة، وكان يظنّ ان انتقامه هذا الذي يتسم بالاعتدال ويختلط فيه الجدّ بالهزل، لن يؤثر في ابنه كثيراً. فخاب فأله اذ كان حنق الإبن شديداً وسواء أنجم عن غرامه الشديد باسپاسيا أم عن شدّة وقع الإهانة والتحقير. وادرك [تريبازوس] ما يعتمل في نفس الفتى فسعى لتأريث هذا الحقد لانه وجد الاهانة شبيهة بما ناله في المناسبة التالية:

وعد [ارتخشتا] بتزويج [اپاما Apama] بنته من فارنابازوس وبتزويج ابنة أخرى له تدعى [رودوغونه Rhodoguna] من [اورنتس Orantes] وبتزويج بنت ثالثة اسمها [امستريا Amestria] من [تريبازوس] الاّ انه نكل عن وعده لهذا الأخير واتخذها لنفسه زوجاً. على انه اراد ان يعوضه عن ذلك فعقد له على صغرى بناته [اتوسا] الا انه وقع في حبها كما اسلفنا فتزوجها. فاضطغن له وحقد عليه حقداً شديداً. وكان [تريبازوس] معروفاً بنقلب الاهواء والتهور وبعده عن الهدوء. وسواء اوجد نفسه مقرباً من الملك ام من المغضوب عليهم فتراه بعيداً عن الاعتدال في اي من الحالتين ان استدني تواقح وطغى بصورة لاتحتمل. وان تجوفي وابعد لايستسلم ولا يسالم، بل تجده ثائراً عنيفاً. فكان ناراً تسعرّ نار الأمير، ما يفتأ بحثه على العمل ويدفعه بعباراته الثائرة كأن يقول له:

- من العبث ان لايهتّم ذوو القلانس الطويلة بأمورهم على الوجه الصحيح: واني لأراك قصير النظر مأفون الرأي ان كنت ضامناً ارتقاءك العرش، ولديك أخ يتطلع الى هذا المركز الأسمى ويبحث عن السبل المؤدية اليه في اجنحة الحريم ومخادع النساء وابوك ذو المزاج السريع التقلب، والطبع النزف الذي جعله يتخطى اقدس القوانين الفارسية واكثرها حرمةً حبّا بفتاةٍ آيونية ليس من المحتمل قطّ ان يكون مخلصاً في اهم عهدٍ قطعه.

وزاد على ذلك قوله:

- ليس من حق اوخوس ان يصل الى التاج ولا ضرار عليه ان لم يصله وليس من حقك ان تتنزل عنه او تهمل أمر المحافظة عليه. فاوخوس مواطن بسيط من الرعية، وبامكانه ان يعيش بهدوءٍ وهناء وليس ثم ما يخشى منه. ولكنك انت الذي نودي بك ملكاً امامك طريقان لا ثالث لهما. امّا ان تقبض على صولجان الملك فعلاً او ان تخاطر بحياتك في سبيل ذلك.

اثارت [داريوس] هذه الأقوال. ولاشك ان [سوفوكليس] لم يتعد الحقيقة حين قال:

ان سبيل الاقناع بما هو خاطيء سهل وسريع

ذلك لأنه ممهد بارادتنا. ومعظمنا يميل الى شرّ بسبب بعده عن الخير وجهله به. وفي هذه القضية كانت حجّة [تريبازوس] قوية ومادة اقناعه لايأتيها فشل بسبب سعة رقعة الامبراطورية والغيرة التي يشعر بها [داريوس] من اخيه، ولم تكن [ثينوس] بعيدة ايضاً. فهناك خسارته [اسپاسيا] مما يجب ان يدخل في الحساب. وهكذا اسلم [داريوس] مقاديره لتريبازوس واصبح طوع امره. وازداد عدد المؤتمرين الملتفين حولهما. وأطلع احد الخصيان على ما يدبر في الخفاء فأبلغ الملك بتفاصيل الخطة المرسومة لتنفيذ المؤامرة وتتم باقتحام مخدعه ليلاً وقتله وهو نائم. لم يرِ ارتحششتا ان يستهين بخطر كبيرٍ كهذا، ولا ان يثق بوجوده لان الدليل كان ينقصه، او ان الدليل لم يكن من الضعف بحيث يستدعي اهمال المسألة ولذلك قام الملك بالخطوات التالية: أمر الخصبي ان يواصل الاجتماع بالمؤتمرين ويلازمهم ولايدعهم يغيبون عن مراقبته. ثم عمل فتحة في جدار مخدعه خلف سريره ووضع عليها باباً يفتح ويغلق ووضع سجادة فوقه ليخفيها. ودنت ساعة التنفيذ وابلغه الخصيّ بالموعد الذي قرره المؤتمرون لتنفيذ عملية الاغتيال فانتظرهم وهو مستلق على سريره ولم يغادره الاّ بعد ان تبين وجوه مهاجميه وعرفهم واحداً واحداً. ولما أخترطوا سيوفهم وتقدموا نحوه، رفع السجادة ودلف الى الغرفة الصغيرة واحكم رتاج الباب واطلق صيحة. ولما تأكد القتلة انهم انكشفوا وان الملك لم يعد في متناول يدهم، اسرعوا بالخروج من حيث اتوا وحثوا [تريبازوس] ورفاقه على الهروب بعد افتضاح مؤامرتهم فهربوا كلاً في سبيل. الاّ ان حرس الملك كانوا في اعقابهم فأدركهم وقتل منهم عدداً كبيراً واطبقوا على تريبازوس وقُذف برمح من بعد فصرعه. اما [داريوس] فقد احيل مع اولاده الى المحاكمة. وعين الملك قضاةً مدنيين للنظر في قضيته. ولكونه غائباً فقد اتهم بالواسطة وامر كتبته بتدوين رأي كل قاضٍ وجلبه اليه. وبعد ان أجمعت الآراء على موته اخذه الضباط الى غرفة قريبة، واستدعي الجلاد فجأة وبيده الموس التي يستخدمها ارباب صنعته عادة في حزّ رؤوس المحكومين ولكنه ارتاع واحجم وانكفأ. الى الوراء عندما تبين [داريوس] واراد ان يترك الغرفة وقد خانته قواه. الاّ ان القضاة الذين كانوا واقفين بباب الغرفة، حالوا بينه وبين الخروج وهددوه وتوعدوه فعاد وقبض على شعر رأسه وجرّ وجهه الى الارض بيد وقطع رقبته باليد الأخرى. ويؤكد بعضهم ان الحكم صدر بحضور ارتحششتا وان [داريوس] بعد ان ادين بالجرم المشهود انطرح على قدميّ ابيه مستعطفاً مستغفراً. وبدلاً من العطف عليه نهض غاضباً واخترط سيفه وصار يضربه به حتى قتله. ثم خرج الى القصر وتوجه بالدعاء الى الشمس قائلاً:

- اذهبوا يا أيها الفرس بسلام وأعلنوا لاخوانكم رعاياي عن القوة التي صبّ بها اهورمزدا انتقامه على فاعلي الشر والأثم.

تلك كانت عاقبة المؤامرة. وكبرت آمال [اوخوس] وعلل نفسه بنفوذ [اتوسا] الاّ انه كان يخشى اخاه [آريا آسپس Ariaspes] الذكر الوحيد الباقي من النسل الشرعي لابيه خلافه. وكذلك كان يخشى [آرسام Arsames] احد ابناء ابيه غير الشرعيين. وكان [آريا اسب] محطّ انظار الفرس وكانوا يرغبون في ان يملك عليهم لا لأنه اكبر سنّا من [ارخوس] بل لأنه امتاز عنه بلطفه وعدالته وسمّو خلقه، الأ ان [ارسام] كان اصلح لتولى الحكم لرجاحة عقله. كذلك كان [اوخوس] يعلم انه المفضل عند ابيه. فأخذ ينصب لاخويه هذين الفخاخ وكان غدره لايقل مطلقاً عن قوته فاستخدم الأخيرة ضدّ [آرسام] واستخدم الثاني ضدّ [آريا ايب]. ودفع خصيان ابيه والمقربين الى ان يختلقوا اقوالاً على لسان الملك وينقلوها الى [آريا اسب] كقولهم ان الملك اصدر الاوامر بانزال انواع النكال به واذاقته شرّ ميتة. ينقلون اليه هذه الاكاذيب يومياً ويهمسون بها في اذنيه بوصفها أسراراً. وقالوا له ان الملك ينوى الفتك به وشيكاً وان الضربة لاتلبث ان تهوى عليه، حتى اطاروا صواب الفتى المسكين وملأوا رأسه اوهاماً وهواجس فعمد الى سمّ كان قد هيّأه فشربه تخلصاً من حالته. وعلم الملك باسباب موته فبكاه وتحسّر عليه وحزن حزناً صادقاً. وخالجه الشكّ في هوية من دفعه الى هذا المصير الاّ ان شيخوخته وضعفه حالاً بينه وبين تحري الادلة والبراهين. وزاد تعلقه [بارسام] بعد موت هذا الابن ووضع فيه كل ثقته وجعله أمين سرّه ومستشاره، فلم يطق [اوخوس] صبراً عليه واستخدم [ارپاطس Arpates] ابن [تريبازوس] لقتل أخيه. ولم يكن ارتحششتا اذ ذاك غير انفاسٍ تصعد وتهبط ولما ابلغ بمصير [ارسام] لم يحتمل الصدمة ومات تحت وطأة الحزن وله من العمر اربعة وتسعون عاماً. حكم منه اثنتين وستين سنة، كان فيها حاكماً معتدلاً يميل الى الرأفة ولاسيما اذا قورن بابنه اوخوس الذي فاق جميع اسلافه في القسوة وسفك الدماء.

١٩٧٢/٣/٨



گالبا

GALBA

(Servius Sulpicius)

5 - 69

1889



اعتاد الفيلسوف [ايفيقراطس Iphicrates] القول: من الأفضل ان تستخدم الجنود المرتزقة الذين لايهمهم من الدنيا غير المال والملاذ، فهم اكثر اقداماً واقوى مراساً من الآخرين لأن القتال سبيلهم الوحيد للوصول الى ما يشبع رغباتهم. على ان الكثرة ترى غير هذا وتقول ان تركيب الجيش هو اشبه بتركيب جسم الانسان عندما يكون في حالة الصحّة فان اعضاءه كلها تطيع اوامر الرأس وتسير على هدية بانتظام، ولايعمل كل منها على هواه ويحدثنا الرواة مصداقاً لهذا، ان [پاولس اميليوس] تسلم قيادة القوات المرابطة في مقدونيا، فراعه ما وجد بينهم من الفضول والتدخل في شؤون لاتعنيهم وكثرة الكلام الى حَدّ الوقاحة، حتى لكأن كل واحد منهم قائدٌ. فاصدر امراً يومياً جاء فيه «فلتكن ايديكم على استعداد ولترهفوا نصال سيوفكم، امّا الباقي فاتركوه لي». وافلاطون نفسه لم يكن يؤمل من اي حاكم داهية او جنرال موهوب خيراً ان لم ينل من جنوده الثقة والطاعة والانسجام (يرى ان فضيلة الطاعة كفضيلة الحكم لاتتوفر الاّ في الخلق النبيل الذي يدعمه التهذيب الفلسفي، فتتحالف القوى الفاعلة مع ارق الأحاسيس واكثرها انسانية)، بوسع هذا الفيلسوف ان يورد دعماً لمبدئه هذا مختلف الأحداث المحزنة. ولاسيما تلك التي عقبت موت [نيرون] عند الرومان حيث تضافرت البراهين على ان ليس ثم افظع وافجع من القوة العسكرية حين تنطلق من عقالها فتصول وتجول في الامبراطورية دون رادع من العقل، ولا رقيب موجّه ان [ديماديس Demuades] بعد وفاة الاسكندر الكبير شبّه الجيش المقدوني [بالسيكلوب Cyclops] التي اقتعلت عينها الباصرة لما اقدموا عليه من فوضى وتخريب. الاّ ان الكوارث التي انزلها الجيش بالحكم الروماني هي أشبه بحركات العمالقة giants الذين هاجموا السماء يعتورها التشنج مرة، وينتابها الانبساط مرة أخرى، ثم تنطوي على نفسها وتنسحب، وذلك حسب اهواء اولئك الذين نودي بهم اباطرةً فضلاً عن اطماع الجنود وجشعهم ومويقاتهم. فلقد كانوا يقتلعون القواد واحداً بعد الآخر كما يقتلعون اظافر الانامل.

قال [ديونيسيوس] عن حكم [الفيريين Phereans] هازئاً «لقد كان حكمهم تراجيدياً» ذلك لم يستمتعوا بالحكم غير استقبال مالا يقلّ عن اربعة أباطرة خلال مدة تقل عن عشرة

اشهر. مثلهم في ذلك الممثلين يظهر أحدهم على خشبة المرسح فلا يلبث أن يخلي موضعه للتالي وهكذا.

ذلكم هو الانتصاف الوحيد المدّخر للمضطهدين. فليس ثم عدالة وقصاص ينزل بساحة مضطهديهم أقوى واشد من ان يشاهدوهم وهم يذبحون بعضهم بعضاً. وكان اوّل من اكد لهم وعلمهم الفائدة من تبديل الأباطرة فنال أعدل الجزاء على ما قدمت يداه، هو ذلك الذي اساء الى عهدٍ نبيل قطعه بالأجر الذي دفعه لتحقيقه، فانحرف بالثورة ضد [نيرون] الى ما هو اشبه بالخيانة العظمى.

ساءت احوال [نيرون] وبلغت حَدّاً لايرجى منها اي صلاح وعلم انّه ينوي الفرار الى مصر. كما ذكرنا سابقاً، فأنتهز كلّ من [نمفيديوس سابينوس Nymphidius Sabinus] قائد الحرس، وتغلينوس Tiggelinus] الفرصة واقنعا الوحدات العسكرية بالمناداة بـ(غالبا) امبراطوراً. كأنما اصبحت دولة [نيرون] في حكم الزوال، لقاء وعدٍ بدفع سبعة آلاف وخمسمائة درهم لكل واحدٍ من افراد الحرس، او الجند البريتوري (كما كانت تدعى) والف ومائتين وخمسين درهماً لكل جندي من الوحدات المرابطة في الخارج. وكان مجموع المبالغ التي تعهدا بتوزيعها مما يستحيل ان يجمعها احد الاّ اذا لجأ الى الظلم والوحشية في جبايتها، والى الاستمرار في جمعها حتى يوم القيامة. اعنى ان يمارس قسوة واستبداداً يفوقان ما مارسه [نيرون] نفسه بمراحل، على ان هذه الوعود احدثت اثرها واسرعت [بنيرون] الى حتفه، ثم ما لبث ان الحقتّ به [غالبا]. قتلوا اولهما بأمل قبض المكافأة التي وعدوا بها وقتلوا الثاني بعد قليل لأنهم لم ينالوها. ثم بحثوا عمن يستطيع شراء المنصب الشاغر بهذا الثمن، وارتكبوا اثناء بحثهم هذا سلسلة متوالية من اعمال العنف والغدر حتى نالوا مطلبهم. ولو شئنا الدخول في التفاصيل لاقتضانا ذلك مجلداً كاملاً. ولكني وسأكتفي هنا بما يفي بغرضي أعني سأقصر كلامي عمّا فعله القياصرة، وما عانوه.

هناك اجماع على ان [غالبا] هو أغنى من تولى منصب الامبراطور. والى جانب شرف كونه من اسرة [سرڤيي Servii] فخر بصلة نسبه مع [كاتولوس Catulus] اعظم الرومان قدراً واعلاهم سجاياً وخلقاً، وان كان قد استسلم لاغراء الآخرين حين طمع بالسلطة والمنصب. ويمتّ [سوليپچيوس غالبا .Sulpicius G] ايضاً بصلة قرابةٍ الى [ليڤيا Livia] امرأة [اغسطس قيصر]، التي سعت له عند زوجها فعينه پروقنصل. وأثر عنه حسن القيادة في جرمانيا. والكفاءة في ممارسة الوظيفة نفسها في ليبيا، فنال سمعةً طيبة هناك، قلّما نالها سلف. الا ان اسلوب عيشه الهادىء وعزوفه عن اسباب الترف وشتّى المظاهر الباذخة حطّ من قدره عند

صيرورته امبراطوراً وافسح المجال لتعزى اليه صفة البخل. وهي سمعة ظلّ لها من الحقيقة، كان انتظام حياته وزهده مسؤولين عنها. اناط به [نيرون] حكم اسپانيا وهو يجهل كيف يحتاط لنفسه ويحذر من آثار سمعته الطيبة وشهرته العظيمة. كما ساد الاعتقاد بأن مباشرته الشؤون العامة ستتّم بالحذر والتوجس بسبب مزاجه اللطيف وشيخوخته.

وفيما كان عمّال [نيرون] الطغاة يعبثون بمقدرات الأمصار وينفذون اوامره بقسوة ووحشية، ظلّ [غالبا] مكتوف اليدين لا حول له ولا قدرة على وقف تلك الأعمال الاّ التخفيف والتشجيع المعنوي للمنكوبين، بمشاركتهم آلامهم والتسرية عن المحكومين الذين تصدر الاوامر ببيعهم عبيداً ونشرت نشرات هجاء ونقد بحق [نيرون] ووزعت وتليت جهاراً في كل مكان فلم يمنعها. الاّ انه في الوقت نفسه لم تبدر منه بادرة سوءٍ بحق وكلاء نيرون وعماله. وقد ازداد الناس به تعلقاً لحياده وعطفه. ولطول بقائه حاكماً لاقليمهم. فقد كان له ثمانية اعوام في الحكم عندما بدأ [يونيوس ڤنديكس Junius Vindex] قائد القوات الرومانية في بلاد الغال بعصيانه على [نيرون] ولقد قيل ان رسائل بهذا المآل وردت الى [غالبا] قبل ان يذرّ قرن العصيان وينقلب الى تمرّد علني، والظاهر انه لم يكترث بتلك الرسائل، الاّ انه لم يخبر [نيرون] بأمرها كما فعل الضباط الآخرون والقادة الذين وصلهم مثلها، فلم يساهموا في التمرّد، مع انهم انضموا الى الانقلاب فيما بعد واعترفوا بانخداعهم مثلما اعترفوا بانهم خدعوه. واخيراً اعلن [ڤنديكس] الحرب وكتب الى [غاليا] يحثه على تولي السلطة العليا، وبذلك يمنح رأساً مفكراً لهذا الجسم القوي، ويعني به الاقاليم الغالية التي يحميها مائة الف مقاتل كامل العدة والسلاح ويقول له ان باستطاعته فضلاً عن هذه القوات تعبئة اكثر من مثل هذا العدد عندما تدعو الحاجة. فعرض [غالبا] الأمر على انصاره واصدقائه فرأى بعضهم أن الانتظار أجمل به وان الافضل هو مراقبة تطور الموقف في روما من هذا الانقلاب وما ينجم عنه من آثار. الاّ ان [تيطس ڤينيوس] قائد الحرس البريتوري هبّ متسائلاً:

- ما معنى هذا التدقيق والحذر يا غالبا؟ ان مجرد المداولة في بقائنا على ولائنا [للنيرون] أو شق عصا الطاعة عليه، هو بحدّ ذاته عصيان. ان نيرون هو عدوّنا. وليس من الحكمة ان نحبس انفسنا عن معونة [ڤنديكس] والاّ يجب ان نبادر الى شجب عمله فوراً ونزحف لقتاله لأنه يرغب في ان تتولى انت حكم الرومان بدلاً من ان يستمر [نيرون] في طغيانه.

وعندئذ اصدر [غالبا] بياناً أعلن فيه موعداً لتسلمه زمام الحكم التحرري، وكانت الشائعات والدعاوات السابقة له قد احدثت اثرها الكبير في جمع الناس حوله واعدت الأذهان

لتبنيّ الانقلاب. فلما ظهر في دار القضاء هتف الناس له وحيّوه بلقب الامبراطور بلسانٍ واحدٍ. الاّ انه ابى قبول ذلك في حينه، ثم أخذ بعدها يقدح في نيرون ويندد بأفعاله ويأسف على الأفاضل والخيرين الذين اهلكهم. ثم قدم نفسه لخدمه بلاده لا بلقب [قيصر] او [امبراطور] بل باسم «وكيل الشعب الروماني ومجلس شيوخه».

كان [ڤنديكس] بعيد النظر في دعوة [غالبا] لمنصب الامبراطور، وهذا ما شهد به نيرون نفسه، فقد كان يحتقر من شأن [ڤنديكس] ولايهتم بالغالبين قلامة ظفر، ولايشغل نفسه بهم. ولكن الأمر كان مختلفاً من جهة [غالبا] وقد شاءت الصدفة ان يرده نبأ انتفاضة عليه وهو خارج من حمامه يهم بتناول فطوره، فرفس المائدة وقلبها عاليها سافلها حنقاً. ولكن نفسه طابت عندما صوت مجلس الشيوخ على اعتبار [غالبا] عدواً لروما. فأتخذ من الأمر مادة للتفكهة وبث الثقة في نفوس الموالين له:

- تلك فرصة ذهبية لي انا الذي كنت في امس الحاجة الى غنيمة كالغنيمة الغالية التي ستقع بين يدي اسلاباً شرعيّة. امّا املاك [غالبا] فبوسعي استعمالها او بيعها حالاً بعد ان أعلن عدواً لنا.

واسرع بعرض احوال [غالبا] للبيع. فلما سمع هذا وضع الحجز على جميع ما يملكه [نيرون] في اسپانيا ووجد له مشترين متحمسين للشراء. واصبح عدد القائمين ضدّ[نيرون] كثيرين، وانضموا كلهم تقريباً الى جانب [غالبا] ما عدا [كلوديوس ماچير Clodius Macer] في افريقيا، و[ڤرجينوس روفوس Virginius Rufus] قائد القوات الجرمانية في بلاد الغاليين. فقد رفضا الانضمام اليه على انهما لم يتفقا على رأي واحدٍ. فكلوديوس الذي يدري ما ادّى به الجشع والقسوة من قتول واغتصاب، كان يتجاذبه عاملان: اعتزاله القيادة، او البقاء فيها. امّا [ڤرجينيوس] الذي كان يقود أقوى الفرق الرومانية. فقد حظي منها بلقب الامبراطور عدة مرات وكثر الحاح الجنود عليه بقبول اللقب فأعلن قائلاً انه لم يقبل لنفسه هذا اللقب الرفيع ولم يدع أحداً يفعل ذلك. الاّ من يختاره مجلس الشيوخ.

كل هذا أقلق [غالبا] كثيراً. ولكن الجنود تغلبوا على ارادتي [ڤنديكس] و[ڤرجينيوس] بالضغط والحث فأرغموهما على دخول معركة ضارية وجد [ڤنديكس] نفسه الطرف الخاسر والسيف يعمل في رقاب عشرين الفاً من جنوده الغاليين فقتل نفسه. وانتشرت الانباء في سائر البلاد بأن الكلّ قد اجمعوا على [ڤرجينيوس] بعد ان نال هذا النصر الساحق، فان رفض فسيشدون ازر [نيرون]. فركب [غالبا] همّ عظيم وكتب الى [ڤرجينيوس] يدعوه الى الانضمام اليه مخافة ان يدبّ الانقسام في الامبراطورية ومحافظة على حرية الرومان. ثم

انسحب هو واتباعه الى [كلونيا Clunia] المدينة الاسپانية نادماً على تنطعه وتزمته، ناشداً الهدوء والراحة مفضلاً الجمود على التحرك للقيام بواجبه وفقما تملي عليه الظروف. وكان الوقت صيفاً عندما جاءه رسول من روما، قبل الغسق بقليل. وهو روماني حرّ يدعى [ايچيلوس Icelus] قطع المسافة من روما بسبعة ايامٍ فقط. وتوجه الى موضع الذي انزوى فيه [غالبا] ودفع جانباً الخدم الذين اعترضوا سبيله الى غرفته ودخل عليه ليبلغه ان نيرون قد أختفى ولا احد يعلم محلّه. وان الجيش بالدرجة الأولى ثم عامة الشعب ومجلس الشيوخ بالدرجة الثانية قد أعلنوه امبراطوراًولم يذع نبأ القضاء على حياة نيرون الاّ بعد فترة طويلة من اعلانه امبراطوراً. ثم استطرد يقول:

- على اني أقتنع باشاعة موته، حتى ذهبت بنفسي وشاهدته جثة هامدة فأنطلقت اليك لابلغك الأمر.

فأرتفعت معنويات [غالبا] ثانية، وتقاطر الناس الى منزله وهم مؤمنون بنبأ الرسول وان كانت رحلته بسبعة ايام يصعب تصديقها. ومرّ يومان على وصوله، وجاء [تيطس ميثيوس] يحمل انباءً أخرى من المعسكر تؤكد النبأ الأول وتحوى تفاصيل الاوامر التي اصدرها مجلس الشيوخ. فرفع [غالبا] من مكانته وقلده اسمى الرتب. امّا الرجل الحرّ الذي جاءه باول الانباء فقد شرّفه [غالبا] بالخاتم الذهبيّ وعمد هو الى تغيير اسمه فأصبح يعرف بـ[مارشيانوس Marcianus] وعُدّ اول الاحرار الرومان. الاّ ان الأمور في روما لم تستقرّ. فقد استأثر [نمقيديوس سابينوس] بالسلطة كلها دون ان ينزل عن شيء منها لغيره ومارسها بصورة فجائية لا بلطف أولين. فكرّ [نمقيديوس] ان [غالبا] العجوز الذي اناف على الثالثة والسبعين، لن يمتد به العمر ليحمل الى روما واهن القوى بمحفة. وكان جنود العاصمة يحبونه منذ زمنٍ طويل، بسبب اهتمامه واتحافهم بالهدايا، في حين ان الوعد بالمكافأة الذي قطعه لهم [غالبا] جعلهم يعتبرونه مديناً لهم. فوجه [نمغيديوس] اهتمامه بمصلحته الخاصّة. وأمر صاحبه وزميله [تجيللنيوس Tigellinus] ان يعيد السيف الى قرابه وبدأ يقيم الولائم والحفلات ويدعو رجال الحكم السابقين من قناصل وقواد اليها. باسم [غالبا]. وجمع عدداً كبيراً من الجنود في المعسكر ليقترحوا الطلب من [غالبا] بان يعينه حاكماً عاماً[1] مدى الحياة دون شريك يقاسمه السلطان. واتبع مجلس الشيوخ سبيل الاغراق في تكريمه، وتوسيع صلاحياته مما جعله بغيضاً مخوفاً حتى من أولئك الاعضاء الذين امّلوا عطفه واحسانه

---

(١) Prefect: في روما القديمة يعتبر هذا اللقب صفة لمختلف الرتب العسكرية والمدينة ويلقب به الحكام وذوو السلطة الاجرائية.

واعتبروه منقذاً فكانوا يتسكعون امام منزله يومياً. وخصّوه بامتياز اعطاء قراراتهم صيغة التنفيذ بتصديرها باسمه وبهذا بلغوا به نهاية الصلافة والعجرفة. وعندما ارسل القنصلان رسلهما الى الامبراطور بقرارات مجلس الشيوخ مع الدبلومات[٢] المختومة بالاختام التي كانت السلطات الادارية تنتظرها في كلّ مدينة يجرى فيها تبديل عربات الرسل وخيولهم. فيستحث الرسل للاسراع جهد طاقتهم، استاء جداً لأنه لم يسأل عن وضع ختمه، ولم يكلّف جنوده بالمهمة، واخذ يفكرّ في الانتصاف لنفسه من القنصلين. الاّ ان غضبه انفثأ بعد ان اعتذرا له واكدا ولاءهما. ولم يتدخل باي شكل عندما اخذ الجمهور يتصيّد اتباع [نيرون] ويضربون كل من وقع منهم بايديهم حتى الموت ارضاءً لهم. وممن لقي حتفه بهذه الطريقة المصارع [سپكلوس Spiclus] الذي ديس تحت اقدام تماثيل نيرون في الفورم، وانزلت التماثيل وسحبت فوق جثته. وطرحوا [اپونيوس Aponius] أرضاً واشبعوه ضرباً ثم جرّوا عربات مثقلة بالحجارة فوقه، وهو احد الذين مدت اليهم العامة باصابع الاتهام عن كثير من الجرائم. ومزقوا كثيرين غيرهما تمزيقاً وكان بعضهم بريئاً. وتمادى الناس في ذلك حتى ان [مورسيكوس Moursicus] عضو الشيوخ وهو رجل فاضل عظيم القدر صرح في المجلس قائلاً يخشى ان لايطول بهم الزمن حتى يتمنّوا عودة [نيرون].

بلغ [نمغيديوس] نهاية جبروته؛ فلم ينف ما اشيع عنه بانه ابن [كايوس قيصر] خليفة [طيبريوس] الذي كان معروفاً عنه بأنه عشيق امّه في مطلع شبابه. وكانت ام [نمغيديوس] من الجميلات المعدودات، وهي ابنة كالليستوس Callistus احد عتقاء قيصر وكانت تمتهن الخياطة. وواضح بأن علاقة [كايوس] بالأم [نمغيديا] كانت في زمن متأخر بحيث لايمكن قطّ ان تعزّز ادعاءه هذا بسبب مقبول. ولقد شك في انه قد يدعي ايضاً ببنوة المصارع الشهير [مارشيانوس Martianus] الذي اغرمت به [نمغيديا]، للشبه الكبير بين الاثنين. ومع اعترافه بأمومة [نمغيديا]، تراه يعزو سقوط [نيرون] لنفسه وحده ويعتقد ان كل ما ناله من ثروة وجاه وسلطان لاتكفي لايفاءه حقّه (وزاد على هذا كله، انه ارسل يستقدم [سپورس Sporus] ومازالت النيران تشتعل في جثمان نيرون واتخذه صاحباً، وعامله معاملة الزميل مع اسم پوپيا Poppæa[٣]) وانما كان يجب ان يتولى منصب الامبراطور. ولم يكن يعدم انصاراً له في روما، يعلمون لهذه الغاية في السرّ، فضلاً عن عدد من النساء المتنفذات، واعضاء من

(٢) Diploma: لغوياً «رسالة مختومة ومغلقة». وفي عهد الجمهورية تصميم او نشرة رسمية تتضمن توصية تعطى المسافرين من قبل الحكومة لتسهيل سفرتهم وفي عهد الامبراطورية صارت الكلمة تطلق على الوثيقة الحكومية التي تصدر بمنح امتيازات للاشخاص الموجهة اليهم. والشك ان المقصود هنا هو المعنى الأخير.

(٣) زوج نيرون.

مجلس الشيوخ، وارسل الى اسپانيا [جيليانوس Gellianus] احد اصدقائه لمراقبة الامور عن كثب.

على ان امور [اغالبا] استقامت بعد موت [نيرون] وباتت على خير ما يرام. خلا موقف [ڤرجينيوس روفوس] المتردد. فقد ظلّ معلّقاً موزع الفكر بين ان يعمل وفق نصيحة من يزين له الاستيلاء على السلطة لنفسه بعد ظفره [بڤنديكس] وخضوع جزءٍ كبير من الامبراطورية الرومانية له، اعني بلاد الغاليين باسرها التي بدت وكأن الثورة تتمخض فيها وانها على حافة الانفجار، فضلاً عن الجيش العظيم الذي يتولى قيادته. لم يكن هناك صنو لڤرجينيوس في الواقع سمعةً واسماً وشهرةً، فقد اضطلع بمهمة مزدوجة الخطورة وهي انقاذ الامبراطورية من أهول استبدادٍ، وانتشالها من مخاطر حرب غاليّة سيئة العواقب. على ان ظلّ متمسكاً برأيه الأول فأبقى لمجلس الشيوخ سلطانه في انتخاب الامبراطور. لكن الجنود زادوا من الحاحهم وضغطهم عليه بعد موت [نيرون] وخيروه بين تولي الحكم، وبين البطش به ودخل تريبيوس خيمته مخترطاً سيفه لتنفيذ ذلك. ثم أعلن [فابيوس ڤالينس Fabius Valens] احد قادة الفرق ولاءه لغالبا، ووردته رسائل من مجلس الشيوخ تعلمه بقراره انتخاب [غالبا] امبراطوراً. وعندها وبعد لأيٍ وتمكن من اقناع الجيش بقبول الأمر الواقع والمناداة بغالبا امبراطوراً. وسلم قيادته لـ[فلاكوس هورديونيوس Flaccus Hardeonius] خلفه المرسل من [غالبا] طوعاً ورحل لمقابلة [غالبا] وهو قادم الى روما وقام على خدمته، الا ان [غالبا] لم يشح عنه بوجهه ولم يظهر له التفاتاً كثيراً. ان شعور [غالبا] بالاحترام منعه من اظهار استيائه منه، وغيرة اصدقائه منْ [ڤرجينيوس] ولاسيما [تيطس ڤينيوس] ضده عن القيام بواجب التكريم له. كان [تيطس] مدفوعاً الى مناصبة العداء بدوافع حسدٍ شخصية تهدف الى الحيلولة دون صعوده في مدارج السلطة. وبهذا عاون روح ڤرجينيوس الحارسة على انقاذه من المخاطر التي تجابه غيره من القادة وتقودهم الى نهايات مفجعة. فأمن له حياة هادئة وشيخوخة هنيئة مستقرة.

استقبل [غالبا] وفد مجلس الشيوخ بالقرب من مدينة [ناربو Narbo] الغاليّة. وبعد التهنئة طلبوا منه الاسراع الى روما لأن الشعب هناك ينتظره بفارغ الصبر. وكان [غالبا] يحادثهم بكل احترامٍ وتواضع، وارسل اليه [نمغيديوس] الأثاث الملكي والخدم الذين كانوا يقومون بخدمة [نيرون] في ولائمه. فلم يستخدم شيئاً منها ولم يقربها واكتفى بما لديه. فأطلق الالسنة بمدحه والثناء عليه ووصفه بالحكيم اللبيب المرتفع عن متاع الدنيا وعبثها. الاّ ان [ڤينيوس] اشار بأن هذه الاساليب الرفيعة والحياة المتجردة عن الفخفخة والحافلة بروح

البساطة قد تفسرّ بأنها مجرد تظاهر مقصود لا بذاته بل لخطب ودّ الشعب. فهو احجام لا طائل تحته عن اطلاب المجد الحرّي به. فأقنعه واغراه باستعمال اثاث نيرون في ولائمه التي باتت فهي لاتخلو من الأبهة والمظهر الملكي واخذ الشيخ الهرم يستسلم بالتدريج [ڤينيوس] ويعمل بمشورته [ڤينيوس] هذا، لم يكن يعرف للجشع حدوداً. كما لم يكن بعيداً عن الشبهات في علاقاته الجنسية فقد عرف عنه في اول حياته ايام شبابه عندما كان يخدم بآمرة كالڤيسيوس سابينوس Calvisius Salbinus انه ادخل زوج قائده وهي امرأة هلوك شديدة السبق الى المعسكر خلسة وهي متنكرة بثياب جندي ليلاً. وقبض عليه وهو نائم معها في الجزء الذي يطلق عليه الرومان [برنچيپيا Principia](٤) فزجه [كايوس قيصر] في السجن ولم ينقذه من شديد العقاب الاّ وفاة هذا القائد. وذكر ايضاً عنه ان [كلوديوس قيصر] دعاه مَرّةً للعشاء، فأختلس من المائدة كأساً فضيّة. وابلغ قيصر بالأمر. فدعاه ايضاً في اليوم التالي وأمر خدامه بالاّ يضعوا امامه صحفة من الفضة بل طبقاً فخارياً. وجعل قيصر الأمر أدعى الى التندر والتفكهة منه الى المؤآخذة الجنائية. الاّ ان الاعمال التي ارتكبها بدافع من طمعه سببت واثارت مشاكل خطيرة واذىً قتّالاً محزناً لما اتسعت سلطته وكان [غالبا] في قبضته.

وزاد قلق [نمغيديوس] بعودة [جيليانوس] من اسپانيا. وكان كما اسلفنا قد ارسله ليكون له عيناً على [غالبا] ورقيباً على اعماله، فقد علم منه ان [كورنيليوس لاكو Cornilius Laco] عُين قائداً للحرس البريتوري. وان [ڤينيوس] هو اقرب المقربين من [غالبا]. وانه [اي جيليانوس] لم يسمح له بالدنو من غالبا، فكيف بمبادلته الكلام على انفراد. فقد وضعت عليه رقابة شديدة شلّته تماماً. فلم يكن من [نمغيديوس] الاّ ودعا ضباط الجيش الى اجتماع وخطب فيهم قائلاً: ان [غالبا] شيخ فاضل، حسن النية الاّ انه سليب الارادة، وهو لايعمل بوحي ضميره. وان [ڤينيوس] و[لاكو] يسيئان النصح له. وهناك خوف كبير من احتكار السلطة التي كان [تيجيلينوس] يمارسها على جنوده قبل ان يفطن هؤلاء للأمر ولذلك فهو يقترح عليهم ارسال وفدٍ من المعسكر الى [غالبا] يعلمه بأنه سيلقى مزيداً من الترحيب والحفاوة عند وصوله، ان اقصى هذين الشخصين عن دائرة خاصته ومستشاريه. (كان من الحمق والقحة ان ترسم القواعد واسلوب العمل لقائد محنك، ولاسيما حول من يختار من اصدقاء، ومن يبعد من مستشارين، كأنه شاب غرٌ حديث العهد بالحكم وممارسة السلطة)

---

(٤) يطلق هذا الاسم على موضع من المعسكر حيث تنصب فيه خيم القائد العام وضباطه وقواد الفرق والتريبيونين وحيث تلقى فيه الخطب فهو اشبه بمقرٍ عام.

ووجد [نمغيديوس] مساعيه في هذا السبيل لم تؤت الثمرة المنشودة، فلجأ الى طريقة أخرى وكتب له شخصيّاً عدة رسائل تفوح منها رائحة التهديد، والانذار بسوء العاقبة. منها قوله ان العاصمة بعيدة عن الاستقرار، وان الهدوء مفقود. ومنها ان [كلوديوس ماچير] اعترض سفن القمح من افريقيا واحتجزها. وان الفرق المعسكرة في جرمانيا بدأت تتململ وتميل الى التمرد، وانه سمع بما يشبه ذلك فن سوريا واليهودية. فلم يأبه [غالبا] به ولم يقم وزناً لحكاياته تلك. ولذلك قرر [نمغيديوس] ان يقوم بمحاولته. فنصحه [كلوديوس چلسوس Clodius Celsus] الانطاكي وهو رجل عاقل وصديق مخلص له. بان يعدل عن نيته، قائلاً انه مخطيء اذ ليس هناك حيٌّ واحد من احياء روما يستقبل به قيصراً. على ان معظم انصاره كانوا يستهينون ويستصغرون شأنه. ومن بينهم [ميثريدات] ملك البونطس الذي قال ساخراً: «ما ان يُر هذا الرجل الأصلع الكثير التجاعيد في روما، حتى يجد اهاليها ان اختياره قيصراً لهو عين العار والخزي.

وتقررّ أخيراً أن يؤتي بنمغيديوس الى المعسكر في حدود متنصف الليل للمناداة به امبراطوراً، الاّ ان [انطونيوس هونوراتوس Antonius Honoratus]اوّل التريبيونين، جمع ليلاً كل من كان تحت أمرته. وأخذ يتهمهم ويتهم نفسه بكثرة التقلّب وأفن العقل وفساد الرأي. والتذبذب غبر المبتني على هدف او اقامة وزن للأهلية والكفاءة وقال ان شيطاناً رجيماً يدفعهم الى الانتقال المفاجيء من رأي الى رأي. وختم كلامه بقوله هذا:

- لا شكّ ان جرائم [نيرون] تبررّ الى حدٍّ ما اعمالكم السابقة. اما الآن فما دفاعكم وما تبريركم لغدركم بـ[غالبا] الفتكه بأم ام لدم زوجٍ سفكه؟ ام لالحاقه العار بالسلطة الامبراطورية فوق خشبة المرسح وبين الممثلين؟ اننا لم نتخلّ عن [نيرون] مع هذا كله، الى ان اقنعنا [نمغيديوس] نفسه بان [نيرون] كان البادىء بالتخليّ والفرار الى مصر. افينبغي لنا والحالة هذه ان تُرسل [غالبا] الى الابدية للتسرية عن طيف [نيرون] او علينا ان نخلع أحد اعضاء اسرة [ليڤيا] لنجعل من ابن [نمغيديا] امبراطوراً، كما كان الحال مع ابن [اغريپينا]؟ ان اردنا ان تكون عادلين مقسطين فيجدر بنا الانتقام لموت نيرون واظهار الاخلاص والوفاء باحتفاظنا بغالبا.

بعد ان انتهى هذا التريبيون من كلامه، اتفقت كلمة الجنود على العمل برأيه واخذوا يحثون بعضهم بعضاً على الولاء للامبراطور. وحصلت موافقة الاغلبية الساحقة، وفيما هم يتداولون في الأمر سمعوا ضجّة وصيحة عظيمة. قيل ان [نمغيديوس] ظنّ الجنود يترقبونه بفارغ الصبر، وقيل انه عجلّ بالقدوم ليتخذ الأهبة للقضاء على اية معارضة وكسب المترددين الى

جانبه، فخف مسرعاً الى المعسكر بكثير من النور المشاعل، وهو قابض على خطاب كتبه له [چنگونيوس ڤارو Cingonius Varro] كان قد استظهره، لالقائه على الجنود. الاّ انه وجد ابواب المعسكر موصدة، وشاهد عدداً كبيراً من الجنود متقلدين الاسلحة يخفرون السياج فساوره خوفٌ، على انه دنا وسألهم عن الخبر وعمن امرهم بتقلد السلاح. فسمع هتافاً عاماً بحياة [غالبا] امبراطورهم. فتقدم منهم وراح يهتف معهم وامر القادمين معهم بان يحذوا حذوه الاّ ان الحرس لم يسمح له بدخول المعسكر الاّ مع نفرٍ قليل. فلم يجتز المدخل الاّ وقذف برمحٍ فادرأه عنه [سپتيميوس Siptimius] بترسه وكان يسير قدامه. الاّ انه هوجم بالسيوف، فهرب فلحقوا به الى مضجع الجنود وهناك فتكوا به. ومن ثم سحلوا جثته. ثم احاطوها بحاجزٍ وعرضوها على الانظار في اليوم التالي ولما بلغ [غالبا] نبأ القضاء عليه امر فوراً باستئصال شافة انصاره واشياعه الباقين الذين لم يقتلوا انفسهم وكان من بين القتلى [چنگونيوس] كاتب الخطاب و[ميثريدات] الذي ورد ذكره. وعلى اية حال فقد كان هذا عملاً ينطوي على ظلم واعتساف جرى خلافاً للقوانين، ولم يلق تحبيذاً وان كان جزاءً وفاقاً فلم يجر العرف ان تنتزع حياة اناس من ذوي المكانة دون محاكمة، في وقت كان الجميع يتوقعون تبدلاً اساسياً في الحكم يختلف عن الحكم السابق؛ وشعروا انهم انخدعوا بالوعود والمعسولة والكلمات الطيبة. ومما زاد في الطين بَلّه قتل القنصل پترونيوس تُرپليانوس Petronius Tur-pilianus] الذي ظلّ مخلصاً لنيرون! في الواقع ان ازاحة [ماچير] من افريقيا وقيام [ڤالينس] بازاحة [تريبونيوس] و[فونتيوس Fontius] من المانيا، كان له ما يبرره، فهؤلاء لايؤمن جانبهم، لأنهم قادة عسكريون مؤمرون على قوات مسلّحة، وجنودهم طوع أمرهم. ولكن ما الذي دعا الى حرمان الشيخ الأعزل [ثورپليانونس] من حق الدفاع ومحاولة تبرئة نفسه؟ واخذ الناس يتساءلون هل سيطبق حقاً ولو جزء من العدالة والمساواة اللتين وعد بهما الناس. الى مثل هذا النقد عرضت [غالبا] تلك التصرفات اللاقانونية.

لم يبق بين [غالبا] وروما غير خمسة وعشرين فرلنگا عندما اعترضته حشود من البحارة لايجمع بينها نظام، فاحاطت به اثناء مسيرته، كان هؤلاء قوام فرقة عسكرية شكلّها [نيرون]. وهم الآن يطلبون من [غاليا] بكل خشونة وغلاظة تأييد قرار التشكيل. فأحدثوا خللاً عظيماً وهرجاً ومرجاً وسدوا عليه السبل ومنعوا مستقبلي الامبراطور الجديد من الوصول اليه والتسليم عليه وعلا ضجيجهم وصراخهم مطالبين لفرقتهم بالأعلام والشعارات وتخصيص مقرات لها. فاستمهلهم [غالبا] الى وقت مناسب ففسروا كلامه بالرفض فزادوا تطاولاً ووقاحة وراحوا يقتفون اثره وهم يصرخون وجرد بعضهم السيوف. فلم يسع [غالبا] الاّ

ان يأمر خيالته بالهجوم عليهم، ففعلوا وشتتوا شملهم ولم يصمد واحدٌ منهم وسقط هناك كثير من القتلى وقضى على عدد مماثل في اثناء المطاردة. وهكذا اقترن اول دخول لغالبا بحادث مشؤوم. اذ سار خائضاً الدم ومتخطيا جثث القتلى. وراح الناس الذين احتقروه قبلاً الشيخوخته ينظرون اليه الآن برعب وتوجس.

وكان اول خطأ فأحش وقع فيه هو محاولته اظهار الفرق بين سفاهة نيرون وتبذيره الاموال، وبين امساكه وحرصه على الأموال العامة. فقد تجاوز تقتيره واقتصاده وابتعاده عن الفخفخة كل حدٍ معقول، فلما عزف [كانوس Canus] العازف المشهور اثناء عشاءٍ، عبّر عن استحسانه بان طلب ان يؤتى له بحقيبة. ثم أخذ يضع فيها قطع ذهبية فيها وقال ان ما اعطاه هو من حبيبه لا من خزينة الدولة. وضيق من حدود المخصصات الكبيرة التي كان [نيرون] قد منحها للمصارعين والممثلين ومن لفّ لفهم، وانزلها الى العشر، ومع ان ما سبق واعطي لهؤلاء كان بمجموعه صغيراً وهم من ينفق دخله اليومي باسرع مما يتسلمه لحياة الترف والتهتك التي ترغمهم عليها صناعتهم. فقد امر باجراء تحقيق مع من باع واشترى منهم وطلب إعادة الفرق بين مخصصاتهم الحالية وبين ما تسلموا قبلاً واثار مشاكل لا حَدّ لها. واندلعت عملية استعادة الاموال فشملت رقعة واسعة، ومسّت عدداً كبيراً من الاشخاص فاساءت كثيراً الى سمعة [غالبا]، واثارت كره الناس لڤينيوس الذي جعل الامبراطور يبدو للناس كزاً بخيلاً وضيع النفس، في حين كان هو نفسه ينفق الاموال بدون حساب. ويضع يده على كل ما يستطيع ويبيع لاي مشترٍ تطبيقاً لوصية هسيود الذي يشير علينا بأن نشرب ولا نستبقي شيئاً...

من فم الزقّ حتى قرارته

و[ڤينيوس] الذي وجد امبراطوره شيخاً هِمّاً واهناً، راح يسعى ليجمع اول ثروة له وآخرها. دون رادع او رقيب.

وساءت سمعة [غالبا] من ناحيتين. اولاهما اطلاق يد [ڤينيوس] في ارتكاب اسوء الاعمال. وثانيتهما بايقافه الاجراءات العادلة والصحيحة التي كان قد أمرها بها او بتشويهها. كانزاله العقاب باشياع نيرون. فعندما قضى على اشرارهم من أمثال [هيليوس Helius وبولقليطس Polycletus وبتينوس Petinus وباتروبيوس Patrolius] استحسن الشعب عموماً هذا العمل وايده تأييداً تاماً وراحوا يهتفون للامبراطور وهم يسحلون جثثهم سحلاً في الفورم، فكان منظراً يشفى القلوب الكليمة وموضع الرّضى من الآلهة نفسها. ثم اجمعوا بصوت واحد على ان الآلهة والبشر يطلبون على السواء اجراء حكم العدالة بحق

[تجللينوس] اصل كل البلاء ومؤسس الطغيان ومرشده. الاّ ان هذا الرجل كان قد اتخذ احتياطاته بشكل هدية ووعدٍ [لڤينيوس]. اما [توربليانوس] المسكين فلم يسمح له بانقاذ حياته مع ان جريمته الوحيدة هو انه لم يخن [نيرون] ولم يظهر كرهاً له الا ان هذا الذي عمل نيرون ما عرفه به التاريخ ثم تخلى عنه وغدر به، ذلك الذي كان محرضه على الفساد والى أقصى حدود الفساد، سمح له بانقاذ حياته ليكون مثلاً حيًا على مقدرة [ڤينيوس] على ان يفعل ما يريد. او اعلاناً بان الغنيّ المستعد للدفع لن ييأس في حصول على ما يريد. وعلى اية حال تملكت الناس رغبة شديدة في رؤية [تجللينوس] وهو يساق الى النطع. وظلّوا يواصلون طلبهم في كل مكان حتى في المرسح، وفي ميدان السباق؛ الى ان اسكتهم مرسوم امبراطوري يعلن بان [تجللينوس] لن يعيش طويلاً لأنه مبتل بداء الصدر، ويرجو المرسوم منهم ان لايحاولوا جعل عهده يبدو حافلاً باعمال القسوة والاستبداد. وهكذا ضحك على الجمهور الناقم واسكته.

واقام [تجللينوس] وليمة فخمة، وضحّى للآلهة شكراً على خلاصه. وترك [ڤينيوس] مائدة الامبراطور بعد العشاء واخذ معه ابنته الأرملة ليسمر مع [تجللينوس] فأسرع هذا يقدم شكره لها، مع هدية من المال تبلغ مائتين وخمسين الف درهم ثم التفت الى كبيرة مخطياته فطلب منها ان ترفع من جيدها قلادة نفيسة وطوق بها جيد بنت [ڤينيوس]. وقد قدر ثمن هذا العقد في حينه بمائة وخمسين الف درهم.

ولم يعد ثم مجال للاتيان بالاعمال النافعة والمعقولة مثل ذلك معاملته للغاليين الذين شاركوا [ڤنديكس] في عصيانه. فقد اعتبر الرومان الغاء الجزية عنهم ومنحهم حقوق المواطنة الرومانية لا مظهراً من مظاهر رأفة [غالبا] بل ربحاً مالياً [لڤينيوس]. وبهذا اصبحت جماهير الشعب تنظر الى الحكم نظرة نفرة. الاّ ان الجيش ظلّ محافظاً على الهدوء ترقباً للأعطيات التي وعد بها وكانوا يعللون انفسهم على الأقل بجزء منها يساوى ما كان نيرون يعطيهم ان لم يتسير الكلّ. ولما سمع [غالبا] فيما بعد انهم بدأوا يتظلمون قال بعجرفة الجنرال الآمر: انه لم يتعود شراء الجنود بل دخولهم الخدمة تطوعاً فسمعوا ما قاله واشتد غضبهم عليه وكرهوه. فلم يقتصر على غشهم، وخداعهم في آمالهم، بل اختط بقوله هذا سابقةً سيئة ليتبعها خلفاؤه. على ان النار التي كانت كامنة في فؤاد روما لم تستعرّ بعد لأن ما تخلّف فيها من الاحترام لشخص [غالبا] خفف من غلوائها، وأخرّ ضرامتها. ولم يجد الجنود علّة ظاهرة للتحرك، ولكن ثورتهم ظلت مستسرة تحت نقمتهم المتصاعدة على ان القوات الجرمانية التي كانت بامرة [ڤرجينيوس] وهي الآن بقيادة [فلاكوس] ركبتها الخيلاء

وشعرت بروح التفوق بعد المعركة الظافرة التي خاضتها ضد [ڤنديكس]، ووجدت أنها لم تجن شيئاً كثيراً منها فاشتدت نقمتها على ضباطها وعصيت اوامرهم. ولم يكون لتقيم وزناً لآمرها [فلاكوس] بسبب مرضه وابتلائه بالنقرس المزمن فضلاً عن كونه رجلاً قليل الخبرة.

وحدث في احد الاعياد حيث العادة ان يتوجه الضباط بالتهانيء للامبراطور وتمنيّ الصحة والسعادة له، ان أخذ الجنود عامة يجأرون بالشكوى ويتذمرون. ومضى الضباط في مراسيم الحفل وطلبوا منهم المشاركة فأجابوا «انه لايستحق ذلك» (يقصدون الامبراطور).

واخذ ترد [غالبا] رسائل حول هذه الأمور من وكلائه بعد ان ظهرت الشكاوى نفسها من جنود الفرق المعقود لواؤها لـ[ڤيتيللوس] فدبّ فيه القلق وبدء الخوف من سقوط سمعته يشيع في نفسه لابسبب شيخوخته وحده بل لأنه لم يخلّف وريثا من صلبه. فقرر أن يتبنى شاباً حسن الخلق والمؤهلات، ويعلنه خليفةً له، وكان يوجد آنذاك شاب يدعى [ماركوس اوتو] وهو شاب طيب الأصل، الا انه عرف منذ حداثته بانه من أكثر شباب روما تهتكاً وفجوراً وترفاً، وكما خلع [هوميروس] على [پاريس] في عدة مواضع لقب «حبيب هيلين الجميل» فخلد اسم المرأة وجعل اسمه ملحقاً بها كأن ليس لپاريس ما يمتاز به غير هذا، كذلك كان الأمر [بأوتو] فقد انحصرت شهرته في روما بوصفه «زوج پومپيا» ارملة [نيرون] التي اغرم بها هذا عندما كانت زوجاً [لكرسپينوس Crispinus] ولما كان [نيرون] في ذلك الوقت يخشى امّه ويخلص لزوجه الأولى فقد استخدم [اوتو] ليكون وسيطاً له الى قلبها في السرّ. فقد كان نيرون لاوتو خلاً لصيقاً به. اذ قربه منه تطرفه واغراقه في اللهو وكان يبدو عليه السرور والانشراح حتى عندما يقسو عليه في التندر والمزاج ولايبخل عليه بالحريّة في وصفه بالبخل والتقتير وما الى ذلك دون ان ينزعج منه. ومرة تعطر [نيرون] يعطر غالى الثمن وخص [اوتو] بشيء قليل منه فما كان من [اوتو] الا ان دعا نيرون الى منزله في اليوم التالي وأمر بانابيب فضية وذهبية تمدّ في المجلس ليجرى فيها نفس العطر الثمين ويضخ كل زاوية من الحجرة كالماء! واما بخصوص [پوپيا] فقد كان يعمل لأجل [نيرون] في مبدء الأمر لينال حظوة لديه. فباشر باغرائها ليوقعها في حبه حتى نجح في تفريقها عن زوجها وجاء بها الى منزله زوجاً له. ولكنه لم يرض بان يشاركه فيها احد بعد ذلك واحفظه ان ينافسه [نيرون]. اما [پوپيا] فكانت على ما يقال مسرورةً بهذه الغيرة، تراها احياناً تمتنع عن [نيرون] حتى عندما يكون [اوتو] غائباً. اما لتزيد من شوقه اليها وحذراً من تطرق الملل منها اليه. اما لأنها على ما يقال كانت تكره فكرة الزواج بامبراطور مع رغبتها في ان تبقى له عشيقة. ولذلك ظلّ [اوتو] يعيش في خطرٍ مقيم. ومن العجيب حقاً ان ينجو في الوقت الذي عمد [نيرون] الى قتل اخته

وزوجه تمهيداً لهذه الزيجة. الا ان صداقة سينيكا كبحته. فبمسعاه ورجاءاته رضي [نيرون] بارساله بمنصب [بريتور] الى [لورتيانيا Lurtania] على ساحل البحر المحيط. فكان محبوباً من الاقاليم لحسن تصرفه واهتمامه بشؤون الاهلين الذين كانوا على معرفة تامة بان المنصب الذي يتقلده انما هو حجّة وتغطية لإبعاده عن روما.

ولما شقّ [غالبا] عصا الطاعة على [نيرون] كان [اوتو] اولّ من انضم اليه من حكام الأقاليم واسرع اليه يحمل كل ما جمعه من الذهب والفضة اقداحاً وآنية وموائد ووضعها تحت تصرفه لصهرها وصكّها نقوداً. وقدم له أيضاً ما يملك من خدم وحشم مدربين على خدمة الملوك. وكان مخلصاً له في كل الشؤون الأخرى. وأعجب [غالبا] بمهارته في تصريف الشؤون العامة. وبتفانيه في خدمته وتعلقه به حتى انه ركب معه في نفس العربة التي اقلته الى روما طوال الرحلة التي دامت اياماً عديدة. فأصبح بهذا وبملازمته الطويلة. من أخلص اصدقاء [ڤينيوس] ايضاً، لكثرة ما اتحفه من هدايا ولطلاوة حديثه، ولاسيما لأنه سلّم له بالمكانة الأولى عند گالبا وارتضى لنفسه المقام الثاني. ولكنه ــــ في اجتنابه قالة السوء، وتحاشى الحسد وحافظ على سمعة طيبة بمساعدته كل من يقصده من ذوي الحاجات دون اطلاب ففقد او مكافأة لنفسه ولاسيما العسكريون منهم، فقد توسط لتعيين الكثير منهم في مناصب قيادية اما بالامبراطور رأساً او عن طريق [ڤينيوس] او عن طريق عتيقين لگالبا عظيمي النفوذ في البلاط هما [ايچلوس Icelus] و[آسياتيكوس Asiaticus]. وحرص ان يدفع بمناسبة كل دعوة يقيمها لتكريم لگالبا قطعة ذهبية لكلّ جندي في الكتيبة القائمة بواجب الحراسة كمظهر من مظاهر ذلك التكريم للامبراطور، في حين كان في الحقيقة يعمل على تحطيم سمعته وتجريده من شعبية عند الجنود بهذا الضيع. قليل الميل الى اختيار [اوتو] ان لم يكن لسببٍ غير سبب ايلولة ثروته اليه وهو الشاب المعروف باسرافه وبذخه، وبانه غارق في ديون تبلغ خمسة ملايين دراخماً. ولذلك لم يعط [ڤينيوس] جواباً وسكت واعلن نفسه قنصلاً، وعين [ڤينيوس] زميلاً له وكان الجميع يتوقعون انه سيعلن عن حليفته في مطلع العام الجديد وكان الجيش يرغب في [اوتو].

أعلنت القوات المرابطة في جرمانيا عصيانها وهو مازال يقلّب وجوه النظر في هذه المسألة. وعمّ السخط الشديد الجنود كافةً لأنه نكل عن وعده لهم ولم يعطهم المكافأة الكبرى التي كانوا يترقبونها منذ تنصيبه. وأخذوا يذكرون باهتمام كبير الطردة المهينة التي نالها [ڤرجينيوس روفوس]، ومكافأة الغاليين على تمردهم، والعقاب الذي انزله عن رفض مشاركة [ڤنديكس] في خططه، حتى بدأ وكأنه [غالبا] لايقر بفضل احدٍ غير فضل [ڤنديكس] فقد

اكرم ذكراه باقامة المهرجانات الرسمية كأنه وصل الى مركزه الامبراطورية بمسعاه. هذا الاقوال كانت تدور علناً بين اوساط العسكر عندما حلّ اليوم الأول من السنة الجديدة او «الكالند» كما يسميه الرومان. فجمع [فلاكوس] الجنود لتأدية القسم السنوي التقليدي بالاخلاص للامبراطور فتمردوا واخذوا ينزلون تماثيل [غالبا] ويسحقونها، ثم اقسموا يمين الاخلاص لمجلس الشيوخ والشعب الروماني وتركوا الاجتماع. وخاف الضباط والمسؤولون الفوضى وكانوا يتوقعون عصياناً لايبقي ولا يذر فبرز احدهم واستوقف الجنود وراح يحدثهم بالآتي:

- ماذا سيكون من أمرنا أيها الأخوة في السلاح ان لم نختر لنا جنرالاً آخر، او لم نحتفظ بجنرالنا الحالي؟ ان التخليّ عن [غالبا] فحسب لايعني غير شق عصا الطاعة وعصيان الاوامر ومن العبث ان نؤمر علينا [فلاكوس هوردونيوس] وهو لا أكثر من صورة منسوخة عن [غالبا]. الاّ ان [ڤيتيلليوس] قائد القوات المرابطة في جرمانيا السفلى لايبعد عنّا غير مسيرة يومٍ واحدٍ. وقد تولى ابوه منصب [چنسور]، ثم انتخب قنصلاً ثلاث مرات. وكان اشبه بالامبراطور المزامل [لكلوديوس قيصر]. وقد قدم [ڤيتيلليوس] اسطع دليل على كرمه وطيبه نفسه بالفقر الذي يعيبه عليه الآخرون. الا فلنختره امبراطوراً الجميع اننا ادرى باختيار رجلنا من الاسپان. واللوزيتان.

فوافق فريق منهم على هذا الاقتراح ورفضه آخرون الاّ ان احد حملة الأعلام انسلّ خارج المعسكر وقصد [ڤيتيلليوس] الذي كان يستضيف جماعة كبيرة من اصحابه في تلك الليلة. وتفشى الخبر بين جنوده فشاع الأمر، وركب [فابيوس ڤالينس] قائد احدى الفرق في صباح اليوم التالي على رأس عدد كبير من الخيالة، وحيّا [ڤيتيلليوس] بتحية الامبراطور. وكان الى تلك اللحظة يبدو عازفاً عن المنصب، ويعلن ان الخوف يتملكه دائماً من الاضطلاع بالسلطة ومسؤولياتها. الاّ ان الخمر والطعام الفاخر الذي تناوله جرّأه وبث فيه الاقدام كما يقال، فبدء يرضخ ويتقبل فكرة تنصيبه امبراطوراً. واتخذ اسم [جرمانيكوس] الذي اقترح عليه الاّ انه اعتذر عن قبول لقب [قيصر]. واسرع جنود [فلاكوس] ليحنثوا بالقسم الذي ادوّه باسم مجلس الشيوخ، وعادوا ليقسموا يمين الاخلاص والولاء [لڤيتيلليوس] الامبراطور. وحلفوا ان يطيعوا اوامره كافةً. فأعلن امبراطوراً بصورةٍ رسمية في المانيا. ولما ابلغ [غالبا] بذلك وجد ان ارجاء اجراءات التبنيّ لم يعد له معنى. وكان يعلم ان بعض اصدقائه يحبذون [دولابللاّ] ويضغطون عليه. وامّا الأغلبية الساحقة فكانوا يريدون [اوتو] ولم يكن كلاهما يعجبه. وفوجيء الجميع دون سابق انذار بارساله في طلب [پيزو] ابن [كراسوس وسكريبونيا Scribonia] اللذين قتلا بأمرٍ من نيرون وكان هذا شاباً حسن الاخلاق بصورة عامة، الاّ انه

امتاز بسجنتين: الاستقامة، والجدّ الصارم. وسار [گالبا] الى المعسكر لاعلانه قيصراً وخلفاً له في المنصب الامبراطوري. إلاّ ان عدداً من الخاريق ظهر له وهو في اول الرحلة ثم تكررت هذه الظواهر في مفتتح خطبته في الجنود. وكان يقرأ حيناً ويرتجل حيناً.

ان هزيم الرعد المتواصل، وزخات المطر الشديدة التي نزلت على المدينة والمعسكر معاً كانت دلائل قوية على ان القوى السماوية لاتنظر بعين الرضى والارتياح الى عملية التبني هذه، وانها تراها سيئة العقبي. واظهر الجنود ايضاً علائم السخط الكظيم. عندما تلقوا خطابه باوجسهٍ عابسة، لأنه لم يوزع عليهم شيئاً من المال حتى تلك الساعة. على ان الحاضرين الذين كانوا يتطلعون الى [پيزو] ويسمعون صوته لم يسعهم الاّ الإعجاب بضبط النفس الذي تجلّى فيه بقلة تأثير هذا التكريم العظيم عليه فقد بدأ غير مكترث به او شاعر بخطورته. اما سحنة [اوتو] فلم تكن لتخفي مشاعر المرارة والحنق والخيبة. لقد كان المرشح الأول المنتظر وكان على قاب قوسين او أدنى. وها هو الآن ينحى جانباً باهمال وعدم اكتراث وانقابه شعور فجائي بأن [گالبا] ينفر منه ويضمر له السوء، فأمتلأ خوفاً ورعباً، وعاد الى منزله تصطخب في رأسه شتىّ العواطف. كان يخشى [پيزو] من جهة، ويكره [غالبا]، ويحقد على [ڤينيوس] من جهة أخرى. وهاهم السحرة الكلدانيون واخصّهم بالذكر [بطليماؤس Ptolemæus] لاينصحونه بنبذ آماله والتخلي عما رسمه، فقد اصرّ هذا العرّاف على نبؤته التي سبق وتنبأ لاوتو بها ايام نيرون وهي ان [نيرون] لن يقتل [اوتو] بل سيسبقه الى الآخرة وان [اوتو] سيعيش حتى يتولى منصب الامبراطور. فلأن الشق الأول من النبوءة قد تحقق؛ لا سبيل الى تكذيب الشق الثاني او لعل أولئك الذين رثوا لحاله سراً وابدوا اسفهم الصادق لحظّه العاثر وسوء الجزاء الذي ناله من [غالبا] كانوا اكبر محفز له ومنهم تلك المخلوقات الحقيرة امثال [نمغيديوس] و[تجللينوس] الذين هبطت منزلتهم بعد هذه الاجراءات واصبحوا في حكم المنبوذين. راحوا الآن ينشطون لاثارته واخذوا يجسمون له الاهانة التي لحقت به ويحثثونه على الانتصاف لنفسه.

ومن بين هؤلاء قام اثنان بدور كبير في الاحداث التالية. وهما ڤيتوريوس [Veturius «الاوپسيو» و[باربيوس Barbius] «التسّراروس»[٥] (وهما من الموكلين بواجبات السعاة والاستطلاع) فقد انطلقا مع [اونوماستوس Omomastus] عتيق [اوتو] الى المعسكر لاستمالة الجيش وشراء من يمكن شراؤه بالمال واغراء من يمكن اغراؤه بالوعود. ولم يكن ذلك

---

(٥) Optio: لغة هو الضابط المرافق للقائد، أو المساعد. و Tesserarus: هو في اللغة العسكرية الرومانية: ضابط مهمته تسلم «البطاقة Tessera» التي يدون عليها كلمة السرّ (كلمة الليل) وينقلها الى الوحدات.

بالأمر العسير فقد فسدت الذمم وارتخصت النفوس منذ زمن بعيد ولم يكن المرء ليحتاج الاّ الى ذريعة مقبولة. ولولا ذلك لما توصلوا الى مرامهم بايام اربعة فحسب (تبدء من اجراءات التبني وتنتهي باغتيال غالبا). لقد اتموا خلال هذه الفترة القصيرة ما انطلقوا في سبيله وانجزوا مهمة التحريض والإثارة حتى خلفوا تمرداً شاملاً. وفي اليوم السادس لعملية التبني وهو «الثامن عشر السابق لشباط كما يطلق عليه الرومان تمّ القضاء على[غالبا]. ففي صبيحة ذلك اليوم ضحّى في [اليالايسوم] بمحضر من اتباعه وانصاره. فأخرج الكاهن [اومبريچيوس Umbricius] الاحشاء وانشأ يتكلم بشكل واضح، لا مبهم كما جرت العادة وقال: هناك دلائل تنبيء باضطراب عظيم وشيك. وهناك فخاخ خطيرة تنصب للامبراطور مستهدفةً حياته. هكذا اشارت الآلهة باصبع الاتهام الى [اوتو] وكان واقفاً خلف [غالبا] مباشرةً يسمع كل ما يقال ويرى كل ما يشير اليه الكاهن في الأضحية. فأخذت الوانه تتغيرّ من فرط خوفه وهلعه وفضحت أساريره كل ما اضمره في قلبه وفي تلك الاثناء وصل معتوقه [اوناستوس] وقال له ان رؤساء البنائين قد حضروا وهم ينتظرونه في المنزل. وكانت هذه العبارة المصطلح عليها وتعني ان يذهب [اوتو] لمواجهة الجنود وفسرّ الأمر للسامعين بأنه كان قد ابتاع منزلاً قديماً وهو يريد عرض ما وجد فيه من عيوب على البائعين ثم رحل. وبعد بما ان مرّ كان يدعى «دار طيبريوس» دخل الفورم ووقف في البقعة التي تنصب فيها عمود مذهب حيث تلتقي عنده كل الطرق المؤدية الى روما من ايطاليا. وهنا استقبله على ما يقال ما لايزيد عن ثلاثة وعشرين شخصاً - وحيوه بلقب امبراطور. ان رغد العيش وترفه وان اثرا على جسم [اوتو] الاّ ان تأثيرهما على روحه وعقله كان قليلاً، فهو بطبعه جريء القلب لايتطرق اليه الخوف عندما تحدق به الأخطار. الاّ انه احجم عن الذهاب الى المعسكر مع ذلك فحال الجنود الحاضرون دون تردده واحاطوا بكرسيه وقد انتضوا سيوفهم وامروا حَمَلَته برفعه والتقدم الى المعسكر، وسمع وهو يردد لنفسه عدة مرات «اني رجل ضائع».

كان استغراب الناس الواقفين هناك اكثر من قلقهم بسبب هذا العدد الضئيل من المتجمهرين القائمين بالانقلاب. ولكن العدد اخذ يزداد. بما كان ينضم من الناس وهو يسير في الفورم، ثلاثاً واربعاً. فاتجهوا الى المعسكر بسيوف مشرعة وهم يهتفون له باسم [قيصر] ولم يعترض [مارچيالياس Martialias] التريبيون الخفر دخوله المعسكر، فقد ذكروا انه لم يكن على علم بالمؤامرة مطلقاً ولكن الدهشة استولت عليه وخاف أن يعترض سبيله، وبعد هذا لم يبد احدٌ اية مقاومة فقد عمد المؤتمرون الى الاحاطة بالذين لم يعلموا شيئاً عن المسألة وكانوا يروحون ويغدون في ارجاء المعسكر على رسلهم، خائفين وجلين، ثم اقنعوا باعلان الولاء [لأوتو]،

ووصلت هذه الانباء فوراً الى [غالبا] وهو في [البالاسيوم] يقوم بتقديم القرابين مع الكهنة فلم يسع الأقل قابلية لتصديق المخاريق منهم، الاّ العجب لتحقيق النبوءة بهذه السرعة الخاطفة وبدأت الجماعات الكبيرة من مختلف الناس تولي هاربةً من الفورم وانتضى [ڤينيوس ولاقو] وبعض عتقاء [غالبا] سيوفهم واحاطوا به وتقدم [پيزو] فتكلم الى الحرس القائم بالخفارة، ثم ارسل [ماريوس چلسوس Marius Celsus] وهو من الشجعان المعدودين، لاستقدام الفرقة الالليرية المرابطة في ما يدعى بالقاعة الفپسانية Vipsanian لتقوم بواجب الحماية.

وسأل [غالبا] انصاره هل يفضلون خروجه ام بقاءه حيث هو؟ فأشار عليه [ڤينيوس] بالبقاء، الاّ ان [چلسوس ولاقو] اخذا يلحّان عليه في الخروج وانحيا باللوم والتأنيب على [ڤينيوس]. الاّ ان اشاعة جديدة انتشرت بسرعةٍ خاطفة تقول ان [اوتو] قتل في المعسكر. ثم اقبل المدعو [يوليوس اثيكوس Julius Atticus] وهو رجل ذو شهرة ومكانة في اوساط الحرس. اقبل بعدو منتضياً سيفه وهو يصيح انه قتل عدوّ [قيصر] واندفع يشق طريقه بين الجموع وتقدم من غالبا بسيفه الدامي. فسأله [غالبا]:

- ممن تلقيتَ اوامرك؟

فأجابه انه الواجب الذي أملى عليه ذلك، وانها التبعة التي حمّلها له قسم الولاء. فصاح الجمهور استحساناً وهتفوا له غالبا. وجلس [غالبا] على كرسيه ونقل محمولاً الى الهيكل للتقريب الى [چوپتر] ولاظهار نفسه للملأ. وما ان وصل الفورم حتى وجد نفسه امام الفريق المعادي، وان الريح التي قذفت به تغير اتجاهها الآن. فقد سيطر [اوتو] على المعسكر تماماً. واخذ بعض الناس يحثه على العودة من حيث أتى، وبعضهم يشجعه على السير قدماً، كما يحصل عادةً في امثال هذه الأزمات. وطلب بعضهم منه ان يتحلّى بالبسالة والاقدام واوصاه بعضهم الآخر بالحذر والشكّ. وبينما كانت الكرسي تميل به ذات اليمين وذات الشمال كأنها تطفو فوق الامواج وهي تهتز به. ظهرت قطعات الخيالة وأعقبتها وحدات المشاة الثقيلة قادمةً من ميدان [پاولوس] وهي تهتف بصوت واحدٍ.

- فليسقط هذا الرجل المنحط.

وعندها بدأ الجمع المحتشد يصد لا يتفرق هارباً بل يحتل الأروقة والمواضع المرتفعة من الفورم، كأنهم يستبقون الحصول على اماكن للنظر منها الى مشهد طريقٍ وما ان اسقط [ايتلليوس ڤرجيليو Atillius Vergilio] أرضاً احد تماثيل [غالبا] حتى كان ذلك اشارة للقتال فوجهت رشقة من الحراب الى محفة [غالبا] ولما أخطأت هوفها تقدمت القوة وهاجمته

بسيوفها من مسافةٍ قريبة فلم يثبت احدٌ للدفاع عنه ولم يبدوا مقاومة الاّ [سمپرونيوس دينوس Sempronius Densus] قائد المائة. رجل واحدٌ من بين تلك الألوف المؤلفة التي رأت شمس ذلك اليوم، يقوم بعمل مجيد، جدير بسمعة امبراطورية الرومان لم يكن هذا الضابط مديناً بفضل لغالبا، الا انه حاول الدفاع عن المحفة فرفع اولاً غصن الكرم التي يستعملها قواد المائة عادة لتصحيح مشية الجنود، وصاح بالمهاجمين منتهراً وامرهم بأن يمسكوا ايديهم عن امبراطورهم ولما اطبقوا عليه امتشق سيفه ودافع عنه مدة طويلة ثم سقط بعد اصابته في ساقيه.

وهوجمت محفة [غالبا] في موضع يسمى [لاكوس كورتيوس Lacus Cortius]. فسقطت عليه الضربات وهو ممدد وعليه درعه، فمد لهم عنقه وقال:

- إطعنوا، ان كان في ذلك مصلحة الرومان.

واصيب بعدة طعنات في ساقيه وذراعيه وأخيراً اجهزوا عليه بطعنة في عنقه كما ذكر معظم الكتاب سددّها جندي من الفرقة الخامسة عشرة يدعى [كاموريوس Camurius]. الاّ ان فريقاً يذكر بان [ترنيتوس] هو الذي قتله، ويذكر آخرون [ليكانيوس Lecanius] ويقول آخرون ان [فابيوس فابولوس Fabius Fabulus] هو الذي قام بقطع رأسه وحمله ملفوفاً بطرف معطفه. لأن ابقاءه مكشوفاً يجعله عرضة للخطف. ولم يسمح مرافقوه بابقاء غنيمة مستورةً وطلب منه ان يعرضها للأنظار ليشهد الجميع بطولته، فركزه على سنان رمح ورفع رأس ذلك الشيخ الهرم الوقور الذي كان قبل لحظات حاكمهم العادل وقنصلهم وكاهنهم الأعلى واخذ يعدو به مثل باخوسيّ ماجن، ويديره ويرقصه في الهواء والدماء تشخب منه وتقطر على قناة الرمح. ولما جاؤا به الى [اوتو].

- أيها الرفاق الجنود. لن يكون هذا شيئاً ما لم تأتوني برأس [پيزو].

فجيء اليه برأس الشاب بعد برهة وجيهة. وكان [پيزو] قد انسحب بعد ان أصيب بجرحٍ، فعقبه المدعو [موركوس Morcus] حتى معبد [ڤيستا] وهناك اجهز عليه، كما قتل [تيتوس ڤينيوس] بعد ان اقرّ علناً باشتراكه في المؤامرة ضد [غالبا] حين صاح بقاتليه انكم تقتلوني خلافاً لرغبة [اوتو]. وعلى اية حال فقد احتزوا رأسه ورأس [لاكو] وجاؤا بهما الى [اوتو] طمعاً بجائزة على حدّ قول [ارخيلوخوس]

عندما تجد ستاً او سبعاً من الجثث على الأرض

تسمع آلافاً وهي تصيح، انه انا، انه انا الذي قتلهم

ولذلك غمس عدد كبير من الناس الذين لا ناقة لهم في الأمر ولا جمل - ايديهم وسيوفهم في الدم المهراق وأقبلوا يعرضونها على انظار [اوتو] وقدموا طلبات خطية بالتعويض والمكافأة، وتمّ تشخيص هويات ما لايقل عن مائة وعشرين منهم من تواقيعهم. فتعقبهم [ڤيتيلليوس] وقتلهم جميعاً.

وأقبل [ماريوس چلسوس] الى المعسكر فجوبه بصيحات الجنود التي ادانته بالانتصار لغالبا وطالبوا بقتله، وهو مالم يكن برغبة [اوتو] على ان خوفه من الاجابة الباقة بالرفض جعله يصرح بانه سيحجم الآن عن قتله حتى يستخلص منه معلومات هامة كثيرة. وسلمه الى المكلفين بوضعه تحت الحفظ.

وجمع [اوتو] مجلس الشيوخ فوراً... فاذا هم غير اشخاص الأمس او كأنهم بدلوا الآلهة التي يحلفون بها. فقد اسرعوا يقسمون [لاوتو] القسم الذي اداّه هو لغالبا وحنث به. وخلعوا عليه لقبي [قيصر واغسطس] وجثث القتلى مازالت فيارديتها القنصلية ملقاة في الساحة العامة. أما ما كان من الرؤوس المقطوعة. فعندما انتفت الحاجة اليها وملّتها الانظار، عرض رأس [ڤينيوس] للبيع فاشترته بنته بألفين وخمسمائة دراخما. وتوسلت [ڤارينيا Varenia] بهم فأعطي لها رأس زوجها [پيزو] دون مقابل. امّا رأس [گالبا] فقد دفعوا به الى خدم [پاتروبيوس] فعبثوا به وكالوا له شتى انواع الاهانات والتعدّي. ثم القوه في الموضع الذي جرت العداة التي ترمى اليه جثث من يقتل بأمر الامبراطور ويعرف باسم [سسيريوم Sesse-rium]. وقام [ارجيوس Argius] عتيق [پرسكوس هلڤيديوس Prescus Hervidius] باذن خاص من [اوتو] بحمل جثة سيده ودفنه ليلاً.

بهذا نأتي الى نهاية سيرة [گالبا]. الرجل الذي لاتجد صنواً له من الرومان الاّ القليل، في الغنى او النبل. لقد فاق بهذين كل رجال عصره. وعاش وهو يتمتع بأعلى منزلة من الاحترام وحسن السمعة خلال حكم خمسة اباطرة. واسقط [نيرون] بشهرته وسمعته أكثر مما كان عامل القوة والعنف مسؤولاً عن ذلك. وكان الرأي العام ينظر الى من نحى منحى نيرون في الحكم اما بأنهم استحقوا المنصب الامبراطوري، واما انهم فرضوا انفسهم عليه وهم لايستحقونه امّا [گالبا] فهو الوحيد الذي عُرض عليه المنصب وقرر قبوله وسمح لـ[ڤندكس] بأن ينتقض بأسمه ولا أكثر. فأعطى صفة «الحرب الاهلية لما كان يعرف قبلها بالتمرد، بمجرد وجوده، ذلك الشخص الذي عُدّ جديراً بالسلطة، ان المنصب هو الذي انقاذ اليه، وليس هو الذي انقاد الى المنصب. لقد اراد ان يقود اولئك الجنود الذين اغرا هم [نمغيديوس وتجللينوس] بالمال على الطاعة، بالطرق التي سبق لـ[سچيپيو] و[فابريچيوس] و[كاميللوس] ان اتبعوها في قيادة

العسكر الروماني في سالف العصور. ولكن كبر سنه في الواقع جعل الجنود والوحدات العسكرية، تنظر اليه نظرتها الى حاكم عتيق الطراز صلب العود. أمّا من الجهات الأخرى، فباستسلامه لرأي [ڤيتيوس ولاكو] والعتقاء المقربين، فقد نزل الى مستوى نيرون فيما كان يخصّ به عشراءه وندماءه وخلاّنه. ولذلك لم يترك وراءه من كان يتمنى دوام حكمه، وان كان الأسف لموته عميقاً.

١٩٧٢/٥/٢٦

اوتو

OTHO

(Marcus Salvius)

32 _ 69

1913



في صباح اليوم التالي خرج الامبراطور الجديد الى الكابتول وقدم القرابين، ثم امر باحضار [ماريوس چلسوس] وحيّاه وتلطف معه ورجا منه ان ينسى اتهامه اكثر مما يتذكر اخلاء سبيله. فأجابه [چلسوس] بخير ما يمكن ان يقال في ذلك الظرف وشكره موضحاً بأن تهمته نفسها يجب ان تكون عاملاً في رفع سمعته لأنها الاخلاص [لغالب] الذي لم يكن مديناً له بايّ فضل خاص. واعجب الحاضرون بموقف الرجلين وهتف الجنود لهما.

وفي مجلس الشيوخ، تكلّم [اوتو] بالطف واحبّ لهجة. وكان مقرراً ان يبقى قنصلاً لما فضل من السنة الاّ انه تنازل عنها [ڤرجينيوس روفوس] ولم يعزل أحداً من القناصل الذين سماهم [گالبا ونيرون]. ومنح الترقيات للمستحقين والمبرزين ورفع المتقدمين بالعمر من الشيوخ الى منصب الكهنوت واعاد بقية املاك الشيوخ المصادرة غير المباعة التي وضع نيرون يده عليها ونفاهم ثم الغى گالبا اوامر نفيهم. فبدء الأمل يداعب نفوس الاشراف ورؤساء الشعب بحكم زاهر باسم من مطالعه. بعد الخوف الذي امسك بخناقهم، الى حَدّ اعتقادهم بأن قوىً منتقمة آلهية قد استولت على الامبراطورية وليس مخلوقات بشرية مثلهم.

ولم يرفعه في نظر الشعب الروماني شيء قدر ما رفعته عدالته في معالجة أمر [تجللينوس]. كان هذا الشخص في الواقع قد بدء يستوفي قصاصه لقاء ما جنت يداه، فقد لازمه الخوف من العقاب الذي الحتّ روما بطلبه، وأخذت الأسقام التي لايرجى شفاؤها تنخر في جسمه، دعك من افراطه الأثيم في تعاطي الفحش مع العاهرات والساقطات منذ نعومة اظفاره حتى لفظ بينهن آخر أنفاسه على حدّ مأثور القول. هذه الاعمال في عُرف افاضل الناس هي اشدّ عقاب يمكن ان ينزل بالبشر. انها عدة ميتات في الواقع. لكنها على اية حال كانت مبعثاً للسخط العظيم عند الناس، وقد ملأهم غيظاً رؤيته نور النهار حتى تلك الساعة وهو المسؤول عن قتل الكثير مباشرةً والاكثر تسبباً. ولذلك أمر [اوتو] بجلبه وكان يتهيّأ للفرار وقد اعدّ بعض السفن للاقلاع به من الساحل بالقرب من [سينويسا Sinuessa] محل سكناه. فأدركه السعاة فحاول ارشاء الضابط بمبلغ كبير من المال ليخلي سبيله ولايحول دون فراره ولما وجده مصرّاً قدم له هدية ثمينة كأنما هو غير مهتم بالأمر ورجا منه ان ينتظر قليلاً

ليحلق لحيته ثم ذبح نفسه بالموسى.

وبهذا ارض [اوتو] الرومان وشفى غليلهم. امّا هو فقد أظهر عدم اهتمام بتعقيب من ألحق به الأذى في الماضي. ولم يرفض في مبدء الأمر تلقيب الناس له في المرسح بـ[نيْرون] ولم يتدخل عندما عرض بعضهم تماثيل هذا العاهل لأنظار الجمهور. ويقول [كلوڤيوس روفوس Cluvius Rufus] ان الرسائل الرسميّة الموجهة من الامبراطور، الى اسپانيا كانت اولاً تمهر بتوقيع [اوتو نيرون] ولكن ما ان ادرك ان ذلك يجرح مشاعر اخيار المواطنين، حتى حذف اللقب.

ولما بدأ يجرى التعديل في نظام الحكومة على هذه الوتيرة اخذ الجنود المرتزقة يتذمرون وحاولوا تشكيكه في نوايا الاشراف لينزل بهم العقاب، ولا ندري أكان يدفعهم في هذا حرصهم على سلامته او لرغبتهم في اثارة حربٍ او اشاعة الفوضى تحت هذا الزعم؟ فلما أمر [اوتو] [كرسپينوس Crispinus] بسوق الكتيبة السابعة عشرة من [اوستيا]، راح هذا يتهيأ لذلك بعد حلول الظلام وكدّس الاسلحة في عربات النقل، صاح بعض مثيري الفتن ودعاة الشغب ان [كرسپينوس] يتآمر ويبيت خيانة وان مجلس الشيوخ يدبّر امراً بليلٍ ضد الامبراطور وان هذه الاسلحة ستخدم هذا الغرض. وما انطلقت هذه الصيحة حتى وجدت لها افواهاً تتلقفها ونفوساً تؤمن بها وتتبناها فثارت عواطف الجماهير وتفجرت براكين عنفهم فأستولى فريق منهم على العربات ووثب فريق على [كرسپينوس] فقتله مع قائدين من قواد المائة اعترضا سبيلهم، ووزع السلاح على الغوغاء ونظموا صفوفهم مشجعين بعضهم بعضاً للوقوف الى جانب [قيصر] واتجهت جموعهم الى روما. وسمعوا ان ثمانين شيخاً يتناولون عشاءهم على مائدة [اوتو] فاندفعوا الى القصر قائلين انها خير فرصةٍ للقضاء على اعدائه دفعةً واحدة وانذرت المدينة بأن الجنود على وشك تطويقها وساد الاضطراب نفوس من في القصر، وتصاعد غضب [اوتو] الى اقصاه، وكان القلق ينهشه على الشيوخ الذين كان بعضهم قد صحب زوجاته. كذلك شعر بأنهم صاروا ينظرون اليه بشك وقلق من اعينهم الشاخصة اليه بصمت وفزع. فطلب من امراء الحرس ان يخرجوا الى الجنود ويعملوا على تهدئتهم. في حين اوعز للمدعوين بالنهوض وترك القاعة والخروج من بابٍ آخر. وما أن أخلى المكان حتى اندفع الجنود وهم يصرخون:

- أين هم اعداء [قيصر]؟

فأعتلى [اوتو] معقده وحاول معهم اثارةً بالمنطق، وتارة بالضراعة بالدموع الصادقة حتى تمكن بعد لايء من صدهم عما اعتزموه.

وفي اليوم التالي قصد المعسكر ووزع مكافأةً قدرها ألف ومائة وخمسون دراخما لكلّ جندي. ثم شكرهم واثنى على غيرتهم وحرصهم على سلامته. ثم ذكر لهم أن هناك من يتآمر عليه من بينهم. هؤلاء الذين عابوا عليه رحمته وتساهله، ولم يكتفوا بهذا بل سلكوا اسوء السبل ليعبروا عن اخلاصهم الزائف له. ولذلك فهو يريد منهم ان يعاونوه لانفاذ حكم العدالة في هؤلاء النفر. فأعلن الجميع تضامنهم وموافقتهم على حكمه. فأكتفى بتنفيذ حكم الموت باثنين فقط كان يعلم أن موتها لن يكون موضع أسفٍ عند جندي واحدٍ في الجيش كله.

لم يكن ينتظر أحدٌ من [اوتو] مسلكاً كهذا، الاّ ان الناس اختلفوا في تعليله فبعضهم كان يعتبره منّة منه وفضلاً. وبعضهم عده سبيلاً اندفع فيه بحكم الضرورة لتأمين مساندة الجنود له عند نشوب الحرب. فقد وردت في حينه ابناء تشير الى ان [ڤيتيللوس] قد تسلّم زمام السلطة واتخذ لنفسه لقب الامبراطور. وتعاقب السعاة والرسل بانباء انتفاضات أخرى جديدة، على ان فريقاً من السعاة حملوا انباء تفيد بأن الفرق العسكرية المرابطة في پانونيا Pannonia ودالماسيا Dalmasia وموسيا Moesia بجنودها وضباطها مقيمة على ولائها له. وما مرّ وقت قصير حتى وردته رسائل تأييد من [موشيانوس Mucianus] و[ڤسپاسيان Vespa-sian] وكلاهما يقود جيشاً جراراً اولهما في سورية وثانيهما في بلاد اليهودية، يؤكدان فيها وقوفهما الى جانبه بصورة اكيدة. ان الاطمئنان الذي ثبته هذه الرسائل فيه، رفعت من معنوياته وحمّسته فكتب الى [ڤيتيلليوس] يحذره من مغبه اعتدائه على السلطة وتخطيه حدود صلاحياته ويأمره بالتزام واجبات منصبه، وعرض عليه مبلغاً كبيراً من المال مع مدينةٍ ليعيش فيها طول حياته عيش رغدٍ وراحة. فردّ [ڤيتيلليوس] بجواب فيه لطف ومجاملات مبطنة ثم سرعان ما انتقلت مراسلاتهما الى المهاترة والمغاضبة وتبادل التهم المخجلة والشتائم القبيحة، ولم يكونا كاذبين بها. انما من السخف والحمق ان يهاجم احدهما الآخر ويتهمه بالجرائم التي لم يتعفف كلاهما عن ارتكابها فعلاً. اذ يصعب والحق يقال أن يجزم المرء بايّ منهما أكثر سفاهة وتخنثاً، وايهما اشد جهلاً بالقيادة، واكثرهما اغراقاً في الاستدانة لفقرهما في الماضي؟

أما عن المخاريق والظواهر السماوية التي حصلت في تلك الفترة فقد ذكر عنها الكثيرون دون ايراد اصولها، او التثبت في تفاصيلها فقد روي بعضها باشكال مختلفة. على ان ثم خارقةً واحدة رآها الناس كافة بأعينهم. وهو ما حصلٍ لتمثال ربّة النصر القائم فوق عربة الكاپتول. فقد شوهدت الأعنة تسقط من يد الربّة كأنها لم تعد تقوى على شدّها. وثم خارقة أخرى حصلت لتمثال [كايوس قيصر] القائم في جزيرة [التيبر] فقد دار على نفسه وصار

يواجه الشرق بعد ان كان يستقبل الغرب دون ان يحدث هزة ارضية أو تهبّ عليه ريح. وقيل ان ذلك وقع في الزمن الذي بدء [ڤاسپسيان] وحزبه بالتمخض والعمل علانية. ثم وقع حادث آخر عدّه الناس نذير شؤم وهو ارتفاع منسوب ماء التيبر وطغيانه. لقد وقع هذا في موسم ارتفاع مناسيب الانهار المعتاد الى اقصى ما تبلغ من ارتفاع، الاّ ان زيادة الماء في التيبر والطوفان الهائل الذي نجم عنه والخراب الذي احدثه في الممتلكات لم يعرف شبيه له من قبل. لقد طغى الماء على جزءٍ كبيرٍ من المدينة ولاسيما سوق القمح فأحدث قحطاً لايام عديدة.

وعندما وردت الانباء بأن قائدي [ڤيتيلليوس]؛ وهما [كايچينا وڤالنس] قد بسطا سيطرتهما على الألب. ارسل [اوتو] [دولابللا] (وهو پاتريشي كان الجيش يشك في ان له مآرب شريرة) الى بلدة [اكونيوم Aqiunum] لامر لم تعرف حقيقته وقد يكون بسبب الخوف منه او لعلةٍ أخرى. زاعماً انه أرسله لبث روح المقاومة والشجاعة في النفوس. ثم اختار القادة والحكام الذين سيرافقونه شخصياً الى الحرب. وممن عين [لوشيوس] أخا [ڤيتيلليوس]. ولم يخصّه بفضلٍ او يبدِ له جفاء الاّ انه اتخذ اشد التدابير حزماً لسلامة زوج [ڤيتيلليوس] وامّه، وبدّد كل ما قد تشعران به من خوفٍ وهواجس وعين [فلاڤيوس سابينوس Flavius Sabi-nus] أخا [ڤسپاسيان] حاكماً لروما اما اكراماً لذكرى [نيرون] الذي كان قد أسند اليه هذا المنصب ثم عزله عنه [گالبا]، امّا اظهاراً لثقته [بڤسپاسيان] اخيه.

وعند وصوله [پركسيللوم Brixillum] وهي مدينة ايطالية قريبة من نهر [پو]. قرر البقاء هناك وعين لقيادة الجيش كلاً من [ماريوس چلسوس] و[سوتونيوس پاولينوس Suetonius Paulinus] و[سپورينا Spurina] وهم رجال عركتهم الخبر وبلتهم التجارب واشتهر أمرهم. الاّ انهم عجزوا عن تنفيذ ما يجب تنفيذه للروح المتمردة الفوضوية التي سادت افراد الجيش. فقد ابوا ان يطبعوا امراً غير صادرٍ من الامبراطور المختار من قبلهم. ولم تكن حال جيش العدو بافضل من ذلك. فالانضباط عندهم مفقود والأوامر لاتطاع والجنود تتملكهم روح الزهو والعجرفة والتمرد على القادة لعين السبب. الاّ انهم كانوا أكثر تجربة ومراناً وتعودا على العمل الشاق اما رجال [اوتو] فقد جردهم رغد العيش وقلة التدريب من الرجولة واصيبوا بالرخاوة لانغماسهم في الملاذ وارتياد الملاعب والمراسح والحفلات في العاصمة. والى جانب محاولة تغطية قصورهم وضعف همهم بالتواقح والمظاهر الزائفة. فقد تظاهروا وتعمدوا التنصل من واجباتهم لا لعجز فيهم، بل لأنهم كانوا يترفعون عنها. وكاد [سپوريتا] يفقد حياته ويمزّق ارباً، لأنه حاول ارغامهم على اداء واجباتهم، فأهانوه واسمعوه من هجر القول واتهموه بالكيد [لقيصر] واضمار السوء والخيانة له واقتحم بعض السكارى خيمته ليلاً

وطلبوا منه نفقات رحلة الى الامبراطور ليقدموا شكوى ضده!

على ان ما لقوه في [پلاچنسيا Placentia] من تحقير وازدراء اسدى في حينه خدمة طيبة له ولقضية [اوتو]. فقد تقدم رجال [ڤيتيلليوس] من الاسوار واخذوا يعيرون رجال [اوتو] القائمين على حراسة الابراج ويسخرون منهم فلقبوهم بالراقصين والممثلين والمهرجين والمتفرجين الكسالى في الالعاب الاولمپية. والمستجدين في فنون الحرب، ممن لم يسبق لهم ان شاهدوا ميدان قتال، والجبناء الذين كان نصرهم الوحيد هو قطع رأس [غالبا] الشيخ الأعزل. والكارهين مواجهة الاعداء الحقيقيين... هذه الأهانات ملأت نفوسهم حنقاً فجثوا تحت قدمي [سپورينا] متوسلين به ان يصدر اليهم اوامره بالانقضاض على اعدائهم وأكدوا له أنهم لن ينثنوا عن مكامن الخطر ولن يتقاعسوا عن اي واجب. وكانوا عند كلمتهم فقد شنت قوات [ڤيتيلليوس] هجوماً عنيفاً على المدينة مستخدمة عدداً كبيراً من آلات الحصار والثغر فصدّها المدافعون بشجاعة وردوّها على اعقابها بعد ان كبّدوها افدح الخسائر، وبذلك ضمنوا سلامة مدينة شريفة هي من اجمل وازهى المدن الايطالية.

وظهر جلياً ان ضباط جيش [اوتو] كانوا أطيب معاملة للسكان كبارهم وصغارهم من ضباط [ڤيتيلليوس]، وكان من قواده [كايچينا] الذي تميزّ بفظاظه في الطبع، وسلاطة لسان. لايتصف بسلوك الرجل المهذب ولايتكلم بلغته. غطريس غريب الهيئة عملاق يرتدي دائماً اثواباً باكمام وسراويل على الزّي الغاليّ عندما يحضر مجالس موظفي الرومان وحكامهم. وكانت زوجه تلازمه في مسيراته العسكرية فتمتطى جواداً وهي في حلّة فاخرة، يحف بها حرس من الخيالة المنتقاة. امّا زميله الجنرال الآخر [فابيوس ڤالنس] فقد كان طمّاعاً جشعا لايشبع من المال الذي ينهبه من العدو، او يهدى اليه او يرشى به او يسرقه من اصدقائه وحلفائه. وذكروا انه كان يتعمد البطء في تقدمه (حتى انه لم يدرك المعركة التي سلف ذكرها) ليتاح له وقت كافٍ للسلب والنهب وهو في طريقه. الاّ أن بعضهم يلومون [كايچينا] في هذا بقولهم انه استعجل الهجوم قبل وصول [فابيوس ڤالنس] لأنه اراد ان يستأثر بالنصر، وقد ارتكب أيضاً عدة اخطاء أخرى ثانوية. فكاد يلحق الدمار التام بالحملة كلها لاشتباكه مع العدو في ظروف غير ملائمة.

اندحر [كاپچينا] في [پلاچنسيا] فأنطلق للانقضاض على [كريمونا] المدينة الكبيرة الغنية. وفي الوقت عينه زحف [آينوس غاللوس Annius Gallus] للانضمام الى [سپورنيا] في [پلاچنسيا] ولكنه علم قبل وصوله ان الحصار رفع عنها، وان [كريمونا] تتعرض الآن للحصار فاتجه اليها لانقاذها وعسكر بالقرب من العدوّ، وكانت تعزيزاته من الضباط مستمرة

على مدار اليوم ووضع [كاپچينا] كميناً قوياً من المشاة الثقيلة في ارض وعرة كثيفة الشجر واصدر أمراً لخيالته بالتقدم والتعرض للعدو حتى اذا استنفر انسحبت خيالته ببطء واستدرجتهم الى الكمين. الاّ ان احد الهاربين كشف الخطّة للعدوّ فقام [چلسوس] بالتصدي للخيالة بقوات كبيرة من فرسانه واخذ يعقب المتقهقرين بكل حذرٍ الى ان نجح في تطويق كل القوات التي وضعت في الكمين والحق بها هزيمة نكراء ولو وصلت المشاة التي بعث في طلبها من المعسكر في الوقت المناسب لاسناد الخيالة لحلّت الهزيمة التامة بكلّ جيش [كايچينا] على اية حال. الاّ أن حركة [پاولينوس] كانت في غاية البطء حتى انه اتهم بالحذر غير المتوقع من قائدٍ مثله ذي دراية وسمعة طائرة.

لذلك اثار الجنود حفيظة [اوتو] عليه فاتهموه بالخيانة وفخروا ملء افواههم بالنصر الذي حازوه قائلين انه لم يكن كاملاً بسبب خطل قادتهم واخطائهم. ومع ان [اوتو] لم يصدق كل ادعاءاتهم الاّ انه لم يعترض على ما قالوا. ولذلك عيّن اخاه [تيتيانوس Titianus] مع آمر الحرس [پروكولوس Proculus] اولهما قائداً رسمياً وثانيهما قائداً فعلياً، وانزل رتبة [چلسوس وپاولينوس] الى مستوى المستشارين وجردهما من كل سلطة اجرائية. وكان العدو في الوقت نفسه يشكو الفوضى، والتناحر قد مزق صفوفه تمزيقاً. ولاسيما قطعات [ڤالنس] عندما علمت بهزيمة جنود [كايچينا] في الكمين. واجتاحتها سورة من الغضب الشديد لأنه لم يتح لها المشاركة ولو في اشتباك واحدٍ دفاعاً عن العدد الكبير من اخوانهم الجنود الذين قتلوا في تلك المعركة. ولقي [ڤالنس] الأمرين في تهدئة عواطفهم الاّ انهم عادوا فقذفوا خيمته بالرماح فما كان منه الاّ وترك معسكره وذهب الى [كايچينا].

وانتقل [اوتو] الى [بدرياكوم Bidriacun] وهي بُليدة لا تبعد كثيراً عن [كريمونا] ودخل المعسكر وامر باجتماع لمجلس الحرب وفيه اقترح [پروكولوس وتيتيانوس] شنّ الهجوم فوراً لاستغلال معنويات الجنود العالية بالنجاح الذي حققوه، وقالا ان الواجب يقضى بأن لايضيع الوقت مع الفرصة المؤآتية وان تستثمر أقصى حالات القوة التي بلغوها الآن دون انتظارٍ لمقدم [ڤيتيلليوس] من بلاد الغال. وخالفهما [پاولينوس] بقوله، انهم يواجهون الآن كل ما لدى العدوّ من وحدات عسكرية. وانه لايملك اي احتياطي فلو ان [اوتو] تريّث وتأنى ولم يتسرع وفضل ان يختار ساعة المعركة بنفسه لا ان يقبل بالموعد الذي اختاره العدوّ فمن المتوقع ان تصل نجدات من [موسيا وپانونيا] لاتقل عدداً عما لديه الآن من قوات. ومن المحتمل جداً ان الجنود وهم الآن على درجة كبيرة من الحماسة قبل وصول هذه النجدات، سيكونون أكثر تحمساً واندفاعاً بعد وصولها. كذلك ليس هناك اي خطر عليهم من تأخير المعركة لأن اقواتهم

تكفيهم. في حين ان العدو وهو في ارض غريبة لن يلبث ان يشكو من نقص ارزاقه. وكان هذا من رأي [ماريوس چلسوس] ايضاً. اما [انيوس غاللوس] فلم يكن موجوداً في مجلس الحرب بسبب السقطة عن ظهر حصانه وخضوعه لعلاج الجراحيّ. فأستخرج رأيه كتابةً فنصح [اوتو] بانتظار الفرق العسكرية القادمة من [موسيا]. على ان الامبراطور لم يعمل بهذا الرأي واخذ برأى من حبذ الدخول في المعركة فوراً.

بُررّ هذا القرار باسباب عدة، وكان ابرزها هو هذا: ان الجند البريتوريّ كما كان يطلق عليه. وهو الذي يقوم بواجبات الحرس الامبراطوري، ضاقوا ذرعاً بالانضباط العسكري الذي بدء يفعل فعله في نفوسهم وما كانوا يطيقونه لاعتيادهم حياة النعومة والتسلية فحنوا الى عيشهم الرغد البعيد عن سمة الحرب بين ملاعب روما ومراسحها. ولذلك ارادوا التعجيل في خوض المعركة متصورين بأن النصر التام سيكون الى جانبهم في اول الهجوم. ويبدو ان [اوتو] نفسه لم يكن قويّ الارادة حازماً كما يجب في مواجهة كلّ الاحتمالات. ولم يدعه طبعه المخنث يتحلى بالصبر. كما ان قلة مرانه وتجربته جعلته يغفل حساب الخطر فكان شديد الخوف عند مواجهته له وفعل طبق ما فعله الجبان الرعديد اذ أغمض عينيه وترك مصيره في كفّة القدر وقذف بنفسه من الجرف الى أسفل. هذا ما اورده بتفصيل [سكوندس Secundus] المنطقي امين سرّه. وقد يقول لك آخرون انه لوحظ تقارب كبير بين افراد الجيشين وتفاهم حول انهاء النزاع بالاتفاق على انتخاب افضل الموجودين من القادة لمنصب الامبراطور. وان لم يتمكنوا طلبوا اجتماع مجلس الشيوخ ومنحوه صلاحية الاختيار. ومن المحتمل جداً ان يكون هذا هدف ذلك الفريق الواعي المتزن من افراد الجيش الذي لم بجد في ايّ من الامبراطورين المتنازعين على السلطة الجدارة والخبرة والاهلية لتسنمّ المنصب فهما في الواقع لايتمتعان عنده باي احترام أو مكانة. لم يكن هناك مشبه للمصائب والشرور التي تجرعها الرومان بسبب احترابهم وقتالهم بعضهم بعضاً لأجل المدعو «سللاً» أو «ماريوس» او من عرف باسم «قيصر» و«پومپي». وهاهم اليوم يتجرعونها مجدداً لتدفع الجمهورية الرومانية مصاريف طيش [ڤيتيلليوس] وجشعه. ونفقات تفسخ [اوتو] وخنوثته. ولقد ساد الاعتقاد ان تفكير [چلسوس] كان ينمو هذا المنحى فأخذ يمدّ في حبل الزمن ويؤجل القتال بعل التسوية المنشودة تحقق، في حين كان [اوتو] يستعجل الأمور ويندفع ليحول دون الوصول الى اتفاق.

عاد [اوتو] الى [بركسيلوم]، فكانت عودته غلطة أخرى لأنه جردّ المقاتلين من الدافع الحقيقي لحسن البلاء واجادة القتال للظفر بالتقدير الذي كانوا يطمحون اليه، منه، كما قضى على كل احترام يشعرون به تجاهه. ولأنه كذلك اضعف الجيش بسحب بعض الوحدات الممتازة

المخلصة وضمها الى حرسه من صنفي الخيالة والمشاة.

وفي تلك الاثناء حصل اشتباك على نهر [پو] بينما كان [كايچينا] يمدّ جسراً فوقه فقد هاجمه رجال [اوتو] فأحبط هجومهم. وبينما كانوا يحملون زوارقهم بخشب المشاعل وكميات من الكبريت والقار، هبت ريح النهر على تلك المواد التي كانوا يهيئونها لاستخدامها ضد العدو فقدحت فيها ناراً، وخرج منها دخان ثم تصاعدت السنة اللهب فدبّ الذعر في الرجال وعمتهم الفوضى. واخذوا يهرجلون في داخل القوارب فأختل توازنها واصبحوا تحت رحمة عدوهم بشكل يدعو الى الضحك والرثاء. وهاجم الجرمان مصارعي [اوتو] في جزيرة صغيرة وسط النهر وهزموهم بعد ان فتكوا بعدد كبيرٍ منهم.

كل هذا اغاظ الجنود المعسكرين في داخل [بدرياكوم] وملأهم شوقاً الى المعركة. فخرج بهم [پروكولوس] من المدينة وسار الى موضع يبعد عنها خمسين فرلنگا، فضرب فيها خيامه، بقصر نظر فاضح وجهل مطبق بالفنون العسكرية فقد أخذ الجنود يشكون شحاً في الماء في حين كان الفصل ربيعاً والسهول المجاوره تحفل بالغدران والنهيرات الدائمة الجريان على مدار السنة وفي اليوم التالي قام بمسيرة لا تقل عن مائة فرلنگ واقترح الاشتباك بالعدو، لكن [پاولينوس] عارض في ذلك بقوله ان الانتظار أخلق بهم. وليس من الحكمة ان يدفع جنوده الى خضم المعركة بعد ان ساروا هذه المسافة الطويلة مع حيوانات نقلهم وخدم المعسكر والأثقال. في حين كان العدوّ منتظم الصفوف متهيئاً للمعركة بسلاحه وفيما كان القادة يتناقشون في هذا الأمر، قدم ساعٍ نوميديّ من مقرّ [اوتو] يأمرهم باستعجال القتال وعدم اضاعة الوقت. فأنهى بذلك النقاش واتفق الجميع على الهجوم وبدأوا بالحركة. فأدركت [كايچينا] الدهشة العظمى لعمل لم يتوقع صدوره من عدوه وغادر موقعه على النهر واسرع الى المعسكر. وكان معظم جنود [ڤالنس] قد استعدوا بسلاحهم وتلقوا كلمة السرّ منه. وأخذت الفرق تتجمع في مواقعها بينما تحركت تشكيلات الخيالة الى الميدان.

وسرت اشاعة بين جنود [اوتو] لا أساس لها، تفيد ان ضباط العدو سينفصلون وينضمون اليهم. حتى خيل لهم ان الأمر حقيقة فبادروا يحيون العدوّ المتقدم ويرسلون اليه عبر الخطوط عبارات الودّ، ودعوهم بالاخوان والرفاق عند اقتراب الجمعين. الاّ ان الردّ كان جافاً مهيناً. فركبتهم الخيبة وهبطت معنوياتهم. كما شك الجنود المتأخرون في اخلاص الصفوف الأماميّة للسلوك الودّي الذي ابدوه للعدو. فكان الاضطراب يسود اول كرةٍ لهم على العدوّ. وجرت كل صفحات المعركة بدون خطة او نظامٍ. فقد اختلط حملة الاثقال بالمقاتلين وخلقوا فوضى عظيمة، واحدثوا تخللاً وانفصالاً بين الوحدات. وارغمت طبيعة الأرض بحفرها وسواقيها العديدة

كثيراً من الوحدات على كسر صفوفها والدوران حول هذه العقبات، فصارت تقاتل بدون نظام وعلى شكل وحدات متفرقة قليلة العدد. اللهم الاّ فرقتين احداهما تعود [ڤيتيللوس] وتدعى «بالشهباء»، والأخرى [لاوتو] وتدعى «المساعدة» فقد خرجتا الى ارضٍ سهلة واشتبكتا بشكلٍ نظاميّ ردحاً طويلاً من الزمن. كان رجال [اوتو] اشداء شجعاناً الاّ انهم لم يسبق لهم خوض معركة. امّا رجال [ڤيتيلليوس] فقد خاضوا معارك كثيرة، إلاّ انهم لم يعودوا شباباً فقد انهك تقدم السنّ قواهم. ولذلك كرت عليهم فرقة [اوتو] كرة عنيفة واجبروهم على التقهقر واغتنموا منهم نسرا. وقتلوا كل رجال الصف الأمامي تقريباً، حتى عصف الغضب والخزي بالمتقهقرين فصمدوا وردّوا الهجوم وقتلوا [اورفيديوس Orfiduis] قائد الفرقة واخذوا عدة اعلام. وسار [ڤاروس الفينوس Varus Alfenus] على رأس جنوده الباتاڤيين Batavia وهم سكان جزيرة في الراين واشتهروا بأنهم أفضل فرسان الجرمان فأنقض بهم على المصارعين الذين عرفوا بالبسالة والبراعة الاّ ان قلة من هؤلاء ادّوا واجبهم. لكن الأغلبية ألوت باعنة خيلها الى النهر وانقضت على بضع كتائب هناك، فعزلت نفسها عن سائر الجيش ولم يقف احد موقفاً مخزياً كموقف الحرس الپريتوري فقد ولوا الادبار قبل ان يلتحموا بالعدوّ وشقوا طريقهم خلال الصفوف الصامدة منهم فنشروا الفوضى. مع هذا كله فقد وفِقّت قطعات عديدة [لأوتو] في دحر اعدائهم الذين صمدوا لهم وفتحوا ثغرة في صفوفهم ونفذوا منها الى معسكرهم دون ان يتمكن منهم المنتصرون.

ولم يجرؤ [پروكولوس] و[پاولينوس] على دخول المدينة مع الجنود وانتحيا جانباً وتحاشيا ثورة الجنود الذين القوا كل اللوم عليهما بالهزيمة. ولكنهم سمحوا [لآنيوس غالوس] بدخول المدينة فباشر يعيد تنظيم الوحدات المشتتة. ويبث في نفوسهم الشجاعة بقوله ان المعركة لم يتقرر مصيرها بعد، وان النصر في اكثر مواقعها هو بجانبهم وجمع [ماريوس چلسوس] الضباط وحثهم على المجاهدة في سبيل الوطن.

ولو كان [اوتو] يتحلّى باي قدرٍ من الشجاعة، لكفّ عن القتال بعد ان سفك هذا القدر الكبير من الدم الروماني. ولاسيّما وله في [كاتو] و[سچيپيو] اسوةً فقد أتهما بأنهما هدرا حياة عدد كبير من اشجع الرومان في افريقيا ولم يقبلا الاستسلام لقيصر بعد معركة [ڤرساليا] اتهما بذلك مع ان حرية روما كانت في كفّة القدر. لا يسلم احد من غدر الدهر الخؤون وتقلبات الحظّ الاّ ان هناك سجيّة مميزة للافاضل منهم، لا سبيل للحظ في نكرانها وهي أنهم يستخدمون عقولهم ويعلمون بهدي منها عندما تكبو بهم الاقدار ويقلب لهم الحظّ ظهر المجّن. هذه الفكرة كانت تسود ضباط جيش [اوتو] فأخذوا يسبرون غور الجنود فوجدوا انهم

يرغبون في السلام مثلهم. وعلى اثر ذلك اصدر [تيتيانوس] أمراً بارسال وفد مفاوضة واتفق ان يتألف الوفد من [چلسوس] و[غاللوس] و[ڤالنس] و[كايچينا]. وانطلق الاولان لمقابلة الطرف الثاني. فاستوقفهما في الطريق جماعة من قواد المائة واعلموهما ان جنودهم يتحركون نحو [بدرياكوم]. الاّ ان قائديهم قد انابوهم للقدوم اليهما بشروط الصلح والسلام. فاعرب [چلسوس وغاللوس] عن رضاهما وطلبا منهم العودة معهم الى [كايچينا] ففعلوا وساروا سويّة الاّ ان [چلسوس] تعرض للخطر، عندما اقترب من حرس المقدمة وكانوا من الخيالة التي لحقت بها خسائر جراء فشل كمين [كايچينا] كما مرّ بيانه فما ان تبينوه حتى أطلقوا صراخاً وهجموا عليه الاّ ان قواد المائة تولوا حمياته، وانتهزوا ضباطهم وصاحوا بهم حتى ردوّهم عنه. وخرج [كايچينا] ليرى سبب الضجة وعمل على تهدئة الحال وحيّا [چلسوس] تحية الصديق وضمه الى ركبه المتقدم نحو [بدرياكوم]. على ان الندم خالط [تيتيانوس] لارساله وفد الصلح وعززّ الاسوار بحرس موثوقين واستنهض همم الجنود الآخرين ليشدوا ازرهم. الاّ أنهم حيوا [كايچينا] ورجاله عند اقترابهم بودّ ولطف ولم يصدر منهم عمل عدائي. وبادر بعضهم الى فتح ابواب المدينة وخرجوا لاستقبال القادمين واختلطوا بهم دون كلفةٍ. وأخذ الفريقان يصافح احدهما الآخر وتبودلت عبارات التهاني‌ء وتسابقوا الى اداء يمين الولاء والطاعة [لڤيتيلليوس].

هذا ما يورده معظم من كان موجوداً في القتال. الاّ انهم يقرون بأن الاضطراب والفوضى التي سادت وفقدان النظام حال دون التأكد والأطلاع على التفاصيل دقائق الأمور. ولما شددتُ الرحال الى ميدان القتال بصحبة [مستريوس فلورس Mestrius Florus] وهو من القناصل السابقين وكان في معية [اوتو] وقتذاك مجبراً لا مختاراً. وجّه اهتمامي الى معبد عتيق وقال لي موضحاً:

- كنت اتمشى بعد انتهاء المعركة في هذا الطريق فلاحظت كدساً من الجثث تعلو بعضها بعضاً حتى تبلغ بمستوى سطح المعبد الذي تشاهده الآن. فتساءلت كيف حصل هذا ولم اهتد الى الحقيقة، ولم يفدني احدٌ بجوابٍ شاقٍ. فالعادة في الحرب الاهلية ان أكثر القتول لا تسقط خلال المعركة، وانما بعدها. اذ لاتقبل دخالة جنود الفريق المغلوب لأن المنتصرين لايجتنون ايةَ فائدة من الأسرى الاّ ان سبب تكديس الجثث هنا لم يجد له اي تعليل.

وكما يحصل دائماً في مواقف كهذه، وردت [اوتو] شائعات غير مؤكدة عن نتائج المعركة. ثم وصل بعض الجرحى العائدين من الميدان رأساً واعلموا بالحقيقة الواقعة. وليس لنا ان نعجب عندما نعلم ان اصدقاءه وانصاره اخذوا يشجعونه، ويستنهضون همتّه، ويحثونه على

نبذ اليأس جانباً. الاّ ان العجب الكبير هو ما اظهره جنوده من شعور بالتفاني والتضحية. فقد وقفوا جميعاً الى جانبه، ولم يدر احدٌ ظهره اليه مستقبلاً العدو، او مظهراً اية رغبة في التفاوض مع المنتصر لأن الفشل بات حليف قادتهم بالعكس تماماً، فقد تجمعوا امام بابه وهتفوا له وحيوه بلقب الامبراطور عندما برز لهم واستلموا يده، والقوا بأنفسهم على الأرض وراحوا يتوسلون ويضرعون باعين باكية، ليقف الى جانبهم ولايتخلى عنهم لاعدائهم وان يتصرف كما يشاء بمصائرهم وارواحهم التي ستبقى ملك يمينه ما ظلّ فيهم نفس يتردد. كان صدق عواطفهم وحماستهم عامةً حقيقية. وبرز جندي بسيط من الكتل المتراصح وانقضى سيفه ووجه الى [اوتو] العبارات التالية:

- امتحن اخلاصنا بهذا يا قيصر. ليس بيننا رجل الاّ ويطاعن في سبيلك كما أطعن الآن.

قال هذا وغيب نصل سيفه في احشائه.

ومع هذا كلّه فقد وقف [اوتو] كئيباً صامتاً. ثم تلفت متطلعاً فيهم بوجه صارم يشع منه الحزم والعزم وقال:

- أيها الجنود الرفاق. ان هذا اليوم الذي يقدم لي هذه الأدلة الصادقة على حبّكم، لهو افضل واسمى من ذلك اليوم الذي بايعتموني فيه امبراطوراً. فلا تأبوا عليّ اذن سعادةً ارفع من هذا شأناً، وهي ان استرخص حياتي للمحافظة على ارواح هذا العدد الكبير من الرجال الشجعان. فلتسمحوا لي في هذا على الأقل أن أكون جديراً بالامبراطورية، أعني ان أموت فداءً لها. وفي رأيي ان العدوّ لم ينل حتى الآن نصراً تاماً، ولم يربح معركة فاصلة، ليس خفيّاً عنيّ ان جيشَ [موسيا] الذي يتجه الآن الى البحر الادرياتيّ، لايبعد كثيراً عنا. وان آسيا وسورية ومصر والفرق التي تقاتل اليهود هي معنا. ومجلس الشيوخ يقف الى صفنا، ونساء العدو واولاده هم تحت رحمتنا، لكن معركتنا مع الأسف، ليست معركة دفاع عن ايطاليا، كتلك المعارك التي جرت ضد [هنيبعل اوپيروّس]، أو قبائل الچمبري. فهاهنا الرومان يقاتلون الرومان، والامر سواء أكتب لنا النصر او مُنينا بالهزيمة فبلادنا هي التي ستعاني النتيجة واننا لنرتكب جرماً فالنصر سيتم على حساب امتنا كائنا من كان الغالب. كونوا على ثقة -واكررّ هذا- كونوا على ثقة بأني قادر على موت بشكل اشرف مما انا قادر على الحكم. ولست افهم قط كيف يسعني تقديم خدمة كبيرة لبلادي بانتصارٍ احرزه، مثلما اخدمها بموتي في سبيل اشاعة السلام والاتحاد وانقاذ ايطاليا من مثل هذا اليوم السيء النقيبة.

وأقبل عليه الجميع يحاولون صده عما اعتزمه بالرجاء والضراعة فلم يتزحزح عن موقفه. واستأذن من اصدقائه، وطلب الشيوخ الحاضرين ان يعجلوا بالرحيل وكتب بذلك للغائبين منهم. ووجه الى المدن رسائل يرجو فيها ان يقدموا لهم كل التسهيلات والتكريم عند مرورهم. ثم استدعى ابن اخيه [كوچيوس Cocceius] وكان بعد حدثاً. وطلب منه يطرح كل خوفٍ جانباً لأن اسرة [ڤيتيلليوس] وزوجه وامّه عوملن معاملة طيبة جداً لم تختلف عن معاملته لذويه وقال له:

- ان ما منعني عن تبنيّك الى هذا اليوم هو رغبتي في ان تشاركني السلطة فيما لو كتب لي النصر، وان لاتشاركني سوء حظيّ أن كتبت لي الهزيمة.

واستطرد يقول:

- انتبّه يا بنيّ الى كلماتي الأخيرة هذه: لاتنس بفرط اهمالٍ، ولا تتذكر بكثير حماسة ان عمّك كان [قيصراً].

وأخذت الضجة تعلو تدريجياً بين الجنود في الخارج. فقد اخذوا يتوعدون الشيوخ ويتهددونهم عندما بدأ هؤلاء يستعدون للرحيل فخرج الى الجنود مرة أخرى. وقد ظهرت عليه امارات الصرامة والغضب وفارقه لينه ورقته وراح ينهرهم بجفاء ودالّة ذي السلطان. وأمر المتسببين بالشغب ان يتركوا الموضع حالاً فاطاعوا ولم يتمرد عليه احد منهم.

كان الوقت مساءً، فشعر بعطشٍ وشرب بعض الماء، ثم تناول خنجرين. وبعد ان تفحص نصليهما بدقةٍ ترك احدهما جانباً ودس الثاني تحت ابطه داخل طيات ثوبه، ثم استدعى خدمة وفرّق عليهم بعض الأموال لا مسرفاً ولا قانتاً كأن المال لايعود له اصلاً. وأخذ بعين الاعتبار استحقاق كل واحدٍ عند تقرير مبلغ عطائه وبصورة يتمثل فيها العدل والقسطاس. وبعد ان فرغ من ذلك صرفهم وقضى بقية ليله يغط في نوم عميق حتى ان ضباط خفر الليل كانوا يسمعون شخيره. وفي صباح اليوم التالي استدعى عتيقاً له كان مكلفاً بتنظيم سفر الشيوخ فسأله عن احوالهم وعن سلامتهم فطمأنه قائلاً ان حاجاتهم قد امنّت جميعاً وهم لايشكون شيئاً فقال [اوتو]:

- فأنصرف اذن، وأظهر نفسك للجنود، او سيقطعونك ارباً ان بقيت معي، لأنهم سيظنون بأنك ساعدتني على قتل نفسي.

وما ان انصرف هذا، حتى ركز اوتو خنجره بصورة عمودية امامه وقبض عليه بكلتا يديه والقى بنفسه على النصل فخرجت روحه باهة واحدةٍ فقط تعبيراً عن الاحساس بالالم الفجائي،

أو تنبيها لأولئك الذين كانوا ينتظرون في الخارج وما أخذ اتباعه يصعدون الحسرات معبرين عن حزنهم. حتى سرت المناحة في المدينة كلها وامتلأت بالندب والعويل واسرع الجنود فاقتحموا الباب وهم يصرخون صرخات شديدة وقد غلب عليهم للأسى وراحوا ينحون على انفسهم باللوم لأنهم قصروا المحافظة على حياة انتزعت في سبيل المحافظة على ارواحهم. وظلوا هناك ولم يتخل عن الجثة أحداً اطلاباً لنجاته أو خوفاً من دنوّ العدو بل اقاموا محرقةً جنائزية وبعد أن أجروا ما يجب اجراؤه على الجثمان حملوه الى المحرقة واصطفوا كأنهم في عرض عسكري، وهم بكامل سلاحهم وكانوا يتزاحمون على شرف حمل النعش ورفعه، والقى بعضهم بنفسه امام الجسد واخذ يلثم الجرح، وامسك آخرون بيديه وركع البعيدون منهم على الأرض ساجدين له، كمظهر من مظاهر التجلة والاحترام. وكان ثم بعض من قتل نفسه بعد اشعاله المحرقة، ولم يكونوا خاصّة له او مدينين له بفضل خاص او اعتبار شخصيّ له او يخشوا انفسهم من المنتصر لأمرٍ ما، ان ذلك ليثبت بصورة واضحة انه ما من ملك شرعي او غير شرعي شيّع بمثل هذه العواطف الصادقة الجيّاشة التي اظهرها هؤلاء الجنود [لاوتو] فاطاعوه حتى في الساعات الأخيرة، ولم يمت حبهم له بموته وظل يبدو جلياً في البغض المميت الذي حفظوه لخلفه كما سيأتي تفصيله.

ووضعوا بقايا [اوتو] في جدثٍ واقاموا فوقها نصباً لايثير اي تساول او عداء أو حسدٍ بحجمه او فخامته او بالكتابة التي نقشت عليه وانا نفسي شاهدته في پركسيليوم. كان بناءً عادياً نقشت عليه العبارة التالية:

«الى ذكرى ماركوس اوتو».

مات وهو في الثامنة والثلاثين بعد ان حكم ثلاثة اشهر تقريباً وحَسُنت ذكرى موته أكثر مما ساء ذكر حكمه. فمع ان لم يكن أفضل سلوكاً وعيشاً من [نيرون] الاّ انه مات بصورة انبل من موته.

حنق الجنود على [پولليو Pollio] وهو واحد من قائديهم اذ ذاك. لأنه اراد منهم ان يقسموا في الحال يمين الاخلاص [ڤيتيلليوس]. ولم يحاولوا اعتراض سبيل الشيوخ الذين كانوا قد تخلفوا عن البقية حتى تلك الساعة. الاّ انهم اورثوا [ڤرجينيوس رفوس] قلقاً وانزعاجاً حين الحّوا عليه بتولي السلطة وقصدوا منزله بمجموعهم وهم مدججون بالسلاح وابتدأوا بالالتماس والرجاء ثم انقلبوا يلحفون ويشدون عليه النكير بقبول لمنصب الامبراطوري. او بأن يكون وسيطاً بينهم وبين [ڤيتيلليوس] وجنده. ولكنه - وهو الذي رفض ان يكون قائداً لهم ابان انتصارهم وجد من الحمق ان يقبل بذلك بعد ان غلبوا على أمرهم، كما انه كان يكره ان يرسل

وسيطاً لهم الى الجرمان الذين لقوا منه في الماضي مالايحبون. فتسلل خفية من بابٍ سريّ
وافلت فلم يسعهم الاّ اعلان ولائهم [الڤيتيلليوس] فعفا عنهم. وانظموا الى وحدات كايچينيا.


الدار العربية للموسوعات


الدار العربية للموسوعات

علي مولا

تاريخ أباطرة وفلاسفة الاغريق